من روائع فاروق شوشة

شاعر الحب والحج

جمع وتصنف

الدكتور خالد الزواوي

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى صاحب هذه الروائع

مع إجلالي وتقدير . . .

دكتور خالد الزواوي

قد يهون العمر إلا ساعة

وتهون الأرض إلا موضعا

أحمد شوقي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

بعض الأشعار يفسح للإنسان مجال للقاء شخصيات خاصة من كل الميادين ن وقد أفسح لي سفري للكويت لقاء الشاعر الكبير فاروق شوشة ، في الستينات وكانت الكويت قد نالت استقلالها عام ١٩٦١ ، وكن أعمل بثانوية كيفان مدرسًا للغة العربية وحضرنا الشاعر فاروق شوشة للكويت معار لإذاعتها ، وجاء في زيارة لزملائه الذين تخرجوا معه من كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ن منهم الدكتور إسماعيل الصيفي — رحمه الله — والدكتور مختار أبو غالي ، والأستاذ عبد الرحيم شتا ، وغيرهم ن وكان بصحبته الدكتور عبد الصبور شاهين .

وتجمعنا جميعًا حوله نسأله ويسألنا ، في حديث ودي ، فهو إذا تحدث ملك ، فكان في حديثه فنون ن وفي شخصيته وقار وهيبة ، يملك عليك أقطار نفسك ، ويزودك بما لم تعلم . . كان حديثًا بأسماء وصوتًا مميزًا ، وما هو إلا وقت قصير ن حتى تعلقت به الأفئدة ، وودنا لو نلقاه دومًا . .

بعد هذا اللقاء تابعت خطاه ، وبحثت عن أخباره ونتاجه ، وغادر الكويت ن ولم تنقطع صلتنا به عن طريق كتاباته وجولاته وإذاعاته وبرامجه ، ومكثت بالكويت عشرين عامًا وأنا حريص كل الحرص على الإطلاع على كل ما ينشر له أو يزاع ن وواظبت على قراءة مقالاته التي يكتبها في جريدة الأهرام القاهرية كل يوم واحد ، واحتفظت بما قد تيسر له في سنوات من هذا الفيض ، ثم فكرت في نشره ن مرة بعد أخرى كان الإصرار على نشر ما قد جمعته من هذه المقالات تحت عنوان :

وفاروق شوشة وروائعه ، وقمت بتقسيم هذه المقالات إلى أربعة أقسام : شعر وشعراء — ورموز عربية — وكاتب وكتاب — ولغتنا الجميلة ن التي عرف بها ن وكان له فيها أعمق البحث والدراسة والتجديد والتطوير . .

كانت الكويت تلك الأرض الطيبة ، وشعبها الكرام ، وحكامها المخلصون ، قنينة عطر أبدية — كانت بلدًا آمنًا مطمئنًا بضر إلىه الناس من كل صوب ، فيشعرون بالآمن والسكينة والسلام ، وكانت فرصة للقاء ما لم تستطيع لقاءهم ، التقينا بزكي طليمات وحسن البارودي ، وعبد المنعم مدبولي ، ونعيمة وصفي ، وثريا حلمي ، وأسامة عباس ، وغيرهم من أهل الفن . . وكان أعز اللقاء بسيدة الغناء العربي أم كلثوم . . كم كنا سعداء بلقاء الفن والطرب ، وكم فاقت سعادتنا بلقاء الأدباء والشعراء أمثال الدكتور أحمد زكي — مجلة العربي الكويتية — والشاعر أحمد العدواني ، والأستاذ فيصل الصالح

، والأستاذ عبد العزيز حسين ، والأستاذ حمد الرجيب وغيرهم كثير . . أما زملاءنا فكان منهم الشاعر عبد الله العتيبي – رحمه الله – والأساتذة : رشيد الحمد وعبد الوهاب المزيني ، وخالد الصليهم ، عبد العزيز العبيدان ، وناصر الدغشيم – هؤلاء من تسعفني بهم الذاكرة . .

وقد توجب هذه اللقاءات بالزعيم الرئيس محمد أنور السادات – رئيس جمهورية مصر العربية آنذاك – والذي نفتخر ونعتز به ، فهو الذي أعاد لنا عزنا ومجدنا ، وحرر الفكر من الجمود والتخلف ، وقادنا إلى طريق النصر والسلام ، وأناء الطريق لمن جاء بعده . . ونعمنا بزيارته الكويت قبل أن نغادرها . .

كانت هذه بعض الملامح التي عشناها في الكويت أهم ما أسعدنا لقاء الأحبة بها ن والتعرف على بعض الشخصيات المهمة في الحياة العملية ، وكذلك الشخصية التي أقدمها للقارئ مع روائعه مع يقيني بتقدير الجميع له ومعرفتهم به معرفة إلىقين ، ولكنني أحببت أن نسترجع شيئًا من أعماله التي قدمها على مدى سنوات سابقة فهيا من الثراء ما يشبعنا ويحيينا . .

والله من وراء القصد

د . خالد الزواوي

القسم الأول

لغتنا الجميلة

دار الكتب وتراث لطفي السيد

بقلم : فاروق شوشة

مشاركة لجامعة القاهرة في احتفاليتها المئوية أعادت دار الكتب والوثائق القومية نشر أعمال لطفي السيد ، باعتباره واحدًا من رؤساء الجامعة الكبار ن وصاحب مواقف فكرية وأخلاقية وسياسية جعلته من مقدمة المفكرين الذي أسهموا باقتدار في صياغة العقل المصري خلال النصف الأول من القرن العشرين .

وفي المقدمة الضافية والمتميزة التي قدم بها الدكتور محمد صابر عرب رئيس هيئة دار الكتب والوثائق القومية للمجلد الأول من تراث أحمد لطفي السيد . الذي يضم المنتخبات ثم صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر . يوضح الدكتور صابر مدى إيمان لطفي السيد منذ مطالع القرن العشرين بأهمية استقلال مصر الذي كان الهدف الأول للحركة الوطنية المصرية ، والإيمان لطفي السيد بأن التعليم هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق الاستقلال وشيوع الديمقراطية ، وكانت له مقولة مشهورة هي : من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معًا فعليه بالعلم ن وقد كان لطفي السيد — كما يوضح الدكتور صابر عرب . على الطرف الأخر من موقف الزعيم الوطني مصطفى كامل وأنصاره إلىن رأوا أن يواجهوا المحتل وأن يؤلبوا عليه الرأي العام في الداخل والخارج ، اعتمادًا على السلطة الشرعية المتمثلة من الخديوي عباس حلمي الثاني وأن يستثمروا الخلافات الإنجليزية الفرنسية . أما لطفي السيد فكان من أنصار الدعوة السلمية إلى الاستقلال والدستور وكان من رأيه أن استبداد الخديوي لا يقل خطرًا عن الاحتلال . وأن التمسك بتبعية مصر للدولة العثمانية لا جدوى من ورائه وانقسم المصريون معظمهم انضموا إلى مصطفى كامل . بينما التفت القلة حول لطفي السيد وهي القمة المتميزة الواعية . . ويوضح الدكتور صابر عرب بفكره الثاقب ولغته الصافية المتدفقة كيف أن انقسام الجماعة السياسية المصرية لم يكن بسبب مغانم أو مصالح شخصية . وإنما كان انقسامًا حول فكرة كبيرة . وأن لطفي السيد كان — في جوهرة وحقيقة نزوعه وتكوينه — ديمقراطي الفكر والسلوك ، فقد كان يؤمن بالتطور المستند على تراكم المعرفة ، واثقًا من أن الطفرة قد تحدث عواقب لا تؤمن عواقبها ، وكانت هزيمة الثورة العرابية وما نجم عنها ماثلة أمام عينيه ، من هنا فقد كان على ثقة بأن الديمقراطية والتعليم والوعي جميعها قضايا في حاجة إلى الوقت ، حتى تكون الأمة جديرة بالاستقلال الحقيقي ، ويؤكد الدكتور صابر عرب — المؤرخ وأستاذ التاريخ — أن لطفي السيد لم يكن محبذًا للعنف باعتباره وسيلة للارتقاء والتقدم ن بل كان يرى في التعليم والسلام والوعي الطريق الأكثر أمنًا لحصول مصر على استقلالها ، وكان مؤمنًا بمبدأ التطور والارتقاء ،

واثقًا من أن نتائجه باهرة لمن يواصل العمل دون صخب ، فهو إذن صاحب مشروع ، وضخم في الديمقراطية والحياة الثقافية والتعليمية والاجتماعية والقضية الوطنية .

والغريب أن لطفي السيد لم يكتب كتابًا واحدًا حول هذا المشروع ، وإنما كتب مقالات لا تحصى – تقدر بالآلاف في صحيفة الجريدة منذ صدورها عام ١٩٠٧ حتى توقفها في يوليو عام ١٩١٥ في أثناء الحرب العالمية الأولى ، جمع كثيرًا منها زوج شقيقته إسماعيل مظهر في مجلدين بعنوان " المنتخبات " ومجلد ثالث بعنوان " تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع " ومجلد رابع بعنوان " صفحات مطوية " وتضيء سيرة لطفي السيد بالمواقع والمناصب التي تولاها : أول مدير مصري لدار الكتب عام ١٩١٥ ، ومديرًا للجامعة عدة مرات أخرها سنة ١٩٤١ . ووزيرًا للمعارف العمومية في وزارة محمد محمود عام ١٩٢٨ ، ورئيسًا ثانيًا لمجمع اللغة العربية ن من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٦٣ ، كما أختبر وزيرًا للدولة سنة ١٩٣٧ ثم الداخلية والخارجية ، كما حصل على جائز الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية عام ١٩٥٨ .

وأتيح لكثير من آثار لطفي السيد الزخري أن تنشر بعد أن جمعيها طاهر الطناحي وصدرت في كتاب الهلال عام ١٩٦٣ بعنوان " مبادئ في السياسة والأدب الاجتماعي " وكان كتاب الهلال قد نشر له عام ١٩٦٢ كتابه " قصة حياتي " ومن أشهر مقالاته المدوية ذائعة الصيت خمسة عشر مقالاً ذات عناوين منها : معنى الحرية والحرية الشخصية ، والحرية والأحزاب ، والحرية وحقوق الأمة ، والحرية ومذاهب الحكم ، وحرية التعليم وحرية القضاء ، وحرية الصحافة .

وحرية الاجتماع ، وغيرها ، وحين توقفت " الجريدة " عكف لطفي السيد على مشروعه التنويري في الترجمة ، فترجم عام ١٩٢٤ كتاب " الأخلاق " لا رسطو كان مقدمة لكتاب السياسة وقد نشرته دار الكتب عام ١٩٤٦٧ وترجم كتاب " الكون والفساد عام ١٩٣٢ وكتاب الطبيعة عام ١٩٣٥ صدرت جميعها عن دار الكتب المصرية مؤمنًا بأن الترجمة تنسق التإلىف كما حدث في عصر النهضة الأوربية ، فضلاً عن ميوله الفلسفية وبخاصة أعمال أرسطو الذي ترك أثرًا باقيًا في العلوم والآداب الإنسانية ، فقد اعتبره مدخلاً طبيعيًا للتفكير العلمي الذي شكل كثيرًا من المذاهب الفلسفية الحديثة ، وقد بدأت دار الكتب – مشكورة – بنشر مؤلفاته لطفي السيد على أن تتبعها بترجماته ، فما أحوجنا – كما يقول الدكتور صابر عرب – إلى إعادة قراءة مصادر الثقافة التي كونت الفكر المصري الحديث في النصف الأول من القرن العشرين ، متمثلاً في واحد من أهم البنانين العظام هو لطفي السيد .

والحديث عنه موصول إن شاء الله .

لطفي السيد مجمعياً

بقلم : فاروق شوشة

ولـد أحمـد لطفـي الـسيد بقريـة " بـرقين " مـن أ ٔ مـال مركـز الـسنبلاوين بمحافظـة الدقهليـة عـام ١٨٧٢ وفي الرابعـة مـن عمـرة أرسـل إلى كتـاب القريـة حيـث تعلـم القـراءة والكتابـة وحفـظ القـرآن الكـريم وتـدرج في التعلـيم بـدءًا بمدرسـة المنـصورة الابتدائيـة فالمدرسـة الخديويـة بالقـاهرة فمدرسـة الحقـوق ، حيـث أتم دراسـته القانونيـة عـام ١٨٩٤ ، وبعـد تخرجـه عـين كاتبًـا في نيابـة القـاهرة ثـم سـكرتيرًا للنائـب العمـومي ثـم انتـدب للنيابـة في بـني سـويف حيـث التقـى الـتفكير المـشترك في أحـوال مـصر إلى إنـشاء جمعيـة سـرية هـدفها تحـري الـبلاد مـن الاحـتلال البريطـاني . والتقـى لطفـي الـسيد بـالزعيم الـوطني مـصطفى كامـل وعـرض عليـه اللقـاء مـع الخـديوي عبـاس حلمـي الثـاني الـذي كـان يرعـى الحركـة الوطنيـة ، كمـا كـان صـديقًا لـشاعر مـصر أحمـد شـوقي ، وحـدثت لقـاءات في منـزل محمـد فريـد ، تم خلالهـا تـإلىف الحـزب الـوطني في صـورة جمعيـة سـرية يرأسـها الخـديوي ، وسـافر لطفـي الـسيد إلـى سويـسرا ، بنـاء علـى نـصيحة الخـديوي – ليحـصل علـى الجنـسية السويـسرية بعـد الإقامـة فيهـا عـام ا واحـدًا . ثـم يعـود ليحـرر جريـدة تقـاوم الاحـتلال فـلا يـستطيع الاحـتلال معارضـة ذلـك لكـن لطفـي الـسيد يعـود مـن سويـسرا ويقـدم إلـى الخـديوي تقريـرًا يؤكـد فيـه إن مـصر لا يمكـن أن تـستقل إلا بجهـود أبنائهـا وأن المـصلحة الوطنيـة تقتـضي أن يـرأس الخـديوي حركـة شـاملة للتعلـيم العـام وعـاد لطفـي الـسيد إلـى العمـل في نيابـة الفيـوم فنيابـة ميـت غمـر فنيابـة المنيـا وفي عـام ١٩٠٥ يـستقبل مـن النيابـة لخـلاف قـانوني في الـرأي بينـه وبـين النائـب العـام الإنجليـزي ويـستغل بالمحامـاة مـع صـديقه عبـد العزيـز فهمـي ثـم يعمـل بـالتحرير في صـحيفة الجريـدة بـدءًا مـن عـام ١٩٠٧ ، وعنـدما تلـف حـزب الأمـة – وكـان أسـبق الأحـزاب المـصرية كلـها إلى الظهـور – اختـبر لطفـي الـسد سـكرتيرًا عـام ا لـه ، وتمـضي الحيـاة بلطفـي الـسيد ، ليـصبح مـديرًا لـدار الكتـب ووكـيلاً للجامعـة المـصرية القديمـة ، ومـديرًا للجامعـة المـصرية بعـد أن أصـبحت جامعـة حكوميـة ، فـوزيرًا للمعـارف العموميـة ، فمـديرًا للجامعـة عـدة مـرات فـوزيرًا للدولـة ، ثـم الداخليـة والخارجيـة .

ولأن لطفـي الـسيد كـان يـؤمن نحاجـه مـصر إلـى مجمـع لغـوي – في إطـار مـشروعه التنـويري التعليمـي والثقـافي والـسياسي والاجتمـاعي – فقـد كـان أحـد العـاملين علـى إنـشاء المجمـع اللغـوي المـصري الـذي أنـشئ في عـام ١٩٦١ ، وخـصص لا عـضائه قاعـة مـن دار الكتب – الـتي كـان مـديرًا لهـا – واخـتير لطفـي الـسد أمينًـا لـسر المجمـع وسمـي هـذا المجمـع

بمجمع دار الكتب . وعندما أنشئ مجمع اللغة العربية في عام ١٩٣٢ وبدأ نشاطه في عام ١٩٣٤ اختير لطفي السيد عضوًا عام لا به عام ١٩٤٠ . ثم تولى رئاسته خلفًا لرئيسه الأول محمد توفيق رفعت باشا عام ١٩٤٥ ، وظل رئيسًا للمجمع حتى وفاته عام ١٩٦٣ .

وفي مجمع اللغة العربية تبدأ صفحة جديدة من صفحات المشروع التنويري الحضاري الكبير لا ستاذ الجيل والمعلم الأكبر أحمد لطفي السيد ، واتسعت هذه الجهود لمشاركاته في العديد من لجان المجمع : لجنة الأدب ، ولجنة اللهجات والنصوص القديمة — كما كانت تسمى في ذلك الحين — ولجنة ألفاظ الحضارة ، ولجنة العلوم الفلسفية والاجتماعية ، ولجنة الأصول ، وهو أول من اقترح جمع المصطلحات الفنية التي يستخدمها العمال في مصانعهم والتجار في متاجرهم وأسواقهم والزراع في مزارعهم ن حتى إذا اجتمعت للمجمع طائفة صالحة من هذه المصطلحات نظرًا في وضعها في معجم بعد صياغتها وفق الأوزان العربية القديمة .

والذي لا شك فيه أن مثل هذا الاقتراح يكشف عن فلسفة لطفي السيد — المجمع — في التفكير ، فهو يسعى إلى ربط أعمال المجمع بالحياة إلىومية ، وبالمجتمع كله ، حتى لا يكون عمل المجمع دائرًا في الفراغ ، وإلى أن تكون اللغة الحية المستخدمة دائرًا في الفراغ ، وإلى أن تكون اللغة الحية المستخدمة على ألسنة الناس بالفعل موضوع الدراسة والتدقيق المجمعي ، كما أن تراثه المجمعي يضم كلمات — على درجة كبيرة من الأهمية — في افتتاح الدورات المجمعية الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة ، منشورة في مجلة المجمع ، العددين السادس والسابع ، بالإضافة إلى كلمات عدة ألقاها في استقبال عديد من الأعضاء المجمعين أو تأبينهم ، وهو تراث أرجو أن تهتم به دار الكتب التي تتصدى لتراث أحمد لطفي السيد — المؤلف والمترجم — ضمن مشروعها الضخم لا عادة نشر تراث البنائين العظام للنهضة المصري والفكر المصر الحديث ، وخاصة في النصف الأول من القرن العشرين ، وقد نشرت بالفعل من تراثه المؤلف المجلدين الأول والثاني ، يحتوي الأول على المنتخبات وصفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلإلىة في مصر ، وأما الثاني ، فيحتوي على كتبه ، قصة حياتي ، ومبادئ في السياسة والأدب والاجتماع ، وتأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع .

ويبقى من حديثنا عن تراث لطفي السيد ، ما قاله رفاقه الأعلام في وداعه حين رحيله وبيان جوانب عظمته وتفرده طه حسين والعقاد وعزيز أباظة وإبراهيم بيومي مدكور .

وموعدنا المقال القادم إن شاء الله .

ماذا قالوا عن لطفي السيد

بقلم : فاروق شوشة

في العدد الثامن عشر من مجلة " مجمع اللغة العربية " تسجيل أمين درويش " وتوثيق دقيق للكلمات التي قيلت في وداع أحمد لطفي السيد ، الذي كان رحيله في عام ١٩٦٣ بعد أن قضي في رئاسة المجمع ثمانية عشر عام ا ، والذي حمل العديد من الألقاب فهو أستاذ الجيل وهو المعلم الكبير وهو صاحب المشروع الضخم في الديمقراطية والتعليم والحياة الثقافية والاجتماعية والقضية الوطنية .

وفي طليعة الذين ابنوا لطفي السيد ، وأفاضوا في بيان دوره الوطني التنويري ، والكشف عن أستاذيته لهم في دروب الحياة والثقافة والفكر الدكتور طه حسين ، الذي يعود إلى ذكريات التحاقه بالجامعة المصرية القديمة قائلاً : " ثم تفتح الجامعة المصرية ، فيعزيني بالالتحاق بها والاختلاف إلى ما سيلقي فيها من الدروس والمحاضرات ، وإذا هو ثاني أثنين فتحا لي من أبو اب المعرفة ما لم يكن يخطر على بال ، أحدهما كان يحدثنا في الأزهر عن الأدب العربي القديم ، والثاني كان يحدثني ويحدث كثيرًا غير من طلاب المدارس العليا عن الحياة الأوروبية الحديثة وما يملؤها من فنون المعرفة وإذا أنا انصرف عن دروس الأزهر إلى حديث هذين الأستاذين الكريمين ، ثم أراني أكتب المقالات ، قصارًا أحيانًا وطوالاً أحيانًا أخرى ، وأعرضها عليه فيصلح ما يحتاج منها الإصلاح ويأمر بنشرها ويشجعني على المضي في الكتابة ، ولن أستطيع أن أصور ، كما ينبغي – تأثير هذا الأستاذ الجليل فيمن كان يختلف إلىه مثلي من الشباب ، فقد أحيانًا حياة جديدة وفتح أمامنا من الآفاق ما لم يستطيع أحد غيره أن يفتح أمام الشباب كان يحدثنا في غير تكلف عن السياسة المصرية والسياسة العالمية ، ولأول مرة سمعنا منه ألفاظ الديمقراطية والارستقراطية وحكم الفرد وحكم الجماعة وحق الأمة في أن تحكم نفسها بنفسها ولنفسها ، وأراء أرسطاطإلىس وأفلاطون في أنواع الحكومات على اختلافها ، وعن آراء مونتسكيو في كتابه " روح القوانين " وآراء روسو في كتابة " العقد الاجتماعي "
.

ذلك كله إلى ما كنا نقرأ في مقالاته من أن الأمة هي الكل في الكل . ومن أن مقام الأمة فوق مقام ، ومن أن الحكام ليسوا في حقيقة الأمر إذا خدامًا للشعب يخدمونه ويأخذون أجرهم منه ، فإذا استقاموا ونصحوا الشعب فهم خدام أمناء ، وإذا جاروا وغشوا الشعب فهم خدام خونة لا فرق في ذلك أمير ووزير وموظف ، مهما يكن مركزه " .

وأخـيرًا يقـول طـه حـسين عـن لطفـي الـسيد ، " ولـست أغلـوا إذا قلـت إن هـذا الأسـتاذ الجليـل قـد أنـشأ في مـصر جـيلاً جديـدًا ، وليـست أنـا وحـدي الـذي يقـول هـذا ، بـل كـثير مـن تلاميـذه قـالوه ، ومـا زالـوا يقولونـه فهـو أسـتاذ الجيـل غـير منـازع ، وهـو الـذي علـم الـشباب المـصريين حـق الأمـة في أن تحكـم نفـسها بنفـسها ، وعلمهـم أن مـصر يجـب أن تكـون لا بنائهـا ، وأن تخلـص لهـم مـن دون الـترك العثمـانيين أصـحاب الـسيادة حينئـذ ، ومـن دون الإنجليزي المحتلين " .

وقـال عنـه الـدكتور إبـراهيم مـدكور : دخـل لطفـي الـسيد التـاريخ مـن عـدة أبـو اب ، وقيـد في سـجل الخلـود حيًـا وميتًـا ، وقـف نفـسه علـى الإصـلاح والتجديـد سـتين عـام ا أو يزيـد ، وفي مـدة لم تتـوافر لـصلحين كـثيرين ، قـضاها يفكـر وبـدير ، ويبحـث ويـدرس ، ويـدعو ويعلـم ، ويطبـق وينفـذ . كـان يـرى أن طبيعـة الأشـياء تـأبي الطفـرة ، وأن التطـور سـنة أكيـدة مـن سـنن الحيـاة لا يخـرج عليهـا فـرد ولا مجتمـع وكـان همـه أن يـلاءم بـين الماضـي والحاضر ، وأن يعدهما للمستقبل .

ويؤهلـهما لـسير الحيـاة الزاخـرة ، وقـل أن نـرى شـيخًا اقـترب مـن الـشباب قريـة ، واتـسع صـدره للجديـد مثلـه ، ولم يكـن تطوريًـا فحـسب ، بـل كـان تقـدميًا أيـضًا ، يعتقـد أن الإنسانية سـائرة إلـــى الأمـام دائمًـا ، وأن جيـل إلىـوم خـير مـن جيـل الأمـس . وأن ثلاثـة أجيـال كفيلـة بـأن تـصعد بالأمـة المـصرية إلـــى مـضاف الأمـم الراقيـة كـان الاعتـدال عنـده مـن أسمـى الفـضائل ، اعتـدال في الـرأي والقـول والعمـل ، وقـديمًا قـال أرسـطو إن الفـضيلة وسـط بين طـرفين وقـد أمتـد تجديـده وإصـلاحه إلـــى ميـادين الـسياسة والاجتمـاع والفكـر والثقافـة ، أمـا حـديث العقـاد – عـضو المجمـع – عـن لطفـي الـسيد فكـان واحـدة مـن قـصائد البليغـة ، قـدم فيهـا صـورة ناصـعة لا سـتاذ الجيـل وهـو يقـول : معلـم هـذا الجيـل علمتـه الأسـى وألهمتـه الـصبر الجميـل وإن قـسًا / وألقيتـه في خطبـك إلىـوم راشـدًا ، فـلا ليـت مـن خطـب المنـون ولا عسي / ولـو دفعـت عنـك المنيـة بـالمنى ، حفظنـاك للأجيـال رمـزًا مقدسًـا / معلـم هـذا الجيـل هـاديهم غـدًا ، جلـوت لهـم في ظلمًـا ، حندسًـا / وبوركـت فـيهم عالمًـا ومعلمًـا ، وأحـسنت فـيهم دارسًـا ومدرسًـا / ونـاديتهم . . هيـا اسـتقلوا بـأنفس ، فـلا دولـة للمـستذلين أنفـسنا / ومـا الـذل إلا دولـة أجنبيـة ، وإن وطنـت في الأرض عرشًـا ومجلـسًا ، وكانـت كلمـة الـوداع الأخـيرة قـصيدة للـشاعر عزيـز أباظـة يقـول فيهـا : " تفقـت عمـرك ترضـي كـل مـن طلبـا . تقـول بكفيـه بأسًـا أنـه طلـب وكنـت أعظـم إيثـارًا لـمن قبعـوا في دورهـم يحمـدون العـرى والـسغبا / صـبرت نفـسك عـن غـال ومـرتخص ، وأكـرم الـذخر صـبر الـنفس مختفيًـا / اشـتريتها المثـل العليـا وعفـت لهـا ، وأن يقحـم الـضعف فيهـا وجهـة الـشحيا ، ويبقـى الـشكر

مجـددًا لـدار الكتـب الـتي تعيـد نـشر تـراث واحـدًا مـن البنـائين العظـام ، لتجـد فيـه الأجيـال الجديدة روعة العطر الباقي من أستاذ الجيل والعلم الكبير لطفي السيد .

الجمعية المصرية لتعريف العلوم

بقلم : فاروق شوشة

أتيح لي يوم الأربعاء الماضي – أن أشهد المؤتمر السنوي الرابع عشر ، الذي أقامته الجمعية المصرية لتعريب العلوم ، وأن يكون لي شرف المشاركة في جلسته الافتتاحية ، هذه الجمعية وهذا المؤتمر يرأسها عالم جليل هو الدكتور عبد الحافظ حلمي عضو مجمع اللغة العربية والعميد الأسبق لكلية العلوم بجامعة عين شمس ، والأستاذ بجامعة الكويت لسنوات حافلة بنشاطه الجامعي والتربوي والثقافي البارز ، لا تزال أصداؤه حتى إلىوم ، والأستاذ الزائر – مرتين – بجامعة قطر بالإضافة إلى عضويته في مجمع اللغة العربية بدمشق . أما دوره المشهور في مجمع اللغة العربية بالقاهرة فيتسع لمشاركات جادة وعميقة في مقدمتها رئاسته للجنة علوم الأحياء والزراعة وعضوية لجان الجيولوجيا ، والنفس ، والمعجم الكبير ، وتحديث المعجم الوسيط وإحياء التراث ، والمعجم التاريخي للغة العربية ، وهو من مؤسسي الجمعية المصرية لتعريب العلوم ، ومنذ رأسها عام ١٩٩٥ ، أصبحت الجمعية بفضله وهمة مساعدة الدكتور محمد يونس الحملاوي – أمين الجمعية – مركز إشعاع ووعي وتنوير بالنسبة لكل ما يتصل بقضية تعريب العلوم ، مرددًا باستمرار مقولته المأثورة ، تعريف التعليم الجامعي : ضرورات ملزمة ومنافع مؤكدة واعتراضات مفندة ، موضحًا – في بيان ناصع وحجة قاطعة – أن تعريف العلوم ضرورة لا ستيعابها والوعي بها والإسهام فيها بفكر يستخدم للغة العربية ويفكر تفكيرًا عربيًا . وبدون هذا تظل علاقتنا بهذه العلوم علاقة هشة مرتبكة .

وليس معنى هذا إهمال تعلم اللغات الأجنبية ، فه أمر تنادي به الجمعية ونحرص عليه ، لكن هناك – كما يقول – فرقًا بين تعلم اللغات الأجنبية ، والتعلم باللغة الأجنبية الأول ضرورة حياة ومطلب حضاري وعلمي وثقافي ، أما الثاني فغربة وانقطاع .

وفي الكلمة الإضافية التي استهل بها الدكتور عبد الحافظ حلمي الجلسة الافتتاحية ، كان يضرب المثل بعد المثل ، ويسوق الموقف بعد الموقف ، في جلاء أهمية العلم ، وتبني ثقافتنا له ، وقدرة لغتنا العربية على استيعاب العلوم والنهوض بها في عصور ازدهار الحضارة العربية والإسلامية ، وأصلاً بين هذا كله وزماننا الذي تواجه فيه اللغة العربية تحديات شتى ، لكنه لم يفقد إيمانه أو تتزعزع ثقته في قدرتنا على المواجهة والتماس الحلول ، واستقطاب المزيد من المؤمنين بأهداف الجمعية والمتابعين لنشاطها وفكرها عام ا بعد عام ، وكأنه يذكرنا بالسلف الصالح الذين كانت حياتهم جهادًا موصولاً

من أجل معنى أو رسالة ، ومجاهدتهم الصابرة وصولاً إلى الأهداف حتى لو بدت بعيدة أو مستحيلة .

وفي مؤتمر هذا العام مشاركة من باحثين وعلماء مصريين وعرف ، تجشم كثير منهم – على نفقته – مشقة السفر ، من اجل هدف نبيل يؤمنون به ، وضمت جلسات العمل الأربع مشاركات للأساتذة – مع حفظ الألقاب : يعقوب الشراح و عبد الغني عبود ومحمد عبد الفتاح دهيم ومنير ملكي وهاديًا خزنة كاتبي وابن النيل الصيرفي وأحمد مصطفى أبو الخير وبثينة عبد الرءوف رمضان ومحمد سعدو الجرف ومحمد أبو غدير وزهير السباعي و عبد المقصود حجو ونجيب على السويدي ومراد عبد القادر و عبد العظيم بابكر بيومي وعواطف حسن عبد المجيد وفوزي تاج الدين ومحمود نحاس .

وشارك في الجلسة الافتتاحية بكلمة ساخنة ومحركة عالم اللغويات الدكتور كما بشر نائب رئيس مجمع اللغة العربي ، كما شارك في رئاسة الجلسة الأولى للمؤتمر الذي تضمن مشاركة المفكر الموسوعي الدكتور عبد الوهاب المسيري في رئاسة إحدى جلساته ، ومعهما من العلماء الأساتذة الدكتور محمد لسلطان أبو علي والدكتور محمد توفيق الرخاوي والدكتور محمد إبراهيم العدوي والدكتور سيد دسوقي والدكتور نبيل الطباخ .
أما الموضوعات والقضايا المثارة ، فمن أبرزها : الأسرة العربية ودورها في تعطيل مشروعات تعريب التعليم ، جماعات الضغط والتعليم في مصر : علاقات القوى والمصالح ، وسيلتنا إلى تعريب العلوم الطبية ، إلىة مقترحة لتنفيذ مشروع المناهج الطبية العربية ، استخدام اللغة العربية في التعليم الجامعي . وغيرها من الموضوعات والقضايا . كنت أتابع – مع غيري – مسار المؤتمر الرابع عشر وأقول لنفسي : لقد أن الأوان الذي نهرى فيه مجمع اللغة العربية يمد يديه إلى هذه الجمعية وغيرها من جمعيات المجتمع المدني المعنية بقضايا اللغة العربية – جمعية انفتاحًا على ما تموج به هذه الجمعيات والمجتمع كله من حركة وفكر ونشاط وحتى تتلاقى جهود الجميع وتوصياتهم وصولاً إلى صانعي القرار ، وتأثيرًا فاعلاً في مؤسساتنا العلمية والتعليمية والإعلامية ، وتأثيرًا فاعلاً في مؤسساتنا العلمية والتعليمية والإعلامية ، بعد أن يتم تعديل مادة واحدة في قانون المجمع – المعروض الآن على لجنتي التعليم والثقافة في مجلس الشعب – من أجل أن تصبح قراراته وتوصياته ملزمة بحكم القانون – تحية لهذا المؤتمر الذي يأخذنا من دائرة اللغة إلى دائرة الهوية والانتماء ووجودنا القومي والحضاري ، ولهذه الجمعية التي تقدم نموذجًا باهرًا لمؤسسات المجتمع المدني ، وتقديرًا لعلمائها المجاهدين الصابرين .

أحمد مختار عمر . . ذكرى حية وعطاء متجدد

بقلم : فاروق شوشة

في الذكرى الخامسة لرحيله ، صدر له عملان كبيران هما : " معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي " . ومعجم اللغة العربية المعاصرة " . أتحدث عن عاشق العربية عالم الدراسات اللغوية وعضو مجمع اللغة العربية الراحل الدكتور أحمد مختار عمر . وصدور هذين العملين الكبيرين عن عالم الكتب في ستة مجلدات يصل مجموع صفحاتها إلى ٤٧٣١ صفحة ، دليل على حجم الجهد والإخلاص لرسالة عظيمة جسدها الفقيد الكبير إنسانًا وعالمًا ، وباحثًا رائدًا في العديد من مجالات الدراسات اللغوية التي انتظمت دوائر البحث اللغوي والتحقيق وإنجاز المعاجم والتصدي لقضايا اللغة العربية التي انشغل بها أستاذًا جامعيًا ومجمعيًا ، وهو في تقديمه لمعجم الصواب اللغوي – الذي أنجزه بمساعدة فريق عمل – يحرص على عرض خطته والهدف من العنوان الفرعي له وهو " دليل المثقف العربي " ملتزمًا بالتوسع في التصحيح ، وتصويب كل ما يمكن تخريجه بوجه من الوجوه سواء بالرجوع إلى المادة الحية ، أو باستخدام الأقيسة التي قبلها القدماء أو اقرها مجمع اللغة العربية ، ومتابعة القضية أو المشكلة في المراجع المتاحة وعدم الاكتفاء ، بما ورد في مرجع واحد ، والبعد في لغة الشرح عن المصطلحات الفنية التي يقتصر تداولها على المتخصصين ، واستخدام العبارات والكلمات التي يشملها الرصيد اللغوي الوظيفي للمثقف العام ، والاقتصار في المادة المعروضة على ما يشيع في لغة العصر الحديث على السنة المثقفين وفي كتاباتهم ، وفتح باب الاستشهاد حتى يومنا هذا ، وهو ما سبق أن طبقة مجمعنا اللغوي في معاجمه ، وبذلك فتح الباب لتخطي الحدود الزمانية والمكانية التي أقيمت خطأ بين عصور اللغة المختلفة .

وفي " معجم اللغة العربية المعاصرة " يتجلى دور فريق العمل – الذي كونه الراحل الكبير ووضع له الخطة والمنهج – في إنجاز المعجم تطبيقًا للرأي الذي كان ينادي به ، وهو ضرورة إصدار المعاجم الجماعية بالاعتماد على فكرة فريق العمل ذي الكوادر المدربة ، والبعد عن الفردية باعتبارها عيبًا أساسيًا في إنتاج المعاجم العربية ، بالإضافة إلى ضرورة اعتماد المعجم الحديث على لغة العلوم والآداب والمعارف المختلفة ، وهو أمر لا يمكن لباحث واحد أو مجموعة من الباحثين – متحدي الثقافة – أن ينهضوا به . .
من هنا كان التفرد في صنع هذا المعجم وفي منهجه منذ البداية ، أي مرحلة جمع السابقين ، بل ضم إليها مادة غنية بالكلمات الشائعة والمستعملة ، باستخدام تقنية حاسوبية متقدمة ثم بمقتضاها إجراء مسح لغوي مكثف لمادة مكتوبة ومسموعة تمثل اللغة العربية المعاصرة أصدق تمثيل ، تميزت بالمعاصرة والسياقات المستعملة ، بالإضافة إلى الاستعمالات

الجديدة التي ترد في سياق مألوف لدى المستخدم وتتجاوز في حجمها مائة مليون كلمة ومثال يكفي أن نرجع إلى إحصائيات المعجم لنرى أن عدد الجذور قد بلغ ٥٧٧٨ جذرًا ، وأن عدد المداخل بأنواعها من أسماء وأفعال وكلمات وظيفية هو ٣٢٣٠٠ مدخل ، وعدد المصطلحات ٩٩٩٥ مصطلحًا ، والمعاني ٦٣٠١٩ معنى . والأمثلة الإضافية ٤٣٣٨٤ مثالاً ، والتعبيرات السياقية ١٧٨٨٣ تعبيرًا ز وهو الأمر الذي يكشف عن حجم المعجم واتساع متنه والجهد المبذور فيه هذا العملان الكبيران الموجهان إلى المتخصصين من ناحية وإلى المثقف العربي بوجه عام من ناحية أخرى ، يتيحان لمجمع اللغة العربية – وهو في مجال تحديث " المعجم الوسيط " الآن – مادة لغوية ضخمة ، ومنهجية علمية متقدمة ، وذخيرة من المصطلحات في مجالات العلوم المختلفة ، تستحق التقدير والاحترام ، وتضيء الطريق أمام العلماء العاملين الآن في هذا التحديث ، كما أنهما يمثلان دعوة جادة إلى إعادة قراءة التراث اللغوي الكبير للعالم الراحل الدكتور أحمد مختار عمر ، والإفادة منه في مواجهة قضايا اللغة ، وتطوير البحث اللغوي ، وتشرب هذه الروح العلمية التجديدية ، التي حرص صاحبها في كل مراحل حياته على أن يكون نموذجًا للعالم الحقيقي والباحث القدوة والرائد الذي يأخذ بأيدي مريديه وتلامذته إلى آفاق جديدة غير مطروقة ويبقى الشكر لعالم الكتب ولأسرة الراحل الكريمة ولفريق العمل ، لحرصهم جميعًا على إصدار هذين العملين الجليلين تخليدًا لرسالته وإحياء لذكراه .

لماذا المعجم التاريخي

بقلم : فاروق شوشة

المعجم التاريخي للغة العربية حلم مجمعي قديم ، بدأه مجمع اللغة العربية مع دورات انعقاده وممارسته لمسئولياته تحقيقًا للمرسوم الملكي بإنشائه عام ١٩٣٢ ، محددًا مهامه الرئيسية بأنها المحافظة على سلامة اللغة ، وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون ملائمة لحاجات العصر ، والقيام بوضع معجم تاريخي للغة العربية ، وأبسط ما يمكن أن يقال عن المعجم التاريخي : " إنه معجم شامل يعرض لتطور اللغة " مفردات وتراكيب – عبر عصورها المختلفة ، والكشف عن المعاني والدلالات لهذه المفردات ، من خلال النصوص والسياقات التي استخدمت فيها : منذ أقدم العصور حتى الآن ، وكانت مبادرة المستشرق الألماني فيشر – عضو المجمع في الثلاثينيات من القرن الماضي – بمثابة الطلقة الأولى في هذا الاتجاه لكن جهده العلمي الرائد توقف نتيجة لقيام الحرب العالمية الثانية ، وانقطاع الصلة بينه وبين المجمع ، وانتهاء برحيله .

وعندما عاد المجمع بعد سنوات طويلة إلى حلمه القديم ، لم يجد من الأوراق التي تركها فيشر إلا بطاقات وكراسة صغيرة ، توضح منهجه وتقدم نموذجًا منه ، لكن المعنيين بأمور المعاجم لم يجدوا في هذه الأوراق ما يقربهم من حلم المعجم التاريخي .

وأدرك المجمعيون أن العمل في المعجم التاريخي ينوء به مجمع لغوي واحد مهما بلغ جهده ، وأن الأمر يتطلب حشد الطاقات والجهود ، فكان ضروريًا أن يتقدم اتحاد المجامع اللغوية العربية بكل إمكاناته العلمية والمادية والتنفيذية لحمل المسئولية .

من هنا كان المعجم التاريخي للغة العربية محورًا لمؤتمر المجمع السنوي هذا العام ، أحشد له أعضاؤه المصريون والعرب ، وخبراؤه وأعضاؤه المراسلون بعشرات من الأبحاث والدراسات الجادة عرضت ونوقشت في جلسات دراسية مغلقة ، والمحاضرات العامة التي أتيح شهودها للجميع ، متضمنة وجهات النظر بالنسبة لهذا الموضوع ، من يوافقون على المعجم التاريخي ويتطلعون إلى يوم إنجازه ، ومن يتحفظون على فكرة المعجم التاريخي ، ويرون في المعجم الكبير الذي أنشغل به المجمع وصدر مجلده الأول عام ١٩٧٠ مغنيًا عن المعجم التاريخي وهو موقف يتبناه العالم الأردني الدكتور ناصر صلاح الدين الأسد عضو المجمع ، مستشهدًا في محاضرته القيمة التي تضمنت عرض هذا الموقف إشارة إلى موقف المجمع حين أراد الأخذ في وضع المعجم الكبير ، وأنه لن يكون معجمًا تاريخيًا للغة العربية ، لا ن المعجم التاريخي يحتاج إلى أعمال تمهيدية لم يؤخذ فيها بعد ، فيس بد لوضعه من استقصاء نصوص الشعر والنثر على اختلاف عصورها وبيئاتها ،

وتسجيل ما في هذه النصوص من الألفاظ ، وتسجيل الأوقات التي استعملت فيها ، واستخراج ما ينتجه إلى معاني الألفاظ وصورها على اختلاف العصور . وهو جهد يحتاج إلى أن يفرغ له عدد غير قليل من الباحثين المختصين الذين يحسنون العلم بأصول اللغات ومناهج تطورها ، حسب اختلاف العصور واختلاف البيئات وتباين الظروف المحيطة بالأجيال التي تتداول لغة من اللغات ، لكي نكون جادين .

والحديث عن المجامع اللغوية العربية – من أجل إنجاز المعجم التاريخي ، أو على الأقل البدء فيه ، لا بد من جمع لغوي جديد ، هو الجمع اللغوي الثاني في تاريخ اللغة العربية ، منذ قام العالم اللغوي الخليل بن أحمد بالجمع الأول ، حين شرع في وضع أول معجم في تاريخ العربية وهو معجم العين ، والمذهل فيما قام به الخليل بن أحمد – في مستهل القرن الثاني الهجري – إنه يمثل منهجًا علميًا رياضيًا بالغة الدقة والشمول ، بالرغم من أنه لم يكن لديه شيء من الوسائل المساعدة والأدوات المعينة ، والمناهج التي نعرفها نحن ، والتي يوفرها لنا الآن الكمبيوتر ، أو كما يفضل إخواننا العرب تسميته بالحاسوب ، هذا المجمع اللغوي الشامل هو قاعدة البيانات اللغوية الأولى في وضع هذا المعجم التاريخي ، والتي ستقدم ملايين المفردات التي تنظمها منهجية العمل في المعجم إحصاء وتصنيفًا وتأصيلاً وتحليلاً وبحثًا في تطور المعاني والدلالات ، ولابد من حوسبة العمل كله ، وتوفير الكوادر العلمية القادرة ، ورصد الميزانيات القادرة ، والتوجه إلى الدولة وإلى القادرين من رجال الأعمال ، الذين يسكنهم الوعي باحتياجات هذا الوطن ، ومتطلبات لغته القومية التي هي رمز الهوية ، وآلة الإنتاج المعرفي ، روعًا ، ثقافته وإبداعه ، لنقول لهم في مثل هذا فليتنافس المتنافسون ، فالمعجم التاريخي للغة العربية هو – أولاً وأخيرًا – ضرورة لغوية وحضارية ، وقفزة هائلة في الاتجاه الصحيح المنهوض بلغتنا الجميلة ، وصاحب هذه اللغة الإنسان الذي يرى أنه بدون وضع هذه اللغة في مكانها الصحيح ، فلا مجال لحديث جاء عن مشروع للنهضة العربية .

المجمع ولغتنا الجميلة

بقلم : فاروق شوشة

أما المجمع فهو مجمع اللغة العربية ، الذي يعيش الآن أيامًا حافلة منذ بدأ انعقاد مؤتمره السنوي في دورته الثانية والسبعين ، يوم الاثنين الماضي ، ويستمر حتى جلسته الختامية يوم الاثنين الموافق ٣ أبريل القادم ، ويحتشد لهذا المؤتمر أعضاء المجمع ، من المصريين والعرب – وخبراؤه ، وأعضاؤه المراسلون من العرب والمستشرقين ، وتتسع جلساته المغلقة والمفتوحة لعشرات من الأبحاث والمحاضرات العامة على مدى أسبوعين كاملين .

ولقد جعل المجمع من موضوع " المعجم التاريخي للغة العربية " قضيته الأساسية في هذا المؤتمر ، بحثًا واستشراقًا ومناقشة ، من أجل وضع الخطة والاتفاق على المنهج ، والإفادة من تجارب الآخرين – أصحاب اللغات الحية – في وضع معاجمهم التاريخية ، والمعجم التاريخي للغة العربية ، حلم مجمعي قديم بدأه المجمع مع بدء دورات انعقاده وممارسته لمسئولياته في ثلاثينيات القرن الماضي ، وكانت مبادرة المستشرقين الألماني فينشر – عضو المجمع الراحل – بمثابة الطلقة الأولى في هذا الاتجاه ، لكن جهده العلمي الرائد توقف بسبب قيام الحرب العالمية الثانية ، وانقطاع الصلة بينه في ألمانيا وبين المجمع ، وانتهاء برحيله وعندما عاد مجتمعنا إلى حلم المعجم التاريخي ، الذي يتتبع الكلمة العربية في تطورها ومعانيها ودلالاتها المختلفة عبر العصور ، مرتبطة بسياقها من النصوص التي جاءت فيها هذه الكلمة ، منذ العصور الأولى للغة العربية حتى إلىوم – عندما عاد المجمع لم يكن وحده وغنما كان معه اتخاذ المجاميع اللغوية العلمية العربية ، بكل الخبرة والدراسة ، والعكوف على البحث والمقارنة ، ومواجهة تحديات العمل من أجل تحقيق هذا الإنجاز .

والمجمع يعقد مؤتمره الجديد ، في سياق حرصه على تطوير اللغة العربية وازدهارها ، لتصبح قادرة على الوفاء باحتياجات العصر ، مشعة لنبضه ومعارفه ومطامحه ، مقتحمة لمجالات الاهتمام فيه في عالم يشهد كل يوم فيه جديدًا في ثورة المعلوماتية وانطلاقًا في مجالات العلوم والفنون والآداب ، وتزاحمًا بالسواعد والمناكب . كل يحاول أني كون له موطئ قدم في خريطة هذا العصر المزدحم المتلاطم ، مستمسكًا بعرى هويته ، ثقافة ولسانًا وأصولاً وتوجهًا في وجه عولة عاتبة ، وقوى عظمى أتيح لها الانفراد بالزعامة والتأثير ، وفرض منطقها وتأويلها ، الذين لا يبإلىان عادة بحقوق الشعوب ، ومصائر الأمم ، واحتياجات البشر .

كيف تصبح للغة العربية إذن – في زحام هذا الخضم الهائل ، وعاء لمشروع النهضة العربية ، وآلة لا نتاجه المعرفي ، وفضاء لتجليات الإبداع ووثبات المبدعين ، ولسانًا للعلم والتعليم ومكنزًا للمعرفة ، وسولاً إلى الآخرين معنا ومن حولنا ، ينطق عنا ، وبنا ولنا ، ويترجم عن أدق خوالج الوجدان وأسمى معارج العقل ، ويذكر العالم كله ، بأنه في زمن مضيء وطيلة قرون عدة كانت هذه اللغة الجميلة لسان العوملة العربية ، تربط العالم كله ، شرقه إلى غربه ، وشماله إلى جنوبه ، وتفيض على البشرية نورًا وخيرًا وأمنًا وسلامًا ، وتمطر – حيث حلت سحائبها فيوضا من العلم والتقدم ، وتفجر في قلب كل ظلام مشاعل الهداية والتنوير ، لتصبح بلاغتها المحكمة صوت الأرض حين تتجه بالدعاء إلى السماء .

وعندما نتأمل الواقع من حولنا ، نرى أن ما يتهدد لغتنا الجميلة ، هو نفسه ما يتهدد الوجود العربي والإنسان العربي والمصير العربي وأن ما نلمسه من صور الضعف والتدني والركاكة على كثير من الألسنة والأفلام ، هو نفسه بعض أعراض الضعف في التعليم والإعلام والثقافة ، وأن ما نشهده من بعثرة الجهود وتفرقها وتمزقها من أجل أحيائها وبسط صورتها الصحيحة الحية المتطورة الجديدة بهذا العصر ، القادرة على حمل أعبائه والنهوض بالتزاماته ، إن هو إلا صدى التمزق والشتات ، في مواقفنا القومية تجاه أنفنا ، وتجاه العالم ن وأن ألوانًا كثيرة من صور السخرية والتندر والتهكم والنقد المسف والتطاول بغير علم الموجهة إلى اللغة ورموزها ، كما يحدث أحيانًا بالنسبة لمجمعنا وغيره من المجاميع العربية — لم تكن لتكون ، لو أن نظرتنا إلى اللغة أخذت بعدها القومي ، فلم تعد مقصورة على وزارات التعليم ، أو من يعلمونها في المدارس والجامعات أو العاكفين عليها من علماء المجامع اللغوية ، وإنما أصبحت مسئولية المجتمع كله حكامًا ومحكومين .

والذي لا شك فيه أن ضوءًا قادمًا قد بدأ يسطع في نهاية النفق متمثلاً في نهوض عدد من مؤسسات المجتمع المدني ، بعبء النضال من أجل لغتنا الجميلة ، في مقدمتها جمعية حماة اللغة العربية وجمعية لسان العرب ، ونظائرهما في بقاع شتى من الوطن العربي ن فضلاً عما تشهده في كل يوم ، من مؤتمرات جادة وملتقيات ، حاشدة في الجامعات والجمعيات والمنتديات جعلت من اللغة العربية ، وقضاياها المثارة — حول تعريب العلوم وتعليمها بالعربية ، ومصطلحات العلوم ، وألفاظ الحضارة والترجمة والتعريب ، وفتح أبو اب الاجتهاد في اللغة والتوسع في مجالات النحت والقياس والاشتقاق وتيسير تعليم اللغة للنشء – جعلت من هذه القضايا وغيرها موضوعها الأول ومجال اهتمامها الأساسي .

وهو حديث موصول على المقال القادم .

إنقاذ اللغة . . إنقاذ الهوية

بقلم : فاروق شوشة

يستشهد الناقد الشاعر أستاذ الأدب المقارن الدكتور أحمد درويش في كتابه الجديد الذي يحمل هذا العنوان الدال : " إنقاذ اللغة . . إنقاذ الهوية " بكلمات من قصيدة جميلة للشاعر الصقلي إجنازيًا بوتينا عنوانها " لغة وحوار " يقول فيها :

ضع شعبًا في السلاسل
جردهم من ملابسهم

سد أفواههم

لكنهم ما زالوا أحرارًا
خذ منهم أعمالهم
وجوازت سفرهم
والموائد التي يأكلون عليها
لكنهم ما زالوا أغنياء !
إن الشعب يفتقر ويست عبد
عندما يسلب اللسان
الذي تركه له الأجداد
وعندها يضيع للأبد !

والكتاب – في جوهره – صرخة واعية ، مدعمة بالحجج والأسانيد ، يطلقها مثقف غيور على لغته وثقافته وهويته ن ودور أمته الحضارة في خضم هذا المنعطف والمأزق التاريخي الراهن . فهو يرى أن " الهوية العربية تمر في عصرنا بأزمة طاحنة " وهي أزمة إذا لم يتم تداركها قادت الأمة إلى تشويه ماضيها ، والتشكيك في جدوى حاضرها ، وإشاعة إلىأس من محاولة بناء مستقبلها ن ومن ثم على تفكيك نبيانها الحضاري .

وهو يرى " أن اللغة معول مهم في يد من يحاول هدم هذه الهوية ، وهي كذلك أداة بناء فاعلة في يد من محاولة المحافظة عليها وهو محق في طرح هذه التساؤلات ألم يساعد إحياء اللغة العبرية الحديثة أبناءها على التجمع من شتاتهم وبناء دولتهم ؟ ألم يساعد التخطيط العلمي الجيد لحركة الفرانكوفونيه على بقاء نفوذ الثقافة الفرنسية في العالم بعد انحلال إمبراطوريتها السياسية ، وهل يمكن توطين المعرفة في أمة بغير لغتها القومية ؟

وهل العربية لغة جامدة تستعصي على وسائل إصلاح تعليمها وتقصر عن تلبية احتياجات العصر ، وإلى أي مدى يقودنا الطريق الخطر الذي نسلكه في اتجاه التغريب بدلاً من التعريب .

الكتاب خطوة متقدمة في الإجابة الموضوعية على هذه التساؤلات إجابة تفيد من خبراته ومعارفه وثقافاته ، وانطلاقه من العربية أم الفرنسية ومن الفرنسية إلى العربية ، وتنقله الدائم في أودية اللغة والإبداع قارئًا ومترجمًا ومعلمًا وكاتبًا ، معلنًا عن مداخله الواضحة ن المتمثلة في طرح قضايا التراث العريق واللغة المتجددة وفخ القطيعة مع الماضي ، وتحديد أبعاد المشكلة اللغوية ، واللغة والدين ، والعربية لغة متطورة ن واللغة القومية وتوطين العلم ن ومخاطر الجمود في تعليم اللغة ، والفضل بين المستويات مستشهدًا بنماذج من كتابات العصور المختلفة لبعض أصحاب الأساإلىب ، من بينهم ، أبو حيان التوحيدي والجبرتي ورجاء النقاش وفهمي هويدي وسلامة أحمد سلامة وأحمد رجب وغيرهم . هذه المداخل تمثل ثورة فكرية م يصرون على اختصار اللغة والبحث اللغوي في النحو والصرف واختصار النحو في الإعراب ، وجعلها وعاء ، فارغًا بلا محتوى ، واللغة أخطر من أن تترك لعلماء النحو وأساتذته وحدهم ، وأكبر من أن تحصر هذا الإطار الضيق الذي لا يتناول الغايات والوسائل والمستويات اللغة ك فصحى وعامية ، واللغة والعلم ، واللغة في عصر العولمة ، الكتاب الصغير الحجم (١٦٢ صفحة من القطع الصغير) الكبير القيمة والمحتوى ، الواضح الهدف والرسالة ، والصادر عن دار نهضة مصر ، يتناول قضية تطوير اللغة العربية منذ سنوات طويلة ، وكأننا نغوص في دوامة من الرمال ن ولأن منطلقات الدكتور أحمد درويش لا يثقلها تعصب أو تحيز أو نقص في الخبرة والأدوات ، فقد نادى بأعلى صوته في ختام كتابه " بألا تكون دعواتنا لا صلاح اللغة عشوائية ن وألا نضيق خلال طرحها بالآراء المخالفة ما دمنا جميعًا نتوخى المحافظة عليها بالآراء المخالفة ما دمنا جميعًا نتوخى المحافظة عليها وتطويعها لمتطلبات العصر ن كما نادى بالعمل على إعادة تقوية الشبكة الخارجية للغة التي كانت تمثل أجنحتها الوسيلة الضرورية اللازم للتحليق والانطلاق ، ويمكن أن يتم ذلك في شكل التخطيط لتعاون ثقافي أشد متانة وأكثر اتساعًا مع اللغات التي تكتب بحروف عربية ـ مثل اللغة الفارسية واللغة الأردية وهما تمتدان عبر مناطق شاسعة في إيران وأفغانستان والهند وباكستان .

ويمكن لهذا التخطيط ألا يكتفي بتوثيق روابط الماضي ، إنما يطمح إلى التخطيط لمتطلبات الحاضر والمستقبل في ظل صراع الحروف وفك الشفرات على شاشات أجهزة الاتصالات وهو صراع يقول عنه خبراء اللغات " إن اللغة العربية يمكن أن يكون لها فيه قدم راسخة ويد مؤثرة " .

لكن أخطر ما يدعو إليه الكتاب هو مناداة المؤلف في سطوره الأخيرة بالعمل على إعادة الحياة الحقيقية للغة ، داخل مجالها القومي من خلال تفعيلها الحقيقي في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتعليمية والإعلامية ، وكل تلك مجالات تنعش اللغة ن وتعمل على زيادة كفاءة رئتيها في تصفية الهواء " .

وانعكاس مردوده على الدم نقاء وجريانا وعلى الجسد صحة وانتعاشًا .

فالمحافظة على اللغة والتمسك بها لا يتعارضان أبدًا مع فتح باب الحوار على مصراعيه ، بشرط أن يكون قائمًا على أسس علمية ، من شأنها أن تهب اللغة مزيدًا من التماسك ، وتجنب نقاط الضعف والهبوط والتدني ، فنجمع على عراقة التراث وحيوية التطور والأمل في المستقبل الواعد للغة والشخصية القومية معًا .

بهذا يقول الدكتور أحمد درويش ، فهل يمكننا أن نكون معه على قلب رجل واحد ، يرى في إنقاذ لغته إنقاذًا لهويته ! .

د . محمود المناوي وقضية التعريب والتغريب

بقلم : فاروق شوشة

يهدي الدكتور محمود فوزي المناوي كتابه الجديد " في التعريب والتغريب " — الصادر عن مركز الأهرام للترجمة والنشر — إلى ط كل المتعرين بلغتنا العربية الخالدة ، المستمسكين بعراها والمنافحين عنها ، والتي المغتربين عن لغتهم ، المعتزين بلسان غيرهم ، المبهورين بسلطان خصوم قومهم " وفي التمهيد — الذي يكشف عن الغيرة الشديدة ، على اللغة والدعوة الحارة غلى تجديدها وتطويرها وتطويعها — يستشهد الدكتور المناوي بكلة المستشرق الألماني يوهان فك : " لقد برهن جبروت التراث العربي ، التالد الخالد ، على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة اللغة العربية عن مقامها المسيطر ، وإذا صدقت البوادر ولم تخطئ الدلائل ، فستحتفظ أيضًا بهذا المقام العتيد ، ما بقي هناك مسلمون " .

ويرى الدكتور المناوي أنه : " يجب علينا أن نكون منتجين للمعرفة ، وبلغتنا العربية ، فهي جزء لا يتجزأ من واقعتنا الاجتماعي والثقافي ومستقبلنا الثقافي مرتبط باللغة العربية ، وعلينا المحافظة عليها ، لا نها تصل الماضي بالحاضر ، والسؤال الذي يفرض نفسه دومًا ، ما الذي يربطنا بماضينا وبتراثنا الثقافي ؟ الإجابة عنه ، بالقطع ، اللغة العربية ن إلىهود أحيوا لغة كادت تندثر ، والبعض منا يحال أن يميت لغة حية ، هي كل ما تبقى لنا في هذا الزمن الردئ فالعيب ليس في اللغة ، لكن في المنتمين إلىها ، الذين تخلفوا عن ركب المدنية والحضارة وثورة المعلومات والتقنية والمعرفة .

المدخل الذي يقدمه هذا الكتاب بكل ما يضمه من دراسات وأبحاث وتوصيات ، مدخل حضاري ، لا يتوقف عند الطرح المعتاد لقضية " اللغة العربية " بل يتجاوز ذلك إلى ما يمكن اعتباره فكر المجتمع كله ، بكل علمائه ومفكريه وكتابه وباحثيه ، وليس الذين ينتمون إلى مجال الدراسات اللغوية فحسب ، بحثا عن رؤية تكاملية ، وحلول غير تقليدية ، وفكر عصري ، يدعو في تنمية لغوية تستجيب لحياتنا إلىومية ، وإلى تأمل واقع اللغة العربية ، من منظور الأمن القومي العربي ، وتوظيف التكنولوجيا في تطوير عطاءات اللغة العربية ، وتنمية اللغة حاسوبيًا ، ودراسة " أكيولوجيا " اللغة العربية ، ووضع استراتيجية متكاملة للتعريب ، وتعريب الطب ، وتعريب لغة التعليم العإلى ، وتطوير الخط العربي ، واستيعاب اللغة العربية وعلوم العصر ، ونفاذ اللغة العربية إلى مصادر المعرفة واستيعابها ، وطرح قضية اللغة والهوية وصراح الحضارات والدكتور محمود المناوي بتقدم بهذا الكتاب الجديدة خطوة إلى الأمام بعد كتابه السابق " أزمة التعريب " ليكون " بمثابة وثيقة جديدة لنتاج فكري قوي زاخر بأقلام صغيرة من

الغيورين على اللغة العربية ، الذين يسعون جهدهم ورفعه شأنها بهدف توثيق هذه الدراسات والأفكار لتصل إلى المواطن الأكاديمي والمثقف والمسئول وصانع القرارا " .

ولا يفوته أن يوضح – في أكثر من موضع – أن الدعوة إلى تعريب التعليم العالي والجامعي والبحوث العلمية ، ليست انكفاء على الذات ، ولا هي دعوة إلى الانعزال ، بل هي قمة المشاركة والتفاعل مع اللغات والثقافات الأخرى .

" فالتعريب ليس معاداة للغات الأجنبية الحية ، بل هو دعوة إلى تجويد اللغة العربية ، وإلى ديمقراطية العلم

وأشاعته بين الجماهير العريضة ، وهكذا يكون العلم عطاء قوميًا متاحًا للجميع " .

وفي أحد الأبحاث التي يتضمنها الكتاب – وهو للدكتور سليمان العسكري رئيس تحرير مجلة " العربي " – شهاداتان تتضمنان رؤية مستقبلية حول اللغة العربية ، الأولى للباحث والناقد التونسي الدكتور عبد السلام المسدي الذي يقول " لا ول مرة في تاريخ البشرية – على ما نعلمه من التاريخ الموثوق به – يكتب للسان الطبيعي أن يعمر سبعة عشر قرنًا ، محتفظًا بمنظومته الصوتية والصرفية والنحوية ، فيطوعها جميعًا ، ليواكب التطور الحتمي في الدلالات ، دون أن يتزعزع النظام الثلاثي من داخله ، بينما يشهد العلم في اللسانيات التاريخية والمقارنة أن القرون الأربعة كانت فيما مضي هي الحد الأقصى ، الذي يبدأ بعده التغير التدريجي لمكونات المنظومة اللغوية ، أما الشهادة الثانية فهي ، من الوزن الثقيل لمفكر غير عربي هو الكاتب الأسباني كاමليو جوزي سيلا الحائز على جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٨٩ ، عن تنبؤاته المستقبلية وتقديراته الاستشرافية حول مصر اللغات الأسبانية بقوله " إنه نتيجة لثورة الاتصالات سوف تنسحب أغلب اللغات من التعامل الدولي ، وتتقلص محليًا ولن يبقى من اللغات البشرية إلا أربع لغات قادرة على الوجود العالمي والتداول الإنساني وهي الإنجليزية والاسبانية والعربية والصينية .

لقد استطاع الدكتور محمود فوزي المناوي – أستاذ أمراض النساء وتالتوليد بطب قصر العيني ، والأمين العام للجمعية الطبية المصرية ، وعضو مجمع اللغة العربية والحاصل على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الطبية ، وعضو المجمع العلمي المصري والمجالس القومية المتخصصة وأكاديمية البحث العلمي ، أن يوفر لهذا الكتاب الجديد مادة ضخمة لعدد من أبرز العلماء والمفكرين والكتاب ، ولكثير من أبحاث مؤتمرات المجامع اللغوية العربية وتوصياتها ن الأمر الذي جعل من وثيقة علمية بالغة الأهمية ، ومرجعًا لا غني عنه في مجاله يكفي أن نذكر هذه الأسماء للدلالة على توعية الفكر

والتوجه : الدكتورة يمنى طريف الخولي ، د . وفاء كامل فايد ، د . شوقي ضيف ، د . نبيل علي ، د . تمام حسان ، د . عبد الحافظ حلمي ، د . جابر عصفور ، د . حسين أحمد أمين ، د . أحمد صدقي الدجاني ، د . علي القاسمي ، د . ميلاد حنا ، د . عبد العزيز حمودة ، عباس محمود العقاد ، د . يونان لبيب رزق ، المستشرق الروماني د . نيوقلا دوبريشان ، د . عبد الهادي النازي ، د . عبد العزيز المقالح ، د . يوسف عز الدين وغيرهم .

تمنيت لو أن الدكتور محمود فوزي المناوي جعل الفصل الأخير استخلاصًا للأفكار المتفق عليها في كتبات هؤلاء ، جميعًا – من روايات عدة ، ومناهج تناول مختلفة – ليكون بمثابة مشروع قومي يسترشد به الجميع ، في كل مواقع القرار والمسئولية : العلمية والتنفيذية ، وليصبح منطلقًا جديدًا لا ينبغي التخلف عنه في النظر إلى قضية التعريب والتغريب ، وله التحية والتقدير على وعيه العلمي المسئول وغيرته النبيلة .

في مواجهة العولمة : لا بد من التخطيط اللغوي

بقلم : فاروق شوشة

اغتنى مؤتمر مجمع اللغة العربية لهذا العام – في دورته الحادية والسبعين – بمحصول وافر من الأبحاث والدراسات والمداخلات ، دار معظمها من حول القضية الأساسية التي تبناها المؤتمر وهي " اللغة العربية والثقافة العربية في عصر العولمة " واتسع المجال لبحوث ومحاضرات أخرى تناولت المعجم التاريخي للغة العربية ، ورحلات ابن بطوطه ورحلة البطريك الأنطاكي الأرثوذكسي مكريوس بصحبة ابنه الشماس بولس الحلبي إلى الإمارات الرومانية من عام ١٦٥٣ إلى عام ١٦٥٩ وهي رحلة سجلا فيها انطباعاتها في مخطوطه ضخمة كاشفة عن العلاقات الثقافية الحضارية بين المشرق العربي من ناحية والإمارات الرومانية من ناحية أخرى ، بالإضافة إلى أبحاث تناولت علاقة اللغة العربية ببرامج الكمبيوتر وشبكة المعلومات الدولية .

من بين هذه الأبحاث ، الدراسة التي قدمها المستشرق الروماني الدكتور نيقولا دوبريشان الأستاذ في جامعة بوخارست عن التخطيط اللغوي ودوره في تطوير اللغة العربية وحمايتها ، وهو ينطلق في دراسته من فكرة أن تطور البحوث اللغوية ـ وبخاصة الممارسة اللغوية ـ برهنتا في العصر الحديث علي إمكانية التدخل في تطور اللغة ، انطلاقا من معرفة القوانين الموضوعية التي تنظم تطور اللغة من أجل إحداث تغيرات معينة . وينطلق التخطيط من معرفة هذه القوانين ، بهدف توجيه بعض التغيرات اللغوية أو ترشيدها من أجل ضمان استمرارية التواصل بالنسبة لمختلف التجمعات اللغوية . هذا التخطيط يمكن أن يكون منظما متعمدا أو غير رسمي . والذين يقومون بهذا التخطيط ويؤدون دور المخطط قد يكونون أشخاصا مهتمين أو متصلين بالشئون اللغوية ، أو مؤسسات تمارس دورا لغويا . وفي مقدمة هذه المؤسسات بالطبع المجامع اللغوية ، التي تحرص ـ في تخطيطها ـ علي الاختيار من بين عدد من البدائل أو الخيارات اللغوية لتوجيه التغير اللغوي وجهة صحيحة . وهنا لا بد من التمييز بين الجانب المكتوب والجانب الشفوي للغة ، بين الأسلوب الرسمي والأساليب غير الرسمية للغة ، وتدخل المؤسسات الرسمية والعلمية يكون عادة في الجانب المكتوب للغة ، لا ن الهدف الرئيسي هو التأثير علي الأسلوب الرسمي وعلي الصيغة المكتوبة للغة ، وينطبق هذا علي حالة اللغة العربية ـ بصورة خاصة ـ بسبب الازدواجية اللغوية القائمة فيها .

ثم يشيد المستشرق الروماني دوبريشان بما قامت به مجامع دمشق والقاهرة وبغداد من جهود في مجال التخطيط اللغوي ، من أجل تقنين اللغة الفصحي وتذويب الفروق بين العاميات وبينها وتفصيحها ، ووضع المصطلحات الخاصة بمجالات العلم

والتقنية الحديثة وتأليف المعاجم بمختلف أنواعها - وفي مقدمة هذه الجهود التي يراها جديرة بالتقدير ما قام به مجمع القاهرة من وضع المعجم الوسيط الذي صدر في عام ١٩٦٠ ثم المعجم الكبير الذي صدر المجلد الأول منه (حرف الهمزة) عام ١٩٧٢ وتتابع صدوره وصولا إلى المجلد السابع . بالإضافة إلى جهود مكتب التعريب في الرباط ودوره المهم في العمل علي توحيد المصطلحات .

ويتساءل دوبريشان عن دور العامل الذاتي في إغناء المعجم العربي وتحديثه ، وعن النتائج التي تم التوصل إليها في مجال التخطيط اللغوي . ويجيب بأن القضايا الرئيسية التي واجهتها اللغة العربية في العصر الحديث تمثلت في العمل علي دعم الفصحي وتطويرها وتشجيعها وتحديثها حتى تستطيع الوفاء بمتطلبات العصر واحتياجاته ، ووضع المصطلحات لجميع ميادين العلوم والحضارة وتوحيد هذه المصطلحات قدر المستطاع .

وشاركت في هذه الجهود الواسعة - بالإضافة إلى المجامع اللغوية - المؤسسات الثقافية والعلمية وشبكة المؤسسات التعليمية في مراحلها كافة ، ودور النشر ووسائل الإعلام الحديثة: الصحف والإذاعة والتليفزيون والإنترنت أخيرا - كل هذه المؤسسات لعبت دورا مهما في نشر الفصحي الميسرة والمتأقلمة مع متطلبات الاتصال والتواصل الحديثين .

ولأن مجمع القاهرة يقوم بدور أهم مخطط لغوي عربي ، فقد أصدر منذ تأسيسه حتي الآن العديد من القرارات والتوصيات بصدد مختلف أوجه ومظاهر اللغة ، خاصة بالنسبة لا غناء وتحديث المعجم ، وكلها قرارات تجاوبت مع التطورات الطبيعية للغة ولذلك فقد أقبل علي هذه الجهود واستوعبها المختصون والمتكلمون المتعلمون والعاديون علي حد سواء . علي سبيل المثال لا الحصر: هناك القرارات المتعلقة باستخدام أوزان الأفعال والأسماء من أجل إغناء المعجم الفعلي والاسمي مثل اشتقاق الأفعال اللازمة من الأفعال الثلاثية الأحرف المتعدية علي وزني: انفعل وافتعل واشتقاق الأفعال اللازمة من الأفعال الرباعية الأحرف المتعدية واستخدام وزن افعل لا شتقاق أفعال متعدية من الأفعال الثلاثية اللازمة واستخدام وزن استفعل لا شتقاق أفعال تعبر عن معاني الطلب والصيرورة وغيرها .

ومن قرارات المجمع الهادفة إلى إغناء المعجم الاسمي وتنويعه وتحديثه ، استخدام عدد من صيغ المصدر لا يجاد مصطلحات طبية ، وزيادة عدد الأوزان المستخدمة لا شتقاق أسماء الآلة ، واشتقاق النسبة والمصدر الصناعي من مختلف أنواع الأسماء ، الأمر الذي أسهم في إغناء المعجم الاسمي بمفردات مجردة . هناك أيضا قرارات المجمع التي كانت تتعارض مع القواعد الصرفية الكلاسيكية ، لكن تم استيعابها وتطبيقها دون

مقاومة لا نها تجاوبت مع التطور الطبيعي الحادث في اللغة والهادف إلى تيسير القواعد وتنظيمها . من بينها القرارات المتعلقة باشتقاق النسبة من صيغ الجمع ومن الأسماء علي وزن فعيل وعلي وزن فعيلة . بل إن المجمع لم يتردد في إعادة النظر في بعض القرارات ، والعمل علي استكمالها عندما استلزم الأمر وكان ذلك ممكنا .

ما الذي يحدث إذن في حالة عدم تدخل المخطط اللغوي في الوقت المناسب لتنظيم ظاهرة من الظواهر اللغوية ! في مجال واحد - مثلا - هو مجال الألفاظ الأجنبية المعربة ومحاولة استبدال مفردات عربية بها ، ربما تكون هذه المحاولة شبه مستحيلة إن لم يتدخل المخطط في الوقت المناسب لوضع مصطلحات بديلة علي أساس المادة العربية والوسائل الذاتية .

وفي اعتقاد - دوبريشان - أن دور المخطط اللغوي العربي لا يزال متواضعا إلى الآن ، في مجال إيجاد الوسائل والطرق من أجل التعبير عن معاني السوابق واللواحق في اللغات الأوروبية . وقد حاول مؤلفو القواميس الثنائية : الفرنسية - العربية ، والانجليزية - العربية - التعبير عن معاني هذه السوابق واللواحق ، لكنهم لم يستندوا إلى مباديء مشابهة ، فكانوا مترددين غير مستقرين .

وفي ظل عصر العولمة ، وأمام اجتياح اللغة الانجليزية ، أصبح من الضروري بذل المزيد من الجهود - من قبل المخططين اللغويين - لحماية اللغات القومية والمحافظة عليها ، بوصفها جزءا من حضارة المستقبل التي ستظل متنوعة ، وستزداد قيمة وأصالة بفضل إسهامات مختلف الثقافات القومية . صحيح أن اللغة تتطور وفقا لقوانينها الموضوعية الملازمة لنظامها ، لكن المخططين اللغويين يستطيعون أن يتدخلوا ، بل لا بد أن يتدخلوا بوصفهم مقننين . ولاشك أن فرص نجاحهم تتوقف علي مدي اكتشافهم واحترامهم للتغيرات الطبيعية التي تحدث في اللغة باستمرار ، لا ن مستخدمي اللغة هم أصحاب القرار في نهاية الأمر .

شجون مجمعية

بقلم : فاروق شوشة

أكتب هذه السطور بعد انتهاء المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية في دورته الحادية والسبعين (الدورة الأولى كانت مع بداية المجمع في عام ١٩٣٤) ، وشارك في هذا المؤتمر أعضاء المجمع من المصريين والعرب ، ولفيف من خبراء لجان المجمع وأعضائه المراسلين من العرب والمستشرقين .

كان العنوان الرئيسي الذي دارت من حوله أبحاث المؤتمر هو " للغة والثقافة العربية ط ف يعصر العولمة " ، بالإضافة إلى حث الجهود للاهتمام بإصدار المعجم التاريخي للغة العربية ، وهو الموضوع الذي يتصدى له الآن – فنيًا وتنظيميًا – اتحاد المجامع العربية . ثم كانت في الجلسة الختامية للمؤتمر – كسابقاتها في الأعوام الماضية – التوصيات التي اتسعت لكثير من هموم المجمع واهتماماته ، والتي تكرر معظمها وسيظل يتكرر – في أعوام سابقة ولاحقة – دون أن تحدث رجع صدى أو رد فعل عند من يعنيهم الأمر ، ولأنها تحمل هذه التسمية " توصيات " ولأن التوصيات بطبيعتها غير ملزمة ، فإن الهوة ستظل تتسع بين ما يريده المجمعيون للغة العربية من تجدد وتطور وسيادة من ناحية ، وما يحدث في المجتمعات المصرية والعربية – باعتباره الواقع المؤلف لهذه اللغة – من ناحية أخرى على سبيل المثال ، وهو مثال من المضحكات المبكيات – فإن إحدى توصيات هذا العام تؤكد التوصيات السابقة بشأن : سيادة العربية في بلادها ، وتفعيل النصوص الدستورية والقانونية الصادرة في البلاد العربية بالتزام اللغة العربية في وسائل الإعلام كافة ، وفي صيغ الإعلان على اختلاف وسائلها ، واللافتات وسائر الاستخدامات اللغوية ، ومقاومة غزو اللغات الأخرى لها في عقر دارها ، وفي مصر قانون يرجع تاريخه إلى عام ١٩٥٨ يقضي بضرورة إطلاق تسميات عربية على المنشآت والمحال والمرافق .

حاول الدكتور أحمد جويلي – عندما كان وزيرًا على أعلى مستوى من الوطنية والوعي والمسئولية – أن يحيي هذا القانون وطبقه – فكانت المقاومة الشرسة ممن يتفننون في إطلاق تسمياتهم الأجنبية والغربية على القرى السياحية والمجتمعات والمنشآت والمحال التجارية ، وكان مصر قد أصبحت ولاية تابعة لدولة أوربية أو أمريكية ، فعلوا وما زالوا يواصلون هذا الفعل بفلوسهم ، وبعنجهية جاهلة تظن أن هذا هو التقدم وهو العصرية ومسايرة العولمة من حولنا وكان طبيعيًا أن تتحطم جهود الوزير الذي كان يرى الخطر الداهم الذي يطعن هويتنا في الصميم ، وأن ينتهي الأمر بخروجه من الوزارة .

من بين هذه التوصيات – الجديدة القائمة – الدعوة إلى مقاومة الهجمة على العربية لغة وتراثًا وأدبًا ، تلك الهجمة التي تتخذ من العولمة المغرضة سلاحًا ، بقصد تغليب لغة أو ثقافة معينة عالميًا ، الأمر الذي يهدد الخصوصيات اللغوية والثقافية التي تتميز بها شعوب العالم ويتصل بهذه التوصية ، توصية أخرى تدعو إلى إبراز الطابع العالمي – لا العولمي – للثقافة العربية واللغة العربية ، واتخاذ الأسالىب الكفيلة بالحفاظ على موقعها العالمي ودعمه في مواجهة المحاولات الراهنة لزحزحتها عنه .

لم يغب عن المجمع – في إطار توصياته لهذه الدورة – الدعوة في الطريقة الكلية في تعليم اللغة العربية ، بحيث تقدم قواعد اللغة العربية – بمستوياتها كافة للناشئة ، من خلال نصوص مختارة من الأدب العربي قديمة وحديثه ، وعلى القمة من ذلك القرآن الكريم والحديث الشريف ، مع الاهتمام بالقراءة المجهرية (المطالعة) باعتبارها ذات أثر فعال في هذا السبيل وليست هذه التوصية التفتت إلى ضرورة الربط بين قواعد اللغة ودروس البلاغة من خلال النصوص الأدبية ، بحيث لا تكون دراسة القواعد في فراغ ، ودراسة البلاغة ، بعلومها وفروعها المختلفة ، في فراغ – ولا تكون اللغة العربية مثل أوزيريس الذي توزعت أجزاءه في بقاع شتى – والطريقة الكلية – في تعليم اللغة العربية وتعليمها ، هي الوحيدة الكفيلة بتحقيق تطوير هائل في طرق التدريس وأيضًا تحقيق ما كان يدعو إلىه عبد القاهر الجرجاني – عالم البلاغة العربية الكبير – وهو يرى في فكرته عن " النظم " دعوة إلى الاهتمام " بالصواب " الذي تحققه قواعد اللغة و " الجمال " الذي تساعد على إبداعه علوم البلاغة .

لم يفت المؤتمر – في سباق توصياته – الدعوة إلى مقاومة ما تقوم به بعض الهيئات العالمية المعنية بالمحاسب الإلى من الاعتداد باللهجات المحلية في العالم العربي وعدها لغات مستقلة لا ن في ذلك تهديدًا للوحدة اللغوية والثقافية للعالم العربي ، الأمر الذي يجعل التعاون بينه وبين العالم أمرًا بالغ التعقيد ، ودعوة العاملين في هذا المجال إلى المسارعة لدى هذه الهيئات لتصحيح هذا التوجيه ، وتأكيد أن اللغة العربية الفصحى هي اللغة المشتركة للعالم العربي ، وكذلك الدعوة إلى تطويع الحاسب الإلى للغة العربية ، وبحث المشكلات الناتجة عن استخدامه ، والتعاون بين الهيئات المعنية لحلها ، وضرورة تبني طريقة موحدة لكتابة العناوين باللغة العربية في الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت) .

بالإضافة إلى عدة توصيات أخرى تتضمن الدعوة إلى ضرورة ضبط الكتب المدرسية في مختلف العلوم ضبطًا كاملاً بالشكل حتى نهاية الثانوية العامة ، وتقدير دور مجمع اللغة العربية في إعداد المعجم الكبير ، وتكثيف العمل وتسريعه لتهيئة اكتمال صدوره في

وقـت مناسـب ، بالإضـافة إلى دعـم الهيئـات غـير العربيـة المعنيـة بتعلـيم اللغـة العربيـة في بلادها – ماديًا وأدبيًا – وتوثيق الصلات بيننا وبنيهم بما يفيد اللغة العربية وثقافتها .

وبمناسـبة التوصـية الأخـيرة فقـد كـان البحثـان اللـذان قـدمهما الـدكتور فريـديريكو كـوريتني – عـضو المجمـع المرسـل مـن أسـبانيا – عـن عولـة العربيـة في الغـرب باعتبارهـا قـضية التعلـيم العـالي ، والـدكتور نيقـولا دوبريـشان عـن التخطـيط اللغـوي ودوره في تطـوير اللغـة العربيـة وحمايتهـا والغريـب أن هـذين الـصورتين العلمـيين الجـادين ، المهمـومين باللغـة العربيـة وقـضاياها في عـصر العولـة ، مـن الأحـداث القليلـة الـتي أشـاعت نـبرة الأمـل والفـرح في الجـو العـام لجلـسات المـؤتمر ، الـتي كـان يحلـق مـن فوقهـا طـائر الأحـزان لغيـاب شـيخ الجمجمعـين ورئيس المجمـع الـدكتور شـوقي ضـيف ، ورحيلـه قبـل انعقـاد المـؤتمر بأيـام قليلـة ، الأمـر الـذي ألقـى بظلـه علـى الجلـستين الافتتاحيـة والختاميـة ، فـضلاً عـن جلـسة التـأبين الـتي خصـصت لهـذه المناسـبة ، وكـم كـان جمـيلاً ورائعًـا أن يلمـس المـشاركون في المـؤتمر نـبرة الـصدق والـولاء للغـة العربيـة والثقافـة العربيـة لـدى عميـد المستـشرقين الأسـبان " كـوريتني " وتقديمـه لا فكـار وحلـول إيجابيـة في شـأنها تحقيـق انتـشار أوسـع للغـة العربيـة في الغـرب ، وزيـادة في مـساحة الإقبـال علـى تعلمهـا ، وتأكيـد حـضورها في بـرامج التعلـيم العـالي ومناهجـه ، ولـدى المستـشرق الرومـاني دوبريـشان وهـو يـدعو إلى الاهتمـام بـالتخطيط اللغـوي ، وأهميـة هـذا التخطيط ، الذي لا بد أن نأخذ به – لتطوير اللغة العربية وحمايتها .

أرجـو ألا تطـوي صـفحات هـذا المـؤتمر المجمعـي الجديـد – كمـا انطـوت صـفحات سـابقية – باعتبـاره لحنًـا جديـدًا في معزوفـة البكـاء علـى الأطـلال ، أو علـى اللـبن المـسكوب ، وأن يلتفـت مـن بأيـديهم مـصير هـذا الـوطن إلى أن الاهتمـام بتحويـل هـذه التوصـيات إلى قـرارات ملزمة ، هـو نقطـة البدايـة مـن أجـل صيانة عـرض هـذا الـوطن وشـرفه وهويتـه ، وبـصيانة لغتـه وثقافته ، تمسكًا وتطويرًا ، وانفتاحًا وتجديدًا .

يعشقون الفن ويقدسون الجمال

بقلم: فاروق شوشة

هذا كلام ينطبق علي كثير من الشعوب التي تمارس حياة النهضة والتقدم ، مستقبلها أمامها لا خلفها ، وكل يوم يمر عليها يضفي علي وجودها مزيدا من الفرح والبهجة وعشق الحياة ، في مقدمة هذه الشعوب الشعب الايطالي الذي جعل من عشق الفنون وتقديس الجمال شعارا وواقعا وممارسة وغاية ، تحت هذا الشعار تدور مئات الملتقيات ـ علي مدار العام الواحد ـ لكل فنون العالم ، وتتحاور ابداعات القادمين من جميع القارات وأفكارهم باعتبارها لغة الإنسان الذي يعمق ايمانه بالحرية والتعددية ، ويسعي إلى تحقيق عالم يسوده السلام والمحبة والتواصل ، وكان المهرجان المتوسطي في دورته الخامسة للشعر والموسيقي والمسرح والسينما ، وكان لقاء الشعر العربي بشعر العالم ، وتفاعل كل منهما مع الآخر ، وكانت الترجمة ـ السابقة الإعداد ـ جسرا بديعا لتحقيق هذا التواصل ، وبخاصة حين تسبق الترجمة الايطالية إنشاد الشعراء الآخرين بلغاتهم ، فتصبح موطئة للفهم ومزيلة لحاجز اللغة وكاشفة عن الجدة والتمايز ، الشاعر البولندي يتحدث عن عالمه القروي بين المراعي والمروج والشياه ، والشاعر الأمريكي يروي طرفا من علاقته مع المبدع الجزائري محمد ديب عبر لغتين مختلفتين ، والشاعر الايرلندي يقذف بحممه الشعرية كل الذين يحاولون اقتحام خصوصية الانسان المعاصر وإفساد عزلته وهدوئه ، النغمة الشعرية التي سادت الملتقي صنعتها التفاصيل الصغيرة التي اهتمت بها عوالم هؤلاء الشعراء حتي الشاعرة الهندية ـ التي تكتب بالانجليزية ـ كانت تستدعي تفاصيل كثيرة استرعت انتباهها في حياة المرأة العربية ، تحول بينها وبين الانطلاق والتحقق ، حديث الصباح والمساء والزحام في المدينة والتأمل في الأماكن التي يمرح فيها الأطفال ، والنيل الحزين الذي أصبح مهانا بعد ان كان معبودا مقدسا ، والمرأة التي تزهو بتفاصيل صغيرة افتنت في اختراعها لتمتلك بها مصير رجلها ، كل ذلك شكل صورة عالم يحتاج إلى الشعر حاجته إلى الحياة ، ويري فيه فنه القادر علي تحقيق التوازن وهو يسبح في مدار كوني لا بداية له ولا نهاية ، لكن الشعر يعصمه من السقوط في الهاوية .

مكاتبنا الثقافية في الخارج مؤهلة ـ إذا أحسن اختيار القائمين عليها كما يحدث في روما وباريس وغيرهما ـ للقيام بدور نشيط ومتميز في تحقيق هذا التواصل وتنشيط هذا التفاعل ، وإذا كنت قد أشرت في المقال السابق إلى الدكتور ربيع سلامة ـ رجلنا الثقافي في روما ـ والدور المتميز الذي يقوم به ، فإني أشير أيضا إلى نماذج رائعة من المصريين حققوا وجودهم الاجتماعي والثقافي والفني فامتلكوا عشرات الأماكن وأصبحوا من رجال الأعمال

البارزين ، وفازوا في مجال السبق مع غيرهم من أبناء الجنسيات الأخري وتفوقوا عليهم بالطموح والعلم والأمانة والقدرة علي اكتساب ثقة من حولهم ، ومن هؤلاء الكاتب والفنان أبو المعاطي أبو شارب والتليفزيوني شاعر العامية محمد يوسف اسماعيل ، والفندقي حسين صادق الذي كان من نجوم كرة القدم في نادي الكروم بالاسكندرية وبالدراسة والطموح أصبح المسئول الأول عن الطعام والشراب في أحد فنادق روما المحترمة ، والدكتور إبراهيم الشب الذي يحاول من خلال موقعه في المكتب الثقافي ممارسة الترجمة من الإيطالية إلى العربية ، وغيرهم المئات من أبناء مصر وفلذات أكبادها ، الذين لم يصلوا إلى إيطاليا بطريق الهجرة غير الشرعية عبر البحر أو الاستعانة بسماسرة الموت ، لكنهم بدأوا بوجودهم القانوني ، الذي تعزز بالدراسة والسعي النبيل في مجتمع أوروبي لا يرحم الفاشل أو المتخلف ، فأصبحوا بعض رموزه ونجومه .

كانت عيني طيلة الوقت علي مصر ، وأنا أشارك في الأمسيات الشعرية الثلاث التي اختيرت لها أماكن لها دلالتها وخصوصيتها: حديقة الجامعة الأمريكية في روما ، وجزيرة جميلة علي نهر التيبر الذي يخترق العاصمة الإيطالية بجمهورها الحاشد الذي يؤمها باعتبارها من المزارات السياحية البديعة ، يمتلك أجمل أماكنها شابان مصريان ناجحان ، أما الأمسية الثالثة فكانت في قلب أحد الميادين العامة في حي من الأحياء المزدحمة ـ الحديث نسبيا ـ في قلب روما ، كان الجمهور إذن متنوعا يجمع بين الأكاديميين والقادرين علي المشاركة في الأنشطة السياحية وأبناء الحي من الطبقة المتوسطة .

وكنت مشغولا بالتفكير في ملتقي القاهرة الدولي الثاني للشعر العربي الذي سيقام في مارس المقبل ، واتساءل بيني وبين نفسي: هل ننجح في إقامة مهرجان مماثل للشعر ، وهل نوظف ما لدينا من إمكانات سياحية وفنية وأثرية رائعة في تحقيق أيام وليال شعرية يتفاعل فيها شعرنا العربي مع الشعر العالمي ؟

لغتنا الجميلة بين العولمة والمستشرقين

بقلم : فاروق شوشة

في بريد الأهرام ـــ يوم الاثنين الماضي١٨ أبريل ـــ وتحت عنوان حتي اللغة العربية رسالة من الكيميائي ألبرت إدوارد يعلق فيها علي مقال نشرته منذ أسبوعين بعنوان شجون مجمعية ذكرت فيه أن بحثين قدما إلى مؤتمر مجمع اللغة العربية الأخير ، الأول للدكتور المستشرق الإسباني الشهير كورينتي والثاني للدكتور المستشرق الروماني دوبريشان حول تطوير اللغة العربية ، ويتساءل كاتب الرسالة ـــ مع كامل احترامه للمستشرقين: إلى متي نعتمد عليهم حتي في تطوير وإصلاح اللغة العربية ؟ وأين أبحاث أعضاء المجمع الموقر المصريين والعرب ؟ وإلي متي سنظل نتحدث عن إصلاح اللغة العربية وتطويرها دون خطوات فعلية وعملية .

وأبدأ بشكر القاريء الكريم علي اهتمامه بما كتبته حول المؤتمر الأخير لمجمع اللغة العربية الذي انعقد علي مدي الأسبوع الأخير من مارس الماضي والأسبوع الأول من أبريل ، وكنت أشيد بجهد المستشرقين المشاركين فيه ، وحرصهم علي تطوير اللغة العربية ، وغيرتهم عليها وهم يتابعون حركتها في بلادهم الأوروبية ، ومدي انتشارهم من خلال التعليم والترجمة والبحوث والمحاضرات والمؤتمرات . ويبدو أن القاريء الكريم لا يعلم أن المرسوم الذي صدر بإنشاء مجمع اللغة العربية في الثالث عشر من شهر ديسمبر سنة١٩٣٢ ، نص علي أن يؤلف المجمع من عشرين عضوا عام لا يختارون من غير تقيد بالجنسية ، من بين العلماء المعروفين بتبحرهم في اللغة العربية أو بأبحاثهم في فقه اللغة أو لهجاتها .

وكان عشرة من هؤلاء العشرين من المصريين ، وخمسة من أبناء الوطن العربي الكبير ، وخمسة من المستشرقين . وتم تعديل قانون المجمع أكثر من مرة ، حتي أصبح عدد أعضائه العاملين أربعين ، منهم عشرة علي الأكثر من غير المصريين . لذا فقد كان طبيعيا أن نجد من بين أعضائه ـــ منذ افتتاحه في عام ١٩٣٤ ـــ مستشرقين كبارا قدموا خدمات جليلة للغة العربية وآدابها ، من خلال البحث والدراسة والشرح والترجمة والتحقيق ـــ من بينهم: هاملتون جب وأوجست فيشر وإتوليتمان ، ولويس ماسينيون ، وكارلو نلينو وغيرهم: وأدبنا العربي القديم ـــ وبخاصة الشعر العربي منذ أقدم عصوره ـــمدين لكثير من هؤلاء المستشرقين بجمع مادته وتبويبها وشرحها وتحقيقها وإصدارها ونشرها في طبعات متتابعة أتاحت للدارسين والمهتمين مجالات رحبة وفوائد متعددة ، وبهذه المناسبة أشير إلى أحدث لؤلؤة في هذا العقد المنظوم من الجهود التي قام بها المستشرقون والتي تتمثل في صدور الطبعة الكاملة المحققة والمدققة والمضبوطة لديوان ابن

الفـارض قـام بهـا المسـتشرق الإيطـالي جـوزيبي سـكاتولين ، وصـدرت عـن المعهـد العلمـي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة .

أعـود ـــ بعـد هـذه المقدمـة التوضيحية ـــ إلى المحاضـرتين القيمـتين اللـتين أشـرت إلى همـا في البدايـة ، أولاهمـا للمستـشرق الإسـباني كـورينتي عـن عولـة العربيـة في الغـرب: قـضية التعليم العـالي مـشيرا إلى مـايتردد مـن أن العولـة ستؤدي لا محالـة إلى مزيـد مـن تقويـة اللغـات الكـبري الـسائدة علـي القـارات ، الغالبـة علـي الأسـواق والعقـول والميـول ، وإلـي إضـعاف اللغـات الـصغري المحليـة القليلـة الـشأن في نظـر أصـحاب الأمـر والنهـي في مثـل هـذه القـضايا ، إلى درجـة أن المختـصين يخمنـون أن٩٠٪ مـن اللغـات الموجـودة حاليـا سـتنقرض خـلال مائـة سـنة تطبيقـا للقـانون الطبيعـي المعـروف في معركـة النـشوء والارتقـاء الإحيائيـة . ثـم يـشير إلى أن العربيـة شـاطرت دوليـة اللاتينيـة في الغـرب إبـان العـصور الوسـطي ، إلى جانـب سـيطرتها غـير المنازعـة في المـشرق طيلـة عـدة قـرون ، ثـم انتقلـت مـن الفئـة الأولـي ـــ الـتي لهـا الـسيادة والهيمنـة ـــ إلى الفئـة الثانيـة في أواخـر القـرون الوسـطي عنـدما نـشأت دول إسـلامية وأوروبيـة جديـدة وضـعت نمـاذج ثقافيـة ولغويـة خاصـة بهـا . لكـن العربيـة ظلـت ضـرورية لمـن طلـب العلـوم الإسـلامية أو تـاريخ العـصور الوسـطي أو تـاريخ العلـوم العقليـة ، فـضلا عـن التجـار والدبلوماسـيين ودارسـي الأنثروبولوجيـا وغيرهـم ممـن يريـدون معرفـة راسـخة أو تعـاملا مفيـدا في نطـاق العـالم الإسـلامي . ، مـع أن اللجـوء المتزايـد ـــ علـي مـر الـسنين ـــ إلى المؤلفـات الغربيـة فقـط في هـذه الميـادين قـد اتـسع نطاقـه أخـيرا إلى درجـة المبالغـة الفظيعـة ، بحيـث ينـدر مـن يجيـد العربيـة بـين عـدد مـن مـشاهير المعلقـين الـصحفيين الـدوليين وكبـار مستـشاري الحكومـات الغربيـة ، المتخصـصين في زعمهـم ـــ في شـئون الـشرق الأوسـط ، بـل ان هـذه البليـة قـد آلـت إلى مـؤرخي الـدول الإسـلامية (يمنعنـا الحيـاء مـن ذكـر أسمـاء بعـضهم) ، ويطـرح كـورينتي هـذا الـسؤال الـصريح الواجـب: أيعـني هـذا الإهمـال أن العربيـة قـد سـقطت أيـضا عـن الفئـة الثانيـة فتقهقـرت إلى الثالثـة ؟ أي أنهـا وإن كانـت لا تـزال مهمـة مـن حيـث عدد الناطقين بها ، فإنها أمست لغة محلية لا غير ؟

سـتختلف الإجابـة عـن هـذا الـسؤال بـاختلاف مـن يطـرح علـيهم: عربـا أو مـسلمين أو مستــشرقين . المهــم أن طرحــه لم يعــد مــستحيلا . فلاشــك أن مــدي الاعــتراف بأهميــة اللغـة العربيـة قـد تقلـص لـدي العجـم ـــ والعـرب أيـضا ـــ تقلـصا تـدريجيا منـذ نهايـة العـصور الوسـطي إلى إلى وم ، وأن هـذا الإهمـال الواضـح المفـرط فيـه غـير متناسـب مـع حقـائق الحـضارة العربية وإنجازاتها ، فالأمر إذن لا يخلو من دواع مغرضة .

إن هـدفي مـن هـذه المحاضـرة ـــ يقـول كـورينتي ـــ هـو إلقـاء بعـض الـضوء علـي حـال الدراســة العربيــة في الغــرب ، وإمكــان تــدعيمها ووجــوب محاولــة ذلــك ، إيمانــا منــا بــأن للـتراث الفكـري والفـني المـدون بهـذه اللغـة ـــ فـضلا عظيمـا علـي الانـسانية ، كفـيلا بمـستقبل

مزدهـر مديـد ، علـي شـرط متابعـة أحـوال الحـضارة الغربيـة المعاصـرة الحقيقيـة وملاحظتهـا والتدقيق فيهـا ، واتخـاذ التـدابير الملائمـة لتيـسير نـشر هـذه اللغـة ، وهـي مـسئولية لا بـد مـن تحملها والقيام بها أو يفوت قطار العولمة !

فالإقبـال علـي اللغـات ـــ مـن قبـل الأجانـب أو مـن أبنائهـا ـــ لا يتوقـف علـي العوامـل العقليـة ـــ ومنهـا القوميـة والدينيـة مـثلا ـــ كمـا يتوقـف علـي عوامـل ماديـة كالفائـدة الناتجـة عـن اتقـان لغـة معينـة لكونهـا وسـيلة للـربح أو للترقـي الاجتمـاعي والحـضاري ، وهـو ماجعل اللاتينية تسود في الماضـي ـــ قبـل الفـتح الرومـاني ـــ ومـا جعـل العربيـة تقـوم مقـام أكثـر لغات المـشرق والمغـرب والأنـدلس إثـر الفتوحـات الإسـلامية ، فكـان لا بـد للعلمـاء الغـربيين مـن تعلمهـا لمطالعـة مؤلفـات العلمـاء المـسلمين في الطـب والفلـسفة والفلـك والرياضـيات وغيرهـا . المغـزي أن اللغـات تـسود بالـسيف والقلـم والـربح ، والإنـسانية تكـره الـسيف ، ونـود لـو انتهـي دوره في رسـم مـصير الكـرة الأرضـية ، والـربح محـرك ضـروري للعمـران والتقـدم ـــ وإن صـاحبه ولزمـه بعـض الظلـم أحيانـا ـــ وهـو دون القلـم الـذي يعـد خـير مـايقرب الإنـسان مـن خالقه وأولي ماتسود به الأمم وما يتصف به الحيوان العاقل .

العولمـة إذن ثـلاث عولمـات : عولمـة الـسيف المنكـرة ، وعولمـة الـربح ـــ الجـائرة في حدود الأخـلاق ـــ وعولمـة القلـم الحميـدة الـتي نـدعو إلى هـا . الـسؤال هـو : كيـف تفيـد العربيـة من هاتين العولمتين المستحبتين ؟

إن إعـادة نـشر العربيـة في الغـرب ، وهـي أول شـرط لنجاحهـا في معركـة العولمـة ، يجـب أن تـتم عـن طريـق التعلـيمين : الثـانوي والعـالي ، يـؤازر تعـاون الحكومـات العربيـة مـع إلى ات المهـــاجرين العـــرب الـــتي تكونـــت في الحقـــب الأخـــيرة لا ســـتكمال تربيـــة أولادهـــم وتعلـيمهم العلـوم المتـصلة بأصـولهم اللغويـة ، الأمـر الـذي يـساعد علـي انتـشار العربيـة في الـديار الأوروبيـة . لا بـد مـن التركيـز علـي هـذه القـضية ، والـدفاع عـن بقـاء العربيـة لغـة مقررة في التعلـيم العـالي الغربـي ، عـن طريـق اتفاقيـات دوليـة تـنص علـي المعاملـة بالمثـل يمكـن اقتراحهـا علـي معظـم دول أوروبـا ، باعتبارهـا في مـصلحة الجـانبين : العربـي والغربـي : أمـا المحاضرة الثانية للمستشرق الروماني فلها حديث قادم .

لا . . لسقوط سيبويه !

بقلم : فاروق شوشة

المنـاداة بـأن تحيـا اللغـة العربيـة أمـر واجـب ومـشروع ومرحـب بـه ، بـل هـو شـعار يجـب أن يرفعـه كـل مـتكلم بهـذه اللغـة مـن أجـل المحافظـة عليهـا والعمـل علـي تطويرهـا ، وجعلها قادرة علي الوفاء باحتياجات الحاضر ومطالب العصر .

أمـا المنـاداة بـسقوط سيبويه فهـو الأمـر الـذي أختلـف فيـه اختلافـا كـبيرا مـع الكاتـب والمبـدع والمثقـف الأسـتاذ شـريف الـشوباشي ، وقـد جعـل منـه عنوانـا لا حـدث كتبـه لتحيـا اللغة العربية . . يسقط سيبويه .

والمنـاداة بـسقوط سـيبوية معنـاه الوحيـد الـدعوة إلى هـدم النظـام النحـوي والتركـيبي الـذي تقـوم عليـه اللغـة العربيـة ، والـذي بدونـه لا تكـون لغـة ، ولا يكـون لا ي كـلام بهـا معـني أو دلالـة ، ولا أظـن أنـه سيجيء يـوم يـصبح فيـه الفاعـل منـصوبا أو المفعـول بـه مرفوعـا ، أو يـتغير إعـراب اسـم كـان وأخواتهـا ، أو خـبر إن وأخواتهـا علـي سـبيل المثـال . وفـرق كـبير بـين الـدعوة إلى سـقوط سـيبويه ، وهـدم نظـام العربيـة بالتـإلى ـ تحـت دعـوي التطـوير ـ والـدعوة إلى تيـسير النحـو للدارسـين ، ووضـع المعـاجم العـصرية ـ الكفيلـة باسـتيعاب المـادة اللغويـة العـصرية الـتي طـرأت علـي مـتن اللغـة في عـصور مـا بعـد الاستـشهاد ـ أي بعـد القـرنين الهجـريين الأول والثـاني ، وعمـل جمـع جديـد لهـذه اللغـة ـ علـي غـرار مـا صنعه الخليـل بـن أحمـد عنـدما فكـر في وضـع أول معجـم عربـي وهـو معجـم العـين ، يكـون هـذا الجمـع الجديـد أساسـا لتـضمين الـذخيرة اللغويـة في معجـم جديـد ، لا يكـون مجـرد امتـداد للمعـاجم القديمـة ، وعالـة عليهـا ، وتكـرارا لكـثير مـن مادتهـا الـتي لم يعـد لهـا صـلة بالحيـاة المعاصـرة ، وأصـبحت تنـدرج تحـت الحوشـي والغريـب والمهجـور مـن الكـلام . فـرق كـبير جـدا بـين الأمـرين . وهـو فـرق لم يغـب عـن الأسـتاذ شـريف الـشوباشي في كتابـه الجديـد المـثير ، فهـو يـشير في أكثـر مـن موضـع ـ في كتابـه ـ إلى أننـا نكتـب الآن ونـستخدم لغـة تختلـف كـثيرا عـن لغـة القـدماء ، وهـي ملاحظـة صـحيحة ، أساسـها أننـا نـستعمل الأن لغـة تختلـف في معجمهـا مـن المفـردات والتعـابير وفي هندسـة التركيـب عـن اللغـة الـتي نطالعهـا في كـل مـا خلفـه الـسابقون . وإذا كانـت اللغـة القديمـة تـسمي اللغـة التراثيـة أو لغـة الـتراث ، عنـد كـثير مـن باحثينـا اللغـويين ، فـإن فـصحي هـذه الأيـام تـسمي فـصحي العـصر أو الفـصحي العـصرية . وهـي لغـة تخففـت مـن كـثير كـان يثقـل كاهـل مـن يـتكلم أو يـستخدم الفـصحي القديمـة ، في التحرر من نطـق حـرف الجـيم معطـشا علـي سـبيل المثـال ـ وهـو ملتـزم في كـل القـراءات القرآنيـة وتقـديم أيـة مـادة دينيـة ـ وفي التحـرر مـن قلقلـة حـروف كلمـة قطبجـد (القـاف والطـاء والبـاء والجـيم والـدال) كمـا تـنص قواعـد التجويـد ، وفي الميـل إلى الجمـل الاسميـة بـديلا عـن شـيوع

الجمل الفعلية في الماضي ، وفي استخدام الفواصل القصيرة من الكلام بدلا من الجمل الطويلة التي كانت تتضمن في داخلها جملا اعتراضية ، توقف تدفق الفكرة أو المعني ، وتجعل الخبر بعيدا عن المبتدأ ، ونهاية العبارة منقطعة عن بدايتها ، وفي التخلص من الكلمات الغريبة التي كان القدماء يسمونها حوشية أو غير مألوفة أو غير مستأنسة وفي كثير غير ذلك لا يعد ولا يحصي .

ويكفي أن نلتفت إلى اللغة التي تشيع في الصحافة الآن وفي سائر أجهزة الإعلام ، وفي مؤلفات أساتذة الجامعة في شتي التخصصات وفي كتابات المبدعين من الشعراء والروائيين والمسرحيين ، وفي الكتابات الأدبية بمستوياتها المختلفة ، لندرك علي الفور حجم المادة اللغوية الجديدة التي اتسع لها متن اللغة أو جسم اللغة بفضل التوسع المستمر في النحت والاشتقاق والقياس ، وبفضل عمليات الترجمة والتعريب ، وبفضل التوسع في المجاز اللغوي الذي هو فضاء الإبداع الذي يحلق فيه المبدعون وأصحاب الأساليب ويثرون ذخيرتنا من اللغة بكل ما هو جديد ومدهش ومثير .

كثير من صور التخلف والتراجع التي جمعها وسجلها الأستاذ شريف الشوباشي في كتابه ، تنطبق علي صاحب هذه اللغة - أي الإنسان الناطق بها - بأكثر مما تنطبق علي اللغة ذاتها . العيب فينا نحن أولا وأخيرا . نحن لم نتعلمها بالصورة التي تقيم بيننا وبينها جسرا من المحبة والانتماء ، بل شارك المنهج المدرسي السقيم والمعلم غير المكترث وطرق التدريس التي لم تتطور والجو التعليمي المفتقد في المدرسة - في حصة اللغة العربية وفي غيرها - في هشاشة علاقتنا مع اللغة - في الوقت الذي ابتكر فيه الآخرون - كما نشاهد في معاهدهم التي تعلم لغاتهم الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية وغيرها - الأساليب السمعية البصرية لتعلم اللغة - يستمع من خلالها المتعلم إلى النطق السليم للغة ثم يشاهد استخدامها الوظيفي في مواقف الحياة . فيصبح لتعلم اللغة معني ، من خلال إدراك استخداماتها الواقعية في حياة الناس . أما نحن فقد جعلنا من حصة اللغة العربية شبحا مخيفا اسمه النحو ، ثم جعلنا من النحو - علي اتساعه وشموله - شيئا ضيقا وصغيرا هو الإعراب . فأصبح درس اللغة العربية بالنسبة للنشء المتعلم يعني درسا في الإعراب . من غير استخدام النصوص الأدبية مدخلا حقيقيا لا ستكشاف الوظيفة النحوية والبلاغية في الكلام ، وهي الوظيفة التي اكتمل طرفاها نحوا وبلاغة ، صحة وجمالا فيما عرف بنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني .

ونحن الذين جعلنا من اللغة العربية . موضوعا للسخرية والتندر علي مستوي المجتمع كله . معلم اللغة العربية - اللغة القومية - مادة حية ومستمرة للفكاهة والهزء والسخرية في الأفلام والمسرحيات والتمثيليات والمسلسلات . هل أذكركم بفيلم غزل البنات وصورة نجيب الريحاني معلم اللغة العربية فيه ومسرحية السكرتير الفني وصورة فؤاد

المهندس معلم اللغة العربية فيها ؟ هل يوجد شعب علي وجه الأرض أو أمة من الأمم سخرت من معلم لغتها القومية كما فعلنا نحن وتمادينا مرة بعد مرة ؟ هل يستطيع شاب أن يجاهر أو يفاخر بإتقانه للغته وقدرته علي التعامل بها مع أقرانه أو زملائه واستخدامها في أي موقف من المواقف التي يمر بها ، من غير أن يعرضه هذا الحرص علي لغته الصحيحة للسخرية والاستهجان ؟ ثم ماذا نقول في مجتمع أصبحت العامية فيه تغني عن الفصحي ، ولا يجد الكبار أو الصغار غضاضة في استخدامها ، حتى في مواقف الدولة التي يتطلب الخطاب فيها لغة صحيحة ، ولا أقول فصيحة . فالفصاحة أمر بعيد المنال ، حسبنا أن يكون الكلام صحيحا . والجميع يترخصون في هذا ، وكأن هناك تواطؤا عام ا علي قضاء الأمور بأيسر وسيلة ، وبمنجاة من الأخطاء التي لا تحصي - لو أنهم التزموا باللغة الصحيحة ، وظهروا علي حقيقتهم ! أخشي ما أخشاه أن يظن الأستاذ شريف الشوباشي أني من دعاة الجمود ورفض التطور والتمسك بالقديم ، لمجرد دفاعي عن سيبويه . وسيبويه رمز للقاعدة ورمز للنظام . وبهدمهما تنعدم الصلة بيننا - كما يقول الأستاذ شريف نفسه - وبين تراث الأمة في العصور المختلفة . والذين أتيح لهم أن يتابعوا محاولات التجديد في متن اللغة - منذ رفاعة الطهطاوي - وحتى إلىوم ، مرورا بأصحاب الأساإلىب المتميزة من أمثال طه حسين وأحمد أمين وتوفيق الحكيم وأحمد حسن الزيات ويحيي حقي والمازني ومحمد التابعي ومدرسة مصطفي أمين في الكتابة الصحفية - وقد حظيت بالجلوس علي مقعده في مجمع اللغة العربية - وغير هؤلاء من كبار أصحاب الأساإلىب ، هذه المحاولات التجديدية والتطويرية كلها شاركت في صنع لغة عربية جديدة ، اتسعت لمعارف العصر في العلوم والتكنولوجيا والفنون والآداب ، وحوت ألوفا مؤلفة من ألفاظ الحضارة ومصطلحات العلوم ، واخترقت حاجز الأمية عند الملايين الذين استمعوا ويستمعون إلىها ، فيفهمون ويتابعون ويتواصلون .

إن هذا العنوان المثير الذي وضعه الأستاذ شريف الشوباشي لكتابه لتحيا اللغة العربية . . يسقط سيبويه هو في رأيي عنوان مقصود . فقد نجح في إثارة الاهتمام وجذب الانتباه ، وصنع مناخ من الحوار ، في قضية آن أوان طرحها علي المستوي القومي . لا أمل في وزارة التعليم ، فهي وحدها عاجزة عن الإصلاح . ولا أمل في جامعاتنا فهي ليست مختصة بتعليم اللغة العربية ، وإنما مكان هذا التعليم هو المدرسة . أما الجامعة فللتذوق الأدبي واللغوي وتحليل النصوص والقراءات والدراسات النقدية والبلاغية المقارنة . واللغة العربية أخطر من أن تترك للغويين وحدهم . لذا ، ينبغي أن تكون هم الجميع ، وشريف الشوباشي بهذا المعني مثال مضئ لمن ليس تخصصه العربية لكنه يدلي بدلوه باعتبارها قضية الجميع . وهي بالفعل قضية الجميع . لكن المشكلة أننا أصبحنا نتناول الأمور من الخارج ، ونكتفي بقشرتها الخارجية ، ونصدر أحكاما سريعة تصادر علي

الدراسـة والبحـث والتأمـل . ونقـف في وجـه مـن يريـدون تحريـك الراكـد والآسـن ، وخلخلـة الثابت والمستقر وإضاءة العقول التي عشش فيها الظلام .

ولقد نجح شريف الشوباشي بكتابه الجميل المثير في هذا كله .

جمال العربية دفاع عن الهوية

بقلم: فاروق شوشة

تحت هذا العنوان كان اللقاء الذي سعدت به مع جمهور متميز ، يضم نخبة من المفكرين والمبدعين ورجال الإعلام في دولة الإمارات ، بدعوة من مركز زايد للتنسيق والمتابعة في أبو ظبي ، وأدار اللقاء والحوار المفكر والشاعر والكاتب الروائي محمد خليفة المدير التنفيذي للمركز ، الذي يتبع جامعة الدول العربية ويحظي برعاية رئيسه الشيخ سلطان بن زايد نائب رئيس الوزراء .

كانت سعادتي ـ كما قلت في مقال الأسبوع الماضي ـ تعود إلى أسباب عدة . أولها أن هذا المركز ـ من بين كل المراكز التابعة للجامعة العربية ـ قد نجح بفضل نشاطه إلى ومي ، والعمل الدءوب لرئيسه ومديره التنفيذي وأسرة العمل فيه ، أن يكون شوكة في جنب الدوائر الصهيونية والاستعمارية ، التي لم تتورع عن شن حرب شعواء عليه بحجة أنه في نشاطه وتوجهاته معاد للسامية ـ وكأن العرب ليسوا ساميين ـ مع أن الرسالة التي يستهدفها المركز لا تخرج عن إشاعة روح الحوار الإنساني وتحديد الاتجاه المناسب للخطاب القومي في اللحظة التاريخية المناسبة . ولا أدل علي هذا التوجه من استضافة المركز لشخصيات عرفت بأنها من أصوات العقل والسلام والحرص علي التقارب الإنساني من أمثال الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر ونائب الرئيس الأمريكي السابق آل جور ووزير الخارجية الأمريكية الأسبق جيمس بيكر وكورت فالدهايم وغيرهم . ثاني هذه الأسباب أن موضوع اللقاء يجمع بين قطبين شديدي الأهمية هما جمال العربية من ناحية والهوية من ناحية أخري . وإذا كانت الهوية في جوهرها تعني الشخصية القومية والمكونات والقسمات والروح والتوجه والانتماء والموروث الحضاري والثقافي ، فإن قضية جمال العربية تتطلب إنقاذا له من الوقوع في أسر مفهوم البلاغة العربية كما يطرحها تراثنا العربي ، في دوائر المعاني والبيان والفصاحة والبديع . وهو المفهوم الذي تشيعه هذه المنظومة البلاغية تشبيها واستعارة وإيجازا ومساواة وكنايات ورموزا وملاءمة لمقتضي الحال ومراعاة للموقف والسياق ، ويبلغ هذا المفهوم أنصع تجلياته في فكرة النظم التي يحلو للبعض أن يطلق عليها نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني .

نقطة البدء في الوعي المعاصر بجمال العربية ، أن ننطلق من مواضعات علم جديد هو علم الأسلوب ، يفيد من نظرية النظم عند عبد القاهر ـ التي طبقها علي إعجاز القرآن ـ وهي النظرية التي تحلق بجناح الصحة أو الصواب الذي هو خلاصة علوم اللغة وحسن تركيب الكلام وجناح الجمال الذي هو خلاصة علوم البلاغة . سرعان مايتجاوز علم الأسلوب هذا الأفق ، باحثا في سياق الكلام كله وليس في جزئية من جزئياته ،

متناولا هندسة تركيب الكلام وتنامي صيغ التعبير فيه وتآزرها ، وتكامل الفكرة مع ثوبها اللغوي وصولا إلى معني الإبلاغ الجميل أو إنتاج الدلالة المدهشة .

الطريف أن التأمل السريع لجدلية العلاقة بين الجمال والهوية ، يكشف عن الجذور البعيدة في مسيرة الإبداع العربي منذ كان زهير بن أبي سلمي يهتف بقوله :

وكائن تري من صامت لك معجب
زيادته أو نقصه في التكلم
لسان الفتي نصف ، ونصف فؤاده
فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

والمقولة المأثورة للعربي القديم : المرء بأصغريه : قلبه ولسانه . وقول الرسول الكريم إن من البيان لسحرا . فاستكمال الفتي أو المرء لمقومات هويته لا يتحقق إلا باكتمال اللسان الذي هو نصف قدره وقيمته ، والذي هو مصدر السحر الساري في بيانه وفصاحته وإبداعه . أما النصف الثاني فهو فؤاده أي شجاعته ويقينه وثباته وانتماؤه . هنا نحن أمام مستويين أوليين من مستويات الانتماء : انتماء الفتي لنفسه أولا ـ في سياق مفاخر القوم واتصالها المستمر ـ هذا الانتماء هو قاعدة فخره وزهوه وشعوره بالامتياز والتفرد ، ثم انتماؤه للفرع الذهبي في قومه ، محققا لهويته بين الآخرين ، وهوية قومه في مواجهة العالم الخارجي كله .

وهو حين يدافع عن قيمه وموروثه وشرفه وعرضه وأرضه وحقيقته ، عن يقينه ، فإنما يدافع عن هويته بهذا اللسان الذي أفصح عنه ودل عليه ووضعه في موضعه الأسمي بين قومه . نحن إذن أمام لسان مبين وفؤاد رابط الجأش . أولهما متصل بالجمال : جمال العربية ، وثانيهما مستودع لليقين والثبات .

هذا إلى قين نطالعه في معلقة عمرو بن كلثوم وهو يكرره ويؤكده ويضغط عليه ثلاث مرات في ثلاثة مواقف كاشفة ولافتة ، حين يقول :

قفي قبل التفرق ياظعينا
نخبرك إلى قين وتخبرينا
ويقول : أبا هند فلا تعجل علينا
وأنظرنا نخبرك إلى قينا
ويقول : إلى كم يابني بكر إلى كم
ألما تعرفوا منا إلى قينا

وليس هذا إلى قين الذي يكرره ثلاث مرات ، إلا هوية انتسابه إلى قبيلته تغلب ، التي يتمسك بها ويعلن عنها ، والحقيقة الراسخة والمجد الزائع والمشتهر والمعلوم

للجميع . تري ، هل كان ابن الرومي يمارس حالة من حالات الدفاع المجيد عن الهوية حين قال:

ولي وطن إلى ت ألا أبيعه
وألا أري غيري له الدهر مالكا
عهدت به شرخ الشباب ، ونعمة
كنعمة قوم أصبحوا في ظلالكا
وحبب أوطان الرجال إلى همو
مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم
عهود الصبا فيها ، فحنوا لذلكا

هنا جمال مرتبط بالقيمة والمعني والدلالة ، وهو جمال الهوية حين تصبح الهوية ـ في هذا المستوي من القول ـ دفاعا عن وطن في صورة يمتلك ، أغلي مافيه أنه من أوطان الرجال ، وهو تناول يأخذ بنا إلى بيتي الشاعر القديم:

بلاد ألفناها علي كل حالة
وقد يؤلف الشئ الذي ليس بالحسن
وتستعذب الأرض التي لا هوي بها
ولاماؤها عذب ، ولكنها وطن !

أما الأفق المغاير في تجليات جمال العربية ، فهو الذي يأخذنا إلى عصرية اللغة ، وإلي جمالها الوظيفي والإبداعي ، في كونها قادرة علي الوفاء باحتياجات العصر ، متسعة لكل جديد فيه من ألفاظ الحضارة ـ أي ألفاظ الحياة العامة الجديدة والمستحدثة ـ ومصطلحات العلوم فضلا عن فنون الإبداع المتنامي والمتفجر ـ هنا يصبح للجمال معني مغاير وفضاء مختلف . إنه القدرة علي استيعاب الجديد وهضمه وتمثله . من منطلق أن هذه العربية المعاصرة . هي السجل المدون والمكتوب والمنطوق لعلوم العصر الحديث ومعارفه ، تتنوع مجالاتها بتنوع حضارة المجتمع ومعارفه وعلومه وفنونه . الجمال هنا يتجلي في مفهوم وظيفي وفني وحقول دلالية مغايرة . إنه جمال القدرة علي ضخ الآلاف من المفردات والتعابير والتراكيب التي تتطلبها حياتنا العربية الجديدة ، المتلئة بالمعرفة الانسانية يوما بعد يوم ، ولانستطيع ملاحقتها ـ مهما حاولنا ـ بأية صورة من الصور . مجرد التذكير ببعض هذا الجديد المتدفق في شرايين العربية ، واتساعها له ، يكشف لنا عن جمال من طراز فريد هو جمال الاتساع والاستيعاب والأخذ والتحدي ، كما أنه ـ في الوقت نفسه ـ تأكيد الهوية اللغوية والدفاع عنها .

ذلك أن فتح باب الاجتهاد في اللغة قياسا ونحتا واشتقاقا وتعريبا ومجازا هو سد للثغرات المعجمية ، حين نبحث عن كلمة فلا نجدها ، ونضطر تحت ضغط الحاجة الملحة إلى القبول بالكلمة الأجنبية . هنا يصبح جمال العربية - في تجلياته الوظيفية العصرية - دفاعا عن عروبة القلم واللسان . عن الهوية التي لم تتزعزع ولم تضع ولم تتلاش في هذا الفيض الهائل مما تضخه الكيانات العظمي من ثورة معلوماتية ومصطلحات علمية وألفاظ حضارة في شتي فروع المعرفة .

نحن إذن - بفتح باب الاجتهاد في اللغة وجمالها علي مصراعيه - نقتحم ونشارك في وليمة العصر ، غير هيابين ولا وجلين ، ممارسين لفعل الجمال . جمال قدرة اللغة علي تأكيد الهوية والدفاع عنها ، حتي لا نعيش الحال التي صورها المتنبي في قصيدته عن شعب بؤان وهو يتنقل في مكان وزمان اقتحمتهما العجمة ، وابتعد عنهما فضاء العربية ويقول:

ولكن الفتي العربي فيها
غريب الوجه واليد واللسان

هذا المستوي من جمال العربية ، وهذا الأفق الذي ننشده ، يصنعه ويبدعه جنود مجهولون هم صفوة الكتاب والعلماء والمبدعين والعاملين في الصحافة والإذاعتين المسموعة والمرئية وعلماء المجامع اللغوية والمترجمين ، العاكفين علي توسيع إهاب العربية ، وجعلها أكثر قدرة علي الوفاء باحتياجات العصر وعلي الدفاع عن الهوية والبعد عن الذوبان في خضم كل ماهو أجنبي ودخيل .

لقد علمنا تراث العربية ، أن من بين قيمه الكبري والغالية الاعتزاز بالعلم وصوت هيبة العلماء والبحث الجاد عن المعرفة ، ألم يقل القاضي الجرجاني:

ولم أقض حق العلم ، إن كان كلما
بدا مطمع ، صيرته لي سلما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي
لأخدم من لا قيت ، لكن لا خدما
أأشقي به غرسا ، وأجنيه ذلة
إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه ، فهانوا ، ودنسوا
محياه بالأطماع حتي تجهما

من هنا ندرك أن العلم انتماء ، وأن صيانته وتعظيمه في النفس هوية ، وأن هذه الأمة بجماليات إبداعها في لغتها الجميلة ، وجماليات اقتحامها في لغتها العصرية الوظيفية ، تدافع عن هذه الهوية في دائرة النفس: وثوقا واتكاء واعتزازا وتمسكا وتشبثا وصيانة ، ودائرة الآخرين: حين يصبح السياق ومقتضي الحال والموقف متطلبا للتحديد والتصنيف ، والتعامل الحضاري مع الآخر علي قدم المساواة ، ومن منطلق الندية والقدرة علي اللحاق والمشاركة .

كما علمنا تراثنا العربية قيمة المشاركة واطراح الأنانية ونبذها والعمل من اجل الاخرين ، فلا معني لسعادة الفرد معزولة ومنتزعة عن سعادة المجموع . ألم يقل أبو العلاء المصري:

فلا هطلت علي ولا بأرضي
سحائب ليس تنتظم البلادا

الهوية هنا رحم أمومة ، تواصل وأبوة ، اتحاد واكتمال . إنها اللغة التي ترجع كلا من لفظتي الأم والأمة إلى جذر لغوي واحد هو الفعل: أم يؤم . ومنه جاء الأم والأمومة والأمة والإمامة والإمام والأم (أي القصد والاتجاه) وكلها مفردات هوية ، وأطر انتماء وإنتساب .

فما الذي يعوقنا إلى وم عن أن نفجر في هذا الفضاء الإبداعي الرحب - فضاء جمال العربية - كل ما يثري الجمال ويعمقه ويضيف إلى ه ، من فضاءات الحرية ، حيث لا قيود ولاسدود ولا أسوار . وإنما إبداع حر طليق يأخذ بالإنسان العربي والمبدع العربي إلى آفاق النور الكاشف وأعماق الوعي المغير وتجليات العروة الوثقي التي تشد العربي إلى العربي برباط وثيق هو لغته الجميلة ، وكل ما يضيف إلى فضاءات الحرف العربي مما يضيف من صور تشكيل هذا الجمال فنيا وإبداعيا ، وطنيا وقوميا وإنسانيا ، متجاوزا الأطر التقليدية التي حبسته طويلا في زخرف البلاغة ووشي البديع ، منطلقا إلى جمال أبقي وأعظم تأثيرا . وأن نقوم - نحن الكتاب والعلماء والأدباء والمبدعين والإعلاميين - بتوسيع دائرة هذا الجمال الوظيفي للغة في تجلياتها المعاصرة ، لغة للعلم وللمعرفة الجديدة في عصر الثورة المعلوماتية والثورة الاتصالية والثورة التكنولوجية أحدث ثورات هذا الزمان وأبعدها خطرا وتأثيرا . من أجل إبداع جديد حر ، وإنسان عربي مزود بالوعي والانتماء ، يدرك أنه من خلال مخاض الآلام والأوجاع لا بد سيولد فجر جديد ، ينسف البغي والتسلط والعدوان . ويحقق العدل والحرية والسلام .

كان مجمعاً لغوياً يسير على قدمين

بقلم : فاروق شوشة

ماالذي يستطيع أن يقوله مثلي عند فقد صديق حميم ، صحبته قرابة نصف قرن ، منذ عهد طلب العلم في الجامعة ،

ـــ وكنت أسبقه في دار العلوم بعامين حتي تجاورنا اخيرا منذ دخولنا مجمع اللغة العربية معا ، في توقيت واحد ، طيلة ثلاث سنوات في جلسات المجمع . لم أرمنه إلا مايود الصديق من صديقه الحقيقي ويرضاه . لم يشب هذه الصداقة الحميمة - التي بدأت منذ منتصف الخمسينيات - مايكدرها في يوم من الأيام ، ولم يرنقها مايصيب أحوال الناس من فتور وسأم ، أو من تورم للذات وإحساس بأن طرفا من الأطراف هو مركز العالم وغايته ، بل كانت هذه الصداقة مثالا لكل ماهو أصيل وحقيقي ، يزداد عتقا وأصالة يوما بعد يوما ، وفي مجمع اللغة العربية ، جمعتنا الرسالة المشتركة : عشق اللغة العربية ، والغيرة عليها ، والحزن لما أصابها علي ألسنة الناس وأقلامهم ، والتفكير المستمر فيما ينبغي أن يكون عليه حال المجمع تطويرا وقدرة علي المزيد من الانجاز ، واقترابا أكثر من روح العصر ومشكلات الواقع اللغوي . وصديقي الحميم العالم اللغوي الدكتور أحمد مختار عمر هو هو ، لا يتغير ولايتبدل ، شديد الانضباط كبندول الساعة ، تميزه الجدة والرصانة والمبادرة ، والوداعة والبشاشة والمحبة ، واللسان العف المترفع عن الصغائر والصغار .

ومنذ عرفته لا ول مرة - ولم يكن قد بلغ العشرين بعد - كانت رسائله شبه إلى ومية إلى العديد من الصحف السيارة - تصويبا لخطأ ، أو تصحيحا لمعلومة ، أو تعليقا علي رأي قيل - تشير إلى استعداده اللغوي المبكر ، وفطرته السليمة ، وهو يتابع كل ماينشر بعين يقظة وحس غيور ، امتدادا لما كان يصنعه والده الأستاذ عبد الحميد عمر وكان من رجال التربية والتعليم - تملؤه محبة العربية والحرص عليها والدعوة إلى التماس الصواب فيها والبعد عن الخطل فيما يكتب ويقال ويسمع ، ولم تتوقف رسائله وتعقيباته وتصويباته يبعث بها إلى الكتاب والصحفيين والإذاعيين - فضلا عن نشر كثير منها في الصحف - حتي يوم رحيله ، وهكذا كان ابنه أحمد مختار - وهذا هو اسمه المركب وحده ـــ غصنا مورقا في شجرة كريمة ، هيئ له من حسن الرعاية ، والتنشئة والتوجيه ، ووجود القدوة والنموذج - متمثلا في أب يتعشق العربية ويمنحها كل وقته واهتمامه - ماجعله يخطو خطواته العلمية في دأب وثقة لا يرضي لنفسه إلا بأن يكون الأول في كل شيء . بدءا من حصوله علي الليسانس الممتازة من كلية دار العلوم عام ثمانية وخمسين ، ثم علي درجة الماجستير في علم اللغة من دار العلوم أيضا ، وإيفاده إلى انجلترا للحصول

علي درجة الدكتوراه في علم اللغة من جامعة كمبردج - التي سيظل مرتبطا بمكتبتها ، يقصدها في صيف كل عام ، ليتزود بالجديد ويتابع حركة العلوم اللغوية في انجلترا وفي العالم كله ، ويجمع مادته العلمية اللازمة لدراساته الجديدة ، وأبحاثه المتتابعة - ويعود بعد الدكتوراة من جامعة كمبردج ليتدرج في سلم العمل الجامعي . وليصبح في سنوات معدودة ، واحدا من الأساتذة اللامعين في دار العلوم وفي خارجها ، ثم يمضي به المسار إلى كلية التربية في جامعة طرابلس بليبيا ، وكلية الآداب في جامعة الكويت ، ويعود إلى دار العلوم وكيلا للكلية العتيدة وأستاذا متفرغا بها .

لم يكن أحمد مختار عمر - الذي أكتب عنه في ذكري الأربعين لرحيله - مجرد أستاذ جامعي لعلم اللغة ، لكنه كان حركة علمية دائبة تنشر وهجها في كل مكان . فهو مقرر لجنة المعجم العربي الحديث بالصندوق العربي للإنماء الاقتصادي ، وهو مستشار لكثير من الهيئات والمؤسسات المصرية والعربية من بينها لجنة مدخل قاموس القرآن الكريم بمؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، ولجنة المعجم العربي الأساسي بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وهيئة معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين ، والهيئة الاستشارية لمعهد المخطوطات العربية وقسم المعاجم بمؤسسة سطور ولجنة الدراسات الأدبية واللغوية بالمجلس الأعلي للثقافة . وكان من ثمار هذه الرحلة الحافلة حصوله علي جائزة التفوق العلمي من المكتب الدائم لتنسيق التعريب بالرباط عام اثنين وسبعين ، وجائزة مجمع اللغة العربية في تحقيق النصوص عام تسعة وسبعين ، ووسام العراق وجائزة في الدراسات اللغوية عام تسعة وثمانين . وحين توجت الرحلة الثرية باختياره عضوا في مجمع اللغة العربية تم اختياره مقررا للجنة الأصول ، كان ذلك بمثابة الفصل الأخير في كتاب حياته العلمي واللغوي الكاشف عن عقليته المتمسكة بالتيسير والتطوير ، المتابعة لما قام به السلف المجمعي العظيم من جهود ومنجزات في مجال أصول اللغة من اشتقاق ونحت وقياس ومجاز ، في محاولة دائبة لتطوير اللغة وإثرائها وتنميتها وتطويعها لمطالب العلوم الحديثة والحضارة . وهي جهود توضح كيف أن البحوث اللغوية المتعمقة تؤدي إلى أقيسة جديدة من شأنها الوفاء بمتطلبات حياتنا اللغوية والثقافية المعاصرة .

أما منهج الدكتور أحمد مختار عمر في دراسة الظاهرة اللغوية ، فهو منهج من يأخذ من الحياة ماهو مقروء ومسموع ويجعله ميدانا لدراسته . ولست أنسي مشاركته الأخيرة في المؤتمر الأول لعلم اللغة الذي أقامه قسم علم اللغة بكلية دار العلوم في ديسمبر الماضي ، وكان بحثه إلى المؤتمر بعنوان من الآثار الإيجابية للغة الإعلام: الاستجابة الآنية لا حتياجات اللغة وسد فجواتها المعجمية ، وهو يشير إلى نماذج أمكن رصدها من الألفاظ والعبارات الجديدة التي يعود الفضل في وجودها وانتشارها إلى أجهزة الإعلام ، بالإضافة إلى عدد من الأقيسة التي توسعت هذه الأجهزة في استخدامها . فمن الكلمات

والتعبيرات: الخصخصة ، والاستنساخ ، والعقوبات الذكية ، والقتل الرحيم ، وغسيل الأموال ، والبوت (بمعني حق البناء والتشييد والانتفاع مدة معينة ثم الرد إلى الحكومة) والناتج المحلي ، والتضخم ، واليورانيوم المستنفد ، والمنضب ، والمخصب ، وعالمية الثقافة ، والعولمة ، والكوكبية ، وعقدة الخواجة ، ودول الطوق ، وتجميد الأموال ، وجماعات الضغط ، واقتصاد السوق ، والإغراق الاقتصادي ، والنشطاء (جمع ناشط) والجمرة الخبيثة ، وبالنسبة للأقيسة التي استخدمتها لغة الإعلام يشير الدكتور أحمد مختار إلى الإكثار من توليد أفعال علي وزن فعل أو فوعل أو فعلن مثل: صوب المسألة ، ودول القضية ، وسيل الدموع ، وتجذير الأفكار ، وتفويج الحجاج - أي جعلهم أفواجا - والإكثار من صوغ المصدر الصناعي من كل اسم جامد أو مشتق أو من المصادر نفسها مثل: الندية ، الحتمية ، العفوية ، العقلانية ، الإشكالية ، التلقائية ومثل:

التبادلية والتعادلية والتفاوضية والظرف ، مثل: التحتية ، الفوقية ، الخلفية ، الدونية ، الوسطية ، واسم الفاعل مثل: الجاذبية ، العائلية ، الفاعلية ، الهامشية . ومن الجموع مثل ، الجماهيرية ، الحدودية ، الرجالية ، الشبابية ، العملياتية ، المعلوماتية . ومن الضمائر مثل: الأنانية والهوية ومثل النسب إلى ألفاظ الجموع: درس أخلاقي ، اتحاد طلابي ، بحث وثائقي ، تدريب مهني ، مدن سواحلية ، مطلب جماهيري ، صوت ملائكي .

ولم ينس الفقيد الكريم - في ختام بحثه الميداني البديع - أن يوجه تحية للجنود المجهولين الذين يقبعون خلف الكواليس في الصحافة والإذاعة والتليفزيون - يسابقون الزمن في ملاحقة آخر المستجدات علي الساحتين المحلية والعالمية ، يجتهدون في التعبير عن متطلبات العصر ، ويتولون الترجمة من لغة المرسل إلى لغة المتلقي في وقت قياسي - إنهم يشكلون ورشة عمل تطرق الحديد وهوساخن ، وتطرح اجتهاداتها في اللحظة المناسبة ، ويسدون فراغات ماكان يصح أن تترك لا هل اللغة ، أو المجامع اللغوية ، يتداولون في أمرها فيختلفون ولايتفقون وقد كانت مرجعية هؤلاء المبدعين في لغة الإعلام ذوقهم اللغوي المتميز وحساسيتهم التعبيرية الفائقة ، واستغلالهم قدرات اللغة وطاقاتها الكامنة ، واستفادتهم من عبقريتها في اشتقاق الكلمات ، وتوليد آلاف الجمل والعبارات ، فكان التوفيق حليفهم .

هذا المنهج الميداني في دراسة الظواهر اللغوية ، والعكوف علي تأملها في إطار الواقع اللغوي والحياتي ، هو الذي حدا بالدكتور أحمد مختار عمر إلى انجاز دراساته وأبحاثه التي لم يسبق إلى ها عن العربية الصحيحة وهي عنوان كتابه الذي أصدره عام ١٩٨١ ، تشغله ضرورة وجود دليل يستعين به الباحث إلى الصواب اللغوي متسائلا: هل

اللغـة العربيـة الـصحيحة ـ ولا أقـول الفـصحي ـ لغـة فـوق مـستوي البـشر ؟ أهـي عـصية لا يقدر علي الـتمكن منهـا والـسيطرة عليهـا إلا أولـو العـزم ؟ وكـل ماكـان يطمـح إلى ه ـ مـن خـلال بحثـه الميـداني ـ هـو أن تـصبح هـذه العربيـة الـصحيحة لغـة المـثقفين في مـواقفهم الجـادة . في أحـاديثهم وحـواراتهم ومحاضـراتهم ، في اجتماعـاتهم ـ ولقـاءاتهم ، في مجالـسهم ونـدواتهم ، وعلي ألسنتهم وأقلامهم .

لكـن ، كيـف يكـون الطريـق إلى تحقيـق مايبـدو وكأنـه المـستحيل ؟ يجيـب بقولـه : إن ذلـك لـن يكـون إلا إذا تغـير أسـلوبنا في تعلـيم اللغـة العربيـة وتعلمهـا ، واتخـذنا خطـوات جريئـة في سـبيل تيـسير اللغـة العربيـة وربطهـا بالحيـاة ، وقبلنـا الكـثير مـن التعـابير والألفـاظ والأسـاليب المـستحدثة ، مـادام لهـا وجـه في العربيـة تخـرج عليـه . وأخـيرا ، إذا اسـتطعنا أن نـثير الحـافز الشخـصي في نفـوس التلاميـذ ، وأمكننـا أن نبعـث فـيهم روح الغـيرة علـي اللغة ، حتي يعتبروها جزءا من كيانهم ، ومقوما لعروبتهم وأساسا لدينهم .

وفي كتابـه ، أخطـاء اللغـة العربيـة المعاصـرة عنـد الكتـاب والإذاعـيين الـصادر عـام ١٩٩١ ، يـشغله ولايفارقـه إحـساسه العميـق بالمـسئولية تجـاه مايحـدث في الـساحة اللغويـة ، وهو يحـاول في إيجـاز ووضـوح شـديدين أن يأخـذ بيـد مـن ينـشدون الـصواب مـن أصـحاب القلـم واللـسان ، مهمـا كـان تخصـصهم أو تنوعـت اهتمامـاتهم ، متميـزا بجمعـه الميـداني لمـادة الكتـاب وأمثلتـه ، اللغويـة ، وجداولـه التلخيـصية وتدريباتـه النوعيـة فـضلا عـن مـادة تدريبيـة عـام ة ، مـستمدا أمثلتـه وتعبيراتـه في كـل تدريباتـه ، مـن اللغـة الفـصحي الحيـة الـتي نـستعملها إلى وم ، ولـيس مـن لغـة الـتراث ، أو كتـب الأخطـاء الـشائعة أو التـصويب اللغوي .

ويغـامر العـالم اللغـوي الـدكتور أحمـد مختـار عمـر في مجـال لم يـسبق إلى ه مـن خـلال كتابـه ، اللغـة واللـون ، وتـشي فـصول كتابـه بـالمنهج الـذي اتبعـه والقـضايا الـتي شـغلته بـدءا مـن تـسمية الألـوان عـبر التـاريخ ، ثـم الألفـاظ الأساسـية للألـوان ، والألفـاظ الـشائعة للألـوان ، وألفـاظ الألـوان والتعـبيرات اللغويـة ، والمعـايير القياسـية للألـوان ، والألـوان والجمـال والألـوان والمنفعـة ، والألـوان والمعتقـدات ، والألـوان والأصـوات ، والألـوان والتحليـل النفـسي . هـي إذن أول دراسـة في العربيـة تجمـع بـين اللـون واللغـة تلبيـة لحاجـة اللغـوي المتخصص والمثقف العام .

وعنـدما أصـدر كتابـه ، اللغـة واخـتلاف الجنـسين عـام سـتة وتـسعين ، كـان أول كتـاب عربـي يتنـاول قـضية العلاقـة بـين اللغـة والجـنس مـن جـانبين متكـاملين همـا نظـرة اللغـة إلى الجـنس وكيفيـة تعاملـها مـع ظـاهرة التـذكير والتأنيـث مـن ناحيـة ، وتعامـل الجـنس مـع اللغـة والخـصائص الـتي تميـز طريقـة كـل جـنس في هـذا التعامـل مـن ناحيـة أخـري ، مـن هنـا كـان تعـرض الكتـاب لا هـم الحركـات النـسائية العالميـة ، ورصـد آثارهـا المختلفـة علـي الجانـب

اللغـوي ومحاولاتهـا المتكـررة لا يجـاد لغـة متوازنـة جنـسيا ، غـير متحيـزة ذكوريـا . هـذه الدراسـة المبتكـرة تـرد التنوعـات اللغويـة ذات العلاقـة بجـنس المـتكلم والاختلافـات الموجـودة في كـلام الرجـال والنـساء إلى جملـة مـن العوامـل الفـسيولوجية والاجتماعيـة والثقافيـة ، وتـبين ردود الأفعـال المتفاوتـة للمجتمعـات الغربيـة تجـاه ظهـور المـرأة متحدثـة عـام ة في الإذاعـة ثـم التليفزيون بدءا من عشرينيات القرن الماضي حتي الآن .

ويجيـب الكتـاب عـن التـساؤل الغائـب: هـل هنـاك لغـة نـسائية ؟ في مقابـل التـساؤل المطـروح دائمـا ، هـل هنـاك أدب نـسائي ؟ مـن خـلال دراسـته لتعامـل الجـنس مـع اللغـة صوتيا ونطقيا ولفظيا وتعبيرا وتركيبا ونحويا وأسلوبيا .

لايمكـن الحـديث عـن أحمـد مختـار عمـر وعطائـه الـضخم ، وميراثـه العلمـي الكـبير ، مـن غـير إشـارة إلى اهتمامـه بالمعـاجم ، وعكوفـه علـي إنجـاز عـدد منهـا ، أهمهـا جميعـا المكنـز الكـبير وهـو معجـم شـامل للمجـالات والمترادفـات والمتـضادات . أوثـر أن أتـرك الحـديث عـن هـذا الجانـب في اهتمامـات فقيـدنا إلى حـديث قـادم ، حـتي تكتمـل جوانـب الـصورة ، بعد أن أصـبحنا نتلفـت مـن حولنـا فـلا نجـده . لا نجـد الإنـسان الجميـل المتلـيء بـشرا وإقبـالا ومـودة ، والعـالم الجـاد الـساعي في دأب لا يعـرف الكلـل إلى انجـاز عملـه وحمـل أمانتـه ومـسئوليته ، في الجامعـة والمجمـع ومراكـز البحـث اللغـوي ، والـصديق الـصدوق الـذي يعـرف للـصداقة معناهـا الإنـساني الرفيـع ، لم يكـن أحمـد مختـار عمـر مجـرد عـالم لغـوي متميز أو عـضو بـارز في مجمـع الخالـدين ، لقـد كـان بمفـرده مجمعـا حيـا يـسير علـي قـدمين . وقـد ترجـل الفـارس عـن صـهوة جـواده تاركـا قلمـه وأوراقـه وميراثـه الـضخم مـن العلـم والخـبرة والبحث والإنجاز ، وذكراه العطرة الباقية دوما علي تعاقب الأزمان .

مجمعنا والتنمية اللغوية

بقلم : فاروق شوشة

حين اقترحت علي العالم اللغوي الكبير الدكتور كمال بشر ــ الأمين العام لمجمع اللغة العربية ــ موضوع التنمية اللغوية ليكون عنوان المؤتمر السنوي للمجمع في هذا العام ، تدور من حوله أبحاث المؤتمر وحواراته ومناقشاته ، لم أدهش لسرعة استجابته للاقتراح ، والقيام بعرضه علي مجلس المجمع الذي زكي هذا الاختيار ، باعتباره موضوع الساعة في حياتنا اللغوية المعاصرة ، ولأنه ــ بطبيعته ــ موضوع عام يتسع للعديد من الموضوعات الفرعية ، والروافد الكثيرة التي تصب كلها فيه .

نعم ، لقد آن الأوان لتصبح التنمية اللغوية في كل مجتمعاتنا العربية شعارا ومطلبا وضرورة حياة ، بالقدر الذي تهتم فيه هذه المجتمعات ــ تحت ضغوط داخلية وخارجية ــ بألوان التنمية التقليدية : اجتماعية وسياسية واقتصادية ، وهو شعار يعني طرحه فتح أبو اب الاجتهاد إلى أقصي حد في قضايا اللغة الأساسية من قياس ونحت واشتقاق وتوليد وتعريب وترجمة ، عكوفا علي متن اللغة ومفرداتها وتراكيبها ، واهتماما بلهجاتها وأصواتها ومعاجمها وتيسير نحوها وقواعدها ، امتدادا إلى تطوير مناهج تعليمها وتعلمها ــ من خلال تطوير النظام التعليمي كله ــ بحيث تصبح هذه اللغة وافية بمطالب العصر واحتياجاته ، متسعة لعلومه وفنونه وآدابه ، قادرة علي الاتساع لا لفاظ الحضارة الحديثة ــ الشائعة والمتداولة في الحياة العامة ــ ومصطلحات العلوم .

هذه التنمية اللغوية ــ في معناها العام ــ متوقفة علي ما تقوم به المجتمعات العربية ــ قبل كل شيء ــ من جهد حقيقي فعال لمحو عار الأمية ــ إذ من المضحك والمبكي معا أن نتكلم عن علاقة حميمة مع اللغة ، وقدرة علي استخدامها استخداما صحيحا في مجالات الحياة وأغراضها ومواقفها المختلفة في مجتمع يعاني من سلبيات الأمية ــ في أبسط مستوياتها الهجائية ــ فضلا عن الأمية الثقافية التي تنخر في بنيان المجتمع ومؤسساته المختلفة ، وبخاصة ما يتصل منها بمجال التوعية والإشادة والإعلام والتثقيف والتوجيه ــ عندئذ تصبح الأمية الثقافية بدورها عائقا حياتيا ولغويا ومعرفيا يفوق آثار الأمية الهجائية في خطره وتفريغه للوطن من عطاء قطاع عريض من أبنائه ، وقدرتهم علي الإسهام الحقيقي ، وإحداث التنوير المطلوب .

الموضوع إذن ــ في أبحاث المجمعيين المصريين والعرب ومناقشاتهم كما حدث بالفعل منذ بدء المؤتمر السنوي للمجمع يوم الاثنين الماضي ــ يفضي إلى دائرة واسعة ، ومتداخلة من القضايا الجديرة بالاهتمام . منها ما يتصل بالواقع اللغوي في أجهزة الإعلام ، وما تقوم به هذه الأجهزة المختلفة من صحافة وإذاعة وتليفزيون من دور كبير في إثراء

هذا الواقع وتحقيق مزيد من التنمية اللغوية . وهو الموضوع الذي عالجه المجمع باستفاضة في مؤتمره العام الماضي لكنه ـــ في هذا العام ـــ يصبح جزءا من سياق أعم وأشمل ـــ ومنها ما يتصل بالجهود المجمعية ـــ التي سبقت الإشارة إلى مجالاتها ـــ خاصة مجالي متن اللغة والمعاجم اللغوية والعلمية . ومنها ما يتصل بضرورة القيام بجمع لغوي جديد ، على غرار ما صنعه العالم اللغوي الخليل بن أحمد في القرن الثاني الهجري ، وكان أساسا لوضع أول معجم عربي هو معجم العين ، الذي كان بداية للعديد من المعاجم اللغوية فيما بعد ـــ هذا المجمع الميداني الجديد للغة هو الذي سيجعلنا على وعي حقيقي بما حدث للغة من تطور ، وما اكتسبته من ثروة جديدة هائلة من المفردات والتراكيب ، وما اتسعت له ألفاظها وتعابيرها من دلالات ، وما دخل في جسمها أو متنها نتيجة للترجمة والتعريب ، والتوسع في النحت والاشتقاق والقياس . وهو الخطوة الأولى لعمل معجم عصري ، لا تكون مادته ـــ في جوهرها ـــ تكرارا لمواد منتزعة من معاجم قديمة ، كما يحدث الآن في المعجم الكبير الذي يعكف عليه المجمع منذ سنوات طويلة ، أنجز خلالها ستة أجزاء ، ولا يزال الأمر يتطلب عشرات السنوات للانتهاء من المعجم كله ـــ وبعد الانتهاء منه نكتشف أنه لا يشفي غلة الإنسان العربي المعاصر ولا احتياجات الحياة الحديثة بالرغم من إضافة بعض ما تضمنته المعاجم العلمية التي أصدرها المجمع إلى متن المعجم الكبير . لكن لا تزال الحاجة أشد إلى معجم عصري ، وإلى معجم تاريخي يتتبع الكلمة في دلالاتها عبر العصور ، مدعمة بالأمثلة والنماذج المأخوذة من كتابات الأدباء والشعراء والبلغاء ومن واقع الاستعمال اللغوي في كل عصر وصولا إلى ما نحن فيه الآن .

كما أن هذه التنمية اللغوية بإصلاح حال التعليم في المدرسة والجامعة ، بحيث يحبب النشء في لغة ، ولا ينفره من لغته القومية ، وبحيث يصبح تعلم اللغة العربية تعلما سمعيا بصريا ـــ كما يحدث بالنسبة لتعلم اللغات الأجنبية في المعاهد والمراكز التي تقوم بتعليمها . فلكي يكون تعليم اللغة ـــ أية لغة ـــ ناجحا لا بد من أن تكون اللغة على ألسنة المعلمين منطوقة ومسموعة ، أي حية مستخدمة في مجالاتها الوظيفية . لا أن يكون تعلمها صامتا والعلاقة معها علاقة صامتة من مبدأ الأمر حتى نهايته . فإذا ما اضطر طالب الجامعة ، أو الذين تخرجوا في الجامعة إلى النطق بالعربية ظهر العجز عن الأداء السليم ، واستخدام صوتيات اللغة الصحيحة ، وفقدان القدرة على الارتجال ، حتى لو كانت حدود هذا الارتجال عدة عبارات أو جمل بسيطة لا تستغرق دقيقة أو دقيقتين . الأمر الذي يدعو إلى القول بأن تعليم اللغة العربية في المدرسة وفي الجامعة ليست له أهداف واضحة ، يلتزم بها المنهج التعليمي ، ويسعى لتحقيقها . ولولا أن مكتبة الأسرة ـــ في ظل مهرجان القراءة للجميع ـــ قد نجحت في تحريك الساكن ودفع الأسن المتراكم عبر سنوات طويلة ، وإعادة غرس عادة القراءة عند قطاعات عريضة من

الشباب والفتيان ، والأطفال القادرين علي القراءة ، لكان الحال ـــ بالنسبة للتنمية اللغوية المأمولة ، التي ينبغي أن يحققها تعليم صحيح واع بأهدافه ورسالته ـــ علي أعلي درجة من الركاكة والهزال والتردي والتخلف والمزيد من كراهية اللغة وكراهية القائمين عليها في المدرسة والجامعة بالنسبة لمن يعانون من سوء المنهج وسوء الاختيارات ـــ للنصوص والموضوعات المقررة وسوء الكتاب المدرسي والجامعي ، وسوء طرق التعليم وأساليبه ، التي تطورت في كل الدنيا إلا لدينا ، وإلغاء المكتبات وممارسة الهوايات في المدارس ، وقد كانت الوسيلة الأساسية لا تقان اللغة وحبها وتعلمها ـــ وليست الحصة المدرسية ـــ من خلال جمعيات وأسر المجلة أو الصحافة والتمثيل والخطابة والمناظرات والمسابقات الأدبية والقراءة الخارجية .

وقد استهل الدكتور كمال بشر ـــ الأمين العام للمجمع ـــ المناقشات التي دارت وتدور في جلسات مؤتمر المجمع وفي محاضراته العامة ، بعرض لتصوره لقضية التنمية اللغوية ، ضمنه خطابه الذي يقدمه الأمين العام للمجمع في مستهل المؤتمر السنوي تحت عنوان بين عام ين ، موضحا أن التنمية اللغوية في رأيه ذات مفهومين ، أولهما يتمثل فيما يسميه التنمية الأفقية ، بمعني العمل والسعي حثيثا نحو توسيع آفاق اللغة الفصيحة الصحيحة ، وذلك سبيله الكد تجريب توظيف اللسان نطقا بهذه اللغة في كل مكان ومجال قدر الإمكان ولو بالتدريج . فاكتساب اللغة لا يكون إلا بالتعامل والحوار معها . وذلك لا يتم إلا بالسماع والإسماع . يسمع الإنسان اللغة المنطوقة مرارا وتكرارا فتستقر أصولها وضوابطها في الذهن ، وعليه بعد ذلك أن يولد من هذا الذي استقر في ذهنه ما شاء له أن يولد بالكلام جهرا . وهكذا تدور العجلة بالتدريج حتى يحظي بطلبته . ولكن السؤال الآن هو: أين ومتى نسمع العربية الفصيحة الصحيحة حتى نكتسبها ونسير علي منوالها ؟ معلوم أن استخدام هذه اللغة الآن نطقا محدود المجال والمكان . فما الحال ؟ نبدأ بالاستعانة بالمواقع العامة والخاصة التي من المفروض عليها فرضا أن تلتزم بهذا المنهج ، منهج السماع والإسماع ومن أمثلة هذه المواقع : المطالعة في المدارس ، بمعني القراءة جهرا أمام مدرس عارف مخلص لوظيفته وقوميته . ووسائل الإعلام المنطوقة فهي أشبه بمدرسة جماهيرية متنقلة ، يسمعها الكافة بلا فرق . ودعوة المعلمين في كل مراحل التعليم ـــ وكل مقررات الدراسة ـــ إلى محاولة تفعيل لسانهم وتجريب الأداء باللغة العربية . وبيانات القادة والمسئولين وأحاديثهم الجماهيرية ، التي ينبغي أن يراعي فيها هذا المنهج وبخاصة أنهم القدوة والمثل . والخطابة والمؤتمرات والندوات ـــ بكل صورها وأشكالها ، فهي من العوامل المؤثرة في هذا السبيل ، حيث تشهدها الجماهير من كل الطبقات .

المفهوم الثاني للتنمية اللغوية ـــ في رأي الدكتور كمال بشر – هو التنمية الرأسية ، ومعناه ـــ عنده ـــ تعميق أصول لغتنا وإثراء محصولها اللفظي والأسلوبي بوسائله المعروفة عند الثقات من الدارسين ، مثل: العود إلى اللغة ذاتها لتفعيل طاقاتها والتوليد منها ، بالاشتقاق والتصريف والنحت ، والنظر في كل ما يجد من ألفاظ وعبارات معاصرة شاع أو يشيع استعمالها ، وتمحيص صلاحيتها وضمها إلى جسم اللغة . والتعريب بكل ألوانه وصنوفه ضرورة حتمية ، والبدء بحسم في تعليم العلوم باللغة العربية في التعليم العالى ، فضلا عن الاهتمام بالترجمة ، واستمرار المجامع العربية في تيسير قواعد اللغة والسير قدما في صناعة المعجمات علي مستويات متدرجة ، ولا مانع من الاقتراض من لغات أخري متى كان هذا الاقتراض لا يسيء إلى متن اللغة . وأخيرا يصف الدكتور كمال بشر هذه النماذج من وسائل التنمية اللغوية بأنها تمثل حسوة طائر من بحر عميق فلنبدأ إذن بحسوة الطائر قبل أن يجيء زمان لا نجد فيه ما نحسوه !

شكر واجب

أستأذن القارئ في سطور أعبر بها عن الشكر الواجب والتقدير العميق لا سرة مركز الطب الطبيعي والتأهيلي والروماتيزم للقوات المسلحة وعلي رأسها اللواء طبيب محمد رضا عوض . فقد واجه أحد أشقائي محنة صحية عصيبة اقتضت علاجه في هذا المركز ، الأمر الذي جعلني ألمس عن قرب مدي الجهد الهائل والرعاية الموفورة التي يحاط بها المترددون علي المركز والمقيمون به ، من كل العاملين فيه من الأطباء والإداريين وأسرة الرعاية الاجتماعية والخدمة في منظومة متكاملة من النشاط والفاعلية ، والحرص علي الراحة الكاملة للمرضي: بدنيا ونفسيا وعقليا . فضلا عن توفير الاحتياجات الضرورية للعلاج والتأهيل ومتابعة أحدث الطرق والأساإلىب ـــ في العالم كله ـــ من أجل تحقيق أعلي مستوي من الأداء ، وأقصي درجة للرعاية .

إن الأماكن برجالاتها ، ومثل هذه المراكز مفخرة لمصر ولقواتها المسلحة ـــ التي جعلتها تتسع أيضا لعلاج المدنيين ـــ كما أنها إطلالة علي عصر قادم من تحقيق خدمة طبية متميزة ، في إطار من الرعاية الإنسانية ، والقيادة الحكيمة الحازمة ، التي تحرص علي تخفيف وقع المحن الصحية ، مهما بلغت ، وغرس الأمل في قلوب من يحتاجون لنقطة ضوء واحدة ، تبدد ظلام العجز والمعاناة .

هل المرأة متفوقة لغوياً ؟

بقلم: فاروق شوشة

ما زلنا مع العالم اللغوي الراحل الدكتور أحمد مختار عمر في دراسته الرائدة اللغة واختلاف الجنسين وكتابه الذي يعد أول كتاب عربي يتناول قضية العلاقة بين اللغة والجنس من جانبين متكاملين هما: نظرة اللغة إلى الجنس وكيفية تعاملها مع ظاهرة التذكير والتأنيث من ناحية ، وتعامل الجنس مع اللغة ، والخصائص التي تميز طريقة كل جنس في هذا التعامل - من ناحية أخري - ويحاول الكتاب الإجابة عن التساؤل الغائب:

هل هناك لغة نسائية ؟ في مقابل التساؤل المطروح دائما: هل هناك أدب نسائي ؟

يضيف المؤلف إلى ما لا حظه العلماء من وجود اختلافات بين الرجل والمرأة في اللغة اللفظية: وجود اختلافات بينهما في اللغة غير اللفظية . والمقصود باللغة غير اللفظية الإشارات التي تجمع تعبيرات الوجه (بإمكان الجهاز العضلي الوجهي أن يصدر نحو مائتي ألف تعبير وجهي مختلف) ، والتحديق ، والملامسة ، وحركة الجسم ، ووضعه وغير ذلك مما يدخل تحت علم الحركيات وكذلك الإشارات النطقية - غير اللفظية - التي تتمثل في استخدام الصفات المميزة للصوت ، والتي يمكن ان تحمل معني ، وتعطي إشارات صوتية منطوقة ذات خصائص معينة ، ويشمل ذلك:

ارتفاع الصوت ، ورنينه ، ومعدل سرعته ومجال درجة الصوت . ونوعية الصوت ، واستمراريته ، وغير ذلك مما يدخل تحت تنغيمات الصوت ومحدداته من ناحية: الشدة - الدرجة - العلو ، وكيفياته من ناحية أخري: السرعة - الرنين - مجال درجة الصوت . كما يشمل أيضا عددا من الصفحات المميزة ، مثل الوشوشة (التي تدل علي أن المتكلم ينقل معلومات خاصة) وعكسها الصياح (الذي يدل علي أن المتكلم يوسع من مجال نظامه الاتصالي) كذلك مايدل علي عدم الطلاقة أو أن المتكلم واقع تحت ضغوط ما مثل السكتات والاصوات الحشوية أو الطفيلية التي تتمثل في التكرار والتهتهة أو اللعثمة وعثرات اللسان وإدخال أصوات مثل: آآآ أو آه أو حسن ، والتنهد أو التثاؤب والنفخ لطرد الهواء وإحداث صوت باللسان علامة عدم الرضا وغير ذلك .

ويعرض المؤلف لما خرجت به الدراسات العديدة من نتائج تؤكد جوانب لا ختلافات الجنس في تعبيرات الوجه تشمل حجم الاستخدامات لهذه التعبيرات . من أمثلة ذلك ما ثبت من استخدام المرأة للتبسم والضحك أكثر من الرجل ، واستخدامها

للتحديق أو النظر بصورة اكثر كذلك ، كما تشمل استخدام المرأة لحركات وجهها بصورة أكثر تعبيرية للدلالة علي الحرارة أو الصداقة أو البهجة أو بث الهدوء في نفس السامع ، أو إحراز موافقته ، كما ثبت أن المرأة تنتج نماذج أكثر من التقطيب والعبوس وغيرهما ، مما يدخل تحت التعبير الوجهي السلبي ، وأن المرأة تستخدم التحديق أو إدامة النظر - سواء أثناء الاستماع أو أثناء الكلام - بصورة تزيد علي الرجل في حالة الصداقة والتواصل المريح ، أو حالة قرب المسافة بينها وبين جليسها ، وأن المرأة تفضل إطالة النظر علي تكراره بعكس الرجل الذي يفضل تكرار النظر علي إطالته . كما توجد جوانب لا ختلافات الجنس كذلك بالنسبة لحركة الجسم ووضعه ، فالنساء يملن إلى الاحتفاظ بأرجلهن متلاصقة علي عكس الرجل ، والنساء يملن إلى حمل كتبهن أمام صدورهن ، في حين يفضل الرجال حملها بجانبهم ، ويقال دائما إن النساء يتحركن بطريقة انثوية ، ودون إفـــــراط في حركاتهن الجسمية ، في حين أن الرجال يتجنبون الحركات الناعمة ، ويملكون حرية اكثر في حركاتهم الجسمية مثل الاتكاء والميل إلى الوراء وتحريك الجزء الأسفل من الجسد والاسترخاء والجلوس ووضع الذراعين بين الرجلين ، وتشبيك الأصابع ومسح الأنف .

وفي مجال السلوك الحواري أو التدخل في كلام الآخرين ومقاطعتهم أو أخذ الدور خلال الحوار أو قطع الصمت (حين يوجد صمت) بأخذ المبادرة في الكلام ، أثبتت الدراسات أن الرجال يستخدمون المقاطعة أكثر من النساء ، بالاضافة إلى إكثارهم من التعليقات المتدخلة ، أما النساء فيكثرن من التدخل حين تكون تدخلاتهن استفهامية أكثر . كما يختلف معدل التشابك والتداخل في الثنائيات المتحدة الجنس (أي عندما يكونان رجلين أو امرأتين) عنه في الثنائيات المختلفة . ففي دراسة تحليلية أجراها العالمان: وست وزيمرمان شملت عشرين ثنائيا من نفس الجنس وأحد عشر ثنائيا مختلطا كان عدد التداخلات في الأول٧ فقط ووصل إلى ٤٨ في الثاني ، خص الرجال منها٤٦ تداخلا والنساء تداخلان اثنان فقط .

وفيما يتصل بالطلاقة المنطقية أو المقدرة التواصلية اثبتت الدراسات أن الرجال يميلون إلى كثرة الكلام عن النساء ، وأن تفوق المرأة في استخدام وفهم التعبيرات العاطفية غير اللغوية جاء نتيجة عوامل بيئية واجتماعية ، بالاضافة إلى بدء كل من الجنسين حياته بقدرات مختلفة تتعلق بالاكتشاف والاستجابة لا شارات الآخرين ، وأن حساسية المرأة للإشارات غير اللفظية نبعت من حاجتها إلى الفهم الدقيق لا نواع السلوك سواء كان لفظيا أو غير لفظي ، مثل أية مجموعة مسلوبة النفوذ لا بد أن تعرف كل السلاسل التي تربطها والقيود التي تتحكم فيها ، ولأنهن يندمجن - عادة - مع مراكز القوة كزوجات أو سكرتيرات ، ولحاجتهن إلى معرفة كل ما يؤثر في حياتهن والاستفادة من هذه المعرفة في

صراعهن من أجل التحرير ، فضلا عن أن الإشارات - غير اللفظية - تمد المرأة بمرونة في التعبير عن نفسها أكثر مما تمدها به الإشارات اللفظية ، نتيجة لا حساسها بقيود عليها في تراكيب اللغة - التي هي من وضع الرجال غالبا - فيصرفها ذلك إلى التعبير غير اللغوي تعويضا عن نقص الجانب اللفظي في التعبير .

كذلك فإن تفوق المرأة في إرسال واستقبال الإشارات غير اللفظية ظهر نتيجة حاجتها إلى فك شفرة الإشارات غير اللفظية التي يصدرها الطفل للتعبير عن العاطفة أو القصد أو الحاجة . وقد ساعدتها المهارات التي تكونت نتيجة رعايتها للطفل ، علي الحساسية في التعامل مع الآخرين .

وخلاصة هذه الأبحاث - كما يوردها مؤلف الكتاب - أن الإناث أفضل من الذكور في حل الشفرة غير اللفظية ، وفي التعرف علي الوجوه ، وفي التعبير عن الانفعالات من خلال التعبير غير اللفظي . وأنهن يملكن كذلك وجوها أكثر تعبيرا ، ويبتسمن أكثر ويستخدمن حركة الجسم وأوضاعه التي تدل علي التعلق ، أو الصراحة بصورة أقل من الرجل ، وتلك التي تدل علي الانهماك أو التوضيح أو الإحساس بالذات بصورة اكثر من الرجل ، وأخيرا فهن يقعن في أخطاء نطقية أقل ، ويستخدمن كلمات حشوية لملء الفراغ بصورة أقل .

من أطرف فصول الكتاب ما يتعرض لا ختلاف الجنس والتفوق اللغوي ، مشيرا إلى أن كثيرا من الدارسين يميلون إلى إثبات تفوق البنت علي الولد لغويا ، فالبنات الصغار - بوجه عام - يتكلمن قبل الأولاد وأسرع منهن ، وأنهن يتفوقن عليهم في الصحة اللغوية ، وأن نطقهن لا يتأثر بالعادات السيئة أو اللامبالات التي تميز عادة نطق الأولاد .

كما أيدت الدراسات وجود اختلاف في صالح البنات بالنسبة لكل جوانب اللغة تقريبا : (النطق - طول الجملة - المفردات - الطلاقة اللفظية - تركيب الجمل - التزام القواعد النحوية - الهجاء) ، وذكرت بعضها أن مرحلة النضج اللغوي تتأخر عند الولد بنحو ستة أشهر عن البنت العادية ، كما يبدو الولد أبطأ في ممارسة القراءة .
ولاتقف الجدارة اللغوية للبنت عند قدرتها الكلامية ، بل تتجاوز ذلك لتشمل تعلمها متي تتكلم ، ومتي تصمت ، وكيف تتكلم عن الشئ في ظروف مختلفة ، وكيف تتجاوب مع الآخرين ، بعد ان ثبت أن معرفة النمو والصوتيات ومعجم المفردات ليست كافية لتحقيق الجدارة ، بل لا بد كذلك من السيطرة علي القواعد الخاصة بالاستعمال الصحيح للغة ، وعلي المعايير الثقافية للتواصل الكلامي .

غير ان التزام المؤلف: العالم اللغوي الراحل الدكتور أحمد مختار ، بالمنهج العلمي ـ في أمانة ودقة ـ يدفعه إلى إيراد ما يراه بعض العلماء من أن الشواهد علي وجود اختلافات مطردة للجنس بالنسبة للنمو اللغوي تعد شواهد ضعيفة ، وتحمل تناقضا بين بعضها والبعض الآخر ، مما يجعل من الصعب قبول القول بتفوق أحد الجنسين علي الآخر لغويا ، ومن أن منحنيات الأداء اللغوي لكلا الجنسين تبدو متشابهة جدا ، وكل جنس يملك افرادا في داخله يمثلون كل درجات المدي للقدرات الإنسانية . كما أن بعض العلماء يردون ما قد نجده من اختلافات لغوية عند الأطفال لا إلى الجنس ، وإنما إلى جملة تفاعلات بين الطفل ومواهبه المعنية من ناحية ، ووالديه من ناحية أخري ، بما يشمل طرق الكلام الخاصة إلى ه وصور الحساسية نحوه .

من أطرف التجارب التي أجريت لتحديد الصفات التي تلحق بكلام كل جنس ، التجربة التي عرضت فيها نماذج كلامية لا طفال من كلا الجنسين ، وطلب من كل محكم بعد أن يسمع الصوت أن يضع علامة علي طاقم مدرج من الصفات ، فقد ترددت الصفات الآتية في أحكام خمسة عشر محكما بالنسبة لوصف أصوات ستة أطفال ، فبالنسبة للذكور: خائف ، ممل ، مرح ، مشوش ، قانع ، هش ، عميق ، متصف بالأنفية ، سريع ، بريء ، معوق ، متردد ، عال ، ذكر ، متوسط الدرجة ، رتيب ، حزين ، واع بقيمته ، خجول ، غليظ ، مشدود ، متعب ، غير عاطفي ، غير واضح ، غير ممتع ، غير متأكد ، منتحب . وبالنسبة لا صوات الإناث ملائكي ، رسمي ، رائع ، جرسي ، لا مع ، بين ، بارد ، جسور ، تمثيلي ، موضح ، مؤنث ، بنت ، حسن ، سعيد ، ذكي ، صغير ، محبوب ، تنغيمي ، عادي ، مسعد ، متوازن ، صاف ، واثق ، جنسي ، ناعم ، ثابت ، واضح ، موشوش .

في ختام كتاب اللغة واختلاف الجنسين يورد المؤلف ملحقا بعنوان: النساء والرجال واللغة وهو عنوان لبحث لغوي اجتماعي للفروق الجنسية في اللغة للباحثة جنيفر كوتس نشرته عام ١٩٨٦ دار لونجمان (لندن / نيويورك) ونشر في المجلة العربية للعلوم الإنسانية (العدد الحادي والثلاثون ـ المجلد الخامس ـ صيف١٩٨٨) جامعة الكويت . ولأهميته ، فقد جعله الدكتور أحمد مختار ملحقا لكتابه . من أهم نتائج الدراسة التي أوردتها الباحثة ان دور المرأة اللغوي دور ابتداعي تغييري وبخاصة أثناء ممارستها دورها كأم ، وأن التغيير اللغوي مرتبط بالاختلافات اللغوية بين الجنسين أكثر من ارتباطه بجنس معين ، وما قاله علماء اللهجات عن أهمية الدور الذي تلعبه المرأة في التغيير اللغوي لا ن ما تختاره المرأة ينتقل إلى الأجيال القادمة عن طريق الأبناء . كذلك فهي تؤكد ان جزءا من اختلافات الجنس اللغوية ـ وإن كان يعود مباشرة إلى أسلوب القهر الذي تتعرض له الأنثي منذ الصغر ـ فإن معظمها يعود إلى اختلاف الثقافة الفرعية لكل

جـــنس .

كما أشارت إلى أنه ـ حتي عهد قريب ـ كانت دراسات اختلافات الجنس منوطة بالرجال ، وهذا يعني أن الراوي اللغوي الذكر كان يتحدث مع باحث ميداني ذكر مثله ، في حين أن الراوية اللغوية الأنثي كانت تتحدث مع باحث ميداني ذكر ، فهل ما سجله الباحثون الميدانيون عن تأدب المرأة مرتبط بجنسها حقا ، أو هو نتيجة اختلاف جنس الباحث والراوي اللغوي ؟

إن كتاب اللغة واختلاف الجنسين لفقيد الدراسات اللغوية والمجامع اللغوية الدكتور أحمد مختار عمر ، يجعلنا نطل علي جانب واحد من الجوانب العديدة والمهمة في التراث العلمي لفقيدنا الراحل ، وعلي ارتياده لمجالات في البحث اللغوي ، لم تكن متاحة لنا من قبله ، ما أجدرها بأن نعود إلى ها بالقراءة والتأمل والاهتمام ، واكتشاف حجم الدور الذي قام به عالما ، وباحثا ، ورائدا في ميدانه .

لغة للمرأة . . . ولغة لرجل !

بقلم: فاروق شوشة

لماذا يجعلنا الموت المباغت نعود إلى كتابات من رحلوا من الأصدقاء والأحباء ، نقرؤها في ظل احساس عارم بالفقد ، ونري فيها ما لم نكن نراه في حياتهم ، حين كنا نكتفي بالنظرة العابرة ، أو التصفح السريع ، ولا نعطي لما يكتبونه أو يبدعونه ما يستحقه من نظر واهتمام ؟ ها نحن أولاء أبناء جيل تمرس بالكتابة طويلا ، زمنا يتراوح بين عقود أربعة أو خمسة ، نعيش جميعا هذه الحال من الأسف والندم ولوم النفس ، حين نكتشف ـ بعد فوات الأوان ـ أن الذين أهدونا كتبهم وإبداعاتهم ـ في مناسبات شتي ـ كان من حقهم علينا أن يظفروا بكلمة تعبر عن اهتمامنا بما كتبوا ، وانشغالنا بما أنجزوا وأضافوا ، بدلا من الصمت المطبق ، نلوذ به ونعتصم ، ربما لا ننا لم نجد الفرصة المواتية ـ في زحام الشواغل والهموم والضغوط إلى ومية ـ للقراءة الهادئة المتأنية ، أو حتي القراءة العابرة ، وربما قرأنا وأمسكنا عن الكلام بخلا أو تجاهلا أو نسيانا ، دون أن نحس بما يحدثه هذا التجاهل أو البخل أو التناسي ، من أسي موار عند من كان ينتظر كلمة تشير ، أو لفتة تضيء ، أو تعليقا يوحي بالإقبال والاهتمام ، ولكن دون جدوي !

هذه حالي مع الصديق العزيز العالم اللغوي ، فقيد مجمع اللغة العربية والدراسات اللغوية ، الدكتور أحمد مختار عمر ، عندما أضطرني رحيله المفاجيء وتكليف المجمع لي بتأبينه ، إلى اعادة قراءته من جديد ، وقراءة ما كنت قد عبرته ـ حين أهداني إياه ـ في قراءة سريعة ، مؤملا أن أعود إلى ه في يوم من الأيام . ومن بين هذا الجديد كانت كتبه ومؤلفاته : لغة القرآن ، ومعاجم الأبنية في اللغة العربية ، ومعجم القراءات القرآنية ، واللغة وأختلاف الجنسين .

هأنذا أعود إلى كتابه اللغة واختلاف الجنسين متأملا في البداية المنهج الذي صممه لكتابه ، من خلال ثلاثة أبو اب ، يتناول أولها بعض المباحث التمهيدية في فصلين اثنين هما : أثر العوامل الاجتماعية في اختلافات الجنس اللغوية ودور الحركات النسائية ومظاهر اهتمامها بلغة المرأة . أما ثانيها فيتناول نظرة اللغة إلى الجنس وكيفية تعاملها مع ظاهرة التذكير والتأنيث في فصول ثلاثة هي : تصنيفات الجنس ، واللغة بين الحياد والتحيز للذكورة ، واللغة العربية بين الجنس النحوي والجنس الطبيعي . أما ثالث هذه الأبواب فيعرض الجانب الثاني من القضية ، وهو تعامل الجنس مع اللغة ، والخصائص التي تميز طريقة كل جنس في هذا التعامل ، وقد ضم هذا الباب مستويات التحليل اللغوي الثلاثة :

لـصوتية واللفظيـة والتركيبيـة ، مـضيفا إلى هـا فـصلا رابعـا ضـم جملـة مـن الخـصائص اللغويـة الأخـري الـتي تـرددت في كـلام الدارسين وهـي اخـتلاف الموضـوع والمـضمون ، واتـصاف المـرأة بـالثرثرة ، والتـدخل في حـديث الآخـرين ومقـاطعتهم ، وميلـها إلى الابتـداع والخـروج علـي المـألوف . ثـم هـو يتبـع هـذا الفـصل بفـصلين آخـرين لم تتناولهمـا التحليلات السابقة وهما:

لاخـتلاف بـين الرجـل والمـرأة في اسـتخدام وسـائل التفـاهم غـير اللفظيـة ، واخـتلاف لغة الطفل باختلاف جنسه .

أحمـد مختـار عمـر يـدرك منـذ احتـشاده لموضـوع كتابـه ، الـذي هـو أول كتـاب بالعربيـة في موضـوعه ، أنـه يخـوض في مجـال لـيس وقفـا علـي علمـاء اللغـة والاجتمـاع والأنثروبولوجيـا ، فقـد دخـل الميـدان علمـاء الـنفس والتربيـة والأسـلوبية والنقـد الأدبـي ، فـضلا عـن مـشاركة الحركـات النـسائية ، ودعـوات المـساواة بـين الجنـسين وتحريـر المـرأة ـ بكـل ثقلـها ـ منـذ الـستينيات كمـا يـدرك أن هـذه الدراسـة الجديـدة ـ الـتي لم تلـق اهتمامـا مـن البـاحثين العـرب حـتي الآن ـ سـوف تلقـي الـضوء علـي جانـب مـن علـم اللغـة الاجتمـاعي ، وأنه لا بد له مـن الإجابـة عـن تـساؤل غائـب هـو: هـل هنـاك لغـة نـسائية ؟ في مقابـل التـساؤل المطروح دائما: هل هناك أدب نسائي ؟

مـن الناحيـة التاريخيـة يـشير الـدكتور أحمـد مختـار عمـر إلى كتـاب روبـين لا كـوف الـذي صـدر في عـام ١٩٧٣ بعنـوان: اللغـة ومركـز المـرأة ، باعتبـاره بـذرة لدراسـات تاليـة ، وإلـي أهـم كتـاب صـدر في الثمانينيـات (عـام ١٩٨٦) مـن تـأليف جنيفـر كـوتس بعنـوان النـساء والرجـال واللغـة وكانـت المؤلفـة تـشغل درجـة محاضـر أول في اللغـة الانجليزيـة وعلـم اللغـة في أحـد معاهـد لنـدن ، بعـد أن نـشرت بحثـا في الموضـوع نفسه عـام ١٩٨٤ بعنـوان اللغـة والتحيـز الجنـسي . تقـول في كتابهـا: إن الاختلافـات اللغويـة مجـرد انعكـاس للاختلافـات الاجتماعيـة ، ومـادام المجتمـع يقـدم كـلا مـن المـرأة والرجـل علـي أنهمـا جنـسان مختلفـان ، وغير متساويين ، فستبقي الاختلافات اللغوية بين الاثنين .

عـن اللغـة بـين الحيـاد والتحيـز للـذكورة يقـول أحمـد مختـار عمـر: لمـا كانـت معظـم المجتمعات تفضل الـذكر علـي الأنثـي ، وتتعامـل مـع الرجـل علـي أنـه أكثـر قيمـة مـن المـرأة ، فقـد ظهـرت هـذه النظـرة الدونيـة للمـرأة في التـصنيفات اللغويـة ، ومـن بينهـا التـصنيف علـي أسـاس الجـنس ، فمعظـم اللغـات الـتي تفـرق بـين المـذكر والمؤنـث بلاحقـة اضـافية تتخـذ مـن صـيغة المـذكر أصـلا ومـن صـيغة المؤنـث فرعـا ، وينـدر العكـس . ومعظـم الثنائيـات المعطوفـة تبـدأ بالمـذكر ، فيقـال ، شمـشون ودليلـة ، روميـو وجولييـت ، قـيس وليلـي ، أنطونيـو وكليوبـاترة ، حـسن ونعيمـة ، عـنتر وعبلـة ، ياسـين وبهيـة ، الـصفا والمـروة ، ويقـل العكـس مثـل ليلـي والمجنـون ، ناعـسة وأيـوب ، عزيـزة ويـونس ، شـفيقة ومتـولي . وقـد

اطرد الاستعمال القرآني علي تقديم الذكر علي الأنثي في كل الآيات التي اجتمعا فيها مثل: ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثي ، يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثي ، كما اطرد في الآيات التي يجتمع فيها ما يدل علي الذكور وما يدل علي الإناث مثل: والمؤمنون بعضهم أولياء بعض ، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ، إن الصفا والمروة من شعائر الله ، والذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ولم يخرج القرآن عن هذا النمط إلا لحكمة .

وحين يجتمع الذكر والأنثي ويراد الجمع بينهما فعادة ما يغلب الذكر علي الأنثي ، كإطلاق العرب الأبوين علي الأب والأم ، والقمرين علي الشمس والقمر ، والموصلين علي الجزيرة والموصل ، والأذانين علي الأذان والإقامة والعصرين علي الغداة والعصر والفراتين علي نهري دجلة والفرات . .

وتقضي قواعد اللغة العربية بأنه إذا اجتمع المذكر والمؤنث وأريد الإخبار عنهما غلب المذكر ، فمثلا تقول: الرجل والمرأة قاما ، قالوا: لا ن المذكر هو الأصل والمؤنث مزيد عليه .

وتقول: محمد وفاطمة ابنا علي فعلا كذا وكذا ، فتغلب المذكر علي المؤنث في النعت كذلك .

ويشير الدكتور أحمد مختار عمر إلى اتفاق معظم علماء الأصوات علي وجود مكونات صوتية تميز صوت المرأة عن صوت الرجل يمكن أن تسمي البصمة الصوتية للجنس ، وحدد العلماء عددا من هذه المكونات أو الخصائص الصوتية التي تميز نطق كل جنس . من بينها حدة صوت المرأة بالنسبة لصوت الرجل نتيجة قصر الوترين الصوتيين عندها وقلة ضخامتهما بالنسبة لوتري الرجل ، مما يؤدي إلى زيادة سرعتهما وزيادة عدد ذبذباتهما في الثانية وهذا بدوره يؤدي إلى حدة الصوت . ولا يمكن التمييز بين أصوات الجنسين في مرحلة الطفولة المبكرة حتي أن الأم لا تستطيع أن تميز بين صراخ البنت وصراخ الولد حتي سن السادسة ، وتعتبر السن الحاسمة لتمييز صوت الذكر عن الأنثي هي سن الثانية عشرة للبنات وأكبر من هذا قليلا للأولاد .

من بينها أيضا تليين بعض الأصوات وبخاصة المفخم منها ، ونطقها بطريقة تنحو بها نحو نظيراتها المرققة ، كما يحدث في كلمات مثل: القرآن ، والقاهرة ، والطيور ، والضعيف والصراخ . ولعل هذا هو الذي عناه القرآن الكريم حين نهي نساء النبي عن إخضاع القول (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض) فقد فسر القرطبي الإخضاع بترخيم الصوت وتليينه ، ونص علماء التجويد علي ضرورة تفخيم

الأصوات عند القراءة . وفسر التفخيم بأن يقرأ علي قراءة الرجال ، ولا يخضع الصوت فيه ككلام النساء .

من بينها أيضا ما لوحظ من أن النساء أكثر ميلا لا تباع المودة أو طريقة النطق الحديث ، ولذا اعتبر بعضهم دور المرأة في التطور الصوتي أكبر خطرا من دور الرجل ، وفسر ذلك بأن النساء لا يعشن جيلهن فحسب ، بل يشاطرن الأجيال الناشئة حياتها كذلك ، فهن أكثر من الرجال صلة بالأطفال والفتيان ، ومعني هذا أن البيئة اللغوية للمرأة هي بيئة الجيل الجديد ، بينما البيئة اللغوية للرجل هي بيئة الشباب والكهول والشيوخ . كما أثبتت التجارب أن المرأة تملك القدرة علي إحداث تنوعات في درجة صوتها ، وفي نماذجها التنغيمية ، بما يسمح لها أن تستعمل تنغيمات معينة لا يستعملها الرجل عادة مثل نموذج الدهشة الذي يبدأ مرتفعا ثم ينخفض ، كما أنها تميل إلى استخدام التنغيمات الدالة علي التساؤل وطلب المساعدة ، وهي نماذج تحب المرأة أن تستعملها .

ويشير المؤلف إلى أن الغالبية العظمي من الدارسين تذهب إلى وجود عدد من الخصائص التركيبية والأسلوبية تميز لغة المرأة عن لغة الرجل مثل: استخدام نغمة الاستفهام مع الجمل الخبرية وما يمكن أن يسمي الكلام المائل ، واستخدام الأسئلة التذييلية والأسئلة المركبة ، واستخدام الصفات الحشوية الضعيفة ، والصفات الفارغة ، والكلمات العديمة المعني ، والمبالغة في الكلام ، والاستعانة بالكلمات الدالة علي التقوية ، واستخدام الصيغ المبالغة في التأدب ، والميل نحو الأساليب غير التأكيدية ، واستخدام عدد من أساليب التعجب بصورة متكررة ، والطلاقة في التعبير ، والإقلال من استخدام أسلوب الأمر المباشر ، واستعمال الأفعال السكونية ، وكثرة استعمال الأفعال المبنية للمجهول ، والميل نحو العبارات الاسمية لا الفعلية ، وتفضيل صيغة التصغير ، واستخدام الجمل الناقصة وعدم ربط الجمل وترتيب بعضها علي بعض .

من الخصائص الأخري التي تميز لغة المرأة عن لغة الرجل ، ما كشف عنه تحليل الموضوع والمضمون ، والثرثرة وكثرة الكلام ، والتدخل والمقاطعة والسيطرة علي الحديث ، والميل إلى الابتداع والخروج علي المألوف .

تقول نتائج الدراسات التحليلية لمضمون الأحاديث التي يتناولها كل من الرجال والنساء إن الرجل يهتم أكثر بموضوعات العمل والسياسة والدين والقانون والضرائب ومصاريف المنزل والأجهزة الالكترونية وأنواع الرياضة والصحة والعلاقات الإنسانية والسيارات والتنافس والعدوانية الجسمية والتفوق والمال والوقت والفضاء والمدركات الحسية والترفيه . بينما تهتم المرأة أكثر بموضوعات الحياة الاجتماعية والكتب والشراب والطعام

ومتاعب الحياة والعناية بالزوج والبيت والأسرة والسن والمشاعر الخاصة والغسل والحياكة وأعمال المطبخ والملابس والديكور والنساء الأخريات .

وفيما يتصل بالثرثرة وكثرة الكلام تعرض الدراسات لعبارات شاعت في عدد من اللغات مثل: حين توجد امرأة لا يوجد صمت ، الثعالب ذيل فقط والنساء لسان فقط ، اللسان هو سيف المرأة وهي لا تتركه مطلقا حتي يصدأ ، المرأة تتكلم بأسرع مما تفكر ، ولهذا فهي تتكلم أكثر من الرجل ، يمشي الرجل ميلا بعد العشاء أما المرأة فتفضل أن تتكلم ساعة ، بح بسرك لا مرأة تبح به للعالم كله ، قوة المرأة في لسانها ، لا يوجد شيء أغرب من رجل ثرثار وامرأة نزرة الكلام !

وعلي الرغم من شيوع هذه المقولات فقد ثبت من التحليل لا حاديث كثير من الرجال والنساء عكس ذلك تماما . فقد توصل نيكولاس إملر خبير علم النفس البريطاني في دراسة نشرتها الصحف عام ١٩٨٧ إلى أن الرجل أكثر ميلا إلى الثرثرة وكثرة الكلام من المرأة . وإن كان يغلف حبه للكلام بادعاء إلمامه بالسياسة ! وفي بعض المؤتمرات المتخصصة تبين أن الوقت العادي لمن تعلق من النساء كان أقل من نصف الوقت الذي استعمله الرجال . وفي أبحاث أجريت في أعوام : ١٩٧٥ ، ١٩٦٨ ، ١٩٦٦ ، ١٩٥٧ لقياس مقدار الكلام تبين أن الرجال قد تكلموا أكثر . . وفي دراسة تحليلية قام بها أوتوسوندر لعدد من المناقشات التي ضمت مجموعة من الرجال والنساء تبين أن عدد الكلمات التي نطقها الرجال كانت أكثر من تلك التي نطقتها النساء .

وهي نتائج يثبتها الدكتور أحمد مختار عمر في كتابه اللغة واختلاف الجنسين لينصف المرأة ، ويفند كثيرا من المقولات الشائعة التي تتهمها بالحق وبالباطل .

والحديث ـ في هذا الموضوع الشائق ـ موصول .

مجمع الخالدين واللغة في وسائل الإعلام (١)

بقلم فاروق شوشة

ومجمع الخالدين هي التسمية التي يفضل كثير من العلماء إطلاقها علي مجمع اللغة العربية - الذي صدر المرسوم الملكي بإنشائه في عام ١٩٣٢ ، ولكنه لم يعقد جلسته الأولي إلا بعد عام ين - في يناير عام ١٩٣٤ - بهدف المحافظة علي سلامة اللغة ، وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون ، ملائمة لحاجات الحياة في العصر الحاضر . وقد سبقه إلى الوجود المجمع العلمي العربي في دمشق عام ١٩١٩ - للنظر في اللغة العربية وأوضاعها العصرية ونشر آدابها وإحياء مخطوطاتها وتعريب ما ينقصها عن اللغات الأوروبية وتأليف ما تحتاج إلى ه من الكتب المختلفة ، وفي عام ١٩٤٧ أنشيء المجمع العلمي العراقي في بغداد علي غرار مجمع دمشق ، ثم تتابعت المجامع اللغوية في كثير من الأقطار العربية .

كان الفوج الأول من أعضاء مجمع الخالدين عام ١٩٣٣ يضم من الأعلام المصريين والعرب والمستشرقين: فارس نمر ، ومنصور فهمي ، وإبراهيم حمروش ، ومحمد الخضر حسين وحاييم ناحوم ، وأحمد العوامري ، وعلي الجارم وأحمد الاسكندري ، ومحمد كرد علي ، و عبد القادر المغربي ، وانستاس الرملي ، وعيسي اسكندر المعلوف وحسن حسني عبد الوهاب وما سينيون وليتمان ، وفنسنك ، ونلينو ، وفيشر وجب ، وتوفيق رفعت - أول رئيس للمجمع - وحسين والي ، وفي الفوج الثاني - عام ١٩٤٠ - انضم إلى المجمع محمد حسين هيكل ، ومصطفي عبد الرازق وعلي إبراهيم ، ومحمد مصطفي المراغي ، و عبد العزيز فهمي ، وأحمد لطفي السيد - الرئيس الثانيي للمجمع — و عبد القادر حمزة وعباس محمود العقاد وطه حسين - الرئيس الثاني للمجمع - ورمسيس جرجس ، واسماعيل مظهر . ثم تتابعت الأفواج ، تضم كل منها كوكبة من الإعلام في مجالات اللغة والأدب والعلوم . ولاشك أن تأمل هذه الأسماء يتيح مجالا للمقارنة بين عصرين ، يتمثل أولهما في ثلاثينيات القرن الماضي وأربعينياته ، وثانيهما في زماننا الراهن ، والمقارنة والتأمل بين مستويين من الرجال والأدباء والعلماء شموخا وعطاء وانجازا وريادة ، فأين زماننا من زمانهم !

أكمل مجمع الخالدين السابعة والستين من عمره المديد ، وها هو ذا يعقد مؤتمره لهذا العام في دورته السابعة والستين ، خلال هذه الأيام . ويحتشد للمؤتمر ، كما احتشد دائما أعضاء المجمع العاملون والمراسلون وخبراؤه وأعضاؤه من العرب والمستشرقين . لكنه في هذه المرة يؤثر أن يكسر الحاجز بينه وبين الناس ، وأن يثبت للجميع أنه ليس منعزلا عن الحياة ، ولا عن اهتمامات الناس ، ولا عن مشكلات الواقع

اللغوي ، عندما يتحيز لمؤتمره موضوعا علي درجة عالية من الأهمية هو: اللغة في وسائل الإعلام وتتسع جلساته لا بحاث ومحاضرات وحوارات ومناقشات حول الوضع اللغوي في وسائل الإعلام إيجابا وسلبا . والغريب أن بعض أعضاء المجمع من أساتذة اللغة ، شديدي الاتصال والحركة مع وسائل الإعلام في مصر ، كانوا يعارضون بشدة أن يكون هذا الموضوع عنوانا للمؤتمر ، لا نه - في رأيهم - موضوع خفيف ! ، لا يتحمل البحث المجمعي الجاد . لكنهم يذعنون في نهاية الأمر لا رادة المجمع ثم لا يكتفون بهذا ، بل يشاركون في أبحاثه ومناقشاته .

لقد ظل المجمع ، وجهوده في مجالات شتي تتصل بمتن اللغة - وضعا وتعريبا واشتقاقا وقياسا - وبمجال اللهجات والمصطلحات العلمية وألفاظ الحضارة - خاصة ما يتصل بصوغ المصطلح العلمي وتوحيد المصطلحات العربية - وبمجال المعجمات وتيسير النحو وتيسير الكتابة وتشجيع الانتاج الأدبي وإحياء التراث ، وبمطبوعاته وفي مقدمتها مجلة المجمع ومجموعة البحوث والمحاضرات ومحاضر جلساته - ظل المجمع بكل جهوده هذه محجوبا عن الناس . لا يكاد يتابعه إلا القلة النادرة من اللغويين والباحثين والمتصلين بالمجال .

وظل الجمهور العام لا يعرف عن المجمع إلا أنه صاحب المقولة الشائعة في تعريب الساندويتش: شاطر ومشطور وبينهما طازج . وهي مقولة أطلقها صحفي من باب التندر والسخرية والدعابة ، وليس لها ظل من الحقيقة ، ولا علاقة للمجمع بها علي الإطلاق ، وظل الرأي العام يجهل جهلا فادحا حقيقة ما يقوم به مجمعنا اللغوي في مصر ، وسائر المجامع اللغوية في العالم العربي . والجمهور غير معذور في بعض هذا الأمر لا نه لا يسأل ولا يحاول أن يعرف أو يطلع ، لكن مجمعنا غير معذور بدوره ، لا نه آثر أن يعمل في عزلة ، بعيدا عن الناس والأضواء . وأن يترك المعرفة به لمن يسعي إلى ها ويبذل الجهد في سبيلها ، دون أن يخوض في قضايا الواقع اللغوي التي يخوض فيها المهتمون عبر وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية .

الان ، والان فقط ، يمكن القول بأن الحاجز الذي قام بين المجمع والمجتمع قد بدأ يتساقط ويزول .

وبدأنا نري ميكروفونات الإذاعة وكاميرات التليفزيون تزاحم أقلام الصحفيين وأجهزة تسجيلهم في متابعة مؤتمر المجتمع وتسجيل وقائعه ، وتلاحق المجمعيين - المصريين والعرب والأجانب - في حوارات جادة تتصل بصميم عمل المجمع ، وجوانب الموضوع الذي اختاره المجمع لمؤتمره: اللغة في وسائل الإعلام . هل هو الموضوع الذي يتناوله المجميون بالبحث والدراسة هو المسئول عن هذه الحيوية الزائدة وهذا الاهتمام غير العادي ؟ أم أن هالة البرج العاجي التي كانت تحيط بالمجمع ومن فيه قد بدأت تتبدد

وتتكشف مزيحة النقاب عما ينبغي للآخرين أن يعرفوه وأن يتابعوه ؟ أم أن مشكلات الواقع اللغوي - في جوانبه المختلفة - قد بلغت حدها الأقصي في كل شيء: انهيار اللغة علي ألسنة المتكلمين وأقلام الكاتبين ، شيوع المسميات والمصطلحات الأجنبية ، فساد الذوق الأدبي نتيجة لفساد التعليم والتربية وحسن التدريب علي التذوق ونجاح المناهج اللغوية التعليمية في تنفير النشء من لغته القومية ، وبذر بذور العداوة بينه وبين أدب هذه اللغة وبلاغتها ونحوها وكل ما يتصل بها منذ البدايات الأولي لمراحل التعليم - هل طغيان هذه المشكلات وبلوغها حدها الأقصي هو الذي يجعل بعض من يحسنون الظن بالمجمع يتجهون إلى ه في هذه الغمرة الشديدة عله يقوم بدوره ويؤدي رسالته التي ينتظرها المجتمع ويتوقعها ، من خلال اداء عصري ، وإيقاع أكثر سرعة وحيوية ، ومواجهة تعكف علي التصدي لهذه المشكلات في تعقدها وشمولها ؟

هذا الموقف من الجمهور في تطلعه إلى المجمع ورجاله ، كلما حزب الأمر ، وتفجرت مشكلات الواقع اللغوي - هو تعبير عن احتياج أساسي لدي المجتمع كله ، تمثل في سعيه منذ نهاية القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين إلى تجمع أو مجمع لغوي ، يتبادل فيه العلماء الرأي فيما ينبغي أن يكفل للعربية من الضبط الدقيق للمقررات والتنقية من الشوائب والصيانة من اللحن (أي الخطأ) . فظهر مجمع البكري عام ١٨٩٢ ومن بين أعضائه: محمد عبد ه والشنقيطي ، حريصا علي أن يثبت أن العربية كفيلة بمواجهة مقتضيات العلم والحضارة . فقال مثلا بالمعطف بدلا من البالطو والشرطة بدلا من البوليس والمدره (أي المحامي) بدلا من والأفوكاتو والمسرة بدلا من التليفون . ثم ظهرت ندوة حفني ناصف في نادي دار العلوم عام ١٩٠٨ ، وفي عام ١٩١٦ كون لطفي السيد مجمع دار الكتب مجمعا أهليا علي غرار الأكاديمية الفرنسية في نشأتها ، يتكون من ثمانية وعشرين عضوا ، خمسة وعشرون منهم من العرب ، وواحد من كل من الفرس والسريان والعبرانيين .

وتولي رئاسة هذا المجمع الشيخ سليم البشري ، واكتفي لطفي السيد - صاحب فكرته والدعوة إلى ه - بأن يكون كاتب سره . لكن قيام ثورة١٩١٩ عجل بانفضاض المجمع ، ولما حاول العودة في عام ١٩٢٥ لم يعقد إلا جلسة واحدة . وكان لا بد للرأي العام الضاغط بحاجته الملحة إلى مجمع لغوي من منطلق الخشية علي اللغة والحرص علي بقائها صحيحة غير مشوبة - من الانتظار حتي عام ١٩٣٢ حين صدر المرسوم بإنشاء مجمع اللغة العربية تتويجا لكل الجهود الفردية والأهلية السابقة . هذا الخوف وهذه الخشية علي اللغة تجليا في قصيدة شاعر النيل حافظ إبراهيم علي لسان اللغة العربية تنعي حظها وتقول:

وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن أي به وعظات
فكيف أضيق إلى وم عن وصف آلة ،
وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن
فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي ؟
وتبلغ هذه الشكوي ذروتها حين يقول:
أري كل يوم بالجرائد مزلقا
من القبر يدنيني بغير أناة
وأسمع للكتاب في مصر ضجة
فأعلم أن الصائحين نعاتي
أيهجرني قومي ـ عفا الله عنهمو ـ
إلي لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سري
لعاب الأفاعي في سيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة
مشكلة الألوان مختلفات !

المصيبة أن الواقع اللغوي الذي تصدي له حافظ إبراهيم لا يماثل واقعنا الان ، وإنما هو صورة شديدة التبسيط له . المسألة لم تعد مجرد لوثة الإفرنج - وهي تسمية الشاعر للمفردات والمصطلحات الأجنبية - وسريانها في جسم اللغة العربية ، واستخدام الكتاب ـ والصحفيين خاصة ـ لهذه الكلمات الأجنبية .

إنها الان أخطر بكثير . هي في صميمها قضية تعلم اللغة العربية أساسا ، ونجاحنا في هذا الأمر - والثابت بالطبع هو الفشل الذريع مهما تحدث المسئولون في وزارة التعليم والخبراء المستفيدون من الوزارة عن العصرية والمنهجية والتحديث وأجهزة الكمبيوتر والتطوير (ربما للمرة العاشرة) وهي قضية موقف المجتمع كله ـ ممثلا في جميع سلطات الدولة وليس في وزارة التعليم وحدها - إزاء تفشي المسميات الأجنبية لكل شيء في حياتنا بدءا بالطعام والشراب والملبس والفنادق والمؤسسات والشركات والمتاجر وانتهاء بالقري السياحية ، وعلي مستوي أجهزة الإعلام: تسميات البرامج خاصة في التليفزيون والقنوات الفضائية ـ لكن هذا كله له حديث قادم تفصيلي ـ وهي قضية الإنجاز الذي يجب أن يقوم به مجمعنا اللغوي - والمجامع اللغوية العربية - من أجل اللحاق بالعصر ، في مجال مصطلحات العلوم وألفاظ الحضارة ، خاصة أن من بين أهداف المجمع الأساسية : جعل

اللغـة العربيـة وافيـة بمطالـب العلـوم والفنـون في تقـدمها ، ملائمـة لحاجـات الحيـاة في العـصر الحاضـر ، وذلـك بـأن يحـدد في معـاجم أو تفاسـير خاصـة ، أو بغـير ذلـك مـن الطـرق ، مـا ينبغي استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتراكيب .

وفي هــذا المجــال بالــذات ، تظــل المعــاجم العلميــة الــتي انجزهــا مجمــع اللغــة العربيـة في سـنواته الأخـيرة في ميـادين شـتي بحاجـة إلى أن توضـع موضـع الاختبـار . فـالعبرة ليـست بـصوغ الآلاف المؤلفـة مـن المـصطلحات في الطـب والرياضـة والـصيدلة والطبيعـة والكيميـاء والأحيـاء والـنفط والجيولوجيـا والهندسـة وغيرهـا ، ووضـعها في معجمـات متخصـصة ، دون أن تنـشط حركـة التـأليف العلمـي - وهـي الوسـيلة الأساسـية لنـشر المـصطلحات ووضـعها موضـع الاختبـار - وهـو مـا لم يحـدث حـتي الآن . ويظـل جهـد المجمـع في هـذا المجـال - وهـو جـل جهـد المجمـع علـي مـدار العـام - يـصب في دائـرة لم يفـد منهـا النـاس بعـد بالقـدر المطلـوب أو المأمول .

وقـد نـتج عـن العزلـة الطويلـة للمجمـع منـذ انـشائه - بـالرغم مـن مجلتـه ومطبوعاتـه العلميـة ومعاجمـه اللغويـة الـتي أنجزهـا وفي مقـدمتها الوسـيط والـوجيز والأجـزاء الأربعـة الـتي صـدرت مـن المعجـم الكـبير - نـتج عـن هـذه العزلـة أن كـثيرا مـن قـرارات المجمـع وتـصويباته وتيـسيراته - فيمـا يتـصل بمـتن اللغـة وأصـولها ولهجاتهـا ومـا يتـصل بالألفـاظ والأسـاليب - لم يــصل إلى الجمهــور أو لم يــصل الجمهــور إلى العلــم بــه . فلايــزال معلمــو اللغــة في المــدارس يحاسـبون تلاميـذهم ويؤاخـذونهم في صـحة نطـق كلمـة منطقـة بكـسر المـيم ، وقـد أجـاز المجمـع نطقهـا بفـتح الجـيم ، ونطـق متحـف بـضم المـيم وقـد أجـاز المجمـع نطقهـا بفـتح المـيم - وهـو النطـق الـشائع فعـلا علـي الألـسنة ، كمـا أجـاز اسـتعمال كلمـة تقيـيم بمعـني بيـان القيمـة للتفرقة بينهـا وبـين تقـويم الـشيء بمعـني تعديلـه وتهذيبـه ، وأجـاز قـول النـاس: بواسـطة كـذا تماما كمـا يقـال بوسـاطة كـذا ، وأجـاز - في معاجمـه اللغويـة - اسـتعمال كلمـة المـاس (للحجـر الكـريم المعـروف) وكــان معلمــو اللغــة ومــصححو الــصحف يــصرون علــي كلمــة الألمــاس ، وصــوب القــول بالتــأرجح بمعــني الترجــح أو الارتجــاح ، وحكــم بــصواب قــول الكتــاب: العـشرينيات والثلاثينيـات ومثلـها ألفـاظ العقـود جميعـا بإلحـاق يـاء النـسب بهـا وجمعهـا جمعـا مؤنثـا سـالما ويـراد بهـا الـسنوات التاليـة للعقـد حـتي نهايتـه . وأجـاز قـول النـاس: مـلاك بمعـني ملـك (بفـتح المـيم والـلام) وملـيء بمعـني مملـوء ، والكفـاءة والكـفء لمعـني الكفايـة والكـافي ، وجمـع نيـة علـي نوايـا ، ومواصـفة علـي مواصـفات والقيـد بمعـني التقييـد ، وقـولهم: آيـل للـسقوط وأيـب مـن الـسفر تخفيفـا لا ئـل وآئـل ، والحكـم بـصواب تـراوح الـشيء بين كذا وكـذا علـي أسـاس أن تـراوح مطـاوع لـراوح وصـحة قـولهم: أنعـم النظـر وأمعـن النظـر ، وقـولهم مـصادفة وصـدفة ، وشـغوف والأنانيـة نـسبة إلى الأنـا بتـشديد إلى اء وزيـادة ألـف ونـون مثل جواني وبراني وجوانية وبرانية .

ومثل هذا ألوف من التصويبات والتيسيرات يجدها من يريد الاستزادة في بعض اصدارات المجمع خاصة كتاب في أصول اللغة بأجزائه الثلاثة .
لقد شغلنا حديث المجمع - وكان ضروريا أن يشغلنا - عن موضوع مؤتمره لهذا العام وهو اللغة في وسائل الإعلام فإلي حديث قادم .

لغتنا الجميلة في وسائل الإعلام (٢)

بقلم فاروق شوشة

ليست هذه أول مرة يتصدي فيها مجمع اللغة العربية لقضية اللغة العربية في وسائل الاعلام . فقد تنبه المجمع منذ وقت بعيد لا همية الموضوع- في مؤتمراته السابقة- وشارك في بحثه ودراسته علماء وخبراء مصريون وعرب ، من بينهم العالم الراحل منير البعلبكي في بحثه عن الإعلام واللغة الإعلامية الذي القاه في مؤتمر المجمع لعام١٩٨٧ .
وظل الجمع منذ إنشائه وبدأ نشاطه العلمي عام ١٩٣٤ يقترب من الموضوع حينا ويتباعد عنه أحيانا ، وكانت لغة الصحافة هي شاغله الأساسي ، أما اللغة المسموعة في وسائل الاعلام ، فقد أصبحت فيما بعد شاغلا جديدا يضغط علي الدارسين والباحثين بسبب اتساع مداه وشدة نفوذه وتأثيره .

من هنا كان قرار المجمع بأن يكون الموضوع الأساسي لمؤتمره هذا العام: اللغة في وسائل الاعلام ، مستجيبا- في هذا القرار للصيحات التي تحيط بالمجمع وعلمائه ، أن يقتربوا من الواقع اللغوي ، وأن يخوضوا في مشكلاته وقضاياه ، وأن يزيلوا أسوار البرج العاجي الذي تدور فيه أبحاثهم ومناقشاتهم وتوصياتهم ، من غير أن يتاح للجمهور العريض متابعتها أو الافادة منها ، ومن غير أن يكون هناك سلطة تنفيذية تنقل قرارات المجمع وتوصياته- من خلال إلى ات فاعلة- إلى الأجهزة الثقافية والتعليمية والاعلامية .
كانت بعض صور هذه الآلية قائمة فيما مضي ، عندما كان بعض رجالات اللغة في وزارة العارف- كما كانت تسمي وفي التعليم كما تسمي الآن- أعضاء في مجمع الخالدين ، باعتبارهم علماء أجلاء مثل أحمد العوامري- الذي كان مفتشا للغة العربية بوزارة المعارف بين عام ي١٩٣٣ و١٩٣٦- وحامد عبد القادر وعلي الجارم- الذي كان كبيرا لمفتشي اللغة العربية حتي١٩٤٠- ومحمد فريد أبو حديد- الذي كان مديرا عام ا للتعليم الثانوي ومستشارا فنيا لوزارة التربية والتعليم- ومحمد مهدي علام- الذي عمل مفتشا بوزارة المعارف ومديرا للمكتب الفني بها بين عام ي١٩٣٤ و١٩٣٦ ثم عميدا لمفتشي اللغة العربية بالوزارة بين عام ي١٩٤٨ و١٩٥٠ وزكي المهندس الذي عمل مفتشا للغة العربية- قبل أن يصبح أستاذا لكرسي التربية والفلسفة في دار العلوم وطه حسين الذي انتدب في عام ١٩٣٩ مراقبا للثقافة في وزارة المعارف وأصبح مستشارا فنيا للوزارة في عام ١٩٤٢ قبل أن ينتدب مديرا لجامعة الاسكندرية .

بمثل هؤلاء الاعلام كانت هناك علاقة وثيقة ومحكمة بين المجمع من ناحية ووزارة المعارف (أو التعليم) من ناحية أخري وكانت خبراتهم العلمية- من خلال العمل في الوزارة- وراء تألقهم في العمل المجمعي ، واثرائه بكل ما من شأنه خدمة الواقع

اللغــوي ، والتــصدي لقــضاياه المثــارة ، وموضــوعاته الــتي تــشغل النــاس . كمـاا كانـت بعـض صـور هـذه الآليـة الفاعلـة- في العلاقـة بـين المجمـع والاذاعـة المـصرية علـي وجـه الخـصوص- متمثلـة في الـدور المتميـز الـذي قـام بـه العـالم الجـامعي والمجمعـي الراحـل الـدكتور محمـد مهـدي عـلام طـوال رئاسـته للجنـة امتحـان المـذيعين ومقـدمي الـبرامج ومحـرري الأخبـار الـراغبين في العمـل بالاذاعـة- وهـي اللجنـة الـتي كانـت تابعـة لـديوان المـوظفين- واشـراف علـي مـستويات الأداء اللغـوي للعـاملين بالاذاعـة والمتعـاملين معهـا ضـبطا وتـصويبا ومراجعة- وكـان هـذا التـصويب يـتم يومـا بيـوم دون انتظـار لمجـيء الغـد- وكـثير مـن الإذاعـيين الـرواد والقـدامي يـدينون بهـذه الـسنوات مـن إحكـام المتابعـة اللغويـة بتقـويم ألـسنتهم وتخلـصهم مـن كـثير ممـا كـانوا يقعـون فيـه مـن ألـوان الانحـراف اللغـوي والـسقطات الـتي لا تليـق بـالاذاعيين الـذين كـان ينظـر إلى هـم المجتمـع علـي أنهـم الواجهـة اللغويـة النموذجيـة الـتي يقلـدها ويحاكيهـا ألـوف المـستمعين . ثـم أتـيح لهـذه الآليـة أن تـستمر- موصـولة حينـا ومقطوعـة أحيانـا مـن خـلال جهـود عـضوي المجمـع الـدكتور ابـراهيم أنـيس والـدكتور كمـا بـشر اللـذين وضـعا وأشـرفا علـي العديـد مـن بـرامج التثقيـف اللغـوي في معهـدي الاذاعـة والتليفزيـون ، حيـث تم تـدريب أعـداد هائلـة مـن العـاملين في اتحـاد الاذاعـة والتليفزيـون ، وان كـان الذي أفادوا إفادة حقيقية من هذه الدورات لا يتجاوزون- في حقيقة الأمر ـ العشرات .

لابـد إذن مـن تـصور جديـد ، عـصري ، لعـودة هـذه العلاقـة- الـتي كانـت وثيقـة ذات يـوم- بـين المجمـع مـن ناحيـة والأجهـزة الثقافيـة والتعليميـة والاعلاميـة مـن ناحيـة أخـري . ولم يعـد طبيعيـا ولا لا ئقـا أن يظـل المجمـع ـــ بكـل جهـوده العلميـة- في واد ، وهذه الأجهـزة كلـها بكـل مـا تمارسـه وتقـوم بـه مـن دور في التنميـة اللغويـة وأيـضا في الانحـراف اللغـوي في واد آخـر . وقبـل الخـوض في تفاصـيل هـذا الأمرـــ وهـو واسـع ومتـشابك- لا بـد مـن الاقـرار بـأن وسـائل الاعـلام ـــ الـتي نعـني بهـا الـصحافة والاذاعـة والتليفزيـون ـــ هـي المـسئولة عـن بقـاء اللغـة العربيـة ـــ المـسموعة والمقـروءة- حيـة ومتطـورة ، ولا أحـسبني أتجـاوز اذا قلـت إننـا لا نـستمع إلى اللغـة العربيـة حيـة ومنطوقـة إلا علـي ألـسنة العـاملين في الاذاعـة والتليفزيـون وضـيوفهم مـن المتحـدثين ـــ اذا التزمـوا الحـديث بهـا ، وإن المجتمـع يتـسامح مـع كل من يخطيء في اللغة ــ أيـا مـا كـان خطـؤه ـــ وأيـا مـا كـان الموقـع الـذي يـشغله في المجتمـع ، لكنـه لا يغفـر مـا هـو أقـل- في درجـة الخطـأ ـــ اذا مـا جـر علـي لـسان المـذيعين والمـذيعات ، ويجعلــه مــادة للــسخرية والتنــدر والفكاهــة ، والتوجــه بــاللوم إلى هــذين الجهــازين الاعلامـيين ـــ الاذاعـة والتليفزيـون ـــ اللـذين لم يحـسنا اختيـار العناصـر العاملـة فيهمـا ، مـن بـين مـن يجيـدون الحـديث بلغـة صـحيحة ، ويحرصـون علـي قـدر مـن الاناقـة اللغويـة كـبعض حرصهم علي أناقة المظهر والهندام .

وفي الوقت نفسه ، فان لغة الصحافة التي نطالعها كل يوم ـــ علي ما بها من أخطاء وانحواف لغوي ـــ تحمل إلى نا بفضل العاملين فيها والكاتبين واجتهاداتهم جديدا من المفردات والصياغات والاشتقاقات وحصاد الترجمة والتعريب يضاف إلى مخزون اللغة ويوسع دائرة استخدامها وقدرتها علي مواجهة العصر ومتطلباته وبقدر تعدد المجالات الصحفية واتساعها ، تعددت ألوان هذا المخزون اللغوي أو المكنز اللغوي الجديد ، في السياسة والثقافة والعلوم والفنون والآداب والرياضة وغيرها . تكفينا نظرة طائر علي بعض ما أنجزته لغة الصحافة ـــ بوجه خاص ـــ ولغة الاعلام ـــ بوجه عام ـــ عبر العقود الأخيرة من اضافات واسعة تتمثل في مثل هذه الأساليب العصرية : تحديث أساليب الانتاج ـــ صاروخ أرض أرض أو أرض جو- خرجوا سويا ـــ تراوح الشيء بين كذا وكذا ـــ تطبيع العلاقات ـــ كلفت هذا العمل مالا كثيرا ـــ إشهار المزاد ـــ تصفية المشكلات ـــ حضر الاجتماع ما يقرب من عشرين شخصا ـــ دعم بعض السلع ـــ جرد العهدة ـــ يتعالم علي زملائه- أدانت المحكمة فلانا وحكمت بالإدانة ـــ سعر التكلفة ـ القيام بمناورة عسكرية أو سياسية- ملابس جاهزة ـــ فلان له رصيد في البنك ـــ البرمجة والجدولة والمنهجة ـــ الحساسية والشفافية والأنانية والفعالية ـــ أفعل هذا بوصفي مصريا ـــ أو عربيا ـــ فلان يعمل ضد فلان ـــ هو يقتل الوقت ـــ أعطي رأيه في هذه القضية ـــ طرح المسألة علي بساط البحث ـــ المسألة الآن تحت البحث والدراسة ـــ تكهرب جو السياسة ـــ ذر الرماد في العيون ــ يكسب خبزه معرق جبينه ـ لا يري أبعد من أرنية أنفه لا جديد تحت الشمس ـــ هو يلعب بالنار ـــ أعطاه صوته في الانتخابات ـــ هذه نقطة ارتكاز ـــ يقبض علي دفة الأمور ـــ يلعب دورا في هذا الموضوع ـــ فلان يؤيده الشارع ـــ هو رجل الساعة ـــ كلمه بطرف شفتيه ـــ توترت العلاقات بين البلدين ـــ تلبد جو السياسة بالغيوم ـــ هو حجر عثرة في سبيل كذا ـــ يصطاد في الماء العكر ـــ يشرب علي صحة فلان أو علي شرف فلان ـــ يضحك ضحكة صفراء ـــ يفعل كذا بصفته كذا ـــ موضوع وارد وغير وارد ـــ تصفية المحل التجاري والتصفية القضائية ـــ هو عظيم بمعني الكلمة ـــ قاع بالمساعي الحميدة ـــ هو لا محل له من الإعراب ـــ صتحب كرسي في الجامعة ـــ يتمتع بالحصانة النيابية أو القضائية ــ يحرق البخور بين يديه ـــ ذهب ضحية ما يؤمن به- ضحي علي مذبح أغراضه ـــ أصاب عصفورين بحجر واحد- تصعيد الموقف أو الأزمة ـــ سيولة نقدية ـــ تغطية الحوادث ـــ جمد الأموال في المصرف ـــ فاتهم القطار ـــ جلسوا إلى مائدة مستديرة ـــ كانوا علي مستوي المسئولية ـــ تبلورت الفكرة ـــ يذرف دموع التماسيح ـــ أتي علي الأخضر واليابس ــ جريا علي خطته التقليدية ـــ فلان يلعب بالنار ـــ حدث هذا في جو يسوده الود ــ هذا هو سر المهنة ـــ يلعب دورا علي مسرح السياسة ـــ يشق طريقه في الحياة ـــ رمي له القفاز والتقط القفاز .

يكفي أن نلقي نظرة طائر علي مثل هذه المختارات ـــ وهو قليل جدا من كثير جدا ـــ لندرك حجم الجهد وضخامة العبء الذي قام به العاملون في الصحافة والعاملون في الاذاعة والتليفزيون- والمتعاملون مع هذه الوسائل الاعلامية كتابا ومتحدثين ومعدين ومؤلفين ــ لتوسيع كثيرا لغتنا الجميلة ، مع العلم بأن كثيرا من هذه الأساليب والمفردات قد أجازه مجمع اللغة العربية في دوراته ومؤتمراته المتعاقبة ، وهو أمر يذكرنا بالدراسة المبكرة الني قام بها الشيخ ابراهيم إلى ازجي بعنوان: لغة الجرائد وقد صدرت هذه الدراسة عن دار المعارف منذ ثلاثة وتسعين عام ا ، كما يذكرنا بالواقعة الطريفة التي حدثت لا حد رؤساء التحرير في صحيفة مصرية- في أواخر القرن التاسع عشر- وجد نفسه أمام حادث وقع للآلة التي تجر عربات السكة الحديدية ـ وكانت جديدة علي مصر وقتها ـــ عندما سقطت في النيل أثناء مرورها من فوق أحد الجسور . لقد أدرك أنه بحاجة إلى لفظ جديد للتعبير عن أحد المخترعات الحديثة بديلا لهذه العبارة الطويلة: الآلة التي تجر عربات السكة الحديدية ، فأسعفته ثقافته اللغوية التراثية في احياء لفظ قديم للتعبير عن مدلول حديث وكان هذا اللفظ هو القاطرة لا ن القاطرة هي اسم للناقة التي تتقدم القافلة . ومن يومها والاسم شائع الاستعمال في حياتنا الحديثة مقرونا بكلمة قطار .

هذا الموقف الذي مر به أحد رؤساء التحرير- في أواخر القرن التاسع عشر- نموذج لا لوف المواقف التي تمثل تحديات حقيقية أمام لغة الصحافة والاذاعة والتليفزيون في احتشادها إلى ومي ، الوظيفي ، من أجل ملاحقة كل جديد ، والارتفاع إلى مستوي احتياجات العصر ، وتدبير الكلمة المطلوبة والعبارة المناسبة والمصطلح الدال المحكم وهو جهد لا يعرفه إلا العاملون في المطبخ الصحفي والاعلامي ، وشغلهم الشاغل ترجمة كلمة واصطناع عبارة أو اشتقاق صيغة أو اللجوء إلى التعريف أو القياس ، وقد يؤدي بهم هذا الموقف الضاغط بدافع الاحتياج السريع والخدمة العاجلة إلى سرعة التصرف والابتكار أو الجرأة- أحيانا- علي القواعد والضوابط والأصول- لكن عذرهم أن نشرة الأخبار لا ينبغي لها أن تتأخر ، وأن التعليق لا بد أن يقدم في موعده وأن آلات الطباعة علي أهبة الدوران قبل أن يشرق صباح يوم جديد . ولعل التوفيق الذي صاحب اللغة الاعلامية في صياغات أسلوبية جديدة مثل: حرب الاستنزاف (التي كانت قائمة قبيل معركة أكتوبر المجيدة) والتراشق بالمدفعية وصفا لهذه الحرب التي كانت تدور بين طرفين كل منهما في مكانه وموقعه ، فهما إذن يتراشقان- أي يتبادلان القذف- عن بعد ، ومثل: الهدوء النسبي أو الهدوء الحذر أو المشوب بالحذر وصفا لجبهة القتال أو جبهة المباحثات والمناورات العسكرية والسياسية .

طبعا الفضل الأول للترجمة والمترجمين النشيطين في هذا كله ، والفضل ـــ بعد ذلك ـــ لمخزون هؤلاء الجنود الاعلاميين المجهولين في مجال إثراء اللغة ـــ من اللغة

التراثية وأدبها الزاخر بالكنوز ، والترجمة الناجحة تعني القدرة اللغوية العالية لدي المترجم في اللغتين: العربية والأجنبية ، وتعني — علي مستوي الممارسة الواسعة — أن يكون صاحب أسلوب ، قادرا علي الابتكار ، لا مجرد ذاكرة حافظة لمفردات المعجم أو القاموس .

تحضرني الآن — علي البديهة — أسماء عدد من مترجمينا العلماء الأفذاذ الموهوبين في مجالات شتي من المعرفة أمثال: طه حسين ومحمد مندور و عبد الرحمن بدوي و عبد الوهاب عزام ومجدي وهبة ولويس عوض وثروت عكاشة ومحمد غنيمي هلال ومصطفي فهمي وأحمد مستجير وحسين نجيب المصري وشوقي جلال وفؤاد بلبع وصولا إلى الرعيل الذي يضم عبد الغفار مكاوي ومحمد عناني وأحمد عتمان وابراهيم شتا وماهر شفيق فريد وأمل ابراهيم وغيرهم من المترجمين المبدعين لرسوخ أقدامهم في اللغتين .

فبهؤلاء ، وبغيرهم ، أمكن لفصحي العصر أن تكون لغة حياة وتطور ، وأن تكون مختلفة عن لغة التراث في الكثير من معجمها اللغوي وهندسة تراكيبها وأنظمة جملها وتعابيرها ، واتساعها للجديد من ألفاظ الحضارة أو ما يسمي بمفردات الحياة العامة ومصطلحات العلوم .

ولقد شاركت وسائل الاعلام — مسموعة ومقروءة ، حية وصامتة ، بالنصيب الأوفي من متن هذه اللغة ، بالاضافة إلى انجازات الكتاب والمؤلفين والمترجمين والمبدعين ، في شتي مجالات المعرفة وسائر ميادين الابداع .

والحديث موصول .

لغتنا الجميلة في وسائل الإعلام (٣)

بقلم: فاروق شوشة

دائرتان كبريان يدور في إطارهما الكلام عندما نتحدث عن لغتنا الجميلة في وسائل الإعلام .

الدائرة الأولي تتمثل فيما يسمي بالتنمية اللغوية ، أي الدور الإيجابي الذي تقوم به هذه الوسائل من صحافة وإذاعة وتليفزيون وهي تضيف في كل يوم جديدا إلى متن اللغة ومعجمها العصري وإلي أساليبها وهندسة تراكيبها .

وهو دور جعل منها رأس حربة ، متقدما ، نافذا ، واسع التأثير والانتشار ، كما جعل من العاملين في وسائل الإعلام هذه جنودا مخلصين في ميدان هذه اللغة ، كتابة وتأليفا وترجمة وتعريبا وصوغا لا لفاظ الحضارة ومصطلحات العلوم .

رأس الحربة - الذي نشير إلى ه - هو الذي يحرك الساكن في بحيرة اللغة ، ويجعلها حية وقادرة ، حافلة بالإمكانات في التعبير والتصوير ، مستجيبة لكل دواعي الحياة الجديدة ومطالبها ، قادرة علي الوفاء باحتياجات العصر . بلاغتها تكمن في خلوها من الحشو والإطناب والتزيد ، وحرصها علي التحديد والحتمية ، والبعد عن السجع اللفظي والسجع العقلي ، بالإضافة إلى انتاجها المستمر واتساعها لكل ما هو جديد ، واخضاعه للتجربة الميدانية والممارسة الفعلية قبل الاحتكام إلى الذوق العام ، الذي يحكم لمكتسباتها بالشيوع والذيوع .

الدائرة الثانية تتمثل فيما يسمي بالانحراف اللغوي ، وهو كل ما يخرج باللغة عن مألوف السلامة والصحة بناء أو تركيبا أو نحوا أو صرفا ونطقا واداء صوتيا . وفي هذه الدائرة تلتقي دائما سهام الذين لم يعد يرضيهم واقع الحال علي ألسنة المذيعين وعلي أقلام بعض الكتاب .

ما أكثر الكتابات الناقدة والغاضبة التي تنحي باللائمة علي وسائل الاتصال - خاصة الإذاعة والتليفزيون - فيما يتصل بإفساد لغة الناس ، وإشاعة الأخطاء ، والتخلي عن الدور الذي كان للإذاعة - بصفة خاصة - ذات يوم ، عندما كان العاملون فيها من المذيعين ومقدمي البرامج قدوة لغوية صحيحة للمجتمع ، ونماذج يحتذيها الجمهور المستمع في السلامة والصحة والضبط والنطق ، وعندما بدأ الخلل يتسلل إلى هذه الصورة التي كانت جميلة ومشرقة ذات يوم ، بدأ كبار الإذاعيين يلفتون انتباه الأجيال الشابة إلى محاكاة العاملين في إذاعة لندن العربية ، وتقليدهم في الحرص علي الصحة اللغوية

وسلامة النطق والأداء . وسرعان ما أدرك مذيعي إذاعة لندن ما كان قد أدرك غيرهم في كل الإذاعات العربية ، من انهيار في المستوي ، وبعد عن النموذج الذي يمكن أن يكون قدوة ومثالا وهكذا أصبحت الحال المتردية عام ة وشاملة غير مقصورة علي وسائل الإعلام في بلد عربي دون آخر .

وهو ما يؤدي إلى نتيجة شديدة الوضوح والبساطة وهي أننا فشلنا ـ بمستويات مختلفة ـ في إيجاد نظام تعليمي ينجح في إحكام تعلم اللغة العربية ، ويفتح المجال امام حب هذه اللغة وأدبها والاعتزاز بها ، والاستمتاع بما تضمه من روائع وكنوز في تراثها القديم وايداعها الحديث والجديد ، وإنضاج ذائقة قادرة علي اكتشاف مواطن الجمال ، والالتفات إلى مواضع الصواب والخطأ ، والأداء المبين الناصع لصوتيات هذه اللغة بالتدريب الحي والممارسة الوظيفية التي تجعل من الدرس اللغوي قراءة ممتعة ، ومواقف حية ـ مماثلة لمواقف الحياة تماما ـ يتم من خلالها التعلم والمران واكتساب القدرات والمهارات .

الغريب أن مراكز تعليم اللغات الأجنبية في بلادنا قد سبقتنا بكثير إلى صيغة أكثر نجاحا في تعلم هذه اللغة ، وهي الصيغة السمعية البصرية ، التي تقوم علي الاستماع إلى تسجيلات علي درجة عالية من الاتقان والجودة لنصوص تمثل منهج الدراسات سجلها أساتذة متخصصون في الاداء والالقاء ، ويبدأ الدرس بتقليد هذا النطق وهذا الاداء الرفيع والتمكن من صوتياته ، ثم ينتقل إلى التعامل مع المواقف إلى ومية والوظيفية للاستخدام اللغوي .

وهنا يبدأ البصر في ملاحقة المشاهد التي تعرض أمام المتعلم حتي يستوعب ويحاكي بعد ذلك ما يقال ومالا يقال ، وكيف يكون التصرف في المواقف المختلفة ، بلغة صحيحة سليمة ، متيسرة ، لا حذلقة فيها ولا حوشية ولا افتعال .

فهل آن الأوان لنقل خبرة الآخرين في مجال تعليم اللغات إلى دروس اللغة العربية ؟ وهل آن الأوان للقضاء علي الجفوة والكراهية التي تصيب النشء المتعلم ـ في بداية حياته التعليمية ـ من درس اللغة العربية كتابا ومنهجا ومعلما واسلوب تعليم ؟ إن الإذاعات والتليفزيونات العربية عاكفة علي امتحانات سنوية لا ختيار أفضل العناصر من بين المتقدمين للعمل فيها بالآلاف ، وتضطر في نهاية الأمر إلى أخذ أقل هذه العناصر سوءا وأخطاء ، ثم تقوم بعد ذلك بعقد دورات تدريبية عام ة وخاصة ومكثفة لمن اتيحت لهم فرصة العمل فيها ، ومن بين هذه الدورات ما يسمي بدورة المستوي الرفيع واللغة العربية ، لكن هل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟ لقد تم تأسيس هذه الأجيال وصنعها في ظل نظام تعليمي ندعي كل يوم في صلف ومكابرة ـ أنه عصري ومتطور ، وهو في حقيقته أبعد ما يكون عن الصيغة المطلوبة للتعليم والتعلم ، خاصة في مجال اللغة العربية !

مـا نـستمع إلى ه ونـشاهده هـو إذن أفـضل الـسيىء - مـن الواجـب أن نـشيد بنـسبة قليلـة مـن العاملين تحـرص علـي إتقـان أداتهـا اللغويـة والقيـام بـدورها علـي أكمـل وجـه - كمـا أن الواجـب أيـضا يقتـضي الإشـارة إلى أن نـسبة مـن الـذين يمثلـون الـسيىء والهـابط جـاءت بـسبب المجاملـة والـضغوط الـتي تمـارس وأحيانـا تبـادل المنـافع وأحيانـا أخـري بـسبب التهـاون في التعامـل مـع النمـوذج الفاقـد للقـدرة والإمكانيـة ظنـا مـن القـائمين بـالأمر أنـه قـد يـصبح أفـضل ولكـن هيهـات !

هــل عقمــت مــصر عــن انجــاب اصــوات ســليمة وقــادرة ؟ إطلاقــا . هـل أصـبحت النمـاذج الـسيئة صـوتا وأداء وقـدرة لغويـة قـدرا لا يمكـن التعامـل معـه أو تغـييره ؟ إطلاقـا . إذن فلـم يـستمر الحـال علـي مـا هـو عليـه ؟ ولـماذا لا تكـون هنـاك وقفـة مـع فاقـدي الأهليـة والقـدرة والإمكانيـة ؟ لـماذا لا يكـون هنـاك عـام أو أعـوام للغـة العربيـة في وسـائل الإعـلام ، يثـاب فيـه المتميـزون ويجـازي فيـه المتخلفـون بالإبعـاد والتنحـي وافـساح الـسبيل أمـام مـن يمتلكـون القـدرة ويحـسنون الأداء ؟ عـام أو أعـوام تتنـافس فيـه الـشبكات الإذاعيـة والقنـوات التليفزيونيـة ويحـرص الجميـع علـي الاقـتراب مـا أمكـنهم الاقـتراب مـن الـصحة والـسلامة والـصواب مـن خـلال عربيـة ميـسرة ، هـي في أساسـها لغـة الـتي يقرؤهـا الجميـع ويفهمهـا الجميـع ، والـتي أصـبحت لغـة الوسـائل الاتـصال الأحـدث: الإذاعـة والتليفزيون والفضائيات .

ثـم هـذا الطوفـان الهائـل مـن العاميـة واللـهجات المحليـة ، بمناسـبة ودون مناسـبة . وهـذه الحـوارات الفجـة والهابطـة الـتي أصـبحت سمـة عـام ة مـن خـلال انفجـار حـواري في بـرامج الإذاعـة والتليفزيـون والفـضائيات ، وأصـبحت عبـارة بـث مباشـر علامـة علـي الـسطحية والتفاهيـة والوقـوع في أسـر الأسـئلة الـساذجة والاجابـات الأكثـر سـذاجة ، وتمييـع الموضـوع - حـتي لـو كـان جـادا - وقطـع الـسياق - الـذي قـد يكـون علـي قـدر مـن المعقوليـة والمنطقيـة - لا فـساح المجـال أمـام مكالمـات المـستمعين والمـشاهدين وهـي في جملتهـا هبـوط بالمـستوي وفقـدان للقيمة والهدف وثرثرة فيما لا يفيد .

هـذه المـساحة مـن العاميـة واللـهجات المحليـة ، ذات الأداء اللغـوي الهـابط هـي بمثابـة وصـمة عـار علـي جـبين وسـائل الإعـلام المـسموعة والمرئيـة ، وهـي وصـمة قـادرة علـي تــشويه كــل أثــر جيــد وفعــال لهــذه الوســائل في تحقيــق التنميــة اللغويــة . حـدث واحـد قبـيح أو لـسان واحـد عـاجز عـن النطـق الـسليم والإبانـة الناصـعة أو مذيعـة واحـدة لا تحـسن مـن أمـور لغتهـا شـيئا ، كفيـل بتـشويه الـصورة الكاملـة للإذاعـة الـتي يعمـل فيهـا أمثـال هـؤلاء أو التليفزيـون الـذي نجـح كـثيرون مـنهم في التـسلل إلى قنواتـه وبرامجـه في زمـن الانفلات وانعدام الالتزام .

من هنا فقد كان مؤتمر مجمع اللغة العربية لهذا العام ـ الذي جعل من اللغة في وسائل الإعلام موضوعا رئيسيا له ـ حريصا في توصياته ، علي إبراز أهمية الاهتمام بحسن اختيار المذيعين ومقدمي البرامج ، وأهمية تدريبهم بواسطة أساليب لا تقلد أسلوب المحاضرة الجامعية وإنما تهتم بالممارسة اللغوية في المواقف العملية المختلفة وتصويبها بطريقة فورية من غير أن يكون التركيز كله علي قواعد النحو والصرف وكأنها وحدها الهدف والغاية .

كما كان حرص المجمع ـ في إطار هذه التوصيات ـ علي عروبة مسميات البرامج في الاذاعة والتليفزيون والدعوة إلى التوقف عن المسميات الأجنبية التي يحلو للبعض استخدامها علي سبيل العصرية أو التظرف ، وإلي أن تكون العربية الميسرة هي اللغة المستخدمة في برامج الطفل والرسوم المتحركة . والعمل علي اتساع مساحة الغناء الفصيح ـ في كل من الإذاعة والتليفزيون ـ لمواجهة طوفان الركاكة والسوقية في الغناء الذي يستخدم مستويات متدنية من العامية واللهجات المحلية ويشيع علي ألسنة الناس معجما لغويا لا علاقة له بالتحضر من ناحية ولا بالصحة اللغوية من ناحية أخري . ودعوة وسائل الإعلام إلى الالتزام بالفصحي الميسرة في المجالات السياسية والثقافية والدينية والعلمية . وهنا لا بد من الإشارة إلى أنه لا مفر من استخدام العامية في جانب من مجالي الدراما الإذاعية والتليفزيونية والغناء . لكنها العامية المتوهجة بالإبداع الفني ، البعيدة عن السوقية والابتذال والتي لم يتوقف الحوار بينها وبين الفصحي علي مستوي الصورة والدلالة والمجاز وللعامية الجميلة بلاغتها كما أن للفصحي الجميلة بلاغتها ، وبالوجهين معا من البلاغة تكتمل جوانب العمل الدرامي والإبداع الذي يجتذب ملايين المستمعين والمشاهدين للتمثيليات والمسلسلات الإذاعية والتليفزيونية ، مما جعل بعضا ـ من نقادنا ومثقفينا ـ ينظرون إلى هذه الوفرة الدرامية باعتبارها ديوان العرب في عصرنا الحاضر ، وبدلا من القول بزمن الشعر وزمن الرواية فإنهم يقولون بزمن المسلسلات والتمثيليات !

لقد اقترب مجمع اللغة العربية ـ في مؤتمره لهذا العام ـ من المجالات اللغوية الحية ، وكانت البداية مع وسائل الإعلام ، مما يوحي بأن انطلاقاته القادمة سوف تتجه إلى ما يراه الجمهور أولي بعمل المجمع والبحث فيه ودراسته . والذي لا شك فيه أن أمام المجمع مجالات واسعة لا بد من الخوض فيها وليس فقط الاكتفاء بالاقتراب منها . وفي مقدمتها ما يتصل بلغتنا الجميلة وتحديات القرن الحادي والعشرين ، وهو موضوع مهم وشامل يتسع لدراسة أمور كثيرة متداخلة ومتشابكة في مقدمتها: العولمة والهوية اللغوية ، والترجمة علي مستوي الوطن العربي من العربية وإليها ، وحوار اللغات ودور اللغة العربية فيه ، ولغتنا الجميلة في أنظمة التعليم العربية وقضية المصطلح العلمي:

توحيدا ودورانا وتأليفا في مجال الثقافة العلمية بالإضافة إلى قضية المعجم العربي الحديث .

ولسوف يري عدد من أعضاء المجمع من المصريين والعرب أن هناك موضوعات أخري أولي بالبحث والدراسة واتخاذ المواقف والسياسات اللغوية ، مما يثري عمل مجمع الخالدين للسنوات القادمة ويجعله أكثر جرأة وقدرة علي التصدي والمواجهة . وقد بدأت بوادر هذا التحول في الموقف والسياسة من خلال توصية مؤتمر المجمع لهذا العام بالمطالبة بأن تكون الفصحي هي لغة الخطاب الرسمي في كل البلاد العربية . والخطاب الرسمي في أي مجتمع لا يقتصر علي قادة المجتمع وحدهم ، لكنه يشمل كل من له رأي في صنع القرار ، بدءا بالملوك والرؤساء وكثير منهم يتمسكون بالفصحي - وانتهاء بالوزارة ورؤساء الهيئات والمؤسسات وصولا إلى طبقة المديرين ، والحرص علي استخدام اللغة العربية في كل مشاركاتنا وحواراتنا ولقاءاتنا مع الوفود والمؤسسات والمؤتمرات الدولية ، تدعيما لهيبة لغتنا الجميلة وتأكيدا للاعتزاز بها ، وهو الأمر الذي يحترمه الجميع ويقدرونه . خاصة بعد أن أصبحت لغة رسمية ضمن اللغات المعترف بها في دوائر الأمم المتحدة ، منذ عام ألف وتسعمائة وأربعة وسبعين .

هذه الخطوة المجمعية بداية نوعية لها ما بعدها ، ولن تضيع الحوارات الساخنة - التي حفل بها مؤتمر هذا العام - هباء . لقد بدأت أصوات المطالبة بالتغيير ، والعمل علي تحريك الجمود ، وملاحقة الإيقاع السريع للعصر ، ولا أظن أنها أصوات سوف تهدأ أو أن مطالبتها بالتغيير سوف تتوقف .

تبقي الإشارة إلى أن قضية اللغة العربية في وسائل الإعلام تتطلب بحثا ميدانيا يكمل الجهد الرائد الذي قام به منذ أكثر من ربع قرن عالم الدراسات اللغوية الدكتور السعيد بدوي في كتابه : مستويات العربية المعاصرة في مصر ، ولا بديل عن النزول إلى واقع الممارسة اللغوية جمعا وإحصاء وتحليلا للخروج بنتائج حقيقية وموضوعية وهو الأمر الذي يثير قضية الجمع الميداني للفصحي المعاصرة باعتباره المدخل الحقيقي لوضع معجم عصري للغة ، لا يكتفي بالنقل عن المعاجم القديمة أو الإضافات القليلة الجزئية والهامشية التي لا تتناسب مع حجم المادة اللغوية الحديثة التي لم تتضمنها المعاجم اللغوية بسبب التعنت في الوقوف بالاستشهاد عند حد تاريخي معين ، والتردد في قبول ألوف الكلمات والصيغ والتعابير والمصطلحات الجديدة التي تمثل عصرية اللغة وحيويتها وقدرتها علي الإضافة والابتكار .

هامش علي المتن:

قلبي مع بعض من يتصورون - واهمين - انهم بالسوقية والبلطجة يمكن أن يكون لهم دور أو زعامة في حياتنا الثقافية ، والمؤلم أنهم لم يكتشفوا - بعد أن سودوا الصفحات بأقلامهم وأقلام صبيتهم الذين اختفوا خلف أسمائهم - أنهم لا يخيفون أحدا ولا يغيرون واقعا .

وأن حصادهم الوحيد هو المزيد من السخرية والتندر والتهكم !
كثيرا ما ينجح الطب في علاج امراض الجسد ، لكن أمراض النفوس والأرواح تستعصي علي العلاج ، عندما تصاب بالعطب ، وتدفعها أحقادها السوداء إلى التهلكة والدمار .

يقول شوقي :

أساة جسمك شتي حين تطلبهم
فمن لروحك بالنطس المداوينا ؟

دفاعاً عن فصحى العصر في وسائل الأعلام

بقلم : فاروق شوشة

بدعوة من قسم علم اللغة والدراسات السامية والشرقية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة انعقد مؤتمر علم اللغة الأول يومي١٧ و١٨ ديسمبر الماضيين تحت عنوان اللغة في وسائل الإعلام برعاية الدكتور نجيب الهلالي جوهر رئيس جامعة القاهرة ومقرر المؤتمر الدكتور محمد حسن عبد العزيز رئيس قسم علم اللغة ورئيس المؤتمر والدكتور أحمد عبد العزيز كشك عميد كلية دار العلوم . وشارك في المؤتمر عشرات من الأساتذة والباحثين و الإعلاميين المصريين والعرب يمثلون خبرات أكاديمية وإعلامية واسعة ودارت محاورة حول أثر الإعلام في اللغة العربية لغة الإعلام: شهادات وملاحظات أجهزة الإعلام والتدريب اللغوي ، المستويات اللغوية للإعلام ، لغة الإعلام: تجارب وخبرات ، والبنية اللغوية للخطاب الإعلامي .

من خلال متابعة لجلسات المؤتمر ومشاركة في بعضها أحسست كأن المخططين له قصدوا به أن يكون ردا علميا عمليا علي ما يشاع من أن أجهزة الإعلام أو وسائل الإتصال بالجماهير قد أساءت إلى اللغة العربية وعملت علي ضعفها وتدنيها وتهيئة الفرصة والمناخ لسيطرة العامية علي كثير مما تقدمه هذه الوسائل بدءا بالصحافة والإذاعة والتليفزيون وربما كان مصدر هذا الذي يشاع: التندر المستمر علي أخطاء بعض المذيعين والمذيعات وركاكة اللغة العربية علي ألسنتهم نطقا وبنية كلمات وسلامة تركيب وأيضا ما يأخذه كثير من قراء الصحف والمجلات علي أخطاء لغوية وصياغية فيها أصبحت نسبتها تتزايد في السنوات الأخيرة وتجاوزت في انتشارها الكتابات الصحفية إلى العناوين الرئيسية أو ' المانشيتات ' بلغة الصحافة ، فضلا عن طغيان الإعلانات التي تستخدم العامية أو الفصحي المشوهة .

لكن هؤلاء المتندرين والعائبين لم يلتفتوا في غمرة النقد والتقريع والتهكم إلى ما تقوم به أجهزة الإعلام من دور في نشر وإذاعة اللغة: حية منطوقة مسموعة هي حية بصوتياتها وقواعد أدائها وإبانتها مسمعة للملايين من المواطنين حتي يتعلموا ويتدربوا علي النطق السليم ، كما أن نسبة المادة اللغوية الصحيحة فيما يقدم ويذاع تنتظم مساحة واسعة من القراءات القرآنية والنشرات الإخبارية والبرامج السياسية والعلمية والأدبية والثقافية والأحاديث والدراما الدينية والتاريخية والبرامج التسجيلية والوثائقية وهي نسبة تتزايد باستمرار .

من هنا فقد ركز كثير من أبحاث المؤتمر علي الآثار الإيجابية لوسائل الإعلام في اللغة وأصبح الحديث عن فصحي العصر أو فصحي المعاصرة- التي تشيع في أجهزة الإعلام - النغمة الأساسية السائدة في معظم الأبحاث والدراسات والمداخلات بدءا بورقة الدكتور محمد حسن عبد العزيز- مقرر المؤتمر والداعي إلى ه والمهتم بالقضية التي يطرحها منذ دراسته للدكتوراه عن لغة الصحافة مؤكدا أن الفصحي المعاصرة هي اللغة المشتركة في العالم العربي المعبرة عن هويته وثقافته وأن هناك عوامل مؤثرة في بنية الفصحي المعاصرة هي العامية واللغات الأجنبية والتراث العربي كما أن مظاهر الحداثة في الفصحي المعاصرة تتجلي في المفردات' منذ بدأت حركة التحديث في منتصف القرن التاسع عشر ولاتزال قائمة حتي إلى وم نهض بها وحدد طرقها اللغويون والعلماء والصحفيون ثم جاء مجمع اللغة العربية فاعتمدها وصاغها في قرارات علمية يراعيها كل من ينشد لفظا جديدا أو عبارة جديدة عن طريق الاشتقاق من جذور لغوية موجودة أو إلحاق مدلول جديد للفظ بمدلول سابق له أو صياغة مفردات أو عبارات بالاشتقاق المعنوي أو الاشتقاق بالترجمة أو التعريب . وكانت النتيجة أن اغتنت هذه الفصحي المعاصرة وأصبحت وافية بمطالب الثقافة العربية المعاصرة . كما لا حظ الباحث تعرض بناء الجملة في الفصحي الحديثة- وهو ما يسمي أيضا بهندسة تركيب الكلام- لتغيرات كثيرة بتأثير اللغات الأجنبية أساسا وبسبب عوامل أخري تتصل كلها بضرورة الوفاء باحتياجات العصر: المتسارعة والمتزايدة .

والمطلع علي الأجزاء التي أصدرها المجمع من كتاب' في أصول اللغة' يجد مادة وفيرة من ألفاظ وأساليب عربية ومعربة أقرها المجمع لعل من أكثرها شيوعا ضبط كلمة' منطقة' بكسر الميم أو فتحها- كما يشيع علي الألسنة- لمعني المكان أو الدائرة . وضبط كلمة' متحف' بضم الميم وفتحها وضبط' حدث' بضم الدال في تعبير' ما قدم وما حدث' ازدواجا أو إتباعا لقدم- بضم الدال- كما نص اللغويون وإجازة كلمة' التبرير' بمعني' التسويغ' وإجازة أسلوب' تقدم إلى فلان بكذا' بمعني طلبه أو التمسه وجواز استعمال التقييم بمعني بيان القيمة فرقا بينها وبين تقويم الشئ أي تعديله وإجازة قول الكتاب' بواسطة كذا' تماما كما يقال' بوساطة كذا' بمعني الوسيلة كما أجاز قولهم: حدث هذا أثناء الصيف بحذف حرف الجر' في' كما يقال' في أثناء الصيف' وقول القائل: فعلت كذا رغما عنه أو رغمه كما يقال: علي الرغم منه وبالرغم عنه وصحة دخول الباء الجارة علي المتروك وعلي المأخوذ ويعين ذلك سياق التعبير في مثل: استبدل الأتراك الحروف اللاتينية بالحروف العربية أو الحروف العربية بالحروف اللاتينية . وصحة لفظ المتنزه بعد أن كان الصواب مقصورا علي استعمال المتنزه وصواب ملاك بمعني ملك وجواز قول الكتاب: فلان

خطيبا أعظم منه كاتبا وفلان عالما أكثر منه كاتبا بنصب' عالم' علي أنه حال مقدم ورفعه أكثر علي أنه خبر والمعني أن فلانا في حال كونه عالما أكثر منه في حال كونه كاتبا .

لقد اتسعت لغة العصر للعديد من الاستعمالات المحدثة التي لم يكن للعربية عهد بها والعديد من الأساليب التي أنكرها اللغويون في أول الأمر باعتبارها مخالفة للقواعد ، لكن الزمن والحاجة أتاحا لا غلبها شيوعا فأصبحت من نسيج الفصحي . وجاء اعتماد المجمع لها وإجازتها في مؤتمراته اكتسابا لشرعية التداول والاستخدام وكانت وسائل الإعلام هي الأسرع في نشر هذه الاستعمالات والأساليب ومنحها حرية الحركة والدوران علي الألسنة والأقلام] ولابد من الإشارة هنا إلى الدراسة الرائدة للعالم اللغوي الدكتور / السعيد بدوي بعنوان' مستويات العربية المعاصرة في مصر' والذي كرمه المؤتمر كما كرم العالم اللغوي الدكتور / كمال بشر الأمين العام لمجمع اللغة العربية لجهوده الرائدة في اللغة وفي التدريب[وفي هذا السياق نفسه سياق إبراز الآثار الإيجابية للغة الإعلام كانت دراسة العالم اللغوي الدكتور أحمد مختار عمر أستاذ علم اللغة بكلية دار العلوم وعضو مجمع اللغة العربية عن الاستجابة الآنية لا حتياجات اللغة وسد فجواتها المعجمية مشيرا إلى ما تتميز به أجهزة الإعلام من إيقاع سريع واستجابة فورية لا حتياجات الجماهير التعبيرية وهي بهذا تسبق مجامع اللغة وتقود عملية الإبداع وصنع اللغة . وهو يري أنه- إلى جانب مئات الكلمات التي تضخها لغة الإعلام كل يوم- هناك جملة من الأبنية التي توسعت فيها مثل الإكثار من توليد أفعال علي وزن فعل- بتشديد العين- أو فوعل أو فعلن لا فادة التعدية ونقل أثر الفعل إلى مؤثر خارجي والإكثار من استخدام المصدر الصناعي وجمع الجمع والنسب بزيادة الألف والنون أو بزيادة الواو أو النسب إلى ألفاظ الجموع والاشتقاق من أسماء الأعيان والأسماء المزيدة ومعاملة بعض المركبات الإضافية أو الوصفية معاملة الألفاظ المفردة . ونجح الباحث في سوق مئات الأمثلة والاقتباسات من لغة الإعلام المسموعة والمكتوبة مع الاستعانة بقواعد البيانات وشبكات الإنترنت ، والكثير من هذا الذي اتسعت له اللغة في أجهزة الإعلام أقره المجمع وحكم بصواب كما فعل في عجوز وعجوزة وصبور وصبورة وعطشان وعطشانة وعطشانون وعطشانات وجمع مشروع علي مشاريع وقد كان القياس فيه مشروعات وجمع المذكر العاقل علي فواعل مثل باسل وبواسل مستأنسا بغامض وغوامض وساقط وسواقط وسابح وسوابح ورافد وروافد وهالك وهوالك وفارس وفوارس وجواز جمع أبيض وأحمر: أحمرون وأبيضون وجواز كيميائي وكيمياوي بإثبات الهمزة أو قلبها واوا في النسب . وتيسيرا علي الكتاب أجاز إدخال الـ علي العدد المضاف دون المضاف إلى ه فيقال: الخمسة كتب والمائة صفحة والألف كتاب وجواز تقديم لفظ النفس أو العين علي المؤكد فيقال: نفس المصدر وعين الرجل . وهي مجرد أمثلة من كثير كثير .

كـان مـن نـصيبي في هـذا المـؤتمر إدارة نـدوة أو مائـدة- غـير مـستديرة- بعنـوان لغـة الإعـلام: شـهادات وملاحظـات[1] شـارك فيهـا الكاتـب الكـبير الـدكتور أحمـد يوسـف القرعـي نائـب رئـيس تحريـر الأهـرام والإعلامـي الـسوري أحمـد حلـواني- المـدير العـام الأسـبق لهيئـة الإذاعـة والتليفزيـون في سـوريا والإذاعـي القـدير عبـد الوهـاب قتايـة والإعلامـي عبـد الحلـيم عـام ر الـرئيس الـسابق لمعهـد تـدريب الإذاعـة والتليفزيـون . وكـان مـثيرا للاهتمـام أن يتحـدث الأسـتاذ القرعـي عـن حجـم المعانـاة وراء العديـد مـن الـصياغات الـصحفية العربيـة لمـا تنقلـه وكـالات الأنبـاء مـن مـادة إخباريـة أو علميـة أو ثقافيـة ومـدي الحـرص علـي صـياغة كـل جديـد مـن المفـردات أو المـصطلحات أو التراكيـب في صـيغة عربيـة صـحيحة ومـا يتطلبـه الأمـر مـن اجتهـاد وحـوار بـين العديـد مـن العـاملين وصـولا إلى مـا يطالعـه القـارئ في صـباح كـل يـوم دون أن يـدري حجـم الجهـد اللغـوي والفـني المبـذول في كـل سـطر مـن سـطور الـصحيفة أو المجلـة ضـاربا العديـد مـن الأمثلـة لمواقـف كانـت تتطلـب القـرار الـصحيح والـصائب حرصـا علـي صـحة اللغة من ناحية والوفاء بما يتطلبه السياق من معني في الوقت نفسه .

هـذا الجهـد المـضني المـستتر عـن عيـون النـاس في صـالات تحريـر الـصحف وإدارات الأخبـار في الإذاعـة والتليفزيـون هـو الـذي قـدم للنـاس علـي مـدار عقـود مـن الزمـان آلاف الـصيغ والتعـابير والتراكيـب الـتي أصـبح شـيوعها الآن- علـي الألـسنة والأقـلام- لا يـستوقف أحـدا ولا يلقـي دهـشة أو استغرابا مـن أحـد . فـنحن نقـول: تكهـرب جـو الـسياسة ، ذر الرمـاد في العيـون ، أعطـي رأيـه في القـضية ، طـرح المـسألة علـي بـساط البحـث ، يـذرف دمـوع التماسـيح ، يمثـل بلـده في المحافـل الدوليـة يكـسب خبـزه بعـرق جبينـه ، وضـع الـنقط علـي الحـروف يقـبض علـي دفـة الأمـور لا جديـد تحـت الـشمس ، لا يـري أبعـد مـن أرنبـة أنفـه يلعـب دورا في هـذا الموضـوع ، هـو رجـل الـساعة ، يـصطاد في المـاء العكـر ، يـضحك ضـحكة صـفراء أو صـفراوية ، أمـر وارد ، وغـير وارد ، فـلان يؤيـده الـشارع ، أعطـاه فرمانـا أو شـيكا علـي بيـاض ، هـو يلعـب بالنـار ، جلـسوا إلى مائـدة مـستديرة ، أتـي علـي الأخـضر واليابس هـو مـن الشخـصيات البـارزة ، يـشق طريقـه في الحيـاة رمـي لـه القفـاز والـتقط القفـاز ، هـو فقيـد الواجـب وضـحية الكفـاح ، جريـا علـي خطتـه التقليديـة ، هـو كميـة مهملـة أو كـم مهمـل ، يعمـل علـي ضـوء كـذا أو في ضـوء كـذا ، يرفـع رأس أمتـه عاليـا ، تبلـورت الفكـرة تمامـا ، كـان علـي مـستوي المـسئولية ، يحيطونـه بهالـة مـن الرهبـة ، نظـر إلى المـسألة مـن جميـع أبعادهـا ، مـات ولم يعـرف امـرأة ، تـصفية المحـل التجـاري قـام بالمـساعي الحميـدة ذهـب ضـحية مبادئـه ، أصـاب عـصفورين بحجـر واحـد ، فاتهـا قطـار الـزواج . . . الخ .

وركـز الإذاعـي القـدير عبـد الوهـاب قتايـة علـي الـدور الـذي قامـت بـه إذاعـة صـوت العـرب عـبر تاريخهـا الطويـل- منـذ إنـشائها في منتـصف الخمـسينيات- في نـشر لغـة عربيـة

مشتركة هي الفصحي المعاصرة واقتران هذه الرسالة اللغوية- الموحدة للعرب ثقافيا وفكريا- بالدور الذي كانت تمارسه مصر ريادة وتأصيلا واقتحاما ومصداقية هذا الدور علي المستويات السياسية والثقافية والفنية مقارنا بين صوت العرب عندما كان صوته مسموعا في شتي بقاع الوطن العربي علي مستوي الهندسة الإذاعية والدور القومي وواقعه الآن الذي لا يكاد صوته يسمع خارج مصر ، فضلا عن تراجع الدور وانحساره مما أدي إلى فتح الباب للاغتراب اللغوي وشيوع العاميات واللهجات المحلية وتدني مستوي التذوق الفني والجمالي وضعف التأثير في مجالات شتي قومية وثقافية وفنية .

أما حديث الأستاذ عبد الحليم عام ر فكان يركز علي الشروط التي يجب توافرها في الإعلاميين عند التحاقهم بالعمل وتوضيح البيئة والعوامل التي تؤثر في مستوي المتقدمين وما يواجههم منذ نعومة أظفارهم من مشكلات تعلم اللغة العربية وضعف المدرس وقلة مهارته في تعليم اللغة وتأثير وسائل الإعلام السلبي علي الأجيال الجديدة والبعد عن مصادر المعرفة وممارسة القراءة والكتابة مفصلا مراحل اختيار الإعلاميين في اتحاد الإذاعة والتليفزيون وملقيا الضوء علي كيفية إعداد الإعلاميين لغويا وتوضيح دور اللغة في وسائل الإعلام . أما الخطط التدريبية المتبعة فتتضمن التدريب اللغوي ضمن دورات تدريبية بمعمل اللغات والتدريب الميداني ضمن دورات معهدي الإذاعة والتليفزيون والتدريب اللغوي داخل قطاع الإذاعة والتدريب اللغوي ضمن برامج التدريب التنموي للإذاعات المحلية .

أما الإعلامي السوري أحمد حلواني فقد انصبت مداخلته علي أهمية أن يلتحق خريجو الكليات من مختلف التخصصات بالدراسة الأكاديمية في كليات الإعلام باعتبار أن مجال العمل الإعلامي يتطلب تعدد التخصصات وتنوعها ومن شأن هذا الاقتراح- من ووجهة نظره- أن يثري العمل الإعلامي . والطريف أن كلية الإعلام في مصر تفسح لخريجي الكليات المختلفة فرصة الالتحاق بالدراسات العليا فيها للحصول علي دبلوم متخصص في الدراسات الإعلامية بشروط معينة مما يعد تحقيقا بالفعل لجانب أساسي من هذه الفكرة التي طرحت في المؤتمر .

مثل هذا المؤتمر الذي أقامته كلية دار العلوم عن اللغة العربية في وسائل الإعلام مضافا إلى ه المؤتمر الذي عقده مجمع اللغة العربية في دورته الأخيرة (أبريل الماضي) – عن الموضوع نفسه ، يشكلان خطوات في الاتجاه الصحيح للاقتراب بالبحث والدراسة من الواقع اللغوي الميداني والاعتراف بالدور الإيجابي لوسائل الإعلام في لغتنا العربية المعاصرة التي هي اللغة المشتركة للعالم العربي الآن وسجل معارفنا وثقافاتنا وعلومنا . وهي- كما وصفها الباحثون- لغة حية حركية ديناميكية تزداد- في كل يوم- نموا واتساعا وذيوعا واقترابا من الوفاء باحتياجات الإنسان العربي المعاصر وتحقيق هويته في وجه هجمة شرسة

تحاول اقتلاعه من جذوره والعصف بكل ثوابته وركائزه ووصمه بالتخلف والبعد عن شروط التقدم والعصرية . مما يجعل- من حرصنا علي هذه اللغة وعملنا الدؤوب من أجل أن تظل حية متطورة وافية باحتياجات العصر متسعة لكل ما يضخه من جديد في ألفاظ الحضارة ومصطلحات العلوم- تعبيرا عن رغبتنا في البقاء وتمسكنا بالبقية الباقية من شرف هذه الأمة المثلوم وكبريائها الجريحة ودورها التائه في مهب الرياح !

رجع الصدى

بقلم: فاروق شوشة

ورجـع الـصدي هـو رسـائل القـراء الـتي يتلقاهـا الكاتـب فيـدرك علـي الفـور مـدي نجـاح مايكتبـه ـ أو فـشله ـ في تحريـك نـشاط عقلـي أو وجـداني مماثـل عنـد قارئـه ، وبـدون هذا الرجع تظـل كتاباتـه ـ مهمـا بلغـت قيمتهـا مـن وجهـة نظـره ـ دائـرة في فـراغ ، معلقـة بـين سـقف الـتمني وحلـم الوصـول . القـارئ إذن شـريك في عمليـة الكتابـة ، يخلـع عليهـا مـن نفـسه ويثريهـا ، يتوقـف عنـدها ناقـدا أو معترضـا أو رافـضا ، وربمـا يجـدها أقـل ممـا كـان يريد في مجال معين ، شجاعة واستفاضة واقتحاما وقدرة علي إصابة الهدف .

ليـأذن لـي القـراء إذن أن أتخـير مـن بـين رسـائلهم الـتي سـعدت مـن خلالهـا باهتمـامهم ومتـابعتهم لمـا أكتبـه في الأهـرام ، وحـتي الـذين اختلفـوا معـي في بعـض الأمـور أو التفاصيل ، فـإن خلافهـم قـد أسعدني ، لا نـه كـشف عـن زوايـا مـن التنـاول لم تكـن واردة في حـسباني ، وقـذفت بـالكلام إلى أبعـد مـن مراميـه الـتي قـصدتها بالفعـل حـين كتبـت .
أولـي هـذه الرسـائل الـتي اسـتوقفتني ، رسـالة مـن المهنـدس الزراعـي محمـود رضـوان ـ مـن المنصورة ـ يقول فيها ان مقـالي عـن عـام يـة شـوقي جعلـه يعتقـد أنـي مـتحمس للعاميـة أكثـر مـن الفـصحي ، وأنـه أحـس مـن بـين ثنايـا الـسطور أن رأيـي في شـعر شـوقي المكتـوب بالعاميـة يكـاد يقدمـه علـي شـعره الفـصيح . وانقـل مـن رسـالته الكريمـة المقطـع الـذي يقـول فيـه : لقـد احسست وأنـت تـتكلم عـن إبـداع شـوقي في اغنيتـه عـن النيـل الـتي تغـني بهـا الموسـيقار محمـد عبـد الوهـاب وهـي النيـل نجاشـي ثـم في أغنيتـه الثانيـة بلبـل حـيران أنـك مـتحمس لا بداعـه الـشعري في العاميـة . خاصـة وأنـت تقـول : هنـا ـ أي في أغانيـه بالعاميـة ـ يفيـد شـوقي مـن عبقريتـه الـشعرية في سـكب مـاء الـشاعرية علـي لغتـه التعبيريـة والتـصويرية ، والارتفـاع ببلاغة العامية في التعبير إلى الأفق الذي يوازي الفصحي ويتحداها ! .

وأبـادر موضـحا للقـارئ الكـريم أنـي لم اقـصد قـط إلى مقارنـة بـين الفـصحي والعاميـة في إبـداع شـوقي ، ولا إلى تفـضيل احـداهما علـي الأخـري بوصـفهما وجهـي الإبـداع الـشعري عند شوقي .

كـان قـصدي الأساسـي ان أكـشف للقـراء عـن بعـض تجليـات شـوقي في الكتابـة بالعاميـة ، وهـو الوجـه غـير المعـروف كـثيرا وغـير المطـروق بمـا يـستحق مـن عـرض واهتمـام .
وكـان مثـار الدهـشة في الأمـر ان اثـنتي عـشرة مقطوعـة أبـدعها شـوقي بالعاميـة ـ اشـهرها : النيـل نجاشـي وبلبـل حـيران وفي الليـل لمـا خلـي ـ وتغـني بهـا محمـد عبـد الوهـاب في مطلـع حياتـه الفنيـة بـين مـوال ومونولـوج ودور وطقطوقـة ، لا يملـك المتأمـل فيهـا إلا أن يتوقـف أمـام قـدرة

شوقي ـ الذي ولد بباب الخديوي إسماعيل ، كما يقول هو نفسه ، وعاش في رحاب قصره وقصور أبنائه من بعده ـ قدرته علي القرب من نبض العامية المصرية في مفرداتها وتعابيرها وبلاغتها وكأنه واحد من أبناء الشعب العاديين الذين يحتفظ وجدانهم بقاموس العامية ومعجمها والقدرة علي استنطاقها وتوليدها وتوظيفها التوظيف الأمثل . هذه القدرة علي تمثل البيئة الشعبية وتقمص نماذجها وشخصياتها ومستويات لغة التعبير فيها ، هي التي أسعفت شوقي في صياغة مسرحيتيه الشعريتين: الست هدي والبخيلة ، وجعلته قادرا علي اختراق المسافة المتوهمة بين الفصحي والعامية ، وإلغاء الحاجز بينهما ، وعلي إقناعنا ـ إقناعا فنيا ـ أنهما في مثل هذا المقام وجهان لبلاغة التعبير وملاءمة الحال .

وكنت ـ ولا أزال ـ شديد الاعجاب بتوفيق شوقي في وصف النيل بالنجاشي في أغنيته عن النيل ، وكيف أنه توفيق يتجاوز الاشارة إلى أرض النجاشي ـ أي الحبشة ـ باعتبارها من المنابع الأساسية للنيل ، وإلي أن للنيل موكبا ملكيا ـ أو امبراطوريا ـ يماثل موكب النجاشي ، يختال به بين الضفتين موزعا خيره وعطاياه علي رعاياه ، يتجاوز هذا كله إلى المعني العميق والدلالة البعيدة المستبطنة ، لا ن النجاشي ـ ملك الحبشة المسيحي في زمن ظهور الإسلام ـ هو الذي يؤوي المسلمين في هجرتهم الأولي إلى الحبشة ، بالرغم من مخالفة دينهم الجديد لدينه ، مما يجعله رمزا للتسامح الديني والأخوة الروحية كالنيل الذي يشبهه ويماثله ، تعيش علي ضفتيه شعوب إسلامية ومسيحية ، وهو لا يعرف تفرقة أو تعصبا ، لا نه للجميع ، من منبعه حتي مصبه ـ ويذكرنا كلام شوقي عن النيل ـ في عام يته وفصحاه ـ بترانيم إخناتون ـ أول الموحدين علي الأرض والذي كان اسمه قبل ان يقوم بثورته الدينية أمنحوتب الرابع أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة ـ هذه الترانيم التي يخاطب بها الإله الواحد في عقيدته التي خالف بها كل سابقيه:

أنت خالق النيل في هذه الأرض

وأنت الذي أخرجته بإرادتك ، لتحافظ به علي حياة الناس .

خلقت لهم نيلا في السماء ليسقط عليهم ماؤه فيسيل علي الجبال كالبحر الزاخر يروي حقولهم ومدنهم . .

ما أبدع تدبيرك أيها السيد الأزلي ! وهذا التصور القديم ـ منذ اخناتون ـ عن النيل المقدس المعبود ، الذي حلق في السماء ، لم يكن شوقي بعيدا عنه حين خاطب النيل في قصيدته الفصيحة الجميلة التي تتغني بها أم كلثوم بقوله:

ومن السماء نزلت أم فجرت من
وبأي نول أنت ناسج بردة

وبأي عين أم بأية مزنة
عليا الجنان ، جداولا تترقرق
للضفتين جديدها لا يخلق
أم أي طوفان تفيض وتفهق

كما كان الشاعر السوداني المبدع التيجاني يوسف بشير أقرب إلى ها - روحا وتعبيرا - حين قال:

أنت يانيل ياسليل الفراديس
ملء أؤفاضك الجلال ، فمرحي
حضنتك الأملاك في جنة الخلد
نبيل موفق في مسابك
بالجلال المفيض من أنسابك
ورفت علي مضيء عبابك

الرسالة الثانية من القارئ الكريم عبد العزيز هلال - بكلية الآداب جامعة القاهرة - وهي بدورها تتصل اتصالا وثيقا بالرسالة السابقة من حيث التوقف عند موضوع الفصحي والعامية ، لكنها تتجاوز هذا الأفق لتتساءل عما إذا كان قد آن الأوان لوضع معجم عصري للغة العربية يعبر عن عصريتها وتطورها ، وينهي رسالته باقتباس هذه السطور من مقالي عن عام ية شوقي التي قلت فيها: لقد آن الأوان لا نهاء هذه الخصومة المفتعلة بين الفصحي والعامية ، والنظر إلى هما باعتبارهما وجهين لا بداع أمة ، وثقافة وجدان ، وحركة تاريخ ، وإذا كنا ننظر إلى الفصحي باعتبارها لغة شريفة فمن العيب أن ندين العامية ونحتقرها وهي المستوي اللغوي الذي نتعامل به ونعبر عن كل احتياجاتنا المادية والروحية والعاطفية أربعا وعشرين ساعة كل يوم ، وكأننا حين ندينها أو نحتقرها ندين أنفسنا نحن ! .

والذي يستوقفني حقا في هذه الرسالة هو إشارة القارئ الكريم إلى ضرورة وضع معجم عصري للغة العربية وهو أمر لا يمكن الإقدام عليه أو التفكير فيه إلا إذا سبقه جمع لغوي ثان . وتعبير الجمع اللغوي الثاني أدين به للصديق الكريم العالم اللغوي الدكتور السعيد بدوي - أستاذ الدراسات اللغوية بالجامعة الأمريكية - الذي يري أن ما قام به العالم اللغوي والموسيقي والرياضي بن الخليل ، أحمد الفراهيدي هو الجمع اللغوي الأول للغة العربية في مستهل القرن الثاني الهجري حين فكر الخليل في وضع أول معجم في العربية هو معجم العين ، من خلال عملية حسابية ندهش لها نحن الآن لا نه اقدم عليها بدون حاسوب ، وهي الفرضية الرياضية التي وضع أساسها اللامتناهي من خلال حاصل ضرب الحروف الهجائية بعضها ببعض . وظلت هذه المادة اللغوية التي جمعها وصنفها

الخليل بن أحمد الأساس الذي يأخذ عنه ويفيد منه كل مصنفي المعاجم والقواميس العربية ، وكان أبرز هذه المعاجم لسان العرب لا بن منظور ـ وهو أوسعها وأشملها من حيث المادة اللغوية ومدي التخصص والاستقصاء ـ قرابة ستين ألف جذر لغوي ـ وتاج العروس للزبيدي ــ أوسعها من حيث المادة المعرفية والحضارية باعتباره دائرة معارف موسوعية لعلوم عصره ـ فضلا عن كونه معجما لغويا متخصصا .

وظل هذا الجمع اللغوي الأول الذي قام به الخليل بن أحمد يمثل المرجعية الأساسية والشرعية اللغوية بالنسبة لمادة اللغة العربية من حيث الجذر والدلالة والتصريف والاشتقاق أو أيضا من حيث الصحة والاستشهاد وتتابعت حركة المعاجم العربية في سياق مغلق ودائرة مقفلة لا علاقة لها بالميدان اللغوي الحي الذي امتلأ بألوف المفردات الجديدة المعبرة عن تطور الحياة ومتطلباتها منذ القرن الثاني الهجري حتي إلى وم ، والمعبرة عن تفاعل الثقافة العربية مع غيرها من الثقافات والمعارف والعلوم . وبقي الكثير من هذه المفردات التي تشمل ألفاظ الحضارة ومصطلحات العلوم والاشتقاقات الجديدة قابعا داخل المصنفات التي وضعها العلماء العرب وفي كتب الرحلات والجغرافيا والفلك والتاريخ وغيرها ، لا نها في رأي مصنفي المعاجم خارج دائرة الصحة اللغوية وعصور الاستشهاد اللغوي ، مما جعل أي معجم عربي ـ في آخر صورة وأحدثها ـ بعيدا عما يمتلىء به الواقع اللغوي من حوله ، ثقافيا وحضاريا ومعرفيا .

ماهو الحل إذن ؟

لابد – كما يقول العالم اللغوي الدكتور السعيد بدوي ـ من جمع لغوي جديد ، هو الجمع اللغوي الثاني في تاريخ العربية . وهو جمع لا يمكن أن يقوم به فرد واحد ـ كما فعل الخليل بن أحمد ـ مهما تعاظمت إمكانياته بل لا بد له من مؤسسة علمية تتصدي لهذا الجمع إحاطة وشمولا وتبويبا وتصنيفا وتحليلا واكتشافا لعوامل التغير والتطور ، والبني اللغوية والمعرفية ، وهندسة التركيب ، والتوسع في القياس والاشتقاق ، وحصيلة الترجمة والتعريب من خلال برنامج يعتمد علي الحاسوب ـ الذي يتسع لملايين المفردات ـ وتسهم فيه المؤسسات المعنية وفي مقدمتها الجامعات والمجامع اللغوية والهيئات الثقافية والفنية والمؤسسة العلمية ـ ولدينا نقطة بدء حقيقية تتمثل في المشروع الذي تنجزه مؤسسة صخر ويشرف عليه عالم المعلوماتية الدكتور نبيل علي والذي تم من خلاله جمع ملايين المفردات والتراكيب اللغوية بالفعل .

إن هذا الجمع اللغوي الثاني هو مدخلنا إلى العصر القادم ، ومدخل لغتنا العربية لا متلاك القدرة علي التعامل والتفاعل والتواصل مع معطيات هذا العصر ، مدخلنا إلى السيطرة علي الملمح الأساسي في هويتنا القومية في عصر العولمة أو الكوكبية أو ثقافة

الإنترنت وطغيان الثقافات التي اتيحت لها وسائل كبري وكاسحة إعلاميا وتكنولوجيا ، أرضيا وفضائيا .

لقد أشار علماء عديدون - في مقدمتهم الدكتور نبيل علي - إلى مايقوم به إسرائيل علي شبكة الإنترنت من مناوشات وتحديات تستهدف المساس بجوهر اللغة العربية والثقافة العربية ، وكأنها تقدم نفسها إلى العالم باعتبارها البديل العصري والمتحضر للعالم العربي الذي لا يزال يحاول طرح الأسئلة الأولي والتماس اجابات تجاوزتها حركة التاريخ .

بقيت الرسالة الثالثة التي استوقفتني في حديث إلى وم ، وهي من القارئ الكريم علي عبد المعطي - من أسيوط - يريد معرفة الذين أشرت إلى هم - من غير ذكر أسمائهم - في المقالين اللذين نشرتهما بعنوان هل هي مؤامرة ثقافية .

وهل سأعود إلى مواصلة الكتابة تحت هذا العنوان ؟ وأريد أن أطمئنه إلى أني لم اقصد شخصا محددا أو اثنين أو ثلاثة . وإنما كنت أتناول بعض الظواهر السلبية في حياتنا الثقافية التي لا يقع وزرها علي واحد بعينه ، بقدر ما يشارك في اغتنامها والافادة منها العشرات ، الذين يتصورون احيانا انهم قد أفلتوا بما صنعوا ، وبما ارتكبوه في حق انفسهم أولا قبل أن يكون في حق الآخرين ، ولا أعتقد أنهم يستحقون العودة إلى الكتابة عنهم مرة أخري .

رجع الصدى

بقلم: فاروق شوشة

في كثير مما يصلني من رسائل القراء الأعزاء - وبينهم نخبة من رفاق العمر الجميل والدراسة الجامعية وزمالة العمل والحياة - ما يمكن اعتباره قياسا لرجع الصدي بالنسبة لما أكتبه من مقالات تتناول مواضيع شتي وجوانب ثقافية وأدبية مختلفة . وهو قياسي تتسع فيه درجات اللون بين الاتفاق والاختلاف ، ويكشف عن مساحة واسعة لمدي التباين في الذوق والمنهج والرؤية وأخيرا الحكم علي أمر من الأمور . وفي كل الأحوال ، فإن هذه الرسائل دليل علي علاقة لها عمقها وحضورها بين الكاتب والقاريء ، ووصل لدائرة الخبرة والوعي المتبادلة بينهما وتعميق لما ينبغي أن يكون دوما من مصارحة ومكاشفة .

وخلال الشهور القليلة الماضية تجمع لدي عدد وفير من هذه الرسائل ، أستأذن أصحابها في وقفة مع بعضها ، علي أمل العودة إلى بقيتها في وقفات قادمة .

الرسالة الأولي من الأخ الكريم الدكتور علي عبد المنعم صاحب الجهد المشكور في صدور الطبعة الجديدة من الشوقيات تحقيقا وتبويبا وضبطا وتعليقا . وهي الطبعة التي بادرت إلى التنويه بها ، والاعلان عن سعادتي الغامرة بصدورها عن الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ، في مقالين متتابعين أسميتها فيهما بالطبعة البهية التي رأيت فيها إنصافا لديوان أهم شاعر مصري في تاريخ اللغة العربية في مصر - وهو أحمد شوقي - وإعادة لا سم ديوانه الحقيقي الشوقيات بعد أن قام استاذنا الراحل الدكتور أحمد الحوفي بتغييره إلى ديوان شوقي ، وإثباتا للمقدمة التي كتبها شوقي بنفسه لديوانه عندما صدرت طبعته الأولي عام ١٨٩٨ - وشوقي يخطو إلى الثلاثين كما قال - وكان ناشرو الديوان قد أسقطوها فيما تلا ذلك من طبعات مكتفين بالمقدمة الضافية التي كتبها الأديب الكبير الدكتور محمد حسين هيكل للشوقيات ، وأشدت بما تضمنته هذه الطبعة الجديدة من التحقيق والتبويب والضبط والتعليق .

الدكتور علي عبد المنعم - في رسالته الكريمة المفعمة بخلقه العالي وأدبه الجم ولغته الجميلة - يشكرني علي ما قمت به في المقالين اللذين نشرا بالأهرام وفي تخصيص حلقات أسبوع كامل من البرنامج الاذاعي لغتنا الجميلة للشوقيات في طبعتها الجديدة . وفي ختام رسالته يسوق هذا العتاب: بيد أن لي عتبا عليك فيما يتصل بعبارة الأصفهاني التي ختمت بها تقديمي للشوقيات ، وهو عتب لا ينقص من تقديري لك ، وإعجابي بك منذ كنا طلابا في كلية التربية ، ذلك أنك حكمت حكما مبرما أني نقلتها من مقدمة

أستاذنا الدكتور الحوفي رحمه الله ، وأني أغفلت ذكر ذلك . وهذا تسرع في الحكم لا أرضاه لك ، فالحق الغائب أن هذه الفقرة من محفوظاتي وفي أوراقي منذ كنت طالبا في القسم الثانوي بالمعهد الديني في أسيوط ، وقد ذيلت بها مقدمتي لرسالة الماجستير عام ١٩٦٢ ، أي قبل أن يصدر أستاذنا الحوفي ديوان شوقي بسنوات طويلة ولست أشك في صدق الدكتور علي عبد المنعم وأمانته .

لكنني فقط أهمس إلى ه بكل المودة والتقدير: لا بد أنك قرأت - فيما قرأت من طبعات مختلفة لديوان الشوقيات وأنت تشرع في صياغة طبعتك الجديدة - ديوان شوقي الذي أصدره الدكتور الحوفي ، واطلعت علي مقدمته للديوان ، وعلي عبارة الأصفهاني التي اختتم بها تقديمه . وحتي لا يقع أمثالي من القراء في لبس الاتهام بالنقل أو التقليد ، ألم يكن من الأوفق تجنب هذه العبارة في ختام مقدمتك بعد أن استخدمها الدكتور الحوفي في ختام مقدمته ؟ خاصة أن المقام واحد هو ديوان شوقي أو الشوقيات والمناسبة واحدة هي التقديم لطبعة كل منكما من الديوان ، والسبق التاريخي لطبعة الدكتور الحوفي قائم ورمتحقق !

ما كان أغني الدكتور علي عبد المنعم عن كل هذا ، بالرغم من علاقته القديمة بعبارة الأصفهاني واستخدامها في تذييل مقدمته لرسالة الماجستير قبل صدور طبعة الدكتور الحوفي بثمانية عشر عام ا .

الرسالة الثانية من الأخ الكريم المربي الكبير الأستاذ محمد هريدي زميل العمر الجميل في الدراسة الجامعية - يعلق فيها علي المقال الذي نشر في السادس عشر من أبريل الماضي تحت عنوان غريب الوجه واليد واللسان وقد توجهت فيه بالخطاب إلى أبي الطيب المتنبي شاعر العربية الكبير - ويقول: مقالك الجامع ملأ النفس شجنا وحسرة ، لا نا - طائفة الفكر والثقافة الجادة الواعية والشعر - نعيش غربة الوجه واليد واللسان . وغربة اللسان كما قلت في مقالك المشار إلى ه هي أشد ألوان هذه الغربة التصاقا بواقعنا الذي نعيشه الآن ولقد جلوت ببراعة وتمكن وحسن تأت أسباب شدة هذه الغربة . .
وما كان لا بي الطيب أن ينأي عنك طيفه والحال ماذكرت . وكان الذي أجري دمعي وضاعف حزني قولك تخاطبه: أما أنت ياشاعرنا أبا الطيب ، يا من عانيت غربة الوجه واليد واللسان ، فأرجو أن أعزيك بأن ما عانيته من مظاهر الغربة والعجز ، وافتقاد القدرة والهوية والوجه العربي ، مستمر إلى زماننا وقد اتسع الخرق علي الراقع . بل تعدي الأمر ذلك إلى بعض من يطلقون علي أنفسهم لقب الأديب والكاتب ، ولا بأس من أن يذيلوهما بكلمة الكبير فقد يصدقهم الناس ، ويخدعون بزيفهم عن حقيقتهم الخاوية .
حتي إذا ما تطلبت مناسبة من المناسبات أن يتكلم هذا الكبير بلغته القومية كانت الفضيحة .

وهكذا بين جهارة الادعاء والأمية اللغوية ، يكمن أحد ملامح هذه الغربة .

نعم يا أخي ، غربتنا كبيرة بين جهارة أصحاب الادعاء والأمية اللغوية منذ ما يقرب من عقدين من السنين ، ومع بدايات الانفتاح استشعرت ما سيؤول إلى ه الأمر .

وللنفس أحوال تظل كأنها

تشاهد فيها كل غيب سيشهد

كما يقول ابن الرومي . ولقد انشغلت بطيف المتنبي ، كما انشغلت به أنت ، فكانت هذه القصيدة التي أرجو أن تأذن في أن أضعها بين يديك وهي بعنوان رسالة لم يقرأها المتنبي .

وأنا بدوري أستأذن الأخ الكريم الأستاذ محمد هريدي في نشر أبيات من القصيدة ، تمثيلا لفيض شاعريته ، وتحية لحزنه النبيل المشارك لا حزان المتنبي في غربة الوجه واليد واللسان ، وتقديرا لغيرته علي اللغة والفكر والابداع . يقول في مستهل قصيدته (وما بين القوسين تضمين من شعر المتنبي) :

عبر الزمان إلى ك شوق يصخب

ويد تصافح ، والبشاشة تسكب

إني لا سمع في القوافي ثورة

كبت الحسود فما لشعرك يغضبه ؟

حرا عهدتك ، لا تقيم علي أذي

يرضاه غيرك ، خانعا يتقرب

تنضي جوادك في دروب مغاوز

تحنو عليك شعابها ، والغيهب

(ورأيت ود الناس خبا) بهرجا فغدا (خليك أنت) ، لا من تصحب (قل المساعد) فاغترابك دائم والسر مطوي ، وصدرك أرحبثم يقول:

ياشاعر الدنيا واغل ناسها

(بالدر منظوما) يراد ويعجب

هذي رسالة صاحب أزجيتها

يملي علي الشجو ما أنا أكتب

خاصمت دهرك وانبريت تلومه

عجبا ، وظلم الدهر ـ حقا ـ أعجب

عناك منه مطاله ، وتناوم

(وأخو الجهالة) في النعيم يقلب

لوكنت في عصري لكنت مباعدا

ولكان شعرك في الظلام يهرب !

وفي ختام قصيدته يقول:

يا أحمد الشعراء إن زماننا

يحكي زمانك ظالعا يتذبذب

الوقر في أذنيه أعيا طبنا

ونهاره ليل تغطش أجرب

الخاملون أبا المحسد يحتفي

بحضورهم ، والنابهون تغربوا

هون عليك فما الكلام بنافع

عاتبت من لا يستجيب فيعتب !

الرسالة الثالثة من الأستاد الكريم يوسف نديم زمر المحامي يعلق فيها علي المقال الذي كتبته عن الشاعر صالح الشرنوبي ويقول فيها: لم أستطع منع نفسي من الكتابة إلى كم بعد قراءتي لمقالكم بالأمس عن صالح الشرنوبي الذي له في نفسي ذكري لا أنساها علي مر الأيام ، وأري لكم كل العذر في إسقاط الأبيات

التالية من قصيدته علي ضفاف الجحيم:

إني هنا ياجنة الحقير

آكل جوعي وأضم نيري

وليس لي في الأرض من نصير

إلا ضميري ، آه من ضميري !

ألبسني ممزق الستور

وجاء بي حيا إلى القبور

أقرأ في ظلامها مصيري

وأعرف الغاية من مسيري

لكم كل العذر في إسقاط هذه الأبيات ، لا ننا أصبحنا في زمن تهريج ، اختلطت فيه المواهب والفنون طبقار للأهواء وأصبح وصف شاعر يطلق علي من ليس كذلك ، ووصف شعر يطلق علي ما ليس شعرا ولا يمكن أن يكون إلا أي كلام . وما قاله الشرنوبي - رحمه الله - من قلبه لا يصلح لهذا الزمن الرديء الذي نحن فيه . وإذا كان الشرنوبي قد عاني في حياته من الفقر والفاقة والعوز ولم يجد من يقدره ، فأنا واثق أن لو جاء إلى وم خمسون شاعرا مثل الشرنوبي لن يكون حظهم أحسن منه إلا لو أتاح الله لهم مالا وفيرا هو كل شيء إلى وم في حياة الناس . وقديما قال الشاعر:

إن الدراهم في المواطن كلها

تكسو الرجال مهابة وجلالا

فهي اللسان لمن أراد فصاحة

وهي السلاح لمن أراد قتالا

ومع تقديري العميق للرسالة الكريمة التي تفضل بإرسالها الأستاذ يوسف نديم زمر ، وما تضمنته من تنويه بقيمة الشاعر المبدع - الذي رحل وهو في عمر الزهور صالح الشرنوبي - فإني أود أن أوضح له أن ما تضمنه المقال من نماذج من شعر الشرنوبي جاء علي سبيل التمثيل ، ومن هنا فلم أتعمد اسقاط أبيات أو إثبات أبيات ، وإنما كان شاغلي التدليل علي هذه الشاعرة المبدعة ، والنبوغ المبكر بمختارات هي في حقيقتها مقاطع من قصائده - ولاشك أن التنويه بأمثال الشرنوبي هو في جوهره نفي لما يمتلئ به الزمن الرديء من اللاشعر وتأكيد للجوهر الحقيقي والفن الأصيل .

ثم لا يفوتني أن أشير في عجالة إلى برقية كريمة من الموسيقي والعالم والأديب الأستاذ صالح عبد ون تحية لما كتبته عن الموسيقار محمد حسن الشجاعي باعتباره واحدا من رواد الموسيقي العظام ، وفي السياق نفسه رسالة كريمة من الاذاعية الكبيرة الأستاذة ثريا جودت تحية لما كتبت عن أستاذنا محمد حسن الشجاعي ، فهذا الرجل الذي خط للاذاعة مكانتها الرائدة في عالم الموسيي والغناء العربي المعاصر كان في حاجة إلى من يعرف الأجيال به . وكنت بسبيل أن أكتب لك هذه الكلمات حين طالعني في الأهرام ما كتبته

عن صالح جودت فكان لزاما علي أن أضاعف لك شهادة العرفان بالوفاء للجيل الذي سبق في إذاعتنا الحبيبة .

ثم رسالة من الكاتبة لوسي يعقوب وكنت قد أشرت في مقال عن الشاعر صالح جودت إلى كتابها الذي صدر عنه مؤخرا وعنوانه : صالح جودت حياته وشعره باعتباره الأثر الوحيد الذي صدر نه بعد رحيله ، شاكرة ومحيية .
يبقي أن أتوجه بالتحية الخالصة والشكر العميق لا صحاب هذه الرسائل جميعا ، علي ما فاضت به سطور رسائلهم من عاطفة كريمة ومودة صادقة ، واهتمام بالغ ، مقدرا لهم جميل الشعور ، وحرارة التواصل .

هل العامية المصرية في خطر ؟

بقلم: فاروق شوشة

حين يحس أحدنا بالقلق علي لغتنا العربية ، ثم يتجاوز الأمر الإحساس بالقلق إلى الامتلاء بمشاعر الخطر والخوف علي هذه اللغة ـ وهي تزداد شحوبا وهزالا في كل يوم علي ألسنة الناس وأقلامهم نتيجة لا مور كثيرة ، في مقدمتها فساد النظام التعليمي ، وسوء الكتاب المدرسي ، ومستوي معلم العربية ، وضمور وعي المجتمع نفسه بأهمية اللغة وافتقاد المواطن العادي لا همية إتقان هذه اللغة أو تعلمها مادامت حياته كلها تمضي في طريقها الطبيعي دون حاجة إلى هذه اللغةـ أقول حين يحس أحدنا بهذا كله فهو مبرر وطبيعي ومشروع ، أما الغريب والعجيب والمثير فهو أن يصبح هذا الخوف وهذا القلق وهذا الشعور بالخطر منصبا علي العامية المصرية !

في لجنة البرامج المسموعة باتحاد الإذاعة والتليفزيون ـ التي يرأسها شيخ الإعلاميين الأستاذ علي خليل ، والتي أشرف بعضويتهاـ تفجر حوار ساخن ، مصدره هذا الخوف وهذا القلق علي العامية المصرية . وبدا الأمر كما لو أن هناك مؤامرة تشارك فيها أطراف عديدة لا نزال هذه العامية من فوق عرشها الذهبي الذي تربعت عليه عقودا طويلة من الزمان كانت فيه لغة التعبير والإبداع في مجالات الأغنية والسينما والمسرح والدراما الإذاعية والتليفزيونية والحوارات البرامجية ، تجتذب القلوب قبل الأسماع ويقلدها الملايين في كل مكان .

المشكلة ـ في رأي هؤلاء القلقين والغيورينـ تتمثل في هذا الانفجار الهائل الذي تشهده الفضائيات العربية من حولنا في كل اتجاه ، والذي يحمل معه فيضامن اللهجات المحلية التي تنطق بها جميع هذه الفضائيات العربية وفي مقدمتها اللهجة اللبنانية واللهجات الخليجية . وهو انفجار ساعد علي تذويب الفوارق بين هذه اللهجات وتقريب الحدود والمسافات وألفه المشاهد المصري علي وجه الخصوص لمفردات عديدة من هذه اللهجات لم يكن من قبل يستطيع متابعتها أو استيعابها في أغنية أو تمثيلية أو حوار ، فأصبح الآن يردد الأغنية الخليجية ويتذوق التمثيلية اللبنانية والسورية ويتجاوب مع المنوعات والسهرات المغربية والتونسية من غير صعوبة أو مشقة .

والسؤال هنا هو: إلى س من حق هذه الفضائيات العربية جميعها أن تفسح المجال لعامياتها ولهجاتها المحلية فيما تنتجه من أعمال فنية ، وأن تتيح لهذه اللهجات ـ التي ظلت أمدا طويلا بعيدة عن التداول والشيوع علي المستوي العربي كلهـ

آفاقا أرحب وسماوات مفتوحة بلا حدود ، بعد أن كانت العامية المصرية هي اللهجة المعتمدة لكثير من ألوان هذا الإنتاج الفني طيلة أكثر من نصف قرن ؟

لقد جاء الوقت الذي تأخذ فيه هذه اللهجات العربية فرصتها في الذيوع والانتشار والممارسة والإبداع والتجريب ، وأن يصبح لدي المشاهد العربي هذا الأرابيسك الغني بالعديد من المنمنمات والتنويعات في اللهجة والأداء وأساليب النطق تتنافس فيها حناجر المذيعات ومقدمي البرامج وأهل المغني من مطربات ومطربين والممثلين في الأعمال الدرامية وصولا إلى الضيوف في البرامج والسهرات والبث المباشر .

كان المأمول بالطبع لدي كثير من عشاق الفصحي والحريصين علي اللغة العربية ـ أن يكون لا زدهار الفضائيات العربية دوره في توحيد اللسان العربي الصحيح الفصيح ، والعمل علي ازدهار اللغة القومية باعتبارها لغة توحيد وتكامل ، لغة حفاظ علي الهوية القومية خاصة في مجالاتها الثقافية والفنية والأدبية . وظن هؤلاء الآملون أن هذه الفضائيات جميعها ستحرص علي أن يكون لعربية هذا العصر السهلة الميسرة البعيدة عن التقعر أو الخشونة أو الحوشية كما كان يقول القدماء ـ نصيب موفور عبر ساعات الإرسال الهائلة التي أصبحت تصل الليل بالنهار والنهار بالليل . لكن ظنهم خاب وآمالهم تعثرت أمام هذا الفيض من اللهجات المحلية التي سدت الطريق في وجه ذيوع الفصحي وانتشارها ، وجعلتها مقصورة علي المواد الإخبارية والسياسية ، كما جعلت من الإبهار بالصورة والمؤثرات الصوتية والتقنيات المتقدمة عناصر مؤازرة للهجة التي قد تعجز بمفردها أحيانا ـ عن التوصيل . لكن بمساعدة هذه العناصر ، يمكن متابعة الحوار وفهم السياق وتذوق العمل الفني وتأمل الفكرة والمعني والدلالة أي نجاح العمل في الوصول والتأثير .

وينسي الذين يتابعون انحسار العامية المصرية واختفاءها من عديد الفضائيات العربية أنها لا تزال موجودة من خلال الفيلم المصري والمسرحية المصرية والأغنية المصرية ، وإن تكن بنسبة أقل عن ذي قبل .

كما ينسون أو يتناسون ـ أن ازدهار هذه العامية المصرية وانتشارها علي ألسنة الملايين من أبناء الوطن العربي ، حتي أصبحت اللهجة المشتركة التي يلتقي علي فهمها وتذوقها والإعجاب بها كل العرب شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ، كان مرتبطا بازدهار الأغنية المصرية والسينما المصرية والمسرح المصري والدراما الإذاعية والتليفزيونية المصرية فضلا عن البرامج الإذاعية والتليفزيونية المصرية . وكان اعتماد الإذاعات العربية والتليفزيونات العربية ثم الفضائيات العربية علي نسبة كبيرة من هذا الإنتاج المصري ناتجا عن تفوقه وريادته ووفرته ، وعدم قدرتها هي علي إنتاج ما يماثله أو يقترب من قيمته وقدره . وكان ازدهار هذا الإنتاج وانتشاره ازدهارا للهجة المصرية وانتشارا لها ، فلما

تراجـع هـذا الإنتـاج أمـام التقـدم الـذي حققـه الأشـقاء العـرب في العديـد مـن المجـالات ، وأصـبحت إبـداعاتهم تنـافس الإبـداع المـصري وتحاذيـه بـل وتتفـوق عليـه في بعـض الأحيـان ، بـدأ وجـود هـذه اللهجـة المـصرية في الانحـسار . لم تعـد القـاهرة كمـا كانـت لعقـود طويلـة مـن القـرن العـشرين ـمركزا وحيـدا للفكـر والأدب والثقافـة والفـن والـسياسةـ وبقيـة العواصـم العربيـة أطرافـا ، تتـأثر بحركـة المركـز وتـدور في فلكـه وتـنعكس عليهـا إيجابياتـه وسـلبياته . وإنمـا تعـددت المراكـز العربيـة الآن الـتي تـزاحم القـاهرة وتنافـسها ، وأصـبحنا نـري ونـشاهد ـمن خـلال مـا يعرضـه الأشـقاء العـرب في مهرجـان الإذاعـة والتليفزيـون ، عـبر الـسنوات الأخيرةـ ما يدل علـي تقـدمهم وتفـوقهم في مجـالات عـدة كنـا نظـن أن التفـوق فيهـا وقـف علينـا وحـدنا ، فـإذا بنـا نجـد في الـدراما الـسورية علـي سـبيل المثـال ، وفي المنوعـات اللبنانيـة علـي سـبيل المثـال ، وفي الـبرامج التـسجيلية والوثائقيـة المغربيـة علـي سـبيل المثـال ، وفي إنتـاج الـشركات والمؤسـسات الخاصـة في العديـد مـن الأقطـار العربيـة ، مـا يتفـوق بكـل جـدارة ، وينـافس علـي مراكز الصدارة ويفوز بالجوائز الأولي التي كنا نظنها من حقنا وحدنا .

تغـيرت الـدنيا مـن حولنـا وتغيرنـا ، تغـيروا هـم بفـضل العمـل الـدائب والتجويـد والتطـوير وروح المنافـسة الخلاقـة والحـرص علـي الفـوز . وتغيرنـا نحـن إلى الاكتفـاء بترديـد وهـم الريـادة والحـرص علـي إنتـاج الـوفرة ـالذي لا تلتمـع مـن بينـه إلا أعمـال نادرةـ وتـصبح الكثـرة مـن هـذا الإنتـاج في مرتبـة الوسـط أو دونهـا ، وكأننـا نتحـرك مـن خـلال آلـة مرهقـة كـثيرة الأعبـاء مـشتتة الطاقـات مبعثـرة الإمكانـات ـعلي الـرغم مـن وفرتهاـ ممزقـة الأوصـال بـسبب التكالـب علـي الحـوافز والمغـانم أكثـر مـن الاهتمـام بالإبـداع والتمـايز . نـستطيع أن نلـتمس العديـد مـن الـشواهد ـدون جهـد أو مـشقةـ الدالـة علـي هـزال الأغنيـة المـصرية المعاصـرة وركاكتهـا كلمـات ولحنـا وأداء ـفي الأغلـب الأعمـ وعلـي تـدني الإنتـاج الـسينمائي وسـوقيته وابتذالـه ـأيـضا في الأغلـب الأعمـ وعلـي تحـول المـسارح المـصرية إلى مـا يـشبه محـلات الـسهر الليليـة ـفي الأغلـب الأعمـ وعلـي التراجـع المـستمر في الإقبـال علـي الـدراما المـصرية ـأمام المنافـسة العربيةـ إلا فيمـا نـدر مـن أعمـال أتـيح لهـا التوفيـق والتفـوق في عناصـرها كافـة فأصـبحت مـضرب المثـل علـي القـدرة الـتي نمتلكهـا لكننـا لا نـستخدمها بـشكل سـليم إلا فيمـا هـو أقـل مـن القليـل ، وحينمـا نتـذكر أننـا لا نـستنفر كـل طاقتنـا إلا مـن أجـل شهر واحد كل عام هو شهر رمضان !

لـست مـن القلقـين علـي العاميـة المـصرية ولا علـي اللهجـة المـصرية ودورهـا المتميـز في الحاضـر أو المـستقبل . فهـي ـبطبيعتها الحياتيـة وارتباطهـا الحمـيم بواقـع النـاسـ أكثـر عرضـة للتطـور والـتغير بـأكثر ممـا يتـاح للفـصحي الـتي يحكمهـا ثبـات أكثـر وقواعـد أكثـر صـرامة ومرجعيـة أكثـر تـشددا ومحافظـة . وقـد اتـسعت هـذه العاميـة لا شـعار بـيرم وغنائيـات شـوقي ووطنيـات صـلاح جـاهين ووجدانياتـه وصـوفيات فـؤاد حـداد وإنـسانيات الأبنـودي وسـيد

حجـاب ونـضاليات أحمـد فـؤاد نجـم ومكابـدات مجـدي نجيـب وسمـير عبـد الباقي و عبـد الـرحيم منـصور وصـياغات طـاهر أبـو فاشـا لحكايـا ألـف ليلـة وليلـة ، وغيرهـم مـن عـشرات المبـدعين الـذين جعلـوا منهـا لغـة حـضارة ووعـي إنـساني كاشـف ، لغـة إبـداع حـي ، متجـدد وصـــادق ، عميـــق التـــأثير والنفـــاذ إلى وجـــدان الملايـــين مـــن المـــصريين والعـــرب .
هذه العاميـة هـي ـكما يقـول العـالم الكـبير الـدكتور شـوقي ضـيف رئـيس مجمـع اللغـة العربيـة ــ عربيـة محرفـة ، لا تختلـف عـن الفـصحي إلا في بعـض صـور النطـق والاسـتعمال ، وإن كـان قـد أضـيف إلى هـا ـعبر عـصور التاريخـ أخـلاط مـن القبطيـة والتركيـة والإنجليزيـة والفرنـسية وغيرهـا مـن اللغـات الـتي عـبر أصـحابها مـصر أو عاشـوا فيهـا زمنـا مـن أبنـاء الجاليـات إلى ونانيـة والإيطاليـة والأرمنيـة والـشامية (سـوريين ولبنـانيين) . واغتنـت هـذه العاميـة ـفي مـستواها الأرقـي البعيـد عـن عـام يـة قـاع المجتمـع والأمييـن لتـصبح خزانـا معرفيـا هـائلا ، وثـروة لغويـة ضـخمة يـشكل منهـا المبـدعون ـعلي اخـتلاف فنـونهم وطبقاتهمـ المـادة الحيـة والغنيـة لهـذه الإبـداعات الـتي لا يحتـاج مـن يقرؤهـا أو يتـذوقها إلى الخلفيـة الثقافيـة واللغويـة الـتي لا بـد أن تـسبق قراءتـه لعمـل مكتـوب بالفـصحي . ولهـذا ينتـشر شـعر العاميـة الآن بـأكثر مما ينتـشر شـعر الفـصحي ، وتتجـاوب معـه الألـوف مـن أبنـاء الـشعب الـتي لا تعـاني حـاجزا بينهـا وبينـه يعـوق تواصـلها وانفـصالها وانغماسـها فيـه ، ، فهـو ينطـق بلغتهـا ، ويتـشكل مـــن خـــلال مفرداتهـــا ، ويـــساوق صـــياغاتها وهندســـة تراكيبهـــا في التعـــبير والتـــصوير . وفي مقابل شـعر العاميـة المـصرية ـالذي تـألق كـثير مـن نماذجـه في مجـال الغنـاء زمنـا طويلاـ وتـوهج الغنـاء المـصريـ وطنيـا وقوميـا وعاطفيـاـ بفـضل هـذا المـدد الزاخـر ، هنـاك مدرسـة الزجـل اللبنـاني وشـعر العاميـة اللبنانيـة الـذي تجـسد كتابـات ميـشال طـراد والرحبانيـة أرقـي نموذجـه وأمجـد فتوحاتـه ، وهنـاك تنويعـات الـشعر النبطـي في الخلـيج الـتي تـستلهم تـراث الأب الكـبير لهـذا الـشعر: ابـن لعبـون ، الـذي يـشبهه دارسـو الـشعر النبطـي ـفي عمـق دوره وتأثيرهـ بـالمتنبي في الـشعر الفـصيح ، كمـا يقـارنون بـين العديـد مـن آثـاره الـشعرية ـالتي يحفظونهـا حـتي الآن عـن ظهـر قلبـ وشـعر المعلقـات ، مـن حيـث المعجـم الـشعري ، والـصور المرتبطـة بالباديـة ، والقـدرة علـي اسـتنطاق هـذا الفـضاء الـصحراوي الممتـد والعـالم المـوحش بأوابـده وصـراعاته وتهاويلـه فيـضا مـن الـشعر الوجـودي والإنـساني المثقـل بـدلالات الغربـة والاغـتراب والرحيـل في الزمـان والمكـان ، فـضلا عـن فعـل المقاومـة العنيـد وضـراوة التـصدي للمستعمر ولعوامل الفرقة والتباعد والتخلف .

لكـي نكـون منـصفين ، بعيـدين عـن الـشوفينية أو التعـصب المقـوت ، علينـا أن نعـترف إذن بمـا لـدي الآخـرين ـفي مجـالات الإبـداع المختلفةـ مـن ذخـائر وكنـوز . وبـأن ذيـوع عـام يـة أو لهجـة مـا أكثـر مـن غيرهـا مـن العاميـات واللـهجات العربيـة رهـن بمـا تحملـه ومـا تمثلـه مـن قـدرة علـي الإبـداع والمغـامرة . ولـست مـع الـذين يـرون في لجـوء بعـض المطـربين

والمطربات العرب إلى القصيدة الفصيحة تعاليا علي النبرة المصرية في كتابة الأغنية أو عدم اعتراف بشعر العامية المصرية ، فهذا الموقف يمثل ـفي رأيي ـ حرصا علي المستوي الأفضل من الإبداع وعلي اللغة التي تستطيع مخاطبة الجميع والتي يتجاوب معها الجميع ـوهي الفصحي ـ كما أن هذا الموقف يمثل رسالة إلى صناع الأغنية في مصر ـخصوصا مؤلفيها ـ بأن عليهم أن يتجاوزوا دائرة الركاكة والسوقية والابتذال والتكرار الممل التي هبط إلى ها التأليف الغنائي ـفي الكثير من نماذجه ـ وأن يتثقفوا أولا بتراث الشعر العربي والشعر الغنائي الذي أبدعته المواهب الكبري في هذين اللونين ، وأن يعيد منتجو الفن المصري في هذا الزمان ـللأغنية والفيلم والمسرحية والتمثيلية والبرنامج ـ فن العامية المصرية الراقية والنظيفة ، المهذبة والمثقفة ، التي كانت شعار الإبداع المصري لا كثر من نصف قرن من الزمان ، بدلا من الحديث عن مؤامرة ضد العامية المصرية والصوت المصري والفن المصري . وأن نعترف ـبيننا وبين أنفسنا أولا ـ بأن الريادة والتفوق لم يعودا مقصورين علينا ، فقد تغيرت الدنيا من حولنا ، وتقدم الذين نهلوا من ريادتنا وتعلموا علي أيدينا ليصبحوا بدورهم ـوهذا حقهم المشروع ـ أندادا ومنافسين

جبهة حماة القمة العربية

بقلم : فاروق شوشه

لاتزال قضية اللغة العربية تكتسب في كل يوم انصارا جددا يروعهم ما وصل إلى ه حال اللغة العربية علي الألسنة والأقلام ، ويفزعهم هذا التلوث اللغوي الذي يسود حياتنا الراهنة بدءا من وضع هذه اللغة في المراحل التعليمية المختلفة– من الابتدائية إلى الجامعة– وشيوع المسميات الأجنبية التي يطلقها بناة المجتمع الجديد علي المؤسسات والشركات والمحال والعمائر والفنادق والقري السياحية وغيرها وكأننا في بلد أجنبي ، والعجز عن التعليم باللغة العربية في الكليات العلمية وشيوع الأخطاء الفادحة في كثير مما حولنا من مطبوع ومقروء ، حتي لقد أصبح الخطأ أصلا وقاعدة والصواب استثناء ومصادفة .

هناك إذن من يروعهم هذا الأمر ويكاد يشغلهم عن كل شيء آخر . فالقضية بالنسبة إلى هم قضية هوية وانتماء وحياة . قضية ثقافة وطريقة تفكير وبنية تعليمية . قضية إزالة لحاجز الكراهية الذي نجحت الأوضاع المتدنية والسلبيات المتراكمة في اقامته بين النشء الجديد ولغته ، بين المتعلم واللغة التي هي وسيلته وغايته معا ، بين الواقع اللغوي والعصر الذي لم ندخله بعد ، والذي سنظل نحن– أصحاب هذه اللغة– خارجه مالم ترتبط نظرتنا إلى المشكلة بمشروع حضاري تنويري ، يؤمن بالعلم وتطبيقاته وتجلياته المختلفة علي مستوي الفكر والمنهج والرؤية المتكاملة التي تربط بين اللغة والنهضة الشاملة للمجتمع والحياة والانسان .

وأبدأ فأشير إلى مجموعة من الأوهام التي تسود بعض ساحات الطرح والمناقشة لهذه القضية . أولها الظن أن الاهتمام بالفصحي– عند بعض هؤلاء المتحمسين للقضية – لا بد أن يؤدي إلى أن يتكلم الناس بالفصحي ليل نهار في البيت والسوق والمكتب ومكان العمل ، وهو الأمر الذي لم يحدث في تاريخ هذه اللغة في أي وقت من الأوقات . حتي في العصر الجاهلي الموغل في القدم ، عصر المعلقات والقصائد الأولي ، كان الشاعر يبدع قصيدته بما نسميه الآن الفصحي التي كانت لهجة قريش التي نزل بها القرآن الكريم حتي يفهم كل العرب شعره وتتلقاه كل القبائل بلهجاتها المختلفة التي كانت تري في لهجة قريش– لهجة العاصمة التجارية والدينية– لهجتها الموحدة أو فصحاها . أما عندما يخلو الشاعر لقومه وقبيلته فهو يستخدم لهجة قبيلته التي تختلف في الكثير عن اللهجة الموحدة: لهجة قريش . هذا هو الذي يفعله شاعر إلى وم ، يبدع بالفصحي ليضمن لكلماته القبول العام والفهم العام– بالرغم من اختلاف اللهجات والعاميات داخل البلاد العربية وداخل القطر العربي الواحد ، ثم يعود إلى طبيعته والي مواقف حياته إلى ومية

مستخدما لهجته أو عام يته التي بها يعبر ويتواصل يحب ويكره ، يفكر ويجيب من غير أن يعوقه عائق أو يحد من طاقته حاجز .

إذن ، فتصور البعض أنه من الممكن أن نصل في يوم من الأيام إلى مجتمع يتكلم بالفصحي ويتعامل بالفصحي ، وهم لا يؤيده تاريخ الفصحي في أي زمان ومكان . ثاني هذه الأوهام الظن بأنه من الممكن الاستغناء عن المسميات الأجنبية بالنسبة لقضية الفاظ الحضارة الحديثة ومصطلحات العلوم ، وصياغة مسميات عربيةبديلة ، نطبقها ويتبناها الناس علي الفور فتشيع وتذيع . وهذا الوهم أيضا لا بد من الاحتراز منه علي إطلاقه ، فنحن في بعض الأحيان نوفق إلى الكلمة العربية البديلة والمناسبة كما فعلنا في مسرح وقطار وسيارة وطائرة مروحية وعمودية وحاسب إلى وحاسوب وعدسة لا صقة وعولة وكوكبية وفضائيات وفي أحيان أخري نلجأ إلى التعريب كما حدث بالنسبة للكلمات الأخري مثل: سينما وتليفزيون وتلسكوب وميكانيكا ومايسترو وكونشرتو وسيمفونية وديناميكية وفيديو ومونتاج وكاميرا وجيولوجيا .

وأنا من المؤمنين بأننا سنفرض مسمياتنا العربية في مجال ألفاظ الحضارة ومصطلحات العلوم عندما يكون لنا إسهام حضاري في سياق التطور الإنساني وإنجاز في مجال العلم نحتل به مكانا لا ئقا في سياق التطور العلمي المذهل والمنجزات العلمية المتلاحقة . أما إذا استمر بنا الحال في المجالين علي ما هو عليه ، وصدقت علينا كلمة المفكر الكبير الرجل الدكتور زكي نجيب محمود لو كتب تاريخ العلم إلى وم لن يحتل فيه العرب سطرا واحدا لا نهم عالة علي العلم ومنجزاته ، لو استمر هذا الموقف من غير نهضة علمية حقيقية وثقافة علمية عريضة واستمر تمسكنا بثقافة الخرافة والشعوذة- حتي عندما يمثلون بالنسبة للمجتمع بعض أهل العلم وأصحاب الثقافة العلمية ، الذين يبدأون يومهم بقراءة الحظ والنصيب ويستشيرون قراءة الفنجان وخطوط إلى د ، فمعني هذا أننا سنظل عالة علي أهل العلم والابتكار وصناع الحضارة والتطور ولن نملك- في نهاية الأمر- إلا الرضوخ للمسميات الأجنبية التي يضعونها لمنجزاتهم ومخترعاتهم !

لكن ما الذي يدفعني إلى وم إلى هذا الكلام كله ؟

إنه الحماس الرائع النبيل الذي لمسته أخيرا لدي الإذاعي الكبير طاهر أبو زيد وهو يدعو في سهرته الإذاعية أسبوعيات طاهر أبو زيد إلى النهوض باللغة العربية ، ومواجهة ظاهرة المسميات الأجنبية ، وتجميع الأنصار والمؤازرين لما يطلق عليه: جبهة حماة اللغة العربية وقد لا حظت أنها جبهة تتسع يوما بعد يوم ، وتكتسب باستمرار أعضاء جددا في مواقع شتي من المجتمع: الكاتب الصحفي ، الأستاذ الجامعي والمجمعي والمعلم ورجل الإعلام والطب والمهندس والصيدلي والجيولوجي ، وهو تجاوب يؤكد صدق التوجه وأهمية القضية وضرورة المواجهة . فما زال الضمير العام للمجتمع- ممثلا في شتي

طوائفه وفئاته- بخير ، ولا يزال الحس الوطني والقومي والفطرة اللغوية السليمة عند الناس بخير ، ولاا يزال بيننا- ممن لا نراهم ولا نعرفهم ولا نكاد نسمع أصواتهم- ألوف مؤلفة من المهمومين بوطنهم وأمتهم الحريصين علي كيانهم وهويتهم ، المتطلعين في عزم وإصرار إلى غد أفضل . وقد نمر بهم فلا نعرفهم ، لكننا نلتفت حولنا- في الوقت المناسب- فنجد أصواتهم ملء الساحة ، وقلوبهم مشحونة بالعواطف الجياشة الصادقة ، وقلوبهم متفتحة للرؤية المستنيرة النافذة .

دعوة طاهر أبو زيد إلى جبهة حماة اللغة العربية تعيد إلى نا الثقة في النفس وفي الآخرين . ونشير بوضوح إلى أهمية وضع قضية اللغة العربية في مقدمة أولوياتنا واهتماماتنا . ولست أخفي أنني لكثرة ما أقيم في مصر وفي بلاد عربية عدة من مؤتمرات وندوات وقاعات بحث داخل الجامعات والوزارات المعنية والمجامع اللغوية والجمعيات العلمية لمناقشة أزمة اللغة العربية أو أزمتنا نحن إزاء اللغة العربية- لست أخفي ما تراكم لدي من أحساس عميق واقتناع أكيد بأننا لم ندخل إلى الموضوع من مدخله الصحيح . فبين الحماس الشديد للقضية والمبالغة الشديدة في المطالب المرجوة والمستهدفة ، والنظرة إلى اللغة العربية باعتبارها شيئا منعزلا عن حركة الحياة والمجتمع مفصولة ومنتزعة من سياقها الحضاري ، بعيدة عن المشروع المستقبلي للوطن ، كل ذلك أدي إلى اجتهادات جزئية لم توفق إلى طرح الأسئلة الأولي والبديهية في الموضوع .

من هذه الأسئلة الأولية علي سبيل المثال: ما اللغة التي نريد أن نعلمها لا بنائنا في المدرسة ؟ هل هي اللغة التراثية القابعة في زوايا ألوف الألوف من المؤلفات والمصنفات المكتوبة في المكتبة العربية ؟ أم اللغة العصرية التي نكتب بها إلى وم ويؤلف بها المؤلفون في كل تخصصاتهم ومجالاتهم ويبدع بها المبدعون ، اللغة التي اصطنعتها الصحافة لنفسها من البداية ثم أصبحت لغة للإعلام الإذاعي والتليفزيوني ؟ السؤال الثاني والأولي: ما الهدف الذي نريد أن نحققه من تعلم هذه اللغة ؟ هل هو الكلام بها ؟ أم إتقان الكتابة بها ؟ هل هو التفكير بها ؟ أم استمرار التفكير بالعامية ثم الترجمة إلى الفصحي عندما نريد أن نكتب أو نتكلم ؟ هل هو تنمية القدرة علي تذوق الابداع العربي في شتي تجلياته ؟ هل هو القدرة علي الاسهام بها في علوم العصر ومنجزاته ومجالاته الشديدة الاتساع والتنوع ؟ هل نتعلمها لنجعل منها لغة للحاسب الآلي أو الحاسوب ، لغة صالحة للترجمة منها وإليها ، لغة قادرة علي استيعاب الجديد من ألفاظ الحضارة- ألفاظ الحياة العامة- ومصطلحات العلم ؟ وهل هذا الهدف- أيا كان هذا الهدف- واضح لدي المخططين للبرامج والمناهج التعليمية لدينا ؟

السؤال الثالث: هل نحن حريصون علي إشاعة ما تنجزه المجامع اللغوية العربية من توصيات وقرارات ، وما تنشره من أبحاث ودراسات ، خاصة في مجالات

تيسير اللغة متنا وقواعد وكتابة ورسم حروف ، والتوسع في القياس والاشتقاق والتعريب ، وصياغة معاجم لغوية في ضوء المنهج العلمي الحديث للتأليف المعجمي ، ووضع معجمات متخصصة في شتي العلوم والفنون والاهتمام بدراسات اللهجات- صحيح أن المجامع اللغوية- كما يقول الدكتور ابراهيم بيومي مدكور الرئيس السابق لمجمع اللغة العربية- لا تستأثر وحدها بخدمة اللغة ، لا ن لكل لغة حياة أطول وأعرض وأقوي وأنشط مما يجري في نطاق مجمع علمي أو لغوي ، لها حياتها في البيت والمدرسة ، في الحقل والمصنع ، في السوق والمتجر في المكتب والديوان في الصحف والمجلات في المسرح والسينما ، في الاذاعة والتليفزيون ، وهنا تحيا وتتطور ، تخلق وتبتكر ، تسير مع الزمن وتحاول أن تسد حاجات العصر ومتطلبات الحضارة ، وعلي المجامع اللغوية أن تتابع هذا السير وترقب خطاه ، فتلاحظ وتسجل وتقر ما استقام من الألفاظ والتراكيب وترفض ما اعوج . إنها- كما يقول الدكتور مدكور- توحي ولا تأمر ، توصي ولا تلزم ، ولوحيها أثره ولتوجيهها فعله .

والسؤال- مرة أخري- هل القائمون علي أمر البرامج والمناهج التعليمية لدينا علي وعي بهذا كله ؟

السؤال الرابع : متي يصبح للغتنا العربية معجم عصري ، يستوعب جمعا ميدانيا واسعا للغة ، يتضمن كل ما تم انجازه في إطار لغتنا العربية عبر العصور ، منذ أغلق باب الاستشهاد وحرمت المعاجم والقواميس الآلاف المؤلفة من المفردات والمصطلحات والتراكيب التي جاءت نتيجة للتفاعل اللغوي والترجمة والتعريب والاشتقاق والتيسير والتوسع في الدلالة والاستخدام عبر قرون طويلة متصلة ، مما تمتلىء به كتب الرحلات العربية والعلم العربي والفلسفة العربية والابداع الأدبي والثقافي العربي عبر العصور ، ولم يتضمنه حتي الآن معجم أو قاموس !

والأمر نفسه بالنسبة لا فتقاد المعجم التاريخي الذي يتتبع تطور الدلالة للكلمة منذ استخدامها لا ول مرة ، مستعينا بالشواهد والنماذج التي ينطق بها هذا الاستخدام ، وما طرأ علي المعني أو الدلالة من تغير أو تطور . ومثل هذه المعاجم- العصرية والتاريخية- لا تنهض بها إلا الهيئات والمؤسسات الكبري ، لا ن الجهد الفردي- مهما بلغ حجمه وعظمت أدواته ووسائله- يظل عاجزا وقاصرا عن النهوض بمثل هذه الأعمال الجليلة ، الباقية الجدوي والفائدة .

السؤال الخامس: متي نتوقف عن النظر إلى العامية المصرية- وسائر العاميات واللهجات الأخري- علي أنها وسائل سوقية أو منحطة للكلام والتعبير ! وكيف يوصف المستوي اللغوي الذي يستخدمه الملايين ليل نهار ، في كل شئون حياتها إلى ومية ، بأنه سوقي أي مبتذل ، وكأننا نصم أنفسنا بهذا الوصف الكريه .

أنا لا أدعو إلى استبدال العامية بالفصحي- ولاحظوا أن الباء تدخل علي المتروك والمحذوف- ولا إلى الاهتمام بالعاميات علي حساب الفصحي ، ولكني أدعو إلى الاهتمام بالعاميات بلاغة ولغة تعبير وتطورا عن أصول فصحية في الكثير من الأحيان ! ألا نهتز علي سبيل المثال لعامية بيرم التونسي وصلاح جاهين وفؤاد حداد والأبنودي وسيد حجاب وغيرهم ! السر في هذا الاهتزاز- والنشوة أحيانا- أنها عام يات فصحية ، ارتفعت كثيرا عن عام ية الشارع والسوق ، واقتربت كثيرا من الصحيح اللغوي ، واصطفت لها نهجا متميزا في تطور المعني والدلالة والظل الذي يوحي ويشير ، واصطبغت بلاغتها بروح العصر ووجدان الشعب وحرارة الواقع- متي نخضع عام يتنا- وغيرها من العاميات- لدراسة ميدانية تعكف علي نصوصها الابداعية ، وقوانينها اللغوية ونسقها الأدائي والتعبيري ، بهدف الكشف والاضافة ، وإثراء لغتنا الجميلة بتجليات هذا المستوي اللغوي ومنجزاته الوظيفية والبلاغية باعتباره الوجه الآخر المكمل لا بداع الفصحي وعبقريته ـــــــــــــــــــــــا المتوهجــــــــــــــــــــــة .

أنا سعيد إذن بالدعوة إلى قيام جبهة حماة اللغة العربية التي يتبني فكرتها ويدع إلى ها الإذاعي الكبير طاهر أبو زيد صاحب الأعمال الإذاعية الباقية في الوجدان المصري: جرب حظك ورأي الشعب وفن الشعب ، وصاحب اللمسات الإذاعية الذكية في توجهات إذاعة الشرق الأوسط وكيانها الفني والثقافي عندما كان مديرا لها فضلا عن دوره المتميز والرائد في تعميق مفهوم برامج المنوعات في الاذاعة المصرية وإثرائه بالتجريب والتوجيه والتطوير .

مثل هذا العقل الذي يحمله- وهو عقل لا يزال متوقد بالشباب والرؤي- ومثل هذا الحماس الذي يتكيء علي قاعدة صلبة من الهمة والطموح ، من شأنه أن يجمع المزيد من الأنصار لهذه الجبهة ، وأن يوسع من قاعدتها الأساسية- في مصر والعالم العربي- خاصة بعد أن وافق الأستاذ الكبير الدكتور شوقي ضيف رئيس مجمع اللغة العربية علي أن يكون رئيسا للجبهة وراعيا لها ، تساعده هيئة تأسيسية تضم العديد من الخبرات والكفاءات البارزة في شتي الميادين . وهي سعادة تقترن بالأمل ، في أن تكون هذه الجبهة قادرة علي تحريك المناخ ودرء الأسي وإثارة الهمة والحمية والنخوة ، حتي يصبح الاهتمام بقضية اللغة العربية اهتماما قوميا حقيقيا ، يلقي صداه الحقيقي عند الجميع ، ولا تهتم به هيئة واحدة دون أخري . إن مسئولية البيت المصري والعربي في تهيئة قاعدة انطلاق أساسية من خلال تشجيعه القراءة وغرس عادتها من الصغر عند الأبناء ووجود نواة متواضعة لقراءات تثير اهتمام الطفل وتغذي مداركه- هذه المسئولية الأولي أساس شديد الأهمية يبني عليه كل ما يجيء بعد ذلك من جهود وزارة التربية والتعليم- في المدرسة والجامعة- وجهود المجامع اللغوية ومراكز اللغة العربية في الكليات المتخصصة وجهود العاملين في الإذاعة والتليفزيون ورجال الصحافة . ذلك أن القراءة ، والقراءة الواسعة المتنوعة ، في اهتمامات شتي ، هي المدخل الأساسي لعلاقة صحية مع اللغة ، تبدأ

بالمحبة والميل الحميم الذي ينضج ويتأكد ليصبح اتقانا وسيطرة وقدرة علي المغامرة والابداع وإثارة الدهشة والتجديد والتطوير . من هنا يصبح مشروع مكتبة الأسرة في إطار مهرجان القراءة للجميع ، بقوائمه المعرفية الشديدة الاتساع والتنوع وأسعاره التي تستجيب لواقع المعاناة عند رب البيت المصري ، فرصة متاحة لا عادة غرس عادة القراءة ، كما يصبح مشروع كتاب في حريدةالذي يتبناه الأهرام في مصر حاملا أمانة توصيل الكتاب إلى الملايين من قرائه ، فرصة أخري لا كتمال حلقات الدائرة وتدعيم نقطة الانطلاق .

فهل تنجح الجبهة فيما نعلقه عليها من آمال كبار ؟ وهل تصبح إضافة ثرية لما تقوم به جمعية لسان العرب التي يرأسها الدكتور عاطف نصار والتي نجحت في إقامة عدة مؤتمرات مهمة خاصة بقضايا اللغة العربية ، هذا هو التحدي وهذا هو السؤال ؟

مستويات العربية المعاصرة في مصر

بقلم : فاروق شوشة

بالرغم من مرور سبعة وعشرين عام ا علي صدور هذه الدراسة اللغوية الرائدة: مستويات العربية المعاصرة في مصر - بحث في علاقة اللغة بالحضارة لعالم الدراسات اللغوية الدكتور السعيد محمد بدوي ، إلا أن ريادتها في مجالها . ومنهجها العلمي العملي ، وربطها المحكم للظاهرة اللغوية بالواقع الاجتماعي والحضاري ، وتحليلها - الذي لم يسبق للمستويات اللغوية التي يستخدمها المصريون في ضوء التركيب اللغوي للمجتمع المصري في سلم لغوي يتدرج من أقصي درجات الفصحي إلى أدني طبقات العامية ــ لا يزال هذا كله انجازا باهرا لم يلحق به أحد ، ولم يضف إلى ه أحد في مجاله عبر عقود ثلاثة من الزمان .

لقد استخدم الدكتورالسعيد بدوي المنهج العلمي الذي يقوم علي الاستقراء والملاحظة ، في محاولة لوصف الواقع اللغوي كما هو ، عن طريق ربطه بالقوالب الحضارية التي يعبر عنها ، فألوان الفصحي وألوان العامية أنماط حضارية قبل أي شئ آخر ، ولغة المجتمع وحضارته وجهان لعملة واحدة ، وطبقا لهذا المنهج وهذا المفهوم وهذه الرؤية فان اصلاح الحال الذي تتنادي من أجله الآن هيئات ومؤسسات ومجامع لا يكون بزيادة ساعات القواعد في المدرسة ، ولا يحفظ قوائم الكلمات التي تتفق فيها الفصحي والعامية ، وانما يكون بالأخذ باسباب الحضارة الفكرية الحديثة ، يكون بنشر العلم وغرس طرق التفكير المنهجي ، يكون باغناء العقل والفكر والنفس بكل ذي قيمة من علم وفن وأدب ، أي بنشر انماط الحضارة التي ترتبط تلقائيا بالفصحي والمستويات العليا من التعبير اللغوي مع التحذير من احتقار واقعنا اللغوي ومعاداته وعدم اعطاء أنفسنا فرصة دراسته ورؤيته علي حقيقته !

من هنا تصبح دراسة اللغة - كما هي في الواقع - هي البداية الطبيعية والصحيحة .

يقول الدكتور بدوي: فنحن نصلي بالعربية ، ونتعلم بالعربية ونؤلف بالعربية ، ونقرأ بالعربية ونكتب بالعربية ، ونحاضر بالعربية ، ونتناقش بالعربية ونغني بالعربية ، ونمزح بالعربية ، ونتشاجر بالعربية ، ونبكي بالعربية ونبيع بالعربية ونشتري بالعربية ونغش بالعربية وننصح بالعربية ونكذب بالعربية ونصدق بالعربية ونكره بالعربية ونحب بالعربية ونقوم بكل نشاط لنا في المجتمع باللغة العربية و نحن هذه ذات ألوان مختلفة: فمنا المتعلمون بأنواعهم المختلفة من خريجي الازهز ، وخريجي المدارس الخاصة من انجليزية وفرنسية والمانية وايطالية ويونانية ، من دينية وعلمانية ، وخريجي

المدارس الحكومية ، ومنا خريجوا الجامعات المصرية والجامعات الاوروبية والامريكية وغيرها ، ومنا المهندسون والمحامون والمدرسون والأطباء والقضاة والزراعيون والعلماء والموظفون والتجار ومنا الحرفيون من حلاقين ونجارين وحدادين وسمكرية وميكانيكية وسباكين وبنائين وترزية وكوائين ومبيضين إلى اخره ، ومنا الأميون وانصاف الأميين ، مما لا يحصيه عد مهما طال وفي داخل كل قطاع من هذه القطاعات يتدرج أفراده في اتجاهات عدة من حيث درجة التعليم ودرجة الذكاء والسن والنوع - ذكر أو أنثي - والمنطقة الجغرافية التي نشأ فيها والتي نزح إلى ها والمنطقة التي يضطر للسكني فيها والتي يضطر للعمل فيها والطبقة التي نشأ فيها والتي انتقل إلى ها بمجهوده الخاص والناس الذين يخالطهم بالزواج او العمل او اللهجة التي يضطر لا ستخدامها في العمل والاخري التي يضطر لا ستخدامها في المنزل وهكذا .

يري الدكتوربدوي أن الواقع اللغوي في مصر يضم خمسة مستويات هي: فصحي التراث: وهي فصحي تقليدية غير متأثرة بشئ نسبيا وتكاد تكون الآن وقفا علي رجال الدين من علماء الأزهر واستخداماتها المنطوقة تكاد تنحصر أيضا في متحدثي البرامج الدينية الاذاعية والتليفزيونية المتأثرين بقواعد القراءات القرآنية تأثرا قويا . وفصحي العصر: وهي فصحي متأثرة بالحصارة المعاصرة ومجالها أوسع كثيرا من مجال المستوي السابق فهي تبدو في كل الموضوعات المتصلة بحياتنا المعاصرة والتي تستخدم فيها العربية الفصحي ويضم هذا المستوي انماطا علمية وسياسية وأدبية واجتماعية وفنية .

وعامية المثقفين: وهي عام ية متأثرة بالفصحي وبالحضارة المعاضرة معا ، وتستخدم عادة في المناقشات التي تجري بين المثقفين في مسائل العلم والسياسة والفن والامور الاجتماعية ويمثلها في الاذاعة والتليفزيون برامج الرأي والحوار والمناقشات ونظرا لا تساع هذا المستوي وشيوعه فقد اصبحت عام ية المثقفين بمفرداتها وتعبيراتها ومرونتها مستودع الحضارة المصرية الحديثة ولسان العلم المعاصر .

وعامية المتنورين: وهي التي يستخدمها غير الأميين في أمور الحياة العملية إلى ومية من بيع وشراء ورواية اخبار ، كما يجري بها الحديث بين الاهل والاصدقاء حول مختلف شئون الحياة .

اما المستوي الخامس فهو عام ية الأميين: وهي عام ية غير متأثرة بشئ نسبيا ، لا بالفصحي ولا بالحضارة المعاصرة ويتصل هذا المستوي بأمية اصحابه ويحظي بنصيب كبير في البرامج التمثيلية والمسرحيات خاصة الفكاهية منها فهو لغة اولاد البلد من الجنسين ، بالرغم من بعض المبالغات التي يلجأ إلى ها الكتاب والمؤلفون والتي سماها توفيق الحكيم: المبالغة في تصيد الهابط من الألفاظ بغرض اضحاك الناس او بحجة تصوير واقعنا مع أن واقعنا ليس في كل الاحيان بهذا السوء

وصاحب هذه الدراسة اللغوية الرائدة لا يفوته ان يشير إلى العوامل التي تحكم تفاعل هذه المستويات بعضها مع بعض . بعضها عوامل مشتركة وبعضها الاخر عوامل تفريق فكل هذه المستويات ترجع إلى أصل تاريخي لغوي واحد هو العربية مما يجعل باب التأثير والتأثر بينها مفتوحا ومستمرا ثم هي توجد وتتفاعل معا داخل مجتمع واحد يمكن لا فراده ان ينتقلوا من مستوي لغوي إلى أخر متي توافرت الشروط النفسية والاجتماعية كما ان كل فرد من افراد المجتمع المصري يستطيع استخدام اكثر من مستوي ـ باستثناء الاميين بالطبع ـ وقد يستخدم مستويين او اكثر في المحادثة الواحد وينتقل بين المستويات صعودا او هبوطا من عبارة إلى اخري ، هذه العوامل التي يمكن تسميتها عوامل مزج او خلط للمستويات يقابلها قواعد التفريق بين المستويات الخمسة التي ترجع إلى اساسين رئيسين: اساس لغوي هو مجموع الصفات التي يختص بها كل مستوي من النواحي الصوتية والصرفية والنحوية وانواع التعبيرات التي تشيع فيه .

وأساس اجتماعي: يتمثل في الظروف الاجتماعية التي تتيح لطائفة معنية من أفراد المجتمع اكتساب القدرة علي استخدام بعض المستويات دون بعضها الآخر ، والتي تتحكم في لغة الفرد وتجعله يكاد يكون مضطرا إلى استخدام مستوي لغوي معين في ظروف او موقف اجتماعي معين .

لا يفوت الدكتور بدوي ـ العالم اللغوي واستاذ الدراسات اللغوية بالجامعة الامريكية في القاهرة والمشرف علي مركز تعليم اللغة العربية للاجانب تشخيص الواقع الراهن للفصحي في برامج التعليم وخططه وممارساته ، وهي اللغة التي تتجمع حولها آمال المصريين والعرب ، وترتكز عليها دعائم قوميتهم ومع ذلك ، وعلي الرغم من المجهودات الهائلة التي تنفق وعلي الرغم من كل الشعارات التي تطلق فاننا نستطيع ان نقول مطمئنين ـ والكلام للدكتور بدوي انه لا يوجد شخص واحد في مصر يعتقد او يتصرف كما لو كان يعتقد ان بالامكان ان تصبح لغة تخاطب بين الناس في امور الحياة إلى ومية حتي بين المثقفين أضف إلى ذلك ان احدا لم يحدد الهدف من تعليم الفصحي ولهذا فقد بقي تعليمها بدون هدف ، وبقيت في المدارس مجرد مادة دراسية بل إن الواقع يشهد بعيدا عن كل الشعارات والمعتقدات السائدة بان تعليم اللغات الأوروبية في مدارسنا أوضح هدفا من تعليم الفصحي ثم يقول الدكتور بدوي ولما كنا لا نريد ان ندخل في موضوع كثر الحديث فيه وهو قصور المناهج والكتب الدراسية فاننا سنكتفي بالقول بان نظم التعليم الحالية تنتج درجات لا حصر لها من اجادة الفصحي ، دون ان يرقي شئ منها إلى مرتبة يحل معها محل العاميات من حيث التلقائية والسهولة في الاستعمال فالفصحي بنوعيها ـ أي فصحي التراث وفصحي العصر ـ تبقي دائما لغة صناعية يعانيها صاحبها فكرا وتعبيرا .

هـذا الكتـاب الرائـد والمهـم الـذي طـرق ـ كمـا يعـترف مؤلفـه ـ موضـوعا بكـرا ، لا في اللغة العربية وحدها بل وفي غيرهـا مـن اللغـات ، هـو ثمـرة جهـد شخـصي قـام بـه صـاحبه مـن ملاحظـات واسـتقراء ، واصـغاء وتأمـل ومتابعـة لحـصيلة هائلـة مـن المـادة اللغويـة المـسكوبة علـي أوراق الـصحف والمجـلات والكتـب المختلفـة والمـسموعة مـن خـلال المـادة الاذاعيـة المتنوعة .

مـن هنـا كانـت المـادة الـتي يـستخدمها الكتـاب علـي مـستوي التحليـل والتطبيـق مـادة حيـة ، نابـضة بلـهجاتها وصـويتاتها ، بمفرداتهـا وجملـها وعباراتهـا ، مـادة سـاخنة ، فيهـا سـخونة الواقـع واختلاطـه وتـشابكه ، مـادة حقيقـة لا نهـا صـادقة ليـست مـصطنعة او مفتعلـة ، وهـذا هـو دور الباحـث اللغـوي الجـاد ومـسئوليته دور العـالم المهمـوم بـالواقع اللغـوي دون مزايـدة أو ادعـاء مـن هنـا كـان جهـد الـدكتور الـسعيد بـدوي في إنجـاز أول معجـم للعاميـة المـصرية ـ بالمـشاركة مـع استاذ الانجليزيـة الراحـل الـدكتور مـارتن هـاينز مكمـلا ومتممـا لجهـده الرائـد في هـذا الكتـاب ـ وهـو الجهـد الـذي نطالبـه الآن بمتابعتـه واسـتكماله فمـن المؤكـد ان انقـضاء سـبعة وعـشرين عـام ا علـي صـدور هـذا الكتـاب في طبعتـه الوحيـدة عـن دار المعـارف قـد تمخـضت عنـه مـادة لغويـة جديـدة وخـبرة بحثيـة ـ أكثـر اتـساعا وعمقـا وشمـولا يمكـن ان تكـون بمثابة الجزء الثاني لهذا الكتاب الأم .

وحـتي يتحقـق هـذا فمـن الممكـن ان يعـاد طبـع هـذا الكتـاب الـذي نفـدت جميـع نـسخة منـذ سـنوات بعيـدة ـ بعـد ان اقتنتـه دوائـر البحـث اللغويـة في المؤسـسات والجامعـات العربيـة والاجنبيـة ـ مـع كـثير مـن الاضـافات والهـوامش الـتي تتنـاول مـا طـرأ علـي الواقـع اللغـوي في المجتمـع المـصري خـلال عقـود ثلاثـة والعجيـب ان دار المعـارف وهـي مؤسـسة كـبري وعريقة مـن مؤسـسات النـشر في مـصر والعـالم العربـي ـ لم تفكـر في اعـادة طبـع هـذا الكتـاب بعـد نفـاد طبعتـه الوحيـدة الـتي صـدرت عنهـا عـام ١٩٧٣ ربمـا كـان الـسبب ان المؤلـف لم يكـن حريـصا في اي وقـت علـي ان يكـون الكتـاب مقـررا علـي طلبتـه في الجامعـة ليحظـي بمـا تحظـي بـه الكتب المقررة علـي طلبـة الجامعـات مـن أولويـة في النـشر بغـض النظـر عـن أهميتهـا وجـدواها وبـالرغم مـن ان الكتـاب يخاطـب القـارئ العـام ولـيس الدراسـين المـضطرين اضـطرارا إلى اقتنائـه فقـد نفـد تمامـا بعـد ان ادرك قارئـه انـه امـام نمـط جديـد في التـأليف اللغـوي المعاصـر ، ومـنهج علمـي جديـد في التعامـل مـع الظـاهرة اللغويـة ، وافـق جديـد مـن الـوعي الاجتمـاعي والحـضاري ، ورؤيـة مغـايرة لمـا ألفـه النـاس مـن فكـر ركيـك واراء مكـرورة واجتهـادات قاصـرة ، يتطلـب اصـحابها اصـلاح حـال اللغـة العربيـة . . علـي الألـسنة والاقـلام ، وفي المدرسـة والجامعـة وفي الـصحيفة والمجلـة والاذاعـة والتليفزيـون وغيرهـا مـن وسـائل النـشر والتعـبير ، وكـأنهم يـدورون باسـتمرار في حلقـة مفرغـة لقـد اسـتهل الـدكتور الـسعيد بـدوي كتابـه بكلمـة لـويس مـا سـينيون ـ العلاقمـة والمستـشرق الفرنـسي الكـبير ان النـضهة اللغويـة هـي في الحقيقـة

نـوع مـن النهـضة الاجتماعيـة الـشاملة الـتي تتطلـع إلى هـا الـشعوب الحديثـة في الـشرق وهـي كلمة جامعـة تقـدم المـدخل الـذي يتبنـاه الكتـاب لدراسـة الواقـع اللغـوي وعـلاج مـشكلاته مـدخل التغـيير الاجتمـاعي والحـضاري الـشامل فالاصـلاح كمـا يـراه الـدكتور بـدوي ـ لا يمكـن ان يقـوم علـي الامـاني وحـدها ، فطريقـة شـاق ومتـشعب ولـه وسـائله الكـثيرة والمتعـددة غـير ان هـذه الوسائل علي تعـددها وتـشعبها تبـدأ جميعـا مـن نقطـة واحـدة: هـي دراسـة الواقـع ورؤيـة ابعـاده علي حقيقتها وهو ما حققه بالفعل في هذا الكتاب الرائد وهذه الرؤية الكاشفة .

وقائع تونسية

بقلم : فاروق شوشة

يرتبط وجداني باسم تونس الخضراء وأنا دون السابعة من العمر ، عندما اتيح لي أن استمع إلى شاعر الربابة في قريتي الشعراء- إحدي قري محافظة دمياط- وهو ينشد السيرة الهلالية طيلة ليالي رمضان ، وأهل القرية يتحلقون من حوله منجذبين إلى وقائع أحداث السيرة التي ربطت بين الوجدان الشعبي في إلى من ومصر وتونس ، وقد أخذت القرية اسمها من شعراء الربابة الذين كانوا يشجعون جيوش المسلمين علي القتال في زمن الحروب الصليبية والذين اتخذوا مقرا لهم ، وهو الوقت الذي سميت فيه المنصورة بهذا الاسم بعد الانتصار وأسر ملك فرنسا لويس التاسع كما سميت قرية مجاورة لقرية الشعراء باسم العادليةنسبة إلى الملك العادل .

كانت بعض فصول السيرة الهلالية تروي وقائع الصراع الدامي بين دياب والزناتي علي أرض تونس الخضراء ، وشدتني الأحداث كما فتنني ايقاع الانشاد الشعري ، وأصبح لا سم تونس الخضراء حضوره الأخضر في وجداني . وولد الشعر في وجداني مرتبطا بهذا اللقاء الحميم بين سحر اللغة الشعرية وموسيقي الانشاد والترنيم ، وأصبح اسم تونس- مرتبطا بمعني الخضرة وظلالها في نفسي- يحرك لدي شجنا غامضا ، وخيالا سحريا من نوع خاص .

ثم جاءت التفاتتي الثانية إلى تونس الخضراء عبر أغنية بساط الريح التي كتبها الشاعر العظيم التونسي الأصل والجذور: بيرم التونسي ، ولم يفت بيرم أن يلتفت إلى اسم تونس مرتبطا بصفة الخضراء كما سجلته السيرة الهلالية ، وأن يسكب مقاطع أغنيته الجميلة- التي لحنها وغناها فريد الأطرش- نفسا عروبيا ونبضا قوميا- عندما تناولت العديد من الأقطار العربية في مقاطعها المتتابعة- وتغنت بها الجماهير العربية قبل سنوات طويلة من ميلاد أنشودة وطني الأكبر- التي صاحبت المد الثوري بعد١٩٥٢ ، من تأليف الشاعر أحمد شفيق كامل وتلحين الموسيقار محمد عبد الوهاب . ولاتزال حتي إلى وم تذكرنا بالوطن القومي الواحد والمصير العربي الواحد .

ثم تجيء مرحلة تالية من العمر شهدت اهتزاز وجداني ووجدان جيلي مع اسم تونس من خلال الحضور الشعري الغامر الذي حظي به الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي الذي عرفه القاريء المصري والعربي لا ل مرة عندما نشرت قصائده في مجلة أبو للو المصرية التي كان يرأس تحريرها الدكتور أحمد زكي أبو شادي والتي كانت تعبيرا عن ثورة ابداعية في عالم الشعر الحديث ، كانت أولي قصائد الشابي التي نشرتها المجلة هي

صلوات في هيكل الحب عام ١٩٣٣ ، وكان لها وقع هائل لدي الشعراء والقراء علي السواء باعتبارها حدثا شعريا بارزا ، وشبهها بعض الكتاب بأنها عروس قصائد شعر الحب العربي كما أن أوسترلتز هي أمجد معارك نابليون- وهي المعركة التي سحق فيها النمساويين عام ١٨٠٥ ، وبلغ من تأثير هذه القصيدة أن يطلب أبو شادي من الشابي أن يكتب له الشابي مقدمة ديوانه إلى نبوع فاستجاب له بالفعل ، وأصبح اسم الشابي منذ ذلك الحين بالرغم من رحيله المباغت بعد نشر قصيدته بعام واحد عن خمسة وعشرين عام ا علما ورمزا للشعر التونسي ، واعلانا عن ميلاد عبقرية شعرية عربية جديدة ، لها نفسه الوجودي ، ولغتها المتميزة ، وصورها الشعرية الساحرة ، ونداءاتها الوجدانية والوطنية والقومية .

وبسطت شاعرية الشابي منذ رحيله عام ١٩٣٤ ظلها الطاغي علي شعراء تونس من بعده ، فحجبتهم عما يستحقونه من انتشار وذيوع ، كما جعلت كثيرا منهم لا يستطيعون الفكاك من أسر نموذج الشابي في لغته وأساليبه التصويرية ، فتابعوه وقلدوه ، لكن الساحة الشعرية التونسية أخذت تشهد في عقودها الأخيرة تفجر مواهب جديدة ومغايرة من أمثال: منصف الوهايبي ومنصف الميزغني ومحمد الغزي ومحمد بن صالح وأولاد أحمد وجميلة الماجري وصولا إلى جيل فاطمة عكاشة وسعاد مثناني فضلا عن الأسماء السابقة علي هذا الجيل: محيي الدين خريف ونور الدين صمود ، وغير هؤلاء جميعا مما يضيق المقام عن حصره وتسجيله .

بكل هذا الزخم من الوجدان ، وبكل هذه الاهتزازات التي واكبت اسم تونس في نفسي منذ كنت دون السابعة من العمر- سافرت إلى تونس- خلال الاسبوع الماضي- مشاركا في أيام الثقافة والفنون المصرية في تونس التي نظمها قطاع العلاقات الثقافية الخارجية في وزارة الثقافة برئاسة محمد غنيم والتي سعدت فيها بصحبة الروائي الكبير بهاء طاهر والناقد الكبير الدكتور جابر عصفور فضلا عن نخبة من مبدعي مصر الكبار وفنانيها ونجومها المتألقين: الدكتور محمد طه حسين قومسير معرض الفن التشكيلي المصري المعاصر في تونس والفنانة عزة فهمي قومسير معرض فناني مصر الحرفيين والفنان الدكتور عبد المنعم كامل وفرقة باليه أوبرا القاهرة والمايسترو صلاح غباشي وفرقة عبد الحليم نويرة للموسيقي العربية بدار الأوبرا المصرية ونجوم أيام السينما المصرية في تونس: يحيي الفخراني وليلي علوي وإلهام شاهين فضلا عن الكاتب والناقد أحمد صالح والمنتجة السينمائية مي سحال .

وبالرغم من أنها ليست زيارتي الأولي لتونس- فقد سبقتها زيارتان اصطبغتا بالطابع الاعلامي ، عندما كنت رئيسا للاذاعة المصرية وأشارك في دورات اتحاد الاذاعات العربية ومنظمة الاذاعات الاسلامية ، وانشغل بقضايا الانتاج الاذاعي المشترك

والتنسيق بين الفضائيات العربية والحفاظ علي الهوية العربية في عصر العولمة . وكانت لمصر المبادرة بالدعوة إلى انتاج برنامج اذاعي عربي يعلم العربية لا بنائها من المواطنين العرب بدلا من قصر الاهتمام علي تعليم العربية لغير العرب ، بعد تدهور مستوي النشء الجديد بالنسبة للغته القومية ، وشيوع الأخطاء الفادحة علي ألسنة الكتاب والمتكلمين ، وجذب الذائقة اللغوية والأدبية والفنية في التعامل مع ألوان الابداع الأدبي والفني وهو البرنامج الذي أسند تنفيذه إلى الاذاعة المصرية من خلال اذاعة صوت العرب .
أما هذه الزيارة ، وفي إطار هذه الصحبة ، فانها تعيدني إلى الوجه الثقافي أو تعيد إلى . وأبادر بالقول ان الاستقبال الحميم الذي قوبل به بهاء طاهر في لقائه مع المبدعين التونسيين بدار ثقافة ابن خلدون في تونس العاصمة وفي مدينة نابل ، والحضور الكثيف الذي شهدته محاضرة جابر عصفور عن نهاية تاريخ وبداية تاريخ لثقافتنا العربية بمنتدي الفكر السياسي للتجمع الدستوري الديمقراطي ، والحفاوة التي قوبلت بها في لقائي مع الشعراء التونسيين والجماهير التونسية في بيت الشعر بتونس العاصمة ومكتبة أبن رشيق بالقيروان ، أبادر بالقول ان هذا كله هو في جوهره بعض تجليات العطش الشديد إلى التلاقي والحوار وازالة العوائق والقيود والأسوار والتفاعل الخلاق والمشاركة الحية في صنع الثقافة العربية المعاصرة وصياغة التوجهات الكبري- علي المستويين القطري والقومي- في مواجهة التحديات الراهنة والقادمة .

وليست هذه الاحتفالية التي تضمنتها أيام الثقافة والفنون المصرية في تونس ، ومثيلاتها التونسية التي ستقام في مصر ، إلا بمثابة العزف الأول علي وتر هذا التواصل الذي ينبغي أن يكون في مقبل الأيام أعمق وأشمل ، وأن يتجاوز حدود الانبهار بالتعرف والاكتشاف إلى دوائر الاهتمام والتخطيط والمتابعة ، خاصة أنه يتم في ظل سقف سياسي واقتصادي تمثله الارادة العليا للدولتين ممثلة في القيادتين ومجلسي الوزراء ورجال الأعمال . وهو تواصل من شأنه أن يقفز فوق صعوبات وعوائق لا تزال . لن أتحدث عن موضوعات كبيرة كاللوائح الجمركية وقوانين الاستثمار وحركة التصدير وحرية رأس المال والقواعد المصرفية . ولكني أكتفي بالاشارة إلى افتقاد الكتاب المصري المعاصر في المكتبات التونسية ونظيره التونسي في مكتبات مصر . فالمعروض من الانتاج الثقافي والفكري والأدبي والابداعي لا يتجاوز الدائرة التراثية وانتاج الأجيال الأولي من الرواد في العصر الحديث وبعض الكتب التي لا تمثل الابداع المصري الراهن في جوهره وعلي حقيقته . هذا علي مستوي الكتاب أما علي مستوي الصحيفة إلى ومية فقد ظللت أياما متصلة أبحث عن صحيفة الأهرام فلم أجد في يوم الثلاثاء الماضي-٩ مارس- إلا عدد السبت-٦ مارس- باعتباره أحدث ما وصل إلى تونس . وتساءلت عن عصر الثورة الاتصالية الكبري التي يعيشها العالم الآن ، وعن القرن الجديد الذي بدأنا نواجهه بالعد التنازلي ، وعن مدي

قدرتنا علي تحقيق ايقاع أسرع واتصال أكثر طموحا وفاعلية . وحلمت- فيما حلمت به- بوكالة توزيع عربية تختص بالكتاب ، وتجعل منه سلعة متاحة مطروحة في سائر مكتبات العالم العربي وأكشاكه وأرصفته . عاودني الهاجس القديم الذي طالما أرقنا ونحن في مقتبل العمر نتابع مظاهر التفكك العربي والتباعد العربي والحملات الاعلامية العربية الموجهة من بلد عربي ضد الآخر- والتي لا يزال لها بعض امتداداتها السلبية والمسمومة في بعض الفضائيات العربية- هذا الهاجس القديم الذي كان يود لو أم ميزانية الجامعة العربية- التي بدأ الحديث عنها منذ الأربعينات وتم توقيع ميثاقها في منتصف الخمسينات-١٩٥٢- لو أن هذه الميزانية خصصت للعمل الثقافي في الوطن العربي ، إذن لتم وضع الاساس المتين للتنمية الثقافية العربية ، ومواجهة التخلف الثقافي بكل ألوانه ومستوياته ، والتقريب من حنايا الوجدان الثقافي العربي ، واغناء التنوع والتكامل في حركة الانتاج الثقافي والابداعي ، وتوسيع رقعة الأفق الثقافي والحضاري الذي يغتني بالمعرفة ويزدهر بالانفتاح ويعمق بالتواصل والحوار .

لكن لو هذه تفتح باب الشيطان . لذا سأكتفي بالاشارة إلى أنه طوال العقود الماضية ، كان المثقفون والمبدعون يجتهدون لرأب الصدع في كيان هذه الأمة الذي تتسبب فيه السياسة والسياسيون ، وكانوا هم- في كثير من الأحيان- الجسر الوحيد الذي يظل قائما بين أقطار تباعدت وتحاربت وتسلطت عليها النزعات العدوانية أو وقعت فريسة لمؤامرات الدول الكبري وذرائعها الاستعمارية . وكم يدمي القلب الآن أن نجد مثقفي العراق ومبدعيه يعيشون عزلة هائلة وقطيعة خانقة بسبب الحصار المفروض الآن علي العراق ، والذي يعانيه منه إلا شعبه ، وأن تصبح بغداد- عاصمة الثقافة العربية والحضارة العربية طيلة قرون متصلة- منطفئة الأفق باهتة الصوت والصدي فيما يتصل بنبض الواقع الثقافي العربي الآن ، بسبب ما فرض عليها من جريمة مزدوجة : جريمة النظام الحاكم وجريمة الحصار الظالم .

من هنا تصبح هذه الاسابيع الثقافية في ظل الظروف العربية القائمة والمتاحة اختراقا لعبثية هذا الواقع وتشتته وتباعده ، وأجراسا تدق هنا وهناك محذرة ومنبهة لحجم الخطر القادم ، وعظم المسئولية ، وضرورة المواجهة الواحدة والشاملة . لقد عدت من تونس أكثر ايمانا بقدرة الثقافة العربية علي التصحيح والتغيير ، وأكثر يقينا بحتمية العمل الثقافي العربي من منطلق أن التنمية الثقافية هي أولا وأخيرا ركيزة أية تنمية سياسية أو اقتصادية وسندها الأساسي . ذلك أنها تتجه إلى الانسان العربي ، الذي هو ذخيرة هذه التنمية ومخزونها الاستراتيجي وقوتها الفاعلة . وبدونه- واعيا وجادا ومسئولا- تنهار الأسس وتتهاوي الأنظمة وتسقط التوجهات .

كمـا أن مثـل هـذه الاسـابيع الثقافيـة المـشتركة ، فرصـة للافـادة المتبادلـة بالنـسبة للطـرفين أو لجميـع الأطـراف . ذلـك أن مـا يـتم خـارج البرنـامج الرسمـي مـن حـوارات واجتهـادات ومناقـشات- بـين المفكـرين والمبـدعين والكتـاب- ربمـا يكـون أهـم بكـثير ، بـل هـو بالفعـل أهـم بكـثير ، ممـا يتـاح للقـاءات المرسـومة . لقـد كـان لقاؤنـا في بيـت الـسفير المـصري في تـونس مخلـص قطـب- وهـو بالمناسـبة نمـوذج لرجـال الخارجيـة المـصرية المتلـئين بـالوعي القـومي والمتابعـة الثقافيـة الجـادة والرعايـة الحميمـة لكـل نـشاط مـصري- كـان لقـاء حميمـا أتـاح للمشاركين فيه فرص الحوار البناء مالم يتح لهم في مواقع أخري .

كمـا كـان لقـائي بـبعض الإخـوة مـن رمـوز الـشعر التونـسي أثنـا الأمـسية الـشعرية الـتي أقيمـت في بيـت الـشعر بتـونس العاصـمة والـتي حرصـت فيهـا علـي الإصـغاء إلى بعـض الأصـوات الجديـدة في الحركـة الـشعرية التونـسية قبـل أن أقـدم مختـاراتي الـشعرية- كـان هـذا اللقـاء فرصـة للتعـرف علـي فكـرة بيـت الـشعر باعتبـاره مؤسـسة ثقافيـة تعـني بالـشعر والـشعراء في مجـالات الكتابـة والنـشر والتوثيـق والاعـلام والترجمـة والنقـد والتنـشيط والانتـاج والتبـادل الاقليمـي والـدولي ، وكيـف أن مـن أهدافـه أن يكـون ذاكـرة حيـة للـشعر العربـي والانـساني وملتقـي جماليـا لـشعرية الفنـون وجـسرا لتفاعـل التعـبيرات الـشعرية الكونيـة وفـضاء حـرا للارتقـاء بالـشعر والإعانـة الـشعراء ـ وأنـا أنقـل هـذه الـسطور مـن الـدليل المطبـوع لبيـت الـشعر في تـونس- كمـا أن مـوارده الماليـة تعتمـد علـي المنحـة الـتي تقـدمها وزارة الثقافـة وتبرعـات الهيئـات والأشـخاص- عينيـة أو نقديـة- ومـردود- أي عائـد- أنـشطة المؤسـسة ومطبوعاتهـا واشتراكات الأعضاء .

وقـد لفـت نظـري في هـذا الـدليل اشـارته إلى أن البرنـامج الاسـتراتيجي لبيـت الـشعر يتقـصي مكـامن الـشعر والـشعرية في الـذاكرة وفي النـصوص كمـا في المخيلـة والحيـاة . ولـيس مـن الغريـب بعـد ذلـك أن يـصبح هـذا البيـت- الـسابقة في الـوطن العربـي- كمـا يـسمونه في تـونس ، مجـالا للكتابـة والقـراءات والترجمـة والنـشر والتوثيـق والمكتبـة والمكتبـة الـسمعية والبـصرية والورشـات الفنيـة والمهرجانـات وسـوق الـشعر والمجلـة المتخصـصة والنـدوات والنقـد والجوائز وخزينة المخطوطات . . الخ .

مـسترشدا بكلمـات لـشاعر تـونس العظـيم الـشابي في احـدي رسـائله لـصديقه الـسنوسي في صـيف عـام ١٩٣٢ : تـسألني أيـن أكتـب قـصائدي . . وكأنـك لا تعلـم أن لا مكـان للـشاعر غـير ذاتـه ! والحـق أقـول لـك أيـضا انـني أحلـم ببيـت آمـن مـريح . لقـد افتـتح بيـت الـشعر في تـونس عـام ١٩٩٣ وتـولي ادارتـه الـشاعر أولاد أحمـد ، ويـديره الآن بكفـاءة واقتـدار ونـشاط واسـع- الـشاعر منـصف الميـزغني . وهـو الآن ملمـح مـن ملامـح الحركـة الثقافية والابداعية في تونس .

وأذكر أنني عندما فاتحت وزير الثقافة- الفنان فاروق حسني- الذي كان راعيا ومتابعا لكل الأنشطة هذه الأيام الثقافية- عندما فاتحته في أمر اقتباس فكرة بيت الشعر ومدي احتياج الحياة الشعرية والأدبية في مصر إلى مثل هذا المشروع الثقافي والحضاري فوجئت باستجابته الفورية ، وحماسه الشديد ، بل وتفكيره في عدد من البيوت ذات الطابع التاريخي والأثري التي تليق بتحقيق هذه الفكرة وانجازها ، للاختيار من بينها بيتا للشعر في مصر .

لقد عدنا من تونس بهاء طاهر وجابر عصفور وكاتب هذه السطور ، ومعنا كوكبة الفنانين والمبدعين المصريين ، وفي وجداني تتردد مقاطع من الديوان الجميل مخطوط تمبكتو للشاعر التونسي الكبير منصف الوهايبي يقول فيها :

خلق العصفور من ذاكرة النار
وأعطاه جناحين ليعلو بهما
ولنا نحن بني الطين من الذئبق شيء
غير أنا كلما رغنا من الموت اكتشفنا
فضلة الصلصال فينا
ألهذا اعتقد الأسلاف
أن الروح طير ؟
وأقاموا في جناح الريح
بين الماء والبرق
وأذكوا جمرة الأرض الغريقة
ألهذا يجلس الموت إلى أجسادنا
يتهجي لغة الخزاف
في بدء الخليقة ؟
لم يعد غير ذاكرة ليدي
وأنا كنت أحلم أني
سأضع يوما جناحين من طينه
وأطير
وكبرت
برأت من الكلمات طيورا
وريشا وأجنحة
لأدرك في آخر الأمر أني
كطير الأساطير

لم احتفظ من سمائي
بغير جناح كسير !

عدنا ولا يزال حلمنا بعصفور الثقافة العربية الذي يطير ويحلق قابلا للتحقيق .

مهرجان المحبة

بقلم : فاروق شوشة

في مثل هذه الأيام من كل عام يفتح البحر سريره ، يفرش أهدابه ، ليستقبل زواره الذين جاءوه علي أجنحة المحبة ، ليقوموا باحتفالية مسرحها يابسةوماء ، احتفاليةأرادها ، مهد لها ، أنشأها بالرغبة والعزم ، فارس من هذا الوطن ، كان يعرف حق الفروسية عليه ، ويؤديه غير مقسط ، غير منقوص ، غير ممنون . وهذا المانح بكبرياء السخاء ، المشعل نجوما في السماء ، المنبت خضرة علي الأرض ، كان في وهج الرجولة استنارة رجولة ، وفي إباء الفروسية شمائل فروسية ، مطرزة بأزرار من قصب السبق ، مؤطرة بهالة كالتي للقمر ، في ليالي الصيف الجميلة ، حيث البهجة نسيج كلمة ولحن ، والهدف صنع نبالة وألق ، مرامها في القرب والبعد إسعاد مدينة ، وخلق مودات ومسرات ، لشعب عريق له في رفيف الأماني ، في علوها والشأو مقاصد نبل ، وفي تلاوين البهاء ـ مزنرة بالشباب ـ زرقة شاطيء ، نجيئه في الموعد ، فنلقاه متهيئا لهذا الموعد ، ترحيبا يترجع صداه ما بين جبل وسهل ، وتأهيلا ما بين شروق وغروب .

أما المدينة فهي مدينة اللاذقية ، عروس البحر المتوسط في شاطئه الشرقي ، كما أن توءمتها الاسكندرية هي عروسه في شاطئه الجنوبي ، أما المناسبة فهي الدورة الحادية عشرة لمهرجان اللاذقية الذي بدأ رياضيا فروسيا وسياحيا وسرعان ما تعهدت وزارة الثقافة بالرعاية ، ليصبح واحدا من أهم المهرجانات العربية الثقافية والفنية والرياضية والسياحية . أما هذه السطور التي بدأت بها المقال فهي للمثقفة العربية الكبيرة الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة السورية ، وأقدم وزيرة عربية للثقافة ، بل في العالم كله ، لا نها تتولي هذه المسئولية منذ شهر أغسطس عام ١٩٧٥ ، وتسكب علي أدائها في كل مؤسساتها الثقافية ، من وعيها العميق بالدور والمسئولية ، وحسها الأدبي الرفيع ، وأستاذيتها كناقدة وباحثة مرموقة ، ورؤيتها القومية التوجه الإنسانية الشمول والانفتاح ، ما يجعل منها نموذجا باهرا لا ي وزير ثقافة عربي . فضلا عن أنها من صاحبات الأساليب الأدبية المتميزة التي تتوهج بروح الشعر وبلاغة الإفصاح ، وهي في هذا تذكرنا بأديبين سوريين كبيرين كان لكل منهما شخصيته الأسلوبية المتفردة هما سامي الدروبي وشاكر مصطفي . كما أنها في هذه السطور السابقة تقدم نموذجا لروعة هذا الاسلوب وجمال الخطاب الأدبي .

المهرجان في هذا العام (من٢ إلى ١٢ أغسطس١٩٩٩) يحتشد كسوابقة بالعديد من

مجالات النشاط الرياضي والأدبي والسينمائي والفني ، الذي تضمن بدوره مشاركات مسرحية وحفلات غنائية فضلا عن البينالي الثالث للفنون التشكيلية ، وقد تألقت المطربة القديرة الدكتورة عفاف راضي وفرقة الورشة المسرحية التي قدمت غزل الأعمار عن السيرة الهلالية من تأليف حسن الجريتلي وإخراجه كما تألق الفنانون والأساتذة المصريون المشاركون في البينالي: صبري ناشد وفتحي أحمد وجورج بهجوري وقد فاز صبري ناشد بالجائزة الثانية ، فضلا عن الدور البارز للأستاذ كمال الجويلي رئيس لجان التحكيم ، والناقد الفنان الأستاذ حسن عثمان . كما فاز نادي الزمالك ـ ممثلا للكرة المصرية ببطولة الدورة بعد فوزه علي الفرق المنافسة .

تميز النشاط الثقافي والأدبي للمهرجان بملمحين أساسيين ، الأول تمثله الأمسيات الشعرية الخمس التي شارك فيها نخبة من الشعراء العرب من سوريا ومصر ولبنان وفلسطين والأردن يمثلون تيارات ورؤي وأجيالا مختلفة ، كما يمثلون شعر الفصحي والعامية ـ المحكية ـ كما يسمونها من بينهم جوزيف حرب وعلي الجندي ومحمد إبراهيم سنة وعلي عبد الكريم وممدوح عدوان ومحمد أبو دومة وفؤاد طمان وباسمة بطولي و عبد القادر الحصني ومحمد القيسي و عبد الكريم الناعم وخالد أبو خالد ولامع الحر وباسم عباس وجودت فخر الدين و عبد الكريم الناعم وكاتب هذه السطور .

وقد كان من المقرر أن يشارك الشاعر الكبير عبد الوهاب البياتي ، لكنه توفي في دمشق قبل موعد أمسيته بيومين . وبدلا من أن ينشد البياتي شعره للجمهور المتطلع إلى لقائه ، قام عدد من شعراء المهرجان يمثلون الأقطار العربية المشاركة بإلقاء مختارات من شعر البياتي ، واستهلت الأمسية بكلمة بليغة ضافية من الدكتورة نجاح العطار جعلت عنوانها: مات البياتي فبكي الشعر ! تحدثت فيها عن الفجيعة الأدبية بفقده ، ودوره في ريادة التجديد الشعري ، واختياره دمشق مقرا أخيرا بعد تنقله الطويل في رحلة الاغتراب والمنافي بين عواصم عربية وأجنبية عدة .

الملمح الثاني ـ في مجال النشاط الأدبي والثقافي ـ تمثل في لون جديد من التطوير لخطة المهرجان وبرنامجه ، حين أفرد أياما ثلاثة من بين أيامه العشرة لمحاضرة وندوتين . أما المحاضرة فكانت للدكتور جابر عصفور عن الثقافة والعمل الثقافي ، قدم من خلالها رؤيته واجتهاداته وخلاصة خبراته من خلال عمله كأمين عام للمجلس الأعلي للثقافة وكمفكر وناقد بارز . ونجح جابر عصفور في أن يشد الاهتمام إلى تمييزه بين ثقافة التقدم وثقافة التخلف ، ذلك أن ثقافة التخلف . ثقافة سلفية نمطية تميل دائما إلى التكرار والوقوف في وجه أية محاولة للنقد أو للتجديد ، وهي ثقافة ذكورية مهيمنة لا تقبل الحوار أو الرأي الآخر ، أما ثقافة التقدم فإنها مفتوحة علي الآفاق الجديدة ، تعتمد

الحوار ، وتقبل بالاختلاف ، وتعترف بالمعارضة والرأي الآخر وتتطلع دائما إلى الابتكار والتجديد دون ان تفقد الصلة بالمادي أو تتنكر للواقع بل هذه الثقافة التي تجمع الزمن - من خلال معطيات الماضي والحاضر والمستقبل - وتنظر إلى الفكر كحالة إنسانية توجب التمايز وتحترم قدرات العقل ، خاصة أنها تعتبر العلم ركيزة أساسية من ركائزها .

واتسعت المداخلات التي أعقبت المحاضرة للعديد من القضايا ذات الصلة الوثيقة بموضوع الثقافة والعمل الثقافي ، كان من أبرزها العولمة وتأثيرها علي الثقافة العربية ، وخطر ثورة الاتصالات والتقنية الحديثة علي الدور الثقافي للكتاب ، وظاهرة تغلب أنصاف الموهوبين علي أصحاب المواهب الحقيقية المبدعة .

وحملت تعقيبات الدكتور جابر عصفور إضاءات جديدة لما طرحته المحاضرة . فالعولمة تيار عالمي متعدد الجوانب والوجوه لا يمكن تجاهله أو التنحي بعيدا عنه ، وإنما تكون مواجهته عن طريق التسلح بتراثنا الثقافي خاصة لدي الأجيال الشابة حتي لا تجرفها موجات العولمة العاتية . أما بالنسبة للخطر علي الكتاب فليست هذه هي المرة الأولي التي يتعرض فيها الكتاب للمنافسة وبالتالي للخوف عليه . فقد حدث هذا من قبل عند ظهور الراديو وعند اتساع دور السينما ، لكنه احتفظ مع ذلك بجمهوره ودوره التثقيفي . وهو في ثورة الاتصالات الحادثة الآن سيغدو أحد مصادر الثقافة بعد أن كان مصدرها الوحيد ، وسيكون الوضع أفضل بكثير مع ظهور الكتاب المنسوخ علي الكاسيت أو قرص السي دي روم ، حيث يصبح التعامل مع الكتاب ميسورا وجماهيريا خاصة بالنسبة للأميين . أما بالنسبة لتغلب أنصاف الموهوبين علي أصحاب المواهب الحقيقية فهو إن حدث لا يكون إلا ظاهرة مؤقتة وآنية ، أما المواهب الحقيقية فهي التي يكتب لها الخلود ، بينما تتساقط أنصاف المواهب في هوامش الحياة .

أما الندوتان فواحدة منهما عن تجربة الرحبانية في المسرح والغناء من خلال لقاء مع الفنان الكبير الشاعر والموسيقي منصور الرحباني ومشاركة غازي أبو عقل من سوريا وهنري زغيب من لبنان وعلي القيم معاون وزير الثقافة ، وهي بما قدمته من نماذج مسجلة تحكي مشوار الرحبانية في الكلمة واللحن ، والعلاقة مع الموروث الفني والإبداعي تنبه إلى ما لهذه المدرسة الفنية المبدعة من دور في تطوير الغناء والموسيقي العربية ، وفي الحفاظ علي الهوية وإيقاظ الوعي بما نمتلكه في موروثنا الحضاري والفني والثقافي من أصالة وجمال .

الندوة الثانية دارت حول موجات الحداثة في الشعر العربي ، ماذا فعلت وماذا بقي منها ؟ وشارك فيها الناقد الدكتور صلاح فضل والشاعر اللبناني جوزيف حرب وكاتب هذه السطور ، ويبدو أن اللجنة المنظمة للمهرجان قد أرادت أن تجلو الأمر بالنسبة لما يثار في الحياة الثقافية العربية المعاصرة حول الحداثة من إيجابيات وسلبيات ،

والخـوف الـشائع مـن طغيـان الموجـات الحداثيـة علـي كـل مـن النقـد والإبـداع ، ومـدي مـشروعية هـذا الخـوف ، خـصوصا أن مـصطلح الحداثـة ذاتـه لم يتفـق حـتي الآن علـي تعريـف لـه ، اللـهم إلا في حـدود التبـسيط الـذي يوشـك أن يكـون مخـلا والـذي يـري أن الحداثـة هـدم وبنـاء ، هـدم للـسائد والثابـت والمـألوف ، وبنـاء للمفـاهيم والقـيم والتقاليـد الجديـدة ، فهـي ـــ بهـذا المعـني ـــ تجـاوز مـستمر ، وإبـداع مغـاير دائـم . لكـن ، هـل هـذا الكـلام البـسيط يلخـص المقـصود بالحداثـة لـدي دعاتهـا والمبـشرين بهـا . إن الأمـر ـــ في جـوهره ـــ يتجـاوز دائـرة الإبـداع والنقـد الأدبـي إلى الفلـسفة والـسياسة والاقتـصاد ، وهـو إذن يـشمل الحيـاة بأسـرها ، وصـياغتها بمـا يتفـق والحداثـة ، كمـا أنـه يتـصل مـن قريـب ومـن بعيـد بالعولـة ، وبالهيمنـة الفكريـة والثقافيـة ، وبـالموقف مـن المـوروث الثقـافي ، ومـن الهويـة . وقـد نجحـت النـدوة ـــ بـالرغم مـن مجانبـة إدارتهـا للتوفيـق المطلـوب ـــ في جـلاء العديـد مـن الأمـور الملتبـسة ، خاصـة عنـدما ركـز الـدكتور صـلاح فـضل ـــ في تحديـد ووضـوح ـــ علـي المفـاهيم ، والتراكـم التـاريخي ، والموقـف الـراهن ، وكيفيـة مواجهـة الأخطـار ، وركـز جوزيـف حـرب علـي الأبعـاد الـسياسية للموضـوع ، وخطورتـه علـي الواقـع العربـي ، والنظـر إلى ه مـن منطلـق الريبة والتشكك وتصنيفه في إطار المؤامرة الكبري علي العالم العربي .

وكـان سـنده وحيثياتـه مـن خـلال الواقـع اللبنـاني ، الـذي كـان مثقفـوه هـم الأسـرع إلى تـبني الحداثـة والـدعوة إلى هـا ، في إطـار مـا يـسمي بالانفتـاح والانـدياح ، توطئـة للتنازلات ومن ثم انسحاق الوطن .

المهمومـون ـــ مثلـي ـــ بالإبـداع العربـي ، علـي امتـداد عـصوره وتعاقبهـا ، يـستطيعون أن يتـأملوا عـروق حداثـة عربيـة ضـاربة بجـذورها في البعيـد البعيـد ، منـذ كـان الـشعراء الـصعاليك في العـصر الجـاهلي يقـدمون صـيغة شـعرية مغـايرة لـشعر المعلقـات ، تتميـز بـالتحرر مـن المقـدمات الطليـة وسـرعة الإيقـاع ، ووحـدة الموضـوع ، والطـابع الـواقعي ، والنزعـة القـصصية ، والبعـد عـن التـصريع إلى غـير ذلـك مـن الظـواهر الفنيـة ، وهـو مـا جعـل لـشعر الـصعاليك ، بـالمفهوم الحـداثي ـــ بعـدا فنيـا متميـزا ، وبعـدا اجتماعيـا يتمثـل في التمـرد والثـورة علـي القـيم والمفـاهيم ، ورفـض المواضـعات والتقاليـد الـسائدة ، والتحـرر مـن أسـر القبيلة والمجتمع ، بـل ومـن أسـر الأسـرة الـتي تـؤدي قـيم الـولاء لهـا والتمـسك الـشديد بهـا إلى العجز والجبن والخور والإقلاع عن الشجاعة والتهور والمجازفة .

نـستطيع ـ علـي سـبيل المثـال أيـضا ـــ أن تتأمـل عـروق حداثـة عربيـة في شـعر أبـي نواس وأبـي تمـام وموقفيهمـا مـن الإبـداع والحيـاة معـا . أبـو نـواس في حماسـه للجـدة والمغـايرة يثـور علـي قـصيدة الباديـة ويقـدم قـصيدة المدينـة ، يـسخر ممـن يقفـون علـي الأطـلال ، ويـدعو إلى مواضـعات المدينـة ـــ الـتي نموذجهـا لديـه بغـداد والبـصرة والكوفـة ، فالقـصيدة خرجـت

من الصحراء بخروج الإنسان العربي إلى الحواضر العربية حيث تقوم حضارة جديدة وثقافة مختلفة وبالتالي روح ومعايير فنية مغايرة .

أما أبو تمام فثورته الحقيقية في أفق المجاز ، والبديع ، والإبداع بالصورة ، والتشكيل المتميز للعلاقات اللغوية في النص الشعري . وفي ظني أنه قد نجح تماما في رسم صورة الشاعر الحداثي وجوهره كما يراه هو ، وتجسيد مكوناته وعناصر اختلافه عن المدعي والمقلد عندما يقول

هذب في جنسه ونال المدي

بنفسه ، فهو وحده جنس

ضمخ من لونه ، فجاء كأن قد

صبغت من أديمه الشمس

أيامنا في ظلاله أبدا

فصل ربيع ودهرنا عرس

لا كأناس قد أصبحوا صدأ الـ

عيش ، كأن الدنيا بهم حبس

القرب منهم بعد من الروح

والوحشة منهمو هي الأنس

فهذا الشاعر الذي يصوره أبو تمام باعتباره القدوة والطليعة والنموذج تم تهذيبه أي تكوينه وتنشئته وتعهده في إطار موروثة الثقافة وهو بفضل عبقريته وتفرده استطاع الآفاق المحدودة والمدي المألوف فأصبح علامة علي تفرد جديد لا عهد للسابقين به بعد أن صار جنسا مستقلا ونوعا له خصوصيته .

هذا الشاعر يضعه أبو تمام في مواجهة دعاة التقليد والتكرار والاجترار الذين أصبحوا سببا لصدأ الحياة وقبحها وفسادها وتوقف جريانها وتدفقها ، فهم بما يقولونه ويلوكونه سجن لمن يتطلبون حرية الإبداع وقدرته علي الإدهاش والجدة والمغامرة . هذه الحداثة العربية هي جوهر ما نحرص عليه إلى وم ، اكتشافا وجلاء وامتدادا وتجاوزا ، من غير أن تربكنا المقولات والمفاهيم والمصطلحات التي ترجمها من لا يحسن الترجمة ، وصاغها ـــ بالعربية ـــ من لا يحسن الصياغة ، فأصبحت العودة إلى ها في مظانها ومصادرها الأصلية أجلي وأوضح وأكثر دقة وسلامة ، فضلا عن مسارعة البعض إلى التورط في التبشير ثم التورط الأكبر في التطبيق ، لعله يسبق غيره ويحقق نصرا علي الآخرين ، باعتباره أول من اكتشف ما يسمي بالمسكوت عنه أو التناص أو التماهي أو إنتاج الدلالة

وغيرها من المصطلحات التي يضيف من يستعملها باعتباره حداثيا ، حتي لو كان في باطنه وحقيقته ينتمي إلى السكاكي و عبد القاهر وابن طباطبا وقدامة وغيرهم . لكن الطفو علي السطح يقتضي الخفة ، والخفة جاهزة فيما يلوكه هؤلاء ، فلأجرب حظي ، وسوف يصدقني الناس بالتكرار ، وكم ذا بمصر من المضحكات ، ولكنه ضحك كالبكاء كما قال أبو الطيب !

لو لم يكن لمهرجان المحبة ـــ في اللاذقية ـــ إلا فضل إثارة هذه القضايا ، التي لا يشك أحد في أنها مصيرية علي مستوي الإبداع والثقافة والوطن ـــ لو لم يكن له من فضل إلا هذا لكفاه ذلك فضلا وشرفا . صحيح أن مثل هذه الموضوعات تحتاج إلى مؤتمر وليس إلى ندوة واحدة ، حتي يتسع المجال لوجهات النظر العديدة وللمداخلات الكثيرة التي من شأنها أن تجلو الأمر وتثري المناقشة وتعمق المسار .

لكن ندوة كهذه تمثل بداية لخطة جديدة ، وقد أخذ مهرجان المحبة بزمام المبادرة في محاضرة الثقافة والعمل الثقافي ، وفي ندوة موجات الحداثة في الشعر العربي . ليت المهرجان يلتفت في دوراته القادمة إلى شعراء سوريا الكبار وفي مقدمتهم: سليمان العيسي ومحمد الماغوط ، لا ليشاركوا فيه فقط ، ولكن ليتم تكريمهم بتخصيص أمسيات كاملة لكل منهم بالاضافة إلى تقديم نقدي يقوم به دارس متخصص يضيء النماذج المقروءة ويأخذ بعقل المستمع ووجدانه إلى عالمها الرحب الفسيح .

وليت المهرجان يهتم بطبع ما تقدمه أمسياته وندواته في كتاب سنوي ، يكون مرجعا وتوثيقا ، وشاهدا علي عطاء المهرجان ، وإضافة للمكتبة الشعرية والنقدية بمادة مختارة ، لها أهميتها وفاعليتها .

وليت المهرجان يفسح للجانب الفكري والنقدي فيه مساحة أرحب بحيث لا تكون بديلا عن الأمسيات الشعرية ، وإنما موازية لها ، تتم في الوقت نفسه وفي قاعة أخري – ليس ضروريا أن تكون في حجم القاعة الهائلة المخصصة للأمسيات الشعرية والحفلات والعروض الفنية ، لا ن جمهورها بطبيعته مختلف من حيث العدد والنوعية ، ولو تحقق هذا لحقق زخما أكبر للمهرجان ، ولضاعف من قدرته علي التأثير ، وتعميق مفاهيم الأصالة والحرية والانفتاح والانتماء علي السواء .

بل ليتنا نري لدمشق ـــ وهي إحدي العواصم العربية الكبري صانعة الثقافة والإبداع ، وحاضنة الموروث الثقافي العربي ـــ ليتنا نري لها المهرجان الثقافي اللائق باسمها ، والمعبر عن مكانتها في قافلة الثقافة العربية المعاصرة .

وفي ظل قيادة ثقافية تمثلها الدكتورة نجاح العطار ، يصبح ما نفكر فيه ، وندعو له جزءا من وعيها المستنير ، وحلمها الكبير وإنجازها المتجدد .

أيامنا الثقافية المصرية في الشارقة

بقلم : فاروق شوشة

من الأول وحتي السادس من شهر أكتوبر الحالي ، أقيمت في الشارقة الأيام الثقافية المصرية التي تضمنها الاسبوع الثقافي المصري ، حافلة بالانشطة والبرامج ، في ظل عراقة وثيقة تربط بين مصر ودولة الإمارات العربية المتحدة بشكل عام والشارقة بصفة خاصة .

وهي العلاقة التي عبر عنها الشيخ عصام بن صقر القاسمي رئيس دائرة الثقافة والاعلام في حكومة الشارقة بقوله: لمصر العروبة مكانة خاصة في القلوب والوجدان ، فمن تلك الارض المباركة خرجت قوافل النور وحملة مشاعل الفكر والمعرفة ، تجوب العالم وتحكي تاريخ ارض وشعب وأمة وحضارة ، وتسطر معاني النضال من أجل العدالة والحرية والخير والجمال .

تاريخ من العطاء الانساني وقامة شامخة من العلم والمعرفة وسراج هداية انارت الدروب وأسهمت في الحضارة الانسانية علي مر العصور والأزمان .

واليوم مصر في الشارقة ، في رعاية حاكمها وفي قلوب أهلها ، جاءت تحمل الخير والامل والبشري ، جاءت بعروبتها وثقافتها وقيمها ، وبكل ماهو جميل فيها ، جاءت لتسهم معنا في إيجاد تواصل ثقافي عربي ، هو خيارنا الاوحد في هذا العالم المتغير والمتحول ، لتشكل بوجودها انطلاقة عربية في دائرتها الاشمل والاكبر ، بغية تجسيد مشهد ثقافي عربي ، بكل معطياته التاريخية والحضارية . ومن قبل ، كانت الشارقة في مصر بين اهلها وعشيرتها ، حيث احسنوا استقبالها ووفادتها وتفاعلوا مع ما قدمته من فكر وثقافة وقيم أصيلة ، عكست الصورة الصادقة والمشرفة للإنسان العربي في الامارات وهكذا تتواصل اللقاءات العربية من أقصي الوطن إلى أقصاه ويلتقي ابناء الأمة الواحدة ، مجسدين صور التلاحم والترابط والتواصل .

لم تبالغ هذه الكلمات علي الإطلاق في رسم الصورة الحقيقية للواقع الثقافي في الشارقة من ناحية ، وحفاوتها بالاسبوع الثقافي المصري فيها من ناحية أخري . فالشارقة بين مختلف إمارات دولة الامارات المتحدة تمثل مركز الوعي والاشعاع الثقافي ، بينما تمثل أبو ظبي مركز الحكم والسياسة ودبي مركز المال والاقتصاد . وابناء الشارقة يعون هذه الحقيقة جيدا ، ويدركون ان رأسممال إمارتهم الأساسي وثروتهم الحقيقية هو العمل الثقافي والاشتغال بالتثقيف والتنوير . وانعكس هذا الوعي علي كل شيء: المؤسسات الثقافية والادبية والفنية والصحافة والاذاعة والتليفزيون ، فضلا عن المعاهد

الفنيــة المتخصــصة . ولايكــاد يوجــد بــين كــل التليفزيونــات العربيــة تليفزيــون يــؤمن برســالته الثقافيــة وتوجهــه التنــويري وحرصــه علــي الجديــة والالتــزام بابعــاد الواقــع الثقــافي الخليجــي والعربــي كتليفزيــون الــشارقة . لهــذا لم يكــن غريبــا ان تختــار إلى ونــسكو إمــارة الــشارقة لتكــون عاصــمة ثقافيــة عربيــة ، نتيجــة لمــا تتميــز بــه مــن نهــضة ثقافيــة حديثــة واســتكمال لعناصــر البنيــة الثقافيــة الاساســية فيهــا ، تحــت رعايــة حــاكم مثقــف ، يــؤمن بقــيم الثقافــة ، ويعطيها حقها من الدعم والاهتمام .

وعلــي الجانــب الآخــر ، كــان هنــاك إدراك واع مــن المخططــين الثقــافيين المــصريين لا هميــة مثــل هــذا الحــدث ونوعيتــه المتميــزة . تمثــل هــذا الادراك والاهتمــام في حــرص وزيــر الثقافــة في مــصر علــي المــشاركة في افتتاحــه مــع حــاكم الامــارة وفي الجهــد الكــبير الــذي قــام بــه الــدكتور طــارق عبــد العظــيم احمــد رئــيس المكتــب الثقــافي لــسفارة جمهوريــة مــصر العربيــة لــدي دولــة الامــارات العربيــة تخطيطــا ومتابعــة . ولم يبخــل وزيرنــا المفــوض القنــصل العــام احمــد زيــن ومــساعدوه النــشيطون بالوقــت والجهــد والعمــل علــي إنجــاح هــذا الاســبوع الثقــافي والحفــاوة بالمشاركة فيه .

واتسعت ايام الاسبوع ولياليــه لا لــوان شــتي مــن النــشاط الثقــافي والفــني كــان لــه صــداه العميــق عنــد أشــقائنا في دولــة الامــارات وابنــاء الجاليــة المــصرية فيهــا . كــان معــرض الفــن التــشكيلي يعكــس كمــا عــبر الفنــان جــورج فكــري ـ قوميــسير المعــرض ـ عــن اشــكاليات التحــاور الابــداعي للفــن المــصري المعاصــر في بــدايات القــرن الحــادي والعــشرين مــن خــلال الطــرح الموضــوعي للعديــد مــن الاتجاهــات الفنيــة المــصرية المعاصــرة ، حيــث تتعــدد جوانــب الــرؤي الفنيــة لــدي مجموعــة الفنــانين المــصريين المــشاركين بأعمــالهم: عــادل المــصري وعــدلي رزق الله وعــصمت داوستاشــي ومــصطفي عبــد الوهــاب وصــلاح العنــاني وحــازم فــتح الله واحمــد الــسطوحي وإسـلام عبــد العظــيم وجــورج فكــري وايهــاب شــاكر ومحمــد الفيــومي ، ومحمــد طــه حــسين وطــارق الكــومي وجمــال عبــد النــاصر وهالــة الــرزاز واســامة حمــزة وعــادل هــارون وأحمــد عمر وحــسين الــشحات ومحــسن عــلام ومحمــد عبــد الغــني وآمــال عبــد الغــني ومرفــت عطــا الله في مجــالات الرســم والتــصوير والحفــر والنحــت والخــزف والجرافيــك . ممــا يؤكــد خــصوصية هــذه النخبــة مــن فنــاني مــصر المعاصــرين في التحــاور الابــداعي مــن منطلــق فهــم اشــكالياته المتعــددة الــتي تكــون لهــا صــفة التغــيير والثبــات والتجديــد والتخاطــب و التحــاور ، ومــن خــلال التواصــل بــين الــرواد والاجيــال المتلاحقــة ، واســتيعاب المــوروث بقــوة إلى قــين المطلــق لمفــردات الفنون الجديدة في بدايات القرن الحادي والعشرين .

كمــا كــان معــرض رســوم الاطفــال تحــت إشــراف الاســتاذة فاطمــة المعــدول رئيــسة المركــز القــومي لثقافــة الطفــل ـ وقوميــسير المعــرض حــدثا فنيــا لا فتــا للانتبــاه ومــؤثرا بــصورة فنيــة ووجدانيــة في الألــوف مــن الــرواد والمــشاهدين . وتجلــت مــن خلالــه عبقريــة العديــد مــن أطفالنــا

ـ حتي الذين حكمت عليهم الظروف القاسية بان يكونوا معاقين ـ في الرسم والتعبير عن شواغلهم وهمومهم وانطباعاتهم الطفولية التي لا تخلو من ذكاء شفافية ولماحية . وكان لشخصية فاطمة المعدول المتوهجة وحيويتها الفائقة وايمانها بالرسالة التي تمارسها في عالم الطفل – كاتبة وخبيرة ومشرفة ومسئولة ، ومتفوقة في الكتابة للاطفال الاسوياء وذوي الاحتياجات الخاصة علي حد سواء ـ كان لهذا كله اثره البالغ في نجاح هذا النشاط الاساسي من انشطة الاسبوع الثقافي المصري خاصة في الشارقة التي تهتم اهتماما عميقا بثقافة الطفل ذوي الاحتياجات الخاصة وبناء الانسان علي أسس صحيحة . ومن منطلق هذا لا هتممام كان حرص الجانبين في مصر والشارقة علي مشاركة المستشار الدكتور محمد فتحي نجيب – صاحب الدور الاساسي في وضع قانون الطفل ومساعد وزير العدل – بمحاضرة ثرية معمقة عن ثقافة الطفل العربي: مصر نموذجا ، مركزا علي الاطار الحضاري او القانوني لثقافة الطفل والاسس والقواعد التي قام عليها القانون في مواجهة المتغيرات والمؤثرات الداخلية والخارجية في حياتنا العربية المعاصرة .

إلي جانب هذا ، كانت هناك معارض لفن البريد الرمزي وللصور الفوتوغرافية عن مشروع القرن (توشكي وقناة الشيخ زايد) وعن انتصار اكتوبر المجيد ومعالم مصر الحديثة ومعرض للكتاب وملتقي للشعر تمثل في امسيتين شعريتين: إحداهما للشاعرة وفاء وجدي التي امتعت جمهورها بفيض من الترانيم الروحية والقومية ، والآخري لكاتب هذه السطور .

أما الحدث الفني الذي كان له صداه العميق في جمهور هذا العرس الثقافي فتمثل في الحفلين اللذين اقامتهما فرقة عبد الحليم نويرة للموسيقي العربية بقيادة المايسترو صلاح غباشي علي مسرح قصر الثقافة بالشارقة وشهدهما جمهور غفير من ابناء دولة الامارات والمصريين العاملين فيها . كان الحفلان كما وصفهما الاستاذ محمد عبد الله مدير دائرة الثقافة والاعلام في تعقيبه الجميل فرصة للتطهير من أوضار موجة الغناء الهابطة التي أخذت مساحة اكبر مما تستحقه من اهتمام اجهزتنا الاعلامية والفنية . فجاءت فرقة عبد الحليم نويرة للموسيقي العربية لتعيدنا إلى النغم الاصيل والغناء الجميل ، والكلمات الراقية والالحان البديعة والاصوات القادرة وتألق في الغناء ـ بمصاحبة الفرقة ـ كل من سحر ناجي وعبير أمين رمضان ومحسن فاروق وابراهيم الحفناوي ومحمود عبد المجيد . كما كشفت الفرقة عن إمكانيات وقدرات فنية عالية في العزف وتقديم المقطوعات الموسيقية ومصاحبة المطربين . مما اشعل حماس الجمهور وملأ سماء الشارقة بأقباس من البهجة الحقيقية وتجليات الفن الحقيقي .

والمرء يتساءل ـ وبين ايدينا مثل هذا الكنز الذي يتوهج بالموهبة والاقتدار الفني ـ لماذا لا تأخذ مثل هذه الاصوات الجميلة طريقها إلى حفلاتنا الغنائية العديدة المذاعة

بالاذاعة والتليفزيون ؟ ولماذا لا نغسل بهذه الاصوات القادرة ظواهر الطفح الغنائي التي ابتلينا بها في الفترة الاخيرة ، وكأننا نواجه مؤامرة لا شاعة القبح ، القبح الصوتي واللحني والتأليفي ، حتي نعتاد معايشة هذا القبح والاستسلام له ؟ إن هذه الاصوات الخمسة التي تألقت من خلال احتفالاتنا في الشارقة نموذج واحد لعدم اعطائنا الفرصة الواسعة لمثل هذه المواهب ، في الوقت الذي نتباكي فيه علي حال الواقع الغنائي والموسيقي ، ونتهمه بالخواء والجفاف مبررين إفساح المجال ـ بوفرة مشبوهة أمام أرباع الاصوات وارباع الالحان وارباع الكلمات !

لماذا يتألق فنانونا ومبدعونا ـ خارج الحدود ـ ولا تتاح لهم فرص التألق ـ المهيأة لغيرهم ـ داخل الحدود ؟ ولماذا يقتصر نقل حفلات الاوبرا علي الهواء ـ من الاذاعة والتليفزيون ـ علي الموسيقي الكلاسيكية والاوبرات وحدها ؟ لم لا يتاح لحفلات الموسيقي العربية ومئات الفنانين المبدعين المشاركين فيها فرصة مماثلة للنقل علي الهواء ، وصولا إلى ملايين المستمعين والمشاهدين ، ولو مرة واحدة كل شهر ؟ ولماذا يظل وجه الأوبرا ـ المنقول علي الهواء إلى الناس في كل مكان ـ هو وجه الموسيقي الاجنبية والغناء الاوبرالي ـ علي جمالهما وعظمتهما ـ ولا يصطبغ هذا الوجه مرة واحدة كل شهر ـ بحمرة الموسيقي العربية والغناء العربي النابعين من هذه الارض والمعبرين عن هويتها وأصالتها .

أكتب هذا الكلام وعلي رأس الأوبرا الآن رجل وطني الوجدان قومي المشاعر مؤمن بدور الأوبرا في إشاعة الجمال ورسالتها في تثقيف وجدان الجماهير ـ المصرية والعربية ـ هو الدكتور سمير فرج من خلال إدارة واعية حكيمة وعادلة .

ونعود من الشارقة ، ولاتزال أصداء الليالي الثقافية المصرية تتردد في قاعات متحف الشارقة للفنون ، وفي معهد الشارقة للفنون المسرحية وفي مسرح قصر الثقافة ، وفي الاحاديث والندوات الاذاعية والتليفزيونية ، وفي العديد من الصحف والمجلات التي واكبت هذا العرس الثقافي وحرصت علي متابعته والحفاوة به وإلقاء الضوء علي جميع من شاركوا فيه بدءا من الوفد الرسمي الذي رأسه وزير الثقافة وبرفقته الدكتور سمير سرحان والدكتور فوزي فهمي وانتهاء بأطفالنا الموهوبين الذين شدت لوحاتهم الجميلة الانتباه في معرض رسوم الاطفال ، وسرقت الكاميرا ـ كما يقولون ـ من بقية المعارض الفنية التي شارك فيها الكبار .

* * *

ولقد أحسن الاسرائيليون صنعا بتفجير الموقف في ساحة المسجد الاقصي في سائر الارض الفلسطينية المحتلة ـ بغطرستهم وبربريتهم وعنصريتهم ـ ليصبح عدوانهم الجديد الكاشف عن حقيقتهم ، خلفية وآلة بكل ماتحمله من دماء الشهداء: الاطفال والكبار ،

وصور المواجهات ، وصحوة الشعب الفلسطيني ، وتضامن الشعوب العربية والاسلامية ، واشتعال المنطقة باسرها بالغضب العاتي ، وليذكرنا من جديد ـ نحن العرب الذين أنس بعضهم لفكرة التطبيع ومعسول التصريحات الاسرائيلية بأن العدو القومي للأمة العربية هو هو لم ولن يتغير ، وأن الليالي الثقافية المصرية في الشارقة ـ بفضل هذا العدوان الاسرائيلي الغاشم علي المواطنين العزل في الضفة الغربية وغزة ـ كانت أكثر حرارة وتوهجا ، وامتلاء بالحس العربي القومي الذي يري في كل عمل عربي مشترك ـ علي المستويات السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الفنية ـ ضربة في صميم الكيان الصهيوني الغاشم ، الذي تتخلخل ركائزه الآن كما لم تتخلخل من قبل ، والذي يتجدد الحديث عنه وعن الدولة العنصرية العائمة التي لا تتمتع بمقومات الدولة التي تتمثل في اعتراف الوسط المحيط بها بوجودها ، وتمتعها بحدود ثابتة ومعترقف بها ، بشخصية قومية ينصهر فيها شعبها . نعم ، جاءت صحوة الانتفاضة الفلسطينية ، لتلقي بدلالاتها ومعانيها علي الاسبوع الثقافي المصري في الشارقة ، حفزا للهمم العربية ، ودعما لتوجهات التعاون والتكاتف والتبادل والتكامل علي مستوي الوجود العربي ، ويقينا بان العمل العربي الواحد ـ وفي الطليعة منه كل نشاط ثقافي وفني ـ هو بداية النهاية لهذا الكيان العنصري البغيض المؤسس علي البغي والظلم والعدوان .

* * *

وتحية للشباب العربي الجميل الذي يقود العمل الثقافي والفني ـ بكل الاصالة والاقتدار ـ في دائرة الثقافة والاعلام بالشارقة ، التي استحقت عن جدارة لقب عاصمة الثقافة العربية .

هموم الثقافة والمثقفين
في مؤتمر دمياط الأدبي
بقلم: فاروق شوشة

شرفني أدباء دمياط ومبدعوها باختياري رئيسا لمؤتمرهم الأدبي السابع ، فأتاحوا لي بهذه المشاركة فرصة العودة إلى الجذور والينابيع ، والاقتراب الحميم من الواقع الإبداعي للإقليم الذي أعتز بالانتساب إلى ه ، والحوار حول همومهم الثقافية والابداعية التي هي الهم العام لكل مثقفي مصر ومبدعيها . وهو أمر نجح المخططون للمؤتمر في صياغته من خلال سؤالين كبيرين عن الثقافة المصرية: أين تقف وإلي أين تتجه ؟ وعن الثقافة المصرية والعولمة ، نبشا في طبقات الواقع الراهن ورهانا علي المستقبل . للمرة الأولي أجدني وسط هذه الكوكبة من الكتاب والأدباء والشعراء والنقاد ، في واحد من المؤتمرات الحية والناجحة التي تقيمها الهيئة العامة لقصور الثقافة ، والتي يتوقف نجاحها عادة علي مشاركات جادة من الباحثين والدارسين ، وتنظيم دقيق من المعنيين ، وتعاون صادق بين الحكم المحلي ووزارة الثقافة . وفي هذه المرة- التي أتيح لي أن أكون شاهدا عليها- كان التواصل الحميم والتلاقي علي مستوي الفكر وآليات التنفيذ بين محافظ دمياط الدكتور عبد العظيم مرسي وزير- الذي يعتبر واجهة مشرقة وروحا جديدة للعمل الوطني في دمياط بكل أبعاده ومستوياته ، ورئيس الهيئة العامة لقصور الثقافة علي أبو شادي- بكل مايمثله من قيم الجدية ونبض المسئولية وحرارة الأداء- كان هذا التواصل والتلاقي كفيلا بوضع أساس راسخ لنجاح المؤتمر ، ولفتح أبو اب الأمل في إنجازات ثقافية أبسط ما فيها إطلاق طاقات العمل في مبني المديرية العامة للثقافة بدمياط ، والإعلان عن قرب افتتاح المكتبة العامة الجديدة في دمياط ، وإصلاح مبني فارسكور ورعاية المواهب الفطرية في الفن التشكيلي . ومعهما من رجالات الهيئةالأديبان محمد السيد عيد وفؤاد قنديل بالوعي المستنير والجهد الدائب .

كان طبيعيا أن تصبح قضية العولمة قضية محورية في الشق الأول من أبحاث المؤتمر ومداخلاته: سياسيا واقتصاديا وثقافيا . وأن يشارك في إضاءة جوانبها وزواياها والالتفات إلى أخطارها واقتراح أساليب مواجهتها والتعايش معها كل من السفير المتميز عبد الرؤوف الريدي ابن دمياط ، والكتابين البارزين الدمياطيين ، يسري الجندي وأبو العلا السلاموني ، وكان الثلاثة- بما يمتلكونه من وعي وما يمثلونه من مواقف وخبرات- مفاجأة للحضور بالنسبة لعمق الفكر وتنوع منطلقاته وجرأة الطرح والتناول . يسري الجندي مثلا يري أن المدخل الأساسي في الدفاع والمواجهة يكمن بداية في التأكيد الفعال

لخصوصيتنا الثقافية ، واستنهاض عناصر الثقافة الوطنية في كل تجلياتها حتي في مجال العمارة .

ويري أن الخصوصية المستهدفة في مجال الثقافة المصرية تساعد علي خطورة موقفها ثورة وسائل الاتصال ، والبث الفضائي بشكل خاص- الذي صار طرفا بالغ التأثير في معركة اختراق العقل والوجدان العربيين لحساب هيمنة تبغي أن تكون مكتملة اقتصاديا وسياسيا وثقافيا . ولايفوته أن يستشهد بموقف فرنسا- بكل تاريخها الثقافي- حين أعلنت رفضها بنود المصنف الفني في اتفاقية الجات دفاعا عن هويتها الثقافية في وجه هيمنة ثقافية واردة تتيحها الاتفاقية التي تفتح الأبواب بقوة أمام ثقافة الأقوي اتساقا مع العولمة التي يجرف طوفانها في طريقه كل الخصوصيات .

ثم لا يفوته أن ينبه إلى أهمية الارتباط الوثيق بالتقدم العلمي في قفزاته المتلاحقة ، ووضع قاعدة علمية حقيقية تسمح لنا بمشاركة فعالة علي مستوي ثورة المعلومات والهندسة الوراثية وثورة وحدة القياس الزمني (الفيمتو) وغير ذلك . أما محمد أبو العلا السلاموني فيري أن الشخصية المصرية تعتبر أقدم الشخصيات الوطنية في التاريخ وأعظمها ثقافة وحضارة وإنسانية ، وأن تعرضها للتشويه والسحق طوال عشرين قرنا مضت ليس مبررا لا ن نواصل سحقها وتشويهها برغبتنا وطوع إرادتنا تحت دعاوي دينية أو قومية أو سياسية أو ثقافية .

وهو في ورقته إلى المؤتمر يدعو إلى إحياء الوطنية المصرية ، لنجعل منها ورقة تحمينا من كل الانتماءات الأخري التي تشوه الشخصية المصرية (فنحن- كما يقول- مصريون قبل الاسلام وقبل العروبة ، بل وقبل التاريخ وقبل حضارات الآخرين) . هذا الطرح يذكرنا بالجدل الصاخب الذي دار عقب ثورة١٩١٩ عن حقيقة الشخصية المصرية والهوية المصرية بعد سقوط الامبراطورية العثمانية وتفجر الوعي الوطني المتحرر- هل هي فرعونية ؟ أم إسلامية ؟ أم بحر أوسطية ؟ وكان من أنصار الاتجاه الأول توفيق الحكيم ونجيب محفوظ في كتاباتهما الأولي: عودة الروح للحكيم ، ورادوبيس وكفاح طيبة وعبث الأقدار لنجيب محفوظ وهي روايات تستلهم التاريخ الفرعوني ، وقبلها كان محفوظ قد ترجم مصر القديمة لربيكي . وكان من أنصار الاتجاه الثاني فريد أبو حديد وسعيد العريان وعلي أحمد باكثير في كتاباتهم ورواياتهم ذات الاستلهام الإسلامي ، أما الاتجاه الثالث فكان من ابرز دعاته فكريا لطفي السيد وطه حسين ومحمد عوض محمد وغيرهم .

وقد حسمت حتمية الانتماء العربي- ثقافيا وروحيا ومصيريا- هذا الجدل ، وأبرزت حقيقة هذه الشخصية التي تستلهم مروثها الحضاري القديم بكل قسماته : الفرعونية والقبطية والإسلامية ، وتنفتح علي روح العصر التي تمثلها حضارة الغرب ،

وتتعامل معها من منطلق الندية تعاملا نقديا قادرا علي التحليل والانتقاء والمشاركة ، هذا الموقف النقدي ينسحب علي الموروث الثقافي والحضاري ، كما ينسحب علي الجديد المختلف والمغاير . بحيث أصبح الدفاع عن الثقافة المصرية- في جوهره- دفاعا عن مستقبل الثقافة العربية والانتماء العربي .

وبالرغم من أن جمهور المؤتمر لم يتح له أن يلتقي بالمفكر والناقد الكبير الأستاذ محمود أمين العالم- بعد أن حالت الظروف بينه وبين الحضور والمشاركة- إلا أن فكره الجاد العميق المتمثل في ورقته عن الثقافة المصرية: أين تقف وأين تتجه ؟ كان تأكيدا لحضوره الحي في عقل المشاركين ووجدانهم . فهو يري أن الثقافة المصرية ذات جذور شعبية قديمة تمتد إلى الحضارة المصرية القديمة ، فضلا عن بعض بقايا الحضارات المتوسطية القديمة أيضا كالحضارة إلى ونانية والرومانية ، وهي امتداد له خصوصيته الذاتية للحضارة العربية الاسلامية ، يرث صعودها التاريخي القديم ، كما يرث إلى وم انحدارها وتدهورها وتخلفها وتبعيتها ، خاصة منذ السيطرة التركية القديمة فالعثمانية والمملوكية ، فالغزو الفرنسي فالاحتلال البريطاني إلى ما انتهي إلى ه الأمر من الهيمنة الرأسمالية المعولمة في عصرنا الراهن . وأن هناك مصدرين أساسيين يشكلان ملامح الحاضر الثقافي الراهن ، أولهما: استمرار التراث العربي القديم ممثلا في الدين واللغة والإحساس بوحدة الهوية التاريخية التي يمتزج فيها الوجدان المصري ، بالوجدان العروبي ، بالوجدان الروحي والديني . وثانيهما يتمثل في التأثير الغربي الثقافي بجانبيه: المعنوي بما يعنيه من مفاهيم وقيم ورؤي حداثية ، والمادي بما يتضمنه من مؤسسات سياسية وتشكيلات اقتصادية واجتماعية وإدارية وأنماط إنتاجية تحديثية .

وينبه الأستاذ العالم- في ورقته البحثية- إلى أن تداخل هذين المصدرين: التراثي والتحديثي لا يشكل نسقا مجتمعيا متميزا موحدا ، بل ثنائية قلقة تتم فيها الغلبة للمصدر الغربي التحديثي علي المصدر التراثي القديم ، خاصة في الجانب المادي والعلمي ، وجزئيا في الجانب المعنوي القيمي الحداثي .

ولهذا - في رأيه وتحليله- تسود في المجتمع المصري ثقافة ثنائية غير متوازنة ، ملتبسة ، فضلا عن هشاشة وسطحية بنيتها . فلا القديم التراثي عميق الجذور في تأصيله المعرفي والوجداني والقيمي ، في الثقافة المصرية ، اللهم إلا في بعض جوانب الثقافة الشعبية ، ولا الجديد الغربي له أسسه وركائزه الراسخة المستنبتة النابعة من الإبداع المجتمعي الذاتي .

وفي بحثه عن الحل والطرح المستقبلي يدعو الأستاذ العالم إلى سلطة الثقافة لا ثقافة السلطة . سلطة الثقافة النافذة ذات الرؤية الاستراتيجية البعيدة التي تقاوم كل ماهو سائد مهيمن متخلف مستغل أو مستعمر والسعي للتغيير والتجديد والتحرر والتجاوز المتصل

. هـذه السلطة الـتي يبنيهـا المثقفـون الواعـون مـن مختلـف قـوي الإنتـاج والإبـداع والمعرفـة ومنظمـات المجتمـع المـدني ، ويطورونهـا بحـسب الملابـسات الخاصـة للواقـع . وهـو لا يقـصد بـالمثقفين مـن يـسمون بالمتخصـصين فحـسب ، وإنمـا يقـصد المـثقفين بـالمعني الـشامل للثقافـة ، المـثقفين المـدركين للـشرط الاجتمـاعي العـام ، المهمـومين بـإرادة الـسيطرة عليـه ، وتغـييره إلى مـاهو أفـضل وأعـدل ، حريـة وتفتحـا إنـسانيا ، والمـدركين في الوقـت نفسه لحقـائق المنجـزات العمليـة والتكنولوجيـة والمعرفيـة ولعلاقـات القـوي الـسياسية المختلفـة والمتناقـضة في العـالم المناضـلين– مـع قـوي عديـدة في العـالم– ضـد العولـة الرأسماليـة الجـشعة الـشرسة ، مـن أجـل عولة إنسانية ديمقراطية جديدة .

تبلـغ حـرارة المـؤتمر ذروتهـا عنـد مناقـشة الواقـع الابـداعي في دميـاط ، ويبـذل المنظمـون مـن أمانـة المـؤتمر: سمـير الفيـل ومحمـد العـتر ومـصطفي العايـدي جهـودا متـصلة للـسيطرة علـي مـسار الأبحـاث والمـداخلات وتهدئـة لحظـات التـوتر والانفعـال الزائـد والـشعور بالغـضب أو الإحبـاط ، والمـؤتمر يخـصص يومـه الثـاني وجـزءا مـن يومـه الثالـث للقـصة القصيرة والرواية وشعر الفصحي والعامية في دمياط .

ويـستمع إلى دراسـات جـادة– متنوعـة الـرؤي وأسـاليب التنـاول ومنـاهج البحـث عـن العولـة والإبـداع الـدمياطي لعـدد كـبير مـن النقـاد والبـاحثين الـدكاترة والأسـاتذة: مجـدي توفيـق ورمـضان البسطاويـسي ومحمـد نجيـب الـتلاوي ومحمـد محمـود عبـد الـرازق وسمـير عبـد الفتـاح وربيـع مفتـاح وسـيد الوكيـل ومحمـود عبـد الوهـاب وسـعيد الوكيـل وأيمـن بكـر وعلـي عفيفـي وحامـد أبـو أحمـد وسمـير الفيـل . ويـستمع إلى شـهادات المبـدعين ، مـصطفي الأسمـر وأحمـد زغلـول الـشيطي وكامـل الـدابي وسمـير الفيـل . ويفـسح المجـال في حفـل افتتاحـه لتكـريم اثـنين مـن كبـار المبـدعين الـدمياطيين همـا محمـد أبـو العـلا الـسلاموني ويـسري الجنـدي تكريمـا خاصـا ، بالإضـافة إلى تكـريم عـدد آخـر مـن المبـدعين ، كمـا يقـيم أمـسياته الـشعرية الـتي يتـألق فيهـا مـن شـعراء العاميـة سمـير عبـد البـاقي وهـشام الـسلاموني ، مـن عنـاق النهـر والبحـر تتـشكل ملامـح الهويـة الثقافيـة لا قلـيم دميـاط . النهـر المتـد بمـا يعنيـه مـن روافـد الأصـالة والانتمـاء والجـذور العميقـة ، والبـدء مـن المنبـع في اتجـاه صـاعد إلى المـصب ، وبمـا يعنيـه مـن قـدرة علـي العطـاء والخـصوبة المتجـددة . ومـن المنبـع كانـت بـدايات عائـشة عبـد الـرحمن بنـت الـشاطيء الـتي بـدأت مـن كتـاب أبيهـافي دميـاط ليـصل إشـعاعها إلى جامعـة القـرويين في المغـرب– وقـد أعـد عنهـا الكاتـب الـدمياطي سمـير فـرج سـجلا موسـوعيا– حـافلا بالمـادة العلميـة والتوثيقيـة– يعتـبر مرجعـا أساسـيا تـذكاريا عـن بنـت الـشاطيء ، الـتي أهـدي المـؤتمر أعمالـه إلى روحهـا اعتـزازا وتقـديرا ووفـاء لـذكراها . وإلـي جـوار بنـت الـشاطيء هنـاك العشرات مـن الأعـلام ، الـذين سـطعوا في الأفـق الـدمياطي ثـم تجـاوزوه إلى أفـق الـوطن وامتـدادا إلى الأفـق العـالمي والإنـساني: علـي مـصطفي مـشرفة ، و عبـد الـرحمن بـدوي وزكـي نجيـب

محمود وشوقي ضيف ولطيفة الزيات وطاهر أبو فاشا وطاهر الجبلاوي وطاهر الطناحي ومحمد الأسمر ومحمد مصطفي حمام و عبد العليم عيسي وعلي أمين ومصطفي أمين ومحمد حسن الزيات وغيرهم .

والبحر بما يرمز إلى ه من الانفتاح والمغامرة والقدرة علي اقتحام المجهول وغواية المعرفة ، التي تتملك الدمياطي وهو يحقق ذاته ويبدع منجزاته ، منذ وطد علاقاته القديمة مع الفينيقيين- سكان الساحل الشرقي للبحر المتوسط- وكان من ثمرات هذا الحوار والجوار حمل أخشاب الأرز إلى مصر واستخدامها في صناعة الأثاث والتفوق- الذي لا يمكن منافسته- فيها .

كما كانت تانيس- دمياط الفرعونية- الواقعة علي ضفاف بحيرة المنزلة أول مركز في العالم لصناعة النسيج المأخوذ من شجر الكتان- الذي ينمو علي ضفاف النيل وتصديره إلى شبه الجزيرة العربية ، حيث كان يسمي بالقباطي- نسبة إلى القبط في مصر- لتكتب عليه المعلقات بماء الذهب وتعلق علي جدران الكعبة ، في روايات من يحكي عن كتابة المعلقات وتعليقها ليقرأها الناس في الحج ، من قبل أن يجيء الإسلام بقرون . وفي دمياط جامع عمروبن العاص ، ثاني مسجد مبني في الإسلام في مصر ، بعد جامع عمروبن العاص في مصر القديمة ، ولاتزال أطلاله وبقاياه- التي قاومت العصور والأزمنة طويلا تنتظر نظرة من هيئة الآثار ، ليعود إلى المسجد الأثري العتيق بهاؤه ورواده ، وليصبح مزارا سياحيا فضلا عن كونه أثرا دينيا نادرا . .

وفيها أقدم مدرسة ابتدائية أهلية أقيمت في مصر ، في القرن الثامن عشر ، كما كان جامع البحر في دمياط- الذي سمي بهذا الاسم لمجاورته لشاطيء النيل وإطلالته عليه- جامعة للعلوم ، وفي مقدمتها علوم الدين ، يوم كانت أعمدته يلتف من حولها الشيوخ الأساتذة والمريدون من طلاب العلم ، تماما كما كان الحال في الجامع الأزهر الشريف في القاهرة .

الحديث عن دمياط- أرض الأباء والأجداد ومثوي الراحلين الأحباب - حديث ذو شجون . جددها مؤتمر دمياط الأدبي السابع ، الذي وعد محافظ دمياط المثقف والمستنير بأن يجعل منه- بالدعم والرعاية- مؤتمرا سنويا ، ووقفة جادة متأملة للفكر والإبداع ، وطرح هموم الثقافة والمثقفين ، وتحديد الدعوة إلى قيم الخير والحق والجمال ، وشجب التلوث الثقافي والأدبي الذي يمارسه البعض من منطلق البلطجة والسوقية والإرهاب ، لكنه في النهاية عابر وزائل حتي لو تأمروا علي المؤتمر بالصمت والتجاهل ، فالنجاح دائما هو الرد الوحيد .

ويبقـي عنـاق النهـر والبحـر– في دميـاط ـ رمـزا للأصـالة والانتمـاء ودعـوة إلى التجـدد والانفتاح والمغامرة .

على هامش معرض الكتاب

بل هي في حقيقة الأمر هموم ثقافية ، يثيرها ويستدعيها مثل هذا الحدث الذي تشهده القاهرة منذ مطلع الأسبوع الماضي ، ويحتشد له جمهور عريض من شباب مصر ، الظامئ للمعرفة ، الباحث عن إجابات لتساؤلات شتي ، يرجو أن يكون فيما يقدمه المعرض من ندوات ولقاءات وحوارات وأمسيات وعروض إجابات شافية عنها . ومع هذا الجمهور العريض استنفار للعديد من المسئولين البارزين والمفكرين والمثقفين والأدباء والصحفيين والفنانين ، كل منهم يدلي بدلوه ، ويحرص علي أن يكون له سمته المتميز وحضوره الفاعل في حضرة الجماهير المستقبلة والمتصدية .

أول ما يستلفت النظر - حتى للعابرين - هذه الرغبة المحمومة عند شبابنا في المعرفة . هؤلاء الذين تسببنا ببرامجنا التعليمية المهترئة في حرمانهم من التعليم الصحيح في المدرسة والجامعة ، وتصوروا أن في لقاءات المعرض وحواراته الحية والمفتوحة ما يعوضهم عن دروس كاسدة وبضاعة بائرة . وهم بهذا الحضور الضاغط الحميم - يتحدون تقلبات الطقس ومفاجآته - يغيرون من فكرتنا عنهم . البعض منهم يبحث في أكشاك سوق الأزبكية - أكثر مناطق المعرض ازدحاما وكثافة - عن كتاب جيد رخيص الثمن ، والبعض الآخر يشده بريق اسم المتحدث أو المشارك في الحوار ، أو عنوان الندوة وجاذبيته وأهميته . وآخرون يجدون بغيتهم في الأنشطة الثقافية المصاحبة والاحتفالات إلىومية واللقاءات الشعرية . إنهم يقولون لنا - نحن الذين أسرفنا في الحكم عليهم بالسطحية والبعد عن الجدية والانشغال بتفاهات العصر - إن كثيرا منهم لا يزال ينظر إلى الثقافة باعتبارها قيمة أساسية في حياتهم ، وإن القراءة لا تزال وسيلته الجادة إلى المعرفة ، وإن بحثه عن الرأي والرأي الآخر والحوارات الحية الساخنة جزء من بحثه عن معني لحياته ووجوده . نعم ، في زحام معرض الكتاب نلامس قطاعا عريضا من شبابنا الحقيقي . ويتجدد الأمل في أن وجوها مجهولة من هذا الشباب - مسلحة بالعلم والمعرفة - ستصبح نجوم مصر في المستقبل . نجومها الثقافية والفكرية والإبداعية . وأن المساحة التي يتيحها المعرض لا هتماماتهم وأمزجتهم تسمح بالتعدد والتنوع ، وندرك أن هؤلاء الذين يفتحون صدورهم لهواء المعرفة النقي ، قادرون علي محو الآثار السيئة والخبيثة للعديد من الأجهزة والمؤسسات التي يفترض أنها تعتني بهم وتجعل من همومهم وطموحاتهم رسالتها الأساسية وهمها إلىومي ، في الثقافة والتعليم العإلى والإعلام والشباب والأوقاف . أيام المعرض وساعاته القليلة إذن فرصة للمراجعة والتقويم ، فرصة للاحتشاد والانطلاقة فرصة للتنفيس عن المختزن والمصادر والمستور ، والتلاقي مع أسئلة تنطلق كالرصاص ، وإجابات تحاول أن يكون لها صدق السؤال وشرف المسئولية ، بينما تحلق من فوق رءوسهم - في سماء المعرض - أجنحة الحقيقة الغائبة التي ينتظرون هبوطها عليهم .

علـي الوجـه الآخـر مـن الـصورة ، يحلـو للـبعض أن يتأمـل وضـع المثقـف إلىـوم وصـورته وحركتـه في مثـل هـذا التجمـع الكـبير . هـذا المثقـف الـذي شـاغلته طـويلا العلاقـة بينـه وبـين السلطة سلبا وإيجابا .

مـن منطلـق الخـوف والحـذر مـرة والتقـرب الآمـل والطـامع مـرات . وخـلال مـساحات الـشد والجـذب الـتي تنتجهـا مثـل هـذه العلاقـة المتوجـسة الراغبـة ، تنمـو نباتـات طفيليـة عـدة وتنبـت في الوجـوه فطريـات لا يكـاد يحـس بهـا أصـحابها ، سـاعتها يتـشدق المنـافقون بـأنهم يلعنـون النفـاق ، ويتقـوي الجبنـاء ـ بفعـل الزحـام وتـداخل الأصـوات ـ فيلبـسون مـسوح الـشجعان البواسـل . وفي المعـرض فرصـة سـانحة للتطهـر ومواجهـة الـنفس ومناسـبة لا عـادة تقـويم تلـك العلاقـة الملتبـسة ـ بلغـة الحـداثيين ـ بـين المثقـف والـسلطة ، واكتـشاف أنـه لا حجـب لـرأي ، ولا مـصادرة لفكـر ، ولا مجـال لخـوف . إن أصـحاب الـشهادات ـ أيـا مـا كـان انتمـاؤهم أو تكـوينهم ـ وأصـحاب الحـوارات والمـداخلات الـساخنة ـ أيـا مـا كانـت نـوازعهم أو توجهـاتهم ـ يـدركون أنهـم في عـري كامـل أمـام الـشباب ، وأن هـذا العـري الكامـل يتطلـب المكاشـفة الـصريحة والـشجاعة ، وأنـه لا مفـر مـن مواجهـة الحقيقـة ، لا نهـا وحدها الفيصل في الإقناع .

وبـالرغم مـن حـرص الكـثيرين علـي أن يكونـوا شـهودا يقـدمون شـهاداتهم ، أو محـاورين في قـضية مـن القـضايا ، أو مناقـشين لكتـاب بذاتـه ، فـإنهم يكتـشفون ـ في سـاعة الالتحـام مـع الجمـاهير الواعيـة والمتـسائلة ـ أنهـم يـتغيرون إلى الأفـضل ، ويتحولـون تـدريجيا إلى منطقة الصدق مع النفس .

ولقـد عـشنا في مـصر زمنـا طـويلا ، سـعداء مزهـوين بالمركزيـة الثقافيـة والإعلاميـة لمصر ، التي كانـت تجعـل مـن العواصـم العربيـة الأخـرى أطرافـا . ثـم أفقنـا أخـيرا علـي تعـدد هـذه المراكـز الـتي أتيحـت لهـا ظـروف ماديـة وعلميـة وتعليميـة وبـشرية جعلـت لوجودهـا علـي خارطـة العـالم العربـي فاعليتـه وتـأثيره . وقـد كـان الطغيـان الإعلامـي لـمصر حـائلا دون معرفـة مـا يـدور في بقيـة أجـزاء الـوطن العربـي مـن مـتغيرات ، متـوهمين أن علـي الآخـرين أن يـسعوا لقراءتنـا ومعرفتنـا والاسـتماع إلىنـا . أمـا نحـن فلـسنا مطـالبين بالـدور نفـسه . وهكـذا أتـيح للعـالم العربـي أن يعرفنـا ـ مفكـرين وأدبـاء ومـثقفين ومبـدعين وفنـانين ـ معرفـة كاملـة ، وأن يـسائل هـذه المعرفـة الـتي كونهـا عنـا ويناقـشها ويـصنفنا مـن خلالهـا إلى اتجاهـات ومـستويات وشـرائح . وقنعنـا نحـن بهـذه المتابعـة مـن الآخـرين ، ولم نكـن نـسعى لمعـرفتهم كمـا عرفونـا ، وتـصنيفهم كمـا صـنفونا . لقـد كـبروا في غيبـة عـن عيوننـا ، وصـارت لهـم قامـاتهم وأحجـامهم في الـشعر والروايـة والقـصة والمـسرح وحتـى في الـسينما . واسـتطاعت الجامعـات العديـدة المنتـشرة في بقـاع الـوطن العربـي أن تطلـق مـن أشـعة التنـوير والتغـيير مـا جعـل الـصورة تتبدل والواقع الخاوي يزدهر ويمتلئ والنباتات الجديدة تنبت وتنمو وتثمر .

كـل ذلـك تم كأنـه في غمـضة عـين . نمنـا مزهـوين مخـدوعين وأفقنـا مندهـشين متـسائلين . وهـو جـزاء مـن تـسول لـه نفـسه أن القمـة لـه وحـده لـن يعتليهـا سـواه ، فلمـاذا إذن يـشغل نفـسه بالحفـاظ عليهـا والبقـاء آمنـا فوقهـا ؟ علينـا إذن أن نعـترف ـ في رضـا وسماحـة واتـساع صـدر وفهـم موضـوعي ـ بتعـدد المراكـز الثقافيـة في العـالم العربـي وتنـوع الأدوار في تجليـات الثقافـة العربيـة المعاصـرة . فلـيس ضـروريا أن تتكـرر المعزوفـة الواحـدة مـن قطـر إلى آخـر ، ولا أن ينغلـق العقـل العربـي أو الوجـدان العربـي علـي نمـط بذاتـه . فلكـل خـصوصيته ولكـــل جوانبـــه الـــتي ينفـــرد بهـــا ويبـــدع فيهـــا ويكـــشف عـــن جـــوهره الخـــاص . مثـــل هـــذا الفهـــم لا يجعلنـــا نقـــع في خطـــأ دعـــوة الآخـــرين إلى تقليـــدنا ومحاكاتنـــا ، أو محـاكمتهم في ضـوء مـسلماتنا ومعتقـداتنا وأسـإلىبنا . المهـم ـ في النهايـة ـ أن تتـآزر إلىنـابيع وتتلاقـي الروافـد وتتكامـل الإبـداعات والتجليـات لتقـدم الـصورة الحقيقيـة لوجـه الثقافـة العربيـة في غناها وتنوعها وتكاملها .

أضـرب مثـالا بمـا حـدث في مجـال الترجمـة ، الترجمـة مـن اللغـات الأجنبيـة إلى العربيـة ، وكيـف كـان لـمصر ـ منـذ عـشرينيات هـذا القـرن ـ مدرسـتها في الترجمـة الـتي تعـشق القـارئ المـصري والعربـي ـ حيـث كـان صـيغها وأسـإلىبها وهندسـة تراكيبهـا وطرقهـا في النحـت والقيـاس والاشـتقاق والتعريـب . وكـان قـراء العربيـة يكـادون يتغنـون ـ طربـا ـ بأسـإلىب طـه حـسين والزيـات والمـازني ومحمـد عـوض محمـد ودريـني خـشبة ومحمـود عزمـي وأحمـد زكـي ـ علـي سـبيل المثـال ـ لمـا تميـزت بـه مـن دقـة وأمانـة وعذوبـة ومحافظـة علـي روح الـنص المترجـم . فلمـا انحـسر دور مـصر وتراجـع تأثيرهـا في مجـال الترجمـة نتيجـة لا سـباب عديـدة ، وافتقـد الجمهـور العربـي ثمـار مدرسـتها الـتي كانـت ذائعـة الـصيت ، وكـان في مقدمـة عناصـر هـذا الموقـف افتقـاد الحريـة في النـشر والكتابـة والتعـبير ـ بزغـت المدرسـة الـشامية اللبنانيـة في الترجمـة ، وبـرز مـن أعلامهـا في لبنـان مـنير البعلبكـي وفي سـوريا سـامي الـدروبي ـ سـنظل نـذكر أولهمـا في ترجمـة عيـون الأدب الروائـي العـالمي خاصـة الأوروبـي والأمريكـي ، ولثانيهمـا ترجمـة روائـع الأدب الروسـي ، وبـدأ أسـلوب هـذه الترجمـة وصـياغاتها الأدبيـة النابـضة والإلـف التـدريجي للاشـتقاقات والتراكيـب الـتي أشاعتها هـذه الترجمـات ، بـدأ ذلـك كلـه يـستهوي القـراء الـذين وجـدوا في الـدور الـذي تقـوم بـه بـيروت ودمـشق بـديلا عـن دور القاهرة .

وعنـدما قلـصت الحـرب الأهليـة اللبنانيـة مـن دور بـيروت وكـادت تقـضي عليـه ـ لـولا عنـاد بعـض مؤسـسات النـشر في لبنـان وصـمودها الخـارق ـ أخـذ دور المدرسـة المغاربيـة في الترجمـة ـ علـي أيـدي مترجمـين مـن المغـرب وتـونس ـ يتـصاعد ويفـرض أسـإلىبه علـي الـساحة العربيـة ، بـالرغم مـن أن بعـض مترجمـي هـذه المدرسـة لا يملكـون مـن صـفاء الـصياغات العربيـة واسـتقرارها مـا يمكـن لترجمـاتهم مـن القبـول والـذيوع والانتـشار . فبعـضها يحتـاج إلى

تعريـب ، أو فلنقـل لا عـادة نظـر حـتي يـسلس للذائقـة اللغويـة العربيـة وإلفهـا للمفـردات والأساليب والتراكيب .

في كـل هـذا الـذي حـدث درس لمـصر ، ومترجميهـا ، ومثقفيهـا . فالحيـاة الثقافيـة ـ في أي بعـد مـن أبعادهـا أو زاويـة مـن زواياهـا ـ لـن تتوقـف بتوقـف مـصر . والآخـرون ـ مـن أشـقائنا العـرب ـ حريـصون لـيس فقـط علـي أن يمـلأوا الفـراغ ، ولكـن علـي التقـدم إلى الأمـام ومحاولـة تـسلم الرايـة مـادام الـذين حملوهـا طـويلا سـوف يتقاعـسون . وفي المـشروع القـومي للترجمـة ـ الـذي يتبنـاه المجلـس الأعلـي للثقافـة ـ برهـان علـي قـدرة مثقفـي مـصر ومترجميهـا وأسـاتذتها علـي اسـتعادة دورهـم ومواصـلة أداء الرسـالة . وعنـدما حـاول المـسئولون عـن هـذا المـشروع الاسـتعانة بـبعض الترجمـات غـير المـصرية لا عمـال صـادرة بالفرنـسية كانـت ردود الفعـل الواسـعة تمثـل احتجاجـا مهـذبا علـي أسـلوبية هـذه الترجمـات ومدي تلاؤمها مع الذوق اللغوي العربي .

يبقـي تـساؤل حـول المـساحة الـتي تـشغلها الثقافـة العلميـة في البرنـامج الثقـافي لمعـرض الكتـاب ، بـدءا مـن اختيـار الكتـب الـتي يعرضـها ويناقـشها المـشاركون وصـولا إلى القـضايا والموضـوعات الملحـة . وليـست الثقافـة العلميـة ـ في كـل محاورهـا ـ غائبـة عـن اهتمـام واضـعي هـذا البرنـامج والمخططـين لـه والحريـصين علـي تنفيـذه ، وفي مقـدمتهم الـدكتور سمـير سـرحان نفـسه . فالثقافـة ا لعلميـة ـ في مفهومهـا الحقيقـي ـ إيمـان بـدور العلـم والأسـلوب العلمـي في تحقيـق رؤيـة موضـوعية للكـون والحيـاة والإنـسان ـ مـن خـلال مـنهج علمـي يـؤمن بالعقـل ويـرفض الخرافـة والـشعوذة ، ويؤكـد دور العلـم في تحقيـق تقـدم الإنـسان ورفاهيتـه ، وقدرتـه علـي أن يعـيش عـصره بكـل مـا يتفجـر فيـه مـن معـارف وخـبرات ، ومـا يـؤثر فيـه مـن عوامـل محلية وعالمية .

مـن هنـا كـان طبيعيـا أن يأمـل كـثيرون في مـساحة أكـبر لنـشر هـذه الثقافـة العلميـة خاصـة مـا يتـصل منهـا بقـضايا البيئـة والهندسـة الوراثيـة والفـضاء الكـوني ، بـين قطاعـات عريـضة مـن الـشباب . بـل كـان أمـل الـبعض أن تكـون هـذه الثقافـة العلميـة محـورا رئيـسيا ـ مهيمنـا ـ علـي سـائر المحـاور مادمنـا نـدرك أن العـصر هـو عـصر العلـم والتكنولوجيـا ، وعـصر المعرفـة العلميـة ، والـتغيرات الهائلـة والتطـورات المتلاحقـة فيـه يومـا بعـد يـوم ، خاصـة أن في الكـثير ممـا يعرضـه بعـض الناشـرين أعمـالا تـروج للخرافـة والـدجل والـشعوذة والجهـل بكـل مستوياته .

إن افتقادنـا منظومـة تنويريـة صـحية متكاملـة ـ تـشارك فيهـا أجهـزة الثقافـة والتعلـيم والإعـلام والـشباب والأوقـاف ، لا يهـدم بعـضها مـا يبنيـه الـبعض الآخـر ، ولا يـشوه جـزءا منهـا مـا يقـوم بـه سـائر الأجـزاء ـ يجعلنـا ننتظـر حلـول مناسـبة كمعـرض الكتـاب لنحملـه أكثـر كـثيرا مـن طاقتـه ، ولنعلـق عليـه حجمـا أكـبر مـن أمنيـات التـصحيح والتغـيير ، وكـأن هـذين

الأسبوعين اللذين يقوم فيهما كيان هذا المعرض سوقا ونشاطا ثقافيا وفنيا ـ كفيلان بتصحيح المسار ورأب الصدع وعلاج ما أفسده الدهر . وما أفسده الدهر كثير جدا ، لا يصلحه أسبوعان من تفجير الطاقات وشحذ العزائم ونشر الوعي بالتغيير وإطلاق شموس التنوير ، وإنما يصلحه مجتمع ثقافي متكامل ، ويقدس حرية الإنسان ويحترم حقوقه الأساسية ، وينفتح علي العالم من حوله ، يأخذ ويعطي ويغتني ويتحاور ، ويتبني المنهج العلمي والرؤية العلمية ، ويحقق لهذا الوطن ـ الغني بخبراته وكنوزه وإنسانه وموروثه الحضاري ـ ما هو أهل له من تقدم ورفعة وازدهار .

معجم مصطلحات أم موسوعة تاريخية كبري؟

بقلم : فاروق شوشة

عن الهيئة المصرية العامة للكتاب صدر هذا المجلد الضخم للدكتور مصطفي عبد الغني بعنوان معجم مصطلحات التاريخ العربي الحديث والمعاصر تتويجا لا هتماماته ودراساته التاريخية والسياسية.

الدكتور مصطفي عبد الغني يصف هذا العمل الضخم (٩٦١ صفحة من القطع الكبير) بأنه' أول محاولة لتحرير معجم مصطلحات التاريخ الحديث والمعاصر، وهي محاولة تسعي الي التأسيس اكثر منها الي توخي الكمال أو حتي زعم النضج. لقد حاول صاحب هذا المعجم عبر ـ محاولته الرائدة ـ السعي الي المصطلح عبر المعني العام أو الموضوع للحصول علي ألفاظ وعبارات تقع تحت العين في الفترة الحديثة والمعاصرة مما يفيد في الحقل المعرفي عائدا الي معاجم المعاني أو الموضوعات. الاهتمام إذن بالحقبات والتاريخ والتعريب والسياق والدلالة كان الهم الأول هنا ثم يقول: ليست وظيفة هذا المعجم مقصورة علي تأصيل معالجة المادة المتدفقة من بين أسوار عصور الاحتجاج بل ممتدة لتواكب اللغة عبر الأزمان معتمدة علي محور واحد هو السلامة اللغوية وعدم الخروج علي النهج العربي الأصيل فهذا المعجم ينتمي الي العلوم الانسانية في المقام الأول وهو يعبر في الوقت نفسه عن العقل الجمعي العربي لا القطري بأية حال.

من الطبيعي أن يتلمس المؤلف المحاولات السابقة ـ في تاريخنا الحديث لا نجاز مثل هذا المعجم. لكن الذي ليس طبيعيا أن يستشهد بمحاولة المستشرق الألماني فيشر ـ الذي كان عضوا بمجمع اللغة العربية في مصر ـ لا نجاز معجم تاريخي وهي المحاولة التي لم تتم بسبب قيام الحرب العالمية الثانية ورحيل الدكتور فيشر، وعدول مجمع اللغة العربية عن المشروع بعد وفاة صاحبه وضياع أوراقه التي كانت تضم التصور الأول للعمل فيه. وذلك أن الدكتور فيشر لم يكن يضع معجما تاريخيا بل كان يحاول سد ثغرة في المعجمات العربية بإنجاز معجم لغوي في الأساس، يتتبع الدلالات المختلفة للكلمة علي مدار العصور، ومدي التغير أو التطور في هذه الدلالة من خلال اقتباسات واستشهادات بالنصوص الواردة في سياق كل عصر من العصور علي غرار معجم أكسفورد في اللغة الانجليزية الذي يتتبع الدلالات اللغوية المختلفة في سياقها التاريخي. كان فيشر ـ الاستاذ بجامعة ليبزج ـ واحدا من المؤسسين لمجمع اللغة العربية المصري عند قيامه عام١٩٣٤، وكان كما يقول الدكتور شوقي ضيف رئيس مجمع اللغة العربية في كتابه عن مجمع اللغة العربية في خمسين عاما (١٩٣٤ ـ١٩٨٤) قد اهتم منذ أوائل القرن الماضي العشرين بوضع معجم تاريخي للعربية حتي نهاية القرن الثالث الهجري يوضح

الأطوار التاريخية لكل كلمة ودلالاتها المتنوعة علي مر العصور مع إثبات الشواهد التي توضح تلك الدلالات' كان فيشر يأمل في أن يخرج معجمه في ست سنوات أو سبع، وعندما سافر في صيف عام١٩٣٨ الي بلده المانيا حال نشوب الحرب العالمية الثانية بينه وبين الرجوع الي مصر، ثم اقعده المرض عن العودة الي معجمه وظل في بلده حتي توفي سنة١٩٤٩ بعد ان اعد للطبع والنشر جزءا من معجمه ينتهي بمادة' أبد'. فرأي المجمع طبعه مع مقدمة طويلة كان قد أعدها فيشر. ولم يستطع المجمع ان يجمع شتات ما تفرق من أصول هذا المعجم بين المانيا ومصر فلم يكتب له أن يري النور. ثم ما لبث المجمع ان انشغل، بمشروع بديل هو إخراج' المعجم الكبير' ـ الذي ظهرت تجربته الأولي في عام١٩٥٦ ولايزال العمل فيه مستمرا حتي اليوم ولم تصدر منه إلا عدة أجزاء منذ صدر الجزء الأول منه عام١٩٧٠.

لم يكن معجم فيشر إذن معجما في التاريخ وإنما كان معجما لغويا يقوم علي منهج تاريخي في استقراء الدلالات وتتبعها حتي نهاية القرن الثالث الهجري من منطلق أن معجم العربية الفصحي ينبغي ان يكون ملائما للتطور العلمي في العصر الحاضر، وان يشتمل علي كل كلمة وجدت في اللغة وان تعرض حسب وجهات النظر السبع التالية: التاريخية والاشتقاقية والتصريفية والتعبيرية والنحوية والبيانية والاسلوبية. يبدو أن كلمة' تاريخي' في وصف معجم فيشر هي التي أحدثت هذا اللبس عند الدكتور مصطفي عبد الغني الأمر الذي جعله يتصور أن هذا المعجم كان بمثابة محاولة أولي في الطريق الي معجم تاريخي مع أنه كان محاولة أولي لا نجاز معجم لغوي ـ في الأساس ـ يقوم علي أسس سبعة من بينها النظرية التاريخية وشتان بين الأمرين!

الأمر الثاني الذي تكشف عنه القراءة الأولي لمادة هذا المعجم الضخم الذي أنجزه الدكتور مصطفي عبد الغني (وهو يشير الي ان هذا هو الجزء الأول الذي ستعقبه أجزاء قادمة) هو حجم الجهد الذي بذل في جمع مادته ومراجعتها وتصنيفها وتحليلها والتعليق عليها وترتيبها ألفبائيا وفقا لحروفها الأولي، وهو جهد ينوء به مجموعة ضخمة من المؤلفين، لكن السعي إلي التأسيس- كما يقول المؤلف ـ هو الذي جعله يستسهل الصعب من أجل الإنجاز بالنسبة لمادة المعجم ووثائقه وملاحقه وخرائطه وكشاف مصطلحاته وموضوعاته وأعلامه وبلدانه مع التوسع في حجم المادة المتاحة والمكنة في تغطية العديد من القضايا والموضوعات والمصطلحات التي يعرض لها المعجم وهو ما دفعني إلي التساؤل الذي جعلته عنوانا لهذا المقال: هل هو مجرد معجم لمصطلحات التاريخ العربي الحديث والمعاصر أم هو في جوهره موسوعة تاريخية تغني القارئ والباحث المتخصص عن الرجوع إلي كثير من المصادر التاريخية والدراسات والبحوث التي تناولت عديدا من المداخل التي اتسع لها المجال؟ إن حدثا تاريخيا مثل واقعة' الطنطورة' التي قام بها

جنـود الهاجانـاة ضـد قريـة الطنطـورة الـساحلية الفلـسطينية في ليلـة٢٢ ـ٢٣ مـايو عـام١٩٤٨ تحتل تـسع صـفحات ونـصف مـن القطـع الكـبير لهـذا المعجـم وهـي تـصور أحـداث هـذه المذبحـة الإرهابيـة- ضـمن سـياق عمليـة التهويـد الكـبري في تـاريخ الاسـتعمار الـصهيوني الاسـتيطاني في فلـسطين ثـم وهـي تعـرض للروايـة الإسـرائيلية الرسميـة وكتابـات المـؤرخين الـصهيونيين ومحـاولات تبريـر حـدوث هـذه المجـزرة البـشعة الـتي حـدثت لـسكان هـذه القريـة الـصغيرة المسالمة ثـم تتـسع المـادة الـتي يوردهـا المؤلـف لـنقض الروايـة الرسميـة الإسـرائيلية والاسـتناد إلـي مـا ذكـره منـاحم بـيجين في كتابـه' الثـورة' عـن الهـدف الرئيـسي مـن هـذه المـذابح والمجـازر وهـو إفـراغ البلـد مـن سـكانه العـرب الفلـسطينيين تمهيـدا لتأهيلـه بالمـستوطنين اليهـود واعترافـه- صـراحة- بأنـه بعـد المجـزرة بـدأ العـرب في جميـع أرجـاء البلـد يفـرون مـذعورين حـتي قبـل اصطدامهم بالقوات اليهودية.!

هـذا مثـال واحـد للتوسـع الموسـوعي في المـادة الـتي يعرضـها هـذا المعجـم عـن واحـدة مـن المـذابح الـصهيونية: ديـر ياسـين والطـيرة وتـل الـزعتر والمـسجد الأقـصي الأمـر الـذي يجعـل القارئ يـري فيمـا كتـب عـن مذبحـة' الطنطـورة' وحـدها نـواة لكتـاب مـستقل أو بحـث مـستفيض لا مجـرد مـادة معرفيـة حـول واحـد مـن مـداخل المعجـم. وهـي الظـاهرة الـتي تكـررت كـثيرا في عديـد مـن' المـداخل' الأخـري مثـل' حـرب الخلـيج الثانيـة' واتـساع المجـال للحـديث عـن موقـف الأمـم المتحـدة مـن غـزو الكويـت، وموقـف جامعـة الـدول العربيـة، وانتهـاك قواعـد الـشرعية الدوليـة، وتطـور المركـز الـدولي للكويـت، والحـدود الكويتيـة العراقيـة، وانتهاكـات النظـام العراقـي لحقـوق الإنـسان، وإدارة الـصراع، وموقـف القـوتين العظمـيين مـن الغـزو العراقـي، وموقـف الجماعـة الأوروبيـة، ومواقـف دول الخلـيج العربيـة وموقـف مـصر وسـوريا والمقاومـة الكويتيـة، والمـرأة الكويتيـة والاحـتلال العراقـي، وقـضية أسـري الحـرب وحجـم التـدمير، وبعـض مؤشـرات هـذا التـدمير مـن الناحيـة العـسكرية والناحيـة الاقتـصادية ومـصر وسـوريا وأمـن الخلـيج، ودول الجـوار وأمـن الخلـيج، ودور الغـزو العراقـي في تلويـث البيئـة والولايـات المتحـدة الأمريكية وأمن الخليج بالإضافة إلي ثبت تفصيلي بأحداث حرب الخليج١٩٩١/١٩٩٠.

هـذا التوسـع وهـذه الإفاضـة تجعـلان مـن المعجـم موسـوعة في حقيقـة الأمـر يقـصدها القـارئ والباحـث للتـزود بكـم معـرفي ضـخم ولـيس هـذا مـن طبيعـة المعـاجم الـتي مـن شـأنها التركيـز والاختـصار والإحالـة إلـي المراجـع والمـصادر. وهـذه الظـاهرة' الموسـوعية' غالبـة علـي كـثير مـن مـداخل المعجـم في الوقـت الـذي لم تنـل فيـه بعـض المـداخل المهمـة ومنهـا البرجوازيـة و البرجماتيـة التاريخيـة وإفريقـي آسـيوي والبنائيـة والوهـابيون ومذبحـة المماليـك بالقلعـة والمـذهب التـاريخي غـير سـطور معـدودة، الأمـر الـذي يـشعر القـارئ بـأن ثمـة نقـصا معرفيـا في مقابـل الزيـادة أو الفـائض المعـرفي الـذي حظيـت بـه كـثير مـن المـداخل الأخـري. فـإذا مـا تـذكرنا أن وراء هـذا الجهـد الـضخم الـذي ينـتظم قرابـة ألـف صـفحة مـن القطـع الكـبير

مؤلفا واحدا أدركنا أن مثل هذا المشروع ـ كما صرح المؤلف في ختام مقدمته الضافية للمعجم ــ يفتقد مؤسسة ضخمة تعمل علي البدء معنويا وماديا للانتهاء منه خاصة في ظل افتقاد مدونة تاريخية ضخمة قائمة علي المصطلحات والملاحق والنصوص، وخلو المكتبة العربية من خطة منهجية جمعية يمكن أن تأخذ علي عاتقها مثل هذا العمل. وليس من المعروف أن أيا من الجمعيات أو الجماعات العربية القومية أو الجامعات أو الكليات العربية قد بادرت بوضع هذه المنهجية القائمة علي الوعي بجمع مادة وترتيبها وتعرفها، وما إلي ذلك من الخطوات الإجرائية أو بعض الخطوات التنفيذية لعمل المعجم. فضلا عن افتقاد جهة علمية علي مستوي رفيع تسعي بواسطة التقنيات المعلوماتية الحديثة إلي تصنيف مثل هذا العمل والبدء في وضع مداخل وخطة أو خطوات إجرائية عملية يمكن بها التمهيد لــه.

يبقي أن أتوجه بالتحية والتهنئة إلي الدكتور مصطفي عبد الغني والدكتور سمير سرحان بصدور هذا الإنجاز الضخم.

أيام في بلاد السندباد

بقلم : فاروق شوشة

وبلاد السندباد هي سلطنة عمان، التي كنت أزورها منذ أيام قليلة للمرة الخامسة، مدعوا من بلدية مسقط للمشاركة في مهرجانها الثقافي، وفي كتابة النص الشعري المصاحب لعرض الأزياء الثقافي الحضاري الذي يقام لا ول مرة، ويتاح للسلطنة ولبلدية مسقط أن تكون نقطة انطلاقه الأولي. في الطائرة إلي هناك كان شريط طويل تتلاحق صور ومشاهده وأنا أستعيد بذكريات الزيارة الأولي التي تمت بها عام١٩٧٥ مشاركا في الموسم الثقافي لوزارة التربية والتعليم بمحاضرة عن لغتنا الجميلة وأمسية شعرية. كانت عمان غيرها الآن في كل شيء. ستة وعشرون عاما انقضت، تحرك فيها كل شيء وتبدل، العمران والمجتمع، البنية التحتية والثقافية، الإعلام والجامعة. شبكة الطرق النموذجية الهائلة، الفنادق والمتاحف والمواقع السياحية. حتي الإنسان العماني الذي التقيت به في زيارتي الأولي لم يعد هو نفسه. طرأ عليه من التغير والتبدل ما طرأ علي كل شيء في المجتمع.

مازلت أذكر كيف كان المسئولون عن الموسم الثقافي يبحثون عن مكان رحب يستوعب الجمهور المتطلع إلي المشاركة بالحضور، وكانت أكبر قاعة في مسقط هي قاعة المعهد الديني في ذلك الحين. أقارن بين هذا والقاعات الكبري في جامعة السلطان قابوس الآن وفي الفنادق خاصة فندق قصر البستان الذي أقيم عرض الأزياء في مسرحه الرئيسي. وكيف كان فندق الفلج وقتها الفندق الرئيسي في مسقط، المخصص لكبار الزوار، وكان من سابق واحد- وبالمناسبة: الفلج هو المجري المائي الصغير الذي يتجمع فيه ماء المطر، وعندما تتلاقي الأفلاج ويتجمع ماؤها تتاح الفرصة للزراعة والري والارتواء. فأصبح قصر البستان اليوم الفندق الرئيسي الذي كان افتتاحه لا ول مرة بمناسبة انعقاد القمة الخليجية فيه وما تزال عمارته وتجهيزاته ورحابته فوق حدود الوصف، وإن كان البعض يفضلون عليه فنادق أخري في مسقط، لا نه يعطي الإحساس بأنه قصر أكثر من كونه فندقا يمتلىء بالحيوية والصخب والإحساس الطبيعي بالأشياء. كان سفيرنا في مسقط - إبان رحلتي الأولي - الأستاذ حسن سالم، الذي كان أديبا وكاتبا ومؤلفا، ومتحدثا إذاعيا. وكان علي علاقة وثيقة بشعراء جماعة أبولو خاصة إبراهيم ناجي - صاحب قصيدة الأطلال - وجاورت غرفته في فندق الفلج غرفتي - فقد كان يقيم وحده في الفندق - وامتدت أحاديثنا عن الشعر والشعراء وعن ناجي بالذات. أذكر أنه كان يروي لي - علي عهدته - سرا عن ناجي، وهو عودته من لندن - بعد أن أصيبت ساقه هناك في حادث سيارة في الطريق بساق خشبية كان يخفي أمرها ويتكتمه. لكن الأستاذ حسن سالم توصل إلي معرفة السر، وفسر

في ضوئه علاقات ناجي العاطفية التي دار حولها معظم شعره وكيف كانت تنتهي فجأة - دون سابق إنذار - بسبب حرص ناجي علي ستر فاجعته في ساقه.. والكلام كما قلت علي عهدته.

أما سفيرنا الآن في مسقط، فمفكر ومثقف كبير هو الدكتور خير الدين عبداللطيف الذي يعد بكل المقاييس نموذجا مشرفا للسفراء الذين يتخيرهم وزير خارجية من طراز عمرو موسي، ليكونوا بالفعل سفراء ثقافة قبل أن يكونوا سفراء دبلوماسية، ولتكون علاقتهم بمواطنيهم العاملين في البلاد التي يمثلون مصر فيها علاقة الصداقة والأخوة والألفة، لا علاقة التعالي أو التجافي والتسلط.

ولقد سعدت - بفضله - بليلة جميلة جمعتني بالجالية المصرية في مسقط - في مقر السفارة المصرية - من خلال لقاء ثقافي وشعري شارك فيه السفير المثقف، ولفيف من السفراء العرب في عمان، وأدار اللقاء الصديق الكريم الدكتور أحمد درويش العميد السابق لكلية الآداب في جامعة السلطان قابوس والمستشار الثقافي لرئيس الجامعة الآن وامتدت بنا السهرة إلي جلسة ثقافية حميمة في بيت السفير، وهو نفسه الذي شارك بعلمه وجهده في إدارة لقاء ثقافي وفكري وشعري أتاح لي فرصة اللقاء بعدد كبير من أساتذة الجامعة والعاملين فيها، أثير فيه العديد من القضايا حول خرافة الغزو الثقافي والعولمة والهوية الثقافية والنقد الحداثي وقصيدة النثر، وكان طبيعيا أن يتطرق الأمر إلي الأزمة الأخيرة التي روجت لها بعض الصحف في مصر - ووجد فيها البعض - كدأبهم دوما - فرصة للمزايدة والكشف عن معين لا ينضب من السخائم، والتدني المستمر في لغة الحوار والتخاطب، لكن الجمهور الذي ينتظم صفوة من أساتذة الجامعة، كان أبعد مما يكون عن التشبه بالسوقة من المزايدين، ولم يكن من الصعب أن يتبين الفارق الواضح والمعروف بين حرية الإبداع التي تتيح للمبدع أن يكتب ما يشاء وبالطريقة التي يشاء وحرية النشر التي تجعله - في كل مكان من العالم - خاضعا لقوانين النشر التي تختلف من بلد إلي بلد ومن مستوي حضاري وتنويري إلي آخر. والخلط بين الحريتين - عن عمد - هو الذي أدي إلي بلبلة مفتعلة استغلها البعض ليقول - كعادته - نحن هنا، خشية أن ينساهم الناس، أو خشية ألا يجدوا مادة سوقية لتسويد الصفحات!

الحديث عن سفارتنا المصرية في مسقط، سفيرا ودورا وفاعلية يجعلني أتوقف أمام الجهد المخلص والنبيل للأستاذ عبدالرحمن هلال رئيس مكتبنا الإعلامي - وقدرته علي إقامة الجسور وإعطاء الأمور حقها من المتابعة والاهتمام، شأن كل رسالة يهتم بها الإعلام.

تبلغ احتفالات بلدية مسقط ذروتها عندما تقترب من الحدث الفني الثقافي الحضاري المتمثل في عرض الجميلة قد أتت والمرتبط بهوية المرأة العربية في الزي بأعتباره تعبيرا

ثقافيا وحضاريا عبر عصور التاريخ، مستلهما الشخصيات النسائية الكبري في تاريخ الحضارات القديمة المصرية والسومرية واليمنية والأندلسية من خلال التوقف عند نفرتيتي وعشتار وكليوباترا وبلقيس وشهر زاد وولادة بنت المستكفي مرورا بأرض السواد في العراق، العرض يقوم علي تجسيد فكرة حضارية للأستاذة والفنانة العراقية نيران السامرائي صاحبة مؤسسة اقرأ للتراث والمخطوطات في لندن وصاحبة الحس الثقافي التراثي الأصيل وهي التي قامت بعمل التصميمات لثياب العرض، ومصاحبة موسيقي الفنان العراقي العالمي نصير شمة وفرقته عيون، أما الأداء الإذاعي والدرامي للنص الشعري المصاحب فقامت به الإذاعية العربية سلوي جراح من أسرة هيئة الإذاعة البريطانية، وهي صوت معروف لملايين المستمعين في بلاد الخليج وفي شتي بقاع الوطن العربي.

كانت تجربتي مع صياغة النص الشعري المصاحب لهذا العرض تجربة جديدة ومثيرة. لقد اكتمل لهذا العرض اللون والنغم والشعر، روعة التصميم وجمال الموسيقي والأداء، تجسيدا لا فتتاحية النص الشعري:

ينسكب اللون علي درج الإيقاع
فيشرق فينا ومض جلال وبهاء
فيض جمال يخطر مزهو الأعطاف
وأصابع غمست في موجات السحر
تراوح بين اللون وبين اللحن
وتمزج بين الخيط وبين الحرف
فتبدع جلوتها للعين
وتشعل فتنتها في القلب
وتنسج لوحتها كاملة الأوصاف!

وكانت بلدية مسقط محظوظة بحق، لا ن هذا العرض الفريد يقام لا ول مرة علي أرضها وضمن احتفالاتها. ومهما قيل عما تكلفه العرض: مالا وجهدا وتقنية وتدريبا وعناصر بشرية من العارضات وموسيقيين وامكانات مسرحية، فإن عائده المعنوي الهائل في وجدان من أتيح لهم حضوره، والملايين الذين سيتابعونه علي القنوات الفضائية يفوق بكثير كل ما أنفق في سبيله، وهو عائد لا يقدر بالملايين خاصة لمن يجيدون حسابات المال والأرقام ولايلتفتون إلي العائد الثقافي.

زيارتي السابقة إلي مسقط ـ قبل هذه ـ كانت للمشاركة في مناسبة علمية جليلة وفريدة هي الاحتفال بصدور موسوعة السلطان قابوس لا سماء العرب التي استمر العمل فيها قرابة ست سنوات، وكان فريق العمل ـ المكون من الدكتور: علي الدين هلال ـ عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة في ذلك الحين ووزير الشباب الآن،

والدكتور السعيد بدوي أستاذ الدراسات اللغوية بالجامعة الأمريكية في القاهرة والدكتور محمود فهمي حجازي أستاذ الدراسات اللغوية بكلية الآداب جامعة القاهرة وكاتب هذه السطور ـ كان هذا الفريق الذي أسند إليه أمر إنجاز العمل قد انتهي من إصدار أول معجم إحصائي لغوي اجتماعي موسوعي لا سماء العرب وأول موسوعة تضم منهج البحث في أسماء العرب والسجل الجامع لا سماء العرب ودليلا لا علام عمان. وكان لهذا الفريق خبراء من البلاد العربية يمدونه بالمعلومات والبيانات، وكان الكمبيوتر الذي اتسع لملايين الأسماء ـ موضع الدراسة ـ في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. وأشرف علي إنجاز هذه الموسوعة وتابعها يوما بيوم شخصية عمانية نادرة ثقافة ووعيا وقدرة علي الإنجاز والمتابعة عهد اليها السلطان من قبل بالعديد من المشروعات الكبري ـ ومن بينها إنشاء فندق قصر البستان ـ هو محمد بن الزبير مستشار السلطان للشئون السياسية، وأحد رجال الدولة المعدودين في عمان.

بدأت قصة هذه الموسوعة بفكرة ومضت في خاطر السلطان قابوس بسبب تساؤل عن اسم أحد الأشخاص: عربي هو أم غير عربي؟ وسرعان ماتحول التساؤل إلي بحث عن المصادر والمراجع التي يمكن الرجوع اليها لمعرفة الأسماء التي تسمي بها العرب قديما وحديثا وهل هناك معجم عربي لهذه الأسماء، وعما فعله غيرنا ـ من أصحاب اللغات والثقافات الأجنبية كالانجليزية والفرنسية والألمانية مثلا في هذا المجال. وكشفت الإجابة عن احتياج المكتبة العربية إلي مثل هذا المعجم، الذي يمكن أن يرجع إليه القارئ العادي والباحث المتخصص لحقيقة اسم من هذه الأسماء التي يتسمي بها الناس، بدءا من أصل اشتقاقه اللغوي، ومعناه أو طريقة نطقه، واختلاف صورته من بيئة عربية إلي أخري، وأشهر من تسمي به في الثقافة العربية والإسلامية. وصدر أمر السلطان إلي مستشاره بتكوين فريق العمل، واختيرت القاهرة مقرا للعمل بالتعاون مع فريق العمل العماني المشارك.. وكان صدور الموسوعة منذ عشر سنوات، ولقاء فريق العمل بالسلطان قابوس ـ بهذه المناسبة ـ فرحة حقيقية باكتمال أول عمل علمي عربي مشترك، شارك فيه علماء من شتي بقاع الوطن العربي، من خلال لجنة استشارية ولجنة وطنية عمانية وخبراء ميدان وخبراء تحرير وخبراء لغات أجنبية ومحررين وخبراء في الحاسب الآلي ومشرفين تنفيذيين وخبراء معلومات وتنسيق ومعاونين للطباعة. أما درة هذه الموسوعة وواسطة عقدها فهو معجم أسماء العرب، وهو معجم جديد في مادته ومنهجه، يشتمل علي أكثر من ثمانية عشر ألف اسم هي أكثر أسماء الناس شيوعا في العالم العربي، مع تحقيق لا صولها اللغوية ورصد لمسارها التاريخي وتقويم لا بعادها الاجتماعية وتعريف بنخبة من أبرز من تسمي بها في الحضارة الإسلامية تراثا ومعاصرة. مادته الأساسية تنتظم اثنتي عشرة دولة عربية من خلال مشاركة علمية لعشرات العلماء والخبراء العرب في مجالات اللغة والآداب

والاقتصاد والسياسة والفلسفة والاجتماع والتراث الشعبي. وهو بمنهجه الإحصائي قد فتح ميادين مبتكرة في البحث مؤذنا بميلاد علم جديد هو علم اجتماع أسماء العرب. لا تزال أرض عمان ـ التي خرج منها السندباد القديم رمزا لحرية المعرفة والاكتشاف ـ تضرب المثل بعد الآخر في مواصلة نهج السندباد، مغامرة وإنجازا وتصديرا للدهشة. فكما خرج منها عالم العربية الخليل بن أحمد الفراهيدي واضع علم العروض وموسيقي الشعر ومؤلف أول معجم عربي هو معجم العين وصاحب أول جهد في جمع مادة اللغة العربية، ودراسة نحوها بعد سيبويه، والشاعر العالم ابن دريد صاحب المقصورة الذائعة الصيت، وكما تم إنجاز موسوعة السلطان قابوس لا سماء العرب بعد جهد علمي استمر قرابة ست سنوات، فإنها تحتضن في هذا العام ومن خلال احتفالات بلدية مسقط الثقافية ميلاد الحدث الفني الثقافي الحضاري الرائد الجميلة قد أتت الذي سيكون له تأثيره الواسع علي زي المرأة العربية الباحثة عن عصرية تتكئ إلي الأصالة، والمتطلعة إلي تجديد وتطوير يستند إلي خيوط وأصول وملامح تكشف عنها حركة الزي العربي عبر العصور، خاصة عندما ينتقل العرض إلي: مصر والمغرب وتونس وسوريا وغيرها من أقطار الوطن العربي.

ولا يزال السندباد العماني يبحث عن مغامرة جديدة وإدهاش جديد!

الجمعية المصرية لتعريب العلوم

بقلم : فاروق شوشة

أتيح لي - يوم الأربعاء الماضي - أن أشهد المؤتمر السنوي الرابع عشر ، الذي أقامته الجمعية المصرية لتعريب العلوم ، وأن يكون لي شرف المشاركة في جلسته الافتتاحية ، هذه الجمعية وهذا المؤتمر يرأسهما عالم جليل هو الدكتور عبد الحافظ حلمي عضو مجمع اللغة العربية والعميد الأسبق لكلية العلوم بجامعة عين شمس ، والأستاذ بجامعة الكويت لسنوات حافلة بنشاطه الجامعي والتربوي والثقافي البارز ، لا تزال أصداؤه حتي اليوم ، والأستاذ الزائر - مرتين - بجامعة قطر بالإضافة إلي عضويته في مجمع اللغة العربية بدمشق . أما دوره المشهود في مجمع اللغة العربية بالقاهرة فيتسع لمشاركات جادة وعميقة في مقدمتها رئاسته للجنة علوم الأحياء والزراعة وعضوية لجان: الجيولوجيا ، والنفس ، والمعجم الكبير ، وتحديث المعجم الوسيط ، وإحياء التراث ، والمعجم التاريخي للغة العربية .

وهو من مؤسسي الجمعية المصرية لتعريب العلوم ، ومنذ رأسها عام١٩٩٥ ، أصبحت الجمعية بفضله وهمة مساعده الدكتور محمد يونس الحملاوي - أمين الجمعية - مركز إشعاع ووعي وتنوير بالنسبة لكل ما يتصل بقضية تعريب العلوم ، مرددا باستمرار مقولته المأثورة: تعريب التعليم الجامعي: ضرورات ملزمة ، ومنافع مؤكدة ، وأعتراضات مفندة ، موضحا - في بيان ناصع وحجة قاطعة - أن تعريب العلوم ضرورة لا ستيعابها والوعي بها والإسهام فيها بفكر يستخدم اللغة العربية ويفكر تفكيرا عربيا . وبدون هذا تظل علاقتنا بهذه العلوم علاقة هشة مرتبكة .

وليس معني هذا إهمال تعلم اللغات الأجنبية ، فهو أمر تنادي به الجمعية وتحرص عليه ، لكن هناك - كما يقول - فرقا بين تعلم اللغات الأجنبية ، والتعلم باللغة الأجنية . الأول ضرورة حياة ومطلب حضاري وعلمي وثقافي ، أما الثاني فغربة وانقطاع
.

وفي الكلمة الضافية التي استهل بها الدكتور عبد الحافظ حلمي الجلسة الأفتتاحية ، كان يضرب المثل بعد المثل ، ويسوق الموقف بعد الموقف ، في جلاء أهمية العلم ، وتبني ثقافتنا له ، وقدرة لغتنا العربية علي استيعاب العلوم والنهوض بها في عصور ازدهار الحضارة العربية والإسلامية ، واصلا بين هذا كله وزماننا الذي تواجه فيه اللغة العربية تحديات شتي . لكنه لم يفقد إيمانه أو تتزعزع ثقته في قدرتنا علي المواجهة والتماس الحلول ، واستقطاب المزيد من المؤمنين بأهداف الجمعية والمتابعين لنشاطها

وفكرها عاما بعد عام . وكأنه يذكرنا بالسلف الصالح الذين كانت حياتهم جهادا موصولا من أجل معني أو رسالة ، ومجاهدتهم الصابرة وصولا إلي الأهداف حتي لو بدت بعيدة أو مستحيلة .

وفي مؤتمر هذا العام مشاركة من باحثين وعلماء مصريين وعرب ، تجشم كثير منهم ـ علي نفقته ـ مشقة السفر ، من أجل هدف نبيل يؤمنون به . وضمت جلسات العمل الأربع مشاركات للأساتذة ـ مع حفظ الألقاب: يعقوب الشراح وعبد الغني عبود ومحمد عبد الفتاح دهيم ومنير ملكي وهاديا خزنة كاتبي وابن النيل الصيرفي وأحمد مصطفي أبو الخير وبثينة عبد الرؤوف رمضان ومحمد سعدو الجرف ومحمد أبو غدير وزهير السباعي وعبدالمقصور حجو ونجيب علي السودي ومراد عبد القادر وعبد العظيم با بكر بيومي وعواطف حسن عبد المجيد وفوزي تاج الدين ومحمود نحاس .

وشارك في الجلسة الأفتتاحية بكلمة ساخنة ومحركة عالم اللغويات الدكتور كمال بشر نائب رئيس مجمع اللغة العربي ، ة كما شارك في رئاسة الجلسة الأولي للمؤتمر الذي تضمن مشاركة المفكر الموسوعي الدكتور عبدالوهاب المسيري في رئاسة إحدي جلساته ، ومعهما من العلماء الأساتذة الدكتور محمد سلطان أبو علي والدكتور محمد توفيق الرخاوي والدكتور محمد ابراهيم العدوي والدكتور سيد دسوقي والدكتور نبيل الطباخ . أما الموضوعات والقضايا المثارة ، فمن أبرزها: الأسرة العربية ودورها في تعطيل مشروعات تعريب التعليم ، جماعات الضغط والتعليم في مصر: علاقات القوي والمصالح ، وسيلتنا إلي تعريب العلوم الطبية ، آلية مقترحة لتنفيذ مشروع المناهج الطبية العربية ، استخدام اللغة العربية في التعليم الجامعي ، وغيرها من الموضوعات والقضايا . كنت أتابع ـ مع غيري ـ مسار المؤتمر الرابع عشر وأقول لنفسي:

لقد آن الأوان الذي نري فيه مجمع اللغة العربية يمد يديه الي هذه الجمعية وغيرها من جمعيات المجتمع المدني المعنية بقضايا اللغة العربية ـ جمعية لسان العرب وجمعية حماة اللغة العربية ـ ليصبح أكثر انفتاحا علي ما تموج به هذه الجمعيات والمجتمع كله من حركة وفكر ونشاط ، وحتي تتلاقي جهود الجميع وتوصياتهم وصولا إلي صانعي القرار ، وتأثيرا فاعلا في مؤسساتنا العلمية والتعليمية والإعلامية ، بعد أن يتم تعديل مادة واحدة في قانون المجمع ـ المعروض الآن علي لجنتي التعليم والثقافة في مجلس الشعب ـ من أجل أن تصبح قراراته وتوصياته ملزمة بحكم القانون . تحية لهذا المؤتمر الذي يأخذنا من دائرة اللغة إلي دائرة الهوية والأنتماء ووجودنا القومي والحضاري ، ولهذه الجمعية التي تقدم نموذجا باهرا لمؤسسات المجتمع المدني ، وتقديرا لعلمائها المجاهدين الصابرين .

قراءة جديدة لا لف ليلة وليلة - ١ –

بقلم: فاروق شوشة

في مرحلة ما من حياتنا كانت الليالي العربية حلما أكثر من كونها قصة . عندما كنا في ظل ذلك الامتزاج المضبب للهوية الذي لم نزل نحياه في الأحلام . ليس أنفسنا بل علاء الدين ، ولكن ليس علاء الدين بل أنفسنا الذي يحدق في شجرة الفاكهة المحملة بالمجوهرات ويتزوج ابنة الوزير ويهيمن علي مقادير المصباح وطاقاته ، نعاني وننتصر مع السندباد ونتذوق التقلبات ونحياها مع قمر الزمان ، ونتمتع بالمحبة المتناقضة ونبحر فوق البساط المسحور ونمتطي الحصان الطائر .

هذه السطور المترجمة تمثل اقتباسا واحدا من بين اقتباسات عديدة ، يستعين بها الناقد والباحث الكبير الدكتور محسن جاسم الموسوي في إنجاز مشروعه الضخم عن ألف ليلة وليلة المتمثل في كتابه الجديد ـــ المثير للتأمل العميق وجدل الحوار والمتعة معا ـــ مجتمع ألف ليلة وليلة . وهي مهمة لا يتصدي لها غير أمثاله من الباحثين الجادين ، المزودين بعمق الرؤية ونفاذ البصيرة وحداثية المنهج واتساع أفق المعرفة ، والاحتشاد الطويل لموضوع يستغرق من صاحبه سنوات متصلة من المقاربات البحثية والنقدية تمثلت في كتابيه السابقين: ثارات شهرزاد: فن السرد العربي الحديث والوقوع في دائرة السحر: ألف ليلة وليلة في نظرية الأدب الإنجليزي وفي العديد من مقالاته ودراساته التي تتابعت عبر السنوات العشرين الأخيرة وكأنها كانت بمثابة التهيئة لهذا المشروع الضخم المتمثل في كتابه الجديد مجتمع ألف ليلة وليلة ، من بينها مقالاته :ليس بالحكي وحده تشتغل شهرزاد وصيغ الكتابة في ألف ليلة وليلة والفضاء المباشر لحكايات ألف ليلة وليلة ـــ وقد نشرت جميعها في مجلة فصول القاهرية ، وتقديم مجتمع ألف ليلة وليلة ـــ في مجلة الحياة الثقافية الفرنسية ، والخارق في ألف ليلة وليلة ـــ في مجلة الفكر العربي المعاصر ، وألف ليلة وليلة في الأدب الإنجليزي ـــ في مجلة الأقلام العراقية .

نحن إذن مع باحث من طراز فريد . يحتشد لموضوعه بكل ما يتسع له الجهد والوقت ، ويستوعب ـــ من قبل أن يخط حرفا واحدا ـــ ماقام به السابقون عربا وأجانب . مصادره العربية تبدأ بطبعة بولاق لا لف ليلة وليلة (١٢٥٢ هجرية) مقابلة وتصحيح الشيخ محمد قطة العدوي ولاتغفل الطبعتين: إلى سوعية والشعبية ، وألف ليلة وليلة في أصوله العربية الأولي تحقيق الدكتور محسن مهدي ، وعشرات المصادر الأخري التي تضم الأمهات من كتب التراث العربي فضلا عن المراجع الحديثة التي لا تغفل الدراسة المهمة للدكتورة سهير القلماوي عن ألف ليلة وليلة (دار المعارف١٩٦٦) . ثم المصادر الأجنبية وفي مقدمتها دراسة الدكتورة فريال غزول التي تتضمن تحليلا بنيويا لليالي

العربيــة وميــا جيرهــارد وســتانلي لــين بــول وتــودورف . وهــو مــا جعــل مــن كتــاب محــسن الموســوي ـــ كمــا يقــول عنــه الــدكتور حمــادي صــمود أســتاذ البلاغــة والأدب في الجامعــة التونـسية ، محاولـة عميقـة جـادة لبنـاء مجتمـع ألـف ليلـة وليلـة ، بمـا يعتمـل داخلـه مـن سـلط متـصارعة وقـوي خفيـة متنازعـة تحـرك الحكـي فيـه وتـبني كيانـه الـسردي وتحـرك وراء ذلك كله المجتمع الذي هو سياقه الحاضن والفضاء الذي يرتع فيه .

وهــي محاولــة رجــل عــالم بأســرار الحكــي في أمهاتهــا النظريــة ، لــه بــألف ليلــة وليلـة إلـف قـديم نعرفـه عنـه بمـا كـان نـشر باللـسانين الإنجليـزي والعربـي مـن كتـب ومقـالات أصبح بعضها مراجع لا غني عنها وممرات إلى هذا الأثر المدهش لا مناص من اجتيازها .

إنــه مــساهمة جــادة في بيــان الــصلة الدقيقــة المــضنية بــين الوقــع والواقــع والــنص وحياتـه . ولاشـك عنـدنا ـــ يقـول حمـادي صـمود ـــ أن دراسـة كهـذه لا تـستقيم لـصاحبها إلا بالخبرة الراقية والسنوات الطويلة .

وهــي عنــدنا اضــافة حقيقيــة إلى مــا نعــرف عــن ألــف ليلــة وليلــة وإلــي بعــض قــضايا الأدب النظريــة كقــضية التحويــل ـــ مــثلا ـــ الــتي تعــتني بالكيفيــات الــتي بموجبهــا يحــول الأدب الموجــودات إلى هيئــات ، قــد أخرجهــا صــاحبها إخراجــا لا يغــرق في الأكاديميــات الكابحـة أحيانـا لغـامرة الكتابـة ولـذة الافـتراض وحريـة التعامـل مـع الـنص والـذهاب في تأويلـه مذاهب مخصبة .

ولعــل مــن أطــرف مــا في هــذا الكتــاب سـعة اطــلاع صــاحبه علــي النقــد الحــديث ، علــي نهــج المدرســة الأنجلوســكسونية ، وهــي تتعامــل مــع النــصوص تعــاملا يختلــف اختلافــا كـبيرا عمـا تعودنـا عليـه في المدرسـة الفرنـسية ، ثـم إنـه قـدم كـل ذلـك في لغـة سـهلة دالـة مطمعة لما قد يبدو علي التحليل من بساطة ظاهرة لم تتأت لصاحبها إلا بالخبرة والألفة .

وهــي شــهادة لهــا قيمتهــا مــن ناقــد وباحــث تونــسي كــبير ، كــان قريبــا مــن المؤلــف وهــو يعمــل علــي إنجــاز كتابــه خــلال إقامتــه في تــونس وعملــه أســتاذا بالجامعــة الفرنــسية ، قبل أن ينتقل مؤخرا للعمل في الجامعة الأمريكية بإمارة الشارقة .

والطريــف أنــني التقيــت بالــدكتور محــسن الموســوي في القــاهرة منــذ ثــلاث ســنوات عنـدما جـاء مـدعوا للمـشاركة في مهرجـان القـاهرة الأول للروايـة العربيـة ، وكـان اللقـاء مناسـبة لحوار ثقافي وأدبي في برنامج لا ذاعة لندن العربية .

يومهــا كــان مــشغولا جــدا بكتابــه الــذي لم يكــن قــد رأي النــور مجتمــع ألــف ليلــة وليلـة والمـنهج الـذي اسـتراح إلى ه في تأليفـه ، والقـضايا العديـدة والخطـيرة الـتي سـوف يثيرهـا ، والجهـد الـذي اسـتغرق منـه سـنوات متـصلة لا نجـاز الكتابـة بالـصورة الـتي ارتـضاها لـه . وعنـدما تفضل بإهـدائي نـسخة مـن كتابـه فـور صـدوره ، أدركـت جـسامة مـا كـان مقـدما عليـه

، وقدرته الفذة علي استدعاء موهبته الروائية وقدرته علي الحكي ـــ وهو الذي أصدر ثلاث روايات يتضمنها سجل مؤلفاته باللغة العربية هي العقدة (١٩٨٨) ودرب الزعفران (١٩٨٩) وأوتار القصب (١٩٩٠) ـــ مما مكنه من روعة البناء الأدبي لمجتمع ألف ليلة وليلة ، وأضيف إلى ها من مجموعات القصص المدونة علي مر العصور الشيء الكثير وأن الجزء المترجم عن الهزار افسانة البهلوية أقل الأجزاء شأنا وأحقرها حجما . ومن القصص مالها أصول هندية قديمة معروفة ، ومنها ماهو مأخوذ من أخبار العرب وقصصهم الحديثة نسبيا . ثم هناك موضوع الموطن حيث تمثل القصص بيئات شتي خيالية وواقعية . وأكثر البيئات الواقعية بروزا مصر ثم العراق وسورية .

واختلف الباحثون حول تقسيم القصص حسب الموطن .

وقد أظهرت الدراسة اختلاف أساليب القصص وطرق المعالجة باختلاف الموضوع لا صطباغه بالمنبع الذي عنه أخذ . ويقسم ليتمان الليالي إلى موضوعات ـــ في آخر نسخة من دائرة المعارف الإسلامية ــ علي أساس مختلف .

كذلك تدرس من حيث النسخ والترجمات دراسة دقيقة .

ومازالت الليالي عند الغرب تدل علي كثير من خيال الشرق وسحره ومازالت عند الغرب كتابا من كتب العامة .

لم يكن الدكتور محسن الموسوي بعيدا عن هذا كله ، وهو يؤكد منذ السطور الأولي في كتابه أن حكايات ألف ليلة وليلة تكتسب أهمية متزايدة كلما تعقدت أوجه الحياة وسبلها وتنوعت وسائل الاتصال المسموعة والمرئية ، وهي تبحث في خزينة الحكاية وأشكالها ومادتها في صورة جياشة بالتدفق والحياة والقدرة علي التلوين والتوقف عند الدلالات العامة والتفاصيل الجزئية ، فامتزج التاريخ بالتخيل ، والحضور العجائبي بالعناصر الخارقة كالعفاريت والجن والمردة ، جامعا بين الطلاسم في الفضاء والمحكي والاثار إلانسية في مملكة العفاريت والفجيعة الجسدية ـــ والجنسية علي وجه الخصوص ـــ ومبدأ المصادفة بين القدر والمكتوب ، والمنامات ، والأزقة والمتاهات ووسطاء العشق ، والمعيش والخارق وتبادل الأدوار لنيل المعشوق ، والعشق بين العامة والخاصة ، والكتابة الطلسمية ، وأصول اسفار السندباد والوجوه الكثيرة للحكي ، وغيرها من المداخل التي تشكل اقتحاما جسورا لفضاء هذا العالم الذي يعيد المؤلف تكوينه وتشكيله ، مستعينا بخبرة السنوات ، ومخزون المعرفة والوعي ، والمرجعية الثقافية : السياسية والاجتماعية والسيكلوجية ، والرؤية النقدية النافذة التي لا تتوقف عن التساؤل ، والتحليق بالقاريء إلى آفاق العديد من الاحتمالات والتوقعات .

ألـف ليلـة وليلـة هـو الكتـاب العربـي في الـذاكرة الإنـسانية شـرقا وغربـا ، عـبر العديـد مـن الآداب والثقافـات ، تقـول عنـه الموسـوعة العربيـة الميـسرة: نـسخ الكتـاب المعروفـة مرتبة علي هـذا النحـو: كلكتـا الأولـي ، ثـم بـولاق ، ثـم كلكتـا الثانيـة ، ثـم برسـلاو وأخـيرا بـولاق الثانيـة . وكلـها حديثـة لا ترجـع إلى أقـدم مـن أول القـرن التاسـع عـشر ممـا جعـل البحـث في أصـلها عـسيرا للغايـة . وقـد شـغل المستـشرقون ببحـث هـذا الأصـل والعثـور علـي نص قديم يذكرها مثل نص ابن النديم في الفهرست الذي يعد مفتاحا للبحث .

ذكـر ابـن النـديم أنهـا مترجمـة عـن أصـل بهلـوي (أي فـارس قـديم) اسمـه الهـزار إفسانة أي الألف خرافة .

ولما كان هـذا الأصـل نفسه غـير موجـود فـإن البحـث عـن أصـل الليـالي يـزداد غموضـا . منـذ ترجمهـا بتـصرف كـبير الكاتـب الفرنـسي أنطـوان جـالان ذاي في أوروبـا وترجمـت عـن جـالان مـرارا طـوال القـرن الـ١٨ ، وفي آخـر القـرن١٩ ترجمـت عـن الأصـل ومازالـت إلى إلى وم تـصدر لهـا ترجمـات مـصورة فـاخرة . أهـم مـن ترجمهـا برتـون ولـين وليتمـان ومـردروس قلـدت الليـالي بـصور كـثيرة واستنفدت في تـأليف القـصص ـــ وبخاصـة للأطفـال ـــ وكـذلك المـسرحيات الحديثة ، وألهمت رسامين وموسيقيين .

ثـم تتعـرض الموسـوعة لا هـم نقـاط البحـث حـول ألـف ليلـة وليلـة وفي مقـدمتها الأصـل باعتبـار أنهـا ألفـت علـي مراحـل ، وفـضاءاتها لتعيـد إخراجهـا في هـذا الثـوب أو ذاك . ثـم حـين يعلـق علـي التـأثير الـذي تركتـه ترجمـة أنطـوان جـالان إلى الفرنـسية في القـاريء الأجـنبي: سـرعان مـا اجتاحـت الحكايـة ببـدايتها ونهايتهـا المعروفـة وسـطا كـان يتلـهف إلى مـا يعـوزه ويحتـاج إلى ه مـن روي وغرابـة وطرافـة وحيلـة واجتهـاد وخلـيط مـن الـشخوص والحـرفيين والوسـطاء والتجـار والـصاغة والـسراق والخلفـاء والأمـراء والقـوادين والنخاسـين والرقيـق والجـن الطيب والـشرير ، وكـأن الحكايـات ليـست غـير قمقـم مـن قمـاقم الـنبي سـليمان انفتحـت لتوهـا عـن مـردة يمـلأون الفـضاء الخـارجي حـضورا ، دخانـا أولا ، قبـل اسـتردادهم لا نفـسهم مخلوقـات لا مرئيـة تـستجيب لـصاحب الـسر كلمـا اسـتدعت الحاجـة إلى ذلـك . ويبـدو أن جـالان قـد فـتح القمقـم وامتلـك الـسر وأصـبح المـردة في عهدتـه يـأتمرون بـأمره ، فـأوقعوا العبـاد في قبضته يحركهم كيف يشاء ، ولكن فوق كل ذي علم عليم .

وفي محاولـة مـن المؤلـف للتنقيـب عـن مـؤلفين لا لـف ليلـة ، فإنـه يقـوم بعمليـة مـسح شـاملة و مراجعـة نقديـة للموقـف مـن المحكـي في العـصر الوسـيط متعرضـا لا شـكال الـسرد في العـصر العباسـي الـتي تجمـع بـين المقامـة والـروي والقـصص والتنـدر وفي مقـدمتها الإمتـاع والمؤانسة لا بـي حيـان التوحيـدي الـذي سـامر بـه أبـو حيـان الـوزير أبـا عبـد الله الحـسين بـن أحمـد بـن سـعدان وزيـر صمـصام الدولـة البـويهي سـبعا وثلاثـين ليلـة: كانـت مـسامرته فيهـا

محاولة للاستجابة لرغبة ما أو نزولا عند تساؤل أو مسعي من أبي حيان لعرض ماليه من نوادر وملح وطرائف مختلفة كتلك التي تناولتها الجارية تودد في ألف ليلة وليلة .

خاصة أن أبا حيان يظهر معرفة واسعة بالقينات والإماء والشواعر في بغداد حين يقول: ولقد أحصينا ـــ ونحن جماعة في الكرخ ـــ أربعمائة وستين جارية في الجانبين ، ومائه وعشرين حرة ، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور ، يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة هذا سوي من كنا لا نظفر به ولا نصل إلى ه لعزته وحرسه ورقبائه ، وسوي ماكنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط في وقت ، أو ثمل في حال ، وخلع العذار في هوي قد حالفه وأضناه ، وترنم وأوقع ، وهز رأسه وصعد أنفاسه وأطرب جلاسه . . فهل كان أبو حيان التوحيدي ـــ علي هذه الصورة التي نطالعها في كتاب الإمتاع والمؤانسة ـــ واحدا من المؤلفين المجهولين لا لف ليلة وليلة أم هم الآخرون من أمثال الجاحظ وثعلب والمسعودي والأصمعي والثعالبي وابن الجوزي والجهشياري والإبشيهي والطقطقي والبيهقي وقدامه بن جعفر وغيرهم ؟

والحديث موصول .

قراءة جديدة لا لف ليلة وليلة - ٢ -

بقلم: فاروق شوشة

ليس أولي من الباحثين العراقيين بالاهتمام بألف ليلة وليلة قراءة ودراسة وتحليلا ، وتوقفا أمام العديد من الموضوعات والقضايا التي ستظل الليالي العربية وهو الاسم الذي عرفت به ألف ليلة في الكتابات الأجنبية ، تثيرها وتدفع بالحوار الدائر من حولها إلى ساحات جديدة من الرؤي ، ومناهج جديدة من الدراسة والتناول أحدثها علي الاطلاق هو هذا البحث النقدي الضخم للناقد العراقي الدكتور محسن جاسم الموسوي الأستاذ بالجامعة الأمريكية في الشارقة تحت عنوان: مجتمع ألف ليلة وليلة . ذلك أن قراءة ألف ليلة تثير فينا علي الفور تصورات مختلفة للحياة في بغداد ، بددا من حياة القصور حتي مدارج الحياة الاجتماعية الدنيا ، مرورا بمجتمع الجواري والغلمان وخدم القصور ، ومجتمع التجارة والتظرف والشراكة في السلطة ـ كما تسميها الدراسة ـ وندماء الخليفة والقوادين ، والعشاق ، وشعراء اللهو والمجون ، كل هذه العناصر تتكامل في بانوراما هائلة تجسد للقاريء صورة بغداد المتخيلة أو المتوهمة ـ خاصة خلال العصر العباسي ـ حين كانت حاضرة الدنيا ، ومطلع شموس الثقافة العربية والحضارة العربية ، ولايمكن النظر إلى شخصية شهرزاد الا بوصفها البغدادية الفائقة الذكاء والحيلة ، التي استطاعت بقدرتها الهائلة علي القص والرواية أن تبني هذه المملكة الشاسعة من الأحلام والحكايات الممكنة والمستحيلة ، وأن تجعل من غواية الخيال وفضول المعرفة اغراء لا تنفد أساليبه أو عجائبه ، في انتظار أن يحدث التطهير المطلوب فعله في وجدان شهريار ، ويعود إلى طبيعته السوية بعد أن تم علاجه علي يدي شهرزاد .

وفي هذه الدراسة الجادة والممتعة للدكتور محسن الموسوي ـ وهو يحاول بناء مجتمع ألف ليلة وليلة ـ فان معرفته العميقة ببغداد تاريخا وعمرانا ومجتمعا وبيئات وطبقات ، وقدرته علي استدعاء التفاصيل الكثيرة المتناثرة في الكتب الأمهات للتراث العربي ، ولربط الأجزاء والعناصر بعضها إلى بعض ، وصولا إلى مايسميه: الطعام في الحياة الاجتماعية والطعام في تكوينات السرد ودراسته من ثم لصنعة الطبيخ وأكلات العرب وقصف الخليفة (من لهو الملذات) والأكلات الموصوفة وفعلها داخل المحكي ، والطعام والمرتبة الاجتماعية والتطفيل ـ الدخول علي موائد الخاصة ، ولغة ارستقراطية المجتمع ، ومرجعيات ترف المدينة ، والمدينة: الأزقة والسراديب والموت ، والكلام والسلعة: تبادل الأدوار لنيل المعشوق ودلالات الحركة في المدن ، كل ذلك وغيره أكثر ـ قد هيأ له من الأسباب والعناصر والوثائق فرصة نادرة لا قامته هذه الدراسة الجادة التي اقتضته سنوات طويلة قضاها استاذا بالجامعة التونسية ـ لا الفرنسية كما جاء محرفا في

المقالة السابقة ـ كما أعانه اطلاعه الواسع علي المصادر المجاورة لا لف ليلة والتي تشترك معها في كثير من الأخبار والمواقف والنوادر والنصوص الأدبية والشعرية مثل أخبار الظراف والمتماجنين لا بن الجوزي والامتاع والمؤانسة لا بي حيان التوحيدي والمحاسن والأضداد للجاحظ والمحاسن والمساويء للبيهقي ومروج الذهب للمسعودي والمستطرف في كل فن مستظرف للابشيهي والعقد الفريد لا بن عبد ربه ولطائف اللطف للثعالبي والنوادر للأعرابي وغيرها ـ أعانه هذا الاطلاع الواسع علي بناء تصوره واقامة دعائم دراسته .

يقول ـ علي سبيل المثال ـ وهو يعرض لمرجعيات التظرف في ألف ليلة : اذا كان التلميح والتماجن الظريف بين الفتيه والفتيان يستند إلى مرجعية واسعة من الشعر المألوف والكلام المتداول والنوادر الشائعة ، فما يقوله الفتي أو تأتي به الفتاة في معرض الاجابة هو جزء من مألوف حينذاك ، ولهذا كثرت مثل هذه الاشارات والتلميحات واذا كانت ألف ليلة وليلة تزخر بمثل هذا الكلام ، فان كتب النوادر والملح والطرائف تفيض بها هي الأخري اذ يذكر ابن الجوزي مثلا في أخبار الظرف والمتماجنين: خرج رجل فقعد يتفرج علي الجسر ، فأقبلت امرأة من جانب الرصافة متوجهة إلى الجانب الغربي ، فاستقبلها شاب فقال لها: رحم الله علي بن الجهم فقالت المرأة: رحم الله أبا العلاء المعري ، ومرا قال فتبعت المرأة وقلت لها: ان لم قولي ماقلتما فضحتك فقالت:

قال لي: رحم الله علي بن الجهم يريد قوله:

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوي من حيث أدري ولاأدري

وأردت بترحمي علي أبي العلاء قوله:

فيادارها بالحزن ، ان مزارها
قريب ، ولكن دون ذلك أهوال

من أمتع فصول الكتاب وأكثرها اثارة الفصل الخامس الذي يتحدث فيه المؤلف عنمدن الحكي حين يقول: تتأكد قوة الحكي بتلك الطاقة التي تسرقنا من أنفسنا ، وتعطل لدينا القدرة الأخري علي التمحيص والتدقيق ، وبرغم ذلك نشعر أننا نلتقي الجواري في الأسواق ، وننظر إلى التعامل الجاري هناك ، والي ذلك الحشد من الناس المشتغلين والمنصرفين للأعمال والمتطفلين ، وندور في الأزقة ونجلس عند المصاطب ونبصر كفا تظهر من النافدة ونري الخياط في دكانه وعيناه علي الزقاق المقابل بانتظار وجه يطل عليه من روش ، ونري التجار والصيارفة يعنون بأموالهم ، وكأن الحكاية تنقل عن التنوخي في نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة عن طرائق التحصين من اللصوص في بغداد ، بينما يصعب تفريق مايأتي في التاريخ عن اللص الذي صار بزازا ـ أي تاجر حرير ـ وتاب

ليستخلص حقه من لص آخر بعد جولة طويلة يستخدم فيها درايته كتلك التي يظهرها الدنف في حكايات ألف ليلة وليلة . لكن الحكايات تمتد بين القصر الفاره والزقاق الضيق ، بين السوق وبين السرداب ، بين البستان والنهر ، حيث يتحرك الجواري وأبناء التجار والحرفيون والمغنون والقواد والنسوة والحمالون والصبايا والغلمان والبغال والحمير ، بينما يشخص بين هؤلاء:

الخلفاء والحلاقون وجواري البلاط والطفيليون ، محركين السرد ودافعين به إلى أمام ، وتتعدد الضواحي والأزقة والحمامات والأسواق حتي قيل ان بغداد ليس لها مايوازيها ، فكتب فيها .

أحمد بن الطيب فضائل بغداد . ثم يقول: وكأن حاضرة الخلافة بغداد رأت مارأت من التمدن السريع حتي بات الانهماك في تفاصيل الأشياء بمثابة الحياة إلى ومية للناس . ولهذا تحفل الحياة بالتناقض الشديد ، بين الزهد والشهوة ، بين المتعة والجلال ، الرفعة والابتذال ، العشق والفجور ، المجون والعفة ، الجمال والقبح ، الكرم والطمع ، التسامح والثأر . فبدت الرغبات متقاطعة حادة والنزوات مريبة . فبينما تتمظهر الكلمات في الأشياء والوقائع والأحوال ، لا ناس يغرقون في المتعة ، كانت حكاية أخري يطل منها بائع فول بأسماله في ليلة ممطرة باردة ، ويجري هذا المشهد في الشوارع الخلفية التي تتواري بعيدا عن قصور الخلافة .

يلفت النظر توقف الدكتور محسن الموسوي عند الشعر في ألف ليلة وليلة . وهو توقف له قيمته ومغزاه خاصة أنه يشغل مساحة ليست صغيرة في السرد ، وعلي الرغم من شيوع الفكرة التي قالها بعض المستشرقين من أن الشعر فائض وليست له مكانة وظيفية . والمؤلف يري أن هذا الحكم ـ علي اطلاقه ـ ليس صحيحا ، فثمة مراجعة لا زمة لطبيعة الوحدات السردية في حكايات ألف ليلة وليلة ، وكلما تحرك السردية دائريا أو لولبيا أو في صورة ترابطات هندسية ومواصفات تشكيلية أو موسيقية ، صعب الحديث عن الوظائف التي تخص الرحلة من وإلي ، أو تلك التي تعني بالاكتشاف أو البحث بموجب رغبات وعواطف كالحب والغيرة والخديعة .

ويلاحظ الدكتور الموسوي أن الشعر في ألف ليلة وليلة لم يستأثر باهتمام ملحوظ ، بالرغم من محاولات جمعه أو ارجاعه إلى قائليه ، إلا أن دراسته يمكن ان تقود إلى فضاءات أخري في الحياة الوسيطة ، وإعادة قراءة هذه النصوص الشعرية مرة في ضوء التقاليد الأدبية السائدة ، ومرة أخري خارجها فمن الأمور المتكررة ـ مثلا ـ قصائد العشق ، والتي غالبا ما تستأثر بالشائع وما هو مألوف في أغاني أبي الفرج الأصفهاني ، لكن بعض هذه القصائد النادرة لم تكن مألوفة تماما لغربتها أو لخصوصيتها ، كما أن بعضها يخرج عن المألوف ويمثل انشقاقا ما كانشقاق الحكاية الشعبية المدونة أو المنقولة مشافهة .

وفي ضوء المنهج الذي بني عليه المؤلف دراسته ، فلن يتحقق هذا بدون تفكيك هذه النصوص الشعرية ، ومعرفة مكونات القصيدة مأثوراتها وصورها واستعاراتها ، وعزل ماهو شعري فيها عما هو توصيلي فحسب ، ثم تمييز مستويات الاستعاري في الأول وإحالة الآخر إلى الأخبار والنوادر ، ثم وضع الجميع في سياقات التجريد والتجسيد في خطابات المجتمع ، بقدر ما تتيحه هذه الخطابات من معرفة بالفئات الاجتماعية وطبائعها وعاداتها وتكويناتها . يستشهد المؤلف - في هذا المجال - بما نقله التوحيدي مثلا عن طرب ابن غيلان البزاز كلما استمع إلى بلور جارية ابن إلى زيدي وترجيعاتها وهي تترنم بالشعر ، فهو اذا استمع إلى ها انقلبت حماليق عينيه ، وسقط مغشيا عليه ، وهات الكافور وماء الورد . .

تقول بلور في غنائها:

أعط الشباب نصيبه
مادمت تعذر بالشباب
وانعم بأيام الصبا
واخلع عذارك في التصابي

وأعظم من بلور في غناء الشعر والترنم به صبابة التي زلزلت بغداد كما يقول التوحيدي لنوادرها وحاضر جوابها وحدة مزاجها وسرعة حركتها بغير طيش ولا إفراط حتي كان الشيخ الصالح الكناني المقريء يطرب لما تغنيه أشد الطرب:

عهود الصبا هاجت لي إلى وم لوعة
وذكر سليمي حين لا ينفع الذكر
بأرض بها كان الهوي غير عازب
لدينا وغض العيش مهتصر نضر
كأن لم نعش يوما باجراع بيشه
بأرض بها أنشا شبيبتنا الدهر
بلي ، إن هذا الدهر فرق بيننا
وأي جميع لا يفرقه الدهر

مثل هذه الأشعار تسرب في أجواء الحكايات وأصبح جزءا من ذاكرة العامة ، خاصة أن لكل محلة في بغداد تقاليدها وشعراها ومغنيها . كما أن الشعر - في رأي المؤلف - كان يلتحم في حالات عديدة مع الخطاب المراوغ للمجتمع الملفق ، فثمة مسعي للالتحام بالسلطة والتلاقي معها . في مثل شعر من قال - علي سبيل المراوغة والاستجداء:

الثم أنامله فلسن أناملا
لكنهن مفاتح الأرزاق

وقول الشاعر الذي أنشد الخليفة هذين البيتين بعدما أسبغ عليه النعم:

تصبحك السعادة كل يوم
بإجلال وقد رغم الحسود
وزالت لك الأيام بيضا
وأيام الذي عاداك سوء

من الصعب الانتهاء من قراءة هذا الكتاب الحافل: مجتمع ألف ليلة وليلة للدكتور محسن جاسم الموسوي دون أن نردد مقولة الدكتور حمادي صمود ـ أستاذ البلاغة والأدب في الجامعة التونسية ـ عنه لعل أطرف ما في هذا الكتاب سعة اطلاع صاحبه علي النقد الحديث علي نهج المدرسة (الأنجلو سكسونية) وهي تتعامل مع النصوص تعاملا يختلف اختلافا كبيرا عما تعودنا عليه في المدرسة الفرنسية ، ثم إنه قدم كل ذلك في لغة سهلة دالة مطمعة .

وان كان هذا الحكم الآخر لا ينبغي الاحساس إزاء بعض المقاطع ـ في بعض الفصول ـ بأنها مترجمة أكثر من كونها مؤلفة ، وربما يرجع هذا لكثرة ما كتب المؤلف بالانجليزية والعربية من كتب ومقالات وأبحاث ودراسات عن الموضوع ، مما جعله يستدعي بعض هذا الذي كتبه ، وربما كان عليه ان ينقله من اللسان الانجليزي إلى العربي ، فجاء علي الصورة التي توحي بالترجمة عن أصل سابق ، قد يكون أكثر وضوحا وتدفقا وألفة .

كذلك فإن مجتمع ألف ليلة وليلة هو لمجتمع البغدادي وحده ، الذي عكف عليه المؤلف ونجح كل النجاح في جلائه وتحليله . أما الأصول المصرية والهندية والفارسية التي أنتجت بدورها بعض الصور المغايرة لمجتمعات غير بغدادية (وغيرعراقية) فلم يتوقف عندها المؤلف ، ولم يعتبرها ذات شأن أو قيمة في تشكيل مجتمع ألف ليلة وليلة ، وربما اهتم بهذا الجانب باحثون آخرون ، أكثر قربا من طبيعة هذه المجتمعات الأخري أو قدرة علي التعامل معها .

ويكفي الدكتور محسن الموسوي في هذه الدراسة الجادة والممتعة والشاملة أنه أعادنا إلى عالم ألف ليلة وليلة أكثر وعيا وبصيرة بما يثيره من قضايا وما يطرحه من رؤي وتحليلات ، ستظل كالحكايات نفسها تتداخل وتتناسل ، بفضل المناهج النقدية الحديثة ، التي لا نهاية لكشوفها وقدرتها علي الادهاش .

في ندوة " العربي " الثقافية

بقلم : فاروق شوشة

عندما توجهت إلى الكويت لا ول مرة في أكتوبر عام ١٩٦٣ معارا للعمل في إذاعتها خبيرا إذاعيا ، كانت مجلة العربي تحتفل بالعام الخامس لصدورها ، بينما يواصل مؤسسها وأول رئيس تحرير لها العالم الكبير الدكتور أحمد زكي تطوير خريطتها وتعميق ملامحها الثقافية واستقطاب العديد من الأقلام العربية المتميزة - في شتي حقول الثقافة والمعرفة والإبداع - للكتابة فيها ، تحقيقا للسياسة القومية والفكر العربي التنويري لمؤسس كويت ما بعد الاستقلال عبد الله السالم الصباح .

وخلال العام الذي قضيته في الكويت وإذاعتها : رئيسا لقسم المذيعين ورئيسا للقسم الأدبي - بعد أن تركه الصديق وزميل الدراسة الإعلامي الكويتي عبد الله الرومي للدراسة في معهد الدراسات العربية في القاهرة ثم للعمل ملحقا فمستشارا إعلاميا لسفارة الكويت في مصر ، وقبل أن يتولي مسئوليته الأديب الكويتي عبد الله خلف - خلال ذلك العام أتيح لي أن أكون قريبا من مطبخ العربي وأن تتوثق علاقتي بالدكتور أحمد زكي ونائبه الكاتب والمفكر الدكتور محمود الشهرة - الذي سيصبح فيما بعد رئيسا للجامعة الأردنية - وأن أتأمل صعود نجم المجلة التي أصبحت في صدارة المجلات الثقافية العربية والقفزات التي حققتها في التحرير والتوزيع ، وموجات الأقلام الجديدة التي يتسع لها باستمرار أفق العربي ومشروعها الثقافي احتفاء بالقديم وانفتاحا علي الجديد وتوازنا واعيا بين الأصالة المعاصرة والمعاصرة الأصيلة ، واغتناء بصفحات الثقافة العلمية التي تعكس اهتمامات رئيس التحرير - العالم الموسوعي الثقافة - الحرص علي أن تكون المجلة رأس الحربة في مشروع الكويت الثقافي وتوجهات القومية وهو المشروع الذي ستكتمل أبعاده وتجلياته في ستينيات القرن الماضي بصدور شقيقات العربي : عالم الفكر وعالم المعرفة وسلسلة المسرح الاعلامي وصولا إلى اكتمال البنية الثقافية والعلمية الأساسة بقيام جامعة الكويت والمجلس الوطني للثقافة ومؤسسة التقدم العلمي والمعاهد الفنية المتخصصة للمسرح والفنون والموسيقي ، وازدهار الصحافة الكويتية الحرة ، مما جعل من الكويت - الدولة الصغيرة بمقياس الحجم والمساحة والتعداد - دولة كبيرة بمعيار الإشعاع الثقافي والتأثير القومي .

وعلي مدي ثلاثة وأربعين عام ا من عمر العربي أتيح للمجلة نخبة من رؤساء التحرير أصحاب المشاريع والاهتمامات الثقافية فبعد رحيل الدكتور أحمد زكي - واضع اللبنات الأولي والأساس القوي المتين والتصور الذي مالايزال بعض ملامحه وقسماته مستمرة حتي إلى وم - تولي المسئولية الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين ، بفكره القومي

المتـألق ، واهتماماتــه الثقافيــة والإبداعيــة ، ودوره التنــويري البــارز ، فاتــسع التوجــه الفكـري القـومي للمجلـة ، وتـصديها لهمومـه ومـشكلاته وتحدياتـه ، واهتمامهـا بالمـستقبليات باعتبـاره كاتبـا مـستقبليا ومحاولـة قـراءة العـالم الجديـد في تغيراتـه ، وفيمـا نحـن مقلبـون عليـه ، حـتي لا نعـيش أسـري الماضـي بقيـوده وأثقالـه أو حبيـسي رؤيـة الحاضـر دون قـدرة علـي التجـــــــــــــــــــــــــاوز والاستـــــــــــــــــــــــــــــــشراف .

ثـم تـولي مـسئولية المجلـة الـدكتور محمـد الرميحـي ، الـذي قـام بـدور كـبير في تطـوير الرسـالة القوميـة للمجلـة ، وطـرح معـالم جديـدة لهـذا الفكـر تلائـم اخـتلاف الوضـع العربـي وتغـير ومـا طرأ علـي الفكـر القـومي نفسه مـن تقويمـات جديـدة ومراجعـة مـستمرة وبـرزت لا ول مـرة ـ علـي صـفحات العربـي ـ اهتمامـات خليجيـة ، تتنـاول همـوم الـدائرة الخليجيـة مـن الـوطن علـي مـستوي وضـع الأسـرة والتربيـة والتعلـيم والتجـانس الـسكاني والعمالـة الوافـدة وحـوار الأجيـال واكتـسبت العربـي بهـذه الخـصوصية نبـضا جديـدا وارتباطـا حميمـا لواقـع خليجـي ـ تنتمـي إلى ه الكويـت وتقـع في الـصميم منـه ـ دون تعـارض مـع انتمائهـا العربـي الكـبير وعنـدما تـصل مـسئولية المجلـة إلى الـدكتور سـليمان العـسكري ـ قادمـا إلى هـا مـن رئاسـة المجلـس الـوطني للثقافـة بعـد أن تبـادل كـل مـن الـدكتور الرميحـي والـدكتور العـسكري موقعـه ـ فإنـه يجـد في العربـي منـارة ثقافيـة تـضيء بـشتي فـروع المعرفـة الانـسانية وهـو يتـولي المـسئولية في عـصر انفجـار الثـورة المعلوماتيـة ، والاسـتقطاب الاتـصالي والمعـرفي لثقافـة الكمبيـوتر والانترنـت ، والاهتمـام المتـصاعد ـ عنـد الآخـرين أولا ثـم عنـد العـرب ثانيـا ـ بالنـشر الالكترونـي وآفاقـه وتحدياته ، ممـا يـضفي علـي موقعـه كـرئيس للتحريـر مـسئوليات تتجـاوز مـا سـبقها مـن حيـث الـشمول والعمـق والاتـساع . مـن هنـا ، ومـن وعيـه العميـق بالـدور والمـسئولية ، فهـو يبـادر ـ في إطـار اختيـار الكويـت عاصـمة ثقافيـة عربيـة لعـام٢٠٠١ ـ بالـدعوة إلى نـدوة مجلـة العربـي حـول الثقافـة العربيـة وآفـاق النـشر الالكترونـي مـدركا أن النـشر الإلكترونـي هـو التحـدي القـادم الـذي يواجـه كـل المهـتمين بنـشر الثقافـة العربيـة وتطورهـا ، لا نـه يفـرض عليهـا نوعـا مـن الوسـائل والأدوات الحديثـة الـتي لا بـد مـن اسـتخدامها والمـساهمة في تطويرهـا ، وإلا تحولـت الثقافـة العربيـة إلى ثقافـة هامـشية غـير قـادرة علـي التـأثير أو التفاعـل مـع الثقافـات الأخـري .

والـدكتور العـسكري إذن يجـسد الطمـوح الـذي سـعت إلى ه المجلـة طـويلا ، والـذي اسـتطاعت أن تتوجـه ـ في عهـده ـ بموقـع علـي الانترنـت لا بـد مـن العمـل علـي اتـساعه وتطـويره وليـست النـدوة الـتي أقيمـت خـلال الأسـبوع الماضـي ، واحتـشد لهـا عـدد كـبير مـن الكتـاب والمفكـرين والاعلامـيين والمهـتمين بالنــشر الالكترونــي ، ومؤســسات الالكترونيــات ، والمواقــع المتميــزة للثقافــة العربيــة علــي الانترنــت ، واقتــصاديات النــشر الإلكترونــي ، والنــشر الإلكترونــي ومجتمـع المعرفـة ، وموقـع مجلـة العربـي علـي الانترنـت– ليـست هـذه النـدوة إلا محاولـة علميـة وجهـدا بحثيـا لمعرفـة المواقـع ورصـدها ، والتعريـف بالآفـاق الـتي وصـل إلى هـا النـشر الالكترونــي علــي مــستوي العــالم ورصــد الجهــود العربيــة وتقويمهــا في هــذا المجــال ،

واستكشاف المدي الذي يمكن أن يدخله النشر الالكتروني علي شكل المطبوعة العربية سواء كانت مجلة أو كتابا ، وكيف تتطور حتي تصل إلى قرائها بطريقة أفضل .

تعددت مداخل الباحثين ومناهجهم داخل هذه الندوة الجادة والحافلة . أتوقف- عبر المساحة المحدودة لهذا المقال- عند البحث الذي تقدم به عالم المعلوماتية وخبير تكنولوجيا المعلومات الدكتور نبيل علي عن المنظور اللغوي في النشر الالكتروني وهو يركز علي الهوة اللغوية ، التي تمثل شقا رئيسيا في الهوة الأشمل أي الهوة الرقمية ، التي تفصل بين دول العالم المتقدم ودول العالم النامي ، وهي هوة تتمثل انعكاساتها المختلفة في معدل إنتاج الوثائق الالكترونية وتبادلها ، وبالتالي في ثقل المواقع العربية علي الشبكة وقدرتها علي نقل صورة الثقافة العربية والحضارة الإسلامية ، وفي تطوير المعاجم الإلكترونية واستخدامها ، وفي قواعد النصوص الكاملة (قواعد ذخائر النصوص) وفي تعليم اللغات وتعلمها عن بعد ، وفي الترجمة ونقل المعارف وحوار الثقافات وفي التنظير اللغوي . وفي الوجود الإعلامي علي شبكة الإنترنت التي يتزايد دورها ويتعاظم سواء من حيث الصحافة التفاعلية أو الإعلام التليفزيوني التفاعلي .

وبعد أن يتناول الدكتور نبيل علي في بحثه الشامل- أهمية النشر الإلكتروني العربي ، والتحديات اللغوية له ، وملخص عمليات النشر الإلكتروني من منظور لغوي ، والأبعاد اللغوية للنشر الإلكتروني ، والبحوث اللغوية المطلوبة لدعم النشر الإلكتروني عربيا- مركزا علي الآليات والوسائل والمناهج وحدود المعرفة المتداولة- يوجه نظر الباحثين اللغويين وعلماء اللغة إلى ضرورة القيام بثورة منهجية لدراسة الامور المتعلقة بالبنية العميقة للنصوص بعد أن اتسع نطاق علم النص وتحليل الخطاب الذي يشمل علم اللغويات وعلم العلامات (السيميولوجيا) وعلم المنطق الحديث وعلم اجتماع المعرفة وعلم نفس المعرفة وعلم الذكاء الاصطناعي وهندسة المعرفة مشيرا إلى القصور الشديد في كثير من الفروع المعرفية في هذا المجال . وهو مايعني باختصار حاجتنا إلى باحثين لغويين من طراز جديد ، غير تقليدي ، قادرين علي متابعة العصر ، واستشراف آفاق تحدياته الراهنة ، ومواجهة مشكلات الواقع اللغوي بعقول جديدة ، ووعي جديد شامل .

كما أتوقف عند ورقة البحث التي قدمها الطبيب والكاتب القصصي المبدع الدكتور محمد المخزنجي بعنوان في انتظار الكتاب الإلكتروني: قراءة ثقافية نفسية . وهو البحث الوحيد الذي اهتم بالإنسان وأبعاده النفسية في إطار هذه الندوة بعد أن دارت الأبحاث في مجموعها حول النشر الإلكتروني ذاته . وفي هذه الورقة التي قدمها الدكتور المخزنجي يعتصر خلاصة خبراته وثقافته الطبية والروائية والنفسية ليقدم لنا شهادة حية حارة لا نسان هذا العصر الذي ارتبط وجوديا ونفسيا بالكتاب المطبوع وعليه أن يواجه عصر الكتاب الإلكتروني . يقول المخزنجي: أقف أمام خزانة للكتب في نهاية ردهة بيتي

الصغير بالقاهرة ، علي أرفف هذه الخزانة مجموعة من الكتب التي أعشقها ، ولاتزيد علي مائة وخمسين كتابا موزعة علي مشروع شتي ، أقف وأطيل الوقوف ، مغمورا بشعور من يري أحبابا قدامي بعد غيبة . تثور ذكريات طيبة وأشواق ليست ثقافية فقط ، وإن كانت ثقافية أساسا . أعرف هذه الكتب من ألوان وهيئات كعوبها بلا أدني خطأ وتجذبني جذبا لا خراجها وتقليب صفحاتها ، وربما قراءة سطور أو فصول منها . أتأمل بعض الملاحظات التي دونتها في الهوامش بكلمات قليلة . وأكتفي بلمس بعض هذه الكتب وهي في أماكنها . وفي كل الحالات ، تطفو علي سطح الذاكرة أفكار وأحلام أوحت بها هذه الكتب أو عاصرت مولدها . وتتجدد الأشواق ، تماما كما تفعل زيارة لمكان حميم قديم ، لكن المكان في هذه الحالة لا يشغل حيزا أو فضاء يتجاوز سنتيمترات قليلة هي حجم كل كتاب .

ثم يقول الدكتور محمد المخزنجي: فهل هو المثول ، أو الحضور في المكان والزمان مايجعل للكتاب المطبوع كل هذا التأثير النفسي والعقلي فينا ! وماذا عن الكتاب الإلكتروني في هذا الشأن ؟

تجيء محاولة الإجابة علي هذه التساؤلات في ختام ورقة البحث المقدمة إلى ندوة العربي من الدكتور المخزنجي وهو يقول: علي غير انتظار ، وبينما قرننا الحادي والعشرون يتأهب لفتح أبو ابه ، فوجئت بالفرصة التي تتيح لي التحقق مما وصل إلى ه الكتاب الإلكتروني علي أرض الواقع . كان ذلك في معرض فرانكفورت الدولي للكتاب في الجناح رقم٤ جناح النشر الإلكتروني– ضمن أجنحة المعرض الهائل الخمسة عشر مكثت أتردد علي جناح النشر الإلكتروني يوميا ، لا تابع الجديد وأتحقق مما وصل إلى ه الكتاب الإلكتروني تحديدا ، عاينت النماذج التي كنت قد قرأت عنها . وكنت أمسك بهذه الكتب في يدي وأفتح صفحاتها الرقمية المعروضة علي شاشاتها الصغيرة ، فأحس بالغرابة ، وكأنني طفل يلهو بألعاب الكترونية . ثمة حواجز من زجاج محسوس كانت تنهض بيني وبين هذه النصوص المعروضة علي شاشات بلورات الكريستال السائلة . وقدرت أني لا أستطيع القراءة بهذه الأجهزة لا كثر من نصف ساعة ، رغم أنها كانت محملة بنصوص روايات أحببتها ، كانت هذه الكتب الالكترونية مجرد أجهزة كمبيوتر متخصصة ، تعرض نصوصا منسقة علي نمط صفحات الكتب المعتادة ، لكنه كان عرضا مرهقا للعين والنفس ، علي شاشات كمبيوتر لا تتسم حتي بالرحابة التي توفرها شاشات الـ١٥ و١٧ بوصة لا نها شاشات ضيقة تقف عند حدود٨ بوصات .

وأخيرا يتساءل الدكتور المخزنجي عما يخالطنا الآن من هواجس في مواجهة الكتاب الالكتروني: هل هو مرهاب قديم جديد أم هي نوستالجيا ، حنين مرضي يريد أن يثبتنا في أرحام نشآتنا الثقافية والنفسية ويلصقنا بأنماط ما اعتدنا عليه ؟

علينا أن نطرح كل الأسئلة ، من هنا وحتي العام٢٠٠٣ الذي وعدنا به ، ولانزعم امتلاك كامل الإجابات ، حتي تأتي الممارسة الواقعية للكتاب الإلكتروني بالخبر إلى قين .

* * *

لاتكتفي مجلة العربي بأن تكون رأس الحربة في المشروع الثقافي القومي للكويت ، لكنها تمارس دورا طليعيا رائدا من خلال هذه الندوة التي أقامتها عن الثقافة العربية وآفاق النشر الإلكتروني ، لعل العرب جميعا– والمعنيين منهم بالثقافة والنشر علي وجه الخصوص يتحركون لتأمل واقع جديد ، يواجهنا بتحديات المعرفية والتكنولوجية ، في مأزق حضاري شامل يهددنا بأن نكون أو لا نكون .

موسم الخروج الثقافي

بقلم : فاروق شوشة

لا يكـاد يمـر يـوم دون أن تنـشر الـصحف أنبـاء الخـروج الثقـافي الـذي يقـوم بـه المثقفـون المـصريون كتابـا وشـعراء وأدبـاء ومبـدعين إلى عديـد العواصـم العربيـة والأجنبيـة ، مـدعوين مـن وزارات وهيئـات ومؤسـسات ثقافيـة ، أو مبعـوثين مختـارين مـن مـصر للمـشاركة في احتفاليـات ومهرجانـات وملتقيـات ونـدوات ، أو غـير مـدعوين أو مبعـوثين وإنمـا نـسافرين بجهـدهم الخـاص ، في محاولـة لا كتـشاف مـوطيء قـدم لهـم في واحـدة مـن هـذه العواصـم ، خاصـة الأوروبيـة منهـا ، ولا بـأس مـن أن يتجولـوا بعـض الوقـت في بـاريس أو لنـدن أو أوروبـا أو مدريـد أو غيرهـا ، وأن يعـودوا إلى نـا ليتحـدثواعن فتوحـاتهم وانجـازاتهم وانبهـار الآخـرين بهم ، وهو الهدف من الجولات الخاصة .

وفي كثير من هـذا الـذي أصبح يحـدث في كـل يـوم ـــ والـذي أسميـه خروجـا ثقافيـا ـــ تـشارك وزارة الثقافـة مـن خـلال العلاقـات الثقافيـة بنـصيب كـبير في الأسـابيع الثقافيـة الـتي تقيمهـا الـوزارة بـين الحـين والحـين في عواصـم عربيـة شـتي ، وفي مناسـبات عديـدة مختلفـة ، أصـبحت ظـاهرة ثابتـة ومتكـررة في الـسنوات الأخـيرة ، تنفيـذا لا تفاقيـات التبـادل الثقـافي الموقعـة بيننـا وبـين العديـد مـن الـدول العربيـة ، ومـشاركة في اختيـار العواصـم العربيـة ـــ واحـدة بعـد أخـري ـــ عواصـم ثقافيـة للعـالم العربـي ، وتأكيـدا لـدور مـصر الثقـافي والرئـد في المنطقـة العربيـة ، وهـو الـدور الـذي تحـاول بعـض الأقـلام الـسيئة الاتجاهـات والنوايـا التقليـل مـن شـأنه حينـا والـسخرية منـه حينـا آخـر . لكـن الواقـع الفعلـي يفـرض نفـسه دائمـا . فـلا يكـاد يقـام نـشاط ثقـافي عربـي ، أو مناسـبة ثقافيـة عربيـة ، إلا وللمـثقفين أو المفكـرين أو المبـدعين المـصريين دور بـارز فيهـا ، ولـو حـدث ذات مـرة وخلـت هـذه التجمعـات الثقافيـة العربيـة مـن مـشاركة مـصرية ، لا صـبحت محـلا للتـساؤل والدهـشة ، ومحاولـة الوصـول إلى أسباب لهذا التجاهل المتعمد .

لهـذا فأنـا أتـابع ـــ كغـيري ـــ مظـاهر هـذا الخـروج الثقـافي ـــ بتنويعاتـه المختلفـة ـــ وأتأمـل مـا تقـوم بـه في الوقـت نفـسه بعـض المراكـز الثقافيـة النـشيطة ، مثـل المعهـد المـصري للدراسـات الاسـلامية في مدريـد ومعهـد العـالم العربـي في بـاريس ، والمكتـب الثقـافي المـصري في أبـو طبي وجمعيـة الـسنونو في الـدانمارك ، اضـافة إلى مـا يقـوم بـه المجلـس الأعلـي للثقافـة في مـصر مـن خـلال توشـيح لجانـه المختلفـة لـمن يمثلـون الثقافـة المـصرية في المحافـل الدوليـة . ولـست مغاليـا ولا مبالغـا اذا قلـت ان العامـل الأول في نجـاح مثـل هـذه المـشاركات يتمثـل في حسن اختيـار مـن يمثلـون مـصر ، ويتوقـف علـي تمثيلـهم المـشرف ـــ ثقافيـا وسـلوكيا ـــ نجـاح المهمة الـتي نـالوا شـرف حملـها والرسـالة الـتي تـصدوا لا مانـة القيـام بهـا . وكـثيرا مـا طالعتنـا

الصحف بأخبار بعض هؤلاء المثقفين والمبدعين ، فلا تجد فيما قاموا به من مشاركات ثقافية أو ابداعية ما يستحق التوقف أو التعليق ، وإنما الذي تفسح له هذه الصحف وتهتم به هو ما حدث بين هؤلاء المثقفين من خلافات وصراعات ومعارك وما ارتكبوه من ألوان السلوك التي لا تليق بهم وكيف تحولوا من وفد واحد إلى أفراد متناثرين ومتباعدين ، وكيف أن بعضهم كان يريد القيام بدور الزعيم ليصبح الآخرون تابعين ، وكيف أن البعض نسي المهمة الأصلية التي سافر من أجلها ليتفرغ للاتصالات واللقاءات الخاصة أملا في تحقيق شهرة أو زيوع ذكر من خلال الاتفاق علي ترجمة أحد أعماله أو التربيط لدعوة جديدة إلى مناسبة أو مؤتمر تتيح له سفرا قادما وخروجا مستمرا بلا نهاية .

يكمل هذا الأمر ويساعد في إحكام الدور الثقافي الذي يقوم به المثقفون المصريون ـــ في خارج مصر ـــ أن يكون القائمون علي المراكز الثقافية في العواصم العربية والعالمية علي قدر كبير من الوعي والخبرة والمسئولية والقدرة علي التمييز ، وحينما يكون الذين بأيديهم توجيه الدعوة إلى مثقفينا ، مثقفين هم أنفسهم فهذا هو الضمان الأكيد لحسن الاختيار وتحقيق العائد المثمر من وراء هذا الخروج الثقافي . ولقد لمست بنفسي ـــ منذ أيام قليلة ـــ مدي نجاح أحد مراكزنا الثقافية في الخارج وهو المكتب الثقافي المصري في أبو ظبي ـــ التابع للسفارة المصرية في دولة الامارات العربية المتحدة ـــ في القيام بدور بارز وجهد ثقافي كبير أصبح يستقطب نخبة المجتمع فضلا عن مثقفيه وأدبائه ومفكريه ومبدعيه . ولم يصبح الأمر غريبا حين عرفت أن مستشارنا الثقافي في أبو ظبي ورئيس هذا المكتب هو في الأساس أستاذ جامعي ومثقف جاد هو الدكتور طارق عبد العظيم الذي نجح في أن يضفر من الخيوط وأن يقيم بين المكتب الثقافي المصري ومجتمع أبو ظبي ودولة الامارات من العلاقات الوثيقة والجسور القوية الراسخة ما أضفي علي الدور الثقافي له احتراما واهتماما ومتابعة ، ورغبة حميمة في المشاركة والحوار مع ضيوف المكتب الثقافي المصري في ندواته ومحاضراته ومجالسه ، علي امتداد شهور العام ، كما نجح في أن تكون مجلة المكتب الشهرية سجلا حافلا بكل ما يقوم به المكتب الثقافي من نشاط دائب في المجالين الثقافي والتعليمي ، فضلا عن كونها وسيلة متاحة لروبط المصريين في دولة الامارات بكل ما يحدث في وطنهم ، خاصة في مجالات الثقافة والحضارة والعلوم والفنون ، ودعم أواصر الأخوة والتعاون بين الشعبين الشقيقين في مصر والامارات . ولا يفوتني أن أنوه بأعداد المجلة الخاصة عن الانتفاضة والقدس ورحيل الشاعر سلطان العويس صاحب مؤسسة العويس الثقافية التي نال جوائزها مبدعون ومثقفون وأدباء مصريون عديدون .

ولم يكن لهذا المكتب الثقافي المصري في أبو ظبي أن يبلغ هذه الدرجة الكبيرة من النجاح ولا أن يتاح لرئيسه الدكتور طارق عبد العظيم ـــ المستشار الثقافي المصري في سفارتنا بأبو ظبي ـــ هذا القدر الواسع من حرية الحركة والقدرة علي التخطيط والانجاز

لـولا الـدعم الكامـل والمساندة الواعيـة مـن سـفيرنا في دولـة الامـارات الـذي يعـد نموذجـا وقـدوة لـسفرائنا في الخــارج ـــ الـسفير محمـد عبـد المـنعم الـشاذلي الـذي يمتلـك مـن الـوعي الثقـافي المـستنير والـذوق الأدبـي المرهـف ممـا جعلـه يـؤازر ويـدعم جهـود المستـشار الثقـافي ، مـدركا بأنهما معـا يمـثلان وجـه مـصر الثقـافي في الخـارج ، ويحرصـان معـا علـي زيـادة فاعليـة وتوسـيع أبعـاده وتأكيـد جـوهره واشـعاعه ، وهـو مـا أصـبح بالفعـل حـديث المجـالس والمجتمعـات الثقافيـة في أبـو ظـبي ، كمـا أصـبح سـببا للمطالبـة بافتتـاح مكتـب ثقـافي مـصري آخـر ـــ تـابع لمكتـب أبـو ظـبي ـــ في الـشارقة أو دبـي ، يحمـل بعـض العـبء عـن المكتـب الرئيـسي في أبـو ظـبي ، ويكـون بحكـم الموقـع أقـرب إلى الامـارات البعيـدة نـسبيا عـن أبـو ظـبي مثـل دبـي والـشارقة وعجمـان وأم القـوين الـتي تمتلـيء بـألوف مـن أبنـاء الجاليـة المـصرية يحتـاجون إلى المكتب الثقافي في معاملاتهم شبه إلى ومية خاصة في مجال التعليم .

ويقودنـا الحـديث عـن المكتـب الثقـافي المـصري في أبـو ظـبي إلى المعهـد المـصري للدراسـات الاسـلامية في مدريـد وهـو واحـد مـن انجـازات طـه حـسين العظـيم ، وتحقيـق لرؤيتـه الثقافيـة الثاقبـة المتمثلـة في ضـرورة ربـط الثقافـة العربيـة في مـصر بنظيراتهـا في اسـبانيا بكـل تراثهـا العربـي والاسـلامي . ويقـول العـالمون بمـا كـان يفكـر فيـه طـه حـسين ان فكـره لم يكـن مقـصورا علـي معهـدنا في مدريـد وانمـا كـان معهـد مدريـد ـــ الـذي افتـتح منـذ واحـد وخمـسين عـام ا ـــ الحلقـة الأولـي في سلـسلة مـن المراكـز الثقافيـة يخطـط عميـد الأدب العربـي لا فتتاحهـا في عـدد مـن البلـدان خاصـة تركيـا وايـران ، باعتبـار أن اللغـتين والثقـافتين التركيـة والفارسـية تفاعلتـا وتحاورتـا مـع الثقافـة العربيـة طيلـة قـرون عـدة ، وظلـت الثقافـة الاسـلامية تغـتني بهـذه التنوعـات الفارسـية والتركيـة كمـا اعتنـت بـالتنوع الاسـباني علـي مـدار هـذه القـرون ، ولقـد نجحـت تجربـة المعهـد المـصري في مدريـد ، وآتـت ثمارهـا المرجـوة طيلـة نـصف قـرن ، وآن الأوان للعـودة إلى فكـر طـه حـسين ورؤيتـه الثاقبـة ، الـتي لـو تحققـت في أوانهـا ـــ ولم تتوقف بعـد أن تـرك طـه حـسين وزارة المعـارف ولم يعـد مـسئولا في الدولـة بعـد قيـام ثـورة يوليـو ـ لـو تحققـت لكـان لعلاقاتنـا الآن مـع كـل مـن ايـران وتركيـا جـوهر ثقـافي مختلـف ، ولبقيـت هـذه الخيـوط الثقافيـة ـــ المـشدودة في سـياق ثقافـة اسـلامية عريـضة وباسـقة ـــ تظلـل العلاقـات المـصرية الايرانيـة والمـصرية التركيـة ، ولقـام هـذا المركـز أو المعهـد المـصري للدراسـات الاسـلامية في تركيـا ـــ علـي سـبيل المثـال ـــ بالمحافظـة علـي الهويـة الثقافيـة الاسـلامية في تركيـا ، مقارمـة انـدفاعها إلى التغريـب وفقـدان هويتهـا الأولـي ، ووقوفهـا كمـا هـي الآن لا هـي بالـشرقية ولا بالغربيـة ، بعـد أن تحولـت مـن النقـيض إلى النقـيض ، وأدارت ظهرهـا لدورها الأساسي القديم .

في خـضم هـذا كلـه ، لا بـد مـن التنبيـه إلى مـن أصـبحوا يقومـون بـدور الـوكلاء والمـروجين لـبعض هـذه المراكـز والمؤسـسات الثقافيـة ، بعـد أن تخصـصوا طيلـة الوقـت في نـشر

ما يتصل بها والاعلان عنها والترويج لدورها مقابل أن تتضمنهم باستمرار قوائم الدعوات المعلنة وغير المعلنة لهذه المراكز والمؤسسات والهيئات بل لقد أصبح بعض هؤلاء ـــ ممن توطدت أواصر علاقاتهم ومصالحهم المشتركة مع هذه الجهات ـــ يقومون بمهام الترشيح والاختيار بالنسبة لغيرهم من المثقفين والمدعين ، وكأنهم الوكلاء الوحيدون في المنطقة الذين يتولون توزيع الغنائم والهبات ، وهناك بالطبع من يسعدون حتي لو كان نصيبهم لا يتجاوز الفتات ، لكنه أفضل من لا شيء . فليقوموا إذن بتقديم فروض الطاعة والولاء لهؤلاء الوكلاء الذين سبقوا إلى اقتناص حق الوكالة ، بكل ما يتضمنه مفهوم الطاعة والولاء من كسر للعين وترويج للزائف ومؤازرة للادعاءات الكاذبة والاعلان عن أدوار وهمية ، والتعمية والتعتيم بالنسبة لمن لا يشاركون في موكب الطاعة والولاء ولا يعترفون بزعامة الأدعياء والأساليب المشبوهة للوكلاء !

إن موسم الخروج الثقافي الذي يعيشه مثقفونا الآن لا يعني ـــ بكل ايجابياته وسلبياته ـــ إلا أن عصرا جديدا من الانفتاح علي الآخر والتواصل معه ـــ بالحور المتكافيء حينا والزائغ حينا آخر ـــ قد بدأ بالفعل ، باعتباره ضرورة ومشروع حياة . فقد عانت حياتنا الثقافية طويلا نتيجة للحصار والعزلة والانغلاق وعدم اتاحة فرص السفر والخروج بأنواعه طيلة عقود من الزمان ، وأنظمة شمولية الحكم . وجاء هذا الاندفاع إلى الخروج بمثابة رد الفعل الواسع للحصار والعزلة ، صحيح أنها لم تكن كعزلة المائة عام التي أبدع في تصويرها مبدع أمريكا اللاتينية الكبير جابرييل جارسيا ماركيز . لكنها أدت بالقطع إلى أسن الماء ، وافتقاد إلى نابيع الجديدة ، ومعاناة الحرمان إزاء كل ما يتفجر بع العالم من حولنا معرفة وابداعا ومغامرات وتجارب . والآن ، ونحن نزاحم بالأكتاف في وليمة العالم ـــ مدعوين وغير مدعوين ـــ فان نماذج عديدة من مثقفينا الذين تجعل منهم مشاركاتهم سفراء ثقافيين يمثلوننا في الخارج ، بالطرق المشروعة وغير المشروعة ، لا يرقون إلى الحد الأدني من شروط هذا التمثيل ، وهو ما يجعل من عودتهم الخائبة المهزومة في نهاية المطاف شبيهة بعودة مصطفي سعيد في رواية الطيب الصالح الرائعة موسم الهجرة إلى الشمال .

تري ، هل آن لموسم الخروج الثقافي ـــ الذي يستثير الآن شهية كثيرين فضلا عن غرورهم ونرجسيتهم ـــ أن يصبح موسما حقيقيا ، موفور الثمار ، مضمون العائد ، بعيدا عن مصيدة العلاقات الشخصية ، والمجاملات الفاضحة ، وتربيطات الوسطاء والوكلاء ؟

هذا هو السؤال !

القسم الثاني

كاتب وكتاب

عفاف أباظة وهمس القلوب

بقلم : فاروق شوشة

ما يزال عطر كتابها الأول زوجي ثروت أباظة وامتلاؤه بفيض من المشاعر الإنسانية النبيلة ، وروح الوفاء الغامرة يفوح وينتشر ، معلنا أن الدنيا ما تزال بخير ، وأن قلما أصيلا من أقلام الأسرة الأباظية ـ التي قرأنا لنخبة من شعرائها وكتابها المبدعين ـ قد بدأ يزاحم في فن الكتابة ـ بعد طول صمت وحياء ، كاشفا عن موهبته واقتداره وتمكنه ، هو قلم السيدة عفاف أباظة التي أتيح لها أب شاعر كبير هو عزيز أباظة ، وزوج أديب كبير هو ثروت أباظة .

وفي كتابها الجديد همس القلوب: سيرة حياة . . سيرة كتابة الذي يضم رسائل من أبيها وزوجها ورسائل أخري فيض جديد من هذه المشاعر ، والمواقف ، والتجارب الحياتية ، واللحظات الحلوة واللحظات الصعبة وفيه أيضا ما يؤكد قيمته باعتباره وثيقة كاشفة عن العلاقة المتبادلة بين أب وابنته ، وزوج وزوجته من خلال لوحات إقليمية بديعة ، ولغة جميلة مرهفة .

وفي تقديمها لكتابها الجديد ـ الصادر عن الدار المصرية ـ اللبنانية تقول عفاف أباظة: هذه الرسائل أرسلتها إلى أبي وأعمامي في مختلف فترات العمر . فحبهم هو الذي تفتح قلبي عليه ، ثم تفتح إدراكي علي الإعجاب بشخصياتهم ، كل علي حدة ، ثم رسائل مني إلى شخصيات شامخة عظيمة ، لها في نفسي مكانة خاصة . وأسميت هذه الحوارات القلمية من القلب إلى القلب أما رسائل زوجي إلى وردي عليها ، فقد ترددت كثيرا في نشرها ، فهي مشاعر جميلة شخصية ، يجب ألا تنشر علي الملأ . ولكن ، بعد طول ترددي أحيانا ، وعزوفي عن النشر ، آثرت أن أعلنها ، وأن أثبت للشباب أن الزواج مهما يطل لا يقتل الحب إذا كان صادقا ، وأن هذه السنوات الطويلة لا تستطيع أن تخمد جذوة الحب المستقرة في أعمق أعماق القلب ، والتي لا تطفئها عواصف الحياة ، ولا تقلبات الأيام .

في أحدي رسائل زوجها ثروت أباظة ـ وهو بعيد عنها وهي بعيدة عنه ، هو في القاهرة وهي في لوزان بسويسرا مع أبيها ـ يقول: من القاهرة . تعودت كلما نويت أن أكتب شيئا ، أن أفكر قليلا قبل أن أكتب ، وبالأمس نويت في نفسي أن أكتب إلىك ، وفكرت فيما سأقوله لك ، وأنا بحسبي أن أعرف أنني سأكتب إلىك ثم لا أفكر . لقد تجاوز حبنا من عمر الزمن الثلاثين عام ا ، والعجيب أنه ما زال كما عرفته منذ وقدته الأولي وكأنه حب الأمس القريب الذي يذكيه الغرام ويشعله الوله ، ويزيد الشوق من

وقدته وجبروتـه كأننـا حبيبـان مقدمان علـي الـزواج ، وكـأن أمينـة ودسـوقي أمنيتـان لنـا ، مـا زالا في علـم الغيـب المحجـب مـن الـزمن القـادم ، وكأنهمـا مـا جـاوزا العـشرين وقارباهـا وكـأنني مـا شـاب شـعري وتثاقلـت خطـاي . وكـأنني مـا أصـبحت هـذا المقـدم علـي سـن الكهولة المتـأخرة ، فحبـك هـو الـشباب الوحيـد الـذي مـا زلـت أحـس بـه قويـا في قلـبي وكيانـا متـدافعا هـدارا ، أحـس بـه الحيـاة أجمـل مـا تكـون الحيـاة ، وكأنمـا أرسـله الله لـي لتعتـذر به السنوات عما تصنعه السنوات .

وصـل إلى منـك خطابـان ، وقـد سـررت بهمـا جـدا لا نـني شـعرت حقـا أنـك مـسرورة ، فأنـا أسـتطيع أن أعـرف مـن جـري قلمـك علـي الورقـة مـا تخفـين نحـن ثلاثتنـا كمـا تحـبين أن تجــدينا ، وأمينــة (ابنتهمــا) تعــتني بــي عنايــة فائقــة وتحــرص ألا تغــضبني ، ودسـوقي (ابنهمـا) طبعـا مـع أمـيرة أحلامـه في العيـد ، وهـو بـصحة جيـدة والحمـد لله ، وجميـع مـن هنـا بخـير . وأنـا كمـا تريـدين لـي وكمـا تريـدين في عهـدي بنفـسي وعلـي عهـدي لك . قبلاتي إلىك بلا نهاية ولا عدد كحبي .

وحـين تجيبـه علـي رسـالته تقـول: لـوزان . وصـلتني رسـالتك الآن ، وقـد فرحـت بها كالأطفال .

فلـم أكـن أعـرف أنـك مـا زلـت تحمـل لـي كـل هـذا الـود وكـل هـذه المـشاعر . ولعـل هـذه المـشاعر الحلـوة هـي الـتي تـساعدنا علـي تحمـل تبعـات الحيـاة . وفي نظـري أن أجمـل شيء في الوجـود هـو أن يحـس المـرء أن لقلبـه قلبـا يخفـق لـه ، وأن لروحـه روحـا تتلـهف عليـه ، وإلا فـلا كانــت الحيــاة ولا كانــت الأيــام ، سـعدت جـدا بأخبـار العمـل الجديـد ، ولا يــسعني إلا أن أدعــو أن يوفقـك الله في كـل مــا تــسعي إلىــه مــا دمــت تــصون ودي وترعــي غيبتي . كيف حال الأطفال ، والمدرسة ! . . الخ

في ثنايـا الكتـاب صـورة بديعـة لعـصر جميـل مـن العلاقـات الأسـرية والإنـسانية ، وأصـداء لا حـداث تاريخيـة واجتماعيـة وفنيـة وأدبيـة ، وكـشف عـن خبايـا في تـاريخ مـصر الحـديث والمعاصـر لم يلتفـت إلىهـا المؤرخـون ، منهـا علـي سـبيل المثـال إشـارات إلى طبيعـة علاقـة عزيـز أباظـة بـالرئيس جمـال عبـد الناصـر ، وعلاقـة ساسـة مـصر الكبـار ـ قبـل الثـورة وبعـدها ـ بعـضهم بـبعض ، وعلاقـة أبنـاء الأسـرة الأباظيـة بكـوكبي زمانهمـا: أم كلثـوم ومحمـد عبـد الوهـاب ، ورسـم بالكلمـات لعـدد كـبير مـن الشخـصيات الـتي أصبحت رمـوزا في تـاريخ مـصر الحـديث ، وتـأملات عميقـة في الحيـاة والنـاس ، وفي تغـير الأحـوال جـيلا بعـد جيـل ، وعلاقة هذه الأجيـال بعـضها بـالبعض الآخـر ، ومـاطرأ علـي منظومـة القـيم مـن خلـل وتغـير ، وانعكاس هذا كله علي العلاقات ، والسلوك الاجتماعي ولغة الحوار عند الشباب .

هـذا كتـاب زاخـر بأصـداء الـزمن الجميـل ، تقـتحم بـه صـاحبته مجـالا جديـدا في كتابـة الـسيرة المـضمخة بعبـق التـاريخ ، كمـا اقـتحم أبـو هـا الـشاعر الكـبير عزيـز أباظـة آفـاق الابـداع الـشعري ـ ذات يـوم ـ حـين أصـدر أول ديـوان في الـشعر العربـي عـن زوجتـه الراحلـة وقـد نجحـت عفـاف أباظـة ـ الابنـة والزوجـة الكاتبـة ـ أن تجعـل مـن كتابهـا بالفعـل سـيرة حياة وسيرة كتابة .

هوامش من القلب

بقلم: فاروق شوشة

هذا هو عنوان الديوان الجديد الذي صدر للمبدع الكبير والناقد الكبير الدكتور عز الدين إسماعيل في يوم رحيله ، فلم يتح له رؤية الديوان ، الذي لولا اصرار صديقه المقرب الأثير الناقد الدكتور محمد عبد المطلب ـ المشرف علي سلسلة أصوات أدبية التي تصدرها هيئة قصور الثقافة ـ وملاحقته له حتي يقنعه بنشر الديوان ، لما رأي النور ، ولما سعد قراؤه بلفح وهجه الابداعي ، بالرغم من أحزان الفقد والغياب .

هذا الديوان له قصة طويلة تسبق نشره بأكثر من عشرين عام ا ، حين عهد صاحبه إلى الشاعر الراحل سعد درويش بجمع قصائده من مصادر شتي ، وكان يعمل مستشارا للنشر في هيئة الكتاب حين كان الدكتور عز رئيسا لها ، ثم فقد الديوان بوفاة سعد درويش ومرور الأعوام وإحجام الدكتور عز ـ الذي كان يسيطر عليه وعيه النقدي ـ عن نشره ، وأذكر أننا سألناه عنه ـ الشاعر الكبير محمد إبراهيم أبو سنة وأنا ـ وكنا ضمن وفد من الشعراء المصريين المشاركين في مهرجان ستروجا الشعري بيوجوسلافيا السابقة يضم الشاعرة الراحلة ملك عبد العزيز ، وكان معنا الشاعر سعد درويش وكان رد الدكتور عز رئيس الوفد بأن قصائده بين يدي سعد درويش الذي كان وقتها بمثابة ذراعه إلى مني في هيئة الكتاب والمسئول الاول عن نشر الشعر فيها . ودارت الأيام ورحل سعد درويش ورحل عز الدين وبقي من بعدهما هذا الشعر البديع الأنيق الذي لا يزال يحتفظ بنضارته ونضارة شباب صاحبه فيه منه رجولته وكبرياؤه ونضجه واكتماله ، وفيه تألق شاعريته وانسياب نفسه الشعري في تلقائية وعفوية نادرتين علي عكس ما نجد في شعر الأساتيذ والنقاد من صنعة أو اصطناع ، وفيه ما يدل علي الوعي النقدي المستتر لصاحبه المتمثل في احكام بناء القصيدة ، ومنطقها الفني الحتمي ، ونجاتها من النثرية والترهل والانذياح ومن انعدام توقع النهاية التي تضفي علي القصيدة كلها ظلالا من المعني والدلالة ، وهو الأمر الذي بلغ تمامه وكماله في ديوانه دمعة للأسي . دمعة للفرح الذي يقدم في إبجراماته لوحات شعرية تعتصر القلب والعقل ، وتجمع في قبض حجمها ـ القليل الأسطر ـ الكثير من الإيحاءات والظلال والصور ، فضلا عن امتلائها بحس السخرية ، والكوميديا السوداء فيما يشبه الهجائيات النقدية الاجتماعية ، والاشارات إلى بعض النماذج من حولنا ، وهم في حقيقتهم أقزام وكذبة ومدلسون ومدعون . في ديوانيه المختلفين ـ مذاقا ولغة وتوجها وبنية شعرية ـ يقدم لنا عز الدين إسماعيل حقيقته الشعرية في وجهيها معا ، وجه الشاعر الرائي الحكيم ، ووجه الشاعر المغني للحياة ، وهما وجهان متحققان لدي كل شاعر كبير ، لا تخلو حكمته وتأمله من ما ئية الشعر وكيميائه

، ولايخلو تدفقه العاطفي وانسيابه الغنائي من جدلية العناصر وتزاحم الأضداد ، ونفاذ البصيرة الشعرية ، يقول في قصيدة زمن البكارة: لم يكن ذلك العشق وهما ولا كان محض انخداع / كان برعمها صارخا بالمواعيد / كان افتتاح المواسم / واخضرار الرؤي في زمان الطفولة / كان معزوفة النور في منبت الفجر / في شقشقات الندي في انتفاض العصافير في وكرها / تستهل أناشيدها البابلية / كان أولي انبثاقات صبح فضيض التلاوين بكر المرائي / كان في وشوشات الحجارة فاتحة الأبجدية / كان لحن البداية / كان بدءا وكان الغواية .

سوف يدرك قراء هذا الشعر حجم موهبة صاحبه وأصالة شاعريته وسيعرفون السر في تميز كتاباته النقدية عن الشعر والشعراء ، لا نه كان يكتب عن فنه الأثير بشفافية شاعر واع بأساليب الشعرية ، مشارك فيها من داخلها وليس من خارجها ، وسيدركون أخيرا ـ لماذا كانت كتابات كثيرين غيره ملأي بالادعاء والعجز ، الأمر الذي تحاول تغطيته واخفاءه بالبلاغات الزائفة واللغة المزدحمة بالحذلقة البيانية ، وليس تحت القبة شيخ أو شيء كما يقولون . في قصيدته لغتي يقول عز الدين إسماعيل:

أخرج من بدني أحيانا كي أنسي لغتي
كي أنفض عن وجهي وسم اللغة الشهوة
اللغة الملعونة
واللغة الملتفة
وأمد خيوطي المنسوجة من زبد الأوهام الأولي
كي أدخل في طقس اللغة المنسية
لغة الماء
ولغة العشب / ولغة الأحراش البرية
أدخل في زمن العشق الأول والآفاق النورانية
كي أسبح في نهر الغبطة
وأحلق في بدوات الصحو علي سرر النشوات القدسية
أنحل أثيرا في بستان الكون

شعاعا في قزح الملكوت (لا أبصر شيئا ، لا أسمع لا أتكلم) ، لا أرضي / لا أتمرد / لا ألتذ ولا أتألم / لا أتفاءل / لا أتشاءم / لا أفرح / لا أحزن / لا أتجلد / لا أركب خيل العصيان

ولا أندم لا أخلق أو أتجود
أصبح فاصلة في لغة المطلق
أصبح لغة لا تسمع أو تنطق

عندما يصبح مثل هذا المبدع الجميل ناقدا للشعر ، فلابد ان يكون لنقده طبقته ومستواه ، ولكتابته جوهرها وتوهجها ، ولوجهيه معا : المبدع والناقد تكاملهما البديع وأفقهما العالي وطرازهما الرفيع .

شكر واجب

أستأذن القراء في أن أتجه بهم إلى العالم والمثقف والانسان الدكتور محمود سليمان أستاذ طب العيون الذي منحني بصرا جديدا ورؤية جديدة بفضل العملية الجراحية التي شاركت فيها عبقريته الطبية وأنامله المرهفة ، فحولتها إلى نزهة جميلة ، الشكر العميق له ولمستشفي دار العيون الذي من واجبي أن أفاخر به كمصري يعتز بمصريته وبكل صرح طبي يؤكد عظمة مصر وريادة العديد من أبنائها المخلصين .

من حديث العشق والمحبة

بقلم : فاروق شوشة

نخطو خطوة جديدة في طريق الكشف عن مضمون هذا الكتاب البديع : عطف الألف المألوف علي اللام المعطوف الذي ألفه الصوفي السني أبو الحسن الديلمي ، وقام بتحقيقه العالمان الدكتور حسن الشافعي الاستاذ في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة وعضو مجمع اللغة العربية والرئيس السابق للجامعة الإسلامية في إسلام آباد ، والدكتور جوزيف نورمنت بل رئيس قسم اللغة العربية بجامعة برجن بالنرويج ، وصدر عن دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ، ونتوقف عند الابواب التي يتحدث فيها المؤلف عن صفة العشق وكيفيته وقول أهل الأدب فيه وقول العرب ، وعن المحبة المحمودة ، ومقالة التابعين في صفة المحبة والمحبين .

وفي ثنايا الكتاب ومضات أدبية جميلة وإشراقات روحية صافية كالتي نجدها في وصف بعض الأدباء للعشق حين يقول: تواري عن الأبصار مدخله ، وغمض في القلوب مسلكه ، فامتنع وصفه عن اللسان ، وعجز نعته عن البيان ، فهو بين السحر والجنون ، لطيف المسالك والكمون . وكوصف بعض الاعراب له بقوله : خفي ان يري وجل ان يخفي ، فهو كامن ككمون النار في الحجر ، إن قدحته أوري ، وإن تركته تواري . ويقول بعض الأدباء في صفته : ذلت له العقول ، وانقادت له النفوس ، فالعقل أسيره ، والنظر رسوله ، واللحظ لفظه ، والتأوه صمته . مستقره غامض ومحله لطيف ، يتصل بأجزاء الفؤاد وينساب في الحركات ، حديثه الهموم وإشارته التنفس ، وإيماؤه الضجيج ، فأول العشق حب ، ثم يتمادي بصاحبه حتي يصير عشقا ، وقد يعشق الإنسان من لا يدانيه في الجمال والكمال ، وان سألوه عن حجته لم تقم له حجة غير قول القائل: حبك الشيء يعمي ويصم .

وسئل بعض الأعراب عن العشق فقال: هو أغمض مسلكا في القلوب من الروح في الجسد ، وأملك بالنفس من النفس ، بطن وظهر ، ولطف وكثف ، فامتنع وصفه عن اللسان ، فهو بين السحر والجنون ، لطيف المسلك والكمون ، ثم انشأ يقول:

خليلي قولا في الهوي إن علمتما
كقولي ، وإن لم تعلما فسلاني
أكان الهوي في القلب أم جلب الهوي
علي القلب طرف من عيون قيان
وأيهما رقي إلى الأخير الهوي

وأيهما البادي بما تصفان
فإن قلتما قلب بدا ، قلت: ما بدا
وان قلتما طرف فما بدياني
ولكن ، هما روحان ، يعرض ذا لذا
فيعرف هذا ذا ، فيأتلفان
وسئل بعض العشاق من بني عذرة:

لم غلب العشق عليكم من بين أحياء العرب حتي ليموت أكثركم بالعشق ؟ فقال: لا ن نساءنا أجمل نساء العرب ، ورجالنا أعف رجالها .

ويعرض الكتاب لمقالة الصوفية في صفة المحبة ، وكيف ان المحبة عندهم ضربان: طبيعي وإلهي ، ومن الطبيعي نرتقي إلى الإلهي ، وإذا لم تتهيأ نفس المحب لقبول المحبة الطبيعية لم تصلح للإلهية فإذا أراد الحق أن يبلغ عبد ا من عبيده إلى مقام المحبين ، وإلي نعت الروحانيين ، هيأه لها بأن يلطف تركيبه ، ويرقق طبعه ، ويمازج روحه ان يحبه ، فحينئذ يقبل المحبة إذا صار فيها .

ويمضي الكتاب علي هذا المنوال ، تعرض صفحاته في يسر وألفة لهذه النقول التي يتوهج فيها الحب الإنساني والإلهي ، وحديث الأدباء والشعراء في مقابل حديث أهل التصوف والعشق الإلهي ، وتعقيبات المؤلف علي ذلك كل من واقع الخبرة والمعرفة ، موثقة بالرأي والحجة والدليل ، فهو - في جوهره - سياحة روحية ، ومأدبة حافلة ، لمن شاء أن يرطب حر صيفه وقيظه بسطور من الأدب العالي ونماذج من الشعر البديع ، فضلا عما يملأ الكتاب من استشهادات قرآنية ، ومن أحاديث نبوية ، ومن أقوال للتابعين وتابعي التابعين . وقد قام المحققان بجهد هائل في فهارس الكتاب التي شملت الآيات القرآنية والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية والابيات الشعرية ، والاعلام ، والأماكن والبلدان والاقوام ، والألفاظ والعبارات الاصطلاحية ، بالاضافة إلى فهرس المراجع والموضوعات .

وللمحققين الكريمين الشكر الجميل علي هذه النفحة الادبية الصوفية التي نستروح مرياها في هذا الصيف الثقيل ، نتذكر أجواء المحبة ولغتها ، وتبتعد عما تمتلىء به الحياة فيما حولنا ، من قبح ودمامة ، وصراع وكراهية . لعل شيئا من حديث المودة والصفاء يغسل النفوس ، ويجلو صدأ الارواح ويجدد فينا حب الحياة .

صبري العسكري . . بين المواجهة والكبرياء

بقلم : فاروق شوشة

يهديني الصديق الكريم صبري العسكري الطبعة الثانية من كتابه قيود محطمة - الصادرة عن الدار المصرية اللبنانية - متفضلا بهذه الكلمات : يسعدني إهداء هذه الطبعة الثانية من كتاب نشرته عام ١٩٥٤ م وقت أن كنت طالبا ، وقد ترسمت به خطا لمسيرتي لم أغيره حتي الآن . تري هل أخطأت ؟ أفدني أفادك الله ! .

والاجابة عن هذا التساؤل ، وما يعنيه نشر كتاب سبق نشره منذ أربعة وخمسين عام ا ، تأتي في سياق كلمات لصبري العسكري نفسه وهو يقارن بين مذكرات الدكتور محمد حسين هيكل باشا التي نشرها ورثته بعد أن ظلت حبيسة طيلة أربعة وثمانين عام ا ، ورواية قصيرة له عنوانها دنيا غير الدنيا نشرتها جريدة الأهرام في شهري أكتوبر ونوفمبر عام ١٩٨٢ ونشرت في كتاب عام ١٩٨٤ وترجمت إلى الفرنسية عام ١٩٩١ . فقد أدهشه التطابق بين العملين الأدبيين في الرؤي والمواقف والمقولات ، واقعا وفكرا وعقيدة ، واكتشف بعد طول تأمل ومقارنة أن التطابق ما كان ليكون إلا لا ن المجتمع المصري بقي - في الأغلب الأعم ، وفيما يتصل بالموقف الحضاري - يراوح موقفا ثابتا علي مدي ما يقرب من ما ئتي عام . ومعني ذلك أن حركة التنوير في مواجهة القوي المحافظة لم تكن بالقدرات الكافية لحسم الصراع لحسابها ، إذ كانت تميل إلى التجزر ، بينما كانت القوي المحافظة أشد تماسكا وأكثر تنظيما ، فضلا عن افتقار العاملين من أجل التغيير للجسارة .

إذن فنشر هذه الطبعة الثانية معناه أن الدنيا لم تتغير . وأن القصص الاجتماعية الواخزة التي نفخ فيها قلم صبري العسكري من وعيه السياسي الملتهب وسخريته اللاذعة وتحليله الطبقي النافذ ، ما تزال تحمل حرارة كتابتها وملامح شخصياتها ومرارة مصائرهم وعمق معاناتهم . لقد أتيح لصبري العسكري فضاء أدبي واسع ومزدحم ، تنقل فيه من مكان إلى مصر ، علي مستوي مصر والعالم ، والتقط فيه من الوجوه والأحداث والمواقف والأفكار وبوح البشر ، ما صاغ منه دورته الكاملة حول الوطن ، جسدته طبيعته المتأبية علي الانكسار ، الحريصة علي زهو الكرامة وشرف الموقف فإذا به في كل كتبه وكتاباته : قيود محطمة (مجموعة قصصية) ، واللعبة التي انتهت (رواية) ، ودعوة إلى الحب (رواية) ، والملهي الليلي (رواية) ، ودنيا غير الدنيا (مجموعة قصصية) ، وصوت ولا صدي (مقالات وأحاديث) ، ونزار قباني والثورة العربية (دراسة) ، ويا قلب لا تحزن (مقالات) ، وكلمات في النقد والسياسة (مقالات أدبية وسياسية) ، وخمسون عام ا بين الأدب والمحاماة (سيرة

حياة وحوار) ، هو في كل هذه الكتابات يكشف عن هويته النقدية ، التي تذكرنا ببصيرة الناقد الكبير الراحل رجاء النقاش النقدية عندما قارن في كتابه قصة روايتين بين وليمة لا عشاب البحر لحيدر حيدر وذاكرة الجسد لا حلام مستغانمي . أما صبري العسكري فيكتب دراسته البديعة المطولة عن الاستنساخ والنقد لا ادبي مقارنا بين عمارة يعقوبيان ومسرحيات نعمان عاشور في كتابه كلمات في النقد والسياسة ، مقدما درسا في النقد التحليلي المقارن .

وصبري العسكري المولود في عزبة العساكرة مركز إيتاي البارود بمحافظة البحيرة عام ١٩٣٠ ، النازح إلى المدينة بعد أن فقد أبو ه عقب ميلاده كل فدادينه التي لا تتجاوز أصابع إلى دين ، وفي مقهي المسيري بدمنهور كانت الحلقة الأدبية التي ضمته مع أمين يوسف غراب ومحمد صدقي ، ثم من بعدهم: عبد القادر حميدة وفتحي سعيد وعلي شلش وغيرهم ، ونشرت أولي قصصه في عام ١٩٤٨ ، وظل يكتب باسم مستعار هو صفية فريد وصفية فريد العسكري ، في صوت الأمة والفن وروايات الأسبوع والنداء والزمان ، والقصة والعزيمة والصباح وغيرها . وفي القاهرة يسطع اسمه محاميا مرموقا ، ومستشارا قانونيا ـ علي مدي سنوات ـ لا تحاد الكتاب ، ينافح عن حريتهم ويدفع عنهم ما تعرضوا له ـ في ظل الحكم الشمولي ـ من اضطهاد ومعاناة . ها هو ذا يعود الآن إلى دوره الطليعي في عالم الكتابة الأدبية ، من خلال آثاره القصصية ولوحاته النقدية ، وما يزال في جعبته الكثير حتي يعكف علي كتابته ونشره ، قبل أن يتسرب من ثقوب الذاكرة ، ويكفيه أن قارئه يعرفه جيدا ـ أينما نشر ـ بكتاباته المفعمة بنبل مواقفه الانسانية والشجاعة ، المغموسة في مداد الصدق والترفع والكبرياء .

تحية لبهاء طاهر

بقلم : فاروق شوشة

بروايتـه البديعـة ، والمفزعـة واحـة الغـروب يعـزف بهـاء طـاهر الحركـة الأخـيرة في سـيمفونيته ، أسـطورته ، عـن الـوطن ، الـسارية والممتـدة في شـرايين كتاباتـه القصـصية والروائيـة بـدءا مـن بـالأمس حلمـت بـك وأنـا الملـك جئـت وشـرق النخيـل وخـالتي صـفية والـدير والحـب في المنفـي وصـولا إلى الواحـة الـتي تتنازعهـا صـراعات أبنائهـا الـشرقيين والغـربيين ، وتـدمرها عـادات وتقاليـد وطقـوس لهـا فعـل الـسحر وسـطوته وجبروتـه ، ومـصائر مجهولـة تكشف عنها نبوءة الفن الرائي والمستشرف ، فن بهاء طاهر .

وفي واحـة الغـروب ، كمـا في كـل كتابـات بهـاء طـاهر ، اللغـة الخاليـة مـن كـل زخـارف البلاغـة ، العاريـة مـن كـل تزويـق أو حـشو أو فـضول ، المفعمـة بكيميـاء البـساطة الآسرة ، النافذة حتي النخاع ، والموغلة في الطبقات العميقة من الحس والوجدان .

والتـاريخ ، لـيس فقـط بوصـفه متكـأ معرفيـا يجيـد بهـاء طـاهر اسـتخدام مفرداتـه وعناصـره ، وإعـادة تـشكيله وإيجـاد الـوعي الجديـد بـه ، وإنمـا بهـذا الكـون مـن اللوحـات المزدحمـة بـالوجوه والشخـصيات والأحـداث والمواقـف ، تهزنـا بغرابتهـا وألفتهـا في الوقـت نفـسه ، بتـشتت مـصائرها وتوحـد قـدرها التراجيـدي الواحـد ، فـضلا عـن أزمنـة متداخلـة ومـصالح ونـزوات وشـهوات ورغبـات وأطمـاع ، في نـسيج حـي تـضفره كـف مبـدع صـناع محققـا جوهر الانتماء العميق للوطن ، من غير صراخ أو زعيق أو جلجلة شعارات .

بهـاء طـاهر ـ وهـو في شـرف الانتمـاء وزهـوه ـ لا يتـاجر بـه أبـدا ، ولا يـزاحم في سـوق البـاحثين عـن الكـسب والعائـد الفـوري أو المؤجـل ، ولا يـدعي لنفـسه مـسافة أبعـد في سباق الوطنيـة ولا حقـا أكـبر مـن حقـوق سـائر النـاس . لـذا فـنحن نـصدقه ، ونتمـاهي معـه ، مـن غـير أن نحـسبه علـي فئـة ، أو نـصنفه ضـمن جماعـة ، لا نـه ـ وحـده ـ فئـة ، ولأنـه ـ بذاته ـ جماعة ، ولأنه صوت عصرنا الروائي بلا جدال .

هـل نـسميها أدب المواجهـة مـع الـنفس ، تلـك الكتابـات النـادرة الـصفاء والعذوبـة والتميـز ، تـضعنا أمـام أنفـسنا في مرآتهـا الـصقيلة لنـري حقيقتنـا وملامحنـا وحجـم انتـصاراتنا وانكـساراتنا ، قبـل أن تنقلنـا المواجهـة إلى معرفـة الآخـر ، مـن خـلال اقـتراب حمـيم غـير مغـرض ، بـدون أحكـام قاطعـة مـسبقة ، نفهمـه ونقيمـه ونزنـه الـوزن الـصحيح ، ونـضعه في موضـعه مـن الـوعي الكاشـف دون غطرسـة أو عقـد أو ثـارات ؟ أم هـل نـسميها أدب التخليـة والتحليـة ـ بلغـة المتـصوفة ـ وإن كانـت لا تخلـو مـن مـس صـوفي ينـسرب في بنيتـه التحتيـة طيلة الوقت التخليـة مـن أوضـار زمـن وتـاريخ ، وسوءات تراكمـت علـي مـدار مواقـف وأحـداث

، وبأيـدي صـانعي ألعـاب وواضـعي قـرارات ، والتحليـة بقـيم الحـق والعـدل والخـير والجمـال ، الـتي تنطـق بهـا كتابـات بهـاء طـاهر في دائـرة عالمـه الإبـداعي ودائـرة عالمـه النقـدي والفكـري أيضا ، وهما دائرتان متداخلتان لا تنفصلان .

لقـد أبحـر بهـاء طـاهر ـ وحـده ـ منـذ زمـان طويـل ، حـاملا شـراعه : قلمـه النبيـل ، كان يجافينـا ليعرفنـا بلغـة صـلاح عبـد الـصبور ، وكنـا معـه وفيـه دومـا في غربـة المنفـي البعيـد ثـم في عـذابات المنفـي القريـب ، وهـو يـسكب زهـرة العمـر علـي مـدارج الغـربتين . غـير أن الـسنوات الـتي ظنهـا الـبعض تتبـدد كالـشظايا ، كانـت ـ برغمـه ـ تتلاقـي وتتجمـع في سـبيكة ذهبيـة مـن الفـن الجميـل والإبـداع الرائـق ، وهـو يبـدع أسـطورته عـن الـوطن ، لوحـة بعـد لوحة ، ومشهدا بعد مشهد ، مزيجا من الواقع والحلم والتاريخ والأسطورة .

وهـو في روايـة واحـة الغـروب الـتي تتـوج رحلتـه مـع الإبـداع ، وتقـدم نبوءتهـا الكاشـفة المنتزعـة مـن ثنايـا واقـع مرعـب ، محلقـة برموزهـا ـ الـتي تغـادر الواقـع وتجـاوزه ـ مـشبهة عالمـا مـن النـذر المخيفـة والمزلزلـة ـ يـدعونا بلغـة الفـن إلى التأمـل العميـق في مـصير الواحـة الـتي تنـسدل عليهـا ظـلال الغـروب ، وتتهـدم حـصونها وقلاعهـا ومعابـدها ، وتتنـاثر حجارتهـا في كـل اتجـاه ، فهـل نـصنع منهـا أحجـار بنـاء جديـد ، سـلم جديـد ، قـادم ؟ . . أم أنهـا ستـستخدم ـ كمـا قـال بهـاء طـاهر في ختـام كلمتـه علـي هـامش الروايـة ـ في بنـاء سـلم جديد لقسم الشرطة وفي ترميم مسكن ما مور الواحة ؟

إن عـصرا جديـدا مـن الإبـداع الروائـي نـشهد إلى وم تجلياتـه علـي اتـساع الـساحة العربيـة ، علـي أيـدي الجيـل الـذي ينتمـي إلى ه بهـاء طـاهر ، ويقـوم فيـه بـرأس الحربـة ، اقتحامـا هادئـا ـ دون جلبـة أو ضـجيج ـ لفـضاءات إنـسانية وحـضارية ورمزيـة ، وقـيم فنيـة تتجاوز التشنج والترهل ، وعشق الذات ، وصولا إلى بهاء الجمال ، وروعة الجلال .

مصر في عيون كويتية

بقلم : فاروق شوشة

ما أكثر الكتابات التي أبدعتها أقلام عربية ، تحمل عطر المحبة والوفاء ، والتقدير لمصر . كثير من أصحاب وصاحبات هذه الأقلام أتيح لهم ان يعيشوا في مصر ، وأن يتعلموا فيها ، وأن تتكون شخصياتهم العلمية والثقافية والأدبية في حضنها ، باعتبارها الأم الكبري التي رعت ألوف الأبناء العرب علي مدار عقود طويلة من الزمان ، كانت فيها بلادهم تمد يديها إلى مصر متطلعة إلى دورها الريادي في مجالات الفكر والثقافة والفنون والتعليم ، وبخاصة التعليم الجامعي .

من بين هذه الأقلام المنصفة والحافظة للجميل ، والمنتمية إلى مصر - باعتبارها وطنا ثانيا - قلم الباحثة الكويتية الدكتورة دلال الزبن ، التي أتيح لها ان تحصل علي الماجستير من كلية الآداب بجامعة الاسكندرية من قسم الاجتماع والأنثروبولوجيا ، ثم علي الدكتوراه من قسم الاجتماع في كلية الآداب بجامعة عين شمس ، والتي عملت في جامعة الكويت مسئولة في مكتبة الجامعة ، ثم بالتدريس في الجامعة ، قبل ان تستقيل منها ، وتتفرغ للعمل الاجتماعي العام ، وتشارك في مؤسسات المجتمع المدني متطوعة في جمعية الهلال الأحمر الكويتية ، وعضوا في جمعية المعاقين الكويتية ، وفي جمعية الخريجين وجمعية حقوق الانسان ، واللجنة الوطنية لشئون الأسري والمفقودين ، ولجنة توثيق تاريخ التعليم في الكويت ، وهيئة تحكيم العديد من المسابقات والجوائز ، والمجلس الأعلي للتخطيط ، كما شاركت في العديد من المؤتمرات المحلية والعربية والدولية المتعلقة بعمل المرأة وحقوق الانسان والمؤتمرات العلمية . وقد شاركت الدكتورة دلال الزبن زوجها الشاعر والأديب الكبير الراحل أحمد مشاري العدواني - أحد رموز النهضة والتنوير في الكويت - كفاحه وحياته الحافلة والمتلئة ، الأمر الذي منحها خبرة حياتية وإنسانية ضخمة ، وأتاح لها - فيما بعد - أن تكون صاحبة مشروع اجتماعي - علمي وميداني - تجلي في مؤلفاتها العديدة ومن بينها : مفهوم العمل عند المرأة الكويتية ، وأيام القهر الكويتية (معاناة امرأة صامتة) ، والغياب عن العمل (دراسة أنثروبولوجية اجتماعية في مجتمع متغير) وبحث عن توثيق عادات الزواج في مجتمعات الخليج (مركز التراث الشعبي في دولة قطر) . فضلا عن مشاركاتها بأبحاثها المنشورة في المجلات الأدبية والاجتماعية والصحف الكويتية .

في كتابها الجديد رؤي اجتماعية وثقافية الذي صدر منذ عدة شهور - عن دار قرطاس للنشر في الكويت - تقدم الباحثة دراسات جديدة عن المرأة الكويتية والعربية ، ورؤية للتعليم وتطويره من خلال مشاركتها في احتفالية رائد أدب الأطفال كامل كيلاني في

مناسبة مرور ما ئة عام علي ميلاده ، وعددا من الرؤي الثقافية والاجتماعية أبرزها ما كتبته تحت عنوان: مصر الحضن الدافيء وهي تعرض لندوة علمية في مصر ناقشت ميثاقا للقيم بين المثقفين العرب ، وثقافة السلطة ، من خلال تساؤلات عن مشكلات الثقافة العربية ، وماهية التحولات الجديدة ، وامكانية بلورة عناصر لسياسة جديدة ترسم أو تساعد في قيام الثقافة عليها ، ورصدت الباحثة من خلال مشاركتها ـ الدور الذي قام به مفكرون وباحثون مصريون وكويتيون وعرب ، معقبة بقولها: هذه هي مصر التي كانت ولاتزال تحتضن العرب ، فهي الأم الحنون والحضن الدافيء ، بدءا من مساهمة الحكومة المصرية في دفع رواتب المدرسين المصريين الذين أرسوا قواعد التعليم في الكويت منذ بداية عصر التعليم النظامي بها ، كان ذلك في الأربعينيات وبداية الخمسينيات ، ولاتزال تستقطب أبناء الأمة العربية بحنان حتي إلى وم . وفي وقفة مع مكتبة الاسكندرية باعتبارها مفخرة مصر الحضارية والثقافية ، تتناول الباحثة ما عاشته من أجواء مفعمة بالمحبة والاعتزاز من خلال الافتتاح التجريبي لمكتبة الاسكندرية التي تعد أول مركز للبحث العلمي وأول معهد للدراسات الانسانية ، وأول مكتبة للتراث الأدبي والعلمي في العالم باعتبارها أقدم مكتبة أنشأها حاكم مصر بطليموس الأول عام ٢٨٨ قبل الميلاد ، نمت واتسعت لتشمل معارف العالم القديم ، وحوت في أوج مجدها تسعة ملايين من المخطوطات ، واجتذبت أهل الفكر والابداع . ولاتنسي الباحثة أن تشير إلى ما تحويه مكتبة الاسكندرية من مكتبة رئيسية ، ومكتبة للشباب ، ومكتبة للمكفوفين ، فضلا عن القبة السماوية ومتحف العلوم ، ومتحف الخطوط والمتحف الأثري ، ومعمل الترميم ، ومركز المؤتمرات والخدمات الملحقة ، بالاضافة إلى الصالات المخصصة لعرض أعمال كبار الفنانين . هذا كتاب جديد لباحثة كويتية ، يحمل وجدانها عبق الإعزاز والتقدير لمصر: دورا وتاريخا وفكرا وجامعة وثقافة وفنونا ، وهي شهادة منصفة في زمن لم نعد نقرأ فيه لكثير من الأقلام المنصفة والحافظة للجميل .

سلوى الجراح . . و " صخور الشاطئ "

بقلم: فاروق شوشة

حين أصدرت الكاتبة الروائية والإعلامية الفلسطينية سلوي الجراح ـ منذ عام ين ـ روايتها الأولي الفصل الخامس ، توهم البعض أنها قالت في هذه الرواية كل ما لديها ، ولم يعد عندها ما يستحق القول . دفعهم إلى هذا التوهم أن الرواية الأولي تناولت خبايا العمل الإذاعي والمتغيرات في الساحة الإعلامية ، مستفيدة من عملها بالقسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية علي مدي أكثر من عشرين عام ا ، قدمت خلالها ، وأخرجت عشرات البرامج الإذاعية اللامعة والواسعة الانتشار ، واستضافت خلال هذه السنوات أبرز الشخصيات الأدبية والفنية علي امتداد الوطن العربي . وسلوي الجراح التي ولدت في فلسطين ، وتلقت تعليمها في العراق ، استطاعت بطلقتها الروائية الأولي ، أن تؤسس لا بداعها مكانا متميزا في الإبداع الروائي الفلسطيني ، وأن تفاجئ قراءها من جديد بروايتها الثانية صخور الشاطئ التي تسجل نقلة نوعية في علاقتها بالكتابة ، وفي مستويات لغة السرد عبر الرواية ، وفي تصويرها البديع لشخصياتها الشديدة الألفة والواقعية ، وفي الدلالات التي يتوهج بها العمل ، وتجعله مقروءا علي مستويات عدة ، تسمح بالتأويل وتعدد الرؤي . تصف مؤسسة الانتشار العربي رواية سلوي الثانية بأنها صرخة حنين إلى الجذور وتأكيد علي عمقها ورسوخها ، ومحاولة لتحويل شيء من الفكرة المحكية إلى ذاكرة مدونة من خلال أحاديث الأهل ، مع شيء من البحث في الحقائق التاريخية المرتبطة بها ، وهو وصف صادق إلى حد كبير ، يلامس حقيقة الوجع والهم الوطني والقومي ، الذي يجعل من الرواية بكائية طويلة ممتدة ، تتخللها لحظات من دموع الفرح ، وومضات من الأمل والتفاؤل ، لكنها لا تتخلي أبدا عن روح الإصرار والعزيمة الراسخة ، لدي الشباب الذي عاش سنوات الاجتياح والتحول في فلسطين بين عام ي١٩٣٨ ، ١٩٢١ ، وهي الأعوام التي شهدت الهجرات إلى هودية الأولي ، واغتصاب الأرض من الفلاحين ، والتوسع في بناء المستوطنات والكيبوتزات واستغلال غطاء الانتداب البريطاني ـ المتحالف مع الحركة الصهيونية ـ للعمل الإرهابي الذي قامت به التنظيمات إلى هودية ، سعيا إلى إنشاء الدولة في ختام المطاف وفرض الأمر الواقع ، هذه الفترة التي اختارتها سلوي زمنا ومجالا وفضاء لروايتها ، لم تعد تعيها ذاكرة أجيال فلسطينية عدة ، وبالتالي فهي بعيدة كل البعد عن الذاكرة العربية تماما ، التي لم تفق إلا علي صدمة النكبة ـ التسمية الأولي التي ابتكرناها نحن السباقين إلى التسميات ، ردا علي قيام دولة إسرائيل ، من منا يتذكر الآن هبة البراق عام ١٩٢٩ في الخليل ، والشهداء الثلاثة الذين تم اعدامهم في سجن عكا: فؤاد حجازي ، وعطا الزير ، ومحمد

جمجوم ، بعد أن بدأ الانتداب البريطاني في أوائل العشرينيات ، وحركات الشباب ، المتوهج بالثورة والتمرد ورفض الاحتلال ومقاومته إلى هود ، لا تتوقف ولا تهدأ ، الرواية تبدأ من عكا ، مدينة البحر والسور ، كما يصفها بطل الرواية ، وصخورها التاريخية الصامدة ، تستوعب مكنونات الطفولة وذخيرة الحب الباكر ، والأسرة الفلسطينية ـ المتوسطة الحال ـ تتغير أحوالها مع التغير المستمر في أحوال الوطن ، مدا وجزرا ، الأب أنيس والأم فروغ والأبناء خالد ويونس وصفية ورقية وحكمت ، كل منهم له عالمه ، وشجنه الخاص ، لكن الجميع يربط بينهم وتر التماسك الأسري ، وحس الصمود والمقاومة ، والمبادرة إلى المواجهة ، وتصبح آلة العود في يد يونس رمزا لحالة مستمرة من الشجن الفلسطيني ، تتصاعد من خلالها نبرات الغناء والبكاء ، وتمتزج فيها صبوات الواقع بلذع الذكري ، وما تخلفه من حسرة وحنين ، وافتقاد دائم .

هل اختارت سلوي رمز الصخور ، صخور عكا ، عن وعي وإرادة يقظة ، لا نها الأقدر علي البقاء والصمود والاستمرار ، والمستعصية علي التغير والزوال ؟ بالإضافة إلى كونها الحبل السري الذي تتعلق به الأجنة التي أنجبتها عكا ، وتجمعت في كيان هذه الأسرة البطلة ، المنفعم بالأصالة والإنسانية والحيوية ، وما أتيح لها من صداقات وعلاقات وأقاصيص حب ، وبصيص من نزوات ومغامرات !

الرواية لا يمكن تلخيصها ، ولا انتزاع أحداثها ووقائعها من السياق ، لا نها أشبه بالمعزوفة الموسيقية المتصلة ، أو النشيج الداخلي المستمر ، وبالرغم من أنها لا تغفل شيئا مما يدور حولها من أحداث ومواقف وتجارب كبري ، إلا أنها لا تتخلي عن كونها عملا روائيا شديد النعومة والرهافة ، في لغة لا حذلقة فيها ولا ادعاء ، بعيدة عن الاسترسال والترهل ، تقنع باللفتة والإشارة ، وتقول الكثير في الكلام القليل ، وتجعل من الحوار ، الحوار الداخلي والخارجي ، أداتها الأولي في الكشف ، وتطوير الحدث ، والبناء المستمر ، علي أساس صلب من الرؤية والحسم والاختيار .

هل تخلت سلوي عن فضائها الإذاعي والإعلامي في هذه الرواية ! لا أظن .

فالرواية من صفحاتها الأولي حتي الأخيرة (أكثر من مائتين وخمسين صفحة من القطع الكبير) حريصة علي تحقيق لغة اتصال حية مع المتلقي ، قادرة علي الإمساك به حتي الانتهاء منها ، بما تمتلكه من أساليب ووسائل وحيل ، أهمها التنقلات السريعة ، والمونولوج الداخلي ، والإشراقات الشعرية الموحية ، هنا يتجلي تأثرها بقراءاتها في الأدب الانجليزي الذي تخصصت فيه ، وبالعمل الإذاعي الذي أصبح الآن في خدمة إبداعها الروائي الجميل .

يوسف نوفل و " هجرة الطير "

بقلم: فاروق شوشة

أوشكت بعد الانتهاء من قراءة هذا الكتاب البديع ، ان أصيح في وجه عدد من ادعياءالنقد في بلادنا الذين يحاولون الاقتراب من تخوم العالم الشعري ـ وهم يدعون القدرة علي فك اسراره وتحليل شفراته والكشف عن مستويات البنية المعمارية فيه ــ اوشكت ان اصيح فيهم قائلا: اياكم ان تقتربوا من روعة النص الشعري ، ما لم تكونوا شعراء في الاساس ، تمتلكون موهبة الفطرة الشعرية السليمة . والاحساس العالي بالموسيقي والايقاع ، وبطاقة الدخول إلى هذا العالم الثري الحافل ، الذي لم تستطيعوا إزاءه إلا إظهار التعالم الاجوف ، والجمجمة الخاوية الوفاض ، وترديد القوالب او المسكوكات التي هي اعادة انتاج لكليشيهات قديمة بالية ، تحركونها من شاعر إلى شاعر ومن نص شعري إلى اخر ، وكأنها ادوات الحواة الجدد الذين يعرضون بضاعتهم في الطرقات والميادين .

كتابهجرة الطير للناقد الجامعي الجاد الدكتوريوسف نوفل ، يقول لنا هذا واكثر ، ان اي ناقد يفتقد الحاسة الشعرية ـ وهي لا تصنع ولاتستورد ـ عليه ان يتجه إلى فن قولي اخر ، لكن الناقد يوسف نوفل ـ الشاعر المطبوع ، صاحب الخبرة الابداعية الطويلة ـ شأنه شأن نقاد كبارعديدين دخلوا النقد من بوابة الابداع الشعري مثل: عبد القادرالقط ، وشكري عياد ، ومحمود الربيعي ، ومحمد حماسة عبد اللطيف ومحمد عبد المطلب ، واحمد درويش ، وابوهمام ، ويوسف خليف ، و عبد الله الغذامي ، ومحمود امين العالم ، وعلي جعفرالعلاق ، وفتوح احمد ، وسيد فضل ، ومحمد عبد العزيز عبد الدائم وغيرهم عشرات المبدعين في نقد الشعر بدون ترتيب مقصود ، هم الذين يقرأون فيجيدون القراءة ، ويؤولون فيحسنون التأويل ، ويفتحون آفاقا من الجدة والدهشة والاكتشاف ، في كل مرة يعكفون فيها علي حدث شعري ، فإذا بالنص الشعري بعد قراءتهم له وقد اكتنز برؤي لم تخطر علي بال ، وجماليات كشفت عنها ذائقة مدربة ، وخبرة لغوية وفنية عالية .

في هذا الكتاب الجديد: هجرة الطير: من القول إلى التأويل يقدم يوسف نوفل قراءة نقدية ومستوي من التناول والتحليل للنصوص الشعرية ، والاتجاهات الشعرية ، متابعا ومتأملا صورة المشهد الشعري وصورة الشاعر ــ الطائر الحر الجسور ــ في هجرته مغردا او باكيا من عشه الابداعي ، ثم إلى كلمته الحية ، ما ضيا إلى دفء الاستقبال التأويلي الذي يشارك المبدع لذته ومعاناته معا ، وكأنه عائد إلى الحلقة الأولي من النشأة وهي الانعتاق والميلاد لذا ، تتتابع فصول الكتاب وكأنها حبات العقد راصدة حركة الطير قبل انعتاقه عند سليمان العيسي ، ثم القول الشعري: من خلال عتبة القول وعنوانه .

وعتبــة المقــدمات ، وفــضاءالكتابة : البيــاض والــسواد والــشكل والتــأريخ والفهرســة والتبويــب والتــشكل ، والقــول الــشعري في المختــارات والمجموعــات ، وفي تعــدد المهــاجر الادبيــة الحديثــة وتجــددها ، وفي تجنــيس القــول الــشعري ، وفي تأويــل القــول ، و فــن الإبجرامــا عنــد عــز الــدين اسماعيــل وكمــال نــشأت وسمــيح القاســم وعــز الــدين المناصــرة وغيرهــم ، وفي الــسير الذاتيــة للشعروالــشاعر ، وجديــد الــشعر الجديــد بادئــا بمعاصــرة المــشهد البغــدادي في مرايــا الــشعر العربــي المعاصــر ، ومحمــد عفيفــي مطــر واللغــة المغــايرة ، وابوســنة في اغــاني المــاء ، وطعــم جديــد للحلــم لوليــد مــنير ، والتوظيــف التراثــي في شــعر امــل دنقــل وقــبرة الــدم لمحمد احمد حمد الذي رحل اخيرا .

والمتأمــل في الفــضاء النقــدي لهــذا الكتــاب الجديــد ، ســيجد فيــه كمــا وجــدت ـ جهــدا هــائلا في رصــد الظــواهر وتعقــب المــسارات وتــأريخ الاحــداث الــشعرية ، وفي مقابــل هــذا الجهد ســيجد ازدحامــا ضــخما حــرص المؤلــف علــي جمعــه في ســياق واحــد وكــان بعــضه يــستحق الإفراد في كتــب متعــددة ، هــذا الازدحــام يتطلــب مــن الناقــد الــشاعر يوســف نوفــل جهــدا ثانيــا للتنقيــة ، والفكــاك مــن قبــضة التــأريخ إلى الاختيــار ، والوقــوف عنــد الاولويــات حــتي لا يتجــاور مــن الــشعراء مــن لا يــستحقون شــرف المجــاورة ، وهــو أخــبر مــني بــأن رمــزا واحــدا حقيقيــا يكفــي في مجــال الاشــارة إلى ظــاهرة بعينهــا ، افــضل مــن عــشرات الامثلــة الــتي لا تعــد رمــوزا ، وإنمــا هــي بــضاعة متــوافرة في الاســواق ، اعلــم ان حــرص المؤلــف علــي ان يــضمن الكتــاب كــثيرا مــن اســرارخبرته ومجــال ثقافتــه وتعــدد مــصادرإحاطته ، هــو المــسئول عــن هــذه الظــاهرة ، لكــني أريــد تبرئــة كتابــه مــن الحــشد ، والتجميــع ، لــيخلص للــنفس النقــدي الاصــيل ، والتنــاول المرهــف ، الــذي هــو سمــة يوســف نوفــل في كتبــه ودراســاته خــصوصا في مجلداتــه الخمــسة عــن الابــداع والتــأليف الــشعري ، وكتابتــه الرائــدة عــن استــشفاف الــشعر ونقد النص الشعري واصوات النص الشعري .

إبراهيم عبد العزيز وسيرة نجيب محفوظ

بقلم : فاروق شوشة

يستهل الباحث والمحقق والكاتب الصحفي الدءوب كتابه الجديد عن نجيب محفوظ: أنا نجيب محفوظ ، سيرة حياة كاملة ، بهذه الكلمات لصاحب السيرة يجعلها بمثابة الافتتاحية: حينما أتذكر طفولتي البسيطة وأنا أجري خلف عربة الرش في حي الحسين ، ثم أسمع اسمي في الصحف ومحطات التليفزيون العالمية ، يحدث ذلك في نفسي عجبا ودهشة . ولكن حينما أتذكر أنني احتفلت بعيد ميلادي السابع والسبعين - سنة حصولي علي نوبل - منذ أيام تتساوي في نفسي كل كنوز الدنيا .

ثم يضع ابراهيم عبد العزيز في صدر كتابه ، شهادة بقلم توفيق الحكيم يقترح فيها ان يكون عيد ميلاد نجيب محفوظ عيدا للرواية العربية ويقول: من حظ الرواية انها وجدت روائيا موهوبا كرس حياته كلها لها ، لم يشرك في الرواية أي نوع آخر ، إلى أن جعل للرواية هذا البناء الشامخ .

ولذلك إذا ذكرت الرواية ذكر نجيب محفوظ ، وأقترح ان يكون للرواية عيد ، وعيد الرواية هو عيد ميلاد نجيب محفوظ .

وبعد أن يسرد توفيق الحكيم تاريخ الرواية العربية - كما يعرفه - بدءا برواية زينب للدكتور هيكل ، وكتاب حديث عيسي بن هشام للمويلحي الصغير ، وبعد ثورة١٩١٩ تشجع الدكتور هيكل وأعاد نشر روايته زينب التي كانت قد نشرت قبل ذلك مجهولة بغير اسم المؤلف فاعتبرت غير موجودة بالفعل ، حتي ظهرت بشخصية حقيقية لمؤلف معروف باسمه الحقيقي سنة١٩٢٤ ، ثم ظهرت الأيام لطه حسين باسمه الحقيقي سنة١٩٢٤ ، ثم ابراهيم الكاتب للمازني١٩٢٦ ، ثم عودة الروح لتوفيق الحكيم١٩٢٧ ثم سارة للعقاد١٩٣٤ .

وهذا هو الرعيل الأول للرواية المصرية - بعد هذا السرد التاريخي يقول توفيق الحكيم: أما الرواية ذاتها والتخصص فيها ، فقد جاء روائي شاب موهوب كرس حياته للرواية وحدها ، فلا شعر ، ولامسرحية ولا سيرة ولا مشاركة مع نوع آخر من أنواع الكتابة مثل بقية الرعيل الأول الذي كانت مشاركاته في أنواع أخري مع الرواية تمثل الأدب العربي كله: هذا الروائي الموهوب المخلص للرواية وحدها هو نجيب محفوظ .

دخل الشارع وإذا به بعد قليل قد شيد فيه العمارات الشاهقة ونظم الأرصفة ، ووسع الشارع ووضع المصابيح . وتبعته أجيال نشيطة مخلصة ، فإذا شارع الرواية قد

أصبح من أهم شوارع الأدب إلى وم بفضل جهوده التي قصرها علي الرواية وحدها . فإذا وضع لهذا الشارع اسم ، فلا شك عندي أن نتفق جميعا علي أن يكون اسم شارع الرواية :

نجيب محفوظ ، بل اني اقترح اكثر من ذلك ، وهو ان يكون للرواية عيد سنوي يكون يومه هو يوم عيد ميلاد نجيب محفوظ ، لنطمئن جميعا علي مستقبل الرواية بهذا العيد السنوي .

ويمضي ابراهيم عبد العزيز مع صفحات كتابه المحتشدة بالمادة الوفيرة عن نجيب محفوظ ، عاكفة علي سيرة حياته ، لم يترك فيها شاردة ولا واردة ، وانما جمعها بدأب وحرص شديدين من كل المصادر والمراجع ، ومن بينها حواراته الشخصية مع نجيب محفوظ ومع الآخرين ، ثم صنف مصادر كتابه ، وجعل كاتبنا الكبير يحكي عبر الصفحات ، وطبقا لما جاء في هذه المصادر عن طفولته وصباه وأحلامه ، وبيته ، وعن رمضان شهر الحرية ، وعن طبقته الوسطي ، وأسعد أوقاته ، وعن شقاواته ، ويوم ان بكي ، وعن حنان أمه ، وأسرع هداف في زمانه ، وعن شبابه وجهاد نفسه ، وفضل مدرس اللغة العربي ، وأفكاره الكاريكاتورية ، وكيف انه لو لم يكن كاتبا لا صبح مغنيا ، وأخطر مرحلة في حياته ، وعن توفيق الحكيم معلم الجميع ، ونبوءة العقاد ، والمربي الأدبي له ، والافلاس ، والشك ، والقصص القرآني ، والسكرتير البرلماني ، ومندوب السفارة البريطانية ، وحكايته مع الثورة و عبد الناصر ، وكيف انه يمثل جيل النكسات ، وكيف قرأ عبد الناصر الثلاثية ، وغيبة الوعي ، ومظاهرات الطلبة ، وأسوأ مؤرخ ، ورفضه مقابلة حسن البنا ، والتلاعب بالدرجات العلمية ، ودفاعه عن أساتذة الجامعة ، وأنه لا يعترف إلا بالفصحي ، ودلال الإلهام ، وعن النقد معه وضده ، وعلي المقهي ، وعن حبه وزواجه ، وابنتيه ، وشارع النساء ، وجائزة نوبل والسؤال الخبيث ، ومتاعب ما بعد نوبل ، وأحلام ليست للنشر ، وأرذل العمر ، والعدل والديمقراطية ، وزوجي نجيب محفوظ ، قلت إن ابراهيم عبد العزيز لم يترك شاردة ولا واردة ، مضيفا بهذا الكتاب حلقة ضخمة ومهمة في سلسلة الكتب التي قدمت لنا - نحن القراء - نجيب محفوظ الانسان والمبدع ، واقترب أصحابها منه فكانوا موضع ثقته وفضفضته وذكرياته . صحيح ان النقد الأدبي لم يعد يقيم وزنا كبيرا لما يقوله المبدع عن نفسه ، علي أساس أن أعماله الابداعية وحدها هي محل الاهتمام ، لكن تظل لهذه الحكايات والأسرار والتفاصيل الصغيرة أهميتها في الكشف عن السياق الذي دارت فيه حياة المبدع وولدت من خلال كتاباته . وإبراهيم عبد العزيز بهذا الكتاب الجميل ، الذي لا بد ان اعداده استغرق جهدا هائلا وزمنا طويلا - يضيف إلى كتبه واصداراته السابقة عن توفيق الحكيم ويحيي حقي وطه حسين والدكتور حسين فوزي وصبري العسكري وغيرهم ، التي لا بد من قراءتها وتأملها والاستمتاع بها ، باعتبارها مراجع

ومـصادر اساسـية لمعرفـة هـؤلاء الكبـار حـق المعرفـة والـوعي بكتابـاتهم وابـداعاتهم في ضـوء هـذه المعرفة الكاشفة .

لقـد اتـسعت حيـاة نجيـب محفـوظ ، وامتـدت طـولا وعرضـا وعمقـا ، حـتي تجـاوز التـسعين ، متيحـة للعـاكفين علـي سـيرته وابداعـه مـا دة حيـة نـادرة ، لـن يتوقـف صـدورها خلال أيامنا والأيام القادمة ، وهو بعض من عطر الخلود .

سامية الساعاتي . . كاتبة القصة

ليست هذه هي المرة الأولي التي تفاجئنا فيها أستاذة الدراسات الاجتماعية الدكتورة سامية الساعاتي بكتابة أدبية تغاير ما ألفناه من دراساتها الاجتماعية السابقة المتخصصة عن جرائم النساء ، والمسلمات في أمريكا ، والثقافة والشخصية ، وأسماء المصريين ، والاختيار للزواج والتغير الاجتماعي ، والشباب العربي والتغير الاجتماعي ، وعلم اجتماع المرأة ، والناس والسحر ، والمرأة والمجتمع المعاصر ، وابن خلدون مبدعا ، فقد فاجأتنا منذ أربعة عشر عاما بديوان شعري عنوانه شخصي جدا ، يضم البوح العاطفي الذي لم تتسع له كل مؤلفاتها العلمية .

هذه إذن إطلالتها الثانية في غير وجهها العلمي المألوف ، وقد أصدرت مجموعتها القصصية الأولي بعنوان نصف سرير ووسادة عن دار شرقيات ، تضم خمس عشرة قصة قصيرة ، أو لنقل لوحات إقليمية ذات طابع قصصي ، أنسكبت عليها قدرتها علي التحليل وإضاءة الشخصية وتفسير الجوانب الخفية والمظلمة ، واختراق المساحات الفاصلة بين الوعي واللاوعي ، بين الحضور الطاغي ومخزون الذاكرة ، في رحلة إنسانية كاشفة ، تسبر من خلالها غور النفوس ، وما يضطرب فيها من أشواق ونزعات وتطلعات وانكسارات .

وسامية الساعاتي لا تستطيع أن تكون بعيدة عما تكتبه أو تبدعه . شخصيتها وملامحها ولوازمها موجودة بوضوح داخل أبهاء هذا العالم القصصي المفعم بالبوح والاعتراف والتأمل ، بل أكاد أقول إنها شخصية البطلة الرئيسية والعنصر الانساني المحرك لكثير من اللوحات القلمية التي تنظمها هذه المجموعة ، هناك علي سبيل المثال ومضة حب التي تستهلها بقولها : في بهو الفندق ذي النجوم الخمسة ، كانت تستعد للرحيل ، انتهي المؤتمر الذي أتت من أجله ، اشتركت في وضع توصياته ، خلال الجلسة الختامية كانت حقا نجمة المؤتمر ، الأنظار متجهة إليها ، الكل أثني علي عملها ، جمالها ، ذكائها ، حضورها القوي ، رقتها ، أناقتها ، لباقتها .

ذكرها البعض بآخر لقاء تليفزيوني أجري معها آخر ندوة ، البرنامج الجماهيري الذي أعدته ، قالوا إنها كانت رائعة ، دخلت القلوب بلا استئذان ، قال لها الداعي إلى المؤتمر والمشرف عليه : وجهت إليك الدعوة بالاسم بعد أن شاهدتك في محطة MRE الفضائية ، شدني حديثك العلمي الجذاب ، لم أستطع إلا أن أسهر للنهاية لا تابع البرنامج ، وقال لها بإعجاب : وتكتبين الشعر أيضا ؟ هذه موهبة لم أكن أعلم أنك تمتلكينها حتي سمعتك تقرئين أبياتا من قصيدة لك في آخر لقاء تليفزيوني . النساء في المؤتمر أحطن بها ، كل تريد محادثتها والحوار معها . ابني يادكتورة ينوي

الزواج . . ما هي أهم أسس النجاح ؟ أهناك شروط ؟ أهناك ضمانات ؟ ما رأيك في عمل المرأة ؟ هل هناك ارتباط بينه وبين ارتفاع معدلات الانحراف والفشل عند الأبناء ؟ وتجيب الدكتورة برقتها وتلقائيتها وبساطتها المعهودة والأخريات يستمعن لها باهتمام .

ثم سرعان ما يكتشف القارئ أن هذه الشخصية الناجحة ، الآسرة ، المثيرة للاهتمام ، كانت تعيش حالة ظمأ ، وفي حلقها دائما طعم الجفاف يختلط دائما بطعم النجاح . لقد كانت تفتقد شيئا ما ، شيئا جوهريا في حياتها ، تكتب عنه وتتحدث فيه وتدرسه : هو الحب ! وبالرغم من الجدب العاطفي الذي كانت تعيشه لم تكفر يوما بالحب ، وكل شيء في أعماقها يقول : إنه سيأتي ، حتما سيأتي . هذه اللوحات التعليمية ، التي صدرها قلم مرهف ، ونسجتها خيوط لغة سلسة معبرة ، هي سياحة في وجدان النماذج النسائية التي اختارتها المؤلفة ـ بوعي شديد وبصيرة نافذة ـ لتستكشف من خلالها رجع الصدي بالنسبة للعصر الذي نعيشه وأزمة التغير الاجتماعي وفي داخله بالطبع التغير العاطفي ، ولتنطق هذه الشخصيات بلون شديد العصرية من البوح والإفضاء ، هو في مساره الأخير مرتبط أشد الارتباط بالنتائج التي توصلت إلىها في دراساتها الاجتماعية . وكأن هذه الدراسات التي استغرقت الكثير من سنوات العمر كانت بحاجة إلى نماذج حية وشخصيات إنسانية ومواقف حقيقية لتأكيدها وإكسابها صدقها وحميميتها ، فجاءت هذه المجموعة من اللوحات التعليمية ـ في سياقها القصصي ـ لتكمل ما بدأته الدراسة الأكادي مية والميدانية . هاهي ذي المرأة تبوح وتعترف وتفضي ، وتنزع عنها الأقنعة التي تحجب الحقيقة وتصون الكبرياء ، لتبدو في صورتها الإنسانية البسيطة والمنكسرة : ضعفها قوة ، وهمسها تمكن . تقول سامية الساعاتي في لوحة ثانية : كانت تسأل نفسها ، لماذا لم نتقابل في الجامعة ؟ ثم تضيف : طيب ، بعد الجامعة ؟ ثم : طيب ، نتقابل وخلاص !

ماذا يا تري بيني وبينه ؟ جاءتها الإجابة من أعماق أعماقها . بيني وبينه كل مفردات اللغة الخاصة بأفعال : تسلل ، تخلل ، استأثر ، تمكن ، هيمن . فكلها مترادفات لحالتي معه . كانت تحس في أعماقها بأنها تعرفه . تعرفه جيدا . ختمهما حبل سري لا يري ، ورباط أبدي لا ينفصم . في مجموعاتها القصصية القادمة ، لا بد أن تبتعد سامية الساعاتي ـ أكثر ـ عن فضاء قصصها ولوحاتها ، حتى لا نري كل النساء علي صورتها ، يحملن سلامها ومزاياها . وحتى تبتعد كتابتها عن مجال السيرة الذاتية ، لتقتحم ـ بعمق ـ العالم الرحب للإبداع القصصي الجميل .

مصطفى عبد الغني وأدب رحلات جديد

بقلم : فاروق شوشة

علي مدار تاريخنا الأدبي ، ظل أدب الرحلات ـ منذ ابن بطولة والبغدادي وابن جبير وغيرهم ـ حتي إلىوم ، يتنازعه بعدان اثنان ، هما: المكان والزمان ، أو الجغرافيا والتاريخ . وأقصي ما يعود إلىنا به صاحب الرحلة أن ينجح في رسم الخريطة المكانية التي تنقل بين جنباتها ، وأن يحدثنا بلغة الواقع ـ وأحيانا بلغة الخيال والمبالغة حتي الخرافة ـ عن هوامش تاريخية صنعها الذين تعاقبوا علي المكان .

وقد تنبه مصطفي عبد الغني ، بحسه الأدبي أولا ، وبنزعته واهتماماته الصحفية ثانيا ، وبكثرة ما تجمع بين يديه من أوراق تمثل شهادة علي عصر سريع التغير والانكسار ، إلى أن ما ينتظره في مجال أدب الرحلات في كتابه الجديد مشرق ومغرب ، أمر يتجاوز بكثير ما صنعه سابقوه .

إن عليه ـ لكي يكون جديدا وطريفا ومؤثرا ، أن يسكب فكره علي حصاد الرحلة ، حتى لا تكون مجرد سياحة جغرافية أو تاريخية ، وإنما هي فيض من الرؤي والكشوف ، من خلال ما يسميه هو رحلة ثقافة المؤتمرات وخبرتها ، يضعها المؤلف بين أيدينا لنتأمل حالنا بغضب .

الكتاب إذن ـ كما يقول غلافه الأخير ـ ليس مشاهدات سائح ، بل تأملات مثقف مهموم بقضايا وطنه وأمته ، يحاول تلمس أسباب الاتفاق والنهضة الثقافية وإضاءة السبل الكفيلة بتحقيقها ، ويلقي الضوء علي أسباب الفرقة للتنفير منها ، في ظل عالم لا يعترف بالآحاد .

هي إذن مجموعة من القضايا الثقافية التي عاشها المؤلف في المؤتمرات التي حضرها ، والتي عقدت في كل أقطار الوطن العربي من المحيط إلى الخليج ، ليسأل السؤال الحارق والملح: إلى متى نظل في أسر الكلام ؟ . . ومتى نخرج إلى حيز الفعل ؟ . . العناوين التي تظلل فصول الكتاب تقول لنا الكثير: لا بد من بغداد ولو طال السفر (مهرجان المربد الخامس عشر في بغداد) ، وقطع الصحراء العربية من عمان إلى بغداد ، وصولا إلى أهلنا المحاصرين في عاصمة العباسيين ، الرابضة بين النهرين ، القابضة علي جمر الحصار الغربي الرخيص .

ثم الحديث تحت عنوان مشاهد من تونس عن غيبة الوثائق العربية ، بالنسبة لا ي موضوع عربي أو قضية عربية ، ونقص المادة الوثائقية بدءا من أكبر مؤسسة عربية (جامعة الدول العربية) وصولا إلى المكتبات العربية أو الغربية . ثم حديث عن باريس٢٨

سبتمبر ، وثلاثون عام ا بعد رحيل عبد الناصر ، والمائدة المستديرة التي دعا إلىها معهد العالم العربي ورئيسه د . ناصر الأنصاري ، فأصبحت تظاهرة عربية تشير إلى زمن قومية عبد الناصر وكفاحه ضد الإمبريإلىة .

وحديث عن إعادة فتح الملف المزمن: العامية لا العربية ، بدءا بمصطفي صفوان الداعي إلى استخدام العامية في الترجمة ، وردود شوقي ضيف ، رئيس مجمع اللغة العربية السابق ، علي حدوتة العامية التي آن لها أن تنتهي ، وينتقل المؤلف ـ في سياحته الفكرية ـ المتوهجة بخلاصة مشاركته في العديد من المؤتمرات الفكرية والثقافية والأدبية ـ إلى مشاهد تفسد الود بين باريس ومدريد ، والاحتفال بذكري طه حسين ، والسجال عن حقيقة تأثره بفكر ديكارت ، ومدي استيعابه لدراساته الأساسية في نصوصه الأصلية .

والجدل حول مفهوم القطيعة المعرفية وارتباطه بالحركة الجدلية بين الحضور والغياب والاتصال والانفصال ، لتكون ثمة إضافة كيفية حقا لنسق علمي تنتسب إلىه وليست مجرد إضافة كمية ، كما تقول يمني العيد من لبنان ، والقطيعة المعرفية لا تعني المسخ الحضاري ، كما أنها لا تعني المحو والإلغاء وإفناء الماضي ، ليكون البدء المطلقو المستحيل معرفيا ، كما تقول يمني الخولي من مصر . وتحتل قضية الترجمة جانبا كبيرا ومهما في كتاب مصطفي عبد الغني ، بدءا بحديثه عن المستشرقين الجدد والترجمة ، والترجمة بين الاختيارين: الغربي والعربي ، والإغراء المادي والإعلامي لبعض الأعمال التي تختار للترجمة ، وشهادة أستاذين كبيرين في المجال: د . مصطفي ما هر ، ود . محمد عناني ، بالإضافة إلى شهادات لمترجمين آخرين: د . محمد علي الكردي أستاذ الحضارة الفرنسية ، وشوقي جلال ، ود . رمسيس عوض ، والراحل د . عبد العزيز حمودة .

هذا الكتاب الجديد لمصطفي عبد الغني مشرق ومغرب ، الصادر عن الدار المصرية اللبنانية ، هو الخلاصة لكثير من فكره المبثوث في ثنايا كتبه الأخرى ، غير أنه هنا ممزوج بحرارة أنفاسه وتوتر أعصابه ولحظات شجنه وأساه ، في مواجهة ما يحدث لنا ، نحن ممثلي العالم العربي ورموزه ، علي الساحة التي تشهد الآن ما يسمونه: حوار الحضارات .

وهو كتاب يجدد في معني أدب الرحلات ، ليجعله فكرا باقيا ، وطاقة محركة ، ومسئولية لا فرار منها .

عزة بدر .. وحق اللجوء العاطفي

بقلم: فاروق شوشة

في تقديمها لكتابها الجديد ، حق اللجوء العاطفي تقول عزة بدر: الفراشات اللواتي يعترفن اعترافات كاملة يتركن علي كفي أجنحة مذهبة وظلالا غامضة ، والندي الذي يكتب مذكراته عن وردة ويترك وردة يتعرض للمساءلة ، والعطر الذي يسكب نفسه بنفسه تحاسبه الرائحة ، والقمر الذي يعترف بسره تخاصمه غيمة ، وأنا أطلب حق اللجوء العاطفي لا أخشي شوك الورد ولا أنفاس العطر ولا خصام غيمة أتنفس في الضوء وأشرب ماء الورد ، عن الفراشات والقمر والعطر أقول كل شيء . أدلي باعترافات كاملة

.

إذن ، فهذا الكتاب كتاب بوح واعترافات ، لكن جرأته محسوبة بحكمة بالغة ، لا تفلت منها عبارة ، ولا تجرح الإحساس كلمة ، تقول ولا تقول ، وتقنع أحيانا بالظل عن مساحة الضوء الباهر ، وبالهمسة المرهفة عن الجهر والجلبة والصياح ، شأن الكاتبة المدركة لرسالة الكتابة ، وصاحبة الأسلوب الشفيف الذي لا تشوبه شائبة

.

وعزة بدر: الكاتبة الصحفية ، والشاعرة ، والقصاصة والروائية ، والناقدة الأدبية ، والموغلة في أدب الرحلات ، لم تعد في حاجة إلى تعريف أو تقديم ، اللهم إلا أن يقال عنها: أم الجوائز ، فبعد حصولها علي الماجستير والدكتوراه من كلية الإعلام بجامعة القاهرة عن مجلة الثقافة (١٩٣٩ ـــ١٩٥٣) وعن المجلات الأدبية في مصر (١٩٥٤ ـــ١٩٨١) ، حصلت علي جائزة الدولة التشجيعية في أدب الرحلات عن كتابها: أم الدنيا ـــ صورة قلمية للقاهرة والناس وعلي جائزة محمود تيمور في القصة القصيرة من المجلس الأعلى للثقافة عن مجموعتها القصصية أعناق الورد ، وعلي جائزة التفوق الصحفي في المقال والحوار عامي٢٠٠٠ ، ١٩٩٩ من نقابة الصحفيين ، وعلي جائزة أحمد بهاء الدين في المقال الصحفي ، وعلي جائزة إحسان عبد القدوس في النقد الأدبي . وفي مقدمة أعمالها الأدبية ديواناها: ألف متكأ وبحر ، وهذه الزوايا وفمي . أما روايتها فعنوانها: في ثوب غزالة .

في هذا الكتاب الجديد لعزة بدر ، لغة جديدة ، لغة تميزها باعتبارها صاحبة أسلوب شديد التركيز والتكثيف والإيحاء ، في عصر يندر فيه أصحاب الأساليب ، من بين من يكتبون ، حتى لو ألفوا عشرات الكتب وفيه أيضا جرأة وجسارة واقتحام ، لمناطق وزوايا لا يجرؤ علي الاقتراب منها غير الشعر ، فلغة الشعر لها حيلها وجمالياتها التي تجعلها تقترب ولا تقترب . وقد أفادت عزة ـــ في بوحها البديع المتناثر

علـي صـفحات الكتـاب كحبـات العقـد المتلألئـة ـــ مـن موهبتهـا الـشعرية ، فـسكبت علـي مقطوعاتهـا مـا ء الـشعر وكيميـاءه ، وفي الكتـاب أيـضا ـــ بالإضـافة إلى هـذه اللغـة الـشعرية ، شـاعرية موقـف ورؤي ، تتكـئ علـي أحاسـيس وخـبرات شـعورية أكثـر نـضجا وإحكامـا ، الخـبرة الفنيـة الـتي تمتلكهـا الكاتبـة معـادل مكتمـل لخبرتهـا الإنـسانية والعاطفيـة ، وتـوأم لهـا ، مـن هنـا أصـبحت كلماتهـا أكثـر اكتنـازا بهـذه الخـبرة ، وأشـد نفـاذا بمـا تمتلكـه مـن غـيم ومرايـا ونـسائم حينـا ، ومـن أسـنة مدببـة حينـا آخـر . لكنهـا في الحـإلىن روح صـاحبتها واسمهـا وعنوانهـا وخريطـة تفاصـيلها ، أدق تفاصـيلها . . الـتي تتجـاوز فتعطـي المعـني والدلالة والوعي الكاشف:

" سـأقول ولا أقـول . سـأقف بـين سـطرين ، في البيـاض الواسـع ، حـائرة أبحـث عـن هـامش طويـل ينـسدل مـن رأسـي حتـى قـدمي ، هـامش بكمـين ، وفاصـلة تخبـئ مـن أقـول ، ولا تبـوح بـي ، فاصـلة كـأمي تغطـيني في الليـل ، سـأحتمي منـك بنقطـة في أول الـسطر . بقطـرة مطـر ، بقطـر عطـر خلـف أذنـي . سـأحتمي منـك بقـرطين ، بعقـد ، بسلـسلة فـضية ، بـسوار ذهـبي . سـأجري منـك في الـصفحة ، وأختبـئ بـين قوسـين . تـستطيع أن تخطـط جـدولا ، جـدولين ، علـني أصـر ! أعـرف شـكل المثلـث فـلا ترسمـه ، أعـرف ضـلعيه فـلا تـسلمني إلىـه ، لا ترسـم مربعـا ، إن حجـرة ضـيقة لا تليـق بجنـاحين ، إنه قفص مغلق علي عصفورين .

هـذه كاتبـة تعـي جيـدا مـا تقـول وتعـرف كيـف تقـول . وكيـف تقـول هـذه ، هـي حقيقـة الفـن والإبـداع ، وهـي المـساحة الـتي تتفـاوت فيهـا أقـدار الكتـاب والمبـدعين ، وهـي التي تجعـل مـن الـشاعر شـاعرا ، ومـن الروائـي روائيـا ، ومـن الكاتـب كاتبـا ، لا نهـا جـوهر الفن وخلاصته ومناط الصياغة الأدبية ومجلاها وحقيقة تفردها .

وعـزة بـدر لا تطلـب في هـذا الكتـاب الـذي صـدر في سلـسلة كتـاب الجمهوريـة سـوي حـق اللجـوء العـاطفي . وهـي لم تلجـأ إلى تـسميته شـعرا ، بـالرغم مـن أن فيـه مـن الـشعر الحقيقي مـا يفـوق كـثيرا مـن دواويـن هـذه الأيـام الـتي يـصر أصـحابها علـي تـسميتها بالـدواوين !

وأخيراً . . قاموس للأدب العربي الحديث

بقلم : فاروق شوشة

عن دار الشروق صدر منذ أيام قليلة قاموس الأدب العربي الحديث من إعداد الدكتور حمدي السكوت وتحريره ، وبمشاركة اثنين وسبعين باحثا أسهموا في تحرير مداخله .

والدكتور حمدي السكوت هو أستاذ فخري مدي الحياة بالجامعة الأمريكية ، وأستاذ الأدب العربي ومدير مركز الدراسات العربية ووحدة بحوث الأدب العربي بالجامعة الأمريكية سابقا ، وصاحب أول بيبليوجرافيا علمية شاملة للرواية العربية ، وأول سلسلة بيوجرافية نقدية بيبليوجرافية عن أعلام الأدب المعاصر في مصر: طه حسين والعقاد والمازني وأحمد أمين ونجيب وغيرهم ، بالاشتراك مع العالم والمستعرب الراحل الدكتور ما رسدن جونز الأستاذ بالجامعة الأمريكية .

أما الباحثون المسهمون في هذا العمل الضخم ـ علي مدي عدة سنوات ـ فبينهم نقاد كبار وأساتذة جامعيون وكتاب وأدباء ومؤرخون ، من بينهم الناقد الكبير الدكتور محمود الربيعي عضو مجمع اللغة العربية والأستاذ بالجامعة الأمريكية ، والمرحوم الدكتور علي عشري زايد الأستاذ في كلية دار العلوم ، والمستعربة الايطالية فرانشسكا ما ريا كوراو والدكتور سعد مصلوح ، والدكتور محمد بدوي والدكتور أحمد درويش والدكتور محمد الجوادي والدكتورة نادية بدران والدكتور يوسف نوفل والدكتور محمد بربري والدكتور صبري حافظ والدكتور محسن الموسوي والدكتور عبد الحميد شيحة والدكتورة أمينة رشيد ، والكاتب الروائي محمد جبريل ، والباحثة الأكاديمية مها صالح ، والمؤرخ الأدبي الكبير وديع فلسطين ، والأديب الكبير يوسف الشاروني والدكتور منصور الحازمي والدكتورة عزة بدر والشاعرة والأكاديمية الموريتانية الدكتورة مباركة بنت البراء والدكتور عاطف العراقي وغيرهم .

وفي مقدمة القاموس يأمل الدكتور حمدي السكوت أن يقدم للقارئ العادي معلومات صحيحة وواضحة وسريعة حول المبدعين وكبار رجال الفكر والثقافة في العالم العربي في العصر الحديث ، وهو يتألف من مداخل أو مقالات موجزة ، خصص كل منها لواحد من هؤلاء المبدعين أو المفكرين ، في أرجاء العالم العربي كافة ، من موريتانيا إلى عمان ، ومن أوائل القرن التاسع عشر حتي عام ٢٠٠٦ ، فضلا عن مداخل للكتب المهمة ، وأهم المجلات الأدبية والثقافية ، وللجمعيات أو المدارس الأدبية التي كان لها

دور في تطوير بعض الفنون الأدبية ، ولعدد من المكتبات ذات التاريخ والأهمية في الوطن العربي ، كما أنه لا يغفل المجالس أو الصالونات الأدبية والمقاهي الثقافية .

يضم القاموس نحو ألف مدخل يدور معظمها حول المبدعين العرب ، في مجالات الشعر والرواية والمسرح والقصة ، أو بالانجليزية أو الفرنسية ، والنقاد العرب الذين رحلوا عن عالمنا ، بعد ان تركوا أثرا واضحا في مجال النقد والدراسة الأدبية .

ويوضح الدكتور حمدي السكوت أنه في ظل غياب أية موسوعة عربية علمية ملائمة للشخصيات ، كان لا بد من اضافة عدد من كبار الراحلين الذين لا غني للمثقف العربي عن الإلمام بسيرهم ، ومنهم كبار المفكرين والمثقفين العرب: الطهطاوي والأفغاني ومحمد عبد ه والكواكبي وقاسم أمين وبشر فارس وفرح أنطون ولطفي السيد وهدي شعراوي وصفية زغلول ونبوية موسي وسيزا نبراوي ودرية شفيق وغيرهم ، وعدد من كبار العلماء والفنانين والمهتمين بالفكر الفلسفي ، وكبار الصحفيين من بينهم: علي مصطفي مشرفة ، ومحمد كامل حسين ، وأحمد مستجير ومحمود مختار وحسن فتحي ومصطفي عبد الرازق و عبد الرحمن بدوي وزكي نجيب محمود ومحمد التابعي وفكري اباظة وعلي مصطفي أمين وأحمد بهاء الدين وغيرهم ، وكبار المسرحيين والسينمائيين والموسيقيين من أمثال يوسف وهبي والريحاني وزكي طليمات وبديع خيري وأمينة رزق وسيد درويش و عبد الوهاب وأم كلثوم وغيرهم .

أهم ما في هذا القاموس أن صاحبه لا يدعي له الكمال إذ لا بد من وجود سلبيات ، أهمها الغفلة عن أسماء ما كان ينبغي ان تنسي ، وذكر من دونهم مكانة وقدرا ، وهو أمر يمكن معالجته في الطبعات اللاحقة من القاموس ، الذي سيظل مفتوحا للاضافة باستمرار ، كما سيبقي مرجعا لا غني عنه لا ي مثقف أو باحث في زماننا ، علي امتداد الوطن العربي كله .

عطف الألف المألوف على اللام المعطوف

بقلم فاروق شوشة

من حق المهتمين بظاهرة الحب الإلهي والوجد الصوفي ـ والحب بوجه عام ـ أن يسعدوا بصدور هذا الكتاب البديع . عطف الألف المألوف علي اللام المعطوف الذي ألفه منذ أكثر من ألف عام أبو الحسن علي بن محمد الديلمي ، وحققه العالمان الجليلان الدكتور حسن الشافعي الأستاذ بكلية دار العلوم والرئيس السابق للجامعة الاسلامية في إسلام آباد والدكتور جوزيف نورمنت بل رئيس قسم اللغة العربية في جامعة برجن بالنرويج ، أما الناشر فدار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ، وليست ما دة الكتاب وحدها هي الجديرة بالتنويه ، لكنه التحقيق العلمي الدقيق ، والمقدمة الضافية ، واللغة الشائقة التي تنفرد بها صفحاته وطريقة عرضه لموضوعاته .

والكتاب في رأي محققيه أول كتاب كامل يصل إلى نا من ذخائر التراث العربي الاسلامي مقصورا علي هذا الموضوع الجليل ، إذا ما تركنا جانبا الرسائل الصغيرة والفصول المتناثرة في المصادر التي سبقته ، وإذا ما لا حظنا ان كلا من كتاب الزهرة للفقيه الظاهري ابن داود وكتاب الموشي في مسالك المحبين والظرفاء للأديب النحوي محمد بن أحمد الوشاءوكتاب اعتلال القلوب للأديب المتفقه أبي بكر الخرائطي ، تناول ـ بتحليل قليل الغور ـ الجانب الإنساني من هذه الظاهرة مع عناية بالجانب الأدبي خاصة ، كما أن كتاب الرياض في أخبار المتيمين لمحمد بن عمران المرزباني المعاصر لمؤلفنا هذا لم يصل إلى نا .

ويشير المحققان أيضا إلى أن كاتب هذا النص هو الصوفي السني أبو الحسن علي بن محمد الديلمي ، الذي عاش في القرن الرابع الهجري ، حين بلغت الثقافة الاسلامية أوج ازدهارها . وتتلمذ الديلمي علي أبي عبد الله محمد بن خفيف شيخ شيراز الكبير وترجم له ، وورث عنه مشربه الصوفي مع نزعته الحلاجية المعتدلة . وقد وظف المؤلف البارع تجاربه الروحية والاجتماعية ، ومعارفه الأدبية والكلامية والفلسفية وثقافته الدينية ، في تحليل ظاهرة الحب في أسبابها ودواعيها ، وأحوالها وأطوارها ، ومستوياتها الإلهية والإنسانية ، وآثارها الفردية والاجتماعية . ومواقف علماء المسلمين منها علي اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم ، مع تفتح ملحوظ علي الثقافات الأخري التي ألم بها معاصروه في ذلك القرن الزاهر . ولحسن الحظ ، فإن مؤلف الكتاب ضمنه نصوصا هامة وشذرات متفرقة من أعمال سابقة في موضوع المحبة ، لا يزال الكثير منها مفقودا إلى إلى وم .

يوضح المحققان أن عنوان الكتاب يرجع إلى تراث المفكرين المسلمين الذي اهتموا بأسرار الحروف ورمزيتها كالحلاج والتستري وابن مسرة وغيرهم . فهو يرمز إلى العلاقة بين الله وخلقه ، وهي علاقة المحبة والتعاطف والألفة ، فالألف رمز للذات الإلهية مع كمالاتها (= الله) ، التي هي معدن الحب الحقيقي والجمال الخالص ، واللام هي رمز الوجود الإنساني أو الكون الجامع المخلوق (= آدم أو الانسان) . والعلاقة بينهما (ويرمز لها بالألف واللام أو اللام ألف: لا) هي علاقة الألفة ، والعطف والمحبة في أكمل صورها وأصفاها .

والمؤلف يري أن أصل الحب وسره وحقيقته ومبدأه هو من الله عز وجل ، والعطف منه - تعالي - هو إمالته زمام إرادة ال عبد إلى ه - سبحانه - فينشغل به عما سواه ، وإن كان يري - في الوقت نفسه - مجالي الجمال في كل شيء ، ويمارس الحب بمستوياته وألوانه المحمودة ، فالحب دوما هو للحبيب الأول والحنين إنما هو لا ول منزل . حتي يعود الإنسان المحب بعد رحلة الاغتراب في عالم الأكوان إلى مرجعه ومثواه ، في حوار حبيبه ومولاه ، وهو ما اعتبره الديلمي خاتمة المطاف ، وجعله آخر أبو اب الكتاب . أما مضمون الكتاب ، فيتناول ظاهرة الحب الإلهي ، والحب بوجه عام ، بالدراسة والتحليل الدقيق المستوعب ، في مستوياتها المختلفة: الإلهية والإنسانية والكونية . ويعني بالبحث عن حقيقتها وعلتها ، ومظاهرها وآثارها ، وآراء الباحثين فيها علي اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم الفكرية من أطباء وحكماء ، ولغويين وأدباء ، وصوفية وعرفاء ، ومتكلمين وفقهاء ، وغير هؤلاء وهؤلاء ، وصولا إلى مجاهيل الأعراب وعوام الناس . ولا يفوت المؤلف دوما - كما يقول المحققان - أن يعقب برأيه الخاص ، وتجاربه الذاتية ، وملاحظاته الطريفة ، إلى جانب ما تلقاه من شيوخه ورواه عنهم ، مع تأويله وفهمه لهذه المرويات والآثار .

يبدأ الكتاب بعد تمهيد سريع في الاستدلال علي جواز إطلاق العشق والمحبة علي الله - تعالي - أي كونه موضعا للمحبة والعشق وفاعلا لهما ، بمقدمات عن فضل الحب والمحبوب والمحب ، ثم يتبع هذه الأبواب بابا رابعا عن سر التسمية وأصل كلمتي الحب والعشق ، واشتقاقها في اللغة العربية مزاوجا بين أقوال اللغويين من جانب ، وشيوخ الصوفية من جانب آخر . وحين يدخل في صميم الموضوع يفرد بابا للكلام عن أصل المحبة والعشق ومبدئهما ، وجوهر المحبة وحقيقتها ، وأقاويل الناس في المحبة ، وصفة العشق والمحبة خاصة لدي الأدباء ، وصفات المحبة المحمودة - خاصة لدي المفكرين والصوفية ، ثم يدرس أقوال من ذم المحبة لعلة ، لا نها لا تذم لذاتها أبدا . وبين أفعال المحبة والعشق وشواهدهما لدي مختلف الباحثين وبخاصة الصوفية .

والكلام موصول عن هذا الكتاب المتفرد والبديع .

في صحبة الجميلة

بقلم: فاروق شوشة

هذا كتاب جميل لا ذاعي جميل في موضوع جميل . أما الكتاب فيحمل عنوانا بديعا هو في صحبة الجميلة ، والجميلة التي يتحدث عنها هي لغتنا العربية التي أصبحنا جميعا نعرفها باسم الجميلة منذ أطلق الإذاعي الرائد محمد محمود شعبان بابا شارو هذه التسمية علي البرنامج الإذاعي الذي كلفني بكتابته وتقديمه منذ أول سبتمبر عام ١٩٦٧ . أما الإذاعي القدير الذي وصفته بالجميل فهو عبد الوهاب قتاية رفيق الدرب الإذاعي - في الإذاعة المصرية - قبل أن تختطفه بعض الإذاعات والتليفزيونات العربية ، للإفادة من عطائه وخبرته ، قبل أن يعود إلى الوطن استاذا وخبيرا ومدربا في كليات الإعلام ، ومعاهد التدريب الإذاعية والتليفزيونية في مصر وفي أقطار عربية عدة .

و عبد الوهاب قتاية ، قبل هذا كله وبعده ، هو واحد من الرعيل الذي قدر له أن يجعل من صوت العرب - في الستينيات وما بعدها - منبرا ثقافيا وفكريا رفيعا ، وارتبط - منذ بداياته - بالتوجه الثقافي والبرامج الجادة بالإضافة إلى كونه مذيعا متميزا ، في أدائه ولغة خطابه الاعلامي . وحين أعير إلى إذاعة الشارقة وأبو ظبي - لسنوات طويلة - ظل مكانه في صوت العرب شاغرا ، حتي كانت عودته إليه ، بعد أن ألقي بأعباء العمل الوظيفي ، كاتبا ومعدا لبرنامج اسبوعي عن اللغة العربية - في إذاعة صوت العرب - بإعتبارها لسان العرب ، وركيزة أساسية من ركائز وحدتهم .

ولهذا البرنامج قصة طريفة ، بدأت عندما كنت رئيسا للإذاعة المصرية ، وتوجهت علي رأس وفد إذاعي للمشاركة في اجتماعات اتحاد الإذاعات العربية بتونس ، ووجدت أن موضوع تعليم اللغة العربية - للأجانب أو لغير الناطقين بها - مطروح علي جدول الأعمال ، فاقترحت أن يكون اهتمامنا أولا بتعليم العربية لا بنائها من العرب الذين لا يحسنونها ولم يعودوا يهتمون بتعلمها ، وأصبحت هشة علي ألسنتهم وأقلامهم . وتمت الموافقة علي الاقتراح بشرط أن تقوم بتنفيذه الإذاعة المصرية صاحبة الفكرة .

ووجدت أن المجال الطبيعي لتحقيقها هو إذاعة صوت العرب ، التي تخاطب العرب جميعا ، والتي تلتزم في كثير من برامجها وموادها المختلفة بالعربية الصحيحة . وعهد الخبير الإذاعي محمد مرعي - رئيس إذاعة صوت العرب في ذلك الحين - إلى الإذاعي القدير عبد الوهاب قتاية بوضع التصور الأول للبرنامج وكتابة حلقاته لسنوات متصلة في اطار درامي ، يقوم علي تعدد الأصوات ، واستخدام إمكانات الحوار ، وتجسيد المواقف الحياتية التي تتطلب بدورها مواقف لغوية مناسبة ، والتنبيه إلى كثير

مـن الأخطـاء الـشائعة ، فـضلا عـن الثقافـة اللغويـة والأدبيـة الـتي يـشيعها البرنـامج ، مـن خـلال ثقافـة كاتبـه الواسـعة ، وحـسه الأدبـي المرهـف ، وكونـه شـاعرا جمـيلا في المقـام الأول ــ وهـي الجوانـب الـتي أفـدنا منهـا مـن خـلال عـضويته في اللجنـة الثقافيـة باتحـاد الإذاعـة والتليفزيـون ـ في دورتهـا الأخـيرة ـ وهـو يعـرض خبراتـه ، ويعـد دلـيلا لغويـا للعـاملين في الإذاعـة والتليفزيـون ، نرجـو أن يفيـدوا منـه في تقـويم ألـسنتهم وأقلامهـم ، وإنـضاج علاقـتهم مع العربية الجميلة .

ومـن خـلال حالـة العـشق هـذه ، تـشكلت ملامـح هـذا الكتـاب الجميـل ، الـذي بـدأ علـي هيئـة بـاب ثابـت في صـحيفة البيـان الخليجيـة ، وعنـدما اكتملـت صـورته ، كـان صـدوره في سلـسلة كتـاب البيـان الـتي قـدمت للكتـاب بهـذه الكلمـات: تكثـر في لغتنـا العربيـة كلمـات وعبـارات لا تحمـل معهـا جـواز المـرور إلى سـلامة الـضاد ، فـإذا لم تكـن كلمـات غريبـة فـإن اسـتعمالها لا يفـي بـالمعني المقـصود ، لـذلك تـصبح العبـارة فـضفاضة وتحـت عباءتهـا يخـتبيء أكثـر مـن معـني لا كثـر مـن زمـان ومكـان . عبـد الوهـاب قتايـة قـارب المعـني مـن المـبني وصـوبه حـتي يـستقيم علـي ألـسنتنا ودعمـه بالـشواهد اللازمـة مـن قريحـة العـرب ، فتحـول كتابـه في صـحبة الجميلـة مـن كتـاب كلاسـيكي يـضبط اسـتعمالات اللغـة ودلالاتهـا إلى كتـاب ممتـع يفيـد كـل نـاطق بلغـة الـضاد مـن بـين التـصويبات الـتي يتـضمنها الكتـاب التنبيـه إلى اسـتخدام كلمـة عمـود بـدلا مـن كلمـة عـام ود غـير الـصحيحة ، وفعـل اسـتبدل الـذي يتطلـب دخـول حـرف البـاء علـي المـتروك أو المحـذوف ، ويـضرب مـثلا لـذلك: اسـتبدلت ثوبـا جديـدا بثـوبي القـديم ، أي أخـذت ثوبـا جديـدا وتركـت ثـوبي القـديم . وفي القـرآن الكـريم: أتـستبدلون الـذي هـو أدنـي بالـذي هـو خـير . وفيـه أيـضا: ولا تتبـدلوا الخبيـث بالطيـب والتنبيـه إلى الخطـأ في قـول مـن يقـول: لا يجـب القيـام بكـذا ، لا ن معـني العبـارة يجـوز عملـه ، والـصواب أن يقـال: يجـب عـدم القيـام بكـذا ، وهـو يـضرب مثـالا واضـحا بقولـه: لا يجـب أن نـصاحب الأشـرار ، والـصواب أن يقـال: يجـب ألا نـصاحب الأشـرار ، وهكـذا . كمـا ينبـه إلى كـثير مـن أخطـاء الكـلام بـسبب تـأثير العاميـة في مثـل قـول الـبعض: اسـتعديت للـسفر ، واسـتمرينا في القـراءة واسـتغليتم الظـروف . والـصواب أن يقـال: اسـتعددت واسـتمررنا واسـتغللتم . وكـذلك التنبيـه إلى نطـق الـبعض لكلمـة علمانيـة حـين ينطقونهـا بكـسر حـرف العـين ظنـا مـنهم أن النـسبة إلى العلـم بكـسر العـين ، والـصواب نطقهـا مفتوحـة العـين لا نهـا نـسبة إلى العلـم (بفـتح العـين وتـسكين الـلام) والعلـم هـو العـالم بفـتح الـلام أي الخلـق جميعـا . والتنبيـه أيـضا إلى خطـأ الـبعض في نطـق: صـعوبة وسـهولة بفـتح الـصاد والـسين في الكلمـتين ، والـصواب: ضـم الـصاد والـسين ، لا ن الكلمـتين مـصدران للفعل صعب وسهل بضم العين والهاء فيهما .

هـذا كتـاب لا غـني عنـه لـن يعملـون في الـصحافة والإذاعـة والتليفزيـون وغيرهـا مـن الهيئـات والمؤسـسات الـتي تتطلـب في إنجـاز أعمالهـا لغـة صـحيحة علـي الألـسنة والأقـلام ، يكمـل مـا بـدأه العـالم اللغـوي الراحـل الـدكتور أحمـد مختـار عمـر في كتابـه البـديع عـن أخطـاء اللغـة العربيـة المعاصـرة عنـد المـذيعين والكتـاب ، فهـو أول مـن تـصدي لهـذه الأخطـاء في اسـتخدام اللغـة المعاصـرة ، مـن خـلال متابعـة ميدانيـة ، معتمـدا علـي العديـد مـن النمـاذج والشواهد الحية المنسوبة ـ في كثير من الأحيان ـ إلى أصحابها .

سلمى قاسم جودة

والغوص في خبايا النفس الإنسانية

بقلم : فاروق شوشة

أخيرا استجابت الكاتبة الصحفية سلمي قاسم جودة لرغبة كثير من قرائها - الذين تابعوا كتاباتها عن الحريم والسلطة: من أميرات الشرق إلى عاهرة الجمهورية ، التي نشرت متفرقة ومتباعدة - رغبتهم في ان يضمها كتاب يتيح مجالا لا كتمال الفهم والرؤية والمتابعة ، ويكون مرجعا لمن يريد العودة إلى قراءة ما سبق نشره علي مدار شهور وسنوات . وأتيح للكتاب ان يكون بمثابة الطلقة الأولي لسلسلة كتاب إلى وم في عهدها الجديد الذي تتولي مسئوليته الكاتبة نوال مصطفي .

للوهلة الأولي يبدو الكتاب - لمن يقرؤه متعجلا - لونا من الحكايات الجذابة والمواقف والأحداث المثيرة ، فيظنه كتابا خفيفا ومسليا . لكن القراءة الفاحصة الجادة تكشف عن حقيقة الكتاب وجوهره ، وقدرته - أو قدرة صاحبته - علي الغوص في خبايا النفس الانسانية لدي المرأة والرجل علي السواء والكشف عن الأوضاع الاجتماعية والحضارية والسياسية ، التي حتمت هذه المواجهة بين الحريم والسلطة منذ عالم ألف ليلة وليلة عندما كانت شهرزاد رمز الحريم وكان شهريار الملك - بكل رغبته في الانتقام والتشفي - رمز السلطة ، ونجاح شهرزاد في معالجة شهريار من أمراضه النفسية ، فكانت أول أستاذة في علم الصحة النفسية عرفها التاريخ .

ولابد ان قارئ الكتاب سيجد - كما وجدت - بعض التكرار في سرد الحكايات والمواقف والأحداث والتعليقات والتحليلات والأحكام في ثنايا فصوله ، وقد كان هذا التكرارمطلوبا وضروريا حين كان الكتاب فصولا ومقالات متفرقة . أما وقد أصبحت المادة المنشورة مهيأة للنشر في كتاب ، فقد كان الأمر يتطلب سيطرة علي هذا التكرار وتحقيقا للمزيد من التركيز والتشويق .

ولأن سلمي جودة تمتلك اسلوبا أدبيا موحيا ، ولغة قوية معبرة ، ووعيا ثقافيا عميقا ، تتردد في ثناياه إشارات إلى العديد من المصادر والمراجع ، في لغات عدة ، وفي آداب عربية وشرقية وغربية ، فقد أصبح كتابها موسوعة مصغرة في بابه . تسمح ما دته بأن يصبح كل فصل فيه مشروع كتاب مستقل ، لو أن المؤلفة أرادت ان تحتشد بكامل طاقتها لتحويله - مستقبلا - إلى موسوعة معرفية زاخرة بتنوع الشخصيات - من النساء والرجال - خصوصا ان بطلاتها أميرات وراقصات وغانيات وجاسوسات ، ينتظمن أمثال سالومي وشهرزاد وكريستين كيلر وماتا هاري كما ان أبطالها ملوك وأباطرة وأمراء وقادة

وساسة ووزراء من بينهم مثلا راسبوتين وشاه ايران ومن قبلهما شهريار وهارون الرشيد والملك فاروق مرورا بسلطان الاستانة التركي عبد الحميد .

اثنان وستون مرجعا: عربيا واجنبيا - حرصت سلمي قاسم جودة علي التركيز بها في ختام كتابها ، تذكيرا للقارئ بحجم الجهد ، جهد الباحثة ومعاناتها من أجل الوصول إلى وجهات النظر المختلفة حول الموضوع الواحد (خمسة عشر كتابا عن راسبوتين وحده علي سبيل المثال) ، وتذكيرا للقارئ مرة ثانية بان كل ما تضمه صفحات كتابها تم توثيقه ومراجعته ومقارنته بمصادر مختلفة ومراجع ذات وجهات نظر متعددة وصولا إلى ما يمكن ان تطمئن إلى ه ، ليصبح في النهاية رأيها هي ووجهة نظرها الخاصة .

والمتأمل في عناوين الفصول: الجنس والسلطة ، ثقافة الجواري ، فتنة المشرق تغزو الغرب ، عاهره الامبراطورية ، عاهرة الجمهورية ، أسرار حياة سلاطين مصر ، غرام الملوك ، النساء والجاسوسية ، يدرك اتساع فضاء الكتابة وآفاق التناول والمدي الذي اتيح لها بفضل امكانياتها في البحث والتنقيب والمراجعة والاطلاع بالعربية وغيرها من اللغات ، الأمر الذي جعل من الكتاب وثيقة ثرية ، وسجلا حافلا ، وعالما حيا زاخرا بالمآسي والمفارقات ، وان لم يخل مما يمكن ان يعد ضحكا ، لكنه كما يقول المتنبي ضحك كالبكا .

تقول سلمي جودة في بداية حديثها عن ألف ليلة وليلة: لقد عاش الغرب مئات السنين ينظر إلى الشرق من خلال أطماعه الاقتصادية والتجارية والسياسية والدينية . وأكبر مثال علي ذلك الحروب الصليبية ، حتي اكتشف الباحث الفرنسي انطوان جالان في بداية القرن الثامن عشر كتابا رائعا يسمي ألف ليلة وليلة ، فكان أن أيقظ الفتنة النائمة ، وأول من جعل شهرزاد تتحدث للغرب . فأيقظت تلك الترجمة الأولي الغرب من سباته العميق . وعرف ان تلك الأرض عامرة بكنوز ثقافية وفكرية وحضارية بدأ يسعي للارتواء منها والنهل من منابعها التي لا تنضب ، علي سبيل المثال: الحملة البونابرتية علي مصر والولع بمصر ، حتي ان نساء أوروبا أثناء الحملة وبعدها كن يلبسن علي الطريقة المملوكية ، فنجد ما ري انطوانيت ومدام دي بومبادور تلبسان أزياء السلطانة الشرقية .

وفي القرن الثامن عشر اجتاحت أوروبا نزعة الولع بتركيا ، وحل محلها منذ القرن التاسع عشر وحتي الآن الولع بمصر .

وتعلق سلمي قائلة: لقد فتن المستشرقون بالمرأة الشرقية ، إلى ست هي المرأة البعيدة الصعبة المنال الغامضة ؟ أو ليس هذا ما يبحث عنه دائما الرجل ويشتهيه ؟

فتلك الصعوبة تشعل لدي الرجال الخيال والحلم والرغبة ، بل ان الرجل في كثير من الأحيان يعشق المرأة الخطرة !

وفي تحليلها لشخصية شهرزاد تقول: لقد عرفت شهرزاد مفاتيح الرجل ، لذا يجب الحذر كل الحذر من ان يشبع الرجل أو يشعر بالملل ، فيؤدي هذا إلى الوحشية والقسوة والخطر .

عرفت شهرزاد - أذكي النساء - ان فتنة الجسد لها قدرات محدودة ومؤقتة ، ومن ثم تحلت بالثقافة والحكمة والخيال الخصب وعزف الموسيقي والغناء والرقص وحفظ الشعر ، لقد تعلمت من دروس الزمن الغابر ودماء الصبايا العذاري ان قدرات الروح متجددة ، أما قدرات الجسد فمحدودة وتصبح بعد وقت قصير محفوظة ولا تثير الدهشة .

هذا كتاب شائق ، ظاهره - كما قلت - المتعة والتسلية ، وجوهره الغوص في الأعماق ، وفي هذا الغوص مزيج مدهش من الرؤي الكاشفة: النفسية والجنسية والسياسية والاقتصادية والحضارية ، ودفاع مجيد - غير مباشر أو زاعق - عن نموذج المرأة الحقيقية:

الإنسانة الواعية والجادة والمناضلة من أجل انقشاع التخلف وإشراق الاستنارة .

سلوى جراح ، " فصلها الخامس "

بقلم : فاروق شوشة

والفصل الخامس في العمل الروائي الأول للإعلامية القديرة سلوي جراح - نجمة إذاعة لندن العربية علي مدار سنوات طويلة - هو الذي ليس صيفا ولا خريفا ولا شتاء ولا ربيعا ، وإنما هو زمن اضافي ، ينصلح به مسار العمر ، ويحقق - بالاضافة - ما لم تحققه الفصول الأربعة المعتادة . تقول عايدة وهران بطلة الرواية وهي تودع سعيد الإنسان الذي أحبته حبا حقيقيا لكنها لم تقدر علي الزواج منه : أنا ياسعيد صبحي أسميتك الفصل الخامس ، فأنت لم تكن صيفي ولاخريفي ولا شتائي ولا ربيعي ، كنت فصلا خامسا فزت به دون الآخرين ، فصلا أضيف لعمري ، لونه وأبهجه حتي حسبته عمرا جديدا .

وكنت أخاف عليه ، أخاف أن يخبو يوما في حياتي . أخاف أن ينتهي حبك لي . هربت منك وأنت تحبني خوفا علي حبك . خوفا من أن ألاحقك يوما وأنت عازف عني . لم أشأ أن أخسر كل شيء مرة واحدة: العمل والحب . خسرت عملي واعتزلتك كي لا أخسرك .

وتفسر عايدة لسعيد فكرة الاعتزال التي قررتها بشأن علاقتها معه حين تقول: الفنانات الناجحات كثيرا ما يعتزلن فنهن في قمة المجد ، كي لا تنحدر بهن الأيام ويخبو النجاح . وأنت كنت هذا النجاح في حياتي . اعتزلتك خوفا من أن أفقدك ، من أن تضيع مني وأظل أبحث عنك .

أما اعتزال العمل فقد فكرت فيه لا ن عاصفة هائلة قد هبت علي صورة العمل الإذاعي ومضمونه ، وكانت اذاعة لندن - حيث تعمل هي - من أسبق الاذاعات تأثرا واهتزازا وتغييرا: وفي ظل حملة التغييرات الكبيرة صارت الفضائيات منافسا خطيرا للإذاعات ، وظهرت أفكار جديدة للتطوير والمعاصرة والمواكبة والعولمة ، كان ضحيتها البرنامج الاذاعي متقن الإعداد فلا مكان له ولا وقت له ، بل ذهب البعض إلى القول إن المستمع إلى وم لا يستطيع أن يتحمل برنامجا علي مدي نصف ساعة ، لا نه يمل منه - كانت عايدة تشعر بالدوار حين تحضر اجتماعا موسعا يقال فيه هذا الكلام التافه ، واليوم حين تشاهد علي الفضائيات العربية برامج طولها بالساعة ، لا بأنصافها ، تلعن في سرها هذا الزمن التافه . لقد بدأ الحديث عن إلغاء قسم إعداد البرامج ، واستبدال البرامج الاخبارية بكل شيء .

دافعت هي بشدة عن البرنامج الاذاعي وعن الجهد الذي يتطلب اعداده . لكن عقول الجميع كانت قد أعدت لعصر الإنترنت ، عصر برامج الوجبات السريعة ، عصر غياب التفاصيل ، إذ لم نعد نكتب الرسائل علي ورق جميل ، صرنا نرسل رسائل التكست بأنصاف الكلمات ونكتب العربية بحروف انجليزية !

عايدة وهران في هذه الرواية تدافع عن الزمن الجميل في العمل الاذاعي والاعلامي . وترفض أن تتحول إلى آلة يحركونها كيفما شاءوا ، وتكره التسابق والأفكار الجاهزة ، تريد أن تبقي التحدي الإبداعي حيا في داخلها ، لا تريده أن يختنق ويموت . من هنا لم يكن صراعها مع رئيسها في العمل صراعا مع مجرد انسان ، وإنما كان صراعا مع وضع جديد ومفاهيم جديدة ونظرة تجارية بحتة للعمل الإبداعي . وفي وقت واحد اختنق حبها لسعيد ، الذي أحبها كل الحب ورأي فيها فتاة أحلامه ـ بالرغم من أنها تكبره بعشر سنين وقد بلغت الخمسين ـ وأحبته هي كل الحب ورأت فيه ما لم تره في زوجها الأول ولا صديقها الذي رحل ، لكنها لم تستطع الزواج منه بسبب فارق السن ، وخشية أن يقال إنها تزوجت ممن يصغرها بكثير . واختنق إحساسها واحترامها للعمل الذي منحته عمرها واهتمامها ، فآثرت أن تبتعد وتتواري ، وتعكف علي تأمل حياتها بكل تجاربها ، مراراتها وأفراحها . هي الكيان الفريد المتميز المصنوع علي نار هادئة ، منذ ولدت في فلسطين ونزحت مع الأهل إلى العراق ،

فاكتسبت رافدين جياشين من روافد الحس القومي ، واكتمل تكوينها الثقافي والمعرفي والفني في لندن ، حيث سنوات العمل والنجاح وذيوع الصيت والتألق ، قبل أن تشارف الحافة ، وتعتزل الحب والعمل معا . وقد أتيح لها أن تلمس عن قرب ـ وهي تشارك في البث الخارجي لا ذاعة لندن العربية من معرض دمشق الدولي ومعرض القاهرة الدولي للكتاب ـ فرح الناس بلقائها وتقديرهم لها ولسجلها الإذاعي الحافل ، ووجدت في نصيحة وليدة الصالح استاذتها في العمل وزميلتها الأقدم فيه ـ وهي تبدز حياتها باعتبارها وافدا جديدا علي الحضارة الغربية ـ ما يسهل لها إيجاد الحل الوسط بين القدرة علي امتصاص كل شيء واستيعابه إلى حد التشبع الكامل ، ورفض كل شيء والإبقاء علي الموروثات القديمة كما هي . تقول وليدة: هذا الحل الوسط مهم جدا ، لا ن من يمتص كل شيء ويتشبع به ، يصبح كالاسفنجة المتلئة بالماء تفقد كل ما امتصته عند أقل ضغطة عليها ، أي أن ما تشبعت به لا يملك أن يدافع عن بقائه . أما من يرفض كل شيء فيصبح كالحصي في قعر النهر لا يملك أن يطفو ليشارك فيما يجري حوله ، فلا يشعر بهطول المطر ولا بإشراقة الشمس .

فتجيبها عايدة: ما أجمل هذا التشبيه ، اطمئني ، لن أكون اسفنجة ولا حصاة .

رواية سلوي جراح ـ الصادرة عن مؤسسة الانتشار العربي في بيروت ـ هي بمثابة الاقتحام الأول لفضاءات العمل الإذاعي والإعلامي ، والشهادة علي عصرين أو مرحلتين فيه .

وهي شهادة مثقلة بالخبرات والأحداث والتجارب ، تقدمها كاتبة مرهفة الاحساس ، موفورة الذخيرة الانسانية والحياتية والمهنية ، مشدودة إلى هوي قومي طاغ أصبح جرحا نازفا بلا نهاية ، وبطلتها عايدة وهران نموذج روائي شديد الاعتداد بنفسه ، الأمر الذي يجعله مثار صراعات وأحقاد في ممارسات العمل والحب . شديد الحرص علي الاختلاف ، لذا تنعكس عليه مرارات الإصرار علي الاختلاف ، شديد التوهج بالايجابية التي هي سمة المرأة العربية الجديدة في صراعها المستميت من أجل حرية الاختيار وحرية الانتماء واللا انتماء ، الزواج واللازواج ، والعمل واللا عمل . وهي ايجايبة تصنع ولا تكتسب . تفرضها صاحبتها ولا تتسولها . وأثق في أن لدي سلوي جراح وفي جعبتها الكثير ، لقد روضت قلمها في هذه البداية وطامنت من جموحه ، وأنست إلى ه ، ولابد أنها في روايتها القادمة صخور الشاطئ التي تعكف علي إنجازها الآن ، ستكون أكثر قدرة علي الغوص في النفس البشرية ، وأكثر تجنبا لبعض التكرار ـ الذي تمارسه بهدف التأكيد والتذكير ـ واقترابا من فضاء الفن الروائي الخالص ، الذي تؤكده موهبتها المتميزة .

إلا التعليم يا أمريكا !

بقلم : فاروق شوشه

من أهم ما يطرحه هذا الكتاب الجديد المثير لعميد التربويين العرب الدكتور حامد عمار ، والذي تستهل به الدار المصرية اللبنانية سلسلتها الجديدة آفاق تربوية متجددة ، وهو كتاب: الحادي عشر من سبتمبر٢٠٠١ وتداعياته التربوية والثقافية في الوطن العربي من أهم ما يطرحه من فكر النظر إلى أحداث سبتمبر ، ليس باعتبارها أحداثا ما ساوية وقعت بصورة مفاجئة ، وإنما باعتبارها رد فعل لطغيان القطيع الإلكتروني ذي الألف ذراع ، طغيان علي الدول النامية ، ينهب مواردها ويقهر شعوبها ، ويوسع الفجوة بينها وبين دوله . كما أنها جاءت ذريعة لا خطر أشكال التدهور في الكيان العربي وأبشعها غزوا وتهديدا وترهيبا وشرذمته . فقد أصاب مجتمعات مما يسمي بدول الجنوب من مصادر الإحباط والشعور بالمرارة والعجز خلال طغيان الرأسمالية المتوحشة ـ بقيادة الإمبراطورية الأمريكية ـ ما لم يعد لها به احتمال .

وفي رأي المؤلف أن اختلال موازين القوي ، وانتهاك الشرعية الدولية والتهديد بالعقوبات والحصار الاقتصادي أدي إلى أن يصبح العالم غابة تحكمه شريعة الغاب . وكانت منطقة الشرق الأوسط ـ ودولها العربية بالذات ـ موقعا استراتيجيا مهما خاصة بالنسبة لثرواتها النفطية . وارتبط بذلك التمكين لا سرائيل ومساندتها في اغتصاب أرض الشعب الفلسطيني وغيره من أرضي الشعوب العربية الأخري ، انتهاء بغزو العراق تحت شعار مقاومة الإرهاب الدولي وتدمير أسلحة الدمار الشامل في كل مكان ، والذي جاءت أحداث سبتمبر ذريعته القاطعة .

تكفي إشارة الكتاب إذن ـ بمنهجه العلمي الرصين ولغته الرائقة الواضحة وعرضه السلس ـ إلى ما حدث من اختلال القيم وانتهاك المواثيق وتفاقم مشاعر الظلم وصور العنصرية واستباحة المقدسات إلى درجة الإحساس باليأس لدي شعوب أهل الجنوب ، وبخاصة بين شعوب المنطقة العربية والشعوب الإسلامية . ولأن اهتمام المؤلف الأساسي يركز علي الجانب التربوي فيما يسمي بالمذكرة التنفيذية التفصيلية لمبادرة كولين باول التي تنظر إلى بيئة التعليم في العالم العربي ، والعالم الإسلامي ، باعتبارها البيئة الرئيسية لتوليد ما تسميه هي بالإرهاب ، وأن أوضاع النظم العربية هي مركز تربية الإرهابيين فإنه يكشف عن موقفه الوطني والقومي الصارم في وجه كل صور التدخل الخارجي في التعليم ، مطلقا صيحته القوية : إلا التعليم يا أمريكا !

وهـو يقـول في كتابـه ـ بكـل وضـوح ـ إننـا نجـد أنفسنا أمـام نمـط امريكـي جديـد ـ ضـمن أنمـاط التعلـيم المختلفـة ، الـسائدة في الأقطـار العربيـة ، لـه برنـامج تفـصيلي متكامـل محكـم لخطـوات التنفيـذ إنـشاء ومـضمونا وتوقيتـا ، وتـشرف عليـه الهيئـات الأمريكيـة ـ بمـا فيهـا وزارة الخارجيـة ـ وتمولـه الحكومـة الأمريكيـة تمـويلا مباشـرا . يـضاف إلى ذلـك العمـل علـي إدخـال التغـييرات في المنـاهج الدراسـية الحكوميـة والخاصـة فيمـا يتعلـق بمنـاهج التربيـة الدينية واللغة العربية والتاريخ .

ويوضـح الـدكتور حامـد عمـار كيـف يهيـأ لتنفيـذ هـذا البرنـامج وتكاملـه بـدورات الإعـداد والتـدريب والتأهيـل للمـشتغلين بالعمليـة التعليميـة في مـدارس البـنين والبنـات ، وتـوفير مجـالات للأنـشطة الثقافيـة والتربيـة الـسياسية ، وتـدريبات خاصـة لـبعض الفتيـات العربيـات للريـادة والقيـادة في تحـديث أوضـاع المـرأة العربيـة وتطويرهـا . ومـن خـلال ذلـك كلـه ، فـإن البرنـامج التعليمـي يتجـه إلى ربـط أبنـاء الـدول العربيـة بأنمـاط الثقافـات الأمريكيـة ، كمـا أن مـن تميـز مـن خريجـي هـذه المـدارس والجامعـات الأمريكيـة لا بـد أن يـدخلوا دائـرة الـضوء والمناصـب الـسياسية في بلادهـم ، ومـن خـلال إنتـاج الـصفوة مـن هـذا التعلـيم الأمريكـي يـصبح ذلـك ضـمانا لا رتبـاطهم العـاطفي وترتيـب أفكـارهم مـع الولايـات المتحـدة الأمريكيـة ، وتأييد السياسات الأمريكية وتلافي خطر الإرهاب وخطورته .

ويؤكـد المؤلـف ـ في وضـوح سـاطع وصـراحة قاطعـة ـ أن هـذا البرنـامج يـسعي إلى تنـشئة أجيـال عربيـة جديـدة متأمركـة ، عقـلا ووجـدانا وسـلوكا وقيمـا ، واسـتلابا واغتـصابا لكـل مـا هـو وطـني أو قـومي أو إسـلامي ، في مقومـات مـواطنيتهم العربيـة وخـصوصياتهم الحـضارية . كمـا أنـه يـؤدي إلى محاصـرة نظـم التربيـة العربيـة الحكوميـة والخاصـة ، مـن خـلال تنمـيط العقـل العربـي في اتجـاه المـصالح الأمريكيـة ، واصـطناع الـصورة الأمريكيـة المثلـي في الديمقراطيـة ونظـام الحكـم . وبـذلك تتهيـأ كـل الإمكانـات للـسيطرة علـي مواردنـا وعقولنـا ، بعـد مـا أغرقـت أسـواقنا بالكوكلـة شـرابا ، والمكرنـة طعامـا ، والجكـسنة غنـاء ، والكجولـة لباسـا ، والنولنـة أعيـادا ، إلى غـير ذلـك ممـا أخـذ يـشيع مـن مظـاهر الحيـاة الماديـة والاجتماعية الأمريكية في ثقافتنا .

والحاصـل إذن ـ كمـا يقـول المؤلـف ـ هـو الرغبـة في برمجـة العقـل العربـي ، وتربيـة النخبـة الـسياسية المنـشودة المـؤازرة للمـصالح الأمريكيـة ، وفـتح قنـوات الاتـصال بـين هيئـات المجتمـع المـدني وإنـشاء مكتـب الأقليـات الـتي تـستطيع الاتـصال والـشكوي عـن طريـق الهيئـات الدوليـة وبخاصـة الأمريكيـة منهـا . وسـوف تـؤدي كـل هـذه الاجـراءات إلى تـوفير الظـروف الحاكمـة لتـسوية الـصراع العربـي الإسـرائيلي ، ووأد نزعـات العنـف والإرهـاب في منطقـة الشرق الأوسط (حسب مزاعم التقارير الأمريكية) .

أستاذنا الدكتور حامد عمار ـ عميد التربويين العرب ـ يدق ناقوس الإنذار مجلجلا منذرا بالمخاطر التي تحيط بتكوين الإنسان العربي ومحاولة أمركته ، وهو أغلي ما تمتلكه مصر والأمة العربية من ثروة متجددة للتقدم والنماء ، فلابد إذن من زراعته في أرضنا وتعهده بالنمو والازدهار والإثمار .

وهأنذا أحرص علي استدعاء لغته ـ بمفرداتها الناصعة ، وأساليبها المتوهجة بفكره من غير أن أقحم لغتي في السياق ، حتي لا أفسد تسلسل هذا الفكر وترابطه وتدفقه ، وأنا انقل عنه أن في مبادرة بأول ومذكرتها التفصيلية اتجاهات مشابهة تقوم بها مصر وغيرها من الدول العربية في سبيل تطوير نظمها التعليمية ، منها علي سبيل المثال: تحسين نوعية التعليم ليركز علي مقومات التفكير العلمي والحوار والنقاش ، والاهتمام بالأنشطة التعليمية ، وتطوير المناهج ، والتوسع في المشاركة في صنع القرار التربوي ، وفي السعي إلى فاعلية لا مركزية الإدارة . لكن الفارق رهيب بين أن نكون نحن أصحاب القرار في وضع الأهداف ورسم السياسات ، وأن نقوم نحن بالعمل علي تنفيذه ورصد نتائجه وتقويمه وأن تملي علينا شروط ومشروعات من الخارج ، لها أهدافها ومراميها الظاهرة والمستترة ، فالتعليم قطاع سيادي ، وجبهة من جبهات الأمن القومي ، كما يؤكد السيد رئيس الجمهورية والقيادات المسئولة في التعليم ما قبل الجامعي وفي التعليم الجامعي والعالي . والخطورة ـ كما يقول المؤلف ـ ليست في مجرد الالتقاء مع البرنامج الأمريكي في شعاراته الديمقراطية واهتماماته بالمرأة ، وإنما تكمن في تجسيد برامج ومؤسسات تعليمية عديدة ، تمثل نظاما تعليميا متكاملا مستقلا ومغربا ، مما لم يحدث حتى في فترات الاحتلال البريطاني في مصر . ومنظومتنا التعليمية ـ الحكومية والخاصة والازهرية ـ مع ما بينها من تباينات تظل ملتزمة بمناهجنا في إطار ثقافتنا بمكوناتها الوطنية والقومية والدينية . والجامعات الأجنبية في مصر ـ كالجامعة الأمريكية وما يستجد من جامعات بريطانية وفرنسية وألمانية وغيرها ـ يتم إنشاؤها وتنظيمها بالاتفاق مع الحكومة المصرية ، أما المدارس الأمريكية المنتظرة فسوف تكون خارج أي تدخل مصري ، والعكس صحيح كما تقول التقارير: فإن من حق السلطات الأمريكية إلزام مناهجنا التعليمية بالتغيير من أجل تفريغها من كل ما يرسخ مقومات الوطنية والهوية الذاتية ، بحجة أن أوضاعها الحالية ـ كما تزعم التقارير ـ تمثل البيئة الأساسية لتوليد كراهية الغرب ، وبروز تيارات التطرف والإرهاب ـ ما هو الحل إذن في رأي الدكتور حامد عمار ؟

لابد من جهد قومي يخضع للممارسة والتقويم بكل ما يتعرض له من مد وجزر ، ولابد من فعل دءوب وعقل منفتح لا يتردد في الاستعانة والاختيار الملائم من خبرات الثقافات الأخرى وإلىاتها ، بل انفتاح رشيد ودون عقد أو تعصب . ومن خلال هذه

الرؤية في الندية والاعتماد المتكافئ نلتقي في كل ما يمكن أن يقدمه لنا الغرب والولايات المتحدة الأمريكية من وعي وخبرة دون شروط ودون تعسف ودون تهديد بالتدخل السافر أو المراوغ ودون إنذار بالعقاب . وفي هذا الصدد يظل مبدؤنا في التعليم ـ كما في غيره من مجالات التنمية الأخري ـ ليكن كل ما هو عالمي في خدمة كل ما هو عربي .

والناقوس الذي يدقه المؤلف يتطلب عملا جماعيا للوعي بتداعياته واقتضاءاته حاضرا ومستقبلا . لذا ، فهو يدعو إلى دعوة عاجلة لمؤتمر تربوي أهلي عام ، تسبقه لجنة مصغرة للإعداد له وتحديد محاوره ، والمسئولية هنا تقع علي المنظمات المهنية : نقابة المعلمين ورابطة التربية الحديثة ، ومختلف الجمعيات التربوية والنفسية . ويشارك فيه ممثلون لجميع كليات التربية والأحزاب والمجتمع المدني ، وبعض أهل الفكر والرأي بهدف إصدار إعلان في مواجهة مخاطر البرامج الأمريكية ، وتحديد الأولويات والموارد الوطنية لا ستكمال الرؤية والمسيرة في تطوير مختلف مراحل التعليم المصري ، من أجل بناء مصر المستقبل ، بالجهد المصري ، وبالعزة الوطنية . إن مثل هذا الفكر ، وهذا التوجه الوطني المخلص ، في الكتاب الجديد والشجاع للدكتور حامد عمار جدير بالاحترام مستحق للثناء والتقدير ، فضلا عن الدراسة والتأمل ممن يتصدون الآن لتطوير التعليم .

هذا الناقد نحن محتاجون إلى ه

بقلم : فاروق شوشة

من عجائب هذا الزمان ــ الذي لا نهاية لعجائبه ــ أننا نري من لا يحسنون أمرا من الأمور ، وهم يتظاهرون بأنهم الأساتذة والخبراء فيه . والأكثر عجبا أنهم ــ في أحيان كثيرة ــ لا يملكون المفاتيح الأولي التي تعد بمثابة ألفباء الأشياء ، ومع ذلك فهم يلبسون مسوح العارفين ، ويتنطعون في محاولة لا خفاء جهلهم والتظاهر أمام حوارييهم ومريديهم ــ الذين يشاركونهم جهلهم وتخلفهم ــ بأنهم فرسان هذا الزمان وحاملو راياته وأصحاب فتوحاته .

من العجيب فعلا أن نجد محققا كبيرا ، يعكف علي تحقيق ديوان شاعر كبير ، فإذا بهذا الديوان ــ عند نشره ــ يمتلئ بمئات الأخطاء مصدرها الرئيسي الجهل بعروض الشعر وأوزانه وموسيقاه ! وأن نجد من يتصدون لا نجاز رسائلهم للماجستير والدكتوراه عن البنية الإيقاعية لدي شاعر من الشعراء ، وعن تحليل موسيقاه وتأمل البناء العروضي لقصائده ، وهم لا يفرقون بين الوافر والكامل ، أو بين السريع والمنسرح ، ولا بين المقتضب والمضارع ، بل لا يدركون الفرق بين البحور ذات الوحدة المفردة والبحور ذات الوحدة المركبة ، لكنه كما قلت زمن العجائب ، والعجائب لا تنتهي .

هذه مقدمة ضرورية قبل الولوج إلى هذا العمل المتسم بالجدة والجدية في آن . الجدة لا نه يقدم دراسة ثرية ممتعة عن التحليل النصي للشعر ، والجدية المتمثلة في أن صاحب البحث يمتلك عدته ، ويناجز بأدوات قادرة علي النزال ، ويمسك بناصية اللغة والشعر معا ، ويخرج من دراسته بحصاد موفور .

الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف في كتابه : الإبداع الموازي ــ التحليل النصي للشعر يدعو إلى تناول الشعر باعتباره فنا لغويا ، من هنا فإن النحو يعد أحد الأبنية الأساسية التي ينبغي الاعتماد عليها في تفسيره لا ن العلاقات النحوية في النص ــ علي مستواه الأفقي ــ هي التي تخلق أبنيته التصويرية والرمزية ، وعلي مستواه الرأسي هي التي توجد توازيه وأنماط التكرار فيه وتحكم تماسكه واتساقه ، وهذا كله يؤسس بنية النص الدلإلىة والدكتور محمد حماسة يتوسع في مفهوم النحو بحيث يشمل منظومته القواعد الصوتية والصرفية والتركيبية التي تحكم بنية النص في ترابط وانسجام ، لا ن كل عنصر في بنية النص اللغوية يمثل جزءا في بناء دلالته . والتفسير الدلإلى لا ي نص يقوم علي كل هذه المعطيات .

من ميزات هذا الكتاب أنه ـــ وهو يؤسس لمنهج في التحليل النصي للقصيدة ـــ يدير البحث من حول التنظير والتطبيق . وهو علي مستوي التنظير يري أن التحليل النصي لا بد أن يؤسس علي النص نفسه . ولا يصبح النص نصا إلا إذا كان رسالة لغوية تشغل حيزا معينا فيها جديلة محكمة مضفورة من المفردات والبنية النحوية . هذه الجديلة المضفورة تؤلف سياقا خاصا بالنص نفسه ينبث في الرسالة اللغوية كلها . وكما أن لا بناء اللغة المعنية سليقة تهديهم إلى معرفة النظام النحوي للغتهم بكل أبعاده الصوتية والمعجمية والتركيبية والدلالية ، فإن لديهم كذلك حسا مدربا أو سليقة نصية تساعد علي إدراك وحدة النص .

وهناك عدد من المعالم الخاصة بهذا المنهج أهمها يكمن في ضرورة النظر إلى القصيدة علي أنها نص واحد وبنية متكاملة لا يغني جزء منه عن جزء آخر . والنص الواحد يتفاعل بعضه مع بعض بطبيعة كونه نصا واحدا . وقد تبدو القصيدة في بنيتها الظاهرة جامعة لعدد من الصور ليس بينها ـــ كما يظهر ـــ رباط جامع ، إلا أنها جميعا في قصيدة واحدة ذات وزن واحد وروي واحد . ولها بنية عميقة تجمع هذه الصور في إطار واحد علي تباعد ما بينها ظاهريا . .

ومنها أيضا أن النص الواحد تحكمه علاقات لغوية ودلالية تعمل علي تماسكه وترابط أجزائه ، وعلي من يتصدي لتفسير النص أن يستعين بهذه العلاقات بنوعيها . ويترتب علي الاهتمام بالنص ، بوصفه وحدة دلالية واحدة ، الاعتماد علي القصيدة وحدها في استخراج كل المعطيات التي تعين علي تفسير النص دون النظر إلى مساعدات من خارجه ، حتى لو كانت تفسيرات الشاعر نفسه . فالشاعر بعد أن ينشئ قصيدته يصبح مثله أمامها مثل أي متلق آخر ، ولا يكون الشاعر بالضرورة أقدر علي تفسيرها من غيره ، فهو قد قال ما قاله بالطريقة التي يجيدها ، وأما التفسير فهو مهمة نوع آخر من المتلقين .

حرصت علي أن أنقل فكر الباحث الجاد ـــ أستاذ الدراسات النحوية ، الشاعر ، أستاذ العروض والموسيقي ، عضو مجمع اللغة العربية ، وكيل كلية دار العلوم ـــ أنقله بكلماته هو ، حرصا علي أمانة العرض ، ورغبة في توصيل هذا الفكر دون تشويه . منتقلا إلى المنطقة التي تألق فيها وهو يقدم تطبيقاته علي منهجه ، من حول نصوص مختارة: طلل الوقت للشاعر أحمد عبد المعطي حجازي (مع الاهتمام بظاهرة انكسار الإيقاع) وآية جيم للشاعر حسن طلب (والتوقف عند آية الجنون بالشعر أو الاحتماء باللغة) وحصاد الريح للشاعر الكويتي خليفة الوقيان (والتركيز علي المفارقات الساخرة) ، وبعض مفاتيح النص الشعري عن حطان بن المعلي وأبي ذؤيب الهذلي وزهير بن أبي سلمي وأحمد شوقي (في همزيته النبوية) ومالك بن الريب في مطلع مرثيته لنفسه ،

وقصيدة أحد الأعراب في موقف ندم علي زواجه من امرأتين وأخيرا عن نمط صعب من العلاقة بين وزن الشعر ومادته عند الأستاذ محمود محمد شاكر .

يري الدكتور محمد حماسة أن من الوسائل الإجرائية أو المفاتيح التي قد تفيد في بعض النصوص حركة الضمائر علي سطح النص ، وتنوع هذه الضمائر من متكلم أو مخاطب أو غائب ، وغلبة بعضها في النص علي البعض الآخر ، والتحول الذي يتم بينها ، واكتناف بعضها للبعض الآخر ، واحتواء بعضها للبعض الآخر . وما يظهره كل ذلك من حركة دلإلىة في النص نفسه تعد انعكاسا لحركة الضمائر في النص ، فضلا عما تقوم به الضمائر من التماسك النصي من حيث الإحالات المتطابقة أو غير المتطابقة ، أو التبادل بين الظاهر والمضمر أو العكس . .

في التحليل النصي الذي يقدمه الدكتور محمد حماسة يقول: في هذا النص نجد ضمير المتكلم (المفعول به) هو الغالب ، فهو — إذن — مقهور (أنزلني — غالني — أبكاني — ربما أضحكني) . هذا المتكلم المقهور بضميره المفرد عندما يأتي في حال الامتلاك يكون بالنفي (ليس لي ما ل) أو في جواب (لو) الامتناعية — فهو أيضا منفي (لكان لي مضطرب واسع) ، (لا متنعت عيني عن الغمض) فهو أيضا مقهور بالعدم . ضمير المتكلمين المفرد هذا يتحول إلى ضمير المتكلمين الجمع (وإنما أولادنا — بيننا — أكبادنا) وهنا يدخل المتكلم في جمع كبير مما يفيد أن القضية هنا كلية ، فهي حقيقة عام ة تنطبق علي الجمع ، ومما يوحي بأنه ليس وحده في هذا ، ولو أن غيره مكانه لفعل مثل ما يفعل . ونجد هنا أيضا أن ضمير المتكلم المفرد يقوم مقام الجمع ، فقد كان السياق يقضي أن يقول: (لا متنعت أعيننا عن الغمض) لكن الذي قيل هو: (لا متنعت عيني) فأدخل نفسه مرة أخري ضمن الجمع ، وناب عنهم جميعا في الامتناع عن الغمض مما يوحي بقدر عال من الإنسانية التي ترق وتبكي لا ن هناك فلذة من كبد أي إنسان تهب عليها الريح .

دور الضمير وتنوعه في النص يعطي مجالا آخر لتعدد الأصوات في النص مما يكسب النص دارمية ، خاصة إذا اقترن تنوع الضمائر بحوار في البنية النصية فإن هذا الحوار يضفي علي النص حيوية وتدفقا ، وينفي عنه أحادية الصوت التي قد تدفع الملال ، أو تحول النص إلى الإفضاء والبوح الذاتي إذا استطاع أن ينجو من الإملال .

هذا ناقد نحن في حاجة إلىه . إنه يكتب لنا ويخاطبنا نحن القراء وليس لغيره من النقاد كما يفعل كثير من نقدة هذا الزمان . وهو يحرص علي أن يستخدم ثقافته اللغوية ومنهجه في التحليل النصي لا ضاءة النصوص الشعرية ، والكشف عن مفاتيحها وأسرارها ، والولوج بنا إلى عوالمها التركيبية والدلإلىة ، والنفاذ إلى بنيتها العميقة .

وفي مثل هذا النقد ـــ الذي يتميز بالجدة والجدية ـــ يكمن الإبداع الموازي للإبداع الشعري نفسه .

عن الكاريكاتير والأغاني والإذاعة -٣ -

بقلم : فاروق شوشة

في كتابه الذي يحمل هذا العنوان ، الصادر في سلسلة كتاب الهلال يكشف الناقد الكبير الراحل الدكتور علي الراعي عن بعض تجليات الكتابة عنده في آفاقها الموسوعية الرحبة ، وهي كتابة جوهرها فكر متفتح ، ولغة طيعة ، وروح جياشة بالحياة والفرح والنشوة البالغة ، هو- في هذا الكتاب الجديد الذي يصدر بعد رحيله بخمس سنوات- أستاذ للتذوق الفني ، ومؤرخ كبير ، وصاحب خبرة عميقة في فنون الأغنية والموسيقي والكلمة والصورة واللوحة والرسم والعزف والتمثيل والمسرح الغنائي والكاريكاتير .

تستوقف علي الراعي نداءات الباعة بأصواتهم الرخمية ، وألحانهم الفطرية الشجية ، وهم ينادون علي بضاعتهم في أيام البلح الامهات: ولا تين ولا عنب زيك . يابتاع العلبة يا عسل .

وهم في حقيقة الأمر ينادون ويتغنون بالجميز قبل أن يختفي ، وتقطع أشجاره ، ويحرم الناس فاكهة شعبية رخيصة وحلوة ومفيدة . يقال ان الفراعنة كانوا يستخدمون الجميز غذاء ودواء معا . ولكن التين كان فاكهة الاوفر ما لا ، وقد لا حظ الشاعر القديم هذا التميز فجعله أساسا للتميز الطبقي بين الناس حيث قال للتين قوم وللجميز أقوام . ويلتقط الدكتور علي الراعي- في موسم العنب- نداءات البائع وهو يغني له ويقول: والله سلامات بعد الغيبة يا عنب . زي بيض إلىمام وأبيض يا عنب . ويعلق بقوله: فالعنب كان مسافرا ، وقد عاد بعد أن أوحشتنا غيبته ، وحباته ليست بالحجم المعروف ، بل هي في حجم بيض إلىمام ، وهي أيضا أبيض من هذا البيض ، واذا كان الموسم موسم المشمش ، راح البائع الفنان يغني له هكذا: المشمس استوي وطاب وطلب الاكالة يا حموي يا ناعم أو هكذا: الله عليك يا للي الهوي هزك ورماك يا مشمش وجعلك شربات يا حموي ياناعم .

مثل هذا البائع الفنان صادفه ذات يوم فنان الشعب سيد درويش ، فسار وراءه قاطعا شارعا وحارة حارة ، حتي اتصل بسر اللحن الجميل الذي كان البائع يغني به علي بضاعته ، ولم يهدأالشيخ سيد عن المتابعة حتي سجل في داخل نفسه الفنانة هذا اللحن ، وأعمل فيه فنه هو ، وقدمه من بعد في أغنياته الخالدة عن البياعين .

ويتـصل وجـدان علـي الراعـي بوجـدان يحيـي حقـي ، وكأنمـا بينهمـا اتفـاق غـير مقـصود ، حـين تـستوقف يحيـي حقـي في كتابـه نـاس فـي الظـل نـداءات الباعـة الجـوإلىن وأصـواتهم الرخيمـة وألحـانهم الفطريـة الـشجية ، فيـصور كيـف كـان راقـدا في حـضن الليـل الـرحيم الوديـع المتلـيء بالاسـرار ، حـين ارتفـع إلى أذنـه خـلال العتمـة والنـسيم والهـدوء صـوت عفـي رخـيم ينـشد بـنغم حلـو: لا تـين ولا عنـب زيـك يـا رطـب . قفـز يحيـي حقـي مـن فراشـه وصـاح: يـارب ، هـذا مـستحيل ، لا معقـول ، غـير ممكـن . إن هـذا الـصوت بعينـه ، بنطقـه وجرسـه ونبرتـه ولحنـه ونغمتـه ، بتتـابع تموجاتـه بـين علـو وانخفـاض ، بـين مـط وادغـام ، سمعتـه بالليـل وأنـا صـغير في حجـرة عإلىـة الـسقف في بيـت مـن حجـر وعـروق خشب ، خمـسون سنة وأكثـر تمـضي ، وهـذا النـداء هـو بـاق ، خالـد . لـيس لحنـه ونغمتـه فحـسب ، بـل يكـاد الكاتـب يقـول: وصـوت البـائع أيـضا ، كأنمـا نـدبت مـصر منـذ وعيهـا رجلا واحدا من أبنائها لبيـع الرطـب ، وأجـازت لـه وحـده تناسـخ روحـه عمـرا بعـد عمـر قـال يحيي حقـي في سره لبـائع الـبلح: خبرنـي بربـك يـافتي ! مـن أي بلـد أنـت ؟ مـن منـوات أم مـن البـساتين ؟ مـن الـذي سـاقك إلي ؟ لقـد ألغـي نـداؤك خمـسين سـنة مـن عمـري وردنـي بـصدفة واحـدة إلى طفـولتي . يـا فـتي: جعلـتني أتحـسر لحبـستي في هـذه الحجـرة في قلـب المدينـة ، اشـتقت بـسببك إلى النخيـل . والنخلـة رمـز بلـدي في توحيـدها وخيراتهـا: مـن اللحـاء مقـاطف ، وليـف للحبـال . مـن الجـذع أسـقف ومـن الجريـد أقفـاص ، ومـن الخـوص طلـــوع القرافـــة ، ومـــن التمـــر غـــذاء محـــترم يقـــوي علـــي شـــرائه الفقـــير . ويلاحـظ علـي الراعـي أن يحيـي حقـي يفـرق بـين نـداءات باعـة الملوخيـة والفاصـوليا واللوبيـا والباذنجـان والبـصل والثـوم والكـرات والترمـس والجـرجير والبطاطـا والقوطـة والنبـق والتـوت والجميـز والمـشمش والعنـب والـتين . فهـو يـري أن هـذه حاصـلات مـصر الأصـيلة ، وهـي نـداءات منقوشـة علـي الحجـر ، أمـا المـستحدثة منهـا كالجوافـة والمـانجو والفراولـة فإنهـا لم تجـد لهـا الملحـن العبقـري المجهـول الـذي يـسلكها في الخالـدين . فالنـداءات عليهـا أشـبه بصفحة مكتوبة بأسلوب تقريري وسط كتاب يتلألأ بأسلوب فني يصافح الشعر .

ويعـرض لـرأي يحيـي حقـي الـذي يطالـب بـأن تـسجل نـداءات الباعـة ، وأن ينـظر إلىهـا نظـرة جـادة حقـا . فهـي- في رأيـه- تقـدم بالمجـان وبغـير عنـاء منـا أو تـأإلىف لجـان أرقـي معـرض للاصـوات . وهـو يـتمني أن يلحظهـا القـائمون علـي الكونـسر فـاتوار ومعهـد الموسـيقي والاذاعـة ، وان يـستمعوا إلىهـا وأن يتـشمموها ، لا ن مـن بينهـا خامـات تـستحق الاستنقاذ والعناية بتربيتها .

ويـذكرنا الـدكتور علـي الراعـي بمـا سـبق أن تناولـه في كتابـه: همـوم المـسرح وهمـومي تحـت عنـوان المـسرح الغنـائي مقـدما وصـفا تفـصيليا للحالـة الـتي أدت إلى الركـود الحـإلى في حقـل الغنـاء ، ولا يفوتـه التنويـه بالهديـة الثمينـة الـتي قـدمها الأخـوان رحبـاني ونجمتهمـا

الساحرة فيروز للمسرح الغنائي العربي . فقد تلقف هذا المثلث الذهبي الشعلة المنطفئة من مصر وأوقدوا فيها نارا مقدسة ، فإذا بالمسرحية الغنائية تبعث من جديد ، وإذا بالعمل المسرحي يتبعه عمل آخر في فترات متعاقبة بدءا من أوائل الستينيات حتي السبعينيات . وتراوحت هذه الأعمال - في رأيه - بين البراءة الرومانسية ، والواقعية النقدية التي تشير بإصبع الاتهام إلى موضوع الداء وكوامنه .

وفي ذكري رحيل المبدع الكبير صلاح جاهين - الذي غاب عنا في٢١ أبريل١٩٨٦ - يكتب الناقد الكبير الدكتور علي الراعي تحت عنوان: فنه فرشاة وسلاح وباقة حب قائلا: إن صلاح جاهين غاب عنا فغاب كثير من علامات البهجة والحب والوجد بالحياة . كان صلاح جاهين يعرف طريقه وغايته ، وكان يدرك أهمية وسيلته ، ويري أنها سبيله وعدته وروحه وقلبه معا . كان صلاح جاهين يدرك جلال الكلمة وعظم الدور الذي يمكن أن تقوم به في تغيير البشر . كتب يقول: اتكلموا ، اتكلموا ، محلا الكلام ، ما ألزمه ، وما أعظمه . في البدء كانت كلمة الرب الإله ، خلقت حياة ، والخلق منها اتعلموا ، فاتكلموا .

وحين يتكلم الناس تصبح كلماتهم أفعالا نافعة: الكلمة إيد ، الكلمة رجل ، الكلمة باب . الكلمة نجمة كهربية في الضباب . الكلمة كوبري صلب فوق بحر العباب . الجن ، يا أحباب ، ما يقدر يهدمه ، فاتكلموا ! .

من أجل هذا الدور الخلاق ، عشق صلاح جاهين الكلمة ، وجعلها تعبر عن أدق خلجات النفس ، وترسم للناس وللأشياء صورا باقية . الكلمة الخلاقة هي التي جعلت الشاعر يصادق من صادق ويعادي من رآه يستحق العداء . أحب جاهين شاعر الشعب الكبير بيرم التونسي حيا ، فلما ما ت كتب في رثائه واحدة من أروع قصائد الرثاء ، ليس في شعره هو فحسب ، بل وفي الشعر العربي علي الإطلاق ، فصيحه ودارجة علي السواء . يتخيل صلاح جاهين عروس الشعر تسير في حي البغالة بملاية لف وكف متحني . تري جنازة فتسأل:

مين اللي ما ت يا شاب يابو دموع ؟
قالت عروس الشعر للموجوع
مين اللي ما ت يا شب ، قل لي يا خويا
قالت عروس الشعر ليكون أبو يا !
أنا قلت أبو نا كلنا يا صبية !

* *

مات زي ما كتف الجبل ينهد
مات باقتدار وفخار ، ما قلش لحد

بيرم ، ومات ما شي في طريق المجد
وجنازته ما شية أهه في شارع السد
والنعش عايم في الدموع في عنينا

* *

فايت في قلب القاهرة ومعدي
هو عارفها وهي مش عارفاه
علي كل حارة وكل عطفة يهدي
كأنه راجع لسه من منفاه
يبوس بعينه اللبدة والجلابية !

وكما تعزف كلمات جاهين نغمات الحب ، تعزف أيضا كيف توجه مشاعر الكره للجانب السيئ من أمريكا :

في الرواية الأمريكانية : العصابة
تقتل اللي تخاف ، ليفتن للنيابة
الزعيم يأمر بسحبه جوه غابة
والرصاص يعمل عزومة للديابة

* *

أصله كان يعرف حاجات فوق اللزوم
والقتيل عمره ما ينطق أو يقوم
والعصابة الأمريكية العالمية
مش بتسرق مية ولا خمسمية
لأ دي بتقشط شعوب م الانسانية
والسلاح ذرة وقنابل ميكروبية !

* *

هذا هو علي الراعي في كتابه الجديد الصادر بعد رحيله بسنوات : عن الكاريكاتير والأغاني والإذاعة . تفوح سطوره ببعض من عطره الباقي . ويذكرنا بصوته النقدي الجاد ، وعشقه للجمال والإبداع ، ومحبته الغامرة ، لكل من كتب عنهم ، في أسلوب ممتلئ بالنبض والدفء والحرارة ، وتناول يؤازره حس ذكي مرهف ، وثقافة موسوعية شاملة . وشكرا لكريمته : ليلي الراعي ـ الصحفية بالأهرام ـ التي أتاحت لقرائه متعة قراءة هذا الكتاب ، وكتب أخري له صدرت بعد رحيله .

عن الكاريكاتير والأغاني والإذاعة - ٢ -

بقلم: فاروق شوشة

صدور هذا الكتاب الجديد عن الكاريكاتير والأغاني والإذاعة للناقد الكبير الدكتور علي الراعي ـ بعد رحيله بخمس سنوات ـ في سلسلة كتاب الهلال ، فرصة كاشفة عن مساحة من الوعي العميق والرؤية النافذة والحس المرهف الذي امتلكه هذا الكاتب الرائد ، الذي يتمثل انجازه الكبير الباقي في كتاباته عن المسرح المصري والعربي والرواية المصرية والعربية ، وتتسع الدائرة أكثر وأكثر ، لتشمل من خلال هذا الكتاب وغيره ـ كتاباته البديعة عن فن الكاريكاتير وأعلامه : بهجت عثمان ومحيي الدين اللباد ، وحجازي ، وعن الشعر والزجل والأغاني والمسرح الغنائي والإذاعة .

وفي مقال الأسبوع الماضي استوقفني ـ ونحن ما زلنا نعيش مناسبة احتفال الإذاعة المصرية بعيدها السبعيني ـ حديثه عن بناة الإذاعة العظام ، والرواد الأوائل الذين كان لهم فضل إقامة هذا الصرح الحضاري منذ عام ١٩٣٤ ، من خلال الفصلين اللذين زين كتبهما الدكتور الراعي عن عبد الحميد الحديدي و عبد الحميد يونس ، أولهما أصبح في خاتمة المطاف رئيسا للإذاعة والثاني رئيسا للتليفزيون لكن العناصر المشتركة بين الرجلين كانت الثقافة والجدية والالتزام والوعي بأهمية الدور الذي يقوم به هذا الجهاز الجديد ـ الإذاعة ، في حياة الناس وفي تغيير المجتمع وتطويره .

في بقية فصول الكتاب تطالعنا جوانب أخري من شخصيته ، علي الراعي الكاتب الأسبوعي في الأهرام ، الذي يعرف كيف يخاطب قارئ الصحيفة إلىومية من حيث الاهتمامات وأسلوب الكتابة ، فهو لا يقيد كتاباته بقيود الأكاديمية الصارمة او التنظير المدرسي ، ولا يثقلها بالزهو المعرفي ـ او التنطع بالمعرفة ـ وادعاء المنهجية ، هنا ، نجد علي الراعي: الفنان ، أستاذ التذوق الفني ، السميع ، صاحب الخبرة العميقة والحس المرهف في تقويم الأغنية واللحن والكلمة والصورة واللوحة والرسم والعزف والتمثيل ، والذوق المثقف الناضج الذي يفتح لقارئه دروبا ومسالك جديدة لا كتشاف المتعة وتذوق الجمال ، وهكذا كانت كتاباته في العديد من الصحف والمجلات خاصة مجلة المجلة وصحيفة المساء ومجلة العربي الكويتية ومجلة المصور وصحيفة الأهرام وكثيرا ما جاءت هذه الكتابات منداة بطبقة رقيقة من السخرية اللاذعة والفكاهة اللماحة والقفشات الذكية والحس الفني المتوهج والوجدان المحتشد بالحكايات والأغاني والأشعار والمواويل والأساطير والمأثورات الشعبية . ولاشك ان تعميقه لمفهوم الفرحة في المسرح ، وعكوفه علي دراسة فن الارتجال كان نابعا من شخصيته الفنية الشديدة الغني والتنوع ، القادرة علي

التشخيص والتجسيد ، . علي مستوي اللمحة والفكر ، والموقف والعبارة هو - مثلا - يأسي لتراجع فن الكاريكاتير في بلادنا ، ويتساءل عن أسباب هذا التراجع ، ويجري حوارات مع بعض اعلام هذا الفن ، من منطلق ايمانه بأن الصورة الكاريكاتيرية الناجحة تلتقط عيبا أو عيوبا في الفرد او الجماعة أو الوطن أو المؤسسة أو النظام ، فتسلط عليها الضوء الكاشف ، وتبرزها وقد تبالغ فيها حتي يتحقق الهدف الذي يسعي إليه فن الكاريكاتير ، وهو لو استعرنا عبارة عبد الله النديم: التنكيت والتبكيت ، أي التهكم واللوم ، وما يرجي وراءهما من حفز إلى التغيير .
ويحزن عندما يري من بقي من كبار نجوم هذا الفن المجيد - بعد ان رحل بعض اعلامه من أمثال صلاح جاهين و عبد السميع والليثي وزهدي ، واغتالت عصابات الاجرام واحدا من أكبر فناني الكاريكاتير العرب وأشدهم اخلاصا وأحدهم لسانا وريشة وأشملهم هجوما علي أمراض الأنظمة العربية جميعا ، من المحيط إلى الخليج ، ويعني به الفنان الكبير ناجي العلي - يحزن عندما يري فيمن بقي من الكبار الصمت ، والانشغال عن الكاريكاتير بالرسم لمجلات الأطفال ، أو الاشراف علي اخراج الكتب الأدبية والفنية ، أو الكتابة عن زملاء عالميين من رسامي الكاريكاتير أو الاشتراك بالرسوم الكاريكاتيرية في المعارض الدولية ومسابقاتها . ويصل الدكتور علي الراعي بنفاذ بصيرته إلى الحقيقة الكامنة ، وراء تراجع فن الكاريكاتير - في رأيه - وهي ان هامش الحرية المتاح الآن امام فنان الكاريكاتير ليس كبيرا بما فيه الكفاية .

وآخر ما رسمه هؤلاء - للصحف والمجلات - كان ينشر وشبح الخوف يسيطر علي المشرفين علي هذه الصحف والمجلات .

وفي رأيه أيضًا أن تطورات لا حقة دفعت الفن الكاريكاتيري إلى الانكماش أبرزها قانون الصحافة - الذي ووفق عليه في عجل - والذي يجعل الكلمة او الرسم أو الخبر موضوعا قابلا للمساءلة الغليظة ، إذا ما تم تكييفه علي أنه ازدراء بالحكومة ومؤسساتها ، ويكون عقابه السجن والغرامة ثم يقول علي الراعي ، وقد انقسم رسامو الكاريكاتير بازاء هذا التهديد الخطير لحرية التعبير اقساما مختلفة: بعضهم آثر العافية ، فجعل يرسم ما لا يحمل خطر ازعاج السلطات مثل مدح مشروعات الوزراء التي يري الفنان انها ناجحة ، ومثل الرسم علي هامش المقالات التي تنشر عن موضوعات جادة مثل الإرهاب والجنس والمخدرات والانفجار السكاني ومثل الهجوم - بحرية - علي أعداء خارجين ترحب السلطة بالتنديد بهم . تعنت اسرائيل ، وديكتاتورية الحكام وعدوانية الأنظمة خارج مصر . أما القسم الأخير فقد صمت ، لا نه يري انه - في الظروف الحالية - لا مكان للنقد الكاريكاتيري الجاد والمفيد .

ولا يترك كاتبنا الكبير الفرصة ، فرصة طرح قضية تراجع فن الكاريكاتير من غير أن ينتقل من الخاص إلى العام ومن الجزئي إلى الكلي ، ومن الدائرة الضيقة المتخصصة إلى الأفق الوطني والقومي العام ـ شأنه في سائر كتاباته ـ فيختتم وقفته الشجاعة بقوله : وهذا ما يدعونا جميعا إلى بذل مزيد من الجهد لتخليص حرية التعبير ـ بالكلام والرسم معا ـ من قيود لا معني لها ولا مبرر لوجودها . إن استمرار هذه القيود يحمل معه خطر وأد فن الكاريكاتير ودفنه في التراب . وبهذا نفقد فنا جميلا آخر ، طويل اللسان ، شديد الطرافة ، بالغ الأثر ، مثلما فقدنا من قبل فن المونولوج العظيم ، الذي كان منذ أوائل القرن واحدا من أشد الفنون دفاعا عن حرية الناس وأقدرها علي مساندة القضايا الوطنية والعدل الاجتماعي .

من المهم جدا أن ألفت انتباه كتاب هذه الأيام ، في الأهرام وفي غيرها ، إلى الطريقة التي كان يكتب بها علي الراعي ، والأسلوب الجميل الرائق الشديد العصرية والمضخ بعطر هذه الشخصية الأدبية والفنية والفكرية الجميلة والنبيلة ، الذي كان يذيب فيه فكره ويصوغ منه حبات عقده الفريد ، مقدما لقارئه ـ مهما يكن مستواه ـ نموذجا بديعا للكتابة الجميلة ، المتوهجة بالوعي والمعرفة قول علي الراعي وهو يكتب عن محيي الدين اللباد ورسومه ونظراته الثاقبة : ألقيت شباكي في البحر الزاخر . خرجت الشباك بالصيد الوفير يبرق ويتلألأ قال لي الصيد لا تكتف بالفرح . انظر ، فإن النظر يهدي إلى البصر . البحر الزاخر هو بحر محيي الدين اللباد ، والصيد الذي خرج لي كان حصيلة سيره في الدروب الكثيرة التي مشي فيها بحثا عن نعمة البصر . البصر بالأشياء وبالنفوس لبيت دعوة الصيد في الشباك ونظرت . قالت لي رسوم اللباد : ان الفن يحقق للفنان ما يعجز عن الوصول إليه في عالم الواقع . وقال اللباد نفسه : عندما كنت صغيرا ، كنا نسكن بقرب جامع السلطان حسن ، وكان الترام الذي يمر في الشارع الكبير ـ عندما يدور بجوار الجامع ـ يصدر صوتا عظيما ـ وكان سائق الترام عندي اعظم وأهم رجل في العالم ، لا نه يقود هذا الوحش العملاق المهيب ، وظللت أتمني ان أصبح سائق ترام عندما اكبر ، وكبرت ، ولكني لم أتمكن من ان اكون سائق ترام ، بل ولم استطع حتي ان أتعلم قيادة السيارات .

لكني تعلمت الرسم وأصبحت مجرد رسام مجرد رسام ـ يقولها اللباد في تواضع ، ولكنه يعلم تماما ان الرسم لا يمكن ان يكون مجرد شئ . الرسم قوة ضاغطة صانعة ، تهدف إلى تغيير العالم ، ومن هذا المنطلق يصبح الرسم سلاحا وفنا معا . من اجل هذا وجدت ان اللقب الذي يمكن ان أطلقه علي محيي الدين اللباد ليس صانع الكتب كما يفضل هو نفسه ان يعرف . بل محيي الدين اللباد رب الريشة والقلم هذا اقرب إلى أن يصور حال الفنان ، وحال فن الكاريكاتير الذي هو واحد من اقطابه الثلاثة الباقين لنا ،

بعد أن اختفي زهدي ، والليثي و عبد السميع كتب هذا الكلام قبل رحيل بهجت ذلك ان فن الكاريكاتير يحقق ما طالب به الشاعر السوفيتي الكبير ما ياكوفسكي حين قال: اريد للقلم ان يساوي البندقية ، وان يحسب مع الحديد في مجال الصناعة هكذا ينطلق علي الراعي في كتاباته: نسيج وحده في هذه اللغة الصافية الرائقة ، المتدفقة كإفضاءات نفسه النبيلة العذبة ، وروحه النبيلة الحانية . هي لغة تحتاج إلى دراسة وعمق تأمل ، باعتبارها مثالا ونموذجا للعصرية والجدية والسلاسة في آن واحد . هكذا ، في غمرة توهجه بجمر الكتابة وسحرها رأي علي الراعي ان اللباد يأخذنا في ساحات تحركه الواسعة ، يطلق نظرة جريا وراء مجالات التعبير المختلفة ، يرتد إليه النظر بحقيقة فنية مهمة: ان الدنيا كلها قصيدة رسم عناصرها الحركة بالصورة والصوت والفكر والصمت احيانا . الدنيا كلها تعبر عن نفسها تعبيرا مرئيا . انظر إلى مهابط الطائرات في المطارات ـــ اضواء الاشارة في الشارع وفي الميناء ، حركات الأرجل والوجوه في مجالات الرقص والتمثيل ، الرسوم التي يخططها البعض علي أجسامهم: رسوم الهنود الحمر ، ونقوش الحناء علي أيدي الحسان ! لكن ، ما الذي نعرفه عن علي الراعي: السميع ، الذي يتوقف امام التجليات الغنائية واللحنية عند ام كلثوم و عبد الوهاب ، وكتابات بيرم التونسي واحمد رامي وصلاح جاهين ونداءات الباعة عن التين والعنب ، وعن الأغاني والأفراح ايام زمان . هذا هو موضوع حديثنا القادم ، فإلى اللقاء

الانطلاق من سجن العقل

بقلم:فاروق شوشة

في غمرة الاحتفال بالانجاز الضخم للمشروع القومي للترجمة الذي يقوم به المجلس الأعلي للثقافة ، باعتباره عملا ثقافيا قوميا ، وانطلاقة حضارية ، وركيزة تأسيسية لمشروع النهضة ، والأثر الأبقي من بين كل ما يقوم به ويحققه المجلس الأعلي للثقافة ، هذا الاحتفال الذي واكبه صدور الكتاب الألف: التصوير الحديث في مصر تالىف إيميه آزار وترجمة ادوار الخراط ونعيم عطية ، في اخراج بديع وطباعة راقية وعرض رائع يليق بالكاتب مضمونا ورقما في قائمة المترجمات - ، في غمرة هذا الاحتفال أتوقف عند الكتاب رقم٩٣٩ بعنوان: سجن العقل: مخك وعلم الأعصاب في الحياة الىومية تالىف ستيفن جونسون وترجمة الدكتور أحمد مستجير .

لفت نظري منذ البداية الربط في عنوان الكتاب بين العقل والسجن ، واستدعيت علي الفور الدلالة اللغوية الأولي لكلمة عقل في مثل قولهم ، عقل جمله أي شده بحبل هو العقال ، وعقل الدواء بطنه أي أمسكه ، وعقل السفينة أي ربطها لكي تثبت في اتجاه معين ، وعقلت الدهشة لسانه أي جعلته عاجزا عن التكلم . لذا كان من معاني العقل: الحبس والتقييد والامساك والعاقل هو من يمسك نفسه ويقيدها ويسيطر عليها .

الدلالة اللغوية الأولي إذن متوائمة مع المقصود من عنوان الكتاب ، الذي يمثل رحلة علمية بديعة في أسرار العقل والنفس معا .

قام بها مؤلف يعرف الخبايا والدهالىز والأسرار ، ويجوس بمهارة بالغة في تضاعيف لغة العلم الشديدة الحتمية والتحديد والمباشرة ، ومترجم له لغته المفعمة بحرارة الشعر ونداوة التعبير وصفائه ، وهو فضل يعود للعالم الشاعر أحمد مستجير ، الذي أصبح له أسلوبه العلمي الأدبي في آن ، وكأنه يذكرنا بأسلوب العلامة الأديب الدكتور أحمد زكي - عالم الكيمياء المشهور - والذي رأس تحرير مجلتي الهلال المصرية والعربي الكويتية ، في واحدة من مراحل ازدهار الأولي وانطلاقها ، ومرحلة التأسيس ووضع التصور الأول للثانية . كما كان لا سلوبه الأدبي البديع - في معالجة الموضوعات العلمية - فضل كبير في اشاعة العلم بين غير المتخصصين من القراء .

واضح أن مؤلف الكتاب: الكاتب العلمي الصحفي ستيفن جونسون ، - صاحب العمود الشهري في مجلة ديسكفر عن التكنولوجيا الجديدة والمتخصص في علم الاشاريات من جامعة كولومبيا - مولع بالكشف عن الحياة الداخلية للعقل الانساني ، بدءا من

اقتباسه - في المقدمة التي تحمل عنوان: غرفةكافكا - لكلمات كافكا التي يقول فيها: ضئيلة إلى حد يرثي له معرفتي بذاتي، اذا قورنت مثلا بمعرفتي بغرفتي. ليس ثمة ما يسمي ملاحظة عن العالم الداخلي تماثل الملاحظة عن العالم الخارجي.

وهو يفصح عن هدفه من تأليف كتابه بقوله: أناقش في هذا الكتاب خصائص المخ بلغة التطور، لا ن المنظور الدارويني يمكنه أحيانا أن يضيء ملامح، بدونه تبقي يغلفها الغموض، ثم إنه يساعدنا في تفهم دوافع العقل وعاداته الفائقة القوة أو التي يصعب تغييرها. ثم يقول: إن معرفة شيء عن ميكانيكا المخ - وبالذات ميكانيكا مخك أنت - سيوسع من ادراكك لذاتك مثل أي علاج او تأمل او عقار. لقد أصبح علم المخ وسيلة للاستبطان، سبيلا لتجسير ما بين الواقع الفسيولوجي لمخك، والحياة الذهنية التي تعيشها بالفعل. لم يعد العلم والتكنولوجيا في أيامنا هذه يقتصران علي تعريفنا بكيفية عمل أي مخ، فلديهما أيضا ما يقولانه عن كيفية عمل مخك أنت !

وعلي خلاف التقدمات التكنوعلمية العديدة، سنجد أن علوم المخ وتكنولوجيا التصوير الداخلي هي - بالتعريف تقريبا - شيء كالمرآة. إنها تقتنص ما تفعله ميخاخنا (هذا هو الجمع الصحيح لكلمة مخ وليس أمخاخ)، ثم تعكس هذه المعلومات ثانية إلينا. أنت تنظر في المرآة، فتقول لك الصورة المنعكسة هذا هو مخك. وهذا الكتاب هو قصة رحلتي في المرآة.

تأمل عناوين فصول الكتاب يكشف عن طبيعة المسار الذي اتخذه المؤلف: رؤية العقل، خلاصة مخاوفي، انتبه من فضلك، البقاء لعشاق الدغدغة، الهرمونات تتحدث، تفترس في مخك، العقل مفتوح علي مصراعية. وقد أضاف المترجم الدكتور أحمد مستجير إلى الكتاب قائمتين بالمصطلحات التي ورد ذكرها، في صورة معجم انجليزي عربي ومعجم عربي انجليزي. لفت نظري من بينها إيثاره لترجمة Freeassaciation بمراسلة حرة، والشائع المألوف هو: التداعي الحر. وترجمة Perception بشعور وإحساس والمتداول في أدبيات علم النفس ترجمته بإدراك، وترجمة pattenn بنموذج والمستقر - من قديم ترجمته بنمط.

وهو اجتهاد يحسب للدكتور مستجير ثم حرصه علي اضفاء دلالات جديدة، غير ما لوفة، وهز المتداول والمستقر عند الآخرين.

لابد من قراءة الكتاب بأكمله، حتي لمن يريد لمحة خاطفة عنه، فالرحلة العلمية أو الحكاية العلمية التي يقوم عليها، لا يمكن اجتزاءها او التوقف عند بعض محطاتها دون الأخري. وهذا هو مصدر الصعوبة في عرض مثل هذا الكتاب، ومصدر المتعة أيضا.

الدكتور حامد عمار وكتابه الخطير

بقلم: فاروق شوشة

الكتابة عن أستاذي الدكتور حامد عمار أمر حبيب إلى نفسي وعقلي ، فهو أحد الأساتذة القلائل الذين أثروا في تكويني العلمي - وأنا أدرس علي يديه في كلية التربية بعد تخرجي في كلية دار العلوم - ما دة أصول التربية . كان عام ا دراسيا حافلا ، قلب اهتماماتي الأكاديمية رأسا علي عقب وجعلني أهتم بالتربية وعلم النفس أكثر من اهتماماتي الأدبية التي شغلت بها طوال سنوات الدراسة الجامعية . ووجدتني بحكم الميل والاستعداد وبسبب قراءات مبكرة في السياسة والاقتصاد والاجتماع أقرب إلى ما دة التربية ، خاصة عندما يكون الأستاذ من طراز حامد عمار: إنسانا ومفكرا وصاحب رسالة كانت محاضراته مناقشة مستمرة ، وحوارا عميقا هادئا ، يكشف عن قدرته الفذة علي الجدل الموضوعي ، والأخذ بأيدينا - نحن الذين لا نزال في أول الطريق - خطوة بعد خطوة ، حتي نستشرف الأفق الرحب الذي يستحثنا إلىه ، ويدعونا إلى اقتحامه .

كان في مظهره يلوح لنا في صورة صوفي زاهد ، يكسوه علمه مهابة وجلالا ، وكان في خلقه أبا روحيا ينجح دائما في أن يشعرنا - عن قصد - بأننا أنداء له وأكفاء . وكثيرا ما كان يأخذنا إلى المركز الدولي للتربية الأساسية في سرس الليان ليطلعنا علي صور من علمه التطبيقي وخبرته العملية ، ونلتف من حوله ونجلس بين الحقول ، نناقش النمط الحضاري للشخصية في أثينا مدينة الحكمة ، والفرق بينه وبين النمط الحضاري للشخصية في إسبرطة: مدينة الحرب والقتال . وحين لفت انتباهنا إلى أن نبحث عميقا في نمط الشخصية المصرية السائد في ذلك الوقت (قرب نهاية الخمسينيات) كان طبيعيا وقد امتلكنا المنهج وعرفنا طريق الاستقراء والاستدلال أن نكتشف أنه نمط الفهلوي ، الذي ساعد علي وجوده انقسام المجتمع بين أهل الخبرة والكفاءة ، وأهل الثقة والحظوة ، وانفساح المجال أمام الوصوليين والمنتفعين .

ولم يتوقف اهتمام الدكتور حامد عمار - القادم من عمق الصعيد الجواني - بالقرية المصرية ، والفلاح المصري ، والإنسان البسيط الكادح ، في الوقت الذي كانت شواغله الأكاديمية تشده إلى أثينا وإسبرطة والفلسفة الإغريقية ومدارس التربية عبر العصور .

ولقد كان حبي وتقديري للدكتور عمار حافزا إلى اهتمامي بالدراسة التربوية والنفسية عموما ، ودراسة أصول التربية بصفة خاصة ، الأمر الذي جعلني أول دفعتي في ذلك العام الدراسي (١٩٥٨ / ١٩٥٧) وأرشح لبعثة في التربية المقارنة ، لم يقدر لها أن تتحقق ، لا ن قطار الإذاعة اقتحم طريقي فركبته ، وتغير المسار .

وشرق الدكتور حامد عمار وغرب ، أستاذا وخبيرا دوليا ومستشارا ، في مصر وفي بلاد عربية عدة ، لكنه لم يبتعد أبدا - بصورته وسمته وفكره ونموذجه الدال - عن اهتمامي ومتابعتي . فسعدت باستضافته مرات في البرنامج التليفزيوني الأمسية الثقافية ، وأحسست أن هناك حوارا بيننا توقف منذ سنوات طويلة ، ينبغي استكماله عن الشخصية المصرية وما حدث لها في السنوات الأخيرة بعد مرور أكثر من خمسة وأربعين عام ا علي حوارات مدرج كلية التربية وحقول سرس الليان . كنا نتكلم - خارج البرنامج بالطبع - عن ظاهرة استخدام التعليم وسيلة للاستثمار المادي ، في المدارس الخاصة والجامعات الخاصة . وهو أمر طبيعي إذا لم يكن هو الهدف الرئيسي من الاستثمار في التعليم ، وإذا كان تطوير العملية التعليمية وإثراؤها بإمكانيات - لا يملكها تعليم الدولة - هو الهدف .

لكن النماذج والوقائع والحالات التي كنا نتكلم عنها - ومنها علي سبيل المثال بعض دور الحضانة التي تتقاضي أكثر من عشرة آلاف جنيه في العام - جعلته يضرب كفا بكف ، وهو يقول في نبرة غاضبة : لقد انتقلنا من عصر الفهلوي الذي كنا نتكلم عنه منذ أكثر من أربعين عام ا - إلى عصر الهباش الذي ينهب ولا يتورع ولا يوقفه أحد !

أكتب الآن عن أستاذي حامد عمار في مناسبة صدور كتابه الجديد المثير الذي أصدرته الدار المصرية اللبنانية ضمن سلسلة آفاق تربوية متجددة بعنوان : الحادي عشر من سبتمبر٢٠٠١ وتداعياته التربوية والثقافية في الوطن العربي . ولقد أسعدني الوصف الذي أطلقه عليه الناشر باعتباره شيخ التربويين العرب ، بل هو عميدهم في حقيقة الأمر ، والعمادة لقب يحمل معني الريادة والاقتحام ومكانة القطب - بالمعني الذي أطلق علي طه حسين في مجال الدراسات الأدبية والأدب العربي ، بأكثر مما توحيه كلمة الشيخ .

كما أسعدني أن الدار التي نشرت واعية بأهمية هذا الكتاب ، وتفرده في مجاله : بالتفرد في الموضوع الذي يعالجه ، والزاوية التي ينظر منها ، إذ يتناول الكاتب رؤيته الخاصة لهذا الزلزال والإعصار في آن ، من حيث تأثيره علي منظوري التربية والثقافة علي منطقة الوطن العربي . هذا الوعي بالأهمية والتفرد - من الدار - جعلها تقول في ورقتها المصاحبة للكتاب - لا نها ربما كانت علي يقين من أن كثيرين سيكتفون بقراءتها كما هي العادة - إن الكتاب في مجمله محاولة جادة وثاقبة ، من شيخ التربويين في العالم العربي حول إعصار الحادي عشر من سبتمبر وتداعياته التربوية والثقافية في الوطن العربي ، لا ستشراف ما يحيق بهذا العالم العربي من مؤامرات وأخطار ، وكيف السبيل إلى مواجهتها ، وكيف يتشكل لدينا وعي بمخاطر هذه اللحظة المفصلية في حياتنا ، كي نبني مجتمعا عربيا ، أفضل وأجمل بكل معرفة نافعة ، ترفرف في أرجائه أعلام العدل والحرية .

ولست أحاول - في هذا المقال - أن أقدم عرضا لموضوعات الكتاب ، أو تحليلا لفصوله ، قدر اهتمامي باستخلاص بعض ما تضئ به سطوره من أفكار أساسية ، تمثل جوهر الموقف الفكري الذي يلتزم به الدكتور حامد عمار . في مقدمتها التسليم بوجود أمة عربية وقومية عربية ، رغم ما يثور حوله من تشكك كردود أفعال نتيجة لا زمات مؤقتة عابرة . وتستند مقومات هذا الوجود إلى عوامل اللغة والأرض والتاريخ المشترك والتكوين النفسي والوجداني ، فضلا عن المصالح الاقتصادية والعوامل البشرية ، ومعاناة التحديات الداخلية والخارجية . وارتبط بتكوين هذه الأمة ثقافة عربية إسلامية مركبة ، ترتكز رسالتها السماوية علي مبادئ المساواة بين البشر ، وإدانة التمييز العنصري ، والحث علي العلم والمعرفة ، والدعوة إلى تعمير الكون ، وربط الجزاء بالعمل .

هذه الأفكار الأساسية أيضا أنه كلما قويت عملية التوحد - في تاريخ الحضارة العربية - ازدهرت الثقافة العربية في مجالاتها المختلفة بما في ذلك مجالات الفنون ، وعندما تتنامي عوامل التجزئة تخبو شعلة الثقافة بمكوناتها المختلفة ، ويغدو النشاط الثقافي اجترارا للماضي وإمعانا في قضايا المناظرة والجدل وفي تعبير ذي النون المصري - الذي يورده المؤلف - ما يبلور تحول التوجه الثقافي إذ يقول: كان الرجل من أهل العلم ينفق ما له علي علمه ، وإلىوم يكسب الرجل بعلمه ما لا ، وكان يري ما صاحب العلم زيادة في باطنه وظاهره ، وإلىوم يري علي كثير من أهل العلم فساد الباطن والظاهر .

ومنها أيضًا – أهمية المنهج العلمي في تنظيم الحياة كقيمة ثقافية وما ينبغي ان يتوافر من مجالات الإبداع والتجديد ، منطلقة من قدرة علي التخيل ، مستلهمة تجسيد الواقع وإمكانات تحويله إلى صورة جديدة . إن ثقافتنا الراهنة ومؤسساتها لا تفتح المجال الكافي لتنمية هذه القدرة أو الاستعداد ، فهي تؤثر وتلتزم بالموضوعات والأفكار المقننة ولا تشجع علي المغامرة في الفكر أو العمل - وينعكس هذا - بصورة مكثفة - في جمود البيروقراطية العربية بالمقارنة بكثير من البيروقراطيات في عالمنا المعاصر . وقد ترتب علي ضعف سيطرة منهج التفكير العلمي: التكنولوجي والإبداعي ، أن تكونت في الثقافة العربية أنماط من الشخصية تستند في مجمل تصرفاتها وسلوكها واختياراتها علي التفكير الغيبي ، الذي لا يربط النتائج بأسبابها الموضوعية ، أو علي التفكير الخرافي والأسطوري ، أو علي التفكير الصوتي الخطابي ، أو علي التفكير الفهلوي ، أو علي تفكير الفم والاحتيال الظريف أو علي التفكير الفهلوي الاستسلامي .

ومن هذه الأفكار الأساسية في الكتاب ، أنه لا يدخل في نطاق المثقفين من اتخذوا وسائل تعبيرهم بالكلمة أو الصورة أو النغم أو بغيرها أداة لتبرير الأوضاع الراهنة ، ومسايرة السلطة .

ومـن هنـا ترتفـع مـع التثقيـف رايـات الحريـة والعدالـة والتطـوير والإبـداع ، وتغـدو المعرفــة مقترنــة بالفعــل ، كمــا تظهــر متعــددة الأبعــاد ، فــسيحة الرؤيــة ، تنــشر إرادة التحــسين المــستمر وأســلحة المقاومــة للطغيــان والاســتبداد في مختلــف صــوره . ذلـك أن الغـذاء الثقـافي للمـواطن العربـي يمثـل أزمـة حـادة لا تقـل في تـشرذمها وانفـصامها عـن الواقـع الـسياسي للأمـة العربيـة ، بـل ولا تقـل في فقرهـا عـن تزايـد جيـوب الفقـر والبطالـة في الواقـع الاجتمـاعي ، بــل وهــي كــذلك لا تقــل ترديــا عــن انتــشار التلــوث ، بمختلــف صــوره ، في بيئتنــا المترامية بقراها وحواضرها في أرجاء وطننا العربي .

ويحــذر الــدكتور حامــد عمــار مــن وجــود توجهــات ثقافيــة ـ تــسود الــوطن العربــي حالىـا ـ مرتبطـة بالقبيلـة والعـشيرة ، ممزوجـة ـ بنـسب متفاوتـة ـ بأفكـار ليبرالىـة ، سـواء في الاجتهاد الفقهي أو في الاقتباس والاقتداء بالحضارة الأوروبية الغربية .

ومنــذ منتــصف الــسبعينيات ، لا تــزال غــشاوات هــذه الخلطــات والاضــطرابات الثقافيــة ممتــدة حــتي إلىـوم ، إذ تتلبـد سمـاء الثقافـة في الـوطن العربـي بـسحابات قاتمـة ، بعضها يمطر إحباطا ، وبعضها ينذر بسيل من الغضب إلىائس .

عن الكاريكاتير والأغاني والإذاعة - ١-

بقلم : فاروق شوشة

هذا هو عنوان الكتاب الجديد الذي صدر في مستهل هذا الشهر للناقد الكبير الراحل الدكتور علي الراعي ، ضمن سلسلة كتاب الهلال ، أشرفت علي جمع فصول الكتاب وتنسيق ما دته كريمته ليلي الراعي الصحفية بالأهرام .

وهو كتاب يكشف عن اهتمامات الناقد الكبير الراحل الذي نفتقد إطلالته الأسبوعية التي استمرت عدة سنوات علي صفحات الأهرام ـ اهتماماته الواسعة والمتكاملة ، بفن الكاريكاتير ونجومه وأعلامه الكبار ، وفن السيرة الشعبية ، وفن الزجل والموال ، والأغنية والمسرح الغنائي ، والإذاعة .

كما أنه يحمل بعض عطره ، وبعض تجليات الكتابة لديه في آفاقها الموسوعية الرحبة ، جوهرها فكر متفتح ، ولغة طيعة ، وروح جياشة بالحيوية والفرح والنشوة البالغة . هو هنا ـ في هذا الكتاب ـ أستاذ التذوق الفني ، صاحب الخبرة العميقة والحس المرهف في تقييم الأغنية واللحن والكلمة والصورة واللوحة والرسم والعزف والتمثيل . من أجمل فصول الكتاب ما كتبه تحت عنوان من بناة الإذاعة العظام عن رواد الإذاعة: عبد الحميد الحديدي و عبد الحميد يونس وحافظ عبد الوهاب و عبد الوهاب يوسف وأحمد رشدي صالح وإذاعيين آخرين ـ من بينهم طلعت الغنيمي و عبد الرحمن صادق وحسين نصار وصلاح زكي وحسني الحديدي وعباس أحمد وطاهر أبو زيد .

أشير إلى هذه الفصول ونحن في مناسبة الاحتفال بالعيد السبعيني للإذاعة ، باعتبارها أول كتابة موضوعية جادة معطرة بالحس الإنساني والتناول النبيل عن هؤلاء الرواد المعروفين والمجهولين . وهو يكتب عنهم كتابة العارف والمتابع والصديق والزميل الذي كان بدوره واحدا من رواد الإذاعة ووصل في العمل الإذاعي إلى منصب كبير المذيعين الذي كان منصبا شديد الأهمية في ذلك الحين . لكنه ترك ذلك وراءه عندما أتيحت له فرصة السفر إلى إنجلترا للحصول علي الدكتوراه في الأدب الإنجليزي والعودة أستاذا في كلية الآداب بجامعة عين شمس ، فتغير مسار حياته كله ليصبح الأستاذ الجامعي المرموق والناقد الكبير وصاحب الدور الثقافي البارز في حياتنا الأدبية والثقافية المعاصرة . كان علي الراعي يكتب عن الرواد السابقين عليه في الإذاعة وعن زملائه وأبناء جيله في لغة ندية بالمحبة ، ونفس كبيرة مفعمة بالأبوة الحقيقية والعطاء الكريم . وكان هذا شأنه دائما في كل ما يكتب خاصة حين يتصل الأمر بوشائج الزمالة والصداقة والعلاقة الإنسانية طالت أم قصرت .

يتحدث مثلا عن عبد الحميد الحديدي بعد أن وجد نفسه - وهو المذيع الحديث العهد بالإذاعة - يتدرب ذات صباح علي يد المعلم العظيم ومنشئ قسم الأخبار وواضع أسس العمل فيه علي مبادئ علمية واضحة . عبد الحميد الحديدي . ثم يقول: كان عبد الحميد الحديدي من أكثر من عرفت من الإذاعيين ثقافة ومعرفة وتفتحا خارج عمله لم يكن يري إلا ومعه كتاب . في أوائل الأربعينيات كان مفتونا بالعالم النفسي سيجموند فرويد . رأيت في يديه كتابيه المشهورين: الطوطم والتابو و تفسير الأحلام كان أكثر ما جذبني في عبد الحميد الحديدي ثقافته الواسعة هذه ، في وسط لم يكن يعني كثيرا بأن يكون العاملون فيه مثقفين . كان كل ما يهم الإذاعة أن يكون رجالها وسطاء ما مونين للأدب والثقافة والفنون وشئون المجتمع ، وأن يخدموا أهداف الإذاعة في اللعب الآمن بين ثلاث سلطات متنافرة: سلطة الإنجليز الذين كان إنشاء الإذاعة بإيعاز منهم ، وسلطة القصر وسلطة الأحزاب وعلي رأسها حزب الأغلبية: الوفد ، الذي كان يناطح السراي والانجليز معا ، ويسعي إلى أن تكون الإذاعة معبرا عن سياسته في المرات القليلة التي سمح له فيها بأن يتولي الحكم . وفيما عدا هذا ، لم تكن ميزة لرجل الإذاعة أن يكون هو ذاته واحدا من المثقفين ، بل إن هذه الميزة كانت تبعده عن تيار الرضا العام الذي يحيط رجال الإذاعة الناجحين بمقياس الصوت وحسب . وكان خصوم هذا الاتجاه يقولون: إن الإذاعة تسلب من يشتغل بها عقله وتضع بدلا منه مكبر صوت وتحشو فمه بميكروفون حساس .

وعندما يقترب علي الراعي - وهو يؤرخ للإذاعة ويكتب عن بناتها العظام - من الرائد الإذاعي (والتليفزيوني - بعد ذلك) عبد الحميد يونس فإنه يوفيه حقه من الإكبار والتقدير . ويوضح كيف استمرت العلاقة بينهما قوية متنامية ، محوطة بالحب والإعجاب المتبادل ، حتي دعيا إلى إنشاء أول محطة إذاعية في المملكة العربية السعودية ، وذلك في عام ١٩٤٩ ، ووجدا في الدعوة فرصة لعون الأشقاء السعوديين علي أن تكون لهم كل مقومات الحضارة التي كانوا يتطلعون لوضع أسسها في بلادهم ، بعد أن اكتسبت المملكة منزلة دولية خاصة إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وبعد أن أهلها ظهور النفط كي تلعب دورا مهما في مقدرات المنطقة .

وفي حديث علي الراعي عن الرائد الإذاعي حافظ عبد الوهاب محبة عميقة وتقدير كبير وإعجاب بقدراته الإذاعية والفنية .

يقول عنه: كان حافظ عبد الوهاب واحدا من الكبار الذين التحقوا بالإذاعة منذ بدء إنشائها . كان زميلا لمحمد فتحي وعلي خليل وأحمد سالم وأحمد كمال سرور وعفاف الرشيدي . والثنائي محمد فتحي وعلي خليل معروفان لجمهرة المستمعين ، أما أحمد سالم فقد التحق بالإذاعة بعض الوقت ثم تركها لغير ذلك من أعمال (من بينها

التمثيل في السينما المصرية) . وكان أحمد كمال سرور أديبا يجيد الفرنسية والعربية ويقرأ بهما نشرة الأخبار بإتقان . وهو امتياز شاركه فيه عفاف الرشيدي أول مذيعة ينطلق صوتها عبر الميكروفون ، وكانت تلقي نشرات الأخبار بالفرنسية والإنجليزية والعربية . كذلك كان هناك عزيز رفعت الذي التحق من بعد بالإذاعة البريطانية : قسم البرامج العربية .

أول ما قدم حافظ عبد الوهاب للفن الإذاعي كان مسلسله الرقيق عباس القرنفلي وهو مسلسل اجتماعي احتشدنا جميعا في الثلاثينيات لتتبع أحداثه ، وأظنه أول مسلسل علي الإطلاق في تاريخ الإذاعة .

ولكن التألق الأوضح لحافظ عبد الوهاب قد جاء بعد ثورة يوليو المجيدة ، حين اكتشف بحس فني مرهف صوت الفنان عبد الحليم شبانة وأعطاه اسمه . فسطع نور عبد الحليم حافظ وملأ حياتنا الفنية والسياسية بالصوت الدافيء الجميل والحس المرهف الذي واكب مراحل الثورة جميعا ، بين نصر وانتكاسة . كذلك اكتشف حافظ عبد الوهاب موهبة الفنان الكبير العذب كمال الطويل ، الذي أصبحت ألحانه قيثارة أخري عزفت عليها أناشيد الثورة الهادرة ، كما يشهد بهذا نشيد والله زمان ياسلاحي الذي ألفه ولحنه في ظلمة الغارات صلاح جاهين وكمال الطويل وغنته أم كلثوم غناء وافق الحماس ، إلى جوار الأغاني الوطنية الأخري مثل أغنية السد و صورة والميثاق .

ويضاف إلى الرصيد الفني المتصل لهذا البناء العظيم لفن الإذاعة الجهد الذي بذله في أواخر مجراه الفني وهو إنشاء أول محطة إذاعة إقليمية في الإسكندرية . ثم يضيف علي الراعي بعض اللمسات إلى صورة حافظ عبد الوهاب وهو يقول : كان حافظ عبد الوهاب شخصية عذبة من الصعب ألا تألفها وتحبها . كان له حس ابن البلد وشعوره الوطني أيضا . حينما فرض الملك فاروق علي الإذاعة مستشاره الصحفي كريم ثابت ليكون عينا للملك علي ما يجري في الإذاعة ، تعمد حافظ عبد الوهاب أن يعبر عن نقمته علي هذا التعيين بالإصرار علي نطق كلمة ثابت بالتاء بدلا من الثاء ، مما يوحي بمعني ما كر يلف كلمة أذكر كيف انطلقنا بسيارة الإذاعة في مهمة إلى المنصورة ، فأخذت أنا أغني الأغنية العذبة : آه يازين العابدين ، ياورد مفتح جوه البساتين . قام حافظ عبد الوهاب بمهمة ضابط الإيقاع ، واشترك أيضا في الجوقة المرددة لختام كل فقرة . وفي هذه الرحلة أخذنا حافظ إلى بيت أخيه الذي قدم لنا ألذ فطير بالعجوة ذقته في حياتي .

ويختتم علي الراعي حديثه عن حافظ عبد الوهاب بقوله : هل كان عبد الحليم شبانة مستطيعا ـ بمفرده وبفضل صوته الساحر وحسب ـ أن يجد الراحة والأبوة والتعاطف التي بذلها كلها له حافظ عبد الوهاب حتي استوي أمامنا نجما لا يباري

يحمل اسم راعيه حافظ عبد الوهاب ؟ ربما استطاع عبد الحليم أن يجد طريقة ما للظهور ، غير أنني أشك كثيرا في أن يكون لهذا الظهور شكل التقديم الحماسي الكبير الذي تصحبه أبو اق التنبيه معلنة مولد موهبة جديدة . لقد مد حافظ عبد الوهاب لفن عبد الحليم وكمال الطويل البساط الأحمر وقال لهما: تفضلا ! لكن حديث الناقد الكبير الدكتور علي الراعي عن الكاريكاتير والشعر والزجل والأغاني والمسرح الغنائي في كتابه الجديد ما زال يغري بمقالات قادمة ، فإلى اللقاء .

شكر واجب

للأصدقاء الأعزاء والقراء د . أحمد متولي مسلم ، د . سميرة أحمد عزب ، سمير عبد المحسن ، شريف سيد عفت علي رسائلهم الكريمة التي تتضمن آراء وتعقيبات جادة ومهمة علي كتابات سابقة . أرجو أن أعرض لها بما تستحقه من اهتمام في مقالات قادمة إن شاء الله . .

الطيب صالح " تاج الرواية العربية "

بقلم : فاروق شوشة

لا أظن أنني سعدت بحدث ثقافي خلال السنوات الأخيرة ، كما فرحت بحصول الروائي العظيم الطيب صالح علي جائزة الملتقي الثالث للرواية الذي أقامه المجلس الأعلي للثقافة . وعظمة الطيب صالح لا تتمثل فقط في كونه مبدعا كبيرا ، وضع السودان ـ القطر العربي الشقيق وتوءم مصر ـ علي خريطة الإبداع العربي المعاصر بقوة وعمق تأثير . ولقد ظل السودان المبدع في وجداننا ـ نحن المنتمين إلى خمسينيات وستينيات القرن العشرين ـ بلدا للشعر ، من خلال فكرتنا عن شاعره الذي سطع كالشهاب .

ومضي وهو في الخامسة والعشرين من العمر (١٩١٢ ـ١٩٣٧) التيجاني يوسف بشير ، وديوانه الوحيد إشراقة ، ثم من خلال شباب الشعر السوداني في ذلك الوقت: محمد الفيتوري ومحيي الدين فارس وتاج السر الحسن وجيلي عبد الرحمن بالرغم من سبق آخرين ـ أقدم عهدا ـ إلى الذاكرة: محمد السعيد العباسي ومحمد المهدي المجذوب ومحمد أحمد محجوب ومحمد محمد علي والهادي آدم وغيرهم . وكان رفاقنا من أبناء السودان ، في الجامعة ، يفيضون شعرا ورقة وعذوبة ومحبة للإبداع الشعري ، فاعتقدت وقتها أن كل سوداني شاعر حتي يثبت العكس .

ثم بزغ نجم الطيب صالح مرتبطا بروايته المذهلة موسم الهجرة إلى الشمال ، وسرعان ما ازداد النجم سطوعا في كل مكان من أفق الإبداع العربي وسمائه ، ليصبح كوكبا يحمل توهجه نورا مغايرا وإشعاعا متفردا . وبدأ بالطيب صالح ، وبفضله الحديث عن السودان الروائي ، وعن الرواية في السودان ، وعن مصطفي سعيد بطل موسم الهجرة ، وكم فيه من الطيب صالح ؟ أم أن الطيب هو الراوي ؟ وكيف أمكن صنع مثل هذه الشخصية الغريبة المركبة ، بكل عنفها وضراوتها ووحشيتها ، وحملها لجرثومة قدرها المفضي بها إلى نهايتها الحتمية ، مثل الشخصيات التراجيدية في المآسي الإغريقية ، وسرعان ما وجد النقاد والدارسون والباحثون في كتابات الطيب صالح ـ بعد أن اكتشفوا عرس الزين ودومة ود حامد و نخلة علي الجدول و حفنة تمر وما تلاها من إبداعات ـ ما دة ثرية كتلك التي عكفوا عليها من قبل ، عند اكتشافهم لعبقري الرواية العربية نجيب محفوظ منذ مطالع الخمسينيات وفرحهم الهائل بنماذجه الروائية الماثلة للعيان .

أقول سعدت بهذا الحدث الثقافي سعادة حقيقية ، ربما لا نني ـ في أعماقي ـ لم أكن سعيدا بالاختيارين السابقين لملتقي الرواية ، فقد اعتبرته ـ في الحالين ـ اختيارا

إيديولوجيا أكثر منه أدبيا وفنيا ، وكنت أفسر الأمر لنفسي ـ بعيدا عن الضجة المصاحبة قبولا ورفضا ـ بأن لجنة الاختيار والتقييم في المرتين الأولي والثانية كانت في غالبيتها لجنة إيديولوجية ، فكان طبيعيا أن تتجه إلى عبد الرحمن منيف في بداية الأمر وإلي صنع الله ابراهيم في المرة التالية . لكن اللجنة في تشكيلها الأخير ـ الذي لم يتعمد غلبة الايديولوجية ـ وضعت يدها علي جوهر الإبداع الحقيقي عند مبدعين كبيرين ، أحدهما سوداني وثانيهما ليبي

ــ كما أفصح الناقد الكبير الدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلي للثقافة : شفاه الله وعافاه ـ هما الطيب صالح وإبراهيم الكوني ، ثم كان الاستقرار علي الطيب صالح من منطلق ريادته وسبقه وأستاذيته في ميدانه .

قلت إن عظمة الطيب صالح لا تتمثل فقط في كونه مبدعا روائيا كبيرا ، وإنما في كونه ـ أيضا ـ إنسانا كبيرا وعظيما . وأشهد أنني في كل من عرفت ولاقيت من المبدعين الكبار ، لم أجد من يكتمل فنه وإنسانيته ، إبداعه وشخصيته ، بالصورة التي تحققت لدي الطيب صالح . هذا رجل تغريك مودته وفيض سماحته بالاقتراب الشديد منه ، لتكتشف أن من أسرار عظمته وتفرده هذه البساطة النادرة والشفافية العميقة والمحبة ـ التي تكاد تكون صوفية ـ للكون والحياة والبشر . في مزاج فني آسر ، شديد الرهافة والحساسية ، والاهتزاز للخلق الجميل والمعني الجميل والقول الجميل . من هنا جاء احتفاله بالشعر العربي واختياراته البديعة للكثير من كنوزه وفرائده ، يستدعيها ويستشهد بها في يسر وطواعية ، ويتوقف عندها بالبصر النافذ والحس المرهف ،

يجلو طبقاتها من الحسن ، ويحلل كيمياءها السارية في عروقها ، ويربط بينها وبين غيرها من النفائس التي لم تخنه ذاكرته أبدا في استدعائها وإسعاد من يجالسهم بها .

وكثيرا ما قلت لنفسي ـ مستدعيا مقولتي القديمة ـ كل سوداني شاعر حتي يثبت العكس . . لو لم يكن الطيب صالح روائيا كبيرا لكان شاعرا رائدا . ولامتلائه بهذا الوهج الشعري فقد سكبه في ثنايا كتاباته ، ونثره عطرا علي كل كلماته ، وأصبحت شاعريته الروائية والقصصية بديلا لقصائد لم تكتب وسمة لا تفارق قلمه ـ في كل ما يكتبه ـ ولا يفتقدها قارئه المنغمس في حميا جلواته الشعرية وسيطرته المحكمة علي لغته وأسلوبه .

وعلي مدار ثمانية عشر عاما ، أدرس لطلاب الجامعة الأمريكية في القاهرة واحدا من مقررات الأدب الحديث والمعاصر ، تحتل فيه الرواية موقعا متميزا من خلال تناول عدد من روايات الصدمة الحضارية بين الشرق والغرب منذ مطالع القرن العشرين

بدءا برواية أديب لطه حسين وعصفور من الشرق لتوفيق الحكيم وقنديل من الشرق ليحيي حقي و الحي اللاتيني لسهيل إدريس وموسم الهجرة من الشمال للطيب صالح و أصوات لسليمان فياض ، يقرؤونها ويحللونها ويتناولون أهم أحداثها وشخصيتها ونوعية تعبيرها عما يسمي بالصدمة الحضارية ، مع الاستفادة بما كتب عنها من دراسات نقدية ،

وعلي الطالب - أو الطالبة - أن يختار رواية واحدة فقط . وكان يثير دهشتي باستمرار أن أري الغالبية قد اتجهت إلى رواية موسم الهجرة محققين بقراءتها متعة خاصة إلى جانب كونها مقررا دراسيا . ولم يتراجع هذا الاختيار طيلة هذه الأعوام الثمانية عشر ، وكنت أدرك من خلال قراءتي لما كتبوه أن شخصية مصطفي سعيد - بطابعها الذي يكاد يكون أسطوريا - لها الفضل الأول في تحقيق قدر من الانبهار . وأن العلاقات الجنسية المتعددة لبطل الرواية لم تستوقفهم بأكثر من كونها مبررة في سياق التناول الأدبي الراقي ،

والضرورة الفنية الملزمة . كما أن نجاح الرواية في تصوير التقابل - إن لم يكن التضاد - بين العالمين السوداني والانجليزي ، وإضفاء الطابع الحضاري لكل من العالمين بمأثوراته ومواصفاته وروائحه ونسيج علاقاته ، منح الرواية صدقها الباقي وجوهرها المشع باستمرار ، وأطلق فضاء جاذبيتها المرتبطة بالحس التراجيدي المسيطر علي روح العمل ، لتكتسب صيغتها النهائية : مرثية عناصرها البشر والطبيعة والكون .

يبقي أن أشير - بمناسبة الحديث عن الطيب صالح - إلى من يقيسون الإبداع ويزنونه بالكم ، متصورين أن عشرات الإصدارات تعني ميزة لصاحبها تضمن له التقدم والأسبقية . وهو وهم شائع ، لعله صورة من صور التخلف في عالمنا العربي . ولعل بيننا الآن من يفاخر ويباهي بعشرات الكتب والمؤلفات ، لن يعلق كتاب واحد منها بذاكرة التاريخ الثقافي أو الإبداعي ، وكثير منها لا يستغرق أكثر من وقت صدوره ، ليصبح بعد ذلك نسيا منسيا . وإبداعات الطيب صالح لم تتحقق لها هذه الوفرة التي لا تضيف قدرا أو قيمة . لكن كلا منها درة ساطعة في عقد منظوم من الإبداع المصفي : موسم الهجرة إلى الشمال ، وعرس الزين ، ودومة ود حامد ، ونخلة علي الجدول ، وحفنة تمر ، ومريود ، وبندر شاه ، وضو البيت ، هذا العقد المنظوم هو الذي جعل من الطيب صالح تاج الرواية العربية ، وأكثر المبدعين الروائيين استحقاقا لجائزة الملتقي الروائي .

وأخيرا ، لقد آثرت أن تكون تهنئتي للطيب صالح ، وتهنئتي للإبداع الروائي به ، بعد أن تهدأ أصوات محبيه وهم كثيرون ، ومقدري أصالته وريادته ، وهم في تزايد مستمر ، كلما أتيح لهم أن يقتربوا من عالمه الانسان الرحب ، في خصوصيته وشموله معا .

رسالة من وراء الأسوار

بقلم : فاروق شوشة

الرسالة وصلتني - وقد تأخرت كثيرا - تعقيبا علي ما كتبته منذ شهور عدة، حول بعض شعراء القصيدة العمودية الذين كتبت عنهم تحت عنوان شعراء يسبحون ضد التيار وكان من بينهم الشاعر المبدع والباحث الجاد الحساني حسن عبدالله الذي استوقفه العنوان، وقولي إن الشعر الحر أكبر حركة تجديدية في تاريخ الشعرالعربي، وأهم انعطافة إبداعية وحضارية ونفسية فيه، وإنه بقي مستمرا، بالرغم مما أعلنه الحساني - منذ أكثر من ثلاثين عاما - أنه لم يوجد ليبقي، متخوفا آنذاك من زحف الركاكة، وابتعاد الشعر العربي عن مسيرته الحقيقية.

ولأن الرسالة تحمل وعيا يقظا وفكرا عميقا وغيرة محمودة لها ما يبررها، فإني استأذن صاحبها في نشر بعض ما جاء فيها - خضوعا للمساحة المتاحة الآن في الأهرام - آملا ألا يشوهها الاختصار، أو يجني عليها الاختيار.

يقول الصديق الكريم في رسالته: عندما نويت أن أكتب إليك تعقيبا علي مقالتيك، لم أكن أضمر - بعد الشكر - إلا أن أعرض لبعض توقفات فيهما، لكن القلم جري كما تري - كأنه مسير - نحو الهم العام. وعلي الآن أن أكبح جماحه إذا أردت الانصراف إلي الغرض المنوي، لكن هذه الانحرافة تدعوني - أو قل تدعونا - إلي التساؤل عما أملاها، شئ ما أجبرني علي تغيير الوجهة ربما أفاد استجلاؤه.. ولنبدأ - لا ن أول العلم البصر - من الحقائق الواقعة. ما الذي جري في ثلاثين عاما بعد تخوفي من زحف الركاكة؟ يجيب الواقع فورا: ازداد زحفها حتي عمت الشكوي إذ عمت البلوي، وحتي بان لكل ذي بصر أن اللغة تنحط، وأن التعليم ينحط، وحتي فرضت المشكلة نفسها علي مجلس الوزراء وعلي ولي الأمر، وحتي ظهر فينا من ينادي بإسقاط سيبويه وإقرار الخطأ وتحريف النحو، تجاوبا مع ريح الشمال - غفر الله لحافظ إبراهيم غرارته - ومع دعوة الذين عينوا أنفسهم أوصياء علينا إلي إصلاح هو في ما له عين الإفساد.

أجبرني علي تغيير الوجهة أنه لا شئ معزول، ولسنا في حاجة إلي أن نكون أساتذة في علم الاجتماع لنوقن بترابط الظواهر وإفضاء بعضها إلي بعض مع ما بينها من فروق. لا يصدر شئ من لا شئ والنار العظيمة أولها شرر. هذه البديهية التي تؤكدها الحقائق الواقعة هي التي أملت علي البيت الأبيض التقرير الرئاسي المشهور أمة في خطر وهي التي أملت علي الجمعية الوطنية الفرنسية سن قوانين خاصة بحماية الفرنسية الفصحي، وهي التي أملت علي خلفاء بني أمية قديما تربية أبنائهم زمنا في البادية اكتسابا للعربية الفصحي. أذكرك بكلمة عبدالملك بن مروان شيبني خوف اللحن وهي التي

أملت علي تخوفي من زحف الركاكة قبل ثلاثين عاما، وهي التي أملت علي الآن أن أستهل كلمتي إليك مسوقا ـ كأني مسير ـ للكلام في الهم الممض، الجحيم الحديث المساقط علينا من سماوات الشمال يسعره لدد قديم، وسعي ملح إلي إفساد العقل العربي يتولاه أهل الثقافة وأهل السياسة معا، لا غرو، فلا شئ معزول، برغم تميز الأشياء بعضها من بعض. هنا لغة. هنا شعر. هنا مسرح. هنا أغان، هنا تجارة. هنا حرب. والخطة سهلة: تشتيت النظر حتي لا نري وجوه الشبه بين ما يجري هنا وما يجري هنا.

كأني اقتربت مما في مقالتيك بشأن قضية الشعر الحر.

تقول إني أسبح ضد التيار. لا بأس. وماذا في هذا. أخشي أن يظن ظان أنك أردت أن المضادة في ذاتها عيب. ذلك معني هو يقينا غير مراد لك. لا نك يقينا تعلم أن المعول علي سداد الحجة. لماذا أنت مع، ولماذا أنت ضد، فما الحجة؟

تقول إن الشعر الحر أكبر حركة تجديدية في تاريخ الشعر العربي كله، وأهم انعطافة إبداعية وحضارية ونفسية فيه. مرة أخري أخشي أن يظن ظان أنك أردت أن التجديد في ذاته فضيلة. ذلك معني هو يقينا غير مراد لك. لا نك يقينا تعلم أن العبرة بدواعي التجديد وأغراضه وموجباته والمزايا الحاصلة به. والخوض في هذا يلزمه ـ بطبيعة الحال ـ مجال أوسع.

وتقول إن الشعر الحر بقي برغم قولي إنه لم يوجد ليبقي.

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب مجرد الوجود دليلا علي استحقاق الوجود. أذكرك بقولي في مستهل البيان: إن الشعر الحر انتصر. تلك حقيقة واقعة رأيتها منذ ثلاثين عاما، قبل أن يتكلم النقاد ـ كما تقول ـ عن شعراء الثمانينيات والتسعينيات ومطالع القرن الحادي والعشرين. لكن تلك الحقيقة الواقعة المقررة هي أول المطاف لا نهاية المطاف. إذا كان مقدرا للشعر الحر أن يبقي وإذا كنت أخطأت إذا رأيت أنه لم يوجد ليبقي، فلن يبقي ـ البقاء الدائم لا الطارئ ـ إلا بمنطق قوي وحجج مقنعة، وجهد علمي نزيه، لا يوجهه هوي، ونقد أدبي جاد يعرف كيف ينفي اللبلاب ويستبقي الجدير بالبقاء، لا نقد بلغ به فساد الذوق أحيانا أن يدخل في الشعر ما ليس بشعر حر ولاشعر غير حر، بل ربما ما ليس بكلام أصلا، إذ شرط الكلام كما نص ابن ما لك في أول الألفية أن يكون لفظا مفيدا، ولا نقد بلغ به العمي أن يدعو إلي ترك نظام العروض العربي بتة الذي يقوم عليه الشعر العربي كله ـ تقليديا أو حرا ـ إلي ما سماه اللغويون المحدثون النبر ترجمة للكلمة الانجليزية: STRESS، وهو الخاصة المميزة للعروض الإنجليزي وللانجليزية نفسها قبل العروض. ودعنا من ذكر الأسماء.

وتقول إن التراث الذي أخشي أن ننقطع عنه حي بنا وفينا إذ ليس له وجود خارج عنا، بل هو متجدد وفاعل فيما نبدعه اليوم، وإن اتخذ أشكالا مغايرة، فكيف يقتلع إنسان نفسه من الجذور ويزعم لنفسه وللآخرين أنه لا يزال شجرة حية قادرة علي الإنبات والإثمار تلك نيتك أنت. ولكل امرئ ما نوي.

زعم الداعي إلي النبر أنه يريد للشعر العربي الانطلاق إلي آفاق لا تبلغ إلا بالنبر. وهو إذن حسن النية، يريد للشجر أن يحيا. أما أنا فأشك. ويحق لي أن أشك إذا رأيت جهلا بواحا وحماسة هائلة لا قناع الناس بما يضلهم ويفسد أذواقهم. تريد أن تقول إن الماضي قائم فينا بالضرورة، لا مناص من قيامه علي نحو ما . وإذ كان الشعر الحر وجها من وجوه قيامه فينا، فخشيتي إذن بلا موجب. وددت ـ كما وددت أنت ـ ألا يكون هناك خطر، لكن العبرة ليست بالأماني، إن ما تراه ـ ضرورة ـ لا العقل يحكم بلزومه ولا الواقع.

لا يحيل المنطق حصول الحقيقة، ويشهد التاريخ علي حصولها أحيانا.

أين اللاتينية ـ علي سبيل المثال ـ إذا اكتفينا بلغة واحدة من اللغات البائدة!

متجدد وفاعل فيما نبدعه اليوم. صدقت. لا جرم. لكن انظر، حيالك طرفان، مشتبك أحدهما بالآخر، داخل فيه علي نحو ما . ونحن، والعبرة بما نبدعه اليوم هنا مربط الفرس: ما الذي نبدعه؟ هل الذي يبدعه ابن تيمية كالذي يبدعه ابن عربي؟ إذا كان التراث فاعلا فنحن أيضا فاعلون. بل نحن الطرف مناط الاعتبار. ما ذا نقرأ؟. وكيف نقرأ؟. كيف نتلقي؟. والواسطة بيننا وبينه اللغة، فإذا ضعفت ـ أو قل ضعفنا ـ كشأننا هذه الأيام ـ اختل التفاعل، ولم تنتج المعادلة ما يرجي أو ما لاينبغي، متفائل أنت. لا بأس، كل ذي غيرة كذلك. لكن ليس حسنا أن نطمئن. كل ما حولنا يدعو إلي القلق. والواجب أن نستجيب للقلق لا أن نهرب منه، الواجب أن نراقب، أن نرصد، أن نفحص، أن نتوجس، أي في كلمة واحدة، أن نعلم، وأن نكون ـ كما قلت أول الشباب ـ ذوي إرادات يقظة

وليأذن لي الصديق الكريم المبدع والباحث الجاد: الحساني حسن عبدالله، وليأذن لي القارئ، بكلمة قادمة.

رسالة جديرة بالاهتمام

بقلم: فاروق شوشة

تلقيت هذه الرسالة من أستاذ جامعي عربي صديق - التقيت به مؤخرا في إطار معرض الشارقة الدولي للكتاب - وحين اطلعت علي سطورها الأولي أدركت أنها جديرة بالنشر أولا، وبالوصول الي عقل كل فنان ومثقف ومفكر عربي ثانيا. تقول الرسالة: انتم علي وعي - ولا شك - بأن ما يحمله الفنانون المثقفون والرأي العام وعامة الناس في أوربا وأمريكا من صورة عن العرب وعن حضارتهم وثقافتهم وتاريخهم تغلب عليها السلبية، لا نها صورة موروثة عن حقبة الاستعمار مثقلة بالعنصرية والاستعلاء وإنكار حقوق الانسان. وبالرغم من أن عديدا من المفكرين والمثقفين والفنانين - وحتي من عامة الناس في هذه البلدان - قد بدأوا يصححون تلك الصورة ويتبنون مواقف أكثر وعيا بمظالم الصهيونية وأكثر تفهما لمعاناة اخواننا في فلسطين والعراق ولبنان وغيرها، وأكثر انصافا لا متنا ضد أعدائها الاستعماريين، فإن هذا التصحيح بطئ ولايزال ضعيف الأثر، الأمر الذي يتطلب من جميع العرب المساعدة علي جعل تصحيح صورة العرب والمسلمين المشوهة في الغرب اكثر سرعة وفاعلية.

من بين الأفكار التي نقترح عليكم أن تساعدوا في انجازها استخدام علاقاتكم وشبكة المتابعين لفنكم في أرجاء الوطن العربي للاتصال بمن يملك منهم قدرات تمويلية الي أنصاف العرب وتبني قضاياهم ورفع التشويه الذي أصاب صورتهم لدي الشعوب الغربية من هنا، فإن هذه الرسالة الموجهة الي كل فنان عربي، وكل مثقف ومفكر عربي، تقترح علي الأثرياء العرب وعلي المؤ سسات الاقتصادية والمالية العربية تبني أحد المشاريع التالية ودعمها:

أولا: مركز توثيق ودراسات عن الجمعيات والمنظمات والمراكز والأفراد المتعاطفين والمساندين لقضايا العرب والمسلمين والمعنيين بحوار الثقافات والحضارات

ثانيا: اقامة جامعة أو أكاديمية شعبية لتخريج سفراء للجاليات الغربية والاسلامية في الغرب، من خلال اختيار كفاءات ذات قدرة علي الاقناع، تجيد إحدي اللغات الغربية بطلاقة، تقوم بدور السفير المدافع عن قضايا العرب والمسلمين في الغرب وفي وسائل اعلامه وشتي منابره.

ثالثا: إقامة مؤسسة لتنظيم معارض وأسابيع ثقافية تبرز همجية الاحتلال من خلال بقايا المنازل المهدمة، لعب الأطفال، أثاث المنازل، شهادات الناجين من الموت. والجرحي والمعاقين وأشرطة وثائقية عن القصف والتخريب والتهديم والتجريف، علي غرار

معـرض الحافلـة الإسـرائيلية المفجـرة أو معـرض الأحذيـة العـسكرية للجنـود الأمـريكيين القتلـي في العراق.

رابعـا: انـشاء مركـز حقـوقي للـدفاع عـن فلـسطين يقـوم برفـع القـضايا ضـد مجرمـي الحـرب الاسـرائيليين والحكومـة الاسـرائيلية، وذلـك في البلـدان الغربيـة الـتي تـسمح قوانينهـا بذلك. أو حتي في وإسرائيل ذاتها:

خامـسا: انـشاء مركـز دولـي متخـصص وتوثيـق جـرائم الاحـتلال يقـوم بانتـاج الكتـب والنـشرات والأفـلام الوثائقيـة والـصور والملـصقات وتوزيعهـا مترجمـة الـي اهـم لغـات العـالم علـي وسائل الاعلام ومنظمات المجتمع المدني في كل أنحاء العالم.

سادسـا: إنـشاء مؤسـسة انتـاج سـينمائي مـن خـلال دعـوة كبـار الـسينمائيين والمخـرجين المـستقلين في الغـرب لا نتـاج أفـلام روائيـة عـن العـرب والمـسلمين وقـضاياهم وحـضارتهم، ودبلجـة أفـضل مـا لـدينا مـن أفـلام ومسلـسلات ومسلـسلات ذات العلاقـة(مثـل مسلـسل فـارس بـلا جـواد) وكـذلك اقامـة مؤسـسة لـدعم المنظمـات والمراكـز والجمعيـات والفـرق والـشركات الـتي تنـتج اعمـالا فنيـة وثقافيـة وأدبيـة تـبرز الوجـه المـشرق لحـضارتنا وتاريخنـا وتؤكد عدالة قضايانا وتقديم جوائز ما لية لا فضل الأعمال:

سـابعا: ولابـد مـن دار نـشر تـصدر كتبـا موجهـة الـي الأطفـال في الغـرب، ودعـوة كبـار الكتـاب والرسـامين العـرب والغـربيين للإسـهام في إنجـاز سلاسـل للأطفـال بـأبرز اللغـات حـول حـوار الحـضارات والوجـه المـشرق لتـاريخ العـرب وحـضارة العـرب والمـسلمين وعدالـة قـضاياهم وتعايـشهم مـع المـسيحيين واليهـود ولا تخلـو الرسـالة أيـضا مـن دعـوة الـي وكـالات أسـفار تـنظم رحـلات سـياحية وثقافيـة للغـربيين ودار نـشر تـصدر كتبـا ورقيـة والكترونيـة وتقـيم حـوارات وتحقيقات وتترجم اعمالا مختارة لكبار المفكرين والعلماء والأدباء العرب.

وتـدعو الرسـالة - الـتي أراهـا جـديرة بالاهتمـام: الـي أن تقـام هـذه المؤسـسات في عواصـم البلـدان الغربيـة حـتي تكـون وثيقـة الـصلة بـالجمهور المـستهدف، وأن يـسيرها متخصـصون غربيـون متعـاطفون مـع قـضايانا وذوو حرفـة عاليـة ولـديهم اشـعاع وحـضور في مجتمعـاتهم، والـي الاهتمـام الكـبير بوسـائل الاعـلام والدعايـة الواسـعة لهـذه المؤسـسات وبرامجها ومنتجها في وسائل الإعلام الغربية.

إعلامنا العربي يكلم نفسه!

بقلم: فاروق شوشة

تمنيت لو أن القمة العربية اتخذت ضمن قراراتها وتوصياتها قرارا بإنشاء قناة فضائية عربية تخصص للقضية الفلسطينية والقضايا العربية وتقدم برامجها باللغتين الإنجليزية والفرنسية لتخاطب الرأي العام الأمريكي أولا والأوروبي ثانيا والإفريقي والآسيوي ثالثا. فلم يعد خافيا علي أحد أن الإعلام العربي يكلم نفسه بأكثر مما يتجه إلي مخاطبة الآخر ومناطق التأثير في الرأي العام العالمي. وأنه في الكثير مما يقدمه من برامج وحوارات وسهرات يستهدف مواطنا عربيا هو في قمة السخونة والغليان، والوعي بحقائق الموقوف وعناصر المواجهة أكثر بكثير مما يظنه المهيمنون علي أجهزة الإعلام العربي. هذا المواطن العربي ليس في حاجة أبدا إلي من يذكره بهويته وعروبته وانتمائه من خلال ما تعرضه الشاشات من صور القتل والقمع والعسف ـ مما يزيده سخطا وفورانا وغضبا ـ بينما هي عاجزة عن الوصول إلي مناطق التأثير في رأي عام أجنبي مغاير، لا بد من مواجهته بالحقيقة، وتوعيته بعدالة الموقف الفلسطيني، والعربي وإحداث صدمة الوعي الكاشف فيه، والعزف علي الأوتار التي تلائم مزاجه النفسي والحضاري، وتيسر مخاطبته من خلال لغة خطاب عصرية، ليست هي بحال من الأحوال لغة الإثارة والتهييج والطبل والزمر والتخديم الفج علي الأحداث ـ التي تبناها الإعلام العربي علي مدي نصف قرن. وكثيرا ما تساءلت وأنا أتابع من خلال البث التليفزيوني العربي وفضائياته المتعددة وإذاعاته الصارخة ـ المدوية بأعنف الأحاديث والحوارات والتعليقات ـ لمن يوجه كل هذا الكلام؟ لنا نحن المستعمين والمشاهدين المصريين والعرب؟ وهل نحن في حاجة إلي من يشحننا بأهمية القدس والمسجد الأقصي والدولة الفلسطينية والجولان وجنوب لبنان والانتفاضة؟ ومن يحدثنا عن أساليب الاحتلال الاستيطاني الصهيوني ومراوغات كل الحكومات الإسرائيلية ـ من العمل والليكود ـ وإجرام السفاحين الإسرائيليين علي اختلافهم ـ وخرافة الحمائم والصقور في إسرائيل، وحركة السلام الإسرائيلية التي لم يرتفع لها صوت واحد طيلة المذابح الإسرائيلية العنصرية الأخيرة؟ هل نحن حقا الذين ينبغي أن يصب في عيوننا وأسماعنا، في عقولنا ووجداناتنا ـ ليل نهار ـ هذا الفيض الإعلامي الهادر، ولم ترد علي كوننا جلوسا في غرفة مغلقة، يهاتي كل منا لصاحبه، ويفرغ طاقته في أخيه، والآخرون ـ الذين ينبغي أن يكونوا معنيين ـ لا يدرون شيئا، ولا يصلهم شيء من هذا الذي نبدأ فيه ونزيد ونعيد!.

آفة الإعلام العربي أنه استطاع طوال نصف قرن خلخلة الوجدان العربي إزاء الثوابت التي ينبغي ان تظل ثوابت في قضية الصراع العربي الإسرائيلي؛ لا ن هذه الثوابت

تمثل استراتيجية الحياة بالنسبة لهذه الأمة - فنحن نهيج ونقعد، نسخن ونبرد، نرفع درجة المواجهة الإعلامية ونخفضها إلي درجة كتم الأنفاس.. نتحدث عن فلسطين والقدس والأقصي والصهيونية والعدو القومي، ثم نخرس، فلا يسمح بكلمة واحدة عن القدس أو الأقصي أو فلسطين، فمثلا، حيث أطلقت أغاني فلسطين والقدس - في أيام الانتفاضة الأخيرة - من سجنها المظلم داخل مكتبات الإذاعات والتليفزيونات العربية، أحس الناس أن عهدا جديدا من الوعي الإعلامي قد بدأ، وتساءلوا: إلي متي سيظل هذا الصوت الذي حبسناه طويلا مجلجلا، ومتي تدرك أجهزتنا الإعلامية، أن هذه المواجهة مع العدو القومي للأمة العربية طويلة ومريرة، وأنها - باعتراف القمة العربية ذاتها - في حاجة إلي حشد الرأي العام العالمي، وتزويده بالحقائق وتنويره بالوعي الكاشف، حصولا علي مؤازرته إن أمكن، أو تحييده في الصراع وهو أضعف الإيمان، وبالتالي فهي ليست معركة أسبوع أو أسابيع، نغلي فيها ونفور، ونزايد في مساحات الطبل والزمر - ولم لا ؟ ما دام لدينا الجاهزون الكذبة الذين يجدون في جسد الأمة المتهالك ومصائبها الكبري وأحزانها الفاجعة مواسم للارتزاق من خلال تدبيج الأغاني والأناشيد التي تنطفيء وتموت بانتهاء مناسبتها، دون أن يتجه إعلامنا العربي إلي الأبقي فنا وتوجها وأصالة، والذي لا يتدافع مبدعوه الحقيقيون بالمناكب في زحام الارتزاق، لكنهم يعفون ويترفعون لا نشغالهم بالتجويد والاحكام علي نار هادئة، مضحين في نبل وشرف وإثيار.

وآفة الإعلام العربي انه استطاع طوال نصف قرن ان يقنع الناس بأن مجرد القول يمكن أن يكون بديلا عن الفعل. وأن ما يحدثه الكلام العاصف الصاخب في نفوس مستقبليه من راحة وتطهير يكفي لتحقيق الرسالة الإعلامية. أما الحض علي الفعل بزيادة مساحة الوعي، وتوسيع آفاق الحوار الحر، وتحديد المسئولية إزاء الأحداث والمواقف، وإلقاء الضوء من زوايا مختلفة علي الموضوع الواحد.. وتوثيق كل ما يقال بالحقائق والمعلومات والأدلة والبراهين المصورة والمسموعة وإحداث الثقة عند المتلقي بالنقد الذا تي قبل نقد الاخر، والسرعة إلي التصحيح والتصويب والاعتذار في حالات الخطأ أو نقص المعلومة، وتكوين الكوادر العاملة، القادرة علي ان ترتفع إلي مستوي المسئولية وشرف المواجهة فلا تصبح كوادر مضحكة مبكية عاجزة، تسقط في أي مجال للمواجهة وأي امتحان لوعيها الزائف وسطحيتها الفاقعة وجهلها الناصع وسوقيتها المتدنية وألوانها التي تصبغ دمي ومومياوات!.

وهو أمر يذكرنا بموقفنا من قناة الجزيرة وما سالت به الأقلام والرسوم الكاريكاتورية في الأيام الأخيرة، ولكأننا اكتشفنا فجأة طبيعة هذه القناة، وحقيقتها، وأهدافها، وتوجهاتها، التي لم تكن خافية أبدا علي كل من تابعها منذ أيامها الأولي. لكن يبدو أن سخونة الأحداث الأخيرة، وانكشاف الأقنعة أكثر من كوادرها القبيحة هو

الذي فجر هذه الموجة العارمة من النقد والغضب والهجوم، وليته الغضب الذي ينبهنا إلي نواقصنا ونقاط ضعفنا بأكثر مما يجرفنا في تيار الهجائيات الهادر. واضح أن هذه القناة تملك من الإمكانيات ما لا تملكه قنوات الريادة: العناصر المدربة تدريبا عاليا والتي تمتلك مهارات نوعية، والقدرة الواضحة علي التغطية الواسعة في جميع مواقع الأحداث من خلال شبكة قوية من المراسلين المختارين بعناية، يعرفون ما يقولون وما يفعلون، ليسوا - مثلا - ككثير من مراسلينا الذين لا يجلبون إلا السخرية والاستخفاف والتهكم والاتهام بالتخلف وهي جميعا مظاهر لسوء الاختيار مما يجعلنا نتساءل: لماذا ينجح الآخرون فيما نفشل فيه نحن؟ - وتوثيق ما تقدمه القناة بالمادة المعرفية اللازمة - معلومات وصورا وأرقاما - لا كتساب ثقة المشاهد واقناعه، والايقاع السريع الذي لا يتكاسل ولا يترهل، ولا يسقط في لجاج مذيعات ببغاوات وتفاهة ما يكتبه لهن المعدون من كلام ساذج، وما تفيض به برامج عديدة من ثقافة ضحلة، وتعالم جاهل، وادعاء لا ينجح في ستر الغباء المتأصل والسوقية المتمكنة!.

الرد الوحيد علي قناة الجزيرة إعلام عصري حقيقي، يهجم عليها بالوعي والاستنارة، وآفاق الحرية الرحبة واستقطاب من لا يزالون يشعرون بأن إعلام بلادهم يتجاهلهم ولا يتسع لهم فيفتشون عن مكان لهم حتي لو كان المكان قناة الجزيرة، وكوادر أحسن تدريبها وصقلها ودفعها دفعا إلي مساحات الجرأة والاقتحام وعدم انتظار الأوامر والنواهي لكي تقرر وتتحرك، وبرامج مخدومة في كل شيء، تستقطب الاهتمام وتحقيق ثقة المواطن واحترامه. وإلا فالبديل الذي احذر منه أننا خلال سنوات قليلة لن نجد فقط قناة الجزيرة - التي تنعق كما تنعق الغربان وإنما سنجد قنوات أخري عديدة، تقلدها وتحاكيها، وتجد فرصتها في تقاعسنا وعدم جديتنا في التغيير، مع أن الذين نشكو منه واضح لكل ذي عينين، ليس بحاجة إلي بحث أو استبيان، والقبح الذي نتحدث عنه نراه في كل يوم ونسمعه، والذين يتحكمون في مقادير أجهزتنا الإعلامية العربية يعرفونه جيدا ويدركون خطورته لكنهم لا يتحركون!.

نحن في أمس الحاجة إذن إلي قناة فضائية عربية، تتكلم الإنجليزية والفرنسية، وقد تتكلم غيرهما من اللغات في المستقبل، لا تخاطبنا نحن ملايين العرب فحسب، وإنما تخاطب في الأساس جمهورا لم نستطع الوصول إليه أو التغلغل فيه والتأثير عليه. تتبني قضايا الأمة العربية وفي مقدمتها القضية الفلسطينية التي سمح إعلامنا العربي لنفسه بالتخاذل في أول الأمر أمام إلغاء تسميتها الصريحة بالقضية الفلسطينية ليستخدم المصطلح الاستعماري الذي صيغ بعناية لمحو اسم فلسطين وإدخال إسرائيل معنا في سياق المستقبل والمصير وتسمية الأمر بقضية الشرق الأوسط أو مشكلة الشرق الأوسط. وقبل إعلامنا الذكي الطعم وأخذ يردده ويرقص علي أنغامه. تماما كما قبل مصطلح العنف الذي أخذ يتردد في

وسائل الإعلام الغربية - والأمريكية علي وجه الخصوص وفي مقدمتها شبكة الـ C.N.N اليهودية الطابع الإسرائيلية المحتوي والتوجه- وكأن الفلسطينيين العزل الذين يدافعون عن وجودهم الحياتي بقطع الحجارة يتساوون مع جيش الاحتلال الإسرائيلي المزود بالدبابات والصواريخ والمدافع والطائرات - في العنف! وارتضينا أن يكون ما يقوم به الأطفال والصبية والشيوخ والنساء والمواطنون غير المسلحين عنفا. ننحي عليه باللائمة، ونصب عليه جام الشجب والإدانة كأنه مواز في السببية والحجم والجرم للعنف الذي يقوم به الطرف الآخر!.

القناة الفضائية العربية الموحدة التي يمكن ان يخطط لها من الآن جهاز يمثل الإعلام العربي - تنفيذا ومتابعة لتوجهات القمة العربية التي تدرك جيدا ان الصراع طويل جدا ومرير وبالتالي فلابد من التهيئة لصراع اعلامي جاد وعصري - هذه القناة هي يدنا الإعلامية الطويلة التي لا بد أن تصل إلي سمع العالم كله وبصره، تخاطب الرأي العام العالمي كله، وتفيد في مضمونها وأساليب أدائها من الخبرات الإعلامية العربية والدولية التي تراكمت إيجبا وسلبا.

لا تكون فيها القضية الفلسطينية، أو القضايا العربية، مجرد برنامج أو سهرة أو دردشة أو حوار، وإنما هي ما دة البث الأساسية المستمرة التي تجعل من القناة كتابا مفتوحا وريبورتاجا مصورا وفيلما ناطقا ودراما حية ومتابعة يومية بالساعة والدقيقة والثانية، للداخل والخارج، للعربي وغير العربي، للمحلي والعالمي، لمن يؤيدوننا ومن يعارضوننا، من خلال استراتيجية واضحة لا تهن ولا تلين ولا تضعف، ولا تقع في التناقض والارتباك، ولا تغير مواقفها أو مواقعها بين يوم ويوم، ولحظة وأخري، فتتسبب في خلخلة وجدان المواطن العربي، وزعزعة إيمانه ويقينه، وفتح النوافذ للشبهات والشكوك والمزايدات.

ومصر - وحدها- قادرة بحكم الخبرة والإمكانيات وسجل التضحيات - علي إقامة هذه القناة، وحمايتها من أن تنعكس عليها سلبيات الجامعة العربية وأوزارها ا ذا ما ترك أمر القناة لا رادات عربية متضاربة ومزايدة، لم تتمثل بعد معني الموقف العربي الواحد وأهمية مخاطبة الرأي الآخر المؤثر. والبلد الذي أقام في مستهل خمسينيات القرن العشرين صوت العرب ليكون صوت الأمة العربية في كفاحها ونضالها التحرري والقومي، لن يصعب عليه أن يقيم هذه القناة العربية الموحدة مع مطالع القرن الحادي والعشرين، علي أن يبقي الباب مفتوحا لمن يريد المشاركة - بكل صورها الممكنة - من بقية الأقطار العربية. والراغبون في المشاركة ممن يمتلكون الوعي الصحيح والمسئولية التاريخية هم بحمد الله كثيرون!.

ساعتها لن نقول إن إعلامنا العربي يكلم نفسه، وانه يبدد جهده في الفراغ ويصب في غير ما ينبغي له من قنوات وجمهور، وإنه يثير غضب مشاهديه واستياءهم حين يخاطبهم بالمعلوم والمعروف، وما ليسوا في حاجة علي الإطلاق لسماعه أو مشاهدته. ولا يتجه بكل طاقته وعنفوانه إلي من تلزمهم هذه الرسالة، ليصحموا من مواقفهم، ويتوقفوا عن انحيازهم للباطل وتأييدهم للعدوان.

سيقولون: وما العيب في أن يخاطب إعلامنا المواطن المصري والعربي، حماية لوعيه وتدعيما للجبهة الداخلية وصونا للأمن القومي.. أو ليست هذه مهمته الأساسية ما دام إعلاما حكوميا يلتزم بهموم الدولة والوطن؟.

أقول لهم: بلي، ولكنها ليست المهمة الوحيدة في خضم الصراع العربي - الإسرائيلي، الذي عبر عنه بيريز بأنه ليس قضية حدود ولكنه قضية وجود. بهذا المعني تصبح القضية ال الفلسطينية - في جوهرها - قضية مصرية قبل ان تكون قضية عربية، وتصبح استراتيجيتنا الإعلامية والقومية إزاء العدو في حاجة إلي إعادة نظر وتخطيط، ويصبح الإعلام العربي - والمصري في الطليعة منه - قوتنا الضاربة الأولي في هذه المعركة، معركة البقاء والمصير.

في صحبة لغتنا الجميلة

بين عمان وأبو ظبي

بقلم: فاروق شوشة

بدعوة من مجمع اللغة العربية الاردني في عمان ومركز زايد للتنسيق والمتابعة في أبو ظبي (وهو احد المراكز التابعة لجامعة الدول العربية) وجدت نفسي في صحبة لغتنا الجميلة وأنا أحاضر في المجمع الاردني عن اللغة العربية في الاذاعة والتليفزيون والفضائيات في جمهورية مصر العربية: دراسة تحليلية ونقد وفي مركز زايد عن جمال العربية - دفاع عن الهوية واسعدني ان التقي بنخبة من رجال الفكر والمجتمع واللغة والإبداع في البلدين العربيين الشقيقين يجمعنا الاهتمام بلغتنا القومية وهاجس الحاضر والمستقبل في لحظة مصيرية من تاريخ الامة العربية .

كان المتوقع لدي النخبة المثقفة والمتميزة التي امتلأت بها القاعة الرئيسية في مجمع اللغة العربية الأردني أن ينصب حديثي في معظمه علي السلبيات التي أصبحت تشوه واقع الاداء اللغوي علي ألسنة كثير ممن يعملون في الاذاعتين المسموعة والمرئية والفضائيات (وهي صيغة قلت اني افضلها علي صيغة التلفاز) التي وضعوها في عنوان المحاضرة .

الطريف ان هذا الموضوع - قبل سفري إلى الأردن - كان شاغلا لمؤتمرين كبيرين أقيما من أجله أولهما دعا إلى ه قسم علم اللغة في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة وكان لي شرف المشاركة فيه ، وثانيهما أقامه مجمع اللغة العربية في القاهرة في مناسبة مؤتمره السنوي الأخير ، الموضوع إذن مطروق وساخن ومحرك للاهتمام - علي مستوي العلماء المتخصصين من أعضاء المجامع وأساتذة الدراسات اللغوية والعاملين في أجهزة الإعلام والجمهور . وما فعله المجمع الأردني معي فعله مع آخرين من بلاد عربية مختلفة يعرضون ويحللون ويناقشون وضع اللغة العربية في أجهزة بلادهم الإعلامية بهدف تقديم صورة شاملة علي مستوي الوطن العربي كله والوصول إلى توصيات عام ة تركز علي سلبيات الصورة والعمل علي مواجهتها .

السلبيات - كما قلت - كثيرة ومتعددة تحيط بنا وتفرقنا مع كل ساعة إرسال .

أخطاء في النطق والإعراب والبنية الصرفية وهندسة تركيب العبارة . الطريف ان أخطاء الضبط النحوي هي أقل ما يقع في كلام المذيعين والمذيعات أما أكثره فيعود إلى أخطاء الضبط لبنية الكلمة وافتقار كثير من الإذاعيين في الإذاعتين المسموعة والمرئية وكثير

مـن المتحـدثين أيـضا إلى الثقافـة الـصوتية والـي التـدريب الكـافي علـي اسـتخدام الإمكانيـات الـصوتية المتنوعـة الـتي تنـدرج تحـت مـا يـسمي بالوسـائل الـصوتية غـير اللفظيـة أو الملامـح النطقيـة المـصاحبة للعمليـة الكلاميـة المـشاركة لهـا في أداء الرسـالة اللغويـة والمـستخدمة في تنويـع نمـاذج الأصـوات مثـل النـبر والتنغـيم ودرجـة الـصوت ومعـدل سـرعته او اسـتمراريته ونوعيتـه ومـدي ارتفاعـه وطـول الوقـف او الـسكوت ، ممـا يـضيف إلى سـلبيات الأداء كثـرة الـسكتات والوقفـات الخاطئـة والخطـأ في تنغـيم الجملـة - في أثنـاء قراءاتهـا - ونطـق الاصـوات نطقـا معينـا في مثـل التقـابلات الـصوتية :الـدال والتـاء والـذال والثـاء والـزاي والـسين والعـين والغـين والحـاء والخـاء والخلـط بـين ال الشمـسية و'ال' القمريـة وبـين همزتـي الوصـل والقطـع وهـي الـسلبيات الـتي افـاض في بيانهـا العـالم الراحـل الـدكتور أحمـد مختـار عمـر مـن خـلال مشاركته في مؤتمر دار العلوم .

لكـن لا ن تركيـزي لم يكـن علـي هـذه الـسلبيات باعتبـار ان الـوعي بهـا اصـبح عميقـا وشـاملا فقـد كـان حرصـي علـي جـلاء العديـد مـن الآثـار الايجابيـة للغـة المـستخدمة في وسـائل الاعـلام اللغـة الـتي يفهمهـا الآن أكـبر عـدد مـن أفـراد المجتمـع علـي اخـتلاف مـستوياتهم وأفهـامهم وأذواقهـم والـتي تتميـز بالبـساطة والوضـوح وتنـأي عـن التعـالي والإغـراب وعـن الحوشي والمهجور والممات من اللغة وتميل إلى الايجاز والتشويق .

فـضلا عـن محاولاتهـا الدائبـة لا سـتعادة الـشكل المنطـوق والمـسموع للعربيـة عـبر قنـوات الاتـصال الإعلاميـة علـي ألـسنة العـاملين فيهـا وبالتـالي علـي ألـسنة المـواطنين . وهـي بهـذا المعـني . المجـال اللغـوي الوحيـد في مـصر الـذي يقـدم الفـصحي في صـورتها الحيـة المنطوقـة مـن خـلال منظومـة صـوتية وحرفيـة ونحويـة . وهـو مجـال لا ينافـسها فيـه مجـال آخر لا في المدرسة ولا في الجامعة ولا في أي مكان آخر .

هـذه اللغـة المـستخدمة في أجهزتنـا الإعلاميـة ومـن خـلال مـستوياتها المختلفـة - هـي المـستجيب الأول لا حتياجـات الجمـاهير التعبيريـة والمبتـدع الاساسـي لمعظـم المـادة اللغويـة المستحدثة والمـضخة الـتي تقـذف في شـرايين اللغـة العربيـة مـن حـين لا خـر - بـآلاف الكلمـات والتعـبيرات الـضرورية الـتي قـد تعجـز المجـامع عـن ملاحقتهـا ومتابعتهـا . وحـين تتنبـه المجامع اللغوية لهـذا الجديـد المـستحدث يكـون قـد فـرض نفسه علـي ابنـاء اللغـة فكـأن أجهـزة الإعلام الآن كمـا قـال الـدكتور أحمـد مختـار عمـر بحـق - تقـود حركـة المجـامع وتتقـدم مـسيرتها . الأمـر الـذي جعلـه يوجـه التحيـة ويلقـي الـضوء علـي اولئـك الجنـود المجهـولين في هـذه الاجهـزة الإعلاميـة في مـصر وفي غـير مـصر - مـن صـحافة واذاعـة وتليفزيـون وفـضائيات الـذين يقبعـون خلـف الكـواليس - كمـا صـورهم - يـسابقون الـزمن في ملاحقـة آخـر المـستجدات علـي الـساحتين المحليـة والعالميـة ويجتهـدون في ايجـاد التعـبير المناسـب عـن متطلبـات العـصر ويتولون الترجمـة مـن لغـة المرسـل إلى لغـة المتلقـي في وقـت قياسـي يتطلـب اتخـاذ القـرار الفـوري

وابتداع اللفظ لحظة التفكير فيه دون ان يسعفهم عام ل السرعة وضغوط الحاجة الملحة بالرجوع إلى المعاجم أو استغناء اهل الاختصاص او استشارة المجمع اللغوي . وانهم بهذا يسدون فراغا ما كان ينبغي ان يترك لا هل اللغة والمجامع اللغوية يتداولون فيه طويلا فيختلفون ولا يتفقون . مرجعيتهم في ابداعهم للجديد من اللغة - وذوقهم اللغوي المتميز وحساسيتهم التعبيرية الفائقة واستغلالهم قدرات اللغة وطاقاتها الكامنة واستفادتهم من عبقريتها في الاشتقاق وتوليد آلاف الجمل والعبارات . فكان التوفيق - في كثير مما يبدعونه - حليفهم .

لابد من الاشارة أيضا إلى أنه في مقابل التوسع في استخدام العاميات واللهجات المحلية في الإذاعتين: المسموعة والمرئية والفضائيات ومزاحمتها للفصحي ، فإن هناك التزاما واضحا بالمستوي الفصيح في نشرات الاخبار وتقارير المراسلين والتعليقات علي الأحداث والتحليلات السياسية والاقتصادية والعلمية والأدبية والبرامج الدينية والثقافية وبعض الاعمال الفنية مثل غناء قصائد فصيحة والأفلام والمسلسلات التاريخية والاسلامية والافلام التسجيلية والأعمال المدبلجة (أي الناطقة بالعربية حتي يتاح لها انتشار واسع وقبول قومي عام) والنصوص المترجمة لا عمال أجنبية . فضلا عن الالتزام التام بالفصحي في اذاعة القرآن الكريم وإذاعة البرنامج الثقافي وقناة النيل الثقافية الفضائية .

هل هناك حاجة إلى تأكيد ان هذه الاجهزة الاعلامية قضت علي حاجز الأمية بالنسبة لملايين الاميين الذين لم تعقهم أميتهم عن المتابعة والمشاركة في كثير مما يستمعون إلى ه ويشاهدونه عبر الاذاعة والتليفزيون والفضائيات في البيوت والمحال والمصانع والمزارع والبوادي يتابعون ويناقشون ويسألون ويزيدون من مساحة الوعي والقدرة علي المشاركة والانتماء . كما يذكر لهذه الاجهزة أيضا نجاحها في التقريب بين اللهجات والمستويات اللغوية المختلفة ، الأمر الذي يتطلب دراسة ميدانية تعكف علي البحث في الواقع اللغوي الميداني وتحليل ما يحدث فيه من تغير وتطور واضافة .

في مركز زايد بأبو ظبي للتنسيق والمتابعة كانت سعادتي باللقاء تعود إلى عوامل عدة من اهمها ان هذا المركز بكل نشاطه إلى ومي ومطبوعاته واصداراته يشكل قلقا هائلا للدوائر الصهيونية والاستعمارية الأمر الذي يجعلها توجه إلى المركز ومديره الكاتب الشاعر الروائي محمد خليفة العديد من الاتهامات بمعاداة السامية (كأننا نحن العرب لسنا ساميين أيضا) ، وقد دهشت عندما عرفت أن نشاط المركز يومي فهو يستقبل في كل يوم شخصية مهمة تتحدث في قضية شديدة الاهمية وفي كثير من الأيام تكون لديه شخصيتان واحدة تتحدث في الصباح واخري تحاضر في المساء يكفي ان أشير إلى أن من بين الذين حاضروا فيه وجلسوا علي منبره: الرئيس الامريكي الاسبق جيمي كارتر ونائب الرئيس الامريكي السابق ألبرت جور ووزير الخارجية الامريكي الاسبق جيمس بيكر والشخصيات

المتميـزة: سـير سـيريل تاونـسند وتـشاس فريمـان وريتـشارد مـيرفي وجيرالـد كوفمـان وكـورت فالـدهايم ورئـيس الـصومال وفـرانس الـبرت لـين وغيرهـم . المركـز كما قلـت يعمـل تحـت مظلـة الجامعـة العربيـة ويحظـي برعايـة الـشيخ سـلطان بـن زايـد نائـب رئـيس مجلـس الـوزراء ورئـيس المركـز . مـن هنـا نـدرك التوجـه الاساسـي في اختيـار ضـيوفه مـن المتحـدثين مـن اصـوات العقـل والـسلام والقـادرين علـي اشـاعة مزيـد مـن الحـوار والتقـارب الانـساني وتعزيـز فـرص الحـوار الحـضاري بـديلا عـن الـصراع ولغـة الحـرب والتهديـد باسـتخدام القـوة . يكفـي ان أقتـبس مـن محاضـرة آل جـور نائـب الـرئيس الامريكـي الـسابق قولـه' إن التطـرف الـديني ظـاهرة لا تخـص دينا بعينه' وان تـصرفات المتطـرفين مـن كـلا الجـانبين كانـت لهـا آثـار مـدمرة علـي مـر القـرون .

مـن هنـا كـان سـعي' مركـز زايـد' إلى إشـاعة روح الحـوار الانـساني وتحديـد الاتجـاه المناسـب في اللحظـة التاريخيـة المناسـبة . رغـم مـا يـصاحبها الآن مـن ضـجيج هائـل وارتفـاع في الاصـوات و'جاهزيـة' في الاتهامـات باعتبـاره صـوتا مـن اصـوات العقـل والحكمـة وروح الحـوار الحـضاري القـادر علـي ايجـاد مـساحات واسـعة مـن التواصـل الانـساني الايجـابي القـادر علـي تفكيـك حـالات سـوء الفهـم وسـوء التقـدير الـسائدة حاليـا في مـشهد الـسياسة العالميـة . لقـد اعـترف آل جـور مـثلا في محاضـرته بـأن كـلا مـن الولايـات المتحـدة والعـالم العربـي يمـران بعمليـة تغـيير هائلـة فهنـاك الفـضائيات والانترنـت والانفجـار الـسكاني وثقافـة الـشباب ودخـول العديـد مـن الاتجاهـات مـن كـل مكـان في الارض في ثقـافتكم وثقافتنـا وان عمليـة التغـيير هـذه أمـر لا يـساعد علـي تحقيـق الاسـتقرار . ففـي عالمنـا وعـالمكم هنـاك مـن يعـيش علـي تقاليـد الماضي القديمـة ويجعلـها الدفـة الـتي يوجـه بهـا حياتنـا وبـدخول هـذه الاتجاهـات بـدأت الدفـة تخـرج مـن يـد حاملـها فنهـيم بـاحثين عـن علامـات جديـدة تقودنـا ، ان الـبعض يتفاعـل مـع هـذا التغـيير بإبـداء غـضبه وأحيانـا الاتجـاه للعنـف ولكـن التغـيير الـذي تمـر بـه مجتمعاتنـا لا يمكـن صـده بـالعنف هنـاك كراهيـة في عالمنـا وعـالمكم لـبعض عناصـر هـذه الثقافـة الفوضـوية الجديـدة الـتي نراهـا علـي الفـضائيات والإنترنـت . هنـاك قلـق مـن ان يـصيب الـضعف بعـض القيم التي حافظنا عليها طوال حياتنا من خلال تقاليد الثقافة التي ينتمي إلى ها كل منا .

ليس هـذا الكـلام بعيـدا عـن موضـوع المحاضـرة الـتي ذهبـت مـن اجلـها إلى مركـز زايـد للتنـسيق والمتابعـة ، صـحيح أن المحاضـرة حملـت عنـوان جمـال العربيـة ـ دفـاع عـن الهويـة إلا أن التنـاول العـصري لفكـرة الجمـال وتوضـيح ملامـح هـذه الهويـة وسماتهـا يجعلنـا في اشـتباك مـع مـا كـان يقولـه' جـور' وغـيره مـن المتحـدثين المتعـاطفين مـع وجهـة نظـر موضـوعية مغـايرة للـنهج الـصهيوني الاسـتعماري في الـرؤي والتـصورات . وهـو الأمـر الـذي جعـل هـذه الـدوائر الـصهيونية تستـشيط غـضبا ولا تكـف عـن مهاجمـة المركـز بكـل الطـرق والوسـائل . لكن المساحة انتهت ولم ابدأ في الاقتراب من موضوع المحاضرة فإلي الاسبوع المقبل .

خالد الساكت والحلم الذي كان

بقلم: فاروق شوشة

لم أصدق أنه هو ، وأنا أراه واقفا ـ في مدخل قاعة المحاضرات الكبري في مبني مجمع اللغة العربية الأردني ـ ليرحب بي . السمت سمته ، والملامح ملامحه ، والقامة المدودة الفارعة قامته . لكن ، تري ما الذي تغير فيه ؟ إنها فقط جناية الزمن والعمر المتقدم ، حين تلوح خطوط وغضون لم تكن تجرؤ علي الظهور من قبل ، ونظرة عينين تؤكد أن صاحبها يبذل جهدا غير عادي ليحدق ويري ، إذن هو بعينه ، خالد الساكت ، الأردني السلطي ـ نسبة إلى السلط بلدته الجبلية الصعبة ، وهناك من يكتبها : الصلت بالصاد والتاء بدلا من السين والطاء ، صديق نصف قرن من الزمان ، وزميل دفعتي في الالتحاق بكلية دار العلوم ، والذي أدين له ـ أنا والعديد من رفاق الدراسة وأصدقاء المرحلة ـ بالكثير !

كانت المناسبة دعوة موجهة من مجمع اللغة العربية في الأردن ، لا شارك في الموسم الثقافي الحادي والعشرين للمجمع ، بمحاضرة عنوانها اللغة العربية في الإذاعة والتلفاز والفضائيات في جمهورية مصر العربية : دراسة تحليلية ونقد ، سعدت خلالها بلقاء العديد من الوجوه الفكرية والثقافية والأدبية واللغوية في الأردن في مقدمتهم الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس المجمع والدكتور محمود السمرة نائب رئيس المجمع ، الذي أتيح لي التعرف عليه منذ عام ١٩٦٣ ، حين سافرت معارا إلى إذاعة الكويت لمدة عام ، وكان هو وقتها يعمل في مجلة العربي مديرا لتحريرها ومساعدا لرئيس تحريرها العالم الدكتور أحمد زكي .

كان كل شيء متوقعا في هذه الزيارة القريبة للأردن ـ منذ أسبوعين اثنين ـ إلا أن أري خالد الساكت . فقد زرت الأردن طوال السنوات الأخيرة عدة مرات ، وفي كل مرة كنت أحاول اللقاء به ، فيقال لي من أصدقائه ومعارفه : إنه لا يغادر بلدته السلط ، ولايغادر بيته لرؤية أحد ، وإنه معتزل متوحد لا رغبة لديه في خروج أو مشاركة . وكنت أمسك نفسي في كل مرة عن محاولة اقتحام هذا المنفي الاختياري ، وكسر حاجز هذه العزلة خشية أن أتسبب في إزعاجه أو إيلامه . لكن ، هأنذا أراه واقفا ، شامخا ، محييا ، وكأنه يذكرني بلقاءاتنا الأولي في مستهل الخمسينيات من القرن الماضي ، ونحن نطلب العلم في الجامعة ، ونهتم ـ من بين ما نهتم به ـ بدراسة الأدب العربي وتذوق الشعر العربي . كان خالد الساكت وقتها واحدا ممن كنا نسميهم بالطلاب الشرقيين ، وهو لقب كان يطلق علي القادمين من أبناء الوطن العربي ـ من دول المشرق ـ للدراسة في الجامعة ، وكان هو من بينهم أكثرهم لفتا للانتباه ، وجذبا للأسماع ،

وتـأثيرا في العقـل والوجـدان . وكانـت مواهبـة الأدبيـة المبكـرة ، وثقافتـه الواسـعة وحـسه الجمـالي المرهـف ، وسبق لنـا في العمـر ـ بمـا يقـارب عـشر سنوات ـ كـل ذلـك يؤهلـه للقيـام بدور بـارز في الحيـاة الأدبيـة والثقافيـة لـبلاده . وقـد كـان . فقـد أصبح خالـد أحمـد عبـد الله الـساكت ـ وهـذا هـو اسمـه الربـاعي كمـا حفظتـه منـذ نـصف قـرن ـ واحـدا مـن أدبـاء الأردن وشعرائه ونقاده المعدودين ، فضلا عن دوره التعليمي والتربوي العميق التأثير في الأردن .

وعلـي يـدي خالـد الـساكت أتـيح لنـا ـ نحـن الطـلاب المـصريين الملـتفين مـن حولـه ـ التعـرف علـي شـاعر الأردن الكـبير مـصطفي وهـبي التـل (١٨٩٩ ـ١٩٤٩) والـذي عـرف بلقبه الشعري المستعار عـرار ، وهـو لقـب اختـاره مـن قـول الـشاعر عمـرو بـن شـاس الأسـدي في ابنه عرار:

أرادت عرارا بالهوان ، ومن يرد
عرارا لعمري بالهوان ، فقد ظلم

كمـا أن العـرار أيـضا نبـات صـحراوي عطـري طيـب الرائحـة ، وكـان خالـد يحفـظ ديـوان عـرار ، ويحفـظ بالإضـافة إلى الـديوان شـعره الـذي لم يطبـع لخروجـه علـي القـيم والتقاليـد ولمهاجمـة الأوضـاع الـسياسية في الأردن بـالرغم مـن أنـه كـان صـديقا للملـك عبـد الله ـ ملـك الأردن في زمانـه ـ لكـن هـذه الـصداقة الحميميـة المتبادلـة تخللتهـا أوقـات غـضب وقطيعـة وصـلت إلى درجـة سـجن الـشاعر ونفيـه خـارج الأردن . وكـان خالـد الـساكت ينـشدنا بإلقائـه المتميـز وأدائـه المنطلـق مختـارات مـن شـعر مـصطفي وهـبي التـل ـ وهـو بالمناسـبة والـد وصـفي التـل رئـيس وزراء الأردن الـذي قتـل علـي أيـدي جماعـات فلـسطينية في القـاهرة ـ فنعجـب بالأمرين:

الـشعر والإلقـاء . وإليـه أيـضا يعـود الفـضل في تعريفنـا بـشعر ابـراهيم طوقـان الـشقيق الأكـبر لـشاعرة فلـسطين . . فـدوي طوقـان ، وإطلاعنـا علـي شـعره المحظـور أو المحـذور ، لكـن الأشـقياء مـن أمثـال خالـد الـساكت يحفظونـه ويروونـه ، ويـري الـبعض أنـه أروع بكـثير من شعر إبراهيم طوقـان الـذي سمـح بنـشره وتداولـه تمامـا كمـا كـان الأمـر بالنـسبة لـشاعر البـؤس عبـد الحميـد الـديب . فمـا لا يمكـن نـشره مـن شـعره ـ لا فحاشـه وإباحيتـه ـ يفـوق في فنـه الشعري وإحكام صنعته كثيرا من شعره المنشور في ديوانه !

أيضا فقـد كـان خالـد الـساكت شـعلة متوهجـة مـن الفكـر القـومي ، والتوجـه العروبـي ، مجـسدا بانتمائـه وسـلوكه حلـم الـوطن العربـي الواحـد ، متطلعـا إلى يـوم تحقيـق الحلـم القومي الكـبير الـذي تكـسر علـي مـرحلتين ، الأولـي في انفـصال سـوريا عـن مـصر بعـد قيـام أول وحدة عربيـة بينهمـا ، والثانيـة في حـدث النكـسة الـذي كـان مـن نتائجـه سـقوط الحلـم القـومي ، وانهيار مشروعه الوحدوي ، وتبدد الشمل الذي أدي إلى التشرذم والشتات .

ومنـذ تخرجنـا في الجامعـة ، عـام ١٩٥٦ ، ونحـن ـ مجموعـة الأصـدقاء الـتي كـان خالـد الـساكت محورهـا وعمودهـا الفقـري ـ نتـسقط أخبـاره ، ونـسأل الـرائحين والغـادين عنـه . كـان وهـو معنـا مـثقلا بأعبائـه الأسـرية ، لا نـه كـان متزوجـا ، ولديـه ولـدان همـا قـيس وزيـاد قبـل أن تتـاح لـه البعثـة التعليميـة إلى مـصر ، فـترك أسـرته في الـسلط وجـاء وحيـدا ، الأمـر الـذي ساعده علـي الانخـراط في الوسـط الطلابـي بـسرعة خارقـة ، في كليتنـا وفي غيرهـا خاصـة بـين طـلاب الجامعـة الأمـريكيين ، وكـان فيهـا مـن زملائـه وأصـدقائه الأردنـيين عـدد كـبير ، كمـا كـان لنـشاط رابطـة الطـلاب الأردنـيين ودورهـا في التوعيـة الـسياسية والثقافيـة والترويج للفكـر القـومي تـأثير واسـع وصـدي عميـق . مـا زلـت أذكـر أن المـرة الأولـي الـتي أتـيح لـي فيهـا اللقـاء مـع الكاتـب الكـبير الراحـل أحمـد بهـاء الـدين كانـت مـن خـلال محاضـرة لـه برابطـة الطـلاب الأردنـيين بـدعوة مـن مقررهـا الثقـافي خالـد الـساكت . وبعـدها عـرف أحمـد بهـاء الـدين ـ في الأوسـاط الطلابيـة المـصرية والعربيـة ـ بميولـه القوميـة ، وصـداقته الواعيـة للفكـر القـومي الـذي كانـت تـضج بـه الـروابط الطلابيـة في مـستهل الخمـسينيات ويحتـشد مـن حولـه الكـثيرون . كـان خالـد الـساكت ـ ونحـن طـلاب ـ يـشاركنا في الكـثير مـن صـور النـشاط الثقـافي والأدبـي في الكليـة ، وقلـيلا مـا كـان يـشارك في الملتقيـات الـشعرية ، بـالرغم ممـا كنـا نستمع إلى ه منـه ـ علـي انفـراد ـ مـن إبـداعات شـعرية كتبهـا قبـل مجيئـه إلى مـصر ، مـا زلـت أذكر منها حتي إلى وم ـ من قصيدة

غاضبة عنوانها : اذهبي :ـ

أنا سويتك روحا يلهم
وخلقت الحسن والفتنة فيك
أنت لولاي جماد أعجم
لن تغنيك مني أو تصطفيك
كنت ناجيت الصفا لو أعلم
وتخذت الصخر خدني وشريكي

* * *

اذهبي ، لست إذن من قبس
أنا منه ، إنما أنت تراب
وتهاويل خداع دنس
وأكاذيب عذاب وسراب
كنت في عيني صفاء القدس
فإذا أنت علي طرفي ضباب !

كان خالد الساكت يحجم عن المشاركة معنا بمثل هذا الشعر الذي يفصح عن موهبته وتمكنه من فنه ، لا نه كان يعد نفسه ليكون ناقدا أو باحثا قبل أي شيء آخر . وكانت صداقته للناقد الكبير رجاء النقاش - الذي كان طالبا لا معا بكتاباته الطليعية البديعة علي صفحات مجلة الآداب البيروتية تجعله يري فيه القدوة والمثال للإنسان الذي يحترق ويذوب من أجل كتابة صادقة ورأي حقيقي يؤمن به ، كما كان حبه للكاتب القصصي الكبير أبو المعاطي أبو النجا - زميلنا في الدراسة والمتألق بيننا بموهبته وفنه - كان هذا الحب يغريه بتجربة قدراته النقدية في التحليل والتنظير ، ويجد في قصص أبو المعاطي القصيرة ، خاصة قصته الآخرون ما دة طيبة متاحة للإفصاح عن قوامه النقدي الذي لا يزال في حاجة إلى النضج والوعي .

لكن ها هو ذا خالد الساكت ، صديق العمر الجميل ، يضع في يدي وأنا أعانقه - بعد هذا العمر الطويل - ديوانه الشعري الجديد المسيرة الذي أصدره منذ سبع سنوات ، بعد أن أصدر عبر مسيرته الأدبية والحياتية الطويلة مجموعة من الدواوين والدراسات الأدبية والنقدية وسيرة ذاتية وكتبا تربوية . وهو في هذا الديوان يلخص تجربته الإبداعية كلها ، ويستصفي أجمل ما في خصائصه الشعرية من قدرة علي التكثيف والتركيز ، واتساع أفق الحقول الدلالية لمعجمه الشعري ، والحرص علي الإيقاع الواضح المساوق لحركة النفس وجيشان الفكرة والمعني . إنه شاعر لم يخن حقيقته ولم يتنكر لجلده ولم يتزي بما يجيده الآخرون من موضات ، لكنه يقدم نفسه لقارئه علي هذه الصورة في القصيدة التي حمل اسمها الديوان .

أحببت الدنيا
لونها شوقي لوحة عشق ، مرصودة
في كل مكان
أحببت الدنيا
العجز حنون
والقسوة حب ملهوف
مشدود في قلب العتمة والأغلال المشدودة
لاتسألني ،
فالعتمة شمس ،
تمخر سفن تتذكر أحلام الشطآن
لاتسألني
فالصبر إلى وم رفيقي المتمد
إلي جثث غطاها الزهر

وأيقظها طيف ظمآن

ويقول في ختامها:

عدني ، واتبعني

فأنا ما ض لا أعرف معني العودة ،

للاستخذاء

عدني

إني ، إني يقظان

أرسم بيد غصن الزيتون

وأمحو بيد كل الأحزان

وجعي فرح الفقراء

واسمي البوح الآمل

والممتد من الصحراء إلى الصحراء

اسمي ، لا أحشره بين الأصوات الخرساء

اسمي علم رف وميضا

ألقا

وعدا ،

بين جميع الأسماء . .

خالد الساكت في هذا الديوان الذي هو أحدث دواوينه ، يودع وجوها لا حباء رحلوا ، ومن خلالهم كان رحيل عصر وفكر وثورة وحلم ، لكنه وداع من عرف الحقيقة فاستراح ، وبدا واقفا علي أرض صلبة ، لا تخدعه البوارق الكاذبة ، ولا إغواءات العصر الوالغ فينا كالكلب المسعور ، إنه يذكر طعنات السكين ، ويعرف من هم المراوغون ، ويستعرض في لوحة تذكاراته الزيف والختل والغل والدود ، ويدرك كيف كان الصمود إحراقا لكل السفن ، وأن المتعالي هائم في دنيا اللذات السفلية ، لكنه عائد بكل قوته ، عائد إلى الجميع بعد أن تطهر من مشاعر الإحباط والهزيمة ، كي يسحق الهوان عن الجباه ، ويحرق الدم الذي يهان ، عندئذ سوف نعرف ـ نحن قراء هذا الشعر الجميل ـ الحب والزمان والمكان ، وجوهر الإنسان !

نزهة قصيرة في بستان الرواية العربية

بقلم : فاروق شوشة

أحمد الله علي أنه لا يزال بيننا نفر قليل من النقاد الجادين ، المتلئين بالوعي والمسئولية ، الذين لا يعرفون في الحق لومة لا ئم ، والذين تجاوزوا حاجز الخوف والرغبة ، فلم يعد يطمعهم شيء ، ولا يعوق انطلاق أقلامهم عائق .

من هذا النفر القليل ، بل في طليعتهم ، الناقد الكبير فاروق عبد القادر ، الذي يحتشد دوما لكتابته بما تتطلبه مسئولية الكتابة من جهد ودأب وبصيرة واستشراف ، وما يتطلبه شرف النقد من جسارة وصدق ومكاشفة ، حتي لو بدا ما يصنعه بالنسبة لغيره ضربا من البطولة المستحيلة ، أو اقتحاما محفوفا بالمخاطر لا عشاش الدبابير التي تجيد فنون التربص والتلسين فضلا عن الغمز واللمز الذي يرتد — آخر الأمر — إلى صدور أصحابه المحتقني الوجوه والأكباد حقدا ومرارة وصفراوية !

وهو في كتابه الجديد في الرواية العربية المعاصرة يقوم بما يسميه ناشره: دعوة لنزهة قصيرة في بستان الرواية العربية بما فيه من ورود وأشواك . متسائلا في جدية ونبل واهتمام: هل يكون حديث في الرواية العربية دون البدء بنجيب محفوظ ؟ في عام ه التسعين يتوجه إلى ه صاحب هذا الكتاب بالتحية ، ويعرض إنجازه الروائي في منظوماته الأربع من الفرعونيات الأولي إلى الأحلام التي لا يزال يضيف لها . ومن الأستاذ المؤسس إلى شباب الرواية المصرية يعرض الكاتب خمسة عشر عملا روائيا لروائيين وروائيات جدد ، ويحاول أن يري ما تتميز به وما بينها من نقاط الاتفاق والاختلاف . ولا يكون النقد نقدا ما لم يكن متصديا وجسورا يمارس حقه في الرفض والقبول ، دون مبالاة بما يحيط بعرض الأسماء والأعمال من هالات . ومن مصر إلى العالم العربي يعرض الكاتب رواية القهر السياسي في المشرق ، ثم ينظر من نافذة مشرعة إلى الواقع الفلسطيني بين انتفاضتين: إحداهما انطلقت مع نهاية ثمانينيات القرن الماضي ، والثانية ما زالت تنتفض في الجسد الفلسطيني .

يفضل فاروق عبد القادر في تناوله لا عمال نجيب محفوظ أن يتحدث عن منظومات في وصفها بدلا من كلمة المراحل التي دأب النقاد علي استخدامها ، فهذه التسمية الأخيرة المراحل قد توحي بوجود انقطاع أو انفصال بين المرحلة والتالية لها ، كأن المؤلف قد أغلق درجا وفتح آخر ، وكل درج مغلق علي ما فيه ، ولا صلة له بالدرج الآخر ، وليس هذا التصور صحيحا ، وليست هناك انقلابات في أعمال نجيب محفوظ . بعبارة أخري - يقول فاروق عبد القادر — إن ابداعه يجري متدفقا مثل نهر

تحدد الشطآن مجراه ، قد تتمايز فيه موجة أو موجات ، لكنها تبقي متصلة بما سبقها ، مفضية إلى ما تلاها ، وقد تعترض هذا المجري عقبات موضوعية ، فيتوقف زمنا أو يتخذ مسارب أخري .

ثم يقول: علي هذا النحو نستطيع الحديث عن منظومة تبدأ بروايته الأولي عبث الأقدار١٩٣٩ وتنتهي بروايته بين القصرين التي اكتمل نشرها في١٩٥٧ ، والثانية تبدأ مع اللص والكلاب١٩٦١ وتنتهي برواية ميرامار١٩٦٧ ، وبين هاتين المنظومتين تقع أولاد حارتنا١٩٥٩ . المنظومة الثالثة تبدأ بروايته حب تحت المطر١٩٧٣ وتنتهي برواية قشتمر١٩٨٩ ، وبين هاتين المنظومتين كذلك تقع المرايا١٩٧٢ . المنظومة الرابعة والأخيرة تشمل أعمال عقد التسعينيات ، ولا يزال الأستاذ قادرا علي الإضافة إلى ها (بما ينشر له في مجلة نصف الدنيا من قصصه وأحلامه) ويعلق ناقدنا عليها بقوله: إن الكاتب الكبير يستقطر لقارئه خبرات حياته الطويلة ، يصفيها ويركزها في بلورات صغيرة مضيئة ، ولا تزال ملاحقة تحولات الواقع والتعبير عنها عذابه وعزاءه . ولأن ما يبلغه من هذا الواقع أصبح محدودا بالضرورة فهو يمتح من معين الداخل: الأحلام والذكريات والرؤي ، وأهم ملامح الواقع الذي يبلغه هو الفساد الشامل الذي أحاط بكل شيء (وهو فساد لا دخل للشياطين والأبالسة بحدوثه ، لكنه بما كسبت أيدينا: فاسدين وصامتين) . ولا حيلة للصغار سوي محاولة التواؤم معه ، والإفادة منه ، وتوقي شروره ، وإن عجزوا فوسائل الخلاص عديدة:

الموت وفقدان الذاكرة والعيش في عالم خاص من الهذيانات والهلاوس .

وبرغم قلة ما يترامي إلى ه من هذا الواقع فلا يزال الرجل قادرا علي تسمع نبض الناس الصغار ، ضحايا هذا الواقع قبل أن يكونوا صانعيه . والكاتب منهم ، مشارك لهم ، متعاطف معهم ، يقول عنهم: ما حدث قد حدث ، ولكن . . ما ذا عما لم يحدث بعد ؟ هو قلق متوجس ؟ نعم ، يري الطريق ملأي بالعقبات والمصاعب ؟ نعم . لكنه لا يتخلي أبدا عن الأمل . والسيد القادم لا بد أن يجيء .

صحيح أن الجميع ظلوا بانتظاره حتي داخلهم إلى أس ، لكنه عاود الاتصال ، فلعله يأتي في المرة القادمة .

ثم يستقطر فاروق عبد القادر خلاصة رؤيته النقدية لنجيب محفوظ في منظومته الأخيرة ، في كلمات شديدة التوهج والتكثيف والتركيز ، مفعمة بالشعر والشفافية وصفاء البصيرة النافذة وهو يقول: ولا يكتفي الكاتب العظيم بغرس الامل ، لكنه يقدم تلك الصياغات المقطرة والمركزة لحكمة الحياة ، يراها مدرسة ليس امام من يدخلها سوي الاجتهاد والكفاح والصبر ، يراها رحلة مليئة بالافراح والاحزان ، بالانتصار والانكسار ،

موشاة بالضحكات والدموع . علي أديمها تتلاقي التناقضات وتتحايث وتتعايش نصارعها وتصارعنا ، واسلحتنا متعددة في هذا الصراع ، علي رأسها الارادة والمعرفة والعمل وبذل الجهد ومكابدة المشقة ثم توطين النفس علي تقبل قوانين الاشياء ، والايمان بان لكل مرحلة من مراحل العمر مسراتها ، وان النهاية حين تأتي فهي لا تعني سوي الانتقال من عالم لا خر . ولعل من أجمل ما يصوغه راوي الاصداء هذه المقطوعة : في مرحلة حاسمة من العمر ، عندما يتسنم بي الحب ذروة الحيرة والشوق ، همس في أذني صوت عند الفجر : هنيئا لك فقد حم الوداع . وأغمضت عيني من التأثر ، فرأيت جنازتي تسير وانا في مقدمتها اسير حاملا كأسا كبيرة مترعة برحيق الحياة ، ويكتسب وجه الكاتب الكبير في مجمل هذه الاعمال شفافية وعذوبة ، ناتجين عن المسافة التي ينظر منها إلى ما يحدث ويسلكه في عداد ما رأي وعرف وخبر ، ويصوغه في هدوء وحكمة من عاش وأراد وعمل وكابد وانجز وحقق ، فحق له ان يتأمل ويستوحي ويستقطر ويصوغ ، إن شئت عبارة اكثر إيجازا أمكنك القول إن الاستاذ نجيب لا يزال قادرا علي مواصلة الابداع ، وعلي أن يأخذ عمله ـ كما كان دائما ـ ما خذ الجد الكامل ، رسالة الحياة ومعني الوجود .

ألا تراه لا يستطيع ـ رغم كل شيء ـ ان يتوقف عن الكتابة ؟ في صباح الجمعة ٢٠ اكتوبر١٩٨٨ ـ وفي مقهي علي بابا بميدان التحرير ، بعد إعلان حصوله علي جائزة نوبل بليلة واحدة ، كان ناقدنا يجلس إلى الفائز بنوبل مثلما اعتاد في اسابيع كثيرة سابقة . يصف فاروق عبد القادر هذه المقابلة بقوله : أعد الاستاذ مجلسه كما يفعل كل صباح ، وجلست إلى ه وحدنا :

ـ أستاذ نجيب ، ما ذا يعني هذا عندك ؟
ـ لك انت سأقول إنني سعيد لا نني كسرت القاعدة .
ـ أية قاعدة ؟

ــ القاعدة التي تقضي بان الحصول علي أي شيء الآن ـ دع عنك مثل هذه الجائزة ـ إنما يقتضي مسلكا خاصا ، يقوم علي قاعدة انتهازية وعلاقات عام ة واتصالات هنا وهناك ، أنا لا أقول إنني وضعت قاعدة أخري ، أقول فقط إنني كسرت القاعدة السائدة ، وقدمت درسا لكل الجادين والمجتهدين : إن الانصراف إلى العمل ، والعكوف عليه يمكن ان يؤدي حتي إلى جائزة نوبل !

فاروق عبد القادر في كتابه الجديد في الرواية العربية المعاصرة في قمة توهجه وتدفقه وهو يغرينا بعالم نجيب محفوظ ، ويمارس فينا فن الإغراء بالقراءة ، ويظل ممسكا بإيقاع الوتر المشدود وهو يقدم قراءته عن أعمال روائية لا فتة هي : عمارة يعقوبيان لعلاء الأسواني ، وكحل حجر ، وعقد الحزون لخالد اسماعيل ، والمؤشر عند نقطة

الصفر لا سماء هاشم ، ونقرات الظباء والخباء لميزال الطحاوي ، ونوة الكرم لنجوي شعبان ، وأن تري الآن وتصريح بالغياب لمنتصر القفاش ، وأوراق النرجس لسمية رمضان ، ومن حلاوة الروح لصفاء عبد المنعم وقانون الوراثة لياسر عبد اللطيف ، وتفاحة الصحراء لمحمد العشري ، ولصوص متقاعدون لحمدي أبو جليل ، وسانت تريزا لبهاء عبد المجيد ، ولا ظل ولا صدي لمنال القاضي . لا يفوته ان يختتم قراءته النقدية بهذه الكلمات: إنني أنفر من استخدام افعل التفضيل دون ضرورة ، ثم إنني من المؤمنين بأن الزمن هو خير غربال ، والقدرة علي الاستمرار خير مصفاة . المستقبل وحده هو الذي سيفرز لنا من سيواصل التقدم . ومن الذي سيبقي يراوح في مكانه ، يقول ما سبق له او للآخرين قوله ، ومن الذي ستسوخ قدماه في رمال واقع فاسد معاد للابداع ، ومن سيدخل بهو المرايا الخادع ، ويبقي محدقا في صورة ذات طابع نرجسي خلب ، وان قام تعثر في ظله . نعم رأيت اشياء وفاتتني اشياء !

في بقية فصول الكتاب حديث عن مؤنس الرزاز ورواية القهر السياسي بامتياز ، وعن حجاج ادول في معتوق الخير وصعود وسقوط طاغية نوبي . وعن سحر خليفة وهي تتابع مشروعها الروائي وتقدم صورة الحياة الفلسطينية بين انتفاضتين ، وعن الكاتب الذي ينغمس فيما يسميه فاروق عبد القادر ادب التلسين او ادب إياك اعني واسمعي ياجارة وتمتليء كتاباته بعشرات الأخطاء اللغوية والاسلوبية ويخطيء حتي في اسماء ابطاله ، نتيجة للخفة والعجلة والاستخفاف بالقاريء !

أرجو ألا يكون ما تدخلت به من سطور قليلة ـ في سياق هذا المقال ـ قد اساء إلى اللغة الجميلة التي يكتب بها فاروق عبد القادر: إحكاما وسيطرة وتلوينا وتنويعا ومستويات تعبير . فهو من النفر القليل من نقادنا الذين يعرفون لغتهم حق المعرفة ، ويصرفونها في مجالات القول بسهولة ويسر ، دون عنت او مشقة او تكلف ، كما أرجو ألا أكون قد باعدت بين القاريء ووهج ناقدنا في كتابه ، فقد حرصت علي أن أجعل الكتاب نفسه يتحدث عن نفسه ، بروحه وحرارته وجديته وصدقه ، منبها إلى عمل بديع ، صغير الحجم ، صدر في سلسلة كتاب الهلال في سبتمبر الماضي ، لكن قيمته الادبية والنقدية باقية معنا ، لزمان طويل !

أحمد مختار عمر ومعجمه الفريد (المكنز الكبير)

بقلم : فاروق شوشة

عندما أهداني الصديق العزيز الراحل العالم اللغوي الدكتور أحمد مختار عمر كتابه صناعة المعجم الحديث الذي كان صدوره في عام ١٩٩٨ ، مركزا إهداءه في كلمتين اثنتين لصديق العمر أدركت ـــ من جديد ـــ عمق هذه الصداقة وامتدادها ـــ دون شائبة واحدة ـــ قرابة نصف قرن من الزمان ، تغيرت خلاله أمور وشئون وشجون ، واختلطت مسالك وطرائق ، وحالت بيننا أسفار وغربة وإقامة ، في مصر وبلاد غير مصر ، لكن هذه الصداقة الفريدة استطاعت أن تصمد لهذا كله وأن تستمر ، وأن تمضي قدما في خط متصاعد ، بلغ ذروة تجلياته في لقائنا متجاورين في مجمع اللغة العربية ضمن دفعة واحدة هي دفعة عام ١٩٩٩ .

وأدركت فور تصفحي الأولي لفصول الكتاب ، ومادته الموزعة علي هذه الفصول ، من خلال عرض علمي رصين ، يتاح للمرة الأولي لقارئ العربية ، متناولا معني كلمة معجم واشتقاقها ، والمعجم والموسوعة ، والمعجم والقاموس ، والمعجم العربي في القديم ، وتخلف المعجم العربي الحديث ، والاهتمام بالعمل المعجمي في القرن العشرين ، والمعجمية وعلم اللغة ، وأنواع المعاجم ، والخطوات الإجرائية والتنفيذية لعمل معجم ، ووظائف المعجم ، وأخيرا مستقبل المعجم العربي ـ أقول: أدركت فور تصفحي الأولي للكتاب ، لماذا كان اعتذار الدكتور أحمد مختار عمر من إلى وم الأول لعمله المجمعي ـــ عن عدم الانضمام إلى لجنة المعجم الكبير ، بالرغم من الصداقة العميقة التي تربط بينه وبين مقررها في ذلك الحين الصديق العزيز الراحل العالم والخبير المجمعي الأستاذ إبراهيم الترزي الأمين العام السابق للمجمع . كان اعتذار الدكتور أحمد مختار يتضمن اعتراضه علي الطريقة التي يمضي بها العمل في المعجم الكبير منذ بدايته ، وهي الطريقة التي جعلت منه ـــ في معظم ما دته ـــ تكرارا للمعاجم العربية القديمة ، واستخلاصا لكثير مما جاء فيها ، أما الجديد من المادة اللغوية المعاصرة وألفاظ الحضارة ومصطلحات العلوم ، فلا يمثل إلا أقل القليل من ما دة هذا المعجم الذي يمضي العمل فيه بطيئا ولا يكاد يلاحق العصر .

كان أحمد مختار يري أن نقطة الانطلاق في أي عمل معجمي هي عمل قاعدة بيانات لغوية واسعة ، والاستعانة بالأنظمة البرمجية والحاسوبية ، واختيار فريق عمل متكامل يضم العديد من الخبراء والمحررين والباحثين اللغويين والمساعدين ومدخلي البيانات ، وهو ما أتيح له تحقيقه علي الوجه الذي دعا إلى ه من خلال إشرافه علي إصدار المكنز الكبير معجما شاملا للمجالات والمترادفات والمتضادات ، لا نجد في تقديمه

خيرا من كلمات الدكتور أحمد مختار رئيس فريق المتخصصين الذين قاموا بالعمل الذي صدر عن قسم المعاجم بمؤسسة سطور منذ أربع سنوات ، والذي وصفه بأنه معجم فريد في نوعه ، جديد في شكله وإخراجه ، حيث جمع لا ول مرة في تاريخ المعاجم العربية عدة أشكال من المعاجم في معجم واحد ، لقد ضم هذا المعجم بين دفتيه معجما للموضوعات أو المعاني أو المجالات ، ومعجما ثانيا للمترادفات والمتضادات ، ومعجما ثالثا لمعاني الكلمات ، ومعجما رابعا للألفاظ أو الكلمات .

المكنز الكبير بهذا المعنى يمثل نقطة تحول في صناعة المعجم العربي ، فهو ليس تكرارا أو تقليدا لعمل معجمي سابق ، أو جمعا لمعجم من عدة معاجم ، شأن المعاجم السابقة ، وإنما هو جديد في فكرته المبتكرة ، وفي منهجيته وإجراءات العمل فيه ، واتباعه أحدث المواصفات العالمية في صناعة المعاجم وإخراجها .

وقبل الشروع في إنجاز هذا المكنز الكبير ، كان أمام اللجنة المتخصصة كل ما احتوته المكتبة العربية من معجمات عام ة وخاصة ، فالعامة مثل: الصحاح للجوهري ، ولسان العرب لا بن منظور ، والقاموس المحيط للفيروز بادي ، وتاج العروس للزبيدي ، وأساس البلاغة للزمخشري ، والمقاييس لا بن فارس ، والخاصة مثل: معاجم الموضوعات والمجالات ، وأهمها المخصص لا بن سيدة ، وفقه اللغة للثعالبي ، والألفاظ الكتابية للهمذاني ، وجواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر ، وتهذيب الألفاظ لا بن السكيت ، ومعجم أسماء الأشياء للبيابيدي ، والإفصاح في فقه اللغة ل عبد الفتاح الصعيدي وحسن يوسف موسي وغيرهما .

ومعاجم المرادفات قديمها وحديثها ، فالقديمة مثل: الألفاظ الترادفة للرماني ، والفروق اللغوية لا بي هلال العسكري ، وكتاب الفرق لقطرب ، والكليات لا بي البقاء الكفوي ، والحديثة مثل: معاجم المعاني للمترادف والمتوارد والنقيض لنجيب إسكندر ، وقاموس المترادفات والمتجانسات للأب رفائيل نخلة إلى سوعي ، ونجعة الرائد في المترادف والمتوارد لا براهيم إلى ازجي ، ومعجم الجيب للمترادفات لسعد أبو الرجال ، والمكنز العربي المعاصر لمحمود إسماعيل صيني وآخرين ، ومعجم المترادفات العربية الأصغر لوجدي رزق غالي .

وفي رأي الدكتور أحمد مختار أن كل هذه المعاجم ـــ بعد استعراضها ـــ لا تفي في الغالب بحاجة الباحث ، ولا تلبي احتياجاته ، فضلا عن أنها تخلط القديم بالجديد ، أو تكتفي بحشد الكلمات جنبا إلى جنب ، دون ترتيب معين ، ودون تدقيق في معانيها ، ودون إعطاء معلومات عنها تتعلق بدرجتها في الاستعمال .

من هنا كان التفرد في منهج المكنز الكبير عن غيره من المعاجم ، منذ نقطة البداية ، وهي مرحلة جمع المادة ، فلم يعتمد اعتمادا كليا علي معاجم السابقين ، وإنما ضم ما دة غزيرة استقاها من تفريغ العشرات من كتب اللغة والأدب ودواوين الشعر وعينة من الصحف إلى ومية ، علي سبيل المثال: البيان والتبين للجاحظ ، ديوان المتنبي ، ديوان الجارم ، ديوان شوقي ، مجمع الأمثال للميداني ، من كنوز القرآن لمحمد السيد الداودي ، أعمال يحيي حقي ، أعمال إبراهيم عبد القادر المازني ، أعمال صلاح عبد الصبور ، اللغة واللون لا حمد مختار عمر ، عينة من بعض الصحف وغيرها .

يكفي لبيان مقدار الجهد وكم العمل وحجم الإنتاج أن يدرك القارئ أن المعجم يحتوي علي٣٤٥٣٠ مدخلا موزعا علي١٨٥١ موضوعا أو مجالا دلاليا ، ويقع في١٢٣٢ صفحة .

والذي يستخدم هذا المعجم يلاحظ تمييز كلمات كل مجال بمجموعة من الأوصاف التصنيفية التي تبين مستوي الاستخدام لكل كلمة وتحدد خصائصها ورتبتها في الاستعمال .

وروعي في التصنيف التمييز بين الأنواع الآتية: أولا ـــ التمييز بين الرصيد الإيجابي الذي يمكن استخدامه في لغة العصر الحديث ، والرصيد السلبي الذي فقد وجوده في اللغة الحية بمستوييها التراثي والحديث ، ولم ينتقل من جيل إلى جيل إلا من خلال المعاجم ، وهذا النوع الأخير يقابل ما يسمي في اللغة الإنجليزية بالممات أو المهجور ، وقد بلغ مجموعه في المعجم٣٠٣ كلمات أي بنسبة أقل من١٪ .

ثانيا: التمييز بين الرصيد الإيجابي المعاصر الذي يمثل اللغة الحية السائدة أو النمط المشترك الذي يربط المثقفين بعضهم مع بعض ، ويستخدمونه لنقل أفكارهم إلى جمهورهم ، وبين الرصيد الإيجابي التراثي الذي لا يصادفه الباحث إلا في النصوص القديمة ، ولا يستخدمه إلا المتصلون بالتراث في المناسبات الخاصة ، وهم مع ذلك لا يسرفون في استخدامه ، ولا يضمنونه كلامهم إلا علي سبيل الاقتباس أو الاستشهاد دون أن يتحول إلى نمط سائد ، ولا يعني وصف اللفظ بأنه من الرصيد المعاصر أنه استجد في العصر الحديث ، وإنما يعني أنه مستعمل في العصر الحديث حتي لو كان قديما ، ويمثل الرصيد المعاصر الأغلبية العظمي في المعجم .

ثالثا: تمييز الرصيد القرآني عن غيره ، نظرا لما للاستعمالات القرآنية من قيمة خاصة ، مع ملاحظة الفصل بين الكلمات القرآنية التراثية التي لم يعد استعمالها شائعا في لغة العصر الحديث مثل الكلمات: أبق بمعني هرب ، ونتق بمعني رفع ، وضيزي

بمعني جائرة وظالمة ، وواصب بمعني دائم لا زم والأخري الشائعة الاستعمال التي كثيرا ما تقتبس في لغة المعاصرين ، وقد بلغت نسبة القرآني التراثي نحوا من٣٪ والقرآني المعاصر نحوا من٢٢٪ .

رابعا : التمييز بين الاستعمال العام والاستعمال الخاص أو المقيد بمكان معين ، أو موقف معين ، أو فئة معينة (لهجة أو لغة محلية ، رسمي ، من لغة المثقفين ، مصطلح علمي) .

خامسا : التمييز بين الكلمات أو الدلالات المستقرة في المعاجم القديمة ، وتلك المولدة أو المستحدثة التي دخلت اللغة أخيرا ، أو بعد نهاية عصر الاستشهاد (القرن الرابع الهجري) والتي غالبا ما تعبر عن ظاهرة حضارية استجدت في المجتمع فوضع بإزائها لفظ يعبر عنها (مولد أو محدث) وذلك مثل الكلمات : تلاشي وحبذ وسيارة وشاحنة ومسرح إلى آخره ، ومثل هذا النوع من الكلمات قد يكون سائدا في لغة العصر الحديث ، وقد لا يكون .

سادسا : تمييز كلمات معينة ، للتحذير من استخدامها ، إما لا نها محظورة أو متبذلة أو سوقية ، فمثل هذه الكلمات لا يحسن استخدامها في المواقف الرسمية أو العامة ، أو في حضور النساء والأطفال ، وقد اقتصر المعجم علي أقل القليل من هذه الكلمات ، متجنبا الصريح والمباشر منها .

المكنز الكبير إذن هو التطبيق العملي للفكر المعجمي الذي عبر عنه العالم اللغوي الراحل الدكتور أحمد مختار عمر في كتابه المتميز صناعة المعجم الحديث والذي قلت عنه في مستهل هذا الحديث إنه أول كتاب من نوعه في اللغة العربية يرسم طريق العمل المعجمي ، ويفتح الآفاق الواسعة أمام المشتغلين بالمعجم والمثقلين بهمومه ، كما أنه خلاصة لتجارب المؤلف الطويلة مع المعجم العربي نظرا وتطبيقا ، ونتاج لا هتمامه في السنوات الأخيرة بالجانب اللغوي التطبيقي من ناحية وبالأعمال المعجمية الغربية من ناحية أخري ، وهو الاهتمام الذي تجلي في تحقيقه المبكر للمنجد في اللغة لكراع وديوان الأدب للفارابي ومعجم القراءات القرآنية ــ بالاشتراك ــ وفهارس معجم القراءات القرآنية ــ بالاشتراك ــ والمعجم العربي الأساسي (تأليف بالاشتراك) فضلا عن أن كتاب صناعة المعجم الحديث يحدد العمليات الإجرائية والتنفيذية لعمل معجم ، بدءا من التصور المبدئي ، وانتهاء بإخراجه في صورته النهائية ، كما يعرض أهم وظائف المعجم ، ويبين مدي أهمية كل منها ، وترتيبه في الأولوية بالنسبة لمستخدم المعجم ، ثم هو ــ أخيرا ــ يرسم ملامح المستقبل أمام صناعة المعجم العربي ، وهي صناعة لم تعد الآن علي هامش العمل الثقافي ، وإنما في صميمه .

ويرحل عنا أحمد مختار عمر وهو في تمام اكتماله وذروة قدرته على العطاء والإنتاج ، يرحل والعمل اللغوي والمعجمي في مصر — في المجمع والجامعة والمؤسسات والمحافل والهيئات العلمية في أشد الحاجة إلى فكره وجهوده وطاقته ، يرحل والعديد من الأقطار العربية تعتمد عليه في التخطيط لمشروعاتها اللغوية والثقافية والمعجمية والإشراف عليها .

د . نللي حنا تعيد كتابة التاريخ

بقلم: فاروق شوشة

تواصل الدكتورة نللي حنا رئيس قسم الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية في القاهرة . تجليات مشروعها العلمي من خلال كتابها الجديد ثقافة الطبقة الوسطي في مصر العثمانية الذي صدر منذ أيام قليلة عن الدار المصرية اللبنانية ، وقد نقله إلى العربية في لغة جميلة رصينة المؤرخ الكبير الدكتور رءوف عباس ، الذي سبق له ترجمة كتابها تجار القاهرة في العصر العثماني: سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار من بين مؤلفاتها العديدة في التاريخ الاجتماعي لمصر ــ التي نشرت بالإنجليزية والفرنسية – لا يعرف قارئ العربية منها سوي هذين الكتابين وكتاب ثالث سبقهما هو بيوت القاهرة في العصر العثماني . أما المشروع العلمي للمؤلفة ــ التي يصفها الدكتور رءوف عباس – في تقديمه لترجمته العربية لكتابها الجديد بأنها المؤرخة المصرية المرموقة الدكتورة نللي حنا التي تعد من بين نخبة المتخصصين في تاريخ العصر العثماني علي المستوي الأكاديمي العالمي – فهو دحض الأفكار السائدة التي روجتها مدرسة الاستشراق التقليدية عن تاريخنا القومي ومجتمعنا الذي كان ــ من وجهة نظرهم ــ راكدا متخلفا تقليديا ، حتي جاء الغرب مع مطلع القرن التاسع عشر ، لينتشله من وهدته ، ويضعه علي طريق الحداثة ، ويلحقه بركب التقدم !

فما الذي صنعته المؤلفة إذن ؟ يري الدكتور رءوف عباس أنها لم تقم بدحض تلك الأفكار التي روجها الغرب عن مجتمعاتنا من منطلق شوفيني محض ، ولم تستخدم لغة الشجب والإدانة والاحتجاج ، ولكنها لجأت إلى البحث في المصادر الأصلية لتاريخنا في العصر العثماني ، فغاصت في سجلات المحاكم الشرعية وحجج الأوقاف المعروفة للمؤرخين ، والمصادر التي تضمنت التراجم والسير مثل الجبرتي والمحبي والعديد من الكتب الثانوية التي بني عليها البحث ، وراحت تجمع صورا من المخطوطات أينما وجدت .

تري الباحثة في التمهيد ــ الذي يضم إطار الدراسة ومنهجها ومصادرها – أن مؤلف المخطوط يقدم لنا زاوية جديدة لفهم القرن الثامن عشر تختلف عما نجده عند غيره من الكتاب الذين عبروا عن النظام الاجتماعي القائم عندئذ . وتقدم لنا تعليقاته المتعلقة بالقضايا الاجتماعية مثل الفقر والمال والأزهر رؤية فردية شخصية ــ من زاوية محددة ــ للمشاكل التي عاني منها جيله ، في صراحة وحرية تعبير غير متوقعة في مثل ذلك الزمان . الأمر الذي تطلب لا دراك أهميته ، فهمه في إطار سياق اجتماعي وثقافي أوسع مدي ، . . من هنا كان رجوع الباحثة إلى كم كبير من المصادر الأدبية ، والأعمال الأدبية ،

والحكايات ، وكتب الطرائف والألغاز ، والحوليات ، والقواميس الخاصة بالفترة ، ـــ علما بأن كثيرا من هذه المصادر والأعمال لا يزال مخطوطا ـــ متعاملة مع تلك الأعمال باعتبارها ما دة للتاريخ الاجتماعي لا كمادة لتاريخ الأدب .

كما كان من النتائج التي توصلت إليها أن كثيرا مما تناوله أبو ذاكر في كتابه ، له ما يقابله عند غيره من الكتاب ـــ الذين نجهل كثيرا منهم ـــ فهم يعبرون جميعا عن هموم اجتماعية متناظرة وعن ثقافة قطاع معين من المجتمع الحضري يمكن وصفه بالطبقة الوسطي أو الفئة الوسطي . فقد ظهر كتاب ومفكرون آخرون علي مر القرون الثلاثة من السادس عشر إلى الثامن عشر عبروا عن ثقافة تتميز عن ثقافة العلماء ، فاهتماماتهم وهمومهم أشمل وأوسع نطاقا . فبينما انصبت اهتمامات العلماء علي أمور خاصة لا يفهمها إلا القلة ، ممن اختلفوا إلى المعاهد والمدارس التي عرفها ذلك الزمان ، كان الفريق الأول يعبر عن آرائه بحرية . وعلي حين التزمت كتابات العلماء بحدود الأخلاق والدين ، شغل الآخرون بالحقائق الاجتماعية وهموم الحياة . ودراسة كتابات هؤلاء يمكن أن تلقي الضوء علي الكتابة كظاهرة ثقافية ، وعلي المحتوي كظاهرة اجتماعية ، أي أن تلك النصوص الأدبية تكشف لنا أحوال المجتمع في تلك الفترة الباكرة من العصر الحديث ، وتجعلنا نستكشف العملية التاريخية من خلال الثقافة بدلا من الاقتصار علي الأبعاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية وحدها . وباستكشافنا للتاريخ الثقافي ، يمكننا ان نفهم بطريقة أفضل بعض أبعاد التاريخ الاجتماعي في القرون الممتدة من السادس عشر إلى الثامن عشر ، ونحن بحاجة إلى مثل هذا الفهم لعصر ولطبقة هما في أمس الحاجة لا ستطلاع أحوالهما .

ومن النقاط المضيئة في الكتاب ـــ وعيا وبعد نظر وعمق تحليل ـــ ما اكتشفته الباحثة من أن الأعمال التي تعرضت لها ، تنم عن مستوي من الحداثة لم يلحظ فيما قبل ولم يدرس علي يد المؤرخين أو مؤرخي الأدب أو النقاد . وهي لا تقصد الحداثة بمفهومها التقني لهياكل الدولة المتطورة أو الرأسمالية ، ولكن بمعني الاهتمام بالثقافة ، والاهتمام بأشكال التعبير لفئة اجتماعية لم تكن من بين النخبة ، كما لم تكن من بين العلماء . وتتجلي في الاهتمام بالفرد العادي وهمومه اليومية ، مع الاهتمام بالأوضاع الفعلية القائمة وملاحظتها وتحليلها بطريقة عملية واقعية ، من جانب أناس كانوا خارج نظام الحكم وهيكل السلطة ويختلفون عن الرجال المتفردين المثاليين الذين انتحوا جانبا بسبب أعمالهم أو شخصيتهم الخلقية أو إنجازاتهم العلمية . وكان أسلوب كتاباتهم بسيطا ، يقترب كثيرا من لغة الحديث العادية . يسهل علي عام ة الناس قراءته وفهمه . كما أن تحليلهم للأوضاع الاجتماعية والثقافية يقدم ـــ أحيانا ـــ من زاوية دينية ، ولكن السمة الغالبة لذلك التحليل اجتماعية وليست دينية .

وتـصل الـدكتورة نللـي حنـا إلى اكتـشافها أو اسـتنتاجها المركـزي الـذي جعلتـه محـورا للكتــاب تــدور مــن حولــه فــصوله الخمــسة وهــي: المجتمــع والاقتــصاد والثقافــة ، الثقافــة والتعلـيم عنـد الطبقـة الوسـطي ، الكتـب والطبقـة الوسـطي ، صـياغة ثقافـة الطبقـة الوسـطي المثقفـون الراديكـإلىون وثقافـة الأزمـة تـصل إلى اكتـشافها الـذي تبلـوره بقولهـا: لقـد عـبرت تلـك الأعمـال عـن ثقافـة أبنـاء الطبقـة الوسـطي الحـضرية الـذين اختلفـوا عـن العلمـاء والأمـراء ورجـال حاشـية صـاحب الـسلطة . ولكـنهم اختلفـوا أيـضا عـن الثقافـة الـشعبية ، أو ثقافـة الجمـاهير ممـا يترتـب عليـه عـدم إدراجهـم ضـمن الفئـات الاجتماعيـة والثقافيـة الـتي تعودنـا الحـديث عنهـا . ونحـن ـــ في حقيقـة الأمـر ـــ أمـام طبقـة لم يـسبق لا حـد أن تناولهـا هـي الطبقـة الوسطي .

وفي مجـال المـصادر الـتي اعتمـدت عليهـا الباحثـة في تـإلىف هـذا الكتـاب المـثير للاهتمام: الأعمال الأدبيـة والعلميـة الـتي كتبهـا مؤلفـون مـن خـارج دائـرة الـشهرة ـــ اكتـشافا ـــ وتحلـيلا وتمحـيص سـياق ـــ جـاءت نتاجـا لثقافـة المجـالس الأدبيـة ، ويـرتبط بهـا وجـود نظـام للمكتبـات الخاصـة تعرفـت عليهـا مـن خـلال سـجلات التركـات ، كمـا بحثـت في تجـارة الـورق باعتبارهـا تلقـي الـضوء علـي نـشاط حركـة تـإلىف الكتـب والكتابـة في الفـترة الزمنيـة موضـوع الدراسـة ، بالإضـافة إلى سـجلات المحـاكم الـشرعية ، وحجـج الوقـف المعروفـة للمؤرخين ، ومصادر التراجم والسير .

لقـد اختـارت المؤلفـة لكتابهـا ـــ في طبعتـه الإنجليزيـة ـــ عنوانـا مختلفـا هـو: في مـدح الكتـب . والعنـوان اسـم فـصل مـن فـصول المخطـوط الـذي كتبـه أبـو ذاكـر ، وكـان عثـور الباحثـة عليـه بـاب الولـوج إلى عـالم هـذه الدراسـة ، وأبـو ذاكـر يقـول: إن مـن بيـده كتـاب لا يحتاج إلى وسيلة أخـري لقـضاء الوقـت . فكأنـه بـذلك يتحـدث عـن علاقـة ذاتيـة حميمـة بينـه وبـين الكتـب . انطلاقـا إلى اسـتخدام الكتـاب أداة للتعـبير عـن مكنونـه النفـسي . وهـي خطـوة واحـدة ، قطعهـا بعـض كتـاب ذلـك الزمـان ، فعـبروا بـسهولة ملحوظـة عـن ذلـك بـروايتهم لا حداث ذات طـابع شخـصي ذاتـي ، وكـان ذلـك أمـرا نـادر الحـدوث قبـل انتـشار ثقافـة الكتـب .

مـن أهـم مـا يـشير إلىـه حـصاد الدراسـة ـــ في ختـام هـذا الكتـاب العظـيم القيمـة والفائـدة ـــ الـدعوة إلى إعـادة النظـر فيمـا يعنيـه مـن مـصطلح النهـضة في القـرن التاسـع عـشر . إذ لا يكفــي ان نــضع في اعتبارنــا دور النخبــة أو الــدول أو سياســة الدولــة ، لا نهــا تمثــل جانبـا مـن الحقيقـة ولا تعـبر عـن الحقيقـة الكاملـة . كمـا أن هنـاك بعـدا آخـر كـان أساسـا للتطـورات الـتي حـدثت نتيجـة لـسياسات محمـد علـي هـو ظهـور المـتعلمين مـن أفـراد الطبقـة الوسـطي ، الـذين تميـزت ثقـافتهم عـن ثقافـة العلمـاء . لقـد ارتـبط التحـديث في عهـد محمـد

علي بالإصلاحات التي أدخلت علي الهياكل الإدارية للدولة ، وعلي الأداة العسكرية ، والصحة ، والتعليم .

ولكن ، هل كان من الممكن تحقيق تلك الإصلاحات إذا كان من تولوا تنفيذها أناسا لم يتعودوا مثل هذا الانفتاح وتقبل الأفكار الجديدة وغيرها ؟

ولست أجد خيرا من كلمات الدكتور رءوف عباس ـــ الشديدة التركيز ـــ في تأكيد أهمية هذه الدراسة ، وهو يشير إلى أن المؤلفة قد ألقت بالقفاز في وجه عدة منطلقات نظرية سائدة ، دفعة واحدة: نظرية التطور والتخلف ، ونظرية المجتمع التقليدي والتحديث ، ونظرية المركز والأطراف ، وفكرة الاستبداد الشرقي . فناقشت مقولات كل منها وأثبتت عدم ملاءمتها لتفسير ما حدث في مصر ، بل في الإقليم كله ، في القرون الثلاثة التي كونت العصر العثماني .

وهو يشير مثلا إلى دور المصريين في تحقيق التحولات التي شهدها القرن التاسع عشر . حقا استعان محمد علي بالخبرة الأجنبية في مجال الجيش والصناعة والتعليم العإلى ، ولكن ذلك تم علي نطاق يتفق مع تلبية المتطلبات الضرورية ، أما جنود الجيش الحديث فكانوا من الفلاحين المصريين ، وعمال المصانع كانوا من الحرفيين ، وطلاب المدارس جاءوا من الكتاتيب والأزهر ، أي جاءوا من نظام التعليم التقليدي . فكيف استطاع هؤلاء وأولئك من المصريين أن يستوعبوا النظم الحديثة ، وأن يحملوا علي كواهلهم التجربة كلها في مدي زمني محدود ، قياسا بالقرون الثلاثة التي يفترض أنهم عاشوها في جمود وركود وتخلف ؟ وهو الأمر الذي يبرر ضرورة استرجاع حقيقة ما حدث لمصر خلال تلك القرون وإعادة رسم الصورة التي كان عليها المجتمع المصري اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا . أي إعادة كتابة التاريخ من جديد . وهو ما فعلته الباحثة والمؤرخة الدكتورة نللي حنا في هذا الكتاب .

ليت أحدًا من دارسي ومؤرخي هذا العصر ينهض باحثا عن الطبقة الوسطي في زماننا: أين ذهبت ؟ ولماذا تقلص دورها ؟ وما حدود ثقافتها وتأثيرها وهي في كل يوم تطحن طحنا بين شقي الرحي ؟

سهير المصادفة وروايتها المدهشة

بقلم: فاروق شوشة

أمـا الروايـة فهـي لهـو الأبالـسة الـتي صـدرت عـن دار ميريـت للنـشر والمعلومـات٢٠٠٣ ، وأمـا المؤلفـة فهـي الـدكتورة سـهير المـصادفة الـتي عرفتهـا الحيـاة الأدبيـة شـاعرة متميـزة ، مـن خـلال مجموعتيهـا الـشعريتين: همـوم وديـع١٩٩٧ وفتـاة تجـرب حتفهـا١٩٩٩ ـ الـتي فـازت عنهـا بجـائزة الـشعر في الـشارقة لعـام١٩٩٩ تأكيـدا لموهبتهـا المقتحمـة ـ شـاعرة جـادة ، ذات همـوم ورؤي إنـسانية وكونيـة . كمـا ترجمـت عـن الروسـية العديـد مـن الحكايـات الـشعبية الروسـية ـ الـتي صـدرت عـن المجلـس الأعلـي للثقافـة ، وروايـة تـوت عـنخ آمـون٢٠٠٠ للكاتـب الروسـي بـاخيش بابـايني وهـو عـالم مـصريات أذر بيجـاني . وشـاركت في المـادة الروسـية لـبعض القـواميس والموسـوعات العربيـة مثـل قـاموس المـسرح و موسـوعة المـرأة ترجمـة ومراجعـة وتحريـرا ، وفي العديـد مـن المنتـديات واللقـاءات الـشعرية والثقافيـة داخـل وخـارج مـصر . تخرجـت سـهير المـصادفة في كليـة التجـارة بجامعـة عـين شمـس ، ثـم سـافرت إلى الاتحـاد الـسوفيتي ـ سـابقا ـ عـام ١٩٨٧ لا سـتكمال الدراسـة والحـصول علـي الـدكتوراه في الاقتـصاد مـن أكاديميـة بليخـانوف بموسـكو عـام ١٩٩٤ ، وأتـيح لهـا أن تـشهد انهيـار النظـام الـشيوعي في روسـيا وأوروبـا الـشرقية وإسـدال الـستار علـي حلـم الاشـتراكية ، وترحيـل روسـيا لمبعـوثي العـالم الثالـث ـ الـذين يدرسـون فيهـا ـ لعـدم الرغبـة في تحمـل نفقـات تعلـيمهم (وقـد أتـيح للكاتـب القصـصي المتميـز الـدكتور محمـد المخزنجـي أن يكـون شـاهدا علـي الفـترة نفـسها ولكـن مـن خـلال موقـع آخـر هـو كييـف عاصـمة جمهوريـة أوكرانيـا الآن الـتي كانـت إحـدي جمهوريـات الاتحـاد الـسوفيتي سـابقا وأن يكتـب عنهـا بعـض روائعه الإبداعية) .

روايـة لهـو الأبالـسة تتـيح لمؤلفتهـا ـ الـشاعرة ـ مـيلادا جديـدا ، بـل هـو كـشف جديـد عـن موهبـة سـردية طاغيـة ، تـشكلت بفـضلها فـصول هـذه الروايـة المدهـشة والمفزعـة في آن .

القـاريء هنـا أمـام بنـاء روائـي محكـم ، وإن كـان بـالغ التـداخل والتـشابك والتعقيـد ، مـن حيـث الأحـداث والأزمنـة . تـربط بينهـا جميعـا حركـة مهـا الـسويفي بطلـة الروايـة واسـترجاعها الـواعي واللاواعـي وتـدفقاتها الـشعورية الـتي تفجرهـا صـدمة العـودة إلى الـوطن ، بعـد سـنوات الغربـة في الاتحـاد الـسوفيتي لتقـيم في إحـدي العـشوائيات المحيطـة بالقـاهرة الكـبري الـتي كانـت تـسمي الزريبـة ثـم أصـبح اسمهـا حـوض الجـاموس . والدلالـة الرمزيـة للاسمـين ، وتعبيرهمـا عـن الواقـع في أبـشع صـورة تخلفـا وبؤسـا وجهـلا ومرضـا وتـشوها

واضحة وكاشفة . وامتلاء الرواية بالتفاصيل ـ ما دة القص الحقيقية ـ تجعلها كالأسلاك الكهربائية التي تتفجر بين الحين والحين ، والصفحة والصفحة ، بشحنة حارقة من ردود الأفعال ، واشتعال الأعصاب ، والطفو فوق مساحات معتمة ، ومظلمة ، من الحكايات الشعبية ذات الطابع الأسطوري ، وكأننا أمام نموذج دال من نماذج الواقعية السحرية أو الغرائبية (البعض يفضل العجائبية) التي تختلط فيها صور الناس بالأشباح ، بالجن ، بالعفاريت ، بالمساخيط من البشر في صورة الحيوانات ، ومن خلال تعدد أحداث السرد وتداخلها والتفاف حركة الزمن الدائرية التي تعجن الأزمنة وتخلطها في مكون شديد القسوة وواقع منسحق وشخصيات مهزومة ، ووعي ضار تثريه ثقافة العالم الذي تحركت ودرست فيه مؤلفة الرواية اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا (دكتورة في الاقتصاد) وتحليلاتها التي يمتزج فيها الواقع الجهم المدبب بالفانتازيا ونوستالجيا الحلم بالوطن وتعاطفها القاسي الرحيم (معا) مع شخصياتها المحبطة المحاصرة ، في واقع الكهرباء متطوعة فيه بصورة دائمة ، والعشش هي المأوي الوحيد لنماذجه التعسة ، التي يسيطر عليها الفقر والبؤس والعوز والهوس الجنسي في صوره الحيوانية المتدنية .

هي إذن صدمة حضارية معكوسة . صدمة حضارية من نوع جديد . من موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتي وإمبراطوريته القائمة علي التزويق الكاذب إلى حوض الجاموس ومن نهر الدنيبر في كييف إلى نهر النيل في مصر ، ومحاولة البحث عن التوازن ، أو أثارة من التكيف أو حتي التحمل . بينما تمضي شخصيات الرواية إلى مصيرها التراجيدي وقدرها المتجبر المحتوم: طلاق أختها نجوي ليلة زفافها بعد اكتشاف زوجها أنها ليست عذراء ، بطة التي يقودها الهوس الجنسي ـ بعد موت زوجها ـ إلى الموت بركلات حمارها الذي تعاشرة ، انشراح التي تحترف الدعارة بسبب الفقر والبؤس والمهانة . أحمد منصور الذي يسحقه انعدام القدرة علي تحقيق حلمه بالعمل في الصحافة ، وينتهي الأمر به إلى الموت منتحرا وهو يحتضن الوابور المشتعل ، الشيخ حافظ مرسي ـ الذي كان يحاول التقرب إلى الجميع والانتفاع من كل الأطراف لا تعنيه إلا مصلحته ـ يقتل بعيار طائش . أبو لا طية العجلاتي يقتل ـ هو الآخر ـ بعيار طائش ولكن علي يد زوجته . هي إذن تراجيديا البائسين والمعوزين والغاضبين والمهزومين في واحدة من العشوائيات ـ التي أصبحت واقعا اجتماعيا وإسكانيا وحضاريا في العقود الثلاثة الأخيرة من تاريخنا المعاصر . وأصبحت هذه العشوائيات تحمل في أحشائها جنين الخطر الداهم علي كل ما حققناه مما يمكن أن يسمي تقدما أو تحضرا أو حداثة ، جنين الثورة والتمرد والتهديد بتخريب كل شيء إذا لم يلتفت المجتمع كله إلىهم بما يستحقونه من فهم واقتراب ، ومحاولة جادة لتغيير واقع العوز والانسحاق والمهانة . حزام كامل من العشوائيات يحيط بالقاهرة الكبري ، ليست عشوائية حوض الجاموس إلا مثاله البشع المخيف .

لـن أسمـح لهـذه الروايـة المدهـشة بـأن تـستدرجني جمإلىاتهـا الـتي نجحـت في تـصوير هـذا الواقـع المرعـب وهـذه النمـاذج المـشوهة ـ لتلخيـصها أو سـرد حكايتهـا . روايـة مثـل لهـو الأبالـسة يفـسدها التلخـيص ويـشوهها ، ويقتـل أروع مـا فيهـا ، وهـو شـاعريتها غـير المستغربة مـن كاتبـة هـي شـاعرة في المقـام الأول . نجحـت في أن تتيـح لمـاء شـاعريتها وكيميائـة انـسكابا حـارا علـي كـل سـطر في روايتهـا البديعـة ، وأن تحقـق مـستوي عإلىـا مـن الأداء اللغـوي ، هـو مـا نعتقـده في كـثير مـن روايـات هـذا الزمـان الـتي يظـن أصـحابها أنهـم بإتقـان فن القـص أو الـسرد وحـده يحققـون الغايـة ويبلغـون المنتهـي ، بينمـا تظـل لغـتهم فقـيرة عـاجزة عـن تحقيـق هـذه المتعـة الخالـصة الـتي لا تحققهـا إلا الكتابـة الأدبيـة الرفيعـة . هـذا التـوهج الأدائـي ـ لا هـوس اللغـة كمـا وصـفة بعـض مـن كتـب عـن الروايـة ـ يجعـل منهـا عمـلا إبـداعيا شـديد التكثيـف والحـرارة والقـدرة علـي النفـاذ وحمـل الرمـوز والـدلالات ، والاغتنـاء بالإيحاءات والظلال البينية .

تقـول سـهير المـصادفة في الـصفحة الرابعـة والـثلاثين مـن روايتهـا المدهـشة لهـو الأبالـسة: اتـشح الحـي كلـه بالـسواد نهـارا علـي مـوت بطـة واسـتفردت الكـلاب الـضالة بـآذان الخلق بعد اختفـاء نهيـق حمارهـا لـيلا ، وظـل المـوت هـو البقعـة الوحيـدة البيـضاء الـتي تتكـيء بثبـات علـي الآفـق البعيـد ، نقـول: ربمـا كانـت طـائرا صـغيرا سنـستدفيء في ريـشه النـاعم الـوثير ونحلـق معـه فينقلنـا إلى سمـاوات أخـري لا تتـأرجح بـين الإظـلام والإضـاءة ، وربمـا كانـت قاربـا بـلا مجـاديف يبحـر بنـا ، ويبحـر في زرقـة أبديـة مـضيئة ولا نغـرق ونحـن فيـه أبـدا ، حيـث إننـا لـن نـشعر وقتهـا علـي أيـة حـال بـالغرق ، ولـن نمـل النـور المـسلط علـي أعيننـا مـن قـرص الـشمس الـذي نـسافر نحـوه ، حيـث إننـا وقتهـا سـنفقد الـشعور بالملـل ، وربمـا كانـت قطنـة كـبيرة مبتلـة ببلـسم لم نخـبره يـستطيع تـضميد جراحنـا كلـها ويـسحرنا فنستكين .

عنـدما أمـوت سـأترك كتابـا واحـدا لمـا يقـرأه مخلـوق ، ورجـلا واحـدا نهـشته الحيـاة والنـساء ليكـون مهيئـا لـي كمـا ينبغـي ، وأختـا واحـدة سـترتب ذكريـاتي كمـا يجـب في أدراجهـا وتجلـس طيفـي علـي أريكـة مريحـة ، وأغنيـة واحـدة لا أعـرف بعـد بـأي اللغـات سـتكون ، وسـأترك بالتأكيـد جـسدا واحـدا سـيكون أحلـي لوحـاتي إذا كـان متاحـا لـي أن أرسمـه وهـذا مـستحيل كـم أريـد أن أري جـسدي في هـذه الحالـة . كـم أريـد أن أراه ! وتقـول سـهير المـصادفة عـن سمكـة الجيتـار: جـسمها يـشبه كـثيرا آلـة الجيتـار ، ولأنهـا لا تـستطيع الغنـاء ، فقـد أخـذت تتجـه بـبطء وإصـرار نحـو الميـاه الـضحلة علـي الـشاطيء ، لتـدفن رأسـها في القـاع الرملـي ، لـن تتطلـع مـرة أخـري إلىـه ، لـن تـستمع إلى أمواجـه الهـادرة الهائجـة ، لن تـستمتع بـأقواس قـزح الـتي تعكـسها عنـد شـروق الـشمس وعنـد غـروب الـشمس ، سـتكتفي فقـط بـدفن رأسـها في الرمـل ، فبداخلـها بيـضات علـي وشـك أن تنهـي فـترة حـضانتها ،

ولـديها جـسد سـتحاول أن تجعلـه يحكـي حكايتهـا معـه ، ولـديها عينـان لم تخلقـا إلا للفرجة .

ليست هـذه الـسطور مـن روايـة لهـو الأبالـسة وهـي مقتطعـة مـن سياقها ـ محاولـة لا ثبات شـاعرية اللغـة وإحكامهـا وسـيطرة مبـدعتها عليهـا ـ بقـدر مـا هـي جـلاء للوحـة أبـدعتها رسامة بارعـة تجيـد التعـبير والتـصوير ، وتحـاور اللـون والـصوت والرائحـة ، وتـضفي علـي مـا تكتبـه أنثويـة الحـس المرهـف ورهافتـه وجموحـه وتلقائيتـه وعـدم التنبـؤ بـردود أفعالـه ووحشيته أيضا .

هـل أقتـبس للقـاريء مقطعـا آخـر ـ اختـاره الناشـر ووضـعه علـي غـلاف الروايـة الأخـير ؟ تقـول سـهير المـصادفة علـي لـسان مهـا الـسويفي بطلـة الروايـة لا ختهـا نجـوي: هـل تعـرفين يـانجوي أنـا لا أخـشي المـوت الآن . الآن فقـط أعـرف أن الحـب والمـوت همـا شـيء واحـد . كلاهمـا قفـز في الفـراغ . إنـني بـين ذراعيـة لا أري أرضـا ولاشـجرا ولاسمـاء ولا بـشرا . فقـط جـسده الـذي يحـيط بـي مـن كـل اتجـاه ، وجـسدي الـذي يغرقـه حـتي لا تنفـذ إلىـه قطرة من هذا العالم . إلىس هذا هو الموت ؟

تـري ، كـم تحمـل مهـا الـسويفي مـن ملامـح سـهير المـصادفة ؟ الإجابـة لا تهمنـا كـثيرا . بـالقطع فيهـا منهـا الكـثير . لكـن لـيس هـذا هـو بيـت القـصيد . لقـد حققـت مؤلفتنـا اختراقـا في أفـق الروايـة العربيـة المعاصـرة ، وثبتـت رايتهـا هنـاك عنـد محطـة فـضائية بعيـدة . وأغلـب الظـن أن هـاجس الكتابـة الروائيـة سيـصبح شـاغلها الأسـاسي مـن الآن: فهـي بالروايـة تكـسب الـشعر ولا تخـسره ، لكنهـا بالـشعر وحـدة لا تكـسب الروايـة . وتلافيـف لهـو الأبالـسة ـ الـتي أري أن عنـوان سمكـة الجيتـار كـان إلىـق بهـا ـ تفـصح عـن الكـثير الـذي مـا تزال تحـتفظ بـه سـهير المـصادفة عـن وقـائع سـنوات الاغـتراب في الاتحـاد الـسوفيتي (سـابقا) ، وهـي القـادرة علـي جعـل قارئهـا يتجمـد مـن بـرودة موسـكو وكييـف ويمـشي معهـا في شـارع غـوركي (مقارنـة بزقـاق د . طـه حـسين في حـوض الجـاموس) وغـروب مروعـة نهـر الـدنيبر وإبـداعات تـشيكوف ومـشاهدة يلتـسين علـي صـهوة دبابتـه في قلـب الميـدان الأحمـر ، ومآسـي العـالم الثالـث (كـان الاتحـاد الـسوفيتي في حقيقتـه دولـة مـن دول العـالم الثالـث ولكـن بأنيـاب ذريـة ـ كمـا وصـفه جورباتـشوف نفـسه) . هـذا الكـثير سـيتفجر في كتاباتهـا القادمـة وبعـد القادمـة . وسـيثريها وعيهـا العميـق بالتـاريخ والـسياسة والاقتـصاد والاجتمـاع ، وبالعـشوائيات الـتي يقتحمهـا قلـم روائـي جـريء ومقـتحم لا ول مـرة ، كمـا اقـتحم قلـم أديبنـا الفـذ نجيـب محفـوظ ذات يـوم عـالم زقـاق المـدق ونماذجـه البـشرية المـسحوقة والمـشوهة ، لا ول مرة . وكان هذا طرقة البداية إلى العالمية .

سـهير المـصادفة ـ وتـذكروا هـذا الاسـم جيـدا ـ تـدق نـاقوس الخطـر للغـافلين منـا عمـا يحـدث مجتمعـات العـشش والعـشوائيات . الرمـوز الكاشـفة في الزريبـة وحـوض الجـاموس

تأخذ بتلابيبنا لتأمل الواقع المصري كله ، وتأمل نماذج المثقفين المدمرين والمحبطين والمشوهين ، وهي تزاحم روائيي زماننا بمنكبين قويين ، قادرين علي الاقتحام والاختراق ، وإدانة عالم القياصرة ، المنفصل عن عبيده أو رعاياه ، لديهم ولدينا !

نواري ورقصة الطيور نوراي ورقصة الطيور

بقلم: فاروق شوشة

حين طلبت من الصديق العزيز الدكتور سمير سرحان ـ رئيس هيئة الكتاب ـ منذ ثلاث سنوات ، أن يهتم بنشر الكتابات غير المصرية ضمن مطبوعات الهيئة ، وأن يتيح لمبدعي الأقطار الناطقة بالعربية ـ والذين لا نعرف عنهم شيئا ـ فرصة انطلاق أعمالهم وكتاباتهم من القاهرة ـ ليتحقق لهم ميلاد حقيقي ـ حين طلبت منه ذلك لم أتوقع أن تكون استجابته الواعية والمدركة للمسئولية الثقافية الملقاة علي عاتقه وعاتق هيئة الكتاب ، سريعة وحاسمة .

كان ذلك في مناسبة اكتشافي لمبدع جميل من إريتريا هو الشاعر والروائي أحمد عمر شيخ ، الذي تعرفت عليه ضمن دورة للإذاعيين الأفارقة ، جاءوا من جزر القمر وإثيوبيا والصومال وجيبوتي وتشاد وموريتانيا وغينيا كوناكري وغيرها ، ليستزيدوا من الخبرة الإذاعية المصرية في مجالات عدة ، وكان لقائي بهم فرصة لمناقشة البرامج الثقافية في الإذاعة والتليفزيون من حيث المفهوم والإعداد والتقديم والدور ، والفلسفة والأهداف والأشكال والصيغ الإذاعية والمشكلات . كان واضحا أن أحمد عمر شيخ يتميز من بين الآخرين بحضور ثقافي ، وخبرة إذاعية متقدمة ، ووعي بالمجال الذي يعمل فيه وهو مجال البرامج الثقافية في الإذاعة الإريترية ، وسرعان ما اكتشفت أنه شاعر وروائي ، عندما أطلعني علي بعض كتاباته المنشورة في صورة طباعية متواضعة عن إحدي دور النشر المحلية . وعندما كتبت عنه في الأهرام باعتباره يمثل الوجود العربي الثقافي في إريتريا ، في مواجهة تيارات أخري ولغات أخري ، لفت ذلك انتباه الدكتور سمير سرحان واهتمامه ، فقرر نشر عملين من أعماله صدرا قرب ختام العام الماضي هما رواية نوراي وديوان رقصة الطيور ، فحقق بذلك ما كنت قد دعوته إليه ، مشكورا .

كانت كتابتي الأولي عن أحمد عمر شيخ محاولة للتعريف به ، وإلقاء بعض الضوء علي مساحة الإبداع لديه شعرا ورواية . فقد ولد أحمد عمر شيخ في جدة بالسعودية عام ١٩٦٦ ، وفي روايته نوراي تصوير بديع لرحلة العودة إلى الوطن ـ إرتيريا ـ عبر مينائه الرئيسي مصوع علي البحر الأحمر . حصل علي البكالوريوس في علوم الاقتصاد والإدارة في عام ١٩٩٠ ، وعمل منذ١٩٩٢ معدا ومقدما للعديد من البرامج الإذاعية والتليفزيونية في بلاده . وفي مقدمة انجازاته الإعلامية تأسيسه لملتقي الحوار الإريتري ـ أول وأهم منبر جماهيري مفتوح يناقش أهم القضايا السياسية والثقافية والاجتماعية في مرحلة انتقال إريتريا من الشرعية الثورية إلى الشرعية الدستورية ، وهو منبر يرتاده القضاة والمعلمون والسياسيون والموظفون ، وتتابعه وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية ، فضلا عن

صحف الشرق الأوسط والحياة وصوت إريتريا وبعض مواقع الانترنت . حصل أحمد عمر شيخ علي جائزة في الشعر من جامعة الملك عبد العزيز - في السعودية - عام ١٩٨٧ - وكان ما يزال طالبا بالجامعة ، ثم علي أول جائزة تخصص للشعر الإريتري المكتوب بالعربية عام ١٩٩٥ وهي جائزة رايموك ثم حصل علي جائزة أريتريون للسلام والدفاع عام ١٩٩٩ . واتيح للعديد من قصائده النشر في الصحف والمجلات الأدبية العربية - السعودية خاصة - والمنتدي الإماراتية ، والموقف الأدبي السورية وإبداع المصرية .

وقلت عنه أيضا إنه يعتز بإجادته للعربية والكتابة بها ، في بلد يضم تسع لغات ويتسع للتعدد الثقافي العرقي . وهو يقول عن نفسه إنه يكتب عجمته باللغة العربية ويهتم بتكريس هذه اللغة في الواقع الإريتري ولكن بوجهها المشرق والمتجدد ، مسهما بهذا الموقف في جدل الهوية الإريترية ، وهل هي انتماء عربي أم إفريقي اسلامي أم مسيحي ؟ آملا أن يمد المثقفون العرب أيديهم إلى المبدعين بالعربية من أبناء إريتريا ، فنحن منهم وهم منا كما يقول ، وهناك من وشائج القربي والامتدادات المتواصلة عبر العصور ما يحتم ذلك .

يقول أحمد عمر شيخ في قصيدته رقصة الطيور التي أطلق اسمها علي مجموعته الشعرية :

هدهد سماءك ، حلق أيها البطل
حيث المجاهل والأحلام تشتعل
شوق المدائن لا ريث نقابله
موج الأصائل في الأحداق يرتحل
عزف النوارس ياويح الجوي قدر
صمت الشواهد أم ياريح قد ثملوا
صفو الأرائك لا تأس لموعدنا
شدو السنابل لا تيه ولا ختل
هذي الدروب لنا لا بد نعرفها
كيما نردد : يا للفجر يكتمل
يغفو المدار علي شباك حجرتنا
بوح الفواصل والأوتار تنهمل
عزم الأريتري والآماد جاثية
سحر القوافل ، يا إنسان ، يا أمل
غيث المواسم لا خل يجافينا

هذي سماؤك رفرف أيها البطل

وسرعان ما ينتقل بعد هذا البناء الشعري العمودي إلى صيغة شعر التفعيلة ، مراوحا بين الصيغتين ، ومنوعا أنغام نصه الشعري وايقاعاته ، طبقا للحال النفسية ، ومستويات التوتر في مقاطع القصيدة ، يقول:

للطيور النذور
للمواقيت آجالها
والردي
للعراجين ظل التصوف
في الأفئدة
للتفتح ، غب انهيار الدخول
لنا ، كل هذا المدي
أي شيء سدي !
حين صاغ السؤال العتيد
تماهي ببهو الرحيل
غفا طيفه السرمدي
علي المائدة
رب طفل عراه الشحوب النبيل
سما ، وتناهي إلى
سمعه البصري الدوي
شوارع من زمهرير الندي
آه ، قوس الفدا !

في روايته نوراي يعزف أحمد عمر شيخ علي الوتر الذي يجيده المبدعون الإريتريون شعرا وقصا: وتر العودة إلى الوطن ، وما يلاقونه من أهوال . في مقابل وتر الهجرة الذي ساد كتاباتهم إبان مقاومة الاحتلال الإثيوبي وما سبق من احتلال إيطالي . وكانت الهجرة من الداخل إلى خارج الوطن ، خاصة إلى السودان وبلاد إفريقية أخري . تفاصيل هذا الرحيل إلى الوطن والرحيل من الوطن هي المادة الحية الموحية لعدد من الكتابات الإبداعية المتميزة .

أحمد عمر شيخ الذي يري في نفسه واحدا من جيل الشتات كما جاء علي لسان سراج في روايته ، يفتن في تصوير البحر والموج ، والسلالة ، وصهيل العربة والحصان ، وتشققات القدمين ونداءات الأزقة ، وروائح البول والفقر ، ورصيف المحطة ، والطفل نوراي الذي ينسل من بين الطلبة في مدرسة الجيل ، وعزيف الجن وقرع الطبول ، كل

ذلـك في إيقـاع شـعري جـارف ، وصـياغة تـصويرية تتحـدد خطوطهـا وملامحهـا بـضربات فرشـاة حـادة ، ولغـة يتمـاوج فيهـا الـشعور واللاشـعور ، كاشـفين عـن أعمـاق الشخـصيات في مواجهـة عـذاب الرحلـة ، والـضوء المنبعـث مـن بعيـد يـشير إلى المينـاء ، إلى أمـل الوصـول ، فهـذه مـصوع تلـوح للقـادمين . وأحمـد عمـر شـيخ يـصوغ لوحتـه وهـو يقـول: تمطـي سـدول الظلمـة ، فاطمـة تقـول: أهلـها سـيقلقون إن هـي تـأخرت ، تتجمـع الغيـوم الـسوداء ، الرطوبـة تتـشبث بحلقـي الناشـف ، أتململ وأصـغي إلى اللحـن الـشارد ومواويـل البحـر الأحمـر . أتمـني لـو أضـمها إلى شـذرات الـصدر الحـسير . أتـدحرج ككتلـة نـوم هاربـة ، يفـر إيقـاع الوقـت مـذعورا ، أطـارد الأيـام غبنـا وانتظـارا ، يتهـاوي الـنجم ويختفـي عنـد القـاع . تتجـه بـي مـساحات العـراء صـوب أفـق المـدي الـسارح ، تنتـزعني فاطمـة مـن بـين الـبراثن ، ترشـني بالضوء وعبق الرطوبة المصوعية وروائح السمك النادر .

في هـذه الروايـة ، كمـا يقـول ناشـرها الإريـتري في طبعتهـا الأولـي ، شـعب يطمـح إلى التواصل مـع محيطـه: إريتريـا بلـد اللغـات التـسع والتعـدد الثقـافي العرقـي ، تـراث وفلكلـور ، مهجـر ولجـوء ، واقـع الـشتات بكـل امتـداده ، تـاريخ نـضإلى طويـل ، تـشابكات وتقاطعـات مـا بعـد التحريـر ، نـسجها كاتبنـا الـشاب عـبر إرث الماضـي وهمـوم وتطلعـات الحاضر ، في عمل أدبي هو نوراي .

ولـيس أحمـد عمـر شـيخ اسـتثناء أو حالـة منفـردة فهنـاك جيـل كامـل مـن المبـدعين الإريتريـين بالعربيـة ، يتكئـون علـي ثقافـة عربيـة أصـيلة ، ويجيـدون التعـبير بهـذه اللغـة شعرا وقصا ومسرحا . وقد أتـيح لـي أن أطلـع علـي نمـاذج مـن إبـداع هـذا الجيـل الـشاب الـذي يـدرس في مـصر ، مـن خـلال مـسابقة في القـصة أقامهـا النـادي الإريـتري في القـاهرة وشـارك فيهـا عـدد كـبير مـن المبعـوثين الإريتريـين ، تحـت رعايـة الـسفارة الإريتريـة والقـسم الثقـافي فيهـا . وأدهـشني أن أجـد تمكنـا مـن الكتابـة بالعربيـة علـي هـذا المـستوي ، وتنوعـا في التجـارب والـرؤي والآفـاق لـدي المتـسابقين ، وعزفـا علـي بعـض الأوتـار الأساسـية الـتي تمثـل المقاومـة والنـضال والحـرب والهجـرة والرحيـل والغربـة . وصـياغات قصـصية تتـابع الفـن القصـصي العربـي والإنـساني وتحاذيـه ولا تتخلـف عنـه ، ووعيـا عميقـا بمـشكلات إريتريـا والعـالم العربـي والقـارة الإفريقيـة في عـصر العولمـة وسـيطرة القطـب الواحـد وتـشابك دوائـر الصراع .

لـذا ، فـإني أكـرر الـشكر للـدكتور سمـير سـرحان ، داعيـا لـه بموفـور الـصحة والعافيـة وسـلامة العـودة إلى الـوطن ، فقـد وضـع علـي خريطـة النـشر الأدبـي العربـي مبـدعا جميلا من إريتريا ، شاعرا وروائيا ، هو أحمد عمر شيخ .

محمد خليفة ووشل الطغيان

بقلم : فاروق شوشة

والوشل ـــ في اللغة ـــ وجمعه أوشال: هو الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ، ولا يتصل قطره ، أو هو القليل مع الدمع ، ومن هنا قيل: جاء القوم أوشالا أي يتبع بعضهم بعضا .

أما مناسبة الحديث عن الوشل ، فهي أن الكاتب والشاعر والروائي الإماراتي محمد خليفة قد جعل منه عنوانا لكتابه الجديد وشل الطغيان ، الذي يقوم من خلاله برحلة مضنية تستجلي مظاهر الاضطهاد وضروب العسف التي ما رسها الإنسان ـــ باسم السلطة وأنظمتها السياسية ـــ ضد أخيه الإنسان ، في مختلف الأمم والحضارات منذ عصر ما قبل التاريخ حتي منتصف القرن العشرين . وهي مرحلة ـــ كما يقول ناشر الكتاب ـــ تعري أساليب الطغاة والمستبدين في كل مرحلة من مراحل التاريخ ، وعند كل أمة من الأمم ، من أجل بعث الأمل ـــ لدي الإنسان ـــ في قيام حضارة الحب والسلام والحرية والعدل .

ومحمد خليفة ـــ كما يعرفه قراؤه ـــ أو محمد خليفة سالم المرر وهذا هو اسمه الكامل ، تمرس طويلا بألوان من الكتابة الأدبية والفكرية والسياسية ، وصار له أسلوبه المتميز بين كتاب جيله وأدبائه ومفكريه ، فضلا عن ارتباط كتاباته دوما بالدعوة إلى التغيير من أجل الأفضل ، والبحث في حقيقة الكيان الإنساني للفرد العربي ولمجتمعه . من هنا فإن ناشر كتابه يشير إلى تنوع الكتابة لديه من العمود الصحفي ـــ المتمع المقنع ـــ إلى القصة الأدبية ، كما في مدائن من رماد ورعشة الأطيار ، إلى القصيدة الشعرية كما في تيه الثري ووهج الأنثي ، إلى الكتابة السياسية الرمزية كما في سفود الجماجم ، إلى البحث التاريخي المبطن بالرؤية الفكرية كما في وشل الطغيان . ويظل الخيط الرابط بين مختلف هذه الكتابات هو الإيمان العميق بالقيم الإنسانية الرفيعة التي تسكن وجدانه وعقله ، قيم الحب والعدل والحرية ، وأمل الإنسان في عالم يتحقق فيه السلام والحب وتنتهي منه كل مظاهر الظلم والكراهية والاستعباد .

يقسم محمد خليفة كتابه إلى أبو اب يتناول الباب الأول أربعة فصول هي: من المشاعة إلى الطغيان ، والتسلط في العالم القديم ، وأفلاطون والحاكم الفيلسوف ، وارسطو وسياسة الاعتدال، ويتناول الباب الثاني فصلين هما: المسيحية في روما ، والمسيحية في بلاد فارس ، أما الباب الثالث فيتناول الطغيان في الحكومات الإسلامية من خلال فصلين هما: العرب والإسلام ، والملك العضوض . وهكذا تمضي بقية أبو اب الكتاب وهي تتحدث عن أوروبا بين محاكم التفتيش والإصلاح الديني ، والأنظمة

الإيديولوجية والطغيان وهو الباب الذي يتناول فيه المؤلف الثورة البلشفية والاشتراكية الوطنية في ألمانيا ، وأخيرا الفاشستية الإيطالية . لعل أكثر أبو اب الكتاب وفصوله أهمية - بالنسبة للقارىء العربي - هي ما يتصل بالطغيان في الحكومات الإسلامية ، خاصة والحديث يدور الآن في العديد من المجتمعات العربية عن الدور الذي تقوم به منظمات حقوق الإنسان (المجلس القومي لحقوق الإنسان في مصر) وعن الدور المتعاظم للمنظمات غير الحكومية ومؤسسات المجتمع المدني من أجل تنشيط العمل الهادف إلى تحقيق مساحة أرحب من الحرية والعدالة وتبادل السلطة وترشيد اتخاذ القرار وإقامة حياة ديمقراطية حقيقية . نغمة الإصلاح والتغيير إلى الأفضل هي المعزوفة السائدة الآن ، مع الحرص علي تأكيد انها نغمة ذاتية أصيلة ، مبعثها الاحتياج إلى التحديث والتطوير ، وليس الاستجابة إلى ضغوط خارجية . وهي تسري في المجتمعات العربية الآن سريان الكهرباء ، تستوقف وتحرك وتدعو إلى التأمل ومعاودة النظر والعدول عن ، والتحرك إلى ، ومحاولة اللحاق بسياق العصر الذي لا ينتظر عاجزا ولا يرحم متخلفا عن المسيرة .

في ظل هذا المناخ ، يصبح كتاب محمد خليفة وشل الطغيان حافزا ومذكرا وباعثا للأمل ومحذرا من العواقب . وفي حديثه عن الملك العضوض الذي واكب سيطرة معاوية علي الخلافة يقول المؤلف: أخذ معاوية الخلافة بالسيف من غير مشاورة ، وأدارها بالعقل والدهاء ، معترفا منذ البداية بأسلوبه في الاستيلاء علي الخلافة ، ومعلنا عدم التزامن بما جري عليه الخلفاء الراشدون . جاء في كتاب العقد الفريد أنه لما قدم معاوية المدينة عام المجاعة تلقاه رجال قريش فقالوا: الحمد لله الذي أعز نصرك وأعلي كعبك . فوالله ما رد عليهم بشيء حتي صعد المنبر ، فحمد الله وأثني عليه ، ثم قال: أما بعد ، فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتي ، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة . ولقد رضت لكم نفسي علي عمل ابن أبي قحافة (وهو أبو بكر الصديق) وأردتها علي عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفارا شديدا . وإردتها علي مثل سنيات عثمان فأبت علي ، فسلكت بها طريقا لي ولكم فيه منفعة: مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة . فإن لم تجدوني خيركم فإني خير لكم ولاية . والله لا أحمل السيف علي من لا سيف له . وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفي به القائل بلسانه ، فقد جعلت له دبر أذني وتحت قدمي .

وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه ، فإن أتاكم مني خير فاقبلوه ، فإن السيل إذا زاد عني ، وإذا قل أغني . وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة .

ويعلق محمد خليفة علي هذا النص الوثيقة بقوله: وقد التزم معاوية بهذا المبدأ ، مدفوعا بحنكة سياسية ، وحلم رفيع جعلاه يسيطر سيطرة تامة علي الأوضاع المضطربة

داخليا ، ويبدأ في استئناف تجهيز الجيوش للفتوحات الخارجية . وكان يستقبل خصومه السياسيين - كالعلويين وغيرهم - ويستمع إلى نقدهم الذي كان يكتسي أحيانا بطابع الهجوم المقصود . ومع ذلك كان يجزل لهم العطاء ويصرفهم بهدوء . ولما روجع ذات مرة في أمر رجل أغلظ له في المجلس فحلم عنه فقيل: أتحلم عن هذا ؟ قال: إني لا أحول بين الناس وألسنتهم ، ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا .

وأصبحت شعرة معاوية مضرب المثل في الحلم والدهاء والمرونة .

إلىس هو القائل: لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني . ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت . قيل: وكيف ذلك ؟ قال كنت إذا مدوها أخيتها ، وإذا أرخوها مددتها . وفي رواية أخري: كنت إذا مدوها خليتها ، وإذا خلوها مددتها ! في رأي محمد خليفة - الذي يتكيء في كتابه علي العديد من المصادر والمراجع والكتابات الموثقة - أن معاوية لم يدخر جهدا في سبيل تثبيت ملكه فقد قمع خصومه وأخذ البيعة لنفسه منهم بحد السيف ، وتسمي بأمير المؤمنين كي تكون طاعته واجبة والخروج عليه ردة وفسوقا . وفي الحقيقة ما كان معاوية إلا مغتصبا لحق المسلمين في الحكم وقد شهد بذلك علي نفسه في خطبته الأولي . وبعد أن تنعم بالملك سنوات طوالا أراد أخذ البيعة من المسلمين لا بنه يزيد .

فكتب سنة خمس وخمسين هجرية إلى سائر الأمصار أن يفدوا عليه ، فوفد عليه من كل مصر (أي بلد) قوم . فجلس في أصحابه وأذن للوفود فدخلوا عليه ، وقد تقدم إلى أصحابه أن يقولوا في يزيد فتكلم جماعة منهم . ثم قام يزيد بن المقفع فقال: أمير المؤمنين هذا . وأشار إلى معاوية . فإذا ما ت فهذا وأشار إلى يزيد . ومن يأبي فهذا وأشار إلى سيفه . فقال له معاوية: أجلس ، فأنت سيد الخطباء !

ويوضح محمد خليفة في كتابه المثير أنه لم يشذ أحد من حكام بني أمية عن سبيل الطغيان سوي عمر بن عبد العزيز الذي تولي الحكم بعد سليمان بن عبد الملك عام تسعة وتسعين هجرية .

وكان - كما يروي المؤرخون - حاكما زاهدا عادلا . ثم عاد الظلم والقهر والعسف ثانية في عهد هشام بن عبد الملك . فلما قامت ثورة بني العباس ، وجد الناس فيها متنفسا من ظلم الأمويين ، فساندوها بكل ما يستطيعون عليهم يقالون من الظلم والاستعباد .

ولكن الأمويين ذهبوا وجاء من هم أشد منهم ظلما ، وكأن قدر هذه الأمة المغلوبة - كما يقول المؤلف - أن تبقي تحت سياط القهر وأن يبقي الظالمون أربابا عليها . فبعد أن توطد الملك لا بي العباس السفاح وجد أنه من الضروري الاقتصاص من كل الذين ساهموا في

الـدعوة العباسـية ومـن ثبتـوا أركانهـا . ولـما خلفـه في الملـك أخـوه أبـو جعفـر المنـصور وضـع نصب عينيه اغتيال أبي مسلم الخراساني الذي قامت علي أكتافه الدعوة العباسية .

وكـان أبـو مـسلم وإليـا علـي خراسـان . فـتم اسـتدراجه وقتلـه في قـصة عـام رة بفنـون الغـدر والخيانـة . وكـان مـن بـين هـذه الفنـون ـ الـتي اخترعهـا العباسـيون ـ اتهـام كـثير مـن أحـرار الكتـاب والأدبـاء والـشعراء والعلمـاء بالزندقـة ـ أي المـروق والخـروج علـي الـدين ـ حتـى تحـل دمـاؤهم في نظـر العامـة . فكـانوا يـسجنون ويعـدمون وتحـرق كتـبهم ظلـما وعـدوانا . والحقيقـة أن وراء هـذا كلـه أسـبابا سياسـية تـتلخص في تثبيـت الحكـم والقـضاء علـي الخـصوم وخنق أي صوت للمعارضـة . مـن أمثلـة هـؤلاء الـذين اتهمـوا ظلـما وعـدوانا ابـن المقفـع صـاحب الأسـلوب المتميـز واللغـة المتفـردة في تـاريخ الأدب العربـي ومترجـم كتـاب كليلـة ودمنـة وصـاحب الأدب الكـبير والأدب الـصغير ـ ومـنهم أيـضا صـالح بـن عبـد القـدوس الـذي كـان واعظـا في البصرة ، ولا يقول الشعر في مدح خليفة أو أمير ، وإنما في الحكمة والعظة .

اتهمــه الخليفــة المهــدي بالزندقــة ، فــأمر بحملــه إلىــه ، فأحــضر بــين يديــه فلــما خاطبــه أعجــب بغــزارة علمــه وأدبــه وبراعتــه وحــسن بديهتــه وكثــرة حكمــه . فــأمر بــإخلاء سبيله . ثم عاد ورده قائلا له ، ألست القائل:

مايبلغ الأعداء من جاهل
مايبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه
حتي يواري في ثري رمة
إذا ارعوي عاد إلى جهله
كذي الضني عاد إلى نكسه
فإن من أدبته في الصبا
كالعود يسقي الماء في غرسه
حتي تراه مورقا ناضرا
بعد الذي أبصرت من يبسه !

فقـال: بلـي اأمـير المـؤمنين . قـال: فأنـت لا تـترك أخلاقـك ، ونحـن نحكـم فيـك بحكمك في نفسك . ثم أمر به فقتل وصلب علي الجسر .

هنــاك مــشترك كــثير بــين مــا دة هــذا الكتــاب ، وماجــاء في كتــاب الباحــث الجــاد والكاتـب الروائـي الكـبير سـليمان فيـاض: الوجـه الآخـر للخلافـة الإسـلامية . الـذي يثبـت فيـه ــ بالأدلـة والأحـداث والـشواهد والـبراهين ـ كـم كانـت خلافـة دمويـة ، قائمـة علـي القهـر والعـسف والتنكـر للحـق والعـدل . وكـلا الكتـابين لمحمـد خليفـة وسـليمان فيـاض صـيحة حـارة

مخلصة من أجل إصلاح واقع هذه الأمة ، وبناء مستقبلها علي أسس من الحب والسلام والحرية والعدل ، والمحافظة علي حقوق الإنسان ، وتدعيم المجتمع المدني والمنظمات غير الحكومية ، وتعظيم دورها - المكافيء لدور الدولة - في تحقيق مشروع النهضة والتقدم .

وما أنبلها من رسالة !

" ثرثرة عالم عجوز "

بقلم: فاروق شوشة

الدكتور سمير حنا صادق ـ الاستاذ غير المتفرغ بكلية طب جامعة عين شمس ـ هو مقرر لجنة الثقافة العلمية بالمجلس الأعلي للثقافة وعضو شعبة الخدمات الصحية والسكان بالمجالس القومية المتخصصة ، وهو أيضا واحد من مصر المتميزين ، جعل من الكتابة العلمية دورا أساسيا يحقق من خلاله تواصله مع قرائه ، باعتباره داعية إلى العلم والتفكير العلمي والمواجهة العلمية لكل ما تعيش فيه من قضايا ومواجهة مع الواقع ، وأعدي أعداء الدكتور سمير حنا صادق هو فكر الخرافة ـ إن كان للخرافة فكر ـ ويري فيه أساسا للتخلف والعجز عن اللحاق بمن سبقوا في مضمار التقدم والتطور ولايمانه بالعلم ، فان أكثر من عشرين كتابا صدر له ، يضم معظمها مفردة العلم في عنوانه بدءا بأولها: عصر العلم وبعده: العلم في مكتبة الاسكندرية ، بين العلم والدجل ، عبق العلم ، دردشة عن العلم ، العلم ومستقبل العالم ، طبيعة العلم غير الطبيعة (وهو كتاب مترجم) ، العلم الجيد والعلم الزائف والخرافة ، نشأة العلم في مكتبة الاسكندرية القديمة فضلا عن وجود سطح العلم في صور أخري تتضمنها عناوين كتبه ، مثل: الثقافة العلمية والقيم الانسانية ، العلوم الطبيعية: خواصها وملامح من تاريخها وبعض أعلامها ، التقاء الانسانيات والعلوم الطبيعية ، حكايات عالم عجوز ولانكاد نعرف أحدا من علمائنا المعاصرين ـ في أي مجال من مجال التخصص العلمي ـ أعطي للعلم وقضاياه هذا القدر من التفرغ والاهتمام المتواصل عبر عقود متصلة من الزمان ، اصبح للدكتور سمير فيها مدرسته العلمية والفكرية ، وتلامذته ومريدوه ، والمتحلقون من حوله في مجالسه وصالوناته الثقافية .

وأصبح طبيعيا ومنطقيا أن نجد علي الغلاف الأخير لكتابه الجديد: ثرثرة عالم عجوز الصادر عن المجلس الاعلي للثقافة ، هذه الكلمات: لم تعد لي أية أطماع دنيوية ، حقق لي وطني أكثر مما أطمع فيه . بقي علي أن أسدد جانبا مما علي من ديون لمصر ، هذا بعض مما أعتقد أن فيه الخير لهذا البلد الرائع الذي قد يمر بأزمته ولكنه سيخرج منها بإذن الله قد يجانبني الصواب في بعض ما سأقول . ولكني سوف أقول ما أعتقد أنه الحق ، ولا شيء غير الحق الكتاب الجديد للدكتور سمير ـ الصادر في يونيو من العام الماضي ـ لا يختلف عن سياق كتبه السابقة . فهو حلقه في سلسلة متصلة من الجهاد العلمي تثقيفا وتنويرا وحربا علي الخرافة .

وهو أيضا ككتبه السابقة غير قابل للتلخيص أو العرض في مثل هذه المساحة المحدودة للكتاب ـ فكل صفحة تثير قضية ، أو تؤكد حقيقة علمية ، أو تطالب بتغيير

سلوك خاطيء أو تدعو إلى نظرة جديدة قائمة علي أساس علمي . وقد استوقفني قضية نقل الأعضاء من الموتي إلى الاحياء وعدم صدور قانون ينظم حالات النقل حتي الآن ، والجدل الذي لا يزال يدور بين الفقهاء والعلماء وهي قضية تكشف لنا عن نموذج لا سلوب التفكير الذي ما رسه الدكتور سمير حنا صادق حين يقول: بعد دقائق من توقف نبضات القلب ، يستمر وجود رسم كهربائي لا نقباضات صغيرة في القلب .

وبعد ثلاث ساعات يستمر إنسان العين في الاستجابة لنقط البايلوكاريين لذلك فإن اشتراط وفاة جميع أعضاء الجسم هو اشتراط مضحك ، لا نه من المكن الحصول علي نسيج حي من الجلد بعد توقف القلب لمدة أربع وعشرين ساعة ، وأخري من العظم بعد ثمان وأربعين ساعة ، وثالثة من الشرايين بعد اثنيين وسبعين ساعة . أما عن موقف الدين فقد أصدر الأزهر فتوي واضحة لا ريب فيها والعجيب أن الدول الاسلامية كافة قد أقرت نقل الأعضاء من المتوفين حديثا ، وقد نقلت في السعودية آلاف من الكلي ، ومئات من الأكياد ، وعديد من القلوب والرئات والبنكرياس .

ثم يقول الدكتور سمير حنا صادق: إن تسهيل إجراءات عمليات نقل الأعضاء بكل الطرق هو إجراء يتطلبه الحرص علي المرضي ، وفي تأجيل وضع قانون ينظم هذه الاجراءات قسوة بالغة ، بل إجرام في حق هؤلاء المرضي . ولن يكفي في هذا المجال الدعوة إلى التبرع بالاعضاء كتابة قبل الموت . فقد فشلت هذه الدعوة عديدا من المرات ، انما الواجب هو العكس (كما تفعل أغلب بلاد العالم المتحضر) باعتبار المتوفي في ظروف معينة متبرعا ما لم يترك ما يدل علي رفضه وحتي بفرض تعارض هذه العملية مع بعض الاجتهادات فإن الضرورات تبيح المحظورات . ولكن أصحاب القلوب الغليظة لا يذكرون ذلك إلا عند ارتكابهم للمحظورات .

من بين فصول الكتاب ما يشير إلى قضية إجراء التجارب علي البشر ، والمؤتمر الدولي الذي عقد في مصر من أجلها منذ عدة سنوات وكان المؤتمر عن الاخلاقيات والعلم ، وكانت للمؤلف مشاركة فيه عن أخلاقيات الأبحاث العلمية الاكلينيكية وهي الأبحاث العلمية الطبية التي تجري علي البشر لدراسة فاعلية الأدوية وسموميتها ووسائل العلاج والوقاية المختلفة ، مشيرا إلى الأدبيات الطبية ـ لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ـ التي تحكي عن إهدار شديد للقيم الانسانية في الابحاث العلمية علي البشر ، وعن تفاصيل تجربة إجرامية تمت في الولايات المتحدة ، حين تم وضع٤١٢ أمريكيا زنجيا مصابا بالزهري في بلدة تسكيجي بولاية ألاباما تحت المراقبة في دراسة طويلة المدي لمعرفة تطور المرض ، وكيف وضع هؤلاء المرضي قيد الدراسة دون موافقتهم أو حتي علمهم . ولم يشرح لهم أحد طبيعة مرضهم وكيفية انتقالة لزوجاتهم وأطفالهم ومنع عنهم العلاج المعروف في ذلك الوقت . وعندما ثبت في الخمسينيات أن البنسلين يمثل علاجا ناجعا

للزهري لم يقدم لا حد منهم هذا العلاج ، واستمرت التجربة حتي عام ١٩٧٢ ـ طيلة أربعين عام ا ـ ومات البعض ، وساءت حالة البعض الآخر ، واكتشف الموضوع صحفي من جريدة نيويورك تايمز فارتفعت أصوات الاحتجاج وأوقفت الدراسة ، وأصبحت هذه التجربة مثالا للعنصرية ، ولغياب المقاييس الاخلاقية .

وفي عام ١٩٧٧ اكتشفت وثائق خاصة بوكالة المخابرات المركزية تسجل تجارب وحشية علي التدخل في التفكير البشري ، الأمر الذي استدعي تأليف لجنة من مجلس الشيوخ لدراستها وادانتها . وسميت الدراسة باسم دراسة سكولترا ولا ينهي المؤلف كلامه قبل الاشارة إلى ظاهرة استشرت عندنا في مصر ، وهي انتحال أمجاد مزيفة في اكتشافات وهمية عن وسائل العلاج مثل استعمال الماء المغلي في علاج السرطان واستئصال فيروس سي باستعمال الأعشاب لقد سمي الدكتور سمير كتابه ثرثرة عالم عجوز وهو في حقيقته دفاع مجيد عن العلم وأخلاقياته وقيمه ، يقوم به عقل شاب ، متجدد الحيوية والحضور .

في الخمسين عرفت طريقي

بقلم: فاروق شوشة

هذه هي الطبعة الثانية من كتاب جميل ، يأخذ بمجامع القلب والعقل معا ، سعدت بقراءته لا ول مرة في طبعته الأولي عام ١٩٩٠ ، وعندما عاودت قراءته في طبعته الثانية ـ منذ أيام قليلة ـ أدركت أن ما دته المشعة بالصدق والوعي والإنسانية لا تزال أكثر بهاء وإشعاعا ، وأن سطوره لا تزال مترعة بذلك الشجن الخفي والأسي الشفيف الذي يتملكنا كلما حاولنا الاقتراب من الجذور والينابيع ، ومراجعة الزمان الذي ولي ، والعمر الذي انفرطت حباته ، فيفاجئنا أنه ـ علي الرغم من عذاباته وشقاواته ومكابداته وحتي ما سيه ـ كان آسرا وجميلا !

أما صاحب الكتاب فهو الصديق الذي جمعتني به صداقة أكثر من خمسة وأربعين عام ا . بدأت ونحن نطلب العلم في الجامعة ، وكنت أسبقه في الدراسة بعامين ، لكن الشعر جمع بيننا ونحن نشارك في النشاط الثقافي بكليتنا ـ كلية دار العلوم ـ والمهرجانات الشعرية الكثيرة التي كان من نجومها في ذلك الوقت ـ منتصف الخمسينيات ـ: محمد الفيتوري ـ زميلنا في الدراسة ـ وصلاح عبد الصبور وفوزي العنتيل ـ الذي كان قد سبقنا إلى التخرج بعدة سنوات ـ و عبد ه بدوي وعلي الصياد وإسماعيل الصيفي ومحمد إسماعيل هاني ، ومن الشعراء العرب المقيمين في القاهرة أو العابرين: عبد الكريم الكرمي أبو سلمي ، ومحمد علي الحوماني ونزار قباني ، فضلا عن بعض شعراء مصر الكبار الذين ينتسبون بدورهم إلى دار العلوم في عقود من الزمان سابقة: محمود حسن إسماعيل ، وأحمد مخيمر ، وطاهر أبو فاشا ، والعوضي الوكيل ، وعلي الجندي . في ذلك الوقت ـ منتصف الخمسينيات ـ كان محمود الربيعي واحدا من نجوم الكوكبة الشعرية ، وكانت قصائده الأولي تعزف علي وتر القرية والكوخ والغربة ، وتكاد تذكرنا بسلفه العظيم محمود حسن إسماعيل في أغاني الكوخ ، لكن قصائد الربيعي كانت أكثر بساطة وتلقائية وحميمية . ما زلت أذكره في تلك المرحلة المبكرة من العمر: طويلا ، ناحلا ، حييا ، خجولا . لم يكن ـ ككثير ممن عرفتهم من أبناء الصعيد ـ جريئا مقتحما . كان عزوفا ، أقرب إلى الصمت والتأمل منه إلى الثرثرة والاندفاع ، وشيئا فشيئا بدأت أواصر صداقتنا تنعقد ، وخيوط اهتماماتنا المشتركة ـ الأدبية والشعرية ـ تجعلنا نحلم في وقت مبكر بامتلاك العالم والقدرة علي تغييره . وعندما سافر في بعثته العلمية إلى انجلترا للحصول علي الدكتوراة في عام ١٩٦٠ أحسست أن جزءا عزيزا وغاليا من نفسي وعقلي قد سافر معه ، لكنني كنت أعلل النفس بصورته الأكاديمية القادمة

وسمته الجامعي المتأورب - نسبة إلى أوروبا - ودوره القادم في إذكاء وهج التنوير داخل كليتنا ، وهو الوهج الذي أشعله من قبل بعض أساتذتنا الكبار في مجالات معرفية شتي: إبراهيم أنيس ، ومحمود قاسم ، و عبد الرحمن أيوب ، ومحمد غنيمي هلال ، وأحمد هيكل وغيرهم . وعاد محمود الربيعي مزودا بثقافته العصرية الجديدة ، مشاركا بفاعلية وحماس وصدق في الدراسة الأكاديمية بالكلية ، ثم في روافد الحياة الأدبية والثقافية مؤلفا ومترجما وكاتب مقالة ومتحدثا إذاعيا وتليفزيونيا . كانت سنوات لندن هي سنوات التحول الكبير في حياته - إنسانيا وثقافيا وحضاريا - وكانت سنوات إعارته للعمل في الجزائر سنوات المعاناة والاصطدام بصورة العالم الثالث علي حقيقتها ، كما كانت أعوام عمله في جامعة الكويت أعوام العودة إلى الصحراء ، كما كانت سن الخمسين هي السن التي عرف فيها طريقه . هكذا يقول محمود الربيعي في كتاب سيرته الذاتية في الخمسين عرفت طريقي . والذين يعرفون محمود الربيعي - حق المعرفة - مثلي ، يترددون كثيرا أمام مقولته الأخيرة فالحقيقة أنه عرف طريقه قبل الخمسين بكثير ، ربما من اللحظة التي ركب فيها القطار من محطة سوهاج إلى القاهرة في خريف١٩٥١ ، في طريقه إلى اللحاق بأخيه الأكبر الذي يتلقي تعليمه في الأزهر - تماما كما حدث لطه حسين وأخيه من قبل - ولم يكد الفتي يغشي المحافل الثقافية التي كانت مزدهرة في الخمسينيات ، ويمارس المشي في شوارع القاهرة باعتبار أن المشي في شوارعها - بتعبير أحد أصدقائه في ذلك الحين - ثقافة ، ويكتشف حقيقة المواد الأزهرية التي طابعها الحشو والتكرار ، حتي أدرك في ذلك الوقت المبكر ، وهو في مستهل العشرينيات - قرب نهاية المرحلة الثانوية وهو علي أعتاب الجامعة - إن أشرف شيء في هذه الدنيا أن نطلب العلم لذات العلم ، ومع أن الطريق في تلك الأيام لم يكن واضحا تماما أمامي فإن ذلك لم ينقص من حماسي شيئا ، فعشت متفائلا ، أستريح حين أضيف إلى معرفتي شيئا جديدا ، وأحزن علي إلى وم الذي يضيع هباء ، كنت أعمل كثيرا ، وأحلم كثيرا ، وأعيش حياة ما دية بسيطة جدا ، ولم أضق مطلقا بحياتي التي هي أقرب إلى التقشف ، ولا أحسست مطلقا بالحرمان . هذا الوعي الذي يحمله طالب العشرين يكشف عن معرفة الطريق بوضوح منذ البدايات الأولي . هذا الوعي الذي سيتنامي ويتعاظم مع امتداد العمر واكتمال سنوات النضج والخبرة ، ومعرفة الحياة والناس ، وتذوق الحلو والمر ، ليفضي إلى ما نطقت به حكمة الخمسين: وفي الخمسين رسخ اعتقادي في أنه لا خسارة أكبر من أن يربح الإنسان الآخرين ويخسر نفسه ، وصح عندي أن الصراحة الكاملة هي المنهج الذي ينبغي اتباعه في الحياة العملية . وفي الخمسين لم يعد المظهر يخدعني ، ولم يعد الادعاء أو علو الصوت يستهويني . وفي الخمسين أصبحت أكثر وعيا بقيمة الوقت ونجحت في ضبط الموعد برغم صعوبة ذلك ، وفي الخمسين أصبح حجم ما أرفضه أكبر من حجم ما أقبله . وفي الخمسين أصبحت أكثر وعيا بالصيغة التي أختارها لمعني الثقافة

والحرية . وفي الخمسين هدأت نفسي قليلا وهدأ عقلي قليلا ، ولم أعد أنتظر ثوابا علي ما أفعل ، كما لم يعد رضا الآخرين عني في جميع الأحوال يعنيني كثيرا . . ضاقت لدي رقعة أحلام إلى قظة وإن لم تفارقني ، واتسعت أمامي رقعة العمل والخيال .

في لغة بالغة العذوبة ، شديدة النقاء والشفافية ، مترعة بالشاعرية ، يكتب محمود الربيعي الفصول الأولي من سيرته الذاتية ، وأقول الفصول الأولي لا ن هذه السيرة توقفت قبل صدور الكتاب في طبعته الأولي عام ١٩٩٠ ، وقبل انتقاله للعمل أستاذا بالجامعة الأمريكية ، حتي الآن . هذه السنوات العشر الأخيرة تستحق فصلا ثانيا من فصول هذه السيرة ، خاصة أنها كشفت عن مزيد من الجوهر الخبيء في شخصية محمود الربيعي وفي تكوينه ، وعن صلابته في مواجهة غوغائية المتنطعين باسم الحرية - الحرية الأكاديمية علي وجه الخصوص - وهم قتلتها وأعداؤها الحقيقيون ، وعن انتمائه لرسالة واضحة في العمل الثقافي والأكاديمي تعرف موضعها الصحيح من القديم والجديد ، من الحقيقي والزائف ، مما ينبغي وما لا ينبغي ، من البهرج السوقي والحقيقي الأصيل .
في هذه السنوات العشر يخوض محمود الربيعي أشرف معاركه وأنبلها ، حفاظا حقيقيا علي الحرية والأكاديمية والمنهج والموضوعية ، وسط ضباب كثيف من التربص وخلط الأوراق وتزييف المفاهيم وتصفية الحسابات . لقد أدرك محمود الربيعي - منذ وقت بعيد - أن جهده للماجستير في تحقيق ديوان القطامي قبل سفره إلى لندن عام ١٩٦٠ ، وجهده في ترجماته الرائعة لكتاب الصوت المنفرد لفرانك أوكونور ، وتيار الوعي في الرواية الحديثة لروبرت همفري وكتاب حاضر النقد الأدبي ومؤلفاته البارزة: في نقد الشعر وقراءة الرواية وقراءة الشعر ونصوص من النقد العربي القديم وغيرها ، هذا الجهد هو وحده الأبقي ، وأن غيره من مشاكسات العمل الوظيفي ، وفساد الساحة الثقافية ، واختلاط المفاهيم والموضات النقدية ، ينبغي ألا يصرفه أبدا عن طريقه الواضح ونهجه القويم . وعلي الرغم من متابعته الواعية لكل ما يضج به الواقع الأدبي والنقدي ويختلف حوله الناس من مفاهيم الحداثة والبنيوية والتفكيكية وما بعد الحداثة وغيرها ، فإن هذا كله لا يقتلعه من مكانه ، ولا يدفعه - كما دفع كثيرين بوعي وبغير وعي - ليخوضوا فيما خاض فيه غيرهم ، حتي يكتبوا عند الله حداثيين وبنيويين ، ولتفتح لهم أبو اب المؤتمرات والملتقيات علي مصاريعها . وأعتقد أن اقترابه من حركة النقد الجديد - وهي إحدي حركات النقد الأدبي الأكاديمي التي ظهرت وانتشرت في الولايات المتحدة ومازال لها نفوذ كبير في الأوساط الأدبية منذ أربعينيات هذا القرن - هو الذي جعله يدعو إلى ما يسمي بالقراءة الفاحصة للنص الأدبي ، وهي قراءة تتسم بالفهم الدقيق لدلالات الألفاظ والعبارات - في سياق النص - واعتبار كل ما يحيط بالنص أمرا ثانويا ، فالعمل الأدبي كائن عضوي مستقل ووحدة متكاملة وتجربة مستقلة ، وقادر بنفسه أن يصبح ذاتيا وإنسانيا في آن .

هـو إذن مـنهج نقـدي يتعامـل مـع الـنص الأدبـي باعتبـاره بنيـة ومعمـارا لغويـا ، ولابـد أن يكـون محمـود الربيعـي قـد أفـاد واقـترب مـن كتابـات إلى وت ورشـاد رشـدي ومـصطفي ناصـف ، وكلاهمـا: ناصـف والربيعـي شـارك في إشـاعة مفهـوم القـراءة ، واقتباسـه في العديـد مـن الكتابـات النقديـة المعاصـرة ، وهـو أيـضا مـنهج يـري في الـسيل المنهمـر مـن المـسميات النقديـة الرائجـة الآن في الـسوق الأدبيـة ، بـدون تمثـل أو تفاعـل عـضوي مـع الإبـداع الأدبـي العربـي ـ خلـلا واضـطرابا شـديدين ، وإشـاعة للفوضـي والاخـتلاط ، ودفعـا بغـير المـؤهلين ـ وعيـا وثقافة وخبرة ـ والانتهازيين ، إلى مجاراة الموضة السائدة والتزيي برداء الحداثيين .

ومـا أكثـر مـا اسـتمع إلى ه وهـو يعلـق سـاخرا: كيـف اسـتطاع فـلان – الأزهـري التكـوين – أن يلـوك هـذه العبـارات وأن يـردد هـذه المفـاهيم دون أن يـنجح في غرسـها واسـتنباتها في البيئـة والمنـاخ ، وهـو مـا قـام بـه مـن قبـل طـه حـسين ومحمـد منـدور وعلـي الراعـي وشـكري عيـاد وغيرهـم مـن رواد الانفتـاح والتأسـيس والتأصـيل أعـود إلى الكتـاب الجميـل الـذي هـو سـبب هـذا الحـديث كلـه . لقـد كتـب الـبعض عـن طبعتـه الأولـي آخـذين علـي المؤلـف إغفالـه لكثير ممـا يعتبرونـه بوحـا واعترافـا تـستوجبه كتابـة الـسيرة الذاتيـة بأمانـة وإخـلاص . وفي رأيهـم أن المؤلـف – مـثلا – أهمـل قـصص حبـه ومغامراتـه العاطفيـة وتجاربـه الـتي لم يـشأ أن يطلـع عليهـا أحـدا . وأري أن هـذا ـ حـتي لـو كـان صـحيحا ـ فهـو حقـه ، وحريتـه في الكتابـة تعـني اختيـاره للـصورة الـتي نـراه عليهـا ، لا الـصورة الـتي نريـدها نحـن لـه . صـحيح أن هنـاك آخـرين ممـن سـجلوا صـفحات مـن سـيرتهم الذاتيـة فتحـوا أبـو ابـا في الكتابـة العربيـة للجـرأة والخـروج علـي المـألوف ، وعـدم التقيـد بـالمحظورات والمواضـعات الـسائدة كمـا فعـل سـلامة موسـي في كتابـه تربيـة سـلامة موسي ، وكمـا فعـل مـن بعـده لـويس عـوض وشـكري عيـاد ، لكـن لـيس معـني هـذا أن يـصبح الاقـتراب مـن كتابـة الـسيرة الذاتيـة مقترنـا دومـا بكـسر البـيض والقفـز علـي الأشـواك واقتحـام الحرمات وإلا استوجب النقد والاتهام بالتجمل .

إن محمـود الربيعـي يقـدم لنـا في كتابـه الجميـل في الخمـسين عرفـت طريقـي سـيرة ذاتيـة نبيلـة وشـجاعة ، مفعمـة بـشاعرية اللغـة ، وعمـق الـوعي والخـبرة ، ومـساحات البـوح والمكاشـفة والكـشف عـن حـالات الـضعف والانكـسار كتلـك الـتي واجههـا مـثلا في صـراعه مـن أجـل تعلـم اللغـة الإنجليزيـة . يقـول: ظـل صـراعي مـع اللغـة الإنجليزيـة شـغلي الـشاغل وكانـت أحلامـي تخيـل لـي أنـني سـأجد نفـسي ـ في صـباح إلى وم التـالي ـ أتحـدث الإنجليزيـة بطلاقـة ـ كمـا يتحـدث الـسعيد بـدوي ـ ولكـن ذلـك الـصباح كـان يحمـل لـي دائمـا واقـع الليلـة الماضـية . كـان لـساني ثقـيلا ، وقلـبي مفعمـا ، وذهـني مـضطربا بالأفكـار ، وكـان النـاس ـ وهـم معـذورون ـ يتحـدثون إلى بالقـدر الـذي أسـتطيع أن أعـبر لهـم عنـه ، وكـان مـا أسـتطيع أن أعـبر عنـه سـطحيا جـدا . كنـت أجـرب ـ في صـمت ـ أعمـق المـشاعر ، وأوضـح الأفكـار ،

حتي إذا حاولت التعبير انحصر كل ذلك بالضرورة في الكلمات القليلة البسيطة التي أعرفها ، فيأتي الكلام شبيها بكلام الأطفال . وكان هذا يؤلمني إلى أقصي حد ، كنت أتقدم نحو الثلاثين من عمري ، وقد تخرجت في الجامعة وتزوجت ، ولكن كل ما يصلني بالناس كلام حول الجو وحول اسمي وبلدي وموضوع دراستي . . . الخ . وكنت لا أحس بنفسي إلا حين أخلو إلى زوجتي ونتحدث . . أما في الخارج ـ في الشارع والكلية والمجلس البريطاني ومدرسة الحي ـ فأنا طفل كبير كنت أشعر علي نحو ما بالمهانة ، وأقول لنفسي: لا بد لهذه الحالة الغريبة من نهاية .

وها أنت الآن أيها الصديق العزيز تتحدث الإنجليزية بطلاقة كما يتحدث بها السعيد بدوي ، وتتعامل بها مع من هي بالنسبة إلى هم لغة الأم . ومع أنهم يجهلون العربية ، ولا يمتلكون القدرة علي الولوج إلى البنية التحتية لا ي نص أدبي عربي ، فإنهم يملأون الدنيا ضجيجا بصلاحيتهم لتدريس الأدب العربي ، ربما أكثر منك ومني ! !

أبو طاقية شاه بندر التجار

بقلم : فاروق شوشة

هذا كتاب جاد وطريف ممتع ، بل هو غاية في الامتاع وتجديد الوعي . مؤلفته هي الباحثة القديرة الدكتورة نيللي حنا أستاذة التاريخ بالجامعة الأمريكية في القاهرة ، ومترجمه إلى العربية هو المؤرخ القدير الدكتور رؤوف عباس ، الذي سمي الكتاب في ترجمته العربية : تجار القاهرة في العصر العثماني: سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار . وقد صدر الكتاب عن الدار المصرية اللبنانية . .

من السطور الأولي للكتاب ، نجد في المقدمة الشديدة التركيز والعمق التي كتبها المترجم لفتا واضحا لا نتباه القاريء إلى ما أحاط بالعصر العثماني في مصر من ظلال وتعتيم نتيجة لظروف سياسية بالرغم من وفرة المصادر الأصلية . وهو العصر الذي يقع بين عام ١٥١٧ الذي شهد الفتح العثماني وعام١٧٩٨ الذي شهد غزو الحملة الفرنسية لمصر . فالكتابات التاريخية تهتم عادة بعصر سلاطين المماليك وعصر محمد علي ، مهملة ما بين العصرين حين كانت مصر تابعة للسلطة العثمانية في استانبول . وتركز الاهتمام علي عصر محمد علي في سياق الاهتمام بالمؤثرات الحضارية الغربية التي جلبتها الحملة الفرنسية وعلي القرن التاسع عشر ، باعتباره عصر الحداثة ، وأسقط أصحاب هذه الكتابات التاريخية القرن الثامن عشر ، وهم يرددون مقولات المدرسة الاستشراقية التي صادفت هوي عندهم كما يقول الدكتور رؤوف عباس ، ولكي يكون القرن التاسع عشر عصر التقدم والنهضة فلابد أن يكون القرن السابق عصر الظلام والتخلف ، وكأن مصر كانت عاجزة تماما عن الحركة ، قعيدة لمدة ثلاثة قرون ، فلم تنهض إلا بعدما مد الغرب إلى ها يده . وهي رؤية تذكرنا بما كتبه من قبل شيخ المحققين محمود شاكر في كتابه رسالة في الطريق إلى ثقافتنا من أن مصر كانت تمتلك مشروعا ثقافيا وحضاريا أجهضته الحملة الفرنسية التي ربطت مصير مصر بالغرب منذ ذلك الحين ، وأن الثقافة العربية كانت بسبيلها إلى تفتحها وتطورها من داخلها لولا صدمة التحديث الغربية التي قتلت هذا الانبعاث الذاتي .

كما تتفق هذه الرؤية أيضا مع ما يؤكده مؤرخو هذه الحقبة من أن علماء الحملة الفرنسية حملوا معهم عند خروجهم من مصر كميات هائلة من الوثائق والمخطوطات عن الحياة الأدبية والثقافية المصرية فيما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر وقد أتيح لبعض باحثينا المصريين ومن بينهم الناقد الدكتور صبري حافظ أستاذ الدراسات الأدبية في جامعة لندن الاطلاع علي كثير منها في فرنسا .

وبالرغم من الصفات التي شاعت في كتابات المدرسة الاستشراقية ولصقت بالمجتمع العربي عام ة والمصري خاصة في العصرالعثماني مثل الجمود والركود والاضمحلال والتخلف ، فإن كثيرا من المؤرخين المصريين وقد حركهم القلق والشك والريبة أخذوا يوجهون الأنظار إلى أهمية دراسة العصر العثماني في مصر وإعادة اكتشافه من خلال دراسات تعتمد علي المصادر الوثائقية مثل سجلات المحاكم الشرعية وحجج الأوقاف وسجلات الروزنامة وغيرها .

لابد من الإشارة إلى من ذكرهم الدكتور رؤوف من المؤرخين: محمد شفيق غربال ، ثم تلميذه أحمد عزت عبد الكريم الذي كان أكثر اهتماما بهذا المجال ، وتلامذته من أمثال عبد الرحيم عبد الرحمن وليلي عبد اللطيف وغيرهما من الباحثين . المقدمة الإضافية التي كتبها المترجم ، تشيد بالمؤلفة الدكتورة نيللي حنا ، باعتبارها من أقطاب المتخصصين في تاريخ مصر في العصر العثماني وهي تحظي بشهرة بين الأوساط الأكاديمية الدولية لا ن معظم بحوثها نشرت بالإنجليزية والفرنسية ، كما أن الطبعة العربية من كتابها بيوت القاهرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر دراسة اجتماعية معمارية - العربي للنشر والتوزيع١٩٩٣ - إضافة مهمة لدراسة تاريخ مصر في العصر العثماني ، احتفت بها الأوساط الثقافية وحظيت بتقدير المتخصصين ، وبالرغم من ثقافتها الغربية تتمتع نيللي حنا برؤية نافذة ثاقبة للمفاهيم التي تروج في كتابات المدرسة الاستشراقية حول الثقافة الإسلامية والمجتمعات العربية عام ة . فتحرص علي دحض تلك المفاهيم استنادا إلى ما تتوصل إلى ه من نتائج من خلال دراسة المصادر الوثائقية وبالإضافة إلى الخبرة والرؤية المنهجية ما تمتاز به من حس وطني وغيرة علي الثقافة الوطنية .

الدكتور رؤوف عباس أستاذ التاريخ ومترجم الكتاب يقدم لنا في السطور الماضية حيثيات اهتمامه بترجمة كتاب إسماعيل أبو طاقية شاهبندر التجار الذي كتبته المؤلفة بالانجليزية لينشر من خلال قسم النشر بجامعة سيراكيوز بالولايات المتحدة الأمريكية ، وأنفقت في سبيله عشر سنوات كاملة قامت خلالها بتمشيط الوثائق التاريخية لتعيد تكوين صورة المجتمع المصري في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر من خلال سيرة اسماعيل أبو طاقية شاهبندر التجار ، كاشفة عن فساد الاستنتاجات التي توصل إلى ها المستشرقون في دراساتهم حول العصر العثماني عام ة وتطور مصر في ذلك العصر خاصة ، مؤكدة أن الثقافة الوطنية العربية الإسلامية توافرت لديها في هذا العصر مقومات التطور ، وأن قدوم الغرب لم يكن بعثا للحياة في مجتمعاتها وإنما كان من معوقات تطورها .

والـدليل علـي فـساد الآراء الـتي ذهبـت إلى أن مـصر وبـلاد الدولـة العثمانيـة عانـت مـن الركـود الاقتـصادي والجمـود الحـضاري والاضـمحلال الثقـافي يتمثـل في أن التحـولات الـتي تمت علـي يـد محمـد علـي لم تنـشأ مـن فـراغ ، خاصـة أنـه لم يعتمـد علـي رأس المـال الأجـنبي في إقامـة البنيـة الأساسـية لا قتـصاد الـسوق الخاضـع لا دارة الدولـة ، وإنمـا اعتمـد علـي مـوارد مـصر وحـدها طـوال حكمـه ، وحقـق التراكـم الأولـي الـلازم لا قامـة تلـك البنيـة ، مـن خـلال إعـادة تنظـيم الاقتـصاد المـصري وتوجيـه بعـض قطاعاتـه وجهـات جديـدة . فمـن أيـن اسـتطاع الاقتـصاد المـصري في مطلـع القـر ن التاسـع عـشر أن يـوفر كـل تلـك المـوارد إذا كـان اقتـصادا تقليـديا راكـدا ؟ وكيـف اسـتطاع المجتمـع المـصري أن يتجـاوب مـع إصـلاحات محمـد علـي إذا كـان مجتمعـا يعـاني مـن الاضـمحلال والتخلـف ؟ بـل كيـف اسـتطاع العامـل المـصري أن يـستوعب الأسـاليب الفنيـة الحديثـة في مـصانع محمـد علـي إذا كـان عطـلا مـن الخـبرة مفتقـرا إلى الاسـتعداد ؟ وكيـف اسـتطاع الفتيـة المـصريون الـذين تعلمـوا في ظـل نظـام التعلـيم التقليـدي في العـصر العثمـاني أن يتجـاوبوا مـع التعلـيم الحـديث ، بـل ويتـابعوا الدراسـة في المعاهـد الفرنـسية ، إذا كـان النظـام التعليمـي الأساسـي الـذي اخـرجهم متخلفـا عـاجزا ؟ وكيـف اسـتطاع الفـلاح المـصري أن يـستوعب فنـون القتـال الحديثـة ، ويـشكل قـوام جـيش فـرض سـيطرة محمـد علـي علـي الـشرق الأوسـط إذا كـان ذلـك الفـلاح لا يملـك الاسـتعداد والقـدرات اللازمة لذلك ؟

هـذه التـساؤلات الـتي يثيرهـا المـؤرخ القـدير الـدكتور رؤوف عبـاس في مقدمتـه الـضافية للكتـاب هـي بمثابـة كتـاب ثـان مـواز للكتـاب الأصـلي ، يـدعم فكرتـه الأساسـية ويبحـر في اتجاهه ، ويستهدف غايته البعيدة نفسها .

تقدم الـدكتورة نيللـي حنـا ـ مؤلفـة الكتـاب وأسـتاذة التـاريخ ـ في الـسطور الأولـي مـن كتابهـا شخـصية البطـل بلغـة الأعمـال الدراميـة : إسماعيـل أبـو طاقيـة . فالكتـاب يـصور ترجمة حيـاة تـاجر كـبير زاول نـشاطه بالقـاهرة فيمـا بـين بدايـة الثمانينيـات مـن القـرن الـسادس عـشر حـتي وفاتـه عـام ١٦٢٤ ، كمـا يتنـاول في الوقـت نفـسه فئـة التجـار الكبـار ومظـاهر سـلوكهم ونـشاطهم التجـاري ودورهـم في الاقتـصاد المـصري بتلـك الحقبـة . ويبـدو التجـار عندئذ وقـد خرجـوا إلى الـضوء بعـد الظـلال الـتي لفـت وجـودهم في أوائـل القـرن الـسادس عـشر . ويعـالج الكتـاب كـذلك المـدي الـذي اتخذتـه معـاملاتهم التجاريـة بمختلـف أنواعهـا ، والرخـاء الاقتـصادي الـذي تمتعـوا بـه ، في وقـت غلـب الظـن فيـه أن التجـارة قـد أصـابها الكساد ، وهي ظاهرة تحتاج إلى تعليل .

ودراسـة ترجمـة أبـي طاقيـة ـ بـالرغم مـن أنهـا ممتعـة في حـد ذاتهـا كمـا تقـول المؤلفـة ـ إلا أنهـا تعـد دراسـة للفئـة الـتي انتمـي إلى هـا . فكـثير ممـا فعلـه أبـو طاقيـة كـان يماثـل مـا فعله التجار البارزون من أبناء جيله .

وتسجل المصادر نشاط أولئك التجار من أمثال عائلات الرويعي والشجاعي والعاصي وابن يغمور الذبل اشتغلوا مثله بتجارة البحر الأحمر ، فتسجل صفقاتهم وشركاتهم وقروضهم واستثماراتهم وغير ذلك من ألوان النشاط التي قدمت لنا ما دة تصلح للمقارنة .

أما لماذا اختارت المؤلفة شخصية أبو طاقية دون غيره من بقية التجار ، فتقول إن ذلك كان لا سباب عملية .

فقد تردد علي المحكمة أكثر من زملائه ، ولما كانت سجلات المحكمة الشرعية هي المصدر الرئيسي لهذه الدراسة فإن المادة الخاصة بأبي طاقية في تلك السجلات تتسم بالوفرة مقارنة بمعاصريه من التجار .

كما أن الحجج التي سجلها بالمحكمة الشرعية تغطي الكثير من الموضوعات وتوضح مظاهر معاملاته وشركاته ودعاواه القضائية ، كما نتعرف من خلالها علي زوجاته وعائلته . نحن إذن ـ كقراء ـ أمام ما دة تاريخية من طراز فريد ، لا نها تقوم علي ما دة مستقاة ـ كما تقول المؤلفة ـ من المعاملات إلى ومية الشائعة ، علي عكس المادة التي نجدها في الحوليات التاريخية وغيرها من المصادر التي تهتم برصد الحوادث الاستثنائية والاحداث ذات الأهمية الكبري .

ثم لا نها تعتمد علي سجلات المحكمة الشرعية التي تعد مصدرا ثمينا لدراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لا حتوائها علي ما دة تتصل بالحياة في المدينة ، بمختلف مظاهرها الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والتجارية .

وتوضح الدكتورة نيللي حنا كيف أن عوامل عدة شجعت الناس علي استخدام المحاكم استخداما كثيفا ، فقد كانت العدالة بسيطة وسريعة ، وكانت متاحة لعامة الناس بصورة مباشرة ، ولم يكن المدعي بحاجة إلى محام يتوسط بينه وبين القاضي ، ولم يحتج الناس إلى أن ينتظروا شهورا حتي يتم الفصل في دعاواهم إذ كان التقاضي عمليا جدا ، فقد أقيمت عدة قاعات للمحاكم في مختلف انحاء المدينة وزعت جغرافيا بصورة جعلتها في متناول الناس من سكان المدينة ، وكان بكل محكمة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة : الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي . ومن حق المدعي أن يختار القاضي الذي ينظر دعواه .

وقد أتاحت سجلات المحاكم الشرعية للمؤلفة الاطلاع علي الدعاوي الخاصة باسماعيل أبو طاقية وعائلته في السياق الذي تم فيه زواجه من أربع نساء ، وعلاقته مع أخيه ياسين أبو طاقية التي مرت بعدة مراحل مختلفة ، ومع أخته ليلي التي خاصمته

في وقت من الأوقات ومع صديقه وزميله عبد القادر الدميري الذي ارتبط معه بعلاقة حميمة طيلة أربعين عام ا .

نزحت أسرة أبو طاقية من الشام إلى مصر ، وبالتحديد من مدينة حمص إلى القاهرة واحتفظ أحمد أبو طاقية والد اسماعيل بلقب الحمصي حتي وفاته عام ١٥٩٦ ميلادية ، ولابد أن الرغبة في تحقيق أرباح أكثر من التي يمكن تحقيقها في حمص واعتلاء مكانة رفيعة بين التجار كانت وراء اتخاذ قرار النزوح إلى مصر . فالقاهرة المدينة التجاريةالكبري تتوسط عددا من الطرق التجارية الدولية الرئيسية ، خاصة طريق البحر الأحمر الذي تمر عبره البضائع الهندية والآسيوية حتي السويس لتصل إلى ها ومنها تتجه إلى مختلف الأسواق والبلاد . وكان الطلب كبيرا علي التوابل والمنسوجات التي تجلب عن هذا الطريق في بلاد الدولة العثمانية وأوروبا ، وحققت هذه التجارة أرباحا طائلة للتجار المشتغلين بها .

وفي العقد الأول من القرن السابع عشر أقام اسماعيل أبو طاقية شبكة من النشاط التجاري داخل مصر ، امتدت إلى المناطق الريفية في الدلتا خاصة المنوفية والغربية ، حيث كان ينتج السكر فاستثمر أموالا في زراعة القصب وصناعة السكر وتوجهت حياته العملية عندما أصبح شاهبندر التجار عام ١٦١٣ ميلادية ، فخلف في المنصب صديقه وزميله القديم الخواجة علي الرويعي في رئاسة طائفة التجار . ومارس اسماعيل أبو طاقية مهام الشاهبندر باهتمام كبير ، فكان يتدخل في المسائل التي تهم التجار ويتوسط في المنازعات التي تنشب بينهم ويشهد علي معاملاتهم ويتوقعون مساعدته دائما وقت الأزمات
.

وأثناء اهتمام اسماعيل أبو طاقية بالتجارة المحلية تنوعت البضائع التي اتجر بها كالأحجار الكريمة خاصة ياقوت سرنديب والذهب ثم أصبحت التوابل - خاصة الفلفل - السلعة الغالبة في التجارة وليس الأحجار الكريمة ، ثم البن والسكر والمنسوجات والأخشاب المستوردة والمعادن والمرجان والسكر والأرز النيلة المستخدمة في صناعة المنسوجات .

علي هذا النحو من كتابة التاريخ - كتابة جديدة ومختلفة ، تستند إلى وثائق المحاكم الشرعية وغيرها من المصادر - يمضي هذا الكتاب الجاد ، الشديد الطرافة والامتاع في صياغة وعي جديد لدي قارئه بهذه الفترة المعتمة في تاريخ مصر خلال العصر العثماني . وبدون هذا الوعي الكاشف لا يمكن فهم الحقبة الحديثة من تاريخ مصر - في القرن التاسع عشر - دون الرجوع إلى القرن السادس عشر للوقوف علي جذور عديد من التطورات التي تبلورت فيما بعد . وهو الوعي الذي تتيحه سجلات المحاكم الشرعية والمخطوطات المتاحة مثل كتاب الكواكب السائرة للبكري ، والمطبوعات العربية كأوضح

الإشـارات لا حمـد شـلبي بـن عبـد الغـني تحقيـق عبـد الـرحيم عبـد الـرحمن وكـشف الكربـة للبكـري للمحقـق نفـسه والكواكـب الـسائرة بأعيـان المائـة العاشـرة للغـزي والخطـط التوفيقية لعلي مبارك وخلاصة الأثر للمحبي بالإضافة إلى المطبوعات الأجنبية .

ولقـد أتاحـت لنـا الـدكتورة نيللـي حنـا ـ مؤلفـة الكتـاب ـ مـساحات شاسـعة مـن هـذا الـوعي بفـضل منهجهـا الموضـوعي وتناولهـا الـدقيق وجهـدها الـدائب في التتبـع والتقـصي والاستخلاص من خـلال نمـط غـير مـا لـوف مـن أشـكال الكتابـة التاريخيـة ، كمـا أتـاح الـدكتور رؤوف عبـاس بفـضل ترجمتـه الرصـينة المـشرقة المعـبرة تعـبيرا دقيقـا عـن أفكـار المؤلفـة ـ فرصـة مواتيـة لقـراءة هـذا الكتـاب الكـبير الأهميـة الجـدير بالتحيـة والتقـدير لكـل مـن المؤلفـة والمترجـم علي حد سواء .

ولـو أننـا حاولنـا تطبيـق نمـوذج مـن هـذه الدراسـة الرائـدة علـي زماننـا ـ الغـني بالوثـائق والمـصادر والبيانـات والحقـائق ـ فمـن يـاتري شـاهبندر التجـار الـذي يـصلح لهـذه الدراسة ؟

في عشق الرواية العربية

بقلم: فاروق شوشة

محظوظ فن الرواية العربية بهذا الباحث الكبير الذي وقف عليه سنوات طويلة من عمره الأكاديمي ، منذ بدأ ينشغل بالرواية المصرية في رسالته للدكتوراه من جامعة كمبردج في أوائل الستينيات ، حتي إصداره هذه البيبليوجرافيا والمدخل النقدي عن الرواية العربية في ستة مجلدات ضخمة يقترب عدد صفحاتها من ثلاثة آلاف وثمانمائة ، عن قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة منذ أسابيع قليلة .

هذا الباحث الكبير هو الدكتور حمدي السكوت أستاذ الدراسات الأدبية بالجامعة الأمريكية والمشرف علي وحدة البحث فيها ، والذي أقترن اسمه بسلسلة أعلام الأدب المعاصر في مصر وهي سلسلة بيوجرافية نقدي ببليوجرافية صدر منها الكتاب الأول عن الدكتور طه حسين في عام ١٩٧٥ ثم توالت إصداراتها عن إبراهيم عبد القادر المازني و عبد الرحمن شكري وأحمد أمين ثم عباس محمود العقاد (في مجلدين) ثم ببليوجرافيا صلاح عبد الصبور التي نشرت بعد وفاته في مجلة فصول (أكتوبر١٩٨١)
.

و ببليوجرافيا يوسف إدريس التي نشرت في كتاب يوسف إدريس (١٩٢٧ ـ١٩٩١) وهو الكتاب الذي أصدرته الهيئة العامة للكتاب عقب وفاة يوسف إدريس ، و ببليوجرافيا نجيب محفوظ التي نشرت أجزاء منها في مجلة الجديد التي كان يصدرها الدكتور رشاد رشدي أعداد ديسمبر١٩٧٢ وأخيرا ببليوجرافيا الدكتور محمد حسين هيكل (١٩٩٦) وتوفيق الحكيم (١٩٩٨) عن المجلس الأعلي للثقافة في مجلدين مستقلين ، في طبعة تجريبية .

بدأ إهتمام الدكتور حمدي السكوت بالعمل الببليوجرافي منذ انشغاله برسالته للدكتوراه ـ وتعيينه بالجامعة الأمريكية عام ١٩٦٦ ولقائه مع المستشرق البريطاني الكبير الدكتور ما رسدن جونز الذي وجد عنده الاهتمام نفسه بالجانب الببليوجرافي .

كان رأي كل منهما مختلف بالنسبة لنقطة البداية ، وأي الأمرين أحق بالاهتمام والأولوية: الأجناس الأدبية من شعر وروايات مسرحية أم ببليوجرافيات للأدباء تسبقها نبذة موجزة عن حياة كل منهم وعن أهم منجزاته . وتغلبت النظرة العملية والرغبة في الإنجاز السريع الملموس لدي الدكتور جونز فبدآ معا مشروع أعلام الأدب المعاصر في مصر ، وكان البدء بعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين . وظل المستشرق

والعالم الكبير الدكتور جونز شريكا في هذا المشروع العلمي الكبير حتي انشغاله في عام ١٩٨٢ بمسئوليات إدارية عديدة ثم وفاته في عام ١٩٩٢ ، فعمل الدكتور حمدي السكوت العبء وحده ، ومعه عدد من الباحثين والمحررين والمساعدين علي رأسهم الدكتورة نادية بدران والأساتذة: وليم كوبكي ووفاء محمد وباميلا براولي .

ساعدت إمكانات الحاسب الآلي علي عمليات التصنيف والفهرسة ، وعاود الدكتور السكوت حلمه القديم ، في إنجاز ببليوجرافيا الأجناس الأدبية ، وأن يبدأ بعشقه الأول الذي عاش مع إنجاز رسالته للدكتوراه عن الرواية المصرية .

لكن هاهو ذا الآن توسع من نطاق الحلم ، ومن دائرة العشق لتشمل الرواية العربية في العالم العربي كله ، مستفيدا من الرصيد الكبير من المواد الببليوجرافية التي تجمعت لديه خلال عشرين عام ا ، ومن الأعمال الببليوجرافية التي تناولت الرواية العربية بشكل عام أو الرواية في أي قطر عربي .

يبدأ هذا العمل الببليوجرافي الضخم عن الرواية العربية بمدخل نقدي يؤكد إهتمام الدكتور السكوت بمجال بحثه ودراسته ووعيه العميق بتاريخه وأهم تياراته واتجاهاته ونماذجه ، متناولا نشأة الرواية العربية بوجه عام في كل من الشام ومصر ، ثم يتناول الروايات الأكثر نضجا في كل من مصر ولبنان وسوريا وفلسطين والأردن ثم ينتقل لدراسة الرواية في العراق ، فالسعودية واليمن ممثلتين للجزيرة العربية كلها ثم السودان فالمغرب فالجزائر فتونس فليبيا . وتمت ترجمة هذا المدخل النقدي إلى الإنجليزية ترجمة مشرقة رصينة قام بها الأستاذ روجر مونرو ـ خدمة للقارئ الأجنبي الذي لا يتقن اللغة العربية ـ وشفعت هذه الترجمة بقائمة تضم كل الروايات التي ترجمت من العربية إلى الإنجليزية أعدها الأستاذ وليم كوبكي .

في تواضع العلماء ينبه الدكتور حمدي السكوت إلى أن ما كتبه هو مدخل وليس دراسة شاملة للرواية ، فهو إذن لا يتصدي لمناقشة أعمال الروائيين ، وإنما هو ينوه بأسماء بعض الروائيين المهمين من ناحية ، وتتكفل الببليوجرافيا . من ناحية أخري ـ بذكر أعمال الجميع وكل ما استطاع الباحثون جمعه مما كتب حولها . وبالتالي فلامجال لعتاب من يريدون أن يروا أسماءهم تتصدر كل عمل يصدر عن الرواية العربية وكأن المجال لا يتسع لسواهم . الأمر هنا أمر ببليوجرافيا جادة يتبناها مشروع أكاديمي لا يخضع لثرثرة جلساء المقاهي وصبية الصحافة الأدبية . أما غير المنطقي وغير المفهوم ـ من وجهة نظر الدكتور السكوت ـ فهو اعتراض البعض علي القول بأن نجيب محفوظ قد تربع علي عرش الرواية العربية ، وزعم هذا البعض بأن نجيب محفوظ قد تجاوزه بالفعل عدد من كتاب الستينيات ! وهو يسخر من مثل هذا الكلام قائلا: ليس معني أن بعض الأدباء

يكتب روايات تجريبية أو يستخدم أدوات شكلانية أو حداثية لم يستخدمها نجيب محفوظ أنه قد تجاوز نجيب محفوظ .

وهو يري أن عددا كبيرا من روايات نجيب محفوظ قد أصبح في عداد الكلاسيكيات: زقاق المدق وبداية ونهاية وبين القصرين وقصر الشوق والسكرية واللص والكلاب والسمان والخريف والشحاذ وثرثرة فوق النيل وميرامار وأخيرا الحرافيش . هذه الأعمال تضم الرواية الواقعية والطبيعية ورواية الأجيال والأبطال العبثيين أو الوجوديين والواقعية السحرية ، وتستخدم تيار الشعور ، والقص بأصوات متعددة أو بطريقة الشهود . إن أعمال نجيب محفوظ ـ في رأي الدكتور السكوت ـ تختصر تاريخ الرواية العالمية الذي تحقق عبر ثلاثة قرون في نحو ثلاثة عقود ، وهذه الأعمال التي تمثل الاتجاهات والمذاهب العالمية المختلفة لا تقل في مستواها عن أفضل ما كتبه أنصار تلك المذاهب في الآداب الأخري . والثلاثية في رأيه أهم عمل قدمه الأديب الكبير ، بل لعلها أهم عل في الأدب الروائي العربي علي الإطلاق .

يستشهد الدكتور حمدي السكوت ـ وهو يتحدث عن نجيب محفوظ في مدخله النقدي ـ بما كتبه الناقد البريطاني هوارد برنتون عندما صدرت الترجمة الإنجليزية لرواية قصر الشوق وهو يقول: إن الروائي المصري نجيب محفوظ الذي منح جائزة نوبل عام ١٩٨٨ تصيبنا قراءة أعماله بنوع من الصدمة ، والصدمة ليس مبعثها مضامين رواياته مع أنها تعزف علي أنغام كل تيمات القرن العشرين ، وليس مبعث الصدمة أن الروايات تقوم علي الإثارة ، مع أن المؤلف يستطيع أن يكتب بحرارة حارقة حول الحب والرغبة ، وبتركيز زولا حول الحطة البشرية . وإنما الصدمة مبعثها أن نجيب محفوظ يبدو وكأنه لم يسمع عن رذيلة الكتابة المفهومة والمتعة !

وهو كلام يتضمن سخرية لا ذعة من أولئك الذين يكتبون صنوفا من الروايات غير المفهومة لا نها ـ كما يدعي أصحابها ـ طليعية وحداثية وغير تقليدية !

وبعد أن يوضح الناقد البريطاني أن الرواية الأمريكية والأوروبية أصبحت هيستيرية وبعيدة عن القص الروائي بالمعني الحقيقي للكلمة يتابع الحديث عن نجيب محفوظ قائلا: في هذا الجو تصبح قراءة القصص الواضح وضوح الماس عند نجيب محفوظ متعة . إن هذا الوضوح هو مبعث الصدمة ، وهو ما يجعل الكثير من روايات ما بعد الحداثة عندنا بتعقيدها وغموضها لشعور الكاتب بالذنب لمجرد أنه يكتب قصة ـ تبدو متهافتة ، وفي منتهي الغباء إن روايات محفوظ عصرية ، مرهفة ، خافتةالنبرة ، وأحيانا حافلة بالهم وكرب ، لكنها كتبت من منطلق أن أكثر ألوان السلوك تعقيدا ، وأدق التواءات النفس البشرية سرية ، يمكن أن تكتب في أبسط الأساليب ، لا ن الكتابة

الجيدة تجعل الشيء متي كان حقيقيا - في متناول فهم كل قادر علي القراءة ، مهما بلغت صعوبة هذا الشيء !

ولنتأمل الإضاءة النقدية لمكانة نجيب محفوظ وقيمة إبداعه الروائي في إطار هذه البيليوجرافيا للرواية العربية بين عام ي١٩٩٥ ، ١٨٦٥ ، وهي تتألق كالماسة المشعة في السطور التالية للدكتور السكوت وهو يقول: وبعد ، فبتصوير القضايا الإنسانية والاجتماعية الكبيرة ، وبتقديم متحف كبير من الشخصيات العملاقة التي أصبحت كشخصيات شكسبير محفورة في ذاكرة القاريء ، وبالقدرة البارعة علي تصوير مئات المواقف المغايرة وبالإحاطة الواسعة والعميقة بآليات القص وأساليبه الفنية ، وبالتمكن المذهل من المزج بين المحلي والعالمي ، وبالحساسية المرهفة لا لتقاط التفاصيل الدالة وذات المغزي سواء في داخل النفس البشرية أو في البيئة المحيطة بها ، وبالجد والجهد الموهبة الفذة وبالتفرغ الكامل للفن الروائي استطاع نجيب محفوظ أن يتربع علي عرش الرواية العربية ، وترك مسافة جد طويلة تفصل بين نتاجه الأكثر تميزا وبين ما يقابله من نتاج أي روائي عربي آخر دون إستثناء .

تضم هذه البيليوجرافيا الضخمة عن الرواية العربية قرابة أربعة آلاف وستمائة رواية تبدأ من عام ١٨٦٥ - حين ظهرت أول رواية عربية مؤلفة هي غابة الحق بكاتبها السوري فرانسيس المراس - وتنتهي في عام ١٩٩٥ . وإن كانت هناك روايات نشرت في أعوام١٩٩٨ ، ١٩٩٧ ، ١٩٩٦ وحتي١٩٩٩ تضمنتها البيليوجرافيا تلقتها مجموعة العمل بعد صدور الطبعة التجريبية بمناسبة المؤتمر الأول للرواية العربية الذي عقد بالقاهرة في فبراير عام ١٩٩٨ .

رتبت هذه الروايات ترتيبا أبجديا - بدءا من المجلد الثاني للبيليوجرافيا وإنتهاء بالمجلد الثالث - وعقب كل رواية ذكر ما أمكن جمعه مما نشر حولها من نقد ومراجعات ودراسات بالعربية واللغات الأجنبية . وتتناول المجلد الرابع مما سمي بالنقد العام وهو في مجمله أخبار عن الأدباء ولقاءات صحفية معهم بالإضافة إلى بعض المقالات والكتب .
ثم يأتي دور الفهارس التي تبدأ من بقية المجلد الرابع فالمجلدين الخامس والسادس ، وتشمل أولا فهرسا للروائيين العرب مرتبين ترتيبا أبجديا وأمام كل منهم جنسيته وتاريخ مولده أو مولده ووفاته - إن أمكن - وتحت اسم الروائي تأتي رواياته مرتبة ترتيبا أبجديا ومعها تاريخ صدورها لا ول مرة والرقم الذي يتمكن القاريء بواسطته من الحصول علي المعلومات البيليوجرافية الخاصة بها . ويلي فهرس الروائيين فهرس للرواية مرتب ترتيبا زمنيا وقائمة بالروايات في الوطن العربي كله ، ويختتم العمل بذكر المصادر والمراجع العربية والأجنبية من كتب ودوريات .

هـذه التفاصـيل كلـها ضـرورية للقـاريء والباحـث . خاصـة أن صـدور هـذا العمـل الكـبير مـن شـأنه أن يفـتح شـهية البـاحثين والدارسـين لكـل مـا يتـصل بالروايـة العربيـة ، بفـضل هـذا الإنجـاز التأسـيس . الروايـات تم حـصرها ، والتـواريخ والكتابـات النقديـة والمـصادر والمراجـع المتاحـة مرصـودة ومـسجلة ، والمـدخل النقـدي كاشـف ومـثير للمناقـشة والحـوار . وهـو عمـل لم يكـن ليـتم علـي هـذه الـصورة لـولا الخطـة العلميـة الرهينـة الـتي قـام عليهـا ، ومجموعـة البحـث المتوافقـة والمتكاملـة ، والإمكانـات الـتي وفرتهـا جامعـة تقـدر أهمية مثل هـذه المـشاريع الكـبري وترصـد لهـا مـا تـستحقه مـن ميزانيـات ، وقـسم للنـشر مبـادر ونمـذلل للـصعوبات - هـو نفـسه الـذي يقـوم بنـشر الروايـات العربيـة المترجمـة إلى الإنجليزيـة والحـائزة علـي جـائزة نجيـب محفـوظ الـسنوية - وخـبرة طويلـة بالعمـل الببليـوجرافي اكتـسبها المـسئول عـن المـشروع مـن خـلال إنجـازه لسلـسلة أعـلام الأدب المعاصـر في مـصر - سلـسلة بيوجرافيـة نقديـة ببليوجرافيـة - وهـي سلـسلة الـتي أصـبحت مرجعـا أساسـيا لكـل مـن يتـصدي للكتابـة عـن الإعـلام الـذين تنـاولتهم حـتي الآن . ويبقـي أن نحـث الـدكتور الـسكوت - في هـذه المناسـبة - بـالرغم مـن شـواغله الجمـة علـي إسـتكمال أصـحاب الأسمـاء الكـبري بـين هـؤلاء الأعـلام مـن أمثـال: أحمـد شـوقي ونجيـب محفـوظ (الـذي يـستحق عمـلا ببليوجرافيـايوازي مكانتـه وخجمـه الأدبـي يتجـاوز مـا سـبق إصـداره عنـه في مجلـة الجديـد عـام . ١٩٧٢ ويحيـي حقـي ويوسـف إدريـس في طبعـة جديـدة متوسـعة بالإضـافة إلى أسمـاء أخـري عديـدة مـن طـراز أحمـد حـسن الزيـات ومحمـود تيمـور وعلـي محمـود طـه ومحمـود حـسن إسماعيـل وأمـين الخولي وأمل دنقل وغيرهم .

أمـا إذا آثـر الـدكتور حمـدي سـكوت المـضيء في مـشروعه عـن الأجنـاس الأدبيـة - والـذي بـدأه بالروايـة العربيـة - فإننـا نتوقـع أن يكـون إنجـازه القـادم عـن المـسرح العربـي ، توأمـا الببليوجرافيـا الروايـة ، ومـن المؤكـد أن كـثيرا مـن مـا دتـه قـد تجمعـت لـدي فريـق البحـث مـن خـلال العمـل في كتـابي توفيـق الحكـيم ويوسـف إدريـس وغيرهمـا مـن الأعـلام . لكنـه سـيكون بـدوره إنجـازا تأسيـسيا يـضاف لمـا سـبق للـدكتور الـسكوت والإنتهـاء منـه . والـذين يعرفـون الـدكتور الـسكوت مثلـي - منـذ كنـا طلابـا في الجامعـة وإن كـان قـد سـبقني بعـام واحـد يـدركون أن اتكـاءه علـي ثقافـة عربيـة أصـيلة ، وإنفتاحـه علـي ثقافـة أجنبيـة واسـعة قـد جعـل منـه كيانـا أكاديميـا علـي درجـة عاليـة مـن الموضـوعية والإسـتنارة ، وطاقـة بحثيـة جـادة قـادرة علـي قيـادة مجموعـات العمـل ، بفـضل عزيمـة ريفيـة لا تلـين ووضـح رؤيـة لمـا ينبغـي إنجـازه مـن مـشاريع علميـة ، ونفـاذ بـصيرة بالنـسبة لـماينبغي أن يتجـاوزه ولايـشغل نفـسه بـه ، مما قد يولع به غيره ، فيسرق منه وقته وطاقته ، ويطفيء توهجه وحماسه .

ويمثـل هـذا العـشق الـذي يحملـه لفـن الروايـة منـذ قرابـة أربعـين عـام ا حـتي الآن ، نرجـو أن يكـون انعطافـه للمـسرح أولا وللـشعر ثانيـا ، وهـو بالمناسـبة لروايـة مـن طـراز فريـد

لبـدائع استوقفته ، مـن ديـوان الـشعر العربـي: قديمـة وحديثـة ، وذواقـة لـه حـسه المرهـف وبصيرته النقدية الثاقبة بالنسبة للنص الشعري .

وبجهـده وبجهـد أمثالـه تمتلـيء حياتنـا الأدبيـة جـدة وثـراء ، وتنفـتح عيوننـا ـمع مطلع كل صباح ـ علي جديد يستحق القراءة والتأمل والمراجعة

سمير غريب وكتابات زمن الحرية

بقلم: فاروق شوشة

تعرفت علي سيمر غريب الإنسان والمثقف لا ول مرة خلال اجتماعات اللجنة الاستشارية التي سبقت قيام قناة النيل الثقافية وانطلاق بثها الفضائي. كانت هذه اللجنة ــ التي تشكلت في إطاراتحاد الإذاعة والتليفزيون بقيادة الصديق الشاعر والإعلامي جمال الشاعر ـ الذي وقع عليه الاختيار ـ لحمل مسئولية هذه القناة، كانت تضم عددا من أبرز المهتمين بالثقافة والإعلام والعلوم والفنون، يمثلون خبرات مختلفة، واهتمامات شتي، لكنها تتكامل ـ في نهاية الأمر ـ من أجل رسم استراتيجية بعيدة المدي تحدد هوية هذه القناة الوليدة ودوائر اهتماماتها الأساسية فضلا عن آليات العمل والتنفيذ. كان سمير غريب ـ بحكم موقعه في وزارة الثقافة في ذلك الوقت مديرا لصندوق التنمية الثقافية ـ يمثل الوزارة ورؤيتها للأمور في هذه اللجنة. لكنه سرعان ما تجاوز هذه الدوائر الرسمية ليصبح المثقف الحرائق لا المسئول، ولتنطلق مداخلاته في سياق الحوار من واقع رؤيته هو، ونظرته الخاصة كمثقف. والطريف أنه كان حريصا علي تقديم نفسه إلي اللجنة في أول اجتماعاتها باعتباره أساسا ناقدا تشكيليا، ورسم الحركة التشكيلية، وأصدر من خلال هذا الاهتمام وهذا التوجه كتابه الجميل عن السريالية في مصر بالعربية والإنجليزية فضلا عن كتبه الأخري التي تتابعت بعد ذلك عن راية الخيال(١٩٩٣) ومجلد الثقافة(في موسوعة مصر الحديثة) وحيوية مصر ونقوش علي زمن، وفي تاريخ الفنون الجميلة ومائة عام من الفنون الجميلة في مصر(بالإنجليزية) والهجرة المستحيلة(١٩٩٩).

كان الظن لدي أعضاء اللجنة ـ وفي ضوء هذه الكتابات ـ أن اهتمامه المركزي سيتمثل في دائرة الجمال التي ستتسع لتشمل الفنون بصفة عامة والعمارة وربما الآثار. لكننا فوجئنا به يتحدث في كل شيء. الفكر والثقافة والأدب والفن والسياسة والدين. ولم يكن حديثه لمجرد إثبات الذات ولا لتأكيد معرفته ذات الطابع الموسوعي. كان يعرف ما ذا يقول، ومتي يقول، وكيف يقول. في نبرة واثقة، وحماس شبابي تنطق به كلماته. ثم أتيح لي أن أعرفه أكثر وأكثر من خلال عضويتي في مجلس إدارة هيئة الكتب والوثائق القومية، ضمن نخبة من كبار مثقفي مصر ومفكريها وعلمائها، وأراه وهو يدير حوارات هذا المجلس ويشتبك في مناقشات معمقة ومستفيضة مع المحاورين البارزين في المجلس من أمثال الشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي والناقد الكبير الدكتور جابر عصفور والكاتب الكبير صلاح منتصر والأستاذ الجامعي عضو مجمع اللغة العربية الدكتور الطاهر مكي وغيرهم من أعضاء مجلس الإدارة ـ وأدركت أن علاقة سمير غريب بالثقافة ومشاركته في صنع العمل الثقافي، ليست هي موهبته الوحيدة، لا ن هناك موهبة أخري منافسة لها

هي قدراتـه الإداريـة الهائلـة. فبهـذه القـدرات ـ موظفـة في إنجـاز رؤيـة شـاملة ـ ثـم صنـع الكـثير لهيئـة دار الكتـب والوثـائق القوميـة، في زمـن قياسـي، لكنـه اسـتطاع أن يـضع الهيئـة علـي الطريـق الـصحيح، تجـاوزا لا همـال طـويلا، وقفـزا فـوق عوائـق هائلـة، وتحقيقـا لـصورة عـصرية تـشمل هياكـل العمـل وعـصريته والياتـه ولجانـه العلميـة والمخـازن وقاعـات العـرض وصـيانة الوثـائق والبرديـات والـدوريات وتجديـد المعامـل ونظـم الـصيانة والإنـذار المبكـر والتـأمين ضـد الحـراق، وفي مقدمـة هـذا الانجـاز شـئ بـسيط جـدا لكنـه نـادر في مؤسـساتنا وهيئاتنـا العامـة اسمـه: النظافـة. الآن يـستطيع هـذا الـشاب المتلـئ حماسـا ووعيـا وانتمـاء أن يفـاخر بإنجـازه الرائـع الـذي يفـوق كـل مـا أنجـزه سـابقوه، علميـا وفنيـا وإداريـا، وأن يقـدم لوطنـه مكانـا نموذجيـا في كـل شـيء، ومـا تـزال الآلـة تـدور، ومـايزال المـشروع الكـبير ـ الـذي يـشمل فيمـا يشمل مبني باب الخلق ـ ينتظر المزيد من العمل والإنجاز والنجاح.

لكن هـذا كلـه شـيء، وصـدور أحـدث مؤلفـات سمـير غريـب مـن كتابـات زمـن الحريـة ــ ضـمن مطبوعـات مكتبـة الأسـرة لهـذا العـام ـ شـيء آخـر. فالكتـاب الـذي تكونـت طبقـات وجدانـه وعقلـه بـين الدراسـة في كليـة الإعـلام(تخـرج فيهـا عـام١٩٧٥) والعمـل في جريـدة الأخبـار، والقيـام بـدورات صـحفية تدريبيـة في بـاريس وبودابـست، والعمـل مراسـلا لـصحف مؤسـسة أخبـار اليـوم في بـاريس عـام١٩٨٠ والعمـل في مجلـة المـستقبل الأسـبوعية الـتي كانـت تـصدر في بـاريس بـين عـامي١٩٧٩ ـ١٩٨٣ والمـشاركة في تأسـيس الجمعيـة المـصرية ـ لنقـاد الفـن التـشكيلي ثـم العمـل مـديرا لـصندوق التنميـة الثقافيـة بالإضـافة إلـي كونـه مستـشارا فنيـا لـوزير الثقافـة حـتي أصـبح رئيـسا لمجلـس إدارة الكتـب والوثـائق القوميـة منـذ فبرايـر١٩٩٩، فـضلا عـن عـضويته في المجمـع العلمـي المـصري ونقابـة الـصحفيين واتحـاد الكتـاب وانتخابـه مستـشارا للمجلـس الـدولي للأرشـيف ورئيـسا للفـرع الإقليمـي العربـي لهـذا المجلـس، كـل هـذه الخـبرات والمجـالات والمهـام أنـضجت طبقـات وجدانـه وعقلـه علـي نـار هادئـة، وجعلـت منـه ـ وهـو في أربعينيـات العمـر ـ نموذجـا للنجـاح المبكـر الـذي يـؤدي بالـضرورة إلـي استنفار أعـداء النجـاح، وهيـاج قطـاع الطريـق الثقـافي ـ الـذين لا يملكـون معـشار موهبتـه وقدراتـه وإمكانياتـه ـ هجومـا عليـه، وهـو ـ كمـا أثبتـت الأحـداث والتـواريخ والوقـائع ـ لا يبـالي بكـلاب القافلـة الـتي تمـارس هوايتهـا في الهـواء، ويـرد علـي سـاقط الكـلام بالعمـل والإنجـاز. وهـو في كتابـه ـ الـذي يـشكل المناسـبة الحقيقيـة لكـل هـذا الكـلام ـ يقـدم صـورة لـسنوات الحريـة الـتي عاشـها خـارج أسـر الوظيفـة، يكتـب، وينقـد، ويهـاجم، ويقـول رأيـه في كـل شـئ، حيـث لا توجـد حـسابات ولا خطـوط حمـراء أو صـفراء. ومعظـم مـا يتـضمنه الكتـاب مقـالات سـبق نـشرها في مجلـة المستقبل الـتي كانـت تـصدر مـن بـاريس، والـتي كانـت ممنوعـة مـن دخـول مـصر طيلـة الـسنوات التي عمل هـو فيهـا، بعـد توقيـع معاهـدة الـسلام بـين مـصر واسـرائيل واتفاقيـة كامـب ديفيـد. في ذلـك الوقـت قـاطع العـرب مـصر، ومنعـت الـصحف العربيـة مـن دخولهـا ومـن بينهـا مجلـة

المستقبل. وعندما بدأ سمير غريب يراجع أوراقه تمهيدا لا صدا هذا الكتاب وجد أن الدنيا لم تتغير، كثيرا، وأن القضايا التي كان يكتب عنها ما تزال واقفة في مكانها، وأن الكتاب يلوكون الكلام نفسه، كما لا حظ - في مرارة وأسي - رحيل عدد كبير من أجمل أصدقائه المبدعين: نجيب سرور وشادي عبد السلام ويحيي الطاهر عبدالله وصلاح عبد الصبور وأمل دنقل وعبد الحكيم قاسم ومصطفي طيبة وغالي شكري ولويس عوض وسعد الدين وهبة ولطفي الخولي.

وملك عبدالعزيز وكرم مطاوع ويوسف إدريس وحامد عبدالله ومنير كنعان ومني زعلوك وعبدالدايم الشاذلي ومحمود بقشيش، ولابد انه قد نسي آخرين. وهو يتحسر علي هذا الزمن المبدع الجميل لا نه لم يكن زمنا مصريا فقط بقدر ما كان زمنا عربيا جميلا مبدعا، حيث بدأت صداقاته مع مظفر النواب وبلند الحيدري وعبدالوهاب البياتي ومني مظفر(وكل هؤلاء عراقيون بالمصادفة!) وحسن اللوزي ومحمد شكري وعبدالحي الملاخ ومليكة اكزناي ومحمد بن عيسي(وزير الخارجية المغربي حاليا والذي كان فنانا مصورا فوتوغرافيا وعمدة لمدينة اصيلة) وسهيل بشارات وبول شاؤول وبيير أبي صعب وآخرين لا بد انه قد نسيهم ايضا.

من اجمل صفحات هذاالكتاب الجديد الشجاع لسمير غريب حواراته مع عدد من رموز الابداع العرب، الذين عرفهم عن قرب وصادقهم واطل في اعماق كتاباتهم وهو ينقل عن الروائي المغربي محمد شكري الذي اثارت روايته الخبز الحافي التي هي سيرته الذاتية جدلا واسعا بشأن تدريسها في الجامعة ومدي ملاءمتها لطلاب يبدأون علاقتهم الأولي مع الثقافة الأدبية والكتابة الروائية ينقل عنه قوله السيرة الذاتية التي كتبتها فيها كثير من الجرأة وتترصد طفولة مغربية مهمشة واذا كانت هناك طفولة محظوظة فقد كانت غريبة علينا لا نها لا طفال بورجوازيين اما المغاربة بصفة عامة فقضوا في عهد الاستعمار طفولة فيها نوع من البؤس والفقر مع تفاوت بطبيعة الحال. طفولتي نموذج للطفولة المغربية المسحوقة التي لا طبقه لها لا أقول انها كانت تنتمي الي الطبقة الكادحة لا نها كانت اقل من الكادحة كانت مسحوقة لم تكن لها أي كرامة رفعت في كتابي ايضا دعوي علي القرية المغربية التقليدية دعوي ضد ابي وضد كل الآباء الذين يشبهونه كان ابي قاسيا جدا، ورث كل الرواسب العفنة في المجتمع المغربي وعن السر في سرعة ترجمة هذا الكتاب الي عديد من اللغات المغربية يقول محمد شكري: انهم لم يتعودوا قراءة هذا النوع من الكتابات الجريئة فيما ترجم اليهم من ادبنا لا اقول انني الوحيد الذي كتبت بهذه الجرأة كسيرة ذاتية ربماهي الوحيدة انهم يعرفون عن العرب انهم متحفظون فكيف استطاع عربي ان يدوس كل هذه المقدسات؟ سبب آخر: أن اسلوب الكتاب بسيط وقح ولا شك ان هناك في العالم الاوروبي وامريكا اللاتينية مجتمعات تعيش نفس المشاكل وطفولة

تعيش نفس البؤس الخبز الحافي وثيقة اجتماعية بطريقة روائية ويعلق سمير غريب علي شجاعة محمد شكري وجرأته في حواره معه بقوله: محمد شكري لا يدعي اية ثقافة لا في أحاديثه، ولا في دردشاته الي تجري معه يكتب الادب وفي نفس الوقت يعتبر نفسه ضد الادب وهو مصطلح استخدمته اتجاهات ادبية قبله مثل السيريالية لكنه يعني انه يكتب نوعا من الادب الخارج عن التقاليد الادبية الموجودة في العالم العربي وحتي في المغرب يسمي الاشياء باسمائها لا يخشي المحرمات ويتعهد الكتابة بهذا الاسلوب من اجل التحريض وربما من اجل الفوضي يرتبط هذا بالطبع بنوع الحياة التي عاشها فهو لا يستطيع مثلا ان يكتب رواية عن البورجوازية في المغرب كما انه لا يستطيع كتابة عمل روائي عن الطبقة العاملة بنفس الشكل والصدق، بل ان القصص التي كتبها تدور فقط في المدينتين اللتين عاش فيهما: طنجة وقطوان.

ويختتم سمير غريب تعقيبه النقدي بصرخة حارة يطلقها في فضاء الحرية التي كان يعيشها قبل اغلال الوظيفة وقيود مسئوليتها: هل يمكن ان يتاح للقراء في مصر وربما المشرق العربي باستثناء لبنان قراءة كتب محمد شكري التي صدرت بالعربية وروايته الاخيرة التي رربما صدرت بالفعل ونحن لا نعرف السوق الداخل او طنجيس وهو الاسم القديم لمدينة طنجة؟ هل يمكن ان نقرأها حتي يتيقن قراء هذا المقال - علي الاقل - من صحة ما ورد فيه؟

لقد كتب سمير غريب هذا الكلام ونشره علي صفحات مجلة الهلال المصرية في يوليو١٩٨٦ ومازال الموقف علي حاله منذ ذلك التاريخ بعد خمسة عشر عاما كاملة. كتاب سمير غريب كتابات زمن الحرية وكنت افضل ان يكون عنوانه: كتابات من زمن الحرية بانوراما واسعة تتسع لهموم فكرية وثقافية وسياسية وفنية واجتماعية شتي بدءا بالحديث عن نجيب سرور وظاهرة شادي عبدالسلام ورحلة سقوط الاغنية المصرية وصولا الي الكتابة عن يحيي الطاهر عبدالله وعبدالحكيم قاسم وصلاح عبدالصبور، والمثقفين والسلطة ومثقفي السلطة وسلطة المثقف واستغلال الطب النفسي في دراسة الصراع العربي الاسرائيلي ونجيب سرور وشهادات في رحيل الشاعر امل دنقل وفوز كلوود سيمون بجائزة نوبل والانظمة الشيوعية بين الثبات والتغير وعودة الروح الي مسرح الدولة ونار اليسار ونار اليمين نحن اذن مع كاتب خبر كثيرا مواصفات الشارع السياسي والثقافي، وشارك في احداثه ووقائعه بالكتابة وبالفعل وبالنظرات الذكية اللاقطة التي تقف عند الجوهر وتترك ما عداه فيتاح له النفاذ الي الكشف الذي يريده من أيسر سبيل يقول مثلا عن صلاح عبدالصبور الذي لفرط محبته وتقديره له لم يشأ ان يقول فيه عند رحيله كلمات رثاء تقليدية حين توقف صلاح عبدالصبور عند الشاعر اليوت لم تستوقفه افكاره في أول الامر بقدر ما استوقفته جسارته اللغوية وقد شجعه هذا بالاضافة الي حسه الشعري - علي

استخدام الفاظ دارجة وعربية سهلة في قصائده وقد سار علي نفس النهج شعراء شبان اتوا من بعده وقد ساعده هذا التعرف الواسع علي احتقار ما يردده بعض متسكعي الفكر السياسي في بلادنا عن الغزو الثقافي وما شابه ذلك من الشعارات السخيفة الجاهلة.
سمير غريب في كتابه الجديد طائر محلق في فضاء الحرية، لا تحده حدود ولا تقف في طريقه سدود ولا تثقله قيود. من هنا كان هذا التنوع الجميل وهذه السياحة الروحية والثقافية والفنية بين مدن وحضارات وشخصيات وقضايا وملامح شتي وما أظن كاتبا - يمتلك هذه السنوات الجميلة الحافلة بالخبرات والمواقف والتغيرات - ويملك القلم الرشيق، والاسلوب الشديد البساطة واليسر والمباشرة الا وقد حقق المعادلة الصعبة بين امتاع قارئه واستثارته وحفزه من اجل نداءات التقدم والعصرية والمشاركة في صنع المستقبل وفي هذا - وحدة - الكفاية!

نبيل علي وكتابة القنبلة

بقلم : فاروق شوشة

منذ سبع سنوات ألقي الدكتور نبيل علي في البحيرة الراكدة حجرا . وكان هذا الحجر كتابه الرائد العرب وعصر المعلومات الذي حركت دواماته وردود أفعاله فكر الكثيرين- علي مستوي العالم العربي- منبهة إلى حجم ما يحيط بنا من أخطار ، والي أهمية تأمل موقعنا الراهن علي خريطة التقدم ثقافيا وحضاريا ، وأبعاد الصراع الذي لا مفر من خوضه في عصر ثورة المعلومات أو المعلوماتية كما يطلق عليه الآن . لم يكن نبيل علي- الذي يقول عن نفسه إنه بدأ جولته المعرفية كمهندس طيران هجر تخصصه الأصلي إلى عالم الكمبيوتر والمعلومات ، ثم إلى مجال هندسة اللغة ، متنقلا إلى هندسة الثقافة ، بعد أن باتت الثقافة- في نظره- منظومة شديدة التعقيد ، في أمس الحاجة إلى دعم يأتيها من الهندسة ، باعتبار أن الهندسة ستظل دوما فن التحكم في النظم المعقدة- لم يكن بعيدا أو منعزلا عن المشهد الثقافي- المصري العربي العالمي- فها هو ذا يعود إلى قارئه بعد هذه السنوات ، من خلال كتابه الجديد : الثقافة العربية وعصر المعلومات . مستثمرا معرفته النظرية وخبرته العملية في توظيفها ، مجددا عتاده المعرفي ، ليضعنا أمام حقائق الواقع الثقافي وجها لوجه ، وليطرح علينا تصوره للثقافة من منظور هندسي ، باعتبارها منظومة شاملة مكونة من منظومات فرعية تتناول الفكر الثقافي واللغة والتربية والاعلام والابداع الفني والقيم والمعلومات .

ولأن هذه الدراسة الجديدة الخطيرة تنطلق من منظور عربي معلوماتي ، فان الدكتور نبيل علي لا يتردد في وخزنا بكل عناصر المشهد كما يراه ويتابعه ، وتحت عنوان ما ذا جري لنا يسوق كثيرا من الحقائق المزعجة ، محذرا من أن البعض قد يري فيها نزعة تشاؤمية متطرفة ، ومتسائلا : هل يجدي دفن الرءوس في الرمال في عصر شفافية المعلومات ؟ ولأنه يري أن أداءنا أدني بكثير من قدراتنا ، وما حققناه أقل بكثير مما أنفقناه ، بينما حماس الأغلبية العربية لا حداث التغيير لا يحتاج إلى دليل فهو يصرخ بأعلي صوت :

- ما ذا جري لنا وسط موجة التكتلات العالمية والاقليمية السياسية والاقتصادية والإعلامية والتكنولوجية حتي نظل عاجزين حتي الآن عن الوصول إلى صيغة الحد الأدني لتكتل عربي ، هو المفهوم الأساسي لا حداث التنمية ومواجهة تحديات العولمة ؟

- ما ذا جري لنا حتي نضب فكرنا علي هذا النحو في معظم مجالات الثقافة : فكر اللغة وفكر الاعلام وفكر التربية وفكر الابداع ؟ لماذا فشلت مجتمعاتنا العربية في صنع

فلاسفة ومفكرين كبار يقيمون لنا صروحا فكرية شاملة ، أو حتي فلاسفة صغار ينظرون لنا بعض جوانب الخاص العربي ؟

– كيف يوجد بيننا حتي الآن من لا يزال يري أن حقوق الانسان والديمقراطية أمر غريب لا شأن لنا به ؟ بينما يسعي العالم إلى توسيع مفهوم الديمقراطية وتأصيله بما يتفق ومطالب عصر المعلومات ووسائله . وبينما ترتفع رايات الديمقراطية في افريقيا وآسيا وأوروبا الشرقية نرضي نحن بديموقراطية الحد الأدني . هل آن الأوان لا دراك أن هناك تناقضا جوهريا بين غياب الديمقراطية ووفرة المعلومات مما يمثل تهديدا حقيقيا لا ستقرار النظم (وعبرة انهيار الاتحاد السوفيتي شاهد علي هذا الكلام) .

– هل نتنبه إلى الخطر الماثل في أن تتحول مؤسساتنا الاعلامية العربية– تدريجيا– إلى وكلاء لمؤسسات تكتلات الاعلام العالمي ، بينما لا نجد بين مؤسساتنا العربية تعاونا أو اندماجا ؟ وهل ندرك أن نهضة الاعلام ليست فقط في اقامة القنوات الفضائية وإطلاق الأقمار الصناعية واستيراد أحدث المطابع الصحفية ولكن في القدرة علي انتاج رسالة إعلامية مبتكرة ونافذة ومسموعة ؟

– لماذا يستهوينا الحديث دائما عن النمور الاسيوية ، ونتناسي النمر العلمي التكنولوجي المتربص بنا علي بعد كيلومترات من حدودنا في فلسطين المغتصبة ؟

– لماذا تنسخ بعض دولنا استراتيجية أمريكا فيما يخص الانترنت وطريق المعلومات الفائق السرعة ؟ وهي استراتيجية تعطي الأولوية لا مور التجارة الالكترونية لا أمور التنمية الاجتماعية والتنمية الثقافية الأكثر أهمية ؟ وهو ما يطالب به الكثيرون في أوروبا الآن ، ويبدون تحفظات شديدة علي هذا النموذج الأمريكي ؟

– لماذا هذا الانزعاج من وجود روافد ثقافية فرعية تصب في المسار الثقافي العام ؟ في حين يزهو الجميع من حولنا بتنوعهم الثقافي ؟ إن هذا الانزعاج دليل علي مدي هشاشة أوضاعنا الثقافية وعلي ما تنطوي عليه من نفاق الذات وتضخمها الأجوف !

– وما كل تلك المآتم التي ننعي فيها معظم أمور ثقافتنا : شعر يموت ومسرح يحتضر وقراءة تنقرض ومعدل انتاج سينمائي يتناقص إلى ما دون عشرة أفلام سنويا بعد أن كان بالمئات ، ونقد أدبي يقع في فخ التبعية ويلوك نظريات غيره دون تطويع لخصوصيتنا العربية وتطبيق عميق علي ابداعنا المحلي ؟

– لماذا نهمل لغتنا الأم كل هذا الاهمال تنظيرا وتعليما واستخداما وتوثيقا ؟ بينما مجامعنا اللغوية مشتبكة في حرب ضروس مع المصطلح علي حساب أمور اللغة الأخري ، وجامعاتنا ومراكز بحوثنا تتجاهل إلى الآن ثورة علوم اللسانيات منذ منتصف الخمسينيات .

- ولماذا كل هذه الخصومة التي تصل إلى حد القطيعة بين فرق فكرنا القومي والديني والسلفي والعلماني ؟ وكل فريق يضع شروطا مسبقة للحوار ، تنسف قواعد انطلاق غيره ، بينما معاركنا الثقافية غارقة في الضجيج وتصفية الحسابات !
- كيف لم يدرك مثقفونا حتي الآن أهمية الثقافة العلمية ؟ بينما تخطط الهند لا قامة ألف متحف للعلوم في خطتها العشرية للتنمية البشرية ؟ وكيف انشغلنا بوهم الحديث عن العلم بدلا من العلم ذاته ؟

- وما تلك الأرقام الهزيلة لا نتاجنا في مجال الترجمة . ، مع كوننا مستوردين للعلم لا منتجين له ؟ إن اجمالي ما يترجمه العالم العربي سنويا في حدود ثلاثمائة كتاب ، أقل من خمس ما تترجمه إلى ونان . والاجمالي التراكمي لكل ما ترجمناه منذ عصر المأمون إلى الآن في حدود عشرة آلاف كتاب ، وهو رقم يساوي ما تترجمه اسبانيا حاليا في عام واحد !

- لماذا في عصر تكنولوجيا المعلومات الذي يعتمد علي الشباب أساسا- يظل كبار مفكرينا ومديرينا متشبثين بمقاعدهم ومواقفهم ؟ وكيف استبحنا لا نفسنا أن نترك مبدعينا- أثمن موارد الثقافة- لقمة سائغة في أيدي فئران المكاتب المنتشرين في بعض ادارات مؤسساتنا الثقافية ؟ حتي بحت أصوات هؤلاء المبدعين وخمدت هممهم وهم يواجهون عالما أقرب ما يكون إلى عالم كافكا العبثي ؟

ولماذا ؟ ولماذا ؟ ولماذا ؟

إن هذا الذي نقلته عن كتاب الدكتور نبيل علي: الثقافة العربية وعصر المعلومات ، هو بعض صرخاته المدوية التي يهدف بها إلى إيقاظنا وفتح عيوننا علي المشهد الذي نعيشه . هذه الصرخات أو التساؤلات هي أخطر ما يحمله هذا الكتاب القنبلة ، الذي يفجر فينا وعي الذات والعالم ، وعي وجودنا المصري العربي في اطار كينونة عالمية تتغير وتتشكل باستمرار . وبالتالي فإن التفجير يحدث في كل اتجاه . كيف يقف المثقف العربي الآن في عصر المعلومات وأين جوهر العلاقة بينه وبين هذه التكنولوجيا ؟ بل أي نوع من المثقف نحتاجه الآن ؟ كيف تنصرف جهودنا إلى البنية اللغوية العميقة التي ليست مجرد ألفاظ وعبارات ونصوص ؟ لقد قال دريدا: ان اللغة هي الهواء الذي نتنفسه ، فمتي تصبح سياساتنا اللغوية في مستوي التحديات المطروحة فلا تكون مجامعنا اللغوية هزيلة أو ضامرة وتعليمنا تلقينيا هشا وتعريبنا متعثرا وثقافتنا اللغوية غائبة ووعينا بخطورة المسألة اللغوية مغيبا أو غير متحقق ؟

المؤلف يرفع شعارا مفزعا: لحاقا أو انسحاقا . إما أن نمتلك أسباب اللحاق بالآخرين وإلا فالانسحاق هو المصير ! وكيف نلحق بهم ونحن ما زلنا نفضل المونولوج

علي الديالوج ونلغي بذلك الحوار الذي هو أساس المعرفة والتقدم ، ومازلنا نشغل أنفسنا بقضية تشخيص العقل العربي والتعرف علي علله ونواقصه دون أن نتقدم خطوة إلى ساحة الابداع الحقيقي والتجديد فكرا ورؤية وتنظيرا . ومازلنا لا ندرك أن الثقافة هي ما يبقي بعد زوال كل شيء وأن المعلومات هي المورد الانساني الوحيد الذي لا يتناقص بل ينمو مع زيادة استهلاكه . لقد كان للدكتور نبيل علي فضل تنبيهنا منذ قرابة ثلاث سنوات– في أحد مؤتمرات المثقفين– إلى ما تمارسه اسرائيل علي شبكات الانترنت من تحرشات بنا وبثقافتنا ولغتنا . وأخطر ما تقوم به الآن أنها تتولي نيابة عنا مهمة معالجة اللغة العربية إلى ا واخضاعها لنظم المعلومات بينما يعجز كثير من علمائنا اللغويين– حتي الآن– عن ادراك الجوانب العديدة لا شكالية اللغة خاصة في جانب علاقتها بالفكر . وبالرغم من أن اللغة العربية– كما يقول نبيل علي من واقع المعرفة والخبرة العملية– هي لغويا وحاسوبيا فئة عليا ، أي تتفوق في امكاناتها ونظامها علي غيرها من اللغات ، فإننا لم نحسن استثمار ذلك حتي الآن . وفي مواجهة حيرتنا بين ما تثيره قضايا العولمة والعوربة المطروحة علي نطاق واسع بين مفكري الوطن العربي ، ينحت نبيل علي مصطلحه الدال: عولمحلية مشيرا إلى احتياجنا الشديد إلى الأفقين والمستويين معا ، والمتمثلين في العولمة والمحلية . فمن الكل إلى الجزء ومن العام إلى الخاص والعكس تتمثل حقيقة الموقف الثقافي والحضاري الذي ينبغي علينا التمسك به والدفاع عنه ، فلا ننعزل ولا نتقوقع ، ولا نضيع ولا ننماع .

ولا يغفل نبيل علي من خلال منهجه العلمي الهندسي المعلوماتي ونظراته النافذة ملمحا مهما يراه في معظم فروع الثقافة لغة وتربية وإعلاما وابداعا ، فهي محكوم عليها بأن تحمل في جوفها تناقضا جوهريا من نوع ما ، تناقض اللغة في ثنائية شفافيتها وعتمتها (الشفافية باب التوصيل والوضوح والدلالة ، والعتمة باب البلاغة والمجاز والرمز) ، وتناقض التربية في تنازعها بين الوفاء بمطالب استقرار مجتمعها ومطالب تغييره معا ، أما الإعلام فيكمن تناقضه في حيرته بين رسالة الاعلام وهوي الاعلان ، وبين مراعاة مصالح الحكام والحرص علي مصالح المحكومين وما بين غايات التنمية الاجتماعية ومطامع القوي الاقتصادية التي تعطي الأولوية للاعلام الترفيهي لا التنموي . يضيف نبيل علي ساخرا: وهل هناك تناقض أكثر حدة وسخرية بين ما يدعيه الاعلام من كونه أداة للترفيه والترويح عن النفس وما يثيره من عنف ترفيهي وفزع معنوي وبينما ينتظر منه أن يكون وسيلة للترابط الاجتماعي والوفاق العالمي ، نجده وقد استخدم من أجل اشاعة التعصب والعصبية والتفرقة الطبقية والعنصرية ، وتنمية نزعات الكراهية تجاه الآخرين سواء كانوا أجانب أو أصحاب فكر مناهض . فالمنظومة الاعلامية بصورتها

الحالية تعد مثالا صارخا لا ساءة استخدام التكنولوجيا ، ويكفي دليلا علي ذلك تلك الهوة الفاصلة بين غايات الإعلام وواقعه ، وبين زيف أقنعته وحقيقة دوافعه !

* * *

هذا الكتاب الجديد الخطيرلعالم نظم المعلومات الدكتور نبيل علي- الحاصل علي الدكتوراه في هندسة الطيران عام ١٩٧١ ، والذي يعمل منذ ثلاثين عام ا- ولا يزال- في مجال الكمبيوتر ونظم المعلومات برمجة وتصميما وادارة وبحثا ، والذي شغل منصب مدير الشبكة القومية للمعلومات في مصر ، وتخصص منذ عشر سنوات في بحوث اللغويات الحاسوبية بهدف تطبيق أساليب الذكاء الاصطناعي علي معالجة اللغة العربية بالكمبيوتر ، من هنا كان كتابه : اللغة العربية والحاسوب أول كتاب يتناول هذه القضية في المكتبة العربية- هذا الكتاب القنبلة كما وصفته الثقافة العربية وعصر المعلومات لا يمكن تلخيصه ، ولا تقديم محتواه الذي يقع في نحو ستمائة صفحة ويشغل عددا خاصا في سلسلة عالم المعرفة التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب في الكويت ، لذا فإني أكتفي بمجرد اللمح والاشارة- كما قال القدماء عن الشعر- مثيرا الانتباه إلى أهميته وخطورته ، بالرغم من أن عيبه الوحيد وفرة معلوماته ووفرة عناوينه ومداخله مما جعل المعلوماتي يطغي- أحيانا- علي الثقافي ، محاولا التخفيف من مسحة الأسي والحزن النبيل الذي يحمله مؤلفه في أعماقه وهو يري بعض التجاهل لكتابه ممن كان يتصور أنهم أول المهتمين به عرضا وتحليلا ومناقشة ، وهو ما قام به كثيرون في خارج مصر علي امتداد الساحة العربية .

وحسب نبيل علي- وأمثاله من العلماء والباحثين والجادين- فضل الريادة والتأسيس والاشارة إلى معالم الطريق التي يحددها في ختام كتابه بقوله : ان البداية في التربية ، والمدخل إلى ها هو اللغة ، وركيزة كلتيهما هي الثقافة ، ثقافة تكامل المعرفة وصدق الايمان ، وكلاهما رهن بتوافر الحرية .

محمد جبريل عاشق الإسكندرية

بقلم : فاروق شوشة

ربما كان الأكثر إنصافا له أن أقول: درويش الإسكندرية انجذابا إلى ها زمانا ومكانا وطقسا روحيا وينابيع وجذورا ، وبحثا عن التطهر والنقاء والأنس الخالص ، أجل فلم أعرف عاشقا لمدينته ، مفتونا بها ومنجذبا إلى ها ومجذوبا في هواها - كانجذاب الدراويش - مثل محمد جبريل فيما أبدعه من عالم قصصي وروائي ، قدم لنا من خلاله سكندريته التي صاغها علي عينه فنيا وروحيا ، نافذا إلى أسرار عالمه الخاص في بحري مسترجعا - في قدرة عجيبة ومدهشة - روائح المكان واختلاط الأصوات وملمس الجدران واختناق الأزقة والشوارع والأسواق والدكاكين ، لا يعنيه ما فوق الأرض قدر ولوعه بالبنية التحتية ، والبعد الروحي ، والزمان الخبيء ، واهتزازات النفس والوجدان .

ومحمد جبريل في أحدث رواياته زمان الوصل يستقطر الخلاصة من عشقه للإسكندرية ، هذا العشق الذي انداح - عبر أكثر من ثلاثين عام ا من الإبداع (مجموعته القصصية الأولي: تلك اللحظة صدرت عام ١٩٧٠) - في العديد من رواياته المهمة والكاشفة مثل قاضي البهار ينزل البحر (١٩٩٠) والشاطيء الآخر (١٩٩٦) ورباعية بحري: أبو العباس (١٩٩٧) وياقوت العرش (١٩٩٧) والبوصيري (١٩٩٨) وعلي تمراز (١٩٩٨) وبعدها المينا الشرقية (٢٠٠٠) . وهي الأعمال التي تتألق بين ثمانية وثلاثين كتابا تنتظم مجموعات قصصه القصيرة ودراساته الأدبية والنقدية ومقالاته وسيرته الذاتية وكتاباته التسجيلية وتبقيعاته النثرية (روايته مد الموج) .

من هنا ، كان طبيعيا أن يكون ما كتب عن محمد جبريل علي مستوي النقد والدراسة والتحليل - مكافئا لحجم هذا الإنتاج وتميزه . تسعة كتب كاملة اقترب فيها أصحابها من العالم القصصي والروائي لمحمد جبريل ، من منطلق المحبة والتعاطف والتواصل مع هذا العالم ، ثم بدافع الكشف عن المكونات والخمائر التي صنعت هذا النسيج الذي تتضافر فيه مكونات عديدة شديدة الحيوية والحضور اللافت والتأثير العميق . يتقدمها جميعا هذه اللغة المقطرة الصافية النقية كالبلور - أو كبحر الإسكندرية في حال صفائه وهدوئه وانسيابه واسترخائه - المقتصدة كل الاقتصاد شأن المعادن الكريمة ، ليس فيها حشو ولاترهل ولافضول ، القادرة علي أن تقول - كل ما تريد أن تقول - بأقل عدد من الكلمات واللمحات والإيماءات ، ثم هذه القدرة علي إبداع الشخصيات ورسمها وتجسيد المشاهد وتلوينها ، وسكب توهجه الحار وحسه الشعبي وروحه الساخرة - المشاكسة أحيانا - وولعه بالمفارقة والتقابل ، علي هذه الشخوص والمشاهد بما يجعل منها لوحات شديدة الحيوية والصدق ، باقية التأثير في القرار البعيد من وعي قرائه وأعماقهم .

مـن بـين هـذه الكتابـات والدراسـات الـتي تـشكل مقاربـات نقديـة لا نجـازه: كتابـا الفـن القصصي عنـد جبريـل ودراسـات في أدب محمد جبريـل (لمجموعـة مـن البـاحثين١٩٨٦ ، ١٩٨٤) البطـل المطـارد في أدب محمـد جبريـل (للـدكتور حـسين علـي محمـد١٩٩٩) ، فسيفـساء نقديـة: تـأملات في العـالم الروائـي لمحمـد جبريـل محمـد للـدكتور مـا هـر شـفيق فريـد١٩٩٩ محمـد جبريـل مـوال سـكندري (لفريـد معـوض وآخـرين١٩٩٩) ، اسـتلهام الـتراث في روايـات محمـد جبريـل (للـدكتور سـشعيد الطـواب١٩٩٩) ، تجربـة القـصة القـصيرة في أدب محمـد جبريـل (للـدكتور حـسين علـي محمـد٢٠٠١) ، فلـسفة الحيـاة والمـوت في روايـة الحيـاة ثانيـة (لنعيمـة فرطـاس٢٠٠١) ، روائـي مـن بحـري (لحـسني سيد لبيب٢٠٠١) .

مـن بـين كـل هـذه الكتابـات النقديـة تمثـل رؤيـة الناقـد الـدكتور مـا هـر شـفيق فريـد وعيـا خاصـا ، متفـردا ، بكتابـات محمـد جبريـل ، ونفـاذا أعمـق إلى خـصوصية هـذه الكتابـات . يتـضح هـذا بجـلاء في كتابـه عنـه ، ثـم في الـسطور الـتي حملـها الغـلاف الأخـير لروايتـه الجديـدة زمـان الوصـل وهـي سـطور شـديدة التركيـز والتكثيـف ، لكنهـا تحمـل في طواياهـا أكثـر ممـا يمكـن أن يقولـه آخـرون ـ ممـن تجـرفهم حميـا الكتابـة إلى ترهـل وانثيـال بفقـدان الـسائل النقـدي لـديهم تركيـزه ومذاقـه ولذعـة تـأثيره ـ يقـول مـا هـر شـفيق فريـد عـن زمان الوصـل لمحمـد جبريـل: تـدور أحـداث الروايـة في عـشرة أيـام هـي المـدة الـتي انقـضت منـذ عودة هاشم مـن غربتـه ، وكأنمـا يعيـد اكتـشاف كـل شـيء مـن جديـد . ومثلمـا تتحـرك عدسـة الكـاميرا الـسينمائية مقتربـة أو مبتعـدة ، نـري الأشـياء بعينيـه ونلمـس وقعهـا علـي وجدانـه . مكـن هـذا التحديـد الـزمني محمـد جبريـل ـ الروائـي المقتـدر ـ مـن تكثيـف الخـبرة في عدسـة واحـدة مـنيرة سـاطعة ، بـل مـشتعلة بالأفكـار والمـشاعر والاتجاهـات . وحقـق للروايـة عنـصر التركيز والإيقاع السريع الذي يجول بنا في دروب الحاضر والماضي .

وفي إطـار الأيـام العـشرة نلتقـي بمـشاهد لا تنـسي ، يرسمهـا الكاتـب بـضربات سـريعة واثقـة مـن فرشـاته: علاقـة هاشـم بوالديـه وإخوتـه ، أخـوه جمعـة المتخلـف عقليـا ، علاقـة أختـه فاطمـة بزوجهـا نـاجي قـشطة ، تعلـق فـردوس بيوسـف صـديق . وفي المركـز مـن هذا كله حسني هاشم المخامر بالغربة في وطنه الجديد ووطنه الأصلي علي السواء:

مـصر وطـن عانيـت فيـه الغربـة واليونـان غربـة وجـدت فيهـا الـوطن واكتـشافه المأسـوي: يكتـشف المـرء أن اختلاطـه بـالمجتمع الوافـد إلى ه هـو اخـتلاط الزيـت بالمـاء ! ثم يـضيف مـا هـر شـفيق فريـد: زمـان الوصـل هـي الوجـه الآخـر لروايـة محمـد جبريـل الـسابقة لـشاطيء الآخـر١٩٩٦ . في الـشاطيء الآخـر أسـرة يونانيـة تهـاجر إلى الاسـكندرية ، وهنـا شـاب مـصري يهـاجر إلى إلى ونـان . صـدر الروائـي الإنجليـزي فورسـتر روايتـه هـواردز إنـد

بعبارة تقول: لا يفوتنك أن تصل بين الاشياء . فهل تري هاشم قد نجح هنا في إقامة الجسور بين حضارتين ، أم أن الانقطاع كان النتيجة الحتمية لا غترابه ؟

زمان الوصل أحدث حلقة في ذلك الموروث العظيم من روايات المواجهة بين الشرق والغرب: أديب لطه حسين ، عصفور من الشرق لتوفيق الحكيم ، قنديل أم هاشم ليحيي حقي ، الحي اللاتيني لسهيل إدريس ، جسر الشيطان ل عبد الحميد السحار ، نيويورك١٩٨٠ ليوسف إدريس ، موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح ، محاولة الخروج ل عبد الحكيم قاسم (نسي ما هر شفيق فريد الرواية البديعة المفزعة أصوات لسيلمان فياض) . لكنها أي زمان الوصل ـ تزيد علي كل الأعمال السابقة بالخبرة ـ حياتية وتقنية ـ التي جلبتها السنون ، وتقف ـ وكأنها الإله إلى وناني القديم يانوس ذو الوجهين ـ علي البرزخ الفاصل بين قرن مضي وقرن جديد (انتهي جبريل من كتابتها في أكتوبر٢٠٠١) .

هل نترك لمحمد جبريل المجال كي يحدثنا بلغته في بعض صفحات روايته القصيرة المحكمة زمان الوصل هذه اللغة المفعمة بروائح الأذكار ومقامات الأولياء ونذور الأضرحة ، وبطل روايته هاشم يصرح بعد عودته من غربته إلى الإسكندرية: أري أن ضريح سيدي منصور هو الوحيد الذي لم يتغير في غيابي !

ثم يتدفق قلم محمد جبريل بهذه اللوحة البديعة عن سيدي منصور: روي أنه قدم إلى الحي منذ سنوات بعيدة ، لا ذ ـ في البداية ـ بأضرحة أولياء الحي ، يتنقل بين أبو العباسي والبوصيري وياقوت العرش ونصر الدين وعلي تمراز . يجعل نفسه ضيفا علي التجار وأصحاب الوكالات . يشارك في الموالد وحلقات الذكر وخيام الطرق الصوفية . ولم يكن يفوته السعي وراء جنازة تمضي أمامه ، حتي لو لم يكن له معرفة بالميت أو أهله . يرافقه حتي القبر ويلقنه الردود التي يجب أن يقولها لا سئلة الملكين . ثم اختار لنفسه زاوية في تشابكات الشوارع والحواري والأزقة بين صفر باشا ورأس التين . يهمس صوته ويعلو بآيات القرآن ، وبالأدعية والمقاسات والأذكار . له قراءاته التي تطرد الأرواح الشريرة ، وتقي من المرض والكوارث .

ربما يصنع الأحجبة للغائب حتي يعود ، وللمريض حتي يشفي ، وللعاقر حتي تحمل ، وللعروسين حتي تهنأ حياتهما ، ويهبهما الله الذرية الصالحة . لم يتكلف في حياته أن يأتي بما يعتبره الناس من الخوارق والبركات . كان يفعل فعلهم ، ويحيا الحياة نفسها التي اعتادوها . طهر نفسه من الجبروت والكبرياء والخيلاء والعجب . فهو لا يري نفسه فوق أحد ، ويتخلق بصفة الذل والانكسار . لم يزعم الطيران في الهواء ولا المشي علي وجه البحر ، ولاطي الأرض ، ولا الرجم بالغيب . ولم ينشغل بأعمال التعويذ والسحر ، وإيلاف القلوب ومزاقها . نفي ما رواه حمامة الجرسون

بمقهـي سـيد غـوايش عـن رؤيتـه لـه وهـو يلقـي سـجادة فـوق الميـاه ، قبالـة شـارع صـفر باشـا ويـؤدي فوقهـا الـصلاة . قـال إن الكراسـات والمكاشـفات مـن فعـل أوليـاء الله ، بهـا يتميـزون عـن بقيـة خلـق الله . ورفـض الـدعاء بأنـه يمتلـك قـدرة التـشفع عنـد الله ، أو صـنع المعجـزات ، وإن قيـل إن القطـب الأكـبر أبـو الحـسن الـشاذلي زاره في المنـام . وضـع فمـه في فـم الـشيخ ، أودع في داخلـه الـسر والمكاشـفات والبركـات الـتي فـاءت بتجلياتهـا علـي طـالبي النـصفة والمدد .

بـدأ مفتونـا بـسبر غـور الأشـياء والكائنـات ، يـسأل ويـنـاقش ، ويتأمـل . ظلـت روحـه سـارحة في المـلأ الأعلـي مـن قبـل أن يـشمل الله برحمتـه . أمـضي فـترة الاسـتعداد الاصـطفائي لمقـام الولايـة : المـشاهدة والجـلال والجمـال والأنـس والهيبـة والبـسط . تـأدب بـآداب الأنبيـاء والـصديقين والأوليـاء . انقطـع مـن الـدنيا ، وأقبـل علـي الآخـرة . يقـضي أيامنـا لا تنقطـع في المجاهـدات والاتـصال بـالملأ الأعلـي ، لا يأكـل ولايـشرب ولاينـام . تغترف روحه مـن بحـار فـيض ربهـا . عـزل قلبـه عـن التعلـق بأحـد مـن البـشر ، لا يـشغله إلا التعلق بالله ، وبالمعاني اللطيفة ، والسر الرائق .

ظهـر سـلطان الأنـوار بعـد طـول اختفـاء ، وانجلـت الظلمـات وارتفعـت الحجـب . عـرف حقيقـة نفـسه كمـا عـرف حقيقـة أنفـسهم أكـابر فعـل الـذوق . نطـق بـالعلوم وعـبر عـن المواجيـد ، ونـشر المقامـات . انكـشفت ذخـائر واتـسع مـدده . فهـو يعلـم خائنـة الأعـين ومـا تخفـي الـصدور ويمتلـك القـدرة علـي تبـديل نفـسه والأخـرين والأشـياء . توافـد عليـه المريـدون وطـالبو النـصفة والمـدد . تهمـس أصـواتهم وتعلـم بالتـسابيح والتهجـدات والأدعيـة . لم يكـن يأخـذ مـن النـاس أجـرا . الـسماء تعطيـه طعامـه وشـرابه وتـرددات أنفاسـه . وكـان يخـدم مريديه بنفسه ، ويقوم علي حوائجه ومصالحه .

حـين شـعر بـدنو أجلـه ، طلـب مـن الجالـسين في مقهـي سـيد غـوايش أن يقـام لـه قـبر في الطريـق الترابـي الـصاعد إلى رأس الـتين . لمـا شـيدت البنايـات في المنطقـة ، ظـل الـضريح في مكانـه ، وأقـيم فوقـه مقـام ، وقـصده الزائـرون . يتوسـلون في طلـب النـصفة والكيد للأعداء وشفاء المرضي وعودة الغائبين والشفاعة والمدد .

قـرب ختـام الروايـة ، نـري هاشـم والحـنين يجرفـه شـوقا إلى الـوطن ، إلى مدينـة الإسـكندرية الـتي ابتعـد عنهـا عـشر سـنوات هـاجر خلالهـا إلى إلى ونـان مقيمـا في المدينـة الـتي خيـل إلى ه أنهـا تـشبه الإسـكندرية مدينـة بيريـه وتـزوج مـن إلى ونانيـة كريـستينا ، لكـن هـاهو ذا في خاتمـة المطـاف يكتـشف أنـه لم يعـد يتـصور ابتعـاده عـن بحـري وأنـه الآن مثـل الطـير الـذي يتجـه نحـو الجنـوب وراء علامـات لا يراهـا غـيره . المكـان الـذي ألفـه ـ بيريـه ـ تفاجئـه ألفته بمعاناة الغربة والوحشة وتوقع الخطر .

مرة ثانية نعود إلى قلم محمد جبريل ، البارع التصوير والتعبير ، وهو يقدم لنا هاشم بطل روايته في لحظة قراره الأخير:

شحب التصور بأنه يمكن أن يقيم في المدينة التي أحبها الإسكندرية هي المدينة التي لا بد أن يعود إلى ها . لا يتصور أنه سيظل بعيدا عنها . في باله شوارع بحري وحواريه وأزقته ، والبيوت القديمة ، المتلاصقة ، والمساجد ، وتلاقي الأذان ، ومقامات الأولياء والميادين والساحات والكورنيش وصيد السنارة والجرافة وحلقة السمك ومرسي القوارب وقلعة قايتباي وسراي رأس التين وضوء البوغاز والطائرات الورقية . في باله البيت المطل علي مقام سيدي منصور . ابتعاده عن بحري يقربه من الحياة التي أمضاها هناك .

حاصرة الإحساس بالوحدة . يستعيد ملامح غائبة أو يخترعها ، يصل البدايات بالنهايات التي يتصورها .

* * *

محمد جبريل في زمان الوصل (وهو يستدعي في عنوان روايته ما ثورة زمان الوصل بالأندلس في موشح لسان الدين بن الخطيب) يضيف حبة جديدة مشعة إلى حبات عقده الملألىء بالنجوم . كل حبة منها تضيء وجداننا ووعينا بأقباس من الفن الصافي الجميل ، الذي تفرزه نفس نقية صافية ، وسجية رقراقة الطبع والشمائل ، وقلم يغامر دوما من أجل اصطياد الجديد المدهش .

حتي وسكندريته تشغله ، ويديم العزف علي لحنها الأساس مرات ومرات ، فإن معزوفاته لا تتشابه ولاتتكرر ، لكل منها جدته ومذاقه وأفقه الأبعد ، ونورانيته الكاشفة ، الدائمة التوهج والسطوع .

لقد نجا محمد جبريل من ورم الذات ، ونرجسية كثير من المبدعين - التي تصبح بالتوهم وخديعة النفس ورياء الآخرين داء مستعصيا وحالا ميئوسا من علاجها - كما نجا من التشوهات التي تنتجها ظروف النشأة والتكوين والعجز عن التحقق فتصطبغ مرارتهم بصفرة الأحقاد ودساستها ، فكان لنا منه هذا الفن الصافي ، والإبداع الجميل .

محمود البدوي في إطلالة جديدة

بقلم:فاروق شوشة

منذ خمسينيات القرن الماضي وانا أقرأ لمحمود البدوي وأقرأ عنه . كانت قصصه القصيرة تنهمر علي القراء من خلال الصحف إلى ومية والمجلات الاسبوعية فضلا عن بعض المجلات الأدبية المصرية والعربية أذكر بعضها الآن دون ترتيب: الرسالة ، أخبار إلى وم ، الزمان ، الأديب البيروتية ، الجمهورية ، الجيل ، الاهرام ، الشعب ، المساء الاسبوعي ، آخر ساعة ، التعاون ، الثقافة ، الإذاعة والتليفزيون ، المجلة ، الهلال ، ما يو ، العصور ، روزاليوسف ، الرسالة الجديدة ، المصور ، بالاضافة إلى مجموعاته القصصية العديدة .

كنت ، وكثير من ابناء جيلي ، الذين كانت الخمسينيات بالنسبة إلى هم مرحلة طلب العلم في الجامعة ، والتعرف علي القاهرة لا ول مرة ، واكتشاف كثير من رموز الحياة الادبية والثقافية الذين لم تقتحم اسماؤهم الخافتة ، حياتنا البعيدة المنعزلة في قري مصر وكفورها البعيدة ، نتابع ـ في سعادة ومتعة بالغة ـ قصص محمود البدوي ، جذبنا قبل كل شيء هذا العالم الرحب الذي دارت فيه وقائع قصصه وعوالمها وأحداثها وشخصياتها وما تميزت به هذه العوالم ، خاصة في بلاد الشرق الاقصي حين أتيحت للبدوي زيارات ورحلات ملهمة للعديد من قصصه التي كتبها من وحي إلى ابان والهند وهونج كونج وصولا إلى روسيا ، فضلا عن العديد من البلاد الاوروبية ، مضافا إلى ها قصصه من الصعيد والاسكندرية والسويس والقاهرة . نعم كنا مبهورين بهذا التنوع في الاحداث والشخصيات والطباع والعادات والتقاليد ، وهذه الوفرة في الانتاج ، الامر الذي يؤكد ان الكتابة الأدبية بالنسبة لمحمود بدوي كانت كالتنفس ، لا تكلفه جهدا أو مشقة ، وإنما هو يمارسها وكأنها واحدة من عاداته إلى ومية ، متمرسا بالكتابة ، وعارفا باصول صنعته القصصية وابداعه الفني فيها .

وجذبتنا إلى قصص محمود البدوي لغته السهلة التي تتدفق وتنساب في يسر وطواعية دون مشقة او إعنات او تكلف او معاظلة يكتب كما يحكي او يتكلم . ومع ذلك فهي لغة لا تسف بحيث تختلط بلغة الناس العادية ، او مفردات قاع المجتمع . فهو حريص علي ان تظل لغة ادبية ، موحية لها مجازها وفتنتها الخاصة ، التي لا تجعلها بعيدة عن مستوي المتلقي ، او ثقيلة علي نفسه . بينها وبين لغة يحيي حقي وابراهيم عبد القادر المازني وشائج قوية وصلات حميمة ، بالرغم من انها تخلو من انضباط لغة يحيي حقي وأناقتها وحتميتها ، وليس فيها ولع المازني بالمزيج اللغوي بين الفصحي والعامية او سخريته وتوقفه الحاد امام الشخصيات والمواقف وكانت هذه اللغة

السهلة الجميلة مدخلنا الرحب إلى عالم محمود البدوي في قصصه القصيرة وفي كتاباته عن أدب الرحلات في الشرق والغرب .

ودار الزمان دورات . اقتربت خلالها كثيرا من عالم محمود البدوي بفضل عديد من المقالات والدراسات الكاشفة عنه انسانا ومبدعا . كان في طليعتها المقال الجميل الذي كتبه الصديق الناقد الكبير رجاء النقاش بعنوان القصاص الشاعر المنشور في مجلة الشهر عدد يناير١٩٥٩ ، مشيرا ـ لا ول مرة ـ إلى السبب الثالث الذي حببنا في قصص محمود البدوي وهو هذا الطابع الشاعري الذي يكسو كتاباته وتفيض به لغته في رهافة تذكرنا بكتابات القصاص الروسي العظيم تشيكوف خاصة في حنوه علي شخصياته الانسانية وتعاطفه معها ورثائه لمصائرها في رقة بالغة وقلب يفيض بأنبل العواطف والمشاعر . وفي هذا المقال المبكر عن محمود البدوي قال رجاء: عرفت من بعض المتصلين به انه أصيب بصدمة عاطفية في مطلع حياته وهو طالب في الجامعة ، وقد أدت هذه الصدمة به إلى ان يترك الدراسة ، بل ترك مصر كلها وسافر لفترة إلى اوروبا ، وكان لديه بعض المال فصرفه كله علي هذه الرحلة التي أراد بها ان يجرب وينسي ، وربما تكون هذه التجربة هي السبب في انطوائه وعزلته وكان رجاء يحاول تفسير تركه لكلية الآداب بعد ان التحق بها ، وإيثاره البعد عن الجامعة وعن مصر ، وهو امر يقول عنه محمود البدوي في حوار نشرته الجمهورية في ديسمبره١٩٧ : التحقت بكلية الأداب ، ولم أكمل المشوار لا نني انتقلت إلى كلية الحياة وهي ارحب ولاشك من كلية الاداب ، ولم آسف علي ذلك قط .

ولد محمود البدوي في الرابع من ديسمبر عام ١٩٠٨ ، وتوفي في الثاني عشر من فبراير عام ١٩٨٦ . وفي الكتاب الجميل عن سيرته بقلم ابنته السيدة ليلي محمود البدوي وزوجها الاستاذ علي عبد اللطيف ـ الذي اهدياه لي ومعه مجموعاته التي صنفاها وسمياها : قصص من الاسكندرية ، قصص من إلى ابان ، قصص من روسيا ، وقصص من هونج كونج ، وكتاب محمود البدوي والقصة القصيرة بقلم الاستاذ علي عبد اللطيف المحامي ـ وهو دراسة أدبية تحليلية للبدوي الانسان وعالمه القصصي ـ في هذا الكتاب كثير من التفاصيل التي تلقي الضوء علي نشأة محمود البدوي وطفولته ، واسرته ، وتعليمه ، والوظائف التي ما رسها ، ورحلاته واسفاره العديدة ، ومفاتيح كثير من اسرار حياته وابداعه .

يقول محمود البدوي عن امه ومدي تأثيرها فيه : ومع أن أمي لم تكن حاصلة علي شهادة دراسية ، إلا أنها كانت متعلمة ، واليها ـ لا إلى أبي ـ يرجع الفضل في تعليمي القراءة والكتاب . ومن الطريف انها قامت هي نفسها بهذه المهمة ، ولنذكر أن ذلك كان في عام ١٩١٥ تقريبا . وعلي لوح من . الأردواز ، بدأت أكتب وأحفظ الحروف الهجائية . وكانت أمي ككل الأمهات في ذلك العهد ، تتفاءل برؤية مولد الهلال ،

ففي أول أيام الشهر الهجري كانت تصعد بي إلى سطح المنزل الواسع (بيت الوسية) في قرية الأكراد حيث تزوجت وولدت أنا ، وترنو إلى الهلال وهي تقرأ بعض سور القرآن ، واضعة يدها علي وجهي مقبلة جبيني داعية الله أن يقيني شرور الحياة .

وفي واحدة من المرات النادرة التي وافق فيها محمود البدوي علي أن يفضي ببعض تفاصيل حياته وأهم المؤثرات في رحلته مع الكتاب - وكان الحوار مع مستشرقة روسية اسمها ثريا جاءت من طشقند إلى القاهرة ، وأخذت تلح عليه من منطلق أنها جاءت إلى القاهرة متطوعة لدراسة القصة المصرية ، ولابد من لقائه لهذا الغرض ، خاصة أن أستاذها في جامعة طشقند هو الذي اختار لها هذا البحث وأصر ضرورة لقائها مع محمود البدوي ، يقول هو عن هذا اللقاء في سياق ذكرياته المنشورة في مجلة الثقافة (عدد نوفمبر١٩٧٩) وقد سألته المستشرقة ثريا عن مذهبه في الكتابة : ضحكت في نفسي من هذا السؤال الأكاديمي ، فأنا أكتب ما أشعر به ، وأحسه بوجداني ، وأعيشه في حياتي ، وأكتب عن تجربة صادقة . ولاأفتعل الحوادث ولا أزينها ، ولا أتقيد بمذهب ولا أعرف المذاهب . وأنا واقعي مثل فلوبير وديكنز وجوركي وتشيكوف وطبيعي أحيانا مثل زولا . وهؤلاء لم يدرسوا الواقعية ولا الطبيعية قبل كتابتهم . وإنما كتبوا بالفطرة متأثرين بالجو الذي يعيشون فيه ، وبالأشخاص الذين يلتقون بهم في الحياة ، فشخوصهم حية عامرة بنبض الحياة ، ولهذا عاشت قصصهم . وأنا متشائم أحيانا ، ومتفائل جدا أحيانا أخري ، تبعا لمدارج حياتي . ولم أتلق الكتابة عن أستاذ ، ولم يوجهني شخص . وأكتب فيض مشاعري ، لا نفس عن نفسي وأعيش . ولو لم أكتب لمت بالسكتة من فرط الإحساس بعذاب الناس ، وماتطحنهم به الحياة ، وماتصيبهم به قارعات القدر ، ومايلاقونه من عنت وظلم في العجلة الدوارة .

وأنا كالشاعر الذي يقول الشعر بالسليقة قبل أن يتعلم العروض ، وأكتب قبل أن أعرف المذاهب الأدبية ومعرفتها هراء في هراء ، والكتابة القصصية فن وإلهام يأتيان بالفطرة ، والقراءة والدرس لا كتساب الشكل الفني الأمثل وتجويده ، ولاتساع مدارج التفكير وعمق النظرة للحياة ، وقد تأثرت بالمازني ككاتب روائي وأديب متفرد ، وأسلوبه من أحلي وأجمل الأساليب العربية ، كما أن شوقي أعظم الشعراء .

وقد مهد لي سبيل الكتابة والنشر أستاذي الزيات . ولولاه ما واصلت الكتابة ، ولا كتبت حرفا ، ولأصابني العجز والضيق في أول الطريق ، وكانت رسالته - رحمه الله - رسالة الرسالات ، وقد عجزت الدولة من بعده بكل إمكانياتها أن تخرج مثلها ، فالعمل الأدبي إخلاص وتضحية ، ولايزيد ولاينقص بعدد الأشخاص الذين يتولونه . وأنا آخذ الشكل الفني من تشيكوف في لمساته الإنسانية وصدقة في العرض وعنايته بالشخوص المسحوقة هي موضوعي الأمثل فيما أكتب .

وأستفيد من كل كتاب أقرؤه ، وما رددت كتابا وقع في يدي قط ، ولا استثقلت ظله ، فأي كتاب تقرؤه سوف تستفيد منه .

والنهضة الأدبية عندنا عظيمة ، ويعتريها المد والجزر ككل شيء في الحياة ، وهناك تطور ملموس في الرواية والقصة القصيرة وتجديد وخلق لا ينكره أحد ! .

فإذا ما سألت أيها القاريء . . . ولماذا ظل اسم محمود البدوي في الظل ، بعيدا عن الدوران في وسائل الإعلام ، حيث مجالات الشهرة وزيوع الصيت ، لا يعرفه إلا الخاصة ولا يقدره حق قدره إلا الصفوة من النقاد والقراء ، فأغلب الظن أن طبيعته الحييه الكارهة للأضواء وكل صنوف الشهرة والدعاية كانت سببا رئيسيا لهذه العزلة وهذا الانطواء ، أضيف إلى ها سبب آخر لا يقل أهمية وتأثيرا عن السبب الأول هو العاصفة التي أثارها المبدع الكبير يوسف إدريس بقصصه القصيرة التي تفجرت بواكيرها في حياتنا الأدبية ـ في منتصف الخمسينيات ـ وكأنها البركان أو الزلزال ، فقد حجب الاهتمام بها والانبهار بجدتها كل ما عداها من الصيغ والطرائق والأساليب في كتابة القصة القصيرة ، ورأي فيها النقاد والقراء علي السواء ريادة جديدة مغايرة للسائد والمألوف ـ ولم تؤثر هذه العاصفة الإبداعية علي محمود البدوي وكتاب جيله وحدهم ، لكن تأثيرها امتد إلى أجيال كانت أكثر شبابا ومعاصرة ليوسف إدريس خاصة جيل: أبو المعاطي أبو النجا وسليمان فياض وصالح مرسي وفاروق منيب و عبد الله الطوخي وغيرهم . ولولا أن بنيانهم الإبداعي كان راسخا وقويا ، وإصرارهم علي التمايز والاختلاف وتحقيق ذواتهم كان عنيدا وواعيا ، ما قدر لكل منهم أن يحقق مشروعه الإبداعي ، بعيدا عن عباءة يوسف إدريس ، وآثار عاصفته العاتية .

ربما رأي البعض ـ أيضا ـ في قصص محمود البدوي ، إثارة . من الطابع السياحي أو طابع أدب الرحلات ، السريع التنقل الكثير التجوال والتطواف ، المولع بالأسفار وغرائب الحكايات والأحداث والمواقف ، لكن مثل هذا الحكم يظلم كثيرا مما أبدعه محمود البدوي في نماذجة الإنسانية ، ووقفاته العميقة المتأملة ، وحرصه علي شروط الفن القصصي وضوابطه شأن الكاتب العارف الصناع .

لقد كتب عن محمود البدوي وفنه القصصي كثيرون في طليعتهم رجاء النقاش و عبد الرحمن الشرقاوي ومحمود أمين العالم ود . غالي شكري وفؤاد دوارة ود . سيد حامد النساج ، ود . السعيد الورقي ود . محمود الحسين ود . سمير سرحان ومحمد جبريل وعلاء الدين وحيد ومحمد محمود عبد الرازق وسعيد جودة السحار ويوسف الشاروني ود . الطاهر مكي وإبراهيم سعفان ومحمد قطب وآخرون . هذه الكتابات ـ لو جمعت ـ من شأنها أن تقدم إضاءة عميقة وكاشفة ، عن واحد من المبدعين الكبار في تاريخنا الأدبي الحديث .

فـور رحيـل محمـود البـدوي في عـام ١٩٨٦ قـدمت عنـه حلقـة في برنـامج الأمـسية الثقافيـة شـارك فيهـا عـدد مـن النقـاد العـاكفين علـي قـصص محمـود البـدوي دراسـة وتحلـيلا ، قلـت في تقـديمها: عـاش البـدوي حياتـه الطويلـة في صـمت ، بعيـدا عـن ضـجيج الحيـاة والمجتمـع ، لم يعـن أبـدا بـأن يكـون واحـدا في مجموعـة أو هيئـة أو تجمـع أدبـي او لم يكـن يـشغل نفـسه أن ينتمـي إلى أحـد ، ولا أن يكـون في شـلة ، ولا أن تـسلط عليـه الأضـواء . . . وهـي كلمـات أختـتم بهـا هـذا المقـال شـاكرا للـسيدة الكريمـة ليلـي محمـود البـدوي وزوجهـا الفاضل الأسـتاذ علـي عبـد اللطيـف المتعـة الـتي أتاحاهـا لـي بإعـادة قـراءة محمـود البـدوي مـن جديد .

غروب شمس الحلم

بقلم : فاروق شوشة

والذي يقدم لنا شهادته عن غروب شمس الحلم صوت نقدي شجاع ، شهد بزوغ هذه الشمس ، واكتمال توهجها في خمسينيات القرن الماضي والنصف الأول من ستينياته ، وكان جيله كله يراهن علي الشمس والحلم معا ، يكاد يمتلك الدنيا ، ويمد يديه فيلامس السماء ، صوت إلى قطة العربية يهدر في سمعه ، وأبعاد الدور القومي تترامي فسيحة أمام عينيه ، والقدرة علي الإنجاز والتغيير ـ بغية تحقيق الحلم ـ فعل يومي ، وصياغة جديدة للحياة وللتاريخ معا .

فاروق عبد القادر في كتابه الحديث الصدور: من أوراق نهاية القرن ، غروب شمس الحلم يقدم لنا شهادة جديدة مؤثقة ـ نقدية وفكرية ـ سبقتها شهادات هي بمثابة الإرهاصات الأولي التي تسلم إلى هذا المشهد الذي نستشرق من خلاله لحظة الغروب ، كانت هذه الإرهاصات تتمثل في ازدهار وسقوط المسرح المصري (١٩٧٩) ، وفي مساحة للضوء ومساحات للظلال (١٩٨٦) وفي أوراق من الرماد والجمر (١٩٨٨) وفي رؤي الواقع وهموم الثورة المحاصرة (١٩٨٩) وفي من أوراق التسعينيات !

التسعينيات: نفق معتم ومصابيح قليلة (١٩٩٦) وغيرها من الشهادات . تتجلي وفضيلته الأساسية ـ من خلال هذا السياق المتصل المتصاعد ـ في أنه لم يتوقف لحظة واحدة عن الاشتباك مع الواقع ، بكل ضراوته وعنفوانه وغبار معاركه ـ لا يقيم وزنا لحساب الربح والخسارة بالمعيار الذي تواطأ عليه الناس ـ فما الذي سيفيده في ختام الأمر لوربح العالم كله وخسر نفسه ؟

وفي أنه لم يؤثر النجاج والسلامة ، عاكفا علي التنقيب في مخزونه من الذكريات والحكايات ، يسلي بها قارئه ويمتعه ، ولو أنه فعل لوجد كثيرا يمكنه أن يقوله ، ولشارك في وليمة إبهاج القاريء التي يمارسها البعض ـ في خفة وإيثار للدعة والراحة ـ عندما يفتحون خزائن تذكاراتهم ، ويشغلون بها قارئهم ، مستغلين حاجة هذا القاريء المجهد إلى الانسلاخ ـ ولو قليلا ـ بعيدا عن واقعه المتشابك الصراعات والضغوط والإحباطات ، ومطلقين له عنان خيال ما زوم ، والحلم بأزمنة كانت بمثابة العمر الجميل ، أو السرداب الذهبي للتاريخ !

فاروق عبد القادر ليس ممن يحسنون هذا الصنع: لا نه صادق مع نفسه أولا ، شديد الإصغاء لضميره الأدبي ووعيه النقدي ثانيا ، عميق الالتزام بدوره الأخلاقي والإنساني ثالثا ودائما .

ولأنـه ارتـضي لنفـسه طبيعـة نقديـة ودورا نقـديا وفكريـا لا بـد أن يكـون متـصديا وجـسورا ، فقـد أصـبح يـشترط في العمـل الأدبـي تحقيـق هـاتين الـصفتين ، لا يتعثـر بـين التخفـي والمكاشـفة ، لا يلـوذ بمـصطلح غـامض يفتقـد الوضـوح والـيقين ، لا يـستدعي سـر الوجـود مـن الـصمت إلى الـصمت ، بـل يكـون العمـل بينـا مبينـا ، غـير ملتـبس ، لا يتحـرج من الكـشف عـن رسـالة العمـل الـذي يتـصدي لـه ، ولا يـتردد في الحكـم علـي مـا تحملـه هـذه الرسالة من فائدة وصحة .

بـل هـو يقـرر ـ بطريقـة حاسمـة ـ أنـه لا جـدوي في عمـل لا يعـري قـبح وفـساد مـا هـو قـائم ، ولا يتطلـع إلى عـالم أكثـر عـدلا وأمنـا وجمـالا ، يفعـل هـذا بـأدوات الفـن ، لا بأدوات أي نشاط إنساني آخر .

ناقـد هـذا رأيـه وهـذه رؤيتـه ، لا بـد أن تكـون شـهادته علـي الواقـع النقـدي الـسائد شـهادة حيـة وكاشـفة ، لا تـتردد في كـشف العـورات ومواجهـة الـسلبيات وتحديـد وجـوه الـضعف والقـصور مؤكـدا أن عوامـل عديـدة متـشاكبة أدت إلى أن تـصبح الكتابـة النقديـة العربيـة ـــ في إجمالهـا والاسـتثناءات قليلـة ـ غـير مؤديـة لا هـدافها المرجـوة: غربـة النقـد الغربـي بمـصطلحه ومناهجـه ، الانقطـاع بيننـا وبـين النقـد العربـي القـديم ، تـراكم الخـبرة عنـد المبـدع والمتلقـي بـؤس الإلتـزام بأحـد المنـاهج التزامـا جامـدا صـارما ومـن ثـم الانحـصار داخـل مفاهيمـه وحـدوده ، اتـساع مـدي العلـوم الإنـسانية الـتي يمكـن أن ترفـد العمـل النقـدي وضـرورة التصرف إلى ها والإلمام بها ، أضف إلى ذلك كله الإهواء والمصالح صغيرة وكبيرة !

فـاروق عبـد القـادر ـ في هـذه الـشهادة الـشجاعة علـي حياتنـا النقديـة ـ هـو فيمـا أعلـم أول ناقـد لا يتحـرج مـن دمـغ معظـم هـذه الكتابـات بأنهـا همهمـات لا تفـصح ، أورطانـات مختلطـة ، أو تفـسيرات للمـاء ـ بعـد الجهـد ـ . حـتي أصبحت كلمـة النقـد ذاتهـا حمالـة أوجـه ، بـل سـيئة الـسمعة . وهـو يقـول في وضـوح سـاطع : إنـني أفهـم أن الناقـد هـو دليـل القـارئ والمتلقـي ، هـو عينـه المدربـة المثقفـة المتفحـصة . إنـه لـيس ضـيفا ثقـيلا بينـه وبـين العمـل الإبـداعي ، لكنـه أقـرب لا ن يكـون الجـسم الـذي تتخللـه أشـعة الـضوء ، وبقـدر شـفافيته أو إعتامـه تتحـدد زوايـا الانكـسار ، ومـن حيـث أنـه دليـل القـاريء في أرض يقطعانهـا معـا ، ولأن الرائـد لا يكـذب أهلـه فقـد وجـب عليـه ألا يخـدع قارئـه أو يـدلس عليـه ، أو يلقـي إلى ه بكلمـات متـشابهات ، أو يغرقـه في مـستنقع مـا ئـع مـن التعـبيرات والتـشبيهات والإحـالات دون جـدوي أو يتعـالي عليـه ، كـأن يـد الناقـد أصـبحت هـي العليـا ، ويـد القـاريء ـ أو المبـدع ـ هـي الـسفلي . والتـزام الناقـد بتلـك القـيم لـيس ضـرورة مهنيـة فقـط ، لكنه التزام أخلاقي وإنساني في المقام الأول .

فـاروق عبـد القـادر ـ في هـذه الكلمـات المفعمـة بروحـه الإنـساني ولغتـه الجميلـة الـصافية المـشرقة (وهـو بالمناسـبة مـن أفـصح نقادنـا لغـة وبيانـا وسـيطرة علـي أدواتـه) ـ يقـدم

لنا منهجه النقدي . ويفسر لنا ـ نحن قرائه ـ بطريقة غير مباشرة ، لماذا لا نجد في كتاباته المعاظلات المعهودة ، والأستذة والتعالي الأجوفين ، ولماذا نستشعر دوما هذه المتعة المغرية بالمزيد من القراءة كلما قرأنا له وهذه المحبة التي يقبل بها علي أعمال المبدعين نقدا وقراءة فاحصة وتحليلا . بل ويفسر لي ـ شخصيا ـ لماذا أري فيه استمرارا للدور الذي كان يقوم به الناقد الكبير الراحل الدكتور علي الراعي مع التسليم بالفروق الفردية بين الرجلين والناقدين . يؤكد هذا أنه عندما كتب في وداع الدكتور علي الراعي ـ في دراسة بديعة من فصول كتاب غروب شمس الحلم ـ رأي نفسه في مرآته ، فكتب عن .

علي الراعي وكأنه يقدم شهادة عن نفسه هو ، أو يرسم صورة لشخصيته النقدية كما يحب لها دوما أن تكون . لقد أحب في الدكتور الراعي المنهج والآليات والوسيلة والأسلوب ، والسلوك الانساني الذي جعل منه قدوة ومثلا أعلي لا بنائه وطلابه .

يقول فاروق عبد القادر: انني أنتمي لجيل جلس الكثيرون من أبنائه إلى الدكتور الراعي مجلس طلاب العلم ، لكننا جميعا تعلمنا منه دروسا ثمينة ، تعلمنا أن النقد إبداع ، وأن يد الناقد ليست العليا ويد المبدع السفلي ، بل الناقد والمبدع معا تدفعهما تلك الرغبة الطاغية في إصلاح الكون الفاسد ، وذلك التوق النبيل نحو عالم أكثر أمنا وعدلا وحرية وجمالا .

ثم يقول: كتابة الدكتور الراعي النقدية مشرقة وضاءة ، مقتصدة مدققة ، تنظر نحو رسالة العمل دون أن تغفل عن أدواته وطرائقه في نقلها ، فالعمل يبقي عملا فنيا ، ولكل فن وسائله في البناء والتكوين . وكثير من صفحات هذه الكتابة منداة بعطر الفن الجميل . وتعلمنا ان النقد يصدر عن الحب ، لا عن الكره أو التعالي ، والناقد الحق هو الذي يقترب من موضوع عمله بتواضع ، ورغبة صادقة في تلمس مواضع الجمال والقوة قبل تقصي مواضع الضعف والنقص .

ثم يقول: وفي سياق أرحب وأشمل ، تعلمنا الإخلاص للعمل ، والانصراف عن الأضواء الخادعة الملونة ، والنأي عن مسالك التهم ، ورفض السكوت عن الحق ، والابتعاد عن كل ما من شأنه أن يخفض الجبين الشامخ أو يشوب السيرة الناصعة . وتعلمنا كذلك انه إن دارت الأيام دورة معاكسة ، بقي الإصرار علي إجادة العمل وأداء الرسالة والتوشح بالنبل والكبرياء ملجأ وملاذا فهذا وحده ما ينفع الناس ويمكث في الأرض .

فضيلة ثانية وأساسية في كتابات فاروق عبد القادر ـ وفي كتابه هذا غروب شمس الحلم علي وجه الخصوص ـ هي أفقه العربي الشامل ، ونزعته العروبية غير الملتبسة ، وهو يري الإبداع المصري في منظومة الإبداع العربي كله ، مركزا في أحدث كتبه عي

القصة والرواية والمسرح ، مقتربا اقترابا حميما من بعض السير الدالة . وهكذا تتجاور في مرآته النقدية الرحبة إبداعات الطاهر وطار ومحمود دياب وفؤاد التكرلي و عبد الرحمن منيف ونجيب محفوظ وزكريا تامر وصنع الله ابراهيم وخيري الذهبي وحجاج أدول وألفريد فرج والطيب صالح ومحمد شكري وأسامه أنور عكاشة وهناء عطية وفتحي غانم وغبريال زكي وسناء المصري وحيدر حيدر حيدر . وتلتمع من بين مطالعاته وقفات نقدية نافذة مع كتابات لسهي بشارة و عبد الرحمن بدوي ورفعت السعيد وفيصل حوراني وليلي عنان ومحمد المخزنجي ومليكة أو فقير ، مما يجعل لهذا الأفق النقدي ـ العروبي الاهتمامات والتوجه ـ قيمته ودلالته ومغزاه ، ويذكرنا ـ مرة أخري ـ بالأفق الرحب لعلي لا راعي في تصديه للرواية في الوطن العربي والمسرح في الوطن العربي منطلقا من دراسته للمسرح والرواية في مصر ، وبتعبير فاروق عبد القادر نفسه : من الخاص إلى العام ، من الوطن إلى الأمة .

اللغة عند فاروق عبد القادر سر من أسراه الكبري وكنوزه الخبيئة . هي بين يديه وعلي قلمه سلسة طيعة ذلول ، تحمله علي جناحيها إلى حيث يشاء ، مبدعا كتابة نقدية هي في جوهرها الابداع الموازي للنص الأدبي الذي يتناوله ، ينسكب عليها ما ء شاعرية رقراقة تتوهج في مناطق الحلم والألم ، والذكري والتوجع ، وتنبض بحس يقظ ، وجرأة مقتحمة ، واقتراب شديد مما يخشاه الناس ويتحاشونه (لا أظن قراءه قد نسوا تشريحه اللغوي لكتابات واحد من الكتاب يمارس فعل الكتابة وهو لا يتقن أصول لغته ، ويمارس من أخطاء المبتدئين ما يجعله موضع سخرية وتندر . وهو يأتي لهذا الكاتب بعشرات الأمثلة من هذه العثرات اللغوية ، التي لو أفاض في إحصائها متلمسا سقطاته ، لصنع كتابا كاملا يضم ما ينبغي أن يتجنبه الناس ويعف عنه الكتاب !) .

ثم هي لغة شديدة الحيوية والعصرية والقدرة علي النفاذ المباشر إلى الجوهر . لا تثقلها الزخارف البديعية ولا السجع اللفظي أو العقلي ـ الذي نبه إلى خطورته المبدع الكبير يحيي حقي في كلامه عن حاجتنا إلى لغة عصرية وأسلوب جديد ـ حليتها ما تتشح به من صدق وطواعية وتدفق ، وانثيال غامر فيما يتطلب التوضيح والافاضة ، يقابله إحكام مقتصد فيما يتطلب لغة اللمح والاشارة .

لا يمكن ترك هذا الكتاب الممتلىء الحافل ، الذي هو في حقيقته سفر نقدي جليل ، دون إشارة إلى السطور التي يحملها غلافه الأخير ، يقول فيها كاتبها : شهد صاحب هذا الكتاب شمس الحلم وقد أشرقت فأضاءت وأدفأت أرجاء العالم العربي خمسينيات القرن الماضي وبعض ستينياته . لكن هذه الشمس آذنت بالغروب ، وغابت

قبل أن ينتهي القرن . نظرة طائر إلى هذا العالم: مصره ومشرقه ومغربه وجزيرته وخليجه ، شاهدة علي هذا الغياب ، ونظرة تالية إلى أهم وجوب الإبداع فيه شاهدة كذلك .

يؤمن صاحب هذا الكتاب - إيمانا لا يداخله الشك - بأن شمسا جديدة سوف تشرق وتغمر بضوئها ودفئها هذا العالم ، حتي لو فاتنا - نحن الأحياء الآن - أن نشهد مشرقها .

* * *

وهي شمس لا يكفي أن نقف في انتظارها ، بل لا بد أن نشارك من الآن في صنعها والتهيئة للشروق الجديد بمثل ما يفعله هذا الكتاب الجميل الذي يتحدث عنوانه عن غروب شمس ، ويهييء جوهره لشروق شمس جديدة !

سمير سرحان وحرب الثقافة

بقلم: فاروق شوشة

هذا كتاب خادع المظهر، يبدو لقارئه ـــ من الوهلة الأولي ـــ ناعما أملس الوجه، لكنه سرعان ما يكتشف أنه كتاب يمتليء في كل صفحة منه بالألغام والمتفجرات الثقافية والفكرية، في إطار دعوة شاملة إلي المراجعة والمساءلة والنقد الذاتي وضرورة التغيير. وهو كتاب مكتوب بلغة سهلة واضحة ميسورة لكنها السهولة التي لا يحسن الجاهل تقليدها، والتي تخاطب القاريء العام كما تخاطب القاريء المتخصص والباحث المتعمق، وتظل محققة لمتعة القراءة وجدل الحوار بمعاودة الكشف عن طبقاتها ومستوياتها في الطرح والتحليل.

ثم هو كتاب لا يحلق كثيرا في فضاءات التنظير ومحاولة اصطناع الأفكار الكبري ـــ الملغزة والمعقدة ـــ مجاراة لما يفعله بعض مفكري هذا الزمان، ولا يهبط في الوقت نفسه إلي تفاصيل الواقع اليومي فتغرق الفكرة في زحام التفاصيل، وتتوه الدلالة في ضجيج الوقائع وصخب الأحداث والنماذج.

بهذا الكتاب الجديد حرب الثقافة الذي صدر ضمن سلسلة كتاب اليوم يعود سمير سرحان إلي خشبة مسرحه الحقيقي: الكتابة، بعد غيبة سنوات، انقطع فيها إلي دوره الثقافي ـــ البارز والمؤثر ـــ من خلال موقعه في رئاسة الهيئة المصرية العامة للكتاب. يقول سمير سرحان في مقدمة الكتاب: لقد توقفت عن الكتابة سنوات طويلة بسبب انشغالي بالإدارة، وبالدور الثقافي الذي أقوم به منذ أكثر من عشرين عاما. والذي يأخذ كل وقتي وجهدي. فهو عمل لا يتطلب فقط اتخاذ القرارات الإدارية، وإنما رسم السياسات والاستراتيجيات واقتراح الخطط وتنفيذ المشروعات الثقافية القومية الكبري في مجال الكتاب والموسوعات ومكتبة الأسرة وغيرها. إلي جانب معرض القاهرة الدولي للكتاب وزيارة معارض العالم خارج وداخل العالم العربي وغيره كثير مما يسمح الوقت أو الجهد به بعد أن بدأ الشباب يذوي وبدأت أيام العمر تتهاوي وتتواري واحدا وراء الآخر. لكن عودة سمير سرحان إلي الكتابة ـــ منذ انتهائه من كتابه السابق علي المقهي الذي استقبلته الحياة الثقافية استقبالا غير عادي باعتباره وثيقة لعصر وشهادة علي ميلاد جيل وتأريخا تسجيليا لمقهي عبدالله الشهير في الجيزة الذي كان من نجوم مجلسه محمود السعدني وزكريا الحجاوي وأنور المعداوي ومحمود حسن اسماعيل ورجاء النقاش وعبد القادر القط وغيرهم من المبدعين والأدباء الكبار والذي لم يكن مجرد مقهي بقدر ما كان في حقيقته جامعة شعبية يتعلم فيها الصغارمن الكبار والبادئون من الأساتذة، والطامحون الواعدون من أصحاب الهيبة والمكانة والتأثير ـــ هذه العودة تكشف بجلاء أن الكاتب

يصبح ــ كما كان يشعر ـــ ترسا صدئا في ما كينة معطلة تحتاج إلي الكثير من قطع الغيار، بل إنه لم يكد يمسك بالقلم ليكتب مقالاته في الصفحة الأخيرة من أخبار اليوم ـــ التي أصبح جزء كبير منها ما دة لهذا الكتاب ـــ حتي انثالت الخواطر وتدفقت الأفكار وتتابعت السطور. وأهم من هذا كله، عودته لموقعه الأساسي، متحررا من قيود الوظيفة ومسئوليات الموقع الذي يشغله. ذلك أن الكاتب الحقيقي ـــ عندما يكتب ـــ لا يفكر في كونه رئيس هيئة أو مؤسسة أو قطاع، تنتصب من أمامه المحاذير والضوابط والالتزامات، حريته تبدأ بالخروج من هذه الدائرة والتمرد عليها، ومسئوليته تتسع لتصبح مسئولية المثقف في التغيير والتنوير، لا تحدها حدود ولاتقف في طريقها لوائح أو توجيهات. ولذا كان وقع الكتاب ـــ بما يحتويه من رؤية نقدية ونظرة متحررة وطرح جدلي ـــ مفاجئا لقارئه، الذي اعتاد أن يقرأ في كتابات كثير من المسئولين التبرير لا التوجيه، والمسايرة لا النقد، والتغني بالايجابيات ـــ حتي لو كانت متوهمة ـــ لا إبراز السلبيات والنواقص، خاصة حين يتعرض الكاتب لموضوع شديد الحساسية وهو العلاقة بين المثقف والسلطة خاصة في ظل الأنظمة الدكتاتورية التي توالت علي العالم العربي، وكانت نظرتها جميعا إلي المثقف نظرة ريبة وشك بعد ان قسمت الناس إلي أصحاب ثقة وأصحاب خبرة وفضلت ـــ بالطبع ــ أصحاب الثقة دفاعا عن نفسها، وتدعيما لركائزها في السيطرة والحكم.

لكن المثقف الحقيقي ـــ في نظر سمير سرحان ـــ هو الذي يظل علي خلاف دائم مع مجتمعه استشرافا لمستقبل افضل.

فإذا تواءم مع مجتمعة وأعلن قبوله للأمر الواقع فإنه يتوقف عن أن يكون مثقفا ينشد التغيير، أو بمعني آخر يتوقف الحلم ويصبح بلا رؤية محددة أو موقف. والمثقف ـــ في تصور سمير سرحان ـــ موقف وليس مجموعة من المعارف التي يشعر بها رأسه علي مر السنين، وإنما ما تسفر عنه هذه المعارف التي حصلها من رؤية محددة للإنسان والمجتمع وربما الكون.

الدعوة إلي التغيير هي إذن جوهر الدور الذي ينبغي أن يقوم به المثقف العربي. وهو ـــ بهذا المعني ـــ في صفوف المعارضة دائما، يقود حركة التغيير إلي الأفضل، رافضا ان يتركها للسياسي وحده، فهذا هو الخطر الحقيقي. السياسة هي المتغير أما الأدب والثقافة والفن فثوابت الهوية والحضارة والتاريخ وحركة المجتمع. ووضع المثقف علي هامش المجتمع يذكرنا بالصورة التي قدمها أديبنا الكبير نجيب محفوظ للمثقفين في روايته البديعة ثرثرة علي النيل عندما انتهي بهم الأمر إلي حياة اللهو والمجون ومجتمع الغيبوبة والنزوات والكيوف بعد أن رأوا ان كل شيء يتم صنعه دون حاجة إليهم أو اخذ رأيهم. وسمير سرحان ـــ بحكم الوعي والخبرة ـــ يتحدث عن بعض ملامح التنوير العربي في العصر الذي كان فيه القادة الحقيقيون للمجتمع هم قادة الفكر والأدب والثقافة والفن:

عصر طه حسين والعقاد والحكيم ومختار وسيد درويش وأم كلثوم وعبد الوهاب وغيرهم من عمالقة الفكر والإبداع.

أما اخطر فصول حرب الثقافة الذي يكشف عنوانه عن التوجه الذي يراود عقل كاتبه وفكره، فهو الفصل الذي جعل عنوانه: وداعا للطبقة الوسطي. وهناك من الباحثين والمفكرين من سبق سمير سرحان إلي الحديث عن انهيار الطبقة الوسطي أو زوال الطبقة الوسطي والتأثيرات الاقتصادية والمجتمعية لهذا الانهيار أو الزوال ومنهم من تناول الموضوع في بعده العالمي، غير المقصور علي المجتمعات المصرية أو العربية. لكن سمير سرحان له فضل طرح القضية ومناقشتها في بعدها الثقافي، باعتبار ان المثقف جزء من نسيج هذه الطبقة وتكوينها وتعبير عنها. هذه الطبقة التي تضم المفكرين والعلماء والمهنيين ـــ المحامين والاطباء والمهندسين وغيرهم أدي انهيارها ـــ نتيجة اتساع الهوة بين طبقتين في المجتمع طبقة تمتلك كل شيء وطبقة لا تملك شيئا ـــ إلي سقوط سلم القيم، وانحسار موجات الابداع، وانتشار الثقافة السوقية والهابطة والفنون التي تخاطب الغرائز كما يحدث في السينما والمسرح والغناء، كما ادي هذا السقوط ـــ ويفضل البعض استعمال غيبة الدور بدلا من السقوط أو الانهيار ويرون أن الطبقة ـــ بالمعني الاقتصادي والاجتماعي ـــ لا تزال قائمة، لكن الذي تم سحقه وتدميره هو دورها في قيادة المجتمع والحفاظ علي قيمه الثقافية والفنية ـــ أدي هذا السقوط إلي اعتزال من اعتزل من المثقفين والمفكرين، يأسا وإحباطا، وهجرة من هاجر بحثا عن دور أو حياة بديلة خارج الوطن، فضلا عن تدهور مستويات الدخول مقارنة بالارتفاع المتزايد في أسعار السلع ومتطلبات الحياة. وهو الذي انعكس ـــ اقتصاديا ـــ في ركود المنتجات وافتقاد آليات الحركة في السوق وعدم الإقبال علي الشراء، ولجوء كثير من عارضي السلع ـــ خاصة في موسم الأوكازيونات ـــ إلي مكافأة المشتري لسلعة ما أو منتج ما يمنحه قطعة مجانية إذا اشتري قطعتين، أو حتي اذا اشتري قطعة واحدة، ومعني هذا ان هناك انهيارا في معدلات الاستهلاك نتيجة لا زمة السيولة المالية من ناحية، وارتفاع الأسعار من ناحية أخري وانهيار الطبقة التي كانت دائما عصب الشراء، باعتبار ان الطبقة العليا تشتري ـــ عادة حاجياتها ولوازمها من الخارج أما الطبقة الدنيا فتظل تحت خط الفقر أو حاجز الشراء!

يصور سمير سرحان بطريقته الواضحة المباشرة ما حدث لكثيرين من ابناء هذه الطبقة الوسطي الذين تركوا الوطن وسافروا وراء الحلم وكيف تم انهيار الحلم المصري البسيط عند هؤلاء الذين رحلوا في السبعينيات وأوائل الثمانينيات ليكتشفوا بعد العودة أن المروحة والخلاط وحتي الفيديو ـ التي احتضنوها عند عودتهم الي مطار القاهرة لم توفر لهم رغد العيش المنشود أو الذي كانوا يأملون فيه. وأن المسألة أصبحت أعقد من ذلك بكثير،

فقد اتسعت الهوة بين الطبقات فأصبح حلم شراء الشقة مستحيلا حتي مع التحويشة التي جلبوها معهم والتي مهما كبرت فهي لا تفي بشراء أو تملك أي شئ.

ولا يفوت سمير سرحان - أن يشيد بالدكتور رمزي زكي صاحب كتاب وداعا للطبقة الوسطي والذي جعل سمير سرحان من عنوانه عنوانا لهذا الفصل من فصول كتابه، خاصة أنه عزا انهيار الطبقة الوسطي الي تدهور مستويات الدخول والانخفاض السريع في مستويات معيشة هذه الطبقة الذي دفع بأعداد كبيرة من المهنيين والموظفين الي الهجرة بحثا عن دخل أعلي. وما نتج عن ذلك من مشكلات وأزمات عائلية ونفسية وتربوية. والذين لم يهاجروا اضطروا للبحث عن عمل إضافي وأنفقوا الساعات الطويلة في محاولة كسب ما يمكن أن يسد أفواه الأسرة بالكاد. فنتج عن ذلك تدهور في مستوي طاقتهم وصحتهم نظرا لا رتفاع ساعات العمل والتدني الشديد في مستوي إنتاجيتهم في وظائفهم الأصلية. وفي حالات أخري أخرجت أسر فقيرة كثيرة أطفالها من المدارس ودفعت بهم الي العمل المبكر للحصول علي مصدر إضافي للرزق - كما أدي الغلاء الي سوء التغذية وتدهور صحة المواطنين، وأدي ارتفاع الإيجارات وأسعار الشقق وزيادة معدلات التزاحم في الحجرة الواحدة ونمو ما سمي بالأحياء العشوائية وأحزمة الفقر الي مزيد من التدهور في أحوال الطبقة الوسطي.

من أطرف ما في هذا الكتاب - المثير بكل ما تضمنته فصوله من موضوعات وقضايا - أن مؤلفه لم يستطع التخلص تماما أو الابتعاد عن موهبته في التأليف الدرامي. فالفصل الآخير من الكتاب وعنوانه اثنان في القفص مشروع مسرحية من طراز رائع وعميق، لا ينقص هذه المسرحية إلا أن يعيد سمير سرحان النظر في السطور التي تركزت فيها الأحداث والعقدة والشخصيات الرئيسية والشخصيات الثانوية، والمكان بدلالاته وإيحاءاته، حتي تتجسد علي خشبة المسرح عملا مسرحيا ينبض بالسخرية والفكاهة اللاذعة والتأمل العميق النافذ والمغزي الذي لا يخفي علي القاريء أو المشاهد اكتشافه. اثنان في القفص تتحدث عن رجلين محبوسين داخل إحدي المكتبات الكبري في قلب القاهرة، يبدو أن موظفي المكتبة قد أغلقوا عليهما أبواب المكتبة في ساعة الاقفال دون أن يتنبهوا لوجودهما في داخلها. الرجلان الحبيسان يلوحان بجنون من وراء الواجهات الزجاجية لعل أحدا من المارة يلتفت إليهما ويهب للمساعدة. عسكري المرور في التقاطع المجاور يتنبه لتجمع الناس، وعندما يسأل الرجلين عن سبب وجودهما في المكتبة - التي ندرك من وصفها وموقعها أنها مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب في وسط المدينة - وتتصاعد المفارقة ودرجة الكوميديا حين يجيب أحد الرجلين بأنهما كانا يبحثان عن أحد كتب التراث. ويتسع المجال - بين جمهور المحتشدين - للحديث عن أخلاق القطاع العام وسلوكيات موظفيه العاملين في مثل هذه المكتبة وما أصابهم من تسبب وترهل وظيفي

وسياسي واجتماعي ووجودي مع التمسك بقشرة أخلاقية ودينية تنفي عنهم العجز عن الإنجاز.

سرعان ما تتسع دلالة الموقف لقفصين لا قفص واحد.

قفص فيه الرجلان الحبيسان وقفص آخر أكبر بكثير يتزايد عدد الواقفين فيه. وتتسع الحوارات والمجادلات لكلام عن العهد الشمولي والاشتراكية والبيزنس والشركات والقطاع الخاص والحقبة البترولية المباركة والهوية المصرية: فرعونية أم إسلامية خاصة أن أحد الرجلين داخل المكتبة يوضح أن التراث الذي كانا يبحثان عنه هو موسوعة مصر الفرعونية لعالم المصريات سليم حسن والتي صدرت أخيرا عن مكتبة الأسرة. يختتم سمير سرحان هذا الفصل - المسرحية بقوله: من بعيد جاء شخص يهرول ومعه الموظف المسئول عن المكتبة ومعه المفاتيح. وخرج الرجلان وانصرف الجميع في هدوء ما عدا شابا في العشرينيات ظل واقفا يستمع الي كل ما قيل دون أن يشترك في الحوار الذي دار. وعندما جاء شرطي المرور ليسأله: لماذا تقف هناك وحيدا وقد انتهي كل شيء؟ همهم الشاب: إنه يبحث عن مذكراته التي ضاعت وإنه يعيش الان بلا مذكرات. ربما كان قد نسيها داخل المكتبة أو في طيات كتاب سليم حسن. وربما سرقها أحد من الأجيال التي سبقته. ولكن المؤكد أنه يعيش الان بلا مذكرات. وسيظل يبحث عنها الي أن يجدها، حتي لو وقف أمام المكتبة الي أن تفتح أبوابها مرة أخري في الصباح.. أي صباح! قدرات سمير سرحان الدرامية لا تتجلي ففي في هذا الفصل الأخير من الكتاب، لكنها مبثوثة في سياقات العديد من الفصول التي تنبض بحرارة الدراما الحية قصصيا ومسرحيا. ففط حديثه عن ثلاث مدن هي: القدس وبيروت والكويت، تحت عنوان مدن للحزن ومدن للفرح وعن الموظف المصري في عصر الثورة الإلكترونية وعن الذين يلبسون المزيكا(بدءا من الصورة الشعبية المضحكة للذين يلبسون المزيكا في فرقة حسب الله وأمثالها وصولا الي مظاهر الحياة في العالم الثالث تظاهر بالعزف ولا يوجد عزف حقيقي وأصوات موسيقية، لكن بلا موسيقي حقيقية ودول متخلفة - تعاني جرثومة التخلف - تحاول أن تبدو علي غير حقيقتها عندما تعزف لحن التقدم وليست أكثر من دول تلبس المزيكا)، وفي حديثه عن قصته مع فرج فودة ومن يخاف يوسف إدريس، في كل هذه الفصول نفس قصص درامي يجيد رسم الشخصيات والأحداث والمواقف، ويجد لها في حبال قدرة فنية عالية، تسكب علي روح المقال ولغته نبضا متوترا وحرارة ساخنة. وتدفع بالقاريء الي المتابعة وأنفاسه لا هثة وراء التقاط المغزي والدلالة والإمساك بالجوهر والتفاصيل.

هل جاء هذا الكتاب - كما تصور البعض - ليكون امتدادا للكتاب السابق علي المقهي باعتبار أنه يمزج من الخبرة الشخصية والرؤية الأكثر اتساعا وشمولا، فينطلق من الخاص الي العام ومن الجزئيات الي الكليات ومن الدائرة الثقافية - مهما اتسعت - الي

الـدائرة الحـضارية الأوسـع والأشمـل دائـرة تحـديث الـوطن وصـياغة مـشروع المـستقبل. لكـن المواجهـة هنـا ـ في هـذا الكتـاب ـ تظـل أكثـر حـدة وعمقـا، وأسـلحة المقاتـل هنـا أكثـر اكتمـالا وعـدة وتهيـؤا، وصـبره علـي بعـض مـا يزخـر بـه مجتمـع المـثقفين أوسـع صـدرا وأطـول نفسا وخبرة.

لقـد عـبر سمـير سـرحان في هـذا الكتـاب كمـا قـال الكاتـب الكـبير كامـل زهـيري بحـق ــ عـن سـلطان الكلمـة، لا عـن كلمـة الـسلطان، فاسـتحق أن يـصنف ويوضـع في مكانـه الطبيعـي مثقفـا حقيقيـا صـاحب رؤيـة ومـشروع ولـيس مجـرد موظـف كـبير في وزارة الثقافـة مهمـا كـان حجم الوظيفة أو عمرها الافتراضي. !

طه حسين وكتاباته الأولى

بقلم: فاروق شوشة

لن تتوقف أبدا محاولات الاقتراب من مناطق الجاذبية الآسرة التي يشكلها عالم طه حسين أدبيا وفكريا وثقافيا وتنويريا ، والتحاما - شديدة الحيوية عميق التأثير - بالسهم الوطني والقومي في أبعاده السياسية والاجتماعية والتعليمية ، وانفتاحا خلاقا علي التراث الإنساني المعرفي في القديم والحديث .

يظل هذا العالم الرحب الفسيح ، المتعدد الجوانب ، لطه حسين يمنح لوارديه وقصاده زادا لا ينتهي ، ويعودون منه في كل مرة عودة القادم من بساتين دانية قطوفها ، ثمارها شهية رائعة ، وجناها سحره لا يقاوم .

لعل أروع مثال علي روعة هذا الاقتراب ، ما يقوم به الأديب والباحث الدكتور عبد الرشيد الصادق المحمودي في إطار مشروع متكامل ملك عليه أجمل سنوات عمره في البحث والتنقيب والتقصي للكشف عن جوانب كثيرة لا تزال مجهولة ، ولم يلتفت إلى ها الباحثون أو تحظ بالعناية الواجبة من حياة طه حسين ، ومساره التعليمي في الأزهر والجامعة المصرية القديمة والسوربون ، وكيفية تأثره بالمناهج التعليمية في كل هذه المراحل ، وبالأساتذة الذين التقي بهم وتتلمذ عليهم .

والدكتور عبد الرشيد أو عبد الرشيد الصادق كما عرفته في مستهل الستينيات شاعرا مرهفا ومترجما متمكنا وكاتبا إذاعيا مرموقا خلال عملي في إذاعة البرنامج الثاني (البرنامج الثقافي الآن) ١٩٥٨ -١٩٦٣ نموذج للمبدع المرهف الإحساس والباحث الدؤوب الجاد ، والمصري الشديد الحرص علي مصريته وشرقيته حتي النخاع ، بالرغم من ابتعاده الطويل عن الحياة الثقافية والأدبية المصرية ، منذ تلك الحقبة من الستينيات ، واتجاهه إلى لندن ثم إلى باريس ، طالبا للمزيد من المعرفة ، ومعمقا للكثير من ركائز علاقته مع الإنجليزية والفرنسية ، والثقافات الأوروبية والعالمية المعاصرة ، حتي ظهوره ثانية علي مسرح الحياة الثقافية في مصر منذ سنوات قليلة ، متوج الهامة بحصوله علي الدكتوراه ، محتشدا بالعديد من المشاريع الفكرية والثقافية ، التي في مقدمتها - ومن أهمها - مشروعه عن طه حسين . وكما حدث لكل باحثينا ودارسينا الكبار - الذين بدأوا مبدعين وانتهوا أساتذة وأكاديميين - تواري الشعر عند عبد الرشيد وتوجهت الدراسات والترجمات التي أصبح الشعر ذائبا فيها وعنصرا فاعلا في تجلياتها الأسلوبية والتعبيرية وصورها ومجازاتها البيانية الجميلة .

الدكتور عبد الرشيد ـ وقد أصبح يتنقل الآن طبقا لظروفه الحياتية والبحثية بين باريس والقاهرة ـ يقدم ثمرة جديدة من ثمرات مشروعه الكبير عن طه حسين في كتاب جديد بعنوان:

طه حسين: الكتابات الأولي حققها وقدم لها د . عبد الرشيد الصادق المحمودي . الكتاب صادر عن دار الشروق . وقد سبق هذا الكتاب كتابان يكملان دائرة هذا المشروع الأول صدر بالإنجليزية عن دار ريتشموند عام ١٩٩٨ عن تعليم طه حسين من الأزهر إلى السوربون والثاني صدر ضمن مطبوعات دار الهلال بعنوان الكتابات الفرنسية عن طه حسين .

في تقديمه لكتابه الجديد (طه حسين: الكتابات الأولي) يقول: كيف يجوز لنا أن نتخيل أننا نعرف طه حسين الكاتب إذا كنا نجهل تكوينه ؟ الواقع أننا لا يمكن أن نفهم تطوره في مرحلة نضجه حق الفهم إذا كنا نجهل تطوره في مختلف مراحل تعليمه . ذلك أن طه حسين لم يتعلم أولا ثم أصبح كاتبا: ولكنه تعلم صنعة الكتابة وأصبح كاتبا مرموقا وهو في مرحلة الطلب في الجامعة المصرية ـ وقد أرسي أسس تفكيره أثناء تعليمه النظامي ، خاصة إبان تعليمه في هذه الجامعة .

كانت الفترة التي شهدت صدور الكتابات الأولي لطه حسين فترة حافلة بالأحداث والتطورات الكبري في حياته . ففي سنة١٩٠٧ التقي بأحمد لطفي السيد وأخذ يتردد علي مكتبه في صحيفة الجريدة ـ لسان حال حزب الأمة ـ التي كان يديرها . ثم أصبح طه حسين أحد تلامذته المقربين . وفي سنة١٩٠٨ بدأ ينشر مقالاته في الجريدة ، وتواصل إنتاجه بغزارة لا فتة للنظر حتي سنة١٩١٤ عندما ألف رسالته عن أبي العلاء .

فقد عني طه حسين بنشر رسالته في سنة١٩١٥ . بينما أهمل جمع مقالاته المبكرة . وتابعه في ذلك دارسوه فصاروا يؤرخون لحياته الأدبية بداية من كتابه عن أبي العلاء .

وليس من السهل تحديد الأسباب التي دفعت طه حسين إلى إهمال كتاباته الأولي . هذا الكتاب يقدم هذه الإجابات الأولي ويحاول الإجابة عن الأسئلة المطروحة حولها .

في المقدمة التحليلية الضافية التي صدر بها الدكتور عبد الرشيد كتابه الجديد ـ والتي استغرقت سبعين صفحة من القطع الكبير ـ يحدد هدفه بوضوح . فالكتاب ثمرة وتكملة لكتابه الآخر الذي نشره من قبل بالإنجليزية عن تعليم طه حسين من الأزهر إلى السوربون .

(وقد علمت منه أنه قد ترجم الكتاب إلى العربية وسوف يصدر ضمن المشروع القومي للترجمة عن المجلس الأعلي للثقافة) متناولا بالبحث بدايات طه حسين كطالب وكاتب ، مدققا النظر بصفة خاصة في تعليمه بالجامعة المصرية في أول عهدها - عندما كانت جامعة أهلية - وفي كتاباته المبكرة التي نشرها في تلك المرحلة .

وقد بوب هذه المقالات أو النصوص التي جمعها لطه حسين في بابين رئيسيين وملحق . الباب الأول بعنوان: بين الأزهر والجامعة يتناول أربعة نصوص لطه حسين عن الأزهر وتعاليم الدين والجامعة والنهضة . والباب الثاني بعنوان: مقالات في النقد وتاريخ الأدب تتناول نصوصا عن الآداب العربية في الجامعة ، وسجالا نقديا بين طه حسين وجورجي زيدان صاحب دار الهلال ، والنقد: حقيقته وأثره في الأمم وشروطه ومضار الغلو فيه ونصا متسائلا عن استرداد اللغة لمجدها القديم ونصوصا عن حياة الآداب - تسعة نصوص - مضافا إلى ها نصتين رأي الدكتور عبد الرشيد إثباتهما ضمن ما دة الكتاب بالرغم من أنهما كتبا عام ١٩١٥ - بعد حصول طه حسين علي الدكتوراه في ما يو١٩١٤ - وهما عن حياة الخنساء ، ثم ملحقا عن تاريخ آداب اللغة العربية وردا من جورجي زيدان علي طه حسين .

الدكتور عبد الرشيد يقدم لقارئه نموذجا للدراسة التحليلية البديعة للنصوص في إطارها التاريخي . من هنا كان التفاته إلى الوقفات التي تمثل إضاءات أساسية في التطور الفكري والمنهجي لطه حسين في مرحلة ما قبل الدكتوراه . فهو يتوقف مثلا عند مقالتي طه حسين المبكرتين عن الأزهر ونقده لتقصيره في أداء رسالته من ناحيتين: ناحية الفكر الذي يختلط فيه العقل بالخرافة وناحية اللغة التي تخفي بتعقيدها الفكر وتصرف العقول عنه (وهو حكم مرتبط بطبيعة الدراسة في الأزهر ومناهجها في ذلك الوقت المبكر من بدايات القرن العشرين) وكيف أن المقالتين تكشفان عن استعداد مبكر لكتابة ما يسمي بالسيرة الذاتية عندما يكتب طه حسين رائعته الأيام بعد هذا التاريخ بسنوات طويلة ، وكأنهما تكشفان عن البذرة الجنينية الأولي لقصة الأيام متضمنة أسلوب القص الذي استخدمه المؤلف فيما بعد وهو أسلوب ينفصل فيه الراوي عن ذاته ليتحدث عنها بضمير الغائب ثم يلغي المسافة بينه وبينها ويعود إلى ها ويصبح الراوي هو المروي عنه في لحظة من الاعتراف أوالبث المباشر . أيضا في اكتشافه لا همية دراسة التاريخ . وهو يتحدث عن لذة الكشف عندما تلقي أول درس له في التاريخ في الجامعة ويقول: وكانت هذه البيئة الجامعية تتيح له علما يخلق نفسه خلقا جديدا لا يتصل بالنحو ولا بالفقه ولا بالمنطق ولا بالتوحيد ، وإنما يذهب به مذاهب مختلفة في الأدب وفي ألوان من التاريخ لم يكن يقدر أنه سيعرفها في يوم من الأيام . ولم ينس الفتي يوما خاصم فيه ابن خالته — الذي كان طالبا في دار العلوم — ولج بينهما الخصام ، فقال الدرعمي للأزهري: ما أنت والعلم ؟

إنمـا أنـت جاهـل لا تعـرف إلا النحـو والفقـه ، لم تـسمع قـط درسـا في تـاريخ الفراعنـة ! أسمعت قط اسم رمسيس أو اخناتون ؟ .

وبهـت الفـتي حـين سمـع هـذين الاسمـين وحـين سمـع ذكـر هـذا النـوع مـن التـاريخ . واعتقـد أن الله قـد كتـب عليـه حيـاة ضـائعة لا غنـاء فيهـا . ولكنـه يـري نفـسه ذات ليلـة في غرفة مـن غرفـات الجامعـة يـسمع الأسـتاذ أحمـد كمـال ـــ رحمـه الله ـــ يتحـدث عـن الحـضارة المـصرية القديمـة ويـذكر رمـسيس واخنـاتون وغيرهمـا مـن الفراعنـة ، ويحـاول أن يـشرح للطـلاب مذهبـه في الـصلة بـين اللغـة المـصرية القديمـة واللغـات الـسامية ومنهـا اللغـة العربيـة . والفتي دهش ذاهـل حـين يـسمع كـل ذلـك العلـم ، وهـو أعظـم دهـشة وذهـولا حـين يلاحـظ أنـه يفهمه ويسيغه في غـير مـشقة ولا جهـد . ويتـساءل الـدكتور عبـد الرشـيد عـن سر هـذا الافتتـان بـالأدب والتـاريخ ؟ ولمـاذا شـعر الفـتي الأزهـري أن مـصيره مـرتبط بدراسـة التـاريخ ؟ يجيـب قـائلا: يبـدو أنـه وجـد في دراسـة الأدب والتـاريخ منفـذا للتحـرر مـن قيـود الدراسـة الأزهريـة ودورانهـا في نطـاق المتـون ومـا تـراكم عليهـا مـن شـروح وحـواش وتقريـرات ، هـذا المنفـذ هـو الذي سيقوده مـن بعـد إلى موضـوعه للـدكتوراه عـن أبـي العـلاء الـذي سـيعيد نـشره تحـت تـسمية جديدة هي تجديـد ذكـري أبـي العـلاء . وهـو الـذي سـيقود خطـاه الفكريـة والمنهجيـة بعـد ذلـك إلى مقاليـه المهمـين عـن حيـاة الخنـساء في عـام ١٩١٥ بعـد حـصوله علـي الـدكتوراه وقـضائه عـام ا مـن بعثتـه العلميـة في فرنـسا وأهميـة هـذين المقـالين ـــ أو المقـال في جـزءين ـ ليـست في أنهمـا يلقيـان ضـوءا جديـدا علـي شـعر الخنـساء أو شخـصيتها الأدبيـة ، أو يقـدمان تحلـيلا لعـدد مـن نـصوصها ـــ علـي الـنهج الـذي سنطالعه لطـه حـسين إبـان نـضجه واكتمـال أدواتـه ومنهجـه في كتاب حديث الأربعـاء ـــ وإنمـا لا نهمـا يقـدمان بـذرة الـشك الأولـي الـتي سـتمثل جـوهر منهجـه ورؤيتـــه للـــشعر الجـــاهلي كلـــه في كتابـــه في الـــشعر الجـــاهلي الـــذي صـــدر عـــام ١٩٢٦ ، بعـد كتابـة مقاليـه عـن الخنـساء بأحـد عـشر عـام ا ، فهـو يـشكك في الوجـود التـاريخي للخنـساء قـائلا في الجـزء الأول مـن مقالـه الـذي نـشره في جريـدة النـور: فهـل هـذه الـسيدة شـخص تـاريخي ؟ لا . ليـست الخنـساء شخـصا مـن أشـخاص التـاريخ ، لا ن أخبارهـا وحـوادث حياتهـا لم تـدون إلا بعـد أن مـضي عليهـا أكثـر مـن قـرن . فمـن الجـائز ، بل من الحق الذي لا شـك فيـه أن أخبارهـا وآثارهـا قـد عبـث بهـا النـسيان فـنقص منهـا مـا لـو بقـي لنـا لهـدانا إلى شـئ ربمـا كـان ينفعنـا في الـدرس . وقـد بـالغ فيـه الخيـال فـزاد فيهـا مـا عـسي أن يخفـي علينـا مـن أمرهـا وجـه الـصواب . الخنـساء إذن شـخص يبحـث عنـه علـم مـا قبل التاريخ .

والـدكتور عبـد الرشـيد محـق في تعليقـه علـي هـذا الكـلام وهـذه المقالـة بقولـه: إنهـا تـستأنف حـديثا عـن الـشعر الجـاهلي كـان طـه قـد بـدأه في غـضون الفـترة المـذكورة (خـلال مـساجلاته النقديـة الـتي دارت بينـه وبـين جـورجي زيـدان صـاحب دار الهـلال) وتتـضمن

فيما يبدو علامة مهمة من علامات الطريق الذي سلكه طه نحو الشك في صحة الشعر الجاهلي .

بهذا المعني ، تصبح فكرة الشك فكرة جوهرية وأساسية عند طه حسين ، لها اتصالها الوثيق بمكونات شخصيته وطبيعته الإنسانية والفكرية حتي من قبل أن يلتقي بفلسفة ديكارت التي نسب إلى ها الباحثون تأثيرا محوريا في منهج طه حسين ، بالاضافة إلى تأثره ــ من وجهة نظرهم ــ بالمستشرقين الذين درسوا له في الجامعة الأهلية من أمثال الإيطاليين الثلاثة جويدي ونالينو وسانتلانا والألماني لتمان والفرنسي ما سينيون ، أو كتابات المستشرق الإنجليزي ما رجليوت .

لست أحاول في هذه العجالة أن أقدم عرضا أمينا لهذا الكتاب ، ولا مناقشة لا هم ما يتضمنه من قضايا وموضوعات وما يثيره من تساؤلات جديدة تتطلب إجابات أوفي وأشمل ــ سواء بالنسبة للمقدمة الضافية التي قام بها محققه الدكتور عبد الرشيد الصادق ، والتي يمكن اعتبارها ــ وحدها ــ أطروحة جامعية تتناول نصوص طه حسين التي لا نعرفها والمجهولة بالنسبة لعديد الباحثين والدارسين ، والتي تمت كتابتها قبل حصوله علي الدكتوراه ، أو بالنسبة لهذه النصوص ذاتها التي تكشف في سياقها وتبويبها ــ الذي اعتمده الباحث ــ عن ملامح التطور وركائزه وإشراقاته في فكر طه حسين ومنهجه عبر مراحله التعليمية في الأزهر والجامعة من خلال كتاباته في تلك الفترة . وهو ما يكشف لنا بجلاء عن طبيعة الجهد والمشقة التي تكبدها الدكتور عبد الرشيد وهو يجمع هذه النصوص ذلك أن كثيرا من المصادر التي ظهرت فيها هذه النصوص لم يعد متاحا في دور الكتب ، إما لا نه في حالة رثة أو لا نه تسرب إلى أيد مجهولة أو لعله اندثر (صفحة١٤ من الكتاب) أو وهو يقول في تصدير الكتاب: الواقع أن جمع هذه النصوص من مصادرها المبعثرة التي توجد الآن في حالة يرثي لها لم يكن بالمهمة السهلة . فبعض مقـــــالات ط

ه حسين التي نشرت في أعداد من الجريدة لا توجد أو ليست متاحة في دار الكتب المصرية ، ولكنها لحسن الحظ متاحة في مكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت . ثم وهو يرفع صوته منبها ومحذرا: ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أشير إلى الحالة المزرية التي توجد فيها الصحف والدوريات القديمة في دار الكتب المصرية وأن أهيب بالمسئولين أن يسارعوا بإنقاذ هذا التراث القومي الذي يخيل إلى ــ وأرجو أن أكون مخطئا ــ أن بعضه قد اندثر ، وأن البقية الباقية ستلقي نفس المصير إذا لم تتخذ الاجراءات المناسبة قبل فوات الأوان .
وأنا أعلم أن الصديق الكريم الدكتور صلاح فضل ــ رئيس هيئة دار الكتب والوثائق القومية ــ يضع هذا الأمر في مقدمة أولياته ، وكان مطروحا للبحث في آخر اجتماع لمجلس إدارة الهيئة منذ أيام قليلة ، والأمل معقود علي الوزير المثقف المستنير الدكتور مدحت حسانين

وزيـر الماليـة في دعـم دار الكتـب والوثـائق القوميـة بالمـال الـلازم رعايـة لهـذا الـتراث وحفظـا لـذاكرة مـصر وثروتهـا مـن الوثـائق والمخطوطـات والـدوريات ـــ الـتي لا تقـدر بـألوف الملايـين ـــ باعتبـار الأمـر قـضية قوميـة عاجلـة لهـا أهميتهـا القـصوى . وهـو مـا سـيتيح لبـاحثين جـادين من أمثـال الـدكتور عبـد الرشـيد الـصادق المحمـودي ـــ في مـشروعه المتكامـل عـن طـه حـسين ، وغـيره مـن مئـات البـاحثين وملايـين القـراء ـــ فرصـة الاطـلاع والبحـث والدراسـة والتحقيـق ، والخروج بثمار شهية كهذه الثمار .

يبقـي أن يعجـل المـشروع القـومي للترجمـة بإصـدار كتـاب الـدكتور عبـد الرشـيد ـــ الـذي ألفـه بالانجليزيـة ـــ لتكتمـل حلقـات هـذه الثلاثيـة البحثيـة الجـادة عـن طـه حـسين ، الـذي لا يـزال أكـبر بكـثير مـن أبنائـه وأحفـاده ولايـزال ظلـه العـريض الممتـد يغمـر رحابـة هـذا الـوطن بأقبـاس مـشروعه التنـويري الرائـد واسـتاذيته الـتي يفخـر بهـا تلامذتـه مـن أسـاتذة هـذا الزمان .

صورة نجيب محفوظ في ثلاث مرايا جديدة

بقلم: فاروق شوشة

لاأعرف أحدا يصدق عليه قول الشاعر القديم:

كالبحر يقذف للقريب جواهرا

جودا ، ويبعث للبعيد سحائب

كما يصدق علي كاتبنا الكبير نجيب محفوظ ، لا يكاد يقترب منه أحد إلا ويعود حاملا ثمرة هذا اللقاء: فكرا وعلما وفنا وحكمة ، فضلا عن حرارة اللقاء ، وبساطته العميقة وتلقائيته وشفافيته وامتلائه بالفكاهة والتندر والروح المصرية الأصيلة . القريبون منه يظفرون بجمال حضورهة الإنساني وجلاله وصدقه وعذوبته ، والبعيدون يظفرون بمتعة قراءته ومعرفته من خلال فنه العالي وفكره العميق وأفقه الإنساني الرحب ونماذجه الروائية التي يجسدها بقلمه ويمنحها حياة متجددة ، لا تبلي ولاتزول . وهو ليس فقط كالبحر ، بل هو أيضا كالمنجم العامربالكنوز ، المتلئ - في ثنايا طبقاته الجيولوجية - بالمعادن النفيسة ، والثروات الهائلة . وفي كل كتاب من كتبه ، وكل لقاء أو حوار معه ، يقذف هذا المنجم ببعض جواهره ، دون أن ينضب أو ينفذ .

ولايزال نجيب محفوظ - بشخصه وحضوره الإنساني ، وبإبداعه الرفيع في كتاباته الروائية والقصصية - عالما شديد الجاذبية ، مثيرا للاهتمام والدراسة والتأمل والتحليل ، مفجرا لمساحات هائلة من الحب والإعجاب والتقدير في وجدان قرائه وعارفيه ، مشجعا للكثيرين علي محاولة الاقتراب منه ، والاغتراف من هذا البحر الزاخر بالكنوز ، وهذا المنجم المتوهج بالماسات النادرة المشعة .

وفي مناسبة الاحتفال بعيد الميلاد التسعين لنجيب محفوظ ، أطلت علينا ثلاثة كتب جديدة عنه تراه وتتأمله وتكتب المزيد ، من خلال عيون عميقة النفاذ والرؤية الحميمة ، قادرة علي التقاط أدق التفاصيل ، وأبسط الكلمات والعبارات ، التي تشكل في مجموعها وتكاملها بانوراما غنية شاملة عنوانها: نجيب محفوظ: المبدع والإنسان .

أول هذه الكتب نجيب محفوظ أمير الرواية العربية بقلم سلوي العناني: الكاتبة والأديبة والصحفية الأهرام ، صدر عن مكتبة الدار العربية للكتاب ضمن سلسلة الرواد العرب في في العلم والثقافة والفن والتي أتيح لها الاقتراب الحميم من نجيب محفوظ وصحبته لسنوات طويلة متجاورين في الأهرام وهي تقدم لكتابها الجميل بسطور يمكن أن تكون مقدمة للكتب الثلاثة التي صدرت عن نجيب محفوظ تقول فيها: هذا رجل مصري مخلص

لمصريته ، ولد في أحد الأحياء الشعبية بالقاهرة ، وعاش وسط أهلها البسطاء الكادحين ، فأحبهم وأحس بنبضهم الصادق .

أخلص لشعبيته وبساطته فلم ينتزع نفسه من بينهم . تعود أن يقطع الطرق مشيا علي قدميه ، يتأمل سلوك البشر العاديين ويحس آلامهم ، وإذا أرهقه السير أو أحب أن يلتقي بصديق ، كان اللقاء في أحد المقاهي فيجلس وسط الناس ومعهم .

ثم تقول سلوي العناني: إذا جالست نجيب محفوظ ، فإن لحظات قليلة كفيلة بأن تكسر كل الحواجز بينكما ، حاجز السنوات والخبرة وحجم العطاء ، ستراه ودودا رقيقا ، وإذا طلب فنجاج القهوة رشف الوش فقط وترك بقية الفنجان .

صمته تأمل ، حديثه مقتضب ، ضحكته صافية من القلب ، حاضر النكته ، عفيف اللسان ، حسن الظن بالأخرين . وهو فوق كل هذا ابن بلد ، يهش للقائك مهما كنت صغيرا ، ويرحب بك ويصر علي أن تأخذ واجب الضيافة .

أحب نجيب محفوظ مصر ، أحبها بكل ما يملك من حب ، وأخلص لها بكل ما يملك من اخلاص ، ففتش عن آلامها وكشفها وشخصها ، واقترح لها العلاج أو ترك العلاج لمن يمتلك وسائله . كانت سعادة الناس هي شاغله ، فلم يصمت يوما ، كتب وكتب ، يكشف الظلم ويعريه ، ويفضح الزيف والنفاق ، ويرسم صورا من قاع المجتمع لهؤلاء المنسيين والمطحونين ، ويبدع نجيب محفوظ ويضع أفكاره في القالب الفني الذي استطاع أن يقدمه للقارئ العربي بصورة ناضجة - فن الرواية- بعد أن عاش سنوات الطفولة ومحاولات الاكتمال علي يد من سبقوه .

وأصبح نجيب محفوظ ملء السمع والبصر ، بين قراء أمته العربية ، يعرفون ويعرفون كل أعماله . ويتجاوز الكاتب الكبير حاجز اللغة ، ويعبر إلى بقية الثقافات من خلال الترجمات المتعددة ، وفي عام ١٩٨٨ تناقلت وكالات الأنباء نبأ حصول أول عربي علي إحدي جوائز نوبل ، وكان نجيب محفوظ هو هذا الأديب الذي كتب اسم نوبل بحروف عربية .

من أجمل فصول هذا الكتاب الريبورتاج الأدبي صورت فيه بكل اقتدار موهبتها الصحفية والقصصية تفاصيل يوم إعلان حصول نجيب محفوظ علي نوبل ، يوم الخميس١٣ أكتوبر١٩٨٨ منذ وصوله في الصباح إلى مكتبه في جريدة الأهرام ، الحجرة رقم٦٠٧ بالدور السادس من المبني حتي معرفته بالنبأ . ولايفوتها أن تسجل العبارة الرائعة التي وجهها نجيب محفوظ في رسالته الشاكرة إلى لجنة الاحتفال بالجائزة في الحفل الذي اعتذر عن عدم حضوره ، وهو يقول: أنا ابن حضارتين تزاوجتا في عصر من عصور التاريخ زواجا موفقا ، أولاهما عمرها سبعة آلاف سنة ، وهي الحضارة الفرعونية

، وثانيتهما هي الحضارة الإسلامية . قدر لي - ياسادة - أن أولد في حضن هاتين الحضارتين ، وأن أرضع لبنهما وأتغذي علي آدابهما وفنونهما . ثم ارتويت من رحيق ثقافتكم الثرية الفاتنه . ومن وحي ذلك كله ، بالإضافة إلى تجربتي الخاصة ندت عني كلمات أسعدها الحظ باستحقاق تقدير أكاديميتكم الموقرة ، فتوجت اجتهادي بجائزة نوبل الكبري . فالشكر أقدمه لها باسمي ، وباسم البنات العظام الراحلين من مؤسسي الحضارتين .

الكتاب الثاني في ترتيب صدوره هو ثرثرة مع نجيب محفوظ للكاتبة والمحاورة البارعة سهام ذهني ، صدر ضمن مطبوعات كتاب إلى وم ، في شهر فبراير الماضي . وهو كما ذكرت المؤلفة : خلاصة عشرات الحوارات معه في موضوعات عديدة ، بداية من الأدب ومرورا بالحديث عن والدته وزوجته وابنتيه ، ووصولا إلى الحديث عن أمريكا التي وصفها بأنها أكبر فتوة في العالم الجديد . وعلاقتها بنجيب محفوظ قديمة وممتدة ، منذ أول لقاء لها معه من حوالي ربع قرن ، مرورا بنوبل ، وحتي إلى وم تقول سهام ذهني : هو نفسه لم يتغير ، بسيط ، حبوب ، ابن بلد ، لم يعرف الغرور طريقه إلى نفسه أبدا ، بل يتعامل دائما بمنطق أن المعلم يعيش يتعلم ، بالرغم من أن الحقيقة هي أننا نحن الذين نتعلم منه الدقة والدأب والإخلاص والتواضع .

ولم تكن الكاتبة في حاجة إلى تفسير أو تبرير عنوان كتابها وهو ثرثرة مع نجيب محفوظ ، فنحن ندرك جميعا كإدراكها بالطبع - أن كل ما يقوله سواء عبر الأدب أو عبر الحديث معه هو كلام يضيف دائما ويطرح قضايا مليئة بالثراء . وعندما يكون الحوار مع الكاتب الكبير نجيب محفوظ فإن الثرثرة تتحول - عن جدارة - إلى درر ولآلئ وحكم شديدة الإيحاء ، وبوسعه دائما أن يقول أعمق المعاني في أقل الكلمات . قيمة هذا الكتاب الأساسية تتمثل في أن ثرثرة الحوارات الجميلة فيه اتسعت لكل ما هو خاص وماهو عام في عالم نجيب محفوظ الإنسان والمبدع . لم تترك شاردة ولا واردة ، ولاشيئا يمكن أن يخطر علي بال قارئه أو من يحلم بلقائه عن قرب . ولو أن إجابات نجيب محفوظ علي أسئلة سهام ذهني في هذا الكتاب جمعت بشكل متصل - دون أن تخترقها الأسئلة - لكانت بمثابة أجمل وأطول بوح اعترافي أدلي به نجيب محفوظ حول أمور لا تخطر لنا علي بال ، لا يعني بها كثيرا دارسو الأدب ونقاده ومؤرخوه ، لا نهم ينشغلون بأمور أخري وقضايا يرونها جوهرية وأحق بالاهتمام وإلقاء الضوء كما فعل الناقد الكبير رجاء النقاش في كتابه البديع عن نجيب محفوظ والذي هو تسجيل أمين لحوارات طويلة ممتدة استغرقت سنوات متصلة .

من أروع صفحات هذا الكتاب الجميل الممتع وحواراته ، ما قامت به سهام ذهني من اقتحام الدائرة الابداعية التي يعيش فيها نجيب محفوظ وهو يكتب قصصه

القصيرة جدا الشديدة التركيز والتكثيف إلى أقصي حد ، والتي سماها أحلام فترة النقاهة وهي تسائله : هل قصص أحلام فترة النقاهة هي أحلام حقيقية أم هي رؤية في إلى قظة ، فيجيب :

هي في الأصل حلم حقيقي . سأروي لك مثلا يوضح كيف تأتيني فكرة أحلام فترة النقاهة . مثلا أنا حلمت مؤخرا أني جالس مع مجموعة نستمع إلى الشيخ زكريا أحمد . وهذا المشهد كان له أصل في الحياة . فأعجبتني الفكرة وسرت فيها إلى أن وصلت إلى رجل معلق من ساقيه بينما رأسه يصل إلى مية نار ولاأحد يشعر به ، عندما وصلت إلى هذا شعرت بارتياح إلى أن القصة قد صارت شيئا متكاملا ، وبدأت أكتبها ، إلى أن إنتهيت من كتابتها في قعدة واحدة ، لا نني لا أستطيع أن أكتب لمدة أكثر من ربع ساعة أو نصف ساعة . فالبداية الآن هي الحلم . ولو لم يكن هناك حلم لا تكون هناك كتابة . وأحيانا يأتي الحلم لكن لا يوحي بقصة فلا أكتبه . فما كنت التقطه من الحياة والواقع الذي حولي أصبحت ألتقطه من الحلم ، لا نني الآن لم أعد قادرا علي أن أتصل بالواقع ، ولم أعد قادرا علي أن اتحرك مثل زمان ولاأذهب إلى المقاهي والجلسات التي التقط منها أفكار أعمالي .

ويضيف نجيب محفوظ في معرض الرد علي استفسار آخر . أنا عندما لم يعد بصري يسعفي ولاسمعي لكي أتلقي من منابع الابداع فيما حولي عشت في معاناة بسبب ما بداخلي من رغبة شديدة في أن أكتب . فكنت أسأل نفسي طوال الوقت : كيف أكتب ؟ كيف أكتب ؟ كيف أكتب ؟ إلى أن وجدت أن هناك واقعا لم يتمكن العجز من إبعاده عني هذا الواقع هو الحلم فقفشت فيه .

وتعلق سهام ذهني علي قوله فقفشت باعتبارها كلمة شديدة الدلالة ، وعندما تعلق قائلة : أنت تعطي الناس قيمة جميلة هي أهمية الاستمرارية والتفاؤل فأنت لم تستسلم أمام ضعف النظر والسمع ، وإنما بحثت عن سبيل إلى أن اكتشفته في الحلم ، فيفاجئها نجيب محفوظ بقوله : ومن حسن حظي وجود الأستاذة سناء البيسي وتحمسها لنشر قصصي الجديدة ، فقد كان من الوارد أن أقدم هذه القصص بما تتضمنه من رؤية جديدة لناشر آخر ويكون رأي هذا الناشر الأخرمن رأي الأستاذ يوسف القعيد ويقول لي هذه ليست قصصا !

هذا كتاب يظلمه عنوانه ، وإن كان عنوانا صحفيا جذابا ، لكنه يحوي من متعة الاكتشاف ما لا تحويه كتب شديدة الجدية والتجهم عن نجيب محفوظ . والفضل لمؤلفته : النحلة التي لا تتوقف عن التحليق والاقتراب ، لتنهل من رحيق نجيب محفوظ ، ثم لتسكب بعض قطرات هذا الرحيق علي صفحات هذا الكتاب ، معطرا بعطر نجيب

محفوظ المنتشر ملء فضاء بستانه الجميل في عالمه الروائي والقصصي ، وفي تكامله البديع: مبدعا وإنسانا .

الكتاب الثالث في ترتيب الصدور هو أساتذتي لنجيب محفوظ بقلم الكاتب والمحقق الأدبي الدؤوب إبراهيم عبد العزيز ، المتفاني في الكشف عن العوالم الإبداعية والشخصية للعديد من أعلامنا الكبار المعاصرين والذي قدم من قبل كتبه المتعة عن توفيق الحكيم وحسين فوزي ويحيي حقي .

هذا الكتاب الجميل ، الحافل بالمتعة الجادة ، يكشف لنا أين الأصل العاشر عن أحد الوجوه الاصيلة في تكوين نجيب محفوظ وشخصيته وهو وجه التواضع والاعتراف بفضل الأخرين ، وفي مقدمة هؤلاء الأخرين من يعتبرهم - وهو الكاتب الكبير الحائز علي نوبل - أساتذة ومعلميه في رحلة الحياة والإبداع وهم بحسب فصول الكتاب: يحيي حقي: القنديل ، وتوفيق الحكيم: الأستاذ الصديق ، والعقاد: الحرية ، وطه حسين: الثائر والشيخ مصطفي عبد الرازق: المفكر النبيل ، وحسين فوزي: السندباد ، وسلامة موسي: رجل المستقبل . لكن مؤلف الكتاب - إبراهيم عبد العزيز - لا يغيب عن ذكائه دور الوطن في تكوين نجيب محفوظ ، وتعبيره في سطور تكاد تكون شعرا لبلاغتها وبساطتها وصدقها النابع من القلب لتصب في القلب وهي سطور متنزعة من حديث نجيب محفوظ إلى مصطفي بدر ومحمود الشربيني في صحيفة الأنباء الكويتية في شهر تسليم جائزة نوبل - ديسمبر١٩٨٨ ، يقول في هذه السطور:

مصر ياوطني
غاص قلمي في نيلك
فكان مداده ذهبا
وحروفه نورا
وسطوره أصالة
وصفحاته المكتوبة ناصعة الحقيقة
مصر ياوطني
بدءا من درب قرمز
ومرورا بالجمالية
والحسين
والسيدة
وانتهاء بأهرامك
وسدك العالي
دعيني أنحني لك !

إجلالا وشكرا
فلولاك لما انتبه أحد
ولا التفت
ولاعرف باسم الحروفوش:
نجيب محفوظ !

يكمل هذه القصية البديعة في حب مصر والتعبير عن فضلها وعطائها وأستاذيتها ــ التي تسبق أستاذية الأساتذة المذكورين في الكتاب ـ يكملها كلمات بوح واعتراف صادق لنجيب محفوظ يقول فيها: عندما أكتب أتذكر ـ لا إراديا ـ من علموني في الكتب أو في المدارس ، ولذلك فحين أفكر في الخدمات التي قدمها لي من كونوني ثقافيا أشعر أنني مدين بأكثر من ديون مصر .

لذلك عندما اقدم رواية لي بالطبع أسأل نفسي .

عما لي فيها ؟
هل هي اللغة ؟
إن اللغة موجودة منذ أيام الجاهلية !
هل هو الفكر ؟
إن الدنيا مليئة بالأفكار !
هل هي المذاهب ؟
أنشأها ناس دفعوا ثمنها غاليا !
هل هو الفن ؟
إنه موجود في كل مكان !
إذن ما الذي أكون قد فعلته لا ستحق أن يوضع اسمي علي رواية لي ؟

بالطبع لن نوافق نجيب محفوظ علي هذه الإجابات الظالمة ـ وغير الحقيقية ـ التي يقدمها لتساؤلاته . فالذي فعله في اللغة هو أنه كتب بلغة نجيب محفوظ وليس باللغة الموجودة منذ أيام الجاهلية ، وطرح في عالمه الروائي والقصصي فكرا هو فكر نجيب محفوظ وليس فكر سواه ، والفن الذي أبدعه هو فن يحمل بصماته وسماته الشديدة الخصوصية والمغايرة والاختلاف عن الأخرين . لكنه تواضع نجيب محفوظ المعهود ، الذي يوغل هذه المرة في درجة أكثر بعدا فيأبي ـ وهو المبدع العملاق ـ إلا أن يجرد نفسه من كل فضل أو تميزه لدرجة أن يستحي من وضع اسمه علي رواياته ؟

أي درس تقدمه هذه السطور لبعض من يتوهمون من كتابنا ـ أنهم جاوزوا نجيب محفوظ في فنه وإبداعه ، وأنهم أكثر تطورا وعصرية وحضورا منه ، يقولون هذا بعيدا

عنـه ، ثـم يقابلونـه بالأحـضان والقـبلات ، ولابـد أن تواضـعه هـذا يطمعهـم ويجعلـهم - في لحظـة مـن لحظـات غيبـة الـوعي - يـصدقون أنفـسهم ، فينـسبون إلى أنفاسـهم مـن المكانـة والمنزلة الأدبية ما لا يصدقه سواهم من الواهمين !

مـن بـين أحاديـث نجيـب محفـوظ عـن أسـاتذته ، تنـدي كلماتـه عـن أديبنـا الكـبير يحيـي حقـي بمحبـة خاصـة وتقـدير عميـق ، وتتعطـر بـأريج تلـك العلاقـة الجميلـة مـن المحبـة والتقدير المتبادل بين الأدبيين العظيين .

يقـول نجيـب محفـوظ: كـان كـل منـا يهـدي كتبـه للآخـر ، وعلـي قلـة مـا أبـدع الأسـتاذ يحيـي حقـي ، فـإن كـل آثـاره تبقـي مرشـحة للبقـاء والخلـود . فمجموعاتـه القصـصية القـصيرة علـي قلتهـا كانـت كلـها نقـاوة تبقـي مـا بقـي الأدب يقـرأ . وحـين يـؤرخ لـلأدب وكتابـه خـلال الفـترة الـتي عاشـها يحيـي حقـي سـيكتب عنـه ضـمن مـن الإبـدعوا في أكثـر مـن مجـال ، فهـو سـوف يـذكر بـين كتـاب المقالـة ، كمـا سـوف يـذكر بـين كتـاب النقـد ، وفي القـصة القـصيرة سـيذكر أجمـل ذكـر . وإذا كـان الأسـتاذ حقـي قـد غـاب بجـسده عنـا ، فـإن أعماله لا تغيـب ، وقـد بقـي أثرهـا في نفـسي لا يمحـي أبـدا ، وعلـي المـستوي الإنـساني أشـعر مـن ناحيتـه دائمـا بـشعور طيـب جميـل لا يـتغير أبـدا . إن يحيـي حقـي نفـسه يمثـل كتابـا خاصـا للـسلوكيات الحافلـة بكـل القـيم والمعـاني الانـسانية النبيلـة ، فـضلا عـن أنـه كـان معلمـا لكـل المبـدعين وأبـا لكـل الأدبـاء . وحـين فـاز الأدب العربـي بجـائزة نوبـل ممـثلا في شخـصي ، رشـحت وأهـديت يحيـي حقـي هـذه الجـائزة كواحـد مـن المبـدعين المتـازين الـذي يـستحقونها لـولا الحـظ الـذي لم يجعلـهم ينالونهـا ، فقـد كانـت القـصة القـصيرة الـتي كـان يكتبهـا الأسـتاذ يحيـي حقـي مـن أجمـل مـا كتـب في الأدب المـصري والعربـي المعاصـر ، وهـو أحـد عمـدها الأساسيين ، ليس في هذا شك أو تجاوز .

إن إبــراهيم عبــد العزيــز يقــدم بهــذا الكتــاب الجميــل إضــافة حقيقيــة إلى كتبــه السابقة عن أعلامنا الأدباء ، إثراء وحفزا لذاكرة هذا الجيل .

نجيب محفوظ وتسعون ربيعاً

بقلم: فاروق شوشة

الكتابة عن نجيب محفوظ تتطلب قدرا كبيرا من إلى قظة والتنبه ، وإلا فإن صاحبها سيقع في المعاد والمكرور من الكلام ، الذي لا تمل بعض الاقلام من استعادته وترديده . ولقد ظل نجيب محفوظ بعطائه المتصل وابداعه المتجدد – طوال ستين عام ا – ما دة حافلة ومائدة حاشدة يقترب منها كل من يريد أن يتمرن علي الكتابة النقدية ، ليصبح ناقدا مرموقا ، يغريه أن عالم نجيب محفوظ حافل بالشخصيات والمواقف والأماكن والأحداث والنماذج والصراعات والقضايا ، مزدحم بالمداخل السياسية والاجتماعية والتاريخية والوطنية والفنية والنفسية ، قاد علي أن يوفر لقصاده من الدارسين بغيتهم وطموحاتهم . بل إن هذا العالم الروائي الرحب اتسع ــ ذات يوم ــ لدراسة طريفة قام بها مؤرخ موسيقي لرصد تطور الذوق الغنائي خلال الاغنيات التي ترددت في خلفية الروايات أو جاء ذكرها علي ألسنة الشخصيات ، وكانت في الحالين مهيئة ومواكبة للأحداث ومعبرة في الوقت نفسه عن ذوق العصر وعن سماته وملامحه .

الجديد في الأمر هذا العام ، ومصر تحتفل بعيد الميلاد التسعين لكاتبها الكبير ، والعيد الثاني عشر لحصوله علي جائزة نوبل ــ أن هذا الاحتفال الذي شارك فيه عشرات الكتاب ، وعشرات الأقلام ، والعديد من الصحف والمجلات لم تفكر فيه الدولة ، ولم تقم به وزارة الثقافة ولا المجلس الأعلي ، مما يبرهن من جديد علي الحقيقة الناصعة والمؤكدة وهي أن ابداع نجيب محفوظ أصبح جزءا عزيزا وغاليا من النسيج الحي لوجدان هذا الوطن ، وجزءا من كيانه المتوهج بالأصالة والانتماء ، المنفتح دائما علي آفاق رحبة من المعرفة والتطور والتناغم مع العصر ، والقدرة علي الاتساع لهموم الوطن وأشواقه ومطامحه . هذه المنزلة من قلوب الناس ــ علي تعدد مستوياتهم ومشاربهم ــ وهذه المكانة عند المثقفين والمفكرين والمبدعين والكتاب ، وهذه الحفاوة الحارة ، الصادقة والحقيقية ، لم تعد تنتظر موقفا رسميا لتسير في غباره ، أو مبادرة من الدولة ــ ممثلة في أجهزتها الثقافية – لتجدد احتفالها واحتفاءها بكاتب مصر وأديبها العظيم ، وكانت الفرصة سانحة – لو حدث هذا الاحتفال الرسمي ــ لتأمل المشهد الابداع الروائي العربي المعاصر بعد اثني عشر عام ا من نوبل العربية ، في مرآة ا

لعالم كله ، وحركة الترجمة من العربية واليها ، في ضوء الاهتمام الكاسح بكتابات نجيب محفوظ أولا وبدرجة أقل كثيرا بالأجيال الروائية التالية له ثانيا .

لابـد إذن مـن مـدخل جديـد إلى نجيـب محفـوظ يخـالف الـسائد والمكـرور . وهـو بالفعل موقـف نـادر لم يتكـرر ، مـا زلـت أذكـره لكاتبنـا الكـبير بكـل المحبـة والاعـزاز والتقـدير ، حـين دعوتـه في عـام ١٩٦٢ للمـشاركة في نـدوة عـن أدبنـا المعاصـر في ضـوء التيـارات الفلـسفية لا ذاعة البرنامج الثـاني ـــ البرنـامج الثقـافي الآن ـــ لم يكـن نجيـب محفـوظ قـد شـارك مـن قبـل في مثـل هـذه النـدوات الـتي تجمعـه بغـيره ، رغـم أن ندوتـه الاسـبوعية كانـت تتـسع للكـثيرين وهـو دائمـا فارسـها وقطبهـا المجلـي ، كانـت موافقتـه الـسابقة في عـام ١٩٥٩ علـي أن يكـون ضيف الحلقـة الأولـي مـن برنـامج مـع الأدبـاء ، الـذي قدمتـه لعـدة سنوات مـن اذاعـة البرنـامج الثـاني مـشجعة لـي علـي أن أطلـب منـه موافقـة جديـدة علـي مـشاركة الـدكتور عبـد الـرحمن بـدوي والـدكتور لـويس عـوض في هـذه النـدوة . ومازلـت أذكـر الدهـشة الـتي وجـدتها لـدي كـل مـن عـرف بامكـان اجتمـاع هـؤلاء الثلاثـة في نـدوة واحـدة ، وموافقـة نجيـب محفـوظ بالـذات علـي أن يكـون مـشاركا فيهـا ، لم أكـن وقتهـا – بـسبب حداثـة العمـر والخـبرة ـــ مـدركا لطبيعة الكيميـاء المؤثرة في علاقـة كـل مـنهم بـالآخر ورأيـه فيـه . لكـني أحسـست ونحـن نتهيـأ في اسـتراحة الـدور الثالـث بمـبني الاذاعـة في الـشريفين ، قبـل الـدخول إلى اسـتوديو١٠ للتـسجيل ، أن هنـاك مـن الحـوارات الـسريعة المتبادلـة مـا يمثـل تـصفية لـبعض المواقـف القديمـة ، وأن الفرصـة مواتيـة لكـي يـستمع لـويس عـوض إلى رأي محفـوظ في كتاباتـه الروائيـة ، ولم يكـن رأيـا ايجابيـا ، كمـا كانـت فرصـة ل عبـد الـرحمن بـدوي لتـذكير نجيـب محفـوظ بدراسـاته القديمـة في الفلـسفة وهـو لا يـزال طالبـا في كليـة الآداب بجامعـة فـؤاد (القـاهرة الآن) ، وربمـا كـان اغـراء الفلـسفة والحـديث عـن تياراتهـا في أدبنـا المعاصـر ، وموقـف أدبائنـا منهـا هـو الـذي شـجع نجيـب محفـوظ علـي المـشاركة ، خاصـة أن عالمـه الابـداعي يـزدحم بالعديـد مـن الشخـصيات والمواقـف الـتي لا يمكـن رصـدها أو تحليلـها إلا مـن خـلال وعـي بهـذه التيـارات ونفـاذ إلى جوهرهـا . وعنـدما أتـيح لهـذه النـدوة أن تنـشر ـــ في نـصها الكامـل ـــ علـي صـفحات مجلـة الآداب البيروتيـة بمناسـبة صـدور أحـد أعـدادها المتـازة عـن: الاتجاهـات الفلـسفية في الأدب المعاصـر أحـدث نـشرها صـدي عميقـا وواسـعا بـين قـراء نجيـب محفـوظ ودراسـيه علـي وجـه الخـصوص ، ووجـدوا في اجاباتـه الذكيـة وتحليلاتـه العميقـة إضافة ثرية إلى عالمه الابداعي وقدرته الفذة وموهبته الاستثنائية .

اسـتهل نجيـب محفـوظ النـدوة وهـو حـريص علـي أن يوضـح طبيعـة العلاقـة بـين الأدب والفلـسفة وحـدودها بقولـه: أعتقـد أن الفلـسفة يمكـن أن تـدخل إلى الأدب مـن زكثـر مـن سـبيل . فهـي قـد تـدخل إلى العمـل الأدبـي أولا عـن طريـق مـضمونه ، بمعـني أن تكـون للعمـل الأدبـي فكـرة فلـسفية ، فيكـون فلـسفيا قبـل كـل شـيء . ومثـال ذلـك روايتـا كـامي: الغريـب والطـاعون ، ومـسرحيات سـارتر مـن الأدب الوجـودي المعاصـر وفاوسـت مـن الأدب القـديم ورسـالة الغفـران ووحـي بـن يقظـان مـن الـتراث العربـي القـديم . أي أن فكـرة المـضمون تكـون

فلسفية . ، قد تدخل الفلسفة إلى العمل الأدبي دون أن تكون فكرته فلسفية ، أي أن يتضمن العمل شخصيات فلسفية أو متفلسفة بالفعل ، ويتضح ذلك من خلال الحوار أو الموقف ومثال ذلك ما صنعه ألدوس هكسلي في وينت كونتر بوينت .

وقد تدخل عن طريق أخري — ليس عن طريق الفكرة أو الشخصيات — وإنما عن طريق انعكاسها علي النظام الذي يقوم عليه العمل الأدبي ، أي في الحبكة نفسها . ويتضح لنا هذا عندما نتتبع الأحداث ومصائر الأشخاص مثلا فيتكشف لنا أن المؤلف يريد أن يقول إن الشخصية تتكون وتتلقي مصيرها نتيجة للبيئة . فهنا إذن إيمان بالفلسفة المادية التي تري أن الانسان نتيجة للبيئة والمحيط . وقد نجد في العمل الأدبي مجموعة من المصادفات التي تحدث فواجع معينة — أقصد المصادفات المقصودة وهي غير تلك التي تجري عن سهو من المؤلف —مثل مصادفات توماس هاردي التي تعكس فلسفته في أن الانسان لعبة في يد القدر ، فالفلسفة هنا إنما تسلت إلى العمل الأدبي في نظامه .

أما المدخل الرابع للفلسفة إلى العمل الأدبي فهو أن الأديب أو خالق العمل الفني يتأثر بالثقافة الفلسفية ، وهنا تؤثر الفلسفة في العمل تأثيرا غير مباشر ولكنها تعطيه ثراء محسوسا .

وعندما هاجم الدكتور عبد الرحمن بدوي أدبنا المعاصر لا نه — في رأيه — يفتقر إلى التيارات الفلسفية والي التأثر بها ، تصدي له نجيب محفوظ بقوله : في مجال الرد علي الدكتور بدوي أقول إن أدبنا لا يخلو من خلفية فلسفية ، بل إن من الصعب أن نجد أدبا معاصرا ليس وراءه نوع من الفلسفة . وعلي ضوء التقسيم الذي اتبعته في توضيح العلاقة بين الأدب والفلسفة فان الأدب الذي يحتوي علي مضمون أو فكرة فلسفية وجد لدينا في السنوات القليلة الماضية . بل إن الدكتور بدوي ذاته كان له أثر فيه ، وهو الأدب الوجودي . وأضرب مثالا علي ذلك المجموعة القصصية حيطان عالية لا دوار الخراط . فمضمونها في الغالب وجودي وإن كان الشكل تعبيريا . وكذلك مسرحية الآخر ل عبد العزيز السيد ، وربما كان اسمها يدل علي ذلك ، ومسرحية أخري للاستاذ أحمد عثمان لا أذكر اسمها الآن . المهم أن لدينا الآن بذور أدب وجودي صريح .

كذلك في أدبنا المعاصر أدب صوفي ، والصوفية من الممكن اعتبارها فلسفة علي أساس أنها نظرة عام ة للكون والوجود . ولو أن المنهج غير فلسفي . كما يتضح ذلك مثلا عند جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة ونسيب عريضة . فان في أدبهم أفكارا صوفية أساسية هي التي تسيطر علي إنتاجهم كله .

وبالنسبة للأدب الذي دخلته الفلسفة عن طريق شخصياته ، هناك المسرح الذهني عند توفيق الحكيم . فواضح فيه أن المسرحيات تقوم علي أفكار فلسفية ، وكنت أود أن أدرسها جملة لا ري هل يستند الحكيم في جملته إلى فلسفة معينة ؟

ففي أهل الكهف يعالج فكرة الزمان ، وفي شهرزاد نسبية الحقيقة ، وفي أوديب موقف الانسان أمام الحقيقة . وربما كان الدكتور لويس عوض قد درس في هذه النقطة فيوضحها لنا . وفي شعر العقاد أفكار فلسفية كثيرة خاصة في قصيدته الشيطان وربما كان وراءها – إلى حد ما شيء من فلسفة نيتشه .

كذلك كان تشاؤم المازني علي فترتيه ـــ الأولي التي كان تشاؤمه فيها متجهما ، والثانية التي كان تشاؤمه فيها باسما ومسلما ـــ وراءه شيءمن شوبينهاور في تشاؤمه وفي النيرفانا لديه وفي التسليم في النهاية . بل إن المازني كتب عن شوبنهاور كتابة مباشرة وعقد فصولا في المقارنة بينه وبين أبي العلاء المعري .

أما النوع الثالث الذي تتمثل الفلسفة لديه في الخطة الفنية للعمل الأدبي فلن أضرب الأمثال عليه لكثرتها ، فأبناء الجيل الثالث من الأدباء الذين يمثلون الواقعية الاشتراكية يعكسون في انتاجهم الفلسفة المادية الاشتراكية .

فالواقع أن وراء أدبنا المعاصر ـــ هنا في مصر أو في البلاد العربية – فلسفات . والي جانب الفلسفة الاشتراكية ظهرت الوجودية ، والرومانسية أيضا ابتداء من المنفلوطي ، والتي ترجع إلى روسو والعودة إلى الطبيعة ، ولها نفس سمات الأدب الرومانسي العالمي في نشأته وفي تطوره .

وحتي في النقد ، نجد الدكتور طه حسين ـــ كناقد ـــ وراءه فلسفة ديكارت ، وطريقته في الشك المنهجي ، ولو أننا نجده في قصة الأيام رومانسيا مؤمنا بالانسان والحب والتعاون ، أي مباديء فلسفة الرجوع إلى الطبيعة والفطرة السليمة . . الخ . فأدبنا في الواقع لا يخلو أيضا من الفلسفة ، والجزء الذي يخلو منها خلوا تاما ليس أدبا كما يجب .

وعلي النقيض من رأي نجيب محفوظ كان موقف عبد الرحمن بدوي ، الذي كان يري أن التأثر بمذهب فلسفي أو وضع مذهب فلسفي أو علي الأقل خلفية فلسفية يتطلب أن يكون الفنان شاعرا به وواعيا تمام الوعي . وعلي هذا الأساس يجب أن يكون له مذهب متماسك نراه كالخيط الحريري علي الأقل كما يقال في البحرية الانجليزية – الخيط الحريري الأحمر – الذي يوجد في جميع حبال مراكب البحرية الانجليزية ، هذا الخيط يجب أن يوجد في كل ما ينتجه الفنان .

كما اعترض عبد الرحمن بدوي علي الرأي القائل بأن أدب توفيق الحكيم أدب ذهني أو أدب فلسفي أو وراءه أي فلسفة ، لا نه لا توجد فكرة مترابطة في جميع أعماله تكون بمثابة النقطة المضيئة لكل هذا الانتاج ، بحيث نستطيع أن نستخلص من مجموع أعماله ـــ بل وحتي كتاباته ومذكراته الشخصية ـــ ما يدل علي تصور خاص في الكون أو الحياة أو الوجود ، أو الوقوف موقفا معينا . وهو يكاد يقطع بأن توفيق الحكيم – في كل عمل من أعماله – يتخذ موقفا معينا ، فهو يتبع المودة السائدة في وقت ما في أي أدب ، ويحاولها في العمل الذي يكتبه في الوقت الذي يكون فيه هذا المذهب معتبرا بدعا سائدا أو مودة ، ولكن ليس في أدبه نوع من المذهب الفلسفي أو التيار الواضح ، بل لا أستطيع أن أقول إن هناك خلفية فلسفية ، فأهل الكهف ـــ علي سبيل المثال ـــ فكرة الزمان فيها فكرة بسيطةعادية ، أي تأثر فيها بفكرة الزمان سواء من برجسون مثل بروست أو سارتر فيما يتصل بوجودية هيدجز ، فهي أفكار بسيطة أولية ساذجة لا يمكن أن ترقي إلى مجرد التفكير العميق ، ولا يمكن أن ندرجها أبدا – بأي معني من المعاني ــ في فكر فلسفي أو شبه فلسفي .

وعندما جاء الحديث ـــ في هذه الندوة ـــ عن مستقبل هذه التيارات الفلسفية ، وأيها أكثر التصاقا بهموم الانسان العربي المعاصر ، وأكثر دلالة علي روح العصر في أرضنا وتاريخنا وثقافتنا ، أعلن عبد الرحمن بدوي أن مسألة التنبؤ ستفرق المشاركين شيعا لا ن لكل منهم اتجاهه الخاص . فهو سيتنبأ للأدب الوجودي والدكتور لويس للأدب الاشتراكي ، فقاطعه لويس عوض بأنه سيتنبأ بشيء غريب جدا لا يتصوره أحد ، فهو يتصور أننا الآن (في ذلك الوقت من عام ١٩٦٢) في البوتقة ، وبلادنا تمر في عملية انصهار ، فتدخل نجيب محفوظ بقوله : بوتقة اشتراكية ، فقال لويس عوض: إذا كان ولابد فهناك إحياء رومانسي ، وذلك نتيجة لتعدد الآثار الرومانسية التي ظهرت في السنوات الأخيرة ، واختفاء المدارس الواقعية الاشتراكية . فهناك إذن حالة تمدد رومانسي . ولكن بالرغم من ذلك لا يوجد هناك ضمان لشيء محدد واضح ، وعندما يضيف نجيب محفوظ: أعتقد أن المستقبل هو للتوفيق بين الاشتراكية والعقيدة الدينية أو بين الوجودية والاشتراكية يعلق عبد الرحمن بدوي بقوله : هذه النغمة من التوفيق التي انتهي إلى ها الأستاذ نجيب تكفي للتوصل إلى نتيجة مرضية للجميع .

لقد عدت إلى هذه الندوة الاذاعية ـــ التي نشرت علي صفحات مجلة الأدب اللبنانية – والتي مضي عليها قرابة أربعين عام ا ـــ لا ذكر بالعرفان والتقدير موقفا من المواقف الكريمة والنبيلة لنجيب محفوظ وما أكثرها ، حين وافق علي المشاركة في هذه الندوة مع لويس عوض الذي كان يجاهر بأن نجيب محفوظ قد تحول إلى مؤسسة وبالتالي أصبح من الصعب الكتابة عنه أو نقده ـــ وقد نشر هذا الرأي في الأهرام ـــ ومع عبد

الرحمن بدوي الذي كانت حدته في التعبير عن آرائه وأفكاره تجعل الكثيرين يؤثرون عدم مواجهته حتي لا يحدث لهم ما لا تحمد عقباه ، لكن نجيب محفوظ أثبت بمشاركته وسيطرته الفكرية علي مسار الندوة وإضاءته للكثير من جوانب الموضوع المطروح للمناقشة وقدرته علي استحضار النماذج والشواهد الدالة والممثلة ، أنه مفكر من طراز رفيع ، وأن هذا الفكر الذي يحمله وتمثله هو االذي جعل لعالمه الروائي كل هذا القدر من الثراء والخصوبة والعمق والتنوع الذي يستوقف الباحثين والدارسين والنقاد ، من هنا فان الكاتب السوداني الكبير الطيب صالح كان علي حق عندما سئل ذات مرة عن نجيب محفوظ فكان جوابه : إنه مفكر كبير ولم يقل فقط إنه روائي كبير !

تحية التقدير لتسعين ربيعا متصلة ، ملأت جوانب هذا الوادي بالخير العميم والابداع الخلاق ، والانسانية النادرة ، والاصالة المصرية ، ودعاء لنجيب محفوظ ــ رمز فخارنا ورمجدنا الأدبي ــ بموفور الصحة والعافية ، واستمرار القدرة علي العطاء .

" وصيتي لبلادي " ٣ - الطرق إلى المستقبل

بقلم : فاروق شوشة

المتآمل في كتاب وصيتي لبلادي لفقيد الوطن الدكتور ابراهيم شحاتة يكتشف علي الفور أنه تفكير بصوت عال ومسموع مدعم بالمنهج العلمي الموضوعي والرؤية العميقة الهادئة والخبرة النظرية والعملية الواسعة في مجالات مصرية وعربية ودولية ، وتجنب الوقوع في شرك النظريات المهيمنة ، من أجل مستقبل زاهر لمصر ، ومن خلال دعوة إلى الاحياء والتجديد .

ولقد جاء نشر هذا الكتاب ـ بأجزائه الأربعة المجتمعة في مجلد واحد ـ ضمن مطبوعات مكتبة الأسرة في العام الماضي ، تعبيرا عن رؤية ثاقبة من الدكتور سمير سرحان رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب ومهندس مشروع مكتبة الأسرة ودينامو النشر الثقافي في مصر ، رؤية تستهدف خدمة هذه المرحلة من تاريخ الوطن ، بإشاعة مثل هذا الفكر المنهجي الحر ، وجعله في متناول الأجيال جميعا خاصة الشباب المصري والعربي ، والاطلاع ـ من خلال صفحات الكتاب ـ علي الخيارات المتاحة لمصر ـ بل وللعالم العربي كله الآن ـ وهي : السير إلى الخلف أو الحركة الواقفة أو السير إلى الأمام . وكيف أن السير إلى الأمام هو الخيار الوحيد لكل دولة تريد اللحاق بالعصر وتحقيق مشروعها في النهضة والتقدم . وما ينطبق علي مصر ـ في فصول هذا الكتاب ـ ينطبق علي كثير من أقطار العالم العربي ، مثل ضرورة اعادة تنظيم جهاز الدولة ، والتحكم في الزيادة السكانية ، والقضاء علي الأمية ، ورفع مستوي التعليم ، وانطلاق القطاع الخاص والتوسع الكبير في الصادرات ، والتعجيل بإصلاح النظام القانوني والقضائي والاداري ـ علي الأقل بالقدر الذي تتعلق فيه هذه الأنظمة بعمليات الاستثمار والتصدير ، وكي فية معالجة المسائل الأساسية والحساسة في الدستور ، ووضع الفساد كظاهرة عالمية ، وكيفية محاربته مصريا وعربيا ودوليا ، مختتما كتابه بالدعوة إلى الاحياء والتجديد محددا أهمية مصر وعوامل انطلاقها وأهداف مصر الأساسية والأسباب التي تحول دون تحقيقها وكيفية التوفيق بين الماضي والمستقبل .

والمؤلف ـ الدكتور ابراهيم شحاتة ـ علي وعي عميق بدور مصر المحوري ووزنها في منطقتها إن لم يكن في العالم . لكن ممارسة هذا الدور وتحقيق هذا الوزن يتطلب أن تكون مؤهلة تأهيلا صحيحا له ، ففي رأيه أنه لا يمكن فصل دور مصر الدولي عن أوضاعها الداخلية .

يتأكد هذا كله من خلال عدة عوامل في مقدمتها: جغرافية مصر التي جعلتها تتوسط العالم القديم ، وتربط بين ثلاث من قاراته الكبيرة ، وتسهم ـ بشكل فعال ـ في انسياب حركة التجارة الدولية البحرية عن طريق قناة السويس ، وفي نقل الطاقة للدول الأخري عبر القناة وبواسطة خطوط أنابيب نقل البترول ـ سوميد ـ والغاز وكذلك في الربط الكهربائي مع الدول العربية والمكن مستقبلا مع الدول الأوروبية والدول الافريقية الغنية بالموارد الكهرومائية .

وتاريخ مصر الذي يمتد عبر العصور كلها ويعطيها ثقافة عالمية أثرت في الحضارات الأخري ، وجعل لدي شعبها استعدادا طبيعيا لقيم التفاعل والحوار والترحيب بالتعامل مع الشعوب المختلفة .

كذلك النسيج الاجتماعي في مصر ، وما يتميز به من تلاحم وانسجام يبعدها عن الاضطرابات العنصرية ، حتي لو شاب هذا النسيج ـ كما حدث في السنوات الأخيرة ـ بعض الاضطرابات بسبب التعصب الديني ـ فسرعان ما يعود هذا النسيج إلى التلاحم الكامل ، وصيغته الصحية والصحيحة .

ثم هناك حجم مصر النسبي باعتبارها أكبر دولة عربية من حيث عدد السكان ، وثاني أكبر دولة افريقية من حيث السكان أيضا ، والدولة ذات الدور الخاص والمتميز في تحرير العديد من الدول الافريقية من الاستعمار الأجنبي .

فضلا عن مسئوليتها في المواجهة والدفاع عن الحقوق المشروعة وفي مقدمتها حقوق الشعب الفلسطيني وريادة مصر في مجالات الآداب والعلوم والفنون علي مستوي الوطن العربي ، وريادتها في مجال الفقه الاسلامي نظرا للدور الذي يقوم به الأزهر باعتباره أكبر مؤسسة علمية اسلامية بالنسبة للمسلمين السنة علي الأقل ، والنفوذ الديني لمصر بالنسبة لا تباع الكنيسة المرقسية ـ أول كنيسة أرثوذكسية مستقلة تاريخيا ـ ويتبعها رعايا متزايدون في الخارج . يضاف إلى هذا كله دور جهاز مصر الاعلامي من صحافة واذاعة وتليفزيون باعتباره أقوي الأجهزة والمؤسسات الاعلامية علي المستويين العربي والافريقي: بصحفه ومجلاته الواسعة الانتشار والشعبية التي تتمتع بها برامجه الاذاعية والتليفزيونية بالرغم من سلبيات عديدة يمكن أن تؤخذ عليه .

ولاينسي المؤلف التنبيه إلى أن اعتماد مصر علي هذه العوامل المهمة وحدها لا يحقق لها أهدافها الاستراتيجية ، فلابد أن تتوافر في أوضاع مصر الداخلية العوامل التي تؤهلها للقيام بدورها الاقليمي والعالمي خاصة أن هناك محاولات كثيرة ـ من القوي الخارجية ـ لتهميش هذا الدور في المنطقة العربية والعالم . هذه العوامل أهمها الحد من الزيادة السكانية واصلاح نظام التعليم جذريا بتوفير التعليم الأساسي ـ الابتدائي والاعدادي

ـ علي مستوي الدول المتقدمة لجميع الأطفال وبالمجان ، والقضاء علي الأمية المتفشية بين البالغين وأن يكون التعليم الحكومي ـ بعد التعليم الأساسي ـ خاضعا لا حتياجات السوق وبمستوي عال أيضا ، ويقدم مجانا للمتفوقين ، ومساعدة الطلبة الآخرين المحتاجين عن طريق المنح والقروض الدراسية .

ومن أهم هذه العوامل أيضا الاستقرار السياسي ، لا عن طريق تجاهل التوترات القابعة تحت السطح ـ وإنما باتباع السياسات التي تحقق الديموقراطية السياسية والعدالة الاجتماعية وتحارب الفساد ، والاهتمام ـ بصورة خاصة ـ بتقديم الخدمات الاجتماعية بمستوي جيد للمواطنين جميعا ، خاصة الفقراء منهم . ومنها أيضا الاقتصاد القوي عن طريق الاصلاح الاقتصادي والقانوني الذي يحدد دور الدولة بسياسات واضحة ويحد من تدخلها في الأنشطة الاقتصادية دون مبرر قوي ويسمح بانطلاق القطاع الخاص ، تحقيقا للانتفاع بأكبر قدر من الزيادة الهائلة في الاستثمار الدولي والتجارة الدولية والاندماج في الاقتصاد العالمي علي أسس متكافئة . مع تقوية الأجهزة الاشرافية ـ خاصة في القطاع المالي ـ وتحديث الأنظمة التي ينبغي اتباعها من جانب البنوك وغيرها من المؤسسات المالية والاستثمارية الخاصة .

لاينسي المؤلف دور الجهاز الحكومي القادر علي وضع السياسات الملائمة وتحديد الأولويات الاستراتيجية واختيار أوجه الانفاق العام التي تناسبها وتنفيذ البرامج والمشاريع الحكومية بكفاءة ونزاهة بعيدا عن الفساد .

كل ذلك لا بد أن يتم في اطار من وضوح الرؤية ، سواء بالنسبة للأهداف الاستراتيجية لمصر أو للأسباب التي تحول دون تحقق هذه الأهداف . فوضوح الرؤية من أهم أسباب النجاح للفرد والمؤسسة والدولة . والمؤلف يري أن هذا الوضوح غائب في الوقت الحاضر بين المثقفين المصريين حيث تختلف الآراء والاتجاهات والرؤي اختلافا كبيرا حول ما ينبغي أن تستهدفه مصر وما الذي يعوقها في هذا السبيل .

يري الدكتور إبراهيم شحاتة أن الأهداف الاستراتيجية التي لا يمكن لمصر تجاهلها ولابد من العمل علي تحقيقها تكمن في مسألتين متداخلتين: هما الأمان والتنمية .

أما الأمان فيشمل توفير الحكم الفعلي للقانون ، وتحقيق قدر أكبر من السلام الاجتماعي والاهتمام بالدفاع ضد احتمالات أي عدوان عسكري والمحافظة علي حقوق مصر في مياه نهر النيل ضد احتمال الافتئات عليها من الدول النهرية الأخري ، وهو احتمال قد يتزايد في المستقبل ، واتباع أساليب حديثة في استخدام المياه تحقق أكبر نفع منها للحد من الإسراف في استخدامها والتشجيع علي التحول إلى الري بالطرق الحديثة ، وهناك أيضا ـ ضمن إطار الأمان ـ المحافظة علي الأراضي المصرية ـ ضد العوامل الطبيعية السلبية مثل

ارتفاع مستوي مياه البحر أو التصحر مع التوسع الرأسي والأفقي في الأراضي الزراعية وتوفير الأمن الغذائي . أيضا المحافظة علي بيئة نظيفة ، ومحاربة جميع صور الجرائم ، خاصة الجريمة المنظمة كالإرهاب وممارسات المافيا والبلطجة حيثما وجدت ، واتباع سياسة خارجية تقوم علي التعاون والصداقة ، وعلي المنافع الاقتصادية المتبادلة .

وأما التنمية فتشمل ـ أساسا ـ رفع مستوي المعيشة للمواطن العادي عن طريق سياسات وإجراءات أهمها الحد من معدل الزيادة السكانية وتوفير التعليم الأساسي والخدمات الاجتماعية الأساسية الأخري (الصحة ، التغذية ، التعليم الثانوي والعالي) ، ورفع المستوي الثقافي للفرد العادي ، وزيادة استثمارات القطاع العام في مجالات البنية الأساسية والتعليم والصحة ، واستثمارات القطاع الخاص في جميع المجالات ، وإصلاح الجهاز الحكومي بصورة جذرية وتوثيق الجهاز الحكومي بصورة شاملة .

وفي رأي المؤلف ـ الدكتور إبراهيم شحاتة ـ أن الأسباب التي تحول دون تحقيق هذه الأهداف الاستراتيجية الواضحة تكمن في التردد ـ لفترة طويلة ـ في تطبيق الإصلاحات الجذرية والتخوف من تبعة هذه الإصلاحات ، وعجز المجتمع ـ في مجموعه ـ عن إيجاد صيغة مناسبة للتوفيق بين قيمه الموروثة وما يتطلع إلى ه من تقدم ، وشيوع الفساد الظاهر والمستتر ، وتحكم الطبقة المتوسطة ـ ذات الأصول الريفية بقيمها وتقاليدها وجذورها ـ في جهاز الحكم ، وانتشار البطالة السافرة والمقنعة ، والتوسع الكبير في الخطاب الديني من خلال عقلية تدعو في أكثر الحالات إلى حلول سطحية ، ومواقف قائمة علي التعصب والتشنج ، خالية من اتساع الأفق والسماحة الدينية والاستجابة لمعطيات العصر إزاء تعقيد المشاكل السياسية والاجتماعية التي تواجه المجتمع . حتي لقد أصبح كل من يغلب اعتبارات المستقبل علي الماضي متهما في وطنه بالشذوذ في التفكير ، ومن يدعو إلى التنوير متهما في موقفه من الدين . والحل ـ كما يراه المؤلف ـ في تحقيق حاجة المجتمع الشديدة إلى الإحياء والتجديد ، حتي تسود ثقافة تقدس الدين الحنيف والأديان السماوية وتحترم القيم العليا للدين ، ثقافة تربي النشء علي الإيمان بالله وكتبه ورسله وعلي احترام الديانات الأخري ، والتسامح ، والتضامن والعمل الجماعي ، واحترام الذات ، والاعتزاز بالهوية والتحلي بمكارم الأخلاق . في الوقت نفسه لا بد أن ينفسح المجال للاتجاهات العقلانية حتي تزدهر وتنفتح علي الحضارات الأخري ، ويعطي الشباب مجالا للتعبير الحر عن نفسه بناء علي معلومات صحيحة وموضوعية ، ثقافة جديدة تنأي عن القيود الثقيلة التي جلبتها علي الشباب مقررات المدارس وبرامج أجهزة الإعلام ـ الرسمية وغير الرسمية ـ طوال فترة تكوينه الذهني . ولم تجلب معها ـ في كثير من الأحوال ـ إلا المزيد من النفاق وانغلاق العقول . ثقافة تحارب الفساد في جميع صوره وأشكاله .

وأجمل ما في فكر الدكتور إبراهيم شحاتة الذي يتوهج به كتابه وصيتي لبلادي إيمانه ويقينه بأن مصر لن تتقدم إلا بالأساليب العلمية الحديثة التي تضمن لها سرعة الاندماج في الاقتصاد العالمي والإفادة من فرصه الكبيرة مع ضرورة حماية نفسها من آثاره السلبية بالتنظيمات المناسبة والأجهزة القوية القادرة ، والتزود بالمعرفة الشاملة التي تمكنها من قيادة شعبها وشعوب المنطقة إلى عالم جديد من الأمان والرخاء .
لقد رحل المفكر والخبير المصري العالمي الدكتور ابراهيم شحاته عن عالمنا ، وبقي لنا فكره وكتاباته المسكونة بهموم الوطن وشجونه ، حاضره ومستقبله ، في هذا الكتاب البديع ، الذي ينطق كل سطر فيه بوطنية كاتبه ، وانتمائه العميق لتراب هذا الوطن ، وعشقه لكل ما فيه ، وإيمانه بأنه وطن قادر علي التحدي ، وتحقيق معجزة النهضة والتقدم ، إذا ما توافرت له الشروط السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، التي ينبغي الاتفاق عليها من خلال حوار قومي شامل ، ينتج فكرا مشتركا ، ورؤي متكاملة لا متقاطعة ، وأساليب في العمل تحقق استراتيجية النهضة ، وتدفع بالإنسان المصري ـ والعربي ـ إلى قلب العصر وطليعة التقدم . وفي هذا ـ كما يقول الدكتور إبراهيم شحاتة في السطر الأخير من كتابه ـ فليتنافس المتنافسون !

حاشية :

شكرا للأستاذة ياسمين شحاتة ـ كريمة الدكتور إبراهيم شحاتة ـ التي تفضلت بإهدائي مجموعاته الشعرية الخمسة . فأتاحت لي فرصة التعرف علي وجه الشاعر المرهف الوجدان ، العميق الوعي ، النافذ التأمل ، في شخصية الفقيد الكبير . وهو وجه لم يعرفه إلا الخاصة من أصدقائه وتلاميذه ، أرجو أن تتاح لي الكتابة عنه في مقال قادم ، تكتمل به صورة المفكر ، والعلم ، والخبير الدولي ، والشاعر .

" وصيتي لبلادي " - ٢ - الحرب على الفساد

بقلم: فاروق شوشة

لاأظن أنني وجدت - في أي مرجع أو دراسة - تعريفا للفساد وتحليلا لبواعثه وأسبابه ، وتوضيحا لا نواعه ومستوياته ، ووعيا بأخطاره وآثاره ، وحلولا موضوعية حاسمة لمواجهته ، كالذي وجدته في كتاب وصيتي لبلادي للمفكر والخبير الدولي الراحل الدكتور ابراهيم شحاتة .

في هذا الكتاب - الذي عرضت علي القارئ طرفا منه ، ولمحة عن كاتبه الذي انطوت صفحة حياته بصورة مباغتة ، وكان نموذجا فريدا للمصري العربي العالمي ، وعيا وخبرة وثقافة واستنارة - ينصب مفهوم الفساد علي خيانة امانة المال أوالعمل التي يؤتمن عليها موظف عام أو خاص ، في أداء عمله . ويشمل من يخون هذه الأمانة ومن يدفعه إلى ذلك أو يشترك معه .

في ضوء هذا المفهوم ، يري مؤلف الكتاب أن الفساد يحدث عندما تقتضي وظيفة معينة - سواء كانت وظيفة عام ة أو خاصة - توزيع منافع بين الناس أو تقديم سلعة عام ة أو خدمة عام ة لهم ، ويتاح للقائم علي هذه الوظيفة التحكم أو التحايل لتحقيق نفع شخصي لنفسه أو لغيره . إما لغيبة أي قواعد ينبغي اتباعها ، أو لوجود قواعد ناقصة تعطي الموظف قدرا كبيرا من الاختيارات الشخصية ، أو لوجود قواعد معقدة ومبالغ فيها تجعل من المطلوب التهرب من تعقيداتها بل ويحدث الفساد عندما يطبق الموظف القواعد كما هي مكتوبة ، ولكن بطريقة انتقائية لمصلحته الخاصة أو لمصلحة من يتولاهم أو من يدفعون له .

كما يحدث الفساد عندما يتيح عمل الموظف له الاطلاع علي معلومات غير متاحة للكافة ، فيستخدمها لتحقيق نفع شخصي ، كأن يعلم ان الحكومة تنوي شق طريق عام فيسارع إلى شراء ارض متاخمة للموقع اغتناما لفرصة الربح السريع ، إلى غير ذلك من صور ما يعرف بالاتجار بالمعلومات من الداخل ، وغير ذلك من الصور الأخري لظاهرة تنازع المصالح .

وطبقا للتعريف الواسع الذي اخذ به الدكتور ابراهيم شحاتة ، فانه يري ان الفساد لا يقتصر علي الحكومة وأجهزتها البيروقراطية ، كما انه لا يقتصر علي تقديم الرشاوي أو قبولها ، إنما يأخذ أشكالا وصورا مختلفة ويمكن ان تتم ممارسته في ظل نظم الحكم المتباينة ، وفي داخل كل من السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ، وفي القطاعين العام والخاص علي السواء .

كما يري أيضا ان بعض المجتمعات تتجه إلى التسامح بشأن أشكال معينة من الفساد ، خاصة الوساطة والمحسوبية والرشاوي الصغيرة في المعاملات الادارية ، إلى الحد الذي يلام فيه اصحاب المناصب ان هم تقاعسوا عن تقديم معاملة خاصة لذويهم وأصدقائهم ، وفي بعض الدول ينظر إلى الرشوة الصغيرة التي تدفع لموظف للاسراع في أداء عمله أو للتساهل كثيرا في الأداء باعتبارها اكرامية أو تبرعا خيريا أو تعبيرا مسبقا عن الشكر والامتنان او اعتذارا عن المرتب المتواضع الذي يحصل عليه الموظف من الدولة ، بدلا من النظر إلى هذه الرشوة باعتبارها جريمة لا تغتفر ، كما هو الشأن في مجتمعات كثيرة أخري . ذلك ان الفساد يحدث في بعض المجتمعات كحالات فردية في حين يشيع في بعضها الآخر حتي يصير فسادا منظما تحتاج معالجته إلى جهود شاملة ووقت طويل . غير ان هذا التباين في الثقافات المختلفة لا ينبغي ان يصبح عذرا لا ي من هذه التصرفات الفاسدة ، أو عائقا في سبيل الاصلاحات التي تستهدف محاربة الفساد .

ومن واقع خبرته المحلية والدولية ، وموقعه علي رأس العديد من المؤسسات العربية والعالمية ، يري الدكتور ابراهيم شحاتة ويلمس عن كثب ، ويحلل بعمق ، الآثار المباشرة ، لشيوع الفساد في مجتمع من المجتمعات ، والنتائج الرهيبة المدمرة لهذه الظاهرة ، التي تتمثل في ان يختلف القانون الرسمي المكتوب عن القانون المطبق فعلا ، فالفساد يسهل عملية الالتفاف حول القانون ، بل والغاءه في كثير من الأحيان ، ويصبح البديل تبادل المنافع وضغط العلاقات والمصالح الشخصية او بالتعبير المصري العامي: شيلني وأشيلك من هذه النتائج المدمرة ايضا تحول الحكومة من ادارة عام ة تعمل علي أسس وقواعد معروفة للكافة وتسري علي كل من تنطبق عليه شروطها إلى حكومة افراد يتبعون مصالحهم وأهواءهم الخاصة . كما يؤدي شيوع الفساد إلى تعطيل حركة النمو في الاقتصاد سواء كان اقتصادا مفتوحا تحكمه السوق أو مغلقا تحكمه الدولة ، فالفساد يؤثر ـ سلبا ـ علي القرارات الاقتصادية للدولة وللمؤسسات والأفراد كما يزيد من تكلفة المعاملات والمشروعات ـ خاصة المشروعات الصغيرة ـ كما يؤثر ـ سلبا ـ في حجم الاستثمارات الأجنبية أو في اختيار القطاعات التي تتوجه إلى ها . مما يعني في النهاية نقص ايرادات الدولة وزيادة مصروفاتها بما يهدد استقرار الاقتصاد الكلي ويرفع من معدلات التضخم ، ذلك ان الفساد ـ في حقيقة الأمر ـ يعاقب الذين يحترمون القانون وفي ضوء هذا التحليل العلمي الهادئ يري الدكتور ابراهيم شحاته .

أن شيوع الفساد وتأثيره علي الاقتصاد والحكم ـ في أية دولة وفي ظل أي نظام ـ يجلبان التوتر في علاقات الأفراد بعضهم ببعض وفي علاقة الحكام بالمحكومين ، وبسبب هذا التوتر الاجتماعي والسياسي تتهدد قدرة الدولة علي التصرف في الداخل والخارج بل وعلي مشروعية النظام القائم وعلي استقرار الأوضاع في الدولة ، وقد اثبتت التجربة ان

الفساد كالجرثومة المعدية سرعان ما ينتشر من منطقة معينة أو قطاع اقتصادي معين إلى المناطق والقطاعات الأخري ، دون ان يتوقف عند أية حدود ، وتزيد فرصه ، وتقل احتمالات الكشف عنه في ظل التحولات الكبري أو الفترات الانتقالية في تاريخ الشعوب ، كالتحول من اقتصاد الأوامر إلى اقتصاد السوق أو من نظام سياسي شمولي إلى نظام ديمقراطي مفتوح .

وفي عبارة واضحة مركزة يقول المولف:

وكما يمكن ان يؤدي سلوك الناس إلى افساد الأنظمة السليمة ، فان الأنظمة الفاسدة كثيرا ما تؤدي إلى افساد الناس .

ومن واقع الخبرة العالمية في محاربة الفساد والتصدي له يري الدكتور ابراهيم حمودة ان كثيرا من دول العالم قد أخذت بأمور سبعة اساسية من الواجب تذكرها والعمل علي توفيرها .

أولها التزام القيادة السياسية والادارية بمحاربة الفساد في جميع صوره وثانيها: اصرار مؤسسات المجتمع المدني - من جمعيات اهلية وأحزاب ونقابات وغيرها - علي الزام القيادة باتباع ما التزمت به دون عدول أو نكوص وعملا علي استمرارية هذا الالتزام . وثالثها: تقوية القدرة المؤسسية لا جهزة الدولة لتنفيذ ما يتطلبه الالتزام بمحاربة الفساد من اصلاحات قانونية واقتصادية ومالية وسياسية وادارية وغيرها ، ورابعها: نشر الحقائق وتدفق المعلومات وانسيابها عن طريق صحافة حرة واعلام حر في مجتمع يسمح بحرية النشر والتعبير . وخامسها: توافر بيئة اجتماعية - في البيت والمدرسة والجامعة والمكاتب ومواقع التعامل مع المواطنين - تحترم القيم والمبادئ التي تساعد علي محاربة الفساد .

وسادسها: تعاون القطاع الخاص في الحد من الفساد عن طريق وضع المعايير وتبني الممارسات التي تحارب الفساد في تعامله مع الحكومة وهيئاتها ومشروعاتها العامة .

وسابعها: المشاركة في مجهودات دولية من اجل التعاون لمحاربة الفساد وأساليب التحايل التي تتعدي حدود دولة واحدة مثل جرائم التهريب وغسيل الأموال واستيراد المواد والسلع غير الصالحة ، وتحريم تقديم رشاوي من جانب الشركات في تعاملها مع حكومات ومؤسسات أجنبية .

وعندما يطل المؤلف علي الواقع المصري ، بقصد تعرية الفساد والكشف عن جوانبه المختلفة ورسم خطة التصدي له ، فانه يستهل الفصل الثالث من كتابه الذي

خصصه لهذا الجانب بقول منسوب إلى حكيم مصري قديم عاش في القرن العاشر قبل الميلاد: لقد فسدت الناس وفسدت الأشياء ، هل هذا اخر الزمان ؟ وبوصية من الوصايا السياسية لعلي باشا - الوزير الأعظم للسلطان العثماني عبد العزيز سنة١٨٧١ - يقول فيها:

الي حضرة الباب العالي إن غالبية الموظفين العاملين في خدمتكم السنية يتقاضون مرتبات هزيلة ، والنتيجة ان الرجال ذوي الكفاءة والمهارة يتجنبون العمل في الخدمة العامة ، مما يجبر حكومتكم العلية علي استخدام انفار محدودي الكفاءة ، هدفهم الوحيد هو تحسين وضعهم المالي المتدهور ، هذا في الوقت الذي يجب ان يتولي الخدمة المدنية في الامبراطورية رجال اكفاء ومجتهدون وأذكياء ، لديهم الهمة والرغبة في العمل . ان من حق جلالتكم التأكيد علي المبدأ الأساسي بشأن مسئولية الموظف العام ومحاسبة المسئولين في الدولة جميعا ، هذا المبدأ الذي بدونه يتوقف كل تقدم وينهار العمل بالضرورة ما الذي يجعل من مسألة الفساد موضوعا جديرا بالاهتمام في اطار كتاب وصيتي لبلادي يجيب المؤلف: الدكتور ابراهيم شحاته بأنه يعتبر الفساد سببا رئيسيا يحول دون مصر ودون تحقيق اهدافها الاستراتيجية بعد ان تضخمت ابعاده في المجتمع المصري - عبر العصور - حتي اكتسب كثير من صور الفساد - مع الوقت - قيما اجتماعية ايجابية - هنا يصل المؤلف إلى ذروة تزلقه وهو يقول: فالفرد الذي ينجح في التهرب من القوانين أو الضرائب كثيرا ما يوصف بالمهارة التي تستحق التقدير والتقليد ، والموظف الكبير الذي يساعد أقرباءه وبلدياته في الحصول علي الوظائف - علي حساب من هم أولي بها - يوصف بالشهامة ، ومسئول الضرائب او الجمارك الذي يتغاضي عن التحصيل مقابل خدمات تقدم له من الممول يوصف بالعرفان بالجميل ، ورجل الأعمال الذي يفسد مناخ المنافسة برشوة المسئول يوصف بالفعالية ويعفي من العقوبة إن أبلغ عما جنته يداه ، والمسئول الكبير الذي يحتفظ بالهدايا التي تقدم له من جهات في الداخل أو الخارج يشبه بالنبي الذي قبل الهدية ، إلى آخر الصور الشائعة المعروفة في مصر وفي بعض الدول النامية الأخري فالرشوة أصبحت جزءا من سمات التعامل العادي في كثير من الأماكن ، وأصبحت اكثر الرشاوي الصغيرة تدفع لكي يقوم الموظف العام بأداء العمل المكلف به أصلا دون تباطؤ أو تعقيد ، ويزيد من هذا ترقية الموظفين - لا بناء علي كفاءتهم - ولكن علي أساس الأقدمية ، أو ارضاء روسائهم والتزلف إلى هم مما يزيد من تخلف الجهاز الإداري

.

وبينما يؤدي المدرسون عملهم في فصول المدرسة التي تكرس لتقديم تعليم حقيقي للطلاب - في البلدان الأخري - يتخاذل كثير من المدرسين في مصر ويبذلون معظم جهودهم في الدروس الخصوصية التي لا يستفيد منها إلا من لهم القدرة علي الدفع . فهل نرضي -

كما يتساءل المؤلف - بأن يصبح الفساد والعلاقات الشخصية اساسا للتعامل وبديلا لحكم القانون ؟ ومعيارا للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية الناجحة ؟ !
ويعلق المؤلف بقولة - وهو في موقع السخرية والتقريع :

وحتي الذين يرون الفساد فسادا تراهم يكتفون بالتباكي علي الأخلاق الضائعة ، ويقولون: إن المشكلة في أساسها مشكلة أخلاقية مما يعني ضمنا استحالة معالجتها ما لم تنصلح أخلاق الناس بأعجوبة من الأعاجيب وهو يدرك - في ضوء خبرته الواسعة ووعيه الشامل - ان مسألة الفساد بأبعادها المختلفة - لدينا ولدي الآخرين مسألة معقدة ، تعود أسبابها إلى اعتبارات اقتصادية وسياسية واجتماعية وقانونية وادارية وثقافية واخلاقية . وتقتضي مواجهتها البحث في كل هذه الاعتبارات والتعامل معها جميعا في وقت واحد . وهو يعترف - في الوقت نفسه - بأن محاربة الفساد يمكن ان تؤدي إلى تخفيض مستواه ، لا ن القضاء عليه مستحيل بكل أسف في المجتمعات الانسانية ، كما ان محاربة الفساد لا تتطلب مجهودا حكوميا فقط ، لا ن الفساد مشكلة المجتمع كله ، ولايمكن مواجهته بغير المشاركة الحقيقية والالتزام الشعبي . ثم هناك المجهودات التي ينبغي ان تبذل علي المستوي الدولي - لصور فساد تتعدي سلطة الدولة - مثل الرشاوي في المناقصات الدولية وغسل الأموال الناتجة عن أعمال اجرامية او تجارة غير مشروعة بتهريبها إلى دول اخري ، خاصة في ظل التقدم التكنولوجي الهائل والانفتاح المستمر في التعامل عبر الحدود .

لكن العقل المثقل بكل قضايا الوطن ، والقلب المتوهج بالشعور بالمسئولية ، يقودان الدكتور إبراهيم شحاته - فقيد الوطن في الفكر والوعي والاستنارة - إلى الطريق الذي يري ألا بديل عنه من أجل إصلاح مصر ، ومساعدتها علي تحقيق اهدافها ، واضاءة معالم مستقبلها ، وهو ما نعرض له في مقال أخير عن كتابه وصيتي لبلادي عاجل إلى وزير الثقافة مع علمي بحجم الشواغل التي تستولي علي وقت الفنان فاروق حسني وفكره ، إلا أني مضطر لتذكيره بالقرار الذي اتخذه - منذ استجابته الفورية لما نشرته في مقال سابق عن موقف الأوبرا من أوركسترا أماديوس - وهو أن تقوم الأوبرا بالاتصال بالفنان سمير خوري صاحب ومدير الأوركسترا والاتفاق معه علي عودة الحفلات التي ظل يقدمها بنجاح - علي المسرح الصغير للأوبرا - طيلة عشر سنوات ، وأن يتم هذا في إطار الضوابط التي تتبعها الأوبرا مع كل من يستعين بنظام الرعاة للإنفاق علي ما يقوم به من نشاط فني . وهو النظام المتبع علي مستوي الدولة بشكل عام ووزارة الثقافة بوجه خاص . لقد مضي أكثر من اسبوعين علي ما وعد به السيد الوزير دون أن تقوم الأوبرا بالاتصال بسمير خوري . وأرجو ان يكون في هذا التذكير ما يضع نهاية سعيدة لهذا الأمر ، في قضية عادلة ، ومن أجل عودة نشاط موسيقي راق ينتظره الآلاف ، ولايرون مبررا لتوقفه بدلا من تشجيعه والحرص عليه .

وصيتي لبلادي

بقلم : فاروق شوشة

في واحد من البيوتات اللبنانية العريقة التقيت به لا ول مرة . كان الحاضرون يمثلون نخبة من رجال السياسة والدبلوماسية والمال والاقتصاد والأدب والشعر . وكانوا يخوضون في شئون شتي محورها الهم العربي والشجون العربية والتفكير ـ بأصوات مسموعة ـ في حاضر الوطن العربي ومستقبله . وسرعان ما أصبح الرجل وما يقوله محور الاهتمام كله ، وهو ينطلق من بدايات غير تقليدية ليطرح فكرا جديدا ومختلفا . ولم يكن يتكلم باعتباره مسئولا دوليا أو بصفته الرسمية باعتباره نائبا أول لرئيس البنك الدولي ، وأمينا عام ا للمركز الدولي لتسوية منازعات الاستثمار ، أو رئيسا للمعهد الدولي لقانون التنمية في روما .

كان الجديد اللافت في حديث الدكتور إبراهيم شحاته ، كلامه باعتباره مصريا عربيا عالميا ، يدرك طبيعة دوائر الاتصال والتمايز ، وموقع كل دائرة من المركز والهامش ، والعناصر الفاعلة في الدوائر الثلاث ، لذلك كان حديثه فكريا في الأساس ، سياسيا واقتصاديا في التناول والتطبيق ، ثقافيا مستقبليا في الرؤي والتوجهات .

كانت سعادتي بهذا المجلس أو الصالون الفكري ـ الذي التقي علي ضفاف الاحتفال بمرور ما ئة عام علي انشاء جمعية المقاصد الإسلامية في بيروت وانطلاق رسالتها الاجتماعية والثقافية والتربوية ـ غامرة وجياشة . ها نحن المصريين والعرب ، مسلمين ومسيحيين ، نستطيع أن نلتقي ـ في مودة ومحبة وتفاهم متبادل وتقدير عميق ـ علي ما ئدة واحدة ، وأن نطرح خلف ظهورنا أثقال إلى أس والإحباط ، وأن نجد من بيننا من يستطيع أن يضيء الطريق بفكره ووعيه العميق بالمسئولية ، وكان الدكتور إبراهيم شحاته تجسيدا لهذا المثال .

لم أكن قد سمعت بالرجل قبل هذا اللقاء ، وطبيعة عمله ومسئولياته وشواغله تجعله بعيدا عن المجال الذي أتابعه وألاحقه ، قارئا وكاتبا . وحرصه الشديد ـ كما بدا لي ـ علي البعد عن وسائل الإعلام ، متحدثا أو محاورا أو مشاركا ، لم يجعل لصورته مقابلا في نفسي . لكنه في ختام الجلسة ، شد علي يدي في حرارة وألفة ، كما لو أننا تجمعنا صداقة السنوات الطويلة ، وهو يعتذر في أدب جم ، عن ابتعاد المجلس عن حديث الأدب والشعر ، وإانشغال الجميع ـ بما فيهم أنا ـ بحديث السياسة والمستقبل ، وهو الذي كان يود لو كان لحديث الشعر ـ بالذات ـ مساحة بين غيوم السياسة وضجيج المال والاقتصاد .

قلت هي مجاملة لطيفة أشكره عليها . ولم أكن أدري أني في صبيحة إلى وم التالي سأجد نفسي جالسا إلى جواره في الطائرة التي أقلتنا من بيروت إلى القاهرة . وبادرني سعيدا بأن المصادفة جمعتنا من جديد ، بعيدا عن جلسة الأمس ، التي لم نتحكم نحن فيها ، وأن بإمكانه الآن أن يتيح لي وجها آخر من وجوه الاهتمام التي لا بد أني أفضلها وأؤثرها .

وامتدت يده إلى حقيبة صغيرة أخرج منها كشكولا امتلأت صفحاته بكتابة شعرية وخواطر أدبية ولوحات قلمية ووقفات تأملية . واكتشفت ـ لسعادتي ـ أن العالم المصري الدولي الكبير يحمل في أعماقه وجدان شاعر . وأن الرجل الذي قدر له أن يتعامل مع الأرقام وميزانيات الدول ومشكلات الشعوب وبرامج الاستثمار يجيد التعامل بالحروف والكلمات ، وصياغة الصور الشعرية البديعة ، والبوح الجميل الكاشف عن شجونه وهمومه وأحزانه وقلقه ومعاناته الوجودية العميقة ، وإحساسه الشامل بالفساد الضارب من حوله ، وغيبة ميزان العدل والحرية الحقيقية ـ التي ليست مجرد هامش أو هوامش ـ ومحاولة التنفس في فضاء لا يسوده تلوث بيئة ، ولا تختنق فيه صدور الناس بالكروب والعلل والأوبئة ، والانسحاق من أجل لقمة العيش حينا ، ومحاولة التمسك بكرامة الإنسان ـ الحد الأدني منها ـ حينا آخر .

كانت الكتابات الأدبية التي طالعتها في هذا الكشكول الأنيق الأزرق ، علي امتداد زمن الرحلة من بيروت إلى القاهرة كشفا حقيقيا لي عن إنسان رائع جميل ، اكتملت لديه أركان المعرفة وأتيح له من آفاق التجارب وفضاءاتها ما لم يتح غيره ، طوف وتنقل ورأي ، واهتزت أوتاره لما لا يحصي من الحالات والمشاعر والانفعالات والمواقف ، واستطاع في زحام شواغله ، وبالرغم منها ، أن يصيد بعض هذه المواقف ، وأن يحولها إلى لوحات شعرية ونثرية ، تندي بكيمياء الصدق وماء الإبداع وأصالة التعبير .

وقبل أن نفترق اتفقنا علي ضرورة الاتصال ، واللقاء ، ومواصلة الحوار من حول الشعر والإبداع ، والثقافة باعتبارها حلا جوهريا ومدخلا رئيسيا لمشروع مصر في النهضة والتغيير .

وكما يحدث لكثير ممن تبتلعهم القاهرة بزحامها وضوضائها ودواماتها ، انشغل كل منا عن الآخر ، وسرقت منا الأيام المثقلة والضاغطة فرصة اللقاء ، حتي أفقت ذات يوم علي المفاجأة المذهلة: الرحيل المباغت للعالم والمفكر والمبدع والإنسان: الدكتور إبراهيم شحاته ، وظلت صورته أياما وأسابيع وشهورا ، تطالعني من خلال صفحات الصحف والمجلات التي كتبت عنه ـ كالعادة بعد رحيله ـ وأشادت بنبوغه وعبقريته ووطنيته

واخلاصه ، ظلت صورته عاتبة ومؤنبة ، ومذكرة لي بلقاء لم يتم ، وحديث انقطع وكان يبنغي أن يكون موصولا .

لحسن الحظ ، لم ينته الأمر عند هذا الحد . فقد كان الدكتور سمير سرحان المثقف الكبير والناشر الواعي يهيئ لي ولأمثالي من محبي إبراهيم شحاته وعارفي فضله ومقدري فكره وكتاباته مفاجأة رائعة ، بإصداره النص الكامل لكل الكتابات التي أنجزها الدكتور إبراهيم شحاته بين عامي ١٩٩٤ و١٩٩٩ في مجلد واحد يحمل هذا العنوان الدال الناطق بتوجهات صاحبها ومشروعه التنويري وهو وصيتي لبلادي ضمن منشورات مكتبة الأسرة لعام ٢٠٠١ .

هل كان إبراهيم شحاته يدرك - في أعماقه - أن الموت له بالمرصاد ، وأنه سيختطفه من بيننا ذات فجاءة غير متوقعة ، فأراد قبل أن تحين اللحظة المباغتة - أن يترك بين أيدي مواطنيه خلاصة ما يحمله من فكر ، معبرا فيه عن مشروعه المتكامل للإصلاح ، وهكذا اكتملت كتبه الأربعة التي أصدرها تباعا في كتاب واحد كبير ، يتحدث فيه عن الخيارات المتاحة لمصر ، وإعادة تنظيم جهاز الدولة ، والتحدي الأعظم الذي يواجهنا والذي يتضمن التحكم في الزيادة السكانية والقضاء علي الأمية ورفع مستوي التعليم وانطلاق القطاع الخاص والتوسع الكبير في الصادرات وضرورة السير في طريق الإصلاح الاقتصادي إلى نهايته وهل هناك حاجة ضرورية لتغيير الدستور وكيف تعالج المسائل الأساسية والحساسة في الدستور الجديد ، والفساد باعتباره ظاهرة عالمية: أسبابه وآثاره والمحاولات الدولية للحد منه ، والفساد في مصر ووسائل محاربته ، ويختتم كتابه الكبير بفصل عنوانه: نحو مستقبل زاهر لمصر: دعوة للإحياء والتجديد ، جوهرها التوفيق بين الماضي والمستقبل .

في المقدمة التي تصدرت كتاب وصيتي لبلادي التي كتبها الدكتور إبراهيم شحاته في يناير عام ١٩٩٩ يقول: ما زلنا باختصار في حاجة ما سة إلى التغيير ، تغيير أنفسنا وتغيير سلوكياتنا ، وتغيير مفاهيمنا حول التعامل فيما بيننا ومع الآخرين . ما زلنا في حاجة إلى وفاق مشترك يأتي نتيجة طبيعية لحوار عريض ولمعرفة بما يجري في مجتمعنا واقتصادنا وما يجري حولنا في العالم . بل ما زلنا في حاجة شديدة إلى تعميق الإصلاحات الاقتصادية بعد أن انتهي البرنامج المتفق عليه مع صندوق النقد الدولي ، وأصبح الأمر متوقفا علي قدرتنا علي اتخاذ القرارات اللازمة وتنفيذها من أجل مستقبل أفضل لمصر ، حتي لو كانت هذه القرارات صعبة ولم نتفق مع أحد علي اتخاذها ثم يقول: ولقد كتبت وصيتي لبلادي من أجل هذا التغيير الذي نحن في حاجة إلى ه من أجل أنفسنا ومن أجل أبنائنا وأحفادنا ، ويقتبس من مذكرات المفكر الأوروبي جان سونيه - الذي دافع كثيرا عن الوحدة الأوروبية حتي أصبحت حقيقة في شكل الاتحاد الأوروبي بعد

أن كانت حلما ـ يقتبس هذه الكلمات: ينبغي لتغيير مجري الأشياء أن ننجح في تغيير روح الناس . ولا يغير الوضع الجامد الحالي إلا عمل مباشر ينصب علي نقاط رئيسية: عمل متعمق وحقيقي ودرامي يغير الأمور ويدخل في مجال الحقيقة التطلعات التي كاد الناس أن يفقدوا أي أمل في تحقيقها إذا توقفنا عند الفصل الذي يتحدث فيه الدكتور إبراهيم شحاته ـ بلغته العذبة البسيطة الصافية ، التي لا تكلف فيها ولا تقصير ولا ادعاء ، بل هي علي النقيض تفيض بطبيعة روحه السمحة وإنسانيته الغامرة وبساطته العميقة التي لا يمكن تقليدها أو محاكاتها ـ الفصل الذي يتحدث فيه عن الخيارات المتاحة لمصر والتي يصنفها في ثلاثة:

السير إلى الخلف والحركة الواقفة (محلك سر) والسير إلى الأمام . ويوضح أن السير إلى الخلف هو الارتداد الفكري أو التطلع إلى العيش في القرن الحادي والعشرين وفق الممارسات والتفاصيل بل والطقوس والخرافات التي سادت في عصور غابرة . ثم يقول في لغة واضحة حاسمة: نحن لا نتكلم هنا عن القيم الأساسية التي لا ينازع أحد في صلاحيتها لكل مكان وزمان . ولا عن سنة الله في خلقه التي لن تجد لها تبديلا . ونحن لا نجادل في ضرورة تمسك المصريين بالمثل العليا لدينهم والأخلاق الرفيعة التي يأمرهم بالتجمل بها . كما أننا لا نتكلم عن أهمية وضرورة المحافظة علي تميزنا الحضاري فيما هو مفيد ، والتمسك بالجوانب الإيجابية من هويتنا ، فهذه كلها لوازم ثقافية ينبغي التزود بها ونحن نواصل مجهوداتنا نحو التقدم ، محافظة منا علي وجودنا في صراع الحضارات الذي ينبغي أن نري فيه تنافسها الإيجابي نحو الأفضل وتكاملها فيما يحقق التقدم الإنساني .

أصحاب هذا الاتجاه الارتدادي يشغلون أنفسهم ويريدون أن يشغلوا مصر كلها بصغائر الأمور خاصة ما يتعلق منها بالمسألة الجنسية . فالجنس عندهم يكاد يكون المعيار الوحيد للفضيلة ، وهم يرتبون علي نظرتهم نحو الجنس نظرة أخري نحو المرأة من شأنها تحقير دورها في الحياة العامة والعمل . وهم لا يريدون لمصر أن تنطلق مع العالم في الغرب والشرق الذي مكنه العلم الحديث والتنمية الاقتصادية السريعة وتكافؤ الفرص بين الجميع من رفع مستوي المعيشة والارتقاء بنوعية الحياة للناس وتحقيق ما كان من قبل في عداد المعجزات .

أصحاب هذا الاتجاه لا يعملون ـ كما يتطلب دينهم ـ علي ابتداع الحلول العصرية التي لا تتعارض مع القيم الإسلامية الأساسية والتي توفق بين ما جاء في كتاب الله من أهداف للمجتمع الإسلامي وما يقتضيه التقدم في العصر الذي يعيشون فيه . وينتمون إلى حركات تتعدي الاستمساك بالدين إلى الهجرة إلى الماضي ، والانغلاق عليه ، واحتباس المستقبل فيه ، والحقيقة أنه لا يسر أعداء الإسلام شيء أكثر من رواج هذا

الاتجـاه ووصـول أصـحابه للحكـم ، بمـا يـضمن التخلـف المـستمر للمـسلمين ، والـصراع الـدائر في ديـارهم - ولعـل آخـر دليـل علـي ذلـك مـا قالـه الـزعيم الروسـي المتطـرف جيرونوفـسكي - المعـروف بعدائـه للمـسلمين - مـن أن أملـه الأكـبر أن يـري الـدول الإسـلامية وقـد غرقـت في حكـم المـشايخ والملالـي حـتي يمكـن الـسيطرة عليهـا دون اطـلاق رصاصـة واحـدة ! سـاعد علـي انتـشار هـذا الاتجـاه الارتـدادي انتـشار الأميـة وتـدهور مـستوي التعلـيم ، وزيـادة الهجـرة مـن الريـف إلى المـدن ، ومـن مـصر إلى الـدول العربيـة . كمـا سـاعد عليـه الفـراغ الـسياسي الـذي عجـزت الأحـزاب القائمـة عـن ملئـه ، والاتـساع المـستمر في الهـوة بـين التعـاليم الدينيـة والممارسـات إلى وميـة للأفـراد مـع غيـاب المحـاولات الجـادة لتـضييق هـذه الهـوة عـن طريـق التفـسير العـصري للتعـاليم ، بجعلـها أكثـر قابليـة للاتبـاع وعـن طريـق إصـلاح الممارسـات بتقريبهـا مـن هـذه التعـاليم . فمـن المعـروف أنـه كلمـا اتـسعت هـذه الهـوة زادت فـرص الفـساد والنفـاق وفـرص التطـرف والتمـرد ، ومـن خـلال التحليـل الـذي يـسوقه الـدكتور إبـراهيم شـحاته للخيـار الثـاني الـذي يمثلـه أصـحاب الحركـات الواقفـة (محلـك سـر) نـري أنـه ينتهـي إلى النتـائج نفـسها الـتي ينتهـي إلى هـا الخيـار الأول: جمـود في النظـرة ، وسـقوط في شـرك الأيديولوجيـة ، وعـدم قـدرة علـي الرؤيـة الـصحيحة والتحليـل الـصحيح والاستبـصار بمـا يحملـه المـستقبل مـن تغـيير وتطـوير . فهـؤلاء - في رأيـه - يـسيرون أيـضا إلى الخلـف إذا قيـسوا بمـا يحـدث في المجتمعـات الأخـري الـتي تـسير بخطـي واسـعة إلى الأمـام ، يرفعـون اللافتـات والـشعارات ، ولا يقدمون لشعوبهم مع مرور الوقت إلا أوهاما جديدة لا تنفعها في شيء .

ومـن أجـل الكـشف عـن حقيقـة أصـحاب الـسير إلى الأمـام كـان كتـاب وصـيتي لـبلادي للـدكتور إبـراهيم شـحاته ، متنـاولا فيـه : مـا ذا يريـد هـؤلاء الوطنيـون المخلـصون لبلـدهم مـصر ، وكيـف يمكـن أن يتحقـق لـمصر سـيرها إلى الأمـام ، وحتميـة اختيـار هـذا الموقـف بعيـدا عـن أصـحاب الاتجـاه الارتـدادي واتجـاه أصـحاب الوقـوف محلـك سـر . ففيـه وحـده ، وبـه وحـده ، تنطلـق قـوي قـدرتنا الخلاقـة مـن أجـل المـستقبل واقتحـام آفاقـه وتحدياته .

والحديث موصول .

القسم الثالث

رموز عربية

صديقي أبو بكر عزت

بقلم : فاروق شوشة

لا مفر أمام بغتة الموت وفجاءته من بعض التماسك والتصبر والتعزي ، علنا نستطيع تصديق ما حدث ، ومعاودة السير في رحلة الحياة ، وقد التفتنا حولنا فلم نجدهم ، أولئك الأعزاء ، الذين كانوا علي مقربة من النفس والعين ، ملء السمع والبصر ، أصواتهم تنادينا ، وخطاهم تؤنسنا ، وحضورهم إلى نا يحمل الدنيا معه ، فلا نحتاج معهم إلى مقدمات ، أو شرح وبيان ، لنبدأ ـ علي الفور ـ معزوفة الصداقة الحميمة ، والأخوة الصادقة .

هكذا كان حالي مع بكر ـ كما يسميه رفاقه وأصدقاؤه ـ كلما التقيته . قرابة ثلاثين عام ا بيننا ، نكبر معا ، ونتحاور معا ، ونسافر معا ، ونحرص علي أن تكون إجازاتنا معا ، لنتيح لا سرتينا ـ في كل مرة ـ صفحات جديدة من زاد الحياة ، واختلاس بعض ساعات البهجة والفرح من قبضة الأيام ، ومعنا دائما زوجتانا ، وبناتنا الأربع : سماح وأمل ويارا ورنا ، في البر والبحر والجو ، من فارنا إلى قبرص ، ومن إلى ونان إلى العريش ، ومن القاهرة إلى الإسكندرية ، وبكر هو نجم ليالينا الساطع ، ومنجم بهجتها وأنسها ، والفنان الوحيد ـ من عالم الفن والتمثيل ـ الذي قامت بيني وبينه هذه العلاقة العقلية والروحية والإنسانية ، تراكمت في داخلها المواقف والأحداث والتجارب والشجون والإقامة والرحيل ، لتصنع نسيجا من طراز فريد ، هو نسيج التواصل ، حتي علي البعد ، والتفاهم ، حتي بلا كلام .

كنا نحرص علي أن نستقبل الأعوام الجديدة معا ، ونعيش لحظات ميلادها منشطرين بين ذلك القلق الغامض الذي يشيعه التوجس من سنة جديدة لا نعرف ما ذا تحمل من صدمات ومفاجآت ، وحزن علي عام مضي وانسلخ من العمر ، الذي تنفرط حباته واحدة في إثر أخري ، ونحن نظنه مكتملا ومنظوما ومعلقا في مكانه من الرقاب والأعناق . أما السيف المصلت علي أعناقنا جميعا فلم نكن نراه أو حتي نتخيله ، إن الحياة تغري بالحياة ، وخداع الأماني هو الوهم المستحيل ، ينسينا دوما بغتات الفراق ، ويقودنا بالرغم من وعورة السير ، وأخطار الطريق .

في لقائنا الأخير ، ونحن نتأمل حالينا وحال الوطن . كان شعور جارف بالمرارة يصبغ كلماته ، وهو الذي لم يتعود أن يكون شاكيا ، أو متبرما . كان حديث الدراما والعمل في السينما والمسرح والتليفزيون ، يقودنا إلى سلبيات واقع يتدني يوما بعد يوم ، لا مكان فيه لمن يحرصون علي أن تظل جباههم مرفوعة ، وكرامتهم مصونة . الذين لا يزاحمون بالأكتاف ولا يطاردون الفرص ، ولا يقفون بأبواب من بأيديهم القرار .

كـان يحلـم بعـودة مزدهـرة للمـسرح ، وهـو ككـل مبـدع مـسرحي عتيـد يـري في المـسرح حياتـه وحلمـه وطموحـه وإبداعـه . ويحلـم بأعمـال سـينمائية وتليفزيونيـة تنـشد القيمـة وترتفـع عـن الإسـفاف والـسوقية ، وفـن يحقـق للمجتمـع وحدتـه ووعيـه وتكاملـه ، ولم يقـل أبـدا ـ مـا كنـت اعرفـه عنـه وعـن أقرانـه في التـاريخ الفـني والخـبرة والقـدرة علـي العطـاء والتجـدد ـ مـا الأجر الـذي يتقاضـاه هـو وأمثالـه مقارنـا بالأرقـام الفلكيـة للـذين لا يزالـون يتعثـرون في خطـوات البدايـة ، والـذين لا تقـارن قامـاتهم ـ وقامـاتهن ـ بقامتـه الـشامخة في الحيـاة والفـن . كـان لا يـشكو ، وكـان يكفيـه القليـل ، لا ن عينـه علـي الـدور ، وعلـي مـساحة الإتقـان والإجـادة ، وإحـساسه برضـا النـاس ، وتـساؤلهم الـدائم عـن عـدم وجـوده ـ في فـن هـذه الأيـام ــ بمـا يتفـق مـع موهبتـه وأسـتاذيته ومكانتـه . وكـان هـو يبتـسم في خجـل وتواضـع ، شـاكرا ومقـدرا . فـإذا خـلا إلى صـفوة أصـدقائه ، لعـن فـساد العـصر ، وازدحامـه بالمفـسدين ، وانهيـار سـلم القـيم ، وتحكـم مـن لا يمتلكـون الـوعي أو الفكـر أو التوجـه الـصحيح ، في صـناعة الفـن بكـل أشـكاله وصـوره ، وكانـت اسـعد حالاتـه ، حـين يعـرض عليـه عمـل أحـس بنـبض كلماتـه وبـروز قيمتـه وإنـسانيته عندئـذ يطلـق لطاقتـه وموهبتـه وإبداعـه العنـان ، ويكـون في أروع تجلياتـه ، وقـد شـهدت هـذه الحالـة الـتي تغمـره بـالفرح والنـشوة في عملـين مـن إبـداع رفيقة عمره الكاتبـة المقتـدرة كـوثر هيكـل: عـصفور في القفـص ، وأخـيرا علـي نـار هادئـة ـ آخـر مـا عـرض لـه في رمـضان الماضـي ـ فقـد كانـت نـشوته بالغـة في أداء الحـوار الـشاعري المـسكون بـالخبرة والإنـسانية ، والمتـوهج في ثنايـا لغـة شـديدة النقـاء والحـساسية ، بعيـدة عـن الترهـل أو الإفـراط أو التـسطح ، نافـذة إلى الهـدف ، والهـدف هـو الـدراما المتميـزة ، وقلـب المـشاهد وعقله في آن .

ويرحـل الـصديق العزيـز ، الفنـان القـدير أبـو بكـر عـزت ، تاركـا مـن بعـده حـصاد عمـر فـني حافـل ، تمـرس فيـه بالعمـل مـع جيـل العمالقـة والـرواد في المـسرح والـسينما ، واسـتطاع ـ بـرغم تـأثيرهم الطـاغي وحـضورهم الغـامر ـ أن ينحـت بإزميـل المبـدع الموهـوب ملامـح شخـصيته الـتي لم تخـتلط بغيرهـا ، تقليـدا أو محاكـاة ، وأن يرسـم لنفـسه ـ بـالرغم مـن اخـتلاف أدواره وغناهـا وتنوعهـا ـ صـورة محكومـة بـالرقي في الأداء ، والبعـد عـن الـسوقية أو الاسـتسهال ، والحـرص علـي الاختيـار ، والتفـاني مـن أجـل المزيـد مـن الإجـادة والتميـز . أمـا صـورته الإنـسانية: زوجـا وأبـا وصـديقا ، فباقيـة في أعمـاق مـن أتـيح لهـم ان يعرفـوه ـ علـي حقيقتـه ـ وأن يعاشـروه عـن قـرب ، شاخـصة في عيـونهم كلمـا تطلعـوا بـاحثين عنـه ، وهـو يهـل علـيهم بوجهـه الـسمح البـشوش ، وصـوته المـرح المجلجـل ، ودفئـه الإنساني الغامر .

فاروق خورشيد

بقلم : فاروق شوشة

اقترن اسمي باسمه منذ إلى وم الأول لا لتحاقي بالإذاعة في العاشر من سبتمبر عام ١٩٥٨ ، جمع بيننا العمل في قسم المذيعين بإذاعة البرنامج العام ، هو: المذيع الكبير والإذاعي الرائد والرابع في ترتيب المكانة بعد حسني الحديدي كبير المذيعين وصلاح زكي المذيع الأول وجلال معوض الذي يفوق الجميع شهرة وجماهيرية منذ حمل صوته الحماسي العاطفي الكثير من وقائع ثورة يوليو ، وأنا: المذيع تحت التمرين ، يكتب اسمي في جدول المذيعين الأسبوعي بين قوسين ، إشارة إلى أنه لم يؤذن لي بأن انطق بعد ، وأني لا أزال في مرحلة الإعداد والتجهيز .

لقد جذبتني إلى فاروق خورشيد من اللحظة الأولي صفات بارزة ، من بينها شخصيته القوية ، وسلوكه المتسم بالحسم والوضوح وعدم التردد ، وثقافته الأدبية الواضحة التي كنت أتابع بعض تجلياتها من خلال برنامجه الأسبوعي علي موجة إذاعة البرنامج الثاني ـ البرنامج الثقافي الآن ـ مجلة أخبار الثقافة التي كان صاحبها ورئيس تحريرها .

ومن خلال العلاقة الحميمة بين فاروق خورشيد: الأستاذ والمعلم والأخ الأكبر وبيننا ـ نحن تلاميذه وإخوته الصغار ـ عرفت طريقي: كما عرفه غيري ، إلى الجمعية الأدبية المصرية التي كان فاروق قطبها المحرك ومهندس حركتها ونشاطها وكانت لقاءات الثلاثاء معه ومع رفاقه من الأساتذة والمبدعين ، ، ونافذة واسعة علي عالم من الوعي والاستنارة ، .

وحين بدأ فاروق خورشيد مشروعه المبكر في التأهيل لفن الرواية العربية والكتابة عن وهب بن منبه وكتابه: التيجان عن ملوك إلى من ، كنت واحدا ممن وقع عليهم اختياره لمشاركته في أداء الصورة الإذاعية لهذا العمل الذي استمر تقديمه علي موجة البرنامج الثاني شهورا متصلة .

ومع امتداد السنوات ، أصبح فاروق خورشيد مذيعا أول بإذاعة البرنامج العام ، بعد أن تولي جلال معوض منصب كبير المذيعين وانتقل صلاح زكي إلى التليفزيون ، ثم أصبح فاروق مديرا لا دارة وحدة النصوص والتمثيليات ، فمراقبا عام ا للبرامج في إذاعة الشرق الأوسط ، فمراقبا للبرامج الثقافية والخاصة والأحاديث ، فمديرا لا ذاعة مع الشعب قبل أن تجيء اللحظة الفاصلة التي تشهد ابتعاده عن العمل الإذاعي ، وتفرغه للكتابة الأدبية والإذاعية ، والتخصص العميق في دراسة الأدب الشعبي ، وتدريسه في

العديـد مـن الجامعـات المـصرية والعربيـة ، وشـهدت هـذه المرحلـة العديـد مـن الروايـات ومجموعـات القـصة القـصيرة ، والمـسرحيات ، وإعـادة كتابـة العديـد مـن الـسير الـشعبية وصـياغتها صـياغة جديـدة تتجلـي فيهـا ذاتيتـه وقدراتـه الأسـلوبية والفنيـة ، مثـل: عـنترة وسيف بـن ذي يـزن وعلـي الزيبـق . وكمـا آمـن بـأن الـتراث العربـي عـرف فـن الروايـة قبـل أن يعرفه الغرب ، فقد آمـن أيـضا بـأن العـرب عرفـوا المـسرح بمفهـومهم الخـاص وخلقـوا تعـبيرات مـسرحية دراميـة مغـايرة لمـا عرفـه العـالم عـن المفهـوم الإغريقـي التقليـدي للمـسرح وسـيبقي كتاباه: الروايـة العربيـة والجـذور الـشعبية للمـسرح العربـي حـاملين لهـذا الفكـر ، الـذي صـدر فيـه عـن رؤيـة شـديدة الجـرأة والخـصوصية ، مـصدرها حماسـه الـشديد لـتراث أمتـه ، وقدرتها علي العطاء علي مدار عصور التاريخ .

وانهمـرت الـسنون ، وتراكمـت مؤلفاتـه الـتي تجـاوزت خمـسين كتابـا جمعـت بـين الروايـة والقـصة القـصيرة والمـسرحية والـسيرة الذاتيـة وأدب الـرحلات وأدب الطفـل والفـن الإذاعـي ، بالإضـافة إلى تراثـه الإذاعـي مـن خـلال كتابتـه وصـياغته للحلقـات الدراميـة الوبـاء الأسـود ومغـامرات سـيف بـن ذي يـزن والتائـه عـبر الزمـان وبرنـامج المـازني والمـسرح وحلقـات يوميـات أديـب . وتوجـت هـذه الرحلـة الثريـة ، الـتي كـان لا بتعـاده عـن شـواغل العمـل الإذاعـي ومـسئولياته الإداريـة ، فـضل إنجازهـا والتفـرغ التـام لهـا فيمـا يـشبه التحـدي وتأكيـد الـذات ومواجهـة خـصوم معـروفين وغـير معـروفين ـ توجـت بجـائزة الدولـة التـشجيعية في عـام ١٩٦٤ وجـائزة جامعـة المنيـا لا حـسن روائـي عـام ١٩٨٤ وجـائزة جامعـة صـنعاء لعـام١٩٨٥ وجـائزة الدولـة التقديريـة في الآداب عـام ١٩٨٩ ـ ليـصبح اول إعلامـي أديـب يفـوز بهـذه الجـائزة ، ودرعـي جامعـة الزقـازيق والاتحـاد العـام للـصحفيين العـرب عـام ١٩٩٦ والـشهادة الذهبيـة لا حـسن كاتـب إذاعـي عـام ١٩٩٧ (في مناسـبة مهرجـان القـاهرة الثالـث للإذاعـة والتليفزيون)

ويرحـل فـاروق خورشـيد قبـل أن يكمـل عـام ه الـسابع والـسبعين بقليـل ـ فهـو مـن مواليـد الثـاني مـن مـا رس عـام ١٩٢٨ ـــ وهـو في أوج قدرتـه علـي العطـاء ، بعـد ان خـاض مواجهـة شـجاعة ، مـع المـرض خاصـة في عـام يـه الأخيريـن ، وكـان لمـؤازرة زوجتـه الفاضـلة الإذاعيـة الكـبيرة سـلوان محمـود نائبـة رئـيس الإذاعـة ، وكريمـة الـشاعر الكـبير محمـود حـسن إسماعيـل ـ كـان لهـذه المـؤازرة دور كـبير في صموده وتغلبـه علـي المـرض في العديـد مـن الأزمـات .

يرحـل فـاروق خورشـيد وهـو رئـيس لا تحـاد كتـاب مـصر ، ومقـرر للجنـة الفنـون الـشعبية بـالمجلس الأعلـى للثقافـة ، بعـد أن عمـل أسـتاذا لـلأدب الـشعبي بالمعهـد العـالي للفنـون الـشعبية بأكاديميـة الفنـون وعـضوا بمجلـس أمنـاء اتحـاد الإذاعـة والتليفزيـون ، قابـضا بيديـه ـ

حتى يومه الأخير ـ علي الجمر ، التزاما ، ووعيا بالمسئولية ، وإصرارا علي القيام بالدور الذي رسمه لنفسه ، متفائلا عنيدا لا يعرف الهزيمة أو الانسحاب من المعركة ، ومفكرا جسورا لا يعنيه أن يرضي الآخرون عن فكره وآرائه ، أو منهجه في بحث الظواهر الأدبية ـ خاصة في مجال دراسات الأدب والتراث الشعبي .

في وداع الدكتور أحمد هيكل

بقلم : فاروق شوشة

في ختام حياة حافلة ، جاء رحيل الأستاذ الدكتور أحمد هيكل ، وبين يديه ، ومن بعده ، سجله الحافل مع الثقافة والفكر والأدب ، منذ تخرجه في كليته العتيدة دار العلوم ، واختياره لبعثة إلى اسبانيا ، في مجال الدراسات الأدبية ، وعودته بالدكتوراه من جامعة مدريد خلال العام الدراسي١٩٥٥ ، وسطوع نجمه الجامعي باعتباره واحدا من رواد الدراسات الأندلسية ، في الجيل الذي تلا جيل عبد العزيز الأهواني وحسين مؤنس ـ في الأدب والتاريخ ـ وكان من رفاق الدكتور أحمد هيكل فيه الدكتور محمود علي مكي ـ أطال الله بقاءه ـ والدكتور لطفي عبد البديع وآخرون .

وأتيح لي ولكثيرين غيري من طلبة دار العلوم ـ منذ ذلك العام الدراسي ـ التعرف علي الدكتور هيكل والاقتراب منه ، ومن صديقه وزميله الحميم الدكتور عبد الحكيم بلبع . وسرعان ما أصبح لهذا الثنائي دور كبير مؤثر ، نلتف من حولهما ، ونستعين بهما في كل ما نمارسه من نشاط ثقافي وأدبي وإبداعي ، ونري في كل منهما نموذجا لعذوبة الإنسان الصافي الوجدان ، المفعم بالمحبة والمودة ، ونموذجا لما نتطلع إلى ه من ثقافة جديدة وآفاق مختلفة ، يحملها أحمد هيكل في طوايا دراساته الاسبانية والاندلسية ، ويجسدها عبد الحكيم بلبع في ثقافته التراثية وحسه الفني ، وزاد من التفافنا حولهما اتساع الحلقة لتضم من أصدقائهما الدكتور محمد العلائي والشاعر صلاح عبد الصبور ـ الذي كان لا يزال في بداياته العملية مدرسا في مدرسة قريبة من مبني دار العلوم في المنيرة والذي تجمعه بالدكتور هيكل آصرة الانتماء إلى الزقازيق ومحافظة الشرقية وعالم مرسي جميل عزيز ـ والشاعر فوزي العنتيل والشاعر محمد الفيتوري والطيب الشريف من تونس .

بالإضافة إلى عضويته في مجمع اللغة العربية كان للدكتور أحمد هيكل حضوره في المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وفي المجالس القومية المتخصصة ، وفي المجلس الأعلى للثقافة ، وفي مجلس اتحاد الكتاب وفي مجلس الشعب . وهو الحضور الذي توجت جهوده وانجازاته فيه بجائزة مبارك في الآداب ، وسبقتها جائزة الدولة التقديرية

، كما أنه الحضور الذي يترك لصاحبه عطرا زكيا في كل موقع عمل به ، بدءا بكليته دار العلوم ، فالمعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد الذي شهدت سنوات إدارته له عصرا استثنائيا من عصور ازدهاره وتوهجه ، أتيح لي أن أشاهده عن كثب عندما تفضل بدعوتي لحضور المؤتمر الإسلامي المسيحي في قرطبة - عاصمة الأندلس - وما شهدته جلساته وحواراته ، وما تمخض عنه من قرارات وتوصيات ، وكان الدكتور هيكل هو العقل المخطط والمايسترو القائد والراعي الحكيم وهو يستخلص من ترانكون أسقف قرطبة ، دعوته إلى التسامح وتنقية الكتب المدرسية الاسبانية من كل ما يمس الإسلام ونبيه العظيم - صلي الله عليه وسلم - ، وموافقته علي أن تؤدي الوفود العربية والإسلامية في المؤتمر صلاة الجمعة في الجامع الكبير بقرطبة الذي أصبح اسمه الآن الكاتدرائية الكبري ، وكان يؤم المصلين - الذين تفجرت عيونهم بدموع التذكر والاستعبار - الدكتور عبد العزيز كامل وزير الأوقاف الأسبق ، الذي كان يرأس وفد الكويت إلى الملتقي .

ولسوف يبقي من الدكتور هيكل في قلوبنا ، وفي عقولنا ، دراساته الأندلسية ودراساته في الأدب الحديث ، وترجماته البديعة للشعر الإسباني - وبخاصة مرثية لوركا لمصارع الثيران اجنازيو سانشيث - والمعني العميق الذي انتظم حياته ومسيرته أستاذا ووزيرا للثقافة ، وهو الانتماء الحميم للثقافة العربية ، وللجدية وكراهية التغريب ، والايمان بأن الكتاب هو محور الحياة الثقافية وجوهرها ، وما أخذ به نفسه من قيود وضوابط قاسية ، في زمن كان يتعري ورقة بعد ورقة ، ويبتعد عن كل ما هو جاد وحقيقي يوما بعد يوم . يرحمه الله .

علي بك خليل : شيخ الإذاعيين

بقلم: فاروق شوشة

نبيل من النبلاء ، شامخ في تواضع ، شديد الاعتزاز بكرامته وكبريائه في غير صلف أو ادعاء ، قادر علي اكتساب الأصدقاء والمحبين في يسر ولطف وطواعية ، أخلاقه ومثالياته تجسيد لقيم عصر جميل نترحم علي اختفاء رموزه ، وامتلاء حياتنا بأشباه الرجال في كل شيء .

هذا هو علي بك خليل ، الحاصل علي نيشان النيل عام ١٩٤٤ ورتبة البكوية من الدرجة الثانية عام ١٩٤٨ ، تقديرا لريادته الإذاعية التي جعلت منه واحدا من المؤسسين الأول للإذاعة المصرية عند انطلاقها لا ول مرة في الحادي والثلاثين من ما يو عام ١٩٣٤ ، يتقدمهم محمد سعيد باشا لطفي - شقيق أستاذ الجيل لطفي السيد - وأول مدير للإذاعة ، والمهندس أحمد سالم الذي درس الهندسة في جامعة كمبردج ثم تعلم الطيران في إنجلترا وعاد مع زوجته خيرية خيري إلى مصر يقودان معا طائرة في ثاني رحلة طيران بين إنجلترا ومصر ، وبعد تألقه في العمل الإذاعي - كبيرا للمذيعين - أصبح واحدا من نجوم السينما المصرية ، والموسيقار مدحت عاصم دارس الموسيقي الشرقية والغربية والمدير الفني الشرقي للإذاعة ومكتشف فريد الأطرش وأسمهان ورياض السنباطي و عبد العزيز محمود وغيرهم ، ومحمد فتحي كروان الإذاعة ونجم الإذاعات الخارجية خاصة حفلات أم كلثوم ، وأحمد كمال سرور الذي ذهب إلى فرنسا ليدرس الطب فتركه لدراسة المسرح وليصبح من خلال عمله الإذاعي مخرجا لا ول تمثيلية إذاعية ما خوذة عن المسرحية الشعرية مجنول ليلي لا حمد شوقي ، وعفاف الرشيدي أول صوت نسائي في الإذاعة وقارئة نشرة الأخبار العربية والانجليزية والفرنسية .

علي أكتاف هؤلاء العظماء السبعة تحقق الميلاد السعيد للإذاعة المصرية يملؤهم الإيمان برسالة الإذاعة ودورها في المجتمع ، كما صاغها سعيد لطفي باشا: ثقافة مسلية وتسلية مثقفة . وبدأ علي خليل خطواته الأولي سكرتيرا للقسم العربي الذي كان يشرف علي الأحاديث واذاعات القرآن الكريم والاذاعات الخارجية ، وسرعان ما تدرج في مناصبها وصولا إلى موقع مدير البرامج والأمين العام للمجلس الأعلي للاذاعة في عام ١٩٤٧ ، وصاحب الدور الأساسي في رسم الخريطة البرامجية ، وترشيد السياسة الاذاعية .

ويقدر لعلي خليل أن يبتعد عن العمل الاذاعي في مصر ، وأن يقضي عشرين عام ا متصلة خارجها ، أصبح خلالها موظفا دوليا بالأمم المتحدة ، يعمل رئيسا لا ذاعة الأمم المتحدة للشرق الأوسط عام ١٩٥٤ ونائبا لرئيس مركز الأمم المتحدة بالشرق الأوسط في

القاهرة عام ١٩٥٦ ، وضابطا للاتصال بين الأمم المتحدة والحكومة المصرية في عملية تطهير قناة السويس ، ومديرا لمركز الأمم المتحدة للإعلام في يوغسلافيا وألبانيا ومديرا لجهاز الأمم المتحدة بالمقر الأوروبي في جينيف ، ومديرا لمركز الأمم المتحدة للإعلام بالقاهرة وأمينا عام ا للجمعية المصرية للأمم المتحدة ثم رئيسا لها في عام ١٩٨٠ ، بالاضافة إلى عضويته في أكاديمية العلوم السياسية بنيويورك ومجلس أمناء اتحاد الإذاعة والتليفزيون في مصر .

سجل حافل جعل من صاحبه خبرة إعلامية ودبلوماسية وثقافية نادرة . امتزجت هذه الخبرة بإنسانيته الفياضة وأبوته الروحية لا بنائه من الإذاعيين والإعلاميين ، وأستاذيته الحكيمة لكثير من قاصديه وطالبي نصحه وتوجيهه . وكانت رئاسته النموذجية للجنتي البرامج المسموعة و البرامج الثقافية بمجلس الأمناء ، درسا في أخلاقيات الحوار وأدبياته ، ومنهجا في روح الحفاوة التي تبدأ دائما بما كان يسميه هو المحبات قبل الدخول في جدول الأعمال . وكانت المحبات تشمل تهنئة من يستحقون التهنئة ، وتكريم من يستحقون التكريم ، من بين أعضاء اللجنة ، علي ما أنجزوه وماتحقق لهم من ترقيات وما مروا به من مناسبات سعيدة .

ولم يكن يمل أبدا من المقارنة بين عصرين من العمل الاذاعي ، عاش أولهما وشارك في تأسيسه ووضع قيمه ومبادئه ، وعصر اهتم بالكم علي حساب الكيف ، وأهمل الالتفاف إلى صناعة الانسان وتدريبه وتثقيفه ـ وهو عصب العملية الاذاعية ـ ورفع المذكرة بعد المذكرة إلى مجلس الامناء منبها إلى ضرورة الاهتمام باللغة العربية علي ألسنة العاملين في الاذاعة والتليفزيون من المذيعين ومقدمي البرامج ، والتكوين الثقافي الذي لا بد منه لمواجهة التدني والسطحية والفجاجة والسوقية ، وضرورة العودة إلى القيم التي ينبغي أن تحكم الأداء الاذاعي والتليفزيوني ، خاصة في مجال الدراما والمنوعات ، منبها إلى الشعار الذي رفعه سعيد لطفي باشا : تسلية مثقفة وثقافة مسلية ، للنجاة من السقوط والابتذال ، والحفاظ علي قيم المجتمع وآدابه العامة .

هذا الرائد الاذاعي الكبير ، هو في حقيقته واحد من العصاميين الذين علموا نفسهم بنفسهم ، وتثقفوا بثقافة الحياة والخبرة الانسانية العريضة ، فقد التحق بالاذاعة موظفا بسيطا حاصلا علي دبلوم التجارة المتوسطة ، لم يكمل تعليمه العالي ، لكنه بعصاميته وابداعه ونبوغه أصبح علي رأس العمل الاذاعي ، وحين اتيحت له الفرصة ـ وهو في خارج مصر ـ يواصل مشوار التعلم ويحصل علي بكالوريوس الإعلام من جامعة كولومبيا بنيويورك عام ١٩٥٦ ، وهو في الثانية والأربعين من العمر يبقي له في رصيد العمل الاذاعي الباقي تمثيله واخراجه لخمس عشرة تمثيلية وسهرة كوميدية كتبها بديع

خيري عن أشهر مسرحيات نجيب الريحاني ، وبرامجه : ركن الأطفال ودقات قلب وغرام الشعراء والنيل .

كما تبقي له كتاباته الموسوعية - التي لم تجمع بعد - ولعل أسرته تعكف علي جمعها ، ومعظمها نشرته جريدة الأخبار تناول فيها العديد من القضايا ، مثل البوسنة والهرسك والمشكلة اللبنانية والفكر الاسلامي ، والصراع العربي الاسرائيلي ، والعمل الاذاعي والاعلامي ، والدبلوماسية المصرية ورجالاتها الكبار تحت عنوان شوامخ مصرية ، وسلسلة من الكتابات عن جمعيات الأمم المتحدة التي اختير رئيسا لها مدي الحياة .

ويرحل علي بك خليل عن واحد وتسعين عام ا (ولد في العاشر من مارس١٩١٤ بمدينة بورسعيد) تاركا من ورائه عطر السيرة وكريم الأثر وموفور العطاء . نموذجا لجيل كان البناء والتأسيس والتشييد صناعته وديدنه ، والحفاظ علي القيم والمثل شعاره وغايته ، ومحبة الحياة والانسان سمتا أساسيا وملمحا بارزا في كل موقف وفي كل مجال .

من هنا فإن رحيله يجدد افتقادنا لنماذج رائعة من هذا الجيل ، كل منهم علم في مجاله و راية خفاقة ، ولقد كان الناقد الكبير الراحل والاذاعي الرائد الدكتور علي الراعي موفقا غاية التوفيق حين كان يكتب عن بعضهم تحت عنوان: بناة الاذاعة العظام: عبد الحميد الحديدي ومحمد محمود شعبان بابا شارو ومدحت عاصم ومحمد فتحي و عبد الوهاب يوسف وحافظ عبد الوهاب وأنور المشري وغيرهم . ولقد أتيح لجيلي من الإذاعيين أن يسعدوا بصحبة علي خليل والالتفاف من حوله ، بعد أن انتهي من كل مشاغله ومسئولياته ، وعاد إلى الاستقرار في مصر ، وكان الفضل الأساسي للإذاعي الكبير فهمي عمر - رئيس الاذاعة الأسبق - الذي كان حريصا علي عودة علي خليل إلى الميكروفون متحدثا اذاعيا ، ومفكرا ، ومثقفا كبيرا ، فعرفته الأجيال التي لم يتح لها معرفته من قبل ، واستمتعت إلى ه الملايين التي وجدت فيه عقلا متوهجا بالحكمة ، وألفة تجمع من حوله القلوب وكان موقف فهمي عمر من أستاذه علي خليل بك درسا في الوفاء وتجسيدا للخلق الكريم . وسلام علي رجل المحبات في الخالدين .

مصطفي المنيلاوي: طبيبا وفنانا

بقلم : فاروق شوشة

الكتابة عن الدكتور مصطفي المنيلاوي ، العالم والطبيب والإنسان والفنان الذي رحل عنا قرب ختام العام الماضي ، منذ أيام قليلة شديدة الصعوبة . في مثل هذه المساحة المتاحة للكتابة ، وعندما يحاول واحد من الألوف التي اقتربت من الجوار الحميم لهذا الطبيب النابغة ، أن يقدم لمحات سريعة عنه ، وأن يصور بقلمه بعض الملامح التي لا يمكن أن تغيب ، فغاية ما يمكن تحقيقه ، الإشارة إلى أمور تسبق غيرها في مجال الكلام .

أولها أن مصطفي المنيلاوي ، لم يكن طبيبا تقليديا ، يعكف علي مصدر العلة ، مشخصا ومعالجا ، بقدر ما كان طبيبا يضع الشخصية الإنسانية كلها في مجال اهتمامه .

فالعلة التي يشكو منها صاحبها لا يمكن التوصل إلى حقيقتها من غير إدراك لحالة صاحبها ـ عقليا ونفسيا وروحيا ووجوديا ـ قبل البحث في أعراض العلة جسديا . وكثيرا ما كان تشخيصه يتم ، ويصل إلى غايته ، من خلال مقدمات الحوار والجس بالأصابع واستخدام السماعة ، قبل أن يستخدم منظاره الدقيق للتأكد من أن تشخيصه الأولي قد أصاب . ويحار مريدوه من مرضاه وأصدقائه وزواره في فهم هذه الظاهرة النادرة ؟ هل هو إلهام يقوده إلى الوعي الدقيق بالحالة التي يشخصها ؟ هل هو الحدس الذكي السريع كالبرق أو كسريان الكهرباء هو الذي يمكنه من النفاذ إلى السر البعيد للعلة والمعرفة الكاملة بحقيقة الداء ؟

وثانيها أنه ـ وهو الرائد في طب المناظرة واستخدامها في تشخيص أمراض الجهاز الهضمي ودوالي المريء وعلاجها ، والتخصص ـ بصورة خاصة ـ في كل ما يتصل بالكبد ، بعد أن جعل منه محور اهتمامه الدراسي الأساسي ، وهو الذي ـ عبر مشواره التعليمي والأكاديمي الطويل ـ تزود بالمعرفة الفائقة عن القلب والمعدة والمريء والأمعاء وغيرها من المناطق التي كان منظاره يصل إلى ها في سهولة ويسر ، وفي سرعة لا تصدق ، وبيد ذكية حساسة مدربة . وعندما ذاعت شهرته في مجال المناظير ، وفي مجال الكبد ، أصبح الخبير المستشار لكثير من المؤسسات العلاجية والأكاديميات الطبية في دول عديدة عربية وآسيوية وإفريقية ، فضلا عن مشاركاته بالبحث والدراسة والخبرة في عديد المؤتمرات الدولية: أوروبية وأمريكية . الأمر الذي جعله دائم التجدد والتطور والتقدم ، متابعا ومطلعا ، ومضطلعا بمسئولية تقديم هذا العلم وهذه الخبرة إلى كل مجال عمل فيه ، وسعي إلى ه فيه كل من يلوذ به من علل الجهاز الهضمي ، وكل من يري فيه مظلة

مـن الأمـان ، تقيـه وتوجهـه ، ويجـد فيـه أبـو ة حانيـة ، وأسـتاذية واثقـة ، ورعايـة مـن طـراز نـادر ، وتعففـا يرقـي بـه إلى مـستوي يفـوق البـشر الـذين عرفنـاهم ، مـن المنكـبين علـي الـدنيا ومغانمهـا ومادياتهـا ، أمـا هـو فكانـت سـعادته في شـكر مـريض أدرك علـي يديـه الـشفاء ، أو يـائس فـتح أمامـه طاقـات الأمـل ، والقـدرة علـي الاسـتمرار في الحيـاة ، أو حـائر ـ بـين اجتهــادات الأطبــاء واخــتلاف تشخيــصاتهم وأســاليبهم في العــلاج ـ وجــد فيــه هــو ضــالته المنشودة ، ووضع ثقته فيه ، وآمن به ، فكان شفاؤه علي يديه .

وثالثهـا أن مـصطفي المنـيلاوي كـان مـصريا وطنيـا حتـى النخـاع . وهـو في هـذه المـسألة بالـذات ، يمكـن أن يخـرج علـي طبيعتـه الهادئـة الـسمحة ، وينفعـل ويغلـي دمـه ، لا حـساسه بـأن إهانـة مـا قـد وجهـت إلى ه باعتبـاره مـصريا ، أو كـان توجيـه الإهانـة إلى وطنـه مـصر ، في حـضوره أو في غيبتـه عندئـذ يـصبح هـذا الهـاديء الباسـم الـودود ، عنيفـا غايـة العنـف ، مـدافعا بكـل جوارحـه وقـسمات وجهـه وبلاغـة تعـبيره عـن كرامـة الطبيـب المـصري ، ونبوغـه وعبقريتـه ، وريادتـه في الكـثير مـن مجـالات الطـب علـي مـستوي العـالم العربـي ، والقـارة الإفريقيـة ، وكـثير مـن بلـدان آسـيا . وكـان كلمـا عـاد مـن ممارسـة أحـدي مهامـه الطبيـة في بلـد عربـي ـ خاصـة إذا كـان هـذا البلـد يفـاخر بإمكاناتـه الماديـة ومعداتـه ومنـشآته وتقدمـه التكنولـوجي ـ بـادر هـو إلى المفـاخرة بإمكانـات الطبيـب المـصري وتفوقـه ، بـالرغم مـن أنـه لم يـتح لـه مـن الإمكانـات والمعـدات والأجهـزة المتقدمـة مـا أتـيح للآخـرين ، مؤكـدا أن رأس منظومـة الطـب هـو الطبيـب القـادر ، المـزود بالمعرفـة الخلاقـة ، والحـدس الصائب ، وليس مجرد الأجهزة والآليات !

ورابعهـا أن الطبيـب النابغـة مـصطفي المنـيلاوي سـليل المطـرب الـشهير منـشد زمانـه يوسـف المنـيلاوي (١٨٥٠ ـ١٩١١) بـل هـو حفيـده علـي وجـه التحديـد . ولابـد أن بعـض جينـات الفـن ـ الـتي كـشف عنهـا علـم الهندسـة الوراثيـة مـؤخرا ، قـد تـسللت إلى الحفيـد فجعلـت فيـه بعـض خـصائص الجـد الفنـان وسماتـه . والمنـيلاوي المطـرب والمنـشد عـاش بمنيـل الروضـة بالقـاهرة ، فلقـب بـالمنيلاوي كـان ذا صـوت رخـيم ، أخـذ في بدايـة عهـده فـن إنـشاد القـصائد وأدوار المـديح والـذكر عـن الـشيخ محمـد عبـد الـرحيم الـشهير بالمـسلوب ، ثـم مـا ل إلى الغنـاء ، فأخـذ عـن الملحـن المـشهور محمـد عثمـان أكثـر أدواره ، وانقطـع عـن الإنـشاد ، إلا في المناسـبات الدينيـة ومـن قـصائده المـشهورة ـ في مجـال الغنـاء ـ قـصيدة ابـن هـانيء الأندلس التي مطلعها فتكات لحظك أم سيوف أبيك ثم وكؤوس خمر أم مراشف فيك .

ثـم ان يوسـف المنـيلاوي سـافر إلى الآسـتانة عـام ١٨٨٨ وغـني للـسلطان عبـد الحميـد ، فـأنعم عليـه بالنيـشان المجيـدي ، وهـو أول مـن سـجلت أغانيـه علـي الاسـطوانات الـتي كانـت تعـرف في١٩٠٨ باسـم سمـع الملـوك أعـود إلى الحفيـد الـدكتور مـصطفي المنـيلاوي ، لا قـول إن جـزءا كـبيرا مـن عبقريتـه كطبيـب كـان مرجعـه إلى هـذه الطبيعـة الفنيـة الـتي

اكتسبها بالوراثة . وهي طبيعة لم تقف عند حدود الذائقة الفنية الرفيعة التي ميزته في تقييم ما يستمع إلى ه ويشاهده من ألوان الفن وبخاصة في مجال الموسيقي والغناء . وإنما تعدت هذا المستوي إلى ما أسميه بالبصيرة الفنية ، والفن بصيرة ورؤيا وخيال واقتحام ، وكانت هذه البصيرة الفنية تسبقه في كثير من الأحيان إلى الاكتشاف ، وإلي صدق التأمل والرؤية ، وإلي مقاربة الحقيقة ـ كثيرا ـ في التشخيص والعلاج ، وإلي منح مساحة غامرة من المودة وفضاء رائع من المحبة والصداقة لكل من يقترب منه ويخالطه ويعاشره أو يعمل معه ، من تلاميذه ومساعديه .

كثيرا ما اتسع وقته لحوارات طويلة معه ، والألم يعتصره حزنا علي انحدار الفن الغنائي بصورة خاصة ، وكان يستوقفه دائما معدل الانحدار عام ا بعد عام في الكلمات والألحان والأصوات وأساليب الأداء ، ولأن صباه وشبابه واكتمال نضجه شهدت جميعها ذري الإبداع في هذا الفن علي مدار الأربعينيات والخمسينيات وحتي الستينيات ، قبل أن تصاب الاسماع بالصمم ، وتصاب الزائقة بالتلف وتصاب أسواق الفن بسيطرة غليظي الحس وسميكي الجلد ومحترفي السوقيه والابتذال ، ومروجي كل ما هو هابط ومسف ، وهادم للقيم والصحة النفسية والرجولة ، في تنافس ضار من أجل سرعة دورة رأس المال ، والاكتناز المسعور بلا نهاية .

كان مصطفي المنيلاوي هذا كله وأكثر منه . وبرحيله أفتقد صديقا عزيزا بسطت رعايته الطبية علي حياتي جناح الأمان . وطبيبا فذا عاش في غير عصره وزمانه ـ فكان من الطبيعي أن يؤثر الرحيل ، إلى عالم النقاء والصفاء والبقاء .

صديقي الذي لم تعرفوه

بقلم: فاروق شوشة

الصديق هو من لا يحتاج إلى أن تذكره بمعني الصديق .

كلمة لا بي حيان التوحيدي في كتابه البديع الصداقة والصديق لا أظنها تنطبق علي صديق عرفته وخبرته - ومثله ندرة نادرة من الأصدقاء - كانطباقها علي الصديق الراحل عبد الله عبد الرحمن الرومي . تخرجنا في كلية واحدة هي كلية دار العلوم ، لكن الكلية لم تجمع بيننا ، فقد كنت في سنة الليسانس - علي أهبة التخرج - بينما هو يبدأ خطواته الجامعية بالسنة الأولي . وأتيح لنا أن نلتقي لا ول مرة علي أرض الكويت ، حين ذهبت إلى ها معارا إلى إذاعتها - لمدة عام واحد - كان هو رئيسا للقسم الأدبي بالإذاعة وأصبحت أنا - صغير السن والخبرة في عشرينيات العمر - رئيسا لقسم المذعين . لفت نظري أنه الوحيد بين الكويتيين العاملين في الإذاعة الذي يحمل شهادة جامعية ، - فلم يكن العمل الإذاعي أو الإعلامي عام ة يستهوي الخريجين . وكان المدير العام للبرامج لا يحمل إلا الابتدائية القديمة ، لكنها لم تحل بينه وبين أن يستكمل أدواته الإذاعية وفي مقدمتها لغته وثقافته وتمكنه من فنه . ولم يقل لي عبد الله الرومي وقتها - فقد كان لا يتكلم عن نفسه أبدا ولا عن صنائعه للناس وما أكثرها - أنه وراء إعارتي إلى الكويت ، عندما اقترح علي الشاعر والمفكر الكويتي أحمد السقاف - الذي كان وكيلا لوزارة الإعلام - في مستهل الستينيات - وكان يفكر في الاستعانة بالخبرة المصرية في مجال العمل الإذاعي تدعيما لمشروعه القومي - أن يستعين بي ، في تدريب المذيعين والإشراف عليهم ورسم خريطة ثقافية لبرامج الإذاعة الكويتية أسوة بما حدث في تليفزيون الكويت ، الذي سبقتني إلى العمل فيه بعثة فنية مصرية علي رأسها السينمائي الكبير كمال أبو العلا ومعه باقة من المخرجين من بينهم محمد شرابي وحمدي فريد . وكان رفيقي في الإعارة المخرج الكبير إسلام فارس الذي تولي مراقبة التمثيليات . وكانت نصيحة الرومي للسقاف مبنية علي مشاهداته للنشاط الثقافي والأدبي والشعري في الكلية ، وقد كنت مسئولا عنه باعتباري مقرر اللجنة الثقافية في الاتحاد .

وإن هي إلا شهور قليلة من نهايات عام ١٩٦٣ وأوائل عام ١٩٦٤ ، حتي رحل عنا عبد الله الرومي إلى القاهرة ، لا ستكمال دراساته العليا في معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية وللعمل ملحقا إعلاميا بسفارة الكويت في القاهرة . وحين عدت إلى القاهرة بعد انتهاء سنة الإعارة - التي طلبت عدم تجديدها - بدأت علاقتنا الحقيقية ، أو فلأقل صداقتنا الحقيقية ، التي استمرت منذ اثنين وأربعين عام ا حتي رحيله - بعد إصابته بداء عضال - منذ أسابيع قليلة وأصبح بيت عبد الله الرومي في

الـدقي وبيتـه الثـاني المطـل علـي مجلـس الدولـة ، صـالونا ثقافيـا وأدبيـا وفكريـا لا أظـن القـاهرة شـهدت مثلـه بعـد توقـف صـالون العقـاد برحيـل صـاحبه عـام ١٩٦٤ . ومازلـت أذكـر كيـف كـان لهـذا الـصالون الفـضل في نجـاة رواده ـ وهـم يواجهـون عـام النكـسة المريـر ـ مـن الإحباط والموت غمـا ونكـدا ويأسـا . فقـد كـان لقـاؤهم بمثابـة العـلاج الروحـي والـتطهير لكـل مـا أنتجته الهزيمة من سموم وعلل .

كـان يكفـي أن يلتقـي محمـود حـسن اسماعيـل ـ شـاعر النهـر الخالـد ، وطـاهر أبـو فاشـا ـ صـاحب ألـف ليلـة وليلـة ، وشـوقي أمـين ـ علامـة المجمـع اللغـوي وأحـد رواة العـصر الكبـار ، وإبـراهيم الحـضراني شـاعر إلى مـن الكـبير ، والـدكتور أحمـد هيكـل ـ وزيـر الثقافـة فيمـا بعـد ـ وإبـراهيم الـترزي ـ الأمـين العـام لمجمـع اللغـة العربيـة فيمـا بعـد ـ وكاتـب هـذه الـسطور . ليـدور الحـوار والنقـاش ، تعلـو حدتـه أحيانـا وتهـدأ ، والجميـع يبحثـون ـ لهـم ولأمـتهم ـ عـن مخـرج مـن الهزيمـة الـتي أدت إلى انكـسار الـروح وفقـدان الاتجـاه وزعزعـة إلى قين وضياع الحلم .

وكأنمـا كانـت الأقـدار تـدخر ل عبـد الله الرومـي ـ بعـد أن أصبح مستـشارا إعلاميـا ـ دورا بـارزا في الحركـة التنويريـة بالكويـت ، الـتي رعاهـا أخطـر وزراء الإعـلام في الكويـت وأذكاهم وأكثـرهم ثقافـة : جـابر العلـي الـسالم ، وسـهر علـي التخطـيط لهـا الـشاعر المفكـر أحمـد العـدواني في الكويـت والـسفير الفنـان حمـد الرجيـب في القـاهرة ـ وهـو الـذي سيـصبح وزيـرا للـشئون الاجتماعيـة ـ و عبـد العزيـز حـسين وزيـر الدولـة . وكـان عبـد الله الرومـي الـدينامو الـذي لا يهـدأ في سـرعة الإنجـاز وابتـداع الحلـول وتيـسير الـسبل مـن أجـل أن يـصبح للكويـت نمـوذج مـصغر لا كاديميـة الفنـون الـتي قامـت في مـصر ، ومعاهـد عليـا لدراسـة الموسـيقي والمـسرح ، والتوسـع الهائـل في الاسـتفادة مـن الإنتـاج الـدرامي والبرامجـي المـصري الإذاعـي والتليفزيـوني ، وتحقيـق نمـط فريـد مـن جـسور التعـاون الإعلامـي والثقـافي ، لا أظنـه تحقـق بمثـل هـذه الـصورة بـين أي قطـرين عـربيين ، في أي وقـت مـن الأوقـات .
وكـان مكتـب عبـد الله الرومـي ـ في الـسفارة ـ وبيتـه ـ بعـد انتهـاء سـاعات العمـل ـ يمتلئـان بالنخبـة المـصرية الـتي يـستعان بهـا في هـذه المجـالات الثقافيـة والفنيـة والإعلاميـة ، الأسـاتذة والـدكاترة : لـويس عـوض ومحمـد القـصاص ورتيبـة الحفـني وسـعيد خطـاب ونعمـان عاشـور وصلاح عبد الـصبور ومحمـد مـوافي وأحمـد أبـو زيـد وأمـين يوسـف غـراب وزكريـا نيـل وأحمـد رشـدي صـالح وعلـي الراعـي وكمـال الطويـل ومحمـد المـوجي ومحمـود كامـل ـ الملحـن وعـازف العـود الـشهير ـ فـضلا عـن النجـاح البـاهر للرومـي في تـدعيم الـصلة المباشـرة بـين الكويـت مـن ناحيـة وكـوكبي الفـن في مـصر : أم كلثـوم ومحمـد عبـد الوهـاب وفي مرحلـة لا حقـة ريـاض الـسنباطي حـين تـبني جـابر العلـي مـشروعا فنيـا طموحـا يـتم بمقتـضاه تلحـين الـسنباطي عـددا

مـن القـصائد والأغنيـات تـتغني بهـا فـيروز ، وهـو المـشروع الـذي قطـع خطـوات لكـن لم يقـدر له الاكتمال .

ويعـود عبـد الله الرومـي إلى الكويـت في أوائـل الثمانينيـات ، لكـي يحمـل مـسئوليات أسـرته بعـد وفـاة والـده ، وتنقطـع صـلته الوظيفيـة بـالإعلام ، بعـد أن رأي في العمـل الحـر مجـالا أفـضل وفي العمـل الإعلامـي العربـي أكذوبـة كـبري . لكنـه يظـل علـي علاقته بمـصر ، الـتي انتمـي إلى هـا وجدانـه الأخـضر المـترع بمـاء النيـل ، متخلـصا مـن أصـوله الرمليـة والـصحراوية ، مكـذبا ـ بـصدقه في مودتـه وحرصـه علـي أصـفيائه مقولـة المـستحيلات الثلاثـة : الغـول والعنقـاء ـ والخـل الـوفي ـ مثبتـا ـ لكـل مـن عرفـه ـ أن الخـل الـوفي الـذي تكلـم عنـه التوحيـدي في كتابـه لا يـزال موجـودا ، وأن عطـره ـ بعـد رحيلـه لا يـزال يمـلأ حيـاة محبيه وعارفي قـدر ثقافتـه وذوقـه الأدبـي الرفيـع ، وهـو الـذي كـان عمـدتنا جميعـا حـين يكـون الحديث عـن المتـنبي الـذي يطيـب لـه وصـف كـثير مـن قـصائده بأنهـا كونكريـت أي بنـاء مـسلح ، في قوتهـا وإحكـام صـياغتها وروعـة بنائهـا . كمـا كـان راويـة فـذا لكنـوز الـتراث الأدبـي وعيونـه ، ومرشـدا هاديـا لـي في وضـع التخطـيط الأول لبرنـامج لغتنـا الجميلـة بـدءا مـن حلقاتـه الأولـي في مـستهل سـبتمبر عـام ١٩٦٧ . هـذا صـديق نـادر وعزيـز ، لم يقـدر لكـم أن تعرفـوه ، لكنني عرفته ، وسعدت بصداقته الحقيقية ، وافتقدت عمرا جميلا عند رحيله .

الدكتور شريف مختار وجائزته التقديرية

بقلم: فاروق شوشة

في موكب الحاصلين علي جوائز الدولة في العلوم ـ لهذا العام ـ توقفت طويلا أمام اسم الدكتور شريف مختار . المحظوظون ـ مثلي ـ بمعرفته ، والتعامل معه عن قرب ، واكتشاف حجم ما يمثله من قيمة انسانية وعلمية وفنية هم الذين تغمرهم السعادة ، لا لا ن هذا التقدير ـ كما نقول في أدبياتنا المألوفة ـ قد صادف أهله فقط ، ولكن لا ن الجائزة التقديرية ، عندما يحصل عليها أمثال شريف مختار ـ تستعيد توهجها وزهوها وكبرياءها هذا رجل منحه الله ـ من ذخيرة التواضع ـ الكثير . وهو تواضع ليس كاذبا ولا زائفا ولا صادرا عن ادعاء ، ولذا فليس هو الوجه الآخر للغرور ، ومنحه من الألفة وحميمية التعامل مع البشر ما يشعر مرضاه والعاملين معه وأصدقاءه ـ وحتي معارفه ـ أن فيه من الأبوة الروحية الغامرة ما يتسع للجميع ، حتي ولو كان بعضهم أكبر منه سنا ، هذه النفس الانسانية ، الفياضة بالعطاء ـ عن محبة ورضي ـ هي مفتاح هذه الشخصية الفذة والفريدة ، في عالم نتلفت حولنا فيه فلا نجد من أمثال شريف مختار الا من يعدون علي أصابع إلى د الواحدة .

ثم هو طبيب عالم ، لا تنقصه المعرفة الموسوعية من ناحية ، ولا التخصص الدقيق من ناحية أخري . لكنه لا يتعامل مع مرضاه بالقطعة . فالعضو المصاب ، أو موضع الشكوي ، هو جزء من كل ، ولابد من مداخل عديدة لفهم هذا الكل ، والتعرف علي تاريخه الصحي ، وعلي ظروف حياته ، ودرجة معاناته ، لكي يتم تشخيص الجزئي في اطار الوعي بالكلي . وكثير من أطباء هذا الزمان يشغلهم تخصصهم الدقيق من الالتفات إلى أي شيء آخر سواه . لا يعنيهم ولا يهمهم ، وليس لديهم من الوقت والصبر ، ولا من الوعي الذي ينبغي أن يكون شاملا غير منقوص ، ليضعوا الحالة في إطار مرجعية أوسع وأشمل . هذه الروح العلمية والطبية الحقيقية وجدتها عند نفر قليل من أطبائنا ، علي رأسهم شريف مختار ، ونابغة الطب الدكتور مصطفي المنيلاوي الذي له فضل تقديمي إلى صديقه وزميله شريف منصور ، فأصبحت كمن يعاين كوكبين في مجرة واحدة ، أو نجمين في سماء متألقة ، تغمرني بالضوء والأمان ، وتأخذ بيدي في طريق السلامة .

وعندما أتاحت لي اللقاءات العديدة بالدكتور شريف مختار ، في صومعته التي يرقي هدوؤها ووقارها ونظافتها وجمالها ، إلى جلال أماكن العبادة وجمالها ، فوجئت بصاحب وحدة الحالات الحرجة بمستشفي قصر العيني ومنشئها وراعيها ومهندس نظامها وواضع خطتها وراسم حاضرها ومستقبلها ، فوجئت به فنانا من طراز نادر . الموسيقي

الكلاسيكية الهادئة ، التي تصنع خلفية وثيرة ومشجعة ـ ونحن في قلب مستشفي تضج أدواره وممراته وأجنحته الأخري بصخب الحياة ونداءات العاملين وأنات المرضي ـ فتنعزل عن هذا كله ، ونحس أن الفنان الكامن في شريف مختار يحاول التنفيس عن وجوده الحبيس غير المتحقق ـ علي مستوي الابداع والممارسة ـ من خلال اختيارات رائعة تكشف عن الوعي بقيمة هذا الطراز من الموسيقي العالمية ، وجماليات الإصغاء والمعايشة والتخلص من التوتر ـ أيا كان مصدره ـ مع هذا الابداع العبقري في التأليف الموسيقي ، وهنا تتحقق في شريف مختار مقولة: قل لي ما ذا تسمع ، أقل لك من أنت ! فالذي يستمع إلى ه الطبيب العالم ، ويسمعه هو لزواره وأصدقائه ومرضاه ، دليل علي ذوق ، وكشف عن نوعية وجدان راق متحضر ، وولوج إلى عالم الكشف والتشخيص من بوابة الأمان والثقة الكاملة وإسلام الجسد والنفس إلى يدين بارعتين مدربتين ، وسماعة كشف لا تخطيء ، واستدعاء لعينات الكشف بأحدث الأجهزة في تكنولوجيا الطب ، وهي الأجهزة التي عاني شريف مختار في سبيل الحصول عليها وتوفيرها لوحدته ـ أو مملكته الطبية الأثيرة ـ كثيرا ، من منطلق اللحاق بأساليب الرعاية الطبية ، وتوفير العلاج العصري الحقيقي ، وعدم التعلل بأنه ينقصنا كذا وكذا ، لتبرير العجز أو التراجع أو عدم النجاح .

شريف مختار ، هذا الحيي الخجول إلى أقصي حد ، الذي لا يتحمل سماع كلمة ثناء واحدة أو شكر ، هو نفسه شريف مختار المقاتل ، الحازم ، المنضبط ، الذي لا يساوم ولا يتنازل ولا يتراجع ، الحريص علي متابعة ما يجري من حوله من فكر وآليات وتجديد وتطوير ، وكثيرا ما تأملت هذا التكوين الانساني والعلمي الثري ، والمغري بالنظر والتأمل والسفر الروحي والجسدي لعديد المؤتمرات والملتقيات حول العالم . كيف له بهذه المساحة من الهدوء والسكينة والصبر ، ثم كيف له ـ وسط زحام الشواغل والمسئوليات وتراكم العمل ـ الطبي والإداري ـ باللحظة التي تعرض فيها فكرة جديدة ثاقبة لتطوير أمر من الأمور ، أو بارقة خاطفة لماحة لتغيير موقع لوحة من مكانها علي الجدار ، وهو البارع إلى أقصي حد في تزيين وحدته بجماليات التشكيل ، واختيار اللوحات التي تناسب هذا الطقس الطبي الت عبد ي ، وهذه الوحدة الخاصة بالحالات الحرجة والتي تمثل الملاذ الأخير وشاطيء النجاة ، لمن تفتك بهم العلة ، ويجدون في حمي شريف مختار ، وجواره ـ هو ومساعديه وتلامذته ـ أمانا لهم من غدر الداء ، وحلما قريبا بالنجاة والشفاء . هل يأذن لي الطبيب الانسان والعالم والفنان شريف مختار ، بالكشف عن بعض جوانب البر والخير في شخصيته وفي حياته ؟ أخشي أن أخدش حياءه وتحفظه وتكتمه الشديد لجوانب انسانية عديدة في سلوكه إلى ومي وفي نهجه الحياتي . واحترامي لهذا كله يحول بيني وبين الحديث فيه ، وإن كان ـ بالنسبة لي علي الأقل ـ

يمثـل جانبـا أصـيلا ، وسمـة بـارزة ، في تكـوين شـريف مختـار ، الـذي كرمـت الدولـة جائزتها التقديرية في العلوم حين طوقت بها عنق هذا الانسان النادر والعالم الرمز .

سناء البيسي والكلام الساكت

بقلم : فاروق شوشة

ولقد شغلتني كثيرا أساليب كتابنا وطرائقهم في التعبير ، منذ كان المنفلوطي نموذجا ومثلا أعلي للكاتب الذي يسيطر علي مشاعر القراء ويستدر دموعهم في العقود الأولي من القرن العشرين . وجاء أسلوب طه حسين ليمثل ثورة تجديدية تتجاوز أسلوب المنفلوطي ، بينما كانت أساليب الزيات والعقاد وهيكل والمازني والحكيم ويحيي حقي وغيرهم ، تمثل تنويعات رائعة ، تضيف إلى الذاكرة الإبداعية والتعبيرية ، وتقتحم دوربا جديدة عبد تها لغة الصحافة المصرية ، وأتاحت لها مساحة واسعة من الانتشار والتأصيل وذيوع الصيت .

وفي طليعة هذه الريادة الصحفية الأسلوبية واللغوية كانت كتابات محمد التابعي وفكري إباظة ومدرسة علي ومصطفي أمين وكامل الشناوي ومحمد حسنين هيكل وغيرهم .

وهي المدرسة التي ندين لها بما يطلق عليه الآن فصحي العصر ، أو الفصحي العصرية ، في مواجهة فصحي التراث أو الفصحي التراثية التي ظلت - لا مد طويل - نموذجا ومثالا تتطلع إلى ه كتابات كثيرين حتي إلى وم .

والمتأمل في بانوراما الكتابة الصحفية الآن ، يدرك علي الفور أن سناء البيسي هي رأس الحربة في طليعة جيلها من الكاتبات ، وهي لم تصل إلى هذه المكانة من فراغ . فموهبتها الدرامية

الفائقة ، وقدراتها المتميزة علي تدريم أي موقف أو قضية أو موضوع ، يضفي علي كتاباتها هذا المذاق الحار ، وهذه اللذعة او اللسعة ، الحلوة المرة معا ، في مزيج من الحوار مع الذات ومع الآخر ، والعرض والطي ، والاتفاق والاختلاف ، والحماس والرفض ، هذه الدراما التي تجعل من كتاباتها مسرحا للعواطف الإنسانية ، عرضا لا صطراع النزعات والأحاسيس ، بهدف الكشف عن المعدن الخبيء ، والجذوة الدفينة للصراع والوصول بقارئها إلى لحظة التنوير المدهشة ، وحالة التطهير المريحة والممتعة .

بالإضافة إلى هذا الحس الدرامي ، والقدرة علي تدريم الأشياء هناك هذا المخزون الهائل من التجارب والمواقف والوعي العميق بالبشر في جملتهم ، وبالشخصيات التي عبرت حياتها الحافلة والممتلئة ، لكنها لم تعبر مرآتها الكاشفة أو عينها البصيرة . . وهي في كتابتها عن هذا السلم البشري المتعدد الدرجات صعودا وهبوطها لا تفوتها ليونة الحركة وسرعة التنقل من سمت الأرستقراطية إلى الشعبية والعكس ، كاشفة عن

مكونــات شخــصيتها البــسيطة جــدا ، بــساطة حفيــدتها نــورا ، والمركبــة جــدا تركيــب الجدات الواعيات المختزنات لقدر هائل من خبرة الحياة ووعيهن الفطري .

وسـناء البيـسي ، صـاحبة هـذه اللغـة الفريـدة في الكتابـة ، مـا زجـة بـين عـصرية الأداء الفـصيح ، وشـعبية التعـبير البليـغ الـذي لا يغـني عنـه سـواه ، في اقتـدار يتجـاوز الحـدود الـتي توقفـت عنـدها إبـداعات المـازني ويحيـي حقـي في تطويـع العاميـة واستـصفاء ذخائرهـا ومنجزاتهـا ، وبهـذا القـدر مـن الحريـة والاختيـار الفـني ، والاتكـاء علـي ثقافـة لغويـة حقيقيـة ، لهـا خلفيتهـا الكلاسـيكية العاتيـة ، الـتي طرحتهـا وراءهـا ، وانطلقـت جامحـة عاصـفة مـزودة بحـس العـصر ، وضـرورات الكتابـة الموجعـة ، غوصـا في همـوم النـاس وأشواقهم ومطامحهم . الكتابة .

ولأنهـا مـسكونة بهـم الكتابـة ومـسئوليتها فهـي تنقـل في كتابهـا الجديـد البـديع الكـلام الـساكت الـصادر ضـمن مطبوعـات مكتبـة الأسـرة هـذا العـام ـ وهـي في الأصـل مـن منـشورات الـدار المـصرية اللبنانيـة ـ تنقـل سـطورا مـن برديـة بقلـم المـصري خـيتي بـن دواوف في عهـد الرعامـسة يقـول فيهـا : كـن كاتبـا ، وضـع ذلـك في قلبـك ، وبـذلك يمكـث اسمـك . إن مؤلفـا واحـدا لا عظـم فائـدة مـن لوحـة قـبر منحوتـه ، ومـن جـدران مقـبرة محكمـة التـشييد ، وإن كاتبـا واحـدا لا كثـر نفعـا مـن بيـت مؤسـس ومـن م عبـد في الغـرب وإنـه لا جمـل مـن قـصر منيف ، ومن نصب تذكاري هائل في هيكل .

كمـا تعطـر الفـصل الجميـل الـذي أبدعتـه عـن الكتابـة بعنـوان أنـا حـرة ـ بكلمـات بتـاح حتـب الحكيمـة الـتي أملاهـا علـي مـولاه الملـك مريكـا رع : كـن صـانعا للكـلام لتكـون قـوي البــأس ، لا ن قــوة الإنــسان هــي اللــسان ، والكــلام أعظــم خطــرا مــن كــل حــرب .

ثـم تعـود إلى ابـن دواوف وهـو يقـول في مجـال الوصـية لا بنـه : لا حـظ أنـه لا توجـد مهنـة لا رئـيس لهـا إلا مهنـة الكاتـب ، فالكاتـب رئـيس نفـسه ، كـن كاتبـا حـتي تغـدو أعـضاؤك ملـساء ويـداك رقيقـتين ، وحـتي ترتـدي الملابـس البيـضاء ، وتتجـول مزهـوا ، وإذا ناديـت شخصا استجاب لك ألف شخص وإذا سرت في الطرقات تسير حرا .

تعـالوا نتأمـل ونتـذوق أسـلوب سـناء البيـسي ولغتهـا وطريقتهـا في التعليـق علـي هـذه الوصـية : يـاه . . ياسـلام الكاتـب رئـيس نفـسه شـفتم بـذمتكم عبـارة أحلـي ولا أوقـع ولا أجـدي ولا أنفـع ولا أشـرح ولا أبهـج ولا أمتـع ولا أنجـع ولا أفقـه ولا أروع ولا أحـري مـن تلـك العبـارة الملهمـة المؤمنـة المورقـة المزهـرة المنجـزة المـسهمة الدامغـة الـسامقة البارقـة الفائقـة الفـاخرة الكاسـحة الفاتحـة القارعـة الـصارخة الـشامخة الـوافرة التامـة الحـارة القـارة الـسارة . . رئـيس نفـسه ! أي أنـا رئـيس روحـي . . في يـدي سـيفي . . قلمـي . . أفتحـه . . أقفلـه . . أخاصــمه . . أصــحابه . . أعلقــه في جــيبي . . أحطــه في الــشنطة . . أرميــه في

الـدرج . . أسـلفه لغـيري . . أشـعبطه في ودنـي . . أعضعـضه بفمـي . . أدوس علـي سـنه أجيـب منـه دسـته أفرقهـا . . . أمـرمط بـه أرض الـصفحات . . . أخربـشه بأظافري . . أكسره . أقدسه . أهدهده أداهنه . أهادنه . الخ .

وصـولا إلى قولهـا : الكاتـب رئـيس نفـسه : حريـة . اسـتقلال . في قلمـه يـسكن شـعور طـاغ بمـسئوليته الاجتماعيـة والإنـسانية والأخلاقيـة تجـاه عـصره وشـعبه ووطنـه ، ومـايرتبط بهـذا الـشعور العميـق بالمـسئولية مـن دور حـي للـضمير الحـي الـذي يـؤرق صـاحبه محذرا من وقوع الكارثة .

وعنـدما تـري قلـم الحكـيم أيبـور يـصرخ منـذ آلاف الـسنين محـذرا ، إن الـذي لم يكـن يملـك حبـا أصـبح الآن يملـك أجرانـا تـضيف في سـخرية لا ذعـة ووخـز عنيـف بـالقلم: وأراضـي استـصلاح بـآلاف الهكتـارات ، وقـري سـياحية بـالبيتش بـاجي والمـارون جلاسـيه ، وقروضـا متلتلـة مؤجلـة الأجـل ، وزكائـب عمـولات مقبولـة الـدفع ، وشـاليهات غنـاء وأجنـسات عربـات ، وبلـح أمهـات ، ومـن كـان يبحـث لنفـسه عـن صـدقات مـن القمـح ـ شحات امبارح أصبح الآن يخرج من مخازنه تلال تجارة !

في كتابهـا الجديـد البـديع الكـلام الـساكت قالـت سـناء البيـسي كـل مـا لم تقلـه في كتابهـا الكـلام المبـاح ، وأجابـت علـي كـل الأسـئلة الـتي أثارهـا كتابهـا . أمـوت وأفهـم ، وشـيدت هرمـا جمـيلا مـن الكتابـة الأدبيـة الراقيـة ، الزاخـرة بكـل جماليـات الكتابـة العـصرية ، وسـكبت مـن فـيض وجـدانها المـترع فيـضا مـن الـشعر والـشاعرية جعـل مـن بعـض لوحاتهـا القلميـة قـصائد متوهجـة : إحـساسا ولغـة ووزنـا وإيقاعـا ونفـاذا ، ومـن بعـض لوحاتهـا عـن شخـصيات مختـارة مـن هـذا الزمـان بـدءا بالإمـام المراغـي وانتهـاء بـساحرة الـشدو والأداء : نجـاة دروسـا في الكتابـة الكاشـفة ، والحـوار المتـألق ، والتحليـل الـواعي العميـق . هـذا كتـاب لا ينتهـي سـحره ولا تـأثيره ولا عجائبـه . بحـسبه أن يكـون معرضـا فنيـا رائعـا للقليـل البـاقي ـ ووهـو قليـل جـدا ـ مـن عظمـة مـصر والمـصريين ، وهجائيـة أدبيـة راقيـة للكـثير المتفـشي ـ وهـو كـثير جـدا ـ مـن صـور التخلـف والمهانـة والفـساد والجهـل وانعـدام القـيم وغيبـة الـضمير ، إنـه شهادة علي العصر كأصدق ما تكون الشهادة . وأروع ما يكون التعبير والتصوير .

" فنون مصرية " : مجلة جميلة ومحترمة

أنا مدين للكاتبة الكبيرة سناء البيسي بفضل تعريفي علي هذه المجلة حين أهدتني عددها الأول الصادر في يوليو الماضي . دهشت لا ن هذه المجلة الفنية الحضارية الثقافية المحترمة قد صدرت منذ شهرين ، ولم يسمع بها كثيرون - أنا واحد منهم - ، وقلت لنفسي: ومن سيهتم بمثل هذه المجلة الجادة ، وطوفان الاعلانات وفن الترويج لم يعد يهتم إلا بكل ما هو سطحي وزائف وتافه من المطبوعات وغير المطبوعات ، ثم تذكرت علي الفور العصر الذهبي للمجلات الأدبية والثقافية والفكرية والفنية في مصر ، يوم كان القارئ العربي ينتظرها ويحرص عليها قبل القارئ المصري ، ويوم كان صدور هذه المجلات واستمرار نجاحها وتألقها يعني ملمحا مهما وتأكيدا لدور مصر الأساسي والريادي في الوعي والاستنارة وتثقيف العقل والوجدان ، ونتلفت حولنا الآن فلا نكاد نجد شيئا محترما يستحق القراءة ! .

وعندما بدأت في قراءة السطور الأولي الموقعة باسم تحرير المجلة أدركت أنها مجلة تعي رسالتها: حجما ودورا وأهمية ، وتعرف جمهورها المستهدف ، وآفاقها ومحاورها الأساسية ، وحلمها العريض من أجل ازدهار الإبداع القادم ، خاصة عند من تخطوا عمر الطفولة ، وتتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والخامسة والثلاثين .

بدأت رحلة التحرير بسؤالين: لماذا مجلة جديدة للفنون ؟ ألا تكفي المجلات الحالية لتغطية تلك الجوانب ؟ وجاءت الإجابة الموحشة:

في مجال العمارة ، لا توجد مطبوعة مصرية واحدة .

في دوائر الآثار ، يتم التنويه فقط عن الاكتشافات لا ثار جديدة أو عن المشاريع المستقبلية أو متابعة للمعارض الأثرية بالخارج ، ثم يسدل ستار الصمت علي متابعة هؤلاء الأثريين في رحلة بحثهم عن كنوز مصر ، فتنساهم الصحف والمجلات لا يام وشهور .

في مجال الموسيقي الرفيعة ، نجد الصحف والمجلات تغطي بعضا من شذرات ما تقدمه الأوبرا أو الفرق الموسيقية .

وفي الفنون التشكيلية تخصص الجرائد والمجلات بعضا من صفحاتها بصعوبة لهذا الفن الذي يمكن أن يقود العين والإحساس إلى عمق الفهم لما يدور حولنا .

النتيجة الواضحة أنه لا توجد مجلات تروي الاحتياج إلى المعرفة في كل من المجالات السابقة: العمارة والآثار والتشكيل والموسيقي .

الجميل أن المجلة لم تنكر فضل جهود سابقة وحالية قام بها العديد من المثقفين الذين امتلكوا شجاعة مواجهة تلك الهوة الشاسعة التي تفصل الجمهور عن تذوق تلك الفنون العالية القيمة . .

المجلة من حيث الشكل والإخراج والأناقة الرصينة قفزة ضخمة في تاريخ مجلاتنا الفنية ، من هنا فهي جديرة برسالة الجمال الذي تشيعه وتدعو إلى ه وتتبناه ، ورئيس تحريرها الكاتب الكبير الثري الوجدان منير عام ر يحلم لها بأن تكون قوسا في يد الشاب تشده كلماتها ولوحاتها وموضوعاتها بدرجة منضبطة علي الواقع والأمل ، لئلا يتفسخ أو يتراخي . وبأن تكون بسيطة لا متحذلقة ، لئلا يقف الملل ـ ومعه عدم الثقة ـ حائلا بين القارئ ومحتواها . وهو يقتبس من مسرحية هنريك إبسن البناء العظيم قوله علي لسان مهندس عجوز مهمتي أن أنتظر دقات الباب ليقول لي القادم: أفسح لي الطريق ، أنا الجيل الجديد .

ثم إن هذه المجلة الفصلية ـ ذات الطباعة الراقية ـ صدرت ، كما يقول منير عام ر لتكون في متناول أيدي الجيل الشاب من رواد المكتبات ، فهو يشفق عليهم من شرائها وهي معروضة في الأسواق بسبب تكلفة طباعتها العالية (عشرة جنيهات) . زوار المكتبات المنتشرة علي أرض مصر سيجدونها في متناول أيديهم ، فهي مجلة تحترم رغبتك في الوجود بمكان هادئ جيد الإضاءة والتهوية ، تستطيع في كل زيارة تقوم بها إلى المكتبة أن تقلب الصفحات وتكتشف الهدف من وجود المجلة بين يديك ، وهو بناء الجسور بينك وبين الجمال .

نظرة علي محتويات هذا العدد الأول من فنون مصرية تكشف عن حجم الغني والتنوع في مجالاتها المختلفة: بطاقة دخول إلى عالم الفن الجميل لمنير عام ر ، الدفاع عن حق التنفس ندوة أعدها للنشر صلاح مطر ، أنطونيو جاودي مهندس العمارة البليغة للدكتور خالد سامي ، رحلات الملك توت: ما دة علمية للدكتور إبراهيم النواوي ، في متحف الإسكندرية القومي: الإسكندرية ضحكة مصرية علي البحر المتوسط ما دة علمية لا حمد عبد الفتاح ومحمد اسماعيل ، ومحمود مختار: الفنان الذي تسلم الإزميل لمصطفي عبد المعطي ، كنعان وأنا: زهر المشمش لسناء البيسي ، سمحة الخولي: أستاذة الجيل للدكتور محمد الجوادي ، هذا المايسترو نادر عباسي: قل لي من أنت ؟ بدون توقيع .

الجمال في تجلياته المختلفة إشعاع غامر ، يتدفق عبر صفحات هذه المجلة في جانبيها: المقروء والمرئي ، فمنير عام ر حين يري لوحة ما يتذكر علي الفور ما قرأه في كتاب قديم عندما سألوا رجلا عن جمال امرأة التقي بها ، فقال: كانت حيويتها تتدفق في وجداني حتي رأيتها أجمل النساء ولم أنشغل بسؤال ملامح وجهها عن التفاصيل التي يمكن قياس جمالها بها ، وفي ندوة الدفاع عن حق التنفس ـ التي أقامتها لجنة العمارة

بالمجلس الأعلي للثقافة منطلقة من مشروع غرس مليون شجرة داخل وخارج مدينة القاهرة ــ ذكر الدكتور ناصر قطبي أستاذ أمراض التخاطب في جامعة عين شمس أن الفيلسوف إلى ونـاني أرسطو كان يعلم تلاميذه في الحديقة الليثيوم ليستمد منها صفاء الذهن والحكمة والجمال الموجود في الحديقة وفي الطبيعة ، وفي الحديث عن أنطونيو جاودي مهندس العمارة البليغة يقول الدكتور خالد سامي: لقد قام جاودي بمجهود واضح ليكسو معماره بالحقيقة التي تؤدي إلى الجمال ، كذلك تقديره الشديد للون ، ورأيه في أن المعمار ـ كعمل فني ـ لا بد أن يعطي الإحساس بالحياة ، فالحياة والجمال مفهومان يتطلبان اللون . وفي مقال مصطفي عبد المعطي عن محمود مختار يشير إلى جمال نفتقده الآن وهو يقول: إنه بعد محمود مختار لا يوجد لدينا ما يمكن أن نسميه تمثال ميدان ولا قاعدة تمثال . فقد كان عبقريا في تصميم القاعدة ، وهذا يتضح ـ علي سبيل المثال ـ في تمثالي سعد زغلول في كل من القاهرة والإسكندرية ، وكان مختار يراعي في تمثال الميدان أن يتناسب في شكله وحجمه مع العمارة المحيطة بالميدان ، ومع الفراغ الذي حوله . كان يراعي ـ بكل هذا ـ كيف يري الجمهور هذا التمثال أو ذاك ، وهذا ما تفتقر إلى ه تماثيل كثيرة وضعت في ميادين كبيرة ومهمة بمدننا بعد مختار . تماثيل قميئة ـ للأسف ـ لا تتناسب مع حجم الميدان ولا مع حضارة مصر بالمرة ! .

وفي الحديث عن المايسترو نادر عباسي إشارة إلى جمال من لون آخر هو المتمثل في روح العمل الموسيقي ، الذي يحرص قائد الأوركسترا علي تحقيقه . فهذا القائد مطالب بأن يكون صاحب خبرة غير تقليدية في العزف علي أكثر من آلة موسيقية ، وأن يكون دارسا للتأليف الموسيقي ، وأن يملك ما يمكن وصفه بجهاز استشعار دقيق يتعرف به علي مستوي الأحداث البشرية التي قد تشترك في الغناء الأوبرالي مع الأوركسترا ، فضلا عن معايشته إلى حد الذوبان للمقطوعات الموسيقية التي سيقوم بقيادة العازفين فيها لتصدر من آلاتهم أنغامها وألحانها وهي تحمل المعني الموسيقي الذي أراده المؤلف ، وأن يتعرف بعيون الواقع والخيال معا علي المؤثرات التي يجري فيها عزف العمل الموسيقي ، بدءا من درجة تكييف أجهزة القاعة ، نهاية بالمزاج النفسي الذي يسود البلد الذي يجري فيه العزف ، وهناك أخيرا درجة السرعة التي تجمع أصوات الآلات في النسيج الموسيقي ، هذه السرعة هي التي تقول لنا نحن المستمعين: هل استطاع هذا القائد أن ينقل لنا روح العمل الموسيقي أم لا ؟ ويمكن القول ـ ببساطة: إن طريقة تربية قائد الأوركسترا وثقافة البلد الذي نشأ فيه يؤثران بدرجة ما في أسلوبه الخاص في القيادة .

فنون مصرية مجلة محترمة تستحق الإشادة والتقدير ، خاصة أنها تجيء في وقت يسوده القبح في صوره وتجلياته التي تملأ حياتنا ، وتصيب عيوننا وأسماعنا ووجداننا ، فبدأنا نألفه ونعتاده وننغمس فيه ونضيف إلى ه . مجلة تغمر قارئها بومضة

كاشفة من ومضات الجمال الحقيقي في العمارة والآثار والتشكيل والموسيقي . تصحح بها وزارة الثقافة مسيرتها في إنفاق الكثير علي ما لا يستحق - من احتفالات ومهرجانات - ويجيء ميلاد المجلة مقترنا بقيام هيئة أو مؤسسة للتنسيق الحضاري . التحية إذن واجبة لهذه التحفة الفنية البديعة - إخراجا وطباعة وامتلاء باللوحات الرائعة - ولمجلسها الذي يضم الأساتذة فاروق عبد السلام ومنير عام ر وسناء البيسي وحسين الشحات ، وللروح الفنية العالية التي جعلت من المجلة وأبوابها العديدة لحنا أساسيا واحدا متناغما من ألحان الجمال ، وبطاقة دخول إلى عالم الفن الجميل .

يسري الصواف: وداعا

بقلم : فاروق شوشة

أكتب عنه لا شارك في توديعه بعد أن فاتتني صلاة الدمع عليه عند رحيله المفاجئ في السابع من أكتوبر الماضي ، ففقدت برحيله صديقا عزيزا ، وأخا كريما ، ومثقفا كبيرا ، وزميلا غاليا من زملاء الدراسة الذين هم عطر العمر الجميل ، وورود الصبا البعيد ، الذي امتلأ وتوجع بكثير من الآمال والأحلام ، تبددت علي مدار الأيام .

ولم يكن يسري الصواف: الكاتب والباحث والمؤرخ وأستاذ الفلسفة ، يرغب في أن يكون مشهورا ، ولا أن تكون كتاباته أو مؤلفاته ذائعة الصيت كثيرة الدوران علي ألسنة الناس وأقلامهم . كان في كثير من الأحيان يكتب لنفسه ، عندما يداهمه إلحاح الكتابة ووهمها المخادع ، فإذا به يعبر عن شعور عميق بانعدام العدل ، وضياع الحقوق ، ووجود أصحاب المراتب في غير ما يستحقونه من أماكن ، كان يري أن زمان اعتدال الميزان ليس قريبا ، بل هو ينأي ويبتعد باستمرار ، فيزيده هذا الشعور وهذا الوعي عكوفا علي عالمه الذاتي ، يثريه بالاستزادة من المعرفة ، والتنقيب في سير التاريخ ، وتأمل حركة الأيام . وساعده تخصصه الفلسفي ـ الذي أوصله إلى وظيفة مستشار الفلسفة في منطقة دمياط التعليمية ـ في التغلب علي كثير من المحن والشدائد وغمزات أصحاب السوء بالصفح والغفران والتماس العذر لمن يسيئون من حوله وهم كثرة ، ويعجب ـ كل العجب ـ كيف ثبتت في صدور البعض ـ وهم قلة ـ هذا الرصيد من الخير والمحبة والقدرة علي المساندة والمؤازرة .

ووقف صاحبنا قلمه علي صحيفة إقليمية ، هي صحيفة أخبار دمياط التي تعتبر نموذجا رائدا في مجال الصحافة الإقليمية ، منذ وضعها صاحبها ورئيس تحريرها الراحل زكريا الحزاوي علي خريطة الصحافة في مصر . وكان هذا الرجل ـ الظاهرة ـ نمطا فريدا لا يتكرر في قدرته وطموحه وإصراره علي أن تستمر صحيفته ، وعلي أن يحشد لها من الأقلام ـ دمياطيين وغير دمياطيين ـ مما يجعلها حافلة بالتنوع في المادة الخبرية والمقالات والتحليلات ، والنقد البناء للواقع الدمياطي من ناحية ، وللوطن كله من ناحية أخري .

وعلي صفحات هذه الجريدة تألفت كتابات الشاعر والكاتب الإذاعي الكبير طاهر أبو فاشا ـ طيلة سنوات عدة ـ مع كتابات الأساتذة سعد الدين عبد الرازق ـ أحد أساتذتي في اللغة العربية والشعر ـ وإيليا حليم حنا ونقولا يوسف وجمال الدين عبد الرازق ـ أستاذي في اللغة الإنجليزيةـ في المدرسة الثانوية ثم في الجامعة ـ و عبد الوهاب

شبانة الشاعر الدمياطي الذي إتخذ من الأسكندرية سكنا ومقاما ، محمود عبد الحي ، ويسري الصواف ، وكاتب هذه السطور . ثم ظهر منافس كبير لجريدة أخبار دمياط هو جريدة أنباء دمياط - في طباعة أكثر عصرية وأحفل بالإمكانيات ، فانتقل يسري الصواف إلى ها - بعد وفاة زكريا الحزاوي - ليكتب فيها زمنا ، ثم آثر في سنواته الأخيرة أن يعكف علي حصاد العمر من الخبرات والتجارب والمشاهدات والأسعار - في عديد الأقطار العربية ، وأن يعتصرها في كتب بديعة التأليف والتصنيف ، متوهجة بلغته السلسلة المشرقة ، وإيقاع تأليفه القافز كالفراشة من فكرة إلى فكرة ومن موضوع إلى موضوع . المتأني - في بعض الأحيان - حين يكون المجال مجال تأمل وتحليل ، وإنشغال فلسفي أو كوني .

وتتابعت كتبه ، رحلة الخريف في مملكة سبأ (حكايتي مع إلى من) ، رحلة الربيع إلى رياض الجنة (رحلته إلى السودان ورحلته إلى الحج) ، وراء أسوار الغربة (ورحلته إلى الجزائر وعمله فيها) ، أوراق من صحيفة عمر وعمل (محمد حسن درة رائد التشييد والبناء في مصر) وهو كتاب يتناول فيه السيرة الذاتية والعملية لدمياطي بارز من رواد البناء والتشييد ترك بصمته وعلمه وخبرته علي الكثير من المنجزات التي تحمل اسمه مضيئا وزاهيا .

تعود بي الذاكرة إلى أربعين عام ا خلت ، كان صديقي وزميلي يسري الصواف قد بدأ يضيق بمهنة التدريس ، ودفعه الاستعداد الإعلامي في داخله إلى أن يفكر في اتخاذ الإذاعة عملا ، ويحقق به ومن خلاله مشروع حياته القادمة . ولما أخذ يتردد علي في موقع العمل الإذاعي ، ويشاهد عن قرب العبء النفسي والعصبي الذي يسيطر علي الإذاعي وهو يعمل علي الهواء ، ثم وهو يشارك في الإذاعات الخارجية - خاصة السياسية منها - والتهام العمل الإذاعي - بجوانبه المختلفة - للوقت بلا حساب ، بحيث يتداخل الليل والنهار واليوم والأسبوع والشهر والعام . بدأ يتراجع عن فكرته وما كان يعتزمه . ويري في الإجازة الصيفية الطويلة التي تتاح له وهو في التدريس فرصة ذهبية لا ينبغي التخلي عنها ، أو المغامرة بفقدها مهما كان حجم الإغراء في العمل الإذاعي ، بكل مسئولياته وخطورته وأعبائه .

وأعتقد أن عكوفه علي تأليف كتبه - التي أشرت إلى ها - كان محاولة جادة لا براز ما لديه من قدرة علي الكتابة الأدبية والصحفية الراقية ، التي تجعل منه واحدا من أفضل كتاب أدب الرحلات ، الذين تعاملوا مع العوالم التي كتبوا عنها بصدق كامل ، وواقعية شديدة ، وموقف إنساني واضح ، ولغة بالغة العذوبة والنقاء والشفافية ، فيها أثر الدراسات والقراءات الفلسفية ، واقتباس من الكتاب الكبار الذين عشقهم صاحبنا وأدمن قراءتهم باستمرار: طه حسين وتوفيق الحكيم والزيات والمازني ويحيي حقي ،

ونجيب محفوظ ومصطفي أمين الذي كان يري في أسلوبه لغة العصر ، والنموذج المتميز للفصحى العصرية كما ينبغي أن تكون: قدرة علي التوصيل وسهولة ويس ، قدرة علي التركيز وأقل عدد من الكلمات قدرة علي الإتيان بفواصل قصيرة ، سريعة الإيقاع ، لا تتلكأ في عبارات فضفاضة أو جمل متكاسلة أو فقرات تؤدي إلى الملل والتثاؤب .

قارئ يسري الصواف في كل كتابه - التي جمعت والتي لم تجمع - يلفحه وهج الصدق والإحساس بأنه يتعامل مع كاتب أمين يعرف شرف الكلمة ومسئولية الكتابة ، لا تتكشف كتاباته عن هوي شخصي ، أو مصلحة عابرة ، أو نفع يشاغب من أجله: بالإغراء تارة وبالترهيب والوعيد تارة أخري . ولأنه لم ينجب ، ولم يقدر له أن يكون أبا فهو يصارح قارئه بأن كتبه هم أبناؤه الحقيقيون والوحيدون ، بل هو راض شاكر ، وحامد لربه ، بالرغم من ذلك . وعلي طريقته في التحليل والتفلسف يخاطب ربه قائلا: كل شيء يا رب تمنيته عليك لم تردني عنه ولم تحرمني إياه . أنا أشعر بفطرتي التي فطرتني عليها أنك راض عني ، حتى إنني أشعر أنك لم تشأ - إرادتك - أن تهبني الولد ، البنين والبنات ، لتعفيني من مسئولية صحبتهم وضجيجهم وتربيتهم وعقوقهم ، مسئولية قدرت أنني لا أقدر عليها ولا أحتملها هي نعمة أخري أدين بها لك .

ويسري الصواف مدين لغربته واغترابه عن وطنه ، وعمله ورحلاته في أقطار عربية عديدة بتفجير هذا الفيض من الكتابة التي تجمعت في صورة كتب تسجل وتعبر وتصور . وهو يعترف بهذا قائلا في تقديمه لكتابه وراء أسوار الغربة: لم أشعر أنني استقررت علي حال ، أو ركنت إلى عش هادئ أو أنجنب فكرا أو تعبيرا حقيقيا ، إلا عندما فضضت بكارة قريحتي مع أول عتبة أخرج فوقها - مع أشلائي المبعثرة - إلى بلد آخر . شعرت معها أنني أحطم سجني لا ول مرة وأكسر قيودي وأنفض رتابة واقعي وأنطلق بعيدا ، بعيدا عن وسادة العمر المستكين . أكشف عن نفسي الغطاء لا شهد من بعيد وبشيء من الموضوعية قيمة هذه الوسادة ، أراها وأتفحصها وأتبينها بهدوء ويقظة وحيادية .

وحين يدرك صاحبنا المعاش عام ١٩٩٥ أبياتا - نحفظها من قديم - للشاعر الدمياطي السكندري محمود عبد الحي قالها عندما داهمه قطار الإحالة علي المعاش فكان الشاعر جذلا فرحا ، صبها في نغمات عذبة متفائلة لمن يفوزون بها في خاتمة المطاف قائلا:

يقولون المعاش نذير موت

فقلت: جعلتموا معني المعاش

فإن الموت يطرق أي باب

وقد يلقي ابن آدم وهو ما شي

وكنت علي المكاتب كل يوم

أموت ، فكيف أجزع من فراشي !

شقيت بلقمتي ستين عام ا

وقد سعدت بلقمتها المواشي

وداعا للشقاء إذن ، فإني

خرجت من الممات إلى المعاش !

وهآنذا أيها الصديق العزيز الراحل ، أقرأ كلماتك وأستعيد صورتك من بين ثناياها ، كما أستعيد صورة أيامنا ونحن ندرج معا في سلم البدايات ، يباعد بيننا التعليم في الجامعة ، ثم تجمعنا جريدة أخبار دمياط كاتبين متجاورين ، ثم يمتد بنا الزمن فيجمعنا صالون الجمعة في منزل الوالد الروحي المهندس محمد حسن درة - الذي أسعدني الحظ بأن يكون سكني إلى جواره - وفي هذا الصالون أو الندوة الاسبوعية التي كانت تضمنا ومعنا النابغة الدمياطي النادر الحافظة رفعت رجب ، أتيحت لنا سعات من متعة القلب والعقل . وجلوات الصفاء والتأمل ، وشفافية الصداقة الحميمة المتزجة بعطر الأبوة - ورحيق الأخوة .

ولقد عوضتك الحياة عن عدم الإنجاب بزوجة فاضلة من كرائم الدمياطيات - كانت لك نعم العون والرفيق ، وهي الآن ، من بعدك ، صائنة تراثك ، وراعية آثارك وكتاباتك ، وأمينة علي اسمك وتاريخك . فهنيئا لك مع الأبرار والصديقين .

في تكريم رشدي خاطر

بقلم: فاروق شوشة

أحسنت لجنة التربية - بالمجلس الأعلي للثقافة - صنعا بالدعوة إلى تكريم ثلاثة من علمائنا الأجلاء رواد التربية في مصر ، علي رأسهم الدكتور رشدي خاطر (٤ أغسطس١٩٢٠ -٢٥ نوفمبر١٩٨٧) . ورشدي خاطر - لمن لا يعرفه - أستاذ المناهج وطرق التدريس ، ورئيس مجلس القسم ، ووكيل كلية التربية للدراسات العليا والبحوث ومقرر اللجنة العلمية الدائمة للعلوم التربوية والنفسية وخبير محو الأمية وتعليم الكبار باليونسكو وخبير التعليم بالبنك الدولي ، وخبير التربية بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، والمخطط لبرامج محو الأمية بالتليفزيون ، والأنشطة والبرامج التعليمية وتنفيذها بالمدارس التجريبية ، وصاحب الرأي والموقف في مؤتمرات تطوير اللغة العربية وإعداد المعلمين وتدريبهم ، وبرامج تعليم العربية لغير الناطقين بها وتنفيذها بالراديو ، فضلا عن اهتماماته ومشاركاته الواسعة والعميقة في مجالات أدب الأطفال ، والانقرائية ، والمناهج وطرق التدريس والرصيد اللغوي وتكنولوجيا التعليم ، والبيليوجرافيا والثقافة العمالية ، بالاضافة إلى المشاركة في تأسيس دار المعرفة مع كوكبة من أعلام جيله ، مجدي وهبة وشكري عياد و عبد الحميد يونس و عبد المنعم عام ر ومحمود عبد المنعم مراد ومحمود الشنيطي .

لكنه بالنسبة لي ، ولأبناء جيلي الذين كان لهم حظ التلميذة عليه في كلية التربية ، خلال العام الجامعي١٩٥٧ -١٩٥٨ كان تجسيدا رائعا لمعني الأستاذ والمعلم ، صاحب المنهج الجدلي الصارم ، والحجة العلمية الناصعة ، والحنو الأبوي الغامر ، ولرحابة الصدر غير المتكلفة ، وسقف المعرفة الواسع والشاسع الآفاق ، والاخلاص الشديد لمهنته وهو يعلمنا طرق تدريس اللغة العربية .

كنا قادمين من مدارس وزارة التربية والتعليم ، وكليات الجامعات المختلفة ، اعتدنا التعامل مع اللغة العربية باعتبارها كيانا ممزقا ، تناثرت أجزاؤه وتطايرت في دروس النحو والصرف والعروض والقراءة والنصوص والمطالعة والبلاغة ، دون أن تعني المناهج - في المدرسة وفي الجامعة - بغير هذا التفتيت الذي لا تقوم به اللغة كلا كبيرا متكاملا ، يأخذ فيه كل جزء معناه وحقيقته من خلال انتمائه إلى هذا الكل ، ويشرق الكل ويضيء بتوضيح العلاقات والروابط والخيوط الرابطة والمتوجة لهذه العلاقات والروابط بين هذه الأجزاء بعضها والبعض ، فلا تبدو سابحة في فراغ ، منبتة الصلة ، عارية من المعني والدلالة .

وكـان أول درس لرشـدي خـاطر ، يتمثـل في إدراكـه الكلـي للغـة ، وحرصـه علـي أن يؤصـل فينـا - نحـن معلمـي المـستقبل ، حقيقـة هـذا الادراك ، والـوعي بـه ، والعمـل علـي تطبيقـه ، مـن خـلال حـوارات ومـداخل واسـتنتاجات وصـياغات ، تكـشف لنـا عـن الفنـان في إهـاب العـالم ، والمتـذوق العظـيم في رواد أسـتاذ طـرق التـدريس ، وكأنـه كـان يتمثـل فكـرة الـنظم الـتي نـادي بهـا عبـد القـاهر الجرجـاني ، ولم يكـن هـذا الـنظم الا كـشفا عـن تجليـات الـصواب والجمـال في الابـداع اللغـوي والأدبـي ، فبـالنحو والـصرف يتحقـق معـني الـصواب وبالبلاغـة الأسـلوبية يتحقـق معـني الجمـال ، واكتمـال الـصواب والجمـال هـو التحقيق الأمثـل لمعـني كليـة اللغـة ، ومعـني فكـرة الـنظم أو نظريـة الـنظم كمـا يحلـو للـبعض أن يسميها .

وكـان الـدرس الثـاني لرشـدي خـاطر ، أنـه لا مقدسـات في العلـم ، وبالتـالي فـلا مقدسـات في اللغـة . نحـن نمتلكهـا ونحـن القـادرون علـي تطويرهـا وتيـسيرها وجعلـها وافيـة باحتياجات العـصر ، كمـا كـان ينـادي طـه حـسين ، وكمـا جـاء في قـانون إنـشاء مجمـع اللغـة العربيـة ، والبـدء باسـتبعاد المقدسـات في اللغـة ، يطلـق حريـة النقـد ، وحريـة التـذوق ، وحـق الاعـتراض ، وحـق التأويـل ، ويفـتح البـاب لريـاح تهـب مـن الـشمال ومـن الجنـوب ، ومـن الـشرق ومـن الغـرب ، تـضيف جديـدا إلى أشـرعة اللغـة ، وألوانـا جديـدة إلى حقولهـا المزهـرة ، وأنغامـا مـستحدثة إلى أنغامهـا المعتـادة والمكـرورة والمألوفـة ، كـان رشـدي خـاطر وقتهـا يقـترب مـن اكتمـال عقـده الرابـع ، موفـور الحيويـة والنـشاط ، محتـشدا بالجـسارة والقـدرة علـي الاقتحـام ، وكنـا نحـن القـادمين مـن مؤسـسات تعليميـة - ينكفـيء فيهـا معلـم العربيـة علـي نفـسه ، ويتحاشـي الـصدام مـع رؤسـائه ، ويـبرر قيامـه بـأدوار تتعـارض مـع مفـاهيم الكرامـة والكبريـاء ، ويطمـح في أحـسن الفـروض إلى أن يكـون كفـؤا ونظـيرا لغـيره مـن المعلمـين - كنـا نـري في رشـدي خـاطر مثـالا سـامقا لمـن ارتـبط باللغـة العربيـة ارتبـاط مـصير ، منـذ تخرجـه في قـسم اللغـة العربيـة بكليـة الآداب جامعـة فـؤاد الأول عـام ١٩٤١ وحـصوله علـي دبلـوم التربيـة مـن معهـد التربيـة للمعلمـين عـام ١٩٤٣ وماجـستير التربيـة ودكتـوراه الفلـسفة في التربيـة مـن جامعـة شـيكاغو عـام ي١٩٥١ ، ١٩٤٨ . نعـم ، كـان رشـدي خـاطر بحـضوره وشخـصيته وكبريائـه وعـصاميته وعلمـه شـهادة رائعـة لمـن يعملـون في خدمـة اللغـة العربيـة جميعا ، وما أعظمه من دور ، وما أكرمها من رسالة .

مازالـت الـذاكرة تحـتفظ بمـشاهد حيـة ، لا سـاتذتنا الكبـار في ذلـك الزمـان الجميـل ، كـان رشـدي خـاطر وحامـد عمـار - أطـال الله بقـاءه - أقـرب الأسـاتذة إلى قلوبنـا وعقولنـا ، بـالرغم مـن اتفاقهمـا في أشـياء واختلافهـا في أشـياء . كلاهمـا فـورة فكـر جديـد ونـشاط عقلـي متـوهج ، وأخـذ بأيـدينا إلى صـعيد التطبيـق العملـي مـن خـلال رحـلات ميدانيـة إلى مركـز التربيـة الأساسـية الـدولي في سـرس الليـان ، وهمـا خـبيران فيـه ، لتمتـد جلـسات الحـوار

والمناقشة ـ بعد المشاهدة ـ ساعات وساعات علي ضفاف الحقول وحواف الترع والقنوات ، غارقين في الخضرة المترامية ، ومعانقين لصفاء الطبيعة ، منصتين لا صوات الكون ، بينما حامد عمار يحدثنا عن ديموقراطية أثينا مدينة الحكمة ، ورشدي خاطر يغرس فينا بذور تذوق الجمال ، في الكلمة والتركيب والعبارة والأسلوب ، ويصعد بنا سلم البناء اللغوي درجة بعد درجة ، ومرحلة بعد أخري .

وعلي مقربة من هذين الأستاذين الجليلين كانت قاعات الدرس تزخر بأساتذة كبار في تخصصات مختلفة ، من بينهم محمد قدري لطفي وأبو الفتوح رضوان وصلاح قطب (الذي كان عميدا للكلية في ذلك الحين) وفؤاد البهي السيد ، وعماد الدين إسماعيل ، ونجيب إسكندر إبراهيم وأحمد زكي صالح ورشدي فام منصور ، وغيرهم من الرواد الفاتحين ، وكنا نحن نتحلق حول من نحب ونجد فيه المعني الحقيقي للأستاذية ، والمعني الدافيء للأبوة ، وكان رشدي خاطر وحامد عمار هما الفائزين باستمرار .

في منتصف السعبينيات ، توجهت إلى مبني كلية التربية للحصول علي شهادة التخرج بعد انقضاء أكثر من عشرين عام ا . سألت عن الدكتور رشدي خاطر ، فدلوني علي مكتبه ، وإذا به وكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث . كان اللقاء بالنسبة لي تعويضا عن أعوام طويلة لم يتح لي فيها لقاؤه بالرغم من حرصي علي الاتصال به بين الحين والحين . وعندما عرف سبب مجئي إلى الكلية أصر علي أن يقوم هو بدفع الرسوم المقررة لشهادة التخرج باعتبارها تحية منه لتلميذه القديم الذي كان أول دفعته ، والذي هو حريص علي متابعة نشاطه في الاذاعة والتليفزيون .

وعندما شددت علي يديه شاكرا ومودعا ، كانت عيناه تغرورقان بالدموع . هل كان تعبيرا عن شعوري بالتقصير في حقه وعدم السعي إلى لقائه طيلة أعوام متصلة ؟ أم كانت لشعور خفي بأني قد لا تتاح لي رؤيته ثانية في مقبل الأيام ؟ أم هو بكاء علي زمن جميل وعمر جميل ووجود جميل تقصفت أيامنا بعده ، وامتلأ الوجود بالغبار والكآبة والسوقية والتدني ، فغاب المثال والقدوة ، وابتعدنا عن عالم القيم والمثل العليا ؟ أم أن البكاء كان بسبب ذلك كله ؟

الطفل العربي في ظروف صعبة

بقلم : فاروق شوشة

علي مدي ثلاثة أيام من٢٥ إلى ٢٧ سبتمبر انعقد مؤتمر الطفل العربي في مهب التأثيرات الثقافية المختلفة ، الذي نظمه المجلس العربي للطفولة والتنمية بالتعاون مع مكتبة الإسكندرية وهيئة المعونة السويدية واليونيسيف وجامعة الدول العربية والمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم (الايسسكو) وبرنامج الخليج العربي لدعم منظمات الأمم المتحدة (أجفند) واليونسكو والمعهد السويدي بالإسكندرية والمجلس الأعلي لشئون الأسرة بالشارقة .

شارك في المؤتمرات عشرات الباحثين المتميزين في مجالات الطفولة ، والمفكرين المهتمين بمشكلاتها ثقافيا واجتماعيا وتربويا ولغويا وقانونيا ، وكانت مشاركة الأطفال من اقطار عربية مختلفة ، من خلال ورش عمل تهدف إلى التعرف علي آرائهم في مشكلات واقعهم ، وما يحول دون قيام حياة كريمة تتسع لطموحهم وانطلاقهم ، كانت هذه المشاركة علي مستويين: وطني في بلادهم ، وإقليمي مصاحب للمؤتمر ، تحقيقا لمنهجية جديدة ، تشرك الأطفال أنفسهم ـــ وهم أصحاب المصلحة ـــ في الحوار ووضع التوصيات فضلا عن اتساع المؤتمر لبعض الخبرات الأجنبية المتصلة بثقافة الطفل العربي ولغته ، وهي خبرات سويدية وفرنسية وإيطالية ، بالإضافة إلى خبرات متصلة بواقع الطفل العربي في مجتمعات المهجر .

لابد أولا من الاشادة بالحصيلة المعرفية والخبرات المكتسبة التي حققها هذا المؤتمر في جلساته ، وفي جميع محاوره التي شملت السياق الثقافي للطفل العربي بحثا عن التنشئة السياسية ، وتكوين العقل السياسي العربي والهوية الثقافية للطفل العربي في عصر العولمة والطفل وازدواجية الثقافة والتعليم في المجتمع العربي والطفل العربي في منظومة ثقافة الاستهلاك ، كما شملت هذه المحاور التربية الفنية واللغوية للطفل العربي بحثا عن مشكلات التذوق الثقافي عند الاطفال والتربية الجمالية للطفل العربي ، وحاجة الطفل العربي إلى المسرح والموسيقي كحاجته إلى الهواء والغذاء ومسرح الطفل ، وعلي الجانب اللغوي تميزت الأبحاث التي قدمت عن الطفل العربي ، والمنظومة اللغوية في التعليم ، والعولمة وتأثيراتها الإيجابية والسلبية في لغة الطفل العربي ومشكلات الكتابة للطفل العربي ، وكيفية وضع معجم لغوي أساسي للطفل العربي ودور اللعبة الشعبية في الحفاظ علي الهوية الذاتية للطفل العربي في ظل تأثيرات العولمة ، وانصبت المشاركة الإيطالية علي بحث اللعبة ، كعامل أساسي في الثقافات المتوسطية ، والمشاركة السويدية

علي كيفية تشجيع الأطفال علي القراءة ، والمشاركة الجزائرية علي الواقع الثقافي للطفل الجزائري ، أما المشاركة الفرنسية فكانت عن التعليم في ظل تعدد اللغات: حالة مصر .

وفي محور الإعلام وتشكيل هوية الطفل العربي ، اتسع المجال لمناقشة مجلات الأطفال وتأثير الإعلام الاجنبي علي الطفل العربي وتأثير النماذج الإنسانية في المسلسلات العربية والأجنبية علي الطفل العربي واستخدامات الطفل العربي للوسائط المتغيرة في ضوء متغيرات العصر .

وفي المحور الذي تناول هوية الطفل العربي في إطارها القومي والعالمي تناولت أبحاث المؤتمر تحديات الهوية الثقافية للأطفال العرب مع التركيز علي أطفال المهجر ، والطفل العربي في المهجر الأمريكي والهوية الثقافية للطفل الفلسطيني والطفل العربي في ظروف صعبة: العراق والسودان والصومال ، ولم يغفل المؤتمر قضية الإعلام والفضائيات من خلال ابحاث تناولت الإعلام والطفل العربي والكرتون والطفل العربي ، وبرامج الأطفال في القنوات الفضائية العربية وتجربة برنامج عالم سمسم ، وكان لا بد من عرض خبرات لقنوات عربية في هذا المجال: قناة الجزيرة للاطفال ــ التي انطلقت قبل انعقاد المؤتمر بأيام ــ وقناة ارتينز وقناة النيل للأسرة والطفل ، واختتم المؤتمر ابحاثه بتناول حقوق الطفل الثقافية ، في الواقع الدولي .

هذا مؤتمر أحسن إعداده والتخطيط له ، وإن لم يحل هذا دون التداخل بين عدد من الابحاث في محاوره المختلفة خاصة بالنسبة للمجالات الثقافية واللغوية والإعلامية ، وكان ينبغي حسمها موضوعيا حتي لا يؤدي الأمر إلى نوع من التكرار ، والمبادرة التي قام بها المجلس العربي للطفولة والتنمية تجئ في وقتها وأوانها من حيث التوجه واتساع مجالات البحث واكتمال الموضوعات والمحاور .

لكن الذي يبقي ــ بعد هذا الجهد المكثف الذي تطلب الإعداد له قرابة عام ين ، واستغرق ثماني جلسات علمية ـ أن تصبح توصياته المستمدة من ما دته العلمية والبحثية ، والمستخلصة من ورش العمل التي قام بها الأطفال وشاركوا هم في صياغتها وبلورتها ، بين أيدي صناع القرار علي مستوي الوطن العربي ، فيما يتصل بالطفولة وحقوق الطفل الثقافية ، والذي لا شك فيه أن البيان الختامي الصادر عن المؤتمر ــ فضلا عن أهميته العلمية والقانونية ــ هو بمثابة صرخة جديدة ودعوة حارة تستهدفان مستقبل هذه الأمة ــ حفاظا وتنمية واقتحاما ــ من خلال التوجه نحو الطفولة في حاضرها ومستقبلها ، فهل تصبح كل هذه الابحاث والدراسات والحوارات والمداخلات والتوصيات مجرد أوراق جديدة تضاف إلى ما نمتلكه من أوراق قديمة أم أن بعضها ــ علي الاقل ــ سيجد طريقة إلى أرض الواقع ؟ هذا هو السؤال .

رسالتان وقضية ساخنة

بقلم : فاروق شوشة

في سياق متابعتي لبعض رسائل القراء الأعزاء ، التي أرصد . . من خلالها رجع الصدي إزاء بعض القضايا والموضوعات التي تناولتها علي مدي الأسابيع الأخيرة ، أتوقف إلى وم عند رسالتين لهما دلالتهما ومغزاهما ، في إطار الحوار الدائر الآن - في الأهرام وفي غير الأهرام . حول قضية اللغة العربية ، وهوالحوار الذي أثاره ولايزال يثيره كتاب الأستاذ شريف الشوباشي: لتحيا اللغة العربية يسقط سيبويه الرسالة الأولي من الدكتورة سميرة أحمد عزب ، تقول فيها:

تحية طيبة وبعد:

جاء مقالكم لا لسقوط سيبويه حوارا مع القاريء ومع الكاتب الأستاذ شريف الشوباشي في كتابه: لتحيا العربية يسقط سيبويه . ولقد فكرت أن أرجيء الكتابة حتي أقرأ هذا الكتاب ، ولأنني لم أستطع الحصول عليه حيث أقيم ، فضلت أن أكتب إلى كم قبل أن تتوه رغبتي في الكتابة في زحمة الحياة .

أنا معك يا سيدي في المناداة بأن تحيا اللغة العربية ، ولست مع كاتب الكتاب بأن يسقط سيبويه ، لا نني لا أتخيل كيف يسقط ، وما الشكل الذي يمكن أن تكون عليه اللغة العربية بدون قواعد الصرف والنحو والإعراب ، لا نني لا أتخيل كيف يسقط ، وما الشكل الذي يمكن أن تكون عليه اللغة العربية بدون قواعد الصرف والنحو والإعراب ، لا نني ببساطة شديدة حين تجرح سمعي كلمة ينطقها المذيع ، أدرك أن فيها خطأ في الإعراب ، وأجد ذلك صحيحا حين أسترجع الجملة المنطوقة ، ولست من المتخصصين في اللغة ، ولكنني طبيبة - تعشق اللغة العربية - أما لماذا هذا العشق ؟ فذاك مربط الفرس كما يقال . لقد تعلمت اللغة العربية من أساتذة كانوا عشاقا لها فانتقل العشق للغة من الأستاذ إلى تلاميذه كان أساتذتنا من خريجي جامعة الأزهر أو كلية دار العلوم ، أما الآن فإن من يدرسون اللغة العربية في مدارسنا هم الذين ألقي بهم مكتب التنسيق - دون رغبة منهم - إلى كلية دار العلوم أو أقسام اللغة العربية بكليات الآداب ، وبعد التخرج يصبح تدريس اللغة العربية هو السبيل المتاح لا كل العيش ليس الا ؟ فماذا تنتظر منهم بعد ذلك . قلت مرة في برنامج تليفزيوني: إن اللغة عشق خاص . ولكن كيف يعشق الأنسان ما يجهله ؟ أبناؤنا يجهلون لغتهم الأم ، فهي بالنسبة لهم ليست سوي التي كتبها مبدعون حقيقيون لا نصوص مصطنعة ألفها موظفو الوزارة ليدخلوا بها مسابقات التأليف المدرسي وينالوا المكافآت المقررة ، ومدرسين كانوا كالذين تحدثت عنهم

في رسالتهم والذين علمونا العربية يوم كان عمل المدرسي رسالة تقترب من روح النبوة (كاد المعلم أن يكون رسولا) ومجتمع شديد التنبيه للغة التي يتكلمها أبناؤه ويكتبون ويؤلفون بها ، ومن بينهم المذيعون الذين كان الخطأ الواحد - لو حدث - يعصف بهم ، فهم يجتهدون ويقومون ألسنتهم ويتدربون ويستمعون إلى النماذج الرفيعة في المجتمع من أمثال الدكتور طه حسين في المتحدثين والشيخ محمد رفعت في القراء و عبد الوهاب يوسف في الاذاعيين !

وأما أن الجامعة ليست مختصة بتعليم اللغة العربية - ثانيا - فلأن المرحلة الجامعية ينبغي أن تكون للتذوق الأدبي واللغوي واكتشاف جماليات العربية وأسرارها البنائية والتركيبية ، أما قواعد النحو والصرف فمكانها المدرسة ، حيث التعليم الأساسي ، وهو ما يحدث بالنسبة لكل اللغات في العالم . أما نحن فتعلم العربية طوال مراحل التعليم ، من البداية حتي النهاية ، ثم تكون النتيجة أننا لم نتعلم شيئا ، لا ن كل ما تعلمناه لم يكن خاضعا لخطة أو محققا لهدف . ولعل المسئولين عن تعليم العربية في وزارة التعليم يفيدون من الطريقة السمعية البصرية التي تتبعها مراكز تعليم اللغات الأجنبية في مصر ، وفي العالم كله ، ليدركوا حجم ما نعيش فيه من تخلف وقصور .

أتفق معكم أن مكان التعليم بالنسبة للغة العربية هو المدرسة ، ولكن كيف ؟ وعلي يد من ؟ وأنتم تقولون: لا أمل في وزارة التعليم فهي وحدها عاجزة عن ، الاصلاح ، ولا أمل في جامعاتنا فهي ليست مختصة بتعليم اللغة العربية إذن كيف يكون الأمل في المدرسة وهي المكان الذي تتم فيه العملية التعليمية بواسطة مدرس من خريجي جامعاتنا يعمل في ظل سياسة وزارة التعليم ؟ ؟ كان هذا هو السؤال ! ولسيادتكم الشكر والتحية
د . سميرة أحمد عزب

أولا: الشكر كل الشكر للدكتورة سميرة علي رسالتها العامرة ، التي تحمل منطقا سديدا ووعيا عميقا كاشفا . أما عن فقدان الأمل في وزارة التعليم بالنسبة لتعليم اللغة العربية ، فهوحكم علي أساليب تعليمية لم تتطور ، ومناهج تحقق نفور النشء ، المتعلم وكراهيته للغته القومية ، وكتب خالية من النصوص الجميلة .

الرسالة الثانية من القاريء الكريم سمير عبد المحسن - مدير إدارة بالبنك الأهلي - وفيها يقول:

تحية طيبة وبعد:

بداية ، أرجو أن تسمح لي - وأنا من غير المتخصصين - في التعقيب علي شأن من شئونكم أنتم أهل التخصص من سدنة اللغة العربية وحماتها . إن مقالكم لا . . لسقوط سيبويه يعكس غيرة علي اللغة العربية طالما عهدناها فيكم من خلال برامجكم

الاذاعية والمرئية وكتاباتكم الكثيرة . لكن أسمح لي أن أقول لك إن حبك للغة العربية إلى حد الوله والتدله فيها أنت ومن يحذون حذوك يجعلكم لا ترون منها ما يراه العامة . فالعاشق - وأنت تدري - قد لا يري عيوب معشوقته ، ويراها جميلة الجميلات ، في حين أنه لو رآها بعيون الآخرين لرأي منها ما يمكنه من تقويمها وتهذيبها .

لقد وضع سيبويه القواعد ، واللغة العربية أسبق من سيبويه ، كما وضع الخليل العروض والشعر أسبق منه ، وعاني الشعراء من عروض الخليل . ونافح المنافحون عن العروض . حتي هرب الشعراء منها شيئا فشيئا ونوعوا القافية ثم تخففوا منها واختصروا التفعيلات ثم أهملوها حتي وصل الشعر في نهاية المطاف إلى ما يسمي بشعر النثر أو القصيدة النثرية ، وأين هم حماة العروض الآن ليقولوا لنا أيهما كان يستساغ: قصيدة مكسورة الأبيات أم قصيدة ليس لها علاقة بالشعر غير أنها أقحمت عليه إقحاما ، إن الترخص في بعض القواعد قد يكون من شأنه حماية جل القواعد وعدم التخلي عنها مطلقا . قواعد العروض التي كانت تناسب الحادي الذي يسير أمام الإبل لا تناسب إلى وم الوتيرة التي تسير بها السيارة والطائرة . ولسنا نحن أول من سخر من اللغة العربية ، لقد ضج منها الأولون وسخروا ، وأظنك تذكر قصة النحوي الذي رد عليه خادمه بكلام غير معروف ردا علي مثله ، فلما سأله عما يقول ؟ قال له أسألك أصاحت الديكة ؟ فقال له الخادم: وأنا أقول لك لم تصح . وإذا كان الجاحظ إمام العربية قال عن العروض إنه علم مستبرد ، فإني أري أن النحو والصرف بحالهما أبرد . لماذا تطالبوننا - أنتم سدنة اللغة - بأن نكون ملكيين أكثر من الملك ؟ .

لقد تناول الكثير من الأدباء قضية تيسير اللغة العربية ، وقد تندر أيضا منها توفيق الحكيم قبل نجيب الريحاني وفؤاد المهندس الذي نال شهرة فاقت شهرة شقيقه عضو مجمع الخالدين (لم يكن شقيقه وإنما هو والده العالم والأستاذ الكبير زكي المهندس نائب رئيس المجمع الأسبق) . كان الحكيم يقول: إن الرجل في اللغة الانجليزية (ما ن) إذا أكل وإذا رحل وإذا نام ، أما في اللغة العربية فهو حسب موقعه في الجملة ، إما رفعا أو نصبا أو كسرا (يقصد جرا) - هذا الكلام بتصرف طبعا ، فأنا أكتب من الذاكرة وليس أمامي الآن نص كلامه . وكان في مقابل ذلك أدباء يشهرون سيوفهم في وجه من يتعرض للغة العربية في خدرها . لقد كنت حين أقرأ للرافعي كتابه: إعجاز القرآن أخشي تصحيح الأخطاء الاملائية ، ظنا مني أنها قد تكون صحيحة هكذا . وبالفعل كانت تقابلني بعض التراكيب اللغوية حين أهم بتصحيحها ووضع نقطة مثلافوق جاء أو صاد أحد أن سياق الكلام وأحيانا شرحه لتلك الكلمة لا يقتضي ما كنت سأفعله . لقد رحل هؤلاء وهؤلاء ، واللغة العربية علي حالها وجهود المجمعيين لم تتعد مجلتهم . إن قضية اللغة العربية قضية مهمة ويجب علي سدنتها أن ينزلوا من برجهم إلى العامة

ويتعاونوا مع الهيئات التعليمية في تطوير اللغة بما يتناسب ومقتضيات العصر . وتقبل خالص تحياتي سلفا

سمير عبد المحسن
مدير إدارة بالبنك الأهلي

وأبادر بشكر صاحب الرسالة علي اهتمامه وغيرته وحماسته ، وإن كان قد انتقل من علم العروض إلى علوم اللغة ، ومن قواعد الموسيقي إلى قضايا النحو والصرف ، ولكل منها مجاله وقضاياه . كما جمعت الرسالة بين إشارات إلى تيسير اللغة العربية والتندر بها وصولا إلى قواعد الإملاء والأخطاء الاملائية وأيضا إلى جهود المجمعيين التي لم تتعد مجلتهم ، ومطالبة .

سدنة اللغة بالنزول من برجهم إلى العامة والتعاون مع الهيئات التعليمية ، ويبدو لي أن بيت القصيد في الأمر كله هو هذه الهيئات التعليمية التي يعلق عليها صاحب الرسالة الأمل كله . فهذه الهيئات التعليمية علي مدي ستين أو سبعين عام ا لم تنجح في القضاء علي عار الأمية (الأمية بمعناها البسيط المتمثل في مجرد القراءة والكتابة وليست الأمية الثقافية أو الكمبيوترية) ولم تنجح في صياغة منهج تعليمي متطور ، ييسر تعليم اللغة ويحبب النشء ، فيها ويقضي علي الفجوة بين حصة تعليم اللغة والواقع في المجتمع ، ويجعل من إلى وم المدرسي كله - وليس في حصة تعليم اللغة العربية فقط - وقتا متكاملا لتعلم اللغة خاصة من خلال الساعات المعتمدة للهوايات من صحافة وإذاعة مدرسية وخطابه ومناظرات وتمثيل ، فهذه هي المجالات الوظيفية الحية لمارسة اللغة في إطار تعليمي وتربوي صحيح .

ولا أدري لماذا يغيب عن الكثيرين بديهية تقول ان اللغة هي أنا وأنت والآخرون . فاللغة ليست كائنا مجردا يعيش ويتحرك في فراغ . وإنما هي ما نقوله ونكتبه ونبدعه وندونه ، وبهزالنا تهزل اللغة ، وبارتقائنا في الوعي والمعرفة والادراك ترتقي اللغة . لن تتطور لغة أصحابها متخلفون ، ولن تنهض لغة أصحابها راقدون مغيبون ، وعلي الذين يدعون إلى اصلاح اللغة والعمل علي تطويرها - وهي دعوة قديمة ومستمرة بدأها في عصرنا الحديث رواد كبار من أمثال ابراهيم مصطفي ومحمد كامل حسين وشوقي ضيف و عبد العليم ابراهيم وأحمد مختار عمر ومحمد عيد ومحمد حماسة عبد اللطيف و عبد ه الراجحي وغيرهم - علي هؤلاء جميعا أن يلتفتوا مرة واحدة إلى الانسان قضية القضايا في هذا الموضوع الساخن ، وينتشلوه من واقعه المتردي وإحباطاته الملازمة .

ذاكرة الأمة والأرشيف القومي

بقلم: فاروق شوشة

في العشرين من فبراير الماضي كتبت مقالا بعنوان ذاكرة الأمة في مناسبة قرب افتتاح المقر الأم والمبني الأساسي لدار الكتب المصرية - بكل ما يمثله من قيمة تاريخية وأثرية - وهو مبني باب الخلق بعد أن تقرر تخصيصه للوثائق والمخطوطات والبرديات وأوليات المطبوعات باعتبار أن دار الكتب والوثائق القومية هي ذاكرة الأمة ، وطالبت بألا ينسينا الاهتمام الكبير بمكتبة الاسكندرية ، اهتماما ينبغي أن يكون مماثلا بصرح ثقافي عريق تجاوز عمره القرن ، مركزا للإشعاع ومصدرا أساسيا للمعرفة الانسانية هو دار الكتب والوثائق القومية التي يرجع تاريخ انشائها إلى عام ١٩٠٢ .

وحول هذا المقال ، وصلتني الرسالة التالية العامرة بحرارة الصدق والانتماء والوطنية من الصديق المفكر والمبدع الكبير الدكتور عبد الغفار مكاوي ، طالبا عرضها علي الرأي العام والمسئولين في وزارة الثقافة . وليأذن لي بأن ألخصها في النقاط التالية:

١ ـ تعلمون أنه لا يكاد يرحل أديب أو فنان أو عالم مرموق من أدباء وفناني وعلماء البلاد المتقدمة حتي يتجمع الأصدقاء والمحبون والتلاميذ ويحشدوا جهودهم لتخليد ذكراه للأجيال القادمة: تؤلف جمعيات لا صدقاء الراحل ، ويتكون أرشيف خاص يضم تراثه المكتوب أو المسموع: أوراقه ومتعلقاته الخاصة من صور ورسائل وشهادات وتسجيلات . . . الخ ، مؤلفاته التي ظهرت للنور والتي لم تظهر بعد ، مخطوطاته التي تركها وراءه . ينظم كل هذا بطرق علمية يعرفها المختصون في علوم الأرشيف والتوثيق ، بمختلف الوسائل المتاحة ، وتشهر الجمعية التي تألفت باسم الراحل ويدعي لها علي هيئة مؤتمرات وندوات وحلقات بحث ، تنشر أعمالها في حولية أو كتاب سنوي ، وتتكفل هذه الجمعية بحفظ تراث الراحل وإحيائه بكل الطرق المكنة .

٢ ـ وحتي تكتمل ذاكرة الأمة ، لا يتعارض ما سبق قوله مع حرص الدوائر والجهات الرسمية ، وأعني بها في المقام الأول دور الكتب والوثائق القومية في تلك البلاد المتقدمة ، مع الأرشيف القومي والمحلي الخاص بالمدينة أو حتي بالقرية - حرصها حتي في حياة الراحل - علي أن يكون لديها أرشيف يضم كل ما يهم باحثي المستقبل . وتختلف حظوظ الراحلين بحسب ارتفاع قاماتهم: فمنهم من يقام له متحف يضم معظم تراثه ، ومنهم من يحول البيت الذي كان يسكنه إلى متحف رسمي عام ، ومنهم من يكتفي بضم تراثهم وأهم متعلقاتهم إلى الأرشيف القومي ، في العاصمة أو المحلي في المدينة ، أو في القرية التي عاش بها .

٣ ــ منذ خمس سنوات ، وفي شهر ما رس بالتحديد ، كنت في زيارة قصيرة لمدينة فيمار كعبة الكلاسيكية الألمانية ومقر عدد كبير من نوابغ الشعراء والأدباء والفلاسفة والفنانين الألمان: جوته وشيللر وهيردر وفيلاند وفرانز ليست وغيرهم . وفي أثناء جولتنا السياحية بالمدينة الشاعرية الصغيرة أشارت الدليلة إلى مبني ضخم من عدة أدوار وهي تهتف قائلة: هنا ترقد كنوز المدينة ، هنا مبني الأرشيف الذي يضم تراث ستين شاعرا وأديبا وعالما وفنانا عاشوا في المدينة أو أقاموا بها بعض الوقت .

وفي مدينة ليبزج منذ ثلاث سنوات التقيت بالصديق الشاعر السوري الأصل المقيم فيها منذ أربعة عقود من الزمان ، الدكتور عادل قرشولي ، ولما سألته عما يشغله ، قال إنه بصدد إعداد أرشيف كامل بأعماله ورسائله وصوره وأحاديثه ومقالاته المتفرقة (ومعظمها في الدفاع عن العرب وإلقاء الضوء علي القضايا العربية لتبديد سحب التحيز والأحكام المسبقة ضد العرب والإسلام) .

٤ ــ من الطبيعي أن يكون أول ما يخطر علي البال هو أن تصبح دار الكتب والوثائق القومية ـ بعد افتتاحها المنتظر ـ هي المقر الرئيسي للأرشيف القومي لا دباء مصر وفنانيها وعلمائها ، وأن تكون لها شبكة فروع وعواصم المحافظات والأقاليم: أرشيف للطهطاوي في طهطا ، وللمنفلوطي في منفلوط ، ولمصطفي صادق الرافعي في طنطا ، وللعقاد في أسوان ، ولطه حسين في المنيا ، ولعلي محمود طه والهمشري في المنصورة ، وليوسف إدريس وصلاح عبد الصبور في الزقازيق ، ولزكي مبارك في سنتريس .

٥ ــ وإذا كانت وزارة الثقافة قد اهتمت بإقامة متاحف لعدد من نوابغ مصر مثل مختار وأحمد عرابي و شوقي وطه حسين والعقاد فأين عشرات الأعلام الآخرين ! ألا تكفي معاناة الأدباء والعلماء والفنانين في حياتهم حتي يعانوا من الجحود والنكران بعد موتهم ؟ والأسئلة تتوالي ولايمكن أن تنتهي: أين التراث الموسيقي ل عبد الوهاب وزكريا أحمد والقصبجي والسنباطي والطويل وبليغ والموجي ، دع عنك السؤال عن أعلام الموسيقي العربية من الحامولي ومحمد عثمان وسيد درويش وصولا إلى يومنا الحاضر ! ألا يمكن أن يفكر الكونسرفتوار مثلا في إقامة أرشيف لتراث ومدونات هؤلاء الكبار بجانب أرشيف آخر يضم مدونات المجددين . لم لا يفكر اتحاد الفنانين التشكيليين ـ المشهود له بالنشاط والحيوية ـ مع مركز الإبداع الفني في اقامة أرشيف لكبار فنانينا ؟ . إن البديل الوحيد لا نشاء هذا الأرشيف الشامل هو تبديد وضياع كنوز من مخلفات أعظم أبناء مصر وآثارها ، ولا أظن أن أحدا منا يرضي لهم بهذا المصير المحتوم .

٦ ــ إن الدعوة إلى إنشاء الأرشيف القومي قضية قومية ، كل جهد في سبيلها عائد بالنفع علي أمتنا وذاكرتها التي تفرض ضرورات العصر أن تبقي حية ومتصلة الماضي بالحاضر والمستقبل . لقد رحل عن دنيانا ـ في السنوات الأخيرة ـ أعزاء كثيرون يصعب

حـصر أسمـائهم ، أيـن ذهـب يـاتري تـراثهم ؟ إن معظـم أبنـاء الأعـلام يـسيرون في اتجاهـات واهتمامـات أخـري مختلفـة عـن اتجاهـات آبـائهم واهتمامـاتهم ، فهـل يتحقـق الحلـم بالبـدء الجدي في تأسيس الأرشيف القومي وشبكة فروعه بالأقاليم ؟

وتعقيبـا علـي هـذه الرسـالة العـامرة ، فـإني أضـم صـوتي إلى كـل كلمـة فيهـا ، وأعتقـد أن المـسئولين الآن في هيئـة دار الكتـب والوثـائق القوميـة يعـون أبعـاد هـذه المـسئولية القومية الكـبري ، في إطـار مـا يـشغلهم مـن تطـوير شـامل لـدار الكتـب مـن ناحيـة و دار الوثـائق القوميـة مـن ناحيـة أخـري ، وبـذل كـل جهـد ممكـن مـن أجـل افتتـاح مـبني دار الخلـق في الموعد المحدد له في ما يو القادم ، إن شاء الله .

شريف مختار وعيده الفضي

بقلم : فاروق شوشة

سبقني الدكتور عبد الهادي مصباح إلى الكتابة - في هذه الصفحة - عن إلى وبيل الفضي لطب الحالات الحرجة ، والإشادة بالطبيب العالم الإنسان الدكتور شريف مختار مؤسس مركز طب الحالات الحرجة بقصر العيني عام ١٩٨٢ ، والإنجاز الذي تحقق علي يديه هو وتلاميذه منذ ذلك الحين ، والنجاح الباهر والمستمر في إدارة هذا المركز والعمل علي تطويره وتجهيزه ، ليصبح من مفاخر الطب في مصر ، وعلي مستوي العالم كله .

وقد بدأت معرفتي بالمركز ، منذ سنواته الأولي في مطالع الثمانينيات من خلال متابعتي لحالة والدي - رحمه الله - في أثناء مرحلة من مرضه الطويل ، ثم من خلال متابعتي لحالة الشاعر الغنائي الكبير مامون الشناوي - الذي كانت تربطني به وبفنه علاقة حميمة فيها ما يشبه البنوة والأبوة ، وكنت كثير التردد عليه في المدة القصيرة التي قضاها في مركز الحالات الحرجة .

وكشفت لي هذه المتابعة - في الحالتين معا - عن مدي الجدية والاهتمام والرعاية والانضباط التي فرضها الدكتور شريف مختار منذ إلى وم الأول ، بحيث يصبح كل شيء مختلفا عن أي مكان آخر . لم أكن قد سعدت بالتعرف عليه مباشرة ، وإنما كنت أكتفي بتأمله عن بعد ، والحديث عنه مع تلاميذه ومساعديه من الأطباء ، وأضيف إلى صورته في نفسي يوما بعد يوم ، تفاصيل وملامح جديدة عن هذه الشخصية الإنسانية والعلمية والطبية النادرة ، في زمن لم يعد أحد فيه يقبض علي بقية القيم التي يؤمن بها ويسعي إلى تحقيقها إلا بشق النفس ، حتى أتاح لي تطور حالتي الصحية - بفضل رعاية الصديق العزيز الراحل الدكتور مصطفي المنيلاوي رحمه الله - فرصة الاقتراب المباشر والتعامل عن كثب مع الدكتور شريف مختار باعتباره - أي الدكتور شريف - المرجع والحجة والموثوق به في الأمر . وسرعان ما أتيح لي أن أكتشف اللمسة الجديدة التي لم أكن قد اكتشفتها فيه من قبل ، وهي المتمثلة في روح الفنان فيه ، والجو الفني الراقي البديع الذي يحيط نفسه به ، ويملأ عليه المكان ، وكأنه يرقي بواسطته إلى معارج الروح وصفاء الشفافية - في التعامل مع مرضاه - من غير توقف عند معطيات الجسد وحدها .

وأحسست وهو يفحصني بأنامله الشديدة الدقة والرهافة أنه يمتلك أنامل عازف قدير - وصدق حدسي عندما فوجئت به - بعد سنوات - في حفل تكريم كلية طب قصر العيني له في مناسبة حصوله علي جائزة الدولة التقديرية وهو يقدم فاصلا من العزف علي

البيانو لرائعة من روائع الموسيقي الكلاسيكية . وكنت قبل مفاجأتي بهذا التألق الفني فيه ، أستعيد بيت المتنبي ـ شاعر العربية العظيم ـ وهو يصف مشية الأسد المتمهلة المتلئة بالكبرياء وهو يقول: يطأ الثري متمهلا من تيهه: فكأنه آس يجس عليلا وأقول لنفسي هذا هو الأسى ـ أي الطبيب ـ الذي أشار إلى ه المتنبي ، وأنا العليل المستسلم لا نامله العازفة . والجميل ـ في تكوين شريف مختار ـ أن هذا الكشف المبدئي الذي يقوم به بنفسه بأنامله وسماعته ، يؤدي علي الفور إلى الكشوف المستعينة بأحدث الأجهزة والوسائل العلمية ، حتى يقوم التشخيص علي أساس علمي بالغ الدقة والنفاذ إلى موضع العلة وطبيعة الداء . وكأنه بالجمع بين الأمرين ، يلجأ أولا إلى الخبرة الحية والمباشرة ـ التي تراكمت فأصبحت مستودعا للحكمة ـ ثم إلى أعلي درجات الاستشراف العلمي ليقول التقدم العلمي كلمته بعد ذلك .

لمثل هذا الراهب ـ المتجرد من كل ما ينبهر به الآخرون من حوله ويسعون إلى الحصول عليه وتملكه ، المتحرر من سيطرة أية نزعة يمكن أن تعوقه عن الإخلاص والتجرد للرسالة التي يمارسها ويبدع فيها ويفني من أجلها عملا ودأبا وحيوية وفاعلية منذ كان يحلم بهذا المركز لطب الحالات الحرجة ، الذي بدأ صغيرا تحكمه إمكانيات البداية ، ثم أصبح بفضل مؤسسه وراعيه ، وعون مساعديه وتلاميذه الذين أصبحوا الآن أساتذة كبارا ، يفخرون بأنهم تخرجوا في أكاديمية شريف مختار الطبية ، ويقصدهم المرضي من كل مكان لا نهم كانوا ينتمون في يوما ما إلى هذا المركز صاحب السمعة العربية والعالمية ، ولأنهم تربوا علي تقاليد خلقية ومهنية وإنسانية تجسدت كلها في شخص أستاذهم ومعلمهم ومثلهم الأعلى ـ أقول: لمثل هذا الراهب الحكيم لا بد أن تنحني الرؤوس إجلالا وتقديرا واعتزازا ، بالمعني الذي يمثله ، والنموذج الذي يقدمه ـ في زمن تتهاوي فيه النماذج والأمثلة يوما بعد يوم ولحقيقة الوطن الذي ينتسب إلى ه ، ويعيد إلى ه مع أمثاله من الأعلام الرواد ـ أخص بالذكر من بينهم محمد غنيم الذي وضع مدينة المنصورة ومركز الكلي فيها علي خريطة الطب العالمية ـ يعيد إلى ه شرف الريادة وألق السبق والتقدم ، حتى في حدود الإمكانيات القليلة المتاحة:

وكلنا يعلم أن من حولنا من يمتلكون من الوسائل والأجهزة والمباني والتمويل ما يفوق ما لدينا بكثير ، لكنهم لا يحلمون أبدا بامتلاك عبقريات في شتي المجالات ، وفي مقدمتها هذه العبقريات الطبية التي تفاخر بها الأمم ، سواء آثرت البقاء في مصر والتضحية من أجل الوطن ، أم آثرت الخروج إلى مجالات عالمية ترفع فيها اسم الوطن ـ مصرـ عاليا ، وتحفظ رايته خفاقة وشامخة .

هآنذا ، وقد امتد بي الأمل لا شهد احتفال مركز طب الحالات الحرجة بقصر العيني بعيده الفضي ، بعد أن شهدت بداياته في أوائل الثمانينيات ، الأمر الذي جعلني

شـاهدا علـي حجـم الجهـد والعطـاء ، ومـساحة التحـديث والتطـوير ، وواحـدا ممـن يجـدون فيـه وفي شـخص رمـزه البـاقي الـدكتور شـريف مختـار ، المـلاذ والأمـان ، والحكمـة والمـشورة ، والرعايـة الأمينـة الحانيـة . منتهـزا الفرصـة لا تجـه إلى المركـز ولكـل العـاملين فيـه ، وفي مقـدمتهم الـدكتورة عاليـة عبـد الفتـاح ، بكـل التهنئـة القلبيـة ، لمـن يـسهرون علـي رعايـة القلـوب ، ويـضيفون إلى أعمارنـا ـ بعـد رعايـة الله وفـضله ومـشيئته ـ مزيـدا مـن الأمـل ، وفسيحا من الحياة .

مؤنس طه حسين وملامحه الرومانسية

بقلم : فاروق شوشة

علي الرغم من حجم الشهرة وذيوع الصيت والمجد الأدبي الذي أتيح لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين ، والمكانة الرفيعة السامقة التي لا يزال يحظي بها في عقول قرائه ومريديه وعارفي فضله ، فإن ابنه الوحيد الدكتور مؤنس طه حسين لم يظفر بالقدر القليل جدا مما أتيح لا بيه وعندما توفي في باريس عام ٢٠٠٤ عن ثلاثة وثمانين عام ا ، لم يكن يعرفه في مصر - حق المعرفة - سوي العشرات من المتصلين به وبكتاباته ، التي لم يتعرف عليها جمهور المثقفين ، طيلة حياته الممتدة والحافلة .

ويبدو أن ظروف نشأة مؤنس في بيت أبيه ، وسيطرة الأم الفرنسية علي مقدرات هذا البيت ، جعلت الفرنسية لغته الأولي ، وعزلته تماما عن اللغة العربية والثقافة العربية ، وكان انشغال أبيه عنه - في مرحلة تنشئته وتكوينه الأولي - بمسئوليات حياته الحافلة ، سببا آخر في هذه العزلة الثقافية التي فرضت علي مؤنس حتى بالنسبة لا عمال أبيه التي كانت كفيلة بتحقيق نقله نوعية في تكوينه اللغوي والثقافي ، لو أتيح له الاقتراب منها قراءة وفهما واستيعابا ، وهو الأمر الذي لم يحدث ، وكان عدم حدوثه بمثابة الخطوة الأولي في هجرة مؤنس إلى فرنسا وتركه العمل أستاذا للأدب الفرنسي في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، ليعمل في منظمة إلى ونسكو بباريس ، بعيدا عن الجو الجامعي الذي استغرقه في مصر ، حتى رحيله عنها في مستهل الستينيات .

لكن ، ما هي مناسبة الكتابة عن مؤنس طه حسين ؟ يحفزني إلى الكتابة عنه إلى وم ، قراءتي للترجمة العربية البديعة التي قام بها الدكتور محمد علي الكردي - أستاذ الأدب الفرنسي - لكتاب مؤنس ملامح رومانسية ، وقد جاءت هذه الترجمة ضمن إصدارات دورة شوقي ولا ما رتين التي أقامتها مؤسسة البابطين في باريس ، في أكتوبر من العام الماضي . وبالإضافة إلى الترجمة البديعة التي أتيحت لكتاب مؤنس ، فقد أتيحت له أيضا - في ختام صفحاته - كلمة ضافية بعنوان ذكريات عن مؤنس طه حسين بقلم صديقه وجاره الشاعر والكاتب د . عبد الرشيد الصادق محمودي ، هي في جوهرها دراسة أدبية إنسانية تحليلية لشخصية مؤنس وأعماله الدراسية والإبداعية - في مقدمتها شعره - كتبت في ظل مودة غامرة وصحبة حميمية وتآلف روحي تحقق للصديقين مؤنس و عبد الرشيد ، الأمر الذي يجعل منها وثيقة نادرة وكاشفة ، بالنسبة لعالم مؤنس طه حسين وشواغله ودوافع هجرته ومواجهته لصيره المتوحد بعد وفاة أخته الوحيدة أمينة ورحيل زوجته ليلي العلايلي ، التي حمل لها أعمق الحب وأجمله وتغني بها في ديوانه

الرابع والأخير سوف ينحسر البحر الصادر عام ١٩٩٥ ، وكله متخصص لرثائها والتعبير عن عمق فاجعته بافتقادها .

ولقد كان بعض أبناء جيلي - ونحن طلاب علم في الجامعة إبان الخمسينيات - نتسامع بأمر مؤنس طه حسين ، وتصل إلى نا أصداء من سيرته ، أبرزها غربته التامة داخل إطار اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية ، لكن لا نه الامتداد الحي لطه حسين العظيم ، فقد كان انتسابه إلى الرمز الكبير يقلقنا ويثير دهشتنا ، ثم جاءت الكلمة الضافية للدكتور عبد الرشيد لتجلو بعض الغشاوة عن عيوننا ، فهو يحكي مثلا ما رواه له مؤنس من أن والده كان يختبره في العربية أحيانا فيتلجلج ، وكيف كان طه حسين يعرب عن استيائه ، وقد حاول أن يعالج هذا القصور فاستقدم لمؤنس معلما للغة العربية ، ولكن الأوان كان قد فات لتوثيق علاقة الغلام بها .

كما يروي الدكتور عبد الرشيد بعضا مما قيل عن تركه للعمل في قسم اللغة الفرنسية بسبب نزاع علي الترقية أو رئاسة القسم .

ويضيف إلى هذا أنه - أي الدكتور عبد الرشيد - يخيل إلى ه أن لرحيل مؤنس عن مصر أسبابا أخري تتعلق بتطورات ذات صبغة عام ة . فلعله رأي أن البيئة الثقافية الناطقة بالفرنسية في مصر ، التي نشأ فيها وازدهر قد أصابها التدهور .

ثم يضيف أن الأوضاع في الجامعة وفي الحياة الثقافية المصرية - بصفة عام ة - أخذت تتغير علي نحو شامل منذ قيام الثورة ، ونزوح كثير من الأجانب وتضييق الخناق علي الجامعة والجامعيين .

ولعل مؤنس قد شعر أن الحياة في مصر لم تعد تلاؤمه ، ولم يكن في ذلك مختلفا عن غيره من الكتاب والفنانين الذين أخذوا يرحلون عن مصر بداية من أوائل الخمسينيات ، ويري الدكتور عبد الرشيد أن رحيل مؤنس عن الجامعة المصرية ، كان إحدى المحن الكثيرة التي تعرض لها ، فقد خسرته الجامعة كما خسرها فقد كان أستاذا جامعيا بكل معني الكلمة ، وكانت الجامعة هي بيئته الحيوية التي يمكنه فيها أن يزدهر بحق ، فيمارس نشاطه الأكاديمي دون إضرار بإبداعه أو هواياته المتعددة . كما يورد شهادة لبعض من درسوا عليه - في قسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب (الدكتورة أمينة رشيد والدكتورة آمال فريد) وكيف كان مؤنس يفتح لهم أبو اب الثقافة الرفيعة ، ويعلمهم الاهتمام بالموسيقي وتاريخ الفن ، وكيف كان قادرا علي تحبيبهم في الشعر اللاتيني رغم بعده عن أذواقهم ، وكيف كان يخرج عروضا مسرحية يمثل فيها طلابه ، وكان بين الحضور طه حسين وتوفيق الحكيم ومحمد حسين هيكل . ويكفي دليلا علي

تفتح مواهبه في سن مبكرة أنه نشر ديوان شعره الأول شاحبا كان الظل وهو في السادسة عشرة من عمره .

هذا هو مؤنس طه حسين المجهول ، أما الحديث عن كتابه ملامح رومانسية وترجمته البديعة إلى العربية فموعده الأسبوع القادم إن شاء الله .

مؤنس طه حسين وملامح رومانسية (٢)

بقلم: فاروق شوشة

جاء ذكر تاريخ ميلاد مؤنس طه حسين مختلفا في مقدمة مترجم كتابه ملامح رومانسية الدكتور محمد علي الكردي ـ أستاذ الأدب الفرنسي ـ الذي ذكر نقلا عن الدكتورة آمال فريد ـ أنه من مواليد الثامن من سبتمبر عام ١٩٢٢ ، وفي الدراسة الضافية عن مؤنس بقلم الدكتور عبد الرشيد الصادق محمودي والمنشورة في خاتمة الكتاب المترجم أنه قد ولد في سنة . ١٩٢١ ليس لهذا الاختلاف قيمة كبيرة ، لكنه يشير إلى أن ما نعرفه عن مؤنس طه حسين قليل جدا ، وأنه عندما توفي عام ٢٠٠٤ في باريس كان ولايزال مجهولا لدي كثرة المثقفين في مصر والعالم العربي . وأن هجرة مؤنس إلى فرنسا وظروف حياته فيها ـ موظفا دوليا في منظمة إلى ونسكو ـ جعلته منعزلا أو مؤثرا للعزلة عن الناس والمجتمع من حوله .

يقول الدكتور الكردي ـ في مقدمته لترجمته ـ إن كتاب ملامح رومانسية صدر عن دار المعارف المصرية بدون تاريخ محدد ، وإنه ـ في أغلب الظن ـ قد نشر بعد ظهور دراسة المؤلف المطولة عن الرومانسية الفرنسية والإسلام ، التي كانت رسالته للحصول علي درجة دكتوراه الدولة في الآداب ، وقد نشرتها دار المعارف اللبنانية عام ١٩٦٢ ، وإن الدكتور مؤنس يصرح في مقدمة ملامح رومانسية بأنها ليست عملا أكاديميا صارما مثقلا بالوثائق والمراجع ، وإنما هي بمثابة تصورات وتأملات حول رواد الحركة الرومانسية في إطار علاقتهم بالمؤثرات الإسلامية ـ ثم يعرض الدكتور الكردي لما تتضمنه الدراسة أو الكتاب تسعة فصول يتناول فيها صاحبها السمات الفارقة في الخطاب الرومانسي ويقدم مجموعة من البورتريهات أو اللوحات لكل من فيكتور هيجو في ديوانه الشرقيات مع إبراز الجوانب الإيجابية والسلبية في رؤيته للشرق ، ولشاعر الليالي الشهير ألفرد دي موسيه ، ولجورج صاند وتمردها علي المجتمع التقليدي ، ولألفرد دي فيني ومدي تجديده في مجال ما أسماه بالشعر الفلسفي ، ولجيرار دي نرفال فيما يخص تصويره لليالي رمضان في القسطنطينية وللسمات المعارضة للرومانسية في كتابات بروسبير ميريميه ، وأخيرا يفرد الكاتب فصلا مطولا لتحليل قصيدة واحدة من أهم قصائد بودلير مؤسس الحركة الرمزية ، في ديوانه الشهير: أزهار الشر .

وقد أدرك مؤنس طه حسين أن ثمة سؤالا سيطرحه الناس في مواجهة كتابه الصادر في عام ١٩٦٠ عبر عنه هو بلغته قائلا: هل يعد هذا الكتاب عن الرومانسية الفرنسية ملائما للخطة التي وضع فيها ؟ ألا تعد عملية مخاطبة العقول في عام ١٩٦٠ عن حركة أدبية وفنية تبعد عنها بما يزيد علي قرن عملا غير مواكب لا وانه ؟ فما الذي

يهم الناس من أمر شخصيات رونيه وإلفير وألمبيو في عصر الذرة ؟ وكأنه سؤال يطرحه المؤلف عن مدي ملاءمة الحديث عن الرومانسية لجيل الستينيات في بدايات القرن الحادي والعشرين كما يقول الدكتور الكردي ، الذي يري - بدوره - أن الرومانسية حركة أدبية وفنية متجددة ، لا يمكن أن تفتر ، لا نها تخاطب الشباب في كل زمان ومكان . وأننا في حاجة ما سة في عصرنا هذا : عصر التشرذم والتعصب الأعمي ، إلى ما يشد أزرنا ويجدد آمالنا في حياة كريمة وشريفة . ثم إن الرومانسية لم تخل من التغني ، إلى جانب الحب والعواطف النبيلة ، بمشاعر الحزن والأسي أمام عبثية الحياة وعشوائية الأقدار ، ومن التعبير عن شقوة القلوب المحطمة أمام قسوة العواطف الجياشة والدفعات الغريزية التي تقود إلى المنية ، إلا أن أجمل ما في الرومانسية - في رأيه - يظل تمرد الإنسان وثورته علي كل الصعاب والعراقيل التي تقف أمام دفقة الحياة وتجددها المستمر .

وبلغة مؤنس طه حسين المشرقة ، الشديدة الدقة والإحكام ، الباترة كحد السيف ، في ترجمة الدكتور الكردي العربية الشديدة النقاء والصفاء ، نقرؤه وهو يقول: إننا ندين بالكثير للرومانسية ، الأمر الذي يثير حفيظتنا عليها بعض الشيء - خاصة أن كل المظاهر الفنية للنصف الثاني من القرن التاسع عشر ومن قرننا العشرين ، ليست - في نهاية المطاف - إلا ضربا من المحاولات العنيفة والمتعالية لا زاحة نير (قيد) يشكل في الوقت نفسه نوعا من العبودية اللذيذة . إذ مهما قيل في هذا الشأن ، فمن المؤكد أن الآداب والفنون الحديثة تدين بكل شيء تقريبا للرومانسية . أزهار الشر لبودلير ما كان لتري النور لولا الطابع المرضي لبيرون (أفضل كتابته بايرون) ، وأناشيد ما لدورور للوتريامون لولا سخرية ستاندال اللاذعة والتأثيرية ولولا لوحات لا كروا . وفي الواقع يكاد يتم كل شيء ، كما لو أننا ما زلنا ولانزال دوما من الرومانسيين . غير أننا من الآن فصاعد رومانسيون يخجلون من قبول واقعهم علي ما هو عليه إلى درجة لا تعد فيها مجازفة جنونية أن نؤكد ميلاد كل من الفن والأدب الحديث ، في صحبة نوع من الوعي الشقي ، أي من الرؤية المتبصرة .

ويعترف مؤنس طه حسين في ختام التمهيد الذي قدم به لكتابه بأن هذا الكتاب الصغير أقرب إلى سلسلة متقطعة من اللوحات منه إلى دراسة نظرية لمجمل الحركة الرومانسية . والنماذج التي يقدمها لا شك مبهرة (الصواب: باهرة) ، فها هو ذا فيكتور هيجو الذي أصبح من الصعب الحديث عنه من غير اللجوء إلى الضحك ، وألفرد دي فيني ، الذي يساء فهمه في العادة ، وبروسبير ميريميه الذي يثبط عزم أكثر المفسرين صبرا ، وجورج صاند التي لا تكف الأسطورة أبدا عن تشويه صورتها ، وجيرار دي نرفال هذا الهارب اللذيذ من الرومانسية الرسمية ، وشارل بودلير - أخيرا - الرومانسي واللارومانسي معا ، الذي يلخص بطريقة (مبهرة) الماضي والحاضر . ثم يقول: وهي

ظاهرة لم تكن وقفا علي فرنسا ، إذ إن أوروبا كلها حظيت منها بالنصيب الوافر . ومهما يكن الأمر ، فإن أوروبا في تميزها هذا لم تشهد قط في تاريخها مثل هذا الحشد من العبقريات التي غمرت - بالمعني الحرفي للكلمة - كل مجالات الشعر والتصوير والموسيقي والرواية والمجتمع والسياسة والفكر . ونتساءل: هل قدمت حقبة أخري من التاريخ هذا العدد المذهل من الفنانين الأفذاذ الذين لم يبلغ شئونهم أحد ؟ هل كانت هذه لحظة فريدة ؟

نحن نميل إلى تصديق ذلك .

والحديث - عن مؤنس طه حسين وكتابه البديع - موصول .

مؤنس طه حسين وملامح رومانسية (٣)

بقلم: فاروق شوشة

منذ أصدر الناقد الكبير الراحل الدكتور محمد غنيمي هلال كتابه الرائد عن الرومانتيكية في السلسلة التي اختص بها المذاهب والمدارس النقدية الحديثة ، علي مدار الخمسينيات والستينيات ، والمكتبة العربية تكاد تخلو من كتابات لها هذا الشمول وهذه الإحاطة وهذا التعمق والاستقصاء الذي تميز به هذا الكتاب . وبعد قرابة نصف قرن علي صدور هذا الكتاب الرائد يجيء كتاب ملامح رومانسية للدكتور مؤنس طه حسين ـ أستاذ الأدب الفرنسي ، صاحب الثقافة الموسوعية ، والبصر النقدي الصائب ، والشاعر الذي تفجرت شاعريته منذ بواكير شبابه ، فنشر ديوانه الأول شاحبا كان الظل وهو في السادسة عشرة من العمر ، يجيء هذا الكتاب بمثابة إضافة نقدية وتطبيقية ثرية ، فضلا عن تأصيله للحركة الرومانسية في فرنسا أولا ثم في ألمانيا وانجلترا بعد ذلك .

من أكثر فصول هذا الكتاب متعة وجمالا ما كتبه مؤنس طه حسين عن جيرار دي نرفال وليالي رمضان ، واصفا إياه بأنه من بين الأوروبيين جميعا والفرنسيين خاصة أفضل من فهم الشرق ، ولعله الوحيد الذي نفذ ـ بذكاء ومحبة ـ إلى قلب الشريعة الاسلامية . لقد سبق لشاتوبريان ان أصدر في عام ١٨١١ كتابه المشهور الطريق من باريس إلى القدس لكنه قدمه مشبعا بالأفكار المسبقة وبعقلية تشبه ـ كما يقول مؤنس ـ عقلية المحارب الصليبي . علي العكس تماما من نرفال الذي رست سفينته علي شاطيء الاسكندرية في يناير من عام ١٨٤٣ ، بعد ثلاثين عام ا من مجيء شاتوبريان ، تحدوه أعلي درجات الوعي ورباطة الجأش والموضوعية . وكان قد أعد رحلته بعناية ، إذ تعلم مباديء العربية وكدس في أمتعته المراجع والقواميس وكتب النحو ، كما كان يحاول الحديث باللغة العربية مع مرافقيه في السفر ، وكان من بينهم بعض المصريين . وعند وصوله إلى القاهرة أصر نرفال علي النزول في حي شعبي خالص .

ولم يوقف خبرته علي مصر بل أكملها برحلتين إلى لبنان ، ثم إلى تركيا حيث تعرف علي شهر رمضان ، لذا فقد أطلق علي الجزء الثالث من رحلته الشهيرة ليالي رمضان علي عادة قصاصي استانبول في روايته الحكايات الجميلة خلال هذه الليالي علي مستمعيهم . اصطنعها الكاتب ليسجل أسطورة ملكة سبأ الرائعة ـ التي تحتل الجانب الأكبر من هذا الجزء ـ وليسرد مجموعة من التفاصيل التي تدور حول الجانب البهيج للصيام . ويوضح مؤنس أن أكثر ما فتن نرفال وأثر في وجدانه المتأجج ـ باعتباره واحدا من أبناء الرومانسية المتأخرين ـ هو كون هذا الشهر المقدس فرصة لتألق الأدب ، الأمر الذي يجعله يصيح قائلا: إن المرء ليعطي فكرة باهتة عن أفراح القسطنطينية ، وعن سحر

لياليها خلال شهر رمضان ، إذا أغفل ذكر هذه الحكايات المدهشة ، التي كان يقصها أو ينشدها الرواة المحترفون في أهم مقاهي استانبول . وليس من شك في أن ترجمة إحدي هذه الأساطير أمر يعد استكمالا طيبا للأفكار التي يجدر بنا أن نكونها عن هذا الأدب الفني والشعبي ، في الوقت نفسه . وذلك بقدر ما يعد هذا الأدب بمثابة إطار روحي للتقاليد والموروثات الدينية الدالة علي وجهة النظر الاسلامية .

لقد بدأ رمضان وجيراردي نرفال في القسطنطينية (أي: استانبول) وها هو ذا يخط بقلمه:

رفيقي يقول لي: إلى أين تريد أن تذهب ؟
ـ يحلو لي أن أخلد للنوم .

ــ ولكن في شهر رمضان لا ينام الناس إلا خلال النهار . لنقض الليل إذن إلى نهايته ، ثم عند بزوغ الفجر ، يستحسن أن نأوي إلى مخادعنا .

ثم هو يصف ميلاد شهر رمضان في هذه اللوحة البديعة من التعبير والتصوير ـ كما جاءت في ترجمة الدكتور محمد علي الكردي مترجم كتاب مؤنس طه حسين إلى العربية ـ يقول نرفال: أريد فقط أن أريكم ملك الحفل ، الذي يبدأ في استامبول (والكتاب يذكرها بالميم وبالنون) ليستمر طوال ثلاثين ليلة . ثم أشار بإصبعه إلى نقطة في السماء حيث يظهر هلال بادي الشحوب . إنه قمر رمضان الجديد الذي يرتسم ضعيفا علي الأفق . أما الشمس فلن تتواني عن الهبوط خلف خطوط الأفق البنفسجية التي تهيمن علي القرن الذهبي . وفجأة تجلجل الأرجاء بلجب هائل يحدثه صوت مدافع توفانا ومدافع السفن الراسية في الميناء تحية للشهر الكريم . وبقدر ما كانت الظلمة تهبط من السماء بقدر ما كنا نري ظهور مسابح طويلة من النار وهي تؤطر قباب المساجد وترسم عليها خطوطا من الأرابسك ، التي كانت تشكل ألوانا من القصص الخيالية المصنوعة من زخارف الحروف . أما المآذن فكانت تنطلق في صورة آلاف من الصواري التي تعلو المباني ، وهي تحمل خواتم من الضياء ، وترسم الأروقة النحيلة الحاملة لهذه المباني . وكانت ترتيلات المؤذنين تنطلق من كل صوب ، عذبة في العادة ، إلا أنها كانت ـ في ذلك إلى وم ـ مدوية كأنا شيد النصر . وما أجمل تعليق مؤنس طه حسين في ختام هذا الفصل من كتابه عن نرفال وهو يقول: من هنا نفهم إغراء الشرق والاسلام بالنسبة له . طبيعي أن يتذكر بعد هذه الرحلة الرائعة التي انتهت في شهر ديسمبر١٨٤٣ ، وخلال أصعب السنوات المأساوية التي قضاها في باريس علي حافة الجنون ، حلمه الشرقي الجميل . وهو سوف ينشر بعد ذلك ، من حين إلى آخر ، قصيدة من قصائده الغامضة التي تتواشج فيها ، كما يقول أحد مؤرخي حياته ، الذكريات الشخصية مع الأساطير الدينية . والحديث عن مؤنس طه حسين وكتابه البديع موصول .

مؤنس طه حسين لم يعد مجهولا

بقلم: فاروق شوشة

لم يعد مؤنس طه حسين مجرد اسم مجهول في ذاكرتنا الأدبية والثقافية ، بإعتباره موظفا سابقا في منظمة إلى ونسكو ، أو أستاذا سابقا للأدب الفرنسي في جامعة القاهرة . فقد كشف لنا كتابه البديع ملامح رومانسية - الذي ترجمه الدكتور محمد علي الكردي - أستاذ الأدب الفرنسي - إلى العربية ضمن اصدارات الدورة العاشرة لمؤسسة البابطين: دورة شوقي ولامارتين - كشف لنا هذا الكتاب في تناوله للعديد من أبرز أعلام الرومانسية الفرنسية: فيكتور هيجو ، وألفرد دي فيني ، وألفرد دي موسيه ، وبروسبير ميرميه ، وجورج صاند ، وجيرار دي نرفال ، وشارل بودلير عن منهج متفرد في التناول والتحليل ، وعن ثقافة عميقة تري الظاهرة الجزئية في اطارها الأشمل ، وعن حس أدبي وفني رفيع ، انسكبت فيه شاعريته المتدفقة في وجدانه وروحه منذ بلوغه السادسة عشرة من عمره حين أصدر ديوانه الأول: شاحبا كان الظل .

ولقد تحالفت ظروف مؤنس طه حسين (١٩٢١ - ٢٠٠٤) علي ظلمه ظلما بينا ، حين اضطرته إلى الاغتراب عن اللغة العربية ، لغته القومية ، وهو في طور التنشئة الأولي ، في بيت لغته الفرنسية التي فرضتها أمه الفرنسية ، وانشغال الأب عنه بأمور حياته المزدحمة والعاصفة ، الأمر الذي أدي إلى اغتراب مؤنس - طيلة حياته - عن مجتمعه المصري والعربي . ولما أدي هذا الاغتراب إلى عزلته وهو في مصر - كما أوضح الدكتور عبد الرشيد الصادق محمودي في كلمته الضافية الملحقة بترجمة كتاب مؤنس: ملامح رومانسية - كان اغترابه الثاني إلى فرنسا ، بعيدا عن الوسط الثقافي المصري ، عازفا عن سبل النجاح والشهرة في فرنسا ، مكتفيا بدور الموظف الإداري في منظمة إلى ونسكو ، طيلة عمله فيها الذي استمر عشرات السنين ، وبعد تقاعده أعاده رحيل زوجته وحبيبته ورفيقة عمره ليلي العلايلي إلى الشعر ودائرة الابداع فكان ديوانه سوف ينحسر البحر١٩٩٥ ، الذي خصصه لرثاء زوجته ، وكان رحيلها بمثابة المحنة المزلزلة والضربة القاضية .

وعندما رحل مؤنس ، وفي خضم التغطية الصحفية التي قامت بها الصحف المصرية ، كان هناك الخبر المنشور في الأهرام بتاريخه ديسمبر٢٠٠٤ - كما يؤكد الدكتور عبد الرشيد - عن المذكرات التي أنجزها مؤنس والتي تقع في ثمانمائة صفحة ، وأن وزارة الثقافة تنوي ترجمتها إلى العربية . هل كان الخبر صحيحا ودقيقا ؟ إن صح ذلك فما مصير هذه الترجمة بعد ثلاث سنوات من رحيله ؟ وهل صحيح أن هناك رواية

أنجزها خلال أعوامه الأخيرة . وهل له كتابات أخري ـ دراسية أو ابداعية ـ ما تزال طي أوراقه ! وأخيرا ما مصير هذه التركة الثقافية والأدبية النادرة ـ التي إن وجدت ـ فهي الآن بين يدي ابنته التي تقيم في فرنسا . أما محنته الأخيرة فتمثلت في مرضه الأخير الذي فرض عليه عزلة كاملة عن كل ما حوله ومن حوله ، لم تقطعها ـ كما يقول الدكتور عبد الرشيد ـ سوي رؤيته لا بنته أمينة ـ التي سماها باسم شقيقته الكبري أمينة ـ وطفليها .

وبعيدا عن هذا كله ، فإن الظلم الأكبر الذي أثقل كاهل مؤنس ، هو كونه ابن طه حسين ، عميد الأدب العربي ونابغة زمانه وعصره . فقد حوصر الإبن بعبقرية الأب منذ مولده ، وأصبح عذابه الأكبر ومحنته العظمي عندما يتوقع منه الآخرون أن يكون امتدادا لا بيه في كل شيء ، في صوته ولغته وأدائه وثقافته وموسوعته وشموخ تكوينه . وليس مؤنس وحده في هذه المحنة ، فكل أبناء العباقرة يعانون مثل معاناته ، ويحاولون جاهدين الفرار من صورة آبائهم ، ومن أن يعيشوا في ثيابهم ، ليكونوا كما يحبون لا نفسهم ، وكما تؤهلهم قدراتهم بعيدا عن ظلم المقارنة وتأثيرها العنيف . لقد عاش مؤنس ورحل رومانسي الهوي والمزاج والإنتماء . وعكوفه الطويل ـ في رسالته للدكتوراه وفي كتاباته المتلاحقة ـ علي تجليات الرومانسية الفرنسية ومن بعدها الألمانية والانجليزية ، دليل علي هذا الميل والتكوين . وفي شعره ، منذ ديوانه الأول وحتي ديوانه الرابع ، امتلاء بهذا النفس الرومانسي الذي لم يفارقه طيلة حياته ، وليت الدكتور الكردي ـ الذي قدم ترجمة جميلة لكتاب مؤنس: ملامح رومانسية أن يعكف علي شعر مؤنس ليقدمه في لغة عربية مشرقة . وقد بدأ الدكتور عبد الرشيد بتقديم ترجمة لا حدي قصائد مؤنس المبكرة عن انحسار البحر ، والني نشرها عام ١٩٣٩ ـ أي وهو في الثامنة عشرة من عمره ـ والترجمة تتنفس لغة شعرية بديعة ، يقول فيها:

كما تتدفق الموجة وتتكسر علي الصخرة
ها هو قلبي قد اصطدم في طفرة من العذاب العميق
بوجودي ، وأصبحت أشعر بأن حبي
يتدفق هادرا كأنه موجة

واحسرتاه ، إن المياه الباكية إذ تنحسر
مهتاجة نحو البحر ، وتئن كأنها العالم
يبقي منها في فجوات الصخور مستنقع

مريرة هي الذكري التي تصيب الموجة بالأسن

المدينشرني والجزر يسحبني
وهواي منحسر فالبحر يغمره

أحدهما ينتزع نفسي مني ، والآخر يردها لي مثقوبة مذعورة كأنها موجة !

لم يبق إلا الأمل في المشروع القومي للترجمة ، حتي يرد غربة مؤنس طه حسين ، ويعيده إلى ثقافته العربية ولغته القومية ، يعيده إلى نا .

فارق . . ظالما ومظلوما

بقلم: فاروق شوشة

بيني وبين الملك فاروق علاقة من نوع خاص ، فأنا سميه - بشدة علي إلى اء - أي سميت باسمه حين ولدت ، وكان هو في الشهور الأولي من توليه عرش مصر ، ثم أصبحت لي شقيقة بعد عام ين ، سماها أبي فريدة ، علي اسم الملكة فريدة التي تزوجها فاروق ، وكان زواجهما مواكبا لميلاد شقيقتي ، وعندما ولدت شقيقتي الثانية بعد عام ين آخرين ، لم يجد أبي اسما ملكيا ثالثا يليق بها ، فالتفت إلى اسم ملكة الإنجليز العظيمة فيكتوريا وأطلقه علي أختي ، دون أن يبالي - طرفة عين - بأنه اسم مسيحي يطلق علي ابنته المسلمة ، وكانت النتيجة المثيرة للدهشة والتساؤل باستمرار أن تصبح لي شقيقة هي فيكتوريا ، أبو ها اسمه محمد ، دلالة علي أن الحياة المصرية والمعايشة المصرية الحقيقية كانت دائما تنتصر لروح المحبة والأخوة ، فيأخذ المسيحي من أسماء المسلم ، والمسلم من أسماء المسيحي ، والكل في حسبانهم مرجعه إلى الخالق الكريم ، إلى س هو القائل في محكم كتابه: وعلم آدم الأسماء كلها . وعندما اكتشف أبي - رجل التعليم والتربية ، أنه بهذه الثلاثية من الأسماء قد تورط في حرف الفاء التزم به فيما تلانا من أشقاء وشقيقات ، فتحققت امبراطورية الفاء لخمسة أشقاء وخمس شقيقات .

وظلت هذه العلاقة الشديدة الخصوصية ، التي ربطتني باسم الملك فاروق تبعث في كيان الطفل الصغير لونا من الزهو والشعور بالفخر ، حتي كبر الصبي ، ورأي بعينيه وسمع بأذنيه هتافات الجماهير ومظاهرات الطلاب - وهو واحد منهم - مطالبة بسقوط الملك الذي خان شعبه وفقد ثقته فيه ووقف في وجه مطالبه الوطنية . فانسلخ طالب المرحلة الثانوية من هذه العلاقة الخاصة مع الملك واسمه ليصبح شاعر المدرسة الذي يصوغ الأناشيد ويحرض بأشعاره الأولي زملاءه الطلاب علي المزيد من الثورة والتظاهر - ضد الملك وأسرته الحاكمة - قبيل قيام ثورة يوليو بشهور قليلة .

ومنذ اسابيع قليلة ، نجحت الباحثة الجادة والدءوب سهير حلمي - التي تنتمي إلى كوكبة شباب نصف الدنيا التي تقودها المبدعة الكبيرة المتألقة دوما سناء البيسي ، العلامة البارزة في حاضر الصحافة المصرية والعربية ، صاحبة الاقتحامات والانفرادات والمدرسة الأسلوبية المتفردة - أقول نجحت سهير حلمي - التلميذة المتفوقة في مدرسة سناء البيسي في إعادتي إلى تاريخ هذه العلاقة التي امتدت طويلا مع الملك فاروق سلبا وإيجابا ، قبولا ورفضا ، زهوا وتنصلا ، انتماء وتباعدا ، من خلال كتابها الجليل وإنجازها الضخم:

فـاروق . . ظالمـا ومظلومـا ، الـذي هـو وثيقـة عـصر بكاملـه ، وديـوان حيـاة مـصرية عاشـها جيلـي بكـل انفعـال المـشاركة ووعـي المتابعـة ، ولايـزال يعـيش توابعهـا وآثارهـا ومقارناتهـا حـتي إلى وم ، لا عنـا أشـياء ، ومترحمـا علـي أشـياء ، في حالـة وجدانيـة وعقليـة شـديدة التـداخل والاخـتلاط والتفاعـل ، نجحـت سـهير حلمـي في الاعتمـاد علـي تـسعة وخمـسين مرجعـا ، كـل واحـد منهـا حجـة وعلامـة في بابـه ومجالـه ، تـشكل موسـوعة معرفيـة حقيقيـة لكـن مـن يريـد أن يـدرس الظـاهرة الفاروقيـة في وجهيهـا : الظـالم والمظلـوم ، بكـل موضـوعية وتجـرد ، ووعـي مـضمخ بـروح المـسئولية ، والرغبـة في التوصـل إلى وجـه الحقيقـة ـ قـدر المستطاع ـ وهـو مـا حاولتـه كتابـات كـثيرين تناولـت عـصر فـاروق وشخـصيته وتـاريخ الحركـة الوطنيـة والثـورة المـصرية والفكـر المـصري الحـديث والـسياسة وزعماءهـا وصـولا إلى البـوليس الـسياسي ، والحركـة الـشيوعية المـصرية والحـرس الحديـدي والاغتيـالات الـسياسية ومـا كتـب عـن الملكـة فريـدة ، وسـقوط الملكيـة والأسـلحة الفاسـدة ورروميـل ومـونتجمري ، وطـلاق الامبراطـورة فوزيـة ، والعيـب في الـذات الملكيـة ، وحريـق القـاهرة ، ومـذكرات رجـال الـسياسة وكتابـات البـاحثين والمـؤرخين المـصريين والأجانـب ، وغيرهـا مـن العناوين والمداخل والموضوعات .

ولأن أروع مـا في الكتـاب ـ بالإضـافة إلى هـذا كلـه ـ مـا يحويـه مـن ذخـائر وكنـوز الـصور الفوتوغرافيـة ـ الـتي لا أظـن أن كتابـا قبلـه قـد اتـسع لا قـل القليـل منهـا ـ فقـد اسـتعانت الباحثـة بعـدد مـن أصـحاب هـذه الـذخائر النفيـسة والنـادرة الـذين اتـسعت خـزائنهم لتاريخ مـصر المـصور ، وهـو مـا ازدانـت بـه مئـات الـصفحات في هـذا الكتـاب النـادر النفـيس .

مـن أروع فـصول الكتـاب : اسـلوبا وطريقـة عـرض وتحليـل الفـصل الـذي عنوانـه مـصر في عهـده وتـأملوا معـي شـواهد هـذا العـصر في مجموعـة مـن العنـاوين والمانـشيتات المختـارة الـتي كأنهـا طلقـات أو ومـضات وآلـة سـريعة : انتخـاب المـصرية شـارلوت واصـف ملكـة لجمـال العـالم عـام ١٩٣٦ ـ محمـد عبـد الوهـاب يـشدو : إن عـشقنا فعـذرنا أن في وجهنـا نظـر ـ الجنيـه المـصري يـساوي الـف فرنـك سويـسري عـام ١٩٤٢ ـ أقطـاب الـسياسة ومـشاهير الفـن (النحـاس وأحمـد مـا هـر والنقراشـي وأم كلثـوم) يقـضون الويـك إنـد في عـشش رأس الـبر ـ كـابتن الـضظوي يحـرز ثلاثـة أهـداف صـاروخية مقابـل لا شـيء في مرمـي الفريـق الايطـالي ـ الـصحافة القـاهرة تكتـب : أزمـة الغـلاء هـي سـبب أزمـة الأخـلاق ـ القـاهرة٢ ، ٥ مليـون نـسمة ـ تـسجل عـام ١٩٤٨ رقمـا قياسـيا في حـوادث المـرور يـضعها في قائمـة أسـوأ خمـسين مدينـة مروريـة في العـالم ـ بـيرم التونـسي يـنظم زجـلا رائعـا في فـساد المحليـات ـ الجنيـه المـصري يفقـده٧٥٪ مـن قيمتـه عـام ١٩٤٩ ـ توفيـق الحكـيم يطالـب بتحويـل البرلـان إلى مـصنع للطـائرات وإلغـاء الطربـوش الأحمـر الشفتـشي لا نـه يتنـاقض مـع الوقـار علـي حـد تعـبيره ـ قـصة غراميـة للمليـونير المـصري ع

تتحـول إلى ملـهاة سياسـية ـ الملـك يطلـب مـن أم كلثـوم تعـديل كلمـة في إحـدي قـصائدها فترفـض الطلـب ـ المخـابرات البريطانيـة تـستعين بحفـلات الكوكتيـل والجمـيلات لا خـتراق أعمـاق الحيـاة الاجتماعيـة . القـاهرة تـشهد أكـبر مـسابقة لجمـال الـسيقان ـ اسـتجواب في البرلـان عـن الخبـز المخلـوط بـالجبس والأسمنـت ـ٤٨ الـف مـصري يحجـون عـام ١٩٥٠ ـ٤٠٠ مـن حملـة الليـسانس يتزاحمـون علـي عـشرين وظيفـة ـ دريـة شـفيق تطالـب بحـق المـرأة في الترشيح للبرلمان ـ الصحف تشير إلى الملك بكلمة كبير . . الخ .

وتعلـق الباحثـة الـشابة المتألقـة سـهير حلمـي علـي هـذه المانـشيتات وعـشرات غيرهـا بأسـلوبها المتـدفق ولغتهـا الفراشـية قائلـة : طـاردتني عبـارة الـزمن الجميـل بانطبـاع رومانـسي ، ظللت أبحـث عـن صداه وأنقـب عـن محاسـنه في زوايـا وثنايـا تلـك الفـترة التاريخيـة ، فأطلـت النظـر في مـرآة الـرأي العـام ، أي الـصحافة المقـروءة بمختلـف اتجاهاتهـا وتياراتهـا ، وبكـل أسف أحبطني ما اكتـشفت ، فلـم تكـن الـسيادة دائمـا لا لـوان قـزح . فمـا أكثـر الـسواد الـذي طـالعني في صـحائفنا آنـذاك ، باسـتثناء قممنـا الفنيـة والأدبيـة ، وتربعنـا علـي عـرش الفنـون والآداب في العـالم العربـي . وحـتي تكتمـل الموضـوعية التاريخيـة يتحـتم علينـا تقيـيم فـاروق ملكـا مـن خـلال انعكاسـات وانطباعـات الإطـار الاجتمـاعي علـي الـصحافة في عهـده . فهـل كـان حقـا عهـدا جمـيلا ؟ أم أنـه مجـرد شـريط ذكريـات تم انتقـاؤه بعنايـة وأناقـة توارثتهـا الاجيـال ايـذانا باجترارهـا لمجـرد الـشعور بنقـائص الحاضـر وإحباطاتـه ؟ فلكـل عهـد مـشاكله ومنغصاته ولقد خلقنا الإنسان في كبد صدق الله العظيم .

وأخـيرا ، التهنئـة بـصدور هـذا العمـل الجليـل النفـيس لمـن ؟ لـسهير حلمـي ؟ أم لـسناء البيـسي ؟ أم لمؤسـسة الأهـرام الـتي رعـت ونـشرت أم للـثلاث معـا ؟ ! . . ولعشرات غيرهم في الظل عملوا وساعدوا وأنجزوا فكان هذا الإنجاز الجميل .

ذاكرة الأمة

بقلم: فاروق شوشة

أرجو ألا ينسينا الاهتمام الكبير بمكتبة الاسكندرية - وهي مستحقة له وأكثر - اهتماما ينبغي أن يكون مماثلا بصرح ثقافي عريق تجاوز عمره القرن ، مركزا للاشعاع ، ومصدرا أساسيا للمعرفة الانسانية هو دار الكتب والوثائق القومية التي يرجع تاريخ انشائها إلى عام ١٩٠٢ .

الجديد في الأمر ، والذي ينبغي أن يكون تحقيقه عيدا قوميا للثقافة والمثقفين ، أن المقر الأم والمبني الأساسي لدار الكتب المصرية - بكل ما يمثله من قيمة تاريخية وأثرية - وهو مبني باب الخلق سوف يعاد افتتاحه في شهر ما يو القادم ، بعد جهد دائب مستمر بدأ منذ عشر سنوات ، بالتفاته رعاية واهتمام من السيدة سوزان مبارك ، ومتابعة لصيقة وواعية من الفنان فاروق حسني وزير الثقافة .

وعلي مدار هذه السنوات العشر ، تتابعت جهود الترميم والتحديث واعادة الحياة إلى المقر الذي تردد عليه في الماضي ألوف مؤلفة من المثقفين والباحثين والمبدعين والفنانين ، يقبسون من نور المعرفة وزاد العلم وتراث الماضي والحاضر ، منذ كان افتتاحه في بدايات القرن العشرين . وفي وجداننا جميعا - نحن الذين صعدنا سلمه العالي وتجولنا في قاعاته وتوقفنا أمام الذخائر التي تعمر رفوفه ، واطلعنا واستعرنا ، وبحثنا ونقبنا - في وجداننا جميعا أثر حميم باق ، وذكريات للعمر الجميل ، لا يمكن أن يدركها النسيان ، ولقد أتيح لي أن أكون قريبا من كوكبة الأساتذة والدكاترة الذين حملوا مسئولية تحقيق هذا الحلم بكل أعبائه وتبعاته ، وصنوف تحدياته ومتطلباته ، من الوقت والجهد والطاقة والوعي والمتابعة: سمير غريب وصلاح فضل وأحمد مرسي ، ومن قبلهم: محمود فهمي حجازي وجابر عصفور ، وصولا إلى أحد الأبناء المخلصين لدار الكتب والوثائق القومية ، وأحد العلماء البارزين فيها: الدكتور محمد صابر عرب ، الذي يحمل المسئولية منذ أسابيع قليلة ، ليكون اكتمال تحقيق الحلم علي يديه ، تتويجا لجهده وجهد صفوة العلماء والأساتذة الذين يعاونونه ويؤازرونه .

وإذا كانت الخطة الموضوعة هي تخصيص مبني دار الكتب الأم في باب الخلق للوثائق والمخطوطات والبرديات وأوائل المطبوعات باعتبار أن دار الكتب والوثائق القومية هي ذاكرة الأمة ، فإن تنشيط هذه الذاكرة وبعث الحياة فيها ، من خلال مشروعات الترميم التي تتم في مركز للترميم لا يوجد له نظير في المنطقة ، ومن خلال وضع الوثائق علي قاعدة بيانات ، تقدم خدمة متميزة للباحثين والمهتمين والاهتمام بالوسائط

التكنولوجية الحديثة ، كل ذلك لن يكفي وحده لتحقيق هذا المعني الجليل الذي نقصده عندما نقول ذاكرة الأمة هذا المعني بل هذا الدور لن يكتمل ويتحقق إلا بصدور قانون الوثائق ، الذي ينبغي أن يكون ملزما ومنظما ، بعد اكتشاف أن القانون٥٤ وماتلاه من قوانين تنظم العمل في الوثائق كان مليئا بالثقوب والثغرات ـ كما يقول الدكتور محمد صابر عرب ـ فهو يترك للجهة المالكة للوثيقة حق الاحتفاظ بها ،

كما أنه لا يحدد الوثائق التي تحفظ في سجلات الحكومة حفظا دائما والتي تحفظ حفظا مؤقتا . والنتيجة أنه بعد كل عشر سنوات أو عشرين سنة تقوم الجهات الحكومية بالتخلص من كثير من ملقاتها المتراكمة وأوراقها المكدسة . ويؤكد الدكتور عرب أنه بسبب غياب قانون ملزم للوثائق أصبحت المسألة سداح مداح ، هل من المعقول ـ مثلا ـ أن تباع وثائق حريق القاهرة عند باعة الروبابيكيا أو علي الأرصفة ولايمكن ـ من الناحية القانونية تحديد من المسئول ؟ الغريب في الأمر أن القانون الجديد المطلوب تم وضعه بعد أن شاركت في صياغته دار الكتب ونقابة الصحفيين واللجنتان الثقافيتان في مجلسي الشعب والشوري في صورة توفيقية مناسبة علي مدار ست سنوات كاملة .

وهو ينص علي تحديد الجهة المالكة للوثائق وهي الأرشيف الوطني ممثلا في دار الوثائق القومية ، ويلزم الجهات الحكومية بانشاء أرشيفات فرعية في المديريات المختلفة ، ويحدد سنوات الحفظ الدائمة والمؤقتة ، كما يحدد ـ بدقة ـ مفهوم الوثيقة وأنواعها بين سرية وغاية في السرية ومتاحة ، ويلزم السلطات بالافراج عن الوثائق وتقديمها إلى دار الوثائق ، ويلزم الدار بالحفاظ عليها وتقديمها للمواطنين ، واعتبار الاطلاع عليها حقا من حقوق المواطنة ، إلا ما يتعلق بالأمن القومي .

تحريك هذا القانون ، واقراره ، والعمل به ، هو البداية الحقيقية التي لا بد أن تواكب افتتاح مبني دار الكتب والوثائق القومية ـ بباب الخلق ـ في صورته الجديدة التي تمثل نقلة ثقافية وحضارية ، ونقلة فنية أثرية ومعمارية ، وعيدا للثقافة والمثقفين الذين يرون أنه لا يصح ولا يليق أن تظل مصر ـ الدولة العريقة ـ بدون قانون محترم للوثائق . وإلا فلنتوقع المزيد من الضياع والتبديد والسرقة والاهمال والإتلاف ـ في غيبة مثل هذا القانون لجزء غال وعزيز من ثروة مصر .

الأمر الأكثر غرابة وإثارة للدهشة ـ بعد هذا كله ـ أن الوثائق الخاصة بعصر محمد علي ـ باني مصر الحديثة ومؤسس نهضتها ـ موجودة علي قاعدة بيانات كاملة متكاملة . أما ما يتعلق بثورة يوليو ـ طوال الخمسين عام ا ما ضية ـ فمعظمه تعرض للعبث الشديد والتبديد ، فضلا عن احتفاظ بعض رموز هذه الفترة الزمنية به كما لو كان ميراثا شخصيا ، وهنا تتجلي المفارقة بين تراث محمد علي الذي نحتفل الآن بمرور ما ئتي عام علي انجازه في بناء الدولة ، ونجده متاحا ومكتملا بالرغم من محاولة إهالة

الـتراب عليـه وعلـي حفيـده العظـيم اسماعيـل ـ طـوال سـنوات الثـورة ـ بينمـا تـراث الثـورة نفـسها لا بـد لـن يحـاول دراسـته أو الاسـتفادة منـه الرجـوع إلى أرشـيف الـدول الأجنبيـة فيمـا يتعلـق بمعركـة الـسويس عـام ١٩٥٦ الـتي سميـت بالعـدوان الثلاثـي ، أو حـرب١٩٦٧ الـتي سميـت نتائجهـا بالنكـسة . هـل يعقـل أن نلجـأ إلى الأرشـيف الاسـرائيلي أو الانجليـزي أو الفرنسي أو الأمريكي مثلا !

ولأن الثقافـة والمعرفـة همـا في بعـد مـن أبعادهمـا الرئيـسية اسـتثمار ، فلنتأمـل بعـين الاخـلاص والمحبـة والانتمـاء القيمـة الحقيقيـة لتاريخنـا وتراثنـا الثقـافي والحـضاري إذا أحـسنا اسـتثماره وتـسويقه (في رأي الـدكتور عـرب أن الوثـائق البريطانيـة هـي مـصدر الـدخل الثـاني بعـد الـسياحة في بريطانيـا ، فمـا بالنـا بمـا نمتلكـه نحـن مـن وثـائق ومخطوطـات وبرديـات وأوائل مطبوعات ! إنه كنز يمكن أن يدر علي الدولة موارد هائلة !)

أرجـو أن يتـاح لـدار الكتـب والوثـائق القوميـة ـ الـتي تحظـي منـذ عـشر سـنوات برعايـة الـسيدة سـوزان مبـارك ـ بعـض الاهتمـام الـذي تحظـي بـه مكتبـة الاسـكندرية ، ولا وجـه للتـداخل بـين الـصرحين الكـبيرين ، فأولهمـا قـومي محـض يمثـل ذاكـرة الأمـة ، أمـا ثانيهمـا فقـومي عـالمي معـا يمثـل ذاكـرة العـالم والاهتمـام بهمـا معـا هـو شـرط مـن شـروط النهـضة والتقدم ، وتأكيد لمكانة مصر: الثقافية والمعرفية والحضارية وطنيا وقوميا وعالميا .

العراق في القلب

عن المركز الثقافي العربي في بيروت والدار البيضاء، صدر هذا الكتاب الجديد للباحث والكاتب العراقي الدكتور علي القاسمي الذي يقيم في المغرب ويعمل مستشاراً لمكتب تنسيق التعريب بالرباط، التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وعضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة . الكتاب يحمل عنوان : " العراق في القلب: دراسات في حضارة العراق " .

ويضم الكتاب فصولاً عن السومريين ـ قوم نوح ـ ، وملحمة جلجامش، وعشتار إلهة الحب والخصب والجمال، والحياة الاجتماعية والفكرية في زمن الفقيه أبي حنيفة وأثرها في آرائه، وتجليات العمارة الإسلامية في تخطيط مدينة بغداد العريقة، وكتب الدرس والأنس من العراق إلى الأندلس، وصلاح الدين الأيوبي: أخطاء شائعة عن صلاح الدين، ويوسف بن تاشفين وصلاح الدين، ونظرات مقارنة في القصة العراقية : عبد الرحمن مجيد الربيعي والقصة العراقية الحديثة، وأحمد الصافي النجفي : شاعر بين الأمواج المغرقة والنيران المحرقة، ومحمد مهدي الجواهري: الشاعر والملك، و عبد الحق فاضل: هو الذي رأى، و عبد الحق فاضل ومنهجيته في الترجمة، و عبد الوهاب البياتي الشاعر، و عبد الوهاب البياتي: حب وموت ونفي، وخلاص البياتي من الغربة والمنفى، وأخيراً سيرة الأدب: جنس سردي جديد .

واضح أن الدكتور علي القاسمي قد أفاد من ثقافاته وخبراته العديدة في تأليف هذا الكتاب الحافل، فهو يجمع بين ثقافات لغوية، وتربوية، وخبرات معجمية ومجمعية، إضافة إلى إبداعه القصصي المتمثل في مجموعتين هما: صمت البحر (الدار البيضاء: دار الثقافة، ٢٠٠٣) ، ورسالة إلى حبيبتي (الدار البيضاء: دار الثقافة، ٢٠٠٣) " وترجمته لكتابين في القصة هما: مرافئ على الشاطئ الآخر: روائع القصص الأمريكية المعاصرة (بيروت: إفريقيا الشرق، ٢٠٠٢) ، والوليمة المتنقلة لا رنست همنغواي (دمشق: دار المدى، ٢٠٠١ . (الدكتور علي القاسمي يمثّل ـ بين أقرانه ونظرائه ـ حالة ثقافية خاصة، فقد تلقى تعليمه العالي في العراق (جامعة بغداد) ، ولبنان (الجامعة الأمريكية في بيروت وجامعة بيروت العربية) ، وبريطانيا (جامعة أكسفورد) ، وفرنسا (جامعة السوربون) والولايات المتحدة الأمريكية (جامعة تكساس في أوستن) . كما أن دراساته وتخصصاته الأكاديمية شديدة التنوع والتكامل . فقد حصل على بكالوريوس في الآداب، وليسانس في الحقوق، وماجستير في التربية، ودكتوراه الفلسفة في علم اللغة التطبيقي . كما أن عمله في المنظمة الأسلامية للتربية والعلوم والثقافة بالرباط (بين عام ي ١٩٨٢ و ٢٠٠٠) مديراً للتربية ، ثم مديراً للثقافة، ثم

مديراً لا ما نة المجلس التنفيذي والمؤتمر العام، ثم مديراً للأمانة العامة لا تحاد جامعات العالم الإسلامي، من شأن هذا كله أن يضيف إلى فكره ورؤاه مزيداً من الغنى والانفتاح والعمق والشمول .

أهدى المؤلِّف كتابه إلى ابنته علياء ذات السنوات الثماني، التي ولدت في أحضان الغربة وترعرعت بعيدة عن وطنها الأول، العراق، وهي تسأل أباها لماذا كل الأطفال في مدرستها يلهجون بذكر العراق ويدعون للعراق ويمجدون العراق، بعد أن عجزت سنواتها الثماني عن فهم ما يدور حولها في الزمان والمكان . وجاءت إجابته على سؤال ابنته تقديماً جميلاً لكتابه، مشبعاً بالشاعرية، واللغة الأدبية الجميلة . وهو ما أشرنا إلى ه في المقال السابق .

من أجمل فصول هذا الكتاب " العراق في القلب " حديث الدكتور القاسمي عن ترجمة الدكتور بسام خليل فرنجية لمختارات من شعر البياتي إلى اللغة الإنجليزية، وكيف أن المترجم اختار إحدى وخمسين قصيدة من ثماني مجموعات شعرية نُشرت خلال السنوات العشرين الأخيرة تدور جميعها حول موضوعات ثلاثة: الحب والنفي والموت، وهي محور قصائد البياتي ، بل جوهر نظرته إلى الوجود .

وفي رأي القاسمي أن الحب لدى البياتي يتعدى حب الرجل للمرأة إلى حب الوطن والناس والإنسانية جمعاء . ونفيه لا يقف عند حدود الإبعاد أو الابتعاد عن الوطن، وإنما يمتد إلى نفي الشاعر داخل ذاته وفكره وكلماته . أما الموت في شعر البياتي فهو كائن متعدد الرمز، متشعب الأبعاد، تربطه بالشاعر أواصر قربى، ورفقة طريق، وجدلية حب وكره، دائمة الحركة، دائبة الغليان . يقول البياتي عن نفسه في كتابه " تجربتي الشعرية " : فأنا منفي داخل نفسي وخارجها، مبصر وأعمى، ميت وحيّ، في حوار أبدي صامت مع موتي في رحلة الليل والنهار .

كان القاسمي يعترض على عنوان المجموعة الشعرية في الترجمة، وهو العنوان الذي وضعه المترجم بسام فرنجية: " حب وموت ونفي " ، على أساس أن الترتيب الطبيعي والمنطقي ينبغي أن يكون " حب ونفي وموت " . لكنه ـ وكأنه يكتشف ذلك لا ول مرة ــ وجد أن الشاعر نفسه قد قدم الموت على الغربة مرتين، أولاهما في قوله: هذه الدنيا التي تشبعنا موتاً وغربة، والثانية في قوله: كان حبي لك موتاً ورحيل .

يقول القاسمي: عدت إلى كتاب البياتي " تجربتي الشعرية " أطالعه للمرة الثانية ، ورجعتُ إلى ديوانه استمتع بقراءته للمرة السابعة بعد السبعين، وهذه المرة، وبكل بساطة، وجدتُ أن الترتيب الطبيعي هو: حب وموت ونفي، طبقاً لتصاعد المعاناة وتجذّرها . فنفي البياتي أشد ألماً وأقسى وقعاً من موته . فالموت بالنسبة إلى ه هو الولادة

الحقيقية على مدى التاريخ، وهو نغمة واحدة تُعزف على عود منفرد . أما النفي فهو كقبو التعذيب في أوربا القروسطية تتنوع فيه الآت التعذيب وتتواصل عملياته . فالبياتي منفي في وطنه، منفي في ذاكرته، منفي في الكلمات، منفي في الطرقات، منفي في كل يوم وليلة .

يقول البياتي في " تجربتي الشعرية " : " وفي مثل هدا المناخ المشحون بالتوتر والقلق والانتظار، أحمل كل ليلة عصاي، وأرحل مع الطيور المهاجرة، في انتظار معجزة إنسانية تقع، والكلمات تعمل في صمتها لتهبني هذه الشرارة الإنسانية، هذا الأمل، هذا الخيط من الدخان، الذي أكتب فيه قصائدي، فالحرية ثقيلة وباهظة ومحرقة .

ويضيف الدكتور القاسمي أن البياتي عراقي قبل أن يكون عربياً أو عالمياً . وللمفكرين والفنانين العراقيين تاريخ مرير وتجربة قاسية طويلة في النفي والغربة والتشرد والترحال، يعودان إلى أيام أبي الأنبياء إبراهيم الخليل الذي اضطر إلى الفرار من مدينة " أور " الكلدانية في جنوب العراق متوجهاً إلى بابل ومنها فرّ هارباً بعقيدته الحنفية إلى مصر وفلسطين في الألف الثاني قبل الميلاد .

وأبو حيان التوحيدي، من كتاب العراق في القرن الرابع الهجري، عانى تجربة الغربة والاغتراب، ووصفها وفر{ق بين غرباء ثلاثة: غريب الوطن، وغريب الفكر، وغريب الفكر والوطن، فقال: هذا وصف غريب نأى عن وطن بُني بالماء والطين، وبعُد عن الألاف، فأين أنتَ من غريب طالت غربته، وقل حظه ونصيبه من حبيبه وسكنه ؟ وأين أنتَ من غريب لا سبيل له إلى الأوطان، ولا طاقة له على الاستيطان ؟ بل الغريب من هو في غربته غريب . هذا غريب لم يتزحزح عن مسقط رأسه، ولم يتزحزح من مهب أنفاسه . وأغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه، وأبعد البعداء من كان غريباً في حل قربه، لا ن غاية المجهود أن يسلو عن الموجود، ويغمض عن المشهود، ويُقصى عن المعهود " .

والشاعر العباسي ابن زريق البغدادي توفي في غربته بالأندلس سنة ٤٢٠ هـ، ووُجدت معه قصيدة يخاطب فيها زوجته التي تركها في بغداد، شاكياً مرارة الترحال، ووعثاء السفر، ولوعة النوى . يقول البغدادي:

يكفيهِ من لوعة التشتيت أنَّ لهُ من النوى، كلَّ يوم، ما يروِّعُهُ
ما آبَ من سفر إلا وأزعجهُ رأي إلى سفرٍ بالعزم يُزمِعُهُ كأنما هو في حلٍ ومرتحل موكَّلٌ بفضاءِ اللهِ يزرعهُ ولا يوجد في العالم كله بلد مثل العراق ينجب أعظم شعراء لغته القومية ويهبهم للغربة والتشرد . فالسيّاب ما ت غريباً بعيداً عن وطنه، ورفاقه في مدرسة الشعر

الحر كنازك الملائكة وسعدي يوسف والراحليْن البياتي وبلند الحيدري، عاشوا مشتتين في أصقاع العالم . أما الجواهري، شاعر العرب الأكبر، فقد سبقهم جميعاً إلى الغربة والترحال، والموت في دمشق، بعيداً عن العراق .

وينتهي الدكتور القاسمي إلى أن الدكتور بسّام فرنجية أسدى من خلال كتابه القيم خدمة جليلة للثقافة العربية ولثقافة الناطقين باللغة الإنجليزية في آن واحد . فقد عرّف بأدبنا العربي بما يليق به، وقدم للمكتبة الإنجليزية، شاعراً عملاقاً لا نجد بين الشعراء الإنجليز أو الأمريكان المعاصرين له، من يملك مثل نَفَسه الإنساني أو عمقه الثوري أو عين رؤيته الصوفية، وهو في عمله هذا يخدم التواصل البشري والحوار بين الحضارات والتفاهم المتبادل بين الأمم .

وفي صميم وقته وأوانه يحيْ هذا الكتاب الجميل المفعم بالعواطف والأشواق والمحبة والانتماء والوعي الوطني والقومي؛ " العراق في القلب " للدكتور علي القاسمي، ليجعلنا نتساءل كما تساءلت ابنته ذات الأعوام الثمانية: لماذا يلهجون بذكر العراق ويدعون للعراق ويمجدون العراق ؟ ولنجد في ثنايا الكتاب كثيراً من الإجابة على هذا السؤال .

هذا بلدك العراق يا ابنتي

في كل ما قرأته من شعر ، ومن كتابات نثرية ، تتغني بالعراق وطنا وحضارة وتاريخا وانتماء ، لا أظنني وجدت هذا الفيض الغامر من الولاء والمحبة ، الذي تنبض به كلمات الدكتور علي القاسمي في كتابه : العراق في القلب : دراسات في حضارة العراق . والدكتور علي القاسمي كاتب وباحث عراقي مقيم في المغرب ، تلقي تعليمه العالي في جامعات العراق ولبنان وبريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية ، يحمل دكتوراه الفلسفة في علم اللغة التطبيقي ، ويعمل مستشارا لمكتب تنسيق التعريب بالرباط التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، كما أنه عضو مراسل في مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

وللدكتور علي القاسمي عديد من المؤلفات اللغوية والمعجمية والتربوية أهمها عمله في المعجم العربي الأساسي وفي معجم مصطلحات علم اللغة الحديث ومعجم الاستشهادات فضلا عن عدد من الترجمات الأدبية المختارة في القصة و المسرح وابداعه لمجموعتين قصصيتين ، وهو يهدي كتابه العراق في القلب إلى ابنته علياء ، التي ولدت في احضان الغربة ، وترعرعت بعيدة عن موطنها الأول . قالت لي ، وعلي وجهها الصغير اشراقة فخر وكآبة أسي ، وفي عينيها الواسعتين حيرة الغموض ولهفة المعرفة : كل الأطفال في مدرستي يلهجون بذكر العراق ، ويدعون للعراق ويمجدون العراق . . لماذا ؟ وعجزت سنواتها الثماني عن فهم ما يدور حولها في الزمان والمكان .

ثم يبدأ الدكتور علي القاسمي ، تقديمه لكتابه ، الذي هو في حقيقته قصيدة ذائبة في ثنايا نثره الأدبي الجميل ، مغموسة بروحه المتوهجة ، وعاطفته الجياشة ، وشجنه الآسر ، في سطور تذكرنا بتجليات السياب ووثبات البياتي وسبحات نازك وافضاءات بلند ، يقول مخاطبا صغيرته علياء: صغيرتي ، عزيزتي ، بلدك العراق أحلي البلدان وأغلي الأوطان ، تتعانق علي أرضه المعطاء ، قمم الجبال الشامخة الشماء ، والمنائر الذهبية المشرعة في السماء ، وأشجار النخيل الباسقة الأغصان . ويتهادي علي أرضه بوداعة واطمئنان ، نهران عظيمان هما دجلة والفرات أو الرافدان ، يسقيان المزارع الشاسعة بكل سخاء ، ويحيلان جدب الصحراء إلى حقول زاخرة بالخير والزنابق البرية الحمراء ، وأزهار النرجس والقواح والياسمين ، التي ترفرف عليها العنادل الصغيرة .

وفي العراق ياحبيبتي ، سنت أقدم الشرائع وأولي القوانين التي عرفتها الانسانية ، من عهد أوركاجينا ملك سومر العادل وأول مشرع ومصلح اجتماعي في العالم . وفي بابل كتبت القوانين بخطوط كبيرة علي مسلة عظيمة ، نصبت في أوسع ساحات

المدينـة ، ليقرأهـا جميـع المـواطنين ويعرفـوا حقـوقهم وواجبـاتهم ، تلـك هـي مـسلة حمـورابي الـتي بقيـت منـصوبة في قلـب بابـل عـشرات القـرون ، حـتي تجـرأت بعـض شـراذم الغـربيين ، ممـن يـصفون أنفـسهم بالمتمـدينين ، علـي سـرقتها قبـل سـنين ، دون أن يقـرأوا عقوبـة الـسرقة في تلـك القـوانين ، وفي العـراق ، يـاعزيزتي ، نظمـت أولـي الملاحـم الـشعرية الـتي عرفتهـا البـشرية ، تلـك هـي ملحمـة جلجـامش ، الـتي صـورت مقارعـة الانـسان للتـسلط والطغيان ، ومناهضته للجرائم والمظالم وكفاحه ضد العدوان ، ومقاومته للقدر الغاشم .

بلـدك العـراق ، ياصـغيرتي ، مهـبط الرسـالات الـسماوية ، ومنبـع الأوليـاء والـشهداء والـصديقين ، ففـي سـومر جنـوبي العـراق بـني نـوح سـفينته لا نقـاذ الـصالحين مـن الطوفـان ، وفي مدينـة أور العظيمـة ـ الواقعـة قـرب ناصـرية إلى وم ـ ولـد ونـشأ أبـو الأنبيـاء سـيدنا إبـراهيم ، وحمـل رسـالة التوحيـد وسـار بهـا شمـالا وغربـا يعـرف النـاس ربهـم ، ويعلمهـم الـدين الحنيـف . لم ترهبـه نـار ولم تخفـه سجون ، ومنـه ومـن الحـسين بـن علـي ـ غريـب كـربلاء وأبـي الـشهداء ـ ورث العراقيـون الثبـات علـي المبـدأ ، والاسـتماتة في سـبيل العقيدة ، ومقارعة الطغيان مهما كان .

وعنـدما بـزغ فجـر الإسـلام ، يـا ابـنتي ، في مكـة ا لمكرمـة ، أشـرقت شمـسه الـنيرة علـي بـلاد العـراق المتاخمـة ، فكانـت البـصرة أولـي المـدن الـتي اختطهـا المـسلمون في مسيرتهم الظافرة لنشر الحق والعدل والخير والجمال علي وجه الأرض .

والبـصرة ، يـا صـغيرتي ، مدينـة سـاحرة عجيبـة ، كـان يـسكنها قـوم مـن عبقـر ، تـضرب بـذكائهم الأمثـال ، وتـسير بأخبـارهم الركبـان ، ومازلنـا بعـد مـرور أكثـر مـن ألـف سـنة نقـرأ مؤلفـاتهم القيمـة ، وننـشد أشـعارهم الجيـدة ، ونعجـب بقـدراتهم الفكريـة الفـذة . وأنـت ، وكـل رفيقاتـك في المدرسـة ، سـتقرأن في مقبـل الأيـام شـيئا عـن الحـسن البـصري ، وواصـل بـن عطـاء ، والخليـل بـن أحمـد الفراهيـدي ، وسـيبويه ، والجـاحظ ، وأبـي نـواس ، ورابعـة العدويـة ، وإخـوان الـصفاء ، وابـن الهيـثم . وجميـع هـؤلاء العبـاقرة وآلاف غيرهم كانوا من أهالي البصرة .

وفي البـصرة دونـت أول كتـب الفقـه والحـديث ، وصـنفت بـواكير المعـاجم العربيـة ، وجمعـت أشـعار العـرب لا ول مـرة ، ووضـع علـم العـروض أي علـم موسـيقي الـشعر وأوزانـه ، وهـو علـم يحتـاج إلى معرفـة بالـشعر والرياضـيات والموسـيقي ، وقـد تجمعـت تلـك المعـارف للعبقري البصري الخليل بن أحمد الفراهيدي (العماني الأصل) .

ومـن البـصرة ، يـا وحيـدتي ، انطلقـت سـفن التجـار العـرب ـ إلى أقـاليم نائيـة ، وجـزر مجهولـة في أقاصـي المعمـورة ـ تمخـر البحـر المـائج ، والمـوج الهـائج ، وتواجـه العواصـف والحيتـان مـن أجـل تواصـل الانـسان بالانـسان ، وتعـاون الانـسان مـع أخيـه الانـسان

. وكان هؤلاء التجار يتحلون بأخلاق الاسلام الحقة: الصدق والأمانة في المعاملة ، والجد والإخلاص في العمل ، فاتخذهم أهالي اندونيسيا وماليزيا والفلبين ، وبعض مناطق الصين ، ممن اتصلوا بهم ، قدوة حسنة لهم . واعتنقوا الاسلام علي أيديهم سمعا وطوعا . وكان أولئك التجار يعودون إلى البصرة من تلك الاصقاع البعيدة ، بقصص غريبة عجيبة ، يسلون بها الأطفال والعيال ، فنسجوا حكايات السندباد البحري ، ومغامرات علي بابا والأربعين حرامي ، وهي قصص يقرؤها إلى وم ملايين الأطفال في أنحاء العالم ، هدية حب وصفاء من أطفال البصرة ، البصرة التي خربها قبل أيام المستعمرون الجدد ، وأرهبوا اطفالها الصغار بأسلحة العار والدمار .

والكوفة يا صغيرتي ، هي ثانية المدن التي اختطها المسلمون خارج جزيرة العرب علي نهر الفرات ، واختارها الإمام علي بن أبي طالب عاصمة الخلافة الإسلامية ، ومازال ضريحه الطاهر بالقرب منها في مدينة النجف ، التي تضم جامعة إسلامية كبري يؤمها طلاب العلم من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وكان للكوفة مدرسة فكرية تنافس مدرسة البصرة وأنجبت هذه المدرسة ثلة من كبار إعلام المسلمين منهم فيلسوف العرب الكندي ، واللغوي الشهير الكسائي ، والكيميائي الكبير جابر بن حيان ، والفقيه الشهير أبو حنيفة النعمان ، كما أنجبت الكوفة أكبر شعراء العربية وأجلهم قدرا ، ذلك هو أبو الطيب المتنبي الذي يصور في شعره حب العربي للعلم وشجاعته وكرمه وطلبه للمجد والعلا ، وهو القائل كأنه يصف العراق بتاريخه الطويل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ومنذ أيام المتنبي حتى يومنا هذا ، وشعراء العراق يحملون لواء الشعر العربي خفاقا ، وأخيرا ظهر الشعر الحر من أقلام بدر شاكر السياب ونازك الملائكة و عبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري .

أما بغداد ، يا صغيرتي ، فحدثي ولا حرج . إذ أنها لم تكن عاصمة العراقيين فحسب ، وإنما كانت كذلك عاصمة العرب والمسلمين ، وحاملة شعلة الحضارة الاسلامية أيام توهجها واشراقها علي الكون . وكان طلبة العلم يفدون إلى ها من جامعات قرطبة واشبيلية وغرناطة ونيسابور وبخاري والسند والهند يتبركون بأعتابها ، وينهلون من منابعها المنبثة في جامعاتها ومكتباتها ومراكزها العلمية وصدور رجالاتها .

في بغداد ، يا عزيزتي ، ابتكر العرب الورق الصقيل ، ودونوا عليه اسمي ما جادت به قرائحهم من علوم وفنون وآداب . في بغداد الفلسفة نشر فيلسوف العرب الكندي أروع أفكاره ، وفي بغداد الأدب دون كتاب الأغاني لا بي الفرج الاصفهاني ،

وفي بغـداد الطـب نظـم الـرازي أرفـع المستـشفيات ، ومـن بغـداد الموسـيقي رحـل زريـاب إلى تـونس والمغـرب والانـدلس يحمـل عـوده وغربتـه وينـشد أغانيـه وألحانـه علـي طريقـة الـشعراء البـدو المغـنين الـذين يحتـضنون ربـابتهم كمـا يحتـضن الجـريح جراحـه ويجوبـون القـري والآفـاق . وفي بغـداد الترجمـة نقلـت إلى العربيـة فلـسفة إلى ونـان وعلـوم الهنـد وآداب الفـرس ، وفي بغـداد التعلـيم ازدهـر بيـت الحكمـة والجامعـة المستنـصرية ، والمدرسـة النظاميـة . وفي بغـداد التـصوف ينتـصب ضـريح عبـد القـادر الجيلانـي ويـصلب الحـلاج ، وفي بغـداد القـصة ألفـت قصص ألف ليلة وليلة ، وفي بغداد الجمال تغني الشعراء:

عيون المها بين الرصافة والجسر

جلبن الهوي من حيث أدري ولا أدري

وبلـدك العـراق ، يـا ابـنتي ، هـو الجنـاح الأيمـن لـصقر الـوطن العربـي الناشـر جناحيـه بإبـاء وشمـم مـن الخلـيج إلى المحـيط ، فـإذا كـان صـقرنا إلى وم مهـيض الجنـاح ، فلابـد للجـرح أن ينـدمل غـدا ، ولابـد للـصقر أن يحلـق ثانيـة في أجـواء العـلا والمجـد والـسؤود ، سـينهض العـراق غـدا مـن بـين الأنقـاض مثـل عنقـاء أشـورية تنـتفض مـن رمادهـا وتحلـق في أعالي السماء . وستقوم عشتار تنشر الحب والخصب والنماء .

أفهمـت ، يـا صـغيرتي ، الآن ، لمـاذا يـود العـرب وأهـل بغـداد حـين تهـاجم بغـداد ، أعرفـت ، يـا عزيزتـي ، الآن ، لمـاذا يعطـف المـسلمون علـي العـراق وأهـل العـراق حين يدمر العراق ؟

لكـن كتـاب العـراق في القلـب للـدكتور علـي القـاسمي لا يـزال محتاجـا إلى حـديث طويل .

كروان الإذاعة لم يكن مغردا فقط

بقلم: د فاروق شوشة

لم تحفزني مناسبة أو ذكري للكتابة عنه الآن ، وتذكير الأجيال الإذاعية والإعلامية الجديدة به . لسنا في ذكري ميلاده ولا ذكري رحيله ، فقد ولد في السابع والعشرين من يناير عام ١٩١٠ في مدينة المنصورة ، وتوفي في الثاني من ديسمبر عام ١٩٨٦ .

وبين التاريخين حياة حافلة ، امتدت لستة وسبعين عام ا ، واتسعت لدور ريادي بارز ضمن الفريق الأول للإذاعة المصرية التي التحق بها في الرابع من ما يو عام ١٩٣٤ ـ قبل بدء الإرسال الإذاعي بسبعة وعشرين يوما ـ بعد حصوله علي ليسانس الآداب قسم اللغة الإنجليزية عام ١٩٣٢ ، وتدرج في العمل مذيعا فكبيرا للمذيعين فمديرا للتمثيليات والبرامج وصولا إلى درجة مساعد المراقب العام ، فمراقبا عام ا للإذاعة في سبتمبر١٩٤٧ . وكان تخصصه في دراسة الدراما الإنجليزية ـ وبخاصة مسرح شيكسبير ـ وحبه للتمثيل والإخراج ، وراء مشاركته في إنشاء فرقة هواة التمثيل بالإذاعة ، التي قدمت كثيرا من روائع الدراما العالمية لشيكسبير وبرنارد شو وموليير وتشيكوف وجوجول وإبسن وأوسكار وايلد وعشرات غيرهم . واستعانت فرقة الهواة بأعضاء نادي خريجي قسم اللغة الإنجليزية من جامعة القاهرة ، يترجمون ويمثلون ، وكان من بين هؤلاء: أمينة السعيد ومصطفي طه حبيب وسلامة حماد ورشاد رشدي وحسن المنفل وطي ووجيه قطب وإبراهيم خليفة وتماضر توفيق .

هذا هو الإذاعي والإعلامي الرائد محمد فتحي الذي عرف باسم كروان الإذاعة لما حباه الله به من صوت متميز الشخصية والعذوبة في الأداء والتنغيم ، في قراءة الأحاديث ونشرات الأخبار والإذاعات الخارجية ، خاصة إذاعات الدولة الرسمية وحفلات كوكب الشرق أم كلثوم ، وهذا اللقب كوكب الشرق هو أول من أطلقه عليها ، ثم صار لقبا عام ا وشائعا لا يذكر اسم أم كلثوم إلا مقترنا به . في بضع سنوات معدودات ، لمع نجمه وسطع ، وأصبح له جمهوره الواسع الذي ينتظره ويطرب لسماعه وكأنه واحد من كبار المطربين ، وكثيرا ما كنا نحرص ـ نحن مجموعة من الإذاعيين الجدد في خواتيم الخمسينيات ومطالع الستينيات من القرن الماضي ـ علي الاستماع إلى بعض التسجيلات القديمة التي لا تزال الإذاعة تحتفظ بها له ، باعتباره مدرسة في الأداء الإذاعي لها طرازها التنغيمي الخاص ، المواكب للحس الرومانسي الذي ساد جو الشعر والفن في الثلاثينيات والأربعينيات ، ومن أشهر هذه التسجيلات إنشاده لقصيدة كليوباترا التي شدا بها الموسيقار محمد عبد الوهاب من شعر علي محمود طه ، والقصيدة مسجلة

بصوت محمد فتحي علي الشريط الذي يحمل الأغنية ، لكن الأغنية وحدها هي التي تذاع ، أما إنشاد محمد فتحي للقصيدة فكنز لا يستمع إلى ه أحد .

الذين عاصروا الحقبة الإذاعية الأولي - حقبة الابتكار والاختراع والتجريب واستخدام المتاح من الوسائل والعناصر لتحقيق الحلم الإذاعي - خاصة في مجال التمثيلية الإذاعية ، يذكرون لمحمد فتحي تألقه في تقديم مشهد الشرفة الشهير في رائعة شيكسبير روميو وجوليت ، كان محمد فتحي يؤدي شخصية روميو وكانت أمينة السعيد تؤدي شخصية جوليت ، كان الممثل والمخرج معا ، وقد استعان بكرسي أوقف عليه جوليت حتي يبدو صوتها بعيدا وفي مستوي أعلي من صوت روميو باعتبارها تطل عليه من الشرفة وهو في أسفل المشهد ! وهكذا أصبح محمد فتحي: كروان الإذاعة ورئيس نادي خريجي قسم الأدب الإنجليزي - الذي أصبح نادي الخريجين المصري فيما بعد - ورئيس فرقة هواة التمثيل أول مخرج في تاريخ الإذاعة المصرية قبل أن ينضم إلى ه أحمد كامل مرسي وسامي داود والسيد بدير وعثمان أباظة ، وقبل أن يظهر من الكتاب الرواد للتمثيلية الإذاعية يوسف جوهر والسيد بدير وأنور وجدي وفتحي أبو الفضل ويحيي نصار ، بالإضافة إلى المخرجين المؤلفين: السيد بدير وأحمد كامل مرسي وسامي داود وعثمان أباظة . ثم لم يلبث محمد فتحي أن انفرد بتقديم مسلسل اجتماعي من تأليفه عنوانه: دنيا الناس ، وشارك الملحن محمود الشريف في تقديم الأوبريت الغنائي روما تحترق ، وأوبريت الورد والفل والياسمين . كما انفرد بتمثيل الإذاعة في العديد من المؤتمرات الدولية ، وحصل علي رتبة البكوية وعلي قلادة النيل وعدد كبير من الأوسمة . وفي يونيو عام ١٩٥١ نقل محمد فتحي إلى وزارة المعارف وتولي النشاط الاجتماعي والرياضي بها - وهو التاريخ الذي نقل فيه الشاعر الكبير محمود حسن اسماعيل من الإذاعة إلى وزارة المعارف أيضا - قبل أن يعود ثانية للعمل بالإذاعة - وبدأت في حياة محمد فتحي مرحلة جديدة قوامها التأليف والترجمة ، والعمل مستشارا ثقافيا لمصر في لندن ، ثم العمل في الجامعات المصرية والعربية - وتأسيس أقسام الإعلام ووضع برامج الدراسات الإعلامية فيها - خاصة في جامعة الملك عبد العزيز في جدة - وهي المرحلة التي شهدت تألق فكره ، وتوهج عطائه الثقافي وتدفق ترجماته للعديد من روائع المسرح العالمي . في مقدمة هذه الآثار كتابه الرائد عالم بلا حواجز: في الإعلام الدولي والذين يعلمون والذين لا يعلمون في العالم العربي - بالعربية والإنجليزية - وفنون الإذاعة والتليفزيون: التقنيات والتطبيقات ، وكتابه البديع الإذاعة المصرية في نصف قرن: ١٩٣٤ -١٩٨٤ الذي ألفه بتكليف من الاذاعي الكبير فهمي عمر رئيس الاذاعة الأسبق احتفالا بعيد الإذاعة الذهبي ، وقدم له فهمي عمر باعتباره عملا شامخا ، يعتبر الأول من نوعه في تاريخ إذاعتنا المصرية العملاقة ، بالإضافة إلى مترجماته:

المنظـور الاجتمـاعي للاتـصال الجمـاهيري تـأليف تـشارلز رايـت ، أجهـزة الإعـلام والتنميـة الوطنيـة تـأليف ويلبـور شـرام ، حـق الملاغـاة تـأليف فيـشر ، الفـن إلى وم تـأليف هربـرت ريـد (ترجمـة بالمـشاركة) ، رجـال شـرفاء تـأليف ولـيم كـولبي ، الـسلام المـراوغ (عـن قـضية فلـسطين) تـأليف جـون ديفـز ، الـدراما في القـرن العـشرين تـأليف بامبرجـا سـكوني ، جنيـف تـأليف برنـارد شـو (ترجمـة بالمـشاركة) عطيـل لـوليم شيكـسبير ، هنـري الـسادس (الجـزء الأول) لـوليم شيكـسبير ، كوريـو لا نـوس لـوليم شيكـسبير ومسرحية في العصر تأليف مولنار .

في كتابـه الإذاعـة المـصرية في نـصف قـرن يقـول محمـد فتحـي وهـو يتحـدث عـن المـذيع والـصورة الـتي كـان عليهـا في الحقبـة الأولـي مـن نـشأة الإذاعـة (ولنتأملـها فقـط دون حاجـة إلى المقارنـة) : المـذيع كـان ملتزمـا ، لا يعطـي لنفـسه حريـات ، فـلا يتبـسط مـع مـستمعيه ، أو يعـرض ذاتـه الفرديـة . كـان ذلـك مرفوضـا تمامـا لم يكـن ذلـك تزمتـا . إنمـا كـان القـصد أن يعطـي المـذيع المستمع صـورة عـن الإذاعـة كمعهـد عـام محـترم ، يقـدم الخدمـة لجمهـور محـترم . المـذيع ـ كمـا أرادتـه الإذاعـة ـ كـان نموذجـا للـصفوة المهذبـة المثقفـة الرفيعـة الـذوق . لغتـه سـليمة ، وعباراتـه مهذبـة ، نمـوذج في بيـان العربيـة بالفـصحي . لم تكـن اللغة وحـدها هـي الـتي يـراد لهـا النظافـة ، بـل كـان المـراد منـه أن تكـون ثيابـه كـذلك ، وأن يكون حسن البزة مقبول الهيئة .

وعنـدما يتحـدث الإذاعـي الرائـد محمـد فتحـي عـن الـدور الـذي لعبتـه الإذاعـة في خطتهـا الهادفـة إلى رسـم الشخـصية المـصرية في مجتمـع يتـصف بـالتنوع والتعـدد في الثقافـات ، وبـالرغم مـن أن هـذه ظـاهرة صـحية ، إلا أنـه ـ في رأيـه ـ أثـر تـأثيرا واضـحا علـي الشخـصية المـصرية مـن حيـث عاداتهـا وتقاليـدها وأسـاليبها المعيـشية وسـلوكياتها واهتماماتهـا ، وطغـت العـادات والتقاليـد المرتبطـة بالجاليـات واللغـات الأجنبيـة ، حـتي كـادت تطمـس معـالم القومية المصرية الحقيقية .

ثم يقـول كاشـفا عـن وعـي وخـبرة وبـصيرة ـ تميـز بهـا جيـل الـرواد الإذاعـيين ـ: كـان علي الإذاعـة أن تقـرر الـنهج الـذي سـوف تـسير عليـه وتأخـذ بـه مـن هـذه التيـارات المتجاذبـة . والـذي سـوف تأخـذ بـه هـو الـذي سيـشكل القـوام والمـسار مـع الأيـام ، ومـن حـسن الحـظ أن الفئـة القليلـة الـتي تولـت الأمـر في هـذه الفـترة الإنـشائية اسـتطاعت في وعـي وصـفاء وتوفيـق ، أن ترسـم الخـط الـسليم الـذي أثبتـت الأيـام سـلامته . فلغـة الإذاعـة هـي العربيـة الفـصحي ، والـدين لـه مكانـه المرمـوق سـواء للمـسلمين أو للأقبـاط . والتـاريخ المـصري القـديم والتـاريخ الإسلامي كلاهما ما ثل في وجدان الناس بالبث والإحياء .

ولا يفـوت محمـد فتحـي أن يـشير إلى التـأثير اللغـوي للإذاعـة في ألـسنة النـاس حـين يقـول: بـدا أثـر هـذا الالتـزام اللغـوي مـع الأيـام في لـسان النـاس ، وعلـي ألـسنة الـصغار ،

الذي هم أسرع من الكبار في التقاط العبارات والألفاظ اللغوية الرنانة الموقعة . سواء كانت هذه العبارات والألفاظ تشويها متعمدا - كما يفعل بعض الممثلين في هذه الأيام - أو كانت عربية بليغة . ، بدا التحسن الملموس في لسان العامة ، وعاون علي ذلك صحافة العهد ، إذ كانت عالية المستوي ، قل أن تقع فيها العين علي خطأ لغوي .

لم تكن اللغة وسيلة فحسب ، للتعبير عن المعاني والأفكار والرغبات ، إنها كانت مرغوبة في حد ذاتها . العبارة العربية المشرقة واللفظ المنطوق بحروفه الكاملة ، والتسلسل اللغوي المنطقي ، المتدفق في عذوبة كالنهر ، أو المتماوج كأمواج البحر ، هادرا أحيانا هامسا أحيانا . الميكروفون نما جمال الكلمة وأضاء كل محسناتها ، وفتح أمام الآذان والأذهان مجالا جديدا لتذوق الجمال . أصبح البيان العربي الوضاء علي لسان طه حسين متعة للسامعين ، أو الشعر يبني بناءه البديع الشاعر علي الجارم ، وكأنما تشهد تمثالا رشيقا من الرخام ، ينحته أمام عينيك النحات ، مستوليا علي ألبابك .

لم يكن محمد فتحي مجرد كروان جميل الصوت ، منغم الأداء ، يجيد فن الكلام الجميل ، فن التغريد . لكنه كان مثقفا كبيرا ، شأن جيله كله : شيخ الإذاعيين علي خليل - بارك الله في عمره وعطائه - ومحمد محمود شعبان ومدحت عاصم و عبد الوهاب يوسف و عبد الحميد الحديدي وأحمد سالم وأحمد كمال سرور وتماضر توفيق وصفية المهندس وغيرهم . وكان مفكرا إذاعيا وإعلاميا من طراز نادر ، وعالما ذواقة لفنون المسرح والدراما ، ذا حس فني عال ، وذوق مرهف رفيع . وبهذا الوعي ، وهذه الثقافة ، وهذا الحس الفني ، كانت عظمة الدور وحجم الإنجاز ووضوح المسار !

أنقذوا وثائق مصر

بقلم: فاروق شوشة

لـو لم يـتح لـي أن أشـرف بعـضوية مجلـس إدارة هيئـة دار الكتـب والوثـائق القوميـة ـــ علـي مـدار الـسنوات الأخـيرة ـــ والاقـتراب مـن همومهـا وطموحاتهـا مـن خـلال عهـود ثلاثـة متعاقبـة تـولي المـسئولية فيهـا الأسـاتذة سمـير غريـب والـدكتور صـلاح فـضل والـدكتور أحمـد مرسي ــ الـذي يـرأس الهيئـة الآن ويعطيهـا مـن وقتـه واهتمامـه وعقلـه وأعـصابه مـا يفـوق طاقـة البـشر ـــ لـو لم يـتح لـي ذلـك ، مـا اسـتطعت التعـرف علـي الواقـع المأسـاوي الـذي تعيـشه الوثائق التي تشكل ذاكرة مصر وتاريخها القومي .

هـذه الوثـائق ـــ الـتي أتحـدث عنهـا ـــ مودعـة في مخـازن دار الوثـائق القوميـة ، الـتي تـشارك دار الكتـب في المـبني المطـل علـي كـورنيش النيـل ، كمـا تـشارك هيئـة الكتـاب في المبني نفـسه ، في منطقـة تعـد مـن أكثـر منـاطق القـاهرة تلوثـا بيئيـا ، الأمـر الـذي يعـرض هـذه الوثـائق ـــ الـتي يقـدر عـددها بـالألوف المؤلفـة ـــ والـتي تـضم مختلـف جوانـب التـاريخ المـصري خـلال أكثـر مـن خمـسمائة عـام ـــ لحالـة مـن التـدهور والتلـف تتفـاقم بمـرور الوقـت ، مـع ضـعف إمكانيـات الهيئـة عـن مواجهـة هـذا الوضـع المأسـاوي ، الـذي يـشكل خطـورة بالغـة علـي ثـروة لا تقـدر بمـال ، لا نهـا ـــ في حقيقتهـا وأهميتهـا وخطورتهـا ـــ أغلـي مـا تمتلكـه مصر من كنـوز ، لكننـا ـــ بكـل أسـف ـــ تركناهـا علـي مـدار الـسنوات الطويلـة في مخـازن غـير مجهـزة للحفـظ طبقـا للأسـاليب العلميـة والفنيـة المتعـارف عليهـا في عالمنـا الآن ، والمعمـول بهـا في كـل الأرشـيفات العالميـة مـن حيـث الرطوبـة والحـرارة ، فـضلا عـن سـوء الاسـتعمال وسـوء التخـزين ، والأصـل فيهـا أن تحفـظ حفظـا دائمـا ، باعتبارهـا ذاكـرة كـبري ومرجعـا تاريخيـا وقانونيـا ومعرفيـا ، وأن يتـاح الاطـلاع عليهـا للبـاحثين والمـستفيدين وفقـا لقواعـد وضـوابط معينة .

الأمـر إذن يحتـاج إلى مـصادر تمويـل لا تقـوي عليهـا ميزانيـة الهيئـة المحـدودة ، الـتي تواجـه احتياجـات عاجلـة وضـخمة للإنفـاق علـي مـشروع تطـوير المـبني التـاريخي لـدار الكتـب ببـاب الخلـق ، والعمـل علـي تطـوير مـبني دار الكتـب ، ومـشروع إنقـاذ المخطوطـات الموجـودة بـدار الكتـب ، والـتي يحتـاج معظمهـا إلى تـرميم وصـيانة ، ومخـازن لهـا مواصـفاتها الفنيـة لحفـظ هـذه المخطوطـات الـتي لا تقـل في أهميتهـا أو قيمتهـا عـن الوثـائق ، خاصـة أن هنـاك مـشروعا ضـخما تتبنـاه الهيئـة لوضـع هـذه المخطوطـات علـي وسـائط إلكترونيـة لحفظهـا وتـسهيل الانتفـاع بهـا وصـيانتها بـدورها مـن التلـف والبلـي وعوامـل التآكـل . وقـد سـارعت الهيئـة بالفعـل إلى إنجـاز اتفـاق مـع مؤسـسة الأهـرام ومركـز المعلومـات بمجلـس الـوزراء لوضـع

المخطوطات علي وسيط إلكتروني ، والبدء التنفيذي للمشروع ، وإصدار ما يزيد علي ما ئة وخمسين وسيطا الكترونيا D . C للمخطوطات .

كما تقوم الهيئة ــــ بالرغم من ميزانيتها المحدودة ــــ بالقياس إلى خطورة ما تتحمله من مسئولية في صيانة تراثنا الوطني والقومي من الوثائق والمخطوطات - باستكمال أعمال إدخال رصيد دار الكتب من المقتنيات علي قاعدة البيانات الخاصة بالدار . وتبادل المطبوعات ــــ في إطار أعمال التبادل ــــ مع مختلف دول العالم بتسلم أكثر من ثلاثة آلاف ومائتي كتاب ، وأكثر من ثلاثمائة وستين دورية ، وبالمقابل إرسال مئات الكتب والدوريات ، كل هذا خلال الأسابيع الأخيرة فقط . كما تقوم المراكز العلمية بالهيئة ، وهي: مركز تاريخ مصر المعاصر ، ومركز تحقيق التراث ، ومركز الترميم ، ومركز الخدمات الببليوجرافية ، والحساب العلمي ، ومركز بحوث أدب الطفل بنشاط ضخم ــــ علي مدار العام ــ ولها بالطبع نصيبها من ميزانية الهيئة لكل ما تقوم به من أعمال علمية وفنية من جمع ومراجعة وتحقيق وطبع وإعادة طبع .

أعود إلى الوضع المأساوي للوثائق ، والمشروع الذي أعدته دار الوثائق القومية من أجل تطوير المخازن التي يعد تطويرها أولوية عاجلة لا تحتمل التأخير . هذا المشروع يشمل مخازن الدور الأرضي للمبني بمساحة ألفين وسبعين مترا مربعا ومخازن الدور الأول بمساحة ألف وخمسمائة متر مربع ومخازن الدور الثاني المسحور بمساحة ألفين وخمسمائة وستين مترا مربعا ومخازن الدور الرابع بمساحة قدرها ثمانمائة وأربعة وعشرون مترا مربعا ، مجموعها ستة آلاف وتسعمائة وأربعة وخمسون مترا مربعا ، تتطلب إنفاقا بالملايين للتجهيزات والأعمال الاعتيادية والتكييف والتراكيب المتحركة التي يحتاجها المشروع . وقد قدر هذا الإنفاق ــــ مبدئيا ــــ بتسعة عشر مليونا من الجنيهات موزعة علي ست سنوات . بحيث يكون نصيب السنة المالية قرابة ثلاثة ملايين ومائتي ألف جنيه ، المفروض أن تبدأ من الآن .

هذا المشروع - الانقاذي ــــ لثروة مصر من الوثائق ، هو بمثابة الخطة العاجلة التي تحاول بها الهيئة سبق الزمن في أعمال الصيانة والترميم والحفظ وتوفير الشروط المناسبة حتي لا يتضاعف حجم الوثائق التالفة يوما بعد يوم وسنة بعد أخري ، ونصل إلى وضع تصبح فيه ذاكرة مصر ــ من خلال هذه الوثائق ــ مهددة بالضياع .

أما الخطة الآجلة ــــ التي تشكل بدورها مشروعا مستقبليا ــــ لدار الوثائق القومية ، فتقضي بضرورة إقامة مبني جديد ، بمواصفات علمية وفنية صحيحة ، في منطقة بعيدة عن التلوث البيئي ، الأمر الذي يصيب الوثائق بأضرار بالغة ، وهو ما حدا بالهيئة إلى الاستعانة بمراكز الضبط البيئي والخبراء المصريين والأجانب في جامعتي القاهرة

والأزهر والتحرك السريع للحيلولة دون مزيد من التدهور . هذا المبني الجديد الذي يقترح له موقع كالذي أختير لمتحف الآثار ـــ علي طريق الفيوم مجاورا لمنطقة الأهرام ـــ بعيد عن التلوث البيئي ، هو ضرورة قومية وعلمية بعدما ثبت أن المبني الراهن الذي يضم دار الكتب والوثائق القومية لم يكن في اعتبار منشئيه صلاحيته الفنية لتحمل الأحمال الثقيلة من كتب ودوريات ووثائق ومخطوطات ، أو تجهيز مخازنه بحيث تصبح صالحة للحفظ تتوافر لها الشروط المطلوبة ـ عاليا ـ في مثيلاتها من مخازن الوثائق والمخطوطات . وبالتالي فإن كل إنفاق يستنفد ميزانية الهيئة لا صلاح الواقع المتردي هو في حقيقته ترقيع ـــ لا أكثر ولا أقل ـ لثوب أصابه البلي والتلف ولابد أنه سيتمزق لا نه غير صالح للاستعمال .

إن هيئة دار الكتب والوثائف القومية تستعد من الآن لمناسبة تاريخية كبري هي الانتهاء من إنجاز مشروع التطوير للمبني التاريخي لدار الكتب بباب الخلق خلال النصف الثاني من عام ٢٠٠٤ الذي يوافق العيد المئوي لدار الكتب ، وهي مناسبة تتطلب تحركا سريعا وحاسما من أجل إنقاذ ثروة مصر وكنوزها من الوثائق والمخطوطات ، وتوفير مصادر التمويل لتحقيق هذا الهدف الذي يستند إلى مشروعين: عاجل وآجل ، كلاهما ضروري . والأمل معقود علي الدكتور عاطف عبيد رئيس مجلس الوزراء والدكتور مدحت حسانين وزير المالية ـ الذي وقف إلى جوار الهيئة مؤازرا ومساندا ومتفهما في مناسبات كثيرة ـ ولجنة الثقافة والإعلام بمجلس الشعب ـ التي تمثل ذروة الاهتمام والتعبير عن مطلب عاجل له أبعاده العلمية والثقافية والوطنية والقومية .

كما أن الأمل معقود علي مجلس الشعب لسرعة إقرار قانون الوثائق الجديد ، الذي يتطلب مبادرة وسرعة تحرك ، لا لزام الوزارات والمؤسسات والهيئات بالمحافظة علي ما لديها من وثائق ـ لها أهميتها البالغة في شتي المجالات وتتصل بتاريخ مصر القديم والحديث والمعاصر ـ والتنسيق بينها وبين هيئة دار الكتب والوثائق القومية في أرشفة هذه الوثائق وتسجيلها وحفظها وصيانتها وترميمها ، حتي يضمها جميعا سجل قومي شامل ، باعتبار أن دار الوثائق القومية بحكم قانونها هي الوعاء الرئيسي المنوط به صيانة هذه الوثائق وتجميعها وحفظها وتوفير سبل الاطلاع عليها والاستفادة منها طبقا للوائح والضوابط الموضوعة لذلك ، التي لا تتعارض مع متطلبات الأمن القومي والسلامة الوطنية . والذي يجعل من صدور قانون الوثائق الجديد مطلبا عاجلا شديد الأهمية ، هو الحالة المزرية التي وصلت إلى ها ألوف مؤلفة من الوثائق في العديد من الهيئات والمؤسسات ودور القضاء والمصالح الحكومية والأهلية والمحافظات نتيجة لسوء التخزين وعدم إدراك أهمية هذه الوثائق وغيبة الوعي بأساليب الحفظ الصحيحة وعدم توافر أماكن مخصصة لها أو ميزانيات ترصد للعلاج والترميم . الأمر الذي يشكل عبئا ضخما ومسئولية عظمي علي دار

الوثائق القومية في تعقب هذه الوثائق ومحاولة إنقاذها ورعايتها ، فضلا عن العمل من أجل جمع وأرشفة ألوف الوثائق الموجودة في العديد من المساجد والكنائس والمكتبات الخاصة والجامعات والمدارس ومحفوظات المحاكم ومايتطلبه القيام بهذا العمل من جهد هائل وميزانية كبيرة وكوادر مؤهلة قادرة .

إنني أدرك بالطبع حجم الأولويات التي تواجهها ميزانية الدولة في كل عام ، في مجالات التعليم والصحة والإسكان والمرافق والمواد التموينية ـ بدءا برغيف الخبز ـ والطاقة والمواصلات ، وغيرها . ولكني أدرك أن الحفاظ علي ذاكرة مصر وتراثها الوطني والقومي أمر يمثل أولوية أولي ، وهو ما تفعله كل الدول المتحضرة في العالم ، التي تحرص علي صيانة ذاكرتها الوطنية والمحافظة عليها ، وجعلها قادرة علي الوفاء باحتياجات الباحثين والدراسين والمستفيدين .

إن كل يوم يمر يعني مزيدا من التلف يصيب هذه الوثائق ، بالرغم من الجهود الهائلة التي تبذلها الهيئة للحفظ والصيانة والعلاج والترميم ، من خلال كوادر علي أعلي مستوي من الخبرة والتدريب ، وأجهزة حديثة تعمل ليل نهار ، وورديات عمل لا تتوقف . لكن الحجم الهائل لكل هذه الوثائق ـ وللمخطوطات أيضا ـ يفوق كل هذه الإمكانات ، الأمر الذي يجعل من أي مجهود يبذل علاجا بطيئا وهزيلا بالنسبة لحجم المطلوب علي مستوي الإمكانات المالية والفنية والبشرية ، الأمر الذي تعجز عن تدبيره الهيئة في ظل ميزانيتها المتواضعة التي قد تحظي ببعض الدعم ـ نتيجة للإلحاح في المطالبة ـ لكنه الدعم الذي لا يطلق يدا ولا يسد رمقا !

فيا أيها السادة المسئولون: أنقذوا وثائق مصر !

دمياط . . والملتقى الثقافي الأول

بقلم: فاروق شوشة

تلبية لدعوة كريمة من الدكتور عبد العظيم وزير ـ محافظ دمياط المثقف ـ أتيح لي أن أقضي يومين رائعين مشاركا في الملتقي الثقافي الأول للمحافظة في١٧ ، ١٦ سبتمبر .

احتشد برنامج الملتقي علي مدار إلى ومين بالعديد من وجوه النشاط الثقافي والفكري والفني ، وكان الاستهلال بمحاضرة للواء هتلر طنطاوي أحد اعلام دمياط ورئيس هيئة الرقابة الإدارية عن دور الرقابة الادارية في حماية المجتمع ، ثم كانت الجلسة الافتتاحية للملتقي تكريما لا ثنين من أعلام دمياط: العالم الكبير الدكتور علي مصطفي مشرفة والمفكر الكبير الدكتور عبد الرحمن بدوي ، وآثر الدكتور عبد العظيم وزير أن يكون تكريم اسميهما مقترنا بحديث ضاف قدمه استاذ الفلسفة الدكتور عاطف العراقي عن الدكتور بدوي ، والدكتور أحمد عطية رئيس جامعة المنصورة الأسبق عن الدكتور مشرفة ، والإعلان عن المسابقة الثقافية بين النشء وشباب الباحثين في دمياط عن فكر عبد الرحمن بدوي ومؤلفاته وترجماته ، تحقيقا للتواصل المعرفي بين الأجيال وحضا لا بناء هذا الجيل علي قراءة الأعلام الذين أنجبهم إقليم دمياط الزاخر بالكنوز الإنسانية والعلمية والفكرية والإبداعية في كل مجال: الدكتورة بنت الشاطئ ـ التي كان إلى وم الأول من يومي الملتقي مناسبة لا فتتاح الحديقة التي تحمل اسمها علي شاطيء النيل مباشرة بالقرب من المحافظة ، كما كان مناسبة لا زاحة الستار عن تمثال الدكتور مشرفة في قلب أحد الميادين الكبري المواجهة للنيل في دمياط ، والدكتور زكي نجيب محمود ، والدكتور شوقي ضيف ، والشعراء: علي الغاياتي وعلي العزبي ومحمد الأسمر وطاهر أبو فاشا و عبد العليم عيسي ، ومن رجال الصحافة والإعلام: مصطفي وعلي أمين ومحمد التابعي وجلال الدين الحمامصي وصلاح منتصر وعباس الطرابيلي والدكتورة درية شرف الدين ، ومن المبدعين والأدباء والفنانين: الدكتورة لطيفة الزيات وصبري موسي والدكتورة عزة بدر وبشير الديك ويسري الجندي ومحمد أبو العلا السلاموني ، ومن رجال السياسة والدبلوماسية: الدكتور محمد حسن الزيات والدكتور رفعت المحجوب والسفير عبد الرءوف الريدي ، ومن العلماء والأطباء: الدكتور محمود حافظ والدكتور عبد الحليم منتصر والدكتور عطية عاشور والدكتور محمود المناوي والدكتور محمد الجوادي ، فضلا عن عشرات النجوم الساطعة في سماء مصر من الشخصيات البارزة تفاخر بهم محافظة دمياط وتتقدم موكب النبوغ والعبقرية .

أما إلى وم الثاني فكان مخصصا لجلستين إحداهما صباحية عن الهوية الثقافية المصرية في ضوء المتغيرات العالمية تحدث فيها السفير الريدي والدكتور أسامة الغزالي

حـرب ، واعتـذر عـن عـدم المـشاركة الـدكتور مـصطفي الفقـي ، والثانيـة مـسائية موضـوعها دمياط:

الزمـان والمكـان تحـدث فيهـا الأسـتاذان عبـاس الطرابيلـي عـن دميـاط منبـت الاعـلام ، و عبـد الوهـاب شـبانة عـن دميـاط والحمـلات الـصليبية ، وحـرم الحاضـرون مـشاركة الـدكتور زاهـي حـواس ـ ابـن دميـاط ـ عـن دميـاط في التـاريخ القـديم لا عتـذاره ، ثـم كـان ختـام الملتقـي أمـسية شـعرية شـارك فيهـا عـدد مـن المبـدعين بالفـصحي والعاميـة مـن شـعراء دميـاط .
بينمـا اختـتم إلى وم الأول بحفـل لفرقـة الموسـيقي العربيـة بقيـادة المايـسترو سـليم سـحاب ، كـان ـــ ككـل مـا تقدمـه الفرقـة ـ حـافلا بالمتعـة الفنيـة الراقيـة وإعـادة جمهـور الحفـل إلى زمـن الفـن الجميـل غنـاء وموسـيقي ، بعـد أن طغـت الـسوقية والابتـذال ، وامـتلأت القنـوات التليفزيونيـة ـ الأرضـية والفـضائية ـ بكـل مـا يـسيء إلى الـذوق الـسليم ، ويـشوه صـورة مـصر وتاريخهـا الجليـل فنـا وإبـداعا وريـادة . وبمناسـبة هـذا الحفـل الـذي قدمتـه فرقـة الموسـيقي العربيـة علـي مـسرح قـصر ثقافـة دميـاط الجديـدة ، فقـد كـان مـثيرا للأسـي والدهـشة أن يقـال لنـا : إن هـذا القـصر ـ الـذي يعـد أكـبر وأفخـم قـصر ثقافـة في مـصر ـ لم يفتـتح رسميـا بعـد ، والـسبب في هـذا خـلاف بـين وزارة الـتعمير الـتي بنتـه ، ووزارة الثقافـة الـتي لا تريـد أن تتـسلمه إلا كامـل التجهيـز ، وهـو أمـر يـدعو للعجـب والتـساؤل ، كيـف تبخـل وزارة الثقافـة ــ وصندوق التنميـة الثقافيـة تخـرج منـه الملايـين للمهرجانـات والملتقيـات علـي مـدار كـل عـام ـ كيـف تبخـل علـي مثـل هـذا القـصر الـذي يمكـن أن يكـون مركـز الإشـعاع في قلـب دميـاط الجديـدة ، بـبعض مـا تنفقـه عـن سـخاء في استـضافة الوفـود واسـتجلاب المـشاركين في المـؤتمرات والمهرجانـات ـ مـن يـستحقون ومـن لا يـستحقون ـ وبعـضهم يستـضاف عـدة مـرات علـي مـدار العـام الواحـد ! أنـا واثـق أن الأسـتاذ أنـس الفقـي رئـيس هيئـة قـصور الثقافـة ـ والمعـروف بنـشاطه وحيويتـه وحـسمه للأشـياء ـ لـن يرضـيه أن يظـل مـبني هـذا القـصر مهجـورا ، لا ينتفـع بـه ، وكـل مـا يلزمـه هـو أقـل القليـل ، ليبـدأ رسـالته الثقافيـة والفنيـة علـي الفـور ، خاصـة أن قـصر ثقافـة دميـاط ، الـذي أغلـق للترمـيم منـذ عـدة سـنوات ، لا يـزال حـتي إلى وم لا ينتفـع بـه هـو الآخـر بـسبب التبـاطؤ الـشديد في العمـل ، وقـد مـضت سـبع سـنوات كمـا قيـل لـي ـ وهـو مغلـق ، لا يمـارس فيـه أي نـشاط ، ولا تقـام علـي مـسرحه عـروض ، ولا يقـصده شـباب الإقلـيم بحثـا عـن الثقافـة والمتعـة الراقيـة ، بينمـا ترصـد الملايـين ــ في سـهولة ويـسر ـ لا شـياء عـابرة ، لا يبقـي منهـا بعـد انتهائهـا شـيء ، إلا مـا يـثير الدهشة والحسرة والتساؤل .

ليـت الأسـتاذ أنـس الفقـي ـ رئـيس هيئـة قـصور الثقافـة ـ يـشد الرحـال إلى دميـاط ، لـيري ويـشاهد علـي الطبيعـة ، القـصر القـديم المغلـق بـسبب تـرميم لا يـتم ، والقـصر الجديـد ــ في دميـاط الجديـدة ـ بكـل حجمـه ومعمـاره وإمكانياتـه ، وهـو خـاو تـضج فيـه الريـاح ـ ولـولا

ان الفنيين المصاحبين لفرقة الموسيقي العربية بذلوا من الجهود ما يشبه المعجزة ، ما أمكن تقديم حفلهم في هذا القصر ، الذي لا يزال ينتظر ان يكون له مسرح حقيقي ، وإمكانيات تليق به ، ليتوهج بالحيوية والنشاط كبقية قصور الثقافة في كل أنحاء مصر !
أروع ما حققه هذا الملتقي الثقافي الأول ، هو اللقاء الحار والحميم بين هؤلاء الذين لم يلتقوا منذ سنوات طويلة ، ربما من يوم مغادرتهم دمياط بعد حصولهم علي شهادة إتمام الدراسة الثانوية منها : التوجيهية أو الثانوية العامة ، وتفرقهم بين الجامعات ، ثم في دوائر العمل المختلفة ، في مصر وفي خارج مصر . لكن دعوة الإنسان الجميل والمحافظ المثقف الدكتور عبد العظيم وزير ـ الذي يعد نموذجا للنجاح والتألق في التفاني من أجل دمياط علي مستوي مشاريع البنية الأساسية والمرافق والصحة والنظافة والتشجير والتنظيم ـ هذه الدعوة نجحت في جمع هذا الشمل وتحقيق الحلم الذي ظل يراود الكثيرين سنوات عدة ، منذ فكر حمدي عاشور ـ محافظ دمياط الأسبق وابن دمياط ـ في ملتقي مماثل ، لكن الفكرة لم تستمر بعد انتقاله محافظا للإسكندرية فمحافظا للقاهرة . لقد أتيح لوفود هذا الملتقي أن يمشوا في الممشي البديع الذي أنجزه محافظ دمياط علي النيل والبحر في مصيف رأس البر ، كورنيش علي النيل وكورنيش علي البحر ، هما الآن متنفس رواد المصيف والمقيمون به علي مدار العام صباحا ومساء ، وهي لمسة واحدة من اللمسات التي تجعلنا نضيف اسم عبد العظيم وزير إلى اسمي عبد السلام محجوب في الإسكندرية وعادل لبيب في قنا باعتبارهم نماذج مضيئة ومشرقة في مجال العمل الوطني والحكم المحلي واقتحام مجالات التطوير بفكر جديد وأساليب مغايرة .

كان جميلا أيضا ان يدعي للملتقي الثقافي الأول محافظو دمياط السابقون ، وقد تمكن من المشاركة والحضور الدكتور أحمد جويلي والمهندس عصام راضي واعتذر المهندس حسب الله الكفراوي ، وثلاثتهم لهم أياد بيضاء علي دمياط ، وبصمات في العديد من مدن المحافظة وقراها ، خاصة بالنسبة لميناء دمياط الذي ارتبط باسم حسب الله الكفراوي ، والذي استعادت به دمياط مجدها القديم ، ودورها في حركة الاستيراد والتصدير والتجارة الخارجية ، يوم كانت بمثابة الميناء الأول لمصر ـ قبل إنشاء بورسعيد ـ في التجارة مع بلاد الشام ودول شرق البحر الأبيض المتوسط وعودة ميناء دمياط ـ بكل ما يمثله الآن من دعم للاقتصاد الوطني وتعظيم لا مكانيات مصر ـ في حقيقتها ملحمة عظيمة من ملاحم الإنجاز ، قادها المهندس الكفراوي وأبناء دمياط بكل العزم والتصميم ، والإصرار علي استعادة الدور وتغيير المسار .

إن العودة إلى دمياط ، من خلال مثل هذا الملتقي ، لا تمثل فقط شحنة عاطفية هائلة تجدد الذكريات وتقوي الروابط وتعيد الأبناء إلى حيث مثوي الآباء والأجداد ، لكنها أيضا فرصة لتأمل واقع جديد تغير فيه الشكل العام لمدينة دمياط ومدن المحافظة

بفضل الاهتمام بالتشجير والتجميل ورصف الشوارع وتحديث مداخل المدن والتطوير المستمر في داخل مدينة دمياط ، فضلا عن الاهتمام بالبيئة وهو الاهتمام الذي جعل دمياط تحصل علي المركز الأول في الاهتمام بالبيئة ، كما أتيح لدمياط أن توضع علي الخريطة السياحية والأثرية ، ووضع خطة - بفضل الأثري الدمياطي زاهي حواس - لترميم آثارها ، والاهتمام بمسجد عمرو بنالعاص ومنطقة عزبة البرج وعمل متحف اثري في دمياط .
لقد تتابع علي دمياط علي مدار عصور التاريخ - كما جاء في موسوعة دمياط لمحمد عبد الغني العزبي - عدد من مشاهير الرحالة والشخصيات البارزة ، من بينهم ابن بطوطة الذي وصفها في كتابه تحفة النظار في غرائب الأمصار بأنها مدينة فسيحة الأقطار ، متنوعة الثمار ، عجيبة الترتيب ، آخذة من كل حسن بنصيب . وقال المقريزي في كتابه المواعظ والاعتبار إن الأمير الوزير الاستادار يلبغا ذكر انه لم ير في البلاد التي سلكها من سمرقند إلى مصر أحسن من دمياط هذه ، فظننت انه يغلو في مدحها ، إلى أن شاهدتها ، فإذا هي أحسن بلد وأنزهه . وفيها أقول:

سقي عهد دمياط وحياه من عهد
فقد زادني ذكراه وجدا علي وجد
ولازالت الأنواء تسقي سحابها
ديارا حكت من حسنها جنة الخلد
فيا حسن هاتيك الديار وطيبها
فكم قد حوت حسنا يحل عن العد

ويقول عنها علي مبارك في خططه بعد ان زارها في عام ١٨٨٥ حين زارها ومعه سليمان الفرنساوي: إن دمياط من أعظم الثغور الإسلامية بديار مصر ، فلذا تتوطنها وتقيم بها الأكابر والأعيان والأشراف والعلماء والصلحاء ومشايخ الطرق والسجادات والقراء والمتقنون للتجويد والألحان الذين لا يفوقهم أحد من قراء الدنيا ، وفيها مقامات كثير من أولياء الله تعالي المرابطين وغيرهم .

وعندما زارها الأديب الفرنسي ألبير جابيه عام ١٩٠٤ كتب عنها في كتابه زوايا مصر المجهولة يقول: لم تزل منفردة علي النهر ، محتفظة بطابعها القديم ، محتمية من جميع عصريات زمننا ، وعلينا كي نصل إلى ها نعبر هذا البساط الفضي ، في قارب أقل رشاقة من الجندول لكنه أكثر شبها بأخيه المنقوش علي المعابد المصرية ، يا لها من لوحة رائعة ! .

وما كتبه الرحالة والزائرون القدامي يثري الذاكرة ويطلق عنان الخيال ، لكن الجمال الحقيقي هو ما ينطق به الواقع الآن ، وما يمتلئ به هذا الواقع من إمكانيات يتسع لها المستقبل ، وهو - بكل تأكيد - ما سوف يكون مجالا للحوار والمناقشة والاتفاق في

الملتقيات الثقافية القادمة التي يمكنها ان تخطط لمستقبل دمياط ، ودورها في المشاركة والعمل الوطني: إنتاجا وعطاء ، وتعظيما للإمكانيات التي تحملها صدور الرجال ، وتنبض بها قلوب العائدين منهم إلى أرض الصبا ومهبط الذكريات !

مجدي نجيب وغاب القمر

بقلم : فاروق شوشة

عن دار نفرو للنشر والتوزيع صدر لشاعر العامية الجميل مجدي نجيب ديوانه الجديد غاب القمر مضيفا إلي دواوينه السابقة عملا بديعا ومتميزا. والتسمية سبق ان أطلقها الشاعر علي واحد من نصوصه الغنائية الشهيرة، أبدع في تلحينها المبدع الأصيل محمد الموجي وشدت بها بإحساس عال واقتدار فني الفنانة المبدعة شادية، وهي أغنية غاب القمر.

ونجحت الأغنية - مع غيرها من إبداعات مجدي نجيب الغنائية - مثل: كامل الأوصاف لعبدالحليم حافظ، وآخد حبيبي لفايزة أحمد، وقولوا لعين الشمس لشادية وغيرها في أن تنقل إلي الجماهير الواسعة فن مجدي نجيب ولغته المتوهجة برهافة الإحساس وبساطة العبارة وعمق المعني والفكرة، وأن تفرض احترام هذا الفن في سوق الغناء وسوق الشعر معا.

حتي جاء وقت تراجعت فيه سوق الغناء عن التعامل مع إبداعات شعراء العامية الكبار، الذين قنعوا - في بعض الأحيان - بكتابة أغنيات المقدمة والنهاية لبعض المسلسلات الدرامية، بعد أن طردتهم العملة الشديدة الرداءة التي تسود الساحة الغنائية، خاصة علي مستوي الكلمة والنص الغنائي، لكن هذه الظاهرة السلبية نفسها اعادت إلي شعراء العامية الكبار الاهتمام بالقصيدة وديوان الشعر، والترفع عن مجاراة مايحدث في لغة الغناء من سوقية وابتذال، وظهر هذا بشكل واضح في الابداعات الشعرية الجديدة المتدفقة للأبنودي وسيد حجاب ومجدي نجيب وغيرهم.

مجدي نجيب في ديوانه الجديد غاب القمر يعود الي جوهر حقيقته الشعرية، وجمرة إبداعه المتوهجة دائما ويعود بنا - نحن قراءه - إلي مفرادت عالمه الشديد الخصوصية في منمنماته التي تتجاور لتصنع نسيجا بديعا من الصور الشعرية والأبنية الفنية والوثبات الإبداعية كما كان يفعل في رائعته غاب القمر وهو يقول:

غاب القمر يابن عمي يالا روحني/ دا النسمة آخر الليل بتفوت وتجرحني/ والصوت دبل في الخلا/ والليل ماعاد له دليل/ نعس الفضا واتملا قلبي بنجوم الليل/ طار النسيم بالشوق لما كلمتك/ لمس النسيم توبي برمش غنيوتك.

الليل ووحدي ووحدك/ سايبين هوانا وحيد/ فين الحواديت وفين سهراتنا تحت الضي/ بعد القمر ياحبيبي ماغاب ماقال لنا جاي خوفي من الضلمة تتوهني وإنت بعيد.

ضحك الهوا حواليك واتمايلت التجمات/ سلم علي شعري ورماه عليك حكايات/ مشوارنا همسة وضحكة شاردة في الفضا/ مشوارنا خطوة وعمرها مابتنقضي/ بعت القمر مرسال/ بعت النجوم موال/ وخطوتك وأنت جنبي شوق يفرحني/ غاب القمر يابن عمي يالا روحني.

هذه لغة لاتستوقفنا عاميتها بقدر مايستوقفنا قربها الشديد من العربية الصحيحة، وامتلاؤها بالصور الشعرية التي نطالعها في كثير من دواوين الشعر الجديد المكتوبة بالفصحي، ونحس بأننا بإزاء شاعر نجح في إزالة هذا الفاصل بين مستويين من مستويات التعبير والإبداع، وأن ثقافته - في جوهرها - هي ثقافة فصيحة وعريضة، عكف فيها علي قراءاته وانجذابه لشعراء الحركة الرومانسية وشعراء الشعر الجديد، متابعا إبداعات صلاح جاهين وفؤاد حداد، وموازيا للأبنودي وسيد حجاب وعبدالرحيم منصور وغيرهم، بعيدا - بروحه التلقائية وموهبته الطاغية - عن غلظة النظم الذي يشيعه فينا بعض شعراء العامية، دون ان تحوي كتاباتهم كيمياء الشعر او مائيته او تدفقه وانسيابه.

وفي ديوان غاب القمر لمجدي قصائد عديدة، هي افضل مايمكن ان يغني في هذا الزمان، لو ان العاملين في حقل الاغنية يريدون إنقاذها مما تواجهه من سقوط في رسائله القصيرة إلي العصفور الأسمر يقول مجدي: غني البلبل في ضلوعي، نزلت كل دموعي، نزلت فوق أسوار الرؤيا وباش الحزن/ ياحبيبتي.. هاتي إيدك نهرب خلف الأسوار/ الليل مركبنا، والبحر كلامنا وملاحنا، نجم صغير أد العصفور، ورقيق زي العصفور، ويحب النور، وإن شاف الموج محتار م الرعب، يطلع ويغني، يصحي ألف نهار. ياحبيبتي.. هاتي إيدك نهرب خلف الأسوار، وصولا الي قوله: المطر حرك إيديه، المطر جوايا. المطر حرك عينيه، المطر جوايا، المطر غرقني ليه، المطر جوايا خدني بقلبي سلمني للمسافات. وفضلت ماشي وانتي جنبي، وتهنا في الحكايات. واحشاني.

ويأيها المبدع الجميل: مجدي نجيب، يا أيها البلبل السجين المنسحب من عتمه الواقع المتردي من حولك، اصدح بأغانيك، واطلع بها علينا في دواوينك التي لم تنشر بعد، فقدرك الحقيقي هو القصيدة الجميلة الباقية، المخترقة للأزمان، والمستقرة في قاع الوجدان، وبصدرك لاتزال آلاف الأنغام والألحان، فلا تبخل بها، لأنها شفاء ونجاة لك ولنا، وأبدا لن يغيب القمر.

عاشق اللغة العربية

بقلم: فاروق شوشة

أحسنت مؤسسة البابطين صنعا بإصدارها هذا الكتاب التذكاري عن عالم الدراسات اللغوية الراحل الدكتور أحمد مختار عمر، من إعداد عبدالعزيز السريع وماجد الحكواتي تحت عنوان: عاشق اللغة العربية العالم الجليل أحمد مختار عمر.

تتصدر الكتاب ـــ الذي أشرفت عليه الأمانة العامة للمؤسسة، وأعدته للطبع في صورته اللائقة بمكانة صاحبه العلمية والإنسانية ـــ كلمات لعبدالعزيز سعود البابطين يقول فيها: لم يكن المرحوم الدكتور أحمد مختار عمر مجرد عالم أكاديمي مختص باللغة، بل كان عاشقا للغة متيما بها وإذا كان للعشق دلالات لاتخفي علي البصر ولا علي البصيرة، فإن هذه العلامات كانت متجذرة في الفقيد إلي درجة يلمسها أي إنسان فيه، فاللغة كانت غذاءه الذي يقتات منه، والهواء الذي يتنفسه، والعشير الذي لايزايله، والمرآة التي يري فيها بيته الذي يحس فيه بالأنس والطمأنينة، والخل الذي لا يمل من مخالطته.

ثم يقول: ولقد تعرفت إلي الفقيد في التسعينيات من القرن الفائت حين وفقت المؤسسة إلي اختياره مستشارا لمعجمها الشعري الأول معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين فلمست فيه دقة العالم وتواضعه وشموخه، وحماسة العاشق وتجرده ونزاهته. وكان من حسن حظنا أن استمر الفقيد معنا مستشارا لمعجمنا الثاني معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين فوضع الأسس لهذا العمل الضخم، وأشرف علي خطواته الأولي وسدد من سيره وجنبه العثار.

هذا الكلام ملمح واحد من سيرة أحمد مختار عمر الذي رحل في السبعين، بعد حياة حافلة وإنجاز علمي ضخم ومشاركات مصرية وعربية علي مستوي الجامعات والمجامع اللغوية والمؤتمرات والندوات العلمية، والتأليف الأكاديمي والعمل المعجمي: أستاذا للدراسات اللغوية في كلية دار العلوم جامعة القاهرة، وعضوا في مجامع اللغة العربية بمصر وليبيا ودمشق، ومقررا للجنة المعجم العربي الحديث، وعضوا بلجنة إحياء التراث الإسلامي، ولجنة الدراسات الأدبية واللغوية بالمجلس الأعلي للثقافة، والجمعية الألسنية العربية بالمغرب، ومؤلفا للعديد من الدراسات العلمية اللغوية، من بينها ثلاثة لاتزال تحت الطبع وهي: معجم ألفاظ الحضارة في القرآن الكريم ومعجم الصواب اللغوي، ومعجم اللغة العربية المعاصرة.

يضم هذا الكتاب التذكاري سبعا وعشرين شهادة ودراسة لسبعة وعشرين من أصدقاء الراحل الكبير وزملائه وتلاميذه وعارفي فضله ـــ في مصر وعدد من الأقطار العربية

ـــ تحاول اقتناص بعض تجليات هذه الشخصية الفذة: إنسانا وأستاذا وباحثا، وتستقطر قطرات من رحيق سيرته وآثاره الباقية: فهو الأحمد المختار الذي اختاره الله سبحانه ليجعل للعالم من كل نفس يتنفسه نصيبا مفروضا، في رأي الدكتور سعد مصلوح، وهو الركن الوحيد والحارس الأمين للفكر اللغوي العربي في تقييم الدكتور أحمد كشك، وهو النموذج للإنسان المتميز سلوكا، المهيب شخصية اللطيف معشرا كما يراه الدكتور سليمان الشطي، وهو الذي عاش سبعين عاما لم يكف خلالها لحظة من لحظات حياته عن الاطلاع والإنتاج في رأي الدكتور محمود الربيعي وهو الذي كان ينظر إلي الأمور بواقعية شديدة ويدرس الموقف من جوانبه كافة كما يراه الدكتور حمدي السكوت،

كما كان واحدا من القلائل الذين يحسنون تنظيم الوقت ويجيدون تقسيم العمل ويتقنون التخطيط لما يريدون في رأي الدكتور محمد حماسة عبداللطيف، وهو صمام أمان لكل مشروع ثقافي كبير بما يمتلكه من رحابة علمية وحس نقدي وسداد في النظر. كما يراه عبدالعزيز السريع. وهي جميعا كلمات تتركز فيها شهادات أصحابها ورؤاهم البحثية والدراسية من حول شخصية علمية فريدة استحوذت علي محبة الجميع ومودتهم وتقديرهم، وتركت أثرا لايمحي ولا يزول في وجدان كل من عرفوه عن كثب وأتيحت لهم زمالته أو صداقته أو التلمذة عليه.

من بين الشهادات التي حفل بها الكتاب الشهادة البديعة للدكتور محمود الربيعي التي جعل عنوانها: إلي صديق العمر الجميل: أحمد مختار عمر، ويقول فيها: كان مختار في تحصيله نموذجا فريدا للدأب والمثابرة والحصافة والتفكر والتدبر، وقد أصبح بفضل هذا كله ـــ حتي من قبل أن تنتهي فترة الطلب ـــ عليما بأسرار الديانات واللغي له خطرات تفضح الناس والكتبا وقد أهلته قدراته لأن يكون السابق في مضمار الدراسة بين أقرانه، فكان يجئ أول الدفعة في جميع السنوات، وحين تخرجنا في دار العلوم سنة١٩٥٨ جئت تاليا له ـــ علي رأس القائمة ـــ وأصبحنا معيدين في كليتنا، فأتاح لنا ذلك صحبة طويلة أخري لم يضع لها خاتمة إلا موته.

تخرجنا معا في البيئة الثقافية التي كانت تعج بها القاهرة في خمسينيات القرن الماضي، والتصقنا بغراء المعرفة، فصرنا كالتوأم، وأصبح اسمانا يذكران دائما مقترنين، وفي سنة١٩٦٠ سبقته لطلب العلم في انجلترا، ولحق بي هو بعد قليل ليطلب العلم في كمبردج في حين كنت أنا طالبا في جامعة لندن. وأتذكر بوضوح الليلة الباردة الماطرة التي استقبلته فيها في مطار هيثرو.

وفي البيئة البريطانية الجديدة ـــ التي لاتكاد تمت بصلة مادية أو معنوية إلي البيئة الأزهرية الدرعمية التي خلفناها وراءنا، واجهنا ألوانا جديدة من التفكير والنظر ضيقت من مسلماتنا ووسعت من اهتماماتنا.

وقد رأيت مختار عبر السنوات ـــ في البيئة الجديدة ـــ يتحرك بمرونة بالغة، من علم النحو إلي علم اللغة أي من المحلي إلي العالمي. هنا وجد ضالته فأبحر في مجالات لا محدودة، وامتحن طاقاته العاملة المنتجة فطاوعته بما مكنه من إنجازاته الكبري التي جعلته علما من أعلام الدرس اللغوي في العالم العربي، لقد استقر في نفسي نتيجة لما قرأت من إنتاجه ـــ ولم أقرأ إنتاجه كله ـــ أن ما أنجزه في مجالات علم الأصوات وعلم الدلالة وعلم المعاجم سيبقي عوامل فاعلة في تطوير الدرس اللغوي العربي الحديث، وسيوفر زادا مفيدا لأجيال الدارسين في شتي أرجاء الوطن العربي.

وقد بهرني ـــ بصفة خاصة ـــ ما لاحظته لديه من اتساع دائرة الصحة اللغوية وتقلص دائرة الخطأ، وتلك هي العلامة التي لاتخطئ عندي علي المرونة العقلية، وتجاوز قشور المعرفة، والوقوف علي لبها وجوهرها. وأعول في هذا علي تجربتي الشخصية معه حين أقول إنني كنت أجد عنده دائما احتمالا من احتمالات الصحة في كل مسألة يميل دعاة الحفاظ علي اللغة إلي إصدار حكم نهائي بالتخطئة وغلق باب الاجتهاد فيها، ذلك لأنه لم يكن يستريح مطلقا ـــ وهو صاحب العقل النشط والذاكرة المتوقدة والبصيرة النافذة والنظرة الشاملة والفؤاد الذكي ـ إلي تحمل مسئولية غلق باب الاجتهاد.

ولم يفت الدكتور الربيعي أن يرصع شهادته بلآلئ مشعة من شعر المتنبي تنطق بما سكت هو عن بيانه، أو تؤكد ما قصد إليه في تبيانه، فهو يصف مختار بأنه ـــ منذ يفاعته ـــ شيخ في الشباب بتعبير المتنبي، وأنه كان وافر النشاط والديناميكية علي نحو لافت لنظر الجميع، وكان يخيل إلي أن الحياة أنضجته قبل الأوان، وأن المتنبي كان يصفه فيمن يصف حين قال:

ترعرع الملك الأستاذ مكتهلا
قبل اكتهال، أديبا قبل تأديب
مجربا فهما من قبل تجربة
مهذبا كرما من قبل تهذيب
حتي أصاب من الدنيا نهايتها
وهمه في ابتداءات وتشبيب

وفي شهادة الدكتور أحمد كشك ـــ عميد كلية دار العلوم ـــ ما يكشف عن تماسك الضوابط العلمية ـ لدي الدكتور أحمد مختار عمر ـــ مع الضوابط الأخلاقية، فهو مع العدل

في كتاباته وفي الاعتراف بالآخر، وفي وزن الأفكار والأمور وزن القاضي الذي يدرك أن الحق غايته ومنتهاه، فهو إنسان منضبط متحضر، يعرف للآخرين حقهم كما يعرف حق نفسه. وهو عاشق العربية التي أحكم رؤيتها مستخدما أنقي الوسائل المعاصرة، فمن خلال إطلالة أوروبية استطاع أن يمسك بأمرها دون افتعال. ورغم وثاقة الدرس الأوروبي لديه لم يطنطن به. كما طنطن الآخرون وإنما أضحت هذه الإطلالة نافذة ووسيلة لكشف العربية ذات الهمة والجلال. كما يلتفت الدكتور كشك إلي ما تميز به الدكتور أحمد مختار عمر من أن طريقه طريق اليسر والوضوح. فلا يوجد له مؤلف يغرب عن الدارس أو يستعصي عليه، ومن أجل ذلك هو مورد واضح ومرجع لكل دارس في حقل اللغة. وإذا أردت المصطلح لديه دون لف أو دوران وجدته. وإذا أردت النبر والتنغيم والمقطع وأحدث ما وصل إليه الدرس اللغوي من مناهج وجدت ذلك كله سهلا ميسورا دون مشقة أو عناء، فلغته لغة اليسر والسهولة والوضوح، وهي لغة تصل إلي مرادها من أقصر طريق. وهو جامع بين النظر والتطبيق.

وهم التطبيق لديه يمثل أرقه، فهو الباحث من خلال ملكاته وقدراته في الإذاعة والتليفزيون وفي الصحافة وفي المجتمعات الأكاديمية والمجمع اللغوي عن امتلاك قدرة الصواب والبحث عن طريق سوي للغة الاستعمال، فضلا عن وضوح إيمانه بعمل الفريق، ومن ثم كان أقدر المعاصرين علي العمل الموسوعي خاصة في حقل الدراسات المعجمية من خلال توفير طاقات الدارسين في عمل جماعي دقيق موحد.

إن صدور الكتاب التذكاري: عاشق اللغة العربية: العالم الجليل الدكتور أحمد مختار عمر ـــ بعد أكثر من عام علي رحيله ـــ هو لمسة وفاء وتقدير من مؤسسة البابطين التي اختصها الراحل الكبير بالموفور من جهده ونشاطه في سنواته الأخيرة مستشارا لمعجميها الشعريين، ومن النخبة المتميزة من أصدقائه وزملائه وتلامذته ومريديه الذين شاركوا بشهاداتهم ودراساتهم، ومن عبدالعزيز السريع وماجد الحكواتي اللذين أعدا الكتاب للصدور، فأتاحوا جميعا لعطره الباقي مزيدا من الفوحان، ولمشروعه اللغوي المتكامل أقباسا من الكشف والتقييم والتجلي.

زوجي . . ثروت أباظة

بقلم: فاروق شوشة

هـذا كتـاب جميـل ، عـام ر بـالقيم النبيلـة ، والمعـاني واللفتـات الانـسانية ، والمشاعر الحـارة الـصادقة ، كتبتـه الـسيدة عفـاف عزيـز أباظـة عـن زوجهـا الكاتـب الكـبير الراحـل ثـروت أباظـة ، كاشـفة عـن الكـثير مـن المواقـف والأحـداث والعواطـف والتفاصـيل - الـتي امـتلأت بهـا حيـاة زوجيـة جمعـت بينهمـا علـي امتـداد أكثـر مـن خمـسين عـام ا ، بحلوهـا ومرهـا ، بـسعادتها ومعاناتهـا - ومقدمـة لقارئهـا عمـلا أدبيـا بـديعا ، ينطـق بقـدرات كاتبته وموهبتها وسيطرتها علي اللغة والتعبير .

ولقـد سـبق للـسيدة عفـاف أباظـة أن ألفـت كتابـا عـن أبيهـا الـشاعر الكـبير عزيـز أباظـة صـدر عـام ١٩٧٣ ، وسـكبت فيـه الكـثير ممـا تـسكبه ابنـة عاشـقة لا بيهـا ، تـري فيـه مثلـها الأعلـي في الرجولـة والحنـان والمـشاعر الكريمـة ، وفي وفـرة العطـاء الروحـي ، والعـرب كانـت تقـول: كـل فتـاة بأبيهـا معجبـة لكـن اعجـاب المؤلفـة بأبيهـا الـشاعر الكـبير جعلـها مـستلهمة بعـض لغتـه وشـاعريته وهـي تكتـب عنـه في مرحلـة الافتقـاد الـتي عاشـتها إثـر رحيلـه .

لكـن الكتابـة عـن الـزوج الحبيـب ، شـريك رحلـة الحيـاة الطويلـة الممتـدة ، فيهـا مـن الخـصوصية و الأمـور المـشتركة ممـا يجعـل الكتابـة أكثـر صـعوبة وقـسوة علـي الـنفس . وهـو ما يفسر لنـا قولهـا علـي غـلاف كتابهـا زوجـي ثـروت أباظـة الـصادر ضـمن سلـسلة اقـرأ عـن دار المعـارف: رحـل زوجـي ثـروت . فقـالوا لـي: اكـتبي كمـا كتبـت عـن أبيـك عزيـز أباظـة ، لكـني كنـت غارقـة في أحزانـي ، ولم يكـن في اسـتطاعتي أن أكتـب ، أو حـتي أفكـر . ومرت الأيام واستطعت أن أتمالك نفسي وأمسك بالقلم .

دام زواجنـا مـا يربـو علـي خمـسين عـام ا ، ولا أدعـي أن هـذه الأعـوام كانـت كلـها سـعادة وسـلاما ، فلـيس هـذا مـن طبـع الأيـام ، لكـني اكتـشفت حـين بـدأت الكتابـة أنـي لا أذكر إلا الأيام الجميلـة واللفتـات الرقيقـة . وماعـدا ذلـك فقـد غـاب عـن مخـيلتي ونـسيته تمامـا . ليتنا عرفنا ذلك قبل أن يرحلوا .

المـألوف أن يكتـب الرجـال عـن النـساء ، وأن يكتـب الأزواج عـن الزوجـات ، بكـاء أو وداعـا أو رثـاء أو اسـتدعاء لـذكري أو تـأملا لمرحلـة مـن العمـر . وقـد عرفنـا مـن هـذا القبيـل ديـوان عزيـز أباظـة في رثـاء زوجتـه الأولـي - والـدة الـسيدة عفـاف - وهـو ديـوان أنـات حـائرة ، كمـا عرفنـا ديـوان الـشاعر والفنـان عبـد الـرحمن صـدقي في وداع زوجتـه ، وديـوان الـشاعر والأديـب الـدكتور محمـد رجـب البيـومي في رثـاء زوجتـه ، وديـوان الـشاعر والكاتـب

الإذاعـي الكـبير طـاهر أبـو فاشـا في بكـاء زوجتـه . هـذا هـو المعهـود والمـألوف . لكـن كتابـات الزوجـات عـن الأزواج أمـر جديـد في حياتنـا الأدبيـة المعاصـرة ، تـشهد بمـا أتـيح للمـرأة مـن وعـي ونـضج وحريـة ، وقـدرة علـي اسـتدعاء عـالم مـن الـذكريات والخـبرات والتجـارب ، تـبني مـن دقائقـه وحبـات عقـده صـورة زوج وقـصة حيـاة . هكـذا فعلـت الكاتـب عبلـة الـرويني حـين كتبـت عـن زوجهـا الـشاعر المبـدع الراحـل أمـل دنقـل كتابهـا الجميـل الجنـوبي وهكـذا تفعـل إلى وم الـسيدة عفـاف أباظـة وهـي تكتـب عـن واحـد مـن أعـلام الكتابـة الأدبيـة والروائيـة في حياتنا الأدبية المعاصرة ، بوصفه زوجا وأبا قبل أي شيء آخر .

تقـول عفـاف أباظـة : نـشأ ثـروت أباظـة في بيـت عـز وكـرم وثـراء ، وترعـرع في جـو كلـه مبـادئ وأخـلاق ، وفي جـو كلـه سياسـة ووطنيـة ، وفي محـيط كلـه شـعر وأدب . فجـري كـل ذلـك في دمـه ، وتكونـت شخـصيته الحـرة الأصـيلة الـتي لا تقبـل إلا الحـق ولا ترضـي عـن الحرية بديلا .

وتقـول : لم يكـن ثـروت طفـلا مثـل بـاقي الأطفـال ، فهـو لم يتمتـع بطفولتـه ، ولم يلعـب كـثيرا معهـم . وإنمـا كـان يـصاحب والـده في كـل مكـان يـذهب إلى ه ، فكـان يجـالس الوزراء والكـبراء والأدبـاء والـشعراء . ولـذلك فهـو لم يتهيـب المناصـب في كـبره لا نـه نـشأ بينهـا . صـحبه والــده أكثــر مــن مــرة إلى مجلــس النــواب وجلــس في شــرفة الــزوار واســتمع إلى المناقـشات الـسياسية وتفتحـت عينـاه علـي مـا يـدور في المجـالس النيابيـة ، فجمـع مـع حـب الأدب تفهـم الـسياسة ، فكانـت كتاباتـه ـ عنـدما بلـغ سـن الـشباب ـ خليطـا مـن الأدب والـسياسة . كـان في نظـر إخوتـه الـذين يـصغرونه بـسنوات بـسيطة هـو الأخ الأكـبر الـذي لـه الحـق في مجالـسة الكبـار ، وفي مكانتـه المميـزة عنـد أبـو يـه . ولعـل ذلـك يرجـع إلى أنـه أكـبر الأولاد ورزقا به بعد ثلاث سنوات من الانتظار والقلق .

وتعـترف المؤلفـة بمـا كـان بينهـا وبـين زوجهـا ـ الكاتـب الكـبير ـ مـن تـشابه واخـتلاف ، وهـي تقـول بلغتهـا الرائعـة المنـسابة وتعبيرهـا الأدبـي الجميـل : كـان وجـه الـشبه بيننـا أن كـلا منـا لـه ضـمير حـساس ويجـري في دمائـه حـب الـشرف ، وكلانـا يحـب الـشعر ، ومـن حـسن حظـه أنـني أحـب الأدب وأحـس بكـل مـا يكتبـه . وكلانـا يحـب كـل مـا هـو جميل .

أمــا أوجــه الاخــتلاف بيننــا فكانــت في الحيــاة إلى وميــة ، ولــيس في الخطــوط العريـضة . فقـد كـان هـو صـريحا إلى أبعـد درجـة ، يواجـه النـاس بالحقـائق في غـير مواربـة . وكنـت أغـضب شـفقة علـيهم ، وأحيانـا أتـبني رأيهـم حـتي ولـو لم يكـن رأيـي . وهـذا كـان أسـاس خلافاتنـا خـصوصا في أول الـزواج ، وكنـا نختلـف أيـضا في طريقـة تربيـة الأولاد فهـو أب يمــلأ قلبــه الحنــان والعطــف علــي أولاده . لا يحــب أن يــراهم يبكــون . ولايحــب أن

يعاقبهم أحد . وكنت أري أن من واجبي أن أوجههم وأعلمهم باللين أولا ثم بالشدة ثانيا ، وكانت هذه الشدة مثار الخلاف بيني وبين زوجي .

الطريف أن السيدة عفاف أباظة - بكل الصدق وصراحة البوح - تعترف بأنها لم تكن مقتنعة بالزواج من ثروت أباظة في أول الأمر ، وعندما سئلت عن رأيها فيه لم يكن لها عليه اعتراض إلا صغر سنه ، والفارق البسيط بينهما في السن . ولقد كانت تشعر بتباعد كبير في أفكارهما فهو انسان مطمئن النفس لا يري الدنيا إلا في قالبها الوردي ، وأراها أنا قاتمة الوجه ، فكيف يجمع بين النور والحلكة وبين البساطة والتعقيد ؟ ثم هو يريد ككل شاب أن يكون أبا ويري أولاده يمرحون من حوله ويملأون دنياه حبا وسعادة . أما أنا فأري في إنجاب الأطفال جريمة - وهذا الرأي خاص بي - فمن منا يضمن أنه سيعيش حتي يري أولاده ؟ ومن منا يستطيع أن يمنع ما يراه أطفاله بعده من هوان وعذاب ؟ ثم إذا جاء الطفل مشوها أو متخلفا كيف أغفر لنفسي أنني أنا السبب في ذلك ؟ ومن الغريب أن يكون تفكيري علي هذا النحو من التشاؤم ولم أكن قد تجاوزت الثامنة عشرة ، ولكن قد يكون موت أمي وأنا في العاشرة هو الذي جعلني أصدم في الدنيا وأصدم في الناس ، وجعلني أري ما يخفي عن الأطفال . فالأم تحمي أولادها كالمظلة تقيهم الحر والبرد والمطر ، فإن ذهبت كشرت الدنيا عن أنيابها وزمجرت !

وفي واحد من أكثر فصول الكتاب متعة وصراحة ، تصور المؤلفة مشاعرها بعد أن تمت خطبتها لثروت أباظة - بعد أن أحست أن موافقتها من شأنها أن تسعد أباها سعادة غامرة تملأ كيانه وتتبدي في كل حركة من حركاته وفي كل سكنة من سكناته - فقد أخذت تقارن بين نفسها المضطربة ونفسه المطمئنة الآمنة : وخشيت الأيام ، كانت فترة الخطوبة عبارة عن تحفظ دائم من ناحيتي وعن حب متدفق كالشباب من ناحيته .

كنت أراه كل يوم يتناول غداءه معنا ، كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ثم يعود في المساء بابتسامة هادئة وبقلب ملتهب . وكنت أسأل نفسي هل أستحق منه هذا الحب ؟ وكنت دائما أجيبها بغرور الشباب واعتقادي أن مثلي يجب أن يحب إلى هذه الدرجة بل وأكثر . ولكن مثلي تهزه دائما العواطف الجياشة الصادقة التي يحسها من قلب محب .

فلقد وجدتني يوما - وبدون سابق إنذار - أشعر بتناقض في مشاعري أحسست بأن هذا الثلج الذي تراكم علي قلبي كاد يذوب ، إنني لم أكن أتصور أن قلبي سيخفق يوما بالحب . ولكن ، إذا بي وبعد شهور أسأل ابن خالي - وكان أخا وصديقا - هل يمكن أن يكون تفكيري الدائم فيه حبا ؟ وهذا القلق إذا غاب والفرح إذا أقبل - أيكون هذا هو ما يسميه الناس بالحب ؟ وهذه الخفقات التي تعلو حتي يكاد يسمعها الناس من

حولي وهذا اللهيب الذي يطفو من القلب إذا هو ناداني أو نطق باسمي ، إذا كان هذا هو الحب فأهلا به بعد طول الغياب ! .

في الفصل الذي يحمل عنوان أبو ة حانية وتدليل تصور السيدة عفاف أباظة معاناة ما بعد الزواج في تربية الأولاد حين تقول: وبعد مضي خمس سنوات رزقنا الله بأول طفلة واسميناها أمينة علي اسم زوجة أبي أمينة صدقي ، وهي الأم التي أكرمنا بها الله بعد وفاة أمنا . ومضي العهد الذي تصرفنا فيه كشباب مدلل وبدأ كل منا يمد يده للآخر ، ويسانده بكل ما أوتي من قوة ويعتبر كل منا الآخر كهفه الذي يحميه من الأيام . ولكن بدأ الخلاف علي تربية الأولاد . فويل لأم من أول طفل وويل للطفل من أول أمومة . فالطفل الأول يعاني من عدم خبرة أمه ، والأم تعاني بدورها لا نها لم تتعامل قبل ذلك مع هذه المخلوقات الصغيرة ، فكلاهما معذب . وبعد عام ين جاءنا دسوقي وهو علي اسم دسوقي باشا والد ثروت . بدأت الخلافات لا ني كنت أريد الدقة في المواعيد وفقا لما قرأت في كتب تربية الأطفال وكان زوجي يسخر من مواعيدي ومني ويوقظ الأولاد بعد أن يناموا لا نه اشتاق لهم .

وقد أخذ دسوقي وأمينة عن أبيهما القيم والأخلاق والصدق والسعي في مساعدة الناس بكل قواهما ، وأخذا أيضا حب الخير والعطف علي المحتاجين ونجدتهم . وظل ثروت يرعي أولاده ويغدق عليهم من حبه وحنوه ، ولم يبخل عليهم بماله ولا بجاهه ، وكان حصنهم الحصين ، وأما أحفاده فكانوا النور الذي يضيء حياته وينسيه كل متاعبه . وهم بدورهم يرتمون في أحضانه ويجدون عنده الأمن والأمان .

وفي الفصل الذي يحمل عنوان أصدقاؤه تروي المؤلفة كثيرا من التفاصيل والمواقف عن صداقات ثروت أباظة وعلاقاته الحميمة مع عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين والأديب العالمي نجيب محفوظ والأديب الكبير توفيق الحكيم والأستاذ الكبير عباس محمود العقاد والصحفيين اللامعين حسين وأحمد أبو الفتح والموسيقار محمد عبد الوهاب ورجل الأعمال طارق حجي ـ الذي اعتبره ابنا له ـ وأستاذ القانون الدستوري عثمان خليل عثمان ، والكاتب الكبير يوسف السباعي والطبيب العالمي الدكتور أحمد عكاشة وشيخ الإذاعيين علي خليل ، والكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوي بالرغم من اختلافهما الشديد في الآراء السياسية . والكاتب القصصي أمين يوسف غراب والطبيب الشاعر إبراهيم ناجي ـ الذي كان عضوا في جماعة أدباء العروبة التي كان يرعاها دسوقي باشا أباظة وهي الجماعة التي كان من شعرائها أيضا العوض الوكيل ومحمود غنيم ومحمد مصطفي حمام وطاهر أبو فاشا وأحمد مخيمر وأحمد عبد المجيد الغزالي .

وما أروع المؤلفة ـ التي يكفيها مجدا كما قالت أنها بنت عزيز أباظة وزوجة ثروت أباظة ، لا نها أتاحت لنا من ذوب قلبها ونفثات قلمها لوحات بديعة نابضة

بالصدق والأصالة والحياة - وهي تقول في ختام كتابها : كانت فترة زواجنا غير تقليدية ، ولم يكن ما يربط أحدنا بالآخر العشرة ، كما يقولون ، وكما هو الحال في معظم الزيجات ، وإنما كان يربطنا الحب الحقيقي ، ولايمكنني أن أقول إن اثنين وخمسين عاما - وهي عمر زواجنا - كانت كلها سعادة في سعادة ، ولكن أستطيع أن أقول إنها كانت كلها حبا في حب ، فقد كان كل منا يحمل للآخر مشاعر جميلة وأحاسيس صادقة ، استطعنا بها أن نجتاز الصعاب وأن نواجه الأعاصير الجارفة التي تهب على كل البيوت فتقتلعها ، ولكنها لم تستطع أن تقتلع الحب الذي بيننا إلى أن ودع الحياة وتركني لا أذكر إلا أجمل الذكريات !

محمود الربيعي بعد الخمسين

لماذا أحرص علي كتابة سيرتي الذاتية ، وأجعلها في جزأين لا جزء واحد ، ما دمت لم أدخل سجنا ، ولم تكن لي مغامرات سياسية أو ثورية ، ومادمت لست دونجوان العصر ، ومادمت لم أجرب الشك الديكارتي أو حتى الشك الغزالي ؟ وكيف أقدم للقاريء سيرة خالية من الإثارة ومظهرها الكلام في المحرمات الثلاث: الجنس والدين والسياسة ، ثم أبكي لا ن القارئ لم يحفل بها ؟ وكيف أعيد الكرة ، مع أن سيرتي - في جولتها الأولي - لم تظفر سوي باهتمام ما ثة قاريء فقط في الوطن الواسع ؟ ولماذا أدخل الناس إلى بيتي ما دمت لست مستعدا لا ن أريهم دورة المياه علي حد ملاحظة محمد مستجاب ؟

بهذه السطور ، المتلئة بالتساؤلات ، يضعنا محمود الربيعي أمام ضرورة الجزء الثاني من سيرته الذاتية وقد سماه بعد الخمسين باعتبار أن الجزء الأول حمل عنوانا لا فتا هو: في الخمسين عرفت طريقي .

وهو في هذا الجزء الثاني يستقطر خلاصة عقدين من الزمان ، عاشهما بعد صدور الجزء الأول ، اهتز فيهما وجدانه وعقله بعنف مع ثلاثة زلازل في حياته:

عمله وكيلا للتعليم والطلاب في كلية دار العلوم ، ثم عمله في الجامعة الأمريكية ـ وهو عمل مستمر حتي الآن علي امتداد ثمانية عشر عام ا من الزمان ـ وانتماؤه المبكر إلى الحياة الثقافية في وجوهها وصورها المختلفة ، يتباين وقعها في مرآة نفسه إيجابا وسلبا ، إقبالا وعزوفا ، مشاركة وانفصالا ثم هو يفسح من خاتمة كتابه مكانا دافئا لصور قلمية تحمل أصداء ذكريات قديمة له مع نخبة ممن تلقي علي أيديهم أوائل المعرفة . لا يعرفهم - بالطبع - قاريء كتابه ، لكن ربما استوقفه عنوان هذه الخاتمة: علموني فتعلمت بهم ، بعد أن نجح محمود الربيعي في أن يدفع بنا - نحن القراء - إلى استرجاع أزمنتنا المشابهة الجميلة ، والوجوه التي علمتنا ، وغابت ، وبقي عطرها - كما يقول هو يرطب روحنا وينعش أيامنا ويعبر عن ارتباطات قلبية حميمة لا تزال تعمر ركنا حانيا في نفوسنا .

هذا هو محمود الربيعي ، المتوهج بصفاء الوفاء ، لزمرة من المجهولين لنا ، المعلومين لديه جيدا ، وقد حفر كل منهم في وجدانه وعقله سطورا ودروبا وآفاقا وحوارات وأسئلة ومواقف . اتكأ عليها ثم النفع بشملته ومضي .

وهو في هذا الجزء الثاني من سيرته الذاتية ، يكتب براحة أكثر ، واندفاع أكبر في بعض الأحيان وبعض الأمور ، وبساطة أو تبسيط غير مخل ـ لم يكن حريصا عليه في كتابه الأول - وماذا عليه لقد جرب من قبل وأدرك الصدي ، واستراح للنتيجة بالرغم

مـن بعـض اللجـج والمماحكـات الـتي اعتـدناها جميعـا ممـن لا بـد أن يكـون لهـم كـلام في أي كلام ، ويد عليا علـي كـل مـن يعمـل عمـلا يـضع فيـه نفـسه وعمـره . لـن يـستوقفه هـذه المـرة تـصور تلـك الوجـوه وهـي تعلـق وتنتقـد ، ولـن تعـوق حركتـه وانطلاقـه ، فهـي ـ أولا وأخـيرا ـ تصدر عن ذاتها هـي وهـي بالتأكيـد غـير ذاتـه ، وتـري الأشـياء كمـا لم يرهـا هـو إذن مـن الـذي يعنيه أو يستوقفه من كل هذه المشاغبات ؟

إنــه الآن مـدرك هدفــه في يقـين سـاطع . لا تـشغله الطريقـة أو الـنهج أو الأسـلوب ، أو محاولـة تـصنيف سـيرته الـتي يعتبرهـا تعليميـة بـين سـير الآخـرين مـن أمثـال طـه حـسين والعقـاد وسـلامة موسـي وغيرهـم . فهـو في كـل الأحـوال يقـدم شـهادته علـي العـصر المـتردي في المجـالات الـتي شـغلها أو انـشغل بهـا . التعلـيم الجـامعي في مجـالين متبـاينين: دار العلـوم والجامعـة الأمريكيـة والحيـاة الثقافيـة علـي اتـساعها واضـطرابها وتناقـضاتها . وهـو يفـضح هـذا الـتردي بلغــة حاسمــة بــاترة ، لا شـبهة فيهـا ولا مراوغــة ، ولا مــسكوت عنــه في ثنايـا الكـلام . بـل هـو يفـيض ويـشرح ويـسترسل ـ في غـير ملـل ـ وكأنـه مـستمتع حتـى بانثيـال كـلام الــلاذع علــي صــور الفــساد ، والتــدهور ، والتحلــل مــن المــسئولية ، وعــدم الانــضباط ، والتــشدق ـ كــذبا ـ بالكلمـات الـضخمة الطنانــة ، والتــبجح بالــشرف والاســتاذية ممــن لا يعرفــون شــرفا ولا يليقــون بالأســتاذية ، والتــسارع والتنــافس في اســتعباد الإنــسان لنفــسه واسـتعباد غـيره لـه مـن أجـل غايـة رخيـصة أو منـصب لا يـستحق ، أو منفعـة يـضحي مـن أجلها بكل مما يدعيه مـن قـيم ومـا يتـشدق بـه مـن مثـل لم اقـرأ نقـدا لتعليمنـا الجـامعي وحياتنـا الثقافيــة ، وتــشريحا للواقــع فيهمـا بمثــل هــذه الجــرأة والــشجاعة ، وروح المــسئولية ، والرغبــة العميقــة في وقــف التــدهور وصـد التهافـت . محمـود الربيعـي ـ في هـذا الجـزء مـن سـيرته الذاتيــة ـ يمـارس علـي الجميـع: الأسـاتذة والإداريـين والطـلاب والمـوظفين وأصـحاب المغــانم والطــامعين فيمــا لا يــستحقون ، يمــارس علــي الجميــع نقــدا ثقافيــا ، احتــشد لــه بمعرفــة موضــوعية كاشــفة ، ووعــي عميــق جــاد ، وروح متوهجــة بالإنــصاف والمــسئولية ، ورغبــة صـادقة في إنقـاذ القطـار الـسريع المنـدفع إلى الهاويـة: نحـن نمـر بحالـة بلبلـة ثقافيـة منقطعـة الـنظير ، وهـي حالـة مختلطـة العناصـر ، معقـدة التركيـب . ومـن الـصعب تبـسيط الكـلام عنهـا . إنهـا صـورة حياتنـا عمومـا ، الـتي يمكـن أن نتحـدث عـن مظهـر واحـد مـن مظاهرهــا لا خــلاف عليــه فيمــا أري ، وهــو مظهــر العــشوائية . والكــلام في عــشوائية الثقافـة لا بـد أن يـسلم إلى الكـلام في عـشوائية التعلـيم ، وعـشوائية العـادات الاجتماعيـة وفي مقـدمتها أسـاليب المعيـشة مـن شـراب وطعـام ولبـاس ، ثـم الحيـاة الـشعورية الـتي يـصعب التفرقـة فيهـا بـين وهـم الخرافـة وصـحة المعتقـد ويحـار الإنـسان في كيفيـة بـدء الأسـئلة ، وتـوفير الأجوبـة ، عـن أصـل العلـة في حياتنـا ، ومرجـع الخلـل الـذي يستـشعره الجميـع . فهــل هــذا الخلــل خلــل إداري ، يتــصل بــإدارة دولاب الحيــاة ؟ أو هــو خلــل في الــنقص

المعرفي ؟ أو هو خلل في ضبط رد الفعل الشعوري ؟ أو هو خلل في علاقتنا ببيئتنا المادية والمعنوية ؟ أو هو خلل في كل هذه الجوانب جميعا ؟ وهل النقص الذي نعانيه مرده غياب الخطة ؟ أو غياب العمل الجماعي ؟ أو غياب الديمقراطية ؟ وهل غياب الديمقراطية مثلا يتجلي بأبشع صوره في تسلط الأب في الأسرة ؟ أو رئيس العمل في المصلحة ؟ أو رئيس القسم العلمي في المؤسسات الأكاديمية ؟ أو عميد الكلية ؟ أو رئيس الجامعة ؟ أو كل هؤلاء جميعا ؟

هذه السطور عينة جيدة التمثيل لهذا الكتاب البديع إفضاء وبوحا ، ولغة وأسلوبا . هي نفسها لغة محمود الربيعي وأسلوبه في سائر كتابه ، لكنها في الجزء الأول من سيرته الذاتية كانت أكثر نداوة بمسحة روحية أدبية جعلتني ألتمس في ثناياها ظلالا صوفية . كان زهد كاتبها وعزوفه عن البريق والشهرة وذيوع الصيت والترويج لكتابته بعض سمات هذه الصوفية التي اعتصم صاحبها بأقانيمه في النشأة الصعيدية والطبيعة الريفية وحميا التربية الدينية في الكتاب وفي الأزهر ، والانغماس في الثقافة التراثية والحوار معها ومقاربتها كثيرا بعيد التأمل والاكتشاف والإعجاب المتنامي . وهو في ذلك كله نموذج للمتطهرين الذين أصبحوا شخصيات أدبية في عوالم روائية عديدة ، وفي مواقف حياتية ومعارك فكرية كثيرة . أما في هذا الجزء الثاني فاللغة عادية ومباشرة ، مرصودة لهدف واضح محدد ، إن الكاتب لم يعد مكتفيا بالإعلان عن معرفة طريقه في الخمسين ، إنه الآن يقطع الطريق ويذرعه مرات ومرات ، ويخوض فيه ويجول ويصول ، ويكتوي بنيرانه وعذاباته ، وطموحاته وإحباطاته دون يأس أو كلل وهو يملك أن ينظر إلى أبعد ويدرك كيف يدل الحاضر ويشف عن النهايات البعيدة . هو الآن مبشر صاحب دعوة ورسالة ، في ضوئها ينقد ويهاجم ويعترض ويصنف ويبوح ، بعد أن كان متصوفا زاهدا ، قانعا بلغة الرمز وأقنعة المعني ومراودة الأحوال والمقامات . لقد فاض الكيل ، ولم يعد هناك متسع لمزيد من انتظار المرارات ، فليقل كلمته ، وقد قالها بكل الشرف والمسئولية والصرامة .

مرة واحدة خرج محمود الربيعي علي هذه اللغة العارية المباشرة ، واسترد لغته الشعرية الظليلة في لحظة من لحظات وجوده في كمبردج فنسج لوحة قلمية بديعة تفجرت من خلالها قصيدته المفاجئة التي حملت عنوان يوم من أيام كمبردج فتذكرت الصفحات الأولي من كتابه الأول وقد توهجت اللوحة القلمية بوقفة شاعرية مع قريته جهينة في قلب الطبيعة علي تعاقب الفصول والألوان والظلال وكما كان يتوحد مع عالم قريته ومدي طبيعته المترامي ، فقد توحد في كمبردج مع طبيعة مغايرة ، ووعي مختلف:

اخرج تحت المطر المنهمر مع الليل وحيدا

لايؤنسني إلا وقع خطاي

أخلط نفسي بالنهر وبالعشب وبالقنطرة الحجرية

بالشجر المبتل المتمايل تحت الريح وبالريح

بالأرصفة اللامعة الممتدة

بالمعمار المتسق المتناغم

بالفهرسة المتوازنة لمجمل ما تدركه العين

وما يدركه القلب

. . . .

وأري نفسي دائرة صغري في الدائرة الكبري

أتحرر من كل الأوهام !

ها هو ذا في الجزء الثاني من سيرته الذاتية يدعونا ـ نحن قراءه ـ بوعي الناقد الكبير والاستاذ الجامعي الجاد ، والمبدع حتى النخاع ، إلى التحرر من كل الأوهام كما تحرر هو وإلي أن نري انفسنا دوائر صغري في الدائرة الكبري ، لندرك معني انتسابنا إلى العالم ، وأحقيتنا بهذا الانتساب .

الذين عرفوا محمود الربيعي وأحبوه ، كما أحببته ، سيزدادون ـ بفضل هذا الكتاب ـ تمسكا بمحبته وحرصا عليها . أما الذين ينفسون عليه عصاميته وكبرياءه وتعففه ، فلن يزيدهم هذا الجزء الثاني من سيرته الذاتية الاغتاورهقا وسوف يدركون بعد المسافة والمنتأي بينهم وبينه ، ذلك أن المعدن مختلف ، والهدف مغاير والذي يقفون عليه ـ متوهمين أنهم قد ارتفعوا وطالت قاماتهم ـ ليس إلا تلا من الرمال !

كروان الإذاعة ومستقبل التليفزيون

بقلم : فاروق شوشة

لخص أندريه ما لرو ـ وزير ثقافة فرنسا في عصر ديجول ـ الصفة العالمية للثقافة متمثلة في الفيلم السينمائي بقوله: تؤدي فيه ممثلة سويدية ، دور بطلة روسية ، تحت إشراف مخرج أمريكي ، ليستدر الدمع من عيون أهل الصين .

وتستوقف كروان الإذاعة محمد فتحي عبارة ما لرو ـ الذي يصفه بأنه شخصية حضارية عالمية فذة بهرت العالم بسيرتها التي تمتلىء بمعالم البطولة وآيات التحرير والوعي الثقافي الباهرة ساهم في حركات التحرير العالمية وطرق أبو اب الصين الحديثة ، وفقدته فرنسا عام ١٩٧٦ ـ تستوقفه عبارة ما لرو وهو يتناول بفكره المستقبل ، في كتابه ، عالم بلا حواجز ، تليفزيون الغد ، وعلي أية صورة سيكون ، وما حجم تأثيره علي البشر ، مرددا مقولة ويلسون ديزارد إن في وسع الانسان أن يجعل من هذه الأداة العالمية فاتحة عهد جديد من السلام الحقيقي أو أن يجعلها أعظم سيرك للتلهية عرفه العالم !

في رأي كروان الاذاعة أن مستقبل التليفزيون يثير القلق ، شأنه في ذلك شأن أجهزة الاتصال الجماهيرية الأخري . فإذا كان القول الفصل في مسار التليفزيون هو للجماهير العريضة المستهلكة ، التي تتغذي بما تقدمه لها الأجهزة ، والتي تتحمل في النهاية ثمن الاعلان المنتج للبرامج ، فالمستوي المرتقب لا يمكن أن يبشر بالخير . ذلك أن أذواق الجماهير فيما هو معلوم تجنح دائما نحو المستويات المنحدرة التي لا تتسم بالمعقولية بل تعاديها ، ودأبها أن تطارد القيم المهذبة الذكية من مناهج الصحافة والإذاعة ـ بشقيها ـ وتضيق عليها الخناق حتي تطردها ، كما تطرد العملة الرديئة العملة الجيدة من السوق .

وهو يري أن الصحف الجدية ذات القيمة ـ علي نطاق العالم كله ـ تشقي في معاناة اقتصادية مزمنة ، في حين تنعم صحف الإثارة والفضائح بالرخاء والازدهار . وكذلك الحال في الاذاعات المرئية: المسلسلات التي تضج بالعنف والجنس والجريمة يجري وراءها الجمهور ويلح في طلبها ، في حين يغمض عينه ويصم أذنه عن برامج المعرفة والتنوير . ممالأة الجماهير ومداهنتها ومخاطبة غرائزها تبسط لها الأيدي ، ولكنها مفلسة إزاء الذوق والفكر وقيم الخير .

ذلك أن التقدم التقني ـ أو التكنولوجي ـ الذي يطور الأجهزة بصفة عام ة يركض ويقفز ، ولكن تقدم المضمون التليفزيوني عاثر لا ينبيء ببشارة . هذا التناقض الصارخ يثير في النفس الشعور بالاحباط والبرم بالسياسات الاعلامية . فالرسالة الاتصالية المكتوبة

، سواء كانت في شكل كتاب أو صحيفة أو في أي منشور مطبوع ، قاصرة عن بلوغ كل البشر ، ذلك أن فك رموزها سر لم يشارك فيه نصف البشر ، أو ربما أكثر . والنصف الآخر يرتع في بحبوحة الجهالة أو ما تسميه اللغة العربية المهذبة: الأمية . فالصحيفة ، رغم أنها أوسع أدوات الاتصال المطبوعة انتشارا إلا أنها محدودة الأثر ، لا من حيث قدرتها علي التأثير ، ولكن من حيث أعداد المنتفعين بها .

والفيلم السينمائي ـ بالرغم من انتشاره ـ أداة نشأت وترعرعت في أحضان الترفيه المطلق ولخدمة أغراضه ، فضلا عن أن الدفة في سفينته تمسك بها يد التجارة !

والراديو ـ هو الأداة الوحيدة التي لا تزال تنتشر بالسرعة المواتية لمقابلة احتياجات العصر الاتصالية . ولكن شتان بين أداتي الراديو والتليفزيون ! فالصورة في التليفزيون لغة عالمية مفهومة للكل ، والصورة ملونة ، والصورة تنبسط لها الأسارير ، وكما تتفتح لها العين التي تستقبلها ينفتح لها طريق القلب والوجدان .

ويكشف كروان الإذاعة محمد فتحي عن مزيد من جوانب فكره المتطور ورؤيته المستقبلية حين يتساءل: في أية صورة سيكون تليفزيون الغد ، هل يكون الأداة المسيطرة علي أفئدة الجماهير يجتذب كما يجتذب المغناطيس ! يجتذب فحسب معطلا التفكير لدرجة الشلل ! أم يكون دوره ، بما له من قدرة إلكترونية ، مجرد الحشد والتجميع ، إن الأداة التي تمتلك هذه القدرة المذهلة علي ربط الناس بعضهم ببعض لا تعاب ولا تؤاخذ إذا هي أخفقت في تحقيق النتائج . وإنما الذي يعاب هو صاحب الرسالة وصانعها ، ذلك الذي لا يعرف كيف يترجم هذه الحقيقة إلى شيء ذي مغزي ينفع البشر . الثورة التكنولوجية تجري في سرعة الإعصار ، ونحن حيالها كالعاجزين ، لا نملك أن نعي أو نتأمل ، أو نحدد ، أو نقدر مرماها ومنتهاها . وينتهي محمد فتحي إلى نتيجة مؤكدة: مهما يكن من أمر ، فالأكيد أن التليفزيون قد رسخ أقدامه ، ولايزال يستقطب ويوسع نطاقه عرضا وطولا ، يوما بعد يوم . وسيظل الأداة الأولي المعتمدة التي يشارك فيها ويستوعب رسائلها كل واحد من أهل الأرض .

لقد كان يري بعين المستقبل ـ وهو يكتب هذا الكلام منذ أكثر من عشرين عام ا ـ أن في مدي خمس سنوات أو نحو ذلك سوف يرتفع هوائي التليفزيون في كل قرية قاصية ملغيا فكرة البعد ، ملغيا الحواجز بين البشر ، آتيا من الانسان للإنسان وهو قابع في عقر داره ، بكل ما لدي البشر من فكر ورسائل ، عظم قدرها أو كانت سمتها التفاهة والسخف .

هل سينتهي أمر التليفزيون إلى أن يكون مظهرا من مظاهر الآلية المتسلطة في حياة البشر ، أو سيؤذن ببداية عصر من السلام الدولي ؟ هكذا كان تساؤله منذ أكثر من

عشرين عام ا ، معلقا الاجابة وقتها علي ما سوف تكشف عنه العقود القادمة من القرن العشرين ـ الذي مضي ـ بكل ما حمله إلى البشر من معاناة وهموم وكوارث . لكنه يعود فيري أن التليفزيون يتطور من مجرد أداة خفيفة الوزن للترويج والتلهية ، إلى أداة فعالة للاعلام والأخبار والتعليم والتبادل الثقافي .

ولم يفت كروان الاذاعة محمد فتحي ـ وهو يولي التليفزيون ومستقبله في عالم الغد هذا القدر من الاهتمام والتفكير ـ أن يسجل في كتابه الاذاعة المصرية في نصف قرن (١٩٣٤ ـ١٩٨٤) الدور الرائد للإذاعة المصرية في عالم الاتصال الدولي من خلال ما يعرف بالاذاعات الموجهة ، مستعيرا كلمات تأملية لماركوني يقول فيها : الاتصال بين الشعوب ، التي تفصل المسافات والأقطار بينها ، هو بلاشك غاية من غايات السلام ، في وجه الشرور والآثام الناتجة عن التشاحن والغيرة . ولن أتيح لا ختراعي أن يحقق شيئا في سبيل إبطال مخاطر الحروب وأهوالها فلسوف أشعر بأن حياتي لم تكن عبثا . هكذا كان العالم الايطالي الفذ ما ركوني مخترع التليفون اللاسلكي ـ الذي مهد لا ذاعة الراديو ـ يري الرسالة المعقودة علي هذا الوليد الجديد الذي سيغير حياة الناس وأساليب الاتصال الجماهيري !

ويعلق محمد فتحي بقوله : من أجل ذلك كان الاستهلال الذي استهلت به الاذاعة المصرية دخولها في ميدان الاذاعات الدولية الخارجية نابعا من فهم أصيل لدور مصر الحضاري .

لك أن صفة مصر الدولية وإيمانها بالاتصال الدولي والتقاء شعبها بغيره من الشعوب شيء أصيل في ثقافة المصريين . دار الاذاعة المصرية في٥ شارع علوي كانت دليلا بينا علي هذه الحقيقة . أغلب الظن أن الزائر للدار ، في أي وقت من الأوقات ، كان يلتقي بعلم من الأعلام . لا تتملي عيناه فقط من طه حسين أو أم كلثوم أو محمد عبد الوهاب أو عباس العقاد أو الدكتور الجراح علي إبراهيم أو الشيخ محمد رفعت . بل كان من المحتمل أن تقع عيناه علي أعلام دوليين مثل الجنرال ديجول ـ الذي كان يوجه إذاعاته لجنود فرنسا الأحرار المحاربين ضد جيوش النازية في الصحراء الغربية ـ أو الرئيس السوداني إسماعيل الأزهري أو الرئيس الحبيب بورقيبه أو الملك السنوسي : وثلاثتهم كانوا في المنفي أثناء نضالهم ضد المستعمر البريطاني والفرنسي والإيطالي ، أو زعيم من زعماء سوريا أو العراق أو لبنان . الاذاعة المصرية كانت مقصد الجميع يذيعون منها ، يلتقون ـ وهم في المنفي ـ بمواطنيهم عن طريق الأثير ، مشعلين نار الوطنية والحرية في قلوبهم ـ ويؤكد فكرته مرة أخري بقوله : الاتصال بين الشعوب والثقافات مبدأ أصيل عريق من مبادىء الشعب المصري ومورد من موارد قوته ، يظهر جليا في اهتمامه الكبير بالاذاعة الدولية .

لا يفوت كروان الاذاعة أيضا وهو يؤصل لبدايات الريادة الاذاعية في مصر ، أن يبرز ما تميز به الاذاعيون من وطنية جارفة ونبض وطني أصيل . وقد تجلي هذا في مناسبتين . الأولي في٢٣ أغسطس١٩٣٤ ، وكانت العناصر الوطنية في البلاد بأسرها - بمقاومة ورفض من الحكومة القائمة - تحيي ذكري وفاة الزعيم الوطني الكبير سعد زغلول ، بالتوقف عن العمل - كل العمل - خمس دقائق ، في الساعة التي فاضت فيها روحه - وهي التاسعة وخمس وأربعون دقيقة من المساء . يتوقف سائقو القطارات وسائقو الأتوبيس والعاملون في المقاهي وفي كل مكان يعمل بالليل: المسارح والملاهي ودور السينما . كانت الروح الوطنية ثائرة من أجل استقلال البلاد ، ضد المحتل الانجليزي ، والحكومة التي تعمل تحت ظله .

موقف وطني لا جدال فيه . تدارس نفر من المذيعين الأمر سرا ، كيف يستساغ أن تتوقف البلاد كلها عن العمل والاذاعة وحدها تملأ الدنيا غناء ولا تشارك في هذا المظهر الوطني ! ؟ ترك الأمر لمذيع السهرة للتصرف في الأمر . المغني يغني أمام الميكروفون مع فرقته في الاستديو ، وبغاية الهدوء والسرعة ينزع المذيع سلك الميكروفون من مجري التيار فيتوقف الصوت علي الفور ، في الساعة التاسعة والخامسة والأربعين بالضبط . وتتصل غرفة المراقبة بمحطة الإرسال ، ويتحري المهندسون الأمر ، وقبل أن يجيء المهندس إلى الاستديو يكون المذيع قد أعاد سلك الميكروفون المنزوع إلى مكانه وتكون الدقائق الخمس المحددة للحداد قد مضت . ويري الناس فيما حدث كرامة من كرامات الزعيم الراحل والأقدار تشاركهم في إحياء ذكراه ، إذ لا يمكن أن تكون شركة ما ركوني الانجليزية ومهندسوها الانجليز والأجانب يشاركون الشعب في تلك المناسبة الوطنية !

المرة الثانية حين دعا محمد سعيد لطفي - مدير الاذاعة - سهير القلماوي لكتابة حديث وإذاعته عن شهداء الإسلام في إلى وم الذي خرج فيه طلاب الجامعة في مظاهرة كبيرة وزحفوا من الجيزة إلى القاهرة ففتحت السلطة كوبري عباس منعا لهم من العبور وأطلق عليهم الرصاص وسقط الشباب الزاهر شهيدا . لم تستطع الإذاعة السكوت والتفرج ، والحديث الذي قدمته سهير القلماوي كان بريئا في ظاهره ، ولكن صلته بالأحداث لم يكن من المكن تجاهلها . لقد أحدث الحديث صداه ، وزاد من نار السخط علي الحكومة ، ولم تتوان الحكومة عن انتهاز الفرصة ، والتحقيق في الأمر ، وإدانة المراقب العام للإذاعة وفصله . وحنت شركة ما ركوني رأسها للعاصفة وقبلت استقالة المراقب العام !

مثل هذه الأحداث يكشف عن دقة المواقف التي يتعرض لها العاملون في الاعلام بين الالتزام بأداء واجب العمل وشرف المهنة من ناحية ، والواجب الوطني المتأثر بالرأي

العـام ورأي الجماعـة مـن ناحيـة أخـري ، خاصـة بالنـسبة لمـن يـوقعهم سـوء حظهـم في مواجهة مثل هذه المواقف التي تعد امتحانا لوطنيتهم !

وربمـا كـان هـذا المعـني هـو المقـصود بالمقولـة الـشائعة عـن لعنـة الاعـلام الـتي تـشبه لعنـة الفراعنـة في رأي محمـد فتحـي ، والـتي يكتـوي بنـار بلواهـا الاعلاميـون في شـتي أنحـاء الـدنيا ، خاصـة في تلـك البقـاع المبـتلاة بعـدم الاسـتقرار ، والوقـوع في الحـروب والأزمـات وصنوف القهر والعدوان .

وليس الصحاف إلا مثالا قريبا لما قاله كروان الإذاعة عن لعنة الإعلام !

موسم تراجع الدراما التليفزيونية

بقلم:فاروق شوشة

عندما تنتقل الأمراض المستعصية للسينما المصرية إلى الإنتاج الدرامي التليفزيوني فلا بد من وقفة تنبيه وتحذير ، وهو ما يحاوله الآن كثير من المتابعين لما عرضته الشاشة الصغيرة من كم المسلسلات التليفزيونية ، وازدحمت به خريطة رمضان ازدحاما غير مسبوق . وكان أول ضحاياه نجومنا الذين قدموا أفضل ما لديهم من خبرات الأداء ، وقاموا بواجبهم علي خير وجه ، لكن المشاهدين فوجئوا بكثير منهم يجسدون شخصيات سلبية في عمل معين وشخصيات إيجابية في عمل آخر ، ويتفننون في أدوار الشر والتسلط والإفساد في مسلسل ما ، ويلعبون أدوار الخير والشهامة في مسلسل آخر ، وتقترب أعمارهم ـ في الأداء التمثيلي ـ من مرحلة معينة ، بينما تبتعد عن تجسيد طبيعة هذا العمر في سياق آخر . كل ذلك تقدمه الشاشة الصغيرة وتعرضه في وقت واحد ، وفي قنوات متجاورة ، الأمر الذي أدي إلى كثير من الخلط والتداخل عند المشاهدين ، وإلي زعزعة القبول بمصداقية الشخصية الدرامية فيما تقدمه واهتزاز عنصر الإقناع نتيجة لذلك كله .

المسئولية بالطبع ـ في زحام هذا الإنتاج الذي اهتم بالكم كثيرا علي حساب الكيف ، وبهدف التسويق والنجاح في التوزيع وإغراق القنوات التليفزيونية ـ أرضية وفضائية ، مستخدما أسماء النجوم البراقة في تسويق الأعمال ، بغض النظر عن مضمونها وقيمة هذا المضمون ، وتنافس قنواتنا في اختطاف الأعمال التي تضمن لها كثافة مشاهدة في رمضان ، معتمدة أيضا علي مجرد النظر في أسماء النجوم ـ من الممثلات والممثلين ، وعدم مراعاة التنسيق الواجب في العرض ، مما أدي إلى ظهور الممثل الواحد والممثلة الواحدة في أكثر من شخصية ـ وأحيانا في ثلاث شخصيات ـ في الوقت الواحد ، والترهل في حلقات المسلسل الواحد ـ نتيجة للمط والتطويل وحشد التوابل ـ التي جنت من قبل علي مستوي السينما المصرية ـ من رقص وغناء ومشاهد محشورة لا دور لها في التصاعد بالحدث الدرامي وخدمة إيقاع العمل كله ، من أجل أن يستعرض بعض المخرجين إعجابهم بموقع التصوير أو ما يتصورون أنه مفاتن يجب التوقف عندها بالكاميرا البطيئة ـ في تصوير بعض الممثلات شبه العاريات (الغريب أن هذا البعض يخلو تماما من أية فتنة !) فضلا عن استخدام المؤثرات الصوتية ـ والموسيقي التصويرية علي وجه الخصوص ـ بطريقة تشبه ما يقوم به الهواة والمبتدئون لا المحترفون . هو إذن عيب الإنتاج وسوء العرض في الأساس ، لكنه أيضا عيب بعض الممثلين أنفسهم ، حين ارتضوا القيام بأدوار عدة متعارضة في وقت واحد . هناك ـ بالطبع ـ عدد من فنانينا وفناناتنا يرفضون الاشتراك في أكثر من عمل واحد في الموسم الواحد ، ويحرصون علي أن تبقي

صورتهم علي الشاشة الصغيرة عزيزة المنال ، يفتقدها الجمهور ويشتاق إلى ها المشاهدون ، لا أن تصبح متوافرة - كالبضاعة الرائجة في الأسواق - يمر بها الناس دون أن تشد اهتمامهم أو ينتبهوا إلى ها ، وهم بهذا يصونون أنفسهم عن الوقوع في مصيدة الخلط والتداخل التي يحدثها قيام الفنان الواحد بأكثر من عمل ، حين تعرض هذه الأعمال في وقت واحد وبصورة يومية لثلاثين حلقة وأكثر ، تتداخل فيها الشخصيات وتختلط المواقف والمشاهد ويهتز الاستيعاب والمتابعة !

الغريب أن يحدث هذا كله في وقت تتقدم فيه الدراما السورية واللبنانية والخليجية والأردنية تقدما مستمرا ، وبخطوات ثابتة . وفي كل عام تفاجئنا الدراما السورية بإنتاج ضخم في مجال المسلسلات التاريخية ، ذات البعدين الوطني والقومي كما حدث هذا العام في مسلسل الشتات من خلال اختيار شخصيات ومواقف وأحداث ومنعطفات شديدة التأثير في وجدان المشاهدين ، عميقة الارتباط باللحظة الحاضرة في تاريخ الوطن والأمة ، قوية الاستنفار لروح التحدي والصمود والمواجهة ، في مواجهة الأخطار المحدقة والخطوب المتكاثفة . بينما تركز الدراما الخليجية علي مشكلات الواقع في أقطار الخليج الأمر الذي ضمن لهذه الدراما الخليجية رواجا هائلا ، وجعل لها دورا رائدا في تعرية المجتمع وفضح سلبياته والتبشير بواقع جديد له - بدوره - تحدياته وأخطاره !

هل كتب علينا - أخيرا - أن يتقدم الآخرون ، بينما نتراجع نحن في كل شيء بدأناه قبلهم بكثير وكنا روادا فيه ؟ صحيح أنها كلها دراما عربية ، تعبر عن واقع عربي وانتماء عربي وثقافة عربية ، لكنني أتحدث عن الدور ، الدور الذي قامت به مصر - علي أمتداد قرنين من الزمان: التاسع عشر والعشرين - رمزا للتنوير والتحديث والتقدم ، يقلدها الآخرون ويأخذون عنها ويتعلمون في معاهدها وجامعاتها ويرسلون بعثاتهم إلى ها ، وينهجون نهجا في الصحيفة والمجلة والكتاب والسينما والمسرح والتليفزيون والموسيقي والغناء وسائر الفنون والآداب والفكر والثقافة . فما الذي حدث ويحدث الآن ؟ وكيف ارتضينا تراجع هذا الدور ؟ إن ما يحدث في مجال الدراما التليفزيونية ليس إلا بعض تجلياته ومظاهره ، وبأيدينا ، وبمقدورنا: أن نحكم مجالات الانتاج ، ونوقف الزحف العشوائي ممن لا علاقة حقيقية لهم بالفن: فكرا وثقافة ووعيا ومسئولية ، ونعيد النظر فيما يضج منه كثير من الفنانين الآن ويتحدثون صراحة عن كثير من سلبياته وتأثير هذه السلبيات في نوعية الانتاج ومستواه وهو نظام المنتج المنفذ ، والتخطيط لا نتاج ضخم متميز لا يمكن أن تنهض به إلا جهات الانتاج التي تمتلكها الدولة ، لا المغامرون أو الباحثون عن تدوير رأس المال بكل الطرق والوسائل . لقد كان هبوط السينما المصرية وانحسارها مقرونا بتحولها - علي أيدي هؤلاء المغامرين - إلى مجرد سلعة وتجارة وتخليها عن الدور

والرسالة ، مما أدي إلى نفور كثير من المبدعين وعزوفهم عن المشاركة في هذا الفن الجميل الذي كان في يوم من الأيام ، ولعقود كثيرة ، تاجا علي رأس مصر .

إن كثيرا من أصحاب المواهب الفنية الكبيرة ، الذين نضجت مواهبهم علي نار هادئة مع تتابع السنوات والأعمال الفنية والخبرات ، والذين هربوا بأنفسهم من واقع السينما المصرية الراهن ، قد وجدوا في الدراما التليفزيونية فرصتهم للتألق والاضافة والأستاذية الفذة وعبقرية الأداء ، من بينهم علي سبيل المثال لا الحصر - وفي دراما هذا الموسم بالذات - نور الشريف ويحيي الفخراني وكمال الشناوي ومحمود ياسين وحسين فهمي وصلاح السعدني وهدي سلطان ونرمين الفقي وميرفت أمين وسعاد نصر ويسرا ورشوان توفيق وغيرهم كثيرون بالعشرات ، أشرت إلى بعضهم في مقال الاسبوع الماضي ، هؤلاء جميعا ثروة غالية لا بد من تهيئة الفرص الدرامية الحقيقية ، والمناخ السليم ليعطوا أفضل ما لديهم ، من خلال نصوص درامية رفيعة المستوي تقوم علي كتابة حقيقية ، ليست كالتي وصفها البعض بأنها من صنع ترزية الدراما ، وتستثمر ما لدينا من مخزون روائي رائع أسهم في ابداعه عشرات الأدباء المصريين والعرب ، من شأن الأستعانة به رفع المستوي ، والقضاء علي الكتابات الفجة والسطحية ، والاتكاء علي عمل مكتوب له نجاحه وتأثيره وتكامل عناصره الأدبية والفنية . مع الأستعانة بمخرجين متميزين لهم ادراكهم الواعي لطبيعة الفن التليفزيوني ، وقدرتهم علي المغامرة والاضافة دون سقوط في سلبيات الترهل والمط والتطويل واختلال الايقاع ، ومحافظتهم علي القيم التي ارتبطت بها الدراما التليفزيونية - عبر تاريخها الطويل - من خلال عرضها علي الشاشة الصغيرة للأسرة المصرية ، بعيدا عن جنوح بعض مخرجي السينما المصرية الذين سقطوا في توابل الإثارة الفجة دون مراعاة لهذا البعد الأسري بكل قيمه ومواضعاته . ورحم الله زمانا - قريبا وليس بعيدا - كانت تتجاور فيه وتتنافس ، بكل الشرف والموضوعية - أعمال درامية رفيعة المستوي ، من إخراج مخرجين كبار:

الراحل يحيي العلمي ومحمد فاضل وإسماعيل عبد الحافظ وانعام محمد علي وغيرهم من مخرجي الجيل التالي ، الذي أفاد من ريادة هؤلاء ، وقيامهم بمهمتهم علي أعلي مستوي من الأمانة والمسئولية والصدق الفني .

إن التراجع الذي تشهده الدراما التليفزيونية ، والذي وصل إلى ذروته في موسم هذا العام ، يتطلب مراجعة شاملة . ومن حسن الحظ أن لدينا علي قمة المسئولية في اتحاد الإذاعة والتليفزيون وفي مدينة الانتاج الاعلامي وفي قطاع الانتاج بالاتحاد وفي صوت القاهرة ، عقولا ممتلئة بالوعي والمسئولية . لا بد أنها علي معرفة بالمسار المتعثر ، والسلبيات التي عبرت عنها كتابات عديدة واستطلاعات رأي أكثر اتساعا وشمولا . هناك بالطبع - من يقومون كعادتهم بتزويق الصورة والقول بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان -

لكـني علـي ثقـة مـن أن الجالـسين علـي قمـة المـسئولية ، والمكتـوين بنارهـا ، يـدركون مـن عناصـر الـصورة أكثـر ممـا يعرفـه الـرأي العـام أو النقـاد ، ويـضعون أيـديهم علـي حـشد هائـل مـن تفاصـيل الـسلبيات وصـور التخلـف والتراجـع والحكايـات الـتي يرويهـا الفنـانون والعـاملون في المجـال . ولابـد أن غيرتهـم ووطنيـتهم واخلاصـهم لمـواقعهم سـتدفعهم - متـضامنين ومتعـاونين - مـن خـلال لجنـة عليـا للتخطـيط الـدرامي في كـل جهـات الانتـاج المـسئولة الخاضـعة للدولـة - إلى التـدخل الفـوري لتعـديل المـسار - وتـصحيح الـصورة ، والعـودة بـالأمور إلى نـصابها ، وفي مقدمتها دور مصر الذي لا ينبغي أن يترك أبدا للتراجع والإنحسار !

موسم تراجع الدراما التليفزيونية (١)

بقلم : فاروق شوشة

غاب الفرسان الثلاثة الكبار: أسامة أنور عكاشة ووحيد حامد ومحفوظ عبد الرحمن عن موسم الدراما التليفزيونية في رمضان ، فكانت النتيجة تراجع المستوي من ناحية ، وعمق الإحساس والوعي بافتقاد الدراما الجيدة من ناحية أخري .

لقد بدأ هؤلاء الثلاثة علاقتهم مع الكتابة من منطقة الإبداع الأدبي ، وكان تمرسهم الطويل بالإبداع القصصي والروائي ذخيرتهم وعدتهم عندما اتجهوا إلى الكتابة الدرامية في الإذاعة والتليفزيون والسينما والمسرح ، بعد أن أنضجتهم كتاباتهم الأدبية ، وجعلتهم علي وعي بمتطلبات الدراما . الأمر الذي جعلهم يدركون قيمة أن يكون للعمل الدرامي معناه وغايته ودلالاته ، وأن تتوافر له حبكته الفنية ، وتصاعد أحداثه ، والقدرة علي رسم شخصياته وتحديد مشاهده وصولا إلى اكتشاف مغزاه أو الكلمة التي يقولها في النهاية . أجل ، لقد كان غياب هؤلاء الثلاثة حضورا لكل سلبيات الدراما ، وكشفا لتراجعها وإفلاسها في كثير من الأحيان ، وتأكيدا لقيمة النص الدرامي المكتوب ـ أو الورق بلغة الفنانين ـ باعتبار أن هذا النص المكتوب هو العامل الأساسي في نجاح العمل ، وأن افتقاده لن يعوضه أبدا تميز الأداء عند كثير من نجوم التمثيل أو وفرة إمكانات الإنتاج أو تفوق الإخراج . غيبة النص الجيد هي سر هذا التراجع في المستوي ، وهي المسئولة ـ قبل بقية العناصر الأخري ـ عن الإحساس بأن كثيرا من أمراض السينما المصرية قد انتقلت إلى الدراما التليفزيونية ، ويوقعها في دائرة اللا معني أو افتقاد المعني ، والكثير من ألوان التفنن في المط والتطويل ـ علي حساب الإيقاع والتشويق والقدرة علي تتبع الأحداث (إن كانت هناك أحداث) ، والرغبة التجارية المكشوفة والمقيتة هي السبب الرئيسي في هذا العيب الذي تفشي في معظم ما عرضته الشاشة التليفزيونية هذا الموسم ، ووفرة مشاهد الإثارة المبتذلة ـ التي أساءت إلى مستوي السينما المصرية ـ لكنها هنا في زحام المسلسلات بمناسبة وبغير مناسبة بمثابة التوابل أو البهار الذي يظنه بعض المنتجين السذج وسيلة لتحقيق النجاح والجاذبية ، وهو في حقيقة الأمر مدعاة للسخرية والاحتقار والهزء بالعمل كله ، ولعل صديقنا المفكر جلال أمين لو أراد أن يضيف إلى كتابه البديع ما ذا حدث للمصريين جزءا ثانيا ، لوجد ما دته في هذه المسلسلات التي استقطبت كل ما يمكن تصوره ومالايمكن من سلبيات المجتمع ومباذلة في السنوات الأخيرة ، ولأدركه الفزع وهو يشاهد حجم السقوط الذي تقدمه هذه المسلسلات من خلال شخصياتها ونماذجها لرجال المال في المجتمع ـ ولا أقول رجال الأعمال ـ لا ن كثيرا من الفاسدين والمفسدين هم رجال ما ل لا أعمال ، وحجم المؤامرات والدسائس والصراعات الدنيئة ،

وفقدان الشرف والسلوك الشائن والمعوج ، وكأن كل ما في المجتمع قد أصبح فاسدا وممقوتا ومريضا ، يمثل سلوكيات منحرفة لا تجدي في مواجهتها أو إصلاحها مسلسلات هي أقرب إلى البرامج التعليمية المباشرة ، البعيدة عن روح الدراما ، والإقناع ، كما حدث في مسلسل العمة نور ، أو افتقاد المعني والمغزي وضياع الوعي بالقضية أو الموضوع الذي يعالجه المؤلف في مثل مسلسل أبيض* أبيض ، أو انفلات الخيوط من بين أصابع المؤلف ، وغياب الخط الرئيسي ، وطغيان الخيوط الفرعية والهامشية لتصبح هي قلب المركز ومحل الاهتمام كما في مسلسلي تعالي نحلم ببكرة و مسألة مبدأ ، نجا مسلسل ناجح من هذه العيوب بفضل تمكن مؤلفه محمد جلال عبد القوي وهو الليل وآخره وخبرته بالكتابة الدرامية في أعمال عديدة كتب لها النجاح والتقدير . أما السلبيات ـ التي امتلأت بها هذه المسلسلات والتي أهدي كثيرا منها إلى جلال أمين ـ ففي مقدمتها هذا الإحساس العارم الذي تخلفه في المشاهدين بانعدام الثقة في كل الناس: رجالا ونساء ، وشيوع ظاهرة الخليلات وظاهرة الزوجة الثانية التي أصبحت تقليدا ، والترويج للإقبال علي الإدمان والشراب والعري وحفلات الديسكو والرقص البلدي ، وتقديم تفاصيل القصور والفيلات الفاخرة التي لا يرقي إلى ها خيال المحرومين والمطحونين الواقفين في طوابير الخبز ، فضلا عن شيوع التدخين ـ المنوع في المسلسلات بقرار من وزير الإعلام ـ ومواقف التحرش الجنسي بين رجال المال والسكرتيرات ، وأرقام الملايين ـ بل البلايين ـ المتداولة بخفة علي شيكات تكتب في لمح البصر وكأنها مجرد قروش ، وكيف تستخدم في تمويل صفقات مشبوهة وبضائع فاسدة وتجارة سلاح ، ومشاريع وهمية وشركات مضحكة تقام في لحظات وكأنها لون من العبث الصبياني ، لكن الخيال الساذج والمريض لبعض المؤلفين اتسع لهذا كله ، ولم يترك شيئا من مخزون السوءات والمباذل والفضائح إلا وامتلأت به هذه الدراما المتراجعة وأوشكت أقول: الساقطة ، الأمر الذي يجعلنا نتحسر علي سنوات العصر الذهبي للدراما ، التي قدمت أعمالا في قامة رأفت الهجان وأحلام الفتي الطائر ودموع في عيون وقحة وبوابة الحلواني وأم كلثوم وقاسم أمين وأبوالعلا البشري وأوان الورد وليالي الحلمية وزيزينيا وأوبرا عايدة ولن أعيش في جلباب أبي وغيرها من عشرات المسلسلات التي صنعت دراما المعني والمغزي والقيمة والهدف ، لا دراما الفضائح والمباذل وتوابل الاثارة المجوجة !

أعتقد انه قد آن الأوان لتحقيق ما يردده الجميع الان ، وهو العودة إلى نظام الانتاج المباشر ، ومراجع نظام المنتج المنفذ ، الذي أدي مع تفشية وتضخم دوره ـ إلى غيبة أية خطة مدروسة في الدراما ، وإلي ان يتكرر في هذه المسلسلات ما سبق حدوثه في السينما وأدي بها إلى وضعها الراهن ، بعد ان سيطرت نوعية من المنتجين تضع في اهتمامها الأول ـ وربما الوحيد ـ قواعد السوق وآليات الربح والعائد السريع لدورة رأس المال

، دون التفات إلى ما ينبغي الترويج له من قيم العمل والشرف والنزاهة والعلاقات السوية والوعي بالعصر ومتطلباته الجادة والحقيقية . غيبة الخطة الواضحة والرؤية الدراسية الشاملة أفسحت المجال لا عمال لم تتم دراستها بطريقة جادة ، وجعلت كثيرا مما يتم عرضه يتسم بالسطحية وخواء الفكر . ولابد ان زحام الانتاج ، والمنافسة علي البيع والتسويق ، والعرض علي القنوات والفضائيات المختلفة ، أدي إلى الاهتمام بالكم علي حساب الكيف ، والالحاح علي ظاهرة النجم الذي يدور من حوله العمل ويكون مركزا ومحورا له ، وهو الأمر الذي ثبت فشله كثيرا ، بل وأساء إلى النجم نفسه والي تاريخه الفني كما حدث في العمة نور . ان سياسة فرض البضاعة الحاضرة علي جهات الانتاج الدرامي ، واستقطاب النجوم بالأجور المبالغ فيها - علي حساب غيرهم من المشاركين في العمل ، والحرص علي ان يطول عدد حلقات المسلسلات إلى ثلاثين حلقة وأكثر دون مبرر موضوعي - في أغلب الأحيان - وملء الساعات الدرامية بما لا يفيد العمل ويؤدي إلى ملل المشاهد وضجره وعزوفه عن المشاهدة ، والنجاح في أن تفلت هذه الساعات الزائدة - التي لا ضرورة لها - من قبضة المونتاج ، كل هذه سلبيات آن أوان مواجهتها في حسم ، حرصا علي سمعة الانتاج الدرامي المصري ، وعودة به إلى مجراه الصحيح .

إن أمام العاملين في مجال الدراما التليفزيونية مئات الأعمال الروائية - المصرية والعربية - التي أبدعها عشرات الكتاب المتألقين في هذا المجال ، لا بد ان تكون زادا متنوعا ومادة رصينة لهذه المسلسلات ، بدلا من هذه الموضوعات المسطحة والمترهلة ، فاقدة المعني ، التي يكتبها حرفيون ، يظنون ان لوازم الصنعة وحدها كفيلة بإنجاح العمل .

ولابد ان يحرص فنانونا الكبار - نجوم ونجمات التمثيل في هذه المسلسلات - علي ألا يضيع جهدهم العظيم وأداؤهم العبقري في كثير منها ، وسط دوامة الهزال والسطحية التي يتردي فيها العمل ككل ، لقد شهدت بعض مسلسلات هذا العام مبارزات رائعة في الأداء التمثيلي قامت بها كوكبة من كل الأجيال: جيل العمالقة الكبار وجيل الوسط المقتحم ، وجيل الشباب الصاعد بسرعة الصاروخ . هذه الكوكبة - المتعددة الأجيال - جزء من ثروتنا الفنية الكبيرة ، التي نضجت واستوت علي مدار الأعوام وعلي اختلاف الأعمال . وأصبح وجودها في كثير من المسلسلات اعلانا مسبقا عن نجاحها وتأكيدا لتميزها ، مما يحمل هؤلاء النجوم مسئولية الحفاظ علي محبتنا وتقديرنا لهم ، واعتزازنا بجهودهم الهائلة من اجل ابهاجنا واسعادنا ، إن أسماء: يحيي الفخراني ونور الشريف ورشوان توفيق وحسين فهمي و عبد الرحمن أبو زهرة وكمال الشناوي وأشرف عبد الغفور ومحمود ياسين ومحمود قابيل وجميل راتب وعزت أبو عوف وممدوح عبد العليم - بدون ترتيب مقصود - وغيرهم من نجوم هذا العام ، وليلي علوي وإلهام شاهين

وعبلة كامل وسوسن بدر ودلال عبد العزيز وفادية عبد الغني ورجاء حسين وسميرة عبد العزيز ونهال عنبر ـ بدون ترتيب مقصود ـ وغيرهن من متألقات هذا العام ، هذه الأسماء التي تفانت في العطاء ، قدر لكثير منها أن يحمل علي عاتقه مسئولية العمل كله ، حتي وهو خال من أية قيمة أو مضمون حقيقي ـ علي مستوي التأليف ـ ووقوعه في الكثير من العثرات والأخطاء الفنية ـ علي مستوي الاخراج .

تري ، هل نجح تراجع الدراما التليفزيونية ـ التي عرضت في رمضان ـ في احداث الصدمة المطلوبة ، من أجل التغيير إلى الأفضل وارجاع المسار إلى طبيعته الصحيحة ؟ وهل اقتنع المسئولون عن هذه الدراما ـ التي سقطت وتراجعت ـ بأن الرأي الثقافي والفني العام الذي انتقدها ، وكشف عن سلبياتها وسوءاتها ، لا يمكن ان يكون عدوا متربصا أو اقلاما ما جورة ، وإنما هو ـ في حقيقته وجوهره ـ رأي كاشف ، لعل الذين لا يبصرون يبصرون والمباهين بالريادة في هذا المجال ، يتوقفون ـ بعض الوقت ـ ليتأملوا المآل الذي بلغته الريادة ، والمستوي الذي تدنت إلى ه !

لقد أنفقت الملايين علي هذه المسلسلات ، وقد تكون قد حققت ملايين اكثر من عائد البيع والتسويق ، لكن المؤكد ان عائدها من ثراء الوعي والوجدان قد انقلب إلى النقيض ، وأصبحت ـ كما قال المخرج الكبير محمد فاضل ـ تمثل هجمة شرسة علي أخلاق المواطنين ـ وإزاحة متعمدة لقيم الحق والخير والجمال .

وديع فلسطين وأعلام عصره (١)

بقلم: فاروق شوشة

حين سمعت باسمه لا ول مرة ، منذ أكثر من خمسين عام ا ، لم أتصور أبدا أنه كاتب مصري . ثم عرفت بعد سنوات طويلة من متابعة كتاباته في العديد من الصحف والمجلات الأدبية والثقافية ، وحواراته مع كثير من أعلام عصره ، أنه مصري صعيدي ، ولد في سوهاج عام ١٩٢٣ ، والتحق بالجامعة الأمريكية — قسم الصحافة — وحصل منها عام ١٩٤٢ علي بكالوريوس الصحافة والأدب ، ثم عمل في الصحافة — في مختلف فروعها — وشارك في تحرير أسهامات المجلات والعربية وفي مقدمتها المقتطف والمقتطف . كما أسهم بالكتابة في معظم الصحف والمجلات العربية في الوطن العربي والمهجر ، وعلي مدي عشر سنوات عمل مدرسا لعلوم الصحافة في الجامعة الأمريكية . ومن خلال عمله في التأليف والترجمة صدر له أكثر من أربعين كتابا — ثلاثة منها في فنون الصحافة — وبقيتها في الأدب والثقافة والفكر ، من أهمها: قضايا الفكر في الأدب المعاصر ومختارات من الشعر المعاصر وكلام في الشعر . واتسعت حياته الحافلة للإسهام في إصدار بعض الموسوعات العربية المعاصرة ، وللفوز بجائزة فاروق الأول للصحافة الشرقية عام ١٩٤٩ ، وانتخابه عضوا في مجمعي اللغة العربية بدمشق وعمان . كما تم تكريمه مؤخرا في ندوة الاثنينية — في جدة — التي يعقدها الشيخ عبد المقصود خوجة ، وهي الندوة التي عرفت بتكريم عديد الشخصيات الأدبية والثقافية والفكرية ، العربية والإسلامية ، وأصبحت معلما من معالم الحياة الثقافية في السعودية .

هذا هو وديع فلسطين ، الكاتب ، والصحفي ، والأديب ، والناقد ، والشاهد الأمين المنصف علي أعلام عصره — علي مدي واحد وستين عام ا متصلة — يطل علينا — وقد تجاوز الثمانين من عمره المديد — من خلال موسوعته الضافية وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره في مجلدين كبيرين ، وقد صدرت عن دار القلم في دمشق . أما هؤلاء الأعلام الذين يتحدث عنهم وديع فلسطين فهم ثلاثة وتسعون من رموز العصر ، عرفهم معرفة شخصية حميمة — ولم يكتف بمجرد القراءة عنهم — واقترب من كثير منهم اقتراب الصديق الذي يعرف للصداقة حقها من الصون والرعاية ، والحفاظ علي القيم الرفيعة والمثل العليا التي ارتبطوا بها جميعا ، عندما كان الزمان يتسع للكبار ، الكبار في كل مجال ، ويضيق بالصغار . وقد رتبهم في كتابه الضخم ترتيبا أبجديا ، بدأ بإبراهيم عبد القادر المازني وانتهي بيوسف جوهر ، وبين هذين الاسمين سطعت أسماء إبراهيم ناجي وأحمد حسن الزيات وأحمد زكي أبو شادي وإسحاق موسي الحسيني وإسماعيل مظهر وأمين نخلة وبشر فارس وجميلة العلايلي وخليل مطران وزكي مبارك

وساطع الحصري وسيد قطب وطه حسين وعباس محمود العقاد و عبد الرحمن صدقي والمستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس وعثمان أمين وعزيز أباظة وعلي أحمد باكثير وعلي أدهم وفارس نمر وفدوي طوقان وفؤاد صروف وكريم ثابت ومحمد مندور ومحمود حسن إسماعيل ونجيب محفوظ ومي وميخائيل نعيمة ووداد سكاكيني وغيرهم .

يقدم وديع فلسطين لموسوعته بكلمات كاشفة يقول فيها كان صديقي شاعر الأقطار العربية خليل مطران بك (١٨٧٢ ـــ١٩٤٩) يقول عن نفسه : إني كثير بإخواني ، وما موسر له رأس ما لي . وهو قول ينطبق علي ، مما تشهد عليه هذه الفصول ، التي أرسلتها كأحاديث مستطردة عن بعض من أعلام عصري ، الذين صافوني الود ومنحوني من ثقتهم وتشجيعهم ما حاولت أن أثبته إقرارا بفضلهم وإكبارا لصنيعهم وإعظاما لقدرهم ، وما موسر له رأس ما لي . ثم يقول: ولقد جريت في هذه الفصول ـــ التي اخترت أن أسوقها كأحاديث مستطردة ـــ علي أن أترك القلم علي سجيته ، يسجل علي الطرس خواطري ، ويصور مرثياته دون التزام بمذهب معين في كتابة التراجم والسير ، وإنما توخيت بهذا الأسلوب أن أشرق وأغرب إذا ما اقتضاني الاستطراد ذلك ، ولا حرج علي إذا ما ألح علي تداعي الخواطر في أن أشرد قليلا هنا أو هناك ، ما دمت أعيش بقلبي وروحي في الجو الأدبي والإنساني للأعلام الذين تناولتهم في هذا الكتاب .

وهو يصنف كتابه باعتباره كتاب انطباعات ذاتية عن أعلام كان لكل منهم إسهام في الحياة الفكرية المعاصرة . لكنه أتاح لنا ـــ نحن القراء ـــ بانوراما شاملة لعصر كامل من عصور الأدب والفكر ، وصورة أمينة صادقة رسمها بقلم له شخصيته وسماته الأسلوبية المتميزة ، وبيان مشرق يصدر عن وعي عميق بأسرار لغتنا الجميلة وإمكانياتها الفذة في التعبير والتصوير ، وإبحار واسع في شتي العلوم والمعارف والآداب والفنون والخبرات الإنسانية . فهو بحق كما قال عنه الأديب والناقد العراقي الدكتور يوسف عز الدين: وديع فلسطين ليس من الأدباء الرواد فحسب ، ولا من كبار الصحفيين فقط ، إنما هو موسوعة واسعة المدي ، عميقة الغور ، فقد صحب قادة النهضة الحديثة ، وزامل ربابنة الفكر وأساطين السياسة والنقد .

وقد حركه ـــ أيضا ـــ وحفزه إلى جمع هذه الأحاديث ونشرها في هذا الكتاب ، وعيه بأن كثيرا من أبناء هذا الجيل لا يعرفون شيئا عن هؤلاء الكبار الذين يكتب عنهم ، وبالتالي فهم لم يقرأوا لهم ، ولم يدركوا أبعاد الدور الذي قام به الرواد في كل مجال . وهو يصوغ فكرته بكلماته علي هذه الصورة: ما ينعي علي أبناء هذا الجيل ، افتقارهم إلى التواصل مع الأجيال السابقة ، وهو ما أجتهد في تداركه في هذه الأحاديث بحكم خضرمتي في الحياة الأدبية ، وإن كنت بقيت علي الدوام علي هامشها . وهي سطور تكشف عن المعدن النفيس والجوهر المشع في وجدان هذا الكاتب الكبير وعقله

، فهـو يحمـل مـن سمـات الأبـوة الروحيـة مـا يجعـل منـه ـــ بـالرغم ممـا لا قـاه في حياتـه وكتاباته ومـن عنـت ، ومـا تعـرض لـه مـن مـضايقات ، ومـن تنكـر وجحـود ـــ مـا يجعـل منـه حانيـا عطوفـا علـي الأجيـال الجديـدة ، ينظـر إلى هـا بعـين المربـي ، وحـدب الراعـي والموجـه الشفيق ، في لغة بالغة النقاء والترفع ، متوهجة بكبرياء روحه واعتزازه بكرامته .

يقـول وديـع فلـسطين ـــ كاشـفا عـن بعـض المـرارات والأحـزان الـتي تعـرض لهـا قلمـه علـي مـدار حياتـه العريـضة الحافلـة ـــ في مناسـبة الكتابـة عـن كتـاب الـدكتور بـدوي طبانـة (١٩١٤ ـــ٢٠٠٠) فرسـان الحلبـة ، وهـو الكتـاب الـذي أعـاده ـــ كمـا يقـول ـــ مـن عـالم الرطانــات إلى عــالم الرضــاء: رأيــتني مطــرودا مــن حلبــات الأدب بعــدما ســيطر الموظفــون وأشـباههم علـي مجـلات الأدب في ديـارات العـرب ، وبعـدما افـترش مـن يـدعون بأحفـاد شوقي ــ وشـوقي مـنهم بـراء ـــ دوريـات الأدب وصـفحاته ، وبتنـا ـــ علـي أحـسن الفـروض ـــ ننتظـر دورنـا في النـشر ، في طـوابير مطـوبرة أطـول مـن طـوابير الخبـز والـدجاج . بـل باتـت المجـلات الأدبيـة تـضع مقالاتنـا في ديـب فريـزر لتنـشرها بعـد رحيلنـا عـن هـذه الفانيـة ، كمـا فعلـت مـع أسـتاذنا العظـيم محمـد عبـد الغـني حـسن ، الـذي مـا ت مقهـورا مـن أفاعيـل أبـاطرة الأدب في دنيـا العـرب ، الـذين حبـسوا شـعره ونثـره ثـلاث سـنين ، ولم ينـشروه إلا بعـد مـا اطمـأنوا إلى وفاتـه ، وهـم حـتي مـع ذلـك ، ضـنوا عليـه بمجـرد الإشـارة إلى فجيعـة الأدب بموته !

أمـا الناشـرون ، فقـد صـاروا يعـدون الأدب وبـاء أشـبه بوبـاء الايـدز ، فـلا يكـاد أديـب يعـرض علـيهم كتابـه حـتي يوصـدوا في وجهـه الأبـواب فزعـا مـن شـره دون أن ينظـروا فيما يحمل في يمناه .

وأمـا القـراء ، فقـد عـصفت بهـم نـوازل الغـلاء الأفحـش ، وكـوارث انهيـار قـدرتهم الـشرائية المنعدمـة أصـلا ، فعـدوا الكتـاب ترفـا لا يتـأتي نوالـه إلا لمـن كـان في ثـراء أوناسـيس ، وهـؤلاء ينفقـون أمـوالهم في كـل غـرض مـن أغـراض المتعـة والبهجـة إلا غـرض متعـة القـراءة .

مثل هذا التجني مـن الحيـاة الأدبيـة والثقافيـة هـو الـذي دفـع بالـدكتور أحمـد زكـي أبـو شـادي ــ رائد جماعـة أبـو لـو الـشعرية ورئـيس تحريـر أول مجلـة خالـصة للـشعر ونقـده هـي مجلـة أبـو لـو ـــ دفـع بـه ـــ بعـد صـنوف مـن إلى أس والإحبـاط ـــ إلى الهجـرة النهائيـة مـن مـصر وإلـي الولايــات المتحــدة مــع أســرته . يقـول وديـع فلـسطين في حديثـه الرائـق المنـصف عـن أبـو شــادي: في عــدد٢٢ نيــسان (أبريــل) ١٩٤٦ قــرأت في مجلــة الرســالة المــصرية لــصاحبها أحمـد حـسن الزيـات (١٨٨٥ ـــ١٩٦٨) رسـالة وداعيـة موجهـة مـن أبـي شـادي كتبهـا عـشية هجرتـه ، وأرفـق بهـا مرثيـة لزوجتـه الإنكليزيـة الـتي كـان مرضـها العـضال مـن أقـوي دوافـع الهجـرة تلمـسا لا سـباب العـلاج المتقـدم في الولايـات المتحـدة ، وقـد أدرجـت المرثيـة بمقدمـة

جاء فيها سافر إلى نيويورك يوم الأحد الماضي الدكتور أحمد زكي أبو شادي ليقيم بها هو وأسرته ، وقد أرسل إلى نا عشية سفره هذه القصيدة ومعها كتاب يقول فيه : كان بودي أن أزورك مودعا قبيل مبارحة وطني الذي لم تسمح لي الظروف بخدمته كما أود ، ولكن أحوالي الخاصة لم تمكني من مغادرة الإسكندرية (التي كان يقيم فيها) لهذا القصد ، وسأبحر منها مع أولادي علي الباخرة فلكانيا يوم الأحد١٤ (نيسان) أبريل و علي فمي بيت المتنبي :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
ألا تفارقهم فالراحلون همو

ومن المفارقات الصارخة أنه حين تبرأ أبو ما ضي من أبي شادي ، انتهزت أكاديمية الشعراء الأمريكيين وجمعية الشعر الأمريكية فرصة ظهور ديوان من السماء لا بي شادي ــ وهو الديوان الوحيد الذي ظهر له في الولايات المتحدة ــ فأقامتا حفلا جامعا في فندق والدورف أستوريا يوم٣٠ نيسان (أبريل) ١٩٥٠ تكريما للشاعر ، وصفه أبو شادي بقوله : اشتركت فيه الحكومات العربية وجامعات شتي وأساتذة أعلام ومستشرقون فطاحل من أوروبا وأميركة ورجال الصحافة وصفوة أدباء المهجر ومراسلون بارزون من اقطار شتي إلا مصر العزيزة التي أحببتها الحب كله ، وخدمتها بجوارحي طوال حياتي ، وما زلت أخدمها بدافع من ضميري وحده .

إن هذا الكتاب البديع ــ في مجلديه : وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره ، هو أجمل هدية تلقيتها في مستهل هذا العام الجديد مصحوبة بإهداء رقيق من مؤلفه ، أعتز به ، وأشكره عليه . لكني استأذن القاريء في مرحلة ثانية عبر صفحات هذا الكتاب ، العامرة بكل ما هو نبيل ونفيس وقيم . فإلي مقال قادم .

وديع فلسطين وأعلام عصره (٢)

بقلم : فاروق شوشة

وديـع فلـسطين يتحـدث عـن أعـلام عـصره هـو الهديـة النفيـسة الـتي تلقيتهـا قبـل مـستهل هـذا العـام بأيـام قليلـة مـن مؤلفـه الكاتـب الكـبير ، الـذي نحتفـل معـه باجتيـازه الثمـانين (ولـد عـام ١٩٢٣ في سـوهاج بـصعيد مـصر) مـن عمـره المديـد الحافـل بالعطـاء - إن شـاء الله . والكتـاب في مجلديـه الكـبيرين رحلـة حـب وتواصـل مـع ثلاثـة وتـسعين مـن رمـوز الحيـاة الأدبيـة والثقافيـة والفكريـة ، الـذين عاصـرهم المؤلـف ، وعـرفهم عـن كثـب ، وقامـت بينـه وبيـنهم حـوارات وحكايـات ومواقـف ضـمنها كتابـه البـديع ، في لغـة رشـيقة آسـرة ، وبيـان مـشرق ناصـع ، وقلـم عـف يـذكرنا بالعـصر الجميـل للكتابـة ، يـوم كانـت هنـاك قـيم ومثـل عليـا ، يحـرص عليهـا الكتـاب والأدبـاء الـذين يـستحقون أن يـسموا كبـارا ، لا نهـم كانوا كبارا بالفعل ، كبارا في كل شيء .

الكتــاب إذن شــهادة أمينــة علــي عــصر ، عــصر كامــل برمــوزه وشخــصياته ، في مصر والعالم العربي وصولا إلى المهجر الأمريكي .

في حـديث وديـع فلـسطين عـن شـاعرة فلـسطين الكـبري فـدوي طوقـان الـتي رحلـت عـن عالمنـا منـذ أسـابيع قليلـة (في١٣ ديـسمبر الماضـي) والـتي تـشاركه عـام مـيلاده (١٩٢٣) ، يـذكر شـيئا لم أكـن اطلعـت عليـه أوسمعـت بـه ، وهـو الجـزء الثالـث مـن سـيرتها الحياتيـة والإبداعيـة الـذي قـام الباحـث والناقـد الأردنـي الـدكتور يوسـف بكـار باستقـصاء مـا دتـه وجمعهـا مـن مظانهـا المختلفـة وعرضـها علـي الـشاعرة قبـل أن يقـوم بنـشرها . وقـد سمـي كتابـه الرحلـة المنـسية : فـدوي طوقـان وطفولتهـا الإبداعيـة بعـد أن نـشرت هـي كتابيهـا : رحلـة جبليـة ، رحلـة صـعبة و الرحلـة الأصـعب . هـي إذن الرحلـة المنـسية الـتي سـقطت أخبارهـا ووقائعها من ذاكرة الشاعرة وهي تدون سيرة حياتها .

يقـول وديـع فلـسطين : في هـذا الكتـاب استقـصي الـدكتور بكـار الطفولـة الـشعرية والطفولـة النثريـة لفـدوي ، منـذ أن تفتحـت موهبتهـا الـشعرية في عـام ١٩٢٩ أو عـام ١٩٣٠ ، ومنـذ عالجـت النثـر في كتاباتهـا اعتبـارا مـن عـام . ١٩٣٩ (هـل صـحيح أن فـدوي بـدأت إرهاصـاتها الـشعرية الأولـي وهـي في الـسادسة أو الـسابعة مـن العمـر !) . وإذا كـان المعـني اللغـوي للطفولـة ينـصرف إلى الفـترة الـسابقة علـي الـصبا ، فـإن المعـني المجـازي للطفولـة - الذي أراده الباحث - هو البدايات الأولي للرحلة الأدبية للشاعرة .

وكـان لا بـد للـدكتور بكـار مـن الرجـوع إلى المجـلات القديمـة الـتي نـشرت فيهـا آثـار فـدوي طوقـان مثـل الأمـالي و مـرآة الـشرق و جريـدة فلـسطين ومجلـة الرسـالة المـصرية . كمـا أن

بعض المخضرمين من الراصدين لتراث فدوي أمدوا الدكتور بكار بما كان في حوزتهم من هذه الآثار المبكرة ، ومنها ما لم يسبق نشره أو أغفلته الشاعرة في دواوينها المنشورة ، أو ما أدخلت عليه الشاعرة تنقيحات عند ضمه إلى دواوينها .

والملاحظة العامة علي بواكير فدوي تنبيء بأنها لم تمر فعلا بمرحلة الطفولة الشعرية أو النثرية ، وإنما طالعت الناس منذ بداياتها بشعر صقيل ونثر محبوك ، وكان نضجها هو جواز مرورها إلى النشر في المجلات الرصينة ، وهو ما يعزي إلى أن الشاعرة مهدت لخروجها إلى النور بقراءات موسعة في كتب الأدب العربي وفي دواوين الشعراء حتي دانت لها كل إمكانياتها ، واقتحمت المجال بكفاءة مقتدرة . ومع ذلك ، فإن الشاعرة ـ وهي أعرف الناس بحدودها وبالبيئة الصارمة المحيطة بها ـ استصوبت أن تتخفي وراء أسماء مستعارة مثل دنانير و المطوقة أو الاقتصار علي اسم فدوي دون لقب الأسرة . وخشية أن تظن بها الظنون من أصحاب النيات السيئة ، حرصت علي أن تشير إلى أن دنانير التي تتستر وراء اسمها كانت شريفة عفيفة . وحسب القاريء أن يعرف أن القصائد المجهولة المندرجة في الرحلة المنسية قد بلغ عددها ثلاثين قصيدة ، وأن المقالات المنشورة في الصحف الأدبية والتي لم تجمع في كتاب هي ثماني مقالات عدا .

ثم إن الباحث الدكتور بكار قد استصوب ألا يفاجيء فدوي بنشر كتابه خشية أن تكون لديها تحفظات عليه ، فتوخي إطلاعها علي برنامجه في إعداد بحثه ، وقامت هي نفسها بتزويده ببعض ما كان ينقصه من شعر البدايات التي كانت محجوبة لديها . ويعلق وديع فلسطين علي هذا كله بقوله : وفي اعتقادي أن الرحلات الجبلية الثلاث لفدوي طوقان تعد عملا فريدا في الأدب العربي بما تميزت به من صدق الرواية وصراحة المكاشفة وبلاغة التعبير عن خلجات النفس دون ادعاء أو تفاخر أو ابتذال في الحديث عن النفس . وصفوة ما يقال عن هذا العمل الأدبي أنه عمل مشبع للروح والوجدان ، فضلا عن أنه تسجيل موضوعي لفترة من التاريخ الاجتماعي والوطني عاشت الشاعرة في بؤرتها ، وذاقت حلوها ومرها ، وأضاءت للباحثين جوانب إنسانية تستخلص من ضجيج الحياة وعجيجها في عصر حافل بما يسر وما يسوء .

من أكثر فصول الكتاب متعة وقدرة علي التصور وبراعة في التعبير الأدبي الفصل الذي كتبه وديع فلسطين عن صالون مي وشهادات رواده . والمؤلف يعز عليه أن المساجلات والمناقشات التي كانت تجري في صالون مي لم تخرج من بين جدرانه إلى صحافة تلك الأيام ، ولا كانت هناك آلات تسجيل يستعان بها في تسجيل نصوص المناقشات ثم تفريغها ونشرها .

وهكذا ضاع ما يمكن أن يعد تراثا ثمينا يمثل زبدة الأفكار والآراء التي طرحت ونوقشت في صالون مي . ويكاد الشيء نفسه ينطبق علي ما سبق من صالونات ، أبرزها

صالون الأميرة نازلي فاضل (١٨٥٣ ـ١٩١٣) وما لحقها من صالونات أبرزها صالون عباس محمود العقاد . ثم يستأذن القاريء لمرافقته في رحلة استكشافية لصالون مي ، عسي أن نتصور ـ ولو بالخيال ـ أننا قد عشنا مع مي في صالونها ، واختبرنا ما اختبره رواد الصالون في السويعات التي كانوا يقضونها فيه مساء أيام الثلاثاء من كل أسبوع .

أما صاحبة الصالون وربته فهي الأديبة مي زيادة أو ما ري زيادة أوإيزيس كوبيا (وهو الاسم المستعارالذي نشرت به أول كتاب لها) . يصفها وديع فلسطين بأنها أديبة برزة (تجالس الناس بدون حجاب) واسعة الاطلاع ، تكتب فصولها بأسلوب فيه تهويمات رومانسية ، وتخطب في المحافل ، وتجيد العزف علي الآلات الموسيقية ، وتشنف الآذان بما تنشده من أغان شعبية لبنانية ، وتجيد عددا من اللغات ، قيل إنها تسع لغات .

ويجتهد وديع فلسطين في حصر رواد صالون مي وندوتها الأسبوعية . فمن السيدات هدي شعراوي رائدة تحرير المرأة ، وباحثة البادية الشاعرة ملك حفني ناصف ، وإيمي خير الأديبة التي تكتب بالفرنسية ، ونظلة الحكيم زوجة أستاذ الفلسفة وعلم النفس الدكتور محمد مظهر ، سعيد والدكتورة إحسان القوصي الأستاذة الجامعية وغيرهن .

ومن الشعراء: إسماعيل صبري باشا وشبلي الملاط وأحمد شوقي وخليل مطران وحافظ إبراهيم وولي الدين يكن وجميل صدقي الزهاوي .
ومن رجال العلم: الدكتور شبل شميل ، والأمير مصطفي الشهابي ، وإسماعيل مظهر ، والدكتور يعقوب صروف ، وفؤاد صروف ، والدكتور أمير بقطر وآخرون .

ومن رجال الدين . الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار والشيخ مصطفي عبد الرازق الذي صار شيخا للجامع الأزهر .

ومن الأدباء والباحثين: الدكتور طه حسين ، وعباس محمود العقاد ، ومصطفي صادق الرافعي ، والدكتور منصور فهمي باشا ، وأستاذ الجيل أحمد لطفي السيد ، والدكتور محمد حسين هيكل باشا ، وإبراهيم عبد القادر المازني وغيرهم .

ومن رجال الصحافة ، أنطون الجميل باشا ، وخليل ثابت باشا ، و عبد القادر حمزة باشا ، وإدجار جلاد باشا ، وداود بركات ، وطاهر الطناحي ومحيي الدين رضا .

ومن رجال السياسة: عبد العزيز فهمي باشا ، و عبد الستار الباسل باشا ، والخطاط نجيب هواويني بك . ومن الأجانب: القاص الأمريكي هنري جيمس وابن الشاعر الأمريكي لونجفلو .

ويـصور محمـد عبـد الغـني حـسن شخـصية مـي في صـالونها بقولـه: تلـك هـي مـي الكاتبـة ، ومـي الـشاعرة ، ومـي الموسـيقية المرهفـة الأذن ، الرقيقـة الحـس ، البارعـة الأصـابع ، ومـي حـين تـتهكم ، ومـي حـين تبـدع في الأسـلوب ، وتتـسع نظرتهـا للأديـان ، أصـل الخـير ومنبـع الرحمـة والـبر . وحـين تتـسامي بفكرتهـا الإنـسانية إلى العالميـة الـتي تحتقـر كـل تعـصب وتنبـذ كـل تحـزب ، كانـت الفـصيحة البيـان ، الطلقـة اللـسان . ويبدو أن مي حـين استـشعرت تحفظـا مـن الـبعض إزاء صـالون تقيمـه امـرأة مثلـها قالـت في الـرد علـي أولئـك المـتحفظين: غريـب أن تبخلـوا علـي المـرأة بحـضور اجتمـاع يرفـع نفـسها إلى أسمـي درجـات التـأثير المفيـد ، ويلفـت عقلـها إلى هيبـة العلـم وعظمـة الفـضل ، ويعلمهـا إجـلال الوطن ورجال الوطن .

* * *

وبعـد ، فمثـل هـذا الكتـاب المتـع جـدير بـأن يقـتني ، وأن يقـرأ مـرات ، وأن توجـه التحيـة لمؤلفـه راهـب الفكـر المعتـزل وديـع فلـسطين ، مقرونـة بـالاحترام العميـق لتعففـه وكبريائـه ، وصـعيديته الـتي جعلتـه قويـا جلـدا في مواجهـة مـا يمـلأ زماننـا مـن زيـغ وخلـل وفساد واضطراب .

مكتبة الإسكندرية والدور المأمول

بقلم : فاروق شوشة

علي غرار لجان المجلس الأعلي للثقافة ، شكلت مكتبة الاسكندرية لجانها الثقافية الثماني: لجنة العلوم الاجتماعية والإنسانيات ، لجنة الآداب والدراسات اللغوية ، لجنة الفنون ، لجنة الديانات والفلسفة ، لجنة التنمية والبيئة ، لجنة الجغرافيا والتاريخ والآثار ، لجنة العلوم والتكنولوجيا ولجنة الطفولة والنشء .

اجتمعت هذه اللجان لا ول مرة مساء الخميس٢٧ ما رس وصباح الجمعة٢٨ ما رس الماضي ، ثم كان اجتماعها الثاني مساء الخميس٢٤ يوليو وصباح الجمعة٢٥ يوليو الماضي ، متضمنا اجتماع كل لجنة أولا ـ علي حدة ـ للمناقشة والاتفاق علي المؤتمرات والندوات الدولية أو المحلية المقترحة من كل لجنة ، ومصادر المعرفة التي تقترحها كل لجنة كي تقتنيها المكتبة ، وجوائز لا فضل كتاب أو بحث علمي نشر في مصر ، كل لجنة في ميدانها وهي جائزة سنوية مقترحة ، واسم الباحث المقترح الذي تعينه كي يكون منسقا لا عمال كل لجنة ، ومتابعا للتوصيات والاقتراحات ، وحلقة وصل بين المكتبة واعضاء اللجنة ، ثم كان الاجتماع المشترك لكل اعضاء اللجان الثماني .

تقتضي الأمانة أن نعرض للفلسفة المتمثلة في تشكيل هذه اللجان ، والدور المأمول من ورائها . كما جاء في كلمة الدكتور عادل أبو زهرة ـ المنسق العام للجان العلمية ـ التي قدم بها لتقرير الاجتماع الأول: يحرص الدكتور اسماعيل سراج الدين حرصا بالغا علي مشاركة النخبة المثقفة المصرية في وضع تصورات لسياسات المكتبة وأنشطتها بحيث تأتي هذه السياسات وتلك الأنشطة معبرة عن رؤي متعددة ومتنوعة ، ويمتد هذا الاسهام إلى وضع تصورات للاقتناء والتزويد لكل مصادر ووسائط المعرفة قديمها وحديثها ، وإتاحتها للباحثين والدارسين والمفكرين ، إضافة إلى الاسهام في اقتراح موضوعات لمؤتمرات وندوات وحلقات نقاش عالمية ومحلية يكون من شأنها إثراء الحياة الفكرية والثقافية والعلمية في المجتمع المصري وفتح نوافذ المعرفة للاطلال علي مصادر متنوعة للفكر الانساني وللثقافة الانسانية في كل مناطق العالم مثل ثقافة الوطن العربي وثقافة البحر المتوسط والثقافة الافريقية والثقافة الأوروبية وثقافات آسيا وأمريكا اللاتينية ، بالاضافة إلى الثقافة ـ المصرية ـ وبخاصة القديمة منها التي ازدهرت في مصر الفرعونية ـ أو في المرحلة إلى ونانية الرومانية ـ وبخاصة ثقافة الاسكندرية ـ والثقافة القبطية والاسلامية مع الاهتمام المتميز بكل ما يحدث من طفرات في مجال العلم الحديث .

ولأن المكتبة ليست مجرد دار للكتب أو لشبكات وقواعد وبنوك البيانات والمعلومات ، وانما ينظر إلى ها علي أنها مركز متميز للحوار والاجتهاد ، ومركز لعرض التجارب الفنية المتميزة في المسرح والموسيقي والسينما والفنون التشكيلية كما أن بها مجموعة من المتاحف ، مثل متحف الآثار ومتحف العلوم ، وصالات أخري متعددة الأغراض لعرض التراث الإنساني والمصري . لذا كان لا بد من إسهام النخب المثقفة في تزويد إدارة المكتبة بالآراء والأفكار والرؤي في كل هذه المجالات .

ثم يقول الدكتور عادل أبو زهرة: لذلك - وخلال العام الأخير - دعونا عددا كبيرا من المفكرين والمثقفين والكتاب والعلماء إلى جلسات طويلة للحوار والنقاش وطرح تصورات عن رسالة مكتبة الاسكندرية والأدوار التي يمكن أن تلعبها لتحديث وتنمية المجتمع المصري ، وعن علاقة المكتبة بالجامعات والمعاهد العلمية ومراكز البحث في مصر وعلاقتها بالمراكز والهيئات الثقافية وبالمكتبات العالمية والمحلية وكيف تكون علاقتها بالباحثين والدارسين وطلاب العلم ، وعما يجب أن تتميز به عن غيرها من مؤسسات الثقافة والعلم وانتاج ونشر المعرفة .

لقد كانت استجابة النخبة المثقفة المصرية في كل محافظات مصر لدعوة المكتبة استجابة متميزة ، من جانب عدد كبير ومتنوع من المفكرين والباحثين والعلماء الذين ينتمون إلى مدارس علمية وفكرية وإيديولوجية متنوعة وحقول معرفية مختلفة ، كما أنهم مثلوا أجيالا مختلفة أيضا فكان منهم شباب المثقفين وشيوخ المثقفين ، لكنهم جميعا أخذوا الأمر بجدية تليق بالموضوعات المطروحة وبما يعقدونه من آمال علي مكتبة الاسكندرية .

لا أعتقد أني أفشي سرا أو أنشر ما ليس مباحا ، حين أؤكد أن ما توصل إلى ه الاجتماع الثاني لهذه اللجان - الذي تم منذ أيام قليلة - يعد خطة خمسية - علي الأقل - لنشاط مكتبة الاسكندرية ودورها الثقافي . يكفي أن أشير إلى العناوين التي اقترحتها اللجان لمؤتمرات المكتبة وندواتها القادمة ، عن: مجتمع المعرفة: المشكلات النظرية والتطبيقية ، وعن الاسكندرية في الآداب العالمية ، والاسكندرية في الأدب العربي قديما وحديثا ، والتيارات المشتركة في الثقافات المتوسطية ، والابداع النسائي في الآداب المتوسطية ، وعن الفلسفة والعلوم في الاسكندرية عبر العصور ، وعن ثقافة السلام ، وعن التنمية الذاتية الشاملة في ظل الوضع الاستقطابي الراهن للعولمة ، وعن الحوار الاسلامي المسيحي في مصر ، ومفهوم التاريخ واستخدام التاريخ ضد التاريخ وإشكالية التاريخ وعن الوضع الراهن للفكر العربي ، وللدراسات الفلسفية في مصر والعالم العربي ، وعن تأصيل فكرة التنمية المستدامة والحفاظ علي البيئة وإدارة الموارد المائية ، ورؤية جديدة لتوزيع السكان وتنمية المجتمعات الجديدة والسياسات الزراعية وعن العولمة وأثرها

في الموسيقي في مصر والعالم العربي وعن المؤثرات الأوروبية والأصوال الشعبية لنشأة المسرح المصري والعربي في القرن التاسع عشر وعن سد الثغرة بين مصر والدول المتقدمة علميا وتكنولوجيا ونشر الثقافة العلمية وتبني المنهج العلمي وعن العلاقات الثقافية بين مصر وعالم البحر الأبيض المتوسط عبر العصور ، وروافد الثقافة المصرية في التاريخ واقامة بينالي دولي للعمارة ، وعن أثر الحروب في الأطفال وعن مركز بحثي لا دب الأطفال . وفي مجال تزويد مكتبة الاسكندرية كانت هناك دعوة إلى الانتقاء والاختيار بدلا من فكرة جمع كل شيء ، وأن يشمل التزويد الدوريات الأساسية ومطبوعات إلى ونسكو ومطبوعات الأمم المتحدة مع الاستعانة بكتالوجات النشر العالمية الموجودة علي شبكات الانترنت وضرورة اقتناء الدراسات والكتاب والدوريات والمخطوطات والبرديات مما له صلة بالاسكندرية والحضارة المصرية في مختلف عصورها وبالتراث العلمي والفكري والثقافي لدول العالم ، من أجل أن تكون مكتبة الاسكندرية مركزا أكاديميا متميزا لدراسات البحر المتوسطة . وأن يشمل التزويد - في مجال الطفولة والنشء - مطبوعات المجلس المصري لكتب الأطفال والمطبوعات الصادرة عن المجلس العالمي لكتب الأطفال والدوريات الخاصة بالطفولة والموسوعات الخاصة بالطفل .

وفي مجال اقتراح جوائز باسم مكتبة الاسكندرية ، كان هناك اتجاه عام يمثل حرصا واضحا علي أن تكون أية جائزة باسم مكتبة الاسكندرية لا ثقة بها وبتاريخها ومكانتها والرمز الذي تمثله ، وأن تكون جائزة واحدة تقدم مرة في كل عام ، في مجال مختلف من مجالات الآداب والعلوم والفنون والانسانيات . وكان اقتراح لجنة الآداب والدراسات اللغوية أن تحمل الجائزة اسم جائزة مكتبة الاسكندرية للابداع المتوسطي وتكون بالتبادل بين المبدعين من الأدباء والعلماء والفنانين مركزة علي الاضافات الجديدة ذات القيمة المتميزة .

هل يضيف جديدا أن يقال إن الحوارات والمناقشات في الاجتماعين الأول والثاني للجان مكتبة الاسكندرية كانت علي أعلي مستوي من المصارحة والجرأة والأمانة العلمية ، بعيدة عن روح المجاملة أو الآفة المتمثلة في الدعوة إلى تزيين القبيح أو تقبيح الحسن ، بالرغم من تعدد الآراء والاتجاهات والاجتهادات ، لكنه التعدد الذي لا يوسع من دائرة الاختلاف بقدر ما يؤدي إلى لون من الفكر المشترك تكون له السيادة في نهاية الأمر ، من منطلق الديمقراطية وحرية الرأي وصولا إلى التكامل المنشود . كما اتسع المجال لا راء وأفكار غير تقليدية ، نجحت في انقاذ الحوار من التكرار أو الطرح المألوف . فالفكر المختلف ، الخارج علي المألوف ، المجاوز للتقليد ، هو الفكر المطلوب في مثل هذه الملتقيات ، التي تتسع لها مكتبة الاسكندرية وتوسع لها من صدرها وعقلها ،

وهـي الـتي تـسعي ـ مـن أجـل تعميـق دورهـا وإثرائـه وزيـادة فاعليتـه ـ إلى الاسـتعانة بخـبرة وحكمة وعلم العلماء والمفكرين والمثقفين المصريين في صياغة سياساتها وبرامجها ورؤاها .

صـحيح أن الـدور اختلـف ، بـين مكتبـة الاسـكندرية القديمـة ومكتبـة الاسـكندرية الحاليـة . كانـت المكتبـة القديمـة تمثـل قمـة الهـرم المعـرفي والعلمـي في العـالم القـديم ، يـأتي إلى هـا العلمـاء والمفكـرون والدارسـون مـن كـل حـدب وصـوب ليتـزودوا ويتعلمـوا ويبحثـوا ويجربـوا ويتحـاوروا ، ويعـودوا إلى أوطـانهم وقـد أصـبحوا أوفـر علمـا ومعرفـة ، وأعمـق اسـتنارة ووعيـا ، وأكثـر قـدرة علـي المزيـد مـن البحـث والـدرس والتجريـب ، أمـا في عـالم إلى وم ، فـالهوة واسـعة بيننـا وبـين مـن يملكـون علـوم العـصر ومعرفتـه ووسـائله وشـروطه مـن هنـا فـنحن نريـد للمكتبـة أن تكـون ـ بكـل مقوماتهـا وعناصـرها وفاعليتهـا ودورهـا ـ أكـبر مـن حجـم واقعنـا الـذي نـسعي إلى تغـييره وتجـاوزه ، وأن تعـود مـن جديـد عنـصرا جاذبـا للعلـم والمعرفـة الانـسانية بفـضل مـا تتميـز بـه مـن مجـالات التخـصص ونوعيـة مـصادر المعرفـة ، مكتبـة الاسـكندرية الآن صـوت قـوي هـادر يحفزنـا إلى التجـاوز ويـدفعنا إلى الانفتـاح علـي علـوم العـصر وثقافاتـه ومعارفـه ، ويـشدنا إلى الأمـام حـتي يكـون لنـا موقـع في سـباق المـستقبل . لا بـد إذن مـن عقـل متحـرر ، يـؤمن بـالعلم والمـنهج العلمـي ، يـؤمن بالاسـتنارة والبحـث والتجريـب والمغـامرة ومجـاوزة الـسائد والمـألوف ، عقـل يحطـم أوهـام الخرافـة ويبـدع في مجـالات البحـث العلمـي ، لا قامـة مجتمـع المعرفـة الـذي نريـد لمكتبـة الاسـكندرية أن تكـون عنوانـا عليـه ورمـزا لـه ومنـارا يهـدي إلى ه ويجمـع مـن حولـه الطليعـة المثقفـة مـن كـل الأجيـال والاتجاهـات والتيارات .

إن العـودة إلى وقـائع هـذين الاجتمـاعين ـ في مـا رس ويوليـو ـ تكـشف عـن مئـات التفاصيل الـتي طرحتهـا الحـوارات والمـداخلات ، لكـن الأهـم مـن كـل هـذه التفاصيل ـ علـي أهميتهـا و الاحتيـاج الـشديد إلى هـا ـ هـو الـروح الجديـدة الـتي يحـسها كـل مـن شـارك في هـذا الحـوار تحـت قبـة هـذا الـصرح الجديـد مـن صـروح المعرفـة والاسـتنارة ، روح الثقـة في أن شـيئا جديـدا يتخلـق ويتـشكل وينـزع إلى أس والإحبـاط والـسلبية مـن وجـدان المـشاركين وعقـولهم ، وروح التفـاؤل في أن مـا سـوف يـتمخض عـن هـذين الاجتمـاعين مـن إلى ات العمـل كفيـل بـأن يحكـم دائـرة الإنجـاز ، ويـربط مـستويات المـشاركة بعـضها بـبعض ، بـدءا مـن القاعـدة الـتي تمثلـها اللجـان الثمـاني ، فاللجنـة الـتي تـضم منـسقي هـذه اللجـان ، فاللجنـة المقترحـة ـ التي تضم مقـرري اللجـان ـ والـتي هـي بمثابـة حلقـة الوصـل بـين الفكـر الـذي ينـادي بـه أعـضاء اللجـان ـ مـن المـثقفين والعلمـاء والمفكـرين والأسـاتذة والفنـانين مـن ناحيـة ـ ومجلـس إدارة المكتبة من ناحية أخري .

وليس أمام مكتبة الاسكندرية إلا مواجهة التحدي وكسب الرهان !

قراءة في دليل دار الكتب والوثائق القومية

بقلم: فاروق شوشة

اختـار الناقـد والمثقـف الكـبير الـدكتور صـلاح فـضل أن ينهـي المـدة القـصيرة الـتي قـضاها رئيـسا لهيئـة دار الكتـب والوثـائق القوميـة ـــ أربعـة عـشر شـهرا وأربعـة عـشر يومـا ـــ بإصـدار دليـل شـامل عـن الهيئـة بـدءا بقيـام دار الكتـب في عـام ١٨٧٠ وانتهـاء بهـذا العـام٢٠٠٣ .

ولقـد أتـيح لـي أن أكـون شـاهدا ـــ علـي حجـم الانجـاز والانطلاقـة الكـبري واسـتنبات المـشاريع والافكـار المتوهجـة بـالطموح مـستندة إلى نظـرة اسـتراتيجية تـشمل كـل قطاعـات الهيئـة وتعـي احتياجاتهـا وحجـم المعوقـات الـتي سـادت عقـودا طويلـة مـن الزمـان ـــ مـن خـلال عـضويتي في مجلـس الإدارة علـي مـدار حقبـتين متـصلتين للاسـتاذ سمـير غريـب الـذي بـدأ عمليـة التطـوير الحقيقيـة والـدكتور صـلاح فـضل الـذي أنـضجها وتوسـع فيهـا مـن خـلال رؤيـة شـاملة ، مطـلا علـي الموقـع والمكـان ، ومـشاركا في الحـوار ، ومتابعـا لحجـم العمـل المـضني ، ليل نهار .

مـن هنـا ، فـإن قـراءة متأملـة لمـا حـواه هـذا الـدليل الـشامل ، لا بـد أن تـستوقفها بـدايات التطـور وآفـاق المـستقبل في محـورين أساسـيين همـا : المـشروعات المعماريـة الـتي تـشمل مـشروع تطـوير دار الكتـب ببـاب الخلـق ، ومـشروع مركـز الـصيانة والترمـيم والميكـروفيلم ، ومـشروع تطـوير مـبني دار الكتـب بكـورنيش النيـل ومـشروعات التطـوير المعمـاري بـدار الوثـائق ، أمـا المحـور الثـاني الـذي يـشمل المـشروعات الفنيـة فيـضم مـشروع الإنـذار والاطفـاء الآلـي ومحطـة الكهربـاء الجديـدة لـدار الكتـب وقاعـة النـدوات الجديـدة ومـشروعات تطـوير المكتبـات الفرعيـة ومـشروع ميكنـة الوثـائق ومـشروع تحويـل المخطوطـات إلى وسـيط إلكترونـي ومـشروع إصـدار مجموعـات البرديـات الإسـلامية علـي اقـراص مدمجـةC . D ومـشروع إصـدار الخـرائط الاثريـة علـي وسـيط إلكترونـي ومـشروع قاعـدة بيانـات المخطوطـات ومـشروع قاعـدة بيانـات دار الكتب ومشروع إنشاء مطبعة دار الكتب .

الـدكتور صـلاح فـضل يقـدم لهـذا الـدليل بكلمـات تحمـل الـوعي العميـق بالـدور الـذي قامت بـه دار الكتـب والوثـائق القوميـة في تـاريخ مـصر ، وأهميـة الموقـع الـذي تـشغله باعتبارهـا ذاكـرة الـوطن والأمـة ، والـوعي العميـق بمتطلبـات هـذه الـدار رعايـة وصـيانة وازاحـة للعوائـق ودعمـا للقـدرة والطاقـة والامكانيـات ، وتعويـضا لهـا عـن سـنوات طويلـة مـن الإهمـال والبعـد عـن الـدعم المطلـوب والمـستحق ، وتحقيقـا لا نطلاقتهـا الـشاملة في المـستقبل ، عنـدما يقـول : إذا كانـت دار الكتـب والوثـائق القوميـة في مـصر تمثـل ذاكـرة الـوطن والأمـة ، فإنـه يـتعين

عليها أن تنظم ذاكرتها الخاصة ، وتقدم صورة جديدة لها ، باعتبارها أعرق مؤسسة في الوطن العربي ، ولدت خالصة للثقافة الشاملة ، موجهة للبحث والقراءة ، دون أن تختلط بغير ذلك من غايات التعليم أو الدين ، ولم تكن منذ بداياتها في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر مجرد مخزن مرصود للكتب والمخطوطات ولا منطلقا لحركة النشر التراثي فحسب ، بل كانت مصنعا للعقول والخبرات ، ومركزا نشيطا لتداول البيانات والمعلومات ، وملتقي للإعلام ومنارة حقيقية للفكر والمعرفة .

وقد تعاقبت عليها أجيال عديدة ، وبقدر ما تراكم فيها من مقتنيات ثمينة وأخري أصبحت كذلك بمرور السنوات عليها ، عرفت أشكالا عديدة من نظم الإدارة ، واختمرت فيها خبرات فنية في الفهرسة والتصنيف والنسخ ، والتجليد والترميم بما جعلها بحق بيت التراث العربي الإسلامي وعندما ضمت إلى ها حديثا دار الوثائق القومية أصبحت بيت الخبرة التوثيقية العريق ، الذي تلجأ إلى ه المكتبات الخاصة والعامة ودور الوثائق في الوطن العربي كله ، تعاونا علي خدمة القراء والباحثين في الكتب والوثائق .
غير أن ثورة المعلومات الحديثة قد أصبحت تمثل تحديا خطيرا ونقلة نوعية جوهرية في صميم بنية هذه الدور كلها ، وطبيعة ما يجب أن يجمعها من شبكة المعلومات وقواعد البيانات الاساسية .

ثم يشير الدكتور صلاح فضل ــ في تقديمة لهذا الدليل ــ إلى أن إصدار هذا الدليل المرجع الشامل الذي يغطي تاريخ الدار وتطور انظمتها الإدارية والخدمية هو استجابة لهذا التحدي ، وتنظيم للذاكرة ، وهي بصدد الانتقال إلى المرحلة الرقمية .
يقول الدليل إنه في يوم٢٣ ما رس عام ١٨٧٠ اصدر الخديو إسماعيل ــ بناء علي ما عرضه علي باشا مبارك مدير المدارس ــ الأمر العالي بتأسيس دار مركزية للكتب المصرية تسمي: الكتبخانة الخديوية المصرية ، وذلك من أجل الحفاظ علي ممتلكات مصر الثقافية من الضياع والتهريب وعدم وجود قوانين وتشريعات تحمي هذه الممتلكات وتمنع الاتجار فيها أو نقلها في ذلك الوقت ، بالإضافة إلى انتشار تجارة الكتب والآثار وتردد الكثير من الاجانب علي مصر الذين نقلوا جزءا كبيرا من المخطوطات وأوراق البردي إلى مكتبات تركيا وأوروبا والولايات المتحدة .

نحن اذن نحتفل إلى وم ــ٢٣ ما رس ــ بمرور ما ئة وثلاثة وثلاثين عام ا علي صدور هذا الأمر العالي بالتأسيس ، يقول علي باشا مبارك في شهادته للتاريخ عن هذا الحدث القومي البارز: ثم ظهر لي أن أجعل كتبخانة خديوية داخل الديار المصرية ــ أضاهي بها كتبخانة باريز ، فاستأذنت الخديو إسماعيل باشا في ذلك ، فأذن لي ، فشرعت في بناء الكتبخانة الخديوية هناك أيضا (أي سراي مصطفي فاضل باشا بدرب الجماميز) ، وبعد فراغها جمعت فيها ما تشتت من الكتب التي كانت لجهات

الاوقاف زيادة علي ما صار مشتراه من الكتب العربية والإفرنجية وغيرها ، وجعلت لها ناظرا ، ورتبت لها خدمة ومعاونين ، وعملت لها قانونا لضبطها وعدم ضياع كتبها ، فجاءت بعون الله من أنفع التجديدات التي حدثت في عهد الخديو إسماعيل باشا وجعل بها النفع العام للخاص والعام .

وهكذا اتخذت دار الكتب مقرا لها الدور الأسفل (البدروم) من قصر مصطفي فاضل باشا شقيق الخديو إسماعيل الكائن بدرب الجماميز ، وهو القصر الذي كان يشغله آنذاك ديوان نظارة المعارف (ديوان المدارس) .

ثم يحدثنا الدليل عن النواة الأولي لمقتنيات الكتبخانة الخديوية التي وسعها المكان عند الافتتاح وأنها كانت نحو ثلاثين ألف مجلد ، جمعت من أماكن مختلفة شملت الكتب والمخطوطات بالمكتبة الخديوية القديمة التي أنشأها محمد علي باشا بالقلعة عام ١٨٢٩ ، وكذلك المخطوطات والكتب التي كانت في كثير من المساجد ومكتبتي وزارتي الاشغال والمعارف العمومية ، وأضيف إلى ها مؤلفات متنوعة كانت لدي الحكومة ، وكذلك نماذج الرسوم ومختلف الآلات الهندسية وغيرها من الأجهزة العلمية الواردة إلى ها من وزارتي الاشغال والمعارف وما اشتراه الخديوي إسماعيل من مكتبة شقيقه مصطفي فاضل باشا ، ومجموعات أجنبية أخري ألفها علماء أجانب بمصر كانت موجودة بكتبخانة مدرسة الصنائع .

من هذه المجموعات ــ كما يقول الدليل الذي شارك في إعداده الأساتذة: أحمد عبد العظيم محمد وعماد الدين أحمد فؤاد ومشيرة إلى وسفي ــ تكونت الكتبخانة الخديوية المصرية ، وافتتحت رسميا للجمهور بغرض القراءة والإطلاع والنسخ والاستعارة في٢٤ سبتمبر١٨٧٠ وكانت أول مكتبة وطنية في العالم العربي .

وفي عام ١٨٩٩ وضع الخديو عباس حلمي الثاني ــ صديق مصطفي كامل وأحمد شوقي الذي نفاه الانجليز إلى تركيا عند قيام الحرب العالمية الأولي عام ١٩١٤ ــ حجر أساس الكتبخانة الخديوية ودار الاثار العربية في ميدان باب الخلق ، انتقلت إلى ه الدار في عام ١٩٠٣ وفتحت أبو ابها للمترددين والباحثين في اول عام ١٩٠٤ وبلغ رصيد مقتنياتها في ذلك الوقت أربعة وخمسين ألف مجلد .

الطريف أن دار الكتب المصرية ــ التي هي أول مكتبة وطنية في العالم العربي ، ومن أولي المكتبات الوطنية علي المستوي العالمي ــ سميت عبر تاريخها الطويل باسماء رسمية مختلفة اطلقت عليها هي: الكتبخانة الخديوية المصرية ، دار الكتب الخديوية ، دار الكتب السلطانية ، دار الكتب المصرية ، دار الكتب والوثائق القومية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب وأخيرا الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية منذ عام ١٩٩٣ .

كانـت الإدارة الاجنبيـة تمثـل المرحلـة الأولـي في إدارة دار الكتـب المـصرية ، وقـد تولاهـا مـن الألمـان الـدكتور شـتيرن وفلـهلم سـبيتا وكـارل فـولليرس والـدكتور برنـارد مـوريتز والدكتور شـادة تخللـهم مـديران مـصريان همـا الـشيخ محمـد علـي البـبلاوي ـــ الـذي أسـس قـسم الفهـارس بـدار الكتـب ـــ وتـدرج في وظائفهـا حـتي صـار نـاظرا لهـا ثـم لم يلبـث أن عـين شـيخا للازهـر ، ومـراد أفنـدي مختـار الـذي كـان مـشتغلا بـالعلم والأدب وتـرجم قـصة أبـي علـي بـن سـينا وشـقيقه أبـي الحـارث ، ومـا حـصل لهمـا مـن نـوادر العجائـب وشـوارد الغرائـب مـن التركية إلى العربية .

أمـا عهـد الإدارة المـصرية فيبـدأ بأسـتاذ الجيـل أحمـد لطفـي الـسيد الـذي تـولي إدارة الـدار مـرتين الأولـي مـن١٩١٥ إلى ١٩١٨ والثانيـة مـن١٩٢٢ إلى ١٩٢٥ ، ثـم كـان مـن أبـرز الشخـصيات العلميـة والثقافيـة والأدبيـة ـــ الـتي تولـت هـذا المنـصب ـــ أحمـد صـادق و عبـد الحميـد أبـو هيـف ومحمـد أسـعد بـرادة والـدكتور منـصور فهمـي ـــ الـذي كـان عميـدا لكليـة الآداب ومـديرا لجامعـة الإسـكندرية وأمينـا لمجمـع اللغـة العربيـة وتـولي إدارة دار الكتـب بـين عـام ي ١٩٤٦ ، ١٩٣٦ ـــ وأحمـد عاصـم ، وأمـين مرسـي قنـديل ، وتوفيـق الحكـيم الـذي تـولي إدارة الـدار مـن مـا رس١٩٥١ حـتي ابريـل١٩٥٧ أمـا اشـهر وكـلاء دار الكتـب المـصرية فهـم: شـاعر النيـل حـافظ إبـراهيم الـذي بـدأت علاقتـه بـدار الكتـب رئيـسا للقسم الأدبـي فيهـا ، وقـد قـضي بهـا واحـدا وعـشرين عـام ا ، وشـاعر الـشباب أحمـد رامـي الـذي عـين في قـسم الفهـارس الأجنبيـة بـدار الكتـب الـسلطانية حـتي صـار وكـيلا لهـا مـن عـام ١٩٢٤ حـتي١٩٥٢ ويحيي حقي الذي عمل مستشارا لدار الكتب بين عام ي ١٩٥٨ ، ١٩٥٥ .

وحـين صـدر القـرار الجمهـوري٢٨٢٦ لـسنة١٩٧١ بـضم دار الكتـب المـصرية إلى المؤسـسة المـصرية العامـة للتـأليف والنـشر ، وأصـبحت التـسمية: الهيئـة المـصرية العامـة للكتـاب ، تـولي رئاسـة مجلـس الإدارة كـل مـن الـدكتور الـشنيطي ، فالـشاعر صـلاح عبـد الـصبور ، فالـدكتور عـز الـدين إسماعيـل ، فالـدكتور سمـير سـرحان حـتي صـدر القـرار الجمهـوري ـــ مـرة أخـري ـــ بفـصل الـدار عـن الهيئـة المـصرية العامـة للكتـاب وتـسميتها بالهيئـة العامـة لـدار الكتـب والوثـائق القوميـة ، وتـولي رئـيس مجلـس الإدارة كـل مـن الأسـاتذة الـدكتور محمـود فهمـي حجـازي والـدكتور جـابر عـصفور والـدكتور ناصـر الانـصاري وسمـير غريب والدكتور صلاح فضل .

لقـد أحببـت أن أضـع بـين يـدي القـارئ هـذه الـسطور نقـلا عـن دليـل دار الكتـب والوثـائق القوميـة ، تعريفـا بهـذا الـدليل الـشامل وأهميتـه ، وتوعيـة بـأهم مـا يتـضمنه مـن وجهـي التـاريخ والواقـع وصـورة المستقبل لهـذه الهيئـة الـتي وصـفت بأنهـا ذاكـرة الـوطن والأمـة ، وأن أحيـي الـصديق الـدكتور صـلاح فـضل ـــ النـاقـد والمثقـف الكـبير ـــ علـي إنجـازه الواضـح في زمـن قياسـي ، كـان مـن المكـن أن يـضيع معظمـه في محاولـة الفهـم والدراسـة ، لكنـه

جعل من هذه الشهور الأربعة عشر عملا دائبا ، وحركة في جميع الاتجاهات وسباقا مع الزمن مستعينا بالكوادر الرئيسية في هذه الدار بدءا برؤساء القطاعات: الدكتور صابر عرب رئيس دار الوثائق والدكتور جلال غندور رئيس دار الكتب والدكتور فعت هلال رئيس المراكز العلمية والسيدة آمال عبد الفتاح رئيسة الشئون المالية والمهندس عصام الطنبولي رئيس الإدارة الهندسية ، ومعهم العين إلى قظة اللواء محب قمحاوي مستشار رئيس الهيئة ، والذي يتولي حاليا مسئولية رئاسة لجنة جرد المخطوطات التي تقتنيها الدار ، وكان من نتيجة هذا الجهد كله فتح الافاق أمام مشاريع جديدة ، أتوقف من بينها عند مشروع واحد هو ميكنة الوثائق الذي يهدف إلى تسجيل التراث الوثائقي كله بأحدث الوسائل العلمية ، نظرا للأهمية القومية والإقليمية والدولية للوثائق المصرية بالصورة التي تخدم الباحثين والجمهور معا من خلال اتفاق تعاون بين دار الكتب والوثائق القومية والمركز القومي لتوثيق التراث الحضاري والطبيعي بوزارة الاتصالات والمعلومات . ولقد تم البدء التنفيذي لعمل الدراسة الاسترشادية للمشروع في سبتمبر٢٠٠٢ لكن المضي في تنفيذه يتطلب دعما من الدولة وتمويلا يمكن الدار من إقامة التجهيزات الضرورية وتدريب المتخصصين في الوثائق من خلال مركز متخصص ـــ يتم إنشاؤه بالتعاون مع وزارة الاتصالات ـــ لنظم المعلومات وتكنولوجيا توثيق التراث الوثائقي ، وكلي ثقة في أن الأستاذ الجامعي المثقف الدكتور مدحت حسانين وزير المالية لن يبخل علي هيئة دار الكتب والوثائق القومية بدعم ما لي لمشروع ميكنة الوثائق ، يضاف إلى سابق ما قام به من دعم للمشاريع العلمية والطموحات المستقبلية للدار استجابة لحاجاتها المستمرة من أجل المزيد من التطوير .

وتحية لهذه المؤسسة العريقة في يوم مرور ما ئة وثلاثة وثلاثين عام ا علي صدور الأمر العالي للخديو إسماعيل بتأسيسها بناء علي المشروع الذي نهض به أحد رواد النهضة: علي باشا مبارك الذي ينسب إلى ه فضل إنشاء دار الكتب ودار العلوم ركيزتين للمعرفة والتنوير في مصر منذ الثلث الأخير من القرن التاسع عشر .

عبد القادر القط

بقلم: فاروق شوشة

علـي صـفحات الأهـرام كانـت التجليـات الثقافيـة والأدبيـة الأخـيرة للـدكتور عبـد القـادر القـط طيلـة الـسنوات الأربـع الماضـية ، كانـت مقالاتـه نـصف الـشهرية بمثابـة الـصفحة الأخـيرة في سـجل حافـل بالإبـداع والنقـد والفكـر ، والمـشاركة الجـادة والحيـة في حياتنـا الثقافية والادبية علي مدار أكثر من نصف قرن .

وظـن كـثيرون أن مقالاتـه في الأهـرام ستتـسع لكتابـات نقديـة جديـدة ، تواكـب الإبـداع الأدبـي في الـشعر والقـصة والروايـة والمـسرح وتـصنيف إلى دراسـاته في هـذا الجـال ، وبعـد أن ظهـرت أجيـال جديـدة مـن المبـدعين ، واتـسعت طرائـق التعـبير ، واختلطـت معـايير القـول ، لكـن ناقـدنا الكـبير فاجـأ هـؤلاء الكـثيرين بعزوفـه التـام عـن الكتابـة الـتي يتوقعونهـا منـه ، فقـد آثـر ــ وهـو يتعامـل مـع قـراء منـبر واسـع الانتـشار كـالأهرام ــ موقـف المفكـر لا الناقـد ، المفكـر الـذي تـشغله قـضايا التعلـيم والـشباب والتربيـة والـدراما التليفزيونيـة ، والهمـوم الوطنيـة والقوميـة ، أكثـر ممـا تعنيـه الكتابـة عـن مجموعـة شـعرية أو روايـة ، أو أي عمل أدبي يتطلب نقدا وتقويما ومتابعة .

هكـذا أتـيح لقرائـه ــ وأنـا أحـدهم ــ أن يـروا في الـدكتور عبـد القـادر القـط مـا لم يـروه مـن قبـل ، وجـه المربـي والكاتـب الـساخر الـذي يعـني بـشئون الحيـاة إلى وميـة والقـضايا الـتي تـشغل النـاس في لقـاءاتهم ومجالـسهم ، ويحـرص جهـده علـي أن يكـون قريبـا مـن هـذه الـشواغل والاهتمامـات ، بعيـدا عـن صـورة الناقـد الاكـاديمي الـتي لا تلائـم طبيعـة قـراء الأهـرام ، وميـولهم العامـة غـير المتخصـصة ، هكـذا كـان يحـرص دومـا علـي أن يوضـح موقفـه في كتاباته كلما سأله سائل .

وعنـدما جمـع ناقـدنا الكـبير بعـض هـذه الكتابـات في كتابـه الجميـل ــ الـذي يعـد آخر ما أصدره مـن كتـب ــ وهـو: أربعـون صباحا أدرك قـارئ الكتـاب أن هنـاك وجوهـا ظلـت زمنـا طـويلا غـير مكتـشفة في الـدكتور عبـد القـادر القـط ، حـتي جـاءت كتاباتـه في الأهـرام ، فنزعـت القنـاع عـن فـصول مـن سـيرته الذاتيـة في مـرحلتي النـشأة الأولـي والتكـوين ثـم البعثـة والعمل الجـامعي ، وعـن ذكريـات حميمـة ــ لا تـزال حيـة في وجدانـه ــ مرتبطـة بعـالم القريـة وشخـصياتها الحميمـة الـتي تركـت تأثيرهـا فيـه ، وفي قـصائده ، كـان يحلـو لـه كـثيرا أن يعـود إلى هـا بـين الحـين والحـين ، وكانـت هـذه الـذكريات مـن الحيويـة والحـرارة والعمـق ، بحيث جعلته يعود إلى الـشعر ــ بعـد نـصف قـرن مـن وداعـه ــ ليكتـب قـصائد جميلـة بالعاميـة ــ وهنـا مـصدر الدهـشة والغرابـة ــ لا بالفـصحي الـتي ابـداع بهـا ديوانـه الـشعري الوحيـد

ذكريات شباب الذي قدمه للقارئ علي استحياء في طبعته الأولي قائلا: كان من حق هذه القصائد أن تنشر منذ خمسة عشر عام ا ، فقد نظمتها بين عام ي١٩٤٣ ، ١٩٤١ ثم سافرت إلى الخارج قبل أن يتاح لي نشرها في ديوان كامل ، فلما عدت بعد خمس سنين كان قد طرأ علي إدراكي للحياة تحول كبير جعلني أحس بشئ غير قليل من الغربة نحو مــــــــــــــــــــا تــــــــــــــــــــضمنته

قصائدي من عواطف ، لم اعد قادرا علي الشعور بمثل ما فيها من حدة وقوة انفعال . ولكني مع ذلك لم أفقد رضائي عنها من حيث تعبيرها ونجاحها في تصوير تلك العواطف الجياشة التي كانت تمتلأ علي صباي ، ولم استطع أن أقطع بيني وبينها تلك الصلة النفسية الوثيقة التي تقوم دائما بين الأديب وعمله ، ولا أن أفقد ما أحمل لها من حب ، وهي جزء عزيز من شبابي بقلقه وحيرته وعجزي وقوته .

وحين أسندت مؤسسة الباسطين إلى ناقدنا الكبير مهمة إعداد الجزء الخاص بالشعر المصري في إطار مشروعها مختارات من الشعر العربي في القرن العشرين وكتابة المدخل النقدي لهذا الجزء ، كان جميلا أن يلتفت الدكتور القط إلى قصيدة بعينها من بين قصائد ديوانه ذكريات شباب ليضعها ضمن هذه المختارات وهي قصيدة بعد عام ين التي أعتبرها نموذجا لشعره الرومانسي ، يقول فيها:

منذ عام ين ها هنا كم وقفنا
تتساقي بشجوها الأبصار
وبلونا من حبنا نبضات
لم تدنس جلالها الافكار
خالصات لحسنا دافقات
بوجود يخيفنا فنحار
كم ركنا إلى الفرار فنادانا
إلي لفحة الحبيب أوار
ونظرنا إلى السفوح بشوق
فدعتنا للقمة الأخطار
منذ عام ين ها هنا كم تراءت
لصبانا علي الدجي انوار
فنفضنا قلوبنا من أساها
وازدهتنا بلحنها الأوتار
لم تكن غير أمنيات ولكن
كم اتيحت في ظلها أوطار

وسمونا بسحرها ورؤاها
لحياة تقضها الاسمار !

وتصدرت هذه المختارات الترجمة التي كتبها ناقدنا الكبير لنفسه علي هذه الصورة: من مواليد عام ١٩١٦ تخرج في كلية الآداب ، جامعة القاهرة١٩٣٨ نال درجة الدكتوراه من جامعة لندن١٩٥٠ عمل أمينا بمكتبة جامعة فؤاد الأول (القاهرة) ١٩٣٩ ـــ١٩٤٥ ، فعضوا بهيئة التدريس بكلية الآداب جامعة إبراهيم (عين شمس) ١٩٥٠ ، وتدرج في الوظائف الجامعية حتي رئيس قسم اللغة العربية١٩٦١ ـــ١٩٧٢ ، وعين عميدا بكلية الآداب١٩٧٢ ـــ١٩٧٣ .

وأعير إلى جامعة بيروت العربية١٩٧٤ ـــ١٩٧٩ ويعمل الآن استاذا متفرغا بكلية الآداب جامعة عين شمس .

رأس تحرير مجلات الشعر١٩٦٤ ـــ ١٩٦٥ والمسرح ١٩٦٧ ـــ ١٩٦٨ ـــ والمجلة ١٩٧٠ ـــ ١٩٧٣ ، وإبداع ١٩٨٣ ـــ ١٩٩١ وهو عضو في مجلس إدارة جمعية الأدباء والجمعية الادبية المصرية ، واتحاد الكتاب ، والمجلس الأعلي للثقافة .

حصل علي وسام الاستحقاق من الدرجة الأولي ، وجائزة الملك فيصل العالمية١٩٨٠ وجائزة الدولة التقديرية في الأدب١٩٨٤ (ونضيف الآن جائزة مبارك في الآداب٢٠٠٢) .

من مؤلفاته: مفهوم الشعر عند العرب (وهو موضوع رسالته للدكتوراه) في الأدب المصري المعاصر ، في الأدب العربي الحديث ، في الشعر الإسلامي والأموي ، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ، الكلمة والصورة .

ونضيف الآن أربعون ربيعا الذي صدر بعد كتابته لهذه الترجمة الذاتية .

ـــ ترحم عددا من الأعمال المسرحية والقصصية والروائية لشكسبير مرتنيسي وليامز وريتشارد سون وثورنتون وايلدر وبوشكين .

أتيح لي التعرف علي الناقد الكبير الدكتور عبد القادر القط في مستهل حياتي الإذاعية ـــ قرب نهاية الخمسينيات ـــ عندما بدأت في تقديم برنامج مع النقاد من إذاعة البرنامج الثاني (الثقافي الآن) بعد انتقال صاحبته الإذاعية والإعلامية الرائدة الأستاذة سميرة الكيلاني للعمل بالتليفزيون ضمن الكوكبة الأولي من المؤسسين الكبار واكتشفت علي الفور ما يتمتع به الدكتور القط من دماثة نادرة ، وخلق رضي سمح ، ولسان عف ، والتزام جاد ، وعلي مدار أكثر من ما ئة وخمسين حلقة قدمتها من البرنامج طيلة عدة سنوات ، كان الدكتور القط ضيفا في معظمها ، خاصة في الحلقات التي تتناول أعمالا

شعرية ، وسرعان ما بدأ منهج الدكتور القط في التعامل مع النصوص الشعرية والنفاذ إلى جوهر بينها وتشكيلها وعالمها من الصور والرموز والدلالات والايحاءات يتضح ويصبح كاشفا عن حسه النقدي العميق وقدرته الفذة على تذوق النصوص الشعرية وتأملها ، متكئا إلى شاعريته وثقافيته التراثية والعصرية وخبرة الطويلة وتمرسه بالشعر العربي ، وهو الذي عالج في رسالته للدكتوراه مفهوم الشعر عند العرب ، خاصة أنه نجا من الوقوع في شرك الايديولوجيا التي قيدت حرية نقاد آخرين ، وسرعان ما أصبح الدكتور القط نجم الندوات والحوارات النقدية في كل مكان ، في الجمعيات والمؤتمرات والملتقيات ، خاصة أنه كان يفضل هذه الصيغة الشفاهية في التعامل مع النصوص الادبية أكثر من الكتابة عنها ، ولو أن ما قاله عبر مئات الحلقات والمناقشات النقدية ـــ يمر سنوات طويلة ـــ جمع ونشر لكان له من ذلك كتب بالعشرات ، لكنه تبدد مع الاثير ، ولم يبق منه الا تلك الصورة الحميمة لناقدنا الكبير ، وهو يحنو ويهتم ، ويشارك ويقدم عشرات الأسماء من مختلف الأجيال ، يأخذ بأيديهم ويفسح لهم في مجالات النشر والحياة ، ويدعمهم أدبيا وماديا ، حتي وإن تعرض لعقوق بعضهم وتنكرهم لا بوته الروحية واستاذيته ، دون أن يخلف هذا العقوق في نفسه مرارة تذكر ، أو يصرفه عن دوره المعتاد ، منذ انتصاره لحركة الشعر الجديد وحفاوته بأجيالها المتتابعة وصولا إلى أصحاب قصيدة النثر .

مؤثرا ألا يكون في موقف القطيعة المعرفية أو النقدية عن أي إبداع جديد ، مدركا أن دوره باستمرار واستاذيته تفرضان عليه موقف الابوه والرعاية والتوجيه في حنو ورفق ، منتبها وسعه إلى العثرات والأخطاء والميل والإنحراف والزلل ، في لغة أدبية راقية ، وترفع عن الدنايا والصغائر .

ثم ازدادت معرفتي بالدكتور عبد القادر القط من خلال الجلسات الحميمة للجمعية الادبية المصرية ، لسنوات طويلة متصلة ، ونجومها من المبدعين الكبار: صلاح عبد الصور وشكري عياد وأحمد كمال زكي وعز الدين إسماعيل و عبد الرحمن فهمي و عبد الغفار مكاوي يلتفون حول قطبها ونارها الدائمة التوهج والاشتعال فاروق خورشيد ، ويرون جميعا في الدكتور عبد القادر القط الناقد الكبير والإنسان الجميل والاستاذ المتحضر والصديق الحميم .

وكان غرام الدكتور القط بالشطرنج ثم بكرة القدم تجسيدا حيا لحسه الدرامي ـــ علي مستوي مشاركة الأصدقاء والرفاق جلسات السمر والمؤانسة ، خاصة بعد رحيل صديقه الحميم الناقد الكبير أنور المعداوي ، وارتباطه العميق بالجمعية الادبية المصرية في لقاءاتها كل ثلاثاء ، ثم في ندوته الاسبوعية صباح كل جمعة في مصر الجديدة طيلة سنواته الأخيرة .

وعندما بدأ الجدل يثور من حول المقولة التي سعدت بها الصحافة الادبية ورأت فيها دفعا

لمناخ الركود والأسن ، وهي أن الرواية قد أصبحت ديوان العرب ، وتحمس البعض للشعر ـــ باعتباره فن العربية الأول وديوانها المستمر عبر العصور ـــ كانت مشاركة الدكتور القط الطريفة في هذا السجال بالإشارة إلى أن الدراما التليفزيونية ـــ وليس الشعر أو الرواية ـــ هي ديوان العرب الآن ، ولم يكن هذا الرأي من قبيل المفاجأة أو المصادفة ، بعد أن كان التفات الدكتور القط واهتمامه بهذا الفن الادبي الجديد ـــ كما سمناه ـــ قد تجلي في مقالات عدة علي صفحات الأهرام قبل أن يكون من كتابها الدائمين ، وكان الدكتور القط سعيدا كل السعادة بالاثر الذي تتركه هذه المقالات في نفوس من يصادفهم ، وفي كثير من القراء ، فهو يكتب عن مسلسلات شغلت الناس واثارت اهتمامهم علي مدار أيام واسابيع متصلة ، وبقي أن يقرأوا تحليله النقدي للنص وطريقه وتصوير الشخصيات وإخراج الحلقات وصولا إلى أدق التفاصيل التي تتصل بالحركة والملابس واللغة والديكور والإضاءة وغيرها ، وهو ما يضع ناقدنا الكبير في موقف الريادة بالنسبة للنقد التليفزيوني ، الذي اهتم بمتابعة المسلسلات الدرامية بوجه خاص .

وفي كتابه البديع الكلمة والصورة رؤية متكاملة تكشف عن وعيه النقدي العميق وأفقه الإنساني الرحب وبصيرته النافذة وعدسته اللاقطة ، ولعل كثيرين لا يعرفون أن الدكتور القط كان في مقدمة مستشاري الإنتاج الدرامي التليفزيوني الذي يعهد إلى هم بقراءة النصوص وتقويمها والحكم علي صلاحيتها قبل اعتمادها للتنفيذ . وكثيرا ما كانت له نظراته وآراؤه التي تعدل ، وتغير وتلغي وتعترض علي كثير من هذه النصوص ، والتي كان يؤخذ بها دائما من منطلق الثقة الكاملة في ناقدنا الكبير وفي نظراته الموضوعية الصائبة .

وفي لجنة الشعر بالمجلس الأعلي للثقافة ، ثم في مجمع اللغة العربية ، كان التتويج الجميل لهذه العلاقة الحميمة التي ربطتني بالدكتور القط منذ نهاية الخمسينيات ، ومطالع الستينيات حتي الأيام الأخيرة قبل رحيله ، كان مجلسي دائما في المجمع إلى جواره ، ويأبي حسه الدرامي المرهف إلا أن يعلق علي ما يدور من حوار ومداخلات ، يتقاطع بعضها احيانا بسبب ضعف السمع ، فيهمس لي: لقد بدأت الكوميديا السوداء . وتظل لغة الدراما هي المسيطرة علي كل تعليقاته الطريفة والساخرة ، ويبدو أنه ـــ وهو الفنان في جوهره ـــ لم يكن يتسيغ كثيرا مما يستمع إلى ه ، أو ما يتطرق إلى ه الجدل والنقاش ، وكان حين يضيق صدره ، يتخلف عن جلسات المجمع جلسة أو جلستين ، ثم يعود فيفاجئه أن الكوميديا السوداء لا تزال ، وأن ما يؤمله ـــ كما عبر عدة مرات من عكوف علي القضايا والمشكلات الخاصة باللغة العربية ، والاهتمام بها أكثر من الاهتمام الطاغي بمصطلحات العلوم لم يتحقق ، بل علي العكس ، يفاجأ دوما بكثرة المتحمسين

للنهج الذي يعترض هو عليه ويريد تغييره — فيصمت مستسلما مبتلعا حسرته وحزنه الشفيف .

سنظل نذكر عبد القادر القط كثيرا بعد رحيله ونفتقد فيه أكبر ناقد معاصر اختص الإبداع الشعري بالنصيب الأوفي من كتاباته واهتمامه وتمتع بحس أدبي وذوق نقدي لا يقاربه فيهما احد ، وإنسانا جميلا كان وجوده الإنساني نسمة ندية وخلقا سمحا ولغة عفة ، واستاذا حنا علي تلاميذه — من مختلف الاجيال — ومنحهم من نفسه ومن جهده ومن علمه الكثير .

نذكره مع من نذكرهم من نقادها الكبار الذين سبقوه إلى عالم الخلود: محمد مندور وغنيمي هلال وعلي الراعي وشكري عياد ، الذين آمنوا بالحرف العربي ، ولم يتنكروا للثقافة العربية ، فمنحهم الإبداع العربي مكنون أسراره وهم بنفذون إلى ها في ضوء ثقافتهم العصرية ، ورؤيتهم الإنسانية الموضوعية الشاملة .

نذكره دوما ونذكرهم ، فقد كانوا بعض منارات الزمن الجميل !

محمد غنيمي هلال

بقلم: فاروق شوشة

وهو ـ لمن لا يعرفه ـ رائد دراسات الأدب المقارن في الجامعات المصرية والعربية ، وواحد من أبرز نقادنا الأكاديميين الذين كان لهم فضل تأصيل النقد الأدبي الحديث وإثراء المكتبة النقدية بالعديد من المؤلفات الرائدة ، ذات القيمة الباقية ، فضلا عن دوره المؤثر في حياتنا الأدبية والثقافية طوال حقبة الخمسينيات والستينيات . هذا هو محمد غنيمي هلال الذي أتيح لي أن أكون ضمن أول دفعة من الطلاب الذين تتلمذوا علي يديه ـ في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ـ في العام الجامعي١٩٥٣ / ١٩٥٢ . كنا مجموعة من حملة الشهادة التوجيهية التحقت بالكلية ـ التي أعلنت في ذلك العام عن قبولها لا ول مرة لعدد من طلاب المدارس بعد أن كان الالتحاق بها مقصورا علي طلبة الأزهر . وكان هو يدرس لنا ما دة تسمي المقالة والتحرير . كان صوته خفيضا غير مبين ، وطريقته في الشرح والإيضاح يسودها تسرع وقدر من القفز علي أشياء ـ ظنا منه أنه لا بد أننا نعرفها ونحسنها . وأوشكنا ننصرف عنه من غير أن نبذل جهدا في اكتشاف ما لديه من مخزون ثقافي ضخم ومنهج أكاديمي مختلف كان هو ـ في المقابل ـ يعمد إلى استثارتنا وتنبيه عقولنا بأسئلة متقطعة متناثرة ، تبدو ـ في الظاهر ـ وكأنها لا رابط بينها ولا نظام ، ويشجعنا بابتسامة هادئة تؤكد لنا سعة صدره وحنوه علي عثراتنا وأخطائنا . وشيئا فشيئا ألفنا طريقته ومنهجه وأسلوبه ، وبدأنا نكتشف فيه بحرا من العلم والمعرفة الواسعة وطاقة هائلة من طاقات التغيير والتنوير . كان عنوان المحاضرات يغري بالانتقال من مجال إلى مجال ومن موضوع إلى موضوع: كيف نكتب مقالة أدبية ، وكيف نحتشد لها ، وكيف نصوغ أفكارنا ، وكيف نطمئن إلى منهج الكتابة والنتائج المستخلصة ، وكيف يكون الأسلوب ، وماهو الأسلوب الجديد الذي يقوم مقام الدراسات البلاغية القديمة . وعلي يديه بدأت معرفتنا الأولي بعلم جديد يسمي علم الأسلوب ، ومجال جديد من مجالات الدراسة الأدبية يسمي الأدب المقارن . وبدأ اكتشافنا لما تتطلبه هذه الدراسة الأدبية المقارنة من وعي وثقافة ، ومعرفة باللغات ، وقدرة علي التذوق والتحليل . كان أستاذنا محمد غنيمي هلال ـ في ذلك الوقت ـ يدلف إلى السادسة والثلاثين ـ فهو من مواليد عام ١٩١٦ في قرية سلامنت إحدي قري مركز بلبيس في محافظة الشرقية ـ وكان عائدا من جامعة السوربون ومعه دكتوراه الدولة في الأدب المقارن ، بعد أن اختير عضوا في أول بعثة علمية تسافر إلى الخارج بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ . واستطاع بالجد والدأب والقسوة علي نفسه أن يحصل علي دبلوم في اللغة الفارسية من معهد اللغات الشرقية بباريس ، وعلي ليسانس في الآداب من السوربون ثم علي دكتوراه الدولة في

الأدب المقارن عن موضوعين هما: تأثير النثر العربي علي النثر الفارسي في القرنين الخامس والسادس الهجريين ـ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ، وهيباتيا في الأدبين الفرنسي والإنجليزي من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين . كان الدرس الأول الذي قدمه لنا محمد غنيمي هلال يتمثل في ضرورة الإحاطة بتراث الإنسانية في علم النقد الأدبي فلا جديد جدة مطلقة دون رجوع إلى القديم في شتي مصادره مع تمثل له ووقوف علي حقيقته . ومن هنا كان تقييمه الفذ للنقد العربي القديم في ذاته وعلي أساس مصادره القديمة ، ثم علي أساس منزلته من النقد الحديث في ضوء نظرياته ومذاهبه وأسسها الفلسفية والفنية . وكان درسه الثاني لنا أن نظريات النقد وقواعده العامة لا تخلق الفنان ، ولكنها تتيح لمواهبه وعبقريته حرية وصحة واستقامة لا تتيسر بدونها . وللفنان أن يضيف إلى ها أو يتجاوزها إذا أبدع طريفا وأضافه إلى التراث القومي أو العالمي . والناقد العبقري كالأديب العبقري قد يضيف جديدا بما يدعو إلى ه من دعوة يوجه فيها الأدب وجهة جديدة ، ويشرح الحاجة الماسة إلى الاتجاه الجديد شرحا فنيا وعلميا ، يفيد بما اطلع عليه من التراث الأدبي وتراث النقد معا ، فالأديب والناقد كلاهما صادر عن عبقريته ، وكلاهما في منطقة تشبه تلك التي تحدث عنها فرجيل في الكوميديا الإلهية لدانتي حين قال له: لقد وصلت إلى مكان لا تستطيع بنصائحي أن تتبين معالمه ، وقد سريت بك إلى حدود علي قواعد الفن والصنعة ، ومنذ الآن ليس لك من حصاد سوي حاستك الفنية وماتوحي به إلى ك من متعة ، لا نك تجاوزت حدود الطرق الوعرة: طرق الصنعة والتعلم . وكان درسنا الثالث لنا ـ نحن تلاميذه في الجامعة ـ يتمثل في العناية الفائقة والجد الدائب للتعريف بالدراسات الأدبية المقارنة والإسهام فيها وتشجيعها وتوضيح رسالتها الخطيرة الشأن فيما يخص الوعي القومي والإنساني فضلا عن الوعي الفني . فالدراسات الأدبية المقارنة من شأنها أن تنمي جوانب الأصالة في استعدادنا الإبداعي ، وتقود حركات التجديد علي منهج سديد مثمر ، وتوضح مدي امتداد جهودنا الفنية والفكرية في التراث الأدبي العالمي ، فضلا عن رسالة الأدب المقارن الإنسانية المتمثلة في الكشف عن أصالة الروح القومية في صلتها بالروح الإنسانية العامة في ما ضيها وحاضرها . من هنا كانت تطبيقاته ـ في مجال الدراسات المقارنة ـ تشمل موضوعات مثل ليلي والمجنون في الأدبين العربي والفارسي ، وكليوباترا في الآداب الفرنسية والإنجليزية والعربية ، وهيباتيا ـ الفيلسوفة المصرية القديمة التي تنتمي إلى الإسكندرية العاصمة الثقافية للعالم القديم ، والتي كانت رئيسة لجامعة الإسكندرية ـ في الأدبين الفرنسي والإنجليزي ، ودون جوان في الآداب الأوروبية ، وشهرزاد في الآداب الأوروبية والأدب العربي ، ويوسف وزليخا في الأدب الفارسي ، وغيرها من نماذج الدراسة المقارنة التي تمثل اللبنات الأولي التي وضعها أول باحث وناقد عربي في هذا المجال ، يفرد لبعضها كتبا مستقلة ، ويكشف من خلالها عن نواحي النشاط العقلي للإنسان الحديث وكيف يعكس ذات نفسه في مرآة

شخصيات قديمة من التاريخ أو في مرآة شخصيات أسطورية ، بعد أن يسبغ عليهم من نفسه وينفخ فيهم من روحه ويقربهم إلى نفوسنا ، فهو في الواقع يحييهم ولكنه يحيا بهم . وعندما ألتفت الآن من حولي وأري جماعات الأدب المقارن في مصر وفي أقطار شتي من العالم العربي أدرك أن دعوة محمد غنيمي هلال لم تذهب هباء ، وأن البذور الأولي التي غرسها في مطالع الخمسينيات وظل يتعهدها حتي رحيله في السابع والعشرين من يوليو عام ١٩٦٨ ـ عن اثنين وخمسين عام ا من العمر ـ وستة عشر عام ا أكاديميا ـ أصبحت الآن بفضل تلاميذه الذين أفادوا من علمه ، والأجيال الجديدة التي تختلف مناهجها مع منهجه في الدراسة الأدبية المقارنة ، أكثر ازدهارا وقدرة علي الإخصاب والتأثير . فقد كان فكر محمد غنيمي هلال تعبيرا عن المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن ـ وهي التي عرفت باسم المدرسة التاريخية التي تعني بقضية التأثير والتأثر باعتبارها ركيزة المدرسة الأدبية المقارنة ، ولم تكن قد ظهرت بعد المدرسة الأمريكية التي ترتكز علي تحليل النص في إطار جنسه الأدبي دون التفات إلى قضية التأثير والتأثر . لكن إدراك الجهد التنويري لا ستاذنا محمد غنيمي هلال يكمن في تأمل وضع الدراسة الأكاديمية في دار العلوم عندما بدأ فيها مدرسا ، وسط ومضات قليلة مشعة تمثلت في عدد من الذين أتيح لهم التأهل في جامعات الغرب ومراكز التنوير الأوروبية في مجالات الدراسة اللغوية والفلسفية والأدبية .

ولم يكن هو أعلاهم صوتا عندما يحاضر أو يتكلم . لكنه ـ بالقطع ـ كان أكثرهم نفاذا وعمقا وأصالة عندما يكتب ويطرح فكره علي الورق . ولقد كان كبار نقاد عصره وأساتذة زمانه يحترمونه ويقدرونه ويجلونه . في مقدمتهم رجل الفكر والفلسفة الدكتور عبد الرحمن بدوي ـ الذي التقيت به عدة مرات في منزل محمد غنيمي هلال وتابعت حواراتهما حول قضايا لغوية ومنهجية ـ وشيخ النقاد محمد مندور الذي كانت تربطه به علاقة وثيقة وحميمة ، والدكتور لويس عوض الذي كتب عنه في ذكري الأربعين لرحيله تحت عنوان: عندما نتلفت حولنا فلا نجدهم يقول: كنا زميلين في الفكر يربطنا ذلك الرباط القوي الذي يؤلف بين أصحاب الجديد ، وإن لم يعرف بعضهم بعضا . وقد كنت أحيانا أضيق ببعض خصاله ، كإسرافه في الحساسية إلى درجة الوسوسة أحيانا ، أو مبالغته في طلب النصفة عند أهل الانصاف ، وعند غير المنصفين . ولكنني كنت أكن أعمق الاحترام لعلمه الغزير ، ولجلده علي العمل ، ولاخلاصه للأدب ، ولكفاحه في سبيل تأصيل القيم الجديدة في النقد والأدب والثقافة بوجه عام . لذلك أسفت علي رحيله أسفا صادقا يوم وفاته . وأحسست بالخسارة الفادحة التي نزلت بالنقد العربي الحديث حين مضي عنا . وجدد حزني عليه أحزاني علي محمد مندور ، فقد كان غنيمي هلال أيضا ركنا ركينا في حياتنا النقدية ، وأحد معالمها المهمة ، رغم أنه لم يبدأ حياته العملية الا منذ ١٩٥٢ أو بعدها بقليل .

أما هذا الاسراف في الحساسية إلى درجة الوسوسة ، الذي يشير إلى ه لويس عوض في هذه

السطور ، فقد كان نتيجة لتكوينه الانعزالي ، ولشخصيته الانطوائية غير الاجتماعية ، ولتوقعه الدائم للشر والأذي دون تحديد لسبب أو مصدر . ومن هنا كانت ردود أفعاله العنيفة ـ المدمرة لبنيانه الجسدي والنفسي ـ عندما دخل في صراع عنيف مع الدكتور محمد صقر خفاجة من أجل الظفر بجائزة الدولة التشجيعية ـ التي كان يمنحها المجلس الاعلي للفنون والآداب ، قدم صقر خفاجة كتابه عن هو ميروس وقدم غنيمي هلال كتابه المدخل إلى النقد الأدبي الحديث . كان ذلك في عام ١٩٦٤ ، ولما فاز صقر خفاجة بالجائزة حمل غنيمي هلال جملة شعواء علي إلى ونانيات وأساتذتها في الصحف والمجلات . وكانت المحنة الثانية عندما تقدم لكرسي الأدب المقارن والنقد الأدبي والبلاغة في كلية دار العلوم ونافسه عليه الدكتور بدوي طبانة أستاذ البلاغة العربية . فلما فاز الدكتور طبانة بكرسي الأستاذية غضب غنيمي هلال ، ورفض البقاء في كلية دار العلوم ، وأصبح أستاذا للأدب المقارنة بكلية اللغة العربية في جامعة الأزهر ثم في جامعة الخرطوم حيث داهمه المرض القاتل الذي أجبره علي العودة إلى القاهرة في ما رس١٩٦٨ حيث كان رحيله عن عالمنا بعد ذلك بشهور قليلة ، مخلفا ثروة ضخمة من الدراسات يتقدمها كتابه الضخم: النقد الأدبي الحديث ، وكتبه: الأدب المقارن ، الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ، الرومانتيكية ، دور الأدب المقارن في توجيه دراسات الأدب العربي المعاصر ، المواقف الأدبية ، النماذج الانسانية في الدراسات الأدبية المقارنة ، في النقد المسرحي ، دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده ، في النقد التطبيقي والمقارن ، قضايا معاصرة في الأدب والنقد ودراسات أدبية مقارنة (وقد صدرت الكتب الأربعة الأخيرة بعد رحيله متضمنة العديد من المقالات والدراسات التي نشرها في الدوريات المصرية والعربية خاصة مجلتي المجلة و الكاتب بين عام ي١٩٥٩ و١٩٦٣ . بالاضافة إلى أبرز ترجماته عن الفرنسية: ما الأدب لجان بول سارتر وفولتير لجوستاف لا نسون ورأس الآخرين مسرحية لمارسيل إيميه وعدو البشر مسرحية لموليير وبلياس وميليزاند مسرحية لماترلنك وعن الفارسية: مجنون ليلي ل عبد الرحمن جامي ومختارات من الشعر الفرنسي .

كان محمد غنيمي هلال ـ مثل كثير من الفرسان والمحاربين ـ لا تعرف طبيعته الانحناء للعاصفة أو الالتفاف والمداورة ، لذا فقد كان سهلا أن ينكسر ، وساعد علي هذا الانكسار المأساوي إيمانه بقيم مثالية عاش من أجلها وناضل في غير هوادة ، وحدة لا تعرف في منطق العلاقات بين الناس غير اللونين الأبيض والأسود ، فكان ـ في تألقه وانكساره ـ تجسيدا حيا لا كتمال الفكر والسلوك ، المثال والواقع ، التراث والمعاصرة .
ولقد كان الشاعر الكبير محمود حسن اسماعيل يحاول اقتناص معالم هذه الشخصية الفريدة وهو يودع غنيمي هلال بقصيدته موسيقي الوداع الأخير ويقول:

أشتاق أن أقول

كان موجة صوفية الهدير

وكان شوق لجة

تعشق أن تعانق الغدير

وكان وجه عاصف

مزنر بالموت والنشور

وكان فأس حاطب

وكان كأس شارب

وكان لمح سارب في توهة العبور

وكان في انطوائه ،

وكان في انتمائه ،

توهجا يدور !

وهي المعاني والقيم التي حرص على تجسيدها نخبة من تلاميذه وأصدقائه حين تصدي قسم البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن في كلية دار العلوم لا صدار الكتاب التذكاري محمد غنيمي هلال: ناقدا ورائدا في دراسة الأدب المقارن في مناسبة مرور ربع قرن على رحيله ، تحت إشراف الدكتور على عشري زايد ، وهو الكتاب الذي جاء وثيقة علمية وإنسانية تجسد العلاقة الباقية بين رائد كبير وأجيال عدة لا تزال تنهل من فيض عطائه وكنوز معرفته وشامخ آثاره .

من بناة الإذاعة العظام محمد حسن الشجاعي

بقلم: فاروق شوشة

هذا واحد من بناة الإذاعة ، ومؤسسي القيم الفنية الرفيعة ، عندما كان مستشارا فنيا للموسيقي والغناء ورئيسا للجنة الاستماع بالإذاعة بين عام ي١٩٦٣ ، ١٩٥٥ ، ومنشئا لا وركسترا الإذاعة الذي قدم بقيادته العديد من المؤلفات الغربية والعربية ، ومشاركا في ازدهار المسرح الغنائي المصري في عصره الذهبي حين اعاد تسجيل أوبريتات سيد درويش وإبراهيم فوزي وكامل الخلعي وداود حسني وغيرهم ، وأستاذا لمادة التذوق الموسيقي في الجامعة الشعبية ومعهد الفنون المسرحية ، ومؤلفا للعديد من الأعمال الموسيقية الباقية من أشهرها: أرض الوطن وصلاح الدين واخناتون ووادي الملوك ، وواضعا الموسيقي التصويرية لستة وأربعين فيلما سينمائيا ـ منذ عصر السينما الصامتة ـ من بينها: دنانير وعايدة وسلامة في خير وسي عمر وغرام وانتقام وعنتر وعبلة وروميو وجولييت وليلة الجمعة ومصنع الزوجات .

هذا الرائد الموسيقي والفنان العملاق والمثقف الكبير الذي حفظ للإذاعة المصرية هيبتها وسمعتها ، فلم يكن يجاز صوت غنائي أو لحن أو تذاع اغنية دون خضوع للضوابط الفنية والزام بالقيم الصحيحة في الكلمة واللحن والغناء . ومع هذا فان الإذاعة لا تلتفت إلى ه بكلمة واحدة ، ولا يذكره الإعلام المصري في زحام تكريمه السنوي للعديد من الموظفين لا المبدعين ، ويذكره ـ من يذكره ـ حين يتحسر علي عصر القيم الراسخة والانضباط الشديد ، الذي لم يخضع لميل أو هوي أو ضغوط أو مجاملات ، ولم يقدم أبدا من لا يستحق بدلا ممن يستحق ، أو يفتح الباب للادعياء من فاقدي الموهبة أو المرتزقة المتزاحمين طمعا في الغنائم !

عرفته ـ قرب نهاية الخمسينيات ـ في مكتب الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل ، الذي كان رئيسا للجنة النصوص الغنائية ومستشارا ثقافيا للإذاعة كان مكتباهما متجاورين في الطابق الأول من مبني الإذاعة بالشريفين ، يفصل بينهما مكتب تشغله أربع من سيدات الإذاعة العاملات في مجال الموسيقي والغناء واللاتي ستصبح كل منهن نجمة متألقة في مجالها بعد قليل: سامية صادق وثريا عبد المجيد وعلا بركات وسميحة الطنيخي .

كان محمد حسن الشجاعي يعرض علي محمود حسن إسماعيل مما يصادفه في ثنايا قراءاته من نصوص شعريةيراها صالحة للغناء ، وكانا يستعينان بأحمد رامي حين يختلفان وكشفت لي حواراتهم المتكررة عن ذوق الشجاعي في الشعر الذي كان يتحمس

كثيرا للمعني والفكرة أكثر من حفاوته بالخيال الشعري أو الصورة الشعرية وفهمت بعد طول الصحبة والألفة سر شغفه الكبير بشعر العقاد الذي كان الشجاعي من رواد ندوته الأسبوعية في صباح كل جمعة بمصر الجديدة ، كان الشجاعي يحمل رأس مفكر كبير عميق التأمل في قضايا الفن والابداع ، وكان تكوينه العصامي الذي نجح في صياغته وتشييده ينطق بموسوعيته المعرفية في مجالات الثقافة والأدب والفن وكثيرا ما شهدت وجهه المتجهم الممتلئ بالتجاعيد المرتعش العين إلى سري - بصورة عصبية دائمة - يتهلل ويصبح وجه طفل كبير يتوهج بالفرح والمشاركة والانسانية عندما يستمع إلى كلام جميل أو لحن جميل أو صوت جميل ، فتطفر السعادة من عينيه ، وتتحول قسمات وجهه وتجاعيده إلى اهتزازات معبرة عن نشوته واستمتاعه .

وكثيرا ما كان يحلو له ان يترنم - وهو يهتز بجسمه الضخم اهتزازات موقعة - بهذه الابيات من شهر العقاد:

يايوم موعدها البعيد ألا تري

شوقي إلى ك ، وما أشاق لمغنم !

شوقي إلى ك يكاد يجذب لي غدا

من وكره ، ويكاد يطفر من دمي

أسرع بأجنحة السماء جميعها

إن لم يطعك جناح هذي الأنجم

ودع الشموس تسير في داراتها

وتخطها قبل الأوان المبرم !

مازلت أذكر يون شجعتني أبو ته الحانية علي ان اتقدم إلى ه بمقطوعة شعرية لي رأيتها صالحة للغناء أخذ يقلب النظر فيها وهو صامت ، فلما انتهي من قراءتها اعادها إلى وطلب مني ان ألقيها ، حتي إذا انتهيت من القراءة اخذني من يدي واتجه إلى مكتب محمود حسن إسماعيل وهو يقول له: صار لدينا في الإذاعة شاعران ! ولم ينزعج الشاعر الكبير ، بل تهلل وجهه بدوره وهو يعاتب الشجاعي لا نه تأخر في اكتشافي ، أما هو فقد عرفني شاعرا منذ سنوات ! ولم ينقض إلى وم إلا وكان الشجاعي قد اختار رياض السنباطي ملحنا للقصيدة والمطربة اللبنانية الراحلة نازك مغنية لها . وكانت بداية معرفتي بالسنباطي العظيم التي تحولت إلى صداقة عميقة استمرت حتي رحيلة . كما كانت بداية لعدد من القصائد اختارها الشجاعي بنفسه - من بين القصائد التي ضمها بعد ذلك بسنوات ديواني الأول إلى مسافرة لتصبح من بين مختارات الإذاعة الغنائية ، أذكر

منهـا أول قـصيدة مـن الـشعر الجديـد تم تلحينهـا في عـام ١٩٦٠ ، وكـان وراء المغـامرة اللحنيـة فكـر الـشجاعي ونزعتـه التجديديـة ، والـروح الفنيـة العاليـة لـدي ملحنهـا محمـود الـشريف والمطربـة ـ الـتي افتقـدها عـالم الغنـاء وكـسبها العمـل الـوطني ـ فايـدة كامـل ، أمـا القـصيدة فكانـت بعنـوان بيتنـا والقمـر وتتابعـت بعـدها عـشرات القـصائد شـارك في تلحينهـا الـسنباطي والـشريف والمـوجي و عبـد العظـيم محمـد ومحمـد سـلطان ، ومحمـود كامـل وسـيد مكـاوي وغيرهـم كـان مكتـب الـشجاعي في ـ مـبني الإذاعـة بالـشريفين ـ أكاديميـة فنيـة ، شـهدت مـيلاد العديـد مـن الأعمـال الفنيـة الكـبيرة ، عنـدما كانـت الإذاعـة ـ ممثلـة في عقلـها الموسـيقي الكـبير تنـتج مـا يـسمي باغنيـة المختـارات الـتي اختـارت الإذاعـة كلماتهـا وعهـدت بهـا إلى اللحـن المناسـب والـصوت المناسـب ، كـان الـشجاعي ومحمـود حـسن إسماعيـل ورامـي يتنافـسون في اختيـار الكلمـات ، وكـان الـشجاعي وحـده ينفـرد بـالرأي في اختيـار اللحـن والمطـرب وكانـت حـساسيته الفنيـة العاليـة كالبوصـلة الهاديـة توجهـه سـعريا إلى مـا يناسـب الكـلام لحنـا واداء أذكـر يـوم دق تليفـون مكتبـه ، كـان علـي الجانـب الاخـر شـاعر العاميـة المبـدع صـلاح جـاهين ، كـان يـسمع الـشجاعي كلماتـه الـتي اصـبحت اغنيـة ثـوار تهلـل وجـه الـشجاعي وكـاد يقفـز مـن مكانـه وهـو يطلـب مـن صـلاح جـاهين اعادتهـا علـي مـسمعه ، واختـتم الـشجاعي المكالمـة بقولـه لـصلاح: هـذا كـلام يـصلح لا م كلثـوم ولا يلحنـه الا الـسنباطي . وسـرعان ممـا اتـصل بـأم كلثـوم وعـرض عليهـا فكـرة الكـلام فرحبـت ، ثـم اتـصل بـصلاح جـاهين وطلـب منـه ان يـسمع الكـلام لا م كلثـوم وفي إلى وم التـالي كـان الـسنباطي في مكتبـه يتـسلم الكلمـات ، والـشجاعي يقـول لـه بـود بـالغ ـ فقـد كـان يحـب الـسنباطي ويحترمـه ـ في يـدك الآن نـشيد الثـورة ، نـشيد العهـد الجديـد ، وقـد كـان . لم تمـض إلا أيـام قليلـة حـتي اصـبحت انـشودة ثـوار علـي لـسان الملايـين المـأخوذة بالكلمـات والـتلحين والاداء الكلثـومي المعجـــز (ثـــوار ولآخـــر مـــدي ثـــوار ، مطـــرح مـــا نمـــشي يفـــتح النـــوار) . أنـا مـدين للـصديق الكـريم الـشاعر المبـدع والأسـتاذ الجـامعي الـدكتور عبـد اللطيـف عيـدالحليم للفـت انتبـاهي إلى مـا كتبـه العقـاد في الجـزء الرابـع مـن يومياتـه عـن الـشجاعي ، عنـد رحيلـه وتفـضله بارسـال هـذه الـصفحات إلى والـتي كـشفت لـي سـطورها عـن طفولـة الـشجاعي الفقـيرة الـتي قـضاها في الملجـأ العباسـي بمدينـة طنطـا ، وفي الفرقـة الموسـيقية لهـذا الملجـأ تفتحـت مواهبة وبدأتت خطواته الأولي علي الطريق الطويل .

يقـول العقـاد: ولـد محمـد حـسن الـسجيعي بقريـة ميـت أبـو العـز مـن قـري مركـز كفرالزيـات قبـل نيـف وسـتين سـنة (ولـد في الـسابع مـن شـهر سـبتمبر سـنة١٨٩٩) وهـو الذي خطـر لـه ـ فيمـا بعـد ـ ان تـصحيح اللغـة واجـب حـتي في الاسمـاء ، فاسـتبدل الـشجاعي بالسجيعي وهو يناهز الثلاثين .

ومات أبو ه وهو طفل صغير ، وكان أبو ه بناء يعمل كما يعمل الكثيرون من البنائين في الريف علي تلك الانغام التي يرددها الفعلة ويستمعون إلى الحانها من نافخي الصفارة والارغول ، وعلي الصفارة الصغيرة كان الطفل محمد يبتدع ألحانه الأولي من وحي قريحته الباكرة ويسمعها زملاء له عرفت منهم اثنين هما اللذان حدثاني باحاديث سيرته في صباه: احدهما كان من سجناء المظاهرات لقيته بسجن قره ميدان والاخر سري من لداته وانداده يعتز بذكراه .

وابرزه نبوغه بين زملائه تلاميذ الملجأ فكان واحدا من الناشئين القلائل الذين اختيروا من جانب القطر كله للعمل بالفرقة الموسيقية في حرس قصر عابدين ، وهي فرقة منتقاه من الفرق العسكرية لا ينتظم فيها غير المتقدمين في صفوفهم ممن يصلحون لا داء التحية واحياء الحفلات الموسيقية في قصر الإمارة .

وقد كان الشجاعي واحدا بين عشرات من عازفي تلك الفرقة ، ولكنه ـ علي ما أعلم ـ كان وحده يطلب من الفن فوق ما يكفيه لا داء عمله المحدود ، وكان وحده يتردد علي المعاهد الفنية للتزود من علومها التي احس من وحي قريحته بالحاجة إلى ها ، ولم يضل طريقه قط إلى مصادر هذا العلم الجدير بالتحصيل ، فلم يطلبه مع طالبي الفن الشائع حيث كان مريدوه ومعلموه من اساتذة التخوت وسهرات الغناء ، ولكنه طلبه من ينبوعه الاصيل وتعلم الايطالية ليعلم اصول الانغام التي توقعها الفرقة من الالحان الاجنبية ، ويعلم اصول النوتة التي تدون بها تلك الالحان ، ومنه علمت بعد حين ان السلام الخديوي لم يضعه فردي ـ الموسيقي الايطالي الكبير ـ وانما وضعه ضابط مصري لم انقل عنه اسمه الكامل علي التحقيق !

وفي هذه السن الباكرة استطاع الفتي الريفي الفقير ـ بما عنده من ثقة الروح الفنية ـ ان يحكم علي حكام القصر في ميادين الفنون الجميلة ـ وميدان الفن الموسيقي خاصة من مبلغ عنايتهم بالاستماع واختيار ما يستمعون إلى ه وتنظيم اعمال الفرقة الموسيقية علي وفاق ما يختارون وما يستمعون .

ولم يطل العهد بالشجاعي في فرقة الحرس السلطاني في عهد السلطان حسين كامل ، فقد عمل عازفا بالفرق الاجنبية التي كانت منتشرة بالقاهرة ، والفرق الاستعراضية الوافدة علي مصر في مسارح الكورسال والاوبرا ، ودرس الموسيقي علي يد الموسيقار باخو رئيس فرقة موسيقي الراي ثم أكمل دراسته الموسيقية بمعهد ابر جيريت في القاهرة وحصل علي دبلومه العالي وعين مدرسا للموسيقي بالمعهد الصناعي بدمنهور ثم مفتشا للموسيقي فمفتشا عام ا للنشاط الموسيقي بوزارة المعارف . وفي أول يوليو عام ١٩٥٥ عين الشجاعي مستشارا فنيا للموسيقي والغناء ورئيسا للجنة الاستماع التي كانت تضم

محمد عبد الوهاب وأم كلثوم بين اعضائها حتي وفاته في الحادي عشر من يونيو عام ١٩٦٣ .

ومع وعينا بالندرة الشديدة في امثال الشجاعي من الرجال ، يتساءل المرء: هل كان يمكن للفن المسف والاداء الهابط والاصوات القبيحة ان تجد طريقها إلى ميكرفون الإذاعة وشاشة التليفزيون لو كان أمثال الشجاعي في موقع المسئولية ، تحكمهم ضمائرهم إلى قظة ، وتوجههم قدراتهم الفنية العالية ، وتملؤهم روح النزاهة والشرف والاستقامة وعدم الخضوع لا ي ترغيب أو ترهيب !

وهل كان يمكن ان نتحدث دائما عن الخلل ونحن نعرف جيدا اسبابه والمسئولين عنه لكننا نخفي رؤوسنا جيدا في الرمال حتي لا نواجه الفاسد بفساده والمفسد بمكاسبه وغنائمه !

هذا رجل من الزمن الجميل ، الزمن النقي الشريف ، لم تلوثه وظيفة أو منصب ، ولم يفسده انفراده بالمسئولية عن الموسيقي والغناء في الإذاعة لسنوات طويلة كان خلالها محل الاحترام والتوقير والتقدير ، والاجماع علي نزاهته وتجرده وحكمته ، ووعيه المتطور المتجدد ، وزواجه من الفن الذي آثره بديلا عن الاسرة والولد . وقد كان العقاد ـ شاعره الاثيرـ علي وعي بجوهرقيمته وتفرده وهو يبكيه في ذكري الأربعين لرحيله ويقول:

أذن الدهر إلى استمعي

الشجاعي ثوي في مضجع

والليالي فجعت في ساهر

مغرب الشمس له كالمطلع

قائم للفن في محرابه

كمقيمي الصلوات الخشع

ملهم الاسماع لا تيأس ولا

تبتئس بؤس المشيب المقلع

أنت احري بالرضا ممن مضي

بعد درويش وبعد الخلعي

إن للفن سلاحا ، ربما

ذاد عن قوم ذياد المدفع

إن للفن دواء ، ربما

عالج الداء علاج المبضع

بعد أسبوعين تحين ذكري رحيل الشجاعي ، ولا أظنه في حاجة إلى موعد للذكري حتي نذكره . حسبه أنه واحد من قلائل يبقون دوما في الذاكرة ، رموزا للعصر الرائق الجميل والفن الراقي الجميل ، والاثر الباقي الجميل .

سمير غريب وكتابات زمن الحرية

بقلم: فاروق شوشة

تعرفت علي سمير غريب الإنسان والمثقف لأول مرة خلال اجتماعات اللجنة الاستشارية التي سبقت قيام قناة النيل الثقافية وانطلاق بثها الفضائي. كانت هذه اللجنة ــ التي تشكلت في إطاراتحاد الإذاعة والتليفزيون بقيادة الصديق الشاعر والإعلامي جمال الشاعر ـ الذي وقع عليه الاختيار ـ لحمل مسئولية هذه القناة، كانت تضم عددا من أبرز المهتمين بالثقافة والإعلام والعلوم والفنون، يمثلون خبرات مختلفة، واهتمامات شتي، لكنها تتكامل ـ في نهاية الأمر ـ من أجل رسم استراتيجية بعيدة المدي تحدد هوية هذه القناة الوليدة ودوائر اهتماماتها الأساسية فضلا عن آليات العمل والتنفيذ. كان سمير غريب ـ بحكم موقعه في وزارة الثقافة في ذلك الوقت مديرا لصندوق التنمية الثقافية ـ يمثل الوزارة ورؤيتها للأمور في هذه اللجنة. لكنه سرعان ما تجاوز هذه الدوائر الرسمية ليصبح المثقف الحرائق لا المسئول، ولتنطلق مداخلاته في سياق الحوار من واقع رؤيته هو، ونظرته الخاصة كمثقف. والطريف أنه كان حريصا علي تقديم نفسه إلي اللجنة في أول اجتماعاتها باعتباره أساسا ناقدا تشكيليا، ورسم الحركة التشكيلية، وأصدر من خلال هذا الاهتمام وهذا التوجه كتابه الجميل عن السريالية في مصر بالعربية والإنجليزية فضلا عن كتبه الأخري التي تتابعت بعد ذلك عن راية الخيال(١٩٩٣) ومجلد الثقافة(في موسوعة مصر الحديثة) وحيوية مصر ونقوش علي زمن، وفي تاريخ الفنون الجميلة ومائة عام من الفنون الجميلة في مصر(بالإنجليزية) والهجرة المستحيلة(١٩٩٩).

كان الظن لدي أعضاء اللجنة ـ وفي ضوء هذه الكتابات ـ أن اهتمامه المركزي سيتمثل في دائرة الجمال التي ستتسع لتشمل الفنون بصفة عامة والعمارة وربما الآثار. لكننا فوجئنا به يتحدث في كل شيء. الفكر والثقافة والأدب والفن والسياسة والدين. ولم يكن حديثه لمجرد إثبات الذات ولا لتأكيد معرفته ذات الطابع الموسوعي. كان يعرف ماذا يقول، ومتي يقول، وكيف يقول. في نبرة واثقة، وحماس شبابي تنطق به كلماته. ثم أتيح لي أن أعرفه أكثر وأكثر من خلال عضويتي في مجلس إدارة هيئة الكتب والوثائق القومية، ضمن نخبة من كبار مثقفي مصر ومفكريها وعلمائها، وأراه وهو يدير حوارات هذا المجلس ويشتبك في مناقشات معمقة ومستفيضة مع المحاورين البارزين في المجلس من أمثال الشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي والناقد الكبير الدكتور جابر عصفور والكاتب الكبير صلاح منتصر والأستاذ الجامعي عضو مجمع اللغة العربية الدكتور الطاهر مكي وغيرهم من أعضاء مجلس الإدارة ـ وأدركت أن علاقة سمير غريب بالثقافة ومشاركته

في صنع العمل الثقافي، ليست هي موهبته الوحيدة، لأن هناك موهبة أخري منافسة لها هي قدراته الإدارية الهائلة. فبهذه القدرات ـ موظفة في إنجاز رؤية شاملة ـ تم صنع الكثير لهيئة دار الكتب والوثائق القومية، في زمن قياسي، لكنه استطاع أن يضع الهيئة علي الطريق الصحيح، تجاوزا لإهمال طويلا، وقفزا فوق عوائق هائلة، وتحقيقا لصورة عصرية تشمل هياكل العمل وعصريته والياته ولجانه العلمية والمخازن وقاعات العرض وصيانة الوثائق والبرديات والدوريات وتجديد المعامل ونظم الصيانة والإنذار المبكر والتأمين ضد الحراق، وفي مقدمة هذا الانجاز شئ بسيط جدا لكنه نادر في مؤسساتنا وهيئاتنا العامة اسمه: النظافة. الآن يستطيع هذا الشاب المتلئ حماسا ووعيا وانتماء أن يفاخر بإنجازه الرائع الذي يفوق كل ما أنجزه سابقوه، علميا وفنيا وإداريا، وأن يقدم لوطنه مكانا نموذجيا في كل شيء، وما تزال الآلة تدور، ومايزال المشروع الكبير ـ الذي يشمل فيما يشمل مبني باب الخلق ـ ينتظر المزيد من العمل والإنجاز والنجاح.

لكن هذا كله شيء، وصدور أحدث مؤلفات سمير غريب من كتابات زمن الحرية ــ ضمن مطبوعات مكتبة الأسرة لهذا العام ـ شيء آخر. فالكتاب الذي تكونت طبقات وجدانه وعقله بين الدراسة في كلية الإعلام(تخرج فيها عام١٩٧٥) والعمل في جريدة الأخبار، والقيام بدورات صحفية تدريبية في باريس وبودابست، والعمل مراسلا لصحف مؤسسة أخبار اليوم في باريس عام١٩٨٠ والعمل في مجلة المستقبل الأسبوعية التي كانت تصدر في باريس بين عامي١٩٧٩ ـ١٩٨٣ والمشاركة في تأسيس الجمعية المصرية ـ لنقاد الفن التشكيلي ثم العمل مديرا لصندوق التنمية الثقافية بالإضافة إلي كونه مستشارا فنيا لوزير الثقافة حتي أصبح رئيسا لمجلس إدارة الكتب والوثائق القومية منذ فبراير١٩٩٩، فضلا عن عضويته في المجمع العلمي المصري ونقابة الصحفيين واتحاد الكتاب وانتخابه مستشارا للمجلس الدولي للأرشيف ورئيسا للفرع الإقليمي العربي لهذا المجلس، كل هذه الخبرات والمجالات والمهام أنضجت طبقات وجدانه وعقله علي نار هادئة، وجعلت منه ـ وهو في أربعينيات العمر ـ نموذجا للنجاح المبكر الذي يؤدي بالضرورة إلي استنفار أعداء النجاح، وهياج قطاع الطريق الثقافي ـ الذين لا يملكون معشار موهبته وقدراته وإمكانياته ـ هجوما عليه، وهو ـ كما أثبتت الأحداث والتواريخ والوقائع ـ لا يبالي بكلاب القافلة التي تمارس هوايتها في الهواء، ويرد علي ساقط الكلام بالعمل والإنجاز. وهو في كتابه ـ الذي يشكل المناسبة الحقيقية لكل هذا الكلام ـ يقدم صورة لسنوات الحرية التي عاشها خارج أسر الوظيفة، يكتب، وينقد، ويهاجم، ويقول رأيه في كل شئ، حيث لا توجد حسابات ولا خطوط حمراء أو صفراء. ومعظم ما يتضمنه الكتاب مقالات سبق نشرها في مجلة المستقبل التي كانت تصدر من باريس، والتي كانت ممنوعة من دخول مصر طيلة السنوات التي

عمل هو فيها، بعد توقيع معاهدة السلام بين مصر واسرائيل واتفاقية كامب ديفيد. في ذلك الوقت قاطع العرب مصر، ومنعت الصحف العربية من دخولها ومن بينها مجلة المستقبل. وعندما بدأ سمير غريب يراجع أوراقه تمهيدا لإصدا هذا الكتاب وجد أن الدنيا لم تتغير، كثيرا، وأن القضايا التي كان يكتب عنها ما تزال واقفة في مكانها، وأن الكتاب يلوكون الكلام نفسه، كما لاحظ ـ في مرارة وأسي ـ رحيل عدد كبير من أجمل أصدقائه المبدعين: نجيب سرور وشادي عبد السلام ويحيي الطاهر عبدالله وصلاح عبد الصبور وأمل دنقل وعبد الحكيم قاسم ومصطفي طيبة وغالي شكري ولويس عوض وسعد الدين وهبة ولطفي الخولي.

وملك عبدالعزيز وكرم مطاوع ويوسف إدريس وحامد عبدالله ومنير كنعان ومني زعلوك وعبدالدايم الشاذلي ومحمود بقشيش، ولابد انه قد نسي آخرين. وهو يتحسر علي هذا الزمن المبدع الجميل لانه لم يكن زمنا مصريا فقط بقدر ما كان زمنا عربيا جميلا مبدعا، حيث بدأت صداقاته مع مظفر النواب وبلند الحيدري وعبدالوهاب البياتي ومني مظفر(وكل هؤلاء عراقيون بالمصادفة!) وحسن اللوزي ومحمد شكري وعبدالحي الملاخ ومليكة اكزناي ومحمد بن عيسي(وزير الخارجية المغربي حاليا والذي كان فنانا مصورا فوتوغرافيا وعمدة لمدينة اصيلة) وسهيل بشارات وبول شاؤول وبيير أبي صعب وآخرين لابد انه قد نسيهم ايضا.

من اجمل صفحات هذاالكتاب الجديد الشجاع لسمير غريب حواراته مع عدد من رموز الابداع العرب، الذين عرفهم عن قرب وصادقهم واطل في اعماق كتاباتهم وهو ينقل عن الروائي المغربي محمد شكري الذي اثارت روايته الخبز الحافي التي هي سيرته الذاتية جدلا واسعا بشأن تدريسها في الجامعة ومدي ملاءمتها لطلاب يبدأون علاقتهم الأولي مع الثقافة الأدبية والكتابة الروائية ينقل عنه قوله السيرة الذاتية التي كتبتها فيها كثير من الجرأة وتترصد طفولة مغربية مهمشة واذا كانت هناك طفولة محظوظة فقد كانت غريبة علينا لانها لاطفال بورجوازيين اما المغاربة بصفة عامة فقضوا في عهد الاستعمار طفولة فيها نوع من البؤس والفقر مع تفاوت بطبيعة الحال. طفولتي نموذج للطفولة المغربية المسحوقة التي لا طبقه لها لا أقول انها كانت تنتمي الي الطبقة الكادحة لانها كانت اقل من الكادحة كانت مسحوقة لم تكن لها أي كرامة رفعت في كتابي ايضا دعوي علي القرية المغربية التقليدية دعوي ضد ابي وضد كل الآباء الذين يشبهونه كان ابي قاسيا جدا، ورث كل الرواسب العفنة في المجتمع المغربي وعن السر في سرعة ترجمة هذا الكتاب الي عديد من اللغات المغربية يقول محمد شكري: انهم لم يتعودوا قراءة هذا النوع من الكتابات الجريئة فيما ترجم اليهم من ادبنا لا اقول انني الوحيد الذي كتبت بهذه الجرأة كسيرة ذاتية ربماهي الوحيدة انهم يعرفون عن العرب انهم متحفظون فكيف استطاع عربي ان

يـدوس كـل هـذه المقدسـات؟ سـبب آخـر: أن اسـلوب الكتـاب بـسيط وقـح ولا شـك ان هنـاك في العـالم الاوروبـي وامريكـا اللاتينيـة مجتمعـات تعـيش نفـس المـشاكل وطفولـة تعـيش نفـس البـؤس الخبز الحـافي وثيقـة اجتماعيـة بطريقـة روائيـة ويعلـق سمـير غريـب علـي شـجاعة محمـد شـكري وجرأتـه في حـواره معـه بقولـه: محمـد شـكري لايـدعي ايـة ثقافـة لا في أحاديثـته، ولا في دردشـاته الـي تجـري معـه يكتـب الادب وفي نفـس الوقـت يعتـبر نفـسه ضـد الادب وهـو مـصطلح اسـتخدمته اتجاهـات ادبيـة قبلـه مثـل الـسيريالية لكنـه يعـني انـه يكتـب نوعـا مـن الادب الخـارج عـن التقاليـد الادبيـة الموجـودة في العـالم العربـي وحـتي في المغـرب يـسمي الاشـياء باسمائهـا لا يخـشي المحرمـات ويتعهـد الكتابـة بهـذا الاسـلوب مـن اجـل التحـريض وربمـا مـن اجـل الفوضـي يـرتبط هـذا بـالطبع بنـوع الحيـاة الـتي عاشـها فهـو لا يـستطيع مـثلا ان يكتـب روايـة عـن البورجوازيـة في المغـرب كمـا انـه لايـستطيع كتابـة عمـل روائـي عـن الطبقـة العاملـة بـنفس الـشكل والـصدق، بـل ان القـصص الـتي كتبهـا تـدور فقـط في المـدينتين اللـتين عـاش فيهما: طنجة وقطوان.

ويختـتم سمـير غريـب تعقيبـه النقـدي بـصرخة حـارة يطلقهـا في فـضاء الحريـة الـتي كـان يعيـشها قبـل اغـلال الوظيفـة وقيـود مـسئوليتها: هـل يمكـن ان يتـاح للقـراء في مـصر وربمـا المـشرق العربـي باسـتثناء لبنـان قـراءة كتـب محمـد شـكري الـتي صـدرت بالعربيـة وروايتـه الاخـيرة الـتي رربمـا صـدرت بالفعـل ونحـن لا نعـرف الـسوق الـداخل او طنجـيس وهـو الاسـم القـديم لمدينـة طنجـة؟ هـل يمكـن ان نقرأهـا حـتي يتـيقن قـراء هـذا المقـال ـ علـي الاقـل ـ مـن صحة ماورد فيه؟

لقـد كتـب سمـير غريـب هـذا الكـلام ونـشره علـي صـفحات مجلـة الهـلال المـصرية في يوليـو١٩٨٦ ومـازال الموقـف علـي حالـه منـذ ذلـك التـاريخ بعـد خمـسة عـشر عامـا كاملـة. كتـاب سمـير غريـب كتابـات زمـن الحريـة وكنـت افـضل ان يكـون عنوانـه: كتابـات مـن زمـن الحريـة بانورامـا واسـعة تتـسع لهمـوم فكريـة وثقافيـة وسياسـية وفنيـة واجتماعيـة شـتي بـدءا بالحـديث عـن نجيـب سـرور وظـاهرة شـادي عبدالـسلام ورحلـة سـقوط الاغنيـة المـصرية وصـولا الـي الكتابـة عـن يحيـي الطـاهر عبـدالله وعبـدالحكيم قاسـم وصـلاح عبدالـصبور، والمـثقفين والـسلطة ومثقفـي الـسلطة وسـلطة المثقـف واسـتغلال الطـب النفـسي في دراسـة الـصراع العربـي الاسـرائيلي ونجيـب سـرور وشـهادات في رحيـل الـشاعر امـل دنقـل وفـوز كلـوود سـيمون بجـائزة نوبل والانظمة الـشيوعية بـين الثبـات والـتغير وعـودة الـروح الـي مـسرح الدولـة ونـار اليـسار ونـار الـيمين نحـن اذن مـع كاتـب خـبر كـثيرا مواصـفات الـشارع الـسياسي والثقـافي، وشـارك في احداثـه ووقائعـه بالكتابـة وبالفعـل وبـالنظرات الذكيـة اللاقطـة الـتي تقـف عنـد الجـوهر وتـترك مـا عـداه فيتـاح لـه النفـاذ الـي الكـشف الـذي يريـده مـن أيـسر سـبيل يقـول مـثلا عـن صـلاح عبدالـصبور الـذي لفـرط محبتـه وتقـديره لـه لم يـشأ ان يقـول فيـه عنـد رحيلـه كلمـات رثـاء

تقليدية حين توقف صلاح عبدالصبور عند الشاعر اليوت لم تستوقفه افكاره في أول الامر بقدر ما استوقفته جسارته اللغوية وقد شجعه هذا بالاضافة الي حسه الشعري - علي استخدام الفاظ دارجة وعربية سهلة في قصائده وقد سار علي نفس النهج شعراء شبان اتوا من بعده وقد ساعده هذا التعرف الواسع علي احتقار ما يردده بعض متسكعي الفكر السياسي في بلادنا عن الغزو الثقافي وما شابه ذلك من الشعارات السخيفة الجاهلة.
سمير غريب في كتابه الجديد طائر محلق في فضاء الحرية، لا تحده حدود ولا تقف في طريقه سدود ولا تثقله قيود. من هنا كان هذا التنوع الجميل وهذه السياحة الروحية والثقافية والفنية بين مدن وحضارات وشخصيات وقضايا وملامح شتي وما أظن كاتبا - يمتلك هذه السنوات الجميلة الحافلة بالخبرات والمواقف والتغيرات - ويملك القلم الرشيق، والاسلوب الشديد البساطة واليسر والمباشرة الا وقد حقق المعادلة الصعبة بين امتاع قارئه واستثارته وحفزه من اجل نداءات التقدم والعصرية والمشاركة في صنع المستقبل وفي هذا - وحدة - الكفاية!

محمد عناني في واحات الغربة

بقلم : فاروق شوشة

كانت تلك الأيام ـ ولا تزال ـ تبدو لي غائمة تطفو بها سحابة علي وجه السماء ، إذ أحيانا ما كنت أسير ساعة أو ساعتين في الحقول وفي المروج ، أنهل من الخضرة وصفاء الجو ما لا تشبع عيناي منه أبدا ، ولا يشغل فكري شيء ، فلقد انقضت السنوات العشر وكانت حافلة بما لم أحسب له حسابا يوما ما ، وكنت قد تجاهلت مفكرتي ولم أعد أسجل فيها شيئا بل وتجاهلت الكتابة للأصدقاء والاختلاط بالناس ، فأنا عائد إلى مصر ، وإلي اللغة العربية وإلي مراتع الطفولة واليفوع والسماء الزرقاء . وكان ذهني غير قادر علي استيعاب معني الرحيل ، فهو معني عسير لا يقل عسرا عن معني الزمن ، بل كان يبدو في طابعة القاطع محالا بعد أن اعتدت تحول الفصول ومعني العودة ودورة الأيام وأعتقد أن غرامي بتعبير دورة الزمن يرجع إلى ذلك الوعي العميق الذي اكتسبته من الحياة في الطبيعة ومعها .

بهذه السطور المفعمة بروح الشعر ، المنداة بقطرات خفية من الدمع ، يصور محمد عناني المشهد الأخير في سنوات الغربة ، التي قدر لها أن تطول لمدة عشر سنوات ، وهو بعيد عن الوطن ، من أجل الحصول علي الدكتوراه من انجلترا ، بين عام ي١٩٧٥ ، ١٩٦٥ . ومحمد عناني الذي أتحدث عنه هو أستاذ الأدب الإنجليزي ، الناقد ، المترجم ، الشاعر ، اللغوي الدكتور محمد عناني الذي يمثل إتقانه لكل من العربية والإنجليزية ـ في طابعيهما الكلاسيكي والعصري ـ حالا فريدة ومتميزة ، كما يكشف تكوينه البعيد الضارب الجذور في عالم الكتاب ولغة القرآن الكريم والثقافة العربية عن محبة غامرة للغة العربية والشعر العربي ، جعلته يقتحم أسوار الإنجليزية من منطلق الندية والوعي النقدي ، كما أهلته للوقوع في غواية المعرفة ـ بمعناها الواسع ـ والجانب اللغوي منها ـ بالمعني الضيق ـ وهي الغواية التي كادت تنسيه نفسه في سنوات الغربة من أجل طلب العلم ، وتصرفه عن السعي الحثيث للحصول علي الدكتوراه ، والانفلات من كل ارتباط أكاديمي يشده إلى المستقبل المنتظر في العمل الجامعي ، وهو ما حدث لكثيرين غيره ، يتذكرهم الآن في الجزء الثاني من سيرته الذاتية واحات الغربة فيأسي لهم ويترحم عليهم !

أما الجزء الأول من هذه السيرة الحافلة ، الغنية ، المتلئة الذي سماه المؤلف واحات العمر وتوقف في ختامه قبيل المشهد الذي ستحلق به فيه طائرة مصرية لا ول مرة فوق مدينة لندن ـ وقد أصدره منذ عدة سنوات ـ فهو كنز المكونات الأولي لمحمد عناني ابن مدينة رشيد ، ومدارج طفولته وصباه ، وموقعه من أسرته ، وسنوات تعليمه

الابتدائي والثانوي ، وحياته في القاهرة مقترنة بدخوله الجامعة ، وبزوغ غواية اللغة في نفسه ، وانبثاق ينبوع الشعر في وجدانه ، وانعطافه إلى الزميلة التي ستصبح ـ من بعد ـ رفيقة رحلة العمر ، وشريكة الغواية الكبري في الثقافة والأدب والمسرح ، فضلا عن استقطار أجمل ما في مغامرة الحياة: فنا واكتشافا وإبداعا .

ها هو ذا محمد عناني ـ طالب البعثة في لندن ـ وقد أصبح له مجتمع كامل من الأصدقاء والمعارف ، في الجامعة والعمل ، وبدأ يتذوق لطائف اللغة الإنجليزية التي التقطها بشغف من أفواه هؤلاء وهؤلاء ، كما اكتسبت عادة ما زلت أمارسها وهي إرهاف السمع لما يدور حولي من أحاديث ـ حتى ولو كانت عابرة ـ في الأتوبيس أو في الدكاكين أو في الطريق العام استكناها لدلالة هذا التعبير أو ذاك ، وأصبح من مصادر متعتي أن أسير ساعة أو بعض ساعة بعد الخروج من الكلية أو من العمل ، فأتأمل الطبيعة من حولي ، وأرقب الناس والأشياء ، وقد أتجول في الأسواق ، ثم أقفل راجعا راكبا هل كانت عادة إرهاف السمع هذه ـ وقد اتسعت لما هو أكثر من أحاديث الطريق ـ هي المسئولة عن وعي لغوي شديد إلى قظة والتنبه والحيوية ، والالتفات إلى وظيفة اللغة وبلاغتها وجمالياتها ـ في وقت واحد ـ ، وهي المسئولة أيضا عن تميز الدكتور محمد عناني بين أقرانه وأبناء جيله من الدارسين ، وعن سابقيه الذين تشكل وعيهم اللغوي من خلال الكتب والمراجع والقواميس والدراسة الأكاديمية بأكثر مما اتسعت له حركة الحياة والناس ؟ يحضرني الآن نموذج الأستاذ والعالم والإنسان الرائع الدكتور مجدي وهبه الذي كانت انجليزيته إنجليزية النبلاء وأبناء القصور وأعضاء مجلس اللوردات ، كانت إنجليزية طبقية رفيعة المستوي بمعجمها وصوتياتها ونبراتها وهندسة تراكيبها زاد من جلالها وهيبتها صوته الوقور وأداؤه المعبر ، وبرحيله ـ وهو في قمة القدرة علي العطاء والإنجاز ـ رحل هذا المستوي الفريد من العلاقة مع الإنجليزية . وفي مقابله يأتي نموذج محمد عناني ، بإنجليزيته العصرية ، الشديدة الاتساع ـ في نسيجها المتشابك ـ لتعدد المستويات بدءا من الكلاسيكية وانتهاء إلى لغة الحديث إلى ومي والمشافهة العابرة ، والشديدة التفاعل والجدل والحوار مع غيرها من اللغات التي يتقنها والتي يأخذ منها وينقل عنها ، وهو الأمر الذي جعله واحدا من أفضل مترجمي شيكسبير ـ إلى اللغة العربية ـ وغيره من مبدعي الكلاسيكية الانجليزية في فخامتها العريقة وفي سوقيتها المستجيبة للطبقة والسوق ، مما جعله أيضا في مقدمة مترجمي الإبداع العربي ـ خاصة الشعري منه ـ إلى الإنجليزية في يسر وتأت تنطق به تلك السهولة الأخاذة والبساطة العميقة والخبرة اللغوية الهائلة التي ترفدها كنوزه المعرفية ، وسياحته الواسعة في فضاءات الإبداع المصري والعربي والعالمي .

الطريف أن محمد عناني ـ طالب البعثة ـ كان يدرك أن المصري حين يضطر إلى اكتساب

اللغة لن يتفوق عليه أحد . ولذلك فهو لم يكن يشك يوما في أنه - وزوجته ورفيقة عمره نهاد صليحة - سنعود إلى مصر ، ولم يكن التوقف عن الإنتاج الأدبي يقلقني ، لم يكن يقلقني التأخر في كتابة الرسالة ، أو حتى انقطاع مرتب البعثة ، لا نني كنت أستمتع بما أقرأ ، وبما أري ، وبمن أقابل وأحادث ، وكان العمل - مترجما - يقتضي مني إهمال الدراسة أياما متوالية فأنغمس في متابعة أحداث العالم ، وأصبحت أجد متعة فيما تتمتع به صياغتي للترجمة من تقدير . لكنني كنت في أعماقي أتأمل فكرة الغربة : ما ذا لو اشترينا منزلا ؟ لا . . لم تكن نهاد تقبل ذلك أبدا ، فشراء المنزل معناه ترسيخ جذورنا - ما ديا علي الأقل - في تربة أجنبية ، وهو ما لم تكن ترضاه مطلقا . لقد كانت نهاد بحق صمام الأمان !

وهو يسجل ما انفجر به ذات يوم - أحد رفاقه المصريين حين ذكره عناني بمهمته العلمية ورسالته للدكتوراه - قائلا: الدكتوراه ، الدكتوراه ! هذا هو جنون المصريين ، الجميع يريد شهادة ، لكنني أنجز في بحوثي ما يفوق ألف دكتوراه ! إننا نعمل في مشروعات رائعة تتصل مباشرة بالسوق وبما يحتاج إلى ه الناس ، ونشعر بالفائدة مباشرة ، فلا يوجد ما هو أمتع من الإنتاج ! لقد آثر محمد عناني - طيلة السنوات العشر التي سماها واحات الغربة - أن يعيش الحياة والمجتمع والناس ، وألا تصبح الرسالة الجامعية قيدا علي حركته الحرة الواسعة ، يتأمل ظواهر الجمال في الطبيعة والحضارة ومنظومة القيم والتقاليد الإنجليزية العريقة ، ويتشرب الطقس اللندني بتقلباته ونزواته ولحظات صفوه النادرة - بين كدرة غيومه الدائمة والملازمة - بفرح ونشوة ، ويتقلب بين خطباء هايد بارك وموضوعات الترجمة السياسية التي يمارسها بجهد عضلي - قبل أن يكون عقليا - وقد تحولت علاقته بالترجمة إلى ما يشبه المستحيل ، حتى إذا ما بدأ مشروعه الضخم في الترجمة الأدبية - من وإلي الانجليزية - دانت له قطاف هذا الإبداع الجميل وثماره ، حين أصبح إبداع الترجمة عند محمد عناني مكافئا لا بداع النص الأصلي . ولأنه - في قرارة نفسه - يدرك أنه شبيه بالمحيط الهائل الذي يتسع لا هتمامات عديدة وشواغل جمة - حتى لو بدت في ظاهرها متعارضة ومتناقضة - لكنه كان يراها مشبعة ومتكاملة ، فقد انكب بنهم علي كل شيء ، يعب من المعرفة والسياسة والفن وتجليات الجمال ، ويجد نشوته الكبرى وفرحته الغامرة في اهتزازه لمعني جديد أو معرفة جديدة أو نغمة جديدة - خاصة في ألحان باخ علي الأرغن ، من هنا فقد كان يلتمس الأعذار لنفسه كلما عبرته السنوات وموقفه من الدكتوراه كما هو دون تغيير أو تبديل: كنت ألتمس الأعذار لنفسي - وهي أعذار تتعلق بتكويني نفسه لا بأفعال محددة ، فأنا لا أستطيع أن أكتم كل طاقاتي الفنية واسخر كل جهودي للانتهاء من الرسالة مثلما يفعل طالب البعثة الملتزم . ولا أستطيع أن أمتنع عن المسرح أو عن قراءة الصحف ومشاهدة

التليفزيـون والاسـتماع إلى الراديـو وإلـي الموسـيقي ، أو عـن الاخـتلاط بالنـاس والإحـساس بحيـاتهم ونبـضها ، وبلغـة النـاس إلى جانـب لغـة الكتـب . ولا أسـتطيع أن أمتنـع عـن العمـل طـويلا ، فالتـدريس والترجمـة يمـثلان روافـد لحيـاتي ، وكـل هـذا ينطبـق تمامـا علـي نهـاد ، وقـد عـشنا أيامـا صـعبة ، وآن لنـا أن نودعهـا ، وأن نتطلـع إلى المـستقبل في مـصر .
الجميـل والمفـاجئ في هـذا الجـزء الثـاني مـن الـسيرة الذاتيـة لمحمـد عنـاني ، والـذي حمـل عنـوان واحـات الغربـة أن صـراع لغتـه القوميـة في داخلـه لم يهـدأ ولم يفـتر ، خاصـة عنـدما بـدأ ينـاقش مـستقبله القـادم بعـد حـصوله بالفعـل علـي الـدكتوراه . هـل سـتظل كتاباتـه وإبداعاتـه حبـسه اللغـة الإنجليزيـة موجـه مـن خلالهـا الحـديث إلى الإنجليـز أو إلى مـن يعرفـون الإنجليزيـة مـن أبنـاء وطنـه ؟ هـل سيحكم عليـه بالغربـة الـتي حـبس فيهـا غـيره مـن دارسـي اللغـات والآداب الأجنبيـة حـين يجـدون أنفـسهم بعيـدين عـن التعامـل أو حتـى مجـرد التمـاس مـع ثقـافتهم العربيـة وأدبهـم العربـي ؟ وتـستمر الأسـئلة منهمـرة في داخلـه علـي هـذا النحـو ، كاشفة عن جـدل عميـق ووعـي راسـخ وإدراك لطبيعـة الـدور الـذي عليـه أن يقـوم بـه علـي الوجـه الأمثـل: أسـتاذا للغـة الإنجليزيـة والأدب الانجليـزي ، ومترجمـا مـن العربيـة وإليهـا ، وناقـدا يعكـف علـي النـصوص الأدبيـة دراسـة وتحلـيلا ، وكاتبـا مـسرحيا يـشبع نزعتـه الفنيـة وعـشقه للمـسرح بالإبـداع والمـشاركة . وعنـدما نـصغي إلى جـدل الأسـئلة في داخلـه نجـده يقـول: إذا كنـت سـأكتب عـن حيـاة الانجليـز وأوجـه الحـديث إلى الانجليـز فـسوق أكـون قـد أهـدرت العمـر حقـا ! هـل اختفـت العربيـة الـتي تعلمتهـا في مدرسـة المحافظـة علـي القـرآن الكـريم (مدرسـة الحكيمـة في رشـيد) والـتي كتبـت بهـا النقـد والمـسرح وترجمـت إلى هـا مـسرحيات شيكـسبير وتـشيخوف ويونـسكو ؟ كنـت واثقـا أنهـا كامنـة بـصورة مـا في أعمـاق الـنفس أو في طوايـا العقـل وإن يكـن اسـتدعاؤها عـسيرا بـالغ العـسر ، لا ن ردود الأفعـال إلى وميـة الـتي غالبـا مـا تتخـذ صـورا لفظيـة ـ شـأنها في ذلـك شـأن المـشاعر والأحاسـيس والأفكـار ـ تتـشكل بلغـة الحـديث والفكـر والعمـل في الحيـاة إلى وميـة وهـي الإنجليزيـة ! كانـت معظـم الأفكـار الـتي أتـتني مـن الكتـب أو مـن أفـواه النـاس تتخـذ صـورة اللغـة الإنجليزيـة ، وكنـت أحمـد الله آنـذاك علـي أنـني غـير مـضطر لترجمتهـا إلى العربيـة ، ولكـن ذلـك محتـوم حـنين أعـود إلى مـصر ، فكيـف تتحـول آلـة الـتفكير كلـها مـن لغـة إلى لغـة ؟ وشـغلني الموضـوع إلى الحـد الـذي دفعـني إلى مناقـشته مـع مـستر ويلكنـز أسـتاذ علـم اللغـة ، الـذي أجـري بحوثـه كلـها أو معظمهـا في ثنائيـة اللغـة ، أو في التحـول مـن لغـة إلى لغـة في سـياق الـتفكير والحـديث .

لقـد حـسن محمـد عنـاني ـ بجهـده الـدءوب ووعيـه المتفـتح ونـضاله الحيـاتي إلى ومـي ـ العديـد مـن القـضايا وهـو في ختـام رحلتـه مـع الغربـة ، حـسم غوايـة المعرفـة بحـصوله علـي الـدكتوراه ، وحـسن علاقتـه مـع اللغـة بـالوعي بأهميـة دوره ومـستقبله مؤلفـا وكاتبـا وناقـدا

وشـاعرا بالعربيـة ، وأهميـة أن يظـل هـذا الوجـه العربـي فيـه - بـالرغم مـن التخـصص في الانجليزيـة لغـة وأدبـا - وجهـا أصـيلا فيـه ، يعـبر عـن اعتـزازه بانتمائـه الـوطني والقـومي ، وقدرتـه الحيـة علـي الفعـل والمشاركة في آفـاق الحيـاة الثقافيـة المـصرية والعربيـة . وقـد كـان . يبقي في عنـق الـدكتور محمـد عنـاني ديـن لـسنوات مـا بعـد عـام ١٩٧٥ ، وهـي سـنوات العمـل الأكـاديمي والمـشاريع الكـبرى والحلـم الـذي نظـل نطـارده ، وكلمـا اقتربنـا مـن تحقيقـه وجـدناه لا يزال بعيـدا يـشير ويوجـه المـسار . هـذه الـسنوات الـتي تبلـغ الآن - ربـع قـرن - جـديرة بـأن يقتنـصها صـاحبها - رؤيـة وخـبرة وتجـارب ومواقـف ومعـارك واهتمامـات - في مجلـد ثالـث مـن هذه السيرة البديعـة العـامرة . وأنـا علـي ثقـة مـن أن هـذه الـسيرة - الـتي لم يقـدر لهـا صـاحبها مـن البدايـة أن تكـون بهـذا الامتـداد - تنكـشف عـن نمـوذج إنـساني نـادر: صـفاء ونـبلا وعذوبـة ، ونمـوذج علمـي فريـد ومتميـز ، هـو نمـوذج الراهـب في محـراب العلـم ، في زمـن يطفـو عليـه الـسوقة بأصـواتهم العاليـة ومعـاركهم الزائفـة ، الـتي ينطبـق عليهـا القـول العربـي المـأثور - الـذي لا بـد أن لـه نظـيرا في الإنجليزيـة - جعجعـة ولا أري طحنـا ! بـارك الله في عطائـك أيهـا العـالم المتواضـع ، والإنـسان النبيـل ، والـشاعر المرهـف الوجـدان ، والكاتـب الـسلس البيـان ، العف اللسان !

من " الفهلوي " إلى " الهباش "

بقلم: فاروق شوشة

في عام ١٩٧٧ كنت واحدا من طلاب كلية التربية في جامعة عين شمس - في مكانها القديم بحي المنيرة المجاور لكليتي التي تخرجت فيها - كلية دار العلوم بجامعة القاهرة للحصول علي شهادة الدبلوم العامة في التربية وعلم النفس ، توطئة للعمل بالتدريس وكان من حظي وحظ كثيرين غيري التلمذة علي أستاذنا العالم الكبير الدكتور حامد عمار في علم أصول التربية .

كان يحلق بنا في آفاق - لم نعهدها - من التأمل العميق ، والرؤية النافذة ، المبنية علي وعي شامل بطبيعة الحضارات والثقافات والفلسفات . وكان يعرض علينا بفكره الجدلي المثير لخصوبة الحوار وحيويته نماذج المواطنة في الحضارات القديمة ، أو - بتعبير أدق - الأنماط الثقافية المختلفة للشخصية ومدي تأثرها بطبيعة المجتمع وشروطه وفلسفته ومكوناته . كان الحديث عن النمط الثقافي للمواطنة في كل من أثينا وإسبرطة باعتبارهما نموذجين متقابلين بارزين ومؤثرين من نماذج العالم القديم . كل من المدينتين عبرت عن شخصية مغايرة وجسدت نمطا مختلفا .

فكان النموذج الأثيني هو نموذج العقل والحكمة المرتبط بالفكر والحوار والتأمل ، بينما كان النموذج الإسبرطي هو نموذج القوة والحرب والعسكرة المرتبط بالعنف والجندية والخشونة . ثم كان طبيعيا أن يتطرق الحوار إلى المجتمع المصري في ذلك الحين وإلي النمط الثقافي الذي يجسد نموذج المواطنة في حركته الاجتماعية وسلوكه إلى ومي وتفاعله مع شبكة العلاقات السائدة . وتعددت الاجتهادات بتعدد المشاركين في الحوار ولم يكن صعبا علينا - نحن تلامذة الدكتور حامد عمار الذين قدموا من كليات مختلفة وتخصصات شتي والتقوا في ساحة التربية وعلم النفس - أن تهديهم بوصلة أستاذهم ومنهجه العلمي - الذي يمزج دوما بين النظري والتطبيقي ، بين الفكر والواقع إلى بروز نمط ثقافي وحضاري للشخصية المصرية كما كشفت عنه الرؤية والتحليل في ذلك الوقت الفهلوي .

لم تكن الكلمة غريبة علي أسماعنا ، كانت شائعة ومتداولة في سياقها الشعبي الذي يربط بين الفهلوة والذكاء والشطارة وخفة الظل والقدرة علي الاحتيال - خاصة في مجال كسب العيش - ووصول صاحبها إلى ما يريد وتحقيق ما يتطلع إلى ه . كما أنها لم تبتعد كثيرا عن أصلها القارسي الذي انتقلت منه إلى العربية والعامية المصرية . فالكلمة في صورتها الأولي بهلوي بالباء الثقيلة - تحتها ثلاث نقط - مما جعلها تنطق فهلوي ، كالحال في أصبهان وأصفهان ، وتطلق في الفارسية علي من يتميز بالشجاعة والشدة

والحيلة في الحرب ، فهو البطل ، وهو الفتي ، وهو أيضا الشاطر . وكلمة الشاطر ـ بالمناسبة ـ كلمة عربية صحيحة . تقول اللغة : شطر الرجل علي قومه يشطر شطورا وشطارة أي أعيا قومه شرا وخبثا ، والشاطر: الخبيث الفاجر وهو أيضا صاحب القدرة علي الفهم والتصرف ، والجمع : شطار .

وقد عرف الأدب الاسباني ـ تأثرا بالمقامات العربية التي أبدعها بديع الزمان الهمذاني وأبوالقاسم ـ ما يعرف بقصص الشطار واسمها بالإسبانية بيكارسكا بالباء الثقيلة . وهي القصص التي كانت ـ كما يقول الدكتور محمد غنيمي هلال في كتابه الأدب المقارن ــ إيذانا بميلاد قصص العادات والتقاليد في معناها الحديث ، وهي التي تطورت فكانت قصص القضايا الاجتماعية فيما بعد . وفي قصص الشطار يحكي المؤلف المغامرات علي لسانه كأنها حدثت له ، وهي ذات صيغة هجائية للمجتمع ومن فيه ، وحياة البطل أو الشاطر قصيرة يائسة يحياها علي هامش المجتمع ويظل ينتقل بين طبقاته ليكسب قوته . وهو يحكم علي المجتمع من وجهة نظره هو حكما تظهر فيه الأثرة ـ أي الأنانية ـ والانطواء علي النفس ، وقصر النظر في تقدير الأشياء من الناحية الغريزية النفعية ، فكل من يعارض فهو خبيث ومن يمنحه الاحسان فهو خير .

استطردت قليلا في هذه التفاصيل ـ التي أوردها عالم دراسات الأدب المقارن الراحل الدكتور محمد غنيمي هلال ـ لا نها تقدم لنا النموذج الإسباني لما عرفناه ونعرفه نحن المصريين باسم الفهلوي من خلال ما يسمي بقصص الشطار . وقد كان بديع الزمان الهمذاني ـ الذي ينسب إلى ه إبداع فن المقامات في صورته التي عرف بها ـ موفقا في استفادته من صداقته لشاعر معاصر له هو أبو دلف الخزرجي الذي كان بمثابة النموذج الواقعي لبطل مقاماته . وقد كان هذا الشاعر جوالا جواب آفاق محتالا علي كسب الرزق بالأدب والشعر والحيل الأخري الكثيرة التي تنبو عن الخلق الكريم . وكان بديع الزمان معجبا بشخصية أبي دلف ، يستدعيه إلى مجلسه ويحسن إلى ه ويحفظ من شعره . وقد ضمن مقاماته بعض هذا الشعر . وكان شعار أبي دلف في الحياة قوله :

ويحك ، هذا الزمان زور
فلا يغرنك الغرور
لا تلتزم حالة ولكن
در بالليالي كما تدور

والذين عرفوا أبادلف عن قرب يقولون إن بديع الزمان أبدع شخصية بطله في المقامات أبي الفتح السكندري علي مثال هذا الشاعر الذي يذكرنا الآن بحديث الفهلوي والفهلوة والشاطر والشطار .

الطريف أن حياتنا الثقافية ـ منذ مطالع الخمسينيات ـ لم تنج من ظاهرة الفهلوة بين المثقفين ، وهناك دائما من يتظاهرون بأنهم يمثلون أقصي درجات الرفض والمعارضة وهم في حقيقة الأمر وبحكم الواقع والسلوك إلى ومي خدام للأنظمة والحكام ـ علي اختلافهم ـ ولكل صاحب سلطة أو جاه .

يتفننون في التقرب إلى هم ، ومصادقتهم إن أمكن ، ولا بأس من التبجح والمزايدة علي من يحاولون ـ أحيانا ـ كشف انتهازيتهم ووصوليتهم وفهلوتهم . وبفضل هذه الفهلوة فهم يستطيعون القفز علي فرص أصحاب النبل والتعفف والشرف ، والذين لا يريقون ما ء وجوهم ولا يطلبون شيئا لا نفسهم ولا يزاحمون بالمناكب في وليمة الحياة .

وأنا علي ثقة بأن قاريء هذه السطور يمكنه أن يستدعي الآن إلى ذاكرته عشرات النماذج من مثقفينا الذين وجدوا في سلاح الفهلوة وممارسة دور الفهلوي أسوأ ما فيه . فليس فيهم ما في المعني الأصلي للكلمة في الفارسية وهو يشير إلى الحيلة والدهاء والشجاعة في الحرب ولا شدة الذكاء التي كانت تمنح صاحبها مبررا للتقدم في المجتمع والاستحواذ علي بعض أطايبه ، ولا خفة الدم أو الظل التي كانت مدخلا يمنحه القبول عند الناس وييسر له سبل التعامل والتواصل ، ولا تساع هذا النموذج ـ نموذج الفهلوي ـ وتعدد وجوهه ، أصبحنا في حاجة إلى كاتب مقامات جديد من طراز الهمذاني أو الحريري يعكف علي رسم هذه الشخصيات والنماذج ، ونقد ما في المجتمع من سلبيات السلوك والتعامل ، ذلك أن فن المقامات ـ في جوهره ـ نقد اجتماعي لا ذع ، وكشف لعورات الطبقات الاجتماعية المختلفة ، قبل أن يري فيه البعض فنا لغويا يمتليء بمحسنات البديع وغريب اللغة ونوادر الحكايات والأشعار . بل لعلنا في حاجة إلى ما هو أكثر ، إلى كاتب من طراز عبد الله بن المقفع يقدم لنا صورة عصرية من كتابه كليلة ودمنة ويبدع علي ألسنة الحيوان والطير نقدا للمجتمع الذي نعيشه ، يمتعنا بالأدب العالي الرفيع والفكر العميق النافذ والسخرية الحادة الموجعة والأسلوب السهل المتنع الذي توصف به كتابات ابن المقفع في سائر مؤلفاته . لا حشو فيها ولا ثرثرة ولا فضول ، وإنما دقة وحتمية وإحكام ، وبعد عن التقعر والحوشية والإغراب والمعاظلة ، وهي الشروط التي كان ينادي بها أديبنا الكبير الراحل يحيي حقي في كلمته الجامعة حاجتنا إلى أسلوب جديد .

ويدور الزمان دورته . وتنقضي علي ذكريات التلمذة علي أستاذنا الدكتور حامد عمار وأقرانه من أساتذتنا الدكاترة في كلية التربية : صلاح قطب وأبو الفتوح رضوان وأحمد زكي ورشدي خاطر ونجيب إسكندر إبراهيم وفؤاد البهي السيد ومصطفي فهمي وغيرهم ـ رحم الله الراحلين منهم وبارك في آجال الأحياء وفي عطائهم ـ تنقضي علي هذه الذكريات ثلاثة وأربعون عام ا ، ويشرفني الدكتور حامد عمار ـ بكل علمه وتواضعه ـ ضيفا علي

البرنامج التليفزيوني الأمسية الثقافية - منذ أسابيع قليلة - في حوار حول التعليم والتربية والمجتمع واحتياجات الحاضر والمستقبل وسلبيات العملية التعليمية الراهنة - من وجهة نظره - وإيجابياتها ، ومدي صلاحيتها لا نتاج مواطن يستطيع مواجهة تحديات عشرينيات القرن القادم وهو يبدأ تعليمه الآن في رياض الأطفال ، وهل وضع المخططون في حسبانهم أن هذا الطفل الذي لم يتجاوز السادسة الآن يستطيع تعليمنا بصورته الراهنة أن يؤهله للعصر القادم - عند انتهاء تعليمه وتخرجه - في خضم التطور الهائل والمتغيرات الكاسحة ؟

وبعيدا عن حوار البرنامج ، كنت أتساءل عما إذا كانت وزارة التعليم تدري بحجم ما تتطلبه بعض رياض الأطفال ودور الحضانة الآن من مصروفات تتجاوز عشرة آلاف جنيه ، بالإضافة إلى الرسوم الخاصة بالرحلات والنشاط المدرسي ، وكيف أن بعض المستثمرين قد وجدوا في مثل هذا النوع من المدارس - التي أصبحت تستهوي القادرين وغير القادرين - مجالا للاستثمار الفاحش وأنه إذا كانت رياض الأطفال تبدأ بمثل هذا المبلغ فكيف سيكون الأمر بالنسبة للمراحل الأعلي من التعليم وصولا إلى الجامعي في هذا السياق . وعندما قمنا بعملية حسابية بسيطة لواحدة منها تضم ما ئة طفل لا غير ، وجدنا أن ما تحققه في مستهل عام دراسي واحد هو مليون جنيه بالتمام والكمال . هنا ارتفعت نبرة الدكتور عمار وهو يقول: مليون جنيه ! لقد انتقلنا إذن من الفهلوي إلى الهباش ! [والهباش بالمناسبة كلمة فصيحة ، تقول اللغة: هبش هبشا: جمع وكسب ، وهو يهبش لعياله: يحتال لهم في الكسب من هاهنا وهاهنا ، كما يقال هبش ويهبش - بتشديد الباء بالمعني نفسه] .

وأرجعني تعليق أستاذنا إلى الذكريات الخوالي ، يوم كنا نتكلم عن الفهلوي باعتباره جماع النموذج السلبي في المجتمع آنذاك ، بكل سلبياته وسيئاته ومضاره . فإذا بنا الآن - نتيجة للتغير والتطور وانفتاح المجتمع وازدهار الاقتصاد الحر وتشجيع الاستثمار وإطلاق حوافز الربح وعدم وجود المتابعة الكافية لهذا كله في المجال الأساسي لا مننا القومي وركيزتنا الحياتية وهو التعليم - نعيش مرحلة اغتنام بعض من لا ضمير لهم فرصة إقبال الناس علي التعليم الأجنبي الخاص بدءا من دور الحضانة ورياض الأطفال ، حتي لو دفعوا فيه دم قلبهم - كما يقول التعبير الشعبي - ولو باعوا كل مقتنياتهم ما داموا سيضمنون لا بنائهم وبناتهم مستوي متقدما من حيث الامكانيات وأساليب التعليم والمستوي الاجتماعي واللغة الأجنبية التي أصبحت كلمة السر لضمان عمل لا ئق أو وظيفة محترمة في المستقبل ، لكن نماذج الهباشين لم تتوقف عند بعض رياض الأطفال أو حتي المستويات الأعلي في التعليم ، وإنما خرجت عن إطار التعليم كله ، إلى ما هو أرحب وأوسع وأملأ بالخيرات والمنافع والغنايم . ويكفي أن نعيد مطالعة الصحف عبر الشهور

الأخيرة ، لنري بأعيننا المدي الذي وصل إلى ه جشع هؤلاء الهباشين وتفننهم في الوسيلة ونجاحهم ـ كثيرا ـ في الفرار بغنائمهم ومكتنزات هبشهم هاربين من القانون ومن الوطن بأسره ، وفي المقابل فشلنا في استعادتهم ـ بالقانون ـ لينالوا الجزاء الذي يستحقونه .

وليت الأمر في مجال الهبش توقف عند دائرة المال والاقتصاد ـ وهو مجال شديد الاغراء والإغواء بطبيعته لمن لديهم الاستعداد والمقدرة ـ لكنه اتسع ليشمل مجالات الثقافة والكتابة والتأليف . ونحن نتابع الآن ـ بلا توقف ـ أخبار بعض الهباشين من أستاذة الجامعة ، الذين تتحدث الوقائع والقضايا عن سطوهم علي كتب زملائهم وتلاميذهم ونسبتها إلى أنفسهم من غير خجل أو حياء ، ودون أن تحرك الجامعات ساكنا للحفاظ علي هيبتها كمؤسسة أكاديمية رفيعة أو علي هيبة الأستاذ باعتباره رمزا ومعني وقيمة . وكانت نتيجة المواقف المتراخية والمتسترة في وجه هباشي الرسائل الجامعية ، والكتب الجامعية المؤلفة والمترجمة اختلاط الحابل بالنابل والمزيد من الجرأة علي النهب والسطو والسرقة والادعاء بالباطل .

المواجهة الجادة الصريحة ، والنقد الحقيقي ، وجدل الحوار الحر ، والمكاشفة بالحقائق الكاملة ، وفضح التمادي في التستر علي الفساد صونا لماء الوجه أو الهيبة الزائفة : كل ذلك هو السبيل الوحيد للتصدي لفلول ظاهرة الفهلوة والممارسين لظاهرة الهبش التي استشرت في مجالات عدة ، بدءا بثروات الوطن وأمواله وممتلكاته وانتهاء بالإبداع الأدبي والتأليف الجامعي والكتابة الثقافية ، مرورا بمرافق ومصالح ومؤسسات وهيئات وبنوك ، أصبح فيها الهبش العام شعارا لبعض الذين ما تت ضمائرهم وخربت ذممهم واستمرأوا صمت المجتمع عن جرائمهم وانحرافاتهم وهم يلغون في المال السائب كالكلاب .

لقد روج العصر الشمولي المتسلط لنموذج الفهلوي في الحياة المصرية ، وأطلق عصر الانفتاح الغرائبي العنان لنموذج الهباش ، وبين النموذجين الكاشفين لسوءات الزمن الرديء يا قلب لا تحزن !

أول حوار مع نجيب محفوظ

بقلم:فاروق شوشة

كنا في صيف عام ١٩٥٩ ، في إطار ذلك الزمن الجميل في كل شئ: الناس والأحلام والتطلعات ، الآمال الكبري تلتمع من أمامنا علي مشارف البصر ، والسماء قريبة من رءوسنا ، وأيدينا تكاد تمسك بالمستحيل .

وكان البرنامج الثاني لا ذاعة القاهرة - البرنامج الثقافي الآن - قد شق طريقه عبر الأثير منذ عام ين كاملين ، وأتيحت له موجة قوية حملت صوته القوي إلى بقاع شتي من الوطن العربي ، وبدا صوت مصر الثقافي الذي تأكد طويلا بفضل الصحيفة والمجلة والكتاب وانتشرت أصداؤه في كل مكان من العالم العربي ، يجد من خلال هذه الخدمة الإذاعية النوعية ، ومن ثورة الاتصال الهائلة التي أحدثها اختراع الراديو الترانزستور وسيلة أكثر سرعة ونفاذا وأقدر علي اختراق الحواجز والأسوار والسدود إلى عقول المستمعين ووجداناتهم .

وكان الإعلامي الرائد سعد لبيب الذي أشرف علي إنشاء البرنامج الثاني وإدارته والتخطيط له ووضع أولي خرائطه الإذاعية - مستفيدا من تجربة البرنامج الثالث في انجلترا - ومعه كتيبة من ألمع الإذاعيين ثقافة وموهبة وإيمانا برسالة هذه الإذاعة الثقافية الوليدة التي نجحت بفضل هذا الحماس والإخلاص أن تكون بعد عام ين اثنين ذات تأثير واسع وعميق - كان سعد لبيب موهوبا في التقاط الأفكار الجديدة والنسج علي غير مثال سابق وإفساح المجال أمام المبادرات الذكية واختيار العناصر الصالحة للعمل معه ، فنجح نجاحا مذهلا في أن يجعل من البرنامج الثاني ورشة عمل إذاعية تضج بالحياة والفكر والتعاون والتكامل وتنفتح علي كل جديد . وحين تقدم إلى ه الكاتب والمترجم الراحل محمد عبد الله الشفقي ببعض النصوص المترجمة عن حوارات أجراها المحرر الأدبي لمجلة باريس ريفيو مع عدد من مشاهير الأدباء والكتاب المعاصرين في أوروبا وأمريكا ، سرعان ما تحولت هذه النصوص إلى ما دة إذاعية علي مستوي رفيع من الجاذبية والجدية والعمق في برنامج أسبوعي يحمل اسم مع الأدباء أسند تقديمه إلى الزميلة الإذاعية الكبيرة سهير الحارثي - التي كانت وقتها في بداية تألقها الإذاعي من خلال العمل في البرنامج الثاني ، وسرعان ما بدأ التفكير في إنجاز حلقات عربية مماثلة للحلقات الأجنبية المترجمة ، وعهد إلى سعد لبيب - أستاذي الأول في الفن الإذاعي - بمهمة إعداد هذه الحلقات وتقديمها ، بالرغم من أن عمري الإذاعي وقتها لم يكن قد تجاوز عام ا واحدا ،

قضيت أكثره مستمعا صامتا لما يقوله الزملاء الكبار ، أو متابعا يراقب عن كثب ما يقوم به الأساتذة في ورشة البرنامج الثاني .

وبدأت التفكير في الحلقة الأولي من البرنامج لم يتدخل سعد لبيب - كعادته - في اقتراح أسماء معينة أو محاولة فرض اختيار معين ، كانت اسماء الأدب تزدحم بالعديد من النجوم والكواكب الساطعة : طه حسين والعقاد والحكيم وتيمور ويحيي حقي وعزيز أباظة ومحمد عبد الحليم عبد الله وبنت الشاطئ وسهير القلماوي وأحمد حسن الزيات ومحمد مندور وإحسان عبد القدوس ويوسف السباعي وغيرهم .

غير أني آثرت أن تكون البداية غير تقليدية وأن أستجيب في اختياري لصوت العقل والقلب الذي كان يري في كتابات نجيب محفوظ حتي ذلك الحين شيئا جديدا ومذاقا مغايرا ، ويتابع من خلال إنجازه الروائي - في ثلاثيته الفرعونية ، عبث الأقدار وكفاح طيبة ورادوبيس ثم في رواياته العصرية : خان الخليلي وزقاق المدق والسراب وبداية ونهاية والقاهرة٣٠ وثلاثيته البديعة : بين القصرين وقصر الشوق والسكرية - عالما مدهشا من الشخوص والنماذج والاجواء والصراعات والأفكار تكشف عن مدي عمقه وغناه وتتيح للباحث - وللقارئ العابر - مجالات واسعة للتساؤل والنظر والتأمل .
كان دليلي إلى عالم نجيب محفوظ - بكل ثرائه ورحابته - صديقي العزيز الكاتب القصصي الكبير سليمان فياض ، الذي كان له فضل مؤازرتي في تجميع كل ما أثارته كتابات نجيب محفوظ من وجهات نظر متباينة لدي النقاد والدارسين ، وبلورة ما يتطلع إلى ه قارئ نجيب محفوظ من كشف بعض أسرار عالمه الإنساني والإبداعي ، ثم كان سليمان فياض دليلي إلى ندوة نجيب محفوظ - في كازينو الأوبرا - وكان قد سبقني إلى التعرف عليه ، واستأذن نجيب محفوظ من صحبة الندوة ليفسح لي ولسليمان من وقته واهتمامه جلسة هادئة ومنعزلة . ما زلت أتذكر ملامح وجهه - الذي يفيض بالجدية والحنو معا - وهو يقرأ الأسئلة التي تتجاوز الثلاثين . لا أدري لماذا خالجني في تلك اللحظات شعور إنساني غامر بأن هذا الوجه الذي أتطلع إلى ه هو وجه أبي - ومازال هذا الشعور يخالجني حتي الآن - وأن هذا الدفء المرتبط بالصرامة هو ما ألفته واعتدت عليه . وهز رأسه - بعد قراءة الأسئلة - وابتسم في مودة وبشاشة وهو يقول : هذه أسئلة لم تترك شيئا ، ولابد أن تكون إجابتي عليها مكتوبة . مثل هذه الأسئلة لا يجاب عنها بطريقة عابرة ، وتحتاج إلى جهد وتفكير .

واتفقنا في نهاية الجلسة علي أن يكون التسجيل بعد أسبوع وقبل أن أغادر الندوة كان يحيي حقي قد وصل وبيده عصاه الشهيرة ، وانحني نجيب محفوظ في مودة وإعزاز بالغين ليفسح له مكانا في صدر الندوة ، ثم ليستمع إلى ه بكل جوارحه ويصغي بكل الاحترام والاهتمام ويحيي حقي يفيض في التعليق علي الصفحات التي استوقفته من

الثلاثيــة والشخــصيات الــتي أحبهــا وتعــاطف معهــا ، والأســلوب الــذي كتــب بــه نجيــب محفـوظ ، ويـضغط يحيـي حقـي علـي الكلمـة ويؤكـدها : الأسـلوب ويـردد نجيـب محفـوظ في تواضع آسر: نعم يايحيي بك .

في الحلقــة الأولــي مــن برنــامج مــع الأدبــاء الــتي أذيعــت في صـيف عــام ١٩٥٩ ، تحـدث نجيـب محفـوظ في كـل شـيء ، كـان نجيـب محفـوظ في الثامنـة والأربعـين مـن العمـر ، في قمـة شـبابه وحيويتـه وتألقـه ، وكـان يقـرأ مـن الأوراق الـتي حملـها معـه إجاباتـه علـي الأسـئلة الـتي تناولـت نـشأته الأولـي وقراءاتـه المبكـرة ودراسـاته في الفلـسفة ثـم اتجاهـه إلى الكتابـة الأدبيـة ـ القـصة القـصيرة والروايـة ـ بعـد كتابـة المقـال النفـسي والفلـسفي ، والعـالم الـذي يـستمد منـه نماذجـه وشخوصـه الروائيـة والمـسافة لديـه بـين الواقـع والخيـال الأدبـي ، والمرحلـة الفرعونيـة ، والمرحلـة الواقعيـة ، والـسراب باعتبارهـا روايـة سـيكلوجية فريـدة لم تتكـرر ، وكتابـات النقـاد عـن انتاجـه وموقفـه منهـا وكيـف انتهـي بـه الأمـر إلى موقـف طريـف فهو لم يقـرأ رأيـا لناقـد أعجبـه شـيء في كتاباتـه إلا وجـد لغـيره رأيـا آخـر فيـه ، والـذي أحبـه هـؤلاء كرهـه غيرهـم فـالبعض يقـول ـ علـي سـبيل المثـال ـ ان اسـتطراد نجيـب محفـوظ في وصـف الأمـاكن والشخـصيات يبعـث علـي الملـل ويوقـف تطـور الأحـداث ، والـبعض الآخـر يقـول إنـه يقـرأ قصـصه ويقبـل عليهـا بـسبب هـذا الوصـف والاسـتطراد فيـه ، مـن هنـا فقـد انتهـي إلى موقف محـدد وهـو ألا يلتفت علـي الإطـلاق إلى مـا يكتبـه النقـاد ليكتبـوا ويقولـوا مـا يـشاءون . أمـا هـو فلـن يـصغي إلا لـصوته الأدبـي وضـميره الـداخلي ، ولـن يكتـب إلا بطريقتـه واسـتجابة لمقتضيات العمل الأدبي .

كـان نجيـب محفـوظ يتحـدث عـن عالمـه الأدبـي ، وعـن طريقـه رسمـه للشخـصيات ، وعــن مكوناتــه الأولــي ، وعــن قراءاتــه في الآداب العالميــة ـ لا ول مـرة بهـذا العمـق وهـذا الـشمول . وعنـدما سـألته عـن رفيـق رحلتـه مـع الكتابـة عـادل كامـل الـذي توقـف بعـد أن قـرأ لـه النـاس: سـليم الأكـبر وملـك مـن شـعاع وويـك عـنتر وقـصته القـصيرة الطويلـة ضـباب ورمـاد ورأوا فيـه صـوتا أدبيـا جديـدا ومتميـزا . كانـت اجابـة نجيـب محفـوظ ـ وصـوته ينـبض بالأسـي ـ أن عـادل كامـل في طليعـة كتـاب جيلـه بـلا جـدال ، لكـن حـساسيته المفرطـة وطبيعتـه الـتي تـأبي الحلـول الوسـطي ، واحـساسه بمـا في الحيـاة الأدبيـة مـن سـلبيات وفـساد في القـيم والأحكـام والمواقـف كـل ذلـك جعلـه يعتـزل الكتابـة وفقـد الأدب كاتبـا وأديبـا مبـدعا كـبيرا لتكـسب مهنـة المحامـاة محاميـا ناجحـا ، ودفعـني رأي نجيـب محفـوظ في عـادل كامـل إلى البحـث عنـه ، واستـضافته في الحلقـة التاليـة مـن البرنـامج ، ليتحـدث عـن علاقتـه الحميمـة ـ والقديمـة ـ بنجيـب محفـوظ ، وليـذكره بتلـك البقعـة مـن النيـل الـتي أسمياهـا الـدائرة المشئومة والتي طالما اجتمعا وتناقشا فيها ساعات طويلة من الليل .

وكيف أن السبب الأساسي الذي جعله يكره الأدب لدرجة الاحساس بأنه مرض يحس به أنه يحاول الشفاء منه بكل وسيلة - هو اعتقاده بأن الأديب إنسان عاجز عن ممارسة الحياة وعاجز عن أن يقذف بنفسه في تيارها وأن يكافح مع المكافحين وأن يصل مع الواصلين فهو لذلك ينحرف إلى شاطئها ليتحدث عنها كشاعر الربابة الذي يروي سير الأبطال دون أن يكون في مقدوره أن يكون واحدا منهم لقد أرقه شاعر الربابة هذا ليالي كاملة حتي أصبح كابوسا مزعجا بل وتحديا مستمرا إلى أن كانت النتيجة الحتمية لهذه الأزمة ترك الأدب والانغماس في تيار الحياة لكن طبيعة نجيب محفوظ - لحسن الحظ - كانت علي النقيض من جهة صديقه عادل كامل فهي طبيعة قوامها الانضباط والاصرار والصرامة والتحدي والصبر الهائل والتحقيق المستمر وكان طبيعيا أن تقوده هذه الطبيعة إلى آفاقه المتتابعة ، أفقا بعد أفق ، وعالما بعد آخر ، وأن تحمله خطاه الوئيدة الواثقة من الجمالية إلى نوبل ، ومن المحلية إلى العالمية ، ومن حروف العربية إلى أبجدية عشرات اللغات لمئات الألوف من القراء في بقاع شتي من العالم .

الطريف أن اجابات نجيب محفوظ في الحلقة الأولي من برنامج مع الأدباء للمذيع الشاب الذي لم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين من العمر ، قد تحولت إلى مصدر أساسي للعديد من النقاد والدارسين بعد أن نشرتها كاملة في مجلة الآداب البيروتية التي كانت في ذلك الوقت المجلة الأدبية الأولي في العالم العربي ، كما نشرت بعدها الحلقات الأخري التي تم تسجيلها مع عادل كامل ويحيي حقي ومحمود تيمور و عبد الحليم عبد الله وأحمد حسن الزيات وصلاح عبد الصبور ومحمد مندور وغيرهم ووجد بعض نقاد الستينيات في هذه الاجابات مفاتيح لكثير من أسرار العالم الشخصي والإبداعي لنجيب محفوظ الذي كان كعادته صريحا وواضحا ومباشرا يدرك جسامة المسئولية في كل ما يقوم به حتي لو كان مجرد اجابات علي أسئلة في برنامج إذاعي .

وشاءت الأقدار أن تصادف إذاعة البرنامج سمع الناقد الكبير الدكتور علي الراعي فكتب ضمن افتتاحية مجلة المجلة في عدد سبتمبر عام ١٩٥٩ – وكان رئيسا لتحريرها في ذلك الحين . علي عادته في الحفاوة والترحيب بكل ما يراهجديدا أو جميلا أو مفيدا في مجالات الإبداع المختلفة: الفكرية والأدبية والفنية ، وظل هذا الموقف ديدنه حتي الرمق الأخير في حياته الحافلة بالاستاذية والعطاء - كتب يقول: استمعت ، هنا في المصيف في بورسعيد ، إلى برنامج نقدي طريف قدمه البرنامج الثاني ، وتناول فيه بالبحث فن نجيب محفوظ عن طريق أسئلة وأجوبة بين الكاتب والمذيع ، أعجبت كثيرا بالبرنامج وشاقني منه أنه مقال نقدي حي ، يمكن لغير المختصين بالنقد أو المهتمين به بصفة خاصة أن يستمعوا إلى ه بغير ملل . لقد شاركني الاستماع إلى البرنامج بعض قريباتي ممن قرآن روايات نجيب محفوظ ، وأحببن أن يعرفن عنها شيئا من فم المؤلف

ومـن آراء النقـاد ، وهـؤلاء اسـتمعن إلى البرنـامج حـتي نهايتـه في انتبـاه تـام وفـاض انتبـاههن بعـد نهايتـه فـشملني أنـا بأسـئلة كـثيرة عـن نقـاط لم تـستوف في البرنـامج هـذه خدمـة أخـري يقـدمها البرنـامج الثـاني لجمـاهير المـستمعين ، وهـي خدمـة زادت أضـعافا بفـضل الموجـة القويـة الـتي أعطيـت للبرنـامج أخـيرا ، فمنحتـه قـدرة علـي الوصـول إلى ملايـين المـستمعين وأصبح شعار: الثقافة للملايين حقيقة واقعة ، وليس مجرد أمنية طيبة .

ألا يمثل هذا كله عودة بنا إلى الزمن الجميل ؟

كاتـب كـبير لا مـع جـاذب للانتبـاه ، هـو حـديث الـرأي العـام الأدبـي والنقـدي ، يـستجيب علـي الفـور ، في حنـو ومـودة واهتمـام ، لـدعوة مـذيع شـاب في بدايـة حياتـه الإذاعيـة ، لحـوار يـري أنـه يجـب أن يكـون مكتوبـا ، احترامـا للبرنـامج وأسـئلته ، وللمستمع الذي سيصبح جزءا من التاريخ .

وناقـد كـبير عظـيم التـأثير يبـادر إلى أن يجعـل مـن افتتاحيـة المجلـة الثقافيـة الأولـي في مـصر في ذلـك الوقـت مجلـة المجلـة مناسـبة للتعليـق علـي هـذا الحـدث الإذاعـي ، مـشيدا بالبرنـامج الثـاني ، وبموجتـه الإذاعيـة القويـة ، الـتي عـصف بهـا بعـد ذلـك الـزمن الـردئ ، وانتهـي بـسبب ذلـك تـأثيره العربـي الكاسـح ، وتـضاءل تـأثيره حـتي في مـصر فلـم يعـد يـصل إلا إلى المـواطنين في بـضعة كيلـومترات ضـئيلة تحـيط بالقـاهرة ، في وقـت نمـلأ فيـه الـدنيا صـخبا بالحـديث عـن الريـادة الإعلاميـة ، والـدور الثقـافي الرائـد لمـصر ، بينمـا نحـن في حقيقتنـا تحكمنـا عقليـة الخفـة والتـسلية والمنوعـات والتـسطيح ، وننفـر مـن الجديـة والرصـانة والعمق !

لقد مـضي علـي هـذا الحـوار واحـد وأربعـون عـام ا ، تـألق فيهـا نجـم نجيـب محفـوظ واكتمل واقتعـد القمـة ، وسمـع بـه وعرفـه عـن قـرب مـن لم يكونـوا يحـسنون القـراءة أوالإمـساك بـالقلم في ذلـك الحـين ، ولقـد كـان هـذا الحـوار الأول معـه رهانـا علـي المـستقبل ، وقـد كـسب أدبنـا العربـي الرهـان ، والآن ـ وقـد أصـبح المـستقبل الـذي كنـا نحلـم بـه واقعـا مـضيئا بـين أيـدينا ـ نقـول لنجيـب محفـوظ ونحـن نتـابع بكـل الإعجـاب والانبهـار تجليـات أحلامـه الأخـيرة وومـضات مـا ساته المـشعة: كـل عـام وأنـت وابـداعك الـشامخ المتجـدد بخـير وعافيـة .

محمد المخزنجي . . نهر الصدق والعذوبة والجمال

بقلم : فاروق شوشة

هذا قصاص من طراز نادر ، وهو قبل هذا ـ انسان من طراز نادر والندرة هنا هي ندرة المعادن النفيسة ـ كالألماس ـ في زمن امتلأ بالسوقة والأوشاب والرعاع ، والمنتفخين ادعاء وفرط جهالة ، كثروا وتكاثروا في وفرة المعادن الخسيسة ، وقدرتها علي حمل الصدأ والتلوث والقبح ، وبقي للندرة النفيسة ان تحتمي بذاتها وتعتصم واثقة من أن البريق الزائف سريع الانطفاء ، وأن اصالتها الحقيقية قادرة علي الصمود والتصدي ، حتي لو تصور البعض ـ خطا ـ ان الباطل قد ساد ، وأن القبيح قد استشري ، وان نعيق الغربان قد صار نغما وموسيقي .

يطلع علينا محمد المخزنجي ، في سمته الانساني والابداعي ، خلاصة الخلاصة لجيله ، واثقا ، متفائلا ، عارفا بمسيرته مدركا لخطاه ، لا يعاظل ولايعاظل ولا يصطنع ولا يفتعل ، الحالة القصصية من أمامه ومن خلفه ومن حوله تلاحقه في كل مكان ، وهو يعبر الطريق ، أو يتنزه في غابة ، أو يتأمل في نهر أو بحر او يتابع حركة الطيور وسلوك الحيوان والكائنات جميعها قد انتظمت واكتملت في وجدانه فيما يشبه وحدة الوجود وكيانه ـ هذا الكيان الرقيق الوديع ـ يتسع للبشر والحيوان والنبات والجماد ويري في كل عناصر هذا الوجود ما دة قصصية لحالة قصصية كل ما هو مطالب به ان يتوقف قليلا وان يصغي ويتأمل وان يمد يديه ـ في فرح طفولي غامر حينا ومشاركة إنسانية حانية حينا وانعطاف يعتصره الشجن والأسي احيانا ـ ليمسك باللحظة واللمحة والرجفة والموقف ، وسرعان ما تولد القصة ، أو الأقصوصة أو الخاطرة القصصية ، حبة من حبات العقد الذي يتجاور فيه الدر المنظوم ويتحاور .

أومن بقراءة الطالع ، وقراءة الكف ، وقراءة الوجوه ، والايماءات ، وطريقة المشي ، والنهوض ، والجلوس .

أومن بذلك ، وبكل ما يتشابه أو يتداخل مع ذلك ، إيمان من يوقن في أننا أكوان صغيرة ، يتضمنها كون أكبر متضمن هو الأخر في كون أكبر منه ، أكوان داخل أكوان ، وكلها مطبوعة بخاتم قانون عام يتكرر مصغرا إلى ما لا نهاية أو مكبرا إلى ما لا نهاية ، لكنه يظل في تناسخه الخارق يشير إلى وحدة خارقة .

هكذا أومن بقراءة الطالع ، وسمات الأبراج ، وأنظر بعين الاعتبار إلى ما يقوله الفلكيون حتي لو كان في قالب الابتذال الذي تعرضه أبو اب الحظ والبخت و النجوم في الصحف السيارة .

هـذا الحـس المرهـف لحركـة الوجـود وأصـداء الكـون ، للعـالم المنظـور والعـالم الـلا منظـور ، لمـا هـو فيزيقـي أو سـيكلوجي أو باراسـيكولوجي ، هـو الـذي أعطـي لقـصص محمـد المخزنجـي مـذاقها الخـاص المتميـز ، وجعـل لا نـسكابها في الـروح اثـرا باقيـا لا يـزول ، ومنحنـا ـ نحـن القـراء ـ مـساحات هائلـة مـن معـاودة الرؤيـة الكاشـفة ، بعـد نفـض الزيـف والـصدأ وتـراكم الأتربـة ، وجـلاء حاسـة الـسمع وحاسـة الـشم ، لنـسمع ونـشم ، ونعـانق ـ في فـرح ـ هـذه الحيـاة الـتي تفـور وتمـور ، وتهـدأ وتغلـي ، لكنهـا ـ في النهايـة ـ كنزنـا الـذي لا كنز سواه .

لعلنـا نـدرك الآن لمـاذا كـان الراحـل الجميـل عبـد الفتـاح الجمـل يـدور علـي النـاس في القـاهرة وهـو يحمـل بـين يديـه كتابـات محمـد المخزنجـي ـ قبـل ان تطبـع في أي كتـاب ـ يقرؤهـا علـيهم ، ويعرضـها علـي حواسـهم المرهفـة حينـا والمدببـة احيانـا في سـعادة مـن اكتـشف كنـزا فأحـب ان يـشرك في اكتـشافه غـيره مـن الأدبـاء والمبـدعين ، وقـرأ النـاس قـصصه وعرفوهـا قبـل ان يعرفـوه ، وقبـل أن ينتقـل مـن مدينتـه المنـصورة إلى عـالمهم في القـاهرة ، وقبـل أن ينشر سطرا واحدا في مجلة أو كتاب .

ولمـاذا كـان أمـير القـصة العربيـة يوسـف إدريـس يهـتم بمتابعـة مـا يكتبـه المخزنجـي ، والـسؤال عنـه ، والاشـادة بـنمط مغـاير في الكتابـة القـصصية ، لـه تفـرده وشخـصيته وعذوبته وأصالته .

يحكـي لنـا محمـد المخزنجـي ـ بكـل الـدفء والحنـو ـــ في ثنايـا قـصته العميـان حكايـة الـشجرة الـتي غنـت تحـت أشـجارها أم كلثـوم وشـدا الـسنباطي بـأول الحانـه في سـرادقات الطـرب الـتي كانـت تقـام في نطاقهـا وجلـس الـدكتور محمـد حـسين هيكـل في ظلـها يومـا وتأمـل النهـر والمدينـة وسماهـا بـاريس الـشرق وأنـشد علـي محمـود طـه قـصائده الأولـي في جلسة شـعراء المدينـة سـاعة العـصاري قـرب جـذعها ، وتوقـف ركـب عبـد النـاصر باشـارة منـه تحتهـا حيـث رفـع وجهـه المتهلـل إلى اغـصانها وحيـا الجمـوع الـتي احتـشدت بهـا الاغـصان يهتفـون باسمـه عنـدما زار المدينـة ويقـول بلغتـه المتدفقـة الآسـرة: ومـا مـن عاشـق صـغير إلا وحفـر علـي جـذعها اسمـه واسـم محبوبتـه في هـذا الرسـم الـشهير للقلـب المرشـوق بـسهم الحـب ومـا مـن صـبي تعلـم كتابـة اسمـه إلا وحـاول حفـره عليهـا عنـدما مـر بهـا ، وكانـت تـصعد ، تفسح مكانا لقلوب اخري وسهام حب اخري ، وأسماء ، وتصعد .

ولا تخلـع عـن لحائهـا رقـائق الـذكري ولا التـاريخ ابـدا ، وعلـي غـير عـادة الكـافور فهـي كـافورة وان حملـت في مظلـة أغـصانها الواسـعة مـن كـل الأشـجار ، حـتي لقـد قيـل ان هنـاك مـن طقـم فروعهـا بأغـصان مـن كـل أشـجار الـشوارع المـصرية فاحتملتهـا وأمـدتها بعـصارة الحيـاة طولهـا يتجـاوز أقـصي طـول للكـافور ، فهـي أعلـي مـن أعلـي فنـاطيس الحيـاة وأعلـي من عمـارة الـشاهقة وقمتهـا لا يـدركها الا بـصر مـن ينظـر إلى هـا مـن نهايـة شـارع الكـورنيش أمـا

جـذعها فقـد كفـاه بالكـاد فـصل كامـل مـن الأولاد كـانوا في رحلـة مدرسـية وراق لهـم ان يـشبكوا أياديهم معا حتي يحيطـوا بالـشجرة هائلـة الظـل حـتي يغطـي ظلـها عـرض الـشارع كلـه ويفـيض علـي الـضفة والحيـاة ، ودائمـة الخـضرة وإن تلونـت مـع المواسـم بـألوان مـن زهـور شـتي لعلـها ترجـع إلى مـا تستـضيفه مـن أغـصان ففـي بـواكير الربيـع تكـشف عـن زهـور الفتنـة الـتي تـشبه شموسا صغيرة عطـرة يطـوف بهـا نحـل العـسل الـبري ومـع الفتنـة تظهـر عناقيـد زهـور الـسرسوع ومـراوح زهـور ذقـن الباشـا والجكرانـدا البنفـسجية الهفهافـة بعـدها تـشتعل البانـسيانا الحمـراء البرتقاليـة وتزهـو المانوليـا البيـضاء يتـسلقها اللـبلاب وبهجـة الـصباح وتنبـت عنـد اقـدامها الراسـخة كـسبرة البئـر إلى انعـة الهـشة مـع ورقهـا العطـر تتـساقط عـبر المواسـم ، دون ان تفقـد خـضرتها أبـدا قـرون بـذر الـسنط وثمـار النبـق والتـوت والجميـز ، كـل في مواعيـده ، مـع أوراق صفصاف رقيقة ، وحور أبيض يشبه الكف واكاسيا منمنمة .

هـذه اللوحـة الرائعـة الجمـال ، سـرعان مـا تحملنـا إلى تراجيـديا مذبحـة هـذه الـشجرة ـ الـتي أكـاد أعرفهـا في مدينـة المنـصورة ـ والعمـال المـسكون بالمناشـير الكهربائيـة يقطعونهـا ويعزونهـا مـن اغـصانها ، والبلـدوزرات وهـي تزمجـر وتـشدها لتهـوي مهـشمة سـور الكـورنيش الحديـدي محطمـة بلاطـات الرصـيف الخرسـانية مفزعـة للطيـور الـتي اتخـذت منهـا علـي مـدي الـسنوات الطويلـة وطنـا ومـأوي الفـن الجميـل ، وحـده هـو القـادر علـي ان يـؤنس هـذه الـشجرة ويجعـل منهـا كائنـا حيـا يحـس ويتـألم ، ويعـاني ويكابـد ، وان يـضمن مـا ساتها مـن الرمـوز والـدلالات مـا يجعـل مـن يـوم ذبحهـا ـ علـي هـذه الـصورة ـ حـدثا يتوقـف عنده التاريخ !

ولقد أتيحت لمحمد المخزنجي لحظة نادرة في التاريخ ،

وهـو يـشهد مـن الـداخل انهيـار الاتحـاد الـسوفيتي ، عنـدما كـان مبعوثـا لدراسـة الطـب النفسي ، وفي كييـف عاصـمة جمهوريـة أوكرانيـا ، يتـاح لـه ان يـشهد مـا سـاة مفاعـل تـشيرنوبل ، وهـو لا يـزال يعـيش حلمـا انـسانيا جمـيلا ونبـيلا مرتبطـا ـ ولـو وهميـا بـالارض الـتي عـاش عليهـا ومـات فيهـا تورجنيـف ودوستويفـسكي وتـشيكوف وتولـستوي وليرمنتـوف ، الكتـاب الـذين سـحروا عمـر الـصبا في كيانـه الأدبـي ، لكنـه يكتـشف ويلمـس أطنانـا مـن الكـذب الاممـي ويعـاين أشـكالا شـتي مـن دنـاءات الرشـوة والفـساد ويقـترب كـثيرا مـن حـدود انكـسار القلـوب ، ويكتـب شـهادته الرائعـة عـن لحظـات غـرق جزيـرة الحـوت وعـن طـوابير موسـكو٩٠ يقـول محمـد المخزنجـي : كـان الطـب النفـسي الـذي اخـترت الدراسـة فيـه كنـزا حقيقـا ، اذ تخصـصت في مقاربتـه عـبر طرائـق الطـب البـديل ، ولعلـني أول طبيـب نفـسي عربـي يأخـذ هـذا الاتجـاه في الاتحـاد الـسوفيتي الـسابق ، ولقـد كـان ذلـك خليطـا بـاهرا مـن العلـم والفـن والحكنـة ابتـداء مـن العـلاج بـالوخز والـصوم والتنـويم والنباتـات والمعـادن والتأمـل

حتي التشخيص بقراءة الحدقات والفراسة التي أظن انني قدمت اقتراحا مهما لتحديثها وإن لم أكمله .

واصلت بعد تشيرنوبل التي بدت لي كأول صدع كبير يرصد في جدران البناء الهائل للاتحاد السوفيتي ومكست أشاهد الصدوع الأصغر والأخطر في هذا البنيان . كنت أعرف بيقين الحس ، ان الاتحاد السوفيتي مرشح للانهيار ، ولأسباب أبسط وأوضح من تلك التي ساقها ولا يزال المحللون السياسيون ومراكز الدراسات الاستراتيجية .

لقد انهار الاتحاد السوفيتي لسبب واحد يجمع كل الأسباب وهو: الكذب وسأظل اذكر ان احد المنشقين عندما سألوه عن سبب هروبه من الاتحاد السوفيتي قال: لقد اردت ان أهرب بأولادي من مصير الكذب لم أجد تعبيرا أدق من ذلك ولا ابلغ ولا أكثر ايلاما . لهذا لم أنسه ابدا .

لقد كان مصير الكذب مريرا جدا بالنسبة لي ، لا كشخص مفرد ، ولكن كنموذج من ملايين الحالمين الذين تطلعوا بعيون التمني إلى تلك الاسطورة المنبسطة في الشمال الشرقي من عالمهم الجنوبي البائس ولا أجد شعورا يقارب شعوري في ذلك إلا ما أتصوره من مشاعر السندباد البحري في إحدي حكايات ألف ليلة ، عندما تحطمت سفينته في عرض البحر وسبح إلى جزيرة رائعة تراءت له وبعد أن عاش هنيئا بين ربوعها بدأت في التحرك وراحت تغرق اذ كانت مجرد تكوين عارض علي ظهر حوت .

ثم يقول محمد المخزنجي: الاتحاد السوفيتي كان احتمالا لجزيرة إنسانية رائعة ، لكنها عارضة علي ظهر حوت من أكاذيب الادعاء ونقائص ايديولوجيا تزعم الاكتمال وصغائر نفوس قادة صغار لبلد كبير وعريق عراقة دوستويفسكي وتشيكوف وتورجنيف وبوشكين وتولستوي وجوركي في تشيرنوبل لمحت علامات التحرك الكبير للحوت الأسود ، ورأيت ارتجاج الجزيرة علي ظهره وفي موسكو٩٠ صار واضحا ان الجزيرة تغرق في بحر الظلمات الذي غاص في أعماقه الحوت ورغم يقيني في انه لا يصح الا الصحيح وان الكذب لا يعمر طويلا الا ان لحظات غرق هذه الجزيرة الحلم ـــ او وهم الحلم ـ قد أورثتني حزنا لا أظنه يقف عند حدود النصوص .

بهذه اللغة الدامية يكتب المخزنجي فصول تشرنوبل الأربعة ويسجل لحظات كاتب مصري عايش الكارثة .

اللغة نفسها التي تألقت تجلياتها في كتبه ومجموعاته: الآتي و رشق السكين و البستان وغيرها من الكتابات لغة شديدة الاقتصاد أبعد ما تكون عن الترهل والاطناب وعن السجع العقلي واللفظي ، اللغة التي دعا إلى ها ذات يوم المبدع العظيم يحيي حقي وعدها

علامة الصدق والعصرية - والابداع الحقيقي لا يمكنك ان تحذف كلمة من مكانها في عبارة ولا عبارة من مكانها في سياق ، يختل البناء المحكم كله ويتداعي ، إنها اللغة الشديدة الايجاز والتركيز ، الغنية بكيمياء الأدب وماء الشعر وحرارة التدفق ، اغتنت بالوعي النفسي العميق لمبدعها ، والكشف الروحي الذي يلازم فتوحاته ، والتداخل الوثيق بين المرئي والمتخيل ، الحقيقي المتوهم في نسيج من الجمال النادر المثال والمثال المبدع ينحت لوحاته ويرصعها بمغامراته مع اللغة التي تخدعنا بظاهرها المألوف وجلدها الاملس الناعم الذي تنزلق عليه المفردات ، وسرعان ما تأخذنا بجماع ما فيها من حميا وتوتر ، والنفس الجياش يعلو ويتصاعد ، والايقاع يتدافع ويتسارع والبهجة في انتظارنا علي مشارف العبارة واللوحة والاقصوصة .

منذ عام ١٩٨٥ ومحمد المخزنجي في اغتراف دائم بدأه بسنوات اربع فيما كان يسمي بالاتحاد السوفيتي دارسا ومتأملا وشاهدا علي السقوط والغرق والتحول ، ثم اعقبتها سنوات في الكويت عمل فيها محررا علميا في مجلة العربي وواحدا من أسرة تحريرها المثقلة بعبء اصدار مجلة ثقافية شهرية لها هذا الذيوع والحضور وهاهو ذا - في ختام المطاف - يعود إلى حضن الوطن ، متحففا من أعباء الغربة والوظيفة مضيفا إلى عمره من التجربة والوعي العميق بالحياة والناس والكون طبقات وفضاءات شاسعة ومتراكمة أكثر تفاؤلا ونحن معه - بأن القادم من ابداعه موجات جديدة في هذا النهر المتدفق بالصدق والعذوبة والجمال .

عبد الغفار مكاوي . . و . . ست دمعات على نفس عربية

بقلم: فاروق شوشة

حين قرأت هذا العنوان لا ول مرة قلت في نفسي: هذا عنوان يصلح لا حوال هذا الزمان . . وان كانت ست دمعات بل ألوف الدمعات لم تعد كافية لهذا البكاء الذي يحقق لصاحبه قدرا من الراحة والتطهير .

لكن عنوان الكتاب - الذي صدر منذ ثلاث عشرة سنة لصاحبه الدكتور عبد الغفار مكاوي - بكائيات: ست دمعات علي نفس عربية لا يزال دالا ومشعا بالمعاني والإيحاءات ، صالحا لزماننا ولكل الأزمنة . لا نه كشف عميق لطبقات النفس الإنسانية ، في ست لوحات قلمية بديعة تألق فيها الشعر والسرد والحوار والمونولوج الداخلي والتأمل الفلسفي والعاطفية الشجية ، لمبدع من أبرز أصحاب المواهب الفنية والفكرية النادرة في زماننا .

يتساءل عبد الغفار مكاوي في ختام صفحات كتابه :أتكون هذه البكائيات لونا جديدا من أدب الاعترافات وصورة مختلفة من صور السيرة الذاتية ؟ ويجيب: كل ما استطيع قوله هو أنها صور مقنعة أي ترتدي القناع في أشكال متعددة ، شاعرية - وروائية ودرامية ، غلب عليها طابع المفاجأة وأسلوب الحوار الذي تديره الذات مع ذاتها ، وربما أمكن أن يقال إنها أشكال مفتوحة أو علي طريق البحث عن شكل محدد ، ولهذا تتخفي وراء أقنعة تتكتم أكثر مما تفصح عنه .

و عبد الغفار مكاوي - هذا المتوهج بكيمياء الشعر حتي النخاع ، المتلئ بجدل المعرفة ودراما العقل البشري وتراجيديا أحزانه المتراكمة ، يبدو في هذا الكتاب الاعترافي شاهدا علي عصر من الغلظة والسوقية والفساد ، معالجا لروحه من أدواء هذا الزمان وعلله وموبقاته ، مدينا لما بلغه المثقف من وحشية وعنف وأنانية ، ورغبة في التحطيم والتدمير .

في مثل هذا العصر تغترب الأرواح النقية المرهفة ، وتجلد - في كل يوم - النفوس المحبة الطيبة ، وتتعري وجوه الناس - حتي الأصدقاء منهم - عن وحوش كاسرة تنتظر اللحظة المواتية للقفز والافتراس ، بينما ينهمك الجميع في إشاعة القبح ووأد الجمال . تري ، من بوسعه أن يطالع هذه الصفحات المتلئة بالبوح والافضاء والاعتراف ، التي تجاور مثيلاتها في الأدب العالمي ، من غيرأن تندي عيناه بالدموع ويشتعل وجدانه بالأسي الغاضب والشجن الأسيف والقلق الوجودي ؟ يقول عبد الغفار مكاوي:عشت - كما وصفتني دعابات الأصدقاء - حياة عنكبوت أو شرنقة تعمل في الظل والصمت والسكينة

. وكنت ـ كما وصفت نفسي ـ أشبه بيونس في بطن الحوت ولم يكن من قبيل المصادفة أن أكتب تحت هذا العنوان قصة قصيرة لا أعدها خير قصصي فتترجم إلى عدة لغات ، ويتكرم أحد المستشرقين بوضع بحث مطول عنها نعم ، عشت سنوات طويلة من عمري ، وكل ما أعرفه أني أموت .

مضغة تائهة في جوف حوت ، في عيني حزن مزمن ، علي وجهي شيخوخة مبكرة ، وفي عقلي وقلبي حكمة شرقية مميتة ، سنوات طويلة أعاني الحرمان والفقر والوحدة ، وأحاول أن أفلسفها ، وأجرب مصرع الأمل والحب وشوق الأنا إلى الأنت امام الأبواب والنوافذ الموصدة ، وألوذ بجزيرة النقاء والصفاء وسط الضجيج والوحل والضوضاء .

وأعناق الترفع والكبرياء واستنقذهما من مخالب الشراسة والنذالة والغدر والغلظة ، كمن يشد شعره لينتشل جسده ونفسه من المستنقع . وأعاين مصير الطيبة المطلقة وهي تدان وتتهم بأنها ضعف وذل وغفلة وهوان . وأسهر آلاف الليالي ، كما سهر فاوست في حجرة دروسه لا حصد المرارة والتجاهل والجحود ، وأدرك في النهاية صدق ما قاله له الشيطان: كئيبة مقفرة يا صديقي هي كل النظريات ، أما شجرة الحياة الذهبية فتبقي خضراء . وبينما المطلق يطبق قبضة علي الرقاب ، ويدق طبوله ويحشد جلاديه ودجاليه فيتحول التدين إلى التعصب والاشتراكية إلى الإرهاب ، والحرية إلى الفهلوة واللصوصية والثورة إلى الجريمة ، والعلم إلى التجارة ، و الارتزاق ، والفن إلى الفجاجة والابتذال ، والنفاق ، بينما المطلق ـ الطاغوت ـ يجوس خلال الديار كتمثال بارد أجوف علي قدمين من طين ، يتبجح بدعاويه ويبرر هزائمه ويفرخ مسوخ التسلط في كل مكان ، أجدني أكتب أعلم وأعمل في سبيل حيا بسيطة سوية ، حياة حرة ومعقولة وممكنة ، تصان فيها أوليات الإنسانية فلا تقمع ولا تهدر ولا تهان في سبيل مطلق مستحيل . وتمر السنوات وتسقط قيم تربي عليها جيلي ، وتبتلي بالاستبداد ـ وهو شر ما يبتلي به الإنسان في كل مكان وزمان ـ فتنقلب إلى الضد والنقيض ، وتنهش الكلاب لحم الشرفاء والطيبين ، وتخلو الساحة للاقيم التي وضعت نفسها في موضع القيم المطلقة: للانتهازية والشطارة والتضخم والنجومية والكذب والغدر والادعاء وسائر ما تفرخه حية الأنا المتسلطة التي أنكرت وجود الآخر ، وألغت حريته وسعادته وكرامته ربي ! كيف ترعرع في وادينا الطيب هذا العدد من السفلة والأوغاد ـ صلاح عبد الصبور في ليلي والمجنون وأيا كان تصورك لهذا الآخر علي أنه الوطن أو الجماعة أو المصير المشترك أو رفيق الحياة والموت ، فقد التهمته الحية الطاغية المتسلطة وراحت تصفر وتطير في كل الأجواء الخالية لدغني زملاء كنت أدخرهم للأيام الباقية من العمر ، وعضني تلاميذ وأبناء أعطيتهم تعب العمر ، كلانا ـ لوعلموا ـ زائل ، وسيبقي وطن صيرناه بأيدينا غابة غدر وجهنم قهر .

هـذا الـنص الـدامي مـن بـين صـفحات كتـاب بكائيـات: سـت ودمعـات علـي نفـس عربيـة للـشاعر والعـالم والروائـي وكاتـب المـسرح وأسـاتذ الفلـسفة والمترجـم الـدكتور عبـد الغفـار مكـاوي إدانـة للعـصر ودعـوة للبكـاء وحـض علـي رثـاء الـنفس . فقـد تتحـول دمـوع الـشعراء والأدباء إلى نـواقيس خطـر ، ويـصبح البكـاء نـدا لـلإرادة الفاعلـة ، كمـا تـصبح هـذه الـصفحات جزءا مـن وصـية إنـسان خـاب املـه وأمـل جيلـه ، يـضعها كمـا يقـول ـ بـين يـدي جيـل يحبـو الآن علـي الـدرب ، أو أجيـال لم تولـد بعـد ، وهـي في لوحاتهـا الـست: دمـوع علـي حـائط مبكـاي ، لـن أتحـدث يـا نفـسي إلى وم ، الكـابوس ، بكائيـة إلى صـلاح عبـد الـصبور ، أو فيليـا مـا ذا فعلـوا بـك ، دمـوع أوديـب ، دعـوة إلى تـذكيرنا ـ في مواجهـة رذائـل العـالم وسـوءاته ـ بأجمـل مـا فينـا وأنبلـه أشـرفه ، بقـيم الحـق والخـير والجمـال . بقـيم الـوعي والعلم والمعرفـة ، بقيم المحبـة والعـدل والتـسامح ، تلـك الـتي ظـل يـدعو لهـا ويبثهـا في ثنايـا كتاباتـه وترجماتـه الفلـسفية والجماليـة والإبداعيـة لا كثـر مـن أربعـين عـام ا متـصلة ، واحـد مـن مؤصـلي الـوعي والمعرفـة ورواد التنـوير وبـاعثي الهمـم والعـزائم ونـافخي النـار في العـروق ، خاصـة في كتابـه الموسـوعي عـن ثـورة الـشعر الحـديث وجهـوده في التوعيـة بالفلاسـفة العقلـيين مــن أمثــال أرسـطو وليبنتـز وكــانط وإبداعــه القصـصي والمـسرحي المهمــوم بمـشكلة الإنـسان في الوجــود وصـراعاته العقليـة والروحيــة والنفـسية ، وترجماتــه الــتي تعـد في جوهرهــا إبــداعا موازيـا للـنص الأصـلي ، يحققـه في لغتـه العربيـة ، خاصـة عنـدما يقـترب مـن ترجمـة الـشعر ، وينسكب شعر نفسه الصافي علي صفحات ترجماته .

الـشعر ـ في وجـدان عبـد الغفـار مكـاوي ـ جـوهره وحقيقتـه . فليفـصح عنهـا تـأملا فلـسفيا كاشـفا ، أو إبـداعا دراميـا ملتحمـا بجـدل العقـل والـنفس ، أو إبـداعا نقـديا يعيـد صـياغة الـنص الأدبـي ، ويتأمـل دروبـه ومنحنياتـه ويتوقـف عنـد قـضاياه ـ لكـن الـشعر يظـل فيـه بطانتـه وخلفيتـه الأساسـية ومتكـأه الوجـداني والـشعوري ، وجناحيـه المحلقـين الـضاربين في الفضاء البعيد اللا محدود .

يقول في دمعته الثانية: لن أتحدث يا نفسي إلى وم

ـ آه

ـ ما بك ؟

ـ ضاقت نفسي ، سئمت نفسي من نفسي

ـ نفسك تسمعك ـ تكلم !

ـ ما ذا يجدي أن أتكلم !

ماذا يبقي غير الصمت وماذا يبقي ؟

غرقت سفن الغرقي قبل الغرق

والطفل تمني لو لم يولد أبدا

والموت تسكع في الطرق
ينتظر البائس صوت البوق ويرنو للأفق
والطير الواجم شلته نذر الشفق
نعق البوم وفي عينيه ارتسمت أطلال الكون وفي الحدق
وتنهد من لا زالت فيه القدرة أن يتنهد والكل شقي
ـ ألهذا جئت ؟ ألا تندم ؟
ـ جئت أبثك أحزاني
وأريك عيون الجرح وألتمس البسلم
أتلقف منك الحكمة

وهي بكائية تجرف في طريقها وفي تيارها الهادر مراثي السابقين وبكائياتهم ، منذ حاكي الغربيون المحدثون في عصر النهضة أنواع الشعر القديم ، وأوزانه في الشعر إلى ونانى والروماني القديم في الشكل الثنائي للمرثية ، لا بأس إذن من التوقف عند مرثية في مقبرة ريفية لتوماس جراي وخواطر الليل ليونج ، وعبث الرغبات البشرية لصمويل جونسون ، وفي ذكراه لتنيسون ، وعندما تزدهر الزنابق في فناء الدار لويتمان ، ومرثية أودن في ذكري الشاعر الأيرلندي ييتس ، ومرثية شيللي الشهيرة أدونيس لصديقه كيتس ، ويائية الشاعر الجاهلي عبد يغوث بن وقاص الحارثي التي يقول في مستهلها .

ألا لا تلوماني كفي اللوم ما بيا
فما لكما في اللوم خير ولا ليا
ويائية ما لك بن الريب التميمي التي يستهلها بقوله :
ألا ليت شعري هل ابيتن ليلة
بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

وهي يائية من البحر الطويل تنظر لسابقتها ـ وزنا وقافية ولغة ومضمونا إنسانيا عن قريب ! .

لكن عبد الغفار يبلغ ذروة إبداعه في دمعته الرابعة من بين هذه الدمعات الست ويقترب من صديق عمره الأثير المبدع الكبير صلاح عبد الصبور في لوحته البديعة المؤثرة: نم بسلام وهو الذي كان علي موعد معه في يوم رحيله وتشييعه . لقد ظل صلاح ـ في رأي عبد الغفار ـ يقتل ـ بضم إلى اء – طوال العشرين سنة الأخيرة من حياته ، وظلت الفخاح تنصب له من جهلة إلى مين وأدعياء إلى سار في الجو الذي تعذب فيه جيلنا التعس فقدت هاتان الكلمتان معناهما كما فقدت كل القيم معانيها ويتساءل عبد الغفار مكاوي ـ في مرارة وأسي ـ:لماذا يقدر علي أفضل أبنائنا وإخوتنا ان يسقطوا ضحية الضني والقهر والتعذيب ؟ إلى متي نضن عليهم بالكلمة الطيبة طوال وجودهم معنا فلا نقولها ـ إن قيلت

علي الإطلاق - إلا بعد غيابهم عنا ؟ كيف نسترد المقدرة علي الحب والاحترام - علي الأقل - لمن هم أولي الناس أن نضعهم في حبات عيوننا وعقولنا ؟ إلى متي نظل أعدي أعداء أنفسنا ؟ وإلي متي نختنق بالصغار والأدعاء وتطاول بعضنا علي بعض ؟ وهل كتب علي الموهوبين أن يكونوا دائما ضحية الحطابين الفقراء من كل موهبة ؟ .

لقد كان صوت صلاح عبد الصبور ينزف وهو يردد: هل تتركني حشرات السلطات والشعارات لا تم اغنيتي ؟ عودوا للكل - لا نسانيتكم لوعيكم ، لعالمكم ، لحقيقتكم ، أنا شاعر المحبة أقول لكم وأتنبأ بالموت وأبشر بالميلاد ، قوموا ، احتجوا ، اختاروا وتحملوا مسئولية الاختيار . اهتزوا ، اقشعروا من فرقتكم وهوانكم ، افعلوا شيئا ، انفجروا أو موتوا ، أنا الشاعر: ضعيف ومعرض للخطر ، أقول كلمتي وأتحطم . أنا وقت مفقود بين الوقتين ، جسر مشدود بين الماضي والمستقبل ، أضنتني شهوة إصلاح العالم ، تمنيت أن أترك هذا العالم خيرا مما كان عليه قبل مجيئي ، لكن القدرة كانت محدودة ، والأيام ضنينة ، فاذكرني يا من تأتي بعدي ، واحفظ عهد الشعر وعاهدني ان نتسامح ونكافح .

يقول عبد الغفار مكاوي في وداع صلاح: نم بسلام يا شاهد عمري وضحيته ، يا جرح العمر وأمل العمر .

نم بسلام حتي نلقاك . نم بسلام .

الإنسان الإنسان عبر ، لم يمض وحيدا ، فسفينتنا عبرت معه للشط الآخر . حملت زاد الأحلام ، وبقية نار تخبو تحت رماد الأيام . ما ذا نملك بعدك إلا أن نتغطي بالآلام ، أن نسأل روحك: يا روح الشعر ، زوري أحبابك في ليل القهر ، جودي بالمعني والإلهام ، مطرا يروي هذا القفر ، الإنسان الإنسان عبر ، افترش الحصاء ونام ، وتغطي بالآلام ، فعليك سلام وعليك سلام .

ولقد رحل صلاح ، وبقي من بعده شعره ، وصورته الإنسانية الرائعة في نفوس من عرفوه ، وفي مقدمتهم صديق عمره عبد الغفار مكاوي الذي أبدع بقلمه - وهو يودعه - لوحة اللوحات وبكائية البكائيات ودمعة الدمعات ! .

أما أنت أيها المبدع الجميل عبد الغفار مكاوي ، فحسبك هذه المكانة الباذخة بين مبدعي عصرك ومثقفيه ، وهذا السمت النبيل بين الذين عرفوك فأحبوك ، وهذا الصبر الجميل الذي انتصرت به علي غلظة من حاربوك وسوقية من تصوروا أنفسهم أندادا لك وهم لا يساوون شسع نعلك ، ولا يستحقون بعض أحزانك التي منحتنا هذا الإبداع الجميل الباقي وهذا الفن الأصيل الراقي .

شكري عياد : شجاعة الإبداع

بقلم: فاروق شوشة

نمط صعب يستعصي علي التصنيف لم يتقيد بمذهب ، ولم يرتبط باتجاه معين ، ولا توسل بالأيديولوجيا لتكون طريقه إلى الزعامة ، شأن الذين رآهم وعرفهم من حوله من أجيال سابقة ولاحقة . ولو أنه أراد أن يكون زعيما أو رأس قبيلة من الأدباء والمثقفين لكان له ما أراد . فالرجل لا تنقصه الثقافة الواسعة ، العربية والأجنبية ، ولا ينقصه الوعي العميق والاستنارة الكاشفة ، ولا ينقصه الحس الذكي والنظرة اللماحة والوجدان الموهفف ، ولا تنقصه قبل دلك وبعده شروط القيادة والزعامة إرادة صلبة لا تلين ، وعزيمة كالفولاذ ، وعناد هائل يواجه به الأحداث والتحديات ، وسخرية نافذة شفافة ، تفلسف الأشياء وتردها إلى أصولها ، وتواجه الانكسارات وتستعلي عليها ، وتتركها ليكتوي بنيرانها الآخرون .

هكذا كان شكري عياد يستقبلك باشا متهللا ، كأنه نبع صاف رقراق ، تغمرك مودته وأبوته ودفء شخصيته وتواضعه ، فإذا غضب أو ثار لا مر قدمس كرامته أو كبرياءه ، استحال هدؤه ورقته إلى عنفوان ولينه وصفاؤه إلى ما يشبه البركان . لكنه في الحالين ـ يظل يذكرنا بالقيم النبيلة ، وفي مقدمتها الحرية والكرامة الإنسانية .

كان شكري عياد فنانا قبل أن يكون أستاذ أو باحثا وكان تكوينه الفني الإبداعي هو الذي ضمن له هذه الحركة الحرة بين مختلف المذاهب والتيارات والاتجاهات السياسية والفكرية والأدبية والنقدية يتعرف عليها ، ويدرسها ـ في مصادرها وعلي أيدي أعلامها ودعاتها الحقيقيين ـ ثم لا يقف منها كما كان يقف كثير غيره ، إما موقف المسارعة إلى التقبل والتأييد والدعوة والتبشير والتطبيق ، تأكيدا لتقدميتهم وعصريتهم وانفتاحهم علي كل ما هو جديد وسبقهم لغيرهم من المتخلفين والكسالي ، وإما موقف المسارعة إلى الرفض والعداء والاستنكار تأكيدا لحفاظهم علي هويتهم وموروثهم الثقافي والبعد عن الأنفلات والتأثير بما يسمونه ـ جهلا الغزو الثقافي . لم يكن شكري عياد من المسارعين إلى القبول أو الرفض ، لكنه كان يمتلك القدرة علي وضع كل جديد وقديم موضع المساءلة ، ورد الأمور إلى أصولها ، وعدم الانبهار بالصيحات الجديدة التي زلزلت أقدام كثيرين ورؤوسهم ، فمثله لا ينخدع ولاتنطلي عليه الدعاوي البراقة والافكار الزائفة . ولست انسي موقفه حين تصدي بعض من كانوا يترجمون ويكتبون دراسات عن البنيوية والتفكيكية وغيرهما من المذاهب النقدية في مجلةفصول وهم في معرض المباهاة والمخايلة .

فجبههم بأنه يعرف الاصول التي نقلوا وترجموا عنها ترجماتهم الركيكة المشوهة ، فهم ليحسنوا الفهم أولا ، ولم يحسنوا الترجمة ثانيا ، وليس لهم أسلوب في العربية يمكن قارئهم من قراءتهم وفهم ما يدعون إلى ه ، فهم محتاجون إلى من يعرب لهم كتاباتهم لتصبح عربية بالفعل ، ويحتاجون إلى ان يحسنوا النقل حينما ينقلون والترجمة حين يترجمون .

وحين كتب بعد هذا عن موقفه من البنيوية في بحثه الضافي المشهور ، لم يجرؤ دعاتها علي منازلته او محاولة الاشتباك معه ، فليس شكري عياد بالذي يمكن تنبيهه إلى مصادر فاتته ، او مراجع لم يطلع عليها او لغة اجنبية لم يتقنها ، او عبارة لم يحسن نقلها او ترجمتها ، ولا هو بالذي يلقي الكلام علي عواهنه دون تحقيق او تمحيص او تثبت ، ولاهو يقم نفسه في امر لم يحتشد له بكل ما يستطيعه من طاقة وجهد هذا التكوين الفني الابداعي في شكري عياد هو الذي سيوجه خطاه باحثا أكاديميا وروائيا وقصاصا ومترجما وشاعرا . عدته الاساسية ذائقة خبيرة مدربة ، علي درجة عالية من النضج والحسابية ، ووعي نادر باللغة علي مستوي المفردات والتراكيب والنصوص الابداعية ، تستوقف عروبة الكتابة ، دماء الشعر ، وحتميا التناول ، من هنا فإن كتاباته النقدية ــ مثلا ـ تستعصي علي التصنيف عند من يريدون ان يضعوها في سياق معهود ، تماما كما صنعوا مع الكتابات النقدية ليحيي حقي ، هل هي نقد تأثري أم انطباعي ام جمالي ؟ وهي هي نقد ام انطباعات ؟ وهل لها منهج محدد ؟ وإلي أية مدرسة ــ من مدارس النقد ــ تنتمي ؟ والوشائج عميقة بين الرجلين: يحيي حقي وشكري عياد ، في التكوين والملامح الادبية والجهد الابداعي والتواضع النبيل ، وايضا في رعاية الاجيال الجديدة وتعهد الاحداث الواعدة والتنفير من المذهبية والايديولوجياوالمناداة بشعار الفن الجميل والابتعاد عن الدعاية والبروباجندا والتركيز علي الجوهري والحقيقي . وقد كانت الفترة التي عملا فيها معا في مجلة المجلة: يحيي حقي رئيسا للتحرير وشكري عياد نائبا له ، فترة ثرية خصبة ، في عمر المجلة ، وفترة كاشفة بالنسبة للعديد من المواهب والأقلام الجديدة .

لكن شكري عياد ــ الفنان حتي النخاع ــ كان يضيق بقيد الوظيفة والالتزام بالعمل المحدد كما يضيق الطائر السجين بالقفص والقضبان . فحين تنكرت له الجامعة وضاقت به ــ لحريته وشجاعته والتزامه ــ أعطاها ظهره ، وخرج من مصر معارا إلى جامعة الخرطوم ثم إلى جامعة الرياض ــ ثم هو ــ آخر الأمر يستقيل من عمله في جامعة الرياض وجامعة القاهرة ، ليسترد حريته كاملة منذ عام ١٩٧٧ ويتفرغ للكتابة . حلمه أن يكون كاتبا ، محققا لصورة الكاتب كما تمثلها وجسدها وحلم بتحققها لدي غيره . وكثيرا ما كان يصرح لا صدقائه وتلامذته ومريديه ــ ممن اجتمعوا حوله في مشروعه

الثقافي مجلة نداء الذي رحل ثبل أن يحصل علي رخصة صدوره ـــ كان يصرح بأن هدفه من اصدار هذه المجلة ، بالجهد الذاتي ، بعيدا عن الدولة ومؤسساتها ألا تكون تابعة لحزب أو حكومة أو هيئة ، وليس علي من يكتب فيها رقيب أو سلطة إلا من ضميره والتزامه ، وأنه يريد بالكتابة فيها أن يعيد إلى الناس معني الكتابة وحقيقة الكاتببعد أن أصبح الذين يكتبون لا يعرفون معني الكتابة ولا يجيدونها ، وأصبحت كتاباتهم وسيلة انقطاع وانصراف عن القراءة ، لا وسيلة اتصال واغراء بالقراءة وحفز عليها ، وقد كان شكري عياد بما يمتلكه من مقومات اللكاتب قادرا علي أن يمتع قراءه علي صفحات مجلة الهلال وعلي صفحات كتبه الأكاديمية والابداعية ـــ في الرواية والقصة القصيرة والشعر والترجمة ـــ والذين أتيح لهم أن يقرأوا سيرته الذاتية وقصائده التي نشرها في مجلة إبداع ، يدركون حجم هذه النفس الانسانية العظيمة ، وروعة تجليات هذا القلم المبدع ، الذي تكشف بوحه وإخضاؤه عن شجاعة نادرة ، وقدرة فذة علي الاعتراف والمواجهة ، والإقدام علي تناول الجوانب والمواقف التي يخشي الاقتراب منها كثيرون ـــ ممن دونوا سيرتهم الذاتية بمستويات مختلفة من الصدق والصراحة والوضوح ـــ من أمثال طه حسين وسلامة موسي وأحمد أمين ولويس عوض ومحمود الربيعي ومحمد عناني . لم يتخف شكري عياد خلف قناع ، ولا تحدث عن الفتي بضمير الغائب ، ولا اصطنع من الحيل الفنية والفكرية ما يجعل من سيرته الذاتية درسا في التاريخ أو التحليل النفسي والاجتماعي . لكن شجاعة

الابداع التي جبل عليها ـــ في كل كتاباته ومواقفه ـــ جعلته لا يراوغ ولا يتخفي . انه يعيش علي الحافة ، ويمشي علي الشوك ، ويقول كلمته ورزقه علي الله ! ولم يكن أمر شكري عياد في شعره بعيدا عنه في سيرته الذاتية . فهذا المعمار الكلاسيكي الباذخ التي قامت عليه قصائده ، ينضح ويتوهج بأقباس روحه ـــ الشديدة العصرية والامتلاء بمشاعر الاغتراب والاستلاب والتوحد فضلا عن البوح والمكاشفة ونجاوي الذات . من هنا يصبح شعره فصلا من فصول سيرته الذاتية ، يضيئها ، ويسلط عليها أضواء كاشفة . وينبهنا إلى عظمة اللغة التي يمتلكها شكري عياد وإلي جمالها وجلالها في آن . وقد ينخدع البعض ـــ من أصحاب القراءة المتسرعة والبصر الزائغ ـــ فيظن أنها قصائد تقليدية ، في بحور خليلية ، وبعد شعري كلاسيكي ، وأنها محاكات لقصائد القدماء ، وان شكري عياد لم يكن جادا حين كتبها . والأمر علي النقيض من ذلك كله ، فالروح الشاعرة والوجدان الشاعر هما مفتاح الشخصية الأدبية لشكري عياد . وهو شاعر أيضا في مجموعاته القصصية الست : ميلاد جديد ـــ طريق الجامعة ـــ زوجتي الرقيقة الجميلة ـــ رباعيات ـــ حكايات الأقدمين ـــ كهف الأخيار ، التي نشرت أولها عام ١٩٥٨ وآخرها عام ١٩٨٥ . وحتي في اختياراته للترجمة : المقامر لدستويفسكي ، واعتراف منتصف

الليـل لـديهامل ورخـان لترجنيـف والبيـت والعـالم لطـاغور فانـه لم يبتعـد عـن الـشعر ، وظـل هـذا الـوتر الخفـي ينـبض ويـصدر اهتزازاتـه في ثنايـا ترجماتـه ، ويجعـل كـثيرا مـن صـفحاتها ومقطوعاتها ــ كمـا كـان الأمـر في ترجمـات يحيـي حقـي البديعـة ـ يتـوهج بمـاء الـشعر وكيميائـه وتوهجـه . بـل انـه في ترجمتـه لكتابـات فكريـة ونقديـة مثـل ملاحظـات نحـو تعريـف الثقافـة لا ليـوت والكاتـب وعالمـه لتـشارلز مورجـان ، ظـل وفيـا لهـذا الـنهج يـسكب فيـه علـي الترجمـة من فيض روحـه ، ومـن اشـعاعه الأدبـي ومـن وعيـه العميـق باللغـة ، مـا جعـل منهـا لوحـات فنية جديرة بالدراسة والتأمل والتقدير كانت وراء حصوله علي جائزة فيصل في الترجمة .

يقـول مـا هـر شـفيق فريـد عـن لغـة شـكري عيـاد في تقديمـه لمجموعتـه القصـصية رباعيـات: لغـة شـكري عيـاد تجمـع بـين الـصلابة والغنائيـة لغـة صـافية ، نقيـة ، جليـة ، شـفافة ، لا تـومـيء إلى ذاتهـا نرجـسيا ، وانمـا تـوميء إلى الموضـوع أو الكـائن أو الموصـوف . انظر مـثلا إلى وصـفه للـسمكة في حوضـها: لكـن هـذه الطويلـة الرشـيقة ، ربمـا كـان طولهـا أكثـر مـن ثلاثـة سـنتيمترات في عـرض نـصف سـنتيمتر ، بذيلـها الطويـل المـشقوق وخطوطهـا الزرقـاء المـستقيمة ، تبـدو جميلـة بـلا زهـور ، كأنهـا ذاهبـة إلى سـهرة ، في ثـوب مـن الـشيفون لا يخفـي محاسـن جـسمها الـبض . هـاهي ذي تـرقص ، تنزلـق في نعوسـة ، ترسـم أقواسـا ، تقـترب مـن الـسطح كأنهـا تقـصد شـيئا ، تفـر في دلال ، تهـوي إلى القـاع ، تـشعر بـالخطر فتنتقـل مبتعـدة ، سـعيدة هـي بجمالهـا ، برشـاقتها ، هـي أيـضا مكتفيـة بـذاتها ثـم يعلـق مـا هـر شـفيق فريـد ــ علـي هـذه الـسطور ــ بقولـه :هنـا يغـدو الكاتـب ذاتـه ــ اذا جـاز القـول ــ سمكة . يدخل في اهـاب هـذه الـشظية الـصغيرة مـن شـظايا الحيـاة علـي نحـو مـا كـان يفعـل د . ه . لـورنس ، شـاعر الحيوانـات والنبـات والطيـور لكـن هـذه الغنائيـة تكتـسب أبعـادا أغـني ، وترتمـي عليهـا ظـلال أقـتم ، حـين نـدرك أن الـسمكة انمـا تقـع تحـت البـاخرة المعتمة لشيخ منبوذ في شيخوخته ، ينتظر أن يمسح الموت آلامه وذنوبه .

ان الطاقـة الفنيـة الهائلـة والحـرة ، الكامنـة في أعمـاق شـكري عيـاد والـسارية في عروقـه وشـرايينه ، منـذ رسـالته الـشجاعة للماجـستير عـام ١٩٤٨ عـن وصـف يـوم الحـساب في القـرآن تحـت اشـراف شـيخه وأسـتاذه أمـين الخـولي ورسـالته المحتـشدة للـدكتوراه عـام ١٩٥٣ عـن الترجمـة العربيـة القديمـة لكتـاب الـشعر الأرسـطي وتأثيرهـا في البلاغـة العربيـة . وعـبر دراسـاته النقديـة في كتبـه الـشهيرة ، البطـل في الأدب والأسـاطير (١٩٥٩) ــ طـاغور شـاعر الحـب والـسلام (١٩٦١) – القـصة القـصيرة في مـصر: دراسـة في تأجيـل فـن أدبـي (١٩٦٨) –موسـيقي الـشعر العربـي (١٩٦٨) مـدخل إلى علـم الأسـلوب (١٩٨٣) – اتجاهـات البحـث الأسـلوبي (١٩٨٥) – دائـرة الإبـداع (١٩٨٦) بالاضـافة إلى كتبـه تجـارب في الأدب والنقـد (١٩٦٨) ـ الأدب في عـالم مـتغير (١٩٧١) ــ الرؤيـا المقيـدة (١٩٧٨) ــ وأنـا أنقـل عـن الـسيرة العلميـة الـتي أعـدها الـدكتور عبـد المـنعم تليمـة ــ هـذه

الطاقة الفنية الهائلة والحرة هي التي أضفت على هذه الدراسات روح الجدة والابتكار ، وجعلتها دائمة الحياة والتجدد ، قادرة علي خطاب المستقبل وتجاوز الأفق المحدود .
ان خير تحية لروح شكري عياد ــ ونحن في الذكري الأربعين لرحيله - هي في استعادة أصدقائه وتلاميذه ومريديه لهذا النمط الصعب الشجاع ، المستعصي علي القولبة والتصنيف ، المغالي في ايمانه بالحرية والكرامة الانسانية وفي العمل الدؤوب علي ملء الفراغ الذي تركه برحيله ، خاصة في مشروعه الثقافي الذي لم ير النور ــ الا في اعداده الثلاثة التجريبية ــ وهو مشروع مجلة نداء التي لم يكن يريدها لفكر معين أو تيارات بعينها أو مذهب يدعو له ويتبناه ، كان يريدها ساحة حرة تتلاقي علي صفحاتها الآراء والأفكار ، ويتعلم الناس من خلال معني الحوار الحر الخلاق ، وتولد علي يديها أقلام جديدة وأصوات جديدة ، تثري الساحة الأدبية والثقافية والفكرية ، وعندما كان يخوض معركته الأخيرة من أجل الحصول علي رخصة اصدارها كان قلبه ينزف وهو يري العقبات والمواقف المثبطة للهمم من عديد الأجهزة في طريق تحقيق مشروعه وحلمه وكان يتساءل في دهشة ناقمة : لست رجلا سياسيا ، ولا داعية حزبيا ، ولا منتميا لجماعة من الجماعات ، ولا صاحب ما ض مشبوه أو مستكره ، فلماذا أحارب في أمر ظاهره وباطنه الثقافة والابداع ، وجوهره بعث الحياة في الأنفاس الخامدة والأقلام الراكدة ومساءلة المفاهيم والقيم الأدبية والفكرية السائدة ؟

لم يكن شكري عياد لا حد أو لمؤسسة . كان للوطن كله بمعني التعدد والتكامل والتنوع والوحدة ، وكان للانسانية كلها بمعني التوجه الحضاري والحرص علي الانفتاح والعقلانية والتنوير ، وكان للابداع بمعني الأصالة والشجاعة والتجريب والمغامرة ، وكان للعلم ــ وللدرس الأدبي منه علي وجه الخصوص ــ بمعني المعلم والرائد والقدوة والنموذج .
لذا ، فلم يكن غريبا أن يلتقي علي احترامه واكباره وتقدير دوره إلى مين والوسط واليسار ، وان يري فيه الجميع ضميرا بالغ الصفاء والنقاء ، قاطعا كالسيف ، مهموما بجدل الفكرة والفكرة ، قلقا عند اصدار الحكم الذي ينتظره الآخرون ، لا نه لم يكن من أصحاب الرأي القاطع والحكم الباتر ، فهو يري في اللون الواحد أطيافه ودرجاته وتموجاته ، وتصقله الخبرة والحكمة فيقلب النظر طويلا قبل ان يتكلم ، وعندما يتكلم فانه ينقل ما يعانيه من جدل وصراع وقلق إلى قارئه .

أمثال شكري عياد يحيون فينا دوما بالكلمة والموقف .

ونذكرهم دوما كلما احتكمنا إلى الضمير الأدبي نسترشده ونستهديه ، ونفسح لهم من عقولنا وقلوبنا مساحة تليق بما كانوا ومازالوا يمثلونه من الحرية والكرامة الانسانية ويجسدونه من شجاعة الابداع .

جابر عصفور : وزمن الرواية

بقلم : فاروق شوشة

بكتابه هذا عن زمن الرواية يلقي الدكتور جابر عصفور حجرا في المستنقع ، عله ينجح في تحريك المجتمع الأدبي الراكد وتمزيق السكون الذي يشبه العدم . وهو يحتشد لفكرته ـــ التي انطلقت أول ما انطلقت علي صفحات مجلة فصول حين وصفت الزمن الذي نعيشه بأنه زمن الرواية ـــ يحتشد بالأدلة والقرائن والبراهين . وهو قادر علي هذا الأمر بما يمتلكه من طاقة ودأب ، لا يكتفي بترديد مقولة علي الراعي ـــ أكبر ناقد عربي منح جهده واهتمامه لفن الرواية والقصة ـــ عن أن الرواية قد أصبحت ديوان العرب المحدثين ، بل هو يعود بنا إلى نص قديم لا فت مضي عليه اكثر من نصف قرن ، كأنه نبوءة ، أطلقها عبقري الرواية العربية نجيب محفوظ عام ١٩٤٥ .

وكان نجيب محفوظ قد أطلق نبوءته في خضم الحملة الضارية التي شنها العقاد علي فن القصة ، بدأت بكلام للعقاد في كتابه في بيتي يقول فيه بتفضيل الشعر علي القصة ، وتدني القصة في المنزلة والمكانة عندما تقارن بالشعر ، وزاد فقال ان خمسين صفحة من القصة لا تعطيك المحصول الذي يعطيكه بيت كهذا البيت ! وتلفتت عيني ، فمذ خفيت .

عني الطلول تلفت القلب لا ن الأداة في البيت الشعري موجزة سريعة ، والمحصول سهب باق ، في حين أن القصة لا تصل إلى مثل هذا المحصول إلا بعد مرحلة طويلة في التمهيد والتشعيب ، وكأنها الخرنوب الذي زعم الرواة أنه قنطار خشب ودرهم حلاوة .

وكان طبيعيا أن يرد نجيب محفوظ ـ ابن الرابعة والثلاثين ـ علي هجوم العقاد الضاري فالأمر يخص القصة ، الفن الذي اختاره محفوظ الذي كتب حتي ذلك الحين مجموعته القصصية همس الجنون ورواياته : عبث الأقدار ورادوبيس وكفاح طيبة و القاهرة الجديدة . كان رد نجيب محفوظ ردا حضاريا ، يستقري طبيعة العصر ، ولغته ، وفنه ويقفز بوعية المتقدم إلى ادراك الافق القادم الذي سيتكشف عنه عصر العلم والصناعة والحقائق حين يقول : لقد ساد الشعر في عصور الفطرة والأساطير ، أما هذا العصر : عصر العلم والصناعة والحقائق ، فيحتاج حتما لفن جديد ، يوفق علي قدر الطاقة بين شغف الإنسان الحديث بالحقائق وحنانه القديم إلى الخيال .

وقد وجد العصر بغيته في القصة ، فإذا تأخر الشعر عنها في مجال الانتشار ، فليس لا نه ارقي من حيث الزمن ، ولكن لا نه تنقصه بعض العناصر التي تجعله موائما للعصر ، فالقصة علي هذا الرأي هي شعر الدنيا الحديثة .

لا يفوت جابر عصفور بالطبع ان يشير إلى أن نجيب محفوظ صاحب هذا القول اللافت ، هو نفسه الذي انتزع جائزة نوبل ـ بعد ثلاث واربعين سنة من نشر مقالته في مجلة الرسالة القاهرية ـ في الثالث من سبتمبر سنة١٩٤٥ وأنه الشاب الذي وهب حياته الإبداعية للفن ، الذي أخذ يحتل شيئا فشيئا ، موضع الصدارة من خارطة الكتابة العربية . ثم لا يفوته ـــ قبل ذلك وبعده ـــ أن يؤكد أن الرواية العربية ـــ منذ بداياتها الأولي ـــ تسعي في إصرار لا يلين إلى أن تكون مرآة المجتمع المدني الصاعد وسلاحه الإبداعي ، وتجسيدا لعقلانية الاستنارة التي انبني عليها مشروع النهضة .

ولم يكن حدث نوبل هو وحده المسئول عن شيوع هذه الدعوي علي ألسنة النقاد والدارسين ، بالنسبة لديوان العرب في العصر الحديث أو بالنسبة لزمن الرواية . صحيح أن نوبل نجيب محفوظ قد وضعت فن الرواية العربية في دائرة اهتمام عالمي لم تتح لها من قبل علي الإطلاق ، وجذبت الانظار بشدة إلى نجيب محفوظ وغيره من المبدعين . وترتب علي هذا الاهتمام حركة ترجمة نشيطة وواسعة للرواية العربية إلى للغات العالمية ، وفي مقدمتها بالطبع روايات نجيب محفوظ التي تعدي مكانها رفوف بيع الكتب في العواصم والحواضر الاوروبية والامريكية ، لتصبح أفلاما سينمائية في بعض بلاد أمريكا اللاتينية ، ولتجاورها في هذه المكتبات روايات لعدد من المبدعين الروائيين المصريين والعرب من جيلي الستينيات والسبعينيات علي وجه الخصوص . صحيح ذلك كله ، وصحيح أيضا أن الرواية فن أكثر قدرة علي التقاط الجزئيات والتفاصيل ، وتجسيد الشخصيات والنماذج والمواقف والاتساع لحركة الحياة المتوترة المعقدة وحمل العديد من المشكلات النفسية والاجتماعية والسياسية والحضارية ، واتساعها للتسجيل والتوثيق ، ولأشكاله من الكتابة والسرد لم يكن يظن أن لها علاقة بفن القص ، وامتلاؤها بشعر الحياة والوجود الذي يشعل فيها الحرارة والتوهج والنبض الحار المنوتر ، وخروجها في تجلياتها الإبداعية الأخيرة علي كل الأنماط المألوفة للرواية ، والأشكال السائدة من قبل ، بحيث أصبح تعريف الرواية أو محاولة تمييزها عن غيرها من سرديات الكتابة أو أجناس الأدب وأنواعه أمرا شديد الصعوبة .

وصحيح أيضا أن العقود الثلاثة الأخيرة قد شهدت حركة إبداعية روائية نشيطة علي مستوي الوطن العربي ، التمعت من خلالها أسماء كبيرة حققت إنجازها النوعي والكمي اللافت ، ولم يعد الإبداع الروائي مقصورا علي الحواضر العربية التقليدية في مجال الكتابة ، وإنما انطلقت شرارته ـــ علي أيدي كتاب ليبيين ويمنيين وسعوديين

أصبحوا يزاحمون بمواهبهم الكبري وإنجازاتهم الباهرة غيرهم من روائيي مصر وسوريا والمغرب والجزائر والعراق !

صحيح هذا كله . لكن الصحيح أيضا أن حركة ال ؟ الشعري لم تتوقف . وأن هذه العقود الثلاثة الأخيرة ـــ التي شهدت ازدهار فن الرواية بتنويعاتها المختلفة ـــ قد شهدت زيضا أسماء شعرية كبري ، انتشرت أعمالها ، وحقق بعضها ملايين النسخ ، في عديد من الطبعات ، التي تعني ـــ من خلال استنتاج بديهي بسيط ـــ أن ثمة جمهورا للشعر . ، وأن هذا الجمهور لا يزال يفوق بكثير الجمهور القارىء للرواية ، أية رواية لا ي روائي علي الإطلاق !

لكن الأمر يتطلب توضيحا لعدة أمور تتطلب قدرا من المصارحة : أولها : أن كثيرا من رواد الشعر الجديد ورموزه قد رحلوا عن الساحة الأدبية خلال هذه العقود الثلاثة ، كان آخرهم البياتي منذ أسابيع قليلة وقبله كان صلاح عبد الصبور وخليل حاوي وأمل دنقل وبلند الحيدري ونزار قباني وغيرهم .

وأن أجيال الشعراء ـــ خلال هذه العقود الثلاثة ـــ قد شغل بعضهم ـــ غفلة منهم وخيبة ـــ بالمعارك الضارية فيما بينهم ، وتبادل عدم الاعتراف بين جيل وآخر ، بأكثر من انشغالهم بتجويد فنهم الشعري ، واقتحام آفاق إبداعية جديدة ، وعدم قطع الشعرة الباقية التي تربطهم بقرائهم . وبالمقابل فإنا لم نسمع أبدا عن جيل من مبدعي الرواية يعلن عدم اعترافه بجيل يسبقه ، ولا عن نفي يقوم به روائي لا خر ، وظلت هذه الغفلة وهذا الارتباك المخجل مقصورين علي الشعراء وحدهم .

ثانيها : أن ازدهار الابداع الروائي واكبه اكتمال حركة الشعر الجديد ووصولها – علي أيدي روادها ـــ إلى ما يشبه الخط الاخير ـــ ولم يكن ميلاد قصيدة النثر علي أيدي شعرائها الكبار ومبدعيها الحقيقيين إلا محاولة لتجاوز هذا الأفق الذي توقفت عنده قصيدة الشعر الجديد ، بل لقد جاء استنبات النموذج الغربي لقصيدة النثر ـــ في بيئة إبداعية عربية – محاولة للتجريب والمغامرة ، والخروج من أسن التكرار وسيطرة النموذج السائد .

وأصبحت الصورة علي الوجه التالي : إبداع روائي يتفجر وتتعدد دوائره وموجاته وتنويعاته ، وإبداع شعري يشارف الحافة ، ويتململ من أجل شق قنوات جديدة واقتحام فضاءات غير مطروقة ، ويفسده بعض المنتسبين إلى ه بالمعارك المفتعلة والخصومات الخائبة وعبادة النموذج الواحد !

ثالثها : الضعف السائد والمتفشي في مستوي إتقان اللغة العربية عند الأجيال الجديدة من المتعلمين ، وفي مقدمتهم خريجو الجامعات الذين سيصبح بعضهم مدرسين

ومعلمين لهذه اللغة . وقد آن الاعتراف بأن هبوط مستوي اللغة العربية ـــ تعليما وتمثلا وإنتماء ـــ هو إحدي النتائج السلبية لثورة يوليو التي جعلت من العامية لغة الخطاب العام في المجتمع ، الخطاب السياسي والاجتماعي والثقافي ، فما حاجة الناس إذن إلى أن يرهقوا أنفسهم بتعلم الفصحي ، بينما العامية تقوم بكل شئون الحياة وتؤديها – رسمية – وشعبية – علي خير وجه ؟

هذا الضعف السائد والمتزايد في مستوي إتقان العربية سهل اختراق فن الرواية وباعد بين الأجيال الجديدة والإبداع الشعري الذي هو في الأساس فن لغوي ، يتطلب قدرة عالية تساعد علي التذوق والتعامل مع أسرار النص الشعري ، في بنيته اللغوية والمجازية ، وهو ما لا يستطيعه أصحاب اللغة المهشمة من الطلاب والأساتذة علي السواء ، إن لم يكن أساتذتهم أسوأ بكثير !

رابعها : أن امتلاء الرواية العربية ـــ في كثير من نماذجها الباهرة ، بروح الشعر وتوهجه ـــ علي مستوي السرد والتحليل والمونولوج الداخلي والحلم والاستبطان والتأمل ـــ قد جذب كثيرين إلى ساحة الرواية ممن يبحثون عن الشعر الصافي المقطر ، في درجة عالية من تجلياته الإبداعية ، وهو يسري في عروق .

الموقف وشرايين الشخصية ومدارات النجوي وفضاءات الاستشراف ، ويعادل بالايقاع الجياش ، والنبض المتوثر والتناول الساخن جدلية الرؤية وتداخل الدوائر والمسارات . فضلا عن الاستخدام الدرامي للرواية في العديد من المسلسلات والأفلام الجماهيرية الذيوع والانتشار . والدكتور جابر عصفور ـ في كتابه الجديد : زمن الرواية الذي صدر أخيرا ضمن مطبوعات مكتبة الأسرة ـ علي وعي بهذا كله . وأغلب الظن أنه لم يقصد بزمن الرواية زمنا ممتدا ـ قائما في الحاضر والمستقبل ـ بقدر ما قصد زمنا راهنا يشهد فعل الطفرة والتغير ـ والواقع أنه بهذا العنوان يشاكس شعراء هذه الأيام ـ الذين لم تعد تفيد معهم حتي المشاكسة ـ لعلهم يلتفتون إلى المعني والدلالة ، ويتقدمون إلى قدر أكبر من المراجعة والتأمل ، ويضفرون ـ بينهم وبين قرائهم ـ حبالا من الجدة والمغامرة والإدهاش والتجريب الذي يغاير دون أن يقطع ، ويتجاوز دون أن ينبت ، ويثري دون أن يوقع في الفوضي والعبثية والإرباك . وعلي هذا الأساس لا يكون التأكيد علي زمن الرواية نفيا لزمن الشعر بل استدعاء له وتحرشا لا صحابه ، خاصة أن زمن الشعر ـ بمعانيه الكلاسيكية ـ ظل الزمن الراسخ والمستبد في مسيرة الإبداع العربي ، وآن الآوان لبزوغ زمن آخر ، يجاوره ويحاذيه ، وقد يبدو أحيانا وكأنه في مقدمة المشهد ، لكنه لا ينفي زمن الشعر ولا يلغيه .

ثم إن هناك من النقاد من يختلفون مع الدكتور جابر عصفور في القول بزمن الرواية . ويرون ـ ومن بينهم الدكتور صبري حافظ ـ أن الحكم بزمن الرواية حكم بلا مرجعية إذ لا

بـد أن يـستند إلى دراسـات نقديـة وأدبيـة ، وأبحـاث منهجيـة . تنـصب علـي واقـع الروايـة العربيـة ، وتعـرض لهـا فنيـا وجماهيريـا ، وتكـون قياسـاتها قائمـة علـي البحـث الموضـوعي في الظـاهرة ، والاسـتبيان الحقيقـي في الميـدان ، قبـل التوصـل إلى الحكـم الـذي قطـع بـه جـابر عصفور ، وجعله عنوانا لكتابه .

وبـالرغم مـن هـذا الاعـتراض النقـدي ـ الـذي لـه أيـضا وجاهتـه ومنطقـه ـ إلا أن الـدكتور جـابر عـصفور في احتـشاده لموضـوعه بنـاه علـي قاعـدة بحثيـة تـستقرىء عـصر الروايـة قبـل الوصـول إلى زمـن الروايـة مـن خـلال وعـي يتأمـل علاقـة فـن الروايـة بالطبقـة الوسـطي ـ في العـالم ولـدينا ـ وكيـف أنهـا ملحمـة هـذه الطبقـة ، فـضلا عـن تجـسيدها لعقلانيـة الاسـتنارة الـتي انـبني عليهـا مـشروع النهـضة . وهـو يقـيس هـذا المـدي الإبـداعي بالرحلـة مـا بـين ثلاثيـة نجيـب محفـوظ إلى خماسية عبـد الـرحمن منيـف مـدن الملـح ، وهـي الرحلـة مـا بـين تحـولات المدينـة النهريـة الكـبيرة الـتي بـدأ تاريخهـا ـ في الروايـة ـ بـالتمرد علـي الاسـتعمار القـديم (الانجليـزي في ثـورة١٩١٩) إلى ولادة المدينـة النفطيـة الجديـدة في الـصحراء . بكـل مـا تمثلـه الرحلـة مـن هـاجس التغـيير في علاقتـه بملحمـة البحـث عـن الهويـة . وهـو هنـا يطبـق رؤيتـه الحداثيــة دون أن يــشغل قارئــه بالأفكــار والنظريــات وحــديث المراجــع والمــصادر ، وأسمــاء الأعـلام: مـؤلفين ومترجمـين . إن الفكـر الحـداثي يـصبح لديـه ضـوء كاشـفا وشـعاعا هاديـا مـن السهل تتبع دوائره ومنطلقاتـه وآفاقـه . وهـو بهـذا قـد نجـا مـن الـشرك الـذي يقـع فيـه الـبعض ممـن يتبـاهون بلـوك مفـاهيم حداثيـة ثـم تقـصر بهـم همهـم ومـواهبهم وأدواتهـم عـن تحويلـها إلى نـسغ حـي يجـري في عـروق كتابـاتهم ويحررهـا مـن سـطوة التقليـد والاتبـاع . وهـذا هـو الـسبب في أن كتـاب الروايـة ـ الـذي هـو في حقيقتـه مجموعـة مقـالات تم نـشرها مـن قبـل لكـن صـاحبها كـان يكتبهـا وفي ذهنـه التخطـيط لكتـاب قـادم ـ هـذا الكتـاب هـو مـن أكثـر كتـب جـابر عـصفور سلاسـة ووضـوحا وإشـراقا ، فـضلا عـن اسـتناده ـ في مقولاتـه الـتي يطرحهـا ـ إلى بنـاء منطقـي متصاعد ، وخبرة واسعة بفضاء الرواية العربية والعالمية .

ولـن تهـدأ الـبحيرة الـساكنة بعـد الحجـر الـذي ألقـاه جـابر عـصفور ، ولـن يـسكت المجتمـع الراكـد عـن ردود الفعـل الـتي بـدأت ولـن تتوقـف ، وأغلـب الظـن أنـه بإعلانـه عـن زمـن الروايـة لـن يرضـي بعـض الـروائيين الـذين يـصنفونه عـدوا لهـم وحربـا علـيهم بغـض النظـر عما يقول ، كمـا أنـه بـالطبع أنـه لـن يرضـي الـشعراء الـذين يعدونـه خارجـا علـيهم ، بعـد أن اختـار خنـدق والروايـة الـروائيين ، لكنـه ـ في نهايـة الأمـر ـ قـادر علـي خـصومة هـؤلاء وهـؤلاء حتي لو اجتمع عليه الأضداد واكتمل شمل المتنافرين والمتنابذين !

صلاح زكي

بقلم : فاروق شوشة

لا أظن أن أحدا من الاعلاميين المصريين قد حظي في زماننا بمثل ما حظي به صلاح زكي من محبة وتقدير . ولم تكن هذه المحبة ولا ذلك التقدير حصيلة لرحلة حياة طويلة مع العمل الاعلامي في شتي جوانبه ولا نتيجة لما قدمه من جهد متميز وعطاء موفور ، وإنما كانا من صاحبين له منذ بداياته الأولي التي تعود إلى منتصف هذا القرن عندما التحق بالاذاعة عام ١٩٥٠ مذيعا ومقدما للبرامج . كانت شخصية صلاح زكي المتفتحة ومكوناته الأصلية فيه من ثقافة وبساطة وتواضع ، وسلوكه المتحضر الذي يعطي الآخرين حقهم من الفهم والتعبير وحتي الاختلاف ـ كان ذلك كله وراء محبة الناس وتقديرهم له ، بدءا برؤسائه وزملائه وانتهاء بتلاميذه وأصدقائه ومعارفه .

ولقد أتيح لي أن أتعرف علي صلاح زكي منذ إلى وم الأول لا لتحاقي بالعمل الاذاعي في سبتمبر عام ١٩٥٨ مذيعا ومقدما للبرامج في إذاعة البرنامج العام وكان هو وقتها يشغل منصب المذيع الأول الذي يتولي إدارة قسم المذيعين في غيبة رئيسه كبير المذيعين حسني الحديدي . وسرعان ما التففنا ـ نحن المذيعين الجدد ـ من حول صلاح زكي بعد أن اكتشفنا بشاشته وسماحته وما في شخصيته من ألفة وبساطة ، في مقابل شخصية حسني الحديدي التي كانت تتميز بالصرامة والانضباط الشديد والدقة التي لا تسمح بأدني تهاون أو تقصير مهما كانت الأسباب .

واكتشفنا ـ علي الفور ـ أن كلا منهما يمثل نموذجا مختلفا في التعامل مع الآخرين عموما ومعنا ـ نحن الصغار ـ بصفة خاصة . ولما بدأنا نميز ونقارن بين الأساليب المختلفة في الأداء الاذاعي لكبار مذيعي ذلك الزمان : جلال معوض وفاروق خورشيد ونبيل بدر وأحمد فراج ومعهم بالطبع حسني الحديدي وصلاح زكي اكتشفنا سريعا ما يتميز به صوت صلاح زكي من بشاشة وإشراق ووضوح وما يتميز به اداؤه ـ في نشرات الأخبار والمواد السياسية ـ من حيادية وثقة وتمكن واستقرار . لم يكن أداء جهما أو غليظا ، ولا كان أداء انفعاليا أو عاطفيا مسرفا في الحماس . كان الأداء المتسم ـ دائما ـ بالهدوء والاتزان ، الذي يوحي لمن يسمعه بالصدق والألفة . ولم نكن محتاجين إلى جهد كبير لندرك أن المدرسة التي ينتمي إلى ها صلاح زكي مختلفة ، وأن شخصيته بدورها مختلفة وأننا نحن المذيعين الجدد ـ لا يمكننا أن نغضب منه أو نسيء فهم تصرفاته مهما كانت الأسباب . ما زلت أذكر ـ علي سبيل المثال ـ إلى وم الذي فوجئت فيه أنا وزميلتي في الدفعة المذيعة نجاة السنباري ـ التي تركت الاذاعة مبكرا وأصبحت الآن أستاذة جامعية

مرموقة في واحدة من كبري الجامعات الأمريكية - برفع اسمينا من بين الأوقاس في جدول المذيعين - وكانت هذه الأقواس تعني أننا لا نزال تحت التمرين - فلما سألنا عن السبب في عدم وجود اسمينا قيل لنا إن صلاح زكي هو الذي فعل هذا بعد أن رشحنا للعمل - كمذيعي إعلانات - في إذاعة الشعب التي كانت قد بدأت في ذلك الحين ، كانت الصدمة شديدة وقاسية ، كيف نتحول هكذا - وبقرار مباغت - من مذيعين يحلمان بمستقبل عريض في العمل الاذاعي إلى مجرد صوتين يرتبطان بالاعلان عن السلع والمنتجات والمنظفات المنزلية . ثم لماذا نحن - أنا ونجاة - من بين زميلاتنا وزملائنا في الدفعة التي كانت تضم من الراحلين الأعزاء جمالات الزيادي وصبري سلامة و عبد العال هنيدي ومن الباقين الأعزاء - أطال الله بقاءهما - حسين شاش وجمال توكل . ولم ينقذنا من تنفيذ هذا القرار إلا غضب حسني الحديدي وثورته العنيفة : كيف يتخذ قرار كهذا في غيبته ودون علمه وهو كبير المذيعين ؟ ثم كيف تجرؤ الاذاعة علي التفكير في إسناد مثل هذا العمل - الاعلان عن البضائع والمنتجات والسلع - للمذيعين وهناك عشرات الأصوات من الممثلين وغيرهم يمكن أن يسند إلى ها ، وقد كانت الاذاعة لا تزال تتحسس طريقها للبدء في إدخال الاعلانات التي بدأت أول الأمر في إذاعة الشعب ثم في إذاعة الشرق الأوسط ثم في غيرهما من الاذاعات . وأنقذتنا - أنا ونجاة - الغيرة الشديدة التي كان يتميز بها حسني الحديدي علي المذيعين التابعين له ، وتصديه المستميت لا ي سوء أو أذي يمكن أن يلحق بهم وحرصه علي تأكيد كرامة المذيع واعتزازه بعمله ، دون أن يتعارض هذا بالطبع مع قسوته - هو شخصيا - في محاسبة المذيعين إذا قصروا .

لا أظن أنني ونجاة السنباري قد حملنا أية ضغينة أو كراهية لصلاح زكي الذي اتخذ ضدنا هذا القرار . الغريب أن محبتنا له وتقديرنا لشخصيته ومكانته لم تشبه شائبة . بل لقد تملكنا حزن شديد حين نقل صلاح زكي بعد ذلك بفترة قصيرة للعمل بالتليفزيون ضمن الكوكبة الأولي من الاذاعيين الذين أسهموا في إقامة هذا الصرح والمشاركة في انطلاقه لا ول مرة في يوليو١٩٦٠ : عبد الحميد يونس ومحمد محمود شعبان (بابا شارو) وسعد لبيب وعباس أحمد وسيمرة الكيلاني ثم همت مصطفي ، وكانت علي أيديهم اللحظة الأولي لميلاد التليفزيون المصري . وسبق هذا الانتقال سفر صلاح زكي والاذاعية الكبيرة أميمة عبد العزيز للعمل في اذاعة موسكو العربية في أول بادرة للتعامل بين إذاعتي موسكو ومصر في ختام الخمسينيات وفي التليفزيون تتألق مواهب صلاح زكي وتزدهر ، فهو قارئ النشرة الراسخ المتمكن الهادئء الملامح الواضح النبرات وهو المدير العام للتنفيذ المسئول عن المذيعين يختارهم ويدربهم ويعدهم لما هم مقبلون عليه من عمل ومسءوليات ، وهو صاحب الخبرة العميقة في هذا المجال عندما كان يمارس الدور نفسه في الاذاعة ، مذيعا أول ثم كبيرا للمذيعين في عام ١٩٥٩ قبل أن ينتقل إلى التليفزيون

بشهور قليلة . وسرعان ما يصبح صلاح زكي - بكفاءته وخبراته وتألقه رئيسا للقناة الأولي في عام ١٩٦٣ ثم مديرا للأخبار والبرامج الاخبارية عام ١٩٦٦ . ولم يعد ممكنا تصور التليفزيون المصري ولاشاشته الصغيرة بدون لمسات صلاح زكي وتوجيهاته المستمرة - هو ومن معه من الكوكبة الاذاعية الرائدة التي سينسحب منها مبكرا محمد محمود شعبان (بابا شارو) عائدا إلى بيته الأول الاذاعة - لخلاف بينه وبين الوزير المسئول علي المستوي والتوقيتات وأسلوب العمل المطلوب .

وأصبح واضحا أن الشخصية الثقافية والسياسية والفنية لصلاح زكي - التي أحسن صنعها في الأربعينيات والخمسينيات قد جعلته صاحب فكر ورأي وموقف . كان صلاح قبل التحاقه بالاذاعة قد ما رس العمل الصحفي في مؤسسة أخبار إلى وم عام ١٩٤٧ وهو لا يزال طالبا في كلية الحقوق بجامعة القاهرة قبل ان يتخرج فيها عام ١٩٤٩ ، وأصبح عضوا في نقابة المحامين منذ ذلك العام . وأهلته هذه الدراسة القانونية وثقافته العامة وإيمانه بمفاهيم العدالة الاجتماعية والوعي بمشكلات المجتمع المصري في حقيقته الاقطاعية والطبقية- قبل يوليو١٩٥٢ - إلى تبني الفكر إلى ساري واحتضان المفاهيم التقدمية باعتبارها الحل الأمثل لما يواجهه الوطن من تحديات . والطريف في هذا المجال أن نجد مفكرا وكاتبا يساريا كبيرا هو الأستاذ لطفي الخولي يعترف بعد هذا التاريخ بسنوات طويلة بأن صلاح زكي هو الذي عرفه علي إلى سار المصري وأنه هو الذي أخذ به إلى التنظيمات القائمة في ذلك الحين والتي لم يكن لطفي الخولي نفسه - الذي سيصبح قطبا من أقطابها - يعرف عنها شيئا .

وربما أوضحت هذه المفارقة عمق اتصال صلاح زكي بهذا الفكر الذي سيتشرب منه أصفي ما فيه ، وهو فكرة العدل الاجتماعي ، والنظرة الجدلية للقضايا والأمور ، والادراك الواعي للصراع الطبقي وحركة التاريخ من غير أن ينغمس في تنظيماته وحركته السياسية المباشرة . ولقد انعكس هذا الانتماء المبكر علي شخصية صلاح زكي الذي كان واضح الاهتمام بالمعرفة ومتابعة الجديد خاصة في المجالين السياسي والاقتصادي .

كما كان هذا الانتماء إلى ساري المبكر وراء حماس صلاح زكي الشديد لثورة يوليو وإيمانه بقيادتها التاريخية المتمثلة في الزعيم جمال عبد الناصر ، هذا الإيمان العملي الذي سيؤدي به إلى عضوية المؤتمر الوطني للقوي الشعبية عام ١٩٦١ ، وإلي أن يكون أمينا للاتحاد الاشتراكي بالاذاعة والتليفزيون وعضوا في مجلس محافظة القاهرة وعضوا في اتحاد الصحفيين . كما أن العمل السياسي والاجتماعي سوف يدفع به في مقبل الأيام حين تطيح به - كما أطاحت بالعديد من زملائه ورفاقه - الأحداث التي سميت بمعركة مراكز القوي في عهد الرئيس أنور السادات ، باعتباره واحدا من غلات الناصريين والمدافعين عن حقبته التاريخية والسياسية ، سوف يدفع به هذا إلى مواصلة نضاله

وتحديه لكل الظروف السلبية والتي قد تدفع باليأس إلى صدور غيره ، أما هو - صلاح زكي - المقاتل العنيد ، صاحب الابتسامة الدائمة ، والوجه المشرق بالمحبة والأخوة الانسانية دائما ، فقد جعل من فترة ما بعد الوظيفة - التي حرم ثمار مراحلها الأخيرة وجني حصادها بعد طول ممارسة ودأب وإخلاص ، كما أتيح لغيره ممن لا يبلغون نصف قامته ، جعل منها مرحلة من أكثر مراحل حياته خصوبة وامتلاء ، لقد ظهرت مواهبه الأكاديمية ، المتكئة عليه وعيه وخبرته وثقافته ودراساته ومتابعته واطلاعه ، والمصطبغة بالطابع العملي والميداني والممارسة الفعلية الحميمة ، ليصبح محاضرا غير متفرغ بكلية الاعلام في جامعة القاهرة ، وأستاذا للاعلام في جامعة إلى رموك بالأردن ، ومديرا للجريدة العربية السينمائية بالانتداب ، ورئيسا للقسم الخارجي بجريدة الثورة العراقية عام ١٩٧٣ ، وخبيرا إعلاميا بارزا في معاهد التدريب الاذاعي والتليفزيوني بمصر والدول العربية ورئيسا لمجلس ادارة نادي القاهرة الرياضي وعضوا في المنظمة المصرية للتضامن الآسيوي الافريقي عام ١٩٨٥ وعضوا في المنظمة المصرية لحقوق الانسان عام ١٩٨٨ . ويبدأ فكر صلاح زكي الاعلامي المستقبلي في الاكتمال والتألق من خلال هذه التحديات البحثية والأكاديمية ، فتولد مؤلفاته الثلاثة عن التخطيط الاذاعي والكتاب في الأصل مذكرات لطلاب الدراسات العليا بكلية الاعلام ، واللغة الاذاعية في عصر هيمنة التليفزيون ، والتليفزيون والطفل . والأخير جاء نتيجة لعمله مستشارا إعلاميا للمجلس القومي للطفولة والأمومة منذ عام ١٩٨٩ .

ولاشك أن طبيعته المقاتلة - في هدوء وصبر ويقين - هي التي جعلته يلجأ إلى القضاء بعد إخراجه من عمله وابتعاده عنه لسنوات طويلة - حولها صلاح إلى سنوات عمل وانطلاق وإنتاج - وينصفه القضاء المصري ، ليعود في عام ١٩٨٠ رئيسا للادارة المركزية للبحوث والاحصاء باتحاد الاذاعة والتليفزيون ، مطورا لا ساليب العمل فيها ، وواضعا يده علي الكثير من جوانب العمل الاعلامي ومشكلاته وتحدياته . من هنا لم يكن غريبا أن يختاره حسن حامد رئيس قطاع القنوات المتخصصة - عند إنشائها - ليشرف بنفسه علي تدريب الجيل الجديد من المذيعين ومقدمي البرامج فيه ، خاصة في قناة الأخبار المتخصصة .

ولقد أتيح لي - ولكثيرين غيري - أن نكون قريبين من فكر صلاح زكي وشخصيته الآسرة من خلال لجنة البرامج المسموعة باتحاد الاذاعة والتليفزيون التي يرأسها شيخ الاذاعيين الأستاذ علي خليل ، وأن نفيد ونتعلم من مداخلاته العديدة ، الكاشفة عن عمق وعيه وثقافته ، ونظرته المستقبلية التقدمية المستنيرة ، وحماسه الشبابي الهائل لكل ما يتصل بهموم الوطن ، وثورته العنيفة علي ظواهر التخلف والردة والرجعية ، وإيمانه بالأجيال الجديدة من شباب الاعلاميين . وأشهد ما وجدته منفعلا

وخارجا عن هدوئه المألوف إلا مرة واحدة كان فيها يعرض علينا خلاصة قراءاته في كتاب جديد عن العولمة وعندما طرح موضوع العولمة للحوار والنقاش علي أساس أنها وجه من وجوه الهيمنة ، والهيمنة الأمريكية ـ باعتبارها القوة الأعظم في عالم إلى وم ، والآثار السياسية والاقتصادية والثقافية لهذه العولمة ، وعلاقة هذا كله بما يحدث في مجتمعنا الآن من خصخصة وتضييق لملكية الدولة وسيطرتها ، وما قد يترتب من آثار لهذه الخصخصة علي أجهزة الاعلام ، وتصور أن ناسبيرو ـ بكل ما يمثله من قلعة للاعلام المصري ـ يمكن أن يتحول إلى صيغة تجمع بين ملكية الدولة والمستثمرين ، عندما طرح هذا كله ، ثار صلاح زكي وهاج وماج ، رافضا فكرة أن تقترب الخصخصة من ما سبيرو في أية صورة من الصور ، باعتباره رمزا للوطنية المصرية واسليادة المصرية . وهدد ـ لا ول مرة ـ بالانسحاب من اللجنة لمجرد مناقشة مثل هذه الأمور . ولم نتمكن من تهدئته إلا بفضل حكمة رئيس اللجنة وشيخها الجليل الاعلامي الرائد علي خليل الذي كان تدخله في الوقت المناسب ، كما كان احترام صلاح زكي له وتقديره لريادته وأستاذيته وتوقيره لشخصيته وأبوته وراء عودته إلى الحوار الهادىء والمشاركة الموضوعية وكأن شيئا لم يحدث . وأدركنا أن الغيرة الوطنية والحماس القديم الذي صاحبه منذ سنوات التكوين الأولي ـ والانتماء الحميم للفكر الذي يؤمن بملكية الدولة للمشروعات والمرافق الزساسية هو السبب في فورته العابرة التي كشفت لنا أن البنية الصلدة والمتماسكة في تكوين صلاح زكي لم تصبها أية انكسارات أو شروخ بالرغم من كل ما حدث في دول المعسكر الاشتراكي وفي مقدمتها الاتحاد السوفيتي نفسه سابقا ـ وبالرغم من انفتاح صلاح زكي علي كل جديد في عصر المعلوماتية وفورة التغيرات الاتصالية الهائلة وثورة التكنولوجيا وسريان عصر العولمة وفكرها شئنا أم أبينا ، فنحن جزء منه ولا نملك أن ننعزل عنه ، وكل ما نملكه هو ترشيد مشاركتنا فيه والحفاظ علي هويتنا الثقافية ، والوعي بآثاره ونتائجه . وكان صلاح زكي يدرك هذا كله وما هو أكثر منه ، لكن بقايا من انتماءاته القديمة كانت تطفو علي السطح ـ بين الحين والحين ـ فتطل برأسها وكأنها خارجة من إهاب عالم قديم .

ويجيء الرحيل المباغت لصلاح زكي إثر حادث قدري مزساوي ـ عن واحد وسبعين عام ا ، قضاها في شرف وجدية واستقامة ، ومحبة للناس ومن الناس وتقدير من كل الذين عرفوه واقتربوا منه وسعدوا بالعمل إلى جواره رؤساء وزملاء ومرؤوسين . واختفي هذا الوجه المشرق وهذه الشخصية الفريدة لا نسان رائع جميل ، لنفتقد إلى الأبد ـ ومعنا شريكة حياته ورفيقة عمره التليفزيونية والاعلامية المتميزة علية إحسان ـ هذا النموذج الفريد للانسانية والقدرة علي المشاركة وشهامته أبناء البلد وصلابة القادمين من صعيد مصر . ولم ينجب صلاح زكي ، لكنه ترك من ورائه أبناء بالعشرات بل بالمئات ، ينبثون الآن في شبكات مصر الاذاعية وقنواتها التليفزيونية والمتخصصة وفي جامعات مصرية

وعربيــة ، وفي معاهــد التــدريب الاذاعــي والتليفزيــوني في مــصر وخــارج مــصر ، وفي المجــال الــصحفي والاعلامــي ، وفي العديــد مــن مؤســسات العمــل الاجتمــاعي والــوطني . هــؤلاء الأبنــاء العديــدون يفتقــدون ـ معــي الآن ـ أبــاهم ومعلمهــم ورائــدهم وأســتاذهم صــلاح زكــي ، ويبكــون فيــه النمــوذج والقــدوة والمثــال ، ومــا أظــنهم إلا مفتقــدين لــه وذاكــرين فــضله لــسنوات طويلــة قادمة .

علي الراعي وبعض من عطره الباقي

بقلم: فاروق شوشة

أمس ـ ١٨ ـ يناير ـ كانت الذكري الرابعة لرحيل الناقد الكبير الدكتور علي الراعي (١٩٢٠ ـ١٩٩٩) ، وكان توقف القلم المنصف الشجاع الذي شهدت صفحات الأهرام آخر تجلياته في الكتابة ، وهو يعبر دائما عن فرحه بكل ما هو جميل وجديد ومدهش في عالم القصة والرواية والمسرح ، وكل ما هو جميل وأصيل في تراث الموسيقي والغناء ، ساكبا قطرات من وجدانه المفعم بالحكايات والأغاني والمواويل والأساطير والموروثات الشعبية .

وفي أعقاب رحيله بأسابيع قليلة ، كان أول مقال لي علي صفحات الأهرام بعنوان علي الراعي عاشق الإبداع رويت فيه جوانب من علاقتي العميقة به والممتدة طيلة عقود من الزمان ، كيف بدأت واكتملت من خلال عملي في مستهل سنوات العمر الإذاعي معدا ومقدما لبرنامج مع النقاد من إذاعة البرنامج الثاني بعد انتقال صاحبته الإعلامية الكبيرة سميرة الكيلاني للعمل بالتليفزيون .

كان علي الراعي ـ وقتها ـ واحدا من الفرسان المعدودين والمتألقين في كوكبة النقاد الذين يستعين بهم البرنامج . وكان يطيب لي أن أتأمله عن قرب: فوجهه جاد صارم ، يخفي تحت قشرته الخارجية نفسا حانية كأشد ما يكون الحنو وأعمق ما تكون الأبوة والتعاطف ، وروحا شديدة الميل إلى الدعابة والمفاكهة الراقية التي تصطبغ ـ أحيانا ـ بسخرية غير جارحة ، لكنها تكشف عن معدن إنساني نبيل ، وجوهر مشع بالوعي والمحبة والاستنارة التي تنفذ في ـ يسر وبساطة ـ إلى صميم الأشياء . وهو ـ أيضا ـ قادر علي أن يصوغ فكره ومداخلاته في لغة عفة ، واضحة ، لا غموض فيها ولا التواء ، لكنها حاسمة وباترة .

وكثيرا ما كنت أتخيله وكأنه شاخص علي المسرح ، يجسد بحضوره هالة الفكر والحكمة ، يشير بيديه ونظراته وتعبير وجهه ، مؤكدا ، وموضحا ومعلقا ، ومنعطفا . بينما جمهوره العريض ـ غير المرئي ـ يتابع من خلال مواقفه وكتاباته النقدية شهادة لا شبهة فيها لمجاملة أو تحيز أو تصفية حسابات أو مؤازرة اتجاه علي اتجاه ، شهادة الناقد كما ينبغي أن يكون الناقد .

وسرعان ما أتيح لي ـ بفضل رعايته وتوجيهه لي ـ اكتشاف المزيد من جماله الداخلي وبهائه النفسي والروحي . ولقد رويت من قبل كيف كنا ذات مرة نجلس في

انتظار تجهيز استديو١٠ بمبني الشريفين لتسجيل برنامج مع النقاد ، ومناقشة المبدعة الكبيرة لطيفة الزيات حول روايتها الباب المفتوح ، حيث ما ل علي هامسا : هل تعلم انك تذكرني بشبابي عندما كنت مثلك أعمل في الإذاعة ، وترقيت فيها إلى أن وصلت إلى منصب كبير المذيعين ـ وهو في ذلك الوقت منصب قيادي كبير ـ لكني تركت هذا كله ورائي حين أتيح لي السفر إلى انجلترا في بعثة للحصول علي الدكتوراه والعودة للعمل بالجامعة . فتغير مسار حياتي ونجوت من هذه المهنة ، مهنة الإذاعة . ثم ازدادت نبرات صوته حدة وهو يقول يا بني ، أحذرك من مهنة توقع في التفاهات اللذيذة ، إنها قد تستغرقك وتحول بينك وبين اهتماماتك الجادة . صحيح أن الصورة الآن في الإذاعة قد تغيرت عن أيامنا ، والآن لديكم البرنامج الثاني الذي هو إذاعة ثقافية متكاملة ـ لو كان موجودا في زمني لترددت في ترك الإذاعة وعملت فيه ـ لكن بالرغم من هذا كله ، فإني ـ لحرصي عليك ـ أحذرك !

كان هذا التحذير من الأب والأستاذ والمعلم علي الراعي ضوءا كاشفا وتوجيها حاسما ، جاء في موعده بالنسبة لي ، ظللت طيلة أربعين عام ا من العمل الإذاعي ، من بداية السلم وحتي رأسه ، أتذكره قابضا بيدي علي الجمر ، بعد أن اخترت طريق العمل الثقافي الذي لم يقترب أبدا من شبهة البرنامج السياسي أو المنوعات أو غيرهما . وكنت كلما التقيت بالدكتور علي الراعي ـ طيلة هذه العقود الأربعة من الزمان ـ أزداد وعيا وإيمانا بجدوي نصيحته المبكرة ، وأذكره بها في آخر لقاء معه قبل رحيله بأسابيع قليلة من خلال حوار أدبي للقسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية ، وكان سؤاله الأول لي في كل مرة عن الجديد الذي كتبته أو نشرته .

وعندما بدأ علي الراعي الكتابة علي صفحات الأهرام لم يغب عنه الالتفات إلى بعض بناة الإذاعة العظام ـ كما سماهم هو ـ فكتب عن عبد الحميد الحديدي و عبد الحميد يونس و عبد الوهاب يوسف وأحمد رشدي صالح كما كتب ـ في سياق هذه الكتابات ـ عن عبد الرحمن صادق وطلعت الغنيمي وحسين نصار وصلاح زكي وغيرهم ، في لغة ندية بالمحبة ، ونفس كبيرة مفعمة بالأبوة الحقيقية والعطاء الكريم ، كاشفا عما يتميز به من روح الإنصاف والتقدير . ولو أن الأجل امتد به وأسعفته القدرة لقدم للمكتبة العربية أول دراسة جامعة ، عن كثير من هؤلاء الرواد الكبار الذين كانت كتابته عن بعضهم إشارة إلى الدور والمعني والرسالة ، ولقدم لنا ـ نحن قراءه ـ صورة نادرة لتاريخ الإذاعة المصرية في عهدها الأول ، وهو تاريخ لم يكتب ـ بصورة متكاملة ـ حتي إلى وم .

كان علي الراعي يصارحني دوما بأنه لا يكتب عن الشعر . وكنت أعتقد ـ في البداية ـ أن هذا الموقف منه يعني جفوة وتباعدا عن هذا اللون من الإبداع . حتي فوجئت من خلال سياق علاقتي المتدة والمتنامية معه ـ أنه من خيرة من عرفت من رواة الشعر

العربـي ، يهتـز طربـا للجميـل منـه ، وتوشـك عينـاه أن تغرورقـا بالـدمع اهتـزازا لتـأثيره في نفـسه ، بـل هـو يحـسن الاستـشهاد بـه في موضـع الاستـشهاد والانتقـاء لا روع مـا فيـه لغـة ومعـني وصـياغة ، وخيـالا وصـورة . وكنـت أعجـب لـه - وهـو الـذي يمتلـك هـذه الـنفس المرهفـة والوجـدان الـذكي ، كيـف لا يـدلي بـدلوه في الكتابـة عـن الـشعر ، وتنـوير الـساحة الأدبيـة وإضـاءتها بفكـره وتحليلـه . لكـن علـي الراعـي كـان يـؤمن بالتخـصص ، ويـري أن دوره الحقيقـي هـو في الكتابـة عـن القـصة والروايـة والمـسرح وقـد يتـسع أكثـر للكتابـة عـن الموسيقي والغنـاء والكاريكـاتير والـتراث الـشعبي . مـن هنـا فقـد جـاءت بعـض كتاباتـه الأخـيرة علي صـفحات الأهـرام وقبلـها في مجلـة المـصور - الـتي سـتصدر في كتـاب جديـد لـه - عنـدما قـرر الغـوص في بحـور الـشعر ، والحـديث عـن الإمـارة في الـشعر بـين بـيرم وشـوقي ، والـسيرة البهيـة لمحمـد عفيفـي مطـر ، وغـضب الـشعراء ، والـسيرة الـشعرية الـتي أصـدرتها بعنـوان عـذابات العمـر الجميـل - جـاء هـذا كلـه بمثابـة الإضـافة اللافتـة لا هتماماتـه الأساسـية والمركزيـة ، وكـشفا عـن أسـاليب التـأتي الـذواق ، ورؤيـة العـين المثقفـة ، والعقـل المتفـتح ، والأفـق الرحـب . فهـو دومـا الناقـد الحـريص علـي ألا تحمـل كتاباتـه سمـت الكاتـب المـتجهم ، أو الناقد المتسلط أو المفكـر العنيـف . هـو أقـرب إلى أنـشودة البـساطة الـتي تغـني بهـا يحيـي حقـي ، وإلـي الكتابـة السلـسلة الأليفـة الميـسورة الـتي هـي بمثابـة التحـدي الكـبير لكاتـب يتوجـه إلى جمهـور عـريض متنـوع الاهتمامـات والمـشارب والمـستويات . إنهـا البـساطة العميقـة الـتي تعـزف علـي أعـذب الأوتـار في الـنفس الانـسانية - لـدي كـل مـن الكاتـب والقـاريء - وأكثرهـا نـبلا وجمـالا ، لا نهـا تحمـل روح صـاحبها الـذي جعـل رسـالته في الكتابـة اكتـشاف الجمـال وإشـاعته والتنويـه بـه ، والحـض علـي مـشاركته متعـة الاسـتمتاع الراقـي . وهـو لا يكتـب إلا عـن محبـة وميـل وتعـاطف ، مـن هنـا فـإن عينـه علـي مـواطن الجمـال وتـوهج الموهبـة وجـدة الابـداع ، مـن خـلال كتابـة لا يملؤهـا تعـالم أو تأسـتذ يفـسد متعـة القـاريء ويكـتم أنفاسـه ويثقلـه بـالمراجع والولـع بحـديث المـدارس والتيـارات والاتجاهـات ، لا تـسمح للـصحافة الـتي شـغل كـثير مـن النقـاد أنفسهم بنقلـها وترديـدها بـأن تفـسد عليـه توجهـه الأساسـي أو طبيعـة كتاباته الشديدة الثراء والحساسية للعمل الابداعي .

والكتـاب الجديـد الـذي يـصدر قريبـا لناقـدنا الكـبير ، يكـشف عـن اهتمامـات علـي الراعـي الواسـعة والمتكاملـة ، بـدءا بفـن الكاريكـاتير والـسير الـشعرية والزجـل والأغـاني والمـسرح الغنـائي والاذاعـة والتليفزيـون ، وبعـض تجليـات الكتابـة لديـه في آفاقهـا الموسـوعية الرحبـة ، لا يقيـدها جفـاف الأكاديميـة أو التـنظير المدرسـي ولايثقلـها الزهـو المعـرفي أو ادعـاء المنهجيـة . هنـا نجـد علـي الراعـي: الفنـان ، أسـتاذ التـذوق الفـني ، الـسميع ، الـذي يتوقـف أمـام الأغنيـة واللوحـة والرسـم والعـزف والتمثيـل ، يـسعفه ذوق ناضـج مرهـف ، ليفـتح أمـام قارئـه دروبـا ومـسالك لا كتـشاف المتعـة وتـذوق الجمـال . وهـي صـفات تجـسدت

فيه وصاحبته عبر مسيرته الحافلة بدءا بالعمل في الجامعة المصرية - جامعة عين شمس - فهيئة المسرح فجامعة الكويت ، وكتاباته في العديد من الصحف والمجلات خاصة مجلة المجلة والمساء والعربي الكويتية ، والمصور وأخيرا الأهرام . في جدية طالما استترت تحت غشاء رقيق من سخريته اللاذعة وفكاهته اللماحة وقفشاته الذكية . ولاشك أن تعميقه لمفهوم الفرجة في المسرح واهتمامه بفن الارتجال كان نابعا من شخصيته الفنية الشديدة الغني والتنوع ، القادرة علي التشخيص والتجسيد ، علي مستوي اللمحة والفكرة والموقف والعبارة .

يتحدث علي الراعي مثلا - في كتابه الجديد الذي لم يصدر بعد - عن الشاعر المصري الخفيف الروح والظل البهاء زهير ، فيقول: كنت في أواسط التعليم الثانوي حينما فكرت وزارة المعارف في مشروع جاد ومفيد لتحبيب القراءة لصغار الشباب . وكان اسم المشروع القراءة الصيفية وبمقتضاه وزعت علي المتفوقين من الدارسين كتبا أدبية وأخري في الرحلات . وكان من نصيبي كتاب صغير جمع بعضا من ألمع قصائد الشاعر الرقيق الظريف البهاء زهير .

أقبلت علي قصائد البهاء زهير لتهمها التهاما ، بدا لي في شعره الرقيق المجنح ، السهل ، المتنع ، خير ما يوجه لشباب يبدأون التعرف إلى الشعر . قرأت قصيدته مولاي كن لي وحدي بإعجاب تكتنفه الدهشة ، إذ كيف يتأتي لشاعر من العصر المملوكي كل هذا التأنف والتحضر والمعابثة التي هي سمات شعراء الحضارة في عصور التقدم الثقافي والمادي ؟

تقول القصيدة:

مولاي كن لي وحدي
فإنني لك وحدك
وكن بقلبك عندي
فإن قلبي عندك
حاشاك تؤثر بعدي
فلست أوثر بعدك
مولاي إن غبت عني
واسوء حالي بعدك !

وقلبت صفحات هذا الديوان المصغر ، فوجدت فيه القصيدة التالية التي ترسم أحسن رسم لصورة العاشق المتيم إزاء حبيبته التي تعاتبه عن عمد ، وتقصد تعذيبه وحرمانه من راحة البال . تقول القصيدة:

يعاهدني لا خانني ثم ينكث
وأحلف لا كلمته ثم أحنث
وذلك دأبي لا يزال ودأبه
فيا معشر الناس اسمعوا وتحدثوا
أقول له صلني ، يقول: نعم ، غدا
ويكسر طرفا هازئا بي يعبث
فخذ مرة روحي ترحني ، ولم أكن
أموت مرارا كل يوم وأبعث

ثم يقول علي الراعي: كان شعر البهاء زهير خير تقدمته للشعر بالنسبة لتلميذ يستشرف سنوات المراهقة ، بما فيها من أحاسيس ملتهبة ، وإقبال علي نواحي الجمال في العاطفة والخيال والتعبير وحسن الكلام . وبالفعل تقدمت من شعر البهاء زهير إلى شعر غيره ممن وجدت فيهم الرقة ذاتها وحسن العبارة ، سواء كان هؤلاء من شعراء الجاهلية أو العصر الاسلامي أوالأموي ، أو العصور التالية وصولا إلى العصر الحديث . وسرعان ما ينفذ علي الراعي من هذه المقدمة الآسرة شديدة الجاذبية والتشويق ، التي يرويها بلغة فنان مرهف وحكاء ما هر ، يمتلك أدوات عرضه لحكايته ، إلى الأفق العام الذي يصل إلى ه في يسر وطبيعية ورشاقة عندما يقول: كان الشعر متاحا أيامها ، تنشره الأهرام في صفحاتها الأولي ، وينتظر الناس قصائد كبار الشعراء مطبوعة علي ورق الصحف ، أو مجلجلة في اجتماعات شعرية حاشدة ، تقام في مناسبات عدة . وكان كتاب طه حسين عن أبي العلاء حديث التلاميذ النابهين في مدرسة التوفيقية الثانوية التي كنت تلميذا بها .

ولما أخذ علي محمود طه يخرج روائعه الشعرية وعرف بعضها طريقه إلى التلحين ـ الجندول ثم كليوباترا ـ التفت الناس إلى باقي شعره ، وأولوه الاهتمام الجديد به ، وظهر في الوقت ذاته محمود حسن إسماعيل وانتقل شعره هو الآخر من صفحات الدواوين إلى أوراق النوتة الموسيقية ، وعرفت الفرق أناشيده التي تتحدث عن مجد مصر الغابر وأملها الحاضر في غد واعد .

هذه هي لغة علي الراعي وهذا هو نهجه وطريقته . الانتقال من الخاص إلى العام ومن الجزئي إلى الكلي ومن القريب إلى البعيد في يسر ورشاقة وسلاسة ، وخفة حركة وحسن التفات ، ترفده ثقافة موسوعية ورصيد هائل من المعارف والخبرات والتجارب ، بالحياة والناس .

ولقد جسد علي الراعي نموذج الناقد الكبير القريب من الناس البسطاء وهمومهم وفنونهم وقضاياهم . من هنا كانت كتاباته عن الكوميديا المرتجلة في المسرح المصري مهديا

الجزء الاول من كتابه البديع مسرح الشعب إلى فنان الارتجال الذي سخر منه الناس حيا وميتا ، وعن فنون الكوميديا من خيال الظل إلى نجيب الريحاني وعن علي الكسار وعن فن الفرجة كما كتب كثيرا عن الرواية باعتبارها ديوان العرب في العصر الحديث ، وعن القصة القصيرة قرينة الرواية والمسرح ، مشحونا بطاقة هائلة من المحبة ، وقدرة فذة على تذويب آرائه وأحكامه النقدية في سياق عرضه الجميل للعمل الذي يكتب عنه ، واضعا نصب عينيه وفي المحل الأول من اهتمامه التواصل مع قارئه والأخذ بيده إلى أسرار العمل الأدبي وكنوزه وجمالياته .

لقد غاب قلم علي الراعي عن صفحات الأهرام منذ أربع سنوات ، ولايزال مكانه شاغرا ، يومئ لنا ـ نحن كتاب الأهرام من بعده ـ بالموقف والأسلوب ، والطريقة والمعني ، والهدف والرسالة !

بحثا عن دور مصر الثقافي

شجون كويتية

بقلم: فاروق شوشة

بدعوة من الدكتور نادر نور الدين المستشار الثقافي - الممتلئ بالوعي والمسئولية - في سفارتنا بالكويت ، وحفاوة معهودة من وزارة الإعلام الكويتية ، ورعاية السفير المصري المثقف والمرهف الحس والوجدان وجدي أبو زيد ، أتيح لي قضاء يومين حافلين بالحركة النشيطة واللقاءات المتعددة في الكويت في ظل البرنامج المحتشد الذي وضعه الدكتور نادر .

الدعوة أساسا لا قامة أمسية شعرية يعقبها حوار مفتوح في مقر المكتب الثقافي المصري والحاضرون هم من المدعوين وأبناء الجالية المصرية يتقدمهم عدد كبير من السفراء العرب وأساتذة الجامعة والاعلاميين .

وأدير البصر فيمن حولي ، بينهم وجوه كويتية عزيزة تربطني بها صداقات قديمة - متجددة ومتصلة - منذ وصلت إلى الكويت لا ول مرة في صيف عام ١٩٦٣ ومعي الزميل الإذاعي الكبير اسلام فارس معارين للعمل في الاذاعة الكويتية ، حيث قضيت عام ا واحدا رئيسا للقسم الأدبي وقسم المذيعين وقضي اسلام فارس عام ين رئيسا للتمثيليات . ها آنذا الآن - بعد تسعة وعشرين عام ا من لقائي الأول مع الكويت - أطالع بين الحاضرين الأديب والباحث الكويتي عبد الله خلف الذي تولي رئاسة القسم الأدبي لسنوات طويلة والأمانة العامة لرابطة الأدباء والكاتب والناقد المسرحي عبد العزيز السريع احد رواد الحركة المسرحية في الكويت ورفيق رحلة المبدع الكويتي الراحل صقر الرشود والأمين العام - الموفور النشاط والرؤي والفاعلية - لمؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري منذ بداياتها الأولي وحتي الآن مما حدا بالمؤسسة ومجلس أمنائها إلى المناداة بتكريمه في إطار دورتها السابقة في البحرين وهو التكريم الذي يضمه كتاب كبير اصدرته المؤسسة يحوي بين دفتيه العديد من الكلمات والدراسات عن السريع الانسان والمبدع صاحب الانجاز المسرحي والثقافي ، كما اطالع بين الحاضرين من الزملاء الاعلاميين رفاق ذلك الزمان الجميل محمد الراشد الذي تفرغ بعد عطاء إذاعي وإعلامي حافل لا عماله الخاصة والكاتبة والباحثة الكويتية الدكتورة دلال الزبن استاذة الاجتماع وشريكة لرحلة الحياة للشاعر والمفكر الكبير أحمد العدواني والمسئولة عن ملف الأسري الكويتيين في العراق والكاتبة المتألقة ليلي العثمان التي حملت إبداعاتها الروائية صوت المرأة الكويتية إلى كل مكان .

ها أنـذا مـن جديـد يأخـذني المـشهد المفعـم بحـرارة اللقـاء وصـدق المـشاعر وحميميـة التواصـل إلى إلى وم الأول الـذي توجهـت فيـه إلى الكويـت ومعـي الزميـل اسـلام فـارس . كنـت في الـسابعة والعـشرين مـن العمـر تملـؤني حيـاة القـاهرة بزخمهـا وأضـوائها ووعودهـا في مطلـع الـستينيات ويـستغرقني عمـل إذاعـي يلـتهم ليلـي ونهـاري حماسـا وانهماكـا وحـصدا للخـبرات وتعميقـا لـدائرة واسـعة مـن العلاقـات والـصلات الأدبيـة والثقافيـة والفكريـة وانـشغالا بمـا تحملـه الحيـاة الاجتماعيـة مـن رغائـب ومتـع . وكنـت اتـساءل ـ بـيني وبـين نفـسي ـ ونحـن ـ أنـا واسـلام ـ نخطـو خطواتنـا الأولـي في طريقنـا للقـاء الـشاعر والأديـب الكـويتي الكـبير أحمـد الـسقاف وكيـل وزارة الإعـلام في ذلـك الحـين ـ وصـاحب فكـرة ذهابنـا إلى الكويـت ـ وهـو لقـاء قـدر لـه ان يـسبق ممارسـتنا للعمـل في إلى وم التـالي ، كنـت اتـساءل عـن مـدي قـدرتي ـ عقـلا وقلبـا وشـواغل ـ علـي الانـسلاخ مـن مجتمـع القـاهرة الثقـافي والحيـاة الادبيـة المـصرية والتعـايش مـع الواقـع في الكويـت في مجتمـع لم أعرفـه بعـد وحيـاة جديـدة لا خـبرة لـي بهـا وغربـة عـن الوطن تطـول لمـدة عـام قبـل النظـر في توقفهـا أو اطالتهـا ومـدها لعـام ثـان ـ كمـا حـدث لا سـلام ـ لم تـسبقها إلا غربـة واحـدة طولهـا شـهر قـضيته في إذاعـة دمـشق عـام ١٩٦٠ ضـمن مـا كـان يعـرف بتبـادل المـذيعين المـصريين والـسوريين . في ظـل قيـام دولـة الوحـدة بـين مـصر وسـوريا متـنقلا بالبطاقـة الشخـصية ولـيس بجـواز الـسفر مـن إقلـيم الجمهوريـة العربيـة المتحـدة الجنـوبي إلى إقليمها الشمالي .

كانـت الكويـت في عـام ١٩٦٣ تبـدأ مـشروعها الكـبير للنهـضة والتحـديث بقيـادة أميرهـا العظـيم عبـد الله الـسالم الـصباح صـاحب الرؤيـة القوميـة والأفـق المـستنير والفكـر الـديمقراطي الحـر وكـان جيـل الـشباب في انتظـار افتتـاح جامعـة الكويـت الـتي بـدأت خطـوات انـشائها والتخطـيط لا نطلاقتهـا ، بينمـا هنـاك المئـات مـن الـشباب ينهلـون العلـم والمعرفـة في جامعـات مـصرية وعربيـة وأجنبيـة قبـل أن يعـودوا ليـصبحوا طليعـة العمـل والبنـاء والكـوادر الأولـي الـتي أحـسن اعـدادها وتثقيفهـا للقيـام بالـدور الـوطني المنتظـر . ولم يكـن مـشروع الكويت الثقافي قد افـصح عـن نفـسه بعـد بالـصورة الـتي نتابعهـا الآن فلـم يكـن موجـودا منـه غـير مجلـة العربـي الـتي بـدأت في عـام ١٩٥٨ برئاسـة العـالم المـصري الموسـوعي الـدكتور أحمـد زكـي الـذي أفـاد في تخطيطـه للمجلـة مـن خبرتـه الـسابقة رئيـسا لتحريـر مجلـة الهـلال مـضيفا إلى هـذه الخـبرة البعـد العربـي والقـومي والتأكيـد الأكثـر إلحاحـا بالنـسبة لجانـب الثقافـة العلميـة . وسـرعان مـا تتابعـت حبـات العقـد الثقـافي بعـد ذلـك مـن خـلال عـالم الفكـر وعـالم المعرفـة و سلـسلة المـسرح العـالمي وقيـام المعاهـد العليـا للمـسرح والموسـيقي والمجلـس الـوطني للثقافـة والهيكلـة الجديـدة لـوزارة الاعـلام ـ وزارة الارشـاد والأنبـاء سـابقا ـ والطفـرة اللافتـة في العمـل الاذاعـي والتليفزيـوني فـضلا عـن الـدور البـارز للـصحافة الكويتيـة الـتي كانـت تقـترب في تأثيرهـا وممارستها لحريتها وفاعليتها من دور الصحافة اللبنانية في أوائل الستينيات .

الـشريط الطويـل يتتـابع سـريعا أمـام عـيني ومستـشارنا الثقـافي الـدكتور نـادر نـور الـدين يفـيض في التقـديم وتعريـف الحاضـرين بالـضيف وكـثير مـن الحاضـرين ليـسوا في حاجـة إلى هـذا كلـه وأسـائل نفـسي كـم مـرة سـافرت فيهـا إلى الكويـت والتقيـت بمـن فيهـا - مـن المسئولين الإعلامـيين والمـثقفين وجمهـور النـدوات والأمـسيات لا بـد أن الأمـر يتجـاوز العـشرات . وهـا هـي ذي زيـارة جديـدة لا أعـرف رقمهـا أقـوم بهـا وأنـا مـشدود إلى الكويـت بربـاطين وثـيقين . أولهمـا قيـامي بكتابـة البـاب الـشهري جمـال العربيـة في مجلـة العربـي علـي امتـداد اثني عـشر عـام ا متـصلة ، وسـوف تـصدر مختـارات ممـا نـشر في هـذا البـاب علـي امتـداد هـذه الـسنوات في عـدد قـادم مـن كتـاب العربـي . وثانيهمـا شـرف تمثيلـي لمـصر - مـع الناقـد الكـبير الـدكتور عـز الـدين اسماعيـل - في مجلـس أمنـاء مؤسـسة جـائزة عبـد العزيـز سـعود البـابطين لـدورات متعاقبـة . ومـا يـستتبعه الأمـران معـا مـن صـلات حميمـة متجـددة مـع الكويـت خاصـة مـع مثقفيهـا وأدبائهـا ومبـدعيها الحقيقـيين مـن أمثـال الـراحلين الـدكتور عبـد الله العتـيبي وخالـد سـعود الزيـد و محمـد الفـايز (سـيزيف) والأصـدقاء الأعـزاء الـدكتور خليفـة الوقيـان والـدكتور سـليمان الـشطي ويعقـوب الـسبيعي والـدكتور عبـد الله المهنـا والـشاعرة جنـة القـريني والـدكتور محمـد الرميحـي الـذي انتقـل أخـيرا مـن المجلـس الـوطني للثقافـة إلى مؤسـسة الفكـر العربـي والـدكتور سـليمان العـسكري رئـيس تحريـر مجلـة العربـي والـشاعر علـي الـسبتي الـذي عرفـت بواسـطته بـدر شـاكر الـسياب و عبـد الله الرومـي أعجوبـة المتـذوقين للـشعر العربـي وللمتنبي علي وجه الخصوص .

في الكويـت وفي مـستهل عـام ١٩٦٤ رأيـت الـشاعر العراقـي الكـبير بـدر شـاكر الـسياب لا ول مـرة - اسـتقبلناه - نحـن مجموعـة محبيـه وعـارفي قـدره: علـي الـسبتي ونـاجي علـوش وخالـد أبـو خالـد وأنـا - في مطـار الكويـت وحملنـاه جـسدا فاقـد القـدرة علـي الحركـة لـيس فيـه جـزء صـحيح إلا رأسـه إلى المستـشفي الأمـيري ، حيـث كانـت المرحلـة الأخـيرة في علاجـه مـن دائـه العـضال: الـشلل الكلـي في نـصفه الأسـفل الـذي لم يحـل بينـه وبـين الإبـداع الـشعري يمليـه علـي مرافقيـه ونـراه ونقـرأه مـع مطلـع كـل صـباح نـزوره فيـه ونتـابع يومـا بيـوم دخولـه في عـالم الغيبوبـة الـتي تـسبق المـوت وحديثـه إلى ومـي عـن هواجـسه مـع الأشـباح الـتي تـسعي إلى ه في الليـل والهواتـف الـتي تناديـه قادمـة مـن قريتـه جيكـور في اقلـيم البـصرة العراقـي حـتي إذا مـا قرأنـا عبارتـه: رصاصـة الرحمـة يـا إلـه ! في ختـام إحـدي قـصائده أدركنـا انـه يستـشعر النهايـة ويتعجلـها حـتي يـستريح مـن آلام لم يعـد يحتملـها جـسده الـذابل الـضامر العليـل . وكانـت النهايـة المحتومـة للـسياب في الرابـع والعـشرين مـن ديـسمبر عـام ١٩٦٤ بعـد عودتي إلى القاهرة بشهور قليلة بسبب انقضاء العام الذي قضيته في الكويت .

مازلـت احـتفظ حـتي إلى وم بـذكريات الأصـبوحات والأمـسيات الـتي كـان فيهـا الـسياب لا يـزال قـادرا علـي الحـديث والتواصـل قبـل ان تدركـه الغيبوبـة وهـو يفـيض دون

توقف في تحليل النصوص الشعرية الجميلة لعدد من الشعراء الانجليز أحبها وتأثر بها إعجابا لا محاكاة وافتنانا لا تقليدا ومدي انبهاره ومعه كوكبة الشعراء الرواد في العراق: نازك الملائكة والبياتي وبلند الحيدري بشعر الرومانسيين المصريين محمود حسن اسماعيل ـ الذي وضعه في المقدمة و إبراهيم ناجي وعلي محمود طه ـ لم يكن نجم أدونيس قد تألق بعد ولا حدثت انتفاضة قصيدة النثر ، لذلك كان السياق لا يتجاوز عادة إشارات السياب إلى صلاح عبد الصبور ونازك والبياتي علي وجه الخصوص وترحيبا بالشاعر الكويتي الشاب محمد الفايز ـ الذي اطلق علي نفسه اسم سيزيف باعتباره قناعا شعريا ـ وكان قد شد الانتباه والاهتمام بملحمته الشعرية الطويلة مذكرات بحار باعتبارها تراجيديا البحارة والتواخذة ورجال الغوص في الكويت وضحايا البحث عن اللؤلؤ الذين يواجهون الموت غرقا من أجل الحلم المستحيل .

من خلال بوصلة ترصد درجة التفاعل مع قصائد الأمسية الشعرية واقترابها من الهم القومي العام والقلق الذي يعيشه كل من هو علي أرض الخليج الآن والحوارات التي دارت فيها ثم علي ضفاف المأدبة الحافلة التي أقامها سفيرنا في الكويت والمأدبة العامرة التي أقامتها مؤسسة البابطين في ديوانيته ، وضمت كلتاهما عددا كبيرا من رموز المجتمع والدبلوماسية والثقافة والإعلام يتقدمهم السفير المصري وجدي أبو زيد ، كان الهم القومي هو الشغل الشاغل للجميع والاحتجاج علي سياسة الكيل بمكيالين التي تمارسها القوي العظمي مع دول المنطقة وشعوبها والقلق الشديد علي العراق من مستقبل مجهول يتعرض فيه للانهيار والتمزق والتقسيم وانتهاء الدور الفاعل وهو الذي كان يمثل رصيدا مذخورا للأمة العربية قبل ان يقوم بحماقته الكبري في حرب الخليج والتي تسببت في تمزيق الشمل العربي وتشرذمه حتي إلى وم . وعندما وصل الحديث إلى ما يؤرق مستشارنا الثقافي الدكتور نادر نور الدين بالنسبة لدور مصر الثقافي كانت هناك الخشية من تقلص هذا الدور وعدم الاهتمام بمتابعته في مصر والالتفات إلى المبعوثين الكويتيين والعرب الذين يتطلعون إلى الدراسة في الجامعات المصرية وحجم الصعوبات التي يتعرضون لها مما يجعل تحقيق أملهم شبه مستحيل . ويبدو ان وزارة التعليم العالي ـ المسئولة عن مكاتبنا الثقافية في الدول العربية والاجنبية ـ لم تعد تعير هذا الأمر اهتماما يذكر بدليل أنها لا تستجيب للنصائح والمقترحات والأفكار التي يوافيها بها مستشارونا الثقافيون في كل مكان وهم ينبهون إلى أهمية تشجيع الدارسين من ابناء الوطن العربي والعالم الإسلامي ـ وبخاصة الكويت ـ علي الالتحاق بالجامعات والمعاهد المصرية كما كان يحدث للموجات الأولي من الدارسين العرب في مصر منذ اربعينيات القرن الماضي والتيسيرات التي كانت تتاح لهم والمساعدات المادية وغير المادية التي كانت تقوم بها مصر من أجل أن تتيح لهؤلاء الراغبين

في الدراسة الجامعية بها لتحقيق تطلعاتهم في سهولة ويسر دون التعلل بحواجز أمنية أو إجراءات بيروقراطية .

وننسي نحن ان المئات بل الألوف الذين اتيح لهم ان يدرسوا في جامعاتنا من طلبة العالمين العربي والإسلامي الآن هم الآن بناة مجتمعاتهم ومهندسوها : سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وفنيا ، وأنهم يدينون لمصر وشعبها وجامعاتها بفضل تعليمهم وتربيتهم وتكوينهم وفتح آفاق الاستنارة والوعي أمامهم وتهيئتهم للقيام بأدوارهم الفاعلة في بلادهم . وبدوري أضم صوتي إلى صوت الدكتور نادر نور الدين الذي يجأر بالشكوي والحسرة مما آل إلى ه الأمر بعد أن فقدنا الاهتمام بهذه الرابطة القوية من روابط توثيق العري بيننا وبين الطليعة المثقفة من أبناء الوطن العربي ونجحنا فقط في خلق الذرائع وإقامة الحواجز والسدود وتكريس الصعوبات والمعوقات في وجه هؤلاء الذين لا يزالون ينظرون إلى مصر وجامعاتها ومعاهدها باعتبارها الملاذ والقدوة والمثال . والمسئولون في وزارة التعليم العالي لا يتحركون ولا ينشطون ولا يستجيبون . وليت المجال كان يتسع لعشرات الأمثلة والمواقف التي تؤكد هذا التقاعس وتبرز حجم هذا التراجع في الدور الثقافي المصري ، كنت أستمع إلى ها في دهشة ممزوجة بالحسرة والاغتمام لا اكاد اصدق أو اتصور .

أرجو ان أذكر هؤلاء العاجزين عن تأمل حقيقة الدور الثقافي المصري وأهميته بأول بعثة تعليمية كويتية جاءت إلى القاهرة في عام ١٩٣٩ واستقبلتها مصر بالحفاوة والترحاب وكانت تضم: يوسف عمر ويوسف حسن المشاري وأحمد مشاري العدواني و عبد العزيز حسين الذين اصبحوا نجوما في سماء الكويت ومن بناة نهضتها وتحقيق انطلاقتها الحديثة . ثم لحقت بهم البعثة الثانية في عام ١٩٤٣ تتكون من اثني عشر طالبا يقول الشاعر والمؤرخ الكويتي خالد سعودي الزيد في كتابه أدباء الكويت في قرنين: كانت مصر تدفع لكل منهم جنيهين وثلاثين قرشا شهريا وتدفع الكويت جنيها واحدا لكل منهم . وهذا مبلغ كاف لمن ارتضي حياة لا تقتير فيها ولا إسراف فتكاليف الحياة رخيصة قبل الحرب العالمية الثانية ولا رسوم علي دراستهم وكانوا يقومون بخدمة انفسهم في اغلب الاحيان . ولنتأمل مرة أخري هذه العبارة: ولا رسوم علي دراستهم ! ولقد كان من هؤلاء المبعوثين أيضا بعد الدفعة الأولي: حمد الرجيب الذي أصبح واحدا من أهم سفراء الكويت في مصر ووزيرا للشئون الاجتماعية وراعيا للنهضة الفنية ومهندسا للعلاقات الثقافية والإعلامية والفنية بين مصر والكويت بمساعدة مستشاره الإعلامي النشيط الواسع الصلات والعلاقات في سفارة الكويت: عبد الله الرومي الذي تخرج في دار العلوم ثم معهد الدراسات العربية نموذجا لمن تعلموا في مصر واحبوها حبا لا يقل عن حب وطنهم الكويت وكان لحمد الرجيب فضل مشاركة زميله في البعثة التعليمية احمد العدواني ـ اول امين عام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب عام ١٩٧٣ - في إصدار مجلة البعثة التي كان يصدرها طلبة الكويت في مصر والتي تعد أعدادها بمثابة السجل الحافل لذلك الزمن المتقدم في نظرته إلى العلاقات الثقافية بين مصر والكويت والدور الثقافي المصري كما ينبغي ان يكون .

لقد كانت هذه الزيارة القصيرة المكثفة علي امتداد ثمان واربعين ساعة مفجرة لذكريات وشجون ومحركة لمزيد من القلق علي مصير هذه الأمة التي تساق طيعة إلى الذبح ، وسيصبح لسان حال كل منا بعد قليل أكلت يوم أكل الثور الأبيض ! فهل نحن منتبهون وهل نحن حريصون علي دور مصر الثقافي في الخارج ، هذا هو السؤال !

في عيد ميلاد يحيي حقي :

رسالتان من يحيي حقي إلى طه حسين

بقلم : فاروق شوشة

أسعدتني الأديبة والإعلامية القديرة الأستاذة نهي يحيي حقي - في مناسبة عيد ميلاد أبيها المبدع الكبير يحيي حقي (٧ يناير١٩٠٥) برسالة أدبية فكرية ضافية ، علي درجة كبيرة من الأهمية والفكر العصري المستنير والجمال الأدبي البديع الذي تميزت به كل كتابات يحيي حقي في رواياته وقصصه القصيرة ومقالاته ، وفي مقدمتها: قنديل أم هاشم ، دماء وطين ، أم العواجز ، خطوات في النقد ، عنتر وجولييت ، صح النوم ، فجر القصة المصرية ، فكرة وابتسامة ، عطر الأحباب ، دمعة وابتسامة . الرسالة بعث بها يحيي حقي إلى طه حسين في الحادي عشر من أكتوبر عام ١٩٥٤ ، والهم الرئيسي الذي يشغله فيها هو قضية اللغة العربية والعامية والأسلوب ، قبل أن يلقي محاضرته المشهورة عن حاجتنا إلى أسلوب جديد في جامعة دمشق - في زمن الوحدة بين مصر وسوريا ، بست سنوات ، وهي المحاضرة التي نشرها في كتابه خطوات في النقد ، داعيا إلى لغة عصرية جديدة في الكتابة ، أكثر دقة واحكاما وانضباطا ، بعيدة عن الميوعة والسطحية ، خالية من السجع اللفظي والسجع العقلي ، شديدة الدلالة علي ما يقصده الكاتب في حتمية وحسم . هذه الرسالة هي خير ما أقدمه من عطر يحيي حقي لا حبابه ، في مستهل عام جديد ، وفي الذكري الثامنة والتسعين لميلاده ، شاكرا للأستاذة نهي حقي الكشف عن هذا الكنز الأدبي الجميل . يقول يحيي حقي في رسالته إلى طه حسين:

سيدي العزيز المبجل الدكتور طه حسين مرحبا بسلامة العودة للوطن ولأصدقائك وتلاميذك ، وأرجو أن تكون متمتعا بتمام الصحة والعافية ، تخلع وتلبس أياما كلها سعادة وسرور . وبعد ، فقد قرأت مقالك في الجمهورية عن الفصحي والعامية فبعث في بعض تأملات أحب أن أعرضها عليك عسي أن يتسع وقتك لقراءتها ، فهذا الموضوع يشغل تفكيري كثيرا وقد عاصرت وعانيت جميع المشاكل التي وصفتها . وإذا سمحت لنفسي أن أحدثك عن بعض تجاربي فلاعتقادي بأنك ستجد فيها مصداقا لكل ما قلت . لم تخل قصصي الأولي من العامية لا نني كنت معنيا بالدقة التي لا تعرف التسامح وتفضل الأمانة علي الخداع مهما كان براقا . لم تسعفني الفصحي - كما تعلمتها - في بابين: الأول في تسمية الأشياء المستحدثة علينا والمعارة من الغرب ، فلم أكتب قط كلمة نبيقة وصممت علي أن أكتبها ياقة وهكذا . والباب الثاني في وصف ما يعتلج النفس

البشرية من مختلف العواطف المتشابكة المبهمة . وكنت أقول: هل الفصحي ما دية صرف ! ، وهل الإسلام عملي براغماطيقي ، محدود هو أيضا بالماديات ؟ ولكن إن كانت حيرتي في اللفظ قد طالت فإن شفائي من الحيرة بالنسبة للأسلوب لم يتأخر كثيرا . فقد ضقت ذرعا منذ مبدأ الأمر بروح الاسترسال في الأسلوب العربي ، وهذا الحرص الشديد علي ربط الجمل بأربطة لفظية والاستهانة بالجمل القصيرة والمنفصلة ، فلا عجب حينما صادفني الجاحظ فيما بعد أنني لم أخضع لسحره وفهمت ألاعيبه وخطرها علي الناشئين من كتابنا ، وظل اخلاصي باقيا لا بن المقفع . واني أحاول في كتاباتي الأخيرة ـ ولم أنجح ـ أن ألفت النظر إلى امكانيات الأسلوب المعتمد علي الجمل القصيرة المنفصلة باعتباره خير ثوب للدقة التي ننشدها . وفي العهد الأول الذي ذكرته لك كنت أجمع كتب ويلكوكس المهندس الزراعي الشهير في تاريخ مصر والدائرة السنية ، وقد طبع الإنجيل بالعامية ، وله كتاب في الصحة والدين مطبوع بالعامية أيضا ، ولم أكن أدرك أنه مبشر بطبعه وروحه وإن لم يكن يلبس مسوح رجال الدين ، وملت إلى سلامة موسي ونشرت بعض قصصي في مجلاته . ثم رأيت ما نشره تيمور بالعامية وكيف أخفق في ذلك اخفاقا شديدا . ولعل الذي قتل العامية المطبوعة هو حرف واحد: القاف المقلوبة همزة ، وهذا من كرامات الفصحي ! ثم بدأت أنتبه للاستعمار في شمال افريقيا وأدركت أن الدعوة للعامية سلاح يراد به تمزيق أوصال الأمة العربية التي شاهدتها في الحجاز ، فكنت أتحدث مع العراقي الكردي والمراكشي الفرنسي باللغة الفصحي فنتفاهم علي خير ما يكون التفاهم . ثم بدأت تتضح لي أيضا التيارات الداخلية في مصر واستطعت بسهولة أن أردها ـ ولا عجب للفصحي والعامية . فمع الأولي: من ينادي بالولي الشرعي ، والتقنين المستمد من الشريعة ، والجامعة العربية . ومع الثانية: الديمقراطية التي تفصل الدين عن الدولة ونقل القوانين عن الغرب بدعوي المساواة بين أفراد الشعب والازورار عن الجامعة باعتبارها مصدر النكبات . مع الأولي: الدعوة إلى الطراز العربي في العمارة ، ومع الثانية محاولات إحياء الفن الفرعوني وتمجيده وهكذا . وأخيرا أتيحت لي فرصة ـ وإن جاءت متأخرة ـ وتعرفت إلى أستاذي محمود شاكر فقرأ علي الكثير من الشعر الجاهلي والإسلامي وفهمت ما قدرني الله علي فهمه من النواحي الفنية في شعرائنا الأمجاد . وانتهيت إلى أن أصبحت ـ إذا جاز لي أن أصف نفسي ـ من حيث الشعور مصريا متعصبا ومسلما متسامحا ومن حيث التفكير حرا لا تستأثرني ثقافة دون أخري ، ومن حيث الأسلوب ثائرا علي الاسترسال مؤمنا بجمال الجمل القصيرة ـ كما في الإنجليزية ـ والتخلي عن الروابط اللفظية ، ومن حيث اللفظ مؤمنا بالفصحي وحدها وإن كنت لا أزال أجدها في بعض الأحيان مستعصية علي ، لست آسفا علي هذه التجارب وإن كانت قد أنهكتني ودفعت فيها زهرة العمر .

سأعود الآن لمقالك . كل ما جاء به حق لا مراء فيه ، ولكني أريد أن أخطو خطوة أخري فأقول انها مشاكل ترجع إلى الوضع الجامد لا الوضع المتحرك للغة . فليس الذنب ذنب اللغة بل ذنب الكاتب والشاعر . ولو فرض أن تحققت المعجزة وأصبح في يدنا قاموس يتضمن جميع الألفاظ التي يحتاج إلى ها الرجل المثقف في أوروبا ثم أعطيناه لرجل لا يحس أو لا يتعمق احساسه فما أظنه قادرا علي الانتفاع به . وإن فعل ، فسيكون انتفاعه من قبيل السطو أو العارية لا انبعاثا من الروح والنفس . آمنا وصدقنا أن عقد الفصحي تعوق الكاتب أو الشاعر ، فما القول في موسيقانا وهي لا تزال إلى الآن في دور السجع أو النقر وتلعيب الحواجب ؟ ! . إن أغانينا كعربات البضاعة المفككة ، بعضها يهتز يمينا وبعضها يهتز يسارا ، ولكنها كلها تسير علي قضيبين ثابتين تري مبدأهما كما تري نهايتهما . وإذا كان لدينا بعض ذوي المواهب في التصوير والنحت فإنهم فرادي ضائعون ، لا تجاوب بينهم وبين الشعب . ولا نجد ذكرا للفن المصري في الأبحاث التي تتناول الفن العالمي . وما القول في فن العمارة وقد زاد حياتنا اضطرابا علي اضطراب ، لا ننا ننقل بدون فهم أو وعي ، ونعجز أو نجبن عن التعبير بجرأة عن حاجياتنا في بلادنا وأجوائنا . كيف تحيا ألفاظ الصناعة إذا لم تكن لدينا صناعة ؟ ! وكيف تحيا ألفاظ الشعور والعواطف إذا لم تكن أرواحنا متلهفة للمعرفة لا يرهبها أو يرهقها التعمق والتكامل ؟ ! . كل ديوان شاعر فحل هو ديوان رجل غني النفس أولا ثم ديوان شاعر بعد ذلك . وهؤلاء الذين لا نت لهم الفصحي : لماذا لا يصل انتاجهم إلى المستوي الذي نجده عند كتاب الغرب ؟ فالعلة إذن أن الأمة العربية فقدت منذ أمد غير قصير قدرتها علي الانتفاع ووقفت وتقهقرت ، فلا مفر من أن يكون لها لغة وفنون مفصلة علي قدها (هل حدثت النكسة حينما بطل الجهاد في الإسلام لا نه دين ديناميكي بطبعه ؟) ولابد لبعث الحركة من جديد أن نعرف أولا : من نحن وماذا نريد ؟ هل يرضيك أن أدرس التاريخ في كتب تتحدث عن العصور المظلمة وعصر النهضة ، وهي عندنا في تاريخنا عصور الرقي وعصور الانحطاط ؟ قرئ علينا الشعر الجاهلي في المدارس علي أنه فكة قواميس نعرف منه ألفاظ العرب عن الصحراء والناقة ، ولم ينبهنا أحد إلى النواحي الفنية في هذا الشعر ، وكيف أن شاعرا كذي الرمة يخصص القصيدة كلها لوصف الطبيعة والحيوان لا يذكر فيها انسانا بذم أو مدح . وقال لنا بعض المجددين : ما أعجب فهم عمر بن أبي ربيعة لطبائع النساء ، انه مودرن ! ولكن لم يذكر لنا أحد عن قصيدته في الأخت الكبري والصغري كيف أنهي هذه القصيدة بوصف البئر وسقيه لناقته ، ولا أعرف شيئا يضارع ختام هذه القصيدة في الروعة الفنية : فكيف تحيا الفصحي إذا كانت هذه الثروة الفنية لا تزال مجهولة ؟ فالمشكلة إذن أعمق بكثير من الفصحي والعامية . هل مشكلة إيمان الشرق بنفسه ، وقدرته علي النهوض ليشارك علي الأقل في الحضارة التي يبنيها علماء الغرب وأدباؤه ـ إن لم نقل مقدرة الشرق علي بعث حضارة جديدة منبعثة من

روحه وماضيه ، لتتحقق بها سنة الله في الكون والتاريخ في استبدال قوم بقوم وحضارة بأخري . فتبسيط النحو ومحاولة كتابة اللغة بخط آخر لن يؤدي الآن إلا لزيادة الاضطراب والبلبلة .

لقد شاهدت بنفسي الانقطاع الخطير في الثقافة عند الشعب التركي من جراء الأحرف اللاتينية . ومن العبث الرجوع من جديد إلى فكرة المرحوم عبد العزيز فهمي . وقد تأملت مشكلة الخط العربي كثيرا وأصبح يخيل إلى أنها مشكلة الطباعة لا الكتابة . فأنت تستطيع أن تعطي المطبعة كتابا مشكولا علي الوجه الصحيح فيقرأه الناس قراءة صحيحة . ولكن المطبعة عاجزة عن أن تنجزه في وقت معقول أو بمصاريف معقولة . وقد زار مصر منذ سنوات مضت شاب لبناني يشتغل في أحد مصانع الآلات الكاتبة في أمريكا واسمه حفار علي ما أذكر . وجاء لنا بمشروع لا حرف عربية منفصلة للطباعة يسهل شكلها . وبدأت الأهرام تكتب به سطرا أو سطرين علي سبيل التجربة ، ثم ما تت الفكرة ، وأعتقد ـ كخطوة أولي ـ أن مشروع الطباعة بأحرف منفصلة لا تتغير ـ بتغير أمكنتها من الكلمة ـ ينبغي أن يلقي من جديد عنايتكم . وها هم الإفرنج يكتبون بيدهم خطا وفي مطابعهم خط آخر . فلماذا لا يكون حالنا كحالهم ؟

بهذا لا نقطع صلتنا بالماضي لا ننا سنظل نكتب بيدنا الخط المتصل الذي طبعت به كنوز تراثنا . ويبقي بعد ذلك الأمل الأهم وهو أن يكثر بيننا ممن يعرفون الفصحي كتاب وشعراء أغنياء النفس ، صادقو الشعور . تؤرقهم الأمانة والدقة والحاجة الملحة للتعبير عن النفس والوطن والمجد السالف وما نحلم به من مجد قادم . كل حبة ينثرونها ستؤتي ثمرتها وستجد من يقرؤها ، حتي بين العامة ! أقول هذا لا نني كنت أحب دائما أن أقف مع جمهور العامة في أوقات الأزمات السياسية للاستماع للإذاعة ، وكنت أسأل الكثيرين من هؤلاء العامة : هل يفهمون ما يقال لهم ؟ وهل يحبون أن تتحدث إلى هم الإذاعة بالعامية ؟ فكان الجواب دائما : لا ، هكذا أحسن لنا .

وختاما أرجو أن تسعدني الأيام برؤيتك قريبا لا قدم لك إجلالي واحترامي وإخلاصي .

يحيي حقي

١٩٥٤ / ١٠ / ١١

لقد ظلت هذه الرسالة العامرة بأدب يحيي حقي وبلاغته وفكره ، حبيسة الأوراق الخاصة لعميد الأدب العربي الراحل الدكتور طه حسين ، حتي عثر عليها الكاتب والسياسي الكبير الراحل الدكتور محمد حسن الزيات زوج كريمة طه حسين ضمن أوراق كثيرة أخري ، فسلمها للسيدة نهي حقي ، وبالرغم من انقضاء قرابة نصف قرن (

ثمانية وأربعين عام ا) علي الرسالة ، فإن كثيرا مما جاء فيها من شواغل يحيي حقي وهمومه لا يزال حيا ومستمرا ، خاصة ما يتصل بقيم الاحترام والتوقير الذي كان عمالقة هذا الجيل يكنه كل منهم للآخر ، حتي عندما يعلن يحيي حقي عن عدم خضوعه لسحر الجاحظ في مدرسة الكتابة وإخلاصه لا بن المقفع ، وهو يعلم أن طه حسين أقرب إلى مدرسة الجاحظ منه إلى مدرسة ابن المقفع .

أو هو يوضح لطه حسين مدي استفادته من دروس العالم والمحقق الكبير محمود شاكر في فهم كثير من أسرار الشعر الجاهلي والإسلامي ، وكنوز اللغة ، وهو يعلم مدي النفور وانقطاع الصلة بينهما ، منذ أعلن محمود شاكر في مقدمة كتابه عن المتنبي تركه للجامعة بسبب دروس طه حسين عن الشعر الجاهلي ، وقراره السفر إلى الحجاز لدراسة الشعر الجاهلي في أرضه وبيئته .

ولا نجد دليلا علي صدق تواضع يحيي حقي وعمق توقيره لطه حسين من رسالته الثانية إلى ه في مناسبة نشر روايته صح النوم كاشفا عن مغزي كتابتها ، ومستأذنا عميد الأدب العربي في أن يبصره إلى ما غاب عنه ، بعد أن يطلع عليها .

يقول يحيي حقي:

سيدي العزيز الدكتور طه حسين:

تحية وسلاما وأشواقا كثيرة . وبعد ، فهذه أول نسخة أتسلمها من المطبعة من قصة كتبتها أخيرا ، أقدمها لك ، اعترافا بفضلك علي سابقا ولاحقا إن شاء الله . وما أظنك لا تحب إلا أن أكون شديد الحرص علي معرفة رأيك فيها . كتبتها استجابة لدوافع عدة: أنفت أن أحداث مصر لا تجد لها صدي في الإنتاج الأدبي ، قد بحثها المختصون ـ كل من ناحيته ـ في السياسة أو الاقتصاد أو التاريخ وبقي الجانب الإنساني ـ مع أنه الأساس ـ للأفراد والزعيم علي حد سواء ، مختبئا لا تسلط عليه بعض الأضواء .

وكذلك لا شك أن الأخطار المحيقة بمصر في الداخل والخارج هي التي تفرض نظام الحكم فيها ، وهذا النظام يتاح له الاستقرار والوضوح والنمو ، إذا استند علي فلسفة تميزه عن بقية أنظمة الحكم بقدر ما تكون هذه الفلسفة تعبيرا عن حاجة البلد . فرأيت أن الطريق الذي نسير فيه يحتاج أيضا إلى التنبيه برفق إلى كيان الفرد إزاء المجتمع ، وحتي الأدباء الذين يدافعون عن أنظم الحكم الـ Totalitaires (هكذا كتبها يحيي حقي ومعناها: الشمولية) يدافعون من حيث لا يشعرون عن كيان الفرد ، بدليل أن إنتاجهم هو وليد الشعور بذاتيتهم ، فإذا قدر لـ صح النوم أن تجد لها من يصغي إلى ها فإنها قد تقلل أيضا من شعور الخوف الذي يشل كثيرا ممن يرجي منهم المشاركة والنشاط والإنتاج .

إنني أعترف بأنني لم أنزح البئر كله بل أخرجت بدلو صغير عينات متفرقة وحسبي أنني وضعت فيها كل نفسي ، وسيحاسبني بعض الناس علي أن القصة بها تفاصيل لا تنطبق علي الواقع . مع أنها قصة رمزية ، وإن كنت لا أغفل عن أن الواقع هو المادة المثلي للرمز . في نيتي أن أدفع هذه القصة لقدرها في السوق في أوائل الشهر القادم ، وأرجو أن تجد وسط مشاغلك بعض الوقت للاطلاع عليها ، فإذا فعلت فلا شيء يسعدني أكثر من أن تحدد لي موعدا ألقاك فيه فتبصرني بما غاب عني ، ودمتم للمخلص أبدا .

يحيي حقي

٢٣ شارع الأمير حسن / الزمالك شقة١٦

وشكرا ـ مرة ثانية ـ للسيدة نهي يحيي حقي علي هذه القطرات المعتقة من عطر الأحباب ـ بتعبير يحيي حقي نفسه ـ ونحن في ذكري ميلاده ، آملا أن تتاح لكل رسائل يحيي حقي طبعة جديدة مكتملة ، يضاف إلى ها ما تم اكتشافه من رسائله أخيرا ، من خلال الجهد الدءوب لا بنته الحريصة ـ كل الحرص ـ علي تراث أبيها العظيم ، والكاتب الصحفي إبراهيم عبد العزيز الشديد الإخلاص والولاء لا ثار أدبائنا الكبار ، وسوف تساعدنا هذه الطبعة الجديدة ـ نحن قراء يحيي حقي ومحبيه ـ علي الاقتراب أكثر من تجليات روحه وفكره وقلبه ، المتوهجة في تراثه الأدبي والإبداعي الفريد .

حسين عفيف في الذكرى المئوية لميلاده

بقلم: فاروق شوشة

مازلت أذكر إلى وم والرجل واللقاء كأنه حدث بالأمس القريب ، بالرغم من مرور واحد وأربعين عام ا عليه . كان ذلك في أحد أيام شهر سبتمبر عام ١٩٦١ حين دخل علي ـ في مكتبي بإذاعة البرنامج الثاني ـ البرنامج الثقافي الآن ـ في شارع علوي المجاور لشارع الشريفين حيث مبني الإذاعة الرئيسي في قلب القاهرة ـ دخل علي رجل وضيء السمت والمحيا ، نحيل كأشد ما يكون النحول ، لكنه النحول الذي يصيب العشاق المستهامين ، خفيض الصوت والنبرة ، يخطو في حياء جم ويتحدث في ألفة ممزوجة بالتواضع ، وفي يده ديوانه الأرغن الذي صدر له منذ شهور قليلة عن دار المعارف .

وعرفني بنفسه ، وتواضعه الجم لا يفارقه: حسين عفيف ، الشاعر ، ومدير التفتيش القضائي بوزارة العدل . كان يبدو من سمته أنه يخطو إلى الستين ، وأنه من النوع الكتوم الذي يقتصد في البوح ، فهو لا يتكلم كثيرا ولا يثرثر ، وبدأت أتصفح ديوانه وهو جالس أمامي يرقبني في صمت متأمل . كنت قد قرأت له علي صفحات الأهرام عددا من مقطوعاته النثرية ، المتوهجة بالشاعرية ، والإيقاع الداخلي ، والغني الروحي ، والتأمل الشفيف . وقرأت له قبلها روايته زينات التي تكشف صفحاتها عن صدمته في تجارب شبابه الأولي ، وكأنها تضم أصداء وظلالا وأطيافا لهذا الحب الأول وهذه الشحنة العاطفية المبكرة ، التي أوصلته إلى نهاية حزينة ، جعلته يكتفي ـ طوال حياته ـ بالغناء للمرأة ، والعزف علي أوتار الحب ، دون أن يقترب منها اقترابا حقيقيا يجعل منه زوجا وأبا ، فظل عزبا حتي رحيله .

وانتهيت من تصفح الأرغن لا ستأذنه في عرض الديوان ومناقشته من خلال برنامج مع النقاد الذي أسند إلى أمر تقديمه بعد انتقال صاحبته الإعلامية الكبيرة الأستاذة سميرة الكيلاني من الإذاعة للعمل بالتليفزيون ضمن الكوكبة الأولي من الرواد الذين تم علي أيديهم وضع اللبنات الأولي في العمل التليفزيوني: سعد لبيب وصلاح زكي وعباس أحمد ثم لحقت بهم همت مصطفي وآخرون لم يتحمس حسين عفيف كثيرا لهذا العرض ، ويبدو أنه كان حريصا علي إهدائي ديوانه لتقديم مختارات منه في برنامج شاعر وديوان الذي كنت أقدم من خلاله مختارات من روائع الشعر العربي ، قديمه وحديثه ، وكان بمثابة النافذة الأولي للدواوين الأولي في حركة الشعر الجديد أو الشعر الحر ، الذي كان يذاع من إذاعة البرنامج الثاني لا ول مرة ، في الوقت الذي كانت لجنة الشعر بالمجلس الأعلي للفنون والآداب ـ ومقررها الكاتب الكبير عباس محمود العقاد تنظر إلى ه باعتباره

نثـرا ، وتحيلـه إلى لجنـة النشر بـالمجلس لكـنني اكتـشفت ـ بعـد ذلـك ـ أن عـدم حماسـه لمناقـشة الـديوان ، كـان بـسبب عزلتـه وانطوائيتـه ، وحرصـه علـي عـدم المـشاركة في أيـة حوارات أو مناقشات .

ومـشاركته في البرنـامج سـوف تتطلـب بالتأكيـد حـديثا عـن الـنفس ، وقـراءة لـبعض المختـارات ، وإسـهاما في الحـوار ، وتعقيبـا علـي الآراء الـتي يبـديها النقـاد . الأمـر الـذي جعلـه يتمـسك بموقـف الاعتـذار ، لكنـه لا ن آخـر الأمـر ، حـين ذكـرت لـه أنـي أفكـر في أن يكـون الناقـدان اللـذان سيناقـشانه همـا : الـدكتور محمـد منـدور والـدكتور محمـد غنيمـي هـلال ، ويبدو أنه كان يكن لهما احتراما وتقديرا كبيرين .

كـان تـسجيل البرنـامج بعـد هـذا اللقـاء بأسـبوعين ، وفاجـأني الناقـدان باتفاقهمـا علـي العديـد مـن المحـاور الرئيـسية أبرزهـا التـأثر الواضـح في ديـوان الأرغـن بـشاعر الهنـد والإنـسانية طـاغور ، في قالـب شـعره وموضـوعات تجاربـه وصـوره ، وفي تطـور حياتـه العاطفيـة ، فـضلا عـن روح التأمـل الـشفيف ، ومحاولـة النفـاذ إلى الأسـرار الأولـي للحيـاة والكـون ، والتوحـد مـع الطبيعـة إحـساسا ونبـضا وعاطفـة . وهـو الأمـر الـذي حـدا بالـدكتور محمـد غنيمـي هـلال إلى كتابـة دراسـية نقديـة تحليليـة للـديوان ـ نـشرها بعـد إذاعـة البرنـامج ـ يوضـح فيهـا كـثيرا مـن النقـاط الـتي أثارهـا الحـوار ، ويعـد الـديوان فتحـا جديـدا في الأدب العربـي ، إذ هـو ضـرب مـن الـشعر العربـي الحـر ، غـير المقيـد بقافيـة أو وزن في معناهـا التقليـدي ، سبق فيـه الـشاعر إلى نـوع مـن التجديـد في الـشعر قـد يكـون النقـد العربـي ـ بعـد ـ غـير مهيـأ لا سـتقباله ، خاصـة والمعركـة بـين مـا سمـوه الـشعر الجديـد والقـديم لمـا تخـف حـدتها بـين فريقـي النقـد المتـصارعين ثـم يقـول في دراسـته الـتي يتـضمنها كتابـه دراسـات ونمـاذج : في مـذاهب الـشعر ونقـده الـصادر عـن نهـضة مـصر ولعـل الأسـتاذ حـسين عفيـف قـد اسـتجاب في ديـوان لـروح الـشعر كمـا نفهمـه في العـصر الحـديث ، ألا وهـو التـصوير للمـشاعر ، أي إيرادها في صـور تبعـد بهـا عـن التجريـد مـن ناحيـة ، وعـن الـسرور والتعـبير مـن ناحيـة أخـري . ولا قيمـة للموسـيقي في هـذا المفهـوم إلا بمقـدار مـا تـشد مـن أزر هـذه الـصور وتـضيف إلى إيحاءاتهـا . وبهـذا نفـرق بـين الـنظم والـشعر . فـإذا تـوافرت موسـيقي الكـلام وخـلا مـن التصوير فإنـه يكـون نظمـا لا شـعرا في حـين لـو تـوافرت روح التـصوير للنثـر وخـلا مـن الموسـيقي التقليدية فإنه يكون قد توافرت له روح الشعر .

ويلاحـظ الـدكتور هـلال في ذكـاء تأمـل ونفـاذ بـصيرة ودقـة حـس ووعـي أن حـسين عفيـف ـ في ديوانـه ـ يـري مـا يـراه طـاغور مـن أن عبـادة الجمـال مـن عبـادة الله ، وأن الكـون يعـاني الألم لا نفـصاله عـن الـروح الـسر مـد حـتي يعـود إلى ه بـالموت ، ولهـذا كـان الألم طـابع الوجود :

لا أغنية جميلة لا يشيع منها الأسي
الذي ينبع في نفوسنا من عين مجهولة
لا زهرة لا يقطر منها الندي
ولا سرور لا يعبر عن نفسه بدمعة
يذرفها في صمت
لا شيء أبدا لا يدين للألم
الوجود نفسه كان ألما كبيرا
منذ انفصل عن الروح الشريد

ولا يفوت غنيمي هلال ـ كما لم يفت الناقد الكبير الدكتور محمد مندور في مناقشته لشعر حسين عفيف ـ وجود نزعة أبيقورية نهمة ، تتوقف عند تفاصيل الجسد ، في نشوة حسية عارمة ، تجاور نزعته الصوفية المتأملة ، والمتطهرة ، التي تسود معظم قصائده ، لكن حيرة الشاعر الكبري أمام مصير الإنسان والحياة والكون ، ترتطم بافتتانه بالجمال البشري في تجلياته المحسومة ، وكأنه يعيش صراعا بين المطلق والنسبي ، الخالد والفاني ، الباقي والزائل ، وهو أمر يختلف فيه حسين عفيف عن طاغور ويبتعد عن عالمه ابتعادا كليا .

وعندما يقترب غنيمي هلال ـ علي سبيل المثال ـ من بعض مقطوعات حسين عفيف في ديوانه الأرغن ، فإنه يري في قصيدته الثانية والخمسين انعطافا إلى عالم طاغور وحبيبته تسأله أذاكري أنت إذا حان الفراق ؟ فيجيبها حسين عفيف بقوله : سأذكرك كلما غرد طائر فأبلغني منك رسالة ، وسأقطف الأزهار في الصباح وأضعها في الجدول ليحملها إلى ك ، وأضمخ بالعطر النسيم الساري ليملأ به جوك . ارقبيني في كل شيء وانظريني في كل شيء . وإذا ما رأيت كوكبا يتهادي ، فاعلمي أني خررت صريع هواك ، ولا تترقبيني بعد ذلك ! .

فهو يري أن مثل هذا الشعر المنثور يحمل أصداء من القصيدة الأربعين لطاغور في ديوانه البستاني . لكنها أصداء بعيدة ، لا ترتفع إلى مستوي دقة موقف طاغور وشموليته ، وروعة تصويره لهذا الموقف وهو يقول :

احتفظي بهذا الوهم لحظة ،
ولاتنبذيه في سرعة القسوة
حين أقول : سأهجرك أبدا ، فخذي قولي
علي أنه الحق ، ليغشاك هنيهة ضباب
يهيم علي الأهداب السوداء من ناظريك

ثم ابتسمي في مكر ـ ما بدا لك ـ
حين أعود من جديد !

أروع ما في حسين عفيفي ، أنه لم يضع كلمة شعر علي دواوينه هذه ، بدءا بديوان الأرغن ، فديوان الغدير ، فديوان الغسق ، فديوان حديقة الورد فديوانه الأخير عصفورة الكناريا . وترك لقرائه ـ وللنقاد من بعدهم ـ أن يطلقوا علي هذه الكتابات ما يشاؤون من تسميات . أما هو نفسه ، فيفاجئنا علي غلاف ديوانه الغسق بقوله : مقطوعات من الشعر المنثور ، تعصر لب الحياة في كأس ، تحوي قيمتها الأصلية مصفاة مما يشوبها ، ـ ؟ منها القطرة عن البحر . هدفها إيقاظ القلب باللفظ المشع والايحاء الهامس ، ليبصر الحقائق بنفسه من خلال إشراقاته ، ويكتشف طريقه الذي يضله مغمضا . فالقلب يبصر ما لاتراه العين ، ويلهم كالطير اتجاه الريح . وهو أبعد إدراكا من العقل وأصوب .

ويقول عن ديوانه عصفورة الكناريا : ما هو بشعر ولا هو بنثر ، لا يصارح بل يوحي لتفهم وحدك ، وفي إيجازه يكاد يطوي العوالم طيا ، فكم ضاق بالشرح صدر وضاع في التيه هدف . إنه إذن كما يقول في ختام ديوانه حديقة الورد: شعر منثور . يجري وفق قوالب عفوية يصبها ويستنفدها أولا بأول . لا يتوخي موسيقي الوزن ولكنه يستمد نغمة من ذات نفسه . لا يشرح ، ومع ذلك يوحي عبر إيجازه بمعان لم يقلها . ليس كشعر القصيد ولا كنثر المقال ، ولكنه أسلوب ثالث . ومعاناته في أنه يأبي إلا أن ينضبط دون الاستعانة بضوابط .

أفضل تعريف لهذا اللون من الكتابة الشعرية ، أن نقرأه في ذاته . دون أن نقع في ولع التصنيف والسبق النقدي المتقافز . هذا لون من الكتابة الأدبية ، سماه صاحبه : بالشعر المنثور ، لا علاقة له بما يسمي الآن بقصيدة النثر ، كما أنه لا علاقة لقصيدة النثر بكتابات سابقة في تاريخ إبداعنا العربي ، والذين يحاولون اصطياد مشابهات أو مقاربات بين قصيدة النثر ونماذج عربية سابقة ، عليهم أن يكفوا عن هذا التحايل لا ضفاء شرعية ليست مطلوبة ، ولاتضيف شيئا . والأجدي أن يقال إن قصيدة النثر لدينا هي امتداد لقصيدة النثر في الكتابات الأوروبية ، وصدي للترجمات التي شاعت لها في العربية ، وبخاصة للشاعر سان جون بيرس .

أما حسين عفيف فهو خارج هذا السياق كله ، ولاعلاقة له من قريب أو بعيد بقصيدة النثر وليس رائدا لها كما يزعم البعض . ولنتأمل ما يقول: انتابت فؤادي رعشة مقدسة ، حين حمل إلى الفجر باكورة مقدمك ، ورأيتك تخرجين إلى الوجود من أكمامك ، في زمرة العذاري اللاتي زفهن إلى ه هذا الصباح . ولقد راعني منك أنك زهرة موفورة

الحسن ، عذراء قد حسرت أكمامك للتو ، فبدت ما خوذة بسحر الضياء ، وأقبلت تنهل منه وهي مبهورة .

فهبطت إلى ك من غصني واجفا ، وحييتك بأنشودة عذبة من نغمي المبحوح ، تقبلتها في خفر وأومأت إلى باسمة .

ورددتها لي بكأس من نداك رشفت فيها أنفاسك العطرة ، ثم طرت أنا البلبل إلى غصني المياد ، أحمل بقلبي عبير الحب ، وأنشره في البكور أهازيج .

* * *

إذا ما انقشع الظلام يازنبقتي ، وتثاءب عنك الفجر بيضاء فارعة بين أترابك ، فانتظري بلبلك . لقد بات ليله ساهرا يصوغ لك الأغاني ، ويرقب الصبح على الضني ليلقيها على سمعك . وإنه لمن وحي سحرك ما نضده ومن وجده المبرح ما أترعها بالشجي لم لا يغني على هواه وقد سلبه الحب وقاره ؟ ألم تشبه فتنة منك طاغية أردته سكران ؟ أنا آت أغرد مع الفجر فانتظري مقدمي . ولسوف أرسلها أناشيد تأخذ بالألباب من أعلى الأيك .

ترى أأنت معيرتي وقتئذ سمعك ، ومصغية للمشبوب من نجواي ؟

* * *

هأنذا أعود - في مناسبة الذكرى المئوية لميلاده - إلى ذكرياتي البعيدة مع هذا الشاعر المبدع والانسان الجميل المرهف من خلال رسائله الأنيقة المنمنمة التي كان يخصني بها كلما استمع عبر برامجي الإذاعية إلى قراءات من دواوينه ، وإلى استضافتي له في حلقة من البرنامج التليفزيوني الأمسية الثقافية في الشهور الأولى من عمر البرنامج - خلال عام ١٩٧٧ - وقبل رحيله بقليل ، ويومها كان بصحبته صديقه رجل القضاء الأديب العالم المستشار وجدي عبد الصمد ، الذي كان بدوره صديقا لصفوة من كبار المبدعين والمفكرين .

وكانت استضافة شاعرنا في الأمسية فرصة لتقديم سطور من سيرة حياته ، فقد ولد في السادس من ديسمبر ١٩٠٢ بمدينة طنطا ، الأب كان يرأس المحكمة الشرعية بالقاهرة .

تقول موسوعة أعلام الفكر العربي الصادرة عن مكتبة مصر في جزئها الثاني: إن شاعرنا لم يعرف الاستقرار في تعليمه أو روابطه الانسانية على نطاق المجتمع بسبب تنقل والده الدائم بين المحاكم في طنطا والقاهرة والزقازيق وأسوان . مما كان سببا من أسباب انطوائيته وحبه للعزلة . تخرج في كلية - الحقوق عام ١٩٢٨ ، وفي سنة ١٩٢٩ اشترك

في تأسيس جمعية لشباب الحقوقيين ونشر كتيبا تحت عنوان أزمة الحقوق ثم كتابا بعنوان البطالة سنة١٩٣٢ . انضم إلى جماعة أبو للو سنة١٩٣٤ ونشر في مجلتها قبل أن تحتجب بعض قصائده التي التزم فيها عمود الشعر العربي .

أصدر أول ديوان له بعنوان مناجاة عام ١٩٣٤ ، ثم ديوانه وحيد عام ١٩٣٨ فمسرحية سهير ثم ديوانه الزنبقة . وفي سنة ١٩٣٩ أصدر ديوانه البلبل وروايته الشهيرة زينات . وفي سنة ١٩٤٠ أصدر ديوانه الأغنية ثم ديوان العبير سنة ١٩٤١ . وبعد توقف لمدة عشرين عام ا ـ بسبب عمله القضائي وعدم استقراره ـ عاود إصدار إبداعاته : الأرغن ١٩٦١ ، الغدير ١٩٦٥ ، الغسق ١٩٦٨ ، حديقة الورد ١٩٦٨ وأخيرا عصفور الكناريا ١٩٧٧ .

وفي السادس من يونيو عام ١٩٧٩ كان رحيل حسين عفيف عن سبعة وسبعين عام ا ، دون أن يحس برحيله أحد . فقد مضي في هدوء كما عاش حياته كلها في هدوء ، بعيدا عن ضجيج الحياة الأدبية والثقافية ، وصراعاتها التي يدور معظمها حول ما ليس ينفع الناس ، غير طامع في جائزة أو شهرة أو ذيوع صيت ، فحسبه أنه قال كلمته ومضي ، وستظل كلماته تتحدث عنه ، وتشير إلى ه ، بأروع وأبقي مما يصنفه النقاد والدارسون .

رسالة عاجلة إلى وزير الثقافة ورئيس الأوبرا

بقلم: فاروق شوشة

لا يختلف اثنان علي المكانة الرفيعة التي تحتلها دار الأوبرا في حياتنا الآن باعتبارها قلعة شامخة لتقديم الفن الرفيع والتصدي لكل ألوان الهبوط والتردي والسوقية في الموسيقي والغناء وأصبح للأوبرا جمهورها الحريص علي متابعة عروضها وحفلاتها المصرية والعربية والعالمية ، ثقة منه في ان ما تقدمه الأوبرا علي مسرحيها الكبير والصغير يحمل سمة الفن الراقي ويوصل للتذوق الناضج ويثري الوجدان خاصة بعد أن اتيح لكثير مما تقدمه من عروض وحفلات الوصول إلى الملايين من خلال الاذاعات الخارجية للبرنامج الموسيقي بالاذاعة والقنوات التليفزيونية فلم تعد مقصورة علي المئات الذين يتاح لهم التوجه إلى دار الأوبرا بعد ان سقط الحاجز النفسي الذي كان يحول بين الجمهور ودار الأوبرا في اول الأمر عندما كان يحس انها مكان غريب عليه له متطلباته التي تفوق طاقته وتشعره بالغربة وانها لم تخلق لا مثاله من البسطاء لكنها الآن بيت للروح وذخيرة للوجدان !

وعاما بعد عام وبفضل برامج عديدة ومتنوعة ومؤازرة واعية من الصحافة والإذاعة والتليفزيون ورعاية كريمة من الدولة ممثلة في شخص السيد رئيس الجمهورية والسيدة الفاضلة قرينته واهتمام واضح من المسئولين في وزارة الثقافة وممن تعاقبوا علي رئاسة هذه الدار من مسئولين ومبدعين بدءا بالدكتور طارق علي حسن والدكتور ناصر الانصاري فالدكتور مصطفي ناجي فالدكتور سمير فرج الذي أعلم أنه يعطي الأوبرا ونشاطها كل وقته وفكره وجهده حريصا علي توفير المستوي اللائق لكل عروضها وانشطتها وتحقيق المزيد من الابتكار والاضافة والتجديد فيما تقدمه بفضل هذا كله اصبحت الأوبرا حائط الصمود الأخير في وجه موجات الهبوط الشرسة التي تزحف علي كل موقع ومن خلال كل وسيلة عرض فارضة سوقيتها الفجة من خلال توليفة تجمع بين بذاءة الكلمة وانعدام الموهبة اللحنية لدي عدد من المتكسبين الذين يعيشون علي اقتباس وسرقة العديد من الجمل اللحنية للملحنين الكبار الذين رحلوا عن عالمنا من أمثال عبد الوهاب والسنباطي والموجي وبليغ حمدي دون خجل أو إحساس بالعار .

ولقد اتيح لي ان اري بعيني وأسمع بأذني خلال الأسابيع الأخيرة ما يمكن ان يكون بمثابة مشروع لمعهد عال في الموسيقي والغناء يقوم بتدريب العديد من الأحداث الواعدة وصقلها علي يدي الموسيقار جمال سلامة تحت اشراف الدكتور سمير فرج ورعايته وتشجيعه وحماسه لهذا المصنع الفني الذي ينتج اصواتا موهوبة دارسة ، مصر في امس الحاجة إلى ها وكثير منها لمع في حفلات الأوبرا الأخيرة وقدمتها الأوبرا في مناسبات

عديدة خاصة مناسبات الاحتفال بأعياد يوليو في القاهرة والاسكندرية متفاخرة بهذا الإنتاج الذي يثبت عراقة مصر وأصالتها وانها ام ولود قادرة علي ان تنجب باستمرار وفي كل يوم عشرات بل مئات المواهب المتألقة في كل مجال ، والجميل ان هذه المواهب الجديدة الشابة والمقتحمة تملك من الامكانيات ومن الوعي ومن الحساسية ما يجعل منها نجوم الغد القريب في عالم الغناء ويكفيها فخرا انها تخرجت من هذا البيت العظيم الذي اصبح مقرا وعلامة علي الفن الراقي الرفيع دار الاوبرا المصرية .

لهذا فان دهشة كبيرة جدا وشعورا غامرا بالغرابة تملكني وأنا أطالع هذه الرسالة التي وصلتني من الفنان المثقف عاشق الموسيقي الكلاسيكية الدارس والهاوي معا سمير خوري مؤسس ومدير أوركسترا أماديوس للحجرة الرسالة يتوجه بها إلى وزير الثقافة وإلي رئيس الأوبرا بعد أن صدر قرار بوقف حفلات أوركسترا أماديوس- التي كانت تقدم علي المسرح الصغير- في فبراير من العام الماضي قبل احتفال الأوركسترا بعيده العاشر بأسبوعين فقط بالرغم من ان الاحتفال كان مدرجا ضمن البرنامج السنوي للاوبرا وتم الاعلان عنه في العديد من السفارات والهيئات والمؤسسات ومعني الاحتفال بالعيد العاشر أن هذا الأوركسترا الذي أنشأه صاحبه بماله وجهده الخاص حبا وشغفا في الموسيقي الكلاسيكية قد حظي بمؤازرة الأوبرا ومساندتها له علي مدي كل هذه السنوات التي تكون له من خلالها جمهور كبير من المثقفين والدارسين وعشاق موسيقي الحجرة ولقد اتيح لي شخصيا ان اكون واحدا من الذين سعدوا بحضور عروض اوركسترا أماديوس منذ العام الاول له والحفل الأول له الذي قدمه في فبراير عام ١٩٩١ وعايشت عن قرب تفاني سمير خوري في رسالته من اجل ترسيخ الذوق الرفيع وتوسيع دائرة عشاق الموسيقي العالمية بما يخدم الأهداف الفنية لا وركسترا الأوبرا نفسه ويوسع من القاعدة العريضة لجمهور هذا اللون من الموسيقي الذي ظل طويلا مقصورا علي الخاصة بعيدا عن الفئات والشرائح الواسعة من أبناء المجتمع ثم سعدت اكثر عندما رأيت ابنتيه الصغيرتين الجميلتين وقد اصبحتا علي مدي الأيام عازفتين متمكنتين بين عازفي الأوركسترا وقد كرم الدكتور سمير فرج كبراهما واسمها سولينا بنفسه وأهداها شهادة تقدير باسم دار الاوبرا لقيامها بعزف كونشرتو الفيولينه لباخ وهي دون الثانية عشرة من العمر بمصاحبة أوركسترا أماديوس للحجرة .

دهشتي كبيرة لا ني لا أتصور أن الوزير الفنان فاروق حسني أو رئيس الأوبرا المتليء بالوعي والاستنارة الدكتور سمير فرج يمكن ان يكون احدهما سببا في وقف عروض هذا الاوركسترا او في عدم منحه الفرصة للاستمرار في رسالته التي قام بها طوال عشر سنوات دون أن يكلف فيها الأوبرا شيئا والرسالة التي بعث بها سمير خوري رسالة غاضبة كأشد ما يكون الغضب ومعه الحق في هذا وهو يشهد مشروعه الراقي الجميل

يحكم عليه فجأة بالاعدام ويتوقف هو في قمة نجاحه وتأثيره وإعجاب الكثيرين به ومتابعتهم له يقول سمير خوري في رسالته إلى وزير الثقافة .

هذه هي المرة الثالثة التي احدثك فيها عن أوركسترا أماديوس للحجرة ياسيادة الوزير الأوركسترا التي تأسست في دار الأوبرا في فبراير١٩٩١ وقدمت طوال عشر سنوات حفلات موسيقية شهرية علي المسرح الصغير ولاقت اعجاب المثقفين والدارسين والهواة والمهتمين بالفنون الرفيعة .

وعزفت الموسيقي العالمية بدءا بعصر الباروك مرورا بالعصرين الكلاسيكي والرومانسي حتي العصر الحديث وتمكنا من تطوير ربرتوار الأوركسترا ليصبح شاملا علي٢٢٠ مقطوعة موسيقية خاصة بأوركسترا الحجرة قدمنا فيها أشكالا مختلفة للموسيقي العالمية كالسيمفونية والكونشرتو والسيرنادا ومختلف الأشكال الأخري من هذا الفن الراقي وهو ربرتوار غير متوافر حتي لدار الأوبرا نفسها بإمكانياتها المعروفة ولاقينا استحسانا وتشجيعا من الجمهور المثقف وأصبح البرنامج الموسيقي يذيع لنا منذ عام ١٩٩١ حفلاتنا الموسيقية واصبحنا نسهم في اثراء الحياة الموسيقية في دار الأوبرا لا قتناعنا التام بأن الموسيقي العالمية هي غذاء الروح ولغة الشعوب المتحضرة كما حصلنا علي تقدير ومساندة رؤساء الاوبرا بدءا من الدكتور طارق علي حسن الذي شجعنا علي تأسيس الأوركسترا فالدكتور ناصر الأنصاري الذي منحنا شهادة تقدير وأثني علي نشاطنا الموسيقي الملحوظ وحصلنا علي درع دار الأوبرا من الدكتور مصطفي ناجي تقديرا لدور الاوركسترا في اثراء الحياة الموسيقية في دوار الأوبرا ويمنح الدكتور سمير فرج ابنتي شهادة تقدير لتفوقها في العزف وهي لم تبلغ الثانية عشرة .

ويكفينا ياسيادة الوزير اننا شجعنا خريجي الكونسرفتوار للعزف علي مسارح الأوبرا واعطينا الفرصة تلو الفرصة للأطفال الموهوبين الدارسين للعزف أمام جمهور الأوبرا لا ول مرة بالإضافة إلى مصاحبتنا لكبار العازفين المصريين الذين شاركوا في العزف مع الأوركسترا اذكر من بينهم علي سبيل المثال الفنان العالمي رمزي يسي والدكتور حسن شرارة وقد عزفنا أيضا في مناسبات اجتماعية وقومية شتي وجعلنا الموسيقي العالمية تشارك فيها وعلي سبيل المثال فقد عزفنا في مناسبة يوم التضامن مع الشعب الفلسطيني وعيد الموسيقي ويوم البيئة العالمي وفي ذكري مرور٢٥٠ عام ا علي يوهان سباستيان باخ- في الأسبوع الذي احتفلت فيه الدول الاوروبية كما احتفلنا بذكري أعظم عازف فيولينه في القرن العشرين وهو يهودي مينوهين الذي ندد بالاحتلال الإسرائيلي لفلسطين في الكنيست الإسرائيلي وتجاهلته دار الأوبرا وقدمنا حفلات عديدة بمناسبة عيد الأم في كل عام ندعو فيها الأطفال الموهوبين لعزف الموسيقي العالمية علي مختلف الآلات الموسيقية كما دعونا٥٠٠ طفل من الملاجيء ودور الأيتام المختلفة- مسلمين ومسيحيين تعاطفا مع هؤلاء

الأطفال في عيد الأم ولقد كان هدفنا دائما وأبدا محاربة الفن الهابط الذي يعانيه المجتمع في السنوات الأخيرة وإعلاء الفن الراقي وتقديم مختلف انماط واشكال الموسيقي العالمية ورفع الذوق العام للمجتمع وكنت في هذا كله أشيع هوايتي وحبي للموسيقي وأعطي الفرصة للشباب الدارس للعزف أمام الجمهور فضلا عن إعطائي الفرصة لا بنتي لتشارك كل منهما بالعزف بمصاحبة الأوركسترا مرة علي الأقل في كل عام .

السيد الوزير الفنان فاروق حسني .

لقد أرسلت إلى كم رسالة خطية تسلمها مكتبكم الموقر في فبراير٢٠٠١ عندما فوجئت بأن إدارة دار الأوبرا قد أوقفت حفلات أوركسترا أماديوس فجأة وبدون مبررات قبيل الاحتفال للعيد العاشر للأوركسترا بأسبوعين وكنت آمل في أن أتلقي ردا ايجابيا يشجعني علي مواصلة حفلات الأوركسترا في دار الأوبرا ثم التقينا في شهر يونيو في العام نفسه في أحد معارض الفن التشكيلي بالزمالك وعرضت عليكم الأمر ووعدتموني بالحل السريع وأخيرا في٦ أغسطس الماضي أتيح لي أن اتحدث إلى كم تليفونيا من خلال برنامج اسهر معانا الذي تقدمه السيدة الفاضلة سلمي الشماع علي الهواء مباشرة ووعدتموني بأنكم ستتخذون قرارا في أقرب وقت ومازال وقف حفلات الأوركسترا مستمرا حتي إلى وم .
لقد قيل لي ياسيادة الوزير ان اوركسترا اماديوس للحجرة ينافس أوركسترا القاهرة السيمفوني وان الاوركسترا يكلف الدولة إضاءة المسرح وتشغيل أجهزة التكييف وهو كلام غير مدروس وغير منطقي وللعلم ياسيادة الوزير فإن تكاليف الحفل الواحد لا وركسترا القاهرة السيمفوني تبلغ٤٥ ألف جنيه والايراد اقل من اربعة آلاف جنيه وتعلمون انه في سويسرا التي يبلغ عدد سكانها ستة ملايين نسمة يوجد بها اكثر من٢٨ اوركسترا وفي ألمانيا التي يبلغ عدد سكانها٦٥ مليون نسمة يوجد بها٤٣٠ أوركسترا .

فكيف إذن ترفض إدارة الأوبرا حفلات أوركسترا اماديوس التي تقام مجانا دون أي أعباء ما لية علي إدارة دار الأوبرا وكيف تتم المقارنة بين أوركسترا القاهرة بإمكانياته الهائلة وأوركسترا أماديوس للحجرة المؤسس والمبني علي مجهود شخص واحد علما بأن نوعية موسيقي الحجرة مختلفة تماما عن نوعية موسيقي أوركسترا القاهرة السيمفوني وكيف يمنع الفنان الهاوي الدارس من اداء رسالة فنية سامية في بلدنا المتحضر من القيام بهذا الدور وإن لم يقم به في رحاب دار الأوبرا– القلعة العتيدة للفن الراقي والتثقيف والتنوير والارتقاء بالأذواق– فأين يقوم به ؟

إنـي أبعث إلى كم بهذه الرسالة بعد أن مرت ستة عشر شهرا علي ايقاف حفلات الأوركسترا ولا أجد ما أرد به علي الكثيرين من جمهور حفلاته عندما يسألونني لماذا توقفت فجأة ولماذا ضاق صدر الأوبرا فجأة فلم يتسع لمواصلة هذا المشروع الفني الراقي بعد أن استمر طيلة عشر سنوات سمير خوري مؤسس ومدير أوركسترا أماديوس للحجرة

لقد حرصت علي أن يصل هذا الصوت من علي منبر الأهرام إلى الفنان فاروق حسني وزير الثقافة والدكتور سمير فرج رئيس الأوبرا ولست أشك في أن كليهما أكثر الناس حرصا علي كل ما من شأنه أن يزيد من جرعة الفن الراقي الجميل الذي تقدمه دار الأوبرا والذي يعرض علي مسارحها . لهذا فإن وقف حفلات أوركسترا أماديوس منذ العام الماضي امر لا يتفق مع هذا الحرص ولا مع الدور الرائد الذي تقوم به الأوبرا الآن وتتصدي به لطوفان الركاكة والتردي والسوقية والبذاءة في الموسيقي والغناء معا وإني لعلي يقين بأنهما سيأمران علي الفور بعودة الحياة إلى أوركسترا أماديوس للحجرة وإلغاء الحكم بإعدامه لتصدح جنبات المسرح الصغير كما صدحت طيلة عشر سنوات بأصداء هذه الحياة الموسيقية الراقية البديعة التي نحن أشد ما نكون احتياجا لها وحرصا علي دعمها وعملا علي انتشارها . وإن لم يكن هذا في دار الأوبرا فأين يمكن أن يكون ؟

محمد محمد الشهاوي وقصائده المختارة

بقلم : فاروق شوشة

علي هيئة الطير/ يصنع أشياءه منذ كان صغيرا/ وينفخ فيها/ فتغدو طيورا، تغرد ليل نهار/ تحلق ليل نهار/ فكل السويعات صارت لديها بكورا/ وكل الخيالات صارت لديه طيورا.

علي هيئة الزهر يرسم أحلامه منذ كان صبيا/ وينفخ فيها/ فتصبح زهرا نديا/ وكم مرة حول خدا/ وكم مرة صير الخد وردا/ وكم مرة أبصرته الطبيعة/ وهو يسافر بين الأزاهير/ يرحل في العطر/ ينداح في اللون/ يقضي النهارات طيفا يداعب سوسنة/ أو يناجي عبيرا.

وهو الآن/يرفض إلا قوانينه/ هو الآن يبحث كيف يقيم مع المستحيل علاقة/ وكيف تصير له قدرة المعجزات/ ليمتد بين النقيضين: جسر صداقة: هو الآن: روح تجول، وعقل يصول، وعين لكل العذابات وهي تطالع سفر المجاهيل مستعذبة/ هو الآن: يدخل في التجربة.

آثرت أن أترك للغة الشاعر المبدع محمد محمد الشهاوي أن تقدم لغته وشعره، وهي تحمل قسمات شاعريته المقتدرة، وإيقاعاته الموسيقية الطافرة، وعالمه المكتنز بالصور، والمجازات المدهشة، مشيرة إلي شاعر صناع شديد التمكن من أصول فنه وصنعته، عليم بأسرارها الدقيقة والخفية، قادر علي الغوص في أعماقها والرجوع محملا باكتشافاته الغنية.

ومحمد محمد الشهاوي في نبرتيه الرئيسيتين: الغنائية شجنا وبوح ذات وحسا وطنيا وقوميا، والصوفية السابحة في فضاء روحي مساحته مساحة الملكوت الأسمي، ورحابته تنطلق من رحابة الروح وازدحامها بالوجد وابتهالات الشوق إلي رحابة الكون المندي بالهبات والعطايا، والتجليات والفتوحات، هو في الحالين الشاعر الذي تملكته النشوة، وأخذته الجلالة، واهتز به الوجد في ايقاع راقص يلهمه أوتار نشيده وترانيم جذله وفيوضات محبته، لايكتب إلا وهو في حميا المقامات والأحوال يستدرك ويصعد ويشحذ مخيلته ويمعن في الصعود والاختراق، ظافرا بلؤلؤة الشعر المستحيلة، وثمرة المعراج الباهر: ما الحب عندك إلا الوجد والكبد/ يا من هواه بقلبي الجمر يتقد/ يامفرد الذات لا مثل ولا شبه/ وكل ما لم تكنه أنت: لا أحد/ قالت سليمي: تعالي الله باريها/ هي الصبابة لاتخفي خوافيها/ أجل ـ سليمي ـ وما في الحب من هذر/ فهو العطايا التي قد جل معطيها/ ونظرة من سليمي اليوم واحدة/ أشهي إلي من الدنيا وما فيها/ وقد أتيت ولا جاه ولا سند/لكنه الحب نعم الجاه والسند.

روحـي فـدي مـن يـداه أترعـت روحـي/ حـتي ثملـت بـصهباء التبـاريح/ خمـر: نهـاري هـي الـشمس الـتي ائتلفـت./ فـإن أتـاني الـدجي صـارت مـصابيحي/ وفي الجـوانح مـشكاة مباركـة/ كـم تلـهم القلـب نجـواه وكـم تـوحي. ياحـسنها مـلء وجـداني معلقـة/ تفـيض نـورا هـو الإينـاس والمدد.

قلت: الهـوي، لا سـواه، يـا ابنـة النـور/ مرقـاي صـوب الـسنا في كـل ديجـور/ ووحـده مـن بـه تحلـو منـادمتي/ ووحـده مـن لـه تـشدو مـزاميري/ هـو الحقيقـة في أجلـي مظاهرهـا/ ومـا عداه: أساطير الأساطير/ قبض ريح وأشياء هي الزبد.

مـن المؤكـد أن هـذه القـصائد المختـارة لمحمـد محمـد الـشهاوي ـ الـصادرة عـن دائـرة الإعـلام والثقافـة بالـشارقة ـ تؤكـد مكانـه ومكانتـه شـاعرا كـبيرا في حياتنـا الـشعرية المعاصـرة. شـاعرا لـه تفـرده وتمـايزه، سمتـه ونـبره وقـصيدته، لغتـه وعالمـه وصـوره ومجازاتـه وإنـشاده، شـاعرا لم يقـترب منـه الاعـلام بمـا يـستحق مـن كـشف وإضـاءة، بينمـا تغمـر الأضـواء الكاشـفة، المعـشية للأبـصار، في كـل يـوم، مـن لـيس لهـم ربـع موهبتـه، وربـع قـدره وقيمتـه: لكـن صـورهم وأخبـارهم تـوهمهم بـأنهم كبـار وأنهـم أحيـاء، وهـم في حقيقـة الأمـر ـ محـل هـزء وسـخرية وتندر، لأنهم خارجون من زمنهم.

ومحمــد محمــد الــشهاوي الــذي ســعدت بجــواره في لجنــة الــشعر وفي صــالوناتها وملتقياتهــا ومحافلــها الــشعرية، وعرفــت فيــه كائنــا وديعــا هامــسا، وإنــسانا مــصريا ريفيــا صـميما، ومؤنـسا عـذابا، ترتـسم صـورته الإنـسانية والإبداعيـة في هـذه المختـارات ومعهـا عطـر وشـفافيته، وقدرتـه علـي الإصـغاء والتأمـل، والالتفـات إلـي مـا يفـوت الكـثيرين مـن تفاصـيل صـغيرة، هـي مـادة الإبـداع الأصـيل، وخامتـه الطيعـة التـشكيل، خاصـة أن هـذه المختـارات تجعلنـا نتجـاوز قـصيدته الذائعـة الـصيت المـرأة الاسـتثناء إلـي قـصائد أخـري عديـدة، كـل منهـا قصيدة استثنائية ولؤلؤة في عقده المنظوم.

رسالة من ناقد كبير

بقلم: فاروق شوشة

أسعدني كل السعادة أن أتلقي هذه الرسالة الاضافية من الاستاذ الجامعي الجليل والناقد الكبير الدكتور مصطفي ناصف تعقيبا علي ما كتبته في الأسبوع الماضي تحت عنوان فن الإغراء بالقراءة وهو عنوان قلت إني مدين به للناقد الكبير الذي تتوهج رسالته بالنظرة العميقة الصائبة والقلق الشديد علي ما وصل إلى ه حال البحث الأدبي الآن ودعوته المخلصة إلى الكف عن عبادة الاحتراف والشهرة والسلطة والولع بالتقنيات علي حساب المتعة . وهو ما يجعل من هذه الرسالة بيانا ضافيا إلى المبدعين والنقاد والباحثين صادرا عن فكر متكامل ورؤية شجاعة .

يقول الدكتور مصطفي ناصف في رسالته :

عزيزي الأستاذ فاروق . لك التحية

اثار المقال الذي كتبته يوم الاحد الماضي فنونا من الشجن في قلبي ، وقد أردت من وراء العبارات ـ التي تفضلت بالإشارة إلى ها علي لساني ـ شيئا بسيطا . ان البحث الأدبي في أيامنا هذه مشغول بتقنيات عميقة لا سبيل إلى التهوين من شأنها . لكن هذه التقنيات فيماأظن مقصودة لذاتها ولا تحقق أهدافا قومية أو إنسانية فاضحة . التقنيات بعبارة أخري وسائل لتحقيق غايات وليست غايات أخيرة ، ومن الإسراف حقا أن تشتبه الوسائل بالغايات وأن نتكاثر حول البحث عن الوسائل ونفي ما وراءها . إننا نبحث عن وجودنا ومصيرنا ومشكلاتنا في التفهم والتواصل والحوار . وأحسب أن التقنيات التي تستخدم في البحث الأدبي المعاصر ربما يغيب عنها هذا الهم الجليل .

لقد شغل البحث الأدبي المعاصر بتقنيات أو حرفة وبذل الباحثون جهدا رائعا في تمثل الحرفة وإتقانها . ونظر بعض القراء إلى هذه التقنيات وأصحابها نظرة لا تخلو من حسد حينا ولا تخلو من دهشة واستغراب حينا آخر والشئ الذي ليس فيه شك أن التقنيات التي نستخدمها في البحث أدوات نشأت في بيئاتها الأصلية لتحقيق مصالح وأهداف ولكننا نسينا المصالح والأهداف وتوفرنا علي الأدوات والوسائل وجعلناها ـ مع الأسف ـ غايات . هل يعني هذا أن أمر وجودنا لا يعني البحث الأدبي المعاصر في بعض الظروف .

هل أستطيع ان ازعم ان البحث الأدبي المعاصر معرض في هذه الظروف لما يشبه الشذوذ والاغتراب وتكوين مملكة منفصلة أو تكوين صفوة تريد أن تثبت حقوقها وتفردها وحقها في الحكم والتوجيه .

إن تقنيات البحث الأدبي تخدم غايات: تخدم المرواغة والالتباس والهيمنة الذكية وتخدم التواصل والنور والبلاغ الأمين . أية غايات نريدها من وراء البحث الأدبي لا أريد أن أشق علي القارئ ولا أنكر دقة البحث الأدبي وروعته ولا أغض من التقدم الباهر الذي أحرزته المناهج المعاصرة . أريد فحسب أن نجعل الغايات مبتدأ الكلام في المناهج . الغايات قد ذابت في البحث الأدبي العربي ، الغايات أولي من المناهج إذا كانت المناهج أداة تست عبد نا وتسخرنا وتشغلنا عن أنفسنا .

البحث الأدبي حصين ولكنه مغلق ، البحث الأدبي عميق ولكنه غير ممتع ، البحث الأدبي نظام صفوة وليس نظام جمهور واسع .

من ذا الذي يريد للبحث الأدبي ان يكون سطحيا لا أحد . ولكن كل انسان يريد من هذا البحث ان يكون أداة فاعلة في الثقافة العربية المعاصرة . إلى س من الغريب أن تكون عبارة الثقافة العربية المعاصرة أقل الكلمات استعمالا في معجم البحث الأدبي التقنيات الآن في البحث الأدبي ليست وسيلة عمل بالمعني الدقيق . التقنيات الآن– في الأبحاث الأدبية ـ أقرب الأشياء إلى عكوف الباحث علي نفسه أو هروبه من نفسه ومن الناس . التقنيات قد كثرت حينما عزت علينا المتعة بلقاء أنفسنا والمتعة بلقاء الناس . وكل تقنية تلفت إلى نفسها وتلفت في الوقت ذاته إلى الثمرات المرجوة أو المتحققة من ورائها .

التقنيات المعاصرة مغزاها– فيما أظن ـ أن الطريق صعب مملوء بالعقبات الحقيقية والمصطنعة ، والباحث المدقق يقول في صوت هامس أنا أعرف التقنيات التي تشبه القدرة علي السير في الزحام والتنافس ، والقراء في نظر الباحث المعاصر هم المزاحمون والمنافسون له المرتابون في أمره ولهذا كله أظن ان التقنيات البحثية يراد بها ما يشبه الغلبة علي القراء وإنكار الوصل بهم وبينهم .

وبعبارة أخري تؤكد التقنيات الأدبية المعاصرة الزحام وغلبة الزحام وشيئا من الأنانية وفرض الذات والإدلال علي البسطاء الذين تعجبهم الطرق الفسيحة المفتوحة التي لا يشوبها ضباب ودخان وحركة كثيفة مرهقة .

لا غرابة إذا ذهب بي الظن إلى ان حرفة البحث الأدبي قتلت المتعة والراحة والشعور بالنور والوصل والنماء ، وسبب ذلك يسير فقد انقطعت الصلة بين البحث الادبي والمجتمع . وصار هذا البحث مقصورا علي طائفة قليلة من الناس في داخل قاعة الامتحان وقاعة الدراسة وجماعة قليلة من المختصين الذين يؤيدون البحث جهرا ، وربما ينكرونه سرا .

ولكن دنيا المصالح لا تتيح للناس ان يجهروا بشئ كثير مما في قلوبهم .

البحث الأدبي فرغ لنفسه لا ننا فرغنا - والعياذ بالله - من الهم الاجتماعي والوصل النفسي وصرنا لا ن عبد الا البحث وتقنياته . كان من المظنون ان ننظر إلى البحث الادبي بوصفه إسهاما في كشف الشخصية العربية لا الشخصية الفردية المعتزلة التياهة بالعزلة والتفرد والخروج علي الجماعة . لكن البحث الأدبي لا يسخر التقنيات لشئ مفيد كان من المظنون أن يتولي البحث الأدبي مشكلة عزوف الناس عن الأدب والشعر المعاصر في بعض وجوهه ولكنه لا يفعل !

كان من المظنون أن يتولي البحث الأدبي بنزاهة أكبر - مشكلة العلاقة بين التقاليد والخيال الأدبي الفردي ولكنه لا يفعل كان من المظنون أن يتولي البحث الأدبي مشكلة العزوف عن التخيل والمشاركة الوجدانية ولكنه لا يفعل لا نه ما خوذ بالانعزال وأوهامه التي كبرت في عقول الأدباء والباحثين كان من المظنون أن نفيق من سحر التقنيات إلى أهمية ما نحن فيه . ان الباحثين الان يتنافسون في مقدار ما يعلمون من شئون التقنيات ولا يتناقشون - قط - في اهداف البحث الادبي . البحث الادبي اذن حرفة لا رسالة تصدر عن المجتمع وتتجه إلى المجتمع .

هل اقول في شئ من الاسي : ويل للبحث الادبي من نفسه ويل لمن ظن ان حرفة شخصية ابقي له من النظر إلى المجتمع . ويل لمن ظن ان كثرة القراءة وتطبيق التقنيات تغني عن الاسهام في معترك المجتمع . هذا الاسهام ليس بالامر إلى سير وليس بالدعوة السهلة هذا الاسهام يعني ان الباحث الادبي يتعمق مسيرة المجتمع العربي والثقافة العربية والثقافة الاسلامية ويريد ان يؤدي دورا يذكر ، دور الرائد المنبه لا دور الحافظ المقلد . دور الذي يري نورا لا يراه امثالنا من عام ة الناس .

أليس ثم شبه ما بين الباحث المعاصر والباحث التقليدي عن أوجه البلاغة والشاعر الذي ينظم لا نه يعرف العروض من الخطأ ان نظن ان ادوات النظرية الادبية تكفي لتكوين باحث مهموم واسع الافق كثير الاحلام .

لكن الدنيا متغيرة والبحث الادبي متميز في عقول الباحثين من الهم القومي والباحث الادبي غالبا يقرأ النص الادبي ونظريات الادب أكثر مما يقرأ الثقافة العربية القديمة والحديثة . الباحث الادبي يريد لنفسه ان يعلو لا يفكر قط في أن يقول شيئا اكبر من ان يكون أديب وأكبر من أن يكون حرفيا تقنيا وأكبر من يكون مجرد تطبيق . ومع ذلك فنحن نثقل علي انفسنا ونثقل علي الشباب ولا نكاد نصغي إلى المدي الذي يفصل بين الباحثين وهؤلاء الشباب . هل سألنا أنفسنا يوما يوما ان كانت البضاعة البحثية التي تلقي علي الشباب تربي في عقولهم وضمائرهم حاسة الانتماء . هل فكرنا بعبارة اخري في العلاقة بين طبيعة البحث الادبي وخدمة التربية القومية ربما خطر لي ان البحث الادبي المعاصر ينم بوجه ما عن غيبة الاكتراث العميق . هذا الاكتراث الذي

يقال انه نبرة عصر مضي . هذا الاكتراث الذي سميناه ريادة الفكر وتوجيهه فلما غاب الاكتراث الاجتماعي ظهرت الحرفة او التقنيات وعلت كلمتها . التقنيات تخدم كل انسان وكل هدف فما الاهداف المفضلة كيف نحددها وكيف نجمع الناس للتفكير في امرها انا أفضل احيانا بحثا مكترثا يسأل سؤالا مقلقا للجماعة مهما يكن اعتراضك علي ما يحمل من تقنية واسلوب . لكن الباحث الادبي يطلب اسلوبا او ديكورا او زينة او ترفا . لكنه ترف من القي الدنيا وراء ظهره او عاش في غرفة ضيقة او مفهوم مفرغ للغة .

يعنينا من البحث الادبي ان يسأل لقد كنا يوما كبارا فما الذي يحول بيننا الان وبين ان نتابع مسيرة البحث نحو الفعالية والتفاؤل واستئناف الثقة بالنفس والمستقبل الأهم في البحث الادبي ليس الحرفة والتقنية الاهم هو ان تكون كبير النفس . وهنا نصل إلى مربط العلاقة والاختلاف بين البحث والقراءة ، ولكن هذا موضوع آخر يكشف عما طرأ علي نفوسنا وعلاقاتنا الاجتماعية من تغير كثيف يلقي الضوء علي النقد الادبي كله لقد تحدثت في هذه الكلمات بوصفي خائفا مذعورا لا هاديا مرشدا فما ابرئ نفسي وما اريد ان اغلب البحث الادبي علي القراءة وما اريد ان يتجاهل اساتذة البحث صعوبات القراءة واهميتها واثارها التربوية في هذا الزمان الصعب بل المخيف ان البحث الادبي المعاصر انفصل عن هم القراءة انفصالا حادا لا أحد الان يكترث بمسألة القراءة التي كانت يوما جزءا اساسيا من هم الرواد مسألة القراءة بداهة هي مسألة اثارة للمشكلات اثارة صداقة القراءة مبنهاها تكاليف الصلة بين الكاتب والقارئ والصلة شئ مختلف اختلافا كبيرا عن التوجه نحو التقنية القراءة تذيب التقنية وان كانت تنتفع بها القراءة مبناها- بعبارة اخري ـ ان نفكر معا وان نتحاور معا وان اسألك وان تسألني .

هذا النمط من الصلة يعني ان الباحث محاور صديق لا معلم صنعة . لقد اهمنا في هذه الايام موضوع الصنعة وكدنا ننسي مسألة القراءة بوصفها تساؤلا عن شئ مشترك نريد معا ان نبحث عنه .

اخشي ان يصرفنا البحث الادبي الراهن عن ان نكون احرارا نتناقش حول مبادئ لا حول امور جزئية واعتبارات تقنية اخشي الا يعلمنا البحث الادبي كيف نتجاوزه وكيف نطل من خلاله علي شئ اهم منه : شئ يقع في قلب الصلة وقلب امور اجل من ان تكون ادبا او حرفة او تسلطا .

ان الباحثين في ايامنا هذه يعلمون الكثير ما في ذلك شك ولكني اريد ان أسأل عن مقدار ما في قلوبنا من هم وقلق علي الحياة والمصير . اريد ان يحمل البحث الادبي بعبارة اخري مسئولية البحث عن فكر اكثر قلقا واهتماما بشأن اجتماعي .

لا اريد التقنية قدر ما اريد الرؤي البعيدة والاكتراث العميق والتنزه عن الدعاية للنافر والشاذ والمختلف والاصم والآبد والقابع في اعماق مظلمة البحث الادبي دعاء ونداء وليس ورشة لا صلاح الاجهزة التي لا تعمل ولا تسمع لكن التقنيات – اصلا– تحول كل شئ إلى جماد التقنية – بعبارة صريحة– هي التخلي عن الانسان وتحويل الانسان إلى كم من الاشياء وهذا ما يصنعه البحث الادبي مع الاسف بحجة الدفاع عن الطابع العلمي الذي لا قبل له بالتعرف علي الانسان لا ختزال الإنسن . التقنيات شئ وصداقة الإنسان والاعتزاز بالانسان شئ آخر . اخشي ان يتحول الانسان بفضل الاغراق في تقنيات البحث الادبي إلى ما يشبه السلعة الغالية التي لا يقوي علي شرائها ولا يفكر في اقتنائها امثالنا من الطبقات الدنيا التي لا يعنيها في المقام الاول امتلاك التقنيات قدر ما يعنيها ان تعيش في رحابة تشبه رحابة الماء والهواء .

التقنيات صدمات وتبادلات لا استعمالات وفوائد حقيقية الفوائد الحقيقية أيسر منالا من التقنيات المعقدة التي تنم عن غني غير وظيفي ان صح هذا التعبير الفكاهي . لا اريد من القارئ ان يوافقني ، اريد فحسب ان يكون الدرس الأدبي في جامعاتنا موضوع تساؤل اساسي ، ولا معني لهذه الثقة المتزايدة بأننا نعرف الطريق . انني بعد هذه السنين الطوال مرتاب مرتاب ، وفي وسط التقنيات التي تأملت فيها اصبحت العربية الاساسية في الجامعات غريبة الوجه إننا لم نستطع تسخير الملكات النظرية والتطبيقية لتقريب العربية الغريبة من افئدتنا اننا نعلم الطلاب طائفة مما يشبه السلع اما عقولهم وقلوبهم فغريبة لا يكترث بها احد حسبهم ان يحفظوا كلاما يزدردونه كما يزدرد النعام الحصي لكننا لا نلوم انفسنا وانما نلوم الطلاب .

متي يلوم الاساتذة انفسهم ؟ متي نستشعر الخطر ؟ متي نكف عن اتهام الطلاب وتبرئة الاساتذة ؟ متي نستشعر الرسالة ونكف قليلا عن عبادة الاحتراف والشهرة والسلطة ؟ متي نرتاب .

تعليق على ما حدث في " بيت علام "

بقلم: فاروق شوشة

هذه رسالة حزينة وغاضبة بعث بها الأستاذ الجامعي والناقد الكبير الدكتور محمود الربيعي تعليقا علي المذبحة الثأرية التي حدثت منذ أسبوعين في' بيت علام' إحدي قري صعيد مصر والتي تجاوزت في عنفها وبشاعتها كل خيال أو تصور .

الدكتور الربيعي تستثيره- حتي النخاع- هذه العودة إلى سيادة روح الجاهلية الأولي وهذا الزلزال الذي لا بد أن يوقظنا من غفلتنا وينبهنا إلى أن ما نسميه جهودنا من أجل التنوير والتي طبقا لتعبيره تدور عن مؤتمرات وثيرة مكيفة الهواء لم تصل إلى هؤلاء الذين يعيشون في القري والنجوع يمارسون حياتهم التي لم تتغير قط بكل قيمها السلبية وتقاليدها المتخلفة وكأننا لم نبدأ بعد عصر النهضة منذ قرنين من الزمان لم نفتح مدرسة ولم ننشيء جامعة ولم ننشر صحيفة ولا ملأنا أجواء السيادة الإعلامية بآلاف ساعات الإرسال تنهمر من المحطات والقنوات الإذاعية والتليفزيونية . لقد كتب رسالته باعتباره واحدا من حملة الأقلام الذين أنبتهم إقليم الصعيد مناديا من بينهم مجموعة أسعفته الذاكرة بأسمائها ومتسائلا حول جدوي الدور الذي قاموا ويقومون به إن لم يتضمن نقل أبناء العم والخال- في صعيد مصر وفي غيره- إلى حالة حضارية إنسانية أفضل وليست المسئولية وقفا عليهم وحدهم- وهو أحدهم بالطبع ، ولكنها مسئولية أجهزة ومؤسسات في التعليم والثقافة والإعلام والعدل والأوقاف والداخلية والأزهر وغيرها من الوزارات والجامعات- خاصة جامعات الصعيد- والمجالس التي تتصدي للعمل العام رسالتها الأولي هي التثقيف والتنوير والتطوير والتغيير ودفع الحياة إلى الأفضل . وليس يجدي الآن أن يقال إنها حادثة فردية أو هي غير قابلة للتكرار أو هي حالة لا يقاس عليها .

ذلك أن بركانا واحدا كفيل بتأكيد الطبيعة البركانية لمنطقة معينة من الأرض دون انتظار لعشرات البراكين وزلزالا واحدا كفيل بالتنبيه إلى مخاطر الطبيعة الزلزالية أو الاستعداد للزلازل في مكان ما من العالم . وهذه المذبحة التأثرية كما وصفها الدكتور الربيعي لا تحتاج إلى تكرار أو إلى ما يماثلها حتي نحكم بأنها ظاهرة وليست حادثا فرديا بل هي لبشاعتها وعنفها وتجاوزها لكل حدود التصور كفيلة بأن تحرك حتي الموتي وأن تضعنا في مواجهة حقيقية مع جدوي ما نقول ونصنع متوهمين أننا قمنا بالرسالة وأدينا الأمانة .

إن الواجب يقتضيني أن أفسح المجال لرسالة الدكتور محمود الربيعي التي هي في جوهرها صوت مثقف مصري غيور من أبناء الصعيد ولا أظنها بعد نشرها كاملة في حاجة إلى تعليق:

أخي الأستاذ فاروق شوشة:

أرجو أن تتسع صفحتكم المضيافة لصرخة مفتوحة أوجهها بأعلي صوتي إلى عناصر في المجتمع أري أنه يجب أن يمنعها من النوم ما حدث في' بيت علام' في صعيد مصر ونشر يوم الحادي عشر من أغسطس من مذبحة ثأرية راح ضحيتها أثنان وعشرون شخصا .

وصرختي في البداية موجهة إلى حملة الأقلام من المفكرين والمبدعين في بلدي ويخاصة الذين أنبتهم إقليم الصعيد كما أنبتتني وجاد عليهم بالتعليم في بيئة شحيحة فأخرجهم من مصاف الكتل المجهولة إلى مصاف الآحاد المتميزة فأصبحوا كلهم أو بعضهم نجوما لا معة في سماء الوطن يشاركون في المؤتمرات وينالون الجوائز وتقرأ أفكارهم إذ تنشر علي نحو واسع يتخطي أحيانا حدودنا المحلية .

من هؤلاء مجموعة أعرفها بأشخاصها وأحب أن أناديها بأسمائها وتعي ذاكرتي منها: محمود العالم و عبد الرحمن الأبنودي وحسن طلب ومحمد مستجاب ونصار عبد الله و عبد العال الحمامصي وجميل عبد الرحمن وعزت الطيري ودرويش الأسيوطي وفولاذ الأنور وأحمد بخيت ومحمد الربيعي وثمة مجموعات أخري أعرفها وأتابع أعمالها ولكنني أتحرج من أن أناديها بأسمائها .

وللكل أتوجه صارخا بالسؤال ما ذا أحدثت أعمالهم الفكرية والإبداعية من أثر تنويري للإقليم الذي أنبتنا جميعا وكيف أنها لم تحل دون حدوث ما حدث في بيت علام هل يبدو سؤالي لكم خارج السياق إنني إذن علي العكس منكم أري أنه هو السياق ذاته وأتابع السؤال: ألم تكن أعمالكم بداهة موجهة إلى الناس أم انكم استثنيتم أبناء العم والخال ؟ وألم تكن أهدافكم نقل المتلقين إلى حالة حضارية إنسانية أفضل فانظروا ما ذا كانت النتيجة عودة دموية لم يسبق لها مثيل إلى ما دون نقطة الصفر بسيادة روح الجاهلية الأولي .

والمسألة عندي واضحة كل الوضوح وهي ذات شقين بسيطين الأول: انني لا أبريء نفسي وأنني أحس إذ أجلس لا كتب هذا من كل قلبي ومن كل عقلي أن كل ما فعلته من تسويد صفحات في مقاربة النص الأدبي أو من محاولة توصيل معتقدي الأدبي والفكري إلى عقول الشباب علي طول السنين قد ذهب أدراج الرياح ، والشق الثاني: أنني احتكم معكم في هذا الأمر إلى مقولة واضحة بسيطة أيضا وضعت منذ القديم في عبارات

كاشفة تقول إن الابداع الحق من شأنه أن يسخن الشحيح ويشجع الجبان ويسل السخائم . . ولست في حاجة إلى الذهاب إلى توضيح ما هو واضح وهو أن وسيلة الأدب في كل ذلك هي وسيلته المعروفة في الرمز والتصوير والإبهام والبعد عن كل ما هو مباشر وتعليمي وفج وأعود إلى صرختي وأسأل: أين السخاء في هذا الذي حدث في بيت علام وأين الشجاعة وأين التطهر من الأحقاد ؟ لقد حصلنا في الواقع علي نتيجة عكسية تماما لما ينبغي ان يحققه الإبداع ، وإذن فقد وجب علينا - والمصارحة واجبة - احد أمرين إما البحث عن منحني آخر لهذا الإبداع من شأنه أن يحقق الهدف الطبيعي له أو التخلي- طواعية وجملة- عن هذا الطريق العقيم ! .

وأتحول الآن بصرختي إلى وعاظ الدين بخاصة في مدن الصعيد وقراه ونجوعه وأسألهم: ما نوع الخطاب الذي دأبتم علي توجيهه للناس في شتي المناسبات وعلي مدي الزمن وكيف حدث ما هو واضح من أن هذا الخطاب لم ينتزع من النفوس جذور الانتقام والتشفي هل كنتم تحدثون الناس عن العدل والمساواات والرحمة والطهارة والمحبة وكنتم تغرقونهم بالقصص الخرافية وتعمقون لديهم ألوان العصبية البغيضة هل استوفيتم معهم أحاديث العفاريت التي تحل للناس مشكلاتهم - وبركات المحتالين الدجالين أوتدارستم معهم حرمة النفس والعرض والأرض والمال وفداحة الرشوة والمحسوبية ونصرة الأخ بالحق وبالباطل وهل ياتري قرأتم عليهم نصوصا شرعية قاطعة في تحريم مثل ما جري في بيت علام وهل شرحتم لهم خطبة النبي عليه السلام في حجة الوداع وما جاء فيها من تحريم سفك الدماء وابطال الثأرات بأثر رجعي: ' . . وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب' أيا ما كان أمر خطابكم فهذه هي النتيجة الفادحة أمام أعينكم مذبحة يسفك فيها دم صبي في التاسعة لا يمكن عقلا أن يكون قد ارتكب ما يجب عليه القصاص وإذن فماذا أنتم فاعلون ، الأمر عندي لا يمكن أن يتجاوز واحدة من اثنتين: العودة إلى النصوص الأمهات التي تعبر عن صحيح الدين واختيار ما يلائم مقتضي الحال منها ثم الاقتصار عليه والإلحاح عليه حتي نضمن تحوله إلى عقيدة تسري في الدم وتتجلي في عمل الجوارح- أو معرفة قدر النفس بالتخلي عن المهمة لمن يستطيع حملها إلى غايتها الطبيعية .

واقف بصرختي- في ترددها الثالث عند دعاة الحداثة في بلدي وأقول انه يجب أن يزعجهم بصفة خاصة ما حدث في بيت علام إلى هؤلاء في دوائرهم شبه المغلقة وأحاديثهم الموجهة من تحت وهج المصابيح في استديوهات التصوير أو في قاعات مؤتمراتهم الوثيرة المكيفة الهواء حيث يبدون للعامة مديرين ظهورهم للحاجات الأولية الملحة لبني أوطانهم ومستلهمين المصداقية من نظريات طورت وراء البحار لتلبي حاجات قوم آخرين وتأتي حادثة واحدة كحادثة بيت علام فتكشف عن الهشاشة الفظيعة لمشروعهم ،

المستورد يستوردون كلمة حق: التنوير ولكنهم لا ينجحون حتي في شرحها شرحا يصل إلى المتعلمين فضلا عن الأميين ويتمسحون برفاعة الطهطاوي وذروة السخرية المأساوية الآن أن بيت علام تقع علي مزار قريب من طهطا !

الا يعني هذا حقا أننا في مسيس الحاجة إلى مراجعة فكرة الإبداع حاجتنا إلى مراجعة لغة الخطاب الديني والخطاب الحداثي وألا يدرك دعاة الحداثة الهوة التي تفغر فاها تحت أقدامهم بعد زلزال بيت علام بين سهولة النظرية ووعورة الواقع الأليم .
إن الرضا عن النفس سمة ألحظها في خطاب الطليعة الثقافية في مجتمعنا وأحذر من ان هذا الرضا قد يبلغ حدا يشعر الرائد الثقافي معه دون ان يكون ذلك حقيقيا بان التلاحم كامل بينه وبين مجتمعه الذي يتحث إلى ه من وراء حجاب في حين يكون خطابه في اذن هذا المجتمع رطانا ليس غيره ومن المحتم والحالة هذه- والتجارب حولنا تشهد بذلك- ان مثل هذا الرائد الثقافي سيدرك ذات يوم انه يسير في البرية قائدا بدون جيش !

وحين أنظر إلى ندوات الأروقة باحدي عيني وأنظر بالأخري إلى ما حدث في بيت علام أدرك مدي الترف الثقافي الذي نحن فيه وهو ترف لم تظفر به مجتمعات متقدمة اتيح لي العيش في بعضها ، كذلك حين أعلم ان قناة متخصصة أو قنوات تبث دون أن يسمح برؤيتها إلا للقادرين لا أستطيع أن امنع نفسي من أسئلة من مثل تبث ما ذا وتبث لمن وما الهدف وهل نحن مجتمع أو مجتمعات وما علاقة كل ذلك بما حدث في بيت علام وحين اسمع عبارة الثقافة الجماهيرية وأفكر فيها علي ضوء ما حدث في بيت علام أحس أنني علي وشك الوقوع فريسة لنوبة ضحك كالبكا علي حد ما قال المتبني ، أما حين أفكر في أن لها قصورا ثقافية ولا أدري إذا ما كان لها قصر في بيت علام فإنني أحس أن نوبة الضحك توشك أن تتحول- برغم المتنبي وبرغمي- إلى بكاء خالص .

وأملي أن يصل تردد صرختي في النهاية إلى جامعات الجنوب وأتساءل كيف يمكن أن يكون في الجنوب أكثر من جامعة عام لة بها مناصب علي مستوي الكليات والجامعات تحمل عناوين كبيرة مثل خدمةالمجتمع وشئون البيئة ثم تحدث فيها حادثة كحادثة بيت علام ومع ذلك تبقي هذه الجامعات ما ضية فيما هي فيه وكأن شيئا لم يحدث ؟ هذا وفي هذه الجامعات بحكم التعريف وبحكم الواقع اقسام لعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الأدب والفلسفة فكيف ترسم هذه الأقسام برامجها وكيف ترسم أهدافها وتتعامل مع بيئتها وهل يوجد انفصال عن البيئة في ضوء ما حدث أتم من هذا الانفصال إن حيرتي في الأمر- من كل نواحيه- بالغة وطاقات الفهم والاستنتاج لدي بفعل الصدمة والحزن والغضب شبه معطلة فإذا عرضت الحالة علي روح الشرع وصحيح نصوصه وجدتها مجافية للشرع واذا عرضتها علي روح القانون المدني ونصوصه وجدتها مجافية للقانون واذا عرضتها علي روح قواعد المنطق البسيط المجرد وجدتها مجافية للمنطق واذا عرضتها علي

العاطفة الانسانية الطبيعية وجدتها مجافية للعاطفة واذا عرضتها حتي علي التقاليد الاجتماعية التي يتفاخر بها الإقليم من الرجولة والنخوة والمروءة وجدتها مجافية لكل ذلك وتبين لي ان كل ذلك تبطله هذه الحادثة وتعرضه لا ن يكون محض تشدق .

ومن الواضح لعيني أن أمن الطريق في تلك الساعة علي هذه البقعة من الأرض كان معطلا ذلك لا ن تنفيذ مثل هذه المذبحة يتطلب مكانا وزمانا ومعني هذا أن قانون الغابة كان سائدا علي أرض الوطن في جزء من المكان وجزء من الزمان وبالمثل كان قانون الوقاية خير من العلاج غائبا فليس ملائما أن نبدأ دائما في التعامل مع المأساة بعد وقوعها وذلك لا ننا في هذه الحالة لا نتعامل حقيقة مع المأساة بل مع توابعها وأثارها وعلينا ان نثق في جميع الأحوال باستنفاد كل الإمكانيات البشرية في سبيل منع حدوث هذه المآسي وإلا حق علينا وصف الإهمال الجسيم وأوصاف أخري .

لابديل- وقد زلزلتنا حادثة بيت علام عن حملة تنويرية حقيقية توجه إلى هذا القسم المظلوم شبه المنسي من بلادنا قوامها تعلم حقيقي وتنمية حقيقية يكون من نتيجتهما رسوخ بنية تحتية عميقة تقوم عليها مفاهيم صحيحة لمعاني العدل والحق والأمن والشهامة والمروءة وكرامة الانسان ويومها فقط تجتث من الجذور العادات البالية المغلوطة التي ينشأ عنها- كما هو الحال- تسمية القسوة الاجرامية قوة والعنجهية العمياء رجولة .

واسلم لا خيك .

محمود الربيعي

رسالة منصفة وتعقيب واجب

بقلم: فاروق شوشة

أما الرسالة فقد بعث بها الدكتور محسن عبد الخالق ، الذي أسعدني بحديثه التليفوني - أكثر من مرة - تعليقا علي بعض ما تضمنته مقالاتي الأخيرة في الأهرام ، وسرعان ما اكتشفت من نبرة حديثه ونبل قصده ، وعمق وعيه أني لا أتعامل مع مجرد قارئ يبدي رأيه أو يعبر عن انطباعاته بالنسبة لما يطالعه ، وإنما هو أديب متمكن وناقد حصيف ومثقف لديه ما يقوله ، من هنا كان حرصي علي مطالبته بأن يرسل تعقيباته وانطباعاته مكتوبة ، حتي يتيح لي فرصة استيعابها واستخلاص ما تحمله من مضمون يستحق التحية والنظر والتأمل .

ثم أسعدني ما عرفته من الصديق الكريم الدكتور عبد العاطي محمد أن الدكتور محسن عبد الخالق - الذي لم أشرف بلقائه - يعمل في مؤسسة الأهرام ، قلت في نفسي: إذن لقد جمعت بيننا الأهرام بعد أن جمعتنا شجون الأدب والنقد والثقافة .

يقول الدكتور محسن في رسالته الاضافية: الشاعر ، الكاتب الكبير فاروق شوشة:

أقرأ سكناتوخلجات كل ما تكتب ، قراءة ناقدة ومستكشفة ، فيها وعي ومجاهدة ومكابدة ، فأنت الكاتب الذي آنس لصحبته ، وأحاول أن أفك شفرة الصمت الساجي بين حروف كلماته .

ياسيدي أنا أقرأ كأني أكتب تماما ، لذلك أحسن بيدك ، تعزف إلى جوار يدي .

لماذا أكتب لك هذه الرسالة ؟

الأمر الأول ما ألمسه من حرص شديد علي ألا يميل في يدك الميزان ، فتهتز الثقة في حرمة النقد ، وعدالة موازين التقدير .

وأما الأمر الثاني فأنك تكتب النثر بروح الشعر فتبدو الكلمات كأنها موسيقي سائلة علي ورق !

ثم يأتي الأمر الثالث الذي يتعلق بضمير القارئ الذي يري أن من حق كاتبه أن يلمح في عينه مشاعر التقدير ، فالقارئ هو الذي يضخ في قلب كاتبه ما دة الحياة ، ويملأ قلمه بمداد البقاء ، وبدون هذا القارئ تتحول كلمات الكاتب إلى مجرد جثث محنطة ، متراصة بجوار بعضها البعض ، وقد فقدت الحياة .

أكتب هذا ياسيدي ، وفي وجداني رجع صدي من شدوك في الأيام الخوالي ، حين كنت أضبط أنفاسي وأنا طالب - ما زلت - علي عقارب البرنامج العام ، الحادية عشرة إلا بضع دقائق ، لا صغي لصوتك ، وصمتك ، فيما يشبه التدين ، إنها أغلي ساعات الغرام الفكري .

قرأت بالتقدير كتاباتك عن صلاح جاهين ، وقرأت بتقدير مماثل ما كتبت عن وهج القنديل عند يحيي حقي ، الذي أضاء به مناطق شديدة الغور في أدب شاعر عبقري شاءت الأقدار أن يصدم في مشروعه ، ووجدانه ، ليسقط علي خط التماس الفاصل بين العبقرية والجنون ! مضرجا بألوان الطيف ، لقد استطاع صلاح جاهين أن يحقق أشهر زيجة فنية علي الورق ، حين عقد قرانا فنيا بين الريشة والقلم !

بعنوان يوم من أيام كمبردج بأهرام٢٠٠١ / ٤ / ٢٢ سلطت أضواء كاشفة علي شاعرية الدكتور محمود الربيعي التي طمستها سنوات العمل الاكاديمي الطويلة ، وهو رجل يستحق منك هذا الجهد ، بينما كان نصيب لويس عوض منها شعاعا خابيا خافتا من الضوء ، لا يتفق ومكانة رجل استطاع أن يبسط نفوذه النقدي علي الساحة الأدبية زمنا ، وشارك بجهد ، مع هذه السبيكة المفكرة من النقاد في إعادة ترسيم الحدود النقدية ، وتحديد الفواصل الفنية علي خارطة الأدب العربي في الزمن الجميل الجليل .

واسمح لي أستاذنا الجليل بان أسجل هنا أن مناطق الاختلاف مع الدكتور لويس عوض أكبر كثيرا من مناطق الاتفاق معه ، فقد كان له جنوحه ، وجموحه الذي لم يخل في بعض الاحيان من شطط ، حين كان يحلق فوق مناطق إلى قين ليشكك ، بحيثيات غير موثقة في قضايا تمس معتقد الأمة وتاريخها وهويتها .

موقفه من القومية العربية ، الشعر العمودي ، حين دعا في مقدمة ديوانه الشعري بلوتولاند وقصائد أخري من شعر الخاصة إلى تحطيم عمود الشعر ، لقد ما ت الشعر العربي بموت شوقي١٩٣٢ ، والغريب أن الرجل ظل مستمسكا بدعواه حتي أنفاسه الأخيرة علي الرغم من أنها دعوي لا تنهض علي أساس واقعي موضوعي ، وإنما اتسمت بانشائيتها ونبرتها الحماسية .

لكن ذلك لم ينل من الرجل كقيمة أدبية ، حاول ان يرفع النقاب - دوما - عن وجه الحقيقة ، بقدر ما أتيح له من ضوء .

أشرت في المقال إلى أن الأكثر طرافة وغرابة أن لويس عوض في كتاباته النقدية عن عدد من الشعراء علي صفحات الأهرام لم يلتفت مرة واحدة إلى الكتابة عن أكبر شاعر بالعامية في زمانه وهو العبقري صلاح جاهين الذي كان يجاور لويس عوض بالأهرام ، وكان هذا الموقف من لويس عوض - الذي تحمس للعامية كل هذا الحماس في شبابه - غيز

مفهوم أو مبرر بالنسبة لصلاح جاهين الذي كان يري ـ وهو علي حق ـ أنه أجدر بالاهتمام النقدي والتفات لويس عوض إلى ابداعه من عشرات شملهم لويس عوض بحدبه ورعايته ، وهم لا يقاربونه ابداعا أو مكانة ، ولم يخفف من حزن صلاح جاهين وعجبه إلا اهتمام أديبنا الكبير يحيي حقي بالكتابة عن رباعياته ، كتابة مفعمة بنفاذ الرؤية وتقدير وهج العبقرية في ابداع صلاح جاين ، الغريب أن هذا الموقف ـ الذي وقفه لويس عوض من صلاح جاهين لدرجة أنه لم يكتب عنه إلا بعد رحيله ـ يقفه كثير من النقاد من شعر العامية وكبار شعرائها المبدعين .

وأعتقد أن لويس عوض برر عدم الكتابة في حياة صلاح جاهين في كتابه دراسات أدبية بقوله : حين صدر ديوان صلاح جاهين عن القمر والطين ثم ديوانه الرباعيات في الستينيات كنت أنا شخصيا موضع هجوم ضار من عديد من النقاد الرجعيين بسبب دعوتي القديمة في ديواني بلوتولاند١٩٣٨ إلى تجاور أدب العامية مع أدب الفصحي ، وكنت أحب يومئذ أن أعبر عن اعجابي كتابة بشعر صلاح جاهين بتحليل شعره علي صفحات الأهرام ، ولكني خشيت أن أجني عليه باقحامه في مشاكلي الشخصية ، فتجنبت الاشارة إلى ه فيما كنت أكتب من نقد الشعر ص١٦٢ .

الاستاذ الكبير فاروق شوشة . .

لم أعرف ناقدين أنصفا الانجاز الادبي لصلاح جاهين أكثر من يحيي حقي ولويس عوض أما يحيي حقي فقد غمرته بضوء ساطع ليظل لويس عوض بعيدا ينتظر في منطقة الخسوف النقدي مقالا ينقله إلى دائرة الضوء .

برغم الزوايا الحادة التي كان يطل منها لويس عوض بآراء مثيرة للجدل ، فإنه يظل إحدي الاشجار الباسقة ، السامقة في روضة النقد ، حيث تتكاثر فيها الآن وتتشابه الحشائش الضارة .

كان يحيي حقي يغمس قلمه في مداد من الحنان ، ليكشف النقاب عن جوهر موهبة جديدة .

بينما كانت كلمات لويس عوض لها ملمس الشوك في أثناء جراحاته الأدبية علي الورق ، ليعلن عن ميلاد موهبة جديدة تحاول أن تنقر قشرة الوعي مطالبة بحقها في الميلاد ، نقد يحيي حقي فيه قسوة الأب .

بينما نقد لويس عوض فيه قسوة المعلم وحاجتنا ما سة لكلتا القسوتين دمت ، ودام قلمك .

دكتور محس عبد الخالق

هـذه الرسـالة الـضافية نمـوذج لا دب الكتابـة الرفيـع ، الـذي نفتقـده في هـذه الأيـام ، وهـو نمـوذج يكـشف عـن شخـصية كاتبـه ، وعيـا وتحـضرا ، وحرصـا علـي الانـصاف . ولـست أختلـف معـه في الـوعي بقيمـة لـويس عـوض ، وحقيقـة قـدره ودوره في حياتنـا النقديـة ، وثقافتنـا المـصرية لا كثـر مـن نـصف قـرن ، ولا في اسـتحقاقه لكتابـات ضـافية وكاشـفة ، تجلو مناطق كثيرة متشابكة من فكره وثقافته وابداعه .

لكـن المناسـبة الـتي تـشير إلى هـا الرسـالة الكريمـة في تعليقهـا علـي مقـال يـوم مـن أيـام كمبردج لم تـسمح بـأكثر مـن إشـارة عـابرة إلى لـويس عـوض بمناسـبة الكـلام عـن محمـود الربيعـي ، فكمـبردج هـي سـنوات الـشباب والانطـلاق والفـوران والثـورة في تـاريخ لـويس عـوض حـين عاهـد الثلـوج الغزيـزة المنثـورة علـي حديقـة ميـدسمر في خلـوة مـشهودة بـين أشـجار الـدردار عنـد الـشلال بكمـبردج ألا يخـط كلمـة واحـدة إلا باللغـة المـصرية كـان هـذا في ثلاثينيـات القـرن الماضـي ، وكمـبردج نفـسها هـي الـتي تـشهد عـودة محمـود الربيعـي إلى انجلـترا ، متوجهـا إلى كمـبردج ـ متـذكرا وقفـة لـويس عـوض القديمـة وباحثـا دون جـدوي عـن اشـجار الـدردار ، وقـد عـاد إلى ه بفـضلها الـشعر وحيويـة الـشباب ، الـذي ظنـه ولـي وانحـسر وهـو في الـشهور الأولـي من العام الأول من القرن الحادي والعشرين .

الاقـتران المكـاني بـين الـرجلين هـو مبعـث الإشـارة ، والمـساحة الزمنيـة الواسـعة ـ بينهمـا ـ هـي مـصدر المفارقـة ، لكـن الـسياق لم يكـن أبـدا سـياق تقـويم لـويس عـوض أو الحديث عن قدره ومكانته وحجم تأثيره .

أمـا الإشـارة الثانيـة إلى لـويس عـوض في معـرض الكتابـة عـن شـاعرنا العبقـري صـلاح جـاهين ، والتفـات يحيـي حقـي إلى الكتابـة عـن رباعياتـه وتحليلـها تحلـيلا فنيـا مبـدعا ، فقـد تـضمنت الـشكوي الـتي سمـح صـلاح جـاهين لنفـسه بـان يبـوح بهـا وأنـا أسـجل معـه آخـر حـوار تليفزيـوني رحيلـه باسـابيع قليلـة لم يـذع هـذا الحـوار حـتي الآن بكـل أسـف ـ وهـو في معـرض الاشـارة إلى موقـف النقـاد منـه خاصـة جـاره في الأهـرام لـويس عـوض ، الـذي حمـل لـواء الـدعوة إلى العاميـة يومـا مـا ومـع احترامـي الكامـل لمـا أورده الـدكتور محـسن عبـد الخـالق في رسـالته وهـو ينقـل عـن لـويس عـوض خـشيته مـن أن يجـني علـي صـلاح جـاهين باقحامـه في مـشاكله الشخـصية لـو أنـه كتـب عنـه عنـد صـدور ديوانيـه عـن القمـر والطـين ثـم الرباعيـات في الـستينيات لا نـه كـان موضـع هجـوم ضـار مـن العديـد مـن النقـاد الـرجعيين في ذلـك الحـين ، فمـتي لم يكـن لـويس عـوض موضـع هجـوم ضـار ؟ ومـتي خلـت حياتـه مـن المعـارك الفكريـة والنقديـة والأدبيـة ؟ وإذا كـان هـذا هـو الـذي حـال بينـه وبـين الكتابـة عـن صـلاح جـاهين في الـستينيات فلمـاذا لم يكتـب عنـه في الـسبعينيات ومـا تلاهـا مـن الـسنوات ، وقـد وصـل صـلاح جاهين إلى قمة نضجه الفني واكتمال مشروعه الابداعي ؟

لن أقارن بالطبع بين موقفي يحيي حقي ولويس عوض من صلاح جاهين ، فالفنان في يحيي حقي هو جوهره والأبوة الفنية والروحية هي فيضه وزاده ومحركه ، أما لويس عوض - فهو كما وصفه بحق الدكتور محسن عبد الخالق - المعلم والاستاذ ، المهموم دوما بالخلفيات السياسية والاجتماعية قبل الولوج إلى أسرار العالم الأدبي والفني .

ولقد سعدت كثيرا - باعتباري واحدا من قراء لويس عوض وتلاميذه الذين نشأوا وتعلموا علي كتاباته منذ مقالاته الأولي علي صفحات الكاتب المصري التي كان يحررها عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين ، الذي كان له فضل احتضان لويس عوض وافساح المجال لا فكاره وكتاباته وترجماته - منذ الاربعينيات - كالعهد به في تبني أصحاب المواهب البازغة والطاقات الأدبية والفكرية الواعدة - سعدت بما أعلنه المجلس الأهلي للثقافة عن اقامة ندوة بحثية وتكريمية تليق بمكانة لويس عوض ، في نهاية هذا الصيف ، ولابد أنها ستكون مناسبة حافلة للعديد من الدراسات والبحوث والمداخلات النقدية الكاشفة عن انجاز لويس عوض: الناقد والمثقف والمترجم والشاعر والروائي والمسرحي والمعلم .

وتبقي رسالة الدكتور محسن عبد الخالق - قبل ذلك كله وبعده - دعوة حارة إلى الانصاف ، ونموذجا رفيعا لما ينبغي أن يكون عليه أدب الحوار ، ودعما للجسور غير المرئية بين الكاتب ، ومن يقرأون له ، وهو دعم صادق من شأنه أن يحفز الهمة ، وأن يجدد الطاقة ، وأن يصحح المسار ، وهي أمور أدين بها مجتمعه لصاحب الرسالة ، وأشكره عليها أعمق الشكر وأصدقه وأوفاه فهذا الصدي الأمين الواعي عند القارئ لا يقل أهمية أو جدوي عن الصوت الأصلي الذي تشيعه سطور الكاتب متصورا انه دوما يمتلك الحقيقة الكاملة .

مصطفى سويف وشهادة على عصر

بقلم: فاروق شوشة

من الشخصيات التي أحمل لها احتراما وتقديرا كبيرين شخصية العالم والمفكر والأستاذ الأكاديمي ـــ العصامي ـــ الدكتور مصطفي سويف ، ما زلت أذكر كيف كان لقائي لا ول مرة باسمه يتردد علي الألسنة في منتصف الخمسينيات مقترنا بالدوي والصدي الواسع الذي أحدثته رسالته للماجستير عن الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر ، التي حصل عليها في فبراير عام ١٩٤٩ وتم نشرها بعد ذلك في مستهل الخمسينيات .

وكان وراء هذا الدوي والصدي الواسع أسباب كثيرة ، من بينها وفي مقدمتها أن المجال الذي اختاره الباحث لرسالته يتم اقتحامه ـــ في جامعاتنا ودراساتنا العليا ـــ لا ول مرة ، وأن الباحث كان موفقا غاية التوفيق حين اختار نماذج من شعر الشاعر المتميز عبد الرحمن الشرقاوي بتكون ما دته التطبيقية ومجال تحليلاته وكشوفه النفسية والجمالية ، ومنها أن الباحث ـــ في كل ما كان يحيط به ويقال عنه ـــ كان اقرب إلى التصنيف في دائرة إلى سار ، وهي الدائرة التي كنا ـــ نحن شباب الخمسينيات من طلاب الجامعة ـــ نري فيها جسارة التناول للهم الوطني والقومي ، والالتحام الشديد بهموم الإنسان والمجتمع ، والحرص علي ربط البحث العلمي بأسبابه وجذوره وبيئته ومكوناته ، لا يحلق في فراغ ، ولا يتوخي غايات مثالية ، وهكذا ، استطعنا ان نري في انجاز مصطفي سويف ، الذي سيتبعه بانجازه للدكتوراه ، ثم بكتاباته وابحاثه ودراساته ومواقفه ، ما كنا نراه في كتابات محمود أمين العالم ناقدا مؤسسا ومجددا ، وكتابات أحمد بهاء الدين محللا سياسيا واجتماعيا ، واشعار عبد الرحمن الشرقاوي ـــ خاصة بعد اندلاع قصيدته المتفجرة بالريادة التجديدية والإبداعية من أب مصري إلى الرئيس ترومان فضلا عن الكتابات الأدبية والسياسية لفتحي غانم وغيرهم .

كانت هذه الكوكبة من المصابيح الهادية تتقدم الموكب من امامنا طليعة وقدوة ، وكنا نسبح في فضاء من الأماني والأحلام والرؤي والتطلعات ، يسمح لنا بالاختيار والتوقف عند علامات بعينها وتجاوز اخري ، يهدينا إحساس صادق إلى من نري فيهم الجدية والمسئولية و الأمانة ، ونقترب ونبتعد بمقدار ما نري التجسيد الحي للمفكر والفكر ، والمثقف والسلوك والكاتب والموقف ، خاصة بعد أن انفتح الباب امام العديد من المثقفين لتولي المناصب في المؤسسات والهيئات ، واتسع مجال الغواية لمن يهرعون من أجل السلطة وبريقها ، والنفوذ ـــ السياسي والادبي ـــ وضرورة الاستمساك به ، والإفادة منه ، والحروب المعلنة وغير المعلنة بمشاركة البعض في إبداع التقارير والوشايات

والأكاذيب من أجل الأبعاد أو القضاء علي الخصوم ، وإفساح المجال لمطامعهم هم وتحقيق ما يؤملونه من مغانم .

وفي خصم هذا المسار الطويل ـــ منذ الخمسينيات حتي إلى وم ـــ ظلت صورة مصطفي سويف : العالم والمفكر والباحث والأستاذ الجامعي ـ نموذجا للعصامية الاكاديمية ، المقترنة بالتوقير والاحترام ، ونموذجا فذا للجدل الخلاق مع الواقع ـــ فكرا وتحليلا ورؤية علمية ودأبا في التماس الحلول ـــ للعديد من مشكلات هذا الواقع مستقرة حول ثلاثة مجالات لظواهر السلوك البشري ، يوضحها بقوله : أحدها ظواهر المرض النفسي والثاني تعاطي المخدرات وثالثها ما بدأت به حياة التخصص ـــ الإبداع الفني ـــ ولكن علي إطلاقه ، وعرفت في هذا السياق طريقي إلى العمل العلمي الجامعي في مجال التعاطي ، أتاحه لي المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، وفي مجال الإبداع الفني ، أتاحته لي جامعة القاهرة ، وفي مجال المرض النفسي أتاحته لي وزارة الصحة .

في كتابه الجديد نحن والمستقبل الذي صدر عن مكتبة الأسرة منذ أيام يقدم الدكتور مصطفي سويف شهادته علي عصره ، بادئا بسيرته الذاتية ، مركزا علي التكوين ، ثم منتقلا بوعي العالم وقدرته علي التأسيس العلمي المنهجي إلى مناقشة المقومات الاساسية للسيرة الذاتية وقواعد العمارة فيها ، والسيرة الذاتية والتاريخ الاجتماعي ، والسيرة الذاتية وجذور الإبداع .

في بقية فصول هذا الكتاب ـــ الذي يضم خلاصة أمينة وجادة لا هتمامات الدكتور مصطفي سويف وشواغله الفكرية والثقافية والاجتماعية ـــ علي مدار نصف قرن ـــ يتناول اهم محاور هذه الاهتمامات متمثلة اولا في العلم لدينا : البحث العلمي في دولة نامية ، هل توجد في مصر مدارس علمية ؟ كيف تتكون المدرسة العلمية ؟ البحث العلمي في مصر بين التنشيط والتعويق .

ومن العلم لدينا إلى التعليم : صغار إلى وم كبار الغد ، انحرافات الطلاب في معاهد التعليم ، كيف حدث ما حدث ، إصلاح ما أفسده الدهر في التعليم .

ومن العلم والتعليم إلى العمل : العمل في حياة المواطن المصري ، العمل ركيزة للصحة النفسية ، الاثار النفسية للبطالة .

وفي تناوله لقضية الثقافة العلمية فإنه يركز علي ثقافة العلوم وثقافة العلوم في السياق الاجتماعي .

ثم ينتقل إلى قضية التخلف الاجتماعي موضحا معني التخلف الاجتماعي وأبعاده قاطعا كل هذا الشوط الطويل من البحث العلمي الموضوعي الهادئ ـــ كصاحبه ـــ والفكر الرصين الذي لا يغادر المنهج ولا يخرج عليه ، وروح البحث التي تنطق بوطنية

وحنوه وحدبه علي الوطن وابنائه ، وصولا إلى الفصل الأخير من الكتاب الذي يتناول فيه قضية الساعة : مستقبل مصر ، من خلال تأكيده علي شروط في البنية الاساسية ، ودور النخبة في هذا المستقبل والتقارب الثقافي بين شرائح المجتمع ، بين النخبة والقاعدة . من أجمل صفحات هذا الكتاب الجميل الجليل الجميل عرضا ومنهجا ولغة وفيض عقل ووجدان ، والجليل فكرا وتوجها واستشرافا ودعوة ـــ حديث المؤلف عن تكريس العصامية الاكاديمية لدي الباحث الجامعي .

ها هو ذا يأخذ بيد قارئه إلى هذه المنطقة من البوح الأمين والشفافية العذبة مواكب خطوات هذا الباحث الجامعي المتلئ بالحلم والرغبة في تحويله إلى واقع : ثمة مشاعر كثيرة تتلاحق عليك يعلو بعضها بروحك المعنوية ، إذ تشعر ببوادر النحر لا نك تقترب من أمل طال نشدانه ، ويثير بعضها الآخر لديك مخاوف مبهجة ، ويزداد وضوح هذه المخاوف مع الأيام ، وتكتشف شيئا فشيئا أنها مخاوف من فقدان التوجه ، أو من التوهان ، لا نك لا تجد علامات لا رشاد السائرين علي الطريق ، في هذه المرحلة تكتشف أن عليك أن تنمي في نفسك ما يمكن أن تسميه العصامية الأكاديمية أن تعتمد علي نفسك معظم الوقت في كل ما من شأنه أن يقيم دعائم شخصيتك العلمية بدءا من قدرات تحصيل المعرفة ، إلى مهارات المفاضلة والتمييز بين مختلف المجالات المعرفية التي تعرض لك إلى تنمية ما يمكن أن تسميه حاسة التوجه الذهني الصحيح إلى تكريس بعض السمات الوجدانية المساعدة كالمثابرة والاكتفاء الذاتي صحيح أن الأستاذ موجود ، وقد يسعدك الحظ ، فيكون الأستاذ واسع الافق عقلا ووجدانا ، غير أن تكوين باحث علمي لا يكفي للوفاء به وجود الاستاذ حتي ، ولو كان قمة في غني العقل والنفس .

لابد من أن يكون هذا الأستاذ جزءا مما يسمي بالمناخ المكرس للعمل العلمي ، حيث كل صغيرة ، وكبيرة ، بما في ذلك جزئيات وكليات العمل الإداري وأبواب الانفاق المالي مرتبة اساسا لتيسير خطي الانجاز الاكاديمي .

ويختتم الدكتور مصطفي سويف هذا الفصل البديع من فصول كتابه نحن والمستقبل ـــ بعد استعراضه لا لوان المثبطات التي يواجهها الباحث الحريص علي عصاميته الاكاديمية من خواء ما دي ، وتثبيط ايجابي ساذج ، وتثبيط إيجابي مفلسف ، وتثبيط إيجابي مسيس وتشتيت متعمد وخواء معنوي ، وتعرضه هو شخصيا لكل هذه المثبطات ـــ يختتم هذا الفصل بقوله : وهكذا كان قدري منذ اعتزمت أن أعيش عاكفا علي البحث العلمي الجاد في مصرنا العزيزة ، قدر لي أن أهدد منذ الخطوة الأولي ، عندما بدأت أحيل الحلم إلى واقع ، فلما اجتزت عتبة الطريق اكتشفت ان علي أن أنمي في نفسي مجموعة من المهارات العقلية والاجتماعية والخصال المزاجية تجتمع جميعا تحت

عنـوان العـصامية الاكاديميـة كـان ذلـك في مواجهـة الخـواء المـادي فكـان علـي أن أزود نفـسي بمعظم ما يلزم من إعداد لحياة البحث بما في ذلك المراجع والأدوات والترحال .

أتفـق عليهـا وعلـي متعلقاتهـا وكـان كـذلك في مواجهـة أنـواع مـن التثبـيط الإيجـابي تتفـاوت فيمـا بينهـا مـن حيـث الـسذاجة أو سـوء القـصد الـذي يتعـدي مجـرد التثبـيط إلى التـشتيت المتعمـد ، وبالتـالي كـان علـي أن اتعلـم انواعـا منوعـة مـن الـصمت ، وأن اتقنهـا جميعـا وأتقـن التنقـل بينهـا حـسب مقتـضي الحـال ، ثـم كانـت العـصامية مطلوبـة أيـضا للـصمود أمـام عاديـات الخـواء المعنـوي حيـث يعـز التواصـل ويلـزم رصـيد ضـخم مـن الأكتفـاء الذاتي .

أدعـو القـارئ إلى تأمـل هـذا الأسـلوب الـذي يحمـل ملامـح شخـصية مـصطفي سـويف وسماتـه : الوضـوح والعمـق والتـدفق ، وإلـي تأمـل هـذه اللغـة الـتي كـان صـاحبها في مـستهل حياتـه يعـد نفـسه ليكـون قـصاصا أو روائيـا أو شـاعرا ، بعـد أن تجـاوزت علاقتـه بـالادب التلقي إلى الإنتاج .

فلمـا حـسم الـصراع الـذي شـب في نفـسه بـين الأدب مـن ناحيـة والفلـسفة مـن ناحيـة اخـري ــ باختيـار دراسـة فلـسفة الجمـال مجـالا للتخـصص ، بقيـت هـذه الحيـاة الجوفيـة الادبيـة ، تغـذي كتاباتـه ، وتـسري كيمياؤهـا في اسـلوبه ولغتـه وتتـضح بهـده النزعـة الأدبيـة الرائعـة الـتي تنـضح علـي كتاباتـه العلميـة والفكريـة بـألوان مـن البهـاء والجمـال والجاذبيـة ، كمـا أدعـو القـارئ إلى تأمـل كلماتـه وهـو يقـول : كانـت طموحـاتي متـشعبة ، وكنـت ومازلـت اخـاف كـل الخـوف أن تجـرفني أخطـار التـوزع ، كـان همـي الأول أن أنـتج علمـا حقيقيـا ، ووضـعت نـصب عـيني معيـارا للجـودة التـزم بـه هـو أن أكثـر مـن النـشر في دوريـات التخـصص العالميـة ، وتلـت ذلـك همـوم أخـري ، أن يكـون بعـض هـذا العلـم ذا فائـدة قريبـة للتطبيـق ، وأن أصـنع تلاميـذ متميـزين ، وأن أظـل علـي صـلة إيجابيـة بالحيـاة العامـة ، علـي أن تظـل بيـدي مفـاتيح هـذه الـصلة إلى حـد كـبير ، وقبـل هـذا وبعـده أن أبقـي في مـصر لا أهجرهـا هجرة بائنة ولا مقنعة ، فذلك شرط لا بد منه لمصداقية هذه الصيغة المركبة .

في ثنايـا فـصول هـذا الكتـاب ، وفي تـضاعيفه ، وقفـات نعـاين نـزف صـاحبها وهـو يكتـب عنهـا ، محـاولا جهـده وتـرويض انفعالاتـه ــ الـتي قـد تـصعب الـسيطرة عليهـا ــ متمـثلا الحكمـة العربيـة الثمينـة : صـديقك مـن صـدقك لا مـن صـدقك مثـال هـذا حديثـه عـن البعـد الـسياسي للمنـاخ الـسائد مـن حيـث هـو مـؤثر في المؤسـسة العلميـة المـصرية ، عنـدما يقـول (وأنـا أكثـر مـن الاستـشهادات عـن عمـد حـتي أنقـل إلى القـارئ بعـض وهـج الـوعي والاسـتنارة الـذي تتـألق بـه الـسطور) : في خـلال الخمـسين سـنة الأخـيرة غلـب علـي الوجـه الـسياسي للحيـاة المـصرية التقلـب أكثـر مـن الاسـتقرار والتـسلط بـالقهر والتخويـف أكثـر مـن اللجـوء إلى أسـاليب الإغـراء والاقنـاع ، والـبطش بكـل مـا يقـف ومـن يقـف في وجـه هـذا التـسلط ، ولم

تقتصر هذه السمات علي السلوك السياسي ــ علي مستوي الخطوط العريضة للعبة السياسية بل تسربت كما تتسرب المياه الجوفية في طبقات الأرض إلى أعماق بعيدة تشربت هذه السمات إلى أسفل حتي صعبت وجه الادارة العامة لمعظم مرافق الدولة كبيرها وصغيرها ، حتي بلغت القاع .

في هذا الإطار أصاب الجامعات ضربتان كان فيهما ما يقرب من القضاء علي كل غرس طيب ، كانت الضربة الأولي سنة١٩٥٤ بفصل ما يقرب من خمسين عضوا من اعضاء هيئة التدريس بقرار سياسي وقبل أن تفيق الجامعات من أثار الضربة الأولي جاءتها الضربة الثانية سنة١٩٨١ تنكيلا باعضاء هيئة التدريس مرة اخري ، بعضهم بالنقل إلى وظائف إدارية خارج نطاق العمل الجامعي ، وبعضهم بالسجن هذا بالإضافة إلى كم كبير من الاعتداءات الاقل فجاجة والاشد مهارة في التخفي ، لا تزال تنتظر جهود أساتذة تاريخ مصر الحديث للكشف عنها ، وحصرها وبيان دلالتها ، ما دمنا نكثر من الحديث في هذه الايام عما لدينا من حرية وديمقوقراطية نباهي بها الأمم في خاتمة كتابه يقول الدكتور مصطفي سويف: أما بعد ، فإن احدي الوظائف الأساسية للفكر أن يكون إعدادا للفعل ، والفكر في هذا الكتاب يتجاوز الإعداد إلى الدعوة ، وقد ادرناه بالنقد والتحليل حول عدد من المحاور هي: العلم والتعليم والعمل والثقافة العلمية والتخلف الاجتماعي (أو التقدم) وهي فيما نري من أهم محاور الحياة الاجتماعية الثقافية .

وكان شغلنا الشاغل في معالجة هذه المجالات جميعا هو حاضرنا في توجهه نحو المستقبل .

والرجاء ــ بعد ذلك ــ معقود علي ارادة الفعل .

* * * *

وليست هذه السطور الا دعوة لقراءة هذا الكتاب المتلئ بالوعي الكاشف والرؤية العلمية الموضوعية ، وخطورة الطرح وجرأة التناول . تتيحه لنا مكتبة الأسرة ضمن سلسلة الأعمال الفكرية لتبدع جدلا خلاقا بين الفكر والواقع .

كما أنها دعوة إلى مؤسساتنا العلمية والاكاديمية ولفت انتباه إلى أهمية تكريمه علي عطاء متعدد المجال لم يتوقف طيلة اكثر من نصف قرن .

أن كثيرا من الذين رشحوا لجائزة مبارك ـــ في العلوم الاجتماعية ـــ لا يفوقونه جدارة واستحقاقا ومكانة ! .

رجاء النقاش وعودة النقد الجميل

بقلم: فاروق شوشة

مثل رجاء النقاش ليس بحاجة إلى الكتابة عنه لتأكيد أنه كاتب كبير وناقد كبير . فقد استحق هاتين الصفتين معا منذ كتاباته الأولي في مطالع الخمسينيات ، عندما كان مراسلا أدبيا لمجلة الآداب البيروتية في القاهرة ، وكان الناقد الكبير الراحل أنور المعداوي هو الذي قام بتقديمه إلى الدكتور سهيل إدريس رئيس تحرير الآداب ، ثقة منه في هذا الشاب المتلئ بالموهبة والوعي والاستنارة ، والإيمان برسالة الكتابة وشرف الكاتب ومسئوليته ، بالرغم من أنه كان لا يزال طالبا في قسم اللغة العربية بكلية الآداب في جامعة القاهرة . ولم تكد تبدأ رسائل رجاء النقاش ـ المراسل الخاص للآداب وهي لا تحمل اسمه أو توقيعه ـ حتي أصبحت كتاباته حديث الوسط الثقافي والأدبي في مصر والعالم العربي . كان رجاء يكتب بذوب قلبه ، ويعاني معاناة وجودية هائلة في كل ما يتصدي له من مشكلات الواقع الثقافي وأزماته . وكانت رؤيته النافذة للواقع الاجتماعي والحضاري تجعل لكتاباته عن الثقافة مذاقا غير ما لوف أو معهود . وكنا نحن ـ أبناء جيله ـ نحس أنه يكتب لنا وعنا ، وأنه صوتنا الذي نفتقده في زحام أصوات تعبر عن أجيال أخري سابقة ، لا تملك حرارته أو صدقه أو شجاعته . كنا نقرؤه ونحن نشفق عليه من شدة معاناته وعنفها ، خشية أن يحترق أو تحترق أصابعه وهو يسجل شهادته الدامغة علي عصر يتخلخل ويرحل ، وعصر ـ لم يتضح بعد ـ يوشك أن يولد . هذه الرسائل والكتابات الشهرية أصبحت ما دة كتابه الأول في أزمة الثقافة المصرية الذي أتاح لصاحبه مكانه السامق منذ البداية ، وموقعه المتقدم في الساحة الثقافية : كاتبا وناقدا ومفكرا . وكان طبيعيا أن يشغل الكثيرون بالمقارنة بين هذا الكتاب وكتاب في الثقافة المصرية الذي سبق بقليل من تأليف الناقدين والمفكرين الكبيرين محمود أمين العالم و عبد العظيم أنيس . كانت رؤية رجاء النقاش ومنهجه يقومان علي أفق إنساني رحب يمتزج فيه الفكر بالوجدان ، ويري الظاهرة الثقافية في إطار مكوناتها وعناصرها الفردية والاجتماعية ، بينما كانت رؤية العالم وأنيس وعناصرها الفردية والاجتماعية ، بينما كانت رؤية العالم وأنيس تحكمها النزعة الإيديولوجية الصارمة في التحليل والاستنتاج .

وبالرغم من جدة هذا المنهج الإيديولوجي وجرأة تطبيقاته ، وقسوتها أيضا ـ خاصة بالنسبة لمبدع من طراز نجيب محفوظ ـ وهو ما يمكن أن يستثير ـ عادة ـ اعجاب الشباب ونزعاتهم الثورية ، إلا أنني كنت ألمس لدي كثيرين منهم حماسهم ل منهج رجاء ، الذي بدأ فيه أكثر تمثلا للموقف الوجودي النقدي ، وللنظرة الإنسانية

الأرحب للعمل الأدبي ، تلك التي لا تتعسف في الحكم عليه طبقا لفكرة كبري أو نظرية ، تركز علي جانب أو جوانب وتغفل جوانب أخري لها أهميتها وخطورتها .

نعم ، لقد أصبح رجاء النقاش صوت جيلنا النقدي . خاصة أن نقده لم يتكيء إلى مجرد الدراسات البلاغية في التراث العربي ، أو الدراسات الأكاديمية الحديثة في الجامعة ، أو كتابات من سبقوه من أمثال طه حسين ومحمد مندور ولويس عوض وأنور المعداوي وغيرهم . وإن كان قد استوعبهم جميعا وآثر أن يتجاوزهم . كان أهم ما فيه أنه الناقد المفكر ، وأن كتاباته النقدية تستند إلى فكر حضاري وثقافي واجتماعي واسع ، ومن ثم أصبح موقفه النقدي امتدادا لموقفه الفكري ، ورؤيته النقدية غير معزولة عن السياق الحياتي والواقع الوجودي المصطرع والمتشابك والمتفاعل .

بهذه الروح وبهذا التوجه ، سرعان ما أصبح رجاء النقاش صوتا قويا وبارزا في كوكبة النقاد المؤازين لحركة الشعر الجديد ، يؤصل لها ويكتب مقدمات الدواوين الأولي لعدد من مبدعيها ، ويقف في مواجهة المتربصين لكل ما هو جديد ومتطور في الشعر والقصة والرواية والمسرحية ، ويخوض ـبكل ما يمتلكه من شجاعة وجرأة وحرارة وإخلاص ـ معارك عنيفة ودامية ، من أجل ما يؤمن به من قيم ، وما نذر حياته لا جله من موقف ورسالة يجمعهما دائما شرف الكاتب والكتابة .

من هنا كانت كتابته الرائدة عن عبقرية أبي القاسم الشابي ـ وهي دراسة نقدية بديعة أنجزها وهو لا يزال في مرحلة الدراسة الجامعية ـ بكل الجدية والاحتشاد والاقتدار ، وعندما قرر رجاء نشرها ـ بعد كتابتها بسنوات طويلة ، وجد فيها قراؤها شهادة علي نبوغ مبكر ، وموهبة نقدية صاحبته منذ سنواته الأولي .

وكان اكتشافه المبكر لعبقرية الطيب صالح ـ المبدع السوداني الكبير ـ من خلال رائعته (موسم الهجرة إلى الشمال) فقد كان مقاله النقدي عن الرواية وصاحبها بمثابة الطلقة الأولي في تحقيق شهرة الطيب صالح ، واستحقاقه لمكانته المتقدمة بين المبدعين الروائيين العرب ، والتفات الآخرين إلى ه .

كذلك كانت كتابته المبكرة عن شاعر فلسطيني محمود درويش ، درسا نقديا كاشفا ، ومؤازرة فكرية وثقافية ـ من طراز رفيع ـ للثورة الفلسطينية وشاعرها الكبير ، واحتضانا لصفحة فريدة من صفحات الشعر العربي المعاصر في خصوصيتها الفلسطينية المتميزة .

لا نهاية لا كتشافات رجاء النقاش المبكرة ، ورهاناته التي لا تخيب ، علي مواهب وإبداعات ، يحتضنها ويرعاها ، بكل المحبة والمؤازرة . ، والغريب أنه ظل دائما يحمل لمن هم في مثل سنة ، وربما لمن يكبرونه أيضا ، حبا من طراز أبو ي ، فهو

يدرك بعواطف الأب ومشاعره الصادقة مسئوليته إزاء أبنائه ، وفي مجال الإبداع فإن كلهم أبناؤه ، وهو في حنوه البالغ عليهم يمارس هذه الأبوة النادرة ، ويسعد برؤيتهم يتقدمون ويسبقون ، ولا يبالي - كثيرا أو قليلا - بمن سبق وتجاوز ، ثم لم يفكر لحظة واحدة فيمن أخذ بيده وهو علي بداية السلم وفي المراحل الأولي من طريق الإبداع ، فالأب الحقيقي لا ينتظر شكر أبنائه - بعد أن يكبروا - ولا اعترافهم بالجميل ، حسبه أنه أدي دوره وقام برسالته ، ثم آثر الابتعاد .

لا يمكن الحديث عن رجاء النقاش دون الإشارة إلى موهبته الفذة وقدراته - التي يعترف بها الجميع - حين يعهد إلى ه بمسئولية مجلة ثقافية أو أدبية . رئاسة تحرير هذا اللون من المجالات موهبة خاصة لا يتمتع بها إلا قلة نادرة . وفي طليعة هذه القلة رجاء النقاش . وسجله الحافل في مجلة الهلال المصرية ومجلة الدوحة القطرية شاهد صدق علي ما أقول ، حين جعل من الهلال مركزا للإشعاع الثقافي ، وشمسا للوعي والاستنارة ، وغذاء للعقل والوجدان ، في توازن نادر بين ما هو مصري وعربي وعالمي ، وفي استشراف ذكي لمتطلبات العصر وتحديات المرحلة .

كما جعل من الدوحة إجابة كبيرة علي سؤال يتصل بوجود إمارة قطر وموقعها وطبيعة دورها ضمن الدائرة العربية . وأصبح الكثيرون - في بقاع الوطن العربي يعرفون قطر عن طريق معرفتهم بالدوحة : المجلة ، وعندما توقفت الدوحة كانت خسارة قطر - علي المستوي الثقافي والأدبي - تفوق بكثير ما كانت تنفقه علي المجلة من ميزانية ، مهما تبلغ ، فهي لا تساوي شيئا بالمقارنة إلى خسارة الدور والموقف والمكانة .

ولا يختلف اثنان في طبيعة حب رجاء النقاش وتقديره لا ديبنا الكبير نجيب محفوظ . هو حب وتقدير يندر أن يكون بهذا الصفاء والنقاء في مثل هذا الزمان . وقد كشف رجاء النقاش - لقرائه - عن بعض جوانب هذا الحب في كتابيه البديعين : في حب نجيب محفوظ وحواراته مع نجيب محفوظ . ويمكن القول - لمن يعرفون تاريخ هذا الحب والتقدير وامتداده في الزمان والوجدان - بإنه حب قديم جديد ، أو حب قديم متجدد ، وكأن رجاء النقاش يمنح فيه من مخزون عميق في نفسه ، تجمعت روافده وجداوله من مكونات وعناصر شتي ، لتصنع في النهاية هذا الفيض الغامر من المحبة ، هذا النهر المفعم بعلاقة نادرة بين أكبر مبدع مصري في مجال الرواية وناقد كبير وقف سنوات من عمره محاولا الكشف عن الجوهر النفيس في هذا المبدع الكبير إنسانا وفنانا ، وجلاء صورة قلمية ، كأنها معزوفة شديدة الأسر والعذوبة ، في حب هذه الشخصية العظيمة الثرية ، التي تشبه الشجرة الظليلة المباركة ، عطاؤها يتلاحق في كل اتجاه ، ويتجدد في كل موسم ، ويظل دائما سابقا لعصره ، مجهدا لكل من يحاولون اللحاق به ، ويظنون - أحيانا - غفلة أو سفهاء أنهم قاربوا اللحاق به ، ولكن هيهات !

حسبي أن أشير إلى جانب واحد من جوانب هذه العلاقة - العميقة والنادرة - بين نجيب محفوظ ورجاء النقاش ، هو جانبها الإنساني ، وهو جانب يستحق التوقف عنده لا نه عميق المعني والدلالة في شخصية رجاء وتوجهه في الحياة والكتابة . لقد سبق رجاء كثيرين في التعرف علي نجيب محفوظ ، وسبق كثيرين في كسب ثقته والفوز بصداقته . ومع هذا فلم يحاول مرة واحدة أن يفيد من هذه العلاقة في أية صورة من الصور . ولم يشع عن نفسه أبدا أنه من جلسائه أو من شهود ندوته ، ولم يقرن نفسه باسم نجيب محفوظ في أي موقف أو مناسبة ، طلبا لشهرة أو رغبة في الحصول علي تقدير اجتماعي أو أدبي . ولم يفكر مرة واحدة في الإشارة إلى أنه وثيق الصلة بنجيب محفوظ - بالرغم مما بينهما من محبة واحترام وتقدير يفوق كثيرا ما بين نجيب محفوظ وآخرين يحاول بعضهم أن يظهروا في الصورة وكأنهم ورثته أو خلفاؤه . هذه الفضيلة في رجاء النقاش - المحب الحقيقي لا بداع نجيب محفوظ وشخصه - تكشف زيف غيره وادعاءه ، وتعلن عن جوهر المعدن النفيس في رجاء النقاش: الناقد والمفكر والإنسان .

إن رجاء النقاش يعود إلى قرائه ، وإلي جمهوره الواسع - الذي اعتاد أن يلتقي معه علي صفحات الأهرام في مقاله الشهري ، وصفحات صحف ومجلات عربية أخري من خلال كتابه الجديد الجميل: قصة روايتين: دراسة نقدية وفكرية لرواية ذاكرة الجسد ، ورواية وليمة لا عشاب البحر . قيمة هذا الكتاب الأولي أنه يعيد إلى نا النفس النقدي لرجاء النقاش ، بهذه القدرة علي الشمول والنفاذ والعمق والتحليل ، وهو النفس الذي لا تسمح المساحة الصحفية - مهما بلغت - بتحققه بالصورة التي يرتضيها الناقد الكبير لنفسه ولكتاباته . لقد آثر رجاء أن ينتظر حتي تهدأ الضجة التي ثارت حول رواية حيدر حيدر وليمة لا عشاب البحر - وهي الضجة التي كانت شبيهة بالعاصفة الترابية التي تعمي العيون عن الرؤية الصحيحة والتأمل السليم - والضجة الأخري التي صاحبت رواية احلام مستغانمي ذاكرة الجسد ، حتي يكتب في هذوء وبصيرة نافذة وموضوعية عما لم يلتفت إلى ه أحد من النقاء والدارسين الذين سبقوه إلى الكتابة . وبالرغم من اتساع المسافة بين الكاتبين: حيدر حيدر وأحلام مستغانمي ، فأولهما سوري وثانيهما جزائري ، إلا أن التحليل النقدي الذكي ، والرؤية العميقة الكاشفة ، بثبتان أن الروايتين متشابهتان إلى أبعد الحدود والي التطابق أحيانا وأن أولاهما أصل للثانية . فالخلفية العامة للروايتين من أول صفحة فيها حتي آخر صفحة هي أحوال الجزائر بعد الاستقلال ، وبعد انتهاء نضال المناضلين والشهداء في ثورة الجزائر وماحدث في ظل الاستقلال من تجاوزات . ثم إن بطلة رواية الوليمة هي اسيا لخضر وهي ابنة شهيد من شهداء الثورة الجزائرية ، وبطلة رواية ذاكرة الجسد هي أيضا ابنة شهيد جزائري . رواية الوليمة تتركز في الحديث عن مدينة جزائرية هي عنابة يسميها الكاتب في روايته باسم بونة ورواية ذاكرة الجسد تجعل بطولة

المكان لمدينة جزائرية أخري هي قسنطينة . والروايتان تعزفان نغما واحدا في حب مدينة عنابة وفي حب مدينة قسنطينة مع بعض السخط والغضب علي المدينتين أحيانا ، لكنه سخط وغضب صادران عن الحب وليس عن الكراهية !

ثم إن بطل رواية الوليمة ثوري سابق من العراق ، خرج من ارتباطاته الثورية القديمة بجراح عديدة في نفسه ، واضطر بعد انهيار عمله الثوري إلى أن يحترف مهنة أخري هي مهنة مدرس عربي ، وبطل ذاكرة الجسد هو أيضا ثوري سابق كان من المقاتلين في صفوف الثورة الجزائرية فقد ساقه خلال مرحلة النضال . والبطلان المتشابهان في رواية الوليمة ورواية ذاكرة الجسد يبكيان علي الماضي الثوري الذي ضاع وينقمان علي الحاضر الذي اختلف تماما عن أخلاق الثوار وأحلامهم ومبادئهم .

قصة الحب الأساسية في رواية الوليمة هي بين البطل الثوري السابق وبين البطلة اسيا بنت الشهيد الجزائري سي العربي لخضر وقصة الحب في رواية ذاكرة الجسد هي بين البطل الثوري السابق وبين البطلة أحلام بنت الشهيد الجزائري سي الطاهر عبد المولي .

وتفشل قصة الحب في الروايتين بطريقة واحدة . في رواية الوليمة بسبب أحد التجار المنتفعين بالاستقلال الجزائري والذين حققوا أرباحا طائلة من أعمالهم التجارية واتصالاتهم الوثيقة برجال السلطة ، وفي رواية ذاكرة الجسد بسبب من تصفه الرواية بأنه رجل الصفقات السرية والواجهات الأمامية ، رجل العملة الصعبة والمهمات الصعبة ، رجل العسكر ورجل المستقبل .

أخيرا فإن البطل المثالي في رواية الوليمة شيوعي كان يعيش في لندن ، ولكنه عاد إلى العراق وقرر أن يحمل السلاح ليغير الدنيا والمجتمع بالقوة ، ويموت ـ أخيرا ـ في معركة مع القوات الحكومية .

وبطل ذاكرة الجسد فدائي شبيه ببطل الوليمة من حيث التفكير والاتجاه والاستعداد للموت من أجل القضية التي يؤمن بها . هكذا يمضي رجاء النقاش في تحليله ومقارناته ودراسته النقدية الجديدة والشجاعة .

وأجمل ما في هذا الكتاب أنه يعيد إلى نا رجاء النقاش في كامل عدته وعتاده النقدي ، ليقدم درسا لمن يكتبون نقدا لا يقرؤه أحد ، ولا يلتفت إلى ه أحد ، ولا يفيد منه أحد . يعيده إلى نا في شفافيته وموضوعيته وحساسيته الذكية المرهفة وقراءته العميقة المتأملة . وفي أسلوبه السهل المتنع ، العصري ، الذي لا يتسلح بالعصرية الزائفة لستر الخواء الفكري ـ كما يفعل غيره ـ وإنما هو الأسلوب الذي أصبح علامة علي صاحبه الذي يتابعه القارىء علي صفحات الأهرام وعلي صفحات أخري ، فيجد فيه السلاسة

والوضوح والبعد عن التقعر والحوشية وادعاء الاستذة والتعالي علي القاريء وهو ما فعله البعض من منطلق أن الصعوبة والجهامة والتعقيد والاستقلال من أمارات الكتابة الجيدة ، وهي في حقيقة الأمر أسباب للتنفير وكراهية القراءة .

كتاب رجاء النقاش عودة إلى عصر النقد الجميل ، عودة إلى قيم الشرف والترفع والاحترام ، ومواجهة لكل من يتوهمون أنهم بالبلطجة يصنعون واقعا ويفرضون أحكاما ، و بالسوقية يغيرون أذواقا ويكتبون تاريخا ، لكنهم يبنون أوهاما علي الرمال ، ويعلمون أن النقد الذي يكتبه أمثال رجاء النقاش سيجرفهم ، كما يجرف التيار القوي الهادر ، الأعشاب والطحالب والشوائب ، وهو نقد يمتلك من الشجاعة والوعي ما يجعله يعدل عن موقفه السابق من شاعر ومفكر كبير هو أدونيس ، بحيث أصبح يري فيه أكبر موهبة شعرية عربية تعيش بيننا الآن . وهو الموقف الذي يدهش أدونيس نفسه ، ويعتبره شهادة رائعة له .

مرحبا بالناقد الكبير ، الشريف ، الشجاع ، الذي يعيد لصفحة حياتنا الثقافية والأدبية والنقدية ، وجهها المتوهج بالصدق والنقاء والجمال .

تماضر توفيق والنهاية المأساوية

بقلم : فاروق شوشة

لم تكن كغيرها من الرائدات في مجال العمل الاذاعي والتليفزيوني ، بل لا تكاد تشبههن في شيء ، فهي أكثرهن وعيا وثقافة واستنارة ، وهي أكثرهن جرأة وشجاعة في الحق والتمسك بما تراه عدلا وصوابا حتي النهاية ، وهي أكثرهن انضباط في العمل وحرصا علي الجدية وبعدا عن المجاملة وكراهية للنفاق والمداهنة . ثم هي أكثرهن إيمانا بالعقل واعلاء لشأنه في كل ما تواجهه من قضايا ومواقف ، أما انتماؤها الريفي الأصيل للوطن ــ أرضا وناسا ــ فقد رضعته مع طفولتها منذ مولدها في السنبلاوين بمحافظة الدقهلية في التاسع من فبراير عام ١٩٢١ ، وسيبقي هذا الانتماء للوطن وغيرتها من أجله وايمانها بالرسالة التي ارتضتها لنفسها في سبيله ، ملمحا من ملامحها الأساسية حتي النفس الأخير .

لكل هذه الصفات ، والقيم النبيلة التي جسدتها انسانة واعلامية ، لم يكن يحبها الجهلاء والأدعياء ، لا نها سرعان ما تكشف زيفهم وادعاءهم ، وكان يرهبها المنحرفون والفاسدون لا نها كانت تواجههم مباشرة بفسادهم وانحرافهم ، فليست من النوع الذي يغمض عينيه علي خطأ أو انحراف ، أو يسكت عما يراه مدعاة للمواجهة الحاسمة والتدخل الفوري .

تقول لنا سيرتها الذاتية انها تخرجت في كلية الآداب جامعة فؤاد (القاهرة الآن) قسم اللغة الانجليزية عام ١٩٤٢ ، من الرعيل الأول من المتعلمات اللاتي سيصبحن رائدات في مجالات الصحافة والتعليم والاعلام . وعملت فور تخرجها صحفية في وكالة الأنباء المصرية ، لكن ارتباطها الحميم بالمسرح وعشقها له ــ منذ كانت طالبة في الجامعة ــ جعلها تنضم إلى فريق مسرح دار الأوبرا المصرية القديمة ثم تنضم بعد ذلك إلى مسرح الأوبرا ــ هذا العشق للمسرح وللتمثيل جعلها تلتحق بالاذاعة في عام ١٩٤٦ لتصبح في طليعة الأصوات التي تقدم نشرات الأخبار ومن أكثرهن حضورا وشخصية ، وسرعان ما كونت مع زملائها في الاذاعة فريقا للتمثيل ، ويدفعها من جديد عشقها للدراما والتمثيل إلى أن تسافر في بعثة لدراسة الفن الاذاعي في هيئة الاذاعة البريطانية لتصبح من أوائل الاذاعيات المصريات اللاتي أتيح لهن السفر في بعثات دراسية ، وتعود من البعثة لتصبح رئيسة لقسم التمثيليات بالاذاعة بالاضافة إلى قراءة نشرات الأخبار وتقديم البرامج التي تزلقت من خلالها شخصيتها الاذاعية وحضورها القوي وثقافتها الواسعة خاصة برنامجيها ورقة وقلم وعشرين سؤال اللذين كانا في ذلك الوقت طليعة لبرامج المنوعات ذات الصبغة الجماهيرية والتأثير الشعبي الواسع فضلا عن الطبيعة الثقافية للبرنامجين .

ويـزداد اسـم تماضـر توفيـق لمعانـا وتألقـا ، مراقبـا للتنفيـذ الاذاعـي ومـشرفا علـي البرنـامج الأوروبـي والـبرامج الأجنبيـة بالاذاعـة ، ومـساعدا للمراقـب العـام ، وأول سـيدة تتيح لها كفاءتها وقدراتها الاذاعية ممارسة هذه المهام جميعا .

لـذا فقـد كـان طبيعيـا أن تختـار تماضـر توفيـق ـــ قبـل افتتـاح التليفزيـون المـصري بـثلاث سـنوات ـــ لتكـون ضـمن زول بعثـة إلى أمريكـا لدراسـة الفـن التليفزيـوني في عـام ١٩٥٧ ولتـسافر في بعثـة ثانيـة إلى أمريكـا في عـام ١٩٦٠ لدراسـة الاخـراج التليفزيـوني لتـصبح بعـدها أول مخرجـة في تـاريخ التليفزيـون . وسـرعان مـا يـصبح وجههـا التليفزونـي هـو الوجـه الأكثـر شـهرة بـين النـاس ويطغـي هـذا الوجـه علـي تاريخهـا الاذاعـي الرائـد و ، المجيـد ، فالنـاس يتابعونهـا علـي شاشـة التليفزيـون ـــ مـن خـلال برنامجهـا التليفزيـوني النـاجح وجهـا لوجـه الـذي ينـاقش المـشكلات الـتي تهـم الجمـاهير في موضـوعية وجـرأة ، ومـن خـلال اشـرافها علـي القنـاة الثالثـة الـتي سميـت بالثقافيـة ومبادرتهـا إلى ابتكـار عـشرات الأفكـار لـبرامج تليفزيونيـة جعلـت مـن قناتهـا ـــ شـبه المتخصـصة ـــ منافـسا قويـا للقنـاتين الأولـي والثانيـة ، واسـتقطبت هـذه القنـاة ـــ بفـضل ثقافـة تماضـر توفيـق وقـدرتها الفـذة علـي الاختيـار ـــ كـثيرا مـن الكتـاب والأدبـاء والمفكـرين والعلمـاء ، ليكونـوا هـم معـدي برامجهـا ومقـدميها وضـيوفها والمـسئولين عنها .

ويتـألق الـدور الـذي تقـوم بـه التليفزيونيـة تماضـر توفيـق : مراقبـا عـام ا للـبرامج الثقافيـة ومـشرفا علـي الـبرامج التعليميـة ومـديرا للمراقبـة العامـة للتخطـيط والمتابعـة ووكـيلا للتليفزيـون لـشئون الـبرامج ، فرئيـسا للتليفزيـون في عـام ١٩٧٧ . ولم تكـن طيلـة هـذه المـسيرة الحافلـة وحـدها ، فقـد كـان إلى جانبهـا ثلاثـة مـن جيـل العمالقـة الـرواد : سـعد لبيـب وسمـيرة الكيلانـي وعبـاس أحمـد ، ولا يتـسيها هـذا العمـل الاداري والـبرامج عـشقها الأساسـي للثقافـة ـــ خاصـة مـا يتـصل منهـا بتأصـيل الثقافـة التليفزيونيـة الـتي كـان المتـاح منهـا بالعربيـة قلـيلا جـدا بـل نـادرا ـــ فـتترجم للقـارئي العربـي ثلاثـة كتـب أساسـية في هـذا المجـال هـي : العمـل التليفزيـــــوني وفـــــن التليفزيـــــون والتليفزيـــــون وأثـــــره في حيـــــاة الأطفـــــال .
وفي قمـة انـشغالها بمـسئولياتها كـرئيس للتليفزيـون ، وبحثهـا الـدائب عـن الجديـد ، فكـرا وتنـاولا وأداء ، كـان حماسـها لا ختيـار ثلاثـة مـن الاذاعـيين لتقـديم بـرامج تليفزيونيـة تثـري الوجـه الثقـافي للتليفزيـون ـــ الـذي كـان في ذلـك الحـين باهتـا وغـير مـؤثر ـــ هـم : سـناء منـصور ونادية صـالح وكاتـب هـذه الـسطور . وظلـت وراءنـات طيلـة شـهور تـستحثنا بـالحفز والتأييـد وازالـة المعوقـات حـتي نقـدم برامجنـا في مـستهل عـام ١٩٧٨ ، وفي ينـاير مـن ذلـك العـام قـدمت سـناء منـصور برنامجهـا الكـاميرا تفكـر الـذي كـان بكـل المقـاييس قفـزة في مجـال الفـن التليفزيـوني اعـدادا وتنفيـذا وتقـديما ، وقـد قلدتـه بعـد ذلـك في الايقـاع وأسـلوب المونتـاج والقطـع الـسريع بـرامج كـثيرة لم تبلـغ مبلغـه مـن النجـاح والتـألق ، وقـدمت ناديـة صـالح

برنامجها الكاميرا والكتاب استمرارا لبرنامجها الاذاعي الشهير زيارة لمكتبة فلان وجاء برنامجها التليفزيوني كسبا للشاشة والمثقفين معا ، وقدمت عددا من الحلقات الجميلة والممتعة ، أما أنا فقدمت برنامجي الأمسية الثقافية الذي لا يزال مستمرا حتي إلى وم . وكان الفضل الأول في رعايته وتوجيه مسيرته ، وحمايته — في مواجهة العوائق المادية والبشرية — لتماضر توفيق التي جعلت من نفسها مسئولة مباشرة عنه ، تسأل عن كل صغيرة وكبيرة وتضعه في صدر سهرة القناة الأولي وترد علي من يتهمونه حينذاك بأنه برنامج اذاعي وتقول في سخرية لا ذعة : ألا يعلم هؤلاء الجهلاء الذين لديهم هوس بالصورة ، أن المتحدث الجيد في موضوع مثير للاهتمام هو بدوره صورة يهتم المشاهد بمتابعتها وتأملها ومعرفة كيف يتكلم هذا الشخص وكيف يفكر وكيف يعبر عن نفسه ، فالكلام الجميل في موضوع مشوق هو أيضا دراما حية ، لها ما للدراما في التمثيليات والمسلسلات من جاذبية وتأثير . ثم تضيف تماضر توفيق : أريد أن أسأل هؤلاء المتعالين بالجهل : ما هي الصورة المناسبة التي يريدون وضعها علي الشاشة عندما يتكلم مفكر في وزن الدكتور زكي نجيب محمود ؟ إلى ست مشاهدته وهو يفكر ويتكلم صورة أروع من كل ما يفكرون فيه من صور ؟

وأدركت بعد أن اقتربت من تماضر توفيق ، بصورة منتظمة ، حجم وجدانها الانساني الرحيب وحقيقة هذه الشخصية الجبارة التي ظاهرها القوة والجسارة وحدة التعبير وباطنها الشعور المرهف والرحمة الغامرة والأمومة الفياضة . كانت تقسو علي بعض المذيعات ممن يتصورن أن نجاحهن يعتمد علي جمال المظهر وفتنة الألوان والملابس الزاهية دون الاهتمام بالثقافة الضرورية والاعداد الجيد لكنها قسوة الاستاذية والأمومة . لا أنسي رؤيتي لها ذات يوم وهي تقول لواحدة من أشهر جميلات التليفزيون وأكثرهن زهوا بتاج الجمال : إياك أن تتصوري أن كل ما تحملينه من جمال سيخفي حقيقة جهلك الشديد ، أنت في نظري قبيحة بالرغم من كل هذه الأصباغ والألوان والمساحيق ، وجمالك الحقيقي يبدأ بعقلك وذكائك وشخصيتك وثقافتك ، فتجملي ثم عودي !

ولا أنسي أيضا غيرتها علي التليفزيون المصري — وهي رئيسته — عندما رأت أن الدولة قد وافقت علي قيام شركة استثمار عربية بجمع اشتراكات بالدولار لمشاهدة قناة خاصة سيبدأ ارسالها من المقطم مخصصة للمنوعات والمسلسلات والأفلام الأجنبية . وقتها كان المشرف علي وزارة الاعلام هو المهندس سليمان متولي ، فلما خاطبته في الأمر ومدي تأثيره علي مشاهدة التليفزيون المصري نصحها بعرض الأمر مباشرة علي الرئيس أنور السادات ونجحت في اقناع الرئيس بأن مثل هذه المحطة الخاصة لو بدأت فانها ستصرف المشاهدين عن نشرات الأخبار وخطب الرئيس والاحتفالات الوطنية وغيرها من المواد التي تمثل الهوية المصرية أمام السيل الأجنبي الذي ستبثه القناة الخاصة الأجنبية ومدي تأثيره

علي شبابنا وأطفالنا . وأمر السادات بعرض الأمر علي مجلس الشعب لا عادة النظر فيه والاعتذار عنه بعد أن سبق للحكومة الموافقة عليه ، ودفعت الحكومة التعويض المالي المطلوب للشركة وظفر الاعلام المصري باستديو الارسال الذي كان قد أقيم في المقطم ، والذي يستخدم الان في بث القناة الثقافية المتخصصة . لكن تماضر توفيق ـــ النموذج النادر المثال في الاعلام المصري ـــ لم تكن تدري أن حياتها العملية التي بدأت بهواية المسرح والتمثيل والاخراج ـــ في الاذاعة ثم في التليفزيون ـــ ستنتهي نهاية درامية ما ساوية لم تخطر لها علي بال . وكيف يخطر علي بال من عاشت حياتها في العمل الاعلامي رمزا للشرف والنزاهة والاستقامة والوعي والانضباط أن الطعنة الغادرة ستجيئها وهي تمثل بلدها في مؤتمر دولي للتليفزيون في كندا ، وتشارك في هذا المؤتمر بفكرها وأبحاثها وخبرتها العريضة ، حين قرأت خبر اعفائها من منصب رئيسة التليفزيون وهي تركب الطائرة في طريقها إلى مصر عائدة بعد انتهاء المؤتمر وتألقها فيه ، واسناد وظيفة أخري لها بهدف افساح المجال أمام زميلة لها ـــ يفصل بينهما فارق العمر والخبرة والامكانيات والعطاء ـــ لتصبح رئيسة للتليفزيون بدلا منها ، بعد أن ألغي ندب زميلتها للمكان المهم الذي كانت تعمل فيه ، ولتصبح عودتها للتليفزيون مقترنة برئاستها له ، حتي ولو كان في ذلك أخذ المكان الذي تشغله تماضر توفيق !

أتصور الان شريط الحياة السريع ، المتلاحق المشاهد ، وهو يتابع أمام عيني تماضر توفيق فيما يشبه ومضة البرق ، وهي تكتشف أن كل ما عاشت له من قيم ومباديء وشرف ونزاهة وجدية ووعي واستنارة ، لم يشفع لها لحظة اقصائها عن كرسيها ، ولم يبق علي وصولها لسن المعاش إلا أقل القليل . ما الذي يضير لو أنهم تركوها تكمل مشوارها حتي نهايته المحتومة ! !

ودهش الذين لا يعرفونها علي حقيقتها وهم يرونها تعود من المطار إلى البيت ، وهي تقسم أن علاقتها بالمبني ـــ الذي أعطته حياتها وجهدها ـــ قد انقطعت إلى الأبد ، وأنها لم تعمل فيه ثانية تحت أي مسمي ، ولن تقبل أي تكريم مهما كان نوعه . حتي عندما سقطت في منزلها وأصيبت بكسر في الحوض في ديسمبر عام ١٩٩٨ ونقلت إلى قصر العيني للعلاج الذي كلفها الكثير ، طالب البعض ممن يعرفون قدرها بأن تعالجها الدولة علي نفقتها ، لكنها رفضت ذلك تماما ، وظلت معتصمة بكبريائها التي أصيبت في مقتل ، ونفسها التي تمزقت بين عالم المثال الذي آمنت به وعاشت له وكرست حياتها كلها من أجله وعالم الواقع بغدره وقسوته وظلمه ، وكان كل من يراها في أيامها الأخيرة يدرك حجم الطعنة التي أصابتها ، وحجم الصمود الجبار الذي ظلت تقاوم به محنة الحياة وقسوة المرض وجسامة الأعباء .

لن يفيد الآن ـــ وقد رحلت تماضر توفيق عن عالمنا المليء بالصراعات والمطامع ـــ أن نطالب باطلاق اسمها علي أحد استديوهات الدراما بالاذاعة أو التليفزيون ـــ وهي المخرجة الرائدة في المجالين ـــ ولا أن تقدم باسمها جائزة لشباب المبدعين من العاملين في الاذاعة أو التليفزيون ، ولا أن تعلق صورتها في متحف اذاعي أو تليفزيوني أو يمنح اسمها شهادة تكريم في أحد مهرجانات الاذاعة والتليفزيون ، فلقد رفضت ذلك كله في ختام حياتها ، وعلينا أن نحترم موقفها بعد وفاتها . خاصة أن هذا كله لن يغير من الظلم الذي وقع عليها والاهانة التي لحقت بها .

ولقد رحلت تماضر توفيق بعد أن اطمأنت روحها إلى أن مقعدها في رئاسة التليفزيون تشغله الآن واحدة من أبرز بناتها وتلميذاتها النابغات ، اللائي يحملن كثيرا من صفاتها في الوعي والاستنارة ، والشرف والنزاهة والقدرة علي الانضباط والعدل ، وعدم الميل مع الهوي: هي الاعلامية المثقفة ميرفت رجت ، التي ستظل تذكرنا بكثير من ملامح تماضر توفيق وقسماتها المحفورة في الذاكرة ، جدية وعطاء ورسالة حياة . ندعو لها بكل التوفيق ، وحظا غير الذي لقيته تماضر توفيق .

ناظم حكمت ومترجمه الجميل

بقلم: فاروق شوشة

أسعدني الخبر الذي سمعته من الصديق الشاعر اللبناني الكبير جوزيف حرب - رئيس اتحاد كتاب لبنان - عن قرب صدور الأعمال الكاملة للناقد والكاتب والمترجم اللبناني الدكتور علي سعد ، وأن اتحاد الكتاب هو الذي قام بهذا الجهد وهذه المبادرة . أسعدني الخبر ، الذي استهل به هذا المقال ، علي الرغم من أن كثيرين لا يعرفون من هو الدكتور علي سعد ، ولا طبيعة كتاباته . علي الرغم من أنه واحد من الرموز لعصر أدبي وثقافي جميل ، عاشه جيلي منذ منتصف الخمسينيات ، حين كنا نطالع كتاباته وتعقيباته النقدية علي صفحات مجلة الآداب البيروتية التي كانت الصوت المعبر عن الطليعة العربية الأدبية ، والمتبني للاتجاه القومي في الفكر والثقافة والفن والإبداع .

كان علي سعد يطل علينا - نحن القراء - بين الحين والحين ، بمشاركاته في باب قرأت العدد الماضي من الآداب معلقا علي القصائد المنشورة في العدد السابق . لم يكن يعلق علي شيء آخر غير الشعر كالقصص والأبحاث . وكانت تعقيباته النقدية تدهشنا بقدرته الخلاقة علي النفاذ إلى جوهر النص الشعري وتأمل بنيته التشكيلية واستشفاف روحه وإيحاءاته . وكان يكتب بلغة لا تشبه لغة الأكاديميين أو المحترفين من النقاد الذين يستدرجهم احترافهم إلى التعالم أو ادعاء التعالم واختيار اللغة المنهجية المتلثة بالمصطلحات والتراكيب النقدية ، التي تؤازر هذا التوجه وتكشف عن هذا السمت . علي العكس تماما ، كان يكتب بلغة رائقة صافية ، بسيطة غاية البساطة ، لا تقعر فيها ولا حوشية ولا صعوبة . لغة تغري بالمزيد من القراءة ، وتدفع إلى إعادة قراءة النص الشعري لنري فيه ما يراه هو ، وما غفلنا نحن عنه . ونجد في كتابته إبداعا موازيا ، يكاد يطربنا ، ويسيطر علي حواسنا وأحاسيسنا ، ويكاد يحلق بنا وهو يرفعنا معه إلى الروحي ويدفعنا معه إلى الأسمي ، ويطلعنا علي سماء الإبداع الحقيقية التي تظلل النص وتمطره بفيض من الدلالات والإشارات والمعاني التي لا تتوقف .

ولم أدهش - والصديق الشاعر اللبناني الكبير جوزيف حرب يخبرني بأن الدكتور علي سعد لم يكن دكتورا في الآداب ، لكنه كان يحمل لقب دكتور الذي يسبق أسماء الأطباء ، وأن تخصصه بعيد كل البعد عن الدراسة الأدبية أو الفكرية أو الفلسفية . إذن فهو رجل عصامي ، علم نفسه بنفسه ، وثقف نفسه بنفسه ، وكون هذه الذائقة المتميزة وهذه المعرفة العميقة التي اتكأت إلى ها حساسيته النافذة في التعامل مع الأعمال الأدبية . وحزنت حزنا شديدا عندما عرفت من الصديق جوزيف أن علي سعد توفي أخيرا عن عمر

مديد ، بعد أن توقف منذ سنوات طويلة عن الكتابة والنشر ، والمشاركة في المحافل والمناسبات الأدبية والثقافية .

لكنني ، وجيلي من القراء والشعراء ، مدينون للدكتور علي سعد بفضل له في أعناقنا لا يمكن أن ينسي ، هو ترجمته المتميزة والرائعة لمختارات من شعر ناظم حكمت أعظم شاعر تركي في القرن العشرين . صدرت هذه الترجمة عام ١٩٥٢ وحمل غلاف الكتاب هذه السطور: قدم له ونقله إلى العربية الدكتور علي سعد من أسرة الجبل الملهم . وأتيح لنا ـ في القاهرة ـ أن نقرأ الكتاب وأن ننفعل به كل الانفعال بعد صدوره بشهور قليلة ، وسرعان ما أصبحنا نتداوله كما نتداول الكنز النفيس الذي نحرص عليه ولا نريد أن نفرط فيه ، فهو لا ينتقل من صديق إلى آخر إلا بصعوبة مماثلة ، والأشعار ـ في ترجمتها العربية ـ تفعل فعلها فينا وكأنها النار المشتعلة ، بعد أن صادفتنا فينا تطلعا مشبوبا إلى آفاق الحرية والكرامة الإنسانية والثورة علي القيود والمستبدين والمستعمرين . كان شعر ناظم حكمت الذي قرأناه في ترجمة الدكتور علي سعد دعوة إلى الثورة علي الظلم ، والتغني بقيم العدل والحرية ، والإيمان بالحياة والمستقبل .

وكم كانت فرحتنا ـ بعد عدة سنوات من هذا التاريخ ـ ونحن نري ناظم حكمت بيننا في القاهرة ، يستقبله الزعيم جمال عبد الناصر ويرحب به ويكرمه ويري فيه ـ كما رأينا نحن منذ سنوات ـ واحدا من كبار شعراء العالم ، ومناضلا فذا من المناضلين الذين قضوا معظم حياتهم خلف جدران السجون بينما قصائده تنجح في التسلل من بين القضبان ـ التي ظل حبيسا وراءها ستة عشر عام ا ـ لتصبح أناشيد للحرية في كل مكان من العالم .

في المقدمة التي كتبها الدكتور علي سعد لا شعار ناظم حكمت التي ترجمها إلى العربية ووقعها هكذا: بيروت في٣١ آب أغسطس سنة١٩٥١ ، يقول:

نحن نؤمن أن شعوب الشرق العربي في مرحلتها الحاضرة ـ مرحلة النضال للتحرر من الاستعمار الخارجي والاستبداد الداخلي ومن الظلم الاجتماعي ـ أحوج الشعوب إلى تعبئة قواها الواعية مع القوي المتوثبة فيها ، وإلي تكوين أدب يعبر عن آمالها وكوامن الحياة فيها ويرسم اتجاهاتها ومصائرها ويبعد عنها كل أعراض القلق والحيرة واليأس والاسترسال مع الأوهام والأحلام ، التي جاءتنا من المجتمع الغربي .

ولكننا ـ مع هذا النموذج الرفيع من الشعر الواقعي ـ نحب أن نقدم لقراء العربية ناظم حكمت الإنسان .

فمن هذا الشعر يطل وجه إنساني ورائد للحرية في هذا الشرق ومجاهد دفع في سبيل نصرة حقوق المغلوبين والمحرومين في بلده وفي كل بلدان الشرق الثمن الفادح ، فقضي في السجن ستة عشر عام ا اقتطعت من زهرة أيام شبابه .

ونحن الذين نقف من معارك الحياة موقف المتفرج الآمن لا يسعنا إلا أن نخجل من طمأنينة عيشنا وأن نحس بصغرنا وتفاهة حياتنا أمام جراح هذا الإنسان الكبير وسخائه في التضحية وبساطته في القيام ببطولة العيش في الأغلال ليفسح للعبيد فك أغلالهم . ولكن أي منبر لم يكن يوما أكثر دويا ولا شفيفا لنداءات الحرية ، من السجن الذي شاءت قوي الظلام خنق صوت ناظم حكمت بين جدرانه .

فقد كانت أشعار حكمت وأغانيه تدوي داخل سجن بروضت وتنفذ من بين قضبانه لتنطلق من شفة إلى شفة فتشيع البهجة والرجاء والإيمان بالحياة في كل زقاق وكل بيت تركي ، وتحمل إلى آذان العالم أصداء نضال الشعب التركي في أبلغ بيان . وأخيرا أذعنت السلطات التركية لنداءات العالم الحر ، واضطرت لا خراجه من السجن الذي كان مقضيا عليه أن ينهي فيه بقية عمره . وبانتصار الفكر الحر في قضيته دخل اسم ناظم حكمت في جو الأسطورة .

ولا عجب فهو شيد من بني الأساطير وهدم الأساطير . انه الشاعر الذي غني الحرية والفرح وآمال وحكايات القوم البسطاء الذين لم يلتفت إلى هم يوما أحد من رجال السياسة والقلم في الشرق .

وهو الشاعر الذي لم يستخدم شعره كوسيلة للزخرف أو لزيادة راحته وبحوه الشخصيين ، وإنما كأداة نضال شعبي وكسلاح ذي حدين ، يعمر به ويدمر ، ويبدع ويقتل علي خط النار الذي اختار لنفسه العيش عليه في معركة التحرر الاجتماعي ، انه لم يرض لنفسه درب العيش السهل كغيره من أدباء الشرق ، ولم يجعل من قلمه حاجزا بينه وبين الناس ولا سلما يرقي به إلى برج مرصود يسكر فيه ويسكر بسحر الألفاظ ورنين القوافي . بل آثر اتباع الطريق الشاقة الوعرة ، طريق النضال حتي الاستشهاد البطولي في سبيل نصرة أفكاره ومثله وغايات الكثرة الساحقة من أبناء مجتمعه .

فناظم حكمت لا يفصل بين عمله الشعري وعمله السياسي ، ولا بين جماليته ونضاله .

ان شعره مظهر من مظاهر نضاله .

وشعره ، لذلك ، يحمل هذا الطابع المحبب من الحيوية ومن الصدق والإخلاص والصراحة . إن فيه كل حرارة الصراع وكل عنف العواطف القصوي من حب وكره وحنين وشفقة وعبادة للجمال والحرية .

وإذا أبغض ناظم حكمت فإن بغضه لا يتناول الأشخاص بحد ذاتهم ، وإنما معاني الظلم والاستبداد أو الجهل والغدر والخيانة التي يمثلون . وإذا أحب فإن حبه لا يقف عند شيء ، فهو يحب السماء والشمس وأبناء بلاده الذين يصفهم بقوله : إنهم

أطفـال وشـجعان وجبنـاء وجهلـة وحكمـاء . وهـو يحتـوي في حبـه المـوت والجـوع والبائـسين وامرأته ورفاقه في النضال ورفاقه في السجن . . بل هو يحب سجنه وسجانيه .

وقـد يكـون نـاظم حكمـت استمد مـن عقيدتـه طريقتهـا في النفـاذ إلى صـميم الجـوهر الإنـساني ممـا حبـب إلى ه أكثـر النـاس وجعـل قلبـه يخفـق مـع أبعـد نجـم في الـسماء ، حـتي أصبح يتـألم لعـذاب جنـدي علـي أبـو اب مدريـد ويبكـي لـصرع إنـسان متحـرر في كلكتـا بكـاءه لا خبار المجاعة في استانبول .

وهنـا نـصل إلى نقطـة الثقـل في أدب نـاظم حكمـت ، إلى صـفة الـشمول الإنـساني الـتي أدخلتـه فـورا في نطـاق الـتراث العـالمي . فـشعر حكمـت ينبـع مـن أغـوار حـس إنـساني عميـق ومـن ذخـيرة لا تنـضب للمحبـة الـشاملة الـتي تتـسع لكـل إنـسان مهمـا كـان جنـسه ومهما كان مركزه في السلم الاجتماعي .

وعـبر الحـدود والـسدود الـتي أقامتهـا المـذاهب والأحقـاد القوميـة بـين الـشعوب ، وعـبر الفواصـل الاجتماعيـة الـتي نـصبتها أجيـال مـن اسـتغلال الإنـسان للإنـسان ، لا يـري نـاظم حكمـت مـن ملامـح الإنـسان إلا مـا يقـرب ويـدني . لـذلك كـان اهتمامـه بالأحيـاء الـشعبية في إيطاليـا وبالأحبـاش المـضطهدين ويـزنج أمريكـا يـشبه اهتمامـه بجيـاع اسـتانبول وسـجناء بروضـت . وبـسبب هـذا الطـابع يحمـل شـعره رسـالة إخـاء وسـلام ومحبـة بـين الـشعوب ، رغـم عنـف اللهجـة الـتي يـستعملها في مخاطبـة أعـداء التحـرر الـشعبي .
ويكشف الناقـد والمترجـم الـدكتور علـي سـعد عـن مزيـد مـن عمـق نفـاذه إلى جـوهر شـاعرية نـاظم حكمـت ، حـين يقـول: إلى جانـب هـذه النزعـة إلى الـشمول الإنـساني ، فـإن نـاظم حكمـت لم يكف يوما عن العودة بإلهامه إلى إلى نابيع الشعبية المحلية في أمته .

وأجمـل مـا في شـعره تلـك الحكايـات وتلـك التعـابير والـصور والأمثـال الـشعبية الـتي تزهـر كـالنجوم علـي قلمـه بـين ثنايـا حديثـه الـواقعي ، فتـشيع فيـه مـن الـبراءة والنـداوة والعفوية بما يتيح لشعره الدخول دون استئذان إلى الأفئدة والألباب .

وهكـذا حقـق نـاظم حكمـت ثـورة عميقـة في الأدب التركـي ، فقـد حطـم الإطـارات الـشكلية الـتي فرضـتها التقاليـد العربيـة والفارسـية علـي الـشعر التركـي ، فنقلـه مـن مجـال الجمـال اللفظـي إلى تيـار الحيـاة الحقيقيـة ، إلى الأعمـاق الـشعبية ، أعـني إلى مـصدر كـل حق وخير وجمال .

وبتحقيـق هـذه الخطـوة ، فعـل نـاظم حكمـت عربـة الـشعر التركـي مـن ركـب الآداب الـشرقية الـتي لا تـزال تحتـضر في جـو البلاغـة الآسـن حيـث تتخـبط أرسـتقراطية فكريـة بعيـدا عـن أحاسـيس الجمـاهير وروحهـا ، وسـير شـعر بـلاده في اتجـاه الـشعر العـالمي المعاصـر .
وإذا تحـدث النـاس إلى وم عـن أعـلام الـشعر الـواقعي لا يخلـو اسـم حكمـت مـن اللمعـان إلى

جانب أسماء جارسيا لوركا ، وماياكوفسكي وجاك بريفير ورامبو ، بنفسهم المألوف الذي يجعل حديثهم أحيانا قطعا من أحاديث الشارع ، وبلهجتهم الثورية التي تهز المشاعر ، وأشعارهم التي يغذيها الإلهام الشعبي .

أليس ناظم حكمت هو الذي يعلن - في ترجمة الدكتور علي سعد الرائقة والبديعة :

إن عالمنا كبير وفسيح وجميل
وإنه لرحب شاطيء البحار
لدرجة أن بإمكاننا جميعا أن نستلقي كل ليلة
جنبا إلى جنب علي الرمال الذهبية
وأن نغني الحياة المشعشعة بالنجوم
كم هي حلوة الحياة يا تارانتا بابو
وما أجمل كوننا نعيش
فندرك الكون كما لو كنا نقرأ في كتاب
ونميد به كما بأغنية حب
وندهش كالأطفال
أن نعيش !
وهو الذي يقول عن شعره :
أنا لا أملك جوادا مسرجا بالفضة
ولا مداخل تأتي من حيث لا أدري
أنا لا أملك ما لا ولا عقارا
وليس معي غير قصعة من عسل
من عسل بلون اللهب
إن عسلي هو كل ما لي
وإنني أحمي
من كل أنواع الحشرات
مالي وعقاري
أعني قصعة العسل
صبرا يا أخي صبرا
عندما يكون العسل في قصعتك
يأتيك النحل من بغداد

ولابـد مـن الإشـارة إلى أن الـسطرين الأخيريـن في المقطوعـة همـا مثـل شـعبي تركـي .

لقـد احتفـل لبنـان أخـيرا بالناقـد والكاتـب والمترجـم الجميـل الـدكتور علـي سـعد وشـارك في الاحتفـال سياسـيون وأدبـاء ونـواب ورجـال ديـن . وهـذه الـسطور أكتبهـا بـاسمي وباسـم أبنـاء جيلـي - الـذين قـرأوا لـه منـذ مطـالع الخمـسينيات ووجـدوا فيـه نموذجـا فريـدا ومختلفـا لناقـد وكاتـب ومترجـم أعظـم آثـاره ترجمتـه العربيـة الرائعـة لا شـعار نـاظم حكمـت - تحيـة ومـشاركة . . والحديث عن الشاعر والمترجم موصول . . .

أخلف وعده ورحل

بقلم: فاروق شوشة

كنت أهنئه بالحصول علي جائزة الدولة التقديرية في الآداب ، وأدعوه في الوقت نفسه ليكون ضيفا علي الأمسية الثقافية ، حرصت علي أن يكون هو بالذات أول من أهنئ من بين الفائزين ، وأن يكون هو بالذات أول من تستضيفه الأمسية التليفزيونية أوصلني به سكرتيره ومرافقه عبد العزيز ، جاءني صوته مرحبا مفعما بمشاعر الرضا والسعادة ، متغلبا علي نوبات السعال الحاد التي تصاحب كلماته وهو يتكلم كنت أدرك أن حصوله علي الجائزة التي يستحقها عن جدارة منذ سنوات طويلة في هذا التوقيت بالذات يتضمن لفتة انسانية نبيلة من اللجنة التي صوتت علي الجائزة وانها اضافت شيئا إلى المناعة التي عاش بها أيامه الاخيرة قبل أن يستسلم للنهاية . وكنت أحس في داخلي ، ولا أزال ، عدم منطقية الوضع الذي اتخذته وزارة الثقافة ، في حجب قياداتها عن صراع الجوائز وابعادهم عن حلبة المنافسة ، بدعوي ان وجودهم في مواقعهم من شأنه أن يؤثر في نتيجة التصويت وكأن ممارستهم للعمل الثقافي قد أصبحت عقابا لا بد أن يتحملوا وزره حتي يحين دورهم بعد التحرر من رق الوظيفة وعبوديتها وفي طليعة هؤلاء كان سمير سرحان صاحب القلب الطفل والانسانية الغامرة ، والعقل المتفتح والموقف النبيل كان أصفاهم ــ جميعا ــ نفسا وأبعدهم عن شوائب صراع السلطة ، وأحقادها الصفراء وكان له من الحضور الانساني المشع ما يجعل غلاه منتقديه والمتفانين في البحث عن سلبياته ، يرمون أسلحتهم وهم يقبلونه ويعانقونه في مودة واحترام عند أول لقاء لم يكن صوته وهو يستجيب لدعوتي ــ قبل رحيله بأيام معدودة ــ يشي باقتراب النهاية ، بل هو صوته الطبيعي المألوف ، المفعم بالمودة والحس الساخر والدعابة الذكية . واتفقنا علي موعد التسجيل ومكانه ، وعندما نبهته إلى انه كثير النسيان ، نادي علي سكرتيره عبد العزيز وأملاه التفاصيل الثامنة مساء يوم الخميس استوديو٦ بالتليفزيون الأمسية الثقافية وفي الاستوديو جلست انتظره ومعي مخرج البرنامج محمد ابراهيم ومساعدته المخرجة نعمات رشدي ومضي الوقت بطيئا الثامنة ، الثامنة والنصف ، التاسعة فكان لا بد من اتصال جديد أسأله عن سبب تأخره فرد علي صوت عبد العزيز: لقد تعب بصورة مفاجئة إلى وم ونقلناه إلى المستشفي . وبعد أيام قليلة كانت ساعة الرحيل .

الذين أتيح لهم ان يعرفوا سمير سرحان عن قرب يدركون حجم السهام التي صوبت إلى ه عبر مسيرته الحافلة ، خاصة في سنواتها المضيئة وهو رئيس لهيئة الكتاب ، وصانع لمعرض القاهرة الدولي للكتاب وحامل لشعل ثقافة التنوير ، ومواجهة ثقافة الظلام والتخلف والجمود والارهاب ويدركون ايضا حجم عناده واصراره وتحديه وقدرته

علي الانجاز عام ا بعد عام . . وهو يري أن الذين لم ينالوا ما لا يستحقونه من المغانم لا نهم لا يستحقون ، يشنون عليه حربا شعواء وان كثيرا ممن أخذ بأيديهم وأفسح لهم وقدمهم قد انضموا إلى الناقمين عليه ، لا نهم يريدون أن يتضاعف عونه لهم ويستمر دون توقف يوما بعد يوم والرجل يدوس علي جراحه وآلامه ويمضي ينزف قلبه ويتألم في داخله ، فيطوي آلامه وأحزانه عن الناس جميعا ويستمر وعندما غادر مكتبه — لا خر مرة — في الهيئة المصرية العامة للكتاب ، كان يتخيل مجرد تخيل - ان وسام الدولة ينتظره ، تتويجا للرحلة الطويلة والكفاح الطويل ربما يلحق به هذا الوسام بعد رحيله ، لكنه رحل بدونه وفي نفسه مرارة ، وكان تكريمه في حياته — لو تم — أهم بكثير من حصوله علي الجائزة التقديرية التي عاقته الوظيفة عنها لسنوات عدة .

هذا رجل لم يعش لنفسه كما يفعل كثيرون ، ولو فعل لما لا مه احد . لكنه جعل من نفسه خادما للثقافة وللمثقفين علي حساب مشروعه الاصيل في الحياة: أكاديميا بارزا ومبدعا خلاقا وكاتبا متوهجا بالفكر والمعرفة والحس الدرامي الاصيل .

ولأننا سنفتقده زمنا طويلا فإن الباحثين فيه عن عطر الصديق والمبدع والمثقف والانسان الجميل سمير سرحان بعد رحيله ، سيجدون هذا العطر متناثرا فوق الملايين من صفحات الكتب التي دخلت بيوتنا ، وفي مشاريع ثقافية عديدة ، وفي ذكريات ومواقف ومناسبات لا تنتهي ، سيظل يحكيها الناس عنه وسيجدون كثيرا من هذا العطر في ابنه الفنان خالد سرحان وابنته الرائعة لا را سرحان . . يرحمه الله .

أستاذي حامد عمار : شكراً

بقلم: فاروق شوشة

عن الدار المصرية اللبنانية صدرت السيرة الذاتية لشيخ التربويين المصريين وعميدهم الدكتور حامد عمار ، وقد اختار لها عنوانا دالا هو: خطي اجتزناها .

والدكتور حامد عمار واحد من الرموز العلمية والتنويرية والانسانية في تاريخ هذا الوطن ، ومنذ جلست إلى ه في موقع التلميذ الذي ينهل من علمه ومعرفته وفيض حكمته المبكرة ، وهو يعلمنا في كلية التربية عام ١٩٥٧ اصول التربية ، والانماط الثقافية والحضارية للمواطنة ، في اثينا واسبرطة ، ويدفعنا في وعي رشيد إلى تحليل نموذج الشخصية المصرية في ضوء ما درسناه ، لنكتشف اننا في ذلك الوقت كنا نعيش عصر الفهلوي وهو التحليل العميق الذي يكشف لنا الآن أننا نعيش عصر الهباش بعد أن تغيرت الأوضاع ، واختلت المعايير ، وانقلب سلم القيم في المجتمع .

كان الدكتور حامد عمار بالنسبة إلى نا ـ ولايزال ـ واحدا من القلة القليلة التي تجسد التحام المعرفة بالسلوك ، وتخرجنا في كلية التربية ، وانظارنا تتابعه في كل موقع ، وفي كل ميدان ، وحركته الدائبة مصريا وعربيا ودوليا للاستعانة بخبرته وعلمه تضعه دوما في دائرة التألق ، ويتلقاها زملاؤه وتلامذته ومريدوه والمنتفعون بعلمه ، بكل الاعظام والتقدير ، ولايزال حتي إلى وم ، وهو في الخامسة والثمانين من عمره المديد ان شاء الله ، يحمل عقل شاب ، وحكمة معلم ، وتجدد عالم ، وحيوتة مناضل لا يهدأ ولا يتوقف ولاييأس ، حتي والدنيا من حوله تختلف ، وينهار كثير من منظومة القيم التي تربي عليها ونشأ فيها وساعد في غرسها وتأصيلها .

اليوم يتيح لنا الدكتور حامد عمار ـ من خلال مسيرته الذاتية خطي اجتزناها . بين الفقر والمصادفة إلى حرم الجامعة يتيح لنا متابعة العديد من مشاهد حياته الحافلة ، مصورة بقلم بارع ، يذكرنا بأقلام الكبار من الادباء الذين عكفوا علي كتابة سير حياتهم ، بأساليب ومناهج مختلفة ، أما هو فمنهجه البساطة العميقة ، واللمحة المختصرة الدالة ، والتعليق الذكي اللماح الذي يغني عن قول الكثير ، يكفي أن أقول إن ظلالا من أيام طه حسين كانت تلاحقني وأنا أطالع سيرة حامد عمار: النشأة الصعيدية الشديدة الفقر والعوز ، واقع الحياة القاسية التي تكاد تخلو من كل شيء غير الفاقة والمرض وشظف العيش ، الرحلة القاسية مع التعليم من الكتاب إلى المدرسة الالزامية إلى الابتدائية إلى الثانوية إلى الجامعة ، المصادفات التي كان لها فعل السحر في حياته ومسيرته وتذليل ضائقة الحياة ومشاق الرحلة ، والمعني الكبير المضيء خلف هذا كله ،

هو نفسه المعني المضيء وراء سيرة طه حسين في الأيام: العناد والكفاح ، الصبر والتحمل ، الايمان بالعلم والحرية والتقدم ، وضرورة ضرب المثل لكل طفل وصبي في اعماق القرية والنجع ، السيرتان معا: سيرة طه حسين وسيرة حامد عمار ، تتوهجان بأشجان الرحلة ، وعنفوان المواجهة ، ونزف الوجدان الشديد الحساسية ، وتتشبثان في الوقت نفسه بالغاية البعيدة والطموح المستحيل والنجاح بلا حدود .

من الصعب اختصار مثل هذا الكتاب الحافل بسيرة انسانية علمية تربوية حاشدة ، كل سطر فيها يمثل حركة في الوعي ونقلة في الفكر واشراقة في الروح . يبقي ما أدين به لا ستاذي الجليل من شكر وعرفان ، فقد اختصني في أكثر من موضع في كتابه بالذكر والتحية ، والتحية من مثله وسام كبير علي صدري حين يصفني بأني واحد من المع تلاميذه ، وحين يستعرض في ختام كتابه مقالين لي عنه في الأهرام في مناسبة صدور كتابه الخطير الذي لم يلق ما يستحقه من اهتمام ومتابعة ، وقد صدر ايضا عن الدار المصرية اللبنانية بعنوان: الحادي عشر من سبتمبر٢٠٠١ وتداعياته التربوية والثقافية في الوطن العربي ، وكيف كنت اشير إلى تأثيره فينا ـ نحن تلامذته ـ منذ عرفناه استاذا في كلية التربية ، باعتباره انسانا ومفكرا وصاحب رسالة ، حيث كانت محاضراته بناء لوعينا ومنهجنا في المناقشة خطوة بعد خطوة ، وحوارا عميقا هادئا ، يكشف عن قدراته الهائلة في الجدل الموضوعي .

استاذي العزيز: هذه مناسبة جديدة لا تمني لك العمر المديد الحافل بالعطاء ، ولأقول لك من كل قلبي: شكرا .

خالد الساكت . . وداعا

بقلم: فاروق شوشة

أكتب عنه وعن رحيله ـ منذ أكثر من شهر ـ وأنا أعلم أن الذي عرفوه في مصر ومازالوا يذكرونه يعدون علي أصابع إلى دين . . لكن هذا لا ينفي أن سنوات دراسته الأربع الجامعية في كلية دار العلوم بين عام ي١٩٥٦ ، ١٩٥٢ كانت أشبه بالعاصفة . فقد جاء الأردني خالد الساكت أو أبو قيس ، كما كنا نسميه ، في بعثة دراسية إلى مصر ، وهو في سن السادسة والعشرين ، بعد أن تزوج وأصبح له من الأولاد قيس وزياد . وسرعان ما تميز بين أقرانه بحكم السن والخبرة والوعي العروبي القومي ، والنزعة الحادة البدوية فيه ، ففرض نفسه أبا روحيا وأستاذا معلما وناقدا وحكيما لرفاقه الذين يصغرونه سنا ويقلون عنه وعيا سياسيا وجماليا . واستطاع هذا الطالب الثوري الفوضوي أن يصطفي لنفسه صحبة مختارة من نخبة شباب تلك السنوات: سليمان فياض ، وأبو المعاطي أبو النجا ، ورجاء النقاش ، ووحيد النقاش ، و عبد الجليل حسن ، والأردني مثله: غالب هلسا ، والمصري الشاعر محمد اسماعيل هاني ، ثم امتد أفق هذه الصحبة إلى أنور المعداوي ، وصلاح عبد الصبور ، ومحمد الفيتوري الذي كان زميل الدراسة في دار العلوم ـ شفاه الله ـ وآخرين .

وعن طريق خالد الساكت عرفنا الأردن ، وأدباءه وشعراءه ، خصوصا مصطفي وهبي التل الذي عرف باسم عرار ، والشاعر الفلسطيني ابراهيم طوقان الشقيق الأكبر لفدوي طوقان واستاذها في الشعر والحياة . وعرفنا معني الشعارات التي تتردد علي ألسنة الطلاب العرب في هتافاتهم ونـدواتهم وتجمعاتهم في روابطهم بالقاهرة ، عن الحرية والوحدة العربية والاشتراكية العربية . وبالرغم من حدة لسانه ، وحدة طبعه وصفاته ، إلا أن الجميع كانوا يحبونه ويقدرونه ويسعون إلى لقائه ومشاغبته ، وكان يتنبأ دوما لا بوالمعاطي أبو النجا بمستقبل حافل في كتابة القصة القصيرة والرواية ـ وهو ما تحقق بالفعل ـ ولرجاء النقاش بمستقبل باهر ولامع في مجال الكتابة النقدية ، وهو ما أثبتت الأيام صدقه وتحققه ، وللفيتوري بمستقبل زاهر في الابداع الشعري . وكأنه كان يري المستقبل ، من وراء نظارته السميكة علي عينيه ، والمدلاة دائما إلى قرب طرف أنفه الطويل المدبب ، الذي يوحي بالتهيؤ الدائم للانقضاض . ويتفرق الجمع بعد التخرج من الجامعة عام ١٩٥٦ ، ويزورنا خالد الساكت في مطالع الستينيات وأوائل السبعينيات ، كان قد درس لعدة سنوات في أمريكا ، وعمل لعدة سنوات في السفارة الأردنية ببيروت ، وتغير كثيرا ، وتغيرنا كثيرا ، وتكلمنا كثيرا عن الحنين والمحبة والأمل في لقاء . وكان يتاح لي أن أري خالد الساكت ـ بعد ذلك ـ كلما سافرت إلى الأردن ، يجئ من مدينة

السلط وأقابله في عمان وألاحظ ما صنعته نكسة٦٧ بروحه وجسده ، كما صنعت بهذا الجيل كله ، وكيف انطفأ الحلم العربي الوحدوي وتبدد ، وحل محله الحزن والتشرذم والغضب والانفلات ، وكيف فرضت السنون تجاعيدها ، وابيض الشعر ، وخفت الصوت ، وشحبت الروح . كنا نلتقي للتباكي ، والوقوف علي الأطلال ، والتنبؤ بالنهايات المحتومة .

منذ عام ين ، كنت في عمان ، وكانت المناسبة دعوتي لمحاضرة أمام مجمع اللغة العربية الأردني باسم المجمع المصري ، وفوجئت بخالد الساكت يتحامل ويتساند علي اثنين من الشباب قادما من مدينته ليراني ، حضوره ـ بالرغم من المرض والشيخوخة ـ أيقظ الكثير من ذكرياتنا وانكساراتنا المشتركة ، تحدثت عنه طويلا في ختام المحاضرة ، وعن دوره الرائد ـ بالنسبة لنا نحن رفاقه وأصدقاءه وزملاء الدراسة ـ والمعني الذي جسده لنا وطنيا قوميا حتي النخاع ، وفنانا مبدعا في كل ما كتبه من شعر ونثر ، ناقدا ومتأملا وواخزا ، استقبل الجمهور حديثي عن صديق العمر الجميل بحماسة بالغة واشتعلت قاعة المحاضرة ، كانت دموعه تنساب في صمت تحت نظارته السميكة ولا يملك ـ لجيشانها وتدفقها ـ أن يوقفها .

لم أكن أدري انه اللقاء الأخير ، ولم يقل لي وقتها إنه أرسل لي كل أعماله الشعرية والأدبية والنقدية منذ أربع سنوات ومعها رسالة مؤرخة في الأول من يناير عام ٢٠٠١ ، أعطاها لا بنه قيس ليرسلها بالبريد الدولي . ما ت قيس بسرطان مفاجئ ، واكتشفها أخوه قيس ، فأرسلها لي ابنه يحيي ومعها الرسالة التي لم تصل في حينها ، ولم أرد علي كاتبها الذي انتظر ردي طيلة سنوات ، ورأيي في كتبه ، وأخبرني يحيي أن أباه رحل منذ أكثر من شهر ، وأن الأسرة بسبيلها إلى اقامة حفل وداع يليق به في الثاني عشر من هذا الشهر ، طامن قليلا من حزني وألمي أني ـ خلال العام الأخير ـ كنت قد كتبت عن خالد الساكت مرتين ، الأولي في الأهرام عن أحدث دواوينه الشعرية ، والثانية في مجلة العربي الكويتية عن واحدة من قصائده البديعة في هذا الديوان ، قراءة وتحليلا ، وإشارة إلى خالد الساكت: الإنسان والشاعر والظاهرة والعاصفة .

أحمد فراج . . وداعا

بقلم : فاروق شوشة

حين التحقت بالإذاعة في ختام عام ١٩٥٨ كان أحمد فراج قد سبقني إلى ها بنحو أربع سنوات ، حقق خلالها صورته الأولي بين أقرانه باعتباره مذيعا جادا ، يجيد الحوار ويهتم بالثقافة والفكر ، قبل أن يتركز هذا الاهتمام ـ بعد قليل ـ في مجال الدعوة الإسلامية . وأمام المصعد في مبني الإذاعة القديم بالشريفين عرفني عليه الصديق المشترك محمد جلال ـ الذي كان وقتها صحفيا مرموقا في مجلة الإذاعة ، قبل أن يصبح رئيسا للتحرير وروائيا كبيرا ، وكنت أنا في الأسبوع الأول لمارستي العمل بقسم المذيعين . وقامت بيننا علاقة مودة سرعان ما نمت وتطورت ، شجعني عليها هدوؤه .

ودماثته وأسلوبه في التعامل مع المذيعين الجدد ، وحرصه علي التوجيه الرقيق ولفت النظر إلى ما يراه صحيحا وصوابا بأسلوب خال من التعالي أو التسلط . ولعبت مشاركاتنا في كثير من الإذاعات الخارجية ، ومواكبها التي لم يكن يخلو منها أسبوع واحد ، في تعميق هذه العلاقة ، وبخاصة أن عمل المذيع في هذه الإذاعات الخارجية السياسية ـ أو التاريخية كما كانت تسمي ـ كان يعتمد أساسا علي إتقان اللغة والقدرة الفائقة علي الارتجال والثقافة المطلوبة لتزويده بما ينبغي أن يقال وما تتسع له المناسبة .

وأصبح كل منا يستريح للعمل مع الآخر حين تتاح لنا فرصة المشاركة في العديد من المناسبات الإذاعية ، مع احتفاظ كل منا بموقعه ومرتبته ، هو المذيع الأرفع والأقدم ، وأنا الذي تدربت علي يديه ، وتقدمت بفضل العديد من توجيهاته . وشرق كل منا وغرب . وارتبط اسمه بعد ذلك ببرنامجه الإذاعي الأسبوعي الشهير المائدة المستديرة وبدأ برنامجه التليفزيوني الذائع الصيت ، بعد افتتاح التليفزيون: نور علي نور .

ترك أحمد فراج العمل في قسم المذيعين بإذاعة البرنامج العام ، وهو في منصب المذيع الأول ، وتدرج بعد ذلك في مناصب إذاعية عديدة مديرا عام ا للتخطيط ومديرا عام ا للبحوث والدراسات . كما أصبح مديرا لمكتب الدكتور أحمد كمال أبو المجد وزير الإعلام الأسبق ، ومستشارا لرئيس الوزراء ولرئيس مجلس الشعب في عهود مختلفة بعد عودته من العمل الذي أبعده عن مصر لسنوات عديدة ، أمينا عام ا لمنظمة إذاعات الدول الإسلامية ـ ومقرها جدة ـ لدورتين متتاليتين طيلة اثني عشر عام ا متصلة .

ولم تؤثر هذه المناصب والأعمال والمسئوليات المختلفة علي صورته الأصلية عند المشاهد المصري والعربي باعتباره رائد تقديم البرامج الدينية في التليفزيون والأستاذ الأول لكل من قاموا بتقديمها من بعده وحاولوا الاقتداء به والسير علي نهجه . لكن كان

ينقصهم دوما لغته المعبرة الطيعة ، المصطبغة بالنفس القرآني ، والمفعمة بالإشراق الديني ، وثقافته المتخصصة فيما يقدمه ويحسن عرضه والتأتي له ، في دبلوماسية هادئة واثقة ، تصل بالحوار إلى غاياته المأمولة والمرسومة له ، وتصل بين الخيوط بدلا من تقطيعها وتشتيت اهتمام من يتابع ويتلقي ، في نهج بعيد عن التعصب أو المغالاة ، حريص علي إبراز سماحة الإسلام واستنارته وسبقه ووضوحه في كل ما يعرض له من قضايا ، فضلا عن قدرة أحمد فراج الفذة علي اكتشاف من يراهم يصلحون نجوما لبرنامج ومتحدثين أفذاذا لديهم القدرة علي العرض والإقناع ، في دائرة واسعة من أهل الفكر والتخصصات المختلفة ، وليس في دائرة الدين وحدها ، وكان كثير من حلقات نور علي نور يتوهج ويضيء حين تتسع للحضارة الإسلامية ، ومآثر هذه الحضارة علي الإنسان والعالم كله ، ويتسع المجال لعلماء التاريخ والحضارة والدراسات المقارنة والعلماء المهتمين بالعلم: واتسعت المسافة بيننا ، هو باهتماماته الدينية ، وأنا باهتماماتي الأدبية والشعرية . وحين أصبح أحمد فراج أمينا عام ا لجائزة شاعر مكة محمد حسن فقي التي أنشأتها مؤسسة يماني الثقافية الخيرية في عام ١٩٩٤ ، قدر لي أن أكون أول الحاصلين علي جائزتها في الشعر ، وتأكدت علاقتنا مرة أخري واقتحمت آفاقا جديدة ، من خلال دعوتي للمشاركة في دورات الجائزة وأمسياتها الشعرية ، وآخرها دورة مكة في الشعر العربي التي شهدت آخر لقاءاتنا وحواراتنا المشتركة منذ عدة شهور . ولم يكن يدور بخلدي أن هذا هو لقاؤنا الأخير ، وأن هذا الإنسان المتوهج بالنشاط وحمل المسئولية وتنظيم جلسات الدورة ووقائعها علميا وإداريا يودعنا جميعا دون أن يدري ودون أن ندري . بعد أن ترك من ورائه تراثا حافلا ، وحصاد جهاد طويل من أجل الدعوة التي آمن بها وكان في طليعة جنودها ، وأستاذية إعلامية تتلمذ عليها كثيرون .

إن الشعور بافتقاده يتزايد كلما تأملنا حال الخطاب الديني في عشرات البرامج التي تزدحم بها التليفزيونات والفضائيات ، وافتقدنا في كثير منها منطق الاستنارة والوعي الرشيد والارتفاع إلى مستوي التحديات والقضايا الكبرى ، بديلا عن التدني والهبوط إلى ما ينفر منه الذوق السليم والخلق السمح في تناول جزئيات تفسد علي الناس حياتهم وتشق عليهم بلا ضرورة . فضلا عن نماذج بعض الدعاة في هذه الفضائيات والفكر الذي يطرحون إن كان هناك فكر أصلا . ولسوف تتسع مساحة هذا الافتقاد .

رجاء النقاش ضمير جيل

بقلم : فاروق شوشة

قرب منتصف الخمسينيات أصبح رجاء النقاش واحدا من النجوم البازغة بقوة في سماء حياتنا الأدبية والثقافية ، كان مراسلا من القاهرة لا هم مجلة أدبية في العالم العربي هي مجلة الآداب البيروتية ، وكانت رسائله الشهيرة فيها - التي يكتبها بذوب قلبه ويسكب فيها معاناته الوجودية الهائلة - زادا للألوف التي بدأت تقرؤه وتلتف من حوله ، من أبناء جيله من الذين رأوا فيه صوتهم ، ومن غيرهم ، وهو ما يزال طالبا في قسم اللغة العربية بكلية الآداب في جامعة القاهرة ، لم يتجاوز عام ه التاسع عشر ، هذه الرسائل أصبحت فيما بعد كتابه الأول في أزمة الثقافة المصرية الذي أتاح لصاحبه مكانه ومكانته وموقعه المتقدم في الساحة الثقافية كاتبا وناقدا ومفكرا ، وجعل كثيرين يقارنون بين كتابه والكتاب الذي سبق صدوره للناقدين الكبيرين محمود أمين العالم و عبد العظيم أنيس في الثقافة المصرية ، يقارنون بين منهجين ورؤيتين ولغتين في النقد ، منهج رجاء النقاش الذي يقوم علي أفق إنساني رحب يمتزج فيه الفكر بالوجدان ، ويري الظاهرة الثقافية في إطار مكوناتها وعناصرها الفردية والاجتماعية دون تزمت أو تعصب لنظرية ما ومنهج العالم وأنيس الذي يلتزم الرؤية الواقعية في نموذجه ا الإيديولوجي الصارم الأحكام والتطبيقات ، وهو ما ظهر في تناول أعمال مبدع كبير من طراز نجيب محفوظ ، أثبتت الأيام فيما بعد ، صدق منهج رجاء النقاش وانسانيته وأفقه الرحب في التعامل معه ، وتعسف التناول الايديولوجي الملتزم وعجزه عن استشراف آفاقه . وسرعان ما أصبح اسم رجاء النقاش يمثل عملة نقدية جديدة ، تستند إلى فكر حضاري وثقافي واجتماعي واعد ، وتستوعب انجازات الكبار الذين سبقوه من أمثال طه حسين ومحمد مندور وأنور المعداوي وغيرهم دون أن تكون تكرارا لها ، والتمع اسمه أكثر حين أصبح صوتا قويا وبارزا في كوكبة النقاد الجدد - الأمر الذي جعل خصومه يطلقون عليه عبد الحليم حافظ الأدب - ويخوض بكل ما يمتلكه من شجاعة وجرأة وحرارة واخلاص معارك عنيفة من أجل ما يؤمن به من قيم ، وما نذر حياته لا جله من موقف ورسالة يجمعهما دائما شرف الكاتب ونبل الكتابة ، من هنا كانت كتابته المبكرة - وهو ما يزال طالبا - عن عبقرية الشابي ، واكتشافاته المبكرة لعبقرية الطيب صالح من خلال رائعته موسم الهجرة إلى الشمال ، وشاعر فلسطين محمود درويش ، ورهانه المبكر علي عبقرية محفوظ في وقت انصرف فيه كبار النقاد عنه بدعوي أنه أصبح مؤسسة غير قابلة للنقاش ، أو أن سرده الطويل يهبط بمستوي ايقاع رواياته ، أو أنه يقف عقبة في وجه الأجيال الجديدة من مبدعي الرواية ،

فلما جاءت نوبل قلبت موازين هؤلاء النقاد جميعا ، وأكدت نبوءة رجاء النقاش الذي لم يفقد يقينه بعبقرية نجيب محفوظ .

ويوم عاد رجاء النقاش - بعد دورة طويلة من الزمان - إلى دوره النقدي التنويري من خلال كتابه قصة روايتين ، الذي قدم فيه دراسة نقدية وفكرية لروايتي ذاكرة الجسد لا حلام مستغانمي ووليمة لا عشاب البحر لحيدر حيدر ، كتبت أحييه وأشيد بكتابه علي هذه الصفحة التي تجاورنا فيها تسع سنوات بمقال عنوانه : رجاء النقاش وعودة النقد الجميل ، وكأنني كنت أستشرف صداقة غالية بدأت منذ منتصف الخمسينيات واستمرت حتي رحيله ، ارتبط فيها اسم رجاء بمحطات ثقافية وأدبية بارزة من بينها دوره رئيسا لتحرير مجلتي الهلال المصرية والدوحة القطرية ، كاشفا عن موهبته ، وقدرته الهائلة في اصدار مجلات ثقافية ناجحة ، تقوم بأدوار تنويرية وطليعية بارزة ، وتجسد أفقه الثقافي الرحب ، واختياراته الشديدة التوفيق للقضايا والموضوعات ، وللمبدعين والكتاب أو من منطلق التزامه بالموضوعية ، لدرجة القسوة الزائدة علي النفس ، فقد تجنب الكتابة عن كثير من أصدقائه المقربين من أبناء جيله ، فلم يكتب عن غالب هلسا أو بهاء طاهر أو سليمان فياض أو أبو المعاطي أبو النجا أو غيرهم من الروائيين والشعراء .

وبالرغم من هذا الموقف ، فقد ظل في قلوبهم نموذجا نبيلا لقيم الشرف والترفع والاحترام . ولسوف تفتقده هذه الصفحة التي بسببها اصبحت كتاباته زادا للألوف المؤلفة من قرائه ومتابعيه وعاشقي لغته ، وسنفتقده - نحن أصدقاءه ومحبيه وعارفي قدره - وجها انسانيا نبيلا ، وقلما مبدعا يتوهج بالصدق والنقاء والعذوبة والجمال .

مصطفى ناصف . . نمط صعب ومخيف

بقلم : فاروق شوشة

لا أجد أصدق من هذا التعبير المأثور عن شيخ المحققين العلامة محمود شاكر في بعض دراساته عن الشعر العربي القديم ، لا طلقه علي الناقد الكبير الراحل مصطفي ناصف .

كان نمطا صعبا من الرجال في تعامله مع الآخرين من حوله ، لا يأنس للندرة منهم إلا بعد طول جس واختبار ، وكان وراء هذا الموقف معاناته الطويلة من زملاء وأساتذة وتلاميذ كادوا له وأفسدوا عليه صفاء أيامه بأحقادهم وغيرتهم واكتشافهم أنهم لا يقتربون منه علما أو حسا أو قدرة علي التذوق والتأمل والتحليل ، والاختبار والخروج علي المألوف والمغايرة ، فأخذوا يشيعون عنه أن كتاباته لا تفهم وأنه ملغز وأنه لا يبلغ شأوهم وهم في حقيقة الأمر من غير معدنه ، اكتشافاته ـ فيما يكتبه ويبدعه نقدا ـ مدهشة ، ومغامراته لا سقف لها ولا حدود ، حتي لو كتب عن الصورة الأدبية ما يعجزهم ويلجمهم ولو وصل في قراءته الثانية والجديدة للشعر العربي القديم إلى ألوان من التأويل وأبعاد من الفهم تتجاوز كل ما ألفوه ، فإذا بفرس امريء القيس في معلقته يصبح هو امرؤ القيس نفسه ، وكأن الشاعر يقدم صورته لنفسه وما يجيش فيها من خلال لوحته البديعة ـ غير المسبوقة ـ عن فرسه !

وكان نمطا مخيفا من النقاد لا نه عرف ما لم يعرفوه وأدرك ما لم يدركه كثير منهم ، ذلك أن وعيه بالموروث الشعري والثقافي كله بلغ لديه غايته وفاق به أقرانه فكان إذا تكلم: تكلم عن علم وخبرة بكل العلامات والرموز الكبيرة في مسيرة الابداع العربي ، قديمه وحديثه ولعله كان أعرف أبناء جيله بعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين وأقدرهم علي منازلته ومحاورته والتعقيب عليه في تجلة واحترام ، كما كان أكثرهم خبرة بتراثنا النقدي والبلاغي المستمر منه والمهجور الصالح للعصر والبعيد عن روح العصر ، وأكثرهم حساسية في تبني مفاهيم النقد الجديد والتعبير عنها في طلاقة وحرية ، لا تقيده المفاهيم ولا تؤوده القواعد ولا تخيفه الاسماء الأجنبية التي تصيب كثيرا من نقادنا باللعثمة والعبودية والتبعية . كما كان من أسرعهم إلى تأصيل مفهوم القراءة والاهتمام بالنص الأدبي وجعله محور الكلام ومداره الأساسي فاتصل تطبيقه النقدي بفكره النظري وأصبحت تناولاته ومقارباته للنصوص الأدبية ـ التي اختارها وتوقف عندها ـ دروسا في الابداع النقدي ، وفي النفاذ إلى أسرار النص ، واطلاق العنان لمزيد من الدلالات وفضاء التأويل .

ومصطفي ناصف من أسبق نقادنا إلى تطبيق ما يسمي الآن بالنقد الثقافي باعتباره أحدث الاتجاهات في النقد العربي المعاصر دون أن يشير إلى ه بالاسم أو المصطلح فقد كان أفقه الثقافي والمعرفي الواسع ـ خبرة وبلاغة وفلسفة ومنطقا وتاريخا وغير ذلك من دوائر المعرفة ـ يضيء تحليله للنصوص الأدبية ، ويضيء قراءته الواعية بمصابيح كاشفة ورؤي لم تخطر علي بال ، وكان وعيه باللغة علي مستوي المفردة ، والتركيب والسياق والنص يجعل من رؤيته لهندسة التركيب وهندسة اللغة كشفا جماليا بديعا ، كما كان هجومه علي تحليل عناصر الصورة الأدبية وتفكيكها تمهيدا لا عادة تركيبها واضاءتها مغامرة تحمل دوما صيده الموفور وغنائمه الكثيرة المدهشة .

كان مصطفي ناصف يحرص علي اضفاء مسحة من التواضع الشديد علي جبينه لكن داخله كان يمور دوما بقدر كبير من الشعور بالاغتراب والانفراد والوحشة بين قوم لا يفهمونه ولا يقدرونه ، فقادته الوحشة والغربة إلى وعي شديد بالذات وإلي كبرياء قاسية تصنفه ـ في نظر نفسه ـ بعيدا عن كل من يخالطهم وقريبا من الكبار المعدودين في زمانه وغير زمانه ، القلة النادرة من هؤلاء الكبار الذين رأي فيهم طبقته ونظراءه وعارفي قدره ، لكنه بالرغم من هذا الشعور القاسي ، ظل يكتب ويكتب ويفاجيء الحياة الأدبية والثقافية بدراساته واكتشافاته ، فهو يكتب عن طه حسين بالحماس نفسه الذي يكتب به عن أحمد عبد المعطي حجازي: الشاعر المعاصر ، ويكتب عن شعر البادية مذكرا بالقيم الفنية والجمالية التي يمثلها هذا الشعر حتي لا يقترب منه المعاصرون إلا علي وعي به وبحقيقته ، ويهديني ـ عن مودة ومحبة ـ مصطلحه الجميل الإغراء بالقراءة عنوانا لكل كتاباتي طيلة السنوات الماضية علي صفحات الأهرام وهو الذي جعلته عنوانا لكتابي الإغراء بالقراءة نشرته مكتبة الأسرة ضمن سلسلة الأعمال الفكرية عام ٢٠٠٣ وكان رأيه ـ الذي اعتززت به ومازلت ـ أن دعوة الناس إلى القراءة أو اغراءهم بالقراءة ، دعوة لا يقدر عليها إلا من امتلأت قلوبهم بالمحبة ، وعمرت بالصفاء ولم تفسدها الكراهية أو الأحقاد وخلت من كل ما يؤدي إلى تعكير المزاج أو تبديد المودة ، وإلا فكيف ينجح الكاتب في دعوة قارئه علي حب كتاب أو كاتب لم يحبه هو ولم يعبر عن محبته هذه بطريقة فيها حفز واغراء ؟

ولسوف تبقي كتابات مصطفي ناصف بيننا أضوأ وأعمق من كل ما كتبه منكروه ، والحاقدون عليه والذين لم يفهموه ولم يقدروه حق قدره . لكن التاريخ سوف ينصفه .

الإذاعية الرائدة . . أميمة عبد العزيز

بقلم: فاروق شوشة

عن ستة وسبعين عام ا رحلت الإذاعية والإعلامية الرائدة أميمة عبد العزيز ، كثير من الأجيال الإذاعية الجديدة لا يكادون يذكرون هذا الاسم أو يعرفون صاحبته ، وقد كانت في النصف الثاني من الخمسينيات وطوال الستينيات وحتي أوائل السبعينيات في طليعة جيلها عطاء متميزا وقدوة لكل العاملين معها ، والذين أتاحت لهم أقدارهم أن يسعدوا بخدماتها وأستاذيتها وخلقها الرفيع وشخصيتها النادرة ، فقد كانت أميمة عبد العزيز حلقة مضيئة في السلسلة الذهبية التي كانت تضم تماضر توفيق وسميرة الكيلاني ، ولا تشبه الثلاث إلا ندرة من الإذاعيين والإذاعيات علما وثقافة وفنا وشرفا وكبرياء .

ولدت أميمة عبد العزيز عام ١٩٣١ ، وتخرجت في قسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب عام ١٩٥٤ ، وعملت مدرسة لمدة عام واحد قبل أن تلتحق بالعمل الإذاعي مذيعة ومحررة ومترجمة عام ١٩٥٥ ، وأتيح لها ـ بفضل كفاءتها وانضباطها وتجردها ـ أن تصبح رئيسة لقسم المذيعين بإذاعة البرنامج العام ، وأن تصبح مديرة عام ة للتنفيذ ومسئولة عن تدريب المذيعين ، ولم يتح لي أن أكون واحدا من الذين دربتهم ، فقد كان التحاقي بالإذاعة في العام الذي قضته هي معارة إلى إذاعة موسكو عام ١٩٥٨ ، وكانت بخبراتها وقدراتها من مؤسسي القسم العربي فيها والقيام بمهمة تدريب العاملين فيه ووضع الصورة الأولي لخريطته وبرامجه .

خلقت أميمة عبد العزيز لتكون أستاذة ومعلمة ، ولم يكن تدريبها للأجيال ـ التي سعدت بالتلمذة علي يديها والافادة منها ـ تدريبا مقصورا علي الأداء والإلقاء ومخارج الأصوات ، لكنه كان تدريبا شاملا يقوم علي بناء الشخصية الإذاعية ، وانضاج القدرات والمقومات والعناصر التي ينبغي أن تتوافر فيمن يمارسون العمل الإذاعي ، وسكب قيم هذا العمل وسلوكياته وأخلاقياته في نفوس وعقول من تدربهم ، أستطيع الآن ـ بعد مساحة من الزمن تقترب من الأربعين عام ا ـ أن أتذكر من بين من ظفروا بالتدريب علي يديها : جمالات الزيادي وصديقة حياتي وهالة الحديدي وايناس جوهر ونادية الجندي وحسن حامد وحسن شمس وفايق فهيم ومنير مصطفي وصبري ياسين وصلاح حجازي من أسرة البرنامج العام ، وكثيرا غيرهم من العاملين في غير البرنامج العام ، كانوا يغترفون من علمها وفنها وشخصيتها الآسرة: نجوي أبو النجا ودرية شرف الدين و عبد الوهاب قتاية وفؤاد فهمي وعباس متولي وسميحة دحروج وحسن أبو العلا و عبد الوهاب محمود ومحمود سلطان وهاني خلاف (السفير الآن) ولطيفة سيد وعشرات غير هؤلاء وهؤلاء .

وقد ارتبط اسم أميمة عبد العزيز ببرنامج إذاعي كان له صدي ودوي كبير عندما أعدته وقدمته في بداياته الأولي لسنوات عديدة متصلة ، وهو برنامج أبناؤنا في الخارج ، وأفاضت عليه من حسها الوطني المتوهج وشعورها الإنساني المرهف ، ما جعله صوت كل المصريين في خارج مصر ـ للعمل أو الدراسة أو الاستشفاء ـ وربط البرنامج بين المصريين في داخل الوطن وأبنائهم المتناثرين علي خريطة العالم بروابط قوية من الفن الإذاعي المتقن والحرفية العالية والمعرفة الواسعة والشاملة والخبرة بأساليب التواصل مع المستمعين .

وعندما شاءت الظروف والأوضاع الظالمة أن تغادر أميمة عبد العزيز بيتها الأثير ــ الإذاعة المصرية ـ في مستهل السبعينيات ضمن كثيرين أضيروا نتيجة للتغير الحاد بين عهدين ، أبي عليها كبرياؤها واعتزازها الشديد بالنفس وثقتها فيما تحمله وتجسده من امكانات أن تعود إلى مبني الإذاعة ولو ليوم واحد ، أو أن تشارك في مناسبة إذاعية واحدة ، وظلت معتصمة بهذا الموقف ، كما حدث للإعلامية الرائدة تماضر توفيق التي قرأت خبر إبعادها عن رئاسة التليفزيون وهي في طائرة العودة إلى الوطن بعد تمثيلها مصر في مهرجان دولي للتليفزيون ، فكان يوم عودتها من الخارج هو آخر يوم لها في حياتها الوظيفية بعد أن رفضت أن تكون مستشارة ، ويذكر ـ بالخير والتقدير ـ لوزير الإعلام المتميز ـ في ذلك الحين ـ منصور حسن أنه رفض اتخاذ القرار بإبعادها عن منصبها ، ونفذه الوزير التالي له في الوزارة ، فكانت الطعنة الغادرة لا علامية من طراز رفيع .

لكن أميمة عبد العزيز كانت أوفر حظا ، حين تلقفتها وزارة التخطيط ووزارة التعاون الدولي لتصبح اسما بارزا ومضيئا في هذا العمل الذي أخلصت له ومنحته كل اهتمامها وأصبحت وكيلا أول للوزارة ، بعد أن أدارت ظهرها تماما لعمل إعلامي لم يكن يستحقها ولم يقدرها حق قدرها .

في وداع أميمة عبد العزيز ، أعرف كثيرين ـ ممن أتيح لهم أن يخالطوها ويسعدوا بزمالتها أو التلمذة عليها عن قرب ـ يبكونها الآن وسيبكونها طويلا في أعماقهم ، فمثلها يفجر فينا الشعور القاسي بالافتقاد ، والأسي علي مجموعة القيم التي كانت خير تجسيد لها ، قولا وعملا ، فكرا وسلوكا ، ولقد استطاعت أن ترتفع إلى مستوي الرمز ، والمثال ، والنموذج الذي يقاس إلى ه الآخرون والأخريات ، نتأمله بكل الحب والإعزاز والتقدير ونترحم علي صاحبته في عالم الحق والبقاء .

شكر واجب للدكتور فتحي سرور

بقلم: فاروق شوشة

في ختام دورة حافلة ، هي بمثابة الحد الفاصل بين مرحلتين من عمر مجمع اللغة العربية ، يصبح الشكر واجبا للفقيه الدستوري الكبير أحمد فتحي سرور رئيس مجلس الشعب ، ولمجلس الشعب كله ، وللجنة التعليم ـ بصفة خاصة ـ على موقفهم المؤازر للمجمع وهو يعيد عرض قانونه علي مجلس الشعب بهدف تعديل بند واحد من المادة الثالثة من مواد القانون رقم١٤ لسنة١٩٨٢ الخاص بإعادة تنظيم مجمع اللغة العربية ، وهو التعديل الذي انتقل به المجمع إلى عهد جديد ، يتحمل فيه مسئولياته عن اللغة العربية ، ويمارس مهامه التي نص عليها القانون .

ومنذ اللحظة الأولي التي اتجه فيها المجمع ـ ممثلا في رئيسه وأمينه العام ـ إلى الدكتور فتحي سرور ، لعرض الأمر عليه والتماس مشورته وتوجيهه ، كان وعيه العميق برسالة المجمع من ناحية ، وبالسلبيات التي تسود واقع اللغة العربية علي ألسنة الناس واقلامهم من ناحية أخري ، يمثل الانطلاقة القوية والمنشودة التي بدأت بعرض الأمر في اجتماع مشترك للجنتي الثقافة والاعلام والتعليم بالمجلس ، حضره وزير الثقافة ، وكبار المسئولين في وزارتي الثقافة والتعليم ، وعندما تبلورت الصورة ـ بفضل المزيد من الحوار والمناقشات وانفساح مجال الرؤية ـ تم عرض الأمر علي لجنة التعليم التي يرأسها الدكتور شريف عمر ، وكان الدكتور فتحي سرور حريصا علي ان يرأس الجلستين ، ايمانا منه بحق المجمع في تعديل قانونه ، ومشاركة منه في الصياغة النهائية لمشروع تعديل القانون الذي تقدمت به لجنة التعليم وتم عرضه علي المجلس واقراره خلال هذه الدورة البرلمانية ، وأصبح قانون المجمع في صيغته الجديدة ينص علي ما يلي لتحقيق اغراضه: تلتزم دور التعليم والجهات المشرفة علي الخدمات الثقافية والوزارات والهيئات العامة ووحدات الإدارة المحلية وغيرها من الجهات الخاضعة لا شراف الجهات المشار إلى ها ، بتنفيذ ما يصدره المجمع من قرارات لخدمة سلامة اللغة العربية ، وتيسير تعميمها وانتشارها ، وتطوير وسائل تعليمها وتعلمها ، وضبط نطقها الصحيح ، وتوحيد ما فيها من مصطلحات واحلالها محل التسميات الاجنبية الشائعة في المجتمع ، علي ان يصدر بها قرار من الوزير المختص وزير التعليم العالي ينشر في الوقائع المصرية ، ويقوم المجمع من خلال لجانه النوعية المختصة بتحقيق هذا الدور ، وتذليل أية صعوبات تواجهه ، ومتابعة تنفيذه وتقييم مستوي الاداء فيه .

ويعتبر هذا الالتزام احد الواجبات العامة الملقاة علي العاملين ، كل في حدود اختصاصاتهم ، ويترتب علي مخالفة هذا الالتزام انعقاد المسئولية التأديبية للمخالفة ،

وينشأ مكتب بمجمع اللغة العربية لتلقي الشكاوي بشأن المخالفات التي ترد علي هذا الالتزام ، وتحقيقها ، ويقوم المجمع باعلان تقرير سنوي عن حالة اللغة العربية وما تتعرض له قراراته من مخلفات .

ومجمع اللغة العربية لا يحمل سيفا ، ولايطارد الناس في الأسواق مطالبة بالمحافظة علي سلامة اللغة العربية ، لكنه يتخذ من اصلاح حال تعليم اللغة العربية والتعليم عموما ومؤازرة وسائل الاعلام ، سبيلا إلى زيادة وعي المواطنين بلغتهم ، رمز هويتهم ومواطنتهم ، واللغة علي ألسنة الناس واقلامهم لا ينصلح حالها بسطوة القانون ، ولكن بالتوجيه والتيسير والتوعية والارشاد ، وتهيئة السبل المعينة والمحققة لمحبة اللغة والايمان بها والالتزام بها في محافلنا الداخلية وفي المؤتمرات العالمية ، وأمامنا القدوة في اصحاب اللغات الاجنبية الذين لا يتنازلون ابدا عن استخدامها في كل المواقف والملتقيات ـ داخلية وخارجية ـ تمسكا بها واعتزازا وزهوا .

وقبل ان تنتهي دورة المجمع لهذا العام ، شهد العمل المجمعي قيام ثلاث لجان جديدة هي لجنة اللغة العربية في التعليم ، ولجنة اللغة العربية في الاعلام ، ولجنة التنسيق بين المجمع ومؤسسات المجتمع المدني العاملة في مجال اللغة وهي الجمعية المصرية لتعريب العلوم وجمعية لسان العرب وجمعية حماة اللغة العربية ، لبدء العمل من أجل تفعيل القانون .

ويبقي الشكر الواجب والموصول من المجمع ـ رئيسا ونائبا وأمينا عام ا واعضاء وخبراء ومراسلين ومحررين ـ إلى رجل القانون والدستور الدكتور أحمد فتحي سرور رئيس مجلس الشعب ، وإلي المجلس بكامله علي الموقف العظيم الذي يمثل علامة فاصلة ومضيئة في تاريخ مجمع اللغة العربية والانجاز الوطني والقومي الحافل لمجلس الشعب .

مذيعة تليفزيونية في " حديث الخرساء "

بقلم : فاروق شوشة

نسرين طرابلسي مذيعة سورية تطل علي المشاهدين عبر شاشة تليفزيون الكويت ، وتحرص علي ألا يحجب عملها الإعلامي ـ الذي يضعها في دائرة الضوء ـ حقيقتها الإبداعية كاتبة للقصة القصيرة ولألوان جديدة من البوح الشعري . صدرت مجموعتها القصصية الأولي في انتظار أسطورة عام ١٩٩٧ ، والثانية وأدرك شهر زاد الملل عام ٢٠٠٤ ، ثم كتابها الثالث حديث الخرساء الذي حمل عنوانا جانبيا هو نثر وإن كان أقرب إلى عالم البوح الشعري الحر ، وقد صدر منذ أسابيع قليلة .

ونسرين طرابلسي ـ كما قلت عنها حين كتبت عن مجموعتها الثانية وأدرك شهر زاد الملل منذ ثلاثة أعوام ـ هي بنت المدرسة الشامية في الكتابة ، اللغة لدي أعلام هذه المدرسة سجل أناقة وترف وزينة ، وحفل ورود وزهور وعطور ، فلا عجب ، أن تتغذي النحلة ـ وهي في ميعة الصبا ـ بالرحيق المصفي من آثار نزار وأبو ريشة وبدوي الجبل وغادة السمان وكوليت خوري وغيرهم ، وأن تفرز عسلها الخاص ، يتوج كلماتها الشفيفة المختارة بعناية فائقة ، وينسكب علي هندسة تراكيبها في تشكيل فني بديع ، ويمنح مذاقه لصورها المبتكرة ، التي تجسدها ضربات ريشة قوية واثقة ، تملك من مخزون الخبرة والتجربة ، ومن الوعي العميق بالحياة ، والحساسية المرهفة تجاه اللغة ، والقدرة علي الإبداع والتشكيل بالكلمات ، ما يتيح لنا أفقا رحبا من المغامرة المدهشة في عالم الكتابة .

وفي كتابها الجديد حديث الخرساء اقتراب حميم من دائرة المعاناة التي تعيشها مذيعة تليفزيونية ، هي دائما حبيسة النص في كل ما تقول ، وما تقوله لا يعبر عنها بالضرورة ، وقولها أقرب إلى حديث الخرساء ، التي فرض عليها خرس من نوع ما ، فهي تعيش دوما هذه الجدلية المؤرقة ، التي آثرت أن تواجه معضلتها بالبوح الخاص المنسرب في ثنايا هذا الكتاب الرائق الجميل . الشديد الألفة ، العامر بعذابات الإفضاء ومخاطر المكاشفة .

في مستهل كتابها وتحت عنوان همهمة تقول نسرين طرابلسي: الوجه الصبوح / يذبل عند المساء / يجف ندي الصوت / وتنفخ الحروف / من مخارجها الهواء / وجهي خارطة ظلال / والشاشة خرافة ناقصة / أنفق حياتي في الكلام / وأموت / دون أن يسمعني أحد . لا جل لذة خالصة / في همس أنيق للمفردات / وانتصارا للغة / علي ابتذال الصور / خروجا عن قيود النص / وسعيا قلقا وراء معني / لا جل قاريء

لماح / يحلق حرا في فضاءات التأويل / لكبرياء البوح ارتقاء برغبة الذات / في وجود مختلف / فلتكن مشيئة الكتابة . هي إذن تطلق مشيئة الكتابة ، وتمارس فعل الإبداع ، جناحاها لغة شديدة الإحكام والأناقة والشفافية ، وخبرات إنسانية مدهشة لا أدري كيف اجتمعت لها واختزنتها وأعادت اعتصارها في مثل هذا العمر الغض ، واستطاعت أن تتسلق شجرة الحكمة ، وأن تلقي إلى نا - في ثنايا لوحاتها القلمية البديعة وومضات بوحها الحميم - بثمار هذه الشجرة .

تقول في أحد نصوصها الكاشفة وقد جاء تحت عنوان نص مشترك: أنتظرك لا توهج / حرفا ناضجا ، جاهزا لممارسة الكتابة / والحب . أنتظرك ليهجم العالم كله معك / فلا نجد فراغا لتنهيدة واحدة . وعلى زلاجة الليل / نتجاوز المستقبل / نكتب خواتيم الحكايات المعلقة / نزين نهايات السطور / بنقاط واثقة . وفي آخر النص / نعلق اسمينا بانبهار .

الحياة عند نسرين طرابلسي نص مشترك ، يصنعه اثنان ، تداخلا وتمازجا ، تحاورا وتجاوزا ، فاستحقا أن يضعا توقيعهما ، وأن يعلقا اسميهما معا .

حديث الخرساء وهو إضافة بديعة إلى عالم نسرين القصصي ، إضافة تعبر المسافة بين ما هو نثر وما هو شعر ، وتهيئها لمزيد من البوح الشعري ، المتناغم ، المتوهج بالإيقاع ، والعامر بحصاد الخبرة والمعايشة والتأمل ، والشجن الذي لا يفارق ولا يرحل .

شريف مختار وسام على صدر مصر

بقلم : فاروق شوشة

لم أكن في مصر حين حدث ما حدث لنابغة الطب الدكتور شريف مختار ، الأمر الذي اضطره إلى إيثار الانسحاب من المكان الذي أسسه وتعهده ورعاه بكل الإخلاص والتفاني ، وهو مركز طب الحالات الحرجة بقصر العيني . وحين عدت من الخارج بدأت تصلني أصداء ما حدث ، ورد الفعل الهائل ـ صحفيا وإعلاميا وطبيا ـ لما تعرض له شريف مختار ، وسرعة تدخل وزير التعليم العالي ورئيس جامعة القاهرة لا عادة الأمر إلى نصابه ، وتمكين العالم الجليل من ممارسة دوره العلمي البحثي والميداني ، ورعايته للمحتاجين والفقراء الذين يعجزون عن سداد ثمن الكشف والدواء والعلاج ، وتدريب الأجيال الجديدة الشابة ـ من تلاميذه وتلميذاتهظ الذين أشربوا علمه وخلقه وروحه وسلوكه الإنساني ، وأصبحوا وعلي رأسهم أستاذهم ومعلمهم كنزا من الكنوز التي يعتز بها الطب في مصر .

العوائق التي وضعت في وجه شريف مختار والتوجهات الاستثمارية التي أوشكت أن تعصف بحصاد عمره في الطب والحياة ، ليست الأولي ولن تكون الأخيرة . ولن يكون الوحيد الذي يستهدفه الحاقدون والفاشلون وما أكثرهم في كل موقع يحولون عجزهم إلى سموم ينفثونها في وجه الناجحين ويستفزهم أحباطهم إلى محاولة إيقاف مسيرة الناجحين الصاعدين سلم المجد ، لا يلتفتون إلى المتخلفين وراءهم ، ولايلقون بالا للمكائد والدسائس والتآمر الرخيص .

أمثال شريف مختار حين تكرمهم الدولة فهي تكرم نفسها ، وحين تصونهم وتحفظ عليهم هدوءهم واستقرارهم وقدرتهم علي العمل والإنجاز ، فهي تصون نفسها وتحفظ عليها أرفع ما لديها من قيم ومثل عليا؛ وحين تضمن لهم أن يتفرغوا للمهنة التي أصبحت علي أيديهم رسالة حياة ، فهي تصون أثمن ما لديها من عقول وخبرات وزيادة ومكانة . وفي مصر كثير من نوابغ الأطباء ، أصحاب الصيت العالمي في تخصصاتهم وإنجازاتهم ، لكنهم ليسوا جميعا علي قدم المساواة حين يتصل الأمر بالبعد الإنساني في أداء الرسالة ، وتتطلب الحالة عبقرية الطبيب وإنسانيته معا ، ورعايته غير القادرين من مرضاه وقاصدي علمه وخبرته . وهو الأمر الذين أصبح به شريف مختار علما علي عبقرية الطبيب وإنسانيته معا ، وبالجانبين ـ في إكتمالهما ـ صار له مكانه وموقعه في قلوب زملائه وتلاميذه ومرضاه وعارفي فضله وقاصديه من كل صوب ، وفي عقولهم أيضا . وهو الأمر نفسه الذي أحاط بالعالم الجليل الدكتور محمد غنيم ومركزه العالمي في المنصورة ، ومايقال عن هذين النموذجين الباهرين يصدق علي غيرهما من رسل الطب وعلمائه

المنقطعين للطب في إخلاص نادير المثال ، وتجرد من كل منفعة شخصية ، إيمانا منهم بحق الوطن وحق أبنائه عليهم .

كيف نصون هذه النخبة من عبث الروتين والبيروقراطية وغباء اللوائح ، ومن معاملتهم بمنطق أنه ينطبق عليهم ما ينطبق علي غيرهم ، وكأننا نعمي عن التمايز ، ولانفرق بين العبقري النادر والعادي المتوفر !

وكيف تضمن ألا يتكرر ما حدث لشريف مختار مرة أخري ، له أو لغيره ، بعد أسابيع أوشهور ! وألا يعود المتسببون في الزوبعة التي حدثت وانقشعت - بفضل رد الفعل السريع والحاسم - إلى نسج خيوط التآمر والتشكيك - من جديد ، ووضع العراقيل - مرة أخري - في وجه من ليس لديه وقت لمثل هذه الصغائر !

بل ، لعلي - والشيء بالشيء يذكر ، - أتساءل عن مصير المشروع العلمي الجليل الذي فاضت به تصريحات عالم نوبل الدكتور أحمد زويل وتصريحات المسئولين في الوقت نفسه ، عن المركز العلمي أو مدينة العلوم ، التي ستكون بمثابة قاعدة للبحث العلمي في مصر ، تحت إشراف زويل ، بل لقد سمعنا عن جامعة متخصصة تحمل اسم الدكتور زويل . وشيئا فشيئا خفت الصوت ، وتغيرت النبرة ، وبدأنا نسمع عن بلاد شقيقة من حولنا تتلقف مشاريع زويل وتحولها إلى واقع يشيد علي الأرض . إلى س هذا حلقة في السلسلة التي تجعلنا نطالب برعاية علمائنا وصيانتهم ، بدلا من الهجوم عليهم بميراث البيروقراطية الهائل في مصر ، وأحقاد العاجزين الخاوين من كل قدرة أو طموح ؟

إن المحنة التي عاشها شريف مختار - حتي لو كان أمدها مجرد أيام أو ساعات قبل أن تنقشع - تجعلنا ننظر إلى سياق أشمل وليس إلى حالة منفردة بذاتها ، وهو سياق ينتظم عددا من صفوة علمائنا وكنوزنا البشرية ، وبحسب الدكتور شريف مختار أن نقول له : قر عينا ، فأنت وأمثالك أوسمة علي صدر مصر .

شكسبير باللهجة الكويتية

بقلم : فاروق شوشة

علي مسرح الميدان الثقافي بدار الآثار الإسلامية في ميدان حولي بالكويت ، قدم مسرح البسام الذي تأسس في الكويت عام ٢٠٠٢ مسرحية ريتشارد الثالث ، التي أبدعها واحد من أهم كتاب المسرح وأعظمهم عبر التاريخ هو وليم شكسبير ، المسرحية قدمت في إطار الاحتفال بالعيد الخمسيني لمجلة العربي الكويتية ، باعتبارها ما ساة معربة ، تقدم جدلا حيا بين النص الشكسبيري الأصلي والواقع العربي الراهن ، بحيث تنطق المسرحية بلسان عربي ، وفي أحيان كثيرة باللهجة الكويتية ، مؤكدة التواصل مع الثقافات والآداب العالمية والجدل الخلاق مع إبداعاتها .

من هنا كان حرص معد المسرحية ومترجمها سليمان الغنام ـ كما يقول في تقديمه لها ـ علي اختصار النص الأصلي وتقديم ارتجالات حرة من حوله ، بهدف تفكيك دلالات العمل الأصلي واسقاطها علي واقع مجتمعنا العربي ، وفي هذا الإطار كان الأسلوب اللغوي جامعا بين لغة شكسبير الواخزة والفصحي العصرية المبسطة ، والمحكية العامية الكويتية ، وكانت الأزياء ما خوذة من الواقع إلى ومي للبيئة العربية دون التزام بإقليم معين ، أما الموسيقي فتم فيها دمج التراثين العربي والخليجي ، مع الاستعانة بالتراث البحري وأهازيج البر ، فضلا عن التقاسيم الحديثة وأجواء الموسيقي الالكترونية .

تتناول المسرحية قصة عشيرتين في انجلترا خاضتا معركة شرسة ، وانتصرت عشيرة يورك في النهاية وتوج إدوارد حاكما علي الدولة ، لكن صحته المتردية جعلت أخاه وزير الداخلية ريتشارد جلوستر يخطط للاطاحة به والاستيلاء علي السلطة ، وكان أول الضحايا هو أخوهما الثالث كلارنس .

ويخرج جلوستر علي كل الأعراف والتقاليد حين يتسلل إلى مجلس عزاء النساء علي روح شيخ العشيرة الخاسرة ويتودد إلى أرملته آن ليعرض عليها الزواج منه .

ويتفاقم الصراع الداخلي والانشقاق بين جلوستر والملكة إلى زابيث من أجل السيطرة علي الحكم ، ويحاول إدوارد وهو علي فراش الموت أن يجمع مصير أبنائه تحت وصاية عمهم ريتشارد .

ويستعين ريتشارد ـ الطامع في العرش ـ بالمستشار الأجنبي بكنهام ، ويوضع أبناء الملك الراحل رهن الحبس ، ويتم التخلص من رموز المعارضة لكن التحالف بينهما يتعرض للانهيار حين طلب ريتشارد منه التخلص من أبناء إدوارد الصغار ، فيتردد ،

ويهـزم ريتـشارد هزيمـة نكـراء في المعركـة الـتي دارت بـين قواتـه وقـوات ريتـشموند الـتي استعانت بالأجنبي ، ويعلن عن تشكيل حكومة انتقالية تمهد لقيام انتخابات حرة .

ولا يفـوت مخـرج المـسرحية أن يـذكرنا بكلمـات ابـن خلـدون في مقدمتـه : اذا اسـتقر الملـك في نـصاب معـين ، ومنبـت واحـد مـن القبيـل القـائمين بالدولـة وانفـردوا بـه ودفعـوا سـائر القبيـل عنـه وتداولـه بنـوهم واحـدا بعـد الآخـر بحـسب الترشـيح ، فربمـا حـدث التغلـب علـي المنـصب مـن وزرائهـم وحاشـيتهم وسـببه في الأصـل ولايـة صـبي صـغير أو مـضعف مـن أهـل المنبـت يترشـح للولايـة بعهـد أبيـه أو بترشـيح ذويـه فيقـوم بـه كفلـه أو مجموعـة مـن وزراء أبيـه وحاشـيته ومواليـه أو قبيلـه ، ويـوري بحفـظ أمـره علـه حـتي يـؤنس منـه الاسـتبداد ويجعـل ذلـك ذريعـة للملـك فيحجـب الـصبي عـن النـاس ويعـوده اللـذات الـتي يـدعوه إلى هـا تـرف أحواله .

ومـن أجمـل مـا يكـشف عـن وعـي المخـرج وفكـره ، رؤيتـه لـسرحية ريتـشارد الثالـث باعتبارهـا قناعـا ، لكنـه لـيس قناعـا للإخفـاء أو التـستر ، بـل هـو قنـاع للكـشف ، قنـاع يكـشف عـن خطـوط هويتنـا الـتي قـد لا تكتـشفها المـرآة ، وقـد اسـتعان بالقنـاع للكـشف عن عالمنا ، وما يحدث فيه الآن .

يقـول: القنـاع أيـضا لديـه ذاتيتـه الخاصـة ، وهـذه الـذات متجـذرة بالـسر والطقوسـية ، دوامـات مـن الـدم والانتقـام ، مـن الرثـاء والقـسوة ، هـذه هـي خطـوط القنـاع ، اسـتعنت بعالمنا للكشف عن القناع .

النجـاح الـذي صـادفته المـسرحية في لياليهـا الثلاثـة ، والابـداع الـذي تمثـل في اخراجهـا وتميـز أبطـال العمـل في القيـام بـأدوارهم ، شـحن الجمهـور الـواعي الحاشـد بـصهد الرسـالة الـتي تقـدمها المـسرحية ـ في وجـود شـديد الـبرودة غـير مـا لـوف في شـتاءات الكويـت ـ وفي مـساحة واسـعة مـن الحريـة الـتي بـدونها لا يتـألق المـسرح أو يزدهـر ، وبقامـات فنيـة عاليـة تـذكرنا بقامـات مـسرحنا القـومي في زمـن عنفوانـه وتألقـه وعمـق تـأثيره ، وبحالـة مـن الـشجن الـذي يعتـصر القلـب ، ويطلـق طيـور الحريـة الـسجينة مـن محابـسها داخـل الـصدور إلى فضاء الغد الواعد .

مجلة " العربي " في عيدها الذهبي

بقلم : فاروق شوشة

في الطريق إلى الكويت ، ضمن نخبة من رموز الفكر والثقافة والإبداع ، مدعوين من الدكتور سليمان العسكري رئيس تحرير مجلة العربي في مناسبة احتفالها بالعيد الذهبي لتأسيسها وصدور عددها الأول في ديسمبر عام ١٩٥٨ .

خمسون عام ا انقضت من عمر هذه المجلة التي امتلكت عناصر البقاء والصمود والاستمرار ، والتجدد والانفتاح الدائمين ، استجابة للحاجات والمطامح والأشواق ، التي عاشها الإنسان العربي علي مدار خمسة أجيال متعاقبة .

كانت العربي في نشأتها الأولي استجابة لطموح الكويت والوطن العربي كله في تدعيم الأواصر واحكام العري وجمع الشمل وبلورة الهوية ، كانت استجابة لطموح الوحدة والتحرر ، وتحقيق حلم النهضة علي امتداد النصف الثاني من القرن العشرين . وعندما سقط الحلم تحت سنابك نكسة١٩٦٧ ، وتشتت الشمل بعد ذلك بعشر سنوات بدءا من عام ١٩٧٧ ، وطعنت الروح القومية بفعل العدوان الصدامي علي الكويت ، لم تنطفيء شعلة العربي ولم يهتز موقفها الثابت الرصين . ولم تكفر بالحس القومي ، ولا باليقين الراسخ في يقين عربي مشترك ، وظلت تتجدد وتتطور ، محافظة علي الثوابت ، ممعنة في التنوع ، تواقة إلى الشمول الثقافي والمعرفي ـ بالمعني العام ـ جامعة بين ثقافة أدبية وفكرية وعلمية ومجتمعية وإنسانية وفنية تصطفي من الأقلام العربية أصدقها انتماء ، وأحفلها بالوعي والتنوير ، وأكثرها قربا من اهتمام القاريء ، واستجابة لتطلعاته التي تفجرت في عصر المعرفة وثورة التكنولوجيا والانفجار الهائل في قدرات وسائل الاتصال .

ظلت العربي ـ طيلة نصف قرن ـ استجابة للحلم في صورته التأسيسية الواعية لا الرومانسية الضبابية ، وفي ايمانه بحرية العقل وقدرته علي التنوير ، لا الانكفاء علي الخرافة والتجهيل ، وفي يقينه بضرورة الحرية وكرامة الانسان لا الخضوع للقهر والتسلط والغوغائية ، مندفعة ـ في تؤدة وثبات ـ من أجل رسالة تستوعب العصر وتتسع لمطالبه ، وتري أن الانسان هو البدء والمنتهي في معركة التأسيس والتأصيل .

من هنا كان درس الهوية الذي قدمته وتقدمه العربي ، عام ا بعد عام ، منذ أن تسلم تقاليدها عند ميلادها العالم والأديب الموسوعي الدكتور أحمد زكي ، بكل خبرته التي أنضجها عمله رئيسا لتحرير مجلة الهلال قبل رئاسته لمجلة العربي ، ومن بعده الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين الذي سكب علي صفحاتها وتوجهاتها روح النهضة

القوميـة والفكـر القـومي المـستنير ، ومـن بعـدهما تـولي مـسئولية العربـي الـدكتور محمـد الرميحـي بخبرتـه العميقـة في البنيـة المجتمعيـة الخليجيـة والعربيـة وانفتاحـه علـي الغـرب وثقافاتـه ، ثـم الـدكتور سـليمان العـسكري : الربـان الـذي يستـشرف الآن ـ مـع كـل المـشاركين في احتفاليـة العربـي ـ حـصاد نـصف قـرن ، لفـتح مـسارات جديـدة ، وإحكـام لغـة خطـاب أقـرب إلى روح هـذا الزمـان ، وأسـلس في حملـها لمعطيـات المعرفـة الراهنـة ، وأيـسرفي التوصيل والتأثير والأخذ بيد القاريء الجديد المتغير .

لقـد اتـيح لـي أن أكـون قريبـا مـن مطـبخ العربـي طيلـة العـام الـذي قـضيته في الكويـت معـارا إلى إذاعتهـا عـام ١٩٦٤ / ١٩٦٣ رئيـسا لقـسم المـذيعين ومـشرفا علـي القـسم الأدبـي فيهـا ، وسـعدت باللقـاء المباشـر مـع العـالم الكـبير الـدكتور أحمـد زكـي ، رئـيس التحريـر ، والجـامعي الرائـد الـدكتور محمـود الـسمرة ـ نائـب رئـيس التحريـر ـ ورئـيس الجامعـة الأردنيـة ـ فيمـا بعـد ـ وكانـت بيننـا حـوارات فرضـتها طبيعـة تلـك الـسنوات ، عـن الـشعر الجديـد أو الحـر ، وهـل يتـسع لـه صـدر العربـي ، وتيـارات الإبـداع الـتي بـدأت تتحـرك وتمـوج ، وموقف العربي منها بين الحذر والقبول خصوصا وفي بعضها خروج وجنوح وتجاوزات .

كـان ذلـك منـذ خمـسة وأربعـين عـام ا ، قبـل أن تـربطني بـالعربي صـلة وثيقـة دائمـة علـي مـدار ثمانيـة عـشر عـام ا متـصلة أكتـب فيهـا بـاب جمـال العربيـة شـهرا بعـد شـهر ، وأطـوف بإبـداع أمـة ، وكنـوز تـاريخ ، وأنفـض سـتار الإهمـال والنـسيان عـن لا لـيء نفيـسة ، مجلـوة لقـاريء هـذا الزمـان ، وبخاصـة مـن جيـل الـشباب المتطلـع إلى المعرفـة ، والمهمـوم بـالعودة إلى الجـذور حينـا ، ومتابعـة الجديـد المتفجـر حينـا آخـر ، وحـين صـدر الجـزء الأول مـن مختـارات هـذا البـاب ضـمن كتـاب العربـي الـشهري كـان الـصدي الواسـع لـه يؤكـد هـذا العطش وهذا الاحتياج .

إن روحـا مـستقبلية واعـدة ترفـرف علـي المجـتمعين في نـدوة العربـي الـتي تحمـل هـذا العنـوان : مجلـة العربـي ولغتهـا العربيـة : نـصف قـرن مـن المعرفـة والاسـتنارة . ذلـك أن الالتفـات إلى تقيـيم حـصاد مـا تحقـق ، هـو في جـوهره دعـوة إلى آفـاق جديـدة ، تتطلـع مـن خلالهـا عيـون تـري مـا لم تكـن تـستطيع أن تـراه مـن قبـل ، وعقـول أصـبحت تمتلـك جـرأة الطرح والاقتحام والمغايرة ، تحت شمس العقل ، وفضاء التنوير .

سميرة الكيلاني

عرفت سميرة الكيلاني عن قرب ، حين أتاح لي الإعلامي الرائد سعد لبيب ــ مؤسس إذاعة البرنامج الثاني (البرنامج الثقافي الآن) وأول مدير له ، أن أكون واحدا من الكوكبة التي أتيح لها شرف العمل معه في وضع الأسس والتصورات الأولي لهذه الإذاعة الوليدة التي لم يكن مضي علي افتتاحها غير عام واحد ، كانت الكوكبة تضم من المخرجين الكبار (صلاح عز الدين وكامل يوسف ومحمود مرسي ــ الذي أصبح نجما تليفزيونيا وسينمائيا فيما بعد ــ وعباس أحمد) ومن المقدمين والمعدين سميرة الكيلاني وحكمت عباس وعفاف المولد وسهير الحارتي وبهاء طاهر وفؤاد كامل ، ثم انضم إلى هم ــ بعد سنوات ــ نور الدين مصطفي وإبراهيم الصيرفي .

وكان الإذاعي والكاتب الكبير فاروق خورشيد يقدم أول مجلة ثقافية إذاعية عرفتها الإذاعات العربية هي أخبار الثقافة التي كان يشارك في تحرير أبو ابها الأسبوعية الثابتة نجوم الجمعية الأدبية المصرية: صلاح عبد الصبور وعز الدين إسماعيل و عبد الرحمن فهمي وأحمد كمال زكي وشكري عياد وغيرهم .

لم يكن من الصعب أن أكتشف أن سميرة الكيلاني هي الملكة المتوجة لهذا المكان الذي كان خلية نحل لا تهدأ ، جميع من فيها يبدعون علي غير مثال سابق ــ كما يقول عنهم بهاء طاهر ــ طموحاتهم بلا حدود ، وخيالهم محلق في كل اتجاه ، وتجاربهم وخبراتهم ومعارفهم تصب في برامج جديدة ومشاريع جادة لا ثراء الخريطة الإذاعية وتطويرها باستمرار ، كانت سميرة تعد وتقدم برنامجها الذائع الصيت في ذلك الوقت مع النقاد ، الذي تختار له الأعمال الأدبية والفكرية ذات القيمة العالية ، والنقاد الذين تؤهلهم استعداداتهم وثقافاتهم لمناقشة أعمال بعينها هي الأقرب إلى هم ، وكان جمهورها الواسع في مصر ، وفي قطار الوطن العربي ــ فقد كانت الموجة المتوسطة التي يذاع عليها البرنامج الثاني تحمل صوت مصر الثقافي إلى كل عاصمة عربية ، والآن لا يكاد هذا الصوت يسمع حتى في القاهرة فقط ــ كان هذا الجمهور يلتف من حول هذا البرنامج الذي ولد قويا ورائعا بفضل صاحبته الفذة ، وإدارتها البديعة للحوار ووعيها الكاشف عن كل ما ينبغي الكشف عنه في مسارات المناقشة واستطاعت سميرة أن تضع بصمة أستاذيتها علي توجهات هذا البرنامج ، وبرنامجها الآخر كتابات جديدة الذي خصصته لا بداعات الشباب وتجاربهم الجديدة ، وأصواتهم الواعدة ، وعندما اختطفت سميرة الكيلاني من الإذاعة لتكون بصحبة سعد لبيب وصلاح زكي في تأسيس التليفزيون قبل أن تنضم إلى هم همت مصطفي ، كان لي شرف تقديم مع النقاد من بعدها ، ولا

يـزال هـذا البرنـامج علـي خريطـة البرنـامج الثقـافي حتـى إلى وم يـذكرني بعـصره الـذهبي الـذي كان له عندما كان مقترنا باسم سميرة الكيلاني .

وفي التليفزيـون ، ومنـذ إلى وم الأول في الإرسـال التليفزيـوني ـــ في يوليـو١٩٦٠ ـــ تكـشفت المواهـب العديـدة ـــ إنـسانيا وثقافيـا وفكريـا ـــ لـسميرة الكيلانـي ـــ وأصـبحت ـــ بـسرعة مدهـشة ـــ مـضرب المثـل في الإخـلاص والالتـزام والابتكـار والتجديـد كـان كيانهـا الإنساني الفذ يحتـوي طاقـة هائلـة مـن الإصـرار والـصمود والقتـال الهـادئ ـــ إذا تطلـب الأمـر ـــ مـن أجـل تحقيـق مـا تـؤمن بـه ، مـن غـير تراجـع أو استـسلام ، وكـان أسـلوبها الراقـي ولغتهـا العفـة في التعامـل مـع الآخـرين وسـيلتها في اقتحـام قلـوبهم وعقـولهم وترسـيخ صـورة هـذا النمـوذج غـير المتكـرر كـان التليفزيـون يمـوج بـأخلاط كـثيرة غـير متجانـسة ، مـن بيـنهم القـادمون مـن العمـل الإذاعـي ، والقـادمون مـن العمـل الـسينمائي ، والقـادمون مـن شـارع محمـد علـي: العـوالم وأصـحاب المهـن المـساعدة ، وكانـت سمـيرة بـين هـؤلاء جميعـا قامـة شـامخة ، واسمـا لا معـا لا يـذكر إلا مقترنـا بـالإجلال والاحـترام ، وسرعان مـا أصبح هـذا الاسـم قـرين الوجـه الثقـافي للتليفزيـون المتمثـل في عـدد مـن الـبرامج الـتي شـكلت الخريطـة الثقافيـة الاولـي: رحلـة إلى وم ، مـن صـفحات التـاريخ ، الـسندباد المـصري ، نـدوة للـرأي ، العلـم للجميـع ، وجهـا لوجـه ، رأي الـشعب (الـذي كـان يقدمـه الإذاعـي الكـبير طـاهر أبـو زيـد) ، نـور علـي نـور ، عـالم الحيـوان ، مـع الفـن ، الفـن الـشعبي . الـذي كـشف عـن موهبـة إخراجيـة وثقافيـة وفنيـة كـبيرة تمثلـت في شخـصية مخرجـه شـوقي جمعـة) ، وفي مقدمة هذا كلـه كـان هنـاك البرنـامج الـدرامي الجميـل قـصة قـصيرة الـذي كـان يقـدم معالجـة دراميـة لقـصة مختـارة لمبـدعين مـن شـتي الأجيـال ، وكانـت سمـيرة الكيلانـي تقـوم بالاختيـار والتقـديم ، أمـا الإخـراج الـدرامي فكـان لتليفزيـوني واعـد ، أصـبح فيمـا بعـد أحـد مخرجـي الدراما الكبار هـو يحيـي العلمـي ، وهـي الفـترة نفـسها الـتي كـان فيهـا محمـود مرسـي وحـسين كمـال يجـولان ويـصولان ، ويجربـان ويقترحـان ، لا رسـاء دعـائم الـدراما التليفزيونيـة ، وتقـديم التجـارب الأولـي الناجحـة والحاصـلة علـي جـوائز بـاهرة سـجلت اسميهمـا في سـجل الـرواد العظـام . أمـا سمـيرة نفـسها فقـد أتيحـت لهـا دراسـة الإخـراج التليفزيـوني في لنـدن ، والـبرامج الثقافيـة في ألمانيـا ، ولم تتوقـف سمـيرة الكيلانـي عـن العطـاء بعـد أن أبعـدت عـن التليفزيـون ، فـامتلأت سـنواتها الأخـيرة بحـضور ثقـافي بـارز ومـشرف مـن خـلال عملـها في دار المستقبل العربي للنشر ، توجه وتشير وترسم الخطط وتضع الرؤى وتوضح المسار .

مثـل سمـيرة الكيلانـي حـضور لا ينـسي نـستدعيه كلمـا اسـتدعينا بعـض صـور الزمـان الجميـل ، والشخـصيات النبيلـة النـادرة ، الـتي عرفناهـا واحببناهـا في إجـلال واحـترام وإعجاب دائم لا يزول .

صفيــة المهــندس

بقلم : فاروق شوشة

رحلت صفية المهندس عن خمسة وثمانين عام ا ، رحلت أول امرأة أتيح لها أن ترأس الإذاعة المصرية ، وقد كان المنصب مقصورا علي الرجال ، من رواد العمل الإذاعي والإعلامي . رحلت بعد أن اطمأنت إلى أن مسيرة المرأة المصرية في العمل الإذاعي لن تتوقف ، وبعد أن رأت بعينيها - بعد ربع قرن من خروجها علي المعاش - أن واحدة من تلميذاتها اللامعات قد أصبحت ثاني امرأة ترأس الإذاعة ، وهي الإذاعية القديرة إيناس جوهر - بارك الله في عمرها وفي عطائها . رحلت صفية المهندس بعد أن أطلق عليها الإذاعيون اللقب الذي توج مسيرتها - هي التي لم تحظ من الدولة بشهادة تقديرية أو تفوق أو وسام من أي نوع - أطلقوا عليها أم الإذاعيين . ولم يكن هذا اللقب بلاغة أو رمزا ، وإنما هو واقع حقيقي وتجسيد للمرأة حين تكون رئيسة للعمل وقائدة للعاملين فيه بعقل صاحبة الخبرة وقلب الأم التي تحنو علي الجميع ، وترعي الجميع ، وتفسح الطريق أمام الجميع .

هذا المفتاح في شخصية صفية المهندس - مفتاح الأمومة - هو سر نجاحها وتألقها في مسيرتها الإذاعية الطويلة والحافلة ، وسر تفوقها وريادتها في تقديم برامج المرأة والتخطيط لها في كل صورها ومستوياتها منذ كانت ركن المرأة فالمرأة العاملة فربات البيوت . ثم أصبحت هذه الأم الحانية أستاذة في فن الحياة ، وفي فن توجيه الأسرة المصرية . وأصبحت الأستاذة صفية المهندس تقدم في كل صباح ، وعلي امتداد سنوات طويلة خبرتها في الحياة والعمل وتأمل أحوال المرأة ، ما يجعلها تقدم روشتة النجاح والتوافق والحرص علي القيم الأصيلة والتوجيه الرفيق والآخذ بيد الحائرة والمتسائلة والمرتبكة إلى شاطئ الأمان . وهو دور يستحق الدراسة والمتابعة من باحثينا الإعلاميين الشباب ، الذين ينشطون في مجال البحث عن عناوين جديدة لدراسات إعلامية ميدانية . هذا موضوع جدير بالدراسة . دور صفية المهندس في توجيه المرأة المصرية وبناء وعيها والدعوة إلى التماسك الأسري والحفاظ علي ركائزه ، في وقت عصيب وزمن شديد التغير وخلخلة اجتماعية عاصفة يمر بها المجتمع المصري والمجتمعات العربية جميعا . لقد كنت أسافر في أقطار عربية - شرقا وغربا - وأفاجأ بخطابات ورسائل من نساء عربيات عديدات يطلبن مني حملها إلى صفية المهندس ، وهن يطمعن في كلمة منها ، عبر برنامجها إلى ومي الذائع الصيت ، ربات البيوت أو في رسالة خاصة منها ، هكذا وصل تأثير هذا الصوت الإذاعي الذي يلخص في قوته وجماله وتدفقه وشخصيته تاري الإذاعة المصرية . إنه الصوت العمدة بين أصوات الإذاعيات جميعا ، وبينهن من يمتلكن أصواتا أرق وأجمل

وأكثر عذوبة وأقدر علي الهمس . لكن صوت الأم صفية هو الصوت الشخصية ، الصوت القادر علي الاحتواء والتأثير . أذكر عندما لجأت إلى ها قبل الشروع في تقديم برنامج لغتنا الجميلة . . منذ أربعين عام ا ، كانت هي رئيسة إذاعة البرنامج العام ، أطلب إلى ها أن تسجل بصوتها بيت الشعر الذي اتخذه البرنامج شعارا له - من شعر حافظ إبراهيم ، وأن تسجل بصوتها العناوين الداخلية لفقرات البرنامج ، وكانت تبدي دهشتها لا نها ستلقي للمرة الأولي في حياتها بيتا من الشعر ، لكن ثقافتها الرصينة ، وانتسابها إلى أبيها عالم اللغة والثقافة العربية زكي المهندس ، والحس الفني الذي توارثه الأبناء عبر جيناتهم منه وبخاصة ابنه الفنان الكبير فؤاد المهندس ، الذي كان تفوقه وتألقه في الكوميديا بعض سر أبيه ، صاحب الشخصية الشديدة الوقاء والجدية وفي الوقت نفسه صاحب الشخصية الجميلة الأنس والملاطفة والمداعبة . وقد كانت صفية - كما كان فؤاد - وبقية الإخوة والأخوات جميعا تسكنهم هذه الروح الفنية والتركيبة الإنسانية المدهشة ، والروح العذبة الصافية ، كل ذلك جعل صو ت صفية المهندس في أدائها لبيت الشعر ، حين تستهله بقولها: أنا البحر علامة فارقة في كل صور الأداء الشعري الإذاعي .

لقد كان اقترانها بالإذاعي الرائد محمد محمود شعبان - بابا شارو - نقلة نوعية ضخمة في حياتها ، وكان كل منهما سببا في نجاح صاحبه ونعم المعين له في رحلة الحياة والعمل . وقدما نموذجا رفيعا لا سرة مصرية ناجحة وأبناء نابغين ، وانفرد كل منهما بمجاله الأثير: بابا شارو اختار مملكة الطفل واختارت صفية مملكة المرأة: الزوجة والأم . وكانت جائزة كل منهما الكبري من ملايين المستمعين ، وليس من الدولة أو مؤسساتها الرسمية . التاج هو تاج المستمعين ، والمجد هو المجد الذي يصنعه الجمهور . وحين أبعدت هي وغيرها من القيادات الإعلامية السابقة ذات الخبرة والتاريخ عن مجلس أمناء اتحاد الإذاعة والتليفزيون ، خوفا من أن تطغي الأسماء التاريخية الكبيرة علي من ليس لهم اسم ولا تاريخ - لم تتحول دهشتها إلى غضب أو مرارة ، وإنما ظلت علي صورتها المشرقة المتفائلة في كل صباح وتعطي وتمنح وتنثر من ورودها علي جبين الحياة ، ما يمحو بثور الشوك التي لا ينجح في رعايتها إلا المرتعشون ، الخائفون من أصحاب الموهبة والخبرة ، والاسم ، والتاريخ .

يرحمها الله .

القسم الرابع

شعر وشعراء (١)

ليالي روما الشعرية

بقلم: فاروق شوشة

تلبية لدعوة من إدارة المهرجان المتوسطي للآداب والفنون في دورته الخامسة للشعر والموسيقي والمسرح والسينما ، التي أقيمت في روما بين١٠ و٢٠ يوليو ، وبدعم من المكتب الثقافي المصري في روما ومدير مكتب البعثة التعليمية الدكتور ربيع سلامة - أستاذ اللغة الايطالية والأدب الايطالي بكلية الألسن - أتيح لي قضاء أسبوع من المشاركة المكثفة في ثلاث أمسيات شعرية ، وزيارات يومية: صباحية ومسائية ، للعديد من معالم روما الشهيرة ، والرحلة إلى فلورنسا بلد المتاحف والمعارض والفنون وبلد دانتي واضع الأساس الأول للغة الايطالية في بدايات عصر النهضة من خلال عمله الابداعي الخالد الكوميديا الإلهية بأجزائها الثلاثة: الجحيم والمطهر والفردوس ، التي ترجمها إلى العربية - علي مدي عشرين عام ا متصلة من الجهد المضني - في لغة رصينة وباذخة الدكتور حسن عثمان محافظا علي روحها وجوهرها في لغتها الأصلية .

وفي خطاب الدعوة إلى المهرجان ، تأكيد علي الاهتمام بالثقافات غير الغربية - الأمر الذي يمثل خروجا وتمردا علي المركزية الأوروبية - واهتماما بالأقليات الإثنية ، والنساء ، والأجيال الشابة ، باعتباره تلاقيا للغة الأفكار والثقافات .

وعلي مدي السنوات الماضية في تاريخ هذا الملتقي ، كان هناك شعراء وفنانون ومبدعون من الساحل العربي للبحر الأبيض المتوسط إلى الأرض البلقانية ، وصولا إلى غرب الرقعة الأوروبية ، وهم يعبرون بوسائل مختلفة عن لغة الحرية ، وعن نضالهم في عالم قائم علي التعددية ضد الاستغلال والحرب والإرهاب .

كان الحضور العربي مقصورا علي كاتب هذه السطور وشاعرة لبنانية هي جمانة حداد ، وكان واضحا أن الجرس العربي كان يشد الانتباه والاهتمام من قبل أن تقرأ ترجمات القصائد باللغة الايطالية ، حتي يتمكن الجمهور من متابعة ما يدور من حوله . كما كان واضحا أن الدكتور ربيع سلامة حريص علي المتابعة ، ومشاركته في ترجمة عديد القصائد مع المستعربة الإيطالية الدكتورة فرانشيسكا كراو الأستاذة في جامعتي نابولي وباليرمو في صقلية ، والتي عرفها الجمهور الأدبي في القاهرة من خلال مشاركتها في ملتقي القاهرة الدولي الأول للشعر العربي - في العام الماضي حين شاركت ببحث عن ترجمتها لمسرحية شوقي الشعرية مصرع كليوباترا إلى الايطالية .

كما أن الدكتورة كاميليا صبحي مديرة المكتب الثقافي المصري في باريس هي المرأة المناسبة في المكان المناسب ، وهي أستاذة اللغة الفرنسية والأدب الفرنسي والمترجمة

القديرة المرهفة الإحساس بين اللغتين العربية والفرنسية . أمثال هذين في روما وباريس هم الذين يجسدون حقيقة التواصل الثقافي بين وطنهم والبلدان الأخري ، ويقومون بدور جاد ونزيه في خدمة الرسالة التي يحملونها علي عاتقهم وبخاصة بالنسبة للمبعوثين والدارسين التابعين لهم .

ولا شك أن من أهم ما يتمخض عنه مثل هذا المهرجان هو العديد من النصوص الشعرية التي ترجمت من العربية إلى اللغات الأجنبية ، وأصبح متاحا للدارس الأجنبي أن يكون فكرة صحيحة وصادقة عن آداب اللغات الأخري ، بحيث يصبح المجال متاحا للتفاعل ، وقراءة الآخر ، وتحقيق رسالة الملتقي في خلق عالم تسوده التعددية والإيمان العميق بالحرية إبداعا وفكرا .

لقد جاءت روما ـ التي أشبهها بمتحف هائل مفتوح للجميع ، فكل ميدان فيها متحف فني وجمالي وكل شارع في منطقتها الأثرية زاخر بإبداعات فناني إيطاليا العظام في الرسم والنحت والتصوير ـ جاءت ختاما لعديد من العواصم الأوروبية وغير الأوروبية التي أتيح لي ولوجها والتعرف علي ثقافاتها وشخصياتها بدءا بموسكو وبكين وطوكيو ونيودلهي وصولا إلى لندن وبرلين ومدريد وكوبنهاجن واستوكهولم وباريس ، فكانت كالمعشوقة الفاتنة التي أنست عاشقها كل من عرف قبلها من النساء ، ففيها كل صفات الجمال التاريخي والأثري والفني والثقافي والحضاري الذي يمكن التماس بعضه في عواصم أخري ، أما هي فقد تفردت بأنها نمط لا يمكن تكراره و لا يوجد شبيه له .

محمود نسيم وحديقته

بقلم: فاروق شوشة

في التقديم الذي يحمل توقيع مكتبة الأسرة لمختاراته الشعرية التي حملت عنوان الحديقة كانت هذه السطور: ينتمي محمود نسيم إلى جيل السبعينيات الشعري ، صاحب الحلقة الخروجية في سلسلة الشعر المصري ، كتب افتتاحيته الشعربة في سن مبكرة وهو علي عتبة العشرينيات ، واستطاع عبر خمسة دواوين وعدد من المسرحيات الشعرية أن يعثر علي صوته الخاص ذي النبرة الغنائية التي تعتمد الموسيقي عنصرا فاعلا قادرا علي إثارة الدهشة ، في وقت تخلي فيه كثير من أبناء جيله عن القصيدة التفعشيلية ، وانحازوا لا يقاعات النثر الخافتة .

محمود نسيم . . بعيدا عن هذه السطور التي حاولت فيها الإمساك بجوهره الشعري ، شاعر كالنسيم ، شاعر يتميز في هذا الزمن الغليظ بالمتوحش بأعماقه الهادئة ، وشفافيته العذبة ، وروحه الإنسانية . . المفعمة بإشراقات الفطنة والنبل والجمال ، وهو ـ الحريص علي سلامة نفسه ، ونقاء شاعريته ـ يتأنق كثيرا قبل أن يلتقي بقارئه ومتلقي شعره ، حتي لا يتحقق اللقاء المنشود إلا وهو في كامل أبهته وتألقه: لغة ، وتدفق إيقاع ، وقدرة فذة علي التصوير . يبدو أن فطرته الشعرية النقية آزرها الحصول علي الدكتوراه في فلسفة الفن ، والعمل أستاذا في أكاديمية الفنون ، بالإضافة إلى مشاركاته في العمل الثقافي العام ، من خلال الهيئة العامة لقصور الثقافة ، والنشاط المتفجر والمتتابع للجنة الشعر بالمجلس الأعلي للثقافة ، في صالونها الشعري الشهري ، وفي ملتقياتها التي تخطط لها عاما بعد عام ، وتلتمع في غمار هذا النشاط المتنامي والهادئ للشاعر دواوينه: السماء وطائر الفخار وقوس البحر ، وكتابة الظل ، ومسرحيتاه الشعريتان: مرعي الغزلان ، والغرفة . النفس الدرامي في شعر محمود نسيم له حضوره وسيطرته وجدليته المتوترة ، الأمر الذي سكب علي العديد من قصائده حرارة المشاهد المسرحية ، وانفساح المدي لصراع الفكرة والفكرة ، والاحتكام إلى العقل ، والتشبث بما يشبه إلى قين ، وهو يكتب كلماته متحررا من صراخ اللحظة ، التي سكنته وأصبحت بعض ملامحه وسماته الهادئة ، حتي في عنفوان التوتر الذي تفجره لحظة من لحظات الصراع المصيري بين الأمة وأعدائها التاريخيين . يقول في القصيدة الأولي من مختاراته البشارة إلى مريم وهي مهداة إلى محمد الدرة:

كل راياتنا من قماش
فكيف إذن ستلف بقاياك
كيف نواريك في الأرض

والأرض مطوية في الرصاصة والصمت
في الغيب والطلقات
ولا شيء يحميك

لا صرخات أبيك
ولا الغضب البدوي
ولا حرق نجمة داود في الطرقات

نحن لا نملك الريح
حتي نحط رماد المدينة في الحجرات
ولا نملك البحر

حتي نقيم حدود فلسطين
فيما تقيم حدود فلسطين
فيما تبقي من الأرض والكلمات

ولا نملك الغيب
كي نستطيع الكتابة في هذه اللحظات

لا مظاهرة من مظاهرات الوجد القومي ، ولا احتشاد بالويل والثبور وعظائم الأمور . لا نزوع إلى لغة تنسلخ عن حقيقتها لتصبح نشيدا زاعقا تحكمه الجلبة والصراخ . كل شيء يتم تناوله في هدوء وحكمة واقتصاد في اللغة والعبارة ومفردات المشهد . الكلمة الواحدة هنا تغني عن الكلام الكثير ، وهي طبيعة الشاعر نفسه حين يتكلم أو يحاور . لا حشو ولا فضول ولا ادعاء لما ليس جوهريا أو حقيقيا . حتي في فجيعته علي صديقه نزار الذي ما ت مرتحلا في حريق مسرح بني سويف (في سبتمبر٢٠٠٥) لا يفارق شاعرنا عاداته ، ولا يتنكر للغته ، ولا يتزيا بغير زيه :

لا أحس بشيء فقط ، جسدي يحترق

لا أحس بشيء ، ولكن ، رأيت دمي في خلاياه مشتعلا
والذي كان وجهي يصير هلاما من اللحم منبهما

وما يشبه الروح ينحل في شهقة الاحتراق

وعظمي تسايل في غمرة النار

وانفك ملتصقا بحديد المقاعد
أبقيت جسمي بموضعه

وبدوت كأني ألوذ بنافذة أو جدار
وكأني أريد هواء وماء ، هواء وماء . .

هكذا يقدم لنا محمود نسيم وطأة الموت وهول الفاجعة كما يرويها نزار ، واثقا من أن التفاصيل الصغيرة كافية وحدها لتعبر بنا إلى أتون المحرقة ، فلا ضرورة للمبالغة ، أو استنفار عناصر أخري مؤازرة ، فقد وصلت الرسالة وتحقق المجاز الشعري ، وأصبحنا نطل علي المشهد من داخله .

عشرون قصيدة تضمها مختارات محمود نسيم في حديقته التي تنطق بذوق البستاني وخبرته ، كل واحدة منها حبة في عقد منظوم يشير إلى أصالة شاعريته ، وإحكام لغته ، وثراء عالمه .

زكي مبارك شاعراً - ١ -

بقلم : فاروق شوشة

شكرا للمجلس الأعلي للثقافة علي تذكره للكاتب الناقد الشاعر الدكاترة زكي مبارك ، من خلال احتفالية أقيمت علي مدار ثلاثة أيام من١٠ إلى ١٢ سبتمبر تحت عنوان قراءة متجددة ، بعد أن مر خمسة عشر عام ا علي الذكري المئوية لميلاده (١٨٩١) وأربعة أعوام علي الذكري الخمسينية لرحيله (١٩٥٢) . ويبدو أن اللجنة المنظمة للاحتفالية قد أسهمت بقصد أو بدون قصد في الظلم الذي وقع علي زكي مبارك في حياته وبعد رحيله ، بإغفال ملمح أساسي فيه هو ملمح الشاعر ، فكان التركيز الأكبر علي كتاباته النثرية ، ولم يتح لتناول شعره غير هامش علي متن احدي الجلسات التي خصصت أساسا لزكي مبارك وأدب الرحلات . ولولا الأمسية الشعرية التي أقيمت في ختام إلى وم الثالث والأخير للاحتفالية ، لما أتيح للجمهور التعرف علي نماذج من شعره عن قرب . وزكي مبارك ـ شأنه في هذا شأن العقاد والمازني ـ ضحية لا هتمام الجمهور الخاص والعام بكتاباته النثرية التي تقدمت مشهده الأدبي والفكري ، فكان طبيعيا أن ينشغل الناس ـ وهم معذورون ـ بمعاركه الأدبية بينه وبين كبار أدباء عصره ، وبخاصة طه حسين وأحمد أمين ، وكتبه عن النثر الفني في القرن الرابع الهجري ، والأخلاق عند الغزالي ، ومدامع العشاق ، والمدائح النبوية ، والموازنة بين الشعراء ، وعبقرية الشريف الرضي ، وليلي المريضة في العراق ، والتصوف الاسلامي ، وجناية أحمد أمين علي الأدب العربي ، والعشاق الثلاثة ، ووحي بغداد ، وغيرها من المؤلفات التي شغلت الحياة الأدبية في مصر والعراق عقودا من الزمان . وبالمقابل ، لم يمنح زكي مبارك شعره بعض هذا القدر من الاهتمام ، فلم يصدر في حياته سوي ديوانين هما : ديوان زكي مبارك عام ١٩٣٣ ، وألحان الخلود عام ١٩٤٧ ، أما دواوينه الأربعة التالية فلم يتح لها الظهور إلا بفضل ابنته الوفية ـ النادرة المثال في وفاء الأبناء للآباء ، الأديبة الاذاعية الشاعرة كريمة زكي مبارك ، التي عكفت علي جمع قصائده ، وتبويبها ، واصدارها في دواوين ، ظهر أولها بعد ديوانه الثاني بأربعين عام ا وهو قصائد لها تاريخ ، وثانيها : أطياف الخيال عام ١٩٨٧ وثالثها : أحلام الحب عام ١٩٨٩ وأخيرا شط إسكندرية عام ١٩٩٠ . إذن فقد شارك زكي مبارك ـ بنفسه ـ في وقوع هذا الظلم عليه ، وخفوت ذكره الشعري بين شعراء زمانه ، وبالتالي احجام النقاد والدارسين عن التعامل مع شعره ، ربما لا فتقاد معظمه وصعوبة الحصول عليه ـ قبل أن تنشره كريمة مبارك ـ والحيرة في تصنيف الشاعر ضمن واحد من التيارات الشعرية السائدة في عقدي الثلاثينيات والأربعينيات اللذين شهدا تدفق عطائه الشعري ، وهي الكلاسيكية الجديدة والشعر

المهجري وتيار جماعة أبو للو أو التيار الرومانسي وقبله تيار جماعة الديوان (العقاد وشكري والمازني) . بالاضافة إلى بعض ما كتبه زكي مبارك من شعر إبان اقامته في العراق لمدة عام دراسي واحد (تسعة أشهر) ومتابعته عن كثب لبواكير حركة التجديد في الشعر التي نضجت بعد ذلك علي أيدي الشعراء الرواد في حركة الشعر الحر (نازك الملائكة والسياب والبياتي والحيدري) وكانوا هم وآخرون يغمغمون وقتها بالصور الأولي والتجارب الأولي التي لم تستقر وتتضح إلا بعد ذلك بعدة سنوات في مطالع الخمسينيات ، وشارك زكي مبارك - بالفعل - في أوليات قصيدة الشعر الجديد أو الشعر الحر ، الأمر الذي يكشف عن نزعته التجديدية وحس المغامرة والتجريب لديه ، ونفسه الشعري الرومانسي الجامح ، الذي تختزنه شخصية رومانسية حادة المزاج والطبع ، في لغة شعرية تتحرك في مستويات مختلفة من التعبير ، تجمع بين النزوع البياني الذي ساد شعر الكلاسيكيين الجدد ، والتجديد في المعجم وهندسة التركيب والبنية النحوية والصرفية الذي ساد شعر المهجريين ، والاهتمام بلغة الحياة العامة والاقتراب من الصبغة الواقعية التي مثلها شعر جماعة الديوان (وبخاصة العقاد في ديوانه : عابر سبيل) الذي يشكل فاتحة واقتحاما بالنسبة للغة الشعر الحر في مصر .

ولقد كان زكي مبارك علي وعي كبير بما يمثله شعره علي مستوي المعجم والصور واللغة من مغايرة للسائد والمألوف ، وبخاصة حين تسللت إلى ه أنفاس من الموروث الشعبي علي مستوي التعبير والظلال والحكمة الشعبية السائرة علي ألسنة الناس ، فهو يصرح في تقديمه لقصيدته أطياف الخيال التي سمت ابنته كريمة ديوانه الرابع باسمها - بقوله : من المستحيل أن يكون جميع ما أذكره في أشعا ري من أخبار صبواتي وقع بالفعل ، فذلك يقتضي أن أنهب جميع المفاتن ، وأن يكون طعامي من لحم النسور ، وأن يكون شرابي من عصير الخلود .

إن لي غرضا وطنيا من هذه الصور الشعرية ، ذلك الغرض هو إغناء الأدب العربي بألوان يكثر وجودها في الأدب الغربي ، وأنا أعترف بأنني خائف من أن يضيع أبناؤنا من أيدينا ، لا نهم لا يجدون عندنا من الصور الوجدانية ما يجدون في الأدب الأوروبي . وهو كلام يكشف عن طبيعة فهمه لدور الشعر من ناحية واعتباره غرضا وطنيا من ناحية أخري .

زكي مبارك شاعراً - ٢ -

بقلم: فاروق شوشة

الصورة التي يبدو عليها زكي مبارك - في شعره وفي نثره معا - هي صورة من فرض عليه الظلم والقهر ، فكانت معاركه وجها من وجوه ردع هذا الظلم ومواجهته ، خصوصا في ظل وجدان شديد الحساسية والتوتر ، يحركه تكوين رومانسي جامع ، وإحساس فردي عارم ، نمي لديه الشعور بالذات ، والمبالغة في الشعور بالقيمة ، والتغني بما يمتلكه من دلائل العبقرية ، ومجاوزة الآخرين . فهو دكاترة لا مجرد دكتور واحد ، وهو سابق آفاق في الكتابة الأدبية مثل دراسته للنثر الفني في القرن الرابع الهجري ، وسبقه إلى الكتابة عن عبقرية الشريف الرضي ، كما سبق العقاد إلى الكتابة عن ابن الرومي ، ونجح كلاهما : زكي مبارك والعقاد في لفت الانتباه بشدة إلى أهمية هذين الشاعرين الكبيرين في مسيرة الشعر العربي وإنجازاتهما الجمالية . ولعل أعنف ما واجهه زكي مبارك وهو يعد نفسه للتدريس في الجامعة ، هو وقوعه في شرك العداوة مع طه حسين . والذين عرفوا طه حسين عن قرب ، يعترفون بأنه كان مسرفا في محبته ومودته ضاربا في غضبه وعداواته . وأصبح طه حسين من وجهة نظر زكي مبارك الحائل بينه وبين العمل في الجامعة ، وفي لجوئه إلى العمل في وزارة المعارف ، وفي الصحافة ، وتركه مصر للعمل في العراق . وظلت مرارة الحرمان من العمل في الجامعة الجرح الناغر في أعماقه حتي يومه الأخير ، ولم يكن زكي مبارك وحده يعاني هذه المرارة ، التي تعرض لها من بعده الناقد الكبير الدكتور محمد مندور ، ورائد دراسات الأدب المقارن في الجامعات المصرية والعربية الدكتور محمد غنيمي هلال ، حين اعترض طه حسين علي تعيين مندور في الجامعة ، وحين فضل طه حسين تعيين الدكتور بدوي طبانة في كرسي البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن بدلا من غنيمي هلال ، ومرة ثانية حين قدم عليه الدكتور محمد صقر خفاجة في الحصول علي جائزة الدولة التشجيعية ، وأنتجت هذه المرارة - في كبد غنيمي هلال - واحدا من أعظم مقالاته الأدبية بعنوان شجرة الزقوم نشره في مجلة الكاتب ثم أعيد نشره - بعد رحيله - في واحد من كتبه المهمة ، كما أنتجت هذه المرارة أيضا الفيروس الذي أصابه في صميم الكبد ولازمه حتي يوم رحيله المبكر وهو في الثانية والخمسين من العمر . وهي أمور يطول فيها الكلام ، خاصة ما كان من طه حسين وانقلابه علي أحمد أمين ، لكني أؤجلها لمناسبة قادمة .

أعود إلى زكي مبارك وشعره ، لا قول باختصار شديد إن شعره هو السهل الممتنع ، وهو الذي تتجاور فيه ملامح وأقباس من التيارات الشعرية السائدة في زمانه ،

وإن كـان هـذا الـشعر أقـرب إلى شـعر جماعـة أبـو للـو علـي مـستوي الـروح والـنفس والوجـدان ، مع تراوح المستويات اللغوية في التعبير ، ورسم اللوحة الشعرية . يقول زكي مبارك:

عيون صاولتني في حياتي
فنالت ما أرادت من فتوني

سلوني عن منازلها سلوني
فمن وجدي بها سكنت عيوني

طلبت ترحما منها فقالت:
وهل في الحب يا أم ارحميني !
ويقول ملخصا ومركزا حالة مع المحبوب في بيت واحد من الشعر:
أنت ورد فهب محبك شوكا

أتري الورد عاش من غير شوك ؟

ويقـول ـ وشـعره في مقطوعاتـه القـصار أشـد تركيـزا وإحكامـا مـن قـصائده الطويلـة الـتي تملؤهـا طبيعتـه الاسـتطرادية والانتقـال مـن مجـال إلى مجـال ومـن حـال إلى حـال ، يقـوده قلمـه ، وتسيطر عليه انفعالاته ـ يقول في واحدة من هذه المقطوعات:

سيذكرني الناسون يوم تشوكهم
شمائل من بعض الخلائق سود
سيذكرني الناسون حين تروعهم

صنائع من ذكري هواي شهود
فوالله ما أسلمت عهدي لغدرة
ولا شاب نفسي في الغرام جحود

ولاشهد الناسون مني جناية
علي الحب إلا أن يقال شهيد

اللغـة في شـعر زكـي مبـارك ، وفي مـستوياتها المختلفـة مـن البيانيـة الـتي تحـاكي لغـة الكلاسـيكيين الجـدد إلى الـشعبية المتـأثرة بلغـة الـتراث الـشعبي واللغـة المـشتركة علـي ألـسنة النـاس ، هـذه اللغـة موضـوع يـستحق الدراسـة والتأمـل العميـق ، وليـت شـباب باحثينـا في الجامعـة يعكفـون علـي شـعر زكـي مبـارك ، علـي خلفيـة دراسـتهم لنثـرة ومعاركـه الأدبيـة

وبمواقفه في حياته ، فشعره مرآة لهذا كله ، وصدي عنيف لضراوة هذه الحياة وتوترها وقسوتها .

وليت المجلس الأعلي للثقافة - بعد أن انتهت الأصداء القريبة لا حتفالية زكي مبارك - أن يقدم أعماله الشعرية والنثرية الكاملة لقارئ هذا الزمان الذي يعوزه الوصول إلى هذا الابداع المتميز ، خاصة دواوينه الشعرية المفتقدة ، وشعره الذي لا يزال في مواضعه من ثنايا كتبه النثرية وآن له أن يجمع ويري النور .

والمجلس قادر علي إضافة صفحة جديدة إلى سجل الأعمال الكاملة للعديد من الكتاب والشعراء والمبدعين .

" الخولاني " خلاصة الشعر في بور سعيد

بقلم : فاروق شوشة

هو واحد من أصوات جيل الستينيات في الحركة الشعرية المعاصرة ، بكل ما يمثله هذا الجيل ـ علي تنوعه وتوزعه وانفراد كل من ينتسب إلى ه بعالمه وطريقه ولغته ـ من تأصيل لحركة الشعر الجديد ، وعشق حميم للغة باعتبارها بيت الشعر وحقيقة تجليه ، ووعي بجماليات القصيدة العربية في عصورها التاريخية المتعاقبة ، وانفتاح علي كل اشكال القصيد وصوره وتجاربه وخبرات دون جمود .

ولا يعيب المبدع الكبير محمد صالح الخولاني أنه ارتبط ببيئته الإقليمية في بورسعيد ارتباطا حميما ودائما . فقد ظل قلبه ينبض ـ ولا يزال ـ مع كل ما تمتلئ الحياة المصرية والعربية ، ويتسع له الفضاء الشعري ، عبر عقود من الزمن امتلأت بإنجازه اللافت ، وتنوعه الدال ، وإخلاصه لفنه الأثير: الشعر .

ولد الخولاني في بورسعيد عام ١٩٣٥ وتخرج في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر عام ١٩٦٣ ، وأتيح له العمل بصحف دار التحرير (الجمورية والمساء) بين عامي١٩٥٩ و١٩٦٤ . وبدأ ينشر إبداعاته منذ منتصف الخمسينيات في الصحف والدوريات الأدبية وفي مصر والعالم العربي . وعبر البرامج الإذاعية والتليفزيونية . وتدفقت مجموعاته الشعرية بدءا بديوان ملحمة الشعب البطل الذي نشر بالجزائر عام ١٩٧١ ، ثم ديوان نصغي ويقول الموج عام ١٩٨٧ بالمشاركة مع شعراء بورسعيد: حامد البلاسي ومحمد يونس علي ومحمد سعد بيومي والسيد محمد الخميسي ، فديوانه في ذاكرة الفعل الماضي عام ١٩٩١ ، فديوان مملكة البندقية عام ٢٠٠٣ ، فديوان أشواق رحلة العودة عام ٢٠٠٦ ، فديوان مسيرة ذاتية للحزن عام ٢٠٠٦ ، فديوان اغنيات وحكايات صغيرة (للأطفال) عام ٢٠٠٦ ، فديوان حديث الماء والنار عام ٢٠٠٧ ، بالإضافة إلى مسرحيتين شعريتين هما: الحلم والمؤامرة عام ١٩٩٦ وأيام الدم عام ٢٠٠٠ .

هذا الفيض من الابداع الشعري ، كما ونوعا ، يجعل منه خلاصة الخلاصة في شعرية بورسعيد ، ويضعه في موضع الريادة بالنسبة لا جيالها الجديدة الطالعة ، منذ السبعينيات حتي إلى وم ، ويجبرنا علي أن نلتفت إلى ه وإلي دوره بكل التقدير والاحترام ، وأن نضع علي صدره وساما يعبر عن هذا كله ونحن نتأمل هذا الإخلاص العميق للشعر ، دون انتظار شيء مما يسعي له الآخرون ويهرعون إلى ه ويطالبون بغنائمه ، خاصة أنه لا تزال في جعبته اعمال لم تنشر بعد: ديوانه رحلة إلى الله ومسرحيتاه الشعريتان: زيارة لبيت القاضي والسقوط .

يقـول الخـولاني تحـت عنـوان لـو يـسمعني البحـر: آه لـو يـسمعني البحـر / أقـرأ اسـفار الليـل حـلاة للأمـواج / لكـن شـجني يتـساقط في / ينـداح علـي أشـرعة الليـل / ينـسل كمـا ينـسل المـوج حـديثا / مـا بـين مواجـد عـشق يـسبح في أصـداء النـور / ويكـون الـصمت الموغـل في الـشطآن / معـذرة يافـاتنتي / كنـت أوافيـك غنـاء يـوقظ طـير البحـر / يتـساقط فيـك جني في غير أوان / لكن يا فاتنتي / إن جئت أتمني / لا يسمعني البحر .

ويقول تحت عنوان: يـا دفقـة مـن جنـون الـريح: مـن أيـن عطـرك يـا قـارورة العطـر / هذا الذي يـوقظ الأحـلام في صـدري / مـن مريـق النيـل أم مـن نـور جنتيـه / أم مـن شـذاه الـذي ينـساب في النهـر / مـن الحقـول ومـن فـيض الغنـاء ومـن / تـأود المائـسات الـسمر في الفجـر / يبـدين للنهـر ألوانـا مشعـشة / ممـا تجـن بـه قيثـارة الـشعر / مـن الـشروق الـذي في المقلـتين صـحا / ومـن مرايـا ربيـع فـاض بالبـشر / قـاروة العطـر والأسـرار عاصـفة / مـن الغيـوم الـتي تنهـك في الفكـر / بـوحي إذا شـئت أو لـوذي بـصمتك مـا / ينـداح في الـسر / لا ينـداح في الجهر .

ويقـول في ديوانـه سـيرة ذاتيـة للحـزن تحـت عنـوان: رأيـتني . . رأيتـه: رأيتـه ، كمـن يبـادر الـصباح للنهـر . ممتطيـا أسـنة المـدي / وحـاملا مـا يحمـل الـصياد عنـدما / يـراد للمـصيد أن يواقـع الأسـنة / ومرهفـا / إذا يـراد للـصياد أن يـسبح في أكنـة العبـاب / لعلـه إن دار في قيعانـه / وعـس في مـواطئ اللآلـئ إلى تيمـة / أن يـستعيد كنـزه المخبـوء مـن سـنين . .

هـذا شـاعر يعـرف أسـرار فنـه وأركـان صـنعته . وهـو قـادر علـي أن يـنفخ مـن روحـه في كلماتــه مــا يجعلــها تتــوهج بــصدقها الفــني ، وقــدرتها علــي التخيــل ، والتحليــق ، واقتنـاص حكمـة الحيـاة دون زعيـق أو مباشـرة . وهـو شـاعر يغـزل مـن مفرداتـه الـصغيرة ، وعناصــره بيئتــه البورســعيدية الــساحلية ، وانفتاحهــا علــي البحــر ، وعــالم البمبوطيــة ، ومراكــب الرحيــل ، أبنيــة شــعرية شــامخة ومحكمــة ، ومراســي شــعرية لنــوارس الــصباح والمغيــب ، وأهــازيج للملاحــين المــثقلين بغنــائم العــودة مــن ثــبج المــوج . هــذا الــشميم البورســعيدي هــو الــذي يعطــي لــشعره طعمــه ومذاقــه ورائحتــه ، ويثبتــه في موقعــه علــي الخريطة الشعرية المصرية ، واحدا من صناعها المقتدرين وبنائها الواعدين .

ولعــل القــائمين علــي أمــر المــسرح ، المــتعللين دومــا بأزمــة النــصوص المــسرحية الــشعرية ، أن يلتفتــوا إلى مــسرحيات الخــولاني ومحمــد إبــراهيم أبــو ســنة وأحمــد ســويلم و غيرهــم حــتي لا تبقــي نــصوصا ورقيــة ، لم يــتح لهــا أن تتجــسد وتتــنفس وتــشتبك ، مــع الواقع ومعنا فيما يسمي روعة العرض المسرحي .

حسن توفيق ووردة الإشراق

بقلم: فاروق شوشة

لست أدري هل الشاعر حسن توفيق - في تقديمه لديوانه الجديد وردة الإشراق - جاد أم هازل وهو يقول: أعشق الليل ، أتوحد فيه مع الكون ، أضمد جراحي فيه أو أبو ح بحزني له . أتنفس فيه بحرية أكبر . أما النهار فله معي شأن آخر ، أتغافل عادة عنه ، حيث أظل نائما حتي الظهيرة . حين أضطر أحيانا لا ن أصحو صباحا ، أشعر بالإشفاق تجاه الناس الذين أراهم في الطرقات والشوارع . أحس أنهم آلات بشرية تتحرك بصورة فوضوية أو منظمة ، وفقا لطبيعة الإيقاع في المجتمعات التي ينتمون إلى ها .

والديوان الجديد لحسن توفيق - وترتيبه السادس عشر في قائمة دواوينه التي بدأت بديوانه الأول: الدم في الحدائق (١٩٦٩) وآخرها ليلة القبض علي مجنون العرب (٢٠٠٥) - أخذ اسمه من قصيدة شديدة الرقة والعاطفية ، يقول فيها : يسقط ورق الصمت إلى ابس لما يسكرني فرح الخصب . يأتيني صوتك . وردة إشراق . تتفتح موسيقي تتملكني وتمشي بنشوتها روحي فتنورني . وتهدهد أشواق القلب . وأشم عبيرك فيها حين يوشوشني . ما أحلي صوتك إذ يأتي في قلب الليل . ليسافر بي من أقصي الأرض إلى وطني . وإليك علي نفحات الفل . حيث تغني الروح وتشرق رغم جفاف الزمن المعتل . وتذوب القطرة في الكل وتحيا بالكل .

وفي ختامها يقول: عبر الأسلاك - أيا مؤنستي - يأتي صوتك وردة إشراق بيضاء . استنشقها بحنين الروح إلى فرح لا يتبدد . فتطل علي ملامح وجهك دون لقاء . وأظل أقبله بحنين يتجدد .

الديوان كله حالة عشق مشتعل ، وجمرة نار متأججة واقتحام لفضاءات القصيدة الوجدانية في الشعر المصري العربي المعاصر . ويبدو أن الاقامة الطويلة للشاعر مغتربا بعيدا عن الوطن في دولة قطر ، وعمله إلى ومي في الصحافة بكل ما تمتلىء به - وما أكثر ما يكون قاتما ومحزنا وحاملا لسحابات التشاؤم واليأس - قد صبغا قصائده عموما ، وقصائد هذه المجموعة الجديدة - بشكل خاص - بمسحة قوية من الآسي والشجن . هل هو تقدم العمر النفسي بالشاعر قد أخذ به إلى الساحة الموحشة التي يواجه فيها يقظة الرماد وأطلال الأطلال ، والتمثال الذي كسره والزوابع والطفلة ، والآمال والموت المزخرف ، وغيرها من الأحوال الشعرية التي تستقطر الحزن ، وتدفع بطعم المرارة إلى الشفاه .

وفي المقدمة التي تحيرنا بجدها وهزلها . وقارها وفكاهتها ، يتحدث حسن توفيق عن إنسان نبيل تجسد فيه الصدق بالنسبة له ، يقول عنه : كنت أشعر أنه أبي الروحي ، رغم أنه لم يكبرني في العمر إلا بنحو تسع سنوات .

هذا الأب الروحي هو الشاعر العظيم صلاح عبد الصبور الذي لم يكن يكتب ليعيش ، وإنما كان يعيش ما يكتبه بكل معنى الكلمة . يقول صلاح عبد الصبور في كتاب من أجمل كتبه وهو حياتي في الشعر: إن أعظم الفضائل عندي هي الصدق والحرية والعدالة . وأخبث الرذائل هي الكذب والطغيان والظلم . ذلك لا ني أعتقد أن هذه الفضائل هي التي تستطيع تشكيل العالم وتنقيته ، وأن غيابها معناه ببساطة: انهيار العالم . وقمة الصدق عندي الصدق مع النفس . ومعناه أن يدرك الإنسان وجوده ويعيه ، وأن يعرف مكانه من الحياة ، وأن يتحمل دوره وعبء وجوده في الحياة ، رغم ما قد يكون من قسوته وثقله .

وردة الإشراق وردة شعر جميلة يقدمها حسن توفيق في زمن نفتقد فيه الجمال ، ونفتقد فيه الصدق ، وبخاصة الصدق مع النفس الذي أشار إلى ه صلاح عبد الصبور . وهكذا تصبح الوردة نغما في الليل وشاعرنا يقول: نعم يرفرف في فضاء الروح يعرفه صفاء مقمر يتفتح ، نغم كأن فراشة مسحورة رفت بحسنها تتأرجح . نغم تتابع كالندي ، هو صوتك الشفاف يقبل عبر أجواء السكون ، ويظل حولي يصدح ! رغم المسافات التي تنأي وتسكنها الظنون ، فيخف قلبي هائما متعطشا ، يهفو إلى نبراته الحلوة ، تتشكل النبرات أطيافا وتحملني إلى جزر من النشوة . تأوي إلى ها الروح آمنة ، وتبقي تمرح !

عريانا يرقص في الشمس

بقلم : فاروق شوشة

هذا هو أحدث دواوين الشاعر الكبير محمد الفيتوري ، الذي كرمته مصر مرتين خلال الشهرين الماضيين علي انجازه الشعري من خلال رحلة شعرية مدهشة علي مدي أكثر من نصف قرن . وكان التكريم الأول في سياق احتفال لجنة الشعر بالمجلس الأعلي للثقافة بربيع الشعراء ، حين خصصت يوما كاملا للفيتوري تحتفل فيه بشعره دراسة وشهادات وتقديم مختارات . أما التكريم الثاني فقام به اتحاد الكتاب حين قدم للفيتوري جائزة الإبداع العربي لهذا العام .

وهكذا عاد الفيتوري من جديد إلى جمهوره في مصر وإلي ذكرياته الأولي فيها وهي التي شهدت بواكير أيامه وصباه وانطلاقته العاتية في دواوينه الأولي التي سادها الشجن الإفريقي ، والثورة علي العبودية وصيحات التحرر العارمة ، علي إيقاع طبول قصائده الهادرة وصوره الشعرية الوحشية .

وحين عاد الفيتوري بعد طول طواف في عديد العواصم العربية والأوروبية ، عاد ومعه ديوانه الجديد عريانا يرقص في الشمس الذي نشره أخيرا في بيروت ، مؤكدا لقرائه ومنتجي انطلاقته الشعرية أنه لم يتخل حتي إلى وم عن النغم الإفريقي . فهو يهدي ديوانه إلى المناضل الإفريقي فيلكس دارفور الذي يقول عنه : هذا هو الاسم البديل ، القناع المزوق ، الذي نسجته الأقدار حول وجهه ، والذي أخذ صورته ومعناه داخل دائرة التاريخ . أما دارفور بالنسبة للفيتوري فهي تلك الملايين من الغابات والأنهار والمدارات الإفريقية السودانية ، تلك القوي الغامضة والحضارات المنسية ، وأيضا تلك الأصوات المعذبة التي ما فتئت تدوي داخل جمجمة رأسي وتجاويف عظامي . وكأن الفيتوري - كما يقول منصور الرحباني في تقديمه للديوان يعود إلى نا - كما عرفناه - منذ ما قبل خمسين عام ا ، منذ اطلالته في أغاني إفريقيا ، وهو كائن مستوحش يعيش في عوالمه الداخلية ، تلك العوالم اللامرئية والشديدة الغموض ، والتي قد لا يدركها هو بنفسه ، رغم أنها تعيش فيه ، وتنبع منه ، وتشكل رؤياه في تصورات الكون من حوله .

نعم . لا تزال إفريقيا تسكنه ، ولم يبق له إلا الحزن والشعر ، وإلا إحساسه المريض بوطأة المرض وتسلل الوهن ـ في سنواته الأخيرة ـ لكنه يغالب واقعه الراهن ويتحداه بالشعر ، وتأمل الصور واللوحات القديمة ، وكأنه يأخذ بأيدينا إلى معابده ومحراب طقوسه الأولي ، يطلعنا علي تماثيله وأيقوناته ، وبخوره وزمزماته وصيحاته - التي لا تزال كلها تسري في دمائه - ونحن معه نحدق في صورة قديمة : ابتسم للحضور ابتسم

للغياب / ابتسم للبكاء ابتسم للعذاب / ابتسم للجنون ابتسم للخراب / ابتسم للغزاة وهم يقبلون / للعبيد الطغاة وهم يزحفون / للطغاة العبيد وهم يبطشون / ابتسم غضبا / ابتسم لهبا / إن حزنك أكبر منك ، وأعمق مما يري الميتون .

هل هو ارتداد الزمان العربي ، وكأنه لم يتقدم خطوة واحدة ، هو الذي يعود به الآن إلى مرتكزات البداية ، علها تشحنه من جديد ، باللهب الذي كان ذات يوم متوهجا ، والكلمات التي كانت ذات يوم غارقة في السحر والبكارة والجسارة والانطلاق ؟ ويا صدأ العمر ، كم هي قاسية صرخات العيون التي اختنقت بالبكاء / ويا دورة الدهر كم في نبي تناسخ في صورة العصر حتي العدم / وكم من غريب بعيد الرؤي وهو دان قريب / وكم من قريب ، قريب المدي ، وهو ناء بعيد / وكم هي مضحكة كبرياء الرجال ، الطغاة ، العبيد / وكم من قتيل خطيئته في خطاه / وكم من محب شهيد تغطي بأكفان عزته ومشي / حاملا راية الموت ، نشوان في رقصه الموت ، عريان ، جوعان ، حافي القدم .

وفي القصيدة التي حمل اسمها الديوان الجديد يقول الفيتوري بعض حزنك أن الطقوس القديمة ، ما فتئت هي ذات الطقوس القديمة ، أضرحة من رخام / وبضع عظام / تسبحها صلوات العبيد وتعنو لها كبرياء الرجال / وأشباح آلهة تتصاعد نيرانها في رؤوس الجبال .

وصولا إلى قوله: بعض عمرك ما لم تعشه ، وما لم تمته ، ومالم تقله ، وما لا يقال / وبعض حقائق عصرك أنك عصر من الكلمات ، وأنك مستغرق في الخيال .

لقد توحد الفيتوري وتماهي مع المناضل الإفريقي الأسطوري فيلكس دارفور الذي انتهت حياته ـ علي أيدي المستعمرين ـ بالإعدام رميا بالرصاص ، وليس هذا الديوان الجديد ـ في جوهره وبنيته التحتية العميقة إلا موسيقي جنائزية ، تصدح إيقاعاتها ـ خافتة وزاعقة ـ تنعي زمانا مضي ، وحلما هوي ، ولن يعود .

" ما أبقت الريح " لفؤاد طمان

بقلم : فاروق شوشة

الغريب أن ما أبقته الريح للشاعر السكندري المبدع فؤاد طمان كثير وكثير جدا ، علي عكس ما نتصوره من أن الريح لا تبقي شيئا حين تهب ، لكنها في حالة هذا الشاعر المجدد حملت بذورا جديدة ، أصبحت بدورها نباتات وكائنات شعرية مدهشة ، ازدهرت في حدائقه الشعرية ، وبدأت تؤتي ثمارها وأكلها ، وتبدع عطرها وألوانها في قصائده التي يحملها هذا الديوان الجديد ما أبقت الريح الصادر عن دار السفير بالاسكندرية في سبتمبر من العام الماضي .

القصيدة الأولي في هذا الديوان عنوانها البحر وهي قصيدة القصائد فيه ، والأمر ليس فيه مصادفة فعالم فؤاد طمان الأثير هو عالم البحر ، ولغته ومفرداته ومعجمه الشعري عالم بحري زاخر بالأصداف واللآلئ والمحار ، والموج والزبد ، والقطر والسحب التي تبدأ من البحر وتعود لتصب فيه ، والريح والزورق ورمل الشواطئ والمنارات والمد والجزر ، والكثيب الأبيض الرملي وبيت الحور والماء والصخر والكورنيش والكهوف السحيقة والنوارس وموانى الوصول ، والدلافين وغيرها من لغة البحر ومفرداته والبحر لم يعد مجرد بحر ، إنه الشاعر في حقيقته وجوهره كل منهما تماهي في صاحبه فلم نعد ندرك المسافة بين الشاعر والبحر الذي صنعه لنا علي عينه وأبدع في تشكيله والكشف عن صبواته وتجلياته في إيقاع موسيقي صاخب كالبحر ، ناعم أملس كالبحر ، مراوغ غير متوقع كالبحر ، وفي لغة شعرية شديدة النقاء والتكثيف والحسم ، لا مجال لثرثرة أو طرطشة رومانسية أو سذاجة تناول .

لغة تغمرنا من حيث لا نحتسب وتفهق بالكلمات في ثقة واقتدار ولوحة شعرية تساو لوحات العتاة من الرسامين والمصورين ، لكنها أكثر نبضا وحيوية وتدفق إيقاع وألوان وظلال يقول فؤاد طمان:

زرقة البحر صفحة عمري
فيها البداية والمنتهي
لا أحب الصحاري ولا التربة الحجرية
يبعثني الماء إما ترقرق
والنور إما همي فوقه فزها
انظروا كيف هلل سرب النوارس لما رآني
وكيف احتفي بي فوق الزبد

فأنا مثله صاحب الموج
أعرف أسراره الأزلية
لا أكتب السر في الماء
وصولا إلى آخر مقطع في سيمفونيته عن البحر:
المنارات تعويذتي الواعدة
واخضرار الصخور علي مطلع البحر
يوقظ قلبي يشعل جذوتي الخامدة
عزف المد والجزر تحت نوافذ بيتي القديم
ففاض الحنين وهمت بي الربة الخالدة

الشاعر- البحر يتكشف في ختام القصيدة عن حقيقته وعن مطلق تماهيه ، ليس في ديوان الشعر السكندري كله ما يماثل هذا الفناء والتلاشي والذوبان في حضرة البحر: المعشوق الأول لكل السكندريين .

والأمر عند فؤاد طمان- لمن سيحاول محاكاته وتقليده- عصي وصعب . فهو كالبحر متغير ومتجاوز- ونحن لا ننزل الماء مرتين- لا نه في كل مرة يكون قد تغير ، وهذا الديوان الجديد مغامرة إبداعية جديدة بكل المقاييس . لقد عرف الشاعر بعد طول عزف وتجريب لغته وطريقه وطريقته ، ولنا أن ننتظر منه- بدءا من الآن- كشوفا بحجم شاعريته ومخزونه من الخبرات والتجارب ، هو الذي ولد في الجيزة عام ١٩٤٣ في بيت يصل ما بين نهر النيل والأهرام ، وانتقلت الأسرة إلى الاسكندرية حيث طفولة الشاعر وصباه وشبابه ، ويتخرج في كلية الحقوق بجامعتها ثم يلتحق بالكلية الحربية ويتخرج فيها ويتاح له خلال أعمال عدة أن يعمل بالقوات البحرية مستشارا قانونيا ، قبل أن يتفرغ للمحاماة منذ عام ١٩٨٣ بعد أن كان محققا وقاضيا حتي رتبة العقيد . وفي الاسكندرية يتتابع ايقاع دواوينه: أغنيات علي شواطئ الحب عام ١٩٧٣ زهور لحبيبتي عام ١٩٧٥ ، صوت الرياح البعيدة١٩٩٢ ، أوراق الرحلة المرجأة١٩٩٥ ، مدي للورد والرصاص٢٠٠٠ .

يمارس فؤاد طمان في ديوانه الجديد ما يسميه التشكيليون والموسيقيون باللعب الحر ويشعرنا شعره المنضبط أنه خارج دائرة القيود والقواعد والأسوار .

هذا شاعر حقيقي يجاوز نفسه باستمرار ويصنع لغته الشعرية علي عينه فانتبهوا ياشعراء الإسكندرية !

ربيع الشعراء في باريس

بقلم: فاروق شوشة

باريس الفاتنة ، المغتسلة دوما بالمطر ، الصاخبة الحيوية والشباب والانطلاق ، لا تشيخ أبدا ، ولاتسمح لتجاعيد الزمن بأن تظهر علي طلعتها الوضيئة الناعمة ، تستقبلني للمرة الثالثة علي مدي عشرة أعوام ، لشد ما تغيرت أنا وبقيت هي علي حالها ، لا يهدأ لها قرار ولايغتمض لها جفن .

أنا في باريس للمشاركة في ربيع الشعراء التاسع ، الذي تحتفل به سفارتنا المصرية في المركز الثقافي المصري ، يدعو له ، ويشرف علي اقامته الدكتور صفوت زهران ، ـ مستشارنا الثقافي ـ والأستاذة الجامعية المتوهجة بالوعي والمسئولية الدكتورة كاميليا صبحي الملحقة الثقافية ، ودينامو النشاط الذي لا يهدأ لحظة الدكتور محمود إسماعيل مدير المركز ، ومعه عالمان وباحثان رائعان هما الدكتور فتحي عبد الفتاح والدكتور أحمد يوسف .

لكن كيمياء هذا الربيع ـ الذي أشهده لا ول مرة ، وألتقي من خلاله بوجوه عزيزة وحميمة من رموز الجالية المصرية في باريس ، علي رأسهم السفير المثقف والمشرف ناصر كامل ، الذي حرص علي رعاية الاحتفالية وتدشينها ، والمشاركة في أمسياتها ، والاعلامي الكبير حازم فودة الذي يطل علينا ـ عبر الشاشة الصغيرة ـ برسائله من باريس ـ ومراسلة الأهرام المتلئة نشاطا وحيوية نجاة عبد النعيم ورئيس الجالية المصرية فرهود صالح ، والفنان التشكيلي الكبير عدلي رزق الله الذي كسا جدران المركز الثقافي المصري بمعرض للوحاته البديعة ، كان لها تأثيرها البالغ في جمهور الأمسيات ، واضافتها الجمالية للجو الفني الحميم شعرا وموسيقي وتصويرا ، هذه الكيمياء تمثلت في الروح المصرية ، والمودة الحميمة التي غمرتني بفيض لا ينسي من المشاعر والأحاسيس العميقة ، كل وجه من هذه الوجوه يحمل قطعة عزيزة من الوطن ، ويمثل جزءا غاليا من تراثه الحضاري والثقافي والابداعي ، وكل عين من هذه العيون المتوهجة بالمحبة ، والتي تتكلم من غير كلام ـ هي قصيدة بديعة تحمل كلماتها لغة الترحيب والحفاوة والاحتضان ، التي بلغت أوج اكتمالها في حفل الجالية المصرية علي ظهر سفينة راسية في نهر السين ، اذا به يصبح ندوة نقدية وأدبية وأمسية شعرية ومساحات وفضاءات هائلة من التواصل والتداخل ، وأنا أتحدث عن أحد كتبي هؤلاء الشعراء وعوالمهم المدهشة وأستمع إلى رؤي نقدية عنه يقدمها الدكتوران أحمد يوسف وفتحي عبد الفتاح ويشارك الشاعر الصديق أستاذ الدراسات الشرقية في جامعة السوربون الدكتور ، محمد أحمد العزب بمداخلة عميقة ، ثم يتسع المجال لقراءات شعرية لا تخرج عن المجال الرئيسي لربيع الشعراء

هذا العام وعنوانه رسائل عاطفية فلم يحلق في سماء هذه الأمسيات ، واللقاءات الثلاثة إلا شعر الحب ولغة البوح ، وهتفات الروح ، ولم يتردد في جنبات المعهد الثقافي المصري غير هذا الشعر الوجداني العميق في تنويعاته وأطيافه المختلفة ، كانت الأمسية الأولي لي ، ولعدد من القصائد التي ترجمتها إلى الفرنسية ـ ترجمة أدبية بديعة ـ المترجمة المصرية هدي فوركاد ، وكانت الأمسية الثانية أمسية مشتركة جمعت بيني وبين نصوص شعراء من العراق والمغرب وفرنسا وإيران ، بعضها كان مترجما إلى العربية ، ومعظمها كان القاؤه بالفرنسية ، لكن سيطرة قصيدة النثر عليه جعلته مترهلا ، منفلتا بدون إحكام ، واقعا في أسر الثرثرة إلى وميية غير المنضبطة فنيا ، ونجا القليل منه من هذه المزالق ، ثم كان اللقاء الثالث في ضيافة الجالية المصرية ، وكان حرص سفير مصر علي المشاركة ، وحرص كثير من الأساتدة والدارسين والباحثين والاعلاميين علي تأكيد صورة الوطن ، وحضوره فينا ومعنا ، بمثابة ، لوحة نادرة من المودة والصفاء .

في زيارتي الأولي لباريس ، كنت رئيسا للاذاعة المصرية ، واصطبغت رؤيتي الأولي لباريس ببردها الشديد وشتائها القاسي ، عندما كتبت قصيدتي باريس من وحي هذه الصدمة الحضارية الأولي كان احساسي بالبرودة لم يغادرني بعد ، ولذا كنت أقول: برد باريس لا يرد / فلا تحمل عليه ، وقل لباريس أهلا / أنت مغري بها فبادر ، وخل الروح تعري

وفتنة القلب تروي وزحاما من الرؤي يتجمعن ويشعلنك صهدا ، تلك باريس / أسرع الخطو / لا تلتفت ثم حوليك / وعجل ضاع الكثير الذي ضاع / وعمر الزمان يبطيء مهلا بعد عودتي من ربيع الشعراء قلت لزوجتي: لقد وقعت في حب باريس ، فدهشت جدا ، فهي تعرف حبي القديم للندن ، لكن هذا التحول الكبير في داخلي صنعته تيارات وجداول وروافد عديدة كانت تصب في داخلي طيلة الوقت: ربيع الشعراء ، والوجوه التي تضيء سماء باريس كحبات النجوم ، والروح الحميمة التي ظللتني ووجهت خطاي ، والفرصة التي أتاحتها لي الدكتورة كاميليا صبحي مع ميكروفون اذاعة الشرق في باريس ، من خلال لقاء مطول مع الاذاعي المصري الرائع النشاط والحضور والحيوية فتحي النجار ، كان له فضل استماعي إلى ه عبر التليفون وهو يذاع مساء الاثنين الماضي طيلة ساعة كاملة ، لا ني لا أستطيع التقاط الاذاعة ـ الواسعة الانتشار في فرنسا والمغرب العربي علي الإنترنت ، وباريس نفسها التي رأيتها كما لم أزرها في المرتين السابقتين ، ايقاعها النشيط ـ برغم البرودة والمطر ـ يغري النظر والتأمل والمتابعة ، ونقاؤها البديع يحيلها إلى أيقونة من النور والصفاء ، وسحرها العارم الذي فتك بكثيرين وفتن ألوف العاشقين ، لا يزال في عتوه وعنفوانه ، ومقاهيها البديعة المصطفة علي

جانبي الشانزليزيه حيث جلس توفيق الحكيم وحسين فوزي ويحيي حقي و عبد الرحمن بدوي وأحمد الصاوي محمد ، ومحمد القصاص ، ومحمد غنيمي هلال ومحمود قاسم وغيرهم من الرموز الكبيرة الحية ، وعدت وأنا أردد: تلك باريس / لم تزل ماء عينيك / وفي القلب بغية المتمني / فتدفا بها / وقل: آن للنيل أن يحرك ساقيه / وأن يستفيق من دمع إيزيس وألا يرتد / فالليل حالك سوف تبقى مدينة النور في القلب / وتبقي عيدانها في رمالك

هل يدري النيل ؟

بقلم: فاروق شوشة

هل يدري النيل
بأن يدي إن مدت
لمست شرفتك الغربية ؟
لو يدري النيل
إذن لا شتعل الماء
وجن الموج
ورقصت في الشطين جدائله
سكري ، حين تداعبها
في الليل نسائمه الصيفية !

* * *

لو يدري النيل
بأنك في شط
وأنا في شط
تنسج بينهما أوتار اللهفة
جسرا
ويعشش في الاشجار الوارفة الأغصان
يمام الشوق
يطير إلى ك
ويلمس شرفتك الحجرية
يزداد الوجد
فينقر خيط النور المنسكب عليها
يتمسح في حبل ستائرها
ويعود بعطر العود
وفوح الصندل
ممزوجا بروائحك الشرقية !

* * *

النيل يهل علينا كل صباح
ويطل بقامته الفارعة المشوقة

والصدر العاري المجهد
لا يدري أن الموعد . . حين يهل
وأن الفرحة . . حين يطل
وأن الزمن تكور بين يديه
فأصبح لعبتنا ، وغوايتنا
والشيخ النيل
ـ الجد الأكبر ـ
يرعي ميلاد طفولتنا
ويبارك جلوة طلتنا
وسقوط العمر المقحم ، عنا
ويشير إلى شرفتك الغربية
يعتنق الشطان
ويرقص في الماء النجمان
وتمسح كف النيل الحاني
وجه صبي وصبية !

سيد حجاب وعاميته الفصيحة

بقلم: فاروق شوشة

أفرح بشعر العامية الجميل فرحي بشعر الفصحي البديع . هما وجهان للشعرية في زماننا ، وإن كان المتعصبون لكل منهما يحرصون علي نفي الآخر ، وعدم الاعتداد به ، لكن المؤمنين بالجمال ، خاصة في اللغة ، يجدون في شعر العامية الحقيقي ، مذاقا له روعته وتفرده وحميميته ، لا نه أكثر اتصالا بحركة الحياة وتعبيرا عنه ، وأسرع إيقاعا إلى التجاوز والتطور ، واصطياد الصورة المبتكرة والفكرة المدهشة والتعبير اللافت .

من هذا الطراز العالي شعر العامية عند سيد حجاب ، الذي سعدت بقراءات مختارات منه ضمن مطبوعات مكتبة الأسرة ، وفي صدرها إهداؤه: إلى صلاح جاهين و عبد الوهاب البياتي والفلاح المصري المجهول الذي أبدع المأثور الشعبي . منهم تعلمت أن أخطو علي عتبات عالم الأصوات ، حيث يختلط سر البحر وسر الشعر وقد استوقفني التصدير الذي يحمل توقيع مكتبة الأسرة .

ولا أظن أني قرأت تصديرا يحمل هذا الحس النقدي الرائع ، وهذه الرؤية النافذة لشعر سيد حجاب ولموقعه في ديوان شعر العامية المصري ، لذا فإني أحيي كاتبه المجهول ، نيابة عن قراء سيد حجاب ومقدري فنه وشاعريته . يقول التصدير: سيد حجاب أحد أبرز الملامح الأساسية التي شكلت قسمات قصيدة العامية في مصر ، وواحد من مرتكزاتها الحقيقية . صوت شديد الصفاء ، منغرس في طينة التربة المصرية ، راصد دءوب لتقلبات الإنسان المصري المعاصر ، وسعيه الحثيث باتجاه الخلاص .

أخذته الأغنية لفضاءاتها المتسعة ، فأحدث بها نقلة مشهودة ، ويعد رائدا حقيقيا لا غاني المسلسلات ، بدءا من مسلسل الأيام الذي وضع فيه لبنة التتر الغنائية للدراما الحديثة . وقد كون مع علي الحجار وعمار الشريعي ما يمكن أن يسمي بالهارموني الفني ، الذي قدم ما يشبه المدرسة ، لكيفية تقديم أعمال فنية ترقي بالمشاهد ، وتحترم وجدانه .

ثم يقول التصدير: سيظل سيد حجاب اسما تحتفي به مصر كلها كرائد لا جيال آتية ومعلم مثقف ومساهم مساهمة كبيرة في الحفاظ علي ذائقة سليمة وراقية لشعب أصيل وكطائر يحلق دائما في فضاء قصيدة العامية والأغنية . اختارت مكتبة الأسرة هذا العام مختارات شعرية للشاعر الكبير عن روايته: صياد وجنية ، في العتمة ، أصوات ، نص الطريق ، والتي بدأت تصدر في ستينيات القرن العشرين .

يقول سيد حجاب: أنا ابن بحر . ابن بحر . ابن بحر .

ابـن النـسيم إللـي رضـع . مـن الـسما . رضـع حليـب النجمـة . . حنيـة وفجـر . وبعـدها جـه واترمـي . في حـضن أبـو يـا . . وأمـي . وإخـواتي الكتـار . خلانـا نفهـم بالومـا . علـي خيالنـا يمـد إيـده . يطـول شمـاريخ الـسما . وحـتي لـو جيـت أقـول: إن النجـوم في الميـة عايمـة . . مـسهمة وإن خطـوة نـاس بلـدنا الطيـبين . . متنغمـة . وإنهـم كلمـة محبـة . . في الهدوم متقسمة . ومهما أقول . ما ينتهي لي بحر قول .

سـيد حجـاب ابـن المطريـة وبحـيرة المنزلـة ، القريـب جـدا مـن عـالمي في قـريتي ، ومحـافظتي ، و الكنـال الـذي يـصل بـين فـرع نيـل دميـاط وبحـيرة المنزلـة ، وتـسبح فيـه المراكـب الـشراعية حاملـة البـضائع والخـضراوات والمـؤن مـن دميـاط إلى بورسـعيد أو الـبلط كمـا يـسميها النـاس في منطقتنـا ، هـو نفـسه سـيد حجـاب القريـب جـدا بقـصيدته وأغنيتـه مـن وجداني ، خيالا وصورا ولغة ومفردات وحكايا وتأثرات .

يقـول سـيد حجـاب في كمـان منفـرد: مـين يمـسك الهـوا . . الهـوا حـصان . بيجري مـن غـير صـوت . يفـتح البيبـان وزهـرة الـسكوت . تتـنفس البيـوت . وينفـدوا الخـلان من الحيطان .

وتتملي الأحضان أمان . وتتملي القلوب وفا . وتتملي العيون بريق .

عشنا سوا . نتقاسم البسمة ، ونتقاسم نسايم الهوا .

كان حبنا خارج دواير الزمان . وردة مغطيها الندي .

غمـض عينيـك وارمـي علـي العـالم سـلام . نحـس بالعـالم بيتولـد قـدامنا مـن جديـد . صدر الشجر مليان . رمان وتين وتوت وبرتقال .

حمامـة بيـضا طـايره في الفـضا الكـبير ، عـصفور بيـتعلم يطـير ، لـسه بيفـرد الجنـاح . ريـش الجنـاح حريـر . نـسمة صـباح . شـراع أبـيض وحيـد . أنـا وتـر كمنجـة بـارتعش حياة . باشـهق شـهيق مولـود وباحـضن الوجـود . الفجـر جـاي بعـد ألـف ليلـة سـود . عينينـا بتغمض تشوف . طيوف طيوف . وفوق لساني تتولد صلاة .

سـيد حجـاب شـاعر مبـدع كـبير ، في زمـن اخـتلط فيـه الـشعراء الحقيقيـون بالـشعارير . لكـن شـعره الفـصيح في عـام يتـه المتألقـة ، هـو الحـوار الحـي ، والجدليـة الرائعـة مـع قـصيدة الـشعر الجديـد لـدي مبـدعيها الكبـار . مـن هنـا كانـت حفاوتـه في إهـداء مختاراته إلى البياتي وصلاح جاهين معا .

النيل موعدنا

بقلم: فاروق شوشة

كيف اغتفرت خطيئتي ؟
جهلي بما قد أبدع التشكيل فيك
فصاغ من كل الزوايا والتفاصيل الخفية
كائنا ، كالقارة الممتدة الغابات
والألوان ، والأطياف
تسكنها العواصف ، والأعاصير الفجائية !
من قبل موسمها تهب . . .

أقول: لعلها إخصاب جدب الروح
فاحتمل الهجير ،
وتارة تتقصف العيدان
تحت جيوش أمطار شتائية
فأقول: وعد بالذي يأتي
فيبعدني اغترابي عنك . .
عن تفسير رؤياي الخريفية !
هل أنت أفريقياي ؟
أعشقها
وأجهلها

وتزورني منها خيالات ،
وأحلام ، وأحراش
وإيقاعات أزمنة بدائية ؟
كيف انتميت لما جهلت
وكيف أوغل في انتمائي
وفجاءتي تزداد حين أطارد الغابات
تقذفني إلى الصحراء
والصحراء توغل في دمائي
ثم وجهك وحده ،

أهو السراب يقود خطوي ؟

وأقول: هذي نار ليلي
لكن بصير القوم يعلن واثقا:
نجم يماني بعيد في الأفق
هل أتبعك ؟
وأسير خلف النار أطلبها
ـ لعلك ـ
أم أسير إلى إلى من ؟
ومن الذي ، في رحلة الغابات والصحراء
والأيام ، والأحزان ،
يأخذني ،
ويلقي بي علي صدر الوطن ؟

لا شيء غير النيل
مخترق بهاءك كانتصاب السيف
معقود اللواء علي جبينك
موغل فينا
وحاملنا ، سخيا ، طيعا
ضميه ، ضميني ، أضمك فيه
تشتعل الرغائب في يقيني
حين ينبسط الفضاء لنا

وينطلق الشراع بنا ، خفيفا ، مسرعا
هو ذا ، يظللني ، ويؤويني
ويأخذني إلى حيث ابتدأت:
مصبه الوافي . .
وموعدنا . . .
وبرزخنا معا !

عبد القادر حميدة ومختاراته الشعرية

بقلم: فاروق شوشة

شعر كأنه الضوء ، أو هو الشجن الدفين ، يطلع علينا من أعماق الذائقة الادبية ، التي تراكمت فيها صور الماضي بالبقية الباقية من أحلام الحاضر والمستقبل ، وأنا أتصفح هذا الديوان الذي صدر في سلسلة الإبداع الشعري المعاصر للشاعر والقاص والكاتب والمترجم والناقد عبد القادر حميدة .

الديوان يضم مختارات من ثلاثة دواوين صدرت في أوقات متباعدة أولها أحلام الزورق الغريق عام ١٩٦٧ ، وثانيها القناع والوجه القديم عام ١٩٨٠ ، وثالثها ليالي الغضب عام ١٩٩٣ ، مثل هذا السياق الزمني يجعلنا نسائله عن ديوانه الرابع الذي كان ينبغي أن يصدر منذ عام ين ، لكن الدنيا غير الدنيا ، والشعر غير الشعر ، والحياة الادبية منكفئة علي نفسها ، وأمثال هذا الشاعر ـ بحساسيتهم المفرطة ، وحيائهم الجم ، وايثارهم تجنب مواطن القبح ونماذجه من البشر ـ يحمون جوهرهم النقي بالابتعاد ، ويصونون ما تبقي لهم بالترفع وصيانة الذات .

هذا الديوان من المختارات ، يضم خلاصة لا بداع شعري تناثرت حباته علي مدي أكثر من نصف قرن ، وتخللت هذه السنوات الطويلة إبداعات قصصية وكتابات نقدية وترجمات مسرحية وتأملات أدبية ووجدانية ، تشكل في مجموعها حجم الموهبة التي واكبت هذا القلم الانيق الاصيل ، أما الاناقة ـ التي تحدث عنها الناقد الكبير الراحل رجاء النقاش في مقدمته الضافية للديوان ، والتي تمس آخر ما خطه قلمه ـ فهي سمة عبد القادر حميدة الانسان والمبدع .

فهو أنيق في لغته وصوره ، أنيق في سمته وجوهره ، أنيق في عواطفه ومشاعره الانسانية الرحبة ، أنيق في خطه الجميل وحروفه المنمنمة ، أنيق في جدلية شعره وتفاعل قصيدته مع التيارات الشعرية التي تعاقبت علي حياتنا الأدبية منذ ختام الاربعينيات حتي إلى وم وظل الجوهر الرومانسي فيه مضيئا ومعانقا لوعيه الواقعي بالحياة والمجتمع والانسان . . يظل ينفخ في نايه وهو يردد:

فأنا جئت إلى هذه الحياة

لأغني مولد النور علي سمع الرواة
والاغاني: حين كان الليل سرا للأماني
خانني الجامح في صدري

فنامت وشجاني: لا تصدق

في عيون الماء حدق
وتمهل
قبل أن تنداح موجاتي
وترحل . . أملأ الكفين من روحي سقيا

ربما توغل في التيه وتظما
فتمهل
واملأ الكفين سقيا
واشرب الكفين ذكري
وتمهل

هذا شاعر يتوهج بالانسانية ، ويدعو الآخرين إلى أن يرتووا من سقيا روحه ، ويشربوا من كفيه رحيق الحياة ، وكأنه يقتطع من نفسه ومن قوت يومه لغيره في تواضع جم وإيثار نبيل .

تري ، هل كان انشغال الشاعر الطويل ـ منذ اكتشافه لسحر الكلمة الشعرية ـ بالعمل الصحفي ، وانهماكه في مسئوليات متعددة بالنسبة لعدد من أبرز المجلات والاصدرات الأدبية أبرزها مجلة الدوحة حين كان رجاء النقاش رئيسا لتحريرها ـ هل كان هذا الانشغال سببا في خيانته للشعر ، وإشراك معشوقته القصة القصيرة حينا والكتابة الأدبية والنقدية حينا آخر ، والترجمة حينا ثالثا ، وراء هذا الانتاج الشعري القليل ، بالرغم من تميزه وسطوع لغته وإشراق فضائه ؟

وهو إلى وم رئيس تحرير لسلسلة الدراسات التي تصدر عن المركز القومي للمسرح والموسيقي والفنون الشعبية بوزارة الثقافة والتي تحمل هذا العنوان: دراسات في المسرح المصري وقد قدم لها رئيس المركز الدكتور سامح مهران بكلمات عميقة الدلالة والصدق وهو يقول: عبد القادر حميدة ، موهبة كبري ، وغني ، وتنوع ، وهدوء ، ورضا ، يعدي كل من يدخل في مداراته ، انها تلك العدوي ، التي يسعي إلى ها المرء ، كي تخترم جنبات روحه ، فيغمرها الضوء ، تعرفت علي الأستاذ لا ول مرة بين دفتي كتاب عن المسرح ، واذا بالورق مع مرور الوقت والزمن يستحيل لحما ودما أطالعه يوميا ، وأتزود من ما ثدته ما يشفي نهمي إلى التعلم ، أطال الله في عمره ومتعه بالصحة .

هل يأذن لي الشاعر الجميل الانيق ، أن أذكره ببعض إبداعه القديم ، لعل لفحة منه تشعل شوقه لقصيدة جديدة يسري لظاها في عروقه:

ياعيوني علي المدي عانقيها
وسليها عن البعاد سليها
حدثيها عن التياعي وشوقي

ولياليي الحنين والساهريها
وفؤادي وجذوة تتلظي

وطيوف من الرؤي تذكيها
يوم كنا ويوم كان هوانا

أغنيات ربيعنا شاديها
ولسوف ينتصر الشعر علي غيره من المعشوقات

في حب سليمان العيسى

بقلم: فاروق شوشة

لم أحرم ـ بسبب الوعكة الصحية القاسية ـ شرف المشاركة في احتفالية المجلس الأعلي للثقافة بشوقي وحافظ فقط ، لكني حرمت أيضا روعة اللقاء مع أصدقاء أعزاء من المبدعين العرب الكبار ، في مقدمتهم الشاعر العربي الكبير سليمان العيسي .

ولسليمان ـ أو أبي معن كما نسميه ـ مكان في الوجدان لا يزاحمه فيه أحد ، منذ كنا نتسابق إلى اقتناء قصائده الأولي وحفظها وانشادها ونحن نطلب العلم في الجامعة في الخمسينيات ، كان صديقنا وزميلنا الراحل الشاعر والناقد الأردني خالد الساكت قد حمل معه إلى القاهرة الديوان الأول لسليمان العيسي مع الفجر المطبوع في روسيا ، وسرعان ما انتشرت قصائده بيننا ، بعد ان أشعلت حماسنا القومي ، وأذكت من انتمائنا العروبي ، وجعلتنا نري فيه شاعر الحلم العربي ، وحادي قافلة نضاله شعريا ، وأصبح هذا الديوان الصغير الحجم ، المتوهج بالنفس الشعري الجميل والأصيل وغير المتكرر ، بعضها من طقوس لقاءاتنا وزهونا بثقافتنا العربية ، والحلم الذي يشعرنا بأن أيدينا تكاد تمسك بنجوم السماء ، وأن المستقبل الواعد منتظر علي أبو اب مدينتنا .

وتتابعت دواوين سليمان العيسي ، ابن الاسكندرون اللواء السوري السليب ، والذي أتم تعليمه العالي في دار المعلمين ببغداد ، ثم عاد من العراق ليعمل معلما للغة والأدب في ثانويات حلب ، وانتقل إلى دمشق موجها أول للغة العربية في وزارة التربية ، وأصبح من مؤسسي اتحاد الكتاب العرب في سوريا ، ثم عضوا في مجمع اللغة العربية في دمشق ، قبل أن يحصل علي جائزة الابداع الشعري من مؤسسة البابطين عام ٢٠٠٠ ، وهو علي مشارف الثمانين من العمر .

وعلي مدي هذا العمر الحافل ، تعرض شعر سليمان العيسي لما تعرض له واقع الوطن العربي من انطلاقات وانكسارات ترددت أصداؤها في أعماله الشعرية التي أصدرها في أربعة مجلدات ، وفي كتاباته الأخري: علي طريق العمر (معالم سيرة ذاتية ، والثمالات ، والديوان الضاحك ، وباقة نثر ، والحنين ، وديوان فلسطين ، وديوان إلى من ، وديوان الجزائر ، والمرأة في شعري ، وموجز ديوان المتنبي ، وحب وبطولة ، وديوان عدن ، وأنا وجزيرتنا العربية ، وأنا ومصر العربية ، بالاضافة إلى ديوان الأطفال .

وقد اهتم بالابداع الشعري للأطفال العرب بعد نكسة١٩٦٧ ويأسه من الكبار) ومسرحيات غنائية للأطفال ، وأغاني الحكايات ، وشعراؤنا يقدمون أنفسهم للأطفال ،

وقصص الأطفال المعربة (بالاشتراك مع شريكة حياته الدكتورة ملك أبيض التي شاركت في ترجمة العديد من الاثار الأدبية أهمها آثار الكتاب الجزائريين الذين كتبوا بالفرنسية) ، وهي الزوجة والحبيبة والملهمة التي يقول عنها في قصيدته مسافرة عندما اضطرت إلى الغياب عنه والسفر بمفردها: أفتش عنك في الأفق / أفتش في حنايا الغيم ، في الليل الذي ينداح في عيني ، أمواجا من الأرق / أفتش عنك في نومي ، وفي صحوي ، وفي فجري ، وفي غسقي / أثبت في الرصيف عصاي ، إني خائف جازع / أفتش عنك ، كيف بلا يديك سأعبر الشارع / أفتش عنك حين أدير مفتاحي بباب البيت ، أخفي عنه كل هواجسي ، قلقي / مسافرة ؟ متي تأتين ؟ ينهمر السؤال غمامة ، أنهد فوق عصاي ، أبحث في ضباب رؤاي عن خيط من الشفق . هذا هو سليمان العيسي ، الشاعر الشاعر ، والشاعر الإنسان ، والذي يقول: الشعر كالتنفس ، لا أتصور نفسي بدونه ، في أعماقي طفل صغير يجعلني أصفي وأنقي و يعود بي إلى ينابيعي الأولي . القصيدة التي أريد قولها ما زلت أبحث عنها منذ ستين سنة ، الكلمة سلاح أقاتل به من أجل تحقيق احلامي ، الوطن الذي أحلم به أكبر من قريتي ومن لواء الاسكندرون ، هو الوطن العربي لن أتنازل عن الحلم العربي لا نه حقيقتي وجوهر وجودي .

الذين أسعدهم الحظ بحضور الجلسة الافتتاحية لا حتفالية شوقي وحافظ ، استمعوا إلى سليمان العيسي في كلمته التي اتسمت بالحميمية والصدق وهو يتحدث باسم المشاركين العرب ، ويضفي بحضوره الانساني المشع ، مزيدا من عبق التاريخ والأصالة والابداع ، وشعوره العميق بمصر ، ومكانتها الابداعية والحضارية متمثلة في رموزها الكبيرة من أمثال شوقي وحافظ .

وقد أبي كرم سليمان العيسي إلا أن يعوضني عن عدم لقائه ، بإهدائي عددا من المجلة الثقافية خصصته لسليمان العيسي الشاعر والانسان ، كتبت ما دته بأقلام العديد من أصدقائه من الشعراء والنقاد والباحثين ، بينها مقال لي عنه في مناسبة صدور ديوانه الذي يضم كل ما قاله عن المرأة عنوانه المرأة في شعري فكأنه كان يريد أن يعوضني عن بعض ما فاتني بعدم لقائه هو وشريكة العمر ، فأهداني هذه الوردة الجميلة ، المفعمة بعطره الباقي ، وروحه الشفافة الصافية ، وأخوته الانسانية الرفيعة ، التي صفت وتسامت ، فكانت ـ كما يقول عنه عبد العزيز المقالح ـ نموذجا فريدا في التعامل مع الناس ومع الحياة ، ومع الشعر .

شمس شوقي وحافظ

بقلم: فاروق شوشة

بدءا من صباح إلى وم ، وعلي مدار أربعة أيام ، تضيء شمس شوقي وحافظ ، احتفالية لجنة الشعر بالمجلس الأعلي للثقافة بالذكري الخامسة والسبعين لرحيل أحمد شوقي وحافظ إبراهيم . وبينما تطرح الندوة الأولي سؤال البداية: لماذا نحتفل بشوقي وحافظ ، تطرح ما ئدة الختام المستديرة سؤال النهاية: ما ذا تبقي من شعر شوقي وحافظ ؟ والسؤالان تربطهما جديلة واحدة هي جوهر هذه الاحتفالية التي يتصدي للإجابة علي سؤاليها من الباحثين والنقاد العرب محمد الهادي الطرابلسي ومنصور الحازمي والصديق المجتبي ويوسف بكار ومن الباحثين والنقاد المصريين محمود أمين العالم والطاهر مكي ومحمود الربيعي ويوسف نوفل ومحمد فتوح أحمد وزكريا عناني ومحمد عبد المطلب ومحمد إبراهيم أبو سنة ومحمد حماسة عبد اللطيف وأحمد درويش ومحمد بريري ومحمد نجيب التلاوي والسيد فضل وأحمد عتمان وحسن طلب وهناء عبد الفتاح وسيد حجاب . كما يشدو في أمسياتها الشعرية ـ بقاعة المجلس الأعلي للثقافة وكرمة ابن هانئ ـ من الشعراء العرب: سليمان العيسي وجوزيف حرب ويوسف الخطيب وشوقي بغدادي وحيدر محمود ـ بعضهم يجيء إلى القاهرة ويشارك في مؤتمراتها لا ول مرة ـ تقديرا لشوقي وحافظ ، بالإضافة إلى نخبة من شعراء مصر يتقدمهم أحمد عبد المعطي حجازي ، مقرر لجنة الشعر ، ورئيس اللجنة العلمية للاحتفالية .

كما تضيء الاحتفالية بعرضين بديعين: أولهما بعنوان بانوراما أحمد شوقي تقدم نسيجا دراميا لمسرح شوقي الشعري ، من إعداد المخرج هناء عبد الفتاح ، وثانيهما أمسية شعرية غنائية ـ بالمسرح المكشوف بدار الأوبرا ـ عن قصائد شوقي وحافظ المغناة تقدمها فرقة الموسيقي العربية .

اليوم تشرق من جديد شمس شوقي وحافظ ، ويعطر شعرهما الباقي أجواء هذه الاحتفالية ، شاهدا علي الدور الذي قام به الجدان العظيمان في حركة الشعر المصري العربي الحديث ، وكيف كانا ـ عن جدارة واستحقاق ـ في طليعة أصوات النهضة ، والدعوة إلى التنوير ، وتبني مطالب الأمة في الحرية والدستور والجامعة والصحافة وتعليم المرأة والانغماس في قضايا المجتمع الاجتماعية والسياسية والثقافية ، وفي مقدمتها الحث علي الانفتاح الثقافي ـ من خلال الترجمة والتعريب ـ والاهتمام بقضية اللغة العربية باعتبارها قضية هوية وانتماء ، والتأكيد المستمر علي وحدة وادي النيل ـ التي نتحدث عنها الآن بلغة جديدة حين نقول: أمن مصر القومي ، وإقامة دعائم الاقتصاد الوطني وإنضاج الوعي التاريخي والوطني بآثار مصر وكنوزها ، وفرد الجناحين علي امتداد الوطن

العربـي كلـه ، وهمـا ـ الجـدان العظيمـان ـ يـشاركان في حركـة هـذه الأمـة ـ مـشرقا ومغربـا ـ وهـي تناضـل قـوي الاسـتعمار ، وتـدفع مـن دمائهـا الزكيـة ضـريبة الحريـة والتحـرر ، وتـسعي من أجل هوية عربية غير ملتبسة بطابع عثماني ديني أو ظل غربي أجنبي .

لقـد آن لـشعراء هـذا الجيـل مـن الـشباب ، أن يتعرفـوا علـي حجـم العطـاء الـشعري البـازخ لـدي هـذين الـشاعرين ، متمـثلا في صـياغة جديـدة للقـصيدة الكلاسـيكية تنفـتح في ثناياهـا وحناياهـا علـي الأنفـاس الأولـي للحركـة الـشعرية الرومانـسية ، الـتي نـضجت وتأكـدت في أشـعار جمـاعتي الـديوان وأبولـو مـن بعـدهما ، وتتـسع لكـثير مـن صـيحات التململ الداعية إلى الجديـد ومغـايرة الـسائد والمـألوف بحثـا عـن ريـح الـشمال ، فـضلا عـن الـدور الرائـد لـشوقي في اسـتنبات المـسرح الـشعري في مـصر ، بفرعيـه : التـاريخي والعـصري ، التراجيـدي والكوميـدي . ووضـع الأسـاس الرصـين للحكايـات الـشعرية وديـوان شـعر الأطفـال ، وهـو دور يكملـه عطـاؤه النثـري في قصـصه وروایاتـه التاريخيـة وكتابـه البـديع أسـواق الـذهب ، الـذي يمثـل إضـافة شـوقي وإنجـازه في النثـر الفـني ، وهـو الـدور الـذي قـام بـه حـافظ إبـراهيم في كتابه المـثير للتأمـل ليـالي سـطيح وفي ترجمتـه لروايـة هيجـو البؤسـاء . ولقـد كـان شـوقي الأوفـر حظـا في تلقـي الـسهام ومحاولـة تـشويه دوره والانتقـاص مـن قـدره ـ في حياتـه وبعـد رحيلـه ـ ، ولا يـزال حـتي إلى وم عرضـة لعبـث الـصغار الـذين لا تـزال في حلـوقهم غـصة مـن إمـارة شـوقي ، منـذ مبايعتـه عـام ١٩٢٧ ، والمحـاولات الخائبـة لتـأمير غـيره مـن بعـده: العقـاد في مـصر والأخطـل الـصغير بـشارة الخـوري في لبنـان . لكـن الـدرس الحقيقـي لا بـداع شـوقي ، ومـن بعـده حـافظ ، يتمثـل بجـلاء ، في أن الريـاح قـد كنـست الكـثير مـن غبـار العـشرينيات والثلاثينيـات الـذي حـاول أصـحابه أن يهيلـوا علـي شـوقي ودوره ، وهـي الريـاح نفـسها الـتي تتكفـل إلى وم بإزاحـة غبـار العـابثين الجـدد ، الـذين نطـالعهم صـغارا ، وصـغارا جـدا ، في مـرآة شـوقي . يقتلـهم ويملـؤهم غمـا ، أن شـعر شـوقي لا يـزال حيـا يـتردد علـي الألـسنة والأقـلام ، وفي كـل مناسـبة شـعرية ، بينمـا تتـواري آثـارهم الـشعرية والنثريـة في زوايـا الإهمال والنسيان .

لقد أشرقت من جديد شمس شوقي وحافظ .

في حضرة مولاي الشعر

بقلم: فاروق شوشة

أتاحت لي المراجعة الأخيرة لكتاب جديد يحمل هذا العنوان في حضرة مولاي الشعر ـ ويصدر قريبا عن الدار المصرية اللبنانية ـ فرصة المعايشة الحميمة لمقالات ودراسات نشرتها خلال العامين الأخيرين ، محورها الأساسي والمركزي الاهتمام بالشعر إبداعا وتذوقا . وقد سبقت هذا الكتاب مجموعة من الدراسات الأدبية والمختارات الشعرية ، حرصت فيها علي الاقتراب ـ مرة بعد مرة ـ من كنز الأسرار التي يتوهج بها النص الشعري ، في تجلياته الفنية المتعددة ، وفي جمالياته الممتدة عبر العصور ، والحض علي قراءة هذا الشعر ، والتهيئة لتذوقه ، واستشفاف صور الجمال الفني والإنساني فيه ، بعد أن تخلخلت العلاقة بين القصيدة والمتلقي ، وانهار مستوي اللغة العربية في التعليم والإعلام ، وعلي ألسنة الناس وأقلامهم . والشعر في جوهره فن لغوي ، أو هو فن الإبداع الأسمي باللغة ، ولابد لمن يقاربه أن تكون ذائقته اللغوية علي قدر كبير من الصحة والسلامة ، والقدرة علي التمييز .

من هنا فقد أعادتني فصول هذا الكتاب إلى حديقة الشعر ، حاملا عطر القصائد التي أحببتها ، والشعراء الذين توقفت عندهم بالمتابعة والاهتمام ، والزمن الشعري الجميل الممتد من الماضي إلى الحاضر ، في عناق وجدل دائمين ، يتولد من خلالهما النص الجديد ، والقصيدة الجديدة ، التي هي حلم الشاعر وتطلعه الدائم . يستوقفني الآن ما قدم به الصديق الناقد والكاتب والمترجم وأستاذ الفلسفة الدكتور عبد الغفار مكاوي لكتابه البديع : للحب والحرية : أزهار من بستان الشعر الغربي قديما وحديثا وهو يقول : لقد آمنت ـ طوال رحلتي مع الحياة والمعرفة والكتابة ـ بأن الشعر إنقاذ ، وأن الشاعر منقذ ، وأن نجاة البشرية ووحدتها وسلامها ـ لا سيما في أوقات المحن وعند نقط التحول الحاسمة ـ كامنة فيه علي الدوام .

وهي كلمات واعية ، تدعونا إلى ضرورة التغيير ، والعمل الجدي ، للسير علي طريق النهضة ، والمقاومة الصامدة لكل ما يعوق تقدمنا من صور التهميش والانقراض . وأتخير من بين ترجماته الشعرية لا شعار جوتة وهو يقول علي لسان زليخا : إن قدر الدهر يوما بالنأي عمن تحب / وصار بعدك عنه كبعد شرق وغرب / يهيم عبر الفيافي فؤادك المشتاق / ما من رفيق سواه إن عز فيها الرفاق / بغداد ليست بمنأي عن أعين العشاق .

وأتوقف عند الشاعر الكبير محمد الفيتوري من خلال الدراسة الجديدة عنه وعن النزعة الزنجية في الشعر المعاصر للناقد والكاتب المغربي: بن عيسي بوحمالة ، بعد أن لفت نظره أن الشعر السوداني المعاصر - وبخاصة شعر الجيل الذي ينتمي إلى ه الفيتوري: محيي الدين فارس وتاج السر الحسن ، وجيلي عبد الرحمن - يضج بأصداء هذه النزعة الزنجية ، وأن الشعر السوداني المعاصر هو الوحيد الذي يجمع في توازن بين الولاء للعروبة والولاء للزنجية . والباحث المغربي يكشف عن مسار الرحلة الشعرية عند الفيتوري ، وكيف أنه تطهر من مرحلة الزنوجة أو الزنجية ، وانفتح علي مجال وطني وقومي وإنساني أرحب ، وأصبح يصغي لروافد صوفية عميقة في جذوره ومكوناته الأولي ، وإن بقيت الأصداء الإفريقية تمثل إيقاعات الطبول البعيدة في خلفية المشهد الشعري الراهن لديه: في حضرة من أهوي عبثت بي الأشواق / حدقت بلا وجه ورقصت بلا ساق / وزحمت براياتي وطبولي العشاق / عشقي يفني عشقي وفنائي استغراق / مملوكك لكني سلطان العشاق .

وأتوقف أمام نص بديع للمتنبي ، لم يجيء في سياق مدح أو ذم ، أو امتدادا لسيفياته أو كافورياته . وإنما هو نص خارج من قبضة المكان والزمان ، ليصبح شاغلا ومعبرا عن الإنسان في كل زمان ومكان . وهو بفضل صياغته الشعرية المحكمة ، استطاع أن يقبض علي أحد مفاتيح النفس الإنسانية المهمة - في مواجهتها للموت ، وانتصارها عليه بوعيها أنه حقيقة لا إنكار لها ، وقضاء لا مفر منه - فلم إذن الخوف والخشية والتردد والجبن والرضا بالمذلة والهوان ؟ : وإذا لم يكن من الموت بد / فمن العجز أن تكون جبانا / وهو كلام يذكرنا بكلام أمير الصعاليك عروة بن الورد: فإن فاز سهم للمنية لم أكن / جزوعا ، وهل عن ذاك من متأخر . كما يذكرنا بقول طرفة بن ال عبد : فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي / فدعني أبادرها بما ملكت يدي .

إن الاقتراب الحميم من فصول هذا الكتاب ، يؤكد ما سبق لي قوله: إن المؤمنين بالشعر في هذا الزمان العبثي ، هم المؤمنون بالإنسان وبالوجدان وبالمعرفة ، وبالفضاء الذي يتسع لا بداعات شتي ، تتكامل وتتناغم ، في ظل السعي الدائم لمزيد من الحرية والتحرر ، ومزيد من التنوير والتقدم ، ومزيد من الكرامة والكبرياء .

ذلك أن الخطر علي الشعر الآن ، لا يجيء فقط من خارجه ، أي من الفضاءات المحيطة به ، أو من علاقاته الاجتماعية ، أو وضعه في مقارنة مع أجناس أدبية أخري ، وإنما هو خطر يجيء من داخله ، أي من أصحابه الذين بخسوه حقه من الاهتمام والتبجيل ، ولم يتخلصوا من أوزار التبعية في كل صورها (الإيديولوجية والسياسية والدينية وغيرها) ، حتي يستطيعوا الانطلاق عبر فضاء الشعر الحقيقي ، نحو المجهول ، ليبدعوا الشعر الأصفي ، الشعر الشعر ، وهذا هو سؤال الشعر .

شاعر قصة الأمس

بقلم : فاروق شوشة

عن دار الكتاب العربي (دمشق / القاهرة) صدرت هذه الطبعة الجديدة من كتاب: أحمد فتحي شاعر قصة الأمس وشعره المجهول للباحث والأديب والكاتب الصحفي محمد رضوان ، الذي وقف قلمه علي إنصاف كثير من الأدباء والشعراء: ونشر المجهول من أعمالهم الإبداعية وإعادتهم إلى قلب الذاكرة الأدبية . من هنا كان اهتمامه بالكتابة عن صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك والصعلوك الساخر عبد الحميد الديب وشاعر النيل والنخيل صالح جودت و شاعر الأطلال ناجي وشاعر الجندول علي محمود طه وشاعر الهمسات أحمد عبد المجيد .

وقد اختار محمد رضوان قصة الأمس عنوانا لهذا الكتاب ، باعتبارها اشهر قصائد أحمد فتحي المغناة ، فقد تغني محمد عبد الوهاب بقصيدته الكرنك وتغني رياض السنباطي بقصيدته فجر وشدت أم كلثوم بقصيدته قصة الأمس فأحدث نقلة نوعية في اهتمام المستمعين وقراء الشعر وجمهور الحياة الأدبية بهذا الشاعر الذي ما زال شعره متناثرا عبر الصحف والمجلات الأديبة ، لم يجمع منه إلا أقل القليل ، ولا تزال قصائده الثلاث المغناة هي كل ما يتردد من شعره علي ألسنة الناس وأقلامهم ، وبقيت في الظل قصائد أخري للشاعر لا تقل عنها جمالا وقيمة فنية ، بالإضافة إلى كشفها عن الآفاق التي حلق فيها هذا الشاعر الذي اتسعت حياته المضطربة والمتقلبة لكثير من الأحداث والمواقف والمحن العاطفية والاجتماعية وهو يمارس العمل الصحفي ويخوض مجال العمل الإذاعي في القاهرة ولندن وجدة ويتعرض شعره للإهمال ، حتي يقوم بجمع بعضه أصدقاؤه ورفاق حياته .

ويجمع الباحثون في شعر أحمد فتحي علي أن قصيدته قصة الأمس هي قصة حياته العاطفية ، والتجربة التي زلزلته من الأعماق ، وصبغت حياته بعدها بطابع ما ساوي حزين لذا فقد اهتم محمد رضوان بتحليل هذه القصيدة ، والكشف عما تمثله من ذروة في التعبير والتصوير عن ملامح وعلامات في سيرة الشاعر أحمد فتحي ، وكأن الباحث يقوم بتقديم صورة حية لهذا الشاعر المجهول ، الذي أدي به انطواؤه وتكوينه النفسي إلى العزلة الحياتية أولا ، والعزلة الأدبية ثانيا فالتمعت أسماء ناجي ، وعلي محمود طه وصالح جودت وأحمد رامي ومحمود حسن إسماعيل رفاقه في الاتجاه الشعري ، وفي الافق الذي ظللته عباءة أبو لو ، وبينما كانت دواوين هؤلاء الشعراء تنهمر وتصنع لهم مكانهم ومكانتهم في ديوان الشعر الحديث ، اكتفي أحمد فتحي بنشر مجموعة أولي من قصائده بعنوان قال الشاعر عام ١٩٤٩ وهو ديوان لا وجود له الآن في أي مكان .

مـن هنـا كـان اهتمـام محمـد رضـوان ـــ في الطبعـة الجديـدة مـن كتابـه ـــ بتـضمينه مجموعـة سماهـا أحلـي قـصائد فتحـي علـها تلقـي المزيـد مـن الـضوء علـي شـاعرية هـذا الـشاعر الـذي أصـبح مجهـولا ، وتعويـضا عـن ديوانـه الكامـل الـذي لم يـر النـور بعـد ، وبينمـا قـصيدة القـصائد في شـعر أحمـد فتحـي وهـي قـصة الأمـس الـتي يقـول فيهـا أنـا لـن أعـود إلى ك مهمـا استرحمت دقات قلبي

أنت الذي بدأ الملالة والصدود وخان حبي
فإذا دعوت إلى وم قلبي للتصابي لن يلبي
كنت لي أيام كان الحب لي
أمل الدنيا ودنيا أملي
حين غنيتك لحن الغزل
بين أفراح الغرام الأول
ثم يقول أحمد فتحي:
يسهر المصباح والاقداح والذكري معي
وعيون الليل يخبو نورها في أدمعي
يا لذكراك التي عاشت بها روحي علي الوهم سنينا
ذهبت من خاطري لا صدي يعتادني حينا فحينا
قصة الأمس أناجيها وأحلام غدي
وعيون الليل يخبو نورها في أدمعي
وأماني حسان رقصت في م عبد ي
وجراح مشعلات نارها في مرقدي
وسحابات خيال غائم كالأبد

لا يختلـف شـعر أحمـد فتحـي كـثيرا أو قلـيلا عـن شـعر نظرائـه ، الـذين التمعـت أسمـاؤهم في الاربعينيـات والخمـسينيات ، ومثلـوا حركـة شـعرية رومانـسية جامحـة ، تثـور علـي تقاليـد القـصيدة العموديـة ، وتفـسح مكانـا رحبـا لـشعر الوجـدان ، وتغمـر قـصائدها بـأحزان الاغـتراب الوجـودي والقلـق الروحـي ، وتخـوض مواقـف الوطنيـة والـصراع الـوطني مـن خـلال نفـس رومانـسي ، وعاطفـة متقـدة جامحـة تعيـد للرومانـسية معناهـا الثـوري الـذي بـدأت به لـدي شـعرائها الغـربيين . ويبقـي للباحـث الـدءوب محمـد رضـوان أنـه يلفـت انتباهنـا بـشدة ـــ في كـل كتاباتـه ـــ إلى كـثير ممـن لم يحظـوا بالاهتمـام الـذي يـستحقونه ، داعيـا إلى جمـع إبـداعاتهم المتنـاثرة ، وإعـادة توثيقهـا ونـشرها ، تمهيـدا لدراسـتها والكـشف عـن قيمتهـا الأدبيـة ، ولاشـك أن أحمـد فتحـي في طليعـة هـؤلاء المـستحقين للإنـصاف ، وقـدر مـن الـضوء

الجديـد ، بعـد أن كتـب عنـه الـشاعر صـالح جـودت كتابـه شـاعر الكرنـك وأنجـز عنـه محمـد رضوان كتابا سابقا هو اعترافات شاعر الكرنك .

ديوان الأنصاري

بقلم: فاروق شوشة

عن دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية صدر ديوان الأنصاري ، الذي يضم الأعمال الكاملة لشاعر الإسكندرية ، وصوتها المتألق علي مدي ثلث القرن الأخير: محمد عبد المنعم الأنصاري (١٩٢٩ ـ ١٩٩٠) .

قام بجمع الديوان وتحقيقه ونشر ما لم يسبق نشره ، الشاعر والأديب أيمن صادق الذي قدم للديوان بإهداء يقول فيه: إلى كم عبد المنعم الأنصاري ، كبرياء القصيدة وعنفوانها ، وقد أتيح للأنصاري أن ينشر في حياته دواوينه الثلاثة الأولي: أغنيات الساقية (١٩٦٩) ، علي باب الأميرة (١٩٨٤) ، القرابين (١٩٨٦) ، ثم أضيف إلى ها بعد رحيله ديوان مواجهة الذي يضم قصائده الأخيرة ، وقصائد لم تنشر في دواوينه السابقة .

ولقد أتيح لي أن أشاهد الأنصاري في أوج تألقه ، واكتماله ، وهو يمسك بين يديه بخيوط الحياة الشعرية في الإسكندرية ، في كليات الجامعة ، وفي قصور الثقافة ، وفي كل مكان يمكن أن يقوم بنشاط شعري ، ورأيته وهو في قمة الغضب والثورة لا نه دعي ذات مرة إلى نشاط شعري في إحدى كليات الجامعة ، لم يكن طرفا في الاتفاق علي إقامته واختيار شعرائه ، وهو موقف يكشف عن شعوره بالأبوة الروحية لهذه الحياة الشعرية حتي بالنسبة لمن سبقوه في العمر والخبرة الشعرية ، ولقد استطاع عبد المنعم الأنصاري علي مدي هذه الحقبة أن يقدم نمودجًا للقصيدة العمودية لا تخرج عن مواصفات الموروث الشعري ، كما عرفناه ، لكنها تختلف في امتلائها بحساسية جديدة ، وروح شعرية جديدة وأفق عصري لرؤية شعرية مغايرة ، هذا الأفق الشعري تشكل ـ في مرحلة متقدمة منه ـ بتأثر الأنصاري بشعر نزار قباني ، وقصائده التي فتن بها شباب الشعراء في مرحلة المراهقة والصبا والباكر ، ثم أتيحت للأنصاري صداقة حميمة مع الشاعر الاستثنائي أمل دنقل ـ في سنوات إقامته بالإسكندرية وبعدها ـ فاكتسب المزيد من الوعي والخبرة ، والتعرف علي روح القصيدة الجديدة ، قصيدة التفعيلة أو قصيدة الشعر الحر ، من غير أن تستهويه ، فلم يحدث أن كتبها قط ، لكنه ظل حريصا علي نموذجه العمودي ، القديم الجديد في وقت واحد ، يري فيه جوهره وحقيقته الشعرية ، والمدي المفتوح لا صالته وتألقه .

وسرعان ما أصبح الأنصاري رائد جماعة وأستاذ مدرسة وقطبا يلتف من حوله الشباب من شعراء الإسكندرية ـ وغيرها من الأقاليم المجاورة ـ بعد أن وقعوا في أسر

الإعجاب به وبقصيدته ، فاستهوتهم موسيقاه ، وبنية قصائده وإحكام قوافيه ، وقلدوه في إلقائه لقصائده ، وسطا بعضهم علي معجمه الشعري ، من قبيل الإعجاب والتبعية الشعرية ، وقليل منهم هو الذي استطاع أن يحتفظ لنفسه بخصوصيته وتفرده ، وبخاصة من سارعوا إلى الانضواء والمشاركة في حركة الشعر الجديد .

الجهد الذي بذله الشاعر والأديب السكندري أيمن صادق في جمع ديوان الأنصاري ، وتحقيقه وتبويبه ، جهد يستحق الإشادة والتقدير ، يقدم لنا العالم الشعري للأنصاري في حقيقته واكتماله ، ويضع بين أيدي الباحثين والدارسين مهادا فسيحا للعكوف علي شعر له خصوصية وأسره وجاذبيته ، ينابيعه الأولي تمتح من إدفينا ومطوبس ، حيث كان الميلاد والنشأة ، وحيث القصر الكبير - من بقايا العصر الملكي في مصر – وصور الأميرات الجميلات وأطيافهن تتتابع عليه ، والشاعر الذي يحتفظ في ذاكرته ولاوعيه بكل هذه المشاهد ، يتدفق بها معجمه الشعري ، وهو ينادي أميرته ومولاته هو ال عبد العاشق الواقف بالباب ، حتي يجرفه ليل الإسكندرية ونهارها ، في بحر لجي من الخبرات والأحداث والمواقف والمعاناة ، أبرزها المأساة التي عاشها ، حين حكم علي ابنه طلال بالإعدام في قضية الفنية العسكرية ، ثم تخفيف الرئيس السادات الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ، وينزف وجدانه شعرا داميا :

أصلي وإن كانت صلاتي حزينة
فهل ثم شيء في غيابك يبهج
تركت رعاياك الأساري بحسرة
إلي غيهب والباب دونك مرتج
فلا الأوس جاءت تفتديك ولا اهتدت
إليك علي قرب المسافات خزرج
ويبحث عنك المستبدون في دمي
وفي نبراتي عندما تتهدج
وتحت أديمي واللهاة وفي دمي
وفي نبراتي عندما تتهدج

ديوان الأنصاري وأعماله الكاملة ، يجدد لنا عطره الإنساني وحضوره الشعري ، ويلفتنا إلى نخبة من شعراء الإسكندرية الكبار ، عايشوه وجايلوه ، وقامت بينه وبينهم حوارات ومداخلات ومشاركات ثم محمود العتريس - بارك الله في عمره - والراحلين: إدوار حنا سعد ، و عبد العليم القباني ، ومحمود عبد الحي ، ومحمد عبد الرحيم إدريس ، ومحمد محمود زيتون ، وصديق شيبوب ، وأحمد السمرة ، وعشرات غيرهم يضيء بإبداعاتهم ديوان الشعر السكندري .

في رحيل إبراهيم الحضراني

بقلم: فاروق شوشة

لا يكاد يذكره الآن في مصر احد . وهو الذي عاش فيها اجمل سنوات عمره ، يغشي منتدياتها الأدبية والثقافية ، ويضفي عليها من شخصيته العذبة وروحه اللطيفة وحافظته النادرة وشعره البديع ما يجعل منه سمير الجلسة وانيس اللقاءات وبهجة المجالس .

هذا هو الشاعر إلى مني الكبير إبراهيم الحضراني الذي التقيته لا ول مرة في مجلس الصديق العزيز الراحل عبد الله الرومي المستشار الاعلامي الكويتي الذي عاش في القاهرة سنوات ممتدة ، نشيطا في تدعيم العلاقات الثقافية والفنية بين مصر والكويت ، ووضع اللبنات الاولي لنهضة الكويت في مجالات المسرح والتمثيل والموسيقي وانشاء المعاهد الفنية المتخصصة فيها مستعينا بالكفاءات النادرة من امثال السيدة رتيبة الحفني والاستاذ سعيد خطاب والدكتور محمد القصاص ، ومؤازرة السفير الكويتي الفنان حمد الرجيب ـ وزير الشئون الاجتماعية فيما بعد ـ والذي يعد واحدا من رموز النهضة والتنوير في الكويت هو وزميلاه من الرواد احمد العدواني و عبد العزيز حسين . كان الرومي حريصا علي اقامة ديوانيته او صالونه الثقافي الاسبوعي . وكان الحضراني نجم هذا الصالون الذي يجمع بين شلة من الأصدقاء الحميمين هم الراحلون: طاهر أبو فاشا وشوقي امين العالم ومحمود حسن اسماعيل وابراهيم الترزي والدكتور احمدهيكل ـ وزير الثقافة فيما بعد ـ واشهد انه بفضل هذه اللقاءات المنتظمة استطعنا جميعا مواجهة صدمة نكسة١٩٦٧ وزلزالها النفسي المدمر ، والتغلب علي آثارهافي النفس والحياة . كان الحضراني ـ عضو الوفد ـ إلى مني ـ في الجامعة العربية ـ صوت إلى من وسفيره الثقافي والشعري بيننا ، وكانت اشعاره البديعة تحمل إلى نا عبق الشعر الحقيقي وبخاصة حين يحملنا عبر صحائف ذكرياته وحكاياته ، والي عالم أبيه الحضراني الكبير الشاعر المغامر المولع بالاسفار والذي لا يستقر علي حال .

وتغيرت الدنيا بنا جميعا وتفرق الاصحاب وتبدد الشمل ، رحل الحضراني إلى الكويت بعض الوقت مستشارا ثقافيا للسفارة إلى منية فيها ومنها إلى إلى من ، وعاد الرومي إلى وطنه الكويت وما لبث ان ترك العمل الاعلامي وتفرغ لرعاية اسرته وامورة الخاصة بعد رحيل ابيه عميد الاسرة ، ولم ألق ابراهيم الحضراني علي مدار اكثر من عشرين عام ا غير ثلاث مرات ، اولاها في الكويت في مناسبة وصول ابيه الحضراني الكبير قادما من بلاد وسط آسيا للمشاركة في مناسبة عائلية وكنت برفقة الشاعر الكبير محمود حسن اسماعيل ، الذي كان يعمل وقتها في الكويت مستشارا في مركز بحوث

المنـاهج بـوزارة التربيـة ، أمـا الثانيـة فكانـت بعـدها بـسنوات طويلـة في منـزل ابنتـه بلقـيس التي اصبحت الـدكتورة بلقيس في القـاهرة وتـذاكرنا مـن امرينـا مـا كـان ، وكأننـا لم نفـترق قـط ، والمـرة الثالثـة والاخـيرة كانـت في منـزل الـصديق الكـريم الأديـب والمفكـر والمناضـل إلى مـني الاسـتاذ فـؤاد نعمـان الـذي هيـأ لنـا لقـاء سريعا منـذ ثـلاث سـنوات كـان الحـضراني علـي أهبـة السفر والعودة إلى إلى من صبيحة إلى وم التالي .

ويتـصل بـي الاسـتاذ نعمـان منـذ ايـام قليلـة لينقـل إلى بـصوته المتهـدج ودموعـه الـسخينة نبـأ وفـاة ابـراهيم الحـضراني الـذي حرمـت لقـاءه في مـستهل هـذا العـام وكنـت مـدعوا مـع الـصديق الـشاعر الكـبير محمـد ابـراهيم أبـو سـنة إلى احتفـال جـامعي ثقـافي ، لكـن الظـروف لم تـسمح لـي بالـسفر تلبيـة لـدعوة الـصديق الكـريم الـشاعر والمفكـر الكـبير الـدكتور عبـد العزيـز المقـالح وحمـل إلى أبـو سـنة تحيـات الحـضراني وسـؤاله عـني ، وظننـت ان الايـام ستعطي الامان لنلتقي في مناسبة قادمة ولكن هيهات !

ولـد الحـضراني الـذي يمثـل شـعره ختـام القـصيدة العموديـة في إلى مـن المتوهجـة بـالحس الرومانـسي والـوعي التقدمي المـستنير في قريـة خربـة بـو يـابس مـن قـري عنـز في إلى مـن عـام ١٩٢٠ لم يـتعلم تعليمـا نظاميـا لكنـه درس علـي والـده الـشاعر والفقيـه الادب القـديم والنحـو والتـاريخ والعلـوم البلاغيـة والـشرعية ، ثـم اقبـل علـي الكتـب المترجمـة فقـرأ الآداب العالميـة واتـصل بكبـار الأدبـاء والـشعراء العـرب ، وأفـاد مـن اتـصاله بهـم ، ولم يحـرص الحـضراني علـي جمـع شـعره ونشـره الا في وقـت متـأخر حـين نـشر ديوانـه الوحيـد القطـوف الـدواني عـام ١٩٩١ ويكفـي شـهادة لـشعره ومنزلتـه في ديـوان الـشعر إلى ه والـشعر العربـي المعاصـر ان يكتـب عنـه عبـد الله البردونـي وهـلال نـاجي واحمـد الـشامي و عبـد العزيـز المقالح وأن تصدر عنه مجلة الحكمة عددا كاملا .

العـزاء قبلـه ايهـا الانـسان الجميـل الرائـع ، والـشاعر والراويـة والانـيس ، إلى فلـذة كبـدك الـتي تمثـل امتـدادك في الألمعيـة والـذكاء النـادر المثـال والعـصامية الـدكتورة بلقـيس وإلـي الأسـرة الأدبيـة والـشعرية في إلى مـن ، وفي مقـدمتها شـيخها المتـوهج الـشباب عبـد العزيـز المقالح والوزيرالشاعر حسن اللوزي .

سعاد الصباح وردودها الغاضبة

بقلم : فاروق شوشة

لم يعرف تاريخ الشعر العربي شاعرة بكت زوجها بعشرات القصائد كما فعلت الشاعرة الكويتية المقتحمة سعاد الصباح ، منذ رحيل زوجها عبد الله مبارك الصباح حتي إلى وم ، وهي تهدي إلى ه ديوانها الجديد:والورود . تعرف الغضب بهذه الكلمات: إلى رفيق البسمة والدمعة ، إلى صديق سنوات العمر الجميل ، إلى أبي الروحي ، إلى روح زوجي عبد الله مبارك الصباح في ذكراه التاسعة .

والذي صنعته سعاد الصباح هو- أولا- لمسة وفاء في زمن عز فيه الوفاء ، يكفي أن نتذكر كلمات ناظم حكمت الشاعر التركي العالمي: إن موتي القرن العشرين لم يعودوا يشغلوننا لا كثر من عام . ولكن الذكري التاسعة للرحيل لا تزال تفجر في وجدان الشاعرة ينابيع ثرة ، فياضة ، يتزايد مدها الجارف عام ا بعد عام ، علي عكس ما يحدث لغيرها ممن يقلبون الصفحة سريعا ، ويعيشون يومهم ، بدلا من استدعاء الامس ، وكل أمس ، بكل ذكرياته وتجاربه وومضاته وعنفوانه .

والذي صنعته سعاد الصباح- ثانيا- أنها أضافت إلى مشروعها الشعري فضاء جديدا تلتمع فيه الدموع القصائد ، والقصائد الدموع ، وضيئة كحبات اللؤلؤة ، صافية مقطرة ، كل حبة منها وكل دمعة ، قطرة طل شعرية ، تفيض نداوتها من ثنايا لغة شفيفة رائقة آسرة ، وتنضح أوراق أغصانها شجنا وانعطافا واهتزاز وتر أسيان:

أعرف بين رجال العالم رجلا- يشطر تاريخي نصفين- أعرف رجلا يستعمرني- ويحررني- ويلملمني- ويبعثرني- ويخبئني بين يديه القادرتين . اعرف بين رجال العالم رجلا- يشبه آلهة الإغريق- يلمع في عينيه البرق- وتهطل من فمه الامطار- أعرف رجلا- حين يغني في أعماق الغابة- تتبعه الاشجار ـ أعرف رجلا أسطوريا- يخرج من معطفه القمح- وتخضر الأعشاب- يقرأ ما بين الاهداب- ويقرأ ما تحت الاهداب- ويسمع موسيقي العينين- أمشي معه ، فوق الثلج ، وفوق النار- أمشي معه ، رغم جنون الريح وقهقهة الإعصار- أمشي معه مثل الأرنب- لا أسأله أبدا . أين ؟ أعرف رجلا يعرف ما في رحم الوردة ، من أزرار- يعرف آلاف الاسرار- يعرف تاريخ الانهار- ويعرف أسماء الازهار- ألقاه بكل محطات المترو- وأراه بساحة كل قطار- أعرف رجلا . حيث ذهبت- يلاحقني ، مثل الاقدار . أعرف بين رجال العالم رجلا- مر بعمري كالإسراء- قد علمني لغة العشب- ولغة الحب- ولغة الماء- كسر الزمن إلى ابس حولي- غير ترتيب

الاشـياء ، أعـرف رجـلا- أيقـظ في أعمـاقي الانثـي حـين لجـأت إلى ه- وشـجر في قلـبي الصحراء .

هـذا الـشعر هـو الـسهل المتنـع ، يظـن الجاهـل أنـه يمكنـه ان يـأتي بمثلـه ، لكنـه أبـدا لا يـستطيع ، لا ن وراء هـذه الـسهولة ، وهـذه الـسلاسة ، وهـذا التـدفق ، رحلـة معانـاة طويلـة مـع الكلمـة حـتي لا نـت وأصـبحت طيعـة ، ورحلـة شـعرية حافلـة بالتجريـب والمغـامرة ، تنطلـق مـن أفـق إلى أفـق ، ومـن مـدي إلى مـدي ، ومـن فـضاء إلى فـضاء ، زادهـا روح مفعمـة بالكبريـاء ، ويعـصمها مـن الزلـل حـساسية شـعرية مرهفـة ، تميـز بـين الـشعري والـلا شـعري ، وتعـرف المـشي بخطـوات واثقـة علـي الـبرزخ الفاصـل بـين تخـوم النثـر وتخـوم الـشعر ، وتؤكـد في كـل مرحلـة مـن مراحـل ابـداع هـذه الرحلـة ، أن توهجهـا يتـصاعد ، ودورهـا المـسئول- في عزفهـا المنفـرد علـي ربابـة كويتيـة- لا يـزال ينتظـر منهـا المزيـد ، وهـي تهتـف في ختـام ديوانهـا الجديـد: أريـد ان أفجـر الوقـت إلى شـظايا- أريـد ان اسـترجع العمـر الـذي- خبأتـه في داخـل المرايـا- أريـد أن أصـرخ- أن ألعـن- ان احـتج- أن أقتـل تاريخـا مـن العطـور ، والبخـور ، والـسبايا- أريـد ان أهـرب مـن رطوبـة الحـريم والتكايـا- أريـد ان أهـرب ممن حللوا دمايا .

هـذه شـاعرة تـصنع- ثالثـا- صـورة مغـايرة للمـرأة الـشاعرة ، تحمـل قـدرها علـي كفيهـا ، وهـي تعلـم علـي أيـة أشـواك تمـشي . وتعـرض نفسها لا لاف الـسهام الـتي لا يـؤمن أصـحابها بـدور الـشاعرة المتمـردة الغاضـبة ، ولا بحقهـا في البـوح حينـا ، والـصهيل أحيانـا أخـري: أريـد أن أصـادق الـريح وأن أعـانق الغيـوم- أريـد أن أقـتحم الـشمس وأن أسـرق آلافـا من النجـوم- أريـد أن أحـرض الاشـجار كـي تمـشي- والغابـات كـي تـركض- والجبـال كـي تقـوم . أريد ان أقول كل لحظة ، فمن فمي- حين أقول- تطلع الكروم .

وسـعاد الـصباح - رابعـا - شـاعرة لم تخـرج مـن جلـد قبيلتهـا وخليجيتهـا وواقعهـا ، هـي بنـت هـذا كلـه وشـاهدة عليـه ، ومتجـاوزة لـه بـالوعي والانفتـاح والـرفض والتمـرد ، وتكتـب مـا تكتبـه عـن وعـي بلغـة الـشعر وجمالياتـه وكيميائـه وعناصـره الفنيـة . باحثـة طيلـة الوقـت- وبعـد صـوتها المـسكوب في العديـد مـن دواوينهـا المتلاحقـة- عمـن يفهمهـا: أريـد مـن يفهمـني- كـي أكتـب الـشعر- وكـي أخـترع الاشـياء في الكـلام- وكـي أري- حـين أنـام- أجمـل الاحلام- أريد من يشدني من يدي- يوما ، ويرميني علي ضفائر الغمام .

الأنصاري : شاعر الحرية والثورة

بقلم : فاروق شوشة

لو أنصف مؤلف الكتاب: الدكتور عبد الله سرور ـ أستاذ النقد والأدب الحديث المساعد بجامعة الإسكندرية ـ لسمي كتابه: الأنصاري شاعر الحب والحرية ، فالحرية والثورة تعودان إلى أصل واحد ، وكل منهما وثيقة الصلة بالأخري ، أما الملمح الأول والأساسي في شعر الأنصاري ـ الشاعر السكندري الكبير ـ فهو كونه شاعر حب في معظم ما أبدع من قصائد ـ ودواوينه الثلاثة شاهدة علي ذلك ـ ثم يجيء بعد ذلك شعره السياسي والاجتماعي والروحي والكوني ، في المقام الثاني من القول: دورانا واهتماما .

وقد أسعدني الأستاذ طلال الأنصاري المحامي ـ وابن الشاعر ـ بنسخة من الكتاب الذي يضم الأعمال الكاملة لا بيه ، ودراسته للشاعر وشعره أنجزها الدكتور عبد الله سرور ، وكشف فيها من حياة الشاعر محمد عبد المنعم (وهذا هو اسمه وحده) أين حسن الأنصاري ، وتكويناته الأولي ورحلته مع الشعر ، ما لا يعرفه كثيرون . والطريف أن أباه سماه محمد عبد المنعم علي اسم الأمير محمد عبد المنعم ابن الخديو عباس حلمي الثاني ، وولي العهد الشرعي الذي أحبه المصريون وله قصر كبير في إدفينا علي شاطئ النيل ، البلدة التي ولد فيها شاعرنا عام ١٩٢٩ ، لكن الانجليز نفوا هذا الأمير خارج مصر عقب إعلان الحرب العالمية الأولي ، فظل الناس ينتظرون عودته حتي أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين ، حين اضطر لتوقيع وثيقة التنازل عن العرش .

لم يتح للأنصاري أن يكمل تعليمه ، فقد توفي والده ، في منتصف الأربعينيات ، وكان هو في السادسة عشرة من عمره ، فترك الدراسة واتجه إلى العمل ويقوم بمطالب أسرته: أم وست أخوات ، فعمل مترجما في قناطر إدفينا بين العمال المصريين ورؤسائهم الإنجليز ، ثم حصل علي وظيفة في مصلحة البريد بالإسكندرية ، وأقام في منطقة بحري ـ واحد من أقدم الأحياء الشعبية ـ ثم انتدب للعمل بمديرية الثقافة ثم هيئة قصور الثقافة بالإسكندرية حتي وفاته عام ١٩٩٠ ، التي تحققت بها عودته إلى مقابر العائلة في إدفينا ، بعد رحلة طويلة عام رة ، مع الحياة الثقافية في الإسكندرية ، فقد كان واحدا من نجومها المتألقة ، ومع المهرجانات والملتقيات الشعرية فيها ، شاعرا جهير الصوت ، عظيم التأثير ، نافذ الكلمات ، يتحلق من حوله الناشئة ، ويجدون فيه مثلهم الأعلي ، ويتسع لهم صدره ـ المتلئ بمشاعر الأبوة والأستاذية ـ يقوم ألسنتهم ويصلح من أوزانهم ويأخذ بأيديهم إلى منابر القول: يقدمهم ويشجعهم وينقدهم ويدفع بهم إلى غايات أبعد وأفسح . ولم يكن الأنصاري وحده في الساحة الشعرية ، كان معه كثير من شعراء الإسكندرية ، بعضهم أكبر منه وأقدم اتصالا بالفن الشعري ، وبعضهم الآخر من أبناء

جيلـه ، لكـن الناشـئة وجـدت فيـه وفي شـعره نموذجـا مغـايرا ، فقـصيدته الكلاسـيكية المحكمـة ، والـروح العارمـة المتوهجـة بحـس المعاصـرة والتجديـد ، وجـسارة اللغـة والتعـبير ، كـل ذلـك دفـع بالـشعراء الـشباب - مـن طلبـة الجامعـة وغيرهـم - إلى الالتفـاف مـن حولـه والتلمـذة عليـه ، وتقليـده في بـداياتهم وهـم يروضـون القـول ويتلمـسون الطريـق . وفي شـعر الكـثير مـن هـؤلاء ومـضات وإشـارات ونثـارات مـن شـعر الأنـصاري وتـشرب للغتـه وصـوره الشعرية وطريقته في التقفية وفضاء معجمه الشعري .

وأتـيح للأنـصاري - عـبر رحلتـه الإبداعيـة الطويلـة - الاقـتراب مـن كـثير مـن شـعراء مـصر الكبـار . كـان أقـربهم إلى ه في مرحلتـه الرومانـسية البـاكرة الـشاعر صـالح جـودت ، الـذي نطـالع ظـلالا مـن لغتـه الـشعرية - الحـسية الطـابع ، العارمـة في اقتناصـها لـشهوات الحياة - في شعر الأنصاري ، الذي يقول في قصيدته طوفان:

لأجل عينيك ، هان الجوع والظمأ
ورحلة ببلاد التيه تبتدئ
من آل كسري معي ياقوتة ومعي

سيف علي غمده قد خيم الصدأ
تقطري بعض أنغام ، وبعض ندي
علي أوار بقلبي ليس ينطفئ

فيذكرنا بقصيدة مشهورة لصالح جودت عن الاسكندرية يقول فيها:

إسكندرية فيك الري والظمأ
بأي قصة حب فيك أبتدئ

ولنتأمل الوزن الشعري ، ونظام التقفية في مطلع القصيدتين .

الـشاعر الثـاني الـذي تـرك تـأثيرا عميقـا في وجـدان الأنـصاري: إنـسانا وشـاعرا: هـو أمـل دنقـل ، وقـد جمعـت الإسـكندرية بينهمـا في صـحبة حميمـة طيلـة سـنوات ، شـهدت المرحلـة الرومانـسية في شـعر أمـل دنقـل ، الـتي يجـسدها ديوانـه الأول . ووجـد الأنـصاري في أمـل توءمـا لروحـه ، توثبـا وجموحـا وتحلـلا مـن القيـود وبحثـا مـضنيا عـن اللحظـة الـشعرية الحقيقيـة والتعـبير غـير المكـرور . وفي قـصيدة الأنـصاري الكلمـة تجـسيد بـديع لهـذه التوءمـة الروحيـة بـين الـشاعرين ، أحـدهما ظـل إلى اللحظـة الأخـيرة مخلـصا لبنـاء قـصيدته العموديـة وثانيهما آثر الانطلاق والانعتاق ، ليصبح أحد نجوم الشعر الحر في جيل الستينيات .

في هذه القصيدة يقول الأنصاري:

نبت حروفي وأبدت عجزها لغتي
ماذا أسميك ؟ تلك الآن مشكلتي
فأنت عاري الذي أحيا لا حمله

مفاخرا ، ونياشيني ، وأوسمتي
وأنت لي في ظلام المنتهي قبس
وأنت شاهد حق فوق مقبرتي

وصولا إلى قوله :
في البدء كانت ، وكان الكون مملكتي
ولم تزل ـ بعد ـ سرا في مخيلتي
ومثلما يكتوي بالنار حاملها
حملتها ، واكتوت من حرها رئتي

وحين أمضي بها من ذا سيتبعني
منكم ، لا بحث عن أرضي وعن لغتي

الآن ، يمكن لروح عبد المنعم الأنصاري ـ بعد خمسة عشر عام ا من رحيله ـ أن تهجع وتستريح ، فقد أعيد نشر شعره كاملا في هذا الكتاب ، ما سبق نشره منه في دواوينه الثلاثة : أغنيات الساقية ، وعلي باب الأميرة ، وقرابين ، وما لم ينشر من قبل من قصائد الديوان الجديد مواجهة . وإن كنت شخصيا غير سعيد بنشر هذا الجديد الذي يبدو بعيدا عن مستوي الشاعر الذي عرفناه ، والواضح أنه في مجموعه قصائد قديمة لم يشأ الشاعر أن ينشرها في وقتها لا نها لم تكن تمثله كما يريد ، فاستبعدها وطواها بعيدا . وليت الآخرين احترموا قراره ، واستبقوا للشاعر صورته الناضجة والحقيقية ، التي هو جدير بها في ديوان الشعر السكندري والمصري المعاصر .

حصاد دورة " شوقي ولا ما رتين "

بقلم: فاروق شوشة

لا أظن أن أية وزارة ثقافة عربية ، كانت تستطيع أن تصنع - بكل امكانياتها - ما صنعته مؤسسة البابطين . حين خططت لدورتها العاشرة عن شوقي ولامارتين في باريس ، وحشدت لها هذا الجمع الحافل من الدارسين والباحثين وأساتذة الإعلام من المصريين والعرب والمستشرقين ، بالإضافة إلى نخبة من الأدباء والشعراء والاعلاميين . ونجحت المؤسسة في أن تقيم ملتقي ناجحا - بكل المقاييس - لحوار الثقافات ، منذ الجلسة الافتتاحية لهذه الدورة التي كان من أبرز المتحدثين فيها محمد خاتمي وعمرو موسي ووزير الثقافة الفرنسي ومندوب بابا الفاتيكان ورئيس إلى ونسكو وسعاد الصباح وغيرهم . ولم يكن المتحدثون باسم ثقافات الشرق متخاذلين او طالبين للصفح والمغفرة والتجاوز عن سيئاتهم ، وانما كانوا يعرضون حقا يؤمنون به ، ويتكلمون عن أدوارهم الحضارية والثقافية عبر التاريخ ، كما كانت الندوة الفكرية التي أقيمت في سياق برنامج هذه الدورة عن حوار الثقافات إضافة ثرية وكاشفة ، إلى ما تم طرحه في الجلسة الافتتاحية .

أما الندوة الأدبية والثقافية التي كان موضوعها شوقي ولامارتين فقد أتيح لها من عناصر النجاح والتأثير ما جعل منها مدخلا جديدا لرؤية كل من الشاعرين الكبيرين وقراءته قراءة جديدة . وكانت كلمة محمود الربيعي الاستهلالية عن قراءة جديدة لشوقي ــ وكيف تكون وعلي أي أساس - طلقة البداية التي أعقبتها كلمات أخري أبرزها كلمة فوزي عيسي ، كما كانت الأبحاث عن لا ما رتين وعن الوجه الشرقي فيه ، المتمثل في كتاب رحلاته إلى الشرق وفي كتابه عن الامبراطورية العثمانية الذي نشرت الدورة الجزء الخاص فيه بحياة محمد ، بالفرنسية والعربية ، بعد قرابة قرن ونصف قرن من نشره بالفرنسية لا ول مرة . ولم تنقطع الخيوط بين الندوتين الفكرية والأدبية ، فقد كانت كانت كل من أبحاث الندوتين تغذي الأخري وتدعمها وتفتح من آفاقها ، كما صنع سامح كريم في كلمته عن طه حسين ودوره في هذا الحوار الثقافي بين الشرق والغرب ، والذي سبق فيه رفاعة رافع الطهطاوي ، ومضي فيه كثير من رواد النهضة والتحديث والتنوير في العالم العربي من أمثال الأرسوزي والكواكبي ومحمد عبد ه وابن باديس وهيكل والعقاد والمازني وسلامة موسي وغيرهم .

واتسع المجال - الذي تم التخطيط والتنظيم له بصورة بارعة - لتكريم المستشرق الفرنسي الكبير اندريه ميكيل أول من كتب مقالا مؤثرا في الغرب عن نجيب محفوظ عام ١٩٦٣ وأول من رشحه لجائزة نويل ، وأستاذ العشرات من الدارسين المصريين والعرب .

وهو أول تكريم يلقاه الرجل علي يدي مؤسسة ثقافية عربية ، كانت هي الرائدة في هذا التوجه .

لقد شهدت قاعة إلى ونسكو في باريس ، كما شهد مقر معهد العالم العربي ، في اطار الجلسات الرسمية لهذه الدورة وفي خارجها ، من الحوارات ، والتعليقات ، ما يشكل بدوره دورة حرة موازية ، عاد فيها حديث الشعر علي ألسنة الباحثين والدارسين والجمهور منطلقا من أفق شوقي وأفق لا ما رتين ، وكان حرص المؤسسة علي نشر العديد من الكتب المتصلة بموضوع الدورة واتاحتها للجميع ، تأكيدا لهذا الأثر بعد أن تم انجاز مختارات جديدة من شعر شوقي ، ومختارات من شعر لا ما رتين بالفرنسية والعربية ، وكتاب حياة محمد في طبعتيه الفرنسية والعربية ، وكتاب شوقي في عيون معاصريه ، وكتاب أحمد شوقي في المصادر والمراجع ، وكتاب كاري رحالة وأدباء فرنسيون في مصر مترجما إلى العربية ، وكتاب أنور لوقا رحالة وأدباء مصريون في فرنسا مترجما إلى العربية وكتاب مؤنس طه حسين الرومانتيكية والاسلام مترجما إلى العربية وشارك في انجاز هذه الترجمات الدكاترة محمد قوبعة وسونيا نجا ورشا صالح وكاميليا صبحي وأمل الصبان ومحمد علي الكردي ، وراجع بعضها الدكتور أحمد درويش .

لقد كان كل من شوقي ولامارتين يتحدث من خلال هذا الملتقي بلغة المحبة والسلام والرغبة الحميمة في اكتشاف الآخر والتعرف علي حقيقة ما يمثله ، كما كانت اشعارهما - المحلقة في فضاء الجلسات النقدية والأمسية الشعرية - دعوة إلى الحوار والتآخي ، بديلا عن الصراع والاستعلاء والمواجهة . وهو هدف يستحق عناء هذه الدورة وجهدها الكبير ، وعناء دورات جديدة مقبلة تخطط لها المؤسسة من الآن .

شعر لا ما رتين في ترجماته العربية

بقلم:فاروق شوشة

هـذا الكتـاب واحـد مـن الإصـدارات البديعـة لـدورة شـوقي ولامـارتين في بـاريس (أكتـوبر٢٠٠٦) الـتي أقامتهـا مؤسـسة البـابطين للإبـداع الـشعري ، وقـام بجمـع مـا دة هـذا الكتـاب الحافـل وتحقيقهـا ودراسـتها الباحـث والأسـتاذ الجـامعي القـدير الـدكتور محمـد زكريـا عناني .

كمـا أن الكتـاب إضـافة ثريـة إلى بقيـة إصـدارات الـدورة المتمثلـة في كتـاب مختـارات من شعر لا ما رتين وكتابي رحلة إلى الشرق و حياة محمد المترجمين إلى العربية .

وقـراء لا مـا رتـين ، والمتـابعون لترجمـات شـعره في العربيـة ، يبـدأون دومـا مـن ترجمـة قـصيدته الـبحيرة كمـا فعـل الـشاعر اللبنـاني إلى اس أبـو شـبكة في كتابـه عـن لا مـا رتـين وترجمتـه إلى العربيـة مقـاطع مـن قـصيدته الـبحيرة والكتـاب صـادر عـن مكتبـة صـادر في بـيروت ويحمـل هـذا العنـوان: لا مـا رتـين: لـذكري مـرور مـا ئـة سـنة علـي رحلتـه إلى الـشرق (١٨٣٣ ـ١٩٣٣) ويقول أبو شبكة في هذه الترجمة:

ذات مساء أتذكرين ؟ كنا نعوم بسكون

ولم يكن يسمع في الأبعاد

علي الماء وتحت السماء

إلا دوي الجذافين الضاربين بايقاع

أمواجك الموسيقية

وبهـذا ـ كمـا يقـول الـدكتور عنـاني أصـبح كتـاب إلى اس أبـو شـبكة أول كتـاب عربـي عـن لا مـا رتـين ، كمـا تـرجم أبـو شـبكة روايـتين للامـارتين همـا جوسـلين (١٩٢٦) وسـقوط مـلاك (١٩٢٧) ثـم جـاءت ترجمـة أحمـد حـسن الزيـات (صـاحب مجلـة الرسـالة ، وصـاحب الأسـلوب المتفـرد في كتاباتـه وترجماتـه) لروايـة: رافائيـل: صـحائف مـن العـشرين للامـارتين ، حـدثا أدبيـا لا فتـا ، جعـل اسـم لا مـا رتـين يـذيع ويـشيع بـين قـراء العربيـة ، وقـد تـرجم الروايـة آخـرون ، لكـن ترجمـة الزيـات تفـضلها جميعـا بحـسه المرهـف وأسـلوبه الراقي المتمكن ، وقد تعددت طبعاتها فتجاوزت العشر .

وقـد تـرجم الزيـات قـصيدة الـبحيرة فأضـاف إلى تـراث لا مـا رتـين في العربيـة درة جديدة .

ويشير الدكتور عناني – في مقدمته البحثية والنقدية الضافية لكتابه - إلى أن ترجمة أحمد شوقي لقصيدة البحيرة هي أولي الترجمات العربية لهذه القصيدة ، ولغيرها من شعر لا ما رتين .

وقد جاءت إشارة شوقي إلى الأمر في مقدمته التي صدر بها الطبعة الأولي من الشوقيات (١٨٩٨) التي يقول فيها مشيرا إلى نشاطه الأدبي وهو طالب بعثة في فرنسا: ثم نظمت روايتي علي بك الكبير (أو فيما هي دولة المماليك) معتمدا في وضع حوادثها علي أقوال الثقات من المؤرخين الذين رأوا ثم كتبوا ، وبعثت بها قبل التمثيل بالطبع إلى المرحوم رشدي باشا ليعرضها علي الخديوي السابق فورد لي منه كتاب باللغة الفرنساوية يقول في خلاله: أما روايتك فقد تفكه الجناب العالي بقراءتها وناقشني في موضع منها وناقشته وهو يدعو لك بالمزيد من النجاح . ويجب ألا تشغلك دروس الحقوق - التي يمكنك تحصيلها وأنت في بيتك في مصر - عن التمتع من معالم المدنية القائمة أمامك ، وأن تأتينا من مدينة النور (باريز) بقبس تستضيء به الآداب العربية .

فصادفت هذه النصيحة الغالية هوي في فؤادي ، فترجمت القصيدة المسماة بالبحيرة من نظم لا ما رتين ، وهي من آيات الفصاحة الفرنساوية ، ثم أرسلتها إلى الباشا المشار إلى ه في كراس ليطلع الجناب الخديوي عليها ، وإذ كنت لا أتخذ لشعري مسودات رجوت أني أجدها عنده بعد العودة إلى مصر ثم عدت دون ذلك عواد .

ولئن ضاعت ترجمة شوقي لقصيدة البحيرة فقد أثبت الدكتور محمد زكريا عناني أكثر من عشرين ترجمة لها ، لعدد من المشاهير ، وأيضا لعدد من الشعراء والباحثين والأساتذة الجامعيين ، من بينهم علي محمود طه وإبراهيم ناجي ونقولا فياض وإلياس طعمة والعوضي الوكيل وإلياس أبو شبكة ، وطه الحاجري ، ومحمد مهدي البصير ، و عبد الرزاق حميدة ، ومحمد غلاب ، ومحمد مندور ، ومحمد غنيمي هلال ، وإيليا حاوي ، ومحمد أسعد ولاية وصلاح الدين المنجد ، و عبد الرحمن بدوي وياسين الأيوبي ، وغيرهم ، فضلا عن قصائد أخري للامارتين من بينها الخلود ، والعزلة أو (الوحدة) والمساء ، والم عبد أو (الهيكل) والخريف ، والوادي أو (الوادي الصغير) وغيرها .

يقول علي محمود طه في ترجمته الشعرية لقصيدة البحيرة

ليت شعري أهكذا نحن نمضي

في عباب ، إلى شواطيء غمض

ونخوض الزمان في جنح ليل

أبدي يضني النفوس وينضي

وضفاف الحياة ترمقها العين

فبعض يمر في إثر بعض

دون أن نملك الرجوع إلى ما

فات منها ، ولا الرسو بأرض

ثم يقول في مقطع آخر:

أتري تذكرين ليلة كنا

منك فوق الأمواج فوق الضفاف

وسري زورق بنا يتهادي

تحت جنح الدجي وستر العفاف

في سكون فليس نسمع فوق الموج

إلا أغاني ، المجداف

نتلاقي علي الربي والحوافي

بأناشيد موجك العزاف

شكرا للأستاذ القدير الدكتور محمد زكريا عناني - وهو من نجوم الحياة الأدبية والجامعية في الإسكندرية - علي الجهد الذي يكشف عنه هذا الكتاب جمعا ودراسة وتحقيقا وتحليلا ، والذي يحملنا إلى ما ئدة حافلة شهية من شعر لا ما رتين المترجم إلى العربية في أقطار عربية عديدة وبأقلام شعراء وباحثين مبدعين .

إعلان المجمع في عيده الماسي

بقلم: فاروق شوشة

أما المجمع فهو مجمع اللغة العربية ، مجمع الخالدين ، وأما الإعلان فهو الوثيقة التي أطلقها في مناسبة عيده الماسي (١٩٣٢ ـ٢٠٠٧) ، بيانا وتذكيرا للناس ، ومطالبة باعادة النظر في قانونه ، وعرض التعديل المنشود علي مجلسي الشعب والشوري ، بهدف النص ـ في قانونه المعدل ـ علي أن تكون لقراراته سلطة تنفيذية ، يلتزم بها العاملون في مجالات اللغة العربية ، والمشغلون بها في الجامعات والتعليم والإعلام والثقافة ، والنص علي أن يكون هذا المجمع ـ من خلال أبحاثه وقراراته وتوصياته ـ مرجعية لغوية في كل ما يتصل بقضايا اللغة العربية .

والذي يطالب به المجمع والمجمعيون في هذا الإعلان ليس بدعا ولا هو بالأمر المستحدث ، ذلك أن المجتمع لا يستقيم أمره بغير سلطات تنفيذية وتشريعية وقضائية ، تمثل مرجعيات ملزمة وحاكمة في مجالات اختصاصها ، واللغة العربية ـ باعتبارها وعاء الهوية ، ولسان المواطنة ، وحاملة الموروث الثقافي والحضاري ، وآلة الانتاج المعرفي والابداعي ـ يتطلب الحفاظ عليها ، والنهوض بها ، والعمل علي أن تكون وافية بمطالب العصر ، متسعة لحاجاته وثورته المعرفية ، فضلا عن التقدم المذهل والمتسارع في مجالات العلوم والتكنولوجيا ، يتطلب ذلك كله أن يكون لمجمعها من سلطة القرار ومرجعية الرأي ما يجعله قادرا علي الفعل والعمل ـ وهو الأمر المتحقق بالفعل بالنسبة لعدد من المجامع اللغوية العربية ـ فللمجمع ـ منذ إنشائه ـ في كل ما تموج به حياتنا اللغوية ، وما انحدر إلى ه المجتمع في تعليمه واستخدامه للغة علي الألسنة والأقلام ـ رأي ، ولهذا الرأي وزن ، ولابد من التمكين لهذا الرأي أن يمارس دوره ويحقق فاعليته .

قلت إن ما يطالب به المجمع والمجمعيون ـ في مناسبة عيدهم الماسي ـ ليس بدعا ولاهو بالأمر المستحدث . فقد نص مرسوم إنشاء المجمع ـ عندما كان يسمي المجمع الملكي للغة العربية ـ الصادر في الثالث عشر من ديسمبر عام ١٩٣٢ في ما دته السابعة عشرة: علي أن تتخذ وزارة المعارف العمومية (التي كان يتبعها المجمع في ذلك الحين) كل الوسائل التي تكفل اتباع قرارات المجمع في أمر اللغة العربية وألفاظها وتراكيبها ، وذلك بإذاعتها إذاعة واسعة ، وباستعمالها ـ بوجه خاص ـ في مصالح الحكومة وفي التعليم ، والكتب المدرسية المقررة .

وهو التفات مبكر لا همية أن تكون قرارات المجمع في أمور اللغة العربية ملزمة وحاكمة ، وأن تقوم الجهة ـ التي يتبعها المجمع ـ بالعمل علي نشرها علي أوسع نطاق

، وإلزام الدولة بها - في مصالحها - والأخذ بها في أخطر مجال من مجالات التعامل مع اللغة ومجال التعليم . واعتراف ضمني ، بأن هذه القرارات والتوصيات يمكن أن تظل مهملة معزولة عن حركة الحياة وعن الفعل المأمول منها ، إذا لم تكن لها هذه السلطة الفعلية وهذه المرجعية الضابطة والحاكمة .

لقد صمت المجمع طويلا أمام هجمات عديدة وانتقادات كثيرة ، تهدف إلى الانتقاص من قدره وهيبته ، الكثير منها كان يصدر عن غرض أو هوي ، والقليل منها كان موضوعيا ينشد الحقيقة ويسعي إلى جلاء الموقف ، ظنا من أصحاب هذا النقد وهذا الهجوم ، أن المجمع يتقاعس عن المشاركة في السجال اللغوي ، وعن أن يكون له دور بارز ورأي مسموع في كل ما يجري ويحدث من حولنا ، بينما الظواهر السلبية تتفاقم وتتعاظم: ضعفا في مناهج تعليم اللغة العربية وعجزا عن تطويرها ، وانهيارا في مستوي من يتعلمون في المدارس والجامعات ، وشيوعا للأخطاء الفادحة علي الألسنة والأقلام ، في وسائل الاعلام وفي مجالات استخدام اللغة بشكل عام ، وانتشارا للأسماء الأجنبية التي أسرف الناس في إطلاقها علي ما حولنا ونعيش فيه ، وليس هناك من يردهم - بالقانون وبالوعي - عن هذه الممارسات الخاطئة التي من شأنها تدمير الهوية وتشويه صورة الوطن وزعزعة الانتماء ، ولقد ظلت هذه السلبيات وغيرها تتعاظم ، والمجمع مكتوف إلى دين ، دون أن تكون قراراته ملزمة ولها سلطة القانون .

لابد إذن من مؤازرة الدولة ودعمها ، ومن تعظيم جهد المجمع حتي تصبح مسيرته - في سنوات ما بعد العيد الماسي - أكثر اكتمالا وقدرة وعزيمة ، وأعمق منهجية وعلمية وعصرية ، وأشد التحاما بالتطورات العلمية والمعرفية ، وقدرة علي الاجتهاد وفتح أبو اب التجديد دون خوف أو تردد .

والأمل - أولا وأخيرا - في ذخيرة الأمة من العلماء - في كل مجال وليس المجال اللغوي وحده - والمفكرين والمبدعين: أصحاب اللغة الحقيقيين ونافخي روحها المخلصين .

الرسالة الغريبة

بقلم: فاروق شوشة

منذ رحيله في عام ٢٠٠٠ وأصدقاؤه وعشاق شعره يفتقدون فيه الشاعر والانسان ، وقد كان إبراهيم عيسي إنسانا جميلا بقدر ما كان شاعرا مرهف الحس رقيق العاطفة ممتلئا بفيض من المشاعر العاطفية والانسان .

لذا فقد كان طبيعيا أن تتوهج مجموعاته الشعرية الثلاثة ، التي صدرت له في حياته : كلنا عشاق ، وحبيبي عنيد ، وشراع في بحر الهوي ، بالحب . الحب للانسان والحياة والكون ، مختتما رحلته الشعرية بقصائد روحية ، كشفت عنها مجموعته الجديدة التي صدرت ضمن مطبوعات مؤسسة البابطين بعنوان: قبل أن يسدل الستار . وفي ختام هذا الديوان الجديد الذي صدر في ختام عام ٢٠٠٦ ، أي بعد رحيل صاحبه بست سنوات ، تعريف بالشاعر يشير إلى مولده في عام ١٩٢٧ في حي بين السرايات بالجيزة وحصوله علي بكالوريوس التجارة عام ١٩٣٩ ، وعمله في وزارة الثقافة وصولا إلى منصب المدير العام للتفرغ ، وقد صدرت بعد رحيله بعام واحد الأعمال الكاملة له عن الهيئة المصرية العامة للكتاب تحت إشراف صديقه الشاعر أحمد سويلم .

كما يشير التعريف إلى قيام مؤسسة البابطين للابداع الشعري بتبني نشر هذا الديوان ، تقديرا للشاعر ووفاء لذكراه ، وهو الفائز بجائزة المؤسسة لا فضل ديوان مناصفة ـ في الدورة الأولي للمؤسسة عام ١٩٩٠ والمجموعة الجديدة قبل أن يسدل الستار تحمل سمات الشاعر الفنية ، والشعورية ، التي تجلت في مجموعاته السابقة عليها ، باعتباره ممثلا للاتجاه الرومانسي الذي مثلته جماعة أبو لو الشعرية منذ ثلاثينيات القرن الماضي ، وكان من اعلامها الرواد إبراهيم ناجي وعلي محمود طه ومحمود حسن اسماعيل في مصر وأبوالقاسم الشابي في تونس ، وشعراء يمثلون الاتجاه نفسه ـ من حيث الاغراق في العاطفة والجموح في الخيال والولع بالتصوير والتجسيد وانتقاء مفردات المعجم الشعري ـ في عدد من البلاد العربية مثل سوريا ولبنان والعراق . لكن هذه المجموعة الجديدة تنفرد من بين سائر شعر إبراهيم عيسي بأربع وعشرين قصيدة جعل لها عنوانا عاما والا ـ علي طريقة الرومانسيين ـ هو: ذنوب تصلي ، تطالعنا في ثناياها عناوين فرعية مثل: حادي الأشواق وكهف الخطايا والروح المفارق ورحلة النور واللحن الآخر وقبل أن يسدل الستار ، وهي القصيدة التي اصبح اسمها عنوانا للديوان كله ، وفيها يقول:

كفانا ، ظمئنا ولما شربنا . . ظمئنا وجف ابتسام الرحيق

كفانا ، فإنا زرعنا الحياة . . ولكن حصدنا جنون الحريق

وعدنا لنسأل عن دربنا . . فتاه السؤال وضاع الطريق

ولكن تجعد فينا الحنين . . وشاب الحنان ومات البريق

ولم يبق غير ارتعاش الصدي . . وجرح عميق ودمع صديق

وفي ختامها يقول ، وكأنها نبوءة الشاعر باقتراب النهاية :

إلي أين امضي ؟ وتلك الغيوب . . تخط لعمري سطور الرواية

وأظمأ تحت هجير الليالي . . وتنسي طريق كؤوس السقاية

فيارب هب لي أنهار عفو . . قبيل نزول ستار النهاية !

لكن أغرب ما كشف عنه صدور هذه المجموعة الجديدة ، هو رسالة كان الشاعر قد بعث بها إلى الشاعر الكويتي صاحب مؤسسة البابطين للابداع الشعري: عبد العزيز سعود البابطين عقب حصوله علي جائزة المؤسسة عام ١٩٩٠ ، أثر نشرها في ختام المجموعة التي أعدها للنشر الشاعر عماد غزالي . وفيها كشف - لا ول مرة - عن موقف إبراهيم عيسي من الشعر الحر وشعراء الشعر الحر ، لا أعتقد أن أحدا من أصدقائه المقربين - شعراء الشعر الحر - وبخاصة أحمد سويلم ومحمد إبراهيم أبو سنة وغيرهما ، قد أحس به أو لمسه في كلامه أو مواقفه أو حواراته من قبل ، لذا ، فإني تتملكني دهشة عارمة وأنا أطالع هذه السطور في رسالة إبراهيم عيسي إلى عبد العزيز سعود البابطين: إن الشعر العربي الأصيل - العمودي - يعيش في نفوس الناس وضمائرهم ، ولكن الباطل في هذه الدنيا من طبيعته أن يعلو علي الحق (وأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) والشعر الحر هو باطل زماننا الأدبي المعاصر ، لذلك تري أشياع هذا الباطل منتشرين في كل مكان - كالزبد تماما - ويجيدون تنظيم أنفسهم ، ثم النيل من كرامة الشعر العمودي الأصيل ، وليتهم يتنازلون عن جهلهم أو تجاهلهم ليعلموا أن الشعر العمودي هو وجهنا العربي الأصيل ، بعباءته وعروبته وشموخه وتاريخه ، وإنه لقادر علي التطور والمعاصرة . وفي ختامها يقول مخاطبا البابطين: يا سيدي الشيخ الجليل: أطال الله بقاءك ، ونفع بك الآداب ، وجعلك حصنا حصينا يلوذ به الشعر العربي العمودي الأصيل من طغيان الشعر الحر ومن استبداد سدنته ، لا ن أعداء الشعر والإسلام قد زرعوا هذا الشعر في عالمنا العربي لكي تجهل الأجيال الصواب من لغتهم ، وبالتالي يصلون يوما ما إلى هدفهم الرئيسي وهو أن يجهل المسلمون الصواب من لغة القرآن الكريم ، وأنا أعيذك يا سيدي إلا أن تكون سندا ومجيرا ومعينا للشعر العربي العمودي الأصيل فقط في هذا الزمان غير الأصيل الذي جعل من الشعر الحر مسبعة تزأر في عرين الشعر العمودي . الطريف أن البابطين لم يأخذ بهذه النصيحة أو الوصية . وجعل مؤسسته للشعر بكل أطيافه وتياراته: العمودي والحر وصولا إلى بعض النماذج من قصيدة النثر .

أمـا الكـشف عـن موقـف إبـراهيم عيـسي - وكأنـه واحـد مـن الآخـذين بالتقيـة - فأتركـه للتـاريخ ولأصدقائه من شعراء الشعر الحر الذين يضمهم في رسالته الغريبة والكاشفة .

لماذا نجحت احتفالية شوقي وحافظ ؟

بقلم : فاروق شوشة

حال ظرف صحي قاس بيني وبين المشاركة في احتفالية شوقي وحافظ التي أقامتها لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة في مناسبة الذكري الخامسة والسبعين لرحيل الشاعرين ، لكن أصداء نجاح الاحتفالية ، علي مستوي الدراسات والأبحاث والمداخلات ، وفي الأمسيات الشعرية المصاحبة ، وفي العروض الفنية : المسرحية والغنائية ، لم تفتني .

إذن فقد تحقق الهدف الذي خططت له اللجنة العلمية للاحتفالية ، وهو إعادة الاعتبار لشاعري مصر الكبيرين - في العصر الحديث - وشوقي بصفة خاصة ، بعد أن انهال عليه الكثيرون - في حياته وبعد رحيله - بالتناول الضيق الأفق ، الجامد النظرة ، الذي لم يخل من خضوع للمذاهب الأدبية والتيارات النقدية المتباينة ، وقد طوت كثيرا من هذه الكتابات رياح النسيان ، وبقي شعر شوقي شامخا بما جسده من قيم فنية وإنسانية ، وموقف حضاري تنويري ، وروح وطنية وقومية عارمة .

ولم يكن شعر صنوه - حافظ إبراهيم - بعيدا عن هذا كله ، فبينما كان محمد إسماعيل كاني - كاتب مقدمة ديوان حافظ في طبعته الثانية عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ - يري أن من دلائل عظمة حافظ ومكانته الشعرية - أنه استطاع أن يوجد له مكانا واسما إلى جوار شوقي ، كان الدكتور محمد حسين هيكل الذي كتب مقدمة الشوقيات يعقب عليه بقوله : ولم لا تقول إن من دلائل عظمة شوقي أنه استطاع أن يوجد له مكانا واسما إلى جوار حافظ ، فقط كان الوقت وقت حافظ ، والعصر عصر حافظ ، والمجال مجال حافظ .

الأمر الذي جعل كاني يقول : حافظ إبراهيم إذن هو نتاج عصره ونتاج بيئته ونتاج مصريته وعروبته ، كان بكل اختصار : مصر تتحدث عن نفسها ، وهو يشير إلى قصيدة حافظ الوحيدة التي أتيح لها التلحين والغناء ، وذاعت شهرتها بين الناس .

ونجحت احتفالية شوقي وحافظ ، عندما جعلت كثيرين يعودون إلى شعرهما من جديد بعد أن سكنت عواصف النقد والنقاد ، المغرضين منهم وغير المغرضين ، والمهووسين منهم بمحاولة هدم رموز مصر الكبري وغير المهووسين ، ليروا حجم المتبقي من روعة هذا الشعر ، واتساعه لحلم النهضة وطموحات التحديث ، وقدرته علي مخاطبة العصر .

ولقد استنفرت الاحتفالية شاعر مصر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي ، ليقدم عبر دراساته الأدبية والنقدية المتتابعة رؤية عميقة ومنصفة للعصر الذي مهد لشوقي وحافظ وأطلقهما ، ولمعالم النهضة روحا ومنجزات ، ولكيفية التناول الذي تطلب منه احتشادا وموسوعية وقدرة علي المنازلة .

بل لقد فوجئت بأن ناقدنا الكبير جابر عصفور فيما يكتبه عن أوجه شوقي قد عدل عن استخدام مصطلح استعادة الماضي الذي جعله عنوانا لا حد كتبه ، وهو تعبير من صنع أدونيس في كتاباته عن مدرسة الإحياء (البارودي وإسماعيل صبري وشوقي وحافظ وغيرهم) ، بل هو يختلف مع أدونيس بالنسبة لما كتبه عن شوقي وينتقده بقوله : فهو لم يخرج علي تقاليد مدرسة التعبير ، وكان امتدادا لرؤيتها ، ولكن بمفردات جديدة ، تنتهي في تحليلها الأخير إلى ما سبق إلى ه أمثال العقاد وطه حسين عن وجوه شوقي التي تتنافر بالطبع مع أفكار الحداثة الفرنسية التي كان أدونيس أبرز دعاتها ، خصوصا فيما تنطوي عليه من نزعة ذاتية جديدة ، نزعة يمكن أن تكون أحد وجوه شوقي العديدة التي لا تزال في حاجة إلى الكشف ، لا نها وجوه إبداع حقيقي ، ينطوي علي غني ، يجعل من شوقي شاعرا لكل الأجيال .

هكذا يصبح من بركات هذه الاحتفالية ، وعلامات نجاحها ، خروج جابر عصفور ، أخيرا ، عما اختطه أدونيس ، وتابعه فيه مريدوه ، وهذه الرؤية الجديدة لدي عصفور باعتبار شوقي شاعرا لكل الأجيال .

يبقي أن تتنبه وزارة التعليم إلى شاعري مصر الكبيرين ، حتي يقرأ النشء المتعلم شعرهما في ثنايا الكتب المدرسية ، وحتي يصل شعر شوقي في بابي الحكايات والأطفال إلى الذين كتب من أجلهم ، وأن تتنبه أجهزة الإعلام إلى بث أغنيات شوقي - بالفصحي والعامية - وقصيدة حافظ إلى تيمة ، لتطهير الأسماع والأرواح مما علق بها من رطانة وإسفاف وسوقية وابتذال . . فهل يتنبهون ؟

شكر واجب

أتوجه به إلى نابغة الطب الدكتور شريف مختار ، ومساعده البارع الدكتور هشام الأعسر ، والأستاذة الدكتورة عليا عبد الفتاح رئيسة وحدة طب الحالات الحرجة بطب قصر العيني ، لعنايتهم الفائقة وتضافر رعايتهم من أجل الوصول بي إلى بر الأمان والسلامة ، وإلي كل من يضمهم هذا المكان - الذي يعد من مفاخر مصر - من أسرتي الطب والتمريض . . جزاهم الله جميعا خير الجزاء .

عبد الحكيم بلبع وديوانه المفاجأة - ٢ -

بقلم: فاروق شوشة

لا يمكن الاقتراب من عبد الحكيم بلبع - الإنسان والأستاذ الجامعي والشاعر - إلا بالنظر إلى هذه القسمات أو الملامح الثلاثة باعتبارها نسيجا واحدا تشكل في سداه ولحمته كيانا واحدا ، فهو شاعر حتى وأن لم يكتب قصيدة واحدة ، وهو أستاذ بديع المنطق والحجة والكلام في جده وفي هزله ، وهو قبل ذلك وبعده يذوب إنسانية وسلاسة وعذوبة ، لا نلقاه - مرة واحدة - عابسا أو ناقما أو شاكيا أو مشيحا بل هو الإشراق بالوجه والروح والحديث ، والاقبال باليدين والصدر والقلب الرحيب .

وفي الوقت الذي كان فيه صنوه وتوءمه ورفيق عمره - الراحل الكبير الدكتور أحمد هيكل يعلن عن شعره ويسمعنا اياه ويشاركنا أصبوحاتنا وامسياتنا الشعرية ، كان عبد الحكيم بلبع وكأنه قد أحكم رتاج باب الشعر ، واعتبره من صنيع الشباب الباكر ، وأعمل فيه حاسته النقدية المبكرة فحكم عليه بالاعدام ، ولم يسمح له بالتنفس في حضرة الآخرين ، واقنعنا بأنه لا علاقة له بالابداع الشعري إلا استاذا وناقدا ومحللا ! حتي كان العثور علي ديوانه المخطوط ، الحكميات ، الذي نظمه في مرحلة الدراسة الثانوية ، قبل التحاقه بدار العلوم مفاجأة مدهشة تدل علي موهبة شعرية مبكرة ، وعلي ظلم بالغ حكم به علي نفسه وعلي شعره معا ، في الوقت الذي يشهد له فيه هذا الشعر بالنضج المبكر ، والسبق لكثير من ابناء جيله بل والتفوق عليهم ، وهو موقف لا يزال محتاجا إلى اضاءة وتفسير مقنع ، خصوصا انه لم يبتعد عن الشعر طيلة حياته١٩٢٤ -١٩٧٧ دارسا ومدرسا واستاذا ومؤلفا ، وهو الذي أنجز بعد حصوله علي الماجستير وكان موضوعها النثر الفني واثر الجاحظ فيه ، وعلي الدكتوراة وكان موضوعها ادب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري انجز دراسته البديعة عن حركات الشعر المعاصر ، وعن الشعر في عصر بني امية ، وعن حركة التجديد الشعري في المهجر بين النظرية والتطبيق ، فضلا عن عشرات المقالات والدراسات والابحاث عن الشعر والشعراء من أهمها دراسته عن نظرية الشعر عند العقاد:

نقدا وتطبيقا فهل وعيه النقدي المبكر هو الذي جني علي شعره ؟

يقول في تقديمه لشعر المرحلة الأولي بين تباريح الهوي ولواعج الحب كان ميلاد هذه الشاعرية التي كانت اذ ذاك ضئيلة ضالة الروح الذي نعيش فيه ، لكنها كانت قوية قوة الاحداث التي ولدتها وهي تصور تصويرا صادقا هذه الحياة التي صادفتها منذ تنبهت إلى هذه الموهبة في نفسي وحسبي من هذه المرحلة علي ضعفها انها كانت سجلا صادقا لهذا الروح منذ فجر حياته .

يقول عبد الحكيم بلبع من قصيدة عنوانها هذا هو الهدي يرد بها علي صديقه الشاعر الذي عاب عليه شعره العاطفي واعتبره رجعية وتخلفا وبعدا عن الرشاد والهدي:

هزاء القوافي إعرني النغمة

وعذب المعاني وحلو الكلم

ورتل بيانك كيما يبيد

عن النفس وجد بها مدلهم

وارسل شعاعك للحائرين

فأنت الرشاد وانت العلم

رويدك يامن حسبت الغرام

طريق الشقاء ومهوي العدم

رويدك يامن ظننت الحياة

شعورا عيبا وقلبا أصم

رويدك يا من شربت الجمود

كئوسا أذاقتك مر الالم

علام التجني علي العاشقين

وهم ـ ياعيني ـ ليوث الاجم

غضاب اذا نالهم نائل

كرام اذا ضاع معني الكرم

يعيشون زهرا بروض الحياة

ونبتا تدفق منه النعم

فلو كنت قلبا يحس الحياة

لهمت كما هام عبد الحكم

ولو كنت روحا تحب الجمال

لكنت لهذي الظبا تبتسم !

هـذه اللغـة السلـسة الطيعـة وهـذه القـوافي الـتي تـواتي الـشاعر وتأخـذ مكانهـا في ختـام الأبيـات ، لا قلقـة ولا متعـسفة ، وهـذه الـروح الانـسانية المحبـة للحيـاة والمقبلـة علـي مـا فيها والتي يصدق فيها ما قاله الشاعر المهجري ايليا أبو ما ضي في قصيدته:

كن جميلا تر الوجود جميلا .

والذي نفسه بغير جمال

لا يري في الوجود شيئا جميلا !

هـذا كلـه بعـض سمـات شـاعرنا عبـد الحكـيم بلبـع ، الـذي نـستروح نـسائم ذكـراه وعطـر ريآهـا ، في اعـزاز ومحبـة ، ونرجـو ان يجـيء إلى وم القريـب الـذي يـصبح فيـه هـذا الـديوان المخطـوط مطبوعـا ومتاحـا لقـراء الـشعر ومحـبي شـاعره ، حـتي يعيـشوا بـين قـصائده ، كمـا عـشت ، ويلمـسوا مـا يـضمه هـذا الفـضاء الـشعري مـن روح زكيـة ونفـس عاليـة ووجـدان يعـشق المـودة والـصداقة والمحبـة ، والمـشاركة الانـسانية الـصادقة ، فلقـد آن لديوانـه الحكميـات ان يـزاح عنـه غبـار الاهمـال والنـسيان ليتـألق كالماسـة المـشعة في ديـوان الـشعر المعاصر .

والحديث موصول

عبد الحكيم بلبع وديوانه المفاجأة

بقلم: فاروق شوشة

لا يوجد أحد من أبناء جيلي - جيل الخمسينيات - وما بعده في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، إلا وهو يحتفظ في مكان أثير من أعماقه ، بذكري عزيزة وغالية لواحد من أساتذتنا النادرين علما وخلقا وعذوبة وسماحة نفس وإشراق طلعة وبهاء روح . ذلك هو عبد الحكيم بلبع ، الذي عرفه جيلنا عن كثب واكتشف تفرد معدنه وإنسانيته ، وتابع خطاه معيدا ومدرسا وأستاذا في قسم الدراسات الأدبية بالكلية . وهو هو في كل أحواله ومراقيه ، نموذج للإنسان والأستاذ الجميل ، الصافي الوجدان ، المتلىء محبة للناس والحياة ، المحتضن - في أبو ة وأخوة غامرة - طلابه الذين سرعان ما يصبحون أصدقاءه ، وهو يقتطع من نفسه ليسعد غيره ، ويتوهج بالسعادة كلما ازداد عطاؤه ، ونشاطه الأكاديمي والثقافي . راعيا للتقياتنا الأدبية والشعرية ، موجها وناصحا وناقدا في لغة عفة ، ونفاذ رؤية وبصيرة .

ويرحل أستاذنا الجميل بعد سنوات من المعاناة مع مرض الروماتويد وآثاره الفادحة التي أنهكت جسده الشاب ، وعلي مكتبه دراسة يكتبها في وداع الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل ، ليسجلها للاذاعة في إلى وم التالي ، لكن القدر لا يمهله لا تمام آخر مهامه الأدبية والعلمية ، فقد فاضت روحه بعد اسبوعين فقط من رحيل الشاعر الكبير ، في شهر ما يو عام ١٩٧٧ .

وطيلة أربع سنوات قضيتها في الكلية ، وبعدها أكثر من واحد وعشرين عام ا في صحبته ، لا أذكر أني استمعت إلى ه مرة واحدة يتحدث عن شعر من تأليفه ، أو أنه شاعر علي الاطلاق . من هنا ، فدهشتي بالغة ، لا أكاد أصدق عيني والصديق العزيز الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف - الأستاذ في دار العلوم والزميل في المجمع اللغوي - يسلمني أوراق ديوان شعري مخطوط عنوانه الحكميات بعثت بها أسرة أستاذنا الراحل ، بعد أن وجدتها في ثنايا أوراقه ، نجح في اخفاء أمرها عنا طوال هذه السنوات ، وهي تمثل شعره الذي كتبه قبل التحاقه بدار العلوم عام ١٩٤٦ ، مشتملا علي تجاربه العاطفية المبكرة ، بالإضافة إلى قصائد عدة ارتبطت بمناسبات وأحداث وطنية واجتماعية وثقافية بارزة ، تدل علي حسه الوطني والقومي والروحي المشبوب ، وعلي انضوائه - في وقت مبكر - إلى المناضلين من أبناء الحركة الوطنية ، ينشدهم قصائده ، ويحرك أشواقهم ويثبت عزائمهم . المدهش في الأمر ، أن هذا الشعر المبكر جدا ، أتيح له من عناصر النضج والاكتمال ، والصياغة المحكمة ، واللغة الموحية ، والاتكاء علي الموروث الشعري والثقافي ، ما لا يتاح عادة لغيره ممن سبقوه عمرا وتجربة . ثم هو شعر يتناغم

طبيعة المرحلة الشعرية التي عاشتها مصر في أربعينيات القرن الماضي ، حين كان التيار الرومانسي في عنفوانه متمثلا في أعلامه الكبار من شعراء جماعة أبو للو: ناجي وعلي محمود طه ، ومحمود حسن إسماعيل ورامي وصالح جودت والصيرفي والهمشري ، ومن قبله تيار الكلاسيكية الجديدة الذي بدأه شوقي وحافظ إبراهيم وإسماعيل صبري ومطران ، وتيار جماعة الديوان الذي جسده العقاد وشكري والمازني . بالإضافة إلى التأثير والتأثر اللذين صنعتهما الحركة الشعرية في المهجر الأمريكي - شمالا وجنوبا - حين وصلت دواوينها وآثارها إلى مصر والعالم العربي .

في خضم هذا المشهد الشعري المزدحم والمركب ، ولد شعر عبد الحكيم بلبع ، صافيا كلغة الكلاسيين الجدد ، مفعما بالعاطفة المشبوبة والخيال المحلق مثل شعر الرومانسيين ، متوهجا بنزعة الفكر والتأمل ، شأنه شأن جماعة الديوان .

يقول في قصيدة عنوانها نجوي :

علي نجواك أصبح ثم أمسي
فأنت مناي في الدنيا وأنسي
وأنت حديث قلبي كل حين
وأنت سعادتي ، تفديك نفسي

وأنت من استبنت علي سناها
سبيل السعد في أيام نحس
وأنت سميرتي إن فاض همي
وإن عز المدام فأنت كأسي

وإن نفد المعين فأنت عوني
وإن وقب الظلام فأنت شمسي
وإن فاضت شجون القلب يوما
لقيت بروضك الفينان أنسي

ويهزه رحيل الشيخ المراغي الذي يطلق عليه شيخ الجامعة الأزهرية الحديثة فيقول مودعا :

لم يبق غير مدامعي ورثائي
يا موت ، هذا إلى وم يوم بكائي
أرثيك أم أرثي المكارم والحجا

أم للسجايا الغر كان عزائي
هذي هي الدنيا تودع أنسها

حتي طوت للمجد كل رداء
يا منقذ الإسلام من أعدائه
يا من بني للدين خير بناء

. . والحديث موصول

عمر كردي و " هذي حكاياك "

بقلم: فاروق شوشة

يهدي الشاعر السفير عمر كردي ديوانه الثالث هذي حكاياك ـــ الصادر حديثا عن الدار المصرية اللبنانية ـــ إلى زمن جميل تقضي بين المدينة المنورة والقاهرة وفيينا . وإلي الوجوه الحبيبة التي عطرت هذا الزمن وملأته أنسا وحياة . أما المدينة المنورة فهي مدينته إلى ولد فيها ونشأ وتربي ومنحته الكثير من صفائها ونقائها وروحانيتها ، وأما القاهرة فهي المدينة التي تخرج في جامعتها من كلية الحقوق وأتيح له أن يقضي في رحابها أجمل سنوات عمره وأحفلها بالحيوية واكتساب الخبرات والتماس ينابيع الثقافة والفكر ، قنصلا عام ا فيها ، ثم نائبا للمندوب الدائم للمملكة العربية السعودية لدي جامعة الدول العربية . وأما فيينا فهي المدينة الذائعة الصيت في مجالات الفن والثقافة والمنظمات الدولية التي يقيم فيها الآن سفيرا لدي جمهورية النمسا الاتحادية ، حيث منحته جامعتها الدولية الدكتوراه الفخرية في القانون .

لكن القاهرة ـــ التي شرب من ما ء نيلها وعرف سحر ليلها وعذوبة أسمارها وسمارها وجمال امتلائها بكل ما يثري وجدانه ويفجر إبداعه ـــ تظل ، حتي وهو بعيد عنها الآن ، مستحوذة علي اهتمامه ، وتوجهاته ، ها هو ذا يتنسم عبق صفائها ويجتلي بهجة تألقها وهو يصدر فيها ديوانه الثالث بعد أن اختصها من قبل بإصدار ديوانيه السابقين لمن يكون هواها ؟ عام ١٩٨٦ ومحبوبتي عام ١٩٩٥ . وكأنه يقول لها ولأصدقائه العديدين فيها : ها أنذا جئتك وأنا أكثر نضجا ، وشعري أكثر إحكاما ، ونفسي أكثر امتدادا واتساعا لا شواقي وأشواق العصر ، وهمومي وهموم الآخرين .

هل يمكن تصنيف عمر كردي في تيار شعري معين أو إطار شعري محدد ؟ صعب جدا هذا التصنيف ، فهو في حقيقته ، وكما يطالعنا في مجموعاته الثلاث شاعر كلاسيكي رومانسي واقعي . وهذه الأوصاف الثلاثة تتجاور وتتفاعل وتتحاور ، من غير أن تكون الغلبة لا حدها علي الآخرين . في قصائده العمودية نفس شعري تنسكب عليه ظلال من المتنبي والمعري وابن الرومي والشريف الرضي . وفي قصائده الرومانسية ظلال من الشعر المهجري حينا وشعر جماعة أبو للو المتجسد في دواوين الشابي وناجي وعلي محمود طه ورامي حينا آخر ، وفي كثير من قصائده التي تحمل أصداء وقفاته النفسية والروحية مع الأيام والناس ، والتفاتات روحه المتمردة الغاضبة والناقدة لكثير من سلبيات الواقع العربي وتراجعاته في نزعة واقعية نقدية ، واقتراب من لغة شعرية مختلفة لا تحفل ببلاغيات الكلام وتزويق الصورة الشعرية أو اختيار معجم شعري له جمالياته ، بل هو

يقترب مما يدور علي ألسنة الناس يترجم عنهم ويخلص لمعاناتهم: يقول في فيينا الفاتنة ونهرها الفاتن الدانوب:

أحاور فيك الروح والعقل والقلب
فقد ملكت دنياك مما يسلب اللب
أحاور فيك الحسن تغري دروبه
وأسألها أن تستجيب فلا تأبي

سماؤك تغريني ببدر عشقته
إذا ما تراءي راح يجذبني جذبا
وشمسك إن لا حت تبدد كل ما
تحسبته وهما ليقتلني ريبا

وماؤك هذا السلسبيل شربته
فراح يرويني بسلساله عذبا
فيينا دعيني إلى وم أشكو صبابتي
وأرنو إلى دنياك أسألك القربا

فيينا تلاقينا علي الحب بيننا
وها أنا مضني كاد من حبه يصبي !

يكون عمر كردي في أحسن حالاته الشعرية ، وهو يذوب ذوبانا في قصائد الإخوانيات وشكوي الزمان وتأمل الأيام . هنا يستيقظ مخزون هائل اتسع له وجدان الشاعر ، منذ كان طفلا حتي إلى وم ، شديد الذكاء ، مرهف التلفت والحساسية ، يختزن ويستوعب ، وينقب ويتأمل . ويخرج من هذا كله بذخيرة فكر وفلسفة حياة ، ومزاج أقرب إلى فهم سقطات الآخرين وسلبياتهم وقصورهم ، يعرفها ويغفرها لهم ، ويعزف علي هذه الأوتار الشديدة الأسي والشجن أجمل قصائده وأصفاها لغة وأقدرها بنيانا وتأسيسا:

يسائلني أهلي . وقد طاش عقلهم
علام تراعي عهد من أنكر العهدا
تهاديهمو حبا وهم ما تورعوا

بكل الذي أبدوه أن يظهروا الكيدا

لعلك أصفيت المودة جاحدا
فتاه غرورا ، واستساغ الذي أبدي

هو الحب لا يرضي بناموسه أخا
تناءي ، وخلا تاه بالكبر واستعدي
سأبقي علي بعدي وتبقي محبتي

فلست الذي جافي ولست الذي صدا
ولست الذي تغريه دنياه وهلة
فينكر ما قد كان يقطعه وعدا

هـذا هـو صـوت عمـر كـردي الحـريص علـي أن تظـل انطلاقتـه الـشعرية مـن القـاهرة نـشرا وتوزيعـا ودورانـا علـي ألـسنة النـاس وأقلامهـم وهـا هـو ذا بعـد أن تـرك القـاهرة موقعـا للعمـل ، يعـود لـيري فيهـا مـن جديـد مـع نـشر هـذه المجموعـة الجديـدة ، مكانـا لا نطـلاق الـروح ، وفـضاء للـشعر والإبـداع ، ومحطـة لا كتمـال المـسيرة ، أهـلا بـه وبـذوب نفـسه في شعره بيننا .

شوقي في باريس (١)

بقلم: فاروق شوشة

بدأت يوم الثلاثاء الماضي في باريس احتفالية مؤسسة البابطين بأحمد شوقي شاعر العصر الحديث ، في مشاركة إلى ونسكو ، وانعطافة نحو الشاعر الفرنسي لا ما رتين . وهي الخطوة الجديدة للمؤسسة في التوجه إلى الغرب: ثقافة ومؤسسات وجمهورا بعد خطوتها السابقة منذ عام ين حين أقامت احتفاليتها بابن زيدون ، أشهر شعراء الأندلس ، في مدينة قرطبة ، عاصمة الأندلس ورمز الثقافة العربية والإسلامية فيه طيلة قرون .

وباريس في وجدان شوقي ، هي زمن الشباب والحلم والطموح ، حين أرسله الخديو إلى فرنسا لدراسة الحقوق ، فكان تفتحه الثقافي ، وتفجره الابداعي ، وكانت حساسيته الرومانسية ، متأثرا بروح العصر ، وقراءاته في ابداع شعرائه وكتابه ، وكانت ترجمته لقصيدة البحيرة التي أبدعها لا ما رتين من وحي هذه الحساسية ، وهي الترجمة المفقودة بين آثار شوقي ، بينما بقيت ترجمة كل من الشاعرين علي محمود طه وابراهيم ناجي للقصيدة نفسها ، علامة علي التأثر العميق ، بهذا الاتجاه الشعري الذي مثلته جماعة أبو للو أصدق تمثيل ، وبخاصة لدي أعلامها الكبار .

وكما أتيح لشوقي ـ وهو طالب بعثة في فرنسا ـ أن يتعرف علي روائع المسرح الشعري الفرنسي عند رموزه: راسين وكورني وموليير وغيرهم ، وأن يغامر في هذه السن المبكرة بكتابة مشروعه الأول فيه عن علي بك الكبير ـ وهو المشروع الذي رحب به خديو مصر وشجعه عليه في الخطاب الذي بعث به رشدي باشا بالفرنسية إلى شوقي ويقول فيه: أما روايتك فقد تفكه الجناب العالي بقراءتها ، وناقشني في موضوع منها وناقشته ، وهو يدعو لك بالمزيد من النجاح ، ويجب ألا تشغلك دروس الحقوق التي يمكنك تحصيلها وأنت في بيتك بمصر عن التمتع من معالم المدنية القائمة أمامك ، وأن تأتينا من مدينة النور (باريز) بقبس تستضيء به الآداب العربية ـ وكان المسرح الشعري الذي عاد إلى ه شوقي في سنوات نضجه ، وبعد مبايعته بإمارة الشعر عام ١٩٢٧ ، تحقيقا لهذه الأمنية التي تطلع إلى ها الخديو المستنير ، وبعض القبس الذي استضاء به الأدب العربي والشعر العربي بعد ذلك ـ أقول: كما أتيح هذا لشوقي في عاصمة النور ، فقد أتيح له تذكر هتفات شعرية تتوهج برومانسية شباب ذلك الزمان ، في مثل قصيدته غاب بولونيا وهو أحد المتنزهات العامة المشهورة في باريس ، وهو يقول بعد أن امتد به العمر:

يا غاب بولون ولي ذمم عليك ، ولي عهود

زمن تقضي للهوي ولنا بظلك ، هل يعود

حلم أريد رجوعه ورجوع أحلامي بعيد

وهب الزمان أعادها هل للشبيبة من يعيد

وصولا إلى قوله:

هلا ذكرت زمان كنا والزمان كما نريد

نطوي إلى ك دجي الليالي والدجي عنا يذود

فنقول عندك ما نقول وليس غيرك من يعيد

نطقي هوي وصبابة وحديثها وتر وعود

والطير أقعدها الكري والناس نامت والوجود

وقد احتشدت مؤسسة البابطين لهذه الاحتفالية عن شوقي ولامارتين ، باصدارات تضم مختارات جديدة من شعر شوقي ، ومختارات من شعر لا ما رتين ، وكتب جديدة عن أحمد شوقي في المصادر والمراجع ، وشوقي في عيون معاصريه ، بالاضافة إلى عشرات الأبحاث للمشاركين المصريين والعرب والأجانب التي استغرقت أيام الاحتفالية الثلاثة ، والتي سيكون صدورها بعد الاحتفالية مجتمعة بمثابة وثيقة أدبية ونقدية شديدة الأهمية في رؤية كل من شوقي ولامارتين بعد سنوات طويلة من الرحيل ، خصوصا أن العام القادم ـ عام ٢٠٠٧ ـ يشهد مرور خمسة وسبعين عام ا علي رحيل أحمد شوقي ، ومن قبله ـ بثلاثة أشهر ـ رحيل حافظ ابراهيم ، علما بأن الاحتفالية ستقام في مقر إلى ونسكو وفي معهد العالم العربي .

ها هو ذا شوقي يعود ثانية إلى مدينة النور التي قصدها من بعده كثير من رموز كوكبة التنوير في مصر والعالم العربي: طه حسين وتوفيق الحكيم ومحمد حسين هيكل و عبد الرحمن بدوي ومحمد مندور ومحمد غنيمي هلال ومحمود قاسم وأحمد الصاوي محمد وغيرهم ، وصولا إلى أحدثهم أحمد عبد المعطي حجازي ، يعود إلى ها شوقي وقد تغيرت الدنيا ، واهتزت القيم والمعايير ، وزاغ بصر الناس بالشعر ، واختل تقديرهم لمعني الثقافة والإبداع ، فهل ينجح صوت شوقي ـ عبر انشاده بالعربية والفرنسية ـ أن يحقق حلم مؤسسة البابطين واليونسكو معا ، في إسماع العالم هذا الصوت الشعري الجهير القادم من الشرق ، وفي إقامة جسر من التلاقي والحوار الفكري والثقافي ، يغفر الكثير من الإساءات التي صنعها الآخرون بنا ، والتي لم نقصر نحن في صنعها لا نفسنا ؟ هذا هو السؤال .

شوقي في باريس - ٢ -

بقلم: فاروق شوشة

امتلكت مؤسسة البابطين زمام المبادرة حين سبقت كل المؤسسات والهيئات الثقافية- المصرية والعربية- إلى الاحتفال بالذكري الخامسة والسبعين لرحيله ، والتي ستحين في اكتوبر القادم . واختارت لا حتفالها مكانا أثيرا لدي شوقي ولصيقا بعقله ووجدانه هو باريس ، حيث قضي شوقي بعض سنوات شبابه دارسا للقانون ، ومستوعبا للحياة الثقافية والادبية والشعرية ، وعائدا إلى مصر بمشروعه الرائد في كتابة المسرح الشعري .

لكن اختيار شوقي- ومعه الشاعر الفرنسي لا ما رتين- عنوانا لهذا الملتقي ، يعني أمرا آخر شديد الاهمية . تقاس هذه الاهمية في ضوء تردي الواقع الشعري وتشرذم عالمه وتشوش مصطلحه . الامر الاخر اذن هو التذكير بحقيقة الشعر وجوهره ممثلا في واحد من رموزه الكبيرة ، يوم كان للشعر صوت ودور وتحقق ودوران . الشعر الان يدور به شعراء الربابة الجوالون ، وينحني عليه رواد الأقبية والكهوف ، ويشارك في جنازته صاغة الكلام المهشم واللغة المزقة باسم التجديد والتجاوز . هؤلاء لا يعرفون مسيرة القصيدة العربية ولا يستوعبون جمالياتها ولا يقرأون تاريخها ، ويقفزون- فيما يسمونه فعل التجديد- من الفراغ والعدم . ان لم أمتلك قديما فما الذي أجدد فيه ! واختيار شوقي يعني أمرا ثالثا مهما . هذا شاعر اتصل بالثقافات الاخري وهو يمتلك ناصية ثقافته ، واستوعب شعر الاخرين فلم يزعزعه عن عالمه الشعري ولم يصرفه عن جوهره وكيميائه . هو حلقة ذهبية في سلسلة المبدعين الكبار الذين عبروا البحر فلم يتركوا رؤوسهم وقلوبهم هناك وإنما عادوا بها أكثر امتلاء ووعيا وصحة وعافية ، واستطاعوا بهذه الندية وهذا المستوي من الحوار والتواصل أن يؤكدوا ذواتهم ويجددوها وأن يبتعدوا عن شرك فقدان الهوية أو عقم الاغتراب .

في باريس كان أكثر من ما ئتي مشارك مصري وعربي وأجنبي من الديانات الثلاث: الإسلام والمسيحية واليهودية ، يعرضون جوهر الثقافة العربية في الانفتاح والتواصل والتسامح والسلام ، ويؤكدون في الندوات المخصصة للثقافة وحوار الحضارات التي استغرقت يومين من أيام الملتقي ، موقف الحفاظ علي الحق ، والمناداة بالعدل ، والتحرر من السلبية والانعتاق من قيود التخلف والخرافة ، والانطلاق نحو المشاركة في صنع المستقبل (وهو موضوع حديث قادم) .

وكـان شـوقي- الـشاعر الكلاسـيكي الجديـد- كمـا سمـاه الـدكتور محمـود الربيعـي في بحثه أمـام الملتقـي الـذي يؤسس بـه لقـراءة جديـدة عنوانـا علـي هـذا كلـه ، عـين علـي الماضـي وأخـري علـي الحاضـر ، وخيـال طليـق يقـرأ المـستقبل ، وبيديـه مرجعيـة التـاريخ (المتمثلـة في الرسـل والملـوك والقـواد والحكمـاء المعلمـين) ومرجعيـة الطبيعـة . وهمـا : أي التـاريخ والطبيعـة جناحـا الـشاعر كمـا نـادي شـوقي نفـسه ، أمـا عينـه علـي الواقـع فتتـسع رؤيتهـا لتشمل قـضايا الحريـة والعلـم والمعرفـة وتمجيـد العمـل والـشبيبة والمـرأة وأمـا عينـه علـي المـستقبل فتتمثـل في اضـافة أوتـار رنانـة إلى القيثـارة المـشدودة: أغـاني الاطفـال (عـدة المـستقبل) الخرافـة علـي لـسان الحيـوان والطـير (توسـيع رقعـة الواقـع وخلطـه بـالحلم) ، المـسرح الـشعري (اشـارات رامـزة إلى مـستقبل التـشكيل في الـشعر العربـي: مـن الغنـائي إلى الـدرامي) . ولا ينتهـي بحـث الـدكتور الربيعـي قبـل طـرح الاسـئلة الكـبري في الموضـوع مـا ذا بقـي مـن شـوقي- بعـد خمـسة وسبعين عـام ا ! هـل دفـع مـسيرة الـشعر العربـي إلى الامـام ، أم وقـف بقامتـه المديـدة حجـر عثـرة في طريـق تطـوره ؟ مـا ذا عـن شـوقي والتجديـد في هـذه المـسيرة ! وهي أسـئلة شـكلت هاجـسا نقـديا مهمـا في أبحـاث الـدكتور فـوزي عيـسي والـدكتور صـالح جـواد الطعمـة والـدكتور محمـد الحـداد والـدكتور خليـل الموسـي والـدكتوره فرنشيـسكا مـا ريـا كـارو: التي تناولت مـا سـاة كليوبـاترا عنـد شـوقي بالمقارنـة مـع شيكـسبير ودريـدن وألفـييري أمـا بحـث الـدكتور فلوريـال سانغوسـتان فلـم يـزد علـي كونـه تعريفـا مدرسـيا بـسيرة شـوقي يـصلح لطلبـة المرحلـة الثانويـة مـع أنـه حمـل عنوانـا ضـخما هـو شـوقي والغـرب . هـذه القـراءة المعاصـرة لا حمد شوقي- وهي عنـوان بحـث الـدكتور الربيعـي الـذي أصبح عنوانـا لمحـور شـوقي كلـه- حـد مـن انطلاقتهـا إلى آفاقهـا الارحـب- في بعـض الابحـاث-طـابع الاجـترار والتكـرار والمدرسـية في التنـاول ، بينمـا تـوهج الـبعض الاخـر بإضـاءات جديـدة وغـير تقليديـة ، لم يتـسع المجـال للافاضـة فيهـا ، ومـن المؤكـد ان جمـع هـذه الابحـاث ونـشرها- علـي عـادة المؤسـسة في ملتقياتهـا الـسابقة- مـن شـأنه أن يتـيح فرصـة أعمـق وأرحـب لقراءتهـا وتأملـها والنفـاذ إلى جـوهر التنـاول الجديـد فيهـا . كمـا ان موضـوع المـسرح الـشعري عنـد شـوقي- وهـو درتـه الـشعرية الباقيـة الـتي تلتمـع بالعديـد مـن المقطعـات والمونولوجـات البديعـة ، والـتي يحفظهـا ويرددها قـراء مـسرح شـوقي- هـذا الموضـوع لم يأخـذ حقـه مـن الدراسـة المنفـردة المـستقلة ، فقـد جاء عـابرا في سياق تنـاولات عـدة دون أن يكـون جانبـا أساسـيا بذاتـه يتـسع لكـثير مـن القـضايا والرؤي النقدية .

لكـن شـوقي لم يكـن وحـده في بـاريس . فقـد كـان إلى جـواره شـاعر الرومانتيكيـة الفرنـسية لا مـا رتـين ، والنـدوة الـشديدة الاهميـة المـصاحبة للـشاعرين وعنوانهـا الثقافـة وحـوار الحوارات . فإلي حديث قادم .

حوار الثقافات في ملتقى باريس

بقلم : فاروق شوشة

كان حرص مؤسسة البابطين علي تكريم المستشرق الفرنسي الكبير أندريه ميكيل – في إطار دورتها العاشرة التي حملت اسمي شوقي ولامارتين في باريس (من٣١ أكتوبر إلى ٢ نوفمبر الحالي) ـ يمثل أول جهد ثقافي عربي لتكريم هذا الرجل ، الذي يعد أول من كتب مقالا في الغرب عن نجيب محفوظ عام ١٩٦٣ منوها إلى ريادته للرواية العربية ودوره المؤثر فيها ، وأول من رشح نجيب محفوظ لجائزة نوبل ، بالإضافة إلى إنجازه الاكاديمي الذي يتمثل في عشرات الكتب والدراسات حول الثقافة العربية الإسلامية ، وعشرات الدارسين المصريين والعرب علي يديه ، من بينهم الدكتور أحمد درويش الذي كان صوت المؤسسة في تكريمه والإشادة بدوره وحجم إنجازه ـــ وهو التلميذ المباشر له ـــ ودمعت عينا الرجل مرات أمام الحشد الكبير في قاعة إلى ونسكو وهو يري يد العالم العربي تمتد إلى ه – لا ول مرة – بهذا القدر من التقدير والحفاوة .

أما ندوة الثقافة وحوار الحضارات ـــ التي أدارها الدكتور أحمد درويش باقتدار – فقد كانت ذروة الحدث ، وصوت العدالة والحق والإنصاف في عرض قضية الحوار ، ودعوة الآخر إلى صوت الحق والحكمة ، والتخلي عن روح الغطرسة والاستعلاء وصوت التذكير بالدور التاريخي المستمر الذي قامت به الحضارات والثقافات الشرقية ـــ وفي مقدمتها الثقافة العربية الإسلامية ـــ في إعلاء قيم العلم والعقل وإرساء دعائم النهضة وإطلاق مصابيح التنوير . وتكاملت عناصر السيمفونية الرائعة التي عزفتها أصوات المشاركين الكبار في الندوة: محمد خاتمي ورئيس جمهورية إيران السابق ورئيس منظمة حوار الحضارات ، والأب عطا الله حنا مطران القدس ، والشيخ تيسير التميمي شيخ المسجد الأقصي ، والحاخام ألان كوهين ممثل الطائفة إلى هودية التي تنادي بتفكيك دولة إسرائيل سلميا ، وإقامة دولة يتعايش فيها الجميع دون تعصب ديني .

وكما كان شوقي العظيم صوت الشرق الشعري في هذا الملتقي ، فقد كان لا ما رتين صوت الرومانسية الفرنسية فيه . وكان الحديث عنه وعن دوره في الشعر الفرنسي ، ـــ وهو الذي توفي قبل ميلاد شوقي بعام واحد أو في العام نفسه لا ن تاريخ ميلاد شوقي أمر مختلف عليه بين عام ي١٨٦٨ و١٨٧٠ ـــ مكافئا للحديث عن شوقي وإنجازه . لكن الملتقي نجح في الكشف عن مفاجأة ثقافية وأدبية وتاريخية هي كتاب لا ما رتين مختارات من حياة محمد الذي لم يطبع بالفرنسية منذ ما ئة واثنين وخمسين عام ا ، والذي جاء في سياق كتابه الضخم عن الدولة العثمانية ، من هنا كان حرص مؤسسة البابطين علي إصدار طبعتين منه فرنسية وعربية ، وقام الدكتور أحمد درويش بالاشراف علي الترجمة

والتقديم له في الطبعة العربية ، كذلك الحرص علي ترجمة كتاب جون ما ري كاري رحالة وأدباء فرنسيون في مصر الذي ترجمة الدكتور سونيا نجا من جامعة الاسكندرية والدكتورة رشا صالح من جامعة حلوان ، وترجمة كتاب الدكتور أنور لوقا رحالة وأدباء مصريون في فرنسا قامت بها الدكتور كاميليا صبحي ـ الملحقة الثقافية المصرية في باريس وصاحبة الخبرة الطويلة في ترجمة العديد من الأعمال المصرية والفرنسية في جسر ، موصول عبر اللغتين ـ والدكتورة أمل الصبان ، كما تضمنت منشورات المؤسسة الخاصة بهذه الدورة ترجمة لكتاب الدكتور مؤنس طه حسين الرومانتيكية والاسلام قام بها الدكتور محمد علي الكردي .

حصاد هذه الدورة كبير ومؤثر بكل المقاييس ، وقد كان الاختيار الدقيق للعديد من المشاركين ، من أصحاب الأبحاث والدراسات ، وإنجاز الترجمات المصاحبة لا نشطة الدورة ، والترجمة الفورية المصاحبة للندوات ، والتنظيم الدقيق للحركة المستمرة بين قاعة إلى ونسكو ومبني معهد العالم العربي ، والنشاط الفني في ختام كل ليلة ، والتغطية الإعلامية المواكبة للدورة ـ وبخاصة قناة النيل الثقافية في مصر وقناة البوادي في الكويت ـ والصحافة المصرية والعربية وما تم استعراضه من أعمدة الصحافة الفرنسية ـ كان كل ذلك يمثل نجاحا لهذه الدورة ، ويجسد الصدي الذي أحدثته ، وحجم المطبوعات التي حملها المشاركون جميعا عند رحيلهم ، وبينها مختارات من شعر شوقي وأخري من شعر لا ما رتين صدرت في هذه المناسبة .

يبقي الحديث عن نهضة العالم العربي وتحديثه ، والمشروعات الكبري التي قام بها المفكرون والمصلحون ، والحديث عن التنوير وما حدث له ، والوضع المتردي الراهن: سياسيا وفكريا وثقافيا ، أرجئه إلى مقال قادم .

إطلاق الحبيس في ملتقي باريس

بقلم: فاروق شوشة

لم يكن ما دار في قاعة إلى ونسكو أو مقر العالم العربي بباريس هو كل ما حفل به هذا الملتقي الثقافي الفكري الذي أقامته مؤسسة البابطين علي مدي ثلاثة أيام (٣١ أكتوبر -٢ نوفمبر٢٠٠٦) وشارك فيه العشرات من الباحثين والمفكرين والأدباء والشعراء والمترجمين ، وهو الملتقي الذي حمل عنوان شوقي ولامارتين في الدورة العاشرة من دورات هذه المؤسسة في انعطافتها الأخيرة تعميقا لحوار الثقافات منذ اتجهت شرقا إلى طهران وشيراز حيث كانت احتفالية سعدي شيرازي ، ثم اتجهت غربا إلى قرطبة عاصمة الأندلس في الجنوب الإسباني من أجل احتفالية ابن زيدون ، وهي تخطط الآن لا نطلاقتها القادمة في احدي العواصم الأوروبية أيضا .

نعم ، كانت هناك ـ بين العديد من المشاركين أساتذة ومبدعين ـ هذه الفورة من الحيوية والحاجة إلى هز الساكن وضرورة تجاوز المتكرر والمألوف في طرحنا ـ نحن العرب ـ لوجهات نظرنا فيما يسمي بخيار السلام وحوار الثقافات والموقف من الآخر والإعلان الدائم عما كنا نمتلكه ونقود به العالم ونعلمه ، محاولين أن نقنع به الذين يروننا الآن ويصنفوننا ويدركون أن عقولنا خلو من إبداع العصر وروحه وأن أيدينا خاوية لا تقبض علي شيء ، وإننا في أحسن الأحوال نرد إلى هم بضاعتهم .

وفي مناسبة هذا الشعور العميق بهز الساكن كانت مداخلتي ـ في إحدي جلسات حوار الثقافات ـ حول مشروعي النهضة والتنوير في العالم العربي ـ وملاحظة أن مشروع النهضة كان أكثر نجاحا وقدرة علي فعل التغيير ، لا ن الذين قاموا به من أمثال رفاعة الطهطاوي وزكي الأرسوزي و عبد الرحمن الكواكبي وجمال الدين الأفغاني وفرنسيس المراسي ومحمد عبد ه وطه حسين والعقاد وهيكل والمازني وسلامة موسي و عبد الحميد بن باديس وغيرهم ـ في أقطار عربية شتي ـ كانوا يحملون في أعماقهم شعورا عميقا بالندية في حوارهم مع الآخر ، ويتكئون علي موروث ثقافي وفكري استطاعوا أن يضفروا من جدليتهم الحية معه موقفا ورؤية ، وأن يصنعوا مشروعا قوميا عربيا للنهضة ، وأن يتعاملوا مع الآخر طيلة الوقت ـ بالرغم من أن أقطارهم كانت محتلة وممزقة وغير مكتملة العدة للانطلاق والبناء ـ وهم يتمثلون حقيقة العالم الذي يعيشون فيه دون أن تمحي ملامحهم أو تذوب هوياتهم أو تنهار مقاومتهم . وحقق مشروع النهضة ـ علي أيديهم ـ ثمار التحرر من اللاجئين ، وبناء أدوات النهضة في الجامعة ، والصحافة ، والمؤسسات الدستورية ، والطباعة والنشر ، وثورة القوانين ، وإنشاء المجامع اللغوية والعلمية ، والتولدات الأولي لحرية التعبير ، والمواجهات مع القوي العظمي في الخارج ، والقوي

المؤازرة للتخلف والتراجع في الداخل ، وقبل ذلك وبعده الجدل الحي مع الموروث - في شتي مجالاته - بعد نفض أقنعة القداسة عما ليس مقدسا ، والانطلاق المفتوح العينين والعقل والقلب معا .

وأتيح لا جيالنا الجديدة - من بعدهم - أن تتلقف مشروع التنوير ، الذي بدأ في بعض مقولاته - بالتشكيك في مواقف عدد من النهضويين واتهام بعضهم بالعمالة والتواطؤ والانهزامية ، ثم تقدم هذا المشروع خطوة أخري - علي أيدي بعض منظريه وممثليه ليدعو إلى قطع الصلة مع الموروث الثقافي والفكري باعتباره من عوامل الضعف والتخلف والبعد عن مسايرة العصر ثم تقدم خطوة أخري محاولا أن يكسو إهاب حياتنا العربية الجديدة بكل ما يطرحه الآخر علينا من مناهج وطرائق وتوصيفات وتسميات ، بديلا لكل ما بين أيدينا من عدة الإبداع والاجتهاد ، وحضا للشباب الجديد علي مزيد من الانخلاع والتسيب من كل ما يجعل لهذا الشباب - في مجال الثقافة والفكر والإبداع - سمته الخاصة وهويته الخاصة ، وطريقه الموصول بكل ما أنجزه الآباء والأجداد ، من خلال تلك الجويلة الذهبية التي تستخلص الحي والمتجدد ، والجوهري والأصيل ، في موروث الأمة وثقافتها وإبداعها ، دون قطيعة تؤدي إلى فقدات الذات أو اغتراب يؤدي إلى خلخلة الوجود (وتأملوا علي سبيل المثال ما يقودنا إلى ه بعض هؤلاء التنويريين في مجالات الإبداع والنقد الأدبي وقيم الثقافة العربية ، والأفق القومي الذي كان يتسع فضاؤه بالضرورة لرؤي مشتركة وإنجازات متكاملة ، دون بعثرة أو تشتيت أو تكرار .

هل يعني هذا أن النهضويين نجحوا فيما لم ينجح فيه التنويريون ؟ وهل آن الأوان لوضع ما سمي بمنجزات التنوير والاستنارة بوضع التساؤل ؟

هذا هو السؤال الصعب الذي يفجره ملتقي شوقي ولامارتين وحوار الثقافات في باريس .

لامارتين وكتابه حياة محمد

بقلم: فاروق شوشة

من ما ثر مؤسسة البابطين في احتفاليات دورتها العاشرة التي أقيمت في باريس من١٠ / ٣١ إلى ١١ / ٢ ، وحملت عنوان شوقي ولامارتين ، أنها أعادت إلى الأذهان كتاب شاعر فرنسا الكبير ألفونس دي لا مارتين حياة محمد ، الذي ألفه عام ١٨٥٤ مقدمة لكتاب ضخم من سبعة أجزاء عن تاريخ تركيا .

تقول عنه الموسوعة العربية الميسرة: لا مارتين ، ألفونس ماري لوي دي (١٧٩٠ – ١٨٦٩) شاعر وروائي فرنسي ، اشتغل بالسياسة وشغل مناصب سياسية كبيرة ، أصاب نجاحا كبيرا عندما نشر أول ديوان له ، وهو خواطر شعرية يتضمن أربعا وعشرين قصيدة أشهرها البحيرة ، وهي القصيدة التي ترجمها شوقي إلى العربية ، وهو طالب بعثة في فرنسا ، وأرسلها من هناك إلى رشدي باشا ليطلع الجناب الخديو عليها ، وعندما رجع شوقي ، وجد القصيدة قد فقدت ، وقد ترجمها عدد كبير من الشعراء المصريين والعرب بعد شوقي أشهرهم إبراهيم ناجي ، وعلي محمود طه .

ثم تضيف الموسوعة أن أشعاره في ديوانه الأول جاءت تعبيرا صادقا عن المشاعر التي كانت تستولي علي الشاعر في أثناء تأمله وتأثره بالطبيعة ، وقد كان شديد الإيمان كما يبدو من قصيدته سقوط ملاك ، وفي السياسة لم يكن يحب الانتماء إلى أي حزب ، وكان يؤمن بمبادئ الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والسلام العالمي ، وبعد ثورة فبراير أصبح لا مارتين رئيسا للحكومة المؤقتة ، ثم عضوا في الجمعية التنفيذية التي حلت محلها ، ثم حاول تأييد حزبي إلى مين واليسار معا لميله إلى الاعتدال ، ولكنه لم ينجح ، ولما نافس نابليون الثالث علي رئاسة الجمهورية فشل ، فقرر اعتزال السياسة ، وقضي بقية أيامه في الكتابة .

صدرت الطبعة الأولي من كتاب لا مارتين عن تركيا ، وعن حياة محمد عام ١٨٥٤ ، وتم إهمال الكتاب عن عمد ، ولم تصدر طبعته الثانية بالفرنسية ، إلا هذا العام .

وكان حرص مؤسسة البابطين متمثلا في ضرورة أن تواكب الطبعة الفرنسية الثانية من الكتاب ترجمة إلى العربية ، تضم خلاصة الكتاب ، وفكرته مع الالتزام بصياغة لا مارتين في لغته الفرنسية الرائعة ، ومحاولة الاقتراب بها من ذوق القارئ العربي ، قام بهذه الترجمة الدكتور محمد قوبعة من تونس . فجاء الكتاب وترجمته نموذجا رفيعا لحوار الحضارات بين الشرق والغرب .

ويضئ الدكتور أحمد درويش جوانب كثيرة من اللحظة التاريخية التي قادت لا ما رتين في هذا الاتجاه ، فهو يري أن مناخ الحركة الرومانسية - التي كان لا ما رتين واحدا من كبار ممثليها - كان يمجد الاغتراب والحنين إلى الزمان البعيد ، والمكان البعيد ، وكان الشرق رمزا لهذا الاغتراب الذي تهفو إلى ه نفوس كثير من الرومانسيين سواء ممن حلموا به ، وكتبوا عنه ، أو ممن رحلوا إلى ه ، وجاسوا خلاله وكتبوا عن كثير من بقاعه ، ومشاهد الحياة فيه مثل لا ما رتين الذي يعد كتابه الكبير رحلة إلى الشرق من أشمل ما كتب عن الشرق وأعمقه ، خاصة بلاد الشام ، برموزها المكانية والزمانية ، وإحالاتها الطبيعية والتاريخية والريفية ، مكملا لما كتبه الآخرون عن مصر من أمثال نرفال وجوتييه وفلوبير وعلماء الحملة الفرنسية ، وكتابات لا ما رتين عن حياة محمد تمثل - من هذه الزاوية - استجابة - لنزعة الحنين للكتابة عن شخصية عظيمة في الزمان البعيد والمكان البعيد ، وقد تمثلت في كتاباته الإيجابيات الكثيرة المعجبة المتعاطفة مع شخصية محمد في معظم الأحايين والمحايدة المتسائلة في أحايين كثيرة .

كما كان لتجربة لا ما رتين الفاشلة في عالم السياسة التي حاول من خلالها الدعوة إلى تطبيق ديمقراطية سياسية حقيقية أساسها الأخذ بيد الطبقة العريضة ، لكن قوي إلى مين تكتلت ضده وأفشلته ، كان لهذه التجربة السياسية العميقة أثرها في جعله أكثر قدرة علي رؤية جوانب العظمة في شخصية محمد - الرسول الكريم - وهو يحول جموع الفقراء والضعفاء إلى جماعات ترفع رايات العزة والكرامة ، وتنطلق بالإنسانية كلها إلى آفاق غير معهودة من قبل .

ويوضح الدكتور أحمد درويش - في تقديمه للترجمة العربية - أن الصورة التأليفية التي اختارها لا ما رتين لكتاب حياة محمد ساعدته كذلك علي تجنب الوقوع في كثير من السلبيات التي وقع فيها معاصروه ، فبالإضافة إلى نظرة الإعجاب لمحمد ، وتقدير جوانب العظمة فيه ، والتمتع بروح الحياد المبرأة من الأحكام الشائعة والمسبقة ، اختار لا ما رتين الكتابة عن حياة محمد لا عن عقيدة محمد مع ظهور روح التقدير البالغ لكليهما .

فما الذي قاله لا ما رتين عن محمد نبي الإسلام ؟ هذا هو موضوع المقال المقبل .

ماذا قال لا ما رتين عن حياة محمد ؟

بقلم: فاروق شوشة

كانت فكرة كتابة لا ما رتين - الشاعر الفرنسي الشهير عن حياة محمد - مجرد مقدمة لكتاب ضخم عن تاريخ تركيا يقع في سبعة أجزاء ، كتبه لا ما رتين بعد أن جاوز الستين من عمره عام ١٨٥٤ ، وبعد أن ترك الاشتغال بالسياسة وصراعاتها ، وبعد أن تخفف من سطوة الابداع الشعري والأدبي التي أصبح بفضلها نجما متألقا في سماء الأدب العالمي .

لابد أن نعود - ثانية - إلى المقدمة البديعة - الشديدة التركيز والعمق - التي كتبها الدكتور أحمد درويش للترجمة العربية من الكتاب ، وهو يوضح أن لا ما رتين كان قد قرر العودة إلى التاريخ بعد أن عاش الحاضر وملأ الدنيا وشغل الناس ، ولفت الانظار بقدرته علي التأليف الغزير حول تاريخ روسيا وتاريخ تركيا في مجلدات كثيرة ، وكيف كانت المسألة الروسية والمسألة التركية من أكثر ما يشغل السياسيين في أوروبا في القرن التاسع عشرة فلم يبتعد لا ما رتين إذن باختياراته عن حجم تأملاته وتجاربه السابقة .

ويبدو أنه بعد أن انتهي من كتابة تاريخ تركيا التي كانت تمثل الامبراطورية الإسلامية لذلك العصر ، رأي أنه لا يمكن فهم تاريخها بمعزل عن حياة صاحب الدعوة الإسلامية فكتب المقدمة التي أصبحت كتابا مستقلا .

كما حدث لمقدمة كتاب ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر فقد أصبحت هذه المقدمة أشهر من الكتاب نفسه ، وأكثر دورانا علي ألسنة الناس وأقلامهم ، ونسي الناس الكتاب الأصلي ، ولم يعودوا يذكرون إلا المقدمة التي أسست علما جديدا هو علم الاجتماع باعتراف العلماء في الشرق والغرب .

فما الذي يقوله أكبر كاتب وأكبر رجل دولة في فرنسا - في القرن التاسع عشر - وهو يكتب عن حياة محمد ؟ إنه يقدم عبارات حافلة بالثناء والإعجاب في مثل قوله والترجمة للباحث التونسي الدكتور محمد قوبعة والمراجعة والاختيار للدكتور أحمد درويش) : ما من إنسان البتة رسم لنفسه إدراك هدف أسمي مما نوي محمد أن يبلغ ، إذ كان هدفا يفوق طاقة البشر ، يتمثل في نسف المعتقدات الزائفة التي تقف بين المخلوق والخالق ، وإرجاع الله للإنسان ، وإرجاع الانسان لله ، وبعث الفكرة الألوهية المجردة المقدسة في خضم فوضي الآلهة المادية المشوهة ، آلهة الوثنية ، وما من إنسان البتة - في نهاية المطاف - استطاع أن ينجز في وقت أوجز ثورة علي الأرض أعظم أو أبقي مما أنجز هو "

.

ثم يقول لا ما رتين عن نبي الاسلام: فإذا كانت عظمة المقصد ، وضآلة العدة ، وضخامة النتيجة هي مقاييس عبقرية الانسان الثلاثة ، فمن يجرؤ أن يقارن - علي الصعيد الإنساني - أي عظيم من عظماء التاريخ الحديث بمحمد ؟ إذ إن أبعدهم في الشهرة لم يهز سوي أسلحة وقوانين وممالك ، ولم يؤسس - إن كان أسس شيئا - سوي قوة ما دية غالبا ما انهارت قبل أن ينهار هو .

أما محمد ، فإنه قلقل جيوشا وتشريعات وزرع ممالك ، وهز شعوبا وعروشا ، بل إنه هز فوق ذلك معابد وآلهة وأديانا وأفكارا ، ومعتقدات وأرواحا ، وأقام علي أسس كتاب صارت كل كلمة فيهش قانونا ، انتماء إلى أمة روحية تجمع شعوبا من مختلف اللغات والأجناس ، وطبع في تلك الأمة - بأحرف لا تمحي - مقت الالهة الزائفة ، وعشق الله الواحد المجرد .

ولا يفوت الدكتور أحمد درويش أن يشير إلى أن استقبال كتاب حياة محمد في الأوساط الثقافية الفرنسية في القرن التاسع عشر ، كان مختلفا ، خاصة عند المهتمين بقضايا الفكر الديني ، والمتعصبين ضد الإسلام وحضارته ، فقد وجهت إلى لا ما رتين تهم تصل إلى حد الإلحاد والكفر من جراء تعاطفه وإعجابه الشديد بشخصية محمد ، والسيرة الحضارية الراقية لدعوته ، وبالارتفاع بقيمة الشرق مصدر الحضارات ومنبع الديانات .

ولم يكن موقف الأجيال التالية أقل قسوة علي الكتاب ، فقد تم عمدا إهمال إعادة طباعته علي مدي ما يقرب من ما ئة وخمسين عام ا منذ صدور طبعته الأولي سنة١٨٥٤ حتي صدور طبعته الثانية بالفرنسية هذا العام ، في مناسبة احتفالية الدورة العاشرة لمؤسسة البابطين التي أقيمت في باريس وحملت عنوان شوقي ولامارتين ، وصدور طبعته العربية في المناسبة نفسها لتكون متاحة لكل قراء العربية ، وأصبح صدور الكتاب في طبعتيه : الفرنسية والعربية مجرد إنجاز واحد ضمن إنجازات شتي تمخضت عنها دورة شوقي ولا ما رتين .

في محراب الشيخ المهيب الجليل

بقلم: فاروق شوشة

من جديد يعود الشعر إلى صدارة المشهد ، ويصبح جديرا بلقبه القديم المتجدد فن العربية الأول . تتلاحق موجات الابداع واحدة بعد الأخري ، وتنهمر الدراسات والأبحاث من كل حدب وصوب ، تقرؤه وتتذوقه وتتأمل في بنيته وتنظر لا تجاهاته وتياراته ، وتربطه بعصره وبتراثه ، وتراه في موقعه من الابداع الشعري العربي وفي مرآة الشعر العالمي كله . وهناك من يعكف علي أسئلة الشعر الأول: معناه وضرورته ودوره ، وماضيه وحاضره ومستقبله ، والعلائق الحميمة الموصولة بينه وبين الحياة والانسان ، وهي الاسئلة التي اتسع لها ملتقي القاهرة الدولي للشعر العربي - منذ أيام قليلة - وكان الحضور الحاشد ، والحيوية الدافقة ، وأصوات الشعر المتوهجة ، دليلا علي عودة الجمهور إلى الشعر ، وعودة الشعر إلى الجمهور . في خضم هذا كله ، يطالعنا الشاعر والناقد والباحث وأستاذ الدراسات الأدبية الدكتور محمد فتوح أحمد بكتابه الجديد واقع القصيدة العربية ليطرح بدوره أسئلته الجوهرية عن قضية المنهج حين يتصل الأمر بقراءة القصيدة ، وعن الشكل في الشعر ، والقصيدة العربية المعاصرة إلى أين ؟ ، وتوظيف المقدمة في القصيدة الحديثة ، والشعر بالصورة ، ومرايا الشعر ، والتشكيل بالموروث ، وأصوات جديدة ، وشعرية المحاذاة والتجاوز ، وتكاملات البنية الشعرية ، والدكتور فتوح أحمد يصدر في أسئلته التي يطرحها ، وفيما يقترحه من إجابات عن إدراك واع بأن الشعر تشكيل باللغة في المقام الأول ، وأن معالجته بمنطقه نفسه - أي بطريقة أدبية - تقتضي من يتصدي له ان يحلله تحليلا تكامليا ، وأن يجعل قطب اهتمامه تلك المقومات التي تميزه عن غيره من بقية ضروب الابداع ، والتي جعلت منه لغة أولا ، وشكلا ثانيا ، آملا أن يكون كتابه هذا عطاء متواضعا ، في محراب أعرق فنون العربية ، الشعر ، ذلك الشيخ المهيب الجليل .

وفي سياق هذا الكتاب البديع تتناثر رؤي كاشفة ليلقي بها مؤلفه في ثنايا فصوله وهو يتعمد إيقاظ القارئ وإثارة وعيه باستمرار ، فهو يري - مثلا - أن العمل الأدبي لا يقاس بمقدار ما يبثه المبدع خلاله فحسب ، بل يقاس كذلك بمدي وعي المتذوق به ، إذ من الطبيعي أن تختلف درجات التذوق ، فهي تبدأ من القراءة المباشرة لمعاني الأبيات ، وشرح دلالات الألفاظ أو نثر المحتوي والوقوف عند ما فيه من أفكار ، ولكنها قد ترتقي إلى مرتبة التذوق المنهجي المنظم ، فتنفذ إلى استنباط كل إيحاءات العمل من خلال التشكيل الصوري المركب ، وقد يتدرج التذوق في اكتشاف إيماءاتها الخفية فيظفر منها بما لم يظفر به سواه ، بل لقد يدرك من هذه الإيماءات ما لم يدركه صاحبها نفسه ،

فالذي يضع العقدة الحسابية ليس هو بالضرورة من يضع لها الحل الأمثل كما يقول بول فاليري .

كما يري ـ أيضا ـ والأمر يتصل بما تحت يديه من مجموعة ضخمة كتبها بعض شعراء لبنان ـ خاصة ـ فيما سموه بقصيدة النثر حيث يلعب توزيع الكلمات ، والفراغات الموجودة بين الأسطر ، وشكل البيت مكتوبا مع قراءته ، يلعب كل ذلك دورا مهما في عملية الايحاء كما يتصورها كاتب القصيدة ، ثم يقول: واقرأ إن شئت هذا المقطع:

فجأة ،

برعبه القديم

الطير الأسود يوقظك

صمت المجداف

يسكنك

ثم تساءل عن الحكمة المفترضة ـ أو المفروضة ـ في وضع الأبيات علي هذا النحو دون ضرورة موسيقية أو موضوعية ، وإذا لم تجد ما عسي أن يشفر تساؤلك ، فلك ان تتخيل مستقبل هذا الفن الجميل ، الشعر ـ بل ، مستقبل الأدب عام ة ، إذا تركنا أنفسنا ـ علي كلا المستويين الابداع والتذوق ـ أسري الحماسة المفرطة لقيم الشكل وحده .

ويقول في إضاءة كاشفة ثالثة ـ إن من أبرز محصلات التجديد في شعرنا الحديث ، ما أفضي إلى ه هذا التجديد من اتكاء الشاعر المعاصر علي البنية الايحائية للقصيدة ، ورد العمل الشعري إلى صيغته التصويرية التي ارتبطت به منذ عصور الانسانية الأولي ، حين كانت اللغات تلوذ بالصور والاشكال والرسوم في رموزها الكتابية ، وحين كان الانسان الفطري يستقبل قوي الوجود وعناصره المجهولة ، فلا يجد منا ما يفسر به هذا المجهول ، سوي اللجوء إلى الاساطير يجسد من خلالها أفكاره ومعتقداته وأنماط رؤيته الروحية والذهنية . وبدا الاسلوب الجديد صدمة هزت مواصفات الفهم والوضوح التي تعود عليها قارئ الشعر . وهكذا تتوالي الاضاءات الكاشفة عبر فصول هذا الكتاب الشديد الجدة والسلاسة والامتاع ، المتوهج بشاعرية صاحبه التي هي موهبته الاساسية ، والتي هيأت له مداخل ومسارب شتي إلى عالم القصيدة العربية في واقعها الراهن ، علي يد ناقد وأستاذ جامعي موفور العدة من الموهبة والعتاد النقدي .

كمال نشأت : ستون عام ا من الشعر

بقلم: فاروق شوشة

في مستهل الخمسينيات ، كان جيلنا يتابع عددا من القصائد ، تلتمع علي صدر الصفحات الأدبية ، وتحمل مذاقا شعريا جديدا ومختلفا البعض يري فيها محاولة للفكاك من أسر القصيدة الرومانسية ، التي أرساها شعراء أبو لو الكبار: إبراهيم ناجي وعلي محمود طه ومحمود حسن اسماعيل وغيرهم ، وآخرون يرون فيها البدايات الأولي لا شراق حركة شعرية جديدة . هي بمثابة البواكير في حركة الشعر الجديد أو الشعر الحر أو التيار الواقعي في الحركة الشعرية الحديثة . . وكان أصحاب هذه القصائد يحرصون علي إثبات أنهم أعضاء في رابطة النهر الخالد ، التي لم يميز الناس منها إلا ثلاثة هم: فوزي العنتيل ومحمد الفيتوري وكمال نشأت .

وبقدر ما كان العنتيل مهموما بالأرض المصرية والفلاح المصري وواقع الحال في القرية المصرية ، يعزف علي أوتاره الشجية وبلغته الشعرية الخفيضة النبرة ، المتوهجة بالايحاء ، أغنياته الأولي التي جمعها بعد ذلك في ديوانه الأول عبير الأرض ، كان الفيتوري حاملا سيفه ، شاهرا كلمته ، معلنا ثورته في وجه الناهبين حريته ووطنه وتاريخه ، المستذلين شعبه الافريقي الأسود ، في لغة حادة مستوفرة متوترة . جمع أناشيدها بعد ذلك في ديوانه الأول أغاني إفريقيا ، أما كمال نشأت فكان يمتح من ينبوع مغاير ، هو وجدانه السكندري أولا ، القاهري ثانيا ، ويبدع بلغته الفراشية ، وإيقاعاته الجياشة بالنغم الشجي ، قصائده التي سيضمها ديواناه: رياح وشموع وأنشودة الطريق . وكان الثلاثة بالنسبة لنا ـ نحن المنبهرين والمتابعين والمتأملين لمسار الحركة الشعرية ـ وعودا كبري لشعر المستقبل .

وإن هي إلا سنوات قليلة ، حتي أصبح ثلاثتهم أوسمة علي صدر الحياة الشعرية ، منجرفين في المد الشعري لحركة الشعر الجديد ، وإن كانوا حراصا بين الحين والحين ، علي إيقاظ النغم العمودي للقصيدة ، تعبيرا عن تكوين شعري راسخ الدعائم ، وإيمانا بأن كتابة القصيدة الجديدة لا تحول دون ممارسة الصيغة العمودية طبقا للحال الشعرية والتوجه الشعري ، من غير أن يضيق فضاء إبداعهم الشعري بهذه الثنائية الشعرية واقتدارهم فيها .

وسرعان ما أصبحت قصيدة نامت نهاد لكمال نشأت عنوانا علي مرحلة شعرية ، وزمن شعري جميل ، كان الشاعر يصدح فيه بصوته المجلجل ، وحنانه الأبوي ، وتوهج انتمائه إلى دفء البيت والوطن ، والأسرة والواقع والمستقبل:

نامت نهاد
وبقية من بسمة فوق الشفاه
لما تزل فوق الشفاه

ويد بجانب خدها
ويد تنام بصدرها
والأرنب المنقوش في الثوب الصغير
نزق المسير

وصفارة مترنحة
وعلي الوساد
كالزهرة المتفتحة
نامت نهاد

حين اختلطت بعض قصائد الديوان الأول لكمال نشأت رياح وشموع بشعر ابراهيم ناجي ـ حين نشر اعماله الكاملة ـ وكان كمال نشأت قد دفع بأصول ديوانه الأول لشاعره الرومانسي الأثير ناجي ليكتب له تقديما ـ لكن من جمعوا شعر ناجي من مصادر شتي ، بينها الأوراق المتناثرة في مكتبه ـ ضموا قصائد كمال نشأت إلى شعر ناجي ، وكانت هذه أول شهادة فنية بأن كمال نشأت الشاب الصغير السن قد بلغ من النضج واكتمال الأدوات الشعرية ما سهل اختلاط شعره ـ وهو في مراحله الأولي ـ بشعر ناجي الذي اكتمل وتحقق . وكان طبيعيا ، وضروريا ، أن تخلو طبعة المجلس الأعلي للثقافة التي أعدها الشاعر حسن توفيق لشعر ناجي ـ المعروف والمجهول ـ من سبع عشرة قصيدة للشاعر كمال نشأت !

وحين يمتد الزمن ، ويتناثر شعراء رابطة النهر الخالد علي خريطة الحياة ، ويخرج كمال نشأت للعمل طويلا في العراق ، وقليلا في الكويت ، فإنه لا يتنكر للود القديم ورفقة الحياة ، حين يري في قصيدته العودة إلى محمد الفيتوري عودة إلى الوطن ، وإلي موقعه من الحياة الشعرية ، مستعيدا صوته القديم ومكانه الطليعي:

افتحوا ياأيها الحراس أبو اب المدينة
افتحوها
كيف لا تنجذب القربي

وتهفو في الشرايين الدماء

إننا من هذه الأرض التي

صلي عليها الأنبياء
وانحنت فوق روابيها السماء
افتحوا ياأيها الحراس أبو اب المدينة

افتحوها
إننا منكم ولسنا غرباء !

كان هذا الحنين إلى الوطن ، والتوق إلى العودة١٩٨٩ متخذا من الفيتوري معني ورمزا ، قد سبق افتقاد شديد للضلع الثالث في مثلث الرابطة : فوزي العنتيل الذي كان قد سبق إلى الرحيل . وقد اهتاجه صوت مغن يشبه صوت فوزي :

كان لي يوما صديق
اسمه فوزي

اقتسمنا قطعة الخبز
وعشنا الضحكات

وملأنا الأمسيات
بانفجارات أغانينا ، وفي أشعارنا

هدمت مصر
وكل الأمهات

. . . .

وضحكنا :
ياأبا الأفواز يا
واختفي الصوت ، به صوت صديقي

واضمحلت بين عيني المرايا

والضحيكات الصبايا

والنساء الكاسيات العاريات
إنه صوت صديقي

قسما بالله ذا صوت صديقي !

سبع مجموعات شعرية هي: رياح وشموع ، أنشودة الطريق ، ما ذا يقول الربيع ، كلمات مهاجرة ، أحلي أوقات العمر ، النجوم متعبة ، جراح تنبت الشجر ، وعديد الدراسات الأدبية والنقدية ، ورسالته للدكتوراه عن أحمد زكي أبو شادي رائد جماعة أبو لو ـ فضلا عن المختار من أشعار كمال نشأت ، بمقدمة ضافية للناقد والشاعر الدكتور يوسف نوفل ـ ورحلة للابداع الشعري علي امتداد ستين عام ا متصلة ، كل ذلك يضمن لكمال نشأت دوره الطليعي ومكانته الرائدة ، ويفسح الطريق لجديد قادم من الابداع .

كمال نشأت : و " سحابة " من بجع مهاجر "

بقلم : فاروق شوشة

مازال الشاعر الكبير كمال نشأت قادرا علي اعتصار ما أثمرته الرحلة الطويلة مع الحياة والناس ، وتقطيرها في مقطوعات شعرية ، شديدة القصر والتكثيف ، مستغرقا في هذا اللون الشعري المسمي بالابجرام الذي سبق إلى ه منذ سنوات بعيدة ، في دواوينه : أحلي أوقات العمر ، والنجوم متعبة ، والضحي في انتظار ، وقصائد قصيرة ، ومسافر ولا وصول ، وجراح تنبت الشجر ، وأخيرا هذا الديوان الجديد سحابة من بجع مهاجر الذي صدر حديثا عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ضمن سلسلة كتابات جديدة .

وكمال نشأت الذي انشطرت حياته وانجازاته بين شاعر وناقد ، كل منهما يريد لنفسه المكان والمكانة التي يأملها في حياتنا الأدبية ، يعود في هذه الحقبة من حياته إلى التركيز علي وجهه الشعري ، ومواصلة الدور الطليعي الذي بدأه في خمسينيات القرن ، من خلال رابطة النهر الخالد التي أسسها مع رفيقي الدرب : الراحل فوزي العنتيل ومحمد الفيتوري شفاه الله ، ثم انفرط العقد بعد ان انشغل كمال نشأت بدراساته الأكاديمية للماجستير والدكتوراه عن شعر المهجر ، وعن أحمد زكي أبو شادي وحركة التجديد في الشعر العربي الحديث ، وعن مصطفي صادق الرافعي ، وعن النقد الأدبي الحديث في مصر ، وانقطاعه عن الحياة الأدبية سنوات طويلة قضاها في العراق معلما واستاذا ، وهي السنوات التي شهدت تركيزه علي الدراسات الأدبية والنقدية ، التي واصلها بعد عودته إلى مصر ونشرها في كتبه الأخيرة : المسرحية الشعرية بين شوقي وعزيز أباظة ، ومع شعراء الكويت ، وفي النقد القصصي ، وفي نقد الشعر ، ودراسات ومقالات في الأدب المصري الحديث وغيرها .

هو إذن يعود إلى فنه الأثير : الشعر بعد ان تغير الشعر من حوله ، واختلفت مشاربه ، وتشعبت دروبه لكنه يستعصم بهذه الصيغة المركزة التي تقدم خلاصة الخلاصة ، دون ان تعني بالتفاصيل ، أو تشغل بعرض أو تزويق أو تشويق ، وميزة هذه الابجرامات في شعر كمال نشأت وفي شعر الناقد الكبير والشاعر الراحل الدكتور عز الدين اسماعيل الذي يعد من روادها المبدعين في ديوانيه الأخيرين ـ انها تقول الكثير في أقل قدر من الكلام ، وهي تتسع ـ بالرغم من ضيق المساحة ـ لدلالات واستنتاجات وقراءات عديدة ، وتهزنا في خواتيمها بالنهايات المحكمة ، التي تردنا إلى بداياتها وسياقاتها لنكتشف المغزي ، ونظفر بالخلاصة التي هي أحيانا لون من الحكمة الساحرة ، أو التعليق الحاد أو الرأي القاطع ، أو الفكرة الصادمة .

لقد اتسعت الرؤية عند كمال نشأت فضاقت العبارة ، ولا متسع لشرح أو ثرثرة: لا نك تكرهه تمعن في قولك قذر إلى دين وحين يقوم بغسلها تمعن في قولك: أهدر كل الماء التاج فوق الرأس لا يشفي الصداع ، ورق الشجر المنثور علي الأرض لا ينسي / صوت البلبل / يخبره عن يوم طالع / تورق فيه الشمس .

قال حكيم : نحن الان حقل مهجور / وخيال ما تة / وقف عليه عصفور ساخر / أروع تعبير / دمعة حزن في عين يتيم . الناس لا تكره / عيبا فيك / بل يكرهون / خطوة تسبقهم . هذا أنا في وحدتي / أرشف ذاتي / قادما داخل نفسي / وطعامي ذكرياتي / هذه أولي تباشير الرحيل .

ويقول كمال نشأت بعنوان شهيد: كزهوة الصبار في قريته / تفتحت عيناه ثم نام / في عمره العشرين / وحينما استراح في مرقده / تلألأت في صدره العريض / ثقوبه العميقة الحمراء / أوسمة مقدسة .

ويقول: يكممون دائما أفواهنا / ويطلبون ان نغني . وعن العش البعيد يقول : عند حلول ظلمة المساء / تبدأ السكينة / وترجع الطيور للأعشاش / أسير خائفا وحيدا / فعشي البعيد / يحتله خفاش .

ويقول: اللاشعور / محض إظلام فصيح .

من نعم الدنيا / أن الحزن علي مفقود / جبل ضخم / يتضاءل يوما يوما / حتي يصبح حبة رمل . لا تسألني عن شيء مجهول / فأنا لا أعرف حتي نفسي .

القلب الأسود / يرتجل الظلمة / والقلب الأبيض / يتبتل فيه الفجر .

الذين يقرءون شعر كمال نشأت في إبجراماته الأخيرة ، لا بد أنهم يفتقدون ما ء شعره وكيمياءه في دواوينه الأولي: رياح وشموع ، وانشودة الطريق ، وماذا يقول الربيع ، وكلمات مهاجرة . وعزاؤهم أن ما يبدعه شاعرنا الآن - من خلاصات حكمته وتجاربه ورحلته في الحياة والناس - يأخذ بأيديهم ، ويعزيهم ، ويضيء لهم بعض معالم الطريق .

سوزان عليوان المغتربة في الزمان

بقلم:فاروق شوشة

ما عاد لي رغبة في أرض . بلاد الله ما عادت واسعة ، الأرواح ايضا ضاقت ، كأحذية قديمة ، القارات ، القري ، القلوب ، قبائل من القتلة والقتلي ، الشمس جارحة ، والليل ـ خفاشا ـ ينهش لحم النجوم . الجثث هنا ، أكثر من الزهور ، وساقية الدم لا تكف عن الدوران .

بهذه الكلمات العنيفة المحتجة ، المتوهجة بشهادة علي المكان والزمان والبشر ، تفتتح الشاعرة سوزان عليوان مجموعتها الجديدة مصباح كفيف هذه المتمردة المغتربة التي تحمل أصولا عراقية ولبنانية ، والتي تعلمت في مصر (تخرجت في الجامعة الأمريكية بالقاهرة) تحلق في مجموعتها الشعرية المتتابعة من فضاء إلى آخر ، وتنضج لغتها البسيطة جدا ، الصعبة جدا ، بالمزيد من التكثيف والشحن ، والاقتصاد ، لتصبح لغة مكتنزة بالوعي والخبرة والسفر في الوجوه والأمكنة والحياة ، بكل تفاصيلها الشديدة الدقة ، التي لا تلتفت إلى ها إلا عين لا قطة كاشفة ، وحساسية عارية مستنفرة ، وليكون لنا ـ نحن قراءها ومتابعي مسيرتها ومكتشفاتها ـ هذه المتعة الحلوة المرة ، وهذه الوقفات المتلاحقة أمام صدمات العبارة وجموح المعني ، تقول سوزان عن الروح في مصيدتها : أفترض فضاء وأدخل أدخل احتمال المكان ، المكان الذي لا يتسع لشجرة ، لطائر ، لراحة يد ، علي الكرسي نفسه ، كل ليلة ، والعالم من أمامي عابر ، الفأرة في كفي ، الروح في مصيدتها ، بلوح زجاجي ، أبدلت حياتي ، والشمس التي لم تدم طويلا ، بأيقونات مريم ، كل ليلة ، ومن الكرسي ذاته ، أغادر جسمي ، وصوتي والذاكرة ، أبتكر مخلوقات ناعمة ، تبدد رتابة المربعات ، تضيء في الزوايا عزلتها : زهرة حائط ، غزالة من عين الدمع تشرب ، قرية من تراب وقناديل ، لا أحمل إلا عيني لا ري لا تلمس في الظلام كائناته ، أشعل قلبي ، مصباحا كفيفا .

هذه لغة مفعمة بكيمياء الشعر ، وسره العميق ، نقية إلى أقصي حد ، شديدة السلاسة والعذوبة والتدفق ، لا سدود ولا اصطناع لتغريب أو معاظلة ، للإيهام بأن وراء الكلام ما وراءه ، كما يفعل كثير من شعارير هذا الزمان الذين لا يعرفون لغتهم أصلا ، فضلا عن أن يبدعوا بها فنا ، له جمالياته وتجلياته ، وهي لغة لا تلحق صاحبتها بأحد ، ولا تجعلها تابعة لرائد أو زعيم قبيلة أو عشيرة ، هي بنت نفسها ، وهي صنعة إبداعها وتشكيلها ، لم تمتح ما ء هويتها من أنهار الآخرين ، ولم تنسج خيوطها علي أنوالهم ، ولم تدع لنفسها أكثر مما تمتلك ، في زمن تطفو علي سطحه ادعاءات

كاذبة وأباطيل لم يعرفها تاريخ الشعر العربي منذ كان ، تضحك أكثر مما تبكي ، ويطهرنا الضحك الساخر من كل ما يخلفه البكاء .

تقول سوزان: ما الذي يعنيه أن نتحادث في خواء كهذا ؟ أن نعيد إلى البياض صوته ، أن نعود إلى نا .

وتقول تحت عنوان استعارات خادعة كل شيء مستعار هنا ، الجدار والنافذة ، ظلال السقف ، الباب الخادع بين فراغين اسهر ودمعة مصباحك .

وتقول عن نافذة ما : لنفترض أنها نافذة ، من خشب محفور ، وعصافير زجاج ، الشاشة الباردة ، ومع نجوم ، بين اسمينا ، تجمد ، لنفترض أنها جذور ، هذه الأسلاك الممتدة ، منقلب الآله - إلى عروقنا ، وأن أطرافنا عبر المفاتيح تتشابك ، أغصانا ، عناقها الأبواب في مجموعتها الأخري ، كائن اسمه الحب تبدع سوزان عليوان عددا من اللوحات الشعرية الفاتنة ، في قالب إلا بجراما الذي لا يتقنه - عادة - إلا من تسمح خبرته اللغوية والتعبيرية ، وحسه النقدي الساخر ، باقتناص المفارقة ، والدهشة ، والغرابئية ، ومكنون الدلالة المراوغة ، والتركيز ، تقول: كلما حط علي كتفه طائر ، تذكر الشجرة التي كأنها مقعد منسي في حديقة ، شريطة في شعر طفلة تحلم بأن تكون فراشة ، فراشة تحلم بأن تكون شريطة في شعر طفلة: طفلة تحلم ، نغمة تعاتب الناي ، لم لم تتركني مع العصفور ؟ خفاش يسأل الليل: لماذا أنت قاس هكذا ، يا أبي ؟ أذنه علي جدار الزنزانة ، ينصت إلى نبض عصفور رسمه بأظفاره ، فنجان حزين جدا ، كيف له ان يحضنها فيما تقبله ، وله ذراع واحدة ؟

مثل هذه اللوحات الخاطفة اللمح ، والإبجرامات الآسرة لغة وحسا ومغزي ، تعلن عن مبدعة نضجت ملامحها وقسماتها واغنت رحلتها الشعرية بكنوز جديدة ، ومنطلقات مدهشة وهي في مجموعتيها الجديدتين: مصباح كفيف ، وكأس اسمه الحب ، تتجاوز - بكثير - ما أنجزته في مجموعتها السابقة .

ويبدو أن الكوكب الأحمر الذي يظلها وان كانت تغترب عنه ، قد نجح في أن يوفر لفرشاتها ما دة لونية بديعة سكبتها علي الورق ، وخبرة حياتية عارمة - بالرغم من عمرها الشاب - صبغتها بهذه الألوان ، فكان هذا الفن الجميل المختلط القسوة والمتعة ، والنشوة والمعاناة .

" سوزان عليوان " في " بيت من سكر "

بقلم: فاروق شوشة

تواصل الشاعرة اللبنانية الاصل العراقية الانتماء المصرية الهوي والروح والدراسة سوزان عليوان ، صعودها المتألق في أفق الشعر ، من خلال ديوان جديد يحمل هذا العنوان بيت من سكر ليضيف إلى رصيدها من الإبداع الشعري (ثماني مجموعات شعرية هي: عصفور المقهي (١٩٩٤) ، مخبأ الملائكة (١٩٩٥) ، لا أشبه أحدا (١٩٩٦) ، شمس مؤقتة (١٩٩٨) ، ما من يد (١٩٩٩) ، كائن اسمه الحب (٢٠٠١) ، مصباح كفيف (٢٠٠٢) ، لنتخيل المشهد) لسعة جديدة من الحلاوة المرة التي تفيض بها كلماتها ، والديوان الجديد مختارات من المجموعات الثماني ، يربط بينها خيط حاد ناعم ، ووتر مشدود نازف ، وصوت صارخ مشروخ تنسكب عليه كيمياء شعريتها النافذة إلى عمق الكيان الإنساني ، في تعاطف من يغتفر الضعف الإنساني ، لكنه لا يفتقر الكذب او الادعاء .

وددت لو تركت المساحة كاملة لبوح سوزان بدءا بكلماتها الاولي: مكانك في المقهي ليس خاليا . بعد رحيلك جاء عصفور وجلس في ركنك . أتأمله من بعيد ، مثلما كنت أتأملك . وهو يدخن سيجارته . ويشرد بعينيه التائهتين في الدخان .

ثم وهي تقول: كنت تلملم أشياءك المبعثرة في حجرة الفندق . وتجمعها في حقيبة سفرك . حين أردت ان اسألك: هل لديك مكان يتسع لشيء صغير ؟ لكنك كننت تشكو من كثرة اشيائك ومن صغر الحقيبة .

وصولا إلى قولها: في الصورة المعلقة علي الجدار . طفلة تشبهني . ولولا انها تبتسم . لظننتها صورتي !

وحين تقول: الآن فقط . أحسست بمأساة المهرج . حين يفرغ دمه كاملا . في عروق النكتة . ولا يضحك أحد . لم أكن أبكي . لكن الاصحاب كانوا يختفون في عيني كأضواء السيارات تحت المطر .

وهي تقول: تعثرت بضوئك . عثرت علي ظلي . وصولا إلى قولها تحت عنوان حنان بمرارة الحنين . من نافذة صغيرة بيضاء لا طارها لون يوم مهمل في المطر . أطل علي غربة يديك بحكايات عن مشربيات قديمة . حفر خشبها الهواء . لوحتها الشمس بسكر محروق . كان ذلك في مدينة سكنتي . تجاراتها . وبيوتها . وفوانيسها الملونة . أضحك إذ تقول: لوكنت أعلم أن إلى وم عيد ميلادك . لقدمت قلبي قطعة حلوي . أبكي لا ن حنانك بمرارة الحنين .

أخيرا وهي تقول في أحدث مجموعاتها صدورا لنتخيل المشهد تحت عنوان لنبدأ بالنهاية: عاشقان في الليل . خائفان كدمعتين . في عيني طفل مثقوب القلب . وردته مجروحة . معطفة علي كتفيها . ذراعها حول عنقه . يرتعشان بردا وعتمة . مثل ورقتي شجرة شبه عارية . يحبها وتحبه . لكنهما عند نهاية الشارع الطويل سيفترقان . انظروا إلى الرسالة التي يسطع طرفها الشاحب من حقيبة يدها . انظروا إلى المصابيج التي تنطفيء إثر خطواتهما . سرب نجوم تتساقط أجنحته . سيمضي وحيدا . بدموعها الساخنة علي خده .

وستختفي هي عند المفرق . متكئة علي ظلها . علي حنان كلماته الاخيرة صحبتك الملائكة ياحبيبتي كم أنت قاس أيها العالم !

لماذا يدهشني ـ وسط زحام ما ينهمر علينا من لغو ورطانات ـ أني أواجه لغة نظيفة ، لا سوقية فيها ولا إسفاف ولا ابتذال . وكأن هذه الاوصاف أو المواصفات أصبحت تقصد لذاتها تحت وهم الشعرية والحداثة المجوجة ، ولماذا يدهشني هذا العالم الروحي الفسيح ، الذي يحترق ـ حتي النخاع ـ ويتصاعد منه حرائق روحية هائلة في بيروت وبغداد وغيرهما من العواصم العربية ، دون كلمة واحدة تشير إلى هذا الدمار الهائل هنا وهناك . الذات التي تبوح ، ونظنها ذاتا مفردة ، هي الجمع المحتوي ما ساة العالم وتراجيديا الانسان العربي ، دون زعيق او مباشرة او خطابية . سوزان عليوان مسكونة بهذا الرعب الوجودي والشتات الكوني دون صراخ ، دون التفات إلى ظواهره الخارجية هدما وتدميرا واحتراقا وقتلا وتصفية وإفزاعا . لكنها ـ في صعودها إلى أفق الرؤيا الشعرية ـ الكاشفة ـ تكثف الخبرة إلى ومية ، وتنقيها ، وتجعل منها مداد الكلمات النازفة وهي تلاحق اختفاء ابتسامة طفل أو ذبول شجرة ورد أو تطاير عطر كان يغمر المكان ، هنا ، يكمن الغوص في الأعماق ، من خلال قدرة شعرية مغايرة ، لا تساير ولا تقلد ولا تنزلق إلى ما يتباهي به غيرها من منجزات وادعاءات هي خارج الافق الشعري ، وخارج النسيج الشعري الحقيقي . تقول سوزان: لا أعتقد أن المقهي المهدوم سيعود إلى ما كان عليه: قش السقف والجدران . الحبال الملونة وتلك الجمعة المفككة رغم الجلسات التي توحدنا وغابة النراجيل . أغمض .

ما عاد ممكنا ان استعيدها أما ليتمي .

هل هي مجرد شجرة تلك التي تتحدث عنها سوزان ؟ هل هي بيروت ؟ هل هي المدن العربية التي أصبحت تتنقل بينها من غير استقرار او قرار بالاستقرار ؟ هل ؟ وهل ؟ بيت من سكر مجموعة تلخص لنا مسار شاعرة حقيقية ، غير زائفة او مدعية . تدرك بوعيها طريقها ورهانها . وتفرز عسلها كلما توهجت بالمعاناة ، واشتعلت بالحرائق .

أحمد شفيق كامل في " أنت عمري "

بقلم: فاروق شوشة

أحـل في عنقـي دينـا لثلاثـة مـن شـعرائنا يمثلـون أجيـالا شـعرية ثلاثـة لكـل منهـا لغتها وعالمهـا الـشعري وفـضاؤها الـذي تـسبح فيـه . أولهـم الـشاعر الغنـائي الكـبير أحمـد شـفيق كامل الذي أسعدني كـل الـسعادة بديوانـه أنـت عمـري الـذي أصـدره منـذ أسـابيع قليلـة ، بعـد تـردد طويـل وإلحـاح مـن أصـدقائه المقـربين ، وبخاصـة صـديقه الروائـي الكـبير خـيري شـلبي الـذي كتـب للـديوان مقدمـة بالغـة العذوبـة . وقـد أصـبح أحمـد شـفيق كامـل بفـضل العديـد مـن أغنياتـه الـتي ارتـبط بهـا وجـدان الملايـين ، في مـصر والعـالم العربـي ـ أن يـشغل مكانـه اللائـق بـه بـين شـعراء الأغنيـة الكبـار: أحمـد رامـي وبـيرم التونـسي ومـأمون الـشناوي وحـسين الـسيد ومرسـي جميـل عزيـز و عبـد الفتـاح مـصطفي و عبـد الوهـاب محمـد وغيرهـم وإن ظـل قريبـا مـن رومانـسية رامـي في الأغنيـة وعلـي محمـود طـه في القـصيدة ، وكـان الجـواد الـرابح في حمـل كلماتـه إلى الملايـين هـو صـوت القيثـارة العبقريـة الـتي لا تتكـرر: أم كلثـوم ، بالاضـافة إلى أصـوات نجـوم الطـرب والغنـاء وعمالقـة الملحـنين محمـد عبـد الوهـاب و عبـد الحلـيم حـافظ ونجـاة والـسنباطي وبليـغ حمـدي وكمـال الطويـل ومحمـد الـوجي وغيرهـم لكـن اختيـار أحمـد شـفيق كامـل لا سـم أغنيتـه ذائعـة الـصيت أنـت عمـري ليكـون عنوانـا لديوانـه دلالـة علـي إحـساسه العميـق بـأن الأغنيـة الـتي حققـت لقـاء الـسحاب لا ول مـرة بـين أم كلثـوم و عبـد الوهـاب كانـت نقطـة فاصـلة وقفـزة في عالمـه الإبـداعي المتميـز بعـد أن أبـدع حكايـة شـعب (قلنـا حنـبني وادي احنـا بنينـا الـسد العـالي وذكريـات وأبـدع بعـدهما خلـي الـسلاح صـاحي ، وأمـل حيـاتي وليلـة حـب والحـب كلـه (والـثلاث الأخـيرة مـن روائـع أم كلثـوم) ، وعـشرات مـن الأغـامي والقـصائد الـتي تميـزت بالرقـة الآسـرة ، وعذوبـة التنـاول ، وعفـة التعـبير ، ونـضارة اللغـة وإشـراقتها وشـبابها المتـوهج . (إلى س هـو صـاحب وطـني حبـيبي الـوطن الأكـبر لكـل الـوطن العربـي والإنـسانية والتأمليـة والروحيـة أو الـصوفية الـتي اسـتأثرت بكتاباتـه الأخـيرة بعـد أن أعلـن صـمته وتوقفـه عـن كتابـة العاطفيـات وتفرغـه التـام لـساحة الحـب الأسمـي وعـشق الـذات الإلهيـة علـي طريقـة شـعراء الـصوفية ، وكتابـة المـدائح النبويـة بعد أن عزف علي وتر الحب باقة من أجمل الأغنيات والقصائد:

يا حبيبي . . أي عطر أنت يسري ملء نفسي
أي ظل أنت يمتد علي أطلال أمسي

أي نور أنت في عيني جلا ظلماء بؤسي
أي بعث أنت يدعوني إلى جنة أنسي

يا حبيبي أنت آمال هدت حسي لحسي
أنت أيامي وأحلامي وأنغامي وكأسي !

ومن أجمل قصائد هذا الديوان قصيدته سر الحياة التي أبدعها من وحي البيت المعروف لا بي العلاء المعري' هذا جناه أبي علي وما جنيت علي أحد وهو يهديها إلى صغيره المنتظر في عالم الغيب الأمين بعد أن صنع بنفسه ما صنعه المعري بنفسه من عزوف عن الزواج والإنجاب خشية أن يظلم أولاده أو يعرضهم لا هوال الحياة ويقول: يا وليدي:

إن نشوت النشوة الكبري بكأسك
فتجرد عن قيود حاكها شيطان نفسك
واحي للحق ، ففي الحق تري إشباع حسك

فاذا ما دبت الأدواء في أنحاء جسمك
بمشيب غيرت بلواه من وضاء رسمك

وطوال الموت ، غولا ما ضيا في نهش عظمك
لا تقل إني تجنيت ، وأورثت الكمد

وادر أني ـ عادلا عشت ـ ولم أظلم أحد
إن ذا سر الحياة

لوصدر هذا الديوان قبل ثلاثين سنة ، لا رتجت له جنبات الحياة الأدبية واستقبلته الاستقبال اللائق به وبصاحبه ، لكن صدوره في زمن تدهور الأغنية المصرية ، وانصراف كثير ممن تبقت لديهم ذائقة سليمة وذوق فني صحيح عن كثير مما يحدث في ساحة الغناء ، يجعل استقبالنا للديوان بكائيا علي زمن جميل وترحما علي عصر الكلمة المحترمة في فم المؤدي الأصيل ، محمولة علي اللحن المبتكر ، الذي ينهشه الآن صعاليك التلحين الذي يعيشون علي فتات الفتات من ألحان الكبار ، بعد أن نجحوا في تشويهها ومسخها وتحويلها إلى إيقاعات جسدية وصراخ هستيري وبذاءات سوقية ترجمنا بها أجهزتنها الإعلامية ليل نهار . وهو الحال نفسها التي جعلت كثيرا من فرسان الأغنية الحقيقيين الآن يتوارون بعيدا عن مسارها ، مكتفين ـ في أضعف الإيمان ـ بكتابة المقدمات والنهايات الغنائية للمسلسلات الدرامية ـ لا نها ما تزال بعيدة عن سطوة فتوات الفيديو كليب وشراسة تسويقهم ـ وابحثوا معي عن إبداعات الأبنودي وسيد حجاب وأحمد فؤاد نجم ومجدي نجيب وجمال بخيت وغيرهم ونسبة دورانها في سوق الأغنية إلى

وم . ديـوان أنـت عمـري لا حمـد شـفيق كامـل التفاتـة بديعـة إلى عـالم جليـل جميـل مـضي ومعـه كـل رمـوزه مـن الكبـار ، وتحـذير مـن خطـر داهـم يتهـدد أذواقنـا وإنـسانيتنا ووجودنـا نتيجة استسلامنا المهين للقبح والسوقية والبذاءة إنه ديوان يجيء في وقته تماما .

بهاء جاهين وشعره الفصيح

بقلم: فاروق شوشة

كانت بالنسبة لي لحظة نادرة من لحظات الدهشة والانبهار - حين فاجأني - ولابد أنه فاجأ آخرين - بعدد من قصائده المكتوبة بالعربية الفصحي ، يلقيها علي أسماع الحاضرين من مصريين وعرب وإسبان ، ومستشرقين ، ونحن في ملتقي شعري يجمعنا علي قطعة من أرض الأندلس في إسبانيا ، ضمن وفد من الشعراء المصريين .

كنت أصغي إلى بهاء جاهين - شاعر العامية المبدع - وهو يقدم قصائده الفصيحة ، في نبرة واثقة ، وأداء قوي ، وسيطرة كاملة علي اللغة أصواتا ونحوا وبنية وتراكيب ، فيزداد انبهاري بهذا الفارس المقتحم ، الذي يثبت موهبته العاتية في أية صورة كانت لغته ، فالفصحي والعامية لديه جديلتان ، يضفرهما حينا ، ويباعد بينهما حينا آخر ، ويعزف علي وتر هذه ، ثم ينتقل إلى وتر تلك ، انتقالا حرا سلسا ، وهو في الحالين المحلق في البعيد ، الذي يري ما لا نري ، والذي يعود إلى نا بكشوفه من الوعي والحكمة ، أو السخرية والتهكم ، أو الحزن والبكاء ، أو افتقاد الوجه الذي كم أوحشه وجه أبيه العبقري صلاح جاهين .

التحدي الكبير الذي يظل يواجه بهاء جاهين هو صلاح جاهين . الناس تطالبه بأن يكون صورة أبيه ، لا صورة منه ، كيف ؟ وعبقرية صلاح جاهين طاغية وشاملة ، ومجالاتها لا تحصي ولا تعد . ونسبة بهاء إلى صلاح دائما ، وفي كل شيء ، هي نسبة ظالمة ووطأتها هائلة .

لقد بدأ صلاح جاهين كما بدأ صنوه العبقري فؤاد حداد رحلته مع الشعر بالفصحي ، وإبداعهما الأول يشهد بتألق شاعرين ثقافتهما الأولي ثقافة عربية تراثية راسخة ، لكنهما سرعان ما استشعرا غمغمة العامية في داخلهما ، في صورتها الفنية الراقية ، ومعارجها البعيدة عن ابتذال الشارع والسوق ، فصاغ كل منهما - علي طريقته - قلائده البديعة ، وبلغ صلاح قمته في رباعياته ، واقتعد فؤاد صهوة قمته في حضرته الزكية وأشعاره في نور الخيال صعودا إلى أفق الأرض بتتكلم عربي .

أما بهاء جاهين - الذي بدأ بالفصحي كما بدأ العملاقان الكبيران ، وكانت فصحاه تطرب أباه أكثر من عام ياته التي كان يكتبها مجاورة للفصحي - فقد اختط لنفسه نهج الحفاظ علي إبداعه في اللغتين معا ، وديوانه حكاية المهلهل مع ملك الزمان - بوضع فتحة علي الهاء الثانية في اسم المهلهل - حتي لا يختلط بالمهلهل - بكسرة تحت الهاء الثانية ، الشاعر والفارس العربي القديم ، بطل حرب البسوس ، والذي سمي في السير

الشعبية بالزير سالم ـ هذا الديوان شاهد صدق وعدل على فصاحة بهاء جاهين ، ونبوغه في شعر الفصحي نبوغا يؤهله لمكان متميز بين قرنائه وأبناء جيله ، ولديه ما ليس لديهم من خبرة لغوية اكتسبها من العامية الفوارة كل يوم بالجديد ، وإيقاعها السريع الجياش ، وصورها والتماعاتها ولمحاتها الخاطفة ، لقد استطاع أن يفيد من هذا كله في شعره الفصيح . . يقول في قصيدته الوجه الذي أوحشني:

لم أكن أتصور أنك تهجرني

هكذا ، دون صيف جميل

دون ورد وأغنية

ونبيذ أصيل

إنني لا أريدك ذكري

لا أريدك تمثال أغنية

تتكفن في ظرفها الحجري

مسالمة ، نائمة

إنني شاهد الأغنية

كيف تنقشني هكذا كلمات وتهجرني !

ثم تنثرني في الليالي

لآلئ مهجورة . . هائمة ؟

القصيدة تأخذنا في رحابتها ، واتساع أفقها الانساني الرحب إلى وجه صلاح جاهين الذي أوحش بغيابه بهاء ، لذا كان طبيعيا أن تختتم هذه الجلوة الشعرية ـ موقفا وشهودا وحلولا ـ بإحدي رباعيات صلاح حين يقول بهاء:

قتلوك ، لا نك كنت جميلا

حالما بوجود جميل

كنت أغنية تنشد المستحيل

وأنا شاهد الأغنية

كيف تحفرني هكذا كلمات وتهجرني !

أنت لست هنا

تحت أحجار هذا المقام الذليل

أنت في نشوة عالية

حققت حلمها الأغنية

وأنا الشاهد الحجري أقول:

أنا اللي بالأمر المحال اغتوي

شفت القمر نطيت لفوق في الهوي

طلته ، ما طلتوش ، إيه أنا همني

وليه ؟ ما دام بالنشوة قلبي ارتوي !

* * *

بهاء جاهين - في ديوانه الفصيح - شاعر جميل وصوت بديع ومذاق مغاير ، ورحلة شعرية تبحث عن الجمال وتقتنصه ، وتضيف إلى ديوان الشعر المعاصر صفحة شديدة البهاء والتألق والأصالة .

إمام المحبين وسلطان العاشقين في قراءاته عبر التاريخ (١)

بقلم: فاروق شوشة

منذ عام ين ، أصدر المستشرق الإيطالي الدكتور سكاتولين طبعة جديدة محققة ، من ديوان إمام المحبين وسلطان العاشقين ابن الفارض ، ضمن مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، في سلسلة نصوص عربية ، ودراسات إسلامية .

الديوان يحمل عنوانا فرعيا هو: قراءات لنصه عبر التاريخ ، وهذا هو ما فعله محققه الجديد بالفعل ، من خلال مصاحبة طويلة له علي مدي أكثر من خمسة عشر عام ا ، اهتم خلالها بالمقارنة بين المخطوطات الثماني التي تضمنت قصائد الديوان من قبل ، والطبعات الحديثة للديوان ، وعددها ثلاث عشرة طبعة ، أحدثها التي صدرت بتحقيق الدكتور عبد الخالق محمود عبد الخالق عام ١٩٨٤ ثم أعيد طبعها عام ١٩٩٥ .

وفي المقدمة الاضافية التي كتبها الدكتور سكاتولين عن عمر بن الفارض ، وتجربته الصوفية ، متحدثا عن الشاعر وحياته الصوفية . وعن سيرته يقول إنه علم من أعلام التصوف الإسلامي ، فقد لقب بسلطان العاشقين ، وبالرغم من تلك الشهرة الفريدة ، وذلك الانتشار الواسع لا شعاره ، فإن المصادر التاريخية لم تحمل إلى نا الكثير من أخباره وسيرة حياته ، ثم يقول: ولد أبو القاسم عمر بن الفارض الحموي الأصل والمصري النشأة والمقام والوفاة في القاهرة في الرابع من ذي القعدة سنة٥٧٦ هـ -١١٨١ م ، ويتفق من ترجموا له علي أن اسمه عمر وكنيته أبو القاسم أو أبو حفص ولقبه شرف الدين ، وأنه ابن أبي الحسن علي بن المرشد من أسرة كانت تفتخر بنسب متصل ببني سعد ، قبيلة حليمة السعدية مرضعة الرسول الكريم ، وقد عاصر ابن الفارض الأحداث المجيدة التي حققها الأيوبيون ، فقد ترعرع في أيام صعود القائد البطل الناصر صلاح الدين الأيوبي إلى ذروة مجده ، وعاش في ظل الملك الكامل في مصر ، وتوفي قبل سقوط الدولة الأيوبية علي أيدي المماليك بعدة سنين .

وجاور ابن الفارض مكة المكرمة ـ وفقا لما جرت عليه العادة عند الصوفية ـ طالبا في رحابها الفيض الإلهي وعاش بين أودية مكة قرابة خمس عشرة سنة ، ورجع إلى مصر ، وهو في العقد الرابع من عمره ، ولم يعمر طويلا بعد رجوعه ، حيث توفي بعد ذلك بأربع سنوات سنة٦٣٢ هـ ـ ١٢٣٥ م .

كما يلاحظ الدكتور سكاتولين أن ابن الفارض لم يترك شيئا سوي ديوانه ، فلم يعثر له علي رسالة أو كتاب نستعين به لتوضيح مذهبه الصوفي ، وهو يخالف في ذلك معاصره الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ، الذي ترك لنا بحرا زاخرا من المؤلفات في

شتي أنواعها ، الأمر الذي يجعل فهم ديوان ابن الفارض مشكلة مضنية لقرائه وباحثيه .

ويري المستشرق الإيطالي الأب الدكتور سكاتولين أن التسمية التقليدية لا بن الفارض بسلطان العاشقين لا تعبر عن عمق تجربته الصوفية وأبعادها البعيدة ، فابن الفارض - في رأيه - هو شاعر الأنا الجمعي الذي يجد حقيقة ذاته في الاندماج التام مع الحقيقة العليا التي هي في الاصطلاح الصوفي النور المحمدي أو الحقيقة المحمدية أو الإنسان الكامل ، فليس وصف الحب والجمال في شعر ابن الفارض إلا جزءا محدودا ومرحلة عابرة في سفره الصوفي الذي يهدف إلى آفاق أعلي وأوسع ألا وهي بحار الجمع أي تلك الحقيقة النورية العليا التي هي مصدر الكل ومرجع الكل ، المصادفة وحدها هي التي قادت الدكتور سكاتولين إلى العثور في مدينة قونية بتركيا علي مخطوطة لديوان ابن الفارض ، أقدم من مخطوطة تشستر بيتي التي عثر عليها المستشرق الإنجليزي أربري في مدينة دبلن بأيرلندا ، ومختلفة عن الرواية المتداولة للديوان التي نشرها حفيد الشاعر بعد وفاة جده بنحو قرن من الزمان ، وأصبحت هذه المخطوطة - التي اكتشفها - بعد مراجعتها علي مخطوطتين أخريين بالمكتبة الشرقية في ليون (هولندا) ، والمكتبة القومية في برلين (ألمانيا) هي نسخته المعتمدة لا عادة تحقيق الديوان في صورة أكمل وأشمل ، مقارنة بغيرها من النسخ المخطوطة والمنشورة .

لنا إذن أن نتصور حجم الجهد العلمي الذي بذله هذا المحقق العالم ، الذي كانت رسالته للدكتوراه عن التجربة الصوفية ، للتثبت من كل حرف وكلمة ، والمقارنة الدقيقة بين النسخ جميعها ، لا ن هناك فروقا واضحة لغوية ومعنوية يقود إلى ها الاختلاف في رواية النص ، حتي ولو كان ضئيلا جدا لا يكاد يحس ، بحيث يمكن القول إن ما أتي به هذا الباحث المدقق هو القراءات المعتمدة والمختلفة لشعر ابن الفارض عبر التاريخ ، وهو الشعر الذي سنتوقف عنده في مقال مقبل .

إمام المحبين وسلطان العائقين - في قراءات عبر التاريخ (٢)

بقلم: فاروق شوشة

يقدم حفيد سلطان العاشقين ابن الفارض صورة وصفية لجده ـ نقلا عن أبيه ـ فيقول: كان عليه نور وخفر ، وجلالة وهيبة ، وكان اذا حضر في مجلس يظهر علي ذلك المجلس سكون وسكينة ، رأيت جماعة من مشايخ الفقهاء والفقراء وأكابر الدولة من الأمراء والوزراء والقضاة ورؤساء الناس ، يحضرون مجلسه وهم في غاية ما يكون من الأدب معه ، والاتضاع له ، وإذا خاطبوه فكأنهم يخاطبون ملكا عظيما ، واذا مشي في المدينة يزدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء ، ويقصدون تقبيل يده فلا يمكن أحدا من ذلك بل يصافحه ، وكانت ثيابه حسنة ، ورائحته طيبة ، وابن الفارض هو واضع النموذج الأول للقصيدة التي حاكاها البوصيري وعرفت باسم البردة ، وتابعه في محاكاة البردة البارودي في قصيدته كشف الغمة بمدح سيد الآمة وشوقي في قصيدته نهج البردة وكان سبق ابن الفارض إلى موسيقي البحر البسيط والي القافية الميمية والي ذكر الأماكن التي ترددت في شعر من جاء بعده ، وهي الأماكن المعروفة في الحجاز:' ذو سلم ، العلم ، أضم ، نعمان ، وجرة ، العقيق ، الخيف ، سلع وغيرها ، كان ذلك كله تعبيرا عن دور ابن الفارض الريادي في هذا المجال ، والذي لم يلتفت إلى ه الباحثون الذين اقتربوا من قصيدة البردة ومعارضاتها المختلفة .

يقول ابن الفارض في قصيدته:

هل نار ليلي بدت ليلا بذي سلم
أم بارق لا ح بالزوراء فالعلم

أرواح نعمان هلا نسمة سحرا
وماء وجرة هلا نهلة بفم
ياسائق الظعن يطوي البيد معتسفا

طي السجل لذات الشيخ من إضم
عج بالحمي يارعاك الله معتمدا
خميلة الضال ذات الرند والخزم

وصولا إلى البيت الذي اقتبسه كل من جاء بعده من الشعراء:
يالائما لا مني من حبهم سفها

كف الحلام فلو أحببت لم تلم

وبعده يقول:

وحرمته الوصل والود العتيق وبالـ

عهد الوثيق ، وما قد كان في القدم

ما حلت عنهم لسلوان ولا بدل

ليس القبول والسلوان من شيمي !

حين حاول المستشرق الايطالي الأب الدكتور سكاتولين أن يقدم دراسة دلالية للتجربة الصوفية عند ابن الفارض ، وجدها تنقسم إلى ثلاث مراحل أساسية ، بحسب تسميته هو نفسه لها في قصائده:

المرحلة الأولي وهي الفرق ، وفيها يصف الشاعر الصوفي حالة التفرقة والتمييز عند محبوبته التي يخاطبها هو بلغة حب عميقة واسعة .

المرحلة الثانية وهي الاتحاد وفي هذه المرحلة يصف الشاعر حالة الوحدة بينه وبين حبيبته .

والمرحلة الثالثة وهي الجمع وفيها يصف حالة الوحدة والاندماج بين ذاته هو وكل الموجودات . والتسلسل بين هذه المراحل يتحول إلى حركة صعودية متسعة أكثر فأكثر إلى آفاق أعلي وأوسع ، وتتخذ معاناة الشاعر الصوفية صورة سفر وهي صورة معروفة عند الصوفية . ويبدأ هذا السفر من مرحلة الفرق وهي مرحلة الحب حتي ينتهي في آخر مشواره إلى بحار الجمع فيقول:

وخضت بحار الجمع ، بل غصتها علي انفرادي ، فاستخرجت كل يتيمة لكن جمال شعر إمام المحبين وسلطان العاشقين عمر بن الفارض ، يتجلي- لدي قرائه ومحبيه- بعيدا عن هذه اللغة الصعبة لدراسيه من المتعمقين في التجربة الصوفية ومصطلحاتها ومفاهيمها . إنهم يقرأونه فيجدونه شعرا شديد العذوبة بالغ النقا والصفاء ، متدفقا في موسيقي سلسة وايقاعات متسقة ولغة شعرية نابضة بحرارة المعاناة وتجليات الحب في مثل قوله:

ته دلالا ، فأنت أهل لذاكا

وتحكم ، فالحسن قد أعطاكا

ولك الأمر فاقض ما أنت قاض

فعلي الجمال قد ولاكا

وهي القصيدة التي يقول فيها أبياته المشهورة:

كل من في حماك يهواك ، لكن
أنا وحدي بكل من في حماكا
يحشر العاشقون تحت لوائي
وجميع الملاح تحت لواكا
لك قرب مني ببعدك عني
وحنو وجدته في جفاكا
علم الشوق مقلتي سهر الليل
فصارت من غير نوم تراكا !

تكريـــــم

بقلم: فاروق شوشة

أبـدأ بـشكر لجنـة الـشعر بـالمجلس الأعلـي للثقافـة ، ومقررهـا شـاعر مـصر الكـبير أحمـد عبـد المعطـي حجـازي علـي تكريمـي في مناسـبة الـسبعين مـن العمـر مـن خـلال احتفاليـة نقديـة وشـعرية اسـتغرقت يـوم الأربعـاء الماضـي بكاملـه ، مـن الـصباح البـاكر حـتي الليـل المتـأخر ، وتخللتهـا شـهادة شـعرية قمـت بهـا عـن مـسيرتي الـشعرية علـي مـدي نـصف قـرن من الزمان .

ولقـد كانـت القاعـدة ـ في مـصر وفي بـلاد العـالم العربـي ـ أن يكـون التكـريم للـراحلين ، وأن يظـل هـذا التكـريم مـستمرا بعـد الرحيـل كـل عـام ، أو كـل مـساحة مـن الزمـان بقـدر ما تسمح الهمة ، ويكون ضغط الذكري ، وتنادي الأصوات المطالبة بالاحتفاء .

لكـن المجلـس الأعلـي للثقافـة ، ممـثلا في شـخص أمينـه العـام الـصديق الناقـد الكـبير الـدكتور جـابر عـصفور رأي أن يـضيف إلى هـذا التكـريم الواجـب للـراحلين تكريمـا للأحيـاء ، احتفـاء بالحيـاة نفـسها ، والتفاتـا إلى معـني التكـريم للمبـدع أو المفكـر أو العـالم في حياتـه ، وإيمانـا بـأن مثـل هـذا التكـريم يـصبح بمثابـة شـحن للطاقـة ، وشـحذ للهمـة ، وتجديـد لخلايـا الابـداع ، بـل هـو بمثابـة مـيلاد جديـد لـصاحبه يتأمـل فيـه مـسيرته عـبر عقـود مـن الزمـان ، بكـل مـا تحملـه مـن حـلاوة ومـرارة ، وانطلاقـات وتحـديات ، وهواتـف وشـجون وتطلعـات ، وصـولا إلى مـا هـو فيـه إلى وم ، وهـو ـ بـالتقييم والحـساب والمراجعـة ـ يعـد العدة لمرحلة جديدة ، وانطلاقة أبعد مدي ، وأفق لم يكن قد شارفه بعد .

في ضـوء هـذا الادراك الـواعي النبيـل ، كانـت حفـاوة لجنـة الـشعر واحتفاؤهـا بالـشاعرين الكـبيرين: أحمـد عبـد المعطـي حجـازي ومحمـد عفيفـي مطـر ، وتهيؤهـا مـن الآن لا حتفالية قادمة بالـشاعر الكـبير محمـد إبـراهيم أبـو سـنة عنـدما يبلـغ بـه العمـر المديـد شـاطيء السبعين إن شاء الله .

هأنـذا أكتـب هـذه الـسطور ، ولا تـزال عطـور المحبـة الـتي غمرنـي بهـا المـشاركون في هـذه الاحتفاليـة التكريميـة تمـلأ نفـسي ، وتـزدحم في صـدري وتـضفر خيـوط محبـتهم بأواصـر وثيقة مـن المحبـة والتقـدير المتبـادلين ، فـضلا عمـن شـاركوا مـن أصـدقاء العمـر الجميـل الحافـل ، بإضــافاتهم وإضــاءاتهم ، وقــد تجــسدت في أبحــاثهم ودراســاتهم ووقفــاتهم النقديــة الــتي عكفـوا عليهـا طـويلا ، أو الـتي تـضمنها الكتـاب التـذكاري الـصادر عـن المجلـس الأعلـي للثقافـة بهـذه المناسـبة ، مـن بـين مـا كتـب لهـذه الاحتفاليـة ، أو مـا سـبقت كتابتـه ونـشره في عدد من المجلات الأدبية والثقافية .

حتي الذين شاركوا - من الأصدقاء الشعراء - في قراءات بديعة لما اختاروه من قصائدي - نجحوا في ان يجعلوني أصغي إلى ها بأذن جديدة مغايرة ، وكشف جديد لما كان يعبرني ولايستوقفني ، ووجدت في قراءاتهم إضاءات لجوانب من هذه القصائد التي كنت أظنني أعرفها تمام المعرفة لا نها قصائدي ، فاذا بأدائهم الذي تنافسوا وتباروا فيه ، واختياراتهم التي كانت تصيبني أحيانا بالدهشة يضيفان إلى وعيا جديدا بما سبق أن كتبته ، واضاءة باهرة لما غاب عني من ظلال وإيماءات ووقفات وسكتات ، وتنويعات .

نعم ، لقد رجعت من هذه الاحتفالية وأنا أقول لنفسي إن ما كسبته في هذا إلى وم الحافل يفوق عشرات الجوائز واللقاءات والتكريمات ، فهو تكريم الشعراء أنفسهم لواحد من بينهم ، وتكريم النقاد والدارسين لمن رأوا في شعره قضايا ومجالات ينفسح فيها مجال القول والتأمل والتحليل ، وتكريم هذه النخبة من صفوة مثقفي مصر ومفكريها وعلمائها الأعلام ، من المجمعيين والشعراء وأساتذة الجامعات والوزراء السابقين ، والكتاب والصحفيين والاعلاميين وطلاب الدراسات العليا ، وهذا الحشد الذي ضاقت به قاعة المجلس من جمهور الشعر الحقيقي وعشاقه المتذوقين لا سراره وجمالياته .

لقد كان الجميع يتنادون بأن لجنة الشعر تستطيع الآن ، أن تعيد إلى الساحة الشعرية اتزانها واعتدال موازينها ، وأن تنقيها من الأوضار والأوشاب ، ومن الشعارير والمتشاعرين ، وممن يتاجرون بالشعر ، ويحولونه ، - أمام عيوننا وعلي مرأي ومسمع من الجميع - إلى وسيلة ارتزاق وتفاخر وتزاحم علي أبو اب المهرجانات والملتقيات ، وهم يدعون تمثيل مصر ، ويحملون - كذبا - شرف اسمها الذي يسيء إلى ه فساد المفسدين ، وتزوير المزورين ، وتستطيع لجنة الشعر الآن ، وهي واعية بدورها ورسالتها ومنطلقاتها ، أن تعد لمؤتمرها القادم قبل نهاية هذا العام ، ولمجلة الشعر التي ستصدر عنها وتتسع لا بداع المبدعين ، وأن تعكف علي خطتها الهادئة الواثقة من أجل الحفاظ علي الشعر الحقيقي ، وإبقاء شعلته متوهجة ورايته خفاقة .

وشكرا لكل من جعلوا من احتفالية السبعين بالنسبة لي يوم ميلاد جديد ، وإطلالة غد واعد .

تكريم محمد التهامي .. لماذا ؟

بقلم : فاروق شوشة

في صالون الأربعاء الشعري للجنة الشعر بالمجلس الأعلي للثقافة ، تم تكريم الشاعر الكبير محمد التهامي عن عطائه الشعري علي مدي أكثر من ستين عام ا من الإبداع ، المتمثل في دواوينه : أغنيات لعشاق الوطن ، وأشواق عربية ، وأنا مسلم ، ودماء العروبة علي جدران الكويت ، ويا إلهي ، وقطرات من رحيق العمر ، وأغاني العاشقين ، وقصائد مختارة . بالإضافة إلى كتاب عنوانه : جامعة الشعوب العربية والإسلامية : لماذا وكيف . وخلال هذه المسيرة الشعرية فاز الشاعر بالميدالية الذهبية لشعر معركة بورسعيد عام ١٩٥٦ ، وجائزة مجلس رعاية الفنون والآداب للشعر القومي عام ١٩٦١ ، وجائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ١٩٩٠ (أول من حصل عليها من الشعراء المعاصرين) وأخيرا جائزة مؤسسة يماني التي تحمل اسم الشاعر السعودي محمد حسن فقي .

ومحمد التهامي هو أكبر شعراء مصر الآن ، فهو من مواليد عام ١٩٢٠ في قرية الدلاتون بمحافظة المنوفية ، نال درجة الليسانس في القانون والاقتصاد من كلية الحقوق بجامعة الإسكندرية عام ١٩٤٧ ، وعمل بالمحاماة والصحافة والإعلام ، ومديرا لا دارة الإعلام بالجامعة العربية ، ورئيسا لبعثتها في اسبانيا ثم مستشارا في جامعة الدول العربية .

ثم هو صاحب نشاط ثقافي وأدبي موفور ، فهو عضو بالمجالس القومية المتخصصة ، وعضو لجنة الشعر بالمجلس الأعلي للثقافة في عدة دورات سابقة ، ورئيس لجمعية الأدباء ، مشارك في أكثر من ثلاثين مؤتمرا ومهرجانا شعريا مصريا وعربيا ، وكان في خمسينيات القرن الماضي وستينياته أحد أصوات مصر الشعرية المجلجلة ، في كل المحافل العربية . وطبعت هذه المشاركات كثيرا من قصائده بالجهارة والمباشرة والخطابية ، والالتفات إلى أهمية وقع القصيدة علي الجماهير الحاشدة واستقبالها لها والحفارة بما يصوغه الشاعر من أبيات القصيد التي تستوجب التوقف وتوقع الاستحسان . واصطبغ شعر التهامي بالطابع الوطني والقومي والإسلامي ، فلم نعد نعثر فيه إلا علي نماذج قليلة أصغي فيها الشاعر إلى همسات نفسه ونجاوي وجدانه وإلي تأملاته في الحياة والناس والكون وما يشده إلى أبنائه وأسرته من روابط حميمة .

وأصبح هذا القليل مختلفا - في جوهره - عن شعره الجهير المناسب للمحافل والملتقيات في بناء القصيدة وفي معجمها الشعري وفي موسيقاها وفي أدائها الهامس . يقول

في قصيدة عنوانها إلى ولدي: أنا قادم لك يا بني ، وحق طهرك لا تنم / لا تحرمن أباك من فمك الشهي إذا ابتسم / حلواك تلك أضمها في لهفة بيدي ضم / أسعي إلى ك وكل خافقة بجنبي تضطرم / فلعلني ألقي صباحك يملأ الدنيا نغم / فأطير من فرحي وأنسي الهم ، أنسي كل هم / فلكم تعبت وكم شقيت وكم شبعت من الألم / وعلي نداك الحلو ترتاح الجراح وتلتئم .

ويقول في قصيدة عنوانها لقاء التي نقرؤها فنكاد نحس أنه واحد من جماعة أبو لو شعراء المدرسة الرومانسية: والتقينا ، لا تسلني كيف ، لكنا التقينا / هي نفسي ، هي ذاتي ، ما افترقنا منذ كنا / مدت الدنيا متاهات وأوهاما علينا / وطوانا ظلها الخداع حينا فانطوينا / ثم طاف الحب نورا وانطلاقا فاهتدينا / وطوينا الدهر والدنيا ، وعدنا فالتقينا .

وفي قصيدة عنوانها دوامة الحلم يقول: حلم - بغير انتظار الحلم باغتني ، فاغتال صحوة أيامي وأرقني / وأيقظ الأمل المهجور من زمن ، وأضرم النار في كبدي وقيدني / وشد حلم حياتي من متاهة وللضياع مع الأحلام أرجعني / فرحت للحلم أدعوه وأسمعه ، وأحسب الحلم يدعوني ويسمعني .

ولقد جمعتني بشاعرنا الكبير ذكريات قديمة متجددة ، في اسبانيا إبان المشاركة في المؤتمر الإسلامي المسيحي الذي عقد في قرطبة ، وفي لجنة النصوص الغنائية باتحاد الإذاعة والتليفزيون ، وفي لجنة الشعر بالمجلس الأعلي للثقافة ، طيلة دورات عدة ، وكنت أذكره دائما بأهمية جمع شعره البعيد عن حدة المشاركة المباشرة في الأحداث الوطنية والقومية والإسلامية ، والذي يمثل جوهر شاعريته وحقيقة وجدانه الإنساني ، في ديوان مستقل ، حتي يراه الناس في إهاب شعري مغاير ، وفي طابع شعري مختلف . وليته يهتم بعد هذا التكريم ، وشهادة التقدير التي حملت توقيع وزير الثقافة والأمين العام للمجلس الأعلي للثقافة ، بنشر هذا الإنتاج الذي سوف تتاح له فرصة البقاء أكثر . فكم من أعمال شعرية ارتبطت بأحداث وطنية وثورات قومية ، كانت لا معة وذائعة الصيت في وقتها وأوانها ، وسرعان ما انحسرت وتنوسيت وابتعد عنها الناس ، بعد أن أدت دورها باعتبارها استجابات سريعة وآنية ، وأمامنا الشعر الذي صاحب الثورة الجزائرية ، وكثير من الشعر المصاحب للثورة الفلسطينية علي سبيل المثال ، أين هو الآن ؟ والذي لا شك فيه أن محمد التهامي مخلص لقصيدته في إطارها العمودي كل الإخلاص ، حريص علي أن يؤكد لقارئه أن كل التيارات والتغيرات الشعرية من حوله علي مدي ستين عام ا متصلة لم تؤثر فيه ولم تضف إلى ه ، ولم تحفزه إلى تغيير جلده أو نموذجه ، وهو مخلص للشعر - أولا وأخيرا - باعتباره فنه الأول والأثير ، ولا يشاركه فيه فن آخر ، وهو لا يري في الأفق الشعري أبعد من سماء شوقي ، شاعره الأثير ،

ولا يتجاوزه إلى من قبله من كبار شعراء العربية ولا إلى من بعده من المبدعين . وهو حر في مواقفه ، ونحن بدورنا أحرار في موقفنا منه ، وفي اختلافنا من حول شعره .

أحمد فضل شبلول وذاكرة الإسكندرية

بقلم: الشاعر فاروق شوشة

أكتب عنه لا هنئه بجائزة الدولة في شعر الأطفال، الشاعر والمبدع السكندري أحمد فضل شبلول، ذاكرة الإسكندرية، ومؤرخها إلى قط، وروحها التي تحمل عطرها إلى كل مكان في مصر وفي خارج مصر .

وأكتب عنه لا هنئه بجائزة لم يتقدم لها، فهو في حقيقته أكبر منها، وأعتقد أنها تأخرت عليه في زحام الصراع على الجوائز والتدافع بالمناكب . لكن اللجنة المسئولة عن جائزة شعر الأطفال لم تجد في الأعمال التي تقدم بها أصحابها ما يرقى إلى مستوى الجائزة، فاستعملت حقها القانوني في ترشيح ما تراه مناسبا، فكانت المجموعة الشعرية لا حمد فضل شبلول بمثابة النهاية الموفقة، والعمل الذي اتفق الجميع على اختياره وترشيحه للجائزة .

وأكتب عنه لا هنئه بسجله العصامي، ورحلته الصعبة مع كل من الحياة والإبداع . فبعد حصوله على بكالوريوس التجارة عمل مديرا للنشر بشركة إعلامية سعودية، ومصححا في مطابع جامعة الملك سعود بالرياض، لكنه لم يضع وقته، وكانت دراسته للكمبيوتر نقلة نوعية في ثقافته واهتماماته، وانعطافة مهمة نحو لون من الكتابة الشعرية لا يكتبه غيره، يمزج فيه بين معطيات الآلة والوجدان الإنساني، بين لغة الأرقام وفضاء الكلمات، بين العلم والتكنولوجيا ومغامرة الإبداع . وكان من نتائج هذه الدراسة نجاحه في إصدار أول معجم عن شعراء الطفولة في الوطن العربي، بالإضافة إلى دواوينه المتتابعة التي ضمنت له موقعه في الخريطة الأدبية والشعرية للإسكندرية، ومن أبرزها: مسافر إلى الله، ويضيع البحر، والإسكندرية المهاجرة .

وأكتب عنه لا هنئه بروحه الشفيفة ونفسه الصافية، هو الذي عانى المرارات وتنكر الرفاق في مصر وفي خارج مصر، ومازلت أتذكر رسائله الباكية التي بعث بها من خارج الوطن حين وجد ناقدا وأستاذا مصريا بارزا، معارا إلى البلد الذي يعمل فيه، وهو يشيع عنه في كتابته وأحاديثه أن شعره يتضمن خروجا علي المقدسات والحرمات، وهو يعلم أنه بهذا التفسير المغرض يعرضه إلى قطع رزقه، فضلا عن تعرضه لمصير لا يعلمه إلا الله . ونسي هذا الأستاذ أنه كان يباهي بأنه من رموز التنوير والنقد الجديد، لكنه تكشف عن صغار في القدر واتضاع في القيمة، ونجا أحمد فضل شبلول من كيده ودسه وتآمره، ووضع كل همه في الكمبيوتر:

الكمبيوتر الصديق خانني / لا نني لم أعطه الإشارة / ولم أبدل الحروف بالرقم / ولم أبرمج المشاعر / وأطلق الأوامر .

الكمبيوتر الذي علمته الحنان والأمان خانني / لا نني أدخلت في اللغات والشرائح المغنطة / عواطف الأزهار والأشجار والأنهار / وقصة العيون ساعة السحر / ورقصة الأغصان والأحلام والمطر / أدخلت واسترجعت بسمة العيون / إشراقة الحنين / نداء هذه البحار .

الكمبيوتر المحار / علمته الأسرار / فخانني ولم يعد يحار !

الكمبيوتر الصديق ! . . آه من الحديد عندما يخون / آه من الأزرار واللوحات والأرقام أطلقت في السوالب الهامدة / شعاع كهرباء / علمتها البكاء / علمتها الفرح / رافقتها للبحر والرمال والضياء / جعلتها تصادق النوارس المهاجرة / وتطلق العنان للأفكار / تحب وقتما تريد / وتلعب / تكهرب القلوب وقتما تشاء / وتذهب / تحاور العقول والأشياء / وتغضب / منحتها السرور والغضب / سألتها تخزين كل لحظة تمر بالشموس والنفوس / تسجيل أجمل الثواني / وأفخم المعاني / وأروع الأغاني / فعاتبت .

وإذا كان الكمبيوتر الصديق قد خانك أيها الشاعر والإنسان المرهف، فلا تستغرب أن يخونك من تزيا بزي النقاد والأساتذة، وحاول بإيذائك أن يكون خادما مطيعا للأسياد .

ومبروك يا أحمد .

لماذا احتلفنا بالهمشري ؟

بقلم: فاروق شوشة

قبل أن يسدل الستار علي عام ٢٠٠٧ بأيام قليلة ، كان احتفال لجنة الشعر في المجلس الأعلي للثقافة بالشاعر محمد عبد المعطي الهمشري ، الذي رحل في الرابع عشر من شهر ديسمبر عام ١٩٣٨ عن ثلاثين عام ا . وظل منذ رحيله ـ أي قرابة سبعين عام ا ـ لا يكاد يذكره أحد ، وهو صاحب اللحمة الشعرية البديعة شاطئ الأعراف ، والقصائد التي كان فيها الشاعر نصيرا للفلاح وداعيا إلى نهضة الريف ومحاربة الإقطاع والاستغلال ، متأثرا بمبادئ الحركة التعاونية المصرية التي عمل في مجلتها الصادرة عن وزارة الزراعة ولاتزال تصدر حتي إلى وم ، وبقصائد الشاعر الايرلندي التعاوني جون مراسل ، الذي ترجم له الهمشري عددا من أجمل قصائده ، من هنا ، كان الهمشري من الأصوات الشعرية المبكرة التي اتجهت إلى عالم القرية والريف في وقت مواز لتوجه الشاعر محمود حسن اسماعيل الذي كانت معايشته لواقع الفلاح في قريته النخيلة احدي قري محافظة أسيوط سببا في ابداع قصائده المبكرة التي يضمها ديوانه الأول أغاني الكوخ .

ولد الهمشري في مصيف رأس البر حيث كانت أسرته تصطاف في شهر يوليو عام ١٩٠٨ ، وكان أبو ه مولعا بالأسماء الثلاثية فسماه محمد عبد المعطي الهمشري ، ولما كبر الشاعر آثر ان يوقع قصائده بتسمية شعرية هي: م . ع . الهمشري علي غرار شاعره المفضل في الأدب الانجليزي ب . ب . شلي وتعلم في مدينة المنصورة ، وأقبل في سنواته المبكرة علي قراءة شعراء المدرسة الرومانسية الانجليزية خاصة: شلي ، وكيتس ، وبيرون ، وحين قامت جماعة أبو لو عام ١٩٣٢ وأصدرت مجلتها التي تحمل اسمها أصبح الهمشري واحدا من أبرز شعرائها ، ولمع اسمه بين شعراء جيله: علي محمود طه الذي رحل عام ١٩٤٢ ، وابراهيم ناجي الذي كان رحيله عام ١٩٥٣ ، ومحمود حسن اسماعيل الذي امتد به الأجل حتي عام ١٩٧٧ ، وظل شعر الهمشري بعد رحيله متناثرا علي صفحات مجلة أبو لو التي توقفت عام ١٩٣٤ ، وعلي صفحات مجلة التعاون بين عام ي١٩٣٥ و١٩٣٨ ، ولم يتح له أن يجمع في ديوانه إلا عندما نهض بهذه المهمة رفيق لرحلته الشعرية صالح جودت الذي جمع القصائد وحققها وقدم لها ، وصدر الديوان عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ لا ول مرة ـ عام ١٩٧٤ .

في شعر الهمشري سمات جماعة شعراء أبو لو وخصائصه الفنية التي تميزت بجموح الخيال والاغراق في الصور الشعرية ونزعة التأمل والهيام بالطبيعة الحية والجامدة ، بالاضافة إلى تدفق الايقاع والحرص علي الموسيقية التي تنساب في يسر وطبيعية ، لا

تكلف فيها ولا اصطناع ، ولقد جاء التفات لجنة الشعر إلى الاحتفال بالهمشري وشعره ، طبيعيا بعد احتفاليتها الكبري بشوقي وحافظ ، فجماعة أبو لو ومثلها جماعة الديوان تمثلان حركة الشعر المصري بعد شوقي وسعيها التجديدي من أجل لغة شعرية مغايرة وبنيه جديدة للقصيدة وفضاء شعري مختلف .

يقول في قصيدته الشهيرة: إلى جتا الفاتنة في مدينة الأحلام:

ها هو الليل قد أتي فتعالي . . نتهادي علي ضفاف الرمال
فنسيم المساء يسرق عطرا . . من رياض سحيقة في الخيال .

مع هذا الشعر المنساب المتدفق . . نحن أقرب ما نكون إلى عالم الشابي وآفاقه الروحية ، وتهويمات ناجي وعلي محمود طه ، وتسابيح محمود حسن اسماعيل المفعمة بعطر الطبيعة وتجليات المحبوبة ، لقد تشققت الكلاسيكية الجديدة التي أقام بنيانها شوقي وحافظ واسماعيل صبري ، وانفتح الفضاء الشعري لمغامرات هذا الشباب المزود بحساسية مغايرة ، وقراءات رومانسية لا فحة ، والمقتحم - في ثقة المبشرين مسوح الانبياء - لعالم مدهش في جدته ومعجمه الشعري وترانيمه وتصوراته . هذا شاعر من شعراء الطليعة ، نذكره لا ول مرة بعد قرابة سبعين عام ا من الرحيل ، وما أكثر من طواهم الإهمال والنسيان !

محمد الربيعي ومطره العصى

بقلم: فاروق شوشة

هذا شاعر قنع بحظه في الحياة والشعر ، ولم يشأ أن يحلق جناحاه خارج بلدة سوهاج ، وقد كان جديرا بأن يسمع الناس صوته في مناسبات القول ، وعبر منابر الإنشاد الشعري في الملتقيات والمهرجانات والاحتفاليات . لكن حياءه أو فلنقل تكوينه الريفي الصعيدي من ناحية ، وتعففه عن مواطن لا يأمن واردوها مخالطة من لا تطيب الحياة بصحبتهم أو حتى برؤيتهم ومواجهتهم ، واعتزازه بكبريائه التي عصمته من الوقوع في شرك الشهرة والبريق والزيف الترويجي لبضاعة كثيرا ما تكون فاسدة وراكدة ، كل ذلك جعل منه نموذجا لمن يبدع ويطوي نفسه علي ما ينجزه ، ويكتب ثم لا يشغل نفسه بتسويق ما كتبه أو الإفادة منه بأية صورة من الصور . وظل محمد الربيعي ـ كبير شعراء سوهاج ـ بسبب هذا كله ، ونتيجة له ، بعيدا عن الضوء مؤثرا للظل ، يغزل شعره علي مغزل صبره وأناته وطول باله ، غير عابئ بأن الدنيا من حوله ، في سوهاج ، وفي غيرها من بقاع مصر ، تقوم كثيرا ولا تقعد ، وترتج حناياها كثيرا ولاتهدأ ، فلا يغريه هذا كله بأن يمد رأسه خارج أسوار فرضها علي نفسه ، ولا أن يخطو بقدميه خارج حدود الدائرة الجغرافية الضيقة التي منحها حياته وشواغله وحبه وانتماءه ، وعانق فيها قدره الذي أسلمه إلى ما هو فيه .

ومحمد بخيت الربيعي ـ الشقيق الأكبر ـ لصديقنا الناقد الكبير أستاذ الدراسات الأدبية الدكتور محمود الربيعي ، ولد في جهينة بمحافظة سوهاج ، كما ولد أخوه ـ وتخرج في كلية اللغة العربية بالقاهرة قبل ان يتخرج شقيقه الأصغر من كلية دار العلوم بأربع سنوات ، ثم تخرج في معهد التربية العالي للمعلمين بجامعة عين شمس (كلية التربية الآن) ما نحا عمره كله للعمل التعليمي ، يرقاه درجة بعد درجة وصولا إلى قمته ، ومضيقا علي نفسه كل التضييق كلما جمح به الشعر إلى واحدة من مناطق البوح ومشارف المكاشفة ، فترده هالة المعلم والمربي والموجه إلى التوقر والمحافظة والبعد عما يريب .

لكن محمد الربيعي استطاع ـ بالرغم من كل هذا ـ ان يمد في حبل الشعر ، وان يواصل الانتساب إلى دولته ، وان يصبح واحدا من رعاياه ، بينما آثر شقيقه الناقد الكبير ان يقطع الطريق علي محاولاته الشعرية الباكرة ، بعد ان أصبح وعيه النقدي عقبة بينه وبين شعره ، فالذي يرضيه لا يواتيه ، تمسكا بمقولة الخليل بن احمد: أصبحت كالمسن ، أشحذ ولا أقطع ، لكن شاعريته لم تخنه ولم تتخل عنه ، وأصبحت نهرا

متـدفقا رقراقـا ، ينـساب في كتاباتـه النثريـة ، سـاكبا عليهـا مـن مـا ء الـشعر وكيميائـه ، خاصة في سيرته الذاتية بقسميتها: في الخمسين عرفت طريقي ، وبعد الخمسين .

المطـر العـصي هـو المجموعـة الـشعرية الثانيـة لمحمـد الربيعـي ، بعـد مجموعتـه الأولي مـا زالـت عنـدي أغنيـة الـتي أصـدرها منـذ اثـني عـشر عـام ا . وهـو لا يـتردد في الاعـلان عـن إيثـاره لكتابـة القـصيدة العموديـة ، وإن كـان قـد كتـب أيـضا قـصيدة التفعيلـة ، شـأن كـثير مـن مجايليـه ، في حركـة الـشعر المـصري المعاصـر ، الـذي حـركتهم شـاعريتهم ، وشـدة اهتـزاز وجـدانهم للقـصف الـشعري المغـاير ، إلى خـوض بعـض المغـامرات الإبداعيـة في غـير القالـب الـذي ألفـوه ومرنـوا عليـه ، وبعـد ان ينتهـي فعـل المغـامرة تكـون العـودة إلى الطريـق المأمون والسياق المألوف:

ـ أصل آخر من صنف الزئبق
لاتقدر ان تمسكه جسدا ولسانا
أحمق ، أحمق . .
لكن مطلي بالفضة !
ـ أصل آخر معدنه الألماس
تخدشه يبرق
تختبر حقيقته يصدق
يحتك به ازميلك حين تغاضبه
فيعطر هذا الإزميل
تكشف عنه تراب الأرض
ينور صبحا
يكشف سر الليل
قال صديقي . .
وهو يلملم أوراقا فيها أسئلة حيري
ـ يكفينا الليلة ما قدمت

ومـن أكثـر قـصائد المجموعـة فنـا وإنـسانية قـصيدته أنـا شـاكرة لـك يـا أبـي الـتي تلامـس وتـرا أصـيلا في الوجـدان ، حـين يـستعيد أمثالنـا مـن أبنـاء الريـف البعيـد ، نـضال هـؤلاء الآبـاء الاسـتثنائيين ، وإصـرارهم علـي تعلـيم أبنـائهم ، بينمـا الواقـع مـن حـولهم يمـوج بالظلمـة والتخلـف والأميـة والانـسحاق ، لكـنهم يقـدمون علـي التـضحية بكـل مـا يملكـون ـ وهـو في حقيقتـه يكـاد يكـون لا شـيء ـ ويقتطعـون مـن قـوتهم ، وقـوت مـن لم يـتح لهـم ان يتعلمـوا مـن ابنـائهم ـ مـن أجـل ان يفـوز مـن فـاز في سياق الحيـاة ، حـين تعلـم وأصـبح يـشار إلى ه بالبنان . يقول محمد الربيعي:

أنا شاكر لك يا أبي ، علمتني
هذي الحياة مذاهبا وطرائقا
لولاك ما كتب إلى راع قصيدة
كلا ، ولاملك اللسان الناطقا
أنت الذي كشف الغطاء فحلقت
بعدي طيور خلتهن بواشقا
لولاك ما طاروا ، ولم ينبت لهم
ريش ، وما خاضوا العلوم زوارقا
لولاك ما كانت بناتي كالنجوم
الزاهرات ، يضئن ليلا غاسقا
علمتني ورحلت أنت مبكرا
فعجزت أن أسدي الجميل اللائق
أنا شاكر لك يا أبي ، وفمي يقبل
تربة ، ويدي تصون مواثقا

ويا صديقي شاعر سوهاج الكبير محمد الربيعي ، لم يعد مطرك عصيا ، لقد هطلت سحائبه ، وأينعت غراسه ، وفاضت ينابيعه وجداوله ، اترك لا برة الشاعر - علي حد قولك - ان ترفو من أثوابنا البالية ، حتى نغير الجلد والثياب !

صرخة في وجه الرداءة والهبوط

بقلم:فاروق شوشة

الصرخة يطلقها الكاتب الشاعر بشير عياد من خلال كتابه ناطحات شعرية الذي صدر له ضمن سلسلة دراسات نقدية في مكتبة الأسرة ، وهو يأخذ بيد القارئ العام ــ قارئ الصحف لا قارئ الأدب ـ بقوة وبقسوة ، إلى مرحلة ما قبل المعلقات في الشعر العربي القديم ، تلك التي شهدت ـ كما يقول في تقديمه لكتابه ـ آلام المخاض الأول الذي سبق ميلاد أول بيت من الشعر العربي ، إيذانا باندلاع هذا الفن الجميل في صحراء جزيرة العرب ، ليتحول في زمن قياسي إلى فن العربية الأول ، ويجعل من لغتنا لغة شاعرة في المقام الأول .

الأمر إذن بالنسبة إلى ه ، واحد من أهم أحلامه وهو تقريب تراثنا الجميل وجعله في متناول القارئ العام بانتقاء النماذج الإنسانية والوجدانية التي تمثل قاسما مشتركا بين الجميع ، وطرحها في لغة سهلة بسيطة ، بعيدة عن لغة الدراسات الأكاديمية التي تحتاج إلى متخصصين يستطيعون الصبر عليها والتعامل مع صعبها وغريبها .

ثم يقول بشير عياد عن كتابه ـ باعتباره الأول في سلسلة من الكتب ـ يجئ هذا الكتاب كوقفات قصيرة مع بعض الشعراء الجاهليين والمخضرمين وشعراء صدر الإسلام ، أولئك الذين لم يكتبوا المعلقات ولكنهم تركوا قصائد أخري تشبه ناطحات السحاب لدرجة أن بعض هؤلاء الشعراء لم تحفظ لهم ذاكرة التاريخ أكثر من قصيدة واحدة ، ولكنها كانت كفيلة بأن تكتب لا سم صاحبها الخلود والبقاء . ما الذي يعنيه هذا الكلام ! .

يعني ـ بكل وضوح ـ أن شاعرا معاصرا وجد أن مسئوليته تجاه نفسه ، وتجاه الآخرين ، أن يثقف نفسه أولا من خلال العودة إلى أصول الشجرة الشعرية العربية ، راصدا جمالياتها ، متتبعا تجلياتها ، متوقفا أمام ما تمثله كل ناطحة سحاب ـ علي حد تعبيره ـ من هذه القصائد الباذخة ، من أفق شعري ، واكتمال فني ، ورؤية للحياة والوجود والكون .

هذا الشاعر يختلف عن كثير من رفاقه ، الذين يرون أن تراثهم الشعري هو إبداع العقدين الأخيرين أو العقود الثلاثة الأخيرة من الزمان ، وأن ما قبل هذه السنوات لا يستحق العودة إلى ه أو الانشغال به ، أي أنهم يختصرون تاريخ الشعر العربي في مجرد العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة ، ويسقطون ما قبلها من إبداعات وتحولات وإنجازات تملأ ديوان الشعر العربي علي مدي سبعة عشر قرنا من الزمان .

وهـو شـاعر مختلـف ثانيـا ، لا نـه يجـد نفـسه مـشدودا إلى ذلـك العـصر الـشعري الـذي يفـترش قـرنين مـن الزمـان ، أولهمـا يرتـد إلى مـا ئـة عـام قبـل ظهـور الإسـلام ، وثانيهما يمتد إلى نهايات القرن الإسلامي الأول .

مـن هنـا ، كانـت قدرتـه الفـذة علـي الارتحـال والتنقـل والاقـتراب والتـذوق والتأمـل والتحليـل لقـصائد عـدد مـن المبـدعين الكبـار في مـسيرة الـشعر العربـي - لم يـسمع بهـم كـثير مـن رفـاق شـاعرنا - هـم: حميـد بـن ثـور الهلالـي وسـويد بـن أبـي كاهـل إلى شـكري والـسموأل بـن عاديـاء وعبيـد بـن الأبـرص ومالـك بـن الريـب وذو الإصـبع العـدواني وأبـو ذؤيـب الهـذلي بالإضافة إلى الشاعر صفي الدين الحلي الذي قام بتخميس قصيدة السموأل ،

والشاعر محمد بن سليمان التلمساني المعروف باسم الشاب الظريف .

وكـان توقفـه البـديع عنـد القـصيدة الكافيـة لـصفي الـدين الحلـي - وهـي كمـا يـشرح لقارئه إحـدي أرتقياتـه أي القـصائد الـتي أنـشأها وهـو لـدي بـني أرتـق مـن الملـوك والأمـراء في مـا ردیـن وديـار بكـر - واصـفا إياهـا بأنهـا قـصيدة رقيقـة عذبـة الديباجـة والمعـاني ، غزليـة الألفـاظ ، وأرق ما فيها الاستهلال الغزلي البديع الشفيف:

كفي القتال وفكي قيد أسراك
يكفيك ما فعلت بالناس عيناك
كلت لحاظك مما قد فتكت بنا
فمن تري في دم العشاق أفتاك ؟
كفاك ما أنت بالعشاق فاعلة
لو أنصف الدهر في العشاق عزاك
كملت أوصاف حسن غير ناقصة
لو أن حسنك مقرون بحسناك
كيف انثنيت إلى الأعداء كاشفة
غوامض السر لها استنطقوا فاك
كتمت سرك حتي قال فيك فمي
شعرا ، ولم يدر أن القلب يهواك
كدت المحب فماذا أنت طالبة
فنا محبك مع اشمات أعداك !

الكاتـب الـشاعر بـشير عيـاد يحـرص علـي أن يـضمن كتابـه النـصوص الكاملـة للقـصائد الـتي تناولهـا بـالعرض والتقـديم ، والـتي اسـتقاها مـن المـصادر الموضـحة مـع كـل قـصيدة ، ثـم يقـرر حقيقـة لا يحـرص كـثير مـن الكتـاب والبـاحثين في زماننـا علـي ذكرهـا أو

الاعـتراف بهـا ، لكنهـا تمثـل خلقـا علميـا وأدبيـا رفيعـا ، حـين يقـول: ولأن الفـضل يجـب أن يـذكر لا هلـه ، نقـرر اننـا نقلنـا القـصائد بهوامـشها مـن مـصادرها المـشار إلى هـا ، والفـضل في جمعهـا وتخريجهـا وبيـان معـاني بعـض مفرداتهـا يرجـع إلى الأسـاتذة المـؤلفين والنقـاد ومـؤرخي الأدب ـ أصـحاب هـذه المـصادر والمراجـع ـ بجهـودهم الخلاقـة ، وصـبرهم ومثـابرتهم في سبيل جمـع هـذا الـتراث الرائـع وإعادتـه إلى الوجـود . ثـم يقـول في تواضـع جـم: نـضع هـذه القـصائد كاملـة أمـام القـارئ ليعـيش فيهـا مـرة أخـري ، وليعيـد قراءتهـا بطريقتـه الخاصة فربمـا يـري فيهـا مـا لم نـره ، وربمـا يـضيف إلى هـا مـا عجزنـا أو قـصرنا عـن إضـافته .

هـذا كتـاب يـستحق كاتبـه التحيـة والتقـدير . فهـو يتـيح لنـا قـراءة جديـدة لكنـوز ــ مـا تـزال شـديدة الحيويـة والعـصرية ـ مـن كنـوز تراثنـا العربـي ، ويأخـذ بأيـدي شـبابنا الجـاد ـ الباحـث عـن حقيقـة الـشعر العربـي في أصـوله وجـذوره ومـصادره ، وفي رحلتـه وتطـوره عـبر العـصور ـ إلى عـالم جديـد مـن الكتابـة الأدبيـة ، الـسهلة ، الرشـيقة ، الـتي جعلـت مـن ناطحـات الـسحاب الـشعرية ، ومـن الحـديث عنهـا ، صـرخة في وجـه الـرداءة والتـدني والهبوط ، ودعوة إلى الوعي بما في ديوان الشعر العربي من كنوز .

شاعر الجندول وشعره المجهول

بقلم : فاروق شوشة

حين توفي الملاح التائه ، شاعر الجندول ، علي محمود طه ، في عام ١٩٤٩ عن ثمانية وأربعين عام ا ، وقرأت نعيه في جريدة الأهرام ، داهمني حزن شديد ، وشعور بالفقد المؤلم ، لغياب شاعر بهرتني في صباي البعيد ـ فقد كنت في الثالثة عشرة ـ لغته الانيقة المترفة ، وخياله المقتحم المحلق ، ومعانيه الجريئة المبتكرة .

كان شاعرا يختلف شعره عن المألوف والسائد ، الذي عرفته عند شوقي وحافظ وإسماعيل صبري ومطران ، ثم عند علي الجارم ومحمد الأسمر ومحمود غنيم ، وغيرهم ، وكنت قد قرأت لهؤلاء جميعا بنسب متفاوتة ، في مكتبة البلدية بدمياط ، وفي مكتبة أبي ومقتنياته ، لكن شعر علي محمود طه ومذاقه الذي تفتحت عليه بواكير المراهقة ، وبدايات الارتعاشات العاطفية والوجدانية الأولي ، فتح عيني علي عوالم ملأي بالحب والمحبين ، وأكوان تتجاور فيها الأرواح والأشباح ، وتتعانق فيها لغة الروح ولغة الجسد .

هأنذا الآن ، يعيدني إلى هذه المرحلة الغالية من العمر ، وإلي ما تلاها من تجارب وخبرات واكتشافات وأسفار ، كتاب جميل شاعر الجندول وشعره المجهول في طبعته الجديدة الأنيقة الصادرة عن دار الكتاب العربي ، تصدرته مقدمة ضافية للسفير الشاعر الراحل أحمد عبد المجيد (١٩٠٥ ـ١٩٨٠) الذي عرف علي محمود طه عن قرب ، وكان واحدا من أصفيائه ، وهو يستشهد في تقديمه بكلمة للناقد الراحل أنور المعداوي ـ الذي اهتم بالكتابة النقدية التحليلية الكاشفة عن الشاعر الملاح ، وأصبحت كتاباته مرجعا أساسيا لكل من يحاول الاقتراب من شعر علي محمود طه ، فقد كان صديقه وجليسه وأقرب الناس إلى ه ، وهي الكلمة التي قال فيها المعداوي: إن حياته كانت علي لسانه سلسلة من الأحاديث وكانت في شعره سلسلة من الاعترافات .

ومؤلفنا: محمد محمود رضوان ينقل عن أنور المعداوي تصويره للمناخ النفسي والاجتماعي الذي عاشه علي محمود طه عند انتقاله إلى القاهرة بدءا من سنة١٩٢٧ ليعمل فيها مهندسا ثم وكيلا لدار الكتب ، من خلال ملامح فترة الكبت والحرمان والجو الخانق في مطلع القرن العشرين في البيئة المصرية ـ خاصة في القري والأقاليم والذي يسميه جو الرومانسية الوجودية فيقول: كان الجو الذي يعيشون فيه هو جو الرومانسية الوجودية أي جو الشعور بالوحدة والحزن والانطواء ، يعقبه جو الخلوة إلى النفس والطبيعة وهواجس الأحلام . هذه الرومانسية الوجودية التي أصابتهم بمرض العصر في ميدان الحياة قد

دفعـتهم دفعـا إلى جـو الرومانـسية الفنيـة في ميـدان الأدب ، حـتي أصـبح المـزاج القـاتم لا يـستجيب إلا للـشعر القـاتم ، والطبـع الحـزين ، لا يعجـب إلا بالقـصص الحـزين سـواء أكـان ذلـك في الانتـاج الأدبـي المقـروء أم كـان في الانتـاج الـذاتي والمترجـم ، ومـن هنـا كـان شـعر علي محمود طه فيما ينظم شعر اللوعة والدمعة والحرمان والفردية !

ولم يكـن الـدكتور طـه حـسين بعيـدا عـن الـوعي العميـق بالشخـصية الفنيـة للـشاعر المـلاح ، وهـو يقـول عنـه في كتابـه حـديث الأربعـاء: فأمـا أن معـرفتي لـشاعرنا المهنـدس قـد أرضـتني فـلأن شخـصيته الفنيـة محببـة إلى حقـا ، فيهـا عناصـر تعجـبني كـل الاعجـاب وتكـاد تفتـنني وتـستهويني ، فيهـا خفـة الـروح ، وعذوبـة الـنفس ، وفيهـا هـذه الحـيرة العميقـة ، الطويلـة العريـضة ، الـتي لا حـد لهـا ، كأنهـا محـيط لم يوجـد علـي الأرض . هـذه الحـيرة التي تصور الشاعر ملاحا تائها حقا .

محمـد محمـود رضـوان يحتـشد لكتابـه بكـل مـا كتبـه النقـاد والدارسـون عـن علـي محمـود طـه وشـعره ، ويقـرؤه ويحللـه ويناقـشه ويتوقـف عنـدما يوافـق رؤيتـه ومنهجـه منـه ، وفي طليعـة مراجعـه ومـصادره: دواويـن علـي محمـود طـه الثمانيـة ، وكتـاب أنـور المعـداوي عنـه ، ودراسـة نـازك الملائكـة عـن شـعره ، وكتـاب سـهيل ايـوب الـصادر في دمـشق ، وكتـاب الـدكتور الـسيد تقـي الـدين الـصادر عـن المجلـس الأعلـي للفنـون والآداب ، وكتابـان لـصالح جـودت ، وكتـاب الـدكتور محمـد منـدور عـن شـعراء جماعـة أبـو للـو ، وكتابـان لا بـراهيم المـصري ، وكتـاب لمحمـد رضـوان عـن شـعراء الحـب . فـضلا عـن الـدوريات الـتي نـشر فيهـا شعر علي محمود طه منذ قصائده الأولي حتي رحيله .

شوقي بغدادي و " البحث عن دمشق "

بقلم: فاروق شوشة

في منتصف الخمسينيات ، كان اسم شوقي بغدادي يمثل بالنسبة لقراء مجلة الآداب البيروتية في مصر ، واحدا من أهم الأصوات الشعرية في سوريا وأجملها وأكثرها امتلاء بروح التجديد . يومها كانت مجلة الآداب جسرا رائعا ، بل الجسر الأول للتواصل بين المبدعين من شتي بقاع الوطن العربي من ناحية ، وبينهم وبين قرائهم من ناحية أخري .

وكان شوقي بغدادي وعلي الجندي و عبد الباسط الصوفي - الذي ما ت منتحرا في كوناكري وهو في ميعة الشباب - يمثلون شعر الطليعة ، بالرغم من اختلافهم فكرا واتجاها وطريقة تعبير .

وامتلك شوقي بغدادي من العناد والإصرار والمثابرة ، ما جعله يواصل الإبحار في قلب العواصف السياسية العاتية التي اجتاحت سوريا منذ ذلك التاريخ البعيد ، واحتمي طويلا بوظيفته الأثيرة لديه - وظيفة المعلم - عن صخب العمل العام ومسئولياته المتقلبة في كل من الإعلام والثقافة ، وبهذا البعد عن مسار الطموحات ، التي كانت سببا في هلاك غيره وخفوت إبداعهم ، استطاع أن ينجز مشروعه الشعري المتمثل في إحدي عشرة مجموعة شعرية هي: أكثر من قلب واحد (١٩٥٥) ، لكل حب قصة ، أشعار لا تحب ، بين الوسادة والعنق ، صوت بحجم الفم ، ليلي بلا عشاق ، قصص شعرية قصيرة جدا ، عودة الطفل الجميل ، رؤيا يوحنا الدمشقي ، شيء يخص الروح ، وأخيرا البحث عن دمشق (٢٠٠٢) ، بالإضافة إلى مختارات بعنوان من كل بستان وأناشيد وقصص شعرية للأطفال ومجموعات من القصة القصيرة ، ورواية عنوانها المسافرة وثلاثة كتب في المقالة والخاطرة والدراسات .

شاعر له هذا الحضور والتأثير ، وهذه الموهبة التي استطاع أن ينأي بها عن الزلازل والبراكين ، لا بد أن يترك عالم التدريس ورحلته الطويلة مع التعليم آثاره المتمثلة لديه في صفاء اللغة ونقائها - حتي كأنها لغة اختارها صاحبها بعناية ليدلل علي عشقه للجمال بدءا من جمال اللغة - وذوق شعري عربي عصم صاحبه من العجمة أو الهجنة أو التخليط الذي وقع فيه غيره بدعوي الحداثة أو استدعاء لغة الواقع أو الإبهار بمغايرة المألوف ، وبناء شعري محكم ، لا يسمح بإفراط أو استرسال أو فقدان للنبض والحيوية والتوتر . وهو في حاليه الإبداعيين: شاعرا عموديا أو شاعرا حرا ، يمتلك أدواته الفنية

، ونفسه الشعري ، ويطول ويجول ، لا نه من المؤمنين بجوهر الشعر الحقيقي ، مهما اختلفت صوره وأشكاله .

يهدي شوقي بغدادي أحدث دواوينه البحث عن دمشق إلى عشاق الأمكنة القديمة ، قبل أن يفقدوها ، كما فقدوا زمانهم القديم . وفي توضيح صغير يقول: نجمت فكرة هذا الديوان بعد ظهور قصيدتي المسماة البحث عن دمشق عام ١٩٨١ ، وما سمعت عنها من تعليقات مشجعة أنها تصلح فاتحة لمجموعة شعرية متكاملة موضوعها واحد هو: علاقة الشاعر بمدينته . وهي علاقة تركت أثرها في وجداني الشعري منذ أمد بعيد ، وفي نصوص متنوعة . غير أن المسألة تعمقت واختلفت كما يبدو مع القصيدة الجديدة من حالة رومانسية إلى حالة أكثر تعقيدا وأبعد مدي مع تراكم السنين والتجارب . وهكذا اتخذت قراري منذ عشرين عام ا ونيف أن أعزل كل ما سوف أكتبه عن هذه العلاقة الحميمة بدمشق ـ التي أسرتني وألهمتني الكثير ـ لا صداره فيما بعد في ديوان مستقل خاص ، ولم أكن أظن أن المدة سوف تطول إلى عشرين عام ا ، ولكن هذا ما حدث . ولعل السبب هو أنني تركت لنفسي ملء حريتها في العودة إلى هذا الموضوع الحميم من حين لا خر ، دونما افتعال أو قصد مباشر مسبق ، كي تغدو الكتابة غناء خالصا للروح وذكريات العمر الجميل مع أعرق مدينة علي وجه الأرض ، وقد بدأت معالمها الأصيلة تختفي أمام الزحف الأخرق لحضارة هجينة ، وصار ضروريا البحث عن تلك الأصالة الجميلة وحمايتها شعرا علي الأقل ، والكشف عنها صونا للذاكرة الإنسانية والوطنية من التشويه والمسخ اللذين يهددان البشر والبلد .

في قصيدة عنوانها: نزوات شامية في الغوطة الشرقية . .

يقول شوقي بغدادي:

أنا الذي ابتدأ
ليس لا ن الشمس كانت بين غيمة وغيمة
ترشقني بغمزة
وتغرب
لست أنا الرائي
أنا المرئي
والأرض التي ترحب
ليس لا ن المطر الخفيف كان واعدا
كأن حتي القديم كان حاضرا
والشاعر العاشق كان يكتب
أنا الذي اخترعته

وعندما هما
وكان صادقا صدقته
وعندما طلبت أن يهدأ بعض الشيء
لم يعبأ وظل يسكب
ليس لا ن برعما
بحجم حبة يابسة من الأرز
أنعشته نسمة دافئة
فصار مدخلا لغابة طازجة
أنا الذي كنت وراء قشرة البرعم
أستحثها وأثقب
ليس لا ن لوحة الفضاء
كانت في ثوان تخطف ابتسامة
ثم تقطب
لست أنا الرسام
كان مشهدي يوحي
وكانت السماء تستطيب دهشتي
فترسم الأشياء إرضاء لها
لابد أنني كنت جميلا وقتها
أنا بدأت
كانت صحتي جيدة
وكنت ألعب

تري ، ما الذي سيقوله الشعراء المصريون لو فكروا كما فكر الشاعر السوري الكبير شوقي بغدادي ، واستنفروا ذاكرتهم المتخمة ليكتبوا بدورهم البحث عن القاهرة !

عودة بدوي الجبل

بقلم : فاروق شوشة

والمقصود بالعودة ، عودته إلى وطنه وقرائه ومحبيه ومريديه في سوريا ، بعد أن ظل مبعدا عن مسار الحياة الأدبية والشعرية منذ رحيله في عام ١٩٨١ ، وهكذا قدر لشاعر سوريا الأكبر في العصر الحديث محمد سليمان الأحمد المسمي ببدوي الجبل أن يظل قرابة ربع قرن محرما ذكره أو تداول شعره أو حتي الإشارة إلى موقعه من الحياة الثقافية والإبداعية ، وعوقب بدوي الجبل مرتين: الأولي في حياته حين تعرض للنفي والإبعاد عن الوطن سنوات عدة بسبب تصديه للاستعمار الفرنسي في سوريا ،

ومشاركته في ثورة رشيد عالي الكيلاني ضد الإنجليز في العراق ، وبسبب التقلبات السياسية والانقلابات العسكرية التي عصفت بسوريا عقودا من تاريخها الحديث ، وكان بدوي الجبل ــ في هذا كله ــ صوت الوطن والحرية ، وكانت قصائده ــ منذ مرحلة البواكير ــ زاد الثائرين والمناضلين والغذاء إلى ومي لشعب فطر علي حب الشعر وتذوقه والاحتفاظ في ذاكرته بالكثير من روائعه .

والثانية بعد رحيله ، حين أسدلت الدولة عليه ستار التنكر والنسيان ، وجعلته أسير الصمت والإهمال ، حتي جاءت هذه الاحتفالية أو الندوة العربية عن الشاعر الكبير التي تبناها ورعاها وزير الثقافة المثقف الدكتور محمود السيد ، بالتعاون مع مؤسسة البابطين للإبداع الشعري . وعلي مدي ثلاثة أيام من السادس عشر حتي الثامن عشر من هذا الشهر ، كان احتشاد عدد من الباحثن السوريين والعرب الأساتذة والدكاترة: عمر الدقاق ونذير العظمة وخليل الموسي ومها خير بك ناصر و عبد الكريم الأشتر وعلي عبد الكريم و عبد الواحد لؤلؤة وسعد الدين كليب ولطفية إبراهيم وهدي أبو غنيمة ونبيل سليمان و عبد الله أبو هيف وغيرهم ، ونخبة من شعراء الوطن العربي ، جوزيف حرب وحيدر محمود وشوقي بغدادي و عبد الرزاق عبد الواحد للمشاركة في الأمسية الشعرية المقامة بهذه المناسبة .

وأتيح لي أن أشارك ببحث عن البنية الشعرية في قصيدة بدوي الجبل: قصيدة اللهب القدسي نموذجا وبقصيدة عن بدوي الجبل في الأمسية الشعرية .

أتيح لكلمة نزار قباني عن بدوي الجبل ، والتي جاءت ضمن حديث صحفي معه: هو آخر سيف يماني معلق علي جدار الأدب العربي أن تتردد كثيرا علي ألسنة المشاركين والمعلقين ، باعتبارها شهادة من شاعر واسع الشهرة والجماهيرية هو نزار علي شاعر تتلمذ عليه نزار ــ وغيره من شعراء جيله ــ هو بدوي الجبل ، كما ترددت كلمات

للشاعر السوري الراحل ممدوح عدوان ـــ في سياق تقديمه للمختارات التي قام بها من ديوان بدوي الجبل ، وتم تداولها خلال هذه الندوة ـــ يقول ممدوح عدوان: لم يكن عنده إلا الشعر ، وبالشعر اقتحم العالم ، ولم تكن السياسة التي انخرط فيها لتغنيه عن متابعة طموحاته التي لم يكن لها منفذ الا الشعر وبالشعر قال: هأنذا . وهو شاعر معروف باكثر مما يمكن تعريفه ، وإذا جاز لنا أن نحكم حكما مجازفا ، وقلنا إن الشعر العربي قد عرف بعد المتنبي خمسة شعراء حقيقيين ، فلابد أن يكون بدوي الجبل أحدهم فهو بين أواخر من ثبتوا قيمته الكلاسيكية في الشعر العربي ، إذ أنه قد حافظ علي ديباحة الشعر العربي الكلاسيكي وقفز بها إلى ميادين جديدة ، كما تميز باللغة الأصيلة ، وبالعبارة المتينة والصورة المبتكرة ، وأدخل موضوعات جديدة عالجها بأسلوب خاص به وحده .

لعل هذه النغمة التي تتردد في شهادة ممدوح عدوان هي التي ترددت بقوة في أبحاث الباحثين: إبداع بدوي الجبل الذي يمثل خلاصة قيم القصيدة الكلاسيكية في أعلي ذراها ، واستيعاب روح الحداثة الشعرية جوهرا وانفتاحا وحساسية .

ومن واقع هذه الجدلية صنع بدوي الجبل قوائم عرشه الشعري الباذخ ، والذين يهتمون بسيرة الشاعر وانعكاسها علي شعره ، لهم أن يتكلموا كثيرا عن النضال والمواجهة والانكسار والنفي والاغتراب وكونه وزيرا ثم سجينا وصاحب سلطان وجاه ثم شريدا مطاردا ، هذه الدراما أو التراجيديا الحياتية لا بد أنها وراء العديد من إبداع بدوي الجبل المتميز ، الذي أنتجته سنوات الاغتراب والمعاناة والصراع السياسي والطائفي ، في نظر المهتمين بهذه السيرة ، وجميعه إلى زوال . أما الباقي والمستمر والمتحدي للزمن فهو شعره ، وهو هذه الجذوة الإبداعية القادرة علي البقاء والاختراق ، وجعلنا نعيد النظر كثيرا فيما يلوكه البعض من حداثة أو حداثات شعرية لا يشفع لها ما تزدحم به قاطرتها من كلام .

يقول بدوي الجبل:

أتسألين عن الخمسين ما فعلت

يبلي الشباب ولا تبلي سجاياه

في القلب كنز شباب لا نفاد له

يعطي ويزداد ما ازدادت عطاياه

فما انطوي واحد من زهو صبوته

إلا تفجر ألف في حناياه

تزين الورد ألوانا ليفتننا

أيحلف الورد أنا ما فتناه

إن نحمل الحزن لا شكوي ولا ملل

غدر الأحبة حزن ما احتملناه

قد هان حتي سمت عنه ضغينتنا
فما حقدنا عليه بل رحمناه !

وفي عودته إلى الوطن بعد طول النفي والغربة يقول بدوي الجبل:

عاد الغريب ولم تظمأ سريرتهفقد حملت بها في غربتي بردي
من روع البلبل الهاني وأجفله
عن أيكه وسقاه الحتف لو وردا
جلاني الظلم أشلاء ممزقة
واحتز أكرمهن: القلب والولدا
قلبي الذي نضر الدنيا بنعمته
رأي من الحقد أقساه وما حقدا
قرت عيون العدي والاصفياء معا
فلست أملك إلا العطر والشهدا

رهـــــان

بقلم: فاروق شوشة

قلت لي:
لاتراهن
فكل الرهانات خائبة
والزمان الذي نرتجيه
سراب بليد
ومحض رغاء

قلت:
إن الرهان طريق إلى الحلم
والحلم يمنحنا فرصة لا قتناص النجوم
وبوابة لا متلاك السماء
قلت لي:
لاتسدد
فكل سهامك طائشة
والمنايا مراوغة
والذي تتقصد
جلد سميك
تلافيفه لا تتيح نفاذا
لسهم القضاء !

قلت:
إن القصيدة سهم ، فسدده
ليس عليك إذا طاش
أو كان فرقعة في الهواء
وصار الذي قلت محض ادعاء
ويكفيك أن النوايا فرائس صيد
وأن الحياة اشتهاء !

قلت لي:
هل لديك قليل من الذاكرة ؟
ما الذي قد جري في رهانات من سبقوا
راهنوا أن هذا الذي ــ لم يزل يتلعثم ـ
هو صوت السنين التي سوف تأتي ،
وأن الذي ظل يخدعنا طيلة الوقت

أوشك يرفع عنه الغطاء
ليلعنه الناس عند انبلاج الصباح
وسوف يواري الثري
قبل طي المساء
وأن الذي راح في السوق يعرض كنز بضاعته
والبضاعة بغي وعهر
يعلق من فوق سارية ، ذات يوم

يري الناس عري مباذله
وفنون ألاعيبه الكاذبة
عبرة للذين طغوا ،
واستباحوا الحمي

ماالذي قد جري في رهانات من سبقوا ؟
لم يزل كل شيء
في المكان الذي قد مررنا به ألف مرة
شامخا ، يتباهي
ترفرف رايته في السما

والذين تكلست الأرض من تحتهم
والسماوات من فوقهم
هل همو نصب ؟
أم تماثيل ، ليس لها بعض طهر التماثيل ؟
إن العفونة ليست تطاق

وملء خياشيمنا الرائحة :
جثث يتفاوح منها النتن
ونفوس يعشش فيها العفن
لم تزل تتدافع مسعورة في الخضم

كيف تسعي إلى موطيء للقدم
وهي تعلم أن المصير الكفن !
فمتي يدفعون الثمن ؟
ومتي نتنسم ريح الوطن ؟
هل تري يصلح الغد بعض مسار الزمن ؟

قلت لي :
لاتراهن
فكل الرهانات خائبة
والسهام التي سوف تطلق طائشة

قلت :
حتي !
وإن !

يتيـــم

بقلم: فاروق شوشة

ألاحق ما يتبقي من العمر
أكره أن يتلكأ بي ،
أو يمارس صولة نزو قديم
وأسأله أن يخصص
ــ من بين أوراقه المرجآت ــ
لوجهك

ــ هذا المسجي أمامي ــ
بعض صحائفه المشرعات
لعلي ألامس منك الذي طار عني
وخلفني ،

أجرع الخوف والغربة الموحشة
لعلي إذا ما اقتربت
تنفست ذاك النسيم
ووقع يد أشربتني ــ علي ظمأ ــ
وهي تربت

فيض العطاء الحميم
برغم الزمان الشحيح العقيم
فهل أستعيدك

ــ ياوجه هذا الصفاء
الذي يتباعد عني ،
ويسلمني بعده لفضاءات هم مقيم

وعبء جسيم ؟
وهل أستعيدك

من قبضة لا فكاك
ولا من مخالبها نجوة

لا يقين تبقي لدي
ولا أمل في خيال يريم
فيا طيفها لا تباعد

ويا طير أعشاشها لا تغادر
ويا أغنيات الصبايا اللواتي
تحلقن من حولها
أمدا . .

لا تغيبي
فمازال لي موطيء في الربوع
وخطو يفاجئني ،
وهو يأخذني من مكاني

ويقذف بي في الدموع
فترتج مني الضلوع
لصدرك . .
هذا الحنين الذي ليس يهدأ
ما دمت طفلا ، إلى ك

وما دمت أحيا
لعينيك . .
هذا اللهاث الذي لم يزل يحتويني
ويعصف بي ،

حين أغمض عيني
وأطوي المشاهد والعمر طيا
لوجهك . .

ـ هذا المجلل بالطهر
والصبر ،
والحزن ـ
كل الذي يتفجر في
وكل الذي يتناثر حولي

وأغرق نفسي فيه
ومازلت أنشد عمرا بهيا
ولو جاء ممتلئا بالرضا بالقليل

ومكتملا ببهاء القبول
سأمحو من العمر ذاكرة لست فيها
وخارطة لا تقود إلى ك

لعلي يتاح لوجهي الدنو
الجثو
وتقبيل هذا التراب الذي كان يوما
يلامس وقع خطاك

وأنت تخطين عبر ملامحه المجهدة
رسوم صباي البعيد
وفرحة عمر سيأتي
وترنيمة لمصير بعيد

وحين تواريت فيه
تبارك وجه الثري
تقدست الأرض أما
وبؤت بيتمي

لغـــــة

بقلم: فاروق شوشة

ها انت تشاغل لغة
كبرت بك
ومعك
لم تبتعدا
أو تتباعد أجنحة منك ومنها
بينكما سر

أقدم من سفر التكوين
وأعمق من طبقات الأرض
وأبعد من نجم يتملكه بعض فضول
فيحاول ان يتطلع عبر سماء واحدة
عبر سماءين

ماذا قالت هذي اللغة ؟
وماذا قلت ؟
وانت تصيد أوابد
راحلة في قلب هجير المحل
وقطرة طل

راحت تتشكل في قلب الليل
لتفصح عن جلوتها في الفجر المخضل
تظل تسائل:

ماذا فجرت النجوي تحت عذاب الحرف ؟
وكانت أعناق السوسنة تشب
وتقفز فوق سياج العتمة

تقنص فرحتها من بوحة عطر

وشميم صبا
أو طلعة نور
من أكمام راحت تتشقق

وهي تضخ السر الأول في الكون
قصيدة حب ، تساقط مطرا
من بين أصابع محترقة
في يد عاشق

لم يطفئ أشواق يراعه
أو كوة نور
يشرق من أسوار العتمة

وهو يزلزل ديجور الطاغوت
ليسطع بين الناس بهاء العقل
أو عابر درب يترنح

في رحلة كون مختل
يتشهي قدحة شرر
أو ومضة برق مسعفة
بمتي ؟ ولعل !

ماذا يبقي بعد جفاف الحرف
وفوضي الكلمات !
وتناعق أغربة الحقد الأسود !

وحناجر دربها الهتافون المأجورون
بحثا عن خلخلة المعني
وهشيم الفكر المعتل ؟ :

أحراش تعوي فيها ذؤبان الليل
وجنادل توقف مجري الماء

وصوت صهيل النهر

وعناكب تفترش الطرقات
نفثت معجمها
وتعرت ملء فضاء مباذلها

ومضت تنسل
لكن يقينك
ينجيك ويغنيك

وينسج من أوراد الرؤيا
وسطور النجم العالي
وشعاع الفجر الصادق

عقدا منظوما ، كم يتشكل
دوما في دائرة العين
ولكن لا يتبدل

أبدا في دائرة القلب !
كيف يخون ملامحه ؟
أو يترجل !

أطلق للريح شراعا مقتحما
واقبض بيديك علي معشوقتك الموعودة
وانفخ فيها من روحك

حتي تنهض من كبوتها ، وتلوح لك
فالريح معك !

جميل عبد الرحمن الذي أهدرت الأيام دمه

بقلم : فاروق شوشة

في ديوانه الجديد وأهدرت الأيام دمي - الصادر ضمن سلسلة أصوات أدبية عن الهيئة العامة لقصور الثقافة - يفسح الشاعر جميل عبد الرحمن مساحة أرحب لمزيد من الشعر الصافي بديلا عن نبرة الخطاب العالي واللغة الحادة التي اتسعت لها دواوينه السابقة ، ويلجأ الشاعر إلى الصورة التي تقول - نيابة عنه - ما يريد أن يقول ، وتقوله بطريقة أكثر إيحاء ونفاذا ، وأقرب إلى النفس والوجدان .

يقول في مقطوعة عنوانها شجر العلقم:

المماليك عادوا
يركبون علي هذه الآونة
يركبون علي الأحصنة
والمكوس القديمة صارت تقد
من اللحم القديم
صار أنصبة من دمي
والمدينة والغة في دماء بنيها
بليل بلا أنجم
بينما نام حراسها
عن دبيبك يا شجر العلقم
ليطوق أعناقنا المذعنة
والليالي - علي جهلها - آمنة !

لابد أن شيئا من حكمة الزمن - في هذه المرحلة من العمر - واتساع مدي الخبرة ولذع المعاناة في صياغة القصيدة وتشكيلها ، والاصغاء الذكي لبعض الذين واكبوا شعر الشاعر منذ بدايته ، مؤازرين ومتعاطفين في بعض ملاحظاتهم علي ما أسميته النبرة العالية ، التي أتاحت لشعر جميل حضورا مجلجلا في كثير من الملتقيات الشعرية الجماهيرية ، لكنها - شأنها شأن كل حلية خارجية يلجأ إلى ها البعض - سرعان ما تخضع للقراءة الهادئة المتأملة ، فيكتشف الذين صفقوا لها بالأمس حتي أدموا أكفهم ، أنهم كانوا منساقين وراء خطابية الآراء التي ساعدت عليها لغة ولدت وهي تمتطي هذه الموجة العارمة . أقول: يبدو أن شيئا من هذا ، أو أنه كله قد جعل من هذه المجموعة الشعرية علامة فارقة في مسيرة صاحبها ، تضعه في مكان يليق به ، وفي مكانة هو

يستحقها ، بدأبه وإصراره وعناده ، وانفتاحه المستمر علي الجديد من حوله ، مع تمسكه بما يعده أصولا حقيقية للقصيدة العربية ، وفي مقدمتها موسيقي الشعر .

ها هو ذا في قصيدته القصيرة سوء الطالع يتحدث عن الهدوء الجميل والفرشاة المغموسة في اللظي وخطوط إلى دين التي تنبيء عن الطالع ، وكأنه شاعر آخر غير جميل الذي نعرفه ، والذي اعتدنا علي عنفه وصخبه وحدته :

أيها المتعمد
أن تترك الوقت مهرا حرونا
يطير علي مقلتيك
أين بعت الهدوء الجميل
وآثرت فوضاك
تجتر كل خطوط انكسارات حظك
أو خطوط يديك

هل تري هانت الأمسيات عليك ؟
ثم ها أنت تمسك فرشاتك إلى وم
تغمسها في لظاك
وتشربها ما ء نارك
تمحو خطوط يديك
لتغير من سوء حظك
وتوجه بوصلته لمدار السعود
بينما سوء طالعك الأزلي
ليس عبر خطوط محوت ملامحها
إنه لوحك المتدلي بجيدك
ممسكا بالرقبة
دون أن تبصره
لن تغير أقدارك المرتقبة !

هذا الديوان الجديد للشاعر جميل عبد الرحمن وترتيبه الثالث عشر في قائمة دواوينه التي بدأت عام ١٩٧١ بديوانه الأول علي شاطيء المجهول ثم تتابعت أعماله : عذابات الميلاد الثاني ، لماذا يحولون بيني وبينك ، أزهار من حديقة المنفي ، تموت العصافير لكن تبوح ، ابتسامة في زمن البكاء ، وأمام تشققنا نعترف ، في مدينة الوجوه القصير ، عناقيد من الجمر ، نزيف النخيل ، وردة في عروة ثوب القدس ، أغنية

البوح الباقية . بالإضافة إلى ثلاث مجموعات جديدة قيد الطبع ، وقد نال الشاعر جائزة الدولة التشجيعية في الشعر لعام١٩٩٥ ، اعترافا بمنجزه وتقديرا لعطائه . وقد لا تكون قصائد مجموعته الأخيرة أحدث ما كتب ، فبعضها يعود تاريخه إلى الثمانينيات ، وربما كانت ظروف النشر وانتظار الدور - في طابور طويل - قد عاقت صدورها في أوانها الحقيقي . لكنها قد صدرت أخيرا وحملت كثيرا من قسمات جميل الشعرية وملامحه ، ونجحت في اعطاء الانطباع بأن النفس الهاديء الذي يسكنه النضج والحكمة ، قد بدأ يفصح عن نفسه ، وهو ما نهنيء شاعرنا به وعليه ، نرجو له المزيد من الصبر علي القصيدة ، والمزيد من الإحكام في تشكيلها : تجويدا وإتقانا وتكثيفا .

رحيل " شاعرة العلاج بالشعر "

بقلم : فاروق شوشة

لم أكن قد سمعت عن العلاج بالشعر ، حتي أتاحت لي الشاعرة تيري بباوي فرصة الاطلاع علي كتاب عن هذا الموضوع بالانجليزية ، مطبوع في نيويورك ، وصادر عن مركز العلاج الشعري هناك ، شارك في تأليفه أكثر من عشرين عالما في تخصصات مختلفة : طبية ونفسية ولغوية ونقدية واجتماعية ، يعملون في هذا المركز ، ويسجلون خبراتهم وتجاربهم مع مرضاهم - نفسيا وعصبيا- وكيفية الوصول بهم إلى بر الأمان ، بواسطة العلاج بالشعر . ويبدو أن تيري بباوي كانت قد حصلت علي الكتاب عن طريق واحد من أشهر المعالجين النفسيين في مصر .

وفتنت بالكتاب ، موضوعا وطريقة عرض ، ومنهجا في استكشاف خبايا النفس الإنسانية التي كشفت عنها جلسات العلاج التي تستخدم الشعر باعتباره منشطا للخيال ومثيرا للذاكرة وكاشفا عن كوامن اللاشعور . الأمر الذي يقود إلى علاج قائم علي الفهم والتعاطف والمشاركة ، وأتيح لي وقتها أن أكتب أول مقال بالعربية عن العلاج بالشعر نشرته مجلة الدوحة القطرية في مستهل السبعينيات ، حين كان يرأس تحريرها الكاتب الكبير رجاء النقاش .

في ذلك الوقت ، منذ أكثر من ثلاثين عام ا ، كانت تيري بباوي تمارس العمل الصحفي الحر ، تنشر حوارات مع شخصيات مختارة مصرية وعربية ، في عدد من المجلات المصرية والعربية ، ثم تطور الأمر ، فبدأت تكتب أبو ابا ثابتة عن الأسرة المصرية والبيت المصري والطعام العصري والجديد في مجال الريجيم والموضة . كان نشاطا صحفيا متقطعا ، واهتمامات واسعة متناثرة . لكن يبدو أنها كانت تجرب قلمها وقدرتها علي الكتابة ، قبل أن تفجر مفاجأتها لكل من حولها ، بإصدار أول مجموعة شعرية لها وهي علي مشارف الأربعين من العمر . وسرعان ما تفجر النبع ، وتتابعت المجموعات الشعرية ، واحدة بعد أخري ، في صورة مثيرة للدهشة والتأمل ، والتساؤل عن الجهد الهائل الذي بذلته - دون مساعدة من أحد ، أو انتساب إلى مدرسة أو معهد أو جامعة - في تحصيل ذخيرتها اللغوية ، التي كانت تتعامل معها بواسطة الإحساس والتذوق ، لا بمنطق العلم بالقواعد والأصول ، وكانت حساسيتها تؤازرها كثيرا في اكتشاف الصواب واختيار مواطن الجمال وتجنب الكثير من الأخطاء . كانت النماذج العديدة من قصيدة النثر - التي شاعت في الصحف والمجلات المصرية والعربية ،

وأكثرها خواطر قد اغتسلت بماء الشعر - هي التي أغرتها بالكتابة الأدبية والشعرية علي هذه الصورة . دون أن تشغل نفسها بأهمية الموسيقي والإيقاع . يكفيها أنها تعبر عن نفسها ، بكل حرية وجرأة وشجاعة ، وقدرة هائلة علي البوح ، ورغبة عارمة في احتضان الكون والكائنات ، تنم عن نفس مفطورة علي الخير ، حرمت الحنان والأمان والاستقرار ، فأرادت أن تحققها لجميع الناس ، وحين أسعدها القدر بأحفادها الثلاثة من ابنتها الوحيدة تيري أصبحوا نجوم حياتها ، وكواكب سمائها ، تغني لهم ، وتفرح لخطواتهم في ملعب الطفولة والصبا ، وتري فيهم أملها في سعادة لم تتح لها بالقدر نفسه ، لكنها استطاعت أن تكون مبشرة بها في كل يوم .

وحين أتيح لي أن أتابع كتاباتها - في مراحلها المختلفة - أدركت أنها منذ مجموعتها الأولي تمارس لونا من العلاج الشعري ، لنفسها أولا وللآخرين ثانيا . فالشعر بالنسبة لها مطهر ومعبر إلى الفردوس ، وارتفاع عن سوقية الحياة وقبحها ودمامتها ، وعصمة من لؤم الناس وغدرهم وتقلباتهم ، ودعوة إلى الاستمساك بكل ما هو جميل ونبيل :

حين أتأمل فيما حولي
أدهش حين أري وجوها ليست سعيدة
وأتساءل لماذا لم يحاول أصحابها
أن يكونوا سعداء
وفي أيديهم كل ما يجعلهم قادرين !
هل لا نهم لم يروا الوجه المشرق من كل شئ
أم لا نهم أنهمكوا في أشياء أخري
لاتساوي الاهتمام بها
والتعب من أجلها ؟

وفهمت - متأخرا- لماذا كان موضوع العلاج بالشعر في مقدمة أهتماماتها ، من قبل أن تذيع كتاباتها الشعرية بين الناس وتنتشر ، ويكتب عنها كثيرون ، رأوا في كتاباتها جسورا للتواصل مع الآخرين ، وواحات رحبة وظليلة للتخلص من كل ما يثقل الناس بالهموم والأحزان والمصائر الأليمة . لقد كانت تمارس - بوعي وبدون وعي - علاجا شعريا علي نطاق واسع ، لها ولكل قرائها ، وشفاء حقيقيا لها وللآخرين .

وفي مجموعتها الأخيرة ، أحسست أنها تشارف خاتمة المطاف ، وهي تملؤها بابتهالاتها ودعواتها وصلواتها ، وكل رغائبها الطيبة ، لمن حولها بدءا بأسرتها - عالمها الصغيرة - وانتهاء بقرائها الذين أدهشتهم هذه النغمات الشبيهة بكتابات المتصوفة حين يحاولون الاقتراب من ساحات الوجد الروحي ، والحب الإلهي ، وتختلط في سطورها

هتافاتهـا الروحيـة المؤانـسة ـ حاملـة نـبض انـسانيتها وضـراعاتها وتـسبيحها ـ بأمنياتهـا المتلئـة بـالخير والمحبـة ، والتعـاطف مـع الأخـرين ، والتفاتهـا المـستمر إلى عـالم الطفولـة ـ متمثلا في أحفادها الثلاثة ـ باعتباره القادم والبسمة الدائمة والتحقق الذي أنتظرته طويلا .

وترحـل الـشاعرة تـيري ببـاوي عـن عالمنـا ، بعـد أن أثـارت مـا أثارتـه مـن دهـشة ومتابعـة وإعجـاب ، لا صـرارها وعنادهـا ودأبهـا وطموحهـا ، وتوقهـا الـدائم لا ن تـترك مـن بعـدها تـراث كلماتهـا الـتي انهمـرت في مجموعاتهـا العديـدة ، والـتي جعلـت منهـا رسـالة خـير وصـفاء ومحبـة ومـشاركة ، ومطهـرا لروحهـا وأرواح الأخـرين ، ودعـوة إلى التلاقـي والتـسامح والغفـران وتجـسيدا لفكـرة العـلاج بالـشعر كأجمـل مـا يكـون التجـسيد ، وأصـدق مـا يكـون العلاج والسعي إلى الشفاء .

هنالك في مملكة السماء
تتلاقي الأرواح في فرح
وتنسي شقاء الأجساد
وعداواتها علي الأرض !

" جميلة العيلالي " : شاعرة الوجدان النسائي

بقلم كتب : فاروق شوشة

والتسمية للناقد الكبير الراحل الدكتور محمد مندور ، أطلقها عليها عندما كتب عنها في كتابه الشعر المصري بعد شوقي مشيرا إلى تقديم أحمد زكي أبو شادي لديوانها الأول صدي أحلامي ومقارنا بينها وبين الشاعرتين فدوي طوقان ونازك الملائكة في درجة التحرر من التقاليد في أشعارهن .

وظلت جميلة العلايلي (ما رس١٩٠٧ ـ أبريل١٩٩١) بعيدة عن متناول النقاد والدارسين باستثناء الوقفات واللفتات المتأملة في شعرها وحياتها للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي والأستاذين أنور الجندي ووديع فلسطين ، حتي كانت هذه الدراسة الأدبية المتميزة للحصول علي درجة الماجستير ، قام بها الباحث أحمد محمد الدماطي ، وبذل فيها من عناء الدأب والبحث والتوثيق ما جعل منها وثيقة حية ، وعملا أكاديميا كاشفا يملأ الثغرات ، ويصوب الأحكام ، ويصحح المسار ، بفضل العون الذي تلقاه من ابن الشاعرة الأستاذ جلال سيد ندا والاشراف الدقيق للدكتور شعبان مرسي أستاذ الدراسات الأدبية . وجميلة العلايلي واحدة من الأصوات الشعرية الأصيلة في جماعة أبو لو الشعرية التي أسسها أبو شادي عام ١٩٣٢ ، نشرت لها مجلة أبو لو عددا كبيرا من قصائدها وقد صدر ديوانها الأول صدي أحلامي عام ١٩٣٦ ، وبه قصيدتان من الشعر المنثور . واحتفت به الحياة الأدبية ، فكتبت عنه الأديبة السورية وداد سكاكيني باعتباره أول ديوان شعري تنشره المرأة العربية في نهضتنا الحديثة ، متجاوزة شعر البدايات لعائشة التيمورية وملك حفني ناصف (باحثة البادية) ، كما أشاد به عزيز أباظة ومحمد عبد القادر حمزة ومحمود البدوي ، وزكي مبارك الذي قامت بينه وبين الشاعرة عاطفة عميقة كان من آثارها كثير من قصائده العاطفية وكتابه مجنون سعاد الذي يضم عددا من الرسائل المعبرة عن أشواقه وهيامه . ثم أصدرت ديوانها الثاني صدي إيماني عام ١٩٧٦ (بعد أربعين عام ا من الديوان الأول) وجمعت فيه شعرها الصوفي والايماني . أما ديوانها الثالث نبضات شاعرة فكان مقررا له أن يصدر في عام ١٩٥١ وكتب مقدمته أبو شادي لكنه تأخر ثلاثين عام ا فلم يصدر إلا في عام ١٩٨١ . ويبدو أن رحيل والدة الشاعرة ثم رحيل زوجها وبعض إخوتها وأصفيائها حال بينها وبين إصدار هذا الديوان ، لا نغماسها في حال من الأسي والانطواء والعزلة . ويبقي للشاعرة بعد هذه الدواوين الثلاثة ديوانان مخطوطان هما همسات عابدة وآخر المطاف .

وقد أتيح لي التعرف علي الشاعرة - صوتيا - في ختام حياتها (خلال الثمانينات) عندما كانت تسمعني - تليفونيا - بعض مقطوعاتها الأخيرة أو وهي تعلق علي ما استمعت إلى ه في برنامج لغتنا الجميلة .

كما تلقيت عددا من رسائلها التي ضمت بعض شعرها وطرفا من ذكرياتها مع الشعراء والأدباء في حقب الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات . ومعظم شعرها نشر في مجلات الرسالة والأديب اللبنانية والثقافة ومجلتها التي كانت تصدرها الأهداف .

وكانت جميلة العلايلي صاحبة صالون أدبي يؤمه عدد كبير من الأدباء وشعراء زمانها ومفكريه . وقد كانت تتردد علي صالون مي وتلتقي فيه بعدد من أعلام العصر: لطفي السيد والعقاد وسلامة موسي والشيخ مصطفي عبد الرازق وغيرهم ، كما تعرفت في صالون هدي شعراوي علي أحمد محرم ومختار الوكيل . وبتأثير من مي وهدي شعراوي أسست جميلة صالونها الأدبي في المنصورة ثم انتقلت به إلى القاهرة - بمساعدة زوجها الصحفي سيد ندا - وكان من رواده: زكي مبارك وأنور الجندي وإبراهيم ناجي ومحمد عبد المنعم خفاجي و عبد اللطيف السحرتي و عبد العزيز عتيق وعلي الجندي وقاسم مظهر وغيرهم .

يضم العالم الشعري لجميلة العلايلي دوائر عديدة متداخلة ، تجمع بين شعر الحب والطبيعة والشكوي والتأمل والشعر الصوفي الايماني والوطني والاجتماعي ، علي غرار ما تميز به شعراء جماعة أبو لو من أمثال ناجي والصيرفي والوكيل وصالح جودت ورامي ومخيمر وغيرهم . ويظل طابع التأمل - في الكون وأسراره - طابعا عام ا يكسو شعرها بغلالة من الحيرة والشجن والإحساس العميق بالأسر ، والرغبة في الانطلاق وتحطيم القيود ، كما تظل الصياغة القريبة من لغة الكلاسيكية الجديدة في كثير من قصائدها ، لتصبح جامعة ومازجة بين فضاءين شعريين: كلاسيكي وورومانسي .

رحماك نفسي أجيبي ليوم تآلي /
قد ضقت ذرعا بأعبائي وأثقالي
قد ضقت ذرعا بما ألقاه فانطفأت
مشكاة خير هدت روحي لا فعالي
فمن أكون ؟ وماشأني ؟ ما أملي
ولم قدمت لهذا العالم البالي ؟
ولم خلقت لهذا الكون وا أسفي ؟
ولم ولدت ؟ لماذا جاء بي إلى
لكن ثني الدهر من سهمي وحاربني
فما أبالي وحسب القلب آمالي .

ثم تقول في وضوح ساطع :

أنا الأبية لا أبغي مهادنة
إن الصراحة أقوالي وأفعالي . .
القول أجمله ما كان أصدقه
ومأأردت به تبديل أعمالي .

ولعـل هـذه الدراسـة الأدبيـة الجديـدة عـن جميلـة العلايلـي أن تكـون تـذكيرا بـشاعرة كانـت محـور اهتمامـات جيلـها ، والمحـيطين بهـا مـن الـشعراء والأدبـاء ، وحفـزا إلى قراءتهـا من جديد ، ودعوة لنشر ما يزال مخطوطا من شعرها حتي إلى وم وهو كثير .

وحيد النقاش . . الرجل الطيف والمدبع الجميل

بقلم: فاروق شوشة

أعادتني التليفزيونية المتألقة سها النقاش إلى زمن الحلم الجميل الذي عاشه جيلنا في صدر شبابه ومطلع حياته ، وهي تهديني الكتاب البديع إسراءات الرجل الطيف: وحيد النقاش الصادر ضمن المشروع القومي للترجمة عن المجلس الأعلي للثقافة ، وهو كتاب يضم الترجمات التي أنجزها أبو ها المبدع الكبير الراحل وحيد النقاش في مجالات القصة القصيرة والشعر والرواية والمسرح ، قامت بإعداده والتقديم له الأستاذة عبير سلامة .

ووحيد النقاش (١٩٣٧ ـ ١٩٧١) هو الأصفي والأنقي والأجمل بين أبناء جيله . جعل من نفسه ـ منذ سنواته الباكرة ـ سفيرا للجمال يدور به علي أصدقائه ومحبيه . لا أنسي فرحه بالقصائد الأولي لصلاح عبد الصبور ، يكتبها بالحبر الأخضر بخطه المنمنم البالغ الأناقة والدقة ، ويمر علينا ـ ونحن في مرحلة الجامعة ـ ليملأ بعذوبتها ودفئها ليالينا الباردة ، ويشعلها أنسا وحرارة وبهجة ، وجمالا واكتمالا . وهو في قمة افتتانه بها ـ خاصة قصيدة صلاح المبكرة رحلة في الليل يعيدنا بهذا الافتتان ، مزهوا بالشعر وكأنه هو مبدعه ومفش كنوزه وأسراره ، وأنا وأبوالمعاطي أبو النجا وسليمان فياض وخالد الساكت و عبد الجليل حسن ملتفون من حوله ، وهو يلقي في عذوبة آسرة ، شعر صلاح المنكسر الوديع .

وسرعان ما بدأت اكتشف هذا المنجم الإنساني البديع ، وأن تتاح لي طبقات عواطفه الصافية ومشاعره الأصيلة الصادقة ، مع اكتمال تعارفنا وتشارفنا لذري جديدة من الوعي والمعرفة . كان صافيا رائعا شفيفا كقطرة المطر ، عذبا كعذوبة النيل في انسيابه وانثياله وتدفقه ، متوهجا كالنجم الساطع ، وهو يقتحم فضاء الثقافات والآداب العالمية ـ خاصة الفرنسية ـ ويعود إلى نا نحن الملتفين من حوله دائما ، الساعين إلى عالمه الرحب بكل خصوبته وثرائه أبدا ، لينثر علينا من بدائع اكتشافاته ، وجني مغامراته ، ويرفعنا إلى عالمه وسمائه .

في ذلك الوقت المبكر من آواخر الخمسينيات كان وحيد النقاش كاتبا قصصيا متفردا ، حقق هذا التفرد من خلال نشره لثلاث من قصصه القصيرة ، الوجودية الروح ، الباهرة اللغة ، المسكونة بالتوحد والاغتراب والقلق الروحي العنيف ، هي: الموجة الأولي ، الضوء عند حافة الأفق ، علي المنحدر ، وقد نشرت في مجلة الآداب البيروتية في عام ي١٩٥٨ ، ١٩٥٧ .

ثم بدأ وحيد يطل علينا من خلال ترجماته ـ لعديد من القصص القصيرة لا لبرتو مورافيا وجان بول سارتر ومارسل أرلان وياسوناري كاواباتا وترجماته لرواية صمت البحر لفيركور ومسرحيات لتنيسي وليامز وجابريل ديرفيليب وجان جيرودو وهنري دي مونترلان وثلاث مسرحيات للوركا: عرس الدم ، وبيت برناردا ألبا ، ويرما التي تقول عنها عبير سلامة في مقدمتها الجميلة للكتاب: لقد استوحي لوركا في هذه المسرحية الساحرة التراث الشعبي الإسباني ، ممثلا في أغاني الغجر والفلاحين وحكاياتهم البريئة ، ثم صاغه برؤية عصرية ما زجا الرمزية الشفافة بالواقعية ، ومؤكدا أصالة موهبته العظيمة . عالم يرما عالم حسي مفعم بعواطف العذاري والزوجات ، شوق الريفيين للإنجاب ، وظمأ العاشقين للقاء ، أما موضوعها ـ وهو الأثير عند لوركا ـ فهو الجدب والإخصاب ، أو الاشتهاء العارم للحب والإنجاب ، ثم الحزن المأساوي لا فتقادهما .

ثم تجيء مرحلة يصبح فيها بيت الروائي الأردني الراحل غالب هلسا واحتنا الظليلة في هجير القاهرة ، ووحيد النقاش هو درة اللقاءات التي جمعتنا وزهرتها العاطرة ، من خلال صحبته الحميمة لمحيي الدين محمد ـ الذي أصبح مراسلا للآداب البيروتية من القاهرة ـ وعلاء الديب ، وسليمان فياض وأبوالمعاطي أبو النجا ، والحوار يدور من حول قضايا العصر في الأدب والإبداع ، وكتابة باب قرأت العدد الماضي من الآداب ، وتوزيع دوائره الثلاث: الأبحاث والقصة القصيرة والشعر علي من ينقدونها في كل شهر .

كان سماعنا بلوركا ـ لا ول مرة ـ من خلال ترجمة وحيد لمسرحياته ، وقراءتنا لا شعاره المبثوثة في ثنايا هذه المسرحيات ، وحين حاولت استعادة هذا الأفق الجميل من آفاق الصداقة والمحبة ، بعد رحيل وحيد بسنوات طويلة تزيد علي ربع القرن ، وكانت المناسبة الداعية قصيدتي عن لوركا وجدت صورة وحيد تطل من بين كلماتها ، وأنا أقول: لوركا . .

هل تدري ؟ حين عرفتك . .
كان وحيد النقاش يقربك إلى نا
– نحن المفتونين بزهو العمر ،
ولغو القول ، ووهم القدرة والتغيير ـ
كان وحيد جميلا يعشق كل جميل
فإذا اكتشف جمالا
أصبح يحمله ويغنيه
ويدور به ، يسقي كل الأحباب وكل الأصحاب
كان يحدثنا عن يرما
عن روح عاقرة ، وزمان بالخصب شحيح

كان يحدثنا عن عرس الدم
عن شعر فيك ، وقامته عشق وبطولة
ويحاول صيدك
وهو يصوغ بهاءك في جلوات الحرف العربي
حتي يقرأك المفتنون المأخوذون
– فإذا أترعنا
وانحسر الكيل وفاض
ألقي فينا بعض بشارته ونبوءته
أن ننتظر القادم من مكنون السحر
ومن مملكة الشعر
كان وحيد النقاش:
– هذا الطير المسكون بوهج السحر ،
وأجمل ما في لغة الطير
وفرح الكون ، وموسيقي الأشياء
ووجع الكلمات–
يسكب في أعيننا خضرة عينيه
ينبت في صحراء قساوتنا
أشجارا وارفة
ظلالا من حلم
ومواكب ألوان ونغم
ويعيد نوافذ ألق الروح إلى الأحياء
الزمن عقيم . .
والطير المسكون بوهج السحر
الطير الأجمل فينا ، طار
من زمن طار . .
خلفنا نبحث عن عينيه الخضراوين
ونعري في صفرة هذي الصحراء
وجدب الليل المتراكم فينا ليل نهار !

هذا كتاب جميل وبديع عن مبدع أجمل وإنسان أصفي ورجل طيف كما يقول عنوانه . شكرا للأستاذة عبير سلامة ، وللمشروع القومي للترجمة . أما أنت أيتها

التليفزيونيـة المتألقـة سـها وحيـد النقـاش فحـسبك أن أبـاك كـان درة أبنـاء جيلـه ، وهـذا الكتاب بعض عطره الذي لا يزول .

مكة . . وحي للمبدعين

بقلم:فاروق شوشة

في مستهل الاحتفالية التي أقامتها مؤسسة يماني الثقافية الخيرية لهذا العام تحت عنوان مكة المكرمة في الشعر العربي ، علي مدار يومين في القاهرة ، ألقيت هذه الكلمة :

فوق أرض تتوضأ بالنور وتحت سماء هي أفق الوحي ، ودارة الملأ الأعلي هنالك ، حيث طوفت قدماه ، وتأملت في الجبال والوهاد عيناه ، واشرأبت روحه وأضاء محياه ، فانسكب نور الله علي لسانه آيات بينات ، وانداح فيض البيان المعجز رسالة حق وخير وهدي ، ومحبة وأمن وسلام .

فوق هذه الأرض وتحت هذه السماء ومن حول البيت الذي جعله صاحبه مثابة للناس وأمنا ، تشكلت قصيدة مكة ، وامتدت في أرض العربية ـ أوتادها ، وانثالت أضواؤها تشاغل وحي المبدعين ، من قبل الإسلام ومن بعد الإسلام ، حتي يومنا هذا .

وإذا بديوان شعر مكة ـ مكة التي تعني في إلى منية القديمة بيت الرب أو بيت الإله ـ يتألق صفحات باقيات ، يتقدمها ما رواه الرواة من أشعار بني هاشم ، الذين كانت علاقتهم بالشعر علاقة فطرة وطبع وسجية قصي و عبد مناف وهاشم و عبد المطلب ومن بعدهم حمزة وأخواه: الزبير وأبوطالب ، الذي كان يهتف في خلواته بقوله في محمد ودينه الجديد:

ولقد علمت بأن دين محمد
من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذاري سبة
لوجدتني سمحا بذاك مبينا
ويقول فيه أيضا :
وأبيض يستسقي الغمام بوجهه
ربيع إلى تامي ، عصمة للأرامل

وتكتمل باقة شعراء مكة ـ في زمن السيرة النبوية ـ حين يذكر الحادث بن هشام وأبوسفيان بن الحارث وعمرو بن العاص وهبيرة بن أبي وهب المخزومي وضرار بن الخطاب ، و عبد الله بن الزبعري وهو أشعرهم جميعا ، وأحدهم لسانا وقافية ، قبل إسلامه وبعد إسلامه .

وعلـي أرض مكـة ، وفي شـعاب جبالهـا ووهادهـا وأوديتهـا ، تـرددت أشـعار عمـر بـن أبـي ربيعـة وغزلياتـه في مواسـم الحـج والطـواف ، وابـن قـيس الرقيـات ، وأبـي دهبـل الجمحــي وســحيم عبــد بــني الحــسحاس وغيرهــم مــن المبــدعين الــذين ألهمــتهم مكــة ، وسكبت مـن كيميائهـا وصـهدها في عـروقهم علـي مـدي العـصور والأزمـان ، وصـولا إلى مبـدعي مكـة في عـصرنا الحـديث وفي طليعـتهم شـاعر مكـة محمـد حـسن فقـي ، الـذي حملـت هـذه الاحتفاليــة اسمــه ومــن بعــده حــسن عبــد الله القرشــي ، واخــرون تــرددت في أشــعارهم مسمياتها ركنـا ركنـا ، وشـعبا شـعبا ، وهـم يتلقفـون مـن قـرب ومـن بعـد أقبـاس جلوتهـا حـين يشرق موسم الحج في كل عام .

واختيـار مكـة المكرمـة في الـشعر العربـي عنوانـا لهـذه الاحتفاليـة ، اشـارة لا تخفـي دلالاتها علي العقل والوجدان .

حـين نـستعيد ـ ونحـن في مقـام الاسـتذكار والتأمـل ـ بـصرا ثاقبـا وعقـلا نافـذا ، حلق بـصفائه العميـق وبـصيرته النافـذة ونقائـه الأسمـي فـوق سوءات زمانـه وقـبح عـصره وتخلـف قومـه ، باحثـا عـن النـور الأعظـم ، فكـان نـور الرسـالة خروجـا مـن الجاهليـة ، وانـدفاعا نحـو قـيم التجـدد والتحـضر والتحـرر ، وبنـاء فجـر العولـة الإسـلامية ، الـتي دان بهـا العـالم طيلـة قـرون . ثـم هـو اختيـار يمثـل دعـوة للحريـصين علـي هـذه اللغـة القديمـة الجديـدة ، التراثيـة العـصرية: لغـة قـريش ، وحثـا للغيـورين عليهـا ، كـي يخـدموها ـ كمـا خـدمها الأسـلاف مـن العلمـاء والبـاحثين ـ ويجعلوهـا قـادرة علـي الوفـاء باحتياجـات العـصر ، واسـتيعاب الجديــد مــن روح الحــضارة وألفاظهــا ومــصطلحات العلــوم ودقــائق الحاســوب وتقنياته وشبكة المعلومات . ولابد أن قبسا من وهج مكة قد مسني ـ بدوري ـ وأنا أقول:

هذي نارها ، فعجل . .
وقل للركب وافي زماننا ـ بعد لا ي
وأسعف التنويل
ما الذي ترتجي ؟
نسيم من الرحمة تنساب صباه ، وجلوة ، وقبول
سامر الحي لا ترع اننا سرنا
طويلا ، وليس ثم نزول
قد غنمنا من الزمان صفاء الوقت
فالحلم بالحبيب وصول
ملء أوطابنا صلاة وزلفي
وخشوع يزفه التبجيل
وبكاء به تطهرت الروح

وشوق إلى الحمي موصول
لاتقل لي: استفق ، فها أنا وحدي
أتملي مشاهدي وأطيل
أنا أبطأت من خطاي ، وطوفت
وحشد العفاة حولي حفيل
عشيت في الضياء عيني ، فأدركت
بأن الجميل فيها جليل
إنها مكة التي يجتلي القلب
رؤاها ، ويصدق التأميل
العروس التي تزين للمجد
وللمجد في رباها مقيل
موكب من مواكب الخلد يختال
خطاه التكبير والتهليل
ونداء شق السكون صداه
فإذا كل سورة تأويل
حجر ذاب قلبه ، فالينابيع
ارتشاف عذب ، وظل ظليل
والسموات أطرقت وهي تصدع للأمير:
نبي يوحي له ، ورسول
وحديث هناك في الملأ الأعلي ،
وصوت دوي به جبريل
وبيان هو المحجة والقصد
وورد كؤوسه تنزيل
بكة الخير والسلام ، سلاما
ملء قلبي هنا كلام يطول
لست وحدي الذي يؤرقه ليل
كثيف ، وغمة لا تزول
لست وحدي الذي يثور علي الظلم
ومن حولنا ذئاب تصول
لست وحدي الذي يهاتي فلايسمع
قول ، ولايرد صليل
كلنا كلنا ارتددنا إلى الخلف

ومفتاحنا : جديد ينيل
لست وحدي الذي يكفنه الخزي
وحال من الأسي لا تحول
ليس يجدي انكفاؤنا في الغشاوات
وقول بيانه معسول
هل لهذا الممات بعث ؟ وهل
للتائهين الظماء يوما وصول
كيف تاه الركب المغذ زمانا
والطريق الذي ابتدأنا طويل
كيف لا نهتدي ؟ وقد وضح الدرب
وفينا الهدي ، وفينا الدليل !

طاهر أبو فاشا وجائزته الذهبية

بقلم: فاروق شوشة

من جديد يعود اسم طاهر أبو فاشا يتردد بقوة علي الأقلام وملء الأسماع ، بعد فوزه بالجائزة الذهبية عن ريادته في فن الكتابة الإذاعية علي مدار أكثر من أربعين عام ا ، وهي الجائزة التي حملت اسم نجيب محفوظ ، وأعلن عنها مهرجان الإعلام العربي في هذا العام ، لا ول مرة وفاز بها أيضا أسامة أنور عكاشة عن ريادته في الدراما التليفزيونية وعطائه المتميز كما وكيفا ، فاستحق أن يطلق عليه نجيب محفوظ الدراما التليفزيونية .

ولقد عرف الناس طاهر أبو فاشا ـ أول ما عرفوه ـ شاعرا لا معا بين كوكبة شعراء جماعة أدباء العروبة التي كان يرعاها دسوقي أباظة باشا ـ والد الكاتب الكبير ثروت أباظة ـ وكانت الكوكبة تضم أحمد مخيمر والعوضي الوكيل وأحمد عبد المجيد الغزالي وغيرهم ، بعد أن أصدر دواوينه الثلاثة الأولي: صورة الشباب ، والأشواك ، والقيثارة السامرية ، معلنة عن موهبة شعرية أصيلة ، ولغة شعرية متميزة وعالم جديد من الرؤي والتجارب والمواقف ، اكتملت بها جميعا سمات شاعر يقتحم الساحة الأدبية ، ويفرض اسمه وحضوره علي المجتمع الثقافي والواقع الشعري الذي كان يزدحم بتيارات شعرية ونقدية يمثلها الشعر المهجري ، وشعر جماعة أبو للو وشعر جماعة الديوان .

وفي مستهل الاربعينيات تغير مسار طاهر أبو فاشا حين قادته خطاه ـ بفضل صديقه الإذاعي الرائد كروان الإذاعة محمد فتحي ، الذي وجد فيه موهبة أدبية فذة ، وطاقة متجددة تبحث عنها الإذاعة في سنواتها المبكرة ، وسرعان ما انجذب طاهر إلى هذا العالم الجديد الساحر ، واضعا اللبنات الأولي فيه ، ومشيدا صرحا ضخما من الانجاز في مجال الكتابة الإذاعية ألف ليلة وليلة في ثمانمائة حلقة ، وألف يوم ويوم التي كتبها لا ذاعة الكويت ، والأوبريت الغنائي رابعة العدوية الذي صدحت بأغانيه كوكب الشرق أم كلثوم ، وشارك فيه بالتلحين رياض السنباطي ومحمد الموجي وكمال الطويل ، وأوبريتات أخري عن أفراح النيل وأصل الحكاية وسلسلة الصور الغنائية التي أبدعها بعنوان أعياد الحصاد عن كثير مما تنتجه أرضنا الطيبة وكلفته هذه الريادة في الكتابة للإذاعة ثمنا غاليا حين شغلته عن مواصلة ابداعه الشعري ـ فنه الأول والأثير ـ قرابة خمسة وثلاثين عام ا ، باستثناء عدد من قصائده التي كتبت للغناء أو من أجل متطلبات الدراما ، ولم يظهر ديوانه الشعري الرابع راهب الليل الا في عام ١٩٨٣ ، وبعده: الليالي ، ودموع لا تجف وعندما توقف عن الكتابة للإذاعة ، كان لديه الوقت للعكوف علي إنجاز مؤلفاته الأدبية والفكرية ، وراء تمثال الحرية ، والعشق الإلهي ، والذين

أدركتهم حرفة الأدب ، وهز القحوف ، في شرح قصيدة أبي شادوف ، محققا بذلك صورة الأديب والفنان الشامل ، شاعرا وقاصا ، وباحثا ، وكاتبا دراميا ، وفقيها في اللغة عالما بأسرارها ودقائقها ، وقطبا يلتف من حوله السمار في المجالس والملتقيات ، يملؤها بظرفه ودقته وحكاياته ونوادره ، من خلال بديهة مسعفة وذاكرة واعية ونفس رضية سمحة .

ولقد كان نجاح عمله الإذاعي الشهير ألف ليلة وليلة الذي وضع اسمه علي كل لسان ، وأدخله إلى كل بيت مصري وعربي ، مقرونا ـ في الوقت نفسه ـ بالطاقة الفنية الكبيرة والرائدة للإذاعي الكبير محمد محمود شعبان بابا شارو الذي برع في تجسيد النص الإذاعي وضخ ما ء الحياة والفن فيه ، وأصبحت صداقتهما وتعاونهما الفني معا علي مدار سنوات طويلة ، مضرب المثل في الصحبة التي تقوم علي تلاقي العقول والأرواح ، الضرورية لتحقيق مثل هذا الانجاز .

ولقد قدر لهذا المبدع الكبير ان يكون العقد الأخير في حياته مليئا بالحزن والأسي ، عندما فارقته شريكة حياته وتوأم روحه في عام ١٩٧٩ ، وعندما اختطف الموت ابنه البكر الشاعر فيصل الذي كان امتدادا لا بيه في موهبته ووعوده المرجوة عام ١٩٨٩ ففقد طاهر أبو فاشا كثيرا من عافيته ومرحه وإشراق نفسه ، وتحولت أشعاره في ختام العمر إلى دموع ساخنة وبكائيات موجعة ، فكان رحيله بعد ابنه فيصل بثلاثة شهور ، قضاها مغيب النفس والوعي والطاقة ، عن واحد وثمانين عام ا ، استأثرت الإذاعة والفنون الإذاعية بنصفها علي الأقل وأمتع الملايين بفنه وفكره وإبداعه ، وملأ حياتهم بهجة وأنسا بالحياة .

وجاءت الجائزة الذهبية بعد رحيله بثمانية عشر عام ا ، لتجدد ما ثر صفحته في سجل الذكر والبقاء ، ولتذكرنا بقول شوقي:

وسر العبقرية حين يسري

فينتظم الصنائع والفنونا

وأخذك من فم الدنيا

ثناء وتركك في مسامعها رنينا

محمد رشدي وديوانه " الرشديات "

كتب : فاروق شوشة

في كثير من سير الراحلين ، الأدباء والشعراء والمفكرين ، تستوقفني دائما ظاهرة ان بناتهم هن الأكبر وفاء لذكراهم والأكثر حرصا علي ما تركوه من تراث جدير بأن يذاع وينشر ، بينما ينصرف الأبناء إلى شواغل الحياة ، وترمي بهم طموحاتهم ومسئولياتهم بعيدا عن دائرة الاهتمام بالآباء .

ليس هذا حكما عام ا بالطبع ، لكنه صحيح في كثير من الحالات . وقد لمسته بنفسي في نموذجين ساطعين ، الأول: يتجسد في صورة الأديبة والشاعرة كريمة زكي مبارك التي جعلت من القيام علي تراث أبيها والاهتمام بنشر ما لم ينشر منه والتذكير به في كل مناسة ، رسالة حياة ، والثاني: يتجسد في الإذاعية والفنانة سلوان محمود حسن إسماعيل التي كان وفاؤها لا بيها مضرب الأمثال ، وظلت حتي النفس الأخير في حياتها لا يشغلها إلا شعر أبيها واهتمام المؤسسات الثقافية والأدبية وإذاعته ونشره ، باعتباره رسالتها الأولي والأخيرة .

واليوم ، يسعدني التعرف علي نموذج ثالث يتمثل في الأديبة المرهفة نجوي محمد رشدي خاطر التي نهضت بتراث أبيها الشاعر والكاتب والأديب الذي لم تتح معرفته إلا لقليل من الناس ، باعتباره واحدا من شباب مصر المتلئين بالوطنية والمشاركين في ثورة١٩١٩ ، الذين كانوا يفاخرون بأنهم جلدوا بسياط الاحتلال دفاعا عن الوطن وكأن آثار هذه السياط علي أجسادهم أوسمة شرف وفخار ، ثم هو واحد من الرعيل الأول الذي شارك رائد الاقتصاد المصري طلعت حرب باشا في تشييد الصرح الكبير بنك مصر .

لكن الذي لم يعرفه كثيرون ، أن محمد رشدي عمر١٩٠٣ ـ١٩٩٨ كان شاعرا قديرا ، ينتمي إلى الحركة الشعرية الإحيائية التي ارتبطت باسم رب السيف والقلم محمود سامي البارودي ، ووجد شاعرنا في البارودي مثله الأعلي ، في معارضته لقصائد الكبار من شعراء التراث العربي ، ونسجه علي منوالهم من حيث الحفاظ علي البناء الكلاسيكي للقصيدة والصياغة الجهيرة القوية ، والمعجم الشعري الذي ينتمي إلى الذاكرة التي استوعبت إبداعات القدماء ، وتنوع مجالات القول الشعري في كل ما عاشه وعاصره من أحداث وطنية واجتماعية وإنسانية ، بالإضافة إلى عديد من القصائد التي تنتمي إلى الافق الروحي حيث تجلياته الإيمانية وتراتيله الصوفية وابتهالاته الدينية .

ولم يهدأ لكريمته نجوي وشقيقاتها : عتبي ورحيق وأميمة والحفيدة تسنيم ـ لم يهدأ لهن بال ، حتي كان جمع قصائده ونشرها في ديوان حمل اسم رشديات قام

بتحقيقه ومراجعته الأستاذ عبد الجابر الغزالي ، وكتبت كل منهن كلمة تضمنتها الصفحات الأخيرة من الديوان ، تنطق بالمحبة الغامرة والوفاء العميق والاعتزاز بالاب العظيم: شاعرا وإنسانا .

يقول في قصيدة تكشف عن معارضته لقيس بن الملوح مجنون ليلي

وعارضت قيسا في اشتياق ولوعة
لليلي ، وقد وجد الفراق المروع

فقال وقد هز الغرام كيانه
مقالة من يصبو ومن يتوجع

ذكرت ذنوبي وهي شتي كبيرة
وليس لباقي العمر في العفو مطمع

تمنيت ان يضويني الليل دائما
عسي عبراتي بالضراعة تشفع

حتي يقول:
ألا أيها العافي ويومك كادح
وليلك موت وانبعاثك طيع

عراك سبات بعد يوم مجاهدا
أماتك حتي حان للشمس مطلع

تذكر بأن العمر أصعب شقوة
تنام طويلا ، ثم تصحو وترجع

وللنفس في الموت المؤقت هدأة
وبعد مدي النوم المطول مرجع

هذا شاعر لم يذكره لنا تاريخ الأدب في عصرنا الحديث ، ربما لا نه شغل في مطلع شبابه بالنضال الوطني ، ثم شغله عمله الطويل مديرا عام ا لبنك مصر ومسئولا عن النشر فيه ، فلم يعن كثيرا بنشر قصائده ودورانها في المحافل الأدبية ، نذكره إلى وم

لنزيح عن وجهه الشعري البديع غبار الإهمال والنسيان ، ولنضعه بين أقرانه من الشعراء ومحبي هذا الوطن في أعز مكان .

محمد حماسة وفتنة النص

بقلم : فاروق شوشة

يواصل الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف ـ الأستاذ بكلية دار العلوم وعضو مجمع اللغة العربية ـ تأصيل منهجه النقدي اللغوي في التعامل مع النصوص الإبداعية الجميلة ، كاشفا عن أسرارها الفنية ، ومكوناتها اللغوية ، مستفيدا من تخصصه الدقيق في علوم النحو ، عالما وأستاذا ، ومن خبرته الإبداعية الطويلة في مجال الشعر ، في توظيف المعطيات النحوية في النص ، توظيفا يخدم تفسير النص وإضاءته ، بوصفها من تراكيب النص نفسه ، وليست خارجة عنه .

وهو في كتابه الجديد فتنة النص يأخذ بيد قارئه إلى فضاءات أرحب من هذه التطبيقات التي يمتزج فيها العلم بالفن ، والدراسة بالإبداع ، مؤمنا بأن النص الجميل يفتن قارئه ويأخذ بمجامع لبه ويستولي علي نفسه ، ومن ثم يقوم تحليل النص علي: الاستجابة له والإعجاب به والوقوع في أسره عندئذ تصبح الكتابة عن النص الذي جذبنا إلى ه وحاصرنا بحيث لا نجد عنه فكاكا ولا منه مهربا محاولة للخلاص من أسره والاستجابة لفتنته: والنص الجيد ـ كما يقول في تقديمه ـ لكتابه ـ ينصب شراكا لقرائه ويدعوهم إلى الافتتان به ، فالكتابة عن النص إذن تعبير عن الفتنة به والوقوع في أسر محبته .

وبعد أن ينفي المؤلف أنواعا من الكتابة تموج بها حياتنا الأدبية والنقدية الآن ، لا تحقق ـ في رأيه ـ ما أسماه بفتنة النص ، يؤكد أن الشرط الأول من شروط الكتابة عن النص هو الإيمان به . هذا الأمر الذي يبدو بدهيا ، ويفتح عيوننا وأبصارنا علي أنواع من الكتابة لا يؤمن أصحابها أصلا بالنص الذي يكتبون عنه ، لكن كتابتهم تخضع لا سباب غير أدبية ، كالكتابة في رأيه عن قصيدة النثر التي لا تعد شعرا بأي مقياس من مقاييس الشعر ، وفي رأيه أن المحافظة علي اللغة العربية تتطلب المحافظة علي شعرها: اللغة العربية تكون بخير وازدهار إذا كان شعرها بخير وازدهار ، الذي يفهم الشعر ويتذوقه هو الذي يفهم العربية ويدرك شيئا من أسرارها . ومن هنا أجد أنه من اللازم علينا ألا نكف عن شرح الشعر وتفسيره وتعرف طريقه بنائه . هذا واجب علينا نحن محبي العربية ، القائمين بأمر تعليمها .

يتسع الفضاء النقدي في هذا الكتاب البديع فتنة النص لتنويعات واسعة ، تبدأ باللغة وشعر الأطفال بين أحمد شوقي وسليمان العيسي ، وتحليل نصوص لا حمد عبد المعطي حجازي ومحمد ابراهيم أبو سنة ومحمود غنيم وحسن طلب ، وقراءة كاشفة

للمـنهج النقـدي للـدكتور محمـود الربيعـي ، وهـو مـنهج أبـرز خصائـصه - في رأي الـدكتور محمـد حماسـة - الوضـوح ، الـذي هـو في كـل شـيء مـن العلـم جـوهره وسـر نجاحـه ، لا نـه ناقـد يحـترم قارئـه ويحـترم نفسه ، مختلـف تمامـا عـن هـؤلاء الـذين يمـضغون الكـلام ويلوكـون الجمـل ويموهـون العبـارات أو يفعلـون فعـل الـسحرة وكتـاب الأحجبـة . فمـا جـدوي نـص أدبـي مـن كـلام غـامض ، يكتـب عنـه أمثـال هـؤلاء فيزهـدون القـراء فـيهم وفي الـنص الأدبـي معا .

معجزة الأخوين رحباني

بقلم: فاروق شوشة

هـي حالـة فريـدة في تـاريخ الغنـاء العربـي ، وربمـا لا يكـون لهـا مثيـل في الغنـاء العـالمي كلـه ، أن يتوحـد مبـدعان كـبيران في صـورة فنيـة واحـدة وتـسمية واحـدة ، فلايعـرف منهمـا مـن الـشاعر ومـن الملحـن ، مـن الـذي صـاغ هـذا الكـلام الجميـل الرائـع ، ومـن الـذي وضـع لحنـه وموسـيقاه ، فـإذا هـو ـ بالـصورة الـتي نعرفهـا لـه ـ عمـل شـديد النفـاذ والتميـز والتأثير ، تغنت به فيروز بصوتها الأعذب والأنقي ، فمنحته سمة الخلود .

هـذا هـو الأمـر في صـيغة الأخـوين رحبـاني: عاصـي ومنـصور ، لـن نعـرف أبـدا مـن الـشاعر ومـن الموسـيقي ، فكـل منهمـا شـاعر كـبير وموسـيقي كـبير ، وقـد اسـتمرت مـسيرتها معـا علـي هـذا المنـوال ، علـي مـدي أكثـر مـن سـتين عـام ا ، وهمـا ـ معاـ نجمـان سـاطعان في سمـاء الغنـاء العربـي ، تحملـهما فـيروز علـي جناحيهـا ، وتطـوف بهمـا ، وبفنهمـا ، إلى كل الآفاق .

وبعـد رحيـل عاصـي ، ظـل منـصور الرحبـاني وفيـا لهـذه الحالـة الفنيـة الـتي أبـدعاها معـا ، وعنـدما نـشر ـ مـؤخرا ـ باقـة مـن أجمـل القـصائد الـتي تغنـت بهـا فـيروز ، نـشرها باسمهمـا معـا: الغزليـات والوطنيـات والقوميـات ، والـشجن والغربـة والحـنين والبكـاء والترحـال: أنـا ياعـصفورة الـشجن ، مثـل عينيـك بـلا وطـن / بـي كمـا بالطفـل تـسرقه ، أول يـد الوسـن / واغـتراب بـي وبـي فـرح ، كارتحـال البحـر بالـسفن / أنـا لا أرض ولا سـكن ، أنا عيناك هما سكني .

ومـع ديـوان القـصائد المغنـاة ينـشر منـصور ديوانيـه الجديـدين: القـصور المائيـة و أسـافر وحـدي ملكـا . وفي أولهمـا حـديث جميـل عـن عاصـي ورسـائل إلى ه ذائبـة في مـا ء المحبـة والحـنين ، وهـو يقـول: صـحيح أننـا ، عاصـي وأنـا ، ابنـا الدراسـة الموسـيقية . لكـن هنـاك غرابـات تغييريـة وفـدت إلى موسـيقانا . لم تأخـذنا إلى هـا المدرسـة ، لا أعـرف من أين جاءت ، وعصفت بعطائنا .

هـذه الغرابـات الـتي يـشير إلى هـا منـصور هـي مـوطن الفتنـة والتفـرد في الـصيغة الرحبانيـة كلامـا وموسـيقي ، شـعرا ـ بالفـصحي وبالمحكيـة اللبنانيـة ـ وألحانـا ، وإبـداعا سـامقا حملـه صـوت سمـاوي محلـق ، لـيس مـن أصـوات هـذه الأرض المحملـة بالـشهوات والترعـات والنـزوات والرغبـات المحـدودة ، بـل هـو صـوت أثـيري مبحـر دومـا في الأنقـي والأصفي من الطبقات البعيدة في الوجدان .

في مستهل ديوانه الجديد أسافر وحدي ملكا ، يقول منصور: ياعاصي ، ثلاثون سنة ونحن نبارك الفرح ، سأتفجع الليلة كما بالماسي ، وكعويل أنبياء التوراة . والديوان بكائية لبيروت ، التي عاشت الخطر والدمار ولاتزال . والتي سكنها الرعب والفزع ولاتزال . والتي: يوم ، يومان ، ثلاثة أيام . نتوسد أرض الملجأ ، وحطام العربات ، في إلى وم السابع جاء القصف ، صعدنا ، في الشرفات جلسنا ، وتنبأت علي بيروت وصولا إلى قوله قتلوني الليلة ياامرأة ، تسكن قلبي . مسحوا بالزيت خناجرهم ثم اقتسموا فرح السلبومنصور الرحباني يبشرنا بأنه قادم إلى القاهرة ليعرض فيها مسرحيته الغنائية الجديدة زنوبيا هو الذي أبدع من قبل عمليه الرائعين عن سقوط و المتنبي وأتيح لجمهور القاهرة- منذ عدة سنوات- أن يعانق فن منصور ، المتوحد بعد رحيل عاصي ، وأن يتابع فيه ما صنعه الأخوان رحباني من قبل وهما معا ، شركة حياة ورحلة إبداع لا تتكرر .

بالفن وحده ، ينتصر منصور ، والرحبانية جميعا: جيل الآباء وجيل الأبناء علي الأحزان التي يعيشها لبنان ، ويمدون من أشعارهم وأنفاسهم ، بساط أمل ، وجسور محبة ، ورؤي حياة ، وإصرار مبدعين علي أن يجعلوا الحاضر أغني وأجمل ، وأن يغنوا تحت الحصار ، ويعبروا فوق الآلم ، ويبنوا برغم الخراب والدمار .

وهم لا يبدعون للبنان وحده ، فالهم العربي واحد ، والوجدان العربي كله يموج بأشواق الحرية والتحرير ، والرغبة في التطهر بهذه الكلمات والأنغام الرحبانية ، وبصوت فيروز .

رمضان ولى

بقلم : فاروق شوشة

رمضان ولي
فانتبهت ،
رأيت من فوق المآذن والقباب
قمرا وديعا أخضرا
بيديه منديل الوداع
مرفرفا فوق الوري
ورأيت ضوءا سال منه ،
وجلوة تكسو الشواهق والذرا
تبرا ،

فتلتمع البحار ،
وينجلي وجه الثري !
ووجمت حين رأيت من فوق العباد
سحابة سوداء
تفترش السماء
وتكتم الأنفاس
قلت : لعلها

آثام ليل المارقين تجمعت
من بعد ما اجترأوا علي ساح الحمي
فتقطعت بهم العري
ومضوا لغايتهم

ومن فوق الرؤوس سحابة سوداء
وهي تسد آفاق المدائن والقري
الآن ندرك سرها

نحكيه يوما للذي

شهد الفساد . . وما دري !

* * *

رمضان ولي

والعباد تفرقوا

وغدا إلى الطبع اللئيم يعود

صيادو مغانمها

وقناصو مواسمها

ومرتادو ما ثمها

ومن تاقوا إلى يوم التمرد والخلاص

لم تمض إلا ساعة أو ساعتان

حتي يعود لا صله الذيل الذي لم يعتدل

ويتابع المتناحرون علي الحياة طريقهم

وجيوبهم ملأي بطلقات الرصاص

شحذوا حناجرهم . . لنا

وتكشفت عوراتهم . . لا ضير !

لم يبق من خجل يدعهمو

ولا يوم سيأتي للقصاص !

* * *

رمضان ولي

فاخلعوا عنكم قناع الزيف

والوجه الكذوب المستعار

عودوا إلى ما تتقنون

لا تتقنون سواه من شره

ومن سعي رخيص ، أو صغار !

وغنائم الدنيا ، يزينها اقتناص ، وافتراس ، وانتصار

واستمسكوا :

هذا فساد الليل
موصول بأوبئة النهار !

محمد يوسف
والعزف على كمنجة التوت

بقلم : فاروق شوشة

في الذكري الثانية لرحيله (١٨ نوفمبر٢٠٠٣) يصدر له هذا الكتاب الجديد الذي كان يود أن يطول به الأجل ليراه ، ولم يشأ أن يسميه مجموعة شعرية ، وهو الذي أصدر خلال مسيرته الشعرية والأدبية عشرة دواوين هي: قراءة صامتة في كراسة الدم (١٩٧٠) ، عزف منفرد أمام مدخل الحديقة ، الحفر بالضوء علي أشجار حديقة الدر ، صلصلة ، تغريبة الفرفور . بيعة للضوء والماء ، ذاكرة للرأس المقطوع ، داليا ، شجرة الرؤيا ، أناهيد ، إغراءات الفراشة الإلكترونية ، ومسرحية شعرية بعنوان: محاكمة زرقاء إلى ما مة . لكنه أطلق علي كتابه هذا اسم نصوص ، لا نه بالفعل يضم مجموعة من الكتابات الشعرية والنثرية المتباينة ، التي تتراوح ما بين جمرة الشعر المحتدمة ، والمقالة النثرية المدببة ، والخاطرة الوجدانية اللافحة . لذا فإن المدي العريق الذي تتداخل فيه امتدادات محمد يوسف الإبداعية تصطخب فيه هواجسه وطموحاته وانكساراته وسخريته اللاذعة وحسه الحداثي وثقافته الإلكترونية ، صانعة رؤية قائمة محبطة ، هي رؤية الشاعر الذي توقف في محطات الدنيا ، وتأمل طويلا في أحوال الناس وتقلبات من كان يظنهم أصدقاء ، وإذا بالحياة تتكشف أمام عينيه عن سيرك كبير ، وغابة ، وليس إلا جناح الحزن والكآبة ، أما الحزن فهو شمس الكتابة:

ويخطو إلى السيرك ،
والسيرك أقنعة ، وجنون وغابة
صاحبي: بيننا الحزن مشترك
ملجأ من جناح الكآبة
صاحبي: أبهذا النشيد الوريد
هو الحزن . .
شمس الكتابة !

لاتندهش كثيرا إذا رأيت بعض صفحات هذه النصوص تمتليء بحشد من الأسماء الرموز ، بكل ما تحمله من ظلال ودلالات: والت ويتمان وجون شتاينبك وآرثر ميللر ، ومارتن لوثر كنج ونعوم تشومسكي ، وتوفلر في مقابل فوكوياما وهنتنجتون وبيل جيتس ، وهنري كيسنجر في مقابل جورباتشوف ، وروزفلت في مواجهة ستالين أو رأيته ساخرا ناقما علي ثقافة الكاجوال ودالاس ومادونا وشوارزينجر وماكدونا لدز وديزني لا ند وعلب

الليـل ، مترحمـا علـي ملحمـة جلجـامش وأشـعار رامبـو . فـسرعان مـا تكتـشف أنـك في حـضرة مبـدع عـاري الأعـصاب ، حياتـه معلقـة بطلقـة غـيظ أو إحبـاط أو هزيمـة . وكـأن هـذا الكتـاب إرهاص قدري بأن دائرة العمر قد أحكمت ، واقترب وقت إرخاء الستار .

لكـن الـشاعر الـذي يجرفـة إبـداع متـشبث بالحيـاة - رغـم أنفـه - يراوحـه غـض الأسمـاء الـتي مـا زالـت تـشكل ضـوءا يثقـب ظلمـة الليـل ، ونـورا - ولـو ضـئيلا - في العتمـة الطاغيـة وتـشده هـذه الأسمـاء إلى نجـاوي نازفـة وهـو يتكـيء إلى هـا بـديلا عـن الجـدار الـذي يوشـك أن يـنقض: نجيـب محفـوظ وأحمـد مـستجير (رائـد الهندسـة الوراثيـة الـذي يـؤاخي بين الأضداد:

اليوجينيـا والـشعر ، الهندسـة الوراثيـة وذاكـرة الـشجرة) ، وأحمـد زويـل ، والمتنبي ، ويوسف . يقول محمد يوسف في قصيدته الفيشاوي:

المقهي إيقاع أخضر
يدخل في إيقاع أخضر
حتي يبلغ أندلس الأوجاع
الشاي له ذاكرة النعناع
النعناع له ذاكرة الناي

. . . .

في طرف المقهي رجل إسباني:
غرناطة ، قصر الحمراء
وأبو عبد الله علي طرف المقهي الآخر
وأنا صعلوك أتجول في ذاكرة النعناع
وأسعي بين الوقتين:

التجسيدي برسم الحزن
التجريدي بسمت الرؤيا
الرجل الإسباني يحدق في ذاكرة النعناع

. . . .

الإيقاع رفيف ، عشب ، ورصيف
وأنا أتدلي من ذاكرة النعناع
صاحبتي ، سيدة الوقتين
ترسم موجتها
لتزين بهجتها بحنين النعناع

لأندلس الأوجاع
الساعة ، منتصف الناي
والشاي . .

يرحل من ذاكرة النعناع ! لكأنما أراد الشاعر أن يكتب سيرته الذاتية بالشعر ، سيرته في منفي الغربة الطويلة ، بعيدا عن الوطن ، وعن الجذور والتخوم الأولي ، مد البحر يتقاذفه ، وأعباء الحياة تقتات دمه وأعصابه ، والجسد يخونه بلا توقف . وهو يحاول أن يستبق النهاية الراصدة لخطواته بكتابات منهمرة ، يحمل هم متابعة نشرها من بعده ابنه الإعلامي أحمد حريصا علي تراث أبيه وأستاذه ، وواعيا بقيمة هذه الكتابات التي تكمل ملامح الرحلة الإبداعية لمحمد يوسف وقسماتها المتميزة ، من بينها : كاف بيضاء لوردة الحواس (ديوان شعر) ، عولة الكبسولة الإلكترونية ـ الإبداع ومزاحمة الآخر ، إلى ونسكو والبوصلة الخضراء ، العصافير تعبر مضيق العنكبوت (شعر) ، جحا في بيت العنكبوت الإلكتروني (مسرحية) .

ويرحل الشاعر وهو ـ كما قال عن نفسه ـ مشغول بقضية الصراع بين ذكاء الكائن البشري الفطري ، وذكاء الكائن الإلكتروني الاصطناعي في القرية البيو إلكترونية التي تحكمها قوانين هيمنة العولة وتفريغ الإنسانية من جذورها وتجويف العلاقات الإنسانية ، وتطل علينا روحه الشاعرة ـ بعد عام ين من رحيله ـ من خلال هذه النصوص المتوهجة بالشعر والسخرية والحكمة والتاريخ والفجيعة في كتابه الجديد البديع كمنجة التوت الصادر عن مركز الحضارة العربية .

" العلاق : " سيد الوحشتين

بقلم : فاروق شوشة

وسيد الوحشتين في هذا الديوان الجديد البديع هو الشاعر العراقي علي جعفر العلاق الذي يري لصباحه المكفهر الصغير وحشة ، وللقصيدة والشوارع والفراش الوثير وحشة .

فأنا الآن ياصاحبي سيد الوحشتين !
أتدفأ بالحلم حينا وبالوهم حينا
وأرجع : شيخ من البرد بين عظامي ، وشيخ من الوهم
ملء إلى دين !

لكن الديوان كله أنس وعذوبة ومشاركة حميمة ، وبحث دائب عن الوتر الإنساني المشترك ، وعزف علي كل ما هو غائب من شجر الساحل إلى طيور المنافي ، إلى لوعة امرئ القيس إلى ما لك بن الريب ـ الذي أصبح رمزا للموت المتوحد ـ ، إلى الغيم والذكري ، إلى طيور الشعر ، والأمطار ، وحتي الأرض التي من الأضواء .

الفضاء الشعري لهذا الديوان ، يوسع كثيرا من الآفاق الرحبة التي حلقت فيها مجموعات العلاق الشعرية وقصائده التي صنعت سمته ، الشعري ، وحفرت مكانه ومكانته في ديوان الشعر العراقي بين أقرانه من شعراء الستينيات ، الذين أخذوا علي عاتقهم مسئولية تطوير قصيدة الشعر الجديد ، وإحكامها لغة وبناء ومعمارا ، وجعلها أشد رسوخا ونفاذا ، بعد أن هيأت المعاول الشعرية للسياب ونازك والبياتي والحيدري الطريق ، وأتاحت للقادمين من بعدهم فرصة سانحة للانطلاق والتجاوز وأصبح العلاق ـ في مجموعاته المتتابعة منذ عام ١٩٧٣ حتي الآن ـ في طليعة الكوكبة الشعرية التي أشتبكت مع الحصار والمنفي والاغتراب والضياع ، وكان الشعر سلاحها في التصدي والمقاومة وفي فضح كل ما يحدث علي أرض العراق يقول العلاق في قصيدته أرض من الأضداد التي يخاطب بها الجواهري شاعر العراق العظيم .

لمن تغني أيها الراحل !
لا دجلة تلك ، ولا بابل

كلتاهما موت ، وكلتاهما
نار البدايات .
أيقوي علي فوضاهما شئ

أيقوي دم ، أو لغة هوجاء ،
أو ساحل !
أرض من الأضداد :

كم أشرقت ، وكم غفا
مصباحها الذابل
أرض من الأضداد :

قيشارة
وقاتل يجتاحه قاتل
ترفل بالموت ، ولكنها
تغني ،
وتبقي طفلة بابل !

وعلى غير عادته في دواوينه السابقة - لا شئ يحدث . لا شيء يجيئ ، وطن لطيور الماء ، شجر العائلة ، فاكهة الماضي ، أيام آدم ، ممالك ضائعة ، فإن العلاق يوجز كثيرا هنا ويكثف رؤيته ولغته وعالم صوره ، لم يعد محتاجا إلى تفاصيل أو منمنمات يضيفها إلى بساط قصائده ، الكلمة الباترة هي وحدها الآن فيصل القول ، والحنين الهائل الذي يكاد يعصف به ، والشجن الكوني الذي تتقاطر أنداؤه الحارقة من مقلتيه ، وعذاباته التي تفح سمومها في ليله المسهد ، كل هذا يتجمع في مرثية جديدة لمالك بن الريب وهو يقول :

لاندامای ، ولا ظل ردائي
لا غزالات الفضا ،
لا امرأة ،

تقبل من مملكة الرمثان :
من يحمل للقبر بقاياي
ومن يملأ إبريقي بالنوم !

وبالخمر إنائي ؟
أيها الرمح الذي يعول كالذئب

لم يبق نديم غير هذا الموت
بين الرمل والذكري:

دماء الخيل قدامي
وأشلاء المغنين ورائي
كي رشيقا مثل ظبي أيها الموت
وكن كامرأة تقبل من مملكة الرمثان

تمسح بالمسك خطاياي ،
وبالدمع ردائي .

تـري ، هـل أصـبح الطريـق إلى بابـل أشـد وحـشة ووعـورة ؟ وهـل سـيكتب لطيـور المنـافي مزيـد مـن التـشرد والهجـرة والاغـتراب ؟ وهـل سـيعود العـراق عراقـا كمـا هـو في دواويـن الجـواهري والـسياب والحيـدري ؟ وهـل سـيظل سـيد الوحـشتين قابـضا بيديـه علـي وحـشة المنفي لتصبح الوحشتان ثلاثا وربما تتزايد ؟

الـشعر العراقـي وحـده يطمئننـا علـي العـراق الـذي عرفنـاه ، والنـشيج العراقـي وحـده يجعلنا نتخبط بين المأساة والفاجعة ، ونحس كم نحن جميعا متهمون ومدانون .

لكـن عراقـا أنجـب هـؤلاء الـشعراء الكبـار ، وصـنع ـ علـي امتـداد القـرون ـ مجـده الشعري ، لا يمكن أن يموت . . والعلاق شاهد جديد علي هذه الحقيقة ! .

" رضا الحمامصي " . . صوت شعري واحد

بقلم: فاروق شوشة

في كل يوم تتفجر أرض الإبداع في مصر عن موهبة جديدة ، تتخلق وتتشكل عن الأنظار ، لا نكاد نحس بها وهي تمارس عذابات تحققها ، وتغذي نفسها بأخص ما في التربة من عناصر ، تسري في عروقها نبضا جديدا ، ولغة جديدة ، وفجأة ـ دون توقع أو حسبان ـ تدهشنا انبثاقة هذه الموهبة البازغة ، معلنة عن نفسها في وضح النهار ، بعد أن صنعت نفسها بنفسها ، وأخذت للأمر عدته وأدواته ، مؤذنة بالأنطلاق . . هذه هي الحال مع هذا الصوت الشعري الجديد ، الذي فاجأني بمجموعته الأولي ربما نلتقي الصادرة عن الهيئة المصرية للكتاب ضمن سلسلة كتابات جديدة وفي إطار اتساع الهيئة وتشجيعها للمواهب الجديدة ، خصوصا عندما تكون قادمة من خارج القاهرة ، من قري مصر ونجوعها وكفورها ومدنها البعيدة ، في الوجه البحري وفي الصعيد ، حيث تختمر الآن طينة الإبداع ، مزدحمة بوعودها القادمة علي الطريق .

من دمياط ، حيث يلتقي النهر بالبحر ، ويلتقي الموروث الثقافي والروحي مع إنفتاح الحاضر وظمئه لمزيد من الوعي والإستنارة ، يجئ رضا الحمامصي ، حاملا وتره المشدود حتي حده الأقصي برحلة الشجن والحنين ، وصدره المتلئ بالأشواق والمطامح والانكسارات ، و عينيه القلقتين الباحثتين فيما حوله عن بصيص من الأمان والسلام ، تلتمع من أمامه البيارق والأعلام لكوكبة من رواد الأدب والثقافة والفكر والإبداع ، هم نجوم الإقليم الذي ينتسب إلى ه ، في مقدمتهم بنت الشاطئ و عبد الرحمن بدوي وزكي نجيب محمود وشوقي ضيف وطاهر أبو فاشا وعلي العزبي ومحمد الأسمر ومحمد حسن الزيات وغيرهم من الكواكب الذين اتسع إشعاعهم ليشمل كل ربوع مصر والوطن العربي وصولا إلى آفاق العالمية . ليمضي إذن غير هياب ، وليسارع من خطاه ، وليلتهم كل ما في مكتبة دمياط من فكر وإبداع ، وكل ما تصل إلى ه يده في مكتبات القاهرة العامة والخاصة بدءا بمكتبة الجامعة .

وليحاول ـ في حياء شديد وتواضع جم ـ أن يعرض نماذج من كتاباته علي بعض أصدقائه وأساتذته ، ملتمسا مرجع الصدي:

لئن تخيرت من بين السما قمرا الاخترت وجهك يامحبوبتي قدري

ومن كنوز الدني أختار لؤلؤة

أوحت ثناياك فيها روعة الدرر

ومن عيون المها عينا فتنت بها

لاخترت عينيك يافتانة الحور
وإن رغبت من إلى اقوت أجمله
أوحت شفاهك بالمكنون من حج
وإن تخيرت لي في عالمي قدرا
ما اخترت غيرك من يصفو به قدري

ولأن رضا الحمامصي يعرف أن الشعر بلا موسيقي كلام ناقص ، لذا فهو حريص علي هذه الموسيقية المنسربة في شرايين قصيدته ، والذائبة في تشكيل بنيتها ، والمفجرة لا مكاناتها النغمية والإيقاعية ، وبدون هذه الموسيقي يتحول الكلام إلى عقد منفرط الحبات ، ليس له ما للعقد من تألق ونفاذ إشعاع وأثر عميق في النفس . وهو يعرف الموسيقي الهادئة والموسيقي المنفعلة ، الموسيقي المنسربة ، في أعماق النفس هادئة ناعمة ، والموسيقي الجياشة بالعواطف الحارة والانتفاضات الهادرة ، وأكثر ما تكون هذه الموسيقي الهادئة الناعمة في قصائده النابعة من فضاء حياته في قلب أسرته ، وهو يخاطب في زوجته رمزا لهذا الجو الحميم:

تظلين رغم انطفاء السنين
سراجا أضيء به مجلسي
وبدرا بظلمة ليل طويل
كظلي ـ حيث الخطي ـ مؤنسي
تظلين رغم إنطفاء السنين
ربيعا تفتق بالنرجس
تظلين ـ حين اشتداد القضاء ـ
يقينا يبدد لي هاجسي
تظلين رغم إنطفاء السنين
كنبع ، ومن عذبه أحتسي

ولنتأمل إلحاح الشاعر علي ما يسميه انطفاء السنين حين يشير إلى تسرب سنوات العمر ـ مع أنه ما يزال في أوج نضارته ، لكنه إحساس الشاعر يثقله ويرهقه ، ويتضاعف لديه وقع الزمن ، وتعاقب السنوات ، خصوصا حين تضطره ظروف الحياة وضرورة الوفاء بما يحمله من مسئوليات ، إلى العمل خارج مصر ، ويجد نفسه في شرك الغربة والحنين والعمر الذي يتبدد بعيدا عن الوطن .

لكن ، ها هو يكسر صمت الغربة والبعد ، ويحرص علي أن يصلنا صوته ، لندرك أنه يعيش معنا ويتنفس وقائع حياتنا وأحداثها يوما بيوم ، شأنه شأن جميع أبناء مصر الذين يحملونها في أعماقهم مهما ارتحلوا وأقاموا بعيدا عنها .

ولابـد أنـه عائـد يومـا ، وبـين يديـه مجموعتـه الـشعرية الثانيـة ، مؤكـدا حـضوره وجدته وأصالة صوته الجديد الواعد .

رسالة مؤرقة وشعر مترفع

قلم : فاروق شوشة

الرسالة التي تلقيتها ـ أخيرا ـ من المبدع والباحث الجاد الحساني حسن عبد الله ، والتي بعث بها من وراء الأسوار ، ولم يتسع المجال في سياق مقال الأسبوع الماضي إلا لنشر مقاطع منها ، رسالة محركة ، ومؤثرة ، ومثيرة للشجون . فهي تتناول نبوءة صاحب الرسالة ـ منذ أكثر من ثلاثين عام ا ـ بالتردي في أحوال الشعر العربي الآن ، وانفتاح الباب أمام التسيب ، والكلام الذي ليس بشعر ولا نثر ، فضلا عن أن يكون كلاما أصلا ، وهو يستشهد بتعريف ابن ما لك في ألفيته للكلام وأول شروطه أن يكون كلاما مفيدا ، مرجعا ذلك إلى فساد الذوق ، وغيبة النقد الجاد الذي يعرف كيف ينفي اللبلاب ويستبقي الجدير بالبقاء . كما يثير الصديق الكريم في رسالته العامرة أسئلة في الصميم: ما ذا نقرأ ؟ وكيف نقرأ ؟ كيف نتلقي ؟ والواسطة بيننا وبين اللغة ! فإذا ضعفت ـ أو فلنقل ضعفنا ـ كشأننا هذه الأيام ، اختل التفاعل !

الرسالة ـ في مجملها ـ تطرح قضية الشعر الجديد أو الشعر الحر أو شعر التفعيلة ، وضرورة تقييم هذا الشعر علي مدار أكثر من نصف قرن ، والكشف عن إيجابياته وسلبياته . وهو أمر يمكن أن تنهض به مجالس الثقافة والجامعات والمحافل الأدبية . بما يتضمن مساءلة الإنجاز الشعري لحركة الشعر الحر عن فتح الباب أمام الكلام السائب ، والوصول إلى ما يسميه كثير من العقلاء وجمهور واسع من المتذوقين شعرا ناقصا ، لا نه ألغي الأساس النغمي الذي لا قيام للشعر بدونه ، مستبدلا به كلاما عائما غائما غير ممسوك عن موسيقي من طراز مختلف ، وعن النبر الذي أشار إلى ه الحساني في رسالته ، باعتباره الخاصة المميزة للعروض الانجليزي ، هنا لا تصبح الشعرية ـ في إطلاقاتها العامة والشائعة في كتابات عديدة ـ غير كافية لا نتاج شعر حقيقي ، يكتمل بموسيقاه ، ولا يتوهج بعيدا عنها ، وتبقي استثناءات عدد من المبدعين الكبار ، للكتابات التي أريد لها أن تحمل عنوان قصيدة النثر مجرد استثناءات ، لا تشفع لهذا الطوفان من الركاكة ، والهشاشة ، وانعدام الأحكام ، وتعمد اللامعني ، والسقوط فيما هو أقل بكثير من جماليات النثر ، الذي هو في توهجه وتجليه ، أفضل ألف مرة من هذا الكلام السائب . وهي الحال التي تثير الآن رد فعل ضخما ، يتمثل في الإبداعات التي ينجزها شباب هذا الجيل من الشعراء الذين عنوا أنفسهم بثقافة شعرية حقيقية ، وتواصل حميم مع اللغة ، وحرص علي موسيقي القصيدة باعتبارها جوهرا لا عرضا مصاحبا ، مكسبين إبداعاتهم ما ء الشعر الحقيقي وكيمياءه ، رادين للقصيدة جلالها واحترامها ونفاذها الشعري البعيد عن تصنع زائف ، أو مواكبة نقدية مشبوهة أو مضروبة .

يقول الحساني حسن عبد الله في ختام رسالته المؤرقة:

ليس حسنا أن نطمئن ، كل ما حولنا يدعو إلى القلق ، والواجب أن نستجيب للقلق لا أن نهرب منه ، الواجب أن نراقب ، أن نرصد ، أن نفحص ، أن نتوجس ، أي في كلمة واحدة: أن نعلم ، وأن نكون ـ كما قلت أولا للشباب ـ ذوي إرادات يقظة .

وهي دعوة صادقة ، تستحثنا علي المراجعة ، وإعادة النظر ، والتأمل فيما آلت إلى ه الأمور ، حتي لا تطغي وجهة نظر واحدة علي وضع بأكمله ، أو تميل كفة الميزان ـ بدافع من الهوي أو المخاتلة ـ إلى الزائف وغير الصحيح .

وأنتهز فرصة الحديث عن الحساني حسن عبد الله ورسالته ، لا شرك القاريء معي في أحدث إبداعته الشعرية ، التي يتجه فيها بالخطاب إلى ابنته ، تحت عنوان: لك عين فأبصري:

كفكفي الدمع ، لن يرد العوادي أسف من شجية أو شجي
وأطلي علي الزمان عقابا ، وانفري من وداعة القمري
وتعني بهم نفسك ، لكن لا تولي عن همنا الأصلي .

لك عين فابصري ما نلاقي تحت نير التقدم الغربي
يابنتي ، ياابنة المروءة والحكمة والمجد والهدي النبوي .
إنما أنفس الأنيس سباع يتفارش بالقنا والقسي .

وبأقوي من السلاح ، بدين ولسان ـ مجمعين ـ وزي .
فإذا انفكت العري في فريق ، ضاع حتما في العيلم اللجي .

والذي لا يعد ما يردع البغي ـ بدعوي السلام ـ أغبي غبي .
ما حوار يدور ـ بالله ـ ما بين شياه وعالم ذئبي ؟
فاحذري ياابنتي أساتذة الذلة فينا ، خلائف ابن أبي

واقرئي ياابنتي ، لتجتنبي خبط الحياري ، في الغيهب العصري
اقرئي ياابنتي قراءة حي ، يتحري المعناة ، لا غير حي
ثم شقي إلى العلاء طريقا شق من قبل ، منذ عهد قصي

سار فيه ، كم سار فيه علي لا وانه ، من كمية وكمي

فاعرفيه ، لتعرفي فرق ما بين ضياء أصل ، وضوء دعي

ليس هذا إلى وم الذي أنت فيه غير جزء من غابر مطوي
لك ما ض عزت به دار ليلي ، ومغاني لبني ، وسعدي ، ومي
فاعرفيه ، وانكري أن تكوني وطرا شائعا ، لا هل الغي

وعزيز علي دمعك ، فاجتازي الأسي ، واصبري علي المقضي
وإذا ما الزمان أعرض عنا ، فاحقري منظر الكسي والحلي
وإذا ما بكيت فابكي شهيدا ، لا علي حظ والد مرمي

وأسيرا ، وربما غلب الليث علي رغم بأسه الليثي
وأجلي ذكري دماء أريقت لتنجيك من أذي الأجنبي
يا ابنتي ، لست بابنتي ، إن تحيزت للاه ، أو غافل ، أو عمي

نويت نية ، فخافي ، وخافي ، وافزعي يابنتي من المنوي
نويت نية ، وها نحن صرعي لقديم ـ مستحدث ـ دموي
فارفعي هذه الكمائم ، وانوي ، واعزمي عزمة الكريم الأبي

إن داء خلف الضلوع دويا لا يداوي بغير داء دوي ! تحية للمبدع والباحث الجاد ، الصابر الصامد ، وراء أسواره الحساني حسن عبد الله ، وعذرا عن ضيق المساحة التي لم تتسع للكثير من فيض رسالته وشعره .

الأمير الباسم

بقلم : فاروق شوشة

ما الذي يشدنا دوما إلى أحفادنا ؟

وما سر ذلك الفيض الغامر من اللهفة والحنو والانعطاف ، تجيش به أعماقنا ، وترتج حنايانا ، كلما طالعنا ابتسامة حفيد وليد ، أو أشرقت في عالمنا ضحكته الصافية الندية ، وداعبت أحلامنا صورته القادمة ، تلك التي تكبر وتتشكل يوما بعد يوم ، فنراه يحبو ويتساند ويمشي ، ونسمعه يغمغم الحروف ويلثغ بالكلمات الأولي ، وكأنها موسيقي شجية تسكب فينا الفرح ، وتفجر فينا الدهشة ، وتمسح عنا كآبة الواقع وظلمته ، وتنتشلنا بعيدا عن مرارة الأيام .

أقول لنفسي ، محاولا أن أتماسك : ليس هذا بالحفيد الأول ، لقد سبقته إلى حديقة العمر حفيدتان رائعتان ، كل منهما كوكب دري ، يضيء سناه سقف عالمك ، ويهيء لي في رحلة الأيام واحة للرضا والسكينة ، ويمنحك وهم الامتداد في الزمان والمكان والأحلام ، ويجعلك تنحني ـ كالشجرة المثقلة بأعباء الأمومة والمحبة ـ من أجل غصن جديد بازغ ، تحس في خضرته وريعانه دفق الربيع في أعوادها الموشكة علي الذبول فتنتفض عروقها بالحياة وتصدح أطيارها بالغناء الرخيم ، وتتمايل أغصانها في نشوة وانسجام .

هكذا عشت تجربة استقبال الحفيدتين الرائعتين : حبيبة و ملك ، وانتبهت لنفسي وأنا أرصد الزلزال الجارف في داخلي ، وأسجل علي الورق ما لم يخطر لي يوما علي بال ، كلمات منغمة ، تنتمي إلى العالم الذي لم أكن قد عانيته من قبل ، ولا تكشف لي فردوسه قبل بزوغ النجمتين ، فكانت المجموعتان اللتان تنتميان إلى شعر الأطفال : حبيبة والقمر وملك تبدأ خطوتها .

وحين أرهفت السمع لطرقة جديدة علي باب الطفولة ، وإشراقة مغايرة للحفيد الجديد عز الدين أدركت معني لم أكن قد تبينته من قبل ، لكل من الأحفاد الثلاثة ، موقعه ، وجلوة حضوره ، وتفرد إطلالته ، وفي هذا القلب الإنساني ـ الذي نمتلكه ـ من رحابة التلقي ، وحرارة المشاعر وحنو الانعطاف مما لا يخطر لنا علي بال . إنها اللحظة التي نكتشف فيها ما يملأ قلوبنا من حنايا ، تتسع لا لوان وصنوف شتي من الأحاسيس والعواطف ، لا تختلط ولا يغني بعضها عن بعض ، هذه إذن هي الثروة الرائعة التي

تمنحها الحياة ، وهذا هو الغني الحقيقي الذي يسعدنا ، ويجسد لنا معني الفرح ، في إشراقة وليد ، وفي مداعبة حفيد .

لقد اكتملت الباقة الصغيرة بالأمير الباسم عز الدين ، كما أطلقت عليه أمه ، وهو لا يزال في رحم الغيب ، تهدهده وتناغيه ، وتصوره بعين الخيال والأمنيات ، وأنا ـ من بعيد ـ أتابع حلم الأمومة ، والكلمات تسبقني إلى الورق :

تحسسته أمه من قبل أن يجيء
حلما جميلا نام في عيونها
وخاطرا يرتاح في جفونها
وبسمة ندية في بيتها تضيء
وصورته في خيالها عصفورها الصغير
في كل ركن من فؤادها يطير
مزقزقا ، وهائما
وحين جاء

مبتسما كما تخيلته دائما
مؤتلق الجبين : صاحيا ، ونائما .
ملتفتا دوما إلى البعيد ، حالما
كأنه فرخ إلى ما م
يختال في وداعة وفي سلام

قالت : أسميه الأمير الباسم
نور عيوني في الزمان القادم
وموعدي مع الهناء والسرور
وفرحتي ، حين يضيء عالمي الكبير
وأشرق الأمير عز الدين
سمته باسم رائع الرنين
يحمل في حروفه مهابة السنين
وموكبا من الجلال والحنين

. . . .

يأأيها الأمير عز الدين

هل جئتنا في الزمن الحزين بلسما ؟
عصفورنا الصغير ،
رف واستدار في سمائنا
وحين عانق الفضاء والمدي ، ترنما

هل جئت تنسينا الذي نريد أن ننسي
فلا نذكر إلا وجهك الذي تبسما
وضحكة صافية تشدنا إلى السما
طفولة من الصفاء والنقاء ،
والجمال والبهاء ، والإشراق والضياء ،

والأحلام والرجاء
وأنت طائر الطفولة الذي
أضاء أفقنا وحوما
غدا ، غدا ، موعدنا القريب
حين يكبر الصغار في الحمي
كي ينبتوا الفجر الجميل موسما ، فموسما
ويقطفوا الحلم الذي تبرعما

ويصنعوا لنا الذي لم نستطعه ،
حين صار الكون ظالما ، ومظلما
يأيها الأمير عز الدين
يابسمة في الزمن الحزين
ياأملا تبسما
وطائرا ترنما
وهاتفا يوقظنا ، في الوطن الأمين

ولقد كان من حظ هذه الكلمات ، وغيرها ، أن يتحمس لها الفنان الكبير محمود الهندي ، الذي صنع منها لوحات بديعة وتشكيلات بديعة ملونة ، وأن تفسح لها الأستاذة المبدعة فاطمة المعدول مكانا ضمن مطبوعات المركز القومي لثقافة الطفل . أما أنا فقد انحنيت في لهفة علي صفحات الأمير الباسم أعانق فيها مذاقا جديدا لمحبة الأحفاد .

عبلة الرويني وشعراؤها الخوارج

بقلم : فاروق شوشة

أحترم كثيرا قلم عبلة الرويني ، وأستثنيها - من بين كتابات كثيرة حولها تطفح بالأحقاد والضغائن ، لكنها استطاعت - بما تمتلكه من صفاء في القلب والعقل ، وقدرة صارمة علي الموضوعية والإنصاف تقترب كثيرا من حد السيف - أن تنجو من التلوث وأمراض الصفراء ، وأن تكسب كتاباتها احتراما متزايدا ، منذ كانت إطلالتها البديعة من خلال كتابها الفريد عن أمل دنقل الجنوبي ، ومنذ أطفأ وهجه كثيرا مما كتبه المحترفون عن أمل ، لكن كتابها يظل ممتلكا لدرجة عالية من الكشف والبوح والصدق وعمق النفاذ إلى الشاعر والإنسان ، بل هي الدرجة الأعلي .

وفي كتابها الجديد الشعراء الخوارج - الصادر عن الدار المصرية اللبنانية - تحقق عبلة الرويني قفزة جديدة واسعة في مجالها الأثير: الشعر المصري والعربي المعاصر ، من خلال حوارات - أو صدامات - استثنائية ، محكومة بالوعي والإحاطة وتجهيز الحيثيات وإغلاق منافذ الهروب والتوجه نحو مناطق الوخز والاستثارة ، وتوفير المساحة الرحبة للتأمل والتحليل - قبل الحوار وبعده - واستخلاص القسمات الرئيسية والملامح الأساسية ، من غير إغراق في التفاصيل ، والارتفاع المستمر بمستوي الحوار والصدام والجدل إلى مستوي الندية : الفكرية والفنية ، في حضور كامل لمختزنات القدرة علي المساءلة ، واحتشاد كامل بكل حرفية المواجهة: نفسيا ونقديا .

وبعيدا عن الإيحاءات والدلالات المختلفة والملتبسة ، لكلمة الخوارج تقدم عبلة لكتابها بأن الخوارج هنا - في هذا الكتاب - قوس جمالي ، يتباين شعراؤه بالضرورة وأشكال خروجهم ، كل بحسب ثقافته وبيئته وتكوينه ، وكل بحسب مشروعه واقتراحه ورؤيته للعالم من حوله ، لكنهم جميعا تنويعات علي إيقاع الرفض وزحزحة ما هو قائم ! ! وهي تتوقف أمام السجال المطروح في الشعر وفي الواقع - داخل قصائد الشعراء أنفسهم - نافذة إلى جوهر وعمق الرؤي الحداثية التي يقدمها الشعر ذاته؛ ذلك التوتر والتنكر والنفي ، ذلك التجاوز المستمر للآخرين وللذات ولكافة التوازنات الخارجية والداخلية ، سعيا وراء توازنات أخري جديدة وقيم ثقافية وجمالية مختلفة - ربما - تكون أكثر توترا ، وأحد حوارات عبلة - في هذا الكتاب - أو منازلاتها مع ثلاثة عشر شاعرا - هي بالدرجة الأولي طرح لفكرتها عن كل منهم ، وامتحان لقدرتها علي النفاذ إلى المحجوب من عوالمهم الداخلية ، وتجريب لا سلحتها المتعددة في مجال المواجهة والكشف ، واستخدام ذكي لحسها النقدي وطرائقه الموضوعية ، فهي لا تطرح أسئلة بقصد التعرف ، أو استدراج الآخرين إلى الحكاية وغواية الاسترسال في الشرح والتبرير

والوقـوع في شـرك الإعجـاب بالـذات والولـع النرجـسي ، لكـن في يـدها مبـضعا يعـرف طريقـه إلى مـوطن العلـة والـسؤال ، مـن هنـا يـصبح الـسؤال مواجهـة لا رجـاء صـحفيا لعمـل حـوار أو إستكمال تحقيـق . وكـثير مـن أسئلتها يحمـل المعـني ويعتـصر الفكـرة ويركـز الغايـة مـن قبـل أن تنطلـق الإجابـة ، بمعـني أن الـسؤال يقـول مـا لا تقولـه الإجابـة ، الـتي آثـرت المراوغـة أو المشاغبة أو التعمية .

لكـن قـاريء الكتـاب يظلمـه ظلمـا فادحـا إذا توقـف عنـد مجـرد الـسؤال الـصادم والحـوار الاسـتثنائي . هنـاك ـ باستمرار ـ وعلـي مـدار الكتـاب كلـه ـ وقفـات الإضـاءة والـربط والتحليـل واسـتخلاص الأفكـار والـرؤي ، واطـراح الـسائد ـ بفوضـي وجهالـة وعـشوائية ـ وجـلاء الـصحيح والحقيقـي والمتميـز ، وعـدم الوقـوع في شـرك الـدعايات المجوجـة والزعيـق العـالي النـبرة لـستر الخـواء والفجاجـة . تقـول عبلـة الـرويني ـ مـثلا ـ في تعليقهـا علـي فكـرة التعدديـة الـتي طرحهـا حلمـي سـالم: التعدديـة لا ينتجهـا الحـداثيون المـشغولون بإنتـاج ذواتهـم ، ولكـن تكتبهـا الأجيـال الجديـدة في أشـكال خروجهـا وتخريبهـا المتواصـل لكـل فرضـيات ومعـايير الحداثـة ، كتابـة جديـدة مقتحمـة المـشهد الـشعري بعـشوائية ركيكـة . كتابـة بـلا كتـاب ، بـلا تمـايزات ، لا تثبيـت فيهـا لمعـني ، بـل تنطـوي علـي اسـتحالة المعـني ، كتابـة مؤجلـة تفتقـد الكيـان المتبلـور في حركـة . يبـدأون مـن (جهالـة) لا تمتلـك حـتي أدواتهـا الجماليـة والمعرفيـة ، فترتـد إلى أصـحابها خائبـة لا أحـد يـدري بهـا بمـا يفـضح انتـشارها الهـش . لا تـأثير ولا تـأثر ، وليظـل المـشهد ثابتـا علـي مـشهد (الحداثـة) لـيس باعتباره الأكثـر تـأثيرا ولكـن باعتبـاره الأكثـر تماسـكا . وإذا كـان حلمـي سـالم قـد راجـع موهبـة شعراء جيله أمام حدث الانتفاضة ، فعليه أن يراجع أيضا حداثتهم المعزولة والشاحبة .

بمثـل هـذه الوقفـات يكـسب الكتـاب حـضوره النقـدي الـساطع وأفقـه الجـدير بـه في مجـال الدراسـة الأدبيـة المعاصـرة . مـستفيدا مـن وعـي صـاحبته المكتمـل بحركـة الأجيـال المتلاحقـة في الـشعر المـصري والعربـي الحـديث ، بـدءا بجيـل الريـادة في حركـة الـشعر الحـر حـتي الـسطور الأخـيرة للجيـل الـذي يتخلـق مـع بـدء الألفيـة الثالثـة . وهـي تمتلـك ميـزة الانخـراط والانفـصال ، الالتحـام والابتعـاد ، تقـترب بكليتهـا للمجـاورة والتعـرف ، وتبتعـد بكليتهـا للحكـم والتأمـل عـن بعـد ، عـن مـسافة ، كمـا كـان صـلاح عبـد الـصبور يقـول: أجـافيكم لا عـرفكم . ولقـد أتـيح لعبلـة ـ في شـهادتها الرائعـة مـن خـلال هـذا الكتـاب الوثيقـة ـ أن تكـون في قلـب المعـترك الـشعري ، وأن تكـون رحلتهـا المـشتركة في الحيـاة مـع أمـل دنقـل ، نافـذة مفتوحـة علـي العديـد مـن العـوالم الفوقيـة والتحتيـة للعديـد مـن شـعراء هـذا الزمـان في مـصر وفي خـارج مـصر ، وبفـضل موهبتهـا النـادرة في الالتقـاط والرصـد وذاكرتهـا الحيـة في الاسـتعادة والاسـتشهاد ، تمتلـك عبلـة مـا يؤهلـها لكتابـة سـردية مـن طـراز جديـد ، كتابـة لا تنقـصها جرأتهـا المقتحمـة ، وعيناهـا النافـذتان الكاشـفتان ، وفـضاؤها المترامـي ، الـذي لا

يـدرك حقيقـة أبعـاده ، فقـراء الموهبـة والتجربـة الـذين تـضطر إلى إزاحـتهم كلمـا همـت بالحركة والانطلاق .

واحد من عبيد الشعر

بقلم : فاروق شوشة

أراني إلى وم - وقد أكملت الثالثة والستين من العمر - أشعر بالخجل إذا عدني أحد من الشعراء ، وأشعر بالحزن والأسي إذا لم أعد منهم وسواء عددت من الشعراء أم لم أعد منهم ، فإنني علي صلة بالشعر ، أقرؤه ، وأحاوله ، وأستمتع بقراءته ، وأستمتع بمحاولته . وكلما تقدمت بي السن أجدني مشدودا إلى الشعر القديم أتأمله وأتطعم بناءه ، وأجد أننا لم نعطه حقه ، ولم ندرك كل أسراره ، كما أجدني إذا حاولت شيئا منه مبتعدا عن الشعر الحر ، ما ثلا إلى الكلام الموزون المقفي ، وأجدني أعدل عن الأبحر الشائعة المطروقة إلى الأبحر غير الشائعة ، وأجدني أحب القافية الواضحة الجلية - غير الذلول - وحبذا لو كان بها لزوم ما لا يلزم حتي تكون أكثر وضوحا وجلاء . وأحس الآن أن العبقرية في الفن تكمن في الابداع من خلال القواعد لا تحطيمها ، ومن هنا انصرفت نفسي عما يسمي قصيدة النثر وأري أن التسمية ساعدت علي الانصراف عنها ، فأصحابها يريدوننا علي أن نتجرع شيئا لا صلة له بما ألفنا أنه شعر علي أنه شعر . . .

* * *

بهذه السطور من الإفضاء والمكاشفة ، يقدم الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف - أستاذ النحو والصرف والعروض ووكيل كلية دار العلوم وعضو مجمع اللغة العربية - لديوانه سنابل العمر الذي يضم كل شعره ، ما سبق نشره منه وما لم ينشر .

ويبدو أن شعور الخجل - الذي يشير إلى ه - هو نتيجة شعوره العارم بالإغراق في الأكاديمية ومتطلبات البحث العلمي اللغوي وما أكثرها بين الجامعة والمجمع - وتضاؤل المساحة الزمنية التي تتبقي له بعد نهار طويل حافل بالشواغل وليل بعضه لمتابعة هذه الشواغل وقد سبقته إلى بيته ، وهذا القليل المتبقي - وهو أقل من القليل - لا يفي بمتطلبات الشعر ، في رأيه ، إخلاصا وانقطاعا وتأملا ومتابعة . لكن ، في حالة الدكتور محمد حماسة ، وهي حالة غير متكررة ، فإنه نجح في أن يجعل محور انشغاله العلمي اللغوي ذائبا ومقرونا بمحور اهتمامه وحرصه الشعري .

كما أن هذه السطور من البوح والمكاشفة - في تقديمه لديوانه - قد كشفت عن ملمح بارز في مسيرته الشعرية . فالتقدم في الخبرة وطبقات النضج - وليست السن وحدها -

هو الذي يجعله الآن مشدودا إلى الشعر القديم: يتأمله ويتطعم بناءه ، كما جعله ـ كلما حاول شيئا من الشعر ، مبتعدا عن قالب الشعر ، وأكثر اقترابا من القالب العمودي للقصيدة . هذا القالب الذي عزف ويعزف عليه الآن باقة من أجمل ألحانه الشعرية وأصفاها ، وأكثرها تماسكا وإحكاما ، ويتجلى من خلالها إبداعه الشعري ، منهمرا ومسيطرا في آن .

يقول في قصيدته الوداع الأخير اتركيني ، غير باكية ، ليس بي للدمع مرتجف واستريحي لم يعد ألمي ذلك اللون الذي وصفوا إلى أن يقول: لا أبالي الناس إن جهلوا ما ألاقي فيه أم عرفوا !

مثل هذا الشعر المبكر في إبداع الدكتور محمد حماسة يجلو لنا معدنه وطبقته بين أصحاب القول الشعري . كما أنه يأخذ بأيدينا ، إلى المسارب الخفية التي يتكون منها عالمه الشعري ، واللغة الشديدة الخصوصية والتميز التي يشيد بها ومنها صروحه الشعرية . وهي لغة تقول بكل وضوح إن صاحبها خبير متمرس يعرف ويستوعب وينتقي ويختار ، وتستوقفه في نهاية الأمر الكلمة التي لا يقوم بدورها غيرها ، والعبارة التي لا يغني عنها سواها ، والصورة الشعرية التي لم تبتذل أو تنتهك حرمتها عند غيره . كيف وهو الذي يقول عن نفسه ـ في تقديمه لديوانه ، في مجال عرض الخبرة وسرد السيرة الشعرية ونضج الوعي الفني:

(كنت ـ وأنا شاب صغير ـ أسمع القصيدة فيعتريني عند جزء منها ما يشبه القشعريرة تسري في جسمي كله ، فأدرك من فوري أن هذه قصيدة جيدة . وكنت أسمع القصيدة فتحملني بعض صورها إلى واد غريب ، وتفجر بعض جملها دلالات جديدة في نفسي ، فأدرك أن هذه قصيدة جيدة . وكنت أسمع القصيدة فلا يعتريني شيء من هذا ولا ذاك ، فأتهم نفسي بأني لم أحسن استقبالها ، وأعود إلى ها فإذا بي أحس فحسب أنها قعقعة لغوية وطنين أوزان ، فتنصرف عنها نفسي وأنا أرثي لصاحبها .

وكثيرا ما أرثي لا ولئك الذين يتمسحون بالشعر ولا يحققون منه شيئا ، ويتأكد لدي يوما بعد يوم أن الشعر صعب وطويل سلمه (إذن فنحن مع شاعر يعرف لغته ، ويعرف صعوبة الفن الذي اختاره ، ويعي تبعاته ومسئوليات صنعته ، وجدير بشاعر ـ هذا أمره وهذه حقيقته ـ ألا نراه حين يكون المقام مقام الجد ـ الا في أوج استعداده واكتمال عدته ، ولابد أن انبثاق هذا الوعي في داخله ، هو الذي عصمه من الافراط وجعله أقرب إلى البخل الشعري ، ذلك أن يزن ما يقول بميزان الذهب ، ولا حاجة له إلى أن يري الناس اسمه بمناسبة ومن غير مناسبة ، علي كلام معاد ومكرور ، لا يضيف !

محمـد حماسـة ، أقـرب إلى أن يكـون مـن عبيـد الـشعر الـذين كـانوا في العـصر القـديم ــ يعكفـون طـويلا علـي مـا يقولـون ، يعـدلون ويهـذبون ويـصقلون ، ولا يخرجونـه إلى النـاس الا وقد رضوا عنه بعض الرضـا ، أمـا الرضـا الكامـل عـن الـنفس فـلا يليـق بقـوم مـن هـذا الطـراز .

خـــــــدم . خـــــــدم

بقلم: فاروق شوشة

خدم . . . خدم !
وإن تبهنسوا
وصعروا الخدود كلما مشوا
وغلظوا الصوت
فزلزلوا الأرض
وطرقعوا القدم !

خدم . . . خدم
وإن تباهوا أنهم
أهل الكتاب والقلم
وأنهم في حلكة الليل البهيم
صانعو النور
وكاشفو الظلم
وأنهم ـ بدونهم ـ
لا تصلح الدنيا
ولاتفاخر الأمم
ولايعاد خلق الكون كله
من العدم !

* * *

لكنهم خدم
بإصبع واحدة
يستنفرون مثل قطعان الغنم
ويهطعون علهم يلقون
من بعض الهبات والنعم
لهم ، إذا تحركوا ،
في كل موقع صنم
يكبرون أو يهللون حوله ،
يسبحون باسمه ، ويقسمون

يسجدون ، يركعون
يمعنون في رياء زائف
وفي ولاء متهم
وفي قلوبهم . .
أمراض هذا العصر
من هشاشة
ومن وضاعة
ومن صغار في التدني
واختلاط في القيم !

خدم . . خدم
طائفة من بيننا
مجبولة علي عبادة الصنم
تصنعه ـ إن لم تجده ـ
لاتعيش دونه
مذعورة أن تتهم
ـ لعله ميراثها من القدم ـ !
ويؤجرون ،
في اتباع الشيء ، أو نقيضه :
في البيع ، والشراء
والفساد ، والجهاد
في القبول والعدول
في الكلام والصمم
فلا يهم !
لأنهم ـ طوال هذا العصر ـ
يبدعون ، عندما يراوغون
في التباس أمرهم
ويقسمون ـ كل يوم ـ
أعظم القسم
وجاهزون للفريسة التي تلقي . .
نفوسهم ليست تعاف
في وليمة الرمم !

* * *

خدم . . . خدم

وإن ظننتم أنكم

أهل المعالي والقمم

أمامكم من المرايا

مايضيء كل صفحة وسحنة

ويكشف الذمم

فالتمسوا حقيقة الوجوه

تدركوا

حجم الهوان فيكمو ،

حقيقة الإنسان ـ حينما يصير عاريا ـ

وحين ينهزم

وحين يرتد صغيرا

وضئيلا كالقزم

وكيف يصبح الشعور ميتا

والجلد من كزازة

فليس من شكوي

وليس من ندم

وهو الذي ـ من خلب البرق

ومن غواية الحلم ـ

كم صورت أوهامه

معراجه إلى السدم

هناك . .

حيث ينقش اسمه ،

ويغرس العلم !

فلتنظروا . . يا أيها الخدم

وأنتمو ، من حولنا ، وبيننا

حكاية تروي

وباطل بناسه ازدحم

وشأنكم شأن الجواري والعبيد والحشم

أمامكم ،

عار تمطي وجثم
وعبرة ، لمن يرون في البعيد
قادما ، وما قدم !

عصام الغازي وانكسار الحلم

بقلم: فاروق شوشة

هذا شاعر من طبقة الفرسان . ليس بالمعني المجازي الذي يقوم علي التشبيه أو الاستعارة ولكن بالمعني الحقيقي للكلمة . والفروسية عند عصام الغازي وفي شعره ، فروسية موقف ، وفروسية مواجهة ، وفروسية انكسار . والفارس الحقيقي هو من يعترف بانكساره أو انكسار حلمه ، دون خشية أو تردد . فقد خاض الحرب واكتوي بويلاتها ، وعرف حجم قسوتها في١٩٦٧ حين كانت النكسة ، وفي١٩٧٣ حين أتيح رد الاعتبار . لكنه لم يكن كافيا لا زاحة غمامة النكسة وتجذرها في الروح ، فالجرح كبير ، والشرخ أعمق مما رأي العابرون ، لذا كان طبيعيا ان يقول في إهداء هذا الديوان– الذي هو في حقيقته ثلاث مجموعات شعرية للشاعر أي أنه حصاد عمره الشعري ـ مخاطبا ابنته ريم: معذرة ياابنتي لم أستطع أن أكون فارس هذا الزمان . انكسر الحلم ، فنبت الشجر الاسود في العيون ، وتبدد وطن النبالة والجمال الذي اردت ادخاره لك ، تحت سنابك ليل لا أحلم له بفجر . فكوني له الفجر والأمل والانتصار .

تحت وطأة هذه الكلمات ، يبدأ قارئ الديوان خطواته الأولي . فإن كان مثلي متابعا لشعر عصام الغازي ، منذ خمس وثلاثين سنة ـ كما يحرص هو علي تذكيري ـ عندما قدمت قصائده الباكرة لا ول مرة في برنامجي إلى ومي' كلمات علي الطريق' الذي كان صوتا للأمل والصمود في سنوات حرب الاستنزاف بين١٩٦٧ و١٩٧٣– أقول: إن كان مثلي فهو قد خبر اللغة الشعرية وعالم الصور والايحاءات والايماءات ، وتكشفت له ينابيع الاستدعاءات المتواترة في شعر عصام الغازي ، وقبل هذا كله روحه الفروسية الجامحة المستوفزة ، المنطلقة بلا حدود وهي تشد معها اللغة في جموحها وتنطلق بها ، صانعة خصوصية هذا الشاعر ، وتمايزه عن أقرانه .

ما الذي يهدف إلى ه عصام الغازي من نشر دواوينه الثلاثة في كتاب واحد ؟ أعتقد أنه يريد تأكيد حياته وحيويته الشعرية ، وأن صوته في الساحة لا يزال ، وأن احتجابه الذي أبعده سنوات عن النشر والاتصال بجمهور الشعر وأوساطه الأدبية لم يبعده عن ذاته الشاعرة ، ولا عن ينابيعه الثرة في وجدانه ، بل ان عودته هذه ـ علي هذه الصورة ـ تعني أنه يصفي حسابه مع ميراثه الشعري ، ليزيحه عن كاهله بعد أن أمن عليه من التشتت والتشرذم والنسيان ليبدأ مرحلة جديدة تشي بها قصائدة الأخيرة ، ولغته الشعرية الأكثر حداثه والتي تمثلها مجموعة وقائع موت الجياد التي أطلق اسم إحدي قصائدها علي ديوانه الكامل . وكأنها اللحن الاساسي ، حيث تتردد مفردات الفارس وعدته من خيل وسلاح ، وصهيل ومعارك وانتصار وانكسار ، وصولا إلى فرس

النـار الـتي تخبئـه تحـت جلـدها لتدفئـه ، وتحتويـه في ضـلوعها وتـدثره ، وتـساعده علـي التعقـل بـالجنون . المـسافة واسـعة لغـة وشـعرا وإحكـام صـياغة ، وابتعـادا عـن جلجلـة الكلمـات وصـخب العبـارة ، بـين شـعر الـسبعينيات في الـديوان وقـصائد التـسعينيات . وبـين هـذين العقـدين مـن الزمـان كـان شـعر عـصام الغـازي ينـضج علـي نـيران هادئـة ، ويـصطخب ويجـيش بقـدر فـوران اللحظـة الـشعرية الـتي سـرعان مـا تنكـشف عـن لؤلؤهـا الـساكن في الاعمـاق ، وكـان الظـن ان الزبـد ولا شـيء غـير الزبـد هـو جوهرهـا وخلاصـتها . وفي منـاطق النفس الشعري الرصين المتأمل تتجلي عذوبة شعره في خصوصيتها الحميمة :

كان القلب يمامة فجر تهدل ، تتراقص

واشتعلت في الريح يمامة فجر تبكي

وانطلقت تتفجر وهجا وجحيما

في عالمها القشي الورقي الساذج !

ويـا أيهـا الـشاعر العائـد إلى حلبـة الـشعر بعـد طـول الغيـاب وسـنوات الاحتجـاب : إن انكـسار الحلـم الـذي أشـرت إلى ه في تقـديمك لـديوانك قـدنتج عنـه شـيء مـن انكـسار الـوزن والايقـاع . وكـثيرا مـا أدي انكـسار الـنفس وانطفـاء الـروح إلى انكـسار الموسـيقي . وكـثيرا مـا تغطـي حالـة الجيـشان والفـوران ـ بالنـسبة لـصاحبها ـ مـا يعتـور كلامـه مـن بعـض الخلـل في الـوزن . ومـا دمـت قـد اخـترت العـروض الخليلـي وموسـيقي شـعر التفعيلـة ، فلابـد مـن الحـرص علـي سـلامته وعـدم اختلالـه ـ حـتي لـو كـان ذلـك في أقـل القليـل ممـا تبدعـه ـ وأنـت قـادر دومـا علـي اذكـاء شـعلة الجمـر في موسـيقاك وايقاعاتـك ، لكـن قارئـك يتطلـب منـك عنفوانا لا تشوبه شائبة .

وسوف أظل أردد معك :

أسمعني صوتك ياحادي العصر
العصر انطفأت فيه الكلمة
وتسلط فيه السيف علي رهبان الحكمة !
وأقول : أهلا بصوتك من جديد .

عماد غزالي لا يجرح الأبيض

بقلم: فاروق شوشة

يواصل الشاعر عماد غزالي تشكيله الإبداعي لقصيدته عبر مجموعاته الشعرية المتتابعة: أغنية أولي١٩٩٠ ، ومكتوب علي باب القصيدة١٩٩١ ، و قضاءات أخري للطائر الضليل١٩٩٩ ، و ظل ليس لك٢٠٠٤ ثم في أحدث مجموعاته الشعرية لا تجرح الأبيض٢٠٠٥ . وكان من ثمار هذا التشكيل الإبداعي حصوله علي جائزة الدولة التشجيعية لعام٢٠٠٠ عن ديوانه الثالث ، وجائزة اتحاد كتاب مصر لا فضل ديوان عام ٢٠٠٥ عن ديوانه الرابع . وكأنه ـ بهذا المعني ـ يواصل الإبحار في مغامرته الشعرية ، محققا عبر الجديد من مراسيه ومرافئه مزيدا من الشارات والأوسمة .

لا أظن أن هذه القدرة التشكيلية ، بتجلياتها المختلفة في شعره ، ترجع فقط إلى كونه مهندسا ، ما لم يكن مزودا بالخبرة الجمالية الهائلة التي تتاح لكل من اقترب من مسار القصيدة العربية في تجلياتها عبر العصور . وعماد غزالي يفصح في مجموعته الجديدة ـ أكثر من ذي قبل ـ عن تلمذته الواثقة ، والمغايرة ، لكثير من نصوص هذا الشعر العربي الذي عكف عليه دراسة وتأملا وتذوقا ومعايشة ، دون أن يقع في أسر تقليده ومحاكاته .

يظل تفرده وعصريته ملمحا يدل عليه ، وقسمة تشير إلى ه . لقد عبر مضيق الإعجاب والتوقف والدهشة ليصنع من بعد لغته الشعرية ، وموقفه من الوجود الإنساني مثقلا بخبرات الشعراء الكبار أصحاب المواقف والرؤي والعلامات .

تلفت نحو الخل ، ينأي
وخطوه طليق

كمأسور إذا ما تحررا
وأرجعت عيني

صوب مجهول سكني
أغالب أشجانا ، ودمعا تحدرا

(إذا قلت هذا صاحب قد رضيته
وقرت له العينان ، بدلت آخرا

كذلك حظي ، ما أصاحب صاحبا
من الناس إلا خانني ، أو تغيرا)

همست لنفسي: لا يهمك ، حسبنا
رحيل لما نبغي ، وسعي علي الثري !

أنفاس امريء القيس في هذا الكلام . لكنه غير امريء القيس الذي نعرفه . إنه شاعرنا في لغته العصرية ، وشجنه الإنساني العصري ، يذكرنا ولا يقلد ، ويشي شعره بالاتصال ، بينما هو يمعن في الانفصال والتجاوز . حتي وهو يستطيب إيقاع البحر الشعري الذي صاغ منه أبو فراس الحمداني واحدة من أعذب بكائياته:

أنت جنان ، يدي تؤملها ـ أنت مثال للحسن كم فتن ، عكسن في ناظري وأهملها ـ وكم جمالا عشقت ، كم وثنا هويت ، لكن عيناك معولها ـ وتلك أوقاتنا بلا مهل ، ولحظة بيننا أتغفلها ـ أزمنة جارح تحولها ، أمكنة قاتل تبدلها .

وان كنت أدعو الشاعر إلى إعادة النظر في التفعيلة الثانية من استهلال القصيدة: ياقطرة من طل ، أؤجلها ، لا نها خارجة علي عروض هذا الوزن الشعري .

يبلغ الشاعر ذروة إحكامه لقصيدته لغة وإيقاعا ودلالة في قصيدته الأبيض التي أخذ الديوان منها عنوانه .

سميت وردي بها وسرت كالمغمض ـ سددت قوسي سدي وانحزت للأبيض ـ خفق المسافة بين المبعدين غدا إيقاعه فرسا في بيدها يركض ـ سافرت في دمها حتي بدا أثري في رنة الصوت ، بل في لسة المقبض ـ وداخلتني كما ضوء أرواغه ولا مناص سوي غمر به أمرض !

مثل هذا الشعر يعيدنا إلى إلى قين بأن الحاضر الشعري في موجاته الشبابية المتلاحقة لا يزال بخير . بل هو ينأي عن التسيب والسوقية والابتذال وكل ما تشاء أيها القاريء من صفات تنتمي إلى قاموس الإدانة . ولقد بالغ بعض أخوتنا النقاد في إضفاء المعني علي ما لا معني له ، والتماس الجمال فيما فساده يزكم الأنوف ، وسطحيته عارية حتي من جلدها المغشوش ، وأمعنوا في التوقف أمام العادي جدا والركيك بحجة أنه يخفي ما لا نري ولا يخطر لنا ببال . شيء قليل من صحوة الوعي والضمير ، وشعر كشعر عماد غزالي ، من شأنهما أن يعيدا هذا البعض إلى موقف المكاشفة بدلا من تعثرهم في مواقف المخاتلة والادعاء ، والزهو الكاذب بأن في أيديهم مفاتيح الممالك ودهاليز الفردوس .

نعم ، يعيدنا عماد غزالي وأمثاله - وهم لحسن الحظ يأخذون مواقعهم علي خريطة الشعر ويزيحون كثيرا من ركام البلادة واللاشعر - إلى سؤال الشعر . لا يجعلنا نتشكك أو نتحذلق ، فالإبداع الأصيل مغناطيس جاذب لا يخطيء ، واللغة الشعرية الحقيقية اكتمال وإحكام ، والشرارة الشعرية لا يحتاج الإعراب عنها إلى فنون السحرة والحواة ، أو طلاسم الموغلين في كتاباتهم المقطوعة الصلة بمن يقرأ ، لا نه لم يعد ينتظر منهم إلا ما يقترفونه من آثام في كل يوم: مسايرة الشاذ والمشوه والخامل . ويطلعنا شعر عماد غزالي وأمثاله ، علي نماذج راقية للالتزام بأصول الشعر ، حيث تجلجل القوافي ، وتصهل الإيقاعات ، وتفور الكيمياء الشعرية ، من غير أن تختنق روح الشعر أو تنطفيء نيرانه المتوهجة . الموهبة الشعرية تجعل من القواعد والأصول نهرا عذبا للإبداع ، والفيض الشعري العارم يغمرنا بعبقه وكبريائه وانطلاقاته ، مخلفا ظن الحمقي والمتشاعرين ، الذين يرون في أصول الفن قيودا ، وفي ضوابطه عوائق وجنادل تسد المجري وتخنق تدفق الإبداع .

لا ينقص هذه المجموعة الشعرية إلا خروجها من دائرة هامش التي جعلها ناشرها عنوانا لهذه السلسلة ، لا نها في حقيقتها متن جميل من متون الشعر ، بناه صاحبه بالدأب والمثابرة ، والتواضع في مملكة الشعر ، وكسب مساحة جديدة في كل يوم وفي كل خطوة ، شأن المبدعين الحقيقيين .

الحنين إلى الممالك الضائعة

بقلم: فاروق شوشة

ممالك ضائعة هي أحدث المجموعات الشعرية للشاعر العراقي علي جعفر العلاق ، بعد مجموعاته السابقة: لا شئ يحدث . . . . لا أحد يجئ ، ووطن لطيور ، وشجر العائلة ، وفاكهة الماضي ، وأيام آدم ، والمجلد الأول من الأعمال الشعرية ، بالإضافة إلى عدد من الأعمال النقدية هي: مملكة الفجر ، ودماء القصيدة الحديثة ، وفي حداثة النص الشعري ، والشعر والتلقي ، والدلالة المرئية ، انجزها الشاعر الذي يعمل استاذا للدراسات الأدبية في جامعة العين بدولة الإمارات .

والعلاق واحد من الاصوات الشعرية المتألقة في جيل الستينيات العراقي ، الذي ينتمي إلى ه حسب الشيخ جعفر وعلي مهدي وحميد سعيد وآخرون ، والذي يمثل — علي امتداد الوطن العربي — إضافة حقيقية ، وتأصيلا لقصيدة الشعر الجديد التي بدأها جيل الرواد ، لغة وإيقاعا وتشكيلا ، وإحكاما للبنية الشعرية من خلال وعي أعمق ومغامرة أرحب ، وانفتاح علي كون شعري أغني بالرؤي والدلالات والرموز ، واكثر احتفالا بالصورة الشعرية الطازجة والمدهشة .

وهو في مجموعته الجديدة يفجر ينابيع من الحنين إلى ممالكه ، ممالكنا الضائعة ، وينصب شركا من الكلمات المتوهجة تغري آلاف التفاصيل الصغيرة ، ومختلف الاحوال والمواقف ، وتداعيات الذاكرة ، فإذا بها تطير كالنوارس ، وترفرف كطيور الماء ، باحثة عن جزيرة تهبط عليها وتستريح ، أو وطن ناء يبعد في مسافات الخيال ، منكفئا علي مهرين منكسرين ، علي فراتين من فضة وعويل ، ولايزال هتاف الطيور الشريدة مشتعلا ، ولا شجر في الافق البعيد يتوسد أرواح المجهدين المشردين:

تغرب الشمس
موحشة في القصائد ، لا شجر
يتوسد أرواحنا

لا نعاس يجئ طريا من البحر
من سوف يحرس ما ء القصيدة

أغنية ، أم حصاة ؟
دفعنا إلى الريح أطفالنا ، وتمائمنا

كم تبعنا نجوما من الطين دامية

كم رأينا المدي ينحني مثقلا بانكساراته
أفراتان من فضة وعويل ،
أم هتاف الطيور الشريدة يمتد

مشتعلا ، بين جيل وجيل ؟

هذا شعر مقطر مصفي ، نقي كقطرات الندي ، خلا من كل شائبة أو فضول ، لا يستبقي الا الحبة المشعة والتعبير الدال واللغة التي لا تعرف الترهل ، من هنا يصبح نافذا كالرمح ، مشرعا كسيف باتر ، أو لمعة برق تخطف البصر ، يقول عنه زهير أبو شايب: كثيرا ما تبدأ القصيدة بتساؤل مليء بالأسي ، إن الوطن الضائع هو ذلك الوطن المقيم في السؤال ، وهو وطن لكل الممالك السرية الضائعة ، هكذا يستدعي الوطن سلسلة طويلة من رموز الفقد: جلجامش ، أنكيدو ، بابل ، ليلي العامرية ، فاطمة ، كما يستدعي مشاهد الطفولة ، والطلليات ، والمراثي ، ويحشدها جميعا ، فيما يشبه مشهد الندب الكربلائي ، ضمن نشيج كوني علي ما ضاع هنا يكتب الشاعر العربي المعاصر من داخل لحظة طللية لا تكتفي بالندب ، بل تهجس وتستشرف وتمتلئ بالمتاقات ، وتحفر نفقها السري لتسريب الضوء تضيع الممالك ، يبقي الشعر ليدل علي ما لا يضيع .

يقول العلاق في قصيدته نار الآلهة المهداء إلى جمال حمدان:

نركض خلف نارك الخضراء

نصغي إلى رمادك الأخضر:
يستحيل قبة من الشذا ،
أو شفقا من صلوات الماء

كيف انتشرت في مرايا العشب
اي غيمة ريانة أنت ؟

انطفأت ساطعا:
رائحة الرماد عبقرية تحترق
سئمت من تاريخنا البطيء ،

أم سئمتنا !

يا جرسا ، أسرع من رياحنا ينطلق
كيف انتشرت في مرايا الريح !
كل عشبة ــ تصغي إلى نيرانك الغضة

كل عشبة ، تهرب من رمادنا الخامل:
لا مجد ، ولا خطيئة
تركتنا ، لنارنا البطيئة !

في الفضاء البعيد عن الصاخب والمباشر ، وعن ردود الفعل ، وعن الوقائع والاحداث ، يحلق شعر العلاق ، حيث الشعر الشعر ، وحيث الكيمياء الخفية لهذه النار الأزلية التي تلفح شررا وشعرا:

أنت أوغلت في الرماد
أم توغلت في الشرر !

قلت للموت: لا تدر
عشبة ، واقمع المطر
والعصافير ، والعباد

هل اساء لك الشجر !
هل اساءت لك البلاد !

انين الحضارات يقول العلاق:
من أنين الحضارات اقبلت منكسرا
حشة العشب تجرحني

والفرات رماد يئن علي شفتي
غزال يضيء حنين النساء

وطن يتنزه مكتئبا في القصائد
حيث النسيم قبور جماعية

والكواكب نائحة في العراء

ذا أنين الحضارات ، بل قصب
يتكسر في الروح شرسا

يعض الندي ، والصدي ، والشجر
والاغاني: بقية عكازة في المطر .

للعلاق ولع بالموسيقي الشعرية ، يروضها ، ويضفرها ، ويصنع من تداخلاتها — في بعض الاحيان — نغما جديدا مركبا غير ما لوف أو متوقع هو الحريص علي الجدة والتجاوز وعدم التكرار كل مجموعة شعرية وثبة في الفضاء الشعري ، وانسلاخ عن المتحقق الذي سبق انجازه ، وهو غارق في تراجيديا المشهد العراقي ، والعربي حتي النخاع ، لكن علي طريقته ، وبلغته ، من هنا فإن مجموعته الجديدة كما يقول زهير ، أبو شايب: تعيد إلى نا الثقة بالقصيدة التي توشك هي ايضا أن تكون إحدي الممالك الضائعة .

سمير سرحان وحرب الثقافة

بقلم: فاروق شوشة

هذا كتاب خادع المظهر، يبدو لقارئه ــ من الوهلة الأولي ــ ناعما أملس الوجه، لكنه سرعان ما يكتشف أنه كتاب يمتليء في كل صفحة منه بالألغام والمتفجرات الثقافية والفكرية، في إطار دعوة شاملة إلي المراجعة والمساءلة والنقد الذاتي وضرورة التغيير. وهو كتاب مكتوب بلغة سهلة واضحة ميسورة لكنها السهولة التي لايحسن الجاهل تقليدها، والتي تخاطب القاريء العام كما تخاطب القاريء المتخصص والباحث المتعمق، وتظل محققة لمتعة القراءة وجدل الحوار بمعاودة الكشف عن طبقاتها ومستوياتها في الطرح والتحليل.

ثم هو كتاب لا يحلق كثيرا في فضاءات التنظير ومحاولة اصطناع الأفكار الكبري ــ الملغزة والمعقدة ــ مجاراة لما يفعله بعض مفكري هذا الزمان، ولا يهبط في الوقت نفسه إلي تفاصيل الواقع اليومي فتغرق الفكرة في زحام التفاصيل، وتتوه الدلالة في ضجيج الوقائع وصخب الأحداث والنماذج.

بهذا الكتاب الجديد حرب الثقافة الذي صدر ضمن سلسلة كتاب اليوم يعود سمير سرحان إلي خشبة مسرحه الحقيقي: الكتابة، بعد غيبة سنوات، انقطع فيها إلي دوره الثقافي ــ البارز والمؤثر ــ من خلال موقعه في رئاسة الهيئة المصرية العامة للكتاب. يقول سمير سرحان في مقدمة الكتاب: لقد توقفت عن الكتابة سنوات طويلة بسبب انشغالي بالإدارة، وبالدور الثقافي الذي أقوم به منذ أكثر من عشرين عاما. والذي يأخذ كل وقتي وجهدي. فهو عمل لايتطلب فقط اتخاذ القرارات الإدارية، وإنما رسم السياسات والاستراتيجيات واقتراح الخطط وتنفيذ المشروعات الثقافية القومية الكبري في مجال الكتاب والموسوعات ومكتبة الأسرة وغيرها. إلي جانب معرض القاهرة الدولي للكتاب وزيارة معارض العالم خارج وداخل العالم العربي وغيره كثير مما يسمح الوقت أو الجهد به بعد أن بدأ الشباب يذوي وبدأت أيام العمر تتهاوي وتتواري واحدا وراء الآخر. لكن عودة سمير سرحان إلي الكتابة ــ منذ انتهائه من كتابه السابق علي المقهي الذي استقبلته الحياة الثقافية استقبالا غير عادي باعتباره وثيقة لعصر وشهادة علي ميلاد جيل وتأريخا تسجيليا لمقهي عبدالله الشهير في الجيزة الذي كان من نجوم مجلسه محمود السعدني وزكريا الحجاوي وأنور المعداوي ومحمود حسن اسماعيل ورجاء النقاش وعبد القادر القط وغيرهم من المبدعين والأدباء الكبار والذي لم يكن مجرد مقهي بقدر ماكان في حقيقته جامعة شعبية يتعلم فيها الصغارمن الكبار والبادئون من الأساتذة، والطامحون

الواعدون من أصحاب الهيبة والمكانة والتأثير ـــ هذه العودة تكشف بجلاء أن الكاتب يصبح ـ كما كان يشعر ـــ ترسا صدئا في ماكينة معطلة تحتاج إلي الكثير من قطع الغيار، بل إنه لم يكد يمسك بالقلم ليكتب مقالاته في الصفحة الأخيرة من أخبار اليوم ـــ التي أصبح جزء كبير منها مادة لهذا الكتاب ـــ حتي انثالت الخواطر وتدفقت الأفكار وتتابعت السطور. وأهم من هذا كله، عودته لموقعه الأساسي، متحررا من قيود الوظيفة ومسئوليات الموقع الذي يشغله. ذلك أن الكاتب الحقيقي ـــ عندما يكتب ـــ لايفكر في كونه رئيس هيئة أو مؤسسة أو قطاع، تنتصب من أمامه المحاذير والضوابط والالتزامات، حريته تبدأ بالخروج من هذه الدائرة والتمرد عليها، ومسئوليته تتسع لتصبح مسئولية المثقف في التغيير والتنوير، لاتحدها حدود ولاتقف في طريقها لوائح أو توجيهات. ولذا كان وقع الكتاب ـــ بما يحتويه من رؤية نقدية ونظرة متحررة وطرح جدلي ـــ مفاجئا لقارئه، الذي اعتاد أن يقرأ في كتابات كثير من المسئولين التبرير لا التوجيه، والمسايرة لا النقد، والتغني بالايجابيات ـــ حتي لو كانت متوهمة ـــ لا إبراز السلبيات والنواقص، خاصة حين يتعرض الكاتب لموضوع شديد الحساسية وهو العلاقة بين المثقف والسلطة خاصة في ظل الأنظمة الدكتاتورية التي توالت علي العالم العربي، وكانت نظرتها جميعا إلي المثقف نظرة ريبة وشك بعد ان قسمت الناس إلي أصحاب ثقة وأصحاب خبرة وفضلت ـــ بالطبع ـ أصحاب الثقة دفاعا عن نفسها، وتدعيما لركائزها في السيطرة والحكم.

ولكن المثقف الحقيقي ـــ في نظر سمير سرحان ـــ هو الذي يظل علي خلاف دائم مع مجتمعه استشرافا لمستقبل افضل.

فإذا تواءم مع مجتمعة وأعلن قبوله للأمر الواقع فإنه يتوقف عن أن يكون مثقفا ينشد التغيير، أو بمعني آخر يتوقف الحلم ويصبح بلا رؤية محددة أو موقف. والمثقف ـــ في تصور سمير سرحان ـــ موقف وليس مجموعة من المعارف التي يشعر بها رأسه علي مر السنين، وإنما ماتسفر عنه هذه المعارف التي حصلها من رؤية محددة للإنسان والمجتمع وربما الكون.

الدعوة إلي التغيير هي إذن جوهر الدور الذي ينبغي أن يقوم به المثقف العربي. وهو ـــ بهذا المعني ـــ في صفوف المعارضة دائما، يقود حركة التغيير إلي الأفضل، رافضا ان يتركها للسياسي وحده، فهذا هو الخطر الحقيقي. السياسة هي المتغير أما الأدب والثقافة والفن فثوابت الهوية والحضارة والتاريخ وحركة المجتمع. ووضع المثقف علي هامش المجتمع يذكرنا بالصورة التي قدمها أديبنا الكبير نجيب محفوظ للمثقفين في روايته البديعة ثرثرة علي النيل عندما انتهي بهم الأمر إلي حياة اللهو والمجون ومجتمع الغيبوبة والنزوات والكيوف بعد أن رأوا ان كل شيء يتم صنعه دون حاجة إليهم أو اخذ رأيهم. وسمير سرحان ـــ بحكم الوعي والخبرة ـــ يتحدث عن بعض ملامح التنوير العربي في

العصر الذي كان فيه القادة الحقيقيون للمجتمع هم قادة الفكر والأدب والثقافة والفن: عصر طه حسين والعقاد والحكيم ومختار وسيد درويش وأم كلثوم وعبد الوهاب وغيرهم من عمالقة الفكر والإبداع.

أما اخطر فصول حرب الثقافة الذي يكشف عنوانه عن التوجه الذي يراود عقل كاتبه وفكره، فهو الفصل الذي جعل عنوانه: وداعا للطبقة الوسطي. وهناك من الباحثين والمفكرين من سبق سمير سرحان إلي الحديث عن انهيار الطبقة الوسطي أو زوال الطبقة الوسطي والتأثيرات الاقتصادية والمجتمعية لهذا الانهيار أو الزوال ومنهم من تناول الموضوع في بعده العالمي، غير المقصور علي المجتمعات المصرية أو العربية. لكن سمير سرحان له فضل طرح القضية ومناقشتها في بعدها الثقافي، باعتبار ان المثقف جزء من نسيج هذه الطبقة وتكوينها وتعبير عنها. هذه الطبقة التي تضم المفكرين والعلماء والمهنيين ــ المحامين والاطباء والمهندسين وغيرهم أدي انهيارها ــ نتيجة اتساع الهوة بين طبقتين في المجتمع طبقة تمتلك كل شيء وطبقة لاتملك شيئا ــ إلي سقوط سلم القيم، وانحسار موجات الابداع، وانتشار الثقافة السوقية والهابطة والفنون التي تخاطب الغرائز كما يحدث في السينما والمسرح والغناء، كما ادي هذا السقوط ــ ويفضل البعض استعمال غيبة الدور بدلا من السقوط أو الانهيار ويرون أن الطبقة ــ بالمعني الاقتصادي والاجتماعي ــ لاتزال قائمة، لكن الذي تم سحقه وتدميره هو دورها في قيادة المجتمع والحفاظ علي قيمه الثقافية والفنية ــ أدي هذا السقوط إلي اعتزال من اعتزل من المثقفين والمفكرين، يأسا وإحباطا، وهجرة من هاجر بحثا عن دور أو حياة بديلة خارج الوطن، فضلا عن تدهور مستويات الدخول مقارنة بالارتفاع المتزايد في أسعار السلع ومتطلبات الحياة. وهو الذي انعكس ــ اقتصاديا ــ في ركود المنتجات وافتقاد آليات الحركة في السوق وعدم الإقبال علي الشراء، ولجوء كثير من عارضي السلع ــ خاصة في موسم الأوكازيونات ــ إلي مكافأة المشتري لسلعة ما أو منتج ما يمنحه قطعة مجانية إذا اشتري قطعتين، أو حتي اذا اشتري قطعة واحدة، ومعني هذا ان هناك انهيارا في معدلات الاستهلاك نتيجة لأزمة السيولة المالية من ناحية، وارتفاع الأسعار من ناحية أخري وانهيار الطبقة التي كانت دائما عصب الشراء، باعتبار ان الطبقة العليا تشتري ــ عادة حاجياتها ولوازمها من الخارج أما الطبقة الدنيا فتظل تحت خط الفقر أو حاجز الشراء!

يصور سمير سرحان بطريقته الواضحة المباشرة ماحدث لكثيرين من ابناء هذه الطبقة الوسطي الذين تركوا الوطن وسافروا وراء الحلم وكيف تم انهيار الحلم المصري البسيط عند هؤلاء الذين رحلوا في السبعينيات وأوائل الثمانينيات ليكتشفوا بعد العودة أن المروحة والخلاط وحتي الفيديو ـ التي احتضنوها عند عودتهم الي مطار القاهرة لم توفر لهم رغد العيش المنشود أو الذي كانوا يأملون فيه. وأن المسألة أصبحت أعقد من ذلك بكثير،

فقد اتسعت الهوة بين الطبقات فأصبح حلم شراء الشقة مستحيلا حتي مع التحويشة التي جلبوها معهم والتي مهما كبرت فهي لا تفي بشراء أو تملك أي شئ.

ولا يفوت سمير سرحان - أن يشيد بالدكتور رمزي زكي صاحب كتاب وداعا للطبقة الوسطي والذي جعل سمير سرحان من عنوانه عنوانا لهذا الفصل من فصول كتابه، خاصة أنه عزا انهيار الطبقة الوسطي الي تدهور مستويات الدخول والانخفاض السريع في مستويات معيشة هذه الطبقة الذي دفع بأعداد كبيرة من المهنيين والموظفين الي الهجرة بحثا عن دخل أعلي. وما نتج عن ذلك من مشكلات وأزمات عائلية ونفسية وتربوية. والذين لم يهاجروا اضطروا للبحث عن عمل إضافي وأنفقوا الساعات الطويلة في محاولة كسب ما يمكن أن يسد أفواه الأسرة بالكاد. فنتج عن ذلك تدهور في مستوي طاقتهم وصحتهم نظرا لارتفاع ساعات العمل والتدني الشديد في مستوي إنتاجيتهم في وظائفهم الأصلية. وفي حالات أخري أخرجت أسر فقيرة كثيرة أطفالها من المدارس ودفعت بهم الي العمل المبكر للحصول علي مصدر إضافي للرزق - كما أدي الغلاء الي سوء التغذية وتدهور صحة المواطنين، وأدي ارتفاع الإيجارات وأسعار الشقق وزيادة معدلات التزاحم في الحجرة الواحدة ونمو ما سمي بالأحياء العشوائية وأحزمة الفقر الي مزيد من التدهور في أحوال الطبقة الوسطي.

من أطرف ما في هذا الكتاب - المثير بكل ما تضمنته فصوله من موضوعات وقضايا - أن مؤلفه لم يستطع التخلص تماما أو الابتعاد عن موهبته في التأليف الدرامي. فالفصل الآخير من الكتاب وعنوانه اثنان في القفص مشروع مسرحية من طراز رائع وعميق، لا ينقص هذه المسرحية إلا أن يعيد سمير سرحان النظر في السطور التي تركزت فيها الأحداث والعقدة والشخصيات الرئيسية والشخصيات الثانوية، والمكان بدلالاته وإيحاءاته، حتي تتجسد علي خشبة المسرح عملا مسرحيا ينبض بالسخرية والفكاهة اللاذعة والتأمل العميق النافذ والمغزي الذي لا يخفي علي القاريء أو المشاهد اكتشافه. اثنان في القفص تتحدث عن رجلين محبوسين داخل إحدي المكتبات الكبري في قلب القاهرة، يبدو أن موظفي المكتبة قد أغلقوا عليهما أبواب المكتبة في ساعة الاقفال دون أن يتنبهوا لوجودهما في داخلها. الرجلان الحبيسان يلوحان بجنون من وراء الواجهات الزجاجية لعل أحدا من المارة يلتفت إليهما ويهب للمساعدة. عسكري المرور في التقاطع المجاور يتنبه لتجمع الناس، وعندما يسأل الرجلين عن سبب وجودهما في المكتبة - التي ندرك من وصفها وموقعها أنها مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب في وسط المدينة - وتتصاعد المفارقة ودرجة الكوميديا حين يجيب أحد الرجلين بأنهما كانا يبحثان عن أحد كتب التراث. ويتسع المجال - بين جمهور المحتشدين - للحديث عن أخلاق القطاع العام وسلوكيات موظفيه العاملين في مثل هذه المكتبة وما أصابهم من تسبب وترهل وظيفي

وسياسي واجتماعي ووجودي مع التمسك بقشرة أخلاقية ودينية تنفي عنهم العجز عن الإنجاز.

سرعان ما تتسع دلالة الموقف لقفصين لا قفص واحد.

قفص فيه الرجلان الحبيسان وقفص آخر أكبر بكثير يتزايد عدد الواقفين فيه. وتتسع الحوارات والمجادلات لكلام عن العهد الشمولي والاشتراكية والبيزنس والشركات والقطاع الخاص والحقبة البترولية المباركة والهوية المصرية: فرعونية أم إسلامية خاصة أن أحد الرجلين داخل المكتبة يوضح أن التراث الذي كانا يبحثان عنه هو موسوعة مصر الفرعونية لعالم المصريات سليم حسن والتي صدرت أخيرا عن مكتبة الأسرة. يختتم سمير سرحان هذا الفصل - المسرحية بقوله: من بعيد جاء شخص يهرول ومعه الموظف المسئول عن المكتبة ومعه المفاتيح. وخرج الرجلان وانصرف الجميع في هدوء ماعدا شابا في العشرينيات ظل واقفا يستمع الي كل ما قيل دون أن يشترك في الحوار الذي دار. وعندما جاء شرطي المرور ليسأله: لماذا تقف هناك وحيدا وقد انتهي كل شيء؟ همهم الشاب: إنه يبحث عن مذكراته التي ضاعت وإنه يعيش الان بلا مذكرات. ربما كان قد نسيها داخل المكتبة أو في طيات كتاب سليم حسن. وربما سرقها أحد من الأجيال التي سبقته. ولكن المؤكد أنه يعيش الان بلا مذكرات. وسيظل يبحث عنها الي أن يجدها، حتي لو وقف أمام المكتبة الي أن تفتح أبوابها مرة أخري في الصباح.. أي صباح! قدرات سمير سرحان الدرامية لا تتجلي ففي في هذا الفصل الأخير من الكتاب، لكنها مبثوثة في سياقات العديد من الفصول التي تنبض بحرارة الدراما الحية قصصيا ومسرحيا. ففط حديثه عن ثلاث مدن هي: القدس وبيروت والكويت، تحت عنوان مدن للحزن ومدن للفرح وعن الموظف المصري في عصر الثورة الإلكترونية وعن الذين يلبسون المزيكا(بدءا من الصورة الشعبية المضحكة للذين يلبسون المزيكا في فرقة حسب الله وأمثالها وصولا الي مظاهر الحياة في العالم الثالث تظاهر بالعزف ولا يوجد عزف حقيقي وأصوات موسيقية، لكن بلا موسيقي حقيقية ودول متخلفة - تعاني جرثومة التخلف - تحاول أن تبدو علي غير حقيقتها عندما تعزف لحن التقدم وليست أكثر من دول تلبس المزيكا)، وفي حديثه عن قصته مع فرج فودة ومن يخاف يوسف إدريس، في كل هذه الفصول نفس قصص درامي يجيد رسم الشخصيات والأحداث والمواقف، ويجد لها في حبال قدرة فنية عالية، تسكب علي روح المقال ولغته نبضا متوترا وحرارة ساخنة. وتدفع بالقاريء الي المتابعة وأنفاسه لاهثة وراء التقاط المغزي والدلالة والإمساك بالجوهر والتفاصيل.

هل جاء هذا الكتاب - كما تصور البعض - ليكون امتدادا للكتاب السابق علي المقهي باعتبار أنه يمزج من الخبرة الشخصية والرؤية الأكثر اتساعا وشمولا، فينطلق من الخاص الي العام ومن الجزئيات الي الكليات ومن الدائرة الثقافية - مهما اتسعت - الي

الدائرة الحضارية الأوسع والأشمل دائرة تحديث الوطن وصياغة مشروع المستقبل. لكن المواجهة هنا ـ في هذا الكتاب ـ تظل أكثر حدة وعمقا، وأسلحة المقاتل هنا أكثر اكتمالا وعدة وتهيؤا، وصبره على بعض ما يزخر به مجتمع المثقفين أوسع صدرا وأطول نفسا وخبرة.

لقد عبر سمير سرحان في هذا الكتاب كما قال الكاتب الكبير كامل زهيري بحق ــ عن سلطان الكلمة، لا عن كلمة السلطان، فاستحق أن يصنف ويوضع في مكانه الطبيعي مثقفا حقيقيا صاحب رؤية ومشروع وليس مجرد موظف كبير في وزارة الثقافة مهما كان حجم الوظيفة أو عمرها الافتراضي. !

القرشي : عام على الرحيل

بقلم: فاروق شوشة

لم أر أحدا أتيح له أن يعرف شاعر مكة والجزيرة العربية حسن عبد الله القرشي إلا وأحبه إنسانا قبل أن يحبه شاعرا . كان في خلقه وسلوكه وعلاقاته مع الآخرين شاعرا حقيقيا حتى وإن لم يقل بيتا واحدا من الشعر . فما بالنا وقد خلف وراءه من آثاره الشعرية سبع عشرة مجموعة شعرية بدأها بمجموعته الأولي البسمات الملونة التي صدرت عام ١٩٤٩ ثم تتابعت مجموعاته : مواكب الذكريات ، الأمس الضائع ، سوزان ، ألحان منتحرة ، نداء الدماء ، النغم الأزرق ، بحيرة العطش ، لن يضيع الغد ، فلسطين وكبرياء الجرح ، زحام الأشواق ، عندما تحترق القناديل ، زخارف فوق أطلال عصر المجون ، رحيل القوافل الضالة ، أطياف من رماد الغربة وأخيرا عندما يترجل الفرسان .

وقد جمعت أعماله الشعرية في ديوان حسن عبد الله القرشي وصدرت في ثلاثة مجلدات ، فضلا عن آثاره النثرية : شوك وورد ، أنات الساقية ، فارس بني عبس ، أنا والناس ، تجربتي الشعرية ، وأصداء من الماضي . بالإضافة إلى كتابه حسن عبد الله القرشي مجمعيا ، ومداخلاته خلال هذه المؤتمرات ، وهو الكتاب الذي كتبت له تصديرا أقول فيه : والقرشي عربي صميم . عربي في جذوره ومكوناته وانتمائه . عربي في بيئته المكية الأولي التي لم ينقطع عنها حتي إلى وم ، ولا يزال يصدر عنها في صوره وأخيلته ، ومفرداته ومعجمه الشعري . ويعود إلى ها كلما أحس أنه شد عصا الترحال وأقلع بعيدا عنها ، لا يستطيع التنفس بعيدا عن صحرائه ورماله ووديانه وكثبانه وتخومه الأولي ، تلك التي شهدت ميلاد شاعريته ، وانطلاق خطاه الواثقة في رحلة الحياة والإبداع ، فلم يحظ شاعر من الشعراء المعاصرين في المملكة العربية السعودية بمثل ما حظي به الشاعر السفير أو السفير الشاعر حسن عبد الله القرشي من شهرة وذيوع صيت . ولم يتح لشعر أحدهم أن يكون له دوران شعر القرشي علي الألسنة والأقلام ، قراءة وتأملا ، ودراسة وتحليلا ، ونفاذا إلى مكوناته الفنية والفكرية ، وعناصره من الوجدان والوجود ، وتجلياته ، خاصة في المجالات التي تفوق فيها القرشي وأجاد وأبدع .

واتسعت حياة القرشي ـ العريضة والمتلئة ـ لصداقات حميمة وعلاقات وثيقة مع العديد من الشعراء والأدباء والمفكرين الكبار ، بدءا بعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين وأحمد حسن الزيات ، وصولا إلى صلاح عبد الصبور وأدونيس والفيتوري وسعدي يوسف وغادة السمان . وبينهم ، وفي السياق المتد : عبد الوهاب البياتي وبلند

الحيدري وفدوي طوقان وسليمان العيسي ومحيي الدين فارس وسميح القاسم . وساعدته نزعته الفنية المنفتحة وإنسانيته الفياضة وآفاقه الفكرية الرحبة ، علي أن يكون صديقا للجميع ، وموضع تقدير الجميع .

يقول عنه طه حسين: في لغة شاعرنا الأستاذ الصديق حسن عبد الله القرشي جدة ويسر يدنيانه إلى الفهم ، ويؤذنانك بأنه منك وبأنك منه .

وأقرأ شعر الشاعر ينبئك - في وضوح وجلاء - بصدق ما أقول ولو لم يكن لهذا الشعر إلا أن يبشر البيئات العربية الأدبية بأن مهد الشعر قد استأنف مشاركته في إغناء النفوس ، وإمتاع العقول ، لكان هذا كثيرا . فكيف وفيه فوق هذا كله ما يشوق ، ويروق ، ويرضي طلاب الرصانة وعشاق الجمال .

ويقول عنه أدونيس: حين أقرأ حسن عبد الله القرشي أقرأ الحجاز وابن أبي ربيعة ولا أعرف لماذا . ألأنني أحب عمرا والحجاز ؟ أم لا نني أحب قرشية هذا الشاعر ؟ في كل حال ينقلني شعر حسن القرشي إلى مواطن تختبيء في الذاكرة ، هي بين أجمل المواطن التي أعرفها . أحييك ياصديقي الشاعر حسن . أنت يامن توقظ الحاضر والمستقبل فيما توقظ الذاكرة .

ويقول صلاح عبد الصبور: كان لا بد أن يكون لهذا الجيل من أهل الحجاز شاعره ، وكان هذا الشاعر هو حسن عبد الله القرشي ، فهو قلق النفس ، متطلع إلى آفاق جديدة ، ربما كانت أبعد مدي من الصحراء التي يعيش فيها . وهو لا يرضي بمجتمعه الذي يعيش فيه ، فهو ينتقده ويدنيه في كلمات احتجاج ، ولكنه احتجاج شاعري صاف . لقد ابتدأ الشعر في الحجاز من حيث ابتدأنا محافظا علي التقاليد العربية . معتزا بها ، ولكنه - كما يطالعنا في شعر القرشي - يتحرر بجسارة من التقاليد المتوارثة ويحاول أن يعبر عن ذات الشاعر ، ووقعها علي مجتمعه . ومازال هذان الغرضان يتوزعان الشعراء حتي يتم ذلك التوازن المنشود ، فيري الشاعر نفسه في مجتمعه ، ويصبح هو قلب هذا المجتمع . وسنري في شاعرنا الحجازي هذا الشاعر الجديد .

ويقول الفيتوري: عالم القرشي هو الجمال والشعر ويري أحمد حسن الزيات أن في شعر القرشي نفحات من الحجاز ، ولمحات من قريش ، ونغمات من ابن ربيعة . وفي ذلك كله الدليل علي أن مشارق النور لا تزال تهدي ، ومنازل الوحي لا تزال تلهم .

فما الذي جمع بين هؤلاء جميعا - علي اختلافهم في الرؤية الشعرية والمزاج الفني والموقف الفكري - علي محبة القرشي وتقدير شعره ؟ لا بد أن السر في شعره الذي يتوهج بالعصرية والاحتجاج والتجاوز بالرغم من انسكابه في الصيغ التقليدية للقصيدة العربية ، الروح تضطرب وتتململ وتتمرد في جسد ينتمي إلى موروث الشعر العربي ،

يـري شـرعيته في الانتـساب إلى ه ، وعـدم الخـروج علـي بنيتـه الموسـيقية والتـشكيلية مـن هنـا ، فقـد التـف مـن حولـه شـعراء القـصيدة العموديـة وشـعراء قـصيدة الـشعر الجديـد ورواد الحداثـة . يـرون في موقفـه القـومي هويـة حقيقيـة صـادقة ، وفي نزعتـه العروبيـة نفـسا أصـيلا واعيـا ، وفي تمـرده وانطلاقـه واحتجاجـه صـورة للـشاعر العـصري المـؤمن بـالاختلاف والمغـايرة ، وفي عـشقه للفـصحي ودفاعـه المـستميت عنهـا ـ في شـعره ونثـره ـ وفي مـشاركاته المدويـة في المـؤتمرات الـسنوية لمجمـع اللغـة العربيـة في القـاهرة ـ وهـو العـضو المراسـل لهـذا المجمـع عـن الـسعودية ـ موقفـا يجـسد الانتمـاء والغـيرة والتـصدي لمـن يحـاولون النيـل مـن لغـة أحبهـا وأبـدع بهـا وآمـن بتجـددها وحركتهـا الحيـة الناشـطة ، وقـدرتها علـي الوفـاء باحتياجـات العـصر ومتطلبـات النهـضة ، وهـانحن ـ أصـدقاءه ومحبيـه ـ نتـذكره بعـد عـام مـن الرحيـل ، ولايزال شعره ينطق عنه ، وعطر سيرته يفوح كلما تردد اسمه ، واستعيدت مواقفه .

رجع الصدى في رسائل القراء -١-

بقلم : فاروق شوشة

أشرت في ختام مقال سابق إلى عدد من الرسائل الكريمة بعث بها قراء أعزاء ، واستأذنت في تأخير عرضها والتعليق عليها حتي أنتهي من القراءة التي كنت قد بدأتها - محاولا إشراك القاريء معي وإغراءه بقراءته - لكتاب الناقد الكبير الراحل الدكتور علي الراعي عن الكاريكاتير والأغاني والاذاعة الذي صدر بعد رحيله بخمس سنوات . ولأن رسائل القراء هي رجع الصدي الحقيقي بالنسبة لما يكتبه الكاتب ، والمرصد الحقيقي للأثر الذي تحدثه كتاباته لدي الآخرين ، خاصة إذا كان أصحاب هذه الرسائل من ذوي الخبرة والثقافة والمعرفة ونفاذ البصيرة - فإن الاهتمام بها يصبح واجبا مستحبا ، له الأولوية علي كل ما عداه .

أبدأ برسالة الصديق والأستاذ والمعلم الدكتور أحمد متولي مسلم الذي حظيت بالتعرف عليه ومتابعته عن قرب حين جئت إلى القاهرة - لا ول مرة - من أجل الالتحاق بالجامعة ، وكان أحمد مسلم وقتها كوكبا تدور من حوله هالة من الأصدقاء والزملاء والرفاق ، علي أهبة التخرج في كلية طب قصر العيني أو لعله كان قد تخرج بالفعل . كانت شقة أحمد مسلم - طالب الطب - ورفاقه في شارع المقياس بالروضة تهيء لي - كلما اجتمع هذا الشمل - واحة ندية ظليلة في هجير القاهرة وشعوري الحاد فيها بالوحشة والوحدة والاغتراب وأنا لم أغادر السادسة عشرة بعد كانوا جميعا - علي اختلاف اهتماماتهم وتنوع ثقافاتهم ومشاربهم - يفتحون لي نوافذ معرفة جديدة وكان صاحب الشقة اخفهم ظلا وأرقهم روحا وألذعهم تعليقا وأكثرهم مفاجأة في عرض تعليقاته ودعاباته . وحين تبدد الشمل ، وغاب الجميع في زحام الحياة وشواغلها ، ظل في نفسي سؤال معلن حينا صامت أحيانا عن أحمد مسلم وموقعه من خريطة الحياة في مصر ، وعن أخيه الأصغر سليمان الذي كان يقترب مني سنا لكن الألفة مع أخيه الأكبر كانت أعمق ، ثم عرفت أن المقام قد استقر بأحمد في مدينة طنطا ، وأن له عيادته المشهورة في ميدان المحطة . وتأكدت هذه المعرفة برسالة مفاجئة منه - بعث بها علي عنواني بالأهرام منذ عام ين - سعدت بها كل السعادة ، ونشرت تعليقا سريعا يحمل فرحي واعتزازي بالرسالة وصاحبها ، فقد أعاداني إلى مرحلة جميلة غالية من العمر ، كانت الصحبة الخالصة هي أغلي ما نمتلكه ونحرص عليه في الحياة .

ثم كانت هذه الرسالة الثانية التي حملت تاريخ الثامن والعشرين من يونيو٢٠٠٤ ، والتي يقول فيها :

تحية إعزاز واحترام وبعد

كتبت لك قصيدة منذ بضع سنوات تتألف من بيتين لا أكثر:

شاعر أنت (. . . .) . . تملأ الحكمة صدرك

وأب بر رحيم . . عرف الأبناء برك

وبمناسبة قصيدتيك الأخيرتين خدم خدم والروح في سقف الحلق ألفت لك قصيدة من بيت واحد:

سلام من صبا الشعرا أرق

لك التقدير حق مستحق

و (الشعراء هنا ليست جمع شاعر ، لكنها قريتي الشعراء التي تنتسب إلى ها معظم الأسماء التي أشرت إلى ها ، ومعهم طاهر بدران الذي كان الوحيد الذي يملك ما ينفقه علي هؤلاء الطلاب والموظفين الغلابة لا نه كان من رجال الأعمال في القرية: لديه مجيرة . . تصنع الجير وقمائن للطوب ، وكان حراس الجامعة حين يمنعونه من الدخول مع أصدقائه الطلاب يقولون لهم إنه زميل في كلية التجارة قسم الجير) . ثم يقول الدكتور أحمد مسلم: وإذ أعتذر عن قصر نفسي ، ألتمس أن تحذف من عنوان مقالاتك عندما تتحدث عن الشعراء العموديين عبارة الذين يسبحون ضد التيار للأسباب الآتية:

أولا: الشعراء المبتدئون عندما يقرءون ذلك يحجمون عن تأليف الشعر التقليدي ، فلا أحد يحب أن يسبح ضد التيار ، فيتجهون إلى الشعر الحر وهو أسهل بالنسبة للشاعر الموهوب ، فينقرض الشعر العربي التقليدي .

ثانيا: نحن الجيل القديم تشبعنا بشعر المتنبي وأبي تمام ، وشوقي وحافظ ، وعلي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل . ويصعب علينا أن نري الشعر التقليدي يسبح ضد التيار ويتخلف عن العصر . ونري ضعف الجيل الجديد في اللغة العربية ، واللافتات علي المحلات باللغة الأجنبية ، والمذيعات يحطمن اللغة الصحيحة في التليفزيون ، واللغة العربية تدرس في المدارس باللغة العامية ، فنشعر بأن اللغة العربية تنحدر بصفة مستمرة ، وقد يأتي يوم يزاح الشعر الحر نفسه من الساحة ، فلا يبقي إلا شعر العامية !

ثالثا: المثقف العربي لا يهز نفسه من أعماقها إلا الشعر المغني: ففيه تمتزج كيمياء الشعر بكيمياء اللحن وكيمياء الصوت . فيترك كل ذلك في النفوس الرقيقة آثارا لا تزول . وقد فطن محمد عبد الوهاب وأم كلثوم إلى هذه الحقيقة فقدما لنا تراثا غنائيا لا ينسي مثل: جبل التوباد وأوبريت مجنون ليلي والجندول والكرنك وسلوا قلبي وسلوا

كؤوس الطلا وريم علي القاع وولد الهدي ومن أي عهد في القري وسلام من صبا بردي أرق ومسافر زاده الخيال . . الخ . . كل هذه القصائد لها أمكنة في القلب لا يمحوها الزمن . ومن بعدهما سار علي نفس الدرب كاظم الساهر وماجدة الرومي . هل يستطيع الشعر الحر أن يحدث هذا الأثر في النفوس ؟ بالطبع لا ، لا نه يستعصي علي الغناء .

لك جزيل شكري وخالص تقديري

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

د . أحمد متولي مسلم

طنطا

وأبادر فأحيي هذه الغيرة المحمودة علي الشعر واللغة ، والاهتمام بالشعر المغني . . وهي قضايا متداخلة في حقيقة الأمر . والطريف ان عددا من مبدعي الشعر العمودي من جيل الشباب - لا يعتبرون أنفسهم سابحين ضد التيار ، وإنما هم التيار نفسه ، وقد سجلت ذلك بالفعل في كتابتي عن أحمد نبوي وأحمد بخيت والراحل عبد المنعم الأنصاري وغيرهم من الأصوات الشعرية الجديدة والمقتحمة . فهم يكتبون في الصيغة التي يعتبرونها حقيقية وأصيلة وجديرة بالشعر ، وأن الآخرين هم الخارجون الذين تركوا التيار الرئيسي ولجئوا إلى الهوامش من حوله .

وأنا أشارك الدكتور أحمد مسلم - بكل تأكيد غيرته علي اللغة العربية - وحزنه عندما يري ضعف الجيل الجديد في اللغة العربية - التي لم نحسن تعليمها بأحدث الأساليب وأكفأ المعلمين وأفضل المناهج وأجمل الاختيارات الأدبية والبلاغية ، فحولناها إلى كابوس رهيب يواجهه النشء المتعلم ، وهو يري أن حصة اللغة العربية تركزت في النحو وأن النحو قد تركز في الإعراب ، وانتهت دروس القراءة والإلقاء والتذوق والتحليل ليصبح الإعراب سيفا مسلولا علي رقاب المتعلمين يدفع بهم إلى الدروس الخصوصية ، ولتصبح اللغة العربية بدورها عقبة كبري كالتي يواجهونها مع الرياضيات والعلوم واللغات الأجنبية ! أما اللافتات علي المحلات باللغة الأجنبية فهي عار وطني وقومي وحال محزنة ، بالرغم من أن هناك قانونا يفرض علي أصحاب هذه المحلات الالتزام بالتسمية العربية . لكن ، من يهتم أو يكترث ؟ لقد أيقظ الدكتور أحمد جويلي - حين كان وزيرا - هذا القانون من مرقده ، وبدأت التوعية به من جديد ، فلما غادر الرجل موقعه ، عاد القانون إلى كهفه بعيدا عن كلام الناس !

أما أن اللغة العربية تدرس في المدارس باللغة العامية فليت الأمر كان مقصورا علي المدارس ، فالحال كذلك في الجامعات ، وفي أقسام اللغة العربية المتخصصة ، بل إن دروس النحو يدرسها بعض الأساتذة الجامعيين بالعامية ، فلا عجب . وإنما اعجب

معـي لا ن كـل هـذا معـروف ومكـشوف ، ولـيس بحاجـة إلى عبقـري يكتـشف سـوء الواقـع الـذي نحـن فيـه ، ولا إلى طبيـب مـستورد ليكتـب لنـا روشـتة إصـلاحية . الأمـر يـستلزم الجديـة والانـضباط والـشعور بالمـسئولية والـوعي بأهميـة الـدور والرسـالة ، وهـي المعـاني الغائبـة عـن حياتنـا الآن ، منـذ أصـبح الإنـسان آلـة طاحنـة مطحونـة ، أمـام ضـرورات الحيـاة في حـدودها الـدنيا ، واعتبـار مـا فوقهـا ترفـا وأمـورا لا تخـصه ولا تعنيـه ، ومـن أهـم هـذه الأمور: لغته وثقافته وذوقه وسلوكياته ووعيه بإنسانيته .

يبقـي الـشكر للـصديق الكـريم الـدكتور أحمـد متـولي مـسلم والتحيـة علـي رسـالته الـتي أثارت كل هذه الشجون وأتابع بقية الرسائل في مقالات قادمة .

رجع الصدي في رسائل القراء ـ ٢ ـ

بقلم: فاروق شوشة

استأذن القراء في الاقتراب ـ مرة أخري ـ من بعض رسائلهم التي تلقيتها في الأسابيع الأخيرة ، وتتعرض ـ فيما يشبه رجع الصدي ـ لبعض ما كتبته وأثرته من قضايا وموضوعات ، وأبدأ برسائل المهندس الاستشاري شريف سيد عفت صاحب الحس الأدبي المرهف والمعرفة الواسعة والوعي العميق وهو يقول: الأخ الشاعر . فاروق شوشة شجعني للكتابة إلى ك مقال ـ أحتفظ به ـ بعنوان دريني خشبة عاشق الشعر والجمال . أرجو المعذرة لتطفلي في الكتابة إلى ك ، ولكن حقي عليك كقاريء قد يسمح لي بهذا التجاوز . فأولا: أقرأ كل ما تكتب ، وأنا ـ بالمناسبة ـ قاريء نهم منذ أكثر من نصف قرن . وثانيا: أحاول جاهدا متابعتك علي الشاشة الصغيرة مع ضيوفك من الصفوة . وفقك الله .

اطلعت علي نسخة فاخرة (طباعة وتصميما) من أحدث اصدارات المشروع القومي للترجمة عن الالياذة (نحو ٨٠٠ صفحة قطع كبير) وبالطبع لم ولن يتسني لي القراءة المتأنية لضيق الوقت وسابق الاطلاع من خلال ترجمات عديدة . وأعتقد أن عملا بهذا الحجم لن يتاح لي قراءته لا نه بالقطع لن يضيف جديدا لمثلي . مقدمة الكتاب أثارت انتباهي ، فهي قد أشارت إلى ترجمة الأستاذ سليمان البستاني وكذلك الأستاذ دريني خشبة (١٥٩ صفحة) ولكنها لم تشر إلى ترجمة أخري بتصرف صدرت في منتصف القرن الماضي (١٩٤٧) ـ عن دار المعارف بمصر ـ بقلم الكاتبة عنبرة سلام الخالدي (٢٤٥) صفحة .

ما يثير الاهتمام أن الدكتور طه حسين بك قد قام بتقديم هذا العمل ، وقد يكون من المناسب أن نقرأ معا ما كتبه الدكتور طه حسين في تقديمه لهذا الكتاب . يقول: هذه يد كريمة تهديها سيدة كريمة إلى اللغة العربية والناطقين بها . لقد فرغ الناس منذ عهد بعيد من إثبات أن نهوض الشرق العربي في العصر الحديث كنهوضه في العصر القديم لا يكون بالعزلة ولا بالانقطاع إلى النفس والعكوف عليها . وإنما يكون بالتعرف إلى الشعوب الأجنبية والاتصال بها والأخذ منها والإعطاء لها . كذلك فعل العرب في العصور القديمة وكذلك نفعل في العصر الحديث . وليس هنا موضع الحديث عن الأسباب التي حملت القدماء حين ترجموا آثار إلى ونان علي إهمال الأدب إلى وناني وآياته الرائعة . وإنما الحقيقة الواقعة هي أننا عرفنا فلسفة إلى ونان وعلومهم وفنونهم التطبيقية ولم نعرف من أدبهم وفنهم شيئا ذا خطر . وقد عنينا في العصر الحديث بالأدب إلى وناني عناية ضئيلة

متواضعة ، فنقلت الإلياذة إلى اللغة العربية ولكنها نقلت شعرا . أو قل إن شئت نقلت نظما فلم تكن قراءتها في اللغة العربية أيسر من قراءتها في اللغة إلى ونانية لغرابة أسماء الآلهة والأبطال ، وليس موقعها في النظم العربي . وكانت خطوة البستاني - رحمه الله - جريئة خصبة مع ذلك ، فهو أول من اهتم لهذا الأمر ، ولفت العرب إلى هذا النحو من آيات البيان إلى وناني . وقد ظلت ترجمته مقصورة النفع علي المثقفين المتازين ، لا تتجاوزهم إلى أصحاب الثقافة المتوسطة .

ومع ذلك فلن تجد في أوروبا وأمريكا طبقة من طبقات الناس الذين يقرأون إلا والسبيل ميسرة لها لتقرأ الإلياذة والأوديسا في غير مشقة ولا عناء . تقرؤها في الترجمة الدقيقة وتقرؤها في الترجمة المقاربة وتقرؤها إن شئت في ملخصات سهلة قريبة المنال .
هذا هو الذي قصدت إلى ه السيدة الجليلة التي تهدي هذا الكتاب إلى قراء العربية ، والتي يشرفني أن أقدم كتابها إلى هؤلاء القراء . ونحن نعيش الآن في عصر مهما يكن حظ الأدب الرفيع فيه من العناية والامتياز فإن علي المثقفين واجبا خطيرا ، هو أن يقربوا هذا الأدب الرفيع إلى أوساط الناس دون أن يغضوا منه أو يسفوا به ، ذلك أجدر أن يرفع هؤلاء القراء إلى حيث يحبون هذا الأدب الرفيع ويطمحون إلى أن يسيغوه ويتذوقوه . فلو لم يكن لصاحبة هذا الكتاب إلا أنها حاولت أن تجعل من هوميروس الشاعر الشعبي إلى وناني شاعرا شعبيا عربيا لكان هذا كافيا لا ثبات ما قلت في أول هذا الحديث من أن هذا الكتاب يد كريمة تسديها إلى العربية سيدة كريمة . فلها من العربية وأبنائها أصدق الشكر وأجمل الثناء .

المهندس شريف سيد عفت ينتقد في رسالته - أيضا - صدور هذه الترجمة الجديدة عن المشروع القومي للترجمة بالمجلس الأعلي للثقافة بهذا البذخ في الانفاق علي الطباعة ، إلا أن يكون كتابا للاقتناء الفخم والتباهي بوجوده بمكتبات خاصة المثقفين ، لا سيما أن سعره ليس في متناول الأغلبية المطحونة من شباب المثقفين .

ولست مع القارئ الكريم في هذا . فصدور هذه الترجمة التي قام بها أساتذة وعلماء كبار ، عن النص الأصلي مباشرة - ليس عن الانجليزية أو الفرنسية ، في هذه الصورة الضخمة ، هو تحقيق لما نادي به عميد الأدب العربي الراحل والرائد العظيم للتنوير طه حسين في مقدمته التي يدعو فيها إلى (نبذ العزلة وعدم الانقطاع إلى النفس والعكوف عليها) .

ومثل هذه الملاحم العظيمة ، في مثل هذه الترجمة المعتمدة ، وهذا الاخراج الأنيق الضخم نهج ثقافي وحضاري معهود ، حبذا لو تحقق بعد ذلك في طبعة شعبية تكون اكثر شيوعا ودورانا ، وأكثر اقترابا من قدرة شبابنا (المطحون) .

ولا يفوتني أن أشكر القاريء الكريم المثقف ، علي التنبيه إلى هذه الترجمة التي سقطت من التأريخ لترجمات الملحمة ، وهذه المقدمة الرائعة لطه حسين ، التي تحمل بعض عطره وفكره وثاقب نظره ، وهي الأمور التي استحق بها - عن جدارة - عمادة الأدب العربي وريادة التنوير - ولفت الانتباه إلى هذه المترجمة المجهولة عنبرة سلام الخالدي التي لم ينصفها إلا قلم طه حسين ! كما لا يفوتني أن أحيي اهتمام القاريء الكريم وبره بسيرة أبيه نابغة الطب الدكتور سيد عفت (في الأمراض الباطنة والقلب) الذي يقول عنه في احدي رسائله : كان مثقفا ، وكان يقيم صالونا أدبيا في الخميس من كل أسبوع ، منذ ثلاثينيات القرن الماضي . وأذكر العديد من الشخصيات التي واظبت علي حضور هذا الصالون : د . زكي نجيب محمود ومحمد محمود وعلي أدهم ود . حسين فوزي ود . عبد الرحمن بدوي (أحيانا) ود . محمد داود التنير والأستاذ خالد محمد خالد وغيرهم .

وكنت أتلصص عليهم عسي أن يصيبني شذا من عطر حديثهم الذي كنت لا أستوعب معظمه لحداثة سني ومحدودية إدراكي . ولقد سمعت مرة تعبيرا غريبا في صورة سؤال ، لا أذكر تحديدا من قاله ، وأحسبه والدي رحمه الله ، ونصه : هل يمكن تخيل العالم بدون شعراء وبدون شعر ؟ لم أستمع إلى إجابة السؤال في حينه ، وظل هذا السؤال هاجسا في نفسي أستدعيه أحيانا ، وظل بلا إجابة أكثر من خمسة وخمسين عام ا . وربما هذا ما جعلني أستعذب الشعر ولا أقرضه ، آنس به ولا أقربه ، تحت شعور جارف بأن الشعراء من طينة أخري غير التي نحن منها .

أخي الفاضل : أحب الشعراء ولست منهم ، فعالمكم عجيب فيه يمتزج الألم بالأمل . فيه ما فيه من وحي وإيحاءات يقف من هو مثلي علي أعتاب عالمكم مبهورا ما خوذا بما يبصر ، ولا أقول بما يسمع ، لا ن الشعر الصادق المجدول بالحب وتوابله - من دم وعرق وأنات وعذاب - يبصره المتلقي ببصيرته ، وما أبدع البصيرة حين تتلقي ، وما أسعد الشاعر إذا أحس ببصيرة المتلقي تتلقف شعره وتأنس له ، قمة النشوة في رحاب فن جزيل العطاء . هناك من أقرأ لهم وأبحر فيما يكتبون وفجأة أجد نفسي . هاتفا : الله ! الله ! وهناك من أستمع إلى هم وفي لحظة أجدني أهتف : الله ! وهذه النوعيات من البشر ندرة في عالم إلى وم .

هم الذين ميزهم الله سبحانه بحب ما ينظمون وحب ما يقولون ، والحب دائما يقترن بالاخلاص ، وهنا لا نملك إلا أن نقول : الله ! الله !

أخي الفاضل :

إثــراء الثقافــة هــو مــشروعك ، هــذا مــا أحــسه يقينــا في محاوراتــك وكتاباتــك . أمــامي بعــض كتاباتــك الــتي أحــتفظ بهــا : زمــن كزمانــك ياأبــا الطيــب ، أيهــا الــصيف الــذي ولــي سـريعا ، آه كـم يـسرقنا وكمـا تنتهـب الأعمـار ، مجموعـة : أصـوات شـعرية مقتحمـة ، دعوتـك إلى قـراءة سـعيد عقـل ، أهميـة أن نتجـه شـرقا ، وغيرهـا كـثير أحـتفظ بـه . ألم أقـل لك إن مشروعك هو إثراء الثقافة ؟

هنيئا لك .

دائمـا أقـول : إن الله تعـالي حـين خلـق الـدنيا ، بإنـسها وجنهـا ، كـان الحـب هـو سـر الخلـق ، كـان الحـب : حـب الأعلـي للأدنـي ، وحـب الخـالق للمخلـوق . اللـهم اغفـر لــي أي شــطط في التعــبير ، فالحــب هــو أســاس كــل عمــل خــير . لقــد خلقنــا بالحــب . الخواطر تتزاحم ، وأشفق علي وقتك . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

شريف سيد عفت

مـرة أخـري شـكرا للقـاريء الكـريم علـي هـذا الفـيض مـن رسـائله ، ومـن محبتـه وتقـديره ، وعلـي اهتمامـه بالـشعر ورسـالته في عـالم إلى وم ، صـدي لـسؤال قـديم طرحـه والـده الراحـل الـدكتور سـيد عفـت ـ نابغـة الطـب ـ علـي رواد صـالونه الأدبـي مـن الأدبـاء والمفكـرين ، وهو سـؤال جـدير بالاهتمـام حـين يلقـي بـه عـالم لا يمكنـه تخيـل العـالم بـدون شـعر أو شـعراء ـ وأتابع بقية رسائل القراء في مقالات قادمة .

مصريون يبدعون في المهجر

بقلم: فاروق شوشة

منذ أتيح لي — في وقت مبكر — الاطلاع علي إبداع المهجريين العرب — من ابناء الشام: لبنان وسوريا إلى أمريكا بلد الذهب والثراء والحرية ، وقراءاتي الأولي لا عمال جبران وميخائيل نعيمة وإيليا أبو ما ضي وفوزي وشفيق المعلوف ، الذين أسسوا الرابطة القلمية في نيويورك والعصبة الاندلسية ، في سان باولو بالبرازيل ، واكتشافي لهذا الفيض العظيم من الإبداع المغاير للسائد والمألوف في العالم العربي والمتحرر من ربقة التقاليد والقيود والمواصفات التي تشد إلى التخلف والضعف والركاكة ، أقول: منذ ذلك التاريخ البعيد وأنا اتساءل بيني وبين نفسي عن مصير هذه الحركة المهجرية في الأمريكتين الشمالية والجنوبية ، وعن علاقة الابناء والاحفاد لهذا الجيل من الرواد بالإبداع من ناحية ، وباللغة العربية في أضعف الفروض والاحتمالات .

وكانت الاجابة التي تواتيني — بين الحين والحين — تؤكد انصراف جيل الابناء عما بدأه الآباء لغة وابداعا ، ثم انقطاع الصلة تماما — عند جيل الاحفاد — بهذا الموروث الابداعي الضخم الذي شهد ذروة تألقه واكتماله في العقود الأولي من القرن العشرين .

وفي المقابل ، كنت ابحث عن أسماء مصرية لمغتربين مصريين يعيشون الآن في أمريكا ، بعد أن تركوا وطنهم لا سباب عدة وآثروا الحياة في خضم المجتمع الأمريكي لكن ، لا نهم مصريون ، فهم يحملون معني الوطن وروائحه وتذكاراته ، ترابه ونيله ، وحتي مظاهر سلبياته وتخلفه في أعماقهم ، لا تفارقهم ملامحهم ، ولا تغادرهم صوره وتجلياته .

وكنت اتساءل أيضا كيف خلت هذه المواكب — التي تضم نخبة من المصريين المهاجرين ، الذين نبغوا في الطب والاقتصاد والهندسة وعلوم الوراثة والصناعة ومشاريع الاستثمار— من صوت أدبي واحد ، أو محاولة واحدة لا صطياد جذوة الابداع في أية صورة من صوره ، يتوهج بها قلم واحد من المصريين الافذاذ الناجحين في مجالات الحياة المختلفة في المهجر الأمريكي ؟

وفجأة جاءتني الاجابة حين أتيح لي الاطلاع علي أشعار بالعامية المصرية وقصص قصيرة من أدب المهجر للطبيب المصري الشهير الدكتور شريف مليكة استاذ الأدب بجامعة جون هوبكنز بولاية ميريلاند الأمريكية ، ولفت نظري منذ البداية كلمات للكاتب الكبير ألفريد فرج يحملها غلاف الديوان المسمي دواير يقول فيها: الشعر في بلاد الهجرة حنين للوطن ، ولا أعجب من أن يغمض الشاعر المصري عينيه في المهجر عما يحيط به

مـن معـاني وألـوان الجمـال ، ويـصف لنـا البيئـة المـصرية وهـو في أمريكـا ، وينقـد العـادات والـسلوكيات الـسلبية بـروح الفكاهـة المـصرية الاصـيلة ، ويـشغب علـي أهـل وطنـه مـشاغبة الحـب والاعـزاز ومشاكـسة الـصديق والعزيـز ، ويـصف مـا يحبـه في بـلاده ، ومـا يجذبـه إلى ه ، وهـذا وذاك ينبـع مـن حـنين أصـيل وحـب غـامر . الـشاعر الطبيـب شـريف مليكـة يحيـا في الولايـات المتحـدة منـذ عـشرات الـسنين ، ويمـارس هوايتـه المحببـة ، وهـي الـشعر والفكاهة .

والأسـتاذ ألفريـد فـرج ــ في كلماتـه هـذه ــ يـضع يـده علـي الملمحـين الاساسـيين في الاشـعار الـتي يكتبهـا الـدكتور شـريف بالعاميـة ، ملمـح الحـنين والحـب الجـارف للـوطن ، الذي لا تخبـو جذوتـه بـالرغم مـن عـشرات الـسنين الـتي قـضاها مبتعـدا عنـه . وملمـح الفكاهـة التي يمتزج فيهـا الحـس النقـدي بالـسخرية وخفـة الظـل الـذي يتميـز بهـا المـصري الـصميم عـادة ، والـتي تنـسكب علـي كتاباتـه فتجعلـها شـديدة إلى سـر في التلقـي ، ناطقـة بقـدر كـبير مـن الصفاء والشفافية ، بعيدة عن أي إيغال في الصورة أو تعقيد في الفكرة أو الدلالة المطلوبة .

والـشاعر الطبيـب شـريف مليكـة يـستهل ديوانـه بإحـدي رباعيـات شـاعر العاميـة الكـبير صـلاح جـاهين ، وكأنـه يريـد تأكيـد انتـسابه إلى هـذه الـشجرة الـشعرية الـضخمة وميراثهـا الممتـد في عـروق الأجيـال الجديـدة مـن مبـدعي شـعر العاميـة ، وتأكيـد هويتـه المـصرية الـصميمة بانتمائـه إلى هـذه العاميـة القاهريـة ــ الـشديدة الاقـتراب ــ مـن الفـصحي العـصرية ، البعيـدة عـن الإسـفاف أو الهبـوط ، الـشديدة الرقـي معجمـا وصـياغة وصـورا ومـضامين فنيـة وإنسانية ، تقول رباعية صلاح جاهين:

إيديا في جيوبي ، وقلبي طرب
سارح في غربة ، بس مش مغترب
وحدي لكين ونسان وماشي كده
وبابتعد ما اعرفش أو باقترب
عجبي

ولا يفـوت الأسـتاذ ألفريـد فـرج ان يلاحـظ ان شـريف مليكـة ـ الـشاعر الطبيـب أو الطبيـب الـشاعر ـ لم يتـأثر بوالـت ويتمـان أو عـزرا باونـد أو غيرهمـا مـن الـشعراء الأمـريكيين ، وإنمـا هـو مغـرم منـذ سـنوات الدراسـة في كليـة الطـب بالـشاعر بـيرم التونـسي وبالـشاعر الغنـائي صلاح جـاهين . ولا أعـرف كيـف جمـع الـشاعر شـريف مليكـة بـين الاسـلوبين في تذوقـه للـشعر قراءة ثم كتابة .

كمـا لا أعـرف شـاعرا كتـب بالعاميـة شـعرا مـن غـير تـأثر بأحـد الـشاعرين الكـبيرين بـيرم وجـاهين ، ولكـن ميـزة شـريف مليكـه أنـه زاوج في شـعره بـين الـسخرية والعاطفـة . فمـا

أمتع هذا ! لا ن السخرية إثارة عقلية والعاطفة إثارة للمشاعر . وهذا في الواقع مكمن الجمال في ديوان شريف مليكة . وشريف ليس أول الشعراء الأطباء المصريين ورائدهم إبراهيم ناجي ، وليس أول الأدباء الأطباء المصريين ورائدهم يوسف إدريس .
في القصيدة التي أطلق اسمها علي الديوان دواير يقول:

دواير . . دواير
ونا فيها حاير
لا ليها لا أول
ولا ليها آخر
وعيل يلف وعاوز يدوخ
ويفضل يلف مسيره يسوخ
ويكبر ويعمل مع صحابه دايرة
وجواها تفضل حبيبته اللي حايرة
تحاول . . تحاور لتفلت إيديهم
وتفضل تناور وتصعب عليهم
يضموها ليهم واهي الدايرة سايرة !
ويكبر ، وتكبر معاه الحبيبة
تدور الدواير تفك الضفاير

مشاعر عجيبة ويسهر يفكر
بإيه راح يعبر ع الحب اللي فاير
يدور القمر علي الأرض دايرة
ويحلي السهر ما بين البشر
ويسهر ينادي ما يقدر ينام
يدور الكلام ويرجع له فاضي
في دايرة يطوف ويبعد بعيد
لعالم جديد وعينه تشوف
ويجمع قطوف ويهنا له بال
في ضحك العيال ومجلس رجال
ويرسم حروف ويفضل يدور
يعدي في بحور
يشرق يغرب ويرجع يقرب

وح يقول لمين بأنه سجين
في دايرة يدور دواير دواير

في مجموعته مهاجرين تنبض لوحاته القصصية ، في معظمها ، بذكريات الوطن (البعيد القريب والغائب الحاضر ، الماثل دوما في القلب والعقل) ، وتعبر - في بعضها - عن الارتطام بواقع الحياة الأمريكية ومحاولة التأقلم والتفهم لهذا العالم المختلف ، وفي بعضها الآخر انعكاسات لواقع الطب وعمل الطبيب . وفي كل الحالات: : لا تفارق المخيلة صورة الوطن في القاهرة خاصة (في الظاهر وشبرا الخيمة) وفي قرية (العتامنة) بمحافظة - سوهاج ، معانقة لتداعيات الواقع في ولاية ميريلاند الأمريكية ، كما أن شخوص هذا العالم القصصي تنطق بالمسكوت عنه - غالبا - من بوح الصدق والمعاناة: أنا وطني مش هنا ، أنا ليت وطن تاني ، زوجتي الأمريكية وأم أولادي الاثنين لا يتحدثون العربية وإن كانوا يفهمونها شوية . ولكن الأهم هو أنهم لا يفهمون اللغات الغريبة الأخري المكتسبة من حياتنا في المجتمع المصري المعاصر: لغة الفهلوة والظلم والكبت والتعصب والرشوة والمحسوبية والتواكل . . الخ ، أحب أقول لك إني أعتقد أن هناك نوعين من المهاجرين إلى أمريكا وكندا . النوع الأول - وهو الغالب يعيش في المهجر ولكن عينيه وقلبه دايما باصين للوراء ناحية مصر ، وده دايما بيزور مصر في إجازاته وبياكل فول وبامية وقلقاس ، كلما سنحت الفرصة . . وده طبعا نفسه يعيش في مصر ولكنه اتعود علي مستوي من الحرية ، المواطنة ، سيادة القانون ، احترام حقوق الإنسان ، الفصل التام بين الدين والدولة ، الديمقراطية ، توالي الحكام والحكومات ، الاعتياد علي رؤية الرئيس السابق بل والأسبق عايشين - أي والله - ولا يحاول أحد اغتيالهم أو اعتقالهم أو حتي نفيهم . كل هذا في إطار من الولع بالتعددية . بمعني أنك فرخة بكشك حتي لو رأيك أو فكرك أو منتجك مختلف .

أما النوع الثاني من المهاجرين - وهو الأقلية - فهو المهاجر الذي طفشوه من مصر بسبب الدين والملة أو الآراء والمعتقدات . وده غالبا ما ينخرط تماما في المجتمع ويغوص كلية في لجته ، ولا ينظر أبدا للوراء .

الطبيب شريف مليكة - الشاعر والقاص - يقدم بإبداعه جسرا للتواصل بين المهجر والوطن ، ويضيف إلى ديوان الأدب المصري المعاصر صفحات جميلة رائقة ، ندية بالمحبة والتعاطف والمشاركة ، عام رة بالانتماء والحنين والرغبة الجارفة في تقدم الوطن والحلم بمستقبل أفضل له يصبح فيه - كما هو في حلم كل محبيه - جنة الله علي الأرض .

سيبقى الحب سيدي

بقلم : فاروق شوشة

في سبتمبر عام ستة وثمانين تلقيت كتابا صغير الحجم دقيق الملامح يحمل هذا العنوان وعليه اسم الشاعر الكبير نزار قباني وكلمات إهدائه الرقيقة لي . كنت قد قرأت لنزار علي مدار رحلته الشعرية الطويلة ـ خاصة في خواتيم الخمسينيات ومفتتح الستينيات وعلي صفحات مجلة الآداب البيروتية ـ كثيرا من كتاباته النثرية . لم أنس من بينها رسالة بعثها من مدريد ـ وكان وقتها يعمل في اسبانيا عضوا في السلك الدبلوماسي السوري ـ إلى صديقه الدكتور سهيل إدريس رئيس تحرير مجلة الآداب .

فنشرها سهيل علي أنها لوحة قلمية فاتنة بقلم نزار ، وقرأناها نحن ـ شداة الأدب والإبداع في ذلك الحين ـ علي أنها قصيدة بديعة ولكن في قالب نثري ، من قبل أن يشيع ما يسمي الآن بقصيدة النثر . كان في رسالة نزار البديعة موسيقي خفية لا ندري من أين تجيء أو تنهمر ، وايقاع شجي موار لا يتوقف ولا يهدأ ، وأذكر أني علقت عليها لبعض الأصدقاء بأن موهبة نزار في الكتابة النثرية ـ إذا كانت دائما علي هذا القدر من الصفاء والتدفق والفنية والتجلي فإنها ـ بالقطع ـ تفوق موهبة نزار الشعرية ، التي صنعت له صورته في العالم الأدبي ، باسطا ظله علي النصف الثاني من القرن العشرين ، باعتباره شاعرا جريئا ، مختلفا ، خارجا علي الأعراف والتقاليد ، في مرحلتيه اللتين اهتم فيهما بالمرأة ـ في مجتمعه السوري الشديد المحافظة حتي الاختناق في أربعينيات القرن ـ ثم بالهم القومي علي مدار الوطن العربي كله ، وشاعرا صاحب لغة شعرية تغري ببساطتها وشفافيتها وعفويتها ، حاول كثيرون أن يلبسوها ، وأن يجعلوها كساء لقصائدهم ولكن هيهات !

كان نزار يقول في رسالته إلى سهيل إدريس:

في اسبانيا لم أحتج إلى دواة

ولا إلى قلم أسقي به عطش الورق

عيون مورينا روسالينا ترشني بالشوق الأسود

فيا مطر العيون السود ، سألتك لا تنقطع

. . . .

الرقص الاسباني هو الرقص الوحيد الذي يستحيل فيه الإصبع إلى فم

المواعيد العطشي . .

النداء الساخن . .

كل ذلك يقال بنقرة إصبع

بشهقة إصبع
أنا في محلي
وسيمفونية الأصابع هناك في محلها
وتنورة أندلسية ، سرقت زهر الأندلس كله

ولم تسأل
وسرقت زهر حياتي ولم تسأل
فيا مطر العيون السود ، سألتك لا تنقطع !

كنا نقرأ هذه الكلمات لنزار وغيرها ونقول: الله . . الله هذا هو الشعر ، هذا هو الوجد الذي يشعل جمر الكلمات ، وتنسكب كيمياؤه في لغة شديدة النقاء والأسر ، عميقة النفاذ والتأثير ، لا لبس فيها ولا إيهام ، لا غموض ولا تعقيد ولا التواء ، تغري ببساطتها ، لكن الأغبياء فقط هم الذين يظنون أنهم يحسنون مثلها ، الغريب أن نزار نفسه لم يدع أن هذا شعر ، ولم يصف رئيس تحرير الآداب هذا الكلام بأنه شعر ، ولم يضع عنوانا عليه سوي أنه رسالة من نزار قباني . وكان المعني واحدا . فالشاعر والناشر يعرفان جيدا حدود الكلام ، ويحرصان كل الحرص علي التصنيف الحقيقي ، ولا يريدان أبدا إشاعة الفوضي وغش سوق الأدب ، بتسمية شيء علي غير حقيقته وبغير حقيقته .

وحين تصفحت كتاب نزار سيبقي الحب سيدي تذكرت علي الفور رسالته الإسبانية عن مورينا روسالينا راقصة الفلامنكو السوداء العينين .

يستهل نزار كتابه بكلمات لشاعر فرنسا أراجون يقول فيها: لا ثقافة بغير حب ، إن الذي يحبني يخلقني وكلمات للموسيقي جورج موستاكي يقول فيها: الفنانون يعيشون ذكورتهم وأنوثتهم في وقت واحد ، إنهم ينجبون أعمالا رائعة كما تنجب المرأة طفلا . وكلمات لا مير شعراء روسيا بوشكين يقول فيها: أعلن اتحادي بالحرية ، أعلن اتحادي بالآخرين ! وكلمات لجان كوكتو يقول فيها: الفن ليس طريقة معقدة لقول أشياء بسيطة ، بل طريقة بسيطة لقول أشياء معقدة الكتاب بعد ذلك لوحات نثرية ـ شعرية ـ الروح والصياغة علي غرار رسالته الاسبانية . المسافة بينها وبين ابداعه الشعري ليست كبيرة ، فهما ينبعان من معين واحد ، ويمتحان من شاعرية واحدة ، لكن نزار يعطي لكل من اللونين في إبداعه حقه في التجمل والتشكل ولبس ما يلائمه من ملبس لغوي وموسيقي . لا يهدف إلى خلط أو تخليط . فالأمور لديه واضحة والحدود بينة ، وليس بينها مشتبهات . لا ما نع أن تجيء بعض اللوحات شعرا صرفا ، تحمل جوهرها

الموسيقي المنضبط ، لكن النسق العام للكتاب ينفلت من هذه الموسيقي ويتأبي عليها ولا يصطنعها . .

يقول نزار في لوحاته الشعرية :

اصهلي يا فرس الماء الجميلة

اصرخي يا قطة الليل الجميلة

بلليني برذاذ الماء والكحل

فلولاك لكانت هذه الأرض صحاري

بلليني بالأغاني القبرصية

ما تهم الأبجديات ، فأنت الأبجدية

يا التي عشت إلى جانبها العشق ، جنونا وانتحارا

يا التي ساحلها الرملي يرمي لي زهورا ، ونبيذا قبرصيا ، ومحارا

ويقول نزار تحت عنوان الديك

سبق السيف العذل

سبق السيف العذل

غرق المركب في الليل بنا

قبل أن نبدأ في شهر العسل

واستقال الديك من منصبه

تاركا من خلفه

عشرين ديوان غزل

واستقال الليل من عبء الهوي

واستقال الثغر من نار القبل

فلماذا أنت في المسرح يا سيدتي

بعد أن ما ت البطل ؟

ويقول تحت عنوان بروتوكول :

بوسعك أن تجلسي حيث شئت

ولكن . .

حذار بأن تجلسي في مكان القصيدة

صحيح بأني أحبك جدا

ولكنني في سرير الهوي

سأنسي تفاصيل جسمك أنت

وأختار جسم القصيدة !

ويقول نزار في لوحاته النثرية التي يضمها كتابه :

للمرأة التي أحبها

قدمان صغيرتان جدا

تشبهان كلام الأطفال

ولجسدها رائحة سرية جدا

كرائحة الكتابة الممنوعة !

ويقول :

كنت أدخن ما ئة سيجارة في إلى وم

وتوقفت عن الانتحار ببطولة

والآن

أحاول التوقف عن تدخين امرأة واحدة

فلا أستطيع

ويقول تحت عنوان موسيقي

أمطار أوروبا

تعزف سوناتات بيتهوفن

وأمطار الوطن

تعزف جراحات سيد درويش

وأنا بدون تردد

مع هذا الاسكندراني

الذي يضيء في حنجرته قمر الحزن

ومآذن سيدنا الحسين

لقد كان نزار قباني مبدعا كبيرا في شعره وفي نثره ، وكان شاعرا في الحالين ، تنسكب شاعريته علي كلماته ، كما ينسكب المطر علي وجه الدنيا ، فيصهل برق الشتاء ، وتحمل أنثي الربيع .

عبد الوهاب عزام رائداً ومفكراً

بقلم: فاروق شوشه

تحسن الدار المصرية اللبنانية كثيرا في إطار مشروعها التنويري المتعدد الجوانب والتوجهات بنشر هذا الكتاب المتميز عن واحد من الرموز الفكرية والثقافية الكبيرة في حياتنا المعاصرة: الدكتور عبد الوهاب عزام ـ العلامة الرائد في مجال الدراسات الشرقية ـ بقلم أحد اساتذتها الكبار الآن الدكتور السباعي محمد السباعي الأستاذ بالجامعة ، والخبير في مجمع اللغة العربية .

بالاضافة إلى الجهد الاكاديمي والبحثي الضخم الذي قام به الدكتور السباعي في جمع ما دة كتابه وتحليلها وهي في جوهرها مقالات وأبحاث ودراسات حملت الكثير من علم صاحبها الدكتور عزام وأدبه وفكره وجهاده ، ونشرت في العديد من المجلات الأدبية واللغوية في مصر ، وفي بعض الأقطار العربية والإسلامية ، أقول بالإضافة إلى هذا ، فإن الكتاب يزيل كثيرا من طبقات الجحود والنسيان التي علقت بالدكتور عبد الوهاب عزام ، وينصفه بعد سنوات طويلة من الإهمال ، وينقذه من الخلط والوهم الذي يقع فيه كثيرون بينه وبين عبد الرحمن عزام الأمين الأسبق لجامعة الدول العربية ، الذي حظي باهتمام وذكر أوسع لا رتباطه بالعمل العربي والسياسي في مجالات كانت الاضواء تلاحقها في كل يوم ، وتبقي أسماء اصحابها حية في ذاكرة الناس .

والدكتور السباعي صاحب هذا الكتاب الثمين لا يبخل علي الدكتور عزام بما يستحقه من تقدير وتكريم . فهو رائد الدراسات الشرقية الإسلامية ، ورائد لغات الشعوب الإسلامية ، الذي جعل من الأدب العربي ودراسته اساسا ومنطلقا في مناهج دراسة اللغات الفارسية والتركية والأوردية . ثم هو المترجم الرائد عن هذه اللغات إلى العربية ، في مقدمتها ترجماته لشعر إقبال بالعربية الفصيحة المشرقة ، وهو حين يترجم يصدر عن وجدان شاعر مطبوع ، تجلت شاعريته في ديوانه المثاني ، وقد أوشك الدكتور عزام أن يسمي أبياته فيه بالرباعيات جريا علي عادة شعراء الفرس في تسمية أبياتهم الثنائية . كما في رباعيات الخيام ، لكنه عدل عن التسمية ، بعد أن رأي أن للرباعيات في الفارسية والعربية وزنا خاصا ، ونظاما في القافية يحكمها ، مهديا ديوانه إلى والديه اللذين أورثاه ـ كما يقول في تقديمه لديوانه ـ حب الخير ، والخضوع للحق ، والإباء علي الباطل: من وراء السنين أهدي كتابا فيه من حكمة الحياة سطور في مكان به القريب بعيد وزمان به القليل كثير وقد كتب العقاد عن هذه المثاني مثنيا علي أصالة السليقة الصوفية في نفس الشاعر العالم الأديب الذي يقول في واحد منها:

أحسب البدر ساطعا نبع ما ء
فأرجي لديه تطهير ذنبي
وأراه من الأشعة فيضا
أتمني لديه تنوير قلبي

* *

صاح ما اللحن شاجيا ؟ ما الغناء
ما الوغي والضجيج ما الضوضاء ؟
اتساق ووحدة وائتلاف
أو نفار وفرقة وعداء

في الفصل الأول من كتابه يتناول الدكتور السباعي سيرة عبد الوهاب عزام من حيث النشأة والتكوين ، منذ ميلاده في أغسطس عام ١٨٩٤ حتي رحيله في يناير١٩٥٩ ، ويعرض لا لتحاقه - بعد حفظ القرآن الكريم في القرية - بالتعليم الأزهري ، ثم بمدرسة القضاء الشرعي ، ثم حصوله علي ليسانس الآداب من الجامعة المصرية ، وسفره إلى لندن للعمل مستشارا للشئون الدينية ، وإماما للسفارة المصرية . وفي لندن التحق بمدرسة اللغات الشرقية ، وحصل علي الماجستير في الأدب الفارسي ، وكان موضوعها التصوف وفريدالدين العطار ، ثم عاد إلى مصر فتابع دراسته وسجل رسالته للدكتوراه عن شاهنامة الفردوسي أشهر شعراء الملاحم في الأدب الفارسي ليصبح بعد الحصول عليها مدرسا للغات الشرقية في كلية الآداب ، بادئا درجات السلم الجامعي حتي أصبح رئيسا لقسم اللغة العربية ، واللغات الشرقية فعميدا لكلية الآداب يوم كانت العمادة بالانتخاب ، وينتقل للعمل الدبلوماسي فيصبح سفيرا في السعودية ، وباكستان ، ثم سفيرا في السعودية مرة أخري ، واليمن ، حتي أحيل إلى التقاعد عام ١٩٥٦ .

وخلال حياته العلمية الحافلة استاذا بالجامعة ، انتدب مرتين للتدريس في جامعة بغداد ، واختير عضوا بمجمع اللغة العربية في القاهرة ، وعضوا بالمجمع العلمي العربي في دمشق وبغداد وإيران .

ويورد الدكتور السباعي ثبتا بمؤلفات الدكتور عزام وآثاره متمثلة في كتبه : مدخل إلى الشاهنامت العربية للبنداري رسالته للدكتوراه ، التصوف وفريد الدين العطار ، مهد العرب الشوارد أو خطرات عام ، الأوابد - اللمعات - محمد - إقبال - الأدب الفارسي ، بالاشتراك مع تلميذه يحيي الخشاب - التصوف في الشعر الإسلامي - المثاني - أوزان الشعر الفارسي - ذكري أبي الطيب بعد ألف عام - موقع عكاظ - نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية - النفحات - الرحلات - المعتمد بن عباد - الإسلام إلى وم وغدا - التوجيه الأدبي بالاشتراك مع طه حسين وأحمد أمين ومحمد عوض محمد ، بالاضافة إلى ترجماته

العديدة وأهمها : فصول من المثنوي لجلال الدين الرومي - بيام مشرق : لشاعر الهند وباكستان محمد إقبال - اتحاد المسلمين لجلال نوري عن التركية ضرب الكليم لمحمد إقبال - ديوان الأسرار والرموز لمحمد إقبال - إقبال في مسجد قرطبة . فضلا عن مبادراته في تحقيق أعمال بالغة الأهمية ونشرها من بينها الشاهنامة التي نقلها البنداري إلى العربية ، وديوان المتنبي١٩٤٤ ، ومجالس السلطان الغوري١٩٤٤ ، وكليلة ودمنة١٩٤١ ورسائل الصاحب بن عباد١٩٤٧ ، والورقة في أخبار الشعراء١٩٥٣ .

أما أشهر تلاميذ الدكتور عبد الوهاب عزام فهم : الدكتور يحيي الخشاب ، الذي أصبح رئيسا لقسم اللغات الشرقية بكلية الآداب في جامعة القاهرة فعميدا لها ، والدكتور إبراهيم أمين الشواربي الذي رأس قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب في جامعة عين شمس ، والدكتور محمد موسي هنداوي أستاذ اللغة الفارسية في كلية دار العلوم ، ووكيل الكلية ، والدكتور زكي المحاسني ، والدكتور حسين نجيب المصري الذي واصل رسالة الدكتور عزام في ترجمة إقبال إلى العربية فضلا عن ترجمات أخري عديدة . والحديث موصول .

الدكتور عزام : الشاعر المتصوف السياسي

بقلم: فاروق شوشة

في الكتاب الضافي ـــ الذي أنجزه الدكتور السباعي محمد السباعي أستاذ الدراسات الشرقية بالجامعة ونشرته الدار المصرية اللبنانية بعنوان عبد الوهاب عزام رائدا ومفكرا ـــ كشف عن مكانة هذا الرائد والمفكر ، ودوره الكبير في المجالات الاكاديمية والدبلوماسية والعربية والاسلامية ، وحديث مستفيض عن النشأة والتكوين والخلفيات ، وعن دوره في ريادة الدراسات الشرقية ، ومناقشة عدد من القضايا الفكرية ، وموقفه من الدين الإسلامي وماذا يطلب من المسلمين ، الامر الذي يوضح الجهد الضخم الذي قام به الدكتور السباعي في جمع ما دة كتابه ـــ من خلال كتب الدكتور عزام ومقالاته وأبحاثه ـــ وتحليل هذه المادة الزاخرة علما وفكرا وترجمة وإبداعا لجلاء صورة واحد من التنويريين العظام ، شغله ما يشغلنا الآن عن حاضر الاسلام ومستقبله ، وعن نظرة الآخرين إلى ه ، ونظرتنا نحن إلى انفسنا وكأنه ـــ بالعلم والحدس معا ـــ كان يري بعين البصيرة ما نحن مقبلون عليه في العالمين العربي والإسلامي ، وهو الذي عاش وتنقل ورأي والتقي وحاور وشارك متعمقا محللا ، متسائلا عن موقف المسلمين من العصر ، ومدي صلاحيتهم للمشاركة فيه ، وهو يخاطب الرسول الكريم بقوله: يا رسول الله: أين نحن إلى وم من شريعتك ؟ وأين مقامنا من دعوتك ؟ وأين سيرتنا من سيرتك ؟

علمت المسلم أن يكون حرا لا يخيفه جبروت ، ولا يأسره مطمع ، ولا تملكه الاهواء ، ولا ت عبد ه الشهوات ، يسير في الأرض قانونا لا يقهر ، وسنة لا تتغير ، يستمتع بما يمتعه به الحق ، والفتن والشهوات أهون من أن تغريه ، وأحقر من أن تفتنه .

فما بال المسلمين إلى وم تتنازعهم الأهواء فيتذبذبون ؟ وتتجاذبهم الشهوات فيتهافتون ! وما بال هؤلاء المتكالبين تملكهم الأموال فهم عبيدها ، وتفتنهم المناصب فهم صرعاها ؟ قد ملك نفوسهم من الحرص الطمع والنهم والجشع ما لا تملؤه السماوات والأرض ، فذلوا من حيث أرادوا العز ، وافتقروا من حيث ارادوا الغني ، وشقوا من حيث توهموا السعادة ، يا رسول الله: علمت المسلم أن يكون عزيزا لا يذل ، وأبيا لا يخنع ، وموحدا لا يشرك ، ي عبد الله وحده لا شريك له ، والناس من بعد سواسية ليس بعضهم أرباب بعض ، فما بال هؤلاء الاذلاء الخانعين الذين يؤلهون كل قوي ويخضعون لكل جبار ، فما بال المسلم يقعد ويحسب أنه ي عبد ، ويكل ويظن أنه متوكل ، وييأس ويتوهم أنه يقنع ؟

حرقوا كلماتك ، وجهلوا آياتك !

ومن أكثر فصول هذا الكتاب إمتاعا ، الفصل الذي خص به الدكتور السباعي شاعرية ــ عزام ، وهو يتحدث عن ديوانه المثاني ويورد سطورا من المقدمة التي كتبها له عباس محمود العقاد موضحا منزلة عزام في الشعر والتصوف والسياسة ، حيث وصف بالشاعر المتصوف السياسي قائلا: كان أول ما قرأت من شعر الدكتور عزام ديوانا لطيفا جمع بين طائفة من مترجماته للشاعر المتصوف محمد إقبال الملقب بشاعر الإسلام ، وطائفة من مبتكرات عزام في المعاني الصوفية أو المعاني الروحية ، وتشابه النسق في الشعرين لا نهما في العربية من كلام ناظم واحد ، وتشابه الجوان ، ولا أقول تشابه المعنيان ، حتي لقرأت مثنوية لعزام فحسبتها من كلام إقبال ، ولم أصحح هذا السهو إلا بعد مراجعة وتحقيق .

ثم يقول العقاد: لا يتشابه الجوان الروحيان هذا التشابه لا ن الدكتور عزام يعجب بإقبال ويترجم كلامه إلى العربية ، فلا بد من سليقة صوفية في روح شاعرنا العربي توحي إلى ه معانيه وخواطره ، ولاشك أن الاصح من القولين أن هذه السليقة الروحية في نفس عزام هي التي حببت إلى ه اقبالا ومالت به إلى الاعجاب بشعره ، فهذه السابقة هي مصدر الاعجاب بإقبال ، وليس الاعجاب بإقبال مصدرها الأول ومبعثها الأصيل ، ولم يزل هذا الخاطر يثبت عندي ويتمكن كلما قرأت له جديدا من الشعر أو قديما فاتني أن اقرأه في حينه ، ثم قرأت هذه المثاني وفي ذهني هذا الخاطر فلم يزل يثبت كذلك ويتمكن كلما تتبعت ابياتها وموضوعاتها ، حتي أكاد أنقل الديوان أو معظمه ، إذا اردت ان اسوق الشواهد علي اصالة السليقة الصوفية في نفس الشاعر العالم الأديب .

يقول عزام في مثانيه:

قيل هذا محلل لا تدعه
قلت: هذا الحلال عندي أثام
هو في شرعة الفقيه حلال
وهو في شرعة القلوب حرام

* *

لا يبالي الاحرار في هذه الأرض
حدود البقاع والاوطان
ومن الناس من يحرر حتي
لا تري نفسه حدود الزمان

* *

قلت للنفس ساء ظني بالناس

وشاهت وجوههم والسمات
قالت : اصقل مرآة نفسك وانظر
رب وجه تشوه المرآة

* *

كم بهذا الأنام أحسنت ظنا
فنهتني عواقب التجريب
ثم عاودت فيهمو حسن ظني
آملا فيهمو صلاح القلوب

* *

إن في النفس بغضة لا ناس
اصلحنهم وحببنهم إلى ا
واغسل الحقد والهوي من فؤادي
واجعلني لكل حق وليا

* *

قيد الحر نفسه برضاه
وأبي في الحياة قيد سواه
وتري ال عبد راضيا كل قيد
غير تقييد نفسه عن هواه

صدور هذا الكتاب الحافل عن الدار المصرية ـــ اللبنانية بقلم الدكتور السباعي محمد السباعي ـــ بعد رحيله بستة واربعين عام ا ـــ رد اعتبار لهذا الرائد والمفكر ، وإزاحة لطبقات من التنكر والاهمال والنسيان عن قيمة كبري ، وقامة شامخة .

قصيدة لكل زمان

بقلم: فاروق شوشة

هـذه قـصيدة لكـل زمـان أبـدعها المتـنبي شـاعر العربيـة الكـبير ، وأودعهـا خلاصـة رؤيتـه للحيـاة ، والـزمن والنـاس وهـي خلاصـة تقطـر مـرارة ، وأسـي ، ومعانـاة . لكنـه الأسـي الـذي لا يـؤدي إلى إلى أس ، ولا يفـضي إلى الـشعور بعدميـة الحيـاة ، أو الاستـسلام إلى المـوت . والمتـنبي الحكـيم لا يطلعنـا في شـعره ـ عـادة ـ علـي التفاصـيل الـتي أوصـلته إلى منطـق الحكمـة ، وذروة التأمـل . بـل هـو يتجـه إلى الـنفس الإنـسانية مباشـرة ، يباغتهـا ويوقظها ويعريها ، مقدما صدمته الكاشفة ، وطعنته النافذة إلى الصميم .

وديـوان المتـنبي يحـدثنا في هوامـشه أن القـصيدة مـن إبـداعات المتـنبي وهـو في مـصر ، مستوحـشا ومتوحـدا ؟ بعـد أن يـئس مـن وعـود كـافور وتـسويفه ، وبـدأ يقلـب النظـر والـرأي في الحـال الـتي أصـبح عليهـا بعـد أن ركـب خيـل الأمـاني ، وامتطـي صـهوات الأحـلام ، وظـن أن المجـد الـذي يخايلـه قـاب قوسين منـه ، وهـو الـذي ضـيع أغلـي سـنوات العمـر ، مطـاردا سـرابا خادعـا ، ومنتظـرا أمـلا لا يتحقـق ، بحثـا عـن عـرش زائـف ، هـو عـرش الحكـم والولايـة . وهـو لا يـري عـرش الـشعر الأعظـم ، الـذي أجلـسته عليـه عبقريتـه الـشعرية ، وسـعي العـرش إلى ه مـن دون كـل شـعراء زمانـه الكبـار ، ولـو تحقـق لـه عـرش الولاية ، لخسر الشعر شاعره الخالد ، وقصائده التي تخاطب كل زمان .

يقول المتنبي في قصيدته التي لم ينشدها بين يدي كافور ، ولم يذكره فيها ، فلم يقيدها بزمن أو حادثة :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا
وعناهم من شأنه ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منه
وإن سر بعضهم أحيانا

ربما تحسن الصنيع لياليه
ولكن تكدر الإحسانا
وكأنا لم نرض فينا بريب الدهر
حتي أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناة

ركب المرء في القناة سنانا

ومراد النفوس أصغر من أن
نتعادي فيه وأن نتفاني
غير أن الفتي يلاقي المنايا
كالحات ، ولا يلاقي الهوانا

ولو ان الحياة تبقي لحي
لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بد
فمن العجز أن تكون جبانا
كل ما لم يكن من الصعب في الأنفس
سهل فيها إذا هو كانا !

هل كان يأس المتنبي من عطاء كافور ـ الذي لم يتحقق وراء هذه القصيدة الشجية الأسيانة وهل أوصله تقليبه للأمر علي وجوهه إلى أن مراد النفوس ، وكل ما تطمح إلى ه أو تطمع فيه ، هو في حقيقته و جوهره أصغر من أن يقتتل الناس من أجله ويتفانوا ، ولعله كان ـ وقتها ـ يدير في رأسه خطة الخروج من مصر والفرار من كافور ، والنجاة من عيونه وجنوده .

الأمر إذن يتطلب شجاعة وقدرة علي المغامرة . وهو علي استعداد لملاقاة الموت وجها لوجه ، لكنه يأبي الهوان والذل ، الموت إذن أحب إلى ه من عيش غير كريم ، ومن حياة لا تلائم كبرياءه وعزة نفسه . إن ما نتصوره صعبا أو يتطلب قدرة خارقة ، يصبح سهلا جدا وميسورا بعد حدوثه ، ويدهشنا أن الوهم كان يصوره علي هذه الدرجة من الصعوبة والاستحالة بينما هو بعد أن تمتلئ به النفوس تتهيأ لملاقاته ثم تعمل لتحقيقه ـ لم يكن مستحقا لهذا الموقف المحاذر المتحسب .

لكن عبقرية المتنبي لم تجعل هذه القصيدة النادرة المثال في شعره حبيسة العلاقة بين المتنبي وكافور ، ولا سجينة فضاء تلك السنوات التي جعلته يراجع موقفه ، ويصل إلى قراره بترك كافور والخروج من مصر . فقد أصبحت صرخة شعرية إنسانية لكل زمان ، وطلقة في وجه الجبن والهوان والتردد والذلة ، من منطلق صادق وواضح وبسيط جدا ، يلمسه الجميع ، هو أن الموت حق علي الجميع ، فلماذا الخوف إذن من ملاقاته والهروب من مواجهته ؟

ولو أن الحياة دائمة والخلود فيها متاح لكان الشجعان أضلنا عقلا ، وأكثرنا طيشا ونزقا . وهو المعني الذي تردد كثيرا في شعر الشعراء الصعاليك جلاء لحقيقة موقفهم الخارق الشجاعة في مواجهة الموت ، والذي لخصه أميرهم عروة بن الورد في قوله :

فإن فاز سهم للمنية ، لم أكن
جزوعا ، وهل عن ذاك من متأخر
وصوره طرفة بن ال عبد في معلقته البديعة وهو يقول:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغي
وأن أشهد اللذات: هل أنت مخلدي ؟
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي
فدعني أبادرها بما ملكت يدي !

والذي أبقي قصيدة المتنبي حية فينا حتي إلى وم تخاطبنا بوصفها من شعر هذا الزمان وكل زمان ، أنها بفضل صياغتها الشعرية المحكمة قبضت علي أحد مفاتيح النفس الإنسانية المهمة ، في مواجهتها للموت ، وانتصارها عليه بوعيها أنه حقيقة لا إنكار لها وقضاء لا مفر منه ، فلم الخوف والخشية ، والتردد والجبن ، والرضا بالهوان إذن ؟

وإذا لم يكن من الموت بد
فمن العجز أن تكون جبانا

كلمات باقيات للمتنبي أقدمها إلى كثيرين يدفعهم الجبن إلى العجز ، في مواجهة صنوف شتي من البطلان والتخلف والفساد ، وتغيب عنهم عظة الحياة وحكمتها ، المتمثلة في أنه لا يوجد علي وجه الأرض - من سراب الأماني المخادع - ما يستحق العداء والاقتتال من أجله ، لا ن الذي يستحق هو صون الكرامة والشرف ، وإعلاء راية العزة والكبرياء ، واستقبال القضاء حين يصبح محتوما - بمواجهة الشجاع ، لا بهوان العاجز الجبان .

سؤال الشعر

بقلم: فاروق شوشة

أتيحت لي ـــ بدعوة كريمة من المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت ـــ المشاركة في الحلقة النقاشية التي أقيمت ـــ في الأسبوع الماضي ـــ في إطار ندوة الشعر العربي الحديث: من أين ؟ كيف ؟ إلى أين ؟ . وقد استأذنت في الكلام عن سؤال الشعر بوصفه نصا جماليا ، يتشكل وينطلق ويحلق في فضاء . هو إذن ليس منبت الصلة بحيث نتصور الفضاء فراغا ، وإنما هو مشتبك بحركة الواقع وجدليته ومتغيراته .

في هذه العبارة الأخيرة تظل مشكلة حداثة المجتمع أو تحديث المجتمعات العربية ـ التي تتزاحم وتتجاور وتصطرع فيها عصور وقرون مختلفة بكل ميراثها ـــ مشكلة ضاغطة وحاكمة . فالأصوات الصادرة عن المجتمع ـــ في أبعادها الثقافية والحضارية والمعرفية والجمالية ـــ تعزف نشازا ، وتتقلص وتنكمش وتتأزم بصورة حادة: سلفيا وحداثيا ، ما ضويا وراهنيا ومستقبليا . وفي قلب هذا التأزم تهب زوابع عاتية تتمثل في الإلحاح علي تناول القضايا إلى ومية والمصيرية ، والمطالبة ـــ لمن يبدعون ـــ بالكتابة المستمرة حتي يضمنوا شرط الحياة والبقاء والاستمرار . فالتوقف ـــ أمدا قصيرا أو طويلا ـــ لا يعني بالنسبة لهذه المجتمعات لونا من المراجعة والاحتشاد أو العزوف والتغيير ، أو البحث عن رؤي ومنصات انطلاق جديدة ، بل هو يعني الموت والخروج من التاريخ .

وهنا تبرز مشكلة المتلقي المأزوم بهموم الواقع ومسئولياته الجسام ، عندما يجد خلاصه في مؤازرة الخطابية والمباشرة ، وعندما تطربه فتنة السياسي والراهن ، مسقطا الجماليات المتعارفة . فهو يري أن الشعر دور ، وأن الشعر التزام دائم ، وصوت لا يتوقف عن العزف أو النشيج ، تعبيرا عن وجوده الحي وعن فاعليته .

كما تبرز مشكلة الناقد ـــ في اغترابه الثقافي والمعرفي ـــ بعد أن امتلأ بمعطيات فكر فلسفي ونقدي وصلته ثماره دون أن يتأمل مكوناته وانساق تعبيره عن إبداعاته في بيئاته . وهو في الأغلب الأعم يكتب لغيره من النقاد ، ليطلعهم علي سبقه في المعرفة والاكتشاف . وإذا تعامل مع النص الشعري العربي فهو يريد وضعه في الأوعية والقوالب والطرائق التي أخذها عن الآخرين . أي تطبيق الأجنبي علي العربي ، الأمر الذي أدي ـ ويؤدي ـ إلى فشل التعامل مع النص الشعري عند كثير من نقاد الحداثة . كما أن تفجر الشعرية العربية الجديدة ، وانداح موجاتها المتتالية في المغامرة والتجريب جعل كثيرا من النقاد والدارسين ـــ المزودين بالوعي المتاح من خلال الثقافة التراثية ـــ عاجزين عن المتابعة والتحليل والاستشراف . فالإبداع المتلاحق يتطلب ركضا نقديا ووعيا معرفيا مغايرا . إن الصناعة القديمة والبضاعة القديمة لم تعد تسعف ـــ من يحملونها ويتمثلونها ـــ بالوعي

الكاشف أو الأدوات المناسبة . الموروث البلاغي الجمالي كله يتطلب النظر إلى ه باعتباره تاريخا لا متنا ، وهامشا يرجع إلى ه للشرح والتفسير ، لا باعتباره ذخيرة عصرية يمكن أن تنقع الصدي أو تبل الأوام .

ثم هناك المتلقي الذي تربي عبر عقود وأجيال وعصور طويلة علي سلطة الموروث ، ثم فوجئ في مدي نصف قرن واحد بأنه لا بد أن ينقلب علي ذاته وذائقته مرتين ، مرة مع الشعر الحر ، وثانية مع قصيدة النثر .

والسائد من نمط هذا المتلقي الآن نموذج يحمل هشاشته اللغوية في مواجهة فن لغوي في الأساس ، ولا يمكن التعامل مع استعارته الكبرى إلا من خلال أبنيتها وأنساقها اللغوية والمعرفية . وساعدت أجهزة التوصيل في المجتمعات العربية: الصحافة والإذاعة والتليفزيون علي إشاعة التدني والمبتذل ، والترويج لما ليس شعرا في جوهره ، وتكريس النموذج الذي يمكن أن يكون غيبوبة متوهمة ـــ خاصة في الإذاعة والتليفزيون ـــ بتحويله إلى هدهدة ما قبل النوم ، ونفي ما يحمل وعيا كاشفا متعلقا ، أو رؤي إنسانية وكونية صادمة . الأمر الذي أدي إلى تدجين الشعر ، وإهاضة جناحيه ، وقصقصة ريشه ، وتحويله ـــ عند المتلقي المحتجز خلف حاجز الأمية الهجائية من ناحية ، والأمية المعرفية من ناحية أخري ، إلى وسيلة للاسترخاء ، أو العزوف عن الحياة .

هل أدعوكم إلى تأمل حال مناهجنا التعليمية في المدرسة ، وفي كثير من الجامعات ، وجنايتها علي مفهوم الشعرية ، وعملها علي تكريس المفاهيم التقليدية المكرورة في النظرة الجمالية إلى الشعر . حيث الاهتمام بالمعني لا بالدلالة ، أو الدلالات الملتبسة والمراوغة . وحيث يصبح الاهتمام بالمعني اهتماما بالساكن والثابت والمؤطر ، والعجز عن اكتشاف تجليات الدلالة ، إفقارا للنص ، وعزلا له عن سياقاته ، وتقديسا للنموذج ، وإعلاء من شأن الموروث باستمرار .

أنتقل إلى النص الشعري الراهن . لا تحدث عما أسميه زحام النصوص وفوضاها . بعدأن أفسح مناخ التجريب والمغامرة مساحة لفاقدي الوعي والموهبة . وجرأ من لا يمتلك بعض لسان علي الاقتحام والتطاول . هذا الدخيل الشائه أضر بالتيار الرئيسي في حركة الشعرية المعاصرة علي مستوي قصيدة التفعيلة وقصيدة النثر . هذا الزحام والفوضي والاختلاط ، جاء بعد زمن طويل من سيطرة النص الواحد وتحكمه في الذائقة العربية منذ كان الكلام عن عمود الشعر ، ثم عن الحداثة والمحدثين في العصرالعباسي . وظل هذا التحكم قائما ـــ من خلال تجليات وصيغ شتي ـــ حتي منتصف القرن العشرين . وظلت أصداؤه وانعكاساته تتردد وتتماهي في نصوص شتي . وها نحن نري الآن ـــ من بين من يخشون الغلو في التجريب والمغامرة والوصول إلى درجة الخيط الرفيع بين القصيدة الحديثة وجماليات الشعر العربي ، وهتك الدلالة اللغوية ـــ من يدعون إلى عودة النص الواحد

بشرعيته المقدسة . وهم — في حقيقة الأمر ومن موقع رد الفعل المبالغ فيه — يريدون عودة اللغة إلى المعجم وإلي القاموس ، بعد أن جاهد المبدعون طويلا في إخراجها منهما ، وتذويبها في نسيج الحياة وفضاء الدلالات .

تبقي قضية القضايا بالنسبة للنص الشعري الراهن . وهي علاقة الذائقة العربية بالإيقاع . الإيقاع في رأيي شئ أكبر من الوزن ومن العروض . والوزن الشعري صورة أو حالة من حالات الإيقاع . لكن ، يبقي أن يقدم لنا أصحاب الحديث عن الموسيقي الداخلية والإيقاع الداخلي مرجعية يتم علي أساسها التمييز بين الجوهري الأصيل والزائف المدعي . إن النص الراهن يؤدي إلى خلخلة بنية إيقاعية تشكلت وتطورت عبر عصور القصيدة . وقد تعددت درجات هذه الخلخلة بحسب القدرة علي الهضم والتمثل والتجاوز ، أو فقدان القدرة علي التغيير والاختلاف . الأمر الذي جعل البعض ينظر إلى هذا النص باعتباره نصا ناقصا ، بينما يقدمه المتحمسون له باعتباره البديل الراهن والمستقبلي الوحيد . وهو أمر تنفيه طبيعة الإبداع التي تتأبي علي القوانين والتنبؤات ، والتي تدهش بخروجها علي المألوف والمتوقع ، والتي تري دائما نصوصا متعددة لشعر متعدد ، لا نصا واحدا لشعر مكرور .

إن الخطر علي الشعر الآن لا يجئ من خارجه ، أي من الفضاءات المحيطة به ، أو من علائقه الاجتماعية أو المجتمعية ، أو وضعه في مقارنة مع أجناس أدبية أخري ، وإنما هو خطر يجئ من داخله ، أي من أصحابه الذين بخسوه حقه من الاهتمام والتبجيل ، باعتباره التعبير الجمالي الأشمل والأكمل عن الإنسان ، ولم يحلقوا إلى مدي فضائه الكوني الذي لا يسمح بالتحليق فيه لغير من استصفاهم هذا الفن الجميل ، فتخلصوا من أوزار التبعية في كل صورها (الإيديولوجية والسياسية والدينية وغيرها) واستطاعوا الانعتاق نحو المجهول ، ليبدعوا الشعر الأصفي ، الشعر الشعر ، وهذا هو سؤال الشعر .

محمود حسن إسماعيل في " آثاره المجهولة "

بقلم: فاروق شوشة

يتيح لنا ظهور هذا الكتاب الجديد' محمود حسن إسماعيل: نثرياته ، غنائياته وأشعاره المجهولة' من إعداد كريمته الإعلامية القديرة سلوان محمود والإذاعي الأديب عزت سعد الدين يتيح لنا نافذة نطل منها علي العالم الرحب لهذا الشاعر الكبير من خلال أوراقه التي لم تجمع من قبل ووجوهه الإبداعية- غير المعروفة- في كتاباته القصصية وخواطره الأدبية والنقدية ومساجلاته مع واقع الحياة الأدبية والثقافية في زمانه ، تأثرا وحضورا ومشاركة .

ولأن جوهر هذا الكتاب يتمثل في كتابات الشاعر وإبداعاته الأولي- من بينها ما نشره في الصحافة الأدبية وهو في مرحلة التعليم الجامعي- فهو يتيح للباحث عن الجذور والمكونات والتخوم الأولي ما دة خصبة كما يلقي الضوء علي الاهتمامات الأولي لمبدع في حجم محمود حسن إسماعيل كان متابعا ومنغمسا في القضايا التي أثارها عصر التحول في الحياة الشعرية والأدبية بعد رحيل أحمد شوقي (١٩٣٢) مؤرخا لهذا الرحيل بأنه التاريخ الذي شهد هبوط شاعرنا لا ول مرة من صعيد مصر قادما إلى القاهرة ومشاركا في جنازة شوقي بالمعنيين: المادي والمعنوي معا ومشغولا بما أطلق عليه أدب الصنعة وأدب الإلهام وترجمات عمر الخيام وفلسفة السرقة الأدبية وحال الشعر بعد رحيل حافظ ثم شوقي وتأكيده المستمر لعلاقته الحميمة مع الطبيعة وهو ابن قرية' النخيلة' إحدي قري محافظة أسيوط يري نفسه دوما غارسا ومنتظرا ومتوقعا للثمار مت عبد ا في محراب هذا الكون الحافل بالأسرار والرموز مصطنعا لا بداعه لغة شعرية تميز بها عن كل شعراء عصره وما يزال منفتحا علي الوجود القاهري-ـ بكل صخبه وتياراته المصطرعة ـ بالقدر الذي تسمح به صعيديته المتشبثة بالقيم والأعراف وميراث الأرض والزمن . وهو يقول عن نفسه في السطور التي التقطتها بذكاء كريمته سلوان:' أذكر أني كنت أغرس البذور بيدي أحيانا في تراب الحقل وأعيش بجوارها أتابع نماءها حتي تظهر ويستوي عودها وتتهيأ للحصاد فأشارك في حصادها وأزاملها حتي تعود إلى البيت غلة أو ثمرة' .

وحين يرسم الشاعر بقلمه صورة حقيقية لذاته وطبيعته وبداياته يقول:' أنا شاعر وإني لا شهد ان الله أعطاني قيثارة كما أعطي الطير حنجرة ولذلك فأنا أغني وأنا مشبوب العاطفة ولو لم أكن شاعرا ولو لم تهبني السماء طبيعة الشاعر وإشعاع موهبته وفطرة موسيقاه ولو لم تمكني ظروف النشأة من التثقيف العربي العميق الذي يتيح لي الإفصاح والتعبير عما أحس بلفظ عربي هو لغتي ولغة امتي العربية لكنت أبكم اللسان

وشاعرا لا أثر له يتحرك علي تراب الأكواخ مع عبيد الأرض بإحساس شاعر ولسان جاهل' .

من هنا فإن ديوانه الأول' أغاني الكوخ' الذي أبدعه وهو في القاهرة بعد مغادرته للقرية وقبل انتهاء دراسته العليا يمثل بالنسبة له كما يقول هو: ' رفضا لعالم القرية الذي يخيم عليه الرقة والمسكنة والتجبر والمغايرة الشنيعة بين إنسان وآخر في كل شئ والتناقض بين طرفي الإنسان: إنسان في الهلاك من الذل والحرمان والآخر يهلك من البطنة والترف والاستعلاء الجائر . ومن خلال هذا المناخ تولدت أحاسيسي الأولي نحو فلسفة الوجود وموقفي الملتزم- بطبيعته- بفلسفتي الخاصة وهي فلسفة ترفض- أول ما ترفض- رقة الوجود والمسافات المضروبة بين الناس بدون عدل وتقدس الحرية التي لا تشكل قيدا علي نفسها' .

والشعراء الحقيقيون- في رأيه-' فلاسفة وغزاة مجهول أعطاهم الله طاقة الاندفاع بلا توقع ولا ترتيب ولا تشكيل ولا امتصاص من المقروءات ولا تسلل من رفات الأنغام التي سمعتها البشرية لطرحها من جديد علي الفن . فهم غزاة لا عماق نفوسهم وآفاق عصرهم لا يقفون أبدا ولا يلتفتون إلى الوراء ليعيدوا طرح تجارب من سبقهم ولا يتخيلونها للمحاكاة والتقليد والتوليد دون أن ينفردوا بإبداعات جديدة لن توافيهم إلهاماتها بغير الحركة النفسية الدائمة الصرير رغم صرير الدنيا من حولهم تجارب ذاتية جديدة ورؤية جديدة يضرمها الإحساس وتنقلها طاقة الإلهام إلى مساحة الفن جديدة نقية العبور من هنا يأتي الشعر' .

في هذا الكتاب الجديد الجميل مساحة واسعة للبوح بوح الشاعر عن نفسه وعن شعره . وموعد جديد مع لغة محمود حسن إسماعيل وهي في شعره كما هي في نثره سمت واحد متميز وتوهج بالدلالات والظلال وبحث دائم عن الكلمة الجديدة والتعبير غير المكرور . وفيه أيضا دعوة إلى دارسي محمود حسن إسماعيل وقرائه ومريديه- وهم كثيرون- لتأمله مبدعا قصصيا وناقدا لشعر غيره من أبناء جيله ومشتبكا مع واقعه الأدبي والثقافي في معاركه وقضاياه .

وشكرا لسلوان محمود وعزت سعد الدين علي هذه الإضافة الثرية الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب .

محمود حسن إسماعيل في ذكراه الثلاثين

بقلم : فاروق شوشة

عندما أبدع الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل قصيدته سواقي أبريل لا أظن أنه كان يدور بخلده أو بخلد أحد من قرائه أنه يتنبأ ـ على عادة الشعراء ـ بأن رحيله سيكون في شهر أبريل . لكني ، وأنا أعيد قراءته بعد رحيله ـ توقفت عند أبياته :

أبريل دير العاشقين من قديم الزمن

سمعته يتلو المزامير فهل يسمعني

دب الهوي في بدني فهل نزعت كفني ؟

مدركا أن بعض الشعراء ، بما يمتلكونه من استشعار كوني وحس استثنائي يوهبون ـ كالطير ـ معرفة اتجاه الريح ، واستشفاف وقوع المصائر . وعندما صدقت النبوءة ورحل محمود حسن إسماعيل ـ في مثل هذا الأسبوع من عام ١٩٧٧ ، غريبا في الكويت ، بعيدا عن الوطن وصحبة الأهل والأصدقاء ، مضطرا إلى أن يعمل ـ بعد إحالته إلى المعاش دون أدنى صورة من صور التكريم التي ينالها من لا يصلون إلى عشر معشار قدره ـ خبيرا في إدارة بحوث المناهج في وزارة التربية الكويتية ، يراجع النصوص المدرسية المقررة ، ويبدي رأيه فيها ، ويقترح إضافة ما يراه ، ويمارس مهنة الرق من جديد ، والرق هو المصطلح الذي كان يطلق علي الوظيفة ، بما تتضمنه من خضوع وطاعة وتنازلات .

ولعله كان في إطلالته الأخيرة علي الوطن ، في إجازاته الصيفية من العمل في الكويت ، كان يقترب من البوح الممتزج بالشكوي وهو يتساءل في وقت كان صديقه يوسف السباعي رئيسا لمجلس إدارة الأهرام: ألا يستحق مثلي أن يضاف إلى كوكبة العاملين في الأهرام من كبار المفكرين والأدباء ؟ ألا ينقص هذه الكوكبة شاعر كبير ، يكون الأهرام منبرا لشاعريته ، وتكون شاعريته وساما علي صدر الأهرام ؟ إلى س مؤسفا أن يضطر مثلي في هذه السن المتقدمة ، إلى العمل بعيدا عن الوطن ، للوفاء باحتياجات الأسرة والأبناء ومطالبهم ، والمعاش الذي أتقاضاه من الدولة قروش معدودة ؟

هذه النهاية لا تتفق ـ في أية صورة من صور الخيال ـ مع البداية الساطعة لمحمود حسن إسماعيل في سماء الشعر العربي ، المتمثلة في صدور ديوانه الأول أغاني الكوخ في مستهل عام ١٩٣٣ ، للمرة الأولي في تاريخ الشعر يصبح الكوخ ـ وليس القصر ـ عنوانا لديوان شعري ، رامزا إلى اختلاف التوجه ، وتغيير مسار الانتماء والدعوة الحارة إلى أفق شعري مغاير ، يكون محوره الأرض والفلاح والقرية والمحراث والشادوف والنورج

والساقية والغراب (راهب النخيل) وصميم الحياة إلى ومية الواقعية ، الغارقة في شظف العيش والمعاناة الطاحنة ، في قلب صعيد مصر . هذا التوجه الشعري الجديد جاء مكتسبا عالمه الشعري الكامل من اللغة والصور والمعجم الشعري وبناء القصيدة والموسيقي الشعرية ، هذا العالم الذي جرف في طريقه كثيرا من صور الشعر الزائف ، وأحدث رجته العنيفة في وجدان فوزي العنتيل صاحب ديوان عبير الأرض ، الذي وجد الأرض ممهدة للغته الشعرية وعناقه الحميم لقريته في صعيد مصر بدوره وكان الفضل لمحمود حسن إسماعيل في ريادة الاتجاه الذي نفذت رجته إلى وجدان محمد عفيفي مطر وأبهاء عالمه الشعري لغة وصورا وظلالا وتجليات ورقي شعرية وزمزمات وهينمات ، وقد تحدث هو باستفاضة - لم يلتفت إلى ها بكل أسف بعض نقاد الشعر الذين لا علاقة لهم بفن الشعر - سواء في سيرته البديعة أوائل زيارات الدهشة أو كتاباته الأخري عن التأثير الجارف لشعر محمود حسن إسماعيل فيه وفي سنواته الباكرة مع الشعر .

وعلي مدار عقود من الزمان كان الفرسان الثلاثة : إبراهيم ناجي وعلي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل هم مدار الكلام بين النقاد والدارسين ، قبل أن تتفجر قصيدة الشعر الجديد ، قاذفة بأسماء شعرية بدأت تتسع لها الساحة الشعرية بالتدريج . وكنت أتابع عن كثب حماس أنور المعداوي لشعر علي محمود طه ، واهتمام الدكتور عبد القادر القط بشعر ناجي ، والتفات محمد مندور إلى شعر محمود حسن إسماعيل وتسميته له بوحش الشعر ، ومن قبل مندور كانت هناك شهادات البياتي ونازك الملائكة والسياب عن شعره . ثم تغير المناخ الشعري وتغيرت الأذواق ، وإذا بالدكتور عبد القادر القط يفاجئنا - وهو مقرر للجنة الشعر بالمجلس الأعلي للثقافة - في واحد من احتفالاتنا بذكري محمود حسن إسماعيل ، أنه آن أوان القول إنه أشعر الثلاثة ، وأن ما يتبقي من شعره للتاريخ والذاكرة الشعرية يفوق بكثير شعر ناجي وعلي محمود طه ، وأن اكتشافاته واقتحاماته والمجالات الشعرية التي حلق في فضائها عاطفيا وإنسانيا وكونيا تفوق في أصالتها وجرأتها وتأثيرها نظائرها عند رفيقيه ، وأن لغته الشعرية - بصفة خاصة - ستبقي شاهدا ودليلا موحيا علي عظمة التفرد وسطوع التمايز وتحقق الهوية والشعرية ، وأنه شاعر كوني بقدر ما هو شاعر إنساني النزعة ، لم تشغله ذات نرجسية ، أو اهتمامات صالونية عابرة ، أو وقوع علي فتات ما يمتليء به المجتمع من إغراءات ومباذل فكانت عصمته لشعره من وهم التجارب والمواقف الصغري صدي لعصمته لنفسه ووجدانه وحياته ، من التدني أو التهالك أو مسايرة كل ما يبرق وليس في حقيقته ذهبا !

في الـذكري الـثلاثين لمحمـود حـسن إسماعيـل ، نتـذكر الـشعر الحقيقـي ، والـشاعر الحقيقـي صـاحب الـدور ، ونتـذكر الـشاعر الاسـتثنائي الـذي لم ينخـرط في الـسياق العـام ، ولم يضع تمايزه في المعادن الخسيسة من الكلام ، ولا في التسكع أمام أبو اب الرغام .

قاسم حداد الذي أيقظته الساحرة

بقلم : فاروق شوشة

هذه مجموعة شعرية فريدة للشاعر البحريني الكبير قاسم حداد ، أتيح لها أن تظهر باللغتين العربية والإنجليزية في وقت واحد ، وبين دفتي كتاب واحد يحمل هذا العنوان اللافت: أيقظتني الساحرة . قام بالترجمة إلى الإنجليزية محمد الخزاعي وراجعها كمال أبو ديب ، وصدرت ضمن منشورات كتاب البحرين الثقافية .

وقاسم حداد ، أبرز الأصوات الشعرية في البحرين ، وأكثرها حضورا وتوهجا ، يقف الآن علي رفرف شعري تعهدت له إصداراته المتتابعة منذ عام ١٩٧٠ حتي إلى وم: البشارة ، خروج رأس الحسين من المدن الخائنة ، الدم الثاني ، قلب الحب ، القيامة ، شظايا ، انتماءات ، النهروان ، الجواشن (بالاشتراك) ، يمشي محفورا بالوعول ، عزلة الملكات ، نقد الأمل ، أخبار مجنون ليلي (بالاشتراك) ، لندن / البحرين ، ليس بهذا الشكل ولا بشكل آخر ، له حصة في الولع ، المستحيل الأزرق ، علاج المسافة ، ورشة الأمل . ولا يزال ابن المحرق - (عاصمة البحرين القديمة) وذاكرتها الحية المحتشدة - يغترف من عناصر الواقع وطقوسه الملحمية والأسطورية ، ومن فضاء اندماجه في اللغة والكون والخبرة الشعرية ، ما يضيف إلى رصيده من الإنجاز الشعري ، الشديد المراوغة والتكثيف ، القادر علي بسط خيوطه لمن استطاع اقتحام هذا العالم المستعصي علي المألوف والسطحي والهازل ، المانح أسراره لمن يحترق بنار الشعر المقدسة ، ويقدم قرابين الولاء للفن الأصفي والأنقي .

وهو في مجموعته أيقظتني الساحرة يعطي للتركيز والتكثيف فرصة أكبر ، من خلال مقطوعات قصيرة جدا وشديدة الإحكام ، تذكرنا بقالب الإبجراما ، الذي تنتهي كل وقفة شعرية فيه بسخرية أو مفارقة أو لغة لا ذعة . لكن قاسم حداد يجاوز المألوف من شعر الإبجراما إلى نبرة تشتبه بالحلول الصوفي حين يذكرنا بمواقف النفري ومخاطباته في مقطوعاته البادئة بالكلمة المغوية: أوقفتني . لكن الشاعر يظل نفسه ونسيجه ولغته وطرائقه . هو الحريص ألا يختلط بملامح الآخرين وقسماتهم ، المتأبي علي التصنيف ضمن دائرة ما من شعراء زمانه ، حتي وهو يكتب الشعر الحر حينا وقصيدة النثر أحيانا ويجمع بينهما في حالات نادرة ، مثل هذا الشاعر لا أظنه يعنيه ما يقول المشقشقون بالدراسة والنقد والتأويل ، سيظل سابقا لهم ، ولا يبلغون منه إلا ظله ، بينما ينشغل هو بالمزيد من المغامرة والمعراج والتجريب .

يقول قاسم حداد:

أيقظتني الساحرة
رسمت لي رمزها
وسقتني كأسها
كلما أغفو أراها
عند حرفي ساهرة !

ويقول :
أستحلفك يازرقة النوم
غرري بي
واجعلي الشهوة قنديلا لخطواتي
أججي روحي
وانتصري بها علي جسدي
وخذي بقلبي ناحية العمل
أطلقي البراكين في دمائي
لئلا أغفل
فأجلس إلى طاولة
ويقعدني كرسي
وتنال مني راحة الحكمة

ويقول :
أوقفتني الجنية الزرقاء في الحنان وقالت :
سمعتك قبل أن أراك
ورأيتك قبل أن ألقاك
وعشقتك قبل أن أغشاك
وانتهيت بك قبل مبتداك
وسكرت بك قبل نبيذك
وهذا يكفي .

ويقول :
أوقفتني وقالت لي :
ليس الكلام في الكتب
الكلام في الناس

قلت في البداية إن هذه المجموعة محظوظة لصدورها بالعربية والإنجليزية في وقت واحد وكتاب واحد ، وأيضا لا نها - بإشعاعها الشعري ودلالاتها العميقة - قد أتاحت للفنانين عبد الجبار الغضبان وعباس يوسف عكوفا علي هذا النص ، وتشكيليا في لغة الحفر ، فأقاما معرضا خاصا في مناسبة إلى وم العالمي للشعر - ما رس٢٠٠٤ - بمركز البحرين للفنون ، يحمل عنوان الكتاب . وقد زينت مختارات من أعمالهما التشكيلية الصفحات ، وأتيح للمعرض حضور ساطع من خلال اللوحات الداخلية ، فاغتنت المجموعة - أو النص كما يسميه قاسم حداد - بالرؤي الإبداعية شعرا وتشكيلا ، وفتحت طاقات من الإشراق الروحي ، توحي ولا تنطق ، وتشير ولا تتجسد . .

يقول قاسم حداد:

تفتح لي دفاتر الروح وتقرأ:
أعلنت في الكائنات
وأوصيت بك الحب
لا أنت من الأنبياء
ولا يطالك الخلق
وليس للتأويل باب إلى ك
مكانتك في مكانك
وأرضك في رضوانك
وسلامك في نسيانك
وسماؤك في سلوانك
ومعناك في عنوانك
فلا تصدق ما يقال
لئلا تجهل .

ولأن قاسم حداد لا يملك سلطانا أو نفوذا ، ولايقيم مهرجانات أو احتفالات ، أو يوجه دعوات ويطبع مؤلفات ، فلن يلتفت إلى ه كثيرا سماسرة هذه الأيام ، والمروجون طمعا أو شكرا ، وسيبقي حيث هو في مكانه ، يسمع به غير المنتفعين ، ويسارعون إلى ه ليعرفوه أكثر .

رباعيات جمال توكل

بقلم : فاروق شوشه

ومن لا يعرف ــ من أبناء الإسكندرية ــ جمال توكل ؟ الإذاعي اللامع الذي عاش معهم وبينهم من خلال ميكروفون إذاعة الإسكندرية ستة وعشرين عام ا متصلة (١٩٥٩ ــ١٩٨٥) ومعه كوكبة الإذاعيين: صابر مصطفي ونبيل عاطف وعفاف المعداوي وإسماعيل الشيخة والراحل حسين أبو المكارم ، وكان هو أسبقهم إلى العمل مع أول مدير لا ذاعة الإسكندرية الرائد الإذاعي حافظ عبد الوهاب .

عرفت جمال توكل لا ول مرة ــ قبل أن أراه ــ منذ مطالع الخمسينيات ، كان يبعث بقصص تنشرها له ــ بصفة منتظمة ــ جريدتنا الإقليمية أخبار دمياط التي أنشأها ورأس تحريرها لسنوات طويلة نابغة الصحافة الإقليمية المرحوم زكريا الحزاوي الذي كان فيه الكثير من ذكاء وعبقرية أقرانه من كبار الصحفيين الدمايطة: علي أمين ومصطفي أمين وجلال الدين الحمامصي . وإلي جريدة أخبار دمياط منذ مطالع الخمسينيات يعود الفضل في إفساح المجال لا كون واحدا من كتابها الدائمين وأنا ما زلت طالبا بالمرحلة الثانوية ، وكانت كتاباتي تنشر بتوقيع: الأديب صاحب الإمضاء ، ويجاورني كتاب وأعلام كبار: نقولا يوسف وطاهر أبو فاشا وإيليا حليم حنا وصبري موسي و عبد الوهاب شبانة وسعد الدين عبد الرازق ومحمود عبد الحي ــ الذي كان يرسل بقصائده من الإسكندرية ، وجمال توكل الذي يبعث بقصصه ــ وأظنها كانت مترجمة عن الفرنسية ــ من مدينة طنطا حيث كان يعمل مدرسا للغة الفرنسية .

والتقينا لا ول مرة وجها لوجه ونحن نتسلم العمل في الإذاعة (دفعة عام ١٩٥٨) لنعمل في إدارة المذيعين بإذاعة البرنامج العام ، وكانت الدفعة تضم سهير الحارتي التي سبقتنا إلى العمل في إذاعة البرنامج الثاني (البرنامج الثقافي الآن) وأصبحت من الرائدات فيه ، والمرحومين: صبري سلامة (الذي كان يعمل في قسم الاستماع السياسي) وجمالات الزيادي ، و عبد العال هنيدي: الذي اختير للعمل في إذاعة الإسكندرية مع زميله جمال توكل ، حيث قضي هنالك السنوات الأولي من عمره الإذاعي ، ثم عاد إلى القاهرة ليواصل مشواره الإذاعي حتي رحيله في منتصف التسعينيات .
أما جمال توكل المصري ، السوري الأصل ، المولود في مدينة حمص في عام ١٩٢٥ ، فقد تخرج في كلية الآداب جامعة القاهرة قسم اللغة الفرنسية ، وآثر الإقامة في الإسكندرية منذ انتدب إلى إذاعتها في عام ١٩٥٩ ، ليصبح واحدا من نجومها اللامعين من خلال برنامجه: فكر واكسب ، وبرنامج السهرة (٦٤٢٢٥) وليالي الإسكندرية وشارع الذكريات ، ومديرا لها بعد الرائد والمؤسس حافظ عبد الوهاب . وبقي من أبناء

هــذه الدفعــة اثنــان: حــسين شــاش الــذي كــان قــد ســبقنا إلى العمــل في الأخبــار والــبرامج الـسياسية وقـضي سـنواته الأخـيرة في العمـل الإذاعـي كـبيرا لـمذيعي إذاعـة موسـكو العربيـة ، ونجـاة الـسنباري الـتي سـرعان مـا تركـت العمـل الإذاعـي وسـافرت إلى أمريكـا ثـم أصـبحت أستاذة في الجامعات الأمريكية وهي تقيم هناك حتي الآن .

وتـصلني – مـع البريـد رباعيـات جمـال توكـل الـتي تعيـدني إلى الأيـام الأولـي مـن عملنـا الإذاعـي عـام ١٩٥٩ / ١٩٥٨ قبـل أن تختطفـه إذاعـة الإسـكندرية مـع زميـل الدفعـة عبـد العـال هنيـدي . كانـا ــ منـذ إلى وم الأول ــ نمـوذجين للدماثـة والخلـق الكـريم وخفـة الـروح والظـل ، وكـان جمـال ــ الـذي تعمـل أسـرته الـشامية في التجـارة ــ ابـن نكتـة ، وصـاحب مـزاج فـني راق ، وقفـشات تتـدفق منـه بتلقائيـة وصـفاء نفـس . هـا هـو ذا يفـاجئني الآن برباعياتـه الـتي تنطـق بتمكنـه مـن فنـه وحـسه الـشعبي ووعيـه بالحيـاة وقدرتـه علـي التأمـل في الحيـاة والنـاس . وقـد أسـعدني أن الـدكتور محمـد زكريـا عنـاني الناقـد والمترجـم والأسـتاذ في كليـة الآداب بجامعـة الإسـكندرية ورئـيس هيئـة الفنـون والآداب والعلـوم الاجتماعيـة قـدم لهـا بدراسـة ضـافية عنوانهـا: جمـال في المـبني . . توكـل في المعـني ، بعـد مقدمـة كتبهـا الأسـتاذ كامـل رئـيس جمعيـة أدبـاء الـشعب ــ وجمـال توكـل أحـد أعـضائها ــ . يقـول الـدكتور عنـاني: هـذه الرباعيـات كتبهـا الأسـتاذ جمـال توكـل مـن فـيض روح تـوهج فيهـا الإحـساس وعرفـت كيـف تـصل إلى قلـب الخـاطرة ، لتنقلـها في بـساطة مـا بعـدها بـساطة ، دون أن تفقـد شـيئا مـن عمقهـا . وتـستطيع أن تجـد في هـذه المجموعـة عـشرات الرباعيـات الـتي تـثير الدهـشة وتجمـع مـا بـين اللقطـة الـساخرة والتعـبيرات الرشـيقة الـساحرة ، انظـر لـدي بـساطة وعمق لهذه الرباعية:

لو فضيت البنية / م الحب والحنية
ازاي يعيش السمك / في حوض بلا ميه ؟
وفي كل مرة ينبض بالجديد المعبر الرقيق .
سألت مرة الورد
مالك كدا مخستك
قال لي ما عنديش رد
عشان أنا بلاستيك !

وفي الديوان أشكال أخري مثل الرباعية التالية:
بيقوللي حلوة يابوي
وباقول له لا ياجدع
قال لي أنا اللي بشوف

بعنية مش بعنيك
لولا اختلاف النظر
بارت جميع السلع !

من بين رباعيات هذا الديوان الصغير الأنيق (١٥٨رباعية)
تستوقفني كلمات جمال توكل:
يغلا الدولار ، أرخص أنا
واما الجنيه ينزل هنا
أدفع أنا ليه الفروق
لجيوب تمص في دمنا !

* * *

حلمت أني بقيت فانوس
ودرت أنور عالنفوس
الناس أتاري مش عايزة نوري
الناس بتبحث عن الفلوس !

* * *

اللسان عمال بيفرك
والكلام ما عليهش جمرك
والجمل يفضل يبعبع
بس في الآخر حيبرك

* * *

كان عندي زرعه نشفت وماتت
شافها الجنايني رواها عاشت
الزرعة عندي ، أما الجنايني
مات الجنايني ! من مدة فاتت !

جمال توكل يهدي ديوان رباعياته: إلي كل الذين أحبوني ومازالوا ، وإلي كل الذين أحببتهم ومازلت والحمد لله ، ولا يبقي سوي الحب وإن زلنا وإن زالوا . وهو إهداء يكشف كما يقول كامل حسني في مقدمته عن مشاعر الحب والمؤانسة التي تحملها نفس الشاعر ووجدانه للأهل والأحباب والأصدقاء والناس من حوله:

ومع حبه لهم فهو يداعبهم وينقدهم أيضا ، ويطرح أمامهم أنماطا من عيوبهم ، ويلقي عليهم ـــ كشاعر الحلقة في الأسواق ـــ نصائحه ، من خلال صنوف الحكمة التي يستخلصها من نواتج خبراته وتجاربه . وهي حكم بليغة تضارع في قيمتها ونفاذ أثرها ما سبق أن تركه حكماء الزمان من شعراء البيان الشعبي الذين خلفوا وراءهم هذا الفيض المتراكم والثروة العظيمة من الحكم والأمثال ، التي تجري علي ألسنة الناس للعظة والعبرة . وأسلوب جمال توكل يتميز من خلال هذه الرباعيات بالروح الخفيفة ، الموشاة . بالمرح والفكاهة والسخرية ، التي يتميز بها جمهور شعبنا المصري . فهي مكتوبة بروح مصرية صميمة وخالصة تحسها ـــ دون أن تدري ـــ وهي تتسلل إلى داخلك بدون استئذان لتتواءم مع مزاجك وهواك وهو يستشهد بقول جمال توكل:

قارورة راح تنكسر
لونة راح تنعصر
مايهمش اللي يروح
لكن اللي يترك أثر !

* * *

تركب في أولي مكيفة
واركب في تالتة المقرفة
القطر حيوصلنا في
نفس الميعاد ، للأرصفة !

* * *

متحضرين لا بسين حرير
قال فيه ميعاد ويا الأمير
حضرت نفسك يا أخي . .
علشان معادك الأخير ؟ !

يا عزيزي جمال ، يا زميل العمل الجميل . . لقد نجحت في أن تجعلني أعيش معك في رباعياتك ، ما لم يتح لي أن أشاركك فيه طوال ابتعادنا لعقود متتابعة من الزمان ، كان كل منا يتابع الآخر عن بعد ، ويقنع بلقاء عابر بين الحين والحين ، فهل كانت شواغلنا في العمل الإذاعي تستحق أن تباعد بيننا علي هذه الصورة ؟ . . طبعا لا تستحق ! فإذا كنا ارتضينا طوال هذه السنوات (منذ١٩٥٨ وحتى الآن) أن نلتقي علي مستوي الصوت فلتكن لقاءاتنا منذ الآن علي مستوي القلم فهو ـــ كما قيل قديما عن ثوب المؤمن ـــ أبقي وأتقي وأنقي !

رنا التونسي : صوت شعري قادم

بقلم : فاروق شوشة

بنت زمانها وصوت جيلها وشبيهة نفسها ، قلت لنفسي وأنا اتصفح بسرعة أعمالها الثلاثة: ذلك البيت الذي تنبعث منه الموسيقي ، ووردة للأيام الأخيرة (يذكرني هذا الاسم بديوان الشاعر الكبير محمد ابراهيم أبو سنة: ورد الفصول الأخيرة) ، ووطن اسمه الرغبة . رنا عباس أو رنا عباس التونسي ، فقد وضعت اسمها بالصورتين علي دواوينها ، هل هي حقا تلك الصغيرة ، الهادئة ، الوادعة ، القابعة أمامي في مقعد الدراسة بأحد فصول الجامعة الأمريكية ! لا تكاد تشارك في حديث ، لكن صمتها من النوع الناطق المعبر ، لغته متفجرة في ملامح الوجه والتفاتة الرأس وحركة العين . صمت مزدحم بكثير من التأمل والرفض والانتظار . هل هي نفسها المتلئة بهذه البراكين التي يمور بها وجدانها الغض ، ويتفجر بها كيانها الشاب ، وتهدر بها لغتها الشعرية التي اصطنعتها لنفسها ، فدلت عليها . ولم تختلط بلغة غيرها .

أنحي جانبا هذه الصورة الدراسية ، لتستغرقني كتاباتها بدءا بكلماتها المختارة علي الأغلفة الأخيرة:

والبيوت التي ترتفع في السماء
علي الرغم من موت اصحابها
وبدون أنفاسهم الحارة
ليست هي تلك البيوت
التي اعتدت الطرق علي أبو ابها

(من كتابها الأول: ذلك البيت الذي تنبعث منه الموسيقي)

حين غادرنا البيت
تركنا معارك صغيرة
تحرس طفولتنا
فلا حقتنا المعارك
وغادرتنا الطفولة
قال لي البيت
أن أكتب مقطعا في قصيدة
ولم أعرف كيف تأتيني الكلمات
والبيت وطن

(من كتابها الثالث: وطن اسمه الرغبة)

في كثير من كتابات رنا التونسي هذا الوتر المشدود المتوتر إلى البيت ، إقبالا وعزوفا ، استرجاعا وإعادة تكوين . إنها تصنع عالمها بالطريقة التي تمارس بها حقها في الحياة وحقها في حرية التعبير . وتلقي بنفسها - غير هيابة أو متوجسة - في أتون العلاقة بينها وبين الطريق ، الذي هو رمز يومي للواقع الذي تخوض فيه مقترنا بالحس الوجودي الذي يري في هذا الطريق اشتباكا مع المصير:

علي أبو اب المدن المتأخرة
والضحكات التي تأتي بغير حساب
سأقف وحيدة ومنكسرة
لا أعرف تماما
متي بدأ ذلك الضعف يتسلل إلى جسدي
ومتي بدأت روحي في الذبول
رغم سنوات الجلوس بجوار معاطف الأحباء

. . . .

من علي أي جسر تعبرين
حين ينفطر قلبك لوعة
وقدماك مشقوقتان
تتشبثان بالتراب

. . . .

أوزع الحزن
علي أرغفة الخبز الصباحية
أوزع الحزن
علي عابري الطريق
بحجة الذهاب إلى الشغل !

وبين البيت والطريق إلى ومي ، تتشابك صور شعرية لا فتة ، وإيقاعات وجدانية حادة ومتوترة ، ولغة حادة باترة ، لا تستحي ولاتتجمل ، وعزف علي وتر إنساني بالغ الصدق واللماحية والعذوبة . نقرؤها مندهشين: كيف اتسع هذا الوجدان الغض لهذا الزحام الهائل من الأحداث والمواقف والتجارب ، وكيف اتسعت سنوات هذا العمر - الذي لا يزال في بداياته الأولي - لهذه الطرقات علي أبو اب الأسئلة الكبري والمعاناة الروحية الهائلة ؟

هـل نجحـت رنـا التونـسي في حـشد كـل همـوم جيلـها وعذاباتـه وتطلعاتـه ومغامراتـه الخائبـة الـصغيرة واعتـصارها بـأدوات فـن مـا كـر ، وتقـديمها لنـا ، نحـن العـابرين ولا نكـاد نحـس ، المتـابعين ولانكـاد نـري ، المزهـوين بـالخبرة والنـضج والـسبق ولانكـاد نملـك أدوات الاتـصال ، لتقـول لنـا ببـساطتها الآسـرة: لا بـد أن تحـسوا وأن تـروا وأن تتـصلوا ، حـتي تفهمونـا وتفهمـوا مـا نقـول ، وتـدركوا كـم نحـن مختلفـون وكـم نحـن مهمومـون وكـم نحـن ـ بالرغم من ذلك كله ـ منتمون !

مـن حـسن حـظ رنـا التونـسي أن أتيحـت لهـا تنـشئة لغويـة وأدبيـة رصـينة ـ وهـي ابنـة أسـتاذ ومعلـم ومثقـف كـبير ـ وتربيـة مكنـت لا جنحتهـا مـن التحليـق والطـيران ، فلـم يتعـرض ريـشها للقص أو المـصادرة وهـو لا يـزال زغبـا مبـشرا ، وتركـت لمـا هـي مـا ضـية فيـه بوعيهـا واختيارهـا لا نهـا ـ ككـثير مـن أبنـاء جيلـها وبناتـه ـ تعـرف طريقهـا ومـسئولية اختياراته .

مـن هنـا ، فـإن شـاعر العاميـة الكـبير أحمـد فـؤاد نجـم محـق في قولـه عنهـا ـ في تقديمـه لمجموعتهـا الثالثـة ـ إنهـا تتمتـع بعلاقـة مـن نـوع خـاص مـع العربيـة ، وإنهـا تحمـل همـوم جيـل يتـيم رافـض لتجربـة الآبـاء الـتي أورثـت الـوطن كلـه كـل هـذا الـتردي والغـوص في مـستنقع الفـشل حـتي أذنيـه ، وإن ديوانهـا يمثـل إضـافة صـوت جميـل لمعزوفـة الـشعر النـسائي العربـي . وأنـا معـه ، أشـاركه في موقـف الحفـاوة والترحيـب بهـذا الـصوت الـشعري القادم ، وأتطلع إلى المزيد من تجلياته الشعرية والإنسانية .

في رحيل عبد ه بدوي

بقلم: فاروق شوشة

حين تقدمت للمشاركة في المهرجان الشعري الذي يقيمه اتحاد الطلاب في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٩٥٣ ، وأنا بعد طالب بالسنة الأولي ، لم تمض علي التحاقي بالكلية إلا شهور معدودة فوجئت بحشد الشعراء الذين تزدحم بهم الكلية ، وهم يتبارون في صنوف القول واحدا بعد الآخر من فوق منصة مدرج علي مبارك الشهير . وفي دهشة الانبهار بهم ـ وأنا ما أزال ابن السادسة عشرة الصغير السن والخبرة الإنسانية والشعرية ـ كان بوسعي أن أميز شاعرين كبيرين من طلاب السنة الرابعة يكادان يلخصان واقع الشعر وحالة في الكلية هما: عبد ه بدوي وعلي الصياد .

كان عبد ه بدوي وقتها في عشرينيات العمر ، متأنقا في لغة الشعرية تأنقه في زيه ومظهره . وكانت قصيدته في المولد النبوي تحمل عنوانا لا فتا جديدا علي الأسماع هو الفجر الأخضر وبالرغم من الجدة الشعرية في اللغة والتعبير بالصورة ، إلا أنه كان حريصا علي القالب العمودي للقصيدة . بخلاف علي الصياد ، الذي كان التأثير الرومانسي لشعراء جماعة أبو للو: ناجي وعلي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل ، قد طغي عليه من حيث المعجم الشعري ، واللغة التصويرية ، وقالب الرباعيات الذي صب فيه قصيدته .

وفي رحلة الحياة الطويلة ، علي مدار أكثر من نصف قرن ، لمع نجم عبد ه بدوي ، بدءا بنشر شعره في جريدة المصري ، وتعرفه علي الملحن أحمد عبد القادر الذي لحن له عددا من قصائده تغنت بها نجاة وفايدة كامل وكارم محمود ومديحة عبد الحليم ، وعلاقته القوية بفتحي رضوان وزير الإرشاد القومي ـ عن طريق تدريسه لا بنه في مدرسة النقراشي النموذجية ، وتكليفه بعد ذلك بالإشراف علي مجلة الرسالة ومجلة الشعر ، وكاتبا في مجلة الثقافة فحصوله علي الدكتوراه عن الشعر الحديث في السودان ، و قيامه بالتدريس في جامعتي أم درمان والخرطوم ، ثم اتحاقه بقسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة عين شمس ، حيث أصدر كتبه الأدبية والنقدية: في الشعر والشعراء ، أبو تمام وقضية التجديد ، علي أحمد باكثير شاعرا غنائيا ، دراسات في النص الشعري: العصر العباسي . . وغيرها .

ثم نجاحه في إقناع يوسف السباعي ـ وزير الثقافة والإعلام معا ـ في إصدار مجلة للشعر ، تابعة لمجلة الإذاعة والتليفزيون ، ظل يرأس تحريرها منذ عام ١٩٧٦ طيلة أحد عشر عام ا حتي بعد إعارته للعمل في جامعة الكويت لسنوات طويلة ، منذ عام

١٩٧٧ حتي عام . ١٩٩٨ توثقت علاقته خلالها بالشاعرة العراقية الكبيرة نازك الملائكة التي كانت زميلة له في العمل بجامعة الكويت ، فكتب عنها ، وعن كتابها النقدي عن علي محمود طه ، وقدم لا عمالها الكاملة التي صدرت عن المجلس الأعلي للثقافة . وفي فبراير٢٠٠٠ ـ وفي مناسبة بلوغه السبعين (ولد عام ١٩٢٧) أصدر قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة الكويت كتابا تذكاريا عنه بعنوان: عبد ه بدوي شاعرا وناقدا شارك فيه الدكاترة: عبد الله المهنا ومصطفي النحاس وفاطمة الراجحي ومختار أبو غالي ولعي المطيعي ـ الذي شارك بالكتابة في مجلة نهضة إفريقيا حين أشرف عليها عبد ه بدوي ـ وسعد دعبيس وحلمي القاعود وصابر عبد الدايم .

وأخيرا ، كان رحيل عبد ه بدوي ـ منذ عدة أسابيع ـ وهو يعمل أستاذا في كلية الإعلام والألسن في جامعة مصر الدولية ، بعد أن قدم شهادته علي حصاد العمر ومنجزاته ، واكتمال مدار النجم بعد طول اغتراب وتطواف ، قائلا: حاولت جهدي أن أغطي مساحات شاسعة في الدراسات الأدبية ، وأن تكرمني جامعة الكويت بكتاب تذكاري عن دوري ، وقد أخلصت دائما لقضية الشعر؛ فقد جددت في ديواني الأول شعبي المنتصر ببناء القصيدة علي نسق هرمي ، بعدد من التفاعيل ، ثم تقل حتي تنتهي بتفعيلة واحدة ، كما ركزت علي ما يسمي بالقصيد السيمفوني علي النمط الأوروبي ، وفي الوقت نفسه شغلت بفاعلية الإيقاع ، وبالبناء الهارموني الشامل للنص ، مع المحافظة ـ قدر الإمكان ـ علي عروض البحر وعروض التفعيلة ، وتعاملت مع الأساليب الحديثة كالمونولوج والأسطورة والرمز والقناع والحوار والتضمين وغيرها .

رحل عبد ه بدوي بعد أن حصل علي جائزة الدولة في الشعر عام ١٩٧٧ ، وجائزة البحث العلمي لا عضاء هيئة التدريس ، والجائزة الأولي عن التأليف الإذاعي في مهرجان داكار ، وجائزة أفضل ديوان شعر من مؤسسة يماني الثقافية ، تاركا رصيدا ضخما من الإبداع الشعري يتمثل في دواوينه: شعبي المنتصر ، باقة نور ، لا مكان للقمر ، كلمات غضبي ، السيف والوردة ، دقات فوق الليل ، الحب والموت ، الجرح الأخير ، هجرة شاعر ، محمد: قصيد سيمفوني ، الأرض العالية: أوبرا إفريقية ، ثم يخضر الشجر ، معلنا عن ثلاثة دواوين جديدة قيد الطبع هي: الغربة والاغتراب والشعر ، حبيبتي الكويت ، ويجيء الختام . ورصيدا ضخما من الإنتاج الأدبي والنقدي .

يبلغ أربعة وثلاثين كتابا من بينها: الشعراء السود وخصائصهم الشعرية ، في الشعر والشعراء ، أبو تمام وقضية التجديد ، دراسات في النص الشعري ، حضارتنا بين العراقة والتصحيح ، في الأدب واللغة ، قضايا حول اللغة ، شعر إسماعيل صبري ، طه حسين وقضية الشعر ، العقاد وقضية الشعر ، التقاء العمارة بالشعر ، شعراء حول الرسول .

فهل اتسعت حياته ـ بالرغم من امتدادها لما بعد الخامسة والسبعين ـ لطموحه الكبير ، ودوره الإبداعي والأكاديمي الذي وقف عليه جهده منذ مطالع العمر ؟ وهل وجد في الكثير من معارك الحياة التي خاضها ـ منذ نعومة أظفاره في مصر والسودان والكويت ، ما يؤازره تطلعه الدائم إلى هدف أبعد ، ومجال أرحب ، متوحدا كالنجم البعيد ، مغتربا وغريبا عمن حوله ومن معه ، متلفعا دوما بوحدته وإنعزاليته ، مترفعا في آن ومقاربا في آن ! أغلب الظن أن سنواته الطويلة في الكويت ـ إحدي وعشرين سنة علي مرحلتين ، قبل الغزو العراقي وبعده ، وانغماسه في العمل الأكاديمي ، قد باعد بينه وبين الوهج الشعري الذي واكب إنطلاقاته الأولي ، ولم يضمن له مكانا متميزا في خريطة الشعر المصري المعاصر ، ولم يجعله قريبا ممن آلت إلى هم أمور الإبداع والثقافة في العقدين الأخيرين من الزمان . لقد كان عليه أن يدفع ثمن الغربة الطويلة ، والابتعاد النفسي والمكاني وهو الذي كان يحلم دوما بأفق أرحب ، وسماء لا تنال .

لكن الإنكسار الروحي هو الذي جعله يقول:

هذا عصر الإنسان المخطوف اللون
والمشجوج القلب
والنازف طول العمر
والمستدعي من أحلامه
كيما يثقب
برصاص ما بين العينين ودون القلب

كما قاده إلى أن يدمغ العصر كله بهذه الكلمات ، محاكيا صوت صلاح عبد الصبور في قصيدته الظل والصليب ، منتهيا إلى النتيجة نفسها:

هذا عصر الإنسان الجائع
والأم الباكية الثكلي من هول الحرب
والطفل اللاقم ثديا مقطوع الحلمة

والجندي المقسوم النصفين
والتلميذ اللاهي بالحكمة

والشيخ المفقود العكاز
والميت من قبل الحكم

وبنات لم تعرف أبدا طعم الحب

والصدر المعتصر الثديين

ليوفر نصف رغيف إلى وم !

وبرحيله تنتهي صفحة حياة حافلة ، ورحلة إبداع جفف من ينابيعها جهده الأكاديمي الدائب ووعيه النقدي المتكيء علي ثقافة عربية راسخة لم يستطع التحليق بعيدا عنها .

ابن زيدون يعود إلى قرطبة (١)

بقلم : فاروق شوشة

أوشكت أن أكتب ـ كما فعلت في مثل هذه الأيام منذ عام ـ عن الدراما التليفزيونية التي ابتلينا بها علي مدار شهر رمضان ، وكانت كتابتي عنها في العام الماضي تحمل عنوانا دالا هو: تراجع الدراما التليفزيونية وعندما فكرت في عنوان لهذا العام وجدت أن التراجع أصبح سقوطا ، وأن السلبيات ـ التي كتب عنها كل الذين كتبوا من قبل ـ قد أصبحت أمراضا مستعصية ، وبلايا مستحيلة . قلت لنفسي: الأمر لم يعد يستحق ، والأمل في تصحيح ما هو قائم ـ مما يسمي هبوطا أو سقوطا . لم يعد له وجود ، بعد أن أصبحنا نفتقد في مجال الريادة الفنية لمصر ما كان يسمي بالسينما المحترمة ، ثم افتقدنا في مجال الغناء أصواتا عديدة تشتري بعقود طويلة الأجل بهدف حجبها عن الغناء ، ثم جاء الدور علي الدراما التليفزيونية الأمل الأخير في هذه المنظومة الفنية ، فإذا بنا نقتله بأيدينا ، مع أن لدينا نجوما في التمثيل ينافسون بمواهبهم نجوم العالم ، ومخرجين علي مستوي عال من الحرفية والخبرة الفنية ، لكن المأساة تكمن في النصوص الدرامية التافهة والهابطة والسطحية (وقل ما شئت من صفات قبيحة فهي تليق بها) التي تخلو من ألف باء الدراما ومنطقها الفني ، حتي مع وجود أسماء لكتاب مخضرمين ، لم تعد لديهم ذرة من الغيرة علي أسمائهم وتاريخهم . ارتضوا لا نفسهم هذا المستوي المتخلف من الكتابة ، التي يبدو أنها لا تعرض علي أي قاريء قبل أن يدفع بها إلى الانتاج ، ورحم الله زمانا كانت لجان القراءة للنصوص الدرامية تضم كبارا من أمثال علي الراعي و عبد القادر القط ، فمن هم يا تري قراء هذا الزمان ، إن كان هناك أصلا قراء ؟ من السهل أن يكتشف المتأمل أنه يتم أولا حجز النجوم والتربيط معهم ، ثم يبدأ التفكير في نص درامي ، يخترعون له فكرة أو عقدة أو تيمة ، ثم يستمر التلفيق خطوة بعد خطوة ، وتكون النتيجة المحتومة ما شاهدناه علي الشاشة من هزال وركاكة ونصوص تثير السخرية والاستهزاء .

الأمر كله إذن لا يستحق ، والذين تصدوا للتراجع في العام الماضي وعدوا بلجان للدراسة والبحث والتقصي والقضاء علي الفساد ومواجهة الضغوط والتربيطات والمساومات ، والنتيجة هي ما نراه ، الهبوط صار سقوطا ، والسقوط فادح وثقيل . لم تنج منه الا أعمال قليلة ونادرة ، لم تتجاهل رسالة هذا الفن الجماهيري ودوره بالنسبة للانسان المصري والعربي ، وعلاقته بهموم حقيقية ، ومجتمع حقيقي ، وبشر حقيقيين .

لنترك هذا كله ، هناك بالقطع عشرات يخوضون فيه ، ويكشفون المزيد من قبحه وسوءاته ، ويقترحون حلولا لن يأخذ بها أحد ، والا فأين ما سبق الإعلان عنه من حلول ؟

* * * *

أما عودة شاعر الأندلس الأشهر إلى عاصمة الأندلس: قرطبة فالفضل فيها لمؤسسة البابطين التي ارتأت أن تسمي دورتها التاسعة دورة ابن زيدون ، وأن تقيمها في قرطبة حيث عاش وتألقت شاعريته ومكانته قبل أن يضطر للخروج منها إلى إشبيلية التي كانت حاضرة الأندلس قبل قرطبة ثم عاد إلى ها ازدهارها في عصر بني عباد ، وقصد بهذه الدورة أن تكون في الذكري الألفية لميلاد ابن زيدون (٣٩٤ -٤٦٣ هـ / ١٠٠٣ -١٠٧٠ م) ، وأن تقام ـ بمناسبتها ـ ندوة عالمية بعنوان الحضارة العربية الاسلامية والغرب: من الخلاف إلى الشراكة وتمت اقامة الدورة بين الرابع والثامن من أكتوبر الماضي بالمشاركة مع جامعة قرطبة التي كانت قاعة المؤتمرات فيها مقرا لهذا الملتقي الكبير بكل ما تضمنه من جلسة افتتاحية وجلسات بحثية وحوارية وأمسيات شعرية واحتفالات فنية مصاحبة تعرض ألوانا من الفن الشعبي الكويتي .

في مطار إشبيلية هبطت الطائرة المقلة للوفود العربية القادمة من أقطار عربية شتي . كان الليل يوشك أن ينتصف ، وشميم الأندلس وعطره يملأ الأجواء من حولنا ، وعلي الأرض التي شهدت ملك المعتضد وابنه المعتضد بن عباد الذي كان بأفعاله وسوء تدبيره مسئولا عن سقوط الأندلس وضياع الحكم العربي فيها ، عندما ارتكب خطأه الجسيم واستعان بألفونسو السادس أمير قشتالة ضد خصومه ومنافسيه من بني ذي النون أمراء طليطلة ، الأمر شجع ألفونسو علي التهام بقية الامارات الأندلسية ومن بينها إشبيلية نفسها ، علي هذه الأرض كانت خطواتنا الأولي قبل أن تنطلق بنا الحافلات إلى قرطبة . هذه هي الأندلس التي تتاح لي زيارتها وملامستها العميقة للمرة الثانية في المرة الأولي كنت مدعوا من الأستاذ الدكتور أحمد هيكل مدير المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد والمستشار الثقافي لمصر في ذلك الوقت ووزير الثقافة بعد ذلك ـ لحضور المؤتمر الاسلامي المسيحي الثاني في قرطبة (مارس١٩٧٧) ، الذي شهدته وفود اسلامية ومسيحية عديدة وشخصيات من العالمين العربي والأوروبي ، من بينهم الأسقف ترانكون أسقف قرطبة الذي دعا إلى ضرورة أن يحذف من كتب الدين والتاريخ في إسبانيا كل ما يس يء إلى الاسلام ونبي الاسلام ، وسمح لنا ـ في اطار جو التسامح والمودة الذي ساد المؤتمر ـ أن نصلي الجمعة في الكاتدرائية الكبري التي كانت جامع قرطبة الكبير ـ في العصر الأندلس ـ ومازلت أذكر كيف كان يؤمنا المرحوم الدكتور عبد العزيز كامل للصلاة

، وكيف كان يلقي خطبة الجمعة والعيون تتفجر منها دموع ساخنة ونحن في مجال العظة والاعتبار والتأسي .

في الطريق إلى قرطبة وابن زيدون ينشر ظله ، علينا ، وأطيافه تجوس من حولنا في الأماكن التي عشقها وجاس خلالها والتقي فيها بمعشوقته ولادة بنت المستكفي ، وأبدع روائعه في حبه ، وفي أزمة مصيره الانساني سجينا ومطاردا ، وجدتني أغمغم بكلمات شوقي التي قدم بها لسينيته التي عارض بها سينية البحتري ، وسماها الرحلة إلى الأندلس بعد أن سمح له - وهو المنفي في أسبانيا طوال سنوات الحرب العالمية الأولي - بالرحلة إلى الأندلس في ختام إقامته وقبل عودته إلى مصر ، كان شوقي يعبر عن فرحه الغامر بقرب تنسمه للحرية ، وسعادته بالسماح له برؤية الأندلس ويقول: فبلغت النفس بمرآة الأرب ، واكتحلت العين في ثراه بآثار العرب ، وإنها لشتي المواقع ، متفرقة المطالع ، في ذلك الفلك الجامع ، يسري زائرها من حرم إلى حرم ، كمن يمسي بالكرنك ويصبح بالهرم ، فلا تقارب غير العتق والكرم: طليطلة تطل علي جسرها البالي ، وإشبيلية تشبل علي قصرها الخالي ، وقرطبة منتبذة ناحية بالبيعة الغراء ، و غرناطة بعيدة مزار الحمراء ، وكان البحتري رحمه الله - رفيقي في هذا الترحال ، وسميري في الرحال ، والأحوال تصلح علي الرجال ، كل رجل لحال ، فإنه أبلغ من حلي الأثر ، وحيا الحجر ، ونشر الخبر وحشر العبر ، ومن قام في ما تم علي الدول الكبر ، والملوك البهاليل الغرر .

كان حفل الافتتاح - في القاعة الرئيسية بجامعة قرطبة - حاشدا ومهيبا ، تحت رعاية الأميرة الاسبانية نائبة عن أبيها الملك خوان كارلوس ملك إسبانيا ، ومشاركة وزيرة الثقافة كارمن كالفو ممثلة لرئيس الحكومة الاسبانية ، وعمدة مدينة قرطبة روصا أغيلار ريبيرو ورئيس جامعة قرطبة أوخينيو دو مينغيث ، فضلا عن رئيس المؤسسة الشاعر عبد العزيز سعود البابطين ، وتم تكريم الفائزين في هذه الدورة: الشاعر السوداني محيي الدين فارس الذي حصل علي الجائزة التكريمية ، والناقد الدكتور أحمد درويش جائزة الابداع في مجال نقد الشعر ، والشاعر رابح لطفي جمعة (مصر) : جائزة أفضل ديوان ، أما جائزة أفضل قصيدة فهي مناصفة بين الشاعرين: عبد الرحمن بوعلي (المغرب) وسيد يوسف أحمد (مصر) . وقد ألقي كلمة الفائزين الدكتور أحمد درويش . وقد سعدت بصحبة هؤلاء في حين غاب الشاعر رابح لطفي جمعة الذي رحل عن عالمنا بعد تقدمه للجائزة وقبل إعلان نتيجتها .

الوجوه الاسبانية المشاركة في الملتقي ، والحريصة علي الحضور في جلسات الصباح والمساء ، تتوهج بالحفاوة وحرارة الاندماج ، بعضهم من طلاب الجامعة ، وآخرون مسئولون إسبان وأساتذة ومستعربون ومستشرقون ، وإحساس غامر - فجرته

الحوارات والمناقشات - بأن هذا الحوار التاريخي هو ضرورة ومناخ ومسئولية ، وأن اختيار المكان قرطبة له دلالته ترمز إلى ه حضاريا باحتضانها نموذجا رائعا للوحدة في ظل احترام التعددية وتحقيق تعايش ديني واجتماعي بين مختلف الطوائف والأديان والأعراق في فترة من أزهي فترات التاريخ العربي والاسلامي علي مدي قرون طويلة .

وطوال أيام هذا الملتقي ولياليه التي مرت وكأنها حلم بديع ، كانت أشعار ابن زيدون ترفرف من حولنا ، وتعطر المكان بأقباس هذه الشاعرية الفذة ، وحرارة عواطفها المشبوبة ، وهو يقول في ليالي قرطبة :

سقي الغيث أطلال الأحبة بالحمي

وحال عليها ثوب وشي منمنما

وأطلع فيها للأزاهير أنجما

* *

فكم رفلت فيها الخرائد كالدمي

إذ العيش غض والزمان غلام

فكم لي فيها من مساء وإصباح

بكل غزال مشرق الوجه وضاح

يقدم أفواه الكؤوس بتفاح

إذا طلعت في راحة أنجم الراح

فإنا لا عظام المدام قيام

وصولا إلى قوله :

فقل لزمان قد تولي نعيمه

ورثت - علي مر الليالي - رسومه

وكم رق فيه بالعشي نسيمه

ولاحت لساري الليل فيه نجومه :

عليك من الحب المشوق سلام

لقد استيقظ ابن زيدون - بفضل هذا الملتقي - من رقدته ، وأخذ يطوف بنا شوارع قرطبة وأحياءها وضواحيها ، ويتوقف بنا عند الزهراء : الضاحية التي شهدت قصته مع ولادة ، ويتوقف في كل منعطف ومنحني ليحكي ويشير وينشد . لا يكاد يتركنا لحظة ، حتى تلفحنا أنفاس شعره من جديد . والحديث موصول .

ابن زيدون يعود إلى قرطبة - ٢ -

بقلم: فاروق شوشة

لا يـذكر ابـن زيـدون ـــ شـاعر الأنـدلس الأشـهر ـــ إلا وتـذكر معـه ولادة بنـت المستكفي: أميرة وشاعرة ومعشوقة . هذا الاقتران العمدي الشاري عبر العصور في نظرتنا إلى ابن زيدون يختصر شعره في دائرة واحدة هي دائرة الحب والحنين والعشق والاغتراب ، ثم يتم اختصار العشق والغربة ـــ كما أوضح الناقد الدكتور محمد حسن عبد الله في دراسته إلى مؤتمر ابن زيدون حول استلهامات المبدعين العرب لسيرة ابن زيدون وشعره ـــ يتم الاختصار في قصيدة واحدة هي أضحي التنائي التي يقول ديوان ابن زيدون إن كثيرين من الشعراء شغفوا بمعارضتها وتخميسها وتسديسها ، ولكنها سامقة في مكانها الرفيع . من بينهم: أحمد شوقي وإسماعيل صبري وحافظ إبراهيم و عبد الرحمن صدقي وعلي الجارم وعلي عبد العظيم ومصطفي صادق الرافعي (من المصريين) أما من الشعراء العرب فهناك حنا الأسعد وسليم الزعنون وشفيق جبري وصفي الدين الحلي والأمير الصنعاني وفؤاد الخطيب ومحمد الأخضر السائحي ومحمد بهجت الأثري ومحمد مهدي الجواهري ومصطفي وهبي التل (عرار) وغيرهم .

وقد أحسنت مؤسسة البابطين حين ضمنت مطبوعاتها عن دور ابن زيدون كتابا للدكتور عدنان محمد غزال بعنوان معارضات قصائد ابن زيدون لا يتوقف عند معارضات أضحي التنائي التي تعرف بالنونية ـــ إشارة إلى قافيتها من حرف النون ، وبل يتناول قصائد ابن زيدون الأخري التي تمت معارضتها من عشرات الشعراء قديما وحديثا ، وقد بلغ حجم هذه القصائد سبعا وخمسين قصيدة لشعراء من كل العصور .

يستهل ابن زيدون نونيته بقوله:

أضحي التنائي بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وصولا إلى قوله:

بنتم وبنا ، فما ابتلت جوانحنا
شوقا إلى كم ، ولا جفت ما قينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضي علينا الأسي لولا تأسينا
حالت لفقدكمو أيامنا ، فغدت
سودا ، وكانت بكم بيضا ليالينا

إذ جانب العيش طلق من تألفنا
ومربع اللهو صاف من تصافينا

الديوان في طبعته الجديدة ـــ التي أصدرتها المؤسسة قدم لها وراجعها الدكتور محمد إحسان النص معتمدا علي الطبعة التي سبق قيام الأستاذ علي عبد العظيم بشرحها وتحقيقها ـــ يخبرنا أن الشاعر فر من سجنه بقرطبة إلى إشبيليه ـــ المسافة بين المدينتين قطعناها بالسيارة في ساعة ونصف ، لكن من المؤكد أنها كانت تستغرق في زمن ابن زيدون أياما عدة ـــ ولكن قلبه جذبه إلى حبيبته بقرطبة ، فأرسل إلى ها هذه القصيدة الخالدة التي نالت شهرة عظيمة وثارت من حولها الأساطير حتي قيل: (ما حفظها أحد إلا ما ت غريبا ، ولهج كثيرون بأن إنسانا لا يتم له الظرف ما لم يحفظها !)

لن نتوقف للتعليق علي هذا الكلام ، إذ من الواضح أنه صادر عن قلب شاعر ومحقق محب لا بن زيدون هو الأستاذ علي عبد العظيم ، الذي صاغ بقلمه مقدمات لقصائد الديوان وعناوينها ، وعندما فكرت مؤسسة البابطين في تقديم طبعة جديدة من ديوان ابن زيدون ، وجدت طبعات عدة منه حققها علماء بارزون ، لكنها خلصت إلى اعتماد النسخة التي حققها عاشق ابن زيدون وعاشق التراث الأندلسي الأستاذ علي عبد العظيم ، الذي عبر عن هذا العشق أيضا في مسرحية شعرية بديعة سماها ولادة ، وقد تميزت النسخة التي حققها بالجودة العلمية والشروح الوافية وقضائه شطرا كبيرا من عمره في دراسة ابن زيدون وآثاره ، وكان صدور دراسته لا ول مرة في عام ١٩٥٧ في القاهرة .

الطريف أن عددا كبيرا من الباحثين الذين اهتموا بدراسة فن المعارضات في الشعر العربي تحت مسمي الموازنة بين الشعراء ما لوا إلى تفضيل معارضات شوقي لمن عارضهم من الشعراء ، كابن زيدون والبحتري والبوصيري . وقد شهدت دورة ابن زيدون ـــ في جلساتها البحثية والنقدية عن الشاعر ـــ حوارا مثمرا بين الأستاذين: الدكتور محمود علي مكي ـــ وهو حجة في كل ما يتصل بالأندلس – والدكتور محمد حسن عبد الله الذي أعلن تفضيله لقصيدة شوقي ، فانبري الدكتور مكي مفندا ، ومدافعا عن شاعرية ابن زيدون واقتداره الفني ، في وجه نونية شوقي التي تفتقد ـــ في رأيه ـــ الروح والحرارة
.

في البحث الذي قدمته الدكتورة ما ريا خيسوس بيفيرا التفاتة ذكية إلى أن قصة الحب في شعر ابن زيدون هي قصة الحضر ، قصة حضرية ، تغاير ما عرفه الشعر العربي القديم من قصص الحب البدوية وقصص الحب العذرية . كما أن قصة الحب عند ابن زيدون قصة واقعية ، تدور في إطار حضارة الأندلس ـــ أهم حواضر العالم الإسلامي ، وفي قرطبة العاصمة ، مما أعطي للقصة شهرة واسعة وأعطاها هو أيضا ، فهي شهرة متبادلة . والدكتورة ما ريا تري أن ابن زيدون كان قبل كل شيء شاعرا عاشقا ، فقد

أحب ولادة وكانت أميرة ذات نسب ملكي ، بها طابع الرجولة ، ومثقفة ، وآية في الرشاقة والحسن ، وانتهي بها الأمر إلى هجره وازدرائه . وتحولت قصائد ابن زيدون ــ خاصة نونيته الشهيرة ــ إلى مثار لذة وتسلية للغرب ، فهي قصيدة إنسانية تقترب من الذوق الغربي وتخلو من الألوان الزاهية التي كانت ما لوفة وشائعة لقصص الحب في الشعر العربي . وقد نجد فيها أبياتا تعكس لونا كلون الرخام القديم ، وتختلط فيها الأضواء بظلال سوداء كلوحة شطرنج يلعب عليها ابن زيدون دورا في حبه إلى ائس .

الباحث السوري الدكتور وهب رومية خرج علي المعهود والمألوف في مثل هذه الملتقيات التي يكون همها الأساسي الحفاوة بالمحتفي به وإسباغ صفات الثناء عليه والإشادة به . من هنا كانت ردود الفعل الحادة التي لقيتها دراسته عندما استخلص من شعر ابن زيدون ــ خاصة قصائده في المديح ــ من حيث البنية والموقف ما يمثل علاقة بينها وبين شخصية الشاعر التي وصفها بالمداجاة والنفاق والتأفق واللعب علي الحبال والوصولية وغيرها من الصفات السلبية المذمومة .

واتسع مجال الحوار لمداخلات شتي ، بعضها يحرص علي إعادة الهيبة والاحترام لشخص ابن زيدون ، وبعضها الآخر يري في كلام الدكتور رومية اهتماما بالشاعر لا بشعره ، الذي هو الموضوع الرئيسي والهدف الذي ينبغي أن تتوجه إلى ه الدراسة . لكن الحوار كشف عن ضيق صدور كثير من باحثينا بأي رأي جديد أو فكرة غير مطروقة وكأن التراث الأدبي مقدس .

من الطبيعي أن تهتم أبحاث الدورة بولادة الأميرة الشاعرة ومعشوقة ابن زيدون ، خاصة عند الحديث عن المرأة في الشعر الأندلسي: ولادة بنت المستكفي نموذجا فقد لا حظت الدكتورة ما ريا تيريسا غارولو أن الشاعرات العربيات ــ اللاتي يذكر شعرهن في مصادر العصور الوسطي ــ وهن كثيرات ــ لم يحظين بما تحظي به ولادة من شهرة ، ولم تنل واحدة منهن من الاهتمام ما نالته الشاعرة الأندلسية والأميرة القرطبية التي كانت مصدر إلهام لا فضل شعر قيل في موضوع العشق في بلاد الأندلس ، في قصائد ابن زيدون التي خلدتها رغم أنها كانت سببا في ألمه وتعاسته .

ولاحظت الباحثة أن معلوماتنا عن ولادة قليلة ، شأنها في ذلك شأن كل نساء العرب اللاتي ذكرن في مراجع الأدب ، ذلك لا ن المرأة العربية عادة تتسم بالشح في إعطاء بيانات عنها ، وذكر معلومات عن حياتها لا ن ذلك لا يتفق مع حرمة المرأة وقدسية أسرارها التي لا تخرج عن دائرة بيتها ورجلها ، وإذا سمع صوتها فلا يسمع إلا من خلال الرجال ، أما ولادة فقد عبرت حدود الثقافة العربية ، بدليل حضورها في المختارات الشعرية عند الحديث عن شعر النساء ، وفي الأعمال الإبداعية التي تخصص

لهـا ، وقـد تحولـت في الغـرب إلى نمـوذج للنـساء تظهـر مـن خلالـه حيـاة بنـات حـواء في الأندلس .

تقول ولادة في أبيات بعثت بها إلى ابن زيدون:

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق
سبيل ، فيشكو كل صب بما لقي ؟
وقد كنت ـ أوقات التزاور في الشتا ـ
أبيت علي جمر من الشوق محرق
فكيف ؟ وقد أمسيت في حال قطعة
لقد عجل المقدار ما كنت أتقي
تمر الليالي ، لا أري البين ينقضي
ولا الصبر من رق التشوق معتقي

فيجيبها ابن زيدون بقوله:

لحا الله يوما لست فيه بملتق
محياك من أجل النوي والتفرق
وكيف يطيب العيش دون مسرة ؟
وأي سرور للكئيب المؤرق ؟

ولا يزال الحديث عن دورة ابن زيدون وعودته إلى قرطبة: موصولا .

ابن زيدون يعود إلى قرطبة (٣)

بقلم : فاروق شوشة

لا تقاس قيمة المؤتمرات والندوات بعدد المشاركين فيها ، ولا بكثرة جلساتها وتعدد مناقشاتها وحواراتها ، بقدر ما تقاس بالجديد الذي تثيره وتقدمه ، تحريكا للسائد والمألوف ، ومجاوزة له ، وطرحا لا سئلة جديدة ليس ضروريا أن تكون لها إجابات سريعة وحاسمة .

بهذا الفهم ، تصبح دورة ابن زيدون ـ التي انعقدت في قرطبة عاصمة الأندلس ـ بجانبيها الأدبي المتمثل في ندوة ابن زيدون والأندلس ، والفكري المتمثل في الندوة المصاحبة بعنوان: الحضارة العربية والإسلامية والغرب: من الخلاف إلى الشراكة مثلا للاقتحام المطلوب أدبيا وفكريا ، مع تبني شعار حرية البحث ، والتبادل المعرفي والثقافي والإنساني ، وتباين وجهات النظر حول الثقافة ودورها في فهم دلالات التطرف والعولمة ، وجدلية الهوية والاندماج ما بين الشرق والغرب ، وفضح الصور السلبية للاستعمار الأجنبي في مناطق من العالم العربي (فلسطين والعراق) ، وتوضيح المحاذير الضرورية في هذا المجال . من بينها مثلا ما أشار إلى ه الباحث المغربي الدكتور علي أومليل من أن أية ثقافة غير غربية لا بد أن تواجه أحد مصيرين: إما أن تتحول إلى ثقافة محلية تخص قومها وتتهم بالمحلية والانعزالية ، وإما أن تكسب رهان التحديث وتحظي بقيمة تبادلية في سوق الثقافات المتقدمة ، وتصبح قادرة علي حوار الآخر ، وتفرض حضورها وجدواها بالنسبة إلى ه .

ويشير الدكتور خوان بيدرو سالا إلى ما اسماه: عناصر العولمة في المجتمع الأندلسي في إطار اهتمامه بمعني كلمة أندلس التي تصف أولئك السكان الذين أقاموا فيما تسمي بالأندلس بعد دخول العرب إلى أسبانيا عام ٧١١ ميلادية ، وكيف أن العرب بعد دخولهم مباشرة سعوا إلى تكوين هوية متوافقة وإيديولوجية محافظة تضمن استمراريتها تحت مظلة الخلافة الأموية الدمشقية ، موضحا أن الدولة الإسلامية الجديدة في الأندلس سلكت لتحقيق ذلك طريقا ذا طابع سياسي واجتماعي يصب في اتجاهين متكاملين:

لتعريب والأسلمة ولم يلبث هذا المنحي أن آتي ثماره لا ن اللغة والدين هما الأداتان اللتان لهما التأثير الأكبر في تكوين أي مجتمع من المجتمعات بالإضافة إلى النسيج السياسي الذي تحركه السلطة السياسية . وكان من أهم ما كشفت عنه المداخلات أننا ـ نحن أبناء العالم العربي شعوبا ومثقفين وساسة ـ نحتاج إلى قوي المجتمع المدني للسير في التحدي الحضاري المتبادل ، وهو أمر يطرح قضية أوضاع الحرية والديمقراطية وتسلط

الأنظمـة ، والمـساحة المتاحـة لمنظمـات المجتمـع المـدني وقـواه لكـي تمـارس دورهـا بفاعليـة واستقلالية .

علـي المـستوي الأدبـي تمثـل النجـاح الأول في خفـوت صـوت الانبهـار بـشاعرية ابـن زيـدون مـن خـلال تأمـل ديوانـه وآثـاره النثريـة الملحقـة بالـديوان ، فقـصائده الذائعـة الـتي رددهـا النـاس قليلـة جـد بالنـسبة إلى حجـم الـديوان الـذي تـسيطر علـي معظمـه قـصائد الـشكوي والعتـاب والمـدائح والرثـاء والهجـاء والمطـيرات (وهـي نـوع مـن المطارحـات الـشعرية يـنهض علـي الأحـاجي والألغـاز تـدور كلـها حـول اسمـاء الطيـور ، ولكـل طـائر حـرف يرمـز إلى ه وقـد تـتغير الرمـوز بـتغير القـصائد ، وهـذه المطارحـات رياضـة ذهنيـة وتـدريبات شـعرية دارت بـين ابـن زيـدون والمعتمـد بـن عبـاد الا واحـدة دارت بـين الـشاعر وأبـي طالـب بـن مكـي) . وتبقـي نونيتـه وقـصيدته في الزهـراء وقـصيدته الـتي سماهـا الـديوان طبـائع النفـوس الـتي أرسـل بهـا الشاعر من سجنه إلى صديقه أبي حفص بن برد الأصغر ، ويقول في مستهلها :

ما علي ظني باسء
يجرح الدهر وياسو
ربما أشرف بالمرء
علي الآمال ياس
ولقد ينجيك إغفال
ويرديك احتراس
والمحاذير سهام
والمقادير قياس

تبقـي هـذه القـصائد الـثلاث دلائـل علـي شـاعرية ابـن زيـدون الـتي أهـدر معظمهـا في المطارحـات ومجـالس الـشراب والهجائيـات والمـدائح . النجـاح الثـاني كـان في الارتفـاع إلى الأفـق الأرحـب للدراسـة المقارنـة ، وحجـم التـأثير الـذي صـنعه الـشعر الأندلـسي في الـشعر الأسـباني القـديم والحـديث والمعاصـر ، والـذي كـان يمثـل مجـالا رحبـا للاسـتلهام عنـد شـعراء كبـار مـن أمثـال لوركـا وماتـشادو وبكـير ، وأيـضا الكـشف عـن صـورة ابـن زيـدون وشـعره في الدراسـات الغربيـة ، وتـأثير الـشعر الأندلـسي في الـشعر البرتغـالي مـن خـلال قوالبـه الكلاسـيكية وأشـكاله الجديـدة كالموشـحات والزجـل . وهـو الأمـر الـذي ينبـه إلى أهميـة إعـادة القـراءة ، مـن خـلال وعـي نقـدي ، لا يقـف عنـد الـسائد والمكـرور ، ولا يتعامـل مـع قـضايا الثقافة والأدب باعتبارها مسلمات أو مقدسات .

النجـاح الثالـث تمثـل في إعـادة الكـشف عـن روح الأنـدلس وإسـهاماته الثقافيـة والحـضارية مـن خـلال دراسـات عربيـة وإسـبانية ، اسـتهلها الـدكتور محمـود علـي مكـي بالإشـارة إلى أهـم مظـاهر الأصـالة في الحـضارة الأندلـسية ـ الـتي نبعـت أصـلا مـن المـشرق ـ

ومنها قضية التهجين العرقي واللغوي الذي تميز مجتمع الأندلس ، والدور الذي لعبه المستعربون المسيحيون في المجتمع الإسلامي ، وإسهامهم الحضاري في نمو المجتمع المسيحي في الشمال ، والدور الذي لعبته المرأة الأندلسية في المجتمع ، وكيف كانت تتمتع بقدر أكبر من الحرية بالمقارنة إلى المرأة الشرقية ، بالإضافة إلى استحداث فنين شعريين أصبح للمشارقة بهما ولع شديد هما : التوشيح والزجل ، فضلا عن دورهم في مجالات العلوم المختلفة كالفقه والشريعة والطب والطبيعة وعلم الفلك وغيرها .

أما النجاح الأكبر فكان في اختيار قرطبة - بكل ما ترمز إلى ه في سياق الحضارة الأندلسية - من إبداع وفكر وتسامح وتنوير . وهي القيم التي نسعي إلى تأكيدها الآن في مواجهة قوي عاتية ضارية ، لا مجال لديها لحديث القيم أو خطاب الضمير أو حتي الالتفات إلى ما يسمي بالعدل والحق . واختيار الشعب الاسباني ، ومجتمع قرطبة ميدانا لنشر خطاب الدعوة إلى الشراكة بين الحضارة العربية والاسلامية والغرب ، بدلا من الخلاف والمواجهة . وشحن الوجدان العربي والاسلامي المعاصر بأقباس من تراث أجدادهم الحي ، المتجسد في معالم شتي تملأ الفضاء الأندلسي كله ، وفي قرطبة وإشبلية وغرناطة وطليطلة علي وجه الخصوص: وفي هذا الاطار كانت الزيارة التي أتيحت لعدد من المشاركين في دورة ابن زيدون إلى غرناطة استعادة لهذا الحلم ، بكل مشاهده الزاهية والقاتمة ، الظافرة والمنكسرة ، وهم يتأملون في قصر الحمراء وعمارته الباذخة ، وحدائقه النادرة وقلاعه وحصونه السامقة التي تقابل القصر وتدعي جنة العريف ، فردوسا أضاعه العرب ، فبكوه مثل النساء لا نهم لم يعرفوا كيف يحافظون عليه مثل الرجال .

ولعل من أروع ما قيل في غرناطة وقصرها الباذخ الحمراء قصيدة الشاعر الاسباني فيلاسباسا الذي عاش مدة من عمره في البرازيل واتصل به عدد من شعراء المهجر الجنوبي من بينهم فوزي المعلوف الذي ترجم إلى العربية شعرا قصيدة فيلا سباسا التي يقول فيها :

غرناطة ، أواه غرناطة
لم يبق شيء لك من صولتك
هل نهرك الجاري سوي أدمع
تجري علي ما دال من دولتك
والنسمة الغادية الرائحة
هل هي إلا زفرة نائحة
ما عدت في النهر كسلطانة
جبهتها في ما ئه ساطعة

للقبة الحمراء في تاجها
وهج ، وللمئذنة اللامعة
آه علي أمجادك الضائعة
شيعتها بالنظرة الدامعة !

ولقد أبت الطبيعة الأندلسية الفاتنة الا أن تشارك في هذه الاحتفالية الكبري بابن زيدون ، والحضارة الأندلسية ، فودعتنا ـــ قبيل الرحيل ـــ بليلة ما طرة ، سعد بها مواطنو قرطبة واستبشروا . كما جعلتنا نغتسل روحا وجسدا بهذا الفيض المتجمع من خضرة وموسيقي وشعر وغناء ، ونغتنم اقامتنا في اماكن من قرطبة كأنها أجزاء من الفردوس ، وكان الفندق الصغير الذي نزلت فيه وبعض المشاركين آية في الجمال والهدوء والنظافة ، والإطلالة الغارقة في مساحات واسعة من الخضرة والعطور وعناق الأشجار تمد أعناقها من شرفة الغرفة مشاركة في الحفاوة والترحيب . ساعتها يلوذ الإنسان بداخله ، ويستعيد اصداء المكان والزمان ، أما المكان فقطعة حية من التاريخ ومشهد رائع من الحاضر ، وأما الزمان فهو عمر الشعر الذي لا بداية له ولا نهاية ، لا ن صوت ابن زيدون لا يزال يشدو ، فولادة لا تزال تمارس أمور دلالها وصبواتها وعبثها بالعشاق ، والامسيات الشعرية المصاحبة لدورة ابن زيدون تعطر المكان في جامعة قرطبة وفي خارجها ، بإبداعات مواهب شعرية واعدة ، لكن هذا كله موضوع حديث قادم .

دورة ابن زيدون وحديث الشعر

بقلم : فاروق شوشة

يكفي أن تكون في أرض عاش فيها ابن زيدون ، شاعر الأندلس الأشهر ، وسماء أظلته وأتاحت لا حلامه أن تحلق ولصبواته المشبوبة أن تتصاعد وتتوهج ، وآثار باقية لا تزال تحمل بقايا أنفاسه هو ومعشوقته ولادة بنت المستكفي ـ الأميرة الشاعرة ـ ، وبقايا عطر أيام الزمان الغارب ، الشاهد علي وجود عربي ، يفيض حضارة وإبداعا ـ يكفي أن تكون في قلب هذا المشهد النادر بكل تداعياته وظلاله وصوره وإيحاءاته ، حتي يتفجر وجدانك بالشعر ، وحتي يصبح الشعر جلوة مع إشراقة الصباح ولمعة في عيون الليل الساجي ، وشرفة نطل منها علي الجوهر الإنساني في أصفي حالاته وأروع تجلياته .

وفي قرطبة ، عاصمة الأندلس ، حيث كانت وقائع دورة ابن زيدون ، وهي الدورة التاسعة في سجل دورات مؤسسة البابطين للإبداع الشعري ، كانت سعادتي غامرة وأنا أتنفس شعرا يمتلئ به الأثير ، وجمالا تنطق به كل الكائنات ، وتهتف به الطبيعة في كل صورها البديعة الحية ، وألتقي بأصدقاء ـ من رفاق العمر الجميل ـ وأحباء تباعدت بهم المسافات ، وتبددوا مع الريح في كل اتجاه ، ثم أتاح لهم ابن زيدون والتجمع المقام باسمه فرصة التلاقي من جديد ، والتعرف علي ما صنعته الأيام ، بعد أن بدأ زحف التجاعيد وتبدد الشمل وتكسرت الأحلام ، هاهو ذا محيي الدين فارس ـ الشاعر السوداني الكبير ـ بشحمه ولحمه الفائز بالجائزة التكريمية للإبداع في مجال الشعر ـ في مناسبة هذه الدورة ـ والذي لم ألتق به منذ سنوات طويلة ، يجئ مقعدا علي كرسي متحرك ، وقد كان يملأ القاهرة طوال سنوات عاشها بيننا هو وزميلاه المبدعان في الشعر: تاج السر الحسن وجيلي عبد الرحمن ، يملأون الحياة الأدبية حضورا ومشاركة وينشرون قصائدهم الطليعية في صحف مصر ومجلاتها: الرسالة والثقافة والمصري والأهرام والعالم العربي فضلا عن عديد المجلات العربية ، وكانت الخمسينيات زمنا جميلا لمتابعة هؤلاء علي المستويين الإنساني والشعري ، ومن قبلهم كان المبدع الكبير محمد الفيتوري قد سبق إلى وجدان المثقفين والجمهور العام باعتباره شاعرا مصريا سودانيا في وقت واحد ، له نصيبه الموفور من الريادة الإبداعية ، والتأثير الواسع .

واستطاع محيي الدين فارس: الذي ولد عام ١٩٣٦ في جزيرة أرقو بالإقليم الشمالي من السودان ، وأتم دراسته الابتدائية والثانوية بمدينة الإسكندرية ، والجامعية بمدينة القاهرة ، وعمل ـ بعد تخرجه ـ أستاذا محاضرا بكلية بخت الرضا ، ومفتشا فنيا في التعليم ، ثم تفرغ لا نتاجه الأدبي الذي يمتلئ بدواوينه الشعرية: الطين والأظافر

ونقوش علي ظهر المفازة ، وصهيل النهر ، وقصائد من الخمسينيات ، والقنديل المكسور ، وتسابيح عاشق .

قد أتيح لقراء شعره ـ عبر مسيرة نصف قرن من الإبداع ـ أن يتابعوا قدرته علي البناء الدرامي للقصيدة ، ولغته الشعرية المتوترة ، وإيقاعاته القوية الجياشة ، ونفسه الإنساني ، ونزوعه القومي الذي لم تعصف به الأحداث والتقلبات والانكسارات ، قابضا بيديه علي جمرة الشعر الحقيقية دون أن تجرفه الموضات التي زعزت حقيقة الشعر ، وأفقدته إحكامه الفني وعمق تأثيره .

كان صوت محيي الدين فارس ـ في الملتقيات والمهرجانات الشعرية ـ المصرية والعربية : عاليا وهادرا ومجلجلا ، وكان إلقاؤه يتصاعد من طبقة صوتية إلى أخري حتي ليخشي سامعوه تقطع أنفاسه وتمزق أوتاره ، وهو مستغرق فيما يشبه الحلول الصوفي ، ينفصل ويبتعد ، معمقا تأثيره في جمهوره .

لكن الداء اللعين الذي جعله الآن مقعدا ، نتيجة لعمليات جراحية متتالية ، لم يطفئ حماس روحه ووضاءة جبينه ، ولم يضيق من سعة صدره ورحابته لا حتضان أصدقائه ورفاقه ومحبيه ، دون مرارة أو شكوي أو انهزام .

مازلت أذكر قصيدة له عنوانها السلم ، أبدعها من وحي السيمفونية الخامسة لبيتهوفن ، نشرت في مجلة الآداب البيروتية ، وعلق عليها الناقد والمفكر الكبير محمود أمين العالم في إطار قراءته النقدية للعدد الماضي من الآداب (وهو الباب الذي كانت المجلة تحرص علي اختيار النقاد المتميزين للتعليق فيه علي المواد المنشورة في العدد السابق) وكان العالم يعلق علي ما وجده من تشابه ـ أو تناص ـ بين قول محيي الدين فارس:

وأنا أريد وكم أريد
ولست أملك ما أريد

وقصيدة سبقتها للشاعر محمود أبو الوفا ـ صاحب قصيدة عندما يأتي المساء التي تغني بها الموسيقار محمد عبد الوهاب ـ يقول في مطلعها:

أريد وما عسي تجدي أريد
علي من ليس يملك ما يريد

واستمتع قراء الآداب بسجال جميل وطريف بين الشاعر وناقده ، كانت لغة الشاعر فيه متوترة ، تماما كلغته في شعره .

يقول محيي الدين فارس في قصيدة السلم:

مازلت أصعد
وحدي هنا ما زلت أصعد
والليل تمثال مصفد
هجرته آلهة القرون ،
وزايلته رؤي قياصره القديمة
عيناي بالأفق البعيد ترود أرصاد النجوم
تطوي متاهات الغيوم
مازلت أصعد
وحدي هنا ما زلت أصعد
والريح تجذبني بمشجبها العنيد
للقاع ـ يا أختاه ـ تجذبني بمشجبها العنيد
وخواطري البلهاء تعلق بالصدي المنغوم
في الأفق البعيد
وتلم أركان البعيد
وأنا أريد . . وكم أريد
ولست أملك ما أريد
الريح تجذبني بمشجبها العنيد
للقاع يا أختاه ، تجذبني بمشجبها العنيد
لكنني سأظل أصعد رغم إعيائي الشديد
النور في الأفق البعيد
ينداح منسابا خلال سقيفة الغيم الطريد

* *

كم ليلة كنا نشد حبالنا ،
والبئر ما زالت قرارتها بعيدة
كروي متاهات شريدة
والريح تجلدني سواعدها المديدة
زادي احتراق مشاعري ، وضلوعي المتخازلات
متلفت كالطير ، كنت علي طريقي ،
والغيوم مروحات
سأظل أرتقب الحصاد
أختاه قد حان الحصاد ، حصاد عالمنا المجيد
سأظل أصعد من جديد

أكبو وأبدأ من جديد
فلتسخري بي يارياح ،
وقيدي في القاع خطوي
ولتطفئ كل الشموع
سأظل أصعد من جديد !

وفي ختام قصيدته يقول محيي الدين فارس:

لكنني . . ما زلت أصعد
وحدي هنا ما زلت أصعد
وأبعثر الظلمات ، ما زالت دفائنها مخبأة الكنوز
ومظلتي في الهول . . كانت قبة الليل العجوز
أبني وأهدم ثم أبني من جديد
للفجر ، للفجر الذي حنت له نفسي المشوقة
فالبرعم الغافي بأعماقي تفتحه أنامله الرقيقة

هذا الشعر الهادر كالنهر - في جريانه وتدفقه - محملا بطمي السودان الذي أكسبه الخصوبة والعافية ، امتدادا لموجات متعاقبة في الحركة السودانية الحديثة والمعاصرة ، التي التمعت من خلالها إبداعات محمد سعيد العباسي والتيجاني يوسف بشير ومحمد المهدي المجذوب ومبارك المغربي ، وصولا إلى الجيل الذي ينتظم الفيتوري وتاج السر الحسن وجيلي عبد الرحمن ومحيي الدين فارس ، وصولا إلى محمد عبد الحي وروضة الحاج وغيرهم من المبدعين - علي امتداد الزمن واتساع الرقعة والساحة - هذا الشعر هو نبض السودان إنسانا وأرضا وتاريخا وحضارة ، وموروثا صوفيا ضخما ، استقر في القرار البعيد من وجدان عديد الشعراء السودانيين ، وأعطي لشعرهم خصوصيته وتفرده ، وامتلاءه بهذه الروحانية الآسرة ، والمذاق النيلي الجميل .

غير أن الأمسيتين الشعريتين اللتين أقيمتا علي ضفاف دورة ابن خلدون تكشفتا عن موهبتين شعريتين حقيقيتين لم نسمع بهما في مصر من قبل ، أستأذن القارئ الكريم في أن يكونا موضوع حديثنا القادم .

أصوات جديدة في مسابقة شعرية

بقلم : فاروق شوشة

الاقتراب من الواقع الأدبي في مصر ، والتعرف عليه ــ ميدانيا ــ عن كثب ، هو السبيل الوحيد لا كتشاف حقيقته ، والتنبه لما يموج به من تيارات وما يزدحم به من أصوات .

عندئذ يصبح الحكم علي هذا الواقع أقرب إلى الحقيقة ، وأبعد عن الأحكام الجاهزة التي اعتاد أن يصدرها الواقعون في أسر الماضي ، والتغني بعظمة الأجيال السابقة ، والأسي علي حال شباب المبدعين إلى وم ، والمقارنة الدائمة بين ما كان وما هو كائن وما سوف يكون .

من هنا فإني مدين للمسابقة الشعرية التي تمت بمبادرة من مؤسسة البابطين للإبداع الشعري وإذاعة صوت العرب ، وشارك فيها المئات من الشعراء الشباب ــ من مصر والعالم العربي ــ الذين لم يسبق لهم نشر أية دواوين أو مجموعات شعرية ــ مدين لهذه المسابقة التي شاركت في تحكيمها بالتعرف علي كثير من ملامح الواقع الشعري الآن لدي هؤلاء الشباب .

أول هذه الملامح أن ثمة مواهب شعرية حقيقية ، يموج بها الواقع الميداني ، لكننا لا نعرف عنها شيئا ، ولابد من وجود مثل هذه المسابقات الحافزة ، حتي يخرج هؤلاء من عزلتهم وعزوفهم ، ويظنوا خيرا في مجتمع لا يكشف لهم عن بادرة خير تحقق لهم الاستقرار والأمان ومتطلبات الحياة الإنسانية وهم يحلمون ــ بعد الدراسة والتخرج ــ بمسكن أو ما وي ، وعمل يضمن لهم ما يقيم الأود ، وأسرة تعمق في وجدانهم معني الانتماء للوطن .

ثاني هذه الملامح أن الظن الشائع ــ الذي يردده كثيرون ــ وهو أن كثيرا من مبدعي الشباب قد انصرفوا إلى قصيدة النثر هو ظن خاطيء . فالأكثرية الساحقة ، تزال علي علاقتها الوطيدة بحقيقة الشعر في معناه المتكامل . ولا يتحقق له هذا المعني وهذا الاكتمال إلا بكون الموسيقي في نسيجه وكيميائه وخلاياه ، فبدون هذه الموسيقي يظل كائنا ناقصا ، غير مكتمل .

وما أكثر النماذج التي حافظت علي هذا الشرط الشعري الأساسي ولم تخرج عليه ، ولم يشكل هذا الالتزام الموسيقي عبئا أو قيدا علي حركتها وإبداعها ومغامرتها .

ثالث هذه الملامح وهو الأمر المدهش ، أن كثيرا ممن خاضوا غمار هذه المسابقة ، ووصلوا إلى التصفيات الأخيرة فيها ، جاءت لغتهم علي قدر كبير من الصحة والسلامة

والتمكن . من الواضح أنهم تمثلوا التراث الشعري تمثلا واعيا ، ودرسوا جماليات الإبداع الشعري في تجلياته وضروبه وطرائقه المختلفة ، وصدروا ــ فيما أبدعوا ــ عن فهم حقيقي واستيعاب لمتطلبات اللغة الشعرية ، وإدراك للآصرة القوية التي تشدهم إلى شجرة الشعر العربي ، والتي تتيح لهم ــ في الوقت نفسه ــ أن يكونوا أصواتا مغايرة ، وطيورا مختلفة مغردة ، بشرط ألا ينقطع حبل انتمائهم إلى الشعر الذي يبدعون بلغته ، والجسر الذي يعبرون من فوقه إلى ضفاف أخري لم تكتشف بعد .

رابع هذه الملامح أن هم الذات والوطن لحن أساسي يسكن هذه القلوب الشابة والعقول المتفتحة والأرواح الباحثة عن الحق والعدل والجمال . الدنيا من حولهم عابسة وشائهة ومضطربة ، والقيم مقلوبة وزائفة ، والكون كله قد فسد وخلا من قدوة تجعلهم يقبضون علي الجمر وهم سعداء . المعاناة هائلة ، والمسافات بعيدة بينهم وبين العالم الذي يريدون تحقيقه ، بل هي تزداد ابتعادا في كل يوم . لكنهم لم يفقدوا جذوة الإبداع التي تشعل فيهم إرادة الصمود والمقاومة ، ونبض البقاء والتمرد . وفي القصائد الفائزة الثلاث الأولي والسبع التالية التي منحت شهادات تقديرية ــ توهج هذا الرفض والقبول معا : الرفض لكل ما هو زائف وكاذب وعابر ــ في نهاية الأمر ــ والقبول بالتحدي والمخاطرة ، وزهوة الحياة ــ التي تفرض عطرها ــ مهما طغي الفساد وبغي ، وامتد به الأمد حتي ظن أنه أبدي !

هذا اللحن الأساسي ، المتوتر ، بين الذات والوطن هو الوتر المشدود بين كثير من قصائد هذه المسابقة ، يبدأ من مفردات الواقع وتفاصيله ، صعودا إلى ذروة الكشف الصوفي والتحليق الروحي ، وقد يجمح أحيانا فيجمع بين الشعر واللاشعر ، لكنه يظل في قبضة المجيدين من المبدعين شاهدا علي إطلالة شعرية جديدة ، قادرة علي أن تنفض عنها غبار الرحلة وحصي الطريق ، وبعض شوائب البدايات وأن تواصل السعي الحثيث إلى قرب المصب : مصب النهر الشعري .

يقول الفائز الأول في هذه المسابقة : شريف جادالله أحمد عيد ــ من البلينا محافظة سوهاج في قصيدته وهل تبقي لمثلي أمنيات ؟

لي الحزنان : دجلة والفرات
ولي أرض بها سكن الموات
لي الأجفان تنبيء عن شجوني
ولي ليل ترجته الغفاة
ولي قلب جريح قد تولي
ولي وطن بكته النائحات
هنا بالأمس كان لنا عراق

عراق إلى وم تبكيه اللغات

وصولا إلى قوله :
ولي التاريخ يسبح في فراتي
ولكن كل تاريخي شتات
ولي لغة الخيول ، لها صهيل
ولكن أين أين العاديات

الفائزة الثانية رجاء علي محمد من القاهرة تقول في قصيدتها : في م عبد الأشواق – وجاء يروي حكاية عتابهما :

وقفت تعاتبني وفوق شفاهها
نام الأسي كروائع الكلمات
في صوتها رجع الحنين يهزني
كمسافر في م عبد العبرات
قالت رويدك قاتلي ، إني شربت
الوهم من كف الشقاء العاتي
وفراشة النهر التي أطعمتها
دفء اللقاء ورقصة الخطوات

أما الفائز الثالث هشام محمود زاهر . . من الزقازيق . . فيقول في قصيدته سدرة الوصل – شهوة الموصول:

قد نري تقلب وجهك في السماء
فلنولينك قبلة ترضاها (آية١٤٤ سورة البقرة)

* * * *

تهيأت لي
أيها المتشظي علي شاطيء الممكنات ؟
تهيأت لك
أنا
واحد
أيها الجمع إني تعلقت بالمطلقات
وفي برزخ الليل
أسرجت ديمومتي في دم الضوء
بحت . اصطفيتك . .

إذ ذوبتني المقادير فيك
ارتشفت حليب النبوة
من بين عينيك ، أبت
وآبت لي الأرض ،
آبت لي الكائنات
تهيأت لي ؟

علينا أن ننتظر المساحة التي ستشغلها هذه الأصوات الشعرية الثلاثة ، من فضاء الشعر في مقبل الزمان ، آملين ألا يكون الفوز في المسابقة عبئا عليها وقيدا ومدعاة للزهو ووهم التحقق ، فما أكثر الفوز الذي يجيء مبكرا فيقتل صاحبه بدلا من أن يأخذ بيده ويقويه ، وأن نحيي مؤسسة البابطين للإبداع الشعري وإذاعة صوت العرب على مبادرة يصب عائدها في نهر الإبداع العربي والثقافة العربية والانتماء الحقيقي لهذا الوطن .

الروح في سقف الحلوق

بقلم : فاروق شوشة

أ ـ تداعيات بحر الرجز

ياسيدي القابع في ظلامك الوحشي
في إهاب بيتك الذي يحتال للبياض
والبياض ـ في تراثنا
وفي قصائد الجنوبي الذي من حظه غاب ولم يرك ـ
إشارة إلى الكفن !
وأنت في مكتبك الذي تظنه قد هاء لك
وأنه باق إلى الأبد
لسيد الكون الذي ما مثله يوما أحد
لكنما تسكنه معك
عصابة كريهة شديدة العفن
تملي عليك ما تقول
عندما تظن أنك الذي يصول أو يجول
أو يسير الفلك !
وأنت لو تدري مسير مغلول
تساق مثل ثور هائج
في متحف الزجاج والخزف
قرونه معقوفة
ووجهه مكمم
فلا يري أبعد من وليمة تقام
أو جريمة مدبرة
وهو يقاد للدمار كل يوم
ممتلئا بالزهو والخرف
ماض كما مضي الطغاة كلهم
مجردا من الشرف
لأنه بلا ثمن !

* * *

ياسيدي الذي يظن أنه
يحرك الكون الكبير كلما أراد
بإصبع واحدة يشير
ترتج هامة العروش
تمكو فرائص الرعاديد
وتسقط الكراسي التي يعتادها الأقزام والأزلام
والذين يؤمنون أنك الملاذ والسكن
وأنك الذي بدونه لا يمكثون ساعة
لأنهم خدم
وأنت ـ في قاموسك المليء بالخداع والكذب ـ
تمد في حبالهم
تطيل في أعمارهم
كأنهم بعض عقار موشك ، ومرتهن
ياسيدي: أنت ، وهم ، والتابعون
لا تعرفون ما الوطن !

* * *

هبك امتلكت هذا الكون كله
وصار رهنا للمشيئة المضللة
فما الذي يغريك بعد ؟
ماالذي يضخ في دمائك العطشي
لكي تواصل الولوغ في الفرائس المكبلة ؟
لا شيء يوقظ اشتهاء ،
أو يقود للمغامرة
وأنت كاسف ، مشتت ، حزين
تبحث عن جريمة جديدة
وعن فضاء لم تلوثه حشودك المكابرة
حين تعود بعد رحلة الغياب خاسرة
تلعن من يقودها لحتفها المهين
وأنت منتش تواصل المقامرة !
لو كنت تدري كم يحبك الجميع لا نتحرت !
لم يحظ فاتح بحبنا كما حظيت أنت
ولا دعت له الأيامي واليتامي والسبايا

والهالكون في مجازر الضحايا
ولم يهلل باسمه أطفالنا المزقون في المخيمات
والنسوة اللاتي تهدمت علي رؤوسهن
أحلام أعمار تئن في خرائب البيوت
تناثرت أجسادها شظايا
خرجن كي يهتفن لك :
طوبي لصانع السلام
من رأسه في الرمل كالنعام
ومجده لا خر الزمان ، قائم إلى الأبد
طوبي لمن ليس يري في كل طفل سوف يولد
إلا احتمال قنبلة
في وجهه ستنفجر
وأصبح الذين ينطقون باسمنا
يرددون ما يقوله الرب الجديد
ويتحفوننا به ليل نهار
القول قوله ، والوصف وصفه
وكل ما يقوله مقدس مصون
لكنهم لا يدركون
بأن أغبي الأغبياء لم يعد يصدق الكلام
وهو يراه عائما كما الزبد
هذا الذي يصون بيته وزيته وأرضه
ويسترد قدسه وعرضه
هو الفدائي الذي دوي صداه وانتشر
يرجم صهيون اللعين بالحجر
وحين ما ت العدل ودع الوجود والبشر
وصاح صيحة الحياة . . وانفجر
لما رأي أن الجميع . . لا أحد !
قد آن أن يسمي باسمه ، علي حقيقته
هل تملكون نطقه ، هل تجرؤون ؟
مهما فعلتم ؟ أو سكتم عندما جبنتمو
فلن تغيروا مسيرة القدر !

ب ـ نهايات بحر الكامل

ماعاد في المصباح زيت
والروح في سقف الحلوق تئن
تلعن ما فعلت ، ومانويت
الأرض تطوي ،
والديار تعود تاريخا ،
وأطفال البلاد يفتشون في كوم الخرائب
عن كتاب العدل ، عن كراسة فيها
توقفت السطور ، وعن كليمات
تموت علي الورق
ماعاد يجديهم بكاء الناس
واستصراخهم لك كي تطل عليهم
بعسي
وليت !
ماعاد في المصباح زيت
فانظر ليومك ، حين تنطبق السماء عليك
حين يصير صهيون اللعين حكاية تروي
لأطفال يحبون الحياة ،
ويطلقون طيورها في كل بيت !

الشرنوبي وقصيدته المحمدية

بقلم: فاروق شوشة

في كـل مـا قرأتـه مـن شـعر المـدائح النبويـة ، للـشعراء القـدامي والمحـدثين والمعاصرين ، تظـل قـصيدة نـشيد الـصفاء للـشاعر صـالح الـشرنوبي ـ الـتي سمـي جـامعو شـعره باسمهـا ديوانـه ـ في طليعـة هـذه القـصيدة روحـا واحـساسا ووعيـا شـعريا مختلفـا ، ودلالـة علـي التيار الروحـي المتغلغـل في أعماقـه يغـذي نفثـات هـذه الـروح ، ويغمرهـا بعطـر بـاق لا يـزول ، ويجعـل مـن موقـف الـشاعر علـي مـستوي التوحـد والانخـلاع والاسـتغراق في الوقـت نفـسه حـالا وجوديا ، ويقينـا ايمانيـا ، واشـراقا صـوفيا ورحلـة مـع الأحـلام الـتي تنتزعـه ـ ولـو قلـيلا مـن عالم الواقع القاسي الشديد المرارة والجحود والنكران .

مـن هنـا كـان طبيعيـا أن يفـزع الـشاعر إلى تلـك الواحـة الظليلـة الـتي رعاهـا في نفـسه ، حيـث يجـد قـدرا مـن الطمأنينـة ، وشـيئا مـن الرضـا وتخفيفـا للايقـاع الهـادر الـذي يجرفـه بلا هوادة ويلقي به في هوة الوحشة وظلمتها الكثيفة .

وربمـا يكـون الهمـشري ـ بهـذه النغمـة الروحيـة الـصوفية في شـعره ـ مختلفـا عـن الـشعراء الرومانـسيين في زمانـه ، وشـعراء أبـو للـو الـرواد الـذين سـبقوا ومهـدوا الطريـق لجيلـه الـذي اتـيح لـه ان يعـايش البـواكير الأولـي في حركـة الـشعر الحـر ، والتباشـير الاولـي للاتجـاه الـواقعي في القـصيدة انغماسـا في القـضايا الوطنيـة والقوميـة ، وانخراطـا في صـميم الحركـة التحريريـة المـصاحبة لهـذه القـضايا وامـتلاء بمفـردات هـذا الواقـع ومعجمـه البعيـد عـن معجـم الرومانسيين الكبار .

والـشرنوبي في حياتـه القـصيرة العاصـفة (١٩٢٤ – ١٩٥١) الـتي انتهـت بمـصرعه تحـت عجـلات قطـار الـدلتا في بلدتـه بلطـيم قريبـا مـن بحـيرة الـبرلس وهـو هـائم مـا خـوذ اللـت بخيالاتـه واحلامـه ويبحـث ويفكـر في معـني الوجـود وحقيقـة الكـون وموضـع الانـسان فيـه وكانـت تأملاتـه الـتي حجبـت عنـه صـوت القطـار قـد سـيطرت عليـه مـن زمـن مـضي عنـدما آثـر الاقامـة في مغـارة المقطـم مـدة تزيـد علـي شـهرين ابـدع فيهـا قـصيدته القـاهرة وبـدأ شـعور المـوت القريـب يـسيطر عليـه يومـا بعـد يـوم ويحـاول ان يـرد عنـه الاحـساس بعبثيـة الحيـاة متـشبثا بإيمانـه ومـشاعره الدينيـة الـتي كانـت دومـا تنقـذه مـن الاثـر الـذي يتركـه فيـه مثـل قولـه : مـن انـا مـن أكـون مـا كنـت ؟ مـا بـدء وجـودي ؟ مـتي تكـون النهايـة ؟ / مـا وراء الحيـاة ؟ مـا غايـة الـدهر ؟ ومـا كـان قبـل بـدء الروايـة ؟ كـان مـن أوجـد الـوري مـن تراب ، وله في الوجـود أعظـم آيـة / ثـم مـا ذا ! صـمت وعـي وعجـز وظـلام وحـيرة وعمايـة / وشـكوك تعـب أيـام عمـري وتـريني ضـلالتي كهدايـة / ومقـادير تـستحث خطانـا وهـي تجـري بنا إلى غير غاية .

في مثـل هـذا الموقـف الـذي يـشبه حائطـا مـسدودا وجـدارا عـازلا ، تـصبح قـصيدته نـشيد الـصفاء الـتي يقـول في إهـدائها: إلى حبـيبي وسـيدي محمـد بـن عبـد الله نـبي الجهـاد والألم تـصبح علاجـا وشـفاء ، ومحاولـة للانطـلاق والتحليـق ، فـوق الألم والـضعف والمعانـاة .

يقـول صـالح الـشرنوبي: مـن تـرانيم وحيـك القدسـي وأفـاويق عطـرك الروحـي / مـن هـواك الـذي اسـتفاقت علـي أشـواقه مهجـة الوجـود الخلـي / مـن هـداك الـذي طـوي الـبر والبحـر ، وأعيـا مواهـب العبقـري / مـن صـلاتي عليـك في غـسق الليـل وفي ضـحوة الـصباح السني / اقـبس الـشعر وهـو قربـان روحـي ، ونـصيري علـي الزمـان العـصي / فـإذا مـا اعيتـه آياتـك الغـر فمـا كـان خـافقي بـالعيي / فاعـذر الـشعر فهـو شـعر تـراب لم يطهـر مـن رجـسه الارضـي / أنـت اسمـي منـه فانـت نـبي لا يفيـه الثنـاء غـير نـبي / أيهـذا الامـي يـا ابلـغ الخلـق بيانـا قدسـت مـن أمـي / ايهـذا إلى تـيم حـسبك فخـرا ان تـري الله منـك خـير وحـي / أيهـذا الفقـير إلا مـن الخـير تعاليـت فـوق كـل غـني / ايهـا الـصامت الـذي أيقـظ الكـون بنجـواه للعزيــز العلــي / ايهــا الاعــزل الــذي قــد تحــدي امــة لم تلــي لغــير غــوي / اظمأتهــا الآثــام فاسـتبقت تـسأل عـن منهـل هنـاك روي / انـت رؤيتهـا وكنـت لهـا الظـل ففـاءت إلى الطريـق الـسوي / وانـا الظـامئ الـذي خيلتـه نـار آثامـه فـضيعت حـريتي انـا مـن اغرقتـه آثـام دنيـاه بـأمواج بحرهـا اللجـي / والـي الله كـم تعـوذت مـن نفـسي وشـيطانها المريـد العـتي / كلمـا مضني من النفس وسواس تدرعت بالرجاء الهني .

وفي ختـام قـصيدته نـشيد الـصفاء يكـشف الـشرنوبي عـن شـدة احتياجـه وعمـق رغبتـه في التطهـر ، والـصفاء ، الروحـي ، والتغلـب علـي مـا يواجهـه مـن كـروب الحيـاة وآلام العـيش مـا دا يديـه بهـذا الرجـاء وهـذا الابتهـال . يـا نـصيري اذا دهـتني الرزايـا ، وانيـسي في وحدتي ونجـي / يـا حبيبـا اغـني فـؤادي عـن كـل حبيـب وصـاحب وصـفي / انـت فجـر اطـل والليـل داج فمحـا الليـل بالـشعاع الـسني / أنـت بيـت القـصيد والكـون شـعر واسمـك الحلـو فيـه مثـل الـروي / انـت مـن ذكـره علـي القلـب انـدي مـن نـدي الفجـر والنـسيم الرخـي / انـت الهمتني الصفاء علي الكرب واصبحت كالشعاع النقي .

من يتغني بربيع الأندلس ؟

بقلم: فاروق شوشة

علي مدي تسع دورات أقامتها مؤسسة البابطين للابداع الشعري - علي امتداد أربعة عشر عام ا - قدمت جوائز الابداع الشعري للشعراء: محمد الفايز (الكويت) ، عبد العليم القباني (مصر) ، محيي الدين خريف (تونس) ، فدوي طوقان (فلسطين) ، نازك الملائكة (العراق) ، سميح القاسم (فلسطين) ، سليمان العيسي (سوريا) ، ابراهيم العريض (البحرين) ، محيي الدين فارس (السودان) . وكان هناك إلى جوار هولاء - شعراء عديدون فازوا بجوائز أفضل ديوان وجوائز أفضل قصيدة ، بالاضافة إلى جوائز نقد الشعر التي فاز بها في الدورة الأخيرة الدكتور أحمد درويش عن كتبه المؤلفة: متعة تذوق الشعر ، في النقد التحليلي للقصيدة المعاصرة ، في صحبة الأميرين أبي فراس الحمداني و عبد القادر الجزائري ، وكتابه المترجم: النظرية الشعرية .

وفي دورة ابن زيدون الأخيرة ، كان الفوز بأفضل قصيدة مناصفة بين الشاعرين عبد الرحمن بوعلي (المغرب) وسيد أحمد مرسي (مصر) ، وقد فاجأني أن الشاعر المغربي هو ايضا استاذ جامعي ، ولد في مدينة وجدة المغربية عام ١٩٥٤ ، حاصل علي دكتوراه الدولة في الأدب العربي (تخصص الأدب الحديث) من جامعة محمد الخامس في الرباط ، وبالاضافة إلى كونه أستاذا بكلية الآداب والعلوم الانسانية في وجدة فهو رئيس وحدة التكوين والبحث في الأدب المغاربي الحديث والمعاصر ، وأن له من الدواوين الشعرية: أسفار داخل الوطن ، الولد الدائري ، وردة للزمن المستحيل ، الأناشيد والمراثي ، تحولات يوسف المغربي ، وله من المؤلفات الأدبية والنقدية ، في نقد المناهج المعاصرة ، التحليل السيميوطيقي للنص الشعري ، نظريات القراءة: من البنيوية إلى جمالية التلقي ، المغامرة الروائية ، نبيل سليمان: قرن من الكتابة الروائية .
القصيدة الفائزة بالجائزة هي التي أطلق اسمها علي مجموعة تحولات يوسف المغربي رأت فيها لجنة التحكيم صورة درامية للوضع الفاجع في المشهد العربي الراهن ، وان الشاعر يستخدم فيها رموزا تراثية كمعادل فني موضوعي للوضع النفسي المتأزم ، فهو يتكئ علي قصة يوسف القرآنية ، ويجعل منها محورا أوليا ينهض عليه النص ، بالاضافة إلى اتكائه علي رمز قرآني آخر هو سفينة نوح ، الأمر الذي أكسب نصه الشعري عمقا في الرؤية وتداخلا بين الأزمنة والأمكنة ، وألفة لدي المتلقي من خلال إحياء الذاكرة التاريخية ، وحمت النص من الوقوع في حمأة الشعارات المؤقتة ، والانعكاس العاطفي السهل ، والشاعر - في رأي لجنة التحكيم أيضا - يمتلك في هذه القصيدة مخيلة شعرية

تركيبية تفاعلت من خلالها كل الخصائص التعبيرية للغة ، فحققت الامتاع الفني وأكسبتها جمالية آسرة ، ويتسم النص بسلاسة وتدفق وعفوية في الأسلوب ، وتنويع في القوافي يتلاءم مع المواقف المتغيرة ، وسياق نغمي جنائزي يجسد الحالة المأساوية للحاضر العربي ، وتتجاوب فيه الموسيقي الخارجية والموسيقي الداخلية وبذلك يؤدي كل عنصر من العناصر الفنية دوره في اتساق مع بقية العناصر ، مما يشكل لوحة فنية كاشفة ومؤثرة ومبدعة .

يقول الشاعر المغربي عبد الرحمن بوعلي في قصيدته الفائزة:

ياهذا الطالع من أبراج الوقت
ومن رائحة الطين
ومن ألواح الموتي
هل تكفيك بلاد نسيت وحشتها
في هذا الزمن الفج ؟
وهل تكفيك مينرفا المجنونة
إذ تخطو خطوتها الأولي
نحوالحكمة والصمت ؟

وهل يكفيك هوراس المخبول
وسقراط الأخرس ؟
هل يكفيك دمي
هذا المنشور علي حبل غسيل ؟

وهل تكفيك حروف
كتبت بمداد ممهور ؟
وهل يكفيك المتنبي التائه
في ملكوت الناس
ياهذا الطالع من أبراج الوقت
لاشئ يسليك الآن

ولاشئ تري في جهة القلب
سوي طوفان سيجئ
ولا شئ يؤصل فيك الفرحة

غير نواح الروح الثكلي
فبأي الأرض ستدفن
يا ما لك أسرار اللغة الأولي ؟

في ختام القصيدة يقول:
لك أن تصرخ:
آه ما أبلغ هذا الصمت
وما أبهي الصورة في المرآة
وما أوسع هذا الجب
وما أقسي عيشك يا يوسف
بين ذويك !

أما أولي قصائد ديوانه الأناشيد والمراثي وهي بعنوان: صورة في المرآة فتقدم لنا ملامح أخري من وجهه الشعري ، الوجه المغرق في الحزن والتأمل ، والقدرة علي التكثيف ، تكثيف اللحظة والصورة والمعني والفكرة ، والرسم بضربات حادة سريعة من ريشته ، وهو يقول:

ما الذي أشعل النار في صدرنا
كي نزيح الغمام الحزين
بعد ليل طويل ؟
فما الذي أفرغ الكأس
كي نحتمي بالمفازة
أو نهاجر ،
أو نشتهي أرضنا ؟

ما الذي سوف يدني ثمارا تروح
وأخري تجئ
سوي الحزن
هذا الذي يستريح هنا
فوق نعش قديم
أو علي صدرنا !

الموهبة الشعرية الثانية التي توهج حضورها الشعري من خلال الأمسية الشعرية الأولي في المهرجان تمثلت في الشاعرة الأردنية نبيلة الخطيب ، التي استرعت انتباه

المتلقين من اللحظة الأولي وهي تلقي قصيدتها عاشق الزنبق مصورة ملمحا من طفولتها عندما كانت لها دار محوطة بالزنابق ، وكان فيها عصفور أخضر تعشقه ثم حدث أن هجرت المكان وهجرته ، فلما عادت عاد لها ، فقالت تخاطبه:

ماذا أتي بك ؟ قال: الوجد والوله
فطرت زهوا ، وخلت الكون لي وله
وكيف تقبل والأيام غادية
علي تحمل طيف العمر أوله
أبعد هذا الفراق المر تذكرني
من أبرم الوعد في حين وأجله

أما ديوانها ومض الخاطر فيكشف عن مدي اتساع أفقها الشعري ورحابته ، واليسر المتمكن الذي تبدع به قصائدها ، ساكبة فيها من روحها الأنثوية ، وروحانيتها الشديدة الشفافية والتوهج ، والاحتواء الإنساني للعديد من التفاصيل والجزئيات الصغيرة الدالة ، تقول في مقطوعة عنوانها: دين:

ما بين الليلك والينبوت
كانت تتماري الأيام
علي صفحة ياقوت
كان أبي يحملني بين ذراعيه
يزرع نجما في رأسي
كان يعلمني لغة
لا يفهمها إلا سكان الغيم

كان أبي يقطف
من كل نهار
غرة يوم
ويرضع عمري
من حضن المهد
إلي التابوت !

وتقول في مقطوعة ثانية عنوانها تفرد تكشف عن كبرياء وشمم واعتزاز بالذات:

أرفض أن أغدو لؤلؤة
في واسطة العقد

يسبقني قبل ويتلوني بعد
فأنا شرف الفارس
في آخر معركة العمر
وأنا للنهر المجري والجريان
والدرة في تاج السلطان
لا يفقدها إلا ميتا
أو مطويا . . في ذل الأسر !

يبقي من عطر هذه المهرجانات والملتقيات لون جميل يصحبنا ونتمني ألا نفارقه ، وكلمة جميلة تستقطب عالما بأكمله : اعتصارا وحضورا ، ودمعة في عين أسيانة وقفت تتأمل حجرا كان ذات يوم تاج حياة ودرة عقد حضارة وتاريخ . وقد كانت دورة ابن زيدون في قرطبة هذا كله وأكثر ، ولابد أن سحابة المحبة التي أمطرت علينا في ختام المهرجان قد أنبتت الآن شجيرات صغيرة ، ثمارها ريانة وقادمة ، فمن يتاح له - يا تري - أن يشهد موسم القطاف ، ويتغني بربيع الأندلس ؟

يوسف نوفل واستشفاف الشعر

بقلم : فاروق شوشه

عندما يكون العنوان استشفاف الشعر وهو عنوان جديد ولافت ، فلابد أن نتوقع متعة مغايرة في حديث النقاد والدارسين عن الشعر ، وهو ما يلمسه القاريء بالفعل في هذا الكتاب الجميل للدكتور يوسف نوفل ـ الأستاذ بكلية البنات جامعة عين شمس ـ والشاعر الذي أصدر حتي الآن ثلاث مجموعات شعرية هي: كما تهاجر الطيور ، وشلالات الضوء ، ومرايا المتوسط . كما سبق هذا الكتاب ، في سجل دراساته الاكاديمية: رسالته للماجستير عن صورة المجتمع المصري في الرواية المصرية ، ورسالته للدكتوراه عن محمد عبد الحليم عبد الله وفنه القصصي ، وكتبه عن الفن القصصي بين جيلين: طه حسين ونجيب محفوظ ، والقصة بعد جيل نجيب محفوظ ، وأصوات النص الشعري ، ونقاد النص الشعري ، وبناء المسرحية: رؤية في الحوار ، وإنجازه الضخم الذي هو قيد الطبع الآن: ببليوجرافيا ديوان الشعر العربي الحديث منذ الحملة الفرنسية حتي الآن ، وهي علي مستوي العالم العربي كله ، وسوف تصدر ضمن مطبوعات دار الكتب المصرية .

لابد أنه توقف كما يقول في مقدمة الكتاب ـ أمام ما هو مقبل عليه متسائلا عن العنوان الملائم ، هل يقول مباشرة ـ كما قال غيره ـ قراءة الشعر ؟ أم يقول ما يؤدي المعني ذاته ، الشاعر والكلمات ، أو السفر بالكلمات ، أو الكلمات المسافرة ، أم أن الذي يقدمه ما هو الا استجابة الكلمات أو هو الفعل ورد الفعل واستشفاف الشعر ؟ .

في تحليل دقيق وأمين للساحة النقدية الآن ، وما يدور فيها ، وما يقال عنها ، يبدع الدكتور يوسف نوفل نصا نقديا جميلا يقول فيه: كثيرون أولئك الذين تنبهوا في وقت باكر إلى ما قطعته مهمة قراءة النص من أشواط مترامية الأطراف ، فقال بعضهم ، قد توجد مناهج للنقد بقدر رغبتنا في ذلك ، غير أن اي منهج من هذه المناهج ليس هو المنهج الوحيد للنقد .

الساحة النقدية أكثر انقساما من أي وقت مضي ، حتي وضعوا ما سمي بالمواقف الجديدة خلال السنوات الأخيرة بأنها تحيزية أو هامشية أو تخمينية ، وحتي أطلق البعض عليها التشويش والفوضي النقدية ، ثم مضوا يتحدثون عن وضع بعض قراء النص أنفسهم في مركز الاهتمام ، واهتموا بالأثر الذي يحدثونه هم أنفسهم لا ما يحدثه النص ، بإحلال أيديولوجياتهم ونظمهم المفاهيمية ، واستعراض معارفهم الواسعة ، بدل استعراض معمارة النص ذاته ، هياما بالمفاهيم الطنانة . وإغناء جدل أجوف بالأسماء والمصطلحات الهجينة الرائجة والمستوردة ، والأقوال المأثورة ، وتقليص النقد إلى

عملية التسلية للمتضلعين في العلم ، إلى ناد لهواة الحديث ! مع ظهور احتجاجات عليه ، وعلي استعراض العضلات وتضخيم الشخصية والحذلقة ، حتي صار الأكثر مركزية في عملية النقد ، النقاد أنفسهم لا الأدب .

لقد سمي بعض النقاد هذا الأمر بالإبهار تارة ، والنرجسية تارة ، وفقدوا تحويل النقد إلى لعبة خاضعة للتغير المتواصل ، الذي يفقد الثقة ، حتي قالوا : إن النقد يشوه الأدب ووصفوا بعض النقاد بالمتحذلقين ورأوا ما صنعته فروع إنسانية بالنقد إغارة علي الأدب .

لقد هالهم أن كل إقليم من أقاليم النقد يريد إلى وم أن يحصر نفسه في عنصر واحد فقط وفقا لنظرية الاتصال ، وهالهم ذلك التعدد ، إذ لا توجد قراءة بريئة كما أنه لا توجد عيون بريئة هكذا وصل الأمر ـ في رأي يوسف نوفل ـ أن رأي البعض في مبالغات المفسرين لعبة أفعوانية شيطانية ، مذكرين بما قاله رينيه ويليك : إن النقد هو بالضرورة مفهوم متنازع عليه هناك ، كما يبدو ، حرب شعواء بين الاتجاهات الرئيسية : التقويمية الحكمية ، والشخصية ، والعلمية ، والتاريخية ، وهو تأزم لم يكن قد هدأ في أواخر سبعينيات القرن الماضي .

وثارت تساؤلات : هل تستخدم الشخصية لفهم النص ؟ أم النص لفهم الشخصية ؟ وبرزت مقولة سيكولوجية الخلق الفني .

وهذا التعدد انعكس بدوره علي القراءة النقدية ، ذلك أن قراءة النص تأرجحت بين مناظير متعددة من التفسير وأحكام القيمة ، والنمذجة ، والمتعة والجماليات ، والسيميائية ، والنفسية ، والسوسيولوجية ، والتأويلية ، والظاهراتية ، والأنثروبولوجيا ، وكتاب السيرة ، والماركسيين ، والفرويديين ، والأسطوريين ، والشكليين ، ونقاد النص . وطلاب التلقي الجمالي ، والتعدد البنيوي ، ومن وصف النقد بأنه نشاط اجتماعي ، أو معرفي ، أو مرآة عاكسة !

الدكتور يوسف نوفل يتكيء في كل هذه المقولات القائمة علي احساس عميق بمشكلة تعدد اتجاهات النقد ومدارسه ، إلى كتاب شديد الأهمية والجدة عنوانه ما هو النقد يقوم علي طرح هذا السؤال ما هو النقد ؟ علي أربعة وعشرين ناقدا أمريكيا ، بدت إجاباتهم مدهشة للتعددية النقدية حتي ما ل بعضهم للتهكم أو الهجوم علي بعض المبالغات ، وكان ذلك منذ نحو خمسة عشر عام ا ، وأشرف علي الكتاب بول هيرنادي وترجمته سلافة حجاوي (بغداد / دار المأمون عام ١٩٨٩) .

لكن كل ما اكتنزه الدكتور يوسف نوفل من وعي وخبرة ، وما حصله من معرفة وامتلكه من حس شعري وفني ، يتألق أكثر ما يتألق في فصول الكتاب التي يطبق

فيها مفهومه عن الاستشفاف وهو يتعامل مع أعمال شعرية كاملة حينا ، ونصوص شعرية ودواوين حينا آخر ، ولأن ثقافته تبدأ من البعد التراثي العريق فهو يذكر ما جاء في لسان العرب: شف الثوب إذا رق حتي يصف جلد لا بسه ، والشف والشف: الثوب الرقيق ، وقيل ، الستر الرقيق يري ما وراءه ، واستشف الستر ، ظهر ما وراء ، واستشف هو: رأي ما وراءه . وتقول للبزاز: استشف هذا الثوب: أي اجعله طاقا وارفعه في ظل حتي أنظر أكثيف هو أم سخيف . ونقول ، كتبت كتابا فاستشفه: أي تأمل ما فيه . واستشف الماء: نقص شربه ، واستشففت ما في الإناء ، شرب جميع ما فيه .

فاستشفاف النص إذن - في رأي يوسف نوفل - ليس موقفا توفيقيا أو تلفيقيا ، لكنه يعني عدم الاقتصار علي جانب واحد ، بل سلوك الدروب الموصلة كلها ، كما أنه لا يقيم بناء منهج علي أنقاض منهج آخر ، بل يستخدم كل أداة قد تسهم في استشفاف النص لقراءة ما وراءه ، ، وتأمل كل ما فيه .

يقول: وفائدة هذا المنهج أنه يفتح أمام النص كل فرصة من فرص القراءة الفعالة في سبيل الكشف عن أقصي قدر ممكن من الغطاء وإظهار أقصي قدر ممكن من الخفاء ، مع الأخذ في الاعتبار أن من النصوص الشعرية ما يصلح لهذا المنهج ، ومنها ما لا يصلح ، وما في النصوص قد يظهر بأداة ، وقد لا تظهر أداة أخري من أدوات القراءات (لا القراءة الواحدة) من: التقصي ، والتعليق ، والتأويل ، والتفسير ، وتاريخ الأفكار ، والبحث عن المعني ، والتحليل ، وتتبع الأصوات: التراثية - الشعبية - الفولكلورية - التاريخية ، بل ان هناك من ينادي بالدراسة النصية الشفهية .

وحيث إن القراءة: قراءات ، فالاستشفاف واجب ! ! تتناول كتاب استشفاف الشعر فضاء النص الشعري وجدلية الزمان والمكان ، والاظهار والتخفي ، والكشف والإغلاق ، وكيف أن التناصية تناصيات ، والأبنية الموسيقية ، وصلاح عبد الصبور (سيرة فنية) وصوت الشعر الشعبي ، وشعراء سينا والقناة ، وشعرية السخرية .

في تناوله لشعر صلاح عبد الصبور - مثلا - يقول إن شعره متجه نحو استبطان النفس الانسانية بأحزانها وفشلها وقهرها ، وكأن ذلك الأعرابي الذي قيل له ، ما بال المراثي أجود أشعاركم ؟ فقال: لا ننا نقول وأكبادنا تحترق . وفي شعره نجد تصوير القيم والمباديء المستوحاة من السلوك الشعبي وموروثه:

قلتم لي
لا تدسس أنفك فيما يعني جارك
أو يصور الناس في بلاده وبلادنا ، أي الفلاح المصري البسيط المكافح .

غناؤهم كرجفة الشتاء في ذوابة الشجر
وضحكهم يئز كاللهيب في الحطب
خطاهم تريد أن تسوخ في التراب

أو يصور الشتاء علي نحو يفلسف فيه منهج الانسان في نظرته المستقبلية:
ينبئني شتاء هذا العام أننا لكي نعيش في الشتاء
لابد أن تحزن من حرارة الصيف وذكرياته
دفئا . .
لكنني بعثرت كالسفيه في مطلع الخريف
كل غلالي ، كل حنطتي وحبي

كما يصور السلام ، وكيف أن المصريين يحبون السلام ، مستعينا بموروثات دينية شعبية ، ما زجا بين تلقائية الشعب وعالمية المدلول لكلمة السلام:

أهل بلادي يصنعون الحب
كلامهم أنغام
ولغوهم أنغام
وحين يسغبون يشبعون من صفاء القلب
وحين يظمأون يشربون نهلة من حب
ويلغطون حين يلتقون بالسلام
عليكمو السلام
عليكمو السلام !

يتبني يوسف نوفل في كتابه عن استشفاف الشعر مقولة جان إيف تادييه: لقد صار النقد مساويا للأعمال التي يحللها - وهي مقولة أوردها في كتابه النقد الأدبي في القرن العشرين - صدرت ترجمته عن مركز الإنماء الحضاري في حلب عام ١٩٩٣ - وأصبح النقاد كتابا بارعين أيضا . إنهم يمارسون الكتابة في سطور الآخر ، ويخرجون منها إلى نصوصهم الخاصة ، مما أدي إلى انتفاء النقاد - وأصبح جوهر العملية النقدية: الكتابة في مواجهة الكتابة . فليس هناك هوية خاصة تدعي المؤلف ، كما أنه ليس هناك هوية خاصة تدعي الناقد . يضاف إلى ذلك كله ، الممارسة الايجابية النقدية للمبدعين ، مصداقا لمقولة بودلير: الشعراء الكبار يتحولون تلقائيا وحتميا إلى نقاد ، ذلك أن الشعر حالة خاصة من القراءة الأدبية . ولقد أثبت يوسف نوفل بكتابه البديع ، أن النص

فـضاء شـفاف يـشف عـن مكنونـات عديـدة نحجبهـا إذا اقتـصرنا علـي عدسـة واحـدة ، ونقترب منها أكثر اذا استخدمنا منهج الاستشفاف المؤدي إلى الاستكشاف !

شاعر يحب في خريف العمر

بقلم: فاروق شوشة

الشاعر الذي أتحدث عنه هو ياسين الأيوبي الشاعر اللبناني ، الذي صدر ديوانه الأول: مسافر للحزن والحنين١٩٧٧ ، وديوانه الثاني: قصائد للزمن المهاجر١٩٨٣ ، وديوانه الثالث: دياجير المرايا١٩٩٢ ، وديوانه الرابع: منتهي الأيام١٩٩٥ ، بالإضافة إلى كونه أستاذا جامعيا للدراسات الأدبية والنقدية الحديثة والمعاصرة ، أما مناسبة الحديث عنه ، فصدور ديوانه الخامس: آخر الأوراد ـ عن اتحاد الكتاب اللبنانيين ـ منذ شهور قليلة ، وهو يهديه إلى المرأة العظيمة التي فجرت في كوامن الحب ، وأنا في خريف العمر . . إلى ها قائلة لي ذات لقاء: في عينيك شيء من بريق أسمر يذكرني دوما بأني من ضلعك الدافئ ، خلقت أنثي ! . . ويبدو أن موضوع خريف العمر يستوقفه ويؤرقه ، ويجعله في حالة مواجهة مع نفسه ، هل يليق به هذا الحب الذي يجرفه وهو في هذه السن المتقدمة ، لذا فهو يستعين في استهلال الديوان بكلمات الروائي الكولومبي المعاصر جابريل فمارثيا ما ركيز: سأثبت للرجال مدي خطئهم حين يفكرون أنهم سيكفون عن الحب عندما يشيخون ، دون أن ينتبهوا إلى أنهم يشيخون فعلا عندما يتوقفون عن الحب ، ثم يستشهد ياسين الأيوبي الذي يشتعل بالحب وهو في خريف العمر ، بالشاعر الألماني جوته الذي أحب وهو في الثانية والسبعين فتاة في التاسعة عشرة ، وهي ابنة امرأة كان يحبها من قبل ، كما يستشهد بالكاتب الأمريكي الروسي الأصل ، نابكوف من خلال روايته الشهيرة لوليتا ، وبسعيد عقل الشاعر اللبناني الكبير في اعترافاته الأخيرة علي شاشة التليفزيون ، وبالجواهري شاعر العراق العظيم في غزواته العاطفية كلما قصد منتجعات أوروبا الشرقية ورياضها ومتنزهاتها ، مستجما في كنف الجمال الأنثوي الغض .

فإذا سألناه: ولماذا تلتمس العذر في التمثل بهذا الشاعر أو ذاك ، وهذه السيرة وتلك ، وكأنك تدافع عن عيب وقعت فيه ؟ كان جوابه: ومتي كان الحب يعرف عمرا وحدودا ، فيتعاطاه الناس في مواسم وفصول ، ويكفون عنه بعد ذلك ؟ ألا يقول جوتة في كتابه الخالد البديع آلام فرتر إن كل من له قلب وبصر وذوق ، لا بد له من الاهتزاز والتأثر أمام مفاتن الجمال ، والشوق والحنين لا متلاك هذا الجمال والتواصل معه .

وإن ما اعتراني من تجربة الحب المتأخرة ، كان بمنزلة الإعصار الذي قلب أديم الحياة رأسا علي عقب ، فسالت دماء جديدة ، وتضرجت وجنات ، وتدفقت جداول وأنهار في جداول الذات ، وتفتحت الأكمام عن براعم وأزاهير عبق بها الوجود ، وانعقدت ثمار الكروم والبساتين ، وتعانقت أطيار الفصول بعد طول قبوع ، واشتعلت

حرائق الشعر الذي تملكني حياله قنوط شديد ، فاندفعت القصائد من عقالها تغني بواكير الضوء المتفتح في أروقة الفلس .

لقد وجدتني بين ليلة وضحاها بعد تقاعدي الوظيفي عاشقا عشرينيا مضرب الأوصال ، محرور الفؤاد ، شارد اللب ، متقد الأماني ، والتصورات العذاب ، صريع الرؤي الداكنة ، لا يفتأ لسانه يلهج بذكرالحبيبة .

ماكنت أحسب أنني في أخريات العمر ـ يغمرني كري الأعماق ـ يغسلني جوي الأشواق ـ موصول الرؤي في سكرة المحموم .

ماكنت أحسبني سأولد ـ من خزام الوجد ـ يجتاح المحيا ـ آه من اللهب المعتق ـ تنحب الوجنات فيه ـ كما اختناق الضوء ـ يجلو خافقيا .

أيكون مولدي احتراقا للوداعة والسكون ـ وتوجعا لمراشف الدمع الهتون .

ما كنت أحسب ياحبيبة ـ أن موقدة تؤج من انتحابك ـ عندما باح الفؤاد وهمت الشفتان ـ أن تروي اختلاجات الحنايا ـ انتاب وعيك هاجس المرتاب في مر المصيد ـ فاهتاجت الرئتان واصطخب الأثير ـ فجرت دموع العين تحرق وجنتيك وتعصر المخضوضر الريان من عبق نضير .

ذاك انبهاري ياحبيبة ـ بعد دهر من سبات الزعفران ـ فقت البراكين ـ اعتليت قباب هاجرتي ـ نفضت غبار آخرتي ـ فشارقت ارتحالا أزرقا ـ لما تطرزه الفيافي ـ مسرحا للريح ، والحور الحسان ، في قصيدته وداعا ريحانة النهر يقول الشاعر اللبناني ياسين الأيوبي: سطعت فجيأة في مغرب العمر ـ حططت علي فيافي الهدب كالسحر ـ وما إن أزهر النوار في الشرفات ـ واهتاج الصبا المخبوء في صدري ـ طوتك زعازع الأيام واختارتك ـ قربانا يطيح بصحوة العصر ـ وداعا موجة الإيناس والبشر .

تناثر وهجك المسكوب من عدن ـ طقوسا من جميل الشدو والشجن ـ وأيقظ كل خاطرة تراءت فوق أعمده الجمال الواكف المزن ـ هبيني من نداواته رذاذا ينتزع البؤس من الفنن . وداعا يا تباريحي ويا سكني !

تري هل يكفي هذا الديوان آخر الأوراد للتدليل علي أن خريف العمر ، أو شيخوخة العمر لا تتعارض مع حب جديد عاصف ، يجعل من الخريف ربيعا ، ومن المتقدم في السن عشرينيا ، ومن الحيرة الساكنة شلالات شعر ونغم ؟

لاشئ يحول دون أن تنبت نرجسة علي كاهل السبعين أو الثمانين ، ولا أن يضوع خفقان في صدر عابد دهري زاهد ، ولا أن تهب أنسام الربيع علينا ونحن في وحشة الخريف ، وهذا هو سر الشعر وروح الحياة !

من مواطن مصري إلى الرئيس بوش

بقلم: فاروق شوشة

إلـي الـشاعر الرائـد عبـد الـرحمن الـشرقاوي ، صـاحب القـصيدة الـشهيرة: مـن أب مصري إلى الرئيس ترومان

أوشكت أقرئك السلام

فلم تطق شفتاي !

مثلك . . ليس يدرك ما السلام !

يامن تعيد خريطة الدنيا

كأنك صرت ربا للأنام

اجلس وشاهد كيف تحتدم الفواجع

كيف يندلع الدمار

وأنت تمعن في الصلف

فإذا دروعك من خزف

وعيون آلتك الغبية

عاشيات في الظلام

تطأ السلام مضرجا

في أعين الأطفال والجرحي

وأشلاء الضحايا

وانكسار الشمس

في قلب المدار !

هذا هو التحرير

تطلقه شعارا

في زمان ، فعلك المشئوم فيه

هو الشعار

تحرير من ؟

يا من تداور بالخداع

تظن أن جهازك المسعور أقنعنا . .

وأنك وحدك الأذكي

وأنك مصلح الكون الجديد

وأنك الأبقي

ولا تدري بأنك للبوار !
ماذا جنيت ؟
مهانة التاريخ . . .
عارا . . زاحفا في إثر عار !
وزعمت أنك جئت ــ مدعوا ــ
لتحرير العراق ؟ . .
لتحرر الأطفال والسجناء ،
والشعب المهيض المستكين
وماء دجلة والفرات
وترد للوطن الحزين . .
جميع من عبروا الشتات . . . !
ها أنت ذا . . .
قد جئتهم بدوائك الشافي:
صواريخ المحبة والوئام
وراحة الموت الزؤام
وحق تخريب الديار !
وزعمت أن الناس ــ كل الناس ــ
ينتظرون لستك العجيبة حين تسري
يهرعون وينثرون ورود أرض الرافدين
أمام موكبك المجلي
يرقصون علي مقام الرصد
ترحيبا بمهدي الخلاص المنتظر ! . .
ماذا جري للناس !
إن الأرض تغلي . . .
والسماء تضج حولك بالشرر
والخارجين إلى ك . .
أيديهم رصاصات . . . وموت ينهمر . . .
هم للعراق . .
فليس يعنيهم نظام
أو يعنيهم خطر . .
وسواد دجلة والفرات مقدس . . .
وثراه آيات . . وعنبره سور . . .

هم للعراق :
الصوت والمعني . .
وبرهان الحقيقة . . . والتحدي . . والقدر !
الآن أغنية الصمود هي الغناء
وأنت صوتك في انحسار
راهن كما شاءت لك الأحلام والأوهام ،
وافتك بالصغار وبالكبار
سقط القناع وأنت لا تدري بعريك
والعيون تراك في وضح النهار
ها أنت ـ في أقصي الطريق ـ
تحوطك اللعنات والخيبات . . .
والحلم الكسير . .
وغصة في الحلق
خاب السعي ، وارتفع الستار
فإذا الشخوص دمي . . .
وما يجري . . . صغار في صغار . .
ماذا يفيدك أن كسبت إلى وم معركة
فإنك خاسر كونا
يصدك في احتقار !
ذق ـ مرة ـ طعم الهوان والانكسار . .
واشمخ بأن عصابة خطفتك
تملي ما تشاء عليك . . .
تعشي ناظريك
وأنت تحسب ـ يا لهول الطيش ـ
أنك أنت تتخذ القرار
وانظر لجندك :
يقتلون . . ويؤسرون
ويهرعون إلى الفرار . .
تاهوا مع الصحراء
والصحراء غول قابع خلف الغبار
وحنظل في الانتظار
ياليت مثلك كان يدري

ما الذي سحقته أحذية الغزاة
لعرفت أنك في العراق ، وما العراق ؟
قرون أمجاد ، منارات
تسطرها الملاحم في انبهار
راهنت أنك فاتح القرن الجديد
وأنك الراعي
تهش علي قطيع العالم المذعور
يركع في انكسار
بغداد صامدة . . .
وأنت مزنر بعباءة السفاح
كابوس بأحلام الصغار
تتأمل الشعب الذي ما زال
خلف سجونه الكبري
وليل الذل . . .
والسحل المروع والحصار
هو بين سفاحين مرجومين
من نار لنار
هو بين جلادين مرتهن
ونحن نعيش عصر الانشطار
هو ذا يقوم كطائر الفينيق منتفضا . . .
يذود عن التراب . . .
ويفتدي وطنا وتاريخا
ويدحر حلفك المشئوم
يمعن في البطولة والفخار . .
بغداد صامدة . . وإن سقطت . .
فقد أعطت مغول العصر درسا ،
ليس ينساه التتار
بغداد صامدة . . وإن سقطت . . .
فقد عرفت مذاق الانتصار !

ثلاثة وجوه لثلاث نساء

بقلم: فاروق شوشة

الوجه الأول

كيف أصبحت هكذا ، خبرا يتلي
ونعيا تطويه صفحة ايامي
ووجها يغيب عني تجليه
ويمضي ، كأنه بعض ذكري ؟
أنت حرفان رائعان
وكنز أنت ، فيروزة من النور
ضو أت زماني
فانهل فيض من السحر
ودنيا من البشارات تتري . . !
يالحرفين عندما امتزجا فاحا
فكانا العبير والصفو والأنس
وكانا البهاء والبشر والطهر
وكانا حلول نفس بأخري !
أنت استاذة الحياة
تتيحين برفق مشاتلا لبذور الحب
تسقين نبعها بالحنان السمح
تلقين شوكها بابتسام
وتدوسين ، في الطريق ، شكوك النفس
إذ تشرئب لحظة ضعف
وتذودين عن القلب ركاما
ميراث جوع وحرمان ، ترودين خبيئا
وتفسحين لا ت محمل بالبشائر
أنت أطلقتني إلى الفلك الأسني
وعلمت جبهتي أن تغامر
فتعلمت كيف يصبح للحب مزاميره
وهيكله القدس . .
وأوراد بوحه ، والشعائر !

في صفاءمن الهنيهات مندوف
يغطي فضاءنا المترع الشجو
ويرقي بنا فنعلو خفافا
فوق لغو السري ، وهزل الصغائر
وتعلمت كيف يصبح هذا القلب
رحب المعني ، يقوت حياة
لا يبالي أرباحها والخسائر !
وتعلمت كيف أصغي لصوتين حميمين
يصوغان هيكل الوجد والوعي
يعيشان جموح الرؤي ، ووقد المشاعر !
عجبي لا يزول . .
كيف استحال الحب زادا لجائعين
وصار الأنس فينا كيمياء روح لروح
فإذا الموت موكب لكلينا
ياعروس السماء طوبي لك الآن
نجوم ، وزفة ، ومباخر
أنت ايقونة الفراديس ،
عيناك بهاء المدي ، وإيقاعك
نبض حياة سخية بالمخاطر
حلقي ، حلقي بعيدا عن الارض
وطينية تسد الحناجر
وانفذي من ثقوب هذا السديم الفظ
ترنيمة طير إلى البعيد مهاجر
في فضاء الخلود يبقي تجليك
شعاعا من جلوة الشمس والروح
وياقوتة ، بقلب المجامر !

الوجه الثاني

لست من لوني ولا منك أنا
لا تظلني لغة تجمعنا
أو شعورا جارفا يصهرنا
أو طريقا واحدا يحملنا

إنها الهجنة سد بيننا
فسد العالم من حولي
فهل أرجو جديدا محزنا ؟
ولماذا تستميتين علي رفرف أيامي
عبثا ، مستبدا ، أرعنا
تنسجين الوهم تاريخا ، وأطلال مني
أقلعي عن ضلة لا تنتهي
واستردي كبرياء الروح ،
فالكون اختناق ، لا تزيديه
أفيقي من ضلالات تصبتك
وعودي مثلما كنت
وجودا ، مستريبا ، هينا !
إنني أبحث عن قطرة ضوء
عن مدي لا تخنق الأنفاس فيه
كوة تثقب سجن الروح
حتي تشعل الأنفاس في صدري
وعن وجه أراه موطنا !
إنني أبحث عن روحين حلا بدنا
وزمانين غريبين استحالا زمنا
فأفيقي ، أنت سجن الوقت
لايغري بغير الموت
والقضبان ، والوحشة
سد بيننا !

الوجه الثالث

حبنا نهر ، كما الكوثر ينساب
ونحن الشاطئان
ارتج فينا الموج منداحا توضأنا به حينا ، وفي الفجر اغتسلنا
ورشفناه ، ونحن الظامئان
النهم المشبوب يغرينا ، فنزداد
اصطفاق الموج يغوينا
فهذا جسد النهر ، تلامسنا

ودغدغنا حفافيه بنبض من دموع وقبل
ما الذي ناء به النهر !
طفت في وجهه أو شاب وجه كالح
كائنات ميتات عفنة
وقشور عالقات زائفة
سممت مجراه ،
صرنا كلما اغرورق
وانسدت شعاب القلب بالسم الذي فاض
تسممنا ، فلا منجي
ولاعودة للنهر الذي ما عاد نهرا- مثلما كان -
وصار الأفق حولينا رجوما
وسماء كاسفة !
من تري يمنحنا
أسرار هذي اللغة الملعونةالحرف
يلوك النهر منها ما يشاء النهر
يرويه علي الأسماع ، والاسماع ترتج
كما ترتج في الريح غصون واجفة
ما الذي في لغة الموت ؟ :
أنا مهمومة جدا
أنا مطعونة حتي الصميم
ما الذي ما زال يخفيه ؟ وماذا أجهله ؟
ولقد كنت له . . كنت ، وكنت !
ولكم أشعلت أيامي نورا
للياليه ، وفجرا لا ما نيه ،
ومأوي من شتات وانهيارات ،
وإخصابا لجدب الروح حين الروح تعري ،
ويجف الصحو فيها
وهو يرتاد سهولي وهضابي
كلما شاء اجتياحا ، وانديابحا
في زمان ، أو مكان ، أو خدر !
كيف يجزيني بهذا السم ؟
- حين اختاره قلبي ، فأغناني

عن كل البشر ؟
ها أنا الآن علي البرزخ
أهتز علي حبل رفيع
من جنون وخطر !

. . . .

هكذا قالت وكان السم يسري
أخطبوطا من دمار وشرر
والذي نمسك بالأيدي
مدي هش ، يذرينا مع الريح
ويلقي بالذي كان
وبالحلم الذي غاب
بعيدا ، في صقيع المنحدر !

الشعراء والسلطة

بقلم: فاروق شوشة

عندار الشروق صدر هذا الكتاب البديع للشاعر والباحث والمسرحي وكاتب الأطفال احمد سويلم ، الذي يستهل كتابه باقتباسات من شعره وشعر معين بسيسو و عبد الوهاب البياتي ، هي بمثابة الارهاصات الأولي والكاشفة قبل الولوج في عالم الكتاب المثير . يقول بسيسو:

الصمت موت

قلها . . ومت

فالقول ليس ما يقوله السلطان والأمير

وليس تلك الضحكة التي

يبيعها المهرج الكبير

فأنت إن نطقت مت

وأنت إن سكت مت

قلها . . ومت

ويقول البياتي:

الشعر أكذبه الكذوب

قالوا ، وماصدقوا

لأنهمو تنابلة وعور

كانوا حذاء للسلاطين الغزاة

بلا قلوب

ياشعر ، حطم هذه الأوثان

واقتحم الخطوب

وتعالي نرتاد البحار

ونجتلي نجم الشعوب

أنا ذاهب كي أقرع الأجراس

كي أطأ اللهيب !

الكتاب ظاهر من عنوانه ، وهو كما يصفه الناشر دراسة تحاول تحليل العلاقة المتوترة بين الشعراء والسلطة عبر تاريخ الشعر العربي وتحولاته منذ أقدم العصور حتي عصرنا الحديث . ذلك ان موقف السلطة يؤثر علي ما يبدعه الشاعر .

فالسلطة - غالبا - تمسك في يدها خيوطا تتحكم بها في ألسنة الشعراء ، فيسود احيانا المديح والنفاق والتكسب . وأحيانا اخري نجد الهجاء السياسي عالي النبرة . وتارة يتحول المديح الشخصي إلى تفاخر بالأنساب والانجازات والأمجاد . وتارة اخري يصبح الشاعر لسان النقد الصادق . وفي عصور القهر قد تتعدد ألوان التعبير فيلجأ الشاعر إلى التحايل أو الحيل الفنية حتي لا يحاسب علي صراحته وصدقه .

والكتاب في جوهره يذكرني بقضية أدبية مهمة كانت تشغل الصديق الناقد الكبير الراحل الدكتور عبد المحسن طه بدر ، هي ما يمكن تسميته بجناية الإعلام علي الشعر العربي . كان ذلك الانشغال في مستهل الحياة الأكاديمية والنقدية للدكتور عبد المحسن ، بعد نشره لدراسته المتميزة الشعر العربي والتجربة الانسانية في مجلة الآداب البيروتية لقد كان من رأيه أن انشغال الشاعر بدوره الاعلامي تعبيرا عن قبيلته وقومه ، وولائه لهذا الالتزام والانشغال ، قد جني علي خصوصية الشاعر الفنية وحرية الشاعر في التمرد الفني والقومي والاجتماعي والسياسي . من هنا ، كان شعر الصعاليك - في رأيه - أوضح دلالة في التعبير عن روح العصر الجاهلي من شعر المعلقات ، كما كان الشاعر الصعلوك ، المنسلخ من الولاء للقبيلة والقوم ، اكثر حرية وجرأة وتمردا ، بالمعنيين: الفني والاجتماعي . كما أن الشعراء الذين انشغلوا بالدعوة الدينية ، تأييدا أو رفضا ، دفاعا او هجوما ، بهتت لديهم مساحة الابداع الشعري في مقابل امتلاء شعرهم بتوابل الدعاية وما يتطلبه الاعلام ، في عصر كان الشاعر هو جهاز الاعلام الأول في قومه ، بديلا عن الصحافة والاذاعة ، وعن الدور الذي يقوم به المؤرخ في زماننا .

كانت قضية الإعلام أو الدعاية - وما تفرع عنها من فنون شعرية كالفخر والحماسة والمديح والهجاء - وتأثيرها علي مسيرة الشعر العربي ، وفنية القصيدة الشعرية العربية ، منذ نشأة هذا الشعر في عصوره الأولي ، كانت شاغلة لا هتمام الناقد الكبير الراحل الدكتور عبد المحسن طه بدر منذ أكثر من أربعين عام ا ، ونحن لا نزال في مطالع ستينيات القرن الماضي ، وكان يري من سلبيات هذا التأثير او هذه الجناية ما يمكن تسميته بالمباشرة والخطابية والمبالغة المجوجة والبعد عن الصدق الفني في الأداء الشعري ، المؤسف ان شواغله النقدية والأكاديمية - فيما بعد - صرفته عن متابعة هذه القضية ، والاهتمام بالكتابة عنها وتعميق افكاره بصددها .

ثم جاء كتاب شاعرنا احمد سويلم ، ليذكرني بهذا الانشغال القديم ، ولينقلنا نقلة أبعد من مجرد الجناية الاعلامية والتأثير السلبي للدعاية ، إلى قضية السلطة وجنايتها علي الشعر والشعراء . وإذا كانت أية سلطة في جوهرها مفسدة ، مفسدة لا صحابها أولا ، ولمن حول أصحابها من الحاشية ثانيا ، فإنها بسلاحي الاغراء والوعيد تطلق وتقبض ألسنة الشعراء الذين يقعون في الشرك ، وينسون شرف الشعر وكبرياء الشاعر

وحقيقة دوره ورسالته ، حين يتحول إلى مداح رخيص ، أو هجاء مبتز ، وهو في الحالين فاقد لا نسانيته وحريته .

ومن أجمل فصول الكتاب وقفته المتأنية عند ظاهرة شاعر العربية الفذ أبي الطيب المتنبي ، الذي اختلفت حوله الآراء ، وبالتالي اختلفت النظرة إلى مدائحه وهجائياته للسلطة في مدائحه لسيف الدولة الحمداني وهجائياته لكافور الاخشيدي . لقد رأي المتنبي في سيف الدولة النموذج والمثال للأمير الفارس العربي ، الذي يحقق حلم الشاعر بأن يكون لهذه الدولة العربية المزقة ، والمتناثرة إلى شظايا ودويلات ، رمز من عروبة وبطولة ، يقف في وجه امبراطورية الروم ، ويفجر شاعرية المتنبي وحلمه القومي في زمن الانكسار والهوان . أما هجائياته لكافور - بعد مدائحه له ، وهي مدائح مبطنة بالسخرية والتورية والغمز واللمز - فوراءها - بالاضافة إلى خيبة الأمل في كافور ، وما كان يرجوه المتنبي من ضيعة أو ولاية - شعور المتنبي المتضخم بأنه الأحق بالامارة والملك ، وأنه من طينة الملوك وان كان لسانه لسان شاعر:

وفؤادي من الملوك ، وان كان
لساني يري من الشعراء !

وهو الساخر من كافور حين يقول فيه ما ظاهره المدح وباطنه الغمز واللمز:
تفضح الشمس كلما ذرت الشمس بشمس منيرة سوداء !

في ثنايا هذه الدراسة - الجادة والكاشفة - يسجل الشاعر احمد سويلم خلاصة نظراته المتأملة ، في ان الشعر كان هو مظهر الاعلام الوحيد في العصور العربية الأولي ، ومن ثم حرصت السلطة - مهما كان حجمها وقيمتها - علي استمالة الشعراء إلى جانبها وتجنب ألسنتهم المسنونة ، وإطعام افواههم ، وحشو سراويلهم بالمال حتي لا ينقلبوا عليهم ، فالسلطة تدرك أن بيتا واحدا يمكن ان يقلب عرشا ويزعزع سلطانا ، فكانت تلجأ إلى المهادنة والتهديد اذا طال لسان الشاعر ، وعندما فطن الشعراء إلى أهميتهم لدي السلطة ، تنافسوا في التقرب بالمديح والمبالغة الزاعقة في النفاق . وعندما طغي النظام الاقطاعي - في العصر العباسي - طغيانا شديدا ، شاع الثراء والترف في قصور الحكام والأمراء والوزراء ، وساد الفقر بين عام ة الناس ، فكان علي الشعراء ان يمدحوا اصحاب السلطة ويكرسوها ، حتي يتلقوا العطايا والهبات . وعندما سقطت بغداد علي أيدي المغول ، لجأ كثير من الشعراء إلى مصر المملوكية وحاولوا التقرب إلى السلطة والتكسب منها ، لكن الولاة لم يكونوا يشجعون الشعر والشعراء . فانصرف كثير من شعراء العصر المملوكي إلى احتراف حرف يتكسبون منها في مكان من بينهم الجزار والكحال والخياط والدهان .

وفي عصرنا الحديث لم تعد مكاسب إليوم هي مكاسب الأمس .

وأصبحت الأقلام والأحداث والوجوه - في وسائل الاعلام المختلفة - ترتكب من الجرائم اضعاف ما ارتكبه الشعراء قديما ، فهذه اقلام تعلن الولاء الخالص للسلطة ، وتزين ما تفعله . وهذه أقلام ترفع من شأن الوضع وتبلغ بالقزم مكانة النجوم ، وأصحاب هذه الأقلام يطمعون في منصب أو مكانة اجتماعية أو سلطة من أي نوع . ويدلي الشاعر بشهادته علي جيل الستينيات من الشعراء ، وهو الجيل الذي ينتسب إلى ه باعتباره يمثل نقلة خاصة في مسيرة الشعر العربي المعاصر ، فقد كان - في رأيه - جيلا شجاعا مواجها لم يتخل عن حقن القصيدة بمزيد من عناصر الفن الجميل ومقوماته ، ولقد تحمل عبء التحولات الزائفة وغير الزائفة وأثرها ، وكان عليه ان يصرخ ويعبر ولا يصمت ، وكان عليه ان يشارك احيانا ، ويتمرد احيانا اخري علي هذه المشاركة عندما يكتشف ما وراءها من خداع وزيف .

واحمد سويلم - الشاعر والباحث - يري ان هذا الجيل قد فتح للأجيال التالية عليه أبو اب التجديد والتجريب والتحديث علي مصاريعها ، وربما استطاع هذا الجيل أن يفلت معظمه من عقاب السلطة ، بما استحدثه من أساليب فنية ، بعيدا عن المباشرة والتقريرية ، فترك لنا تراثا فنيا جيدا مرتبطا بالواقع ، لا نه عايش بصدق مراحل التطور والتخلف والتحول التي مر بها الوطن العربي ، وكثير منه شارك في الحروب التي وقعت في المنطقة ، وبذلك جاءت تجربته صادقة متفردة .

وعندما يصل الشاعر إلى واقع الشعر الآن ، ومايشهده من صراعات وتشرذم ، وتمرد من البعض علي الواقع الشعري والتعالي علي المتلقي ، وطرق لمضامين بعيدة عن الواقع الانساني ، والانغلاق في دهاليز الذات ، متخذين من الجسد والعري والابهام والغموض عناصر عصرية حداثية للتجربة الشعرية ، فإنه ينبه إلى قضية الذوق العام ، وإلي ان ما كتبه القدماء - بالمقارنة إلى ما يقدمه متحذلقو الشعر الآن - كان وضعا للجنس في مكانه باعتباره جزءا من الثقافة العربية يتناوله الشعراء في مكانه ، وليس خارج حدوده الفنية ، وليس معني هذا ، أنه يدافع عن موقف السلطة في الوقوف ضد حرية التعبير ، لكنه يريد من الشعراء ان يحلموا دوما بمجتمع أفضل ، والتمرد علي واقع شائن ، مليء بالقبح والتخلف ، والحرية الحقيقية - لديه - تعني القدرة علي الخلق ، خلق الجدة ، والعمل علي تحقيقها ، وخلق وجود خصب من شأنه ان يكون نسيج وحده ، حتي يحقق المبدع في الكون ما لا سبيل إلى تحقيقه بدونه .

لقد نجح احمد سويلم في فتح الباب ، ولوجا إلى قضية من قضايا العصر الساخنة ، وسوف يدخل بعده كثيرون ، يحملون مزيدا من الرؤي ، ويثرون - بالموافقة

أو المخالفة ـ قضية العلاقة الملتبسة بين الشعراء والسلطة ، في عصرنا ، وفي كل العصور .

عمان في عيون الشعراء

بقلم : فاروق شوشة

عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت ، صدر هذا الكتاب البديع - ما دة ودراسة واخراجا - للباحثة الأردنية الدكتورة رناد الخطيب ، التي أنجزته خلال رئاستها لا تحاد الكتاب والأدباء الأردنيين (٢٠٠٠ -٢٠٠٤) ، وفي مناسبة اختيار العاصمة الأردنية عمان عاصمة للثقافة العربية عام ٢٠٠٢ .

والدكتورة رناد ليست غريبة علي الحياة الثقافية والأدبية في مصر ، فهي حاصلة علي الدكتوراه في التربية المقارنة من كلية التربية في جامعة عين شمس عام ١٩٨٩ ، وحبها لمصر وانتماؤها للحياة الثقافية فيها يجعلها حريصة علي المشاركة في الانشطة الثقافية المصاحبة لمعرض القاهرة الدولي للكتاب بانتظام منذ أعوام عدة . وقد نشرت في مصر عددا من الدراسات التربوية عن رياض الأطفال ، وطفل ما قبل المدرسة وعن التربية الاجتماعية والوطنية ، في منهاج وزارة التربية والتعليم في الأردن من منطلق كونها صاحبة مؤسسة تربوية في مرحلة التعليم الاساسي .

ومن منطلق حبها لعمان فقد قامت بجهد ضخم في جمع أروع ما قيل من شعر في عمان علي مدار العصور ، ودراسته وتصنيفه وتحليله ، والتوقف عند أبرز ملامحه وقسماته من خلال رؤية نقدية متميزة ، وبصيرة واعية بالشعر العربي في حركته وصيرورته ، فضم كتابها عمان في عيون الشعراء أربعا وعشرين قصيدة ، لشعراء أردنيين وعرب ، فضلا عن الفرزدق والاحوص . يقول الفرزدق وهو يمدح الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك :

فما كنت عن نفسي لا رحل طائعا
إلي الشام حتي كنت أنت الموقرا
فلما أتاني أنها ثبتت له
بأوتاد قرم من أمية أزهرا
نهضت بأكناف الجناحين نهضة
إلي خير أهل الأرض فرعا وعنصرا
فحبك أغشاني بلادا بغيضة
إلي ورروميا بعمان أقرا

ويقول الأحوص - وهو في طريقه إلى دمشق - لمدح الخليفة الأموي عبد العزيز بن مروان :

أقول بعمان وهل طربي له
إلي أهل سلع أن تشوقت نافع !
وكيف اشتياق المرء يبكي حبابة
إلي من نأي عن داره وهو طائع
أهم لا نسي ذكرها ، فيشوقني
رفاق إلى أهل الحجاز نوازع

هذا الشعر القديم في عمان علي لسان الفرزدق والأحوص ، يجاوره في هذا الكتاب شعر للبياتي و عبد المنعم الرفاعي وحيدر محمود ومصطفي وهبي التل وعلي عبد الله خليفة وعصام صدقي العمد و عبد الله رضوان وغيرهم ، مفسرا هذا العشق الذي حمله الشعراء لعمان التي يصفها حيدر محمود بأنها المدينة التي بنت بيوتها من صخر جبالها ، وكحلتها بسواد العيون ، والتي يعود تاريخها إلى أكثر من ستة آلاف عام ، ولاتزال تمعن في البقاء والتطور ، لتدخل بجدارة إلى القرن الحادي والعشرين ، وتستعد تماما للاستمرار إلى آخر الزمان ، مدينة تليق بالشعر ويليق الشعر بها ، وتستحق أن تكتب بأجمل الحروف ، وترسم بأحلي الألوان وتعزف نغما وراء نغم ، لا نها هي ذاتها القصيدة واللوحة والسيمفونية التي لا تمل سماعها القلوب والارواح .

والدكتورة رناد الخطيب تري في عمان مدينة تنفرد بعبقرية المكان ، والمكان والزمان والإنسان هي في رأي حيدر محمود العناصر الرئيسية التي تتشكل منها هوية الوطن وهوية المواطن علي حد سواء ، كما أنها تري في القصائد التي جمعتها قلادة تطوق جيد مدينة عمان ، المدينة العربية الاصيلة والمعاصرة ، وهي قصائد مختلفة الصياغة ، منها ما هو علي النمط الكلاسيكي ، ومنها ما هو علي النمط الحديث ، منها ما هو قديم يعود إلى مطلع القرن الماضي ، ومنها ما هو جديد ، منها ما هو أردني ومنها ما هو عربي ، منها ما هو لشعراء بارزين مرموقين علي المستوي المحلي والعربي ، ومنها ما هو لشعراء ذوي تجارب تطمح في الوصول إلى مستوي أفضل .

وفي المقدمة الضافية التي كتبتها لكتابها تشير الدكتورة رناد إلى أن عمان واحدة من المدن العربية القليلة ذات التاريخ الطويل ، فهي مهد العمونيين ، وآثارها الرومانية تشهد علي عظمتها في العهد البيزنطي ، ونشطت في التاريخ الإسلامي ، ذكرها المقدسي بقوله : وعمان علي سيف البادية ، ذات قري ومزارع ، رستاقها البلقاء ، معدن الحبوب والألغام ، بها عدة أنهار وأرحية يديرها الماء ، ولها جامع ظريف بطرف السوق مفسفس الصحن ، وقد قلنا إنه يشبه مكة وقصر جالوت علي جبل يطل عليها ، وبها قبر أوريا عليه مسجد وملعب سليمان ، رخيصة الأسعار كثيرة الفواكه .

يقول الشاعر الأردني حيدر محمود في إحدي قصيدتيه اللتين يضمهما الكتاب:

تظلين أنت الوحيدة
تظلين أغلي قصيدة
لأني كتبت حروفك بالدم
فكنت الحقيقة والوهم
وكنت ابتداء حياتي الجديدة
أنا قبل عينيك
كنت شراعا مضاعا
يجذف في التيه
يقطع حباته حبة ، حبة
وذراعا ذراعا
ويبحر عبر الفيافي
يفتش عنك
يصارع غيلان كل المنافي
ويطوي البقاعا !
ويقول الشاعر عبد المنعم الرفاعي:
عمان يازهرة في كف غانية
هل تذكرين وقد عشنا هوي وصبا
باحت بأحلامنا النجوي ورددها
واديك ، وانطلقت خلف البطاح ربي
وكم عقدنا خطانا والتقي وطر
علي شهي رؤانا وانتشي طربا
وكم وقفت علي الأفلاك اسألها
هل غير طيفك اغري في المدي وسبي !
ويقول الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي:
كان يمانيا هذا البرق الأزرق
هذا السيف المسلول
خرجت من تحت عباءته
وردة هذا الليل المقتول
وقلت لحادي العيس: تمهل !
فثريا الملكوت
كتبت في أوراق البحر الميت
عينا ، ميما ، ألفا ، نون

صبغت بالفضة أزهار الليمون
فلماذا في الحب نموت
إذا كان الحب يموت !
لكن الحادي تحت ضياء ثريا الملكوت
وضع الحب مكان السيف !

في تأملها للأربع والعشرين قصيدة التي انتظمها هذا الكتاب ، تسجل الدكتورة رناد كيف تنوعت الرؤية الشعرية إلى عمان ، فهي المحبوبة وهي أجمل الاسماء ، وهي درة الحاضر ، وهي قدوة الشعب ، وهي حصن العروبة ، وهي زمن الحب الجميل ، وهي بلاد الفتح والدرة الهاشمية ، وهي مواطن الذكريات ، وهي غابات الاسمنت ، وهي السيف المسلول ، وهي أخيرا الحلم الجميل الذي تحقق بالمشاركة والملامسة .

وهي تسجل أيضا كيف أن هاجس الحاضر والمستقبل خالط الرؤية الشعرية بضراوة في هذه القصائد ونحن نري عمان محبوبة من طراز مغاير ، لا نه طراز المأوي وحائط الأمان وسكينة القلب . ونراها غابة اسمنت ترتفع وتمتد بقسوة راسخة وامتداد عمراني تتآكل أمامه مساحات الخيال ، ونراها أيضا خبزا وملحا لمن فقدوا المأوي ، فكانت الوطن البديل والأم الرؤوم والذراعين المفتوحتين في رعاية وحنان وحدب وأمومة ، والسيف المسلول الذي ينتظر لحظة الحسم واليقين الفاصل ، والواقع الذي تجسد لرائيه بعد أن ظل طويلا يحلم اللقاء ، ويجسد بعين الخيال شوارعها وبيوتها ومرابعها وناسها والحياة فيها ولكن من بعيد ، بعيد .

لقد نجحت الدكتورة رناد الخطيب في أن تقدم من خلال انجازها لهذه المجموعة الشعرية - اختيارا ودراسة وتحليلا - شاهدا علي العصر الشعري الذي نعيشه في وقفة من وقفاته الوطنية والقومية ، اتجه فيها الشاعر إلى عمان: المدينة والمحبوبة والحلم والأمل والواقع والحاضر والمستقبل والموقع والتاريخ والزمان والمكان .
وهو الأمر الذي يغريني بأن أتساءل: ومتي يكون للقاهرة مثل هذه المجموعة الشعرية البديعة: القاهرة في عيون الشعراء وانطفأت الاجابة في صدري وأنا أعقب في حسرة: ولمن اتجه بهذا السؤال ؟ !

عموديون يسبحون ضد التيار

أبو همام

بقلم : فاروق شوشة

وأبـو همـام هـو الـشاعر والناقـد والمترجـم وأسـتاذ الدراسـات الأدبيـة الـدكتور عبـد اللطيـف عبـد الحلـيم . وهمـام هـو الاسـم الـذي أطلقـه العقـاد علـي بطـل روايتـه سـارة وهـو العقـاد نفـسه ، فكـان طبيعيـا أن يتجـه الـدكتور عبـد اللطيـف ـ وهـو في طليعـة المريـدين المـؤمنين بالعقـاد شـاعرا وكاتبـا ورائـدا ـ إلى اسـم همـام ، فيطلقـه علـي أكـبر أبنائـه ، وليـصبح أبو همام الاسـم الأدبـي الـذي يـسبق الاسـم الحقيقـي لـصاحبه ، دلالـة علـي اتجـاه في الفكـر ، ورمزا لوجود معين في دائرة الإبداع .

ولقـد اقتـضاه هـذا الاتجـاه في الفكـر ، وهـذا الوجـود المعـين في دائـرة الإبـداع أن يكـون مـن شـعراء العمـود الـشعري ، ينـافح عنـه شـاعرا وناقـدا وأسـتاذا أكاديميـا ، وأن يكـون في طليعـة الرافـضين للـشعر الحـر ، وأن يـري فيمـا تمتلـيء بـه حياتنـا الأدبيـة الآن مـؤامرة لا فـساد الـذوق: حـتي إن بعـض مـن يرتجـي مـنهم الخـير يـسهمون في هـذا الإفـساد ، بقـصد أو بدون قصد ، تنطعا ، وجهلا ، وعجزا ، وادعاء للتقدمية والفهم .

لكنـه لا فـت ـ في الوقـت نفـسه ـ إلى مـا ينـشر مـن كـلام مـوزون مقفـي ، لكنـه لـيس شـعرا . وينبـه إلى أن هـذا الـنمط مـن الكـلام يفـسد ذوق الأمـة ، فيقـول: هـو الـشعر الـذي يلتـزم الـشكل المـوزون المقفـي ، دون أن يتجـاوزه إلى جـوهر الـشعر الـصحيح ، ويجـد مـن يحتفـي بـه في وسـائل الإعـلام . ثـم يقـول: وفي رأينـا أن هـذا الـنمط أكثـر إفـسادا مـن الـشعر الحـر ، والحداثـة ، أو الحـساسية الجديـدة ، وحـتي مـا يـسمي قـصيدة النثـر . لا ن هـذه الـضروب الأخـيرة لا تخـدع القـاريء الطـبن ، كمـا يخدعـه الكـلام المـوزون المقفـي ، أو الـنظم كما يطلـق عليـه بدقـة . وإنـي وإن كنـت مـن أنـصار الكـلام المـوزون المقفـي ، إلا أنـني مـن ألـد أعداء النظم مدركا الفساد الهائل الذي يصنعه .

هـذا هـو أبـو همـام في موقفـه مـن الـشعر الحـر ، ومـن الـشعر العمـودي الـذي تـردي إلى مرتبـة الـنظم وفقـد شـرط الـشعر: مـا ءه وكيميـاءه . وهـو في موقفـه مـن الـشعر الحـر يـذكرنا بموقـف العقـاد منـه في ختـام الخمـسينيات وأوائـل الـستينيات مـن القـرن الماضـي لكـن العقـاد ـ في شـبابه ومطـالع ثورتـه الـشعرية والنقديـة ـ كـان أكثـر سماحـة وانفتاحـا علـي الجديـد مـن أبـو همـام ، وهـو الـذي كتـب مقدمـة الغربـال بمـا يحملـه مـن فكـر نقـدي جديـد للـشاعر والناقـد المهجـري ميخائيـل نعيمـة ، كمـا كـان العقـاد في ديوانـه عـابر سـبيل درسـا في الإبـداع الـشعري لكـل مـن حـاولوا مـن بعـده أن يجعلـوا مـن كـل موضـوعات الحيـاة مجـالا للـشعر ، ومـن لغـة

الشارع والسوق مددا للغة الشاعر ومعجمه الشعري ولم يتنكر العقاد لهذا الموقف الثوري التجديدي ، ولم ينقلب عليه إلا في خواتيم العمر ، بعد أن هدأت النيران المقدسة ، وخبت جذوة المغامرة والتجريب وبدأ في ممارسة دوره المحافظ .

لكن أبو همام - المتكيء إلى ثقافة تراثية عريقة ، وثقافة أندلسية وإسبانية منفتحة ، والذي تشغله الدراسة الأكاديمية والترجمة والبحوث النقدية وتلتهم كثيرا من وقته الذي لا يتبقي منه للشعر إلا أقل القليل - عذره أنه رأي من هوان الشعر وابتذاله وخلوه من حقيقته ومعناه ، ما لم يره العقاد في حياته التي توقفت في عام ١٩٦٤ . من هنا ، فإن شهادة الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم تنصب في جوهرها علي ما حدث للشعر بعد رحيل العقاد حتي الآن : من خلخلة للمصطلح ، وافتقاد للصيغة والمعمار ، وفقدان للموسيقي ، وإلغاز في العبارة والدلالة ، تحت عناوين براقة من التجديد والتجريب والانسلاخ والتجاوز وارتياد الآفاق الجديدة واستكشاف عالم الجسد . لذا ، فهي شهادة أكثر قسوة وحدة من كل ما كتبه العقاد ، وأبعد رفضا لكل صور الشعرية الجديدة وتجلياتها - كما يردد نقاد هذا الزمان - باستمرار .

ولقد أتيح لا بو همام الاطلاع الواسع علي الحركات التجديدية في الشعر الأوروبي - وبخاصة الشعر الإسباني الحديث والمعاصر ودراسة كثير من ظواهره وقسماته ، لكنه ظل مشدودا إلى النمط الذي ارتضاه تعبيرا عن شاعريته ، وهو النمط الذي يعطيه خصوصيته المتميزة بين كل الشعراء العموديين ، وإن كان يسلكه قريبا ومجاورا لشعر الشاعر المبدع الحساني حسن عبد الله - وهو بدوره مريد عقادي ومريد شاكري - نسبة إلى محمود شاكر - في آن وهو نمط صعب ومخيف - بلغة محمود شاكر - يصعب تقليده أو محاكاته ، فيوضه لا تكون إلا من منابعه ومصادره ، وسمته لا يتسع لمشابهة الآخرين أو اقتحام الآخرين له ، لا نه مصنوع علي عين صاحبه ، مسقي من دمه وأعصابه وروحه ، وكده ووكده . يقول أبو همام في قصيدة عنوانها : الحسن والشعر :

فجأة كالخاطر الوقاد أشرقت عليا
كضياء الشمس يجلو ظلمة الليل عتيا
كصدي الماضي إذا ما هاج في الأعماق حيا
كهبوط الوحي ينداح شعاعا عبقريا
كانكشاف الغيب إما لا ح للعين نديا

* * *

جاوزت نفسي مداها ، وتملتك ضياء
يغرق الأحزان والآلام والعمر الخواء
يمزج الماضي والحاضر ، ما سر وساء

لحظة تنطفيء الأرض ، وتغدو لي سماء
ويشف الأبد الشارد نورا يتراءي

* * *

إنني أظمأ ، والماء أمام العين يجري
وأغني ظمئي المحروق في نثر وشعر
وأراعيك بجرح ، شد ما غار بصدري
واهب الري تماديت ، وقد أصبحت تدري
فلتهب ما ءك جمرا ، ربما يطفئ جمري .

* * *

صاغ شعري منك ، ياظالم شعري ، كل حسن
فر منا تسمعه مني ، وما قاربت
مني وأناديك بعطف يملأ النفس ، وحزن
ليس يبقي حسنك المشبوه إلا روح فني
فاروني ــ قبل ذبول الحسن ــ ما دام ، وغن !

* * *

وشاعرنا أبو همام مولع بالصعب ، يرتقيه مقداما غير هياب ، ويخوض معركته معه واثقا من أنه سيعود آخر الأمر مكللا بغار الفتوحات وثمارها إلى انعة . هذا هو حاله مع ركوب قالب اللزوميات في الشعر ، جريا علي ما سبق إلى ه المصري ، حين كانت لزومياته آية بشارته بالشعر وتفوقه علي شعراء زمانه ، كما كانت صدي لا متلائه بالموسيقي زخما ووفرة إحساس وجيشان إيقاع . بدلا من القافية الواحدة قافيتان وثلاث ، وبدلا من الجرس الواحد أجراس عذبة طيعة وطأ أكنافها صناجة عصره ، ومعجزة دهره . هاهو ذا أبو همام يجاريه في الشوط ، يكاد يحاذيه ولايتخلف عنه وهو يقول:

لاتشعلي القلب ، إنما انطفأت
رغابه ، حين ضمها الوسن
أو توقظي الريح ، إنها خمدت
وردها عن جماحها أسن
أحبتي لا الخداع يبسم لي
ولايراني في جذبه رسن
وبت ، لا ينبض الفؤاد ، ولا
يهزه منطق ، ولا لسن

لكنني قد نسيت ما اعتقدت
نفسي ، إذ لا ح وجهك الحسن !

وصولا إلى إكتمال آخر لزومياته في ديوانه لزوميات وقصائد أخري وهو يتكلم بلسان ابن حزم مرددا آخر كلماته :

غادرتكم ، لا تروق صحبتكم
غمامكم راعد ، ولا مطر
وبأسكم بينكم ، وشانئكم
يحكم فيكم ، وشأنه البطر
كل خصي تدعونه ملكا
وماله همة ولا خطر
تهودت ــ يا للذل ــ قرطبة
فليهنأ الروم ، حقق الوطر
والأمويون غال نخوتهم
أنهمو بالمهانة انشطروا
يسطرون الأحكام نافذة
وبئس ما نفذوا وما سطروا
والناس لا حيلة ، ولا أمل
كيف وهم بالمذلة انفطروا
في منت لشم ألفت معتزلي
غمامكم راعد ، ولا مطر !

هذه اللغة الشعرية المحكمة ، وهذا الايقاع الشعري الهادر ، وهذا الاقتصاد في الكلمات : أقلها يغني ويعطي الدلالة ويقدم الرمز والإشارة ، وهذه المعاصرة أو العصرية تخلع علي القصيدة ديمومة الخطاب والتجلي في كل زمان وفي كل مكان . فهي شاهدة علينا ، وعلي هواننا ، شهادتها علي عصر ابن حزم وسقوط الأندلس من بعده ــ هذا كله بعض سمات هذا الشعر المتوهج بالكبرياء والعنفوان . لا يشوبه هزال أو عنة أو شيخوخة . يمتح من نسغ الحياة وعرامتها قوته وروحه وتأبيه ، وينسج علي منوال أصحاب الهمم الكبري من مبدعي العربية ، الذين كان العقاد مثالا من أمثلتهم ، كما كان من قبله المعري والمتنبي وابن الرومي وأبوتمام وغيرهم من قمم الإبداع .

وأبوهمام ــ قبل هذا كله وبعده ــ واحد من القلة التي نجت من طغيان الأكاديمية وجفاف البحث العلمي ، فلم يجف ما ء شعره وكيمياؤه ، وهو الذي يواصل رحلته الإبداعية علي امتداد تسعة وعشرين عام ا منذ ظهر ديوانه الأول الخوف من المطر

عـام ١٩٧٥ ، وتتابعـت دواوينـه ـــ أروعهـا وأجملـها أغـاني العاشـق الأندلـسي ـــ حـتي إلى وم ، ناطقـة باستـشرافه المـستمر ، ودأبـه في إنـضاج قـصيدته وإحكامهـا ، وملئهـا بفـيض عقلـه ووجدانه ، وألوان بوحه ووجده وصباباته .

وهـي رحلـة لا تملـك ـــ مهمـا تختلـف معهـا إن كنـت مختلفـا ـــ إلا احترامهـا ، لا نهـا رحلـة شـعرية جـادة ، تقـوم علـي ضـفافها دراسـات وترجمـات ، ومواقـف لا تعـرف اللـون الرمـادي بـين الأبـيض والأسـود ، وتمثـل لقامـات شـامخة في دنيـا الأدب والإبـداع يـري فيهم أبو همام سلفه العظيم ، ومثله العليا الباقية في الحياة والناس .

بغداد خانتني !

بقلم:فاروق شوشة

هـذا هـو عنـوان المجموعـة الـشعرية الجديـدة للـشاعر حـسن توفيـق ، الـشاعر المـصري الـذي يعمـل في قطـر منـذ سـنوات طويلـة ، ولـولا حرصـه علـي أن يظـل اسمـه موجـودا وإبداعـه الـشعري مقـروءا ومتـداولا في حياتنـا الأدبيـة لباعـدت الغربـة بينـه وبـين الـذاكرة الـشعرية لهـذا الزمـان . مـن هنـا كـان اهتمامـه بنـشر كتاباتـه وإبداعاتـه الـشعرية والنثريـة الـتي تعـد هـذه المجموعـة الـشعرية فيهـا الرابعـة عـشرة ، منـذ ظهـرت مجموعتـه الأولـي الـدم في الحدائق عام ١٩٦٩ ، ثم توالت بعدها دواوينه:

أحـب أن أقـول لا ، قـصائد عاشـقة ، حينمـا يـصبح الحلـم سـيفا ، انتظـار الآتـي ، قـصة الطوفـان مـن نـوح إلى القرصـان ، وجههـا قـصيدة لا تنتهـي ، مـا رآه الـسندباد ، ليلـي تعـشق ليلـي ، عـشقت اثنـتين ، مجنـون العـرب بـين رعـب الغـضب وليـالي الطـرب ، جـسد يتـشمس بالحـسد . فـضلا عـن عـدد مـن الدراسـات والتحقيقـات أهمهـا: اتجاهـات الـشعر الحـر ، إبـراهيم نـاجي: قـصائد مجهولـة ، شـعر بدرشـاكر الـسياب: دراسـة فنيـة وفكريـة ، أزهـار ذابلـة وقـصائد مجهولـة للـسياب ، جمـال عبـد الناصـر: الـزعيم في قلـوب الـشعراء ، الأعمـال الـشعرية الكاملـة للـدكتور ابـراهيم نـاجي ، الاعمـال النثريـة الكاملـة للـدكتور ابـراهيم نـاجي ، رحـلات شـاعر عاشـق ، الاعمـال الـشعرية المختـارة للـدكتور ابـراهيم نـاجي وهـذه الأعمـال الأخـيرة مـن الدراسـات والتحقيقـات ـ تكـشف عـن جانـب مـن أهـم جوانـب الشخـصية الثقافيـة لحـسن توفيـق ، وهـي كونـه مؤرخـا ، يمتلـك أسـاليب التحقيـق والتوثيـق ، والبحـث الـدءوب في المراجـع والمـصادر ، والـدوريات والحوليـات ، سـعيا وراء اكتـشاف مـا هـو مجهـول أو نـاقص في أعمـال الـشعراء وآثـارهم القلميـة ، خاصـة في حالـة الـدكتور ابـراهيم نـاجي الـذي ظلـم ديوانـه ظلمـا فادحـا ، حـين نـشرت طبعتـه الأولـي في صـورة مـشوشة مـضطربة بعـد أن تـسللت إلى هـا قـصائد عديـدة للـشاعر كمـال نـشأت ـ وكانـت بكـل أسـف طبعـة وزارة الثقافـة في ذلـك الحـين ـ كمـا ظـل بعـض شـعره وكتاباتـه النثريـة وترجماتـه مجهولا حتي كشف عنه حسن توفيق وأعاده إلى موضعه الصحيح من تراث ناجي .

علـي غـلاف هـذه المجموعـة الجديـدة بغـداد خـانتني يبـادر حـسن توفيـق قارئـه بأنهـا قـصائد ومقامـات في حـب العـراق ، وهـو مـا يفـسر القـسم الثـاني مـن الكتـاب الـذي يحمـل عنـوان مقامـات عـصرية كتبهـا الـشاعر محاكيـا لغـة المقامـات القديمـة المـسجوعة ، وملأهـا ـ أيـضا علـي طريـق مقامـات بـديع الزمـان والحريـري ـ بالعديـد مـن الاستـشهادات الـشعرية ، في قالـب رمـزي سـاخر ، يحـاكي اسـتخدام الحيـوان في كتـاب كليلـة ودمنـة ، فهنـاك الثعلـب والأرنـب والطـاووس والقطـط والـسلاحف والخنزيـر والحمـار والقـرد وصـولا إلى الأخطبـوط

والأسماك ، والطريف أن اللغة في يديه طيعة سلسة ، وأن روح الفكاهة المرة والسخرية القائمة لم تفارقه ، وهو يعرض للواقع في بغداد وغير بغداد من أقطار العالم العربي .
وشاعرنا حسن توفيق يصارح قارئه منذ الصفحة الأولي بأن هذا الكتاب تحية حب لكل أرض العراق ، تحية إجلال لا رواح الشهداء ، من الأطفال والنساء ومن المدنيين والعسكريين ، وتحية عميقة لكل من يقاوم دون أن يتراجع أو يساوم . وتحية تقدير لكل العراقيين الذين يعرفون معني أن يظل العراق يضمهم أجمعين ، بعيدا عن أولئك الصامتين الذين يترقبون أن يحصلوا علي غنائم ، وبعيدا عن الذين يتصورون أن بإمكانهم أن يجعلوا شمال العراق دولة مستقلة لهم .

الجديد في هذا الكلام كله أن الكتاب - بشعره ونثره - يمثل شهادة مبدع مصري علي ما جري في العراق وعلي الأرض العربية منذ سقوط بغداد يوم الأربعاء٩ أبريل سنة٢٠٠٣ ، لكنها شهادة من خارج مصر ، من واقع الغربة في بلد عربي هو قطر ، ومن بين عناصر وجاليات عربية عديدة ، تنعكس ردود أفعالها وتياراتها الفكرية وانتماءاتها علي مواقفها . وشاعرنا في هذا الخضم يستصفي ويستخلص موقفه وكلماته بدأب المؤرخ ، الذي يجعل من شعره سجلا لتتابع المشاهد والمواقف ، وغياب وجه بغداد وانتمائه وتلاشيه ، بعد أن كان متوهجا في قلب الذاكرة الشعرية ، والمقاربة البصرية والانسانية . من هنا كانت كلماته في قصيدته بطاقة حب لبغداد التي اختار من بينها عنوان مجموعته الشعرية الجديدة ، وهو يقول:

بغداد خانتني ، وأخفت وجهها عني
لم يبق لي أحد سواها ، ما دهاها
كيـــــــف تفلت كفهـــا مني
بغداد خلتني مع السفهاء والأجراء
مغـــتربين عـــن حـــــــزني
بغــــــــداد خـــــــانتني
ثم يقول:
بغداد تسكنني ، وأسكنها
وأنساها ببلواها ، فتحضنني
وتظل تلهو حولها أفعي معربدة
تطوقها ، لترعبني
بغداد باقية
وباق جمرها بسمائنا العطشي إلى وطن
يوما ستصحو ،

حيث تمسح دمعنتي الحري
وتضحك وهي توقظني

المؤرخ حسن توفيق يستدعي من ذاكرة التاريخ ما حدث لبغداد علي أيدي المغول سنة١٢٥٨ ، منذ سبعمائة وست وأربعين سنة ، وينقل هذه السطور من كتاب مختصر تاريخ العرب الذي ألفه سيد أمير علي وترجمه إلى العربية عفيف البعلبكي ، وهويقول: في صباح إلى وم التالي لا قتحام بغداد ، أصدر هولاكو أوامره بنهب المدينة وذبح سكانها ، ويحتاج وصف تدمير تلك المدينة إلى براعة مؤرخ مثل جيبون ، فالنساء والاطفال الذين خرجوا من بيوتهم يحملون المصاحف علي أكفهم ويتضرعون إلى الجنود ، كي يبقوا علي حياتهم ، وطئت أجسادهم بحوافر الخيل . أما الكنوز الفنية والأدبية التي جمعها الخلفاء المتعاقبون بكثير من المشقة والعناء ، فقد دمرت تدميرا خلال بضع ساعات ، وغرقت شوارع المدينة طوال ثلاثة أيام بالدماء ، واصطبغت مياه دجلة بالحمرة عدة أميال ، واستمرت أعمال التخريب والتقتيل ستة أسابيع ، فدمرت القصور والمساجد والضرائح ، إما بالنار أو بمعاول بغية الحصول علي قبابها الذهبية ، وأغمد السيف في رقاب المرضي في المستشفيات ، والطلاب والأساتذة في الكليات ، وفي الضرائح نبشت قبور الأولياء والأئمة الصالحين ، وفي المجامع العلمية التهمت النيران تآليف كبار العلماء .

وألقيت الكتب طعمة للنيران أو مياه دجلة ، وهكذا فقدت الانسانية تلك الكنوز التي تجمعت خلال خمسة قرون المؤرخ الشاعر يطالب قارئه بالمقارنة بين هذه الأحداث المأساوية وماحدث في بغداد اعتبارا من الاربعاء٩ أبريل سنة٢٠٠٣ مؤكدا أن الخيانة قد لعبت دورها في الحالتين ، مستشهدا بما ذكره محمد بن طباطبا صاحب الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية واصفا كيف دخل المغول بغداد بقوله: إنه في يوم الخميس رابع المحرم من سنة٦٥٦ هـ ثارت غبرة عظيمة شرقي بغداد علي درب بعقوبا حيث عمت البلد ، فانزعج الناس من ذلك وصعدوا إلى أعالي السطوح والمنابر يتشوفون ، فانكشفت الغبرة عن عساكر السلطان (أي هولاكو) وخيوله ولفيفه وكراعه ، وقد طبق وجه الأرض وأحاط ببغداد من جميع جهاتها ، ثم شرعوا في استعمال أسباب الحصار ، وشرع العسكر الخليفي (يقصد جنود الخليفة المستعصم) في المدافعة والمقاومة إلى إلى وم التاسع عشر من شهر المحرم ، فلم يشعر الناس إلا ورايات المغول ظاهرة علي سور بغداد من برج يسمي برج العجمي من ناحية باب من أبو اب بغداد يقال له باب كلوازي ، وكان هذا البرج أقصر أبو اب السور ، وتقحم العسكر السلطاني هجوما ودخولا ، فجر ي من القتل الذريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ، ما يعظم سماعه جملة في الظن بتفاصيله .

هـي إذن الخيانـة الـتي جعلـت حـسن توفيـق يستـشهد بقـول بـدر شـاكر الـسياب الـــذي رحـــل عـــن عالمنـــا قبـــل أن يـــشهد ســـقوط بغـــداد بتـــسعة وثلاثـــين عـــام ا:

إني لا عجب كيف يمكن أن يخون الخائنون !
أيخون إنسان بلاده ؟
إن خان معني أن يكون . .
فكيف يمكن أن يكون ؟

حـسن توفيـق في ثنايـا مجموعتـه الـشعرية الجديـدة يقـدم معارضـات عـصرية ، ممتلئـة بالـسخرية والحـس الفكـاهي الأسـود ، للعديـد مـن القـصائد والمعلقـات المـشهورة بـدءا بلامية العرب للشنفري ولامية العجم للطغرائي حين يقول:

علي الفرات دم والعار في دمنا
فيا فرات اغتسل بالنار واكتحل
ولامية امريء القيس ، حين يقول متهكما:
ألا عم صباحا أيها الفندق الغالي
فقد بات فيك الأهل في يوم زلزال
ومعلقة عنترة ، حين يقول:
ما أعجب التلفاز من متكلم
يأتيك بالخبر الذي لم تعلم
ونونية ابن زيدون ، حين يقول:
الموج يجرفنا والشوق يدنينا
ياجنة الروح ياأحلي أمانينا
ونونية المتبني المشهورة بأن كل أبياتها حكم حين يقول:
يسقط الخائب الجبان مهانا
حين يرضي بحبه الأوثانا
كما يعارض أيضا داليته المشهورة في هجاء كافور ويقول:
عيد بأية حال عدت ياعيد
والعزم مفتقد والجبن موجود !

ويـدهش قـارئ هـذه القـصائد وغيرهـا مـن قـدرة حـسن توفيـق علـي الـتقمص واسـتدعاء اللغـة والأسـاليب الـتي كتبـت بهـا هـذه القـصائد الـتي يعارضـها في سـياق عـصري يـسقط عليـه مواقفـه وآراءه وأحكامـه علـي الرجـال والمواقـف . وهـي في جوهرهـا هجائيـات لعـصر وزمـان وحكـام ونظـم وأوضـاع ، هجـاء لا تنقـصه طرافـة التنـاول أو حـرارة الـسخرية ومـرارة الحـس

الفكاهي ، انه في مجموعته الشعرية هذه ، بكل ما صنعه وافتن فيه ، يكشف عن وجه اصيل من وجوهه - بعد وجه المؤرخ فيه - وهو كونه واحدا من ظرفاء مصر ، وندمائها الكبار ، ومسامريها ، يمتلئ جرابه بالكثير من الحكايات والتواريخ والوقائع ، انتثر بعضها على صفحات كتابه ، وجعل منه شاهدا على سقوط عصر ، وهوان تاريخ .
وليس حسن توفيق بالوحيد الذي سقط في شرك المؤرخ على حساب الشاعر ، فقد سقط بعض نقادنا أيضا - بفضل غواية الانترنت وشبكتها المعلوماتية - في شرك المؤرخ بدورهم ، فأصبحت كتاباتهم أقرب إلى التاريخ الأدبي ، الذي يزدحم بالوقائع والتواريخ والمعلومات ، على حساب التبصر النقدي الجديد ، والرؤية العصرية الكاشفة ، والدور الذي كان ما مولا منهم .

الشعر إنقاذ والشاعر منقذ

بقلم: فاروق شوشة

لقد آمنت - طوال رحلتي مع الحياة والمعرفة والكتابة - بأن الشعر إنقاذ وأن الشاعر منقذ ، وأن نجاة البشرية ووحدتها وسلامها - لا سيما في أوقات المحن وعند نقط التحول الحاسمة - كامنة فيه علي الدوام . وكم أعطيت لحكماء وشعراء قدماء ومعاصرين من وقتي وجهدي وحبي (من إيب - أور وتحذيراته المشهورة في أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد بعد انهيار الدولة القديمة في مصر ، إلى حكماء بابل والصين واليونان ، إلى شعراء عرب - من زهير بن أبي سلمي إلى أمل دنقل وصلاح عبد الصبور) . وقد تصادف العمل في هذا الكتاب مع المآسي التي داهمتنا منذ الهجمة الهمجية الأخيرة لدولة الإرهاب الإسرائيلي التي أيقظت في وفي كل عربي الإحساس الفاجع بالعجز والإذلال والمهانة ، مع الوعي النهائي بضرورة التغيير والعمل الجدي الحاسم والأمين للسير علي طريق النهضة ، والمقاومة الصامدة لكل ما يعوق تقدمنا الذي لا بديل عنه إلا التهميش والانقراض .

هذه السطور تحملها مقدمة كتاب بديع عنوانه للحب والحرية : (أزهار من بستان الشعر الغربي قديما وحديثا) ترجمها وقدم لها عالم الفلسفة والناقد والكاتب القصصي والمسرحي الدكتور عبد الغفار مكاوي ، وصدر الكتاب ضمن المشروع القومي للترجمة عن المجلس الأعلي للثقافة .

والدكتور عبد الغفار مكاوي - في مرآة نفسه - كاتب حر ، وأستاذ سابق للفلسفة بجامعات القاهرة والخرطوم وصنعاء والكويت ، من مواليد عام ١٩٣٠ ، تخرج في آداب القاهرة سنة١٩٥١ ، وحصل علي دكتوراه الفلسفة والأدب الألماني الحديث من جامعة فرايبورج سنة١٩٦٢ . ومن أبرز كتبه : النقد - قراءة لقلب أفلاطون ، قصيدة وصورة ، مدرسة الحكمة ، نداء الحقيقة ، لم الفلسفة ؟ ، البلد البعيد ، هلدرين ، ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحاضر . ومن مجموعاته القصصية : ابن السلطان ، الست الطاهرة ، الحصان الأخضر يموت علي شوارع الأسفلت . ومن أهم مسرحياته : من قتل الطفل ؟ ، زائر من الجنة ، بشر الحافي يخرج من الجحيم ، دموع أوديب ، محاكمة جلجاميش ، ومن ترجماته : ملحمة جلجاميش ، الرسالة السابعة لا فلاطون ، دعوة للفلسفة ، تأسيس ميتافزيقا الأخلاق لكانط ، ثلاثة نصوص عن الحقيقة لمارتن هيدجر ، الديوان الشرقي لجوتة ، الأعمال المسرحية لجورج بشنر ، قصائد من بريشت وانجارتي وغيرها .

نحـن إذن في هـذا الكتـاب ، أو البـستان الـشعري الغربـي كمـا وصـفه صـاحبه مـع عالم واستاذ وفنـان ، يتـوهج وجدانـه بكيميـاء الـشعر وتفـيض لغتـه بمائـه ، ولـه مـن احـساسه الموسـيقي فـضل تحويـل ترجمتـه إلى نـصوص شـعرية عربيـة ، لا تخطـئ الأذن ايقاعهـا ، حتي لـو تخلـت عـن العـروض ، فموسـيقاها الداخليـة تتـدفق وتنـساب وتجـيش وتحتـدم مـؤازرة روح الـشعر ، وحاملـة بهـاءه التعـبيري والتـصويري . وهـو يقـوم علـي هـذه الترجمـة الرفيعـة ، واعيـا بمقولـة الجـاحظ القديمـة : إن الـشعر لا يترجـم ، ومقولـة نـزار قبـاني: إن الـشعر نـار والترجمـة رمـاد ، مؤمنـا بـأن مـا نكـسبه مـن هـذه الترجمـة لا يقـل عمـا نخـسره ، وأن مـن لم يكـن شـاعرا في لغتـه أو مـسكونا بـروح الـشعر إلى حـد العـشق أو الجنـون ، ففـي الترجمـة النثريـة الأمينـة والحـساسة مـا يـشبع أشـواق محـبي الـشعر ويلـبي طمـوحهم إلى الإبـداع الترجمي الذي يلتحم فيه العلم والفن والدقة والذوق المرهف .

يـضم كتـاب: للحـب والحريـة ، مـا يقـرب مـن مـا ئـتي قـصيدة ومقطوعـة منظومـة ، ترجمـت إلى العربيـة شـعرا ، مـع تعليقـات وشـروح مستفيـضة ، عـن أكثـر مـن أربعـين شـاعرا وشـاعرة طبعـوا مـسيرة تـراث الـشعر الغربـي ، وأثـروا في بعـض تحولاتـه الأدبيـة والـشعرية المهمـة . مـن القـرن الـسادس قبـل المـيلاد حـتي أوائـل الثمانينيـات مـن القـرن العـشرين ، وذلـك منـذ العـصر إلى ونـاني القـديم وبدايـة الـشعر الغنـائي عنـد سـافو وألكـايوس مـرورا بالعـصر الوسـيط وعـصر النهـضة وعـصر البـاروك الـذي ازدهـر فيـه شـعر الحكمـة التعليمـي في القـرن الـسابع عـشر ، إلى شـعر التجربـة الباطنـة في القـرن الثـامن عـشر ، لا سـيما مـن شـعر جوتـه الـذي يقـدم الكتـاب عـددا مـن أعـذب قـصائده في ديوانـه الـشرقي للمؤلـف الغربـي حـتي بعـض رواد الحداثـة في القـرن التاسـع عـشر وعـدد كـبير مـن أعـلام الـشعر العـاطفي والتـأملي والـسياسي في القرن العشرين ممن لا يزال بعضهم أحياء يرزقون ويبدعون .

ولأن التواضـع الجـم مـن سمـات عبـد الغفـار مكـاوي ـ المبـدع الكـبير ـ فهـو لا يزيـد علـي أن يـسلك نفـسه مـن خـلال خطـوة يـصفها بأنهـا متواضـعة في ترجمـة الـشعر إلى العربيـة ترجمـة مكافئـة للأصـل بقـدر الإمكـان ، في سلـسلة الـرواد الكبـار في ترجمـة نمـاذج مـن الـشعر الـشرقي (مثـل: عبـد الوهـاب عـزام وحـسين مجيـب المـصري و عبـد الحـق فاضـل والنجفـي وأحمـد رامـي وغيرهـم) ومـن الـشعر الغربـي (بـدءا مـن سـليمان البـستاني وأحمـد شـوقي ـ مترجـم قـصيدة الـبحيرة للامـرتين والعديـد مـن قـصائد لا فـونتين ـ والعقـاد والمـازني والـسياب ونـازك الملائكـة وفـوزي العنتيـل ومحمـد البخـاري ومحمـد عنـاني وأسـامة فرحـات وغيرهـم) محـاولين علـي قـدر اسـتطاعتهم وثقـافتهم ومـواهبهم حـل معـضلة ترجمـة الـشعر وإثبـات أنهـا ليست مستحيلة .

مـن الواضـح إعجـاب عبـد الغفـار مكـاوي الـشديد بجوتـه ، وهـو الـذي سـبق لـه ـ كمـا يقـول ـ منـذ أربعـة عقـود دراسـة بعـض أشـعاره في كتـاب البلـد البعيـد فـضلا عـن ترجمـة

عدد كبير من قصائد الديوان الشرقي للشاعر الغربي (اثنتين وثلاثين مقطوعة) ، وهو يري أن الجانب الأعظم من شعر جوتة يتدفق علي نحو طبيعي وتلقائي من نبع تجاربه الوجدانية والباطنية العميق ، والقليل منه يقدم فكره ورؤيته للعالم والإنسان أو حكمة شيخوخته وذكريات ما ضيه ، وهو يسع جميع أغراض الشعر وأساليبه وأشكاله: من قصائد الحب الدافئة المتوثبة والأغنيات العاطفية وقصائد الفنانين والأناشيد والمرثيات المطولة والحكايات الشعرية (البالادات) ، إلى القصائد المكثفة (الإبجدامات) والمعارضات التهكمية اللاذعة وقصائد المناسبات ، والحكم ، والتأملات المنظومة والقصائد الفلسفية التي كتبها في سن الشيخوخة .

يقول جوتة في ترجمة عبد الغفار مكاوي (من كتاب زليخا) : تقول زليخا:

حين أكون بعيدا عنك فما أقربني منك
يعروني الهم ، يداهمني فيض عذاب
عندئذ أسمع صوتك يتردد بعد غياب
فأراك وقد عدت إلى وعدت إلى ك !

* * *

قالت المرآة إني فاتنة
حزت آيات الجمال
قلتمو: إن الليالي خائنة
سوف يطويك الزوال
كل شيء خالد في عين ربي
فا عبد وه الآن فيا
هذه اللحظة حسبي !

* * *

لاتدعني هكذا لليل وحدي ، للكدر
يا أحب الناس عندي
أنت ياوجه القمر
شمعتي أنت وشمسي
آه يانور البصر !

* * *

رائع كالمسك أنت
حيثما كنت يفوح العطر منك
وتشي الأنفاس بك !

* * *

في منتصف الليل بكيت ، نشجت

لأني احتجت إلى ك

شعرت بحرماني منك

عندئذ جاءت أشباح الليل

فخفت ، خجلت

ناديت عليها ، يا أشباح الليل !

هاأنت ترين دموع العين

وكم طوفت علي

وكنت غريقا في حضن النوم

إني أفتقد الخير كثيرا ، كل الخير

بربك إلا أحسنت الظن وأقللت اللوم

من أضفيت عليه قديما ثوب الحكمة

حل عليه الكرب ونزل الشؤم

عبرت أشباح الليل

ومرت كالحة الوجه

لم تحفل بي ، إن كنت حكيما أو أحمق

يعوزني الفهم !

* * *

إن قدر الدهر يوما

بالنأي عمن تحب

وصار بعدك عنه

كبعد شرق وغرب

يهيم عبر الفيافي

فؤادك المشتاق

ما من رفيق سواه

إن عز فيها الرفاق

بغداد ليست بمنأي

عن أعين العشاق !

يؤمن الدكتور عبد الغفار مكاوي بمقولة الشاعر الألماني بريشت في إحدي قصائده: الشيء الوحيد الذي يجب عليك أن تتأكد منه هو أنك ستسقط حتما عندما تكف

عن المقاومة وهو يري أن الشعر - في صميمه - مقاومة ، فقد كان الشعر الحقيقي علي الدوام نوعا من المقاومة لكل أشكال القبح والتشوه والظلم والاستبداد ، وكان - وسوف يظل - غناء وتمجيدا للحياة والجمال والإنسان . فالشعر - كما قال إيلوار - عون علي الفعل ، وأسلوب للمقاومة والعمل والتغيير ، وزرع الحقيقة نفسها في قلب الواقع إلى ومي والعملي لكل الناس .

وهو يري - في ترجمته وتقديمه لهذه المختارات - دعوة لشعرائنا أن يرتفعوا إلى مستوي الموقف الراهن وتبعاته وهو الموقف الذي يسميه : نقطة التحول . نكون أو لا نكون . متمنيا لهم أن يلهموا القدرة علي الغناء الوجداني تعبيرا عن الأنا وقد اتحدت بالنحن ، بعيدا عن طوفان الثرثرات النقدية والتجارب النرجسية والعشوائية ، حتي يمكنهم أن يسهموا - ولو بنغمة واحدة - في الجوقة المأمولة والنشيد الجماعي المنتظر .

وهو هدف يكشف عن نبل التوجه وعظمة الرسالة التي من أجلها كان هذا الكتاب البديع ، لواحد من أنبل مبدعينا ومثقفينا وحراس ثقافتنا : الدكتور عبد الغفار مكاوي .

شاعرتان من زماننا

بقلم:فاروق شوشة

ديوانـــان لـــشاعرتين مـــن زماننـــا أتيحـــت لـــي قراءتهمـــا في وقـــت واحـــد . أولهمـا : ملامـح أخـري لا مـرأة عنيـدة للـشاعرة شـريفة الـسيد ، وثانيهمـا : هـذه الزوايـا وفمـي للـشاعرة عـزة بـدر . ولأن الـشاعرتين مختلفتـان لغـة ورؤي واهتمامـات وتـشكيلا شـعريا ، فقـد مـنحني هـذا الاخـتلاف فرصـة أكـبر للتأمـل ، ومـساحة أعـرض للجوسـان في نـصوص المجموعتين ، وإبداع الشاعرتين .

أعـرف شـريفة الـسيد وأتابعهـا منـذ زمـن طويـل . . واسـتمعت إلى هـا كـثيرا عـن كثب ، في مناسـبات شـعرية : مـصرية وعربيـة ، وكـان يـشد اهتمـامي دومـا هـذا التحـول فيهـا مـن مقـام الوداعـة واللـين في سـلوكها الإنـساني إلى مقـام التمـرد والاحتجـاج والغـضب في حـال انـشادها الـشعري . عندئـذ ، تـصبح شـريفة الـسيد إنـسانة أخـري ، تـصول وتجـول ، ترفـدها لغـة طيعـة ، اتكـأت هـي علـي موروثهـا الـشعري ، وأجـادت امتطـاء صـهوتها واستأنـست جموحهـا الـبري ، لتـصبح هـي ، الجامحـة والمناوئـة ، والعنيـدة كمـا وصـفت نفـسها في عنـوان ديوانهـا . وكمـا عـبرت هـي في قـصيدتها لغـتي عـن حلولهـا الـشعري في اللغـة وحلول اللغة فيها .

وهي تقول في مناسبة الاحتفال باليوم العالمي للغات الأم:

عربية لغتي ، ألوذ بحرفها
كالطفل بالأم الرؤوم تعلقا
أطلقتها بين الضلوع فأينعت
بعثرتها في الجدب لا ن وأورقا
وحملت راية عزها وجهادها
حتي تماهي نجمها وتألقا
ولبست معطفها ، وسرت فها أنا
رمز الجمال علي الدروب تأنقا

هـو إذن حلـول يـصاحبه ويـؤازره التمـاهي ـ الـذي يكثـر الحـداثيون مـن دورانـه في كتاباتهم ـ بينهـا وبـين اللغـة . لكنهـا ـ في هـذه المجموعـة الـشعرية ـ أكثـر قـدرة علـي البـوح ، أكثـر جـسارة في تأكيـد معـني المـرأة وإعـلان موقفهـا مـن الرجـل . وتمـضي في فـضائها الـشعري ، متوهجـة بحميـا المنازلـة والمقارعـة ، والثقـة في سـطوتها وقـدرتها علـي التحمـل ، حـتي والرقـة الـشديدة بعـض أسـلحتها العتيـدة ، لكنهـا تكـاد تحـاذي اللغـة النزاريـة والموقـف النزاري حين تقول:

أنا امرأة القصيد البكر
منفرطا وموزونا
حملت الشعر في جنبي
فتانا ومفتونا
فحولني كطمي النيل
بالألوان معجونا
طمعت بكل أسوده
فبت العمر مطعونا
ولم يك غير هذا اللون
في الألوان مضمونا !

* * *

أنا ياسيدي لغة
تغلغل صمتها فيها
برغم فصاحة الأغصان
حتي كاد يخفيها
فمقصلة الزمان قضت
بأن تستل من فيها
فما عاد الحديث العذب
يضنيها ، ويشفيها
ومن لعب الزمان بها
فإن الصمت يكفيها !

تخرجت شريفة السيد في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة سنة١٩٨١ ، وعملت بالمركز الإعلامي لهيئة الكتاب ، ثم أسست المركز الإعلامي بدار الكتب والوثائق عام ١٩٩٣ ـ بعد انفصال هيئة دار الكتب عن هيئة الكتاب . كما عملت مراجعا لغويا في عدد من دور النشر المصرية والعربية . وقد سبق صدور هذا الديوان عن الهيئة العامة للكتاب (٢٠٠٤) خمس مجموعات شعرية هي ملامحي (١٩٩١) ، الممرات لا تحتوي عابريها (١٩٩٦) ، فراشات الصمت (١٩٩٧) ، صهيل العشق (١٩٩٨) ، طقوس الانتظار (٢٠٠٢) . الأمر الذي أكد مكانتها الشعرية بين شعراء جيلها ، وهيأها للحصول علي العديد من الجوائز الأدبية من المجلس الأعلي للثقافة (١٩٩٥ ، ١٩٩٤) ، والجائزة التشجيعية من جمعية العقاد الأدبية وصندوق التنمية الثقافية (١٩٩٨) والمنظمة العربية للتنمية الإدارية لجامعة الدول العربية (٢٠٠١ ، ٢٠٠٠) بالإضافة إلى

الجامعات والمعاهد ونوادي الأدب وقصور الثقافة ومراكز الشباب في مصر . كما شاركت في العديد من مؤتمرات الشعر ومهرجاناته . وفي حقيبتها للسنوات القادمة دواوين جديدة ، وسلسلة دواوين للأطفال وسلسلة مسرح شعري للأطفال ، وصور غنائية للتليفزيون ورواية ودراسات نقدية عن عدد من الشعراء والأدباء المعاصرين . يلفت النظر من بينها دراسة ميدانية عن معوقات الإبداع عند المرأة العربية . . وهو الأمر الذي لا بد أنه يشغل شريفة السيد وكل شاعرة معاصرة ، بدءا من فاطمة قنديل وإيمان مرسال ـ وقبلهما وفاء وجدي ـ وصولا إلى عزة بدر . كما أن في جعبتها أيضا دراسة فنية نقدية حول الشعر النسائي المصري .

هي إذن شاعرة وكاتبة تزدحم بالمشاريع وتتوهج بالوعود . وتغشي منتديات الشعر ثابتة القدم ، واثقة من أن لديها ما تقول . مدركة أن الجمهور تطربه هذه الوقفة الهجومية وهذه النبرة الغاضبة المتمردة ، حتي لو كان جمهورا من الرجال . وعناوين قصائدها ـ في هذه المجموعة ـ تؤكد هذا التوجه الذي يؤازره إنشادها الشعري الجهير: مسافرة للمسافر في ، إلى رجل مجهد يبحث عني ، أسكن في بدني وعيوني ، وصف غير دقيق لرجل أحبه ، أفضل أن أشربك . بعكس اتجاه الحياة ـ كأن ابتهالاته فوق خدي ، أحلي مواسمي . . وغيرها وغيرها .

ولابد من التوقف ـ في دائرة معجمها الشعري ـ عند الخيل والصهيل والجواد والسباق والأفراس ودلالتها المرتبطة بتمرد الشاعرة التي تصف ملامحها الأخري بأنها مشغولة ومفتونة ومعاندة وممسوسة لا يفك عقدتها إلا الشعر وأن مضيق أطلسها ستسكن فيه لؤلؤة ! بل هي تطالب كليتها ـ دار العلوم ـ في الاحتفال بعيدها المئوي ، مجلجلة منتشية :

مري أمامي كالجواد ، محطما
كل المقاييس التي لم تسبق
مري قرنفلة يسافر عطرها
ويعود في ثقة لا رض المشرق
حتي تقول :
أو جربي في التسكع والتمرد
والتحدي ، كسري لي منطقي !

* * *

علي الشاطيء الآخر من نهر الشعر تقف الشاعرة ، والكاتبة الصحفية عزة بدر التي حصلت علي جائزة الدولة التشجيعية في أدب الرحلات (٢٠٠٣) . لذا ، كان طبيعيا أن يحتل السفر بتنويعاته المختلفة مساحة واضحة في مجموعتها الشعرية التي

صدرت عن الهيئة العامة لقصور الثقافة في سلسلة أصوات أدبية . وليس من الضروري أن يكون سفرا في المكان أو الجغرافيا ، لا ن المجموعة كلها سفر في الروح وارتحال في الوجدان وللمة لشمل أوزير أو أوزيريس الذي تفرقت أشلاؤه في البلاد فقامت إيزيس - الشاعرة - برحلتها وكفها علي سكين ست حتي يقوم أوزير وينتفض:

أوزير ياطفلا ينام
في كل جرح
يامرتجي روحي ، فداك
أوزير ، ياحلما برق
للمته طرف الكري
قلت : استفق
كفي علي سكين ست
حتي تقوم وتنتفض
أوزيريادمعا برق
ياشرفة من نورها قبس القمر
أوزير يادلتا هواي
ياحقل حنطة
في كل عين
مرهاء تهوي مرورك
اي الجنان
طبت لي في معصمك !
أي الرطب ؟
كل النخيل هززت لي !
أوزير ياأحلي قتلك
كفي علي سكين ست
حتي تقوم وتنتفض
يانيل فض
أنجز وعودك
لاتجر لو صالحت ست !

هذا شعر موغل في مصرية الروح والهوي والانتماء جذوره بعيدة في الأحقاب الأولي ، لكنه يظل ينتج ويعيد إنتاج التراجيديا الأوزيرية في بيت مصري معاصر ، تسكنه شاعرة مشدودة التوق إلى الرحيل الدائم . وهي ترتكب في كثير من الأحيان خيانة

الشعر ـ حبها الأول ـ حين تستبدل به لوحاتها القلمية البديعة في أحوال الناس والشوارع والبيوت ، وروائح الذكريات ، وعطور الأمكنة . لكن الشعر لا يزال على إخلاصه لها أملا في أن تكون له وحده .

اللغة الصحفية تشاغلها وتناوشها ، والومضة في اللوحة القلمية تجتذبها وتشبعها ، فلاحاجة بها إلى الشعر ، بعد أن أفضت إلى معشوق سواه . من هنا تعطي قصائدها في هذه المجموعة الجديدة لقارئها انطباعا بأنها مسروقة من صاحبتها قبل أن تعيد النظر فيها : إحكام صياغة ، وتكثيف رؤية ، واختزالا لما أدت إلى ه بعض ثرثرة الكتابة الصحفية . وفي الشعر ، تغني الكلمة عن سطر كامل ، وربما عن مقطع أو فقرة أو مقطوعة ـ وعزة بدر تعرف هذا كله ـ وأكثر . لكن انشغالاتها القلمية ، وأعباءها الحياتية التي تتوجها الأمومة ، تجعلها منشطرة بين الشعر في جانب ، والتألق الصحفي في جانب آخر :

دع لي يدا
لخاتم الزواج
أما يدي التي تنام في يدك
عصفورة ، تنقر الأنامل
فماتزال آنسة !

تري ـ وشعر الشاعرتين يواجهني في زهو واعتداد ، ورغبة هائلة في تأكيد الذات ـ هل هما وجهان لحقيقة الشعر الذي تبدعه المرأة في زماننا ، يكمل أحدهما الآخر ، ويضيئه بالاختلاف والمغايرة ؟ أم أنهما معا صوت مقتحم جسور ، يرفض الأسن والتكرار ، ويحلم بالتحليق عاليا في مدارات النجوم !

بين والد ووالده [١]

بقلم: فاروق شوشة

لا أظن أن عالم الدراسات الشرقية الدكتور حسين مجيب المصري ، في حاجة إلى تعريف أو تقديم ، فهو أستاذ أساتذة اللغات الشرقية في الجامعات المصرية ، يكفي أن يقال عنه ، إنه أول عربي يحمل الدكتوراه في الأدب التركي عند حصوله عليها عام ١٩٥٥ ، وأول مصري يعرف القارئ العربي بتراث الترك الأدبي ، وأول من درس الأدب الإسلامي المقارن ـ بعد أن سبقه الدكتور محمد غنيمي هلال بقليل إلى تدريس الأدب المقارن منذ العام الجامعي١٩٥٢ -١٩٥٣ في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، كما يذكر للدكتور حسين مجيب المصري ، قيامه بترجمة جميع أشعار محمد إقبال ـ عن الفارسية والأردية ـ إلى الشعر العربي الموزون المقفي (بحسب تعبيره) ، فضلا عما تطلبته هذه الأشعار من شروح وتعليقات ، ثم هو الأستاذ الجامعي الوحيد الذي يجيد ثماني لغات هي: العربية والتركية والفارسية والفرنسية والانجليزية والألمانية والايطالية والروسية ، وله عدة دواوين شعرية منظومة باللغات العربية والفارسية والتركية والفرنسية ، وقد تخرج على يديه كثير ممن يعملون في مجالات اللغات الشرقية في أربع وعشرين جامعة في أمريكا الشمالية والجنوبية وانجلترا والمجر والأردن والسعودية وإيران والكويت والعراق ومصر ودول شمال إفريقيا ، كما كان انتاجه العلمي الغزير موضوعا للعديد من رسائل الماجستير والدكتوراه ، وتم تكريمه ومنحه الكثير من الأوسمة وشهادات الدكتوراه الفخرية والميداليات التكريمية في باكستان وتركيا واسبانيا ، واهتمت بسيرته الذاتية دائرة المعارف التركية ودائرة المعارف الأردية .

أما مؤلفات الدكتور حسين مجيب المصري ، فهي بالعشرات ، من بينها كتبه: فارسيات وتركيات ، من أدب الفرس والترك ، تاريخ الأدب التركي ، في الأدب العربي والتركي ، في الأدب الإسلامي: فضولي أمير الشعر التركي القديم (وهو رسالته للدكتوراه) ، سلمان الفارسي عند العرب والفرس والترك ، إقبال والعالم العربي ، إقبال والقرآن ، في الأدب الشعبي الإسلامي المقارن ، المعجم الفارسي العربي الجامع ، أثر الفرس في حضارة الإسلام ، معجم الدولة العثمانية ، المرأة في الشعر العربي والفارسي والتركي ، الأسطورة بين الأدب العربي والفارسي والتركي ، الأندلس بين شوقي وإقبال ، أيامي بين عهدين (سيرة ذاتية) ، كربلاء بين شعراء الشعوب الإسلامية ، الرحلة إلى مصر للرحالة التركي القديم أوليا شلبي ، ومن دواوينه الشعرية: شمعة وفراشة ، وردة وبلبل ، حسن وعشق ، همسة ونسمة ، موجة وصخرة ، ومن أشهر مترجماته: في السماء (ترجمة لكتاب جاويد نامة لمحمد إقبال) ، هدية الحجاز (

ترجمـة لكتـاب أرمغـان حجـاز لمحمـد إقبـال) ، روضـة الأسـرار (ترجمـة لكتـاب كولـشن راز جديـد لمحمـد إقبـال) ، المولـد الـشريف (ترجمـة منظومـة المولـد الـشريف عـن التركيـة لـسليمان جلـبي) ، مـا وراء الطبيعـة في إيـران لمحمـد إقبـال ، المنتخـب مـن ديـوان شـاعر قازاقـستان الأعظـم: آبـاي ، المنظومـة الإسـلامية في مـدح خـير البريـة (ترجمهـا عـن الأرديـة لا حمد رضا القادري بالاشتراك مع الدكتور حازم محفوظ) .

ويعتـز الـدكتور حـسين مجيـب المـصري كـثيرا بمراجعاتـه لعـدد مـن الأعمـال المهمـة ، مـن بينهـا مراجعـة الترجمـات الفرنـسية والألمانيـة والروسـية والايطاليـة للقـرآن ـ بتكليـف مـن إدارة البحـوث بـالأزهر ، ومراجعـة ترجمـة كتـاب الوحـدة والمجتمـع (عـن الانجليزيـة) وترجمة رحلة العذاب لناظم حكمت (عن الفرنسية) .

لهـذا كلـه ، كـان طبيعيـا أن تركـز رسـائل الماجـستير والـدكتوراه ، الـتي أنجـزت عنه وعـن آثـاره العلميـة ، علـي قيمتـه الكـبيرة عالمـا وشـاعرا وناقـدا ، وعـن الاتجـاه الإسـلامي في أدبه : شعرا ونثرا ودراسات أدبية وحضارية .

فمـا مناسـبة الحـديث الآن عـن هـذا الرجـل العـصامي ، الـذي أقـام هرمـا مـن الإنجـاز الأكـاديمي والإبـداعي ، علـي مـدار حياتـه الحافلـة (ولـد في عـام ١٩١٦ وتخـرج في كليـة الآداب بجامعـة القـاهرة عـام ١٩٣٩) ، وكـان هـذا الجهـد المتواصـل الـذي يفـوق طاقـة البـشر ، سببا في فقدانـه لبـصره ، واعـتلال صـحته ، لكنـه لم يفقـد بـصيرته الفـذة وعقلـه إلى قـظ وإرادتـه الـصلبة ، واصـراره العنيـد وحماسـه الـدائم للعلـم ، الـذي وقـف عليـه حياتـه ، والابداع الذي شفي به غلة وجدانه قبل أن يروي ظمأ تلاميذه ومريديه .

المناسـبة الـتي تـدعوني للكتابـة عنـه ، وتـذكير أبنـاء هـذا العـصر بـه ـ العـصر الـذي يتنكـر حـتي لنفـسه وأجمـل مـا فيـه مـن عقـول مـشعة بـالوعي والمعرفـة ، وقلـوب متفجـرة بالعطـاء والمـشاركة ـ هـي صـدور كتابـه الجديـد: بـين والـد وولـده في الـشعر العربـي والفارسـي والتركـي والأردي ، عـن الـدار الثقافيـة للنـشر ، ربمـا يكـون كتابـه الـستين في سلـسلة اصـداراته ، لكنـه ، بـالقطع ، مـن أكثرهـا شـفافية وانـسانية ورقـة ورحمـة ، وهـو يهديـه إلى مـن أيقـن أن ولـده فلـذة كبـده ، فهـو بعـض مـن روحـه وجـسده ، فكـان مـن حقـه عليـه التربيـب ، وكـذا التخطئـة والتـصويب ، وأخـذ بيـده مـن عثراتـه في صـغره ، وهـداه الـسبيل في كـبره ، وهـو إهـداء يكـشف عـن ملمـح جميـل في شخـصية حـسين مجيـب المـصري ، هـو ملمـح الأبـوة الحانيـة ، الـتي ترعـي وتـؤدب وتهـذب ، في رفـق ومـودة ، كمـا يكـشف عـن صـدر ممتلـئ بفـيض مـن الرضـا والـسماحة ، لم تـنجح مـرارات الحيـاة ـ حياتـه ـ وهـي كـثيرة ، واحباطاتهـا المـستمرة ، وشـعوره بـالغبن وانعـدام العـدل وفقـدان التقـدير الـسليم في بلـده الـذي لم يدرجـه مـرة واحـدة في مسلـسل جـوائزه ـ الـتي نالهـا تلاميـذ حـسين مجيـب المـصري وتلاميـذ تلاميـذه ـ أقـول لم تـنجح هـذه المـرارات في تـشويه صـفاء هـذا الـصدر الحـاني النبيـل أو

تكـديره ، وظـل علـي حالـه وطبيعتـه ، يعطـي ولا ينتظـر جـزاء مـا أعطـي ، ويهـب ولا يتوقـع جـزاء ولا شـكورا ، ويتأمـل اخـتلال المعـايير مـن حولـه ، لكنـه لا يـشكو ولا ييـأس ولا يتبرم ، بـل ربمـا كـان هـذا مـن دوافعـه القويـة إلى الاسـتمرار ومتابعـة الرسـالة ، الـتي نـذر لهـا حياتـه منـذ بـواكير العمـر ، وصـولا إلى الثامنـة والثمـانين الـتي نهنئـه ببلوغهـا - إن شـاء الله - في التاسع عشر من فبراير الحالي .

نعـود إلى أحـدث كتـب حـسين مجيـب المـصري ، الـذي يقـوم مـن خلالـه بدراسـة مقارنة لا نعكـاس العلاقـة بـين الآبـاء والأبنـاء في شـعر أربـع لغـات: العربيـة والفارسـية والتركيـة والأرديـة ، متتبعـا أجمـل النمـاذج وأحقهـا بالتأمـل والتحليـل والدراسـة في الـشعر العربـي القـديم ثـم الحـديث ، وفي الـشعر التركـي القـديم ثـم الحـديث ، ثـم الـشعر التركـي الـشعبي ، وفي الـشعر الفارسـي القـديم ثـم الحـديث ، وأخـيرا في الـشعر الأردي القـديم ثـم الحـديث ، موضـحا أنـه يقـصد بهـذه الدراسـة إلى التعـرف علـي جانـب لـه مكانتـه في الـتراث الاسـلامي ، وأن هذا الفـن مـن الـشعر يقتـضي أن نتفهمـه ونتـدبره لا نـه فـن يتـضمن فنونـا عـدة في وقـت معـا ، وأن النظـر فيـه لا بـد أن يخـوض بنـا في تقاليـد وأعـراف عـدة شـعوب إسـلامية ، وعلـي امتـداد عـصور تعاقبـت ، وهـو بهـذا يواصـل حمـل أمانـة الأدب الاسـلامي المقـارن - الـتي حملـها علـي مـدي أكثـر مـن خمـسين عـام ا - مـا تـأتي لـه أن يجـد في الـتراث الإسـلامي مـا دة تصلح للمقارنات والموازنات .

توقعـت أن يبـدأ الـدكتور حـسين مجيـب المـصري ، رحلتـه مـع النـصوص والنمـاذج الـتي اسـتوقفته ، بأبيـات حطـان بـن المعلـي ، الـتي تعـد جـوهرة ابداعيـة نفيـسة مبكـرة في هذا السياق ، وهي التي يقول فيها:

أنزلني الدهر علي حكمه
من شامخ عال إلى خفض
وغالني الدهر بوفر الغني
فليس لي ما ل سوي عرضي
لولا بنيات كزغب القطا
رددن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع
في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا
أكبادنا تمشي علي الأرض
لو هبت الريح علي بعضهم
لامتنعت عيني عن الغمض !

لكنـه تجاوزهـا ولم يـشر إلى هـا ، وعنـدما سـألته في هـذا ، كانـت اجابتـه الهادئـة ــ هـدوء تواضـعه العلمـي وثقتـه بمعرفتـه ـ أنهـا تتنـاول عاطفـة الأبـوة بـشكل عـام ، لكنهـا لا تـصور العلاقـة بـين الطـرفين: الآبـاء والأبنـاء ، بمـا تتـضمنه مـن رضـا أو غـضب ، ومـن بـر أو عقـوق ، ومـن وصـل أو قطيعـة ، وملازمـة أو فـراق ، وهـي الأمـور الـتي تعنيـه في دراسـته بشكل خاص .

لقـد آثـر أن يبـدأ الرحلـة مـع قـصيدة أخـري فاتنـة ، تحمـل عتابـا مريـرا مـن أب أسـرف في رعايـة ابنـه وتدليلـه ، مولـودا ويافعـا ، فلمـا جـاء الوقـت الـذي يـرد فيـه الابـن لا بيـه رعايـة برعايـة وصـونا بـصون ، وجـد الأب جـزاءه غلظـة وفظاظـة وعقوقـا ونكرانـا ، وليـت هـذا الابـن الـذي لم يـرع حـق الأبـوة فعـل مـا يفعلـه الجـار المجـاور ، الـذي لـيس مـن جملة الأهل ، لكنه يحنو علي جاره ويصونه ويرعاه:

غذوتك مولودا وعلتك يافعا
تعل بما أجني إلى ك وتنهل
إذا ليلة آبتك بالشكو لم أبت
لشكوك إلا خائفا أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي
طرقت به دوني ، وعيني تهمل
تخاف الردي نفسي عليك ، وإنها
لتعلم أن الموت حين مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي
إليها مدي ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة
كأنك أنت المنعم المتطول
فليتك إذ لم ترع حق أبو تي
فعلت كما الجار المجاور يفعل !

ويعلـق الـدكتور حـسين مجيـب المـصري علـي هـذا الـنص الـذي اجتزأنـا منـه أبياتـا قليلة بقوله: إنه يوقفنا أمام طـرفين متقـابلين همـا: ولـد يعـق أبـاه ويـذكر عنـه مـا يكـره فيـه ، وأب يـرد عليـه موضـحا مـا تـسبب لـه مـن عقـوق ، ثـم يغلـب عليـه حنـو الأب علـي ولـده ، فيذكره بما كان في مـا ضـي الأيـام مـن بـره وحبـه لـه ، ولكـن في نـبرة لينـة لا يكـاد يعـبر فيهـا عما به من غضب عليـه ، فكانـت رقتـه أمـام غلظـة ولـده ، هـذا هـو الفـرق الوسـيع بـين فطـرة الابن وفطـرة الأب ، وهـو أمـر يـذكرنا بمثـل يـتردد علـي ألـسنة النـاس وهـم يفرقـون بـين قلـبين أحـدهما مفطـور علـي الرقـة لا يملـك أن يغـير مـن فطرتـه ، فهـو لا بـد منفطـر لمـا يلحقـه مـن

ضيق وألم وحزن فيكاد يتفطر ، وقلب آخر هو قلب الابن يجعله المثل شبيها في صلابته وقسوته بالحجر الأصم .

وإلي مقال قادم ، نتابع فيه صفحات هذا الكتاب الجميل المفعم بالمشاعر الإنسانية ، وذكاء التأمل والتحليل . .

بين والد وولده[٢]

بقلم: فاروق شوشة

مازلنا مع عالم الدراسات الشرقية ، وأستاذ أساتذة اللغات الشرقية في جامعاتنا المصرية الدكتور حسين نجيب المصري ، من خلال كتابه الجديد البديع : بين والد وولده في الشعر العربي والفارسي والتركي والأردو . نتأمل اختياره عددا من النصوص الشعرية المتوهجة بالمشاعر الانسانية ، والتي تناولت العلاقة بين الآباء والأبناء . وفاء وعقوقا ، ووصلا وقطيعة ، وقربا وبعدا ـ في هذه الآداب الأربعة التي عني بدراستها ـ في إطار اهتمامه القديم ، منذ أكثر من خمسين عام ا ، بالأدب الاسلامي المقارن . في تناوله لبعض المواقف الدالة من التراث العربي ، تستوقف المؤلف نصيحة للهيثم بن صالح يتجه بها إلى ابنه قائلا له : اذا أقللت من كلامك أكثرت من الصواب . فيرد عليه ولده قائلا : إذا أكثرت أكثرت . أي اذا أكثرت من الكلام أكثرت من الصواب . فقال الأب : يا بني ما رأيت موعوظا أحق بأن يكون واعظا منك . ثم أنشد بيتين لا بي الفتح البستي هما :

تكلم وسدد ما استطعت ، فإنما
كلامك حي ، والسكوت جماد
فإن لم تجد قولا سديدا تقوله
فصمتك ـ عن غير السداد ـ سداد

كما يورد بيتين جميلين لا عشي سليم ـ وكان معاصرا لبشار بن برد ـ كما كان محبا لولد له يبره ، غاب عنه وطالت غيبته فاشتاق وعبر له بأنه محزون لفرقته قائلا :

ونفسي فداؤك من غائب
إذا ما البيوت لبسن الجليدا
كفيت الذي كنت ترجو له
فصرت أبا لي وصرت الوليدا

ويعلق المؤلف علي كتاب العققة والبررة والعققة جمع عاق ، والكتاب ألفه أبو عبيدة ، لكنه لم يذكر الا قليلا من البررة ، أما العققة فهم كثير ، وكأنما قال في نفسه : قليل يكفي ، والمثل الفارسي يقول : لا ربيع من زهرة واحدة . ثم يورد ما جاء في خزانة الأدب ل عبد القادر البغدادي وهي أبيات للصلتان ال عبد ي يقول فيها :

ألم تر لقمان أوصي بنيه
وأوصيت عمرا ، فنعم الوصي

بني بدا خب نجوي الرجال
فكن عند سرك خب النجي
وسرك ما كان عند امريء
وسر الثلاثة غير الخفي

ويـذكر أن الـدعوة إلى كتمـان الـسر وصـية متعارفـة معلومـة في كتـب الأدب العربـي والفارسـي والتركـي والأردي ، تجـري علـي ألـسنة العـوام وتـضرب فيهـا الأمثـال . يقـول الشاعر العربي:

احذر عدوك مرة . . . واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديق . . . فكان أعلم بالمضرة

ثـم يـشير إلى العربيـة الدارجـة الـتي يـتردد فيهـا هـذا القـول: داري علـي شمعتـك تنور . فكأن مـن يكـتم الـسر يخـشي علـي شمعتـه مـن الـريح ، وهـذه الـريح قـد تـأتي في الأعـم الأغلـب مـن عـدو وإن لم يوجـد مـا يمنـع إتيانهـا مـن صـديق ولـو بـسلامة نيـة وبـراءةغير مقـصودة ، وفي مثـل فارسـي: إن الـسر اذا خـرج مـن بـين شـفتين فـشا وذاع ، والمـراد بهـاتين الشفتين الشخصان اللذان لا يرعيان للسر حرمة ، والمتنبي يقول:

وللسر عندي موضع لا يناله
صديق ، ولا يفضي إلى ه شراب

وفي كتـاب الأمثـال للميـداني ، سـرك مـن دمـك ، أي ربمـا كـان في إضـاعة سـرك إراقة دمك ، فكأنه قيل: سرك جزء من دمك .

ثـم يحملنـا المؤلـف إلى الأدب الـشعبي التركـي فنجـد مـضحكات لمـن يـسمي نـصر الـدين خوجـة وهـو نظـير جحـا العربـي ، حكـيم يـسوق الحكمـة والموعظـة الحـسنة مـساق الدعابة . فمـن مـضحكاته أنـه شـاء يومـا أن يختـبر قـدرة زوجتـه علـي كتمـان الـسر ، فأوهمهـا أنه قتل رجلا ودفنه في فنـاء الـدار . وواقـع الأمـر أنـه انمـا ذبـح كبـشا ودفنـه ، ثـم أكـد عليهـا الوصـية أن تحجـب هـذا الـسر عـن كـائن مـن كـان ، وإلا جـاء جماعـة مـن ذوي قربـي القتيـل ليقتـصوا منـه . ثـم اتفـق أن مـر بالـداربعض مـن ذوي قربـي الرجـل ، ولم تكـد تـراهم المـرأة حـتي كانـت أسـرع إلى قولهـا: تعـالوا ، لقـد قتـل زوجـي رجـلا ودفنـه في فنـاء الـدار . فجـاء الرجـال ونبـشوا القـبر فوجـدوا كبـشا حنيـذا (أنـضجه الـدفن في الحجـارة المحمـاة بالنـار) ، فـأغربوا في الـضحك وعرفـوا أن هـذا مـن مـضحكات نـصر الـدين خوجـة ، ودعـاهم نـصر الـدين إلى الطعـــــــــــــــــــــــــــــــام فطعمـــــــــــــــــــــــــــــــــوا !
ويـستهل الـدكتور حـسين نجيـب المـصري الفـصل الثـاني مـن كتابـه وهـو ينتقـل إلى الـشعر العربـي الحـديث ، بقـصيدة لـه اختـتم بهـا ديوانـه ، حـسن وعـشق . وهـي قـصيدة كاشـفة

عن وجدان مفعم بالأبوة بل هي مرآة تجلو ذات نفس صاحبها ، الذي آثر بعد كتابتها أن يتتبع هذا الخيط من الابداع الشعري في أشعار الآداب الأربعة ، دارسا ومحللا ومقارنا .
يقول في قصيدته عن ولده:

رعاك الله يا ولدي . . . وعشت لنا إلى الأبد
فدتك بنورها عيني . . . فدتك بمهجتي كبدي
أعز علي من نفسي . . . وليس سواك ذخر غدي
وبدري أنت أو شمسي . . . بغيم جد ملتبد
عزائي إن رمي زمني . . . بلاياه ، بلا عدد
وآمالي اذا محني . . . فتن إلى وم في عضدي
إليك أوجه الشكوي . . . وما أشكو إلى أحد
وأنت تخفف البلوي . . . وتشفي لوعة الكمد !

ويختتم قصيدته بقوله:

ستبقي أنت لي ذكري
اذا ضم الثري جسدي
وتقرأ لوعتي شعرا
وهذا منتهي أمدي
دعاء قلته حقا
لربي الواحد الصمد
ولن تأسي ، ولن تشقي
كمثل أبيك يا ولدي !

المؤلف الشاعر أو الشاعر المؤلف يختتم القصيدة بمثل ما استهلها ، وهو الدعاء لولده بالخير كل الخير ، وأمله - كما يقول في تعليقه علي قصيدته - أن يحيا ولده من بعده حياة طيبة ، هي أبعد ما يكون شبها بتلك الحياة التعسة التي عاشها هو . لقد تحدث في قصيدته عن نفسه من فاتحتها إلى خاتمتها ولم يذكر عن ولده الا أقل القليل ، وما ذاك الا لا نه شاء أن يجعل من ولده صنوا لنفسه بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معني . وهو يصف نفسه بأنه شاعر غنائي ، بمعني الغنائية في جوهرها ، يري نفسه في كل شيء يراه بأم عينيه أو يرد علي فكره أو يتجلي في خياله ، وتلك صفة الشاعر الحق الذي يطلعنا علي النفس الانسانية في حركاتها منبسطة بالفرح أو منقبضة بالترح ، وخياله هو الحقائق بعينها ، فهو يفسر الحقيقة بالمجاز والخيال ولكن بمقدار .
ثم ينتقل الدكتور حسين نجيب المصري إلى ديوانين للشاعر المبدع محمد ابراهيم أبو سنة هما: مرايا النهار البعيد وشجر الكلام . وتستوقفه قصيدتان أبدعهما الشاعر في ابنته مي

في مـرحلتين مـن مراحـل العمـر . يقـول في إهـداء ديوانـه الأول: إلى ابـنتي مـي مـرآة النهـار القـادم ، لعلـها أن تقطـف مـن أغـصان الأيـام ثمـرا أقـل مـرارة . وفي قـصيدته عـصفور النـور والبراءة يقول: إلى ابنتي مي وهي تنطق أولي الكلمات ، ثم يقول:

ماما ، ما ما
يهمس برعم حلم في شفتي مي
يتفتح في قلبي كون من أجنحة
ينهمر ورودا وغماما
ماما ما ما ما ما
تبتكر طريقتها في خلق اللغة الموسيقي
في خلق مدار للأفلاك
غروبا وشروقا
يبصر حين يراها القلب الأعمي
يشتعل غراما
ماما ما ما ما ما
تتنزل فوق فؤادي بردا وسلاما
وكأن لم أسمع من قبل كلاما
تملأ روحي أفراح الحب الأول
ويبادلني العالم
حبا وهياما
ماما ما ما ما ما
من أجلك سامحت الأياما
من أجلك أعفو عن أحزاني
وأبارك فرحي
أتجلد للدنيا
صلحا وخصاما

ويعلـق حـسين نجيـب المـصري بـأن في القـصيدة مـا يـذكرنا بمـا ألفـه شـعراء الفارسـية والتركية والأرديـة مـن تـشبيه الثغـر بـالبرعم ، وفيهـا مـا يكـشف عـن خيالـه الـذي ينطـق فيـه قلبـه فـيري دنيـاه وقـد خفقـت فيهـا أجنحـة ، وانهمـرت ورودا ، فهـي عنـدما تـتكلم كـل دنياه ، وهي دنيـا كـل مـا فيهـا جميـل ، وخيالـه الخـصب يعـرض صـورا يؤلفهـا الـشاعر مـن عناصر ومقومات يري فيها لحنا عجبا كأنما تخلقه علي غير مثال .

ونختتم هذه السطور بما تخيره المؤلف من شعر الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي في ابنه علي ، في قصيدتين من قصائد ديوانه سفر الفقر والثورة يقول في أولاهما :

قمري الحزين
البحر ما ت وغيبت أمواجه السوداء
قلع السندباد
ولم يعد أبناؤه يتصايحون مع
النوارس والصدي
المأجوج عاد
والأفق كفنه الرماد
فلمن تغني الساحرات ؟
والبحر ما ت
ويقول في الثانية :
مدن بلا فجر تنام
ناديت باسمك في شوارعها
فجاوبني الظلام
وسألت عنك الريح وهي تئن
في قلب السكون
ورأيت وجهك في المرايا والعيون
ومن زجاج نوافذ الفجر البعيد
وفي بطاقات البريد

تمنيت لو اتسعت المساحة المتاحة لعرض كل فصول هذا الكتاب البديع ، خاصة ما يتناول منها مختارات الشعر الفارسي والتركي والأردو . لكن ، تكفي الاشارة إلى عمل يحمل سمت صاحبه وسماته : عالما وأكاديميا وناقدا وشاعرا . والتقدير لا ستاذ لم يقم المجتمع الثقافي نحوه بما يستحقه من رعاية وتكريم ، بعد أن أفني نور عينيه بحثا ودراسة ، ولم يفقد بصيرته الهادية وحماسه لمواصلة الرسالة التي عاش لها ، مكتفيا بها عن كل شيء من متاع الدنيا .

في رحيل فدوى طوقان

بقلم: فاروق شوشة

وفدوي طوقان هي شاعرة فلسطين الأولي ، وثانية شاعرات العرب الكبيرات بعد الشاعرة العراقية الرائدة نازك الملائكة - بارك الله في عمرها وشفاها من مرضها العضال — ثم هي شاعرة الحلم الفلسطيني في مده وجزره ، بطولاته وانكساراته ، ترحل عن دنيانا في مستهل عام ها السادس والثمانين وهي تشهد بعينيها - من نوافذ غرفة العناية المركزة التي قضت فيها أسابيعها الأخيرة - الدمار الذي يصيب مدينتها الحبيبة نابلس علي أيدي المغتصبين البرابرة - وهم يحالون اقتلاع مواطنيها الفلسطينيين من بيوتهم وأرضهم وتاريخهم .

لقد أغمضت فدوي طوقان عينيها علي وجود يتداعي ، وحلم يتراجع ويتبدد ، بعد أن قضت أكثر من ستين عام ا - هي عمر تاريخها الشعري - تتغني بالأرض والوطن - وتحمل قصائدها مفردات فلسطين ، وكأنها الذاكرة المرئية لكل قارئ عربي ، وهو يقرأ عن نابلس وبيسان وجرزيم وطوباس ورفيديا ، الجغرافيا الشعرية الحية ، التي نجحت في إبقاء اسم فلسطين ، شاخصا في دائرة الرؤيا والذاكرة ، محركا للهمم والعزائم ، قادحا لزناد الحس القومي والوعي بقضية العرب الأولي: فلسطين .

في القاهرة ، وبمساعدة حميمة من صديقها الناقد الكبير أنور المعداوي نشرت فدوي طوقان ديوانها الأول وحدي مع الأيام في عام ١٩٥٢ ، ثم تتابعت دواوينها: وجدتها ، أعطنا حبا ، أمام الباب المغلق ، الليل والفرسان ، علي قمة الدنيا وحيدا ، تموز والشئ الآخر ، اللحن الأخير . بالإضافة إلى سيرتها الذاتية البديعة ، التي صاغتها في لغة شعرية شديدة الصفاء والعذوبة والحرارة ، في كتابيها: رحلة جبلية ، رحلة صعبة والرحلة الأصعب .
أتيح لي أن أتعرف علي الشاعرة الكبيرة في أمسية شعرية أقامتها الجمعية الأدبية المصرية في مقرها بعابدين عام ١٩٦٦ . وشرفت بمشاركتها مع مجموعة من الشعراء كان من بينهم الشاعر الفلسطيني عز الدين المناصره ، وكان يدير الأمسية الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور .

ولم يكد يمر عام ، حتي فوجئت بفدوي طوقان تنتظرني في مكتب المذيعين بالإذاعة - وكنت وقتها في تسجيل تليفزيوني مع صلاح عبد الصبور للبرنامج التليفزيوني الأمسية الثقافية وفوجئت أنا وصلاح بوجودها ، كانت تريد التعرف علي الإذاعية الكبيرة سامية صادق التي حمل صوتها الرقيق المعبر كثيرا من قصائد فدوي إلى ملايين

المستمعين ، ثم عرفت من فدوي ـ بعد ذلك ـ أنها محملة برسالة إلى الرئيس جمال عبد الناصر من موشي ديان بعد أن أجبرها علي لقائه (كان ذلك عقب نكسة١٩٦٧) وقد حكت فدوي تفاصيل هذا كله في كتاب سيرتها الذاتية . ثم دارت الأيام والسنون ، والتقيت بفدوي مرة ثالثة وأخيرة في دورة أبي القاسم الشابي التي أقامتها مؤسسة البابطين في مدينة فاس بالمغرب ، وكانت فدوي معنا علي الطائرة من القاهرة إلى فاس ، وطوال أيام الدورة التي كرمت فيها فدوي بجائزة الإبداع الكبري ، كانت هي كوكب المهرجان ، ونسمته الصافية .

وكما كانت نكسة١٩٦٧ حدا فاصلا في الرؤية والموقف الشعري لكثير من الشعراء العرب ، فقد كانت كذلك بالنسبة لفدوي التي عدلت عن غنائها الشجي لا حزانها ومواجعها الذاتية ، وتأمل واقعها المنفرد الذي يجعلها حبيسة المكان مقيدة الأحاسيس والمشاعر ، سجينة ترسف في تقاليد البيئة والمجتمع ، عدلت عن هذا كله إلى موقف رافض للهزيمة ، مؤازر للنضال والصمود ، ما نحة أمومتها الشعرية والقومية لشعراء الشباب من جيل الستينيات في الأرض المحتلة : محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وسالم جبران وغيرهم ، الذين تفجرت عوالمهم الشعرية بإبداع مغاير ، وحساسية مختلفة ولغة شعرية باترة ، بعيدة عن الفيض الرومانسي الذي يغمر قصائد فدوي . وبالرغم من وعيهم بهذه المغايرة ، فقد ظلوا يرون في فدوي الأم والعمة والأخت الكبيرة كما سماها محمود درويش الذي قال في وداعها : كانت فدوي طوقان أختي الكبيرة ، كانت تعجبني رقة شعرها التي توازي رقتها الشخصية ، كانت أحد المعابر الذاتية والثقافية لفلسطين ، وشعرها شعر عابر للأجيال .

بدأت شاعرة رومانتيكية ، لكن هزيمة١٩٦٧ أحدثت رجة كبيرة في لغتها ، فتحولت إلى شاعرة مقاومة من غير أن تتنازل عن نزعتها الرومانتيكية لا رتباطها بشعر الطبيعة والحب والعذوبة الإنسانية ، ما جعلها مستمرة وحية في موسوعة الشعر العربي ، ولعلها من أكبر الشعراء في تاريخ فلسطين .

ثم يلخص محمود دوريش وداعه لفدوي في جملة نابضة يقول فيها : في نفس كل فلسطيني شئ من شعر فدوي طوقان اختصتني فدوي طوقان بالعديد من رسائلها ـ في أعقاب نكسة١٩٦٧ ـ التي كانت تنجح في تهريبها إلى القاهرة عبر بيروت ، حاملة كلماتها المفعمة بالتمرد والثورة والرفض ، وكأنها قد تحولت ـ بمفردها ـ إلى جيش مقاتل ، طلقاته وذخيرته كلمات مغموسة بدم القلب ، وقصائد متوهجة بإرادة النضال والبطولة والتحدي . لم تكن تخاف علي نفسها وهي المقيمة في نابلس ، في قبضة الاستعمار الاستيطاني الاسرائيلي ، وكل ما يعنيها وصول كلماتها إلى الصحف والاذاعات العربية . كنت أذيع هذه القصائد من خلال برنامج لغتنا الجميلة الذي بدأت تقديمه من إذاعة

البرنامج العام بعد حلول النكسة بقليل (سبتمبر١٩٦٧) وأحملها إلى الصديق الصحفي الكبير الراحل كمال الملاخ الذي يسرع إلى نشرها في صفحته الأخيرة من الأهرام ، وهكذا كان يقرؤها ويستمع إلى ها الملايين ، وتنبض قلوبهم مع قلب فدوي وشعرها الذي استطاع أن يخترق الأسوار ، وعندما أتيح لفدوي أن تلتقي بشعراء المقاومة الفلسطينية الشباب في الرابع من شهر ما رس عام ١٩٦٨ في مدينة حيفا ، كانت كلماتها إلى هم كاشفة عن جوهر العلاقة الحميمة ـ إنسانيا وشعريا ـ بينها وبينهم وهي تخاطبهم بقصيدتها لن أبكي

.

أحبائي
مسحت عن الجفون ضبابة الدمع
الرمادية
لألقاكم وفي عيني نور الحب والإيمان
بكم ، بالأرض ، بالإنسان
فواخجلي لو اني جئت ألقاكم

وجفني راعش مبلول
وقلبي يائس مخذول
وها أنا ياأحبائي هنا معكم
لأقبس منكمو جمرة
لآخذ يامصابيح الدجي

من زيتكم قطرة
لمصباحي
وها أنا ياأحبائي
إلي يدكم أمد يدي
وعند رؤوسكم ألقي هنا رأسي

وأرفع جبهتي معكم إلى الشمس
وها أنتم كصخر جبالنا قوة
كزهر بلادنا الحلوة
فكيف الجرح يسحقني ؟

وكيف إلى أس يسحقني ؟
وكيف أمامكم أبكي ؟
يمينا ، بعد هذا إلى وم لن أبكي !

أحـاول الآن - دون جـدوي - اسـتعادة تلـك الـسنوات الرائعـة مـن بـواكير العمـر الجميـل ، لحظـة اكتـشافي لـشعر فـدوي وأنـا بعـد طالـب في الجامعـة ، وقراءتـي لـديوانها الأول وحـدي مـع الأيـام ، وغرقـي في نهـر متـدفق بالعذوبـة والرقـة والـصفاء ، وافتتـاني باللوحـات الـشعرية البديعـة الـتي صـورت فيهـا فـدوي بريـشتها الملهمـة مـشاهد الطبيعـة الفلـسطينية الخلابـة وصـورها الفاتنـة في إحـساس عـارم ونـشوة متقـدة ولغـة طيعـة وخيـال محلـق ، ولحظـة أخـري واكبـت التحـاقي بالإذاعـة قـرب ختـام الخمـسينيات ، وبـدء تقـديم الزميلـة الإذاعيـة الكـبيرة سـامية صـادق لبرنامجهـا العتيـد حـول الأسـرة البيـضاء وإتاحتهـا الفرصـة لصوت إذاعـي جديـد أن يأخـذ طريقـة إلى الأسماع عـبر العديـد مـن حلقـات هـذا البرنـامج - وهـو يقـدم مختـارات مـن شـعر فـدوي ، في دواوينهـا الأولـي وحـدي مـع الأيـام ووجـدتها وأعطنـا حبـا ، وسـرعان مـا أخـذت سـامية تـشدو بـصوتها وأدائهـا المتميـز قـصائد فـدوي ، وكانـت قصيدة كلما ناديتني بمثابة اللحن المميز لا ختيارات تلك المرحلة :

ياحبيبي ، كلما ناديتني
هاتفا عبر المسافات : تعالي
عبقت في خاطري ، ياجنتي
جنة ، وانهل ضوء في خيالي
وبدا لي

عالم ريان وردي الظلال
من شباب وفتون وغوي
أسكرت آفاقه خمر الهوي
وتعثرت فيه أطياف الجمال
وصولا إلى قول فدوي :

نادني من آخر الدنيا ألبي
كل درب لك يفضي فهو دربي
ياحبيبي ، أنت تحيا لتنادي
ياحبيبي ، أنا أحيا لا لبي

صوت حبي
أنت حبي
أنت دنيا ملء قلبي
كلما ناديتني جئت إلى ك
بكنوزي كلها ملك يديك

بينابيعي ، بأثماري ، بخصبي
ياحبيبي !

ولقد رحلت فدوي ، وبقي من بعدها الشعر ، والسيرة والصوت والصدي ، لا رق شاعرة في ديوان الشعر العربي كله .

موال بغدادي

بقلم: فاروق شوشة

ياليل ، ياعين ، ياأحلام ، ياقمر

ياحب ، ياوجد ، ياأشواق ، ياسهر

شط المزار ، وكل الصحب قد هجروا

فأظلم الكون لا أنس ، ولاسمر

ولاظلال ، ولا ري ، ولا مطرهات اسقني مهل دجلة

في نهلة بعد نهلة

لعل ما ء المذلة

يصير يوما تعلة

لكل من رحلوا كالطيف ، أو عبروا

لم ندر هل صدقوا في العهد أم غدروا !

* * *

ياليل بغداد ، هل بغداد بغداد !

وهل لموالها شدو وإنشاد ؟

وهل لا طيارها في الأفق ميعاد ؟

وهل ستهجع أرواح وأجساد ؟

آهاتها كل يوم فيك تزداد !

عيناك من سحر بابل

أم من أزيز القنابل

تفجران الزلازل

في طغمة لم تقاتل

ميراث أيامهم سحل وأصفاد

لكنه في سجل القهر أمجاد !

* * *

قلبي مع الباحثين الآن عن طلل

وعن رصيف ، وعن مقهي وعن أمل

وعن مفاتيح جرح غير مندمل

وعن بقايا صبا ولي علي عجل

وطارق دق أبو ابا بلا ملل
هل ثم دار ومأوي ؟
أم جب حلم ومهوي !
وهالك دون مثوي
محوه بالأمس محوا
فهل يفيق ، وهل ينجو من الخبل ؟
أم أن مقدوره إغفاءة الأجل !

* * *

هل أنت باق هنا ياليل أم عابر ! ؟
وهل وعيت الذي يبكي له الشاعر ! ؟
وهل مددت يدا للبائس العاثر ؟
وهل هبطت علي ركن بلا زائر ؟
لم يبق منه سوي تذكاره الغابر !
ليل وليل وليل
وثم صمت وويل
وثم سرج وخيل
وفارس وهو ذيل !
هل أنت ياليلنا ، ليل بلا آخر ؟
أم أنت جرح بعيد المنتأي غائر !

* * *

ياليل ، ياعين ، ياأيام ، ياأبد
وياسرابا خوونا كله بدد
هبك انقشعت ، فهل جربت ما نجد
ونحن فجر حسير كله كمد
ولم يعد في ما قي دمعنا مدد !
كانت ، وكانوا ، وكنا
قلبا غفي واطمأنا
يظن للعيش معني
ولا يري الكون سجنا
هيا تلفت ، فمافي دارهم أحد !

لا الناس ناس ، ولا بلدانهم بلد !

* * *

من أنت ياشاخصا في البعد تنتظر

لعل ضوءا من الآفاق ينهمر

أو ظلمة من دياجي القهر تنحسر

لاتنتظر أحدا . . . فالقلب منكسر

والسر يطوي بعيدا ، ثم يستتر !

إني أنادي ، أنادي

من قاع ليل الحداد

أصبح: أين بلادي ؟

وأين ما ئي وزادي ؟

هل أنت من توجوك إلى وم ، وانتشروا !

للسلب والنهب ، والتاريخ يندثر

* * *

ياليل بغداد هل تدري بكل خفي !

وهل تري ما أري في كل منعطف ؟

وهل تحس بشيء فيك مختلف !

ونحن نمعن في الخذلان والتلف

وما يدير رؤوس الناس من خرف !

يوما ستروي ، وتحكي

عن كل طيش وإفك

وكل نهب وفتك

إنا ليوميك نبكي

واضيعة العمر بين القهر ، والصلف !

وسالف قادنارغما إلى الخلف !

* * *

أنت العراق ، وأنت الحزن والألم

وهادر من عصي الموج يلتطم

إذا تشابكت الأنوار والظلم

وعربدت في البوادي فتنة عمم

وظن كل قبيل أنه العلم

دوس علي الشول ، وأمضي

بركان جمر وومض

وباركي كل أرض

تصون أشلاء عرض

القوم صنفان: ما جور ومتم

وأنت تبنين ـ رغم إلى أس ـ ما هدموا !

أنت العراق ، فهل تدرين ما أنت ؟

* * *

يانخلة سمعت في عالم النبت

وظللت كل حي ، حيثما كنت

أمومة من رحيق الطل والوقت

وكبرياء شموخ رائع السمت

هززتها فاستطالت

وبالرياحين ما لت

وحين طابت ، وسالت

صالت طويلا ، وجالت

كالسيف ، يقطع رأس القهر والمقد ؟

ومستحيلا يرد الموت ، بالموت !

* * *

ياليل ، ياعين ، ياأطياف ، يامحن

ياكل جرح جديد ، ساقه الزمن

ياكل صدع ، وتحت الصدع نندفن

ياكل عزم تولي كبره الوهن

ياكل موت سيأتي ، ما له ثمن !

أما كفي ! ذاك يكفي !

من ليل خوف لخوف

مابين حتف وحتف

وموسم للتشفي !

غد سيأتي ، ويمضي ، وهو مرتهن
ونحن ننعي رمادا . . . واسمه الوطن !

كل فتاة بأبيها معجبة

بقلم:فاروق شوشة

لا أعرف أحدا ينطبق عليه هذا القول العربي المأثور كل فتاة بأبيها معجبة كانطباقه علي الإذاعية والأديبة الشاعرة كريمة زكي مبارك التي جعلت من أهتمامها بتراث أبيها الدكاترة زكي مبارك رسالة حياة . فمنذ رحيله في٢٣ يناير عام ١٩٥٢ ـ قبل حريق القاهرة وما تبعه من أحداث شغلت الناس عن كل شيء ، بثلاثة أيام ـ وستائر النسيان تنسدل عليه وعلي آثاره وكتاباته يوما بعد يوم ، حتي قيض الله له من ابنته كريمة ـ وليس من أبنائه الرجال ـ من قام بجمع مقالاته وآثاره المتناثرة في عديد الصحف والمجلات ، وتصنيفها في عديد من الدواوين الشعرية والكتابات الأدبية والنقدية ، فضلا عن العمل بدأب وهمة لا تعرف الكلل ، لا عادة نشر مؤلفاته الذائعة الصيت ـ التي أصدرها في حياته ـ وأصبح الجمهور الأدبي والدارسون يفتقدونها ، مثل: النثر الفني في القرن الرابع الهجري والتصوف الإسلامي ومدامع العشاق والموازنة بين الشعراء وعبقرية الشريف الرضي وحب ابن أبي ربيعة وشعره والأخلاق عند الغزالي والبدائع وليلي المريضة في العراق . واستطاعت كريمة زكي مبارك ـ علي امتداد أكثر من ثلاثين عام ا ـ أن تضيف إلى تراث أبيها كتبا جديدة صدرت لا ول مرة في مقدمتها ، زكي مبارك ناقدا والحديث ذو شجون وحافظ إبراهيم وبين آدم وحواء وزكي مبارك ونقد الشعر ، وسيرة حياة الدكتور زكي مبارك والفكر التربوي عند زكي مبارك بالإضافة إلى دواوينه الشعرية: قصائد لها تاريخ وأطياف الخيال وشط إسكندرية . وكان قد صدر له في حياته ديوانان هما: ديوان زكي مبارك عام ١٩٣٣ و ألحان الخلود عام ١٩٤٧ .

ولقد ظلم زكي مبارك في تاريخنا الأدبي الحديث ظلما بينا ، أول أسبابه: أنه كان مختلفا ، خارجا عن السياق المألوف للكتاب والأدباء والشعراء ، لا يعنيه في كثير أو قليل أن يصدم الرأي العام ، أو يفاجئ الجمهور الأدبي بغير ما يألفه ويعتقده ، فكل شيء في نظره قابل للمناقشة ، مستحق للرفض أو القبول . هذا الموقف المغاير أفقده كثيرا من الناس .

السبب الثاني: أنه خاض معارك أدبية ونقدية طاحنة مع عدد كبير من كبار أدباء زمانه وأعلام البيان في عصره . لم يرهب أيا منه لسلطانه أو نفوذه أو ذيوع صيته واتساع شهرته . بل كان يقارعهم الحجة بالحجة ويسخر منهم ، ويسلقهم بلسان حاد لا ذع ، ويجعلهم مثارا للفكاهة والتندر . وهؤلاء تآمروا عليه بالصمت بعد رحيله لا يكاد يذكره منهم أحد ، وتصوروا أن هذا الحكم بالصمت نفي لا سمه من الساحة ، وإخراج له من دوران الذكر في حياة الناس واهتماماتهم .

ثالث هذه الأسباب: الطريقة التي كان يكتب بها زكي مبارك ، وهي طريقة استطرادية ، ينتقل صاحبها بخفة ورشاقة من نقطة إلى نقطة ومن موضوع إلى موضوع . وربما تاه الموضوع الأصلي وضاع ، لا يعنيه . المهم هو هذه الجولة الأدبية المعرفية التي لا تترك في طريقها شيئا إلا وتستشهد به وتعرج عليه . الأمر الذي جعل كثيرا من كتاباته لا ترضي من يتطلبون أكاديمية البحث والتناول ، ومنهجية الدراسة الصارمة ، لكنها ـ بالرغم من ذلك ، وبسبب هذا العيب الذي أشار إلى ه الأساتذة الأكاديميون ـ أرضت ألوفا من قرائه وأسعدتهم ، لا نها كتابة ممتزجة بروح صاحبها وعواطفه ومشاعره ومواقفه وانفعالاته ، غير منفصلة عنه ولا عن أسلوب حياته وطريقته في مواجهة الأمور .

وزكي مبارك ـ قبل هذا كله وبعده ـ واحد من أصحاب الأساليب الكبري في أدبنا الحديث ، ولأسلوبه شخصيته الفاتنة المتميزة ، لا يخطئها قارئ من قرائه ، وعلاقته اللغة علاقة عشق ووعي واستيعاب ، وقدرة فذة علي التعبير بها عن أدق خوالجه وأعمق أفكاره ، وعن تجلياته الشعرية التي انسكبت في العديد من دواوينه .

ظلم زكي مبارك حيا وميتا ، بحرمانه العمل في الجامعة ، أسوة بأنداده ونظرائه ، وهو الحاصل علي شهادتين للدكتوراه ، ولقد عذبه هذا الحرمان وأضناه ، وباعد بينه وبين المكان الذي كان ينبغي أن يشغله استاذا في الجامعة ، لكن الذين دسوا له وحقدوا عليه وغاروا منه ، كانوا وراء هذا الإقصاء والحرمان ، وظلت مرارة هذا التجاهل تلاحق زكي مبارك حتي رحيله ، وهو يري نفسه يمارس التدريس في وزارة المعارف ثم يرقي إلى مهنة التفتيش . لم يتح له أن يتنفس سعيدا خلالها إلا عندما أعير إلى العراق ، عام ا دراسيا واحدا لمدة تسعة أشهر يدرس الأدب العربي في دار المعلمين العالية التي كانت نواة الجامعة العراقية ، ولم يطمئن باله بهذا البعد عن أعدائه وحساده ، فكتب إلى وزير المعارف معالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا يقول له: أتري كيف كانت الدسائس تتعقبني من القاهرة إلى بغداد ؟

بل هو قبل رحيله بعامين اثنين ـ عام ١٩٥٠ ـ يكتب في أسي ومرارة: لم أنتفع بشيء . فحتي هذه السنة وأنا أحرر في الجرائد والمجلات ، وأملأ الدنيا ضجيجا وأنشئ المدارس أدبية وفلسفية ، وأنظم القصائد الجياد ، ثم أراني متخلفا في حياتي الرسمية . إن أحزاني لا تحملها الجبال ، إني رجل محزون ، محزون ، محزون . ولو شئت لكررتها ألف مرة ، ولكني من أقدر الناس علي الفرار من أحزاني . والله بعباده رءوف رحيم ، فهو يسوق إلى موجبات الابتسام ، وأنا الرجل الحزين الذي لم يعرف قلبه الفرح منذ سنين .

ثم يقول زكي مبارك: قضيت دهري بلا نصير ولا معين ، وسأظل كذلك طول حياتي ، لا قيم الدليل علي أن الذي يستنصر بالله لا يخيب ولا يضيع . وستبيد

أحجار الجامعة المصرية ويبقي كتاب النثر الفني ، فقد بادت المدرسة النظامية وبقيت مؤلفات الغزالي ، لا ن الفكر صورة من صور الله ، والله حي لا يموت .

من بين الكتب الجديدة التي أصدرتها كريمة زكي مبارك كتاب زكي مبارك ناقدا ، والكتاب يتضمن فصولا نشرها زكي مبارك علي صفحات مجلة الرسالة التي كان يصدرها الكاتب الكبير أحمد حسن الزيات ، نشرت هذه الفصول ابتداء من سنة١٩٤٠ ، وتتضمن عرضا وتحليلا ونقدا لكتابات أدبية وثقافية لعدد من كبار الكتاب من بينهم أحمد أمين وأحمد حسن الزيات وحافظ عفيفي ولطفي السيد وطه حسين وعباس محمود العقاد و عبد العزيز البشري وإبراهيم عبد القادر المازني ومحمود تيمور وجبران خليل جبران ومحمد المويلحي . الطريف أن من بين هذه الكتب التي عرض لها . زكي مبارك كتاب له هو نفسه ، وهو كتاب الأخلاق عند الغزالي . ولأن هذه الكتب جميعا تضم كتابات نثرية ، فقد قدمت كريمة زكي مبارك للكتاب بسطور لزكي مبارك يتحدث فيها عن ضرورة الاهتمام بالنثر بعد أن طغي الاهتمام بالشعر قائلا: نحن نري أن الوقت حان للعناية بالنثر ونقده وإحلاله المحل الأول من جمهور الباحثين والناقدين ، فإن النثر إلى وم هو صاحب السلطان في المشرق والمغرب ، والكتاب يحتلون إلى وم مكانة يصعب أن يتسامي إلى ها الشعراء ، لا ن النثر هو الأداة الطبيعية لنشر الآراء والمذاهب والعقائد ، وزماننا مجنون بالسرعة في كل شيء ، والشعر ـ كفن مثقل بالقوافي والأوزان ـ غير خليق بتقديم ما تحتاج إلى ه العقول صباح مساء من ألوان الغذاء العقلي والوجداني ، وهو حين يجود يظل مقصورا علي بعض النوازع القلبية والنفسية التي لا تستريح إلى ها الجماهير إلا في لحظات الفراغ . وليس معني هذا أن الشعر دالت دولته ، لا ، فإنه لا تزال لدينا جوانب وجدانية تتشوف إلى التغني بالشعر البليغ ، لا ن الطبيعة لا تزال تتألق في خلق دواعي الشعر . ولا يزال في الدنيا نجوم تتألق ، وأزهار تتفتح ، ولا تزال الأرض تذلل خدها لمن يمشي عليها من أسراب الظباء .

أريد أن نقدر النثر حق قدره .

وزكي مبارك ـ الذي يقول هذا الكلام عن النثر وأهميته وضرورة أن نقدره حق قدره ـ هو نفسه الشاعر الجميل الذي صاغ من ذوب قلبه ووجدانه روائع شعرية في دواوينه الشعرية الخمسة . وفي شعره ، كما في نثره ـ لغته العصرية الجميلة ، القريبة من لغة الحياة ، البعيدة عن الحوشي والغريب والمهجور ، تشي بلاغتها بعقل تجديدي مستنير ، وتناول فني جديد لا أثر فيه لتقليد أو محاكاة . هنا ، في الشعر ، يصبح زكي مبارك شاعرا عصريا بكل معني الكلمة ، روحا ولغة وتجارب ومواقف وفكرا وتناولا ومعايشة . يقول في قصيدة يسميها قصيدة إسكندرية :

حضرت أبث البحر شوقي ، وإنني
بأمواج هذا البحر ظمآن هائم
حضرت أناجيه فثارت عواصف
وأعقبها بعد الهبوب غمائم
وغنت حمامات فاجرين أدمعي
أتعرف شجوي في الغرام الحمائم ؟
ونمت دموعي عن هيامي وأفصحت
أفي كل يوم في حياتي نمائم ؟
سهرت بآلامي وأقلقت مضجعي
وأعين من أهواه عني نوائم
تعجب بحر اسكندرية من فتي
يثور علي الأيام والدهر لا ثم
فيا بحر: أين الحظ أين سبيله
علي أنني بالحظ والحب عالم !
أفي يقظة باقلب تسكب دمعة
تحدثني يا قلب أنك حالم ؟
نسيم هواء البحر يذكي عواطفي
ويصنع ما لا تستطيع النسائم
يقولون مجنون بليلي ، وخاسر
ولم يعلموا أني مع الخسر غانم !
إذا ظلمت ليلي بفضل جمالها
فإني بشعري في هواها لظالم
فتاة رأيت البدر يسرق حسنها
فخاصمته فيها وإني المخاصم
وأقبل هذا الليل يسرق شعرها
ولم يدر أن القلب كالشعر فاحم
وأقبل زهر الروض يسرق خدها
وكيف وهاتيك الخدود نوائم !
وقالت أقاحي الروض كيف ثغورها ؟
ولم تدر ما تلك الثغور البواسم
تذكرت ليل اسكندرية حائما
علي الحسن ، والقلب المتيم حائم !

وبعد . .

لقد كان دافعي إلى هذا الحديث الجديد عن زكي مبارك ، تقديري للدور الذي قامت به ابنته كريمة زكي مبارك ، في جمع تراثه الذي لم يسبق نشره في كتب ، وإعادة نشر أعماله التي لم تعد متاحة لقراء هذا الزمان . فهي كما قلت تذكرني بالقول المأثور كل فتاة بأبيها معجبة ، لا تشاركها في هذا الدور النبيل من أدوار الوفاء والعرفان إلا التليفزيونية الأديبة نهي يحيي حقي كريمة أديبنا الكبير يحيي حقي ، التي جعلت من إصدار تراثه الذي لم يجمع وآثاره غيرالمعروفة ، رسالة تنهض بها علي خير وجه . وقد أسعدتني كل السعادة المصادفة التي جمعت بيني وبين الصديق العزيز الكاتب الكبير رجاء النقاش حين التقينا من حول زكي مبارك في يوم واحد علي صفحة واحدة في الأهرام ، تقديرا لعبقرية هذا الأديب الكبير في نثره وشعره ، في مواقفه ومعاركه ، وفي جموحه وشططه وانفعاله ، في معاناته وحرمانه ، في أدواره الثقافية الباهرة خاصة دوره الثقافي في إقامة جسر أدبي بين مصر والعراق ، خلال تسعة شهور امتلأت بما لا تمتلئ به تسع سنوات ، من النشاط الموفور ، والتأثير القوي ، والحضور الساطع المؤثر .

نختتم هذا الحديث بسطور من وصية زكي مبارك التي كتبها حين استشعر دنو منيته بعنوان عندما يوافيني الموت ، يقول فيها : ما ذا أقول حين يوافيني الموت ؟ سأذكر أني أديت واجبي حين حذرت الناس من الناس ، فأنا من أكثر الكتاب حديثا عما يعتور بني آدم من الغدر والعقوق ، وسيقرأ الناس ما كتبت وما نظمت . وسأذكر يوم أموت أنني أوفي صاحب وأكرم صديق ، فما جاملني إنسان إلا وسقيته الشهد ، وظللته بسحائب العطف ، وأغدقت عليه نهير البر والحنان . سأذكر يوم أموت أنني كنت شاعر الحب والجمال ، وأنني عبد ت الله أصدق العبادة ، فقد أثنيت مخلصا علي ما صنع وما أبدع ، حين جعل الدنيا غرائب وعجائب من الصنع البديع ، سأتحسر يوم أموت علي ضياع الثورة الشعرية التي تموج في قلبي ووجداني ، ولن يكون لي إلا عزاء واحد ، هو أن الله شاء أن يحرم العالم من رجل كله قلب ووجدان ، لا ن العالم لا يستحق أن يحيا فيه قلب مثل قلبي ، ولا يستأهل أن يعيش فيه رجل يملك ما أملك من عظمة النفس وقوة الروح ، والعالم من بعدي هباء في هباء ! إن كان الموت أن يتهدم جسمي يوما فهذا سيقع ، وإن كان الموت أن آرائي ستموت فذلك أكذوبة من أظرف الأكاذيب فآرائي ستسيطر علي الناس إلى آخر الزمان .

شجون عام جديد !

بقلم : فاروق شوشة

ما الــذي تحـــمل في كـــفيك
حـــتي نتـــنادي للفـــــرح ! ؟
ونـوافيك ــ كما وافيتـــنا ــ
خلوا من الحلم الذي كان ،
وقد كان لنا زادا ومأوي
وعمودا ،
يصلب الخيمة في الريح وأمنا
حين نحتاج إلى أرض ومثوي !
ما الذي تحمل في كفيك ؟
أفصح ، لا تراوغ ، قد شبعنا
من أفانين الدعاة الكذبة :
غصة في الحلق . .
أو آبارك المسمومة الماء
وبركانا من القيح انفتح ؟
اتئد في وطئك العاصف
فالأوقات والأعمار تهتز
صدور الناس ترتج
ورمح نافذ في القلب
والقلب بما فيه طفح
وجحيم الذل في وجهك
لا شئ سوي وجهك
في الأفق اتضح !

* * *

ما الذي يجعلني الآن أناديك !
ألأني لم أفق بعد
من العام الذي ولي
من الرعب الذي يجتاح
من حشد أباطيل ، وآيات خداع ،
ومحاذير خطر !

وكلام ، ليس في القاموس معناه ،
ولكن . . في خساسات البشر
ها أنا أمضي كغيري
باحثا وسط زحام الناس عني
والرصيفان يحيطان
ــ عدوان لدودان ــ
وشئ في قلوب الناس
ــ لا يدرونه بعد ــ
تواري ، وانكسر !
عالق في رغوة النهر الذي يزبد
نهر طافح بالقهر
والقوم ضباع والغة
لم تعف شيئا
ــ زحام النهر صيد وافر ــ
والرحي مسنونة
والليل . .
ليل قد تمادي . . وفجر !

* * *

ما الذي ينجي من الهول الذي تحمل ؟
والفخ الذي تحكم ؟
والناس شتات ، وفلول هاربة
الغبار انقشع الآن . .
فهل تبصر ما نبصر ؟
ــ لا أدري ــ
ولكنك مزهو
وإيقاعك عات ،
فأشر بالإصبع الواحد
يأتوك فرادي ، وزمر
هرولوا نحوك ما خوذين
بالوعد الذي تبسط ، والحلم
الذي تنسج ، والعرش الذي تمنح
ياعام البشارات الجديد !

كم تباهي ؟ ــ ولماذا لا تباهي ؟ ــ
أنت من صنع الذين امتلكوا الدنيا
فضاء وسماء
وقضاء ، وقدر . .
فتحكم ــ أيها القادم ــ فينا
لا تذر !

* * *

أيها الحب الشتائي . . الذي
قد تصبانا ، ولا نملك غيره
أنت ما وانا ، ومبكانا
إذا عدنا ، ورحنا نتساند
نحن جربناك ،
لم تخذل خطانا الراعشة
حين أنعمت علي القلب بدفء ودثار
وتنسمناك روحا يمنح المعني
لكون فاقد المعني
ويعطينا مفاتيح النهار
كم تجنينا عليك
وقهرناك ، بما نحمل من هم
وشجو ، وعثار
فإذا أنت ــ كما أنت ــ مطل
في عناد ، واصطبار
نفتح الباب ، فنلقاك علي
رفرف أنس ، وانتظار
جئت تحيينا ،
كأنا لم نفارقك
ولم نبعد
ولم نشغل عن الوجه الذي يمنحنا
فيض نعيم ، وانبهار
خلف هذا الباب تاريخ
وطوفان عناق ، وانهمار
وارتجاف . .

وانخطاف . .
وفناء في قطيرات من الوقت المصفي
ويد تمسح غيم العين
ميراث الليالي السود
تمتد ، كما يمتد عنقود تدلي
بقطاف ، وثمار
هيأت لي برزخ اللقيا
فحلقت وطوفت
كما يسبح نجم . .
في فضاءات المدار !

* * *

مالذي تحمل في كفيك
ياعام الفجاءات الجديد !
لتكن ما شئت
ـ هل أسوأ مما كان ؟ ـ
والكون اختناق ، وحصار ، ودمار !
فانشر الرايات والأبواق
ولتفرح بما أنجزت من زيف رخيص
وانتصار !
فسد الكون
ـ ولن يصلح هذا الكون شئ ـ
فأغثنا أيها الحب الشتائي الذي يعطي
ولا يسأل عن صفقة ربح
أو خسار !
وأجرنا من غد آت
فإن الظل
ماض في انحسار !

عموديون يسبحون ضد التيار

الحساني حسن عبد الله

بقلم:فاروق شوشة

منأي ينبوع بعيد يتدفق هذا الشعر ، شعر الحساني حسن عبد الله ؟ ومن أية سماء للإلهام يتنزل هذا الفيض البديع من اللغة الشعرية التي لا تشبه إلا نفسها ، مستوعبة كيانا إنسانيا متفردا غاية التفرد ، صعبا غاية الصعوبة ، ومحملة بزاد وفير من الموروث الحي للشعر العربي ، في حركته الجدلية ، وعنفوانه المتأبي علي الضحالة والهشاشة التي هي سمة الزمان المتردي ، والعجمة المتفشية .

في ديوانه عفت سكون النار الذي جعل له عنوانا جانبيا دالا هو من الكلام الموزون المقفي كأنما ليخرجه عما سواه من شعر لا يراه جديرا بالانتساب إلى الشعر ، وكأنما ليرد قارئه ومتأمل شعره إلى التعريف القديم - الذي لم يكن جامعا ولاشاملا - لكنه كان مشيرا إلى الوزن والقافية ، إلى النغم والإيقاع ، إلى الموسيقي وتوقع القفلة ، في وجه التبدد والانداح والتشتت عند من لا يحكمون مسار الأداء الشعري وضوابطه النغمية واللغوية .

ومنذ أهدي الحساني ديوانه - عام ١٩٧٢ - إلى الحياة التي كادت تكون فكرا محضا ، إلى العقل الذي صنع الأعاجيب زمانا في خص من أخصاص البصرة ، إلى منجب الأساتذة الخالد: الخليل بن أحمد - منذ ذلك الحين والشعر العربي المعاصر ، في مده وجزره - يموج بعضه في بعض ، ويزعزع من ثقة قارئه في معني المصطلح الشعري وضوابطه ، ويهيئ لحال من الفوضي المتسعة لشعث الأدعياء والشعارير ، ويترك المتأمل الحصيف - الواعي بمسار القصيدة العربية وتحولاتها المتتابعة - بين الأسف علي المآل ، وانتظار قادم لا يجيء .

هل كان الحساني - بوعي الناقد ونبوءة الشاعر فيه - يستقرئ هذا المآل منذ أكثر من ثلاثة عقود من الزمان وهو يطلق صيحته الغاضبة في صدر ديوانه: إن واقع الشعر الحر يدلنا علي أنه صائر إلى النثر عاجلا لا آجلا . ولهذا المصير دلائل منها كثرة الأخطاء العروضية ، وإذا كان الشعر الحر يقوم - قبل كل شئ - علي دعوي عروضية ، فلا دلالة لهذه الأغلاط المتفشية إلا القصور أو الإهمال ، وكلاهما عيب جسيم فيمن يتصدي للتوجيه والإصلاح .

ولاأثر لها إلا أن يعرض القارئ المتبصر عن المقصرين أو المهملين ، وأن يسهم الخطأ في تضليل غير المتبصر ، فتختلط الحدود في سمعه بين الشعر والنثر حتي يفقد

القدرة علي التمييز بينهما . ومن هنا ينشأ جمهور متخلف يجر الشعراء معه شيئا فشيئا إلى التخلف .

ثم يضيف الحساني وهو يتحدث عن دلائل المصير الذي سيصبح فيه الشعر الحر نثرا ـ عاجلا لا آجلا ـ قوله: ومنها دعوة قوية في لبنان إلى اطراح الوزن جملة من أجل قصيدة النثر وهو مصطلح غربي لا يريد به أصحابه إلغاء الوزن كما ذهب الهدامون من جماعة مجلة شعر . وهذه دعوة ليست غريبة علي الشعر الحر ، إذ إن أصحابها يتابعون الشعر الحر أحيانا في طريقته ، وإن كانوا قد وضعوا أنفسهم فوق كل الضوابط والقواعد . ليس يعنيهم أن يجئ كلامهم نثرا أو شعرا حرا أو شيئا بين بين ، بل إنهم يلتزمون أحيانا مع هذا الخليط الوزن والقافية . وقد حاول بعض أنصار الشعر الحر اعتراض هذا العبث ولكن بلاجدوي . لقد أفلت الزمام ، وإذا كان مقدرا له أن يقبض عليه مرة أخري فلن يقبض عليه من أفلتوه .

كان الحساني كمن يشعل النار في الهشيم ، بعد أن عاف سكونها ، كان صارخا في البرية يري بعيني زرقاء إلى ما مة ما سوف يئول إلى ه الشعر ، ويقبض بيديه علي الجمر ، وهو يري أن ما يقذف به إلى الناس: كلام مضطرب ساقط مكرور ، غير مطلوب ، وهو برغم هذا يفرض فرضا علي الناس . هذه حال لا بد من تغييرها ، وإلا اتسعت الفجوة الناشئة بيننا وبين تراثنا ، وقل الاهتمام بالكلام ، وماذا نكون بغير تراث قادر علي الإسهام في تكويننا ، وبغير مبالاة باللغة أداة التعبير عن الفكر ؟ هملا ضائعا لا يدري له وجهة ! إن زحف الركاكة علي الصحافات والإذاعات يجب أن يتوقف . ويجب أن يعمل كل مخلص للغته وأمته علي الحيلولة دون انقطاعنا عن الماضي ، فإن في الماضي فنا عظيما وخبرة عظيمة وقيما لا ينهض قوم بغيرها . أي خنوع هذا ؟ أن تتضاءل القدرة في الناس علي الإحساس الصحيح والفهم الصحيح ثم لا نفعل شيئا ! لقد ساءت الحال ، واستبداد الشعر الحر علي رأس أسباب السوء ، فواجب أن يعاد فيه النظر ، وإن ظن أنه استوي علي العرش .

ولست مع الحساني في كل ما يقول: صحيح أن الشعر الحر هو الذي فتح الباب لقصيدة النثر ، التي وصلت بها الحال إلى أن أصبحت نثرا محضا فاقدة شرط انتسابها إلى كيمياء الشعر بأي معني من المعاني ، وأي تصور من التصورات . إلا أن الشعر الحر ـ بالرغم من نقد الحساني له ومسئوليته عن قصيدة النثر ـ يظل أكبر حركة تجديدية في تاريخ الشعر العربي كله ، وأهم انعطافة إبداعية وحضارية ونفسية في مسار القصيدة العربية ، نزوعا إلى التجديد ، الذي يصر البعض علي تسميته الحداثة . وهي قضية يطول فيها الكلام الذي يخرجنا عن السياق . كان الحساني يقول كل هذا ولايكتفي به شأن المبدعين

الكبار ، كان يقوله بوعيه النقدي وحماسه لتراثه ولغته وعروبته ، ويقوله بإبداعه شعرا طيعا محكما :

يارفيقي إن الصغار استبدوا
فأعني على البلاء المحيق
لبني إن في ضميري رياحا
طلبت صهوة الفضاء الطليق
فك عنها الوثاق أمض همومي
لاتدعني كالفارس الموثوق
أنظر الساحة العظيمة تخلو
من بنيها العظام ، لا يارفيقي

بدأت رحلتي إلى مطلع النور
فصبرا علي صعاب الطريق
السنا المستفيق يعلو رويدا
ليتنا نشهد استواء الشروق !

نفس شعري هادر ، وعنفوان لغوي آسر ، وكبرياء متأبية تعاف ما هو رخيص ومبذول ، تذكرنا مرة بكبرياء العقاد في عناده الصخري وجبروته الفكري ، وأخري بشموخ محمود شاكر وترفعه وتوحده في الذرا التي يسكن إلى ها عندما لا يكون للندية مكان أو صاحب . عند هذه القمم الباردة يكون التوحد والوحدة ، بديلا عن الانغماس فيما تعافه النفس ، والتدني إلى ما يخوض فيه العابرون والطامعون والمهطعون:

فاطرق علي الباب ياعابرا
بالباب ، إني هاهنا وحدي
قد شاهت الجدران في ناظري
كشوهة الإيغال في الصد
الصمت من حولي وفي باطني
صمت دفين قر في لحد
حننت للأفق فسيح المدي
أيتها الأحجار فارتدي
واطرق علي الباب ، ياصاحبي
إني ملاقيك أخا ود

أو لا ، فإني هاجر محبسي
ولو إلى النكران والكيد !

وفي ديوان عفت سكون النار للحساني متسع للكشف عن وفائه العميق وإجلاله الكبير لكل من العقاد وشاكر . حتي لكأنه - وهو العصي الطبع - لغة وآداء ومداخل - يتلبس بعض النفس العقادي وهويبكي العقاد وكأنه يذكرنا بقصيدة العقاد الشهيرة في وداع مي :

سئمت ياابن النيل ما ءه الذليل
سئمت أن تعطي ولاتعطي الحقول
وأن تهم بالمقال لا تقول
وخفت أن تسلم يمناك القلم
وأن تعيش مفردا مع السأم !

* * * *

موعدنا مع الصبا ، مع الندي
مع المدي يضرب في ألف مدي
ليس غدا ، فما أشقه غدا
الرجل الحبيب ضمه التراب
فهل نراه بعد ، من يدري الجواب

وبعض النفس الشاكري وهو يحييه ويهنئه إثر خلاصه من محنة ألمت به عام ١٩٦٨ :

إنا رجوناك غب جائحة
ياركن بيت توارث الزكنا
فانف دبيب الملال عن قلم
لو صال أردي صياله الفتنا
جرده ، جرد حسام مقتدر
تهد به راشدا ومفتتنا
وامض به هادما ومبتنيا
كم شاد للقوم كاتب وبني !

فمتي يجئ يوم نحيي فيه الحساني ونهنئه - هو أيضا - بيوم خلاصه من محنته ، وهو صاحب القلم المرجي - شاعرا وكاتبا - ، نفتقده كلما سادت الركاكة والهشاشة ، وفسد الذوق ، واختلطت المعايير ، ومبدعا هو - بلغة ابن سلام - في الطبقة الأولي من

شعراء دار العلوم الذين أنبتتهم خلال العقود الثلاثة الأخيرة ، إن لم يكن أوفرهم عدة من اللغة ، وتملك ناصيتها ، وأكثرهم تحقيقا لفكرته عن الشعر في شعره ، نذكره - مختلفين معه في كثير مما يقول ، مقدرين له كل ما أبدع - ، داعين له - في الحالين - بأن تنتصر إرادته الجبارة علي المحنة ، وأن يتسع فردوس شعره دوما لتدفق وجدانه الثري الجميل .

مواقف " أبي علي " وشعره الجميل

بقلم: فاروق شوشة

وأبو علي هو الشاعر المبدع ، أستاذ الفلسفة ، الدكتور حسن طلب ، في ديوانه الجديد البديع مواقف أبي علي وديوان رسائله وبعض أغانيه الذي صدر في العام الماضي عن المجلس الأعلي للثقافة ، ولم تتح لي قراءته إلا أخيرا . وحسن طلب - الشاعر - بالنسبة لي ، ولألوف غيري - واحد من الأصوات الشعرية ذات الأصالة والتفرد لغة وعالما واهتمامات وفكرا وجدلا مع الذات ومع الواقع .

ومن البداية أقول - بلا حرج - إنه في طليعة الشعراء دارسي الفلسفة والمتأثرين بها ـــ الذين نجحوا في ترويض المقولات الفلسفية وإذابتها في نسيج شعري ، ما ثيته منسابة ومتدفقة ، وعفويته تشي بالاقتدار الفني ، فهو بهذا المعني ركب الفلسفة وطوعها ولم يسمح لها بالطفو فوق ثبج بحوره الشعرية .

وهو أيضا ، بالنسبة لي ولألوف غيري ، صاحب إنجاز شعري يتنامي ويتصاعد ، طبقة فوق طبقة ، وأفقا وراء أفق ، ومغامراته ووثباته الإبداعية باهرة التجليات منذ مجموعته الأولي وشم علي نهدي فتاة (١٩٧٢) ، وسيرة البنفسج (١٩٨٦) وأزل النار في أبد النور (١٩٨٨) وزمان الزبرجد (١٩٩٠) وآية جيم (١٩٩٢) ولانيل إلا النيل (١٩٩٣) وبستان السنابل (٢٠٠٠) وقصائد البنفسج والزبرجد (تقديم الناقد الكبير الراحل د . شكري عياد٢٠٠٢) وقيد النشر قصيدته الطويلة حجر الفلاسفة .

وعلي مدار هذه الرحلة الحافلة باقتناص القصائد الجميلة ، نجح حسن طلب في أن يفاجئ قارئه بالمزيد من جرأته وشجاعته وكسره لشوكة الثابت والمألوف ، وزلزلة التقاليد والمقولات البالية وتحريك الراكد والآسن ، تلتمع في نسيجه الشعري مفردات المعجم القرآني في توظيف دلالي مغاير ، يذكرنا بأصل السياق وينطلق بنا إلى الجديد المضمر والخبئ ، الذي يعلن عن نفسه مهما حاول صاحبه ستره ، كما يعلن العطر عن فوحانه حتي لو اختنق ، وهذا الديوان مواقف أبي علي حافل بمفردات هذا المعجم التي أتاح لها البناء الشعري مجالات دلالية واسعة ، يحلق من خلالها فكر المتأمل وخيال المتلقي في مثل: شدتني بحبل ليس من مسد ، فأخذنا الميثاق ، وما أنسانيه سوي الغيظ ، سأنبئك بتأويل الرمز ، مجمع ما بين الجبلين وبرزخ ما بين البحرين ، انطلاقا إلى النسج علي إيقاع صياغات قرآنية: أعوذ بالشدي ، من شر هاذ إن هذي ، ومن مشعبذ إذا ما شعبذا . وقال: قد بوأتك المنزلة الحق (ومادة التبوء في تردداتها القرآنية المختلفة موجودة في عدد من الآيات القرآنية الكريمة في سور الأعراف والحج وآل عمران ويونس

والحشر ويوسف بمعني الإسكان والسكن والسكني والتجهيز والتبيين . والمعجم القرآني في شعر حسن طلب خاصة في ديوانيه آية جيم ولا نيل إلا النيل وهذا الديوان الجديد مواقف أبي علي من شأنه أن يغري باحثا جادا بدراسة تكشف عن الكثير من أسراره وحيله الفنية والفكرية ومجالات دلالاته المعاصرة .

وحسن طلب - في وجهيه الإنساني والشعري فهما في رأيي لا ينفصلان أو يجب ألا ينفصلا ويتباعدا - إنسان وديع حيي خجول ، لا يدلل بما يمتلكه من موهبة أو بما يبدعه من شعر . في حين تمتلئ الساحة بأمثال ذلك الشويعر الردئ الذي كل بضاعته شبكة علاقات عام ة وتفنن في خدمة الكبار بإنجازاته الأرشيفية والدعائية علي الطريقة التي يسخر منها الصحفيون المحترمون ويستهجنونها : طريقة كل واشكر والذي لا يخجل من التشدق باغترافه من فيض عالم الوجد الصوفي ، بالرغم من أن أمثال حسن طلب يعرفون عن الفكر الفلسفي وديوان العشق الإلهي ومنجز الإبداع الصوفي ألف ضعف لما يتشدق به هذا الشويعر الردئ ، الكاذب في كل ما يدعيه ، لكنهم لا يتباهون أبدا بهذه المعرفة ، وإذا أبدعوا فإنهم يبدعون عن وعي وأصالة ، ويترفعون عن صغائر مثل هذا الصغير الذي سيظل قزما مهما أتاح له أصحاب الأكباد المريضة والمرارات المحتقنة - لا نهم يكرهون البشر وأنفسهم أيضا - مهما أتاحوا له من صفحاتهم الصفراء مجالا لفضح سمومه ونشر سوءاته التي يعرفها الجميع عنه ، ويؤرقه دوما أنه يطالعها في عيونهم شاخصة لا تريم ! في هذا الديوان الجديد لحسن طلب نبوءة بالطوفان القادم ، يقتلع الأخضر واليابس ، وصورته الشعرية تتكئ علي صورة طوفان نوح :

وصل الطوفان الآن مداه
فكم من مقترف للإثم أناب
ارتفعت نحو سماء الله يداه
وتاب
وكم ولد قد فر من الوالد
كم زوج من زوجته
وأخ قد أنكر هذا إلى وم
أخاه .
وعاداه ،
كم انهدمت أكواخ وصروح
وتجاور مبغي وضريح !

وفي القرآن الكريم : يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه (سورة عبس : الآيات من٣٤ إلى ٣٧)

وفيه أيضا: يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ولايسأل حميم حميما ، يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التي تؤويه ، ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه (سورة المعارج: الآيات من٨ إلى ١٤)
ثم يقول حسن طلب في رسالته الخامسة الطوفان . . الطوفان:

وصل الطوفان الآن مداه الأقصي
وطما ، وازداد كثيرا
وعرفنا كل عدو ، من صاحبنا
فإذن ليس علينا
لو أغرقنا من سرقوا كل مراكبنا
في تلك الساعة ، أصبح من واجبنا
أن نتعقب من خدعونا
من تركونا
ونجوا بقواربنا

أليس في هذا الشعر المتدفق كالطوفان ـ لحسن طلب ـ ما يذكرنا بيوميات النبي المهزوم الذي يحمل قلما ، وهو ينتظر نبيا يحمل سيفا في مسرحية صلاح عبد الصبور ليلي والمجنون ؟

يا أهل مدينتنا
يا أهل مدينتنا
هذا قولي
انفجروا أو موتوا
رعب أكبر من هذا سوف يجيء
لن ينجيكم أن تعتصموا
منه بأعالي جبل الصمت
أو ببطون الغابات
لن ينجيكم أن تختبئوا في حجراتكم
أو تحت وسائدكم
أو في بالوعات الحمامات
لن ينجيكم أن تلتصقوا بالجدران
إلي أن يصبح كل منكم ظلا مشبوحا
عانق ظلا !

لكن مشهد الطوفان عند حسن طلب يتكئ ـــ كما سبق أن قلت ـــ علي مشهد القيامة في القرآن الكريم ، ويجلو دلالاته السياسية والمجتمعية في قلب الدلالة العظمي:

فساد الكون بأكمله ، في رسالته الأخيرة التي جعلها بلا عنوان ، طالبا من ابنه علي أن يأخذ له بالثأر ـــ بعد أن شب عن الطوق ـــ من سمسار اللحظة وزبانية الماضي وربيب النعمة والإمعة والخانع والقانع والراضي والمتخصص في فقه الأزمة والمثقف التابع وخازن بيت المال وكاتم أسرار البيت العالي ونديم الوالي والوالي . . و . .
هذا المضمون الشعري المتوهج بالرؤية الغاضبة الساخطة المتمردة ، والرفض الكامل لسوءات العصر ـ ومن بينها أمثال الشويعر الردئ الذي أشرت إلى ه وإلي أمثاله دون أن ألوث القلم بأسمائهم ـــ هذا المضمون المتمرد تؤازره وتواكبه غنائيات شعرية إنسانية عذبة ، ينساب فيها نفس حسن طلب الشعري متدفقا ، حانيا ، جسورا ، ممتلئا بالشجن الشغيف ، والوجد الحميم:

جمر علي كبد
كيف التقينا دونما وعد
وصرنا اثنين في أحد
بل كيف أفلتنا من الهول الكبير
وصادفتنا أيكة
قلنا سنهجع تحتها
لهنيهة
حتي يصح الجسم من سقم
وتشفي الروح من تبريحة
والعين من رمد !
ثم افترقنا ،
دون أن نحظي
بما يسترجع الأحلام من تأويلها
أو يحفظ الذكري
من البدد !

حسن طلب في ديوانه الجديد مواقف أبي علي يبني مواقفه علي رفرف العصر وروحه المشبوبة ، متجاوزا مواقف النفري ومخاطباته ، التي يعرفها ويدرك أسرارها ومجازاتها ـــ بما لا يقاس به الوعي الزائف للشويعر الردئ ـــ ويختتم موقف الشذي بأبيات عمودية البنيان ، محكمة النسج ، رصينة الإيقاع والتقفية ، تذكرنا بعراقة لغتة وفحولتها وطواعيتها له في الوقت نفسه ، وهو يقول في ختام حواريته:

فقلت: سعيد من بلذته اغتذي

فقال: هنيئا للذي قد تلذذا

فقلت: أراني بالشذي غير عارف

فقال: إذن أقبل تصر فيه جهبذا

فقلت: من العشاق من يحذقونه ؟

فقال: جميعا ، هم ومن حذوهم حذا

فقلت: ألا كم حاذق ما ت دونه

فقال: وكم فذ عليه تتلمذا !

فقلت: ذوت منذ ارعويت لقانتي

فقال: كذا دأب الذي يرعوي . . كذا

وأهلا بمواقفك ورسائلك وأغانيك البديعة يا أبا علي !

الغرباوي واحد من " شعراء الريف "

بقلم: فاروق شوشة

الصديق العزيز الكاتب الكبير رجاء النقاش هو صاحب هذه التسمية شعراء الريف ، أطلقها علي مجموعة من الشعراء عاش معظمهم في الريف ، وأقاموا فيه إقامة دائمة ، مبتعدين عن المدينة وصخبها وضوضائها ، ووسائلها للشهرة وذيوع الصيت ، وكانوا ـ سواء منهم من لزموا الريف ومن لم يلزموه ـ كما يقول الناقد الدكتور مجدي توفيق يرون في الريف حياة أنقي وأجمل من الحياة التي لم يعيشها الناس في المدينة ، وهذا الموقف الأخير مرتبط بالموقف الرومانسي المشهور من المدينة .

أما مناسبة إطلاق هذه التسمية شعراء الريف فكان الفصل الذي كتبه رجاء النقاش تحت عنوان من مذكرات شاعر مجهول عن آخر شعراء أبو لو حياة وفنا: محمد عبد المنعم الغرباوي الذي كان صديقا للشاعر والأديب عبد المؤمن النقاش والد الناقد الكبير رجاء النقاش ، وقد ضمن هذا الفصل كتابه المرجعي الشامل ثلاثون عام ا مع الشعر والشعراء ، ويقول فيه: كنت في بداية حياتي أتابع ما يكتبه أبي وما يكتبه أصدقاؤه من أدباء الريف بحب وإشفاق ، وكان من بين أصدقاء أبي شاعر من شعراء الريف اسمه محمد عبد المنعم الغرباوي ، وكان مثله مثل أبي وأصدقائه شاعرا رقيقا مخلصا مهذب الروح وخطر علي بالي ذات يوم أن أطلب من هذا الشاعر بالذات أن يكتب لي قصة حياته ، فكتب لي رسالة شديدة التركيز يروي فيها قصة كفاحه في الحياة والأدب . وعندما قرأتها أحسست أنها ليست قصة هذا الشاعر وحده ، وإنما هي في الوقت نفسه قصة كثيرين من الأدباء الذين عاشوا في الريف المصري في الجيل الماضي ، وعانوا في حياتهم كثيرا من المتاعب والظروف الصعبة . وهأنذا أقدم الرسالة بنصها إلى القراء ، لعلها تكشف أمام الرأي العام الأدبي العربي بعض الحقائق الضائعة ، عن جنود مجهولين لم تلتفت إلى هم حياتنا الأدبية ، رغم أنهم هم الذين أناروا الدنيا العربية بجهدهم المخلص ، وبما بذلوه في الريف من الاهتمام بالعلم والأدب والثقافة منذ بدايات هذا القرن ، ولولاهم لما تحقق الكثير من مظاهر النهضة المعاصرة ، وأولاد هؤلاء الأدباء والمثقفين هم الآن من ابرز العاملين في المراكز الحساسة في المجتمع المصري والمجتمع العربي عموما ، ومنهم الوزراء والكتاب والصحفيون وأساتذة الجامعات والمهندسون والأطباء . أما هم أنفسهم فقد ذابوا في نهر النسيان ، وانطوي كفاحهم دون ان يجد من يذكره أو يسجله ، أو يقول في أصحابه كلمة تقدير .

وفي رسالة الشاعر محمد الغرباوي إلى رجاء النقاش يقول: إنني شقي بالفطرة ، حزين بالطبع ، ومن أولئك البائسين الذين لم تفرش الدنيا طريقهم بأوراق الزهور ،

وليتها تركتهم فلم تضع تحت اقدامهم الأشواك والصور ، فلم أعرف نفسي منذ عرفت الحياة إلا حزينا .

لا أدري ما الذي طبع نفسي بهذا الحزن منذ صغري ، ولعل ظروفي العائلية الخاصة كان لها تأثير كبير في ذلك ، فلم أنعم بالحنان الدافئ من والدي كما ينبغي ، إذ كانا متنافرين ، وكانت والدتي دائمة الشجار مع زوجة عمي التي تسكن معها في المنزل ، فلعل نفسي كانت تضيق بهذا وتنقبض به ، وترسب فيها رواسب هذا الأسي ، فلا أشارك في اللهو والمرح لذاتي ، وكنت هادئا وادعا دائم السكون والتأمل فيما حولي ، فإذا أردت ان ألهو ملت إلى الحقل القريب أمسك الفراشات أو أصغي لزقزقة العصافير فوق أشجار التوت والصفصاف .

وكثيرا ما كنت تراني عائدا من الكتاب أحمل مصحفي أو لوحي في يدي ، فيتلقاني جدي الشيخ ذو اللحية البيضاء والعمامة البيضاء والملابس البيضاء بابتسامة بيضاء . ويجلس إلى جواري علي دكة خشبية في دهليز البيت ويربت كتفي ، ثم يسألني أن أتلو ما حفظته من القرآن في لوحي ، وأتلو عليه ما وعيت من الآيات . ويصغي الجد الشيخ ، ويصحح لي ما أتلو ، وقد كان - رحمه الله - عالما جليلا وحافظا تقيا . أما الوالد فكان مولعا بالأدب ، مشغوفا بالاطلاع ، يحفظ كثيرا من ما ثورات العرب شعرا ونثرا . فكان حريصا علي أن ينشأ ابنه كذلك ، وطالما أجلسني الساعات الطوال أمامه في المندرة يقرئني شعر أبي العلاء وأبي الطيب المتنبي ويحثني علي حفظ هذه الأشعار مغريا إياي بما كان يقدم إلى من نقود أو مكافأة ، وكانت نفسي تطيب بقراءة الشعر وإيقاعه وتجد لذلك حلاوة ولذة .

فإذا انتقلنا إلى سيرة الشاعر كما كتبها بنفسه في معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين (في الطبعة الثانية من المجلد الرابع) وجدناها علي هذه الصورة . ولد عام ١٩١٢ في قرية شها بالمنصورة ، درس في كتاب القرية ثم التحق بمدرسة شها الأولية فحفظ المتون والقصائد الشعرية ، وتخرج في مدرسة المعلمين عام ١٩٣٠ . عمل مدرسا بأسوان ثم بمحافظة الدقهلية ، ثم أصبح ناظرا لمدرسة بلقاس الابتدائية ، ثم رئيسا لمجلس قرية بلقاس ، ثم أحيل إلى المعاش . نشر شعره في العديد من الصحف والمجلات مثل الصباح والثقافة والأهرام والسياسة وغيرها . وكتب أول قصيدة له وهو في الرابعة الابتدائية . رثي أمير الشعراء شوقي بقصيدة نشرتها الأهرام عقب وفاة شوقي عام ١٩٣٢ . دواوينه الشعرية: الواحة المجهولة١٩٤٧ . ممن كتبوا عنه: رجاء النقاش في كتابه مع الشعر والشعراء ومحمد العزب موسي في يومياته بصحيفة الأخبار ، وجميلة العلايلي في كتابها: أدب الربيع ، وهناك رسالة ما جستير تعد الآن عن حياته وشعره .

وقد اختار الشاعر ـ للنشر في معجم البابطين ـ قصيدة عنوانها الحظ الكابي يقول فيها :

رضيت بحظي منك ، لو كان بي يرضي
فما فيك يادنيا حقوق العلا تقضي
مللت شقاء العيش فيك ، وملني
ثلاثين عام ا ، أيبست عودي الغضا
سموت ، ولكن ضل سعيي إلى العلا
فعدت ، ولم أبلغ سماء ولا أرضا

* *

أعيش علي الدنيا كأني خطيئة
ثوت بين قوم يتقي بعضهم بعضا
كأني لحن لم يجد من يسيغه
فشرد محزونا ومن نبره غضا
يطوف علي سمع الزمان وينطوي
علي شفة الأيام لم يختلج نبضا
كأني أنا طيف لمجنون عام ر
وقد نفضته البيد من طيها نفضا
يفتش عن ليلاه في الأرض ضلة
ففي كل واد هام يستنطق الأرضا
تحاربني الأيام حتي كأنني
جنيت علي الأيام ما ليس يستقضي

* * *

في الحادي عشر من ديسمبر الماضي ، رحل عن عالمنا الشاعر محمد عبد المنعم الغرباوي عن تسعين عام ا ، لم يذكره خلالها أحد باستثناء تكريمه في مؤتمر الدقهلية الأدبي ـ الذي أقيم في إطار مؤتمر أدباء الأقاليم عام ١٩٩٨ ـ تحت رعاية اللواء فخر الدين خالد محافظ الدقهلية الأسبق الذي أهداه درع المحافظة اعترافا بموهبته الشعرية وتاريخه الأدبي الطويل ، وباستثناء رسالة الماجستير التي حصل عليها محمد سمير عبد المعطي في النقد الأدبي حول شخصية الغرباوي وأعماله الشعرية من كلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بالمنصورة ، وما كتبه عنه الناقد الكبير رجاء النقاش في كتابه ثلاثون عام ا مع الشعر والشعراء .

أمـا مناسـبة الحـديث عـن الغربـاوي إلى وم ، فهـي صـدور ديوانـه الثـاني أوراق الخريـف - بعـد رحيلـه بعـدة شـهور - بمقدمـة نقديـة ضـافية للـدكتور مجـدي توفيـق أسـتاذ الأدب والنقد بجامعـة القـاهرة فـرع الفيـوم ، وقـد تفـضل نجـل الـشاعر الكـبير بإهـدائي نـسخة مـن الـديوان ثـم عرفـت أن هنـاك كتابـا للأسـتاذ محمـد فريـد عـدس بعنـوان الغربـاوي شـاعرا أصـدرته وزارة الثقافـة في نـوفمبر عـام ١٩٩٥ ، وأن هنـاك كتابـات متنـاثرة عنـه للإذاعـي عـزت سـعد الـدين بعنـوان وداعـا آخـر شـعراء أبـو لـو نـشرت في جريـدة الأخبـار بعـد رحيـل الـشاعر بأسـابيع قليلـة ، وللأسـتاذ يـسري حـسان في العـدد الثـاني مـن الإصـدار الجديـد لمجلـة الثقافة الجديدة .

لـيس صـعبا اكتـشاف القـسمات والملامـح الرئيـسية لـشعر الغربـاوي علـي مـدار رحلتـه الـشعرية الطويلـة ، بـدءا بديوانـه الأول الـذي توقـف بعـده عـن النـشر أكثـر مـن نـصف قـرن ، حـتي شـعره الـذي نـشر لـه مـؤخرا ، وأنـه ينتمـي إلى تيـار جماعـة أبـو لـو الـذي ارتبطـت بـه الحركـة الرومانـسية في مـصر والعـالم العربـي منـذ ثلاثينيـات القـرن الماضـي ، وكـان مـن أعلامـه : إبـراهيم نـاجي وعلـي محمـود طـه ومحمـود حـسن إسماعيـل في مـصر ، وأبـو القاسـم الـشابي في تـونس وغيرهـم في أقطـار العـالم العربـي . فاللغـة والـصور والخيـال الـشعري والعواطـف الإنـسانية والهـم الـذاتي والتوحـد والاغـتراب ، كلـها تنتـسب إلى أفـق ذلـك العـالم الـشعري الرحـب الـذي أطلـق عليـه الناقـد الكـبير الـدكتور عبـد القـادر القط الاتجـاه الوجـداني في الشعر العربـي . وهـو بهـذه التـسمية يعطيـه امتـدادا أبعـد وأعمـق في مـسار الـشعر العربـي مـن حركة أبو لـو ومـا ارتـبط بهـا مـن ازدهـار القـصيدة الرومانـسية فهـو يـرده - أي هـذا الاتجـاه - إلى بـدايات متمثلـة في شـعر البـارودي وفي شـعر شـوقي وغيرهمـا مـن شـعراء العـصر الحـديث . غـير ان عزلـة الـشاعر الغربـاوي وإيثـاره الابتعـاد عـن صـخب الحيـاة الأدبيـة ومـا تمـوج بـه مـن تيـارات وأفكـار ومـدارس واتجاهـات ، جعلـه يعيـد إنتـاج شـعره - في ديوانيـه الأخيريـن - علـي الـصورة الـتي كـان يجـيش بهـا وجدانـه وتحملـها لغتـه في ديوانـه الأول الواحـة المجهولـة الـصادر عـام ١٩٤٧ ، غـير عـابئ بمـا حـدث للـشعر والـشعراء - عـبر هـذا المـسار الطويـل - مـن مد وجـزر وتغـير في التـصور الـشعري وهمـوم الـشاعر الإنـسانية والكونيـة ، ومـن صـيغ وأسـاليب شعرية لم تكن معروفة من قبل ، فضلا عن الثقافة الشعرية والحياتية .

يقـول في قـصيدة عوانهـا وصـف موقـف مـن بـين قـصائد ديوانـه أوراق الخريـف ، تكاد تذكرنا بقصيدة انتظار لعلي محمود طه :

وقفت تطل عليه من شباكها
حيري تطل علي شقي حائر
يتلو بمحراب الدجي صلواته
نجوي إلى قدس الجمال الطاهر

وقفت تطل عليه حين تسمعت
بنجواه في شوق لجوج ثائر
وتلفتت لهفي فطار فؤادها
لهفان يعدو خلفه ظل عابر
والليل ساج ، والطبيعة حولها
سكري بأنفاس النسيم العاطر
والبدر قد غامت عليه سحابة
حجبته عن عين المحب الساهر
والناس ، يا للناس ، قد ناموا فما
تخشي أذي واش وحدج نواظر
لكنها في القيد ، ، كيف خلاصها
من ربقة العاني وقيد الآسر
ردت بوسواس الحلي تحية
وتفجرت تبكي بدمع هامر
ومضي ، تشيعه دموع فؤادها
حتي تواري كالخيال الطائر

وهي لوحة شعرية بديعة . تمتزج فيها العاطفة الإنسانية بالوجود الطبيعي ، وتذكرنا ـ كما قلت ـ بقصيدة علي محمود طه التي يستهلها بقوله :

طال انتظارك في الظلام ، ولم تزل
عيناي ترقب كل طيف عابر

وهو تذكير من شأنه أن يعيدنا إلى إلى نبوع الكبير المشترك للشعراء الرومانسيين من جماعة أبو لو ، وأن نحيي روح هذا الشاعر الذي رحل عن عالمنا في ختام العام الماضي ، ثم أطل علينا ديوانه الجديد حاملا أقباس شاعريته المرهفة وأنفاس عالمه الإنساني السمح الجميل ، الذي ظل طيلة حياته يقنع بالقليل ، وهو لو يدري كثير .

ابتهالات الصيف البادر

بقلم:فاروق شوشة

في القاهرة وفي عام ١٩٩٨ نشر الشاعر السوري علي عبد الكريم مجموعته الشعرية الأولي التي صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب وحملت عنوان' ابتهالات الصيف البارد' . كان علي عبد الكريم عند نشر مجموعته في الخامسة والأربعين من العمر- فهو من مواليد سورية محافظة اللاذقية عام ١٩٥٣- ومعني هذا أنه انتظر طويلا وفكر كثيرا قبل أن يقرر مواجهة القارئ وغربلة ما تجمع بين يديه من كتابات شعرية- لم يشأ أن يتعجل- كما يفعل كثير من أبناء هذا الزمان- ولا أن يطرح بضاعته علي الناس قبل النظر والتأمل والتمحيص- وكلما طال به الأمد انقطع حبل الرضا بينه وبين كثير مما كتب وأنجز لكنه قانع بالقليل الذي استبقاه ففي هذا القليل من شعره سمته وهويته وحقيقته الشعرية التي أسس لها مهاد تربوي- شديد الثراء والخصوبة- وهو يتتلمذ في سنواته الباكرة علي أبيه يقرأ بين يديه دواوين أعلام الشعر العربي ويحفظ الكثير من متخيرها ، بالإضافة إلى قراءة القرآن الكريم قراءة متذوقة- لغوية وبلاغية- ونهج البلاغة للإمام علي وكثير من كتب السيرة وتراجم الأدباء .

ثم أتيح له الاقتراب الحميم من عالم شاعر سوريا الكبير بدوي الجبل- محمد سليمان الأحمد- والأفق الروحي واللغوي لا بيه العالم الكبير سليمان الأحمد الأمر الذي خلف في وجدانه وذاكرته الشعرية عشقا خاصا لشعر بدوي الجبل وتفضيلا له علي كل شعراء سوريا بالإضافة إلى اتساع ذاكرته- النادرة المثال- لشعراء القمة في ديوان الشعر العربي قدامي ومحدثين .

حصل علي عبد الكريم علي شهادته الجامعية في اللغة العربية والأدب العربي من جامعة دمشق ، وبدأ حياته العملية صحفيا ومحررا ثقافيا ورئيسا للقسم الثقافي في صحيفة' تشرين' ثم انتقل إلى الهيئة العامة للإذاعة والتليفزيون متقلبا في العديد من المناصب وصولا إلى منصبي مدير التليفزيون ومدير الإذاعة حتي اختير في عام ١٩٩٦ مديرا لمكتب وكالة الأنباء السورية في القاهرة فمديرا عام ا لوكالة الأنباء السورية في دمشق ، لكن العمل الدبلوماسي يظفر به في ختام الأمد ويخلصه من جحيم العمل الإعلامي وتقلباته وصراعاته وتوتراته فيتم نقله إلى وزارة الخارجية مستشارا في السفارة السورية بدولة الإمارات فقائما بالأعمال في السفارة السورية بدولة الكويت . ليصبح بهذا ثالث شاعر سوري يتاح له من فضاء العمل الدبلوماسي وخبراته وآفاقه ما يضيف إلى ذخيرته الشعرية والإبداعية والحياتية بعد الشاعرين الكبيرين: عمر أبو ريشة ونزار قباني .

عندما نشر علي عبد الكريم مجموعته' ابتهالات الصيف البارد' آثار عنوانها الدهشة والاستغراب . نحن في بلادنا لا نعرف إلا صيفا واحدا وهو الصيف الحار أما الصيف البارد الذي يعرفه علي ويبدع في التعبير عنه فهو صيف محافظته' اللاذقية' في مرتفعاتها وجبالها وقممها حيث مصايفها الساحرة وهضابها الخلابة في' صلنفه' وكسبوغيرهما حيث تكتسي قمم الجبال بالثلوج ولأن عنوان الديوان ليس عنوان إحدي قصائده- علي عادة الشعراء في اختيار عناوينهم- فقد تكون برودة الصيف هنا إشارة إلى معني وجودي يتصل بوجدان الشاعر ومشاعره الحارة المتوهجة في قلب وطن عربي هامد خامد منطفئ الحرارة بارد المشاعر والأحاسيس .

في قصيدته' جناحان للحزن والثلج' إشارتان إلى المعنيين الكامنين في هذه' البرودة' وهو يقول في مستهل القصيدة:

أحبها أشجار الزيتون
وقد غطاها' الثلج'
أحبها همهمة الموج
في فصل الجنون
أحبها تلك المغرورة
في جموح أحلامها
ثم وهو يقول في ختام القصيدة:
عيناك مغمضتان
وأنا راعف الشوق
ليت شمسا من الشعر تفتح عينيك
ليتها ليتها
' فالثلوج' الخضراء
تملأ قلبي !

في مستهل' مجموعته الشعرية' يقدم علي عبد الكريم استهلالا يقول فيه: أين يقف هذا الشعر ولماذا تأخرت في تقديمه وهل هو كل ما كتبت منذ ثلاثين عام ا- تاريخ أولي قصائدي- (أصبح التاريخ الآن خمسة وثلاثين عام ا منذ نشر أولي قصائده المهداة إلى المطربة الكبيرة فيروز عام ١٩٦٨) والقصائد في هذه المجموعة هل تلتزم البحور الخليلية أم كل قصيدة تحمل ايقاعها الخاص سواء التزمت بحرا عروضيا واحدا أو أكثر أو اعتمدت موسيقاها التي تفرضها الحالة الشعرية خارج البحور المألوفة وضوابطها .

أبرز ما يميز علي عبد الكريم: الشاعر والانسان أن حسه النقدي المرهف يجاور ويساوق حسه الشعري الابداعي يقوده ويوجهه ويفضي به كثيرا إلى هذه' الغربلة'

التي يحدثنا عنها والي هذه الصورة الجميلة من صور التواضع الشعري التي تبعده عن أساليب الادعاء والمكابرة التي يمارسها كثير من ناشئة هذه الأيام حين يتصورون أنهم- وهم ما زالوا علي عتبة البدايات- يطاولون الكبار ويسقطون في وهم المقارنة بينهم وبين من سبقوهم إبداعا وتحققا وخبرة .

يتكئ علي عبد الكريم علي قاعدة رصينة من الوعي بالتراث الشعري في كل عصوره ، لكن هذا الوعي الذي استبقي الكثير من نماذج هذا التراث البديعة في ذاكرته لم يسمح لشيء من هذا كله بالتسرب إلى شعره . قصائده تبدأ دائما من ذاته الشعرية ، وتنتهي مفضية إلى الأفق الارحب: الوطن والكون ولا تعلق بها أبدا مكتسبات الذاكرة . يقول- عندما حاصرت الكوابيس أحلامه وهواجسه هو وكثيرين غيره من شباب هذه الأمة- لكنه يؤمن بأن شجرة الحياة هي الأقوي في قصيدة عنوانها' أجراس' وكأنها أجراس تحذير تدق ! (القصيدة تحمل تاريخ١٩٨٠) :

حارتنا معتمة .

لم تدخلها حبيبتي منذ شهر

* *

تحاصر رأسي أربع قذائف

لكنها لا تنفجر !

* *

ايها الوطن ياسريري

أنا لا أستطيع النوم

* *

رأسي كما الوطن:

مستدير ومستطيل وضائع

عيناي كما حبيبتي شاردتان

* *

خلق علي عبد الكريم ليكون شاعرا حتي ولو لم يكتب قصيدة واحدة . هذا التكوين الانساني الصافي وهذا الأداء العف وهذه الروح الحارة المشاركة وهذه الطفولة المكتشفة دوما للدهشة: كلها سمات شاعر . وشعره في القليل الذي نشره- فما زال لديه الكثير الذي أبدعه خلال سنواته الأربع في القاهرة أستحثه دوما ليشكل مجموعته الشعرية القادمة- صورة لنفسه ومزاجه لين ورقة بلا انتهاء ورهافة نصل حادة وباترة حتي النخاع: لغة وصورا ورموزا وإيحاءات وتدفقات معني ودلالة . فضلا عن معجم شعري يغتني

بتشكيلات الجمال الجمال الطبيعي والروحي وتنعكس من خلاله القصيدة الشامية عند علي عبد الكريم امتدادا متميزا ومغايرا لقصيدة بدوي الجبل ونديم محمد وسليمان العيسي ونزار قباني وغيرهم من المصورين الكبار . ولقد وضعه عمله الاعلامي الطويل- في الصحافة والاذاعة والتليفزيون ووكالة الأنباء- في قلب المجتمع السوري والمجتمعات العربية فاغتني بالعديد من الخبرات والرؤي والطواف في وجوه الحياة والناس ، وبقي له عاصمان يلوذ بهما ويتقي ضراوة الأيام وتنكر بعض البشر: شعره وحبه . هذان معا يقينه الذي لا يهتز ولا يتزعزع ، كلاهما منبجس من روحه وصوته ونقائه ، وكلاهما عشق أزلي ناره لا تخمد وحقيقته لا تغيب:

تقفز في الصدر الأحلام وتهمي
فوق شعاب النفس المنطفئة
وتمر علي الآهات
فتشعلها جمرا
وتلم الايام
وتبعثها فجرا
وتضم الأمداء
وترسلها شعرا
أنثي دخلت من نافذة الحرف
الي قلبي
فمحت بيديها
أوجاع العمر الصدئة !

العراق والشعر (١)

بقلم: فاروق شوشة

بين الشعر والعراق تلازم عجيب وكأنهما ولدا من رحم واحد ، يرتبطان معا في ذاكرة المثقف العربي ، وربما غير العربي ، في أقطاره وانتقالاته حيثما كان وأينما وجد . ولقد ظل هذا التداخل والتناسب والانتساب منذ العهود التاريخية الأولي ، ومنذ الكوفة والبصرة - أيام الفتوح - ثم ظل مرتبطا بزهو الحضارة العباسية في بغداد ، حتي عصور التراجع والتدهور والانحطاط . وكأن هذا الشعر هو الفينيق عينه ، ينبعث من حقول الرماد بعد عصور التخلف من جديد ، ليحتل ذاكرة العربي أولا ، والانساني ثانيا ، مسهما بشكل مؤكد في تكوين القسط الأكبر من الذائقة الشعرية المعاصرة .

أهو قدر محتم أم لعنة تاريخية ، أن يتجوهر الرماد شعرا في العراق ، منذ أن كتب ذلك الشاعر السومري المجهول أول سطور ملحمة جلجامش وجاء من بعده سدنة معابد آشور وأكد ليتموا الملحمة ويقدموها زهرة الانسانية الأولي التي لا تعرف الذبول ، وأغنية البشرية الأولي ؟

لقد كانت رعود الشعر وبروقه علي مدي حقب التاريخ تهيىء لسقوط أمطار الشعر المتدفقة ، منذ بدايات الانسان ومازالت ، وسوف تستمر حتي يرث الله الأرض ومن عليها وإذا كانت الأمة العربية - كما يقال ، وكما قد رسخ في الأذهان - أمة شاعرة ، فالعراق - بهذا المعني أو ذاك - هو جحيم الشعر وفردوسه ، ولا أعراف بين الاثنين . ولذلك لم يكن عبد الوهاب البياتي مبالغا حين قال في ينابيع الشمس (وهي صفحات من سيرته الذاتية) :وهكذا كان الأمر عندما أعود إلى مسار التحولات ، فأحس بالحزن الشديد ، ذلك أن رعود الشعر في باطن الأرض في العراق لا تزال تدخر رعودا شعرية كثيرة ، وحياة الشاعر لا تكفي أن تكون مسبرا وحاضنة لهذا الرعد . وإنني أتمني وأحلم أن يظل العراق - كما أؤمن - يحمل مشعل هذه التحولات التي وهبت الشعر العربي مذاقه الحقيقي . وأقولها دون إقليمية : إن العراق هو منجم الذهب الشعري في العالم لا في العالم العربي فحسب ، ومن يشك بذلك فليعاود قراءة ملحمة جلجامش التي ينطلق منها هذا الوعد بالشعر .

تعمدت نقل هذه السطور الطويلة من المقدمة الضافية التي كتبها الباحث العراقي الدكتور علي عباس علوان لمختارات من الشعر العراقي ضمن المشروع الضخم الذي أنجزته مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للابداع الشعري حين قدمت للقاريء العربي منذ عام ين: مختارات من الشعر العربي في القرن العشرين في خمسة مجلدات ضخمة ، يقع

العراق في مجلدها الخامس الذي يضم شعراء العراق وموريتانيا واليمن . أعد هذه الاصدارات ـ من العاملين في المؤسسة ـ ما جد الحكواتي وعدنان جابر وراجعها عبد العزيز جمعة وأشرف عليها عبد العزيز السريع الأمين العام للمؤسسة وقدم لها رئيس المؤسسة عبد العزيز سعود البابطين .

مثل هذا العمل الموسوعي الضخم يمثل مهمة شاقة ونبيلة لما يحوطها من ضرورة تدقيق الباحثين في اختياراتهم المثلة لشعراء كل قطر عربي ، وتحديد الحجم المخصص لكل قطر ، واختيار قصيدة واحدة ـ أو اثنتين لكل شاعر ـ وأن يكون الاختيار ـ في مجمله ـ ممثلا لا جيال الشعر ومدارسه واتجاهاته مقدما صورة صادقة الملامح للوجه الشعري .

أول ما يلفت النظر ونحن نتأمل المشهد الشعري الخاص بالعراق ـ ضمن هذا المشروع الضخم ـ أننا نطالع عملا قامت به مؤسسة كويتية من أجل الشعر العراقي ، في إطار الشعر العربي ككل . ونتأمل تداعيات المشهد والكويت والعراق يقفان الآن علي طرفي المواجهة ، في حرب باغية ظالمة ، غير شرعية ، خططت لها وتقوم بها قوي الشر والهيمنة في هذا العالم ، هدفها طمس الهوية العربية ، والسيطرة علي مقدرات المنطقة وثرواتها ، وبسط الهيمنة الصهيونية علي حاضر الأمة ومستقبلها .

في مجال العمل الثقافي نتوحد ونتشارك ونتفاعل ، ونجد روابطنا الأقوي ، وعروتنا الوثقي . ثم سرعان ما نتشرذم ونتفرق ، عندما لا نتمسك بحبل الهوية ، ولا نستشرف هوة المصير الذي ننجرف إلى ه جميعا . والمنتصر الوحيد هو العدو الطامع فينا ، فهل نعي الدرس قبل فوات الأوان ، إن لم يكن قد فات !

يعترف الدكتور علوان ـ وهو الذي اختار قصائد المختارات وكتب لها مقدمته التحليلية المتوهجة بروح الشعر ـ بأنه اعتمد علي ذوقه الشخصي واختياره الخاص في التقاط النص الواحد من دواوين الشاعر المتوافرة ، متكئا إلى أن معايشته للشعر العراقي قرابة أربعين سنة وتخصصه فيه تبرر ذلك الاختيار . بادئا بحركة الاحياء في الشعر العراقي الحديث التي يمثلها أربعة شعراء مشهورين هم: الزهاوي والرصافي والشبيبي والكاظمي ، علي تفاوت فيما بينهم في مستويات الوعي والثقافة والنشأة والموهبة ، وهي الحركة الموازية لحركة الاحياء في الشعر المصري الحديث التي قامت علي يدي البارودي .

وهو يلخص هدف الشعر ووظيفته عند هذا الجبل من شعراء العراق بأنه هو نفسه الهدف المعروف عند النقاد العرب القدامي ـ وعند هوراس الناقد الروماني القديم وريث النقد الأرسطي ـ: وهو أن الشعر يرمي إلى المنفعة واللذة والطرب . ومن هنا كان فهم هؤلاء الشعراء لهدف الشعر ووظيفته الاجتماعية والأخلاقية فهو سلاح الشاعر يستخدمه لتوعية شعبه وحثه علي التقدم واستخلاص الحقوق وتأكيد القيم الاجتماعية . ولأن هؤلاء الشعراء

في سعيهم لتحقيق رسالتهم كما فهموها ـ قد لبسوا أثوابا غير أثواب الشعراء فكانوا وعاظا وخطباء ودعاة ومرشدين وقادة ومصلحين وساسة ، وصولا إلى موقف الهداة ، فقد جعلهم هذا الموقف يتقلبون تبعا لتقلب الأحوال والظروف والسياسات رفعة وهوان شأن .

فهم ـ كما يوضح الدكتور علوان أسماء ونجوم لا معة في الأوساط الشعبية وعلي أفواه الجماهير التي تعلقت بهم ، ولكنهم يعيشون ـ من خلال كبريائهم وتعاليهم ـ في ظروف أقرب إلى المأساة والفقر والعوز ، وهي الظروف التي أرادها لهم حكام العراق ـ لقد انشغل هذا الجيل الذي يمثله الزهاوي والرصافي والشبيبي والكاظمي بفكرة التقدم والترقي والتطور الحضاري ، والدعوة إلى تحديث الحياة الفكرية ـ والثقافية ـ وفي مقدمتها الشعر ـ من بين هذه المواقف مثلا دعوة الزهاوي عام ١٩١٢ إلى ترك القافية تماما ، ومهاجمة وجودها في القصيدة ، واستحسان محاولات الأندلسيين للتخفف منها في موشحاتهم وأزجالهم ، وهو يصف القافية بأنها : في الحقيقة سلاسل وأغلال يقيد بها الشاعر شعوره فلا يقول كل ما يريد ، بل يمشي معها في سبيل شاعريته مشي المقيد في الوحل ، وأصعب ما في الشعر هذه القافية المشئومة ! . وانتهي الزهاوي إلى التمسك بقصيدة الشعر المرسل وطرح القافية ، مؤكدا أنه لا كبير أمل في مستقبل الشعر ما بقي مقيدا بالقافية ، داعيا إلى إيجاد أوزان جديدة غير الأوزان المعروفة بدلا من جمودنا علي القديم من الأوزان هي كلمات ستجد صداها فيما بعد عند كوكبة الشعراء الرواد ـ ب

عد الحرب العالمية الثانية ـ وبخاصة نازك الملائكة .

يقول الزهاوي تحت عنوان اندفاعات .

يا حامل الصمصام لا يحمي به

حقا ، لماذا تحمل الصمصاما ؟

يا قومنا لا نفع في أحلامكم

فخذوا الحقائق وانبذوا الأحلاما

أخشي عليكم في الحياة تدهورا

فيه الرءوس تقبل الأقداما

جهل الذين علي قديم عولوا

إن الزمان يغير الأحكاما

وأشد خلق الله جهلا ، أمة

نقضت ، فظنت نقضها إبراما !

وهو شعر يكشف عن طبيعة الزهاوي المتقلبة الفوارة ، ونزعته المتوثبة التي تري بعين الشاعر أن المستقبل يتطلب منهجا آخر للحياة وأفكارا أخري للبناء عليها والأخذ بها .

أما معروف الرصافي فيحمل علي كاهله محنة حياته ومعاناته وقد تنكر له الوطن ولم يقدره حق قدره ، فآثر النزوح إلى بيروت ، حيث يوجد أصدقاؤه ورفاقه ومحبوه ، تاركا وراءه بغداد التي انقلب فيها الحال وساءت الصحبة والمال ، يقول:

أنا ابن دجلة معروفا بها أدبي
وإن يك الماء منها ليس يرويني
قد كنت بلبلها الغريد أنشدها
أشجي الأناشيد في أشجي التلاحين
فبينما كنت فيها صادحا طربا
أستنشق الطيب من نفخ الرياحين
إذ حل فيها غراب كان يوحشني
وكان تنعابه بالبين يؤذيني
حتي غدوت طريدا للغراب بها
وما غدوت طريدا للشواهين
فطرت غير مبال عند ذاك بها
تركت من نرجس فيها ونسرين
ويل لبغداد مما سوف تذكره
عني وعنها الليالي في الدواوين
ما كنت أحسب أني مذ بكيت بها
قومي ، بكيت علي من سوف يبكيني
أفي المروءة أن يعتز جاهلها
وأن أكون بها في قبضة الهوين
عاهدت نفسي والأيام شاهدة
ألا أقر علي جور السلاطين
علام أمكث في بغداد مصطبرا
علي الضراعة في بحبوحة الهوين ؟
لأجعلن إلى بيروت منتسبي
لعل بيروت بعد إلى وم تؤويني

ولم يكن الشبيبي بعيدا عن قرينيه: الزهاوي والرصافي ، وهو يقول - بالرغم من محافظته الشديدة وتقليديته التي كان عليها شعره:

أبدعت نظم الشعر غير مقيد
بعدا لشعر بالقوافي يلجم !

ويقول في موضع آخر مخاطبا رجال الغد وشباب المستقبل:

تشبه الأرض التي تحمونها
ـ عبث الأعداء ـ غاب الأسد
دبروا الأرواح في أجسادها
فاق داء الروح داء الجسد
لتعش أفكاركم مبدعة
دأبها إيجاد ما لم تجد
سيرة الآباء فيها قدوة
كل طفل بأبيه يقتدي
ليس هذا الشعر ما تروونه
إن هذه قطع من كبدي !

* *

والحديث عن العراق ـ منجم الشعر الذهبي في العالم لا في العالم العربي فحسب ـ كما قال البياتي ، حديث موصول .

العراق والشعر (٢)

بقلم: فاروق شوشة

كيف يمكن للشاعر أن يرث تقاليد مدرسة شعرية وأن يخرج من عباءتها ، لكنه بإبداعه وعبقريته الشعرية يستطيع أن يختلف عنها وأن يتجاوزها !

هذا هو موقف الشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري ، الذي يشكل بحضوره الشعري والحياتي اللافت ـ ثلاثة أرباع القرن في الإبداع وقرن كامل في الحياة ـ ظاهرة شعرية فريدة ومتميزة ، كما يقول الباحثون والدارسون والنقاد المجمعون علي خصوصيته وإختلافه ، ومن بينهم الأستاذ العراقي الدكتور علي عباس علوان ، في مقدمته الضافية لمختارات من الشعر العراقي في القرن العشرين ، ضمن إطار المشروع الضخم الذي أنجزته مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري: مختارات من الشعر العربي في القرن العشرين ، وجاء موقع العراق في المجلد الخامس من هذه المختارات .

لقد مهد الزهاوي والرصافي لا عادة الشعر إلى الحياة ، بعد طول همود وركود امتدا قرونا سابقة متصلة ، واستطاعا ـ كما يقول علوان ـ أن يعبرا عن هموم الناس وقضايا الوطن . ثم جاء الجواهري مضرما نار الشعر المقدسة ، مقدما نموذجا لتلاحم الشعر والحياة ومعا ، فالشعر حياته ، وحياته شعره ، لا انفكاك ولا انفصال ولا تعارض . من هنا كانت هذه السيطرة الكاسحة لشعر الجواهري علي أذواق الجماهير العربية ، والتفات هذه الأذواق ـ في انبهار الإعجاب ـ إلى هذا السيل العارم من موجات الشعر المتلاحقة ، تلاحق قضايا الوطن العراقي والعربي كله ، وعشاق الشعر ومتذوقوه يتابعون في كل مرة كيف تمكن شاعر حديث من أن يخاطب جمهوره المعاصر بلغة أجداده القدامي ، إنهم يعجبون به كل الاعجاب ، ويقفون حائرين أمام هذا التدفق الشعري الهائل من الوجدان والمشاعر والفن والكبرياء .

أتوقف طويلا عند هذه الكلمة الأخيرة الكبرياء ، فهي مفتاح شعر الجواهري وبوابة وجدانه الشعري ، وسر شموخ مداخله الشعرية وإستعلائه الواثق علي غيره من المبدعين . ثم لعله من النادر ـ أن نجد شاعرا عراقيا أو عربيا من جيله ، التحم بقضايا عصره في التحرر السياسي والعدل الإجتماعي والدعوة إلى الثورة والتقدم والتجدد والتغيير ومعاودة النظر والخروج علي المألوف كما صنع الجواهري مذكرا في كل ما أبدع ، بأن ثمة موهبة شعرية عارمة ، وعبقرية شعرية فنية ، تضعه وشعره في المكان الأرفع ، وتذكر ـ فيما تذكر ـ بشعراء التراث العربي الكبار من أمثال المتنبي وأبي تمام والبحتري

والشريف الرضي ، لكنه غيرهم ، يختلف عنهم ويحلق ـ غير مستعير أجنحتهم ـ وإن كان قد خرج من عباءتهم .

يقول الجواهري في قصيدته الذائعة الصيت التي أبدعها عند استشهاد أخيه جعفر في ساحة الثورة العراقية :

أتعلم أم أنت لا تعلم
بأن جراح الضحايا فم ؟
فم ليس كالمدعي قولة
وليس كآخر يسترحم
يصيح على المدقعين الجياع
أريقوا دماءكم تطعموا
ويهتف بالنفر المهطعين
أهينوا لئامكم تكرموا

. . . .

أتعلم أن جراح الشهيد
تظل عن الثأر تستفهم ؟
أتعلم أن جراح الشهيد
من الجوع تهضم ما تلهم
تمص دما ، ثم تبغي دما
وتبغي تلح ، وتستطعم ،
فقل للمقيم على ذلة
هجينا يسخر أو يلجم
تقحم ـ لعنت ـ أزيز الرصاص
وجرب من الحظ ما يقسم
وخضها كما خاضها الأسبقون
وكنها بما أفتتح الأقدم
فإما إلى حيث تبدو الحياة
لعينيك مكرمة تغنم
وإما إلى جدث لم يكن
ليفضله بيتك المظلم

. . . .

تقحم ، لعنت ، فما ترتجي

من العيش عن ورده تحرم ؟
أأوجع من أنك المزدري
وأقتل من أنك المعدم ؟
تقحم ، فمن ذا يخوض المنون
إذا عافها الأنكد الأشأم ؟

هذا الهدير الشعري ، المتدفق ، يجسد فن الجواهري ، وقدرته الفذة علي التأثير باللومة الدامية والمشهد الفاجع والنبض الوطني والقومي الجياش . فلاعجب إذن أن نجد شعراء الحركة الشعرية الجديدة ، شعراء الحداثة ، وهم يتأملون شعره ويتتلمذون عليه ، ويفيضون في إكباره والإعراب عن حجم تأثيره . يصفه محمود درويش بأنه أهم شاعر كلاسيكي في القرن العشرين ، ويقول: الجواهري حاضر في كل شاعر عاصره وفيمن سيأتي بعده . قصيدة الجواهري تدل علي أن الشعر العربي الكلاسيكي ، يثابر في كل العصور بالنضارة ذاتها ، وبهاجس البحث الدائم عن جماليات اللغة العربية . أعتبره أحد أنهار العراق الثلاثة ، فهناك دجلة والفرات والجواهري ، وأنا فخور ـ علي المستوي الشخصي ـ بأني كنت في شبابي أحفظ شعره .

بينما يقول عنه أدونيس: إن شعره زق قديم ، ملئت بخمرة غير قديمة ، وهو في هذا كله ، وبسبب منه ، شعر أمة ، قبل أن يكون شعر فرد ، علي الرغم من تميز صوته الفردي . ومن هنا نفهم كيف تجمع الأمة علي تذوق شعره ـ شعرها ، فيعجب به حتي الذين يناقضونه فكريا وأخلاقيا ، ويلتقي في هذا الإعجاب العدو والصديق واليميني واليساري والرجعي والتقدمي والبرجوازي والفلاح والعامل . ولاغرابة كذلك في تسميته شاعر القرن العشرين العربي .

ويقول عنه نزار قباني: كلما قرأت قصيدة جديدة من قصائد محمد مهدي الجواهري وجدتها كخاتم العقيق علي جدار الكعبة ، وباهرة كمهرجان أزياء . لم يستطع أحد من القدامي أن يزاحمه ولا من المحدثين أن يزاحمه ، فهو دائما الحصان الأول حيث تعبت أكثر الخيول من الصهيل ، وأكثر النسور من الطيران .

ويودعه عبد الوهاب البياتي عند رحيله بأبياته التي يقول فيها:

خرجت من معطفه يافعا
لأحمل الشمس إلى الشمس
قلت له: ياأبتي ها هنا
يعتنق السهمان في القوس
شعرك كان الزاد والماء في

عراقنا الطاعن في الحبس
ماذا أسميك وأنت المهدي
وطائر العاصفة القدسي

واللافت في هذا الرثاء أن البياتي يعود إلى الصيغة الكلاسيكية وهو يودع طودها الأشم ، وكأنه لم يستطع الإقتراب من تخوم الجواهري روحا ونبضا الا باقتراب من بنيته الشعرية ، وتخومه الباذخة الذي يحاول البياتي - في أبياته - محاكاتها ! في رحلة حياة ممتدة وعاصفة ، حافلة بالتقلبات والإنكسارات والرحيل والتنقل ، بدأت بميلاده في النجف الأشرف عام ١٩٠٣ وقيل عام ١٩٠٠ وإختتمت صفحاتها برحيله وثوائه في دمشق عام ٩٨ ، أسس الجواهري ركائز عالمه الإبداعي وأعمدة تكوينه العلمي والأدبي والثقافي خاصة في حلقات النجف الدينية والأدبية والفكرية ، ومن خلال عمله الطويل في الصحافة ، ومشاركاته في العديد من الثورات الوطنية ، ودواوينه المتتابعة: حلبة الأدب١٩٢٤ ، بين الشعور والعاطفة١٩٢٨ ، بريد الغربة١٩٦٥ ، خلجات١٩٧١ يتم جمعها في ديوان الجواهري في طبعاته المتعددة .

وعندما احتفلت مؤسسة دار الهلال بالعيد المئوي لمجلة الهلال - التي أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢ - كانت مفاجآتها للجمهور الأدبي في مصربدعوة الجواهري للمشاركة في هذا الإحتفال بإعتباره الوحيد من شعراء العربية الكبار ، الذي كان لا يزال وقتها علي قيد الحياة ، والذي اتسعت صفحات الهلال للعديد من قصائده عبر مسيرتها الطويلة . وفي الأمسية الشعرية التي أحياها الجواهري في المسرح المكشوف لدار الأوبرا ، وحضرها صفوة المثقفين والمبدعين المصريين والعرب المقيمين في مصر ، بهر الجواهري سامعيه بقدرته الفذة علي الإنشاد طيلة أكثر من ساعة ، معتمدا علي ذاكرته وحدها ، غير مستعين بورقة واحدة ، وهو ينشد مختارات من قصائده المشهورة - عبر تاريخه الشعري الطويل - خاصة قصيدته التي أبدعها عندما جاء إلى مصر مدعوا من عميد الأدب العربي الراحل الدكتور طه حسين ثم قصيدته في وداع جمال عبد الناصر التي أحدثت دويا متعدد الأصداء عندما أنشدها الجواهري ووصل إلى قوله:

لايعصم المجد الرجال ، وإنما . . كان العظيم المجد والأخطاء

ومن روائعه قصيدته في دمشق - التي إختارها لتكون دار إقامته في أخريات حياته ومثوي يضم رفاته ، حين يقول:

شممت تربك أستاف الصبا مرحا
والشمل مؤتلفا ، والعقد مؤتلفا
وسرت قصدك ، لا كالمشتهي بلدا
لكن كمن يشتهي وجه من عشقا

قالوا: دمشق وبغداد ، فقلت: هما
فجر علي الغد من أمسيهما إنبثقا
ماتعجبون ؟ أمن مهدين قد جمعا
أم توأمين علي عهديهما اتفقا
أم صامدين يربان المصير معا
حبا ، ويقتسمان الأمن والفرقا
يهد هدان لسانا واحدا ، ودما
صنوا ومعتقدا حرا ، ومنطلقا
حتي يقول:
دمشق ، عشتك ريعانا ، وخافقة
ولمة ، والعيون السود ، والأرقا
وها أنا ، ويدي جلد ، وسالفتي
ثلج ووجهتي عظم كاد أو عرقا
وأنت لم تبرحي في النفس عالقة
دمي ولحمي ، والأنفاس والرمقا
فخرا دمشق ، تقاسمنا مراهقة
واليوم نقتسم الآلام والرهقا !

ويظل شعر الجواهري متوهجا ، حارا ، يصلنا بعروة كبريائه وشموخه ، ويرفعنا إلى حيث أفقه العالي ومداه الشاسع وفضاؤه العريض ، مطبقا يده علي جمرة القيم الرفيعة والمثل العليا ، التي كثيرا ما تغني بها ، ولم ينسها وهو يخاطب فيلسوف الشعراء أبا العلاء المعري:

أجللت فيك من الميزات خالدة
حرية الفكر ، والحرمان ، والغضبا
مجموعة قد وجدناهن مفردة
لدي سواك ، فما أغنيتنا أربا
وإن صدقت فما في الناس مرتكبا
مثل الأديب ، أعان الجور فارتكبا
هذا إلى راع شواظ الحق أرهفه
سيفا ، وخانع رأي رده خشبا !

لعل روح الجواهري تحلق الآن علي تخوم النجف الأشرف والبصرة وكربلاء وبغداد ، تري وتشاهد وتتأمل ، وتبكي عراق الشعر والحضارة ، كما نبكيه !

العراق والشعر (٣)

بقلم: فاروق شوشة

يحتل العراق مشهد الصدارة في ديوان الشعر الجديد أو الشعر الحر أو شعر التفعيلة - التسميات الثلاث صالحة للاستخدام - منذ كان ميلاد النموذج المكتمل لقصيدة الشعر الجديد علي يدي نازك الملائكة وبدر شاكر السياب ، بغض النظر عن كون أحدهما هو الأجود أو الأحق بالسبق . وأقول النموذج المكتمل لا ن الإرهاصات الأولي لهذه القصيدة مصرية تماما خلال سياق متصاعد بدأه أبو شادي وعلي أحمد باكثير - ولويس عوض ومحمود حسن إسماعيل و عبد الرحمن الشرقاوي وآخرون . لعل قصيدة من أب مصري إلى الرئيس ترومان التي نشرها الشرقاوي في مستهل الخمسينيات تكون القصيدة التي استقطرت كل ما سبقها من محاولات التجديد في مصر بحثا عن الصيغة والقالب . كانت أقربها جميعا إلى ما نسميه إلى وم قصيدة الشعر الجديد ، لكنها لم تكن طلقة البداية التي تعلن عن الميلاد بصورة حاسمة مؤكدة ، بالرغم من امتلائها بالجرأة والانسيابية والتدفق في غزارة وسهولة دون عوائق لغوية أو سدود تحدثها القافية ، لكن ازدحامها بالخطابية والمباشرة وطولها الكبير ، فتت من عناصر تكوينها الشعري ، وذوب كيمياءها الشعرية ، فابتعدت - بالرغم من مغامرتها الريادية - عن إحكام التجويد واكتمال الاستدارة وتوقع الخاتمة - كما كان يقول القدماء - وهم محقون فيما ذهبوا إلى ه ، من هنا كانت طلقة البداية في مصر لشاعر يجاوز عام ه الثاني والعشرين ، هو صلاح عبد الصبور في قصيدته شنق زهران . لكن نازك الملائكة وبدر شاكر السياب في العراق كانا قد سبقاه - بسبع سنوات كاملة - إلى النموذج المعتمد لقصيدة الشعر الجديد . ولم يعد الخلاف الذي ثار طويلا عن أحقية كل منهما في هذا السبق ذا أهمية أو جدوي ، بعد ان حسم الأمر بأن البداية الحقيقية بداية عراقية !

ومنذ عام ١٩٤٧ ، وقصيدة الشعر الجديد العراقية ، تبسط ظلها العريض علي المشهد الشعري شيئا فشيئا ، ثم تتسع دائرتها مجاوزة تخوم العراق ، إلى مصر ولبنان وسوريا قبل أن تندلع - كالشرر - في سائر بقاع الوطن العربي . وهكذا اصبح للعراق الشاعر دوره المؤسس في تشكيل الذائقة الشعرية الجديدة والمغايرة ، كما كان له دوره - منذ عشرينيات القرن الماضي - في ضخ الحياة وتدفقها - حية ونابضة - في عروق القصيدة الكلاسيكية أو التقليدية علي يدي الرصافي والزهاوي ومن بعدهما الجواهري . وهو الدور المتاخم والموازي لدور البارودي رأس مدرسة الإحياء الشعري في مصر ، ومن بعده شوقي وحافظ وإسماعيل صبري وغيرهم من عتاة الكلاسيكية : محمد عبد المطلب ومحمود غنيم

وعلـي الجـارم قبـل ان تتـسع الـساحة الـشعرية لروافـد المهجـر والـديوان وأبولـو ، بتنويعاتهـا المختلفة .

تكفـي إطلالـة واحـدة علـي المـشهد الـشعري في العـراق عـبر النـصف الثـاني مـن القـرن العـشرين وحـتي إلى وم ، لنـري حجـم الإنجـاز ونوعيـات الإبـداع وألـوان المـشهد بكـل أطيافـه ـ في تعـددها وتكاملـها وتباينهـا أحيانـا ـ منـذ الأربعـة الكبـار: نـازك والـسياب والبيـاتي والحيدري ، مـرورا بعـشرات الأسمـاء الـتي ليـست مجـرد أسمـاء بقـدر مـا هـي أصـوات حقيقيـة لهـا حـضورها وتمايزهـا وأصـالتها مـن امثـال: كـاظم جـواد ويوسـف الـصائغ وسـعدي يوسـف ومظفـر النـواب وسـامي مهـدي وحميـد سـعيد وعلـي الحلـي وحـسب الـشيخ جعفـر وعلـي جعفـر العـلاق وفاضـل العـزاوي و عبـد الأمـير معلـة وفـوزي كـريم وآمـال الزهـاوي ومالـك المطلـبي ومنـذر الجبـوري وصـلاح نيـازي وياسـين طـه حـافظ و عبـد الـرزاق الربيعـي وسـركون بـولص وغيرهم .

لقـد عـاش كـثير مـن هـؤلاء المبـدعين حيـاة المنفـي والتـشرد والهجـرة الدائمـة ، بعيدين ومبعدين عن الوطن: العراق .

يـصفهم الباحـث العراقـي الـدكتور علـي عبـاس علـوان بقولـه: إن هـذا الجيـل المنتـشر في الـوطن وفي أصـقاع الـدنيا شـرقا وغربـا ، هـو وحـده الـذي يعـرف طعـم الحـروب وبـشاعتها وتـدميرها روح الإنـسان ومـسخ آدميتـه ومـصادرة حريتـه وغنائـه وآمالـه ، هـؤلاء الـشعراء مـن الجيـل الجديـد ـ الـذين يغنـون غـربتهم واغترابهـم داخـل الـوطن وخارجـه ـ هـم فرسـان المـستقبل القـادم ، الـذين يحـاولون بـشرف ونبـل وفدائيـة أن يكـشفوا للعـالم والإنـسانية الجـوهر الحقيقـي للإنـسان العراقـي ، وكيـف يـرتبط ارتباطـا عـضويا ووجوديـا بالـشعر وجراحـه ودمائه ، إنهم يحفرون بجهد أصيل لجمع كنز الشعر العراقي من جديد .

في شـعر الأربعـة الكبـار ، كانـت نـازك تجـسيدا للحفـر النفـسي والوجـودي في أعمـاق الـذات الـشاعرة ، بكـل تهويماتهـا وصـورها الرمزيـة والـصوفية والميتافيزيقيـة الـشديدة القتامـة والحلكـة ، المـصطبغة دومـا بالـشجن والحـزن ، المنكفئـة علـي التـذكارات والبحـث عـن الوجـوه الغائبـة . وكـان الـسياب ـ بـشموخ نموذجـه الجديـد والحـرص علـي بنيـة لغويـة أكثـر إحكامـا وفنيـة ـ نموذجـا للتقلـب في الـولاء والتوجـه ، وتعـذيب الـنفس المحبطـة أمـام انكـسارات الحيـاة وانهيـار الأحـلام وتراجـع الوعـود وقوعـا في مـا سـاة الـداء الوبيـل المفـضي إلى المـوت . . وكـان بلنـدر الحيـدري نموذجـا للتمـزق الحيـاتي الوجـودي بـين اصـوله الكرديـة وانتمائـه الثقـافي العربـي وحـسه التقـدمي ، ومعاناتـه المـدمرة لتجـاوزه المتعمـد في سـياق الرصـد والتـأريخ للطليعـة المجـددة في الـشعر العراقـي والتركيـز علـي الثلاثـة الآخـرين وحـدهم ، وكأنـه لم يكـن معهـم ، ولا نـدا لهـم ، إبـداعا وحـضورا ومـشاركة . أمـا البيـاتي ـ اكثـرهم شـهرة وذيـوع صـيت وحفـاوة مـن النقـاد والدارسـين وقـدرة علـي اسـتكتاب الكـاتبين ـ فقـد دفعـت بـه

الإيديولوجيا والواقعية في دواوينه الأولي إلى قدر كبير من الخطابية والنثرية والمباشرة ، وحين انهار المثال ـ المتجسد في المعسكر الاشتراكي ولي البياتي وجهه شطر فضاء الصوفية ، اصبح متصوفا معتزلا بعد أن كان مبشرا ثوريا ، واكتست لغته الشعرية في دواوينه الأخيرة برداء الحكمة واليقين القاطع والأحكام الجاهزة القاطعة . ضاقت مساحة الشتائم والهجائيات بعضها بكل أسف موروث عراقي ـ واتسعت رقعة العبارة ، لا نهيار الصور والخبرات ومعجم المنفي والاغتراب والوقوف علي بوابات العالم السبع .

وبقدر ما كان نموذج السياب يستهويني ، في مطالع العمر ، كان شعر البياتي يتردد علي شفاه كثيرين وأقلامهم ، ممن يشاركونه الموقف والرؤية والاتجاه ، وتلذ لهم أهاجيه وشتائمه وضراوته وحدته يلوكونها في تشف وسعادة . ثم جاء شعر صلاح عبد الصبور ـ بالنسبة لجيلنا ـ حلا سعيدا ، يتدفق من وجدان قاهري حزين مهزوم ، وسرعان ما استثار كوامن الضعف الإنساني فينا ، وروائح ليل القاهرة ، وعذابات الفارس الذي انكسر وانخلع قلبه ، والمفارقة اللافتة في شعر صلاح ، أنه كان مصريا حتي النخاع ، روائحه ومرجعيته اللغوية وقسماته مصرية ، لكنه عالمي ممتد الأفق . منفتح النوافذ والإشارات والدلالات في الوقت نفسه ، أن يكون الشاعر مصريا وعالميا إنسانيا في آن: هذه هي معجزة صلاح ، وآيته الشعرية الفذة !

من السهل أن ننتقي من عشرات الأسماء ، أو الأصوات الشعرية ، التالية لجيل الأربعة الكبار في العراق ، شاعرا له خصوصيته اللافتة ، وشاعريته الطاغية ، وحضوره المؤثر هو سعدي يوسف الذي ولد في مدينة البصرة ـ مدينة السياب بعد قريته جيكور ـ عام ١٩٣٤ ، وتخرج في دار المعلمين العالية ببغداد ، ثم عمل مدرسا ومستشارا إعلاميا ، وهو يرأس الآن تحرير مجلة المدي . وحضور سعدي يوسف الشعري ، الماثل لحضور البياتي من قبل ـ وإن اختلفا في النهج والانتماء واللغة ـ لا تؤكده النوعية وحدها ، وإنما تؤازره وتعززه وفرة إبداعه وتدفقها كالنهر الهادر في كل صوب . من دواوينه: أغنيات ليست للآخرين٥١ ، ١٩٥٥ قصيدة١٩٥٩ ، النجم والرماد١٩٦٠ ، قصائد مرئية١٩٦٥ ، بعيدا عن السماء الأولي١٩٧٠ ، نهايات الشمال الافريقي١٩٧٢ ، الاخضربن يوسف١٩٧٢ ، تحت جدارية فائق حسن١٩٧٤ ، الليالي كلها١٩٧٦ ، الساعة الأخيرة١٩٧٧ ، من يعرف الوردة١٩٨١ ، يوميات الجنون١٩٨١ ، محاولات١٩٩٠ ، قصائد باريس١٩٩٢ ، كل حانات العالم١٩٩٤ ، إيروتيكا١٩٩٥ ، وأخيرا الأعمال الشعرية الكاملة .

قرابة نصف قرن وسعدي يوسف يطور أدواته الفنية ، ويغتني ويزدحم بخبرات المنافي وأقبية الليل ووجوه الموانئ والمطارات ومحطات القطار واستبطانه ما ساته الخاصة التي هي ما ساة وطن وأمة ، كاشفا عن نزوع إنساني جارف ، وفهم شديد التعلق

بالحياة في كل أشكالها وصورها الشيئية والمتخيلة ، الجسدية والروحية في آن . من هنا كانت هذه الثروة المكتنزة في شعره ، وهذا الازدحام الفريد بالوجوه والصور والمواقف والأحداث . وهو لا يسب ولايشتم كما كان يفعل البياتي ، ولايغلق عليه دائرة ذاته معتزلا ومنعزلا ـ كما فعلت نازك وكما فعل كثيرا بلندر ـ ولاتشغله تقلبات العالم من حوله لتفقده هويته ونقاط ارتكازه كماحدث للسياب ، لكنه يحفر في العمق ، ويوصل رسالته الشعرية ، من أيسر سبيل . خفيضة الصوت لا تكاد تسمع ، لا نها شعرية في المقام الاول .

يقول سعدي يوسف في ديوانه بعيدا عن السماء الأولي

يابلادي التي لست فيها
يابلادي البعيدة
حيث تبكي السماء
حيث تبكي النساء
حيث لا يقرأ الناس إلا جريدة
يابلادي التي لست فيها
يابلادي الوحيدة
أيها الرمل والنخل والجدول
أيها الجرخ والسنبل
ياعذاب الليالي الجديدة

* * *

يابلادي التي لست فيها
يابلادي الطريدة
ليس لي منك إلا شراع المسافر
راية مزقتها الحناجر
والنجوم الشريدة !

* * *

ويقول سعدي يوسف في واحدة من أكثر قصائده دلالة علي أفق شاعريته وإحكام لغته ومعمار تشكيله

البحث عن خان أيوب في حي الميدان بدمشق !

تساءلت حين دخلت المدينة
عن خان أيوب ،
مادلني أحد
فالتففت ببعضي ، ونمت :

لقد كان وجه المدينة أزرق
أشجارها تستطيل وتكبو ،
ولكنها تستطيل لتكبو ،
وثالثة تستطيل ،
وكانت ستائرها خزفا مغربيا ،
وبحرا محيطا أزقتها
تتقافز منه الوجوه التي ترتدي عريها
كان بين العراق وبيني رمل الجزيرة
قلت: انتهيت ،
ولكنني حين فتحت عيني أبصرت عينيك
إن السماء
تظل ـ كعينيك ـ زرقاء
إنك في الشجر ـ الوهم ، والوخز ـ
بيتي ومكتبتي
والسبيل إلى سفح سنجار
للمت بعضي وسرت
لماذا يراني جنود الخليفة شخصا غريبا ؟
لأني تحدثت في السوق عما وراء النهر ؟

ويبقى العراق ـ كما قال البياتي ـ منجم الذهب الشعري في العالم ، لا في العالم العربي فحسب ، أو ـ كما قال الدكتور علوان ـ جحيم الشعر وفردوسه ، ولأعراف بين الاثنين !

عموديون يسبحون ضد التيار !

بقلم: فاروق شوشة

في البرنامج التليفريوني الأمسية الثقافية الذي أذيع يوم الثلاثاء الماضي كنت أحتفي باثنين من مبدعي الشباب هما الشاعران سمير فراج ومحمد الغيطي اللذان فازا بجائزة الدولة التشجيعية لهذا العام ، الأول عن شعر الفصحي والثاني عن شعر العامية .

وعندما سألت سمير فراج: هل إصرارك علي كتابة القصيدة العمودية- التي استأثرت بمعظم انتاجه الشعري- يمثل سباحة ضد التيار السائد ؟ فاجأني بإجابته الواثقة: أنا لا أحس بوجود للتيار السائد ؟ ، وأري أنه ظاهرة وقتية سوف تزول ، قصيدة النثر أو قصيدة الحداثة أو ما بعد الحداثة . الفن في رأيي هو هكذا ، وبتقاليده التي تمثل جمالياته ، نحن نبدع ونحن نمشي علي الماء ، ونكتب ومعنا كل التقاليد التي تمثل جماليات القصيدة العربية !

هذه الاجابة من شاعر شاب ، هي بمثابة رد اعتبار إلى القصيدة العمودية ، التي وقع كثيرون في شرك الظن بأنها انتهت من الساحة ، واذا بقيت لها بقية من أنفاس ، فليس لدي شعراء الشباب وانما لدي الشعراء الكهول أو الشيوخ ، وهو ظن آن لا صحابه أن يراجعوه ، فقبل سمير فراج هناك أحمد بخيت شاعر القصيدة العمودية المتألق ، وغيرهما من عشرات المبدعين الشباب ، الذين يمثلون جيلا مفاجئا من النخيل الشعري ، قاماته سامقة وآفاقه بعيدة هؤلاء ينفخون في جمر القصيدة العمودية نيرانا جديدة ، ويصيدون- لعجمها وصورها ورموزها- الجديد من كنوز الواقع والموروث وثقافة العصر وروحه وحساسيته .

أنتقل إلى شيخ شعراء القصيدة العموديةوعميدهم محمد التهامي ، والصوت الباقي من جيل الشعراء الكبار الذين كانوا يمثلون الشعر المصري في مهرجانات الشعر العربي في بغداد ودمشق وحلب وتونس والمغرب والكويت وغيرها .

وكانت هذه الوفود الشعرية تضم العقاد وعزيز أباظه ومحمود حسن اسماعيل وعلي الجارم وصالح جودت و عبد الرحمن الشرقاوي ومحمد التهامي وغيرهم ، ومنذ أربعينيات القرن الماضي ومحمد التهامي صوت جهير ، خاصة في المواقف الوطنية والقومية ، توجهه العروبي والإسلامي لا يحتاج إلى دليل ، وإخلاصه لنموذج القصيدة العمودية الذي يلتزم به يتجلي علي مسار رحلته الشعرية الطويلة ـ التي تمتد إلى ما يزيد علي ستين عام ا متصلة- حصادها أعماله الشعرية الكاملة التي صدرت عن الهيئة العامة

للكتاب- وتضم دواوينه: أغنيات لعشاق الوطن ، أشواق عربية ، دماء العروبة علي جدران الكويت ، قطرات من رحيق العمر ، أنا مسلم ، يا إلهي ـ أغاني العاشقين ، ليس آخرا .

ومحمد التهامي- صاحب الصوت الشعري الجهير ، وشاعر القصيدة العمودية التي يصر صاحبها علي السباحة ضد التيار ، بل ضد كل التيارات الشعرية التي اجتاحت حياتنا الأدبية منذ جماعة الديوان وجماعة أبو لو وحركة الشعر الجديد ، هو في موقعه من الساحة لا يفارقه ، وعلي نهجه الشعري لا يغادره ولا يبتعد عنه ، ويري فيه نموذجه الذي يصله بجيل الكبار الذين كان يعايشهم ويتحرك بينهم منذ كان عضوا في لجنة الشعر- بالمجلس الأعلي للفنون والآداب- يوم كان رئيسها العقاد ، وصوتا مجلجلا في كل المحافل الشعرية ، له لغته ونسيج عالمه الشعري ، وحرصه علي الانتماء إلى صيغة شعرية نطالع فيها آثارات من شوقي وعلي الجارم والعقاد ، وإن كان هو لا ينكر اعجابه الشديد بشوقي وانتماءه إلى ه واعترافه بتفرده وتفوقه .

في قصيدة عنوانها حلم شاعر يقول محمد التهامي:

طرق الباب طويلا وترنم
ودعا باسمي في صوت منغم
أيها الطارق قد أيقظتني
أيها الطارق إني كنت أحلم
أيها الطارق قد أخرجتني
من جمال كنت في واديه أنعم
فتعالي صوت في مسمعي
أيها الشاعر ما في الحلم مغنم
فاترك الأحلام في أوهامها
لست محتاجا إلى أن تتوهم
هذه الدنيا ربيع مشرق
كل شبر فيه حسن يتبسم
فاصح ياشاعر وانظر واستمع
فعيون الحسن كادت تتكلم
أيها الطارق هل حدثتني
عن معاني الحسن فيما جئت تزعم
عن ربيع صفت في أوصافه
قولة العاشق والصب المتيم !

هـذه هـي لغـة محمـد التهـامي ، لا عجمـة فيهـا ولا هـشاشة ولا تـردد ، وتكـاد تنقـل إلى قارئهـا صـوت صـاحبها وهـو يهـدر بهـا سـاعة كتابتهـا ، كأنـه ينـشد قـصيدته . وهـو يـسكبها علـي الـورق ، فتحمـل هـدير الإنـشاد وجلجلـة الإلقـاء ، هـذا الإنـشاد وهـذا الإلقـاء مـسئولان ـ إلى حـد كـبير ـ عـن اختيـار مفـردة بـدلا مـن أخـري ، وصـيغة بـدلا مـن أخـري ، وقافيـة بـدلا مـن أخـري ، ليتحقـق للـسياق الـشعري الوضـع الـذي يتـسق مـع حالـة الإنشاد ، والجرس الذي يلائم نشوة الإلقاء .

ولقـد ظـل الكـثير مـن شـعر محمـد التهـامي بعيـدا عـن تنـاول النـاس وعـن الوصـول إلى القـراء لا نـه شـغل نفـسه عقـودا طويلـة مـن الزمـان عـن جمـع هـذا الـشعر في دواويـن ، بـالرغم مـن نـشر معظمـه في الـصحف والمجـلات المـصرية والعربيـة ، حـتي صـحا علـي نفـسه فجـأة في العقـدين الأخيريـن مـن الزمـان مـدركا حجـم إسـاءته إلى هـذا الـشعر ، وضـرورة العمـل الجـاد علي نشره ، قبل أن تضم أعماله الكاملة دواوينه التي تتابعت منفردة .

ويعلـل هـو ـ لهـذا الإهمـال الطويـل ـ بقولـه في مقدمـة ديوانـه أغـاني العاشـقين: صـدق مـن قـال إن الـشعر حيـاة الـشاعر كلـها ، وهـو عـزاؤه عمـا أخطـأه في هـذه الحيـاة ، وكنـزه الـذي يأخـذ منـه مـا يكفيـه ويرضـيه ، ويعـيش الـشاعر حياتـه حيـاتين لعـل أعمقهمـا تغلغـلا في نفـسه حيـاة الـشعر ، ومـن الـشعراء مـن يظـن أن غايـة الغايـات عنـده أن يبـدع شـعرا وحـسبه ذلـك ، ويبقـي علـي النـاس أن يعرفـوه ويعرفـوا لـه قـدره . ومـن الـشعراء مـن أدرك أهميـة أن يتقـدم إلى النـاس بـشعره ، وأن يـتخير لـذلك الوسـائل المتعـددة ، ولعـل هـذا الفريـق هـو الأكثـر مهـارة ، وهـو الـذي فـاتني أن أنهـج نهجـه ، وأنـشر دواويـن شـعري في حينهـا ، وأنثـر حولها الأضواء .

ولعـل اسـتغراقي الـشديد منـذ نعومـة أظفـاري في أعمـاق الـتراث العربـي ومعايـشتي الحميمـة جـدا لـه ، جعلـتني لا ألتفـت إلى مـدي التطـور الواسـع لجوانـب الحيـاة المعاصـرة ، الـذي شـغل النـاس والـذي جعلـهم لا يـدقون بـاب الـشعر ولا يلتفتـون إلى ه اللـهم إلا إذا طـرق هو أبو ابهـم ، ولعلـي خـدعت حـين أتـاح لـي عملـي الـصحفي كثـرة نـشر شـعري بالـصحف ، كمـا أتـاح لـي اتقـان إلقـاء قـصائدي للـشعر كثـرة مـشاركتي في النـدوات والمهرجانـات ، فلـم أتعجل طبع الدواوين ، خاصة وقد استغرقني عملي بالإعلام والجامعة العربية .

وفي ختـام هـذا التقـويم أو الاعـتراف الأدبـي يقـول محمـد التهـامي: وبعـد هـذه الرحلـة الطويلـة مـع الـشعر بحلوهـا ومرهـا وماعانيـت فيهـا مـن أعاصـير ، أشـهد الله أنـي كنـت ملتزمـا الصدق كل الـصدق مـع نفـسي ، تاركـا لهـا علـي سجيتها مـا وسـعت ملائمـا مـا استطعت بـين داعيـة الفكـر وهـاجس الإلهـام ، الـذي كنـت أقـع تحـت تـأثيره ولا أعـرف مـا تـاه ولا أدرك كنهـه ولا أسـتطيع الـتحكم فيـه إلا بمقـدار ، وحـسبنا الله ، وهـو المـستعان . هـل يكمـل هـذا الاعتراف ما أفضي به محمد التهامي في قصيدته الشاعر المظلوم:

كالريح شعرك سارا
ياشاعرا ، لا يباري
فتارة كان همسا
وتارة إعصارا
إن رق كان نسيما
يسري كهمس العذاري
أو جد كان ريارحا
تجري تهز الديارا
أو ثار كان انطلاقا
كالهوج ترمي الشرارا
جمعت كل المعاني
وكنت نورا ونارا !

* * *

فكل خلجة نفس
سكبتها أشعارا
أحببت حتي رأينا
هواك يلقي العذارا
وعدت شيخا عفيفا
أشاع فينا الوقارا
واشتد حتي تحدي
ورق حتي تواري !
وصولا إلى قوله :
يافارس الشعر مهلا
فكم رصيدك صارا ؟
أفنيت عمرك فيه
وفقت فيه الكبارا
فكم سهدت بليل
دفنت فيه النهارا
وكم سهرت الليالي
طوالها ، والقصارا
وكم شقيت بدمع
سكبته مدرارا

وكم قنصت خيالا
تبعته أعمارا !

هل نلتمس حقيقة محمد التهامي الشعرية في وطنياته وقومياته عبر دواوينه: أغنيات لعشاق الوطن ، أشواق عربية ، دماء العروبة ، علي جدران الكويت ؟ أم نلتمسها في إسلامياته التي تملأ ديوانيه: أنا مسلم ، ياإلهي ؟ في قصائده العارمة المجلجلة ، ومواقفه الشعرية الحادة والمنفعلة والضارية ؟ والتي ارتبط اسمه بها ، وبفضلها أصبح - في نظر الكثيرين - عنوانا علي قصيدة لا تخلو من حدة وخطابية ومباشرة ؟

أعترف بأني أري شاعريته في أفضل حالاتها وأكثرها صفاء وأصالة حين يكون المجال مجال الشجن الذاتي والبوح الانساني - بعيدا عن مجالات الصخب والجلجلة - هنا ترق لغته الشعرية ، وتكتسي بنداوة المشاعر التي تفجرها اللحظة الانسانية ، في مثل قصائده المتوهجة: الحب الحائر والطائر الغريب والشعر والشاعر ، وثلاثيته الشعرية الحانية:

إلي ولدي ، لا جلك ياولدي ، وأخيرا ياولدي التي يقول في أولاها:

أنا قادم لك يابني - وحق طهرك - لا تنم
لاتحرمن أباك من فمك الشهي إذا ابتسم
حلواك تلك أضمها - في لهفة - بيدي ضم
أسعي إلى ك وكل خافقة بجنبي تضطرم
فلعلني ألقي صياحك يملأ الدنيا نغم
فأطير من فرحي وأنسي الهم ، أنسي كل هم
فلكم تعبت وكم شقيت وكم شبعت من الألم
وعلي نداك الحلو ترتاح الجراح وتلتئم !
ساقيتني حبا حلمت به وكم عز الحلم
قضيت عمري أبتغيه ولم أصب إلا النوم
ومض السراب ولم أجده وإن وجدت فلم يدم
كم ذقت فيه من العذاب وكم صبرت وكم وكم
وتبعته حتي يئست وقلت: إن الحب وهم !

في مثل هذا الشعر الصافي الرائق ، يمكن التماس شاعرية محمد التهامي وهي في أكثر حالاتها تدفقا وانسيابا واقتدارا ، وابتعادا عن الظل الذي خلع عليها قدرا كبيرا من الجهامة ، وهو الأمر الذي لحق من قبله بشعر العقاد ، فحجب عن الناس أنه شاعر من

طراز كبير ، لا ن هذه الجهامة التي شارك فيها العقاد نفسه جعلت قراءه يقبلون علي نثره ويبتعدون عن شعره ، ويحرمون اكتشاف حجم التفرد في شاعريته ، ونفسه الانساني في العديد من القصائد البديعة التي نجت من جهامة العقاد !

فهل ينجح محمد التهامي في إبعاد ما لحق بقصائده من صفات الصخب والجلجلة والخطابية ، واستصفاء الكثير من قصائده ذات النفس الذاتي الوجداني والانساني الهاديء والعميق - في ديوان يحمل مختارات من شعره ، تجعل قراءه من الأجيال الجديدة أكثر قدرة علي اكتشاف حقيقته الشعرية ، التي ظلمها مرتين مرة بالابتعاد الطويل عن نشر دواوينه وأخري بالاستجابة الفورية لصخب العصر وقضاياه الزاعقة ، وإغلاق الطريق أمام شجوه العميق ، وهمسه الاسيان ، وهمه الكوني والانساني !

عموديون يسبحون ضد التيار - ٢ -

بقلم: فاروق شوشة

بعض المرارات التي يعانيها كثير من الشعراء العموديين - في مصر والعالم العربي - لها أسباب واضحة ومفهومة . ربما كان سببها الأساسي الاحساس العارم بأن حالة شعرية جديدة تتشكل والزمن قد تغير ، وفيضا من الانتاج الشعري المغاير يزحم الصحف والمجلات والملتقيات والمهرجانات ، فضلا عن وسائل الاعلام المسموعة والمرئية ، وفي قلب هذا المشهد لم يعد يستوقف أحدا أن يكون هناك انتشار لكلام سائب بمعني الخروج علي الضوابط الفنية التي بدونها لا يكون الكلام شعرا ، حتي الذين يدعون الحرص علي الأوزان والموسيقي والقواعد النغمية أصبحوا يترخصون في هذا الحرص ، ليقينهم من فساد الآذان وشيوع الفوضي ومن ثم فإن السوق الرائجة تتسع لكل الأشكال والألوان ، دون تمييز ، والغلبة للصوت الأعلي ، ولأصحاب الجوقة النقدية - التي تخلي كثير من زامريها عن شرف المهنة ، فأصبحوا مروجين لبضاعة فاسدة وسماسرة وفاتحي أبو اب وأرزاق ، أكثر من كونهم حراس قيم وشهودا عدولا علي ما يحدث ويجري من خلل والتباس .

لكن المؤكد أن مساحة كبيرة من هذه المرارة ، هي مسئولية هؤلاء العموديين أنفسهم ، عندما سقطوا في أسن التكرار ورتابة الصيغ المحفوظة المتوارثة وانعدام القدرة علي المغامرة وإثارة الدهشة ، والقناعة بالعزف علي أوتار بليت وأعواد أنهكتها الشيخوخة ، وجف فيها ما ء الشعر ، وكيمياء الابداع ، ولولا استثناءات قليلة - في مصر وفي غير مصر - خاصة من شباب متمردين طالعين من صحراء القصيدة العمودية وجدبها - يمثلون تغيرا في المذاق والحساسية ومفاجأة في اللغة والايقاع والسيطرة علي الأدوات - لولا هذه الاستثناءات القليلة لظن الناس ان العمود لم يعد يتحلق من حوله أحد ، وان ما نطالعه من سيل قصائد إلى وم هو المقابل الابداعي لهشاشة عصر وتدني واقع وتشرذم أمة وانهيار تاريخ !

وسط هذه المعمعة الشعرية يبرز صوت الشاعر احمد غراب - من خلال دواوينه المتتابعة : أعاصير (١٩٨٤) ، الشاعر والمدينة (١٩٨٤) ، الملاك الرمادي (١٩٨٨) ، نقوش علي جدار الصمت (١٩٩٢) ، العزف علي أوتار الريح (١٩٩٥) - متحديا وغاضبا ، ومؤكدا لهويته الشعرية التي اصطبغت بطبيعته التكوينية والحياتية منذ مولده في بورسعيد عام ١٩٥٠ فتخرجه في كلية الهندسة بجامعة الاسكندرية (القسم المدني) ثم التحاقه بالكلية الفنية العسكرية ليتخرج منها ملازما أول مهندسا ، واشتراكه في

حرب الاستنزاف ومعارك أكتوبر ، وتدرجه في المناصب العسكرية حتي إحالته إلى التقاعد برتبة لواء وعمله الحالي مهندسا استشاريا .

هذا السجل الحافل بالتصميم الهندسي والانضباط العسكري ، أعطي لشخصيته الشعرية - والانسانية بعض الجهامة والصرامة ، الأمر الذي جعل الناقد والأستاذ الجامعي الدكتور الطاهر مكي في كتابته عن ديوان الشاعر نقوش علي جدار الصمت يشير إلى أهمية ان يأخذ احمد غراب نفسه بالتواضع ، وهو يقول: تتجلي شخصية أحمد غراب الشاعرة واضحة جلية في صوره ، ويشكلها من مواد عادية ، ولكنها بعد الخلق والتكوين تجئ جديدة حقا ، لم ترد علي البال أو الخاطر من قبل ، وأحسب أنها ستكون ميزته التي لا يجاريه فيها غير القليلين ، وعلينا ان نذكر دوما ان الصورة هي إحدي دعامتي الشعر ، وأن الثانية هي الموسيقي وسوف يكون سيدها يتحكم فيها كيف شاء ، إذا أخذ نفسه بالتواضع ، والمعاناة ، والقراءة والتجويد والاخلاص ، ولم يداخله الغرور الذي أطفأ شموعا كان يرجي من ورائها خير كثير .

ويلمس الدكتور الطاهر مكي - مرة أخري - إحساس الشاعر بذاته ، حين يقول عنه : بعد هذا الجانب يجئ احساس الشاعر بذاته فنانا - وهو إحساس قوي - وأكاد أقول: زائدا ومفرطا ، ولم لا ؟ وهو كثير الحديث عن هذه الذات الشاعرة ، نلتقي بها في جانب كبير من قصائده ، مهما يكن موضوعها الأساسي ، ومهما تكن وجهتها النهائية ، وتمثل محورا متميزا ومستقلا ومتنوعا ، فهو في قصيدته في الأتوبيس مثلا قصيدة منهوكة ، وأصابع تبكي اذا لم تنهك ، كاهن كلمات ، بيته غيمة ، متكئة علي كتف الرياح أبدا ، ويده منسوجة من شعر نجم راهب لم يأفك ، لكنه حطم صومعته ، وباع نسكه أمام امرأة جميلة !

ولقد عاش للحرف كاهنا ، يشرب الصمت ، ويبلع الشوك ، ويهدي كل نجم وشاحا من أغان ، وهودجا من حكايا ، يحمل الشعر راية ويغني ، ثاقبا قلبه من الحب نايا ، وكما حاور عبد الله البردوني أبا تمام من قبل ، فقد حاور احمد غراب المتنبي بدوره ، ولكل منهما وجهة ، وجاء توظيفه للتراث هنا في شكل جديد ، اتخذه معبرا للتعبير عن كثير مما يريد ان يقول:

قيل: فلتصلبوا شفاه المغني
فوق أوتاره ليدفن حيا
إنه يمنح الحروف ذراعا
قد تعري قناعنا الشمعيا
إنه يشهر القصيدة رمحا
ينتضي الفكر صارما ثوريا

البلاد التي احتوته احتواها
فهو مثل الرياح يغزو خفيا
ينطفي كي يشع ، يعمي ليرنو
يرتمي واقفا ، ويدنو قصيا
صاح صوت : لا تتركوا منه شلوا
ربما أعشب الروابي غيا !

مرة ثانية ، نجده مع المتنبي في قصيدته هكذا يقول المتنبي : المرايا ، في ديوانه أحزان الرماد مستلهما روح أبي الطيب وهو يمدح بدر بن عمار ، يقول احمد غراب :

أننطفي ومرايا الشوق تشتعل ؟
هل خاصمتنا الرؤي ؟ أم خاننا الأمل ؟
سلطانة القلب ، قد صارت حكايتنا

طفلا جريح الخطي ضاقت به السبل
قد أوشك الحلم ان يخبو ويتركنا
قصيدة ليس تدري كيف تكتمل

تكلمي ، إن في عينيك أسئلة
تبكي بغير دموع ، كيف احتمل ؟
وصولا إلى قوله :

حبيبتي أنت ، فاسترخي بأوديتي
صيفا رضيعا عليه العشب والملل
وهو ينسج فيه علي قول نزار قباني في قصيدته البديعة عن دمشق :
حبيبتي أنت ، فاستلقي كقافية

وعلي ذكر نزار ، فان قارئ شعر أحمد غراب ، في تأمله لمعجمه الشعري ، وصوره ، وعالم تجلياته وغرائبه ، يجد نفسه محاصرا بأقباس وأثارات من شعر نزار ، ولقد بسط نزار بشعريته الطاغية ظله وحضوره المؤثر علي عديد الشعراء ، ويتراوح هذا البسط ـ شدة وضعفا ـ طبقا لموهبة الشاعر المتأثر ومدي تماهيه أو ذوبانه في قصائد مثاله الأعلي نزار ، صحيح ان أحمد غراب له من ثقافته الشعرية واللغوية ، ومن اتكائه علي موروث متخير ، ما يسعفه ويعصمه ويبعده عن الذوبان والفناء في محبوبه الشعري ،

لكنـه لم يـنج مـن هـذا التـأثير الـذي يلازمـه في مداخلـه وفي صـيغه ، وبـالرغم مـن حرصـه علـي سلامة اللغة وعنفوانها فقد أفلت منه ـ مثلا ـ هذا البيت في قصيدة المتنبي السابقة:

لو كان للحب وجه كنت أنت له
جبينه الطهر ، والأجفان والمقل

وصـواب الكـلام ان يكـون: والأجفـان والمقـلا ، وهـو الأمـر الـذي يخـل بالقافيـة ، لا نها مرفوعة في كل القصيدة !

وقـد شـاعت مفـردة سـيدتي في الخطـاب الـشعري المعاصـر ، والمـسئول عـن ابتكارهـا ــ في الأسـاس ـ هـو نـزار قبـاني ، لكنهـا سـرعان مـا شـاعت ونهبـت وتـدوولت في كـثير مـن القـصائد ، بعـد ان وجـد فيهـا المعجبـون المترنمـون بـشعر نـزار نـسقا شـعريا مغـايرا لـترددات اخري مثل:

حبيبتي وصديقتي . . الخ
وفي قصيدة احمد غراب القيثارة ما أغراه بهذا في قوله:
في دفء صوتك ، صلي الحرف سيدتي
حتي تهجدت الأشعار في شفتي
ماذا أسميتك ياقيثارة مسحت

أنغامها الغيم عن بللور أخيلتي
ثم يعود ـ ثانية ـ فيقول:
هبطت للأرض من أرحام محبرة

كانت عقيما ، كجلد الرمل سيدتي
إني أنا الشعر ، أحلام مزركشة
ومن نسيج الرؤي تدرين مقدرتي

قد أمنح الحرف نهدا ، أعينا ، شفة
ابنيه بنتا ، صبيا ، تلك موهبتي !
لكنما الأرض غير الأرض في زمن
لايذبح الشعر إلا في ربا شفتي !

هـذه المـرارة الدفينـة الـتي تنـضح بهـا أبياتـه الأخـيرة ، والـتي تتكتمهـا العديـد مـن قـصائد ديوانـه ، لم يـنجح في مـداواتها العديـد مـن الجـوائز الـتي حـصل عليهـا الـشاعر بـدءا

بجوائز أسبوع شباب الجامعات مرورا بجائزة سعاد الصباح وجائزة الابداع الشعري لمؤسسة عبد العزيز سعود البابطين ، ولابد ان شفاءها مرهون بجائزة أكبر ينتظرها الشاعر ويتوقعها ، تليق بفكرته هو عن شعره .

ولعل الشاعر د . حسن فتح الباب اقترب كثيرا من وجدان الشاعر احمد غراب وهو يقول عنه في تقديمه لديوانه أحزان الرماد متوقفا عند قصيدته الأولي المحورية - كما يسميها - قراءة في كتاب المستحيل المصورة لعذابات القلق والتوتر والأسئلة التي لا إجابة لها أو التي لها اجابة مجهضة: لقد حاصره الواقع الجهم والزمن الوغد - علي حد تعبير المتنبي - فأراد ان يتخذ من الحلم مهربا وملاذا آمنا مثل سائر الرومانسيين والمثاليين ، ولكنه افتقده أو وجده سرابا يحسبه الظمآن ما ء فاذا جاءه لم يجده شيئا .

لقد فتح الشاعر كتاب الحلم فاذا هو كتاب الذي لا يأتي ، كتاب المستحيل:

وهاأنذا رغم جدب السنين
أفتش عن لحظة سوسنة
عن الصفو ، عن منحني لا تمر
به شاحنات الرؤي المحزنة

عن المستحيل الذي لا يصادر
في الدرب خطو المني الممكنة
وعن أمل يملك الكبرياء
ويفرد قامته مئذنة !

وبغض النظر عن استدعاء هذا المعجم الحربي في قوله شاحنات الرؤي فان قدرة الشاعر علي بناء الصورة الشعرية واضحة وجلية ، وولعه باللغة الحسية - الكاشفة عن نزعة ابيقورية نهمته - هو بعض من غبار نزار الشعري ، ولجوءه إلى تراسل الحواس - الذي أشار إلى بعض نماذجه الدكتور الطاهر مكي في مثل قوله: للغبار ذاكرة ، وللبرق مخاض ، والأعوام عانسة جف الحليب بنهديها ، وللقمر لحيته وللكبت قبر ، وللخوف قبو ، وللمقت كهف ، وللحلم بكاء ومن دموعه يشرب هذا النهج ربما أدهش قارئه مرة ، لكنه لن يدهشه كثيرا اذا ما تكرر وأصبح سمتا وعلامة ملازمة !

ولا يزال في قدرة احمد غراب ، أن يكون صوته هو ، وان يغتسل من فيض مراراته ، حتي يمتلئ صدره بهواء أكثر نقاء وصفاء ، ويفيض وجدانه بشعر اكثر توهجا واشراقا وانسانية !

عموديون يسبحون ضد التيار - ٣ –

بقلم : فاروق شوشة

بين عام ي١٩٢٩ و١٩٩٠ عاش الشاعر السكندري عبد المنعم الانصاري ، وحقق بدواوينه الثلاثة: أغنيات الساقية (١٩٦٨) ، علي باب الأميرة (١٩٨٤) ، قرابين (١٩٨٧) مكانة متقدمة ومتميزة في ديوان الشعر السكندري ، والمصري ، المعاصر ، مخلصا لصيغة القصيدة العمودية ، من غير أن يخرج عليها ـ كما فعل غيره من العموديين ـ مرة واحدة ، مذيبا فيها من روحه وقلقه وهمومه وأشواقه ، الرحيق الذي جعل من شعره نموذجا للكلاسيكية الجديدة ، التي تتوهج في يد الشاعر الصناع ، الكبير الموهبة ، الحقيقي الانتماء لماء الشعر وكيميائه ، ولقد كان الأنصاري ـ بالفعل ـ هذا الشاعر الكلاسيكي الجديد .

وبالرغم من أن عبد المنعم الانصاري لم يتح له التزود بتعليم عال ، مكتفيا بالحصول علي دبلوم معهد البريد ، فإن تفجر موهبته الشعرية الباكرة جعله يكتفي بهذا القدر ، وأن يصنع نفسه كما يفعل العصاميون ، حين ينكفئون علي مخزون الخبرات والتجارب ، وموفور القراءات والتأملات ، وأن يؤهل نفسه بين شعراء العصبة السكندرية من أمثال: محمود عبد الحي ، و عبد العليم القباني ، وأحمد السمرة ، ومحمد محمود زيتون ، و عبد الرحيم إدريس ، وإدوار حنا سعد ، ومحمود العتريس وغيرهم ، ليكون من دونهم جميعا بوابة الشعر السكندري ، وسادن هذا الشعر المت عبد في محرابه ، يصل ليله بنهاره ، وتستغرقه صعلكة الأقبية ومواطن الإلهام ، ويجد متعته في مغامرات سريعة النزق والجموح والانطفاء ، تذكي جمر شاعريته ، وتحفظ عليه درجة من سخونة الشخصية الإنسانية ، وتوهج الشاعر ، وانغماس صاحب النزعة الأبيقورية في خضم العالم السكندري ، بكل تياراته وأعاصيره وعواصفه ، منشدا لشعره في معظم المحافل الأدبية التي تقيمها قصور الثقافة وكليات الجامعة ، راوية لا جمل ما احتفظت به ذاكرته من شعر الآخرين ، معلما للشعر: فنا وعروضا وتشكيلا وبنية ، في العديد من الدورات التي تبنتها بعض قصور الثقافة في الاسكندرية ، خاصة قصر ثقافة الحرية . وأصبح الأنصاري بهذا كله ، دون كوكبة الآخرين من حوله ، بعضهم يسبقونه عمرا وتجربة وبعضهم أقل منه في الأمرين ، أصبح ذائع الصيت بين الأجيال الصاعدة والواعدة ، تلتمس أن تعمد علي يديه ، وأن يدفع بها إلى المعترك بعد أن يمنحها اعترافه ودعمه وتشجيعه ، ويقعون في مصيدة تقليده ومحاكاته والنسج علي منوال قصائده ، ومحاولة تقمص طريقته في إنشاء الشعر وتمثل طبقاته الصوتية ، من منطلق الإعجاب والانبهار . ومن بين كل قصائد الأنصاري ، أتيح لقصيدته الكلمة امتداد وتناسخ ، وتناص ، في

قصائد كثير من شعراء الاسكندرية ، يتكئون علي البحر نفسه والقافية نفسها ، ويصطنعون اللغة والسمت والطريقة . يقول الأنصاري:

نبت حروفي ، وأبدت عجزها لغتي
ماذا أسميك ؟ تلك الآن مشكلتي !
فأنت عاري الذي أحيا لا حمله
مفاخرا ، ونياشيني ، وأوسمتي
وأنت لي في ظلام المنتهي قبس
وأنت شاهد حق فوق مقبرتي

* * *

الله علمني الأسماء ، وامتلأت
بنار حكمتها العذراء محرقتي
لكنه الموت ، أني رحت يرصدني
فكيف ألقي بأصباغي وأقنعتي ؟
ياويلتي ما لا زميلي ومطرقتي
تحطما ، وأذاع الخوف ملحمتي !
أوقع أقدامهم يدنو ، وضجتهم
ترج أصداؤها جدران صومعتي !
لك السلام ، فإني لست أنكرها
حتي ولو أصبحت حبلا لمشنقتي !

* * *

ياكلمة مرة حامت علي شفتي
مميتتي أنت في قومي ومحييتي
ماخالج النفس أن فاضت بها وجل
ولست أنكرها قدام محكمتي
فقد ترد إلى روحي براءتها
وقد تعيد لمتن الريح أجنحتي
في البدء كانت ، وكان الكون مملكتي
ولم تزل ـ بعد ـ سرا في مخيلتي
ومثلما يكتوي بالنار حاملها
حملتها ، واكتوت من حرها رئتي

وحـين أمضـي بهـا ، من ذا سيتبعني
منكـم ؟ لا بـحث عـن أرضـي وعن لغتي

مثـل هـذه القـصيدة المنـشورة في ديوانـه علـي بـاب الأمـيرة قـصائد اخـري عديـدة ، فيهـا هـذا الـوعي المـلازم بالوقفـة المتفـردة ، والاغـتراب الـذي يرجـع إلى إحـساس الـشاعر بذاته واختلافهـا عـن الـذوات المشتبكة في لعبـة الحيـاة مـن حولـه ، وشـعوره الـدفين بـأن قومـه لا يقدرونه حـق قـدره: فنـا وابـداعا ، ولا ينزلونـه مـن أنفـسهم المنزلـة الـتي يـري انـه يـستحقها . وفي قـصائده: تحـولات ونبـوءة ، وثرثـرة الأشـلاء ولؤلـؤة وربابـة وبـين يـدي شـوقي واعـتراف (مـن ديـوان علـي بـاب الأمـيرة) والقـرابين والمـنحني وأصـداء والقـادم والقـصيدة (مـن ديـوان قـرابين) يـتراوح نفـس الـشاعر بـين التمـرد والاسـتعلاء وتأكيـد الـذات وإعـلان الاخـتلاف والتفـرد ، والنغمـة الـتي عـزف عليهـا في قـصيدة الكلمـة هـي نفـسها الـتي يعـود إلى هـا في تـشكيل شـعري مغـاير ، وإن كانـت قافيـة التـاء الـتي تـلازم كـثيرا مـن قـصائده تـربط بـين نغـم القـصيدة وقـصيدته الأخـري تحـولات الـتي يقـول فيهـا وهـو لا يـزال في محـراب الكلمـة يناجيهـا ويحاكمها في وقت واحد وهو يقول:

أوغـــــلت في تيهـي ، وأوغـــلت
وأنـــا وراءك ، حـــــيثما كـــنت
أمــشي بــأوزاري عــلي كـــتفي
فمــتي تميد الأرض من تحـتي ؟
ماعـــاد في مصـباح رحـــــلتنا
لقبــــورناشـــــئ مـن الزيــــت !

* * *

لــي ربوة قــد كـــنت أزرعها
حـبا ، فلاتعـطي سوي المقت
لـم أدر هـل أحــرقتها بيـــدي
أم ياتــــري احـــــرقتها أنـت ؟
ماخــنت عهــدي مثلمــا خنت
بل شــدت في وادي السها بيتي
لكـن نيـــــراني قـد انطـــــفأت
ووجـــدت تحــت رمادها صوتي

* * *

ياكـــلمة كـــانت علـي شــــفتي
ماخـــنت عهـــدي مثلمـــا خنت

هيهـــات ألحـــاني تعـــود إلى
قيثـــــــــارتي إلا إذا عــــدت
لـي فيـك اســـرار سأملكـها
وحــدي غـدا ، وأعود للصمـــت !

مـرة ثالثـة سنجد القافيـة التائيـة تناوشـه وتـشاغله ، ومـرة ثانيـة نجـد موسـيقي بحـر البسيط اكثر البحور الشعرية شيوعا في دواوينه ، في قصيدة عنوانها فرحــــة يقول فيها:

مــن أي عاصـفة هوجاء أقبلت ؟
وما وراءك من سر ؟ ومـن انت ؟
بينـــي وبـــينك آمـــاد وأزمــــنة
نمـا عليها قتاد الخـوف والمقت
الطـــير مـلوية الأعنــــاق ذاهلة
الصمت ران عليها منذ أن رحت
والنار صارت رمادا في مواقدنا
واصفر ما كان مخضرا من النبت !
فإنني لـم أهــيئ ـ بعد ـ ما ئـــدتي
ولـم أجمـــل بأزهـــار المـــني بيتي
هـــلا تريثت حــــتي أــــستعد كما
يليـــق بالوصـل يومـــا ، هل تريثت ؟

مثـل هـذا الـشعر يـشير ـ بقـوة ـ إلى موهبـة شـعرية كـبيرة ، وإلـي بنـاء كلاسـيكي بـاذخ ، صـاحبه يعـرف أصـول فنـه وصـنعته ، ويـتخير لحالاتـه الانـسانية مـا يلائمهـا مـن مقـام موسـيقي وإيقـاع نغمـي ، ولتجلياتـه الـشعرية قوالبهـا الـتي يحكمهـا في صـياغة طيعـة ، ومعاودة نظر وتدقيق .

ويبـدو ان صـحبته الحميمـة لا مـل دنقـل ـ خـلال سـنوات اقامتـه في الاسـكندرية ـ أصـابته بعـدوي معـاودة النظـر في القـصيدة مـرة بعـد مـرة ، لعلـه يرضـي عنهـا في النهايـة ، فيـدفع بهـا إلى النـاس ، كمـا جـسدت لديـه نمـوذج الـشاعر الـذي لا هـم لـه إلا الـشعر ، حياتـه شـعر ، وأنفاسـه شـعر ، وليلـه ونهـاره محاولـة دائبـة لا قتنـاص القـصيدة الفريـدة ، والقـول الجديـد ، ومغامراتـه واكتـشافاته تقتـات مـن دمـه وأعـصابه ، لكنهـا سـلاحه الوحيـد لتحقيــق هــذه الحميــا أو الــذوبان الــشعري في الوجــود انــصهارا وكــشفا للخبــئ وبحثــا عــن المــستحيل ولم تمنعـه هـذه العلاقـة الحميمـة ، والاعجـاب الغـامر بأمـل دنقـل شـاعرا وانـسانا مـن ان يهـاجم دعـاة الـشعر الجديـد ، الـذين جـاء شـعرهم مـسخا بعيـدا عـن الموسـيقي والمعـني

والصورة التي حفظها للشعر الحقيقي - في رأيه - الشعر العمودي ، يقول في قصيدته عن شوقي أمير الشعراء والتي مطلعها :

أمير القوافي لم تزل - بعد - رحلتي
إليك ، وعين الموت ترصد خطوتي
ثم يقول عن الشعر :
حفظناه موسيقي ، ومعني ، وصورة
ووحيا تلقيناه قبل النبوة
بلغنا به من سعينا شاطئ الهدي
وضل سوانا في سراب بقيعة
ورغم جديد جاء كالمسخ شائها
وترجمة عن ألسن اعجمية
يظل لك التاج الدي علي المدي
وتحيا اميرا في قلوب الرعية !

ولقد حقق عبد المنعم الأنصاري ما أراده لنفسه ولشعره ، وهو ان يبقي واحدا من رعية الأمير ، الذي له التاج المفدي علي المدي ، مستمسكا بنموذجه الكلاسيكي المغاير ، وقصيدته العمودية الجديدة !

القسم الرابع

شعر وشعراء (٢)

" الشوقيات " في طبعتها الجديدة البهية (١)

بقلم: فاروق شوشة

لم يتعرض ديوان شعري لما تعرض له ديوان الشوقيات لشاعر العصر الحديث أحمد شوقي من الظلم والإهمال . فمنذ صدور طبعته الأولي - في جزء واحد صغير الحجم عن مطبعة الآداب والمؤيد عام ١٨٩٨ - والديوان يلقي الإهمال من صاحبه أولا ثم من الآخرين في صور مختلفة . فقد أعاد شوقي طبعه في عام ١٩١١ من غير أن يضيف إلى ه شيئا ، ثم مضت خمس عشرة سنة قبل أن يفكر شوقي في نشر ما تجمع لديه من قصائد وتقسيم ديوانه إلى أجزاء ، فطبع الجزء الأول منها في عام ١٩٢٦ وهو يحمل المقدمة التي كتبها الأديب والسياسي الكبير الدكتور محمد حسين هيكل ، وطبع الجزء الثاني في عام ١٩٣٠ ، ولم تنشر بقية أجزاء الشوقيات إلا بعد وفاة شوقي: طبع الجزء الثالث الخاص بالمراثي في عام ١٩٣٦ والرابع في عام ١٩٤٣ .

وبالرغم من أن هذه الطبعة لديوان الشوقيات - في أجزائه الأربعة - ظلت هي الطبعة المعتمدة والمتداولة لدي القراء والدارسين لسنوات طويلة ، إلا أنها قد شهدت بداية الظلم الذي لحق بهذا الديوان ، عندما أسقطت المقدمة الجميلة الضافية التي كتبها شوقي بنفسه للطبعة الأولي من ديوانه ، ووضعت بدلا منها مقدمة الدكتور هيكل ، التي غلبت عليها دراسة التاريخ والاجتماع وتصوير شوقي باعتباره شاعر مصر وشاعر العرب وشاعر المسلمين والتوقف عند شخصيته التي جمعت بين الازدواج المتمثل في حب الحياة ومتاعها والإيمان ونعيمه ، وقوة العاطفة الإسلامية لديه التي جعلته أكثر تحدثا عن الترك وعن الخليفة منه عن العرب وعن الرسول .

يقول هيكل: فهذا الجزء الأول من ديوانه يشتمل علي ثلاث قصائد عن العرب ومكة والرسالة ويشتمل علي ثماني عشرة قصيدة عن الخلافة وعن الترك . وأن تلمس في هذه القصائد الثماني عشرة جميعا حسا أدق من العاطفة وفيضا أغزر من الشعر ، وقوة تكاد تعتقد معها أن شوقي إذ يتحدث عن الترك إنما يملي ما يكنه فؤاده وإنما يندفع بقوة كمينة هي قوة دم الجنس أو أن اتصاله بالبيت المالك في مصر كان قوي الأثر في نفسه إلى حد جعله يفيض من ذكر الترك بما ينبض به قلب سلالة محمد علي أما مقدمة شوقي التي وضعت بدلا منها مقدمة الدكتور هيكل - وكان من الممكن أن توضع إلى جوارها - فقد أسقطت من هذه الطبعة ومن سائر الطبعات بعد ذلك - مع أن شوقي يحدثنا فيها عن أصله وتاريخ أسرته ، وعن نشأته وتكوينه وعلاقته بالإبداع الشعري ، وعن رأيه في الشعر ، والشعراء الذين استوقفوه بالإعجاب والمتابعة والاهتمام ، وسبب تسميته لديوانه باسم الشوقيات ، ونصيحته الغالية للمشتغلين بالشعر من أبناء الوطن

العربي . وهي كلها أمور يهتم قارىء شعر شوقي بمعرفة رأيه فيها والوقوف علي ما قاله شوقي بنفسه - دون حذف أو تدخل أو تغيير . هي إذن مقدمة ضافية كاشفة ، شديدة الأهمية ، باعتبارها الأثر الوحيد المتكامل الذي يمكن أن نصغي من خلاله إلى شوقي متحدثا عن الشعر ، وهو أثر لا يمكن أن يملأ فراغه أحد من الكاتبين - حتي لو كان في قامة الكاتب والسياسي الكبير الدكتور محمد حسين هيكل ، فهنا - في هذه المقدمة - شوقي هو الذي يتكلم ، ومن حقه علينا أن نصغي إلى ما يقول .

يقول شوقي عن أصله ونسبه وأسرته : سمعت أن - رحمه الله - يرد أصلنا إلى الأكراد فالعرب ، ويقول : إن والده قدم هذه الديار يافعا يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إلى والي مصر محمد علي باشا وكان جدي وأنا حامل اسمه ولقبه يحسن كتابة العربية والتركية خطا وانشاء ، فأدخله الوالي في معيته ، ثم تداولت الأيام ، وتعاقب الولاة الفخام ، وهو يتقلد المراتب العالية ، ويتقلب في المناصب السامية ، إلى أن أقامه سعيد باشا أمينا للجمارك المصرية ، فكانت وفاته في هذا العمل عن ثروة راضية ، بددها أبي في سكرة الشباب ، ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم ، وعشت في ظله - وأنا واحده - أسمع بما كان من سعة رزقه ، ولا أراني في ضيق حتي أندب تلك السعة ، فكأنه رأي لي كما رأي لنفسه من قبل ، أ لا أقتات من فضلات الموتي .

أما جدي لوالدتي فاسمه أحمد بك حليم ، ويعرف بالنجدة لي نسبة إلى نجدة إحدي قري الأناضول ، وفد علي هذه البلاد فتيا كذلك ، فاستخدمه والي مصر إبراهيم باشا من أول يوم ، ثم زوجه بمعتوقته جدتي التي أرثيها في هذه المجموعة ، وأصلها من مورة جلبت منها أسيرة حرب لا شراء ، وكانت رفيعة المنزلة عند مولاها ، وكان زوجها محبوبا عنده كذلك ، فمازالا كلاهما مغمورين بنعمة هذا البيت الكريم حتي توفي جدي وهو وكيل لخاصة الخديوي إلى أرملته ، وأن يحسب ذلك معاشا لا إحسانا . وكان الخديوي المشار إلى ه يقول عنهما : لم أر أعف منه ولا أقنع من زوجته ، ولو لم يسمه أبي حليما لحلمه لسميته عفيفا لعفته .

ثم يقول شوقي : أنا إذن عربي ، تركي ، يوناني ، جركسي بجدتي لا بي .
أصول أربعة في فرع مجتمعة . تكفله لها مصر كما كفلت أبو يه من قبل . ومازال لمصر الكنف المأمول والنائل الجزل ، علي أنها بلادي ، وهي منشئي ومهادي ، ومقبرة أجدادي ، ولد لي بها أبو ان ، ولي في ثراها أب وجدان ، وببعض هذا تحبب إلى الرجـــــــــــــــــــال الأوطـــــــــــــــــــان

ثم يقول شوقي : أما ولادتي فكانت بمصر القاهرة ، وأنا إلى وم أحبو إلى الثلاثين وكان هذا السطر الأخير بمثابة الدليل عند الباحثين لمعرفة تاريخ ميلاد شوقي ، فإذا كان يحبو إلى الثلاثين في عام ١٨٩٨ - عام نشر الطبعة الأولي من الشوقيات - فمعني ذلك أنه

قد ولد في عام ١٨٦٨ ، وإن كانت شهادة الليسانس في الحقوق التي نالها من باريس تشير إلى أن تاريخ ميلاده هو١٦ أكتوبر١٨٧٠ لا أمل من الإشارة - في أكثر من مناسبة - إلى الجرم الفادح الذي تمثل في إسقاط مقدمة شوقي لديوانه ، بكل ما تمثله من قيمة تاريخية وفنية .

أما الظلم الثاني الذي لحق بديوان شوقي الشوقيات فتمثل قي قيام أستاذنا الراحل الدكتور أحمد الحوفي بتغيير اسمه إلى ديوان شوقي بدلا من الشوقيات وهو الاسم الذي عرف به منذ طبعته الأولي عام ١٨٩٨

ولقد عرض الدكتور الحوفي - في ختام تقديمه للطبعة التي أصدرها من ديوان شوقي - وحملت تاريخ يونيو١٩٧٩ - لجهده المتمثل في توثيق الديوان وتبويبه وشرحه والتعليق عليه والتعريف بأعلامه ، ولم يمنعه حبه لشوقي من أن يذكر بعض المخالفات اللغوية التي وردت في بعض كلماته وزادت علي العشرين ، وربما أعطاه هذا الجهد الحق - من وجهة نظره - في تغيير اسم الديوان ، لكنه تغيير يتضمن ظلما للديوان وصاحبه ، الذي يحدثنا في مقدمته التي أسقطوها عن سبب تسميته لديوانه بالشوقيات حديثا طريفا وجميلا حين يقول: جمعتني باريز في أيام الصبا بالأمير شكيب أرسلان وأنا يومئذ في طلب العلم ، والأمير - حفظه الله - في التماس الشفاء ، فانعقدت بيننا الألفة بلا كلفة . وكنت في أول عهدي بنظم القصائد الكبر ، وكان الأمير يقرأ ما يرد عليه منها منشورا في صحف مصر ، فتمني ان تكون لي يوما ما مجموعة ، ثم تمني علي إذا هي ظهرت أن اسميها الشوقيات ثم انقضت تلك المدة فكأنها حلم في الكري ، أو خلسة المختلس ، أو هي كما قلت:

صحبت شكيبا برهة لم يغز بها

سواي ، علي أن الصحاب كثير

حرصت عليها آنة ثم آنة

كما ضن بالماس الكريم خبير

فلما تساقينا الوفاء ، وتم لي

وداد علي كل الوداد أمير

تفرق جسمي في البلاد وجسمه

ولم يتفرق خاطر وضمير

ثم يقول شوقي:

هذا أصل التسمية ، سبقت به إشارة لا تخالف ، ودفعت إلى ه طاعة واجبة ، وأنا بين هاتين هدف للقال والقيل ، يظن بي نسبة الأثر الضئيل إلى الاسم القليل . فإذا كانت الشوقيات هي التسمية التي ارتضاها شوقي - نزولا علي رغبة شكيب أرسلان -

لديوانه ، فكيف يجوز تغييرها ، أو استبدال عنوان آخر بها ، والديوان قد اقتحم ذاكرة التاريخ وتداوله الناس جميعا باسمه الحقيقي الشوقيات ؟ إن الدكتور الحوفي لم يكتف بتغيير اسم الديوان فحسب ، وإنما هو يغير عناوين كثير من القصائد ، لا نه رأي أن عنوانات بعض القصائد غير دالة علي موضوع القصيدة ، فآثرت تغييرها ، ونبهت علي هذا في مواضعه ، ووجدت قصائد الغزل كلها بغير عنوانات فوضعت

لكل منها عنوانا .

أما العنوانات التي غيرها الدكتور الحوفي فكثيرة ، مثل:

تأجيل تتويج الملك إدوارد بدلا من الله والعلم

إلغاء الخلافة بدلا من خلافة الإسلام

مؤتمر الاحزاب المؤتلفة بدلا من المؤتمر

نجاة سعد زغلول بدلا من اعتداء

ثلاثة من شبان مصر بدلا من تكريم

الغلاء بدلا من بعد المنفي

فهل نحن ـ معشر الدراسين أو القراء ـ أدري من شوقي بحقيقة ما كان يريده لقصائده من مسميات ؟ وهل من حقنا أن نسميها بما يتلاءم مع ذوقنا نحن واجتهادنا دون نظر أو اعتبار لكا صنعه شوقي نفسه ؟ ؟

أما الظلم الثالث ـ والفادح ـ الذي لحق بديوان الشوقيات ، فهو مما حدث له بعد ثورة يوليو عام ١٩٥٢ ، وقيام ناشري الكتاب بحذف عدد من قصائد شوقي المتصلة بالأسرة العلوية وهي التي يسميها البعض بالقصائد الخديوية ، ومن أهمها جميعا قصيدة شوقي في محمد علي باشا الكبير مؤسس الأسرة العلوية في مصر ، وقصيدته في رثاء الخديوي إسماعيل ولي نعمته وصاحب الفضل الأول عليه والذي يقول فيه شوقي:

أأخون اسماعيل في أولاده

ولقد ولدت بباب إسماعيلا ؟

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد . لقد أصبح شوق ـ شاعر مصر الأكبر في كل تاريخها الشعري منذ دخول العربية إلى ها علي يد عمرو بن العاص ـ منبوذا ، مضطهدا ، يجب التعتيم عليه تعليميا وإعلاميا ، لا نه في نظر العهد الثوري الجديد ـ خاصة طوال الخمسينيات والستينيات ـ شاعر القصر ، وشاعر الأسرة العلوية ، المتغني بأمجاد أمرائها وخديوييها ، ورفعت قصائد شوقي من كتب المدارس ، ولم يقم احتفال واحد بذكراه ميلادا أو رحيلا ـ في أجهزة الثقافة أو الإعلام ، علي مدي تلك السنوات .

واغتنم بعض الناشرين اللبنانيين ـ كعادتهم ـ الفرصة ، فالديوان غير متاح في الأسواق ، ومطلوب بشدة للقارىء العربي ، فكثرت الطبعات المزورة من الطبعة التي تصدرتها مقدمة الدكتور محمد حسين هيكل والتي صدرت عن مطبعة مصر عام ١٩٢٦ ، وساعد التصوير علي اتقان السرقة والتزوير . وأصبح شوقي ممزقا منهوبا كأوزيريس مبعدا عن وطنه مصر . وعندما جاء احتفال مصر بمرور خمسين عام ا علي رحيل كل من حافظ وشوقي ـ بمثابة رد اعتبار لشوقي علي وجه الخصوص ـ وكان علي رأس الهيئة المصرية للكتاب الناقد الكبير الدكتور عز الدين إسماعيل لم يستطيع أن يصدر طبعة جديدة من الشوقيات في هذه المناسبة التاريخية ، لا ن حق طباعة الديوان ونشره كان قد انتقل إلى دار نهضة مصر والدكتور أحمد الحوفي الذي أصدر طبعته المسماه ديوان شوقي قبل ذلك بثلاث سنوات فحسب واكتفي الدكتور عز الدين اسماعيل بإصدار أعمال شوقي المسرحية الكاملة لا ول مرة في مجلد واحد محققة ومراجعة ، وقد ضمت مسرحية البخيلة التي عثر عليها بين أوراق شوقي عقب رحيله ، وكان قد سبق لمجلة الدوحة نشر فصول منها في عهد رئيس تحريرها الناقد والكاتب الكبير رجاء النقاش .

كما اكتفي الدكتور عز الدين إسماعيل بنشر مختارات من شعر حافظ وشوقي صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٣ في طبعة نادرة من القطع الصغير جدا ـ لا يتجاوز حجمه نصف حجم الكف ـ اتسعت بالإضافة إلى مختارات من قصائد شوقي المعروفة والمشهورة لمشاهد من مسرحيتيه: مجنون ليلي ومصرع كليوباترا .
أما مناسبة هذا الحديث كله ، فهي سعادتي الكبري بصدور الشوقيات في طبعة جديدة بهة ، ضمن سلسلة الشعر والشعراء التي تصدرها الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان حققها وبوبها وضبطها وعلق عليها الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد وتفضل بإهدائها إلى الاستاذ وجدي رزق غالي مدير النشر العربي بالشركة ، ولولاه لما عرفت بأمر هذه الطبعة ، ولما أدركت أن كل ما أحاط بالشوقيات من ظلم سابق منذ صدور طبعتها الأولي في عام ١٨٩٨ ـ قد تم محوه وإزالته ، وأننا أمام صورة حقيقية لديوان أهم شاعر مصري ـ علي مدار القرن العشرين ـ إن لم يكن علي مدي قرون العربية في مصر ، أعادت إلى الديوان اسمه الأصلي الشوقيات والمقدمة الجميلة التي كتبها شوقي بنفسه لديوانه وأضافت القصائد التي لم يسبق نشرها في الطبعات السابقة من الشوقيات ، مع مقدمة دراسية بقلم الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد وهو الأمر الذي يستحق أن نتوقف عنده في حديث قادم .

" الشوقيات " في طبعتها الجديدة البهية (٢)

بقلم: فاروق شوشة

سعادتي لا توصف بهذه الطبعة الجديدة من الشوقيات ، التي صدرت أخيرا عن الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ، التي حققها وبوبها وضبطها وعلق عليها الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد . أما مصدر هذه السعادة فهو أن هذه الطبعة ـ في صورتها البهية القشيبة ، في مجلد واحد تزيد صفحاته علي ألف ومائتي صفحة ـ قد نجحت في رفع الظلم الذي وقع علي ديوان أهم شاعر مصري في تاريخ الشعر العربي في مصر .

فأعادت إلى الديوان اسمه الحقيقي الذي سماه صاحبه به وهو الشوقيات بعد أن حمل في طبعة أخيرة حققها أستاذنا الراحل الدكتور أحمد الحوفي ونشرتها دار نهضة مصر اسم ديوان شوقي ، وردت إلى الديوان المقدمة الضافية ـ ذات القيمة التاريخية والفنية الكبيرة ـ التي كتبها شوقي بنفسه لديوانه ، معرفا بأصوله الأولي وأسرته وتاريخها في مصر ، ملقيا الضوء علي نشأته وطرف من حياته وتعليمه ومكوناته ، معلنا عن رأيه في الشعر والشعراء الذين استوقفوه بالمتابعة والاهتمام محللا وناقدا ، والتفاته إلى أهمية كتابة الشعر للأطفال ونظم الحكايات تأثرا بالشاعر الفرنسي لا فونتين ، وسبب تسميته للشوقيات بهذا الاسم نزولا علي رغبة أمير البيان شكيب أرسلان ، وكيفية اختياره لقصائد الطبعة الأولي من الشوقيات التي صدرت عام ١٨٩٨ .

كما أضاف الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد إلى هذه الطبعة ـ كما يقول في تقديمه لها ـ كل ما استطاع الحصول عليه من شعر شوقي الذي لم يسبق نشره ، وقد وجد كثيرا منه في أوراق خاصة لبعض المثقفين الذين كانوا يحرصون علي قراءة شعر شوقي وتلقف آثاره ، وكل ما قاله شوقي في أسرة محمد علي ـ في باب مستقل جعل عنوانه الخديويات ، وجعل ترتيبه تاريخيا ، بحيث يعطي صورة متكاملة عن موقف الشاعر من كل خديو قائما بذاته .

واحتفظت الطبعة الجديدة ـ بالإضافة إلى هذا كله ـ بالمقدمة الضافية التي كتبها الأديب والسياسي الكبير الدكتور محمد حسين هيكل لطبعة الشوقيات الصادرة عام ١٩٢٦ ، وهي الطبعة التي ظلت معتمدة ومتداولة لدي القراء والباحثين لسنوات طويلة وتعرضت للنهب والتزوير والحذف والتشويه .

نحـن الآن إذن أمـام صـورة حقيقيـة لـديوان أهـم شـاعر مـصري ، تفـتح البـاب واسـعا أمـام إعـادة قراءتـه ـلمن لم يتمكنـوا مـن قراءتـه مـن أبنـاء الأجيـال الجديدةـ لا فتقـاد ديوانـه طـويلا ، وللدارسـين الـذين آن الأوان ـبفـضل المنـاهج والـرؤي النقديـة الجديدةـ أن يتجـاوزوا الكتابـات الـتي ظلـت حـتي الآن معتمـدة علـي شـوقي وشـاعريته ، خاصـة مـا كتبـه الـدكتور طـه حـسين في كتابـه حـافظ وشـوقي وكـان فيـه شـديد التحامـل علـي شـوقي لـصلحة حـافظ ، خاصة أنه يـري أن كـلا مـن الـشاعرين تكلـم حـين سـكت الآخـر ، تكلـم حـافظ بلـسان الـشعب وعـبر عـن همومـه وأشـواقه ومطامحـه حـين كـان شـوقي حبـيس القـصر يـتغني بـالأمير ، وتكلـم شوقي ـبعد عودتـه مـن المنفيـ فأصبح شـاعر الـشعب ولـسان حـال النـاس ، بينمـا صـمت حـافظ إبـراهيم بعـد أن أصـبح سـجينا في وظيفتـه الحكوميـة بـدار الكتـب . ولم يكـن طـه حـسين معجبـا بمـا يقولـه شـوقي في المناسـبات الـسياسية والاجتماعيـة والمخترعـات الحديثـة ، ولا بكـثير ممـا كـان ينظمـه ، وكـان ـكما يقـول الباحـث الكـبير الـدكتور شـوقي ضـيف في كتابـه : شـوقي شـاعر العـصر الحديثـ يأخـذ عليـه وعلـي زميلـه حـافظ الكـسل في التثقـف والاكتفـاء بتناول الأشياء من قريب ، وإن كنت أري أن مجرد المقارنة بين الشاعرين ظالمة لشوقي .

ثـم هنـاك الحملـة الـضارية الـتي شـنها العقـاد علـي شـوقي في كتابـه الـديوان الـذي شـاركه المـازني في تأليفـه . فقـصائد شـوقي في رأيـه طبـل أجـوف ، بـل هـي عظـام نخـرة لا شـعر فيهـا ولا عاطفـة ، وإنمـا فيهـا التفكـك والإحالـة والولـوع بـالأعراض دون الجـواهر ، ومـا يمكـن أن يـسمي شـعوذة وأصـدافا مـن التـشبيه غـير لا معـة . ثـم يقـول العقـاد في معـرض نقـده لـشوقي وهـو يـشن عليـه حربـا شـعواء : اعلـم أيهـا الـشاعر العظـيم أن الـشاعر مـن يـشعر بجـوهر الأشـياء لا مـن يعـددها ويحـصي أشـكالها وألوانهـا ، وأن ليـست مزيـة الـشاعر أن يقـول لـك عن الشيء ما ذا يـشبه ، وإنمـا مزيتـه أن يقـول مـا هـو ويكـشف عـن لبابـه وصـلة الحيـاة بـه .

ثـم يقـول : وصـفوة القـول أن المحـك الـذي لا يخطـئ في نقـد الـشعر هـو إرجاعـه إلى مـصدره ، فـإن كـان لا يرجـع إلى مـصدر أعمـق مـن الحـواس فـذلك شـعر القـشور والطـلاء ، وإن كنـت تلمـح وراء الحـواس شـعورا حيـا تعـود إلى ه المحـسوسات كمـا تعـود الأغذيـة إلى الـدم ونفحـات الأزاهـــر إلى عنـــصر العطـــر فـــذلك شـــعر الطبـــع القـــوي والحقيقـــة الجوهريـــة . بـل إن الـدكتور محمـد حـسين هيكـل في المقدمـة الـتي كتبهـا للـشوقيات لا يفوتـه أن يـدلي بـدلوه وأن يـشير إلى أن قراءتـه لـشعر شـوقي تكـشف عـن رجلـين مخـتلفين جـد الاخـتلاف لا صـلة بـين أحـدهما والآخـر ، أحـدهما مـؤمن عـام ر الـنفس بالإيمـان مـسلم يقـدس أخـوة المـسلمين ، حكـيم يـري الحكمـة مـلاك الحيـاة وقوامهـا ، محـافظ في اللغـة يـري العربيـة تتـسع لكـل صـورة ولكـل معـني ولكـل فكـرة ولكـل خيـال ، والآخـر رجـل دنيـا يـري في المتـاع بالحيـاة ونعيمهـا خـير آمـال الحيـاة وغاياتهـا ، متـسامح تـسع نفـسه الإنـسانية وتـسع معهـا

الوجود كله ساخر من الناس وأمانيهم مجدد في اللغة لفظا ومعني . هكذا يدير الدكتور هيكل الفكرة الرئيسية في مقدمته حول هذه الازدواجية التي اكتشفها في شوقي !

أما الدكتور شوقي ضيف ، فينكر علي شوقي ذاتيته في شعره ، ويري أنه تنازل منذ حداثة شبابه ـراضيا مختارـ عن شخصيته وفرديته ، فعلق نفسه بالقصر وعاش لصاحبه ولم يعش لنفسه ، وتحول في أثناء ذلك يعيش لمجتمعه وكأنه يفر أو يتخلص من شخصيته . وإن كان يدافع عنه بعد ذلك دفاعا مجيدا حين يقول إن شوقي كان من الذكاء والنبوغ والعبقرية بحيث استطاع أن يوازن في فنه موازنة دقيقة بين التقاليد الموروثة في الصياغة والموسيقي وغيرها وما يراد للشعر العربي الحديث من تجديد ومسايرة للعصر والبيئة والظروف ، ومن هنا استمر يستولي علي المستهلكين لا في سوقنا الأدبية وحدها بل في جميع الأسواق العربية ! فماذا فعل الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد في تقديمه ودراسته لشعر شوقي في هذه الطبعة الجديدة من الشوقيات ؟

من الواضح أنه جعل همه الأساسي إنصاف وشوقي والرد علي كل ما وجه إلى ه من انتقادات سابقة . هذا الهم أو هذا الاهتمام جعله يسير في غبار من تناولوا شوقي من قبل بالدراسة والتحليل . ولذا كان المدخل التاريخي للسياسة والعصر والمجتمع هو الطاغي علي الدراسة ، وكان الحديث عن البيئة الأدبية والاجتماعية أكثر إفاضة وتدفقا من الحديث عن قصيدة شوقي وفنه الشعري ، وتمزق الحديث عن آثار شوقي الشعرية حين بدأ تناول الأغراض التقليدية في شعره: المدح والرثاء والغزل والوصف والحكمة والتاريخ والسياسة والاجتماع . واستغرق الحديث عن هذه الأغراض مساحة أكبر بكثيرمن تلك التي خصصت لمذهب شوقي الشعري وخصائصه الفنية . والدكتور علي عبد المنعم يكاد يتكئ في هذا الجانب من دراسته علي كتاب محمد الهادي الطرابلسي: خصائص الأسلوب في الشوقيات حين يقرر أن صور شوقي صور تستمد روحها من تجربة الشاعر وثقافته الواسعة لا من انفعالات فطرية وشطحات صوفية ، وهي مع ذلك تنبض بالعاطفة ، العاطفة المصقولة الناضجة ، وليست العاطفة البسيطة الساذجة ، هي صور مخبرة بما وراءها من حق وخير ، وهي في الوقت نفسه صور موحية بما وراءها من جمال .

لو نجت دراسة الدكتور علي عبد المنعم من الوقفة التقليدية أمام الأغراض الشعرية لشوقي ، لقدم لنا دراسة في العمق ، تتناول البنية الشعرية الداخلية بأكثر مما تتوقف عند العرض الخارجي للموضوع ، ولظفر نص شوقي بدراسة طولية تخترق الأغراض والموضوعات وتنحيها جانباـ لتفسح المجال أمام اكتشاف تجليات شوقي الشعرية وأسرار هذا البناء الباذخ الذي بهر معاصريه وأجبرهم علي مبايعته أميرا للشعراء ، ومازال قادرا علي اختراق الأزمنة والتأثير فينا إلى وم وغدا .

هل طفت متطلبات التحقيق والتبويب والضبط والتعليق علي متطلبات الدراسة والتحليل النقدي ؟ إن ما كتبه الدكتور علي عبد المنعم -فيما يقارب أربعين صفحة من هذا المجلد الضخم- قد غلب فيه طابع التقديم علي الدراسة . التقديم يهتم بالسرد والمعلومات والوقائع ، أما الدراسة فتعني بالنظر النقدي والتأويل والتحليل . ولكم وددت لونجا الباحث من غبار السابقين ، واختط طريقه المغايرة ، خاصة أن كثيرا مما سبقت كتابته عن شوقي يدخل في مجال تاريخ الأدب بأكثر مما يدخل في مجال الدراسة النقدية والرؤية التحليلية للنص الشعري . وتركز الاهتمام باستمرار علي شوقي شاعر الوطنية وشاعر الاجتماع وشاعر الأحداث الكبري وصوت العصر وكأنه مجرد جهاز إعلامي ضخم وليس شاعرا عبقريا يظل فنه الشعري -بالرغم من الكثير الذي كتب عنه- بحاجة إلى ضوء كاشف ووعي نقدي جديد . ومن شواهد هذا التأثر بالسابقين أن الباحث يقتبس العبارة التي اقتبسها من قبله الدكتور أحمد الحوفي عن العماد الأصفهاني مختتما بها تقديمه لديوان شوقي ، التي يقول فيها : إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده : لو غير هذا لكان أحسن . ولو زيد لكان يستحسن . ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل علي استيلاء النقص علي جملة البشر . ولن يعيب الدكتور علي أن يذكر أن هذه العبارة نقلها من مقدمة الدكتور الحوفي ، لكن يعيبه ألا يشير إلى ذلك وكأنه مكتشفها أو مما وقع عليه بحثه واطلاعه .

من أهم الإضافات التي تزدهي بها هذه الطبعة الجديدة من الشوقيات حرص محققها الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد علي ذكر البحر العروضي لكل قصيدة من القصائد . وتمنيت لو أنه خرج علينا -بعد هذا الاهتمام الكبير بالأوزان التي كتب فيها شوقي- بدراسة عن الموسيقي في شعر شوقي تتجاوز ما أشار إلى ه الطرابلسي -واستشهد به الباحث في مقدمته- من أن أكثر البحور حظا وتواترا عند شوقي هو بحر الكامل تاما ومجزوءا إذ قارب اتجاه الشاعر إلى ه نحو الثلث وكان أقلها حظا هو المقتضب ، الذي صيغت منه قصيدتان اثنتان فقط ، ولم يستعمل شوقي بحر المديد . . مثل هذه الدراسة العروضية الموسيقية كانت ستثري المقدمة ، وتضيف جديدا إلى تناول شعر شوقي وتربط بين نصوصه الشعرية والأوزان الموسيقية التي اختارها لا بداعه . وإن كانت إشاراته إلى البحور الشعرية لعدد من القصائد لم تسلم من الأخطاء . فقصيدة بعث جديد (صفحة٤٢٥) وزنها مستفعلن فاعلاتن ، وليس مفاعلين فاعلاتن ، وقصيدة شوقي في ديوان العاصي (صفحة٤٨٤) من بحر الكامل وليست من بحر الرجز وتفعيلتها : متفاعلن وليس مستفعلن ، ونشيد الكشافة (صفحة٩٥٩) من بحر المتدارك وليس من بحر الكامل وتفعيلته فعلن وليس متفاعلن ، وقصيدة ثغر البلاد (صفحة١٠٤٦) ليست من بحر البسيط وإنما هي من بحر السريع ، وقصيدة: نجد وأيامنا هازلة (صفحة١١٣٣

) من بحر المتقارب وليس من الهزج وتفاعيلها: فعولن فعولن مفعولن فعل ، وقصيدة أهلا بطيفك (صفحة٦٦٩) ليست من بحر الطويل ، وإنما هي من المتقارب فضلا عن أن بعض القصائد خلت من ذكر البحر العروضي كرثاء مصطفي كامل (صفحة٨٥٢) وهي من بحر الكامل ، وقصيدة الدكتور أحمد فؤاد (صفحة٨٤٩) وهي أيضا من الكامل ، وقصيدة عثمان باشا الغازي (صفحة٨٤٠) وهي من الخفيف ، وقصيدة ذكري كارنارفون (صفحة٧٢٥) وهي من الكامل . وأنتهز الفرصة لا سأل الدكتور علي عبد المنعم لماذا ذكرت قصيدة فؤاد الحمام مرتين الأولي مجتزأة (صفحة٦٧٦) والثانية كاملة وبعنوان انتهاء شهر الصيام (صفحة١٠٩٢ -١٠٩٣) ، كما أنبه إلى الأخطاء التي حدثت في قصيدة ردت الروح (صفحة٦٦٢) فقد جاء فيها:

يا نعيمي وعذابي في الهوي

بعذولي في الهوي ما أجملك

وصحة نهاية البيت: ما جمعك ، وإلا ما استقام المعني .

وجاء البيت الثاني علي هذه الصورة:

تبعا كانت ورقا في النوي

وقليل للهوي ما أتبعك

والشطر الأول -علي هذه الصورة- غير موزون ، ولس له معني .

والبيت الأخير في الصفحة نفسها:

نحن في الحميا والحيا

قد سقانيها الذي بي شعشعك

والشطر الأول أيضا غير موزون ولابد أن به تصحيفا أو خطأ في النقل .

وفي القصيدة نفسها هذا البيت:

لو تري استهلت أدمعي

لا رأت أمك يوما أدمعك

والشطر الأول غير موزون ، وربما كان صوابه: لو تري كيف استهلت أدمعي . فهل سقطت كيف من السياق ؟

لا أريد الاستطراد كثيرا في هذه الملاحظات العروضية والتصحيفية ، فهي لن تطمس بحال من الأحوال ضخامة الجهد الذي بذل في هذه الطبعة الجديدة من الشوقيات تحقيقا وتبويبا وضبطا ومراجعة ، حتي يتلقاها القارئ في هذه الصورة الجميلة القشيبة ، ويحس أنه امتلك شعر شوقي في مجلد واحد . وهو مغنم -لاشك- عظيم ، وإنجاز -للمحقق وللدار التي قامت علي النشر والإصدار- يستحق التحية والتقدير . يكفيهما معا فضل الالتفات إلى تراث شوقي والعمل علي تحقيقه وصيانته ، والحرص علي أن يكون إخراج

هـذا المجلـد في صـورة تليـق بمنزلـة هـذا الـشاعر الكـبير وتقـديم مـستوي لا ينبغـي التنـازل عنـه في إخـراج الـدواوين الـشعرية لكبـار الـشعراء المـصريين والعـرب . خاصـة أن لـدي الـدار مـشروعا عنوانـه الـشعر والـشعراء يتنـاول الـشعر العربـي تعريفـا بـشعرائه وتحقيقـا ونـشرا لدواوينـه ، ومناقـشة لقـضاياه ، انطلاقـا مـن أن الـشعر جـزء مـن الكيـان اللغـوي للأمـة ، والكيـان اللغـوي للأمـة هـو كيانهـا الفكـري وميراثهـا الجليـل . الهـدف البعيـد إذن هـو تـشكيل موسـوعة يجـد فيهـا القـارئ العـام مـن الثقافـة مـا يلـذه ويمتعـه ويجـد فيهـا المتخـصص العمـل المرجعـي الـذي ينشده .

شـكرا لكليهمـا ـالمحقق ودار النـشرـ أن أتاحـا لنـا فرصـة الحـديث عـن شـوقي ـشاعر القرن العـشرينـ وجـددا جـسور التواصـل بـين شـعره والـنشء الجديـد ، الـذي شـب ونمـا في ظـل نظـام تعليمـي لم يحببـه في لغتـه القوميـة ولا في إبـداعها الـشعري أو النثـري ، ولم يدلـه علـي تجلياتهـا الرائعـة وفي مقـدمتها شـعر شـوقي ، وفي ظـل ضوضـاء إعلاميـة تقـدم لجمـاهير القـراء والمـستمعين والمـشاهدين المـستويات الركيكـة والهابطـة مـن الـشعر علـي أنهـا إبـداعات شـعراء كبار !

فلتـشرق مـن جديـد شمـس شـوقي ، ففـي أشـعتها الكاشـفة مـا يـساعد علـي التمييـز بين الأصيل والزائف ، بين الجوهر والرغام !

عامية شوقي

بقلم : فاروق شوشة

حين قال أحمد شوقي أمير الشعراء كلمته المشهورة: لا أخاف علي الفصحي إلا من بيرم لا أظنه كان يقصد المعني الذي فهمه البعض وهو أن عام ية بيرم التونسي - في مقاماته وأزجاله وأغانيه - ستهدد اللغة العربية الفصحي وتقضي عليها وتصبح بديلا لها ، وإنما كلمة شوقي كانت تعني في جوهرها تقديرا لفن بيرم ، وشاعريته الفذة ، التي جعلت منه شاعرا كبيرا رائدا ، يناطح شعراء الفصحي ، ويتفوق عليهم . خوف شوقي إذن لم يكن علي الفصحي ولكن علي الشعراء الذين يكتبون بها ولم تتح لهم موهبة بيرم ، وقدراته الفنية ، وبلاغته العالية - في الإبداع بالعامية - ، فأصبحوا دونه منزلة وقدرا ، بالرغم من أنهم يكتبون بالفصحي ، التي أصبحت علي أقلامهم لغة منطفئة ، فاقدة للحياة والتوهج ، غير قادرة علي التأثير في الوجدان .

والطريف أن شوقي ، صاحب هذه المقولة الذائعة في الخوف من عام ية بيرم ، لم يتردد في الكتابة بالعامية ، حين أدرك أن المجال يناسبها ويلائمها أكثر من الفصحي . وأصبح التحدي الذي يواجهه شوقي وهو يبدع أغنياته لمحمد عبد الوهاب بالعامية ، هل سيحافظ شوقي علي قامته الشعرية السامقة ، التي حققها في إنجازه الشعري الفصيح ـــ عندما ينزل ساحة غير ساحته ، ويمتطي سرجا غير سرجه ؟ اثنتا عشرة مقطوعة ، ابدعها شوقي بالعامية ، وتغني بها محمد عبد الوهاب في مطلع حياته الفنية ، بين موال ومونولوج ودور وطقطوقة ، لا يملك المتأمل فيها الا ان يتوقف كثيرا امام قدرة شوقي الذي ولد بباب اسماعيل كما وصف هو نفسه ، وعاش في رحاب قصره وقصور ابنائه - علي القرب من نبض العامية المصرية في مفرداتها وتعابيرها وبلاغتها ، والإبداع بها وكأنه واحد من أبناء الشعب العاديين الذين يحتفظ وجدانهم بقاموس العامية ومعجمها والقدرة علي استنطاقها وتوليدها وتوظيفها التوظيف الأمثل . هذه القدرة علي تمثل البيئة الشعبية وتقمص نماذجها وشخصياتها ومستويات لغة التعبير فيها ، هي التي أسعفت شوقي في صياغة مسرحيته الشعريتين: الست هدي والبخيلة .

ففي المسرحيتين العصريتين الوحيدتين لشوقي بين مسرحياته الشعرية التاريخية واللتين تدور أحداثهما في عصر شوقي ، نجد تجليات بديعة لهذه القدرة الفذة علي النزول بلغة الحوار الشعري إلى مستوي الطبقة الاجتماعية التي تعبر عنها الشخصية ، كما يقول شوقي علي لسان الست هدي بطلة مسرحيته وهي تتحدث عن أحد أزواجها الطامعين في ثروتها ومصاغها وأبعديتها:

يرحمه الله وإن: لم أر لون فرشه
عشت اثنتين معه: لم أنتفع بقرشه
لو لم يمت لمت من: جنحته وفشه
كأنما تسربت: عمارة في كرشه
يدب كالحلوف في: خروجه من قشه
وما استرحت ليلة: من طحنه ودشه
ومن تلال جيره: ومن جبال دبشه

هنا يخترق شوقي المسافة المتوهمة بين العامية والفصحي ، ويلغي الحاجز بينهما ، ويقنعنا ـ اقناعا فنيا ـ انهما في مثل هذا المقام وجهان لبلاغة التعبير وملاءمة الحال .

لكن ابداع شوقي في العامية و بها يبلغ ذروته في مقطوعاته الغنائية التي من اشهرها ذيوعا وانتشارا: النيل نجاشي وبلبل حيران وفي الليل لما خلي هنا يفيد شوقي من عبقريته الشعرية في سكب ما ء الشاعرية علي لغته التعبيرية والتصويرية ، والارتفاع ببلاغة العامية في التعبير إلى الأفق الذي يوازي الفصحي ويتحداها . كما يكشف شوقي عن موسيقيته المقتدرة وحسه الإيقاعي الشديد الغني والتنوع ، الملائم لمقامات الغناء ومجالات التغير اللحني داخل المقطوعة المغناة . مما أتاح للموسيقار محمد عبد الوهاب فرصة التجديد اللحني والخروج علي المألوف والمتكرر ، خاصة عندما أبدع لحن أغنيته في الليل لما خلي وبدأ مرحلة مغايرة في تاريخ الأغنية تعتمد علي التصوير والتعبير بدلا من التطريب الذي ارتبط طويلا بالتحت الشرقي . هنا تصبح الكلمة الشاعرة ـ بالفصحي أو العامية ـ ملهمة للملحن وحافزة له علي اقتحام فضاء لحن وجو إيقاعي جديد وغير ما لوف . فالشرارة الأولي في اللحن تطلقها الكلمات ، ويفجرها زخم الفكرة والصورة والمعني ، وبقدر نجاح الملحن في استكناه الكلمات وسبر غورها البعيد وتقمص الحالة الشعورية والوجدانية للنص المؤلف ، يكون توفيقه وإبداعه في لحنه وايقاعاته خاصة اذا لم يكن قصده وهمه الأساسي الزخرفة والزركشة والإبهار الموسيقي دون اهتمام بالملاءمة بين النص المكتوب واللحن ، عندئذ يسبح اللحن والموسيقي في سياق لا علاقة له بمعطيات الكلام وما يستثيره من مشاعر وتأملات .

من روائع افتتاحيات شوقي في اغنية عن النيل تعبير: النيل نجاشي . وقد اعتاد جمهور المستمعين ـ جيلا بعد جيل ـ المفتونين بهذه الأغنية البديعة كلاما ولحنا وتصويرا ، النظر إلى هذا الاستهلال علي انه اشارة إلى منابع النيل ، وكيف انه يجيئنا من الحبشة ، التي يرمز إلى ها شوقي بالنجاشي ، اسم حاكمها كما عرفه المسلمون الأوائل . هذا النيل الحبشي المصدر واللون ، الملكي الموكب والخطي مثل النجاشي ، في

أبهته العظيمة ، وسمته المحوط بالمهابة والجلال ، هو معني هذا الاستهلال في بداية الأغنية ، لكن شوقي ـ فيما اري ـ لم يكن يريد مجرد هذا المعني السطحي وهذه الدلالة الخارجية للصورة الشعرية . إن النجاشي ـ ملك الحبشة ـ ليس مجرد ملك أو حاكم في الذاكرة العربية الإسلامية . إنه الحاكم المسيحي الذي أحسن استقبال اول هجرة اسلامية قام بها المسلمون إلى الحبشة قبل ان يؤمروا بالهجرة إلى المدينة المنورة ، هربا من عسف قريش وفتكها واضطهادها للمسلمين . وبهذا الموقف الكريم من النجاشي ـ المسيحي ـ ازاء اتباع ديانة سماوية جديدة هي الإسلام ، يؤمنون بالله الواحد المعبود ، الذي يؤمن به النجاشي نفسه ، اصبح النجاشي اول رمز للوحدة الوطنية ـ بالمعني الذي نستخدمه ويشيع بيننا إلى وم ـ وجاء النيل الذي يحمل خصائص النجاشي بيئة ولونا وعقيدة ، ليكون بدوره رمزا لهذه الوحدة الوطنية بين المسلمين والمسيحيين ، لا ن وادي النيل يضم شعوبا مسيحية وإسلامية ، يرويها جميعا دون تفرقة ، وتعيش علي خيره وعطائه بغض النظر عن الجنسية او اللون او الدين .
كل هذه المعاني والظلال والدلالات والإشارات التاريخية والدينية وفق شوقي إلى التعبير عنها في هذه الجملة الصغيرة المؤلفة من كلمتين: النيل نجاشي ، ونجحت هذه الجملة ـ في قبض حجمها الصغير ـ ان تفجر من الإيماءات والإيحاءات ما يعجز عنه كلام كثير طويل !

وتتابع الصورة الشعرية البديعة:

النيل نجاشي حليوة أسمر
عجب للونه دهب ومرمر
أرغوله في إيده يسبح لسيده
حياة بلادنا يارب زيده

تري ، هل كانت هذه الصورة الشعرية الجميلة أرغوله في إيده يسبح لسيده كامنة في وجدان الشاعر الكبير محمود حسن اسماعيل وهو يبدع رائعته النهر الخالد ويصور بدوره النيل في حركته المفعمة بالحياة والتجدد ويقول:

مسافر زاده الخيال
والسحر والعطر والظلال

وعندما تنطلق شاعريته المقتدرة في أفق مغاير وهو يقول:

آه علي سرك الرهيب
وموجك التائه الغريب
يانيل يا ساحر الغيوب !

إن شوقي ـ تربية القصور والنشأة الخديوية ـ يدهشنا وهو ينتقل إلى منطقة أخري في أغنية أكثر إيغالا في بلاغة العامية وحرارة نبضها المتوهج عندما يقول:

هيلا هوب هيلا صلح قلوعك ياريس
جت الفلوكة والملاح ونزلنا وركبنا
حمامة بيضة بفرد جناح تودينا وتجيبنا
هيلا هوب هيلا

ويلفتنا جمال الصورة الشعرية في ختام هذا المقطع ، وهو يري في الفلوكة المنطلقة علي النيل حمامة بيضاء فردت جناحها الواحد ـ الذي هو شراع الفلوكة ـ وطارت ، وليس هذا بالمستغرب علي شاعرية شوقي أو بيرم أو غيرهما من المبدعين العظام ، عندما يتكئون علي الموروث الشعري والثقافة العريضة التي يمثلها هذا الموروث ، وعندما تسعفهم خبراتهم في إبداع الشعر الفصيح بإبداعات رائعة في شعر العامية ، فقد كان بيرم التونسي شاعرا وكاتبا بالفصحي قبل أن يلتمع وجه العامية في إنجازه ، وكانت مقاماته وأزهرياته التي أبدعها في شبابه الفني مدخلا لروائعه القادمة في القصيدة العامية والأغنية العامية . وهي القصة نفسها التي سنطالعها بعد شوقي وبيرم في غنائيات أحمد رامي ومأمون الشناوي ومرسي جميل عزيز حين كان الخيط الفاصل بين الفصحي والعامية لا يكاد يبين ، وفي كتابات فؤاد حداد وصلاح جاهين و عبد الرحمن الأبنودي وسيد حجاب تلتمع دوما تلك الذري العالية من تجليات الفصحي علي مستوي الصورة والتركيبة والظلال والدلالة والإيقاع ، ويدرك المتلقي ـ قارئا أو مستمعا ـ ان ثقافتهم الحقيقية التي شكلت العقل والوجدان والذائقة الفنية هي ثقافة الفصحي ، وأنهم عندما أوغل كل منهم في فضاء شعر العامية ، وأبدع بطريقته ، لم يجاوزوا كثيرا أفق الشعر العربي ، ولا ديوان الشعر العربي المعاصر ، باعتبارهم أصواتا كبري ووجوها لا معة عبر صفحاته .
وعندما يقول عبد الرحمن الأبنودي في واحدة من غنائياته البديعة:

قاعد معاي
وبنقسم اللقمة ونضحك
وبنشرب شاي

فهو يصدر عن الخزان الشعوري والشعري نفسه الذي متح منه محمود درويش عندما قال في إحدي رباعياته:

أجمل الأشياء أن نشرب شايا في الخريف
وعن الأطفال نحكي
وإذا جعنا تقاسمنا الرغيف

لكن شوقي العظيم يظل رائد هذا التأسيس لعلاقة وثقي بين الفصحي والعامية ، تدعونا إلى اعادة النظر في هذه العامية التي كثيرا ما يدفعنا الإسراف في تبجيل الفصحي والحرص عليها إلى نفي العامية وكأنها داء الجرب الذي نحذره ونتحاشاه . متناسين دور الشاعر الأندلسي الرائد ابن قزمان اول من صاغ قصائده وأزجاله في مزيج من الفصحي وعامية أهل الأندلس التي كانت تسمي الرومانسية - وهي اللهجة المتطورة عن اللاتينية التي ستصبح الإسبانية فيما بعد - وترك لنا ديوانا بديعا نشره مؤخرا المجلس الأعلي للثقافة ، ثم الأدوار الرائدة لا بن عروس وبيرم في تأصيل الإبداع بالعامية ، خاصة في فن الزجل ، ثم الإنجاز الكبير في شعر العامية للأعلام الذين سبقت الإشارة إلى هم . هذه الأدوار والحلقات المتصلة تتطلب الدراسة وتستدعي النظر والتأمل ، والتحليل البارع ، الكاشف عن بلاغة العامية وتجلياتها ، وعصريتها ، ومغامراتها ، وتطورها السريع وحيويتها الفائقة ، لقد آن الأوان لا نهاء هذه الخصومة المفتعلة بين الفصحي والعامية ، والنظر إلى هما باعتبارهما وجهين لا بداع أمة ، وثقافة وجدان ، وحركة تاريخ . وإذا كنا ننظر إلى الفصحي باعتبارها لغة شريفة ، فمن العيب ان ندين العامية ونحتقرها ، وهي المستوي اللغوي الذي نتعامل به ونعبر عن كل احتياجاتنا المادية والروحية والعاطفية أربعا وعشرين ساعة كل يوم ، وكأننا حين ندينها أو نحتقرها ندين أنفسنا نحـــن !

نعم ، يظل شوقي العظيم - أمير شعراء الفصحي - رائدا لهذا التأسيس وتوثيق العروة بين الفصحي والعامية عندما يقول في أغنيته في الليل لما خلي:

الفجر شأشأ وفاض علي سواد الخميلة
لح كلمح البياض من العيون الكحيلة
والليل سرح في الرياض أدهم بغرة جميلة
هنا نواح ع الغصون وهناك بكا في المضاجع
ليه تشتهي النوم عيون وعيون سوالي هواجع
وروح غرق في الشجون وروح ما شافش المواجع

الكلام كله يخلو من لفظة سوقية أو عام ية مبتذلة أو تعبير خارج - كالذي يصدمنا في أغاني هذه الأيام ، والخيال الشعري في أعلي درجاته قدرة علي التصوير والتحليق ولنتأمل صورة هذا الليل السارح في الرياض وكأنه الأدهم أو الحصان الأسود بغرته البيضاء - أي بالشعر الأبيض الذي في مقدمة رأسه ، ويلتقي السواد بالبياض في رسم صورة الأدهم كما يلتقيان في رسم صورة الليل والرياض ، ويختلط نواح الطير علي الغصون ببكاء الساهرين من العشاق في المضاجع ، أي اتساع وجداني رهيب ينتظم حركة

الكون بكل ما فيه من كائنات: الليل والناس والرياض والغصون والطير والنواح والأنين في مشهد شعري جليل حافل بالحركة والشجن والمشاركة ؟

في رائعة شوقي بلبل حيران يقدم صورة للوردة التي خلق ظلها من الخفة ، والتي كسيت طبقات ملفوفة من الأوراق تشبه القبل التي ولفت - ولنتأمل كلمة ولفت - شفة علي أخري ، عندما يقول:

تبارك اللي خلق ضلك من الخفة
واللي كساك الورق ولفه دي اللفة
زي القبل ولفت شفة علي شفة

هنا يرتفع شوقي مرة أخري بتعبيره المصوغ في قالب العامة إلى القمة ، وكأنه يتحدي أرباب الكتابة بالعامية والمبدعين الكبار بها ، ويضع أمامهم نموذجا صعبا غير قابل للمحاكاة أو التقليد . كما أنه يتجاوز المألوف في الصور الشعرية الفصيحة التي حاولت الاقتراب من الوردة تشبيها وتمثيلا ، فكان أقصي جهد شعراء الفصحي أن يقولوا كما قالت جارية الرشيد:

كأنه فم محبوب يقبله
فم المحب ، وقد أبدي به خجلا
أو كما قال شاعر قديم:
عشية حياني بورد ، كأنه
خدود أضيفت بعضهن إلى بعض
وثمة شاعر آخر يقول:
سبقت إلى ك من الحدائق وردة
واتتك قبل أوانها تطفيلا
طمعت بلثمك إذ رأتك ، فجمعت
فمها إلى ك كطالب تقبيلا

وشتان بين ما قاله شعراء الفصحي ، وما أبدعت شاعرية شوقي بالعامية الجميلة العامية الفصيحة ! .

جوزيف حرب وديوانه الممنوع

بقلم: فاروق شوشة

قبل افتتاح معرض القاهرة الدولي للكتاب ، في دورته الأخيرة ، تناقلت الأنباء خبر مصادرة أحدث دواوين الشاعر اللبناني الكبير جوزيف حرب :السيدة البيضاء في شهوتها الكحلية ومنعه من العرض للجمهور الباحث عن الجديد في ميدان الشعر ، خاصة إذا كان هذا الجديد يتضمن إضافة جوهرية لا بداع شاعر متميز ، له صوته وعالمه ومفرداته ، ومغامرته الشعرية المتوهجة بقدرته علي رسم كون حافل بالصور ، نابض بنزعته المتطهرة ، ذات العمق الصوفي ، الضاربة الجذور في فيض نقاء يجسده فضاء الأديرة والأيقونات والمريمات ، متلبسا أقنعة مقامات تبدأ بمقام المحاة ، فمقام الدمع فمقام الذكريات وصولا إلى مقام السيدة البيضاء التي جعل منها عنوان ديوانه .

لم تقل لنا الأنباء ، التي طيرتها الوكالات والإذاعات والفضائيات عن الجمهور ، ولم يشأ صاحب الديوان نفسه أن يتكلم . وكان بوسعه ، كما يفعل كثيرون غيره ، أن يتاجر بقضية المصادرة ، وأن يتجاوب مع الأصوات العاوية هنا وهناك التي تجد فرصتها في مثل هذه المواقف التي تواجه حرية المبدع والإبداع ، والتي ظلت تطارده وتستفزه ، علها تظفر منه بتصريح غاضب ، أو تعليق ، تستغله بطريقتها ، في تشويه سمعة المعرض والمسئولين عنه في إطار الدعوة الفاشلة من البعض لمقاطعته وعدم المشاركة في نشاطاته . لكن جوزيف حرب كان من الوعي ، بحيث لم يستجب لا غواء الإعلام المسنون الأنياب ، صحافة وإذاعة وفضائيات ، ولم يسقط في الشرك الذي نصب له ، وآثر ألا يتكلم علي الإطلاق .

ليس هذا فقط ، فقد استجاب للدعوة التي وجهت إلى ه للمجيء إلى القاهرة ، والمشاركة في الأمسيات الشعرية للمعرض ، وكانت أمسيته ، التي احتشد لها جمهور كبير ، وحضرها الشاعر الكبير محمود درويش مستمعا لقصيدة جوزيف حرب الملحمية عن أمل دنقل ، شاعر الإرادة العربية وتجسيد معاني المقاومة والتشبث بالأرض والعرض والتاريخ ، أمسية متوهجة بفنه الشعري العالي ، وألقائه الشامخ الصافي النبرة والتواصل . جاء وشارك ولم يكلم أحدا في أمر ديوانه .

وتنتهي سريعا أيام المعرض وأمسياته ، ويعود جوزيف حرب إلى لبنان ، تاركا بين أيدي عدد من أصدقائه مولوده الشعري الجديد السيدة البيضاء في شهوتها الكحلية الذي يقع القاريء المتعجل ، العابر النظرة والتصفح لصفحاته الأولي في خطأ الاعتقاد بأنها سطور من الأدب المكشوف ، تضم شعرا عاريا ، يردد بعض مفردات الجنس

وصوره الشعرية ، ولابد أن هذه القراءة المتعجلة العابرة كانت سببا في اتخاذ موقف المصادرة ، والتسرع بمنع الكتاب من دخول المعرض ووصوله إلى الناس . والديوان في حقيقته شيء آخر .

يقول جوزيف حرب :

وكان لنا موعد في المساء
جميل كقامتها في الضباب
سريع كنوم ، رقيق كماء
ومن شغفي باللقاء ،
رأيت الدقيقة عام ا
ورحت أشيخ ،
إلي أن غدوت عجوزا
عصاتي عكاز ريح
وجسمي غمام شتاء
وجاءت ، فما عرفتني
استراحت
قليلا ،
وراحت

بمثل هذه اللغة المقطرة الصافية ، الشديدة التركيز ، المكتنزة بالدلالة ، يتجاوز جوزيف حرب ـــ الشاعر الصناع المقتدر ـــ ذراه الشعرية السابقة ، التي حققها في دواوينـــــه :

شجرة الأكاسيا (١٩٨٦) ومملكة الخبز والورد (١٩٩١) والخصر والمزمار (١٩٩٤) ومقص الحبر (شعر بالمحكية اللبنانية (١٩٩٥) ، يتجاوز هذا كله ، وإن كان لا يفلت من نسيجه ، ولا يفصم عري انتسابه إلى ه ، فحقيقته الشعرية الممتدة ودالة عليه في كل ما يكتبه شعرا بالفصحي ، وشعرا بالعامية اللبنانية ، وأغنيات لفيروز ، ودراما تليفزيونية مستقيمة بروح الشعر والمسافة بين النص القديم والنص الجديد هي نفسها المسافة بين انبلاج الصباح من بين خيوط حمرة الشفق ، ووداع النهار الغارق في بحيرة الغسق ، والتفاتة الشاعر الذائب في الطبيعة والكون والخليقة .

يطل من أعلي ، وحين يستشعر برودة القمة ، يحن إلى دفء السفوح وترابيتها التي لم ينطفيء فيها ندي الابتهال ، ولا تعكر صفاء الماء والدعوات ، ولا نقاء الثلج الذي يذكر دائما بمرارة الوحدة والتوحد ، والاحتياج إلى مدفأة:

بدأ الشتاء
الصيف محمول
علي أكتاف حور راقص
والأرض قد دخلت
عباءات البكاء
فلبست جلد غزالة
وحملت عكازي ، وسرت
فمن رآني ، قال:
هذا موجة في الريح
أو جرس يحرك حبله
نساك صفصاف بصومعة المساء
أشعلت عيدان الصنوبر
لا لا دفأ
بل لا مسح قامتي برمادها
لا زاد أحمله ،
ولا بيت التفت إلى ه
تكفيني الحجارة حين أنعس
والجذور الخضر حول موائد الوديان
حين أجوع
أجمل ما بوجهي عمقه لما أصلي
ربما لم يبق من ما ضي في
سوي حنيني للغناء
فإذا عزفت
غدت ثقوب الناي أعشاشا
يطير اللحن منها قبرات
في الهواء !

تري ، من هي السيدة البيضاء التي ينبض بها ولها شعر جوزيف حرب في ديوانه الجديد ؟ الشعر الحقيقي لا يبوح . والعشاق الحقيقيون لا يبوحون وإلا استوجبوا القتل كما قال عنهم شهاب الدين عمر السهر وردي في حائيته البديعة:

بالسر إن باحوا تباح دماؤهم
وكذا دماء البائحين تباح

علينـا إذن أن نقـرأ شـعر الـديوان مـرة ومـرة . لعـل قبـسا منـه يـضيء . لعـل لمعـة شهاب بارق تـشير وتـدل . أو لعـل قطـرات مـن كيميـاء هـذا الـشعر المركـز تنحـل وتـسيل كاشـفة عن حقيقة المجاز ولغة الإفضاء . هل هي مريم المريمات ؟

هـل هـي رايـة الأشـجار ، والنبـع ؟ هـل هـي الأرض ؟ أرض لبنـان المكـسوة بالنقاء والطهـر ثلجـا وأنهـارا وريحـا وخريـرا ؟ هـل هـي المـرأة الحلـم ؟ امـرأة مـا قبـل الوجـود ومابعد الوجود ، هل هـي نحـن ؟ حقيقتنـا لنكـون نحـن ؟ فـإذا كنـا البحـر فهـي العمـق والملـح والـشاسع الممتـد فينـا ؟ علينـا ألا نتوقـع إجابـة شـافية علـي مـا يفجـره بـرق الـشعر مـن تـساؤلات ، حـتي لـو أحلنـا – كمـا يفعـل دارسـو النـصوص ـــ علـي نـصوصه الـسابقة . كـل واحـد منهـا خـيط تم ، انقطـع بينمـا هـو متـصل واكتمـل بينمـا هـو متكـيء علـي غـيره . غابـة مـن الأشـجار والقـصائد ، سـكنتها ومـضات روح تتـشوف إلى رجـاء المغفـرة ، وتتقـصف بـين عيـدانها أوراق أوراد صـوفية ، كأنهـا بعـض مواقـف النفـري ومخاطباتـه ، لكنـه نفـري مـن طـراز جديـد ، دمـه بـين الـسيف والـوردة ، وحكمتـه متوجـة بالـذهب ، وعـشاقه يفكـرون بالناصري وابن الملوح وغاندي ، ويزهدون في زمرد فرعون وذهب السامري وفيروز كسري:

لما سجدت لكي أصلي
إن تململ في روح الماء سلت
وإن علا شجر بأطرافي وقفت
وبت أشعر أنني أطفو علي موج الهواء
إذا تغلغل بي يمام
كل هذا الكون في
لأنني ما ض إلى ك
فإن مشيت مشي
وإن أنا صليت صلي
وارتدي جلد الغزال
وبالرماد المر موه غض قامته
إذا أصبحت ناسكك المنقي
كالكلام معلما ، ومفرغا
إلا من المعني الذي هو أنت
مع أبعادك اللا منتهي التأويل فيها

. . . .

ما أحقر الأجساد
لم تنقل حبيبا مرة لحبيبه

إلا تقاسمت الحبيب كأنها لص معه
لو كنت بحارا وجسم أشرعهة
لتركتها عند الخليج
وزرت بيتك
ليس لي جسد ،
فأجمل ما بمحبوب له جسد ،
إذا ما ودعه
ومضي إلى ك ، وحين عاد
إليه بعدك
ضيعه !

لاتفارق الموسيقي شعر جوزيف حرب ولا تجافيه . هي فيه ومعه نبض ملازم . الموسيقي بكل معانيها التي عرفها القدماء ودعا إلى ها المروجون للحداثة . موسيقي الوزن الشعري ، وموسيقي الاتساق بين المفردات والتراكيب والأصوات والتجليات الروحية والنفسية . الخاطرة تتلبس الموسيقي لحظة انبثاقها وارتطامها بالورق . والسطر الشعري غارق فيما قبله وفيما بعده ، كالبحر ليست له بداية ولانهاية . واللغة كون جميل رائق ، ممتلىء بالألوان والظلال ، الألوان التي نعرفها والتي لم نكن نعرفها فاكتشفنا في رسوم الشاعر أنها — هي الأخري — بلا نهاية . من اللون الواحد تفيض بمناقيد الألوان . ومن الصورة الواحدة تنبثق عشرات الصور . ومن المفردة الواحدة — أحيانا يولد جرم شعري ، وكون حافل بالرؤي ، والأصوات الهاتفة :

لف الضباب الأرض
ناداني الحجر
العشب ضيعني ، وإني خائف
خذني معك
هتف الشجر
رجع الاحبة غير أن أحبتي
لم يرجعوا
خذني معك
الكل ناداني بلهفة خاتم
في العرس
نادي إصبعك
خذني معك

خذني معك
فيكيت من حزني علي الأشياء
كيف تعيش وهي وحيدة
وسمعت صوتك هاتفا
لاتبك فالاشياء فيك
وإنها إن أنت عدت إلى
فهي إلى الذي انتظرته
عائدة معك !

يفيد جوزيف حرب كثيرا في كل شعره ، من موهبته الدرامية وهو المبدع للعديد من المسلسلات التليفزيونية والحواريات الغنائية فيسكب في شعره أولا جدل الروح ودراما الموسيقي وحوار الكائنات ويسكب في شعره ثانيا دراما الصيغ الشعرية المتجاورة والتآزرة: عرام البنية الكلاسيكية وتوتر الشعر التفعيلي ووثبات الافق الشعري المفتوح ، في نسق يتشكل من خلاله إهاب شعري له سمته وروائحه ومذاقه ، وتفرده بلغة تراوح بين طبقات الاداء وكأنها مراوحة المغني بين القرار والجواب ، بين الخفيف والثقيل ، بين الشجي والمؤاسي:

فتحت أيامها الاوراق كي أقرأها
أحزنني ما جاء فيها
كلما أوغلت في النص اعتراني الرعب
أضحي جسدي أكثر عكازا ودمعا
هذه الأوراق كأن قصتي فيها
وزادت رغبتي في أن يطول النص
لاخبا به ،
بل رغبة في رفع صوتي
عن بقاياي ، قليلا

هل مثل هذا الشعر الجميل يصادره رقيب تعجل القراءة ! أخشي أن يكون قد توقف عند بعض الرسوم التي زينت بها بعض القصائد ، كما حدث من قبل لكتاب النبي لجبران خليل جبران الذي تدفقت طبعاته عبر عقود متطاولة من القرن العشرين ما لئة مكتبات العالم العربي وبيوت الادباء والمثقفين وإذا به يصادرفي مصر منذ عام ين - بسبب ما يتضمنه الكتاب من رسوم ، قيمتها الكبري أنها بريشة جبران الرسام والشاعر ، إضافة حية لقصائده !

القـصائد في ديـوان جوزيـف حـرب لوحـات ، واللوحـات في ديوانـه قـصائد فـأين إذن تكمـن العلـة الـتي أودت بالـديوان ، والـداء الـذي تـسبب في المنـع والمـصادرة فكانت النتيجة حرمان جمهور الشعر من ديوان جديد بديع ، لشاعر عربي كبير !

جوزيف حرب : شاعرية لبنانية مغايرة !

بقلم : فاروق شوشة

مرة واحدة فقط هي التي أطل فيها وجه جوزيف حرب وصوته علي جمهور معرض القاهرة الدولي للكتاب ، في إحدي أمسيات العام الماضي ، من خلال قصيدة واحدة ، ذات طابع ملحمي ، استغرقت قرابة نصف ساعة ، كانت المرة الواحدة كافية ليدرك سامعوه ومشاهدوه أنهم أمام شاعرية لبنانية مغايرة ، ليست بالقطع هي شاعرية الجنوب اللبناني التي تعرفوا عليها عدة مرات من قبل ، من خلال الشاعرين محمد علي شمس الدين وشوقي بزيع ، وليست هي شاعرية الرحبانية التي توهجت بها أغنيات فيروز ودواوين منصور رحباني ، ولا الشاعرية المخملية الناعمة للأخطل الصغير بشارة الخوري وأمين نخلة ، ولا الشاعرية الاعترافية الواخزة التي جسدها إلى اس أبو شبكة وبرع في تلوينها سعيد عقل ومريدوه من شعراء لبنان المعاصرين .

من قاع بئر عميقة يأتينا صوت جوزيف حرب ، حزينا ، نازفا ، غاضبا ، متسائلا ، ممتلئا بحنان لا حدود له ومحبة لا ضفاف لها . ومن قرارة أيام سحيقة تجتاحنا أنغامه النارية ، الحانية ، مفعمة بتراتيل وتسابيح ، انهمار مطر وانسكاب دمع ، صلوات وصبوات ، جلوات كاشفة واختناقات قاتمة ، عالم من التماثيل والأيقونات والأكاليل والفراشات والنجوم ، هذه البئر العميقة دير شهد طفولة الشاعر وتمتماته ودروسه الأولي ، فعرف المعرفة علي مذبح القداسة ، ونهل الكلمات مغموسة في دم المناولة وبوح الاعتراف . ولسوف يكبر جوزيف ويجتاز مدارج الصبا ويعيش زهو الشباب واكتمال قوس العمر ، لكن الدير لن يفارقه : صورا وظلالا وترانيم واطيافا ، لغة وحسا جارفا ودقات أجراس ، وثيابا سوداء وبيضاء ، وجدارا يرتفع لينفتح علي الأفق يفضي لسماء أروع ما فيها وهج ثريات وعناقيد . يكبر جوزيف ، وقد عمدته مسيحيته ، وصهرته أحزان القلب وانكسارات الوطن ، بعد أن حفر بكل شفافيته في العمق ، فاكتشف الخط الابيض المشترك ، الذي يلتقي عليه الانقياد المتطهرون من أبناء كل الديانات ، والخيط الذي ضفرته الحكمة والوعي والاستنارة ، يشده إلى نظرائه من الحالمين بتغيير العالم ، الموقنين بقدرتهم علي إحداث هذا التغيير ، لا نهم بدأوا بأنفسهم ، ثم اعتصموا بتجرد الرهبان وثورية الثوار :

لادور للشعراء إلا أنهم
قد أشعلوا الفانوس
كي يخرجوا الكلمات

نحو شموسها

من عتمة القاموس !

أسهل الأشياء أن ينسب شعر جوزيف حرب إلى شجرة الشعر اللبنانية ، فاذا ما أردنا فضاء شعريا أوسع قلنا شجرة الشعر في لبنان والشام وانطلاقا من هذه السهولة ، تستدعي الذاكرة علي الفور أبرز ملامح هذه الشجرة الباسقة في حديقة الشعر العربي الحديث: الأناقة المترفة ، الصور الشعرية المرسومة بمهارة واقتدار ، اللغة الحية الطازجة ، المتوهجة بعراقة النفس الشعري وجموحه وانطلاقه . الحرص علي الايقاع الموسيقي المكافيء للايقاع النفسي كالقوس المتوترة حال انطلاقها وتسديد سهامها الابداعية ، الزخم الفوار بافضاءات النفس الانسانية وبوحها المتدفق وجسارتها المستعصية . لكن هذا كله ، لن يفضي بنا إلى خصوصية قصيدة جوزيف حرب ، لا في حال تكثيفها وشدة تركيزها وانضغاط عناصرها الأساسية إلى لون وحركة وايقاع ، ولا في حال اندياحها الكاسح- كما في نموذجها الذي أدهش به جمهوره في أمسية معرض القاهرة الدولي للكتاب- وهو يبحر في وجدانه من ضفة إلى أخري ، ومن أفق إلى أفق ، ومن احتمال إلى احتمال ، ومن نكأة جرح إلى سخرية مقام ، ومن أرض عربية إلى أخري ، في أداء غامر ، يتراوح بين قرار الهمس وجواب الجهر . العازف- في كامل عدته ومهارته- يعرف كيف يوقع علي أوتاره درجات حضوره الشعري ، وهو يتصاعد طبقة بعد طبقة ، حتي لتدركنا الخشية علي الأوتار أن تتقطع ، والقلق علي المنشد أن يضيع صوته ويتبدد . ولكن هيهات ! كيف نشفق عليه ، وهو الذي يشفق علينا ، فلا يجبهنا بأكثر مما أشار ولوح ، دون أن يقول ويصرح ، شعره فينا ونحن فيه ، والأرض العربية حبلي بما تختزنه من مواليد وكنوز ، والفتيان المناضلون ، يحملون قتلاهم ويواصلون ، والعدو علي مرمي حجر !

لم يكن ضروريا أن يكون جوزيف حرب لبنانيا جنوبيا حتي يتوهج شعره بالمعني والدلالة والحضور القومي الساطع ، ولا أن يفارق فضاء ديره ومسيحيته ، لنلتمسه بين مقاتلي أمل أو حماس ، ولا أن يكون غير ما هو كائن بالفعل ، حتي نسلكه في عداد شعراء المقاومة والتصدي ، أو شعراء القيامة المجلجلة ، إنه الفردي الجمعي ، الذاتي القومي ، الوجودي التقدمي في آن:

رسموا حدودا

علقوا الاسلاك الشائكة عليها ،

ثم قالوا:

ها هنا وطنك !

هذي قراك

وتلك عاصمة البلاد
وما تراه يزين الساحات
ليس سوي تماثيل الذين
تحدرت أيامك الخفاقة الرايات
منهم . .
هذه أعيادك الرسمية الأقواس
هذا شعبك المحفور في حجر الشموس
وذاك جيشك حارس الوطن العظيم
وتلك أروقة القضاة الجالسين
الي كتاب الشرائع
يفصلون الليل فيه عن النهار
كنسوة بعد الحصاد جلسن
في بيت ينقين الحبوب
فقم إلى الوطن الجميل
وزد إلى تيجانه تاجا
وخل الأفق أوسع
والظلام أقل
واهتف باسمه حتي يفيق الصبح
واملأ بابه ذهبا
وإن لم يكف أرضك أنها
أخذت جبينك
أو سنينك
أو فمك
قدم دمك !
وصعدت في الوطن الجميل ، وكان ممتلئا سنابل
قلت : فلأقطف لهذا الليل سنبلة
علي جسدي . .
فسرت إلى البيوت لعلني أختار
بيتا كي أنام علي وسادته
فباعد بين جفني القضاة
بحارسي سهر
فلاحت لي دواة أو كتاب

قلت: فلأقرأ لا رفع للقضاة
رسالة في حق كفي بالطحين
وحق وجهتي أن ينام
فطاردوا عيني كي لا تقرأ
وأصابعي كي لا أعلمها الكتابة
فالتقيت بحائكي الأثواب
فاختارت يدي ثوبا لا ستر فيه
هذا العري
فامتشق القضاة سجونهم
فهتفت:
لست أريد شيئا لا منازل
أو طحينا ، أو محابر أو ثيابا
كل ما احتاجه بيت علي مقدار نومي
حنطة أكفي بها جوعي
دواة كي أري أني قريب من كنوز الشمس
ثوب يتقي عريي به مطر الجبال
أريدكم مثلي لتصبح كل روح
ريشة بجناح هذي الأرض
لست أريد أن أعطي يدي
إن جعت أوسع من فمي
أو إن تملك مقلتي الندم
أكثر من فراش دافيء
ما من يد حملت زيادة وسعها
إلا وزاد الذئب في فمها
وقل الشاعر المتد أبيض
في يمامتها . .

تري ، هل يصلح هذا المقطع المنتزع انتزاعا قسريا من إحدي لوحات جوزيف حرب في ديوانه الجميل الجليل مملكة الخبز والورد وهو الديوان الذي يهديه إلى فيروز ، هبة الله للأذن العربية والوجدان العربي في زماننا ، والتي حمل صوتها الأنقي عديدا من قصائده إلى آفاق لا متناهية من العذوبة والصدق والجمال . ولا بد أن المشترك بين جوزيف حرب وفيروز والرحبانية قد فجر فيه ما اختزنه البحر والجبل من حوار حميم

وجـدل متـأنق ، ولابـد أن هـذا الحـضور الفـيروزي في شـعره قـد انـسكب تراتيـل مريميـة ، ومـشكاة صـوفية ، وأفراحـا ومـسرات نورانيـة ، وشـجوا وهتافـا لبنانيـا عربيـا ، يـصل مـا انقطع بين الأرض والسماء ، ويصعد في معارج الحلم القومي إلى طبقات التوحد والحلول:

اخبروني أن طفلا ولد الآن
وسيفا صارعكازا لشيخ
وغريبا عاد
حتي يصبح الموت خفيفا
إنني أحمل أحزاني إلى قبري معي
يكفي بيوت الأرض ما تحمل
من أحزان غيري
وزعوا ما كان لي من هذه الشمس
عليكم
وادفنوا ليلي معي
إن كان لا بد من الموت أخيرا
فليمت ما كان فينا من ظلام
معنا ولنترك الشمس التي فينا
لمن يأتون
إن الشمس إن صارت كثيرا
صار ما تحمل عند الموت للقبر
قليلا . .

لابـد أن الـبعض سـيحاول أن يلـتمس وجوهـا للمـشابهة بـين هـذه الكلمـات وكلمـات الـسيد المـسيح ، وكأنهـا بلغتهـا وروحهـا وايقاعاتهـا بـشارات جديـدة وألـواح عـصرية . ولعـل غير هذا الـبعض يقنـع بمـشابه قريبـة– مـن حيـث التوجـه والـشكل الخـارجي العـابر– بـين هـذه الكلمـات وكلمـات جـبران ، وقـد يـري فيهـا آخـرون خروجـا عـن المـألوف مـن قـصيدة الـشعر الحـر– أو قـصيدة التفعيلـة– ومحاولـة جـادة وناجحـة للخـلاص مـن أدنـي شـبهة للرتابـة أو تكـرار الـسائد والمـألوف . نحـن هنـا أمـام شـاعرية مغـايرة ، وفـضاء غـير مكتـشف ، ولغـة لم تمنحنـا أسـرار بلاغتهـا وتوهجـا بـالرغم مـن ملامـستنا لهـا ، وصـدر يتـسع للكـون وللوجـود بمثـل مـا يتـسع حامـل الرسـالة ، الـذي لا توقفـه المـرارة عـن البـشاشة ، ولا تحـول لحظـات إلى أس العابربينـه وبـين الايمـان العميـق بالغـد ، وهـو في دواوينـه الـتي عرفتهـا لـه: مملكـة الخبـز والـورد ، والخـصر والمزمـار ، ومقـص الجلـد– وهـو ديـوان بالعاميـة اللبنانيـة– يلمـس بكلماتـه الأشـياء فتـورق وتترعـرع وتخـضوضل بالخـضرة والحيـاة ، ويجمـع بـين مفـردات الغـيم

والنجوم والسنونو والماء والورد والشمعدان والمزهرية فينبجس الشعر ، وتتفتح أوراق القصيدة وترتوي

عيدانها بذوب القلب ومكاشفات العاشق ومكابداته :

ولما ودعته بكت كناي أو بنفسجة
وقال وهي تغمره :
سيبقي الباب مفتوحا لترجع
آه كم جلست أمام الباب وانتظرته
كم ظننت بأن الريح ليلا
صوتها من بعد ما قد صار مبحوحا
وكم ظننت شتاء الفجر في أيلول
دقات :
وغصن الحور بعد غروب شمس الصيف
تلويحا
وكم سنة طوت سنة ولم يرجع
وقد ما تت
وظل الباب مفتوحا !

هذا شاعر كبير- علي مستوي لبنان والعالم العربي- ما أجدر القاريء بأن يعرفه حق المعرفة ، وأن يقدره حق قدره ، شاعرية مغايرة ، وأفقا تتوهج نجوم قصائدة بالإيناس والمحبة .

جوزيف حرب والمحبرة

بقلم:فاروق شوشة

لا أعـرف ديوانـا لـشاعر عربـي معاصـر بهـذا الحجـم أو بهـذه الـضخامة (١٧٢٥ صفحة مـن القطع الكـبير) تتطلب قراءتـه أولا ، وتأملـه ثانيـا ، واسترجاع كـثير ممـا يـثيره ويبعثـه في الـروح والعقـل ثالثـا ، وقتـا طـويلا وعميقـا في آن ، ذلـك هـو ديـوان المحـبرة للـشاعر اللبنـاني الكـبير جوزيـف حـرب الـذي أصـبح يتـصدر الـساحة الـشعرية اللبنانيـة بفـضل تميـز إبداعـه المتلاحـق بالفـصحي وبالمحكيـة ، منـذ صـدر ديوانـه الأول شـجرة الأكاسـيا عـام ١٩٨٦ ، والثـاني: مملكـة الخبـز والـورد عـام ١٩٩١ ، والثالـث: الخبـز والمزمـار عـام ١٩٩٤ ، والرابـع: الـسيدة البيـضاء في شـهوتها الكحليـة عـام ٢٠٠٠ ، والخـامس: شـيخ الغـيم وعكـازة الــــــــــريح عــــــــــام ٢٠٠٢ ، وتخللـت هـذه المـسيرة أشـعاره بالمحكيـة اللبنانيـة في ديـوانين همـا: مقـص الحـبر عـام ١٩٩٥ ، وسنونو تحت شمسية بنفسج عام ٢٠٠٤ .

الـديوان الجديـد المحـبرة الـصادر في ينـاير الماضـي ، هـو في جـوهره ولغتـه وصـوره وفكره وتساؤلاته قفزة نوعية هائلة في خط الشاعرية المتصاعد باقتدار لجوزيف حرب .

الكـون فيـه نـص ، يتـوهج بتجليـات مبدعـه ، وبمـا تقـود إلى ه هـذه التجليـات مـن روعـة الـشهود حينـا ، ومواقـف المـساءلة والغـضب والتمـرد حينـا آخـر ، الكـون ـ في نقائـه وصـفائه وعفويتـه وبـساطته وشموخـه ، نـص حافـل ، يتـدفق مـداد سـطوره مـن محـبرة الأزل ـ في مواجهـة الإنـسان العـاتي المـدمر ، المـشوه لكـل جمـال وجـلال ، في حميـا هـذه الجدليـة الكونيـة الـشعرية ، يمـارس جوزيـف حـرب فتنتـه بكـل عناصـر الحلـول الكـوني في الطبيعـة اللبنانية ، كـل ورقـة في شـجرة لهـا معنـي ، وكـل لـمسة ريـح تفـصح عـن لغـة ، وكـل سـحبة ريـشة في طـائر تـصنع بهـاء مـشهد ، وإذا بكـلام الكـون ، ولغـة الوجـود يمـلآن فـضاء الـنص ، يحـاولات محاكاتـه أول الأمـر ، ثـم يحاورانـه ويـساجلانه ، ثـم يخـشعان لعظمـة المـداد وجلال المحبرة في نهاية المطاف .

يهـدي جوزيـف حـرب ديوانـه الـضخم الفخـم إلى المـوت ، وهـو إهـداء يتـضمن اعترافـا وتحـديا في آن ، لا يـزال المـوت هـو المتمـرد الوحيـد علـي مـداد المحـبرة ، متجلبـا باسـتغلاق سـره وفجـاءة أوانـه ، لكنـه بـالرغم مـن هـذا المرقـي البعيـد لا يـنجح في إيقـاف حركة الحياة ، ووأد روعة الوجود ، أو تشويه جلال الكون .

والمحـبرة نفـسها دليـل علـي مواجهتـه وتحديـه ، الـشعر الجميـل وحـده يعلـن عـن هذه القدرة الفائقة علي المواجهة وعلي التحدي .

يقـول جوزيـف حـرب في مفتـتح ديوانـه: يـدي ريـح ، وطـاولتي سـواد الليـل ، والأوراق غـيم عـن يمـيني ، قربهـا أقـلام صـندلة ، ومحـبرة تقطـر حبرهـا الكحلـي مـن مـا ء البنفـسج ، عـن يـساري شمعـة مـن فـضة ، يـدعونها قمـرا ، ولـي كرسـي أيلـول ، خفيـف الحور ، أجلس فيه مستندا إلى قزحي سحابة ، وظهر عريشة ، عند الكتابة .

تقـدم مـرة مـني الـسنونو خـادمي قـال: المـلاك . فقلـت: فليـدخل . فأقبـل لا بـسا فـوف الـصباح ، أخـف مـن نـوم الخزامـي ، غامـضا كالزرقـة المـلأي مـساء ، حـاملا مخطوطـة مــن ســت غيمــات ، ومكتوبــا بمنــديل ، وقــال: الكــون حملنيهمــا ســرا إلى ك ، وخــف نحوي طافرا بهما .

حملتهمـا علـي قـوس إلى ديـن ، فهـف نحـو البـاب وهـو مفتـوح آسا وغـارا ، ولـوح للسنونو بالجناحين اللذين مري بياضهما وطارا .

هـذا شـعر يكتبـه صـاحبه برفـة رمـش عـين اللغـة لا بحروفهـا المألوفـة ، ويـصنع منـه تماثيلـه وأيقوناتـه ولوحاتـه الـشعرية في دقـة مثـال قـادر ومـصور بـارع ، ويستحـضر في لحظـة الوجـد الـشعري حـشودا مـن عناصـر الطبيعـة والكـون ، تـزحم مـا بـين الأرض والـسماء ، وتمتـد بحجـم فـضاءات لا نهايـة لهـا ، والألـوان يمتـزج فيهـا الأخـضر والكحلـي والأبـيض ، صـانعة سـبيكة هـذا الفـيض الـشعري المنهمـر ، في رهافتـه وانـسيابه ، وهـديره واحتـشاده ، هـذا نـسيج شـعري ، لم تعرفـه إبـداعات ميـشال طـراد في محكيتـه الـتي فـتن بهـا حـتي شـعراء الفـصحي ، ولا منمنمـات سـعيد عقـل شـيخ صـيادي المفـردة النزقـة والـصورة الـشاردة ، في فـصحاه وفي محكيتـه ، ولا لوحـات الرحبانيـة الـتي عـشقتها الملايـين محمولـة علـي فيثـارة سماويـة أثيريـة مـن صـوت فـيروز: الـنص ـ الـذي عكـف عليـه جوزيـف حـرب سـنوات طويلـة حتي يخـرج لنـا في كـل هـذا البهـاء والجـلال ـ هـو نـص كـوني في معنـاه ورسـالته ، لكنـه نـص لبنـاني في أدواتـه ومفرداتـه وشميمـه وألوانـه . هـذا شـاعر يعـرف مـا يقـول ، وكيـف يقـول: لا الظـل ، لا النـور ، ولا المـسافة . ولا هـو الـشكل الـذي تـراه عينـاك ، ولا الحـذف أو الإضــافة ، لريــشة الفنــان إن صــور ، أن يبقــي اللــون مــن المنظــر ، مــا يأخــذ العــين إلى الجوهر .

وأخـيرا ، وعلـي ظهـر غـلاف ديوانـه المحـبرة يلخـص جوزيـف حـرب في كليمـات قليلـة قـصة الأرض ، قـصة الحيـاة والوجـود ، قـصة الإنـسان والخليقـة ، عنـدما يقـول: غزالــة زي الأرض ، طــار فوقهــا غرابهــا ، جريحــة ، أمامهــا صــيادها ، عــن جانبيهــا فخها ، وتحتها ضريحها ، وخلفها ذئابها .

" جوزيف حرب " ورخام الماء

بقلم : فاروق شوشة

ذروة جديدة من ذري الإبداع الشعري ، يرقاها الشاعر اللبناني الكبير جوزيف حرب ، في احدث دواوينه رخام الماء الصادر منذ اسابيع قليلة عن دار رياض الريس (بيروت - لندن) وفضاء شعري جديد يقتحمه هذا الشاعر الذي لا يكاد ينفض ريشته المصورة من مداد محبره حتي يسرع إلى سواها ، متجاوزا كل ما سبق إبداعه ونشره وهو كثير منذ بدأت دواوينه بالفصحي وبالمحكية (أي اللهجة) اللبنانية . في البداية كانت هناك شجرة الاكاسيا عام ١٩٨٦ ثم مملكة الخبز والورد عام ١٩٩١ ، ثم الخصر والمزمار عام ١٩٩٤ ، ثم مقص الحبر بالمحكية اللبنانية عام ١٩٩٥ ثم السيدة البيضاء في شهوتها الكحلية عام ٢٠٠٠ ، ثم شيح الغيم وعكازه الريح في مجلدين عام ٢٠٠٢ ، ثم سنونو تحت شمسية بنفسج بالمحكية اللبنانية عام ٢٠٠٤ ، ثم ديوانه الضخم المحبرة عام ٢٠٠٦ ، واخيرا طالع لي فل بالمحكية عام ٢ . ٠٠٧

هرم من الابداعات المتلاحقة ، تساوق حركة العمر واهتزازات الوجدان وتمعن في اصطياد الألوان والظلال والعطور ، الجبال والعصافير وغابات الشيح والبحر والحمام واوراق اشجار البراري والنهار والليل . والفصول المتعاقبة ، والمطر والشمس . كلها مفردات هذه اللغة الشعرية المغايرة ومعجمها المتوضئ بالضوء والنغم ، السابح في الايقاع ، ويحار قارئ شعره هل هو مصور ام موسيقي ام عراف تهمي نبواءته وخيوط حكمته ، ويفصح عن علاقته الحميمة بالارض الأم ، وبالجبال الشم الممسكة بالروح وبالغيمة الراكضة والمسافرة بين خلجة نفس واخري وارتعاشة حلم وانتماء جناحيه لا لريح واحدة ولكن لكل الرياح: ككل يوم آخر النهار / آتي إلى عينيك يا سيدتي أقدم اعتذاري / كما تقدم اعتذارها معصم العروس فضة السوار / لم اغمض العينين ، غيابك / نظرت للأشياء ، من بلورة الشمس إلى البحار / لكم هي الاشياء أبهي في مدي عينيك يا سيدتي ، لم انتظر لكي تري الاشياء عيني بهما يا ليتني لم اخف انتظاري .

هذا النفس الشعري يشعل في فضاء الشعر اللبناني المكتوب بالفصحي وبالمحكية نارا جديدة مقدسة ، هي نار إبداع يتجاوز السائد والمألوف ، بل ويتجاوز صاحب ذاته ، ويدفع به إلى مقدمة الشعراء الذين يعيشون حياة شعرية حقيقية ، ليست مصطنعة او مزيفة ، وليس فيها العيش علي فتات المناسبات لا يقاظ مشاعر محبطة وآهات مكتومة واستدرار دموع وقتية ، وكأنها تعيش علي جثة هذا الوطن واحزانه التي لا نهاية لها ، لتكتب شعرها البائس العابر: جسدي نص شجر ان هبت الريح تكلم / وهو بحر موجه بعنان بحر يتنفس / وهو حر ومقدس .

هـذه الابجرامـات الـشعرية الـشديدة التركيـز والتكثيـف والـصدمة الـشعرية والوجوديـة هـي جـوهر هـذا الـديوان الـذي تتوقـف قـصائده امـام البحـر ، النحـات الـذي يبـدع منحوتاتـه مـن سـروة إلى نبـوع حـتي نخلـة الـصحراء . يكـشف عـن تجليـات النحـت في هـذي التماثيـل التي أسكنها رخام الماء . إن البحر ـ عنده ـ نحات عجيب النقش لا متناهي المعني .

منـذ اسـابيع قليلـة ، كـان جوزيـف حـرب بيننـا في شـعر مـدعوا للمـشاركة في الاحتفاليـة العربيـة والدوليـة للجنـة الـشعر بـالمجلس الأعلـي للثقافـة بـشوقي وحـافظ ، ولايـزال جمهـور الاحتفاليـة يـردد مقـاطع مـن قـصيدة جوزيـف العموديـة ، الـتي كانـت بحـق درة المهرجـان عـن الخالـدين: شـوقي وحـافظ ، تطـوف بهـم صـورها الجديـدة البديعـة ، وعالمهـا المترامـي المـدي ، وفكرهـا العميـق المحلـق ، وكـان مجيئهـا في قالـب القـصيدة العموديـة هـو التحـدي الحقيقـي ، لكـل مـن يتلعثمـون ولا تـسعفهم أدواتهـم وهـم يحـاولون أن يـردوا ينـابيع الـشعر فـتلفظهم ، وتـأبي ان تنيلـهم ولـو بعـض القطـرات ، والعمـود الـشعري فـضاح ، كمـا يقـول دائمـا صـديقنا الـشاعر الـسوري علـي عبـد الكـريم ، إذا ارتقـي فيـه الـذي لا يعلمـه ، هـوت بـه إلى الحـضيض قدمـه وبـين زفـرة المهرجـان العموديـة ، وديـوان رخـام المـاء المتـوهج بالحداثـة الـشعرية ، تتكـشف ابعـاد شـاعرية جوزيـف حـرب القـادرة والمتجـاوزة دائمـا والمدهشة في كل نص ولوحة وكتاب .

ملك تبدأ خطوتها

بقلم: فاروق شوشة

أما ملك التي أتحدث عنها فهي حفيدتي الثانية بعد أختها حبيبة . وأما مناسبة هذا الحديث - الذي قد يبدو لا ول وهلة شخصيا مع أنه ليس شخصيا علي الإطلاق كما سيتضح من سياق المقال - فهي قرب صدور مجموعتي الثانية من شعر الأطفال للنشر بعنوان: ملك تبدأ خطوتها بعد صدور المجموعة الأولي حبيبة والقمر منذ ثلاث سنوات والذي يدهشني الآن كل الدهشة ، وأحاول تفسيره لنفسي بأسباب عديدة - تبدو في ظاهرها مقنعة - فهو اقترابي من الكتابة لشعر الأطفال بعد رحلة طويلة مع الشعر تزيد علي الأربعين عام ا ، لم أفكر خلالها في هذا اللون من الإبداع الشعري وأنا أمارس حياة الأبوة لا بنتين - كبرتا وتزوجتا - وأصبحت أولاهما أما مرتين ، ولم تفجر صحبتي لهما أو صحبتهما لي علي مدار عمريهما ما فجره وجود الحفيدة الأولي في حياتي ثم إطلالة الحفيدة الثانية .

وعندما كنت أحاول تعليل ذلك ، أو الإجابة علي الأسئلة التقليدية - في مثل هذه المناسبة - وأهمها: لماذا تكتب الآن هذا الشعر ! ولماذا لم تكتبه من قبل ؟ ويصبح هذان السؤالان أكثر عمقا ونفاذا ، بل حادين مدببين حين تسألني ابنتاي: ولماذا لم تكتب لنا كما كتبت للحفيدتين ؟ وهل تحب حفيدتيك أكثر من أمهما: ابنتك ؟

هل أستعين بالمقولة الشعبية الشائعة علي ألسنة الناس في مثل هذا الموقف وهم يقولون بكل البساطة والحكمة والصدق: أعز من الولد ولد الولد لطالما سمعتها تتردد علي شفاة كثير من الناس ، من مستويات حضارية وثقافية مختلفة ، وكنت أكتفي بهز رأسي مندهشا ، غير مقتنع ، وأنا أردد بيني وبين نفسي: ما هذا الكلام ؟ كيف يكون الحفيد أو الحفيدة أغلي وأعز من أمه أو أبيه بالنسبة للجد أو الجدة ؟ وما الذي يسوغ هذا الكلام الذي يبدو غير منطقي وغير مقنع ؟ !

حتي اصبحت جدا . وبدأ وعيي بخطر تسلل الحفيدة الأولي إلى دمي وشراييني ، ثم تأكد الخطر حين أصبحت لا أصبر علي عدم رؤيتها أو مناغاتها أو متابعتها في مدارجها الأولي خطوة بخطوة - ولما أحسست أن العلاقة بيني وبينها متبادلة - أو هكذا أقنعت نفسي - أصبح هذا الشعور الذي يشدني إلى ها ويضعني في مواجهتها أكبر من طاقتي وتحملي ، وحين بدأت تلثغ بالحروف الأولي من الكلمات ، وأصبحت قادرة علي النطق بمفردات القاموس الأساسي المحدود الذي تتصدره كلمتان هما: ما ما وبابا مضيفة إلى هما كلمة جدو كانت هذه مكافأتي الأولي منها علي فرط اهتمامي وتعلقي بها

أحسست أن الدنيا لا تسعني من الفرح ، وأن ما تدخله حبيبة علي حياتنا - أقصد أسرتي أمها وأبيها - من بهجة وسعادة هو عزاؤنا الوحيد في حياة لا تخلو من الأحزان والمنغصات ، بهجة تغسلنا من الداخل ، فتجعلنا أصفي وأنقي وأشف ، وأكثر حبا للحياة التي ملأتها حبيبة بحضورها الطفولي الجميل .

فجأة ، وعلي غير انتظار أو توقع ، وجدت يدي تمسك بالقلم ، ووميض برق الشعر يتلاحق في رأسي إن لم أسرع إلى التقاطه وتسجيله علي الورق خبا وانطفأ ولن يعود:

كان القمر
يمد من شباكها يدا
ويحمل السلام
وهي تشير نحوه
في دهشة ، وفي اهتمام
تؤد لو أن ذراعيها الصغيرتين
طوقتا شعاعه
لو أنها تعلقت بثوبه الفضي
ثم طارت نحوه
كأنها عصفورة
أو طائر إلى ما م
فعانقته
قبل أن تنام !

ماهذا الذي يجري به القلم ؟ وما التأثير الذي تمارسه هذه الصغيرة التي لم تجاوز - شهورها الستة الأولي في ذلك الوقت - علي جدها ، حتي يهتز وجدانه بكلمات يتصور أنها ستصبح في مستوي إدراكها حين تبدأ رحلتها مع الحرف في مقبل الأيام ؟ هل هو العمر الذي يوغل بنا ونصبح معه مثل الشجرة أو النخلة المعمرة يطول بها الأمد فتصبح أكثر قدرة علي الانحناء ؟ وهاأنذا أنحني حنانا - حتي الذوبان - علي هذه الصغيرة التي لا تدرك تأثيرها فينا ؟ أم هو وهم الامتداد في الزمان يجعلنا - دون وعي - أكثر حفاوة بالأحفاد عن الأبناء ، لا ن الأحفاد يحققون لنا بوجودهم وهم امتداد العمر واختراق الزمن القادم ؟ أم لا ننا لا نراهم الآن إلا في أحسن حالاتهم - بينما يحمل آباؤهم وأمهاتهم - عبء اللحظات القاسية في تربيتهم ورعايتهم ، ونفوز نحن - الأجداد - بلحظات الصفو والصحو والعافية ؟ أم لا ننا الآن نحلم بعودة إلى الطفولة نخلع من خلالها وقار الشيب وحكمة السنين لنعيش طفولتنا الجديدة - البديلة عن طفولة قديمة مثخنة بالجراح والآلام - مع الأحفاد الصغار ، وكأننا حين نشاطرهم لحظات اللعب و المرح والانطلاق ، نسرق من

رصـيد طفـولتهم الجميـل قطـرات تجـدد خلايـا الـشيخوخة وتزكـي في عروقنـا تـوهج الفـرح بالحياة ، وبراءة الانتماء إلى عالم لا أحقاد فيه ولا ضغائن ولا أقنعة !

كـل هـذه التـساؤلات ـ وغيرهـا ـ شـاغلتني ولم تـزل تـشغلني وعنـدما أشـرقت ملـك في مـدار الأسـرة ، وبـدأ الـنجم الجديـد يعلـن عـن تألقـه الفـاتن ، ومغناطيـسيته الجاذبـة ، ومزاحمته للنجم الـذي يكـبره بأربعـة أعـوام . وكنـت أظـن ـ وهـو ظـن سـاذج كمـا أثبتـت الأيـام ــ أن قلـبي لـن يتـسع لحفيـد آخـر أو حفيـدة أخـري بعـد أن امـتلأ بحبيبـة وفـاض ، لكـنني سـرعان مـا اكتـشفت معجـزة القلـب الإنـساني وقرتـه الخارقـة علـي الاتـساع لعدييـد إلى نـابيع والجـداول والأنهـار الـتي تـصب فيـه وهـو لا يمتلـيء ، فمـساحة الحـب فيـه بـلا نهايـة ، لا يـستوعبها حفيـد واحـد أو حفيـدة واحـدة وإنمـا يظـل دومـا يـستقبل ويحنـو ويعطـي ويحتـوي ، وهكـذا وجـدت ملـك مكانهـا إلى جـوار أختهـا حبيبـة ، عميقـا في سـويداء القلـب ، دون مزاحمـة أو صـراع بالمنـآب ، فالمكـان وثـير ، والمـشاعر حـارة ودافئـة ، وحلمنـا الطفـولي ـ الـذي سـنظل نطـارده كالـسراب البعيـد – يـستغرقنا حينـا ، ويـسكرنا حينـا آخـر ، ويتـيح لنـا أن نـــــــــستعيده ونـــــــــسترجعه حـــــــــــتي الثمالـــــــــــة .
وكمـا وجـد ديـوان حبيبـة والقمـر فرصـته المهيـأة للنـشر ـ في صـورة فنيـة تحـسده عليهـا سـائر الـدواوين ـ بفـضل حمـاس المثقـف الكـبير الـدكتور سمـير سـرحان وجـدت قـصائد الـديوان الجديـد فرصـتها حـين أتـيح لا حـداها الانطـلاق في مناسـبة افتتـاح معـرض كتـب الأطفـال في مـستهل هـذا الـشهر ، تحـت رعايـة الـسيدة سـوزان مبـارك وبعـدها كـان الـتفكير في إصـدار المجموعـة الجديـدة ، مـشاركة ثانيـة في ديـوان شـعر الأطفـال ، الـذي بـدأ بقـصائد شـوقي البديعـة الـتي حفظناهـا ونحـن في مقتبـل العمـر ، منـشورة في كتـب المطالعـة ـ والنـصوص بالمدرسـة ، ووضـع شـوقي ـ في شعره للأطفـال ـ نموذجـا لا يـزال يتحـدي الـسائرين علـي دربـه حـتي إلى وم ، وإلـي جـوار شـوقي كـان هنـاك شـعر الهـراوي وشـاعر الـبراري . وصـولا إلى مبـدعي زماننـا الـذين يواصـلون في إصـرار ودأب مواصـلة هـذه الرسـالة الأدبيـة النبيلـة ، الـتي لا تـدر عائـدا مـن أي نـوع – فـلا تـزال كتـب الأطفـال في بلادنـا تعامـل باعتبارهـا كتبـا مـن الدرجـة الثانيـة أو الثالثـة ، ويعامـل مؤلفوهـا طبقـا لهـذا التقيـيم باعتبـارهم أقـل في القـدر والقيمـة ممـن يكتبـون ويؤلفـون للكبـار ، ولـيس أدل علـي هـذا مـن موقـف الحركـة النقديـة ـ في مـصر والعـالم العربـي ـ مـن أدب الطفـل: شـعرا ونثـرا . نـستطيع أن نتلفـت حوالينـا فـن جـد عـشرات النقـاد الـذين يتـابعون الانتـاج الـشعري ويكتبـون عنـه بـدرجات متفاوتـة مـن التوفيـق والنجـاح ، لكننـا لـن نجـد واحـدا يعكـف علـي متابعـة مـا يكتـب مـن شـعر الأطفـال ، بالدراسة والتحليل والتقييم .

ولهـذا يحـس كتـاب الطفـل بـأنهم يمـضون في طريـق والحركـة النقديـة في طريـق آخـر . لا صـوت يـواكبهم بالتـصحيح أو المـؤازرة ، ولا دراسـة تحـاول أن توضـح الـشروط والـضوابط

والمعايير الفنية الصحيحة ، وعلي كاتب الطفل في هذه الحالة أن يغامر بنفسه ولنفسه ، خاصة إذا كانت المغامرة مع الشعر ، لا نه سيحتكم في ختام الأمر إلى الأطفال أنفسهم - جمهوره المستهدف - إقبالا أو إعراضا ، إعجابا أو انصرافا ، وعلي الجانب الآخر ، فان لديه الحرية الكاملة في أن يجرب ويصوغ لنفسه ما يشاء من القواعد والتقاليد ، مستهديا بمن سبقوه ، ومضيفا إلى ما أنجزوه ، ومحاولا أن يسكب ما ء العصر وكيمياءه في كتابات تحمل نبضا جديدا وروحا جديدة ومعجما لغويا يغاير معجم شوقي والهراوي وشاعر البراري . وبمناسبة المعجم فان واضعي المعاجم ومصنفيها . . علماء اللغة وأساتذة البحث اللغوي لم يعنوا حتي الآن بما يسمي المعجم الأساسي للطفل ، الذي يضم الآلاف الأولي من الكلمات التي تشكل حياة الطفل اللغوية ومجال نشاطه وأفق تعبيره ، والتي علي ضوئها يمكن تأليف كتاب الطفل في شتي فروع المعرفة التي يتلقاها في المدرسة ، وأيضا في شتي ألوان الإبداع الأدبي شعرا ونثرا .

هذا المعجم يمثل ضرورة واحتياجا أساسيا لكل من يكتبون للطفل ، ومرجعا لا غني عنه لواضعي المناهج ومصنفي المواد الدراسية والنصوص الملائمة للقراءة أو للحفظ . لا بد في هذا المجال من تحية الشعراء الذين خاضوا تجربة الكتابة للطفل وحظيت كتاباتهم بتقديرالدولة - من خلال جوائزها التشجيعية وتقدير الحياة الأدبية ، وفي مقدمتهم أحمد سويلم وأحمد زرزور ونشأت المصري وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم الآن . أعود إلى الصغيرة ملك ، التي تبدأ خطوتها الأولي في رحلة العمر ، والتي تنبض قلوبنا - نحن المحيطين بها والمتابعين لها - هاتفة مرددة:

تخطري
تخطري
علي بساط أخضر
مثل شعاع باسم
في أفق منور
ووردة ندية
في روضها المعطر
ورشفة مسكرة
من رشفات الكوثر
ونغمة ايقاعها
مثل رنين المزهر
ولوحة بديعة
قد زينت بالعنبر

ونسمة وديعة
بهية التبختر
تنهل في وجوهنا
بسحرها العذب الثري
تخطري ، تخطري
مثل ربيع أخضر
وكرة من ذهب
علي بساط مرمر

* * *

مدت يدا ، لعلها
توازن الخطو ،
حذار أن تقع
وانطلقت ملوحة
وخلفها قلوبنا
تحوطها عيوننا
توشك أن تضمها
وفي صدورنا
مأوي لها ومتسع
وفي عقولنا
شعاعها الوليد عندما سطع
لكنها في سعيها
وخطوها الذي اندفع
ليس تبالي خوفنا
ورعبنا الذي اندلع
ماذا لو انها مشت
وقلدت من حولها
وأسرعت مثل الكبار
تود لو تكتشف الدنيا
وتلمس الوجود
وتدرك المخبأ البعيد
إذا تحركت . . صاحوا بها :
قفي . . قفي

أو أمسكت . . صاحوا بها :
لاتتلفي . . لا تتلفي
أو وقفت . . صاحوا بها :
لا تقفي . . لا تقفي
أو غمضمت . . صاحوا بها :
لم تعرفي . . لم تعرفي
أو يئست من فعلهم
انطلقت . . بلا توقف . . !

* * *

وقد انطلقت ملك ولم يعد يوقفها أحد ، لا نها الطفلة الثانية التي تتعلم من أختها الأولي ، ثم تجاوزها ، وتنطلق إلى المزيد .

من شعر هذا الزمان

١ـ اللوحة الغائبة:

بقلم : فاروق شوشة

نستطيع – إذا غابت الأرض –
أن نتخيل خارطة ،
وحدودا ،
ونملأ هذي الحدود نقاطا
لتصبح هذي النقاط دوائر
يطلع من بينها وطن
ووجوه يعششن فيها الغياب
سنسكن ملء ملامحها
نتنقل عبر تضاريسها
ونحاول أن نستعيد الذي ما يزال بعيدا
وننظر للأفق المستحيل
هنالك لا صوت تنطقه الخارطة
وهنالك . . .
لا لون يقفز بين دوائرها
خضرة ،
ورمالا
وماء .
هنالك . .
لا لون غير الدماء
وغير السراب المراوغ
ها نحن نمتلك الحلم
نحلم أن هنا الدار والباب والمتكأ
وهنا ،
زعتر الغور
والكرم
والرائحة . .
وزيتونة لم تزل وحدها صابرة

في انتظار الخريف الحزين
ولذع الشتاء
وأقبية النار والمذبحة !
ثم ،
شيئا فشيئا
تغيب الظلال
وتطوي المسافة
هذي أصابعنا
لم تزل تمسك اللوحة الغائبة
وتخط خطوطا
لخارطة في الغمام
وتندي بدمع من القلب يصعد
نبحث بين النقاط
وبين الدوائر
بين الخطوط
وبين المعابر
فنجهش حين يخيم فينا السكوت
ولكننا . .
أبدا . .
لا نموت !
٢ ـ الجبل :
قلت :
أستأنس الآن هذا الجبل !
ثم أبني من الصخر بيتي
ـ وغيري يشيد منه البروج
يدشن فيها مواليده
ويتابع دورة أفلاكه
غانما
فاتكا
ويلفلف أحلامه في الشفوف
سوانا . .
ـ من الهمل العابرين . .

يلاحق ما منه في الكهوف !
الجبال تدور مع الوقت ،
تسطع في وقدة الشمس
فارعة ،
تستفز الصعود إلى ها
وتغري بقمتها المشتهاه
ولكنها تتحدي الوصول
وتلتف هاجعة في الفضاء
وتنشد ملحمة للظلام
تتوج سيرتها بالحتوف
الجبال ،
الجبال الرواسي
فضاءات حلم
شغوف ،
كهوف ،
حتوف ،
وأسطورة حملتها الرياح
ودارت بها
ــ وهي معولة ــ
تستحث الخطي
وتشق الصفوف !

* * * * *

صاغرا
عدت من رحلتي
كاسفا ، أتساند
ظلي يلاحقني
ــ من أمامي وخلفي ــ
وأوشك أعثر
مصطدما بانهمار الظلال
ومشتبكا بانعقاد الطيوف
ما الذي قد حملت !
ذؤابة ليل تسرب مني

ــ وكان يزين لي صحبة ــ
وبقايا وطان
ــ أحاول تمييزه دون جدوي ــ
وأخدود حزن بقلبي
ــ دفنت به ثلة من رفاق ــ
وثلج بنفسي ،
رضيت به ،
واطمأنت سمائي
فأمطر يأسا ، وهما مقيما
وشكا
رجعت إلى حائط ، لم أجده
ومتكأ كان بعض ملاذي
ولكنه ما يزال . . الجبل
شاخصا ،
فارعا في الفضاء المخيف
ومقتحما للسماء
يخايل
هل أستجير بحرمة هذا الجدار
وأسبخ في جلوات الكشوف !
المدائن مثل سحاب
وترحل في الغيم
لا تستقر
مدن كالخيال المراوغ
تدنو ، وتنأي
وتفلت مثل السراب المخادع
هل نحن فيها ؟
وهل سكنتنا
وهل شبهت للعيون
أم اخترعتها غواياتنا
وانطفأنا بها !
مدن هشة
تتطاير مثل الغبار

تغوص وتهرب في الذاكرة
مدن للهروب
فمن يسعف الآن للحظة الحاضرة ؟
آه . . كيف نصدقها
وهي تقتاتنا
ثم تقذفنا
لمحال خبئ وراء محال !
مدن نشتهي
لوتكون يبابا
وأنا جبال !
٣ ــ رؤيا :
رأيت الذي لا يراه سواي
فقلت لنفسي :
لو أني نطقت بما أسعدتني به الحال
ما صدق الناس
وارتاب أكثرهم في يقيني وظني
وقالوا : له الله
يهذي بما ليس يدري
ويبصر ما لا يري
ويضل ضلالا بعيدا
له الله !
فعلا لي الله
ــ قد لا يكون الذي حرت فيه جديدا ــ
وماذا أرجي من الغافلين
وهم في عمايتهم بين بين
فآنا يرون ،
وآونة لا يرون !
وماذا أريد من العصبة الفاتكية
وقد أمسكوا برقاب العباد
ولكنهم في ختام المطاف
حثالة هذا البشر !
وماذا إذا بحت بالسر ؟

هل يقتلوني ؟
منذ قديم يباح دم العاشقين
ـ إذا نطقوا أو أشاروا ـ
وهل يطلقون لساني قسرا
فلا أتوقف ؟
حتي يروا قاع نفسي
ومكنون ذاكرتي
ونفائس مقتنياتي
وغيبي وصحوي
وحتي أري عاريا
قد خرجت كما قد ولدت
بلا شملة أو دثار
ـ لماذا يريدوننا هكذا دائما
أن نكون عراة ؟ ـ
وساعتها يطمئنون لي
ثم يفسح شيخهمو لي مكانا
لعلي أجالسهم وأقول الذي لم أقله
ـ الذي لا يراه سواي ـ
فأحكم إغلاق نافذتي
ـ حين أطرق في داخلي ـ
ثم أبكي !

* * * * *

رأيت يدا من بعيد تمد
فأدركت أن النهاية حانت
وأني أشدإلي موقف الهول
فارتعت ،
يا للغرابة !
كيف تضعضعت حين أتي ذكر هذا الذي
ليس منه مفر !
وكيف تداخلت ملتمسا بعض نفسي
وبعض اعتدادي وزهوي بأمسي
نسيت ، فأنكرت !

حين تذكرت . . أيقنت . .
ماعاد متسع للخيال
ولا أفق في البعيد يهل
ولا وجه أيقونة
في حميا صلاتي يطل
ورؤياك ـ ياشيخنا ـ باطلة
تظل مهومة في الفضاء العريض
محلقة بين بين
فلا هي هابطة للعباد
ولا هي صاعدة للسماء
هي البرزخ القانص العابرين
ليوقعهم في جحيم السؤال !
فأين الخلاص ،
وكيف النجاة ؟
رأيت .
فلملمت نفسي ،
وسرت !

أصوات شعرية مقتحمة ١ ـ جميل عبد الرحمن

بقلم: فاروق شوشة

أتيح لي ، علي امتداد أربعين عام ا ، أن أتابع مرحلة الإبداع الشعرية ـمنذ بداياتها ــ لعدد من شعرائنا الذين أصبحوا بالدأب والمثابرة والإخلاص للشعر ، أصواتا حقيقية متميزة في الخارطة الشعرية المصرية ، وحصل كثير منهم علي جوائز الدولة في الشعر مما يؤكد المكانة التي يحتلها هؤلاء الشعراء في حركة الأجيال الشعرية منذ النصف الثاني من سبعينيات القرن الماضي حتي إلى وم . ولقد أتيح لي أيضا الاقتراب الإنساني الحميم من كثير منهم ، فأصبحوا إخوة وأصدقاء أعزاء تربطني بهم وشائج قوية ومواقف شتي وذكريات عميقة أضاءت لي كثيرا من مراحل التكوين والخبرات الشعرية التي حصلوها ، وجعلتني أكثر قدرة علي الفهم والتحليل والنفاذ إلى الطبقات ـغير المنظورةــ في بنية قصائدهم وفي توجهاتهم الأدبية والفكرية .

وعلي امتداد هذه العقود المتعاقبة من الزمان ، منذ أتيح لي العمل في إذاعة البرنامج الثاني ـالبرنامج الثقافي الآنــ وفي إذاعة البرنامج العام في الوقت نفسه ، معدا ومقدما ومخرجا للعديد من البرامج الأدبية والثقافية والنقدية والخاصة ، كانت الدائرة تتسع باستمرار للقاء بهؤلاء الشعراء ، والفرح بتقديمهم وإلقاء الخيوط الأولي من الضوء عليهم وهم يخطون خطواتهم الباكرة في الطريق إلى ذاكرتنا الإبداعية .

الجدية والإخلاص والمثابرة والوعي العميق برسالة الشعر وأهميته ، هي التي جعلتني أهتم كثيرا بمتابعة جميل عبد الرحمن و عبد الحميد محمود وسامح درويش وفوزي خضر وأحمد فضل شبلول ومحمد يوسف وفولاذ عبد الله الأنور ـالذي توقف بكل أسف بعد أن أطلق طلقته الأولي اللافتة والواعدةــ وسوزان عليوان وأحمد بخيت وغيرهم ، علي الرغم من اختلافهم عمرا وتكوينا وإبداعا . لكنهم بالرغم من هذا الاختلاف ظلوا ــفي مجموعهمــ أوفياء لجوهر الشعر وكيميائه الحقيقية ، وإن أغوت بعضهم الحداثة الشعرية ، شأنهم شأن كثير من شباب هذه الأيام ، لكن انتماءهم العميق الجذور للثقافة العربية وجماليات الشعر العربي عصمهم من الهجنة والتخليط والوقوع في الفجاجة والـــــــــــــسطحية .

كانت هذه الأسماء ـمنذ بداياتها الأوليــ تلتمع في البرامج الإذاعية الشعرية التي آمنت بهم واتسعت لهم: كلمات علي الطريق ، صوت الشاعر ، شعر وموسيقي ، زهور وبراعم ، كتابات جديدة . وكان كثير منهم تهيأ له المواجهة النقدية التي تأخذ بيده ، وتضيء له كتاباته ، وتقدم له نفسه ، وتسلكه مع أقرانه ورفاقه ، ولم تكن حياتنا الأدبية قد ابتليت بما تعانيه الآن من شراسة وتوحش ، وافتقاد للحنو والرعاية ، ونرجسية شديدة

وورم للـذات . كـان الكبـار يـسمعون للـصغار ، والأسـاتذة يجلـسون للتلاميـذ ، ويفـسحون لهـم مـن صـدورهم ووقـتهم واهتمـامهم ، ويـرون أن هـذا الـذي يقومـون بـه رسـالة في أعنـاقهم ، لا يؤدونهـا منـا أو تفـضلا ، وإنمـا هـي الرعايـة الواجبـة الـتي يقـوم بهـا الجيـل الأكـبر لا جيال من بعده علي الطريق .

مازلـت قـادرا علـي تـذكر لقـائي الأول بجميـل محمـود عبـد الـرحمن ، عنـدما عـرفني عليـه ـ في مـستهل الـسبعينيات الـشاعر الراحـل محمـد الجيـار . كـان جميـل ـ وهـو مـن مواليـد سـوهاج عـام ١٩٤٨ ـ قـد حـصل علـي بكـالوريوس الدراسـات التعاونيـة والإداريـة ويعمـل ببنـك التـسليف الزراعـي والتعـاوني بالمحافظـة ـولا يزالـ وفـاز بـالمركز الأول علـي محافظـة سـوهاج في مـسابقة الثقافـة الجماهيريـة عـام ١٩٧٢ ، كمـا فـاز بـالمركز الرابـع في المـسابقة المركزيـة علـي مـستوي الجمهوريـة ، وصـدر لـه ديوانـه الأول علـي شـواطئ المجهـول عـام ١٩٧١ .

وكان الجيـار شـديد الحمـاس والمحبـة لجميـل عبـد الـرحمن ، يكـاد يـري فيـه ابنـه في الحيـاة والـشعر ـوهو الـذي لم يكـن لـه أبنـاءـ لكـن هـذه الرؤيـة وهـذا التـصميم جعـلا جميـل يتملمـل مـؤثرا الابتعـاد عـن الـنهج الموغـل في الرومانـسية وزحـام الـصور الـشعرية الـذي كـان يـؤثره الجيـار . وعنـدما أصـدر ديوانـه الثـاني عـذابات المـيلاد الثـاني (١٩٧٣) كنـت سـعيدا بـأن أقدمـه إلى القـارئ وأنـا أتـابع دأبـه مـن أجـل تحقيـق انتـصاره الأول مـع نفـسه : أن يكـون صـوته هـو ، وألا يخـتلط صـوته ـفي زحـام الأصواتـ بإيقـاع الآخـرين . ولعلـي لا حظـت وقتهـا أنـه كـان في مجموعتـه الـشعرية الأولـي أكثـر احتفـاء بزحـام الـصور الـشعرية ، المثقلـة ، والمركبـة ، دون أن يحـرص علـي تآزرهـا وتناميهـا واتـساقها العـضوي في هيكـل شـعري أو بنيـان فـني متماسـك . وكـان التجنـيح الـشعري يأخـذ بـه إلى عـوالم مختلفـة يـستهويه مـن خلالهـا التقـاط الـصورة وتجزيعهـا وتفريعهـا إلى صـور شـتي ، دون أن يكـون للـصورة الـشعرية فنيتهـا وانتماؤهـا إلى شـجرة القـصيدة ، حـتي لا تكـون مجـرد بهرجـة شـعرية زاعقـة ، تمامـا كالأصباغ الفاقعـة الـتي تغـرق فيهـا وجـوه بعـض المـتجملات لعلـهن يـزددن جمـالا ولكـن هيهـات !

لكـن كـان في مجموعاتـه الثانيـة ، يقـترب مـن التـوازن المنـشود بـين الفكـرة والتجنـيح ، بـين الرسـم بالكلمـات والحـرص علـي انتقـاء الـصورة ، ودورهـا الـوظيفي المتنـامي في بنيـة القـصيدة ككـل . كمـا كـان أكثـر اقترابـا مـن أعمـاق الألم الإنـساني النبيـل ، وهـو يغـوص وراء همـوم عـصره وقـضيته وملحمـة وجـوده الإنـساني ، راصـدا ومتنبئـا وسـباقا إلى الـوعي والمعرفـة ، ومـصطدما بأقنعـة كاذبـة تتهـرأ وتتمـزق وتتكـشف مـن ورائهـا وجـوه الحقيقـة ، وبحـوائط متداعيـة كنـا نظنهـا قـادرة علـي الثبـات والـصمود . وكـان واضـحا أن الحريـة تـشكل الملمـح الـشعري البـارز في قـصائده ، ـمصرحا بهـا أو غـير مـصرح ، بـصورة مباشـرة أو غـير مباشرةـ

فهـي هـم الـشاعر ، وهـي التحـدي الأعظـم لمواجهـات مبـدع مرهـف الحـساسية عميـق الإيمـان بالإنسان ، نافذ النظرة إلى ما وراء الوجوه والأشياء .

كان جميل يقول في رسالة إلى الشعراء:

لماذا يعتريك الحقد يا صوتا
نقي الحرف يستفتي
روابي الشمس ، ساطعة
وبوح الفجر
إذ يستنطق الأضواء في الصمت
لماذا في عيونك تزخر النظرات بالمقيت ؟
ألا تدري بحكمة شاعر ، رفت قصائده
بأن الحقد يغرس فيك
شوك النار والموت ؟

وكـان صـدره يجـيش بمـا لا يفـصح عنـه وجهـه الحيـي الخجـول ، وصـورته الـصعيدية الطيبـة ، كأنـه ابـن الفطـرة الـتي لم تمسـسها يـد الـصنعة أو التـصنع ، أو هـو النمـوذج الأصـيل لا بـن صـعيد مـصر ، فلاحـا كـان أو مثقفا ، يـستطيع ـدون جهـد أو مـشقةـ أن يغـري النـاس بمحبتـه وصـحبته . وهكـذا كـان جميـل كلمـا أطـل علـي عـالم القـاهرة ، إطلالاته المتباعدة ، قبل أن يعود إلى أهله وأسرته ومسقط رأسه سوهاج .

وحـين تتابعـت مجموعـات جميـل عبـد الـرحمن الـشعرية ، وازدادت معهـا همومـه وعذاباتـه ومـسئولياته ، حـدث لـه الزلـزال الـذي حـدث لكـثيرين غـيره ، حـين تـضطرهم ظـروف الحيـاة إلى الاغـتراب والحيـاة خـارج الـوطن ، وفي منطقـة حفـر البـاطن بالـسعودية ـوهي المنطقـة الـتي كانـت ذات يـوم نقطـة انطـلاق الجيـوش المتحالفـة في حـرب الخلـيج ضـد العراق من أجـل تحريـر الكويتـ وهـي المنطقـة القاسـية ، عـاش جميـل أكثـر سـنوات عمـره نزفـا ومعانـاة ، وانـشطارا بـين صـورة الـوطن الـتي لم تكـن تفـارق عينيـه ، في صـحوه أو منامـه ، وصورة الواقـع الـذي يعيـشه اغترابـا وانفـصالا ونـدما . وظفـر شـعره بعـدد مـن القـصائد المتوهجـة ، أنـضجتها نـيران الغربـة ، وتنـور المعانـاة ، وتحولـت لغتـه الـشعرية إلى خطـاب تعتـصره المـرارة ، وتنبـت فيـه كائنـات شـوكية ، تـسدد وخزهـا إلى عـوالم القهـر والزيـف والاسـتغلال . ووجـد قارئـه في هـذه المجموعـات الـشعرية: لمـاذا يحولـون بـيني وبينـك ؟ (١٩٨١) ، أزهـار مـن حديقـة المنفـي (١٩٨١) ، تمـوت العـصافير لكـي تبـوح (١٩٨٢) ، ابتـسامة في زمـن البكـاء (١٩٨٦) ، وأمـام تـشققنا نعـترف (١٩٩٢) . . ومـا تلاهـا نفـسا شـعريا يتـصاعد ، وانكـسارا في الـروح كأنـه الـشرخ العميـق يتـسع بحجـم الأخـدود العظـيم ، وهـو يـستدعي تـراث أمتـه في صـفحاته المـضيئة وشخـصياته التاريخيـة مـن أمثـال: ديـك الجـن ،

بنـت الأزور ، سـيف بـن ذي يـزن ، وضـاح إلى مـن ، المتـنبي ، تـأبط شـرا ، البـارودي ، أبـي ذر الغفـاري ، والزبـاء . . وغيرهـم مـن الرمـوز الدالـة ، لعلـه يتماسـك ، ويـشد مـن أزر النفس النازفة حزنا وغضبا ، ويتحدث عن الليالي الجريحة :

الليالي الجريحة عادت لتشرب
من كل جرح بقلبي دماها
وأنا تائه بين حلم يراود عيني
وبين اختناق يشد الأماني
إلي جبه
شجر من عقيق الخزافة
مازال يملك أن يغرس العين
بالأمل الخلب المتوجع بالصبر
مازال يملك أن يجتبيني إلى هدبه
وعلي خفقتي ألف قفل يمط الشفاها
شجر طالع في الليالي الجريحة ،
يسرق مني إهابي
ويخطفني من ثيابي
فارشا في هجير اغترابي
ساحات فيء ظليل
ناشرا فوق رأسي غلائل ضوء كليل
فإذا أسرج القلب خيل الحلم
وامتطي مهره الشدو
عارجا صوب أفق الغناء
أسقطته علي وهدة موجعة
وهدة من عويل
خنقت صوته غصة شرعه
حيث يختل مختلطا صوت أوجاع روحي
بصوت الصهيل
الليالي الجريحة تعرفني وتحدد قلبي اتجاها
والنصال التي خلتها في يدي
استقرت بظهري وغاصت إلى منتهاها

بـين جميـل عبـد الـرحمن والـشجر -خاصة النخيلـ وجـد مـن نـوع خـاص ، إنـه يـري في الطبيعـة امتداداتـه الحيـة ، ونـضارة أيامـه الأولـي ، واخـضرار الحيـاة وسـط قـسوة الـصحراء وجـذب الوجـود ونـضوب آبـار الأمـل . والـشجر المتطـاول يطـاول نفس الـشعر ويجـسد كبريـاءه وشمـوخ هامتـه ورسـوخ قدميـه . والمحبوبـة -عند جميلـ شـجر متطـاول ، يـزداد امتـدادا وبهـاء ورسـوخا وعراقـة ، وصـورتها في وجدانـه صـورة تتنـامي ، وتخـضوضل بمـاء الحيـاة ، وتظلـل حيـاة اثـنين - مقـرورين ووحيـدين وعليلينـ كمـا كـان يقـول صـلاح عبـد الصبور في بكائيات ديوانه الأول .

يقول جميل عبد الرحمن في قصيدته أحبك يا شجري المتطاول:

تري أين أنت ؟
وأين تفرين مني ،
من وجهة المتغضن بالضعف ،
بالذل ، بالخوف ، بالنظرات الخفيضة
وأين تلوحين ، كيف خرجت
ودفؤك ما زال يغمر قلبي الجريح ،
وعمري الكسيح ،
وسيفي الطريح ،
ووهمتي
داخل كل انكسارات يأسي البغيضة
أحبك يا شجري المتطاول
يحملني من لهيب التخاذل ،
من سقطة المتهيب
من سنوات الجفاف الملولة
أحبك يا زهوي المتفرد ،
يختال مهما رمتني السنون
بسهم من الغصص المستحمة بالحزن
يدهمني ليسد اللهاة بحلقي ،
يبيح بقلبي دماء الخميلة !

لقد توجـت رحلـة جميـل عبـد الـرحمن -منذ عـدة سنواتـ بجـائزة الدولـة التـشجيعية في الـشعر ، وقبلـها كـان فـوزه بجـائزة رئـيس الجمهوريـة -في عيـد الفـن والثقافـة عـام ١٩٧٩ - للأدبـاء الـشبان ، وجـائزة الـشعر الـتي نظمهـا نـادي الطـائف الأدبـي بالـسعودية علـي مـستوي الـوطن العربـي ، وجـائزة الـشعراء الـشبان في مـسابقة المجلـس الأعلـي للثقافـة ، لكـن فـوزه

الحقيقي كان بجائزة الصمود ومواصلة الإبداع ، علي الرغم من مشاكسات الحياة ، والعلل التي أصابت روحه وجسده نتيجة لفرط حساسيته ، وبسبب أعصابه العارية ، وعندما انتصر جميل أو كاد علي كل ذلك ، كان يحفر بأسناه في الصخر ، مؤكدا وجوده الشعري وحقيقته الإبداعية ، ودوره الثقافي المسئول والفاعل في بلده سوهاج وفي كل صعيد مصر وفي مشاركاته التي يصول من خلالها ويجول .

والذين يحرصون علي متابعة الملتقيات الأدبية والمهرجانات الشعرية وتفجؤهم نبرة جميل العالية ، وأداؤها الذي تجرفه الجماهيرية أحيانا إلى الخطابية -والخطابية مفسدة للشعر الصافي- يتمنون أن تظل لجميل قدرته علي الهمس الشعري الذي يحرك الأعماق ، وأن يتخلص من هذه النبرة العالية والمباشرة التي تكاد تفتنه أحيانا فتربك بنية القصيدة وتجعلها مفتوحة دون نهاية محكمة . ولاشك أنه قادر -بإخلاصه الشعري وتواضعه الجميل مع النفس- علي تصحيح المسار ، والعودة بقصيدته إلى المناطق التي يعرفها أكثر من غيره ، ويعزف فيها أجمل أشعاره ، وأكثرها استحقاقا للبقاء . ليظل دائما -كما كان منذ البداية- إنسانا صافيا جميلا ، ومبدعا متجددا أصيلا ، وواحدا من الأصوات الشعرية المقتحمة في هذا الزمان .

أصوات شعرية مقتحمة ٢ ـ عبد الحميد محمود

بقلم : فاروق شوشة

كان ذلك في عام ١٩٧٢ علي وجه التحديد . أما المناسبة فكانت دعوة كريمة من الجمعية العلمية بكلية الطب في جامعة الإسكندرية للمشاركة في مهرجان شعري يتاح لي من خلاله اللقاء بشعراء الكلية الواعدين من الطلاب . كنت ما أزال أتحسس طريقي ـــ الذي سيستمر طويلا ـــ في التعرف علي الحياة الأدبية ـــ خاصة الشعرية ـــ في الإسكندرية عن كثب . وكنت أتساءل بيني وبين نفسي عن مدي اهتمام طلبة كلية الطب ـــ وهم المهمومون بالدراسة العلمية وشواغلها ـــ بالشعر ، وهل يمكن أن تبزغ من بينهم موهبة شعرية في حجم شاعرية إبراهيم ناجي الطبيب ؟

الذي ما يزال حتي إلى وم عنوانا فردا علي عناق الطب والشعر ، وهو العناق الذي جسده أبو لو إله الشعر والطب عند إلى ونان ، وحملت اسمه جماعةأبولو الشعرية المجددة ، في مستهل ثلاثينيات القرن الماضي وكان ناجي واحدا من مبدعيها الكبار .

ولم يكد ينتهي هذا اللقاء الشعري حتي كانت خمسة أصوات شعرية شابة قد عرفت طريقها إلى وجداني ، وأحدثت تأثيرها الكيميائي الجميل في نفسي . وسعدت باكتشافي لهذه المواهب البازغة ، التي ما تزال بعيدة عن الضوء محرومة من رجع الصدي لكتاباتها الأولي: عبد الحميد محمود وسامح درويش وعلاء عبد الرحمن وعماد حسن وآسر وهدان . . وعدت إلى القاهرة محملا بنماذج من إنتاجهم الشعري لتقديمها في البرنامج إلى ومي كلمات علي الطريق والذي كان نافذة لا بداع الجيل الجديد من شعراء الشباب طيلة عدة سنوات ، ولأتابع ـــ بالقلب والعقل ـــ خطاهم مع الطب والشعر ، ثم لا كتشف مع دورة الأيام وقد انتهوا من مرحلة طلب العلم والخروج إلى الحياة أن منهم من يعكف علي إنضاج موهبته وتعميق علاقته مع الشعر وعيا وممارسة ، ومنهم من نفض يديه واستراح . لقد صمت آسر وهدان الذي شاهده خاله الإذاعي الرائد محمد محمود شعبان ينشد شعره في إحدي حلقات البرنامج التليفزيوني (الأمسية الثقافية) فسعد به سعادة غامرة وأوصاني به وهو الذي كان من المستحيل أن يعلن عن عاطفته أو ميله لا حد من الناس . وصمت علاء عبد الرحمن واختفي بدوره في زحام الحياة . أما عماد حسن فقد وجد طريقه في كتابة الأغنية وهو الآن واحد من فرسان الأغنية الجديدة أو الشبابية . وكسب الشعر اثنين كانا بالفعل الصوتين الحقيقيين في زحام الأحداث التي امتلأت بها جامعة الإسكندرية في مستهل السبعينيات وهما: عبد الحميد محمود وسامح درويش .

قبل أن يصدر عبد الحميد محمود مجموعته الشعرية الأولي باب إلى الشمس ضمن مطبوعات المجلس الأعلي للثقافة في سلسلة الكتاب الأول عام ١٩٨٠ ، كان قد مر

بأحداث وتجارب حياتية وشعورية مزلزلة . فقد سافر مع رفيق عمره سامح درويش ليعملا طبيبين في الجزائر ، وليمكث هو فيها عام ا ونصف عام ، ثم يعود إلى القاهرة ليعمل طبيبا بالقوات المسلحة ، وبعدها يسافر للعمل في السعودية .

وتشاء الأقدار أن يفقد والده وهو معه في السعودية ، وأن يفجع بمصرع زوجته وشريكة حياته وحبيبة عمره في حادث طريق ما ساوي بعد رحيل والده بأيام معدودة . وأن يحمل عبء أم ثكلي وطفلين صغيرين وأخت وحيدة ، يرون فيه الحائط والمتكأ والأمل والشعاع . وكتب علي عبد الحميد أن يكون أبا وأما في الوقت نفسه . وأن يعود إلى مصر بعد عام ين قضاهما في السعودية مهتز الوجدان مذبوحا ، كالطائر الذي لم يدرك بعد أنه قد ذبح . يتصور أن علاجه يتمثل في غشيان التجمعات الأدبية والثقافية ، وفي شبكة هائلة من العلاقات الاجتماعية في الإسكندرية والقاهرة ، وفي محاولة دائبة لملء الفراغ الذي أحدثه رحيل الزوجة الحبيبة وأم ولديه . تلتمع أمامه التجارب العاطفية العديدة كالسراب المخادع والبرق الخلب ، حتي إذا اقترب منها وجد نفسه ما تزال تنزف في داخله ، واكتشف أن ما يكتبه عن وهم الحب الجديد ليس في حقيقته إلا بكائيات علي الوجه الذي مضي ولن يعود .

يقول في قصيدتي أميرتي إحدي قصائد ديوانه الأول:

عيونها بالحنين تكتحل
وقلبها للقاء يبتهل
حبيبتي للديار عائدة
يحدو خطاها الرجاء والأمل
لمحتها والظلام مرتحل
حورية في الضياء تغتسل
حبيبتي في الربوع نسمتها
تسري فتخبو الجراح والعلل
آه لنبع الحياة في فمها
يذوب فيه الفؤاد والمقل
آه لنور الوفاء يشملها
فيغمر الكون حولها الجذل

* * *

عاشت يشل الفراق لهفتها
وقلبها بالحنين يشتعل

عاشت ولحن الرجوع في فمها
رغم اختناق الكلام يبتهل

وفي ديوانه الثاني لو أنفيك من زمني يقول عبد الحميد محمود في قصيدته: شمسك وضباب غربتنا مرددا بكائيته الأثيرة:

أبحث عن صورة مسافرة
خلف الغمام البعيد تحتجب
كل الذي حولها يدافعني
فالهول دون الوصول والنصب
والأمنيات التي تراودني
بيني وبين امتلاكها الريب
تمتد عبر الزمان أحجبة
هيهات عن مقلتي تنسحب
عيناك لي في ضباب غربتنا
شمس تجلت فكشفت سحب
عيناك لي ياحبيبتي وطن
له حياتي وقل ما أهب
أنت رجائي إذا تقاذفني
حقد ، وغش مسامعي كذب
أنت وهل لي سواك ملتجأ
يسكن فيه فؤادي التعب !

هنا يعزف الشاعر علي وتره الشجي الأثير ، ويحاول أن يوهمنا بتعدد تجاربه وصبواته ، ومصادر نجاواه وإلهامه ، لكنه يفاجأ ــ قبل أن نفاجأ نحن القراء ــ بأن ما ظنه مغامرة جديدة قد اقتاده إلى خزان الدموع الذي لم يجف بعد ، وإلي مستودع الذكريات التي هي أغلي ما يحتويه العمر الجميل ، وإلي الوجه الذي لن يفارقه مهما انهمرت السنون واحترقت العيون .

ولنا أن نكتشف من خلال النموذجين السابقين ولع عبد الحميد محمود ببحر المنسرح ، وهو البحر الذي سبق إلى الولع به أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم ــــ الشاعر والناقد والأستاذ الجامعي ــ وهو بحر غير مطروق لدي كثير من شعراء هذا الزمان ، بالرغم من إيقاعه الشجي ، وتقطيعه الواضح وفواصله التي تكاد تلتف وتتآزر ، وأن نكتشف أيضا أن شاعرنا يجد نفسه علي هواها وحقيقتها الشعرية عندما يبدع شعره في الإطار العمودي للقصيدة عندما تتأكد سيطرته علي الإيقاع ، وتدفق حركة الأبيات ،

وإحكـام القافيـة ، وامتـداد الـنفس الـشعري . مـن هنـا كانـت خبرتـه الـشعرية الذكيـة الـتي ترفـدها أذن لا قطـة وإحـساس مرهـف وبـصيرة نافـذة تجيـد تأمـل مـا لـدي الآخـرين ، وتحليلـه وتقييمـه ، ومعرفـة الأشـكال والـصيغ والأبنيـة المغـايرة والأنـساق المختلفـة للقـصيدة العربيـة ، وتعنـي هـذه الخـبرة أيـضا باسـتذكار العديـد مـن النـصوص الـشعرية البـارزة ، وفحـصها وتأملـها ، ومحاولـة النفـاذ إلى أسـرارها وأغوارهـا وبنيتهـا التحتيـة ، هـو شـاعر شـديد الحـساسية ذكي التأثر سريع الاستجابة . فقـد أتـاح لـه هـذا الـنمط مـن شـعر البيـت ـــ كمـا سمـاه الـدكتور محمـد حماسـة عبـد اللطيـف في دراسـته البديعـة عـن الـديوان الثـاني ل عبـد الحميـد محمـود التي ضمنها كتابه المتميـز اللغـة وبنـاء الـشعر ـــ أتـاح لـه مـساحة عريـضة مـن الإتقـان والإحكـام ، لم تتـوافر لـه بالقـدر نفـسه في قـصائده الـتي جـاءت مـن نمـط شـعر التفعيلـة ، الـذي حـاول ويحـاول دائمـا أن يثريـه بعناصـر مـن شـعر البيـت أهمهـا الإيقـاع الواضـح والقافيـة الكـثيرة الـتردد والـدوران . وقـد اسـتطاع الـدكتور حماسـة ـــ بحـس الـشاعر والناقـد فيـه ـــ أن ينفـذ إلى عـدد مـن أبـرز الخـواص الفنيـة للـديوان أهمهـا اسـتخدام المعطـي التراثـي أو اسـتدعاء الشخصيات التراثية ـــ كمـا سمـاه الـدكتور علـي عـشري زايـد في دراسـته الرائـدة في هـذا المجـال ـــ والتنـوع داخـل الوحـدة ، والوحـدة في التنـوع أو اتفـاق البنيـة العميقـة لمقـاطع القـصيدة الواحـدة مـع اخـتلاف البنيـة الـسطحية لهـا فـضلا عـن الـصبغة الحواريـة في بعـض قـصائد الـديوان ومركزيـة بعـض الـصور الـتي ضـرب مثـالا لهـا بـشيوع مفـردات: الفحـيح والأفعـي والأفعوان والسم في كل المواقف إيجابا أو سلبا .

فـإذا مـا عـدنا إلى النغمـة الأساسية في دواويـن عبـد الحميـد محمـود ، وهـي النغمـة الـتي لم يزدهـا انهمـار العمـر وتتـابع سـنوات النـضج وشـواغل الحيـاة القاسـية إلا قـوة وحـدة وعرامـة ، وجـدناه يـستقطر ذوب روحـه في بكـائيتين جميلـتين ، تمـثلان خـصائص فنـه وسمـات إبداعـه: إحكـام صـياغة ، وافتنـان تـصوير ، وجيـشان نغـم وإيقـاع ، في غلالـه كاسية من الشجن والأسي الشفيف .

يقول في أولاهما وهي بعنوان براءة:

براءة من فؤاد فيه ما فيه

إلي التي طيفها لورف يدميه

كانت علي شرفة في روض فتنتها

أميرة تزدهي بالدل والتيه

لما عبرت بروض الحب أذهلني

دفء الجمال وعطر ساحر فيه

قدمت بين يديك القلب مرتجفا

القلب جاءك يسعي لا ترديه

يمامة بدأت من مصر رحلتها
غريبة ردها تيه إلى تيه
وفي رجي ليلة فتحت دقائقها
كألف أفعي تراءت في ما قيه
تسلقت ظهره ، شقت عباءته
غاصت بأنيابها في لحم أيديه
فغاب عن وعيه من هول لحظته
ولاح في حلمه غول يناديه
حتي إذا عاد من أعماق محنته
لم يلق صدرك مثل الأمس يؤويه

* *

أين الحبيبة ، يا أحجار غربتنا
ياشوك محنتنا ، ياوحشة التيه ؟

وفي بكائيته الثانية دمعة الأشجار يقول:

أين أيام خلقناها معا
في زمان كان بالحب ضي
أين درب ذاب من أشواقنا
أتته العشاق في فرح حيي
غائب طيفك عني ياتري
ما الذي بعدك يشفي ناظري
دمعة الأشجار فوق العشب خي
ترقد الأحزان في العشب وفي

وفي القصيدة إيقاع وصوفية وجو شعري يذكرنا ببائية ابن الفارض المشهورة:

سائق الأظعان يطوي البيد طي
منعما ، عرج علي كثبان طي

وفي وجدان عبد الحميد محمود وحقيقة تكوينه الشعوري والمزاجي تلتقي النزعتان: الأبيقورية والصوفية ، الأبيقورية المندفعة إلى اللذة والمتعة الحسية والنهم في ملاحقة الجمال ـــ كما تجلت في شعر علي محمود طه ـــ والصوفية الشفيفة التي تحمل سمت التسامي والغناء في المطلق والانكسار أمام الغيب والمجهول . وفي قصائد عبد الحميد محمود المغناة كثير من النماذج التي تسبح في هذا الفضاء الروحي والتكوين النوراني . وهو تكوين يفسر كثيرا من تجليات الشاعر الإبداعية وتقلباته المزاجية وعلي ذكر الغناء

، فإن عبد الحميد محمود ممن يملؤهم هاجس الطرب والسلطنة الغنائية والدندنة النغمية . وقد تغني بقصائده ــ كما يحرص هو علي إثبات ذلك علي غلاف ديوانه : من سواك ــ كبار مطربي وملحني مصر : محمد الموجي وسيد مكاوي وعفاف راضي ومحمد ثروت وسوزان عطية وعلي الحجار ــ ونحمد الله أن غواية الغناء والكتابة الغنائية لم تجرفه – ولم تنتزعه من موقعه كما فعلت بآخرين ، وإلا لكنا فقدنا شاعرا جميل النبرة واللغة والأداء الشعري ، متميز الصوت ، ذكي الإحساس . نجا من كثير من المرارات التي يعانيها مبدعو الإسكندرية الذين يرون ــ وهم علي حق ــ أنهم ظلموا وأنهم يستحقون الكثير من الاهتمام والضوء ، وأنهم يجدون إهمالا وعنتا ــ وهم أبناء العاصمة التاريخية والثقافية لمصر ــ ولأنه نجا ، فقد استطاع أن يواصل المسيرة ، وأن يحصل علي جائزة الدولة التشجيعية في الشعر ، وأن يودع نبضه الشعري والإنساني دواوينه المتعاقبة : باب إلى الشمس ، لو أنفيك من زمني ، من سواك ، غصون الحب مبتلة بقوس قزح ، شجرة إلى قطين ، ميلاد جديد . وأن تتكشف لنا هذه الدواوين عن طاقة شعرية كبيرة لم نتعرف حتي الآن إلا علي موجاتها الأولي من بحر شعري يعدنا بالكثير ، سطحه هادىء وناعم وإن كان داخله يغلي ويفور .

أصوات شعرية مقتحمة فؤاد طمان

بقلم: فاروق شوشة

ينتمي فؤاد طمان إلى صنف من الشعراء لا يفارقهم القلق والتوتر ، ولا تهدأ أبدا أرواحهم الهائمة ، الباحثة — دون جدوي — عن العوالم المجهولة والجزر التي لم تطأها قدم بشر ، تتملكهم شهوة امتلاك العالم ، لكن ما تتسع له قبضة إلى دين لا يكفي لحفظ الأود وري الظمأ . إنهم الشعراء المعذبون بوهم المستحيل ، الخارجون في إثره يحاولون اقتناص لؤلؤته الأسطورية ، لكن الأشرعة تتهاوي والأجنحة تتكسر والبحر المترامي لا يفصح عن غاية لسالكيه .

والمشكلة في فؤاد طمان — ومن هم علي شاكلته — أنه يجمع في الظاهر بين متناقضين متباعدين: الانتماء الحميم للمكان: المدينة والوطن ، والرغبة الدائمة في السفر والخروج والاكتشاف . هكذا يكشف لنا شعره عن التقاء النقيضين ، لكن القراءة الثانية تتكفل بحل هذه المعضلة حين ندرك أن الشاعر القلق الشديد الهوس بالسفر والترحال والتنقل ، يحمل معه — حيثما حل — مدينته ووطنه نجمين يضيئان غربته حينا ، وخنجرين مغروزين في صميمه أحيانا . وبين الحدين والوجهين: تتنوع تجليات فؤاد طمان الشعرية وتتنوع عذاباته الوجودية وشجونه الكونية ومعارجه الصوفية .

كان مرأي الطيور علي البحر
يبعث في الحنين
الي الرحلة المرجأة
إنني أقنع الآن . .
بالسير عبر الشطوط القريبة
والموت تحت مصابيحها المطفأة
أستعيد قليلا من الشعر
بعضا من الصبر
أمنية صابئة
أستعيد وجود الأحباء
والراية المستباحة
والطلعة المنبئة
أستعين بكأس السلو علي الشهد
خمرته تتسلل مبطئة مبطئة
واذا أقبل الصبح

أقنع بالجلسة الهادئة
فوق رمل الشواطيء
أرسم محبوبتي
وهي تسبح آمنة في الزبد
وأعد مرافعتي
واضعا فوق وجهي قناعي
منتظرا للأبد ؟ ؟

الشاعر المحامي أو المحامي الشاعر لم يستطع التخلص من معجمه الحياتي فأنهي هذا المقطع من قصيدته الرحلة المرجأة قائلا: وأعد مرافعتي ، ولم يستطع إلا أن يكون وفيا لمفردات عالمه الشعري: صورا وظلالا وطقوسا وايحاءات ، تتمركز من حول الاسكندرية محبوبة الشاعر المقدسة ، وركنه الحاني ــ كما كان يقول ناجي عن بيت محبوبته ــ والمليكة التي تشاركه الاستماع إلى نبض النشيد القديم ــ الاسكندرية هي محور هذا العالم الشعري الشديد الخصوصية والامتلاء حتي الحافة بعناصر متآزرة تطلق فينا عطر المكان والزمان: النوارس والريح والمواني وسرب الطيور المهاجر وقرصانة الشرق والبحر ورمل الشواطيء والزبد والشطوط القريبة والرحلة المرجأة وشاطيء الثلج والسفر الأخير وطائر الرعد . يالـه من فضاء شعري تتقافز فيه القصائد كالنوارس ، وتزمجر فيه الرغائب كالعواصف حين تحرك أمواج البحر العاتية . والشاعر في حالاته المختلفة: القرصان والمغامر والباحث الجوال والمستكشف والمحترق بنار المعرفة ، يطل من بين سطوره يحرضنا علي الابحار من خلفه ، لعلنا نكتوي كما اكتوي ونشتهي كما اشتهي ، ونعود ــ كما يعود ــ بلؤلؤة المستحيل .

هل هي الروح السكندرية العارمة ، تلك التي تلفحنا بصهدها اللافح وهي تموج في شعر فؤاد طمان الذي ركب البحار لسنوات طويلة ، عرفناه خلالها باسم القبطان الشاعر يصارع البحر والبحر يصارعه ، كأنه رجل هيمنجواي في رائعته العجوز والبحر ، أو الكابتن إهاب الذي يطارد الحوت الأبيض في رائعة هيرمان ملفيل موبي ديك بكل ما في الروايتين من بطولة وصراع أسطوري مع الأقدار ورمزية تكسو فلسفة حزينة مريرة حتي عندما ترك البحر وأصبح من سكان البر وامتهن مهنة المحاماة ــ التي يمارسها الآن بكفاءة واقتدار ــ فان هذه الروح لم تفارقه ، والبحر بكل مفرداته ساكن فيه ، ما يكاد العزف الشعري يبدأ ، والنزف الانساني ينثال ، حتي يستيقظ فيه المارد البحر ، محتضنا ابنته الأثيرة الإسكندرية ، وشاعرها الجوال ، الذي يشبه كثيرا شعراء التروبادور الذين كانوا يغنون لمعشوقاتهم علي الجيتار في ضوء القمر تحت الشرفات في جنوب فرنسا وفي

اسبانيا وإيطاليا ـــ إبان العصور الوسطي ـــ وكأنهم شعراء الحب العذري في تراثنا العربي من أمثال مجنون ليلي وقيس لبني وجميل بثينة وكثير عزة وعروة عفراء وغيرهم .

فؤاد طمان واحد من شعراء التروبادور ، يحمل جيتاره ويغني لمحبوبته الاسكندرية ويتغني بها ، حتي لو أدركه الإلهام وحاصره وهو في بورسعيد ، فإن قلبه يظل ينبض مع نجم بعيد في الاسكندرية ، حتي وهو يتابع جبال الألب الشاهقة التي تبدو سامقة مسيطرة وغابات الصنوبر والجليد والأفق المحاصر وثبج الظلام ومغارات المخاطر وسقوط الأماني الغوالي تحت أقدام القياصر:

انظري: طائر النار متشح بالرماد
لا يبوح
وسيدتي تغرق الآن وسط الزبد
والصبيات في موكب الشمس
يلبسن لون الحداد
ينتظرن الذي لا يجيء
ويلقين أقراطهن الذهب
وأنا زائغ العين
مثل السنونو الذي فارق العش
ثم ارتمي في شطوط اللهب

. . . .

الغمام كقلب الصبية تلهو به الريح
من ذا يحدث قلب الصبية
عن وجهة الريح ؟
من يوقن الآن
أن الغمام سينجزنا ما وعد ؟

القصيدة عند فؤاد طمان عالم مفتوح ، يحاول أن يتسع لرحابة الدنيا بأكملها . عالم ليس فيه أسرار غامضة ، أو ألغاز معماة ، تماما كعالم البحار المغامر ، حكاياته تفضحه ، ووقفاته في الموانيء تشي بنزواته ومغامراته ، وزهوه بانتصاراته يفضح ما كان ينبغي أن يستره ولا يخوض فيه:

وحدي . .
وأطيار مهاجرة علي الكافور
تعزف لحنها النشوان في حلم الغروب
لكن أخزاني تعاودني

سأمضي للمدينة عابرا قوسا إلى قوس
من الأغصان ، والحجل المرفرف
كي يغادرني صهيل الخيل ،
والخوف المراوغ
ثم أرجع والأحبة
ناشرين براءة الصبح المغرد في الشهوب
الشمس في شرفات بيتي
والذين عرفتهم في رحلة القمر المنور ،
ماثلون
وسيدات البرق ينفخن الرماد
فتومض الجمرات ، والرايات تعبر من جديد
والفؤاد يهب
والحطب البليد علي ضفاف الماء ،
ينذر باللهيب !

هذا العالم الشعري المفتوح ، العاري ، المزهو بنشوته وقدراته ، لا يفتقد لغته المحكمة ، أو موسيقيته المتنوعة المقامات والايقاعات ، أزو صوره الطازجة المدهشة ، التي يبدعها الشاعر من عناصر ومفردات وألوان ما لوفة ، ليست غريبة أو نائية ، لكن قدرته الفنية وسحره النافذ — علي المستويين الانساني والابداعي — هو الذي يتيح له أن يولد منها لوحات لا تفارقنا ضربات ريشتها ، حتي عندما يقترب — بدافع الحب والافتتان — من مداري أمل دنقل وأحمد عبد المعطي حجازي — وهما الشاعران القريبان من أوتار وجدانه وأفق صوره وقيمه التعبيرية وأسلوبه في التقفية — نستطيع أن نجد أصداء — تتلبس قالب المعارضة الشعرية — من قصائد الغرفة رقم٨ والكعكة الحجرية والبكاء بين يدي زرقاء إلى ما مة من شعر أمل دنقل ، وأصداء من طيور المخيم وطردية — تتلبس قالب الحوار والتمازج — من شعر حجازي ، لكن لغة فؤاد طحان ، وجموحه البحري السكندري ، وصخبه المرتج بالعواطف والنزوات والصراعات والنزف الوطني والقومي ، يجعل لقصيدته مذاقها المختلف — وهو علي حق في استصفاء حجازي وأمل دنقل — من بين شعراء العصر — أخدانا للمجاورة ، وأصواتا للمحاورة ، ونموذجين للافتتان بهما ، باعتبارهما صفحتين تمثلان كثيرا أصفي ما في شعرنا المعاصر من قيم روحية وفنية ، وأبدع ما فيه من مغامرة وتجريب وتجاوز . وإن كان هذا كله لا يلغي أدوار الآخرين ومغامراتهم واقتحاماتهم — ولا أظن أن إعجاب فؤاد طمان بالشاعرين قد توقف عند الوجه الشعري فيهما ، بل هو — في حقيقة الأمر — مشابهة ومشاكلة لما في شخصية كل منهما —

علـي اختلافهمـا ـــ مـن كـسر للمـألوف واجـتراء علـي الـسائد وولـع بـالقنص والطـرد والفـوز ، واتكاء علي الهم القومي عقلا ووجدانا وطراز حياة .

مـن هنـا يكتـسب شـعر فـؤاد طمـان جلـوة غـير معتـادة في شـعر أقرانـه ومجايليـه . ويـصبح لشخـصيته الطـافرة مقابلـها مـن الابـداع الفـائر الحـار ، نكهتـه حـارة ، ولمعتـه في صـفاء عـين الـديك ، موسـيقاه جياشـة بالايقـاع الظـاهر والمـستبطن . كمـا يكتـسب طابعـا مركزيـا أو سمـة محوريـة ، تحـيط بالاسـكندرية حبيبتـه ومـأوي وطـراز حيـاة وفـضاء روحيـا وانعتاقـا مـن الآسـن والمـتردي واستـشرافا للمجهـول ، وشـجنا سـندباديا يحمـل طـوق المعرفـة ونزق المغامرة ولوعة الحنين الغامض إلى المزيد من الرحيل:

اتركيني كما شئت وحدي للريح

تحت الهزيم

أنا عاشق لا يخون

وقلبك ضلله الجند

قلبك قد من الصخر

كوني كما شئت ، أما أنا

فسأبقي ببابك

حتي يرق فؤادك

أو أتهاوي وقد نال مني الكمد !

. . . .

ارتكيني كما شئت . . إني ببابك

علي أرد الحراب التي

سيصوبها في العشاء الأخير التلاميذ نحوك

أفديك . . أو يقذف الجند بي

كالحجارة في رغوة البحر

كي أتلاشي رويدا رويدا

وأكمل دورة ما ء الحياة

فآتي بالمزن طالعة من رحيق الزبد

خلفي الشهداء يغنون أغنية للبلاد

وأنت علي المنحني

تبرزين كشمس النهار

ويزهر جلمود صخرك للعاشقين

وترتد روح النبوة ــ بعد الذبول ــ
لهذا الجسد !

فؤاد طمان شاعر يدرك خصوصية صوته وتميز قصيدته ، ويعرف طريقه ــــ في زحام الأصوات المكرورة المتشابهة ــــ محققا مساره الخاص وألقه المتوهج بحساسيته وحسه النقدي ونفاذ بصيرته ومعرفته الواعية بحقيقة الحركة الأدبية والشعرية في الاسكندرية وفي كل مصر وفي كثير من أقطار الوطن العربي .

أصوات شعرية مقتحمة سامح درويش

بقلم فاروق شوشة

لم يكن من الصعب اكتشاف أن سامح درويش مختلف عن بقية الكوكبة - شاعرا وإنسانا- منذ تعرفت عليه لا ول مرة ، من خلال المهرجانات الشعرية لكلية الطب بجامعة الإسكندرية في مستهل السبعينيات . وعندما أصدر مجموعته الشعرية الأولي في عام ١٩٩٢ كان واضحا أنها قد تأخرت عن المجموعة الأولي لرفيقه في الكوكبة الشعرية عبد الحميد محمود بسبعة عشر عام ا ، وهي المجموعة التي صدرت عام ١٩٧٥ عن المجلس الأعلي للثقافة .

كان وراء هذا التأخر الكبير في النشر غياب طويل لسامح درويش ، حيث عمل بعد التخرج من كلية الطب طبيبا في الجزائر لسنوات عديدة متصلة ، في مدينة صغيرة جميلة هي بوغني التي تقع علي سفح جبل جرجرة في منطقة القبائل الكبري ولاية تيزي أوزو وسكانها من البربر . وفي الجزائر أتيح لسامح درويش أن يتعرف علي رفيقه العمر وشريكة الحياة الجزائرية ، وأن يغرق في غواية الجمال الجزائري: جبلا وإنسانا ، وأن يجد علاجا روحيا وحياتيا لمشاعر التمزق واليأس والإحباط التي خرج بها من مصر بعد تخرجه من الجامعة . كانت روح الهزيمة التي أشاعها مناخ نكسة يونيو١٩٦٧ تدفع بأبناء هذا الجيل - ومن بينهم سامح درويش -إلي الابتعاد والفرار والاغتراب . وكانت الجزائر - بكل ما تمثله من ذاكرة نضالية وذخيرة بطولية - تجد متسعا في وجدانه المنشطر بين ولاء حميم وانتماء قوي لوطنه مصر ، وسخط عارم علي روح الهزيمة والشعور بالعجز والهوان ، قبل أن تستعيد مصر روحها وتعلن عن انتفاضتها وتألق كبريائها في حرب أكتوبر .

وعندما يقدر لسامح درويش أن يعود من الجزائر ، ويستقر في بورفؤاد محاولا أن يستعيد خيوطه الأولي مع الحركة الأدبية والشعرية في بورسعيد ، فإنه يجد من العوائق ما هو أكثر بكثير من الحوافز ، ومن انصراف الناس عن الإبداع ما يفوق حماس المبدعين ورغبتهم في اختراق حواجز الصمت واللامبالاة ، والانشغال بهموم العيش والمشكلات التي يصخب بها واقع مدينة حرة فقدت هويتها القديمة ، وعجزت عن الإفادة أو التكيف مع هويتها الجديدة ، وكانت الثقافة والإبداع فيها ضحية لواقع مربك ، وصراعات صغيرة ، وطموحات مجهضة ، وعجز عن ممارسة الحد الأدني من التحقق وهو أن يتمكن الصوت الجديد من طبع إنتاجه ونشره علي الناس .

نستطيع أن نفهم إذن لماذا تأخر صدور المجموعة الأولي لسامح درويش حتي عام ١٩٩٢ ، وأن تتأخر معرفة الحياة الأدبية - والجماهير به بشكل عام - طيلة هذا

الوقت ، ولماذا لم يتح لمجموعاته الشعرية التالية نشر منتظم ، أو نشر لا ئق ، كما أتيح لكثيرين من شعراء جيله ، وشاركت عزلة سامح درويش في منفاه الاختياري - بورفؤاد - وطبيعته غير الاجتماعية ، التي تعد سعادتها ومتعتها في الهدوء والتوحد والانعزال والتأمل واحتضان الجو الأسري الحميم والثقافي في ممارسة دوري الزوج والأب - يشارك هذا كله في حجب صوت سامح درويش الشعري ، وقلة دورانه في المحافل والملتقيات والكتابات ، بالرغم مما يستحقه من قراءة وتأمل واهتمام .

كان إحساسي باختلاف سامح درويش - كما ذكرت في مستهل هذه السطور - عن رفاقه في الكوكبة الشعرية ، واضحا ومؤكدا . وقد أتيح لي أن أعبر عنه في المقدمة التي كتبتها لديوانه الأول: الطريق إلى ك عندما قلت عنه: كانت اللغة التي يستخدمها سامح أكثر حدة وبروزا ، وكانت مشاعره المستوفزة والمتقدة أكثر وعيا وجسارة ، وكان شخصه وسمته الإنساني أكثر تواضعا وميلا إلى البعد عن شواغل الساحة وأضواء المجتمع الثقافي ، مؤثرا العزلة والانفراد .

ويتخرج سامح درويش طبيبا يتعامل مع مرضاه بمبضعه ورهافة مشاعره ، ويده علي نبض المجتمع وخفقات وجدان جيل يواجه عصرا مغايرا وقيما مهتزة ، وسلما مقلوبا ، وبحثا عن الطريق . ثم يرحل الطبيب الشاب إلى الجزائر ليعيش هناك تجربة الاغتراب ، وتجربة اختزان الخبرات والمواقف ، والعمل علي اكتمال أدواته الفنية ، ليصبح صوته الشعري أحلي ، ولغته الشعرية أصفي ، وتجاربه الإنسانية أغني وأبقي .

وكنت أري وقتها أن سامح درويش في مجموعته الأولي الطريق إلى ك لا يجيئنا من فراغ . بل هو يجيء من أرض الشعر وزمن المعاناة وأفق التوتر والانشطار بين الانتماء إلى ينابيعه وجذوره ، وثورته العارمة علي كل ما هو سلبي ومتخلف وغارق في العدم . وبين الثورة والانتماء يعلن سامح درويش عن موقفه الإنساني والشعري . إنه المهموم بوطنه حتي النخاع ، ونقده هو نقد المحب الحاني الراغب في الأفضل ، لا نقد المتمرد أو الخارج علي الأعراف والتقاليد . وهو أيضا الملتزم في الشعر ، بحقيقة هذا الشعر وجوهر كيميائه ، التزاما لا مجال فيه لمساومة أو ترخص أو تخل عن الشعرية ، أو مجاراة لا صحاب الموضات الشعرية الذين أفسدوا الساحة وأخرجوا الشعر عن جوهره وأبعدوه عن جمهوره الحقيقي ، ووقعوا في الارتباك والتخليط والركاكة .

يقول سامح درويش في أحدث مجموعاته الشعرية صدورا أسئلة للوصول (١٩٩٨) والتي كتبت قصائدها بين عام ي١٩٩٨ ، ١٩٩٥ ، وقد أغواه بحر المنسرح بموسيقاه الشجية كما أغوي من قبله عبد الحميد محمود:

في ظلمة العمر ـ يا ابتسامتها ـ
أشرقت شمسا تلوح مؤتلقة
تبدد الخوف ـحين ألمحها ـ
فتلمس الأمن ورحي القلقة
يومض لي في ضيائها أمل
علي طريق باليأس محترقة
في ظلمة العمر ، يا ابتسامتها ـ
أراك شمسا تنير لي أفقه
أراك ـ خلف الغيوب ـ أمنية
والروح تسعي إلى ك منطلقة

* * *

حبيبتي أنت فرحة ملأت
عمري حياة ، وبددت أرقه
وأنت أحلي قصيدة نظمت
في صفحات الخيال متسقة
وأنت أزهي ابتسامة ومضت
في وجه هذا الزمان مؤتلقة !

لكن آفاق العالم الشعري لسامح درويش ليست كلها ابتسامات ووجوها مؤتلقة وأرواحا بالحب منطلقة . ففي المركز منها معاناة هذا الشاعر وارتطامه بقدره إلى ومي ، ومعاناته القومية ، متابعا الدم العربي الذي يراق في صمت ، بلا ثمن ، ويذهب بددا بعد أن تساوي بالهباء . إنه مشهد من أيام أندلس يعاد ، والشاعر - في مونولوجه النازف ـ يستشعر لفح الرماد ، وانعدام وعيه بما يريد وما يراد ، وأعضاؤه تتآكل وتنتثر شظايا لا يلملمها نداء ، مرددا المقولة المأثورة التي لخصت كل ما ساة الأندلس في لحظة السقوط التاريخية المروعة ، ابك كالنساء ملكا لم تحافظ عليه كالرجال ! .

يقول سامح درويش:

وجه بلون الموت
يأتي من ربي غرناطه
والخيل كابية علي أبو ابها
والسيف منكسر بكف الفارس المغدور
في عصر الطوائف
والتشرذم

والنثار
وجه بلون الحزن ،
يبكي مثلما تبكي النساء
علي ممالكه التي ما صانها مثل الرجال
فضاع فردوس ،
وتاريخ ،
ومجد ، وازدهار
وجه بلون الجدب ،
بين مدائن
سقطت سنابلها الخصيبة ،
تحت أقدام التتار
وجه بلون الجرح
يطرق في ربي القدس الأسير
وأنت ترقب في انكسار
من ذا يغير في زمان القهر
هاتيك الملامح والوجوه
ويكتب التاريخ بالغضب المضيء
ويخطف النجم المسافر في المدار ؟
مازلت وحدك واقفا
والذات يدميها انشطار
مازلت وحدك واقفا
والأرض ضاقت
واستبد بها الحصار
مازلت منتظرا لشيء لا يجيء
أما مللت الانتظار !

الانفجار هو النتيجة الحتمية لمثل هذه الشحنة العارمة التي تملأ وجدان الشاعر ، وتمزقه منشطرا ، لذا فإن المد الشعري يأخذ به إلى النهاية التي تفصح عنها القصيدة منذ مقاطعها الأولي ، وهو يقول في خاتمتها:

لا تنتظر . .
دمك الذي قد سال فوق حوائط النسيان
لم يكتب سوي حرف البداية

في حكايات انتظارك
فانتفض . .
وانزع عن العينين ما يعشي
ومن أعماق نفسك
هسهسات الانفصام
وعد لذاتك
عد لذاتك
وانفجر
لا تنتظر !

في مجموعاته الشعرية الثلاث التي أتيح له أن ينشرها في طباعة لا ثقة : الطريق إلى ك ومسافات للعشق وعودة النورس ، وفي مجموعتيه اللتين أتيح لي قراءتهما في طبعتيهما التجريبتيين: المماليك والمقبلة في هالات الحب يجاهد سامح درويش - بكل إمكانياته المادية المتواضعة التي لا تسعفه كثيرا في مجال النشر - وعلاقاته التي لم ينجح - بطبيعته الانعزالية - في تعظيمها أو استثمارها وتطويرها - وبكل ما يمتلكه من عناد صخري - شبيه بصلابة جبال الجزائر - ومن دأب وإصرار ومثابرة ، من أجل أن يتيح لنفسه موطيء قدم في المشهد الشعري الراهن ، وأن يجد لنفسه ولصوته مكانا في زحام الأصوات المتصارعة والمتنابذة التي جعلتنا نحمد الصمم !

لقد استصفي سامح درويش لنفسه لغة شفيفة رهيفة ، بعيدة عن الهجنة والتبذل والركاكة التي سقط فيها كثير ممن يملأون الساحة بضوضاء جوفاء وادعاءات كاذبة وتشنجات تكشف عن الفشل والإحباط ، وإذا كان الشعر في جوهره وأخص خصائصه بناء باللغة ، فإن سامح دويش يملك من مفاتيح هذه اللغة وأسرارها الكثير ، وهو يعزف عليها - بدرجات متفاوتة - ألحانه الهادئة والعنيفة ، المتأملة والصاخبة ، ويوقع إيقاعاته الهامسة والمتوترة في تحكم واقتدار . ويبدو أنه استطاع - أخيرا - أن يوفق بين الطب والشعر ، وأن يعطي لكل منهما نصيبه من حياة الشاعر واهتمامه ، بعد أن التهم الطب - في وقت مضي - كثيرا من المساحة المنذورة للشعر .

والذي لا شك فيه ، أن نجاح الشاعر في نشر إبداعه الشعري المتراكم بين يديه ، ومن حوله ، ونجاحه في الخروج - روحيا ونفسيا - من حصار المنفي في بورفؤاد وفي محافظة بورسعيد بكاملها ، وانتماءه - الأكثر عمقا وانفتاحا ومشاركة - إلى الحياة الأدبية والشعرية في مصر ، بكل فورانها وتشابكها وإيجابياتها وسلبياتها ، كل ذلك كفيل بأن يضخ في عروق قصائده وشرايينها دماء جديدة ، وتجليات إبداع مغاير يعرف هو كيف يصيدها ويصوغ منها قلائده القادمة ، حاملة بصمات صدقه مع الحياة والشعر .

أصوات شعرية مقتحمة

فولاذ عبد الله الأنور

بقلم : فاروق شوشة

سمعت لا ول مرة باسم فولاذفي رسالة تلقيتها من المربي الكبير الراحل عبد المنعم الأسمر - وهو مني بمنزلة خالي - وكان وقتها يتقلب في مناصبه التعليمية وصولا إلى مدرسة سوهاج الثانوية العسكرية . وسرعان ما اكتشف بحسه المرهف وثقافته الأدبية واللغوية الواسعة بزوغ موهبة شعرية حقيقية من بين طلابه في المدرسة . من هنا كانت رسالته التي أرسلها في عام ١٩٧٢ حاملة قصيدتين من شعر فولاذ ، ورغبة في أن يتسع لهما البرنامج الإذاعي إلى ومي كلمات علي الطريق الذي كنت أقدمه في السنوات الخانقة بين نكسة١٩٦٧ وإشراق شمس السادس من اكتوبر١٩٧٣ ، ومن خلاله التقي المستمع لا ول مرة بعشرات الأصوات الشعرية البازغة في مصر والعالم العربي .

كانت قصيدة فولاذ الأولي تحمل عنوان ارتعاشة الرفض وتصطبغ بظلال من التأثر بقصيدة الشاعر الكبير محمود حسن اسماعيل رفض الهزيمة ، لكن فيها مع ذلك سمت شاعرية تفصح عن تمكنها من أدواتها ، ووعيها بتراثها الشعري - وهو ما نفتقده الآن في كثير من الأصوات التي تملأ الساحة الأدبية وليس لديها الحد الأدني من المعرفة اللغوية أو الوعي بجماليات القصيدة العربية عبر تاريخها الطويل - كان فولاذ - الذي لم يبلغ العشرين بعد يقول:

أرفض أن أتخيل دمعا

يجري فوق خدود القدس

أرفض أن ألقاها وجها

يطرق خلف حديد إلى أس

أرفض أن أستمع أنينا

منها ينقل روح البؤس

تلك عروس سلام حملت

في كفيها قرص الشمس

ثم انتظرت عيسي زمنا في الطرقات

حين أتاها طفلا ينطق بالكلمات

وأذيعت القصيدة معلنة عن ميلاد صوت شعري جديد ، سيقدر له بعد شهور قليلة أن يجيء إلى القاهرة - قبل حلول السادس من أكتوبر بيومين اثنين - ليصبح واحدا

مـن طـلاب كليـة دار العلـوم ، وواحـدا مـن إبرزشـعرائها وألمعهـم ، بعـد أن ودع الـصعيد واستقبل القاهرة بقصيدته التي يقول فيها:

في الرحلة التي قطعت بالقطار
دربها المديد
قادما إلى ك من شواطيء الصعيد
حسبت أنني نسيت في محطة الوداع
قلبي الوحيد
وأنني تركته معلقا علي نوافذ البيوت
حسبت أن وجهك الغريب عند ساعة اللقاء سيستدير للوراء
لكنني لما توقف القطار في محطة الوصول
ودقت الأجراس كي تقول:
القاهرة
رأيت فيك وجه جدتي القديم قبل رحلة الافول
يضم في التفاتة الحنان جسمي النحيل
فطرت يامدينتي إلى ك
وجدت قلبي المفقود يستريح راضيا
علي يديك
كبيتنا الذي يطل في وداعة
علي مشارف السهول !

وفي القـاهرة ـ الـتي رأي فيهـا وجـه جدتـه القـديم ـ يـصبح لـشعر فـولاذ مكانـه المرمـوق وهـو يـشارك بحمـاس الـشباب في العديـد مـن الملتقيـات والمهرجانـات الـشعرية ، يـسبقه اسمـه المـثير لغرابتـه خاصـة أنـه ـ بمـا تـوحي بـه دلالتـه مـن معـاني القـوة والـصلابة ـ يمثـل النقـيض لمـن يـري فـولاذ في حجمـه ورقتـه ووداعتـه ، ويـسعفه وجدانـه الـذكي التـأثر ، المتفـتح لكـل جديـد مـن حولـه ، والـنهم إلى القـراءة والاسـتزادة مـن المعرفـة ، وإخلاصـه للـشعر إخلاصـا يملأ عليـه حياتـه ، سـعيدا بمـا تنـشره لـه الـصحف والمجـلات ، وبتعليقـات القـراء والنقـاد ، وفي مقدمتهم اساتذته في دار العلوم .

وتعلـن لجنـة الـشعر بـالمجلس الأعلـي للثقافـة عـن مـسابقتها لـشعراء الـشباب لعـام١٩٨٥ ، ويلتمـع اسـم فـولاذ عبـد الله الأنـور فـائزا بالجـائزة الأولـي عـن قـصيدته إلى أبـي مـن عواصـم المـوت ، ومفـصحا للـصحافة الأدبيـة عـن صـدمته الـتي يعيـشها منـذ تـرك بيئتـه الأولـي في سـوهاج وجـاء إلى القـاهرة . فكـل مـا أتـي باحثـا عنـه في القـاهرة يكتـشف أنـه تركـه وراءه في صـعيد مـصر: الحـب والرضـا والانتمـاء وقيمـة الفـرد في إطـار العـشيرة الواحـدة وكـل مـا

هـو أصـيل حـتي الـشعر . ففـي الـصعيد ، كـل شـيء ينطـق شـعرا ، الطبيعـة ، الوجـوه ، البيـوت العتيقـة ، العـادات ، مواسـم الحـزن الـسنوية في زيـارة المـوتي ، عديـد النـساء في أفنية الـدور الواسـعة علـي مـن رحلـوا ، تـأدب الرجـال في مجـالس الـسمر . يقـول فـولاذ: هنـا في القـاهرة نكتـب الـشعر علـي الـورق أمـا في الـصعيد فكـل شـيء حولـك شـعر في شـعر ! أهـدي فـولاذ قـصيدته الفـائزة إلى أبيـه ، الـشيخ الجليـل القـابع بأعـالي الجنـوب في صـعيد مـصر ، يترقب أبناءه النازحين يطرقون عليه الباب ذات صباح مجهول:

سيدي
هو آخر خطوي علي الأرض
أعرف أن الزمان يمر
وأنك تولد في كل يوم
وأني أموت
وأنك تشرق بين صحاري المشيب
وأغرب بين حقول الشباب
وتمضي يباركك العمر
أبقي يحنطني العنكبوت
وأنك تمتلك الغد
والغد من مهجتي يتسرب
والأمنيات تفوت
وأنك كل الهداية
أني بعض الضلالة
أنك حزن المحطات إذ تترقب
أني طيش القطارات
إذ أتغرب ياسيدي وأضيع !

هـذا الـشيخ الجليـل القـابع بأعـالي الجنـوب في صـعيد مـصر ، أتـيح لـي أن أراه وأن أجلـس إلى ه مـرتين . في المـرة الأولـي كنـت مـدعوا إلى سـوهاج برفقـة الـصديقين الكـريمين الـدكتور محمـود الربيعـي والـدكتور محمـد حماسـة عبـد اللطيـف ، وفي بيـت الأسـتاذ عبـد الله الأنـور ـ والـد فـولاذ ـ عرفـت أنـه شـاعر عمـودي مـتمكن وأن زوجتـه الكريمـة هـي حفيـدة الـشاعر الكـبير ولـي الـدين يكـن ، وأن ابناءهمـا الأربعـة شـعراء: فـولاذ ومـشهور وأوفي والـسماح . وأدركـت أن الجينـات قـد لعبـت دورهـا في البنيـة الوراثيـة لهـذه الأسـرة العريقـة فانـسكب الـشعر في الـشرايين سـاريا مـع الـدماء ، وأتـاح المنـاخ الأدبـي الأسـري حظـا كـبيرا مـن الرعايـة والتوجيه للأبناء الأربعـة ، وفـولاذ هـو الابـن الأكـبر فـيهم . وقـد حرصـت علـي اسـتضافة هـذه

الأسرة الشاعرة - الأب وأبنائه الأربعة - في إحدي حلقات البرنامج التليفزيوني الأمسية الثقافية وكان لها صدي عميق ومؤثر عند كثير من المشاهدين ، وقرأ الأب الشاعر نماذج من شعره القوي الرصين ، المحافظ علي عمود الشعر العربي ، واعترف بأنه اكثر ميلا إلى شعر فولاذ وأوفي - اللذين يمثلان اقترابا من الصورة الأصيلة والصحيحة للقصيدة العربية أكثر من أخويهما: مشهور والسماح المتعاطفين مع التيار الدواثي ، لكنه في مجال الشعر لا يطالبهم بشيء ولايفرض عليهم اتجاها ، فليفعل كل منهم ما يشاء . وهو موقف مستنير لنموذج جليل من الآباء الشعراء . في عام ١٩٨٤ يتلقي فولاذ دعوة للمشاركة في مهرجان الأمة الشعري في بغداد كانت بغداد والعراق كله بالنسبة لفولاذ حلما ثقافيا وحضاريا وشعريا . واتصل حبل تردده علي العراق من خلال دعوات متتالية للمشاركة في مهرجان المربد الشعري والتواصل مع بغداد والعراق يتزايد ويتأكد ويعمق والشعور بالانتماء إلى الموروث الثقافي والحضاري يزيده اقترابا وحرصا علي إطالة أمد الزيارة وحين تتاح له فرصة العمل بالعراق يغتنمها وكأنها تحقيق لحلم العمر . ويبقي في العراق عام ين متصلين هما١٩٨٩ ، ١٩٨٨ ، يتوهج فيهما شعره - في بداية الأمر - وهو يتغني ببغداد والحنين إلى سوهاج وأمه وأبيه وأهله ورفاقه ويقول:

هذه هي بغداد عاصمة الشعراء
وهذا أنا - آخر الأمر - تحت سماء الخلافة
وعيون المها ما تزال إلى الآن
تجلب سحر الهوي
من علي الجسر حتي الرصافة !

كان فولاذ قد أصدر قبل الرحيل الأخير إلى العراق ديوانه الوحيد شارات المجد المنطفئة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٧ وأحدث الديوان صدي واسعا بين القراء والدارسين ، وكتبت عنه وعن مجمل شعر فولاذ دراسات نقدية كاشفة أبرزها ما كتبه الناقدان الجامعيان الدكتور محمود الربيعي والدكتور علي عشري زايد ، مؤكدين أصالة موهبته ، وصوته المتميز المقتحم وما سوف تمتليء به رحلته الشعرية - في مقبل الأيام . من

إنجاز شعري يتجاوز تخوم قصائده الأولي وديوانه الأول لكن فولاذ الذي استهوته بغداد ، وزياراته للنجف الأشرف ، وقراءاته الدينية والروحية ، حدث له ما لم يكن يخطر ببال لقد بدأ ينظر إلى الشعر علي أنه إثم يتطلع إلى نفض يده من معصية ارتكابه . وبدا في خضم هذا التحول الروحي والوجودي ، كما لو كان يبحث عن القناعة والرضا والسلام والأمان ، مهتما اهتماما بالغا بالتاريخ الإسلامي وفحصه وتمييزه ، عائدا إلى القرآن الكريم يستنسخه كاملا بخط يده ويلتهم في نهم تفسير ابن كثير وتفسير الجلالين .

وسرعان ما قرر توجيه موهبته الشعرية والأدبية إلى الدراسات الإسلامية ويعود فولاذ من العراق ليفاجيء الناس بهذا التحول ، ويدرك الذين كانوا يراهنون علي صوته الشعري أنهم قد خسروا خسارة كبيرة بينما كان فولاذ قد حسم أمره ومضي لسبيله يعمل مدرسا في مدرسة النهضة التجريبية للغات بحلوان منتدبا من مدرسة منارة حلوان الاعدادية للبنات ـ بالإضافة إلى عمله خطيبا بمساجد حلوان ـ معتمدا من وزارة الأوقاف ـ وساكبا في خطبه الدينية أقباسا من بقايا الوهج الشعري الذي كانت تشتعل به قصائده وتصور فولاذ أنه سيجد في الخطابة الدينية تعويضا عن قول الشعر ، لكن الشعر كان يتفلت علي لسانه وهو يخطب في الناس بيتا أو ابياتا أو مقطعا غير مكتمل من قصيدة وقد تملكته حتميا الموقف المشحون بالعظة والتأمل واسترجاة التاريخ وبكاء أحوال المسلمين في كل مكان وجاءت الانتفاضة الفلسطينية لتطيح بذلك السد المنيع الذي أحكم فولاذ إقامته في داخله بينه وبين الشعر . لقد كان من الضروري أن تتابع أحداث الانتفاضة ومشاهدها ـ البطولية والمأساوية في آن حتي يعود فولاذ إلى الشعر متأثرا بهذا الزلزال العنيف الذي رجه رجا من الأعماق ، وجعله يتنبه من جديد إلى حقيقته الإبداعية ، وإلي رسالته الشعرية التي لا تعارض بينها وبين توجهاته الدينية والروحية ، وإلي أن نهر الشعر الجاري في داخله ، والذي ظل ساكنا مجمدا طيلة عشر سنوات ، كان لا بد له من الاحتشاد والتفجر والتدفق ، فكانت قصيدته عن الانتفاضة التي نشرها في جريدة الأخبار منذ شهرين ونصف ـ ولم يتنبه أحد إلى أن الشاعر الغائب قد عاد إلى فنه الأصيل وموقعه الشاغر وحقيقته التي حاول طمسها دون جدوي كان فولاذ يهدي قصيدته إلى شروق أسعد مراسلة قناة النيل للأخبار في فلسطين وقد سماه إلى شروق أسعد في أرض النبيين

أين أنت ؟ وهل ما تزالين في القدس
تلتقطين بها صور العرس
للشهداء علي درج الأنبياء
أم انك في اللد
واقفة تنقلين لنا صور المجد
بين أزيز القنابل
الصبي يطوح مقلاعه في الهواء
ويرمي به عربات صفحة ومجنزرة وجحافل . .
طلعت من وراء التلال عليه ،
تدور حواليه .
وهو يدور ويقاتل !
وطن تعرفين تفاصيله

وقري بارك الله فيها ،

تجلي بها الأنبياء ،

وغازلها الشعراء ،

وحط بها الغرباء ،

دل علهيا الكتاب الكريم

أسعفينا ببعض الحضور الحميم !

ويقول في ختام قصيدته :

أتحفينا بهذا الجمال الذي تتحلي به القدس إذ يتخلي الكبار ، ويبقي الصغار

ويحرسها حجر ، وغلام مناضل !

لقد عاد فولاذ ـ مع الانتفاضة ـ إلى الشعر . عاد إلى نا نحن الذين نتابعه منذ بداياته في مطالع السبعينيات . آملين أن تكون عدته إلى نفسه ، وإلي حقيقة ، بداية لمرحلة شعرية جديدة: لغة ومذاقا وروي وحالات ومواقف مستفيدا من سنوات جند فيها نفسه لرسالة آمن بها ونذر كيانه لها ، ومن تكوين ثقافي وأدبي راسخ طالما أتكأ إلى ه وانطلق حاملا إرادة التجاوز ولديه من ذكاء الوجدان وحساسية التلقي ونفاذ البصيرة ما يجعله قادرا علي النظر والتأمل . ولعله يبدأ باصدار مجموعته الشعرية الثانية الحبيسة بين لفائف أوراقه ، ملقيا بنفسه من جديد في خضم الواقع الأدبي ، صوتا من أصواته الأصيلة المقتحمة .

أصوات شعرية مقتحمة ٤ ـ فوزي خضر

بقلم: فاروق شوشة

عندما استمعت إلى فوزي خضر لا ول مرة يلقي شعره في ملتقيات الإسكندرية الشعرية قلت لنفسي هذا هو الشاعر الذي سيقدر له خلال أمد قصير أن يكون صوت الشعر فيها ، وأن يكون طليعة لجيله من الشعراء . كان بنيان قصيدته العمودي قويا ومتماسكا ، ولغته شديدة الإحكام ثرة الإيحاء ، وقدرته الفذة علي التصوير تتكشف عن رسام بارع بالكلمات للوحات فاتنة معبرة ، كان واضحا أنه شاعر شاب تنبئ خطواته الأولي عن سيطرة واضحة علي أدواته ، وثقافة تراثية ـ شعرية وغير شعرية ــ يتكئ إلىها ، بينما ترتج أعماقه بجدل القديم والجديد ، وغواية المغامرة التي لم تفصح عن نفسها بعد . في ذلك الوقت البعيد من السبعينيات ، كان شباب الشعر في الإسكندرية يلتفون حول الشاعر عبد المنعم الأنصاري التفافهم حول القدوة والنموذج والأستاذ . ولم يبخل عليهم بالكثير من وقته واهتمامه ، بل لقد جعل من نفسه معلما في ورشة شعرية ، تتخللها دروس في سلامة العروض والأوزان وإحكام القافية ، وبناء القصيدة ، وترك شعر عبد المنعم الأنصاري آثارا واضحة في شعر كثير من شعراء الشباب وتمرد عليه آخرون ، أرادوا أن تكون لهم حرية الاختلاف والتجريب والتجاوز ، من غير أن يتوقفوا عند نموذج معين ، أو حالة شعرية خاصة ، وكان فوزي خضر واحدا من هؤلاء الذين كانوا حريصين علي المغايرة ، وعدم الوقوع في أسر التأثر ، خاصة أن سماء الشعر في الإسكندرية كانت تزدحم بالعديد من الشعراء أصحاب الخبرة والتاريخ: عبد العليم القباني ومحمود العتريس وإدوار حنا سعد وأحمد السمرة ومحمود عبد الحي وغيرهم . لكن عبد المنعم الأنصاري كان أكثر أبناء هذا الجيل نشاطا وأكثر استعدادا لممارسة دور المعلم والأستاذ وصاحب الطريقة ، وكان شعره القوي المحكم ، المرهف كالنصل ، أسرع نفاذا إلى وجدان شباب الشعر في الإسكندرية ، بحيث لم يعد ممكنا النظر في البدايات الشعرية لكثير منهم دون الكشف عن تأثرها بقصائد معينة للأنصاري .

أتيح لفوزي خضر أن يفصح عن موهبته الشعرية ــ في بواكيره ــ بصورة كاملة من خلال مجموعته الشعرية الترحال في زمن الغربة التي صدرت له عام ١٩٨٤ عن المجلس الأعلى للثقافة ، سبقتها مجموعة مشتركة (مع غيره من الشعراء) بعنوان أغنية لسيناء عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٥ . لكن مجموعة الترحال هي البداية الحقيقية في وصول شعر فوزي إلى الناس ، وإتاحة الفرصة للكشف عن تخوم عالمه الشعري وتميز لغته الشعرية ، خاصة أن المجموعة أتيح لها تقديم جميل مفعم بالتعاطف والنفاذ إلى البنية التحتية فيها بقلم الشاعر الكبير محمد إبراهيم أبو سنة الذي رأي أن

الشاعر يؤكد في هذه المجموعة شاعريته وقدرته الماهرة علي استخدام أدواته وانتسابه إلى تراثه الشعري الأصيل وتمرسه بالتجربة الشعرية حتي لا يكون تحرره الفني هربا ، أو ضعفا أو مجاراة للشائع من الأساليب . وهذه كلها آية شاعريته الأصيلة لا نه يجهد في أن يكون صوته خاصا تماما كمعاناته وتجربته في الحياة .

يقول أبو سنة في ختام مقدمته الكاشفة: إن هذا الديوان الذي يصور معاناة الشاعر وبحثه عن ذاته وحبه لوطنه يكشف عن موهبة شعرية أصيلة تضيف جديدا إلى حركتنا الشعرية المعاصرة بما تمتلكه من وعي بتجربتها في الحياة وفي الفن . وهذا الديوان ملئ بالوعود التي يدخرها المستقبل لهذا الشاعر الذي ينحت نماذجه الشعرية من أعماق تراثه الأدبي القديم والحديث علي السواء . ومن هنا يتميز هذا الصوت بين أصوات جيله بدقة تصويره وحسن تعبيره وسيطرته الواضحة علي أدواته . وإذا كانت الحيرة تتبدي في أحيان كثيرة في ثنايا هذا الديوان فإنها حيرة الاكتشاف . ولاشك أن الشاعر يملك في أعماقه كل ما يرشده إلى إثراء تجربته وتطويرها والسمو بها إلى أن تصل إلى مستوي الروائع في أدبنا المعاصر كان أبو سنة علي حق في هذه النبوءة ، فقد كانت أمامه موهبة شعرية مقتحمة يقول صاحبها:

خيل من الماء في جنبي تستبق
والنهر يركض في صدري وأحترق
قلبي عليك بلا سمع ولا بصر
لكنه شاعر بالنبض يندفق
أتاك يرهقه صوم بلا أمد
ولا جزاء ، فلا شط ولا غرق
الدرب يسخر والأحلام خافية
والشوك في قدمي يدمي ويخترق
يا رحلة القلب يا عمرا بلا سكن
ويا طريقا توالت دونها الطرق
قلبي عليك يداويني ويقتلني
فأكتوي بشفاء: بعده الرهق
ثم يقول فوزي خضر:
أتيت ، في مقلتي الإقدام والفرق
وفي يدي ثرثرات الحبر والورق
ناديت ، يا قرب صوتي ، أنت واحدتي
وأنت نبضي والأنفاس والرمق

أجلت فيك مواعيدي إلى زمن

هي النوافذ والميلاد والشفق

تمثل هذه الأبيات من قصيدة أنت واحدتي قصائد الرحلة الأولي في ديوانه الترحال في زمن الغربة ، وهي قصائده التي جاءت علي النظام العمودي للقصيدة ، بناء وإحكاما وسيطرة لغة وأدوات ، وجعلت لفوزي خضر موقعه المتقدم بين أبناء جيله من شعراء الإسكندرية . وربما لحقه بعض العنت والاضطهاد والإعراض ممن تصوروا أن بأيديهم مفاتيح الشهرة والمجد ، يفتحون بها أمام الشباب أبو اب المستقبل الحافل . لكن طبيعة فوزي خضر التي كانت تأبي التبعية والانقياد جعلته مشاكسا لا مسايرا ، وحرمته كثيرا من دوران الذكر الذي أتيح لغيره ، لكنه لم يكن يأبه ولا يبإلى ، ومضي في سـ ـبيله .

في بقية قصائد الديوان نفس شعري مغاير ، هو نفس القصائد التي بدأ يكتبها من شعر التفعيلة . من هنا كان حريصا علي أن يواجه الشاعر قارئه ـــ في أولي مجموعاته الشعرية المستقلة ـــ بقصائده في الشكلين العمودي والتفعيلي . وهو يثبت أن الموهبة الشعرية الحقيقية قادرة علي التشكيل من خلال الصيغ المختلفة ، غير عابئة بالتوقف عند نمط واحد بعينه ، فكيمياء الشعر هي الجوهر ، والشعرية الحقيقية تلفح القارئ والمتلقي مع السطور الأولي من القصيدة:

يقابلني النهر عبر الطريق

فيجعل قلبي سفينة

ويجعل وجهي غداء الليإلى والماء

أمنحه ما يشاء

وأسأله عن مساء مدينة

يسافر قلبي إلىها

يدق بدقاته بابها

يستريح علي راحتيها

وتشهق موجة

فأقذف قلبي في النهر

تخنقه الدائرات ،

تحملق في وجهي الغض عين من الحياء

تسألني

فأسائل عن نجمة صاحبتني زمانا طويلا

وتعرف كل سؤال وتعرف كل جواب

ولكنها هبطت ذات يوم إلى النهر
أسأل عنها
ولكن تخون النجوم التي تتلألأ في النهر
يلتهم الماء وجهي
أمشي: أدق بأقدامي الأرض أوقظها .
ما الذي يستبد بك الآن:
حزن الرضي أم قنوط التمرد ؟
كيف تقلص في ناظريك النخيل
وكيف تضيق المسافات ؟ !

سيظل النفس الشعري العمودي - الذي أبدع فيه فوزي خضر قصائده الأولى محققا انتصاراته الباكرة - سيظل هذا النفس يلاحق صاحبه ، في جدل الخفاء والتجلي ، في ثنايا العديد من قصائده القادمة ، وفي مجموعاته الشعرية المتتابعة . مستريح الشاعر إلى هدهدته ومطامنته ، ويستحضر إيقاعه في مفتتح قصائده التفعيلية حينا أو في حمياها ، كما فعل في قصيدته عن النيل والبلاد البعيدة التي استهلها بقوله:

كسبت من الأيام ما لا أرومه
وما رمت في ساحاتها ظل قاصيا
وما كان خسران سوي ما خسرته
وقد كان في كفي وقد كان دانيا

أوفي قصيدته الفراعنة يهتفون في مظاهرة الفيضان التي أهداها إلى الإذاعي والإعلامي الكبير والمخرج الفنان مدحت زكي الذي ارتبط اسمه باسم الشاعر من خلال البرنامج الثقافي المتميز كتاب عربي علم العالم يكتبه فوزي خضر ويخرجه مدحت زكي ، ويجمع بينهما الامتزاج الفني والفكري الرائع الذي كثيرا ما يحدث بين الكاتب والمخرج ، فإذا حدث ، كان ذلك إشارة إلى إنجاز عمل إبداعي غير تقليدي ، خاصة إذا أضيف إلىهما أداء متمكن رحين لا علامي كبير هو أمين بسيوني ، في هذه القصيدة يجاذب الحنين الشاعر إلى النفس العمودي وهو يقول:

عانقيني ، أيقظي شفتي
وارتوي مني ، ومن عطشي
أمنيات الحظوة امتلكي
وسماء الفرحة افترشي
واحمليني للحقول رضي
وازرعي الأحلام وانتعشي

أرجعي لي كل مبتعد
وابعدي عن كل مرتعش
وارجعي في مقلتي قمرا
ضوؤه لون علي فرشي

والقصيدتان من ديوانه النيل يعبر المواسم الذي صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩١ .

ومادمت قد أشرت إلى البرنامج الإذاعي الشهير كتاب عربي علم العالم الذي يكتبه شاعرنا منذ سنوات طويلة ، فلابد من مصارحته بأنه قد استنفد من شاعريته الكثير ، خاصة أنه كان ينطق شخصيات برنامجه بين الحين والحين بمقطوعات من إبداعه الشعري . فهو لم يكتف بالبحث والدراسة والتحقيق والصياغة الإذاعية لهذه الحلقات ، وإنما حرص علي أن يسكب ما ء شاعريته عليها ، وأن يفيض من وجدانه الكثير . مما استنفد ـ بكل تأكيد بعض روافد هذه الشاعرية ، وجعل البقية الباقية لشعره الخالص تحاول دائما تعويض الفاقد ، ومواجهة تحدي الكتابة الإذاعية إلى ومية ، واستنزافها الكبير للطاقات ومختزنات الشعور .

بالرغم من هذا لم يتوقف فوزي خضر عن الإبداع . مجموعاته الشعرية تتتابع : قطرات من شلال النار (١٩٩٣) مسافات السفر ، (١٩٩٦) وأخيرا : أمواج في بحر الحروف (١٩٩٩) وتسبقها مجموعاته : فصل في الجحيم (١٩٨٥) ولهية إلى الإسكندرية (١٩٨٨) والنيل يعبر المواسم١٩٩١) تتخللها دراستان بعنوان إطلالة علي الشعر السعودي وأحمد بن ما جد أسد البحار وقصص للأطفال عن عمر المختار و عبد الرحمن الداخل ، والصوت الغريب . وعندما يحصل الشاعر علي جائزة الدولة التشجيعية في الشعر ، تكون بمثابة تأكيد جديد لمكانته التي تأكدت من قبل ، ودفعة قوية له من أجل أن يصبح أشد إخلاصا للشعر ، وهو الذي يحترق وينوء بأعباء حياة صعبة ومحن إنسانية قاسية لا يقدر عليها إلا الأبطال الصامدون الصابرون .

ولقد صمد فوزي وصبر ، واستحق تقدير محبيه وعارفي قدره الشعري ، وهم ـ والحمد لله ـ كثيرون . في أحدث دواوينه يقول:

لماذا عبرت الطريق معي ؟
لأنك كنت تريدين ظلا ؟ !
قفي ،
أنا لست ظلا
. . . . .

مات الماء

لا ما ء

منذ إلى وم:

لن تجدي غير تحاريقي

مادامت نارك لا ترحم

. . . .

كلما اندفعت في الطريق خطاي:

يسد الطريق جبل !

من هنا

سوف نبدأ دربا جديدا

لقد تحقق الكثير من نبوءة الشاعر الكبير محمد إبراهيم أبو سنة التي أفصح عنها في تقديمه لديوان فوزي الأول ، وشاعرنا - بما يمتلكه من موهبة مقتحمة وخبرة واسعة ولغة شديدة الخصوصية والتمايز - قادر علي المزيد من التجاوز والمغامرة ، والإبحار بنا إلى تجليات شاعرية بلا ضفاف .

أصوات شعرية مقتحمة - ٦ -

أحمد فضل شبلول

بقلم: فاروق شوشة

لم يكن أحمد فضل شبلول - في يوم من الأيام - مجرد واحد من أصوات الاسكندرية الشعرية المقتحمة ، وإنما كان - بالاضافة إلى ذلك - واحدا من أبرز الدارسين والباحثين - في جيله - لواقعها الأدبي والثقافي ، قبل أن يتجاوز هذه الدائرة الجغرافية الضيقة ، لتصبح اهتماماته وشواغله باتساع العالم العربي كله .

من هنا فإن إبداع أحمد فضل شبلول في مجموعاته الشعرية : مسافر إلى الله (١٩٨٠) ويضيع البحر (١٩٨٥) والطائر والشباك المفتوح (١٩٩٨) وتغريد الطائر الآلي (١٩٩٩) والمجموعة المشتركة' عصفوران في البحر يحترقان (١٩٨٦) والشعر الذي كتبه للأطفال في مجموعتيه : أشجار الشارع أخواتي (١٩٩٤) وحديث الشمس والقمر (١٩٩٧) - يوازي هذا الابداع الشعري ويجاوره دراساته الأدبية والنقدية عن أصوات من الشعر المعاصر وقضايا الحداثة في الشعر والقصة القصيرة وجماليات النص الشعري للأطفال وأدباء الانترنت وأدباء المستقبل ومن أوراق الدكتور هدارة وأصوات سعودية في القصة القصيرة ونظرات في شعر غازي القصيبي وأدب الأطفال في الوطن العربي بالاضافة إلى جهوده في المعجمية العربية التي تمثلت - حتي الآن - في إصدار معجم الدهر ومعجم شعراء الطفولة في الوطن العربي خلال القرن العشرين ومعجم أوائل الأشياء المبسط . وفي ختام القائمة يجيء كتابه : بيريه الحكيم يتحدث وهو تبسيط لبعض أعمال توفيق الحكيم للأطفال .

هذا الانجاز الابداعي والبحثي الذي حققه أحمد فضل شبلول في عقدين متتابعين من الزمان - إذا اعتبرنا عام ١٩٨٠ بداية الانطلاق الحقيقية لصوته مع صدور مجموعته الشعرية الأولي - يكشف عن مدي الجهد والجلد والدأب والمعاناة في مسيرته ، وعن كدحه المستمر في دوائر متداخلة من الانشغال الابداعي والبحثي ، والعودة من هذا الكدح بصيد وفير يفوق بكثير ما حققه أي من أبناء جيله - في الاسكندرية أو في غيرها - خلال هذه الحقبة من الزمان .

كما أنه إنجاز يكشف عن الملمح الأساسي في شخصية أحمد فضل شبلول الأدبية ، وهو التداخل والتفاعل بين عالم البحث والدراسة بما يمنحه من وعي وصحو ويقظة ، وولع بالمعرفة والتفسير والوصول إلى الاجابات ، وعالم الابداع بما يتطلبه من احتشاد وعكوف وغيبوبة ووجد فني منصهر في حميا اللحظة الشعرية . هذا الوعي الكاشف وهذا

الولع بالمعرفة سيؤديان به في المرحلة الراهنة من إبداعه الشعري لي أن يصبح ـ كما سماه الدكتور السعيد الورقي ـ شاعر الرؤيا الحضارية الذي قدم في ديوانيه الأولين شعرا له عمق الفكر وبساطة التوصيل ، مصحوبا ـ إلى حد ما ـ ببعض الابتكارات في الصياغة التي جاءت نتيجة امتزاج الشاعر لديه بالكون ، وسعيه إلى أن يكون خالق رموزه وصوره ، ونتيجة لا تحاد التجربة الروحية والميتافيزيقية والكيانية والمادية ـ وهكذا عرفنا شبلول شاعرا يحدث أثرا بلا ضوضاء ـ ويتابع شبلول الطائر وجدانيته الحسية في ديوانه الجديد تغريد الآلي ولكن من خلال مفردات كونية جديدة تنهل من علوم الكمبيوتر والطبيعة والكيمياء والفضاء وسائر العلوم المادية الأخري ، إلى جانب الطبيعة والانسان ، فكأنه بهذا يقدم الطبيعة إزاء المعرفة ، والفن في مقابل المادة التكنولوجية .

هذه السطور التي نقلتها من الدراسة الكاشفة للدكتور السعيد الورقي ـ أكثر النقاد الجامعيين في الاسكندرية متابعة لا نجاز أحمد فضل شبلول ووعيا بما يثيره من قضايا واهتمامات ، هذه السطور تؤكد بدورها جدلية الوعي والابداع عند شاعرنا ، وتعاظم الدور المعرفي لديه ، وعناد الرغبة المستميتة في المغامرة من أجل الكشف عن وقع تكنولوجيا العصر وآلياته علي الوجدان الانساني ، وتوسيع أقطار الفضاء الشعري ليصبح فضاء كونيا ، تملؤه المعرفة الإلكترونية ، ويمزقه التناقض بين الكائنين الانساني والآلي ، وتثريه ذات شعرية مغايرة ، تحاول أن تقبض علي ما تبقي من وهج الغنائية ، وأن تتسع ـ في الوقت نفسه لثورة الحداثة ، والوعي بالعالم الجديد الذي تتسيده المعرفة العلمية والحضارة المادية .

بينما يتناول الناقد والباحث الجامعي الدكتور حسين علي محمد الظاهرة نفسها في تحولات أحمد فضل شبلول الشعرية ، واصفا ما قام به في ديوانه تغريد الطائر الآلي بأنه يؤنسن الآلة ويجعلها تتجاوب وتحس وتشعر ، وأنه يعي ما يفعله وعيا شعريا . ويستشهد بما قاله الشاعر في مقاله عن الشعر والمنجز الآلي والإلكتروني: إن الاتجاه الشعري في عصر التكنولوجيا والفضاء يتميز عن اتجاه الشعر السابق في وصف المخترعات الحديثة ، الذي كان يتناول الظاهرة من الخارج ، ولا يقترب منها ولا يرصد وقعها علي المشاعر الانسانية فمجرد وصف غواصة أو سيارة أو طائرة من الخارج ليس له هدف سوي التعريف بالمنجز وشكله الخارجي وكيفية استفادة الانسان منه . وهنا تبرز الذهنية وتتجلي عن مثل هذا الوصف ، الذهنية التي تعني التخطيط المسبق للعمل الفني وتوجيه مساره وفقا لهذا التخطيط ، الذهنية التي تتمثل في انعدام التلقائية والصدق وعدم الكشف الحقيقي عن هموم الانسان وتطلعاته ورصد مشاعره والتعبير عن انفعالاته .

أما الاتجاه الشعري الجديد ـ الذي يمثله هو في تعامله شعريا مع المنجز الآلي والإلكتروني ـ فإنه يدخل إلى قلب المنجز ، ويحاول ان يسبر أغواره ويرصد مشاعر

الانسان وانفعالاته تجاهه وكيفية تعامله معه ، وهل يتقبله وجدانه باعتباره واقعا حياتيا يتعايش معه ، أم يرفضه ويقاومه . وهل هذا المنجز سيحط من قيمة الانسان أم سيعلي من انسانيته ؟ هذا ما يقوله أحمد فضل شبلول في مقال له يضمه كتابه : أدباء الإنترنت : أدباء المستقبل كاشفا عن الاساس النظري الذي قامت عليه قصائد أحدث دواوينه ورؤياه الشعرية كما يجسدها هذا الديوان ، الذي سيظل يغري النقاد والباحثين بالتأمل والتحليل والكشف عن حجم الشعرية فيه وحجم التوفيق بين المادي والانساني في تغلب كل منهما علي الآخر ـ كما لا حظ الدكتور الورقي ـ وتردد القصيدة بين هذا وذاك .

يقول أحمد فضل شبلول في واحدة من أجمل قصائد ديوانه تغريب الطائر الآلي وهي بعنوان جراي .

والجراي هي الوحدة العالمية الحديثة لقياس الجرع الاشعاعية:ـ

كانت نهرا من عسل وصفاء
ينبوعا من رقة
وصفاء
تنجب من دون مشقة
وتغني للبحر وللنورس
للأطفال المحرومين ،
وللأطفال السعداء
وأنا
يختمر الاشعاع بكفي
تسقط مني حنجرتي
تتليف أفكاري ، أوردتي
ويهاجر أنفي
تتأين تفاحة حبي
تتكلس أزهار الأرحام !

* * *

ذات مساء
والأحلام تداعب ثغر الأيام
أكلت من تفاحة قلبي
شربت من سحر الأفكار
من ساعتها . .
كفت عن كل غناء

سقطت في بئر العقم الأبدي
وفي أوحال الطفرات الجينية
إشعاع ،
أورام ،
أزمان منغولية
كل جراي
جبل من سم فوق الرئتين
قنبلة من نيترون
وفضاءات من كربون
كل جزيء
يخترق جدار البشرية
ويحولها لخلية
سرطانية
فكفاكم تشعيعا للأمخاخ
وللأعضاء
كفاكم تفتيتا لمشاعرنا
وكفاكم تفليقا للذرات
فأنا أمشي أحمل نعشي
وخلايا الأموات !

عندما قدر لا حمد فضل شبلول أن يغيب عن الاسكندرية ، وعن مصر كلها سنوات طويلة - من أجمل سنوات العمر الجميل - قضاها في السعودية وهو يعمل في مؤسسات النشر والصحافة - يقرأ ويكتب ويؤلف ويبحث ويعمل في المعاجم ويشارك في الموسوعات - استطاع أن يكون لنفسه رصيدا معرفيا وزادا علميا يقتحم به العصر ، ويتابع آفاق المستقبل ، ولم تستطع الغربة القاسية - بكل ما تسببه من معاناة إنسانية وكشف عن النوازع السيئة والشريرة في نفوس بعض الناس - وحتي الأساتذة - الذين رأوا في نزوع شبلول الحداثي والمعرفي مروقا وجنوحا وخروجا علي التقاليد والمعتقدات ، فأغروا به وظاهروا عليه ، تقربا وولاء لا ولي الأمر . وكان شبلول يصارحني بهمومه وأحزانه كلما لقيته - خلال هذه السنوات الطويلة من الاغتراب ، في القاهرة ، أو في الرياض - من خلال المشاركة في مهرجان الجنادرية - كان قلبه ينزف ، وهو يعرض لحال الجالية المصرية - شأنها في كل مكان من العالم العربي - وعندما يتفرغ بعض ابنائها لملاحقة البعض الآخر من الناجحين ، يدسون لهم ويكيدون ، وينفسون عليهم تفوقهم وتألقهم ، خاصة

مـن يظـن أنهـم في موقـع الأسـاتذة الكبـار الـذين ينبغـي أن يكونـوا القـدوة والـصفوة والمثـال . وأغلـب الظـن أنهـم الآن ـ وقـد انقـشعت الغمـة وانهمـرت الـسنون وصـار كـل في طريـق ـ نـادمون علي ما حاولوا القيام به ضد شبلول ، مناقضا لوعيهم وقيمهم ومسئوليتهم .

وأشـهد أنـي لم أعـرف واحـدا أخلـص ـ طـوال سـنوات اغترابـه وابتعـاده عـن الـوطن ـ لا صـدقائه واخوانـه كمـا أخلـص أحمـد فـضل شـبلول . لا ينـشر خـبر أو تكتـب كلمـة أو مقـال أو دراسـة أو حـتي رأي في تحقيـق أدبـي إلا ويـسارع شـبلول ـ في محبـة حقيقيـة غـامرة وحـب للخـير يـسري في دمـه ـ إلى تجميـع هـذا كلـه ـ وإرسـاله إلى مـن يعنيـه ويخـصه مـن أصـدقائه وصـحابه ورفاقـه ، وكأنـه عيـنهم إلى قطـة المتابعـة ، وسـفيرهم الثقـافي والأدبـي حيـث هـو ، وسـاعدته طبيعتـه البحثيـة والدراسـية علـي القيـام بهـذا الـدور ، في يـسر وطواعيـة ، دون كلل أو ملل وعلي مدار السنوات المتطاولة .

ولم تغـب الاسـكندرية ـ محبوبتـه الكـبري ـ عـن وجدانـه طـوال سـنوات المنفـي والاغـتراب ـ كانـت دائمـا تـشرق بـين سـطوره وتـسطع مـلء كلماتـه ، يغـني لهـا ، ويهتـف عنـد لقائهـا ، محتـضنا بحرهـا ورمالهـا وطيورهـا في شـحنة وجدانيـة وجوديـة عارمـة ، وهـو يقول:

الرمال تودع أحزانها

وتجفف ذراتها

الطيور تحلق فوق الشواطيء

عشاقك الأقدمون يجيئون من كل فج عميق

* * *

القوارب تسبح بين يديك

البحار تراقص ألوانها

وتدلل أمواجها

الشباك تداعب أسماكها

فاهدئي يانوارس

إن الطريق إلى ك مضييء

* * *

دائما تشرقين

فأنت الزمان الذي لا يدور إلى شمس

وأنت الجمال الذي لم يقف

عند نهر الحقيقة

وسواك ، مساحيق من عنفوان

دائما تخلصين لعشاق هذي البحار
الذين سقتهم دموع الرمال
قناطير ملح وهم
ثم عادوا ـ فرادي ـ كمثل الحجار
إنهم قادمون :
السماء تغني لنا
والطيور تحط علي صدرنا
إنهم قادمون :
فافتحي صدرك الآن للعابرين
الذين يجيئوننا تائبين
فأنت الزمان الذي لا يدور
وأنت الجمال الذي لم يقف
عند نهر الحقيقة !

* * *

ولقد عاد شبلول ـ بعد طول اغتراب ـ إلى محبوبته الاسكندرية ، ليقوم بدوره المحوري في حركتها الأدبية والثقافية ، مزودا بالمزيد من الخبرة والوعي والنضج ، ومستشرفا ما حلم به دائما وراهن عليه .

أصوات شعرية مقتحمة - ٧ -

محمد محمد الشهاوي

بقلم : فاروق شوشة

لا أعـرف موهبـة شـعرية كـبيرة تعـرض صـاحبها للظلـم الـذي تعـرض لـه الـشاعر محمـد محمـد الـشهاوي ، بـسبب إقامتـه وحياتـه بعيـدا عـن القـاهرة ، وإصـراره علـي أن يكون مرتبطا بقريتـه عـين الحيـاة إحـدي قـري مركـز قلـين في محافظـة كفـر الـشيخ . هـذا الظلـم الـذي أدي إلى حجبـه بعيـدا عـن أضـواء الحيـاة الأدبيـة والثقافيـة ، وإغفالـه في المناسـبات والملتقيـات علـي مـستوي العاصـمة ، بعـد أن أصـبح الـوعي بـه وبإنجـازه الـشعري وحجـم موهبته مقـصورا علـي القلـة القليلـة المحيطـة بـه مـن أصـدقائه ورفاقـه ، وهـو الـذي يقـترب الآن من عام ه الحـادي والـستين ، مخلـصا طيلـة عمـره للإبـداع الـشعري الـذي صـدر لـه فيـه خمـس مجموعــات شــعرية هــي: ثــورة الــشعر (١٩٦٢) ، قلــت للــشعر (١٩٧٣) مــسافر في الطوفــان (١٩٨٥) ، زهــرة اللــوتس تــرفض أن تهــاجر (١٩٩٢) وإشــراقات التوحــد (٢٠٠٠) فـضلا عـن العديـد مـن القـصائد الـتي نـشرها في الـصحف والمجـلات المـصرية والعربيـة ولم تـــــــــــضمها حـــــــــــتي الآن مجموعـــــــــــة جديـــــــــــدة .

وبـالرغم مـن هـذا الظلـم الفـادح وهـذا التجاهـل القاسـي ، فإنـه لا يـشكو ولا يتـألم . ولم يـسمح للمـرارة بـأن تتـسلل إلى وجدانـه أو إلى شـعره ، شـأنه شـأن المبـدعين الحقيقـيين الكبـار ، الـذي لا يعنـيهم أكثـر مـن أن يقولـوا كلمـتهم ويمـضوا ، لا يـشغلهم كـثيرا أن يلتفـت النـاس أو لا يلتفتـوا ، ولـو أنـه شـغل نفـسه بالتفـات النـاس واهتمـامهم ـ خاصـة النقـاد والأدبـاء مـنهم ـ لكـان قـد توقـف منـذ زمـان طويـل عـن مواصـلة رحلتـه الجـادة الـصارمة مـع الإبـداع ، وهـو الـذي يقتطـع مـن كيانـه البـشري وقـودا لتـوهج شـعره ، ومـن جـسده العليـل ـ الـصامد لـلآلام في بطولـة نـادرة ومقاومـة باسـلة ـ زادا لا يامـه القاسـية ، وغربتـه بـين قومـه ومجاليـه ، وعزلتـه الـتي فرضـها علـي نفـسه بعيـدا عـن التلـوث الأدبـي والثقـافي وانهيـار سـلم القيم والمعايير الـذي تمثلـه القـاهرة لكـل مـن ينـأي عنهـا ، ويتأملـها علـي البعـد ، ويـري فيهـا مــا لا يــراه الغــارقون في زحامهــا وضوضــائها وصــخبها ، وحركتهــا إلى وميــة الهــادرة ، طاحنة بلا رحمة ، ممزقة بلا توقف ، آكلة بنيها الذين كانوا يظنون فيها الأم الرءوم .

مـن هنـا كانـت عزلـة محمـد محمـد الـشهاوي منـذ صـدور ديوانـه الأول عـام ١٩٦٢ ـ قبل أن يـصدر كـثير مـن رفاقـه أبنـاء جيـل الـستينيات دواويـنهم الأولـي ، وكـان وعيـه المبكـر ـ كأنـه النبـوءة أو الإلهـام ـ بمـا نحـن مقبلـون عليـه منـذ ذلـك الحـين ، نخـوض فيـه ونـنشطر إزاءه مبـاركين ولا عـنين . وكلمـا اضـطرته الظـروف للتعامـل مـع مجتمـع القـاهرة الأدبـي ـ في

إطلالاته المتباعدة ـ ازدادا يقينا بسلامة موقفه في الابتعاد والعزلة ، والنأي بنفسه عن الصراعات الخائبة التي يخوضها الفارغون من الموهبة والمزاحمون بأكتافهم في الوليمة والمتلثون برصيد هائل من الشراسة والدمامة والقبح . وظلت نفسه السمحة الرضية ، المسكونة بصفائه وشفافيته تهتف لا حبائه مرددة:

ادخلوا يا أحباء ،
هذي مغاني الحنايا تمد إلى دا
ادخلوا
إن قلبي لكم ،
روضة ، جنة ، قد غدا
ما الذي يا تري تحذرون:
انبلاج المواجيد في خافقي
أم صفاء الندي ؟
ادخلوا أجمعين
ادخلوا آمنين
أدخلوا . . لا تهابوا
ففي كل عرق بجسمي لكم مستراح
وفي كل جارحة منتدي !

هذا شعر لا يحتاج قارئه إلى وقت طويل لا كتشاف معدنه النفيس ، لغة وإحكاما فنيا ، وروحا إنسانية عارمة . ولا يحتاج متذوقه إلى تقليب عشرات النماذج حتي يستقطر من أحدها رحيقه الذي يدل عليه ، الرحيق مسكوب في قصائده وفي مجموعاته ، ونار الشعر المقدسة تتوهج في ثنايا كلماته وصوره الشعرية ، وفضاء روحي ـ كأنه صوفي ـ يحلق فيه الشاعر مقتربا من تخوم اللا محدود والمستحيل ، حتي وهو يتحدث عن المرأة الاستثناء ويقدم لها بكلمات محيي الدين بن عربي:

فلم يكن إلا بها
ولم تكن إلا به
فما لها من مشبه
وما له من مشبه
يا غافلا عن قولنا
فكن بها تكن به !

ثم يقول في القصيدة التي يمكن أن يقال عنها إنها عروس قصائده ، وهي الكاشفة عن معدنه ، وحقيقة تجلياته:

لينهمر الشعر بالأغنيات الجديدة بين يديها
طويلا
طويلا
ألا ـ وليؤسس علي قدرها ـ
لغة وعروضا جديدين
يستحدثان مقاييس أخري
وذائقة ، وعقولا
هي امرأة
تشبه الشمس إلا أفولا
علي شاطيء الألق المترقرق
مفعمة بلهيب الوضاءة
مترعة بأريج الأنوثة
تسلم أعضاءها ليد السحر
ترسم في جسمها الغض
أحلي الأساطير
ماذا يقول لسان المزامير
عنها ،
إذا ما أراد لنا أن يقولا ؟
هي امرأة تشبه المستحيلا

* * *

هي امرأة . .
يشرب النور من قدميها اللتين تشعانه
هاطلات السنا ، والندي
كي يبل الصدي
والمغني ـ هنالك محتدما بأوار التراتيل .
يرسل للا نهائي في مقلتيها
بريد المواويل
وهو يناغم رقرقة الضوء إذ يتدحرج
فوق حبال المدي
ليصافح في وجنتيها الصباح الجميلا
وسيدة النور تعلم:
أن القصائد مفتاح باب الدخول إلى باحة

المطلق المتهلل
آه ، وأني أريد الدخولا !

. . . . .

هي امرأة
لم تراود سوي الحلم عن نفسه
وفتاها توزعه الحلم وحده والشذا
والجوي ، والنحولا
فأترع كل الجهات أفاويق وجد
به ما به من ضني لن يحولا
أجل ، إنه موقف الشوق
والتوق والسهد والوجد
والشدو ، والشجو
فلتشهدي يا جميع المواقيت
أن المغني ما زال في حضرة الشوف
يتلو كتاب صباباته
وفدي من أحب ،
يموت قتيلا !
ويا سيدي الوجد
إن لنا موعدا عقدته العيون
ووثق الصمت ، والصمت أصدق قيلا
أحبك يا سيدي الوجد ،
ياذا الخليل الذي لم يمل الخليلا
أحبك ، فاكتب إلى العمر أغنيتي
عله ـ رحمة بالمحبين ـ ألا يزولا
هي امرأة تشبه المستحيلا
هي امرأة قد تفرغت المعجزات لتشكيلها
والمقادير ، دهرا طويلا
هي امرأة ، وجميع النساء سواها ادعاء
لها البحر من قبل بلقيس عرش
كل المياه إساء
يخاصرها الموج في نهم
ممعنا في الصبابة جيلا ، فجيلا

أقايضها بدمي
وجميع دفاتر شعري ،
مقابل أن أتريض عبر فراديس أبهائها
أن أجوس خلال أقاليم لا لائها
أن أسوح بأغوار أغوار آلائها
أو أجولا
أقايضها بدمي ،
وجميع دفاتر شعري مقابل أن
أتملي مفاتنها بكرة وأصيلا
هي امرأة ملء أعطافها عبق
يستدل عليها به من يود الدليلا
هي امرأة تشبه المستحيلا
. . . . .
هي امرأة
ليس لي أن أسميها أو أكني
لطلعتها القلب يرقص حينا
وحينا يغني . .
هي الواحد الكل
والكل في واحد . .
وهي من لا يشابهها غيرها
إن أردت المثيلا
هي امرأة
تشبه المستحيلا !

هذه اللغة المنتشية ، الطافرة ، تقفز فرحا وبهجة ، وتعانق الوجود والكون ، وتصلي في محراب الجمال ، وتصنع عقودها من اللآليء والنجوم والفراديس والمجرات ، تحملنا على جناحيها المحلقين إلى فضاء شعري مغاير ، وتنضح فينا حمياها نفسا شعريا مختلفا ، لعله ـ في بكارته وصفائه وتألقه ـ وليد تلك العزلة البعيدة عن التلوث ، وذلك الأفق الذي يناغي سماء نائيه عن الكراهية والأحقاد . لقد سلم وجود الشاعر فسلمت نفسه وسلم شعره . وكانت هذه الدفقة الغنائية الوجودية الفتية ، متوثبة الإيقاع جياشة النغم مرتجة الأعطاف ، وكأننا في موكب ملكي للجمال ، تتماوج موسيقاه هادرة متلاحقة ، في غير إعنات أو مشقة . شأن الإبداع الصافي الجميل .

والشاعر الذي أنضجته العزلة - علي نار هادئة من التأمل والوعي العميق والبصيرة النافذة - لم يضيع وقته سدي . لقد استطاع أن يخالس - الشعر بعض الوقت - لا نجاز عدد من الدراسات الأدبية والنقدية القابعة في مكانها الأمين من داره تنتظر إلى د التي تمتد إلى ها حتي تطبع وتنشر . عناوين هذه الدراسات - وحدها - تقول لنا الكثير عن اختيارات شاعرنا فيما يكتبه وفيمن يكتب عنهم ، أنور المعداوي: الأسطورة والمأساة ، صالح الشرنوبي: النهر الذي أسكر العالم ، علي قنديل: كونشرتو الإمكان ، السيد عبد ه سليم: صرخة الضمير المثقل بتمرده الخاص ، محمد السيد شحاته: شاعر البراري ، عبد المنعم مطاوع: السندباد الذي جاب العالم من موقعه ، عبد الدايم الشاذلي: بصمات منقوشة بالحنين ، وأخيرا سيرته الذاتية التي جعل عنوانها : لوتسة ترفض أن تهاجر (حكاية شاعر) .

لا شك أنه موقف يجسد بعض الوفاء الذي يحمله محمد محمد الشهاوي في القرار البعيد من قلبه ، لمحافظته وإقليمه كفر الشيخ ، الذي ينتمي إلى ه كل هؤلاء الذين يمثل كل منهم - في مجاله الإبداعي - قامة متفردة ، وإبداعا له مذاقه الخاص . والشهاوي بهذا الموقف النبيل يمارس حرية المسئول في اختياراته ، ومسئولية المثقف الحقيقي إزاء الذين أتيح له أن يعرفهم أفضل من غيره ، وأن يقرأهم بعين غير العيون العابرة الزائغة ، وأن يطيل مكوثه أمام آثارهم وكلماتهم متذوقا وفاحصا ، ما دا يديه إلى الذين يجمعه وإياهم انتساب إلى أرض وفضاء وتاريخ ، وإحساس عارم بالظلم المشترك ، الذي حاق به وبهم جميعا .

منذ مطالع الستينيات ومحمد محمد الشهاوي يكدح في حياته وفي شعره ، يرضي لحياته بأقل القليل ولا يرضي لشعره بما دون التفوق والامتياز . ومع ذلك فلم يرشحه أحد ولا جهة ولا هيئة ولا جامعة لجوائز الدولة في الشعر (كل ما حصل عليه هو جائزة البابطين لا فضل قصيدة في عام ١٩٩٦ ا عن قصيدته المرأة الاستثناء) ولم يرشحه أحد لتمثيل الشعر المصري في ملتقي أو مهرجان ، ولا أهتمت جهة بنشر دواوينه في طبعات لا ئقة به وبشعره ، وهو الذي يقتطع من قوته لينشر دواوينه ، كأنما كتب عليه أن يكون الشاعر والناشر لشعره في آن . بينما يجد من لا يملكون ربع موهبته طريقهم المفروش بالورود إلى النشر القشيب المتتابع في مؤسسات الدولة وفي غير الدولة . لكنه قدر أمثاله ممن يمتلكون الموهبة والكبرياء ، وتعصمهم كبرياؤهم فلا يسألون الناس ولا يزاحمون بالأكتاف والمناكب ، ويؤثرون أن يبقوا في دائرة النكران والتجاهل ، علي أن يمدوا أيديهم ويلحفوا في الطلب والرجاء . مرددين مع الشهاوي كلماته النازفة:

النوي مرة
غير أنه الرحيل

طبنا ، وتمائمنا
في الزمان العليل
والبلاد التي نحتويها ، ولا تحتوينا
يعز علي القلب ألا يري ضبحها والأصيل !

أصوات شعرية مقتحمة - ٩ - أحمد محمود مبارك

بقلم: فاروق شوشة

عندما صدر للشاعر أحمد محمود مبارك ديوانه في انتظار الشمس عام ١٩٩١ ، ضمن سلسلة إشراقات أدبية ، كان صوت شعري سكندري جديد يتشكل معلنا عن بدياته المقتحمة ، متملكا لا دواته ، محكما سيطرته علي معمار قصيدته وتشكيلها البنائي والموسيقي ، واختار المشرفون علي إصدار السلسلة الشاعر السكندري الكبير - الراحل - عبد العليم عيسي لتقديم الديوان وكتابة دراسة عنه ، باعتباره الأكثر دراية والأكثر قربا من شعراء الإسكندرية ، وقد نجح في اكتشاف المدخل الصحيح للتعامل مع شعر أحمد مبارك حين وضع يده علي مفتاح الغربة في قصائد الديوان ، وفي التوجه الإنساني والروحي للشاعر ، الذي سبق له التخرج في كلية الحقوق بجامعة الإسكندرية ، ونشر شعره في كثير من الصحف والمجلات الأدبية المصرية والعربية ، خاصة مجلة إبداع إبان رئاسة تحرير الناقد الكبير الدكتور عبد القادر القط لها ، مما اعتبر شهادة نقدية لهذه القصائد ، ولم يكن القباني بعيدا عن الصواب عندما أشار إلى اغتراب الشاعر عن الوطن ، سعيا وراء العمل في بعض الأقطار العربية ، شأنه شأن كثير من الذين اضطرتهم ظروف الحياة إلى الرحيل ، ممن أطلق عليهم تسمية الطيور المهاجرة ، كثير منهم تعرض لصنوف شتي من المهانة ، وآخرون فقدوا صحتهم وحماسهم للحياة ، والبعض - والشاعر من هذا البعض - آثر أن يعود محتفظا ببقية من ذماء نفسه ، وجوهرة موهبته ، وقدرته علي مواصلة السعي والكفاح ولكن في وطنه وبين أهله وعشيرته وقومه .

قصائد أحمد محمود مبارك - الشاعر الصافي كالنسيم ، الخفيض الصوت والإيماء كأمسيات الإسكندرية الوادعة الهادئة ، الذي لا يجيد الإعلان عن نفسه أو اقتحام المناسبات والملتقيات ، وفرض ذاته علي الآخرين - قصائده تحتل في ديوان الشعر السكندري مكانا خاصا ، وتحمل مذاقا متميزا ، وتنطق بحضور شعري مغاير لشخصية الشاعر الساكنة الوادعة ، محورها جميعا النفس البشرية أو النفس الإنسانية ، في تجلياتها الحزينة والمنسحبة والمحبطة والمرتبكة ، وفي محاولاتها الدائبة لكسر الدائرة المحكمة بسلاح الحزن الغاضب حينا ، والساخر أحيانا أخري ، ولأنه مرهف الإحساس إلى الدرجة التي تؤذيه في أحواله الصحية والنفسية ، معرض لا نكار الآخرين وجحودهم ، وتقلب من ظنهم رفاق الطريق المستحقين لصداقته ومودته ، فإن طعناتهم - غير المتوقعة - تجعله ينزف في كبرياء جريح وهو يقول :

أسبغت ومضي علي بيداء ظلمته
فأورقت ظلمة البيداء نوارا

وصار نبض عروقي حين رق له
في صمته المكتسي بالحزن أوتارا
بثت لحون الهنا والود مشفقة
وأطلقت في يباب الأفق أقمارا
وفاض نبع حنوي حين مد له
فم الصدي برحيق الحب مدرارا
أواه ياقلبي المجروح كيف غدت
يد توليتها بالعطف أظفارا
وكيف تلقي ليال زانها قمري علي دروبي غيمات ، وأكدارا
يا للنسيم الذي أسبغته أرجا
وأرسلته ضلوع الود معطارا
اليوم يعول في أفقي ويحرقني
فحيحه ، ويخيل الأفق إعصارا
وذا دمي في زهور حين تبصرني
تشيح عن مقلتي كبرا وإنكارا

لابد أن نتوقع أن نجد في شعر أحمد مبارك ما نجده عادة في شعر شعراء الإسكندرية ، من افتنان وولع بمدينتهم الجميلة ، وعشق يقترب من الذوبان والحلول الصوفي صورا ومعالم وأجواء وملامح ورملا وبحرا وشطأنا ، ومجالي وروائح وفنارا وسفنا وبحارة وصيادين ، في المستوي المنظور والملموس ، وابحارا حضاريا واهتزازا وجوديا ووجودا ميتافيزيقيا في المستوي المتخيل والمفقود والموهوم ، وبين المستويين تتفاوت أقدار الشعراء اقترابا وابتعادا عن كيمياء الإبداع ووهجه الحقيقي ، وفي هذا الإطار تقترب قصائد شاعرنا من قصائد رفاقه ومجايليه خاصة قصائد أحمد فضل شبلول ، الذي تعرض لما تعرض له من اغتراب وافتقاد للإسكندرية ، متكأ ومأوي وملاذا طوال سنوات ، هما متقاربان في البدايات ، متباعدان جدا في مجموعاتهما الشعرية الأخيرة ، والمسار الشعري الذي أوغل فيه كل منهما ، المسافة واسعة جدا بين قصيدتهما في السبعينيات ومطالع الثمانينيات ، وقصيدة كل منهما الآن ، روحا ولغة وبناء وتوجها وارتطاما بمفردات العصر وتقدمه التكنولوجي ، وقد نجا شبلول من الولع بموسيقي بحر البسيط الذي يتعشقه أحمد مبارك ، والذي نجد نماذجه في جميع دواوينه : تداعيات ، في انتظار الشمس ، في ظلال الهنا ، نبضات وألوان ، وأكثر ما نجد قصائد بحر البسيط في ديوان في انتظار الشمس ، ست قصائد لعلها أكثر قصائد الديوان إحكاما وجمالا وقوة بناء ، وهي ظاهرة تذكرنا بشعر شاعر الإسكندرية الكبير الراحل عبد المنعم الأنصاري ،

الـذي أشـاع موسـيقي هـذا البحـر الـشعري في العديـد مـن قـصائده ، بعـد أن اكتـشف ـ بدربتـه وخبرتـه الـشعرية ـ الأدائيـة ـ مـؤازرة موسـيقاه للإنـشاء الـشعري بطريقـة تفـوق موسـيقي البحـور الـشعرية الأخـري ، وقـد أخـذ عنـه كـثير مـن مريديـه وحوارييـه وتلامذتـه في الـشعر هـذا الولـع ببحـر البـسيط ، والنمـوذج الـسابق لا حمـد مبـارك في هـذا المقـال تأكيـد لهـذه الظـاهرة في شـهره ، وهــي ظــاهرة تؤكـدها ظـاهرة ثانيــة عــي تفـوق أحمـد مبـارك في القالـب العمـودي وإحكـام بنائــه ، وصــنعته الــشعرية وزخــم لغتــه ، وامتــداد نفــسه الــشعري وجيــشانه ، ممــا يعطــي لقـصيدته العمـودي مكانــة متميــزة في مــسار إبداعــه الــشعري ، وإن كــان هــذا الحكــم الــذي يـستند إلى انطبـاع خـاص يتـسع بالـضرورة لنمـاذج مـن قـصيدة الـشعر الجديـد أو شـعر التفعيلـة ، حققـت درجـة عاليـة مـن التـوتر والتـدفق والإحكـام ، كمـا في قـصيدته تـراب الـوطن ، التي يقول فيها وهو يشارف ختام رحلته السندبادية :

مضي السرب

عاد إلى موطنه

وكل غريب أصابته رعشة هذا الصقيع . . ارتحل

وأنت هنا لم تزل

وحيدا ترفرف

فوق المياه وفوق الديار

وفوق الشجر

ولا تستقر

. . . .

أيا طائري . .

أي سر بعينيك قد حال دون السفر

ثلوج المطر

تذيب الحنان بحضن الغصون

فكيف يهون عليك الوطن ؟

. . . .

هنا ، إن بقيت ، فلا مستقر

ومهما التحفت

فكل الليالي رياح وقر

فلن تستكن بصدر دفيء

لحاف الغريب هواء

لباس الغريب عراء

حصاد الغريب حفاء

وكسب الغريب . . خسائر

ولو ألف طائر

أحاطوك بالود ،

لن يمنحوك الصباح الهنيء

ولن يوقدوا لك ليل السمر

فبادر . . وطر !

صورة الطائر تلح علي الشاعر في العديد من قصائده ، وهو يقول في القصيدة الثانية من قصائد ديوانه في انتظار الشمس: حكاية طائر:

طائرنا لم يهو علي الأرض

رغم الثلج

وقد عشش في رئتيه

وأطفأ وقد النبض

في ختامها يقول:

هل وقع الطائر ؟

حين تجمد في أحضان الثلج الطاهر

مغتسلا بالألق الساري

في علياء

أسألكم:

هل وقع الطائر ؟

يقول عبد العليم القباني في تعليقه النقدي علي هذه القصيدة ، ضمن دراسته المصاحبة للديوان: قصة الطائر هنا تمثل العزيمة والكفاح والصمود ، حتي ليمكن اعتبار موته عندما ينتهي هذا السعي ، هو قمة الحياة ، إن الطائر في رحلته هذه يمثل أنقي حالات الطهر المتكبر علي الرجس ، الصامد في صراعه مع الشر الذي يحيط به ، في رحلته الشاقة المتعبة ، وهو بالرغم مما يلاقيه فيها من العذاب لم يضطرب إيمانه ، بل ظل مستمسكا بمثله العليا حتي انتهت الرحلة بموته وهو في قمة صراعه ، فلم يحس بهذه النقلة إذ أصبح حلقة من حلقات الوجود ذاته ، لقد انتهت رحلة الطائر بموته ، وتجمد جسده ، ولكن الشاعر يستنكر أن يقال عنه إنه وقع فإنه يراه أكبر من هذا المصير الواضح الرخيص ، ولذلك راح يردد سؤاله الاستنكاري:

أسألكم . .

هل وقع الطائر ؟

من أجمل الآثار الشعرية للشاعر السكندرري أحمد محمود مبارك قصيدة اللباب في ديوانه في ظلال الرضا ، كلماتها ليست بحاجة إلى تقديم أو توطئة ، فهي تقدم نفسها بنفسها ، وتكشف في تلقائية عذبة عن أغوارها وإيحاءاتها:

يا أيها الشيخ الذي في عمر جدي
كيف في هذا المساء الموحش الحزين
تطلق ابتساماتك أنغاما وأقمارا ؟
ياجدي السعيد قل لي:
كيف والسنون قد تكالبت عليك
دونت في هذه الغصون
زكريات كرها
وامتصت الرحيق والثمارا
وكيف تبعث الشذا
وما يضم غصنك القاحل أزهارا ؟
وكيف من هذي الشفاه الذابلات
ترسل الطيور شدوها
هل تعشق البلابل القفارا ؟
وكيف يا أبا أبي
بالرغم من عودي الصبي
تعتصر الأحزان قلبي اعتصارا ؟

. . . . . .

أجابه الجد الحنون ، والجبين
ـ رغم أسطر الغضون ـ هالة
تنشر في مهامه الليل النهارا:
طوال عمري الطويل ياصديقي الصغير
لا أري . .
في رحم الظلام غير بسمة السنا
وكنت إن دنا
من دوحتي الخريف وانبري
يجعد الإهاب
ينزع الثمار
يطفيء الندي

أروي اللباب
من ينابيع الهدي
فينتشي القلب اخضرارا
فما اندهاش صاحبي الصغير
إذ ظل اللباب
رغم سبعين خريفا
ينشر الأقمار في الدجي
ويرسل الشذي
ويطلق الأطيارا

هذه القصيدة البديعة شهادة علي الإنسانية الغامرة ، التي تملأ وجدان شاعرنا ، وعلي مجال إبداعه الأثير الذي لا يمل من الغناء له والدوران حوله واستلهامه: مجال النفس الإنسانية في تخومها وأعماقها ودهاليزها الرحبة والضيقة ، القريبة والبعيدة ، وهي أيضا حوار كاشف بين جيلين يلخص فلسفة العمر الطويل ، وصولا إلى الجوهر واللباب الذي جعل منه الشاعر عنوان قصيدته ، وفناره في بحرالحياة المتلاطم من حوله ، ودليله إلى قلوب المتلقين من قراء شعره ، الذين يفسحون له المكان والمكانة اللائقين به في ديوان شعرنا المعاصر .

يوم من أيام كمبردج

بقلم: فاروق شوشة

عندما تذكر كمبردج الجامعة والمدينة الجامعية في انجلترا ، تتداعي إلى الذاكرة علي الفور أسماء عديد الدارسين والمبعوثين الذين تخرجوا في هذه الجامعة الانجليزية العريقة ، وشهدت ساحاتها وأروقتها أياما عزيزة غالية من أعمارهم ، خاصة تلك الأوقات التي أتيحت لهم في مكتبتها يتزودون بأقباس من المعرفة ، ويعيشون جدل التغير في العقل والوجدان مع كل يوم جديد تشرق شمسه داخل أبهاء الجامعة العتيدة وبالقرب من أساتذتها الكبار .

في مقدمة هؤلاء الذين ارتبطت حياتهم بكمبردج - الجامعة والمدينة - ابتداء من عام ١٩٣٧ ، الناقد الكبير الراحل الدكتور لويس عوض الذي سجل في مقدمة ديوانه الشعري الوحيد بلوتو لا ند التي جعل عنوانها: حطموا عمود الشعر ، سجل بعض ثورته العارمة علي الشعر العربي وعلي اللغة العربية ، معلنا أن المصريين لم يتمثلوا العربية القرشية كما يتمثل الكائن العضوي غذاءه ، بل اصطنعوا لا نفسهم لغة خاصة بهم ، أصولها قرشية حقا ، ولكنها تختلف عن العربية القحة في ألف بائها ونحوها وصرفها وصيغ ألفاظها وعروضها . وهو يسجل هذا الموقف في حديثه عن التجربة رقم (١) عندما كان يتعلم في عام ١٩٣٧ - في كمبردج - مبادىء اللغة الإيطالية (وقد وقف عند المبادىء) بين الحشائش السحرية التي تملأ الفلاة بين كمبردج وجرانشستر . واسترعي انتباهه أن البعد بين اللغة اللاتينية المقدسة ولهجتها المنحطة الإيطالية أقل من البعد بين اللغة العربية المقدسة ولهجتها المنحطة المصرية من حيث المورفولوجيا والفونطيقا والنحو والصرف . فعجب لا صرار المصريين علي اللغة المقدسة ، وكانت نتيجة هذا العجب التجارب العامية داخل هذا الديوان (ديوان بلوتو لا ند) . ثم يقول لويس عوض وهو يتحدث عن ذلك الشاب الثوري المتحمس الشديد النفور من العربية كلغة للكتابة والتعبير ، الشديد الحماس لا ستخدام العامية ، الشاب الذي كأنه وهو في عشرينيات العمر يجهد من أجل الحصول علي الدكتوراه - التي لم ينلها من كمبردج وعاد بدونها عام ١٩٤٠ ثم نالها بعد ذلك من أمريكا يقول: (وإني لا علم أنه قد عاهد الثلوج الغزيرة المنشورة علي حديقة مد سمرفي خلوة مشهورة بين أشجار الدردار عند الشلال بـ كامبردج ألا يخط كلمة واحدة إلا باللغة المصرية ، وقد بر بعهده في العام الأول بعد عودته فكتب شيئا بالمصرية سماه مذكرات طالب بعثة ولكنه استسلم بعد ذلك وخان العهد . فلتغفر له الثلوج الطاهرة التي لم تدنسها حتي أقدام البشر)

لقد أدرك لويس عوض - بعد أن تخلص من حماس العشرينيات وفوران الشباب المبكر ،

واقترب من سنوات النضج ـ أن الكتابة بالعامية مسعفة في الإبداع الشعري والسير الشعبية والأغاني، لكنها عاجزة عن الوفاء باحتياجات الكتابة الفكرية والمستويات العليا من التنظير الثقافي والبحث العلمي . عندئذ ، يصبح الانتقال إلى المستوي الفصيح من اللغة ضرورة حتمية ، يقتضيها مستوي التناول والبحث والدراسة .

بل الأكثر طرافة وغرابة ، أن لويس عوض ـ في كتاباته النقدية عن عديد الشعراء علي صفحات الأهرام ـ لم يلتفت مرة واحدة إلى الكتابة عن أكبر شاعر بالعامية في زمانه وهو العبقري صلاح جاهين ـ الذي كان يجاور لويس عوض في الأهرام . وكان هذا الموقف من لويس عوض ـ الذي تحمس للعامية كل هذا الحماس في شبابه ـ غير مفهوم أو مبرر بالنسبة لصلاح جاهين الذي كان يري ـ وهو علي حق ـ أنه أجدر بالاهتمام النقدي والتفات لويس عوض إلى إبداعه من عشرات شملهم لويس عوض بحدبه ورعايته ، وهم لا يقاربونه إبداعا أو مكانة . ولم يخفف من حزن صلاح جاهين وعجبه إلا اهتمام أديبنا الكبير يحيي حقي بالكتابة عن رباعياته كتابة مفعمة بنفاذ الرؤية وتقدير وهج العبقرية في إبداع صلاح جاهين .

الغريب أن هذا الموقف الذي وقفه لويس عوض من صلاح جاهين ـ لدرجة أنه لم يكتب عنه إلا بعد رحيله ـ يقفه كثير من النقاد من شعر العامية وكبائر شعرائها المبدعين ، خاصة من يرتبطون من هؤلاء النقاد بالعمل الجامعي ويرون في الحديث عن شعر العامية لونا من الترخص أو التنازل عن الهيبة في نظر طلابهم وقرائهم علي السواء !
وتدور الأيام ، وتطوي السنوات . ويصل إلى كمبردج ـ الجامعة والمدينة في مستهل هذا العام ناقد وأستاذ جامعي كبير هو الدكتور محمود الربيعي في إجازة علمية مدتها عام دراسي واحد . وترتبط حياة محمود الربيعي بالمكان الذي ارتبط به قبله عشرات الدراسين ، والمبعوثين لكنه يختلف عنهم في أنه ليس مطاردا بإنجاز رسالة جامعية للماجستير أو الدكتوراه ، وليس مقيدا مثلهم بسنوات حددتها البعثة لمهمته الدراسية . إنه زائر يمارس حريته الكاملة في تقييد نفسه بما يحبه لنفسه من قراءات وأبحاث ودراسات . لا رقيب عليه إلا من نفسه ، ولا هدف له إلا إرواء الظمأ ـ الذي لا يرتوي ـ إلى المزيد من المعرفة ، ومتابعة الجديد مما يموج به الميدان الأدبي والنقدي في تياراته الحديثة ومدارسه المتتابعة: بنيوية وتفكيكية وتركيبية ، ومابعد حداثية ، ومابعد كولونيالية . ثمة فضاء جديد ونسيم جديد ، وأفق جديد تنكشف مدارجه يوما بعد يوم . والرحلة كل صباح إلى مكتبة الجامعة والعودة منها في الليل تشهد في كل يوم عوالم تضطرب وتفور ، وأفكارا تموج وتثور ، وأبنية تتهاوي وأبنية ترتفع وتقوم ، إنه جدل الحياة وحوار التغيير ـ مع النفس أولا قبل أن يكون مع الآخرين ـ هو الهدف الأسمي لمثل هذه المهمة الدراسية التي لم تكتف بتجديد شباب العقل ، لكنها جددت ايضا شباب الوجدان .

نعم ، لقد استيقظت شاعرية محمود الربيعي التي طمستها سنوات العمل الأكاديمي الطويلة ودراساته النقدية علي مستوي النظرية والتطبيق . وكان الظن أنه سكب ما ء شاعريته وكيمياءها في ثنايا كتاباته النقدية ، ولم يبق من هذا الماء قطرات خالصة للشعر . لكن هاهو ذا سحر كمبردج أو لستها الساحرة تعيد الشعر إلى الشاعر أو الشاعر إلى الشعر ، فإذا بالقشرة الخارجية تتشقق ، والفوران العارم يجيش ويتدفق ، والقلم يسرع إلى التقاط ومضات البرق الشعري المنهمر ، مصورا ـ كما يقول في رسالته ـ علي سبيل الانتقاء يوما من أيامه في مدينة كمبردج ، وقد جاء إلى خاطره في بعض مراحلها ما حدث لكوليردج في قصيدة كوبلاخان (مع عدم التشبيه أو التشبه كما يقول) فقد كان علي العكس من الشاعر العظيم صاحيا تماما .

هكذا أتيح لنا أن نظفر عبر رسالته إلى الأهرام بهذه القصيدة البديعة ، الحارة ، المتدفقة ، التي أعادته إلى الشعر ، بعد أن حلت بركات كمبردج ـ الجامعة والمدينة ـ في روحه الظمآي بلا انتهاء ، ووجدانه المتعطش للارتواء ، خاصة أن ما يطلبه من زمانه الآن ليس ما لا ولا جاها أو حتي معرفة ، فما يطلبه ـ كما يقول في قصيدته ـ هو أمن الداخل ما أطلبه فوق المعرفة وفوق المال وفوق الجاه .

يقول محمود الربيعي في قصيدته يوم من أيام كمبردج

أقرأ في مكتبة الجامعة من الصبح إلى الليل عقلي ثرثار
وفمي صامت
والصمت يعوضني عن كل الأصوات
أتقلب بين الفكرة والفكرة
الفكرة وبديلتها
والفكرة ونقيضتها
أبني العالم وأقوضه
أخسره وأعوضه
من أقصي الشرق لا قصي الغرب
يتردد بندول الفكر
أقرأ تاريخ البشرية
عقل البشرية
قلب البشرية
المتمرد والمنحاز
المؤمن والمتردد والمنكر
الباني والهادم

والباني وهو الهادم
والهادم وهو الباني
المبدع دون مثال سابق
والمبدع ضمن مثال سابق
والمتبع المجتر
والتجريبي لذات التجريب
والتخريبي لذات التخريب
والموقن أن الفجر علي الأبواب
والموقن أن الفجر سراب
والواهم بالفجر الكذاب
والتركيبي
والتفكيكي
والتوثيقي
والتلفيقي
والمتحمس للنقد النسوي
ومابعد الكولونيالية
البعض يفلسف ويعمق
والبعض يسطح ويزوق
والبعض يتاجر ويسوق
يحزنني أن العمر قصير
وأن نتاج العقل البشري غزير
وأن استيعاب الفكر ـ الفكر الحق ـ عسير
تتعارك في الصفحات أمامي الأفكار
تتباعد أو تتقارب
تتنافر أو تتجاذب
لكن لها ـ في آخر رحلتها ـ نسقا حيا
أرصده لا أتدخل فيه .
أو أتدخل فيه
أخلطه بخيالي
فأحس بأني صاحبه ومشكله
وبأن المبدع خلاق
والقاريء خلاق

أو أن المبدع قاريء
والقاريء مبدع
أخرج تحت المطر المنهمر مع الليل وحيدا
لايؤنسني إلا وقع خطاي
أخلط نفسي بالنهر وبالعشب وبالقنطرة الحجرية
بالشجر المبتل المتمايل تحت الريح ، وبالريح بالأرصفة اللامعة الممتدة .
بالمعمار المتسق المتناغم
بالفهرسة المتوازية لمجمل ما تدركه العين
ومايدركه القلب
يمتد الشارع أو يتعرج
يتحشم أو يتبرج
أفني فيه
وأري نفسي دائرة صغري في الدائرة الكبري
أتحرر من كل الأوهام
لا أطلب ما لا أو جاها أو حتي معرفة
أطلب أمن الداخل
ما أطلبه فوق المعرفة وفوق المال وفوق الجاه
أدخل دفء البيت
أتخفف من كل الاكسسوارات:
المعطف والكوفية والشمسية والكاب
لكن أني لي أن أتخفف من معترك الأفكار
حمي الأفكار ؟

والشاشة تعرض معتركا آخر ، حمي أخري معترك الغطرسة وفحش الهيمنة والاستيطان ، وحمي الغنم ، وحمي الأبقار والشاشة تعرض لحما آخر للشارين
الأبيض والأسود والأصفر
يربكني أن تختلط الذكري بالصوت وبالصورة يجهدني أن يتداخل في عقلي معني الحاضر والماضي ، والمستقبل
أعبر للنوم بطيئا وحزينا
يصحبني ضوء خافت
أمل خافت

أن أحيا يوما آخر
أقرأ فيه في مكتبة الجامعة من الصبح إلى الليل !

سليمان العيسى و " المرأة في شعري "

بقلم : فاروق شوشة

في الثالث عشر من يناير عام ألف وتسعمائة وثمانية وتسعين كتب الشاعر السوري الكبير سليمان العيسي هذه الكلمات مقدمة لديوانه المرأة في شعري: هل الجمال في أحلي صوره وأبدع تجلياته ، هي نبضة الشعر الأولي منذ كان النبض وكان الشعر . هي التي وضعت الكلمات الجميلة علي شفتي أول محب فأصبح شاعرا . هي الطفلة التي كبرت . ومازالت الطفولة والأطفال سرها الأول ونحن جميعا أطفالها . هي ملهمة ـ بكسر الهاء ـ وملهمة ـ بفتحها ـ وعاشقة ومعشوقة . هي شريكة حياة ورفيقة كفاح . هي الحلم وهو الواقع في آن . هي القادرة علي الحب لا جل الحب وعلي العطاء لا جل العطاء . ليست ملاكا ولا شيطانا كما يزعمون . إنها الأنثي نصف كتاب الحياة . كم ظلمت عبر التاريخ ، وكم وسعت الظلم والظالمين ، دون أن تسأل أو تحاسب ، ومن حقها الأزلي أن تسأل وأن تحاسب . ما ذا قلت لها عبر شريط العمر ؟ وماذا قالت لي ؟ وهل انفصلت عن همي في يوم من الأيام ؟ سأترك هذه الصفحات تجيب ، وأتمني أن أكون قد رددت لها بعض ما منحتني . . أتمني . . صدر الديوان ضمن منشورات المجمع الثقافي في أبو ظبي ، محتويا علي أجمل قصائد الشاعر الكبير في المرأة التي تناثرت عبر دواوينه الشعرية التي تضمها أعماله الشعرية التي سبق نشرها في أربعة أجزاء: مع الفجر ، أعاصير في السلاسل ، شاعر بين الجدران ، رمال عطشي ، ثائر من غفار ، قصائد عربية ، الدم والنجوم الخضر ، صلاة لا رض الثورة ، رسائل مؤرقة ، أمواج بلا شاطيء ، أزهار الضياع ، أغنيات صغيرة ، كلمات للألم ، أغنية في جزيرة السندباد ، أغان بريشة البرق .

بالإضافة إلى مسرحياته الشعرية: إنسان ، الفارس الضائع ، ابن الأيهم الإزار الجريح ، مسيون .

وهو الشاعر المناضل الذي تقول لنا سيرته إنه ولد عام ١٩٢١ في قرية النعيرية الواقعة غربي مدينة أنطاكية التاريخية ، تلقي ثقافته الأولي علي يد أبيه الشيخ أحمد العيسي في القرية ، وتحت شجرة التوت التي تظلل باحة الدار ، حفظ القرآن ، والمعلقات ، وديوان المتنبي ، وآلاف الأبيات من الشعر العربي . وارتبط صباه المبكر بثورة اللواء العربية التي اشتعلت عندما أحس عرب اللواء بمؤامرة فصلهة عن الوطن الأم: سوريا وشارك بقصائده القومية المبكرة في المظاهرات والنضال القومي الذي خاضه أبناء لواء الإسكندرونة ضد الاغتصاب ثم انتقل سليمان العيسي إلى سوريا بعد سلخ لواء الإسكندرونة

ليتابع مع رفاقه الكفاح ضد الانتداب الفرنسي ، وواصل دراسته في ثانويات حماة واللاذقية ودمشق ، ودخل السجن مرات بسبب قصائده ومواقفه القومية وشارك في تأسيس البعث منذ البدايات ، وأتم تحصيله العالي بدار المعلمين العليا في بغداد . وعاد من بغداد ليعمل مدرسا للغة والأدب العربي ، وليتابع الإبداع الشعري والنضال القومي ، وليصبح من مؤسسي اتحاد الكتاب العرب في سوريا عام ١٩٦٩ . وعندما حدثت نكسة١٩٦٧ يئس سليمان العيسي من الكبار وقرر الاتجاه إلى كتابة شعر الأطفال ، كما شارك مع زوجته الدكتورة ملكة أبيض ـ الأستاذة بجامعة صنعاء الآن ـ في ترجمة عدد من الآثار الأدبية عن الفرنسية ، أهمها آثار عدد من الكتاب الجزائريين . وقد حصل سليمان العيسي علي جائزة لوتس للشعر من اتحاد كتاب آسيا وإفريقيا عام ١٩٨٢ ، كما انتخب عضوا في مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٩٠ .

وبعيدا عن هذه السيرة الإنسانية والشعرية الحافلة ، فإن سليمان العيسي ، في عام ه الثمانين الآن ـ هو أكبر الشعراء العرب المعاصرين ، وأغزرهم إنتاجا ، وأكثرهم التحاما بهموم الإنسان العربي ، وتحديات واقعه الراهن ، من هنا فإن شعره في المرأة وعن المرأة لم ينفصل أبدا طيلة مراحل إبداعه الشعري عن نضاله من أجل الوطن والحرية ، المرأة جناحه المحلق في اغترابه ومنفاه بعيدا عن موطنه في اللواء السليب ، وهي رفيق نضاله وكفاحه في ليل المواجهة وصراع المستبدين والطغاة ، وهي شريكة القلم في العديد من آثاره القلمية ـ خاصة حين يترجم ـ ومنذ ديوانه الأول مع الفجر كان هذا العناق والالتحام في رحلة الحب والمصير:

هزتك عاصفة من الآلام
تزأز في نشيدي
هي من بقايا مهجتي
قطع تناثر في قصيدي
أنا ما نظمت الشعر بل
ذوبت رنات القيود
وعصفت ـ إذ هتف الهوي ـ
نارا علي شفة الجليد

ثم نجده في صورة شعرية أكثر غني ورحابة ، حين يبدع الشاعر قصيدته عن فيروز مطربة لبنان وشادية الجبل ، التي ارتبط صوتها في وجدانه بأنغام السماء وروائح الأرض والوطن وملائكية الشدو والترنم والترتيل . إن صوتها ـ كما يعيشه هو ـ يحيي في صدره الأمل ، ويصور جيلا قد انطلق إلى الحياة ، مملوءا بيقين الظفر والانتصار يقول سليمان العيسي:

فيروز يا شبابة الراعي بسفح الجبل
غنت ، فللعطر بلادي كلها والغزل
تنقلي علي القلوب كرفيف القبل أمواج لحن نبعه الأول صدر الأزل
يفتح للأجيال والشعر كوي المستقبل
تنقلي عبر الهوي من خاطر لخاطر
قصيدة عصماء ، لم تخطر ببال شاعر
من شفة الموج اطفري ، إلى الذري النواخر
إلي الكروم الخضر في أرضي ، إلى البيادر
صلاة قديس مع الفجر وناي ساحر

. . . .

رودي إلى نابيع ، وغنيها نشيدا عبقا
أحس في شدوك جيلا للحياة انطلقا
وعالما أقفل عنه النور ثم انبثقا
يهدد كالشلال مجنون الخطي محترقا
يحمل في أنشودة صباحه المؤتلقا

وعندما نشرت الصحف أن الأديبة الفرنسية فرانسواز ساجان ستزور الشرق العربي باحثة عن مواضيع جديدة لقصصها ، وجه إلى ها سليمان العيسي رسالة شعرية هادرة ، تتوهج بمشاعره القومية المتوهجة ، وحسه الوطني العالي ، في لغة شعرية شديدة الصفاء والنقاء والتدفق:

لا تقدحي شرر الخيال الجائع
لا تسبحي في لجة الحلم البعيد الضائع
تتصيدين إذا حكاية
آلامنا ، دمنا ، غواية
لا تقدحي شرر الخيال
مري علي أرضي النضال
ستدق صدرك ألف غصة
ستهز وحيك ألف قصة
إن كان في تدمير شعب
تقتيله في كل درب
في ليل مجزرة ورعب
مايستحق وقوف ساعة

وعناء فكر أو براعة

. . . .

لا تجهدي

شرك الهوي المتصيد

مري بأرض تشهدي

مايصنع الظلم البغيض

مايفعل الغرب المريض

إنا هنا

تاريخ ليل أسود

وتنهد الفجر الندي

عنوان ملحمة طويلة

فيها البراءة والرجولة

والحب ، أحلام نبيلة !

لا تقدحي شرر الخيال

مري علي أرض النضال

ستدق صدرك ألف غصة

ستهز وحيك ألف قصة !

لسليمان العيسي في بعض صفحات هذا الديوان نثر جميل ، نثر متوهج بكيمياء الشعر ، ندي بماء الشعر ، أو هو قصائد منشورة . وسليمان العيسي - من الشعراء القليلين - الذين يجيدون سكب روحهم في شعرهم ونثرهم علي السواء ، بل إن نثره - في بعض كتاباته - يزاحم شعره ، ويطل برأسه ، ويعلن عن موقعه . في مثل هذه اللوحة التي يصور فيها عذاب الوحدة ، وضجر المعاناة بعيدا عمن يحب ، ويملأ عليه حياته ووجوده ، وهو المدعو - وحده - للقاء شعري ، فظل أربعة أيام يتقلب علي الجمر ، ويذرع غرفته في فندق مريح أصبح سجنا وعذابا :

الضجر يأكلني

هذه آخر مرة أسافر فيها وحدي

ولو عدت من سفري بغنائم الدنيا

إنه قراري في هذه الأمسية

الهنيهة شبر

والساعة دهر

بدون من تحب

يمر الوقت بطيئا ، خاملا ، كثيفا كأنه يزحف علي صدرك ، علي أعصابك
حتي يجمد في عروقك
ويعوقك عن كل شيء
كنت أشتهي أن أسافر
وأنا أواصل حياتي المعتادة في البيت
أشتهي أن أرحل إلى أي مكان
أسوة بالجداول والعصافير
ولكني في هذه المرة ، أيقنت أن رحيلي وحدي
لا يعني إلا شيئا واحدا
أن أضجر وحدي ، وأمل وحدي
وأتنفس بصعوبة وحدي !
لو كنت معي أيتها الحبيبة
لما وجدتني بحاجة إلى كتابة مثل هذه الكلمات
أتراني قلت ما لا ينبغي أن يقال ؟

تري ، ما الذي أغري الشاعر الكبير سليمان العيسي بإصدار هذا الديوان ؟ هل هو حرص الشاعر - الذي ارتبط بالكفاح والنضال والسجن معظم سنوات حياته التي وصلت الآن إلى شاطيء الثمانين - حرصه علي أن يكون له وجه شعري آخر ، أكثر نداوة ، وامتلاء بالعاطفة الإنسانية ، واقترابا من لغة الهمس ، بديلا عن اللغة الصاخبة في دواوينه المحتشدة بأناشيد القومية والحرية والوحدة العربية ؟

أيا ما كان الأمر ، فإن سليمان العيسي يطل الآن علي قارئه - في نبرة شعرية جديدة ومتجددة - تماما كرؤيتنا له عندما قرر أن يكتب للأطفال وحدهم ، باحثا عن الغد الذي لا بد أن يجيء:

أفتش عن غدي في أعين الأطفال عن قدري
عن اللوح الجديد يضم قافلتي إلى البشر
رحلت بأعين الأطفال
إلي حلمي العظيم ، بأعين الأطفال
ونكتب لوح وحدتنا
وينهض شامخا وطن !

يحيي حقي ورباعيات صلاح جاهين

بقلم: فاروق شوشة

صفة الفن ، سر خلقته وديمومته ، شرفه وجذله ، إنه منع استلهام لا ينفد . من نوره نقتبس أنوارا متباينة الطاقات ، لها ما شاءت من الألوان ، ، ثم تعود تنعكس عليه فيتلألأ بأطيافها جميعا ، هو حياة وانبعاث . وفاء ووعد ، تمام ونمو ، انه ثبات وتجدد ، إبانة وتكشف . هو تفرد ومشاركة ، نداء ومحاورة . وما أشبه الفنان بجمرة تئز بالحب والجمال ، يتوهج فيها الحس والأداء ، يتناثر منها شرر وثاب ، يطوي الأرض والزمن ، ويقع - لا يهم متي وأين - علي حطب يتلقفه . فإذا سنا ضوئه يخطف الأبصار . وإذا بالناس جيلا بعد جيل تقع أعينهم منه علي ضياء متجدد لا ينقطع .

بهذه السطور يستهل يحيي حقي كتابه الحادي عشر في كتاباته النقدية وهوالكتاب السادس والعشرون في مؤلفاته التي صدرت في أواخر الثمانينيات عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، وجعل عنوانه هذا الشعر متحدثا فيه عن الشعر: الفن الأثير لديه ، قراءة وتذوقا وتأملا وتحليلا ، من خلال وقفات بالغة الذكاء والعمق والشفافية مع شوقي أمير الشعراء ، وصلاح جاهين أمير شعراء العامية ، ومحمد إقبال الشاعر الاسلام ، ومبيرزا غالب شاعر الهند العظيم ، والشاعر الأرمني الذي أحب مصر وعاش فيها ميخائيل غور جيان .

ولم يكن يحيي حقي مجرد كاتب كبير ، أو مبدع عظيم للقصة والرواية واللوحة القلمية والخاطرة النقدية ، لكنه قبل هذا كله ذائقة هائلة مدربة ، ووجدان رحب مفعم بالانسانية ، وأبوة روحية غامرة ترقي في مراقيها إلى ما يشبه الفيض الصوفي ، وقدرة فريدة علي إحكام اللغة وهندسة تراكيبها ، حتمية مقتصدة بلا فضول أو ذيول ، خالية من السجع اللفظي والعقلي ، والميوعة والسطحية ، تنفذ إلى جوهر الأمور كالسهم ، ولا يضيع توهجها وحيويتها في أسر المحسنات والبديعيات .

وبهذه الذائقة الواعية المدربة يعكف يحيي حقي في فصول هذا الكتاب علي بسط خبراته في التعامل مع النصوص الشعرية روحا وجوهرا ولغة وتراكيب وبنية موسيقية ونغمية ، وجعل قارئه - مهما يكن مستواه - قادرا علي مشاركته هذه الرحلة المتعة مع الشعر والشعراء .

ولعلي أبادر إلى تسجيل سبق يحيي حقي وريادته في الكشف عن عبقرية صلاح جاهين في رباعياته . وكان الظن الشائع لدي الجمهور الأدبي وعامة المثقفين أن العامية

غير قادرة علي أن تكون لغة فكر ، تغتني بمضامين فلسفية ومعان مجردة وقضايا كبري . وأن الفصحي ـ بحكم الميراث والتاريخ والامكانيات ـ هي القادرة علي حمل هذا كله والاتساع لتجلياته وفنون إبداعه . فإذا بعامية صلاح جاهين في رباعياته تزاحم الترجمات الفصيحة لرباعيات الخيام ، وإذا بهذا القالب الرباعيات المحدد التصميم ، يتوهج بما يمتلئ به من وعي انساني وخبرة حياتية وجودية وعمق بصيرة ونفاذ رؤية وعمق تأمل يفوح بها جميعا عطر صلاح جاهين .

يقول يحيي حقي عن قالب الرباعيات: هي أحب قوالب الشعر عندي لا نها تعين علي نفي الفضول وعلي التحرر من أسر القافية ، فتجيء كل رباعية بمثابة الومضة المتألقة ، أو بمثابة الحجر الكريم ، قيمته في اختصاره إلى قلبه ، وصقله ، لا في كبر حجمه ، والرباعيات هي أيضا أفضل القوالب للشاعر الفيلسوف الذي يريد أن يعرض علينا مذهبه ، لا في بحث فقهي أو في تتابع منطقي بل في ومضات متألقة . الديوان حينئذ يأخذ شكل العقد الذي تنسلك فيه حبات من أحجار كريمة مختلفة المياه ولكنها تنبع جميعا من معين واحد . إياك أن تظن أنك تستطيع أن تتبين غوره . فهذا الحصي اللامع الذي تظنه في متناول يدك إنما هو غارق في قاع سحيق ، وما قربه الا من خداع انكسار الضوء في الماء .

ثم يقول يحيي حقي ـوهو يقترب أكثر من فن صلاح جاهين وملامحه وسماته الشديدة التفرد والتميز: هذه الرباعيات هي صلاح جاهين ، وصلاح جاهين هو هذه الرباعيات ، لذلك لم يجد غضاضة في أن يتخذ من نفسه هو مرجعا لكل رموزه . فقد وصف نفسه بأنه قرين مهرج السيرك ، لا تدري هل هو يضحك أم يبكي ، هل هو مطمئن أم خائف ، هل هو مستسلم للحياة أم رافض لها ، هل هو يؤمن بالبشر أم يكفر ، بالفناء أم بالبقاء ، هل يعطف علي ضعف الإنسان أم يضيق به ؟

قد لا تعرف كيف تجيب علي هذه الاسئلة ولكنك ستعرف ـ ولا ريب ـ شيئا واحدا لا يمكن لك انكاره هو أنك لقيت عنده السعادة التي كنت تتمناها ولا تجدها: أن تقابل فنانا أصيلا لا حد لا نسانيته ورقته وصدق نظرته وعمقها ، هو وحده الذي يجود عليك بفيض الكريم

هكذا يبحر فينا ومعنا يحيي حقي ، بهذه اللغة الصافية المحكمة ، وهذا الأسلوب الآسر ، وتلك الروح إلى قظة المتنبهة لكل خاطرة ولمحة وإشارة ، لا يفوتها شيء ، ولا تغفل عن شيء ، وتفهمها ولو كانت طائرة في السماء ـ كما يقول الناس عادة ـ وبها استطاع أن ينفذ دوما إلى الجوهر واللباب . يتوقف يحيي حقي أمام هذه الرباعيات وإحساسه ـ كما يقول هو ـ الذهول:

بين موت وموت ، بين النيران والنيران
ع الحبل ما شيين: الشجاع والجبان
عجبي علي دي حياة . . وياللعجب
إزاي أنا ـ ياتخين ـ بقيت بهلوان
عجبي !
رقاصة خرسا ، ومرقصة من غير نغم
دنيا ، يامين يصحي لها قبل الندم
ساعتين تهز بوجهها يعني لا
يترجرجوا نهديها يعني نعم
عجبي !
سهير ليالي وياما لفيت وطفت
وفي ليلة راجع في الظلام قمت شفت
الخوف . . كأنه كلب اسود سد الطريق
وكنت عاوز أقتله . . بس خفت عجبي !

* * *

ورا كل شباك ألف عين مفتوحين
وأنا وانتي ما شيين يا غرامي الحزين
لو التصقنا نموت بضربة حجر
ولو افترقنا نموت متحسرين
عجبي !

* * *

دخل الربيع يضحك لقاني حزين
نده الربيع علي اسمي لم قلت مين
حط الربيع أزهاره جنبي وراح
وإيش تعمل الازهار للميتين
عجبي !

لم يكتب أحد عن فن صلاح جاهين وإبداعه الشعري كما كتب يحيي حقي ، وكأن يحيي حقي ـ بأبوته الروحية وفنه العظيم ـ كان يعتذر نيابة عن كل نقاد العصر الذين تجاهلوا صلاح جاهين ولم يحاولوا الاقتراب من نجوم عبقريته إلا بعد رحيله . ومن المؤكد أنه شفي بكتابته هذه كثيرا من جراح صلاح جاهين وآلامه المزلزلة . كما كشف سر كل هذا الحزن الجاثم علي صدره العريض ومن فوقه لغز يبتسم بسخرية حلوة ودعابة

محببة ، حالما بأن يسود في الوطن والعالم كله أمن وسلام وطمأنينة وتعاطف . شعر صلاح جاهين - في ميزان يحيي حقي - ماء كالبحر الخضم الذي يصعب عليك أن تري ساحله ، انه يبتلعك فتغوص فيه ، وهيهات أن تصل إلى أعماقه ، متعدد الامواج والألوان . بل هو كالغابة المتشابكة يتكشف لك عند كل خطوة منظر مختلف . أنت ماض في سبيلك ولكنك ربما تكون قد ضللت الطريق من حيث لا تدري وكأن الغابة تستدرجك عن عمد لتفني بين أحضانها .

وصلاح جاهين في نظر يحيي حقي ابن بلد مصفي ، لم جسده التعليم أو التثقيف بل زاده رقة علي رقة ، وليس سبب صدق تعبير صلاح عن ابن البلد راجعا إلى أن الرباعيات مكتوبة بالعامية ، فالمضمون فيها طغي علي الشكل اللغوي حتي محاه . وعاميته أنيقة رشيقة طعمها بألفاظ وتراكيب غير قليلة من الفصحي . لقد استعار من الفصحي حركة التنوين ليجعلها نونا ساكنة في قافية احدي رباعياته :

عجبي عليك ، عجبي عليك يا زمن
يابو البدع ، يامبكي عيني دما
إزاي أنا أختار لروحي طريق
وانا اللي داخل في الحياة مرغما
عجبي !

لقد رفع صلاح جاهين العامية بعد أن طعمها بالفصحي وثقافة المثقفين - فهي في الحقيقة لغة ثالثة - إلى مقام اللغة التي تستطيع أن تعبر عن الفلسفة شعرا . والإجادة في هذه اللغة الثالثة لن تكون - كما يقول يحيي حقي - إلا فلتة من الفلتات ، فلو استخدمها كل من هب ودب تحول غذاؤنا كله إلى بضاعة دكان التسالي : لب وفول وحمص وفشار !

هذا الوعي العميق الكاشف الذي يسلطه يحيي حقي علي رباعيات صلاح جاهين ، هو أيضا نتاج العشرة الطويلة والتقارب الروحي والانساني الشديد بين كل منهما والآخر . ولقد أتيح لي أن أقترب من هذه المنطقة البعيدة الغور في وجدان يحيي حقي حين دعوته ذات مرة ليكون ضيفا في إحدي حلقات السهرة التليفزيونية شريط الذكريات وكانت المفاجأة إصراره علي أن يكون صلاح جاهين ضيفه في هذه السهرة ، وأن أترك لهما الكاميرا والميكروفون ليتحاورا معا دون حاجة إلى تدخل مني أو من غيري ، وتبادل كل منهما موقف المذيع والضيف ، كل منهما يسأل وكل منهما يجيب ، وأعتقد أن هذا التسجيل التليفزيوني - في هذه الفقرة التي جمعت بينهما - يعد كنزا من كنوز التليفزيون النادرة ، وشيئا لم يتكرر لا قبل هذه السهرة ولا بعدها !

هـل هـي الرغبـة الحميمـة في أن يفـضي كـل منهمـا إلى الآخـر دون عـائق ؟ أم أن كـلا منهمـا كـان يـري في الآخـر مـرآة نفسه وصدي لا هتـزاز عقلـه ووجدانـه فلـم يـشأ للمـرآة أن تعكـس غـير ذاتـه ولا للـصدي أن يـضيع في تلافيـف المـداخلات والمقاطعـات . أيـا مـا كـان الامـر فقـد كـشف يحيـي حقـي في هـذا الحـوار الفريـد عـن انـشغاله بـشعر صـلاح جـاهين ، ورباعياتـه علـي وجـه الخـصوص مـن قبـل أن يقـوم بكتابـة هـذه الدراسـة النقديـة علـي حلقـات أول الأمـر ثـم جمعهـا بعـد ذلـك بـسنوات في كتابـه هـذا الـشعر . ولقـد كـان يحيـي حقـي يـري في شـعر صـلاح جـاهين ـ وهـو علـي حـق ـ أنـه يـشد بخيوطـه أركـان الأمـة ، ويجمـع بقـصائده زوايا وجدانها المتشعب . وهي مهمة لا يقوم بها إلا العباقرة الأفذاذ من المبدعين .

فمـا أحـوج كـل أمـة في سـاعة الـشدة ، حـين تتزلـزل الأرض تحـت قـدميها ، وتنـبهم أمامهـا الـسبل ، وتركبهـا الحـيرة وتتخـبط في المـآزق وتتعـرض لليـأس ، أن تجـد ابنـا لها يضع ذراعـه علـي كتفهـا ويقـرب فمـه مـن أذنهـا والقلـب عـام ر بالحـب والحنـو ، فـيهمس لهـا شـأن نجـوي الـصديق ، لا يزعـق لهـا مـن بعيـد ، وإنمـا يهمـس لهـا بمثـل هـذا الكـلام فيجـد سـبيله إلى ضـميرها ، فـإذا الارض قـد اسـتقرت ، وإذا الـسبيل قـد اتـضح ، وإذا الحيرة قد انقشعت ، وإذا إلى أس قد اندحر .

ألا مـا أشـد حاجـة هـذه الأمـة الآن إلى هـذا الابـن العبقـري الـذي يثبـت العـزم ، والثقة بالنفس ، وينفخ من روحه في عروقها بلفح رجاء لن يخيب !

عبد الرجيم منصور لحن لم يتم

بقلم: فاروق شوشة

في الأول من ديسمبر عام ١٩٤١ كان مولد الشاعر عبد الرحيم منصور . وفي مدينة قنا كانت أيام الطفولة والنشأة الأولي والحب المبكر ، التي اختتمت بإتمامه للدراسة الثانوية ورحيله إلى القاهرة ، واحدا من الغزاة الذين يحلمون باقتحام هذه العاصمة المدهشة والمخيفة في آن ، متسلحا بجذوة الفن المتوهجة بين جوانحه وفي أعماقه ، وظمئه إلى المعرفة الذي دفعه إلى دراسة الحقوق والالتحاق بمعهد السينما في وقت واحد . كان الصعيد الحار في دمه ، وكان تراثه من الأغاني الشعبية والملاحم والمأثورات يملأ عليه كيانه ، ويتنفس في كلماته منذ بدأ كتاباته الأولي في عالم القصيدة والأغنية ، وسرعان ما أصبح ل عبد الرحيم منصور مذاقه ولونه الخاص ، وسمت يتوهج بالنفس الانساني ودفء المشاركة وانكسار العاشق المغترب الجوال ، ترميه النوي ، وتطرحه الغربة ، ويضنيه عبء التذكار ولوعة العشق الصادق . ولم يكن بحاجة إلى أي جهد لكي يدخل قلوب الناس بشخصه وكلماته . فهو الانسان الرقيق كأشد وأصفي ما تكون الرقة ، الأنيس المؤنس لخلانه وأصحابه ، يطربون للقائه ، ويهشون لمجلسه ، ويسألون عنه إذا غاب ، لا نه نعم المسامر والنديم . وتغلبت طيبة عبد الرحيم منصور ، وولاؤه المطلق لا صدقائه علي التفاته إلى ما ينبغي لهيكله النحيل وجسمه القليل من رعاية وصيانة . وهو في كل يوم يزداد التصاقا وتفانيا ، وذوبانا ونحولا ، وضعفا وهشاشة ، حتي كان رحيله المباغت في الثامن والعشرين من يوليو عام ١٩٨٤ عن ثلاثة وأربعين عام ا ، لم تتسع لمشروعه الطموح في القصيدة والأغنية والمسرح الغنائي ، بعد أن تغنت بكلماته أصوات الغناء البارزة في زمانه : عبد الحليم حافظ ونجاة وفايزة أحمد ووردة وشادية وعفاف راضي وغيرها ، بل لقد كانت كلماته المعجونة بمصريته وصعيديته صاروخ الانطلاق لمحمد منير وجواز اختراقه لقلوب جماهيره ، يكفي أن نتذكر الآن ل عبد الرحيم منصور ـ علي سبيل المثال ـ أغنيات العبور العظيم : علي الربابة و عبرنا الهزيمة و باسم الله ، والمسرحية الغنائية تمر حنة لوردة وأنا باعشق البحر وباحلم معاك لوردة ، وأغاني مسرحية ياسين ولدي و شجر اللمون و حدوتة مصرية لمحمد منير ، ومسك الختام في الرحلة الغنائية للمبدعة فايزة أحمد وقمة هرمها الغنائي : حبيبي يا متغرب ، وأن نذكر ونتذكر الشجن النبيل الذي ينثال عبر هذه الأغنيات التي كتبها عبد الرحمن منصور بنزف قلبه ، وكان الموسيقار الكبير بليغ حمدي بمفاجآته اللحنية المدهشة وفيضه النغمي الهادر ـ الذي يسطو عليه الآن بعض مساقرة هذا الزمان دون حياء ـ كان

بليغ بألحانه وموسيقاه توأما فريدا لكلمات عبد الرحمن منصور ، ونافخا في مفرداتها من نفسه وروحه ، ما جعل منها أعمالا باقية ، وفنا يتوهج بالصدق والأصالة والابتكار .

يهدي الشاعر عبد الرحيم منصور ديوانه : الرقص ع الحصي رباعيات الميلاد ، الحب ، الموت إلى أمه : بنت الشيخ إسماعيل الخلاوي من دندرة نجع الرد بندر قنا . تعلمت علي يديها الشعر ، فحينما كنت صغيرا كنت أجلس بجوارها أمام الفرن وهي تخبز أرغفة الخبز علي نيران شجر السنط ، وأشعر أن الانشادات التي تقولها أمام النار كأنها نقش الفراعنة علي المعابد القديمة ، وأن هذه الإنشادات هي التي تطيب الخبز وليس شجر السنط .

يقول عبد الرحيم منصور:

قاعدة علي الرحاية مكفية
صوت الحبوب
مغني سواقي ، أنات خريفية
مين انتي يا شابة يامحنية ؟
أنا بعت عقدي ، وعقدي طوله بلاد
كسيت بجلدي الولاد
إيدي علي الرحاية
وقلبي حب ، أنا بطحنه بإيدي
لكنه ريم البحر في بياضه
وجلابيتي سواد
ودوري يارحاية
دوري مع الدايرين
ولي في الغربة وفي الخلان
وفي الشعور البكر والمطوية
والشومة والكرباج والعكاز
دوري يارحاية
نص الكلام ده بتاعي
والنص مش ليه
أنا جبته بدراعي
المغربية عيون
المشربية مغرب
في قلبي وزنة كلام

يا إيدين ياوزانة
ينشد فوقها الحزام
وتلعبوا الزانة
والناس عيونهم كلام
وكله كلام !

التدفق التلقائي سمة أساسية في أشعار عبد الرحيم منصور ، ولابد من قراءتها ، ومطاوعة لهجتها الصعيدية - الجنوبية - لضبط الوزن والإيقاع ، وإيقاظ شحنتها النغمية ، واستكشاف مفردات البيئة والأرض والإنسان ، وروائح المكان التي تحمل خصوصيته وتذكي الشعور بالاحتضان والأمومة والانتماء .

لكن عبد الرحيم منصور يندفع إلى أفق إبداعي أكثر شمولا وحكمة من خلال رباعياته الشعرية التي يسميها : رباعيات الميلاد والحب والموت ، ويهديها إلى ابنته عالية التي كبرت ونضجت علي نار هادئة بعد رحيله بثمانية عشر عام ا ، وأصبحت الآن معيدة في الجامعة . الطريق عبد ه من قبله عبقري شعر العامية المصرية صلاح جاهين في رباعياته التي كشفت عن قدرة العامية علي إبداع تجليات الفكر والتأمل العميق والحكمة ، في صياغة شديدة التركيز ، عميقة الإيحاء ، مسنونة الكلمات ، ويمضي عبد الرحيم منصور وراء أستاذه وأبيه الشعري صلاح جاهين ، مستفيدا من قدرته الفائقة علي التشكيل ، ومن قدرة عبقري شعر العامية فؤاد حداد علي الانطلاق والتحليق والمغامرة ، والاتشاح بمسحة التصوف الشفيف وروحانيات مواقف الوجد والشطح والإشراق .

يقول عبد الرحيم منصور في رباعياته :

طعم البيوت في الشوارع
طعم الشوارع بيوت
الخطو طالع وراجع
بيتولد ويموت
علي الطريق وش غربة
وخطو ما لوهش صاحب
والوقت ميت في تربة
والتربة ما ليها صاحب
مشيت معاه كان صديق
يرسينا علي كل شي
صديق وجاع في الطريق

هبش في لحمي النى
القهوة زي الديار
عريانة من غير وش
طفحت هموم النار
علي كل وش يبش
بيتنا أهه ياولاد
في وش بنت غريبة
في عينها زهر الميلاد
والموت وله تكعيبة
جاية منين يا قلة
من حجر طينة قنا
كيف العيون والغلة
عطشانة زيي أنا
يا نخل ما لها جدورك
في الأرض ما لهاش مخالب
جيتك لحدك أشورك
رجعت مغلوب وغالب
طلقوني جوه الدروب
وف قلبي ندعة حليب
بين الشروق والغروب
ازاي يا ولد تشيب ؟
فيه طير بيرجع لعشه
وطير بيفضل مسافر
وطير ما هوش لا قي قشه
وطير مهاجر مهاجر
قالولي ليه يا قناوي
خطوك علي السكة ساكت
أنا قلت كان لي غناوي
داقت الحقيقة وشاخت
ده دم مين ياخال
حنة ف كفوف النسا

ولا جنين خيال
في بطن أمه اتنسي !

ودتـت لـو أنـي نقلـت إلى القـاريء كـل هـذه الرباعيـات ، المتوهجـة بالـصدق والجمـال والمعـاني العميقـة والرؤيـة النافـذة للحيـاة والنـاس ، والمنحنيـة في شجن وأسـي نبيـل علـي ضـعف البـشر واحتيـاجهم للمؤاسـاة والمؤانـسة والمـشاركة في حمـل الهمـوم . والـشاعر الـذي أبـدع هـذه الرباعيـات وهـو لا يـزال في شـرخ الـشباب ونـضارته ، يتجـاوزه عمـره الـزمني والنفـسي ، ليـصبح أبـا لكـل الكائنـات ، ورسـولا يحمـل بيمينـه ألـواح المحبـة والأمـان والسلام ، ومغنيا يغسل بدموعه أحزان الحزاني ويأسو جراحهم بألحانه وكلماته .

يقول عبد الرحيم منصور:

يا مية النيل يا رايقة
جواكي سر غميق
حواليكي ساقية ، وسايقة
سايقة الدموع ع الغريق
يا أرض مين يسمعك
فيكي عذاب واعر
مين اللي شال مدمعك
غير ولدك الشاعر
يامسكة الطيب يا أمي
يا أم الودع والحكايا
يا كون بيجري في دمي
يا سكة بتصون ورايا
بكبر ويكبر زماني
وأنا في عنيكي صغير
مطفي في ليل الأماني
وبين أيديكي منور
لو يسألوكي عليه
قولي دا ولد الشقا
شب وكبر بين أيديه
واتعلم الزقزقة

ولقـد شـب عبـد الـرحيم منـصور وكـبر ، وتعلـم الزقزقـة والتغريـد ومـلأ حياتنـا الغنائيـة بكلماتـه الفريـدة المـذاق ، وقبـل أن يكتمـل اللحـن ويـشارف ذروتـه المرجـوة ، هـوي

الشاعر وغاب ، وتبددت أوراقه كما تبددت أيامه القصيرة ولياليه ، في مجالس الأصحاب والخلان ، وحين حاولت زوجته الوفية الصابرة وابنته عالية التي ورثت عنه فنه وحساسيته أن تلما شتات آثاره الشعرية لم يسعفهما هؤلاء الأصحاب بما تناثر بين أيديهم من ذوب قلب الشاعر وروحه ، ولم تعثرا إلا على القليل من ذكريات قناوي ، أما كلام السكوت و المغنواتي فقد بقيا حتي الآن عنوانين علي ديوانين مفقودين للشاعر الديسمبري المولد ، الذي نجا شعره من برودة الشتاء ، ليتوهج بنداوة الربيع الطافر ، وحرارة الصيف المشتعل ، مذكيا جمر الأحلام والوعود في أنين لحن لم يتم !

ما مر عام . . والعراق ليس فيه جوع !

بقلم: فاروق شوشة

بالرغم من توقف المشروع الشعري للشاعر العراقي بدر شاكر السياب بسبب رحيله المبكر في ختام عام ١٩٦٤ عن ثمانية وثلاثين عام ا فإن التأثير الذي أحدثه إنجازه في العديد من دواوينه وفي كثير من قصائده اللافتة ظل ممتدا وكاسحا: وقد يقول البعض إن الرحيل المبكر للمبدعين من شأنه أن يحيط إبداعاتهم بهالة استثنائية قوامها التعاطف والانحناء المستمر علي جوانب هذا الإبداع ، من خلال هالة عاطفية قوامها الحسرة والتفجع ، ويضربون أمثلة عديدة لهذه الحالة التي تنتابنا عادة في مثل هذه الأحوال عندما نعيد قراءة' طرفة بن ال عبد ' في شعرنا العربي القديم و'كيتس' في الشعر الروماني الإنجليزي ، والشابي والهمشري والشرنوبي والسياب وأمل دنقل في شعرنا الحديث والمعاصر .

لكن تألق النموذج' السيابي' في القصيدة العربية الحديثة لا يعود تأثيره لمجرد رحيله المبكر ، فهناك روافد شتي وعناصر مختلفة شاركت في هذا التألق والتوهج . أولها- بالطبع- هذا المنجم الزاخر بالشاعرية الفوارة بمعادنها النفيسة منذ طلقته الشعرية الأولي حتي آخر سطر شعري في آخر قصيدة . كان السياب يتنفس شعرا ويعيش شعرا ويتفق ويختلف شعرا . حتي عندما التحم بالحياة السياسية الشائكة في العراق وتقلب بين طبقاتها الخفية والمكشوفة ، بين الحدين: القومي والشيوعي كان التحامه شعريا في المقام الأول لا يترك له مساحة للاختيار أو النظر الصائب بقدر ما كان انفعاليا وعصبيا يوجهه غضب عابر أو ردود أفعال طائشة ، الأمر الذي جعل من دوران السياب في أتون خلايا هذه التنظيمات السياسية- رسمية أو محظورة- بحسب طبيعة الحكم وسيطرة اتجاه علي بقية الاتجاهات ، جعل من هذا الدوران استنفادا لطاقته العصبية والصحية ومواجهة شعرية عبثية مع من لا يمتلكون شيئا من موهبته الشعرية وطاقاتها العارمة ويريدون صبه في قالب' السياسي' الذي ظل يرفضه تململه الشعري أو تذبذبه بين القبول والرفض وحيرة الاختيار والانتماء .

ثاني هذه الروافد والعناصر وعي عميق بحركة الشعرين العربي والعالمي يضعهما علي محك الخبرة والبصر المتأمل ويراهما في سياق واحد ينتظم مسيرة الشعر الجمالية والإنسانية عبر العصور . السياب- بهذا المعني- رمز للثقافة الشعرية المتكئة علي وعي عميق بالموروث والسائد العربي وغير العربي ، لا يفرق فيه بين لغة أو جنس فكله - في لحمته وسداه - نسيجه الشعري الذي يتغذي به وتشرق به تجلياته ويمتلك في يسر وشفافية مفاتيح النفاذ إلى أبهائه ودروبه ومسالكه ، لا يعوقه انغلاق أو تعصب أو أحكام

مسبقة . هذه الثقافة الشعرية التي امتلكها السياب جعلت تعامله مع الرموز والموروثات العربية والبابلية والآشورية والفينيقية واليونانية- وحتي الصينية- تعاملا طيعا لا عنت فيه ولا تكلف ولا مشقة . من هنا فقد تجاوزت في العديد من قصائده الكبري استدعاءاته لرؤي فوكاي والأسطورة الصينية عن الملك الذي أراد ناقوسا ضخما من الذهب والحديد والفضة والنحاس ، وأشار العرافون بأن هذه المعادن لن تتحد ما لم تمتزج بدماء فتاة عذراء هي كونغاي ابنة أحد الحكماء وأسطورة' ميدوز' الإغريقية التي تحيل من تلتقي عينه بعينها إلى صخر ، وأغنية' أريل' في مسرحية' العاصفة' لشكسبير وهو روح الهواء الذي سخره' بروسبيرو' الساحر لفرديناند- وقد اتخذه إلى وت في مقولته' الأرض الخراب' رمزا للتعبير عن الحياة من خلال الموت ، فضلا عن استدعاءاته لا سطورة تموز أو أدونيس إله الخصب والنماء وحبيب عشتروت أو فينوس إلهة الحب ، وقصة يأجوج ومأجوج من القرآن الكريم وأسطورة سربروس: الكلب الذي يحرس مملكة الحوت في الأساطير إلى ونانية ، ومأساة' أوديب' الذي تزوج أمه جوكست وهو لا يدري أنها أمه . وقتل أباه وهو لا يدري أنه أبو ه ، وأسطورة أفروديت التي ولدت- في أساطير الإغريق- من زبد البحر ونزلت محمولة علي صدفة محار ، وغير هذا كله من الموروث الأسطوري والشعبي في العديد من الآداب والثقافات يكاد- لا تساعه وعمق أبعاده وشدة نفاذه وتأثيره- يغري بوقفات متأنية تتتبعه وتتقصاه .

ثم تجيء البنية المحكمة واللغة الفتية العارمة للقصيدة السيابية ، ويبدو أنه كان- من بين رفاقه رواد حركة الشعر الجديد- أكثرهم وعيا بفكرة' الإحكام' الفني التي تألقت بسببها مئات النماذج الشامخة في ديوان الشعر العربي عند شعراء من أمثال المتنبي وأبي تمام والمعري وابن الرومي وساعدت علي تجسيدها لغة تكتنز الخبرات والتجارب والآفاق الدلالية والبلاغية . من هنا فقد جاء نموذجه- في العديد من تجلياته الشعرية- محاكاة من طراز جديد وروح شعرية جديدة للنسق الكلاسيكي الباذخ في شموخه وسطوة تأثيره باللغة والإيقاع فضلا عن العالم التصويري المغتني بخيال لا حدود لا فاقه ولا نفاد لصيده الوفير من فنون الاستعارة الشعرية . كما أنه لم يتردد في صياغة العديد من نماذجه بحيث تتجاوز فيها الصيغتان العمودية والحرة الجامعتان بين نسق البحر الشعري والتفعيلة وشموخ الأداء الكلاسيكي وأحكامه وتدفق الاداء التفعيلي وانسيابية وتلقائية لغته الطيعة لتجسيد شعريته الفوارة ومده الزاخر بالموجات المتتابعة .

فالسياب الذي يستهل قصيدته الشهيرة' أنشودة المطر' قائلا:

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأي عنهما القمر
عيناك حين تبتسمان تورق الكروم

وترقص الأضواء كالأقمار في نهر
يرجه المجذاف وهنا ساعة السحر
كأنما تنبض في غوريهما النجوم

هو نفسه الذي يغادر سريعا هذه الصياغة' الكلاسيكية' المحكمة المحملة بصوره الشعرية التي تومئ في وضوح إلى نخيل البصرة وأنهار العراق وانعكاس الأضواء علي صفحة الماء التي تحركها المجاذيف ، يغادرها ليبدع لوحات قصيدته في مقاطعها التالية وهي تتدفق في صياغة مختلفة ونهج مغاير حين يقول:

أكاد أسمع النخيل يشرب المطر
وأسمع القري تئن والمهاجرين
يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع
عواصف الخليج والرعود منشدين:
مطر . .
مطر . .
مطر . .
وفي العراق جوع
وينثر الغلال فيه موسم الحصاد
لتشبع الغربان والجراد
وتطحن الشوان والحجر
رحي تدور في الحقول حولها بشر
مطر . .
مطر . .
مطر . .
وكم ذرفنا ليلة الرحيل من دموع
ثم اعتللنا– خوف أن نلام– بالمطر
مطر . .
مطر . .
ومنذ أن كنا صغارا كانت السماء
تغيم في الشتاء
ويهطل المطر . .
وكل عام – حين يعشب الثري– نجوع
ما مر عام والعراق ليس فيه جوع

مطر . .

مطر . .

مطر . .

والسياب الذي يستهل قصيدته' بورسعيد' بهذا النغم الكلاسيكي الجياش وهذه البنية الشعرية الشامخة:

يا حاصد النار من أشلاء قتلانا

منك الضحايا وإن كانوا ضحايانا

كم من ردي في حياة وانخذال ردي

في ميتة وانتصار جاء خذلانا

إن العيون التي طفأت أنجمها

عجلن بالشمس أن تختار دنيانا

وامتد كالنور في أعماق تربتنا

غرس لنا من دم واخضل موتانا

سرعان ما يغادر هذه الصيغة التي تذكرنا بشعر الفحول من شعراء العربية الكبار إلى الصيغة التي شارك في الريادة لها وتأصيلها مع غيره من الرواد وهو يقول:

من أيما رئة من أي قيثار

تنهل أشعاري

من غابة النار

أم من عويل الصبايا بين أحجار

منها تنز المياه السود

واللبن المشوي كالقار

وصولا إلى قوله:

أطفالك الموتي علي المرفأ

يبكون في الريح الشمالية

والنور من مصباحه المطفأ

قد غار كالمدية

في صدري العاري

أطفالك الأموات عار الحديد

في عرسه الدامي وذل الرصاص

والريح كالمدية

تجتث أظفاري

يبكون في داري !

وسرعان ما يعود إلى نهجه الشعري في مستهل قصيدته يدفعه شموخ الوقفة البطولية التي يصورها إلى شموخ النموذج الشعري واحتشاده لغة وبنية وموسيقي حين يقول:

هاويك أعلي من الطاغوت فانتحبي

ما ذل غير الصفا للنار والخشب

حييت من قلعة شق الفضاء بها

أسي لها في صدور الفتية العرب

الطين فيها دم منا وجندلها

من عزمة والحديد الصلد من غضب

في كل أنقاض دار من صفاه يد

جبارة تصفع العادين كالشهب

وفي القصيدة التي يقول ديوانه إنه من المحتمل أن تكون آخر قصيدة كتبها الشاعر وهي بعنوان' إقبال' والليل ، يناجي فيها الشاعر زوجته ويحن– حنين المغترب المقعد إلى ائس– وهو علي سرير المرض المفضي إلى الموت يجمع الشاعر بين الصيغتين حين يستهل القصيدة قائلا:

وما وجد ثكلي مثل وجدي إذا الدجي

تهاوين كالأمطار بالهم والشهد

أحن إلى دار بعيد مزارها

وزغب جياع يصرخون علي بعد

وأشفق من صبح سيأتي وأرتجي

مجيئا له يجلو من إلى أس والوجد

ثم حين يقول:

يا ليل أين هو العراق

أين الأحبة أين أطفالي وزوجي والرفاق

يا أم' غيلان' الحبيبة صوبي في الليل نظرة

نحو الخليج تصوريني أقطع الظلماء وحدي

لولاك ما رمت الحياة ولا حننت إلى الديار

حببت لي سدف الحياة مسحتها بسنا النهار

لم توصدين الباب دوني يالجواب القفار

وصل المدينة حين أطبقت الدجي ومضي النهار
والباب أغلق فهو يسعي في الظلام بدون قصد !

هل كان السياب يدري- وهو يصارع موته الشاخص أمام عينيه بهذا الشعر المتلئ قوة وعافية في الأيام الأخيرة من عام ١٩٦٤- أنه سيجئ يوم قريب ينفلت فيه الشعر من ضوابط الإحكام لغة وبنية وموسيقي ، وأن الهشاشة التي حذر منها في العديد من نماذج رواد الشعر الجديد في مقابل شموخ النموذج الكلاسيكي وتماسكه سوف تؤدي في خاتمة المطاف- عند كثير ممن يمتهنون فن الشعر ولا يعون ألفبائه ولا مساره الجمالي والتشكيلي- إلى ما يشبه الرماد الذي تذروه الرياح ، أغلب الظن أنه أغمض عينيه والمشهد الشعري الذي كان يراه -ويشارك فيهـ حافلا بالوعود ممتلئا بكل ما تمثله تجليات المجددين من إضافة واستشراف تماما كما أغمض عينيه والمشهد العراقي- الذي كان يطالعه من بعد عبر الخليج وهو علي سريره بالمستشفي الأميري في الكويت- لا يمكن أن يفصح عن الهاوية التي سيسقط فيها تاريخه في حقبتي الثمانينيات والتسعينيات وصولا إلى جحيم القيامة التي ينفخ في صورها إلى وم ، بينما ينشطر الوجدان العربي والعقل العربي بين الطغاة الطامعين في العراق والطغاة الحاكمين للعراق بكاء علي عراق الجواهري والبياتي والسياب والحيدري ونازك وسعدي: أرضا وشعبا وتاريخا وديوانا جليلا للشعر العربي وأفقا باذخا للوجود العربي .

يا خليج يا واهب المحار والردي !

بقلم: فاروق شوشة

كنا ثلاثة : الشاعر الكويتي علي السبتي والشاعر والناقد والمناضل الفلسطيني ناجي علوش وأنا ، نقف في مطار الكويت في السادس من يوليو عام ١٩٦٤ ، ننتظر وصول الطائرة المقلة للشاعر العراقي الذي طبقت شهرته آفاق العالم العربي: بدر شاكر السياب .

كان بدر يجتاز المرحلة الأخيرة من مرضه العضال الذي داهمه قبل هذا التاريخ بعدة سنوات ، واضطر بسببه إلى التنقل المستمر طلبا للعلاج في مستشفيات بيروت وبغداد وباريس ولندن ، وإحساسه الضاغط بالموت يطارده ويلاحقه ، وبنات الجن تخايله في يقظته ومنامه ، وهواجسه تعصف به وتفت من عافيته ومقاومته .

وصلت الطائرة في حوالي التاسعة صباحا ، وحين صعدنا لا ستقباله والترحيب به ، كان لا يزال جالسا لا نه لم يكن يستطيع الوقوف أو المشي ، وكان كما وصفه ناجي علوش في المدخل الذي كتبه لمقدمته النقدية والشخصية عنه في مستهل ديوانه الذي يضم أعماله - شبه الكاملة - كان يبتسم وكان يبدو مرحا ، ساعدناه علي الوصول إلى الأرض حملا: وجه أسمر معروق ، أنف طويل حاد ، عينان براقتان ، جسم هزيل تلفه دشداشة حريرية ، وسترة ميالة إلى الخضرة الزاهية . أذكر - ونحن نحمله من الطائرة - أن كان دوري حمله من ناحية رأسه ، فهتف بي بصوت واهن: حاسب علي رأسي يافاروق . لم يعد في جسمي سليم غيره ، أما بقية جسمي فيفتك بها الشلل .

في المستشفي الأميري بالكويت عاش السياب شهورا من المعاناة وضراوة مواجهة الموت ، مع إحساسه بأن الحياة تتسرب من بين أصابعه ، والنهاية المحتومة تترصده . كنا مجموعة من الأدباء والشعراء - لا نكاد نغادره ، ونتردد عليه صباحا ومساء ، ونستمع إلى قصائده الأخيرة التي يحاول بها الانتصار علي عجزه بينما هي تكشف عن سيطرة فكرة الموت تماما عليه يمليها - لا نه لا يستطيع الكتابة - علي ممرضاته ، أو بعض زائريه ، بعد أن يبقيها في رأسه محفوظة حتي مطلع الصباح . ومن خلال الأحاديث إلى ومية - التي لم يفقد خلالها قدرته الفذة علي الكلام والحوار - كان بدر يكشف الكثير عن علاقته الحميمة بالموروث الشعري العربي ، خاصة لدي المتنبي وأبي تمام ، وأعتقد أن هذه العلاقة الحميمة هي التي ضمنت لقصيدته التجديدية بنيانا أكثر إحكاما ولغة أكثر قوة ونفاذا من قصائد غيره من رواد حركة الشعر الحر ، الذين ما لت لغتهم إلى الهشاشة وبنيان قصائدهم إلى التسيب والبعد عن الإحكام . ومن هنا فإن كثيرا

مـن قـصائده التجديديـة يتـوهج بكلاسـيكية عارمـة ، لكنهـا الكلاسـيكية الجديـدة روحـا وتنـاولا واحتـشادا بحـس العـصر واقترابـا مـن شـواغله الإنـسانية والوجوديـة والكونيـة ، وهـي قـصائد لهـا مكانتهـا المتميـزة في مـسار إبداعـه الـشعري مثـل: مرثيـة الآلهـة ومـن رؤيـا فوكـاي ومرثيـة جيكـور وغيرهـا . ثـم أخـذ بـدر يحـدثنا عـن أبـي العـلاء المعـري وعمـق تـأثيره فيـه ، وكيـف أصـبح المعـري أحـد العمالقـة الثلاثـة وهـم المتـنبي وأبـو تمـام والمعـري الـذين يلخـصون بالنـسبة إلى ه جـوهر الـشعر العربـي وكنـوزه الحقيقيـة ، وإن كانـت قراءتـه التراثيـة قـد اتـسعت لا بـي الرومـي ومهيـار الـديلمي والـشعر الـذي أورده ابـن قتيبـة في كتابـه الـشعر والـشعراء وأبـو تمـام في ديـوان الحماسـة فـضلا عـن الـشعر الجـاهلي . كمـا ظـل يحـدثنا طـويلا عـن دراسـته لـلأدب الإنجليـزي ـ خـلال دراسـته في دار المعلمـين العاليـة في بغـداد الـتي تخـرج فيهـا سـنة١٩٤٨ وهـو في الثانيـة والعـشرين مـن العمـر . وكيـف تـأثر بهـذه الدراسـة كـثيرا خاصـة بالـشاعرين شـيلي وكيـتس (الـذي سمـاه في شـعره بـالعبقري المـريض ، الـذي مـا ت مـسلولا في الخامـسة والعـشرين مـن العمـر ، وآخـر مـا كتبـه قـصيدته الـتي يخاطـب بهـا كوكبـا في السماء) يقول السياب مشيرا إلى كيتس:

وتمتد يمناك نحو الكتاب
كمن ينشد السلوة الضائعة
فتبكي مع العبقري المريض
وقد خاطب النجمة الساطعة
تمنيت ياكوكب
ثباتا كهذا ـ أنام
علي صدرها في الظلام
وأفني كما تغرب

ومـن شـيلي وكيـتس انتقـل الـسياب في سـياق خـواطره المنثالـة كـالبرق ، إلى الحـديث عـن إديـث سـتويل وإليـوت وصـولا إلى الـشاعر الناقـد سـتيفن سـبندر والـشاعر لـوي مـا كنـيس . وفي زحـام هـذا كلـه ، لم يـنس أن يقـص علينـا قـصة إعجابـه بالـشاعرين المـصريين علـي محمـود طـه ومحمـود حـسن إسماعيـل ، وكيـف شـاركته في هـذا الإعجـاب نـازك الملائكـة و عبـد الوهـاب البيـاتي . أمـا نـازك فقـد أشـارت إلى هـذا الإعجـاب كـثيرا ، خاصـة في كتابهـا الـذي نـشره معهـد الدراسـات العربيـة في القـاهرة عـن علـي محمـود طـه وكانـت بدايـة الكتـاب محاضـراتها عنـه لطـلاب المعهـد حـين دعيـت لتكـون مـن بـين أسـاتذته ثـم زادت فيهـا لتكـون كتابـا مكـتملا . أمـا البيـاتي فلـم يـشر إلى هـذا الجانـب علـي عادتـه في إخفـاء مـصادر تأثراتـه وينابيعـه الأولـي . وبلـغ مـن إعجـاب الـسياب بعلـي محمـود طـه أن أرسـل إلى ه قصيدته الطويلـة بـين الـروح والجـسد الـتي قيـل إنهـا تنـاهز ألـف بيـت ، ليكتـب لهـا مقدمـة .

لكن الشاعر الملاح ما ت قبل أن يكتب المقدمة ، وفقدت بموته القصيدة . والطريف أن عنوان القصيدة يذكرنا بعناوين قصائد علي محمود طه ، بل إنه يختصر حياته الشعرية التي تراوحت بين الروح والجسد إلهاما واهتماما واضطرابا بين الأرضي والأثيري .

وعندما أسمعنا السياب - ذات صباح - قصيدته الجديدة في غابة الظلام التي يحن فيها إلى صغيره غيلان (وغيلان هو الاسم الحقيقي للشاعر ذي الرمة : أحد الأصوات الشعرية الكبري في القرن الثاني الهجري ، توفي١١٧ هجرية) - وقد كانت مقلتا غيلان تومضان في ليلة وتضيء له عالمه المظلم في حجرته ، بالإضافة إلى حنينه المتصل ووجده بزوجته إقبال وابنتيه : غيداء وآلاء - ووصل في إلقائه المتهدج العميق إلى قوله :

أليس يكفي أيها الإله

أن الفناء غاية الحياة

فتصبغ الحياة بالقتام ؟

تحيلني - بلا ردي - حطام

سفينة كسيرة تطفو علي المياه

هات الردي ، أريد أن أنام

بين قبور أهلي المبعثرة

وراء ليل المقبرة

رصاصة الرحمة ياإله !

حين أسمعنا هذا المقطع الأخير من قصيدته أدركنا أنه بدأ يستشعر دنو منيته ، وأنه علي يقين من قرب الرحيل ، لذا فهو يطلب رصاصة الرحمة التي تريحه من عذابه ، كما يطلقون علي الخيول المريضة والمصابة رصاصة الرحمة حتي لا تنفطر قلوب فرسانها حزنا عليها وهم يرونها تصارع النهاية المحتومة ، وتتعذب .

ولم تمض إلا شهور خمسة حتي كان رحيل السياب في الرابع والعشرين من ديسمبر١٩٦٤ ، لتنتهي ملحمة الصبر الأيوبية التي لم نكن ندري أنها سوف تتكرر ونشهد مثيلا لها عند الشاعر المبدع أمل دنقل ، ونجح كل من الشاعرين في أن يعمد شعره بماء الخلود ، وأن يضمن لا سمه مكانه البارز والمتقدم في ديوان الشعر العربي المعاصر (بالرغم من رحيلهما في زهرة العمر : السياب٣٨ عام ا ، أمل دنقل٤٣ عام ا)
.

يقول تقرير المستشفي الأميري في الكويت ، كما نشره ناجي علوش ضمن مقدمته لديوان السياب : . كان يعاني من مرض عضال ألم به منذ سنة١٩٦٠ حيث

أصابه ضعف في حركة أطرافه السفلي ، أدخل علي أثره مستشفي الجامعة الأمريكية في بيروت ولم يتحسن . سافر بعدها إلى إنكلترا بعد أن فقد القابلية علي السير ، حيث أجريت له الفحوصات وعولج ولم يحصل إلا علي تحسن جزئي لا يذكر . وأخيرا حط به المطاف في الكويت حيث أدخل المستشفي الأميري بتاريخ١٩٦٤ / ٧ / ٦ حيث كان طريح الفراش يشكو من شلل تام في أطرافه السفلي وضمور شديد في جميع عضلات الجسم وفقدان السيطرة علي التغوط ، مع قرح جلدية عميقة في منطقة الورك . كذلك كان يعاني آخر أيامه ـ من اضطرابات نفسية حادة . عرض علي إخصائي الأمراض النفسية حيث أخبر الطبيب أنه يعتقد أن سبب مرضه هو الظروف القاسية التي مر بها خلال السنوات العشر الماضية: سياسيا وعائليا . وكان الطبيب المعالج يعتقد أن العلاج النفسي سيساعده كثيرا في التغلب علي المرض ، بينما يعتقد الإخصائي بأنه يشكو من كآبة حادة ، بالاضافة إلى مرضه الأول: الشلل التام .

قضي فترة ما يقارب الستة أشهر في المستشفي الأميري ، أجريت له شتي الفحوصات المخبرية والشعاعية ، أعطي بعدها العلاج الطبيعي الذي سبب له من سوء حظه كسرا باثولوجيا في عظم الفخذ إلى سري ، وذلك لشدة ضعف العظم والعضلات . انتكست حالته الصحية عدة مرات ، بينما كان المرض يتطور من سيئ إلى أسوأ مع كل مضاعفاته إلى أن وفاه الأجل الساعة٢ . ٥٠ صباحا يوم٦٤ / ١٢ / ٢٤ إثر إصابته بذات الرئة الشعبي الحاد .

لعلي لا أبالغ أو أتجاوز إذا قلت إن قصيدة أنشودة المطر واحدة من أهم قصائد السياب ، إن لم تكن أهمها علي الاطلاق . وقد أصبحت القصيدة التي نشرت لا ول مرة عام ١٩٥٤ وفتن بها جمهور الشعر العربي ، عنوانا علي أهم مجموعة شعرية للسياب ، وهي المجموعة الرابعة طبقا للترتيب الذي ارتضته طبعة أعماله الكاملة وقبلها دواوينه: أزهار وأساطير (وقد كان في الأصل ديوانين هما: أزهار ذابلة (١٩٤٧) التي طبعت في القاهرة وأساطير (١٩٥٠) التي نشرت في بغداد) .

ثم الم عبد الغريق ، فمنزل الأفنان ، فأنشودة المطر فشناشيل ابي الجلي وأخيرا إقبال .

كانت أنشودة المطر تمثل بالنسبة لجيلفا ــــ الذي واكب نشرها لا ول مرة ــــ بكائية كبري للعراق ، استهلها الشاعر ببكائية ذاتية ، يصور فيها الطفل الذي أفاق من نومه ذات يوم ليسأل عن أمه ـ وهو لا يدري أنها قد رحلت وغيبها الثري وغمرها المطر المنهمر ـ لكن من حوله يصبرونه ويقولون له: بعد غد تعود ، من خلال بانوراما شعرية أبدع الشاعر في رسمها وتصويرها لعلاقة الحياة والموت التي تربط المطر بالوجود ، متسعة لمشاهد الحب والعيون والنخيل والشرفات والسحر والقمر والأضواء والكروم والمجداف

والنجوم والبحر والشتاء والخريف ، وأقواس السحاب والغيوم وكركرة الأطفال في عرائش الكروم ، وصمت العصافير علي الشجر تدغدغه أنشودة المطر ، والصياد الحزين يجمع الشباك وحين لا يصيد ما يتمناه يلعن الحياة والقدر ، والمطر وما يبعثه من حزن وشجن ونشيج ، وإحساس بالضياع عند الانسان الوحيد . وتصبح للمطر هذه الدلالة العنيفة المركبة التي تجمع بين الحب والأطفال والموتي والدم المراق والجياع . ويصل المشهد الشعري إلى ذروته والشاعر في غمرة الحزن الشفيف والأسي الذي يعتصره يصيح بالخليج صيحته التي يحملها كل من يري في الخليج حلمه وقد تحقق ولآلئه وقد صارت بين يديه ، غافلا عما ينتظره من هلاك وبلاء ، وهو يقول:

أصيح بالخليج:

ياخليج ياواهب اللؤلؤ ، والمحار ، والردي
فيرجع الصدي
كأنه النشيج:
ياخليج
ياواهب المحار والردي !

شتان بين الصوت والصدي . صوت من يصيح سواء كان الشاعر أو غيره يحمل أمل الاكتشاف والعثور علي الكنز ، وان كان يدرك أن معه المحار والردي . فقد يعود الغواص من قاع الخليج وكل ما في يديه محار فارغ لا لؤلؤ فيه ، وقد لا يعود لا نه قد هلك أو فقد القدرة علي التنفس تحت الماء ، وكم هلك كثير من هؤلاء الغاصة الذين تحولت نهاياتهم الحزينة إلى غناء حزين يردده النواخدة والبحارة وراكبو البوم السفار أي المركب المسافرة وتمتلىء به صفحات التراث الشعبي عن الغوص في الخليج . أما الصدي فلا يحمل ظلا من أمل . لقد اختفي اللؤلؤ ولم يبق إلا المحار والردي ، الأصداف الفارغة والموت !

ياخليج:
ياواهب المحار والردي !

وتمتلىء قصيدة أنشودة المطر بحس ما ساوي ساخر ، والشاعر يتأمل النخيل الذي يشرب المطر ، والعراق الذي يذخر الرعود ويخزن البروق في السهول والجبال ، إشارة إلى النماء والخضرة والازدهار ، والثروة التي ستلدها الأرض بعد ارتوائها بالمطر ، والخير الوفير الذي لن يترك جائعا بلا زاد ، لكن المأساة تبدأ في وجدان الشاعر منذ عهد بعيد ، من طفولته ، وهو يري المأساة المسلاة ، ويطالع تراجيديا العراق التي لا تخلو من مفارقة لا فتة:

ومنذ أن كنا صغارا ، كانت السماء
تغيم في الشتاء
ويهطل المطر !
وكل عام - حين يعشب الثري ـ نجوع
ما مر عام والعراق ليس فيه جوع
مطر . .
مطر . .
مطر . .

أين إذن يذهب هذا الخير كله ؟ وكيف يضيع أثر هذا المطر المنهمر الذي يعبر عن هذا الايقاع المتدفق: مطر . . مطر . . مطر ، فيبقي العراق أرضا للجوع في كل عام ، وموطنا للبائسين والمحرومين والمطحونين . إن وعي الشاعر المتنامي يهديه إلى جواب سؤاله المأساوي الساخر ، وكأنه من أسئلة العبث أو اللامعقول ، وهو يختتم قصيدته بمقطع كاشف ، لكنه الكشف المزلزل ، الذي يمتلىء بثورية الشاعر ونزعته المتأملة الرافضة ، وهو أيضا الختام الذي ينساب وئيدا في وجدان المتلقي لا ليستثيره في انفعال أهوج ، وإنما ليجعله يراهن علي دورة الحياة ، وانتصار حركتها التي سوف تطيح بكل الأفاعي التي تشرب الرحيق وتسرق ثروةالعراق ومحصوله الوفير ، والتي تضع أملها علي جيل جديد وليد ، هو طليعة عالم الغد الفتي ، واهب الحياة:

وفي العراق ألف أفعي تشرب الرحيق
من زهرة يربها الفرات بالندي
وأسمع الصدي
يرن في الخليج:
مطر . .
مطر . .
مطر . .
في كل قطرة من المطر
حمراء أو صفراء من أجنة الزهر
وكل دمعة من الجياع والعراة

وكل قطرة تراق من دم العبيد فهي ابتسام في انتظار مبسم جديد أو حلمة توردت علي فم الوليد في عالم الغد الفتي ، واهب الحياة ويهطل المطر !

تري هل كان السياب يدرك ، أو يخطر بباله ، أنه بعد أربعين عام ا من قصيدته أنشودة المطر ستكون هناك أفاع جديدة تطمع في ثروة العراق وجني أرضه ومطره

وأنهـاره ، أعـتي وأشـد هـولا وطغيانـا بكـثير مـن الأفـاعي الـتي كانـت تخايلـه وتقـتحم صـوره الشعرية في ذلك الزمان البعيد ؟

إن صـوت الـسياب لا يـزال محتفظـا بحرارتـه ونداوتـه وحيويتـه ، يهتـف بنـا ، ويقـذف في قلوبنـا شـجنه وتمـرده ، نبوءتـه ويقينـه ، كبريـاءه وانكـساره . وهـو صـوت يستحق وقفة متأنية في مقال قادم .

بغداد يا بغداد ! !

بقلم: فاروق شوشة

كيف الرقاد ! وأنت الخوف والخطر

وليـل بغـــداد ليـل ما له قمـر !

ها أنت في الأسر: جلاد ومطرقة

تهوي عليك وذئب بات ينتظر

وذابحوك كثير ، كلهم ظمأ

إلي دماك ، كأن قد مسهم سعر

أين المفر وهولاكو الجديد أتي

يهيئـــون لـه أرضــا فينتشــر

أني التفت فثم الموت ، تعزفه

كفان بينهما التاريخ ينشطر

بغداد حلم رف واستدار

كما يزف طائر

نأي به المدار

وحينما قصدت بابها الوصيد ذات يوم

علي أضيع في رحابها الفساح

أسلمت نفسي للهوي القديم واستكنت

فتحت هذه الحجارة المهشمة

يرقد

ـ في شوارع الرشيد والمنصور

أو أبي نواس ـ

جميع من قرأت من نجومها

ومن رجالها الأقمار

ومبدعي ديوانها المملوء بالفتوح

والأفراح والجراح والعمران

والخراب والفنون والجنون

والثورات والثوار !

وليلها المزهو في سماء عنفوانها !

كأنه نهار

وها أنا
أسير بين الكرخ والرصافة
أبحث عن عيون هاته المها
اسأل كيف طاب لا بن الجهم
موسم الغرام ، والأشعار !
وحينما تمتد ساعة التسيار
أعود من مسيرة الأشواق
مستلقيا علي ضفاف دجلة
والسمك المسجوف يشعل الحنين
والتذكار
أسير في تزاحم الوجوه والرفاق
هنا توقف أيها الدليل
فهذه مكتبة المثني
تفتح أبو ابا من الكنوز ،
تنفض الغبار
عن كتب مطوية عتيقة
لما تبح بما حوته من غرائب الأسرار
وتنزل الستار !

* * *

أبحث في بغداد والعراق
عن شاعر يعيش لحظة المحاق
ويدرك الأفول ،
والذبول
ملء عيون لم تزل
تعيش لحظة انتظار
لقادم يجيء ـ عله ـ
أو لا يجئ
وما الذي يحمله الغد الخبيء
من ظلمة ، ومن دمار !
وهل تري ينبه الصحاب والرفاق
إلي الغد الذي يلاحق الصغار !
أبحث في بغداد والعراق

أبحث في لفائف الذهول والإطراق عن صاحب وعن دليل
يرشدني إلى مواطيء القدم
لواحد من عترة الأخيار
كان إذا مشي ، وإن أشار أو تكلما
فوجهه الوضيء يمنح الوجود
دارة وأنجما
يعطيه أنسه وحسه
ومجلسه . . .
وكان من شذا يديه تورق العطور
وتهطل الخيرات والثمار
ومن جني لسانه تساقط اللآلئ
عقدا من النجوم
كأنه فيض الندي ، تغتسل القلوب فيه
أو كأنه در البحار !
أبحث عن هذا الحكيم
في زمن للتيه والضلال والنزق
لعله الحلاج . .
أو لعله الجاحظ ،
أو أبو حيان . . .
أو واحد لا نعرفه
في موكب النفاق والخديعة اختنق .
أبحث عن هذا الحكيم
لعله يعود بالضياء للحدق
لعله ينجي من الغرق
من قبل أن يهد ذاك المسرح الكبير
وتنزل الستار !

* * *

دار السلام ! وهل جربته أبدا
وأنـت قنبــلة بالهــــول تنفجـــر
طاشت رصاصاتك اللاتي قذفت بها
في كل صوب ، فزاغ العقل والبصر
كيف ارتضيت خنوعا لا مثيل له

والروح في قبضة الطاغوت تعتصر
كم نافقوك ، وكم صاغوا ملاحمهم
والحـلم يطوي ، وظل المجـد ينحسر
داست سنابك جلاديك فوقهمو
فالنـاس صــنفان: مـقتول ومنتحر
ياكم جنيت وقد أبقيتنا بددا
في أمـــة سـاد فيها الـذل والخـــور
ماذا ترومين ؟ جلاد وعاصفة
ونحـــن بالصمـت والخــذلان نعـتذر
جيكور ما تزال ، والسياب
يبحث في الشناشيل التي تهدمت
عن ابنة الحلم ، وعن جبينها الوضاء
مازال واقفا يصيح:
كيف ارتضيت أن تكوني للطغاة
سدرة ومتكأ ؟
وأن يعشش الخراب فيك سيدا مملكا
ويصبح الزمان داجي الرؤي ، محلولكا !
يا ويل من أن ببابهم أو اشتكي
فصار للكلاب عظمة ؟
ومضغة لكل من روي ومن حكي !
وفي البعيد يضرع النخيل ، والهواء
منعقد ، كأنه أنشوطة المخنوق
ساعة الإعدام . . .
وثم شيء ضاغط ، كهجمة الوباء
وقع الدرابك التي تهتز بالغناء
كأنه النشيج ، أو لعله البكاء
الأرض قد ضاعت ،
فأين طلة السماء !
وأين وجه شارد قد هام في العراء
وأين ظل ؟
كان في جيكور ظل باذخ وماء !
وكان نخل شامخ ،

فيه شموخ العراق
وكان صوت هاتف يفترش الآفاق
وينشد الأطفال من قصيدة السياب:
يا مطرا يا حلبي
عبر بنات الجلبي
يا مطرا يا شاشا
عبر بنات الباشا
يا مطرا من ذهب !
الموت في جيكور ، في جنين ،
في الأقصي ، وفي بيسان
وموكب الدمار يسحق النخيل والزيتون
ويخرس الأطفال في عرائش الكروم
ويطفئ النجوم
ويملأ الحلوق بالرمال !

* * *

بغداد
يا بغداد
يا بغداد . . .
يا روعة الحلم الذي . . . هل يستعاد ؟
تري يصيح الديك فيك من جديد
ويصدح الناقوس والأذان !
وتشرق الشمس علي دروبك السجينة
وهل تري ينداح فيك من جديد . .
صوت أبي تمام
مبددا كآبة الأحزان
من قبل أن تضيع عمورية المحاصرة
ملء دفاتر الهوان !
هذا يهوذا قادم في شملة المسيح
ولص بغداد الجديد طائش غرير . . .
يحلم بالمجد ، وبالفتوح
أم أن هولاكو يعود في زماننا الكسيح
مراوغا ــ كعهده ــ بالغمز والتلميح

أمامه الأعلام والأوهام والبيارق
وخلفه الحشود والرعود والصواعق
تسد عين الشمس . . .
يظنها . .
تستر وجهه القبيح !

خطوات على الأعراف

بقلم: فاروق شوشة

تحت هذا العنوان تلقيت قصيدة عام رة من الشاعر المبدع: عالم الدراسات اللغوية الدكتور سعد مصلوح .

والذين يتابعون الدراسات اللغوية المعاصرة تأليفا وترجمة يعرفون حجم الإسهام الذي شارك به الدكتور سعد مصلوح وحجم النشاط الموفور الذي قام به في العديد من الملتقيات والمؤتمرات المتخصصة في العديد من قضايانا اللغوية . وقد استطاع الدكتور سعد مصلوح أن يصنع من نفسه بالجهد الدائب والمتابعة الواعية النموذج الذي تتطلبه هذه الدراسات استيعابا للموروث ووعيا بجوهر ما فيه وانفتاحا علي الآفاق المعرفية الحديثة وتمثلا رشيدا لها ، بحيث لا تشوب كتاباته شائبة تعصب أو انغلاق فيما يتصل بإنجاز الثقافة العربية في تاريخها المتصل الحلقات أو شائبة انجراف وانبهار فيما يتصل بالجديد المتلاحق والمتسارع الذي ينهمر علي أفقنا الثقافي والمعرفي حاملا معه نظريات الحداثة في البحث اللغوي ومناهج الدراسة المغايرة وميادين يتصل فيها اللغوي بالنقدي والفلسفي في سياق متشابك العلاقات يضج بدلالات جديدة ويفضي إلى آفاق لم تخطر لباحث الأمس القريب علي بال .

والدكتور سعد مصلوح من بين القلة النادرة من علمائنا اللغويين في المجال الذي أصبح يطلق عليه الآن مجال اللسانيات التي استطاعت أن تقدم منجزا في النقد المعاصر يتكئ علي هذه الثقافة اللغوية . أقول هذا وأنا أدرك أن آفة كثير من نقدة هذه الأيام افتقارهم إلى معطيات البحث اللغوي التي تضئ مشكلة العلاقة بين البلاغة العربية من ناحية والأسلوبيات اللسانية من ناحية أخري .

الأمر الذي جعل كتاباتهم النقدية تحجم- في الأغلب الأعم- عن اقتحام البنية اللغوية للنص واكتناه مساره الإبداعي والاكتفاء في الأغلب الأعم- بسياحة سريعة تطوف بكل ما هو خارج النص خاصة إذا كانوا من بقايا الاتجاه الإيديولوجي أو العاكفين علي اعتصار ما يسمي بحساسية العصر ومظان الخروج علي المألوف والمغايرة فيما يتجاوز الأعراف والعقائد والآداب العامة . فهذه الأخيرة دوائر تغري بالكلام الكثير وبالانزلاق إلى أفق الاحتمالات الواعدة ، أما مجال التحليل اللغوي فلن تسعفهم فيه ثقافة هشة قاصرة .

ولقد شغل الدكتور سعد مصلوح نفسه كثيرا بهذه المشكلة ، مشكلة العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية ، وفي واحد من أبحاثه المهمة في تناول هذه المشكلة

يقول: ' إن البحث إنما يعالج مشكلا عربيا منه المنطلق وإليه المآب ، وفي هذا ما يكفكف الرغبة الجموح في سياحة مرهقة بلا ثمرة ترجي في أحراش النظريات والتصورات التي هي إفراز طبيعي لثقافات بعينها في سياقات تاريخية بعينها وعلينا حين نرهف آذاننا تستمع أصوات العصر أن نجعل عيوننا وعقولنا علي مشكلاتنا ، إذ لا قيمة عندنا لفكرة: تستفاد من ثقافة أخري إلا بقدر ما تلبي حاجة أو تحل مشكلا أو تضئ سبيلا .

ثم هو يري أن' البلاغة العربية' علم ذو أرومة عريقة في العربية كانت نشأته تلبية لحاجة ملحة وتوجه أصيل في الثقافة العربية الإسلامية وظلت البلاغة في أطوارها المختلفة وفيه للغاية التي انتدبت لتحقيقها حتي حين فتحت أبو اب الثقافة الإسلامية للإفادة من علوم الأوائل ولم تفتقد هذه الثقافة يوما معيارها الضابط لجميع توجهاتها والحاكم علي جميع اختباراتها فيما تأخذ وما تدع . أما' الأسلوبيات' فلا تزال باتجاهاتها وتصوراتها ذات الصلة الوثيقة باللسانيات الحديثة غريبة وافدة علينا وما زال أهلها والمقنعون بجدواها يبحثون لها عن دور تقوم به في إعادة صياغة النظرة العربية المعاصرة إلى دراسة النص الأدبي ومن هنا تأتي الصعوبة في صياغة العلاقة بين علم رسا ورسخ وآخر لا يزال يتلمس طريقه إلى ثقافتنا غريبا حذرا .

ثم هو في أحدث ما قرأته له' اتجاهات البحث اللساني' من تأليف ميلكا إفيتش وقد شارك الدكتور مصلوح في ترجمته مع الدكتورة وفاء كامل فايد أستاذة الدراسات اللغوية بكلية الآداب جامعة القاهرة والعضو المراسل لمجمع اللغة العربية السوري وصدر الكتاب ضمن المشروع القومي للترجمة عن المجلس الأعلي للثقافة عام ٢٠٠٠ في المقدمة التي أنجزها المترجمان لهذا الكتاب- وإن كنت أستشف فيها أسلوب الدكتور مصلوح ولغته- ينبه إلى اللهاث في استهلاك المنجز الثقافي الغربي أي لهفتنا إلى التشبث بكل ما يصل إلى نا من الغرب باعتباره الطريق إلى الحداثة ونفي السلفية ولبس قبعة التجديد والتمرد علي الموروث والسرطان بما يحمله هذا المنجز الغربي من مصطلحات ومسميات قائلا: ' تحولنا بالحديث من غيابات العموم إلى شخوص التخصيص ، فتأملنا واقع الدرس اللساني في العربية راعنا ما نحن عليه من لهاث ينقطع به النفس ولا يدرك به المأمول ، ذلك أن استهلاك المنجز الثقافي الغربي في هذا الباب يباين استهلاك المنجز المادي من وجوه كثيرة .

لا يصلح معه إلا تأمل الذات والوعي بموقعها من مسيرة العلم واستنبات البذور في تربة الثقافة العربية علي نحو يفضي إلى توطين العلم والإسهام في صياغته . ونحسب أن جانبا من المشكل اللساني العربي المعاصر أنه يقارب المرحلة المعاصرة مقطوعة الصلات

عن مواردها ومصادرها ودون وعي كاف بتاريخ العلم ومكاننا من هذا التاريخ حاضره وغابره
.

هذا قليل من كثير جدا يتطبه الأمر حين يكون المجال هو الحديث عن الدكتور سعد مصلوح عالما لغويا توسوعيا وناقدا من طراز خاص وباحثا مهموما باللسانيات والأسلوبيات . أما سعد مصلوح الشاعر فهو أيضا واحد من القلة النادرة التي لم تستطع الأكاديمية والبحث الدءوب إطفاء جذوة الإبداع الشعري فيهم أو سترها عن العيون . ولقد أتيح لي أن أري سعد مصلوح الشاعر- وهو لا يزال طالبا في كلية دار العلوم- وأن أشارك الآخرين في الاستماع إلى ه عن كثب وهو يشارك بقصائده البديعة الواخزة الجارفة الحادة الوقع كالنضال في مهرجانات الكلية ومناسباتها الشعرية . كانت كلاسيكيته الصارمة المجددة في الروح والجوهر والموقف أبرز ما يميزه وكان سمته الشعري الباذخ المحتوي لمن يستمع إلى ه وينفعل به يناقص كيانه الوديع وحجمه القليل ويجعلنا- نحن من محبي شعره لغة وبناء وتوجها- نشفق عليه من وطأة قصيدته وتوهجها الذي لا بد أنه يقتات من جسده كما كان الحال قديما مع أبي تمام ، وقد استطاع سعد مصلوح أن يجسد هذا النموذج الفريد لشاعر القصيدة العمودية القادر علي أن يجعل منها فضاء مبدعا لرياح التجديد والحداثة من غير أن يتخلي عن الأصول أو يتنكر لحقيقة الشعر تماما كما فعل قريناه في هذا السياق: الحساني حسن عبد الله وأبو همام: عبد اللطيف عبد الحليم وثلاثتهم هم شعراء القصيدة الكلاسيكية الجديدة بامتياز ، ونافخو النار الجديدة في كيانها الشامخ وروحها العتيدة .

من هنا فقد استقبلت بالإعزاز والتقدير الرسالة الكريمة التي تلقيتها من الدكتور سعد مصلوح- الذي يعمل منذ سنوات أستاذا في جامعة الكويت- متضمنة قصيدته' خطوات علي الأعراف'- ويأبي كرم نفسه وتواضعه إلا أن يشير في ثنايا رسالته إلى قصيدة لي بعنوان' شبيه زماننا' نشرت في الأهرام بتاريخ ٣٠ يونيو الماضي ، كانت سببا في تحريك شاعريته وجيشان وجدانه .

يقول الدكتور سعد مصلوح:

الأخ العزيز والشاعر (. . . . .) الأستاذ فاروق شوشه:

حبا وشوقا وبعد:

فقد قرأت فريدتك المونقة' شبيه زماننا' فنبثت في النفس ما كان دفينا وصادفت قراءتي إياها ذرور العام الحادي والستين من عمري ، فاجتمع هذا إلى ذاك فجري القلم بهذه الأبيات . ولما كان لـ (. . . . . . .) الفضل في إشعال لحظة الانبثاق رأيت أن أهديها إلى ك والمأمول أن تكون جديرة بهذا المقام الكريم .

ولك التحية من قارئ معجب ومتابع حريص .

الكويت في٢٠٠٣ / ٢ / ٢٧ سعد مصلوح

يقول الشاعر سعد مصلوح في قصيدته التي تعد شاهدا ودليلا علي توهج شاعريته من جديد فضلا عن امتلائها بوعي الزمان والمكان ورزء اللحظة التاريخية والإباء المستنفر في عزة وشموخ ينكسر الزمان ولا تنكسر النفس ويستلب المكان ولا يستلب العقل والوجدان في استشراف بعيد لما وراء اللامنظور ووعي عميق بحقيقة القشور الخارجية والأهداف الفارغة :

طال السري وخطاك ترتجف
وأراك لا تلوي ولا تقف
يأيها المزجي مطيته
في حيث لا ما ء ولا علف
أقصر فدونك قنة صعد
وانظر فتحتك هوة جرف
دنياك تشنأ كل عارفة
ولها بكل نقيصة شغف
جاورت في عميائها زمنا
قوما علي أصنامهم عكفوا
وبها تورك ـ غير مكترث
الكارثان : الجهل والصلف
أحرارها أنضاء معركة
أبطالها الأنكاس والكشف
فرأيت ثم رأيت خارقة
أن راح يرضخ صخرك الخزف
وشهدت سابقهم علي ظلع
وسمعت ناعقهم ومن هتفوا
وعجبت كيف يزين بهرجه
زور المقال ويأثم الحلف
والباز كيف يبزه رخم
والدر كيف يعزه الصدف
أوصت بنا الأيام مشبهها
ووصاتهن الإثم والجنف

نكتالها بيد مطففة
قد أخسرت ومكيلها الحشف

* * *

الله في أرض معانقة
نهر الجنون رياضها الأنف
حتي إذا يأجوجها نسلت
ووراءها ما جوجها ردفوا
تشلي جراء الشر نابحة
وتصول فيها خيلها العجف
جن الحجا فدعا مؤذنه
ويل لمن عرفوا وما اغترفوا
فالواردوه علي جنونهم
عقلوا الزمان وجن من صدفوا
والشاربوه لهم مسهلة
أو عارها وتوطأ الكنف
ركبوا معارجها وقد جعلت
لبيوتهم من فضة سقف

* * *

يأيها المغضي علي حسك
قلبا يذوب ودمعة تكف
شارفت ياء العمر فانبعثت
ذكر يجر نظيمها الألف
ترجو غدا وغد مخدرة
قد أرخيت من دونها السجف
خفيت فلا هي كاعب غنج
يدري بها أم عاقر نصف
ماذا تري يجديك إن رجفت
منك الخطا وتحير الهدف
أمعاندا والقول مستبق
رفع إلى راع وجفت الصحف
أمس انقضي واليوم سانحة
وغد به للخير مزدلف

وطئت خطاك الشوك محتفيا
ما غرها لين ولا شظف
وجبلت عزا لا يهون به
يعلو العلاء ويشرف الشرف
تلك الحياة سرورها خلس
تمضي وجزل عطائها نتف
كم ذا أسفت وكم ندمت لها
الآن لا ندم ولا أسف
فلقد عرفت قديم عادتها
وجهلت أني تؤكل الكتف

ارفع يديك

خنساء العصر

بقلم: فاروق شوشة

أتيح لي أن أتعرف علي الشاعرتين نازك الملائكة وفدوي طوقان في وقت واحد . كنت في السادسة عشرة من العمر في مستهل مرحلة الدراسة الجامعية . وكان لزملائنا في الجامعة من الأشقاء العرب الفضل في إتاحة الفرصة لقراءة الديوان الأول لفدوي طوقان وحدي مع الأيام الذي صدر لها في القاهرة في أواخر الأربعينيات برعاية خاصة من صديقها الأثير الناقد الكبير أنور المعداوي . والديوان الأول لنازك الملائكة عاشق الليل الذي صدر لها في وقت مقارب لديوان فدوي ، عام ١٩٤٧ . وسرعان ما بدأت مجلة الآداب البيروتية في الظهور ، عام ١٩٥٣ ، وأصبح لقاؤنا بشعر نازك وفدوي علي صفحاتها ، ثم من خلال منشورات دار الآداب ، دائما وموصولا .

في ذلك الوقت- منذ نصف قرن ، كان شعر فدوي بصفائه ونقائه وبساطته ، وما يمثله من انطلاق وشفافية ، أقرب إلى نفسي ونفوس من حولي . بينما كنا نجد في شعر نازك درجة أعمق من التكثيف والمعاناة والامتلاء بالصور الشعرية التي فجرتها الكآبة والعتمة . كانت الشاعرتان تتفقان في محاولة كسر الحاجز ، واقتحام منطقة البوح والإفضاء ، والاقتراب من منطقة المشاعر الذاتية . وتختلفان في نوعية البوح ودرجة المكاشفة ومواجهة الأثقال والأستار الكثيفة التي تعوق تدفق الإبداع وانهمار الشعر . كان معجم فدوي يشرق بأقباس من لوحات الطبيعة الفلسطينية التي نجحت الشاعرة في تجسيدها وإكسابها حياة ناطقة ، بل والحلول فيها حلولا شبه صوفي حتي صرت مدينا لتلك القراءة المبكرة لشعر فدوي بمعرفتي المتخيلة لنابلس وعيبال وجرزيم ورفيديا ، وغيرها من المعالم الفلسطينية الساكنة في أعماقي . وكان حزن فدوي حزنا غير مغلق ، تنفتح فيه كوي كثيرة يتسلل إلى ها قليل من ضوء الحياة والنفس والوجود ، ليجعل منه حزنا طافرا ، جميلا ، نبيلا ، يمنح المواساة ويستدر خيوط المشاركة . أما حزن نازك ومعجمها الشعري وسمتها الابداعي ، فكان حزنا ، ضاغطا ، ثقيلا ، كما يقول صلاح عبد الصبور . الحزن الذي يجثم علي الصدور والأنفاس فلا يتركنا إلا شبه مختنقين . كنا نحس أن لغة فدوي أكثر خفة ورشاقة ، أما لغة نازك فأكثر استقرارا وإحكاما ، وأمعن في النفاذ إلى أغوار سحيقة من النفس والعقل .

وانهمرت الأيام والأحداث والتجارب . وتناثرت الكوكبة الطلابية التي كانت تظن أنها قادرة علي تغيير العالم بعد التخرج من الجامعة . تناثرت شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وإن بقيت في الذاكرة أصداء هذا الاكتشاف القديم- منذ نصف قرن-

لشعر نازك فدوي ، فإذا بنا نعيد النظر في كل مسلماتنا وأحكامنا السابقة ، ونستطيع في ضوء كثير من التمرس والنضج والخبرة والمتابعة والتحليل ، رؤية الأفق العالي الذي يحلق فيه شعر نازك ، والنجوم الشاسعة التي تضم أبهاء هذا العالم الشعري الثري ، وهذه الطاقة الشعرية الجبارة ، وهذه القدرة الفذة علي الغوص وراء المعاني والأفكار والصور ، حفرا في العمق ، وتحليقا في الآفاق ، ورفرفة في الأعالي ، لقد اتسعت المسافة بين الشاعرتين عطاء ونفاذا وتأثيرا ، وبخاصة حين برز وجه المفكرة والناقدة والباحثة عند نازك ، وأصبح- بالإضافة إلى وجهها الشعري الأصيل- حقيقتها الواحدة المكتملة ، رائدة أولي في حركة الشعر الجديد ، ومنظرة لقصيدة التفعيلة ، ودارسة متفتحة للعروض والموسيقي الشعرية ، وموجهة للمسار الشعري في العراق وخارجه ، بعد أن تنابعت موجات الشعر الجديد أو الشعر الحر . ولم تتردد في رفع صوتها با لتحذير والتنبيه حين رأت مسيرة الشعر الحر قد أصبحت مشوبة بالكثير من الشوائب .

مشيرة في تقديمها لديوانها للصلاة والثورة الذي ظهرت طبعته الأولي عام ١٩٧٨ إلى الظروف التي تعرقل هذه المسيرة ، نتيجة لا ستهانة بعض شعرائه بالعروض واحتقارهم له ، مع ازدرائهم للعربية وقواعدها ، وتحقيرهم العامد للتراث ، ومحاولة الإغراب وإثارة الدهشة علي حساب العقل الإنساني . تقول نازك: ومن أبرز هذه الظروف المعرقلة ما أسميه بالتعمية ، ولا أقول الغموض ، لا ن الغموض ستار جميل فني يشف ولا يحجب ، في حين أن التعمية ما خذ فني وعيب ينتقص القيمة الجمالية للقصيدة ، وكل هذه المعايب لا تنبع من شكل الشعر الحر وليست ملازمة له .

ذلك أنها كلها يمكن أن ترتكب في شعر الشطرين أيضا . ولذلك فإن حملات المتزمتين علي كثير من الشعر الحر تلقي الوزر علي شكل هذا الشعر ، في حين أن الضعف كامن لدي بعض شعرائه لا في الشكل نفسه . إن الشعر الحر شكل جميل مكتمل وهو غير مسئول عن ضعف طائفة من شعرائه وجهلهم وإغرابهم . تماما كما أن شكل الشطرين جميل في ذاته وهو غير مسئول عن تقليدية الذين ينظمونه وجهودهم . ولذلك أؤمل أن يكون رأيي هذا دعوة فعلية إلى الفصل بين الشكل المجرد وعيوب الشعر الذي ينظم في إطار هذا الشكل .

ثم تقول نازك: إن الشكل- بصفته المطلقة- صيغة جمالية مبرأة من العيوب ، سواء أكان حرا أو خليليا وإنما تأتي العيوب منا نحن الشعراء . هذا مع الاتفاق علي أن لكل عصر لفتة مزاجية قد تجعله يؤثر شكلا من الأشكال علي سواه . وهذه اللفتة ترتبط بسمة العصر الحضارية وليست مجرد نزوة طارئة في نفوس الشعراء كما قد يظن ذوو النظرة العجلي السطحية من النقاد .

قبـل هـذا التحـذير والتنبيـه الـذي سجلته عـام ١٩٧٨ ، كـان هنـاك رأي لهـا حـول الـشعر جـديد بالتنويـه ، في تقـديمها لـديوانها شـجرة القمـر في عـام ١٩٦٧ ، وهـي تقـول: يلاحـظ أن في هـذا الـديوان سبع قـصائد مـن الـشعر الحـر ، وقـد يعجـب بعـض القـراء مـن قلـة هـذا العـدد بالنـسبة لقـصائد الـديوان ، لا نهـم ألفـوا أن يـروا طائفـة مـن الـشعراء وقـد تركـوا الأوزان الـشطرية العربيـة تركـا قاطعـا ، كـأنهم أعـداء لهـا ، وراحـوا يقتـصرون علـي نظـم الـشعر الحـر وحـده في تعـصب وعنـاد ، وأحـب أن أذكـر القـارئ في هـذه التقدمـة أنـني لم أدع يومـا إلى الاقتـصار علـي الـشعر الحـر ، وأبـرز دليـل علـي هـذا ديوانـاي الـسابقان . أمـا شـظايا ورمـاد الـصادر سـنة١٩٤٩ ، وهـو الـذي دعـوت في مقدمتـه إلى الـشعر الحـر دعـوة متحمـسة فلـم تكـن فيـه إلا عـشر قـصائد حـرة ، بينمـا كانـت القـصائد الأخـري جميعـا تنتمـي إلى الأوزان الـشطرية . وأمـا قـرارة الموجـة ديـواني الـصادر سـنة١٩٥٧ فقـد اقتـصر علـي تـسع قـصائد مـن الـشعر الحـر ، ولا أذكـر قـط أنـني اقتـصرت علـي الـشعر الحـر في أيـة فـترة مـن حيـاتي ، وسـبب هـذا أنـني أولا أحـب الـشعر العربـي ولا أطيـق أن يبتعـد عـصرنا عـن أوزانـه العذبـة الجميلـة . ثـم إن الـشعر الحـر كمـا بينـت في كتـابي: قـضايا الـشعر المعاصـر يملـك عيوبـا واضـحة أبرزهـا الرتابـة والتـدفق والمـدي المحـدود ، وقـد ظهـرت هـذه العيـوب في أغلـب شـعراء هذا اللون ، وهذا حاصل أيضا في الشطرين ، فإن له مزايا وله أيضا عيوبه .

وإنـي لعلـي يقـين مـن أن تيـار الـشعر الحـر سـيتوقف في يـوم غـير بعيـد ، وسـيرجع الـشعراء إلى الأوزان الـشطرية بعـد أن خاضـوا في الخـروج عليهـا والاسـتهانة بهـا . ولـيس معـني هـذا أن الـشعر الحـر سـيموت ، وإنمـا سـيبقي قائمـا يـستعمله الـشاعر لـبعض أغراضـه ومقاصده دون أن يتعصب له ويترك الأوزان العربية الجميلة .

وممـا أحـب أن أعلـن أسـفي لـه أنـني في شـعري الحـر لم أعـني عنايـة أكـبر بالقافيـة ، فكنـت أغـير القافيـة سـريعا وأتنـاول غيرهـا ، وهـذا يـضعف مـن الـشعر الحـر ، لا نـه يقـوم علـي أبيـات تتفـاوت أطـوال أشـطرها وبـذلك يـنقص رنينهـا وموسـيقاها ، فلـو زاد الـشاعر القافيـة غـني ولم يغيرهـا سـريعا لا ضـفي علـي الـوزن موسـيقي تمـسكه وتمنعـه مـن الانفـلات ، ولهـذا بـت أدعـو إلى أن يرتكـز الـشعر الحـر علـي نـوع مـن القافيـة الموحـدة- ولـو توحيـدا جزئيا- فبذلك نزيده موسيقي وجمالا ، ونحميه من ضعف الرنين وانفلات الشكل .

هـذه المراجعـة للـنفس ، وهـذه القـدرة علـي التوجيـه والتنبيـه والتحـذير ، فتحـت علـي نـازك بوابـات الجحـيم ، وأنـصاف الموهـوبين مـن النقـاد والدارسـين والـشعراء يتهمونهـا بـالتراجع عـن موقفهـا المؤيـد للـشعر الحـر ، باعتبارهـا في طليعـة رواده ، وبأنهـا تنكـرت لثوريتهـا الـشعرية ، وعـدلت عـن أفكارهـا التجديديـة ، وهـو أسـلوب يلجـأ إلى ه دائمـا الخطـافون- أي الـذين يخطفـون الكـلام دون تأمـل أو رويـة ، كمـا وصـفهم طـه حـسين ، ويـسقطون عليـه مـا في نفوسـهم مـن غـرض ومـرض . والواضـح أن هـذه التقـديمات الـتي كتبتهـا

نـازك لـدواوينها ، بالاضـافة إلى كتابهـا الرائـد والطليعـي في مجالـه قـضايا الـشعر المعاصـر وثيقـة لهـا قيمتهـا النقديـة والتاريخيـة ، ومـايزال الكـثير مـن أفكارهـا حيـا ، مـثيرا للجـدل والحـوار والتأمـل ، لم يفارقـه مـا ء الجـدة ولا عمـق التنـاول والاستقـصاء . والمتـابع لكـثير مـن قصائد الشعر الحـر عنـد عـدد مـن مبدعيـه الكبـار إلى وم سـوف يتأكـد مـن صـحة نبـوءة نـازك ، وتوجههـا الموسـيقي ، وهـي تـشير إلى نـوع مـن القافيـة الموحـدة والمـترددة في سـياق النـصوص الـشعرية ، تزيـدها إحكامـا وجمـالا وموسـيقية ، وتحميهـا- كمـا قالـت نـازك بحـق- مـن الضعف والانفلات .

في ديوانهـا للـصلاة والثـورة وفي القـصيدة الـتي منحـت الـديوان اسمـه تقـول نـازك إنهـا تلقت بطاقـة تهنئـة بعيـد الفطـر في يـوم١٢ نـوفمبر عـام ١٩٧٢ عليهـا صـورة لمسجد قبـة الـصخرة بالقدس ، فكانت هذه الكلمات المتوهجة:

يا قبة الصخره

يا جرح ،

يا ضماد ،

يا زهرة

يا سهر الجراح في ارتعاشة الشفاه

يا حرقة الدعاء ، يا تنهد الصلاه

هل تنبض الحياه ؟

في هذه الأذرع والجباه ؟

هل تدفق العطور والألوان والمياه ؟

ينبجس النبع من الصخره ؟

وينبت الفداء وردا ساخن الحمره ؟

نسقيه من تمتمة الدعاء

من حمرة الدماء

نطعمه سنابل الفداء

نختصر الزمان في تسبيحة ثره

يصرخ فيها عطش الثوره

* * *

يا قبة الصخرة

يا جنح ليل فاقد فجره

متي تري سننفض الغبار

عن وجهنا ، ونرفع الحصار ؟

متي تري نقتحم الأسوار ؟
وغنوة الأمواج والخلجان والأغوار
تهمس في أسماعنا بأعذب الأشعار
هتافها ينبض بالأسرار
فلنبدأ الإبحار
قلوعنا والهة ، والدفة انتظار
وفي المدي جزائر المرجان والمحار !

يفوح شعر نازك الملائكة بروائح الشعر الإنجليزي والفرنسي . وفي دواوينها ترجمات لقصائد مختارة من شعر بايرون- قصيدة البحر من قصيدته الطويلة تشايلد هارولد ، وقصيدة مهداة إلى الشاعر كيتس وترجمة لقصيدة توماس جراي المشهورة: مرثية في مقبرة ريفية ، وإشارات إلى روبرت بروك ، وفي الأدب الفرنسي- الذي تعلمت لغته في البيت مع أخيها الذي يصغرها نزار ، وواصلت تعلمها حتي أصبحت تقرأ فيها كتب الشعر والنقد والفلسفة- قرأت قصصا لا لفونس دوديه وموباسان ومسرحيات لموليير . كما قرأت شعر شيكسبير وهي طالبة في دار المعلمين العالية ، وترجمت إحدي سونيتاته ، وتوقفت عند مسرحية حلم منتصف ليلة صيف ، ثم أقبلت علي قراءة شعر بايرون وشيلي .

ولم يكن يحاذيها من شعراء العراق الرواد في حركة الشعر الجديد- في هذا الاتجاه الانفتاحي علي الآداب الغربية غير بدر شاكر السياب ، الذي تلتمع في ثنايا عديد من قصائده تأثراته بقراءاته في الشعر الانجليزي علي وجه الخصوص ، للمجموعة التي أطلق عليها شعراء البحيرة ، وكان السياب في أيامه الأخيره- بالمستشفي الأميري في الكويت حيث قضي نحبه في ديسمبر عام ١٩٦٤- دائم الإشارة إلى المرحلة التي شغف فيها بشعر هؤلاء الشعراء ، ورأي في قصائدهم ريحا جديدة تهب من الشمال- بتعبير شاعر النيل حافظ ابراهيم- حين قال:

آن يا شعر أن نفك قيودا
قيدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا
ودعونا نشم ريح الشمال

وقد كان حفظ السياب وإنشاده للعديد من مقاطع القصائد الشهيرة- لبعض هؤلاء الشعراء- مثار دهشة زواره وعواده وإعجابهم ، وهم يرون علاقة عكسية- لا تفسير لها- بين ما يطرأ علي جسده من اضمحلال وتلاش وفناء ، وعلي ذاكرته من صحوة وحيوية وقدرة فذة علي الاستدعاء !

تري ، هل يكفي الآن أن يقال عن نازك الملائكة إنها خنساء القرن العشرين ؟ أم أن هذا الحكم من شأنه أن يظلمها في مجال المقارنة بالخنساء التي حصرت شعرها في دائرة واحدة لم تتجاوزها هي دائرة البكاء علي أخويها صخر ومعاوية– وإن اختصت معاوية بالنصيب الأوفي– بينما حلقت نازك وطوفت في آفاق شتي ومجالات أرحب ، ووهبت حياتها للشعر وحده– إبداعا ونقدا– ولم تنشغل بشيء سواه ؟

لابد إذن من إبحار جديدة في عالم نازك الملائكية ، وفي أعمالها الكاملة: الشعرية والنثرية التي صدرت عن المجلس الأعلي للثقافة– بمناسبة احتفاليته بنازك في العام الماضي ، نواصل من خلاله الحديث عن أكبر شاعرة عربية عرفها القرن العشرون ونحن نردد كلماتها:

لنكن أصدقاء
في متاهات هذا الوجود الكئيب
حيث يمشي الدمار ويحيا الفناء
في زوايا الليالي البطاء
حيث صوت الضحايا الرهيب
هازئا بالرجاء
لنكن أصدقاء
فعيون القضاء
جامدات الحدق
ترمق البشر المتعبين
في دروب الأسي والأنين
تحت سوط الزمان النزق !
لنكن أصدقاء !

ليلى المريضة في العراق

بقلم: فاروق شوشة

يرجع انشغالي بأمر ليلي المريضة في العراق إلى وقت مبكر من العمر حين أتيحت لي قراءة ديوان مجنون ليلي لا ول مرة ولفت انتباهي قول قيس:

ألا يا حمامات العراق أعنني
علي شجني ، ما بكين مثل بكائيا
يقولون ليلي بالعراق مريضة
فياليتني كنت الطبيب المداويا !

وظللت زمنا طويلا أتساءل: ما علاقة قيس وليلي - اللذين ولدا وعاشا وماتا في نجد - بالعراق ! وما الذي ذهب بليلي إلى العراق ، وجعلها تمرض هناك ، ليقول فيها قيس هذا الكلام ، في سياق قصيدة من أجمل قصائده وأطولها نفسا ؟ ثم شغلت بالأمر - مرة أخري - وأنا أطالع قصيدة الشريف الرضي البديعة ، التي اخترتها ضمن أحلي عشرين قصيدة حب في الشعر العربي ، والتي يقول فيها:

يا ظبية البان ترعي في خمائله
ليهنك إلى وم أن القلب مرعاك
الماء عندك مبذول لشاربه
وليس يرويك إلا مدمعي الباكي
هبت لنا من رياح الغور رائحة
بعد الرقاد عرفناها برياك
ثم انثنينا إذا ما هزنا طرب
علي الترحال ، تعللنا بذكراك
ثم يجئ البيت موضع الاستشهاد:
سهم أصاب وراميه بذي سلم
من العراق ، لو أبعدت مرماك !

وذو سلم الذي ورد ذكره أيضا في مطلع قصيدة لا بن الفارض ، ومطلع البردة للبوصيري موضع بين الحجاز ونجد ، وقد سمي بهذا الأسم نسبة إلى شجر السلم الذي ينمو فيه ، وهو شجر يدبغ به . وإشارة الشريف الرضي تفيد أن ليلاه أو محبوبته يتيمة بذي سلم لكن سهمها أصاب وهو بالعراق ، فما أبعد المرمي وأفتك التأثير ! وحين سمعت بكتاب الدكاترة زكي مبارك ليلي المريضة في العراق قلت لنفسي: الآن

يمكنــك جــلاء الأمــر ونــشدان الحقيقــة ، والوصــول إلى القــول الفــصل في أمــر ليلــي المريــضة بــالعراق ، والكتــاب يحمــل علــي غلافــه هــذه الكلمــات: تــاريخ يفــصل وقــائع ليلــي بــين القــاهرة وبغــداد ، مــن ســنة١٩٢٦ إلى ســنة١٩٣٨ ، ويــشرح جوانــب مــن أســرار المجتمــع وســرائر القلــوب . والــذي حــدث أن زكــي مبــارك بعــث ـ وهــو في بغــداد عــام ١٩٣٨ ـ بعــدة مقــالات إلى مجلــة الرســالة الــتي كــان يــصدرها ويــرأس تحريرهــا أحمــد حــسن الزيــات ، ثــم صــدرت هــذه المقــالات في كتــاب مــن ثلاثــة أجــزاء عــام ١٩٣٩ يحمــل عنــوان المقــالات ليلــي المريــضة في العــراق .

وزكــي مبــارك ـ لمــن لا يعرفــه مــن شــباب هــذا الجيــل ـ هــو كمــا تقــول عنــه موســوعة أعــلام الفكــر العربــي كتــاب وشــاعر وباحــث أدبــي ، ولــد عــام ١٨٩١ ، وتعلــم في الأزهــر ، وعنــدما قامــت ثــورة١٩١٩ شــارك فيهــا وكــان مــن خطبائهــا المــبرزين ، فاعتقلتــه الــسلطات الإنجليزيــة في معتقــل ســيدي بــشر بالاســكندرية عــام ا كــاملا ، ثــم دخــل الجامعــة المــصرية الأهليــة ســنة١٩١٦ وحــصل منهــا علــي درجــة الليــسانس عــام ١٩٢٠ ، ونــال الــدكتوراه عــن بحثــه الأخــلاق عنــد الغزالــي ســنة١٩٢٤ ، ثــم ســافر إلى بــاريس ســنة١٩٢٧ حيــث حــصل علــي الــدكتوراه مــن جامعــة الــسوربون عــن رســالته النثــر الفــني في القــرن الرابــع الهجــري عــام ١٩٣١ . وقــد اشــتغل زكــي مبــارك بالتــدريس في الجامعــة المــصرية ، ثــم في دار المعلمــين العليــا ببغــداد ، ثــم بــالتفتيش في المــدارس المــصرية ، وسمــي بالــدكاترة لحــصوله علــي أكثــر مــن درجــة دكتــوراه مــن مــصر وفرنــسا . وقــد عــاش حياتــه بــروح فنــان منطلــق صــادق مــع نفــسه ، صــريح صــراحة واضــحة في الحــديث عــن نفــسه ، جــرئ في نقــده . ويعــد مــن ألمــع الشخــصيات الــتي ظهرت في الثلاثينيات والأربعينيات في الحياة الأدبية والصحفية .

ومــن أشــهر مؤلفاتــه: حــب ابــن أبــي ربيعــة وشــعره ، عبقريــة الــشريف الرضــي ، الأخــلاق عنــد الغزالــي ، النثــر الفــني في القــرن الرابــع الهجــري ، البــدائع ، ليلــي المريــضة في العــراق . ولزكــي مبــارك أشــعار جميلــة جمعــت في ثلاثــة دواويــن هــي: ديــوان زكــي مبــارك ، ألحــان الخلــود ، أطيــاف الخيــال (وهــو الــديوان الــذي أشــرفت علــي جمعــه ونــشره ، راعيــة تراثــه: ابنتــه كريمــة زكــي مبــارك ، وقــد نــشر الــديوان بعــد وفاتــه ســنة١٩٨٧ ، أمــا رحيــل زكــي مبــارك فكــان في عــام ١٩٥٢ ، بعــد أن خــاض معــارك قلميــة ضــارية مــع كــثير مــن الشخــصيات الــسياسية والأدبيــة ، تركــت آثارهــا في حياتــه الوظيفيــة والاجتماعيــة ، وجعلتــه يستــشعر الغــبن وعــدم الإنــصاف مــن النــاس والزمــان ، بــالرغم مــن موهبتــه الإبداعيــة الــضخمة ، وكونــه واحــدا مــن أصــحاب الأســاليب الأدبيــة المتميــزة ، الــتي تميــز بهــا أعــلام جيلــه مــن أمثــال طــه حــسين والزيــات والعقــاد والمــازني وغيرهــم . وقــد قــال عنــه الزيــات: إنــه مــن أحــد الكتــاب العــشرة الــذين يكتبــون لغــتهم عــن فهــم ، ويفهمــون أدبهــا عــن فقــه ، ويعــالجون بيانها عن طبع .

قـدم زكـي مبـارك لكتابـه ليلـي المريـضة في العـراق بتقريـر طـبي عـن مـرض ليلـي رفعـه إلى حـضرة صـاحب المعـالي الـدكتور محمـد حـسين هيكـل باشـا ـ وكـان يومهـا وزيـرا للمعـارف ـ وقد امتـد التقريـر الـذي نـشر في الرسـالة علـي حلقـات ليـصبح كتابـا كـاملا ، تملـؤه اسـتطرادات المؤلـف ، وانتقالاتـه المفاجئـة مـن موضـوع إلى موضـوع ، واستـشهاداته واقتباسـاته مـن القـديم والحـديث ، وكأننـا بـإزاء دائـرة معـارف أدبيـة وفكريـة . تتخللـها نـوادر المؤلـف وطرائفـه ، ووقفاتـه الـساخرة والمعابثـة . وتحـاول ابنتـه الأديبـة الـشاعرة كريمـة زكـي مبـارك الإجابـة علـي الـسؤال الأول الـذي يطـرح نفـسه وهـو: مـن هـي ليلـي المريـضة في العـراق ؟ مستـشهدة بهـذه الـسطور مـن الطبعـة الأولـي للكتـاب الـتي صـدرت عـن مطبعـة الرسـالة بالقـاهرة عـام ١٩٣٩ . قـال زكـي مبـارك: طلـب جماعـة مـن أدبـاء بغـداد أن أعلـن أن لـيلاي غـير ليلـي الزهـاوي ، فـإن الزهـاوي كانـت لـيلاه في بغـداد هـي العـراق ، وأنـا أصـرح بـأن لـيلاي في بغـداد هـي ليلـي المريضة في العراق وهي معروفة لجميع الناطقين بالضاد .

ثـم تعلـق كريمـة زكـي مبـارك بقولهـا: وأنـا بـدوري أقـول: ومـن تكـون ليلـي المريـضة في العــراق ـ والمعروفــة لجميــع النــاطقين بالــضاد ـ غــير اللغــة العربيــة ؟ . وعن الـسؤال الثـاني ـ الـذي يطـرح نفـسه أيـضا ـ: ولمـاذا قـصة الحـب الـتي عاشـها زكـي مبـارك مـع ليلـي ؟ تجيـب كريمـة: كـان زكـي مبـارك صـاحب رسـالة ، رسـالة لهـا أبعادهـا الوطنيـة والـسياسي والدينيـة والاجتماعيـة والتربويـة . وكـان يريـد أن يحبـب الـشباب في اللغـة العربيـة لغة القـرآن ، وأقـرب طريـق إلى قلـوب الـشباب لغـة الحـب ، ولهـذا كثـر حـديث زكـي مبـارك عــن الحــب . فكتــب عــن ليلــي في الزمالــك ، وفي أسـيوط ، وليلــي في لبنــان ، وليلــي المريضة في العراق ، إلى آخر ما هنالك من الليليات إذا جاز هذا التعبير .

وتستـشهد كريمـة زكـي مبـارك بمقـال نـشره زكـي مبـارك في العـدد٤٤٦ مـن مجلـة الرسـالة بتـاريخ التاسـع مـن فبرايـر سـنة١٩٤٠ ، عنوانـه تـشريح عاطفـة الحـب يقـول فيـه: حـديثي عـن الحـب صـار مـذهبا أدبيـا ، أشـرح بـه مـا يتعـرض لـه النـاس في ميـادين النـوازع والأهـواء ، ونحـن لم نبتكـر الكـلام في الحـب ، فهـو عاطفـة عرفتهـا الأرواح منـذ أقـدم عهـود الوجود ، وما قيمة الدنيا إذا خلت من الحب ؟

ليلي المريضة (٢) إنتهي

ولأي غـرض يحيـا النـاس إذا أصـيبت أفئـدتهم بـالاعتلال ، فلـم تحـس ذلـك الـروح اللطيف ؟

إن المتـوقرين والمتـزمتين يتوهمـون أنهـم وجـدوا الحجـج والـدوافع حـين اسـتطاعوا أن يقولـوا: إن الـدنيا في حـرب ، وإن الظـروف لا تـسمح بالحـديث عـن الحـب . وأقـول: إن مـا هتفـوا بـه لم يـصدر إلا مـن صـدور مـراض ، فالحـب لا يغـزو إلا قلـوب الأصـحاء ، وهـو

يساور قلوب الجنود في أصعب أوقات الحروب . وكيف يرانا من سيدرسون آثارنا الأدبية بعد جيل أو أجيال حين يظهر لهم أننا كنا نحسب الحديث عن الحب من فنون المزاح ؟ الحب جده جد ، وهزله جد . ولا يتجاهل هذه العاطفة إلا الغافلون عن تأثيرها الحسن أو السيىء في تلوين الوجود .

ثم يقول: إن عصرنا عصر الرسوم والأشكال ، وأخشي أن يمر بلا أثر ملحوظ في خدمة العقل والقلب والذوق . وإذا سكتنا عن تشريح عاطفة الحب ، فمن يتحدث عنها ونحن ندعي النيابة عن الجمهور في تشريح النوازع والأهواء ؟ الأوروبيون لا يرون الحب من المزاح ، وإنما يرونه عاطفة أصيلة تنقل القلب من مكان إلى مكان ، وتسبغ عليه أثواب الصحة والعافية . وتشريح عاطفة الحب هو عندي باب لتربية العواطف . تربية العواطف ؟ نعم ، أنا أدعو إلى تربية العواطف فضمور العواطف هو الذي قتل الشاعرية في مصر ، وهو الذي جعل المصريين أقل الناس إحساسا بمعاني الوجود .

فإذا حاولنا التأمل في رسالة زكي مبارك إلى الدكتور هيكل باشا ـ وزير المعارف ـ وجدناه يقول: وما أخفي عليكم أني كنت أعرف أن اهتمامي بمداواة ليلي سيعرضني لكثير من المكاره ، ، فهدتني الفطرة إلى أن أحتاط لنفسي ، فأوهمت أهل العراق أني أديب عظيم ، واستطعت بذلك أن أتصدر لتدريس الأدب العربي بدار المعلمين العالية ، علي قلة ما أملك من الذخائر الأدبية ، وقد أعانني الله ـ تباركت أسماؤه ـ علي تحقيق ما ادعيت ، فألقيت علي تلاميذي وعلي جمهور أهل بغداد محاضرات أسبوعية بكلية الحقوق ، كان لها في آذان أدباء بغداد رنين أي رنين . ولم أكتف بذلك ، بل بالغت في ستر الموقف فأنشأت الفصول التي رأيتموها في كتاب وحي بغداد . فإن عجبتم من أن أوفق إلى ما وفقت إلى ه في زمن لا يزيد علي تسعة أشهر ، فتذكروا أن الإخلاص قد يزعزع رواسي الجبال .

ثم يقول زكي مبارك مخاطبا وزير المعارف: وإن رأيتم في هذا التقرير حبا شديدا للأمة العراقية فلا تعجبوا ، فما ذقت طعم الحياة إلا في العراق ، ولا رأيت صدق القلوب إلا في العراق ، ولا عرفت جمال النيل إلا بعد أن رأيت ما ء دجلة والفرات .

وما أسفت علي شيء كما أسفت علي أن لم يقدر لشاعرنا شوقي أن يزور العراق . وقد دعوتكم إلى زيارة العراق فمتي تجيبون ؟

أحب أن أعرف متي أراكم في العراق بين قومي وأهلي ؟ أحب أن تسمعوا سجع الحمائم في الموصل ، وأن تروا غابات النخيل في البصرة ، وأن تعانقوا بقايا السحر في بابل ، وأن تكحل أعينكم بغبار الصحراء في النجف ، وأن تستصبحوا بظلام الليل في بغداد .

من أطرف فصول الكتاب ، صفحات يتحدث فيها زكي مبارك عن محاضرة ألقاها في محطة الإذاعة العراقية عن حكم ابن عطاء الله السكندري ، ناطقة بأسلوبه الأدبي البديع ، وطريقته في الاستطراد والانتقال من موضوع إلى موضوع ، يقول: أقول إني ألقيت محاضرة في محطة الإذاعة عن حكم ابن عطاء الله ، ولكني ما كدت أودع جمهور المستمعين ، حتي كان المذياع يجلجل:

يقولون ليلي في العراق مريضة
فياليتني كنت الطبيب المداويا

وكانت لحظة طرب لن أنساها ما حييت ، فاسم ليلي يشوقني ، وبفضل ليلي رأيت العراق ، وليس من التزيد أن أقول إن محاضراتي في الإذاعة ينتظرها الناس في جميع أرجاء العراق ، وكذلك كان إلقاء ذلك الصوت بعد محاضرتي شاهدا علي حلاوة الدعابة العراقية التي خلدها أبو الفرج الأصفهاني علي وجه الزمان . جلست بعد المحاضرة أستمع هذا الصوت ، والرفاق يضجون من حولي بالضحك ، وفاتهم أني صرت كالذي قال:

بكت عيني إلى سري ، فلما زجرتها
عن الحلم بعد الجهل أسبلتا معا

وخرجت من دار الإذاعة ، فعبرت دجلة من الكرخ إلى بغداد ، وأنا في ذهول ، فحدثتني النفس بحلاوة الغرق في ذلك النهر الذي وعي ما وعي ، وضيع ما ضيع ، من أسرار القلوب !

ثم تذكرت ديوني في القاهرة ، ديوني للوجوه الصباح التي تعطر بأنفاسها نسائم مصر الجديدة والزمالك وديوني لعرائس دمياط اللاتي تفردن بنعومة الأجسام وعذوبة الأحاديث:

رباه صغت فؤادي
من الأسي والحنين
ولم تشأ لضلوعي
غير الجوي والشجون
فكيف تصفو حياتي
من الهوي والفتون
أم كيف ترجي نجاتي
من ساجيات الجفون
ليلي ، يا بنت الفرات: أمري وأمرك إلى الهوي ، فإليه ترجع القلوب !

أحاديث زكي مبارك ونوادره في كتابه البديع ليلي المريضة في العراق تذكرنا بزمان جميل ، كانت فيه الأواصر والروابط الثقافية بين القاهرة وبغداد تجسيدا للحلم العربي ، ومياها تتدفق بين النيل ودجلة والفرات ، وكان الأساتذة المصريون الكبار من أمثال أحمد حسن الزيات وأحمد أمين وزكي مبارك وبدوي طبانة يحاضرون في الجامعة العراقية وفي دار المعلمين العالية - التي درس فيها السياب ونازك والبياتي والحيوري - وفي المنتديات الأدبية والثقافية ، ويحملون في أعطافهم - وهم عائدون إلى مصر - بعض عطر الكرخ والرصافة ، وبعض السحر من بابل ، والنفحات الروحية من النجف وكربلاء ، وأقباسا من إبداع المبدعين العراقيين الكبار في الأدب والفن والحياة وبخاصة في الشعر والموسيقي والغناء .

إن ليلي المريضة التي قصد بها زكي مبارك لغتنا الجميلة لم تعد مريضة في العراق وحده ، فهي مريضة في كل قطر عربي ، تبحث عمن يشخص العلة ويصف الدواء . لكن المشكلة الحقيقية الآن هي في النفس العربية المريضة والروح العربية المنكسرة التي لم تستشعر بعد عمق الداء وصعوبة الطريق إلى الشفاء . فمتي يصبح وعيها البازغ من ظلمات المحنة الجاثمة دليلا إلى الخلاص ؟

أحمد عمر شيخ مبدع إرتري جميل

بقلم: فاروق شوشة

المصادفة وحدها هي التي جعلتني أتعرف علي أحمد عمر شيخ من خلال الدورة العربية لمعهد الإعلاميين الأفارقة حيث جاء إلى القاهرة ممثلا للإعلام الإرتري في دورة هذا العام ضمن مجموعة متميزة من الدارسين تمثل جزر القمر وغينيا كوناكري وتشاد وإرتريا واثيوبيا وموريتانيا وجيبوتي . وكان لحواراتنا حول الثقافة والبرامج الثقافية– في الإذاعة والتليفزيون– من حيث المفهوم والوسائل والأهداف والمشكلات فضل اكتشاف علاقته الحميمة بالإبداع شاعرا وروائيا ، وقراءتي لروايتيه : نوراي وأحزان المطر ومجموعة من قصائده الجديدة التي يستعد لا صدارها في ديوان بعد أن صدر له من قبل ديوانا حين لم يعد الغريب (١٩٩٣) و تفاصيل امرأة قادمة من السودان (١٩٩٤) وروايته الأشرعة (١٩٩٩) وهي الجزء الأول من أحزان المطر (٢٠٠١) .

وكما يفصح العطر عن نفسه من أول شميم كان إفصاح شاعريته المتوقدة عن نفسها في شعره وفي روايته . فهو شاعر في المقام الأول ثم هو شاعر حين يبدع رواياته في لغة مترعة بوهج الشعر ويضمنها الكثير من الوقفات الشعرية ويتوج فصولها ببعض الأبيات الشعرية الدالة لا ضفاء المزيد من المعني قبل الإيغال بالقارئ في مفاصل كتابته الروائية كما يسميها .

وسرعان ما اكتشفت أن ناشر كتاباته يشاركه مغامرته حين ينشر روايته نوراي الأم هي التي تطلق علي وليدها هذا الاسم وهو اسم مشتق من النور وينتشر هذا الاسم في المنخفضات الإرترية الغربية علي الرغم من ارتباط الشخصية في النص بالبحر كدلالة رمزية للعبور العبور إلى الوطن ومحاولة القبض علي تفاصيل الصورة هكذا يقول أحمد عمر شيخ في تقديم روايته ، أما ناشره الذي يقدم أولي تجاربه في النشر فيقول: نحن شعب يطمح إلى ان يتواصل مع محيطه ، ارتريا بلد اللغات التسع والتعدد الثقافي العرقي تراث وفلكلور مهجر ولجوء واقع الشتات بكل امتدادات ، تاريخ نضالي طويل ، تشابكات وتقاطعات ما بعد التحرير نسجها كاتبنا الشاب عبر إرث الماضي وهموم وتطلعات الحاضر تقع ارتيرا في شمال شرق افريقيا علي البحر الأحمر عاصمتها أسمرة أو أسمرا كما ينطقها أهل البلاد يحدها السوادن في الغرب وإثيوبيا في الجنوب وهي هضبة ذات تضاريس تنتهي إلى سهل ساحلي ضيق . وأودية خصيبة في الوسط يسكنها ـ كما تقول الموسوعة العربية الميسرة الصادرة عام ١٩٦٥ ـ رعاة من أصول حامية ومن منتجاتها الموالح والحبوب والقطن والجلود . لكن الموسوعة بالطبع لا تشير إلى النزاعات والحروب بين ارتريا واثيوبيا–

طيلة السنوات الأخيرة– حول الحدود والأرض التي اقتطعت من ارتريا وضمت لا ثيوبيا بقرار من هيئة الأمم في عام ١٩٤٩ أو قيام دولة إرتريا المستقلة منذ عام ١٩٩٢ .

يقول أحمد عمر شيخ عن موطنه ، إنه قرية علي ضفاف البحر الأحمر تسمي زولا وفي روايته يسميها عزولي كما تنطق علي لسان أهالي المنطقة تحريفا للاسم التاريخي القديم عدوليس وهو ميناء تاريخي قديم تعاقب عليه البطالسة والعرب القدماء ـ تقوم قريته علي أطلالة ، وعدوليس هذه هي التي جاء ذكرها في معلقة طرفة بن ال عبد حين قال:

عدولية أومن سفين ابن يامين
يجور بها الملاح طورا ويهتدي
يشق حباب الماء حيزومها بها
كما قسم الترب المفايل باليد

هكذا يقول احمد عمر شيخ بينما يجمع شراح المعلقات علي ان طرفة يصف موكب محبوبته خولة التي سماها المالكية بما يضمه من حدوج أي هوادج ـ جمع هودج ـ تشبه الخلايا أي السفن الضخمة التي تمضي في أرجاء البحر ويقول عنها إنها عدولية نسبة إلى عدولي وهي مدينة علي سواحل البحرين مشهورة بصناعة السفن أما ابن يامن فملاح من أهل هجر ـ الواقعة علي سواحل البحرين أيضا ـ كان مشهورا في هذه المنطقة .
فأي الروايتين ، نصدق رواية أحمد عمر شيخ أم رواية شراح المعلقات !
ولد أحمد عمر شيخ في جدة بالسعودية عام ١٩٦٦ ـ وفي روايته نوراي تصوير بديع لرحلة العودة إلى الوطن ارتريا والموطن زولا عبر ميناء ارتريا الرئيسي مصوع علي البحر الأحمر .

حصل علي البكالوريوس في علوم الاقتصاد والادارة في عام ١٩٩٠ وعمل منذ عام ١٩٩٢ معدا ومقدما للعديد من البرامج الاذاعية والتليفزيونية في بلاده وفي مقدمة انجازاته الاعلامية تأسيسه لملتقي الحوار الارتري اول وأهم منبر جماهيري مفتوح يناقش أهم القضايا السياسية والثقافية والاجتماعية في مرحلة انتقال ارتريا من الشرعية الثورية إلى الشرعية الدستورية يرتاده القضاة والمعلمون والسياسيون والموظفون وتتابعه وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية فضلا عن صحف الشرق الأوسط و الحياة وصوت ارتريا وبعض مواقع الانترنت .

حصل احمد عمر شيخ علي جائزة في الشعر من جامعة الملك عبد العزيز عام ١٩٨٧ ـ وهو لا يزال طالبا بالجامعة ثم علي أول جائزة تخصص للشعر الإرتري المكتوب بالعربية عام ١٩٩٥ وهي جائزة رايموك ثم حصل علي أول جائزة رايموك تخصص للأدب الارتري المكتوب بالعربية عام ١٩٩٧ وعلي جائزة أرتيون للسلام والدفاع عام ١٩٩٩ وأتيح

للعديد من قصائده ان ينشر في الصحف والمجلات الأدبية العربية - السعودية خاصة - والمنتدي الاماراتية الموقف الأدبي السورية وإبداع المصرية .

يعتز أحمد عمر شيخ بإجادته للعربية والكتابة بها - في بلد يضم تسع لغات ويتسع للتعدد الثقافي العرقي - ويقول عن نفسه انه يكتب عجمته باللغة العربية ويهتم بتكريس هذه اللغة من الواقع الارتري ولكن بوجهها المشرق والمتجدد سهما بهذا الموقف في جدل الهوية الارترية (وهل هو انتماء عربي أم افريقي اسلامي ام مسيحي) آملا أن يمد المثقفون العرب أيديهم إلى المبدعين بالعربية من أبناء ارتريا - فنحن منهم وهم منا كما يقول - وهناك من وشائج القربي والامتدادات المتواصلة عبر العصور مما يحتم ذلك .

وعلي مدي عشر سنوات - منذ عام ١٩٩٢ - وأحمد عمر شيخ يري في وضع الشعر العربي علي خريطة البرامج الاذاعية والتليفزيونية تأكيدا لهذا الاتجاه ومواكبة لميلاد الدولة الارترية التي تجتاز عام ها العاشر الآن والتي يتواصل مبدعوها من أصحاب الوجه الثقافي العروبي مع الواقع الثقافي العربي بكل ملامحه وتنويعاته . فاللغة العربية انتماء ووجدان في ارتريا وتمثل طموحا لعدد كبير من الارتريين الذين ينتمي ثمانون في المائة منهم إلى سلالات هاجرت بعد انهيار سد ما رب في جنوب الجزيرة العربية والي الهجرات التي حدثت بعد ذلك وأهمها هجرة الصحابة الأوائل إلى الحبشة واقامة أول مسجد بني في الاسلام في مدينة مصوع التي كان اسمها القديم باضع من حمل البضائع ونقلها - كما ذكر المسعودي .

لذا كان طبيعيا أن نجد من رواد الكتابة بالعربية في ارتريا الشاعر احمد محمد سعد الذي توفي في السنوات الأخيرة من سبعينيات القرن الماضي والشاعر عبد الرحمن سكاب الذي تجاوز السبعينات من العمر ويقيم الآن في إلى من . ثم يجيء من بعدهما أحمد عمر شيخ ليصبح إبداعه بالعربية في الشعر والرواية حلقة جديدة في هذه السلسلة الذهبية وإضافة عصرية تحمل لغتها الجديدة المتوترة وهمها الوطني والقومي وفوران جدل الهوية ومواجهة العولمة او الهيمنة في محاولة دائبة - كما يقول - لتجاوز المألوف والعادي في قيمة جمالية تنحاز إلى كل ما هو إنساني عبر مضامين وأشكال جديدة . فالقصيدة - في رأيه- لا يمكن ان تركن إلى السائد وتجتر الماضي في رتابة بل يجب ان تكون بنت عصرها وثائرة علي مستوي الشكل والمضمون .

يقول أحمد عمر شيخ في قصيدته أنشودة ساحلية اقترب . .

فالليالي تتيه علي منكبيها الشهب
والرؤي واهمة

ازرع الهم وامض بدرب الغضب
إنها الخاتمة
تستطيل بقاماتنا والسحب
فالوصيد الوصيد
واشتعل عبر بهو القصيد
وتهاد علي همهات الوريد
إنها الخطوة القادمة
ايها الأسمر المتلألئ عبر الفضاء النشيد

* * *

وطني ايها الانتماء
اي سهد يؤرق هم النخيل
انه المستحيل
يترنح عبر فيافي الرحيل
وطني ايها الكبرياء
اي طفل يغوص ببحر العراء
والرؤي واهمة
أيها المرتقب
ارحل الآن عبر اشتعال الغضب
أيها المستباح
إنها الخاتمة
فازرع الهم وامض بدرب الصباح !

ويقول في قصيدته رقصة الطيور التي صاغ مقطعها الأول في بناء كلاسيكي محكم وكأنه يقيم جدلا شعريا بين الصيغتين: العمودية والتفعيلية أو لعله يريد أن يذكر بالاساس التراثي الذي يتكئ عليه ويقدمه في صورة تنضح بالعصرية حين يقول:

هدهد سماءك حلق ايها البطل
غيث المجاهل والاحلام تشتعل
شوق المدائن لا ريث نقابله
موج الأصائل في الأحداق يرتحل
عزف النوارس ياويح الهوي قدر
صمت الشواهد أم ياريح قد ثملوا
صفو الأرائك لا نأسي لموعدنا

شدو السنابل لا تيه ولا ختل
هذي الدروب لنا لا بد نعرفها
كيما نردد :' يا للفجر يكتمل'
يغفو المدار علي شباك حجرتنا
بوح الفواحل والأوتار تنهمل
عزم الارتري والآماد جاثية
سخر القوافل يا إنسان يا أمل
غيث المواسم لا خل يجافينا
هذي سماؤك رفرف ايها البطل !
للطيور النذور
للمواقيت آجالها
والردي
للعراجين ظل التصوف في الأفئدة
للتفتح غب انهيار الدخول لنا
كل هذا المدي
أي شئ سدي
هل سدي
حين صاغ السؤال العتيد
تتماهي ببهو الرحيل
غفا طيفه السرمدي علي المائدة
رب طفل عراه الشحوب النبيل
سما وتناهي إلى
سمعه البصري الدوي
شوارع من زمهرير الندي
آل . . قوس الفدا
لانشطار المرايا
علي الوجه وجه
وسهد الوجوه حدا !

* * *

ليت الصديق العزيز الدكتور سمير سرحان- رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ يتيح لكتابات أحمد عمر شيخ وأقرانه من المبدعين الارتريين بالعربية طبعة مصرية تصدر

من القاهرة وتتيح لهذه الابداعات الجديدة ـ لغة ورؤي وتوجهات ومغامرة دورانا بين القراء في مصر والوطن العربي ومشاركة في القضاء علي حاجز العزلة بينناوبين مبدعين ـ ينتمون إلى نا وننتمي إلى هم ـ تراثا ولغة ووجدانا ومعاصرة في معركة مصيرية واحدة هي معركة بقاء الحرف العربي صامدا في وجه عصر الأمركة والعبرنة واقتلاع الهويات والقوميات واستحداث خرائط جديدة للعالم الذي يصوغونه علي هواهم . لكننا ـ كما يقول الشاعر الفلسطيني ـ علي رءوسهم باقون راسخون كالجبال !

بوشكين عند نافورة الدموع

بقلم: فاروق شوشة

الذين يعرفون روعة الترجمة عندما تكون عن اللغة الأصلية مباشرة يدركون قيمة الجهد الكبير والانجاز الجميل الذي قامت به الدكتورة مكارم الغمري- وكيلة كلية الألسن في جامعة عين شمس واستاذة اللغة الروسية بها- عندما ترجمت إلى العربية مختارات من اشعار امير الشعراء الروسي بوشكين ، صدر الجزء الأول منها ضمن المشروع القومي للترجمة بالمجلس الاعلي للثقافة تحت عنوان بوشكين عند نافورة الدموع ومختارات أخـــري .

الدكتورة مكارم الغمري سبق لها الاقتراب من عالم بوشكين الشعري وتأثره في شعره بالشرق العربي وثقافاته في كتابها المتميز مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي' الذي صدر عن عالم المعرفة في الكويت عام ١٩٩١ وكان- مع غيره من الدراسات- سببا في فوزها بجائزة الملك فيصل عن دراسات الأدب المقارن من منظور عربي وإسلامي .

في المقدمة الضافية التي قدمت بها الدكتورة مكارم لهذه المختارات تناولت حياة بوشكين في نشأته وطفولته والمؤثرات التي شكلت بنيته الشعرية والانسانية . فقد ولد في أسرة ضابط متقاعد ينتمي إلى طبقة النبلاء الأرستقراطية . وأحاطت به ظروف ملائمة لتشكيل الموهبة الشعرية وتفجير طاقاتها . فأبوه مغرم بالشعر وله تجارب ومحاولات في كتابة الشعر بالفرنسية . وعمه فاسيلي بوشكين أديب حقق قدرا معقولا من الشهرة ، كما كان منزل الاسرة مقصدا لعدد من كبار الشعراء أمثال كارمازين وجوكوفسكي وباتوشكوف . فلم تكن كلمة' شاعر' بالنسبة للطفل بوشكين مفهوما مجردا فهو لم يكن يقرأ فقط الشعراء الآخرين بل كان يسمعهم وهم يقرأون بانفسهم وكان لكل هذا تأثير كبير عليه لكن العامل الضخم والفريد والحاسم كان في موهبته الذاتية' هذا ما يقوله بورسوف في كتابه' مصير بوشكين' وهكذا قدر لتربية بوشكين- منذ طفولته- أن تسير في خطين متوازيين: خط ينفتح علي الثقافة الاوروبية ، خاصة الفرنسية التي كان يجيدها لغة وثقافة شأنه شأن اقرانه من ابناء الطبقة النبيلة الأرستقراطية علي أيدي مربين فرنسيين ، وخط يلتحم بالتراث القومي من خلال امرأتين كان لهما فضل كبير في تنشئته الروحية والقومية الأولي ، مربيته الروسية الفلاحة البسيطة التي أعتقت من الرق ، لكنها آثرت البقاء مع سادتها لرعاية أطفالهم ثم أحفادهم والثانية الجدة ما ريا هانيبال حفيدة الجد إبراهيم هانيبال ، فقد كانتا معا النبع الذي نهل منه بوشكين ذخيرته من الحكايات الشعبية والمأثورات والاغنيات الشعبية ، كانت الحكايات التي يستمع إلى ها عن جده البعيد إبراهيم هاينبال تستثير خياله وتحرك وجدانه' قيل إنه كان حبشي الجنسية وله

بـشرة سمـراء داكنـة اختطـف وهـو في الثامنـة مـن شـواطئ إفريقيـا ونقـل إلى القـسطنطينية ، حيـث حـصل عليـه الـسفير الروسـي فأهـداه إلى القيـصر الروسـي بطـرس العظـيم . ويلتحـق بـسلاح المدفعيـة ويتـدرج في الوظـائف العـسكرية ويبلـغ رتبـة الجنـرال وينـال الأوسمـة العـسكرية الرفيعة وتحصل عائلته علي لقب النبالة .

تـأثر بوشـكين كـثيرا بقرابتـه لا نـسان إفريقـي الـدماء وأوحـي إلى ه أن دمـاءه المختلطـة وراء موهبتـه المبكـرة مما جعلـه شـديد الاعتـزاز بنـسب أجـداده فقد كـان يعـده' التركـة الوحيـدة' الـتي حـصل عليهـا مـنهم . وقـد خلـد بوشـكين ذكـري الجـد إبـراهيم في كـثير مـن مؤلفاته بينها قصته الطويلة :' عبد بطرس العظيم' .

في' ليـسيه' مدينـة بطرسـبرج تتفـتح مواهـب بوشـكين الـشعرية وتتـوهج أشـعاره في سـنوات النهـضة القوميـة الوطنيـة الـتي بعثتهـا الحـرب الروسـية النابليونيـة في عـام ١٨١٢ وأيقظـت المـشاعر الوطنيـة للـشاعر الـشاب . وينخـرط بوشـكين في الحيـاة الأدبيـة والاجتماعيـة لمدينـة بطرسـبرج' مدينـة الليـالي البيـضاء والقـصور والميـادين البديعـة ملهمـة الـشعراء والفنـانين ويحـضر عـروض المـسرحيات والحفـلات ولقـاءات المجتمـع الراقـي- الـتي كـان يتقبلـها علـي مـضض- فقـد كـان طيـب القلـب مخلـصا في مـشاعره تجـاه النـاس لا يجـرؤ في علاقـات هـذا المجتمع الراقي علي رفض أية دعوة بالرغم مما تسببه له هذه العلاقات من ألم .

ومـن بـين طليعـة النـبلاء المـثقفين في بطرسـبرج انبثقـت جمعيـات سياسـية سـرية- تعـد العـدة للإطاحـة بـالحكم القيـصري وإلغـاء نظـام الـرق الـذي يـست عبـد الفـلاح ـ متـأثرة بأفكـار التنـوير الغربـي والروسـي والثـورة الفرنـسية ، مـشكلة البـدايات الأولـي لمـا عـرف بالحركـة الديـسمبرية أول حركـة روسـية ثوريـة تحريريـة في تـاريخ روسـيا خـلال القـرن التاسـع عـــــــــــــــــــــــــــــــشر .

وبـالرغم مـن أن بوشـكين لم يكـن مـشاركا في هـذه الحركـة فـإن أشـعاره الوطنيـة الملتهبـة المتأججـة بالاحتجـاج ضـد الظلـم الاجتمـاعي خاصـة في قـصائده: الحريـة (١٨١٧ والـي تـشاداييف١٨١٨ والقريـة (١٨١٩) جعلـت منـه صـوتا معـبرا عـن هـذا النـزوع الثـوري . وأكسبته شـعبية هائلـة أثـارت غـضب القيـصر فقـرر نفيـه إلى سـيبيريا ثـم خفـف الحكـم بـالنفي إلى الجنـوب حيـث قـضي أربـع سـنوات (١٨٢٠ــ ١٨٢٤) يطـور مـن غنائياتـه الرومانتيكيـة الـسياسية في قالـب القـصة الـشعرية مثـل أسـير القوقـاز (١٨٢١) والأخـوة قطـاع الطريـق (١٨٢٢) ونـافورة باختـشي سـراي (١٨٢٣ والغجـر (١٨٢٤) يعـود بوشـكين إلى الحيـاة في مدينـة بطرسـبرج بعـد زواجـه في عـام ١٨٣١ ملتحقـا بالعمـل في هيئـة الـشئون الخارجيـة والاطـلاع علـي الأرشـيفات علـي امـل أن يـتمكن مـن كتابـة تـاريخ بطـرس العظـيم . لكنهـا العـودة الـتي تـرتبط بالمعانـاة الـشديدة في حياتـه نتيجـة لمعايـشته للطبقـة العليـا وتزايـد احتياجاتـه الماديـة الـتي لا تفـي بهـا مـوارده وعلاقتـه بالقيـصر المـضطربة بـين شـد وجـذب

وانعدام الثقة المتبادلة والدوائر الأدبية التي تضيق به ولا يرضيها استقلاليته وزوجته الشابة الجميلة التي لا تشاركه اهتماماته الأدبية وتنغمس في حياة الطبقات العليا وتستحوذ بجمالها علي إعجاب المحيطين بها بمن فيهم القيصر نفسه فضلا عن الديون والوشايات التي تحاصره وتدفعه إلى مصيره المحتوم ونهايته الفاجعة . .

لا يفوت الدكتورة مكارم الغمري أن تبرز هذه النهاية المأساوية لبوشكين وكأنه كان يتنبأ بالطريقة التي سيموت بها وهو يتساءل في قصيدته' التجول في الطرق الصاخبة طولا (١٨٢٩)

كل يوم كل سنة
تعودت أن أعايش بفكري
ذكري الموت العاصفة
وبينهما أحاول أن أخمن
أين سيرسل القدر لي الموت
في معركة أم في سفرة أم في الأمواج
أم أن الوهدة المجاورة
ستتلقي رفاتي الفاتر

بدأت خيوط المأساة تتجمع مع ظهور الفرنسي دانتس في مجتمع الاضواء والطبقة العليا في بطرسبرج ، حيث ساقته الاقدار ليلتقي بزوجة الشاعر بوشكين التي كانت تحظي بنجاح كبير في مجتمع الصفوة . وكان بوشكين بالرغم- من نصائح اصدقائه- قد تزوج من ناتاليا جونتشارفا قبل ذلك بخمس سنوات . كانت موفورة الشباب بلا ثروة ذات جمال غير عادي ولها سمت شاعري .

لكنها كانت ذات عقل عادي وشخصية لها حضور واستطاعت ان تحتل في مجتمع الصفوة مكانة تليق بمثل هذا الجمال . وتكررت لقاءات دانتس- صاحب الشخصية الجذابة – وزوجة الشاعر بوشكين في حفلات المجتمع الراقي وسرعان ما صار يعبر عن حبه لها بشكل مكشوف في دائرة الاصدقاء الضيقة اولا ثم امام عيون المجتمع كله وبدأت السعادة تنهار في اسرة بوشكين وتوالت خطابات بلا توقيع تصل إلى ه تربط في استهزاء بين اسم زوجته ودانتس وازاء ملاحقة الشائعات اضطر بوشكين إلى استدعاء دانتس للمبارزة دفاعا عن شرفه وانتقاما لكرامته وتقرر ان يكون السلاح هو المسدسات وكان اللقاء في يوم٢٧ يناير١٨٣٧ وخر الشاعر مصابا بجرح مميت ولفظ انفاسه بعد يومين من المبارزة .

وعنـدما غـاب الـشاعر بقيـت اشـعاره عزيـزة علـي شـعبه- كمـا عـبر الكاتـب الروسـي الكـبير نيكـولاي جوجـول ـ مثـل شـعلة شـاعرية القيـت مـن الـسماء فاضـاءت هـذه الـشعلة الشعراء الاخرين كما تضاء الشموع .

مـن بـين كـل اعمـال بوشـكين تظـل قـصته الـشعرية نـافورة باختـشي سـراي الـشهيرة بنـافورة الـدموع اكثرهـا اهميـة ودلالـة علـي سمـات الرومانـسية في ابداعـه وارتباطهـا بالموضـوع الـشرقي في انتاجـه ، شـاهدة علـي تـأثير خيـال الـشرق علـي الادبـاء الـروس ، كتبهـا بوشـكين بـوحي مـن زيارتـه لقـصر باختـشي سـراي الموجـود في شـبه جزيـرة القـرم الـتي زارهـا وهـو في طريقـه إلى المنفـي فجـاءت في نـسيج فـني ثـري يجمـع بـين الـذاتي والموضـوعي والاسـطوري والتـاريخي والغنـائي ويـرتبط مـضمونها باسـطورة تناقلتهـا الاجيـال في شـبه جزيـرة القـرم عـن الخـان التتـاري الـذي تمكـن في احـدي غزواتـه لبولنـدا مـن اسـر الامـيرة البولنديـة مـا ريـا ويقـع الخـان في حـب اسيرته الجميلـة الـتي تنفـر منـه وتغـرق في الحـزن والاسـي علـي فـراق وطنهـا . وتراقـب زوجـة الخـان زاريمـا محـاولات زوجهـا لا كتـساب حـب الامـيرة البولنديـة واسـتجلاب رضـاها وتحـاول بـدورها افـشال محـاولات زوجهـا الـذي تيمـه حـب اسيرته وازداد هيـا مـا بهـا ممـا يـدفع بالزوجـة الـتي تملكتهـا غـيرة مجنونـة إلى قتـل غريمتهـا الامـيرة البولنديـة ولتنـال المـوت بـدورها وتخليـدا لـذكري محبوبتـه الاثـيرة يقـوم الخـان بتـشييد نـافورة باختـشي سـراي التي اشتهرت باسم نافورة الدموع .

يـستهل بوشـكين قـصته الـشعرية البديعـة باقتبـاس عـن الـشاعر سـعدي شـيرازي يقـول فيه :

كثيرون مثلي
زاروا النافورة هذه
لكن البعض ما عاد موجودا
والبعض الاخر تجول أبعد
ويقول بوشكين في قصيدته إلى نافورة باختشي سراي١٨٢٤
نافورة الحب نافورة حية
اتيت إلى ك بوردتين هدية
أحب هديرك الذي لا ينقطع
ودموعك الشعرية

. . .

غبارك الفضي
يرش علي ندي باردا
آه فلتتدفق وتتدفق أيها إلى نبوع السار

ولتخر وتخر لي بحكايتك
نافورة الحب نافورة حزينة
واستفسرت من مرمرك:
قرأت ثناء علي البلد البعيد
لكنك عن ما ريا صمت
نجمة الحريم الشاحبة
أحقا أنت هنا منسية
أم أن ما ريا وزاريما
حلمان سعيدان فحسب
أم إن حلم الخيال وحده
رسم في الظلمة الخلوية لحظات رؤيتي
ومثالا مبهما للروح
ويقول في قصيدة البلبل والوردة١٨٢٧:
في صمت الحدائق في الربيع في ظلمة الليل
يشدو البلبل الشرقي أعلي الوردة
لكن الوردة الحبيبة لا تشعر لا تصغي
تتمايل وتغفو أسفل النشيد العاشق
لم تغني هكذا للجمال البارد
أفق آه يا شاعر فيم تطمح
إنها لا تسمع لا تحس بالشاعر
تنظر: إنها تزدهر
تنادي: ما من إجابة
ويقول بوشكين: آه يا فتاة يا وردة إنني في الأغلال
لكني لا أخجل من أغلالك
هكذا البلبل في أشجار الغار
ملك الطيور منشدي الغابة
قرب الوردة الشامخة الرائعة
يعيش في أسر عذب
ينشدها الأغاني في عذوبة
في ظلمة ليل الآهات

ان ترجمات الدكتورة مكارم الغمري لا شعار بوشكين عن لغتها الاصلية الروسية تذكرنا بالعصر الجميل الذي كنا نستقبل فيه ترجمات الاديب السوري الكبير الدكتور سامي الدروبي للاعمال الكلاسيكية الروائية العظيمة في الادب الروسي ، التي صدرت عن دار إلى قظة في خمسينيات القرن الماضي ، وكانت روعة ترجماته بما تتوهج به من اسلوب ادبي رفيع ولغة صافية مشرقة وحس عال مرهف لا تشعرنا ابدا بانها ترجمة عن لغة وسيطة هي الفرنسية وليست عن اللغة الاصلية .

والان جاء دور من يملكون مفاتيح اللغة الروسية واسرار بنيتها وبلاغتها– من امثال الدكتورة مكارم الغمري– ليبدأ بهم عصر جديد من ترجمة الابداع الادبي الروسي في عصوره و مراحله المختلفة الكلاسيكية والرومانتيكية والواقعية ناطقا باللغة العربية الجميلة وبيانها المشرق وإحكامها البديع .

دار العلوم في عيون الشعراء

بقلم: فاروق شوشة

عندما لجات إلى ابنتي رنا - الخبيرة بالكمبيوتر وشبكة الانترنت - لكي تساعدني في الحصول علي ما تحمله الشبكة من معلومات حول يوم الشعر العالمي الذي احتفل العالم به يوم٢١ ما رس الحالي - فوجئت بأن ما ستقوم به مصر من مشاركة في هذا الاحتفال لا يتفق ومكانة مصر الأدبية والثقافية أو حجم مشاركتها في الإبداع الشعري العربي . فلم يكن ضمن المعلومات المتاحة عبر الشبكة - مثلا - أن لجنة الشعر بالمجلس الأعلي للثقافة سوف تقيم أمسية شعرية يشارك فيها عدد من الشعراء المصريين مساء السبت٢٣ ما رس . كما فاجأني أن مشاركة مصر تركزت في الاحتفال الذي أقامته كلية دار العلوم بجامعة القاهرة يوم الثلاثاء٢٦ ما رس تحت عنوان دار العلوم في عيون الشعراء وأبرزت الشبكة دعوة ما تسورا المدير العام لنظمة إلى ونسكو - التابعة للأمم المتحدة - إلى الاحتفال بعيد الميلاد المئوي لشاعر تركيا الكبير ناظم حكمت الذي ترجم الناقد اللبناني الدكتور علي سعيد مختارات من شعره إلى العربية في مستهل الخمسينيات وكانت - وما تزال - زادا للعديد من الأجيال الشعرية العربية . وردد ما تسورا مقولة الرسام والمصور الفرنسي الشهير دلاكروا إنه سلا فن بدون شعر . فالشعر في رأيه يتخلل كل الفنون ويسكب روحه وكيمياءه فيها ويمنحها كثيرا من جلوتها وحرارتها وتأثيرها .

اليونسكو تدعو إلى الاحتفال بيوم الشعر العالمي منذ ثلاث سنوات - بدأت الدعوة في عام ١٩٩٩ - من أجل أن يكون الشعر لغة عالمية للتفاهم والتواصل بين الشعوب والمساعدة علي نبذ العنف والصراعات والخلافات وتهيئة افق من المودة والسلام بين الانسان وأخيه الانسان . وشعوب العالم التي لا يملك كثير منا حجم موروثنا الأدبي والشعري والثقافي تتفنن وتبدع في أساليب الاحتفال بيوم الشعر . في كثير من عواصم دول شمال أوروبا والذين شاركوا من الشعراء المصريين والعرب في مهرجان ستروجا الشعري الذي كان سيقام في يوغوسلافيا السابقة كان يبهرهم إقامة المهرجان علي ضفتي نهر دريم وهو نهر لا يزيد عرضه علي ثلاثين مترا الشعراء ينشدون قصائدهم بلغاتهم الأصلية وهم يقفون علي جسر فوق النهر المشاهدون يزدحمون علي الضفتين وتمتليء بهم القوارب فوق سطح النهر والأضواء تغمر المشهد كله وتحيله إلى لوحة شعرية بديعة . وهو الأمر الذي يجعلنا نفكر: لماذا لا نستغل الفروع الصغري من النيل - وتحديدا بين موقعي شيراتون القاهرة وشيراتون الجزيرة أو فرع النيل الفاصل بين إمبابة والزمالك لتكون مواقع رائعة لمهرجان عالمي لماذا لا نستغل منطقة الاهرامات وابي الهول أو مناطقنا السياحية التي لا مثيل لها في الأقصر وأسوان - خاصة حول م عبد ي الكرنك والأقصر - من خلال رؤية

ثقافيــة وسـياحية تحقـق تكامـل العمـل الـوطني . الـذين أتـيح لهـم مـن الـشعراء المـصريين والعـرب المـشاركة في ملتقيـات شـعرية في أوروبـا أو دول أمريكـا اللاتينيـة يعرفـون حجـم اهتمـام شـعوب هـذه الـدول ومؤسـساتها الثقافيـة بالـشعر . الـشعراء ينـشدون شـعرهم في الميـادين صـور كبـارهم والمـشهورين مـنهم تتحـول إلى ملـصقات تمـلأ الـساحات في كـل مكـان طوابـع البريـد ـ علي الاقل في مناسبة يوم الشعر العالمي ـ تحمل صور الشعراء الكبار .

قلـت لنفـسي: لقـد حلـت ذكـري الـشاعر إبـراهيم نـاجي ـ شـاعر الاطـلال ـ يـوم٢٤ مـا رس ـ فهـل تـذكره أحـد إن أجهـزة الإعـلام لـدينا تقـوم ولا تقعـد في مناسـبة ذكـري واحـد مـن مـؤلفي الاغانيوالمونولوجـات ـ لـيس مـن مـؤلفي الدرجـة الأولـي ولا حـتي الخامـسة ـ لكنهـا تـصمت أمـام ذكـري شـاعر كـبير في قامـة نـاجي كمـا يـدركها الـصمت أيـضا امـام شـعراء كبـار في قامـــة محمـــود حـــسن اسماعيـــل وعلـــي محمـــود طـــه وصـــلاح عبـــد الـــصبور ! أعـود إلى المـشاركة الـشعرية المـصرية الوحيـدة الـتي اشـارت إلى هـا شـبكة الانترنـت والمتمثلـة في مهرجـان دار العلـوم في عيـون الـشعراء الـذي تحـول إلى احتفاليـة رائعـة أعـادت إلى إسمـاع الجيـل الجديـد مـن طـلاب الكليـة والـشباب الجـامعي القـصائد الـتي أبـدعها شـعراء كبـار في دار العلـوم إشـادة بقيمتهـا ودورهـا واعتـزازا برسـالتها وإشـعاعها قـصائد لـشوقي وعلـي الجـارم ومحمـد عبـد المطلـب ومحمـود غنـيم . بالإضـافة إلى قـصائد للـشاعرين المبـدعين هاشـم الرفاعي وفتوح أحمـد الـذي ألقـي قـصيدة عـام رة . وكـان المهرجـان حريـصا علـي تمثيـل شـعراء الـشباب مـن خـلال الـشاعرين المتـألقين احمـد بخيـت وشـريفة الـسيد وكـان جمـيلا ان يـشارك عـدد مـن أسـاتذة الكليـة والنقـاد الكبـار في إلقـاء القـصائد والتعليـق عليهـا ومعهـم الـدكتور أحمـد علـي الجـارم وعمـاد محمـود غنـيم في إلقـاء قـصيدتي علـي الجـارم ومحمـود غنـيم . كانـت درة المهرجـان قـصيدة شـوقي ـ الـتي أنـشدت أول مـرة في الاحـتلاف الخمـسيني ـ العيـد الـذهبي ـ لـدار العلـوم بمـسرح حديقـة الازبكيـة في شـهر يوليـو مـن عـام ١٩٢٧ ـ تعـبيرا عـن تقـدير شـوقي لـدار العلـوم ورسـالتها . أصـغي إلى هـا شـباب إلى وم بكـل الـوعي والمتابعـة والـدكتور علـي عـشري زايـد يلقيهـا علـي اسمـاعهم . وكـان الناقـد الكـبير الـدكتور محمـود الربيعـي موفقـا غايـة التوفيـق وهـو يعـرض لمحـارو القـصيدة الرئيـسية مـشيرا إلى كلاسـيكيتين جديـدتين تمثلتـا في هـذه القـصيدة هـي عبقريـة شـوقي وفكـرة دار العلـوم وارتبـاط العقيـدة بالمعرفـة والعلـم بالعبـادة واتكـاء شـوقي إلى الطبيعـة والتـاريخ باعتبارهمـا جنـاحي الـشعر فـضلا عـن خطـاب الحاضـر الاجتمـاعي والـوطني وتمثـل شـوقي لفكـرة الوسـطية في دار العلـوم بـين القـديم والجديـد ووخـز شـوقي للـضمير القـومي بمـا ينبـه إلى الـدور والرسـالة فيمـا يـشبه الـصدمة الثقافيـة الـتي يختـتم بها شوقي قصيدته:

نحن في صورة المماليك ما لم
يصبح العلم والمعلم منا

لا تنادوا الحصون والسفن وادعوا
العلم ينشيء لكم حصونا وسفنا
إن ركب الحضارة اخترق الارض
وشق السماء مريحا مزنا
وصحبناه كالغبار فلا رجلا
شددنا ولا ركابا زعمنا
دان آباؤنا الزمان مليا
ومليا لحادث الدهر دنا
كم نباهي بلحد ميت وكم نحمل
من هادم ـ ولم يبن ـ منا
قد أني أن نقول: نحن ولا نسمع
أبناءنا يقولون: كنا !

الدرة الثانية في مهرجان دار العلوم الشعري هي قصيدة علي الجارم التي أنشدها في احتفال كبار خريجي دار العلوم سنة١٩٢٧ بعيدها الخمسيني وهو الاحتفال الذي حضره ـ كما يقول ديوان علي الجارم ـ علية رجال مصر وخيرة علمائها ـ وأدبائها . ألقي الدكتور أحمد الجارم قصيدة أبيه وعلق عليها الدكتور شفيع السيد كاشفا عن مواطن التوهج والإبداع فيها وعن انطلاق الشاعر من خلال دائرتين تجمعان بين الخاص والعام بين ما هو ذاتي وما هو جمعي مبرزا صورة دار العلوم باعتبارها قيمة وتاريخا ومشعل نور وشهاب ضياء وهو يقول:

إيه دار العلوم كنت بمصر
في ظلام الدجي ضياء الشهاب
في زمان من كان يمسك فيه
قلما عد اكتب الكتاب
انت ام الاشبال إن غاب ليث
صال للحق بعده ليث غاب
تلدين البنين من كل ما ض
شمري مزاحم وثاب
شاعر ينصت الوجود إذا قال
ويهتز هزة الإعجاب
ثم وهو يقول:
أنت كالنيل كلما مس جدبا

هزه بالنماء والاخصاب

كيمياء العقول انت تصوغين

نضارا من النحاس المذاب

إن خمسين حجة قد كفت منك

يملء الدنيا بكل عجاب

لا تهابي دار العلوم ملما

آمة المجد والعلا أن تهابي

النخبة المشاركة من الاساتذة والنقاد جعلت للمهرجان - فضلا عن توهجه بالقصائد - مذاقا خاصا . ومن خلال الإضاءات النقدية والتحليلية المتتابعة للدكاترة عبد الواحد علام و عبد الفتاح عثمان وصلاح رزق والتقديمات الذكية للدكتور سعيد الباز اكتملت جوانب المتعة والوعي بالشعر بالاضافة إلى المشاركة الثرية والواعية لا دارة الكلية ممثلة في شخص عميدها الدكتور أحمد كشك ووكيلتها الدكتورين محمد حماسة عبد اللطيف - المشرف العام علي تنظيم المهرجان - ومحمد يونس .

في مثل هذا الجو الحميم يتألق الشعر- ويتوهج الحب وتتعانق الأرواح الظمأي إلى الجمال والإبداع . . وأجدني مدفوعا بحرارة اللقاء وروعة العودة إلى رحاب دار العلوم بعد طول غياب - اسجل اهتزاز وجداني بأبيات تتوافق وطبيعة الموقف من بينها :

هل تشممت عطرها وهي تخطو

أنت حرف بها وسطر وخط

فاخفض الطرف خاشعا إنها الدار

وأجمل فللصبابة فرط

منء هذا الوطاب أشواق عمر

وحميا كأس ونبش ولوط

وحروف تجمعت - فعراها

من حروف الزمان محو وكشط

ننحني فوقها كما ينحني العاشق

وجدا يضنيه شكل ونقط

قد صحبنا الزمان وهو رحيق

وطويناه وهو رمل ونفط

* * *

ملء قلبي تضرع والتفات

وحقول المني فراغ وقحط

اسعفيني بما ينيل وروي
فالزمان الغريم قبض وبسط
هذه عترتي من الزمن الموغل
أيان التفت ثم رهط
وجناحان استظل يظلاني
وسقف يشدني فيه خيط
راشفا جلوة الشباب المندي
فأساقي صفو الحياة وأعطو
صاعدا والبهاء معراج روحي
موغلا والمدي وشاح ومرط
ممسكا في يدي بعنقود أحبابي
كما جمع العناقيد سفط
أتزيا بهم وأزهو علي الناس
كما ازدان بالمليحة قرط
قد بدأنا وللحداثة حلم
ثم عدنا: للشيب في القلب وخط
الظماء المدلهون تنادوا
والتقوا والرؤوس شعث وشمط
وسعا نحوها خفافا سراعا
مثلما ينظم اللآليء سمط
عادة الغض كلما اخضوضر الغصن
فطير يمضي وطير يحط

* * *

أين مني الصبا وركض الأماني
وفتاء الصبا جموح وزيط
بعض قلبي هنا وكل زماني
حين كف الزمان وخز وسوط
لا نبالي أحظنا منه حرف
نتهجاه أم من الزند سقط
الفتات القليل يكفي فنرضي
حين نسعي وحينما نختط
والجنون الجميل فتنة عمر

حين نغلو وعندما نشتط
تارة نشجب الزمان وطورا
ملء أفواهنا ارتياب وغمط
راودتنا الحياة سبحا وغوصا
لم نجد يوسفا ولا كان شط
وفي ختام هذه الأبيات:
أنا ذا إلى وم أشحن القلب بالعطر
وللعطر فتكة حين يسطو
قارئا في الوجوه صفحة عهد
في حمي الدار والموازين قسط
مرضي أنت كلما اشتعل القلب
فأنت المدي وأنت المحط !

رسالة إلى محمود درويش

بقلم: فاروق شوشة

الشاعر الكبير محمود درويش

رام الله ـ فلسطين

اسمح لي أن أقتحم ساحة معاناتك وأحزانك ، وأنت تعايش في رام الله تراجيديا مذبحة جديدة من المذابح التي أصبحت قدرا من أقدار الشعب الفلسطيني بدءا بكفر قاسم وقبية ودير ياسين مرورا بصبرا وشاتيلا وصولا إلى رام الله ونابلس ومخيم جنين ، وغيرها من المدن والقري والشوارع والأزقة ، التي انهمر فيها الرصاص البربري والعدوان الصهيوني الوحشي ، وانتصرت فيها إرادة الشعب الفلسطيني وبطولته النادرة وشجاعته التي لم تنكسر .

وأن أتخيل صورة وجهك الآن ، وملامحك التي يعتصرها هم كوني ، وقلبك الذي لا يملك المحافظة علي إيقاع منتظم لدقاته ، والألم القاتل يعتصره ، والإحساس البشع بالظلم الفادح يقهره ويكاد يخنقه .

اسمح لي ـ وقد طغي السياسي علي الإبداعي ، والعابر علي الباقي ، واليومي علي المستمر والبعيد الأمد ـ أن أتخيرك أنت ، من بين كل الوجوه المحاصرة ، عنوانا للوطن ، نتراسل معه من خلالك ، ونفضي إلى ه بكل قهرنا وغضبنا وثورتنا وانكسارنا وتمردنا ، عبرك أنت وعبر كلماتك . لقد كانت آخر صورة لا طلالة وجهك علينا يوم مصاحبتك لا دباء العالم وكتابه الكبار في رام الله عندما سارعوا للقاء أبو عمار ، وإعلان موقفهم من الحصار والعدوان والمذبحة ، وتأييدهم لشرف الموقف ونبل المقاومة وعظمة الصمود ، وكنت أنت ـ الشاعر الفلسطيني العربي الوحيد بينهم ـ صوتنا إلى العالم ، قصيدتنا إلى الدنيا ، وكلمة فلسطين إلى كل المبدعين من الشعراء والكتاب ، وضمير هذه الأمة التي تولد ـ ولا تزال ـ من خلال مخاض قرن من المعاناة الهائلة ، وحروب جعلتنا نرفع خيار السلام ـ بمذاقه المر في حلوقنا ـ ويفهمه البرابرة الهمجيون علي أنه خيار الاستسلام ، وطي الصفحة ، والانتقال إلى الرضوخ والتسليم ، ولكن هيهات لقد أثبت الشعب الأعزل في فلسطين ، أنه يمتلك ما هو أعظم بكثير من ترسانة أسلحتهم من الـ إف١٦ والأباتشي والدبابات والمجنزرات والمدافع والصواريخ ، ما هو أقوي من كذبهم وتآمرهم والتفافهم وخستهم ، هو إلى قين بالأرض . والإيمان بالحق ، والوعي بأن الموت ثمن رخيص جدا من أجل الحياة . عندما كانت صورة الوطن تغيب ، وملامح كلمة

فلسطين تتواري ـ بعد نكسة٦٧ ـ كانت كلماتك وكلمات رفاقك من شعراء المقاومة الوطن البديل .

ظلت هذه الكلمات تسبح في سماء الأرض المحتلة ، وتتجذر في ترابها ، وتنبت آلاف الأطفال ، وآلاف العزائم ، وتطلق جداول الحلم ، وتفجر بيارات الأمل ويقين الانتماء ، وشيئا فشيئا أخذت صورة الوطن تتشكل من جديد وتضئ . واستعر الرهان بين من يراهنون علي صدق النيات ، ومن يقرأون ببصيرتهم الثاقبة ـ وأنت واحد من هذه القلة ـ نهايات السرداب المظلم ، ويرون في القصة كلها ضربا من الغواية ، وقصرا يبني علي الرمال ، وشركا يقتاد إلى ه أصحاب البطولات والتضحيات ، فكان عزوفك ، وكان التفاتك إلى الجواد الذي ترك وحيدا ، وكان نزفك الداخلي المستمر ، وحنجرتك المشروخة بالوجع الكوني . كانت بصيرتك حقيقية وصائبة .

هل تغير المشهد كثيرا عن الأمس ؟

فلتتغير المشاهد كما شاء لها أصحابها وصانعوها . ولتتعمد بالنار إرادات حرة لن تنكسر ، وليجتمع العالم كله ـ لو أراد ـ علي الباطل ، لا ضير . وليتكشف القناع الأخير من أقنعة المؤامرة ، حتي نتوقف عن الهرولة وراء القاتل الحقيقي ، طالبين معونته وحمايته ورفده بدلا من أن نطلبها من أنفسنا أولا ، بعد افتقاد القدرة علي البصر والبـــــــصيرة والتمييـــــــز .

فلتغير المشهد أو لا يتغير ، فلاتزال حية نابضة كلماتك :

وطني ، يعلمني حديد سلاسلي
عنف النسور ، ورقة المتفائل
ماكنت أعرف أن تحت جلودنا
مميلاد عاصفة ، وعرس جداول
سدوا علي النور في زنزانة
فتوهجت في القلب شمس مشاعل
كتبوا علي الجدران رقم بطاقتي
فنما علي الجدران مرج سنابل
رسموا علي الجدران صورة قاتلي
فمحت ملامحتها ظلال جدائل
وحفرت بالأسنان رسمك داميا وكتبت أغنية الظلام الراحل
أغمدت في لحم الظلام هزيمتي
وغرزت في شعر الضياء أناملي
والفاتحون علي سطوح منازلي

لم يفتحوا إلا وعود زلازلي
لن يبصروا إلا توهج جبهتي
لن يسمعوا إلا صرير سلاسلي
فاذا احترقت علي صليب عبادتي
أصبحت قديسا بزي مقاتل

هل عرفت الآن حجم ما لدينا ، لدي الشعب الفلسطيني ، من أسلحة ؟ إنها شعرك ـ وشعر رفاقك ـ في مقدمتها ، بثا لليقين ودعما للأمل وإشعالا للانتفاضة وتلويحا بالهدف واستثارة للهمم والعزائم وتشبثا بالأرض وبكل حبة رمل وتذكيرا بمناديل الوداع بين المحبين ، وحكايات الصبا في مزارع الكروم والزيتون ، وسفوح الكرسل وحجارة البيت القديم ومذاق شجر البلوط وعطر البرتقال وجدائل النخيل وهديل الحمام وترنيم إلى ما م وضفائر الشعر المشدود في رؤوس الصبايا المنجذبات إلى وجه القمر !

شعرك ـ وشعر رفاقك ـ هذا كله . وطن يرسخ صورة الوطن ، ليس بديلا عنه ولا يلغيه ، لكنه هو هو ، بحرارته وتوهجه وكبريائه ، بأحزانه وشموخه ، بانكساراته وانتصاراته ، بغيومه وصفاء سمائه وإشراق صفحته وملامحه ألست القائل في قصيدة الأرض:

أسمي التراب امتدادا لروحي
أسمي يدي رصيف الجروح
أسمي الحصي أجنحة
أسمي العصافير لوزا وتين
أسمي ضلوعي شجر
وأستل من تينة الصدر غصنا
وأقذفه كالحجر
وأنسف دبابة الفاتحين
بلادي البعيدة عني . . . كقلبي
بلادي القريبة مني . . كسجني
لماذا أغني مكانا ؟ ووجهي مكان !
لماذا أغني
لطفل ينام علي الزعفران ؟
وفي طرف النوم خنجر
وأمي تناولني صدرها
وتموت أمامي

بنسمة عنبر !
وهذا نشيدي
وهذا خروج المسيح من الجرح والريح
أخضر مثل النبات يغطي مساميره
وقيودي
وهذا نشيدي
وهذا صعود الفتي العربي
إلي الحلم والقدس !

* * *

فيا أيها الذاهبون إلى حبة القمح
في سهدها
احرثوا جسدي
أيها الذاهبون إلى صخرة القدس
مروا علي جسدي
أيها العابرون علي جسدي
لن تمروا
أنا الأرض في جسد
لن تمروا
أنا الأرض في صحوها
لن تمروا
أنا الأرض ، يا أيها العابرون علي الأرض
في صحوها
لن تمروا
لن تمروا
لن تمروا !

لدينا كثيرون ، في فلسطين ، وفي سائر أرجاء العالم العربي ، كثيرون بالمئات ، وبالألوف ، يصلحون أن يكونوا ساسة ومسئولين ووزراء وحاملي حقائب وأصحاب مهام ، لكن الشاعر الشاعر أو الشاعر الضمير عملة نادرة ، ومحمود درويش واحد من هذه العملة النادرة ، حضوره يعدل جيشا بكامله ، وصوته ـــ المتلئ بالوعي واليقين والإنسانية ـــ أغلي وأنفس من ألوف الحناجر الجوفاء ، التي تمتلئ بالضخب ، وتكاد تنفجر من جلجلة الألفاظ ، وتقول كلاما لا يبقي بعد جفاف الحبر الذي كتب به ،

وازدحام الورق الذي تساقط عليه !
أكتب إلى ك من مصر ، التي كتبت عنها ذات يوم في قصيدتك للنيل عادات وإني راحل:

أغادر الشعراء مصر ؟
ولن يعودوا !
الآن . . أشهر كل أسئلتي
وأسأل: كيف أسأل ؟
والصراع هو الصراع
والروم ينتشرون حول الضاد
لا سيف يطاردهم هناك ولا ذراع
كل الرماح تصيبني
وتعيد أسمائي إلى
إلي يا كل العرب
من مصر ، والبلد الأمين
إلي مراكش والجزيرة
والنزول إلى حلب
ولتطفئوا صوت الغضب
وأنا القتيل القاتل !

من جديد نفتقد وجهك ، أيها الحبيس الآن تحت أنقاض رام الله ، تعاين جثث الشهداء التي تواري ـــ بعد طول انتظار ـــ في مقابر جماعية ، والجرحي الذين ينزفون في أماكنهم حتي الموت ، والصغار الذين تنقطع أنفاسهم ويذوي بريق عيونهم قبل أن يظفروا بجرعة حليب ، والمساجد والكنائس التي لم تعد تمتلك حصانة البيت المقدس تحت أقدام البرابرة الغزاة ، والبيوت والمعالم الأثرية ـــ التي هي أنفس من كل تاريخ الطغاة ومقتنياتهم ــ وهي تتعرض للهدم والنسف والنهب .

والفناء . أفتقد وجهك ، وأمد إلى ك يدي خجلي ، وكلمات مرتعشة يدك الآن هي التي تشد علي أيدينا ، وشعبك البطل ، من حولك وفي دائرة المشهد كله علي اتساعه يعلم أمته ويشارك في صحوتها وإنضاج وعيها وكسر حاجز خوفها ورعبها ، وإزالة كل الأقنعة عن وجوه اعدائها ، وإعادة رؤيتها لذاتها وإمكانياتها ، إلى س هذا كله ثمنا رائعا للمخاض الجديد ؟ ألا تساوي هذه الصحوة الهادرة ـــ التي لها ما بعدها ـــ كل عذابات هذه التراجيديا الجديدة التي يقوم بها البرابرة الغزاة ؟ ألا يفاخر الشعب

الفلسطيني إلى وم ـــ وأنت راية من راياته الخفاقة ـــ بأنه قد نجح أخيرا في تثوير الأمة وضخ الحياة من جديد في الشرايين التي تكلس فيها وخم الهوان والرضوخ للعار ؟

محمود درويش . . . .

هل أنت في حاجة لكي اذكرك الآن بكلمات ناظم حكمت التي بعث بها من سجنه الطويل إلى زوجته ، ردا علي رسالتها إلى ه ، إنها كلمات تشبه كلماتك القادمة الآن من سجنك وحصارك وأسرك في رام الله ، نبلا وشجاعة وإنسانية وتوهج يقين:

في ليلة الخريف هذه ،
أنا ملئ كلماتك
كلمات خالدة خلود الزمن والمادة
كلمات بثقل إلى د
كلمات شعشعة كالنجوم
وقد بلغتني كلماتك
كلماتك والمحملة بك
كلماتك ، يا أمي
كلماتك ، يا صديقتي
وقد كانت حزينة ومريرة
وكلها شجاعة وبطولة
لقد كانت كلماتك رجلا !
نعم ، إن حاجتنا الآن إلى الكلمات الرجال
أكثر بكثير من حاجتنا إلى الرجال الكلمات !

ثلاث شعراء وثلاث رسائل

بقلم: فاروق شوشة

الرسالة الأولي من الشاعر أحمد نبوي الذي كنت قد أشرت إلى ه في سياق مقال سابق عن الشاعر أحمد بخيت حين قلت:ولم يكن يقاربه أو يزاحمه إلا صوت شعري ثان هو صوت الشاعر أحمد نبوي ـــ الذي كان بدوره طالبا في دار العلوم ـــ وكانت له لغته وتمايزه وأصالته التي تزكيه ، لست أدري ما الذي حدث له ولشعره بعد تلك السنوات من التوهج التي عاشها الشاعران منذ نهاية الثمانينيات ، فقد استمر نجم أحمد بخيت في الصعود والتألق واختفي صوت أحمد نبوي ــ أو يكاد ــ في الزحام .

وأسعدني أن أتلقي من الشاعر أحمد نبوي هذه الرسالة:

سيدي الشاعر . .

لقد نكأت جرحا عميقا ، وأيقظت بركانا بداخلي . فلقد قرأت مقالكم ـــ بجريدة الأهرام ـــ٣ ما رس٢٠٠٢ ـــ الذي تحدثتم فيه عن الرفيق بخيت والذي ذكرتني فيه لماما وأنت تسأل بحب عني .

فأنا ياسيدي ما زلت حيا أقرأ وأكتب ، لكن بعد أن ما جت هيئة الأشياء أمامي ، وغامت الرؤية علي مستويات كثيرة . وأصبح الواقع بصوته القاسي أضخم من صوت الحلم ، واستنسر البغاث بأرضنا وخرج علينا دعاة النثرية ، وأحاطونا بالتهكم والسخرية ، وحالوا بيننا وبين المنابر ، انتحيت بنفسي جانبا ، جالسا علي حافة الزمان ، أتأمل المسرح جيدا ، محاولا إعادة ترتيب الأشياء من جديد .

فبعد تخرجي في دار العلوم١٩٨٩ ـــ وكنت قد أصدرت ديواني الأول: شهادة حب وأنا بالفرقة الرابعة ، حيث كانت العاطفة بكرا ، وللحياة أجنحة ملائكية تطير بنا أني شئنا ، صدمنا الواقع ، وحيل بيننا وبين النشر من طرق شتي ـــ أنا وكثيرون من جيلي ــ اللهم إلا من استطاع أن ينشر علي حسابه الخاص ، ذلك لا ننا لم ننتم لشلة ولالتيار حداثي معين أو ما بعد الحداثة أو ما إلى ذلك .

وبعد حرب الخليج وما تركته في نفسي ـــ كما حدث للجميع من شروخ كثيرة وانكسارات شديدة ، وإحباطات ثقيلة ، كان لا بد من مخرج ومتكأ نفسي أرتكن إلى ه فكان التنفس في الدراسة الأكاديمية ، فوجدت المتكأ النفسي في الأدب الأندلسيالفردوس المفقود . أخذتني الأندلس إلى دهاليزها وانتصاراتها وانكساراتها ، وعايشت عن قرب شعراءها خاصة في عصر الطوائف: ابن زيدون وابن خفاجة وابن حمديس وابن عبد ون . . وغيرهم وغيرهم الكثير ، وذلك من خلال أطروحتي للماجستير عن النزعة التأملية في

الشعر الأندلسي: عصر الطوائف ، ثم واصلت دراستي للدكتوراه عن الروافد التراثية في الشعر الأندلسي التي أوشكت علي إتمامها ، لا فرغ من هذه الحلقة الدراسية التي من خلالها أيقنت أن الليلة تشبه البارحة حقا ، وليس من رأي كمن سمع .

لم تحل الدراسة الأكاديمية بيني وبين الشعر . فلقد حاولت استثمار الأندلس في تعميق التجربة لدي .

فجمرة الشعر ما زالت متقدة بداخلي فلقد أصدرت ديواني ديواني الثاني الجروح لها روافد عام ٢٠٠١ والذي أعتبر قصائده تأريخا صادقا لوجداني وجراحاتي وانكساراتي في تلك الفترة (١٩٩٠ ــــ٢٠٠٠) ، بل هي شاهد علي الواقع العربي والإنساني ، وعلي امتهان إنسانية الإنسان في تلك الفترة .

وهأنذا أنتهز الفرصة لا صدار ديواني الثالث: مشاهد من مخيم اللاجئين الذي لم يزل حبيس الأدراج لم تضمه عضلات الألة بعد ، ولم يمر علي لهب الناشرين . سيدي الشاعر . . شكرالكم ، فالحديث ذو شجون ، لكن العود أحمد إن شاء الله .

لعل السؤال الصعب الآن هو: إلى أي حد سيستطيع الشاعر أحد نبوي أن يقبض علي جمرة الشعر بعد حصوله ـــ الذي أصبح وشيكا ـــ علي الدكتوراه . وهل ستصنع به الأكاديمية وشواغل البحث العلمي ما صنعته بمن سبقوه من المبدعين الشعراء بعد أن أصبحوا أساتذة فصمتوا أو كادوا ؟ واضح أنه متنبه لهذا الأمر ، فهو يقول في رسالته لم تحل الأكاديمية بيني وبين الشعر لكن هذا حكم ينصرف علي الماضي ، فهل يشمل المستقبل أيضا ؟

هو وحده يمتلك الإجابة ، والحرص علي دوره الشعري المأمول ، ونجاحته إن ديوانه الثالث في الطريق إلى الناس كما يقول ، وهو الذي قدم لديوانه الثاني بقوله:

هذي بنود الحب ،
أكتبها علي عجل وأمضي
لما رأيت جحودكم
أعلنت في الأجواء رفضي
وصرخت صرخة ثائر
وخرجت من طولي وعرضي
من أين جئت ؟ ومن أنا ؟
بعضي سينبيء عنه بعضي
لاتشغلوا أذهانكم
فجميع أرض الشرق أرضي !

ويقول في قصيدة عنوانهاانكسار:

أمامك حقل من الورد والقمح
خلفك نهر من الذكريات
بنيت الطفولة قصرا فقصرا
وشيدت صرحا من الأمنيات
فأنت الذي كنت تسكر بالحلم
تسكر بالورد والأغنيات
فيا أيها الطائر المستعد
لغزو السحاب وقهط الحياة
تجسد من الحلم ، واهدأ كثيرا
فحولك يمتد فصل الموات
أمامك سد– وفوقك سد
وخلفك كان ربيع ومات
فمزق جناحك وانزل إلى الأرض
واجلس حزينا ، بأي الجهات
غريب هو العمر: يأتي نضيرا
ويرحل في سلة المهملات
من الأرض للأرض يرحل عمر
فياليت ، ياليت ، لم تنجب الأمهات !
سلام علي الأرض حيث تكون
ابتداء ، وحيث تكون الرفات !

الرسالة الثانية من الشاعر جلال عابدين يذكر فيها أنه عمل مستشارا لرئيس جامعة حلوان للأنشطة الثقافية والفنية ، ويعمل رئيسا لقسم التدريب بمعهد العلوم الاستراتيجية برئاسة الجمهورية ، وأن له دراسات نقدية ، كما صدرت له أربعة دواوين شعرية منها الولد الطيب تاه الفائز بجائزة الشاعر محمد حسن فقي . وقد جاء في تقرير لجنة التحكيم: ديوان الولد الطيب تاه للشاعر جلال عابدين يعرض قضايا عصره بنظرة متعمقة وروح إنسانية ، ويختار منها أكثرها خفاء علي النظرة العابرة ، ويثير في نفس قارئه الاهتمام بها ، وذلك في لغة سهلة متدفقة دقيقة التصوير لما تعرض له ، بارعة التعبير عن دقيق المعاني وعميقها في إطار من الشعر الحر الذي حرص الشاعر فيه علي سلامة الإيقاع وجمال الموسيقي .

تحمل رسالة الشاعر جلال عابدين عددا من قصائدة المنشورة في الصحافة المصرية والعربية ، وهي التي جمعها في ديوانه الولد الطيب تاه ، يتحدث في إحداها عن أوجاع شاعر قديم فيقول:

أقول الشعر في زمن بلاشعر
فمن يسمع ؟
أبيع الشعر أحجبة وقربانا
فقد ينفع !
بكأس أو بكأسين
بكيل أو بكيلين
بلا وزن ، بلا ثمن
فإن وليت مجهولا
بلا أهل ولاوطن
وإن فارقت مقتولا
بلا لحد ولاكفن
فلاتبكوا علي قبري
ولوموني علي جهلي
فقد أدمنت من زمن
حبوب الشعر والفقر !

ويقول في قصيدة ثانية عنوانها في زمن معاوية نحن:

في زمن معاوية نحن
اختلط الملح مع السكر
وتساوي الطين مع العنبر
أصبحنا لا ندري فرقا
مابين إلى ابس والأخضر
في زمن معاوية نحن
في زمن ضاعت فيه الحكمة واختل الميزان
في زمن نعيد فيه الخوف
ونعشق فيه الزيف
ونغتال الفرسان
في زمن معاوية نحن
في زمن لا تدري فيه

إن كنت الفاعل أو كنت المفعولا
في زمن لا تفهم منه
إن كنت القاتل أو كنت المقتولا
يحسدني الفرسان لا ني
أملك خيل السبق وأفهم فن اللعبة
يحسدني الفرسان لا ني
أعرف كيف ألف وكيف أدور
وكيف أراوغ فوق الحلبة
لكني أسقط مقتولا
من قبل الخطوات الأولي
في آخر أشواط اللعبة

الرسالة الثالثة من الطبيب الشاعر عيد صالح ـــ استشاري الأنف والأذن بمستشفي دمياط التخصصي ـ يقول فيها:

الشاعر فاروق شوشة أبدا لم تتغير ، منذ كنا نستمع إلى صوتك في برنامج كلمات علي الطريق الذي قدمتني فيه عام ١٩٦٧ بأول قصيدة لي في الإذاعة سأنتقم ثم إلى عبد القادر ثم أغنية للأستاذ عام ١٩٧٠ .

واليوم ، صباح الثلاثاء ، وأنا أقرأ مقالتك ـــ الأحد٢٠٠٢ / ٣ / ١٧ ، حيث احتجزتها للقراءة ، أعدتني إلى قصيدة لي نشرت في الثقافة الجديدة تحت عنوان حداثة (٢) عام ١٩٩٦ وكنت قد كتبتها عام ١٩٩٥ . ونشرت حداثة (٤) في العربي الناصري . وكانت الحداثتان سببا في منع ديواني أنشودة الزان من النشر في سلسلة أصوات . . . لا ن مدير التحرير . . . أحد حداثيي هذا الزمان . وسوف ينشر هذا الديوان الذي أضاعوه خمسة أعوام في أصوات ، في سلسلة رواد دمياط هذا العام بإذن الله
.

اليوم ، وبفن الإغراء بالقراءة أتذكر مقولة شهيرة لا ستاذنا محمد مندور القراءة بحب والشعار الذي رفعه جيل الستينيات اقرأونا بحب . إلى وم صباح جميل ، صباح مشرق ، صباح بداية علي مشارف الستين ، فأنا من مواليد١٩٤٣ ، أعود بالكتابة إلى ك ، فتقبل مني حبي القديم الجديد الدائم رغم حداثة الحادثات !

يرفق الطبيب الشاعر عيد صالح برسالته قصيدتيه الحداثتين١ و٢ المنشورتين في مجلة الثقافة الجديدة . وواضح أنهما تحملان سخرية مريرة وتهكما لا ذعا لنماذج من الشعر الحداثي الذي ينشر في هذه الأيام ، محاولا محاكاتها وتقليد معجمها الشعري

الـذي يـضم مفـردات وتعـابير شـديدة الـسوقية والابتـذال لا يمكـن نـشرها في هـذه الـصحيفة .
أجتزيء من بينها هذه السطور التي ترسم صورة كاريكاتورية لهذا اللون من الشعر:

يجيئون في غارة كالجراد
يجوسون أقبية ،
وحواري
يستخرجون السباب
ويستمطرون الشتائم
يستحلبون الضياع
والموت فوق الرصيف
ذباب ، ورشفة شاي ،
وسيجارة ، ولسان قبيح
يراجع مسودة العبقرية
قبل لقاء المحرر
يصرخ في بغتة
لاكتشاف خطير !

* * *

حذار من الصمت أو الاعتراض
ستلقيك من شاهق
لفظة كالوطن
ويغتالك الصحب
حين تجول بخاطرك الأرض
أو تتذكر من ما ت عند العبور
من يدخل الآن عبر المسام !

وشكرا للشعراء الثلاثة علي ما امتلأت به رسائلهم من كلمات المودة

في كلية اللغة العربية

فوجئـت ـــ كمـا فـوجيء بعـض الـشعراء غـيري ـــ بـالإعلان في عديـد الـصحف عـن مـشاركتنا في مهرجـان الربيـع الـشعري الـذي أقامتـه الكليـة يـوم الثلاثـاء الماضـي ، بـالرغم مـن أنـه لم تكـن هنـاك أي دعـوة للمـشاركة علـي الإطـلاق ، إلا إذا كـانوا يريـدون بحـشر أسمائنـا ــ بـين عـشرات الأسمـاء ـــ حـشد النـاس للحـضور ، وتـركهم يلعنـون الـشعراء الـذين لم يلتزمـوا بالمـشاركة . والأمـر كلـه كـاذب وباطـل . وبمناسـبة مهرجـان الربيـع الـشعري أي ربيـع هـذا

الذي يتحـدثون عنـه ؟ وهـل غـاب عـن وعـيهم وإحـساسهم أن ثمـة ربيعـا آخـر يـصنعه الـشعراء بدمائهم علي أرض فلسطين الآن ؟

شعرية نازك الملائكة

بقلم : فاروق شوشة

تتكيء شعرية نازك الملائكة إلى عناصر من التكوين الشعري ، يندر اجتماعها في مثال . أولها هذه الطاقة الموسيقية العارمة التي شدتها منذ بواكير الصبا إلى الغناء القاهري المتمثل في أغنيات أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب المنبعثة من جهاز الراديو المجاور) بدأت الإذاعة العراقية ارسالها في عام ١٩٣٥ ونازك في سن الثانية عشرة) والتي وجهتها في تصميم إلى دراسة آلة العود في معهد الفنون الجميلة علي يد أستاذ أساتذة العود في العراق محيي الدين حيدر الملقب بالشريف ، وإلي موسيقية اللغة وملاحقة حركة الأوزان والتفاعيل وتتبع الوثبات النغمية والعروضية في الشعر ، وتوهجها الدائم بالرغبة في الخروج علي المساحات المألوفة من موسيقي الخليل بن أحمد ، وحين خيل إلى ها أنها توصلت إلى اختراع وزنين جديدين في قصيدتها الملكة والبستان وسبت التحرير ردها حسها الموسيقي وفطرتها الايقاعية السليمة إلى أنهما من وزن البند العراقي وليستا من الشعر الحر

.

لكن حميا الوجد الموسيقي لديها كان تدفعها دوما إلى مغامرة ايقاعية تلو مغامرة

.

وثانيها هذه البنية الشاعرة التي اتيحت لها علي غير مثال الأم شاعرة والأب أستاذ لغة وشاعر والأخت شاعرية الحس والهوي والخال شاعر جهير الصوت ، وهي فراشة حائمة هائمة تجد رحيقها في كل ما حولها من أركان واجواء ، وتعرض ما تتفجر به شاعريتها المبكرة علي اسماع مدربة فيكون لرجعها أثره في العقل والوجدان .

ثم هي التي هيء لها من السفر والرحيل والتنقل واختراق عوالم جديدة وثقافات شتي ولغات مختلفة من اللاتينية إلى الفرنسية والانجليزية ، ومن الولايات المتحدة إلى انجلترا وإيطاليا وجنوب فرنسا ومن بغداد إلى القاهرة ودمشق ، والبصرة والكويت ، فالقاهرة في خاتمة المطاف ولحظة الرحيل ، هيء لها مع هذا كله حشد هائل من الثقافات والمعرفة الانسانية والخبرات والتجارب والألوان ، والظلال ومصادر الدهشة ، ولحظات الاغتراب ونزعات الوجد والحنين ، ما انعكس في دواوينها حضورا شعريا طاغيا اتسعت فيه ذاتها الصغري القلقة المتوحدة الشاكة المتأملة الحزينة للوطن والعالم العربي ، والإنسانية مشكلة ذاتها الكبري ، واتسعت صفحاتها لكل ما هو صوفي في النظرة إلى الحياة والإنسان والكون .

لكن أعظم ملامح هذه الشعرية هو وعيها النقدي الكامن ، الذي واكب رحلتها الشعرية منذ البدايات وأهلها للنمو والتطور المستمرين ، فلم تكرر عزفها ولم تحمل مجموعة شعرية مذاق سابقاتها ، ولم يضق معجمها الشعري نتيجة هذا الغني والثراء في مخزونها المعرفي والإنساني والشعري عن الاتساع لكل تغيراتها في المسار وادهاش متلقيها بوثباتها الفنية المستمرة ، هذا الوعي هو الذي جعلها أكبر شاعرة في جيلها تؤكد انتماءها لقصيدة الشعر الحر ، بعد أن ابدعت أول نموذج مكتمل له بقصيدتها الكوليرا ، التي سبقتها محاولات كثيرة لخليل شيبوب وخليل مطران ومحمود حسن إسماعيل (قصيدته ما تم الطبيعة في رثاء شوقي) وغيرهم ، ثم هي تقنن لهذا الانتماء ولهذه الحركة الشعرية الجديدة بكتابها الرائد في مجاله قضايا الشعر المعاصر الذي تقول هي عنه : درست فيه الشعر الحر دراسة خاصة منفصلة ، ووضعت له عروضا كاملا اعتمادا علي معرفتي بالعروض ، وعلي قوة سمعي الشعري ، وعلي كثرة قراءتي لشعر الزملاء من الشعراء ، كما تتيح لوعيها النقدي متفسا ثانيا من خلال كتابها عن الشاعر علي محمود طه ، وقد كان هذا الكتاب حصيلة محاضرات ألقتها نازك علي طلبة معهد الدراسات العربية بالقاهرة عام ١٩٦٤ ونشرته في القاهرة عام ١٩٦٥ .

هذا الوعي النقدي هو المسئول عن تطور الشاعر ، وهو الذي يظل يعمل عمله في داخله يوجهه ويلفت نظره ويدله علي الطريق ، والشاعر الحقيقي هو الذي يجد ضالته ودليله في هذا الوعي النقدي الذاتي ، لا في كتابات النقاد أو مدعي نقد الشعر والشعر منهم براء ، وعندما اكتشفت نازك ان دعوتها إلى الشعر الحر قد فتحت أبو ابا إلى التسيب والتحلل والهبوط نتيجة لا ستهانة بعض شعرائه بالعروض ، واحتقارهم له مع ازدرائهم للغة العربية وقواعدها وتحقيرهم العامد للتراث ومحاولة الاغراب واثارة الدهشة علي حساب العقل الانساني وصولا إلى التعمية ، وهي غير الغموض الذي يشكل ستارا فنيا جميلا يشف ولا يحجب ، أبي عليها وعيها ان تسكت أو تتستر ، فرفضت ما يفعله هؤلاء وادانت عبثهم بالشعر وأعلنت ان الشعر الحر بريء من ضعف طائفة من شعرائه وجهلهم واغرابهم وهو الموقف نفسه الذي وقفه أدونيس ـ احد رواد الدعوة إلى قصيدة النثر ـ عندما رأي المصير والمآل علي ايدي من لا يملكون غير الادعاء والشعر منهم براء .

موسيقية الحس لدي نازك الملائكة مندمجة في كيانها النفسي والصوفي متجذرة في صميم علاقتها باللغة والموروث الشعري ، منفتحة علي ذخيرة الشعر في الآداب العالمية قديمها وحديثها ، مضفورة بهذا الاخلاص والشموخ المنعدمي النظير ، علي مدار أكثر من ستين عام ا متصلة من الابداع ، هي بعض معالم هذه الشعرية الفريدة التي جسدتها أكبر شاعرة عربية في القرن العشرين .

عرس فلسطيني

بقلم : فاروق شوشة

لم تدع حلمها يتكور في صبغة الأرجوان فقد كان يسبقها وهي تعدو ويفلت منها إذا حاولت أن تلامسه

وهو يركض مثل غزال ويبعد في جبهة الغيب منطلقا في التلال ! وهي تحمل في صدرها سرها

وتفكر في لحظة سوف تأتي وعمر قصير كومضة برق وخطو يقربها لا قتحام المحال هي ذي تتأرج بين انعقاد الغيوم

ودائرة النار من حولها واصطخاب الأعاصير تقتلع الشجر المستميت وتضرم مذبحة في الظلال هي ذي تستعد لعرس بهيج

وتعقد زنارها فوق خصر من الجمر ، تحكم عقدته ، وهي تطلق أنفاسها وتعاود ، في رجفة ،

وانفعال . . ما الذي تبتغي ؟ موطئا في الطريق الذي سبقتها إلى ه الرجال وبراقا إلى الشمس يصعد

مقترنا بالبهاء ومؤتزرا بالجلال . . ووجوها تشاغلها في البعيد وراء المنافي وخلف الحواجز

عبر الفيافي وتحت انهمار الليالي الثقال خطوة ، وترف الوجوه تعاود طلتها وهي تطلع من أفق شاحب وسماء مضرجة

ومواقيت معتمة ثم تمضي . . تغوص سريعا وراء حدود الخيال !

* * *

هي ذي تستعيد براءة أيامها وائتلاق طفولتها وامتلاء أصابعها - حين تصغي إلى الأرض مسحورة -

بالحصي ، والرمال قبضة من وطن . . قبضة من حلم قبضة من وجود زوال: الزغاريد ليست طريقي

وليس المدي مستحيلا ولا أنا موجسه من زمان سيأتي ولا من كلام يقال ما الذي يجعل العمر أهون من طلقة ؟

والنهـار ثقـيلا كهـذا الرصـاص وشـدو العـصافير مثـل البكـاء وأيقونـة الطفـل فجـرا تهشم والخطو مرتعشا ، والسماء ؟

كـأن الـسماء حبيـسة أحلامنـا في الـسلال ! حـين نمـرق مـن شـرك مثـل طـير مـن البحروجهته لا تلوح

وأفلاكنـا فوقنـا تتـصادم مثـل نيـازك تهـوي وأشـرعة تـتحطم مثـل دخـان ، هـو الأفـق حين يدوم جمرا توهج

برقـا يـضيء ولوحـا نطـالع أحرفـه في سـطور الجبـال لم تكـن تـشتهي غـير خـيط مـن النور منسكب في الطريق الذي

تتهجـي معالمـه كـل يـوم وأحلامهـا تتطـاير مـن حولهـا كالفراشـات وهـي تغـني لرفقتها وتبوح . . يفوح الصدي

يتنـاثر غـبر المـروج ويوغـل في صـبوة واكتمـال الـصبايا تـدثرن بـالحلم والحلـم منكـسر: المنايا محومة

والقباب مهدمة فاقتعدن من الرعب أرجوحة وأبتدأن السؤال !

* * *

هـو ذا عرسـها والزنـاد المـصوب شـبكتها والحبيـب الـذي ترتجـي شـامخ وحـده صـامد ما يزال واقف للنهار المراوغ

يغـشاه مـن كـل صـوب ويفجـؤه الغـدر في كـل حـال وحـده المـوت ، يـسلمه للـيقين ، ويملؤه باكتمال الحياة

وينجيــه مــن طعنــات الخيانــة يمنحــه ذروة لا تنــال ! مــا الــذي يرتجــي ؟ وحده يحمـل الآن مفتاحـه حـين يطلـب بيتـا وعـشا يظلـل أحلامـه وصـغيرا يهدهـد أيامـه ليـصبح كالآخرين

لـه وطـن ومـساحة حلـم وأغنيـة وكـلام جميـل يقـال فلمـاذا إذن ؟ تـذبح الأمنيـات الصغيرة ! يندلع القهر يتسع العهر والكون ممتليء بالضلال !

* * *

مـا الـذي ترتجـي ؟ لمـسة واحـدة . . فالزنـاد طريـق لمعراجهـا والـسماء تـضمخ موكبها وهي تودع في قبة القدس

بعض تراتيلها ونذور قرابينها حين تبدع عرسا جليلا كشمس النهار بهيا كفاتحة إلى من والبسملة !

يا عذاري الربيع ويا ألق - العمر يا وهج الجمر يا دهشة العصر يا صيحة الجلجلة لم يعد موتنا أبدا مشكلة

نحن في زمن الجسد القنبلة واشتعال الجمال !

أصوات شعرية مقتحمة

مشهور فواز

بقلم: فاروق شوشة

وضع رحيله المباغت في منتصف شهر يوليو الماضي نهاية ما ساوية فاجعة لحياته التي لم تتسع لطموحه الأدبي ومشروعه الشعري . ولد مشهور عبد الله الأنور فواز الذي عرف باسمه الأدبي مشهور فواز في اسرة شاعرة لها تاريخها وعلاقتها الوثيقة بالحياة الأدبية . فالأب عبد الله الأنور فواز شاعر ينتسب إلى مدرسة البارودي ومن بعده شوقي وحافظ واسماعيل صبري في الشعر ، والأبناء الأربعة فولاز ومشهور واوفي والسماح كلهم شعراء ، ولكل منهم عالمه الشعري وسمته وطريقته ، يلتفون من حول شجرة العائلة الشعرية ويغرد كل منهم بطريقته وإن كان اوفي هو الأقرب شعريا إلى فولاز ، والسماح هو الاقرب شعريا إلى مشهور .

تخرج مشهور في دار العلوم عام ١٩٨٤ ، سرعان ما حصل علي الماجستير عن الشعر السياسي في مصر ثم علي الدكتوراة عام ١٩٩٩ عن التمرد في الشعر العربي الحديث ، عمل بعد تخرجه مدرسا للغة العربية في مدارس المعادي وحلوان ثم رحل إلى الإمارات عام ١٩٨٨ مدرسا وظل يتدرج في الوظائف حتي اصبح موجها للغة العربية في الإمارات ، واتيح له إلى جانب العمل في التعليم ان يقوم بالإعداد والتقديم لبرنامج لغة الشعر في تليفزيون الشارقة وان يحصل علي جائزة راشد بن حميد للثقافة والعلوم في مجال الدراسة الأدبية مرتين في عام ي١٩٨٩ و١٩٩٠ وطبقا لسيرته التي اعتمدت فيها علي شقيقه الأكبر فولاز فقد اجريت له جراحة القلب المفتوح في نهاية عام ١٩٩٥ أحس بعدها باستقرار طويل لحالته الصحية لكن النهاية المباغتة كانت له بالمرصاد وهو في زيارة إلى مصر يري فيها الاهل والاخوة ويدعوهم لزيارته في مسكنه الجديد الذي لم يقدر له ان يقيم به يوما واحدا ، وكان رحيله عن خمسة واربعين عام ا ، انجز خلالها عددا من الدراسات الأدبية والنقدية المخطوطة من بينها رسالتاه للماجستير والدكتوراه ودراسته مع العقاد في ترجمة شيطان وفي مجال الإبداع الشعري الوجه الحقيقي والأصيل لمشهور ، صدرت له ست مجموعات شعرية هي: تاريخ يؤرقه الظمأ١٩٨٧ ، هجمة من الغرام في البلاد١٩٩٤ ، قصائد الفرح المتاح١٩٩٥ ، يقين الغرباء١٩٩٨ ، أوعي خوفي٢٠٠١ ، واخيرا: ذاكرة أسير لها٢٠٠٢ ، وهي المجموعة التي صدرت قبيل رحيله بعدة شهور وأهداها إلى هالة رفيقة وطريقا:

هذا كتاب الحب
عشب طازج يلتف حول القلب
تاريخ إلى قين
ووردة في عروة الأيام
مجد خالص كالمجد
نار الفكرة الأولي
وشتلات المريدين
ابتهال الود
ابهة تتوج سيرة الخليل
ازمنة تسير إلى بريق الصحو
ممتزجا به
اصف الحضور
أحب ما ئي في حواس الأرض
في نهم أهيئ سلطتي للعزف
اكتشف المواقيت البراء
أعد ما ئدتي لفتح متخم بالفرح
آخذ حصتي حكمة النضر الزلال
واستعين بمعصمي !

في الثمانينيات اكتمل صوت مشهور الشعري واحدا من شعراء التمرد والرغبة في الرفض والتجاوز . انتسابهم لحركة الشعر الجديد او الشعر الحر يعني في الوقت نفسه التململ من النموذج الذي انتهت إلى ه قصيدة هذه الحركة والشعور العارم بأن ثمة ضرورة شعرية ووجودية لكسر الرتابة والخروج علي نمطية الاشياء بتعبير الدكتور انس داود في كتابته عن مجموعة مشهور الأولي (تاريخ يؤرقه الظمأ) مستشهدا بقول مشهور:

مسمار
كنت اظن سأحدث صدعا في الجدران
إذ أتغلغل فيها
لكني حين تغلغلت
صدئت قدماي
فتواري الجزء المشرق في
وانكسر الجزء الحاد
يبدو أني لم أحسن تقدير قواي

وتدلي رأسي في الطرقات
لكني ـ أعتقد ـ
كسرت سكون الحائط
وخلقت جمالا لم أقصده

هكذا ، ومن اللحظة الأولي يعلن مشهور فواز تمرده علي مكوناته الأولي ، وثقافته التقليدية في دار العلوم ، وانتماءاته لم يتح له اختيارها ، منفلتا من مرجعية الموروث الذي يشده ويقيد جناحيه ويثقل حركته ، قاذفا بنفسه في مشروعه الحداثي المغاير لغة وحسا ووعيا . والمسمار الذي تمني أن يكون في مجموعته الأولي ، ظل يؤرقه ويستثيره ويخايله ، ويذكره بالمسافة التي ينبغي أن تقوم بينه وبين الآخرين ، والصوت الذي يجب ألا يتوه في زحام الأصوات ، وربما منحه جو العمل في الإمارات ، والبيئة الأدبية والثقافية فيها ، فرصة التحليق والاستشعار عن بعد لما تركه من ورائه في مصر بعد أن ثار عليه ورغب في تجاوزه ، كما وفرت له هذه البيئة ظرفا مواتيا لتحقيق انتمائه الحداثي وتعميقا ، وتجاوز كل ما يثقل خطوات رفاق جيل في مصر ، طامحا كما قال في طلقته الشعرية الأولي إلى ابتكار جسور جديدة:

ابتكر جسورا لخطاي
يمنحني الليل الرغبة واللغة
ويمنحني أفقا لجنوني
فأؤسس نهجا للأمطار

ثم وهو يشدنا إلى التعاطف معه ، بلغة شعرية شديدة الصفاء والعذوبة ، مشحونة بالشجن والشجي:

لم يزل في حوزة الشاعر
بعض من وعود الطير
عصفور شدا في الأفق
فاخضرت اسارير إلى نابيع
احتوي الأفق ذراع الشاعرالضليل
فاستولي علي وهج البراءة

لابد ان شاعرنا الذي عاش مرارة الاغتراب وجحيم التوحد والعزلة ، وعذب روحه بالثقافات عربية واجنبية وبالفلسفات المتباينة والمتعارضة ، وبمصائر الانسان المقذوف به وحيدا في الكون وبالهم الوجودي الذي قبض علي روحه واعتصرها في قطرات

شعرية حارة وساخنة لكنها لا تخلو من الشعور بالمرارة ولا تبتعد عن وخزات المسمار الذي توقف الشاعر عند صورته الرمزية في مستهل رحلته الشعرية .

ولابد لمن يحاول ولوج عالمه الشعري في مجموعاته الست وفيما لم يجمع بعد من شعره أن يتسلح له بالنفاذ إلى اغوار كتاباته الأدبية والنقدية خاصة في رسالتيه للماجستير والدكتوراه ، متأملا الموضوعين اللذين اختارهما للدراسة ، الشعر السياسي في مصر والتمرد في الشعر العربي الحديث ، فهذان عنوانان يكشفان عن محاوره الأساسية وجوهر اهتماماته ، ونزوعه السياسي الثوري والتحامه خاصة في ديوانه يقين الغرباء وذاكرة أسير لها بقضايا الوجود وما وراء الوجود بالموت والميتافيزيقا بالعذاب الانساني الملازم لمسيرة الانسان في الكون عندئذ يتكثف هذا العالم الشعري المثقل بخطرات الفكر وعذابات الروح ، عن صوت شعري مقتحم ، يتقدم كثيرا من أصوات جيله صفاء ونقاء وتركيزا ونفاذا إلى الجوهر واللباب ، وحدة وخز أصبحت سلاحه في توصيل رسالته والتبشير بها :

من أين ابتدئ الصبابة ؟

من مكامنها اقول

انا وهالة دورة الافلاك

ذاكرة البكارة

واجتياح الرفض

والماء الزلال

وسوف أكتب باسمها رحما

لتولد مرة اخري الحياة كما نشاء

وسوف اختار الأريج مواسما للرقص

في وسعي اصير قصيدة

وأضئ ذاكرة الندي

كنزي عطايا الحب

سوف أشكل الأفلاك موسيقي لهذا الخلق

نبتدئ الطريق بها

فهل سيكون موسمنا اشتعال محبتين ؟

. . . .

فتقدمي

لنعيد تكوين الحياة

تقدمي

يا رحبة المعني

لتتسق القصيدة
حين يندي جسمنا
تخضر اذرعة
ويولد منطق أشهي
ونكتب آية التكوين !

لم يكن مشهور فواز مجرد شاعر جميل لكنه كان قبل هذا وبعده انسانا جميلا ، والانسان الجميل المشع دوما بالأنس والدفء ، المفعم بالكبرياء المتلئ بالصفاء والسماحة كما يقول شقيقه فولاز عنه عملة نادرة في زماننا . وكان مشهور أشد ما يكن حفاوة ورقة واهتماما حين يسعي جاهدا للقاء شاعر مصري ، أو صديق من أصدقائه ، عرف بوجوده في دولة الإمارات ، عندئذ يتحول مشهور ـ بالرغم من شواغله ومسئولياته ـ سفارة كاملة من المودة والرعاية ، لهؤلاء الذين يري فيهم صورة الوطن ، ويشتم فيهم رائحته ، بينما سنوات الغربة والبعاد ، تأكل من قلبه واعصابه ، وتتغذي بجسده وروحه وهيكله العليل ، وهو يجاهد ليخفي العلة ، وينطق وجهه الطيب الباش بالغبطة والفرح والترحيب .

هأنذا أكتب عنه بعد شهور من رحيله ، مشاركا في وداعه ، داعيا إلى قراءته والاهتمام بشعره الشديد الخصوصية والتفرد ، ولغته الشديدة الصفاء والقدرة والإيحاء ، وفكره الشديد التركيز والنفاذ ، وموسيقاه الهادرة التي لم يتخل عنها قط كما فعل غيره ممن اصبحت كلماتهم بدونها هشيما تذروه الصفحات ونثارات تتطاير ، في الريح لا يربط بينها رابط ، ولا ينتظمها ايقاع مرددا لحن الختام في رحلة مشهور فواز الشعرية ، وكأنه بكائية الأخيرة ، وهو يقول:

منذ عهد أكتب الفوضي
وأركض في المساحات الحرام
نضارتي في جمرة أطلقتها في القش
حراس السلالة يتبعون دمي
وجدران المقابر تقتفي أثري
فهل تتواطئين معي ؟

أصوات شعرية مقتحمة

محمد يوسف

بقلم : فاروق شوشة

كان صوته يجيئني من مدينة المنصورة ، متوهجا بحرارة التحدي والمقاومة والصمود ، التي تفجرت بها قلوب الشباب المصري والعربي رفضا لما حدث في نكسة١٩٦٧ ، وتعبيرا عن الأمل الواثق في جولة ثانية قادمة ، نثأر فيها للعرض والشرف والكرامة ، ونسترد تراب الوطن وأرضه المغتصبة ، ونعلي من جديد الراية التي تضرجت بدماء الشهداء

وكانت رسائله الشعرية التي تحمل صوت وجيشان وجدانه ، تتدفق في ثنايا بريد البرنامج الشعري إلى ومي كلمات علي الطريق الذي ظللت أعده وأقدمه للإذاعة طيلة السنوات الجهمة الثقيلة الوطأة بين عام ي١٩٧٣ ، ١٩٦٧ ، مشاركا مع غيري من الإذاعيين والإعلاميين في تضميد الجراح ولم الشعث وإعادة بعث الروح وبث العزيمة والدعوة إلى التشبث بكل حبة رمل . .

كانت قصائد الشعراء ـ المنهمرة كالسيل ـ تكشف عن حجم الفجيعة ، وخيبة الأمل ، وتومض ـ بالرغم من سحابة الحزن واليأس ـ ببوارق هذا الجيل من شباب الشعراء ـ المصريين والعرب ـ يحفرون بكلماتهم الأولي مكانا لهم علي خريطة الشعر والإبداع ، وينفضون عنهم غطاء الصمت والتجاهل . ويقدمون أوراق اعتمادهم الأولي ـ قصائدهم ـ إلى ملايين المستمعين من بين هؤلاء جميعا ، كان صوت محمد يوسف ـ القادم من المنصورة ـ يهزني بصدقه وتوتره وانطلاقه العارم وهو يقول:

لا تلمني ، سنضحي بالحياة

لو ظمئنا مثلما تظمأ صخرة

لن نموت

سنضحي ، ونضحي ، ونضحي

رثيما يهدأ جرحي

قريتي خبزي وملحي

كيف أرضي أن تهون ؟

كيف أرضي أن يبيت الذل

في تلك البيوت ؟

لا وربي لا ن نموت

إننا حقد ، ونار ودمار
كلنا يمنح عمره
كلنا يحمل سيفا ، كلنا كف المقاتل
يضرب الضربة حقا
كي يشق الفجر أستار النهار
يومنا هذا جحيم وقنابل
وغدا نزرع قطنا وحبوبا وسنابل
ونغني للجداول
ونغني للحياة

هكذا كان صوت الشاعر محمد يوسف في تلك السنوات الثقيلة الوقع من ختام الستينيات ، صوت فلاح مصري يحلم باليوم الذي يزرع فيه القطن والحبوب وينتظر السنابل ، ويعلن عن استعداده للتضحية بالحياة من أجل قريته وخبزه وملحه ، ولم يكن محمد يوسف وحده في هذا الموقف الوطني والإبداعي ، كان معه العشرات من أبناء جيله الشعراء ، في شتي أقاليم مصر ، فضلا عن المقيمين في القاهرة ، وهكذا التقي - عبر أثير البرنامج وموجات إذاعته - شعر محمد ابراهيم أبو سنة و عبد المنعم عواد يوسف ووفاء وجدي وأحمد سويلم وكامل سعفان وأحمد درويش ومحمد هاشم ومحمد السيد ندا ومحمد أحمد العزب والنبوي حافظ أمان وعلي الصياد وفرج صادق مكسيم ، مجسدا لوحة شعرية كبيرة ، تتعانق فيها الألوان والظلال والصور والإيقاعات والكلمات والحروف !

فجأة ، يغيب صوت محمد يوسف أو يكاد . في مرات قليلة متباعدة يطل علي في الإذاعة - وعلي أصدقائه فيها - مهموما متعجلا ، يسابق أو يلاحق شيئا لا نعرفه . كان من الواضح لنا - نحن محبيه - أنه يتغير بشدة ، وجدانا وشعرا وأنه موشك علي اتخاذ قرار مصيري ، يتعلق بحياته ومستقبله - وهو المثقل شأنه شأننا جميعا - بأعباء الحياة وتبعاتها .

ولم أدهش بعد ذلك حين عرفت من أصدقائنا المشتركين الذين يتابعونه ويتابعون شعره ، أنه قد غادر الوطن للعمل في بلاد الخليج ، شأنه شأن عشرات من الموهوبين مثله ، غامروا بموهبتهم قبل أن يغامروا بأعمارهم ، وراهنوا علي المستقبل رهان من لا يدرك ما سوف تأتي به الأيام .

أترك لقلم محمد يوسف الجميل ، في واحدة من رسائله العذبة المفعمة بالشجن والحنين ، تقديم شهادته علي تلك الأيام - التي طالت أكثر مما كان يقدر هو أو نحن لها - وهو يذوب بوحا واعترافا ويقول:

أخي الحبيب

تقديري ومودتي . دارت الأرض دورتها ، ومرت عقود من الزمان أو الزمكان - الزمان المندغم في المكان - واستيقظت شهوة الذاكرة . أين منا تلك الأيام ، حين كنت أقطع المسافة بين المنصورة والقاهرة في طرفة عين ، لا حط جناحي على اريج زهر الليمون ، وأنا أرشف كوب الليمون في الطابق السادس حين أزورك في مكتبك بالإذاعة عام ١٩٦٨ ومابعـــــده ؟

وكيف السبيل إلى تهدئة النوستالجيا - مرض الحنين إلى الوطن - بعد أن غادرت مصر المحروسة - كنانة الله في الأرض - منذ عام ١٩٧٦ طوعا لا كرها ، ليكون المنفي هو سنبلتي الجديدة التي أحمي خضرتها بخضرة يتحي الأندلسي ؟

انفرط العمر كحب الرمان

واندلع فوح النارنج الكامن في قصائد الغربة ! وجمعت المنزلتين : نجوم الظهر ونجوم الليل ، وبها أهتدي وأضبط بصلة الناي المبحوح من فرط الشجن ، فيندفق الشعر الذي يذكرني بفيضان النيل - الذي كان - والغرين - بورديته الداكنة ورائحة الماء المشبع بالخصوبة والعذوبة :

أين النيل
وأين الفيضان
وأين البستان المتدفق ألوانا ؟
أين صبايا النيل ؟
وأين الناي ؟
وأين الأرغول ؟
وأين مواويل سبيل العاشق
أين سبيلي ؟
كان النيل كتابي
خرقة يتمي
وحديقة حلمي
قلمي الأخضر
وتميمة جسدي ، ودمي
كان النيل دليل !

ياه ! بعد ستة وعشرين عام ا من الغياب والاحتجاب والمنفي يصلني أخيرا صوت محمد يوسف ، قادما من الكويت حيث يعمل في مؤسسة التقدم العلمي مديرا

لتحرير مجلتها ، صوته الذي ما يزال يحتفظ بجوهره: نقائه وندواته ، وبخصائصه الأساسية:

انطلاقه وتدفقه واندفاعه ، الصوت الذي اتسع لشعره ، ولدواوينه التي تحمل قصائد ما قبل المنفي ومابعده . في مقدمتها ديوانه: قراءة صامتة في كراسة الدم (١٩٧٠) ، عزف منفرد أمام مدخل الحديقة (١٩٧٢) ، الحفر بالضوء علي أشجار حديقة شجر الدر (١٩٧٣) ، صلصلة (١٩٨١) ، تغريبة الفرفور . بيعة للضوء والماء (١٩٨٣) ، ذاكرة للرأس المقطوع (١٩٨٤) ، داليا (١٩٨٥) ، محاكمة زرقاء إلى ما مة (مسرحية شعرية١٩٨٥) ، شجرة الرؤيا (١٩٩٧) ، أناهيد (١٩٩٧) ، بالاضافة إلى أبحاثه وكتبه العلمية: التربية والمستقبل (تحديات القرن الحادي والعشرين) ، التربية الحديثة والخيال العلمي ، حواريات السيرك (كتابات من الخيال العلمي) . وكتاب: دليني علي السبيل (دليل المعلم المبدع) . أما أهم ترجماته فكتاب دليل الاختراع الدولي (بالاشتراك) ومراجعة مسرحية بعد السقوط لسلسلة المسرح العالمي في الكويت (١٩٩٨) .

لم يضع محمد يوسف في دروب الغربة أو المنفي ، ولم يضيع صوته الشعري ، ولا طاقته الإبداعية ، والفكرية ، حيويته طافرة ، وامتلاؤه بالحياة يغذوه ويحركه في اتجاهات متعددة . لكن إحساسه ــ علي البعد ــ بالعزلة ، والابتعاد عن بانوراما الحياة الشعرية والأدبية في مصر يؤرقه ويعذبه . لقد نشر معظم إبداعه الشعري في مصر ، وأقله في الكويت ، وترجمت مجموعة من أشعاره إلى الانجليزية والفرنسية والأسبانية ، وأتيح له أن يشارك في العديد من المهرجانات الأدبية والثقافية ، وواكبت الدراسات النقدية شعره فكتب عنه رجاء النقاش والدكاترة حسن فتح الباب وكمال نشأت ومصري حنورة ورمضان بسطاويسي مقالات وأبحاثا نقدية ، وصدر عن تجربته الشعرية كتاب العصفور والسنبلة لعلي عبد الفتاح . لكن هذا كله لم يخفف من إحساس محمد يوسف باحتجاب صوته وابتعاده عن مركز الدائرة ، كما أتيح لغيره من أبناء جيله الشعري . لعل أشد ما يؤله أن كل من يقابله يصارحه بافتقاده ! إنسانا جميلا أولا ومبدعا شعريا ثانيا ، وهو الذي كان يظن بأن ما أنجزه كفيل بأن يحقق له الحضور اللافت والوجود المؤثر .

عبر هذه السنوات الطويلة ، المتلئة بالمعاناة الوجودية والكونية ، نضج شعر محمد يوسف واكتمل ، محققا صوته المنفرد ، ولغته الشديدة الخصوصية . وبالرغم من غواية العصر الإلكتروني وثورة المعلوماتية التي شاغلت كما تشاغل أحمد فضل شبلول ، إلا أن كلا منهما في طريق شعري لا يماثل طريق صاحبه ولا يقترب منه . أحمد فضل شبلول يشغله هم فكري ومستقبلي ، ومحمد يوسف يشاغل الوردة الغائبة الخارجة علي النص الإلكتروني في أحدث دواوينه إغواءات الفراشة الإلكترونية .

لكن ديوان داليا الذي كتبت قصائده ــ كما يقول محمد يوسف ــ علي فترات متفاوتة تمتد ما بين أعوام١٩٨٤ ، ١٩٧٥ يظل أحب دواوينه وأقربها إلى قلبي . هل لا ن بكارة اللغة ونداوتها وعفويتها ــ المغموسة في ما ء الفن وكيميائه ــ كانت في أصفي حالاتها وأجمل تجلياتها ؟ أم لا ن زحف المنفي والصحراء لم يكن قد تمكن بعد من تجفيف بعض إلى نابيع وتعقيل كثير من الرؤي ــ أو عقلنتها ــ نسبة إلى العقل ــ وإجهاد الشاعر ــ الذي كان يعيش غيبوبته الشعرية كاملة ــ بالبحث عن العلل الأولي ووضوح الرؤية وتأمل الأسباب والنتائج ، مما أدي إلى تقدم التكنولوجيا والحاسوب والمعلوماتية وثقافة العصر علي حساب يوتوبيا الحلم وممالك الشعر ؟ أيا ما كان السبب والتفسير ، فإني أوثر أن تكون هذه الشحنة الشعرية ختاما لهذا المقال وهي من قصيدة في انتظار داليا :

دثريني بشمس حنانك
إني أكابد في غربتي رجفة تخلع القلب
آه ،
فإن الزمان البخيل يحاصرني بالصقيع
ــ هو الوطن المطمئن بعينيك
والنبع في شفتيك
فردي إلى الوطن ــ
إنه خبز أمي
وشاي الصباح
وصوت التلاميذ عند الظهيرة ،
والباعة الجائلون ينادون:
يابرتقال الجنائن
مدي إلى يديك ، خذيني
انفضي عن ضلوعي غبار الشجن !

* * *

أنت أغريتني بالرحيل
ــ المدائن غائبة والسفائن غائبة ،
والخرائط تخفي الخيول ، وتخفي الصهيل ــ
أنت أغريتني بالزمان الجميل
قلت لي:
ــ سوف نرحل في الفجر

ـ لا الفجر جاء ، ولا أنت جئت
الزمان يبشرني بالفراق ، يحنط بالملح صوتي ـ
المدائن ممسوخة اللون ، واللحن
والعين بالعين
والسن بالسن
والظل يدخل في الظل
والنصل يدخل في النصل
والقتل بالقتل
ـ كل المدائن ترطن في الكرنفال الهزيل
فأين الزمان الجميل ! ؟

جميلة المجري - شاعرة الهوى القيراوني

بقلم : فاروق شوشة

مدن كالنساء ونساء كالمدن ، هذا ما يقوله لنا ديوان النساء للشاعرة التونسية جميلة الماجري . ولأن المرأة المدينة صارت قاسما مشتركا في غوايات الشعراء ، وحلمهم الدائم بالرحيل إلى المجهول ، والتوق الذي لا يهدأ للمغامرة والاكتشاف ، فإن المدينة المرأة برزت بدورها معلنة عن جدل العلاقة الحميمة بين الوطن في صورته الأنثوية : الأم والحبيبة والزوجة والابنة والحفيدة ، والمرأة في مجلاها الروحي والوجودي : ما وي وسكنا وحدودا ومملكة للانتماء والاحتواء .

جميلة الماجري تنسج من القيروان أسطورتها ، أو لعلها تعيد تشكيل مدينتها في مرآتها الشاعرة علي صورة غير معهودة أو ما لوفة . فالقيروان التي أنشأها عقبة بن نافع عام ستمائة وسبعين ميلادية لتصبح مقرا للحكام العرب في غرب إفريقيا حتي مفتتح القرن التاسع أصبحت بعد ذلك العاصمة الأولي لدولة الفاطميين عام تسعمائة وتسعة ميلادية .

وتراكم علي مدار هذا التاريخ ـ قرابة قرن ونصف ـ تراث ديني وروحي ، وذخيرة من البطولات والحكايات والأخبار والوقائع ، يجسدها حتي إلى وم جامع القيروان المشهور الذي أسس في القرن التاسع ، ولايزال بمثابة الحجة الناصعة ، الشاهدة علي عظمة ذلك التاريخ البعيد وتغلغله في وجدان من يتمسكون بالحياة في القيروان ، لا يفارقونها ولا يبرحونها ويجدون فيها شميما من عطور ذلك التاريخ ويصطدمون في أزقتها الضيقة وبيوتها القديمة الطراز بأرواح هائمة لا تزال تبحث في المكان عن الزمان .

ولأن صورة القيروان مولدة ـ كما يقول الناقد والمفكر وأستاذ الفلسفة والجمال الدكتور كمال عمران في تقديمه لديوان جميلة الماجري ـ فكأنها طروادة لمحاربي الاغريق وكأنها القدس لعشاق العروبة ، هي القيروان وفيها كيان وكون وكينونة ـ لم تبق القيروان مدينة تاريخية شاهدا علي مجد فحسب ، بل إنها مدينة ولوذ استلهمت فيها جميلة الماجري القدرة السحرية علي الخلق في الماضي وفي الآتي علي حد السواء . هي معدن الطهارة من الأدران ومن الإثم الفكري ، وهي دنيا لا مرأة أنثي تجوس خلال التاريخ تبشيرا بالإبداع الذي لا ينضب . فالقاع الأسطوري إخبار عن إجراء به ألبست الشاعرة المألوف بدلة المطلق فجعلت القصائد توقا إلى حد غير محدود .

تقول جميلة الماجري عن الهوي القيرواني :

تمضي الفصول وهذا العشق مؤتلق
وكل فصل له من صيفها حرق
لا النوم بلغه في الحلم ما منعت
أو كان خلصه من وهمه الأرق
يجد من كل فصل في هواه هوي
وهي الفصول ، ولون العشق ، والقلق
وهي العناصر من أهواء خالقها
كالبدء خالصة تذكو وتنفتق
كل النساء بها ، لورام منعتقا
من أي أهوائها ينجو وينعتق
هذا الهوي القيرواني فوق ما تصف
من ألف عام تربيه وترتفق
وقد جعلت له الأشعار مفترشا
وقد جعلت به الأشعار تختفق
وقد رعيت له الأعذاق طالعة
حتي استوي ثم طاب العذق والورق
لما هممت به في الحلم تقطفه
فانساب منفلتا ، والشامتون بقوا
فالشعر منها إذا هلت طوالعه
فكل آنية للعطر تندلق
أما إذا طاب منها في الهوي غزل
فاح الخزامي ، وزهر الفل ، والحبق
قل ما سيبقي إذا العشاق ما ولهوا
أو إن همو لوشاح العشق ما امتشقوا
هذا الهوي القيرواني فوق ما عرفوا
من عهد بلقيس بالأكباد معتلق
فلا المعز بعز الملك أدركه
ولا أغالبة من قيده انعتقوا
فكيف تدركه والجمر مسلكه
والريح سكنه والوهم والفرق
والطامحون إلى مرضاتها حشدا
كم كابدوها وجدوا الليل واغتبقوا

لم يألفوا مدنا بالعشق عابقة
في كل خطو بها الأهواء تنبثق
أو أنهم جهلوا أن الهوي سفر
والقيروان له ملقي ومفترق
حتي ليرثي لمن بالعشق قد قتلوا
ومن هوي القيروانيات ما نشقوا
هن المواسم إن واتتك مقبلة
والجذب هن ، إذا أعرضن ، والحرق
هن النخيل إذا ما لاح مرتفعا
فيهن منه شموخ القد والعنق
والنار تقدح ـ لو تحتاج ـ جذوتها
من حرهن فيذكو النور والألق !

ليست جميلة الماجري وحدها في عشق القيروان وتمثل أسطورتها الحية ، والتجسد في صورة نخيلها الذي يطالعنا منه شموخ القد والعنق ، فهناك أيضا شاعر القيروان منصف الوهايبي الذي حمل في أعماقه أسطورتها العربية الإفريقية ، تتكامل فيها الأجناس والأعراق والأصول واللغات واللهجات ، وتتجسد دوما في قصائده عن تمبكتو ملتقي القوافل والهجرات والتقاليد والعطور . كل من الشاعرين يتغني بالقيروان علي طريقته ، ويرسم لوجهها الأسطوري ، وأقنعته المتراكمة ، لوحاته التي تنطق بالعشق والحميمية والذوبان في المكان ـ التاريخ ، والتاريخ الذي تجمد فكان المكان . لكن جميلة لا تبحر في فضاء الأسطورة كما يفعل الوهايبي ، ولا تجاوز حدود الخيط الذي يربطها بتخوم هذا العالم الشعري خشية أن ينقطع ، أما منصف فيقطعه أحيانا ولا يبالي ، شأنه شأن المثقلين بالهم الكوني ، وفجيعة الوجود الإنساني ، وارتطام الثقافات والحضارات علي الشطآن التونسية منذ أن كانت تونس تعرف بإفريقية في الأدبيات العربية القديمة وامتداد هذا الارتطام الذي ما يزال يعاني مخاض الإفصاح عن الهوية حتي إلى وم
.

إن العناوين الدالة لقصائد جميلة الماجري ـ في ديوانها الذي يحمل بدوره عنوانا دالا هو ديوان النساء ـ هذه العناوين التي يسطع من بينها : مدن النساء ، في حمام النساء ، كهرمانة ، أنثي المدينة ، الجازية تحل بالسباسب ، أنثي الله ، سيدة البحار ، سوق النساء ، الهوي القيرواني ، قلب امرأة ، قاموس الرجال ـ تجعلنا علي يقين من أن هذا الديوان صرخة تمرد هائلة علي وضع الحريم وعلي الرضا بالمفروض . ومن هنا يصبح تردد أسماء كهرمانة وعليسة (مؤسسة قرطاج) وهند وليلي وسكينة بنت الحسين

في قصائدها وفي ثنايا إبداعها الشعري ، تجسيدا لا سطورة المرأة التي أنجزتها كما يقول الدكتور كمال عمران مضيفة إلى ها من القصص الشعبية والحكايات المعتقة دعائم جاءت في هذا الديوان ومضات وإلمامات ، بل قل إنها إشارات لا عبارات .

بهذا الموقف الرافض للحريم وضعا وتاريخيا ومواصفات وميراثا ، تنفرد جميلة الماجري بين شاعرات هذا الزمان فديوان النساء استدعاء لا استبقاء ، واستنفاز لا اعتبار . وهذا ما جعل الشعر فيه كسرا للحجب ، يفضح فينضح ، ويرسم لوحات من استشهاد المرأة ، ومن صيغ استلابها ، وفي ذلك صرخة الرافض وتمرد الخالق .

تقول جميلة :

كبير عليك الهوي
وأكبر منك القصيدة
وأبعد عنك التماس النجوم
من الأمنيات البعيدة
فجل النساء شبيهات بعض
وواحدة بين عصر وعصر تجيء
كلؤلؤة في الكنوز
فريدة !

لايفيد كثيرا الانشغال بمحض مقارنات ـ تدعي صفة التذاكي ـ بين شعر جميلة الماجري وشعر غيرها من شاعرات العصر الكبار بدءا بنازك الملائكة ومرورا بفدوي طوقان وسلمي الخضراء وملك عبد العزيز وجليلة رضا وغيرهن . الماء مختلف والينابيع مختلفة . ووضع شعرها في مرايا أشعارهن لا يفيدها ولا يفيدهن . إنها شاعرة الرمل والنخيل والحجر شاعرة البوح بما لم يتجن به جميعا في قصائدهن بالرغم من ساحات البوح الشاسعة في دواوينهن . وهي شاعرة الرفض والتمرد ـ في شمم وكبرياء ـ لا نها تعرف قيمة ما تمتلكه من الوعي والخصوصية والمغايرة . لكنها لم تنزلق إلى المباشرة أو الخطابية ، ولم تغادر تخوم لغتها الشعرية المسنونة ولا كيانها الأنثوي المنكسر الشامخ ، والمستشهد المنتـــــــــــــــــــــــــــصر في آن .

تقول في قصيدتها نخلة التي تهديها إلى سكينة بنت الحسين .

أضيئي لنا شمعتين
وأرخي الخباء قليلا
سأتيك بعد التهجد نبكي
بكاء طويلا
ولا توقدي النار كي أستدل

فإني إذا ما ادلهم سبيل
أضاء هواي إلى كم سبيلا
ولا توقدي النار قصد التجلي
ففيك من النور ما لو دري التائهون
اهتدوا ، وكنت لهم في الضلال الدليلا !

* * * *

فها نحن نظمأ ما بين ما ء وماء
ولانحن كنا بدفق الحنين ارتوينا
ولا نحن كنا ابتردنا بفيض البكاء
وفي الرمل نطلع كالنخلتين
وفي الرمل كالنخلتين نطول
وبيني وبينك قفر يباب
ولكن إذا اشتد بي الوجد ألقاك
بين الوريدين مني
فأجمع بين الشتيتين علي
ألوذ بباقي دمي ، أو لعلي
أفيء إلى بعض ظلي !

ومـاتزال النخلـة الجميلـة العـذق والثمـر ، الـشامخة القـد والعنـق ، تمتـد جـذورها عميقة في رمل القيروان ، وتغمر بعطر عطائها مساحة حية من فصول هذا الزمان .

شبيه زماننا

بقلم فاروق شوشة

عندما تستدير الحياة حواليك
حاول قراءة كل العيون
التي تتطلع
ـ وهي تراجع تاريخك المنزوي
ثم تاريخك المتحقق ـ
تقفز بين السطور ،
وبين المرائي
لتبصر وجهك
أفعي مسلحة بالنعومة

واغلة في الغواية
جاهزة للوثوب
مدربة لا نقضاض الخيانة
خنق فريستها دون رحمة !
استمع . . .
تلك نفسك
وهي تساورك الآن:
انك عال ، مهيب
سماؤك ليست تنال
بعيد عن الراصدين خطاك
الذين يرونك رغم اكتمال
الاناقة والاقنعة
عاريا !
بعيد عن الجامعين وثائق أيامك

الفاجعة !
يظهرون لك الود حينا
ولكنهم يضمرون كراهية لا تطاق

ويخشون بأسك
أو لعلهم مثل كل البشر
يأملون انهمار عطاياك
فأذن لهم ،
أنت تأذن للتابعين
وللمادحين

وللائذين ببابك
والمسمعيك كلاما جميلا يقال
يستر غريزتك الجامحة
ونقائص سوءاتك الفادحة
لو نظرت قليلا ليوم قريب سيأتي
لأدركت أن الخيوط التي شاغلتك
بأحلام مجدك
ليست تدوم
وأنك يوما ستصبح نجما
وشيك الأفول
فقل لي بربك
ساعتها
من يجازف باسمك ؟
أو يذكرك ؟

* * *

وحدك الآن . . .
تعلم أني أعنيك أنت
وليس سوالك
وحدك الآن
تفهم قولي
وتدرك أن الزمان الذي
قد تجسد فيك
بخسته ،
ووضاعة أيامه

صار ، يا للهوان ،
ويا للغرابة

ليس يطيق احتواءك
منسلخا عن وجودك
مبتعدا عن دروبك
منفصلا عن هواء
تلوثه إن تنفست فيه
وأطلقت سيل اكاذيبك المشتهاة
لمن يستعيدون نطقك
أو يستزيدون وحيك
أو يحتمون بظلك
كل صباح
وكل مساء

ويقعون ــ مثل الكلاب ــ علي قدميك
لعلك تلقي لهم بالفتات
لكي يأكلوا
ولكي يشكروا
ولكي يعلنوا
أن مثلك أندر من بيضة الديك
مالك من مشبه أو مثال !
فغص في القماءة حتي النهاية
حتي انقشاع الغمامة عن أعين لا تراك
ــ كما ينبغي أن تراك ــ

وليست تصدق أنك غير الذي يعرفون
ولا أن هذا الذي تدعي
وتطنطن في كل يوم
وفي كل حال
تلة من رمال !
فابتعد . . .

ابتعد . . .
لست ممن يشار إلى هم
ولا أنت ممن يقال عليهم:
رجال !

* * *

يا شبيه الزمان الذي جاءنا بك
في غفلة من عيون الأمان
ومن شرف العرض والكبرياء
أو تدرك كم أنت تشبهه ؟
كاذب مثله !
وخسيس ، وملتبس ، ومراوغ
كم يزف لنا كل يوم ما ثره
وهو يوغل فينا اختراقا
وذبحا وسفكا
زمان يضيع كل الحقوق
ويخسف وجه الشروق
ويخنق ومض البروق
ويبدع في لغة العهر

حتي يخيل للناس أن القتيل
هو القاتل !
ويخيل للناس أن البرئ هو الفاعل
ويخيل للناس أن الضحايا
السبايا
همو المستحقون للنفي والطرد ،
والذبح والموت ،
في كل آن
شبيهك هذا الزمان
أنتما أعميان !
أنتما عابران !
وغدا
حين ينقشع الزمن المتحكم فينا

ـ فقانونه ضد هذي الحياة
ودستوره موطئ للطغاة

وراياته بين أيدي العصاة ـ
غدا ، تتناثر أو تتبدد مثل سراب
وتبعد مثل سحاب
فتصفو السماء
وتطهر أرض سترحل عنها
تدنسها الآن
ـ حين تجول وحين تصول ـ
لأنك في قلب زهوك
في قاع زيفك
تنقصك الحكمة الصائبة
ينقصك الرشد بعد الغواية
هل تدرك الآن
ما هو أبقي
وأتقي

وأنقي
وتفهم معني الحضور
ومعني الغياب ؟

* * *
اطمئن . . .
حين يسألني الناس عنك
لن أبو ح بسرك قط
لن اقول لهم من تكون ،
ولا ما اأسم هذا الذي قد عنيت
واسترح . . .
فالذين عنيتهمو غير واحد
هم كثير ،
ولكنك وحدك قدوتهم

والمثال الفريد لكل الذين يرومون دربك
غير أني سأرسم في القلب
أبشع ما فيك: وهو ابتسامك
حين يطوف في صفرة الوجه

ملتفعا بملاسة أفعي
ومنعكسا فوق ذاتك
حين يصبح وجهك في لون داخلك المستكن
وداخلك المستكن يفوح
فيصبح بعض صفاتك
تنطبق الصفحتان
علي واحد لا شبيه له أو مثيل
لكنه الآن
عنوان هذا الزمان ! !

في رحيل إبراهيم العريض

بقلم : فاروق شوشة

من الغريب - والمحزن أيضا - ألا تلتفت الصحافة الأدبية في مصر إلى رحيل إبراهيم العريض في التاسع والعشرين من شهر ما يو الماضي . وكأننا بهذا الموقف نمارس لونا من القطيعة المعرفية مع الشخصية الأدبية والفكرية والشعرية التي كان لها تأثيرها الكبير في منطقة البحرين والخليج العربي من خلال إبداعها المستمر وكتاباتها المتنوعة - نقدا ودراسة وترجمة - منذ ثلاثينيات القرن الماضي وحتي مفتتح هذا القرن .

عاش العريض حياة طويلة حافلة ، منذ مولده في مدينة بومباي بالهند عام ١٩٠٨ وحتي رحيله في عام ٢٠٠٢ وكان لهذه النشأة المبكرة في الهند - التي ظل فيها حتي عام ١٩٢٧ - أثرها في إجادته للأرديه والإنجليزية وإكماله لدراسته الثانوية فيها ، قبل عودته إلى البحرين واستقراره فيها منذ ذلك التاريخ ، ليبدأ وهو في التاسعة عشرة من العمر تعلم العربية - لغة أبائه وأجداده - قراءة وكتابة ، وهي اللغة التي لم يكن يعرف منها غير كلمات قليلة متناثرة . لكنه وهو يري أباه المنشغل بتجارة اللؤلؤ شأنه شأن كثيرين من التجار في ذلك الوقت - يؤثر أن يستجيب لهواتف قومية في نفسه ، مؤثرا الاهتمام بتعلم هذه اللغة ، بعد أن أصبح الشعر مدخله إلى ها ، والتوقف مع النماذج العالية فيه - دراسة وتذوقا وتحليلا - بابه إلى معرفة التراث ، وقراءة الفكر العربي ، قبل أن يفصح عن قصائده الأولي التي ضمنها ديوانه الأول الذكري الذي أصدره عام ١٩٣١ وهو في الثالثة والعشرين من العمر ، بادئا رحلته مع الإبداع الشعري ، ورحلته الحياتية معلما للغة الإنجليزية بدائرة المعارف فمديرا لا حدي المدارس ، فرئيسا لقسم الترجمة بشركة امتيازات النفط المحدودة ، فمدرسا - مرة أخري - في ثانوية البحرين ، فإذاعيا في إذاعة البحرين - التي أنشئت عام ١٩٤٠ - فمعارا من قبل شركة النفط إلى دلهي بين عام ي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ ، فرئيسا منتخبا للمجلس التأسيسي لدولة البحرين عام ١٩٧٣ ، فسفيرا متجولا في ديوان الخارجية البحرينية منذ عام ١٩٧٥ وحتي اعتزاله .

وعلي مدي هذه الحياة الحافلة : عمليا وأدبيا ، تتابعت كتابات إبراهيم العريض عبر الصحف والمجلات المحلية والعربية ، واخترقت كتاباته وكتبه المنشورة حدود البحرين والخليج ، متجاوزة هذا المدي الضيق إلى رحابة الوطن العربي كله ، وإلي المهجر الأمريكي - في شماله وجنوبه - وكان طريفا أن يدرك العريض حجم معرفة الناس به خارج البحرين بأكثر من معرفتهم له وتقديرهم لحقيقة دوره الرائد والتنويري بين أهله وعشيرته في البحرين تنقل الباحثة البحرينية مني غزال في رسالتها للماجستير عنه قوله في مجلة كتابات البحرينية :

إنني خارج دائرة الشعور بالمحلية ، فلقد عرفني العالم قبل أن يعرفني أحد في البحرين ، ولن يستطيع أحد أن يتصور مدي المشقة التي عانيناها لفتح منافذ للنشر علي العالم العربي .

ولقد عرفنا العريض - في مصر - من خلال كتاباته في العديد من مجلاتها الأدبية والثقافية والفكرية ، وبخاصة مجلة الرسالة التي أصدرها الأديب الكبير أحمد حسن الزيات في مستهل عام ١٩٣٣ . وأصبح العريض يمثل البحرين والخليج في الذاكرة الأدبية العربية ، كما مثل الزهاوي والرصافي والجواهري شاعرية العراق ، وعمر أبو ريشة وبدوي الجبل شاعرية سوريا ، والأخطل الصغير بشارة الخوري وأمين نخلة وسعيد عقل شاعرية لبنان وأبو القاسم الشابي شاعرية تونس والتيجاني يوسف بشير شاعرية السودان والبهلاني والخليلي شاعرية عمان وهكذا واستمر إبراهيم العريض يمثل هذه الصورة الأدبية والفكرية من خلال دواوينه : الذكري (١٩٣١) ، وامعتصماه (١٩٣٢) ، عرائس (١٩٤٦) ، قبلتان (١٩٤٨) أرض الشهداء (١٩٥١) ، شموع (١٩٥٦) ، ديوان العريض (الأعمال الكاملة١٩٧٩) ، مذكرات شاعر (١٩٨٣) . بالإضافة إلى كتاباته الأدبية والنقدية : الأساليب الشعرية (١٩٥٠) ، الشعر والفنون الجميلة (١٩٥٢) ، الشعر وقضيته في الأدب الحديث (١٩٥٥) ، من الشعر الحديث :

مختارات (١٩٥٨) ، جولة في الشعر العربي المعاصر (١٩٦٢) ، فن المتنبي بعد ألف عام (١٩٦٢) رباعيات الخيام: ترجمة (١٩٦٦) .

في كتابه مختارات من الشعر العربي المعاصر وكلام في الشعر يشير الباحث والمحقق الأدبي الكبير وديع فلسطين إلى الجهد الخارق الذي بذله إبراهيم العريض في تعلم اللغة العربية وقراءة كتب التراث ودواوين الشعر حتي ملك ناصية البيان العربي ، كما يشير إلى إتقانه فن الرسم بجانب اهتماماته الأدبية ، ولا يجد غير العريض ممثلا للإبداع الشعري في البحرين - بين خمسة وثلاثين شاعرا اختارهم وديع فلسطين ممثلين لكل أقطار الوطن العريض - متوقفا في هذه المختارات عند قصيدته متي التي يقول فيها :

تعالي إلى عهد وثيق من الهوي
نعيش عليه في الحياة كلانا
فلا يزدهي قلبي بشيء مؤثيل
إذا لم يصادف في فؤادك شانا
ونفرغ في كأس الأماني حبنا
فتسعي به ما بيننا شفتانا
ولا نلتقي إلا كما لفت الصبا

فروعا تفيأنا بهمة أمانا
ونختال في روض المحبة وحدنا
فلا يتغني طيرها لسوانا
وإن تعهدي يوما فؤادك خافقا
شعرت لقلبي مثله خفقانا
كأن الذي ينساب ملء كليهما
صبابة ما ساقي الغرام سقانا
وآنا نبكي كالطيور وجودنا
بلحن ، وكالأزهار نضحك آنا
فنسعد بعضا باشتراك سرورنا
ونسعد بعضا باشتراك أسانا
كذلك نحيا بالسواء ، وها فمي
ضمانا لعهد ، لو أردت لكانا
فعندئذ ما لت إلى ببشرها
وملت ، وأنسينا الوجود كلانا
فأدنيت ثغري باشتياق لثغرها
فما افتر حتي قبلته حنانا
وقالت: إذن هذا هو الحب ، قلت بل
هو الراح ، قالت: فلنبل صدانا

ويعلق وديع فلسطين علي قصيدة متي للعريض بقوله:

هي أقصوصة حب جرت أحداثها بين الشاعر ومتي ، وإن تكن الأحداث مجرد محاضرة بليغة في أهمية تعاطي كؤوس الحب وفي سياق كهذا السياق ، لا بد للغة الشاعر أن تكون شاعرية الإقناع ، عذبة الايقاع التماسا لبلوغ غايات الشاعر في تقبيل الثغر وتطويق الخصر وتلقين صاحبته فنون الحب ، وقد نجح الشاعر في خلق جو من جمال الطبيعة في هذه الأقصوصة الشعرية ، فتحدث عن الأزهار والخمائل والطيور والرياحين ، حتي لا ن له قلبها ومالت إلى ه انصياعا وراء عباراته الخلابة .

كما ينسج الناقد والباحث البحريني الدكتور إبراهيم غلوم في دراسته عن الشعر الحديث في البحرين: التيار الذي لا ينحني مكانا بارزا لا براهيم العريض في إطار جيله من الرواد وهو يقول: لقد دفع نضج الشعر في مرحلته الأولي ــ أواخر القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين ــ إلى طلوع شخصية مميزة للشعر الحديث في البحرين جعلته يتحول من مجرد حالة منعزلة في الطرف الشرقي من الوطن العربي إلى بريق صاعد

يـذخر مزيـدا مـن التحـولات الـتي سـتثير دهـشة المتتبـع للخطـاب الـشعري في هـذه المنطقـة . ولايثبـت ذلـك إلا أن يـذكر اسـم الـشاعر إبـراهيم العـريض ثـم يـذكر عبـد الـرحمن المعـاودة وأحمـد محمـد الخليفـة و عبـد الله الزائـد ورضـي الموسـوي . وهـم الـذين سيـشكلون أول مـا حدسـت بـه تجربـة الـشاعر الـوائلي: محمـد بـن عيـسي الخليفـة . تجربـة عميقـة ومـستمرة ، لم تتراجـع هـذه اللحظـة ، وستتحول تلـك الأصـداء مـن مجـرد خـط مـن المـاء إلى تيـار يحتفـل بالحيـاة ويعلـن ارتهـان الانـسان بالطبيعـة والجمـال والخيـال والـرؤي ومـا وراء الواقـع سـتكون القـصيدة ـــ خاصـة عنـد العـريض وأحمـد بـن محمـد الخليفـة ـــ حكايـة متـصلة لكيفيـة الوفـاء للحلم وكيفية مقاومة الحياة بالحياة .

ثـم يقـول إبـراهيم غلـوم: ويمكـن الحـديث طـويلا عـن تـأثيرات عربيـة مـن مدرسـة أبـو لو ومن شـعراء كميخائيـل نعيمـة وإيليـا أبـي مـا ضـي في تجربـة العـريض وغـيره ، لكـن ذلـك لا ينبغـي أن يعمـي النظـر عـن ذلـك الخـيط الـدقيق الـذي كرسـه الـوائلي في روح التجربـة الـشعرية بعـد أن ورثهـا العـريض وأمثالـه منـذ الثلاثينيـات وحـتي فـترة متـأخرة مـن انتهـاء المرحلـة الرومانـسية بزخمهـا الغنـائي وتمردهـا الانـساني وقلقهـا الوجـودي . ولعـل النـضج الحقيقـي الـذي كرسـته التجربـة الرومانـسية هوأنهـا حملـت أمـشاج علاقتهـا بـالعمق الخـارجي ـــ الرومانـسية العربيـة وتـأثير كولوريـدج وغـيره مـن شـعراء الرومانـسية الانجليزيـة ـــ كمـا أنهـا اختزنـت صـلتها بـالوهج الغنـائي الأول الـذي أوقدتـه تجربـة الـوائلي منـذ بـدايات القـرن . ولعـل ذلـك قـد أودع في تجربـة العـريض شـعورا خاصـا بالاكتمـال والمغـايرة وجعلـه يـسبغ علـي كائناته المولهة بالحب والجمال فيضا تتمني أن ترتشف منه كل القلوب كما يقول:

كم آية لله في خلقه
مظهرها الحسن
يا من له قلب ، ألا فاسقه
من كأسنا نحن !

صـورة إبـراهيم العـريض في كتابـات النقـاد والبـاحثين والدارسـين أساسـها أنـه يمثـل الأبـوة الرومانـسية المهيمنـة ، وأن تجربتـه الـشعرية مقلـة بالانزيـاح نحـو مخيلـة نموذجيـة ترتقـي بوظيفـة الـشعر وترتفـع بـه عـن مجـرد الانـشغال بالحيـاة الاجتماعيـة وتفاصـيل الواقـع وتستقر بـه في كـون أشمـل وأجمـل وأكثـر مثاليـة ، مهمـا يـدفع الـشاعر لـذلك مـن ثمـن البقـاء في منظومـة المجتمـع والثقافـة: منفيـا ، معارضـا ، معـتقلا ، مغتربـا ، معـذبا ، مقهـورا ، مهمشا ، إلى آخره .

هـذه الـصورة واضـحة في دراسـة غلـوم ـــ كمـا تجـسدها كلماتـه الـسابقة ، وفي كتابات نقاد كبـار آخـرين مـن أمثـال رجـاء النقـاش والـدكتور محمـد جـابر الأنـصاري الـذي يـري

في صمت العريض الطويل ــ خلال الزمن الأخير ــ إفصاحا عن المسكوت عنه وتعبيرا عن الرؤية والموقف ــ ومشاركة بهذا الصمت المعبر في الوخز والإدانة .

يقول في قصيدته بلبل في قفص:

بنيتي: إن كنت لم تخرجي
إلي ضواحينا
فاتك في حاضرنا المبهج
أحوال ما ضينا
أبصرتها خودا علي فقرها
كأنها الريحان في الآنية
ترفع ما تجني علي رأسها
حاسرة ــ رأد الضحي حافية
وسط نثار القمح تمشي به
في حقلها ضاحكة لا هية
فلو بدا للحسن في غيرها
ما اختارها إلا علي ما هية
قريرة العين بها تجتلي
من فرشه ، محتضنا واديه
والماء يجري تحتها سلسلا
ينفض برديه ، من الساقية
كم أنشد الطير علي بابها
بكل ما تشعره هانية
كأنما ينبع من قلبها
ما أنطق الله به شاديه
أغنية في الحب معسولة
لا الوزن يزريها ولا القافية
غانية ، قد زانها أنها
تنعم في الأسمال بالعافية

ولقد رحل إبراهيم العريض بعد موافقته بأيام قليلة علي تكريم مؤسسة البابطين له باعتباره الشاعر الكبير المتميز في دورتها التي ستقام ــ بالبحرين ــ في مستهل شهر أكتوبر القادم ، كما كرمت المؤسسة من قبل نازك الملائكة وفدوي طوقان وسليمان العيسي وسميح القاسم وغيرهم من كبار الشعراء ، وهي الدورة التي ستدور أبحاثها من حول

الشاعرين ابن مقرب العيوني ـــ شاعر البحرين والخليج في تراثنا العربي ـــ وإبراهيم طوقان شاعر الثورة الفلسطينية في ثلاثينيات القرن الماضي ، وهو تكريم للعريض من شأنه أن يعيد لذاكرة الأجيال الجديدة الدور الرائد والتأسيسي لواحد من أعلام العروبة ومبدعيها الكبار ، تجاوز تأثيره دائرة البحرين والخليج ، كما أن رحيله عن أربعة وتسعين عام ا من شأنه أنه يفتح الباب واسعا أمام قراءة جديدة لشعره ونقده وفكره ، تجدد وعينا بحجم الدور وعروبة المنطلق والرسالة .

على هامش ملتقى " العيوني " في البحرين

إبراهيم طوقان

بقلم : فاروق شوشة

وإبراهيم طوقان - لمن لا يعرفه - هو الشقيق الأكبر للشاعرة الفلسطينية الكبيرة فدوي طوقان ، وأستاذها في الحياة والشعر . وقد اختارته مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للابداع الشعري ليكون الشاعر الذي يحتفي بها احتفاء خاصا في دورتها الثامنة التي حملت اسم شاعر البحرين ابن المقرب العيوني وانعقدت في المنامة عاصمة البحرين بين الأول والثالث من أكتوبر الحالي . وهو تقليد بدأته المؤسسة في دورتها السابعة التي أقيمت في الجزائر عام ٢٠٠٠ والتي حملت اسم أبي فراس الحمداني ، حين احتفت أيضا احتفاء خاصا بالشاعر الأمير عبد القادر الجزائري .

وبقدر ما كان العيوني (١١٧٦ -١٢٣٢ م) مواكبا لقيام الدولة العيونية وشاهدا علي ذروة أمجادها ثم علي صراعاتها وتشرذمها - حين عاصر هجمات المغول علي عاصمة الدولة العباسية واجتياحهم لها - فإن إبراهيم طوقان (١٩٠٥ -١٩٤١) تفتحت عيناه علي أهوال الحرب العالمية الأولي وتفكك الامبراطورية العثمانية - التي كانت فلسطين جزءا منها - ثم الاستعمار المسمي بالانتداب البريطاني - الذي تمت في ظل رعايته الهجرة الصهيونية وتسهيل استيلائها التدريجي علي فلسطين ، كما كان طوقان شاهدا علي تناحر الفلسطينيين وفرقتهم وتفككهم وتلاعب السماسرة وباعة الأرض بهم ، فتفجرت شاعريته حتي أصبح يسمي شاعر فلسطين كما تفجرت شاعرية العيوني الذي سمي شاعر البحرين والأحساء والجزيرة العربية هذا ما يقوله عبد العزيز السريع الأمين العام لمؤسسة البابطين في مقدمته المركزة لا بحاث الندوة التي تناولت بالدراسة شاعري الدورة: العيوني وطوقان . وهي سطور تكشف عن توجه تراثي وعصري معا ، وعن خيط دقيق مشترك يجمع بين شاعرين ، كان كل منهما في زمانه ، وفي قومه ، داعيا من دعاة إلى قظة والتنبه ، ومحذرا من هجمة القوي الأجنبية الطامعة ، وكاشفا لحجم الخطر الذي يتهدد المنطقة العربية جميعها ، لا عنا التفرق والتشرذم الذي لا بد أن يؤدي إلى الضياع والهزيمة . لقد التقي الشاعران بالرغم من بعد المسافة بينهما في الزمان والمكان ، وبقي شعرهما ، من بعدهما ، حيا ، متوهج الصوت ، حاملا معني بقائه وعمق نفاذه وتأثيره .

لكن حظ إبراهيم طوقان لم يكن كحظ العيوني في هذه الندوة ، بعد أن تغيب عنها - معتذرا - الدكتور فيصل دراج صاحب البحث الرئيسي عن طوقان ، وقريء

ملخص بحثه نيابة عنه ، مما أدي إلى انعدام التحريض علي المداخلات والمناقشات التي كانت موفورة ومسنونة بالنسبة للعيوني . لكن المؤسسة عوضتنا عن كلام النقاد والباحثين بالأعمال الشعرية الكاملة لا براهيم طوقان ، من إعداد الباحث ما جد الحكواتي وترتيبه ، وقدم لها عبد العزيز سعود البابطين برؤية شعرية يتساءل فيها عما بقي لنا من إبراهيم طوقان وشعره ، ملخصا ما ساة الشاعر وقضيته في سطور كاشفة يقول فيها : رافق إبراهيم طوقان المأساة الفلسطينية منذ كانت مشروعا إلى أن أصبحت أزمة ، وتوفي وهي توشك أن تتحول إلى كارثة ، وفي خضم هذه العاصفة التي تهدد الوطن والمواطن كتب شعره علي ضوء الدم الفلسطيني ، ورحل إبراهيم وبقي لنا شعره والكارثة . وكما حاصرته الأزمة وتجاوزت جيله ، فإن الكارثة ما تزال تحاصرنا وتكاد تتجاوزنا ، فهل نجد في شعر إبراهيم ـ وهو وصيته المتبقية لنا ـ ما يضيء لنا عتمة الأزمة ! .

الحديث عن إبراهيم طوقان يعيدني إلى سنوات الطلب في الجامعة ، منتصف الخمسينيات ـ حين كان زملاؤنا الطلبة الأردنيون والفلسطينيون يرددون علي مسامعنا قصائد إبراهيم طوقان ومعابثاته الشعرية . كنت أسمع بالشاعر وشعره لا ول مرة ، بعد أن سبق إلى نا شعر شقيقته الصغري فدوي طوقان التي أصدرت ديوانها الأول وحدي مع الأيام في القاهرة عام ١٩٤٩ ، وأشرف علي صدوره الناقد الكبير الراحل أنور المعداوي وكان اللافت أن فدوي أهدت ديوانها الأول إلى روح شقيقها إبراهيم . . لم يكن ما يردده زملاؤنا خاصة زميلنا الأردني الذي أصبح واحدا من كبار أدباء الأردن وشعرائه ورجال التربية فيه : خالد الساكت ـ شعرا وطنيا ، وإنما كان معظمه غزليات مكشوفة : يتداولون حفظها لا نها غير مطبوعة أو منشورة ، شبيهة كل الشبه بشعر عبد الحميد الديب الذي لم يكن طبعه أو نشره ، وظل حيا علي ألسنة أصدقائه وزملائه الذين انفرط عقدهم واحدا بعد الآخر ـ بالرحيل ـ ولم يبق منه محفوظا إلا أقله ، بالرغم من أنه الأكثر دلالة وحجة علي شاعريته ، تماما كما أن شعر إبراهيم طوقان المكشوف هو الأكثر شهادة علي حجم موهبته الشعرية ، خاصة في قصيدته التائية المطولة الذائعة الصيت ياشهر أيار ياشهر الكرامات والتي تشبه في شهرتها وبنائها الفني قصيدة عبد الحميد الديب الروائية كأني حائط كتبوا عليه .

وظلت هذه الصورة عن إبراهيم طوقان وشعره ، هي التي أحتفظ بها له في ذاكرتي ، حتي التقيت بشعره الجاد في الطبعات المتاحة من ديوانه ، كان أولاها الطبعة التي أشرف عليها شقيقه أحمد طوقان وصدرت عام ١٩٥٥ في لبنان ، تلتها طبعة بيروتية ثانية ـ أضيفت إلى ها قصائد لم تنشر في الطبعة الأولي ـ صدرت عام ١٩٧٥ ثم جاءت طبعة دار العودة بعد ذلك ، في إطار اهتمامها بنشر الأعمال الكاملة للشعراء الأعلام ، لكنها لم تضف جديدا إلى الطبعتين السابقتين .

هـانحن أولاء مـع طبعـة البـابطين للأعمـال الـشعرية الكاملـة لا بـراهيم طوقـان ، ضـمت كـل مـا أمكـن جمعـه مـن قـصائد أو مقطوعـات أو أبيـات للـشاعر الكـبير ، باسـتثناء شعره المكـشوف ـ في غزلياتـه ومعابثاتـه ـ ولا أظـن إلا أنـه سـيتبدد ويفـني بـزوال حفظتـه واحـدا بعد الآخـر . وهـو أمـر يـثير الأسـي في حالـة شـاعرين كـبيرين ك عبـد الحميـد الـديب وإبـراهيم طوقـان . والـسؤال هـو: هـل يمكـن جمـع مثـل هـذا الـشعر ـ الـذي تحظـره قـوانين النـشر وأعـراف العامـة ـ ويظـل مـدونا بعيـدا عـن النـشر والتـداول ، لكنـه يكـون متاحـا للبـاحثين والدارسـين ، الـذين لا ينبغـي أن يفـوتهم شـيء مـن آثـار الـشاعر ، خاصـة إذا كـان هـذا الجزء المحظور له قيمته ودلالته الفنية والاجتماعية ؟

مـن مكاسـب هـذه الطبعـة ـ طبعـة البـابطين ـ مقدمـة ضـافية عـن إبـراهيم طوقـان وشـعره ، بقلـم شـقيقته الـشاعرة الكـبيرة فـدوي طوقـان تـستغرق سـبعا وعـشرين صـفحة مـن القطـع الكـبير . المقدمـة معزوفـة شـعرية في حـب إبـراهيم ، وأمومـة حانيـة تنـضح مـا ء محبتهـا وزهوهـا بالـشاعر الـذي فتكـت بـه العلـة وهـو في الـسادسة والـثلاثين مـن العمـر ، بعـد أن كـان ـ وهـو في العـشرينيات ـ حـديث المجـالس الأدبيـة في بـيروت والقـدس ونـابلس وكـل فلسطين ، يشار إلى ه بالبنان باعتباره شاعر فلسطين الموعود .

تـستهل فـدوي معزوفتهـا الجميلـة بقولهـا: لا أحـب إلى مـن سـاعة آخـذ فيهـا مجلـسي مـن أمـي ، فتحـدثني عـن طفولـة شـقيقي إبـراهيم ـ رحمـه الله ـ وياله شـعورا حزينـا ، يتـسرب في شـعاب قلـبي ، حـين تفتـتح حـديثها عـن إبـراهيم بهـذه الديباجـة الـتي تفعـم نفـسي بالرحمـة لهـا ، والحـسرة عليـه: لقـد بلـوت في إبـراهيم الحلـو والمـر ، ولقيـت فيـه مـن الحـزن وطارقـات الهمـوم ، أضـعاف مـا لقيـت فيـه مـن الـسعادة والهنـاء وتترقـرق في عـيني كـل منـا دمعـة ، وتعـتلج في صـدر كـل منـا لوعـة ، ثـم تـشرع هـي ، في حـديثها عـن طفولـة إبراهيم وقد أقبلت عليها بحواسي وقلبي وروحي جميعا .

وإنـني لا مثـل إبـراهيم في خـاطري ـ كمـا يـصورونه لـي ـ واقفـا أمـام جـده يرتجـل مـا ينقدح عنـه فكـره الـصغير يومئـذ ، مـن قـول يرسـله في وصـف حـادث حـدث في البيـت ، فيـه نكتة أو طرافة . وذلـك في عبـارات تكـاد تكـون موزونـة مقفـاة ، يقلـد فيهـا مـا كـان يـستظهره في المدرسـة مـن شـعر ، أو مـا يعيـه قلبـه مـن قـصص عـنترة وأبـي زيـد الهلالـي وسـيف بـن ذي يـزن تلـك الـتي كـثيرا مـا أصـغي إلى أمـه وهـي تقرؤهـا لجـده لا بيـه ، في أمـسيات الـصيف الجميلة ، أو في ليالي الشتاء الطويلة .

وعنـدما تنتقـل فـدوي إلى الحـديث عـن شـعر شـقيقها إبـراهيم ، فإنهـا تقـول: إذا قـرأت شـعر إبـراهيم ، تجلـت لـك نفسه علـي حقيقتهـا ، لا يحجبهـا عنـك حجـاب . ذلـك أنـه كـان ينظـر نظـرا دقيقـا في جوانـب تلـك الـنفس ، ثـم يـصور مـا يعـتلج فيهـا مـن عواطـف وخلجـات ، كأصـدق مـا يكـون التـصوير ، وممـا كـان يعينـه علـي البراعـة والـصدق في التعـبير

، علم غزير بفنون الكلام وأساليبه ، وهذا العلم كان نتيجة لا طلاعه الواسع علي المآثر الأدبية الرفيعة ، من قديمة وحديثة ، إلى جانب القرآن الكريم والحديث الشريف .
وما أعرف كتابا أدبيا كان أحب إلى ه من كتاب الأغاني ، فقد كان يري فيه دنيا تغمرها الحياة علي اختلاف ألوانها ، وناهيك بالأغاني ، من كتاب أدبي توافرت فيه المادة وتنوع الأسلوب ، واتسع فيه مجال القول في الأخبار والنوادر الأدبية علي اختلافها .
وكما كان كتاب الأغاني من أحب كتب الأدب العربي إلى إبراهيم ، فقد كان المتنبي من ناحية والعباس بن الأحنف من ناحية أخري من أحب الشعراء إلى ه وأقربهم إلى قلبه تستشهد فدوي في مجال التدليل علي وطنيته وغيرته علي أرض فلسطين ، بتنبيه قومه للخطر الذي ينتظر البلاد من وراء بيع بعضهم أرضه لليهود طمعا في المال والذهب ، وهو يحاول أن يفتح عيونهم علي الشر الذي تم واستحكم من جراء ذلك ، في أبيات يقول فيها :

أعداؤنا منذ أن كانوا صيارفة
ونحن منذ هبطنا الأرض زراع
يا بائع الأرض لم تحفل بعاقبة
ولا تعلمت أن الخصم خداع
لقد جنيت علي الأحفاد والهفي
وهم عبيد وخدام وأتباع
وغرك الذهب اللماع تحرزه
إن السراب كما تدريه لماع
فكر بموتك في أرض نشأت بها
واترك لقبرك أرضا طولها باع

وبعيدا عن حديث فدوي عن شقيقها الشاعر وهو حديث مترع بالشجن والأسي والذكريات الحميمة - فإن شعر طوقان ، في وطنياته المتوهجة ، أصبح زادا للشباب العربي في معاركه ومواقفه النضالية منذ مطالع الخمسينيات . وكما أصبحت قصيدة أبي القاسم الشابي .

إذا الشعب يوما أراد الحياة
فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليل أن ينجلي
ولابد للقيد أن ينكسر

كما أصبحت هذه القصيدة نشيدا هادرا يردده الثوار ، فإن قصائد إبراهيم طوقان في الفدائي والشهيد والثلاثاء الحمراء وغيرها أصبحت بدورها أناشيد ثورية وهتافات نضالية وزادا للمطالبين بالحرية والتحرر . يقول في قصيدته الفدائي

لا تسل عن سلامته . . روحه فوق راحته
بدلته همومه . . كفنا من وسادته
يرقب الساعة التي . . بعدها هول ساعته
شاغل فكر من يراه . . بإطراق هامته
بين جنبيه خافق . . يتلظي بغايته
من رأي فحمة الدجي . . أضرمت من شرارته
حملته جهنم . . طرفا من رسالته
هو بالباب واقف . . والردي منه خائف
فإهدئي يا عواطف . . خجلا من جراءته
صامت لو تكلما . . لفظ النار والدما
قل لمن عاب صمته . . خلق الحزم أبكما
وأخو الحزم لم تزل . . يده تسبق الفما
لا تلوموه ، قد رأي . . منهج الحق مظلما
وبلادا أحبها . . ركنها قد تهدما
وخصوما ببغيهم . . ضجت الأرض والسما
مترحين ، فكاد يقتله إلى أس ، إنما
هو بالباب واقف . . والردي منه خائف
فإهدئي يا عواصف . . خجلا من جراءته

اللغة الشعرية في مثل هذا الشعر طيعة ، سلسة ، متدفقة والصياغة متكئة إلى ثقافة شعرية رصينة ، لا قلق فيها ولا غربة ولا هشاشة . والرسالة التي يحملها هذا الشعر من شأنها أن تنفذ إلى أعماق المتلقي دون أي عائق من معاظلة أو غموض أو عجمة . مما سهل أمام شعر إبراهيم طوقان مجال الانتشار والتأثير والتفاعل .

خيط ما ، واهن أو مشدود ، يكاد يشد شعر طوقان الغزل والثوري إلى شعر الشابي الغزل والثوري . المرحلة ـ نفسيا وروحيا ونضاليا ـ واحدة . والوجدان النازف بعذابات الذات والجماعة سمت مشترك ، والوهج الرومانسي ، في ضبابيته وانهزامه وحزنه وتمزقه ، يلقي بنثارات نيرانه في شعر الشاعرين ، مثيرا حماس الشباب العربي ـ هنا وهناك ـ إلى لون من إلى قين الغامض ، والنموذج المستثير للمواجهة ، ونبرة الشجاعة المستحيلة عند طوقان والشابي . لا أقول بإنه من الحتم أن نسلكهما في سلك واحد ،

لكـني قـصدت إلى اسـتدعاء هـذه الحـال الـشعرية المغـايرة - طـوال العـشرينيات وأوائـل الثلاثينيـات في وقـت كـان نمـوذج شـوقي شـامخا ، وأصـداء شـعراء المهجـر والـديوان وبـدايات أبـو لـو تتـداخل وتتقـاطع . فكـان الإغـراء بقـصيدة إبـراهيم طوقـان في المـشرق العربـي وقـصيدة الـشابي في المغـرب العربـي - وتـونس في القلـب منـه - بحثـا عـن شمـيم مختلـف ، وسمـاء شعرية توشك أن تتكشف .

وغايـة مـا يقـال في إبـراهيم طوقـان الـذي كـان - كمـا قالـت عنـه أختـه فـدوي - يتغلغـل بقلمـه إلى صـميم الأشـياء ، فيـزيح عنهـا الـستر ، ويـبين مـا خفـي وراءهـا مـن حقـائق مـرة ، مفـصحا عـن مـرارة تغلـب علـي واقـع الأمـة ، ولاتـزال تتـصاعد حـتي يومنـا هـذا ، وصولا بالمشهد المأساوي إلى ذروته :

أمامك أيها العربي يوم
تشيب لهوله سود النواصي
وأنت كما عهدتك ، لا تبالي
بغير مظاهر العبث الرخاص
مصيرك بات يلمسه الأداني
وسار حديثه بين الأقاصي
فلا رحب القصور غدا بباق
لساكنها ، ولا ضيق الخصاص
لنا خصمان : ذو حول وطول
وآخر ذو احتيال واقتناص
تواصوا بينهم فأتي وبالا
وإذلالا لنا ذاك التواصي
مناهج للإبادة واضحات
وبالحسني تنفذ ، والرصاص !

تـري ، كـم اتـسعت مـسافة الكارثـة بـين شـعر الثلاثينيـات لا بـراهيم طوقـان وشـعر الألفية الثالثة لمحمود درويش ؟ هذا هو السؤال !

العيوني شاعر البحرين الثائر

بقلم: فاروق شوشة

تحسن مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين صنعا باختيارها الشاعر علي بن المقرب العيوني عنوانا لدورتها الثامنة ، التي أقيمت في البحرين بين الأول والثالث من أكتوبر الحالي ، مع احتفاء خاص بشاعر الثورة الفلسطينية إبراهيم طوقان . ولقد سمعت بالعيوني لا ول مرة من خلال قراءتي للمجلد الخامس من سلسلة تاريخ الأدب العربي التي عكف علي إنجازها عميد مؤرخي الأدب العربي في عصرنا : الدكتور شوقي ضيف رئيس مجمع اللغة العربية ، وهي السلسلة التي أخذت من عمره وجهده وبحثه الكثير ، بحيث أصبحت المرجع الأساسي لدارسي الأدب العربي في عصوره كافة ، وفرة معلومات ونصوص ونقول واستشهادات ومقارنات ، فضلا عن كشفها الدائب عن العديد من المصادر والمراجع ، وعنايتها بالتصويب والتحقيق . ثم أتيح لي الاقتراب من تخوم العالم الشعري لا بن المقرب العيوني من خلال دراسة ضافية تضمنها مقال للدكتور شوقي ضيف أيضا في العدد الثامن والثلاثين من مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة١٩٧٦ تحت عنوان سجل شعري تاريخي فريد .

العيوني إذن ليس شاعرا مجهولا ، ولا غير معروف القدر والأهمية في ديوان الشعر العربي . فقد اقترب منه ومن شعره عدد غير قليل من الباحثين والدارسين في عصرنا الحديث ، وكان شعره موضوعا لعدد من رسائل الماجستير والدكتوراه ، في طليعة هذه الدراسات : ابن المقرب حياته وشعره لعمران محمد العمران ، وابن المقرب العيوني لمكي محمد سرحان ، وابن مقرب العيوني لسامي جاسم عبد العزيز المناعي ، وابن مقرب وتاريخ الإمارة العيونية في بلاد البحرين لفضل بن عمار العماري ، والتجربة الشعرية عند ابن المقرب ل عبد ه عبد العزيز قلقيلة ، وشعر علي بن المقرب العيوني: دراسة فنية لا حمد موسي الخطيب (والكتاب في الأصل رسالة ما جستير في كلية الآداب بجامعة القاهرة١٩٨٠) ، وعلي بن المقرب العيوني: حياته وشعره لعلي بن عبد العزيز الخضيري (والكتاب في الأصل أول رسالة دكتوراه تمنحها كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض١٩٨٠) فضلا عن العديد من المراجع والموسوعات القديمة .

فمن هو ابن المقرب العيوني الذي اختارته مؤسسة البابطين عنوانا لدورتها الثامنة ، بعد أن احتفت في دوراتها السابقة بالشعراء الأعلام: محمود سامي البارودي وأبي القاسم الشابي والأخطل الصغير بشارة الخوري وأحمد العدواني وأبي فراس الحمداني و عبد القادر الجزائري .

يجمع الباحثون - وفي مقدمتهم الدكتور شوقي ضيف - علي أنه شاعر من أسرة العيونيين حكام الأحساء والبحرين من سنة٤٦٦ هـ حتي سنة ٦٣٣ هـ . وقد ولد سنة ٥٧٢ هـ وتوفي سنة ٦٣١ هـ عن حوالي ستين عام ا . وديوانه يعبر عن ثقافة لغوية وأدبية وإسلامية ، ويمتلىء بإشارات تاريخية ، وبكثرة معارضاته لقصائد المتنبي والشريف الرضي ومهيار . وقد كان نبوغه المبكر في الشعر سببا في تقديمه إلى أمير أسرته محمد بن أبي الحسين - أهم أمراء الأسرة العيونية جميعا - شمل سلطانه البحرين بمدنها مثل القطيف والأحساء وجزرها مثل أوال - التي يطلق عليها الآن اسم البحرين - ودانت له قبائل شرقي نجد . وعندما يغتال هذا الأمير الشجاع ، يزج قتلته بشاعره ابن المقرب في السجن ويصادرون أمواله ، حتي إذا استرد حريته رحل إلى العراق ونزل البصرة ثم دخل بغداد وتعرف علي العديد من علمائها وأدبائها ومدح الخليفة الناصر - وعندما يفكر في العودة إلى موطنه لا يرد عليه أمير الأحساء أمواله وبساتينه ، وسرعان ما تبدأ الفتن والحروب بين أبناء الأسرة الحاكمة يتقاتلون ويتحاربون والحكم يفسد ويضعف . فيترك ابن المقرب البحرين متجها إلى العراق ، ثم يوغل في رحلته إلى الشمال حتي الموصل وديار بكر ، ويمد رحلاته إلى الملك الأشرف موسي بن العادل الأيوبي صاحب حران وديار الجزيرة ، ويشيد ببلائه مع أخيه الكامل سلطان مصر في قتال الصليبيين بدمياط وسحقهم حين أغاروا عليها بين عام ي٦١٨ ، ٦١٥ هجرية . وفي ختام حياة متقلبة غير مستقرة ، يعود ابن المقرب إلى موطنه البحرين ، ليجد حكما فاسدا لا صلاح له ، وديارا وممتلكات وأموالا منهوبة . لقد فسد الزمان وتمزق الوطن الكبير ، وامتلأت القصور بصغار النفوس وضعاف الهمة ، وباءت كل محاولات الشاعر الذي أراد إيقاظ الهمم وإشعال جذوة الإباء والكرامة والحمية ، وتبصير قومه بأخطار الطامعين الغزاة - باءت محاولاته بالفشل والإحباط ، فكان وقع نهايته مساوقا لنهاية وطن وتاريخ .

ما الذي جعل الكثيرين إذن يشغلون بشعر ابن المقرب ؟ علي مستوي التاريخ ، فإن شعر ابن المقرب هو الوثائق الوحيدة لتاريخ الدولة العيونية ، التي لم يعن المؤرخون بتاريخ حكامها ، فجاء شعره مصورا لهم ولأحوال البلاد في أيامهم ولحروبهم وصراعهم ، وفتنهم ومؤامراتهم . وله ميمية مطولة سجل فيها تاريخ أسرته منذ مؤسسها الأول حتي زمنه ، مباهيا مفاخرا ، مذكرا بالوقائع والأمجاد ، ومنبها معاصريه إلى ما كان عليه الجدود والأسلاف .

وعلي مستوي الشعر ، فإن الثناء عليه يملأ الكتابات القديمة التي تصفه بأنه جيد الشعر ، مليح المعاني ، فصيح العبارة ، من فحول الشعراء - تلخيص مجمع الآداب في معجم الأسماء والألقاب لا بن الفوطي - وهو أحد الشعراء الموصوفين المشاهير في عصرنا المعروفين ، أقر بالحذق له أئمة العراق من ذوي الأدب والعلم ، ومذهبه في الشعر

مذهب الشعراء المتقدمين في جزالة الألفاظ وإبداع المعاني - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي ، وهو شاعر عظيم من شعراء الأمة العربية - المشتبه في الرجال أسمائهم وأنسابهم للذهبي تحقيق علي البجاوي - وهو شاعر العروبة والحماسة والإباء ، وهو من الشعراء الأعلام الذين حفظوا للشعر فحولته في عصر أخذت اللغة الشعرية فيه تهبط وتضعف - توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم لا بن ناصر الدين القيسي الدمشق - . كما أسبغ عليه كثير من الدارسين ألقابا ونعوتا كثيرة يورد كثيرا منها الدكتور صلاح كزارة الأستاذ بجامعة حلب في كتابه الببليوجرافي الجامع : علي بن المقرب العيوني : حياته وشعره في المصادر العربية والأجنبية ، وهو الكتاب الذي رجع إلى ه العديد من الدارسين والباحثين لا بن المقرب العيوني وشعره من بين هذه النعوت : الشاعر المناضل والشاعر الثائر وشاعر الخليج العربي في العصور الإسلامية ومتنبي الخليج الذي جدد إبداع طرفة وابن الفجاءة - تبصير المنتبه بتحرير المشتبه لا بن حجر العسقلاني تحقيق علي البجاوي ومحمد علي النجار - كما قرن بعضهم سيرة الشاعر وشعره تجويدا وأغراضا بالنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمي وطرفة بن ال عبد والمتنبي وأبي فراس الحمداني والشريف الرضي والأبيوردي وغيرهم - زهر الرياض وزلال الحياض لا بن شدقم المدني .

تحتفي الدورة الثامنة لمؤسسة البابطين بابن المقرب العيوني احتفاء غير مسبق . فهي تصدر ديوانه مجموعا محققا علي أكمل مخطوطة له مشروحة شرحا مستفيضا ، تعرض لتفاصيل كثيرة ودقيقة عن تاريخ أسرته والدولة العيونية ، هي مخطوطة المكتبة الرضوية في مدينة مشهد بإيران . وقد اعتمد محقق الديوان - في طبعة البابطين - الدكتور أحمد موسي الخطيب بالاضافة إلى هذه المخطوطة علي الطبعة المكية من الديوان بتاريخ١٣٠٧ هـ والطبعة الهندية بتاريخ١٣١١ هـ ومطبوعة المكتب الإسلامي بدمشق عام ١٣٨١ هـ ونسخة الحلو التي قام بتحقيقها الدكتور عبد الفتاح الحلو وسلك في تحقيقها منهجا علميا ، معتمدا علي المخطوطات المصرية للديوان ، متخذا من النسخة الأصلية بدار الكتب المصرية أصلا ، كما اعتمد علي مطبوعتي مكة والهند ، وهي في رأي الدكتور الخطيب : أفضل نسخ الديوان المطبوعة وأكملها وأوفاها لشعر الشاعر ، وهي النسخة الوحيدة المحققة تحقيقا علميا ، وتضم ثماني وتسعين قصيدة مرتبة بحسب الحروف الهجائية للقافية ويبلغ عدد أبياتها٥٢٦٢ بيتا .

يقول الشاعر عبد العزيز سعود البابطين في تقديمه لطبعة مؤسسته من ديوان ابن المقرب العيوني والتي ستصبح من الآن الطبعة العمدة أو المعتمدة لدي الدارسين والباحثين ومتذوقي الشعر العربي :لقد تميز علي بن المقرب العيوني ، وهو أحد أفراد الأسرة العيونية الحاكمة بعلو الهمة والشجاعة والفروسية وصلابة المواقف والثبات في المحن ، والفصاحة

وسمــو المكانــة ، ومعظــم شــعره في نــصحه للأمــراء العيــونيين ، ودفاعــه عــن أســرته ، وتحــذيره لهــا مــن مغبــة تقــديم الأراذل والمنــتفعين ، وتــأخير الأقــارب المخلــصين والناصــحين والغيــورين علــي الأســرة والدولــة والــبلاد . غــير أن أمــراء أســرته ، بــدلا مــن تقريبــه والأخــذ بنــصحه ، سمعــوا فيــه قــول الحــساد ، فنقمــوا عليــه ، واجتــاحوا أموالــه ، وألقــوا بــه في الــسجن ، ووضــعوا العراقيــل في طريقــه ورفــضوا إعــادة أي جــزء مــن أموالــه وبــساتينه المــصادرة .

وعنــدما خــرج مــن الــسجن انــدفع في زيــارات متلاحقــة إلى البــصرة وبغــداد والموصــل وديــار بكــر فلقــي حفــاوة أمرائهــا وولاتهــا ووجهائهــا ، . ومثــل بــين يــدي الخليفــة العباســي الناصــر لــدين الله ومدحــه ، وكــان بــرغم نكباتــه والجحــود الــذي لقيــه مــن أســرته وبــلاده ، خــير ســفير لهــا بالفعــل المخلــص وبالكلمــة الــصادقة . ولم ينــسه كــل هــذا الترحــال قــضيته الأولــي في الــدفاع عــن بــلاده وأســرته ، بــرغم مــا أصــابه منهــا ، كمــا لم ينــسه مجــده الــضائع وأمواله المسلوبة .

غــير أن هــذه النكبــات ـــ وإن كانــت وبــالا علــي الــشاعر ـــ إلا أنهــا أذكــت شــاعريته فكتــب المطــولات الفريــدة في أمــراء أســرته مــا دحــا ومــستعطفا لــرد أموالــه أو بعــضها إلى ه دون جــدوي ، فكانــت قــصائده نعمــة علــي التــاريخ في المقــام الأول ، لا نهــا أرخــت للجانــب الأكــبر مــن أحــوال الدولــة العيونيــة ونــشأتها ، وقيامهــا علــي أنقــاض القرامطــة ، ومــا عــصف بهــا مــن خلافــات وانقسامات وغــزوات خارجيــة وحــروب داخليــة ، فقــد ركــز في قــصائده علــي هــذه الأحــوال والأخبــار ، وأتــاح بــذلك مــصدرا فريــدا لتــاريخ الدولــة العيونيــة ، فلــولا قــصائده لــضاع مــصدر نــادر ، يكــاد يكــون المــصدر الوحيــد والموثــوق في هــذا المجــال ، وفي فــترة تكــاد تكون مجهولة تماما من تاريخ منطقتنا (يقصد منطقة الخليج العربي)

ثــم يقــول: تميــز شــعر ابــن المقــرب بالحماســة والفخــر ، وكــان علامــة فارقــة في زمنــه ، وفــارس الكلمــة الــشاعرة في حينــه ، بــرغم حلكــة الظــروف ، وتــأخر الأمــة ، وعقــم الــساحة الــشعرية مــن فحــول القــريض . فاســتوعب الــتراث بأوجهــه العديــدة ، وتــأثر بفحــول الــشعر المتقــدمين ـــ مثــل المتــنبي وأبــي فــراس ـــ ومــن قبلــهم ، وأثــر في فحولــة المتــأخرين مــن أمثــال محمــود ســامي البــارودي شــاعر الــسيف والقلــم ورائــد الإحيــاء . ولم يقتــصر تــأثيره في العــصر الحــديث علــي الــشعراء فحــسب ، وإنمــا تجــاوزهم إلى بعــض القــادة المعاصــرين ، ممــن يقــدرون أشــعار ابــن المقــرب الحماســية ، فجعلــوا ديوانــه في متنــاول أيــديهم ، يتخــذون مــن قــصائده وقــودا دافعــا لجهــادهم وكفــاحهم ، أيــام الحــرب ، مثلمــا يــستقون منــه المــواعظ والعــبر في أيــام السلم ، مستلهمين في كل ذلك منه الحماسة والعزم .

استلهامهم لبلاغته وحكمته السائرة في شعره العذب .

فهل حقا كان العيوني في زمانه بمنزلة المتنبي في زمانه ؟ وهل كانت روحه الشعرية الصارمة ـــ وهو الذي حاول أن يملأ فراغ العصر ويصحح من أمر الدولة المزقة ويثور علي هوان الحكام والقادة ـــ هل كانت صورة من روح المتنبي الهادرة في شعره العظيم ؟ وهل صحيح أنه أثر في شعر الفحول المتأخرين وعلي رأسهم البارودي زعيم مدرسة الإحياء في الشعر الحديث ؟ وهل كان يصنع في مدائحه ما صنعه المتنبي من قبله ، وهو يصوغ ممدوحيه علي عينة ، ، ويعيد خلقهم وتشكيلهم في الصورة الشعرية التي يريدوها لهم ، وكأنه بهذا يقف علي طرف المعادلة الشعرية أنت تعطيني وتظن أني ضيعتك لا ني أمدحك وأنشد بين يديك ، لكني ـــ أنا الآخر ـــ أصنعك وأضفي عليك ما أعيد به تقديمك إلى الناس في الصورة التي ارتضيتها لك .

أنا إذن صانعك أيها الممدوح ولست صنيعتك كما تظن .

وهو رأي أراه في شعر المديح عند أعلامه الكبار ، يتجاوز ما يقال عادة في كتب الباحثين والدارسين عن التكسب بالشعر ، وأوصاف الممدوحين التقليدية في قصائد شعراء المديح ، والمدح بالكرم والشجاعة والفطنة والهمة والنجدة والحمية وغيرها من الصفات المتكررة في قصائد الشعراء . هل كان كل من المتنبي والعيوني مغايرا لمسيرة قصائد المديح في شعرنا العربي بخلق النموذج والمثال وتشكيل صورة الممدوح علي هوي الشاعر ومستوي حلمه الكبير ووضعه أمام مسئولياته الكبري ودوره الذي ينبغي له أن ينهض به ويتقوم ويقود ؟

هذا هو الرأي الذي يحتاج في مجال التطبيق والمقارنة ـــ إلى كلام تفصيلي وشواهد شعرية ، أرجو أن أعرض لها في المقال القادم . لكني لا أترك القاريء قبل أن أقدم له أبياتا عميقة الدلالة ، شاهدة بمستوي الشاعرية ، لا بن المقرب العيوني يقول فيها وكأنه يخاطبنا من وراء الغيب :

قم فاشدد العيس للترحال معتزما
وارم الفجاج بها ، فالخطب قد فقما
ولاتلفت إلى أهل ولا وطن
فالحر يرحل عن دار الأذي كرما
كم رحلة وهبت عزا تدين له
شوس الرجال ، وكم قد أورثت نعما
وكم إقامة مغرور له جلبت
حتفا ، وساقت إلى ساحاته النقما
واسمع ولاتلغ ما أنشأت من حكم
فذو الحجا لم يزل يستنبط الحكما

لم يبك من رمدت عيناه أو سلبت

جفناه ، إلا لخوف من حدوث عمي

من سالم الناس لم تسلم مقاتله

منهم ، ومن عاش فيهم بالأذي سليما

لايقبل الضيم إلا عاجز ضرع

إذا رأي الشر يغلي قدره وجما

وكل مجد إذا لم بين محتده

بالبأس . نقره الأعداء فانهدما

ما كل ساع إلى العلياء يدركها

من حكم السيف في أعدائه احتكما !

ترنيمة إلى رياض المعلوف

بقلم: فاروق شوشة

ألقى الشاعر هذه القصيدة في الاحتفال الذي أقامته الكلية الشرقية في مدينة زحلة بلبنان بذكري الشاعر اللبناني رياض المعلوف وشارك فيه عدد من الشعراء اللبنانيين والعرب . ورياض المعلوف شاعر وكاتب بالعربية والفرنسية وهو ابن العلامة عيسى إسكندر المعلوف وشقيق الشاعرين المهجريين: فوزي وشفيق المعلوف صاحبي الملحمتين الشعريتين: علي بساط الريح وعبقر

هبك ارتحلت فهل للخلد عنوان
حلق وغرد فسمع الكون يقظان
واسكب علي الارض عطرا لا يفارقها
فالظل ظلك والإبداع فينان
وضربة السحر من فرشاتك اندلعت
فالأفق حولك لوحات وألوان
رياض هذي رياض الشعر وارفة
يزهي بها ثمر دان وأغصان
باحت بأسرارها لما هتفت بها
وأنت في قلبها قلب ووجدان
غرست فيها سطورا نورت زمنا
من بعده زمن تال وأزمان
لم ينصفوك ولو طافوا بأيكتها
لصاد اسماعهم شجو وتحنان
ولا ستبانوا بيانا سلسا عجبا
علي العقول له جاه وسلطان
الشمس تشرق هذا دأبها ابدا
وليس ينقصها في القدر عميان !

* * *

من سائر تحت غيم الحرف نشوان
كأنه فاتح والشعر إيوان
الافق شاغله الأعلي تراوده
هناك في ضفة الفردوس شطان

في كل ركن بها همس وهسهسة
وكل زاوية نور وعيدان
تفتح الروض فيها فهي موسمه
آس وورد ونسرين وسوسان
وغرد الحسن في أيكاتها ترفا
خمر وشهد وتفاح ورمان
كم ناء مجهد قلب تحت صبوته
ناحت صباباته والليل آذان
هذا نبي جمال بشارته
لنا تسلسل إنجيل وقرآن !

* * *

غريد زحلة ما لي لا أراك بها
وأنت ـ ملء رباها ـ الكأس والحان
أمس التقينا هنا إذ كان مجلسنا
في حضن زحلة بالابداع يزدان
كان الربيع وكانت فتنة عجب
وكان في جمعنا حور وولدان
وقفت تمنحها عمرا حظيت به
أيامه كلها عطر وريحان
أشفقت حين رأتك العين منحنيا
تنوء والعبء أثقال وأشجان
حتي شدوت فعم البشر وانقشعت
غمامة واذا بالقوس مرنان
شعر كأن مسيل الماء نبعته
لكن مداميكه صخر وصوان
هذا هو الشعر يسري من' معالفة'
كلامهم نبض أرواح وأوزان
تغري سلاسته أعناق ناظره
مقلدا إنما هيهات إمكان !

* * *

الارض ترتج من صوت له ألق
سار يردده غاب ورعيان

تلك التلاوين من غيماتك انحدرت
فكان سيل وكانت ثم غدران
يموج بحرك جياشا فلؤلؤه
صاف وجوهره تبر وعقيان
وإن سخوت رخاء أو نسيم صبا
تمايلت منك أرواح وأبدان
ودبكة الريف في إيقاع مجوزها
طور نثرك واللوحات فتيان
تراقص العمر فيها فهو برعمها
واستسلم الروض فيها فهو نعسان
معابد فاض بالايمان هيكلها
والحب جوهره بوح وإيمان
تبارك الحسن هذا صنع مبدعه
لما تجلي ورب الحسن فنان
يظل لبنان فردا في تناغمه
حرف جميل وتشكيل وإتقان
الشعر عروته الوثقي وساحته
حبات عقد فأشياخ ورهبان !

* * *

رياض أين يد تمتد لي وأنا
في قلب زحلة مبهور وولهان
آمنت بالحسن زحلاوية دهمت
قلبي فدقاته قود وإذعان
بالأمس زاحمها شوقي وكان له
بوح علي لهوات الشعر فتان
ولم تزل جارة الوادي تشغالنا
ولم يزل لفنون السحر إعلان
في صهد أنفاسها خمر معتقة
وصدر عاشقها جمر ونيران
وفي مقاتلها إن شئت تقربها
موت وبعث وحراس وسجان
وراءها كان خطوي لا أطيق لها

بعدا وخطوتها وقع وألحان
تمثال حسن تجلي ملء سطوته
حتي تكامل منه القد والبان
أقول: ها موعدي قد حان واقتربت
قطافه وأنا شاد وظمآن
حتي التفت فكل الارض خابية
تسقي العطاش وكل الروض ندمان
ها علميني فنون العشق وابتدعي
إني انتسبت وهذا الوجد برهان
أنت الجمال وأنت الشعر فاقتعدي
زهو الفتون وفي كفيك ميزان
تعطين ما تمنحين إلى وم عن كرم
وتأذنين فهذا النطق إيذان
وتمسحين عن الدنيا كآبتها
فقد تعبنا وملء العمر أحزان
كل الدروب مشيناها مضوأة
وأنت بحر هوي: در ومرجان
طوفت كل بقاع الحسن منتشيا
وظن قلبي أن القلب ملآن
حتي أتيتك طاش الوعي وانكشفت
مسارب وهوي بوح وتبيان
وارتج في داخلي ما كنت أحسبه
سدا منيعا إذا ما انهار بنيان
ما في الإهاب الذي حملت غير جوي
طاغ وإلا فتي بالسحر هيمان
وليس ثمة إلا طائر غرد
بين الحنايا وإلاثم إنسان
فلا تلوموه مفتون بما صنعت
يد الجمال وان يذبح فقربان !

* * *

رياض يومك يحيينا ويجمعنا
والأفق داج ووجه الارض غيمان

تغلي السفوح بما حملت من غضب
حتي كأنك في القيعان بركان
أما الهضاب فتشكو فقد واحدها
فليس فوق الجبال الشم عقبان
انظر رجالا من القش انتخوا كذبا
كأنهم في جناز الارض غربان
مجوفون فإن يدعوا لمأثرة
فإن صوتهمو في الحي رنان
لم يبق ما ء حياء في وجوههمو
ولا تدفق بالنخوات شريان
الكبرياء تخلت عن زمانهمو
فهم إماء إذا نودوا وغلمان
كأنهم لخريف الرعب قافية
أو أنهم لا له الشر أعوان
ها نحن عشنا زمانا لا نصدقه
للجبن عرش وللإذلال تيجان
إن يطلقونا أساري في مدارهمو
فإن عالمهم سجن وقضبان
أو يرفعوا صوتهم عجزا وتورية
فإن تاريخهم بالعي خجلان
أو ينثروا كل زهر تحت موكبهم
فإن موكبهم خزي ونكران
أو يلبسوا ألف حال كي نصدقهم
متي تماثل أحرار و عبد ان !

* * *

هبك ارتحلت فهل للخلد عنوان
لا تشغل البال فالعنوان لبنان !

إبراهيم شحاتة شاعراً

لم أكن أدري وأنا ألتقي معه لا ول مرة — مصادفة — في إحدي الأمسيات العامرة بصفوة من رجال الاقتصاد والفكر والأدب والسياسة ، في واحد من البيوت اللبنانية الكريمة ، ثم في رحلة الطائرة من بيروت إلى القاهرة — صبيحة إلى وم التالي — لم أكن أدري أن هذه اللحظات القليلة معه سوف تترك تأثيرا عميقا في وجداني ، وصورة إنسانية رائعة لا حد ابناء مصر النادرين ، الذين اختطفهم الموت وهم في أوج قدرتهم علي العطاء ، بعد أن واجه مرضه الخطير المتمكن منه ، بشجاعة نادرة ، وقدرة خارقة علي التحمل ، والتشبث بالأمل والحياة .

وعندما أتيح لي أن أطلع علي كتابه المتلئ بفكره ووطنيته وحبه العميق لمصر وصيتي لبلادي الذي صدر ضمن مطبوعات مكتبة الأسرة في العام الماضي — مصادفة أيضا — أدركت أن الخيط الرفيع الذي شدني إلى ه ذات يوم ، لم يزل مشدودا ، وأن الواجب يستحثني لعرض هذا الكتاب النفيس وتقديمه إلى القارئ علي مدي ثلاثة أسابيع متصلة ، ركزت فيها علي حديثه الشجاع عن الفساد ، والخريطة المستقبلية لمصر ، والامكانات المتاحة التي ينبغي استغلالها متآزرة متكاملة ، والثقة الهائلة التي يحملها مؤلف الكتاب في صدره ، بمستقبل هذا الوطن ، وقدرته علي تحقيق دوره ورسالته واللحاق بمن سبقوه في طريق التقدم .

ثم أتيح لي أن أطلع علي دواوينه الشعرية ، كان ونحن نتجاذب أطراف الحديث علي متن الطائرة ، يقرأ لي سطورا من مخطوط يحمله معه ، دون فيه بعض الخواطر الشعرية ، وبعض ترجماته لا شعار الحب عند قدماء المصريين ، وعندما لا حظ دهشتي الشديدة — فلم اكن اتوقع منه وهو العلم البارز في مجالات القانون والاقتصاد والاستثمار واعباء البنك الدولي — أن يكون شاعرا ، وأن يكون لديه وقت للشعر ، لكنه وعدني بأن يرسل إلى بعض شعره بعد عودتنا إلى القاهرة ، ومرت الأيام ، وانشغل كل منا عن صاحبه ، وكان رحيله المباغت وصدمة الغياب المفاجئ .

ولد الدكتور إبراهيم شحاتة في١٩ اغسطس عام ١٩٣٧ ، في دمياط ، تخرج في كلية الحقوق جامعة القاهرة عام ١٩٥٧ ، وحصل علي دبلوم في القانون العام والمالية عام ١٩٥٨ ودبلوم في القانون الخاص عام ١٩٥٩ ، وتوجت رحلته الدراسية بحصوله علي الدكتوراه في القانون الدولي من جامعة هارفارد عام ١٩٦٤ ، وفي ختام سلسلة من المناصب والخبرات والمهام والمشاركات أصبح إبراهيم شحاتة نائبا لمدير البنك الدولي (١٩٨٣ —١٩٩٨) والأمين العام للمركز الدولي للاستثمار (١٩٨٣ —٢٠٠٠) وتتابعت مؤلفاته وكتاباته ومقالاته بالعربية والإنجليزية والفرنسية عن القروض والأوبك والبنك الدولي ،

والقانون الدولي والاستثمارات الاجنبية والتنمية والتمويل والمنظمات الدولية والتحكم الدولي ، وأصبحت ثلاثية القانون الدولي والاقتصاد والاستثمار في عصر العولمة هي المحاور الاساسية لا هتماماته والمجالات التي ينشط فيها ـــ بفكره وخبراته ـــ مضيفا ومؤصلا ومستشارا موثوقا بآرائه وأحكامه .

وعندما رحل إبراهيم شحاتة ـــ في العام الماضي ـــ عن أربعة وستين عام ا ، كانت كتبه ، وفي مقدمتها كتابه وصيتي لبلادي ثم كانت دواوينه الشعرية بمثابة مشاعل الضوء ، وباقات العطر ، تحمل اثره الباقي ، وسيرته النبيلة الشجاعة .

حين تقلب في صفحات دواوينه ، نلاحظ ـــ منذ الوهلة الأولي أنه وضع علي أغلفتها اسما آخر غير اسمه المعروف والمشهور ، هو إبراهيم فهمي ويبدو أنه استشعر الغرابة التي سيحس بها القارئ المدرك لطبيعة إبراهيم شحاتة : رجل القانون والاقتصاد والمال والاستثمار ، فلم يشأ أن يصدمه بوضع الاسم ـــ كما هو ـــ علي دواوينه ، وهداه تفكيره إلى اختيار ـــ الاسم المختصر ـــ إبراهيم فهمي ليكون هو الاسم الشعري ، أما إبراهيم شحاتة فيبقي مقصورا علي مجالات اهتمامه التي عرف بها ، وبسببها كان احترام المجتمع الدولي وتقديره له .

المؤلفات الشعرية لا براهيم فهمي أو إبراهيم شحاتة تضم : صداقتي مع الموت وحكايات غريبة أخري وأشعار الحب عند قدماء المصريين والسيدة العذراء كلمتني ولوحات بالكلمات وحكايات شاعر مجنون ـــ وهذا الديوان الاخير صدر في طبعتين بالعربية والانجليزية وفي مستهله كلمات للشاعر عبد الوهاب البياتي يقول فيها :

من كان يبكي تحت هذا السور !
لعلها الريح التي تسبق من يأتي
ولا يأتي
لعل شاعرا يولد أو يموت !

ثم تجئ قصيدة البداية كاشفة عن جوهر إبراهيم شحاتة الإنسان ، وطبيعة موقفه من الناس والحياة والكون ، وعن تصوره للدور والرسالة ، يقول تحت عنوان بداية :

لم يكن يكتب شعرا
ولم يكن يكتب نثرا
كان يكتب نبضات قلبه علي الورق
وكانت كلماته بسيطة
حتي لتبدو أحيانا
كأقوال طفل صغير

لم يكتب للأطفال
مثل الذي كتب عن إلى س في بلاد العجائب !
ولم يكتب للحالمين
مثل الذي كتب النبي
ولم يكتب للفلاسفة
مثل الذي كتب عن الحقيقة والأكذوبة
كان يحاول فقط
أن يصف آية رآها في الآفاق
كسحابة تمر
وكان يصفها ببراءة فريدة
كان قد عرف منذ وقت مبكر
أن الحقيقة كالقمر
لا نري منها الا الجانب الذي نواجهه
وعندما تكتمل بدرا
سرعان ما تتلاشي بالتدريج
كان يصنع المرايا
حتي يري الناس أنفسهم
والنوافذ ، حتي يروا العالم
وكان يراهم يخلطون كثيرا
بين المرايا والنوافذ
وعندما قرأت كلامه للناس
وجدت أن اكثرهم لم ينصتوا
وقليل من الذين فعلوا
رأوا الأشياء كما يراها
وعندما ما ت
قال بعضهم إنه كان رجلا ذا رسالة
وقال بعضهم إنه كان مسيخا دجالا
وقال بعضهم إنه لم يكن

إبــراهيم فهمــي أو إبــراهيم شــحاتة في هــذه الكلمــات ، يــصوغ حكمتــه في أكثــر العبــارات بــساطة ويــسرا وانــسيابا موســيقيتها تنبــع مــن تــدفق الإيقــاع وإنهمــار الكلمــات بــلا توقــف ودون ســدود وعوائــق ، هنــا تــصبح الحــال الــشعرية فيــضا ، يغمــر صــاحبه اولا ،

وينهمر علي المتلقي ثانيا ، ويقيم بين الشاعر والمتلقي جسورا من المودة الجميلة والألفة الحميمة والانسانية الغامرة ، لا نتوءات لغوية ولا تضاريس من الغاز أو معاظلات أو رموز مغلقة لكنها البساطة العميقة ، الشديدة الشفافية ، الجميلة الوقع ، النافذة إلى صميم الوجدان في حدة لا تجرح ، وتواصل لا يتوقف أو ينقطع .

ولقد كان الشاعر علي موعد مع الحقيقة عارية ، بلا رتوش أو تزويق منذ وعيه بمرضه العضال ، ومعرفته بقرب النهاية المؤكدة ، وفي صراعه البطولي غير يائس أو مستسلم أو مكتئب ومع العدو الساكن في حناياه ، استطاع ان يدون ملحمة رائعة من ملاحم المواجهة والتحمل والوعي النادر بالحياة والموت ، بالمنظور والملموس وما وراء الملموس والمنظور ، وكأنه يوشك أن يصل إلى تحقيق صداقة مع الموت !

لنستمع إلى ه في مقطع من ملحمته الطويلة وهو يقول:

وعندما أخبرني طبيبي
أن مرضي هو مرض النهاية
قابلت الخبر بابتسامة مطمئنة
ورفضت نصيحته بالانقطاع عن العمل
والتفرغ للعلاج الجهنمي
وقلت للطبيب الذي لم يفهم شيئا :
إن مصادقة الموت
خير من معاداته
والتقرب إلى ه

وفي اللوحة العاشرة من لوحات هذه الملحمة ـــ التي تضم تسعا وعشرين لوحة ـــ يجسد الشاعر بعضا من صور الصداقة مع الموت ، ولغة الحوار بينهما ، وكيف شجعته هذه الصداقة علي التقدم بقائمة مطالبه التي يرجوه تأجيل رحيله حتي يتما ويحققها فيقول :

عندما أتي في المساء التالي
كان يرتدي ثوبا أسود
ولم يكن في عينيه معني الاستعجال
الذي جاء به في الأمس
كان مسرخيا في الواقع
أحضرت له القهوة قبل أن يطلبها
فقال مبتسما :

إن كنا سنشرب القهوة كل مساء فعليك أن تحسن صنعها
كانت عبارة مشجعة جدا
فأخرجت قائمة الامور الباقية:
تخرج أطفالي من الجامعة
زواج ابنة علي الأقل
توفير دخل زوجتي بعد رحيلي
كتابة مذكراتي ووصيتي
وإذا سمح الوقت ،
فعل شئ مهم لبلدي
وشئ مهم آخر
للأرض وما عليها
قال وهو ينهض:
هذه خيبة أمل كبيرة
أمورك كلها دنيوية
واختفي في الضباب
قبل أن أجد كلمات أرد بها !

يهدي إبراهيم فهمي كتابه أشعار الحب عند قدماء المصريين ــ الذي ترجمه عن الانجليزية ، وأصبحت هذه القصائد تتنفس بالعربية لا ول مرة ــ قائلا:

إلي أميرتي الصغيرة سين
التي تشبه مليكتنا نفرتاري
والتي أري في عينيها بسمة الإله بتاح
والزرع الأخضر حول النيل الرب
مع حب مصري قديم

ثم يقول في تقديمه للكتاب إن هذه الاشعار ظلت ضمن أوراق البردي المحفوظة في المتحف البريطاني تحت اسم تورين (ما سبيرو) وهاريس رقم٥٠٠ وتشيستر بيتي رقمي ٢ ، ١ وفي اللوحة الفخارية المحفوظة في المتحف المصري تحت اسم أوشراكون رقم ٢٥٢١٨ وترجع جميعا إلى الفترة من ١٥٦٧ إلى ١٠٨٥ قبل الميلاد ثم ظهرت لها ترجمة كاملة بالإيطالية ، وعن هذه الترجمة الايطالية نشرت عام ١٩٦٢ ترجمة إنجليزية شعرية للشاعرين العظيمين ازرا باوند ونوبل ستوك ، ثم كانت ترجمته لها إلى العربية ــ عن الإنجليزية ــ لتعريف المصريين بهذه الأشعار الجميلة باعتبارها جزءا من التراث الأول لحضارتهم .

يقول الشاعر القديم في هذه الترجمة البديعة :

جمالها كبرعم اللوتس
وصدرها كالفاكهة
أما وجهها فهو الفخ المنصوب في الغابة
وأنا كطائر بري مسكين
أنزلق إلى مصيري
من أجل الطعم الذي يأسرني !

الشخصية الإنسانية التي امتلأت بالوعي والفكر وهموم الاستثمار والقروض والعولمة ، هي نفسها التي توهجت بالاحساس الشعري المرهف ، ولحظات البوح والافضاء ، في لغة ندية عذبة أسرة لا تنقصها موسيقي التدفق والانسياب وإن خلت من موسيقي العروض والاوزان الشعرية ، والوجهان معا : وجها المفكر والشاعر ، يكملان حقيقة هذه الشخصية ، وجوهر هذه النفس الكبيرة ، التي عاشت للوطن وللإنسانية بأكثر مما عاشت لنفسها ، وخوالج ذاتها ، واستطاعت أن تفصح عن هذا القدر من الغني والتنوع والتفرد ، وأن تبقي في الذاكرة رمزا مضيئا باقيا ، لا نسان رائع جميل .

إلي وزير الثقافة : للمرة الثالثة كثيرون دهشوا حين كتبت لا ذكر الفنان فاروق حسني وزير الثقافة بما قرره من عودة الفنان سمير خوري ــ صاحب ومدير اوركسترا أباد يوس ــ إلى تقديم عروضه بالمسرح الصغير للأوبرا ، كانت الأوبرا قد أوقفت هذه العروض فجأة ، بعد ان استمر تقديمها اكثر من عشر سنوات حققت خلالها نجاحا كبيرا وصار لها جمهورها العريض المتحمس ، وكان سبب دهشتهم انهم تصوروا أن الاستجابة لقرار الوزير قد تمت ، وأن الاوبرا اعادت الاتصال بسمير خوري ، ولم يبق الا الاعلان عن برنامج الاوركسترا وتقديم العروض ، خاصة أني كتبت اشكره هو ورئيس الاوبرا علي اهتمامهما .

لكن شيئا من هذا لم يحدث ، وسوف يدهشون إلى وم عندما يقرأون أني ما زلت أذكر السيد الوزير للمرة الثالثة ــ وبعد مرور اكثر من شهر ونصف الشهر ــ بقراره بعودة الاوركسترا إلى تقديم حفلاته ضمن الضوابط التي تضعها الاوبرا للمتعاملين بنظام الرعاة ، وهي الضوابط التي يرحب بها سمير خوري كل الترحيب .

أرجو ألا أضطر إلى تذكيره مرة رابعة ، وألا يكون كلام السيد الوزير ــ في هذا الموضوع ــ مجرد كلام !

سيف الرحبي ومنازل الخطوة الأولى

بقلم: فاروق شوشة

يستهل الشاعر العماني سيف الرحبي كتابه: منازل الخطوة الأولي: في أحوال الطفولة والأمكنته والحنين بكلمات لمحمود درويش يقول فيها: ما سر انبثاق هذا الماضي ؟ أهو البحث عن طفولة المكان ؟ أهو الشبق لملاقاة مكان الطفولة ؟ أما هو الاقتراب من سؤال سابق: ما البداية . . . ما النهاية ؟

والكتاب فصل من فصول السيرة الذاتية التي يعكف عليها بعض المبدعين ، كل بطريقته ، حيث يستشعرون فجأة وطأة الزمن ، وانسكاب أيامه ولياليه محملة بما يثقل القلب ويملأ الذاكرة . عندئذ تصبح العودة إلى الطفولة حلما جميلا ، ومهربا ، وبحثا عن شحن جديد لبطارية القلب ، واستنهاضا ، لهمة أو عزيمة ، أو عزاء عن الحاضر الذي لم يعد فيه ما يسر عدوا أو حبيبا .

والشعراء ، من أكثر المبدعين انشغالا بطفولتهم ، ومنازل خطاهم الأولي ، يحملونها معهم حثيما رحلوا ، ويحيون - بالاقتراب منها بين الحين والحين - نزوعا وجوديا يعتريهم منذ وقفة الشاعر الأول أمام الأطلال ، يبكي الديار ويتأمل حركة الأيام ، ويلملم شتات نفسه التي تبعثرت في أماكن شتي ، كل مكان منها أصبح طللا وذكري ، وكل قطعة منها كفيلة بأن تدفع بالدموع إلى عينيه ، وبالرغبة في التطهر والشفاء بها من وجد يكابده ، وصبابة تتملكه ورسم دارس لم يعد عليه معول !

يقول سيف الرحبي في الصفحة الأولي من كتابة ، وكأنه يقدم لقارئه مدخلا يمتليء بحرارة الشعر وإن خلا من الإيقاع:

علي مدار السنوات
برؤوسها النابتة في الصخر
أشجارا تغالب حتفها في الريح
علينا أن نقتحم الأمكنة والمفازات
كي نفوز بلمسة إشراقة
كأشباح موج متطاير في الظلمة
أو كعصفور يسكن القلب منذ الأزل
لكنه دائم الطيران
لأنكاد نعبر المحيط بقواربنا الشراعية
والصحراء بالجمال التي أعطبها قيظ المسافة ، الا تتلقفنا الضفاف الأولي

بنهم جارف
نهم العارف بصروف الأيام
أجيال قبلنا عبرت هذا المضيق
مضيق هرمزأو رأس الرجاء الصالح لا حلام الثروة
مثلث برمودا المعرفة
لكننا أبحرنا من غير أحلام محددة
فوق الحطام والجثث
ومستنقعات صفراء
بنبيذنا الحامض
والعيون معصوبة إلى الخلف
باتجاه الجزر التي وصلها الأزديون
بعد خراب سد ما رب
والتي لن نصلها أبدا !

يتحرك سعد بطل هذه السيرة ، والاسم الذي ارتضاه الشاعر لنفسه - من القرية إلى البندر ، في رحلة اكتشاف للعالم من حوله ، لن تتوقف - علي مدار حياته القادمة - هذه الخطوة هي التي قادتني أوائل عام السبعين من هذا القرن بالتحديد ، نحو الرحيل إلى أماكن كانت بالنسبة لي أنا القادم من الطرف الأقصي لشبه الجزيرة العربية - كما تقول الجغرافيا - في تلك الفترة المبكرة ، كانت مغمورة بإشراق فريد ، كانت جنة الحلم الأول من فرط حضورها في مخيلة طفل ، ما زلت اتذكر تلك اللحظة التي أهم بالرحيل فيها ، كانت سيارة جيب تقف أمام بيتنا القديم الذي ظلت نجومه وأحلامه تلاحقني وتجلس القرفصاء كل ليلة أمام سريري المحمول علي كتف ريح عمياء ، وتغرز نظراتها كسمار المجالس تحت السماء الأولي . وكانت أمي تقف علي حافة بئر تلوح بيدها وأنا أصعد السيارة كأنما ذاهب إلى كوكب آخر .

لم أعد أتذكر من الوجوه في تلك اللحظة عدا وجه أمي باكيا علي الحافة ووجه أبي في المطار القديم ، مطار بيت الفلج ، الذي أصبح أهم مركز تجاري في العاصمة ، أبي الذي أصبح عمره الآن يقرب من عمر هذا القرن . كانت وجوه كثير لكني لا أتذكر غير هذين الوجهين .

لقد دقت ساعة الرحيل ، الرحيل إلى العالي أو البلاد البعيدة ، بدءا بإمارة دبي - حيث نزلت الطائرة - وصولا إلى بيروت - عروس الشرق ، ثم إلى القاهرة - حيث نزل سعد بفندق في العتبة:

وفي الصباح حين فتحت الشبابيك شاهدت صخب ميدان العتبة يلتصق بعنان السماء ، كل شيء يختلط بكل شيء ، والألفة والشتائم تجرف الجميع . هذه القاهرة سأقضي فيها ثمانية أعوام ، يمكن القول إنها من أجمل سني العمر ، قبل الأفول الماحق لسنين أخذت تهرب بسرعة البرق من بين أيدينا ونحن نرقب المشهد في ذهول منكسر ، نري الشرر والشظايا تتطاير في الفضاء ونعرف أنها أرواحنا . القاهرة ـ أو نجمة البدو الرحل كما يسميها سيف الرحبي ـ هي التي سكن كيمياؤها في قلب سعد وعقله ، وجعلته يقول عنها:

نحن الذين وجدنا فيك

صغارا

وكبرنا بعيدا عن رعاية الأبوية

نحن الذين تسلقنا حواريك باحثين

بين مقابرك الألف ، عن فجر هرب

من بين أصابعنا خلسة واختفي

الفضاء مسبحة الطرقات

والليل حاجب مياهك المضاءة بالكلام

يموت الكون ، برفيق الغاضب

ويولد في ضحكه

تنتشرين بحزن كمالو أن الحرفيين وبائعي الخضار

والفواكه أسرجوا أيامهم بالدمع

يطوف الهواء علي الشرفات

حيث كنا نقرأ الكتب ولانذهب إلى المدرسة

لأن الشتاء فاجأنا هذا العام

بضباب كثيف وما بين الدقي ومقهي ريش يرتجف قلب العاشق المأخوذ علي مدار الصدمة تجلسين علي الرصيف ، تكتبين ايامك الملأي بالتوقعات أي ذكري لمقاهيك وحلوانك لمحطات قطاراتك الأليفة بنحيبها الذي لا ينقطع لها اي عاصفة ستخلع أبو اب العالم هذه الليلة ، يسحب المسافر ظله ، مجره فيه والم لكنك الصدر الاكثر رأفة من المعرفة ايزيس . ايزيس بلمسة غريبة تصنعين العصور وبين قدميك يركع الملاك احلامك التي تسافر في خضم الاعاصير . الاعاصير وقد نامت وديعة بين يديك خاتم زواج !

لقد شاغلته ايزيس التي طالع صورتها في وجه سوزان وحملها معه إلى بيروت قوس قزح العالم ، التي سيقتلها بمدية المحبة ، وهو يرتحل من القاهرة حتي الجزائر حتي

اسكوتلاند ودمشق ، فضاءات تلد اخري وهو يقول: بناء جيل ومرحلة ـ كما يقول المصنفون ـ انفرط عقدهم قبل الأوان ـ بعدها ساتجه إلى دمشق اثر عمل تمهيدي في دولة خليجيــة

مواطن الخطوة الاولي لا شك تقود إلى هاوية خطوات لا حصر لها ، ستقود إلى تيه الخطوة .

لقد قصفنا المسافة بأحلام الشعراء والاكيد انها قصفتنا فممكن الخطورة كلها في تلك الخطوة الاولي ، هذا ليس بالتنظير ، وما حاجتنا إلى ذلك امام هذه الحيوات المحتدمة بأباطرة عابرين ، وانما كلام الخطوة الاولي وهي تنغرس في عنق المضيق ، وتري الصحراء محمولة علي قرون الاكباش / بعد سنين ، سنين من البرد والمسافة والحنين ، تعود إلى مواطنك الاولي ، وتغمض عينيك علي عاصفة ستقتلعك بعد قليل إلى رحيل آخر ، منازل تصطفق أبو ابها ، دائما في اعماق الريح ، بجانب رأسي ومنازل الخطوة الاولي في هذا الكتاب البديع لسيف الرحبي ليست مجرد بيوت واماكن في القرية او البندر او العاصمة لكنها ايضا منازل في اللغة ، لغة المعرفة والابداع والاكتشاف والمغامرة ، وضميرهم وكلابهم ، واحتلوا هضبة الوادي حاملين معهم عاداتهم الازلية ، ويجلس شيخهم متراش امام الخيمة واهل القرية يتحلقون حوله وهو يسرد الحكايات عن رحلاته والبلاد التي عبرها ، وسعد يراوغ والده ليذهب إلى حيث يعسكر الغجر مخترقا فناء الخيام ومسترقا السمع إلى نكاتهم وبذاءتهم الطريفة وحين لفت انتباهه تناوب قراءة الاشعار وهي تتخذ صيغة التهدج والنغم العالي بين العارفين وأشباههم من تلاميذ البندر او القادمين من خارج البلاد وبعض الصبية الذين بدأوا في معرفة القراءة والكتابة عبر كتاتيب القرية التي تقام من سعف النخيل ، وصولا إلى عنت الوالد علي الصبي واجباره علي تمارين القراءة في خلوة البيت ، وبدء التعامل مع مكتبة الوالد التي وضع كتبها في رفوف طينية متراصة ، ضم فيها اسفارا مختلفة ، القليل منها ورثة من أسلافه وهي مخطوطات ، تتوزع بين الفقه واصول الدين والتاريخ والشعر . وهو يأمر سعد بأن يأتي بكتاب تحفة الأعيان في سيرة اهل عمان ، للشيخ نور الدين الشالي ويبدأ في القراءة ، ويأمره حين يأتي المساء وليس ثمة ضيوف في البيت ـ بقراءة قصيدة الفتاة المسحورة أو فتاة نزوي تلك التي وقعت احداثها ابان حكم الامام سيف بن سلطان قيد الارض وتسرد عبر الوزن والقافية قصة فتاة اكلها السحرة وغابت عن الوجود باعتبارها ميته ، لكنها تعود إلى الحياة في جو مشبع ببخور الخرافة وكآبتها الشفيفة ، مما يجعل مستمعيها من النساء يذرفن الدمع ، بينما يتماسك الرجال فمن العيب ان يبكوا !

ويواظب سعد علي الذهاب إلى مدرسة الكتاتيب ، ويختم القرآن ، بدءا بمدرسة الكتاتيب ، وختم القرآن ، ومجلس الوادي حيث يقرأ الفتي علي الحضور بامر

والـده - سـيرة حـرب البـسوس ووقائعهـا واحـداثها ، قبـل ان يـتعلم علـي يـدي المـدرس الخـصوصي مبـاديء الفقـه والنحـو والـصرف ، ويقـرأ عـن ظهـر قلـب ملحـة الإعـراب وتلقـين الـصبيان وبعــضا مــن جــوهر النظــام . قبــل ان ينتقــل إلى المدرســة الــسلطانية ومدرســة ود الـسودي في البنـدر ، وقبـل ان يكتـشف الـسينما ويراهـا متلصـصا وحـين ينتقـل إلى مـسقط ومـسجدها تفـتح الحيـاة الجديـدة عينيـه علـي البحـر ، وتـصبح العلاقـة مـع البحـر مبعـث تأملات وخواطر شـعر ، لقـد بـدأ زمـن الخلـوات البحريـة والتطلـع خلـف الافـق المحفـوف ومـن خـلال هـذه العلاقـة الحميميـة مـع البحـر تولـد علاقـة الفـتي مـع الحـرف ومـع الكتابـة : كتابـة اول قـصيدة يـرد عليهـا شـيخه بقـصيدة علـي نفـس الـروي والقافيـة وابتـدأت منـازل الخطـوة الاولي في الابداع .

لقد نجـح سـيف الـرحبي في اصـطياد مـساحة عريـضة مـن جـذور النـشأة والتكـوين ، ونـسجها - في تـؤدة وتركيـز شـديدين مـشعة بنثـارات مـن الـوهج ، علـي مجمـل ابداعـه الـشعري في دواوينـه : اضـاءة وكـشفا وتـأويلا ، فـضلا عـن كونهـا سـيرة ذاتيـة شـديدة الخـصوصية والتميـز ، لواحـد مـن الاصـوات الـشعرية الطليعيـة في عمـان عـن الأوبـرا وأوركـسترا أمـاديوس شـكرا للفنـان فـاروق حـسني وزيـر الثقافـة والـدكتور سمـير فـرج رئـيس الاوبـرا علـي اسـتجابتهما الـسريعة للرسـالة العاجلـة الـتي وجهتهـا إلى همـا علـي صـفحات الاهـرام ضـمن مقـال الاسـبوع الماضـي عـن شـكوي الفنـان سمـير خـوري مؤسـس ومـدير اوركـسترا اماديوس للحجـرة مـن قـرار الاوبـرا بوقـف حفلاتـه الـتي ظـل يقـدمها علـي المـسرح الـصغير طيلـة عـشر سـنوات منـذ فبرايـر عـام ١٩٩١ وبمـؤازرة جميـع رؤسـاء الاوبـرا الـسابقين والـدكتور سمـير فرج نفسه .

وعـدني الـسيد الـوزير بدراسـة الامـر فـورا وبأنـه سـيطلب مـن الاوبـرا تقريـرا مكتوبـا عـن الاسـباب والبواعـث وراء اتخـاذ القـرار واكـد لـي الـدكتور سمـير فـرج حرصـه علـي الـدور التنـويري لـدار الاوبـرا ، وتـشجيعه لكـل نـشاط فـني جـاد ، بـشرط الا يـشوبه شـبهة اي تـربح او اسـتغلال لا ن اوركـسترا امـاديوس الـذي لا تنفـق عليـه الاوبـرا بـالطبع كـان يـستعين بنظـام الرعاة في المساعدة علي اقامة حفلاته .

ثـم تفـضل الـسيد الـوزير مـشكورا بالاتـصال بـي مـرة ثانيـة ، ليؤكـد ان الامـر تم بحثـه مـع رئـيس الاوبـرا ، وانـه لا خـلاف علـي عـودة اوركـسترا امـاديوس لممارسـة نـشاطه الـسابق ، في اطـار الـنظم والـضوابط الـتي تحـرص الاوبـرا علـي تطبيقهـا عنـد الاسـتعانة بالرعـاة في دعـم اي عمـل فـني يقـام علـي مـسارحها وان الاوبـرا ستتـصل بالفنـان سمـير خـوري فـورا مـن اجـل عـودة هـذا النـشاط الفـني الجـاد تـشجيعا لـدور الاوركـسترا في نـشر الموسـيقي العالميـة والعمـل علـي زيـادة مـساحة المتـذوقين لهـذه الموسـيقي الرفيعـة وبـالرغم مـن ان الاتـصال بـين الاوبـرا وسمـير خـوري لم يـتم حـتي الآن ، فـإني كنـت طـوال الوقـت علـي ثقـة بـأن شمعـه

مـضيئة رعاهـا وزيـر الثقافـة منـذ ميلادهـا وآزرهـا جميـع رؤسـاء الاوبـرا ، لا يمكـن ان يكـون انطفاؤها في عهده ولن يطول بنا الانتظار .

بين المتنبي والعيوني

بقلم: فاروق شوشة

تنشيط الذاكرة القومية فيما يتصل بالكنوز المخبوءة في تراثنا العربي امر محمود ومشكور وهو- بالقطع- عنصر من عناصر المهمة الادبية والثقافية التي تقوم بها مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين في دوراتها المتعاقبة . من هنا يصبح اختيار ابن المقرب العيوني ـ شاعر البحرين والاحساء والجزيرة العربية ـ في القرنين السادس والسابع الهجريين خطوة موفقة في هذا الاتجاه وحركة من اجل الكشف عن صفحات مجهولة في تراثنا وثقافتنا وإبداعنا العربي .

لكن الاجواء التي صاحبت هذه الدورة ـ من خلال ابحاث ندوتها العلمية وتعقيبات المعقبين ومداخلات المشاركين ـ حفلت بترديد اسماء المتنبي وابي فراس ومهيار والشريف الرضي في القدماء والبارودي في المحدثين خاصة بعد ان شغلت هذه الاجواء بالحديث عن تأثير القدماء في شعر العيوني وتأثير شعره هو في شعر المحدثين من بعده . وعندما ضاقت الدائرة اكثر وانشغل الجمع بعقد المقارنات بين المتنبي والعيوني كانت ثم مخاطر وخوف من الوقوع في المحظور وبالتالي استخلاص نتائج ودلالات لا يرضي عنها البحث العلمي أو التأمل المنصف البعيد عن جلبة المناسبة . وان كانت هذه المقارنات والمقاربات قد قدمت ـ بالرغم من هذا الاحتراس ـ ما دة بحثية ونقدية صالحة للنظر والمراجعة والافادة منها في جوانب دون اخري .

لكن ما الذي اغري الباحثين بالولوج في هذا المدخل والوقوع في شرك المقارنة بين المتنبي والعيوني والالحاح علي هذا الخيط الذي تصوروه واصلا بين الشاعرين . يبدو لي انهم عثروا علي بعض الوشائج التي هيأت لهذا الاقتران بين الشاعرين علي المستويين الانساني والشعري . كلاهما صاحب ما ساة عام ة وخاصة مغترب بين قومه في عصره وزمانه رافض للواقع الذليل المهين الذي يتحرك فيه باحث عن الجذوة العربية او العروبية التي يمكن ان تستثير الهمة وتنفخ في روح الامة وتجدد من عزيمتها وكلاهما محذر من الاخطار المحدقة والاعداء الخارجين المتربصين منبه إلى خطر الانشغال بالفتن والحروب والصراعات الصغيرة بين الحكام والامراء . وترك الخطر الاعظم الذي تحقق اخر الأمر بسقوط بغداد عاصمة الخلافة تحت سنابك المغول .

كان المتنبي في زمانه يعلن في صراحة ووضوح:

انا في أمة تداركها الله

غريب كصالح في ثمود

ما مقامي بأرض نخلة الا
كمقام المسيح بين إلى هود
ويجهر- باعلي صوته- محذرا ومنبها:
وانما الناس بالملوك وما
تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب
ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل ارض وطئتها امم
ترعي ب عبد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلبسه
وكان يبري بظفره القلم

كان أبو الطيب (٣٠٣ هـ - ٣٥٤ هـ) يؤكد في شعره غربته واغترابه قلقة وتوتره وحدته وتفرده وحلمه الدائم بمشروعه او بأسطورته التي اخترعها لنفسه والتي ظلت نثارات منها تتناقلها الريح في مشرق الوطن العربي ومغربه مشعلة الفتن والحرائق وجدل العلماء والشارحين .

وبعد اكثر من قرنين من الزمان يجئ العيوني٥٧٢-٦٣٠ هـ عازفا علي الاوتار نفسها بعد ان ضاق به عصره وزمانه ورجاله وهو الذي ينتمي إلى الاسرة الحاكمة في البحرين: اسرة العيونيين لكن طموحه وتطلعه وعزيمته وصراحته واباءه وكبرياءه ورفضه للضيم جعل منه نغمته ناشزة في السياق وحصاة في زيت الالة الحاكمة التي تدور وتطحن كل شئ وانتهي الأمر - بينه وبين قومه- بالسجن ومصادرة ممتلكاته ودوره وبساتينه متجاهلين حق القرابة والنسب مما جعل يذوق مرارة ظلم ذوي القربي الذي حدثنا عنه طرفة بن ال عبد في معلقته وعندما يطلق سراحه تدفعه قسوة الشعور بالاغتراب إلى الرحيل بعيدا عن المكان الذي وهبه حياته وعشقه وهيامه: البحرين متجها إلى العراق حيث تتسع دائرة الهموم وهو يري الشروخ تتسع في جدار الوطن الكبير والخلافة العجوز ترزح تحت وطأة الشيخوخة وتريد ان تنقض تحت اقدام اول من يغزوها وكان المغول هم الغـــــــــــــــــزاة .

وكان شعر العيوني - كما كان شعر المتنبي - مفصحا ومشيرا

كم ارجع الزفرات في احشائي
وإلام في دار الهوان ثوائي
ما عذر حر في المقام ببلدة
آسادها ضرب من المعزاء

ويري فيمن حوله من الامراء والحكام طغا ما لا يليق بهم مجد ولا فخار:

ما للطغام وللفخار وملهم
في سربه كبلية عمياء
خلوا الفخار لمعشر أو لو كمو
ذل الهوان بغلظة وجفاء

وفي موضع آخر من شعره يبسط اسباب ارتحاله وضربه في فجاج الارض يحذر وينبه ولا من سميع:

اذا خطة انكرت من ذي عداوة
اتاني من الاحباب ادهي واعظم
ومن يك مثلي ضيمه من رجاله
فترحاله لو مسه الضر احزم
لعمري لقد طال انتظاري ولا اري
سوي نار شر كل يوم تضرم
سأوحلها اما لداعي منية
واما لعز حوضه لا يهدم !

اتصور ايضا ان الباحثين والمعقبين في الندو العلمية لدورة العيوني قد رأوا بين الشاعرين: المتنبي والعيوني وشائج من روح البداوة واكتمال زهوها وتألقها . ولم تكن البداوة في شعرهما مجرد انتماء إلى الجذور والصاق الاصالة والفطرة والمعجم اللغوي ومفردات الحياة وعالم التصورات والكائنات الوحشية وغير الوحشية بقدر ما كانت صيحة في وجه الحضارة او التحضر واصطناع لغة غير اللغة بعد ان لا ن الجلد- كما قال بعض نحاة ذلك الزمان- وتخثردم الرجولة وفسدت نزعات البطولة . البداوة في شعرهما او لنقل التمسك بالبداوة ورفع شعاراتها اللغوية والحياتية والقيمية هي وسيلة الدفاع عن النفس في عصر يتغرب وزمن يتهاوي تحت اقدام الطامعين والغاصبين . ونحن نحفظ للمتنبي بيته المشهور:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفي البداوة حسن غير مجلوب

هذه التطرية هي في رأي المتنبي لون من الزيف والاصطناع وستر القبح وتزيينه حتي لا ينكشف ، بينما البداوة انكشاف وصدق ووضوح . وجاء العيوني مستمسكا بهذه العروة الوثقي: روح البادية ومعجمها الأمر الذي يجعل قارئ ديوانه يتوقف امام ما يعتبره حوشيا او مهجورا او غريبا غير ما لوف . وربما لا يراودنا هذا الاحساس

بالحوشية اوالغرابة كثيرا امام شعر المتنبي فقد نجحت عبقريته الشعرية في سبك كل ما هو بدوي وسكب كيمياء شاعريته ومائها علي لغته في احكام بنيانه وتشكيله الفني فلا نتوقف عند مفردة او تعبير بقدر ما ننجرف في حميا الوجد الشعري ونحن نتلقي هذا الفيض المنهمر من شاعرية باذخة وافق لا يداني .

لكن الشاعرين يفترقان ويتباعدان عند شعر المديح . المتنبي شاعر يتكسب بشعره ويعلن هذا بوضوح ويتعجل عطاء الممدوح حين يكون في مثل لؤم كافور الاخشيدي وبخله . وان كان لا يخفي طيلة الوقت ان طينته من طينة الملوك وانه احق من ممدوحيه بالملك والمجد والابهة والسلطان:

وفؤادي من الملوك وان كان
لساني يري من الشعراء !

اما العيوني فشاعر فارس لا يتكسب بشعره . بالرغم من ان ستين في المائة من شعره- كما ذكر الباحثون- يدخل في دائرة المديح الا أنه ينهج في مدائحه منهجا يليق بأنفته وكبريائه وطموحه . انه اولا امير عيوني ينتمي إلى الاسرة الحاكمة وهو لا يقصد خليفة او اسيرا او حاكما طمعا في نواله وانما املا في مساعدته علي استرداد ما نهبه اهله وقومه الاقربون من امواله وممتلكاته وبساتينه - دون مراعاة لحرمة او نسب - او دعوة لهؤلاء الحكام والامراء ان يتنبهوا إلى ما يحيط بهم من مخاطر وما ينتظرهم من وقائع واحداث .

وشعر العيون في هذه الحال هو جرس التنبيه للخطر والحث علي الافاقة والصحو والاستعداد واليقظة .

ثم هو في مرحلته الثالثة - بعد طلب المساعدة والتنبيه للمخاطر - شعر يتجه إلى خلق النموذج والقدوة والمثال .

هنا يتجاوز الشاعر حدود قدرة الممدوح وشخصيته الحقيقية لينسج من حلمه وخياله الشعري وتطلعاته العروبية صورة لما ينبغي ان يكون عليه القائد المرجو والامير القدوة والبطل المنقذ . وهو مستوي فكرة المديح نفسها التي ظلت تجيش في وجدان المتنبي وهو يرسم صورة لمدوحيه تتجاوز حقيقتهم بكثير وتعيد تشكيلهم علي عينه . وكأن المتنبي كان يرد لمدوحه صنيعه حين يغرقه بالعطاء والنوال: أنت ايها الممدوح تظنني صنعيتك من صنع كرمك وعطائك لكنك في حقيقة الأمر من صنع شعري وحلمي وقدرتي علي الابداع والتشكيل . من هنا اصبح سيف الدولة الحمداني - في شعر المتنبي - أروع ألف مرة من حقيقته في واقعة ، بل من واقع كل الحمدانيين الذين تصفهم كتب التاريخ بانهم كانوا اسوأ من يمثل خصال البدو وانهم نهبوا اموال الرعية واملاكها وان امرهم بينهم

كان شديدا لا سيما بين فرعهم في الجزيرة . ولقد قتل أبو المعالي بن سيف الدولة خاله ابا فراس الحمداني بعد استئمانه .

ومن قبله قتل أبو الهيجاء عمه سعيدا والد ابي فراس الحمداني وقبض أبو تغلب بن ناصر الدولة علي ابيه وحبسه في قلعة كواشي حتي ما ت هؤلاء الحمدانيون ، وفي مقدمتهم سيف الدولة اطلوا من خلال شعر المتنبي باعتبارهم ابطالا فاتحين واصبح سيف الدولة المنتمي لهؤلاء رمزا للامير الفارسي العربي الذي تتطلع إلى ه الاعناق عبر العصور وابو الطيب يقول فيه :

عليم باسرار الديانات واللغي
له خطرات تفضح الناس والكتبا
ويقول : وأكبر تيهي انني بك واثق
وأكثر ما لي انني لك آمل
لعل لسيف الدولة القرم هبة
يقول : يعيش بها حق ويهلك باطل
وقفت وما في الموت شك لواقف
كأنك في جفن الردي وهو نائم
تمر بك الابطال كلمي هزيمة
ووجهك وضاح وثغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهي
إلي قول قوم انت بالغيب عالم !

وهو قول يرتكز علي ما كان من دور لسيف الدولة في صد هجمات الروم وحماية الحدود الشمالية للامبراطورية العربية التي تمزقت في معارك شبه مستحيلة خاضها مسلحا بشجاعته وعصاميته وايمانه بعروبته .

انها الطريق التي مضي فيها من بعده العيوني وهو يقيم من شعره نماذج لشهامة العربي فروسية وبطولة ومجدا وكرما حين يقول في ممدوحه :

وهل مثله يوم ـ المعاد ـ وسيلة
إلي الله الا رهطه المتقدم
ابوته اما نبي معظم
إلي الله يدعو او امام مكرم
همو القوم ان ما لوا امالوا وان دعوا
انالوا وان خفت بنو الحرب اقدموا

وان وعدوا اوفوا وان اوعدوا عفوا
وان سئلوا النعماء جادوا وانعموا
وان عاهدوا عهدا اصروا وحافظوا
وان عقدوا عقدا أمروا واحكموا
وان حاربوا قوما اقاموا واقعدوا
وان خوطبوا يوما اجروا وافحموا !

ولكن هل تكفي المشابهة او المشاكلة في الموقف والازمات الخاصة والعامة والاحلام والقيم والعروبية بين الشاعرين في عقد المقارنات بينهما وسيطرة هذا الجو المشغول بسحر المقارنة علي ابحاث الندوة العلمية في الدورة الثامنة لمؤسسة البابطين ذلك ان الشعر غير الشعر والافق غير الافق والعبقرية عند احدهما لا يقاس بها شعر جيد لثانيهما ذلك ان العبقرية عنقاء مستحيلة اما الجودة ففي متناول المجيدين .

مجدي نجيب والخلاص بالحب

بقلم: فاروق شوشه

يواصل شاعر العامية الجميل مجدي نجيب رحلته الابداعية الحافلة ، متكئا علي مدد موفور من زاد خبرته الجمالية ، وامتلاء وجدانه الثري بخبرات حياتية ، شديدة العمق والانسانية ، ومنذ اتسع مجال مغامراته الفنية لقالب الرواية في كتابه ولد وأربع بنات الذي أصدره منذ عدة سنوات ، وهو يتابع مجاهداته ومكابداته الروحية ولوحاته القلمية البديعة ، ويفاجئنا في هذا الكتاب الجديد العاشقان: رسائل رومانسية الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، باتساع مجال كتاباته لقالب جديد هو قالب الرسائل الأدبية والفنية والشعرية ، التي ينتظم عقدها عالمي الشعر والغناء مضمورين معا ، لا ول مرة علي هذه الصورة الجميلة من المزج والتناول والتحليل .

مجدي نجيب ينجح في إيهامنا فنيا بهذا القالب الذي ارتضاه لكتابه الجديد: المرأة الرومانسية التي يحدثنا عنها يمتلىء نهر ثقافتها بفيض المحبة الدافىء ، وفي الجانب الآخر: قلب رجل يرتدي ملابس الحب النارية ، يناور ويداور ، أسلحته كلمات مغموسة في عسل العشق . والمؤلف ، مبدع الشخصيتين: الرجل والمرأة ، يخايلنا في سياق تصويره الفني بأنه لا يعرفهما شخصيا لكنه ـ بكل تأكيد ـ قد حدد لكل منهما هدفه ومسار رسائله ، وهذه المساحة من عسل العشق ، التي يحاول كل منهما الاقتراب الحميم من جوهرها والارتواء من مذاقها العذب والحارق .

إنه يقترب أكثر من عالم الغناء ، وتأمل الدور الذي لعبته الاغنية في إثراء الوجدانين المصري والعربي ، علي المستويين الفردي والجماعي ، ومنظومة القيم التي جسدتها الاغنية علي مستوي الكلمة واللحن والأداء ، ومدي ارتباطها بعديد المواقف العاطفية والمناسبات الوجدانية واتساعها للحظات الوجد والمكابدة ، ومسار المغامرات والاقتحامات المنتصرة والمنهزمة . . في حكايات العشاق وليالي المحبين .

وواضح أن مجدي نجيب قد احتشد لهذا الدور ، الذي تختلط فيه ملامح المؤرخ بقسمات الناقد المتذوق والشاعر المرهف الوجدان ، والحب الذي تفضحه كلماته لا عيونه وهو يجوس هنا وهناك . وأمامه عالم الغناء الذي يبدو حينا في صورة غابة وحشية ، وحينا آخر وكأنه سماء مرصعة بالنجوم ، وهو في مده وجزره يقذف بالدرر واللآلىء وباللوعة والدموع ، وكثيرا ما تطفو فوق مياهه أجساد الغارقين من العشاق والمغرمين . هذا الدور المركب الذي يجمع بين المؤرخ والناقد والشاعر ، يقف فيه المؤلف موقف التعاطف مع من كتبت هذه الاغنيات عنهم ومن أجلهم ، مستخدما وعيه النشيط والمثابر ، في التحليل الكاشف عن حقيقة عدد من النصوص المكتوبة بالفصحي والعامية ،

وتسليط الضوء علي ما تحمله هذه النصوص من شعارات ورموز دالة ، وهو الذي في كل ما أبدعه من أغنيات وقصائد لم يغادر أبدا جملة الحب بتنويعاتها المختلفة ، ولم يبتعد عن منطقة اهتمامه الاساسية بالانسان ، في حالاته المختلفة ! محبا ومحبوبا ، صادقا وكاذبا ، واثقا ومخدوعا ، حكيما وساذجا . من هنا فقد تنوعت رسالته الشعرية ، وصبت في صياغات مختلفة ، بعضها عميق الاتصال بالموروث الشعبي ، وبعضها يجاهد من أجل إبداع عام ية مشتركة يلتقي عندها أبناء الوطن الواحد ، دون أن تكون مصطبغة بصبغة شديدة المحلية ، وهو منذ ديوانه البعيد صهد الشتا وصولا إلى روايته ولد وأربع بنات وكتابه الجديد العاشقان يعكف علي تطوير أدواته وإنضاج لغته وإكسابها فيض خبرته وحساسيته ، مستفيدا من قدرته الفذة علي الرسم بالكلمات ، وهو الرسام الفائق الامكانيات والموهبة في مجال إبداع اللوحة والتشكيل الفني . لذا ، فإن الصورة في إبداع مجدي نجيب ـ القصائد والاغنيات ـ حاضرة ومسيطرة ، وناطقة بأكثرمما يريد أن يقول ، بفضل حيويتها وتألقها ، واستقرارها في النفس لا تغادر ولا تزول .

وكلما وجد مجدي نجيب في طريقه كشفا جديدا ، وكلمات طازجة ، توقف أمامها وسارع إلى إثراء كتابه بها ، كما فعل مع كلمات الشاعر إلى وناني ريتسوس:

من البداية تهجيت الموسيقي معك
اكتشفت الموسيقي
لأتحدث معك دون صمت !

وكما فعل مع كلمات مصطفي صادق الرافعي في كتابه أوراق الورد في رسالة منه إلى محبوبته:

لروحك أنفاس تناسمني فأستنشقها مهما انصدعت المسافات بيننا ، كأن ما ملأ النفس يملأ الكون ، فمن شعوري الدائم بانسكاب روحك في روحي ينبعث غرامي ، ويتجسد هواك في منفذ كل معني إلى نفسي . ومن هذا تنبعث أشواقي الحزينة ما دمت لا أراك ، . وإذا كان الغرام سكر الروح بالروح ، فما العشق إلا التمرد العنيف من حواس الجسم المحب ، إذا حرم أن يسكر بالجسم الذي يحبه . وصولا إلى كلمات ناظم حكمت: أنت أيها الإنسان ، إما أن تكون حبيبا مولها ، أو عدوا لدودا . إما ان تتعرض للنسيان التام كأنك لم تكن ، أو تبقي حاضرا في الأذهان كل لحظة .

والدعوة التي يطلقها شاعرنا الجميل مجدي نجيب ، هي دعوة للتطهر بالحب ، الحب الصحيح في تجلياته وآفاقه العديدة ، والذي يصحبنا في كل دروب الحياة: البيت والشارع والسوق والمصنع والريف والمدينة والبادية والصيف والشتاء والربيع والخريف ، فلا خلاص لنا إلا بالحب ، به نتواصل ونتماسك ونتآزر ، ولا نهوض لنا

إلا بالحــب ، بــه نــبني ونحلــم ونتحــدي ، ولا مــستقبل لنــا الا بالحــب ، بــه نغــني معــا ونبدع معا ، ونجدد الحياة معا وما أروعها من دعوة ، وما أنبلها من رسالة .

مجدي نجيب وزمن الغناء الجميل

بقلم: فاروق شوشة

الذين عرفوا زمن الغناء الجميل وأدركوا بعض نجومه ورموزه الفنية الكبيرة في الكلمة أو اللحن أو الأداء هم وحدهم الذين يعذبهم ما وصل إلى ه حال الغناء الآن ويشقيهم أن الدنيا من حولهم قد تحولت إلى ضجيج صاخب ليس فيه طعم الفن او مذاقه الحقيقي وأن ما يتردد علي الألسنة من الكلمات التي يغنيها مطربو ومطربات هذا الزمان- ما عدا استثناءات قليلة- شاهد علي الانحدار الشديد في لغة الغناء هبوطا وسوقية .

لهذا آثر شاعر العامية الكبير مجدي نجيب- بعد أن ابتعد بنفسه عن الخوض في المستنقع الغنائي وقرر العزوف عن التعامل مع مروجي هذا الهبوط وهذه السوقية- آثر أن يذكرنا بمذاق الفن الحقيقي وأن يفتح أمامنا صندوق الموسيقي- الذي يعرف مفاتيحه وأسراره وكنوزه- من خلال كتابه الجديد الجميل' من صندوق الموسيقي: زمن الغناء الجميل' الذي صدر أخيرا عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ضمن مطبوعات مكتبة الاسرة . ولأن مجدي نجيب يمتلك مقومات الإبحار في هذا الخضم المتلاطم وتمتلئ جعبته بمخزون هائل من المواقف والحكايا واللقاءات والمقابلات والكتابات التي يمكن ان تصنع منها ذاكرته الواعية سجلا حيا حافلا لا تنقصه اللمحة ولا تفوته الدلالة ولا يغيب عنه الهدف هدف استعادة هذا الزمان الجميل: قيما ورموزا أحداثا وألحانا أعلاما وشخصيات مؤلفين وملحنين ومطربين كتابا وصحفيين ورأيا عام ا يواكب ويؤازر ويلهم ويصحح .

ولأن مجدي نجيب تتنازعه دوما موهبتان أصيلتان: موهبة إبداع الكلمة الشاعرة واللوحة القلمية وموهبة إبداع اللوحة المرسومة الناطقة بألوانه وظلاله المتوهجة في مساحات السواد والبياض وعبر تشكيل الألوان وزخم الإحساس فقد استطاع أن يقوم بهذه المغامرة البديعة المركبة: استدعاء الكلمات المغناة التي كانت زاد الوجدان والمواقف التي أحاطت بمولد الألحان وبدايات الاحداث وشبكة العلاقات الواسعة- المتداخلة والمتقاطعة- التي حكمت دولة الغناء وقدمت وأخرت ، وكافأت وعاقبت واهتمت وأهملت فأنتجت في بعض الأحيان مواسم للبهجة والفرح وفي بعضها الآخر زمنا للبكاء والحزن والدموع . ثم هو يضيف إلى هذا كله استثمارا آخر لموهبة الرسم من خلال تقديم العديد من اللوحات القلمية- التي تفيض فنا وعذوبه وإنسانية- لكثير ممن عرفهم واقترب منهم وانفعل بهم وتركوا في وجدانه وذاكرته آثارا لا تزول .

لقد أبدع مجدي نجيب- قبل هذا الكتاب الجديد- عددا من دواوين شعر العامية ضمنت له مكانه ومكانته بين شعراء العامية الكبار خاصة أن عام يته- في كتاباته الشعرية والغنائية- تتميز بمعجمها القاهري ونبرتها المتحضرة وبعدها عن عام يات الصعيد او السواحل والشطوط أو البادية او الريف . وكأن عام يته اتسعت لكل هذه العاميات وهذبتها واستخلصت أصفي ما فيها من مفردات وصور وتراكيب وإيحاءات ودلالات .
كما أبدع بالاضافة إلى هذه الدواوين الشعرية عشرات الأغنيات التي التصق أكثرها بوجدان جمهور الاغنية في زمن الغناء الجميل ، تغني بها نجوم الطرب والغناء: عبد الحليم حافظ وفايزة أحمد وشادية ومحرم فؤاد وهاني شاكر وسعاد محمد ومدحت صالح ومحمد ثروت وسميرة سعيد وطروب ومحمد منير وغيرهم من بينها- علي سبيل المثال أغنيات: قولوا لعين الشمس غاب القمر ، يا طريقنا يا طريق لشادية ، كامل الأوصاف ل عبد الحليم ، العيون الكواحل ويا هلال غاب عنا واحتجب ، وآخد حبيبي وقول لكل الناس احنا حبينا وتعال وشوف لفايزه أحمد وقدك المياس لمحرم فؤاد وسيبوني أحب لهاني شاكر وأوعدك لسعاد محمد وشبابيك وسؤال ويامراكبي وبأعتب عليكي لمحمد منير .

محمد منير الذي يرسم له مجدي نجيب هذه اللوحة القلمية: كان في براءة حبة السمسم . وفرحت بابتسامته المتوجسة الخجولة التي ترجمت فورا مشاعره فهو يحتاج إلى من يقف بجانبه في مشواره وكان قد انضم إلى ه أو تبناه معه الملحن أحمد منيب الذي يعتبر رائدا في الاغنية الجديدة حيث كانت بصماته ورؤياه تعبر عن عبور الأغنية من خندق اللوعة والتقليدية إلى احضان الناس وعلي الأخص شباب الجامعة والمثقفين ورجال الصحافة . واختار الألحان النوبية لكي تكون أساس التجديد بعد كتابة كلماته باللهجة العامية العربية لتكون مفهومة للجميع . أما الموضوعات فقد كانت مختلفة عن موضوعات أغنياتنا التي كانت متربعة ومستقرة حتي عام ١٩٧٤ إلى أن غني محمد منير من كلمات عبد الرحيم منصور أغنية شجر الليمون من ألحان أحمد منيب .

كام عام ومواسم عدوا
وشجر اللمون دبلان علي أرضه
فينك بيني وبينك
أيام وينقضوا

كان من حظ محمد منير أن يولد في عصر عبد الحليم حافظ بتجربته الجديدة أمام غول الرومانسية فبدا غناءه بالدف وآلات الإيقاع يصاحبه عود الملحن أحمد منيب في تجمعات المثقفين واحتفالاتهم وفي منازلهم وكنت أشفق علي أصحاب الغناء في تلك الفترة من صدمتهم بهذا النوع الجديد من الغناء الذي لا يعتمد علي بهرجة الآلات الموسيقية والغناء بالملابس الرسمية . لقد كسر محمد منير هذه القاعدة ليقف علي المسرح بال' تي

شـيرت ' والبنطلـون الجيـنس بـلا أناقـة ولا كريمـات علـي الوجـه . كـان مكتفيـا بالتجمـل بغنائه الذي لا يشبهه غناء أحد من معاصريه في الالحان أو الكلمات أو طريقة الأداء '

وعلـي ذكـر شـاعر العاميـة وكاتـب الأغنيـة المبـدع عبـد الـرحيم منـصور الـذي كتـب لمحمـد مـنير أولـي أغنياتـه وألبوماتـه الأولـي فـإن مجـدي نجيـب يـصوغ مـن ذوب وجدانـه وفيض إحـساسه وصدق وفائـه لوحـة بديعـة نديـة بالـشجن والتعـاطف لمحمـد مـنير يقـول فيهـا : استطاع شـعر العاميـة في الـستينيات ان يقفـز قفـزات متتاليـة مـن النجـاح والانتـشار وكنـت أنـا و عبـد الـرحيم منـصور والأبنـودي وسـيد حجـاب أكثـر الـشعراء الـذين ظهـر إنتاجهم مـن نافـذة الإذاعـة . وكـان النـاس يعـشقون هـذا الـشعر الـذي أصـبح علـي كـل لـسان وخـصوصا البـسطاء لا نـه كـان يـستخدم لغـة حيـاتهم إلى وميـة الـتي تـشكل تعـاملاتهم ومـشاعرهم ، وأيـضا لا ن اللغـة كانـت متواصـلة مـع موروثنـا الـشعبي المـلئ بالمواويـل والملاحـم الـشعبية الـتي رسمـت الحيـاة الاجتماعيـة في مـصر علـي مـر العـصور وهكـذا اسـتقبلت القـاهرة أشـعار عبـد الـرحيم منـصور وفتحـت لـه صـدرها لا نـه كـان أكثرنـا تعمقـا في جـذور الأرض الـتي شـكلت الوجـدان الـشعبي واقترابـا مـن سـخونة الجنـوب في مـشاعر أهلـه المليئـة بالمواويـل الحزينـة . ولقـد لفـت نظـري الإهـداء الـذي كتبـه لديوانـه الأول' الـرقص علـي الحـصا' وأنـا أقـوم بتـصميم غلافـه فـسألته : لـماذا تهـدي الـديوان إلى أمـك بنـت الـشيخ إسماعيـل الخـلاوي قـال في براءتـه المعهـودة : لولاهـا لـما أصـبحت شـاعرا ولا أصـبح هـذا الكنـز المخـزون مـن الـشجن والصور .

ضـحكت قـائلا : هـل كانـت أمـك تقـول الـشعر انفعل بتلقائية محببة : أمي هي الجذور الشعرية التي أمسكت بها فعندما كنت صغيرا

كنـت أجلـس بجوارهـا أمـام الفـرن وهـي تجهـز رغيـف الخبـز علـي نـيران خـشب الـسنط وكانـت تغـني أمـام النـار ، فأشـعر بغنائهـا مثـل النقـوش والرسـومات الملونـة المحفـورة علـي جـدران معابـد الفراعنـة كنـت أشـعر أن غناءهـا الغريـب هـو الـذي ينـضج الخبـز وليـست نيران أخشاب السنط .

وغـرق عبـد الـرحيم لحظـات في وجعـه القـديم وأخـذ يـسبح في تيـاره معانـدا وتلـون وجهه بحزن غامض ، فأنشد من تراث غناء السواقي :

رمانك حادق وعنبك ما ينداق
روح بلادك يا غريب الداري
روح بلادك واعزم الخطاوي
مجروح قلبي ومنين أجيب لي مداوي

وصيت عليا مين يا ابن والدي
وصيت عليك الخال يعوض الوالدي

لكن أروع لوحاته القلمية علي الإطلاق هي التي رسمها لبليغ حمدي- الملحن المتوهج الذي انتهت حياته العاصفة بما يشبه المأساة والذي ملأ الدنيا بألحانه وأصبح وحده سيد الساحة الغنائية طيلة عشر سنوات تراجع خلالها إبداع الملحنين الكبار وآثر بعضهم الصمت والعزوف- ويبدو أن صحبة مجدي نجيب لبليغ حمدي- الطويلة والعميقة والحميمة- هي التي جعلته يستخدم فرشاته وألوانه- بالإضافة إلى قلمه- في إبداع هذه اللوحة حين يقول: كان بليغ حمدي- عندما عرفته في الأعوام الأولي من الستينيات في القرن الماضي- له كرش كبير مثل البطيخة وشكله العام لا يسعده ويمنع انسجام العود الموسيقي العادي أو الاسترخاء في حضنه في شكل رطب يريحه أثناء العزف . لذلك كان يملك عودا خاصا رقيق الحجم ويشبه الجيتار في رقته .

أذكر اني كنت أجلس متأملا منصتا إلى بليغ وهو يعزف علي عوده الخصوصي لا أملك غير أن أسرح متأملا في لوحة حية ألوانها الأنغام والتيمات التي يلعب بها طفل خجول فأنا بالفعل أمام طفل يداعب لعبه الخشبية خوفا من خدشها . وكنت لا أتخيل أن اراه يوما ما في حالة غضب ولو كان هذا الغضب عفويا فالصورة الكاملة أمامي لطفل مستأنس لا تملك عندما تراه سوي أن تضمه إلى صدرك وتهننه . وعندما يتحدث كنت أتذكر علي الفور الموسيقار موتسارت الذي بدأت تظهر عبقريته مبكرا رافضا للتقاليد التي تكبل فنه والتعاليم المتوارثة التي تقهر فكرة الابتكار في الابداع . فهو يتألق في ثقة علي أجنحة حلمه ولا ينحني أمام قسوة السلطة وإغراء المال . وكانت روح صديقي الفنان بليغ حمدي- أيضا- متأججة علي نار مشتعلة كالبراكين تحت حلمه متمردة علي كل الاشكال الفنية التقليدية . ومع ذلك خيل لي في بعض الأوقات أنه يحلم ولكن بلا ترتيب في أوراق أحلامه أي دون خطة محددة وكأنه يسعي إلى تحقيق حلم السيطرة علي الوسط الغنائي مثل أي ديكتاتور لا يستمع إلى غيره ولا يعترف بالخطأ . ومع ذلك فهويعمل مثل مصنع متكامل ولكن بلا نظام يسير عليه يعمل باستمرار ودون توقف- لكن في شكل عشوائي- من أجل السيطرة علي سوق الأغنية لكي يتربع وحده علي عرشها ولذلك بدأ يدخل إلى المناطق المحظورة والتصرفات التي أثارت زوبعة من الأقاويل حوله لا نه يعطي بعض ألحانه بالمجان لمطربين ومطربات . وبهذا الشكل منع الماء والهواء عن زملائه الملحنين وفي نفس الوقت لا أحد ينكر أن ألحانه المجانية هي ألحان جيدة وجديدة ومختلفة وتمنح من يؤديها صك النجاح والتألق السريع فمن من المطربين والمطربات يرفض هذه الهدايا المجانية .

علـي النقـيض مـن هـذه اللوحـة كـان حـديث مجـدي عـن المـوجي- نجـم المرحلـة الرومانـسية في الـتلحين- وهـو يقـول عنـه :' بـدأنا نـدخل في صـداقة حميمـة كـان يحلـو لـه أن يحدثني عن نفسه وعن فنه وعن علاقاته النسائية الكثيرة .

وفي أثنـاء حديثـه كنـت أشـعر بعفويتـه وتلقائيتـه الـتي يتميـز بهـا أبنـاء الريـف الـذين لا يعرفـون اللـؤم والمنـاورة . ورغـم علاقاتـه الكـثيرة وزيجاتـه المتكـررة- مـن داخـل الوسـط الفـني- فهـو لا ينـسي زوجتـه ودائمـا كـان يقـول لـي: زوجـتي أم أمـين هـي أعظـم امـرأة في العـالم فيهـا ملامـح مـن شخـصية ناعـسةالتي عانـت مـرارة الـصبر- في الاسـطورة الـشعبية- وتحملت ما لم تتحمله امرأة من أجل زوجها أيوب !

مـا الـذي صنعه مجـدي نجيـب في كتابـه الجديـد البـديع مـن صـندوق الموسـيقي: زمـن الغنـاء الجميـل لقـد صـنع مـا صـنعه الروائـي الكـبير نجيـب محفـوظ في رائعتـه المرايـا حـين جعلنـا نـري العـصر بـشخوصه ونماذجـه في مرآتـه ونحـاول نحـن- قـراءه ودارسـيه- التعـرف علـيهم جهـدنا . لكـن عبقريـة نجيـب محفـوظ جعلـت مـساحة الفـن تباعـد وجـه الواقـع والحقيقـة فبقيـت شخـصيات المرايـا في مرحلـة المـا بـين الواقـع والفـن نخمنهـا ولا نـستطيع ادعاء معرفتها .

أمـا مجـدي نجيـب فقـد صـنع' مرايـاه' علـي صـورة مغـايرة ، الشخـصيات كلـها معروفـة ولامعـة ومـؤثرة . وعلـي غـلاف كتابـه أبـدع الفنـان محمـود الهنـدي في رسـم وجـوه أم كلثـوم و عبـد الوهـاب والقـصبجي وفريـد الأطـرش وأسمهـان ومـدحت عاصـم والمـوجي ومحمـود الـشريف والطويـل وليلـي مـراد و عبـد الحلـيم وبليـغ وزكريـا أحمـد وفـايزة أحمـد ومـنير مـراد وشـادية و عبـد الـرحيم منـصور ومحمـد مـنير وهـاني شـاكر و عبـد الوهـاب محمـد . وكأنـه يقـول للقـارئ هـذا هـو فهـرس شخـصيات مجـدي نجيـب في' مرايـاه' الفنيـة وهـو يـدلي بـشهادته علـي عـصر مـن الغنـاء الجميـل ويجعلنـا- بـصورة غـير مباشـرة- نستحـضر روعـة الكلمـة وجمـال اللحـن وعذوبـة الآداء ونمـسح عـن آذاننـا صـدأ القـبح وضـجيج الغنـاء الهـابط لغـة ولحنـا وأداء المختفـي في زار الـصخب والـضجيج لعلـه يـنجح في سـتر الأصـوات القبيحـة والـضعيفة البعيـدة عن السلامة والصحة والاحساس والقدرة علي التعبير .

ومـا يقـوم بـه مجـدي نجيـب مـن جهـد فـني ورصـد وتحليـل شـعوري ووجـداني في هـذا الكتـاب هـو في حقيقتـه حلقـة جديـدة في ثلاثيتـه الـتي بـدأت بروايتـه البديعـة ولـد وأربـع بنـات الـتي صـدرت منـذ عـام يـن عـن مكتبـة الاسـرة وكتابـه الجديـد رسـائل رومانـسية الـذي ينتظـر دوره في الـصدور لتكتمـل رؤيتـه البانوراميـة الـشاملة لواقـع الغنـاء في مـصر وهـو واقـع يتطلـب العديـد مـن القـراءات الواعيـة والتحلـيلات الكاشـفة علـي غـرار مـا أنجـزه واحـد مـن أبنائه المبدعين المخلصين . . شاعر العامية الكبير مجدي نجيب .

اصوات شعرية أحمد بخيب

أحمد العدواني عناق الشعر والفكر

بقلم: فاروق شوشة

يطرح شاعر التنوير من الاسئلة أكثر مما يقدم من الاجابات ، فهو مشغول دوما بروح التمرد والثورة والرفض والتجاوز . . يسائل السائد من المواضعات والاعراف والأوضاع والتقاليد ويشعل بكلماته حريقا يلتهم جدران الزيف والتسليم والمذلة والتبعية والهوان ، ويفضح اقنعة الزيف والنفاق . لذا ، فهو نقيض الالتباس والمراوغة ، عدو الجهالة والتخلف والجمود .

وأحمد العدواني (١٩٢٣ -١٩٩٠) واحد من كبار عراء التنوير في أدبنا العربي الحديث ، ومن أكثرهم وعيا بهموم وطنه الكويت ، والتحديات التي تواجهها أمته العربية ، ووضع الانسان في خضم مشكلته الوجودية والكونية اتيح له من روافد المعرفة الحية ، ووهج المعاناة ، وانهمار التجارب وبراكين الغضب والتمرد ، مما جعل منه طاقة فكرية وروحية بالغة التأثير في مواقع العمل والمسئولية التي شغلها منذ عودته إلى الكويت عام ١٩٤٩ بعد دراسته في القاهرة منتميا إلى كلية اللغة العربية في الأزهر وحصوله علي الشهادة الأهلية ، وعمله مدرسا في المدرسة القبلية المتوسطة ثم في ثانوية الشيخ ، وسرعان ما تولي مسئوليات إدارية وفنية في وزارة المعارف الكويتية (التربية) كان آخرها الوكيل المساعد للشئون الفنية قبل ان ينتقل إلى وزارة الارشاد والانباء (الإعلام) مديرا للتليفزيون ثم وكيلا مساعدا للشئون الفنية ، وشهد عمله في هذه الوزارة انطلاقة مشروعه التنويري ثقافيا وفنيا بإنشائه للمعهد العالي للفنون المسرحية والمعهد العالي للموسيقي واصداره لمجلة عالم الفكر وسلسلة من المسرح العالمي مواصلا البدايات الأولي له التي شهدتها القاهرة حين اصدر وهو طالب بعثة تعليمية فيها مجلة البعثة عام ١٩٥٠ بالمشاركة مع زميله في الدراسة والتنوير حمد الرجيب ومشاركته بعد ذلك في تحرير مجلة الرائد الصادرة عن نادي المعلمين في الكويت عام ١٩٥٢ وفي عام ١٩٧٣ يعين أحمد مشاري العدواني أمينا عام ا للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت ، فيعمل علي اصدارمطبوعات المجلس سلسلة كتاب عالم المعرفة مجلة الثقافة العالمية وسلسلة كتاب التراث العربي ، مواصلا جهاده ونضاله من أجل اشاعة مناخ الثقافة والمعرفة بمعناها الواسع والشامل وبناء اجيال من شباب الكويت المثقف يدين للعدني بفضل الريادة والاقتحام والمبادرات الأولي وهو يمثل مع رفيقيه الكبيرين عبد العزيز حسين وحمد الرجيب ثلاثي النهضة والتقدم في المشروع الثقافي الكويتي المعاصر حتي تقاعده عن العمل في عام ١٩٨٧ .

هـذا الـسجل التنـويري مـدخل اساسـي لفهـم شـعر أحمـد العـدواني وقراءتـه علـي الوجـه الـصحيح والنفـاذ إلى اعماقـه البعيـدة والكـشف عـن رمـوزه واسـتعاراته ، وجـه المفكـر فيـه لا ينفـصل عـن وجـه الـشاعر ، وكلاهمـا يـضيء بحقيقتـه وقلقـه الـدائم وتطلعـه وهـو في الـوجهين مـن وجـوه تجلياتـه وابداعـه وتألقـه يجـافي النـاس ويبتعـد عـنهم ويقنـع بعزلتـه ليعـرفهم أكثـر علـي طريقـة صـلاح عبـد الـصبور أجـافيكم لا عـرفكم ويلـتحم بـصميم مجتمعـه وجحـيم تناقـضاته وانحرافـه نتيجـة لطغيـان الثـروة واخـتلال القـيم والمـوازين في ظـل الطفـرة واهتـزاز الوجـدان الانـساني محـذرا ومنبتهـا ومـصححا بينمـا يغلـق علـي نفـسه صـومعته حبـيس تأملاتـه وعزلتـه سـلتفعا شملتـه كمـا كـان يفعـل البـدوي القـديم الـذي يـستعيد شـاعرنا صـورته وهيئتـه ومنطقـه في العديـد مـن قـصائده مفجـرا خنينـه الـدائم الموصـول إلى عهـود الفطـرة والنقـاء والبراءة في وجه الاقتحام العاتي لعهود الثروة والتسلط والقهر والتحكم في الإنسان:

كنت هنا ، وكان لي بيت من الشعر
نسجته صنع يدي بالصوف والوبر
قام علي مخضرة الطرر
تومه الضيفان بين مرتقي ومنحدر
والشمس تفتر له ، ويضحك القمر
كنت هنا ، وكان لي علي الحمي مقر
ملاعب الربيع بالأعشاب والزهر

حتي يقول:

ياليت شعري ما أري ؟ ما فعل القدر ؟
ملاعب الربيع قد حلت بها الغير
عفي علي آثارها ناس من الحضر
شادوا عليها لهمو القصور من حجر
كأنها مقاير معكوسة الصور
كنت هنا ، وكان لي بيت من الشعر
واليوم ، ما لي هاهنا بيت ولا أثر !

هـذا التمـرد الفكـري الوجـودي الملـتحم بالوجـدان الـشعري والـرؤي الابداعيـة لا حمـد العـدواني هـو الـذي جعـل الـشاعر والمـؤرخ الكـويتي خالـد سـعود الزيـد يقـول عنـه في الجـزء الثـاني مـن كتابـه ادبـاء الكويـت في قـرنين لقـد كـان القلـق سـوط راحلتـه في رحلتـه إلى اكتنـاه الحقيقـة متـدثرا بـالرمز ، ملتحفـا بـه لكـيلا يـري العـابرون ملامحـه ، فـلا يعرفـون مـن وجهتـه سـبيلا ، بيـد ان هـذا الرمـز كـان خفيفـا في بداياتـه يكتنفـه الغمـوض فيمـا قالـه أخـيرا ، لـذلك كـان العـدواني صـوتا متفـردا يـسير في الـدرب وحـده فلـم يجـار في طرقتـه مـن شـعرائنا

في الكويت احدا ، ولم يجر وراءه احد علي رغم من زعموا ان للشاعر تأثيرا علي من لحقه وهو قول مردود لا يستند إلى دليل ولا يدعمه شاهد ، لقد اعجب بالمهجرين في بداياته وبمن درجوا في طريقتهم في التجديد ، كما كان معجبا فيما نقرأ له أخيرا برواد الشعر الحر ، ولكنه لم يتأثر بهم تأثر مقلدين كان ابن عصره وبيئته وسهيل إذا استقل يمان فلقد حاول دائما ان يفتح نوافذ نفسه لتستقبل جميع التيارات الشفافية ذات الاثر في تطوير الفن والفكر وعلي رأيه فإن الاعجاب بالأديب الواحد والكاتب الواحد شيء ترفضه نفسي ، فشعر العدواني صورة ذاته الحالمة الممتزجة بالواقع . وان شئنا قلنا انه ذاته القلقة وسيرته نحو المجهول المعلوم لم يكن قلقه مصطنعا بل كان تطلعا انه قلق الصوفي المتحفز وعقله المستوفز علي رأي ابن عربي فهو لا يرفض شيئا ولايقف عند شيء فله علي كل مورد وقفة وعلي كل مشرب ما خذ شأن الغزالي في طريقه .

يقول العدواني علي طريقة المتصوفة وشعراء الحب الالهي في وصف جلوات النشوة الروحية واسرار الوجود وردان الجمال والوادي المقدس ، والنمر المقدسة التي افاض في ذكرها من قبل إمام المجيين وسلطان العاشقين ابن الفارض:

هات اسقنيها لست من سماري
إن لم تكن للكأس رب الدار
هي بنت من ؟ الشمس دارة أهلها
أبدا ونحن الأهل للأقمار
أنا من إذا شقت عليه تفتحت
دنياه عن روض وعن أطيار
ولمحت اسرار الوجود تطيف بي
نشوي ، وأردان الجمال جواري
ووقفت بالوادي المقدس ساعة
وأخذت عن نفحاته أشعاري
الله للعشاق في سبحاتهم
مسو اضفاف الخلد بالاذكار

اتيح لي أن أعرف أحمد العدواني وأجالسه عن قرب في دوانيه الصديق الأديب الذواقة عبد الله الرومي الذي عمل مستشارا إعلاميا بسفارة الكويت في القاهرة سنوات طويلة متصلة في حقبتي الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين ، أرجو ألا يغير الأستاذ الفاضل مصحح الأهرام الكلمتين السابقتين إلى الستينات والسبعينات كما فعل بمقالة الأسبوع الماضي لا ن ستينات هي جمع ستين أما ستينيات فهي السنوات المنسوبة لعقد الستين وهي الكلمة الصحيحة للتعبير عن المعني المقصود وعمل عبد الله الرومي مع

سفير يشارك العدواني وعيه واستنارته ومشروعه الثقافي والفني هو حمد الرجيب وفي بيت عبد الله الرومي الذي تحول إلى دوانية كما يقولون في الكويت أو صالون ثقافي كما نقول نحن في مصر شهدت العديد من مشاريع العدواني واحلامه وهي تأخذ طريقها إلى التحقيق من خلال حوارات ومناقشات وجدل خلاق بين مثقفين كبار ومسئولين في الثقافة والإعلام ونخبة من اساتذة الجامعة اصحاب الرؤي الفكرية والحضارية ، كان العدواني واسطة العقد بين هؤلاء جميعا ، ينصت ويتأمل ويستوعب أكثر مما يقول أو يشارك لكنه عندما يتكلم يكون قد استوعب واطمأن لما سيدلي به ، ليجيء رأيه في النهاية خلاصة الخلاصة كانت دوانية عبد الله الرومي تزدان في ذلك الوقت بأمثال: عالم الاجتماع أحمد أبو زيد وأستاذ الأدب الفرنسي الدكتور محمد القصاص ورجل الإدارة المسرحية سعيد خطاب والناقد الكبير لويس عوض والكتاب الكبير عبد الرحمن الشرقاوي والكتاب الكبير أحمد بهاء الدين والمسئول الاعلامي الكبير صلاح عبد القادر الذي كان همزة الوصل وجسر تحقيق الآمال والاحلام بين العدواني ومشروعه من ناحية ووزارة الثقافة والاعلام في مصر من ناحية أخري علي مستوي إنشاء المعهد العالي للفنون المسرحية والمعهد العالي للموسيقي والمجلات الفكرية والثقافية المتخصصة والمترجمات المختارة في سلسلة من المسرح العالمي التي اشرف عليها الدكتور محمد إسماعيل موافي والشاعر الكبير صلاح عبد الصبور وغيرهم ولم يكن هذا المشهد كله بعيدا عن الاستعانة بجهود الأستاذة والفنانة الكبيرة رتيبة الحفني وخبراتها الأكاديمية والفنية ودعمها لمتطلبات هذه النهضة في مجال الموسيقي والغناء وقد كان السفير حمد الرجيب نفسه واحدا من خبراء هذا المجال وهو الذي سيتابع في مرحلة لا حقة منجزات هذا المشروع التنويري وثماره الناضجة عندما يصبح وزيرا للشئون الاجتماعية .

كان وجه الشاعر طيلة هذه السنوات لا يفصح عن نفسه الا نادرا بالرغم من ان كتاباته التي كان يطويها عن عمد لم تتوقف ولم يصدر ديوانه الأول أجنحة العاصفة عام ١٩٨٠ الا بعد جهد هائل من صديقيه الشاعر خالد سعود الزيد والدكتور سلمان الشطي الأستاذ بجامعة الكويت ، لحثه علي نشره ومعهما الناشر يحيي الربيعان وفي عام ١٩٩٦ بعد رحيل شاعرنا بست سنوات صدر ديوانه الثاني أوشال عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بعد ان قام بجمع ما دته وقراءته واختيار قصائده الدكتوران خليفة الوقيان وسالم عباس خداده وكان صدوره عن المجلس الوطني للثقافة في الكويت لفتة كريمة من الأمين العام حينذال الدكتور سليمان العسكري الذي يقول في تقديمه للديوان ان ديننا للعدواني دين مزدوج فنحن مدينون له ثقافيا باعتباره شاعرا كويتيا متميزا ومؤسسا للعديد من الهيئات والاصدارات الثقافية واحد رواد النهضة التعليمية والثقافية في الكويت الحديثة ونحن مدينون له انسانيا وثقافيا باعتباره المؤسس المشارك للمجلس الوطني للثقافة والفنون

والآداب إلى جانب الأستاذ عبد العزيز حسين وأول أمين عام له ، لذا فإننا في المجلس الوطني عندما نقدم هذا الديوان للقاريء العربي عام ة والكويتي والخليجي خاصة فإننا نحاول ان نؤدي دينا في اعناقنا للرجل الذي أضاف لنا الكثير وتعلمنا منه الكثير .
لقد رحل العدواني في عام ١٩٩٠ تاركا بين ايدينا شعره وأنا شيده الوطنية والعاطفية ومفجرا فنيا اسئلته المدببة التي ما لاتزال تبحث عن اجابات :

ياصاح ما العمل ؟
غطت علي مسالكي الحيرة
أشيد الجبل
أشحن كل صخرة فكرة
لكنه إذا اكتمل
وامتلك الخبرة والقدرة
هاج به السهمل
ونقضوه صخرة صخرة
ياصاح ما العمل ؟
غطت علي مداركي الحيرة !

وهو يرحل واعيا بحقيقة دوره المتمرد وحقيقة تأثيره ومما سيتخض عنه من ردود افعال لكن ذلك كله لا يعنيه لقد قال كلمته صادقة ومضي تاركا في نفوس عارفيه ومريديه وأبنائه جذوة لا تخبو وشعاعا لا يغيب هو شعاع الوعي الكاشف والاستنارة الهادية مسجلا بشعره الواخز ومواقفه الوطنية والقومية وتاريخه الادبي والفكري وصورته الانسانية النبيلة صفحة وضيئة باقية في الذاكرة الحية للكويتت والعروبة معا ناطقة بكلماته وصوته العميق :

لقد تمردت فما يهمني
أن ليس لي تاج وصولجات
كان الرحيل دأبي
منذ عرفت دربي
وغرقت جزائر المكان
في بحر الزمان !
أجل ، رحل العدواني وصوت شعره يقول :
رحلت عنكمو لكي أحطم الأسوار
وأنشر الأسرار في ضوء النهار
واشهد الحياة والكون بلاجدار
فطالما أعاقني حد

وحال دون رؤيتي سد
وحكمت شرائع الظلام
علي حتي في ملاعب الأحلام
وكان لي بكل خطوة مقتل
أجل ياسادتي أجل
رحلت عنكمو
ولم أزل أرحل !

الفيتوري وربيع الشعراء

بقلم: فاروق شوشة

مثلما ينزل الندي علي النبات الظامىء المشرئب ، بأعناقه وأوراقه ، كان حلول الفيتوري بيننا في مناسبة ربيع الشعراء ، ربيعا للشعر يخصب به ويزدهر .

والذين احتشدوا من حوله ، وازدحمت بهم قاعة المجلس الأعلي للثقافة ، علي امتداد يوم بكامله ، صباحه ومسائه ، هو يوم الاربعاء الماضي ، كانوا علي موعد مع الشعر الحقيقي ، في صفحة من أروع صفحاته ، لا زيف فيها ولا تصنع ولا ادعاء ، وإنما هي وحي العبقرية ، ونتاج مكونات شعرية وثقافية وحضارية ، امتزجت فيها أعراق ثلاثة: سودانية وليبية ومصرية ، وبيئات شتي ، عربية وأجنبية ، مكونة هذا النموذج الشعري ، الذي وصف الناقد الكبير محمود أمين العالم رحلته - في مقدمته الضافية للديوان الأول أغاني إفريقيا بأنها رحلة من طراز فريد .

هل نحن - لجنة الشعر والعديد من شعراء مصر - الذين كرمناه ، أم أنه هو الذي كرمنا ، بانتقاله إلى نا حاملا أعباء مرضه العضال ، حريصا علي أن يكون بيننا ، وأن يعود إلى أرض تاريخه وذكرياته ، وملتقي أصحابه وأصفيائه ، ومهبط وحي قصائده ومنطق دواوينه الأولي في رحلته الشعرية الحافلة ؟

عبر ثلاثة عشر ديوانا شعريا: أغاني إفريقيا ، عاشق من إفريقيا ، اذكريني يا إفريقيا ، سقوط دبشليم ، البطل والثورة والمشنقة ، ابتسمي حتي تمر الخيل ، أقوال شاهد إثبات ، معزوفة لدرويش متجول ، شرق الشمس ، غرب القمر ، يأتي العاشقون إلى ك ، قوس الليل قوس النهار ، أغصان الليل عليك ، عريانا يرقص في الشمس - عبر هذه الدواوين ، وعلي امتداد أكثر من نصف قرن ، كانت شهادة الشاعر علي عصره لم يسكبها في لغة غير الشعر ، وليس لنا أن نتلمسها إلا في شعره ، في كل منعطفاته وتحولاته ، شأن النهر الهادر الجارف ، يشق مجراه في ثقة وقوة ، ويغير خريطة الشطآن من حوله ، خالعا علي الضفاف من فيض خصوبته وتجدد عناصره . الفيتوري ، بحضوره الجميل ، يعيدنا إلى عصر من الشعر ، كانت له راياته وملامحه وقسماته ، هو عصر المجددين الكبار ، والحالين الكبار ، والمغامرين الكبار ، يخلعون علي القصيدة بهاء أرواحهم ، وأشواق وجدانهم ، ومطامح نفوسهم ، ويعيدون إلى أوتار الشعر العربي فتنتها بالايقاع ، وزهوها بالصورة الشعرية غير المألوفة ، وعفوية اكتشافاتها المفاجئة ، ويطهرون فضاء الشعر من المدعين والكذبة ، وما أكثرهم في كل عصر وأوان !

كانت كلمة شاعر مصر أحمد عبد المعطي حجازي في مستهل الاحتفالية - باسم شعراء مصر ، كلمة حميمة جامعة ، وفي الندوة التي أقيمت من حول شعر الفيتوري ، تألق صديقا عمره صبري العسكري و عبد القادر حميدة في رسم لوحة إنسانية وفنية بديعة عن الشاعر المتفرد والإنسان الصعب ، وتألق الناقدان والأستاذان محمود الربيعي ومحمد فتوح أحمد في جلاء كثير من أسرار شاعريته وتحليل كثير من نصوصه . وتحدث صديقه مجدي يوسف عن ترجمة شعره إلى الألمانية باعتباره مدخلا لدراسة الأدب العربي الحديث في الجامعات الألمانية ، كما عرض الباحث عايدي علي جمعة ، محاور رسالته للماجستير عن شعر الفيتوري . أما منشدو شعره في أمسيته الحافلة ، فقد تحولت اختياراتهم من قصائده وأداؤهم المتوهج لها ، إلى سيمفونية من النغم ، تتماوج حركاتها طبقا للنص الشعري ومتطلبات الأداء في طبقتي القرار والجواب . لا أظن قاعة المجلس الأعلي للثقافة - الذي قدم درعه إلى الشاعر الكبير - قد شهدت يوما للشعر كهذا إلى وم ، في صباحه ومسائه ، ولا امتلأ جمهورها بمثل هذا الزخم الذي عاشه طيلة ساعات من المشاركة الواعية ، والاندماج الكامل ، وكان صوت الفيتوري المسجل ، وهو يلقي قصيدته عن الأخطل الصغير بشارة الخوري بين جمهوره اللبناني ، يختلط بدوي المستعمين إلى ه في أمسية القاهرة في عناق حار حميم واصلا بين الماضي والحاضر ، بين عام ي١٩٦٩ و٢٠٠٨ ، مخترقا فضاء الشعر إلى المستقبل اللا محدود .

ويبقي شعر الفيتوري ، وهو يقول:

لم أجد غير نافذة في سمائك
مبتلة بدموعي
فألصقت عيني فوق الزجاج

لعلي أراك
لعلك تبصرني وأنا هائم
مثل سرب من الطير

منهمك في مداك
لماذا تلوح لي من بعيد
وتتركني مغلق الشفتين

وتدخل في غابة من سناك
لماذا تغيب ! كأنك لم تدر أني زرعتك في جسدي

فازدهرت نقوشا

وأني نشرتك في أفقي
فاشتعلت شموعا
وأني رسمتك أودية ، ومدائن مسحورة

وتشكلت مثلك في زرقة الكائنات
ومازلت أولد في زهر الكلمات !

الفيتوري . . نموذجا

بقلم :فاروق شوشة

الناقد والكاتب المغربي " بنعيسي بوحمالة " يتيح لنا فرصة جديدة لا عادة قراءة الشاعر السوداني الليبي المصري الكبير من خلال دراسته الجديدة عن شعره والتي تحمل عنوانا دالا هو: النزعة الزنجية في الشعر المعاصر: محمد الفيتوري نموذجا . الكاتب يستخدم مصطلح الزنجية مرادفا للدلالة الإثنية واللونية والثقافية لكلمة السواد ، كما يستعمل كلمتي: الزنوج والسود للدلالة علي الجنس الأسود الموزع بين إفريقيا وأمريكا .

ثم هو يتكئ في دراسته علي المجموعات الشعرية الثلاث الأولي للفيتوري وهي: أغاني إفريقيا ، عاشق من إفريقيا ، اذكريني يا إفريقيا ، بالاضافة إلى مسرحيته الشعرية أحزان إفريقيا ، الأعمال الأربعة تتكرر فيها لا زمة إفريقيا في العنوان ، وفي المضمون الشعري ، وفي وضع الإنسان الأسود في مواجهة الأبيض ، وبالتالي مواجهة الاسترقاق والاستعمار والتمييز العنصري ومتطلبات الحرية والتحرير والثورة والوضع الإنساني .

ويلفت نظر الباحث المغربي أن الشعر السوداني المعاصر ، وبخاصة شعر الجيل الذي ينتمي إلى ه الفيتوري: محيي الدين فارس وتاج السر الحسن وجيلي عبد الرحمن يضج بأصداء هذه النزعة الزنجية ، وأن الشعر السوداني المعاصر هو الوحيد الذي يجمع ــ في توازن ــ بين الولاء للعروبة والولاء للزنجية ، محمد الفيتوري مبدع كبير ، بل هو ظاهرة شعرية استثنائية ، غير قابلة للتكرار ، ينطوي قدره الابداعي علي حدين مسنونين ، أولهما أنه حقق بطلقته الشعرية الأولي وهي ديوانه أغاني افريقيا الذي نحتفل الآن بنصف قرن علي صدوره – موقعا له علي القمة ، لم تتطلب رحلته الشعرية خطوات طويلة للوصول ، ولد الفيتوري وفي فمه شعره الذهبي ، تماما كما ولد يوسف إدريس في مجموعته الأولي أرخص ليالي في الزمن التاريخي نفسه ، وفي يده قلمه الذهبي وقصته القصيرة المتجاوزة ، وثاني هذين الحدين أن مسئولية الميلاد والبدء من القمة ظلت تطارد الفيتوري حتي إلى وم ، تطالبه بالصعود المستمر ، والتجاوز الدائم في مساره الشعري . وهو ما حقق كثيرا منه بالفعل ، عندما تطهر من مرحلة الزنوجة أو الزنجية ، وانفتح علي مجال وطني وقومي وإنساني أرحب ، وعندما أتيح له أن يصغي لروافد صوفية عميقة في جذوره ومكوناته الأولي ، فتلونت قصائده في دواوينه الأخيرة بأنغام وصور وتجليات ، تتشابك فيها رؤي العالم الرحب الذي تتحرك فيه المشاعر بين العديد من عواصم العالم العربية والأجنبية ، والتنويعات الثقافية التي تفاعل معها حيثما أقام ،

وإن بقيت الأصداء الإفريقية البعيدة تمثل إيقاعات الطبول البعيدة في خلفية المشهد الشعري الراهن للفيتوري .

الفيتوري الذي كان يصرخ ـــ بأعلي درجات الصوت حدة وضراوة – في الخمسينيات :

قلها ، لا تجبن ، لا تجبن
قلها في وجه البشرية
أنا زنجي وأبي زنجي الجد
وأمي زنجية
أنا أسود ، لكني
حر أمتلك الحرية
أرضي إفريقية ، عاش

هو الذي تحول في معزوفة لدرويش متجول إلى هذا النغم الشعري المغاير:

في حضرة من أهوي . .
حدقت بلا وجه . .
ورحمت براياتي . .
عشقي يفني عشقي . .
مملوكك ، لكني . .
عبثت بي الأشواق
ورقصت بلا ساق

ولم تخل رحلته الشعرية ـــ علي امتداد مسيرته ـــ من ردود أفعال نقدية ، في طليعتها الدراسة النقدية التي أنجزها الناقد والمفكر الكبير محمود أمين العالم وتصدرت المجموعة الشعرية الأولي أغاني إفريقيا والتي كانت بمثابة مطالبة الفيتوري بمواجهة ضرورية مع الذات فهو ـــ في رأي العالم ـــ يعكس ما ساته الخاصة علي العالم ، ويصوغ لنفسه ـــ لون بشرته ، ومن إحساسه العميق بالمرارة والحقد ومن طبول الذكر ـــ وطنا نائيا بعيدا هو إفريقيا ، وعلاقته بهذا الوطن البعيد علاقة انفعالية خالصة ، فأخذ يلونها بلون مشاعره ، ويوحد تاريخه ، وتاريخها ، ويخلع عليها ما ساته الخاصة ، ويبشر من خلالها بخلاصه المنشود . وصولا إلى المرحلة التي تخفف فيها الشاعر من الغنائية التي تثب أحيانا إلى حد الخطابة ، لم تعد الغنائية هي القيمة الأولي للتعبير ، بل أصبحت أداة لا براز الدلالة ، ولم تعد المعركة معركة إفريقيا وحدها ، لم تعد معركة لونية ، بين أبيض وأسود ، بل أصبحت ـــ في رأي العالم أيضا ـــ معركة قيم إنسانية

عـام ة ، معركـة بـين الاسـتعمار والـشعوب ، بـين الطغـاة والأحـرار الثـائرين . ولـيس العـالم بالناقـد الوحيـد الـذي اسـتوقفه البركـان الـشعري الهـادر المـسمي بـالفيتوري . هنـاك كـثيرون احتــضنوا هــذه الموهبــة الــشعرية الطاغيــة منــذ طلقتهــا الأولــي: كامــل الــشناوي ، زكريــا الحجـاوي ، رشـدي صـالح ، رجـاء النقـاش وغيرهـم ، ودارسـون مـن مـصر والعـالم العربـي قــدموا عنــه دراسـات ضـافية -بعـضها كتــب مــستقلة - : محمــد مــصطفي هــدارة ، مفيــد قميحــة ، وفيــق خنــسة ، محمــد الــشرغيني ، عبــد ه بــدوي – في دراســته عــن الــشعراء الــسود ، صــلاح فـضل ، صــلاح الـدين المليـك ، كمـال عيـد ، رشـيدة مهـران ، ميـشال شيحة ومنيف موسي .

وأمثـال الفيتـوري مـن كثـار الموهبـة ، وأصـحاب القـدرة الفـذة علـي التعـبير والتـصوير ــ وإن كانوا قلـة نـادرة ـــ هـم الـذين يقنعـون القـارئ العربـي ـــ إلى وم ـــ بـأن الـشعر العربـي لا يــزال بخــير ، وأن بحــيرة الــشعر الواسـعة ـ بـالرغم ممـا يلقـي فيهـا كـل يـوم مـن مخلفـات وفـضلات وسمـوم وجهـالات وادعـات ـ لم تتكـدر بكاملـها ، ولم تنفـق أحياؤهـا المائيـة ، وكائناتها الجميلة الباهرة .

الفيتوري ونار في رماد الأشياء

بقلم: فاروق شوشة

من بين شعراء جيله ، لمايزال الشاعر الكبير محمد الفيتوري أشدهم إخلاصا للإبداع الشعري ، وأكثرهم قدرة علي اصطياد طائر الشعر واقتناص القصائد الجديدة ، كما أنه لا يزال متمسكا بحرص القديم علي من يكتب له تقديما نقديا لما يصدره من دواوين ، بدءا من ديوانه الأول ـــ الذائع الصيت ـــ أغاني إفريقيا الذي كتب مقدمته الضافية الناقد الكبير محمود أمين العالم ، وانتهاء بديوانه الجديد نار في رماد الأشياء الذي صدر في العام الماضي ضمن مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب .

وقد اختار الفيتوري لتقديم ديوانه الجديد الكاتب أو لعله المفكر اللبناني الدكتور غالب غانم الذي أتعرف عليه لا ول مرة ، والذي نعرف من مقدمته أنه شقيق الشاعر جرج غانم الذي رثاه الفيتوري بإحدي القصائد البديعة في ديوانه وعنوانها الايقونة ولست أجد تفسيرا لحرص الفيتوري علي هذه المقدمات أكثر من إحساسي بأنه لا يزال يري أن هناك كثيرا من اسرار إبداعه الشعري ، وتجلياته فيه ، لم يكشف عنها النقاب ، وأن هذه المقدمات ـــ علي اختلاف درجاتها من النجاح والتوفيق إذ لم ترتفع واحدة منها إلى مستوي العالم لديوانه الأول ، وكانت بمثابة الطلقة النافذة ، والكتابة التأسيسية الناقدة لشاعرية الفيتوري والكشف عن ينابيعها وآفاقها والتنبيه إلى ما قد يعترض مسارها من شوائب وموروثات لا بد أن يتخلص منها ولا يقف عندها ـــ هذه المقدمات قد تأخذ بيد القارئ ـــ في هذا الزمان الذي اختلط فيه كل شئ واضطربت أساليب التلقي الشعرية ، وأصبح كثيرون من قراء الشعر ـــ الذين لم يزودوا بعلاقة حميمة مع اللغة يؤثرون القصيدة القريبة المأتي ، المباشرة الاداء ، التي لا تتحدي قدرتهم علي القراءة الصحيحة والتذوق الناضج .

أيا ما كان السبب الذي يكمن وراء اهتمام الفيتوري بكتابة مقدمات لدواونية ، بعد هذا العمر الطويل من الإبداع ، والمشروع التأسيسي لمكانته الشعرية ، فإن شعره يظل أكبر بكثير من هذه الكتابات ، التي كأنها رسائل مودة ومحبة من أصدقاء أكثر من كونها رؤي نقدية كاشفة ومقتحمة .

لن يدهشنا إذن قول الدكتور غالب غانم في تقديمه لديوان الفيتوري الجديد: المحور الأول اللافت في مجموعة نار في رماد الأشياء هو المستمد من عنوانها إنه محور النار والرماد ، إلى قظة والهجوع ، النور والظلام ، العاصفة والسكون البشري المستطيل ، محمد الفيتوري ـــ علي غرار الشعراء الثوار ، أو الرومنطيقيين أو الحالمين أو حملة لواء

التغيير في الأزمنة منها ، ويمزج بين النوعين مزجا مشدودا بين الأمل واليأس ، دون أن يتخلي عن الرسالة التي انتدب لها: أن يكون علي الضفة العاصفة ، أن تترافق كلماته ومجاري الانهر ، أن يكون رفيق المراكب والمواكب ، أن يعزف علي إيقاع الشعر المتمرد ، ألا يعيش في غابات الزحام:

ويحدث أن يستحم الدجي في العيون وأن يعقد إلى أس ألسنة الشعراء وأزمنة الموت ، أمكنة تتناسل في الموت والشعر هذا الذي تتلاطم في الكون أمواجه ، ثم تنصب فينا يظل ـ كما كان منذ ألوف السنينه و الشعر

يعزف إيقاعه المتمرد عبر نخاع العظام في ختام تقديمه يقول الدكتور غانم: ولأقل أخيرا إن للبهاء اشكالا شتي ، من بينها الزهر إذا تفتق ، والنبع إذا تدفق ، والجمر إذا تأجج ، وكل حسناء إذا لا ح وجهها والقوام ، ومرايا النفوس إذا عكست الخير والصفاء ، والمنادي إذا بشر بانتهاء قهر وبزوغ فجر ، ومن اشكال البهاء مجموعة نار في رماد الأشياء عنوان الديوان ، وهو اسم احدي قصائده ، عنوان دال .

إنه يعني اعترافا من الفيتوري بالرماد ، رماد الأشياء ، وبالمرحلة الرمادية في عمر الإنسان والمبدع ، وهي اللحظة الوجودية التي عاناها الشاعر اللبناني خليل حاوي في ديوانه البديع نهر الرماد والرماد عادة مخلفات حرائق اشتعلت وخمدت ، أو بقايا شهب ونيازك أحترقت في الفضاء ، أو هو دبيب الشيخوخة القاسية يغلف النفس ويطفئ الروح ويشيع جوا عدميا ومناخا من الهزيمة والانسحاب .

لكن الفيتوري ـــ العارم الشعور والإرادة ـــ يري في رماد الاشياء نارا ، يصر علي إضرامها وتوهجها ، حتي لو سكن ايقونة ذاته مثل إله إفريقي ، ونسج خيوط الايام الرثة في صلواته ، فلابد له أن يخضوضر عشبا وشعرا في موت الأشياء:

هي نجمتك الأبدية
مهما غاصت في غابات ضفائرها
سحب الليل السوداء
فتنقل ملء فضاء الكون
وأطلق خيلك تصهل حول مدار الشمس
وترفع أرؤسها النارية
في فجوات الماء !

* * *

فحاذر أن تتلمس بعضا من أحلامك
في فلك الاقمار الميتة

واسكن مثل إله إفريقي
في ايقونة ذاتك
وانسج خيطان الأيام الرثة
في صلواتك
فبغير سحابة روحك
لن تتفجر ينبوعا في الصخر
ولن تخضوضر عشبا
في موت الاشياء !

في هذا الديوان الجديد للفيتوري كل ما للشاعر من خصائص وقسمات شعرية في دواونية السابقة: قدرة خارقة علي التصوير والتجسيد ، وإيقاع عنيف موار يهز القصيدة ومتلقيها من سطرها الأول حتي الأخير حتي لكأنه بقايا من بقايا تلك الطبول الإفريقية المدوية والصاخبة التي سكنت وجدان الشاعر واستقرت فيه ، ولغة حية حارة ، لا تبرد ولا تسقط في شرك النثرية ، مستمدة حيويتها وحرارتها وحضورها من طاقة شعرية عارمة هي إحدي الطاقات الكبري في ديوان الشعر العربي الحديث ، واصرار علي اصطياد القصيدة كما يفعل الصياد الذي ينصب شركا ثم لا يكتفي بالشرك فيلقي من حوله بالحبوب الشعرية هنا ضرورية وعلي درجة كبيرة من الاهمية ، فهي وحدها التي تميز البدايات الحقيقية للقصيدة من البدايات التي لا تزيد علي كونها محاولات لضبط المقام والإيقاع ، — والفيتوري — بكل خبرات الرحلة الشعرية الطويلة التي تقارب الآن نصف قرن من الزمان — يدرك جيدا ما يفعله ، لذا لن يستعصي عليه الشعر ، وسيواتيه — في نهاية الأمر — طائعا ممتثلا ، ولن يعود الصياد خاوي الوفاض .

يقول الفيتوري في قصيدته البديعة الغائب: ويغسل أمواجه النهر في ناظريك

ويهبط رخ السنين
وتمضي ، تسائل نفسك عنك
وتبحث عن لعبة الطفل بين يديك
أهذا هو الفرح المستحيل ؟
أهذا هو الحلم ؟

منذ سنين أتي هذه الأرض طفل ،
غدا يافعا ، وغدا رجلا حالما
وغدا شاعرا قلقا
مقلتان معلقتان علي حائط الليل
فالأرض واحدة

شفاه النبيين واحدة
ثم غاب الرجل
غاب في فمه الشعر
وانحدر النهر
ثم أتي الآخرون
ولم تزل الأرض والناس والكلمات
هي الأرض والناس والكلمات
لماذا إذن جاء
ثم انتهي مثلما جاء
ثم تقاطر في إثره الآخرون ؟

هل أقول ــ كما قال حجازي ــ إن الشاعر الذي تقلبت عيناه طويلا في الزمن ، وتتابعت علي صخوره موجات الاحداث والمواقف المتلاطمة ، وناء بأعبائه القلب الذي احترف الغواية والجنون المستثار ، قد سكن أخيرا إلى ضالته الوحيدة: الشعر ، لم تنطفئ النار لكنها مكنونة تحت الرماد ، ولم تستسلم الإرادة لكنها أصبحت مسكونة بالحكمة ، وتأمل دوران حركة الليل والنهار ، لم يعد الشاعر ينخدع بالشعارات البراقة والادعاءات الزائفة ، ولم يعد يتوقف عند ما يستهوي البصر من إغراءات قدر حرصه علي استكناه ما تنفذ إلى ه البصيرة الدكتوة غانم ــ شمولي طواف في أقاليم النفس ومناطق الرقة والشجا والوجع والغضب ، كانت له اعتراضاته علي كل أنواع الطواغيت ، سواء تلك التي تكبل بالاصفاد ، أو تفترق بالعرضي ، أو تقتات من موائد الضعف عند البشر الطيبين أولا لا تري غير ما يراه البصر ذو الافاق الضيقة ، أو تحل البراق والخداع والفضفاض في المحل الأول ، متناسية أن الدنيا ، لو صح الصحيح وسارت الأنهر في مجاريها الطبيعية ، هي أولا وقبل كل شئ للصادق والشفيف والدفين والعميق .

يقول الفيتوري :

لكيلا تخون العصافير أعشاشها
وتسود الدمامة في الأرض أكثر
لكيلا تحلق أغربة العصر فوق السقوف
وتولد في الفجوات وتكبر
أضئ مقلتيك الرمادتيين برؤيا الجمال
وضع ياسمينة قلبك في شفتيك
وسر عاشقا وسط الناس

يشتعل النور في الناس
والحب يجترح المعجزات ويزهر !

في الديوان ـــ أيضا ـــ حب غامر لمصر ، ليس هذا الحب غريبا علي الفيتوري أو علي قراء شعره ، فهو مصري بالقدر مهد طفولته ونشأته وصباه ـــ وسيظل انتماؤه المصري أوضح وأعمق حتي لو كان أبو ه ليبيا استوطن الإسكندرية وجدته لا مه سودانية الاصل ، هذا الحب الغامر لمصر يتجلي في ثلاث قصائد ابدعها الفيتوري عن شوقي وصلاح عبد الصبور ومحمود حسن إسماعيل في مناسبات شعرية ووجدانية مختلفة ، لكن قصيدته عن شوقي تظل أجمل هذه القصائد الثلاث وأوفرها حظا من الشعر والايقاع والتغني بالهوية ، وهو موقف شعري يبدع فيه الفيتوري ويجد فيه كفاء لسموقه الشعري وارتفاع هامته فيه من هنا تصبح لوحته الشعرية عن شوقي ـــ في ذكراه الستينية ـــ والتي حملت عنوانا دالا هو تبقي لنا مصر ناضجا بهذا الفيض الغامر من الاجلال والتوقير لعظمة شوقي ، وجلال منزلته الشعرية .

يقول الفيتوري :

يبقي لنا خالدا من شعرك
الذهب المنقوش في شرفات العصر
والنغم
يبقي لنا نهرك الفضي منسكبا
حيث الرعاة الرماديون والعدم
يبقي لنا صوتك العالي
وقد هرعت إلى ك
تستبق القامات والقمم
تبقي لنا تلكم الآيات
تبقي لنا مصر في عينيك
لؤلؤة مكنونة
حارساها النيل والهرم
يبقي لنا منك
ما لا تستطيع يد ترقي إلى ه
وما لا يستطيع فم !

في الديوان ـــ أيضا ـــ بعض من صبوات الفيتوري ونشواته القديمة ، عندما تدفعه حميا العشق إلى ولوج محراب الجمال واتخاذ وجه المحبوبة م عبد ا وساحا لصلوات الشعر ، حيث يقول :

يا فتنة العشاق ، يا ما ريتي
أنا من رآك وغاب في شفتيك
أنا من يعذبه الجمال وطالما
عصف الجمال به ، فعاد إلى ك
فتلقفيني مثلما أنا شاعر
يتعلم النسيان بين يديك

من قال إن الشاعر الحقيقي يشيخ أو يهرم ؟ إن النار التي تسكن رماد الأشياء وتضرمها حية فيه دائمة التوهج والاشتعال ، ولسوف تقوده قدماه دوما إلى حيث يذبح القلب وينثال الشعر وليته يختار لديوانه المقبل — إذا ما ظل على نهجه في تصديره بمدخل نقدي — الدراسة الضافية التي كتبها عن الناقد الكبير الدكتور صلاح فضل ، ونشرها في مجلة المصور ففيها ـ ككل نقد موضوعي ـ قراءة جادة لشعرر الفيتوري وكثير مما له وعليه .

أصوات شعرية مقتحمة نصار عبد الله

بقلم : فاروق شوشة

هذا شاعر شديد الاختلاف والمغايرة للسائد والمألوف ، لغة وفكرا ووعيا ورؤية شعرية وتشكيل قصيدة . وهو لم يخرج من عباءة أحد ، منذ بداياته الأولي في المجموعة الشعرية المشتركة ، الهجرة من الجهات الأربع التي صدرت عن الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر عام ١٩٧٠ ، وكان واضحا ان قصائده في هذه المجموعة يمكن تمييزها بسهولة عن قصائد الشعراء الثلاثة المشاركين فيها معه : أحمد سويلم وعمر بطيشة وفرج مكسيم .

تري ، هل كانت دراساته واهتماماته وشواغله الفلسفية والتأملية هي التي جعلته يفاجئنا في هذا الوقت المبكر بمثل هذا الشعر ؟

حين انقسم الواحد

أصبح نصفين

حين التحم النصفان

صارا إنسان

نصفي يبحث عن نصفي

يتجول في الطرقات وفي الساحات

ينتقل بين دروب الأحياء ،

وبين قبور الموتي

ويفض النعش : تري

مالون وجوه الأموات ؟

ياويلي إن كان النصف الآخر لم يولد !

أو إن كان النصف الآخر ما ت !

حتي يقول في ختام قصيدته : تأملات فيثاغورثية !

كل صباح ، جسدي تهجره روح

كي تسكنه روح

كل صباح ، روحي تهجر جسدا

كي تسكن جسدا

أقصر كل صباح وأطول

أتبعثر أو أتجمع

أنقسم من الداخل يوما

ومن الخارج يوما
أولد ألما
أولد وأموت وأولد
حتي يحصل جمع العددين الموعودين حينئذ أبصر كيف وأين
وأوفيك الدين !

لا ، لا أظن أن مثل هذا الشعر الحاد كالسيف القاطع . المرهف النصل لا ستثارة قارئه فكرا وتأملا ، المتلىء بالسخرية والمفارقة ، الصارم في لغة تشكيله المقتصدة حتي لتخلو من كلمة واحدة زائدة ، لا أظن ان مثل هذا الشعر الذي كتبه نصار عبد الله وهو ما يزال طالبا في قسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة التي تخرج فيها عام ١٩٧١ هو مجرد صدي مباشر أو غير مباشر لهذه الثقافة والدراسة ، كما أن شعره فيما بعد وقد اضاف إلى ليسانس الآداب الفلسفة وعلم النفس ليسانس الحقوق من جامعة القاهرة عام ١٩٧٨ وقبلهما بكالوريوس الاقتصاد من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة عام ١٩٦٦ ـ فأصبح الوحيد فيمن أعرف الذي ضمن نفسه هذا المزيج الفريد من الدراسات والتخصصات: الاقتصاد والفلسفة والقانون ، وصولا إلى درجة الدكتوراه في الفلسفة من كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٨٢ ـ شعره فيما بعد هذا كله ليس رشحا لهذه الدراسات والثقافات ، وليست هي المسئولة عن تفرده ومغايرته واختلافه ـ وإنما السبب الرئيسي ـ فيما أعتقد ـ هو طبعه ومزاجه وقوام شخصيته الذي جعل منه علي امتداد مراحل العمر ـ منذ مولده في عام ١٩٤٥ في البداري بمحافظة اسيوط ـ طفلا صافيا وشيخا مثقلا في آن ، يجمع بين انطلاق الطفولة الرائقة وبراءتها الجميلة وحكمة المصري القديم ، الذي عاش آلاف السنين يقلب الطرف ويشرح الفكر في احوال الليل والنهار ، وموازين العدل والظلم ، وصراع الخير والشر ، والعابر والباقي ، في نسيج محكم من الوعي بأمشاج السرائر والعلاقات ، والسخرية من كل من يحاول ان يهزأ بهذا الوعي ، أو يستخف بهذا المنظر الذي تظن العين أنها قادرة علي اقتحامه ، لكن رحابة القلب والعقل ـ في هذا الإنسان الشاعر ـ قادرة علي ان تتسع لكل الدنيا ، وللكون المرئي والكون المتخيل . .

نصار عبد الله مجبول من الجرانيت الذي يمتلىء به صعيد مصر وجباله ، فيه منه قوته وحدته وشموخه وصلابته ، وعدم تفريطه في ذرة واحدة مما يعتبره حقا وشرفا وكبرياء وفيه من نيل مصر الخالد طلاقته وانسيابه وعذوبته وتدفقه ، وانفتاحه الأبدي ليصب في روافد وفروع ورياحات وترع وقنوات ، لا يجمد أمام عائق ولا تركد مياهه الصاهلة دوما خلف سدود أو جسور .

ومن هذه الطبيعة ـ ثنائية التكوين ـ جمعت شاعرية نصار عبد الله ـ أستاذ الفلسفة ورجل الاقتصاد والقانون ـ بين الصخر والماء ، بين العناد واليسر ، بين الغضب والرضا ، بين الثورة والحزن .

في قصيدته البديعة الليل يطارد طفلا في الليليلوح لنا نصار عبد الله ببعض مفاتيح طفولته في الحياة والفكر:

كان الليل يطارد طفلا يرعبه الليل ،
وكان الطفل التائه يركض
كي لا يدركه الليل !
الريح تحاصره
والمطر الهاطل والتيه
وعيون الناس المجهولة حين تحدق فيه
ومازال الطفل التائه يبحث عن بيت أبيه
وعن صدر أبيه ،
ومازال التيه هو التيه
ومازال الليل الزاحف يزحف
نحو خيوط الضوء فتذوي
تتواري عن عينيه ، فتنساب دموع ما قيه

الليل يطارد طفلا في الليل ومازال الطفل التائه يركض مذعورا يركض ، عريانا يركض ،

يركض يركض ، ما زال وسوف يظل
جاوزت الخمسين شتاء من عمري ، لكني
مازالت الطفل العريان المبتل
الراكض رعبا في جوف الليل !

هل كان الكاتب الروائي الكبير سليمان فياض يدرك ـ وهو يعمل مدرسا في مدرسة البداري الثانوية ، أن هذا التلميذ الجالس أمامه في الفصل يشاغبه ويتحداه بعناده وشقاوته ويكشف له عن نموذج ابن البداري المنتمي لمجتمع شديد القسوة والتمسك بالتقاليد والأعراف في مستهل ستينيات القرن الماضي ـ سوف يصبح بعد عدد قليل من السنوات هذا النابغة الأعجوبة ، في دراساته وثقافاته وتعدد جوانب المعرفية ، وفي ابداعه الشعري المتفرد والأصيل ، وفي قلمه الذي يقطر سخرية وتهكما وتندرا ـ بل وفكاهة ـ خاصة في لوحاته القلمية التي يكتبها الآن كل اسبوع في صوت الأمة ويقدم فيها صورا بديعة كاشفة لبعض مزوري هذا الزمان ومدلسيه من الكذبة والمدعين ، وفي قصائده التي

تقطر بمرارة من كشف وعرف ، وأبحر ورأي ، وطوف وشاهد ، وحين عاد من رحلاته وتطوافه في الحياة والوجوه والأحداث والمواقف كان مثقلا بكل ما جعله يختار لا حدث دواوينه الصادر ضمن سلسلة الابداع الشعري المعاصر عن الهيئة العامة للكتاب منذ اسابيع قليلة ، هذا العنوان الغريب الدال: قانون بقاء الجرح .

قبل هذا الديوان تمثل إنجاز نصار عبد الله في دواوينه - التي بدأت بالمجموعة المشتركة التي سبقت الإشارة إلى ها - وهي: قلبي طفل ضال عام ١٩٧٨ ، أحزان الأزمنة الأولي عام ١٩٨١ ، سألت وجهه الجميل عام ١٩٨٥ ، ما زلت أقول عام ١٩٩٢ ، قصائد للصغار والكبار عام ١٩٩٥ بالاضافة إلى مسرحيته التاريخية الجفاف الصادرة في عام ١٩٨٦ - فضلا عن مؤلفاته في مجال الدراسات الفلسفية ، والمقال والترجمة ، نحن إذن في ديوانه الجديد قانون بقاء الجرح نتعامل مع ديوانه السادس . هل هو شاعر مقل ؟ ستة دواوين ومجموعة مشتركة علي امتداد اثنين وثلاثين عام ا ! لا أظن . فالمؤكد ان نصار عبد الله كان حريصا علي عدم تكرار نفسه ، وإعادته إنتاج قصيدته ، كما يفعل بعض الشعراء الذين لا نجد لديهم فرقا - في الرؤية وتشكيل القصيدة أو الأفق الشعري - بين ديوانهم الأول والعاشر . هم كالاسطوانة المشروخة ، الإبرة في مكانها ، والضوضاء هي هي ، والعزف علي الوتر الواحد الذي لا يتغير - قائم ومستمر ، ولا جديد تسمعه الأذن أو تتوقع سماعه يوما ما . ربما كان هذا الحرص علي الجدة والتحرك في أفق صاعد هو الذي جعل من نصار عبد الله مقتصدا جدا فيما يقول ، وعندما يقول فإنه يملؤنا بالدهشة ، ويفاجئنا بالمغايرة والخروج علي المألوف ، عندما فعل ذات مرة في قصيدته التيس والمرآة التي يقدم لها بهذه الكلمات: إلى الصغار الذين نعقد عليهم كل الآمال ، وإلي الكبار الذين لم نفقد فيهم بعد كل الآمال:

يوما ما
وقف التيس يحدق في المرآة
فرأي التيس يحدق في المرآة
هز التيس الرأس
فهز التيس الرأس !
ظن التيس بأن التيس الآخر يتحداه
ثار وهب وسب أباه
نطح التيس التيس
فانخلع القرن وشج الرأس !

* *

وقف التيس يحدق في اللا شيء

فرأي لا شيء

تمتم: لا بأس

قد فر التيس الرعديد أمام التيس الصنديد !

لا بأس

حتي لو خلع القرن وشج الرأس !

يا كل تيوس العصر:

هذا ثمن النصر !

في الديوان الجديد لنصار عبد الله قانون بقاء الجرح - وبالمناسبة هذا العنوان ثلاثي الكلمات يغري بردها إلى أصول ثقافات الشاعر الأساسية: القانون من عالم القانون الذي درسه في كلية الحقوق والبقاء من عالم الفلسفة الذي درس فيه الشاعر الوجود والعدم وتخصص فيه وجعله عمك الأساسي في الجامعة استاذا فوكيلا لكلية الآداب بسوهاج للدراسات العليا والبحوث ، أما الجرح فقادم من عالم الدراسات الأدبية وهمومها النازفة ، التي أغرقه فيها إبداعه الشعري وأعصابه العارية وثورته العارمة علي القبح والجهل والفوضي والتخلف والقهر السائد في السلوك والمواقف - في هذا الديوان الجديد من القصائد القصيرة جدا ما يمكن ان يطلق عليه الإبجرامات وهي التسمية التي ارتضاها الناقد الكبير الدكتور عز الدين إسماعيل لديوانه البديع بعد ان رأي أن ترجمتها إلى العربية مستحيلة ، وأن الكلمة تحمل في مضمونها من الفكرة المكثفة ، والرؤية الثاقبة ، والكلمات المقتصدة جدا ، ما يجعلها دالة وقاطعة وواخزة .

يقول نصار عبد الله:

١ ـ نقاهة

نقاهتي طويلة ممتدة

من جرح الميلاد

إلي شفاء الموت

٢ ـ الضربة القاضية

ليسوا وحدهم في عداد المهزومين

أولئك الذين سقطوا ولم يستطيعوا النهوض

نحن الصامدين حتي الآن

خاسرون بالنقاط

ويوما ما ، سوف تحل بنا الضربة القاضية

٣ ـ قانون بقاء الجرح

يفني ولا يفني

هو الجرح الذي
يولد من جرح إلى جرح يئول
هو الطالع من فصل
هو الحاضر في كل الفصول

وعندما نقفز إلى أحدث قصيدة للشاعر في ديوانه ، قصيدة زمن ما التي كتبها في العام الماضي ، تطالعنا ـ في كلماتها القليلة وحكمتها المسنونة النصال وإيقاعها الهادر في تقفيتها المتتابعة ـ بشهادة كاملة علي عصر ، وهو يقول:

يصير الشيء كاللا شيء
واللا شيء آلافا من الأشياء
تضيع حروفنا العربية الأشكال والأمساء
ولايبقي سوي طلل يتابع آخر الأنباء ولايبقي سوي الأصداء

* * *

يصير الصمت أعيننا التي ترنو
وأيدينا التي تمتد في استحياء

* *

جواد الليل يدهم قلبي المعتل فأغفو تاركا وطني
يواصل رحلة التجوال في مدن
تسود صدي موائنه ،
وتصنع حلمه الممتد من يأس إلى يأس
ومن جرح بلا برء
إلي جرح بغير شفاء

* *

وحين يسقسق العصفور
وأتركه يسقسق مثلما قد شاء
لماذا صرت نواما ، أنا المشاء ؟ !

لقد توجت الرحلة الإبداعية لنصار عبد الله بجائزة الدولة التشجيعية ، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولي ، وبالجائزة العربية للتأليف المسرحي ، وجائزة الشاعر إلى وناني كافافيس للشعر العربي ، وكتب عنه العديد من النقاد والدارسين ، وتناول عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه شعره بالدراسة والنقد والتحليل ، لكن اعظم جوائزه وأبقاها انه استطاع ان يصنع لا سمه في عالم الإبداع مكانة متقدمة وهالة من التقدير

والاحترام . وأن يؤكد وجوده بين شعراء الطليعة لجيله السبعيني ـ كما يؤثر نقادنا أن يقولوا ويطلقوا تسمياتهم ـ موهبة شعرية قادرة ومقتحمة .

صلاح جاهين شاعر الحلم الذي انكسر

بقلم: فاروق شوشة

اتيح لي أن اتعرف علي عبقري شعر العامية ومؤرخ ثورة يوليو الشعري صلاح جاهين في السنوات الاولي من انضمامه إلى اسرة روز إلى وسف التي بدأ عمله الصحفي فيها عام ١٩٥٢ وتألقت علي الفور اعماله الفنية رساما مبدعا للكاريكاتير وكتاباته الشعرية مبدعا بالعامية . وكنت التقي به كثيرا في العديد من المقاهي المحيطة بالمبني القديم لروز إلى وسف ومبني دار الهلال في شارع المبتديان ومحلات شارعي خيرت ونوبار ضمن كوكبة من الشباب الجامعي المتلئ حماسا وتطلعا ووطنية ، اذكر من بينهم سليمان فياض وغالب هلسا ووحيد النقاش وخالد الساكت وآخرين .

وكان يلذ لصلاح جاهين ان ينشدنا في هذه اللقاءات- قبل ان يجرفه العمل الصحفي بشواغله ومسئولياته ويصبح رئيسا لتحرير مجلة صباح الخير- بعد مؤسسها العظيم احمد بهاء الدين- قصائده البديعة المغايرة والمختلفة لشعر ذلك الزمان عن القمح اللي موش زي الدهب لكنه زي الفلاحين وعن الذين يوقعون علي الاوراق ويرسمون امضاءاتهم بالقلم الباركر بالافرنجي وهي القصائد التي سيضمها ديوانه الاول' كلمة سلام' الذي صدرت طبعته الاولي عام ١٩٥٥ ففعل فينا وفي شباب ذلك الجيل فعل السحر فهذه العامية الراقية التي يكتب بها صلاح جاهين وثيقة الصلة بموروثنا الشعري الفصيح- الذي بدأ صلاح كتاباته الاولي بلغته الفصحة كما فعل صفوه عبقري شعر العامية فؤاد حداد لكنها سرعان ما تركا لغة الشعر الفصيح إلى عام ية تغاير عام ية بيرم التونسي عام ية الزجالين الكبار ومؤلفي الاغاني الذائعي الصيت وقتها وفي مقدمتهم احمد رامي ومأمون الشناوي وحسين السيد وبيرم بالطبع ، اضافة إلى مرسي جميل عزيز و عبد الفتاح مصطفي واحمد شفيق كامل فيما بعد .

ووجد صلاح جاهين- ابن الاكابر- في ثورة يوليو الشعبية حقيقته ورسالته ومعناه وجسد وجدانه الشعري معني البطولة وصورة البطل تماما كما في تراثنا الشعبي الذي رسم بلغته الحية وخياله المبدع ملامح عنترة وسيف بن ذي يزن والظاهر بيبرس والشاطر حسن والاميرة ذات الهمة وابي زيد الهلالي وغيرهم من الابطال والفاتحين ولأن مواهب صلاح جاهين كانت متعددة ومتكاملة يتدخل فيها الشاعر والرسام ومبدع العرائس والممثل والمغني وكاتب السيناريو والحوار فقد كان طبيعيا ان يفصح عن نفسه في ابداعات شتي جديدة

ومدهشة تحمل دائما لغتة الحائرة البسيطة والعميقة في آن ووجدانه الفائز المتلئ الجياش ، وايقاعه الذي لا تخطئه أذن والذي كان يحرص علي تدعيمه بايقاعات اخري تصنعها قوافيه الداخلية فيحس قارئه او سامعه انه امام شاعر يبد وهو منتش تماما يتمايل كالراقص الرشيق البارع حركاته محسوبة وخطواته علي حبل الكلام واثقة وقادرة ومهارته في نحت المفردات والصيغ الجديدة والطازجة لا فتة وباهرة ، وجرأته في تناول المألوف والعادي من المفردات واكسابه كيمياء الشعر وماءه ووهجه وتألقه مدهشة وساحرة .
حكي لي محمد حسن الشجاعي الموسيقار الفذ ومستشار الموسيقي والغناء في الاذاعة ايام كانت الاذاعة منتجة لا غنية المختارات في عصرها الذهبي مكشتفه للمواهب الحقيقة من المؤلفين والملحنين والموسيقيين والمطربين حريصة علي شرف الكلمة وسمو اللحن وجمال الاداء حكي لي عن صلاح جاهين الذي دخل عليه مكتبه ذات يوم من ايام الثورة في خمسينياتها الاولي وبيده ورقة سجل عليها كلمات قصيدته' ثوار' ولم يكن يقرؤها الشجاعي بحسه المرهف وجلاء بصيرته- فقد كان من جلساء العقاد في صالونه ومن المتحمسين لشعره وشعر غيره من الشعراء الحقيقيين الكبار- حتي امتدت يده إلى التليفون ليسمعها لا م كلثوم فقد ادرك علي الفور ان هذا هو ما تبحث هي عنه وتنتظره وأن مثل هذه الكلمات التي كأنها بيان الثورة الشعري من حقها ان تصبح- بعد ان يحملها صوت ام كلثوم- التي اشارت علي الشجاعي من فورها باختيار السنباطي ملحنا- من حقها ان تصبح نشيد الثورة الذي سيردده الملايين . وقد كان وكأنما كانت' ثوار' البداية الذهبية الرائعة التي فتحت امام صلاح جاهين آفاق الحلم الذي عاشه الجيل والشعب كله .
الرءوس مرتفعة في شموخ الايدي ممتدة تكاد من فرط زهوها تمسك بالنجوم في السماء و مصر العربية تقتعد صهوة الفرس العربي المنطلق إلى غاياته البعيدة وانتصارات٥٦ والتأميم والسد العالي والاصلاح الزراعي والتصنيع تتوالي ، وصلاح جاهين الشاعر المؤرخ يسجل وقائع الحلم وتجلياته بعد ان وجد في مؤرخ الثورة باللحن والموسيقي كمال الطويل وصوت الثورة المؤدي الفذ عبد الحليم حافظ ضلعي المثلث الذي تبحث عنه قاعدته وسرعان ما اصبح هذا المثلث المبدع فاكهة اعياد الثورة في كل عام ناضجة شهية دانية القطاف: المسئولية بالاحضان يا أهلا بالمعارك وقبلها كانت القذيفة الاولي: احنا الشعب- في منتصف الخمسينيات ولم تتخلف دواوينه بقصائدها العامرة: موال علشان القنال١٩٥٦ وعن القمر والطين١٩٦١ ورباعيات وقصاقيص ورق١٩٦٦ ودواوين صلاح جاهين١٩٧٧ وانغام سبتمبرية١٩٨٤ . ومن بين ابداعات هذا المثلث اوثر التوقف عند القصيدة الاغنية صورة التي اري فيها قمته ما كتبه صلاح جاهين للغناء وكأنه يقدم البانوراما الكبري لثورة استقرت وانجزت وتغلغلت في المكان والزمان واخذت مساحتها من الفكر والوجدان لذا فهو يعدد مفردات الصورة ويسجلها في أناة ووضوح وكأنه يضع تحته خطوطا مستنفرا قدراته في الرسم والتصوير- التي كثيرا ما كانت سببا للعديد من المشكلات وردود الفعل السياسية

والاجتماعية بعد ان التحق صلاح بالاهرام واصبح الرسام الاول فيه منذ عام ١٩٦٤ مستنفرا قدراته في الرسم والتصوير لتقديم صورة الوطن كما ينبغي ان تسجلها الصورة الشعرية والنغمية وهو يقول:

خضرة وميه وشمس عفية
وقبة سما زرقا مصفية
ونسايم سلم وحرية
ومعالم فن ومدنية
ومداين صاحية الفجرية
علي اشرف ندهة وادان
د\ي بلدنا مصر العربية
صورة منورها الايمان
صور يازمان

* * *

علي مدد الشوف مدنة ومدنة
دي لصلاتنا ودي لجهادنا
مدخنة قايدة قلوب حسادنا
تحتها صلب كأنه عنادنا
وقدامه من اغلي ولادنا
عامل ومهندس عرقان
شبان والشبان في بلدنا
في الصورة في اهم مكان
صور يا زامان

* * *

كلنا هنا في الصورة زمايل
نوفي اللي ميثاقنا عليه قايل
من اصغر طفلة بجدايل
علي زرع ودرس بتتمايل
للفلاح أبو خير وجمايل
للواعظ حافظ القرآن
للجندي الاسد اللي شايل
علي كتفه درع الاوطان

وصولا إلى قوله وهو يتقصي كل مفردات الصورة طبيعة وناسا وارضا ووطنا وسماء وايمانا ومزارع ومداخن وامجادا .

وبعيد عن العين لكن في الصورة اوضح ناس
ناس تحت حر الجبال والقلب كله حماس
بتفجر الرمل انهار من دهب اسود
وناس بتكسيه بخضرة وكل لون له ناس
واساتذة وعلما ومعامل
ودكاترة من الشعب العامل
ورجال سكر علي مكاتبها
تخدم بالروح لما تعامل
والصورة ما فيهاش الخامل
والهامل واجبه ونعسان
كما فيهاش الا الثوري الكامل
المصري العربي الانسان
صور يازمان

ولقد ظل الزمان يصور ويتأمل تفاصيل هذه الصورة الرائعة حتي فوجئ وفوجئنا معه بزلزال نكسته١٩٦٧ . كانت النكسة- التي ادت بتداعياتها وانكشاف طبقاتها المتراكمة- إلى انكسار الحلم وانكسار اضلاع المثلث الثلاثة كان صلاح- قاعدة المثلث- متكئا إلى جدار راسخ صنعه اختلاط الحلم بالواقع فلم يتصور لحظة واحدة انه سوف يتداعي او يسقط بالرغم من ان عديدا من الاحداث الشعرية كانت تفعل ما تفعله الطيور حين تستشعر حدوث زلزال قادم فتكون نفرتها ومغادرتها لا عشاشها تعبيرا عن هذا التنبؤ . وهكذا صنع صلاح عبد الصبور واحمد عبد المعطي حجازي وامل دنقل ومحمد ابراهيم أبو سنة محذرين ومنبهين من الخطر الذي يوشك ان يقع . وصمت صلاح جاهين زمنا ثم بدأ في علاج جسده بعد ان اصيبت روحه في مقتل . لقد بدأت رحلته مع العذاب ونصحه خلصاؤه ومحبوه ومريدوه في مقدمتهم أحمد بهاء الدين وحسن فؤاد و عبد الصبور وحجازي بأن يعالج نفسه بالشعر بمواصلة الابداع والكتابة في مجالات شتي كانت أبو ته الروحية للمبدعة سعاد حسني التي كتب لها اخر كلماته واكثرها ندارة وانطلاقا علاجا وكان فرحه بالديوان الاول لا بنه بهاء الذي يشاركه موهبته الشعرية الرقص في زحمة المرور علاجا . لكن الداء المتمكن من صميمه لم يرحمه ، وحين سافر إلى موسكو في طلب العلاج عند حضن الصديق: الاطباء السوفييت كان قلبه يشارك قلمه في النزف وهو يقول:

وقالوا طفوا النور حصل هجوم
طفينا كله بس للاسف
قلبي المضئ بالحب كالنجوم
لمع في قلب الضلمة وانكشف

* * *

هدف مباشر جت له قنبلة
حاله النابالم اداله لون كئيب
اسود كأنه وصمة مخجلة
او حرق ختم معتقل رهيب

* * *

وقالوا روح لا طبة السوفييت
حضن الصديق علاج لكل داء
في موسكو خدني في حضنه كل بيت
مافضلش غير خطوة علي الشفاء
يا اصدقاء اسف لكن محال
ماليش دوا غير طرد الاحتلال

هذا هو دواؤه الذي اعياه البحث عنه . طرد الصهاينة من ارض الوطن المقدسة وغسل عار هزيمته١٩٦٧ والصبر الطويل علي التئام شرخ عميق تزيده الايام ملوحة وتخثرا واحداثا للشعور بالهوان مرارة انكسار الحلم في اخر لقاء لي معه قبل رحيله باسابيع قليلة كنت اسجل معه حوار للبرنامج التليفزيوني شريط الذكريات اذيع عدة مرات من قنوات فضائية عدة ولم يذع من التليفزيون المصري بكل اسف . كان يبذل مجهودا هائلا ليخفي احزانه لهائلة وليقنع اسرة البرنامج بان صحته علي ما يرام . وكان اقتحام طفلته الصغيرة الجميلة سامية للتسجيل يرفع علي الفور من معنوياته ويعيده إلى صفائه وتألقه يومها تكلم كثيرا عن شريكه في العبقرية الشعريةوالمصاهرة الاسرية فؤاد حداد الذي سبقه إلى الرحيل . كان يتحدث عن نهايته– كما شاهده– ووجهه المشع بالنورانية والاشراق . كان يتحدث عنه باعتباره الاستاذ والمعلم في تقديمه لديوانه انغام سبتمبرية الذي يستهله قائلا إلى طفلتي سامية التي اعادت البراءة إلى قلبي يقول عن خوفه ممن قد يقارنونه بينه وبين فؤاد حداد لا ن ديوان انغام سبتمبرية يظهر بعد رائعة فؤاد حداد استشهاد جمال عبد الناصر ما اخوفني من المقارنة لا نه اشهر مني وارحب واكثر تدفقا ولكني أشطر منه– كما قال لي ذات يوم– لا نى أقص قماش الشعر بمقص خياط علي المقاس ولم يكن صلاح طامعا في شئ من ما ل او منزلة او جاه او جائزة او وظيفة كان حسبه ان يغني لما

آمن به وجعله رسالة حياة وحين رحل صلاح جاهين في الحادي والعشرين من ابريل عام ١٩٨٦ كانت حديقة شعر العامية تزدان بالجديد من عنادلها المفردة . التي صنعت لا صواتها مكانا متميزا بين ابداع العظيمين فؤاد حداد وصلاح جاهين وكان في المقدمة من هؤلاء عبد الرحمن الابنودي وسيد حجاب ومجدي نجيب و عبد الرحيم منصور وغيرهم ممن واصلوا ويواصلون في اقتدار وثبات وقدرة علي المغامرة – حمل المشعل والغناء للوطن والانسان . كما فعل صلاح جاهين الذي يقول في رباعياته الفذة:

هات يازمان وهات كمان يا زمان
غير بسمة الشجعان ما مني يبان
هو اللي داق الفرحة يوم ثورته
يقدر يعود ولا ثانية للاحزان
عجبي
قالوا ابن آدم روح وبدنه كفن
قالوا لا بدن قالوا لا ده روح في بدن
رفرف فؤادي مع الرايات في الهوا
انا قلت: لا روح في بدن في وطن
عجبي

مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية

بقلم : فاروق شوشة

في ديوان الشعر الجزائري الحديث ، يحتل الشاعر مفدي زكريا مكان الصدارة والريادة . فعلي امتداد ثلاثة أرباع القرن العشرين ، لا يكاد يزاحم اسمه في عالم الابداع الشعري أسم آخر لشاعر جزائري ، فضلا عن ارتباطه بالحركات التحريرية والثورية في الجزائر وفي المغرب العربي كله ، منذ انضمامه إلى صفوف العمل الوطني في أوائل الثلاثينات وهو في مستهل العشرينات من العمر ، وأصبح شعره ــ فضلا عن قيمته الفنية والابداعية ــ سجلا حافلا ومرجعا أمينا ووثيقة حية مكتوبة بالدم ، للنضال الوطني والقومي: جزائريا وعربيا واسلاميا وانسانيا .

ولد مفدي زكريا آل الشيخ في بلدة بني يزفن جنوب الجزائر عام ١٩٠٨ ، حيث كانت المرحلة الأولي من التعليم ، ثم في مدارس تونس ، متخرجا في جامع الزيتونة ، الذي تخرج فيه أبو القاسم الشابي شاعر تونس الأكبر ، وتحقق لكليهما تكوين ثقافي عربي ، اسلامي ، تراثي صميم ، قبل أن يحلق الشابي في آفاق الأداب الأجنبية ، وينخرط مفدي زكريا في وهج الثورة وأتون النضال: في صفوف جمعية طلبة شمال أفريقيا المسلمين وحزب نجمة أفريقيا الشمالية وحزب الشعب ، والانتصار للحريات الديمقراطية وجبهة التحرير الوطني الجزائري . وهو ما جعل تاريخه السياسي والنضالي يتسع لكونه أمينا عام ا لحزب الشعب ورئيسا لتحرير صحيفة الشعب الداعية لا ستقلال الجزائر ، وأدي به إلى دخول السجن ومعاناة أغلاله وقيوده وظلماته وفنون تعذيبه خمس مرات ، بدءا بعام١٩٣٧ وانتهاء بعام١٩٥٩ . ولم يتوقف طيلة انشغاله وتفانيه في الكفاح والنضال ــ منذ عام ١٩٢٥ حتي وفاته في مهجره التونسي عام ١٩٧٧ ــ عن التغني بالوحدة بين أقطار المغرب العربي ، واستنهاض همة العرب والمسلمين في مواجهة الاستعمار والصهيونية ، والارتفاع عن روح التشرذم والتفرق والصراعات الصغيرة التي تنهش في جسد الأمة ، وتحرف الشعوب عن مسيرتها النضالية الحقيقية وتعوق شمس المستقبل عن الشروق والتألق .

في سجن بربروس الرهيب قضي مفدي زكريا سنوات من عمره ملأي بكل أنواع الارهاب والرعب والتعذيب ، وهو يشاهد في كل يوم رؤوس الفدائيين تحصد بالمقصلة الاستعمارية في ساحة السجن ، فلا يزداد إلا تمسكا بما آمن به من نضال وكفاح ، وإلا يقينا بحتمية النصر علي الطغاة المحتلين ، بفضل إيمان الشعب الجزائري وتلاحم عنصريه: العربي والأمازيغي ، من خلال هوية واحدة ، نسجت خيوطها عبر التاريخ ، وصفحات النضال الواحد ، والتضحيات المشتركة ، وأصبح مفدي زكريا ــ الأمازيغي

الأصـل والتكـوين ـــ صـوت إلى قـين العربـي والاسـلامي في الجزائـر ، تمتلـيء قـصائده وأناشيده ـــ الـتي أصبحت أناشـيد النـضال والثـورة ، مثـل: فـداء الجزائـر وقـسما بالنـازلات (وهـو نـشيد الثـورة الجزائريـة الرسمـي) ونـشيد جـيش التحريـر الـوطني ، ونـشيد الهـشداء الجزائـريين والاناشـيد الوطنيـة للطلبـة والعمـال وغيرهـم ـــ تمتلـيء جميعهـا بـالنفس العروبـي ، وتـوهج النـبض الاسـلامي ، مفـصحا عـن الوجـه الحقيقـي والـصحيح لجزائـر مـا بعـد الاسـتقلال ، ومقـدما الـدرس الـوطني والحـضاري الـذي ينبغـي اسـتيعابه والـسير علـي هـداه لكـــل مـــن يستـــشرف الآن آفـــق العمـــل الـــوطني في الجزائـــر .
ومـن ظـلام الزنزانـة في سـجن بربـروس كـان صـوت مفـدي زكريـا القـوي الـشجاع يـردد كلماتـه المشتعلة:

سيان عندي ، مفتوح ومنغلق
ياسجن: بابك ، أم شدت به الحلق
أم السياط بها الجلاد يلهبني
أم خازن النار يكويني فأصطفق

ثم يقول:

يا سجن ما أنت لا أخشاك ، تعرفني
من يحذق البحر ، لا يحدق به الغرق
إني بلوتك في ضيق وفي سعة
وذقت كأسك ، لا حقد ولا حنق
أنام ملء عيوني ، غبطة ورضي
علي صياصيك ، لا هم ولا قلق
طوع الكري وأناشيدي تهدهدني
وظلمة الليل تغريني ، فأنطلق
والروح تهزأ بالسجان ساخرة
هيهات يدركها ، أيان تنزلق
تنساب في ملكوت الله ، سابحة
لا الفجر ، إن لا ح ، يغشيها ولا الغسق

ثم يقول كاشفا عن حقيقة العروبة وانتمائه الأصيل لموروث هذه الأمة:

قلب العروبة ، لم يعصف بنخوتها
عسف ، ولا نال من إيمانها رهق
نادي المنادي إلى التحرير يدفعها

فاستصرخت ، من قيود الحجر تنعتق
ثارت علي الظلم ، مثل السيل ، جارفة
فلا الفيالق ، تثنيها ، ولا الفرق
جيش إلى النصر ، تحدوه ملائكته
مسومون ، بموج الموت ، يندفق
وفتية هرعوا للشرق يعضدهم
إن يصعقوا ، فكأن الكون ينصعق !

مثل هذا الشعر في نسيجه الفني المحكم ، ونفسه العروبي ، وقيمه الانسانية الرفيعة ، هو بمثابة الصفعة القوية لكل من تسول له نفسه أن يلعب علي نغمة التفرقة بين عنصري الأمة في الجزائر: العرب والأمازيغ ، لا شعال نيران الفتنة ، وتفتيت وحدة الجبهة الداخلية ، وايجاد الثغرة التي يلج منها المتربصون والمفسدون ، هؤلاء الأمازيغ الذين انطلق ابنهم طارق بن زياد وهو يقود جيوش المسلمين لفتح اسبانيا ، ومن ثم نشر الاسلام في ربوعها ، وهم الذين ضربوا أمثلة البطولة الرائعة في عصور الرومان والعرب وكان امراؤهم علي البحر من أمثال: عروج وخضر الدين هم حماة شواطيء الامبراطورية الاسلامية في شرق البحر المتوسط وجنوبه ، يذودون عنها ويستبسلون فدائية واستشهادا في سبيل حمايتها ونصرتها من كل أعدائها المتربصين والطامعين .

لكل هذه المعاني النبيلة ، التي يذكرنا بها دوما شعر مفدي زكريا ، فان من حق شعره علي الجزائر أن تعيد نشره وجمع ما تفرق منه ولم يتح له النشر من قبل ، ليصبح ديوانه الكبير ــ في أعماله الكاملة ــ بين أيدي الأجيال الجديدة من أبناء الجزائر والمغرب العربي والأمة العربية والاسلامية ، ولتصبح دواوينه: اللهب المقدس وتحت ظلال الزيتون ومن وحي الأطلس والياذة الجزائر بالاضافة إلى المخطوط من آثاره الشعرية والنثرية متاحة لهذا الجيل ، يقرؤها ويستعيدها ، ويصل ما بينه وبينها برباط وثيق من ترسم الخطي والالتفاف حول القدوة والنموذج .

ومفدي زكريا نفسه ، في تقديمه لشعره إلى قارئه ، يفاجئنا بعفويته وبساطته ، معلنا ـــ وهو المصور البارع في شعره ، والرسام المبدع في لوحات قصائده وأناشيده وملحمته ـــ أن شعره شاشة تليفزيون تبرز ارادة شعب استجاب له القدر . يقول في مقدمة ديوانه اللهب المقدس:

اللهب المقدس ـــ كثورة الجزائر ـــ لا يحتاج إلى جواز مرور ولا إلى تأشيرة دخول ، لكي ينطلق إلى آفاق الفساح ــ كالمارد الجزائري ـــ بين شعاليل من نار ونور ، تاركا وراءه عساليج من دخان معركة مسحورة ، ألهمت الأجيال ، وصنعت التاريخ .

واللـهب المقـدس هـو ديـوان الثـورة الجزائريـة ، بواقعهـا الـصريح ، وبطولاتهـا الأسـطورية ، وأحـداثها الـصارخة ، وهـو شاشـة تليفزيـون تـبرز ارادة شـعب اسـتجاب لـه القـدر . أمـا ديـوان مفـدي زكريـا بمـا يـضمه مـن خـوالج انـسان ، يحـب ويـبغض ، يخطـيء ويصيب ، ينـتفض للحـب ، وي عبـد الجمـال ، فـذلك مـا سيتـسع لـه أفـق باسـم ممـراح ، يغمر فيه أريج الورد رائحة البارود ، في أجواء ضاحكة مستبشرة نشوي .

لم أعـن في اللـهب المقـدس بـالفن والـصناعة ، عنـايتي بالتعبئـة الثوريـة ، وتـصوير وجـه الجزائـر الحقيقيـة بريـشة مـن عـروق قلـبي غمـستها في جراحاتـه المطلولـة . والـشعر الحـق ـ في نظري ـ الهام لا فم ، وعفوية لا صناعة .

ثـم يقـول: لا يجـد عـشاق ـــ مـا يـسمونه الـشعر الجديـد ـــ في اللـهب المقـدس مـا يـشبع غرائـزهم المـشبوبة في جحـيم النهـود والـبراعم والفـساتين ، ولكـن سـيجد فيـه (الـشعراء النـاس) صـلة رحـم وثقـي بعـز أمجـادهم ، وتجاوبـا صـادقا مـع مـشاعر العروبـة الزاحفـة في كـل بلـد عربـي يقـدر مـا لكلمـة عروبـة مـن عظمـة وجـلال ، وسـيجد فيـه رواد التجديـد الرصين مـا يـدعم عقيـدتهم في أن عمـود الـشعر العربـي ـــ غـير المغمـوز النـسب ـــ يبقـي شـامخا أمـام أي تجديـد في التعـبير والـتفكير في حـدود الشخـصية الذاتيـة للغـة صـمدت للـزمن . وعـسي أن أكـون بهـذا قـد أرضـيت ضـميري وثـورة بـلادي وعـروبتي ، وأهبـت لنجـدة ثـورة العرب في الجزائر ، بكل من تيقظ فيه ضمير .

هذا التقـديم الاعـترافي ، يـضعنا في مواجهـة شـاعر يـدرك ـــ عـن وعـي وبـصيرة ـــ مـا قـد يوجـه إلى بنيانـه الـشعري مـن نقـد ، فهـو في رأيـه الهـام لا فـن وعفويـة لا صـناعة . ولأن الـصنعة الـشعرية أساسـية لتحقيـق الموهبـة الـشعرية والكـشف عـن تجلياتهـا ، فـان اهمالهـا يـنقص مـن حبكـة الـشعر وإحكامـه وقدرتـه علـي البقـاء والخلـود ، كمـا أن عنايـة الـشاعر بالتعبئـة الثوريـة وتـصوير وجـه الجزائـر الحقيقـي أكثـر مـن عنايتـه بـالفن والـصناعة ، سـيجعل قارئـه وناقـده ـــ علـي الـسواء ـــ يتوقفـان أمـام نمـاذج عديـدة سيطرت عليهـا المباشـرة والخطابيـة بـدلا مـن الـروح الـشعرية الذائبـة في همـس الافـضاء ، المترعـة بـشجن البـوح ونجـاوي الـنفس الانـسانية . لقـد تغلـب الحـدث إلى ومـي ، والعاجـل الآنـي ، علـي منطـق التأمـل الهـاديء ، والأداء المـستوعب الرصـين ، طغـت الاثـارة الثوريـة والفجـر النـضالي علـي سـكونية التلقـي والتمثـل البطـيء ، لنـسج خيـوط الـشعر علـي مهـل وفي صـبر دءوب . عندئـذ تخمـد نـيران الثـورة لتبـدأ جمـرة الـشعر الحقيقيـة .
هـذا الاعـتراف الـشجاع لمفـدي زكريـا ، يتـسق مـع جوانـب شـجاعته الأخـري ومواقفهـا المـشهودة . فهـو موقـف ينـسجم مـع بقيـة مواقفـه وصـدوره عـن الـصدق في طبيعتـه . إنـه لا يغـش ولا يزيـف ، بـل يـصارح ويعـترف ، قبـل أن يكتـب ناقـده كلمـة نقـد واحـدة ، وقبـل أن يـسدد إلى ه قارئـه سـهما طائـشا ، لا نـه تـسرع ولم يـستوعب ، ولم يـدرك الغايـة الـتي

مـن أجلـها كـان هـذا الـشعر . والـذي تكتمـل صـورته الحقيقيـة عنـد مطالعـة إلى اذة الجزائـر الـتي قـدم فيهـا مفـدي زكريـا صـياغة شـعرية لتـاريخ الجزائـر النـضالي وبطولاتهـا ومقاومتهـا المـستمرة لكـل صـنوف الاحـتلال الأجـنبي عـبر عـصورها الحـضارية المتعاقبـة بـدءا مـن عـصر مـا قبـل الـسيد المـسيح ، وهــو يـستعرض العـصور الرومانيـة والاسـلامية ، وصـولا إلى العـصر الحـديث ، بعـد أن قـسمتها إلى جــزءين: قـسم الجمـال: أي الجمـال الطبيعـي للـبلاد ، وقـسم الجـلال: أي المجـد التـاريخي ، بـالرغم مـن تـداخل القـسمين في أحيـان كـثيرة ، وعكـف عليهـا حـتي وصلت إلى ألـف بيـت وبيـت ، وتمـت ترجمتهـا إلى اللغـة الفرنـسية ، باعتبارهـا ملحمـة الجزائـر البطوليـة والياذتهـا المنافـسة ـــ في وجـدان الجزائـريين ـــ بأليـاذة هـوميروس ، الـتي لم تكـن تـروي إلا الاسـاطير ، أمـا إلى اذتهـم فهـي تتحـدث عـن أمجـاد حقيقيـة ووقـائع تاريخيـة ، مـن صـنع الانـسان الجزائـري عـبر العـصور . ويـستهلها مفـدي زكريا بقوله:

جزائر يا مطلع المعجزات
ويا حجة الله في الكائنات
ويابسمة الرب في أرضه
ويا وجهه الضاحك القسمات
ويالوحة في سجل الخلود
تموج بها الصور الحالمات
ويا للبطولات تغزو الدنا
ولهمها القيم الخالدات
وأسطورة رددتها القرون
فهاجت باعماقنا الذكريات
ويا تربة تاه فيها الجلال
فتاهت بها القمم الشامخات
وألقي النهاية فيها الجمال
فهمنا بأسرارها الفاتنات

وبين مقطع وآخر تتردد اللازمة الثابتة في هذه الاليادة:

شغلنا الوري وملأنا الدنا
بشعر نرتله كالصلاة
تسابيحه من حنايا الجزائر !

فهـي يكفـي إذن أن يقـال عـن هـذا الـشاعر المناضـل الكـبير إنـه شـاعر الهويـة الجزائريـة وشـاعر الثـورة الجزائريـة ؟ وإنـه رمـز الارتفـاع عـن قيـد العـرق أو الجـنس ، إلى

سمـاء النزعـة الوطنيـة والقوميـة والاسـلامية ، منفتحـا علـي أفـق انـساني رحـب ، وقـيم سـامية للخير والحق والجمال !

أصوات شعرية مقتحمة مهدي بندق

بقلم: فاروق شوشة

لا تكتمل صورة المشهد الشعري في الاسكندرية ، بدون الاقتراب من تخوم العالم الشعري والفكري لمهدي بندق . هذا شاعر يقبض علي الجمر ، ويستصفي من بين ما تموج به الاسكندرية ـــ علي امتداد تاريخها الحضاري وتجلياتها المتنوعة المتعاقبة ـــ من روح التمرد والثورة والتحدي ، ومن القفز فوق الأشواك ، ومن مقاربة حد الاستشهاد من أجل فكرة يؤمن بها ، أو في سبيل غاية يحلم بتحقيقها ، يستصفي من هذا كله كلمته الشاعرة ، في حالة حضورها المسرحي حتي لو تلبست صورة القصيدة المنفردة الصوت ، فإن الدراما تظل في داخلها تمور وتتوهج ، ويظل الفعل المسرحي هو السمة الغالبة علي كل ما أنتجه مهدي بندق من شعر .

ومهدي بندق ـــ الذي ولد في الاسكندرية عام ١٩٤١ ـــ يمارس الإبداع الشعري منذ وقت مبكر ، فمسرحيته الأولي سفينة نوح الضائعة صدرت عن المجلس الأعلي للفنون والآداب عام ١٩٦٤ ، وهو في الثالثة والعشرين من العمر ، ثم تتابعت مسرحياته وكتاباته النقدية ومسرحياته الشعرية ، ودواوينه لتشكل حافلة تضم عشرين عملا إبداعيا وفكريا ـــ .

بدءا بمسرحية الحلم الطروادي١٩٦٦ فالكتاب النقدي الدين والفن١٩٦٨ فمسرحياته الشعرية الثلاث: الملك لير١٩٧٨ ، ريم علي الدم١٩٨٠ ، السلطانة هند١٩٨٥ فمسرحية غيط العنب١٩٨٥ ، فالمسرحية الشعرية ليلة زفاف إلكترا١٩٨٧ ، فديوانه الأول امتحان أحمد بن حنبل١٩٨٧ ، فالمسرحية الشعرية غيلان الدمشقي١٩٩٠ ـــ وهي المسرحية التي نال عنها جائزة الدولة التشجيعية في المسرح الشعري وظفرت بمتابعات نقدية عديدة ـــ فديوانه الثاني حصان علي صهوة رجل١٩٩٤ ، فديوانه الثالث يا أورفيوس١٩٩٦ فالمسرحية الشعرية مقتل هيباشا الجميلة١٩٩٦ ـــ كان أستاذنا الدكتور محمد غنيمي هلال يكتبها هيباتيا ، ويبدو أنه كان معتمدا علي كتابة الاسم بالفرنسية ، وهي أول فيلسوفة سكندرية شهيدة في التاريخ القديم ـــ فالمسرحية الشعرية هل أنت الملك تيتي١٩٩٧ فالمسرحية الشعرية آخر أيام إخناتون١٩٩٨ ، فدراسته النقدية المسرح وتحولات العقل العربي١٩٩٨ ، فالمسرحية الشعرية حتشبسوت بدرجة الصفر فديوانه الرابع إضراب عن الماء٢٠٠٠ ـــ وهو أهم دواوينه وأصفاها لغة وأعمقها رؤي وأغناها صورا وتجليات شعرية ـــ فالمسرحيتين الشعريتين: بسماتيك وبسماتيك٢٠٠٠ والشريفة بنت صاحب السبيل .

هذا الإنجاز الحافل ـــ علي مستوي الإبداع الشعري والمسرحي ، والمسرحي الشعري والنقدي الفكري ـــ يضع صاحبه في الصف الأول من مبدعي جيله ، رسوخ قدم

وامتـداد قامـة ووفـرة عطـاء . وهـو إنجـاز ــــ يـستدعي بكـل المقـاييس مـا هـو أكثـر بكـثير مـن جـائزة الدولـة التـشجيعية ــــ المتواضـعة ــــ ويبـدو أنـه لم يظفـر بعـد بالجهـة الـتي ترشـحه للتقديريـة أو للتفـوق علـي الأقـل ــــ والمـسئولية هنـا ــــ أولا وقبـل كـل شـئ ــــ تقـع علـي عـاتق جامعـة الإسـكندرية الـتي لم تلتفـت حـتي الآن إلى المبـدعين مـن حولهـا ، بـالرغم مـن أن كـثيرا مـن أسـاتذتها وعمـدائها يعرفونـه حـق المعرفـة ، ويقولـون فيـه كلامـا كالـشعر: إطـراء وعذوبـة لـــسان !

شـعر مهـدي بنـدق كشخـصه تمامـا ، حـاد النـبرة ، قـاطع ، بـاتر ، لا يعـرف المهادنـة ولا أنـصاف الحلـول ، لا يجيـد كـثيرا مـا تمتلـئ بـه كتابـات النقـد الحـداثي مـن مـصطلحات الالتبـاس والمراوغـة والمـسكوت عنـه ، سـاطع كـشمس يوليـو ، متـوتر كـالقوس الـتي تحتـشد لا طـلاق سـهامها في كـل اتجـاه ، ترفـده خلفيـة فكريـة سـاعدت دراسـته للفلـسفة وعـشقه لهـا علي تعميقها واستزراع عالم من القيم النبيلة والفضائل العليا في تربتها الخصبة:

فهل أنت ما زلت ما ء

يوضئني إذ أصلي

رفيف ندي العشب يدعو الرشا

وحلم الصبا ليس يرشو

ولا يرتشي

وراية قلبي التي لا تنكس

ولو غشي الأفق لفح السموم

فضاق الفضاء به

وغشي !

أري لك نفس القوام

وذات الإهاب

وعين السمات

فكيف تبدلت في داخلي

وأصبحت كفا لجمع الهبات

وصرت تطارد برق التجلي

وتنزعه من عيون الفرات

لكيلا يعوق المرور البريئا

لحاملة الطائرات !

مهـدي بنـدق إذن نمـوذج رائـع لعنـاق الـشعر والفلـسفة ، أو فلنقـل لجدليـة الفكـر الفلـسفي مـذابا في الحلـول الـشعري ، وهـو بهـذا المعـني يـدفع بالقـصيدة الجديـدة إلى أفـق مـا

بعـد صـلاح عبـد الـصبور في مواقفـه ومخاطباتـه ـــ بلغـة النفـري ـــ في ديوانيـه أقـول لكـم وأشجار الليل .

كمـا يـدفع بالمـسرح الـشعري إلى نقلـة نوعيـة بعـد الإنجـاز الـضخم لـصلاح عبـد الـصبور . ويبـدو أنـه كـان محتاجـا إلى طلقـة مدويـة بحجـم مـسرحيته الـشعرية غـيلان الدمـشقي ليلفـت الأعنـاق بـشدة إلى الجـوهر الخبـئ في دراماتـه الـشعرية ، وفي هـذه المـسرحية بالـذات ، وهو الأمر الـذي جعـل الناقـد الكـبير الـدكتور صـلاح فـضل يطلـق عليـه: وريـث المسرح الـشعري وحامـل لوائـه بعـد صـلاح عبـد الـصبور ويـري أنـه يعـرض في مـسرحيته غـيلان الدمـشقي بنـبرة دراميـة قويـة فتنـة الجـبر ودعـوة الاختيـار والحريـة في العـصور الإسـلامية الأولـي ، مـشيرا في الآن ذاتـه ـــ إلى مـا سـاة الـردة الفكريـة والاجتماعيـة الموقوتـة في الحيـاة المـصرية المعاصـرة . يـستوعب معطيـات صـراع الـسلطة وأحـلام الغـد حينمـا تتبرقـع بحجـاب الـدين وتلـوك بعـض كلمـات تحـويلا للمطـامع الـسياسية مـن جانـب ، أو تعميقـا للـروح الثوريـة الإصـلاحية في اسـتراتيجيتها التاريخيـه عنـد بعـض المخلـصين مـن المناضـلين مـن جانـب آخـر . ثـم يـتحفظ الـدكتور صـلاح فـضل قـائلا: وإذا كانـت هـذه الـشخوص تحمـل مـن الـوعي الناضـج والرؤيـة المتطـورة أكثـر مـا تطيقـه طبيعـة المرحلـة الـتي كتبـت عنهـا ، فـذلك لا نهـا تعكـس زمـن كتابتهـا لا شـواغل وقوعهـا ، همـوم قرائهـا الحـاليين قبـل هـواكس مـا ضـيها الـدفين ، كمـا تكـشف في الوقـت نفسه عـن قـوة فائقـة في تحريـف الـشعر وتوظيـف تقنياتـه التعبيريـة وأنماطـه الإيقاعيـة بمـايعتبر تنميـة بـارزة لتجربـة المـسرح الـشعري المعاصـر وتقـدما ملموسـا في أسـلوب إنتاجه .

تمنيـت ـــ بهـذه المناسـبة ـــ لـو وجـدت كتابـات اثـنين مـن شـعرائنا المبـدعين في مجـال المـسرح الـشعري همـا: محمـد إبـراهيم أبـو سـنة وأحمـد سـويلم فرصـة مماثلـة للدراسـة النقديـة الكاشـفة الـتي منحهـا الـدكتور صـلاح فـضل لمهـدي بنـدق ، مـن المؤكـد أن الإضـاءة النقديـة الـتي تـضع في اعتبارهـا الإنجـاز المـسرحي الـشعري لـشعراء الـستينيات ـــ وهـو مـصطلح مـن صـنع النقـاد ـــ سـوف تعـود علينـا بـالكثير ، وستفتح مزيـدا مـن طاقـات النـور والإنـصاف أمـام عـــدد مـــن المبـــدعين لا يـــزال إبـــداعهم الحقيقـــي بعيـــدا عـــن عدســـة النقداللاقطـــة . وعلي ذكـر طاقـات النـور والإنـصاف فـلا بـد مـن القـول إن مهـدي بنـدق واحـد مـن الـذين ظلمـوا كـثيرا بإقـامتهم في الاسـكندرية ـــ منـذ المولـد ـــ والبعـد عـن القـاهرة ، بمركزيتهـا الهائلـة ، وسـيطرتها المحكمـة علـي وسـائل النـشر والإعـلام والثقافـة ، واسـتئثارها ـــ ومـن فيهـا ـــ بالمساحة الكبري من الضوء والاهتمام !

ولقد حـاول مهـدي بنـدق ـــ وصـفوة مـن خلـصائه المقـاتلين مثلـه ـــ كـسر هـذا الحـصار ، والخـروج مـن الـدائرة المحكمـة بإصـدار مجلتـه الفكريـة تحـديات ثقافيـة ـــ الـتي تـصدر عـن دار تحـديات ثقافيـة للنـشر والتوزيـع مؤسـساها مهـدي بنـدق وفوزيـة شـبل ، والـتي صـدر

أخيرا عددها السابع من السنة الثانية (شتاء٢٠٠٢) وهو الموقف الشجاع الذي حييته في أحد مقالاتي بالأهرام ـــ منذ أكثر من عام ين وأعيد نشره في كتاب ثقافة الأسلاك الشائكة الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ضمن سلسلة الأعمال الفكرية لمكتبة الأسرة٢٠٠١ ـــ حرصت فيه علي توضيح أن هذا العنوان الغاضب تحديات ثقافية وهو رد فعل حاد لما يلاقيه طراز من المبدعين والمثقفين يريدون أن يكون لهم رأيهم المغاير وموقفهم المستقل . . ثم هو تعبير عن موقف من الصحافة الثقافية المملوكة للدولة ، التي بالرغم من تعدد منابرها وتنوع مجلاتها لم تنجح حتي الآن في صياغة حياة ثقافية وإبداعية ناجحة ، ولم تتسع صفحاتها لكثير من الهموم والشواغل التي يواجهها قطاع عريض من المثقفين والمبدعين ، وقلت إن نرجسية بعض القائمين عليها وانشغالهم بأنفسهم جعلت منها صورة لهم ولأحلامهم الخاصة ، قبل أن تكون صورة لمجتمع يمور بالتنوع والتعدد والاختلاف ، ووطنا يفترض أن يكون الولاء له وليس لا شخاص القوانين علي هذه الصحافة الثقافية ، من هنا جاء موقف مهدي بندق مذكرا بالموقف المأساوي الذي واجهه المبدع الكبير الراحل الدكتور شكري عياد حينما ضاق به الأمر وأحس باختناق من خلال مجالات النشر المتاحة وتدني مستواها فآثر أن يكون له ولجماعته ـــ التي التفت من حوله ـــ مجلته المستقلة التي لا تصدر عن دولة أو هيئة أو مؤسسة . وعندما سماها نداء كان يعني أنها بالفعل نداء لكل المثقفين والمفكرين والمبدعين ، لا تلتزم إلا بما يستحق النشر ، وليس لها اتجاه معين ، لا نها تتسع لكل الاتجاهات ، وليسلها أيديولوجية ، لا نه كان يري أن الايديولوجية مفسدة لحرية الحوار والتعبير ، فضلا عن قولبة الالتزام الأيويولوجي للعقول والبشر ، وقتل حوافز الابتكار والابداع ، ورحل عنا شكري عياد والحسرة تملؤه ، وربما عجلت برحيله بعد أن فشل في الحصول علي الترخيص اللازم لا صدار مجلته الثقافية . .

ولقد حقق مهدي بندق ما لم يستطع تحقيقه شكري عياد ، معلنا أنه يهدف بمجلته أن تكون مختبرا للمفاهيم الثقافية السائدة قياسا لصلاحيتها وقدرتها علي معايشة العصر ، وأن تكون نقدا أو نقضا للمنظومات الفكرية ـــ غير العلمية ـــ التي تشكل عائقا أمام العقل العربي في انطلاقه إلى المستقبل ، فضلا عن تفعيل الممارسات الرامية إلى إنتاج المعرفة في شتي ميادينها: العلم ، الفلسفة ، الاقتصاد ، التاريخ ، الفكر السياسي ، الأدب والفن . تأسيسا علي ما أنتجه عصر المعلومات من وفرة هائلة يمكن أن نستخدم في صنعها رأس المال المعلوماتي واللغة لرئيس تحرير المجلة: مهدي بندق .
هذا إلى قظ المفتوح العينين في وهج النهار ـــ كما قال سيد قطب عن شاعرية العقاد ـــ هو نفسه الذي تغشاه غيبوبة الإبداع فلا تفقده يقظة الوعي حين يقول في ديوانه حصان علي صهوة رجل:

لم أضع مصحفا
فوق رمحي الدمشقي قط
بيد أن الزمان اللئيم
سار بي
ليسار الشطط
الذي دار
ثم بشحم إلى مين اختلط
وأنا قد تبينت في محنتي
أن شر الأمور الوسط

أو حين ينفجر علي لسان جبران في أحدث مسرحياته الشريفة بنت صاحب السبيل فيقول:

أمقت فيكم يا أجلاف الصحراء
هذا الاستعلاء علي أهل الذمة
هذا التعبير التفريقي المتشامخ
هل يدخل أحد في ذمة أحد
إلا لو كان متاعا
أو في حكم الشئ !
ولهذا نحلم بالمهدي العادل يأتي
ليحطم هذا الحاجز
بين العربي وغيرالعربي
بين المسلم والذمي
بين الذكر وأنثاه
كي يمحو أيضا من ألفاظ اللغة
الزائفة المصنوعة
لفظين اثنين:
السيد وال عبد

هذا الوعي الكاشف ، وهذا الطرح الفكري العميق ، هو الذي جعل من مهدي بندق شاعر المسرح ـــ بالدرجة الأولي ـــ لا شاعر القصيدة: ـــ المنفردة الصوت أو حتي المتعددة الأصوات ـــ لم تعد تتسع لمخزونه من الفكرة التي تتلبس شخوصها وتشتعل بجدلها ودراميتها وتوجد حالة تمسرحها وتشتبك مع جمهورها المتفعل . وهو ما حدث لصلاح عبد الصبور حين امتلأ بالحكمة واختنق بالأسئلة ، فكان المسرح علاجه الشعري

وخلاصه ، ومهدي بندق قادر علي إشعال الحرائق — في كل ما حوله — ونحن معه ننتظر ما بعد الحريق: عالما يسوده سلام عادل ومحبة حقيقية ، ومبدعين لا يملأ قلوبهم المقت ولا تتأكلهم المرارة ، ونقادا يعكغفون علي الجوهري ويعفون عن الزائف الذي يطفو أحيانا علي السطح كما يطفو السمك الميت !

دعوة إلى قراء سعيد عقل

بقلم: فاروق شوشة

هذا شاعر من النوع المثير للزلازل والبراكين النوع النادر التي يختلف عليه الناس ، ويبلغون معه أقصي درجات الاختلاف .

فهناك العاشقون لشعره ، المفتونون بلغته ومفرداته وصوره ، إلى درجة الهوس والجنون ، وهناك اللاعنون له ولشعره ، المصنفون له في دائرة أعداء اللغة العربية ، والثقافة العربية ، والهوية العربية .

وهو في رأي محبيه ومريديه قامة شعرية باسقة ، ألقت بظلها علي أجيال عدة من الشعراء ، كثير منهم نهبوا معجمه الشعري ، ومكتشفاته اللغوية ، وعالم صوره وجموحه وانطلاقاته ، ومازالوا يعيشون في مكتشفاته وكنوزه . وهو في رأي لا عنيه ، لبناني متعصب لفينيقيته ، حتي النخاع ، متطلع إلى ما وراء البحر ، إلى النموذج الغربي ، الأوروبي ، في الشعر والثقافة والحضارة والحياة .

وكما تضيع الحقيقة دائما بسبب التعصب ، حبا أو كراهية ، وتصبح النظرة المنصفة مفتقدة وغائبة ، فقد انعكس هذا الموقف ـ في حدية المتباعدين علي سعيد عقل وشعره . وانشغل الكثيرون بآرائه ومواقفه وتقلباته ، وأحاديثه في اللغة والثقافة والسياسة والمجتمع ، وانتماءاته المختلفة في شتي هذه الدوائر ، انشغلوا بهذا كله عن شعره ، وعن انجازه الضخم فيه ، وهو الشاعر الذي يتاخم التسعين ـ من مواليد زحلة عام ١٩١٢ ـ ولايزال حتي إلى وم قادرا علي الابداع ، وعلي تجاوز ذاته باستمرار شعرا ونثرا .

بهذا المعني يصبح سعيد عقل ـ الشاعر اللبناني الكبير ـ ظاهرة شعرية لها خصوصيتها اللغوية والفنية والموسيقية والفكرية . وبالرغم من أنه ينتمي إلى العصر الشعري الذي التمعت في سمائه نجوم شعرية وهاجة: إلى اس أبو شبكة والأخطل الصغير بشارة الخوري وأمين نخلة وصلاح لبكي ـ وفي شعر العامية اللبنانية ميشال طراد ومن بعده الرحبانيان الجميلان: عاصي ومنصور ، وكان يجاوره في سوريا: بدوي الجبل وعمر أبو ريشة ونديم محمد وشفيق جبري وبدر الدين الحامد وحامد حسن وغيرهم ، إلا أنه استطاع منذ الطلقة الشعرية الأولي أن يكون مختلفا ، وأن يغني وحده في السرب ، لذاته وعالمه ورؤاه ، وألا يكون ترجيع نغم قديم ، يقذف موجه الشعري ـ في بعض تجلياته ـ كما حدث لغيره من شعراء عصره وزمانه وجيله ، بالتماعات من ممتلكات المتنبي أو البحتري أو أبي تمام أو الشريف الرضي أو ابن الرومي أو أبي نواس ، نجا سعيد عقل مما وقع فيه غيره ، منذ كان اصداره الشعري الأول في عام ١٩٣٥ يضم

مسرحيتين شعريتين هما : بنت يفتاح وقد موس ، ثم تتابعت دواوينه وكتاباته : المجدلية١٩٤٤ ، رندلي١٩٥٠ ، غد النخبة١٩٥٤ ، أجمل منك لا ١٩٦٠ ، لبنان إن حكي١٩٦٠ ، كأس لخمر١٩٦١ ، أجراس إلى اسمين١٩٧١ ، كتاب الورد١٩٧٢ ، دلزي١٩٧٣ ، كما الأعمدة١٩٧٤ ، الوثيقة التبادعية١٩٧٦ وخماسيات الصبا١٩٩١ . وهناك مجموعتان شعريتان أخريان صدرتا للشاعر في الآونة الأخيرة .

وسعيد عقل ، في شعره وفي نثره ، حالة خاصة ، ولغة لا تقترن بسواه . وفي نثره ـ أحيانا ـ من الشاعرية ما ليس في شعر غيره من المشاهير . يقول في سطور من كتابه : كتاب الورد الذي يذكرنا ـ في مضمونه ولغته ـ بكتاب أوراق الورد لمصطفي صادق الرافعي ، وكلا الكتابين رسائل حب وأشواق :

اليوم ولدت في الشعر
زارتني عيناك ،
وفي أذني دحرجتا لي أكرا من كلماتك
فيها النار والربيع ،
وفيها أنت

* * *

أمس التقينا علي ضفاف بردي
سألت صفصافة علي النهر :
مايزال يوجعك خصرها ؟
وخيل إلى أن شعبا استفاق
علي تغزل شاعر !

* * *

اليوم لن نلتقي
في عينيك لن أسافر إلى آخر الأرض
ولن أشهد بزوغ الابتسامة علي شفتيك الابتسامة التي تحيي وتميت !

* * *

قرأتك
أحسستني الريح :
أحيا ، أقتلع الشجر
كتبت قصيدة علي ورق الصدي
وحده اسمك بقي لي وللجمال
سكت ،

رحت أستمع إلى عينيك
ياحبيبتي . .
تقولان البرق والمروج
وحقلا من نجوم
وأولد أنا . .

* * *

كلما زرت عشنا ،
تركت كلمات علي ورقة
وأعيش . .
أمس ، كان قلمك علي ما يبدو
قليل حبر
تركت بياضا علي الورق
ها أنا أضع عليه خدي ، وأقرأ !

من هنا يمكن أن نفهم لماذا يقول أديب لبناني كبير هو سعيد تقي الدين عن كتابات سعيد عقل النثرية : سعيد عقل أعظم من كتب النثر في العربية . ويمكن أن نفهم أيضا لماذا قال عنه أنطوان قازان ـ وهو كاتب ـ أديب لبناني كبير أيضا : ما خفت علي نثره من شعره ، بل عجبت لثنائية في الابداع .

هذا القلم المطيب ، حين يقدم لرفاقه يشدهم إلى ه بلولبة حد البراعات ، حتي لكأنه هو المعني خلاصات روائع هي ، هنا بين يديك ، مختصر لنهضة ومنطلق إلى أجمل ، أسرع الجديد فيها إلى هدأة المركز ، فالطرافة في عمق لمبدأ .

سعيد عقل ، يستحيل ألا يروع !

فإذا ما انتقلنا إلى شعره ، وجدناه يتأبي ويستعصي علي التبويب ـ ليس كلاسيكيا بالقطع ، وليس رومانسيا بالدرجة نفسها من إلى قين ، وليس رمزيا وإن قال عنه البعض إنه في طليعة شعراء العرب الرمزيين ، وإن موقفه من الجمال يذكر بالشعراء الفرنسيين البرناسيين ، لكنه يظل طيرا محلقا لا يتيح لصائده أن يصنفه في شباك ، ولا لعاشقه أن يصنفه في مدرسة أو اتجاه ، هو كيمياء شعرية عار مة ، وعاصفة من اللغة التي ينحتها وكأنما بأزميل مثال مبدع ، ليصنع تماثيله ويصور لوحاته وينثر ألوانه وخطوطـــــــــــــــــــــــــــــــه .

يقول في قصيدته الشهيرة التي تغنت ببعض أبياتها فيروز سأليني ياشآم .

سائليني حين عطرت السلام:
كيف غار الورد واعتل الخزام
وأنا لو رحت أسترضي الشذا
لانثني لبنان عطرا ، ياشآم !
ضفتاك ارتاحتا في خاطري
واحتمي طيرك في الظن وحام
نقلة في الزهر أم عندلة
أنت في الصحو وتصفيق يمام ؟
أنا إن أودعت شعري سكرة
كنت أنت السكب أو كنت المدام !

* * *

رد لي من حبوتي يابردي
ذكريات زرن في ليا قوام
ليلة ارتاح لنا الحور ، فلا
غصن إلا شبح أو مستهام
وتهاوي الضوء إلا نجمة
سهرت تطفي أواما بأوام
سألتني في دلال قبلة
يعصر الدهر بها كأس غرام
وارتمت يكسر من سهت لها
مهب الطول حياء واحتشام
وجعت صفصافة من حسنها
وعرا أغصانها الخضر سقام
فحسرت الشعر عن جبهتها
أسأل الحسن أفي الأرض أقام
وتأنيت أملي خاطري
قبل أن يحجبها ضم الهيام !
وهي القصيدة التي يقول في ختامها:
أنا لست الفرد الفرد ، إذا
قال طاب الجرح في شجو الحمام
أنا حسبي أنني من جبل
هو بين الله والأرض كلام

قمم كالشمس في قسمتها
تلد النور وتعطيه الأنام !

وسعيد عقل واحد من الأساتذة العظام الذين تتلمذ علي شاعريتهم نزار قباني . وهو السابق في تقمص شخصية المحبوبة - المرأة - والكتابة علي لسانها والبوح بخلجاتها وهتافاتها عن وعي وحساسية وافتنان - وديوانه : قصائد من دفترها ، يتوهج بعشرات القصائد علي لسانها تحكي وتبوح ، وتقبل وتعرض ، وتشكو وتتودد . من بينها قصيدة عنوانها أمام المرآة تنطق بهذه القدرة علي التقمص والتجسيد حين يقول:

ضفيرة شعري ، خبري ، خبري الحلوا
بأني لا أهوي ، ولو مت ، لا أهوي
أنا قلتها ؟ لا ، ياضفيرة زقزقي
علي اصبعي ، وأروي من السر ما يروي
وإن ساءلت فيك العشيات : من تري
تكونين ؟ قولي : الهم والغم والنجوي
ضفيرة شعري ، لم تذكرت ما جري
لنا معه ، ذيالك الزارعي بلوي
أما هو من كفاه بعثرتاك ، لا
تكفان ، حتي للضني أنت والشكوي ؟
ومن بي حط المشتهي ، والتقي فمي
وراقصني كالشمس راقصت الصحوا ؟
وقال : أنا سحر الزمان فرشته
لنقلة رجل لم تزل من دد نشوي
ضفيرة شعري ظللي نار ما أنا ،
وقولي : لذيذ أن أضل وأن أغوي !

لن تحتفظ ذاكرة التاريخ بكثير من معارك سعيد عقل القلمية مع خصومه في الفكر والفن والحياة ، ولن يهتم الباحثون عن وهج الشعر الحقيقي بخصومات سعيد عقل عبر تاريخه الطويل منذ خصومته الأولي مع إلى اس أبو شبكة وهما في مطالع الشباب أو الجفوة التي حدثت بينه وبين الأخطل الصغير بشارة الخوري والتهمت بعضا من أويقات العمر . هذا كله عابر ، ومثله حماس سعيد عقل في مرحلة من العمر للفينيقية والهوي الفينيقي وكأنه البديل المطلوب للحرف العربي ، واستدعاء الحرف اللاتيني . كل هذا كنسته الرياح . ولم يبق إلا الجوهر من شعر سعيد عقل ونثره ، شاهدين علي هذه القامة السامقة بالرغم من كل ما يلوكه خصومه وأعداؤه . لقد أضاف سعيد عقل أشرعة جديدة

إلى سفينة اللغة ، وألوانا جديدة إلى معرضها الباذخ ، وفتح نوافذ وأبوابا لصيحات العصر في الشعر والفن والثقافة والحياة ، وأقام جسورا مع ثقافات تعشقها - خاصة الفرنسية - واستوقفه كثيرا بودلير ورامبو وسان جون بيرس . لكنه تجاوزهم كما تجاوز غيرهم من شعراء الشرق والغرب . وأفاد كثيرون من فتوحاته الشعرية كما حدث لقصيدته البديعة سمراء التي استمعنا إلى قصيدة مغناة مستنسخة منها ، ولكن شتان . الشعر غير الشعر والقامة غير القامة والكأس غيرا لكأس . يقول سعيد عقل:

سمراء ياحلم الطفولة
وتمنع الشفة البخيلة
لا تقربىي مني ، وظلي
فكرة لغدي جميلة
قلبي مليء بالفراغ
الحلو ، فاجتنبي دخوله
أخشي عليه يغص
بالقبل المطيبة البليلة
ويغيب في الآفاق
عبر الهدب من عين كحيلة !
وفي ختامها يقول:
سمراء ظلي لذة
بين اللذائذ مستحيلة
ظلي علي شفتي شوقهما
وفي جفني ذهوله
ظلي الغد المنشود
يسبقنا الممات إلى ه غيلة !

ألا يستحق مثل هذا الشاعر الكبير ، أكبر الشعراء العرب المعاصرين عمرا وقامة ، أن نفسح له مكانا من القلب ، وأن نعيد قراءته وتأمل إبداعه الشعري بعيدا عن كل ما أحاط به من شبهات وأقاويل ؟

مرة أخرى العلاج بالشعر - ١ -

بقلم : فاروق شوشة

لعلي كنت محظوظا حين أتيح لي أن أكون أول من يكتب بالعربية عن موضوع العلاج بالشعر . وقد لعبت المصادفة دورا كبيرا في ذلك حين أهداني صديق عائد من أمريكا كتابا بالإنجليزية عنوانه العلاج بالشعر . كنا في مستهل السبعينيات من القرن الماضي ، وكان العنوان بالنسبة لي جديدا وطريفا ولافتا . وحين بدأت أتصفح الكتاب اكتشفت - أن الذي جمع ما دته وأشرف علي تبويبه وعلق عليه عالم أمريكي هو الدكتور جاك ليدي مدير مركز العلاج الشعري في نيويورك ، وأن المشاركين في تأليف الكتاب أكثر من عشرين عالما من تخصصات مختلفة في الطب ، والطب النفسي والفلسفة وعلم النفس والنقد الأدبي واللغة والاجتماع ، يدلون جميعا بخبراتهم النظرية والميدانية في هذا الموضوع الطريف المثير: العلاج بالشعر .

كان أجمل ما في هذه الدراسة أنها تغوص في خبايا النفس الإنسانية ، وتستشف غوامض القلب البشري ، محاولة اكتشاف هذا العالم المجهول ، بحثا عن كوامن الشجن والأسي ، وصنوف العذابات التي تعترض مسيرة الإنسان ، وتشكل صورة عالمه القلق المليء بالمعاناة .

كان الحديث عن العلاج بالموسيقي شائعا ومعروفا ، يتناقله الخاصة والعامة ، بل لقد تجاوز الأمر - بالنسبة لا ستغلال الموسيقي - فكرة العلاج إلى مجالات زيادة الإنتاج ، حين أشارت بعض التجارب الهولندية إلى الزيادة في حجم إدرار اللبن بالنسبة للأبقار التي تعيش في ظروف موسيقية ، وتحيط بها الموسيقي صادحة في حظائرها ومراعيها . أما العلاج بالشعر فكان بمثابة قنبلة جديدة في هذا الاتجاه ، وإن كان اتصاله بفكرة العلاج بالموسيقي قائما وواضحا . وأسرعت - فور انتهائي من الكتاب - بعرض أهم ما فيه ، وانطباعاتي عنه ، في مقال مطول بعثت به - وقتها - إلى مجلة الدوحة القطرية في عصرها الذهبي حين كان الكاتب الكبير رجاء النقاش رئيسا لتحريرها قبل احتجابها وتوقفها عن الصدور في الثمانينيات . وكم كنت سعيدا وأنا أري كثيرين - ممن لم يتح لهم الاطلاع علي الكتاب ولم تتيسر لهم قراءته - باقتباس كثيرمن ما دة هذا المقال ونقل كثير من ما دته - من غير إشارة إلى ه أو إحالة إلى مصدر هذا الكلام الذي روجوا له في أماكن كثيرة . أقول كنت سعيدا - بالرغم مما يمكن أن يوصف به هذا التصرف خلقيا - لا ن الفكرة التي تحمست لها وسعدت بها قد أتيح لها دوران أكثر وانتشار أوسع .

ثـم أصـبحت مـا دة هـذا المقـال - الـذي نـشرته مجلـة الدوحـة - أساسـا للدراسـة المطولـة حـول الموضـوع نفـسه ، الـتي أسميـت بهـا كتـابي العـلاج بالـشعر وأوراق أخـري الـذي صـدر عـن دار المعـارف في عـام ١٩٨٢ في طبعتـه الأولـي ، وعـن دار غريـب في طبعتـه الثانيـة عـــــام ١٩٩٥ .

ومنـذ الكتابـة الأولـي عـن الموضـوع - في الـسبعينيات - حـتي النـشر الأخـير عنـه في منتـصف التـسعينيات ، كانـت المـادة المعرفيـة المتاحـة عنـه قـد تراكمـت واتـسعت ، خاصـة بعـد أن بـدأ بعض أسـاتذة الطـب النفـسي في بلادنـا ينـشغلون بـه ويـرون فيـه مـدخلا جديـدا جـديرا بالدراسـة ، وبعـض هـؤلاء الأطبـاء - لحـسن الحـظ - ممـن لـديهم تجـارب وإبـداعات أدبيـة شـعرية وروائية صبت خبراتها في بحيرة العلاج بالشعر فازدادت عمقا وثراء وخصوبة .

تتكـيء فكـرة العـلاج بالـشعر عنـد مجموعـة العلمـاء الـذين ألفـوا الكتـاب علـي نظريـة الـتطهير الـتي كـان أول مـن أشـار إلى هـا أرسـطو . فعنـدما أشـار إلى لـون مـن الـشعر هـو التراجيـديا لا حـظ أن مـشاعر الـشفقة والخـوف الـتي تحـدثها في الـنفس وتـستثيرها هـذه القـصائد التراجيديـة يمكـن أن تـؤدي إلى التـصحيح والتهـذيب ، ثـم صـاغ مـصطلحه الـتطهير الذي يعني بـه الـتخلص مـن شـيء مـؤلم ومفـزع . هـذه العمليـة التطهيريـة عـلاج نفـسي مثلـي ، أي يقـوم بـه الإنـسان لمثلـه ، مـن خـلال مـشاعر الـشفقة والخـوف الـتي تثيرهـا في أول الأمـر التراجيـديا الـشعرية ، ثـم يحـدث الـتطهير بفعـل هـذه التجربـة الـشعرية ، وعندئـذ تحـدث الراحة للنفس وتستريح .

وهكـذا كـان إلى ونـان القـدماء - الـذي امتلكـوا ناصـية الحكمـة - هـم أول مـن اكتـشف قـوة الـشعر وقدرتـه الفعالـة في الـنفس . ولقـد عبـد وا أبـو للـو وقدسـوه باعتبـاره إلهـا ثنائيـا للطـب والـشعر . فالطـب والـشعر بهـذا المعـني علاجـان مقترنـان ، أو علاجـان مرتبطـان بقـوة قـاهرة واحـدة ، أحـدهما ينـصب علـي الجـسد ، بينمـا يتجـه الثـاني إلى عـالم الـنفس والـروح .

وبعـد انقـضاء آلاف الـسنين علـي تنـصيب الإغريـق لا بوللـو إلهـا للـشعر والطـب معـا ، يجـيء العالمـان سميـث وتويفـورت في منتـصف القـرن العـشرين ليؤكـدا أن الأدب - والـشعر علـي وجـه الخـصوص - يمكـن أن يـستخدم كعـلاج في حـالات المـرض العقلـي والنفـسي ، عـن طريـق مـساعدة المـريض للحـصول علـي معرفـة أفـضل عـن نفـسه وعـن ردود أفعالـه ، ومـساعدته أيضا علي تحقيق مستوي أفضل من التكيف لحياته .

ويوضـح كتـاب العـلاج بالـشعر كيـف يـتم عـلاج المـريض نفـسيا وعقليـا . تعقـد الجلـسات الـشعرية - في مركـز العـلاج - في جـو يـشبه جـو غرفـة الجلـوس . وتـوزع علـي الحاضـرين ورقـة بهـا ثـلاث مقطوعـات شـعرية أو أربـع ، يقـوم الطبيـب المعـالج بقـراءة القـصيدتين مـرتين بـصوت مرتفـع ، واضـح ، وبإلقـاء بطـيء ، مركـزا علـي مقـاطع مـن

القصيدة ستكون محلا للمناقشة . من المهم - في اختيار هذه القصائد - ألا تكون صعبة أو عسيرة علي الفهم ، وإلا فإن الطبيب المعالج سيجد نفسه مضطرا إلى صياغة القصيدة بأسلوبه هو لشرحها وتفسيرها ، مما يبدد من تأثيرها وفاعليتها وكثافتها الشعرية . أنت إذن تقوم بقراءة القصيدة جيدا ، باهتمام تام موجه إلى خلق الجو النفسي الصحي .

وعندما تنتهي القراءة تعتريك حالة من السكون المتطلع إلى المعرفة . أنت بالطبع تمتحن وتفحص كل مشاعرك وردود فعلك ، لكنك لا تستطيع القطع بردود فعل الآخرين . وقد يكون استهلالا حسنا أن تسأل: كيف وجدتها ؟ هل أحببتها ؟ ما شعورك بالنسبة لها ؟ أو كيف تجعلك تشعر ؟ مثل هذه الاسئلة التي تعطي الحاضرين فرصة لا زالة الزبد الذي يعلو سطح النفس بتأثير القصيدة ، وفي بعض الأحيان يكون من المستحسن أن تشق السكون بتبادل النظرات - ذات المعني - مع إنسان تتوسم فيه أن القصيدة لها معني خاصة بالنسبة إلى ه .

مهمة الطبيب المعالج لا علاقة لها بتمرين القدرات العقلية أو تحسين المعجم اللغوي ، وهو ليس معنيا بإعطاء دراسات منهجية في كيفية فهم الشعر ، لكن بإيقاظ الإحساس بالنزعة العاطفية والشعورية للقصيدة ، باعتبار أن لديه فكرة عن هذه النزعة أو تيارها الشعوري بالنسبة له . ومهمته أيضا هي مساعدة القاريء - من مرضاه - علي إعادة خلق القصيدة في ضوء مخزونه الخاص من التجارب والذكريات . ما الذي تعنيه القصيدة بالنسبة لك ؟ ولماذا تعني شيئا آخر بالنسبة لغيرك ، وغيرهما من الأسئلة التي تساعد في تشجيع الاتجاه المطلوب وتعزيزه . وهنا يكمن الفارق الرئيسي بين درس الأدب وجلسة العلاج الشعري . إن الهدف الأول من درس الأدب هو الكشف عن معني القصيدة ، أما الهدف من هذه الجلسات فهو البحث عن المعني الذي للقصيدة لدي كل واحد من الحاضرين المختلفين ، ولسوف يكون هناك من المعاني بعدد كل هؤلاء !

لعله من الطريف أن أقدم للقاريء نموذجا لتلك القصائد التي دارت من حولها جلسات العلاج الشعري ، لما تمنحه كلماتها من مفاتيح سحرية إلى هذا العالم الغريب الطريف ، والقصيدة عنوانها: الجوع والظمأ:

من بين كل الفواكه التي اقتطفتها
محاولا أن أسكت جوع أحشائي
تظل الخوخة التي تركتها علي الغصن
أشهاها جميعا وألذها !
وأعذب قبلة نلتها
هي تلك التي لم أحصل عليها بعد
وهكذا . .

في حفل العيد الذي سأقيمه
قبل أن تغرب حياتي
سوف يكون الجوع أفخر الطعام
والظمأ أعذب الشراب !

لقد أدي العلاج بالشعر - في تجربة مركز العلاج الشعري في نيويورك - إلى مساعدة المرضي علي تحقيق التوازن والتوافق والتكيف بعد أن فشلت كل الوسائل الأخري التي جربت . إنه يساعدهم علي أن تكون اضطراباتهم العاطفية أيسر في التحمل ، كما أنه ينمي العمليات والقدرات المحققة للشفاء ، ويأخذ بأيديهم إلى تبني فلسفة في الحياة تحل التكيف والتلاؤم والمرونة محل الحظوظ والأقدار السيئة . فالشعر يساعد المرضي علي أن يكتشفوا مشاعرهم ، وأن يشعروا بعمق أكثر ، وأن يوسعوا من مداهم العاطفي والنفسي لا كتشاف الأنماط والمسببات وصولا إلى منطقة التحكم .

لقد وصفت القصيدة بأنها أصغر مسافة عاطفية بين نقطتين ، هاتان النقطتان تمثلان الشاعر والقارىء . وهذا يفسر لنا لماذا يصبح الاتصال عن طريق الشعر جاهزا وحاضرا ، ولماذا يتحرك المرضي - بصورة تلقائية - لكي يحققوا فكرتهم الخاصة عن القصائد .

يقول الشاعر:
تعال ، واقرأ لي بعض الأشعار
الأشعار البسيطة التي تستقر في القلب
سوف تزيل هذا الشعور بالقلق
وتطرد أفكار النهار
اقرأ لشاعر متواضع
انبثقت أشعاره من سويداء قلبه
كما تهطل الأمطار من سحاب الصيف المطر
أو تنهمر الدموع من المآقي
ثم اقرأ من المكنز الذهبي
القصيدة التي من اختيارك
وأعر موسيقي الشاعر
جمال صوتك وإلقائك !

ليس ضروريا أن يكون المستوي الشعري المستخدم في ممارسة العلاج الشعري رائعا أو عظيما ، وإنما الضروري أن يكون مساعدا علي تحقيق شفاء المريض . من هنا فإن شاعر مثل لونجفيلو قد يكون أفضل من شيكسبير ، وهنريك أفضل من ملتون وهولز

أفضل من سوفوكليس . وربما كان اللقاء السعيد الذي يتحقق بفضل جلسات العلاج الشعري حول نص شعري ملائم محققا لمعجزة !

فالشاعر يقول لنا عادة في قصائده: هذه هي أحزاني وأفراحي ، آمالي ومخاوفي ، وإنه ليسرني أن نتقاسمها معا ، وإذا ما أبصرت نفسك في مرآة فني ، وأحسست بأنك أكثر راحة واطمئنانا وقوة ، فاتبعني .

لكن ، لماذا أعود مرة أخري إلى فكرة العلاج بالشعر ؟ ربما لا ن سؤال الحاضر يشغلني . والحاضر في هذه الحالة يشمل الآفاق الجديدة والمتطورة لفكرة العلاج ذاتها ، كما يشمل الوضع الشعري الراهن - خاصة شعرنا العربي - وكيف يمكن أن يكون ذا جدوي في هذا المجال .

ذلك أن تراثنا الشعري العربي لم يكن بعيدا عن فكرة العلاج بالشعر ، وإنما كان شعراؤنا - منذ امريء القيس - علي وعي بالنظرية التي تكلم عنها أرسطو حين تحدث عن التطهير بالشعر ومايحدثه الشعر التراجيدي - الحزين والمأساوي - من أثر مريح في نفس المتلقي .

فامرؤ القيس الذي يشار إلى ه دائما بأنه أول من وقف واستوقف وبكي واستبكي هو أيضا أول من أشار إلى فكرة الشفاء عن طريق البكاء أو الشفاء بالدموع . هذا الشفاء هو عينه التطهر وما يحدثه من راحة في النفس وهي تواجه موقفا تراجيديا ، ما ساويا ، حزينا ، حين تقف علي الأطلال وتتذكر الأحباء الراحلين ، والأيام التي تقضت برحيلهم والأماكن التي كادت تزول هيئتها وصورتها بزوالهم ، والشعر الذي ارتبط بهذا المخزون من الذكريات ، استعادته تدفع بالدمع الحار إلى العيون ، وإنشاده وترديده هما بداية الإحساس بالتطهر والشعور بما يعقبه من راحة .

يقول امرؤ القيس:
وإن شفائي عبرة مهراقة
فهل عند رسم دارس من معول ؟

فالإشارة الصريحة إلى فكرة الشفاء ، وإلي الدموع التي جاشت بالتذكر والحنين ولوعة الفقد ، وترديد الأشعار المرتبطة بالمكان والزمان والمحبوب ، كل ذلك من شأنه أن يضع أيدينا علي بداية مبكرة لفكرة العلاج بالشعر في تراثنا الشعري . هذه الفكرة التي ستصبح أكثر نضجا واكتمالا عند قيس بن الملوح مجنون ليلي الذي يصرح بمعني العلاج أو التداوي بالشعر في بيت قاطع الدلالة يقول فيه:

فما أشرف الأيفاع إلا صبابة
ولا أنشد الأشعار إلا تداويا

وهو ما يدفعنا إلى متابعة الموضوع واستكماله في حديث قادم .

مرة أخرى العلاج بالشعر - ٢ -

بقلم: فاروق شوشة

في شعر مجنون ليلي: قيس بن الملوح أول إشارة صريحة إلى فكرة العلاج أو التداوي بالشعر ، ففي إنشاده أشعاره يكون شفاؤه مما هو فيه من وجد وأشواق وصبابات ، عندما يقول:

فما أشرف الإيقاع إلا صبابة

ولا أنشد الأشعار إلا تداويا

وشعر مجنون ليلي لا يخلو من حديثه الدائم عن جيشانه بالبكاء ، وعن وقوعه مغشيا عليه كلما ذكرت ليلي أو سمع اسما شبيها باسمها أو مقاربا له:

أحب من الأسماء ما أشبه اسمها

وقاربه ، أو كان منه مدانيا

وهديل الحمام يثير أشجانه ويحرك عاطفته ويدعوه إلى البكاء فيبكي مع الحمام مشاركة وتجاوبا ، وتأثرا بما كان شائعا في معتقدات العرب وتراثهم القديم من أن الهديل هو في الأصل اسم لذكر الحمام ، وأنه هجر عشه ووليفته ، فهي لا تفتأ تذكره وتبكيه . ومن هنا فقد سمي العرب صوت الحمام بالهديل ، إشارة إلى اسم الزوج الغائب النازح . يقول قيس:

لعمري لقد أبكيتني ياحمامة العقيق

وأبكيت العيون البواكيا

ويقول:

ألا ياحمامي بطن نعمان هجتما

علي الهوي لما تغنيتما ليا

ويقول:

ويا أيها القمريتان تجاوبا

بلحنيكما ثم اسجعا عللانيا

ولقد أعطي شعر قيس بن الملوح وغيره من الشعراء العذريين: كثير عزة وجميل بثينة وعروة عفراء وقيس لبني ، أعطي لفكرة التطهير التي قال بها أرسطو أبعادا وأعماقا جديدة . فالعاطفة العذرية تستند إلى مقومين رئيسيين أولهما تقاليد الفروسية العربية الأصيلة - منذ العصر الجاهلي - التي تحرص علي الشرف والعرض وصون المرأة ، وثانيهما العاطفة الدينية القوية التي جاء بها الإسلام وتملكت مشاعر الشعراء العذريين الذين ارتبطت عواطفهم بالنقاء والطهر وتجنب اللقاء والوصال وعدم ذكر الأوصاف الخارجية للمرأة المحبوبة والتوحيد في الحب - ومن هنا كان ارتباط كل منهم بمحبوبة واحدة اقترن اسمه باسمها - وامتلأ شعرهم بمعاني الرضا بالقضاء والقدر باعتباره المتحكم في القلوب يصرفها كيف يشاء ، يقول قيس:

قضي الله بالمعروف منها لغيرنا

وبالشوق مني والغرام قضي ليا

ويقول:

قضاها لغيري وابتلاني بحبها

فهلا بشيء غير ليلي ابتلانيا

هنا يصبح التطهير أو التطهر الذي يحدثه الشعر شاملا وجامعا ، وتصل نفس الشاعر المحب إلى درجة عالية من العفة والشفافية والترقي في مدارج النقاء ، مما هيأ هذا الحب العذري إلى الانتقال ليصبح من شواغل الشعراء الفرس الذين أضفوا عليه مسحة صوفية ، فأصبحت ليلي في أشعارهم رمزا للحقيقة المطلقة ، وقيس رمزا لمن يبحث عن هذه الحقيقة ويصعد في معراج المعرفة درجات هي درجات الصوفي في مقاماته وأحواله . وفي عصرنا الشعري ، ما أكثر الشعراء المبدعين الذين انخلعت قلوبنا واختطفت بسبب التأثير العارم لعذاباتهم وانكساراتهم في تجاربهم العاطفية والروحية ، وفي عمق معاناتهم ومكابداتهم . وإبراهيم ناجي واحد من هؤلاء الذين مزجوا بين لغة الشعر ولغة الدموع ، في صلوات شعرية وابتهالات حري مفعمة بالشوق الذائب والحنين الجارف والرغبة العميقة في التطهر والصفاء حين يقول:

كم مرة ياحبيبي . . والليل يغشي البرايا

أهيم وحدي وما في . . الظلام شاك سوايا

أصير الدمع لحنا . . وأجعل الشعر نايا

وهل يلبي خطام . . أشعلته بجوايا

النار توغل فيه . . والريح تدور البقايا

ما أتعس الناي بين . . المني وبين المنايا

يشدو ويشكو حزينا . . مرجعا شكوايا

مستعطفا من طونيا . . علي هواه الطوايا

والمتأملون في شعر شاعر مثل ناجي ، يرون أن الدموع التي ذابت فيها لغة الشعر ، جعلت من قصائد ناجي في دواوينه المتتابعة : وراء الغمام وليالي القاهرة والطائر الجريح ، محاولة دائبة للعلاج بالشعر ، وتعميد القلب بنار العذاب والمعاناة ولفح الأشجان والهموم ، تحقيقا لرسالة الشعر المقدسة في جلاء النفس وتطهير الوجدان .

كما يري المتأملون في كثير من قصائد الشاعر صلاح عبد الصبور ـ خاصة في ديوانه الإبحار في الذاكرة ـ معني العلاج بالشعر والتطهر بوهجه وندواته ، خاصة في قصيدة الشعر والرماد التي تسجل فرحة بعودة الشعر إلى ه بعد طول انقطاع وخوف وتوجس ، أن يكون الشعر قد هجره بلا عودة ، لكن زيارته إلى ما نيلا عاصمة الفلبين ـ مشاركا في مؤتمر أدباء آسيا وإفريقيا ـ وفرحه بتلك الليلة التي لا تنسي وقد عمرت بالغناء والموسيقي والرقص وانطلاق الصبوات ، فجرت في نفسه الشعر المحتجب خلف قشرة الحياة الصدئة ووجهها العابس القاتم ، فاذا بالشعر يغسله ويصفيه ، يعالجه ويشفيه ، ويعيده هذا الشعر العائد إلى معني الحياة الحقيقي وقد صفا وجدانه وتطهرت روحه :

ها أنت تعود إلى

أيا صوتي الشارد زمنا ، في صحراء الصمت الجرداء

ياظلي الضائع في ليل الأقمار السوداء

يا شعري التائه في نثر الأيام المتشابهة المعني الضائعة الأسماء

وأنا أسأل نفسي . .

مأخوذا بتتبع أصداء حديث الأشياء إلى روحي

وحديث الروح إلى الأشياء

مسلوبا خلف الصور الشائهة الهاربة الوهاجة والمنطفئة

إذ تطفو حينا في زبد الآفاق الممتدة

ثم تغوص وتنحل كما تنحل الموجة

أو تذوي وتذوب كما تذوي قطرات الأنداء

وأنا أسأل نفسي :

ماذا ردك لي يا شعري بعد شهور الوحشة والبعد وعلي أي جناح عدت

حييا كالطفل ، رقيقا كالعذراء
ولماذا لم أسمع خطواتك في ردهة روحي الباردة المكتئبة ؟

هــذا الاتكــاء علــي المحبــوب الــشعر ، ســبيلا إلى الــصفاء والتطهــر والتــسامي ، ووصــولا إلى معــارج الــروح وسمــاوات الإشــراف نجــده أيــضا في قــصيدة مبكــرة لــصلاح عبــد الــصبور في ديوانــه الأول النــاس في بــلادي عنوانهــا أغنيــة ولاء وهــي تفــيض بــالولاء للــشعر والتفــاني في التقــرب إلى ه والامتثــال لــه والخــشوع في محرابــه وبــين يديــه ، فهــو الــدواء الــشافي ، وهــو الأمــل البعيــد ، وهــو عــلاج الــروح والــنفس ، وهــو العــشق الــذي يمــوت في ســبيله الشاعر:

صنعت لك
عرشا من الحرير . . مخملي
نجرته من صندل
ومسندين تتكي عليهما
ولجة من الرخام ، صخرها ألماس
جلب من سوق الرقيق قينتين
قطرت من كرم الجنان جنتين
والكأس من بلور
أسرجت مصباحا
علقته في كوة في جانب الجوار
ونوره المفضض المهيب
وظله الغريب
في عالم يلتف في إزاره الشحيب
والليل قد راحا
وما قدمت أنت زائري الحبيب !
هدمت ما بنيت
أضعت ما اقتنيت
خرجت لك
علي أوافي تحملك
ومثلما ولدت ـ غير شملة الإحرام ـ
قد خرجت لك
أسائل الرواد
عن أرضك الغريبة الرهيبة الأسرار

في هدأة المساء والظلام خيمته سوداء
ضربت في الوديان والقلاع والوهاد
أسائل الرواد
ومن أراد أن يعيش فليمت شهيد عشق !
أنا هنا ملقي علي الجدار
وقد دفنت في الخيال قلبي الوديع
وجسمي الصريع
في مهمة الخيال قد دفنت قلبي الوديع !

* * *

يا أيها الحبيب
معذبي يا أيها الحبيب
أليس لي في المجلس السني حبوة التبيع
فإنني مطيع
وخادم سميع
فإن أذنت إنني النديم في الأسحار
حكايتي غرائب لم يحوها كتاب
طبائعي رقيقة كالخمر والأكواب
فإن لطفت هل إلى رنوة الحنان
فإنني أدل بالهوي علي الأخدان
أليس لي بقلبك العميق من مكان
وقد كسرت في هواك طينة الإنسان
وليس ثم من رجوع ! !

صلاح عبد الصبور يصل في معراجه الروحي مع الشعر إلى كسر طينة الإنسان ، لقد تم التطهير والتطهر ، وحلقت الروح شفيفة نقية صافية ، ندية نداوة الكلمات الشاعرة التي اغتسلت بالإحرام والسعي والخروج ، واستطاع مبدعها أن يكشف لنا ـ عبر تجلياته الشعرية الروحية ـ عن أغوار النفس الإنسانية ، وأن يثير فينا حوافز التأمل والدهشة والاكتشاف ، والرغبة في البوح والإفضاء والانكشاف ، وصولا إلى معرفة مكونات الداء وطبيعة العلة ، صعودا إلى أفق المكاشفة فالتطهر فالخلاص .

وفي الكثير من نماذج شعرنا العربي ـ قديمه وحديثه ـ تاريخا لا إبداعا ، فليس في الإبداع الحقيقي قديم وحديث ، مسارب تفضي إلى تحقيق العلاج بالشعر ، لو أحسن استخدامها أطباؤنا الذين يجهدون من أجل العلاج النفسي والعقلي ، خاصة من

حظي منهم بموهبة الإبداع الأدبي والشعري ، واستطاع أن يسيطر على مفاتيح النص الشعري وسبر أغواره وأعماقه .

وليس من الصعب على أطبائنا المعالجين الذين سبقوا إلى استخدام الموسيقي والتصوير في طرائق العلاج ، وحققوا في هذا المجال نتائج باهرة ، أن يسرعوا إلى استخدام العلاج بالشعر باعتباره وسيلة مثلي من وسائل تطهير النفس الإنسانية ، وجسرا ممدودا لتحقيق المكاشفة والخلاص .

سلام على إبراهيم

بقلم: فاروق شوشة

كان قد سبقنا جميعا إلى المجد ، أو إلى ما كنا نسميه المجد في ذلك الحين ، ونحن بعد طلاب في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة . كان اسمه يتردد مقترنا بعشرات البرامج الغنائية والدرامية التي كتبها للإذاعة منذ مطالع الخمسينيات ، وارتبطت هذه الأعمال بنخبة من أعلام الملحنين والمطربين والمخرجين: محمود الشريف و عبد الحليم نويرة وعزت الجاهلي وسيد إسماعيل وفتحية أحمد وسيد بدير ومحمود السباع وحافظ عبد الوهاب وغيرهم . وكنا نعجب لهذا الطالب الذي لم يتخرج بعد ، لكن اسمه يسبقه ، نجمه الصاعد يدل عليه ، وموهبته الشعرية الباكرة تصب في دوائر الفن الإذاعي خاصة دائرتي الغناء والدراما . والغريب أنه لم يكن ـ علي تفوقه الدراسي ـ متفرغا مثلنالكليته ، فقد كان يعمل ـ في الوقت نفسه مدرسا بالمدرسة الإنجليزية في مصرالجديدة ـ ويخالط مجتمع الفنانين من كل لون ، ويجذب إلى ه حيثما حل العديد من محبيه والمعجبين به والمكبرين لنبوغه المبكر . كيف لا وهو الرجل الجميل كأجمل ما يكون الرجل شبابا وحيوية ووسامة ، والشاب الحي الخجول الخافت الصوت والنبرة ، المتلىء يفيض من الصفاء والمودة لا يبخل بهما علي أحد ، حتي غير المستحقين لمودته وصداقته ، سعادته الغامرة في هذه المحبة التي تفيض عن ضفافه بعد أن امتلأ بها وأترعت نفسه . ترفده لغة عفة لا تعترف بالسوقي ولا المبتذل من الكلام ، ونبل هو طبع أصيل في نفسه ، وكرم يظلل دائرة أصفيائه وأصدقائه ومحبيه ، كرم يتجاوز المعني المألوف لما نسميه الكرم الشرقاوي ـ وهو الشرقاوي الأصيل من بني عام رـ لكنه كرم بالنفس والقلب والاهتمام والوعي والمشاركة ، والحنو البالغ علي الآخرين . هذه الصفة الأخيرة ستصبح بمرور الأيام نقطة ضعفه التي يقتحمه منها من لا يستحقون محبته أو مودته ، بعد أن استغلوا كرم نفسه وسماحتها ، واستثاروا انتماءه البعيد لقبيلة بني عام ر التي جاء منها قيس بن الملوح العامري وليلي العامرية ، وهو انتماء كان يفجر في وجدانه مخزونا هائلا من العواطف وتوقا دائما إلى الحب والجمال ، في الإطار السامي الشريف الذي قدمه لنا الحب العذري ، متوهجا بقيم الفروسية العربية والعاطفة الدينية التي سمت بالنفوس والأرواح وهذبت العواطف والأحاسيس ، وجعلت موت المحبين الصادقين استشهادا وشرفا . وسرعان ما جمعتنا هتفات النشاط الثقافي والشعري في الكلية ـ وما كان أكثرها وأجلها في ذلك الزمان البعيد ـ واكتمل عقد الجماعة والصحبة الذي امتد حتي إلى وم ، ولا ينفرط حين ينفرط إلا بالموت . وكنت أجد في أبو ة إبراهيم الترزي وحنوه الغامرغير ما أجده في أخوة محمود الربيعي الصادقة وجديته الصعيدية وغير ما ألقاه عند السعيد بدوي

في وثباته الفكرية والعقلية وأبوالمعاطي أبو النجا في كيانه الفني المرهف الشديد النقاء والحساسية وسليمان فياض - الذي كان معنا وليس من كليتنا - في احتوائه الإنساني لا خوانه وكأنه المسئول عنهم ، المهموم بأعبائهم ومعاناتهم .

في هذا الجو الحميم عرفت إبراهيم الترزي لا ول مرة . مسافة بالزمان تقترب الآن من ثمانية وأربعين عام ا ، وبالوجدان هي العمر الجميل كله ، صبا وشبابا ومطالع كهولة ، وبالأثر الباقي هي أثمن ما في الحياة زادا وجوهرا : صداقات بعدد أصابع إلى د ، ترجح في الميزان ألوف العابرين . في ذلك الوقت الرائق من الزمان والعمر كانت تظللنا أستاذية إبراهيم أنيس وحكمة محمود قاسم وشاعرية أحمد هيكل ووثبات عبد الرحمن أيوب ومرارة أحمد الشايب ومعرفة غنيمي هلال وإنسانية عبد الحكيم بلبع وعنفوان عباس حسن وجهارة مبروك نافع وصرامة علي حسب الله وتفاخر عمر الدسوقي وعصرية عبد الحميد الدواخلي وصعيدية تمام حسان . كنا محظوظين بالنجوم المحتشدة في سماء واحدة ، هي سماؤنا ، وبكواكب لا معة من الزملاء السابقين واللاحقين يفيضون علينا من صداقتهم ومحبتهم - ويجيء بعضهم من كليات وجامعات أخري - من بينهم عبد المحسن طه بدر ورجاء النقاش وغالب هلسا وفوزي العنتيل وصلاح عبد الصبور ومحمد الفيتوري ومحمد العلائي - صفي إبراهيم الترزي ونجيه وخليله - فضلا عن الكبار : طاهر أبو فاشا وأحمد مخيمر وأنور المعداوي ومحمد عبد الحليم عبد الله وغيرهم .

ويدور الزمان دورته الأولي ، فإذا الأحباب والأصحاب كل في طريق . السعيد بدوي من بعده محمود الربيعي في البعثة إلى انجلترا ، إبراهيم الترزي ومن بعده أبو المعاطي أبو النجا إلى مجمع اللغة العربية ، وأنا في الطريق إلى الإذاعة . وفي مجمع الخالدين - مجمع اللغة العربية - وجد إبراهيم الترزي نفسه ورسالة حياته . ولم يطل به الوقت حتي يحسم بينه وبين نفسه فكرة الدراسات العليا من أجل الحصول علي الماجستير والدكتوراه . المجمع في نظره أسمي من هذا بكثير ويستحق التضحية بالخيالات المصاحبة لرداء الأستاذية ، بل لقد أصبح انتماؤه القديم والأصيل للكتابة الإذاعية مهددا بسبب عشقه الجديد وغرامه الجديد . كان المجمع - الذي عمل به منذ منتصف الخمسينيات - يضم الكواكب الساطعة في سماء الحياة الفكرية والثقافية والأدبية المصرية والعربية . كانت مجاورة هؤلاء ، وصحبتهم ، والاقتراب منهم والدوران في أفلاكهم متعة لا تفوقها متعة وشرفا لا يدانية شرف . وبالرغم من وجود أعلام في قامة طه حسين والعقاد وتيمور وعزيز أباظة وأحمد زكي وتوفيق الحكيم وأمين الخولي ومهدي علام ومحمد كامل حسين وغيرهم ، إلا أن شيئا يشبه مس الكهرباء ، أو لعله سر من أسرار الكيمياء البشرية ، سرعان ما جمع بين إبراهيم بيومي مدكور وإبراهيم الترزي . وجد أولهما في الثاني التربة الخصبة التي يجهد في البحث عنها من أجل استزراع القيم المجمعية

وخـصائص العمـل المجمعـي والـروح المجمعيـة . ووجـد الثـاني في الأول النمـوذج الجليـل والقدوة ، في أرفع درجاتهما وأعلاها شموخا وتألقا .

فقد اجتمعت في مدكور - وهو الأمين العام للمجمع ثم رئيسه - موهبتاه الكبريان: العلمية والإدارية . فكان مثالا لا يتكرر للعالم الذي يضم المجمع كله بين جوانحه ، والقائد الذي يعرف موقع كل فرد في كتيبته المقاتلة ، ويجيد اختيار القيادات من بعده ، وتوزيع المسئوليات ، ومحاسبة الجميع ، واستحوذ إبراهيم الترزي علي ثقة مدكور ، وبالجهد والعرق والمثابرة ، والتفاني في عمله المجمعي الذي تقلب فيه بين التحرير والمراجعة والتحقيق والعمل المعجمي ، أصبح رئيسا لتحرير مجلة المجمع ، ومسئولا عن نشر أبحاثه ومحاضراته ومهندسا لدوراته ومؤتمراته ، وقائدا لفريق العمل العلمي والفني والإداري للمجمع ، فعضوا بمجمع الخالدين - وهي العضوية التي لم يسبق إلى ها من العاملين في المجمع إلا الراحل الكريم الأستاذ شوقي أمين ولم يلحق فيها من بعده إلا الأستاذ مصطفي حجازي - أطال الله بقاءه - لا ن ثلاثتهم لم يكونوا مجرد موظفين يعملون في المجمع ويصلون إلى أقصي درجات السلم الوظيفي فيه ، وإنما هم في حقيقتهم علماء كبار وباحثون جادون ومحققون مشهود لهم بالفضل والمكانة ومبدعون في تعاملهم مع اللغة من منطلق الوعي بها والتذوق الرفيع لها والخبرة التي نمت واكتملت لديهم عبرعشرات السنين ولا تقدر بالألوف أو الملايين . يؤكد هذا الولاء المجمعي - لدي ابراهيم - رفضه للعمل مستشارا فنيا لصديقه وتلميذه عبد الله مراد صاحب استديوهات عجمان لقاء مكافأة يمكن أن تعتبر خرافية إذا ما قورنت براتبه المجمعي الهزيل ، حتي لا يكون في نظر نفسه متخليا عن الرسالة التي نذر لها قلبه وعقله وحياته .

ويصبح إبراهيم الترزي أمينا عام ا للمجمع - أي رئيسه التنفيذي - ويجلس في المكان الذي شغله من قبل أستاذه شيخ المجمعيين إبراهيم مدكور . وسرعان ما ينتخب أمينا عام ا لا تحاد المجامع العلمية العربية ، فضلا عن كونه عضوا بالمجمع العلمي المصري وعضوا مراسلا بمجمع دمشق وعضوا بالهيئة الاستشارية لمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية وعضوا بلجان المجلس الأعلي للثقافة . كما أتاحت له إنجازاته الإبداعية في الكتابة الأدبية والثقافية والدرامية أن يكون عضوا قديما باتحاد الكتاب ونقابة السينمائيين (قسم السيناريو) ، هذا المجال الابداعي الذي طغي عليه وحجبه عن العيون تفانيه في العمل المجمعي . لكن إخلاصه لهاجس الفن جعله - وهو في حميا انشغاله بالمجمع - يعكف علي وصل ما انقطع من خيوط الإبداع الشعري والدرامي . من هنا كان إنجازه للعديد من البرامج والمسلسلات الإذاعية والتليفزيونية من بينها : الخليل بن أحمد ، والإمام الغزالي ، والأئمة الأربعة ، وأديب العربية الجاحظ ، ورائد المسرح الغنائي العربي أبو خليل القباني ، ومجمعيون مبدعون ، والملوك الشعراء ، وقراقوش

المظلوم ، وشاعرات عربيات ، وظرفاء من مصر ، والجزارالشاعر ، وابن تيمية ، ومجالس هارون الرشيد وأسواق العرب ، وسهرة رمضانية في مصر المملوكية فضلا عن عشرات البرامج الغنائية ومئات الأغنيات التي كتبها بالفصحي والعامية .

كما يتجلي وجه المحقق والمجمعي فيه من خلال تحقيقه لبعض أجزاء المعجم اللغوي الكبير تاج العروس والجزء الرابع من كتاب سبل الهدي والرشاد في سيرة خير العباد وكتابه التراث المجمعي في خمسين عام ا والذي يعد دليلا ومدخلا لا غني عنه لكل ما يتصل بمجمع اللغة العربية فكرة وتاريخا وتأسيسا ولجانا وأعلاما مجمعيين وأبحاثا علي مدار خمسين عام ا ، فضلا عن مشاركته في إعداد مجموعة القرارات المجمعية العلمية ومجموعة الألفاظ والأساليب التي أقرها المجمع . وقيادة العمل في لجنة المعجم الكبير التي حبت فيها كل خبراته اللغوية والمعجمية والمجمعية التي حصلها وأفادها عبر مسيرة نصف قرن من العمل المجمعي المتصل ضحي خلالها بالكثير ولم يسلم من الكثير ، الذي جعل من عام ه المجمعي الأخير عام ا من المعاناة والنزف النفسي الذي لم يتنبه له أولئك الذين أسرفوا في توجيه سهامهم إلى ه ، وكأنه وحده المسئول عن تأخر صدور الأعداد الأخيرة من مجلة المجمع ، بينما المجمع في حقيقة الأمر مشغول بمطبوعات أخري ليس لها طابع الفورية أو التتابع الذي يتطلبه صدور المجلة . وكأنه وحده المسئول عما يعتبرونه بطئا في عمل لجنة المعجم الكبير وهم يدركون في قرارة أنفسهم كم يتطلبه مثل هذا العمل المعجمي من أناة وحرص ودأب ومراجعة ، أو من يغمزونه أحيانا بأنه الأمين العام الذي لم يحصل علي الدكتوراه ، مع أن مثله في مقام من يمنح الدكتوراه لا مثالهم الذين لم تضف إلى هم هذه الدكتوراه شيئا ذا بال .

ولعل الذين فوجئوا برحيله المباغت وهو في أوج قدرته واكتمالها علي العطاء ، يدركون الآن ـ بعد فوات الأوان ـ أن عام ا كاملا من التوتر والمعاناة ، والشعور الشديد بالإحباط ، والحدة التي لا مبرر لها في توجيه السهام إلى ه ، حتي ممن لا يتوقع منهم ذلك ، وانعدام جو الثقة المتبادلة الذي اعتاده مع رؤسائه السابقين طوال عمله المجمعي ، وحساسيته المفرطة التي جعلته يستشعر في الشهور الأخيرة من حياته المجمعية جوا مسموما من الالتفاف والمناورة ومحاولة إلغاء دوره ، ويعاني تضخيما لكل كلمة وتجسيدا لكل التفاته ومبالغة في رد الفعل إزاء كل موقف ، كل ذلك ساعد علي تمكن الداء الخبيث من كبده ، واستنزاف قدراته وطاقاته الحيوية ، بينما يتماسك هو ـ أو يتظاهر بالتمسك لا عنا لنفسه ولأصفيائه ـ تغير الأيام والأحوال والناس .

ولقد رحل إبراهيم الترزي ـ الإنسان الجميل والعالم الجاد والباحث الدءوب والمجمعي الحقيقي ـ كما يرحل النسيم . رحل وآخرالكلمات التي تهمس بها شفتاه الواهنتان: الدعاء لمن حوله بالمحبة لا نها أغلي ما يمتلكه الإنسان ، وكأن روحه

الـشفيفة قبيـل صـعودها إلى المـلأ الأعلـي كانـت تريـد أن تنبهنـا ـ نحـن المـتحلقين مـن حولـه ـ إلى أن رسـالة إبـراهيم في الحيـاة ، لم تجـاوز أبـدا دائـرة المحبـة بمعناهـا الإنـساني الكـبير تجسيدا وسلوكا وممارسة .

فهل يـدرك الآن الـذين بخلـوا عليـه بقطـرات مـن هـذه المحبـة ، أنـه كـان يـدعو لهـم بالـصحة والعافيـة وهـو في النـزع الأخـير ؟ وهـل يجـدون مـن الوقـت مـا يعيـدون فيـه تأمـل بيت المتنبي:

ومــراد النفــوس أصــغر مــن أن . . . . تتعــادي فيــه ، وأن نتفاني !

وسلام عليك يا إبراهيم .

أهمية أن نتجه شرقًا

بقلم: فاروق شوشة

لم يكن سندباد العصر الدكتور حسين فوزي يعبر عن نفسه فقط حينما قال: درجت علي حب الغرب ، والإعجاب بكل ما هو غربي لكنه - في حقيقة الأمر - كان يعبر عن قطاع عريض من المثقفين ، كانوا ومازالوا وسيبقون دائما شديدي الانجذاب إلى الغرب والانبهار بكل ما هو غربي خاصة في مجالات الفكر والثقافة والآداب والفنون . وهي المجالات التي كان حسين فوزي دائم التغني بأمجادها ومفاخرها والحض علي الاستزادة منها والدعوة إلى تقليدها والسير علي نهجها .

وظل مفهوم الغرب بالنسبة لكثير من مثقفينا ودعاة النهضة والتحديث لدينا يعني أوروبا علي وجه الخصوص . ثم اتسع المفهوم بعد بروز الدور الأمريكي علي مسرح الأحداث العالمية وتعاظم هذا الدور في مجالات السياسة والعلوم والثقافة والإعلام والفنون ، فأصبح الذين يتحدثون عن الغرب والثقافة الغربية والفكر الغربي ، يدرجون الثقافة الأمريكية وكل ما هو أمريكي في الحسبان ، إلا إذا اضطروا إلى التخصيص والتحديد ، عندئذ يعودون إلى الأصول والحدود الفارقة والمميزة فيقولون: أوروبي وأمريكي وفي حميا هذا الإيمان بكل ما هو غربي ، والدعوة إلى تبني الحضارة الغربية كان حسين فوزي يقول:

سافرت إلى أوروبا شابا عارفا بمسئوليته ، لا ني اضطلعت قبل سفري ببعض التبعات ، وكانت حياتي السابقة علي هذا السفر تشرئب إلى هذه الحضارة الغربية في صور ثقافتها: علمها وفنها وأدبها . فلم يكن في أوروبا من جديد علي غير حقيقتها الحية .

ثم يقول: وأنا مؤمن بهذه الحضارة إيمانا لا تزعزعه الزعازع ، لا نني عرفتها في مقوماتها الحقة من فكر وعلم وأدب وفن . وعرفت كيف تعمل هذه المقومات عملها في تقدم الأمم ، أتعرف ذلك النوع من الأفلام التعليمية يصور تفتح الزهرة أو فقس البويضة علي مدي الأيام ، ثم يعرض ذلك أمامك في دقائق فيقرب لذهنك ما كنت بحاجة إلى الأيام بل الأشهر لدراسته ؟

أوروبا إلى وم هي هذا الفيلم وموضوعه: تفتح الحضارة وهو يوضح مقاصده من وراء هذه الكلمات في موضع آخر من كتابه سندباد إلى الغرب حين يقول: لماذا ؟ لا ن هذه الحضارة - ولا أية حضارة - ليست أبنية وأموالا ، وملايين من السكان ، وأساطيل وطيارات ، إنما هي في رجل الفكر والعلم والفن والأدب ! وليس هدفي من هذه

الاقتباسات مناقشة سندباد العصر الدكتور حسين فوزي أو إدانته ، فأنا شديد الاعجاب به وبوطنيته ، عميق التقدير لا دبه وكتاباته ، فضلا عن أنه لا ينفرد بهذه الآراء التي ربما جهر بها بينما تحفظ غيره . ورواد التنوير جميعا منذ رفاعة رافع الطهطاوي مرورا بطه حسين وتوفيق الحكيم ومحمد حسين هيكل ومحمد مندور ولويس عوض وغيرهم - جيلا بعد جيل - لم يخفوا إعجابهم بالغرب ، ثقافة وحضارة ، وآدابا وفنونا ، لكنهم كانوا شديدي الانتماء لمصريتهم وهويتهم ، شديدي الولاء لوطنهم الذي كان دوما قبلتهم وتهوي افئدتهم وهم ينهلون من ثقافة الغرب وحضارته ويعيشون في واقعه وقيمه وتقاليده ومؤثراته .

لكن دافعي لكتابة هذا الكلام هو غيبة وغينا - وتزايد هذه الغيبة - بأهمية الحضارات والثقافات الشرقية ، وعدم وجود هذا التوجه لدينا بشكل أصيل وحقيقي ، في الوقت الذي تزدهر فيه حضارات وثقافات وآداب وفنون هندية وصينية ويابانية وفارسية يسرع العالم إلى التعرف عليها ومتابعتها بالدراسة والتأمل والتحليل ، وهانحن ما زلنا بعد أكثر من قرنين علي قيام توجهنا المصري والعربي للترجمة ، مشدودي الوثاق إلى الترجمة عن الانجليزية أولا والفرنسية ثانيا ، وربما تحدث بعض الاستثناءات الطفيفة في الترجمة عن الاسبانية أو الألمانية أو الايطالية أو إلى ونانية وغيرها ، دون أن نقترب بشكل جاد وأساسي من الثقافات التي أشرت إلى ها ، بما يضمن تحقيق التوازن المعرفي ، الذي هو أساس المعرفة الصحيحة . والعاصم من أحادية النظرية ، والمساعد علي التخلص من المركزية الأوروبية التي تشدقنا كثيرا بضرورة التمرد عليها وتجاوزها دون أن نتقدم خطوة واحدة في الاتجاه الصحيح .

نعم ، ما زلنا في ثقافتنا الأدبية والنقدية أسري النظريات والتقاليد الأدبية والاتجاهات النقدية الأوروبية . ومازلنا في ترديدنا للأفكار والنظريات نباهي - أول ما نباهي - بوقوعنا علي أحدث ما نشرته المطابع الانجليزية والفرنسية والأمريكية ، وترديد هذا الجديد باعتباره الانجاز الذي يستحق الاهتمام ودوران الكلام . ومازال الذين يتجهون شرقا - إذا اتجهوا - وحاولوا الترجمة عن الصينية أو إلى ابانية يصنفون علي أنهم من طبقة أدني ، وعليهم أن يقفوا في مؤخرة الطابور .

لكل هذا فان سعادتي كبيرة بهذا الديوان الشعري الضخم الذي يضم مختارات من الشعر الآسيوي ترجمها عن الانجليزية الاستاذ أحمد فرحات وصدرت ضمن منشورات المجمع الثقافي في أبو ظبي . وتتسع دائرة هذه المختارات الشعرية لشعراء من الهند وباكستان وماليزيا وإندونيسيا والفلبين وتايلاند وكوريا الجنوبية وتايوان وبنجلاديش وأفغانستان وبورما .

يقول المترجم في تقديمه لكتابه الذي سماه: تغذية الشمس (من الشعر الآسيوي) - ويبدو أن العنوان ما خوذ من قصيدة عنوانها شمس أخري للشاعر الفلبيني فرناندو ريباليداس يقول في مستهلها:

غذت الشمس جسدي حتي

تحول بدوره إلى شمس أخري

تغذي أجساد الآخرين هناك

بعيدا في عمق الأعماق

حيث كل شيء يذوب

ويتحول إلى شمس مجهولة

يبدو أن تكرار غذت الشمس وتغذي أجساد الآخرين هو الذي أوحي إلى المترجم بهذا العنوان للمختارات المترجمة - يقول الأستاذ أحمد فرحات: عرفت البعض من شعراء الشرق الأقصي وشبه القارة الهندية خلال زياراتي المتكررة وشبه الطويلة إلى بلدانهم . أما البعض الآخر فعرفته أكثر في دبي المدينة الكوزموبوليتيه المتألقة بامتياز ، حيث تعيش فيها - متآلفة - جاليات آسيوية عدة: هنود ، باكستانيون ، ما ليزيون ، إندونيسيون ، فلبينيون ، أفغانيون ، بنغاليون ، بورميون ، كوريون ، تايوانيون ، الخ .

ونتج عن لقائي شعراء من هذه القوميات ، ومن ثم محاورتهم ومعايشتهم عن كثب ، هذا الكتاب الشعري المترجم والذي تفتقر إلى ه - علي ما أعتقد - مكتبتنا الشعرية الحديثة ، إذ لم يسبق لهذه المكتبة أن ضمت في عداد مترجماتها كتابا يحوي نصوصا أو قصائد من الشعر الحديث لشعراء من دول جنوب شرق آسيا . ومثل هذه الثغرة في مكتبتنا هي التي حفزتني - في الواقع - إلى المضي قدما في انجاز هذا المشروع الذي استغرق ثلاث سنوات ، هي الأخيرة من سني إقامتي التي مضي عليها عشر حتي الآن ، في دولة الامارات العربية المتحدة .

ثم يقول المترجم أحمد فرحات: ان اندماجي الحياتي والثقافي بالآسيوي هو الذي أثمر مثل هذا العمل الشعري ، وهو اندماج لا حظت أنه غير مطروق أو متحقق من طرف انتلجنسيا - أي نخبة مثقفي - الجاليات العربية في الإمارات خاصة كتابها وإعلامييها . والعكس صحيح أيضا ، فالكل يعيش علي أرض واحدة يتفاعل تجاريا واقتصاديا وخدماتيا ، ويهمل التفاعل الإنساني الصميمي الأهم: الابداع والثقافة . وعندما ينتقل المترجم إلى تقييم هذه النصوص الشعرية فكريا وفنيا فإنه يؤكد مفاجآته الكبيرة والمتعة بالمستوي والنضج فيما قرأه وترجمه من نصوص شعرية ، فقد كان أغلبها

ذا معان متعددة الطبقات والمستويات ، سارع الشاعر خلالها إلى إعلان انفعالاته بلذة هادئة وغنية بالاندلاق (!) الأسطوري ، هذا الاندلاق الذي يختزل الحس ويكثفه من دون أن يتخلي كذلك عن الخفق بالخفاء والهمس وسريان المزاج ونشوة الاندغام في الأشياء .

هانحن أولاء إذن بصدد شعر يحاول أن يكتشف علاقات العالم لا بالوصف ولا بالتمثيل ولا بالرؤي الكاذبة ، وإنما بالتحرك عبر نظام عمل الحواس والاشارات والرموز الذي يبتكر بذاته لغته أو مكتسباته التعبيرية والفنية ، والتي تضيف بالضرورة جديدا إلى خارطة الشعر الحديث في العالم .

والمترجم يري أن معظم القصائد المترجمة يحمل طابع الرؤية الباطنية للوجود ، يلخصه الشاعر الماليزي سيال عبد الرحمن في قوله : بت لا أومن بما أشاهد ، وإنما بما أحس فقط ، عتمتي هي التي باتت تحدد الأشياء وتعاينها شعريا . وأمانة هذه العتمة تشف دوما عن أعمق الدلالات وتنتعش كذلك بآماد المسافات الشعرية العصية علي الاستقصاء .

لابد أن القاريء يتطلع الآن إلى التعرف المباشر علي بعض هذه النصوص الشعرية الآسيوية التي تحمل مذاقها الخاص ، وبنيتها الشعرية المختلفة عما قرأناه من نصوص شعرية غربية ، فضلا عما تحمل من الشجن وضراوة الحنين إلى عالم الذكريات القديمة والمواطن الأولي للحس والوجدان .

يقول الشاعر الهندي كومار سينغ كوجرال - الذي انتحر في مدينة الشارقة عام ١٩٩٧ تاركا رسالة يقول فيها : رحلت لهدف وحيد هو البحث عن مزيد من الصلة بالواقع ، يقول في قصيدة عنوانها لا ضرورة للانتحار أهداها إلى صديقه المترجم أحمد فرحات قبل انتحاره بأسابيع قليلة :

لن أنتحر غدا يا أحمد
إذ لا ضرورة من هذا الانتحار البتة
فأنا مقيم فيه
وهو مقيم في
إذ ليس أجمل من انتحار
أن تبقي حيا في هذا العالم
البلاستيكي
عالم الرأس الواحد
الذي من مهامه أن ينتشي

بانتصارات كاذبة
تشبه انتصارات
من مضي من الطواغيت
ولماذا أنتحر أيها الصديق !
ما أجمله من انتحار موصول هذا
نتحرك ببهاء
في قياماته الموصولة !

وفي قصيدة عنوانها شعر يقول الشاعر الباكستاني رستاق شريف علي:

نقرأ شعر الآخرين
لنكتشف شعرنا أكثر
لنعيد التقاط الكتابة
وفق شروط مجهولة
تظل تتحكم فينا
شعر الآخرين هو شعرنا
وشعرنا هو شعرهم أيضا
لأن الجميع ، جميع الشعراء
يكتبون في النهاية
قصيدة واحدة
شرطها أن تظل بعيدة مفككة
ولايمكن التقاطها البته !

ويقول الشاعر الماليزي سيال عبد الرحمن تحت عنوان: بكاء خاص:

دخل مكتبة بينه بعد سنة
فقامت إلى ه الكتب
وقرأته دفعة واحدة
حتي بكي
وبكت معه
الكتب كلها !

ويقول عن الوهم:

الوردة ضيفته كل صباح
وهو مجبر علي تقديم

الابتسامة الطبيعية لها
حتي لا تحزن
الوردة ضيفته كل صباح
وهي مجبرة علي تقديم وهم الفرح له
بعد سنوات
تحولت الوردة إلى رجل
غير مقتنع إلا بوهمه
المبتل بالألوان !

قد يكون في ترجمة بعض هذه النصوص الشعرية قلق في الصياغة أو إحكام التعبير أو اختيار الكلمة الصحيحة أو الدالة ، لكنها ـ في مجموعها ـ وداخل هذا المجلد الشعري الضخم ـ ناطقة بالجهد الكبير الذي بذله المترجم أحمد فرحات من أجل أن يثري المكتبة الشعرية الحديثة ببعض ما ينقصها من ألوان الشعر الآسيوي ، وكأنه يؤكد لنا بصورة جلية أهمية أن نتجه شرقا ، وأن ننفتح علي عوالم وسماوات شعرية جديدة ، دماؤها حارة ، وأمواجها متدفقة جياشة ، وآفاقها بلا حدود ، عبر آداب وثقافات وحضارات لم نطلع عليها حتي الآن بصورة جدية ، تكافيء أهميتها وضرورتها ، لا عتدال الميزان والخروج من سيطرة ما هو أوروبي أو غربي ، لا نحيد عنه ، ولا نعرف سواه ! وفي هذا فليتنافس المتنافسون .

دريني خشبه عاشق الشعر والجمال

بقلم : فاروق شوشة

لن يفارقني ما حييت ذلك السحر الذي غمرني وتملكني وسيطر علي عقلي ووجداني ولاتلك النشوة الطاغية التي عشتها وأنا أطالع علي صفحات مجلة الرواية ـ التي كان يصدرها الكاتب الكبير أحمد حسن الزيات في ثلاثينيات القرن الماضي شقيقة لمجلته الأولي الرسالة أول الأمر ، ثم مندمجة معها في رداء واحد ـ الترجمة البديعة الساحرة التي قام بها للمترجم والأديب الفذ دريني خشبة لرائعتي هوميروس الخالدتين ، ملحمتيه :

الإلياذة والأوديسة .

كان ذلك في عام ١٩٤٧ وكنت أخطو إلى عام ي الحادي عشر ، في الاجازة الصيفية الفاصلة بين حصولي علي شهادة إتمام الدراسة الابتدائية والتهيؤ للالتحاق بالمدرسة الثانوية ، حين اندلع في بعض محافظات الوجه البحري وباء الكوليرا ـ أو الهيضة كما كان يسمي ـ قادما إلى محافظتنا دمياط من محافظة الشرقية ، وضرب الحصار علي قريتنا الشعراء ، وعزلت القري حتي لا يزداد انتشار الوباء القاتل ـ الذي فقدت فيه جدي لا مي وكان أحب الناس إلى قلبي وأنا طفل خاصة أنه الجد الوحيد الذي أدركته في حياته ـ ولم يخفف عني وطأة الحصار والحبس في البيت وعدم الخروج إلى شوارع القرية إلا العبث بمكتبة صغيرة متواضعة كان فيها بعض مقتنيات أبي الذي كان معلما ـ ولم يكن مسموحا لنا ـ نحن الصغار ـ بالاقتراب منها وفوجئت بأن بين هذه المقتنيات الطبعة الأولي الصغيرة الحجم من الشوقيات التي أصدرها شوقي في مستهل القرن الماضي ، ومختارات من النظم والنثر تمثل عصور الأدب العربي ، وأعدادا هائلة من مجلتي الرسالة والرواية كان طبيعيا أن أبدأ بشوقي وشوقياته ، وأن انتقل إلى مجموعة النظم والنثر ، وأن أتوقف تماما أمام حلقات الإلياذة والأوديسة مسلسلة علي صفحات مجلة الرواية . لا أكاد أرفع رأسي عن عدد منها حتي أنتقل إلى غيره . أي سحر تملكني وأية نشوة أخذتني من عالم الكوليرا ـ وعصف الوباء بالأقارب والأحباء في القرية ، يتساقطون واحدا بعد الآخر ، كل يوم وكل ساعة ـ وأنا أحتمي من الأحزان الفاجعة بالقراءة ، وتحملني القراءة علي جناحين يرفرفان بي إلى سماء لم أعهدها وفضاء لم أكتشفه من قبل ، وحالة من الصفاء العلوي تأخذني من نفسي وأنا منبطح علي الأرض ـ إلى جوار المكتبة ـ والمجلات متناثرة تحت عيني وأنا ألتهم صفحاتها التهاما ، وقد

اختلط الصباح بالمساء ، وعبرت شهور الصيف والاجازة كأنها طرفة عين ! كانت ترجمة دريني خشبة للإلياذة تبدأ بهذه الكلمات التي كأنها مزامير منشد عظيم .

نشيد الزمان !

وقصيدة الماضي !

وغناء السلف !

وحداء القافلة التي لا تفتأ تخب في بيداء الأزل ، إلى الواحة المفقودة في متاهة الأبد ، ركبانها الآلهة ، وأبوللو ، وكيوبيد ، وملؤها ولدانها المخلدون .

أنشد ياهوميروس !

واملء الأحقاب موسيقي !

واللانهاية جمالا وسحرا !

فالأرواح ظامئة ، والقلوب متعبة ، والإنسانية واجفة والأذان مكدودة من دوي العصر ، فهي أبدا تحن إلى سكون الماضي .

لن تصمت ياهوميروس

فالقيثارة الخالدة لا تزال بيديك

والقلوب هي القلوب !

فدع أوتارها تملأ الدنيا رنينا ، فقد أوسعتنا هذه الدنيا أنينا ، ورنينك العذب أذهب لا نين الشاكين ولوعة الباكين .

وكانت ترجمته للأوديسة تبدأ بهذه الكلمات الشعرية :

أنشد ياهوميروس !

وظل في فم الأبد قيثارته المرنة (من الرنين) ونايه المطرب ، وعودة الآن (من الأنين) ونغمته الحلوة الحنون .

أنشد ياشاعر العصر الخالي !

وحل في الأسماع موسيقي مدوية ، وفي العيون دموعا جارية وفي القلوب رحمة ومحبة ، وانفح عرائس الشعر من لدنك سلطانا ، وحكمته وبيانا ، وسريرا وصولجانا .

تغن ياشاعر أولمب !

ولترسل من جنتك نغمة تنتظم الأفلاك ، ورنة تجلجل في الأفق ، وآهة تزلزل قلوب الجبارين !

. . . .

لكن ، ما الذي يذكرني الآن بدريني خشبة ، وبالإلياذة والأوديسة ، وهوميروس شاعر العصر الخالي ! إنها دار الهلال ، التي تعيد نشر الملحمتين الخالدتين ، بترجمة دريني خشبة ، وتخرجهما لقراء هذا الزمان في ثوب قشيب ، من اللوحات والرسوم ، والغلاف البديع للفنان محمد أبو طالب ، والورق المصقول الذي نفتقده فيما ينشر هذه الأيام . وإذا بالكتابين يصبحان تحفة فنية وأدبية بكل المقاييس .

والإلياذة ـ كما تقول مقدمة الترجمة ـ تعني قصة ذروادة ، المدينة الآسيوية القديمة الواقعة علي شاطيء البوسفور ، حيث وجدت خرائبها تحت تلال الرمال بعد أن دمرتها القبائل من أسلاف الاغريق القدامي في حروب طويلة امتدت قرنا كاملا قبل تسعمائة عام من الميلاد ، وأغلب الظن أن الحرب نشبت بسبب المنافسة علي التجارة والسيطرة البحرية علي جزر بحر إيجه وسواحل الأناضول وشمال إلى ونان .

أما هوميروس فيري ـ في ملحمته ـ أن الحرب نشبت بسبب اختطاف الملكة الاغريقية هيلين علي يدي الأمير الطروادي باريس ، كما يري أن الحرب استمرت عشر سنوات فحسب . فالإلياذة لا تحكي قصة الحرب كلها وإنما تحكي قصة غضب أخيل بطل أبطال الاغريق ، وكيف اختطف باريس هيلين ، ويروي هوميروس حياة كل من قادة الاغريق وتاريخ طروادة قبل الحرب الحرب ، والمشاجرة التي وقعت بين أخيل وملك الرجال أجاممنون وتنتهي الإلياذة بتمزيق جثة هكتور بطل طروادة وابن ملكها ، وما أعقب ذلك من مقتل أخيل وفتح طروادة وتدميرها .

أما الأدويسة ـ التي يجمع النقاد علي أنها أكثر عمقا ونبلا ورقة من الألياذة ـ فتروي قصة عودة البطل الاغريقي أوديسيوس أو أوليسيز بعد سقوط طروادة إلى وطنه ومملكته إيثاكا وماتعرض له من أهوال وصراع في طريق عودته بسبب نسيانه تقديم القرابين للآلهة بعد الانتصار وقبل الابحار . بينما تنتظره زوجته الوفية بنيلوب ويبحث عنه ابنه الشجاع تليماك .

أما المترجم الفذ ـ المسكون بالشعر والجمال ـ دريني خشبة ، فأستأذن القاريء في أن أنقل ما قالته عنه موسوعة الفكر العربي في مجلدها الثاني وهي الموسوعة التي أشرف علهيا وأصدرها الأستاذ الكبير سعيد جودة السحار ورسم شخصياتها الفنان جمال قطب .
تقول الموسوعة : ولد محمد دريني خشبة في الخامس من يناير سنة١٩٠٣ بمدينة شربين بمديرية الدقهلية ، وتلقي تعليمه الابتدائي والثانوي بمدينة المنصورة ، وفي سنة١٩٢٢ حصل علي شهادة البكالوريا بتفوق فلحق بكلية الحقوق بالقاهرة ، ولكن حالت بعض الظروف المادية والاجتماعية الصعبة التي لحقت بأسرته في تلك الفترة دون أن يتمكن من مواصلة دراسته في الكلية ، فقنع بما نال واتجه إلى كتب الأدب ينهل منها ويقرأ

بالإنجليزية التي يتقنها روائع الأدب العالمي ، فضلا عن تعمقه في دراسة التراث العربي .

وفي سنة١٩٢٣ ، عرض عليه أن يعمل مدرسا للغة الانجليزية بإحدي مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية ، فاستجاب لذلك العرض وراح يؤدي عمله بأمانة وإخلاص متنقلا بين بلدته شربين والمحلة الكبري وأسيوط حتي سنة١٩٣٦ . ولم يكتف في تلك الفترة بأن يعمل مدرسا ، فكان يقوم بأعمال الترجمة في جريدة اللواء التي أسسها مصطفي كامل ، وجريدة الأخبار التي كان يصدرها أمين الرافعي . وإلي جانب ذلك كان يقضي أوقاتا طويلة في الاطلاع علي تاريخ الرسالة المحمدية والرسول الكريم وخلفائه في كتب المؤرخين القدامي كالطبري والواقدي وابن الأثير .

وفي سنة ١٩٣٦ تزوج دريني خشبة وأنجب ثلاثة أولاد - أحدهم الصديق الكاتب الكبير سامي خشبة بالأهرام - وبدأ ينشر في الثلاثينيات مقالاته ودراساته الأدبية والتاريخية في المجلة الجديدة لسلامة موسي . وكان أول ما كتب في الفن المسرحي سنة١٩٣١ قبل وفاة شوقي بنحو ثلاثة أشهر ، إذ نشر في المجلة مقالا يتناول فيه مسرحية شوقي مجنون ليلي حيث انتقد سلبية قيس ، فهو لا يفعل شيئا من أجل حبه إلا أن يبكي ويهيم علي وجهه - وغضب شوقي من ذلك النقد ، وعاتب دريني علي نقده في حضور سلامة موسي رئيس التحرير ، ولكن شوقي كان لا يخفي رضاه عن النقاط التي ذكرها دريني في نقده ، وبدأ دريني خشبة ذلك الاتجاه الجديد في النقد الذي وقف عليه أغلب كتاباته فيما بعد . وبالرغم من اهتمامه بالدراسة المسرحية إلا أنه نشر - في مجلتي الرسالة والرواية - مجموعتين من القصص القصيرة هما عزام فنان سنة١٩٣٣ وخيانة زوجة سنة١٩٣٦ أما نشاطه الأدبي فقد بدأ بترجمة التراث إلى وناني العريق ونشر أساطير الحب والجمال عند الاغريق ثم نشر ملحمتي هوميروس الألياذة سنة١٩٣٨ والأوديسة سنة١٩٣٩ وفي سنة١٩٤٢ انتقل إلى القاهرة بعد أن عينه الدكتور طه حسين في إدارة الترجمة بوزارة المعارف . وانضم سنة١٩٤٤ إلى أسرة المعهد العالي للفنون المسرحية ليحاضر في ما دة الأدب المسرحي . ثم انتدب بعد ذلك للعمل رئيسا لتحرير مجلة المجتمع الجديد وقد زود دريني المكتبة العربية بكتابه أشهر المذاهب المسرحية سنة١٩٦١ ، وحياتي في الفن وعلم المسرحية وعمالقة الأدب لراسكو . وواصل دريني خشبة رحلة العطاء حتي رحل عن الحياة في يوليو سنة١٩٦٤ بعد أن أثري المكتبة العربية بكتبه ودراساته .

فكأننا نحيي الآن الذكري السابعة والثلاثين لرحيله ، القارىء لترجمات دريني خشبة يحس علي الفور أنه أمام شاعر حقيقي ، آثر أن يخفي حقيقة شاعريته ، لكنه لم ينجح في حجب تأثيرها الطاغي علي كتاباته وصياغاته النثرية فنثره - كما نقول مقدمة الأليـاذة - بليغ وموسيقي وغني بالتعبيرات الفنية والصور والأوصاف والتشبيهات ، مما

يجعلـه أقـرب مـا يكـون إلى أسـلوب الـشعر الكلاسـيكي الـذي كتبـت بـه الملحمـة في الأصـل وترجمـت إلى ه في اللغـات الأخـري . وقـد اسـتند دريـني خـشبة إلى عـدد مـن الترجمـات الانجليزيـة للإليـاذة والأوديـسة أجمعهـا وأفـضلها - في رأي كاتـب المقدمـة - ترجمـة جـورج تـشابعان في القـرن الـسابع عـشر ، فهـي تكـاد تكـون إعـادة لـصياغة الملحمـة بأسـلوب وبنـاء يتلاءمـان مـع ذوق العـصر الاليزبيثـي في انجلـترا ، وقـد امتـدحها الـشاعران الانجليزيـان العظيمـان كولريـدج وكيـتس ، كمـا اسـتند أيـضا إلى ترجمـة ويليـام كـاوبر في القـرن الثـامن عـشر وألكـساندر بـوب في القـرن نفـسه وترجمـة ويليـام ايـرل أف دربـي في القـرن التاسـع عـشر .
وبالرغم مـن أن مـا قـام بـه مترجمنـا الفذ لـيس ترجمـة عـن اللغـة الأصلية للملحمـتين إلا أن أنـه نجـح في تجـسيد صـورة فنيـة شـديدة الحيويـة والجمـال ، عـام رة بـألوان وظـلال شـتي ، ناطقـة بـسيطرته المدهـشة علـي لغتـه العربيـة ، ووعيـه العميـق بأسـرار الـنص المترجـم ومنـاطق جمالـه وقتنتـه وإلا كيـف تـسني لـه أن يبـدع مثـل هـذه اللوحـة المـؤثرة في ثنايـا ترجمتـه للأوديـسة علـي لـسان مينرفـا ربـة الحكمـة - وقـد جـاءت في صـورة الأمـين منطـور - تخاطـب تليمـاك بكلمـات هـن أروح مـن أنفـاس الفجـر ، وأنـدي مـن نـسمات الـورد ، وأعـذب مـن قطـرات النـدي: الـسلام عليـك ياتليمـاك . الـسلام عليـك حـين تثبـت أنـك ابـن أوديـسيوس الوفي وفرع دوحتـه الـوارف ، وحـين تبـدو فيـك بـدوات مـن حولـه وطـول وقـوة بأسـه ، وحـين تقلع علـي بركـة الـسماء وفي عنايـة الآلهـة ورعايـة سـيد الأولـيمبي ، في رحلـة لـن تكـون عبثـا . أنني ابن أبيك يـا تليمـاك أنـي بـك مـن تيلـوب وآيـة ذلـك هـذه الـروح القلقـة الـتي تـشيع فيـك مـن أجلـه ، وهـذا الجـبروت الـذي هـو نفخـة منـه ، وذلـك الـصوت الجبـار الـذي يـتلجلج في فمك كأنه فيض مـن لـسانه ، وذلـك الـذكاء الوقـاد الـذي هـو قـبس مـن ذهنـه العظـيم بـشراك . ياتليمـاك ، لا يحزنـك خبـال أعـدائك فقـد أوشـك القـضاء أن يـنقض علـي رؤوسـهم فـيحطمهم . أنـا ، أنـا هـذا الـشيخ المهـدم ، صـديق أبيـك وأمينـه منطـور . سـأكون معـك ، وسـأخذ منك وأسـهر عليـك وأخويـك . لكـن لـنمض الآن فلنعـد للرحلـة مـا هـو حـسبها مـن زاد وعتـاد ، ونخبة أولـي بـأس مـن رجالـك الأقويـاء ، وسـأنتقي أنـا نفـسي أشـدهم مراسـا وأصـدقهم عزيمـة . امنن علي بركة الالهة . انهض ، لا وقت لدينا فنضيعه . معلم .

تحـسن دار الهـلال كـل الاحـسان بإعـادة نـشر هـاتين الملحمـتين لـشاعر الخلـود هـوميروس بعـد أن سـبق لهـا نـشرهما في روايـات الهـلال في نهايـة سـتينيات القـرن الماضـي ، وفي إعـادة النـشر - مـع مـستهل قـرن جديـد - تـذكير بهـذا المترجـم النـادر المثـال ، الـذي كـان للغتـه الآسـرة ، وشـعريته الفياضـة ، وحـسه الفـني العـالي ، فـضل اجتـذابنا في بـواكير العمـر إلى قـراءة هـذه الروائـع علـي صـفحات مجلـة الروايـة ، وشـحن طاقـات خيالنـا الغـض بهـذا الفـيض الزاخـر مـن الـصور والعـوالم المدهـشة والخـوارق الكـبري والأحـداث الجـسام ، في أسـلوب أدبـي بـديع ، وإيقـاع موسـيقي لا تخطئـه الأذن ، وكأننـا أمـام لوحـات قلميـة تـشبه

المعزوفة الموسيقية التي تتصاعد في أنغامها وتهدأ وتجيش صانعة عالما أخاذا من الحركات والإيقاعات - هو عالم دريني خشبة - الذي لم ينل حقه من الاشادة والتكريم ، باعتباره واحدا من الرواد الذين فتحوا لنا نوافذ المعرفة علي اتساعها ، وأخذوا بأيدينا وعقولنا ووجداناتنا إلى حيث إلى نابيع الأولي ، والكنوز الخالدة في عوالم الجمال والابداع ، بعد أن اكتملت فيه صورة المثقف المستنير والمترجم الفذ والناقد الفنان المسكون دائما بوهج الشعر .

حائط الوطن العاري

إلي واحد من شهداء الانتفاضة . . أحببته كثيرا

بقلم: فاروق شوشة

مطفآت عيون يومك كالأمس

فأشعل بريق عينيك

جوابا

وبادر إلى الفجاءات

وارحل

لا تقف ،

لا تقف ،

فما ثم منجاة

ولا تلتمس سواك دليلا

فليس غيرك للوقت

ولا ثم حائط للتوسل !

أنت والريح واحدان

فمن يقوي ؟

ومد الحريق عات

وهذا القلب بالموت والكآبات

مثقل . .

انطح الصخرة الكئود

وجاوز ضفة النهر ، والسؤال

وقل

هذا أوان حسم الإجابات

فما عاد بديل

وكيف !
والكون كله قد تبدل
والزمان الذي يداجيك بالعدل
سراب من الخرافة والوهم
زمان مخادع . .
ويري فيك غاصبا
ويري أرضك حلا لقاتليك
وأنفاسك بغيا
ونور عينيك ذنبا
والعيش
موتا مؤجل !
أضرم النار
تقتل النار بالنار
وفجر في لحظة الموت والبعث
خلاياك . .
تناثرن في الفضاء الذي انداح
وشكلن حروفا . .
لطلعة تتهلل !

* * *

يا صغيري الذي بكيت . .
وكم أبكي . .
غداة أصبحت ذرات جحيم
ـ لعله يوقظ الموتي ـ
وأنفاس نسيم
بعطر أرضك تخضل
وعمرا من النبوءات أحفل
أنا ذا أحتمي بظلك
يستشجر قلبي
تمتد فيك فروعي
يضحي يقيني سماء
وجمر غيظي معراج بهاء
ويأس روحي ينحل !

صاعدا فيك سلما
من مراقيك
تجاوزت فضاء مسيجا
وجدارا يتداعي
وثكالي يهزجن للرعب والويل
رجالا يجرجرون نعوش الصبر
يسعون
في مصير مكبل
أنت لم تمتلك سوي جسمك الغض
وطوق يلتف حولك مزموما
وقلب يشع في هالة الضوء
يقينا . .
مضي له ، وتوكل . .
لم ترع . . لم
حين جست يداك مفتتح الفجر
وكان الزناد أقرب للقلب
والقلب فورة من أهازيج
وفوح الربيع
أندي
وأجمل
* * *
أيها المسرع الخطي
أيها الصاعد في فردوسك الرحب
شعاعا
وجها من النور والطهر
هتافا
من الذري يتسلسل
الشظايا تناثرت . .
فانحني الرمل يسجيك
ودت زيتونة لو تغطيك
بأهدابها
والسماء لو تترجل

أمك الأرض تحتويك
وقد عدت جنينا
يظل في رحم الكرمل
جمرا
نيرانه تتشكل
هذه الساعة التي يسعف العمر
بميقاتها الذي يوقظ الحلم
ـ تجيش الصدور بالوعد ينهل ـ
ودقاتها التي تبلغ النجم
وتغري الشباب . .
كي يتجمل . .
فتجملت . .
ليس أجمل من سعيك
والجسر عبور
وبرزخ بين عمرين
ونهر ينساب ما بين كونين
وخطو
إلي المصير المعجل
قد كسبنا الرهان باسمك
فالموت صغير . .
وحائط الوطن العاري:
جدار يقوم إثر جدار
وخيام تدق بعد خيام
وسماء تمتد بعد سماء
ومنايا مرصودة للطواغيت
وشعب أقوي
ولو كان أعزل !
ياصغيري الذي بكيت . .
وكان الدمع جمرا
والقلب قبرا
وكان الكون يجتاحني حريقا
فلا أبصر . .

إلا دخان عمر تجعد

مغرد أنت . .

ساطع في تجليك

سؤالا يظل يوغل فينا

وموعدا كم تأجل !

سيف الرحبي الشاعر العماني حفيد السندباد

بقلم : فاروق شوشة

الميراث الأدبي والشعري واللغوي في عمان ميراث قديم وعريق ، ترجع جذوره الأولي إلى القرنين الأول والثاني الهجرن حين التمعت أسماء كثير من أعلام الشعر والأدب واللغة من بينهم كعب بن معدان الأشقري ومحمد بن الحسن بن هارون الذي عرف باسم الوزير المهلبي ، وثابت قطنة ، والخليل بن أحمد الفراهيدي ومن أعلام القرن الثالث: ابن دريد ونفطويه . ولأن ذلك العصر كان بالنسبة إلى هم موسم الهجرة إلى الشمال - حيث الشهرة والتألق وذيوع الصيت - فقد ارتبط بعضهم بالمراكز الثقافية والعلمية الكبري في ذلك الوقت وفي مقدمتها البصرة وغيرها من حواضر العراق والشام وخراسان ، ونسبوا إلى ها كما نسب الخليل بن احمد إلى البصرة بعد أن استقر فيها ، ونسي الناس أنه في الأصل عماني .

لكن هذه الهجرة إلى الشمال ، طلبا للشهرة وذيوع الصيت ، وتغلبا علي العزلة الجغرافية التي فرضتها مشقة السفر وبعد المكان ووجود الربع الخالي حائلا بين عمان وغيرها من البلدان المتاخمة ، هذه الهجرة اتسع مداها في عصور تالية ، لتصبح هجرة في كل الاتجاهات وسعيا حثيثا وراء المجهول المتمثل فيما وراء الحدود والصحاري والبحار ، خاصة ان هؤلاء العمانيين القدامي هم احفاد السندباد صاحب الرحلات الأسطورية - برا وبحرا - ومن بينهم خرج ابن ما جد رائد البحار والمحيطات ودليل الرحلات البحرية القديمة ، وكانت أكبر هذه الهجرات العمانية إلى إفريقيا ، حاملة معها الإسلام واللغة العربية والشعر العربي ، رافعة لواء التحضر والتنوير في ربوع القارة المظلمة ، منطلقين من الشاطيء الشرقي للقارة ، متوغلين إلى وسطها وغربها مكونين مهجرا أفريقيا استقروا فيه قرونا عديدة ، وكان من نتائج هذه الهجرات المتتابعة (أكبرها في القرنين الأول الهجري والسابع الهجري) ظهور اللغة السواحيلية الشديدة التأثر باللغة العربية ، والتي ستصبح من أهم اللغات السائدة في أفريقيا .

وعندما نصل إلى العصر الحديث ، نجد سيطرة واضحة للشعر الكلاسيكي علي الحياة الأدبية في عمان ، من خلال أشهر شاعر في تاريخ عمان الحديث هو أبو مسلم

البهلاني ، وسنجد من بعده أسماء تفاوتت أوزانها وأقدارها في ساحة هذا الشعر من بينها عبد الله الخليلي و عبد الرحمن الريامي والقاضي أبو سرور ومحمود الخصيبي و عبد الله الطائي . وسرعان ما تتشقق القشرة الشعرية بفعل التطور والتأثر بالتيارات الشعرية الحديثة والمعاصرة وبدايات الانفتاح علي الواقع الأدبي العربي لتبدأ تجليات القصيدة الرومانسية وقصيدة التفعيلة أو الشعر الحر وصولا إلى قصيدة النثر وتزدحم الساحة الشعرية المعاصرة بأسماء كثيرة من بينها سعيد الصقلاوي وهلال السيابي وسليمان الخروصي وسالم الكلباني وذياب بن صخر العامري وهلال العامري وسيف الرمضاني وسعيدة بنت خاطر ومحمد الحارثي وهلال الحجري وسيف الرحبي .

ومن هنا فإن الشاعر العماني المعاصر يحمل في وجدانه ميراثا هائلا متعدد الطبقات ، يبدأ من السطور الأولي في سفر الإبداع الشعري العربي ، والتأليف المعجمي العربي ، وكتابة المقامات ، والأمالي ، والمدائح النبوية ، ويتسع لديوان الشعر العربي المتراكم الصفحات والأبواب ، سعيا إلى المعاصرة والحداثة وبحثا دائبا عن لغة العصر في الشعر .

لكن الاشكال والصيغ والرؤي الشعرية المختلفة في عمان تتجاوز وتتفاعل في إطار حميم من الوعي التاريخي ، والبعد عما انجرف إلى ه شعراء مجتمعات عربية أخري من التنابذ ونفي بعضهم للبعض ، والتوزع شيعا وفرقا . فالوداعة التي يتميز بها العماني ، والسلاسة الواثقة التي يدير بها حركته في الحياة ، وامتلاؤه ـ نتيجة لحبه القديم للسفر والتنقل والتغيير ـ بها جس الدهشة ، يجعله في تقبل دائم للجديد الذي يولد ، وحرص دائم علي الموروث الذي يعرفه ويقتنيه ويعتز به ، صادرا عن منهج متوازن ورؤية ناضجة واعيـــة .

وفي هذا الإطار الحميم من الوعي والتفهم والتوقع الدائم ولدت شاعرية سيف الرحبي ، منذ بزوغها عبر ديوانه الأول نورسة الجنون الذي صدر عام ١٩٨٠ وتتابعت من بعده دواوينه : الجبل الأخضر١٩٨١ ، أجراس القطيعة١٩٨٤ ، رأس المسافر١٩٨٦ ، مدية واحدة لا تكفي لذبح عصفور١٩٨٨ ، منازل الخطوة الأولي١٩٩٣ ، رجل من الربع الخالي١٩٩٤ ، جبال١٩٩٦ وأخيرا معجم الجحيم الذي صدر في القاهرة عام ١٩٩٨ . والطريف أن دواوين الشاعر صدرت في دمشق وباريس والمغرب والامارات وبيروت والقاهرة وعمان ، مؤكدة ان هذا الشاعر الشديد العصرية ـ حفيد السندباد ـ يحمل قلقه وتمرده وأشواقه ، وينوء بعذاباته التي لا تنتهي ، لا نها عذابات المعرفة والتواصل الحميم والحب والحرية والعدل المفتقد في كل مكان من العالم . فالأزمة الوجودية عند سيف الرحبي هي مفتاح عالمه الشعري ومحور هذا الشجن الطاغي المندلع كالحريق في قصائده . بدءا من لوحات الطفولة الغارقة في محيط الذاكرة ، ولذع الصحراء المصاحب للنشأة

والتكوينات الأولي ، والإطلالة علي البحر - رمز الدهشة والانعتاق والانقذاف في المجهول - تأملا في القلاع الشامخة ، والحصون العتيدة ، التي شهدت عبر عصور متطاولة إهدار آدمية الإنسان ومصرع إنسانيته وحريته وصوته ، تنقلا بين عواصم العالم وثغوره ونتوءاته الحضارية . وحين يفكر الشاعر في انتقاء مختارات شعرية من دواوينه تمثل مسيرته بكل ارتعاشاتها وانكساراتها وصدامها الوجودي يسبق وعيه الداخلي إلى العنوان الملائم لهذه المختارات وهو معجم الجحيم جاعلا منه بوابة تقضي إلى عالمه الشعري المشتعل ، الذي يسيطر عليه احلام القطارات ومساءات الكوابيس ومغارات الهنديان وهجرة الأسلاف والقدم النرجسية ومرايا القفار وعالم الأودية والشعاب وأرخبيل الغرقي ومدن الملح وهذيان الجبال والسحرة . وهي بعض عناوين قصائده ، التي تكشف عن عروق المنجم الشعري الذي تندلع منه هذه الشاعرية المتميزة لغة ووعيا شعريا وموقفا وجوديا .

يقول سيف الرحبي في قصيدة عن القاهرة التي يعشقها ويرتبط بها ارتباطا عميقا ، وله بيت فيها يقصده بين الحين والحين وأحيانا معظم الوقت من العام ، وقد أسماها نجمة البدو الرحل .

نحن الذين وجدنا فيك
صغارا
وكبرنا بعيدا عن رعاية الأبدية
الذين تسلقنا حواريك
باحثين بين مقابرك الألف
عن فجر هرب من بين أصابعنا
خلسة ، واختفي
الفضاء مسبحة الطرقات
والليل حاجب مياهك المضاءة
بالكلام
يموت الكون ، برفيفه الغاضب
ويولد في ضحكة
تنتشرين بحزن ،
كما لو ان الحرفيين وبائعي الخضار
والفواكه ، اسرجوا أيامهم بالدمع
يطوف الهواء علي الشرفات
حيث كنا نقرأ الكتب ولا نذهب
الي المدرسة

لأن الشتاء فاجأنا هذا العام
بضباب كثيف
وما بين الدقي ومقهي ريش
يرتجف قلب العاشق المأخوذ علي مدار الصدمة
تجلسين علي الرصيف
تكتبين أيامك الملأي بالتوقعات
أي ذكري لمقاهيك وحلوانك
لمحطات قطاراتك الأليفة
بنحيبها الذي لا ينقطع
أي عاصفة ستخلع أبو اب العالم هذه الليلة ؟
يسحب المسافر ظله
حجرة تيه وألم
لكنك الصدر الأكثر رأفة من المعرفة
إيزيس . . إيزيس
بلمسة غريبة تصنعين العصور
وبين قدميك يركع الملاك
أحلامك التي تسافر في خضم الأعاصير
الأعاصير وقد نامت وديعة بين يدك خاتم زواج

يكتب سيف الرحبي قصيدة النثر ، ساكبا فيها وهج شاعريته وحصيلة خبراته الوجودية واللغوية . وشعره شفيع لقصيدة النثر ، يسمو بها

عن ركاكات المشاعرين ونثريتهم ، وعن عبث الصغار الذين لم يوهبوا بعض موهبته ، ولم تسعفهم قدراتهم بقبس من توهجه الشعري ، فأساءت كتاباتهم المرتبكة إلى المصطلح بدلا من أن تسهم في تأصيله وتعميقه والكشف عن تجلياته وما ينجزه سيف الرحبي ومن قبله محمد الماغوط وأنسي الحاج وأدونيس ـ عندما كان يعترف بقصيدة النثر ـ وغيرهم من المبدعين الكبار ، يجعلنا نقرأ ما يكتبونه بالاحترام الواجب والتلقي الحميم والبصر النافذ والمتأمل ، حتي لو اختلف الكثيرون معهم في امر جوهري هو الحرص علي موسيقية الشعر وإيقاعاته ، التي بدونها لا تهتز النفس هذا الاهتزاز الذي يتحد فيه النغم باللمحة بالصورة بالوثبة في الخيال والفكر . لكن هذا الاختلاف لا يغلق باب المتابعة الواجبة لا مثال هؤلاء المبدعين الكبار ، وهم ـ وقد تجردوا من أسلحة الشعر المألوفة من أوزان وإيقاعات يخرجون إلى الساحة عراة إلا من نبض شاعريتهم وتوترها وجمرها المشتعل ،

فيبدعون علي غير مثال !

يقول سيف الرحبي بعنوان الفنان

أبدا تولد أعمالك ناقصة ولاتكتمل إلا في جنون موج تائه

أو في رأس

هشمته الحروب !

ويقول عن الشرق

بداية كل يوم

وأنا أقتلع خطواتي الأولي

نحو الغابة

ينبلج الشرق في دمي

شمسا غريبة

فأري خيولا تندفع

وتلامس أعرافها السماء

وعن الاصدقاء يقول:

يحجزون المقاعد في الصباح

كي نشرب القهوة وندخن

لا يكاد يسطع الكلام من أفواههم إلا وتمتليء الطاولات بالغياب !

ويصور سيف الرحبي المأساة الوجودية للشاعر الجاهلي عمرو بن قميئة الذي اصطحبه امرؤ القيس في رحلته إلى القيصر طلبا لمساعدته في الانتقام من قتلة أبيه الملك واسترداد عرشه ، وهو الصاحب الذي اشار إلى ه امر القيس عندما قال:

بكي صاحبي لمارأي الدرب دونه

وأيقن أنا لا حقان بقيصرا

فقلت له: لا تبك عينك إنما نحاول ملكا ، او نموت فنعذرا

يقول سيف الرحبي:

ألهذا يا عمرو بن قميئة

سافرت في دجنة الصحراء

مع الملك الخليل

وحيدا من غير أدلة

ولا حاشية ولا خيل ؟

ملك مهزوم

ويتيم ضائع

كانت الروم أبعد من سهيل
وكان الدرب دونك
فبكيت ،
أنبك الملك الشاعر
لأنك لم تكن تطالب
باستعادة ملك مندثر
او حالما بثروة
كنت صديق الشاعر في الملك
رفيق المتاهة

ولا يزال الشاعر العماني سيف الرحبي - حفيد السندباد - مسافرا في الوجوه والأماكن والأزمنة ، ولا يزال شعره نزف هذا السفر الدائم ، والتوقف لحظات قليلة ، بغية التقاط مساحة من نبض اللغة ، أو قبسة من معجم الجحيم تتوهج بها مجموعاته الشعرية .

عبد الوهاب البياتي : شاعر الثورة والتصوف

بقلم : فاروق شوشة

شغل عبد الوهاب البياتي الناس حيا وميتا ولايزال يشغلهم . وكما كان أكثر رواد الشعر الجديد شهرة وذيوع صيت ، ودوراته حديثا وكلاما ، وعكوفا من الباحثين والدارسين ، فان رحيله يفتح قوسا ثانيا لكتابات أرحب وأشمل ، بينها- بالطبع- ما هو عاطفي منفعل تشغله الجوانب الشخصية والانسانية ، بالنظر إلى علاقات البياتي الواسعة وصداقاته المتعددة في العديد من العواصم العربية والعالمية ومنها ما هو صادر عن منطلقات أيديولوجية- لا تزال جذوتها حية في داخل البعض- الذين يستوقفهم في شعره مضمونه النضالي وتبنيه لهموم الفقراء والمشردين والمعذبين ، وامتلاء هذا الشعر- خاصة في رواويته الأولي- بمفردات العبيد والخبز والقبور واللصوص والجراد والمنافي والسجون والمخبرين والرفاق والشحاذين والبغايا وغيرهم من مكونات المعجم الشعري لشعراء الكفاح والنضال ، وقلة قليلة هي التي سيهمها أمر الشعر الحقيقي بعيدا عن عواطف الفراق ومتطلبات الايديولوجيا وأبادر إلى القول إن شعر البياتي- الذي تعرفت عليه للمرة الأولي في مطالع الخمسينيات- لم يجتذبني بالقدر الذي انتشيت معه بشعر السياب وصلاح عبد الصبور . كان نموذج السياب يشبه بناء شامخا ومعمارا باذخا له جلاله وشموخه ، وكانت سيطرته المحكمة علي لغته الشعرية ، وجيشان وسيقاه وتدفقها ، يجعل لهذا النموذج قدرته علي تحدي النموذج الكلاسيكي ، الذي كانت سطوته ومخامته تهددان هشاشة اللغة الشعرية الجديدة ، كما كان نموذج صلاح عبد الصبور يستميلنا بقدرته علي التعبير عن الوجدان القاهري المنكسر ، ومساحات المعاناة والقلق والتشرد الوجودي في مدينة ننشطر إزاءها منتمين ولاعنين ، كما كان القرب الشديد من لغة الواقع إلى ومي يدهشنا بحرارته وطزاجته وعدم وقوعه في السوقية أو الابتذال .

أما البياتي ، فان قصائده خاصة في ديوانه ملائكة وشياطين كانت تذكرنا بشعر الرومانسيين المصريين الكبيرين: محمود حسن اسماعيل وعلي محمود طه . كان محمود حسن اسماعيل حسن بالذات . . خاصة من خلال ديوانه أين المفر ؟ – قد بسط ظله العريض علي شعراء الشباب في العراق: نازك والسياب والبياتي ، قبل أن يفصحوا عن وجه التجديد والتحرر من خلال قصيدة الشعر الحر . بل إن القصائد الأولي ل عبد الرحمن الخميسي- الذي كان يكتب قصيدة النضال والتحرر في صيغها الرومانسية- استأثرت أيضا باهتمام هذه الكوكبة من الشعراء . من هنا لم يكن عجيبا أن نطالع في قصيدة أسطورة عبقر للبياتي قوله :

أعطيتني سر الغناء وقلت لي:

اهبط من الفردوس أنت ومزهري

ما كنت في الفردوس إلا خاطئا

في قلبه جفت منابع أنهري

وهو قول يذكرنا بشعر محمود حسن اسماعيل في أغاني الرق:

ألقيتني بين شباك العذاب

وكل ما يشجي حنين الرباب

هذا جناحي صارخ لا يجاب

ونشوتي صارت بقايا سراب

وقلت لي: غن

ضيعته مني

في ظلمة السجن

في حانة الجن

أواه يا فني

لو لم أعش كالناس فوق التراب !

وعندما قال البياتي في قصيدته رسالة حب إلى زوجتي:

عيناك من منفي إلى منفي

تصبان الحريق

فانه لم يكن بعيدا عن عبد الرحمن الخميسي حين قال:

حولي عينيك إني لا أطيق

ما تصبان بروحي من حريق

وقد كانت قصيدة الخميسي من شعره في الأربعينيات ، أما قصيدة البياتي فهي من ديوانه المجد للاطفال والزيتون الذي نشر في القاهرة لا ول مرة عام ١٩٥٦ . ولقد كانت نازك الملائكة أكثر أبناء هذا الجيل من شعراء الشباب العراقيين شجاعة حين اعترفت بتأثير الشعراد المصريين الرومانسيين- خاصة محمود حسن إسماعيل- علي بداياتهم الشعرية . وهو أمر لا يغض من قدر هؤلاء المبدعين ، الذين أصبحوا في مسيرة الشعر العربي مبدعين كبارا روادا فاتحين ، لكنه يحمل دلالة الاتصال والمتابعة ، فضلا عن التأثير والتأثر كما يقطع باطلاعهم علي المحاولات الأولي التي قام بها عدد كبير من المبدعين المصريين- منذ عشرينيات القرن وثلاثينياته- من أجل تشكيل نموذج شعري مغاير ، هو الذي عرف بعد ذلك بقصيدة الشعر الجديد أو الشعر الحر أو شعر التفعيلة . لكن نماذجه الأولي- غير الناضجة وغير المكتملة- ستظل بالقطع نماذج مصرية ، ومن

بينهـا علـي سـبيل المثـال قـصيدة محمـود حـسن اسماعيـل نفـسه في رثـاء شـوقي عـام ١٩٣٢ والتي سماها ما تم الطبيعـة وقـد نـشرتها مجلـة أبـو للـو ضـمن العـدد الـذي خـصص لـوداع شـوقي ، ثـم عيـد نـشرها في مجلـة الهـلال في مطـالع الـسبعينيات . وهـي أقـرب الـصيغ الـشعرية لمـا عرف بعد ذلك بقصيدة الشعر الجديد .

لكـن البيـاتي- المحظـوظ- أتـيح لـه مـا لم يـتح لغـيره مـن الـشعراء الـرواد: نـازك والـسياب وبلنـد الحيـدري ، حـين التفـت إلى ه في وقـت مبكـر جـدا- عـام ١٩٥٥- الناقـد الكـبير إحـسان عبـاس وخـصص لدراسـته كتابـا كـاملا بعنـوان عبـد الوهـاب البيـاتي والـشعر العراقـي ، ولم يكـن قـد صـدر للبيـاتي إلا ديوانـاه: ملائكـة وشـياطين (١٩٥٠- بـيروت) وأبـاريق مهـشمة (١٩٥٤- بغـداد) وأصـبحت الحيـاة الأدبيـة مهيـأة لتقبـل البيـاتي باعتبـاره طليعـة الـرواد وأحقهـم بالتقـديم . مـع أن شـعر الـسياب في هـذه المرحلـة كـان قـب بلـغ نـضجه وتمـام كمالـه ، وأصـبحت قـصائده المبكـرة أنـشودة المطـر وغريـب علـي الخلـيج ومـن رؤيـا فوكـاي وغيرهـا مـزامير يتناشـدها شـداة الـشعر ومريـدوه أمـا الرائـد الـذي ظلـم طـويلا- حيـا وميتـا- بلنـد الحيـدري ، فقـد قعـدت بـه طبيعتـه الانطوائيـة ، وطـابع شـعره القلـق الوجـودي ، وانتمـاؤه للقوميـة الكرديـة المـضطهدة والمطـاردة ، فلـم ينـدفع بـشعره كمـا انـدفع البيـاتي وغيره في أتـون المـد النـضالي والتحـرري والتيـار القـومي العربـي الجـارف الـذي غـني لـه الـسياب أروع قـصائده . وكتـب علـي بلنـد أن يظـل بعيـدا عـن تـصنيف المـصنفين وكتابـات النقـاد والدارسـين ، ولـولا أنـه أتـيح لـه في سـنواته الأخـيرة حـضور شـعري بـارز مـن خـلال أمـسيات معـرض القـاهرة الـدولي للكتـاب ومهرجـان أصـيلة في المغـرب لنـسيه قـراء هـذا الزمـان ، خاصـة مـع إيثـاره الإقامـة في لنـدن لـسنوات طويلـة ، وعزوفـه عـن تجنيـد الأقـلام دعمـا لريادتـه ومكانتـه ! ثـم أتـيح للبيـاتي- بعـد أن أقـام في القـاهرة عقـب العـدوان الثلاثـي علـي مـصر- موقفـان نقـديان بـارزان ، أسـهما مـرة ثانيـة وثالثـة في تأكيـد ريادتـه وسـبقه لغـيره مـن الـرواد ، عندما صدر عنـه كتـاب: عبـد الوهـاب البيـاتي رائـد الـشعر الحـديث الـذي شـارك فيـه خمـسة عشر ناقـدا وشـاعرا ودارسـا مـن بيـنهم: علـي الراعـي و عبـد الحمـن الـشرقاوي و عبـد الـرحمن الخميـسي وصـلاح جـاهين وسـعدي يوسـف وعلـي سـعد ، وبعـده- وفي منتـصف الـستينيات- كتـاب ثـان بعنـوان مـا سـاة الانـسان في شـعر عبـد الوهـاب البيـاتي شـارك فيـه نـاظم عيـاد ومحمـود أمـين العـالم ونـزار قبـاني وملـك عبـد العزيـز وشـكري عيـاد و عبـد الجليـل حـسن وسـعيد عقـل ومحمـد عـودة وغيرهـم ويبـدو أن جـو القـاهرة الحمـيم واحتـضان الحيـاة الأدبيـة المصرية للشاعر المغـترب الـذي ستـصبح فيمـا بعـد شـاعر ـ شـاعر المنـافي- قـد أذكـي عاطفـة هـؤلاء جميعـا لتكـريم البيـاتي ، وتكـريس ريادتـه والإعـلاء مـن شـأنه . خاصـة أن الرؤيـة الإيديولوجيـة الـتي كانـت تـصبغ فكـر معظمهـم في إطـار الواقعيـة الاشـتراكية وتوجـه نظـرتهم إلى الابـداع عـام ة والـشعر خاصـة ، كانـت تـري أن البيـاتي شـاعر الثـورة ، والنـضال ضـد

الاستعمار ، وشاعر الكفاح ضد الطغاة والمستبدين ، وشاعر الخروج والتمرد علي البنيان الطبقي للمجتمعات العربية .

وساعد علي هذا أن شعر البياتي في هذه المرحلة- وطوال دواوينه الثمانية الأولي- كان يمتلئ بالشعارات والهتافات الزاعقةواللغة المباشرة ، وهي المرحلة التي استمرت حتي منتصف الستينيات ، والتي يطلق عليها جابر عصفور مرحلة الخطابة السياسية .

كان البياتي وقتها يقول:

من أجل أن ينهار
ليل الطواغيت
وأن تنتصر الحياة
غنيت للحب
وللسلام
والصغار
ياإخوتي الكبار
وكان يقول:
يا آكلا لحمي ولحم أخيك حيا
يا خيوط العنكبوت
يا آكلي إني أموت
من أجل أن أهب الحياة
إليك إني ، يا خيوط العنكبوت
إني أموت
من أجل أن أهب الحياة
للآخرين
وكان البياتي يقول:
قلت لكم: لكنكم أشحتم الوجوه
عالمكم مزيف ، وحبكم مشبوه
يا أيها الأبواق ، يا بهائما في السوق
قلت لكم عليقكم مسروق
لكنكم نفختمو عشاق في البوق
قلت لكم
أحس في الهواء

رائحة الطوفان والوباء
لكنكم شهرتم السيوف في وجهي
وأسرجتم خيول الصلف العرجاء
نفختمو أوداجكم
يا أيها الضفاضع العمياء

كانت لغة البياتي الشعرية ، في هذه المرحلة من تاريخه ، تتحول علي ألسنة عشاق الإيديولوجيا والرؤية التقدمية من الشرفاء الكادحين والبسطاء المناضلين: إلى شعارات وهتافات تتردد في منشوراتهم ومظاهراتهم . وبينما كان نجم البياتي يسطع في بغداد والقاهرة ودمشق وغيرها من عواصم العالم العربي كان غيره من شعراد جيل الرواد ينضجون قصائدهم علي نحو مغاير وعلي نار هذه خاصة صلاح عبد الصبور التي اقتحم المسرح الشعري وسجل تحولا هائلا في علاقة الشعر بالمسرح وفي موضوعاته المسرحية الذي اعتصرت همومه وأشواقه الانسانية ، وانعكست عليها آفاق ثقافته الرحبة ، وحسه الدرامي الناضج ، وقدرته علي البناء والتركيب .

وحين اكتشف البياتي أن لغة الشعارات الزاعقة ، والأداء الخطابي ، لغة الثورة والتبشير بالثورة ، لم تعد هي اللغة الملائمة لا مة منكسرة الأعلام والرايات ، منكسة الرأس في أسي واغتمام ، بعد أن حدثت نكسة١٩٦٧ وما تلاها من هزائم وانكسارات- نفسية ومعنوية وانسانية- كان علي المبشر أن يتحول إلى التصوف ، وعلي صاحب اللغة المستعلية لطغيان الذات وجموحها أن يتلبس الأقنعة ويبحث عن مسار التاريخ عن متكآت وجسور بعد أن تهاوت- من حوله- كل الحصون والقلاع ، وانطفأت الرموز التي كانت هادية وكاشفة في عصر المد القومي واستشراف الحلم . واستعان البياتي بثقافته الواسعة ، وخبراته المتركمة ، التي أنضجها الرحيل الدائم من منفي إلى منفي ، ومن عاصمة إلى عاصمة ، ومن لغة إلى أخري ، في موسكو وبرلين وفيينا ومدريد وباريس وغيرها من عواصم الثقافة العالمية ، لينسج بمهارة فائقة ، ونفس شعري مغاير ، هو نفس المتصوف القابع في هدوء ظاهري ، وأعماقه تغلي وتفور- لكن وجهه يحمل سمته الانساني ، ومحبته الغامرة للانسان مطلق الانسان ، وأبوته الحانية لكل أطفال العالم ، واستلهامه لرصيد هائل من موروثات الشعوب وأساطيرها ورموزها ، وإكسابه حياة جديدة ومعاني ودلالات جديدة من خلال تناوله الشعري المحكم . ووجد البياتي في أقنعة الحلاج والخيام ومحيي الذين بن عربي- الذي لم يكن يدري أنه سيرقد أخيرا إلى جواره في دمشق- والسهروردي وحافظ الشيرازي وعائشة ، تحولاته الشعرية الجديدة وتجلياته التي جعلت منه رائد هذا الأفق الشعري في شعرنا العربي المعاصر كله بكل الأصالة والاقتدار . لم يكن البياتي يدرك- بالطبع- أن بعض الصبية المتشاعرين سوف يسطون

علـي ممتلكاتـه وفتوحاتـه الـشعرية وينهبونهـا ، ويقـدمونها مـن خـلال لغـتهم الركيكـة وشـاعريتهم المتواضـعة . ولـيس الـذنب ذنبـه علـي أي حـال ، فـالعين البـصيرة قـادرة علـي التمييـز بـين قمـم البيـاتي وقيعـانهم ، بـين جـوهر الحـال الروحيـة في موقفهـا مـن الـذات والعـالم- عنـد البيـاتي- وتـدني الخطـاب الـشعري وسـوقيته عنـد المقلـدين والمـدعين . وبعـد أن كـان شـعر البيـاتي في مرحلـة التبـشير والثـورة يعـج بمعجمـه الغريـب الـذي ينـدر أن يكـون لـه مثيـل عنـد أي شـاعر آخـر- مـن الهجائيـات والـشتائم والأوصـاف البـشعة والمفـردات المقذعـة- أصـبح شـعره في مرحلـة التأمـل والتـصوف والعكـوف ينـضج بمـاء إنـسانيته وشـفافيته ونقاءتجلياته :

وجهك في المرآة وجهان
فلا تكذب
فإن الله
يراك في المرآة !
وعندما يقول :
العندليب كان مثلي
عاشقا سكران
أيقظ في غنائه الموتي
وفر هاربا
من قفص السلطان
لكنني بقيت في جواره
بقية الزمان !
وجين يقول :
أنشب في لحم الليالي
مخلبا وناب
حج إلى مدينة العشق
وفي حاناتها أفرط في الشراب
وعندما بايعه الخمار بالولاية
أحس بالنهاية !

يظـل شـعر البيـاتي في دواوينـه الأخـيرة الـتي شـهدت تحولاتـه الـشعرية وتجلياتـه العرفانيـة الـشعر الأجـدر بالبقـاء والاستمرار بـدءا بديوانـه الـذي يـأتي ولا يـأتي وانتهـاء بديوانـه نـصوص شـرقية آخـر مـا نـشر في حياتـه . وبينهمـا تلتمـع دواويـن مفعمـة بعبـق البيـاتي وعطـره ونفاذ سحره وتـوهج نيرانـه مثـل سيرة ذاتيـة لـسارق النـار وقمـر شـيراز ومملكـة الـسنبلة وبـستان

عائشة وتحولات عائشة والبحر بعيدا أسمعه يتنهد . وهي دواوين تكفل لصاحبها مكانا متقدما ومتميزا في حركة الشعر الجديد ، وتصحح من مساره الشعري الأول بعد أن سقطت الإيديولوجيا وانكسر الحلم القومي وانطفأت لغة الهتاف والشعارات الخطابية الزاعقة ، والتي لا يمكن أن تلد إلا العابر والآني ، أما الشعر الباقي ، الصافي ، الخالص ، فهو شعر النفس الانساني ، والفيض الروحي ، والاشراق الوجداني ، شعر المغامرة والتجريب والتحولات الكبيرة .

وعندما ترفي البياتي وتم دفنه في دمشق ، قلنا إن قوس الدائرة قد اكتمل ، وإن الاحتجاج الآخر للبياتي قد اتحد بالاحتجاج الآخر للجواهري ، على وطن عراقي يتسع لشاعرية الكبيرين ، وإن صوت احتجاجهما الذي تعهد بالموت ، سيظل غضبا ساطعا ، ونقمة هائلة ، تدعونا إلى تحرير بغداد من الأسر والموت والهوان !

بلند الحيدري : الرائد الذي اسقطوه

بقلم : فاروق شوشة

لا أدري حتي الآن لماذا اعتاد الذين يتكلمون عن حركة التجديد الشعري في العراق – بدءا من أوائل الخمسينيات ـــ أن يتوقفوا عند أسماء نازك الملائكة وبدر شاكر السياب و عبد الوهاب البياتي ، وأن يسقطوا ـــ سهوا أو عمدا ـــ اسم بلند الحيدري . وكأنه لم يشارك في صنع اللحظة التاريخية التي شهدت ميلاد قصيدة الشعر الجديد ، الشعر الحر ، شعر التفعيلة ، ولم تكن دواوينه وقصائده الأولي ـــ كما كانت قصائد رفاقه الثلاثة عمرا ودراسة وإبداعا – إرهاصا بهذا التغير العنيف الذي ستكون له آثاره الخطيرة علي مسيرة الشعر العربي في النصف الثاني من القرن العشرين .

والغريب في الأمر أن هؤلاء الرفاق ـــ الذين اصطلح علي تسميتهم بالرواد الثلاثة ـــ كانوا أكثر الناس وعيا بجوهر هذا الشاعر وحقيقة إبداعه ومدي تميزه . فالسياب يصرح في عام ١٩٥٣ بأن هناك عددا من الشعراء أكن لهم كل التقدير والاعجاب وعلي رأسهم بلند الحيدري الذي كان ديوانه خفقة الطين أول ديوان صدر من ثلاثة دواوين كانت فاتحة عهد جديد في الشعر العراقي هي عاشقة الليل لنازك وأزهار ذابلة للسياب وخفقة الطين للحيدري .

ثم يقول عنه السياب مرة أخري في عام ١٩٥٦ : بلند الحيدري هذا الشاعر الممتاز الذي أعتبر العديد من قصائده الرائعة أكثر واقعية من مئات القصائد التي يريد منا المفهوم السطحي الواقعية أن نعتبرها واقعية .

ولم يكن البياتي بعيدا عن هذا الادراك لشاعرية بلند الحيدري حين قال عنه في عام ١٩٥٢ : إن بلند شاعر مبدع في أساليبه الجديدة التي حققها وفي طريقته التي لا يقف فيها معه الا شعراء قلائل من العراق .

حتي النقاد والمبدعون العرب الكبار ، الذين امتد ظلهم علي مفتتح النصف الثاني من القرن العشرين ، لم يفتهم ما في شعر بلند من خصوصية إبداعية شديدة الاختلاف ، وإحكام في الصنعة الشعرية يجعل قصيدته أكثر تماسكا وتركيزا وحتمية ، يمثل هؤلاء الناقد اللبناني الجهير الصوت ما رون عبود الذي كتب في عام ١٩٥٢ يقول: قد يكون الحيدري أقرب إلى أبو ريشة تعبيرا ولكنه أخو أبو شبكة في الطاحونة الحمراء ، فالرحي سورية وأما الحنطة فعراقية . ثم يقول: ليس فينا من قدر الصمت واستوحاه كما استوحاه هذا الشاعر ، وقل في الأدب العربي من أوحت إلى ه الطريق ما أوحت إلى بلند

الحيدري ، وأشهد أن ديوان بلند الحيدري ـــ خفقة الطين ـــ أحفل ما رأيت من دواوين الشباب بالشعر ، ولعله الشاعر الذي تحلم به بغداد .

ويكتب أحمد أبو سعد في عام ١٩٥٩ ـــ وشهادته تمثل خطوة متقدمة ، مواكبة للابداع الشعري المتنامي عند بلند الحيدري ـــ فيقول: أظهر مميزات شعر الحيدري: التصميم المتقن ، والتركيز وتصفية القصيدة من الشوائب ، وتخليصها من الخطابة والتقرير ، وبناؤها بناء عفويا ، يعتمد فيه الشاعر علي الهجس والايحاء ويعبر بالصور ويهتم بالحادثة الداخلية وخلق التوتر النفسي حولها والتعبير عنها بشكل حدسي ، وتوزيعها علي أزمان مختلفة لخلق العمق في الصورة ، مستعملا الصمت كمكمل للتفعيلة أحيانا ومستندا علي القوافي المتداخلة مع بقاء القافية الرئيسية مسيطرة علي القصيدة . تعمدت أن أثبت هذه الشهادات لا نفي عن الحيدري أنه كان مجهول القدر ، باهت القيمة في نظر أقرانه الذين استأثروا ـــ في كتابات النقاد والدارسين بمعني الريادة ـــ أو في نظر الذين كانوا أسرع إلى اكتشاف النوعية فيه منذ طلقته الشعرية الأولي في ديوانه خفقة الطين عام ١٩٤٦ ثم ديوانه الثاني أغاني المدينة الميتة عام ١٩٥١ ، مدركين أنه مختلف ، وحقيقي ، في زحام الأسماء والكتابات المغايرة .

لقد ولد بلند الحيدري في بغداد عام ١٩٢٦ ـــ بعد نازك بثلاث سنوات ـــ وتخرج في مدرسة المعلمين العليا كما تخرج أقرانه الثلاثة ، ثم قدر له أن يقيم في بيروت إبان ازدهار لبنان وتوهجه حضاريا وثقافيا وإبداعيا ـــ بدءا من عام ١٩٦٣ حتي١٩٧٧ ـــ وأن يسهم خلال هذه الأعوام المديدة المتصلة في دعم مفاهيم الوعي والاستنارة وحرية الفكر والابداع ، فضلا عن ترسيخ إنجازه الشعري وبلورة صورته الابداعية المتميزة وتعميق دوره في الحياة الفكرية والفنية والثقافية كاتبا وصاحب رؤية تشكيلية ودارسا للشعر العراقي ومبدعا للوحات قلمية عن العديد من الشخصيات والذكريات . من هنا كان تتابع دواوينه: جئتم مع الفجر عام ١٩٦١ وخطوات في الغربة١٩٦٥ ورحلة الحروف الصفر عام ١٩٦٨ وأغاني الحارس المتعب عام ١٩٧١ وحوار عن الأبعاد الثلاثة عام ١٩٧٢ وإلي بيروت مع تحياتي عام ١٩٨٥ وأبواب إلى البيت الضيق عام ١٩٩٠ وآخر الدرب عام ١٩٩٣ ودروب في المنفي عام ١٩٩٦ . بالاضافة إلى كتاباته ودراساته:

زمن لكل الأزمنة: دراسات في الفن التشكيلي عام ١٩٧٩ ، ونقاط ضوء: خواطر في الأدب والفن عام ١٩٧٩ ، ومداخل إلى الشعر العراقي عام ١٩٨٧ ، وعودة إلى الماضي: ذكريات وشخصيات عام ١٩٩٣ . وقد تخلل هذه المسيرة الحافلة صدور أعماله الشعرية في طبعتين: أولاهما عام ١٩٧٥ عن دار العودة والثانية عام ١٩٩٣ عن دار سعاد الصباح .

وابتداء من عام ١٩٨٠ يقرر بلند الحيدر الاقامة في لندن ، ويصبح وجوده ضمن الجالية

العراقيـة الـتي اختـارت المهجـر اللنـدني قـدحا لزنـاد الهـم النفسي والـوطني والقـومي في وجـدان بلنـد ، وإذكـاء لبقايـا الـنيران المتوقـدة الـتي حـاول الطغيـان العراقـي ملاحقتهـا وإخمادهـا في كـل مكـان . وانـضم بلنـد إلى الألـوف مـن رفاقـه العـراقيين المـزقين بـين غيـاب الـوطن مـن ناحيـة وعـدم الانتمـاء إلى الوجـود اللنـدني ـــ المفـروض علـيهم بقـوة الجـبر لا الاختيـار مـن ناحيـة أخـري . وأصـبحت إطـلالات بلنـد علـي العـالم العربـي ، واقترابـه مـن صـهد الجـسد العربـي وحمـي الأنفـاس العربيـة تتمثـل في مـشاركاته المتقطعـة في مهرجانـات أصـيلة بـالمغرب ومعـرض القـاهرة الـدولي للكتـاب في مـصر والجنادريـة الـسعودية في الريـاض ، وكـان الـذين يلتقـون بـه في الفـترة الـسابقة علـي رحيلـه ـــ في صـيف عـام ١٩٩٦ بينمـا كـان جمهـوره ينتظـر مـشاركته في مهرجـان أصـيلة ـــ يجـدون فيـه شـبحا هائمـا ، يمـشي علـي جراحـه النازفـة ويحـاول جاهـدا إخفـاء مراراتـه وشـعوره بالهزيمـة في داخلـه : لقـد تبـدد حلـم العـودة إلى العـراق ـــ بعـد أن عـاش بعـض الوقـت في هـذا الحلـم الـذي كـان يخطـط لـه في صـورة مهرجـان شـعري عربـي عـالمي يقـام في عاصـمة المنطقـة الكرديـة مـن شمـال العـراق ، وكـان يحـدثني في آخـر لقـاء لنا في جنادرية الرياض ـــ إثـر وصـوله مباشـرة مـن لنـدن ـــ عـن موافقـة العديـد مـن كبـار شـعراء العـرب والعـالم علـي المـشاركة في هـذا المهرجـان الـذي يعتـبره بدايـة العـودة المظفـرة إلى الـوطن وبدايـة انهيـار النظـام الـذي يلاحـق الأحـرار والـشرفاء والمبـدعين الحقيقـيين مـن رمـوز العـراق !

لم يكـن بلنـد الحيـدري ممـن يجيـدون الدعايـة لا نفـسهم ، فلـم يـستكتب أحـدا عـن عبقريتـه الـشعرية ولا عـن ريادتـه وحجـم إبداعـه الـشعري . ولم يقـدم نفـسه إلى الجمـاهير العربيـة ـــ وهـو الكـردي الجنـسية ـــ باعتبـاره واحـدا مـن أصـوات المـد القـومي العربـي كمـا صـنع بعـض أقرانـه الـذين اعتـبروا أنفـسهم صـوت هـذا المـد والمعـبرين عنـه ، ولم يـستنفر بلنـد حملـة مبـاخر الايديولوجيا ــ لا في العـراق ولا في غـيره مـن الأقطـار العربيـة ـــ حـتي يرسمـوا لـه صـورة شـاعر الكـادحين والمناضـلين والمـضطهدين في المنـافي والـسجون كمـا صـنع غـيره مـن الـرواد ، لكنـه اعتـصم بتواضـعه ، وعزوفـه عـن ضوضـاء الحيـاة الاجتماعيـة ، وعـدم صـلاحيته للمتـاجرة بمواقفـه وكلماتـه ، وحـسه الوجـودي الـشديد القلـق والتـوتر والمعانـاة ، الـذي أوصـله في ختـام الـسنوات إلى التوحـد والانكفـاء علـي الـذات وإلـي مـا يـشبه الـدائرة المغلقـة ، وإلـي الاحـساس العميـق العـارم بهـاجس المـوت الـذي يـسيطر علـي قـصائده خاصـة في ديوانـه الأخـير دروب في المنفي وكـان أكثـر مـا يؤلـه ويـثير كـوامن نفسه محاولـة تـذكيره ـــ مـن بعـض خلـصائه ومحبيـه وعـارفي قـدره ـــ بـدوره في ريـادة الـشعرالجديد ، والمـؤامرة الـتي شـارك فيهـا كـثيرون ـــ بالكتابـة أو بالـصمت ـــ لطمـس هـذا الـدور ، لحـساب تـضخيم أدوار الآخـرين ، عندئـذ كـان صوته يتهـدج مـصطبغا بـالمرارة ودموعـه تكـاد تبلـل عينيـه وهـو يـري اخـتلال المـوازين واضـطراب بورصـة النقـد والنقـاد ، فـضلا عـن فـساد المعـايير ، وسـيطرة غـول الاعـلام العربـي بأجهزتـه العاتيـة ، المـدمرة للعقـل العربـي ، والراسمـة لخريطـة بديلـة أساسـها منطـق العلاقـات والمـصالح وتبـادل المنـافع ـــ كـان أول مـا قـرأت مـن شـعر لبلنـد الحيـدري ـــ وأنـا في الـسنة

الأولي من الدراسة الجامعية ـــ مقطوعة عنوانها لعنت منشورة في إطار دراسته لا حد الباحثين عن حاضر الشعر العراقي في مجلة الأديب اللبنانية . ومازلت حتي الآن قادرا علي استحضار تلك الانتفاضة التي ملكت علي جوانب نفسي أمام لغة شعرية مباغتة ، وموقف شعري شديد المغايرة . كان بلند يقول في قصيدته :

لعنت

لا كنت

ولا كان لي ،

هذا الهوي المشبوب بالموت

وفي غد إذ يمحي صوتي

وتيبس الألوان في صمتي

لعنت . . .

الغريب أني عندما التقيت ببلند الحيدري في القاهرة لا ول مرة في بداية الثمانينيات ذكرته بهذه القصيدة ، وطلبت منه أن أطلع عليها كاملة ، فأبدي دهشته من ذكري لها ، آسفا لا نها فقدت منه ، ولذلك فهي لم تنشر في أي ديوان من دواوينه . هذه اللغة الحادة ، الحاسمة ، المتوترة ، البعيدة عن التقريرية والمباشرة ، المتوهجة بالصورة الشعرية ، ظلت بالنسبة لي الملامح والسمات الأساسية لشعر بلند الحيدري منذ مطالع الخمسينيات حتي الآن . وظلت هذه الروح الوجودية القلقة تلفحني كلما اقتربت من أنفاس عالمه الشعري ، بدءا بتلك المقطوعة الموغلة في القدم الضائعة من شعره ، وانتهاء بقصيدته متي يا أيها الوطن في ديوانه الأخير:

ألا يا أيها الوطن المهاجر

عن أراضيه

ومن تيه إلى تيه

ومن منفي يلملم صمت دنياه

وأحزان لياليه

إلي منفي يعزيه

بقتلاه وينفيه

إلي حلم لما أبقته رجلاه

هنالك في صحاريه

* * * *

ألا يا أيها الوطن

متي يسترجع الزمن

موانيك
موانيه
متي يا أيها الوطن
سترجع من منافيك
سنرجع من منافيه
لندرك موتنا فيه
متي يا أيها الوطن ؟

من أين يتدافع هذا الوهج الساطع في شعر بلند الحيدري ؟ أهو من انسكاب عفويته وتلقائيته التي تخفي ـــ بكل البراعة ـــ قدرته علي الاحكام والتصميم ؟ أم هو من ذلك التوتر الجدلي المستمر بين تعدد الأصوات ـــ في نجوي الذات وفي مخاطبة الآخرين ـــ وكأننا نمتطي صهوة مشهد مسرحي متدفق بالفكرة والمعني ؟ أم من وعيه التشكيلي بالمساحة المشتركة والمتداخلة بين فنون الابداع المختلفة من خلال إدراكه لوحدة الفنون وتكاملها ، فيتدفق في شعره إبداع الصورة والصوت والخط واللون والظل والحركة والايقاع ؟

هل يكمن السر فيما حاول جبرا إبراهيم جبرا ـــ المبدع العراقي الشامل الفلسطيني الأصل ـــ أن يعبر عنه بكلمات نافذة في عام ١٩٥١ وهو يتحدث عن الحيدري ويقول: صاحبنا كالفنان الحاذق لا يلقي بالألوان علي لوحته جزافا ولا يرسل الخطوط عليها أني اتجهت . إنه يورد تفاصيله مرتبطة متماسكة فتنمو القصيدة بين يديه نموا من الداخل ككل الأعضاء الحية ، وإذا بها في النهاية وحدة كاملة ـــ لها أول ووسط ونهاية كما يقول أرسطو في وصف العمل الفني الصحيح ـــ لا سلسلة من الأبيات يتلو الواحد الآخر رغم أنفه ، وهذه ميزة مهمة لا توجد إلا في القليل من الشعر العربي المعاصر . فبينما نجد أن أكثر هذا الشعر كالزخارف السطحية يمكن امتدادها إلى ما لا نهاية بالتكرار المستمر ، نجد أن شعر بلند الحيدري كالصور ذات الأعماق فيها أضواء وظلال ، فيها القريب والبعيد وكلها تستهدف وحدة الموضوع وقوته وبروز جماله . ولذلك لن تستطيع أن ترفع بيتا واحدا من مكانه في قصائده دون أن تترك فجوة ظاهرة في المعني والتركيب .

البكاء النازف دما في دواوين بلند الحيدري هو بعض أوجاع القومية الكردية المحكوم عليها بالشتات والتآمر عليها ـــ منها ومن أعدائها ـــ فضلا عن التشرذم والموت ، لكأنه الوجه الآخر لبكائية طويلة نازفة يمثلها شعر مظفر نواب صديق الحيدري وتوءم روحه . لكأنهما معا بكائية هائلة للشتات العراقي: الكردي والعربي معا ، في زمن المؤامرة الكبري ، والصلف الجاهل الشديد العتو والطغيان . من هنا يصبح البحث عن صبح في شعر بلند حلما يتحقق عبر الصمت وعبر الموت ، حين يقول:

ذات صباح من تشرين
غنيت لنا أغنية
كان الصبح حزين
كان الصوت خرين
بغداد . . وتلوي صوتك في
شاطئ نهر بسكين
بغداد . . . .
يا حسكا من سهك ينشر
جرحيه علي حدي سكين
بغداد ، ويلم غناءك صمت
ويغور بنا في جرح غنائك
موت
ونقول: لعل لنا عبر الصمت
وعبر الموت
وعبر القتلي الآتين إلى نا
فجرا يبحث عن ميعاد
في زمن ما ، في أرض ما
في حلم عن بغداد !

* * * * *

أدعـوكم إلى قـراءة بلنـد الحيـدري ، وإعـادة اكتـشاف دوره في ريـادة الـشعر الجديـد مهما حاولوا أن يسقطوه !

وكيف تنام العين ؟

بقلم: فاروق شوشة

علي كثرة ما أبدعه الشعراء عن القدس في ديوان الشعر العربي قديمه وحديثه ، وعلي تعدد مداخل هؤلاء الشعراء في الاقتراب من هذه البقعة الغالية من الوطن العربي ، العامرة بالمقدسات ، الغنية بالإيحاءات والدلالات والرموز حفزا واستثارة للهمم وإذكاء لروح الصمود والنضال ، أو بكاء ورثاء وألما وندما فإن كثيرا من هذا الشعر المعروف لم يرتفع إلى المستوي الذي بلغه نص شعري فريد لشاعر لم تلتفت إلى ه كثيرا كتب الأدب ولم يعن به النقاد أو الدراسون ، بالرغم من أنه واحد من كبار مبدعي القصيدة العربية ، فنا وأصالة وموهبة ، وقدرة علي صياغة المعاني المبتكرة ، والتوليدات الدقيقة ، فضلا عن لغته الشعرية المحكمة ونفسه الشعري المتدفق .

هذا الشاعر هو أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردي الأموي ، المتوفي سنة خمسمائة وسبع وخمسين هجرية ، يتصل نسبه بأبي سفيان بن حرب جد الخلفاء الأمويين . وقد كان الأبيوردي شديد الاعتزاز بهذا النسب ، لا ينساه ولايكتمه ، ولا يحجم عن مواجهة خلفاء بني العباس به ، ومفاخرتهم به في حضرتهم ، بينما يتستر كثيرون غيره علي أصولهم وأنسابهم تجنبا لسطوة بني العباس ، أو طمعا في عطائهم وتقربا إلى هم .

والمتأمل في شعر الأبيوردي الذي عاصر إحدي حملات الفرنجة علي بيت المقدس يجد أنه رمز فذ لا عتزاز الشاعر بنفسه وقيمته وإنسانيته ، ويتعرف علي نفس كبيرة القدر والهمة ، تمتلئ كبرا واعتزازا وطموحا . نفس تذكرنا بما كان عليه المتنبي شاعر العربية الكبير في اعتزازه وطموحه وكأن الأبيوردي جاء من بعده بحوالي قرنين من الزمان ليكون واحدا من سلالته الشعرية ، وليمتلئ وجدانه بأقباس من عظمة المتنبي وتعاظمه .

يقول الأبيوردي :

تنكر لي دهري ، ولم يدر أنني
أعز وأحداث الزمان تهون
فبات يريني الخطب كيف اعتداؤه
وبت أريه الصبر كيف يكون

وكثيرا ما كان يهتف في شعره ويردد أنه لا يقول الشعر إلا تعبيرا عن خطرات نفسه ، وترجمة عن وجدانه ، وتأكيدا لقدراته ، ومواهبه . وهو بهذا يعلن اختلافه

عن شعراء عصره وزمانه ، الذين اغرقوا شعرهم بالمدائح ، الزلفي إلى الحكام وأصحاب الجاه والسلطان . أما هو فلا يريد بشعره جاها ولامنزلة ولا عطاء من أحد:

ولم أنظم الشعر عجبا به
ولم أمتدح أحدا من أرب
ولا هزني طمع للقريض
ولكنه ترجمان الأدب

الشعر إذن بالنسبة إلى ه هو ترجمان الأدب أو هو ترجمة عن أدبه وإعلام عن قيمه ومثله العليا وخصاله الكريمة . وهو في هذا الموقف يختلف عن المتنبي ويفترق عنه . فقد اضطر المتنبي إلى مدح من لم يكونوا في رأيه وعقيدته أهلا للمدح ، واضطر ـ تحت ضغوط الطمع والأمل في جاه أو منزلة أو إمارة أو ولاية أو ما ل ـ إلى أن ينقلب علي ما كان يدعو إلى ه في شعره من اعتزاز بالحكام العرب فإذا به يمدح الحكام من غير العرب ويتقرب إلى هم ويخلع عليهم من الصفات ما ليسوا أهلا له وما يعلم علم إلى قين أنه ليس فيهم أصلا .

قدر للأبيوردي أن يعاصر استيلاء الفرنجة علي بيت المقدس سنة أربعمائة واثنتين وتسعين هجرية ، وأن يكون صوت الشعر في استحثاث الهمم واستثارة النخوة والحمية ، وتحذير الأمة العربية كلها من الاستسلام للتخاذل والتواكل والسلبية في وجه الطامعين المعتدين .

هذا الموقف القومي الرائع الذي جسده الشاعر ، وتلك الحال المتردية التي كانت عليها الأمة في ذلك الحين ، وحلقات التآمر التي لم يسلم منها تاريخ هذه الأمة لكسر شوكتها ، وتفتيت وحدتها وإخماد صوتها ، كل ذلك يذكرنا بما نحن عليه إلى وم ، ويجعلنا نطالع في سياق التاريخ العربي وقفة لشاعر مشتعل القلب غيرة وحماسا ، متوهج الشعر يقينا وإحساسا ، يطلق كلماته الحادة الواخزة ـ سلاحه الوحيد ـ في كل صوب واتجاه .

هذا الصوت القادم من وراء القرون ، ينتفض إباء وشمما ، ويستصرخ فينا كل معني من معاني الحياة النبيلة ، من أجل الوقفة الكريمة والعزم الشجاع في مواجهة هجمة عنصرية بربرية شرسة ، تعصف بكل الحرمان بكل الحركات والمقدسات ، وتنهب الأرض العرض وتقتل الكبار والصغار ، وتفتك بالشيوخ والنساء والأطفال .

يقول الأبيوردي:
مزجنا دماء بالدموع السواجم
فلم يبق منها عرضة للمزاحم وشر سلاح المرء دمع يفيضه

إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فأيها بني الإسلام ، إنه وراءكم
وقائع يلحقن الذري بالمناسم
أتهويمة في ظل أمن وغبطة
وعيش كنوار الخميلة ناعم ؟
وكيف تنام العين ملء جفونها
علي هبوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحي مقبلهم
ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
يسومهمو الروم الهوان ، وأنتمو
تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ، ومن دمي
تواري حياء حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبي
وسحر العوالي داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة
تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها
ليسلم ، يقرع بعدها سن نادم
سللن بأيدي المسلمين قواضبا
ستغمد منهم في الطلي والجماجم
يكاد بهن المستجن بطيبة

ينادي بأعلي الصوت: يا آل هاشم والأبيوردي

الشاعر الذي ارتفع صوته بهذه الصيحات المدوية وهذا الشعر المتفجر في تلك الحقبة من التاريخ ، وقد رأي بعينيه الحال المتدهورة لا مة قد انقسمت وتشرذمت ، واستقرأ بعض القلب مستقبل هذه الحال لو استمر الضعف والتخاذل والتواكل ، يزلزله أن هذه الأمة لم تدرك بعد مدي ما يتهددها من خطر جسيم وأن رجالاتها ـ وقد تخلت عنهم النخوة أو تخلوا هم عن النخوة ـ لم يعودوا يأبهون بالدفاع عن الحرمات والثأر للشرف والعرض والكرامة ، ويستغرب الشاعر موقفهم من الزهد في القتال والكفاح دفاعا عن الوطن المسلوب ، ويتساءل بينه وبين نفسه: إن لم يكونوا يجاهدون دفاعا عن الحرمات وذودا عن المقدسات وحماية لبيت المقدس ، فهلا حاربوا ـ كما يفعل المرتزقة ـ طمعا في غنيمة ؟

يقول الأبيوردي :

أري أمتي لا يشرعون إلى العدا

رماحهمو ، والدين واهي الدعائم

ويجتنبون النار خوفا من العدا

ولا يحسبون العار ضربة لا زم

أترضي صناديد الأعاريب بالأذي

وتغضي علي ذل كماة الأعاجم ؟

فليتهموا إذ لم يزودوا حمية

عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

وإن زهدوا في الأجر إذ جمش الوغي

فهلا أتوه رغبة في المغانم

لئن أذعنت تلك الخياشيم للثري

فلا عطسوا إلا بأجدع راغم

دعوناكمو والحرب ترنو ملحة

إلينا ، بألحاظ النسور القشايم

تراقب فينا غارة يعربية

تطيل عليها الروم عض الأباهم

فإن أنتمو لم تغضبوا عند هذه

رمتنا إلى أعدائنا بالجرائم !

هذا الايقاع الشعري الصاخب الذي يشبه ايقاع المعركة وأصواتها المجلجلة ، وهذا البحر الشعري الطويل المتد النفس وكأنه موج بحر هادر صخاب ، يبتلع كل ما في طريقه من شوائب وأوشاب ، وهذه اللغة القوية النسج ، التي تذكرنا بلغة المتنبي في سيفياته حين كان صوت سيف الدولة الحمداني وظله في معاركه مع الروم ، يسجل انتصاراته وفتوحاته ، ويمجد بطولاته وشجاعته المستحيلة في وجه عدو يفوقه عددا وعدة هو جيش امبراطورية الروم ، وتكاد أبيات الأبيوردي في قصيدته من أجل بيت المقدس تذكرنا بأبيات المتنبي الشهيرة التي يمدح فيها سيف الدولة ويذكر بناءه ثغر الحدث سنة ثلاث وأربعين

وثلاثمائة هجرية في قصيدة مطلعها :

علي قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي علي قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها

وتصغر في عين العظيم العظائم

وصولا إلى قوله :

أتوك يجرون الحديد ، كأنهم

سروا بجياد ما لهن قوائم

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه

وفي أذن الجوزاء منه زمازم

تجمع فيه كل لسن وأمة

فما تفهم الحداث إلا التراجم

وقفت وما في الموت شك لواقف

كأنك في جفن الردي وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمي هزيمة

ووجهك وضاح وثغرك باسم

والقصيدتان متشابهتان في البحر الشعري ، وفي القافية ، مع اختلاف في حركتها بين الجر والضم ، واختلاف بين في طبيعة العصرين ورجالهما . في قصيدة المتنبي يتجلي رمز للبطولة العربية التي تجسدت في أمير شجاع هو سيف الدولة وهو يخرج لملاقاة عدوه الدمستق في خمسمائة من رجاله ، والدمستق في خمسين ألف فارس ورجل ، فيظفر به سيف الدولة ويقتل ثلاثة آلاف من رجاله ويأسر خلقا كثيرا ، هكذا يقول لنا ديوانه في مناسبة هذه القصيدة الباذخة . وفي قصيدة الأبيوردي قوم متقاعسون ، وعرب متواكلون ، ونفوس مغيبة ، وأرواح شاحبة . لذلك فهو ينفخ في الصور أملا في إيقاظ الهمم وتحريك الموتي ، حتي يرتدوا إهاب الرجولة ، ويتنادوا لحمل المسئولية ومواجهة العدو المتغطرس . فهل يوقظنا نحن أيضا صور الأبيوردي ؟ وهل تهزنا أبيات المتنبي ـ للتنادي من المحيط إلى الخليج ـ بحثا عن سيف الدولة المأمول ؟

صلاح عبد الصبور : عصر من الشعر

بقلم : فاروق شوشة

كان - وهو لا يزال بيننا - ملء السمع والبصر . لا يكاد يمر يوم إلا والحديث عنه مستمر: شاعرا رائدا ، ومثقفا كبيرا ، وإنسانا رائعا . وكان هذا الوجود إلى ومي شهادة للشعر والشعراء: ها هو ذا شاعر كبير يشارك بإبداعه فيرسم خريطة الشعر العربي المعاصر ، ويضمن لمصر مكانتها المتقدمة والمتميزة ، ويشيع بكتاباته ومواقفه مناخ الاستنارة وأنوار الوعي الكاشف ، ويحفظ علي الشاعر صورته الجميلة النبيلة ، التي لا تناقض شعر ولا تفجع قراءه ومريديه .

نعم ، كان صلاح عبد الصبور حدثا يوميا ، وحديثا لا ينقطع ، وكان حضوره الإنساني والإبداعي الغامر عصرا جميلا من تألق التجديد ، وسقفا سامقا يستظل به الحالمون بميلاد قصيدة جديدة مغايرة والذين يجهدون من أجل تأسيس حياة شعرية تقوم علي الاختلاف لا القطيعة ، وتتكئ علي سياق الجدة والأصالة في الموروث الشعري ، وتندفع إلى أفق معرفي يتجاوز السائد والمألوف ، ويستكشف معالم الشعرية الراهنة ، ويراهن علي الإبداع الجديد وعلي المستقبل الواعد .

من هنا يصبح تذكر صلاح عبد الصبور -بدون حاجة إلى مناسبة- يحمل معني المناسبة الشعرية . إن هذا التذكر دعوة إلى استدعاء الشعر الحقيقي الذي اغترب طويلا طوال العقدين الأخيرين من الزمان ، ودعوة إلى استحضار صورة الشاعر الجميل إنسانا وفكرا وإبداعا ، والذي تتكامل فيه جوانب العظمة الحقيقية دون زيف أو افتعال ، بعد أن ساد عصر السوقة والمبتذلين والكذبة ، والمدعين للنبل والشرف والتعفف وهم أبعد الناس عن هذه المعاني ، وأكثر عجزا عن تجسيدها في أي صورة أو موقف .

كما أن الكتابة عنه -في زمن يدير ظهره لكل ما هو جميل- إنصاف لواحد من رواد الشعر الجديد هو أقلهم حظا من حيث استكتاب الكاتبين ، وتجييش الدارسين ، وإفراد الدراسات المطولة عن عبقريته في الشعر ، وتأثيره في حياة الناس والوطن ، ودوره التقدمي في الثقافة والإبداع ! ولولا أن بعض النقاد المصريين منحوه بعض اهتمامهم في حياته ، واهتماما أقل بعد رحيله ، لما كان لشعره من يذكره بما هو جدير به من بصر نقدي كاشف ، ورؤية قادرة نافذة ، خاصة أن الذين كانوا -ولايزالون- مؤهلين للكتابة عنه أكثر من غيرهم بحكم الوعي والمعرفة والخبرة والمقدرة قد صمتوا تماما ، ومازالوا صامتين !

كان صدور الناس في بلادي الديوان الأول لصلاح عبد الصبور عام ١٩٥٧ -في طبعته

البيروتيــة عــن دار الآدابــ مــيلادا مــدويا لــشاعرية كــبيرة مختلفــة . وكانــت بعــض قــصائد الــديوان مثــل: شــنق زهــران ورحلــة في الليــل والنــاس في بــلادي وعــودة ذي الوجــه الكئيــب ولحــن والملــك لله قــد سبق نــشرها في مجـلات أدبيــة عديــدة فلفتـت الانتبـاه بـشدة إلى هـذا الاسـم الجديــد الــذي يجــاوز الأفــق الــشعري لعلــي محمــود طــه وإبــراهيم نــاجي ومحمــود حــسن إسماعيــل و عبــد الــرحمن الخميــسي و عبــد الــرحمن الــشرقاوي وينــدفع في اقتــدار وثقــة إلى النموذج المغاير الذي رسم ملامحه وقسماته في قصيدته أغنية ولاء وهو يقول:

هدمت ما بنيت
أضعت ما اقتنيت
خرجت لك
علي أوافي تحملك
كمثلما ولدت ـ غير شملة الإحرام
قد خرجت لك
أسائل الرواد
عن أرضك الغريبة الرهيبة الأسرار
في هدأة المساء ، والظلام خيمة سوداء
ضربت في الوديان والقلاع والوهاد
أسائل الرواد
ومن أراد أن يعيش فليمت شهيد عشق .

ولم يكن هذا الخروج إلا للشعر ، الذي سيظل وحده الهاجس الأساسي والشغل الشاغل لصلاح عبد الصبور حضورا أو انقطاعا ، مواتاة أو ابتعادا ، وسيصبح هذا الخروج رحلة عشق لهذا المحبوب؛ الشعر:

يا أيها الحبيب
معذبي يا أيها الحبيب
أليس لي في المجلس السني حبوة التبيع
فإنني مطيع
وخادم سميع

وسيـصبح انقطـاع هـذا الـشعر مـددا وإلهامـا ، وتوقـف الـشاعر عـن إبداعـه عـذابا مـا ساويا وقلقـا معـذبا قـاتلا ، يظـل يلاحـق الـشعر ويعتـصره حـتي ديوانـه الأخـير الإبحـار في الذاكرة حين يقول في قصيدة عنوانها الشعر والرماد:

ها أنت تعود إلى ،
أيا صوتي الشارد زمنا في صحراء الصمت الجرداء

يا ظلي الضائع في ليل الأقمار السوداء
يا شعري التائه في نثر الأيام المتشابهة المعني
الضائعة الأسماء

. . . .

وأنا أسأل نفسي:
ماذا ردك لي يا شعري بعد شهور الوحشة والبعد
وعلي أي جناح عدت
حيبا كالطفل ، رقيقا كالعذراء
ولماذا لم أسمع خطواتك
في ردهة روحي الباردة المكتئبة !

لا أظن أن شاعرا معاصرا شغلته العلاقة مع الشعر بهذا القدر من الوعي والقدرة علي التساؤل كما شغلت صلاح عبد الصبور الذي أخلص إخلاصا نادرا لفنه الأثير علي مستوي القصيدة وعلي مستوي المسرح الشعري . وإذا كان هناك من يرون أن أروع ما أبدعه شوقي ــشاعر العصر الحديث ـ من شعر هو ذلك المنتشر في مسرحياته ، وعلي ألسنة أبطاله ، وأنا منهمــ فإن هذا القول القابل بالطبع للمساءلة والمراجعة ، يمكن أن ينطبق علي صلاح عبد الصبور ومسرحه الشعري . ذلك أن تحول صلاح عبد الصبور إلى المسرح كان تعبيرا عن تمام النضج واكتمال الخبرة والأدوات وتعقد الرؤية وتداخل الأسئلة وتزاحمها . فضلا عن الإيمان الذي لا يتزعزع بأن المسرح الشعري هو فن العصر .

يقول في كتاب حياتي في الشعر: إن المسرح ليس مجرد قطعة من الحياة ، ولكنه قطعة مكثفة منها . ولذلك فإن الشاعرية هي الأسلوب الوحيد للعطاء المسرحي الجيد . والشاعرية هنا لا تعني النظم بحال من الأحوال ، بل إن كثيرا من المسرحيات غير المنظومة ، فيها قدر من الشاعرية أوفر من بعض المسرحيات المنظومة ويكفي أن يقرأ الإنسان مسرحيا معاصرا كيوجين أونيل ليدرك كيف استطاع أن يقترب من روح الشعر في معظم أعماله المسرحية . رغم أنه يكتبها نثرا ، وبهذا المعني ـوحدهــ يقال إن أونيل هو أقرب الكتاب المحدثين إلى التراجيديا إلى ونانية .

وحين أسمع عن المسرح الشامل ، الذي تتآزر فيه الموسيقي والغناء والرقص ، ويقوم علي الشعرية أو الشعر ، وحين تهز العالم مسرحيات شعرية حديثة مثل ما را صاد لبيتر فايس ، وحين يولع العالم بالعبث مذهبا ، وببيكيت وشاعريته ، أجد في ذلك كله انتفاضا علي المسرح النثري وإدراكا بأن عالم المسرح ليس هو عالم اللحظات المنفرطة العادية ، ولكنه عالم اللحظات المكثفة الغنية . وهنا لا أستطيع أن أقول إن المسرح النثري قد يستطيع في قابل الأيام أن يعايش المسرح الشعري .

وحين يكشف صلاح عبد الصبور عن بعض أسرار صنعته المدهشة في كتابة المسرح الشعري ، الذي كتب أول إنجازاته مسرحية ما ساة الحلاج نتيجة تحريض ملح من صديقه الكاتب القصصي الكبير بهاء طاهر بعد أن أخرج له من إذاعة البرنامج الثاني المسرحية التي ترجمها إلى العربية عن إلى وت وهي موت في الكاتدرائية ، حين يكشف عن بعض هذه الأسرار يقول: بطل وسقطته ، هذه هي مسرحيتي والسقطة سقطة تراجيدية كما فهمتها عن أرسطو ، نتيجة لخطأ لم يرتكبه البطل ، ولكنه في تركيبه ، وباعث الخطأ هو الغرور وعدم التوسط .

وربما كان هذا هو مصدر بعض التشابه في البناء الدرامي الذي استشعره البعض بين مسرحيتي إلى وت وصلاح عبد الصبور .

كما أن صلاح عبد الصبور كان علي درجة عالية من الصدق حين قال إن القضية التي تطرحها مسرحية الحلاج كانت قضية خلاصه الشخصي ، كنت أعاني حيرة مدمرة إزاء الكثير من ظواهر العصر ، وكانت الأسئلة تزدحم في خاطري ازدحاما مضطربا ، وكنت أسأل نفسي السؤال الذي سأله الحلاج لنفسه: ما ذا أفعل ؟ هذه إذن شهادة شاعر كبير كان يري -وهو يبدع إنجازه المسرح الشعري: ما ساة الحلاج (١٩٦٤) ، مسافر ليل (١٩٧٠) ، الأميرة تنتظر (١٩٧٠) ، ليلي والمجنون (١٩٧١) ، بعد أن يموت الملك (١٩٧٢) - أن الشعر هو صاحب الحق الوحيد في المسرح ، وكان يري المسرح النثري – وبخاصة حين تهبط أفكارهولغتهـ انحرافا في المسرح . وبهذا المسرح الشعري اكتسب صلاح عبد الصبور -عن جدارة واستحقاقـ صفة المفكر ، صاحب الرؤي والمواقف ، المهموم بالقضايا الكبري وفي مقدمتها: العدل والحرية ، والمثقل الكاهلين بعذابات الإنسانية ومشكلات الكون والحياة والإنسان .

من يستطيع أن ينسي صيحته المدوية علي لسان سعيد بطل مسرحيته الشعرية ليلي والمجنون وكان يجسده علي المسرح النجم محمود ياسين -الذي ندعو له بالعودة إلى الوطن في أتم صحة وعافية- وهو يردد:

يا أهل مدينتنا

يا أهل مدينتنا

هذا قولي:

انفجروا أو موتوا

رعب أكبر من هذا سوف يجيء

لن ينجيكم أن تعتصموا منه بأعالي جبل الصمت

أو ببطون الغابات

لن ينجيكم أن تختبئوا في حجراتكمو

أو تحت وسائدكم ، أو في بالوعات الحمامات
لن ينجيكم أن تلتصقوا بالجدران ، إلى أن يصبح
كل منكم ظلا مشبوحا عانق ظلا
لن ينجيكم أن ترتدوا أطفالا
لن ينجيكم أن تقصر هاماتكمو حتي تلتصقوا بالأرض
أو أن تنكمشوا حتي يدخل أحدكمو في سم الإبرة
لن ينجيكم أن تضعوا أقنعة القردة
لن ينجيكم أن تندمجوا أو تندغموا حتي تتكون
من أجسادكم المرتعدة
كومة قاذورات
فانفجروا أو موتوا
انفجروا أو ما توا

في عام ١٩٨١ ـوهو في الخمسين من العمر سن اكتمال القدرة وتمام النضج وبداية العزف الحقيقي – رحل صلاح عبد الصبور ، ومخلفا ست مجموعات شعرية ، هي: الناس في بلادي (١٩٢٧) ، وأقول لكم (١٩٦١) ، وأحلام الفارس القديم (١٩٦٤) ، وتأملات في زمن جريح (١٩٧٠) ، وشجر الليل (١٩٧٣) ، والإبحار في الذاكرة (١٩٧٩) . وخمس مسرحيات شعرية ، وعددا من الدراسات النقدية من بينها: أصوات العصر ، وماذا يبقي منهم للتاريخ ، وحتي نقهر الموت ، وقراءة جديدة لشعرنا القديم ، وحياتي في الشعر ، وتبقي الكلمة ، وعلي محمود طه ، ورحلة علي الورق ، وقصة الضمير المصري الحديث ، ومدينة العشق والحكمة ، ومشارف الخمسين . ولم تتذكره بعد رحيله إلا مجلة فصول حين كان رئيس تحريرها صديقه القديم الناقد الكبير الدكتور عزالدين إسماعيل ، ثم حل الصمت . ولم يعد أحد يسمع بصلاح عبد الصبور إلا من خلال ومضات سريعة عابرة ، أو عروض مسرحية هزيلة ومرتجلة لبعض المسرحيين من الشباب الهواة يحاولون بين الحين والحين لفت الانتباه إلى مسرح صلاح عبد الصبور . لكن النيات الطيبة لهؤلاء الشبان لا تشفع في ستر المستوي الهزيل فهما وأداء وإخراجا لمسرح يتوهج بالفكر ، والحضور الدرامي واللغة المفعمة بالشاعرية . إن أمثال هؤلاء يسيئون إلى صلاح عبد الصبور وغيره من رموزنا الكبري ـكما صنع غيرهم بمسرح شوقي وتوفيق الحكيمـ جاعلين منه مرتعا للفجاجة والتسطيح والسوقية .

بلغة صلاح عبد الصبور نفسه ، وبطريقته في التساؤل: ما الذي يبقي منه للتاريخ ؟
يبقي منه الكثير . ليس أهمه ـفي نظريـ ريادته في حركة الشعر الجديد ، أو إنجازه

المسرحي المتميز الذي يمثل نقلة نوعية بعد إنجاز شوقي وعزيز أباظة والشرقاوي ، وإنما هو اكتمال صورة الشاعر الإنسان المثقف ، التي اختلت عند غيره ، فجعلتنا نؤثر قراءتهم عن بعد ، خشية أن تشوه حقيقتهم البشرية ، ما قد يستوقفنا في شعرهم من اجتهاد وتوفيق . وصورة المثقف الكبير عندما يكون موظفا عام ا في دولة لا يؤمن بكثير من توجهاتها السياسية مما يضطره -وهو لا يملك سوي دخله من وظيفته- لتجرع العديد من المرارات ، وإلي النزف المستمر شعرا ودما ، حتي ينتهي به الأمر -في مواجهة إشكالية التناقض- إلى الموت ، وهي صورة نبيلة عرفناها في صلاح عبد الصبور وأحببناها ، ونأسي كثيرا كلما افتقدناها الآن ، وارتطمت وجوهنا بالبديل .

ملتقى سعدي الشيرازي وشجون عربية وإيرانية

بقلم: فاروق شوشة

ملتقي سعدي الشيرازي– الذي دعت إلى ه ونظمته مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين وشاركت فيه رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية في إيران علي امتداد ثلاثة أيام بين٣ و٥ يوليو الحالي في كل من طهران وشيراز هذا الملتقي يمثل خطوة مهمة ورائدة في الاتجاه الصحيح ، اتجاه تصحيح الوضع غير الطبيعي في العلاقات العربية الإيرانية وبخاصة المصرية ـ الإيرانية ومهما قيل عن شوائب سياسية ومواقف متباعدة من الطرفين تحول دون مد الجسور وعودة العلاقات إلى طبيعتها ، فإن الوضع الراهن لا يفيد منه علي وجه إلى قين إلا أعداء الأمة العربية والعالم الإسلامي فضلا عن الخلل القائم في ميزان القوي في المنطقة ، بين أصحاب الحقوق العربية المشروعة وطغيان القوي المهيمنة ، بعد خروج العراق من المعادلة ، الخلل لمصلحة القوي الاستعمارية ، ومحاولة فرض حلول لا تمثل الحل الأدني للشرعية والحقوق الوطنية والقومية .

من هنا يصبح هذا الملتقي أخطر ما قامت به مؤسسة البابطين حتي إلى وم ، بعد أن كان اهتمامها وتوجهها الأساسي إلى تشجيع الإبداع الشعري ، متخذة من أعلام الشعر العربي كالبارودي والشابي والأخطل الصغير والعدواني وابن لعبون مناسبات لتكريم هذا الإبداع ، لكنها في هذه المرة ومن خلال هذا الملتقي العربي ـ الإيراني الذي يحمل اسم واحد من كبار شعراء الأدب الفارسي وهو سعدي شيرازي تقتحم مجال الإبداع الثقافي بين حضارتين إسلاميتين باذختين وتبحث في عوائق الاتصال وإحكام دائرة التأثير والتأثر ، وتري في صفحات الثقافة المشتركة ركيزة أساسية لعلاقات تقوم علي الفهم والوعي والاستنارة ، والنظر إلى الهدف الاستراتيجي البعيد الذي يتغلب بالحكمة والبصر الصائب والحسابات الصحيحة علي العوارض الطارئة ، والسحب العابرة .

واختيار سعد الشيرازي عنوانا لهذا الملتقي اختيار علي درجة عالية من التوفيق فهو كما يقول عنه الدكتور محمد السعيد جمال الدين رئيس قسم لغات الأمم الإسلامية في كلية الآداب بجامعة عين شمس في المقدمة الضافية التي أنجزها لكتاب الأثر العربي في أدب سعدي دراسة أدبية نقدية مقارنة للدكتورة أمل إبراهيم المدرسة في جامعتي طنطا والاسكندرية شخصية من الشخصيات النادرة في الآداب الإسلامية ، يعد واحدا من كبار الشعراء الذين اعطوا للأدب الفارسي مذاقه الخاص المتفرد واسهموا في اعلاء شأنه حتي تعدي حدود وطنه والأوطان الإسلامية وارتقي إلى مصاف الآداب العالمية وتبوأ مركز الريادة فيها . وقد عرفت مصر سعدي الشيرازي في حياته حين قام بزيارتها في شبابه وتغني في

شعره بمروجها ونيلها وسكرها . واستمرت معرفة مصر والعالم العربي بسعدي في العصر الحديث ، فحين أنشأ محمد علي المطبعة الإميرية في بولاق في أوائل القرن التاسع عشر كان كتاب سعدي المعروف بـ كلستان وهو كتاب فارسي من أوائل الكتب التي قامت المطبعة بطبعها ، ثم ترجم إي العربية ونشر في أواخر القرن الماضي مطبوعا . ويضيف الدكتور جمال الدين أنه حين نشطت حركة الدراسات الفارسية في الجامعة المصرية في منتصف القرن العشرين شغف واحد من الأساتذة النابهين في مصر وهو الدكتور محمد موسي هنداوي بسعدي الشيرازي شغفا شديدا ، فأعد عن شخصيته وأدبه رسالة للدكتوراه في الآداب الفارسية من جامعة القاهرة ، ثم نشر ترجمة بعض الأشعار من ديوانه الكبير البوستان .

وقد أتيح لي ولأبناء جيلي أن نتعلم الفارسية وندرس أشعار سعدي علي يدي الدكتور هنداوي وزميله الدكتور الهمداني في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة . وأن نقرأ لا ول مرة رباعيات الخيام في لغتها الأصلية ونقارن بينها وبين عديد الترجمات لها إلى العربية كترجمة الصافي النجفي و عبد الحق فاضل ومحمد السباعي وغيرهم وأن نكتشف أن ترجمة أحمد رامي التي تغنت ببعض مقاطعها أم كلثوم هي أرق هذه الترجمات وأكثرها جمالا وشاعرية ، وفي عام ١٩٥٢ نشر المرحوم ، الدكتور أمين عبد المجيد بدوي ترجمة لبعض آثار سعدي ، كما أنجز ترجمات أخري قبل أخري رحيله عن دنيانا في العام الماضي تصدر قريبا عن دار الشروق .

ثم جاءت الدكتورة أمل إبراهيم لتحلو جوانب جديدة من شخصية سعدي الشيرازي وأدبه ، وهي الجوانب التي تربط بينه وبين الأدب العربي ، من خلال معالجة انتمائه إلى أصول عربية حيث ينتهي نسبة إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادة وتعليمه في بغداد وتلقيه العلوم والمعارف علي أيدي أساتذة المدرسة النظامية فيها ، وطوافه في العديد من البلاد العربية ، وتأثره الشديد بأدب المقامات العربي النشأة والأصول وبشعر المتنبي والسهروردي ورسالة الإمام علي بن طالب إلى ما لك الأشتر عام له علي مصر في كتابه نهج البلاغة وهو التأثر الواضح في باب العدل أكبر أبو اب ديوان سعدي البوستان ، ومن خلال دراسة نقدية مقارنة تستند إلى الأصول والمراجع في العربية والفارسية .

الطريف أن سعدي الشيرازي لم يقتصر في إبداعه الأدبي شعرا ونثرا علي الفارسية ، وإنما كانت له إبداعاته باللغة العربية التي أجادها شأنه في هذا شأن كثيرين درسوا القرآن الكريم وحفظوه والأحاديث النبوية الشريفة وتأثروا بأساليب القصص القرآني وبالمثل القرآني وبالشعراء العرب الكبار .

يقول في إحدي قصائده إلى تنتمي إلى عالم الوجه الصوفي العشق والالهي:

تعذر صمت الواجدين فصاحوا
ومن صاح وجدا ما عليه جناح
أسروا حديث العشق ما أمكن التقي
وإن غلب الشوق الشديد فباحوا
سري طيف من يجلو بطلعته الدجي
وسائر ليل المقبلين صباح
يطاف عليهم والخليون نوم
ونفسي وعقلي والسماح رباح وأقبح ما كان المكاره والأذي
إذا كان من عند الملاح ملاح
ولابد من حتي الحبيب زيارة
وإن ركزت بين الخيام رماح هنالك دائي فرحتي ، ومنيتي
حياتي ، وموت الطالبين نجاح يقولون لثم الغانيات محرم أسفك دماء العاشقين مباح !
ألا إنما السعدي مشتاق أهله
تشوق طير لم يطعه جناح
وهي قصيدة تذكرنا علي الفور بقصيدة السهروردي المتشابهة معها في التناول الشعري والموقف والقافية:
أبدا نحن إلى كو الأرواح
ووصالكم ريحانها والراح
وقلوب أهل ودادكم
نشتاقكم
وإلي لذيذ لقائكم ترتاح
وارحمتا للعاشقين تكتموا
ستر المحبة ، والهوي فضاح
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم
وكذا دماء البائحين تباح !

كما يذكرنا قوله في رثاء بغداد حين سقطت تحت سنابك التتار وقد قتل خليفة المسلمين وأبناؤه ودمرت البلاد ونهبت البيوت ، وشرد الناس ، فجرت أشعاره دما حارا متفجعا ، يقول في مطلع قصيدته الطويلة ،

حبست بجفني المدامع لا تجري
فلما طغي الماء استطال علي السكر
ثم يقول:

أحدث أخبارا يضيق بها صدري
وأحمل اصارا ينوء بها ظهري
ولاسيما قلبي رقيق زجاجه
وممتنع وصل الزجاج لدي الكسر
وهذا البيت الأخير يذكرنا تذكيرا واضحا بقول ابي العلاء المعري:
يحطمنا ريب الزمان كأننا
زجاج ، ولكن لا يعاد له سبك

وعندما تعرض الدكتورة أمل إبراهيم للمقارنة بين المتنبي وسعدي فإنها تشير إلى الدراسة التي سبقتها للدكتور حسين علي محفوظ وعنوانها المتنبي وسعدي باعتبارها الخطوة الأولي والرائدة في هذا المجال ، لكنها تتقدم وفي ذهنها تساؤل عن الطريق الصحيح لتلك المقارنة وكيفية تجنب الوقوع في خطأ المفاضلة بين الشاعرين . وهي تكشف عن وعي نقدي أصيل حين تقول إن كل من له روح ثورية وغرور قومي ويميل للفخر والحماسة فإنه يفضل أشعار المتنبي المفعمة بالثورة والغرور المحطمة لكل قيود العبودية ، أما من له نفس شجية شفافة وروح صوفية تواقة تهيم في الكون والوجود فإنه سيكون منصفا إذا فضل سعدي .

من هنا ، فإنها في تحليلها لقصيدة المتنبي في شيراز وشعب بوان - طريق إلى شيراز تري نظرة المتنبي وقد تجسدت في روح الفارس الذي يري الدنيا ساحة للقتال ، ولايري في ظلال أشجارها العاكسة لضوء الشمس إلا قطعا من الضوء شبيهة بالدنانير ، وهذه الرياض الغناء في شيراز ليست إلا ساحة للشجعان:

مغاني الشعب طيبا في المغاني
بمنزلة الربيع من الزمان
طبت فرساننا والخيل ، حتي
خشيت وإن كرمن من الحران
يقول بشعب بوان حصاني
أعن هذا يسار إلى طعان غدونا تنفض الأغصان فيها علي أعرافها مثل الجمان
فسرت وقد حجبن الشمس عني
وجئن من الضياء بما كفاني وألقي الشرق منها في ثيابي
دنانيرا تفر من البنان

بينما يحملنا شعر سعدي في بلده شيراز إلى مشاهد الربيع التي تنسي الغريب وطنه لقد أصبح الورد بجماله - شبيه يوسف عزيزا علي خميلة مصر ، وجلبت نسائم الصبا روائح قميصه للمدينة . إن رائحة الورد وأنغام الطيور تنبعث من كلماته ، وجو

الرضا والمصالحة مع الزمن يظلل قصائده وكتاباته عن شيراز ، فضلا عن تأثره الواضح بالصياغة القرآنية لقصة يوسف .

فإذا ما تركنا سعدي الشيرازي في أشعاره الفارسية والعربية والبحث في التأثير المتبادل بينه وبين الشعراء والبلغاء العرب ، وخرجنا من إطار الدراسة النقدية والمقارنة ، تذكرنا أجيالا وخرجنا من دارسينا الرواد الذين أقاموا بكل الجهد والتفاني صرح دراسات اللغات والأداب الشرقية في جامعاتنا ، وذكرنا على سبيل المثال لا الاستقصاء الجهد الرائد ل عبد الوهاب عزام وهو جد رئيس بعثتنا الدبلوماسية في طهران محمد رفاعة والذي هو في الوقت نفسه حفيد رائد التنوير رفاعة ، رافع الطهطاوي ، وهو نموذج مشرف للدبلوماسية المصرية التي يقودها عمرو موسى بكل الوعي والجدية والكبرياء ، عبد الوهاب عزام مترجم الشاهنامة للفردوس وكتابات إبراهيم أمين الشواربي ويحيى الخشاب وموسى هنداوي وترجماتهم وترجمات حسين نجيب المصري لا شعار إقبال المكتوبة بالفارسية ، والترجمة الرائعة وللعالم الراحل إبراهيم شتا لمثنوي جلال الددين الرومي والعالم الراحل محمد غنيمي هلال لليلي والمجنون التي كتبها عبد الرحمن جامي بالفارسية فضلا عن ترجمته لديوان ضخم من مختارات الشعر الفارسي إلى العربية وصفوة من العلماء الأجلاءالمعاصرين طه ندا ومحمد السعيد جمال الدين ومحمد السعيد عبد المؤمن والراحل أمين عبد المجيد بدوي وغيرهم .

كل هذا الجهد وهو غيص من فيض يجعل من الندوة التي أقيمت خلال هذا الملتقي وشارك فيها من الجانب العربي محمد الرميحي وفهمي هويدي ، ومن الجانب الإيراني الشيخ النعماني ومحمد علي آزر شد حدثا بالغ الأهمية ، فقد نجحت في إثارة الجوانب الشديدة الحساسية في أطراف العلاقة الإيرانية ، العربية ، وتقويم مستقبل هذه العلاقة ، ومسح الماضي المشترك في تاريخ هذه العلاقة حتي من قبل ظهور الاسلام ودخوله إلى بلاد فارس ، والطريف ان الجانب الايراني كان أكثر فصاحة وبلاغة وهو يتحدث بالعربية ويستشهد بالأمثلة والنماذج الشعربية العربية ، وكان الشيخ النعماني مثيرا لا عجاب الحضور وهو يختتم كلمة بأبيات من تأليفه وضع في ختامها بيت شوقي: أنا شيعي وليلي أموية واختلاف الرأي لا يفسد للود قضية مؤكد ان اللقاء بين المذهبين الشيعي والسني هو في جوهرة لقاء من أجل الاسلام وصالح المسلمين ودفع الاذي عن المنطقة بكاملها في وجه القوي الباغية والطامعة والمسيطرة ولم تخل الندوة من بعض جوانب النقد الذاتي الذي هو المدخل إلى المصارحة والمكاشفة ونزع فتيل التعصب وضيق النظرة والافق .

وكان واضحا حرص الجانب الايراني علي انجاح الملتقي بدليل وضعه تحت رعاية رئيس الجمهورية المستنير المعتدل محمد خاتمي ، ومشاركته بكلمة ضافية تكشف

عـن ثقافتـه وتمكنـه وعلمـه في الجلـسة الافتتاحيـة وتأكيـده ان أمثـال سـعدي الـشيرازي الـذين انطلقوا مـن المحليـة إلى العالميـة وكتبـوا بالفارسية والعربيـة هـم سـفراء هـذا العـالم الجديـد الـذي يضمنا معـا مـن خـلال جـسور ثقافيـة عديـدة واهتمامـات علميـة وبحثيـة واسـعة وترجمـات كـثيرة هنــا وهنــاك تــضيف في كــل يــوم لبنــة إلى صــرح العلاقــات العربيــة - الايرانيــة .

وهـي مناسـبة لكـي تفكـر مـصر في مـشروعها الثقـافي الحـضاري عنـدما حقـق عميـد الادب العربـي الراحــل فكرتــه الرائــدة المتمثلــة في اقامــة المعهــد المــصري للدراســات الاســلامية في مدريــد ، جـسرا بـين الثقافـة العربيـة في العـالم العربـي والثقافـة الاندلـسية والاسـبانية فقـد كـان مـن المتوقـع ان يتلـو اقامـة هـذا المعهـد معهـدان آخـران في ايـران وتركيـا باعتبـار ان الادبـين الفارسـي والتركــي همــا أكثــر الاداب تفــاعلا وتــأثيرا متبــادلا مــع الادب العربــي واللغــة العربيــة .

لقـد بـدأت مؤسـسة جـائزة عبـد العزيـز سـعود البـابطين الخطـوة الاولـي مقدمـة المثـل لغيرهـا مــن المؤســسات والهيئــات ، حكوميــة وغــير حكوميــة مراهنــة علــي المــستقبل برهــان الــوعي والاسـتنارة والعمـل الـصحيح وكاشـفة عـن الجهـود العلميـة الرائعـة الـتي يقـوم بهـا علمـاء مصريون وعـرب مـن أسـاتذة اللغـات والآداب الـشرقية يعيـشون في الظـل بعيـدا عـن الاضـواء وهـم يـضفرون خيـوط هـذه العلاقـة التاريخيـة القديمـة الحديثـة المـستمرة عليـالرغم مـن كـل العوائـق والسحب العابرة ، بين الثقافتين العربية والايرانية .

أبـــــــــي

بقلم : : فاروق شوشة

كيف أغويتني ؟
حين صدقت أنك باق
وأن زمانك يمتد في الأفق المستحيل !
كنت تفلت مني . .
دراعاك لا تقويان علي ضم صدري إلى ك
ولا أتبين . .
أنك تمعن في البعد يوما فيوما
ويأخذك الجزر شيئا فشيئا
ويسحب للقاع
هذا البهاء المهيب الجليل
كيف صدقت فتنة عمري
وزهوي بأنك لي
كالنخيل الذي قد غرست
امتداد إلى آخر الدهر
يسطع فوق الحقول
ويوغل مخترقا في السديم
ويوغل
لا يعتريه الذبول !
الجليل المسجي ، أمام العيون
قليلا . . ويبحر في الشفق الأرجوان
ونبحر في الدمع
ها ، لحظة
وننوء بأحمال عب ثقيل
تغيب لتشرق فينا
ويسطع وجهك عبر ملامحنا
ويواكب نهر تضاريسنا
حين نطوي مسافة عمر
ونعلن عن خطفة للفراق

وعن زمن للغياب الطويل
ها أنا أرتجيك
أنادي عليك
وأشتاق وجهك
أصغي لعلك
أقبع في حافة الليل
منتظرا
كاليتيم الذليل !

دع رداءك لي
أتشمم فيه زمانك
أغمس وجهي به إذ يلامسني
وأشد خيوطا بك امتلأت
صاحبتك طويلا . .
وكانت تلاصق هذا الإهاب الصقيل
واقف مثل سد منيع غيابك
لا أستطيع اختراقا
ولا أستطيع التقدم
لا أستطيع الرجوع إلى ك
ولا أستطيع انفلاتا من الحزن !
لا أستطيع إلى ك الدخول !
كان نهرا من الضوء ينساب
في حلكة الليل
والظلمة الداهمة . .
كان يأخذنا من دبيب الطفولة فينا
إلي حيث نقلع في لجة الحرف
نركب متن السؤال
وتحملنا موجة عارمة !
لم يكن يتوقف يوما ليسأل:
أي الحظوظ أصبت ؟
وأي البلاد سكنت ؟
فقد كان يكفيه أنا له الحظ . .

نحن جني الأرض
والأؤسمة !
كان يحملنا ملء عينيه
وهو يغلق جفنيه
يخشي علينا انداح الفضاء
ويخشي علينا المروق من الوقت
يخشي علينا التفرق
واللحظة القادمة !
هو ذاك الذي كان يجمع زيتونه
ويقلم نخلته
ويضيء بساتينه
ويجمع في قبضة إلى د
ما أبقت العسرة الداهمة !
كم تود لو ان الجبين المهيب
اطمأن . .
ولو أن وقع التراب علي قدميه
استحال غناء
ولو أن هذي المسافة بين العصافير والحلم
كانت رخاء
ولو أن نهر العزاء الذي قدمته السماء
تفجر في الأرض
فاخضوضل العمرا
وامحت اللوحة القاتمة !

يا أبي
يا أبي
يا صديق السنين الطوال التي
شكلتني علي صورة منك
صرت قرينا لنفسي
وصوتا لصوتي
ومتكأ حين تقتلع الحادثات
فضاء به انسكب الضوء والعطر

والسيرة الفاغمة

اليتيم يلوذ ببابك

جاء يدق علي جذع صبارة

نبتت حوله

واستحالت مدي من عروق اخضرارك

حين انسكبت علينا

زمانا ، وحلما ، وطيفا تباعد

ياليتهم يدركون

الذين ألاقيهمو شبحا هائما

غارقا في الذهول

أنني أتعزي بأنك في

وأني أدير الشريط الطويل

أطير لمثواك بين الحقول

وأسكن تحت السكون الظليل

وأقنع من زورتي بالقليل !

باريـــــــس

شعر : فاروق شوشة

برد باريس لا يرد
فلا تحمل عليه ،
وقل لباريس: أهلا
أنت مغري بها ،
فبادر
وخل الروح تعري
وفتنة القلب تروي
وزحاما من الرؤي يتجمعن
ويشعلنك صهدا
سحابة من شواظ
صبوات ينتابهن تشهيك فيقطرن
في حناياك طلا
تلك باريس
أسرع الخطو
لا تلتفت ثم حوليك
وعجل ،
ضاع الكثير الذي ضاع
وعمر الزمان
يبطئ مهلا !
عن قليل ، تنسي برودة ساقيك
وتلفت بالجمال الذي يدفئ
تمضي مع النجوم إلى الحلم
وتصطاد ما سة زينت جيد باريس
وتمضي
تتقري يداك جسرا علي السين
وأيقونة تسبح للرب ،
جدارا معاندا ،
تظنه سوف ينقض

وصوتا يضج في ساحة اللوفر
فتلقي التاريخ
وجها مطلا !

* * *

لست في عتمة الزقاق
ولا في زحمة الريح والروائح ، والليل
وحيدا ،
فثم من يتشهون ، ويسعون للوليمة والفتك
ويغرون بالسجينات في الضوء
وفوق الرصيف يعرضن للسارين جوعي
بضاعة لن تردا . .
ثم من يعبرون مثلي خفافا
يتشهون أن يروا ليقولوا : قد رأينا !
سطح الوجوه التي ليست تتيح الغوص فيها ولاتنل سوي اللمح
عيونا محملقات غليظات
ولونا .
مصبغا ، مربدا
لاتسارع بالاتهام .
وحاذر ،
ليست النسوة التي عفت باريس . .
وليس الذي تأملت في اللوحة
إلا سحابة تعبر الآن
ووجها مخالسا سوف ينزاح
لتلقي سماءها وهي تنداح
مدي رائق السريرة والعطر ، وأفقا مضمخا ،
مستبدا !
ما الذي أنت حامل في وطابك ؟
أيها القادم الذي جاء مسكونا
بوهم يظل يبحث عنه
وسطور قرأتها ذات يوم
تظل تحلم لو كان زمان من أجلها
يستعاد ،

لتراها بعين حاضرك الآن
ولكن هيهات !
باريسك شيخوخة عمر
برودة في شرايينك
خطو يهتز حين يواتيك فضاء تضيع فيه معانيك
طيورا مرفرفات بعيدا
وحنين لغامض
ليس يهدا !
سائح أنت ؟
لا ،
ولا جئت مضيفا حكاية
للذي قيل ،
ولا مشهدا
لما دار بالأمس ،
فهذا الطريق مزدحم الشوق
ورواده
يزيدون عدا
إنهم سابقوك للمنهل العذب
ووراده الذين تمنوه طويلا
فلما عرفوه ،
ذابوا التياع
ووجدا
ثم عادوا بقبسة النار
فانداح حريق في ظلمة الليل
وانجاب زمان ،
طير الخرافة يشدوه
وشقت أسداف وهم مقيم
ثم عادوا . .
تحرك الماء في النهر
وأضحى المسار جزرا
ومدا !
قادم أنت كي تردد يوما :

أنا باريس . .
وهذي عجائبي وفنوني
فاتبعوني . .
الفتون الذي يضلك
يرديك . .
فحاذر !
إن باريس لن تصنفك إلى وم إلى ها
ومصر لن تستردك !
ما الذي أنت حامل في وطابك ؟
أيها القادم الذي سوف يرتاع
إذل قيل: ليس هذا هو الوقت
ولا هذه الحقيبة مسموح
ببعض الذي هو فيها
فعد به لبلادك
وتخلص مما حملت
وعاود . . !
تلك باريس
لم تزل ما ء عينيك
وفي القلب بغية المتمني
فتدفأ بها
وطاول صيالها بصيالك
واغتنم ساعة علي صفحة السين
وقل:
آن للنيل أن يحرك ساقيه
وأن يستفيق من دمع إيزيس
وألا يرتد
فالليل حالك !
سوف تبقي مدينة النور في القلب
وتبقي عيدانها في رمالك !

عفراء : مسرحية مجهولة لا حمد مخيمر

بقلم : فاروق شوشة

مرة ثانية أعود إلى الكتابة عن الشاعر أحمد مخيمر . وكنت قد كتبت عنه باعتباره واحدا من أبرز شعراء المدرسة الحديثة في شعرنا المعاصر ، الذين تشكل وجدانهم الشعري من خلال جماعة الديوان للعقاد وشكري والمازني ، وشعراء المهجر إيليا أبو ما ضي وميخائيل نعيمة وجبران والمعلوف وشعراء جماعة أبو لو أحمد زكي أبو شادي وإبراهيم ناجي وعلي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل وأبو القاسم الشابي وغيرهم . وأشرت إلى تميز أحمد مخيمر بثقافته التراثية الواسعة ، ووعيه اللغوي العميق ، وفطرته الإنسانية التي جعلته قريبا من عالم الناس البسطاء في همومهم ومشكلاتهم إلى ومية .

غير أني أعود إلى الكتابة عنه ـمرة ثانيةـ لا لفت الانتباه إلى مسرحيته الشعرية عفراء التي لا تزال مخطوطا مجهولا ، فلم يتح لها النشر ، كما لم يتح لها أن تعرض علي المسرح ، فلا هي قرئت ، ولا هي مثلت وجسدت ، بالرغم من مرور اثنين وعشرين عام ا علي رحيل صاحبها في عام ١٩٧٧ .

مسرحية عفراء إذن مستوحاة من التراث العربي ، شأنها شأن مسرحية شوقي مجنون ليلي التي انتظمت وقائع الحب بين قيس بن الملوح ومحبوبته ليلي العامرية ، ومسرحية عزيز أباظة قيس ولبني التي تعرض لوقائع الحب بين قيس بن ذريح ومحبوبته لبني . وكأنما أراد أحمد مخيمر أن يثبت أنه لا يقل قدرة أو شاعرية في مجال استلهام التراث وحبك المسرح الشعري عن شوقي وعزيز أباظة ، وأن يصوغ من خلال أحداث القصة العاطفية المأساوية بين عروة بن حزام ـأحد الشعراء العذريينـ ومحبوبته عفراء مسرحية شعرية بديعة ، في صياغة عذبة ، ولغة سلسة طيعة ، وبناء درامي محكم ، وخيال شعري محلق .

وعروة بن حزام ـكما جاء ذكره في مصادر تراثنا العربيـ شاعر من بني عذرة ، عاش في عصر صدر الإسلام وتوفي سنة ستمائة وخمسين ميلادية ـفي زمن خلافة عثمان بن عفانـ أحب ابنة عمه عفراء التي ربي معها لما ما ت أبو ه وكفله عمه ، وعندما تقدم عروة لخطبتها طلب أبو ها ـبتحريض من أمها التي كانت تريد لعفراء زوجا ثريا من أثرياء العربـ مهرا معجزا ، فرحل عروة إلى ابن عم له باليمن ـكان واسع الغنيـ وعاد ومعه مهر عفراء ما ئة من الإبل ، ففوجئ بأن عفراء قد تزوجت ، وأن أباها قد زوجها لا موي غني بالشام ، فلحق عروة بها ، وعندما تعرف عليه زوجها استضافه وأكرم وفادته ،

وأقام عروة أياما ثم ودع عفراء وزوجها وانصرف عائدا إلى قومه ، لكنه ما ت قبل أن يبلغ بلده ودفن قرب المدينة .

وتضيف الروايات والأخبار إلى قصة عروة وعفراء العديد من التفاصيل والمواقف التي لم ترد في سياق القصة الأصلي . فأبو عفراء ـمثلاـ يبني قبرا ويطلب من أهل الحي أن يكتموا علي عروة ـعند عودته بمهر ابنتهـ خبر زواجها وسفرها إلى الشام ، ليفاجئ عروة بأن عفراء قد ما تت ودفنت في هذا القبر ، الذي يقصده عروة أياما عدة يبكيها وينتحب وهو كما تقول الروايات مضني هالك ، حتي جاءته جارية من الحي فأخبرته بما صنع عمه ، كما تضيف هذه الروايات أن زوج عفراء لما علم بما بينها وبين عروة رغب في أن ينزل عنها لعروة ، أي يطلقها ويتركها له ، لكن عروة يأبي ويثني عليه شاكرا وهو يقول: إنما كان الطمع آفتي والآن قد يئست وحملت نفسي علي إلى أس والصبر ، فإن إلى أس يسلي ، ولي أمور لا بد من رجوعي إلى ها ، فإن وجدت بي قوة علي ذلك وإلا عدت إلى كم ، وزرتكم حتي يقضي الله في أمري ما يشاء ، فزودوه وأكرموه وشيعوه وانصرف عائدا .

ويقال أيضا إن عروة وهو في طريق عودته لقي عراف إلى ما مة فقال له عروة: ألك علم بالأوجاع !

قال: نعم ، فأنشأ يقول:

وما بي من خبل وما بي جنة

ولكن عمي يا أخي كذوب

أقول لعراف إلى ما مة داوني

فإنك إن داويتني لا ريب

عشية لا عفراء منك بعيدة

فتسلو ، ولا عفراء منك قريب

فو الله لا أنساك ما هبت الصبا

وما أعقبتها في الرياح جنوب

ويشير عروة بن حزام مرة ثانية إلى عراف إلى ما مة وعراف نجد وفشلهما في علاجه مما يلاقيه من حب عفراء ، فيقول:

جعلت لعراف إلى ما مة حكمه

وعراف نجد إن هما شفياني

فما تركا من حيلة يعرفانها

ولا شربة إلا وقد سقياني

ورشا علي وجهي من الماء ساعة

وقاما مع العواد يبتدران
وقالا : شفاك الله ، والله ما لنا
بما ضمنت منك الضلوع يدان
تحملت من عفراء ما ليس لي به
ولا للجبال الراسيات يدان
كأن قطاة علقت بجناحها
علي كبدي ، من شدة الخفقان

كما يروون أيضا أن عروة عند عودته من الشام سافر ومعه خمار -أي غطاء وجه- لعفراء ، فكان عندما يغشي عليه يوضع الخمار علي وجهه فيفيق . وعندما لم يفلح الطب في مداواته ما ت ، وبلغ عفراء نبأ موته فماتت حزنا عليه بعد ثلاثة أيام من رحيله . وكأننا أمام صورة متقدمة لموت روميو وجولييت ، أو صورة متكررة من حكاية ليلي العامرية وصاحبها المجنون .

فما الذي فعله أحمد مخيمر بهذا كله !

لقد نجح في صياغة أحداث هذه التراجيديا الشعرية في صورتها المأساوية الحزينة التي تتسم بها نهايتها ، وفي بواكيرها الأولي حيث ساد الصبا والشباب والمرح والانطلاق ، كما نجح في تصوير مواقف التحدي والمغامرة ، والقيام بالأسفار ، ومواجهة الأخطار من أجل إحضار مهر عفراء والتعرض للأهوال في سبيل الحب المشتعل الأوار . كل ذلك نجح مخيمر في تحويله إلى دراما شعرية ، ذات لغة ناصعة ، وعبارة مشرقة ، وموسيقي شعرية تواكب الحالات النفسية والشعورية .

ولا يفوت مخيمر -وهو الشديد الولع بالحداثة والتجديد ومتابعة الحركات التجديدية في شعرنا العربي المعاصر- أن يفيد من قالب الشعر الجديد -كما أفاد عبد الرحمن الشرقاوي وصلاح عبد الصبور- وتنويع أوزانه وقوافيه ، في صياغة مسرحيته الشعرية عفراء مثلما فعل في العديد من قصائد دواوينه التي جمعت بين الأشكال الشعرية التقليدية والجديدة مرورا بالموشح والرباعية .

يقول مخيمر في مسرحيته وهو يصور حوارا يدور بين بطليها عروة وعفراء التي تقول وهي تخاطبه :

شعرك زهر حكمة السماء
أشم عطر الروح في أبياته الجميلة
وعندما أسمعه من فمك الجميل
أحس أن هذه الصحراء

قد أصبحت حديقة ظليلة

فيجيبها عروة:

ملأتني بالزهو يا عفراء

فتقول عفراء وهي مستمرة:

وعندما تكون جنبي لا أري

غيرك ، لا أبصر إلا أنت

أنت هو الوجود ذا جميعه

فلا تغب يا عرو عني لا تغب

فيارب أنت المستعان علي الذي

تحملت من عفراء منذ زمان

فلحظة الفراق عندي جبل

ينهار فوق مهجتي ثقيلا

يقول عروة:

ما غبت إلا زمنا قليلا

فتجيبه عفراء:

بل غبت عني أبدا طويلا

وكنت وحدي خائفة

تزأر أحزاني كريح عاصفة

لقد أفاد أحمد مخيمر من التجربة المسرحية لكل من أحمد شوقي وعزيز أباظة ، ومن النقد الذي وجه إلى هما ، من أنهما انشغلا بالشعر عن متطلبات الدراما والحركة المسرحية ، فجاءت مسرحياتهما مليئة بالمونولوجات الشعرية الطويلة التي كأنها قصائد يلقيها المثلون ، مما يعطل في رأي هؤلاء النقاد نمو الحدث الدرامي وتناميه واستمرار الحبكة المسرحية القوية . من هنا ، فقد حرص مخيمر علي ملء مسرحيته بالحوار المتصل ، والإيقاع الدرامي المتدفق من غير أن ينسي نفسه في نشوة الشعر ويتوقف عند شخصية من شخصيات المسرحية حتي لو كان أحد البطلين: عروة أو عفراء ، ليضع علي لسانها كلاما كثيرا أو مقاطع شعرية طويلة !

الطريف أن هذا النقد الذي وجهه البعض لمسرحيات شوقي وعزيز أباظة أصبح يواجه برأي مغاير ، يري أن في المونولوجات الطويلة التي امتلأت بها مسرحيات شوقي وعزيز أباظة ، إثراء للدراما الشعرية ، وكشفا لا عماق الشخصيات ، وتركيزا للمعني الشعري والدلالة الإنسانية والفنية وتكثيفا للموقف المسرحي الذي يعبر عنه المونولوج . صحيح أن عيني مخيمر كانتا علي شوقي وعزيز أباظة ، لكنه كان حريصا في الوقت

نفسه علي المغايرة والاختلاف ، والإفادة من صيغة الشعر الجديد في كتابة مسرحيته ، فأسعفته هذه الصيغة بقدرة أكبر علي التدفق والانسياب والإيقاع السريع ، كما أفاد من خبراته الإبداعية في دواوينه : الغابة المنسية ولزوميات مخيمر التي عارض بها المعري في لزومياته وملحمتيه أشواق بوذا والروح القدس ، في إنضاج قدراته الفنية علي رسم الشخصية ، وتجسيد الموقف ، وانتقاء اللحظات المتوهجة بالحس الدرامي ، فضلا عن صياغة الحوار الذكي الذي لا يغفل العديد من الإشارات والإيحاءات والإيماءات .
لقد أتيح لي أن أطلع علي هذه المسرحية الشعرية في مخطوطها المكتوب بخط الشاعر ، والذي أدعو إلى الاهتمام بنشره ، وتقديمه ضمن عروض مسرحنا القومي ، في زمن نتكلم فيه كثيرا عن أزمته في النصوص المسرحية ، وعن تراجع في مستوي العروض المسرحية ، وامتلاء العديد من مسارحنا بالإسفاف والسوقية والابتذال ، والابتعاد عن رسالة المسرح الحقيقية باعتباره صياغة لروح الأمة ووجدانها وارتفاعا باحتياجاتها الروحية إلى آفاق عليا من قيم الانتماء والحوار والحرية والمساءلة وتمجيد الكرامة الإنسانية .
وقد آن الأوان لنقل هذه المسرحية الشعرية من دائرة المجهول إلى المعلوم ، وإلقاء المزيد من الضوء علي شاعرها أحمد مخيمر ومكانته في ديوان الشعر المعاصر ، وإتاحة أعماله الشعرية للقراء ، خاصة دواوينه التي لم تعد طباعتها ونفدت منذ زمان طويل وأصبحت غير متاحة حتي لمن يريدها من الباحثين والدارسين .
لقد كان مخيمر كشعره ، بسيطا في مظهره ، عميقا في جوهره ، سهل المتناول لكنه صعب المحاكاة والتقليد ، ميسورا لمن يوده ويحبه ، صعبا علي من لا يفهمه ولا يقدره . لذا ، فإني أختتم هذه السطور بواحدة من لزومياته يقول فيها :

لا تسبحي في المياه عارية
فالبحر من وطأة الجمال رزح
عيناك فيه أطلتا حزنا
وكل شيء به لها وترح ؟
من فريد البحر كنت من قدم
ومن رفيف الضحي وقوس قزح
لمثل هذا أوطاننا هجرت
والقلب من فسحة الضلوع نزح !

بابا شارو : الفن والمسئولية

بقلم: فاروق شوشة

أسفت كثيرا حين فاتتني المشاركة في الحفل الذي أقامه المجلس الأعلي للثقافة تكريما للرائد الاذاعي محمد محمود شعبان ـ بابا شارو ـ قبل رحيله بأسابيع قليلة . فأنا ومعي كثيرون من أبناء جيلي ، والأجيال السابقة واللاحقة ، ندين له بالكثير علي مستوي الفن الاذاعي ، بتنوع مجالاته واهتماماته ، وعلي مستوي قيم هذا الفن التي كان أحد الذين عملوا بكل الصدق والتفاني علي تجسيدها ، القيم التي تؤمن بالصدق والابداع والقدرة علي المغامرة والاكتشاف والحرص علي الانتماء إلى الوطن والانسانية ، من خلال وعي مستنير ومعرفة عميقة متطورة .

كان محمد محمود شعبان ، أو بابا شارو: الاسم الأثير إلى قلبه والذي عرف به لدي ملايين المستمعين وأبنائه وتلاميذه الاذاعيين ـ علي مدار أكثر من نصف قرن ـ كان يمثل بين جيل الرواد معني الفنان الشامل . كان كل واحد منهم فنانا في مجال ما هو مجال اهتمامه وتخصصه الذي سيصبغ حياته وعطاءه الاذاعي ، في الأخبار أو التنفيذ أو الدراما الاذاعية أو الموسيقي والغناء أو التنسيق وتصميم الخرائط الاذاعية ، وكانت معجزة هذا الجيل من الرواد الذي ولد العمل الاذاعي علي يديه صحيحا سليما معافي ، انه كان يبني علي غير مثال ، لم يكن هناك نموذج يمكن احتذاؤه أو محاكاته ، اللهم إلا تلك الصورة الهزيلة والمضحكة لمرحلة محطات الاذاعة الأهلية التي أدخلها المصريون والمستوطنون من الهواة الذين التقطوا هذا الاختراع اللاسلكي الجديد الذي غزا الأجواء في أوروبا وأمريكا وانتشر انتشارا ذائعا سريعا ، والذي بدأ في مصر منذ أواخر العشرينيات في أثير القاهرة والاسكندرية وبورسعيد كما يقول الرائد الاذاعي محمد فتحي في كتابه عن الاذاعة المصرية في نصف قرن (١٩٣٤ ـ١٩٨٤) الذي ألفه استجابه لرغبة حارة من الاذاعي الكبير فهمي عمر رئيس الاذاعة المصرية في ذلك الحين ، وعندما حدث افتتاح الاذاعة المصرية في٣١ ما يو عام ١٩٣٤ كان أهم المحطات الأهلية التي توقفت بقوة القانون هي محطات فؤاد وفاروق وفيولا وسابو ووادي الملوك ورمسيس ومصر الجديدة وصايغ ومصر الملكية وماجستيك وفريد وراديو فويس وراديو نافيرا .

اذن كان علي هؤلاء الرواد الذين حملوا الأمانة وتولوا المسئولية ـ والذين لحق بهم بابا شارو بعد فترة قصيرة ـ ان يصنعوا نموذجهم ، وان يضعوا دستورهم وقيمهم هم ، وبدأت هذه المغامرة الرائعة التي وضعت الاذاعة المصرية منذ ذلك التاريخ في صميم حركة المجتمع ووعيه تأثيرا وفاعلية ، واشاعة للتذوق والتنوير ، ومواجهة للأمية الهجائية بثقافة الأذن والوجدان ، واشاعة البهجة في البيت المصري ، ثم في البيت

العربي ، بما تقدمه من ألوان الفن . هذا الدور الوطني والاجتماعي والثقافي والفني الذي يتكامل في معني اشاعة العلم والمعرفة وفنون الثقافة ، كان من ورائه - أول الأمر - هذا الجيل من الرواد العظام ، ثم المبدعون من الأجيال التالية : توسيعا للدائرة ، وتعميما للرسالة ، ومواجهة للتحديات ، خاصة بعد قيام ثورة يوليو ، وتحول الاذاعة إلى سلاح وطني وقومي يسبق كل الأسلحة التقليدية الأخري ويتقدمها .

في خضم المغامرة الرائعة التي صاحبت هذه البدايات ، حدثت مصادفتان لعبتا دورا محوريا في حياة محمد محمود شعبان ، الأولي هي تغيب بابا صادق مقدم برنامج الأطفال ، وكانت البرامج تقدم علي الهواء ، وتكليف المذيع الشاب شعبان بأن يحل محله في تقديم البرنامج ، وحين كتب اسم المذيع الجديد ضمن فقرات البرنامج إلى ومي المطبوع كتب اسمه خطأ بابا شارو بدلا من بابا شعبان وكانت المصادفة الثانية عندما اكتشف ان الكتابة الخاطئة للاسم أرق وأكثر ملاءمة للحس الاذاعي ، فتمسك بها ، وأصبحت الصيغة الجديدة للاسم بابا شارو هي المعتمدة ، وهي التي سيعرف بها صاحبها حتي آخر يوم في حياته ، وفي الذاكرة الاذاعية والوطنية إلى آماد طويلة قادمة .
يمكننا أن ندرك حجم الدور الذي قام به بابا شارو عندما كلفته الاذاعة بركن الطفل لا ول مرة ، حين نستعرض الوضع الاذاعي الذي كان سائدا قبل توليه المسئولية ، عندما كان بابا صادق وأبلة زوزو - التي كانت مديرة لا ول روضة للأطفال علي النظام التربوي العصري - يشاركان العديد من الأبلوات والبابوات في تقديم برامج الأطفال ، معتمدين في ما دتهم الأساسية علي القصص المستمدة من ألف ليلة وليلة : الشاطر حسن وست الحسن والجمال فضلا عن الفوازير والنوادر وحكايات عن الحيوانات وعن بعض مباديء السلوك والأخلاق كالأمانة والصدق وحب الوالدين وطاعتهما فضلا عن بعض ألوان المعرفة الدينية التي لا بد منها .

أما التنشئة الصحيحة والتربية الواعية المستنيرة ، ومخاطبة الضمير وتنمية الذوق ، والوعي بالوطن والعالم ، وتعميق جذور الانتماء ، فكل هذه آفاق استراتيجية جديدة لبرامج الطفل بدأها بابا شارو ، وارتبط اسمه من خلالها بأداء اذاعي إلى ف حنون ، وتوجيه رفيق لا يخلو من جدية وحزم ، وقدرة علي الاقتراب من مفردات عالم الطفل واهتماماته ، وعاما بعد عام ، بدأت المادة المعرفية تتراكم ، والخبرة المكتسبة تتسع وتعمق ، والمهتمون بالكتابة للطفل يجربون ويعرضون ويمارسون ويتابعون الجهود المبكرة الأولي لكامل كيلاني رائد أدب الطفل - تأليفا وترجمة واقتباسا - وشاعر البراري والهراوي وقبلهم جميعا شوقي في ابداعه الشعري للأطفال ، ثم لا يلبث الأفق الاذاعي الممتد ان يفصح عن الأسماء الجديدة التي ستصبح نجوم الكتابة الاذاعية للطفل علي مستوي

الحدوتة والتمثيلية والاغنية يتقدمها حسين فياض و عبد الوهاب يوسف ونادر أبو الفتوح وآخرون ، وبالطبع بابا شارو نفسه .

لم يتح لي - بكل أسف - وأنا في سن الطفولة ، أن أستمع إلى بابا شارو وبرنامجه ، فلم يكن في بيتنا راديو ، وظللت حتي مرحلة التعليم في المدرسة الثانوية بعيدا عن هذا كله ، ولم يتح لي الاستماع إلى ه - بوعي وتركيز - الا بعد أن التحقت بالاذاعة عام ١٩٥٨ وأصبحت مذيعا ، واكتشفت ان غيري من الكبار - في أعمار مختلفة - يتابعون بابا شارو وأن جمهوره من المستمعين ليس مقصورا علي من يخاطبهم من الأطفال ، واحسست انه في هذه المرحلة من اكتمال النضج والخبرة وقد قطع مشوارا كبيرا وانجز كثيرا قد أصبح جدو شارو لا بابا شارو ، وان في ادائه الاذاعي الحاني المتليء مودة ومحبة ، صورة الجد عندما يحنو وينحني علي أطفال أبنائه وبناته ، ولم أدرك معني هذه الانعطافة أو الالتفاتة الا بعد ان اصبحت أنا جدا وأدركت لماذا كنت أهتز وانفعل واتعاطف مع ما يقدمه بابا شارو للصغار ، ذلك أني اكتشفت فيه نبرة الجد لا نبرة الأب ، وفرق كبير بين النبرتين ، عندما تقترن النبرة الأولي بالصدر الواسع الحليم والغفران الدائم لكل خطأ أو ذنب ، والاحساس بالذوبان ، والامتلاء بالمشاعر الجارفة أمام الطفولة البريئة وعالمها الجميل الوديع المثير .

يكمل هذا الدور الرائد لبابا شارو في التأسيس لبرامج الطفل في الاذاعة ، ووضع الصيغة والنموذج ، وتعهد هذه البرامج بالتطوير المستمر ، يكمله دوره التأسيسي في الدراما الاذاعية خاصة فيما يتصل بالبرامج الغنائية ، وهنا لا بد أن نذكر بالتقدير لجيل الرواد قيامه باستلهام ثقافته المسرحية في ابداع الصورة الأولي للدراما الاذاعية وقد ظلت كلمة مسرحية هي الكلمة المتداولة مع بدء الارسال الاذاعي خاصة مع اقتباس فصول معينة من المسرحيات العالمية ، ومواقف مختارة من شأنها أن تستثير اهتمام المستمعين وتجذب انتباههم واعجابهم . وشارك في تمثيل هذه الفصول المسرحية واخراجها نجوم الميكروفون في ذلك الوقت وفي مقدمتهم أمينة السعيد ومحمد فتحي وتماضر توفيق وصفية المهندس وحافظ عبد الوهاب و عبد الوهاب يوسف كما شارك في اعدادها أحمد كامل مرسي والسيد بدير ، قبل ان تنجح هذه الكوكبة في اشتقاق الكلمة الجديدة التي ستحل مكان كلمة مسرحية وهي كلمة تمثيلية والكلمة الجديدة التي ستحل مكان كلمة مشهد وهي كلمة مسمع ، وسرعان ما ستجد التمثيلية الاذاعية روادا يغامرون بالكتابة للاذاعة لا ول مرة ، يوسف جوهر وسيد بدير وعثمان أباظة وفتحي أبو الفضل ويحيي نصار وغيرهم .

وسرعان ما يبزغ نجم محمد محمود شعبان بابا شارو في مجال الاخراج الاذاعي عندما يرتبط اسمه بعدد من البرامج الغنائية الدرامية التي حققت له شهرة ذائعة وصيتا مدويا بين أقرانه من المخرجين الرواد خاصة عبد الوهاب يوسف وحافظ عبد الوهاب ،

ولايـزال المـستمعون يحتفظـون في ذاكـرتهم حـتي إلى وم بحـوارات مختـارة ومـسامع تمثيليـة كاملـة مـن هـذه الـبرامج الغنائيـة : عـذراء الربيـع والراعـي الأسمـر وقـسم بالاضـافة إلى الدندورمـة وأصـل الحكايـة ، ويقـترن اسـم بابـا شـارو باسـم الـشاعر الغنـائي وكاتـب الـدراما الاذاعيـة الـشاب الحـديث الـسن والممارسـة عبـد الفتـاح مـصطفي الـذي سـيقدم لـه بعـد هـذا التـاريخ بـسنوات طويلـة اللقـاء مـع بابـا شـارو في واحـد مـن أعمالـه الباقيـة وهـو الأغـاني للأصـفهاني الـذي وفـق فيـه إلى تحويـل الكتـاب الأم في الـتراث العربـي كتـاب الأغـاني إلى سلـسلة مـن الحلقـات الاذاعيـة الـتي تجمـع بـين جـوهر الـدراما الاذاعيـة والقـدرة علـي ابـداع الـصيغة الغنائيـة واللحنيـة للأصـوات القديمـة الـتي ألـف مـن أجلـها كتـاب الأغـاني ، . واسـتطاع بابـا شـارو بمواهبـه الفنيـة الـشاملة الـتي تفـرد بهـا مـن بـين كـل رفـاق جيلـه أن يحـول التـصور الاذاعـي إلى حيـاة نابـضة ، وان ينقـل مـضمون الكتـاب بكـل يـسر وسلاسـة إلى المـستمع المتلقـي ، وان يوفـق في اختيـار الممثـل القـدير حـسن البـارودي ليـؤدي شخـصية أبـي الفـرج الأصـفهاني ، وأصـبح هـذا العمـل الاذاعـي الفريـد اضـافة كـبيرة إلى انجـاز بابـا شـارو الأساسـي المتمثـل في اخراجه حلقات ألـف ليلـة وليلـة الـتي كـان يكتبهـا الـشاعر والكاتـب الاذاعـي الكـبير طـاهر أبـو فاشـا واختيـار مـن تلعـب شخـصية شـهر زاد ذات الطبيعـة الـصوتية القـادرة علـي التلـون والتـشكل والاغـراء - الفنانـة القـديرة زوزو نبيـل - ومـن سـيؤدون أدوار شـهريار ، والمـؤثرات الـصوتية الملائمـة ، وتحقيـق الابعـاد الـصوتية والمكانيـة ، والـنقلات في الزمـان ، والموسـيقي المعـبرة عـن المـسامع الدراميـة ، وبابـا شـارو هـو صـاحب فكـرة الـديك الـذي يـصيح معلنـا عـن نهايـة حلقـات ألـف ليلـة وليلـة بعـد ان تطلـق شـهرزاد قـذيفتها الـصوتية الأخـيرة المفعمـة بالاغراء والتوسل: مولاي .

مـن هنـا كانـت دلالـة المعـني الرمـزي العميـق في صـيحة بابـا شـارو وهـو علـي فـراش مرضـه الأخـير يطلـب مـن شـريكة حياتـه الاذاعيـة الكـبيرة صـفية المهنـدس ورقـا وقلمـا ليكتـب الحلقـة الأخـيرة في مسلـسل ألـف ليلـة وليلـة ويجعـل الـديك حـرا طليقـا في فـضاء الكـون ، وكأنمـا كـان تحريـر الـديك واطلاقـه بمثابـة الرمـز الأخـير لقـرب رحيـل بابـا شـارو نفـسه . لقد أدهـش بابـا شـارو كـثيرين بقدراتـه الفنيـة الفـذة ، وهـم يـرون في تلميـذ طـه حـسين في كليـة الآداب والمتخـرج في قـسم الدراسـات الكلاسـيكية - إلى ونانيـة واللاتينيـة - رائـدا متميـزا في تقـديم بـرامج الأطفـال ورائـدا متميـزا في اخـراج العديـد مـن الـصور الدراميـة الغنائيـة ومسلـسلي ألـف ليلـة وليلـة والأغـاني للأصـفهاني وغـاب عـن هـؤلاء ان الدراسـات الكلاسـيكية الحافلـة بالأسـاطير الاغريقيـة وحكايـات الـشعوب القديمـة وحـروب الخـير والـشر وصـراع الآلهـة والملـوك والبـشر هـي الخـزان الأكـبر لتجليـات الخيـال الانـساني الفـني وملهمـة العديـد مـن الأعمـال الفنيـة الكـبري ، في الآداب العالميـة قـديما وحـديثا . ومـن هنـا كـان الخيـال الـدرامي عنـد بابا شـارو ينـتح مـن معـين لا ينـضب ومخـزون لا ينفـد وآفـاق بـلا نهايـة ، وكـان هـذا الخيـال

رافده الأساسي في تغذية حكاياته للأطفال وفي اخراج برامجه الغنائية وفي تجسيد عالم ألف ليلة وليلة ـ صوتيا ـ بما لم يستطع التليفزيون بكل قدراته وامكانياته أن يقترب منه بالصورة حتي إلى وم ، وظل الاحساس العام بألف ليلة وليلة الاذاعية أروع بكثير من كل صورها التليفزيونية عبر سنوات عدة تعاقب عليها كتاب محترفون ومخرجون لا معون ، هذه هي آية بابا شارو ودليل قدرته وعبقريته حين جعل من هذه الأعمال الاذاعية الجميلة هو والذين معه من المخرجين الرواد صورا تشاهد بالاذن وتسمع بالعين ـ والتعبير للدكتور ثروت عكاشة في كتابه المعروف ـ فضلا عن طبيعة جهاز الراديو نفسه كوسيلة حافزة للخيال ومطلقة لعنان التصورات والاحلام والرؤي .

الغريب ان بابا شارو ـ بالرغم من هذه الطبيعة الفنية الشاملة والمزاج الفني العارم ــ كان مثالا للانضباط الصارم والنظام الحاسم والدقة اللامتناهية ، لذا فقد ضاق بصيغة العمل في التليفزيون حين انتقل إلى ه للاستعانة بخبرته فيه قبيل افتتاحه وانطلاق ارساله ـ ضمن كوكبة الرواد الاذاعيين الذين شاركوا في صنع المولود الجديد . واختلف بابا شارو مع أمور وأوضاع رأي فيها تسرعا ولهوجة وعدم اتقان ـ تحقيقا لمآرب سياسية وقتية ـ ووجد نفسه في بيئة غير متجانسة لا يسودها احترام الأجيال أو منظومة القيم التي كانت تحكم العمل في الاذاعة وتخضعه لضوابط ومعايير صحيحة ، فكانت النتيجة المتوقعة رفضه البقاء في التليفزيون وايثاره العودة للاذاعة ، التي سيتولي قيادتها بعد ذلك بسنوات عدة ـ في لحظة تاريخية من أهم لحظات الاذاعة والوطن كله أثناء حرب اكتوبر المجيدة ، وبخاصة في فرض نبرته الهادئة والواثقة علي أداء اذاعي يقوم علي الصدق والموضوعية دون مبالغة أو افتعال .

ولست أنا عندما كلفني ـ في أعقاب هزيمة يونيو١٩٦٧ بأسابيع قليلة ، بالاعداد لتقديم البرنامج إلى ومي لغتنا الجميلة المستمر حتي الآن ، كانت فكرة بابا شارو ان أحد أسباب الهزيمة كان في البعد عن الجذور الكامنة في ثقافتنا العربية وتراثنا الغني ، وان انعاش الذاكرة القومية بأجمل ما في الابداع العربي ـ شعرا ونثرا ـ من كنوز هو السبيل لا ستعادة الروح ويقظة الحس والوجدان . ولم يتدخل بابا شارو ـ كعادته ـ في الشكل أو التفاصيل وترك لي مسئولية الاختيار واكتفي من خلال أبو ته واستاذيته الحانية ـ بالتوجيه الرفيق .

لم يكن بابا شارو في جوهره رجل كلام ، ولم يكن يحلو له ان يردد النظريات والأفكار ، لقد خلق للجلوس أمام الميكروفون والحركة الدائبة في استوديوهات الاخراج والتمثيل . لكن هذا الطابع الفني والعملي لم يشغله عن أن ينسج من خيوط تأمله الطويلة أفكارا جديدة مغايرة للسائد والمألوف . لست أنسي ـوهو رئيس للجنة البرامج المسموعة باتحاد الإذاعة والتليفزيونـ حين فاجأنا بضرورة مناقشة وضع الإذاعات الموجهة وفلسفتها

الآن في ضـوء مـتغيرات كـثيرة جـدت علـي الـساحة : مـتغيرات سياسـية وإعلاميـة وفنيـة وهندسـية . وكـان مـن رأيـه أن المنـاطق الـتي نوجـه إلى هـا هـذه الإذاعـات يمكـن أن تتابعنـا بـصورة أفـضل وأكثـر تـأثيرا مـن خـلال الفـضائيات المـصرية وقنـاة النيـل الدوليـة بلغتيهـا الإنجليزية والفرنسية .

إن تـاريخ الإذاعـة المـصرية -من خـلال عطـاء جيـل الروادـ لا يـزال بحاجـة إلى المزيـد مـن التـسجيل والتـصحيح والتفـسير ، والأمـل معقـود علـي أن يتـابع شـيخ الإذاعـيين الأسـتاذ علـي خليـل -بارك الله في حياتهـ الجهـد الـذي بذلـه الرائـد محمـد فتحـي في كتابـه الإذاعـة المـصرية في نـصف قـرن تحقيقـا لمـا تتطلبـه هـذه المـسيرة الحافلـة الـتي يمثلـها تـاريخ الإذاعـة ، والـذي هـو في الوقـت نفـسه – علـي المـستوي الـسياسي والاجتمـاعي والثقـافي والفـني – تـاريخ للوطن .

طاهر أبو فاشا

شاعر كبير جنت عليه الإذاعة

بقلم : فاروق شوشة

ليس هذا العنوان من عندي ، وإنما هو الوصف الذي أطلقه طاهر أبو فاشا علي نفسه ، في مقام تفسيره لا نقطاعه عن الشعر إبداعا ونشرا قرابة خمسة وثلاثين عام ا ـهي أهم سنوات حياته ، وأكثرها امتلاء بالتوهج والقدرة علي العطاء ـ باستثناء بعض البرامج الإذاعية ذات الطبيعة الدرامية والغنائية التي كانت تتطلب بعض المقطوعات الشعرية ـتكتب لتغني ـ وبعض الأناشيد الوطنية والقومية التي شارك بها في مناسبات مختلفة . أما الشعر الصافي ، شعره الحقيقي ، فقد هجره هجرا غير حميد بين عام ي١٩٣٨ و١٩٨٣ .

كان أول بزوغ لنجمه الشعري في مطلع عام ١٩٣٢ مع صدور ديوانه الأول صورة الشباب وهو في الرابعة والعشرين من العمر ـقبل صدور الدواوين الأولي لا براهيم ناجي وعلي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل وغيرهم من شعراء الرومانسية الكبار ـ معلنا عن موهبة شعرية أصيلة ، ولغة شعرية متميزة ، وعالم جديد من الرؤي والتجارب والمواقف . اكتملت من خلاله سمات شاعر جديد يقتحم الساحة ويفرض اسمه علي المجتمع الثقافي والواقع الأدبي . . خاصة أن الذي قدم لديوانه الأول هو الدكتور محمد غلاب ـأستاذ الفلسفة الشهير ورئيس تحرير مجلة النهضة الفكرية ـ كاشفا عن وجود صلة قوية ـتتخللها بعض الفروق ـ بين شعر طاهر أبو فاشا وشعر بودلير الشاعر الفرنسي المعروف ، مع أنه واثق من أن شاعرنا الشاب لم يقرأ لبودلير شيئا ولكن يظهر أنها الموهبة السماوية التي لا يستطيع أحد أن يجد لها سببا ولا تعليلا ، لكن هذه الصلة تستوجب تهنئة هذا الشاعر الشاب الذي نؤمل له مستقبلا عظيما في حياة الشعر العصري المحترم .

يستوقفنا في مقدمة الدكتور غلاب إشارته إلى تشابه الطبع والمزاج بين شاعرنا وبودلير ، تري ، هل السر في تلك النزعة الحسية العارمة ، النشوة النهمة بالحياة ، أم في تلك الخلجات الروحية العنيفة التي تمتلئ بها قصائد الشاعر المبكرة والتي تهز وجدانه هزا وترج أعماقه الشعورية والفكرية رجا ؟ كما تستوقفنا إشارة الدكتور غلاب إلى تأثر طاهر أبو فاشا بالمعري والخيام ، في قصائده التي تفيض بالشك وتطفح بالحيرة والارتباك والتساؤل ، وإلي أن قصيدته الفلسفية حدثوني ـوهي قصيدة متينة في معانيها رصينة في أسلوبها بديعة في خيالها ـ تعطينا فكرة واضحة عن صاحبها من حيث قدرته علي تصوير الحيرة في نفس الفيلسوف الشكاك !

لقد نجح الدكتور غلاب -الأديب وأستاذ الفلسفة- في وضع يده مبكرا علي ملمح أساسي في وجدان طاهر أبو فاشا وشعره ، سوف يزداد نضجا وتألقا بامتداد العمر والخبرات والتجارب ، لتشهد تجلياته الإبداعية في ديوانه راهب الليل وفي إبداعه الإذاعي العظيم رابعة العدوية الذي جاور شعره فيه شعر رابعة ، وحلق إلى آفاقها الروحية والفنية ، ولم يكن شأنه في هذا شأن بعض من يتجولون بيننا في هذه الأيام ، متاجرين ببضاعة زائفة ، عارية من الصدق والفن ، متمسحين بالانتساب إلى ابن عربي والسهروردي والحلاج والنفري وغيرهم ، والعشق الإلهي منهم براء !

تخرج طاهر أبو فاشا في كلية دار العلوم سنة ١٩٤٠ ، بعد صدور ديوانه الأول بثماني سنوات ، ثم تلا صدور ديوانه الأول ديواناه الثاني والثالث: القيثارة السارية والأشواك -الذي صدر عام ١٩٣٨ ، -قبل أن يتوقف عن الإبداع الشعري- وقدم له شاعر القطرين خليل مطران ، أحد رواد التجديد الكبار في شعرنا العربي الحديث ، الذي اختارته جماعة أبو لو الشعرية رئيسا شرفيا لها بعد رحيل شوقي عام ١٩٣٢ . ورأي فيه خليل مطران أنه شاعر لا ريب فيه ، ومفكر جريء ، ومجددا من طراز الذين لا يفوتهم حسن الصوغ وجمال الديباجة ، في غير موضوع من قصائده غربة وطرافة ، يرقي به نشاط الذهن إلى الابتكار . وهو يذهب بخياله مذاهب بعيدة شائقة ، حتي إنه يبدو لقارئه أحيانا وكأنه ينظم بفطرته في ثورة لا تري للضوابط المسنونة حقا عليه في الرعاية ؟ وكأنما كان خليل مطران يستقرئ الغيب بالنسبة لهذا الشاعر -الذي ولد كبيرا- وهو يقول: إني لا ري لهذا الفتي مستقبلا زاهرا -إذا لم تشغله مطالب الحياة عن السير الشاق في طريق التكامل علي وعورة شعابه وبعد غايته- فإن بين الأبراج التي تحلها نجوم الأدب مكانا خاليا يترقب كوكبه . .

فقد حدث ما كان يخشاه خليل مطران ، وشغل الفتي فعلا بمطالب الحياة ، يوم تعرف علي محمد فتحي -كروان الإذاعة- في ختام الثلاثينيات وطوال الأربعينيات -ورأي فيه محمد فتحي- الطموح إلى إبداع صيغ جديدة غير ما لوفة للبرامج الإذاعية -رأي فيه بغيته المنشودة- وبدأ طاهر أبو فاشا يكتب للإذاعة ، ويجني الثمرة المادية العاجلة لما يكتبه من تمثيليات وبرامج غنائية وصور إذاعية والثمرة المعنوية من شهرة وذيوع صيت ، ولم يعد تعامله مقصورا علي محمد فتحي وحده ، وإنما اتسع ليشمل جيل الرواد الإذاعيين الكبار الذين كانوا يبدعون وقتها علي غير مثال ويحلمون بفن إذاعي يؤسسون له خطوة بعد خطوة من أمثال عبد الوهاب يوسف وحافظ عبد الوهاب ومحمد محمود شعبان ، قبل أن يجيء مبدعو الدراما الإذاعية الكبار: السيد بدير ويوسف الحطاب ومحمود السباع ومحمد توفيق وديمتري لوقا وأنور المشري وغيرهم ممن تعامل معهم طاهر أبو فاشا .

وسقط طاهر أبو فاشا في شرك الشهرة المدوية ، التي حققتها له الإذاعة ، وجعلته معروفا -حتي علي المستوي الجماهيري- أكثر من رفاق جيله من المبدعين: أحمد مخيمر ، وأحمد عبد المجيد الغزالي والعوضي الوكيل وإبراهيم ناجي وهم شعراء جماعة أدباء العروبة التي تعهدها بالرعاية والاهتمام والمساعدة واحد من ساسة مصر وأدبائها الكبار: دسوقي أباظة باشا ، الذي رأوا فيه أباهم الروحي ، ومنجدهم ومسعفهم عند الحاجة ، وراعيهم في التنقل من عمل إلى آخر ، ومن مكان إلى مكان حتي وهو خارج السلطة وبعيد عن الوزارة .

واستنام طاهر أبو فاشا إلى العائد السريع: المعنوي والمادي الذي توفره له الإذاعة ، بعد أن انقطع إلى التأليف لها ، واستمر قرابة خمسة وثلاثين عاما ، كتب فيها مئات البرامج التمثيلية والغنائية التي طيرت شهرته في الآفاق واستولت علي قلوب المستمعين وعقولهم ، من بينها ثمانمائة حلقة من ألف ليلة وليلة وعشرات الحلقات من ألف يوم ويوم- التي كتبها لا ذاعة الكويت ، وأوبريت رابعة العدوية الذي صدحت بأغانيه أم كلثوم وتباري في تلحينه ثلاثة من أساطين التلحين: رياض السنباطي ومحمد الموجي وكمال الطويل ، وسلسلة أعياد الحصاد التي قدم من خلالها عشرات الصور الغنائية تتناول كل ما تنتجه أرضنا الطيبة ، وعندما بدأ التليفزيون المصري في عام ١٩٦٠ امتد نشاط طاهر أبو فاشا إلى ه من خلال عدد من التمثيليات والبرامج الغنائية . واستنزف هذا الجهد الضخم علي امتداد السنوات المتطاولة طاقة الشاعر الكبير الذي كان في حقيقته مبدعا شاملا ، فهو بالإضافة إلى الشعر كان قاصا وباحثا وكاتبا دراميا وفقيها في اللغة ، محيطا بأسرارها ودقائقها ، محدثا بارعا من طراز فريد ، كان - كما يقول صديق عمره ونجيه وصفيه الشاعر الكبير عبد العليم عيسي - يستهوي السامعين بظرفه ولطافة نفسه ، وبحكاياته ونوادره ، وبطرفه وأماليحه ، يسعفه في ذلك بديهة حاضرة ، ونفس رحبة ، وذاكرة واعية ، وذكاء حاد . وأحسب أنه لو تقدم به العمر لكان نديما علي بساط الرشيد . .

لكن طاهر أبو فاشا لم يكن يعتز بغير موهبته الشعرية ، ويري فيها وجهه الأصيل وحقيقته الإبداعية ، وكثيرا ما كان يقول ويردد في تحسر وأسي -كما يقول عبد العليم عيسي في مقدمته الضافية لديوانه- لقد جنت الإذاعة علي كشاعر ، علي الرغم مما حققته لي من شهرة ! . .

كان طاهر أبو فاشا في حاجة إلى زلزال شعوري ونفسي هائل حتي يعود من جديد إلى الشعر ، وحتي يفيق علي واقعه الإبداعي ، وأيامه التي تبددت في أعمال إذاعية تطير مع الهواء ولا تبقي ليمسك بها الناس ، وجاء هذا الزلزال في عام ١٩٧٩ متمثلا في رحيل زوجته ورفيقة حياته -التي لم يعرف بعد رحيلها للحياة معني ولا طعما -

صحيح أنه كان في الحادية والسبعين من العمر ، لكن قدرته الفنية وتوهجه النفسي والشعوري والذهني كان لا يزال في أوجه وتمام عافيته ، وسرعان ما تتابعت قصائده وكتاباته ، وكأنه يسابق الزمن ، ويحاول تصحيح صورته في الحياة الأدبية والثقافية خاصة أنه بدأ يتوقف عن كتابة ألف ليلة وليلة ويبتعد تدريجيا عن متطلبات الإذاعة ، ويكتفي بعضويته للجنة النصوص الغنائية ، يشارك في اختيار الصالح للغناء والتلحين ، ويضع علي بعضها تعليقه المأثور: لا ما ء فيه ، أو يخلو من ما ء الشعر ، حين يجد كلاما لا روح فيه ونظما سمجا بعيدا عن الحرارة والتوهج . وسرعان ما ظهر ديوانه الرابع -وأهم دواوينه علي الإطلاق- راهب الليل عام ١٩٨٣ بعد خمسة وثلاثين عام ا علي صدور ديوانه الثالث ، أعقبه ديوان الليالي عام ١٩٨٦ فديوانه السادس والأخير دموع لا تجف عام ١٩٨٧ . ثم هو يصدر عددا من الدراسات الأدبية والنقدية الكاشفة عن بعض جوانب شخصيته الأدبية والثقافية الشاملة وهي كتبه: وراء تمثال الحرية ، والعشق الإلهي ، والذين أدركتهم حرفة الأدب (بضم الحاء ، والحرفة هي الاحتياج الشديد والفاقة والعوز) ، وهز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف .

ولا تكتفي الأقدار بامتحانها القاسي الذي تمثل في رحيل زوجته وحبيبته وشريكة عمره ، بل تدخر له بعد عشر سنوات من فجيعته الأولي فجيعة أقسي وأمر هي رحيل ابنه الشاعر الشاب فيصل في فبراير عام ١٩٨٩ ، ليكون هذا الرحيل بمثابة الضربة الأخيرة القاضية التي لم يحتمل بعدها طاهر أبو فاشا الحياة أكثر من شهرين اثنين ، وليلحق بولده في١٢ ما يو عام ١٩٨٩ . وهكذا كتب علي من كان أنس الحياة وبهجتها ، وزينة سمارها وعشاق لياليها علي امتداد سنوات طويلة ، أن يجرع كأس المرارة والفجيعة في خواتيم أيامه ، وأن يكون ديواناه الأخيران: الليالي ودموع لا تجف بكائيات نادرة ، من حيث الوهج الشعري والشعوري ، في شعرنا العربي كله . وهو بهذا يصبح ثالث الشعراء الذين وقفوا دواوين كاملة علي رحيل زوجاتهم وهم عزيز أباظة و عبد الرحمن صدقي . ويضيف طاهر أبو فاشا شاعرا رابعا هو الدكتور محمد رجب البيومي- في المقدمة التي كتبها لديوانه الأخير دموع لا تجف وهو يقول: وأنا مخلوق مرح يحب الحياة ، وتستهويه أسباب المرح ، والمعابثات التي نهزت بدلوها عندما كانت الأيام مقبلة ، والحياة حياة . فلما حطت علي بثقلها الليالي ورحلت شريكة حياتي تركتني وحيدا وما بقي من أيامي التي أصبحت معدودة ولا معني لها غير انتظار إلى وم المحتوم . أعرف أنني أستاف شيئا من شميم طيوب المحبة في عطف النبوة ، كما أنني أجد أنفاس المودة حولي في وثاقة الأهل والأحباب ، ولكن هيهات أن يملأ ذلك فراغ النفس الذي داخلني بعد أن رحلت رفيقة العمر ، وتعاظمني الأمر ودخلت في ليل الحزن الطويل .

وعنـدما فجـع برحيـل أكـبر أبنائـه فيـصل ـالذي كـان يـري فيـه امتـدادا لـشاعريته ونبوغه الأدبيـ كان ينزف شعرا وهو يقول:

كم ذا ألاقي من الأيام يا ولدي

ولا أراك إذا يوما مددت يدي

خوفي عليك وخوفي منك يملؤني

رعبا من إلى وم موصولا برعب غد

هذا الذي كنت أرجوه ليحملني

فصرت أحمله شيخا بلا جلدويقول في قصيدته قالت وقلت:

قالت: أأنت أبو فاشا ، فقلت لها

هذا الذي أبقت الأيام من وهنيقالت: فأين الليالي ؟ قلت: يا شجني

آه علي الليل لو يخلو من الشجنوما تريدين ممن شاب مفرقه

وباع أيامه الأولي بلا ثمنوصار آهة مفئود علي طلل

وكان صدحة غريد علي فننوما تقولين في شيخ يؤرقه

هم ثقيل إذا ما قمت يقعدني

حتي يقول:

إذا تمثلت أيامي التي سلفت

وما أداريه من وهن ومن أفن

ذكرت قول جرير حين أرسله

بيتا من الشعر يحييني ويقتلني

أيا أيها الرجل المرخي عمامته

هذا زمانك إني قد مضي زمني)

التجليـات الـشعرية الجميلـة لطـاهر أبـو فاشـا ـ في دواوينـه الـستةـ تـضعه علـي بـرزخ شـعري تتجمـع فيـه روافـد جماعـة الـديوان وأبولـو والمهجـر وحركـة الـشعر الجديـد ، يغتـذي منهـا جميعـا ، ويهتـز لهـا ، وتغـتني لغتـه وعالمـه التـصويري بظلالهـا ومكتـسباتها الـشعورية والفنيـة . لكـن سمتـه الـشعري الأصـيل يظـل غـير قابـل للتـصنيف أو الانتـساب إلى تيـار بعينـه ، أو مدرسـة بـذاتها ، حـتي وإن بـدا أنـه يقـترب أحيانـا مـن خـصائص بعـضها ، كقربـه

الـشديد مـن جماعـة الـديوان الـتي يمثلـها شـعر العقـاد وشـكري والمـازني ، أو كتماثلـه أحيانـا أخـري مـع معـالم التيـار الرومانـسي عنـد نـاجي وعلـي محمـود طـه ومحمـود حـسن إسماعيـل ، لكنـه في النهايـة سـيظل ــشأنه شـأن أحمـد مخيمـر و عبـد العلـيم عيـسيـ علـي حافـة الـبرزخ ، يغــترف ويتــأثر وينفعــل ، ويــتغير ويتطــور ويتــشكل ، مــن غــير أن يغــادر جلــده وحقيقتــه وجـوهره في الانتمـاء إلى شـجرة الـشعر العربيـة ، لغـة وركـائز ومقومـات ، بعيـدا عـن الهجنـة ، والهــشاشة ، والإغــراب المــصطنع ، وادعــاء الحداثــة الــتي يتظــاهر بهــا الــبعض وهــم في جــوهرهم سـلفيون تقليـديون . وسـتبقي ترانيمـه الـصوفية العذبـة الـتي شـدت بهـا أم كلثـوم في رابعـة العدويـة ناطقـة بقدرتـه علـي التحليـق إلى أفـق رابعـة وتمثلـه الـصادق للمقامـات والأحـوال عند الهائمين في فضاء العشق الإلهي ، وهو يعزف علي وتر رابعة ويقول:

وأشتاق شوقين: شوق النوي

وشوقا لقرب الخطي من حماكا

فأما الذي هو شوق النوي

فمسري الدموع لطول نواكا

وأما اشتياقي لقرب الحمي

فنار حياة خبت في ضياكا

ولست علي الشجو أشكو الهوي

رضيت بما شئت لي في هواكا

ويبقــي لــي ، ولمثلــي ، ممــن اكتــووا ويكتــوون بالعمــل الإذاعــي ، مهــدرين فيــه سـنوات طويلـة متـصلة ، أنهـم أفـادوا مـن دروس طـاهر أبـو فاشـا ، وحـسرته لجنايـة الإذاعـة عليه كـشاعر ، وأدركـوا أن الكتابـة علـي الـورق خـير وأبقـي ألـف مـرة مـن الكتابـة علـي الهـواء ! !

شكري : شاعر النفس الإنسانية

بقلم: فاروق شوشة

كل شاعر عبقري ، خليق بأن يدعي متنبئا ، إلى س هو الذي يري مجاهل الأبد بعين الصقر ، فيكشف عنها غطاء الظلام ، ويرينا من الأسرار الجليلة ما يهابها الناس ، فتغري به أهل القسوة والجهل ؟ كل شيء في الوجود قصيدة من قصائد الله ، والشاعر أبلغ قصائده . الشاعر هو الذي لا يعيش مثل أكثر الناس ، مقبورا في الأحوال التي تحوطه ، هو الذي إذا عاش ، كان له من شاعريته وقاء من عداء قتلي المظاهر ، فإذا ما ت كانت الشهرة زهرة علي قبره ، فإذا لم تسعده الشهرة ، هبطت روح الطبيعة علي قبره ، تظلله بجناحها ، وتفرخ فوقه أبناءها الشعراء ، تلك الأرواح التي تستمد الوحي من عظامه ، وتسقيه من دموع الرحمة والحب والحنان . هكذا فهم عبد الرحمن شكري معني الشاعر ورسالته في الحياة . وربما كان إخلاصه الشديد لهذا الفهم سببا فيما جره عليه شعره وحياته من أزمات عاتية ومعاناة قاسية ، انتهت به إلى الانطواء والاعتكاف بعيدا عن حركة الناس والحياة ، وإلي أن يتهمه - أقرب خلصائه وأصدقائه - بالجنون ، وإلي التنكر لفضله وسبقه وريادته ممن كانوا يعترفون له بالنبوغ والأستاذية والأفق الأسمي في الابداع والعبقرية .
ولد عبد الرحمن شكري بمدينة بورسعيد في الثاني عشر من أكتوبر عام ١٨٨٦ وتوفي بمدينة الاسكندرية في الخامس عشر من ديسمبر عام ١٩٥٨ - وبين المكانين والزمانين كما يقول نقولا يوسف أول جامع ومحقق لديوانه - تدور أحداث حياته التي استغرقت اثنين وسبعين عام ا ، أنجز خلالها ثمانية دواوين شعرية صدر أولها وهو ضوء الفجر عام ١٩٠٩ وآخرها عام ١٩٦٠ - بعد رحيله بعامين - وبينهما تتابعت دواوينه : لا ليء الأفكار ، أناشيد الصبا ، زهر الربيع ، الخطرات ، الأفنان ، أزهار الخريف . فضلا عن كتبه الأدبية والقصصية والنقدية والنفسية والاجتماعية : الثمرات ، حديث إبليس ، الاعترافات ، الصحائف ، الحلاق المجنون ، في الشعر العباسي ، دراسات نفسية ، بين القديم والجديد ، نظرات في النفس والحياة ، بالاضافة إلى العديد من المقالات والأبحاث المختلفة في النقد والأدب نشرت في الصحف والمجلات بين عام ي١٩٤٧ ، ١٩٣٣ .

شكري هو الضلع الثالث في المثلث الذهبي لجماعة الديوان التي تنتظم العقاد والمازني وشكري والتي نسبت إلى كتاب الديوان الذي اصدره العقاد والمازني عام ١٩٢١ ولم يشارك فيه شكري بل ان الجزء الثاني من كتاب الديوان يتضمن فصلين كتبهما المازني في

هجاء شكري ونقد شعره فضلا عن اتهامه بالجنون وتسميته بصنم الألاعيب وهو الهجاء الذي سيكون له أبلغ الأثر في نفسية شكري ودوره في الحياة الادبية والثقافية واسراعه بالانطواء والاعتكاف وعدم الرغبة في المشاركة - ابداعا ونقدا وترجمة - وهو الذي سبق زميليه بنشر ديوانه الأول عام ١٩٠٩ بينما نشر المازني ديوانه عام ١٩١٣ والعقاد ديوانه الأول عام ١٩١٦ .

ولم يتح لشكري من الشهرة وذيوع الصيت ما أتيح لصديقيه وزميليه في جماعة الديوان: العقاد والمازني ، بالرغم من اعترافهما بسبق شكري وتفوقه عليهما ثقافة وفكرا وإبداعا . فالعقاد يقول عنه في مقال نشره بمجلة الهلال عام ١٩٥٩: عرفت عبد الرحمن شكري قبل خمس وأربعين سنة ، فلم أعرف قبله ولا بعده أحدا من شعرائنا وكتابنا أوسع منه إطلاعا علي أدب اللغة العربية وأدب اللغة الإنجليزية ، وما يترجم إلى ها من اللغات الاخري . ولا أذكر أنني حدثته عن كتاب قرأته إلا وجدت منه علما به وإحاطة بخير ما فيه . وكان يحدثنا أحيانا عن كتب لم نقرأها ولم نلتفت إلى ها ولا سيما كتب القصة والتاريخ .

وقد كان مع سعة اطلاعه صادق الملاحظة ، نافذ الفطنة ، حسن التخيل ، سريع التمييز بين ألوان الكلام ، فلا جرم أن تهيأت له ملكة النقد علي أوفاها لا نه يطلع علي الكثير ويميز منه ما يستحسنه وما يأباه ، فلا يكلفه نقد الأدب غير نظرة في الصفحة والصفحات يلقي بعدها الكتاب وقد وزنه وزنا لا يتأتي لغيره في الجلسات الطوال . ويعترف المازني - في مقال له بجريدة السياسة نشره في إبريل سنة١٩٣٠ - بفضل شكري عليه ، عندما بدأت صلته به في مدرسة المعلمين العليا . يقول المازني: كنا يومئذ طالبين في مدرسة المعلمين العليا ، وكانت صلتي به وثيقة وكان كل منا يخلط صاحبه بنفسه . ولكني لم أكن يومئذ إلا مبتدئا ، علي حين كان هو قد انتهي إلى مذهب معين في الأدب ، ورأي حاسم فيما ينبغي أن يكون عليه . ومن اللؤم الذي أتجافي بنفسي عنه أن أنكر أنه أول من أخذ بيدي وسدد خطاي ودلني علي المحجة الواضحة . وإنني لولا عونه لكان الأرجح أن أتخبط أعواما أخري ، ولكان من المحتمل جدا أن أضل طريق الهدي . هاتان شهادتان من رفيقي شكري بفضله عليهما وسبق ريادته . وهما اللذان جعلا من أحد أبياته شعارا لجماعة الديوان ، وهو بيته الشهير في قصيدته عصفور الجنة في ديوانه الثالث أناشيد الصبا:

ألا يا طائر الفردوس ان الشعر وجدان والمتأمل في دواوين شكري مقارنة بدواوين العقاد والمازني - يستطيع أن يلمس علي الفور كيف كان شكري في معظم شعره أكثر تعبيرا عن هذا الوجدان وصدورا عنه ، وأكثر بعدا عن شعر المناسبات الخارجية ذات الطابع الاحتفالي أو الخطابي ، كما في بعض شعر العقاد الذي قاده إلى ه اشتغاله بالسياسة ،

وشخصيته القيادية المشاركة في الحركة الوطنية ، وكونه كاتبا بارزا مرموقا له معاركه ومواقفه ، فكان طبيعيا أن يرشح شعره بأصداء هذه المواقف والمعارك ، على العكس من شكري الذي جاء شعره - في معظمه - إصغاء لنجاوي النفس ، وحوارا داخليا معها ، ومراجعة وتأملا في حركة الحياة والإنسان والكون ، مع ميل فطري إلى النزعة التحليلية ، واستعداد تتكيء للجدل الفكري ، والخروج بوجهة نظر تتكميء إلى هذا الطابع المتأمل والنزوع التحليلي . ونظرة عابرة إلى عناوين العديد من قصائده تكشف عن طبيعة التخوم التي انطلق منها والآفاق التي حلق فيها ، حنين الغريب ، شكوى الزمان ، شكوى الصديق ، مغالبة الهوي ، مطال الهوي ، أعمي يرثي بصره ، الخمول ، نصيبي من الحياة ، عين إلى قظة وعين الحلم ، آمال النفس ، أماني الحب ، ذكرى ليلة ، وليل الشوق ، الحب والرقة ، طلعة وشجون ، الحظ القليل الكثير ، حساد على الصبر ، بواطن الأشياء ، شاهد الدمع ، استهداء رسم جميل ، مخادعة الهم ، الود الرخيص ، العذر في الكأس ، عفة الطرف ، لحن يتمشي بالألم ، الخمود والجمود ، الأماني حدق ، معاني النظر ، شفق الغروب ، الخاطر والزمن الخالي ، الثبات ، لغز الحياة ، دواء الملل ، جسم وقبر ، صديق عدو ، حب من لوازم الحياة ، إلى آخر هذه العناوين - التي لم أخترها - من فهرس ديوانه الأول ضوء الفجر ، حاول أيها القاريء أن تقارنها بعناوين قصائد شعراء مصر في العقد الأول من القرن العشرين ، لتدرك كم كان شكري سباقا في نزعته التجديدية - التي ستصبح جوهر الدعوة الشعرية والنقدية لجماعة الديوان - من إعادة الشعر إلى جوهرة وحقيقته ومصدره الأصلي: الوجدان الإنساني ، تعبيرا عن النفس الإنسانية ، وانغماسا في شجونها ومطامجها ، قلقها ومعاناتها ، انتصاراتها وانكساراتها ، يأسها وتفاؤلها . يقول شكري في إحدي قصائد ديوانه الأول (١٩٠٩) :

ألومه في التجني ثم أعذره . . . . والدمع يفصح عما كنت أستره
يبيت ممتليء الأجفان من وسن . . . . منعما ، وحليف الليل يسهره
يا ليت كان يدري كيف يرحمني . . . . أو ليتني كنت أدري كيف أهجره
لكل حب شفيع من صبابته . . . . ودمعه ، وشفيع الحسن منظره
إذا نظرت إلى ه حرت من وله . . . . يا ليت قلبي يقسو حين أنظره

أبيــت أعــذل قلــبي في محبتــه . . . .
. . . . . والعـــــــين في عـــــــــبرات الـــــــــدمع تحـــــــــدره
فهــل تعــاون قلــبي في حوائجــه . . . .
. . ياأيهـــــــــا الأمـــــــــل المنـــــــــوع مـــــــــصدره
بــالله يــا نــسمات الــريح ســائرة . . . .
. . . . . نحـــــو الحبيـــــب الـــــذي قــــد طــــاب عنــــصره
اســتودعيه ســلاما كلــه شــجن . . . .
. . . . مـــــن المحـــــب الـــــذي قــــد مـــــا ت أكثـــــره

فإذا مـا تـساءلنا عـن الـسبب الـذي أدي إلى وقـوع تلـك الجفـوة الـشديدة بـين شـكري والمـازني ، وقـسوة المـازني ـ قـسوة هائلـة ـ في رد فعلـه ، عرفنـا أن سـببها يقظـة ضـمير شـكري ونقـاء سريرته ورفـضه الـسكوت علـي مـا عرفـه مـن نقـل المـازني في بعـض قـصائده عـن شـعراء غـربيين ــ دون أن يـصرح بـذلك ـ ممـا اعتـبره شـكري سـرقة واضـحة تـستوجب اللـوم والتقريـع العلـني مهمـا كانـت الـصداقة الـتي تربطـه بالمـازني ـ فهـو يـري أن الحقيقـة وقـول الحـق لهمـا الأولويـة علـي دواعـي الـصداقة والزمالـة والأخـوة ، مـن هنـا جـاء تقديمـه لديوانـه الخـامس عـام ١٩١٦ دراسـة ضـافية في تنـاول عمليـة الأخـذ مـن شـاعر لا خـر ، مغرقـا بـين التـأثر والـسرقة . وبعـد أن يعـرض شـكري للعديـد مـن قـصائد المـازني ويردهـا إلى أصـولها لـدي شـعراء انجليـز وألمـان وأمـريكيين ، يقـول: ولـو كنـت أعـرف أن المـازني تعمـد أخـذها لقلـت إن خـان أصـحابه بهـذه الأعمـال ولكـني لا أصـدق تعمـد أخـذها ولـو أنـي رأيـت عفريتـا لمـا عرانـي مـن الحـيرة والدهـشة قـدر مـا عرانـي لرؤيـة هـذه الأشـياء . ولا أظـن أنـي أبـرأ مـن دهـشة طـول عمـري وفي أقـل مـن ذلـك مـبرر لمروجـي الاشـاعات والـتهم ولا أظـن أن أحـدا يجهـل مـدحي للمـازني وإيثـاري إيـاه وإهـدائي الجـزء الثالـث مـن ديـواني إلى ه ، وصـداقتي لـه ، ولكـن كـل هـذا لا يمنـع مـن إظهـار مـا أظهـرت ومعاتبتـه في عملـه . لا ن الـشاعر مـا خـوذ إلى الأبـد بكـل مـا صـنع في مـا ضـيه حـتي يـداوي مـا فعـل ، ويـرد كـل شـيء إلى أصـله ، ولـيس الاطـلاع قاصـرا (يقـصد مقـصورا) علـي رجـل دون رجـل حـتي يأمـل المـرء ظهـور (يقـصد عـدم ظهـور) هـذه الأشـياء . ولسنا في قرية من قري النمل حتي تخفي .

لـذا كـان رد المـازني عنيفـا وقاسـيا: حـين اتهـم شـكري بـالجنون ، وبأنـه صـنم الألاعيـب ، قـائلا: ولقـد سـبق لنـا أن نبهنـا شـكري إلى مـا في شـعره مـن دلائـل الاضـطراب في جهـازه العـصبي ، وأشـرنا عليـه بالانـصراف عـن كـل تـأليف أو نظـم ليفـوز بالراحـة اللازمـة له أولا ، ولأن جهوده عقيمة وتعبه ضائع ثانيا .

ولم تكـن طبيعــة شــكري مــن القــوة والتماسـك بحيـث تـصمد لهـذا النقـد الـلاذع والهجاء الموجع ، صحيح أنـه نفـس بـشعره عـن بعـض أثـر هـذا النقـد في نفـسه ، في أكثـر مـن

موضـع ، وبـأكثر مـن طريقـة تعبيريـة . مـن بينهـا قولـه في الـرد علـي مـن تنـاولوه بالنقـد والـــــــــــــــــــــــــــــشتم:

نقـــدك هـــذا وضـــر الزيـــت . . . . لـــــوث بــــــه مــــــا شــــــئت مـــــن بيـــــت

يغـــسله الـــدهر بأمواجـــه . . . . اذ أنـــــــــت فيـــــــــه طعمـــــــــة المـــــــــوت

شـــعري مثـــل الـــدهر في صـــوته . . . . وأنـــت غـــــــــــــر خافـــــــــــت الـــــــــــصوت

ان تعـــب الناقـــد في نقـــده . . . . بـــــــــادره بـــــــــاللو وبالليـــــــــت

ويقول في موضع آخر:

يـا أيهـا الـشانيء المغـرور يـشتمني . . . . ارفـق بنفـسك لـيس الـشتم . . يـــــــــــــــــــــــــــؤذيني

لـذ بالجبـال وضـعها فـوق فـضلي واش . . . . تمـني ، كمـا شـئت ، شـــــــــــتم الوغـــــــــــد يعلـــــــــــيني

واجهـــد علـــي إذا مـــا شمـــت محمـــدة . . . . . . فكـــل خفـــاء لـــيس يخفـــيني

فـــإن فـــضلي مثـــل الـــشمس مـــشتهرا . . . . يـــــــبين نقـــــــصك مـــــــن نـــــــتن ومـــــــن دون

لكـن هـذا الـشعر الـذي قالـه ـ غاضـبا ومـنفعلا ـ لم يعالجـه مـن أزمتـه . وقـد أحـسنت الـدكتورة سـهير القلمـاوي في المقدمـة النقديـة الـتي كتبتهـا للمجلـد الثالـث مـن سلـسلة أعـلام الأدب المعاصـر في مـصر ، وهـي السلـسلة البيوجرافيـة النقديـة الببليوجرافيـة الـتي كـان يـشرف عليهـا الـدكتور حمـدي الـسكوت والـدكتور مـا رسـون كـونز ـ الأسـتاذان بالجامعـة الأمريكيـة ـ ثـم أصبح يـشرف عليهـا الآن الـدكتور الـسكوت بعـد رحيـل الـدكتور جـونز ـ تقـول وهـي تتنـاول دعـوة التجديـد الـتي بـشرت بهـا المدرسـة الجديـدة ـ جماعـة الـديوان ـ كمـا تمثلـت في شـعر عبـد الـرحمن شـكري: إن شـعر الخيـال والوجـدان ـ شـعر المدرسـة الجديـدة ـ الـذي أنـزل العقـل مـن علـي عرشـه في إلهـام الـشعراء المعـاني والأفكـار ـ شـعر لـيس لـه حـدود . إنـه خيـال متحـرر يـرفض حـدود الزمـان والمكـان ، كمـا يـرفض أضـعف سمـات القـصيدة التقليديـة وهـي الطـول أو الاتـــصال والاســـتمرار ، حـــتي عنـــدما تنتهـــي الفكـــرة أو يـــبرد الوجـــدان .

هـذه النقلـة الـضخمة مـن شـعر العقـل إلى شـعر الخيـال ، وأهـم روادهـا شـاعرنا شـكري ، كانـت تجتـاز مرحلـة المخـاض وكانـت ترتـاد ميـادين جديـدة تمـزج فيهـا الخيـال بـالفكر للتعـبير عن الوجـدان . ان الفكـرة لا بـد لهـا مـن صـدي في الوجـدان وكـل فكـرة لهـا رد فعـل في وجـدان

الشاعر وإذا كان سهلا أن نعدد الأوصاف وأن نتناول مفردات الواقع بالذكر والشرح والوصف ، فليس سهلا أبدا أن نسبر غور هذا الوجدان للتعبير عن رد الفعل العاطفي الذي يمتزج فيه الخيال بالفكر والوجدان بالعقل .

يقول شكري في واحدة من أجمل قصائده وأعمقها وهي بعنوان وإلي المجهول .

يحوطني منك بحر لست أعرفه . . . . ومهمة
لست أدري ما أقاصيه
أقضي حياتي بنفس لست أعرفها . . . .
وحولي الكون لم تدرك مجاليه
يا ليت لي نظرة في الغيب تسعدني . . . . لعل فيه ضياء
الحق يبديه
أخال أني غريب وهو لي وطن . . . .
خاب الغريب الذي يرجو مقاصيه
كان روحي عود أنت تحكمه . . . .
. . فابسط يديك وأطلق من أغانيه
والروح كالكون لا تبدو أسافله . . . .
عند اللبيب ولا تبدو أعاليه
وأكبر الظن أني هالك أبدا . . . .
. . . . . . شوقا إلى ك وقلبي فيه ما فيه ! !

ليس الشاعر الكبير من يعني بصغيرات الأمور ـ هكذا كان ينظر شكري إلى الشعر والشاعر ـ ولكنه ، في رأيه ، الذي يحلق فوق ذلك إلى وم الذي يعيش فيه ، ثم ينظر في أعماق الزمن آخذا بأطراف ما مضي وما يستقبل فيجيء شعره أبديا مثل نظرته ، وهو الذي يلج إلى صميم النفس فينزع عنها غطاءها ، وهو الذي إذا قذف بأشعاره في حلق الأبد ساغها . فعيب شعرائنا جهلهم جلال وظيفة الشاعر .

أكتب هذه السطور ، والمجلس الأعلي للثقافة عاكف علي نشر ديوان شكري بأجزائه الثمانية ، في طبعة جديدة محققة تتيح لقراء الشعر ودارسيه أن يتذوقوا شعر شكري وأن يتأملوه . وهو جهد يذكر ويشكر ، نرجو أن يسهم في اعتدال الميزان ، بين الشعراء الثلاثة في جماعة الديوان !

عبد العليم عيسى : الضوء الخافت والشعر الصافي

بقلم : فاروق شوشة

في الذكري الأولي لرحيله أكتب هذه السطور . أحاول استعادة سمته الهادىء الوقور ، وملامحه الإنسانية الصافية ، وصوته العميق المتقطع . لم يكن عبد العليم عيسي من أهل هذا الزمان ، كان فارسا نبيلا ودودا ، من فرسان عصر الرومانسية الذين امتلأ وجدانهم بالزخم العاطفي العارم ، وفي الوقت نفسه بالانعطاف الشديد تجاه المسحوقين والمستزلين الذين يكابدون الظلم وقسوة الحياة ، ويتشوفون إلى الحرية ، ويكدحون من أجل غد أفضل ، وكانت هذه المعادلة الصعبة ، المركبة والجامعة ، هي مفتاح شخصيته في أبعادها الروحية إلى أقصي حد ، ورؤيتها الواقعية المادية للصراع البشري في ضراوته وطغيانه . هذا التكوين الرومانسي الواقعي ، الروحي المادي ، السلفي التجديدي ، الملتزم التنويري ، سيصبح مسئولا عن قلقه وحيرته ، عن انجذابه وشروده ، وعن معاناته وتوهجه ، وتحولاته المستمرة من الذاتي الخاص إلى الانساني العام .

ولد عبد العليم عيسي في قرية كفر المياسرة بمحافظة دمياط عام ١٩٢٠ ، لا سرة عميقة الصلة بالدين والأدب والعلم فعندما بدأ خطواته الأولي مع التعليم الأزهري ، كان أبو ه ـــ في الوقت نفسه ـــ يستعد لا متحان العالمية الأزهرية والقضاء الشرعي . وتخرج عبد العليم في كلية اللغة العربية عام ١٩٤٣ ومعهد التربية عام ١٩٤٥ ليعمل بعد ذلك بالتدريس طوال حياته الوظيفية ، حتي إحالته إلى المعاش وهو موجه عام في اللغة العربية بوزارة التعليم .

لكن الطالب الأزهري الشاب عبد العليم عيسي اخترق الحاجز وهو دون العشرين عندما بدأ ينشر شعره في المنابر الصحفية الرئيسية ـــ طوال الثلاثينيات والأربعينيات ـــ كالسياسة الأسبوعية التي كان يرأس تحريرها حافظ محمود خلفا للدكتور محمد حسين هيكل ، والرسالة التي كان يصدرها أحمد حسن الزيات ، والثقافة التي كانت تصدرها هيئة التأليف والترجمة والنشر ، ويرأس تحريرها أحمد أمين . ونضجت شاعريته في أوان التوهج الشديد للشعراء الرومانسيين الكبار: علي محمود طه وإبراهيم ناجي ومحمود حسن اسماعيل ووجد عبد العليم عيسي في شعر محمود حسن إسماعيل النموذج الذي يبحث عنه ، فهو ينتمي مثله إلى عالم القرية والريف المصري ، وهو يعيش مثله واقع الفلاح المصري المظلوم والمضطهد ، ويصغي إلى أناته وشكاواه ، ويدرك أسباب معاناته ، والأغلال التي تقيده في القهر والجهل والتخلف . كما وجد فيه أيضا ذلك الجدل الغائر بين الانتماء إلى شجرة الشعر العربي من ناحية ، الاندفاع إلى التجديد

والمغامرة والاختلاف من ناحية أخري . وكان طبيعيا أن يتسلل المعجم الشعري لمحمود حسن إسماعيل ، وعالم صوره وتراكيبه وأبنيته اللغوية إلى بعض القصائد الأولي ل عبد العليم عيسي ، يقول في قصيدته لا تقولي نسيت من ديوانه الأول ألحان ملتهبة (١٩٥٤) :

صرخ الناي في يدي فتعالي
قبل أن تنهب الليالي لحونه
ويح قلبي اذا غضبت عليه
وتجاهلت صوته وأنينه
اسعديه علي الحياة وردي
نغماتي إلى حياتي الحزينة

فيذكرنا علي الفور بقصيدة محمود حسن إسماعيل حين أطرقت في ديوانه الثاني: هكذا أغني

أطرقت كالخيال في خاطري السا
جي ، وكالنبع في الظلال الحزينة
تتملي في صمتها ذات جفن
شاعر في الدجي يواسي شجونه
أطرقت ، يالكربة الناي من يذ
كي هواه ، ومن يناغي لحونه !

وعندما يقول محمود حسن إسماعيل في قصيدته أنت دير الهوي

زورقي في الوجود حيران شاك
مثقل بالأسي ، شديد ، مضلل
أزعجته الرياح ، واغتاله الليل
بجنح من الدياجير مسبك

نجد صدي هذه الصورة الشعرية في قصيدة عبد العليم عيسي:

تهاويل
زورقي ضل في عباب الدياجي
من لربانه الجريح الكسير
عصفت حوله الأعاصير فارتا
ع فؤادي وضج مني ضميري

ولم يكن عبد العليم عيسي وحده ، الذي استوقفه نموذج محمود حسن اسماعيل فتعشقه ، وتمثله ، علي هذه الصورة ، فقد وصل تأثيره الطاغي إلى رواد حركة الشعر الجديد في العراق: نازك والسياب والبياتي ، وتسربت بعض صوره وتجلياته

الـشعرية في دواويـنهم الأولـي ، في زمـن الإعجـاب والتـأثر ، ثـم سـرعان مـا أنطلـق كـل مـنهم يشدو علي وتره ، ويحقق نموذجه الخاص .

لكـن عبـد العلـيم عيـسي كـان محتاجـا إلى رجـة عنيفـة ووقفـة قويـة مـع الـنفس . فبعـد صـدور ديوانـه الأول ألحـان ملتهبـة عـام ١٩٥٤ تم اعتقالـه لـدة عـام يـن بـسبب قـصيدة لـه عنوانهـا في الظـلام كـان قـد نـشرها في مجلـة اللـواء الجديـد الـتي كـان تـصدر في ذلـك الحـين ، يقـول عبـد العلـيم عيـسي عـن هـذه الواقعـة في سياق تقديمـه لا عمالـه الـشعرية: كـان رئـيس تحريرهـا الكاتـب الفنـان والـوطني الـشريف الراحـل يوسـف حلمـي ، يعـبر في قـصيدة عـن المقهـورين والمعـذبين في الأرض ، ومـع أنـني لم أنـتم إلى أي حـزب مـن الأحـزاب طيلـة حيـاتي لنفـوري مـن القيـد والتحـزب ، وإيمـاني بالحريـة المحكومـة بـالقيم النظيفـة ، إلا أنهـم ظنـوا أن هـذه القـصيدة تـدل علـي اتجـاه سياسـي معـين كـان محاربـا في ذلـك الوقـت ، وبـسبب هـذا الاعتقـال فقـدت مجموعـة شـعرية كنـت أعـددتها للطبـع ، وفي المعتقـل فقـدت مجموعـة أخـري بـسبب دهمــه بغتــة دون سـابق إنـذار ، ولم يـنج مــن التبديـد والـضياع إلا قـصيدة واحــدة منـشورة في ديـوان للحيـاة أغـني تحـت عنـوان مـن وراء الأسـوار: رسـالة إلى أمـة وكانـت فـترة الاعتقــال هــذه غــير مملــة ولا مؤيــسة ، ففيهــا عكفـت علــي الدراســة والتأمــل واكتــساب الخـبرات ، وفيهـا عرفـت مـا لم أكـن أعـرف مـن تـاريخ إلى سـار في مـصر ، وسـبب الخلافـات بـين تياراتـه العديـدة ، وفيهـا اشـتبكت في مناقـشات أدبيـة وفكريـة مـع بعـض المعـتقلين مـن الـشعراء والأدبـاء مـنهم الـشاعران عبـد الـرحمن الخمـيس وفـؤاد حـداد والـدكتور يوسـف ادريـس والكاتـب محمـود عبـد المـنعم مـراد والفنـان مختـار العطـار ولمـا خرجـت مـن المعتقـل أحجمـت عـن نـشر شـعري ولكـني في نهايـة الـستينيات بـدأت أنـشر أشـعاري في بعـض الـصحف والمجــلات المـصرية والعربيــة ، وفي الـسنوات الأخــيرة صـدر لــي أربعــة دواويــن ، وهــي: ولهـذا أنـا أحيـا وللحيـاة أغـني وبعـض نفـسي ومـسافر بـلا زاد وشـعر هـذه الـدواوين يـدور حـول هـذه المحـاور ، وهـي الحـب والحريـة والعدالـة ، والحـيرة والحـزن . ولـيس معـني حيرتـي وحزنـي أنـني كنـت يائـسا ، لا ن إلى أس معنـاه أن أكـره الحيـاة وأنـا أحبهـا ، ولأن إلى أس معناه أن ألقي القلم ولا أعبر عما يضطرب في نفسي من انفعالات ومشاعر .

لقـد كانـت صـدمة الاعتقـال في حيـاة عبـد العلـيم عيـسي بمثابـة الزلـزال الـذي اعـترض سـيرته الـشعرية والفكريـة ، وجعلـه يعيـد النظـر في أشـياء كـثيرة ، وكانـت الـسنتان اللتـان قـضاهما في المعتقـل كفيلـتين بالمراجعـة والتأمـل والاخـلاص للابـداع الـشعري والخـلاص مـن تـأثير محمـود حـسن اسماعيـل ، وجـد شـاعرنا إذن طريقـه وقـصيدته ، وبـدأ ينـسج ملامـح عالمه الـشعري الـذي تجـيش فيـه تيـارات أبـو لـو العاتيـة ، وتـأملات جماعـة الـديوان (العقـاد والمــازني وشــكري) واســتبطانها العميــق لا هتــزازات الوجــدان وانطلاقــات المهجــريين ومغـامراتهم الفنيـة والإنـسانية مـن أجـل ابـداع نمـوذج جديـد وظـل عبـد العلـيم عيـسي ـــ

بحكم طبيعته الهادئة المتأهلة وعكوفه وانطوائه الشديد وبعده عن الانغماس في أجواء الحياة الأدبية ـــ أقرب إلى روح جماعة الديوان خاصة العقاد ، تماما كما كان المعري شاعره الأثير من بين شعراء تراثنا العربي ، تجذبه بصيرته النافذة ، وتفلسفة العميق ، وسخريته بالحياة والأحياء

يقول عبد العليم عيسي في قصيدة عنوانها الوجود :

هذا الوجود الذي تشاهده

بكل أسراره ، أتعرفه

مثل المحيط البعيد شاطئه

كيف بملء إلى دين تغرفة

قطيرة منه هل تحيط به ؟

وإن تحدته ، كيف تجرفه ؟

أصغره فيه مثل أكبره

افتن في صوغه مؤلفه

لحن غريب الرنين متسق

مبدعه العبقري يعزفه

تصغي له الروح وهي ناعشة

وتعتلي في بعيدا عن الحقيقة الشعرية الضياء ترشفه

ألم يكن طاهر أبو فاشا ل عبد العليم عيسي عندما كتب عنه يقول في كتاب دمياط الشاعرة اذا قرأت شعر عبد العليم عيسي تلمس فيه حرارة الانفعال ، وصدق الشعور ، وانسيابية النغم ، ودقة التركيب اللغوي ، لكنه بهذه الكلمات القليلة لم يوفه حقه ، ولم ينصفه بوصفه شاعرا محلقا في سرب الشعراء الكبار الذين لم ينالوا حظهم من عناية الدارسين والقراء علي السواء ـــ ولقد كان عبد العليم عيسي نفسه أحد المسئولين عن هذه النتيجة بسبب انطوائيته وعزوفه وترفعه ، لكن الحياة الأدبية نفسها شاركت في ظلمه حين جرفها أصحاب الطبول الجوفاء والأصوات العالية والأساليب الرخيصة . وكان عبد العليم يعرفهم جميعا ويصنفهم ، ويتآمل ألاعيبهم في سخرية حينا واستصغار لصغارهم حينا آخر وأشهد أني علي طول علاقته بي ـــ التي بدأت منذ الستينيات حين التقيته لا ول مرة في بيت صديقه وصفيه طاهر أبو فاشا ـــ لم أجده غاضبا أو منفعلا لا مر يخصه ، اللهم إلا مرة واحدة ـــ وكنا في إطار لجنة الشعر بالمجلس الأعلي للثقافة ـــ جاء فيها ذكر أحد المتشاعرين المتمسحين بقرابته فإذا به يثور ثورة عارمة متبرئا من هذا الدعي ، ومن شبهة هذه القرابة ، لمجرد أنه رأي فيه بعدا عن القيم الصحيحة ، وتجسيدا لكل الراذئل والعيوب التي يمارسها لتحقيق ما ربه .

إلـي هـذا الحـد كـان تـصونه وتعففـه ، وتجـسيده للقـيم والفـضائل ، إنـسانا وشـاعرا ، في زمـان نـدر فيـه تحقيـق هـذا التجـانس والتماثـل بـين المبـدع وابداعـه وأصـبحنا في كـثير مـن الأحـوال ــــ نـؤثر قـراءة الابـداع ، ونحـن بعيـدون عـن أصـحابه ، لا نقـر بهـم ولا نرتـضي صـحبتهم ، لا نهـا مفـسدة حـين نعـرفهم علـي حقيقـتهم لـصورة هـذا الابـداع ووقعـه في نفوسـنا ، وأصبحنا نـؤمن بـالقراءة عـن بعـد ، تمامـا كالاستـشعار عـن بعـد ، لا نهـا ـــ أي القـراءة ـــ أكثـر أمنـا وسـلاما ، وأبعـد عـن التلـوث والتـشويش والالتبـاس ولم يكـن عبـد العلـيم عيـسي كهـؤلاء الـذين نتجنـبهم وان حرصـنا علـي قـراءتهم ، كـان شـعره صـورته لحقيقـة الإنـسانية ، وإنـسانيته مـرآة لتجـسيد شـاعريته . وكـان لكثـرة مـا يمتلـيء بـه مـن وعـي وثقافـة وخـبرة وحكمة ، يبـدو لنـا كجبـل الجليـد لا يظهـر منـه علـي الـسطح الا أقـل القليـل ، بينمـا حقيقتـة المتلئـة والمكتنـزة – خافيـة ومـستترة ، لا نتعـرف عليهـا الا بإدمـان الـصحبة وطـول المكاشـفة وثبـات المـودة والـصداقة فـإذا بنـا نكتـشف فيـه عالمـا رحبـا مـن الجمـال ، وأفقـا سـاميا مـن الصفاء والنقاء ، وقلبا مليئا بالمحبة والرحمة والتعاطف والتسامح .

يقول في قصيدة عنوانها لسواي أنت في ديوانه الثالث: للحياة أغني

وكتمت عنك لواعجي ، ومواجعي
وحملت وحدي صامتا أتراحي
بيني وبينك حائل لو جزته
لتساقطت نفسي وضاق تراحي
ولضاع إيماني بما أحيا به
ولسرت في دربي بلا مصباح
ولعشت في الوهد الذليل يمجني
زمني وترديني دماء جراحي
أنا لن أبو ح إلى ك مهما هدني
حبي ومهما انهاض منه جناحي
سأظل أكتمه وأطوي سره
ولسوف تحمله معي الواحي

ولم يكـن عبـد العلـيم عيـسي بعيـدا عـن حركـة الـشعر الجديـد الـتي تـصاعد مـدها مــع مطــالع الخمــسينيات ، واســتطاع بعقلــه المــستنير ووجدانــه المنفــتح وشــاعريته النزاعــة للتجديـد ، ان يلحـق بالركـب ، وأن يكتـب علـي مـدار رحلتـه الـشعرية الطويلـة عـددا مـن قصائد الـشعر الجديـد تحـسب لـه ولا تحـسب عليـه ، وان كـان هـو يـصف نفـسه بقولـه: إنـني مـا زلـت وسـأظل شـاعرا عموديـا ، بـرغم أنـني قلـت بعـض القـصائد التفعيليـة ، ذلـك لا نـي لم أجد في هـذا الـشكل العمـودي مـا يحـد مـن قـدرتي علـي التعـبير والتوصـيل ، ولـو كنـت قـد

وجدت أي عائق من القافيه أو غيرها ، لا ثرت التحول عن هذا الشكل إلى غيره ، وإني لا ومن بأن الشاعر حينما ينجح في تحويل العروض إلى إمكانات تزيد من قدراته ، وتدفع به إلى آفاق في التعبير أجمل وأرحب بدلا من أن تكون قيودا تثقله ، وتقيد حركته ، يصل إلى الجمال والتأثير ، ويحقق المشاركة الوجدانية بينه وبين القاريء وبالرغم من هذا الرأي القاطع إلا أن شعر عبد العليم عيسي في قالب قصيدة الشعر الجديد أو التفعلية لم يكن قلقا ولا عاجزا ولا بعيد عن مستواه في قصيدته العمودية كانت له حرارته وكيمياؤه وتوهجه وتدفقه حين يقول –

مثلا في نجوي صوفية عنوانها استرحام

طالت بي الغربة يامحبوب القلب

سفري أضناني ، واستوحش روحي في أدغال الجدب

لاتتركني وحدي

فأنا مذ أوصدت الباب بوجهي

وحجبت ضياءك عن عيني

وأنا أتدحرج من عرش النور إلى قاع الظلمة

أتلوي في الثقب المسنون أناشدك الرحمة !

يلفت النظر في شعر عبد العليم عيسي ــ في دواوينه الستة

المنشورة وفي شعره الأخير الذي لم ينشر بعد حسه اللغوي الصافي بالمفردة العربية ، وخبرته الواسعة بدوائر الاشتقاق والصيغ الحرفية والأبنية المختلفة للكلمات ، وهي السمة التي التفت إلى ها الشاعر الناقد الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم أبو همام ، في تقديمه لا عماله الشعرية من خلال دراسة حانية وعامرة ، حين توقف عند نماذج من اشتقاقات عبد العليم عيسي النادرة والتي يظنها غير العليم باللغة أخطاء أو خروجا علي المألوف ، أما الخبير فيدرك أنها ملمح من الملامح العيسوية نسبة إلى عبد العليم عيسي كما سماها أبو همام ، حين تحيا في شعره كلمات مثل: أناغيم ، ألاحين ، أنابيب ، جهدان ، اهتل ، اغترد ، الإزيان ، تحزنت ، رهبان ــبفتح الراءــ وغيرها . وهي دليل علي قدرته اللغوية الفذة التي دفعت بكثير من غير المألوف إلى الحياة والتداول ليصبح من بعده عملة رائجة في سوق الكلام . . وهي ظاهرة يشركه فيها أحمد مخيمر وطاهر أبو فاشا ، ومرجعها لدي الثلاثة ثقافة تراثية راسخة ، وعلاقة حميمة مع اللغة ، واقتدار علي امتطاء صهوتها والانطلاق بها إلى جديد لم يعتده الناس ولم يعرفوه وحرص علي التفرد والتمايز في زمن الوجوه المتشابهة واللغة الفقيرة المكرورة .

في الثامن والعشرين من أغسطس الماضي رحل عبد العليم عيسي ولسان حاله يقول:

قريبا يحين الرحيل
وأمضي إلى من مضوا تحت هذا التراب
وكانوا رياحين قلبي
وكنت بهم للحياة أغني
وأنسي عذابات نفسي وحزني
. . . .
قريبا يحين الرحيل
وما لي ولد
إذا مت يدفنني ويهيل علي التراب
ويقرأ بعض الكتاب
وتنهل أدمعه فوق قبري
ويغرس فوقي أزاهير يروي شذاها جفاف إلى باب
لينعش روحي شميم الزهور
ويطلقها في فضاء الرحاب !

لم يتزوج عبد العليم عيسي ولم يكن له ولد ، لكن أبناءه -من قصائده الحية الباقية- كثيرون ، يذكرونه دائما ويترحمون . .

بدوي الجبل : جبل من الشعر

بقلم : فاروق شوشة

منذ طفولتي كنت أقرأ بدوي الجبل ، بل استظهرت كثيرا من شعره ، كنت أحس ، فيما أقرؤه ، أنني أمسك بخيط أو أسير في نهج يصل بين ما ض ينزل في النفس كأنه السحر ، وحاضر تيكوم خرقا وأشلاء ، وكثيرا ما أحترت ومازالت أحتار في تفسير هذا الوصل ، وأقول ما دامت لغة الحقيقة لا تطاوعني في هذا التفسير ، فلماذا لا ألجأ إلى لغة المجاز ؟ سأقول إذن ان شعرية الشعر العربي سحابة بعمر التاريخ العربي ، وإن شعر بدوي الجبل يتقطر من هذه السحابة ، إنه خلاصة ، أعني أنه مشحون بكل ما تحمله هذه السحابة ، لغة وأداء وبعدا ، ربما لهذا كنت أري في شعره التفجع فيما أري بهاء التوثب والتطلع ، وربما لهذا كانت قصيدته تنتقل بين الناس كأنها البشارة أو كأنها النذير .

بهذه الكلمات ودع أدونيس بدوي الجبل عند رحيله ، كلاهما شاعر سوري كبير ، وكلاهما علوي ، وكلاهما ينتمي إلى إقليم اللاذقية - الذي سيقدر له أن يشهد أحداثا سياسية عاصفة وتقلبات شتي في زمن الانتداب الفرنسي ، قبل أن يقرر الانضمام والاتحاد مع الوطن السوري ويتخلي تماما عن فكرة الانفصال والاستقلال ، وكلاهما : بدوي الجبل وأدونيس ، يمسك بأحد طرفي المعادلة الشعرية ، بدوي الجبل باعتباره خاتمة للكلاسيكية الشعرية العربية وتتويجا لها ، وأدونيس باعتباره رمزا للحداثة الشعرية العربية ومرجعية لها .

وبدوي الجبل - الذي أختلف في تاريخ مولده ، فقيل انه عام ١٩٠٣ أو١٩٠٤ أو١٩٠٥ أو١٩٠٨ ، والذي توفي عام ١٩٨١ - اسمه الحقيقي محمد سليمان الأحمد ، أما اللقب الذي عرف به وذاعت شهرته بدوي الجبل فقد خلعه عليه الشيخ يوسف العيسي صاحب جريدة ألف باء الدمشقية عندما بدأ شاعرنا ينشر قصائده فيها ، وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وظن الناس وقتها أن هذه القصائد التي تنشر بتوقيع مجهول هو بدوي الجبل هي لشاعر كبير من شعراء ذلك العصر وهم: خليل مردم بك وخير الدين الزركلي وشفيق جبري .

إذن فقد وجد الناس في شعر بدوي الجبل - وهو في مرحلة الصبا الباكر - مقاربة لشعر الفحول ، ولغة شعرية تتميز بالجدة والأناقة والترف ، والافتنان في إبداع الصورة الشعرية ، واستدعاء تقاليد الشعر العربي في أزهي عصور ازدهاره عند شعرائه الكبار من أمثال المتنبي والبحتري وأبي تمام والمصري والشريف الرضي ، وربما - لهذا السبب -

سيطلق علي بدوي الجبل فيما بعد: متبني القرن العشرين ، وسيوصف ـ كما وضعه أدونيس ـ بأنه خاتمته وفاتحة ، خاتمة كأبهي ما تكون الخواتيم سموا ومجدا ، وفاتحة لنبض شعري جديد ومنعطف يؤذن بتاريخ شعري جديد .

لنتأمل أولا هذه الروح العارمة التي تذكرنا بعرامة الشاعرية عند المتنبي ، وبدوي الجبل يقول عن البطل السوري الثائر ابراهيم هنانو أحد رموز النضال الوطني ضد الاستعمار الفرنسي:

إذا ملكوا الدنيا علي الحر عنوة
ففي نفسه دنيا هي العز والكبر
وان حجبوا عن عينه الكون ضاحكا
أضاء له كون بعيد هو الفكر
فليلته صبح ، وعسرته غني
وأحزانه نعمي ، وآهاته شعر
أطل علي الدنيا عزيزا ، أضمني
إليه ظلام السجن أم ضمني القبر
وماحاجتي للأفق ضحيان مشرقا
ونفسي الضحي والأفق والشمس والبدر
وماحاجتي للكائنات بأسرها
وفي نفسي الدنيا وفي نفسي الدهر
ونفسي لو ان الجمر مس إباءها
علي بشرها الريان لا حترق الجمر

يقول الكتاب العربي الكبير أكرم زعيتر وهو يعلق علي هذه الأبيات ـ ضمن مقدمته الضافية لديوان بدوي الجبل:

وقد تمثل لي ، وأنا أسمعها ، أبو الطيب المتنبي ، فحلب: موطن سيف الدولة ، وحلب معقل هنانو ، والبدوي في تمجيد هنانو هو المتنبي في تعظيم سيف الدولة ، شمم أنف وجزالة نظم ، وقوة بيان ورنين قواف وأوزان .

وقد خاطب شاعرنا بطله قائلا:

نماك ، وسيف الدولة ، الدار والهوي
وغناكما أندي ملاحمه الشعر
وأقسم بالبيت المحرم ، ما احتمت
بأمنع من كفيكما البيض والشمر

والبيض والسمر: هي السيوف والرماح
فإن تفخر الشهباء فالكون منصت
وحق بسيفي دولتيها لها الفخر
والشهباء هي حلب

عاش بدوي الجبل حياة عاصفة شديدة التقلب والتنقل والمعاناة ، بالاضافة إلى علاقته الملتبسة بالانتداب الفرنسي ، والتي جرت عليه كلاما كثيرا ، يتناول صحة مواقفه واختياراته ، بين الالتزام بالخط الوطني المعادي للاحتلال الفرنسي ، ومسايرة هذا الوجود الفرنسي في الساحل السوري وتبريره ، ثم العودة أخيرا إلى حظيرة الوطنية والوطنيين والالتزام بهذا الخط الأخير حتي النهاية وخلال هذه المراحل سنجد بدوي الجبل غارقا في السياسة التي التهمت كثيرا من احتشاده للشعر وإخلاصه لا بداعه الشعري الذي سيصبح في ختام الأمر رصيدا قليلا يشير إلى شاعرية كبيرة ، وقصائد معدودة تحمل سمات العبقرية وسرها الكامن المشع ، ووسط هذا الغرق السياسي سيلتمع أسم بدوي الجبل أو محمد سليمان للأحمد نائبا ووزيرا ، نائبا في المجلس التمثيلي لدولة العلويين مرتين عام ي١٩٣٥ ، ١٩٣٠ عن منطقة سنجق اللاذقية - في عهد الانتداب الفرنسي ، ثم نائبا في أول انتخابات جرت عام ١٩٣٧ علي إثر انضمام حكومة اللاذقية إلى سوريا ثم مرات عدة بعد ذلك في أعوام١٩٥٤ ، ١٩٤٧ ، ١٩٤٣ .

وفي حكومة صبري العسلي عام ١٩٥٤ ، أصبح بدوي الجبل وزيرا لا ول مرة ، وزيرا للصحة والاسعاف العام ، ثم أصبح وزير دولة للدعاية والأنباء في وزارات متتابعة ، قبل أن تطرأ أحداث مفاجئة علي نظام الحكم في عام ١٩٥٦ ينتج عنها تشريد بدوي الجبل - وصفوة من رفاقه - طيلة ست سنوات بين بيروت والاستانة وروما وفيينا وجنيف ، وحين يعود الشاعر إلى الوطن ، يهزه من الأعماق زلزال هزيمتة حزيران أو نكسة يونيو فيطلق قصيدته العاصفة من وحي الهزيمة في ما ئة وثلاثة وستين بيتا ، يضمنها أوجاعه وبراكينه ودموعه وآهاته وحسرته علي الوطن ورجالاته ، وتتسبب القصيدة في تعرضه لعدوان وحشي غاد وهو يمارس رياضته الصباحية خارج بيته ، ويسلمه العدوان إلى الغيبوبة الطويلة القاسية ، التي سيتاح له النجاة من آثارها القاتلة في جسده - التي ستلازمه حتي يوم رحيله في عام ١٩٨١ - ولن تسلم من آثارها روحه ، التي دمرتها الهزيمة وعارها ، ثم أجهز عليها عدوان وحشي لم يعرف مديروه .

هذه الغيوم السياسية الكثيفة التي عاشها بدوي الجبل ودفع حياته ثمنا لها ، حجبت عن الكثيرين صفاء شاعريته وجيشانها العارم ، وجعلته غير معروف بالقدر الذي يستحقه شعره وشاعريته إلا للخاصة ، وربما لخاصة الخاصة ، ليس في مصر وحدها وإنما علي مستوي الوطن العربي ، كله باستثناء سوريا ولبنان بالطبع ، وامتدادا لهذا

الحجب وهذا النفي الذي تعرض له شعر بدوي وكان هو أحد أسبابه ، فان قصيدته من وحي الهزيمة عن نكسة يونيو لم يتح لها بعض ما أتيح لقصيدة نزار قباني هوامش على دفتر النكسة التي تحولت إلى منشور سياسي يقرؤه قراء الصحف إلى ومية كما يقرؤه المهتمون بمتابعة الشعر .

بالرغم من بعد المسافة والأفق الشعري بين القصيدتين ، احتشادا وعنفوانا ، وتشكيلا ، لقد جاءت قصيدة نزار في لغة مباشرة ، تقريريه ، تحص وتحرض وتثير انفعال القارئ بالوخز والجلد الذاتي وادانة الجميع حكاما ومحكومين ، بينما حرص بدوي الجبل ـ شأنه فيما يبدعه ـ على أن تنهج قصيدته نهج الشعر الرصين ، المحتفل بالصورة الشعرية ، واللغة الموحية الدالة ، والايقاع المفعم بالآسي والشجي ، والالتفات إلى مكنوز الذاكرة ودرس التاريخ ، وعبرته الماثلة .

هل درت عدن أن مسجدها الأقصي
مكان من أهله مهجور !
أين مسري البراق ، والقدس والمهد
وبيت مقدس معمور !
لم يرتل قرآن أحمد فيه
ويزار المبكي ويتلي الزبور
طوي ، المصحف الكريم ، وراحت
تتشاكي آياته والسطور
تستبي المدن والقري هاتفات
أين أين الرشيد والمنصور ؟
أين آي القرآن تتلي علي الجمع
وأين التهليل والتكبير ؟
أين آي الانجيل ؟ فاح من الانجيل
عطر ، وضوأ الكوند نور !

ويبلغ أداؤه الشعري ذروته حين يقول:

أنا حزن ، شخص يروح ويغدو
ومسائي مع الأسي والبكور
أنا حزن ، في كل باب
سائل مثقل الخطي منهور

ويختتم قصيدته الطويلة بقوله:

لم أهادن ظلما ، وتدري الليالي
في غد أينا هو المدحور !

ستلقي هذه القصيدة الفاضحة للأنظمة العربية - في وقت النكسة - بظلها على العلاقة بين بدوي الجبل والحكم في سوريا منذ ذلك التاريخ ، وسنجد أن المساحة الواسعة التي تحرك فيها شاعر سوري كبير هو عمر أبو ريشة وشعره لم يتح مثلها ولابعضها لبدوي الجبل وشعره ، بل ان نزار قباني - الذي أقام خارج سوريا سنوات طويلة قبل وفاته في لندن ، وعودته مسجي إلى دمشق - لقي من التكريم وحفاوة الاستقبال الباكي الأخير ، أضعاف ما لقيه بدوي الجبل الذي يمثل وجه سوريا الشعري الحقيقي بين ثلاثينيات القرن وستينياته .

والذي سيظل شعره بين أقرانه الكبار من شعراء الوطن العربي في زمانه . الرصافي والزهاوي والجواهري في العراق وشوقي وحافظ ومطران في مصر ، وعمر أبو ريشة وشفيق جبري وخليل مردم ونديم محمد في سوريا والأخطل الصغير بشارة الخوري ، وأمين نخلة وسعيد عقل في لبنان - سيظل أكثرهم امتلاء بعناصر الانتماء إلى القصيدة الكلاسيكية في أوجها وزهوها وكبريائها وشموخها ، والتي جعلت الشيخ يوسف العيسي يطلق عليه اسم بدوي الجبل لما رآه فيه من ديباجة بداوة ، وأنه يلبس العباءة ويعتمر العقال المقصب ، وأنه ابن الجبل .

والصحيح أن بدوي الجبل ليس ابن الجبل وحده ، وإنما هو ابن الجبل الشامخ المطل على البحر ، وفي فضاء اللاذقية يتعانق الجبل والبحر ، ويمتزجان في جدلية حميمة هي جدلية الشموخ والانسياب ، جدلية الصلادة والتموج ، ومن هنا كانت صلابة شعر بدوي الجبل العاتية ، وكانت رقته المفرطة ، وكلتاهما وجه لحقيقته الشعرية ، ذات التجليات المتعددة القسمات والطبقات .

من أشهر قصائد البدوي ، بل لعلها أن تكون في طليعة روائعه قصيدته اللهب القدسي التي يحفظها محبو شعره ومنشدوه باعتبارها مزموره الشعري البديع ، الناطق بكل عذوبة شعره وتدفقه ، وانعطاف نفسه مع كبرياء العاشق الذي يتجاور في داخله شموخ الجبل وجيشان البحر ورقة النسيم وسماحة الشاعر الانسان:

أتسألين عن الخمسين ما فعلت ؟
يبلي الشباب ولاتبلي سجاياه
تزين الورد ألوانا ليفتننا
أيحلف الورد أنا ما فتناه
يامن سكانا كئوس الهجر مترعة

بكي بساط الهوي لما طويناه
ان كان يذكر أو ينسي فلا سلمت
عيني ولاكبدي ان كنت أنساه
طفولة الروح أغلي ما أدل به
والحب أعنفه عندي وأوفاه
قلبي الذي لون الدنيا بجذوته
أحلي من النور نعماه وبؤساه
لم يرده ألف جرح من فواجعه
حتي أصيب بسهم منك أرداه
ان نحمل الحزن ـ لا شكوي ولا ملل
غدر الأحبة حزن ما احتملناه
قد هان حتي سمت عنه ضغينتنا
فما حقدنا عليه بل رحمناه
يرضيه أن يتشفي من مدامعنا
لم نبك منه ولكنا بكيناه
حسب الأحبة ذلا عام ر غدرهمو
وحسبنا عزة أنا غفرناه !

الذين يتاح لهم قراءة بدوي الجبل ، يدركون علي الفور أنهم يتنقلون في رحاب أفق مغاير ويحلقون معه تحت سماء مختلفة ، العطور والظلال والألوان ، العواصف والنسائم ، الزلازل والبراكين ، الرضا والغضب ، الجموح والتحكم ، كلها عناصر هذا الشعر العالي ومفرداته ومعجمه ، لقد باحت له طبيعة الجبل في اللاذقية ـ وما أروعها حيث توجد مصايف سوريا وقراها المفعمة بالجمال والخضرة الفتية والطبيعة الغنية العاتية ، وامتداد الأفق الغارق في البحر باحت بأدق أسرارها وكشفت له عن أعمق خلجاتها وأسلست له ربة الشعر قيادها ، فانهمرت صياغاته في غير عنت أو مشقة ، في يسر وفي أحكام ، وكأنها خلقت لتكون هكذا ـ قيل الكلام نفسه عن صياغات المتنبي المحكمة وهندسة تراكيبه ومجاورته لخلجات النفس الانسانية في كل أحوالها ـ يتعب قارئ البدوي وهو يلاحق صور الجمال ، ويلهث وهو يتابع جلوات شعره وتحليقه الدائم ، وتتقطع أنفاسه وهو يحاول الإمساك بهذا المارد الشعري أو اللحق بغباره .

إنه بدوي الجبل: وجه الشعر العربي في سوريا ، وحقيقته وخلاصته !

البردوني شاعر مملكة بلقيس

بقلم : فاروق شوشة

كان بحضوره الشعري يمثل الحجة الباقية عند من يؤمنون بأن الحداثة الشعرية لا تتطلب صيغة معينة أو نموذجا معينا للقصيدة ، وأنها كما تحققت في النسيج العمودي قديما لشعر أبي نواس وأبي تمام ، فهي تتحقق في النسيج العمودي الآن لشعر البردوني ، متوهجة بروح العصر والاستنارة الكاشفة والوعي المتجدد . وعندما كان بعض الحداثيين يشتطون في المغالاة ، وينظرون إلى القصيدة العمودية باعتبارها شيئا من حفريات التاريخ لا يصلح لهذا الزمان الذي تغيرت فيه القيم والرؤي والمعايير ، كان الرد الميسور عليهم دائما من خلال شعر عبد الله البردوني ، الذي لم يخرج قط علي نظام القصيدة العمودية ، لكنه لم يكن أبدا تقليديا ، فضلا عن تحقيقه للحداثة الشعرية بأكثر من مدعيها ومزوريها أصحاب الرطانات الشعرية .

ومنذ عام ١٩٦١ ، العام الذي شهد صدور الديوان الأول للبردوني: من أرض بلقيس ، أدرك قراء الشعر ومتابعوه في إلى من وفي العالم العربي ، أن ثمة ظاهرة شعرية جديدة ، تتجاوز الأفق المرئي للشعر العربي في إلى من ، الذي كان يبتعد عن نموذج شاعر إلى من الكبير محمد محمود الزبيري ، ويستجيب لا يقاع التحول في حركة الشعرالعربي التي امتزجت في الأربعينيات بالمد الرومانسي ، وكان جيل الرومانسية في إلى من يضم علي محمد لقمان وأحمد الشامي ومحمد سعيد جرادة وإبراهيم الحضراني ومحمد عبد ه غانم وإدريس حنبلة و عبد الله البردوني ولطفي جعفر أمان . ثم ما لبث تيار قصيدة الشعر الجديد أو الشعر الحر أن اجتاح إلى من كما اجتاح غيرها من الأقطار العربية وبدأ جيل جديد من الشعراء يتقدمه محمد أنعم غالب وإبراهيم صادق و عبد ه عثمان الذين كانت حياتهم في القاهرة وبيروت شديدة التأثير في ثقافتهم واختياراتهم . وقد مهد هذا الجيل الطريق و عبد ه لكوكبة شعراء الستينيات الذين تلتمع من بينهم أسماء: عبد العزيز المقالح والقرشي عبد الرحيم سلام وحسن اللوزي و عبد الودود سيف وزكي بركات وغيرهم . كان البردوني من خلال ديوانه الأول من أرض بلقيس يفرض ظلال شاعريته العارمة :

من أرض بلقيس هذا اللحن والوتر
من جوها هذه الأنسام والسحر
من صدرها هذه الآهات ، من فمها
هذي اللحون ومن تاريخها الذكر
من السعيدة هذي الأغنيات ومن

ظلالها هذه الأطياف والصور
أطيافها حول مسري خاطري زمر
من الترانيم تشدو حولها زمر
من خاطر إلى من الخضرا ومهجتها
هذي الأغاريد والأصداء والفكر

وتتتابع دواوين البردوني بعد هذا الديوان الأول: في طريق الفجر١٩٦٧ ، مدينة الغد١٩٧٠ ، لعيني أم بلقيس١٩٧٣ ، السفر إلى الأيام الخضر١٩٧٤ ، وجوه دخانية في مرايا الليل١٩٧٧ ، زمان بلا نوعية١٩٧٩ ، ترجمة رملية لا عراس الغبار١٩٨٣ وهكذا .
وما لم يتسع له شعره اتسعت له كتاباته النثرية في رحلة في الشعر إلى مني ، قضايا يمنية ، فنون الأدب الشعبي ، إلى من الجمهوري ، أشتات . وسرعان ما اكتملت صورة الشاعر المناضل ، الثوري ، المتمرد ، الشديد الغضب لما أصاب الأمة من انكسار وهوان ، العميق السخرية في مرارة تمتزج بالدعابة والفكاهة أحيانا ، وكأن روحه الشعرية تحمل توهج الشعراء الصعاليك الذين تفجر شعرهم بالقيم الإنسانية النبيلة في المشاركة ورد الحقوق لا صحابها المحتاجين ، واختلاف هذا الشعر فنيا وبنائيا عن نموذج شعر المعلقات في العصرالجاهلي الذي هو في جوهره نموذج شعر القبيلة في نسقها الأعلي ، هكذا كان شعر البردوني يتخلص من مواصفات جيلة الشعرية ، ليشعل ناره المتفردة ، وليقيم سرادقات لغته المتميزة ، وليضمن عالمه الشعري حشدا هائلا من الصور والمعاني والظلال امتلأ بها مخزونه الوجداني والشعبي ، وركاما هائلا من المعاناة الحياتية والفكرية والوجودية تحتشد فيه مفردات الغربة والاغتراب والوحدة والثورة والشكوي ، وهو الذي ذاق مرارات الفقر والمرض والجوع ، وعرف التشرد والحرمان ، وأقبية السجون الرهيبة في عهود أئمة إلى من ، وعندما انسكب هذا كله في شعره كان شيئا جديدا مختلفا:

وكأني تحت الدياجير قبر
جائع في جوانح الصمت عاري
وأنا وحدي الغريب ، وأهلي
عن يميني ، وإخوتي عن يساري
وأنا في دمي أسير ، وفي أرضي
شريد مقيد الأفكار
وجريح الإبا قتيل الأماني
وغريب في أمتي ودياري

موقفـان شـعريان بـارزان أطلقـا شـاعرية البردونـي إلى آفـاق الـوطن العربـي كلـه ، وكانـا بمثابـة الإعـلان عـن خطـورة هـذا الجديـد الـذي يحملـه ويمثلـه ، وعـن اختلافـه كيفيـا عن شعراء زمانه : الكلاسيكيين والتجديديين علي السواء .

الموقـف الأول كـان مـن خـلال المهرجـان الـشعري الـذي أقـيم في بغـداد احتفـالا بألفيـة بـأبي تمـام فـي عـام ١٩٧١ – حـين فـوجئ جمهـور المهرجـان بـشاعر زري الهيئـة والملـبس يحـاول إخفـاء عاهتـه بفقد بـصره بوضـع نظـارة سـوداء كمـا يفعـل غـيره ، حـريص علـي جلبابـه إلى مـني تعلـوه جاكتـة غـير مهندمـة ، وينـبض صـوته وإنـشاده بـصوتيات الأداء إلى مني الذي تملؤه نبرة شجن ودراما بكاء .

كـان البردونـي مـن الـذكاء الـشعري بحيـث استحـضر شـاعرية أبـي تمـام لا ليجاورهـا أو يحاذيهـا ولكـن ليختلـف عنهـا ، إنـه يبـدأ منهـا ويـذكر بـالموقف الـشعري القـديم في يـوم عمورية وبرائعة أبي تمام في يوم الفتح الجليل وهو يقول :

السيف أصدق أنباء من الكتب

في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في

متونهن جلاء الشك والريب

وسـرعان مـا يباعـد البردونـي بـين قـصيدته وأي ظـل لقـصيدة أبـي تمـام ، الـذي ذكر به واختلف عنه وتجاوزه عندما قال :

ما أصدق السيف إن لم يمضه الكذب

وأكذب السيف إن لم يصدق الغضب

حتي يصل إلى المقطع الذي يقول فيه :

ماذا أحدث عن صنعاء يا أبتي

مليحة عاشقاها السل والجرب

ماتت بصندوق وضاح بلا ثمن

ولم يمت في حشاها العشق والطرب

وهكـذا اسـتطاع البردونـي أن يعتـصر الوجـع العربـي كلـه لا هـم إلى مـن فحـسب والأمـة العربيـة لا تـزال تجـتر مـرارة النكـسة ، وأن يجعـل مـن قـصيدته صـوتا عربيـا متوهجـا بـالحس القـومي الـذي يـرفض الهزيمـة ، وتتجـاوز رؤاه حـدود اللحظـة الـسوداء المغلقـة ، ويتجذر يقينه في إرادة تستطلع ومض البارق وتري ما وراء السماء الحبلي بالوعود :

ألا تري يا أبا تمام بارقنا ؟

إن السماء ترجي حين تحتجب !

الموقف الثاني للبردوني كان بعد موقف بغداد بأحد عشر عام ا . حين جاء إلى القاهرة في عام ١٩٨٢ مدعوا للمشاركة في مهرجان شوقي وحافظ في مناسبة الذكري الخمسينية ، كانت الدعوة قد وجهت إلى ه من الناقد الكبير الدكتور عزالدين إسماعيل ، رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب في ذلك الحين والمشرف علي المهرجان . وأطل البردوني علي جمهور القاهرة الذي لم يكن قد سمع به من قبل لا ول مرة ، في زيه وسمته وهيئته . واقتحمته العيون وهو يصعد منصة الإلقاء في مسرح السلام بشارع قصر العيني ، ودار حوار خافت بين عزالدين إسماعيل الذي كان يعرف البردوني والشعر إلى مني والثقافة العربية في إلى من معرفة عميقة ووزير الثقافة حينذاك المرحوم عبد الحميد رضوان الذي يبدو أنه كان يتساءل في دهشة عن لا بس الجلباب والجاكتة الذي استطاع أن يأخذ مكانا وسط هذا الحشد لجامع من شعراء الوطن العربي وانتظر البردوني حتي هدأ الجمع وسكنت الأصوات المندهشة والمتسائلة ، ثم بدأ يلقي قصيدته : وردة من دم المتنبي :

من تلظي دموعه كاد يعمي
كاد من شهرة اسمه لا يسمي
جاء من نفسه إلى ها وحيدا
راميا أصله غبارا ورسما
حاملا عمره بكفيه رمحا
ناقشا نهجه علي القلب وشما
خالعا ذاته لريح الفيافي
ملحقا بالملوك والدهر وصما

إن هي إلا لحظات قليلة حتي أدرك الجمع المحتشد في المهرجان أنه بإزاء شاعر كبير ومختلف . شاعر يستحق الانتباه والاحتشاد والاحترام . وسرعان ما أدرك مستقبلو القصيدة ومتلقوها أن البردوني جعل من المتنبي قناعا يختفي وراءه ليصور ذاته هو: شاعرا وإنسانا . وليجسد من خلال تداعيات عنوان القصيدة وظلالها ، وردة دمه هو ، وحقيقة انتمائه إلى عالم الصعاليك والصعلكة ، العالم الذي يقدس الحرية والنزعة الفردية ويؤمن بقيم العدل والتكافل ورد الحقوق :

البراكين أمه ، صار أما
للبراكين ، للإرادات عزما
كم إلى كم تفني الجيوش افتداء
لقرود يفنون لثما وضما
ما اسم هذا الغلام يا ابن معاذ ؟

اسمه: لا ، من أين هذا المسمي ؟
إنه أخطر الصعاليك طرا
إنه يعشق الخطورات جما !
فيه صاحت إدانة العصر ، أضحي
حكما فوق حاكميه وخصما
قيل: أردوه ، قيل: ما ت احتمالا
قيل: همت به المنايا وهما
قيل: كان الردي لديه حصانا
يمتطيه برقا ويبريه سهما
أورق الحبر كالربي في يديه
أطلعت كل ربوة منه نجما
العناقيد غنت الكأس عنه
الندي باسمه إلى الشمس أومي !

تظل وردة من دم المتنبي قصيدة القصائد في شعر البردوني كله ، بناء ولغة وجيشانا ونبضا حداثيا يجرف كل كلاسيكية أو تقليد . وتظل القصيدة المفصحة عن رؤية البردوني لذاته واستقرائه العميق لا سرارها وخفايا خيوطها التي تماست أحيانا مع بعض خيوط المتنبي وإن تباعدت عنها واحتفظت بأصالتها واستقلالها . ويظل شعر البردوني كله -في دواوينه الإثني عشر- غريبا في مصر ، وفي بقاع أخري من الوطن العربي ، يبحث عنه قراؤه ومريدوه فلا يجدونه إلا في طبعات ضيقة نافدة لا تليق بشاعريته انتشارا واتساعا ، وإن تماثلت معه في مظهرها المتواضع وهيئة الزرية غير المصقولة أو المتأنقة . أما الذين يعرفونه -ويقدرونه حق قدره- فيدركون أنه الشاعر الذي أعطي لشاعرية إلى من الحديثة حضورها وتأثيرها علي الساحة العربية ، مذكرا بشعراء إلى من القدامي وفي مقدمتهم: امرؤ القيس ووضاح إلى من ، ومتجاوزا التأثير الضيق والمحدود لشعراء من أمثال الزبيري والشامي والحضراني ، ومفسحا المجال -برحيله الآن- لشعراء كان حضوره حائلا وشاغلا عن شاعريتهم ك عبد العزيز المقالح وحسن اللوزي . هل صحيح هذا الكلام ؟ وهل صحيح أن العبقرية في الإبداع تحول دون تألق غيرها من العبقريات ؟ هل حالت عبقرية نجيب محفوظ دون بزوغ مواهب كبري في عالم الإبداع القصصي -مصرية وعربية- تحقق لها حضورها الكامل حتي في ظل مهرجان نوبل وتداعياته المستمرة ! في رحيل البردوني ننحني إجلالا لشاعر يمني عربي عظيم ، ومناضل قومي ثوري عظيم ، ومثقف كانت ثقافته العميقة الواسعة متكأ لشاعريته ، ومسامر كانت أسماره ولياليه أنس ليالي صنعاء والعواصم العربية التي سعدت باستضافته . ومن المؤكد أن مملكة بلقيس التي

تغني لها البردوني بأروع قصائده ستظل تبكي فيه شاعرها الأعظم وصعلوكها الخالد الذكر وخزانتها العامرة بالحكايا والأسرار والفواجع .

عبد الحميد الديب : وتر نافر وصعلكة مبدعة

بقلم: فاروق شوشة

ما أكثر الشبه بينه وبين الشعراء الصعاليك ، الذين عاشوا في العصر الجاهلي ، يقطعون طريق القوافل ، ويغيرون علي القبائل ويأخذون من الاغنياء ما يعتبرونه حقا للفقراء ، بعد أن خرجوا علي قبائلهم وتمردوا علي أعرافها وتقاليدها ، وأسسوا لا نفسهم مجتمعا متمردا خارجا علي قانون المجتمع العربي القديم هو مجتمع الصعاليك . والصعلكة في أساسها اللغوي تعني الفقر والاحتياج الشديد وانعدام القدرة علي أي تملك ، لكنها في حالة هؤلاء الشعراء تعني الفقر والتمرد معا ، ومحاولة الثورة علي هذا الواقع الذي ينبغي تغييره ، باسترداد الحقوق ممن يمتلكونها ويسيطرون عليها ، وهكذا عرف الشعر العربي القديم ظاهرة الشعراء الصعالية: عروة بن الورد والشنفري وتأبط شرا والسليك بن السلكة وغيرهم .

عبد الحميد الديب واحد من هؤلاء الشعراء الصعاليك:

روحا وثورة وتمردا ، علي الفقر ، وعلي اختلال السلم الاجتماعي ، وعلي وجود من لا يستحقون منصبا ولا جاها في الاماكن التي يستحقها غيرهم وعلي عدم اهتمام المجتمع بصاحب الموهبة الذي يتوهج بشرارة الإبداع ، والذي له من فنه وشاعريته وأدبه ما يقدمه علي الآخرين ، واطراره- وهو الشاعر المبدع الموهوب- إلى مذلة الطلب والسؤال ومهانة الاحتياج .

التمعت شاعرية عبد الحميد الديب إبان التحول الشعري الكبير في أربعينيات هذا القرن: بين كلاسيكية شعرية تترنح وتتهاوي ، وورومانسية ثائرة جامحة متمردة بين شعر اهتم أصحابه طويلا بخارج الانسان من حيث الشواغل والاهتمامات وعرض الحياة ، وشعر يصطبغ بالوجدان ، ويفيض عنه ، ويأخذ منه شهادته علي إبداع جديد وليد ، في فوران هذا التحول العنيف جاءت شاعرية الديب وترا نافرا في قيثارة الشعر ، وصوتا مغايرا للمعهود والمألوف من معجم الشعراء ، وعريا صارخا- لدرجة إحداث الصدمة أحيانا- من مواضعات العصر ، وطبقية تصنيف الشعراء ، وسيطرة المفهوم المتوقر للمعجم الشعري .

ولم يكن عبد الحميد الديب يمتلك من مقومات هذا الموقف النافر والمغاير غير بضاعة شعرية يمكن أن تصنفه داخل إطار السياق العام ، من حيث التكوين والتأهيل ، والانتماء الحميم للموروث الشعري ، شأن شعراء جيله من أمثال طاهر أبو فاشا وأحمد

مخيمر والعوضي الوكيل وأحمد عبد المجيد الغزالي- الذين عرفوا بجماعة شعراء العروبة وغيرهم لكن هذا التكوين الذي قامت عليه شاعرية الديب أتيح له من جوهر روحه وتمرده تلك النار المقدسة التي قدر لها أن تتوهج وأن تشتعل بها عبقرية شعرية مغايرة ، شغلت بتقويم ذاتها وذوات الآخرين . فكان وعيها العميق بالتفوق- بالرغم من دونية الوضع الاجتماعي والإمكان المادي- مطلقا لهذا المارد الشعري الذي يجرف في طريقه بوعي وبدون وعي الأصدقاء والأعداء ، حتي ليصبح خطرا داهما يتهدد كل من يعرفه ويلتصق به ، لن تشفع له صداقة ولن تغفر له مكرمة سابقة . لا ن ما يتفضل به الآخرون عليه من فتات هو في منطق الديب استرداد لبعض ما له من حقوق علي الحياة من قبل أن تكون حقوقا عند البشر ، ومن رد اعتبار لشاعريته وفنه ، موضع كبريائه واعتزازه وفخره .

من هنا ، هذه الروح المتكبرة العاتية التي يمتلىء بها شعره ويتوهج ، لا نه يري نفسه أعظم ممن يقصدهم ويطلب منهم ، ويري شعره أرفع مما يكتبه أصحاب التقاليد الشعرية المستأنسة والمسايرة ، التي تحقق المنفعة والغنيمة ، والقيم التي تؤازر المصالحة ولاتعمق شقة الخلاف والصدام والخروج علي المألوف .

يقول عبد الحميد الديب .

يا أمة جهلتني وهي عالمة
أن الكواكب من نوري وإشراقي
أعيش فيكم بلا أهل ولا وطن
تعيش منتجع المعروف أفاق
وليس لي من حبيب في ربوعكم
إلا الجيبين: أقلامي وأوراقي
ريشت لحظي سهام من نميمتكم
فصارعتني ، ومالي دونها واق
لم أدر ما ذا طعمتم في موائدكم
لحم الذبيحة ، أم لحمي وأخلاقي !

هذا الأفق الشعري والإنساني الذي حرص عبد الحميد الديب علي أن يتوجه إلى ه ، ويرتفع بتمرده وعناده وإصراره ، وأحيانا بهجائه المقذع ، وأبياته العارية- التي أتيح لها دون غيرها من شعره انتشار واسع وذيوع صيت حتي لقد حفظها الكثيرون باعتبارها جوهر شعر الديب وشهادة إبداعه الشعري- هذا الأفق هو الذي ضمن للديب تفرده واتساع إهاب شعره الكلاسيكي لروح عصرية شديدة الحرارة والجدة والتوهج ، فكأن شعره شهادة علي أن الشراب الجديد يضفي علي الآنية القديمة رونقه المغاير ويجعل لها حضورا فنيا وتشكيليا مخالفا للسائد والمألوف .

يقول عبد الحميد الديب

شكوت ، وما شكواي ضعف وذلة

فلست بمستجد ولا طالبا يدا

ولكنني أفحمت ظلما بمنطق

من الدهر ، لم تبلغ غباوته مدي

دمي دم أكفاء الحياة ، ونظرتي

بها للمحيط الضخم لا الطل والندي

وهو يري في نفسه وفي شعره عونا للملهوف ونصرة للمحتاج وهذا دليل علي روح الصعلكة بمعناها الحقيقي وفي جوهرها الفروسي النبيل– عندما يقول:

أأسجن من عون اللهيف وغوثه

ونصرتي المظلوم سجنا مؤبدا

أييئسني قومي ، لا ني شاعر

أهلهل في الآلام شعرا مخلدا

وقلت وقال الناس ، لم يبق قولهم

بيانا ولاسحرا ، فأربيت منشدا

يمينا لئن لم يؤمنوا بقضيتي

لأمضي إلى هم سهم ظلمي مسددا

سأرقب عدلا من قضاتي ، فإن أبو ا

أبت قوتي في الهجو أن تتقيدا

وهي أبيات تذكرنا بالمتنبي ، ونفسه الشعري ، في قمة زهوه واعتداده بنفسه ، وإحساسه بقدرته الإبداعية المتفوقة علي كل شعراء زمانه ، حين قال من البحر نفسه والقافية نفسها قصيدته المشهورة التي يخاطب فيها سيف الدولة الحمداني ويقول:

أجزني إذا أنشدت شعرا ، فإنما

بشعري أتاك المادحون مرددا

ودع كل قول غير قولي ، فإنني

أنا الطائر المحكي والآخر الصدي

وما الدهر إلا من رواة قصائدي

إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

لقد كان المتنبي ـــ بدوره ـــ واحدا من هؤلاء الصعاليك العظام الذين اقتحموا ذاكرة الشعر العربي ، وتركوا فيها كلماتهم الباقية ، لا متلائها بهذا التوهح وهذا التمرد

وهذه المغايرة في الأفق الشعري ، وهذه الثورة على السائد والمألوف ، على التقليدي الميت الخالي من كل روح .

هذا الزهو الشعري الذي يعبر عنه الديب ، هو الترجمة الحقيقية والإفصاح الجهير عن شعوره بالتفوق والريادة وهذا الإفصاح الذي داخلته المبالغات وتضخم الذات هو رد الفعل الحاد لشعوره الداخلي ـــ بينه وبين نفسه ـــ بأنه الأزهري الذي لم يكمل تعليمه ، والأديب الذي لم يتح له وضع اجتماعي يحترمه به الناس كغيره ممن هم أقل قدرا ، ولكن أتيحت لهم المناصب وتحقيق المآرب وتسنم سلم الرقي الاجتماعي والمادي من حيث الحيثية والأهلية .

بينما قعدت به ظروفه عن نيل بعض ما نالوه ، ومواجهة العوز بسلاح الدخل الثابت الآن ، والمستقبل بيقين المطمئن الهانيء البال .

وبالرغم من فقره وعوزه ، فإنه لم يسلم من ناهشي العرض والشامتين ، و فيه بقدر شكواه من هؤلاء فإن الشكوي تشف عن وجه آخر للأمر ، وتنم عن تقدير داخلي لذاته . إن الناس لا تتناول بألسنتها الحداد إلا من كان له وجود وقدر وأهمية . أما ساقطو المنزلة وفاقدو المكانة فلا يلتفت إلى هم أحد . بل ربما كان هذا الشعور الذي يلاحقه ويطارده من كراهية الناس له وحقدهم عليه وشماتتهم به حافزا لتعاليه ومفجرا للمزيد من إبداعه الشعري:

أمر علي المقهي ، فأسمع شامتا .
يمزق في عرضي وآخر يشفع
وقد ساء ظني بالعباد جميعهم
فأجمعت أمري في العداء وأجمعوا

وينفجر الجرح ألما نازفا وشجي كاويا ، من خلال صياغة شعرية ـــ محكمة ـــ هي جوهر الصياغة الكلاسيكية وتقاليدها الراسخة ـــ وكأن الديب يذكرنا بكبار المبدعين على تعاقب الأزمنة واختلاف أحوال الناس ، فتعانقنا أرواح ابن الرومي والمعري في القدماء وحافظ إبراهيم والشابي في المحدثين عندما يقول:

ما بال من عرفوا إلى م خصاصتي
ورقيق حالي ، ليس فيهم مسعف
من كان يقدر أن يفرج كربتي
وينيب بد معه فظلم منصف
يتمتعون بمدمعي وشكايتي
والبدر سلوي للوري إذ يخسف

ولربما غدت المواجع سلوة

للمترفين ومتعة لا توصف

ولقد تسلي العين وهي قريرة

بمن اغتدي في قيد سجن يرسف

حتي نصل إلى قوله :

أ أري ذئابا أم صحابا ؟ إنهم

وجميعهم في الخطب لم يتعطفوا

بأمر اللواء جمعت بعض كتائب

والحقد فيهم مستبد متلف

وقفوا كما وقف الزمان بمحتني

لدمي البريء جميعهم يستنزف

أ أعيش بينهم شقيا معدما

وهمو غني ناعم وموظف

لقد أتيح ل عبد الحميد الديب أن يشهد التحولات الشعرية الكبري في زمانه : انحسار الكلاسيكية بعد رحيل علميها الكبيرين :

حافظ إبراهيم ثم أحمد شوقي ، واشتعال المد الرومانسي ممثلا في جماعة أبو للو التي أسسها الدكتور أحمد زكي أبو شادي عام ١٩٣٢ وأعلن عن قيامها قبل رحيل شوقي بأيام قليلة ، وما أثارته جماعة الديوان منذ نشر كتاب الديوان لعباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني عام ١٩٢١ وانضمام عبد الرحمن شكري إلى هما بعد ذلك في الفكر والنظرة الجديدة إلى الشعر التي لا تعترف بشعر المناسبات الخارجية ـــ الذي اهتم به الكلاسيكيون ـــ وتدعو لشعر الوجدان الذي وجد نموذجه الأول في شعر المهجريين من أمثال جبران وميخائيل نعيمه وإيليا أبو ما ضي وآل المعلوف ، ثم في شعر الرومانسيين من أمثال علي محمود طه وإبراهيم ناجي ومحمود حسن إسماعيل وأبو القاسم الشابي ومحمد عبد المعطي الهمشري وغيرهم . كان الديب ـــ من حيث الصيغة والشكل ـــ أقرب إلى النمط الكلاسيكي للقصيدة ، لكنه ـــ من حيث الجوهر والروح ـــ كان خليطا من أصداء الديوان والمهجريين والرومانسيين في اللغة الشعرية والخيال المجنح والقدرة علي التصوير والمبالغة في التعبير عن إفضاءات الذات والوجدان . من هنا فإن قارئه المتأمل تستوقفه طيلة الوقت القفزات والانتقالات من جهارة الأداء الكلاسيكي ـــ كما في شعر حافظ ابراهيم خاصة في وطنياته وهجائياته الاجتماعية ـــ إلى تدفق الأداء الرومانسي ونعومته كما في شعر ناجي وعلي محمود طه والشابي ، وفي الأداءين يجيش نفس عبد الحميد الديب المتمرد الثائر ونزعته الحادة العنيفة المفعمة بالسخرية والهجاء ، حتي لو قادته هذه النزعة إلى

الإقـذاع والألفـاظ العاريـة الـتي يتـورط فيهـا مـن خـلال معجـم شـعري يـصدم القـاريء ويتعـارض مـع الآداب العامـة . ولقـد مـا ت كـثير مـن هـذا الـشعر الفاضـح ل عبـد الحميـد الـديب بمـوت مـن كـانوا يحفظونـه مـن أصـدقائه واصـحابه الـشعراء وبخاصـة محمـد مـصطفي حمـام وشـوقي أمـين وطـاهر أبـو فاشـا ، وقـد كـان هـذا الجـزء مـن شـعره ، لخروجـه علـي المـألوف ـــ محفوظـا داخـل الـصدور غـير منـشور أو مطبـوع ، وهـو سـبب شـهرة الـديب وذيـوع صـيته وحـرص النـاس علـي روايتـه والتلـذذ بـه ، كمـا كـان فيـه أيـضا بعـض ذري إبداعـه وصـوره الرائعة الـتي لم يتـضمنها شـعره المـسموح بنـشره وتداولـه . ولا شـك أن اختفـاء هـذه المـساحة ـــ غير المستأنـسة ـــ مـن شـعر الـديب ، ظلـم لـشاعريته وانتقـاص مـن قـدره . لكـن مـا الحيلـة ؟ والـذين كـانوا يحفظونـه ويروونـه رحلـوا ، والـذي بقـي بـين أيـدينا لا يمكـن نـشره أو تداولـه . وهـو موقـف يـثير قـضية الحقيقـة الكاملـة في مواجهـة المواءمـة ، والمواءمـة في حـال شـاعر ك عبـد الحميـد الـديب ، تـضر بـشاعريته ضـررا بليغـا وتفقـد صـورته بعـض قـسماتها الأصـيلة وملامحها الدالـة المعبرة فلنأمـل إذن في زمـان قـادم ، وعـصر مغـاير ، قـد يـسمح فيـه بنـشر مـا لـيس مـسموحا بـه إلى وم ، وأن يبقـي ذلـك المـسكوت عنـه مـن شـعره ـــ الـذي لم يـؤذن بنـشره ـــ حيـا ومتـداولا بواسـطة المـشافهة ، حـتي يجـيء أوان رد اعتبـاره وضـمه إلى سـائر حبـات عقـــده .

ولا شـك أن قيـام المجلـس الأعلـي للثقافـة الآن بالعمـل علـي نـشر شـعره محققـا مـضبوطا ـــ مـن خلال الجهد الذي قـام بـه الأسـتاذ محمـد محمـود رضـوان ـــ مـن شـأنه أن يتـيح لدارسـيه مـا دة مغريـة بالتنـاول العميـق والدراسـة الكاشـفة والنظـر المتأمـل ، كمـا يتـيح لقـراء الـشعر مـا دة شـعرية حافلـة ، مليئـة بـالتنوع والمغـايرة والخـروج علـي المـألوف ، لا ن صـاحبها ومبـدعها هو عبد الحميد الديب : الوتر النافر والصعلكة المبدعة !

فوزي العنتيل : شاعر كالنسيم

بقلم: فاروق شوشة

هذا شاعر لا يكاد يذكره الآن أحد . بالرغم من أنه واحد من أعذب الأصوات الشعرية وأكثرها تميزا وأصالة بين شعراء جيله ، الذين كانت قصائدهم ملء السمع والبصر ، وحديث الناس طوال الخمسينيات: محمد الفيتوري وكمال نشأت وابراهيم عيسي وصلاح عبد الصبور . ولشدة اقترابه من أولهم وثانيهم ـ نفسيا وفنيا ـ فقد كون الثلاثة رابطة النهر الخالد ، وكانت قصائدهم تنشر موقعة باسم هذه الرابطة التي ائتلف فيها مبدعون من السودان ومصر ، نهجوا نهجا تحرريا وتجديديا واضحا . ولد فوزي العنتيل في قرية علوان إحدي قري محافظة أسيوط عام ١٩٢٤ ، تقع أسفل الجبل الغربي وتلتف حولها ترعة الإبراهيمية ، وتمتزج فيها ـ شأنها شأن صعيد مصر كله ـ طقوس التقاليد والعادات والموروثات الشعبية القديمة ، وروح الحضارات الفرعونية والمسيحية والإسلامية ، وهي المكونات التي ستترك تأثيرها العميق في وجدان شاعرنا ومخزون ذكرياته ، حين يتجه في فترة من مراحل النضج إلى دراسة الفولكلور في أيرلندا بين عامي ١٩٥٩ و١٩٦١ ، وحين يفصح شعره عن انتماء حميم إلى هذه البيئة المصرية الصميمة ، التي سبقه إلى التعبير عنها ـ ولكن بطريقته الخاصة ـ الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل ابن محافظة أسيوط أيضا . ويجمع فوزي العنتيل بين التعليم في الأزهر ثم التعليم في دار العلوم ، قافزا بوعيه المبكر وإصراره العنيد وحبه للعلم والثقافة والشعر فوق عوائق الفقر والتخلف وجهامة الواقع ، يقول عنه محمد الفيتوري رفيقه في الحياة والشعر مصورا هذه البدايات: لو صورت طفولة غريبة عرفت صرامة الأبوة ، وصرامة الأرض ، وصرامة الواقع وصرامة الهزيمة: ان هذه الطفولة هي طفولة الشاعر . ولو تصورت مجتمعا مقفلا علي نفسه يكفر بكل القيم ، يكفر بكل شيء ما عدا ما ضيه العريق المشحون بالخرافات والمتناقضات ، والعقول الصفراء والوجوه العابسة في بلادة ، الراضية في خمول: إن هذا هو المجتمع الثقافي الذي نشأ فيه .

ولو تصورت إنسانا ، طويلا ، نحيلا ، حزين الوجه ، رقيق المزاج ، يحمل داخل نفسه كل تلك الظروف: إذن لتكونت لديك شخصية الشاعر فوزي العنتيل . واذن فطبيعي جدا أن يكون نتاج هذا الواقع شاعرا وأن يكون شعره انعكاسا لواقعه ، وان يكون شعره مثله ، حبا للناس كلهم إلا الجانب الشرير فيهم ، وعناقا للطبيعة كلها ، إلا الجانب المضيء منها ، وتجاوبا بعيدا ، عميقا ، عمق ما في هذه الحياة من تجارب

.

ثم يقول محمد الفيتوري: أشياء كثيرة وقيمة ، يحفل بها هذا الشعر ، سيختلف عندها الدارسون ، والشيء الوحيد الذي سيلتقي عنده الجميع هو أنه ظاهرة شعرية منبئة ، ونقلة فوقية رحبة للتعبير الشعبي الجماعي المصري ، من دور تجربة الموال المحلية إلى دور التجربة الشعرية الإنسانية .

صدر الديوان الأول للشاعر فوزي العنتيل وهو ديوان عبير الأرض عام ١٩٥٦ ، وأهداه إلى الذين يعبرون التاريخ بأذرع معروقة تحمل الفؤوس في صبر ، إلى الذين علموني أن أحب الناس ، إلى أهلي وعشيرتي الفلاحين في قريتي وفي كل القري . وهو إهداء يكشف عن توجه الشاعر في تلك المرحلة ، ووعيه بالرسالة التي يحملها علي كاهله شاعرا وإنسانا ، فهموم الأرض والفلاح ومأساة الحياة في القرية المصرية ـ خاصة في صعيد مصر ـ سوف تصبح النغم الشائع المبثوث في ثنايا قصائده ، والوتر المفعم بالأسي والشجن في كل إبداعاته منذ الخمسينيات وحتي السبعينيات . ولعل ديوان عبير الأرض أن يكون الديوان الثاني بعد ديوان أغاني الكوخ لمحمود حسن إسماعيل ـ الذي صدر في مستهل عام ١٩٣٤ ـ في العكوف علي عالم القرية بهذا العمق والشمول منحازا إلى الفقراء المطحونين والأجراء المستذلين . وهو ما لفت نظر الناقد الكبير الدكتور محمد مندور في مقدمته الضافية للديوان إلى تقيد الشاعر بمذهب واحد هو صدق الوجدان وصدق التجربة البشرية ، وإن يكن وجدان الشاعر من الاتساع بحيث لم ينطو علي نفسه ، ولا اقتصر علي حياته الخاصة ، بل شمل الأرض والسماء ، والريف وأهله . وتوحدت فيه مشاعر الجمال والإحساس به ، سواء أكان هذا الجمال في منظر طبيعي أو في فتاة ، وسواء أكان هذا الجمال شيئا يحس أو شوقا تهفو إلى ه الروح ، ولا غرابة في ذلك . فالحب هو منبع الشعر الأصيل ، وهو لا يقتصر علي حب المرأة أو حب الذات ، بل يمتد إلى حب الطبيعة بل وحب الله ، فضلا عن حب المجتمع وحب الغير والحنو علي آلام الناس وآمالهم .

يقول فوزي العنتيل في القصيدة التي حمل اسمها ديوانه الأول عبير الأرض:

مازلت أشدو ولحني
يهز حولي القرونا
لقد بذرت غنائي
في الكائنات حنينا
فأزهرت كلماتي
فوق الربي ياسمينا
وشققت صرخاتي
حناجر الثائرينا

فإن شعبي ما عاد

ضائعا مستكينا

لقد أحببت ضياء الحياة

يهدي العيونا

أحب فوق رباه

هذا التراب الثمينا

* * * *

يا أرض ، يا أم إني

ظاميء إلى فيض نورك

فأنت أفراح عمر

عمقته في جذورك

إني خلطت دمائي

وثورتي بعبيرك

فأنبتي في ضلوعي

نور الضحي من بذورك

شرب الفجر خمرا

عتقها في ضميرك

وحين قدم الشاعر فوزي العنتيل لديوانه الثاني رحلة في أعماق الكلمات الذي صدر عام ١٩٨٠ ـ بعد مرور قرابة ربع قرن علي صدور ديوانه الأول وبعد أن توقف سنوات طويلة عن كتابة الشعر بسبب ضغوط نفسية وحياتية ، وانهماك في بعثته العلمية لدراسة الفولكلور ، حين قدم لهذا الديوان بلغة شعرية مرهفة ، وتعبير أدبي جميل ، وصدق بالغ مع النفس ، كشف عن موجات الجزر والمد التي عصفت به أنواؤها عبر تلك المسافة الزمنية الطويلة ، وأتاح لقارئه إطلالة علي هذه النفس الشاعرة الجميلة . وهذا الوجدان الانساني المفعم . يقول في هذه المقدمة : في منتصف عام ١٩٥٩ كتبت قصيدة السندباد العربي وبعدها عبرت البحار إلى إحدي الجزر النائية ، إلى ايرلندا عروس الاساطير الكلتية ، وهناك سقطت في غيبوبة الجمال الوحشي بين الغابات المعلقة علي قنن الجبال وتحت البحيرات المختفية في جنبات الوديان المعشبة ، بين أشجار السيكامور وأزهار الشمرك .

واتخذت البحار رفيقا مستلقيا بين أحشاء البواخر ، يغترف سمعي صيحات طيور النورس علي زبد أمواج بحر الشمال .

وتفزعت روحي ذات مساء من شهد القمر الخرافي الذي برز لي فجأة علي شاطئ الأطلسي في دينيجول وأنا مستغرق أحدق في الأفق البعيد أتسمع أصوات سنابك الجياد العربية في السهول ، في ذلك الجانب المقابل من الأطلسي ، والذي كان يوما اسمه الأندلس . وظننت للحظة أنني استطيع أن اتحسس مفتاح بيتنا في قرطبة .

وسبحت علي أجراس أعياد الميلاد ، ونـدف الثلوج ، وعيون الصبايا الجميلات ، وموسيقي يوهان اشتراوس تعزف للبحارة رقصة الدانوب الأزرق في صالة المتروبول ، واخترقت جسمي رصاصة حين عدت إلى الماضي لا طالع وثيقة استقلال أيرلندا علي جدران مكتب البريد العام في دبلن .

وعلقت في مشانق الثورة ، وبعثت من جديد في رسوم المسلة المصرية في ميدان الكونكورد في باريس ، ثم طرت مع السنابل عبر سهول الحنطة في الدانمارك ، وأوراق الخريف في غابات السويد ، وامتزجت بمياه البلطيق وهي تدغدغ أقدام استكهولم العارية ، وتعذبت في عيون آن الحزينة تحت رذاذ المطر في محطة السكة الحديد في أبسالا ثم لا شيء . يدان تنزفان بدم الذكريات وفم أخرس وقلب دفنته في جليد الغربة .
حين عدت من بعثتي لدراسة الفولكلور في آخر عام ١٩٦١ كان مناخ الإبداع الفني والفكري في مصر قد دخل مرحلة المحاق ، ثم أخذت بعد ذلك رياح الفزع تهب من كل مكان ، فأصبح كل شئ في مستوي الموت .

وكنت متعب الجسد والروح فقلت لنفسي هذا زمان لا ينفع فيه الشعر ، زمان علت فيه صرخات المتشنجين والمهرجين ، بينما طلقات البنادق في الفجر تطارد الكلمات وتخنق المشاعر .

عشر سنوات مضت منذ عودتي من أوروبا باعدت بيني وبين الشعر ، ثم غلبني الشعر علي أمري فكانت بداية أخري في قصيدة رحلة في أعماق الكلمات في عام ١٩٧١ ثم بضع قصائد تالية بعد ذلك التاريخ .

لقد عاد فوزي العنتيل من بعثته العلمية في أيرلندا دارسا لعلم الفولكلور وباحثا فيه ومؤلفا لكتاب ضخم يعد مرجعا أساسيا من مراجعه ، هو بمثابة الحلقة الثانية في هذا المجال بعد كتاب الكاتب الكبير أحمد رشدي صالح عن الأدب الشعبي . وتبني فوزي العنتيل الدعوة إلى بناء أرشيف علمي للفولكلور والدعوة إلى الاهتمام بموضوع التراث الشعبي ، ويبدو أن الدعوتين لم تلقيا الصدي المأمول عند وزير الثقافة في ذلك الحين ، وقد كان الشاعر واحدا من موظفيه والخاضعين لسلطانه ودائرة نفوذه . وحين تقدم بكتابه عن الفولكلور لجائزة الدولة في عام ١٩٦٨ لم يلق ما كان يؤمله من تقدير ، فملأه إلى أس

والاحباط ، وكانت البدايات الأولي لمرض الربو الذي تمكن منه ، وقضي عليه في مستهل الثمانينيات في واحدة من أزماته الشديدة الخانقة .

كان فوزي العنتيل شاعرا وانسانا كالنسيم ، لم يعرفه أحد إلا أحبه ، وبادله حبا بحب ، وكان فيض انسانيته ينسكب مودة ودفئا علي كل من حوله من الناس ، حتي الذين لا يعرفهم حق المعرفة ولا تربطه بهم علاقة . وكان شعره - في صفاته وعمقه وشفافيته - صورة لهذا كله ، سواء في مرحلته الأولي التي تبنت الصيغة الشعرية لشعراء المدرسة الرومانسية - شعراء جماعة أبو للو - من أمثال إبراهيم ناجي وعلي محمود طه ومحمود حسن اسماعيل وأبي القاسم الشابي ومحمد عبد المعطي الهمشري أو في مرحلته الثانية التي تبنت الصيغة الشعرية لحركة الشعر الجديد أو الشعر الحر ، فكان من روادها في مصر - بعد عبد الرحمن الشرقاوي وصلاح عبد الصبور - واكتملت هذه الصيغة التجديدية في ديوانه الثاني رحلة في أعماق الكلمات الذي يقول في إحدي قصائده تنويعات صوفية :

يغشاني الحزن إذا الليل تجهم
واستل حسام الظلمة
كي يضرب أعناق الأنجم

*

تنهمر العتمة في الآفاق
وتجري في الأنهار الفحمية
تتساقط أدمع نجمة
في خلجان الليل الوحشية

*

يقهرني الحزن ، ولكني
لا أقدر أن أذرف دمعة
فالدمع تجمد في الأحداق

* * *

أحلم ساعة بأن ضوء فجرها
سوف يمر من هنا
سوف يمر هامسا إلى الربي بعطرها
فتنبت الزنابق البيضاء في الجبال
وتورق الألوان في بحيرة الظلال

*

من ألف عام ، وأنا معذب بسرها
أخاف إن بحت به يمزقون سترها

*

وذات يوم ذرت الشمس شعاع تبرها
علي جدائل الشمس التي في شعرها
فانسكبت روحي وذابت في رحيق ثغرها
فلم أبح بسرها !

كان من سوء حظ فوزي العنتيل أنه عاش سنواته الأخيرة في عصر سيطرت علي كثير من نقاده ومفكريه الايديولوجيات التي صنفت المبدعين والأدباء ، فأصبحت النظرة إلى العمل الادبي تقيمه وتحلله باعتباره كائنا سياسيا قبل أن يكون عملا إبداعيا فنيا في المقام الأول . وساد ما يسمي بنقد المضمون والكشف عن الموقف الطبقي للمبدع ، والحديث عن السياسة والاجتماع والاقتصاد بأكثر من الحديث عن أدبية العمل الأدبي ، خاصة الشعر الذي هو تكوين لغوي في الأساس ، ولم تكن طبيعة فوزي العنتيل العازفة عن التجمعات والشللية والارتزاق باسم الايديولوجية والانخراط في مواكب الطامعين في السلطة أو المتسلقين علي أعناق الآخرين - لم تكن طبيعته تسمح له بمجاراة هؤلاء أو الخوض فيما يخوضون . كان يكتفي بصحبة أصدقائه الاثيرين الذين هم علي شاكلته . وكان يختص بمودته ومحبته وتقديره صلاح عبد الصور وأحمد هيكل و عبد الحكيم بلبع والسعيد بدوي ومحمود الربيعي وابراهيم الترمذي فضلا عن رفيقيه في رابطة النهر الخالد محمد الفيتوري وكمال نشأت .

وعندما رحل فوزي العنتيل لم يترك وراءه شعرا كثيرا ، ولا أبحاثا ودراسات متراكمة ، لكنه ترك عطرا جميلا نافذا يفوح من قصائده القليلة في ديوانيه عبير الأرض و رحلة في أعماق الكلمات وعطرا أجمل يفوح من سيرته الإنسانية وشخصيته النبيلة الحانية . وهو عطر يبقي شاهدا علي الحضور المتجدد لا نسان رائع وشاعر جميل ما أشبهه بالنسيم !

ملك عبد العزيز: المقاتلة بالهمس

بقلم: فاروق شوشة

لم تعرف الحياة الأدبية المصرية شاعرة أكثر رقة وحساسية وصفاء وجدان واكتمال شخصية من الشاعرة الكبيرة ملك عبد العزيز التي رحلت فجأة في الأسبوع الماضي ـ إثر حادث قدري ما ساوي هو سقوط جزء من شجرة فوقها وهي تسير في الطريق لتلقي مصرعها علي الفور وهي في كامل عافيتها ونشاطها وحيويتها وقدرتها علي المشاركة والعطاء . ولتكتمل بهذا الحادث حلقة جديدة ، في تلك الدائرة الجهنمية التي أخذت تدور ومعها ألوان شتي من حوادث الطريق ، لا نملك لها دفعا ولا صدا ، ولاتوجيه الاتهام إلى أحد بعينه ، بينما تساقط نفس كل منا أنفسا كما كان يقول الشاعر القديم . ولقد كانت هذه الصفات الأصيلة في ملك عبد العزيز: الرقة والحساسية وصفاء الوجدان هي أول ما لفت انتباه أستاذها الدكتور محمد مندور إلى ها إنسانة وشاعرة وبتعبيره هو في تقديمه لديوانها الأول: كان الشعر المنبعث من شخصية ملك عبد العزيز ومن نبراتها الهامسة هو الذي هدي روحه الظمأي إلى الجمال . وكان هذا الشعر الهامس لملك عبد العزيز وراء مصطلح الشعر المهموس الذي أذاعه الناقد الكبير الدكتور محمد مندور في كتاباته النقدية المبكرة ، وأخذ يطبقه علي شعر المهجريين ثم علي شعر عدد من الشعراء المصريين وعندما تم زواج الأستاذ بتلميذته في كلية الآداب ـ وهي لا تزال طالبة في السنة الثالثة عام ١٩٤١ أتيح للشاعرة الواعدة سند أدبي وإنساني قوي ، كما أتيحت لها أيضا حياة عاصفة مليئة بالكفاح والمواجهات نتيجة للنضال السياسي والاجتماعي الذي خاضه الدكتور مندور ـ الذي أصبح واحدا من نجوم الطليعة الوفدية فيما بعد ـ والذي تعرض لكثير من المحن القاسية كان أقساها تعرضه لا ستئصال ورم أسفل المخ كاد يودي بحياته ، وكانت هي إلى جواره بمثابة ملاكه الحارس وهو يجري العملية في أحد مستشفيات لندن .

وعندما أصدرت ملك عبد العزيز ديوانها الأول أغاني الصبا كان قلم الدكتور محمد مندور يؤازر هذا الحدث الشعري البالغ الأهمية في حياتها: زوجة وشاعرة ، فهو يعلن أنها هامسة في شخصها وفي نبرات صوتها وفي نغمات شعرها ، ومع ذلك ففي همسها قوة روح وجلال صوفي ويؤكد أن شعر ملك عبد العزيز من شعر الوجدان الصافي ، وأغلب انفعالاته من مشاهد الطبيعة التي تجاوبت مع روحها ، ومع ذلك فإنه وجدان أبعد ما يكون عن الأنانية أو الانطواء علي الذات ثم يقول: فأنا أعرف الشاعرة شديدة الحساسية بأفراح الغير وأتراحهم ، دائمة المشاركة في قضايا الوطن والشعب ولا أدل علي ذلك من مطولتها الرائعة عن شهيدنا الفدائي جواد حسني ، ولكنها شاعرة لا تسجل أحداثا

ولاتعلق علي أحداث ولاتستطيع ذلك لا نها وجدانية الطبع لا تستطيع أن تقرض الشعر إلا تصويرا لما تنفعل به روحها الصافية البالغة الحساسية .

وتذكرنا المقدمة الصافية التي كتبتها ملك عبد العزيز لديوانها الأول بالمقدمات التي كتبتها الشاعرة العراقية الكبيرة نازك الملائكة لدواوينها الأولي والحرص علي التحليل الموسيقي والعروض للقصيدة الشعرية الجديدة وتحاول ملك عبد العزيز أن تفسر لقارئها الجمع بين الصيغتين أو الشكلين العمودي والحر في ديوانها الأول وميلها الواضح إلى نوع أكثر من الحرية في استخدام التفاعيل وهي تري أن الطريقة الجديدة الحرة في إبداع الشعر ــ ليست ـ وينبغي ألا تكون ـ مذهبا . إلا أن يكون الشاعر الذي يلتزمها يلتزم ـ بطبيعته ـ التعبير عن ألوان بعينها من المشاعر هي التي تناسبها هذه الطريقة دون غيرها فضلا عن أنها تناسب ألوانا من الأحاسيس الغائرة لا الفائرة ، وتناسب أنواعا أخفت همسا مما سماه من قبل الدكتور مندور بالشعر المهموس ثم تقول بوضوح: فهناك ألوان من الأحاسيس ليس لها هذا الوضوح ولا تلك الجهارة التي يضفيها التعبير بالأوزان الكاملة والموسيقي المطردة علي الشعر ، كما أن هذا الشكل الجديد أقدر علي تصوير العواطف والأحاسيس المتموجة في القصيدة الواحدة ، كأن تبدأ القصيدة هادئة ، ثم تفور فيها الأحاسيس أو تبدأ مظلمة ثم مشرقة ثم مظلمة مرة أخري أو العكس أو أي نوع آخر من أنواع التموج .
وتلفت الشاعرة انتباه القاريء إلى قصيدتها في العشق باعتبارها نموذجا تطبيقيا علي هذه المستويات المختلفة المتموجة في القصيدة الواحدة ، حين تقول:

في الغسق
شق قلب الغيب والغيم شراع
وادع الخطو مضيء كالشعاع
نوره غض ومسراه رفيف وأمان
نوره يحنو علي الظلمة يدحوها
بكف من حنان
لؤلؤةلم يزل يقطر منها زبد الأمواج بكر لم تمس
ضوأتها الشمس في فجر رطيب
بشعاعات الغلس
غسلتها في قرار الموج ربات البحار
وحبتها بالصفاء البكر ألوان المحار
والقمر
سرقت من نوره ألف شعاع
من حنان وصفاء ونغم

جدلتها خلف أستار الزمن

في الظلال الناعمات

في المروج الدافئات

وحبتها للشراع الوادع

فسري كالحلم منغوم الرؤي

ناعم الخطو مضيئا كالشعاع

وفي ختام القصيدة يتصاعد المد الشعوري في لوحة عنيفة مغايرة حين تقول:

ثم لا حت ظلمة من بعد ظلمة

سحب سوداء نكراء الحواشي مدلهمةبسطت أذرعها المعقوفة الشوهاء

كالشجي اللعين

فغرت أفواهها النكراء

كالوحش الطعين

وطوته

طوت الزورق في أعماقها الغبراء

حلما ضائعا

وبدا الليل وحيدا والسكون !

هذه اللغة المرهفة الشفيفة ، وهذا الإحساس الشعري الأنثوي بالحياة والوجود وظواهر الطبيعة ، والقدرة علي تصوير حالات القلب الإنساني في مستوياته المختلفة من حالات الجزر والمد ، كل ذلك جعل من ملك عبد العزيز شاعرة متميزة الحضور بين شاعرات جيلها بخاصة الشاعرتين اللتين استمر عطاؤهما الشعري لعقود من الزمان: جليلة رضا وجميلة العلايلي . وأصبحت ملك عبد العزيز الشاعرة المصرية الوحيدة المؤهلة للحاق بالشاعرتين العربيتين الكبيرتين نازك الملائكة وفدوي طوقان ، وأوشكت أقول وسلمي الخضراء لولا انصرافها عن الشعر بعد ديوانها الأول الوحيد العودة من النبع الحالم وكان يمثل إبداعا شعريا حافلا بالوعود لولا انغماسها في البحث الاكاديمي ومشروعات الترجمة وظلت ملك عبد العزيز علي إخلاصها وولائها للشعر . ديوانها الأول أغاني الصبا الذي يحمل ملامح شعر البداية ، وإن كان يبشر بالجينات الشعرية التي لن تتغير عبر مسيرتها الشعرية واتساع أفقها الإبداعي واستقرار أدائها الهامس العميق المفعم ـ علي طول المدي الزمني ـ بألوان من الشجن والمرارة والشك والقلق ، وألوان مقابلة من التصميم والتحدي والمواجهة والانخراط في غمار التيار التقدمي والتنويري ، بعد هذا الديوان الأول تواصل إبداع الشاعررة في دواوين قال المساء وبحر الصمت ، وأن ألمس قلب الأشياء وأغنيات الليل وهي الدواوين الخمسة التي ضمتها مجموعة أعمالها الشعرية الصادرة عن

مكتبة مدبولي عام ١٩٩٠ ، وبعدها صدر لها عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ديوانها السادس والأخير شمس الخريف عام ١٩٩٨ ، وهو الديوان الذي جمعت فيه قصائدها الأخيرة عبر أكثر من عشر سنوات .

ولقد كان الدكتور مندور علي حق وهو يضع يده منذ البداية علي أحد المفاتيح المهمة في شخصية ملك عبد العزيز وحقيقتها الشعرية ، وهو علاقتها الحميمة بالطبيعة في شتي تجلياتها ، وهي العلاقة التي بدأت رومانسية حالمة ثم عمقت لتصبح علاقة كونية يتخللها حس صوفي ووتر وجودي ، المثير الآن للدهشة والمفارقة أن هذه الطبيعة التي هامت بها تأملا ووجدا وحلولا وانجذابها كانت السبب في مصرعها من خلال إحدي شجراتها التي أدركها الجفاف والموت ـ وهناك مئات الأشجار غيرها ـ في القاهرة وحدها ـ تنتظر لحظة طقوسها علي العابرين وعلي السيارات وعلي البيوت لا ن أيدي المسئولين عن قطعها قد قيدها قانون عدم قطع الأشجار لكن السؤال هو: أية أشجار تلك التي لا تقطع ! وبالمقابل هناك مئات الأشجار التي أدركها العقم والجفاف والموت وأصبحت قنابل موقوته لا يدري أحد موعد انفجارها المحتوم !

هذا الإحساس الغامر بالطبيعة سمته أساسية في شعر ملك عبد العزيز بدءا بديوانها الأول وانتهاء بديوانها الأخير وكثيرا ما كانت تجد في الطبيعة وفي الشجر علي وجه الخصوص مرآة واقعها الإنساني وتجسيدا لمعاناتها الروحية تقول ملك عبد العزيز في القصيدة التي اتخذتها عنوانا لا حدي مجموعاتها الشعرية : أن ألمس قلب الأشياء

أن ألمس قلب الأشياء
أتغلغل في لب الشجر المتد الأفياء
أتمدد في الخضرة
أتوهج في الثمر العذب الإرواء
واغوص بعمق البحر وأشتف الانحاء
أتسلل في اللؤلؤ في اعشاب البحر الخضراء
أتحلل في حضن النهر
قطيرات من ري وخصوبة
وأذوب عطاء وعذوبة
أن أسري في الزهر عطورا فواحة
في الأفق رياحا
في قلب الطير لحونا وغناء
في زبد البحر ضياء
لونا في الشفق الذائب في الآفاق

ألقا في النور السابح في الأحداق نغما في الموج ، رعودا في الإعصار
ظلا في الغيم ، رذاذا في الأمطار
وهجا في الصبح ، ندي في قلب الأسحار
حين تعانقنا
هل ذاب عصير الروح خلال الروح ،
هل امتزجت كل الأهواء ؟
هل صرنا كلا متحدا
يتحدي وجه الأشياء ؟
أم قام جدار
يفصل بين الأغوار
يجعلنا اثنين غريبين
ويجعل كل حوار
زيفا تلفظه الأفواه
لاتدرك يوما معناه !
أن نتجاور ليس القرب
أن نعطي سر القلب
ألا نحتجز هوانا شحا وضغينة
أن ننسي الذات ونفني في المحبوب
رضا وسكينة
حين نجود بسر القلب
حين نجود بفيض الحب
تتداعي الجدران وتنهد
عندئذ ، نلمس قلب الأشياء
نلمس قلب الأشياء
نلمس قلب الأشياء

توشك هذه القصيدة أن تكون بيانا تتقدم به الشاعرة إلى الحياة والناس ، ودعوة شعرية إلى فهمها علي حقيقتها والتعامل معها من خلال هذه النظرة الإنسانية الحانية والواعية في آن .

والذي لا شك فيه أن وعي الشاعرة العميق بالحياة ، وإدراكها اللهم الوطني والقومي والإنساني ، كانا مفجرين للعديد من قصائدها التي أطلقتها وكأنها صيحات احتجاج أو غضب أو نبوءة ، أو أناشيد تمجيد للبطولة والأبطال والمناضلين والشهداء ،

مثـل قـصيدتها الـشهيرة في بطـل القتـال الـشهيد جـواد علـي حـسني الـذي استـشهد إبـان العـدوان الثلاثـي علـي مـصر عـام ١٩٥٦ ، وقـصيدتها عـن وصـية الـشاعر الأوكرانـي المكـافح شيفـشنكو الـتي كتبهـا عـام ١٨٤٥ ، وقـصيدتها البديعـة أغنيـة إخـاء عـن تمجيـد الأخـوة والمـشاركة الإنـسانية بغـض النظـر عـن اللـون والجـنس وقـصيدتها الحـائرة أغنيـة إلى جيفـارا وقـصيدتها بطاقـة إلى الـشهيدة سـناء مهيـدلي الـتي فجـرت نفـسها وهـي تقـاوم الاسـتعمار الإسـرائيلي للبنـان وغيرهـا مـن القـصائد الـتي تنطـق بـالحس النـضالي والمـشاركة الواعيـة في حميـا التحـرر الـوطني والقـومي والإنـساني . وهـو الوجـه التقـدمي المـشرق للـشاعرة ملـك عبـد العزيـز الـتي لم تنغلـق علـي ذاتهـا ، ولم تتقوقـع داخـل جـدران مـا سـاتها الخاصـة كمـا فعلـت رفيقـات جيلـها الـشاعرات لكنهـا وقـد تتلمـذت علـي المناضـل والإنـسان الكـبير محمـد منـدور وشـاركته كمـا قـال هـو عنهـا : كـان لنـا في حياتنـا المـشتركة مـن الأهـوال والمغـامرات في ميـادين الـسياسة والثقافـة والحيـاة العمليـة ممـا يهـز أقـوي النفـوس . ومـع ذلـك فأشـهد الله أنـي مـا أحسـست منهـا يومـا غـير صـلابة العـزم واطمئنـان الثقـه وعمـق الإيمـان ، ممـا آزرنـي في أقـسي المحـن وأمـدني بـذلك الفـيض الروحـي الـذي جابهتهـا بـه ، حـتي انتـصرنا معـا في معركـة الحياة . فقد ظلت علي ولاءها لقيم العدل والحرية والكرامة والكبرياء .

وترحـل عنـا ملـك عبـد العزيـز ، وتخلـي مكانهـا الـذي كانـت تملـؤه بحـضورها وشـفافيتها وإنـسانيتها في لجنـة الـشعر بـالمجلس الأعلـي للثقافـة ، وأمومتهـا الـتي كانـت ترعـي بهـا الأجيـال الجديـدة المتمـردة مـن الـشعراء ـ المخـتلفين عنهـا لغـة ورؤيـة وتكوينـا وتوجهـا ـ لكنهـا تفـيض علـيهم مـن أمومتهـا وفهمهـا ومتابعتهـا بـالرغم مـن ذلـك كلـه ، ومكانهـا الرائـد والمتقـدم بـين شـاعرات مـصر ، إحـساسا راقيـا نبـيلا ، وقلبـا شـجاعا جـسورا ، وإنسانية سمحة بلا حدود .

على هامش مسلسل أم كلثوم : بيروم التونسي أمير شعراء العامية

بقلم : فاروق شوشة

مازال الإشعاع الساطع لمسلسل أم كلثوم الرائع يمنحنا متعة الاستمتاع بالفن الجميل تأليفا وإخراجا وأداء ، وبهجة إعادة اكتشاف العديد من الشخصيات الفنية والأدبية والسياسية التي امتلأ بها عصر أم كلثوم ، وكانوا نجوما تدور في فلك الكوكب الأعظم ، ويكشف كل نجم منها عن وجه من وجوه تلك الشخصية الآسرة التي لم تكن مجرد صوت عبقري ، لكنها كانت أيضا شخصية عبقرية بكل المقاييس .

يجيء بيرم التونسي بعد أحمد رامي في ترتيب العلاقة مع أم كلثوم: عمقا واستمرارا ، ومشاركة في رحلة الحياة والإبداع ، رامي هو صاحب الإنتاج الأغزر في مجال الأغنية الكلثومية ، والزمن الأطول في الصحبة والمجاورة ، أما بيرم التونسي ـ الذي سبق بالرحيل في يناير عام ١٩٦١ ـ فقد انعكس عليه ما دب بين أم كلثوم والشيخ زكريا أحمد من خلاف وصل بهما إلى ساحة القضاء ، وكانت القطيعة بينهما طيلة عشر سنوات قطيعة مع بيرم في الوقت نفسه ، الذي كان يقف في صف الشيخ زكريا ويحسب عليه ، وكان رامي وحده فارس هذه السنوات العشر بروائعه التي شدت بها أم كلثوم ، وتجلت من خلالها عبقرية ملحنها الوحيد طيلة هذه السنوات العشر: رياض السنباطي .

لم يكن من الصعب اكتشاف الحقيقة الواضحة والملموسة: ثنائيان متنافسان يتصارعان علي قمة الهرم الكلثومي الغنائي الأول ركناه أحمد رامي ورياض السنباطي والثنائي الثاني ركناه بيرم التونسي وزكريا أحمد ، وكان لكل واحد منهما مذاقه وتميزه كلاما ولحنا ، رامي برقته الشديدة ورومانسيته المحلقة وكلماته الباكية شجنا وأسي وضعفا وانكسارا وتبتلا في محراب المحبوب والسنباطي بألحانه السامقة ـ كنخيل مصر ـ المفعمة بالقوة والشجن والتدفق الروحي العارم ، وبيرم التونسي بطابعه الشعبي البعيد عن لغة الصالونات والمجالس والرجولة المستأنسة ، والأكثر ارتباطا بعالم المأثورات الشعبية ونبض المواطنين البسطاء في القرية والحي الشعبي ، في الريف والمدينة ، لذا فقد كان طبيعيا أن تجد كلماته معادلها الموضوعي في مجال اللحن والموسيقي علي يدي الشيخ زكريا أحمد الخارج من حومة التواشيح والأذكار والارتباط بالبيئة الشعبية التي جعلته أكثر قربا من فن سيد درويش وروحه في الموسيقي والتلحين ، وتمثلت عبقرية أم كلثوم ـ الانسانة والفنانة ـ في الجمع بين النموذجين ، حتي يزداد فنها اكتمالا وقدرة علي التنوع ، كما نجحت من قبل في تجسيد الروح التجديدية لعبقرية محمد القصبجي اللحنية والموسيقية والتعبير عن تجلياتها بكل الأصالة والاقتدار .

بين رامي وبيرم بون شاسع هو بون الاختلاف بين المبدعين العظام ، وجدان بيرم ينتمي إلى طفولة شقيت وعانت في مسقط رأسه بالاسكندرية بين عالم الكتاب والدكان ـ الذي عمل فيه صبي بقال ـ ومسجدي أبي العباس والبوصيري ، لم تكن طفولته منعمة ولا هانئة ، ولا كان ميلاد كلماته الأولي ، في مجال الإبداع الشعري ، مرتبطا بالحب والعيون والدموع والسهر والفراق ـ كما كان الحال عند رامي ـ لكنه كان مرتبطا بموقف وطني ثوري ينطق فيه بآلام الجماهير ومعاناة الشعب في الاسكندرية ضد المجلس البلدي الذي كان يسيطر عليه الأجانب ويسوم الناس العذاب من خلال ما يفرضه عليهم من ضرائب فادحة بحجة تعمير المدينة ، وكانت قصيدته الساخرة بمثابة الطلقة الأولي التي أصابت هدفها في الصميم وجعلت اسم بيرم علي كل لسان وهو يقول:

قد أوقع القلب في الأشجان والكمد
هوي حبيب يسمي المجلس البلدي
أمشي وأكتم أنفاسي مخافة أن
يعدها عام ل للمجلس البلدي
إذا الرغيف أتي بالنصف آكله
والنصف أتركه للمجلس البلدي
كأن أتي بك الله تربتها
أوصت فقالت: أخوك المجلس البلدي
أخشي الزواج إذا يوم الزفاف أتي
أن ينبري لعروسي المجلس البلدي
وربما وهب الرحمان لي ولدا
في بطنها يدعيه المجلس البلدي
حتي نصل إلى بيته الرائع:
يا بائع الفجل بالمليم واحدة
كم للعيال وكم للمجلس البلدي !

يقول طاهر أبو فاشا عن هذه القصيدة: ومع أن هذه القصيدة ليست من أطايب بيرم ، إذ إنها إنتاج مبكر يدخل في باب المحاولات الأدبية لشاب ناشيء من شداة المتأدبين ، إلا أنها أحدثت دويا شديدا ، وكان لها صدي بعيد ، فقد وقعت علي الجـــــــــرح .

وأصابت ما في نفوس الجماهير الذين وجدوا فيها متنفسا لمعاناتهم من إرهاق هذا المجلس البلدي ولهذا راجت علي ألسنة الناس من مختلف الفئات والطبقات ، واستظهروها وتناشدوها ، وكتبها الخطاطون علي لوحات علقت في الأماكن العامة ، وأنشدها

المنشدون في حلقات الذكر في مولد أبي العباس ، وقام بتشطيرها بعض الشعراء ، وخمسها بعضهم ، وادعاها أكثر من شاعر ، فأرسلها بيرم إلى جريدة الأهالي وكانت صحيفة مشهورة يحررها ويصدرها بالاسكندرية المرحوم عبد القادر حمزة ، فنشرها موقعة باسمه بيرم التونسي وتساءل الناس: من بيرم ؟ وإذا بيرم هو ذلك الفتي القليل الذي يواجه الحياة مجردا إلا من هذا الاستعداد المتفجر .

كان والد بيرم يحلم بأن يكون ابنه عالما فقيها فألحقه بالمعهد الديني في مسجد أبي العباس ، لكن وفاته المبكرة جعل بيرم يرتد إلى الدكان الذي كان يعمل فيه ، بالرغم من استعداده القوي المبكر للتعلم ، المتمثل في ذكائه اللماح وحافظته القوية وقراءاته المبكرة للعديد من أمهات الكتب وحفظه للعديد من القصائد ، وفي الدكان يتنكر له شركاء أبيه من أبناء عمومته ، فيخرج من تجارة أبيه فقيرا لا يملك شيئا ، ثم تموت أمه وتلحق بأبيه ، ويواجه الصبي حياة كالحة قاسية ، لا سند له فيها من عطف أو حنان ، ولم يجد عونا إلا من خلال رواج قصيدته عن المجلس البلدي وإعادة طبعها مرات ، يتخاطفها فيها الناس وتدر عليه ما يحفظ عليه الرمق ، وينتهي به الأمر إلى إصدار مجلة المسلة التي استوحي اسمها من مسلة الاسكندرية الأثرية ، ولم يجد ما يكتبه علي غلافها إلا هذه الكلمات: المسلة لصاحبها محمود بيرم التونسي صاحب قصيدة المجلس البلـــــــــــــــــــدي .

وفي القاهرة يصدر بيرم العدد الثاني من المجلة حاملا هذا العنوان المسلة ، لا هي جريدة ولا مجلة ويعلنها حربا شعواء علي الاستعمار والقصر ، فتكون النتيجة نفيه وترحيله إلى تونس: موطن أجداده ، وعندما يشتد به الحنين إلى مصر ، وإلي الأهلية والولد ، يتسلل عائدا إلى الوطن بعد سنتين اثنتين ، وسرعان ما يكتشف أمره ، ويرحلونه في هذه المرة إلى فرنسا ، حيث يضطر إلى العمل حمالا وعاملا في مصنع للصلب ، ثم في مصنع للبسكويت وخادما في أحد المتاجر ، وفي شعره ينفس عن ثورته ومعاناته:

الأوله آه
والثانية آه
والثالثة آه
الأوله مصر ، وفي مصر قالوا تونسي ونفوني
جزات الخير وإحساني
والثانية تونس ، وفيها الأهل جحدوني
وحتي الغير ما وافاني
والثالثة باريس . . . وفي باريس جهلوني
وأنا موليير في زماني

الأوله أشكيها للي أجري النيل
والثانية لطشت فيها ممتثل وذليل
والثالثة دمعي عليها غرق الباستيل

وتبدأ مرحلة جديدة من النفي والتشريد ، والتنقل من مكان إلى مكان ، فالسلطات الفرنسية تنفيه إلى تونس مرة ثانية ، ثم تنفيه مرة أخري ، وينتهي به المطاف إلى الشام ، وسرعان ما تتسبب أشعاره وأفكاره الثورية في نفيه من جديد إلى فرنسا ، لكن السفينة التي تقله من اللاذقية إلى مرسيليا تمر ببورسعيد وتتوقف لتتزود بالمؤونة والوقود ، وينجح بيرم في الهرب والتسلل مرة أخري إلى وطنه مصر ، ويظل مقيما بصورة غير رسمية حتي تقوم ثورة يوليو عام ١٩٥٢ ، فتمنحه الجنسية المصرية ، تقديرا لثوريته ، وفنه العظيم ، وكفاحه الذي تفجرت براكينه في مصر وتونس والشام وفرنسا .

كان شوقي - أمير شعراء الفصحي - يقول: لا أخاف علي الفصحي إلا من أزجال بيرم ، ولم يحسن الكثيرون فهم مقولة شوقي وظنوها تحمل هجوما عنيفا من شوقي علي فن بيرم الذي يسيء إلى الفصحي ويهددها ، بينما عبارة شوقي - في جوهرها - تحمل تقديرا لعامية بيرم التي يراها مكافئة لبلاغة الفصحي ومنافسة لا بداعها ، ولايمكن أن يكون شوقي - وهو الذي أبدع العديد من قصائده بالعامية ليتغني بها محمد عبد الوهاب في مقتبل حياته الفنية - لا يمكن أن يكون خصما للعامية أو معاديا لها وهو الذي تفوقت بعض إبداعاته بها مثل خليل جبران والنيل نجاشي وفي الليل لما خلي علي بعض قصائده الفصيحة ، . وتراث بيرم التونسي - في شعره ونثره - يقول لنا بوضوح إن إبداع العامية هو الوجه المقابل والمكمل لا بداع الفصحي ، وان للعامية - في هذا المستوي من الإبداع - بلاغتها الحية ، ونفاذها الحاسم إلى وجدان المتلقي وقدرتها الأكثر علي التغيير والتطور والعصرية بالمقارنة بالفصحي الأكثر ثباتا والأبطأ في معيار التغيير والتطور ، فضلا عن أن عام ية بيرم التي تعد حيا متطورا لا زجال ابن قزمان أول زجال أندلسي في تاريخ الأدب العربي كانت إلهاما رائعا لشعراء العامية الرواد فؤاد حداد وصلاح جاهين ومن بعدهما عبد الرحمن الأبنودي وسيد حجاب وأحمد فؤاد نجم وسمير عبد الباقي وغيرهم ، بيرم التونسي هو الريادة الحقيقية والأب الروحي فنيا لكل هؤلاء المبدعين الذين حملت كتاباتهم تسمية شعر العامية بينما ظلت كتابات بيرم توصف بالزجل ، وتحمل بصمات انتمائه إلى ديوان الشعر العربي استيعابا وتمثلا ، وقدرة علي الاختراق والتجاوز .

كان بيرم - بحجمه الضئيل ورأسه الكبير - بركانا من التمرد والغضب والثورة ، حادا عنيف الطبع والمزاج ، لم يكن ذلك بالمستغرب من إنسان عاش ظروفه الصعبة المتقلبة ومعاناته الطويلة القاسية وحياته التي خلت من طعم الأمان والاستقرار ، وكانت

ثقته بالناس شبه منعدمة ، كنت ألمح شواهدها من خلال مشاهدتي له في مبني الإذاعة القديم بشارع الشريفين عندما يجيء لملاقاة محمد حسن الشجاعي - مستشار الاذاعة للموسيقي والغناء - الذي تحققت علي يديه وخلال عمله الاذاعي كنوز المختارات الغنائية ومن بينها كثير مما أبدعه بيرم ، ومحمود حسن إسماعيل المستشار الثقافي للاذاعة ورئيس لجنة النصوص الغنائية ، كان يستفزه جدا أن يهتم أحدهما - الشجاعي أو محمود حسن اسماعيل - بأدني ملاحظة علي ما صاغه من كلمات ، وكان اعتزازه الشديد بفنه ، ينم عن إدراك عميق لجوهر عبقريته الفذة في الإبداع ، وعن اختلافه وتمايزه وتفرده عن كل الآخرين ، وعن إحساسه بصدقه العميق مع النفس ، فهو ليس تاجرا أو مهرجا أو لا بس أقنعة ، يلبس لكل حال لبوسها ، لكنه - أولا وأخيرا - وطني صادق ، ومكافح عنيد ، وشاعر يحترم نفسه وفنه ، وساخر كبير - له تعليقاته اللاذعة وسخريته المرة من كتابات الآخرين ، التي تردد مفردات اللوعة والأنين والشكوي والتباكي لا نها - في رأيه - تفتقد عواطف الرجولة ، وكرامة المحبين ، وتتوسل بالضعف والهوان ، وهو ما يرفضه ويأباه .

وبالمقابل ، فإن محمد حسن الشجاعي ومحمود حسن إسماعيل ومعهما أحمد رامي - في لجنة النصوص الغنائية - كانوا يحملون لبيرم وفنه تقديرا عميقا ، ويضعونه في منزلة رفيعة ومكانة عالية ، وكانوا يواجهون اعتداد بيرم واعتزازه بفنه ، بروح الفهم والمودة ، وكثيرا ما استمعت إلى الشجاعي وهو يطالبه بالمزيد وبألا ينقطع كثيرا عن الإذاعة ، فقد كان كثير الانقطاع والتوقف خاصة في سنواته الأخيرة ، التي بدأت فيها أحواله الصحية تضطرب وتسوء ، كما كان محمود حسن إسماعيل ، الذي لا أراه يحتفي كثيرا بغيره من الشعراء ، يتبسط كثيرا مع بيرم ، ويبالغ في الترحيب به ، بأكثر مما يفعل عادة مع رامي ، وعندما ذكرته بما كان يفعله مع بيرم ذات مرة - وكان ذلك بعد رحيله - أجابني باعتزاز بيرم طينة أخري ، ليس في فنه تصنع ، ولا ترقق مفتعل ، وعاميته وحشية ، مقتحمة ، لا نها أكثر صدقا وحياة .

كما كان الشجاعي يتغني في ساعات صفائه وخلو مكتبه من طلاب الحاجات - من المؤلفين والملحنين والمطربين - بقصيدة بيرم شمس الأصيل ويضغط علي كلماتها بصوته الأجش ، الخالي من أية قدرة علي التطريب ، بالرغم من قدرته الفذة علي التعبير:

شمس الأصيل دهبت خوص النخيل يانيل
تحفة ومتصورة في صفحتك ياجميل
أنا وحبيبي يانيل نلنا أمانينا
مطرح ما يرسي الهوي ترسي مراسينا
والناي علي الشط غني والقدود بتميل

علي هبوب الهوي لما يمر عليل
والليل إذا طال وزاد تقصر لياليبنا
واللي ضناه الهوي باكي وليله طويل

وعندما تغنت أم كلثوم برائعة بيرم هوه صحيح الهوي غلاب .

بعد الصلح مع الشيخ زكريا أحمد وإنهاء القطيعة التي دامت بينهما عشر سنوات ، كان الشجاعي أسعد الناس بالأغنية كلاما ولحنا وأداء وكان يردد أخيرا وجدت أم كلثوم القمة التي تبحث عنها .

كان هذا قبل أن تقدم أم كلثوم رائعتها الأطلال بعدة سنوات ولو أن العمر امتد بالشجاعي ، واستمع إلى الأطلال التي اكتمل فيها إبداع إبراهيم ناجي ورياض السنباطي لكان له رأي آخر !

على هامش مسلسل أم كلثوم : أحمد رامي . . بين القصيدة والأغنية

بقلم: فاروق شوشة

من المآثر الباقية للمسلسل التليفزيوني الرائع عن أم كلثوم أنه يعيدنا إلى عصر الفن الجميل . الكتابة الدرامية المتقنة ، المتكئة إلى الفن والدراسة ، والإخراج المتميز القادر علي تجسيد النص الدرامي وتحويله إلى حياة حقيقية فضلا عن اختيار العناصر الملائمة لتصوير الشخصيات التي وصل كثير منها إلى ذروة الإتقان خاصة شخصيات أم كلثوم وأمها وأباها ، ووجد البعض الآخر دور العمر الذي يعد نقلة نوعية ونقطة تحول كبري في حياته الفنية وهو يجسد شخصيات محمد القصبجي وزكريا أحمد وأحمد رامي . وساعدت الموسيقي التصويرية المأخوذة عن ألحان بديعة تغنت بها أم كلثوم والمادة العلمية التي أفاد منها كاتب المسلسل ، بحسه الفني المرهف ووعيه العميق المستنير ـفي إضاءة المسلسل بالأصالة والصدق وحرارة التأثيرـ وجعلت منه درسا في تحقيق المتعة الراقية وتجليات الإبداع الدرامي وإضاءة نجم ساطع ـوليس مجرد شمعة واهنةـ بين ظلام الإسفاف والسوقية والابتذال الذي يغشي العيون والعقول والقلوب ويفقد الكثير من إنتاج الدراما التليفزيونية معناه ورسالته .

وعندما يذكرنا هذا المسلسل الرائع بعصر الفن الجميل ، فإنه يدعونا ـبصورة غير مباشرةـ إلى إعادة اكتشاف أحمد رامي ، الشاعرالكبير الذي سجنه إيمانه بفن أم كلثوم وعشقه لصوتها وأدائها وتأثيرها الهائل في الجماهير ورفقته الملازمة لها لا كثر من نصف قرن من الزمان ، سجنه هذا كله في إطار الأغنية ، والأغنية العامية علي وجه الخصوص ، إلا من استثناءات قليلة ظفرت فيها بعض قصائده الفصيحة بألحان كبار ملحني زمانه ـخاصة محمد القصبجي في أول الأمر ثم رياض السنباطي في معظم الرحلة والمسارـ وأدي به هذا التفاني والإخلاص النادر ـلمغنية العصر الذائعة الصيتـ إلى نسيان دوره الشعري . فعرفه الناس مؤلفا للأغاني أكثر مما عرفوه شاعرا ، بعد أن لمع اسمه في أوائل العشرينيات ولفت الأنظار إلى إبداعاته الشعرية الأولي التي ازدانت بنشرها المجلات والصحف وفي مقدمتها مجلة الشباب التي نسب إلى ها أحمد رامي فأصبح يسمي شاعر الشباب حتي نهاية العمر . وظن الناس أن التسمية سببها روحه الشعرية الشابة ، واحتفاؤه الدائم بموضوعه الأثير الحب في شتي صوره وتجلياته .

يقول رفيقه في رحلة الشعر والحياة صالح جودت وهو يقدم لديوانه : شاء له القدر أن يلتقي بأم كلثوم ، في منتصف العشرينيات ، فإذا هو يضعف أمام سحرها ،

وأن تلين موهبته لا لهاماتها ، فينصرف عن الشعر إلى نظم الأغنية الدارجة لها ، وتستمرئ عاطفته مرعي ذلك الصوت الخصيب ، حتي يكاد ينسي نفسه ، وينسي موهبته الأصيلة ، وينسي ما جبل عليه وما خلق له ، قربانا لوتر أم كلثوم .

ومهما يكن من أمر ، فإن رامي في نزوله عن قمة الشعر إلى سهل الأغنية الدارجة ، لم يهبط عبثا ، وإنما حمل رسالة أدبية وقومية ضخمة ، هي رسالة الوثوب بالأغنية الدارجة من السفوح إلى القنن ، في الكلمة والمعني معا ، واستطاع أن يطوع الصور والمغاني الشعرية العالية للكلمة العامية ، وأن يرقق عواطف العامة بالشجي والأنين والذكريات وغيرها من الكلمات التي توجد الصور ، والتي لم تعهدها الأغنية الدارجة من قبل ، حتي صارت أغنية رامي مميزة علي كل أغنية غيرها بشيء جديد هو قربها إلى الشعر ، وحتي أصبح رامي زعيم مدرسة في الغناء ، لم يتأثر بها المؤلفون المحدثون وحدهم ، وإنما امتد تأثيرها إلى روح الملحن وحنجرة المغني أيضا .

وضع صالح جودت يده علي جوهر الأمر في قضية رامي الشعرية . ذلك أن شاعرية رامي ذابت في أغانيه ، ولم يبق منها لكتابة القصائد الشعرية الخالصة -التي لم يقصد بها وجه الغناء- إلا أقل القليل . وكانت النتيجة أن قصائده في ديوانه لا تحقق له -من حيث الحجم أو النوعية- مكانا متقدما بين شعراء عصره الرومانسيين الذين اقتربت طبيعته ومزاجه الشعري من طبائعهم وأمزجتهم أمثال إبراهيم ناجي وعلي محمود طه وأبي القاسم الشابي ومحمد عبد المعطي الهمشري ومحمود حسن إسماعيل وحسن كامل الصيرفي ، بل وحتي صالح جودت . فنصيب هؤلاء جميعا من اهتمام النقاد والدارسين ومؤرخي الحياة الأدبية أكبر بكثير من نصيب رامي الذي غطي وجه الأغنية فيه علي وجوه إبداعه الشعري ، بالرغم من أن شهرته فاقت شهرة أقرانه وجعلته أكثر قربا من الناس ، خاصة أن بداياته ارتبطت بنشاط أدبي وفني واسع جعل منه فتي عماد الدين الأول والمدلل في ثلاثينيات القرن -بتعبير رامي نفسه- عندما كان اسمه يكتب علي لا فتات المسارح الكبري في ذلك الوقت مقترنا بترجماته لخمس عشرة مسرحية لشكسبير من بينها هملت ويوليوس قيصر والعاصفة وروميو وجولييت والنسر الصغير تنافس في تقديمها مسرح يوسف وهبي ومسرح فاطمة رشدي . كان شارع عماد الدين بمسارحه وأماكن سهره ولهوه هو قلب القاهرة الفني في ذلك الحين ، وكان رامي نجمه الأول في مجال المسرح ، ثم أصبح -وهو شاعر الأغاني في مرحلة تالية- نجم نجوم عالم التأليف الغنائي . ولم يترجل رامي عن عرش الأغنية حتي آخر يوم في حياته ، بالرغم من المنافسة الشديدة التي كانت بينه وبين بيرم التونسي في النصف الأول من القرن والتي باعدت بين أم كلثوم وبيرم فلم يتح للقاءاتهما المشتركة إنجاب العديد من الأعمال الغنائية بالمقارنة إلى ما أنجزه رامي ، ثم المنافسة الشديدة التي مثلها جيل جديد من شعراء الأغنية أهم رموزه ما مون الشناوي

وحسين السيد ثم جيل تال أهم رموزه مرسي جميل عزيز و عبد الفتاح مصطفي وأخيرا عبد الوهاب محمد . لكن إبداع هؤلاء جميعا لم يطفئ توهج رامي ، وإن كان قد أدي إلى توسيع دائرة التذوق والاختيار واكتشاف ألوان وأساليب أخري ـلعلها أكثر تطوراـ في صياغة الأغنية العاطفية والعزف علي أوتار العلاقة بين الحبيب والمحبوب . لكن رامي صمد لهذا كله ، وظل حتي آخر ما شدت به أم كلثوم من أغانيه وهو أغنية يامسهرني التي افتن في تلحينها الشيخ سيد مكاوي ـالامتداد الفني الصريح لفن الشيخ زكريا أحمدـ ظل رامي متربعا علي قمته يصول ويجول ويعيد تشكيل تنويعاته التي طالما عزف عليها خلال أكثر من نصف قرن من الإبداع .

كان رامي إذن يمارس دوره ـفي مجال الأغنيةـ عن وعي وإيمان ، سعيدا به كل السعادة ، ومحققا به ذروة ما يطمح إلى ه أي شاعر عندما يبدع نصا شعريا جميلا ، لم لا وأكبر صوتين في عالم الغناء: أم كلثوم و عبد الوهاب يترنمان بكلماته ، وينشران ذكره في الخافقين ، ويجعلان من أغنياته حديث الملايين في كل الوطن العربي ، بل وخارج حدود هذا الوطن أيضا . يقول رامي في حفل تكريمهما معا ـكاشفا عن وعيه بهذا الدور وسعادته به :

لست أدري ما ذا أقول ، وقد قلت
وغني بشعري البلبلان
هام قلبي وجدا فأرسلت روحي
ساريا في مسابح الوجدان
ونظمت الدموع عقدا من الدر
علي جيد فاتنات المعاني
ثم رجعت خفق قلبي نشيدا
يتهادي مع النسيم الواني
فأذاعا الذي كتمت من الوجد
وباحا بما يكن جناني
ثم كانا إلى القلوب رسولي
وكانا عن كل شاك لساني

ولحسن الحظ فإن كثيرين قد أفادوا مما حدث لرامي ، وحرصوا علي عدم التورط في كتابة الأغاني ، حتي لا يفعلوا بشاعريتهم ما فعله رامي بشاعريته ، ومن أهم هؤلاء الشاعر صلاح عبد الصبور الذي تغني عبد الحليم حافظ بإحدي قصائده وهو في مطالع حياته الفنية وهي قصيدته بعد عام ين التي كانت اللحن الأول للموسيقار كمال الطويل . لكن هذه العلاقة المبكرة مع عالم الغناء والمغنين لم تغر صلاح عبد الصبور

بمواصلتها والانغماس فيها ، بل علي العكس تماما انغمس في تعميق مساره الشعري وإنجاز مشروعه التجديدي في كتابة القصيدة والنص المسرحي الشعري . وبفضل هذا الإخلاص للشعر أصبح صلاح عبد الصبور في طليعة رواد حركة الشعر الجديد وأصبح لا نجازه الشعري خصوصيته وتمايزه واحترامه ودوره الباقي والمؤثر ، مما جعل بعض المتحمسين لشعره والمؤمنين بدوره ومكانته يخوضون في مبايعته أميرا لشعراء زمانه قبل رحيله بوقت قصير . لكن حكمة صلاح عبد الصبور ووعيه وبعد نظره جعله لا يتقبل هذا الأمر قبولا حسنا مما جعل المتحمسين لمبايعته بالإمارة يتراجعون وينسحبون . لكن الأمر لم يغب عن عين الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب وأذنه المرهفة وبصيرته الواعية واللاقطة لكل جديد يشغل الناس ويثير اهتمامهم ، خاصة أن حياته الفنية بدأت علي يد أمير شعراء عصره أحمد شوقي ، لم لا تختتم بالاقتراب والتعامل مع من يرشحه البعض الآن أميرا للشعراء ؟ وقام الصحفي الكبير الراحل كمال الملاخ بمهمة التعريف وتحقيق اللقاء بين عبد الوهاب وصلاح عبد الصبور . وتعددت اللقاءات والمقابلات . لم يكن من السهل أن يهضم عبد الوهاب أو يسيغ قالب الشعر الجديد الذي يكتب فيه صلاح عبد الصبور وهو الذي أجاد التعامل مع قصائد شوقي وصفي الدين الحلي ومهيار الديلمي وإبراهيم ناجي ومن المعاصرين نزار قباني . لكن شعر هؤلاء جميعا شيء والشعر الجديد شيء آخر ، فهو لا يحقق الانتظام والتماثل وتساوي الأشطر والسطور الذي يجد فيه اللحن سبيله الواضح الميسور -بالرغم من أن ل عبد الوهاب نفسه تجربة فريدة مع نص غنائي يشبه قالب الشعر الجديد وإن يكن من شعر العامية هو يا خلي القلب الذي غناه عبد الحليم حافظ وأبدع في تلحينه عبد الوهاب ، من تأليف شاعر الأغنية المبدع مرسي جميل عزيزالذي كان قريبا من روح التجديد الشعري ونموذج القصيدة الجديدة الذي بدأ يروج ويشيع . أما صلاح عبد الصبور فقد أحس بدوره أن شركا ينصب له ويحيط به ، وأن أخبار لقاءاته ب عبد الوهاب -علي الصفحات الفنيةــ أضخم بكثير من حجم الاتفاق والتوافق والتأهب للعمل الحقيقي . ولم يكن في حاجة لمن يذكره بمصير رامي ، فهو يعلمه عالم إلى قين ، بل لقد كتب عنه وعن شعره دراسة ممتعة في الأهرام عندما نشر رامي ديوانه الشعري الذي يضم أجمل ما اختاره من كل ما نظمه خلال خمسين عام ا وهو ثلاثة كتب في كتاب واحد: القصائد وغرام الشعراء والأغاني ، وقد صدر الديوان عن الدار القومية للطباعة والنشر . يومها أطلق صلاح عبد الصبور علي شعر رامي شعر الأعماق الهادئة ، الشعر الذي يردده أبناء الصالونات والمجالس ويتعشق الناس فيه الكلمة الرقيقة والمعني القريب الميسور والصورة الواضحة ، والذي يحفل بألوان الشجن والعذاب والسهر والسهاد ولوعة الفراق وبعد اللقاء . كانت لغة صلاح عبد الصبور في نقد شعر رامي مهذبة ، وكانت إشارته إلى الأعماق الهادئة تدل علي تقويمه لبساطة شعر

رامـي بالمقارنـة إلى جمـال أغانيـه وانطلاقاتـه في صـياغة قوالبهـا وابتكـار مفرداتـه وتعـابيره بـلا قيود أو حدود ، كقوله في أغنية عودت عيني:

زرعت في ظل ودادي
وكل شيء في الدنيا دي
ومهما شفت جمال
غصن الأمل وانت رويته
وافق هواك أنا حبيته
وزار خيالي خيال
انت اللي شاغل البال
وانت اللي قلبي وروحي معاك
وإن مر يوم من غير رؤياك
ما ينحسبش من عمري
أو إبداعه الجميل في أغنية هجرتك:
هجرتك يمكن أنسي هواك
وقلت أقدر في يوم أسلاك
لقيت روحي في عز جفاك
غصبت روحي علي الهجران
وفضلت أفكر في النسيان
وودع قلبك القاسي
وأفضي م الهوي كاسي
بافكر فيك وأنا ناسي
وانت هواك يجري في دمي
لما بقي النسيان همي

أيـن هـذا الانطـلاق الفـني في صـياغة أغانيـه ـبالعامية ـ قـصائده الـتي لم تـتح لكـثير منهـا هـذه الحريـة في التنـاول ، ولا هـذه الجـسارة والاقتحـام في مخاطبـة الوجـدان والتمـرد علـي المـألوف . ولعلـه هـو نفـسه ـ كـان يستـشعر هـذا التفـاوت والاخـتلاف في المـستوي وهـو يقول:

بنات الشعر ما ألهاك عني
لقد عزت علي فكري القوافي
وكيف تطيب في سمعي الأغاني
دعيني يا بنات الشعر أبكي

أمان متن في قلبي صغارا
عشقتك يا بنات الشعر حيا
وماذا نفر الأشعار مني ؟
وكنت بهن مطرد التغني
وألحان الأسي يملأن أذني
علي ما نالت الأيام مني
كما ذوت الكمائم فوق غصن
فلا تنسي عهودي بعد بيني

كان رامي شخصية إنسانية نادرة ، وكان قلبه الطفل أهم سماته وملامحه . قلب لم يسكنه غير الصفاء والمحبة والانفتاح علي الحياة والناس والحفاوة بالفن الجميل والوجه الجميل . وكان في رقته ووداعته أشبه بالنسيم . وقد أتيحت لي مجاورته عن قرب عندما اختارني رئيس الإذاعة -قرب ختام الستينيات عبد الحميد الحديدي -وهو أحد بنات الإذاعة العظام وأكثر رؤسائها وعيا وثقافة- اختارني لا كون ممثل الشعراء الشباب في لجنة النصوص الغنائية التي كان يرأسها محمود حسن إسماعيل وبها عضو واحد هو أحمد رامي الذي كان مستشار الإذاعة الفني في الوفت نفسه . وأتيح لي أن أقضي عددا من أجمل سنوات عمري الإذاعي وسط هذين العملاقين اللذين يجمع بينهما الإبداع الشعري والموهبة الكبيرة وإن كان يفرق بينهما الطبع والمزاج والتكوين والنظرة إلى الحياة والناس . كانت هذه اللجنة أول لجنة في تاريخ الإذاعة لمراجعة النصوص الغنائية وإجازتها ، واكتشفت من خلال جلساتها الأسبوعية وصدام الذوقين المتعارضين لمحمود حسن إسماعيل وأحمد رامي كيف يصبح الجمال الحقيقي محل اتفاق مهما تنافرت الأذواق ، وكيف تفرض الكلمة الجميلة مكانتها واحترامها برغم الاختلاف والتباعد فيتوقف عندها الجميع ويلتقي علي إجازتها الجميع . كان رامي بالنسبة لمن عرفوه فأحبوه صناجة شعراء عصره ، وبحتري زمانه : لغة وخيالا وموسيقي . وقد صبت طاقته الشعرية في العديد من أغنياته وظل جزء كبير من هذه الطاقة ينتظر لحظة التفجر والتوهج الشعري ليصبح مقطوعات وقصائد . لكن رامي -شريك الرحلة الخالدة لا م كلثوم- رحل وفي داخله منجم أشعار لم يكتشف ، وفي صدره طيور شعرية حبيسة كانت تحلم بالانطلاق والتحليق . ويبقي الشكر والتحية مرة أخري لمسلسل أم كلثوم الذي أعاد إلى نا عصر الفن الجميل ، وجعلنا نقترب كثيرا من رامي الشاعر والإنسان والعاشق : الذي وهب حياته لفكرة الحب قانعا بها عن امتلاك المحبوب !

العقاد . . عابر سبيل

بقلم: فاروق شوشة

العقاد ـ شاعرا ـ أمر مختلف عليه ، هناك من لا يرون فيه إلا كاتبا عظيما ، موار العقل والفكر ، يصرع بالمنطق والحجة ، ويخوض بثقافته الموسوعية ـ التي اتصف بها كثير من قرنائه وأبناء جيله ـ مجالات شتي ودروبا مختلفة في الكتابة . وهؤلاء يسكتون عادة عن شعره ، ولا يكادون يذكرونه ، أو يشيرون إلى ه ، ذلك أن الانبهار ـ كل الانبهار ـ بكتاباته النثرية ، خاصة عبقرياته وإسلامياته .

وهناك من يرون في العقاد شاعرا كبيرا ، من طراز مغاير ، خارج علي النسق المعهود الذي رسخته ذائقة شعرية أساسها الكلاسيكية الجديدة التي بدأها البارودي ونفخ فيها شوقي من روح شاعريته الفذة ووسع من آفاقها وقدراتها علي التحديث . بحيث أصبح نموذج شوقي هو النموذج الذي يستقطب جوهر شاعرية البارودي وإسماعيل صبري وحافظ إبراهيم وأضرابهم ، وأصفي ما لديهم من خبرة شعرية وقدرة علي احتواء العصر شعريا . وهؤلاء يرون أن شعر العقاد يفوق كتاباته النثرية قيمة ومنزلة ، وأن العقاد الشاعر سوف يبقي في الوجدان الأدبي وذاكرة التاريخ أضعاف بقاء العقاد الكاتب ، لا نه نجح في الخروج علي الذوق الشعري السائد ، وأن يؤسس ـ ومعه صاحباه: المازني وشكري ـ لعالم شعري مختلف السمت والمذاق والبنية الشعرية والفكرية هو ما اصطلح علي تسميته بشعر جماعة الديوان .

والذين حاولوا أن يوفقوا بين الرأيين في العقاد ، وأن يسلموا له بالإبداع المتميز في مجالي الكتابة النثرية والشعرية ، لم يخفوا أبدا صعوبة التعامل مع القصيدة العقادية ، وحاجتهم إلى مواجهة تذوقية تنجح في استكناه شعر الفكرة لديه ، شعر الخاطرة أو اللمحة العقلية التي تصل بالجزئي إلى الكلي ، وتعبر المسافة بين المحدود واللامحدود ، وتقبع في المسافة بين العرض الظاهر والجوهر الخبيء ، وتلعب علي الجدل بين المتناقضات ـ مجال الولع الشديد عند العقاد ـ بمنطقه المسيطر وقدرته الخارقة علي الجدل والمحاجـــــة .

والذين يريدون معرفة حقيقية بجوهر شعر العقاد وخصوصيته المتميزة في الإبداع الشعري ، عليهم أن يتجهوا مباشرة إلى ديوانه (عابر سبيل) . وعابر سبيل هو الديوان السابع في مسيرته الشعرية ، سبقته دواوين: يقظة الصباح ، وهج الظهيرة ، أشباح الأصيل ، أشجان الليل ، وحي الأربعين وهدية الكروان ، وتلته دواوين: أعاصير مغرب ، بعد الأعاصير وبعد البعد . وهو الديوان الذي يكشف لنا عن وعي العقاد بما هو شعري ، وعن تجاوزه للمعجم الشعري بالمعني المألوف الذي أكثر الشعراء الرومانسيون ونقادهم من

فالعقاد يري في المقدمة التي كتبها لـ (عابر سبيل) أن إحساسنا بشيء من الأشياء هو الذي يوجد فيه اللذة ويبث فيه الروح ويجعله معني شعريا تهتز له النفس ، أو معني زريا تصدف عنه الأنظار ، وتعرض عنه الأسماع ، وكل شيء فيه شعر إذا كانت فينا حياة أو كان فينا نجوه شعور .

فليست الرياض وحدها ولا البحار ولا الكواكب هي موضوعات الشعر الصالحة لتنبيه القريحة واستجاشة الخيال ، وإنما النفس التي لا تستخرج الشعر إلا من هذه الموضوعات كالجسم الذي لا يستخرج الغذاء إلا من الطعام المتخير المستحضر ، أو كالمعدم الذي يظن أن المترفين لا يأكلون إلا العسل والباقلاء .

وفي وعي ساطع بثورة التجديد في الموضوعات الشعرية التي دعا إلى ها العقاد يقول: كل ما نخلع عليه من إحساسنا ونفيض عليه من خيالنا ونتخلله بوعينا ونبث فيه من هواجسنا وأحلامنا ومخاوفنا هو شعر وموضوع للشعر ، لا نه حياة وموضوع للحياة . إن عابر سبيل - في رأي العقاد وفي ثورته الشعرية التجديدية - يري شعرا في كل مكان إذا أراد ، يراه في البيت الذي يسكنه وفي الطريق الذي يعبره كل يوم ، وفي الدكاكين المعروضة وفي السيارة التي تحسب من أدوات المعيشة إلى ومية ولا تحسب من دواعي الفن والتخيل ، لا نها كلها تمتزج بالحياة الإنسانية ، وكل ما يمتزج بالحياة الإنسانية هو ممتزج بالشعور صالح للتعبير ، وأجد عند التعبير عنه صدي مجيبا في خواطر الناس .

وفي رأي العقاد - أيضا - أننا نحن - أبناء العصر الحاضر - في حاجة إلى هذا التوجيه لا نقاذ النفس الإنسانية ، لا لا نقاذ الملكة الفنية وحدها ، فإننا إذا تعودنا العناية بالأشياء وجدنا فيها ما يستحق العناية وينفض عن النفس تلك التفاهة التي غلبت علي الحياة وعلي الشعر والفن في هذه الأيام الحديثة .

العقاد إذن - في عابر سبيل - يرفض المعجم الشعري الذي كان سائدا في زمانه ، وبالتالي يرفض التفرقة بين لغة الشعر ولغة النثر ، ويتبني لغة شعرية جديدة هي لغة الناس البسطاء ، نجدها أوضح ما تكون في قصيدته أصداء الشارع التي يستوحي فيها نداءات الباعة وضجة الحياة وصخبها في الشارع عندما يقول:

بنو جرجا ينادون علي تفاح أمريكا
وإسرائيل لا يألوك تعريبا وتتريكا
وبتراكي إلى الجود علي الإسلام يدعوكا
وفي كفيه أوراق بكسب المال تغريكا
وأقزام من إلى ابان بالفصحي تحييكا

وإن لا تكن الفصحي فبالإيماء تغنيكا
قريب كلها الدنيا كرجع الصوت من فيكا
دعا الداعي فلبوه طغاة وصعاليكا
إذا ناديت يا دينار من ذا لا يلبيكا
فما في الناس هذاك ولا في الأرض هاتيكا

وهي لغة شعرية تذكرنا بالصدمة التي أحسها البعض عند استقبال النماذج الشعرية الأولي في حركة الشعر الجديد ، ولجوء بعض رواد هذه الحركة الشعرية إلى لغة بسيطة عارية من الزخرفة والبلاغة ، لغة تتسم بالواقعية الشديدة ، ولابعد عن تهاويل الرومانسية وفضائها التصويري الرمزي ، وجلجلة الكلاسيكية وصخبها . وهي اللغة التي كان صلاح عبد الصبور يبحث عنها عندما صاغ قصيدته الحزن في ديوانه الأول (الناس في بلادي) :

يا صاحبي ، إني حزين
طلع الصباح ، فما ابتسمت
ولم ينر وجهي الصباح
وخرجت من جوف المدينة
أطلب الرزق المتاح
فشربت شايا في الطريق
ورتقت نعلي
ولعبت بالنرد الموزع
بين كفي والصديق
قل ساعة أو ساعتين
قل عشرة أو عشرتين

بهذا المعني ، يكون العقاد سابقا لرواد الشعر الجديد ـ في استحداث هذه اللغة الشعرية ـ بأكثر من عشرين عام ا ، فديوان عابر سبيل صدرت طبعته الأولي عام ١٩٣٧ بينما نشر ديوان صلاح عبد الصبور عام ١٩٥٧ . لكن لغة العقاد علي بساطتها ووضوحها لم تنجح في التحريض علي مقاربة شعره أو التعامل معه . وظلت الفكرة الشائعة عن شعر العقاد المنتزعة من دواوينه السابقة والتي تدور في فلك الصعوبة والوعورة والحوشية والتعقيد هي السائدة والمسيطرة ، وظل الذوق الأدبي ينظر إلى شعر العقاد باعتباره امتدادا لدراساته في كتبه ، وجها من وجوه تجلياته الفكرية ونزعاته التأملية وولعه بالمنطق والجدل . بالرغم من أن العقاد ظل يلح علي فكرته عن التجديد في الموضوعات الشعرية واللغة الشعرية ويبلورها بقوله : الفكرة في ديوان عابر سبيل هي أن

مشاهد الحياة وعظات الأيام علي متناول إلى د من كل إنسان إذا شاء أن يدير إلى ها عينيه ، وأنه يستطيع أن يخلع الحياة الإنسانية علي ما حوله ، فإذا هو في جيش لجب من الخواطر والبدوات والخوالج والأحاسيس ، عالم محشود في البيت وفي الدكان وفي الطريق وفي حيثما كان عابر سبيل .

تري ، هل خطر علي بال راكبي السيارات ما طاف بذهن العقاد وقدح زناد شاعريته وهو يتأمل حال عسكري المرور وكيف أنه يتحكم في كل راكب وهو ليست له ركوبته ويبدع من الموقف المتأمل المقارن هذه المقطوعة القصيرة في عابر سبيل:

متحكم في الراكبين وماله أبدا ركوبة
لهمو المثوبة من بنانك حين تأمر والعقوبة
مر ما بدالك في الطريق ورضي علي مهل شعوبه
أنا ثائر أبدا وما في ثورتي أبدا صعوبة
أنا راكب رجلي فلا أمر علي ولا ضريبة
وكذاك راكب رأسه في هذه الدنيا العجيبة

ومن أجمل قصائد العقاد في عابر سبيل قصيدته عن كواء الثياب ليلة الأحد ، وليلة الأحد هي ليلة العطلة أو الإجازة التي ينتظرها البعض ليلبس أجمل ملابسه بعد أن أعاد إلى ها الكواء رواءها وبهاءها . الكواء وبيده مكواته الملتهبة حرارة واشتعالا ، والساهرون الحالمون بلقاءات سعيدة يشتعلون بنار العاطفة والوجد والهيام . وشتان بين نارين وبين اشتعالين وبين حالين: حال يعيشها ويعانيها كواء الثياب وحال يفرح لها ويأنس بها المنتظرون لقاءات عطلة الأحد ! من لفح هذه المقارنة وهذه المفارقة تتفجر شاعرية العقاد وهو يقول مخاطبا الكواء الساهر مع مكواته :

لا تنم ، لا تنم
سهروا في الظلم
أنت فيهم حكم
في غد يلبسون
إنهم ساهرون
أو غفوا يحلمون
وهمو ينظرون
في غد يمرحون

* * *

كم إهاب صقيل
وقوام نبيل

وحبيب جميل
كلهم يحلمون
ياله من إهاب
في انتظار الثياب
يزدهي بالشباب
في غد يلبسون

* * *

أسلموك الحلل
في احمرار ا لخجل
تشتهي بالقبل
يالها من فنون
كالربيع الجديد
أو صفاء النهود
لا بمس الحديد
بهجة للعيون

* * *

زد نصيب الحبيب
بالكساء القشيب
لك فيهم نصيب
عند برح الشجون
من هوي وابتسام
رف حول القوام
غير كي الغرام
هم همو المكتوون

* * *

الضرام اتقد
هل خبا أو برد
ذاك يوم الأحد
إن قضيت الديون
في المكاوي الشداد
أو علاه الرماد !

أين منك الرقاد !
كل نار تهون !

ليس معني هذا أننا لن نجد للعقاد في عابر سبيل شعرا كالذي اعتدناه من شعراء العاطفة والخيال والتدفق الشعري ، فلم يخل شعره من حديث الحب ومجالي الطبيعة وصبوات القلب وجموح الريشة المصورة . وهو الشعر الذي تهزنا وفرته عند شعراء أبو لو: إبراهيم ناجي ومحمود حسن إسماعيل وعلي محمود طه وأبي القاسم الشابي وغيرهم ، كما نجده غزيرا في شعر المهجريين من أمثال: إيليا أبي ما ضي وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة الذي هو أقربهم إلى روح العقاد الشعرية .

يقول العقاد في مقطوعة عنوانها: في ساعة انتظار:

يا ساعة الصفو غبت عني
وحيرت لوعتي خطاك
تائهة أنت في طريقي
هداك نور الهوي هداك

* * *

أبطأت يا ساعة التمني
وموعد الملتقي قريب
هل يبطيء البين لوسعي لي
كما سعي موعد الحبيب
أصبحت في لهفتي عليه
أنتظر الليل بالنهار
طال انتظاري له فماذا
في الغيب يا ليل بانتظاري !

وهو شعر يصدق فيه ما قاله عنه سيد قطب في كتابه كتب وشخصيات: في وضح النهار يعيش العقاد ، صاحي الحس ، واعي الذهن ، حي الطبع ، لا يهوم إلا نادرا ، ولا يقول فيما وراء الوعي أبدا .

وهو يري أن شعر العقاد يكثر فيه تصوير الحالات النفسية وتسجيل الخواطر الفكرية ، وإثبات التأملات المنطقية - إذا صح هذا التعبير - بقدر ما تقل فيه السبحات الهائمة والانطلاقات التائهة والظلال الشائعة ، فكل شيء واضح وكل شيء له حدود . وأن العقاد يبلغ قمته حين تبلغ الحيوية تدفقها فتجرف المنطق الواعي وتغطي عليه . فأما حين يضعف هذا التدفق ، فيتجرد الشعر من اللحم والدم .

لقد عبر حياتنا الأدبية ديوان عابر سبيل كما يعبر عادة أي عابر سبيل . لم يلتفت إلى ه ـ الذين كتب الديوان من أجلهم قراء وشعراء ونقادا ـ بما يستحقه من دراسة ومتابعة واهتمام . وظلت هذه الثورة الجريئة علي ما سماه العقاد موضوعات الشعر ولغته ، حبيسا داخل قصائد الديوان ، يمر عليها العابرون مر الكرام ، ولا يصغون إلى الأنين الخافت المنبعث من كلمات ألقي بها صاحبها في عرض الطريق علها تكون بذورا صالحة لتصبح ذات يوم أشجارا وثمارا .

م . ع . الهمشري أغنية ريفية صافية

بقلم : فاروق شوشة

كان أول ما لفتني إلى ه حرصه علي أن يوقع قصائده بهذه الطريقة : م . ع . الهمشري ، وظللت زمنا طويلا أحاول فك شفرة الرمزين الأولين في اسمه حتي عرفت أنهما محمد عبد المعطي ، وأن أباه قد سماه بهذا الاسم المركب شكرا لله وحمدا علي أنه أعطاه ولدا ليكون أول أبنائه من زوجته الثانية المصرية ، بعد أن لم يرزق من زوجته الأولي التركية إلا بنتا واحدة .

وحين أتيح لي الاطلاع علي سيرة حياته ، وقراءة شعره ـ ضمن الكوكبة المبدعة من شعراء جماعة أبو لو: إبراهيم ناجي وعلي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل والشابي وغيرهم ـ عرفت أنه في توقيعه بهذه التسمية الشاعرية: م . ع . الهمشري كان متأثرا بشاعره الأثير في الأدب الانجليزي ب . ب . شلي ، كما كان شديد الاهتمام والتأثر ـ وجدانيا وفنيا ـ بغيره من الشعراء الإنجليز: كيتس وبيرون ووردزورث وروبرت بروك ، وبلغ به التأثر مداه حين قضي مثل بعضهم وهو: في مقتبل العمر ، فقد توفي في ديسمبر عام ١٩٣٨ عن ثلاثين عام ا وبضعة أشهر ، إثر عملية جراحية لا ستئصال الزائدة الدودية أصيبت خلالها أمعاؤه بالشلل ، وانطفأت شعلة حياته المتوهجة في أربعة أيام . يرسم له الشاعر صالح جودت صورة وصفية طريفة في تقديمه لديوانه وفي كتابه عنه بعنوان: الهمشري حياته وشعره يقول فيها: كان الهمشري أكثر الشعراء حبا للحياة ، كبير الآمال فيها إلى حد أنه لم يكن يحب ركوب البحر حتي لا يغرق ، وكان إذا سار في شارع آثر أن يسير في وسطه لا علي إفريزه ، خشية أن تسقط إحدي العمائر فتدفنه تحت أنقاضها . وكان يفيض قوة وشبابا وحيوية . فهو عملاق ، عريض المنكبين ، تكاد حمرة الشباب تقفز من خديه ، لا يشكو شيئا في جسده ، ويحب أن يتأنق في ملبسه ، ويتخير رباطات عنق ذات ألوان زاهية كألوان مناديل صدره ، ويزين عروة سترته دائما بوردة كبيرة حمراء ، ويمشي في الأرض مرحا ، ويملأ الجو حوله بضحكاته العالية ، ويشق طريقه في ثقة وكبرياء واعتداد

وهي صورة تذكرنا بأحد شعراء جماعة أبو لو أيضا ، وهو الشاعر محمد فهمي الذي عرفه الناس في الخمسينيات وأوائل الستينيات يجوب شوارع القاهرة خاصة شارعي قصر النيل وسليمان باشا (طلعت حرب الآن) وفيه الكثير مما قاله صالح جودت عن الهمشري ، لكنه لم يكن له حظ الهمشري من الموهبة الشعرية ، أو الثقافة الواسعة التي جعلت منه قارئا ومترجما لمختارات من عيون الشعر الانجليزي ، كما جعلته شديد التأثر بشاعر الحركة التعاونية الأيرلندية ومفكرها الشهير جون راسل حين تعرف الهمشري علي

كتاباته يوم عمل محررا في مجلة التعاون التابعة لقسم التعاون بوزارة الزراعة عام ١٩٣٥ ، وعمق اتصاله بالمفكر التعاوني الدكتور إبراهيم رشاد - الذي يعد أب الحركة التعاونية المصرية - وكان مديرا للتعاون ورئيسا لتحرير المجلة - وتوفي جون راسل - في ذلك الوقت - فانكب الهمشري علي قراءته ، وكانت نقطة التحول الكبري في حياته . كان الهمشري - حتي ذلك الحين - واحدا من ألمع شعراء جماعة أبو لو ، أتيح له التعرف في مطالع شبابه وهو في مدرسة المنصورة الثانوية علي الشاعرين الكبيرين علي محمود طه المهندس وإبراهيم ناجي الطبيب ، وحين انتقل إلى القاهرة عام ١٩٣١ بعد حصوله علي شهادة الدراسة الثانوية لم يقدر له الانتظام في كلية الآداب التي التحق بها ، فتركها بعد سنتين ، وبدأ اتصاله بجماعة أبو لو التي تكونت في عام ١٩٣٢ ، ثم أخذ ينشر قصائده علي صفحات مجلتها التي كانت أول مجلة مصرية تهتم بنشر الإبداع الشعري والدراسات النقدية ، صدر عددها الأول في سبتمبر١٩٣٢ وتوقفت بعد صدور عددها الأخير في ديسمبر١٩٣٤ .

كانت القرية المصرية وكان الريف المصري المجال الأثير الذي تحلق فيه شاعرية الهمشري ، مولعة بإبراز أجمل ما فيه ، حتي ليكاد الريف يصبح بالنسبة لمن يطالعه في شعر الهمشري جنة هانئة وارفة الظلال وطيوفا ساحرة مرفرفة وخيالات بديعة زاهية ، كل شيء في هذا الريف يغني ويفوح عطرا ويتأرج لونا ونسيما وظلا وفرحا بالحياة . يقول في قصيدته أحلام النارنجة الذابلة:

كانت لنا عند السياج شجيرة
ألف الغناء بظلها الزرزور
طفق الربيع يزورها متخفيا
فيفيض منها في الحديقة نور
حتي إذا حل الصباح تنفست
فيها الزهور وزقزق العصفور
وسري إلى أرض الحديقة كلها
نبأ الربيع وركبه المسحور
كانت لنا ، يا ليتها دامت لنا
أو دام يهتف فوقها الزرزور

* * *

قد كنت أجلس فوقها في شرفتي
أو كنت أجلس تحتها في ظلتي
أو كنت أرقب في الضحي زرزورها
متهللا يغشي نوافذ غرفتي

طورا ينقر في الزجاج ، وتارة
يسمو يزرزر في وكار سقيفتي
فإذا رآني طار في أغرودة
بيضاء واستوفي غصون شجيرتي
كانت لنا يا ليتها دامت لنا
أو دام يهتف فوقها الزرزور !

لم يكن الهمشري وحده - في هذه السنوات الأولي من عقد الثلاثينيات - الشاعر العاكف علي القرية والريف في مصر . كان معه - وربما يسبقه بسنوات قليلة - الشاعر محمود حسن إسماعيل الذي تجلي انتماؤه للقرية والريف في ديوانه الأول أغاني الكوخ الذي صدرت طبعته الأولي في يناير١٩٣٥ . كلاهما كان عاشقا للطبيعة المصرية علي طريقته . عشق الهمشري يكاد يقترب به من شعراء الطبيعة في الأدب الانجليزي ، وهو عشق جميل رائق ، يعمق فيصبح عشقا روحيا للوجود والكون ، باعثا علي التأمل والنجوي ، ومحاولة الكشف عن الخفي المستور من الصور والظلال والألوان ، وظواهر الطبيعة وتجلياتها .

أما عشق محمود حسن إسماعيل للطبيعة فتوضحه لنا كلماته التي ذيل بها ديوانه أغاني الكوخ حين يقول: الطبيعة في كل زمان ومكان تأسر مشاعر الإنسان ، وتملك عواطفه ، فيندمج فيها بآلامه وآماله ، وكل إنسان في الحياة شاعر بالجاذبية الخفية بينه وبينها إلى حد ما ، غير أن هذا الإحساس بالرابطة القوية بين النفس البشرية والطبيعة يتفاوت عند الناس حسب استعدادهم وقوة إدراكهم الفطرية ، فإحساس الرجل العادي الذي لم يوهب شعورا كاملا يختلف كل الاختلاف عن إحساس الشاعر الذي وهب قوة عليا تمكنه من تصوير شعوره إزاء الطبيعة ، والترجمة عما يخالج نفسه من أثر الاندماج فيها ، حتي لقد تمتزج هذه الإحساسات في نفسه فيترجم عما يراه بعينه بسمعه ، وعما يسمعه بأذنه بنظره ، وهذا ما يعبر عنه بمزج الأحاسيس ، ويظنه بعضهم لونا جديدا لا عهد للشعر العربي بمثله ، وأنه وليد الآداب الأجنبية أو الابتداع الجديد في الشعر ، ولكن المطلع علي أسرار الشعر العربي يري سبق العرب به . ولابن حمديس مثل في ذلك حين يصف الخمر:

حمراء يشرب بالأنوف سلافها
لطفا ، وبالأسماع والأحداق

ثم يقول محمود حسن إسماعيل: فالشاعر والطبيعة روح واحدة ممتزجة ، تصفر القبرة فكأنما تسلسل روحه في صفيرها ، وتنوح الساقية فترجع له أصداء الآلام الإنسانية ، ويري في ذلك الثور المست عبد الذي يلهبه الفلاح بسوطه حتي يمسه اللغوب معني

خفيا ترمز به الطبيعة إلى قوة القدر التي تسخر الإنسان وتسوقه إلى المخابيء البعيدة عن إدراكه وحسبانه من هنا ، فقد اختلفت الأنغام الشعرية التي عزفها كل من الشاعرين عن القرية والريف في إطار عشقهما للطبيعة ، وتوقفهما أمام كل ما فيها بالرسم والتعبير والتصوير . شعر الهمشري يمتلىء بالبهجة والنشوة والجمال والفرح ، وشعر محمود حسن إسماعيل يفيض بالحزن والأسي ومرارة الشكوي والمشاركة والتعاطف .

فبينما كان محمود حسن إسماعيل يقول عن الكوخ:

بعثر عليه الدمع ، ما صفقت
في قلبك الألحان يا شاعر
واحرق له الأجفان ، ما مسها
برح الضني والحزن يا ساهر
حتي يقول:
تبكي سواقي الحقل أشجانه
وما بكاه مرة شاعر
والبائس الفلاح في ركنه
عريان يشكو ضنكه خائر
شالت بزرع النيل أكتافه
وما رعاه البلد الغادر
كان الهمشري يناجي إلى ما مة ويقول:
رددي في السكون ذكري الهديل
وتغني يا شهرزاد النخيل
أي ذكري تشجيك ؟ أي خيال
راح يضنيك من فراق خليل ؟
كثرت حولك الاشاعات حتي
أصبح الروض بين قال وقيل

- وفات الهمشري أن الإشاعات صوابها الشائعات - ثم يقول:

لست أدعوك غير روح مروع
لاذ بالنخل خيفة من رحيل

* * *

خيم الصمت في الظهيرة إلا
من غطيط يغشي ذرا الأزهار

إنه النحل ناعسا من عناء
وهو يجني الزكاة للنوبهار
(والنوبهار: كلمة فارسية معناها الربيع الجديد)
وغفا الهدهد المصلي ، وآوي
جندب الروض في ذرا الأحجار
غير ترديدك الهديل يدوي
مثل حزن علي الظهيرة سار

تمثل مرحلة مجلة التعاون التي عمل فيها الهمشري محررا ابتداء من عام ١٩٣٥ حتي رحيله سنة١٩٣٨ نقلة كبيرة في اهتماماته وثقافته وفنه الشعري . لقد أراد أن يكون ــ كما قال صالح جودت ـ جون راسل المصري ، يكرس حياته لا سعاد الريف ومده بأسباب الحضارة ، ودعوة أعيان البلاد إلى العودة إلى القرية للإسهام في تهذيبها وصقلها ، ومحاربة الرأسمالية والإقطاع والاستغلال . والمطالبة بأن يكون للفلاح مكانة في الحياة النيابية ، إلى آخر هذه الصرخات العالية التي أطلقها الهمشري علي صفحات مجلة التعاون التي تحولت علي يديه إلى مجلة تقدمية تحارب الحزبية في عهد الحزبية ، والإقطاع في عهد الإقطاع ، والملكية في عنفوان طاغوت الملكية ، والتي أصبح بفضلها داعية لا قامة الحضارة الريفية في مقابل حضارة المدنية ، محاولا أن يتمثل الدور الذي قام به جون راسل في بلاده ، حين رأي أن الحركة التعاونية هي السبيل الأمثل لا نقاذ أيرلندا من الجوع والفقر وتحولت المجلة التعاونية التي أصدرها من مجرد مجلة ريفية يقرؤها الفلاحون الأيرلنديون إلى مجة عالية تغمر أسواق الفكر الأوربي وتعبر المحيط إلى أمريكا ، حاملة دعوة راسل الكبري لا قامة الحضارة الريفية .

يقول الهمشري في قصيدته: أغنية الفلاح المصري لجاموسته الصغيرة المحبوبة محاكيا جون راسل في قصيدته أغنية الفلاح الأيرلندي لبقرته التي ترجمها شعرا إلى العربية:

هتافة الصبح ، إن الفجر قد هتفا
والصبح يكشف عن لا لائه السجفا
والشمس ترسل للدنيا تحيتها
وتبتغي من ذري الأشجار مشترفا

* * *

هذي الرعاة تغني الصبح في بهج
والحقل ينشر منه في الصخر بدعا
قومي املئي الصبح صوتا منك يبهجنا

يا فتنة الصبح إن الصبح قد طلعا

* * *

لم ألق غيرك يا جاموستي أبدا

وحشا علي القرية الحسناء يسبينا

من أي ينبوع حسن تستقي وهجا

عيناك ؟ هل سحر هاروت بوادينا ؟

* * *

إذا سمعتك طاف الريف مطردا

أمام عيني فيلقاني وألقاه

أري الحقول وأرعي الريف من أمم

شمس وظل ، وأشجار وأمواه !

ويري الدكتور عبد العزيز شرف في كتابه الهمشري : شاعر القرية المهجورة أن الهمشري في تغنيه بالطبيعة كان يتبين ما يتبينه وردزورث فيها : لغة الشعور ومحرك أفكاره النقية ، والمربي والمرشد والحارس القلبي والقوام العقلي . ومن هنا كان اهتمام الشاعر وعنايته بالشعر الريفي أو الأغاني الريفية حتي أصبح شعره قصيدة ريفية رائعة . لكن أجمل شعر الهمشري وأكثره نفاذا وتأثيرا ، هو الذي تدفقت به شاعريته في مرحلتها الأولي التي سبقت عمله في مجلة التعاون ، مثل ملحمته الشعرية شاطيء الأعراف التي ودع بها حبيبة صباه إثر حب وحيد فاشل ، وكانت قمة شعره العاطفي الذي انقطع عنه تماما بعد عام ١٩٣٥ ، وقصيدته الجميلة : إلى جتا الفاتنة في مدينة الأحلام التي نشرها في عدد نوفمبر١٩٣٣ من مجلة أبو لو ، وهي أكثر قصائده تعبيرا عن خياله الشعري ولغته الرومانسية الشفيفة :

ها هو الليل قد أتي فتعالي

نتهادي علي ضفاف الرمال

فنسيم المساء يسرق عطرا

من رياض سحيقة في الخيال

* * *

صور المغرب الزكي رباها

فهي تحكي مدينة الأحلام

نفحت في الخيال منها زهور

غير منظورة من الأوهام

ثم يقول :

أنت لحن مقدس علوي

قد تهادي من عالم نوراني

سمعت وقده السماوي روحي

فأفاقت في م عبد الأحزان

* * *

أنت حلم منور ذهبي

طاف في أفق عالم مسحور

وتجلي علي غياهب روحي

بجناح من الضياء البشير

بمثـل هـذا الـشعر يعـيش الهمـشري طـويلا في ذاكـرة الأجيـال ، ويحتـل مكانتـه المتقدمـة بـين صـفحات الـشعر الوجـداني في ديـوان الـشعر المـصري الحـديث ، نغمـة أصـيلة صافية ، وقصيدة حارة متوهجة .

" عرار شاعر الأردن "

بقلم: فاروق شوشة

كان للصديق الأديب والشاعر الأردني خالد الساكت فضل تعريفي بهذا الشاعر ونحن لا نزال في مرحلة الدراسة الجامعية في النصف الأول من الخمسينيات . ويبدو أن لحظة من لحظات الاعتداد بالإبداع الشعري في الأردن - مقارنا بالإبداع الشعري في سائر الأقطار العربية - هي التي جعلت خالد الساكت يهتم بإطلاعي علي شعر مصطفي وهبي التل الذي عرف باسم عرار خاصة أن الأسماء الشعرية الكبري التي كانت تتردد عبر الذاكرة الأدبية عن هذه المنطقة من العالم العربي كانت أسماء فلسطينية يتقدمها إبراهيم طوقان - الشقيق الأكبر للشاعرة الكبيرة فدوي طوقان - و عبد الرحيم محمود شاعرا الثورة الفلسطينية في الثلاثينيات وأبو سلمي عبد الكريم الكرمي شاعرها في الأربعينيات والخمسينيات .

ويبدو أن تسمية شاعرنا بعرار جاءت نتيجة لا رتباطه بحياة البادية ، وعلاقته الوطيدة مع قبيلة النور أو الغجر في الأردن وشيخها المسمي بالهبر الذي يتردد اسمه كثيرا في شعر عرار . عرار اسم لنبات صحراوي ناعم أصفر طيب الرائحة ، يقول الشاعر القديم:

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

ويقول الدكتور محمود السمرة الذي قدم للطبعة الثانية من ديوانه - بعد أن صدرت طبعته الأولي عام ١٩٤٩ وهو عام رحيل الشاعر - إن الشاعر اختار لقبه الشعري المستعار من قول الشاعر عمرو بن شاس الأسدي في ابنه عرار:

أرادت عرارا بالهوان ، ومن يرد
عرارا لعمري ، بالهوان فقد ظلم

وسمي شاعرنا ديوانه عشيات وادي إلى ابس نسبة إلى واد غزير إلى اه في شمال مدينة عجلون الأردنية كان يقطنه النور الغجر ، وهو يذكر في شعره أنه نسب ديوانه إلى ذلك الوادي تبركا به وبسكانه :

يا أخت واد قد دعوتك باسمه
وله نسبت تبركا ديواني

ولد مصطفي وهبي التل عرار في مدينة إربد عام ١٨٩٧ ، وأتم تعليمه الابتدائي فيها ، ثم انتسب إلى مكتب عنبر في دمشق عام ١٩١٢ ، وعمل بعد قيام الدولة الأردنية الهاشمية في العديد من الوظائف الإدارية والعدلية . وسرعان ما تجلت موهبته الشعرية المبكرة ، ومواقفه النضالية ضد الاستعمار البريطاني ، التي أدت إلى نفيه خارج الأردن عدة مرات ، وتسريحه كثيرا من عمله . ولم يكن يشفع له خلال هذه الحياة العاصفة إلا صداقته وعلاقته الحميمة مع الأمير عبد الله الذي سيصبح الملك عبد الله عاهل الأردن ، وإن تخللت هذه العلاقة الفريدة انتقادات كثيرة من الشاعر للأمير ، ومقطوعات عديدة في الهجاء ، ذاعت شهرتها علي ألسنة كثير من شباب الأردن ومثقفيه ، باعتبارها وثيقة سياسية واجتماعية تمثل حياة الشاعر وصراعاته ومواقفه خير تمثيل ، وتسجل اهتزازات وجدانه ، مقدما صورة صادقة لنفسه ومجتمعه وأحداث وطنه والأشخاص الذين خالطهم وعاشرهم ، وهي صورة ـكما يقول جامعو شعره وناشرو ديوانه ودارسوه ـ لا زيف فيها ولا افتعال .

ويضيف مؤرخو حياته وشعره أنه ـ في أخريات أيامه ـ انصرف إلى حياة بوهيمية حافلة بالسهر والشراب وعلاقاته الغريبة مع الفجر ، أبدع من خلالها عددا من أجمل قصائده وأكثرها ذيوعا وانتشارا ، لمخالفتها المألوف والسائد ، وخروجها علي المواضعات والتقاليد ، وتحديها السافر لسلطان الموروث ، بعد أن جرب وعاني صنوفا من النفي والسجن لم يعد بعدها يبقي علي شيء أو يقيم حسابا لا حد . يقول في واحدة من قصائد المنفي ، عندما كان منفيا في العقبة عام ١٩٣١ وجاءت ليلة العيد وهو بعيد عن زوجته وأولاده يقاسي لوعة الوحدة ومرارة الاغتراب:

أهكذا ! حتي ولا مرحبا
لله أشكو قلبك القلبا
أهكذا ! حتي ولا نظرة !
ألمح فيها ومض شوق خبا
أهكذا حتي ولا لفتة !
أنسم منها عرفك الطيبا
ناشدتك الله وأيامنا
ونشوة الحب بوادي الصبا
وغصة الذكري وآلامها
وحرمة الماضي وما غيبا
لا تسأليني أي سر ، لقد
أحال عمري خاطرا مرعبا

فحسبك الآلام تزجينها
قلبا من الآلام قد أتعبا

وبالرغم من مرارة المنفي والسجن ، والغربة والبعاد ، فإن خياله يتسع لغزلان بلاده ، وفاتناتها . ولا يتوقف هيامه بالحياة ولا النشوة العارمة التي تحركه إلى مواطن الجمال والجميلات ، وهو يقول :

كم رصعت أفقي نجوم المني
ثم تهاوت كوكبا كوكبا
بالسلط غزلان كما قيل لي هضيمة الكشح حصائد الخبا
المجد والوجد بقاماتها
عن غاية اللطف لقد أعربا
ريانة الأرداف ألحاظها
سهم من الإبداع قد صوبا
لكن ، هوي قلبي ـ وقد كان لي
قلب كباقي الناس هذه الظبا !

يلفت النظر في شعر مصطفي وهبي التل عرار ـ بالرغم من ارتباط حياته بالبادية ومجافاته للحياة المدنية وإيثاره القرب من قبائل الغجر والتعامل معهم ـ يلفت النظر في شعره سلاسته وتدفقه وانسياب تراكيبه ، واقترابه الشديد من مواصفات الشعر الرومانسي الذي تدفق تياره واتسع مده في ثلاثينيات القرن وأربعينياته أو الشعر الوجداني ـ طبقا لتسمية الناقد الكبير الدكتور عبد القادر القط ـ وبهذا المعني ابتعد شعر عرار عن جهامة الكلاسيكية التقليدية وصرامتها ، وامتلأ بتلك الروح الجديدة العارمة التي فجرها الرومانسيون بعواطفهم القوية المشبوبة وخيالاتهم الطليقة المحلقة .
وإذا كانت الثلاثينيات والأربعينيات قد شهدت توهج شاعرية عرار وإبداع أهم نماذجه وآثاره الشعرية ، فهي السنوات نفسها التي شهدت إبداعات بدوي الجبل وعمر أبو ريشة ونديم معمد وحامد حسن في سوريا والأخطل الصغير بشارة الخوري وأمين نخلة وإلياس أبو شبكة وسعيد عقل في لبنان ، وإبراهيم ناجي وعلي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل في مصر ، وتوهج الشهاب الساطع الذي مثله أبو القاسم الشابي وانطفاءته المباغتة عام ١٩٣٤ ، فضلا عن الامتداد الشعري لشاعر القطرين خليل مطران بعد رحيل شوقي وحافظ ، والتأثير الطاغي للحركة المهجرية من خلال إبداع شعراء الرابطة القلمية والعصبة الأندلسية ونجوم هذه الحركة الساطعين: جبران وميخائيل نعيمة وإيليا أبي ما ضي وآل المعلوف وغيرهم ، بينما كانت الكلاسيكية الراسخة في العراق تتكيء إلى منجزات الزهاوي والرصافي والجواهري وتفسح الطريق أمام وجدانيات أحمد الصافي النجفي

وأحزابــه ، قبــل أن يبــزغ فجــر النجــوم الجديــدة: الــسياب ونــازك الملائكــة والبيــاتي والحيـدري . في هـذا الأفـق الـشعري المفعـم بـزخم التغـيير ، وتخلخـل القـصيدة العموديـة ، واكتمـال القـصيدة الرومانـسية أو الوجدانيـة ، كـان مـصطفي وهـبي التـل ـ الـذي يؤكـد شـعره أنه كان علـي وعـي بمـا يحـدث في الـساحة الـشعرية مـن تحـديث وتغـير وتـدفق دمـاء جديـدة في شـرايين القـصيدة العربيـة ـ يمثـل حركـة في الاتجـاه الـصحيح المواكـب لا يقـاع التمـرد والتطـور ، المتطلع إلى فضاء جديد للقصيدة .

يقــول في قــصيدة عنوانهــا راهــب الحانــة أبــدعها وهــو منفــي إلى جــده ســنة١٩٢٣ عندما سجن في أحد أقبيتها وحيدا وقد ربط إلى فلق خشبة :

راهب الحانة دعني :ـ أنضوي تحت لوائك
وأري الكرم بعيني :ـ مستجيبا لندائك
طوع إيحاء دعائك
كلما أمعنت عصرا
جاءك العنقود خمرا
واستفاض الكأس بشرا
والأسي الكرار فرا
فانظر القلب الشجيا
كيف فرا
وانظر الزفرة حري
كيف حالت
نغما عذبا شجيا
واستحالت
غصة إلى أس بسر الكأس سلوي
فهي في الناي غناء وعلي الأفواه شعر
وبصدر البث نجوي وبنفس الحر ضر
ثم يقول عرار :
سدت الأرض بوجهي باب إمكان الهناء
والسما أحسبها كالأرض يعنيها شقائي
فأنط بالكأس والصهباء أسباب رجائي
راهب الحانة واقتلني خلودا في فنائك
أنشر العمر وأطويه بطيات ولائك
علها ترفعني غمزة ألحاظ إمائك لسمائك

وهـو شـعر يـذكرنا بانطلاقـات الـشابي ، وخمريـات أبـي شـبكة ، وتـرانيم الـصافي النجفـي ، ويؤكـد نـبض التجليـات الـشعرية العربيـة ـ علـي امتـداد الـوطن العربـي ـ مـن خـلال تنويعات شتي للوتر الرومانسي الوجداني .

مـن أشـهر قـصائد عـرار وأكثرهـا دورانـا قـصيدته العبوديـة الكـبري الـتي يهـاجم فيهـا مـدعي عـام اللـواء الـذي أسـاء اسـتقبال صـديقه الهـبر شـيخ قبيلـة الغجـر أو النـور ولم يعاملـه المعاملة اللائقة به باعتباره زعيما لقومه ، فقال يخاطب هذا المدعي العام:

يامدعي عام اللواء ، وأنت من فهم القضية .
الهبر جاءك للسلام فكيف تمنعه التحية ؟ .
ألأن كسوته ممزقة وهيئته زرية .
قد صده جنديك الفظ الغليظ بلا روية .

وأبـي عليـه أن يـراك فجـاء ممتعـضا إلى ه يـشكو الـذي لا قـاه مـن شـطط بـدار العادليـة

.

ويقـول إن زيـارة الحكـام ، لا كانـت ، بليـة ! أسـرع وكفـر ياهـداك الله ، عـن تلـك الخطيـة أدخلـه حـالا للمقـام ، وفـز بطلعتـه البهيـة ودع المراسـم والرسـوم لمـن عقولهمـو شـوية . فالهبر مثلي ثم مثلك أردني التابعية !

هـذه اللغـة الـشعرية العاريـة ، الـتي هـي أقـرب مـا تكـون لحـديث النـاس مـن دون صـنعة أو تزويـق ، هـي اللغـة الـتي كـان عـرار يحـرص عليهـا في قـصائد النقـد الاجتمـاعي وهجائياتـه الـسياسية ، وفي رسمـه لمثـل هـذه الـصورة أو اللوحـة القلميـة لـبعض الشخـصيات الحاكمـة والمتـسلطة . هنـا يتـسع المجـال لفـيض مـن سـخرية الـشاعر ومفاكهاتـه وتـضميناته الـشعبية مـن المفـردات والتعـابير والأمثـال والأوصـاف الـتي لم يكـن جمهـور ذلـك الزمـان يألفهـا ويعتادهـا في الـشعر ، مـن هنـا ، أصـبح شـعر عـرار جـزءا مـن النـسيج الوجـداني الـشعبي في الأردن ، لا يقتـصر علـي الـصفوة أو المـثقفين ، بـل يخـترق الحـواجز ، ويـردده الطـلاب والعمـال والموظفـون والحرفيـون ، ويـرون فيـه هـويتهم الأردنيـة ونـبض أحـوالهم الـسياسية والاجتماعيـة . لهـذا الـسبب حجـب بعـض شـعره الـلاذع ، لا سـباب سياسـية وأخلاقيـة . لكـن هـذا لم يمنـع النـاس البـسطاء مـن حفـظ هـذا الـشعر المحظـور ، وكـان صـديقنا خالـد الـساكت ينـشدنا بإلقائـه العميـق كـثيرا ممـا يحفظـه مـن شـعر عـرار الـذي لا يـضمه ديوانـه ، فيملؤنـا بنـشوة صـاخبة متمـردة ، ويجعلنـا علـي يقـين مـن أن هـذا الـشاعر الـذي رحـل في الثانيـة والخمـسين مـن العمـر هـو حقيقـة شـاعرية الأردن في النـصف الأول مـن القـرن العـشرين ، وهـي شـاعرية يثقـل جوهرهـا في ميـزان الـشاعرية العربيـة منـذ مطـالع القـرن الماضـي . وسـيبقي ديوانـه عـشيات وادي إلى ابـس في طبعتيـه اللـتين صـدرتا في عـام ي١٩٤٩ و١٩٧٢ دليلا علـي هـذه الـشاعرية الكـبيرة ، الـتي اقـترب مـن جوهرهـا البـدوي الملـثم يعقـوب العـودات

في كتابه عرار شاعر الأردن ومحمود المطلق في تقديمه للطبعة الأولي من الديوان والدكتور ناصر الدين الأسد في كتابه الكبير عن الشعر الحديث في فلسطين والأردن .

يبقي أن أشير إلى لحظة ما ساوية تجدد فيها الحديث عن مصطفي وهبي التل عندما اغتيل ابنه وصفي التل ـ الذي كان رئيسا لوزراء الأردن ـ وكان مصرعه في القاهرة ، في السبعينيات ، احتجاجا علي سياساته ومواقفه التي رأي قاتلوه أنها غير وطنية وغير قومية .

فهل كان شعر عرار ـ الوطني الثأثر ـ يهييء لمثل هذه النهاية الدرامية التي تعرض لها ابنه متهما في وطنيته وقوميته ؟

الشعر والجمهور

بقلم : فاروق شوشة

الحديث عن الخلل في العلاقة بين الجمهور والشعر ليس جديدا ، وإنما هو من القديم الذي يتجدد نتيجة لا ثارة أسبابه ودواعيه ، وفي كل مرة يطرح الأمر تستدعي مناقشته تأمل أحوال ثلاثة : حال الشعر وحال المتلقي وحال النقاد . ثم أضيف إلى هذه الأحوال الثلاثة حال رابعة هي ما يتصل بقنوات هذا الشعر إلى الجمهور المتلقي بدءا من الصحيفة والمجلة والكتاب وصولا إلى المسرح والاذاعة والتليفزيون ، انطلاقا إلى أشرطة الكاسيت والفيديو وأقراص الليزر والكمبيوتر والانترنت .

ووجه الأهمية في هذا الحديث . أنه ينبهنا إلى تأمل الواقع المحيط بفن جميل من فنون الإبداع بالعربية هو الشعر ، بل هو فنها الأجمل . وإلي إدراك أن ما كان يسمي خللا في العلاقة بين أطراف الموضوع قد أصبح - نتيجة لتراكمات عدة - عزوفا وانقطاعا . ولم يحدث هذا كله لقلة في محصول الانتاج الشعري فالوفرة فيه هي الطاغية والسائدة ، ولا لندرة في الكتابات النقدية فالإسهامات المختلفة في هذا المجال غزيرة ومتتابعة ، ولا لضيق في مساحة قنوات التوصيل بين الشعر والجمهور ، بل العكس هو الصحيح . إذن ما المشكلة ؟ وأين مكمن الداء ؟

الواضح أن المشكلة تكمن أساسا في الوفرة التي لا يصاحبها فرز أو تقييم والاختلاط الذي لا يواكبه بصر أو تمييز . المفاهيم شتي ومتعارضة ، والدعاوي عريضة ومزعمية - أي تتكيء إلى مجرد الزعم - وكثير من الشعراء يلتقطون الاشارة لينخلعوا من هويتهم الابداعية إلى ما يراد لهم أن يتلبسوه ، والمتلقون لهذه الوفرة الشعرية المختلطة - لم تعد تسعفهم في أكثر الحالات - ذائقة بصيرة ، تنتقي وتستصفي وتغربل ، وتضبط بوصلة الاهتمام في الاتجاه الصحيح ، وعندما يدركها ما في الساحة الشعرية نفسها من خلل واضطراب ، تنسحب أو تنفض يدها من الأمر كله !

لقد بدأت العلاقة الأولي بين الشعر العربي والجمهورفي صورة حية ومباشرة من خلال الأسواق التي كانت تقام في مواضع مختلفة من شبه الجزيرة العربية علي مدار العام أكثر من ثلاثين سوقا أبرزها وأشهرها عكاظ والحربد وذو المجاز ومجنة وهجر وقطر ، تنصب وتقام أولا للتجارة أياما أو أسابيع ، حتي إذا انتهي البيع والشراء تحولت هذه الأسواق إلى ساحات ينشد فيها الشعراء قصائدهم ، فإذا لم يكن الشعراء قام الرواة عنهم بإنشاد هذه القصائد ، يتلقاها الجمهور الوافد من شتي القبائل والأماكن ، ليصبح بدوره وسيلة لنشر هذه القصائد في كل مكان .

فإذا تأملنا هذا المشهد القديم الثلاثي الأبعاد - الذي جسدته أسواق العرب في تاريخ القصيدة العربية - وجدنا الشاعر ينشد والمتلقي يستقبل وبينهما حكم شعري ارتضاه أهل الرأي والبصر والشعر . هذا الحكم يضيء ويفسر ويشرح ويوضح إذا لزم الأمر ، ويضيف إلى وعي المتلقي بالنص الشعري أفقا جديدا ومساحة أرحب من التذوق . كما أن الإنشاد الذي يقوم به الشاعر أو الراوية يحمل معني تأدية الشعر منغما حسن الايقاع واضح الوقفات والفواصل ، مع إبراز للمدات وحروف اللين بما يزيد من تأثيره الموسيقي وحسن وقعه لدي المتلقي ، ويساعد علي حسن استقباله لمن يستمع ويحتفظ في ذاكرته بما استمع إلى ه .

هذه الحال الانشادية - وطرفاها الشاعر والمتلقي - ظلت مصاحبة للاستقبال الشعري ، تستثير الوعي والفهم والتذوق ، وتوقظ الاحساس الموسيقي ، جيشانا وتدفقا ، همسا وصخبا ، بين فضاء النص الشعري ومساحة الخيال المستثار عند المتلقي ، وحميا النشوة أو المتعة الفنية لديه .

كما ضمنت حنيمة التحكيم - المقامة في أعلي السوق لشاعر كبير مرموق كالنابغة مثلا - مواكبة نقدية مصاحبة تعني بالانطباعات السريعة المباشرة ، ونشر حكمتها وفصاحتها وبلاغتها في صورة أحكام جزئية ، لكنها في اطار السياق العام لحركة القصيدة العربية - خاصة في مرحلة البدايات الأولي - تسهم في تشكيل وعي الجمهور المستقبل وتلقينه الدروس الأولي في التعامل مع النص الشعري استحسانا أو استهجانا ، وتنقله من مرحلة التوقف في الحكم عند جرس والعبارة - وهي المرحلة الصوتية الأولية في الاستقبال - إلى تأمل الصيغ والتراكيب والصور والدلالات .

ولم تكن هذه الأسواق مجرد وسط شعري ، أو مناسبة لنشاط شعري له أبعاده الثلاثية :

الشاعر والناقد والجمهور ، لكنها تركت تأثيرها العميق في بنية القصيدة وتقنياتها الفنية وفي إفساح المجال أمام الحس الخطابي والنزعة الاعلامية للقصيدة . خاصة عندما تستحضر القصيدة قيم القبيلة والمجتمع متمثلة لها ، وعندما تحمل مواقف أوسع من ذاتية الشاعر وأرحب من حدود وجدان الفرد ، لتصبح ناطقة باسم الجماعة ومعبرة عنها ، في مثل قضايا الحرب والسلام والثأر والصلح والمنافرة والمفاخرة بالأصول والعروق والأنساب - كما حدث في معلقات عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وزهير بن أبي سلمي - هذا الحس الخطابي وهذه النزعة الاعلامية هي التي أدت بالقصيدة - أحيانا - إلى لون من المباشرة ظلت مصاحبة للقصيدة العربية عصورا طويلة بالرغم من تغير المشهد الشعري واختلاف طبيعة المتلقي وتجاوز صيغة الأسواق التي كانت القناة الأولي والأساسية لتوصيل الشعر إلى الجمهور إلى جانب ما قام به الرواة في هذا المجال .

وساعدت هذه الأسواق - وماصاحبها من حالات الإنشاد الشعري - علي ابقاء الشعر العربي ظاهرة صوتية يقوم الانشاد فيها بتحقيق التواصل الحي بين الشاعر والجمهورأو بين الراوي والجمهور ، وسوف تظل هذه الصيغة الصوتية مستمرة حتي إلى وم بالرغم من بروز أشكال متعددة وصيغ أخري لهذا الاتصال - نتيجة لظهور الطباعة وتأكيد دور الصحيفة والمجلة والكتاب - إلا أن القصيدة العربية لا تزال تستمد حضورها وفاعليتها من خلال الانشاد أو الالقاء أو ا لا داء المسموع الذي يبرز ويجسد مقاطعها وفواصلها ووقفاتها ، ولاتزال تعتمد في عمق تأثيرها علي الاتصال المباشر بين المؤدي والمتلقي مما يفسر نجاح الملتقيات والأمسيات الشعرية التي تقام في اطار العديد من المهرجانات والمؤتمرات والمناسبات الثقافية والأدبية - علي امتداد الوطن العربي - ويقصدها الألوف ليستمتعوا عن قرب بحيوية هذا الشعر وحضوره وصوتياته ، وكأنهم يتابعون التقاليد الأولي التي شكلت صيغة العلاقة بين الشاعر والجمهور ويحتشدون لمعايشة حميا هذه اللقاءات الشعرية الجماهيرية التي يسودها فوران النغم والايقاع وجيشان المشاعر والعواطف والترنم بهذا الفن العربي الجميل: الشعر . لكنها - بالرغم من ذلك كله - صورة لا تلغي الاحساس بالخلل والاختلاط الذي يعيشه متلقي الشعر في هذا الزمان .

ولقد ساعد علي هذا الخلل والاختلاط ، والشعور أحيانا بالانقطاع والانفصال ، ضعف المستوي اللغوي - لدي الشباب علي وجه الخصوص - وعدم تمكن الأجيال العربية الجديدة من لغتها القومية . فالشعر - في جوهره - فن لغوي ، يتطلب في تذوقه والنفاذ إلى أسراره وعيا لغويا قادرا ودربة علي القراءة والتأمل والتحليل ، وهو ما يفتقده النشء الجديد في المدرسة والجامعة ، بعد أن انهار أسلوب تعليم اللغة العربية نتيجة لضعف المنهج التعليمي وسوء اختياراته للنماذج والنصوص التي يفترض انها تمثل حقيقة الابداع العربي في الشعر والنثر وهبوط مستوي المعلم ، والطفرة الهائلة في أعداد المتعلمين في المدرسة والجامعة وافتقاد الرؤية الصحيحة لا سباب تعليم اللغة العربية والقدرات الأساسية فيها ، والاصرار في مناهج التعليم علي البدء بدراسة الأدب الجاهلي ونصوصه الصعبة الغريبة لغة وصورا ومجازات في ظل سن مبكرة وقدرة لغوية غضة وخيال محدود . فتكون النتيجة المحتومة كراهية الأدب العربي كله وكراهية درس اللغة العربية الذي تقلص معناه فأصبح يعني درس النحو وأصبح النحو لا يعني أكثر من القواعد والقواعد لا تعني أكثر من الاعراب . ولم يعد ثمة مجال - في اطار هذا الواقع التعليمي المتردي - إلى الاهتمام بدراسة الأساليب والنصوص المختارة واتساع أفق القراءة الحرة البعيدة عن المنهج المدرسي الصارم .

وليست صورة الدرس الأدبي في الجامعة بأفضل منها في المدرسة . فالتركيز علي الجزئيات ، والاهتمام بالكتب المقررة التي ألفها الأساتذة أو المذكرات التي صنفوها ،

وانعدام العلاقة المباشرة بين ا لا ستاذ وطلابه - نتيجة للأعداد الهائلة من الدارسين - ومعاملة الجميع دون تمييز بينهم يكشف عن النبوغ والتفوق والاستعدادات والقدرات الفردية - كل ذلك أدي إلى انهيار العلاقة بين نسبة كبيرة من خريجي الجامعات المصرية والعربية ولغتهم القومية وأدبهم القومي . فضلا عن عدم امتلاكهم للوسائل والآليات التي بها يحسنون القراءة أو التذوق أو الاختيار والتحليل . وهم الذين يصبحون بعد التخرج معلمين وكتابا وصحفيين واذاعيين ، ولابد أن نتوقع من بينهم المبدعين من شعراء المستقبل وأدبائه ونقاده .

هذا الهبوط في المستوي اللغوي - عند الأجيال الجديدة من الشباب - أدي إلى شيوع نماذج من الكتابة الشعرية السطحية ، لغتها مباشرة ودلالاتها قريبة وضحلة ، تجد جمهورها الواسع في هذه الأجيال الشابة الفاقدة للقدرة اللغوية والذائقة الناضجة . تماما ، كما أدي انعدام الوعي بالعروض والموسيقي الشعرية - لدي بعض النقاد - إلى كتعاطفهم مع قصيدة النثر وحماسهم لها ، لا نها تنقذهم من أزمة التعامل مع الموسيقي الشعرية ودراسة بنيتها الايقاعية وتجلياتها المختلفة ، في ضوء الدراسة النقدية الشاملة للعمل الشعري .

وفي مناسبة الحديث عن هذا الصنف من النقاد ، فإن الحياة الشعرية العربية المعاصرة تفتقد الدور النقدي - المواكب والمؤازر - الذي ما رسته التقاليد النقدية والبلاغية العربية بدءا من عصر الأسواق العربية في القديم ، والملاحظات الجزئية للشاعر الكبير الذي جلس للتحكيم بين ا لشعراء ، وصولا إلى الانشغال بقضية اللفظ والمعني في تراثنا العربي ، وآراء القدماء في وظيفة الشعر ، والحديث عن المبالغة والاغراق والغلو والتخيل ، وصولا إلى فكرة النظم عند عبد القاهر الجرجاني التي يري بعض المعاصرين أنها تطابق ما يسميه الغربيون علم التراكيب ، فضلا عن الانشغال بالصورة الأدبية التي هي كالنقش والصياغة وتقويم الكلام وصلته بالعلاقات في التركيب وتقويم الجمال وصلته بالمضمون .

يبدو الأمر إذن وكأن بعض نقاد هذا الزمان يكتبون لغيرهم من النقاد بعد أن أصبح النقد عملية بالغة التعقيد والصعوبة ، وعلما تتداخل فيه علوم الفلسفة والاجتماع واللغويات والصوتيات ، وضربا من التنظير الفكري المركب يتسع للسياسة والعولمة أيضا . ولم يعد النقد - نتيجة للثورة المعرفية الشاملة وبروز مدارس وتيارات واتجاهات جديدة وواسعة - يقنع بالنظرة البلاغية الجزئية أو الحكم النقدي العابر أو النظر المعني بالحكم والتقييم . النقد الآن - في رأي هؤلاء - جهد معرفي يقدم خبرة موازية للنص الشعري ، خبرة لا تقنع بالسير في غبار هذا النص أو إلى جواره وانما قد تتجاوزه وتضيف إلى ه . من هنا أصبح هذا اللون من النقد يكتب للنقاد أنفسهم ، وأصبحت الكتابات النقدية لدي هؤلاء - ضربا من اللعب ، أداته اللغة ، لا يقيم وزنا لتقاليد سابقة ، أو لا عراف

أدبيــة مــستقرة ، أو يلــبي رغبــات فطريــة متــواترة ، أو يــستهدف تحقيــق لــذة لجمهــور المـتلقين . ومـادام الـنص الأدبـي ـ في رأي هـؤلاء النقـاد ، لعبـا لغويـا ، فعلـي الناقـد نفسه أن يلعـب الـدور نفـسه مـع الـنص ، اذا هـو ينـشيء كتابـة سـرعان مـا تـصبح هـي نفـسها موضـع قـراءة ، وتتـساوي عندئـذ النـصوص الأدبيـة مـع النـصوص النقديـة الـتي أصـبحت بـدورها نـصوصا كتابيـة ! وهـو مـا يجعلنـا نتـساءل: لقـد أنجـز بعـض نقادنـا المعاصـرين في سنوات قليلـة كمـا مـن الدراسـات النقديـة ـ علـي مـستوي النظريـة والتطبيـق ـ يفـوق بكـثير مـا قدمـه أمثـال طـه حـسين ومحمـد منـدور ـ وهمـا مـثلان مـن جـيلين متتـابعين ـ قـراءة أعمالهمـا متعـة فنيـة عاليـة بكـل المقـاييس ـ فلمـاذا تبـدو هـذه الكتابـات الكـثيرة لـبعض نقادنـا المعاصـرين فاقـدة التـأثير والفاعليـة والقـدرة علـي التغـيير والتوجيـه وتوسـيع الأفـق المعـرفي والفـضاء النقـدي ، بالمقارنـة مـع بعـض الكتابـات القليلـة لطـه حـسين ومحمـد منـدور ؟ وهـي كتابـات لا تـزال صـالحة للإلهـام وتحريـك الـوعي وخلـق مـساحة للحـوار ، دون أن تفقـد حرارتهـا وحيويتهـا وامتاعهـا الجميـل ، ولاتـزال صـورة حيـة للقـراءة النقديـة الذكيـة ، المتكئـة إلى ذائقـة مرهفـة مـصقولة وخـبرة شـديدة الـوعي والنـضج ومعرفـة عميقـة بفنيـة القـصيدة العربيـة وتحولاتهـا وتجلياتهـا المختلفـة عـبر العـصور ، فـضلا عمـا تمتلـيء بـه هـذه الكتابـات مـن قـسمات الأفـق الانــــــــساني الرحــــــــب والنظــــــــر الموضــــــــوعي الفــــــــسيح .
إن المـسألة هنـا محـسومة بالقـدرة علـي الهـضم والتمثـل لا فكـار الآخـرين ـ كمـادل عليهـا طـه حـسين ومحمـد منـدور ، وغيرهمـا ممـن تابعوهمـا بـوعي واسـتنارة ـ والقـدرة علـي صـياغة هـذه الأفكـار وتـذويبها في نـسيج عربـي محكـم وأسـلوب عربـي مـشرق ، قـادر علـي الاسـتيعاب وحـسن العـرض وجـلاء الفكـرة والمعـني دون معاظلـة أو غمـوض أو وقـوع في التنـاقض ، ودون حاجة إلى اعادة ترجمة أو تعريب .

أسـباب الخلـل في العلاقـة بـين الجمهـور والـشعر ـ كمـا هـو حـادث الآن ـ كـثيرة ومتداخلــة ، ومــسئولياتها تتــوزع بــين الــشاعر والناقــد والجمهــور ، وقنــوات الاتــصال في المجتمــع ، والنظــام التعليمــي في المدرسـة والجامعــة ، ومنافــذ الاتــصال بحاضــر الابــداع الـشعري العربـي والعـالمي لكـن تهيئـة الـسبيل أمـام بـزوغ مواهـب شـعرية جديـدة تنـضجها نـار التجربـة والمعانـاة والتمـرس بـالخبرة الحيـة ، ويملؤهـا إلى قـين في غـد أفـضل ، ينبغـي أن تظـل أمـرا شاخـصا نـصب أعيننـا ، أمـلا في أن تبـدع الأجيـال الجديـدة شـعرها الجديـد المغـاير ، المتجاوز لذاته باستمرار .

الشعر والجمهور - ٢ -

بقلم : فاروق شوشة

الحديث عن الشعر والجمهور أو الجمهور والشعر حديث ذو شجون . من هنا فهو ممتد ومستمر ، ذلك أنه علي مستوي العصر الحديث يثير ما يسمي بوسائط الشعر وقنواته وآلياته بعد أن تكاثرت وتعددت واتسع نطاق تأثيرها في المتلقي فردا وجماعات .
والواضح أن العصر الحديث قد ساعد منذ بداياته علي ازدهار المحافل التي هي في جوهرها امتداد للصيغة الأولي التي ابتكرتها أسواق العرب بما تحمله من مباشرة وحيوية ، وتألقت من خلالها المناسبات الشعرية في الوطنيات والمراثي وحفلات التأبين والمناسبات الدينية وحفلات التكريم بأسلوبها الخطابي في الاداء واعتمادها علي الاستثارة العاطفية ، والانفعالية واهتمامها بأبيات القصيد التي تمثل الوقفات الضرورية خلال عملية الإلقاء .
وأصبح الشاعر ـ نتيجة لهذه المحفلية في علاقة الجمهور بالشعر ـ ينافس الخطيب وأداءه الخطابي ، وارتبط الحكم الأني علي القصيدة بمدي نجاح هذا الأداء المحفلي في التأثير .
هذه المحفلية ـ مثلا ـ هي التي جعلت من شاعر النيل حافظ إبراهيم ومن بعده علي الجارم نموذجين باهرين لسطوة الأداء الخطابي وجهارته ومدي تأثيره . وفي إلى وم التالي للمحفل الشعري كان قراء الشعر يطالعون قصيدة حافظ ابراهيم إلى جوار قصيدة شوقي ـ الذي لم يكن يلقي شعره بنفسه لضعف في صوته وخفوت في نبراته وإنما كان يعهد به إلى بعض القادرين من الشباب علي الإلقاء مثل كامل الشناوي ومحمد خلف الله أحمد وغيرهما ـ فيفاجأون بالقصيدتين علي صفحات المقطم أو الأهرام وقد عريت قصيدة حافظ من روعة إلقائه وجيشان عاطفته وجهارة صوته ، بينما قصيدة شوقي ـ في كثير من الأحيان ـ تفوقها شاعرية وافتنانا في مجالات القول وتحليقا في آفاق الإلهام والإبداع .
هذه العلاقة المحفلية لا تزال مستمرة حتي إلى وم ، في كل مناسبة تستدعي تقديم الشعر إلى الجمهور المحتشد في سرادق أو قاعة أو مؤتمر . وهي علاقة تذكرنا دوما بالصيغة التي ازدهرت قديما في أسواق العرب من حيث العلاقة المباشرة والحية بين الشعر والجمهور .
لكن هذه الصيغة أخذت من طبيعة العصر قدرا أكبر من التنظيم وحظا أوفي من تهذيب الحواشي وإلغاء فضول الكلام ، وهي نفسها الصغية التي لا تزال مزدهرة في الأمسيات الشعرية لمعرض القاهرة الدولي للكتاب وفي المربد العراقي وجرش الأردني وأصيلة المغربي والجنادرية السعودي والمحبة السوري وسوسة التونسي . والجمهور ما يزال مرتبطا بهذه الصيغة التي تمثل علاقة حميمة بين القصيدة والمتلقي ، وقد يفضلها ـ أحيانا ـ عن

القراءة الصامتة للشعر في صحيفة أو كتاب ، عندما يلتقي بشعراء تسبقهم شهرة طاغية أو ارتباط بقضية وطنية أو قومية أو لهم لغة واخزة قادرة علي التحريك والإثارة . لكن التقويم النقدي الأمين والمنصف للكثير من هذه الملتقيات الشهرية - التي يسيطر عليها في الكثير من الأحيان طابع الإعلام والمباشرة - ينظر إلى آثارها السلبية بأكثر مما تستوقفه نجاحاتها الآنية ، بل إنه يحذر من بعض عناصر هذه المهرجانية الجماهيرية التي تتسلل إلى البنية الشعرية للقصيدة ، وتقودها في اتجاه التلاءم مع حالات الاستقبال الصاخب للشعر !

إلي جانب هذه المحافل الشعرية ، أتيح للشعر - منذ عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته - أن يصعد إلى المسرح من خلال تقديم عروض المسرح الشعري . وأصبح المسرح قناة جديدة من قنوات الاتصال بين الشعر والجمهور ، يؤازرها الإبهار بالحركة والديكور والإضاءة والمؤثرات الصوتية والموسيقي الصوتية والموسيقي التصويرية ، فضلا عن المشاهد الغنائية والموسيقية الراقصة وحركة الأفراد والمجموعات علي المسرح بعد أن أصبح تقديم المسرحية الشعرية في صورة عرض مسرحي شامل يجمع بين الكلمة والأغنية والموسيقي والرقصة هو الصيغة الأكثر نجاحا وعصرية و استهواء للجمهور . وبفضل هذا الاحتشاد في تقديم المسرح الشعري وتطور صيغة تقديمه أصبح له تأثيره في تعميق العلاقة بين الجمهور والشعر . وأصبح الناس أمام نوعين مختلفين من الأداء الشعري في الأداء المحفلي: الشاعر بنفسه يمتطي صهوة الطبقة الصوتية الملائمة للتأثير والانفعال والاستثارة ، ويراوح في أدائه بين الصعود والهبوط والسرعة والبطء والعنف والهدوء . لكنه - في كل الأحوال - محكوم بدرجة تأثيره اللحظي في الجمهور ومدي تقبل هذا الجمهور لا دائه الذي يتراوح بين حال وحال .

أما في الآداء الدرامي فهناك حرص فني من المخرج والممثل علي تجسيد ملامح الشخصية وقسماتها ، كل حركة وكل لفتة وكل نأمة ، خاضعة لقانون المسرحية ومحكومة بحسابات المخرج والممثل ، لا مجال فيها لا داء محفلي من خارج المؤدي - أي من خارج منطقة الإحساس والإقناع الشعوري - هنا يتفاوت المثلون بمقدار إجادتهم في تصوير أدوارهم وشخصياتهم والتعبير عنها ، ويتفاوت المخرجون في مدي فهمهم لروح النص الدرامي الشعري ، ومدي النجاح في توصيل معناه ومغزاه ودلالاته إلى الجمهور وتجسيد ما كان سطورا علي الورق في صورة حياة حقيقية يمور بها المسرح وترتج زواياه وأركانـــــــــــــــــــــــــــــــه .

هذا الأداء المسرحي ، قناة عصرية من قنوات الشعر إلى الجمهور ، لها عشاقها ومريدوها والساعون إلى ها كلما أتيحت الفرصة لعرض مسرحي شعري ، وما أقل هذه الفرص وما أندرها . بالرغم من وجود تراث من العروض المسرحية الشعرية للعديد من الشعراء - علي

اختلاف مدراسهم واتجاهاتهم الشعرية - يمكن تقديمه باستمرار عند الشكوي من افتقاد نصوص جديدة . لكن تدني كثير من العروض المسرحية وهبوط ما يقدم علي مسارحنا المصرية والعربية الآن لم يعد يغري القائمين عليها بتقديم مسرح شعري جاد ، له أركانه ولغته الفنية ، وقضاياه الفكرية والحياتية السطحية والسوقية والابتذال أعدي أعداء الشعر ، وصعودها إلى خشبة المسرح وتمكنها من حاضره ، وتغلغلها في كل عناصر العرض المسرحي ، يجعل من المسرح الشعري العربي في كل ما أبدعه شعراؤه الرواد ضيفا غريبا غير مرغوب فيه ، فضلا عن انحسار حركة التأليف والابداع في المسرح الشعري ، علي مستوي الوطن العربي كله ، وإيثار كثير من الشعراء الابتعاد عن ساحة المسرح تجنبا لما يحمله العمل المسرحي عادة من مشكلات ومواجهات ، ومايتطلبه من جهد سابق ومواكب للعرض المسرحي ، فضلا عن عدم تحقيقه للعائد المادي أو المعنوي الذي يكافيء هذا كله .

ثم بدأت الإذاعات العربية - المسموعة والمرئية - في تقديم قناة جديدة تصل بين الجمهور والشعر ، والعمل علي اتساع دائرة انتشاره وتأثيره ، وحمله - في معظم الأحيان - علي أجنحة الموسيقي والأداء الهاديء والهامس ، بعيدا عن صخب الأداء المحفلي وجلبته وتشخيصية الأداء ، الدرامي وعناصره التمثيلية . ورأي كثيرون أن هذه القناة تتخطي حاجز الأمية - الذي يحول بين قطاعات عريضة من الشعب العربي والقراءة - وتتغلب علي صعوبة الحصول علي كتاب الشعر والمجلة الأدبية والثقافية المتخصصة باعتبارهما الوسيلتين التقليدتين في هذا المجال . وتباري كثير من الإذاعيين العرب - كل بطريقته - في الاختيار والتقديم والاخراج ، وتضمين الشعر داخل العديد من البرامج والأعمال الاذاعية والتليفزيونية . وبدا كما لو أن هناك صحوة أدبية ووعيا جديدا مفاجئا بالشعر وأهميته وضرورة تيسير وصوله إلى الناس ، يتمثل في هذا السباق الإذاعي - المسموع والمرئي علي المستوي العربي كله .

لكن الملاحظ أن كثيرا من النماذج الشعرية التي تقدم ، يتم اختيارها علي أسس صلاحيتها لدغدغة مشاعر المستمع والمشاهد ونجاحها في تحقيق مساحة من الراحة النفسية وهدوء البال ومتعة المؤانسة ، مما نتج عنه حجب مساحة واسعة من الشعر العربي المثير للوعي والتأمل ، العميق التأثير في المستمع والمشاهد لشدة نفاذه وتعريته للسطح الخارجي للأشياء والظواهر .

وأن تقديم هذا الشعر - في الاذاعات والتليفزيونات المصرية والعربية - كانت تختار له - في معظم الأحيان - الأوقات المتأخرة من ساعات الإرسال ، كأن الشعر فن ليلي ، أو فن هدهدة ما قبل النوم وجسر الساهرين المتعبين إلى عالم الرؤي والأحلام ، وليس فنا للصحو واليقظة والتنبه . وارتبط الأداء - الإذاعي والتليفزيوني - بطبيعة هذا الدور فأصبح أداء مسترخيا - في معظمه - يصل أحيانا إلى درجة الهمس المبالغ فيه ، بل

إلى درجة الحشرجة والفحيح ، من أجل تحقيق هذه التهيئة المطلوبة للمستمع والمشاهد ، نتيجة لهذا كله ، فقد وقر لدي المستمعين أن الشعر الجميل هو ما تقدمه هذا البرامج ويختاره هؤلاء المعدون والمقدمون ، وأن كل ما يستثير الفكر والوعي و إلى قظة والرغبة في تغيير الحياة إلى الأفضل والرفض والتمرد علي سلبيات الواقع ليس هو الشعر المطلوب أصبح مفهوم الشعر لديهم مرتبطا باستدعاء حالات الهروب والتوحد والعزلة والانكفاء علي الذات والاستغراق في تأمل العالم الباطني للإنسان ، لا علاقة له بالتحريض علي المشاركة الفاعلة في حركة الحياة باعتباره فنا لليقظة العقلية والشعورية ودعوة إلى الكشف والتأمل والمواجهة ووسيلة من وسائل تأكيد الجمال ونفي القبح والانتصار علي التخلف والسلبية والانغلاق .

هذه الطريقة الخاطئة في التعامل مع الشعر العربي أدت إلى أن تحرص التليفزيونات العربية - فيما تقدمه من مساحة متواضعة للشعر - علي اختيار النماذج التي يمكن ترجمتها بسهولة إلى صورة يراها المشاهد ويتابعها أثناء تقديم القصيدة ، وامتلأ فضاء الإرسال التليفزيوني بصور القمر والنجوم والبحار والجداول والاشجار والورود والطيور والغابات وغيرها من المشاهد الطبيعية التي تترجم هذه النماذج الشعرية . لقد انحصر الاختيار في مساحة ضئيلة من ديوان الشعر العربي القديم والحديث ، واصبحت إمكانية التعبير بالصورة هي الأساس الأول في الاختيار ، وكثيرا ما يكون مثل هذا الشعر ضحلا قريب الغور ملاصقا للسطح دون أن يأخذ بالمتلقي إلى أعماق النفس الانسانية . واتسع المجال لا ختيار نماذج المباشرة والوضوح بدلا من نماذج البوح والإيحاء والتأمل ، واختفي شعر المعني العميق والرؤية المركبة والدلالة البعيدة ، ليحل شعر المدركات الحسية والصور العينية والمشاهد المرئية .

ولقد حاولت التليفزيونات - المصرية والعربية - طيلة العقود الثلاثة الأخيرة تجريب أشكال وصيغ أخري من التقديم والإخراج علها تهيىء لا ختيار نماذج ومستويات أخري من الشعر . لجأت - مثلا - إلى اللوحات الفنية والرسوم التي يمكن أن تصاحب تقديم هذا الشعر ، واجتهد البعض في محاولة التوفيق بين اللوحة المصورة أو المرسومة والقصيدة المذاعة ، وإظهار الأمر علي أنه ترجمة حقيقية للقصيدة صنعت من أجلها . وحاول آخرون المزج بين المشهد الطبيعي واللوحة ، كأنهم يريدون الجمع بين جماليات الوسيلتين وتأثير المزج بينهما بالنسبة للمشاهد ، ولجأ غير هؤلاء جميعا إلى صنع مواقف تمثيلية يؤديها ممثلون محترفون ، يتم من خلالها توزيع النص الشعري عليهم ، وكأنه مشهد متقطع من سياق مسرحي ، أو هو مشهد تليفزيوني مستقل بذاته .

وانتصرت في نهاية الأمر - علي كل هذه الأشكال والصيغ المستحدثة في توصيل الشعر إلى الجمهور عبر الاذاعة والتليفزيون - الصيغة القديمة الحية والمباشرة ، وهي

صيغة الشاعر الذي يلقي شعره بين جمهوره ، وهكذا أصبحت الأمسيات والملتقيات الشعرية المنقولة من الواقع إلى الشاشة الصغيرة هي أكثر هذه الأشكال استهواء للمشاهد وأنجحها في تقديم الشعر دون افتعال أو تزييف خاصة أن ما يقدمه الشعراء - عادة - في هذه المهرجانات الشعرية ينجو من شروط الاختيار الإذاعي والتليفزيوني السابقة ، ولا يصبح شعرا مقصوص الجناحين عاجزا عن التحليق والفعل والحصن وشحن الروح بما يملكه الشعر من طاقات حية وامكانات خلاقة وحوافز متفجرة .

تبقي - بعد هذا كله - كلمة أخيرة الواضح أن واقع العلاقة بين الجمهور والشعر يحتاج إلى حشد قنوات عدة من أجل وعي أعمق وعلاقة أوثق . يحتاج إلى القضاء أولا علي عار الأمية في مجتمعاتنا العربية جميعها . يحتاج إلى مجلات متخصصة تواكب الإبداع الشعري والإبداع النقدي في الشعر ، تمثل حاضر الحياة الشعرية العربية وتحقق التواصل بين المبدعين من الشعراء العرب والجمهور الأساسي للشعر علي امتداد الوطن العربي . وتضع الشعر العربي علي خريطة الشعر العالمي وفي ميزانه دراسة ومقارنة تأثيرا وتأثرا ، انفتاحا وانغلاقا . يحتاج إلى أن يقوم الاذاعيون العرب - في الاذاعات المسموعة والمرئية - بدور أكثر وعيا ونضجا واستنارة في توصيل الشعر العربي إلى الجمهور من خلال الوعي العميق بالإبداع الشعري في كل تجلياته ، وهو المفهوم الذي يتجاوز الاختيارات السطحية ودائرتها الضيقة ويمكن الشعر الحقيقي من القيام بدوره في إثراء الوجدان الإنساني وإخصاب حركة الحياة وتوسيع فضاء التنوير وانضاج الوعي لدي الجمهور العربي بقضايا الوجود والمصير الانساني باعتباره فنا للصحو واليقظة وليس فنا لهدهدة ما قبل النوم !

الشعر والجمهور - ٣ -

بقلم: فاروق شوشة

الحديث ذو شجون كما قلت وأقول . . ومصدر الشجن أن العلاقة الحميمة بين الجمهور والشعر كانت - علي مدار العصور - قوية ونامية . يحس من خلالها هذا الجمهور أنه يمتلك القدرة - في كل وقت - علي التعامل مع النصوص الشعرية استقبالا وتذوقا ومعايشة تقصر أو تطول . ويمتلك القدرة - في كل وقت - علي التمييز بين الصحيح والزائف ، الأصيل والملتبس . . والقدرة علي أن يقول كلمته فيما يقرؤه وفيما يسمعه ، دون أن يتوقف مرة واحدة ليتساءل: ما حقيقة الشعر ؟ وهل نحن بحاجة إلى إعادة تعريفه ؟ وهل هناك خلط في التعريفات والمواصفات ، أدي إلى خلط في الضوابط والمعايير أم أن خلط المعايير هو الذي أدي إلى إيجاد التعريفات ؟

نعم كانت لدينا حركة حية ، دائرية ومتبادلة بين طرفي المعادلة: الجمهور والشعر . . وكان التفاعل الخلاق بين الطرفين يولد باستمرار شرارة جديدة ينتج عنها ميلاد وعي جديد يتجاوز الثابت بحثا عن مذاق غير ما لوف أو مكرور . ذلك أن هذا الجمهور المستقبل للشعر - والذي يضم بطبيعته طبقات شتي من المثقفين والمتعلمين والمريدين والفضوليين والهامشيين المعنيين بالشعر - علي مستوي الاهتمام الجاد والمتابعة إلى قطة - وغير المعنيين ، هذا الجمهور كان لديه دوما وعيه النقدي الخاص القادر علي الفرز والتمييز ، ووضع الأمور في وضعها الصحيح . حتي عندما تلتبس لبعض الوقت ، فإنه يعود ليضبط ويصحح ، متجاوزا خطأ عابرا أو عثرة مؤقتة أو سوء فهم وتقدير . وكانت هذه القدرة النقدية لدي الجمهور المتلقي لا تنشغل - في كثير من الأحيان - بما يهتف به ناقد جهير أو باحث كبير . فكثيرا ما يكون وراء هذا الهتاف النقدي ميل أو غرض أو هوي ، تدخل فيه السياسة أو تدخل فيه المصلحة أو تقود إلى ه المنافسة . عندئذ لا ينطلي علي هذا الجمهور الواعي - صاحب البصيرة النقدية والذائقة الصحيحة - زيف أو بهتان . ويتجاوز وعي الجمهور ما روج له الباحث أو الناقد حين يراه مصطدما بحسه الصافي وادراكه غير المعبر عنه . وكثيرا ما يكون هذا الحس الصافي والادراك غير المعبر عنه سابقا للالتفات النقدي وداعية له .

ومن المكن أن نعرض لا مثلة كثيرة في هذا السياق ، نبدأها بما حدث للمتنبي - شاعر العربية الكبير في زمانه وحتي إلى وم - من خصومات نقدية عنيفة وكتابات لا ذعة تحاول هدم مجده الشعري وابراز ما سماه هؤلاء النقاد سقطاته وسرقاته . كان خصوم المتنبي - لا سباب غير شعرية أو أدبية في الغالب - أكثر بكثير من أنصاره والملتفتين لجوهر

تفرده وعبقريته ، وكانت كتابات هؤلاء الخصوم ـ التي استثارها وأشعل وقودها ـ في كثير من الأحيان ـ عنف طبيعة المتنبي واعتزازه الشديد بشاعريته وتفرده وسموقه ـ أعلي صوتا من تأييد أنصاره وإعجابهم ، لكن الخصوم رأوا في بعض مثالب شخصية المتنبي بابا للولوج منه إلى نقد شعره ومحاولة زعزعة مكانته ، خاصة أن طموح المتنبي الهائل وتطلعه إلى أن ينال من ممدوحه ضيعة أو ولاية أبعده عن تقدير عرش الشعر الذي يقتعده عن جدارة واستحقاق ، لكن كل هذه الكتابات التي تداعي لها خصوم المتنبي وأعداؤه من النقاد والدارسين سقطت وجرفها غبار شعر المتنبي ، وكان وعي الجمهور النقدي وذائقته الصحيحة أول من تنبه إلى محاولة هدم المتنبي بالمؤامرة والتواطؤ ، وبدوافع الغيرة المقيتة والاحساس الهائل بالنقص والدونية ، وأصبح هذا الجمهور ـ في كل أرض عربية ـ هو صوت المتنبي نفسه داعيا ومرددا ومتمثلا ومستشهدا ، بل هو الدهر الذي عناه المتنبي في قوله :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

نعم لقد احتفظ وعي الجمهور النقدي ـ علي مدار العصور ـ للمتنبي بمكانته الرفيعة ، وحضوره الطاغي وسبقه إلى القلم واللسان ، عندما وجد ـ بفعل التجربة إلى ومية ـ أن شعر المتنبي أسبق إلى التمثيل والاستشهاد في كل موقف إنساني وحياتي ، واتسع هذا الشعر لتصوير حالات النفس الإنسانية في كل صراعاتها وتقلباتها . واكتشف هذا الجمهور ـ المكتمل الوعي والأدوات والدربة ـ أن ما يتمثل به في كل موقف وحال من شعر المتنبي ـ وهو الذي أصبح يسمي بالحكم والأمثال ـ هو من الغني والاتساع والشمول والاحاطة بحيث لم يترك شيئا من أحوال النفس الإنسانية أو تقلبات القلب الإنساني إلا وقد صاغه واعتصره في صيغة شعرية محكمة .

هذا موقف من القديم استحضره للدلالة علي وعي الجمهور الذي يملك تصحيح ما قد يقع فيه بعض أهل النقد والدراسة بسبب الخلافات والأهواء واصطدام المصالح من سوء الرأي والتقدير والخروج علي النداهة والموضوعية . وكيف يكون وعي هذا الجمهور ـ بفطرته السليمة وقدرته علي التمييز ـ وعيا جارفا ومسيطرا وقادرا علي إحداث التوازن وتحقيق التغيير .

الموقف الثاني استحضره من عصرنا القريب ، في ثلاثينيات هذا القرن ، حين خلت الساحة الأدبية من أمير الشعراء أحمد شوقي ، بعد رحيله في أكتوبر١٩٣٢ ، والخشية علي المجد الشعري الذي حازته مصر بمبايعة شاعرها أميرا للشعراء في عام ١٩٢٧ ، الخشية عليه أن يغادرها برحيل شوقي . وتقدم عميد الأدب العربي مبايعا العقاد بإمارة الشعر خلفا لشوقي الذي كان كلاهما ـ أي طه حسين والعقاد ـ من خصومه

الألـداء ومـن المنكـرين عليـه تقدمـه وسـبقه وريادتـه ، خاصـة أن العقـاد ـ وهـو في حمـاس الـشباب وفورانـه ـ حـاول هـدم مجـد شـوقي في كتابـه المـشترك مـع المـازني ، الـذي أصـدراه في مـستهل العـشرينيات ، كمـا أعلـن طـه حـسين صـراحة عـن تفـضيله حـافظ إبـراهيم علـي شـوقي في كتابـه حـافظ وشـوقي . لكـن الـوعي النقـدي لـدي الجمهـور تجـاوز هـذين المـوقفين وطرحـهما وراء ظهـره ، ولم يحـل موقـف العقـاد في كتـاب الـديوان أو موقـف طـه حـسين في كتـاب حـافظ وشوقي بين هـذا الجمهـور وإكبـاره لـشوقي وتقديمـه علـي كـل شـعراء عـصره وزمانـه ، بـل بـالغ البعض في تقديمـه علـي كـل شـعراء العربيـة . وعنـدما وقـف حـافظ إبـراهيم مبايعـا لـشوقي باسـم شـعراء الـوطن العربـي في الحفـل المـشهود بـدار الأوبـرا المـصرية تحـت رعايـة زعـيم الأمـة سـعد باشا زغلول في ما رس١٩٢٧ ، ما دا يده إلى شوقي علامة المبايعة وهو يقول بيته المشهور:

أمير القوافي قد أتيت مبايعا
وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

فـإن حـافظ إبـراهيم كـان يترجـم عـن وعـي الجمهـور في كـل أرجـاء الـوطن العربـي ، الـذي بـايع شـوقي بالإمـارة قبـل أن تترجـم هـذه المبايعـة إلى احتفـال رسمـي ، ولم يكـن هـذا الجمهـور المـصري والعربـي ـ في حقيقتـه ـ إلا المـثقفين والأدبـاء والكتـاب والمـتعلمين والقـراء فـضلا عـن رجـال الـسياسة والاجتمـاع ، بـل لنقـل إن هـذه المبايعـة لـشوقي بالإمـارة الـشعرية كانـت النتيجـة الحتميـة والطبيعيـة لمبايعـة الجمهـور لـه وافتتانـه بقـصائده وانجـازه الـشعري . لكـن ، لـيس هـذا هـو الـشاهد علـي أي حـال . وانمـا الـشاهد الـذي أستحـضره هـو مبايعـة طـه حـسين للعقـاد أمـيرا للـشعراء بعـد شـوقي ، وعلـي الـرغم مـن القامـة الأدبيـة الـسامقة لكليهمـا ، والتـأثير الهائـل لهمـا كـاتبين ومحـركين للـساحة الـسياسية والثقافيـة والأدبيـة ، فـإن هـذه المبايعـة مـن عميـد الأدب العربـي للعقـاد ـ علـي الـرغم مـن مكانتـه الأدبيـة والـشعرية الـضخمة ـ جـاءت صـادقة لـوعي الجمهـور وحـسه النقـدي وقدرتـه علـي المتابعـة والتمييـز . وقيـل إن هـذه المبايعـة كانـت وراءهـا أسـباب سياسـية تتـصل بعلاقـة كـل مـن القطـبين الكـبيرين بـالأحزاب والحيـاة الـسياسية ، وقيـل لا بـل كـان وراءهـا الحـرص علـي ألا يبـدو عـرش الـشعر ـ الـذي تبوأتـه مـصر ـ شـاغرا بعـد رحيـل شـوقي فكانـت المـسارعة بـإعلان طـه حـسين مبايعتـه للعقـاد ، وقيلـت أمـور أخـري لا أظـن أن أحـدا يـذكرها الآن . كـل مـا يـذكره النـاس ويعرفونـه حـق المعرفـة ، أن مبايعـة طـه حـسين للعقـاد بإمـارة الـشعر وئـدت في مهـدها ولم يكتـب لهـا الحيـاة ، لا نهـا ـ علـي الـرغم مـن مكانتهمـا معـا وعلـو صـوتهما ـ كانـت صـادمة لـوعي الجمهـور وذوقـه . ولم تفلـح كلمـات طـه حـسين الجميلـة ولا تعـداده مناقـب العقـاد وأسـباب اسـتحقاقه للإمـارة ، لم تفلـح في صـرف الجمهـور الـواعي عـن موقفـه الـذي جعـل منهـا في النهايـة أمـرا كأنـه لم يكـن .
الموقـف نفسه تكـرر بعـد ذلـك بـأكثر مـن ثلاثـة عقـود مـن الزمـان ، حـين أعلـن في لبنـان عـن

مبايعة الأخطل الصغير بشارة الخوري بإمارة الشعر ، وعلي الرغم من المكانة الشعرية الكبيرة للأخطل الصغير فإن الجمهور المتحمس للشعر ـ في كل الوطن العربي ـ لم يعط لهذه البيعة الجديدة بعض ما أعطاه لبيعة شوقي في عام ١٩٢٧ علي الرغم من مشاركة عدد كبير من الشعراء العرب البارزين ـ يومها ـ في احتفالية الأخطل الصغير . لكنها مرت ولم يسمع بها كثيرون ، لا يزالون يرون في شوقي المستحق لا ما رة الشعر حتي إلى وم . أنا أستحضر هذه الأمثلة ـ وغيرها كثير في مسار الابداع العربي قديمه وحديثه ـ والحزن يملؤني لما آل إلى ه حال جمهور الشعر إلى وم من تشتت وتشرذم وعجز عن المتابعة والمشاركة فضلا عن افتقاده ـ في كثير من الأحيان ـ الذائقة الصحيحة . لم تعد المشكلة الآن ـ في رصد العلاقة بين الجمهور والشعر ـ في الشعر وحده ، وما آل إلى ه حاله علي أيدي كثرة ممن منتجيه في العقود الثلاثة الأخيرة ، من أعلنوا القطيعة بينهم وبين الموروث الشعري العربي ، فجوزوا بالقطيعة بينهم وبين الابداع الشعري الحقيقي ، ووصلوا في خاتمة المطاف إلى طريق مسدود لا يستطيعون تجاوزه ، خاصة عندما قدموا أنفسهم بديلا لتيار الشعر الرئيسي وهم في حقيقتهم رافد تجريبي يغامر ويختلف ، وقد يدهشنا بمغامراته واكتشافاته ـ وهو الأمر النادر المعدود علي أصابع إلى دين حتي الآن ـ وقد يروعنا بهشاشة لغته وسوقية معجمه وانعدام منطقه الفني وتضعضع بنيته الشعرية . لقد سقط هؤلاء في التقليد الذي رفضوه وثاروا عليه ـ كما يقول أدونيس ـ عندما اعتبروا أنفسهم النموذج الوحيد والملاذ الأخير والصيغة البديلة . فأوقفوا حركة التفجير الابداعي المستمر ، وحكموا عليها بالثبات والجمود ، بدلا من أن يوسعوا من الفضاء الشعري ، ويواصلوا التفجير الابداعي من أجل الجديد القادم الذي لا بد أن يفضي بدوره إلى ما هو أكثر جدة وحداثة !

ليست هذه هي وحدها المشكلة الآن ، أي المشكلة التي يحمل مسئوليتها الشعراء ، وانما هي أيضا مشكلة الجمهور . وهي مشكلة معقدة ومركبة تتداخل فيها مستويات التعليم والتثقيف والحنكة اللغوية والدربة والذائقة والقدرات الأساسية التي تتحقق بها القراءة الفاحصة والتمييز الصحيح والتقويم الصائب . الجمهور الراهن للشعر ضحية ومسئول معا ، قاتل وقتيل معا كما يقال . وهو أمر نتبينه ـ بدون جهد ـ حين نطالع السائد والمستشري من الصيغ الشعرية ، والنفور الشديد من كل شعر يتطلب احتشاد القاريء وحضوره الكامل ، وموقف بعض النقاد الذي انحاز إلى الرداءة والسطحية بدلا من أن يكون موقف الاضاءة والتنوير . . وهي جميعا عناصر مشكلة ، الكلام فيها يطول !

لكن موضوع العلاقة بين الجمهور والشعر ، أو الشعر والجمهور ، لا يمكن إغلاقه قبل أن نتعرض للغناء ، باعتباره من الأمور الأساسية في تأكيد هذه العلاقة ،

علـي المـستوي التـاريخي مـن ناحيـة ، وعلـي مـستوي الواقـع الـراهن مـن ناحيـة أخـري . .
فإلي حديث قادم . . .

الشعر والجمهور - ٤ -

بقلم : فاروق شوشة

لا يمكن الانتهاء من هذا الحديث الممتد عن الشعر والجمهور دون التوقف عند حركة الغناء التي ازدهرت قديما في مكة والمدينة - أول الأمر - بفعل عناصر غير عربية في بدايتها ، ثم انتقلت إلى بقية العواصم والأمصار العربية ، وما كان يقوم به الغناء من دور واسع التأثير في نشر العديد من نماذج الشعر العربي فيما عرف في تاريخ الغناء العربي بالصوت الذي قد يكون بيتا واحدا أو بيتين أو عدة أبيات منتزعة من قصيدة معروفة . هذه الأصوات - أي الأشعار المغناة - هي التي قيل إن أبا الفرج الأصفهاني - صاحب كتاب الأغاني - أنفق خمسين سنة يجمعها ، لتصبح ما دة كتابه المشهور بما احتوت عليه من أنواع النغم والايقاعات ، وما أحاط بها من أخبار الشعراء والمغنين وذكر الأنساب والأصول ورواية الحوادث والتواريخ .

هكذا ازدهر كل من الشعر والغناء مرتبطا بالآخر ومشاركا في توسيع دائرة انتشاره وتأثيره . ووجد الجمهور - فيما يتغني به المغنون من عيون الشعر وبدائعه ، ومايصوغه أرباب التلحين والموسيقي - قناة جديدة من قنوات الاتصال ، وتحقيق المتعة المضاعفة التي تجسدها الكلمات والألحان والأصوات الجميلة القادرة .

وعندما نعود الآن إلى كتاب الأغاني - الموسوعة الأم للتراث العربي ، والمرجع الأول للغناء والمغنين في العصور العربية الأولي - فإننا نجد الاصفهاني يصرح بأنه كتب كتابه في عمره مرة واحدة ، وأهداه إلى سيف الدولة الحمداني - أمير دولة حلب الذي خلد المتنبي ذكره في شعره - فأنفذ له سيف الدولة ألف دينار ، ولما حدث الصاحب بن عباد بذلك قال: لقد قصر سيف الدولة وإنه يستحق أضعافها ، إذ كان كتابه مشحونا بالمحاسن المنتخبة والفقر الغريبة . فهو للزاهد فكاهة وللعالم ما دة وزيادة ، وللكاتب والمتأدب بضاعة وتجارة ، وللبطل رجلة وشجاعة ، وللمتظرف رياضة وصناعة ، وللملك طيبة ولذاذة . ولقد اشتملت خزانتي علي ما ئة ألف وسبعة عشر ألف مجلد ، ما فيها من هو سميري غيره ، ولا راقني منها سواه ، ولقد عنيت بامتحانه في أخبار العرب وغيرهم ، فوجدت جميع ما نفر عن أسماع من قرفه بذلك قد أورده العلماء في كتبهم ، ففاز بالسبق في جمعه وحسن رصفه وتأليفه . ولله در أبي الفرج ، فلقد أبقي له ذكرا لا ينسي وبسط نمرقه لا تبلي ، ولقد جمل الدنيا بفضله الذي أظهره فيه ، فهو حقيق بتسميته الحاوي لا الأغاني . ولقد كان عضد الدولة لا يفارقه في سفره ولا حضره

. كـان جليـسه الـذي يـأنس بـه ، وخدنـه الـذي يرتـاح إلى ه ، فـزاده بـذلك شـرفا إلى شـرفه ، ونبلا إلى نبله .

يكفـي أننـا نـذكر ـ حـتي الآن ـ أسمـاء طـويس والغـريض وم عبـد وابـن سـريج وابـن محرز وسلامة .

الـتي عرفـت بـسلامة القـس وجـسدت حياتهـا علـي الـشاشة سـيدة الغنـاء العربـي أم كلثـوم في فيلمهـا الـمشهور ، وحـنين ومالـك وابـن عائـشة وابـراهيم الموصـلي وابنـه إسـحاق وسـعيد بـن مـسجح ووحيـد ـ في مكـة والمدينـة والبـصرة وبغـداد ـ وصـولا إلى زريـاب في الأنـدلس ، وغيرهـم مـن أسـاطين الموسـيقي والغنـاء ، ونـذكر معهـم مـدي الحـضور الحـي لتلـك المختـارات مـن عيـون الـشعر العربـي الـتي تخيروهـا للعديـد مـن الـشعراء وصـنعوا منهـا عالمـا جمـيلا واسـع التـأثير والنفـاذ إلى وجـدان الجمـاهير الـتي عمـق لـديها ارتبـاط الـشعر بالغنـاء بـدءا بالعـصر الجـاهلي ـ الـذي كـان شـاعره الأعـشي يـسمي صـناجة العـرب ـ لمـا تميـز بـه شـعره مـن وفـرة إيقاعيـة وموسـيقية جعلتـه أصـلح مـا يكـون للغنـاء ـ وامتـدادا عـبر العـصور الإسـلامية والأموية والعباسية في مشرق الوطن العربي ومغربه علي السواء .

ووحيد مغنية العصر العباسي ـ الذائعة الصيت ـ هي التي قال فيها ابن الرومي :

تتغني كأنها لا تغني
من سكون الأوصال ، وهي تجيد !
لا تراها هناك تجحظ عين
لك منها . ولا يدر وريد
مد في شأو صوتها نفس كاف
كأنفاس عاشقيها مديد

أمـا الموشـح أو الموشـحة ـ قـصيدة العـصر الأندلـسي ـ فهـي قـصيدة الغنـاء والـرقص والجـسد الـتي ولـدت مـن خـلال بئيـة حـضارية مغـايرة للبئيـة الـصحراوية الـتي عاشـت فيهـا القـصيدة العربيـة طـويلا ، ومـن خـلال تفاعـل لغـوي بـين اللغـة العربيـة لغـة الفـاتحين الوافـدة علـي إسـبانيا واللغـة الرومانثيـة الـسائدة لغـة أهـل الـبلاد المتطـورة عـن اللاتينيـة القديمـة ، فجـاء الموشـح الأندلـسي تعـبيرا عـن ارتبـاط الفـن الـشعري ـ لـدي الـشعراء الأندلـسيين ـ بـالرقص والغنـاء في ظـل حيـاة ذات طـابع أوروبـي ، يمثـل فيهـا الـرقص والغنـاء وحركـة الجـسد ـ في الحـدائق والميـادين وفي شـتي المناسـبات الاحتفاليـة المختلفـة ـ طقـسا أصـيلا مـن طقـوس الحيـاة الاجتماعيـة والـشعبية والرسمـة . وبـدأت في مثـل هـذا الجـو الغنـائي الموسـيقي الـراقص ـ قنـاة جديدة مـن قنـوات اتـصال الـشعر بـالجمهور ، وهـو الجـو الـذي يـصوره موشـح لـسان الـدين بـن

الخطيب ـ الذي ذاعت شهرته في مجالات الغناء ـ معبرا عن فضاء الحرية والانطلاق والرفاهية والاختلاط في المجتمع الأندلسي ، حين يقول:

جادك الغيث إذا الغيث همي
يازمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما
في الكري ، أو خلسة المختلس

* *

إذ يقود الدهر أشتات المني
ينقل الخطو علي ما يرسم
زمرا بين فرادي وثني
مثلما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا
فثغور الزهر فيه تبسم

واستمرت علاقة الشعر بالغناء حتي عصرنا الحديث قائمة علي هذا التخير الجميل لا فضل النماذج الشعرية ـ وأرقها وأعذبها ومنحها حياة جديدة وهي تدور علي الألسنة والأسماع ملحنة ومغناة . وفي هذا الطريق كانت إبداعات عبد ه الحامولي ومحمد عثمان وسلامة حجازي وأبوالعلا محمد وغيرهم من الرواد الكبار . وازدحمت الساحة بعدد كبير من الموسيقيين والملحنين القادرين علي تذوق القصيدة وتلحينها ، وعدد كبير من الأصوات القادرة علي الآداء الجميل للشعر . وكان بيننا من أصحاب المواهب الكبري والقامات السامقة ـ في مجال التلحين والغناء ـ من أحسنوا اختيار العديد من النماذج الشعرية الجميلة التي وسعت من مساحة الأفق الذي تحلق فيه القصيدة ، وجعلت تذوق الشعر والاستمتاع به متاحا حتي لمن لم يتعلموا القراءة والكتابة . وعندما قامت الاذاعة المصرية في عام ١٩٣٤ وضعت في خطتها الغنائية والموسيقية تقديم ألوان من الغناء الرفيع سمته بالمختارات ، وظلت هذه المختارات لا كثر من خمسة وثلاثين عام ا متصلة هي الرافد الأساسي لتغذية الساحة الغنائية بروائع الشعر وروائع الألحان في آن ، عندما كانت الاذاعة ـ علي أيدي سعيد باشا لطفي ومدحت عاصم وعلي خليل وأحمد رامي ومحمود حسن اسماعيل ومحمد حسن الشجاعي وحافظ عبد الوهاب و عبد الحليم نويرة وجلال معوض ـ في عهود متتابعة ـ تتخير أجمل الشعر وأكثره طواعيه للغناء وإلهام الملحنين وتقدمه إلى مستمعيها باعتبار أن أغنية المختارات هي النموذج الأرقي والمثل الأعلي لمن يريد أن يبدع ويأتي بالجديد . لنتأمل ـ في ضوء هذا الكلام ـ ما نستمتع به

الآن من قصائد شوقي: نهج البردة وسلوا قلبي ودمشق والنيل وولد الهدي وجارة الوادي وإلام الخلف وأوبريت مجنون ليلي وعشرات غيرها . وقصائد رامي الفصيحة ، وقصائد الشابي وعلي محمود طه وابراهيم ناجي وأحمد فتحي ومحمود حسن اسماعيل والأخطل الصغير بشارة الخوري المغناة ، والتي بها عرفوا واتسعت دائرة شهرتهم - (من كان سيتاح له أن يعرف ناجي وشعره الجميل لولا غناء أم كلثوم لرائعته الأطلال وأن يعرف أحمد فتحي ورومانسياته البديعة لولا ذيوع صيت قصائده المغناة الكرنك وفجر وقصة الأمس) ولنتأمل قصائد الأخوين رحباني وألحانهما الرائعة التي ازدان بها الغناء اللبناني وتركت تأثيرها في الغناء العربي ، والموسيقيين والملحنين الكبار: زكريا أحمد ومحمد القصبجي ورياض السنباطي ومحمد عبد الوهاب ومحمد الموجي وفريد الأطرش وكمال الطويل وغيرهم . ومن الأحداث الكبري: أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وفريد الأطرش و عبد الحليم حافظ وفيروز ونجاة ووديع الصافي وفايزة أحمد وصولا إلى عصر ما جدة الرومي وكاظم الساهر اللذين يحاولان اللحاق بركب الكبار والحفاظ علي حبل الغناء الشعري ممتدا وموصولا حتي إلى وم . هؤلاء وغيرهم من أساطين التلحين والغناء في أقطار الوطن العربي كله هم سطور هذا الكتاب الجميل: كتاب الشعر والغناء . وهو كتاب تذكرنا مطالعته بحجم الخسارة الفادحة التي ابتليت بها حياتنا الفنية والابداعية المعاصرة بعد أن اختفت الأسماء الكبري ورحل أصحابها ، ولم تعد القصيدة المغناة تجتذب الملحنين والمطربين - باستثناء أعمال قليلة ونادرة - بالرغم من وجود طاقات موسيقية مقتدرة مثل: عمار الشريعي و عبد العظيم محمد وحلمي بكر ومحمد سلطان وسامي الحفناوي .

والذي حدث أن ما نسميه بالغناء الهابط أصبح يسيطر علي عناصر الأغنية كلمة ولحنا وايقاعا . وأصبح مفهوم الغناء يقوم أساسا علي القدرة علي تحريك الجسد بالايقاع الصاخب دون اهتمام بايقاظ الشعور بالمرهف أو العاطفة النبيلة أو الطرب الراقي والمتعة الخالصة . وتخلت الاذاعة تدريجيا عن أغنية المختارات التي كانت تعني باختيار النص الشعري الجميل وتقديمه . ولقد كان شوقي - بذكائه الشديد - أول شاعر كبير في العصر الحديث يدرك أهمية الغناء في توصيل قصائده إلى الجمهور بالمعني الواسع ، الذي يتجاوز قراء شعره بمئات المرات .

ومن هنا كان احتضانه لموهبة محمد عبد الوهاب المبكرة وحرصه علي أن يكون عبد الوهاب هو الصوت الذي يحمل هذه القصائد - بالفصحي وبالعامية - عبر ألحانه الجميلة إلى الناس . وجاء نزار قباني - من بعد شوقي - مستوعبا الدرس واعيا بأهميته . فجعل الغناء والمغنين نصب عينيه ، بدءا بالرحبانية وفيروز ، انطلاقا إلى أفق محمد عبد الوهاب ونجاة ومحمد الموجي و عبد الحليم حافظ ، بل وامتدادا إلى ما جدة الرومي وكاظم الساهر اللذين ما زال شعر نزار يمثل بالنسبة إلى هما - حتي بعد رحيل نزار - الملاذ

الآمن للاختيار والمعين الذي لا ينضب لا نه يمتلىء بعشرات القصائد الصالحة للغناء . وفي إعادة تأملنا للعلاقة بين الجمهور والشعر ، نكتشف أن الغناء هو أوسع قنوات هذه العلاقة وعناصرها انتشارا ودورانا ، وأيسرها نفاذا إلى وجدان المتلقي من غير عوائق أو سدود خاصة في مجتمعات لا تقرأ . لكن هذه القناة الآن معطلة ، لا تجد ممن بيدهم الأمر من صناع الأغنية المعاصرة والمهيمنيين علي الاذاعات المسموعة والمرئية والقنوات الفضائية خطة بديلة واعية لنفي الهبوط والسوقية والتدني والابتذال الذي يسود ساحة الغناء ، والعمل علي إفساح المجال أمام الابداع الجميل من خلال الإلحاح علي تقديم النماذج الشعرية الراقية وجعلها الأولي بالتقديم والرعية والدوران علي الأسماع في كل موقف ومناسبة . ولدينا من الذخيرة الشعرية ـ عبر العصور ـ ما يثري حركة الغناء العربي الآن بمئات النماذج الجميلة التي تمثل تجليات النص الشعري وألوان الابداع فيه . ولابد لمثل هذا التوجه أن يكون قوميا ، علي المستوي العربي كله ، بحيث يفيد من الامكانيات الهائلة ، والمعطلة التي يمتلكها العالم العربي الآن في مجالات الإبداع الشعري والتلحين الموسيقي والغناء .

وهو توجه من شأنه أن يقدم حلا وخلاصا للشعر والغناء معا ، بعودة النصوص الشعرية الجميلة إلى أفق المعايشة والتذكر ، وعودة الألحان الجميلة إلى الدوران والتأثير . وفي ذهني وأنا أكتب هذه السطور الآن ـ علي سبيل المثال ـ مسلسل أم كلثوم الذي جعلنا نمتلىء بالدهشة والاعجاب أمام أصوات واعدة قادمة ، سيكون لها بالرعاية والتعليم والتوجيه مكانها الواثق المقتدر وقدرات لحنية وموسيقية كبيرة واعية تعمل علي أن تنبت لهذ المواهب والأصوات ريشا وأجنحة قادرة علي التحليق والطيران . وهو مثل واحد من أمثلة كثيرة !

أدونيس في القاهرة (١)

بقلم: فاروق شوشة

حسنا فعل قسم الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية في القاهرة بدعوة أدونيس في إطار موسمه الثقافي الاكاديمي لتقديم محاضرتين عام تين بالقاعة الشرقية عن الثقافة العربية والحداثة والشعر والحداثة .

وحسنا فعلت لجنة الشعر بالمجلس الأعلي للثقافة بدعوة ادونيس لا حياء امسية شعرية في مسرح الأوبرا بمصاحبة عازف العود العراقي العالمي نصير شمة . فقد أتاح هذا كله للجمهور الثقافي أن يلتقي بأدونيس مثقفا كبيرا وشاعرا رائدا ، وجها لوجه ، وأن يتحاور معه بدون حواجز أو عوائق من مؤيدي ادونيس أو معارضيه من مريديه الذين اساء بعضهم إلى ه بحماسهم المفرط وتعصبهم المذموم ، وكارهيه الذين يحاولون تشويه صورته بحماس مفرط أيضا ، وكأنما اجتمع الطرفان علي سوء الفهم الناتج عن سوء القراءة وعدم الوعي بمشروع ادونيس علي حقيقته: فكريا وشعريا .

الطريف أنني عندما سألت أدونيس في حواري معه من خلال البرنامج التليفزيوني الأمسية الثقافية عن موقفه من محبيه واعدائه كانت اجابته: بالنسبة لمن يحبونني لا استطيع أن اطلب منهم الا يحبوني ، أما بالنسبة لا عدائي فأنا شخصيا اكثر ميلا إلى عدو يكون في مستواي ، عدو يفهم حقا ما اقول ويخالفني وينبهني ، مثل هذا العدو اظن أنه صديق جميل ، وهذا مع الأسف ما نفتقده في حياتنا الثقافية والادبية الآن .

وعندما سألته عن سبب تسميته بأدونيس وتركه لا سمه الأصلي: علي أحمد سعيد ، أجاب بأن لهذا قصة طويلة عندما كان لا يزال في سن الرابعة عشرة او الخامسة عشرة عندما كان يكتب نصوصا أدبية باسم: علي أحمد سعيد ويرسلها إلى بعض المجلات فلا تنشر وذات يوم اتيح له أن يطلع في إحدي المجلات ـــ بالصدفة ـــ علي أسطورة ادونيس ، وكيف أن ادونيس احبته عشتار وقتله الخنزير البري ، وفجأة لمع في ذهنه خاطر يقول: ربما كانت هذه المجلة التي لا تنشرني هي الخنزير البري وأنا ادونيس وقرر أن يوقع كتاباته منذ ذلك إلى وم باسم ادونيس ، وبالفعل كتب نصا جديدا وأرسله إلى إحدي الجرائد في اللاذقية ، واسمها الإرشاد فنشرت النص باسم ادونيس ، وكانت البداية .

وكان السؤال التالي عن مهيار الدمشقي الذي جعله اسما لا حد دواوينه ومدارا لقصائده ، فكانت اجابته أن مهيار الدمشقي رمز شعري وفني في آن واحد ، ولون من

محاولة الهرب من الرومانتيكية التي كانت سائدة في ذلك الوقت ، والتي تعني أن الذات أو الأنا هي التي تقول فأردت أن اتقنع باسم آخر يكون هو مدار القول والتعبير ، واتخذت اسم مهيار الدمشقي ــ الذي لا علاقة له بمهيار الديلمي ــ كي افصح عبر شخصيته عن العالم الداخلي الصعب والمعقد الذي كنت اعيشه في تلك الفترة حياتيا وفنيا ، المسألة اذن لون من ابتكار طريقة جديدة للتعبير عن شواغل عميقة .

يمتلك ادونيس ــ بالنسبة لمن يقرؤه أو يحاوره علي السواء ــ ثقافة عميقة رحبة ، طبقاتها غنية ومتراكمة ــ لكنه تراكم التفاعل واذكاء النار الجديدة ــ تمكنه من ان يقرع الحجة بالحجة والرأي بالرأي ، وان يصدر في كل ما يقول عن وعي نقدي متسائل ، ومعرفة تتجاوز الثابت ، واليقيني والمكرور ، لا نها معرفة تطمح باستمرار إلى التجاوز والمغايرة ، وإلي تفجير الجدل الخلاق الذي يولد من الإجابة اسئلة جديدة ويدفع بالجزئي إلى مداه وافقه الكلي ، ويري الاشياء في وحدتها وتناغمها وتكاملها ، مناديا بإعادة الاعتبار للعقل العربي ، وتخطي ما زق افتقاد الديموقراطية ــ سياسيا وثقافيا ــ ومواجهة التناقص بين الحداثة والاتباع ، هذه الثقافة العميقة الرحبة ــ المستوعبة للموروث الثقافي والابداعي العربي من خلال وعي نقدي كاشف ــ تتجلي في حديث عن الثابت والمتحول ، وفي مقدماته النقدية التحليلية ذات الرؤي الجديدة والطازجة لمختاراته من الشعر العربي في مجلدات كتابه ديوان الشعر العربي الذي اعده في مقدمة انجازاته ، لا نه بهذه الدراسات ، وبهذه المختارات ، يؤسس لذائقة جديدة ويعيد تشكيل خريطة الشعر العربي ، وينصف الشعراء المهمشين والخارجين علي قوانين المجتمع واعرافه وتقاليده ، فلم يسايروا السلطة ، ولم يزاحموا في بلاط السلطان ، ولم يخونوا شرف الشعر ، كما يشيد بالشعراء الذين اشعلوا جذوة الابداع الشعري والتجديد فيه ، فكانوا حداثيين ـ بالمعني الذي نعرفه الآن ــ حتي لو انتسبوا إلى العصر الجاهلي او غيره من العصور القديمة ، لا ن ابداعهم الحي والمشع ، قادر علي اختراق الازمان ومخاطبة المستقبل .

وعندما يجئ ذكر الحداثة واقترانها بأدونيس الذي اطلق هذا المصطلح في حياتنا الثقافية والادبية والفكرية المعاصرة فإنه يوضح أن مفاهيم الحداثة والاحداث والمحدث والحادث كلها مصطلحات عربية موجودة في تراثنا – منذ العصر العباسي – نتيجة لحركة نقدية عظيمة قامت حول الشعر المحدث والتمييز بينه وبين غيره ، فهو عندما يتكلم عن الحداثة لا يجد نفسه إذن غريبا عن هذا التراث الشعري والنقدي في الثقافة العربية ، وفي رأي ادونيس ـ الذي كشفت عنه محاضرتاه وحواراته ــ أن كل ما حاوله هو ان يستعيد هذا الخط العميق في تراثنا العربي ، وأن يعيد للغة الشعرية العربية حيويتها وتساؤلها وانفتاحها إلى اقصي مدي ممكن ، مؤكدا أنه لا القدامة تجد في حد ذاتها قيمة

ولا الحداثة بحد ذاتها قيمة ، وإنما القيمة في النتاج نتيجة الشاعر سواء كان حديثا او قديما .

ولم يفت ادونيس – في هذا المجال – أن يشير إلى كثير من الكتابات المعاصرة التي يدعي اصحابها الحداثة لم يتح لا صحابها الوعي بتراثهم والوعي بلغتهم ، في حركتها الجمالية المستمرة وابداعها المتفجر باستمرار ، مما جعل كتاباتهم تفقد شرعيتها وانتماءها إلى العصر وقدرتها علي التأثير والتجاوز ، كان ادونيس يتحدث عن كثير ممن يكتبون الآن قصيدة النثر ـــ بالرغم من انهم يزعمون انهم محسوبون علي ادونيس ، وأنهم يمشون في غباره – وكيف تخلو كتاباتهم من الجدة والتوجع والأصالة وحقيقة الشعر ، وهو يعجب كثيرا لمناداتهم بالانقطاع عن الموردث الشعري ، إذ لا يمكن لشاعر ـــ في رأيه ـــ أن يبدع بلغة يجهل جمالياتها وتاريخ هذه الجماليات ، لا ن دوره الحقيقي أن يجدد العلاقات بين الكلمات والاشياء ، لا أن يجهل موروثه الثقافي ، والذي يحير ادونيس حقا – كما يقول – هو هؤلاء المنادون بالقطيعة مع التراث الشعري ، وعندما يكتبون نصوصهم .

معلنين أن قصيدة النثر هي الأعلي والأسمي ، فإنهم يقعون في كلام تقليدي محض وموقف تقليدي محض يسيء إلى التجربة الشعرية ، ويبرهنون علي أن بنية العقلية التقليدية يمكن أن تكون في الحداثيين كما تكون في التقليديين ! هذا الكلام الواضح والصريح سيغضب كثيرين كانوا يظنون أن أدونيس ـ بدعوي الحداثة والاختلاف ـ يمكن أن يتستر علي ما يكتبونه ويقعون فيه من ركاكة وسطحية وهشاشة وفقدان لجوهر الشعرية .

وعندما ووجه أدونيس ـ في محاضرتيه بالجامعة الأمريكية ـ بأسئلة تتناول حقيقة موقفه من الدين ومن المقدسات ومن الثقافة العربية والتراث العربي ، كانت ردوده في الاطار الذي يؤكد اعتزازه بهذا كله ، وأنه يري في الدين طاقة كبري لتفجير الحياة الشعرية والاحساس الشعري وشحن الوجدان بقيم الخير والحب والجمال . ونبه أدونيس أصحاب هذا الصنف من الأسئلة إلى أنه هو الذي نوه بكتابات المتصوف الاسلامي النفري عندما اكتشف كتابيه : المواقف والمخاطبات في مكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت ، وأدار الكلام حول ما فيهما من تجليات شعرية رفيعة وأقباس فنية وإبداعية عالية . بين شعر أدونيس وفكره جدل عميق ، روحه التساؤل والبحث الدائب والمغامرة . هذا التساؤل المستمر هو الذي جعل من أدونيس في تجلياته الفكرية والشعرية حقيقة كبري ووجودا حيا في حياتنا المعاصرة ، يختلف من حولهما الناس كما اختلفوا قديما حول المتنبي ، والذين يختلفون مع أدونيس ـ مع اعترافهم بحجم شاعريته وعمق فكره ـ لا يرضيهم أنه يقدم المعري علي المتنبي ، وأنه يري في المتنبي خليطا من الشعر والسياسة ،

أو شاعرا كبيرا أفسدته السياسة ، وهو لا يري في المتنبي ما يراه آخرون من أنه شاعر إلى قظة العربية والدعوة إلى إلى قين العربي عندما يقول:

في كل أرض وطئتها أمم
ترعي ب عبد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلبسه
وكان يبري بظفره القلم
وإنما الناس بالملوك ولا
يصلح عرب ملوكها عجم !

وأكثر ما ينطبق هذا الكلام علي كافور الإخشيدي الذي يدافع عنه أدونيس دفاعا شعريا مجيدا حين يتقمص شخصيته الشعرية - في مواجهته للمتنبي - من خلال قصائده في المجلد الثالث من كتابه الكتاب .

ولا يرضيهم أن أدونيس لا يري في شوقي شاعرا كبيرا ، وهم الذين يرون فيه مبدع المسرح الشعري في الأدب العربي لا ول مرة ، وصاحب الطاقة الشعرية الجبارة ، وصوت العصر الشعري الذي نذر نفسه لا حداثه ومواقفه شعريا . والمصريون يرون في شوقي شاعرهم الأكبر ، وبعضهم يقدمه علي السابقين واللاحقين ، من هنا فإن رأي أدونيس فيه يصدمهم ، كما يصدمهم رأيه في البارودي الذي ترتبط به حركة البعث والاحياء ، وقد أغضبهم أدونيس حين قال إن البارودي أحيا من تقاليد الشعر ما كان مستحقا للموت ! .

أسوق هذه الأمثلة لا قول إن لدي أدونيس كثيرا مما يمكن أن يختلف عليه ، لكنه الاختلاف الذي لا يلغي حقه في الاجتهاد والرؤية ، ولا يتصاعد - بالتعصب أو عدم الفهم - فيلغي حقه في السبق والريادة ، أو دوره في المغامرة والاكتشاف .

حين قدم أدونيس لا مسيته الشعرية في مسرح الأوبرا ، أعلن أنها أمسيته الأولي في القاهرة . ربما ليعتذر بهذا لجمهوره عن لقاءات سابقة لم يرض هو عنها ، أو لم تكن علي هذه الصورة التي هيئت له احتشادا ونوعية جمهور . كان شعره - وهو يلقيه بأدائه المتميز الشديد الخصوصية وكأنه صلاة أو ابتهال أو فناء صوفي - يغسل وجدان جمهوره بفيض من أقباس الشعر العالي والفن الرفيع ، الشعر والفكر فيه متجاوران ومتحاوران ومتجادلان خاصة وهو يتكلم علي لسان كافور وهو يتحدث عن علاقته بالمتنبي وحرصه علي ألا يعطيه ضيعة أو ولاية ، خشية أن ينصرف عن مهمته ودوره الخالد: الشعر !

لعل أدونيس باعلانه أيضا أنها أمسيته الأولي كان يريد لجمهوره أن ينسي ما فعله بعض صبية الصحافة الأدبية بلقائه الأخير بهذا الجمهور في المقهي الثقافي لمعرض الكتاب حين ركزوا بطريقتهم المجوجة علي دموع أدونيس التي فجرتها لحظة صدق انسانية أمام كلمات ترحيب تمتليء بالمحبة والتقدير . وكأن مثل هذا الانفعال الانساني ـ التلقائي ـ أمر غير معترف به عند أصحاب الحس الغليظ والقلوب المريضة والنفوس التي تفترسها الأهواء وتنوشها الأحقاد !

كان أدونيس ينهمر علينا بعطائه الشعري الرفيع ، وكنا نحمد الله علي أنه ـ علي علو قامته ومكانته ـ لم يصب بمرض بعض مثقفي زماننا المسمي البارانويا أي جنون العظمة ، الذي يجعل من يصاب به يتصور أنه محور الكون بل الكون نفسه ، وأنه هو الوطن والناس والتاريخ ، وأن ذاته العظيمة أولا ، وكل شيء وكل أحد يجيء بعد ذلك !

ويودعنا صوت أدونيس وهو ينشد مصحوبا بعازف العود العبقري نصير شمة ـ الذي تحمل إلى نا أنغامه وإيقاعاته وأساليب عزفه الساحر ـ عطر بغداد وأصالة المبدعين الكبار فيها عزفا وموسيقي:

ذلك الطفل الذي كنت
أتاني مرة وجها غريبا
لم يقل شيئا . .
مشينا ،
وكلانا يرمق الآخر في صمت
خطانا نهر يجري غريبا
جمعتنا
باسم هذا الورق الضارب في الريح
الأصول
وافترقنا
غابة تكتبها الأرض وترويها الفصول
أيها الطفل الذي كنت: تقدم
ما الذي يجمعنا الآن . .
وماذا سنقول !

أدونيس في القاهرة (٢)

رسالتان وتعقيب أخير

بقلم: فاروق شوشة

كان مستحيلا أن يكون أدونيس ـ بما يمثله من قيمة فكرية وشعرية ـ في القاهرة ، مشاركا في الموسم الثقافي الأكاديمي للجامعة الأمريكية بمحاضرتين عن الثقافة العربية والحداثة ، والشعر والحداثة ، ومقدما لا مسية شعرية متميزة بدار الأوبرا تلبية لدعوة من لجنة الشعر بالمجلس الأعلي للثقافة ، ومطلا علي الملايين من خلال البرنامج التليفزيوني أمسية ثقافية في حوار صريح كاشف ـ كان مستحيلا أن يحدث ذلك ولا تكون له أصداؤه العميقة والواسعة ، وردود الأفعال التي تتفق وحجم أدونيس ، وموقف الكثيرين منه ايجابا أو سلبا .

وقد أشرت في مقال الأسبوع الماضي بعنوان أدونيس في القاهرة (١) إلى أن الجمهور الثقافي ـ في مصر ـ أتيح له أن يلتقي بأدونيس مثقفا كبيرا وشاعرا رائدا وجها لوجه ، وأن يتحاور معه دون حواجز أو عوائق من مؤيدي أودنيس ومعارضيه ، من مريديه الذين أساء بعضهم إلى ه بحماسهم المفرط وتعصبهم المذموم ، وكارهية الذين يحولون تشويه صورته بحماس مفرط أيضا ، وكأنما اجتمع الطرفان علي سوء الفهم الناتج عن سوء القراءة وعدم الوعي بمشروع أودنيس علي حقيقته ، فكريا وشعريا .

وصح ما توقعته من ردود الأفعال .

فقد وصلتني ـ تعليقا علي المقال السابق ـ رسائل عدة ، أختار من بينها رسالتين: أولاهما من الدكتور ما هر شفيق فريد الأستاذ المساعد للأدب الانجليزي بآداب القاهرة والثانية من الدكتور محمود الربيعي الأستاذ بقسم الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية . وفي الرسالتين ما يستحق أن يهتم به القارئ المتابع ، وما يتطلب التعقيب عليهم ـــ .

حول رسالة الدكتور ما هر شفيق فريد:

. . . الأستاذ فاروق شوشة .

أكتب إلى ك هذه السطور عقب انتهائي من قراءة مقالاتك القيمة عن أدونيس في القاهرة ومشاهدتي حلقة الأمسية الثقافية التي أجريتها معه وقدمتها القناة الثانية بالتليفزيون ، لا طرح رأيا ربما وجدته جيدرا بأن يذاع ويناقش . أدونيس عندي أهم شاعر عربي في هذا القرن ، وقائمة شعرية تقف جنبا إلى جنب مع

المتـنبي والمعـري وأبـي تمـام . ولكنـه منظـرا أعظـم منـه شـاعرا ، فهـو أول اخـتراق حقيقـي للبويطيقـا العربيـة التقليديـة ، وأول موجـه إلى أركـان مـن الـشعرية العربيـة ـ أبـي تمـام وأبـي نـواس والنفـري ـ كانـت غائبـة عـن الأذهـان مـن قبلـه ، وهـو في هـذا يواصـل الجهـد النقـدي الـذي بـدأه العقـاد والمـازني وشـكري وعلـي أدهـم حـين وجهـوا النظـر إلى عنـصر الفكـر عنـد ابـن الرومـي والمتـنبي والمعـري وقـارنوهم بنتـشه وشـوينهاور ، كمـا يواصـل رؤيـة مـصطفي ناصـف الأصـيلة الطازجـة للذائقـة الـشعرية العربيـة (انظـر كتابـه الـذي صـدر منـذ أيـام: النقـد العربـي: نحـو نظريـة ثانيـة) ، ولكنـه يحمـل هـذه الجهـود كلـها إلى آمـاد بعيـدة ويـسلك بهـا دروبـا لم تطأهـا قـدم عربيـة مـن قبـل . وهـو في هـذا وصـيف إدوار الخـراط القـاص العظـيم والناقـــــــــــــــــــــد الأعظــــــــــــــــــــــم .

عنـدما بـدأ عـام ٢٠٠٠ راح الـصحفيون ، كالعـادة ، يطرحـون علـي الأدبـاء والنقـاد أسـئلتهم المكـرورة ومنهـا: مـا أهـم حـدث شـعري في هـذا القـرن ؟ وقـد أجمـع كـثيرون علـي أن ديـوان الـشوقيات هـو أهـم ديـوان شـعري عربـي خـلال الـسنوات المائـة الأخـيرة . ولكـني لا أتـردد في القـول ـ مـع أدونـيس ، ومـع العقـاد مـن قبلـه ـ بـأن شـوقي لـيس إلا شـاعر البيـان الأول ، لكنـك لا تجـد تحـت سـطحه الـبراق تجربـة وجدانيـة عميقـة ، ولا فكـرا نافـذا . عنـدي أن أهـم ديـوان عربـي في هـذا القـرن هـو كتـاب التحـولات والهجـرة في أقـاليم الليـل والنهـار تـسبقه أغـاني مهيـار الدمـشقي ويلحقـه المـسرح والمرايـا . هـذه هـي الثلاثيـة الـتي يـؤرخ بهـا مبـدأ الحداثـة الـشعرية العربيـة ، ومـا سـبقها مـن رومانطيقيـات الـسياب الفجـة ومنظومـات نـازك الملائكة الأكثر من فجة ليس إلا دمدمات واهنة ، بالمقارنة .

تحـضرني هنـا مقالـة لجـبرا ابـراهيم جـبرا (وهـو إلى جانـب أدونـيس وتوفيـق صـايغ ولـويس عـوض وأنـسي الحـاج وشـوقي أبـي شـقرا ويوسـف الخـال وخليـل حـاوي و عبـد الـصبور وحجـازي مـن محققـي هـذا الاخـتراق التـاريخي) ، نـشرها في مجلـة شـعر البيروتيـة (ربيـع١٩٦٢) وفيهـا يقـول (لا أعتـذر عـن طـول المقتطـف ، فهـو عميـق الدلالـة لا يقبـل اختصارا) :

قبـل أن يكتـب ريـاض[نجيـب الـريس] أولـي قـصائده هـذه في كمـبردج بـستة عـشر عـام ا أو يزيـد ، كتـب مثلـه شـعرا كـثيرا في كمـبردج نفـسها . ولكـنني كتبتـه بالانجليزيـة . لا نـني حـين أردت القـول حينئـذ لم أجـد الأشـكال الـتي تفـي بمـا أريـد أن أقـول . . . بتنـا نريد في الشعر الحركـة والمفاجـأة وتقـويض قـلاع الـوهم فـوق الـرؤوس . هـذا مـا قلتـه حينئـذ ، ومازالـت أقولـه . ولـذا كتبـت شـعري بالانجليزيـة لا نـي وجـدت في أشـكاله المتجـددة أبـدا متـسعا لبنـاء الرمـوز الفـوارة في أسـطر قلائـل ، حيـث تغـدو الألفـاظ قـذائف ناريـة تنفجـر فيتناثر لا لاؤها ووميضها في معان تتساقط علي الذهن بعد ذلك كالمطر .

هذه هي الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان ، دون ترقيق من حواشي القول ولا مراء . لقد أنجز البارودي وشوقي وحافظ والعقاد وشكري والمازني وشعراء أبو لو جهودا غير منكورة من أجل استنقاذ الشعر العربي من وهدة سقوطه الفادح في العصر المملوكي ، ولكنهم لم يمضوا بعيدا بما فيه الكفاية . كانت نبرات ناجي وعلي محمود طه ومحمود حسن اسماعيل بمثابة نسيم منعش يحمل أنفاس الحياة والتجدد ، ولكنها ظلت تدور في فلك روما نطيقي ضيق المدي . وأدونيس (إلى جانب شعراء مجلة شعر وكتاب مجلتي حوار و أدب) هو الذي أحدث الانعطافة الحقيقية .

عندي أيضا أن دلالة أدونيس الناقد هي اننا بحاجة إلى رسم خريطة جديدة لمسار الشعر العربي تتسلل إلى العقول والقلوب والضمائر قبل أن تتسلل إلى مناهج الدراسة وكتب المقررات والمختارات في المدارس والجامعات . لقد أومأ أدونيس - بـ ديوان الشعر العربي ، وكتاباته النقدية ، وشعره هو ذاته - إلى موروث بديل ربما كان هو أقيم ما في التراث الشعري العربي: هذا الموروث يمتد من شعراء الجاهلية ذوي التجربة الوجودية الحية - امرئ القيس وطرفة وتميم بن مقبل - إلى المد الحداثي العظيم في العصر العباسي علي أيدي المتنبي والمعري وأبي تمام وابن الرومي والشريف الرضي وأبي نواس ، مرورا ببضع قصائد قيمة (وإن تكن بالغة القلة) من العصر الإسلامي والعصر الأموي ، ونصوص نثرية للتوحيدي والنفري وابن عربي . تلي ذلك فترة موات إلى أن تبدأ حركة الإحياء الكلاسيكي والإحياء الرومانسي وبدايات الحداثة ثم يبلغ الموروث ذروته في شعر أربعة هم عندي أعظم المحدثين: أدونيس ، والسياب ، وصلاح عبد الصبور ، وأحمد عبد المعطي حجازي (لا موضع لنزار قباني هنا فنحن نتحدث عن شعر النضج لا شعر المراهقة) . هذا هو الموروث الجديد الذي ينبغي أن يكتب علي أساسه تاريخ الشعرية العربية منذ مبتدئها إلى هذه اللحظة .

ماهر شفيق فريد
أستاذ مساعد الأدب الانجليزي بآداب القاهرة

وتقول رسالة الدكتور محمود الربيعي:

. . . . الأستاذ فاروق شوشة

أحييك ، وأشكرك علي مقالتك الجميلة (الأحد ٢٠٠٠ / ٤ / ٢) عن أدونيس في القاهرة . ولدي كلام عن زيارة أدونيس أرجو أن يتسع المجال لطرحه أو طرح جانب منه :

حين وجهنا إلى أدونيس الدعوة من قسم الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية لم أكن قد رأيته في حياتي ، وإن كنت - بالطبع - قد قرأت له وعنه ، وأدركت أنه مثير للجدل .

وحين قبل دعوتنا ، وكنا في انتظاره ، ذكرت ذلك في اجتماع ثقافي ضم بعض زملائي ، مقدرا أن ذلك سيثير اهتمامهم ورضاهم ، فقال قائل شاب منهم: وما الذي بقي لدي أدونيس ليقدمه ؟ ثم اتبع ذلك بقوله: إنكم في الجامعة الأمريكية تستيقظون بعد أن يكون الناس قد استيقظوا وناموا ! ولم أعلق وقتذاك علي كلامه بشيء وإن كنت عجبت للنظر إلى الشعراء علي أنهم مثل صيحات الموضة ، تشتعل الرغبة فيهم في موسم ، وتزول عنهم في الموسم الذي يليه !

وجاء أدونيس ، والتقي بجمهوره في الجامعة في محاضرتين تخللتهما قراءات شعرية ، وأعقبتهما مناقشات مستفيضة . وحين أستحضره الآن ـ شخصا وفكرا وشعرا ـ أري نفسي راغبا في ذكر الملاحظات التالية:

١ ـ يجيد أدونيس فن الانصات إلى الغير ، ويبدي اهتماما ـ أحسبه فطريا ـ بما لدي الآخر . وهذه فضيلة عظمي في ضوء ما نلاحظه عند غيره ممن تتملكهم دائما الرغبة في الحديث والعزوف عن الاستماع . وهم إذا استمعوا مضطرين أثبتوا حين يستأنفون حديثهم أنهم إنما استمعوا بأذن صماء .

٢ ـ يستخدم أدونيس لغة عربية صحيحة دقيقة ، مليئة بمستويات الدلالات والمعاني ، متضاعفة النسج والتراكيب ، حافلة بالصور والمجازات الكاشفة ، لا كأنواع اللغة التي نعاني منها في شتي ألوان الخطاب ، من العجمة المتفشية والاستغلاق والغموض والتحجر في ناحية ، والشقشقة والانشائية الفارغة والتهويم والسطحية في جانب آخر .

٣ ـ يمتلك أدونيس رصيدا ووعيا واسعين بالحضارة العربية في معناها الأعم ، والثقافة العربية في معناها الأخص ، مما تناوله مقالكم الجميل ، ثم ثروة كمية ونوعية من الأدب العربي شعره ونثرة ، تلون حديثة العادي ، وتشكل أصول البرهنة ، وإطار الفكر لديه ، بحيث تصبح حاضرة دائما في سدي ولحمة المحاجة عنده ، في الإشارة الدالة ، والاستشهاد المعبر ، والأمثلة الكاشفة . تلك هي الحداثة الضاربة بجذورها في تربتها الطبيعية ، العليمة بتضاريس الماضي ومنحنياته ، المازجة لخلاصة ما كان بخلاصة ما هو كائن ، والمتطلعة ـ من موقف صلب راسخ ـ لخلاصة ما يكون .

كانت قضية المرجعية هي حجر الزاوية في طرح أدونيس: هل من اللازم أن نرسي مقياسا نقيس به المحدث من غير المحدث أو أن الأمر يترك للهوي بحيث يمكن نظريا أن نبدأ من منطقة الصفر في كل حالة ؟ وإذا لم يكن لديك تصور واضح عما ستنكره وتخرج عليه ـ بغض النظر عما ستخرج إلى ه ـ فهل يعدو الأمر أن يكون قفزة من الظلام إلى الظلام ؟ وعليه فإن من ليس مسلحا بما كان ليس مسلحا ـ بداهة ـ بما سيكون . لقد أثارت هذه النقطة بالذات ثائرة شباب الحداثة علي شيخ الحداثة ، وذلك لا نها

كشفت لهم فجأة عن أن الحداثة ليست كلمة تقال ، وإنما فكر ترسي قواعده ، ومعني هذا أنها - كغيرها - محتاجة في استيعابها إلى مؤهلات ، وهذه المؤهلات تحتاج إلى أدوات ، وهذه الأدوات تحتاج إلى مواهب ، وزمن ، وأمور أخري . . ، لكن من الذي يريد أن ينصت إلى ذلك ، وقد جاء راكبا موجة جاهزة اسمها الحداثة ، فهو ليس علي استعداد حتي لمناقشة مجرد معناها . وحين جلست أستمع إلى الشقاق الذي دب بين الشباب والشيخ أدركت أنني - وأنا الذي لست حداثيا ولا أقبل أن أكون - أقرب إلى فكر أدونيس وموقفه من الذين جاءوا مصفقين له ، ثم انصرفوا غاضبين عليه حين خاب أملهم فيه .

في مناقشة من المناقشات سئل أدونيس هل يشتم مصر أو يعاديها ، فتحدي السائل أن يبرز له وثيقة مكتوبة أو مسموعة تثبت ذلك ، وكان واضحا أن السائل لم يقبل التحدي . ولقيت ناقدا يبني شهرته علي الحداثة وتبني قصيدة النثر ليلة إنشاد أدونيس في الأوبرا فطلبت إلى ه أن نذهب معا للاستماع ، ظنا مني أن ذلك سيبهجه ، ولكنه أبدي رفضا بل انزعاجا ، ولما سألته عن السبب ، ردد القول ذاته : إنه يشتم مصر . وقرأت لبعض من لا تعرف عنهم خبرة بالشعر العربي - قديمة أو حديثة - يستنكرون دعوة الجامعة الأمريكية لا دونيس ، عاجزين عن ذكر سبب أدبي واحد لذلك الاستنكار ، ومسجلين علي أنفسهم عدم احترام حرية الآخر في أن يدعو من يشاء .

حين تكون القضية المطروحة هي الحضارة العربية ، أو الشعر العربي ، يكون من الخسران المبين اختزال ذلك في نقرات إقليمية لا تري أبعد من مواطيء أقدامها . وإذا وجد حماة الثقافة أو حماة الشعر تناقضا ما بين ما هو عربي وما هو مصري فإنهم يكونون في أزمة حقيقية . ومن الظلم البين لمصر - التي قطعت شوطا بعيدا في الإبداع والتحديث علي مدي قرنين من الزمان - أن تحجم - علي بعض أبنائها من قصار النظر - إلى مجرد عنصر منافس لعناصر هي في واقع الحال من صميم تكوينها .

بقيت حكاية بكاء أدونيس أمام جمهوره في مناسبة من مناسبات معرض الكتاب ، وقد نقلتها إلى زميلة علي سبيل استنكار موقف أدونيس ولومه علي البكاء ، فأجبتها علي سبيل الدعابة : حسنا فعل أدونيس حتي نعرف علي الأقل أن له دموعا كغيره من الناس ، ثم ذكرت لها قول القائل : لم يخلق الدمع لا مرئ عبثا فلم تبد اهتماما كبيرا بما قلت . وحين ذهبت لوداع أدونيس قبيل سفره طلبت إلى ه أن يروي لي قصة دموعه هذه ، فقصها علي بنبرة صدق أكدت عندي الصورة التي كنت قد بدأت في تكوينها عنه ؛ قال : لقد بكيت تأثرا بكلمات مرحبة واستقبال جميل حظيت بهما في المقهي الثقافي بعد هجوم ظالم علي في إلى وم السابق اتهمت فيه بعداوة مصر . ثم أردف قائلا : لقد فسر بعض الصحفيين دموعي علي أنها دموع الهزيمة ، وهكذا تري أنني ظلمت مرتين !

يقدم لك أدونيس ما عنده علي نحو يخلو من أي قدر من الوصاية أو الضغط أو القهر ، وتشعر أنك آمن إذا خالفته في الطريق ، وأنك لن تتعرض لغضبه أو أذاه . أما روحه العالية المرحة ، واكتراثه بمحدثه ، فتضعانه ـ شخصيا وإنسانيا ـ في مكان رفيع .

د . محمود الربيعي

أستاذ بقسم الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية

– قبل كل شيء أنا لا أوافق الدكتور ما هر شفيق فريد علي إطلاقاته التي تضمنتها رسالته ـ وما أكثرها ـ والتي تجافي موضوعية الرؤية النقدية ، لا نها بصياغتها علي هذه الصورة تغلق دائرة الحوار وتقطع الطريق علي تعدد وجهات النظر في مثل قوله: أدونيس أهم شاعر عربي في هذا القرن ، مثل هذه المقولة الضخمة ـ مع احترامي وتقديري البالغ لفكر أدونيس وشعره ـ من الذي يملكها ويملك حق صكها علي هذه الصورة ؟ ومن الذي يمكنه الادعاء بأنه يمتلك عناصر هذا الحكم وحيثياته ؟ فردا كان أو مؤسسة ! وقوله: إن كلا من أدونيس وإدوار الخراط يمثل أعلي نقطة بلغتها الحساسية الادبية العربية في عصرنا ، وإن أهم ديوان عربي في هذا القرن هو كتاب التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار ! !

وحديثه عن رومانطيقيات السياب الفجة ومنظومات نازك الملائكة الأكثر من فجة وهي ـ في رأيه ـ رسومات واهنة بالمقارنة .

واقتباسه نصا لجبرا ابراهيم جبرا ـ الذي أقدر فنه وإبداعه وموهبته في أكثر من مجال (شعرا وقصة ورواية ونقدا وترجمة) يري فيه أن شعر علي محمود طه هراء وتنغيم أطفال ومبتذلات القول وأن شعر شوقي منمنمات عثمانية ما عادت تجربة الحرب الطاحنة تتحملها ، ثم يورد لجبرا ما يضعه في موضع اللوم والمؤاخذة حين يقول: كتبت شعري بالإنجليزية لا ني وجدت في أشكاله المتجددة أبدا متسعا لبناء الرموز الفوارة في أسطر قلائل حين تغدو الألفاظ قذائف نارية . . الخ .

أليست كتابة الشعر بالانجليزية دليل عجز عن الإبداع بلغته القومية التي أبدع بها رموز الحداثة الشعرية العرب في كل العصور ؟ إن العيب هنا في الشاعر لا في اللغة يادكتور ما هر . . ألم تتسع العربية لبناء الرموز الفوارة في أسطر قلائل عند أدونيس وتوفيق صايغ وأنسي الحاج وشوقي أبي شقرا ويوسف الخال وخليل حاوي وغيرهم من أصحاب الاختراق التاريخي ؟ فلماذا تخلت عن جبرا وجعلته يرطن بالإنجليزية وكأنه قد صنع فتحا من الفتوح ؟

من المضحك الان أن أدافع عن شوقي ، لكني أسألك: هل قرأت مسرحه الشعري وهو الرائد فيه بلا جدال ؟ هل استوقفتك انعطافاته النفسية والوجودية

والإنسانية من خلال تجسيده لشخوص مسرحياته في واجهاتها التراجيدية والدرامية المختلفة ؟ وهل كشفت قراءاتك المختلفة لشوقي كما كشفت لكثيرين ـ يرون فيه خاتمة القدماء وطليعة المحدثين ـ عن الروافد والينابيع التي أرهصت كيمياؤها الشعرية بما تغني به الرومانسيون وحتي الديوانيون الذين أعلنوا المخالفة المغايرة فوقع كثير من شعرهم في المجاورة والتماثل ؟

يبقي ما أفصح عنه الدكتور ما هر في بداية رسالة من أنه يري في أدونيس منظرا أعظم منه شاعرا وهو رأي بدوره يتسع لجدل واسع . فقيمة أدونيس التنظيرية تنبع في رأيي من اقترانها بإبداعه الشعري ومغامرته الشعرية ، وقد سبق إطلاق مثل هذه المقولة علي العقاد ، علي أساس أن كتاباته النقدية ـ تفوق في قيمتها إنجازه الشعري . لكن ، في حالة أدونيس ، سيظل الجدل مستمرا ما دمنا مشغولين بالأولويات والترتيب ، أي وجهيه يسبق الآخر ويتقدمه ؟ وأنا أسائل الدكتور ما هر بدوري: هل حسم هذا الأمر بالنسبة لا ليوت الذي أوليته اهتمامك مترجما لنقده وشعره إلى العربية ومسعفا القاريء العربي بالاقتراب من تخوم شاعر كبير هو في الوقت نفسه ناقد كبير ؟

أنا واثق أن الدكتور ما هر شفيق فريد كتب رسالته وهو في ذروة الانفعال بالمشهد الأدونيسي ، فقد سلمها لي بعد نشر مقالي بسويعات قليلة ، من هنا فقد غلبت نبرة الحماس والأحكام القاطعة والتناقض الساطع . فالسياب صاحب الرومانطيقية الفجة هو نفسه أحد أربعة من أعظم المحدثين . . كيف يستقيم هذا ؟ وأين المنهج ؟ وبلغة أدونيس البديعة: ما الدي يجمعنا الآن . وماذا سنقول ؟

أما الدكتور محمود الربيعي ، فشكرا له أنه أحد المسئولين عن دعوة أدونيس باسم قسم الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية ، وهذه اللوحة القلمية الجميلة التي يقدم من خلالها صورة حية منصفة لا دونيس المفكر والشاعر والإنسان .

وان كنت أختلف معه في إطلاق شيخ الحداثة علي أدونيس ، الذي أراه أكثر شبابا ـ بالمعني الحداثي ـ من مريديه والمتمسحين به ، الذين شاخوا وأجبلوا قبل الأوان ، وقبل نضج التين والعنب كما قال أبو تمام .

أما الذين أزعجتهم دعوة الجامعة الأمريكية لا دونيس ، فأغلب الظن أنهم سيظلون منزعجين لا ن الدنياقد تجاوزتهم وهم في عمايتهم سامدون

صالح الشرنوبي

الشهاب الذي لم يكد يسطع حتى انطفأ

بقلم: فاروق شوشة

بين السادس والعشرين من ما يو عام ١٩٢٤ والسابع عشر من سبتمبر عام ١٩٥١ عاش الشاعر صالح علي الشرنوبي ، الذي انتهت حياته بغتة تحت عجلات قطار الدلتا في بلدته بلطيم إلى جانب بحيرة البرلس ، عن سبعة وعشرين عام ا ، تقضت كومض الشهاب الذي ما يكاد يسطع حتي ينطفيء ويتلاشي ، وقدر للشرنوبي أن يكون واحدا من أصحاب المواهب الشعرية الكبري الذين رحلوا في عشرينيات العمر مثل طرفة بن ال عبد في القدماء وأبي القاسم الشابي في المحدثين .

ولقد كان صديقه الشاعر الكبير محمد الفيتوري ينطق بكل لوعة الشعر والشعراء وعمق الفجيعة فيه وهو يقول في وادعه :

أبدا لم تمت ، فمثلك فوق الموت

فوق النسيان . . . والذكريات

إنما الموت . . . . للزواحف فوق الأرض

لا للمحلقين البزاة

ولقد كنت في حياتك كالنسر

قوي الجناح والضربات

تقطع الكون في انتفاضة ذهن

وتجوب القرون في لمحات

وتهد الوجود هدا ، وتبنيه

كما شئت ، شاعري السمات !

نم عميقا ، فالموت حلم طويل

همجي الرؤي ، كحلم الحياة

سمعت باسم صالح الشرنوبي لا ول مرة حين التحقت بكلية دار العلوم خلال العام الدراسي١٩٥٣ / ١٩٥٢ ، فوجدت اسمه يتردد علي ألسنة شعراء الكلية الذين يسبقونني عمرا وتجربة ووعيا شعريا ، وكان أكثرهم رواية لشعر الشرنوبي وحزنا لرحيله المبكر الشاعر علي الصياد ـ الذي رحل منذ سنوات قليلة ونشر خبر نعيه في سطرين اثنين تائها في زحام أعمدة النعي المتراصة بعد أن قضي في الإسكندرية السنوات الأخيرة من

حياتـه بعـد عودتـه مـن العـراق حيـث عمـل في التعلـيم واختفـي عـن مـسرح الحيـاة الأدبيـة في مـصر باسـتثناء بعـض القـصائد القليلـة الـتي كـان يرسـلها لا صـدقائه القـدامي في القـاهرة لعـل منـابرهم في الـصحافة الأدبيـة أو الإذاعـة تتـسع لهـا - كـان علـي الـصياد يعـد العـدة للاحتفـال بالـذكري الأولـي لرحيـل الـشرنوبي في سـبتمبر١٩٥٢ ، لكـن الأحـداث الجارفـة الـتي واكبـت قيـام ثـورة يوليـو - قبـل ذلـك التـاريخ بـشهور قليلـة - طغـت علـي اهتمـام النـاس ، وتراجـع الـشعر أمـام الفـوران الـسياسي ، وضـاعت الـذكري الأولـي للـشاعر الـذي ضـاعت حياتـه كلـها بعـد أن ضـاقت الـدنيا في وجهـه ، وخـسر الأهـل والأصـدقاء وانطـوي علـي نفـسه ، والتجـأ إلى مغـارة في المقطـم يتخـذ منهـا مـا وي وسـكنا ، ويتطلـع مـن فوقهـا إلى القـاهرة ، المدينـة الـتي جحـدت عبقريتـه ، وتنكـرت لموهبتـه ، ولم تفـسح لـه مـن صـدرها ، ولم تحقـق لـه حلمـه في دخـول دار العلـوم بعـد حـصوله علـي ثانويـة الأزهـر - لرسـوبه في الامتحـان الـشفوي بـسبب عـدم حفظـه للقـرآن الكـريم - فـالتحق مرغمـا بكليـة أصـول الـدين وبعـدها بكليـة الـشريعة في الأزهـر ، دون أن يجـد فيهمـا بغيتـه ، فيقـرر الانـسحاب مـن الدراسـة ، ويفقـد حلمـه في التعلـيم الجـامعي ، ويعـود منكـسرا إلى بلطـيم ليعمـل مدرسـا في المدرسـاة الابتدائيـة للبنـات ، ويـؤدي بـه الانكـسار إلى التـصوف ، ثـم إلى تـرك بلطـيم بعـد فـشله في الـزواج بمـن يريـد ، ورفـض أسـرة العـروس لـه بطرقـة آلمـت مـشاعره وحطمـت كبريـاءه . ولعـل هـذه الـصدمة كانـت وراء قصيدته قلب بلا حب التي يهديها إلى حواء أوهامه ، ويقول في مستهلها:

تعالي يابنة الأحلام ، يامجهولة الذات

تعالي ياضياء لم ينور أفق ليلاتي

تعالي يارحيقا لم يزل يروي خيالاتي

تعالي نجمع الماضي الذي راح إلى الاتي

تعالي ، ياغراما كان في دنيا الصبابات

تعالي فالدم الفوار يغلي في شراييني

تعالي فالهوي الثرثار ما زال يناديني

جموحا ثائر النزوة مشبوب الأرانين

وهاتيك أغاريدي أغنيها فتبكيني

وأحلام الصبا المحروم أطويها وتطويني

تعالي من وراء الغيب كالتهويمة النشوي

كوحي رافق الأنوار ، كالإلهام ، كالنجوي

كسر في سماء الله ، لا ندري له فحوي

تعالي لم يعد في الكأس نسيان ولا سلوي

تعالي لم يعد في الكأس إلا المر والشكوي

ثم يقول صالح الشرنوبي:

تعالي طهري بالحب آثامي وأوزاري

تعالي فأنا وحدي غريب القلب والدار

طريد مثل أيامي شريد مثل أفكاري

تعالي واسكبي سرك في أعماق أسراري

فقد تبعث أنفاسك ما يطويه قيثاري

بالرغم من الحياة القصيرة لصالح الشرنوبي ، إلا أنها امتلأت بالعديد من صفحات الحزن والألم والإحباط والفاقة والمعاناة والشك والتصوف ، وجمعت بين صنوف من التشرد والعمل في التعليم والعمل الصحفي مصححا في جريدة الأهرام والفني - حين تعرف علي عبد العليم خطاب وبكر الشرقاوي ومحمود إسماعيل وإبراهيم السيد - المخرج السينمائي والممثل المسرحي - وتمخضت هذه الصحبة عن كتابته لا غاني أحد الأفلام وهو فيلم فتنة ، كما كان صديقا لا برز شعراء عصره: إبراهيم ناجي وعلي محمود طه وصالح جودت وأحمد رامي ، وجمعت صداقة وثيقة مع أستاذنا الدكتور أحمد هيكل - الذي كان معيدا بدار العلوم قبل سفره إلى اسبانيا للحصول علي الدكتوراه ، وكان من بين من ساعدوه عمدة المجالس الفنية والأدبية في زمانه كامل الشناوي ، لكن هذا كله لم يحل بينه وبين نوبات من الهياج والصرع والغضب المدبر دخل بسببها مستشفي الأمراض العقلية عدة مرات ، أو بينه وبين هجاء القاهرة - التي ضاق بها وبمن فيها حين هجرها إلى مغارة المقطم - في قصيدته علي ضفاف الجحيم التي يقول في مستهلها: إلى ك ياقاهرة ، إلى أضوائك القاسية التي طالما عذبت عنيني وأنا قابع هناك في الجبل المضياف بصخوره الحانية وكلابه العاوية وصمته الكثيب ، ثم إلى هؤلاء المترفين الكسالي الذين ينكرون علي إيماني بالألم وعبادتي الدموع وإخلاصي للأحزان:

إني هنا أيتها المدينة

الحرة الفاجرة المجنونة

أحبس في جفني الرؤي السجينة

والأدمع الوالهة السخينة

إني هنا أغربل السكينة

وأزرع الخواطر الحزينة

مليء ضفاف الوحدة المسكينة

وفي يدي فجر ست عبد ينه

يوم تزول الوحدة الملعونة

ويقول الشرنوبي:

هذا أنا في العالم الكبير
فوق ربا المقطم المهجور
متخذا من أرضه سريري
من الحصي والطين والصخور
وتحت سقف الأفق المطير
والعاصف المزمجر المقرور
أنام نوم العاجز الموتور
علي نباح الكلب والهرير
وقهقهات الرعد في الديجور
تسخر من عجزي ومن قصوري
وأنت يازنجية الضمير
تدرين قدري وترين نوري
تفجرين ضحكة المغرور
وترتدين كفن القبور

بعد رحيل الشرنوبي بعام واحد صدرت مجموعته الشعرية الأولي بعنوان نشيد الصفاء جمعها الشعراء: صالح جودت وحسن عبد الوهاب وأحمد خميس ، وبعد ذلك بعدة سنوات أصدر المجلس الأعلي لرعاية الفنون والاداب ، ديوان الشرنوبي الذي يضم قرابة ثمانمائة بيت من شعره ، ولم يتح لشعر الشرنوبي أن ينشر كاملا إلا في النصف الثاني من الستينيات ـ دون أية إشارة إلى سنة النشر ـ

ضمن مطبوعات سلسلة تراثنا عن دار الكاتب العربي بالقاهرة ـ التي أصبحت الآن الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ وقد قام بجمع الديوان وتحقيقه الناقد الراحل الدكتور عبد الحي دياب وراجعه وقدم له الناقد الكبير الدكتور أحمد كمال زكي الذي يقول في تقديمه للمجلد الكبير الذي يضم شعر الشرنوبي ونثره:

عندما يؤرخ للشعر العربي المعاصر سيوضع صالح علي الشرنوبي في مقدمة مرتاديه . ولن يكون صغر سنه بين الرواد إلا دليلا علي صدق موهبته . لقد عاش لا يربط نفسه الطموح بأثقال حياة معينة . لكنه كان مؤمنا بالشعر من حيث هو رسالة ومن حيث هو أداة تفريج عن كرب كثيرا ما لا حققته ، وما من عمل اضطر إلى توليه ـ بحكم الظروف ـ إلا وجعله علي الهامش من مسئوليته المعيشية .

كان إنسانا فذا .

وكـان فنانـا لا يـشغل نفـسه بـأكثر مـن أنـه يريـد أن يقـول . وسـيقول بـرغم كـل شـيء ، وسيـسمع النـاس منـه إلى وم أو غـدا . ولـا مـا ت بكـاه معارفـه ، وقـال بعـض النقاد: إنه لو عاش لبذ زعلام الشعر المعاصر قاطبة .

ولقد تعـرض شـعره أكثـر مـن مـرة للـضياع ، وبـذلت أكثـر مـن محاولـة لنـشر عيونـه ، إلا أن المحاولـة الجـادة في ذلـك هـي الـتي نراهـا بـين أيـدينا - في هـذا الكتـاب - وهـو يجمـع تـراث الـشاعر جميعـه بـلا تـدخل قـط ودون تـرك شـيء بـدعوي - مخالفتـه للعـرف والتقاليـد . وقـد كـان بوسـع الـدكتور أحمـد كمـال زكـي أن يـصوغ مقدمـة نقديـة ضـافية تكـشف عـن رؤيـة تحليلية لشعر الشرنوبي .

لكنـه - لا مـر مـا - آثـر هـذا التقـديم المقتـضب ، بعـد أن صـب الـدكتور عبـد الحـي ديـاب كـل طاقتـه وجهـده في التحقيـق والعـرض الأدبـي والـسرد الحيـاتي ، دون أن يـسلك الـشرنوبي في مـسيرة عـصره الـشعرية ، ويلقـي بالـضوء الكاشـف علـي نـصه الـشعري ، الـذي لا بـد لـمن يدرسـه أن يطـالع ظـلالا وملامـح مـن الـسمت العـام للتيـار الرومانـسي الـذي قادتـه جماعـة أبـو لـو ، وكـان مـن أعلامـه: نـاجي وعلـي محمـود طـه ومحمـود حـسن إسماعيـل وأبـو القاسـم الـشابي وغيرهـم . هـذا التيـار الـذي تميـز بوجدانيتـه المفرطـة وخيالـه الـشعري المحلـق وأناقـة لغتـه الـشعرية وتهويماتـه التـصويرية وقدرتـه الخارقـة علـي تجـسيد المعنويـات وتحويلـها إلى محـسوسات والتهيئـة للقـصيدة الجديـدة - أو قـصيدة الـشعر الحـر - الـتي التفـت إلى هـا الـشرنوبي بعـد أن تنبـه إلى إمكانياتهـا الفنيـة فأبـدع - في عـام ١٩٤٥ - قـصيدته أطيـاف الـتي تعـد مـن نماذجهـا الرائـدة قبـل إبـداعات جيـل الـرواد في حركـة الـشعر الحـر بـسنوات . ولعـل قـصيدته أخـتي الـتي يهـديها إلى أختـه البلـهاء هيـام في صـمتها المـسحور ، أن تكـون واحـدة مـن فرائـد الـشعر العربـي الـتي لم تتكـرر ، كاشـفة عـن وجدانـه المفهـم بالإنـسانية ، وحـسه النـابض بالمـشاركة ، والالتفـات إلى مـا سـاة شـقيقيه الـتي حرمـت نعـم العقـل والإدراك ، يقول صالح الشرنوبي:

أختي قصيدة شاعر غزل
أختي تميمة ساحر الخبل
أختي هيام وأنت من أملي
لأنا الحزين عليك ياأختي !
وتقول امي حين تلقاك
ياليت قلبي ما تمناك
أو ليت سهدك كان مثواك
لك في ينات الحي اتراب
عرسهانهن لهن احباب

فأقول والمقدور غلاب
الحظ خانك أنت ياأختي !
وإذا الكري نادي الخليينا
فأجبته وهجرت نادينا
قالوا نأي من كان يسلينا
فأقول بل من كان يبكينا
ويحيل أحنانا كقاسينا
ويثير في نفسي البراكينا
وأظل أبخس منك ياأختي !

في شـشهر مـا يـو مـن كـل عـام ، تتجـدد ذكـري صـالح علـي الـشرنوبي ، حاملـة عبـق انفاسـه الـشعرية ، وعبقريتـه المبكـرة ، باحثـة عـن ثـاره الـشعرية والنثريـة في ذاكـرة هـذا الجيــل ، الــذي شــغل بالقطيعــة عــن التواصــل ، وبــأورام الــذات عــن إبــداع الآخــرين ، وباللـدد في الخـصومة عـن رحابـة الأفـق والـوعي المـستنير . لكـن امثـال الـشرنوبي ـ كمـا قـال عنه الفيتوري ـ فوق الموت ، فوق النسيان ، والذكريات !

دمعة للأسى . . دمعة للفرح

بقلم: فاروق شوشة

ظاهرة الشعراء الذين هجروا الشعر إلى الأكاديمية وأصبحوا أساتذة جامعيين ، ولنقل ظاهرة الأساتذة الجامعيين الذين بدأوا حياتهم الأدبية والثقافية شعراء: ظاهرة تكررت وتتكرر كثيرا في حياتنا الأدبية الحديثة والمعاصرة . لعل من أقدم نماذجها عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين ، الذي ما رس الشعر في سنوات شبابه وصباه الباكر ، ونشر بالفعل عددا من قصائده ، في مناسبات مختلفة ، لكن وعيه النقدي الداخلي سرعان ما كشف له عن بعد البون والمسافة بين ما يرجوه لنفسه من مكانة شعرية ، وما يستطيعه بالفعل في حدود الطاقة والموهبة . فكان قراره الحتمي والرشيد بترك الشعر إلى النثر ، واختفت صورة طه حسين الشاعر لتبقي صورته الكاشفة عن عبقريته الحقيقية في كل كتاباته النثرية .

وبعد طه حسين ، جاء جيل من المبدعين أكثر التصاقا بحقيقة الشعر وجوهره وكيميائه ، وأكثر قدرة علي اصطياد اللحظة الشعرية وافتتاحها في بنيتها اللغوية والتشكيلية .

هذا الجيل الذي تلتمع من بين أعلامه أسماء لويس عوض في بلوتو لا ند ومحمد مصطفي بدوي في رسائل من لندن و عبد القادر القط في ذكريات شباب وشكري عياد في قصائده التي لم تجمع بعد في ديوان ، وبعدهم بقليل يطالعنا وجه أحمد كمال زكي في أناشيد صغيرة . ثم تزدحم الذاكرة بأسماء عدد كبير ممن هجروا الشعر إلى العمل الجامعي ولم يعنوا أو لم ينشغلوا بتأمل الروافد والينابيع الشعرية في داخلهم ، والتي لا تزال تنضح علي كتاباتهم الأدبية والنقدية فتكسبها ألقا وحيوية وحرارة ـ كما نري في كتابات الناقد الكبير الدكتور عبد القادر القط الذي عاد أخيرا عودة محمودة ولكن إلى شعر العامية . ـ وقد يكون بعضهم تورط في بعض الإصدارات الشعرية في مستهل حياته ، لكنه يأبي الآن أن يضيف إلى هذا الوجه ، أو أن يذكر الناس به ويظن أنه ـ في حالة نشره والتعريف به ـ سينتقص من قدره وصورته وهيبته . ومن بين هؤلاء محمود الربيعي وأحمد درويش وحماسة عبد اللطيف وسعد مصلوح وحامد طاهر ـ الذين كان لهم عبر عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات قصائد بديعة ومشاركات إبداعية جادة . وهناك ـ علي الوجه الآخر ـ من لا يزالون يمارسون حالة الجدل الخصب بين الشعر والأستاذية الأكاديمية .

وتكشف دواوينهم المتتابعة عن قدر أكبر من إحكام السيطرة والتوازن ، والقدرة علي تحويل الوعي الثقافي والمعرفي إلى وعي شعري ، وهو الوعي الذي كثيرا ما يعوض

غيبة ما ء الشعر ، ويفسح المجال للذاكرة والتأمل والاستدعاء والمقارنة . وفي مقدمة ممثلي هذا النموذج أحمد هيكل و عبد ه بدوي وسعد دعبيس ومحمد زكي العشماوي . الأكاديمية إذن تقود إلى الوعي النقدي والوضوح الكاشف والرؤية المقارنة ، وتحول روافد الإبداع الشعري إلى قدرة عالية علي التذوق والتعامل مع النصوص الأدبية والنقاذ إلى اسرار العمل الأدبي ومكوناته . ثم هي تخلع علي الكتابةالأبيةوالنقدية من روح هذه الروافد الشعرية مما يجعلها ندية متوهجة ، تصل في أرقي ذراها إلى إنتاج إبداع نقدي مواز للإبداع الشعري ذاته .

كان لا بد من هذه المقدمة الطويلة قبل أن أصل إلى الموضوع الأساسي لهذا المقال ، وهو ما فاجأنا به الناقد الكبير الدكتور عز الدين إسماعيل عندما أصدر أخيرا مجموعته الشعرية دمعة للأسي . . دمعة للفرح .

وعز الدين إسماعيل يمارس الكتابة الشعرية منذ زمان طويل ، وإبداعاته الأولي مساوقة ـ زمنا وروحا شعرية ـ للكتابات الأولي للشاعر الرائد صلاح عبد الصبور ـ صديقه الحميم ، ومعهما صديفهما المشترك أحمد كمال زكي في هذه البدايات . وبهذاالمعني فإن عز الدين إسماعيل واحد من شعراء الموجة الأولي في حركة الشعر الجديد أو الشعر الحر أو شعر التفعيلة . وكثيرا ما حرضه أصدقاؤه وتلاميذه علي جمع هذه القصائد الأول المبكرة ونشرها ، مما يساعد في إلقاء الضوء علي حقيقة السنوات الأول من عمر هذه الحركة الشعرية الجديدة في مصر .

وقد كان أحمد كمال زكي أكثر جرأة عندما نشر مجموعته الأولي والأخيرة أناشيد صغيرة وبعدها صمت عن النشر . أما عز الدين إسماعيل فقد شاء بعد صمت طويل يقارب نصف قرن أن يواجه الناس بمجموعة شعرية تمثل لونا جديدا في الكتابة الشعرية ، لونا غير مطروق أو شائع ، هو ما يسمي في اللغات الأوروبية باسم الإبيجراما . وفي المقدمة التي كتبها لمجموعته ـ بديلا عن المقدمات التقليدية يحرص عز الدين إسماعيل علي تعيين الوضعية الخاصة لهذا الشعر ضمن ما هو شائع ومألوف من النصوص الشعرية . فكلمة إبيجراما نفسها كلمة مركبة في اللغة إلى ونانية القديمة من كلمتين معناهما الكتابة علي شيء .

وفي البداية كانت تعني النقش علي الحجر في المقابر ، إحياء لذكري المتوفي ، أو تحت تمثال لا حد الشخوص ، وحين تذكر الإبيجراما في النقد الأدبي يكون المقصود بها بصفة عام ة القصيدة القصيرة التي تتميز علي وجه الخصوص بتركيز العبارة وإيجازها وكثافة المعني فيها ، فضلا عن اشتمالها علي مفارقة . وتكون مدحا أو هجاء أو حكمة . وقد عرفها الشاعر الرومانسي الإنجليزي كوليردج بقوله :

إنها كيان مكتمل وصغير ،
جسده الإيجاز ، والمفارقة روحه

وهكذا ـ كما يقول عز الدين إسماعيل ـ تطورت الإبيجرامات من مجرد أن تكون نقشا حتي صارت نوعا أدبيا له خصوصيته . ويسجل انفراد الدكتور طه حسين بالالتفات إلى هذا النوع الأدبي في مقدمة كتابه جنة الشوك حيث يقول: أطلق إلى ونانيون واللاتينيون كلمة إبيجراما أول الأمر علي هذا الشعر القصير الذي كان ينقش علي الأحجار ، ثم علي كل شعر قصير ، ثم علي الشعر القصير الذي كانت تصور فيه عاطفة من عواطف الحب ، أو نزعة من نزعات المدح أو نزغة من نزغات الهجاء . ثم غلب الهجاء علي هذا الفن ، ولاسيما عند الإسكندريين وشعراء روما . وإن لم يخلص من الغزل والمدح . فلما كان العصر الحديث لم يكد الشعراء الأوروبيون يطلقون هذا الأسم إلا علي الشعر القصير الذي يقصد به إلى النقد والهجاء .

ويجمل طه حسين مقومات هذا النوع في القصر ، ثم التأنق الشديد في اختيار ألفاظه بحيث ترتفع عن الألفاظ المبتذلة ، دون أن تبلغ رصانة ألفاظ الفحول من الشعراء ، وأن يكون المعني فيه أثرا من آثار العقل والإرادة والقلب جميعا ، وأخيرا أن تكون المقطوعة منه أشبه شيء بالنصل المرهف ذي الطرف الضئيل الحاد ، قد ركب في سهم رشيق خفيف ، لا يكاد ينزع من القوس حتي يبلغ الرمية ، ثم ينفذ منها في خفة وسـرعة ورشـاقة .
لكن أحدا من المهتمين بالأدب العربي والمشتغلين بموضوعاته وقضاياه لم يلتفت إلى ما أشار إلى ه طه حسين ولم يتوقف عند تحديده له بوصفه نوعا أدبيا له خصوصيته أو خصائصه النوعية المستقلة .

هكذا يكشف عز الدين إسماعيل عن وجه من وجوه الريادة والتفرد عند طه حسين ، الذي لم تكن عبقريته الباهرة وسبقه الدائم من قبيل المصادفة ، وطه حسين نفسه يمارس كتابة هذا الفن الأدبي ـ في صيغته النثرية التي يحسنها ـ والإبيجراما قد تكون نثرا كما تكون شعرا .

يقول طه حسين تحت عنوان هجاء:

قال الطالب الفتي لا ستاذه الشيخ: أي من فنون الأدب أحق أن يزدهر وينفق في هذا العصر الذي نحن فيه .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي: لا أدري ، ولكننا في عصر انتقال أشد فنون الأدب له ملاءمته فن الهجاء !

ويقول تحت عنوان توحيد:

قال الطالب الفتي لا ستاذه الشيخ: إلى س مما يملأ القلوب غبطة والنفوس رضا أن نري مصر تعمل علي توحيد كلمة العرب ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي: بلي ، وأدعي من ذلك إلى الغبطة والرضا أن توحد مصر كلمة أبنائها !

فما الذي حرك عز الدين إسماعيل ودفعه دفعا إلى كتابة هذه الإبيجرامات الشعرية ، وأن يجمع منها ما ئة وستا وأربعين يضمنها هذه المجموعة الشعرية المفاجئة: دمعة للآسي . . دمعة للفرح ؟

هل هو الإحساس بالاكتمال: اكتمال الوعي والحياة ، الذي يتيح للإنسان أن يرصد من ذروته العليا حقيقة الأشياء ، ودورة الأيام ، وتزاحم البشر المستضعفين وتقلب الأصدقاء وغير الأصدقاء ، وتكسر النصال علي النصال ؟

أم هو انعدام الرغبة في البوح ، البوح المستفيض . بحيث يصبح اللجوء إلى العبارة القصيرة ، المكثفة ، والومضة السريعة المختزلة ، بديلا عن الاسترسال والإفاضة ، فيحس الشاعر أنه لمح ولم يصرح وأصاب صميم الهدف ولم يقل ما يمسك عليه ، وحرك قارئه إلى فعل الوعي وإعادة إنتاج النص دون أن يجعله قارئا سلبيا مسترخيا يستقبل من غير أن يشارك ويتمثل .

أم لعلها الحكمة التي تلازمنا مع تقدم العمر ، وطول الممارسة والتجريب ، عندئذ تصبح هذه الحكمة المقطرة والمصفاة في كلمة أو كلمات قليلة ، هي جوهر الجوهر ولب اللباب ، ويصبح الشعر عندئذ كما قال الشاعر القديم .

والشعر لمح تكفي إشارته
وليس بالهذر طولت خطبه

أيا ما كان الدافع أو المحرك ، فقد وجد عز الدين إسماعيل في هذا الفن الشعري ضالته المنشودة ، مما أغراه بالخروج من عزلته بعد أن كان يؤثر الاكتفاء بوجه الناقد والأستاذ الجامعي ، والانشغال بالمؤتمرات النقدية الحافلة النشاط الأسبوعي لجمعية النقاد التي يرأسها ، والإشراف علي العديد من رسائل الدكتوراه والماجستير إنه الفن الشعري الذي يساوق كبرياءه الإنساني والفكري ، ويعصمه من التوقف أمام الصغائر والتفاصيل ، ويضمن له من خلال أفق الحكمة وروح النقد اللاذع ، وجوهر الشعر الخبيء والمعتق فيه ، أجنحة للرفرفة والتحليق يقول عز الدين إسماعيل:

(السؤال)

بحثت في كل الجهات
سألت كل من لقيت
لم أجد جوابا
* وحينما يئست وانسحبت
جاء من يسألني:
ما سر هذه الكتابة ؟
ويقول:
(تسبيحة)
لطمة هاهنا
عطفة من هناك
وخزة في الحشا
مرفأ من هلاك
أنت هذا تراني . .
ولست أراك
ويقول:
(القريب البعيد)
تنقضي ساعة
ينقضي إلى وم ، والعام يمضي
وأنت كما أنت
كل الخيوط مقطعة
والفواصل مطموسة
ونجوم الظهيرة مصلوبة
والجنون قريب بعيد !
ويقول:
(اللون الصريح)
استعرضت الألوان ، لكي أنسج لي لونا يسترني
فتنازعني الأخضر والأحمر والأسود والأبيض
كل يستعرض أبهته
لكني آثرت أخيرا لون يقيني لون جنوني ،
أن استر عريي في عريي
ويقول (دمامة)
حكوا لنا أن فتي في سالف الزمان

يدعي نرجسا
كان جميلا فمضي يعشق ذاته
فمن سيحكي عن فتي من عصرنا يتيه تيها
وروحه تنضح بالدمامة ؟
ويقول:
(حرية)
كنا رفيقين علي بداية الطريق حتي تشعب الطريق فافترقنا
است عبد ته نزعة السلطة والوجاهة
ورحت حرا
أقطف الزهور من حدائق الشعر . .
أغني . .
وأخيرا يقول عز الدين إسماعيل:
(من بعيد)
من سعف النخل صنعت مقعدا
أجلس فيه تحت سقف بيتي القديم
لأنشيء الأشعار عن أسطورة النخيل !
* * *

تري هل تنجح هذه الإبيجرامات الشعرية في إعادة عز الدين إسماعيل إلى الشعر ؟ أو علي الأقل إلى نشر ديوانه الأساسي الذي أنفق الشاعر الراحل سعد درويش جهدا كبيرا في جمعه وتصنيفه ، أم أن هذه الإبيجرامات - وهي الكلمة التي لم يحاول طه حسين أو عز الدين اسماعيل من بعده ترجمتها أو البحث عن مقابل عربي لها بعد أن استقرت في اللغات والأداب الأوربية والعالمية فاكتفيا بتعريبها أي كتابتها بحروف عربية أقول أم أن هذه الإبيجرامات قد حققت لمبدعها ما سماه أرسطو بالتطهير ، من خلال شعر المأساة والملهاة ، وكأن شاعرنا كان يريد التطهر من مخزن هائل يملأ وجدانه اختلطت فيه صور الوجوه الكئيبة والأرواح التي تنضح بالدمامة والأفعال التي تتسم بالغدر والخسة والخيانة ؟

أغلب الظن أن التطهير من هذا المخزون الهائل ما يزال في حاجة إلى إبيجرامات جديدة ودواوين جديدة !

وطن أم امرأة

بقلم : فاروق شوشة

وطن أم امرأة ؟
تداخلت الملامح
فالسبيل إلى كما اتحدت
وناء بعبئه القلب
الذي احترف الغواية
والجنون المستثار
لا حد يفصل بين معشوقين
لا خيط ،
ولا زمن ،
به تتوقف الأعمار
من ركض
ويندلع الأوار
ميلي برأسك
ينسدل ليل
وتنطلق الرغائب من مكانها
وينزل فوق شرفتنا ستار
وطن بحجم الكون
مبسوط علي الكفين
مغسول بماء العين
يبحر فيك أشرعة
ويقتحم البحار
ها أنت تقتعدين لجته
وتغترفين لؤلؤه
وترمين الطحالب ،
والمحار
قد ذاب فيك
وذبت فيه
فلا ضفاف ،

ولا شطوط ،
ولا قرار !
وطن بحجم الكون
مشدود إلى عينيك
يشرق منهما
ألق النهار

*

وطن أم امرأة
لعلك حينما عمدت
كان المسك ينضج
والزمان يسيل أنهارا
ولون الشمس منسكب علي الوادي
ووجه الأرض يسطع بالغناء
لم تبخلي يوما
ولا أغلقت باب الرحمة الكبري
وأقبية الدعاء
هم عند بابك . .
يرهفون السمع . .
عل إشارة تأتي
وبارقة تضيء
فيهرعون
من منهمو سيفوز ؟
يترع نرجس الرغبات فيه
ويجعل الساعات ألهية
ودائرة انتشاء ؟
أشرقت
ـ تلك جديلة
مدت ظلال أراكة
وتفرقت أغصانها كالدوح
يعلن عن مواسمه
ويفترع السماء ـ
الموكب الملكي متئد

نفرتيتي الجميلة قد أتت
فتهيأوا للحفل يا قصاد ساحتها
فها
وطن بأكمله يسير
وهؤلاء:
كهان وادي النيل ،
والصلوات ،
والخير العميم يفيض ،
والدنيا يظللها الرجاء
مدي يدا
تحيين جدب الروح
ـ حين تشققت عطشا ـ
ألست النيل حين يفيض ؟
وابتسمي
العباد عيونهم ظمأي
وسحرك كاندلاع الجمر
والصبوات حاشدة ـ
ومثلك لا يليق به الزحام
ولا القرابين التي حملوا
ويمتلء الخلاء
أخفوك ؟
لا . .
لا يقدرون ،
تدافعي فيهم
وسيري
ـ الأرض جائعة ـ
كأنك نصف تمثال
نخمن نصفه الخافي
ونخترع البهاء !
*
وطن أم امرأة
وأنت تلاحق الوجهين

يختلطان
يشتبكان
كيف تداخلت فيك الخطوط
فأصبحت قوسا
وأوتارا تمارس حدها الأقصي
وتنفرد
حينما تمتد من خلف السياج
أصابع تتحسس الوجه القديم
وتستريح إلى نتوء في الجبين
وحافة تلد المخاوف
هل رأيت غزالة تعدو
تسح
تجاوز السهم الذي لم ينطلق
لكنما الصياد يمعن في غوايته
وينتظر الذي يأتي . .
وحين يجاوز المرسي
تلح عليه خاطرة
بأن إلى وم قد ولي
وشمس حياته غربت
فيفترش الأديم !

*

وطن أم امرأة
سكنت إلى ك
هذا بابك العالي
ومتكئي ،
وسقف رغائبي
ما عادت الدنيا ترقرق أنسها الحاني
وما عاد الصحاب همو الصحاب
ولا الوجوه هي الوجوه
فهل لديك الآن
ما يدحو الهجير
لتستظل قوافلي !

حسك علي حسك
وأنت أراكة
فتهدلي
خضراء باسقة
تعشش فيك أسراب إلى ما م
وواصلي
صوب الغمائم
وامتلاءجداولي
الآن ،
هل من قاريء للنجم
عل النجم يكشف سر طالعه
ويختصر المحال
ها أنت بعض من سديم الكون
يسبح في انهمار الضوء
مرتعشا
ويفهق بالسؤال :
من ذا يمد يديه للآتي
يهدهد مولد الدنيا
ويفترش الجمال ؟

الأخطل الصغير شاعر الهوى والشباب

بقلم: فاروق شوشة

كان الأستاذ أبو طالب الشربيني معلم اللغة العربية ـــ ونحن في السنة الثالثة الثانوية ــ أول من دلنا علي الأخطل الصغير بشارة الخوري شاعر الهوي والشباب .

ولم تكن تمر مناسبة ـــ طوال العام الدراسي ـــ إلا ويسمعنا من شعره ما يدل علي افتتانه به ، صياغة ومعجما شعريا وخيالا وطريقة تصوير . ولم يكن يفوته أن يقارن بين هذه النماذج من شعر الأخطل الصغير وشعر نظرائه من الشعراء المصريين والعرب ، وكان ميزان النقد لديه يميل باستمرار لصالح الأخطل الصغير .

ما زلت أذكره وهو ينتفض إعجابا وحماسا ، ويلقي علينا ـــ في زهو وخيلاء ـــ قصيدة الأخطل الصغير في رثاء أحمد شوقي ، التي يقول في مستهلها :

قف في ربي الخلد واهتف باسم شاعره
فسدرة المنتهي أدني منابره
وامسح جبينك بالركن الذي انبلجت
أشعة الوحي شعرا من منائره
إلهة الشعر قامت عن ميامنه
وربة النثر قامت عن مياسره
والحور قصت شذورا من غدائرها
وأرسلتها بديلا من ستائره
قال الملائك : من هذا ؟ فقيل لهم
هذا هوي الشرق ، هذا ضوء ناظره !

وأثمر فينا هذا الحماس الفياض من أستاذ اللغة العربية لشعر الأخطل الصغير بشارة الخوري . فخرجنا من مقاعد الدرس لنسأل في مكتبة المدرسة عن دواويته ، وكانت صدمتنا قاسية حين عرفنا ـــ نحن الذين امتلأنا بمحبة هذا الشاعر والإعجاب الشديد بشعره من خلال معلمنا الذواقة للشعر ــ أنه ليست لديه دواوين مطبوعة ،

(صدرت الطبعة الأولي من ديوانه الأول الهوي والشباب عام ١٩٥٣ بعد هذا التاريخ الذي أتحدث عنه بعامين) .

لكـن البحـث عـن شـعره ، وتأمـل المزيـد مـن جوانـب شـاعريته لم يكـن مـستحيلا بعـد أن اكتـشفنا أن عـددا مـن قـصائده قـد عـرف طريقـه إلى سـاحة الغنـاء ، وأن الموسـيقار محمـد عبـد الوهـاب يـشدو بروائعـه: جفنـه علـم الغـزل ، الهـوي والـشباب ، الـصبا والجمـال ، وياورد مين يشتريك .

كمـا تـشدو أسمهـان برائعتـه: اسـقنيها بـأبي أنـت وأمـي . وسـرعان مـا أدركنـا أن رقـة هـذا الـشعر ، وموسـيقيته وإيقاعاتـه الواضـحة ، ولغتـه الجميلـة ، هـي الـتي رشـحته للغنـاء ، فجـاء كمـا وصـفه محمـد عبـد الوهـاب نفسه حـين سـئل عـن الـشعراء الـذين تغـني بقـصائدهم ولحـن لهـم فـذكر شـوقي وصـفي الـدين الحلـي ومهيـار الـديلمي ، وحـين قيـل لـه: وبـشارة الخـوري ؟ قـال: بـشارة الخـوري كـان شـعره يـأتيني ملحنـا ! والمعـني أن مـا في هـذا الـشعر مـن غنائيـة وموسـيقية وعذوبـة لم يجعلـه محتاجـا إلى جهـد في تلحينـه كمـا يفعـل مـع شـــــعر ســـــائر الـــــشعراء !

وحـين امتـد بنـا زمـن الاسـتماع إلى قـصائده المغنـاة أدركنـا أن لكـل مـن فريـد الأطـرش وفـيروز نـصيبه مـن غنـاء قـصائد الأخطـل الـصغير ، الـذي اختـار أن يوقـع قـصائده وهـو شـاب بهـذا الاسـم: الأخطـل الـصغير إشـارة إلى الأخطـل شـاعر الدولـة الأمويـة والـذي كـان مـع صـاحبيه جريـر والفـرزدق أصـوات الـشعر العربـي الكـبري في ذلـك العـصر . ولكـن الزخطـل كـان مـسيحيا ، وكـان شـديد القـرب والـولاء للأمـويين ، كـثير الإشـارة إلى الخمـر والـشراب في شـعره ، ممـا هيـأ لبـشارة الخـوري أن يـري نفـسه فيـه ، فجـاءت تـسميته لنفـسه بالأخطـل الـصغير إشـارة ومتابعـة لهـذا الـشاعر المـسيحي الأمـوي الـذي تغـني في شـعره بـالأمويين ، فجـاء هـو ـــ مـن بعـده بقـرون ـــ ليـتغني بالعروبـة وحلـم الـوطن العربـي الكـبير والتحـرر العربـي ، دون أن يسخر شعره لدولـة أو نظـام ، وإنمـا هـو للجهـاد العربـي والمجـد العربـي الـذي يقـول عنـه وهـو يصور ما ساة فلسطين:

ياجهادا صفق المجد له
لبس الغار عليه الأرجوانا
شرف باهت فلسطين به
وبناء للمعالي لا يداني
إن جرحا سال من جبهتها
لثمته بخشوع شفتانا
وأنينا باحت النجوي به
عربيا ، رشفته مقلتانا
يافلسطين التي كدنا لما
كابدته من أسي ننسي أسانا

نحن يا أخت علي العهد الذي
قد رضعناه من المهد كلانا
يثرب والقدس منذ احتلما
كعبتانا وهوي العرب هوانا

هذا النفس العروبي ، وهذا التوجه القومي ، والحلم بوطن عربي كبير ، سمة بارزة في شعر الأخطل الصغير ، بدأت خيوطها الأولي منذ عام ١٩٠٨ حين أنشأ صحيفة البرق التي كان يكتب افتتاحياتها في مهاجمة الاستعمار ، ودعوة العرب إلى إلى قظة والتحرر ، وكشف الأوضاع المتردية في لبنان والشام وبقاع الوطن العربي كله ، وظلت هذه الصحيفة أسبوعية حتي عام ١٩١٤ ثم توقفت بسبب الحرب العالمية الأولي وعادت إلى الصدور في عام ١٩١٨ صحيفة يومية حتي عام ١٩٢٩ ، ثم تحولت إلى مجلة أسبوعية ، كما بدأت واستمرت تصدر بدءا من عام ١٩٣٠ حتي عام ١٩٣٢ حين توقفت ولم تعد إلى الصدور ، وكان المعني الأول لهذا التوقف أن صاحبها وكاتبها الأول بشارة الخوري قد تحول من الكتابات النثرية ــ الوطنية والاجتماعية والقومية - إلى الابداع الشعري الذي سيكرس له حياته واهتمامه منذ ذلك التاريخ . وفي عام ١٩٥٣ يصدر بشارة مختارات من شعره في ديوانه الذي سماه الهوي والشباب ، وفي عام ١٩٦١ يصدر ابنه الأكبر عبد الله بشارة الخوري ــ المعروف باسم عبد الله الأخطل والشاعر اللبناني الكبير سعيد عقل ، يصدران شعر الأخطل الصغير وهو ديوان يضم مختارات من شعره ومختارات من قصائده التي توقفا عند بعض أبياتها ولم ينشرا بقيتها ، وظل شعر الأخطل الصغير ــ في صورته الكاملة ــ شبه مفتقد حتي كان احتفال مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين به في عام ١٩٩٨ فعهدت إلى الباحثة اللبنانية الدكتورة سهام أبو جودة ــ التي عكفت من قبل طويلا علي دراسة شعر الأخطل الصغير وجمعه من مصادره المختلفة ، فضلا عن جمع آثاره النثرية من دوريات جريدة البرق إلى ومية والأسبوعية ــ عهدت إلى ها بمهمة إصدار الديوان لا كامل للشاعر ، وهو الديوان الذي صدر في عام ١٩٩٨ مواكبا لا حتفال المؤسسة بالأخطل الصغير من جمع الدكتورة سهام أبو جودة وترتيبها وتقديمها . والمتأمل في شعر الأخطل الصغير بشارة الخوري (١٨٩٠ ــ١٩٦٨) يدرك علي الفور ما سبق إلى اكتشافه بعينه النقدية البصيرة وذائقته الناقدة للشعر الناقد الكبير الراحل أنور المعداوي حين قال عنه : بشارة الخوري أو الأخطل الصغير يبدو وهو شاعر اللوحة ، وليس شاعر التجربة ، إنه رسام لوحات مبدع ، وصاحب لغة شعرية ممتازة ، وهو في محيط التعبير بالألفاظ والصور يتيح للنقد أن يعتبره واحدا من شعراء الجيل الماضي ، وأن يعتبره في الوقت نفسه واحدا من شعراء هذا الجيل . إن النقد ــ علي ضوء السمات التعبيرية لشعره ــ يستطيع أن يلحقه بمدرسة الشعر التقليدي إلى جانب شوقي ومطران ، ويستطيع أن يلحقه

بمدرسة الشعر التجديدي إلى جانب إيليا أبي ما ضي وعلي محمود طه . فكما نجد في شعره من ملامح المدرسة الأولي ذلك الميل إلى التقريرية والخطابية والاحتفاء برنين اللفظ نجد من ملامح المدرسة الثانية تلك العناية بأن يحل التجسيم الإيحائي والموسيقي الداخليةوالصورة المركبة محل التقرير والخطابة والتعبيرالمباشر .

هذا التقييم النقدي لشعر الأخطل الصغير باعتباره شاعر اللوحة وليس شاعر التجربة ، يكشف لنا عن السور في ولع الناس وشغفهم بالقدرة التصويرية في شعره ، بأكثر مما تستوقفهم عواطفه أو معاناته أو اهتزازات وجدانه إزاء المواقف والأحداث . ربما كان الطابع الذي يسيطر علي عالمه الشعري باعتباره شعرا للأناقة والترف وحسن اختيار المعجم الشعري وهو الطابع الذي يغلب علي شعر اعلام المدرسة الشامية واللبنانية في الشعر من أمثال بدوي الجبل وأمين نخلة وعمر أبو ريشة وسعيد عقل وغيرهم والذي سيمتد من بعدهم إلى شعر نزار قباني ، هو أول ما يلفت الانتباه ويستولي علي الذائقة ويبهر بتعدد ألوانه وقدرته علي ابداع الصورة الشعرية .

ولم يكن نزاز قباني - في وداعه للأخطل الصغير - بعيدا عن هذا المعني وهو يقول: بالنسبة لي ، كان بشارة الخوري معلما كبيرا ، فقد تعلمت منه الطراوة والطلاوة وطريقته المدهشة في مزج الايقاعات والالوان ، ان بشارة الخوري لم ينحسر عن الشعر العربي الحديث أبدا ، فهو موجود في كل دفاترنا وكل كتاباتنا ومخبوء في حناجر أوتارنا . إن صوته يسكن في كلامنا وابجدياتنا كما يسكن النغم في قصب الربابة ، وكما تسكن المياه في عروق الصخر ، وكما يسكن الكحل في عيون الجميلات . هذا الرجل جعل الزمن الشعري العربي زمنا أخضر وحول القصيدة العربية إلى مروحة ونول حرير . هذه القدرة التصويرية الرائعة عند الاخطل الصغير ، نري بعض تجلياتها في قصيدته هند وأمها حين يقول:

أتت هند تشكو إلى أمها
فسبحان من جمع النيرين
فقالت لها: إن هذا الضحي
أتاني وقبلني قبلتين
وفر فلما رآني الدجي
حباني من شعره خصلتين
وما خاف يا أم بل ضمني
وألقي علي مسمي نجمتين
وذوب من لونه سائلا
وكحلني منه في المقلتين

وهـي اللوحـة الـشعرية البديعـة الـتي تختـتم فيهـا هـذه الحواريـة بـين هنـد وأمهـا بقول بشارة:

فقالت وقد ضحكت أمها
وماست من العجب في بردتين
عرفتهمو واحدا واحدا
وذقت الذي ذقته مرتين !

هـذا العـالم الغـني بالـصور ، وهـذه اللوحـات المتتابعـة ، والـصياغة الـتي تعـني باللفظـة وحـروف اللفظـة في تناسـقها وتآزرهـا وموسـيقيتها ، والإيقـاع الـذي يجعلنـا نـستقبل الـشعر ملحنـا دون تلحـين ، وكأنـه في طريقـه إلى الغناء_ هـذا كلـه بعـض أسـرار هـذه الـشاعرية الكـبيرة الـتي جعلـت شـعراء العـالم العربـي يجتمعـون لمبايعتـه بإمـارة الـشعر وتكريمـه في يونيـو عـام ١٩٦١ ، لكـن شـاعرنا ، الـذي كـان قـد جـاوز الـسبعين واعتلـت صـحته ، اسـتقبل الحفل والمحتفلين به بقصيدة من عيون بكائياته يقول فيها:

اليوم أصبحت لا شمسي ولا قمري
من ذا يغني علي عود بلا وتر
ما للقوافي إذا جاذبتها نفرت
رعت شبابي وخانتني علي كبري
كأنها ما ارتوت من مدمعي ودمي
ولا غذتها ليالي الوجد والسهر

وفي ختـام قـصيدته يـردد مـا قالـه شـوقي في حفـل تكريمـه ومبايعتـه أمـيرا للـشعراء حين قال:

وهبوني الحمام رقة سجع
أين فضل الحمام في تحنانه
وتر في اللهاة ، ما للمغني
من يد في صفائه أو ليانه
إنما كرموا يد الله عندي
وأذاعوا الجميل من إحسانه
أما بشارة الخوري فيقول:
صغت القريض ومالي في القريض يد
يد الطبيعة فيه أو يد القدر

إن المواهب لا فضل لصاحبها
كالصوت للطير أو كالنشر للزهر

لكن مبايعة الاخطل الصغير بامارة الشعر لم يكن لها ما كان لمبايعة شوقي في عام ١٩٢٧ من بريق ودوي . ربما لا ن الجمهور الأدبي انصرف عن معني الامارة والامير في دولة الشعر ، وربما لا ن عديدين في زمن بشارة الخوري كانوا يرون انهم يستحقونها كما يستحقها هو من أمثال امين نخلة وسعيد عقل في لبنان وعمر أبو ريشة وبدوي الجبل في سوريا والجواهري في العراق ، فلم تكن المسافة بينهم وبين بشارة الخوري كبيرة كالمسافة التي كانت بين شوقي وغيره من شعراء زمانه . وربما أحسوا بأن ما ناله شعر الأخطل الصغير من شعبية وذيوع صيت كان مرجع الفضل فيه إلى الغناء الذي جعل كثيرا من شعره يتردد بأصوات محمد عبد الوهاب وأسمهان وفريد الأطرش وفيروز وغيرهم ، وهو الدرس الذي استوعبه بشارة من شوقي واستوعبه من بعده نزار قباني فبالغناء استطاع الثلاثة ان يحققوا لا شعارهم أفقا أرحب ودورانا لا يتوقف في ليل أو نهار .

أمل دنقل

بقلم: فاروق شوشة

ما الذي يذكرني ـ الآن ـ بأمل دنقل ؟

لسنا في ذكري ميلاده (٢٣ يونيو عام ١٩٤٠) ، ولافي ذكري رحيله (٢١ مايو١٩٨٣) ـ وأمثاله لا نتذكرهم فقط لمجرد حلول المناسبة ثم نطوي الأوراق ونلوذ بالصمت ، فقد أدينا الواجب واستراحت الضمائر ، وليس ثمة مجال للوم أو عتاب !

الحقيقة أن أمل دنقل حاضر معنا بشعره حضورا حقيقيا في كل يوم . بل لعله الآن أكثر حضورا عند رحيله ، والذين يعيدون قراءة ديوانه أقوال جديدة عن حرب البسوس وتستوقفهم قصيدته التي يردد فيها صيحة المهلهل بن ربيعة بعد مقتل أخيه كليب: إني لا أصالح إلى الأبد ما دامت روحي في هذا الجسد ، والتي عرفت باسم: لا تصالح ، وعنوانها في ديوانه: مقتل كليب: الوصايا العشر ، وقصيدته الثانية أقوال إلى ما مة ومراثيها ، واليمامة هي كبري بنات كليب الذي ارتبط مقتله بحرب البسوس التي استمرت أربعين عام ا الذين يعيدون قراءة هذه الأشعار لا مل دنقل يرون كيف جعل من كليب رمزا للمجد العربي القتيل ، والأرض العربية السليبة التي تريد أن تعود إلى الحياة مرة أخري ، وهو لا يري سبيلا لعودتها أو إعادتها إلا بالدم والدم وحده .

هل هي حرب البسوس التي شغلت أمل دنقل واستوقفته شخوصها الرئيسية: البسوس وهي المرأة التي أشعلت الفتنة بين بكر وتغلب وسميت باسمها الملحمة ، وكليب الذي قتله جساس ابن عمه ، وجليلة زوجة كليب وابنة عمه ، واليمامة بنت كليب الكبري التي خاصمت أمها جليلة لا ن أخاها جساسا هو قاتل أبيها ، والمهلهل الملقب بالزير سالم أخو كليب وبطل السيرة والملحمة ! هل كانت حرب البسوس أم هو الواقع العربي المعاصر ـ بانكساراته وتراجعاته وأوضاعه الملتبسة ـ هو الذي فجر في وجدان أمل دنقل وفي شاعريته هذا الشعر المدبب الرافض للمهادنة أو التنازل أو الصلح ، والداعي ـ في قوة وجهارة ـ إلى التشبث بالأرض والتمسك بالثوابت والقيم و الأصول:

لاتصالح . .
ولو توجوك بتاج الإمارة
كيف تخطو علي جثة ابن أبيك ؟
وكيف تصير المليك علي أوجه البهجة المستعارة ؟
كيف تنظر في يد من صافحوك

فلا تبصر الدم
في كل كف ! ؟

إن سهما أتاني من الخلف سوف يجيئك من ألف خلف . فالدم الآن صار وساما وشارة لا تصالح ولو توجوك بتاج الإمارة إن عرشك سيف وسيفك زيف إذا لم تزن بذؤابته لحظات الشرف واستطمت الترف ! وأمل دنقل الآن أكثر حضورا منه عند رحيله ونحن نتساءل في كل يوم عن حال الشعر ، وما آلت إلى ه القصيدة وعن الحاجة إلى تعريف الشعر بعد اختلاط النصوص والمعايير . فالذين بدأوا ثورتهم الشعرية باعتبار أمل دنقل آخر الشعراء الجاهلين أدت بهم ثورتهم إلى طريق مسدود ، وأصبحوا هم قراء أشعارهم ـ إذا قرأوا ـ ولقد ظنوا أنهم قادرون علي تجاوزه ، فإذا بهم يتعثرون في غبار ويسقطون دون مضماره .

الغريب أن هاجس الشاعر الجاهلي كان يملؤني عند رحيل أمل دنقل ، وحين أطلقت عليه وقتها شاعر إلى قين القومي كانت صورة عمرو بن كلثوم وموقفه الإنساني والشعري ـ في الذود عن حياض من قبيلته تغلب والتغني بأمجادها ومخاطرها ـ وأنا أتأمل إنجاز أمل دنقل . ولأمر ما كرر عمرو بن كلثوم كلمة إلى قين ثلاث مرات في معلقته المشهورة ، في مواجهة من يتناولهم بالخطاب ، فمرة يقول:

قف قبل التفرق ياظعينا نخبرك إلى قين ، وتخبرينا

وثانية يقول:

أبا هند فلا تعجل علينا
وأنظرنا نخبرك إلى قينا
وثالثة يقول:

إليكم يابني بكر إلى كم ألما تعرفوا منا إلى قينا ؟

وواضح لمن يتأمل هذا الكلام أن هذا إلى قين الذي يشير إلى ه عمرو بن كلثوم ويكرره ليس إلا مجد قبيلته تغلب وخلود هذا المجد علي مر الأزمان ، في وجه ما يحسه العربي من هشاشة وجوده وزوال حياته وبعدها عن الثبات والرسوخ ، فكل شيء خاضع للفجاءة ، ولحياة حكومة بالصراع والحرب علي مصادر الرزق النادرة التي يمثلها مرعي وماء ، هذا الشعور بالضعف والهشاشة والتفتت والزوال هو الذي جعل شاعرا كتميم بن مقبل يتمني لو أن الفتي حجر راسخ في قوله:

ما أطيب العيش لو أن الفتي حجر
تنبو الحوادث عنه وهو ملموم

في وجـه هـذا كلـه كـان إلى قـين الـذي يـتغني بـه عمـرو بـن كلثـوم ويتخـذه شـعارا للقبيلـة وأمجادهـا . وهـو نفـسه إلى قـين الـذي طالمـا تغـني بـه أمـل دنقـل ، متمـثلا موقـف شـاعر القبيلـة القـديم ، مـصطنعا لنفـسه هـذه الحـال الـشعرية الـتي يـصبح فيهـا الـشاعر صـوت قومـه وضـميرهم ، ينبـه للكارثـة في البكـاء بـين يـدي زرقـاء إلى مـا مـة ويـصوغ إصـحاحاته وأسـفاره ومـزاميره في ديوانـه العهـد الآتـي وبكائياتـه عـن سـرحان الـذي لا يتـسلم مفـاتيح القـدس وعن سفر الخروج وأغنية الكعكة الحجرية :

أيها الواقفون علي حافة المذبحة

أشهروا الأسلحة

سقط الموت ،

وانفرط القلب كالمسبحة والدم انساب فوق الوشاح

المنازل أضرحة والمدي أضرحة

والزنازن أضرحة

فارفعوا الأسلحة

واتبعوني أنا ندم الغد والبارحة رايتي : عظمتان

وجمجمة وشعاري : الصياح !

في موقفـه الـذي اختـاره بكـل الحريـة والـوعي كـان أمـل دنقـل شـاعر إلى قـين القـومي ، وكـان رأس الحربـة المقتحمـة بـين شـعراء جيلـه وزمانـه ، واسـتحق ـ عـن جـدارة المكانـة اللائقـة بـه وبـشعره بـين جمهـور الـشعر في مـصر والـوطن العربـي كلـه . وافـتتن هـذا الجمهـور بتجليـات أمـل الكـبري في قـصائده : كلمـات سـبارتاكوس الأخـيرة ، والبكـاء بـين يـدي زرقـاء إلى مـا مـة ، وأغنيـة الكعكـة الحجريـة ، ومقتـل كليـب والوصـايا العـشر . كـان الـشعر مقترنـا بالرسـالة والموقـف هـو جـوهر هـذا الافتنـان ، وكانـت اللغـة الـشعرية الحـادة ، القاطعـة كالنـصل المرهـف . والـسيف البـاتر ، والـصورة الـشعرية الـشديدة القـدرة علـي التجـسيد ، والاتكـاء علـي المـوروث القـومي والإنـساني هـي عناصـر قـصيدة أمـل ، وقـد أتـاح هـذا العنـصر الأخـير في شـعره مـساحة واسـعة للبـاحثين عـن اسـتدعاء الشخـصيات التراثيـة في الـشعر العربـي المعاصر في مقدمتهم الناقد الأكاديمي الدكتور علي عشري زايد .

كمـا أتاحـت مواقفـه في مواجهـة الـسائد والمـألوف المعاديـة للاسـتخذاء والاستـسلام أو أنـصاف الحلـول مـساحة للناقـد الكـبير الـدكتور لـويس عـوض لا دراجـه ضـمن شـعراء الـرفض وللناقـد نـسيم مجلـي في التوقـف عنـد قـصائده الـتي تحققـت لهـا الـشعبية الواسـعة والجماهيريـة اللافتة .

ولقـد كـان هـذا الإنـسان الحـاد كالـسيف النـاتئ كالجبـل يمتلـك قلـب طفـل وجـوهر شـاعر شـديد العذوبـة والجمـال . وعنـدما أتيحـت لـي صـداقته ـ في سـنواته الأخـيرة ـ بعـد أن

جمعتنا معا جلسات لجنة الشعر بالمجلس الأعلي للثقافة وأمسياتها الشعرية ، ثم الزيارات المتكررة في الغرفة رقم٨ بمعهد الأورام القومي ـ حيث أسلم الروح بعد منازلة بطولية مع المرض العضال ـ أحسست أن المسافة التي وضعتها بيني وبينه طيلة سنوات حجبت عني هذا الوجه الجميل فيه وهذه النفس المتلئة بالمشاعر الحميمة التي اختفت خلف لسانه الحاد وتعليقاته اللاذعة وهجومه الساخر وانتقاداته التي لا تتوقف . وعندما بكيته غداة رحيله بقصيدتين متتابعتين ، حملت أولاهما هذا العنوان:

شاعر الحراب المدببة وقلت في مستهلها .

كانت حرابك الطويلة المدببة تجعلني علي مسافة منك .

فلا أعاين الذي حويت من جمال وكان وخزك العنيف حين تستهل صولتك مفتتنا بزهوة النزال والمبارزة

يتركني منك علي انتظار للحظة ،

يعود فيها صنفوك المسكوب في الرجال

ينكشف الوجه الغضوب عن فجاءة الفرح والجسد النحيل بالوداد يختلج

يموج في الضلوع صدرك الوريف بالظلال مؤانسا وحانيا

ويصبح القلب العصي في رحابة الدنيا وفي تدفق البحار كنوزه مذخورة لكل من عرفت شعابه طيعة لكل من حملت رحابه سقيفة وبيت لكل من صحبت في ممالك الليل وفي أقبية النهار !

ولم يكن الناقد الكبير الدكتور عز الدين إسماعيل بعيدا عن الوعي بجوهر هذا الشاعر المختلف وهو يبكيه في عدد ما يو عام ١٩٨٣ من مجلة إبداع ، ويقول: كان واحدا من أكثر عشاق الكلمة إيمانا بها ، وتفانيا في حبها وسعيا في خطب ودها ، وتنزيها لها عن كل ما يمس كرامتها . كيف وقد كانت كرامته من كرامتها وشجاعته من شجاعتها وصدقه من صدقها ؟

هذا الشاعر هو أمل دنقل ، الذي عرف النهاية قبل زمن النهاية ، فلم يكن يعبأ بها ، كان يمشي و العلة تمشي في شرايينه وأوصاله ، فلا تحسبه إلا مقدما علي يوم عرس أو متأهبا لنزال . كان يتفجر بالحديث فتحسبه لن يسكن قط ، فإذا دخل في عالم الشعر انهمر كالغيث .

هذا هو الشاعر أمل دنقل . ملحمة صراع نادرة في عصر لم يعد يشهد أبطال الملاحم . ودورة فلك مبتورة لم يلتئم طرفاها ، ونجم ما كاد يلمع حتي أفل . لكم يذكرنا المشهد القومي والشعري الآن بأمل دنقل ، ويجعل لحضوره الساطع معني واخزا وضاغطا .

هـاهي ذي هجمـة الوبـاء الـتي حـذرنا منهـا أمـل دنقـل ، في عـشرات الـصور والتنـاولات الـشعرية ، تستـشري وتـستفحل وتبتلـع مـن وجودنـا في كـل يـوم ، وتجعلنـا مـشدودين باسـتمرارإلي اسـتنفار المواجهـة والتـشبث بمـا تبقـي مـن الأرض . وهـاهو ذا التـشرذم الـشعري ، يعـشش غربانـه ـالاعاجز عـن التحليـق في الـسفوح ، بعـد أن وجـدت ضـالتها ورسـالتها الـشعرية ـ إن كـان للـشعر لـديها رسـالة ـ في تجليـات الجـسد ، ومرتفعاتـه ومنخفـضاته ونتوءاتـه ، بـديلا عـن الهـم القـومي والإنـساني ، الـذي شـغل بـه الشعراء الجاهليون ـ من أمثال أمل دنقل ـ ولايزالون !

وهـا هـي ذي قـصيدة أمـل دنقـل ، شـاهدة علـي عـصر مـن الإبـداع الـشعري ، كـان للـشعر فيـه قـضية وموقـف ، وللغـة الـشعرية فيـه دوي ورنـين ، وللموسـيقي الـشعرية ـ داخليـة وخارجيـة ـ تـدفقها إلى الوجـدان ، وزلزلتهـا للأحاسـيس و المـشاعر ، ومخاطبتهـا للوجود الإنساني بجدلية الشجن الإنساني و الإيقاع .

هـذه الهجمـة الوبائيـة ـ علـي مـستوي الوجـود القـومي وهـذا التـشرذم الـشعري ـ علـي مـستوي الوجـود الإبـداعي ـ يجعـلان مـن حـضور أمـل دنقـل اللافـت ، وافتقادنـا المـستمر لـه ولادة جديـدة ، فهـو ـ بلغـة عـز الـدين إسماعيـل ـ يتوجـع مـن جديـد في القلـوب والعقـول والخواطر ، ليكمل ملحمته الكبري : ملحمة الشعر والصمود .

مديحة

أبجدية الروح

بقلم: فاروق شوشة

لا يعرف معني أن يكون المرء شاعرا يمنيا إلا الشعراء إلى منيون هم - وحدهم - القابضون علي تاريخ القصيدة العربية منذ كان امرؤ القيس الصفحة الأولي في تجلياتها ، رمزا لشاعرية إلى من ، ومصداقا للهجتها القحطانية في مواجهة عدنانية الشمال . وتتابع - بعد امريء القيس إلى مني - موكب الشاعرية إلى منية متمثلا في وضاح إلى من وخاتمته المأساوية الفاجعة - بسبب عشقه لمحبوبته روضة - وصولا إلى شعراء إلى من الكبار في العصر الحديث الزبيري والشامي والحضراني - الأب والأبن - والبردوني: ختام هذا الرهط الجليل من أعمدة القصيدة الكلاسيكية قبل أن يتخلخل هذا العمود الشعري وتحقق القصيدة إلى منية حداثتها ومغامرتها علي أيدي طلائع جيل جديد مختلف يتقدمه محمد أنعم و عبد ه عثمان و عبد العزيز المقالح وحسن اللوزي وغيرهم ، بينما يطالعنا الراهن الشعري في إلى من بأصوات العديد من شاعراته وشعرائه: أكثر مواكبة لنبض العصر ، وهاجس القصيدة العربية الجديدة ، وانطلاقا إلى المزيد من التحرر والمغامرة .

في هذا السياق يصبح كل شاعر يمني حالة خاصة ومتفردة ، لا أقصد بها خصوصية المبدع المألوفة وتفرده بشكل عام وأساسي ، وإنما هي خصوصية القدرة علي نفض طبقات متراكمة من إبداع التراث ، والانسلاخ من موروث هائل ينتظم تقاليد القصيدة ولغتها وموسيقاها ، استنادا إلى دور إلى من في التأصيل لفن القصيد ، وتشكيل المعالم الأولي للشعرية العربية . وهو يقوم بهذا الانسلاخ وسط قيود مجتمعية صارمة ، وسيطرة عارمة لقوي تري في ثبات المستقر وجمود ما هو قائم ضمانا لا متلاك المستقبل وأمانا من خلخلة الوضع الذي تفيد هذه القوي من ثباته وسكونه واستقراره . ليس معني هذا أن فجر الاستنارة لم يشرق بعد في إلى من ، أو أنه ليس له رجاله وحملة مشاعله في وجه قوي الظلام والتخلف والدعوة إلى التشبث بالقديم لا نه قديم ، ولأنه قديم فهو مقدس ، ولأنه مقدس فينبغي ألا يمس ، بالنقد أو التساؤل - ويؤثر البعض المساءلة - أو التجاوز ، لكن أنصار الجديد يمتحنون في كل يوم ، ودعاة الاستنارة يتربص بهم خصومهم - الذين يمتلكون مساحات هائلة من فضاءات القمع ، وأساليب الاتهام ، والتخفي وراء ما ينجح في استثارة العامة ، والتلاعب بعقولها وعواطفها ، وشحنها بما يفجر الغضب والكراهية والحكم بالمروق والعصيان .

في ظل هذا كله يصبح عبد العزيز المقالح - ظاهرة لها خصوصيتها الشديدة والمتميزة - في المشهد إلى مني المعاصر ، ظاهرة لا أظنها تتكرر ، أو يتشابه معها غيرها في الدور والتأثير ، والحظوة - مهما تكن الأسباب والذرائع والمواقف - باحترام الجميع - فهو ليس

مجرد رئيس جامعة - هي جامعة صنعاء - أو شاعر كبير ، أو مفكر عتيد ، أو رمز من رموز الوعي والتنوير ، لكنه - في حقيقة الأمر - شيخ قبيلة المثقفين الحقيقيين في إلى من ، وملاذ الباحثين عن قطرات ضوء - مجرد قطرات - عندما تدلهم الأمور ويطبق على الصدور مزيج من سدف الليل الجاثم وعتو القوي المناهضة للتقدم . كما أنه في الوقت نفسه ميزان عدل يعرف أنصاره وخصومه معا صدقه وشرفه ومسئوليته واتزانه ، حتي لو بدا لهم أحيانا في صورة المستقل برأيه الخارج علي إجماعهم ، ومن غيره أحق بهذا الاستقلال وهـــــذا الخـــــروج ؟

في آخر دواوين عبد العزيز المقالح: أبجدية الروح (صدر في القاهرة عام ١٩٩٦) معراج شعري ، يتجاوز به صاحبه ما لوف شعره المعهود في دواوينه العديدة السابقة ، ويستشرف فضاء روحيا يحقق له جلوة التطهير أو التطهير ، وروعة المؤانسة مع الذات والوجود ، متجاوزا أديم الأرض الذي يصطرع عليه وبسببه عشاق الدنيا وسماسرتها ومزيفوها . أما هو فليكن ملاذه في فضاء لا يداني ، وسماء لا يعرفها عبد ة التراب:

للنجم ملاذ في الضوء
للورد ملاذ في العطر
للنهر ملاذ في الماء
وللجبل الواقف - لا ينكره الليل -
ملاذ في الأرض
وحدي منفصل عن ظلي
سألوذ بمن أورق في كفيه
الضوء - العطر
وفي راحته تجري الأنهار
بريشته الكبري يرسم زينة هذه الأرض
جمهرة من فرسان العشق اغتسلوا
قبلي بالخوف
وضاق بهم جلد الأرض
انتبهوا
خرجوا من حجرات داكنة
لاذوا بفضاء منتشر
يسكنه الله الواحد
نخلة صبري وحدائق إيماني
تتوهج ، تدنو

تسرح روحي في فرح
لا أبعاد له لا حد
ويلي
حين توهمت ـ زمانا ـ أني في الحجرة وحدي
أن الجدران تطارد صدري
فتضيق تخومي
تطويني بالظلمة
لكني حين رجعت من المنفي
شاهدت الضوء بعيني قلبي
ينداح
يفيض كفجر أبيض
لم أره
الضوء رآني
فوجئت به يملأ أركان الأرض
يحاصر كل تضاريس العتمة !

عنوان الديوان أبجدية الروح يوحي بأن هذه هي نقرات البداية علي باب هذا العالم الرحب النوراني الفسيح والخطوات الأولي علي سدته . لكنها بداية لا تحيلنا في أي صورة من الصور ـ لغويا أو شعريا أو روحيا إلى الميراث الصوفي في ديوان الشعر العربي ، لن نجد في هذا الديوان أثرا للبرعي أو رابعة أو ابن الفارض أو ابن عربي أو السهروردي وغيرهم ممن تملأ أورادهم وابتهالاتهم دواوين كثيرة من موروث الشعر العربي واليمني . أبجدية القمالح تشترك معهم في مجرد الحروف وتغايرهم وتبتعد عنهم تماما في نسيج الكلمات والعبارات والرؤي والتصورات . هذا شيء يحسب له في سياق هذا الديوان الذي اقتنصه صاحبه من هيولي الفناء في الكون والحلول في الكائنات والذوبان في المعاني والتطهر بالتسامي والارتفاع عن أوزار الواقع وضراوة صراعاته وبؤس معاركه وتفاهة وقائعه وأيامه :

أيها الوهم يا صمت
يا حلم الشعراء
اقترب من شظايا المعاني
ولملم فضاء الفراغ
وشكل من الماء أسطورة
وقصائد مطفأة

والتقط صورة الوقت يا صاحبي
واحترس من سواد الكلام !

هل هذا الديوان فاتحة مسار شعري جديد ، يتخلي فيه صاحبه عن عنفوانه ، ويستدير علي عقبيه مبتعدا عن الرسالة التي تعلقت بها حياته وأعطته معني لوجوده: رسالة الدتنوير والنضال من أجل المزيد من التنوير ؟ هل آثر الشاعر برودة صفة المتصوف بديلا عن حرارة خنادق المقاتلين ، وحياة التطهر والصفاء الروحي بديلا عن حياة الالتحام

بهموم الناس وأشواقهم ومطامحهم ؟
كلا فإن الذي يقول:
لا تحزن إن الله معك
لا تحزن إن الشعر معك
لا تحزن إن الفقر معك
لا تحزن ، هذا ما قالته الأرض ،
وأعطاني من أعطي الموتي خبزا
وثيابا لا تبلي

لا يمكن أن يكون مؤثرا للسلبية والعزلة والتراجع ، إنه يتعشق إيجابية من لون جديد ، ومذاق جديد . إيجابية يفجرها ضوء النهار وشمسه المنتصرة ، وعينان تريان ما لم تكونا تستطيعان رؤيته من قبل ، لا نها عيون القلب التي يستنكر الشاعر أن تعمي فلا تري الأفق الصافي في خفقة الريح وفي سكون الماء . إن ملاكا قادما من آخر الأرض علي بساط الشمس يستحثه أن ينهض باحثا:

عن قصيدة هاربة يطارد الليل جوادها
أسمع صوت خوفها المطعون
واستغاثة الحروف
هل كنت أعمي
لا تحس العين
لا تري الكف جلال الله
في انشقاق الليل عن صبح
وفي انشقاق الصبح عن ليل
وهل تعمي عيون القلب
لا تري في خفقة الريح وفي سكون الماء
أفقا صافيا

يا لوعة الأعماق للرحيل صوب زمن
في زرقة الفجر
وفي براءة الشعر
وفي سلام رائع
يورق بين القلب والضمير !

إن عبد العزيز المقالح - شيخ القبيلة - يستعيد في قصائد هذا الديوان انتماءاته الروحية الأولى وطقوس تجرده وعريه في لحظات البوح والاعتراف والمكاشفة . وهو بالفاتحة والابتهالات وأغنية الروح والقرب من نخلة الله والمفاتيح إلى ثكنات الروح وغيرها من تجليات الديوان ، يقدم أوراق اعتماده في بلاط الحكمة - شيخا دائما للقبيلة - لكننا لن نغفل عن هذا الوجدان الانساني النبيل - للشاعر الجميل والإنسان الأجمل عبد العزيز المقالح - وهو يزدحم بالمقامات والأحوال ويضطرب بين حالي السخط والرضا ويقول:

قبل موتي
بكيت علي نجمة تتدلي
من الأفق ناحلة
وعلي أمة في انتظار الفناء !

لأننا سنقرؤه مرة ومرات ، وننفذ إلى ما خلفه من روح رافضة متأبية ، داؤها الرفض والإباء ، وإن أسلمت مقاليدها في معراج التجلي إلى فاطر الأرض والسماء . هل تترك لنا هذه النماذج من شعر عبد العزيز المقالح في ديوانه أبجدية الروح مجالا للتساؤل عن لغته ؟ إنها - بكل بساطة - السهل المتنع ، الماء الساري في الجداول والأنهار ، رقراقا ، صافيا ، فراتا ، سائغا للواردين . وهي لغة لا يصل إلى ها ولا يحققها إلا المجاهدون الصابرون ، الذين يعطونها حقها من الوعي والدربة والمحبة ، فتمنحهم شهدها السائغ في غير عنت أو مشقة . . وإلا فكيف ساغ له أن يقول:

شعراء كثيرون
جاءوا من الموت
عادوا إلى الموت
يا سيد الحرف والعشب والليل
هب لي بقايا حروف
مبرأة من غبار الكلام !

متعة تزوق الشعر

بقلم: فاروق شوشة

الدكتور أحمد درويش ـ أستاذ النقد الأدبي والبلاغة والأدب المقارن في كلية دار العلوم جامعة القاهرة، والمعار حاليا لجامعة السلطان قابوس في عمان ـ هو صاحب هذا العنوان اللافت لكتابه الذي يتضمن دراسات في النص الشعري وقضاياه ، وأقول العنوان اللافت لا نه يندر الآن بين نقادنا من يهتمون بفكرة تذوق الشعر ، كاشفين عن جوانب المتعة في عملية التذوق هذه ، التي ـ عادة ـ يحتشد لها المتذوق بكل ما يمتلكه من خبرات جمالية وثقافية وحياتية ، من أجل إضاءة النص الشعري ، والكشف عن رموزه ودلالاته ، والصنعة الفنية فيه ، فضلا عن وضعه في سياق إبداعات صاحبه ، وفي سياق الإبداع الشعري كله .

الدكتور أحمد درويش إذن يحاول التململ من أسر الواقع النقدي الذي أصبح يشغل الناس ـ نقادا ومبدعين وقراء ـ بالحديث عن النظرية ، والفلسفة الكامنة في ثنايا النظرية ، والذي أصبح ينظر إلى مثل هذا الجهد النقدي في التذوق ، ومحاولة الكشف عن المتعة فيه ـ باعتباره يدخل في دائرة النقد التفسيري ، أو النقد الشارح الذي لم يعد يليق بنقادنا الأفذاذ أن يمارسوه .

ثم هو يحاول تجنب مضحكات بعض الأساليب والطرائق النقدية التي اعتدنا عليها في العقدين الآخيرين من الزمان ، منذ رحبت مجلة فصول ـ من بين ما رحبت به واعتبرته دورها التأسيسي ـ لكتابات نقدية تقوم علي الحسابات الرياضية والأشكال الهندسية والإحصاءات المضحكة التي تعني برصد عدد الضمائر وأنواع الأفعال وامتلاء النص أو خلوه من الألوان إلى غير هذه المستويات من صنعة الحوار النقدية ، وعليك أيها القاريء أن تتحقق بنفسك إذا شئت من الإحصائات والبيانات التي يتضمنها الكلام ـ تماما كمن يشك في عدد النجوم في السماء عليه أن يقوم بإحصائها بنفسه ! وليت الأمر يتوقف عند هذا المستوي من الإضحاك النقدي ، والإبهار الساذج في الكتابة ، لكن الطريق الذي ستسلكه ـ قارئا لهذه الكتابات ـ لن يوصلك إلى شيء ، خاصة أن مثل هذا المنهج في التناول ، ان غضضنا النظر عن تسميته منهجا ـ لن يفرق بين المتبني وشو ناشئ لا ن كليهما لديه ضمائر وأفعال وألوان وصفات ، تشيع في النص الحقيقي كما تشيع في النص الزائف ، لكنها في نهاية الأمر أرزاق ، بابها واسع ، وخاتمتها فاجعة .

والدكتور أحمد درويش ـ في مجانبته الواعية لمثل هذا اللغو ـ علي وعي حقيقي بالأفق العام لحقيقة الشعر وكيميائه ونفاذه في شرايين الفنون الأدبية الأخري ، فهو يري

أن فن القصة القصيرة - مثلا - ما زال يدور في حمي الشعر منذ اختيار لحظة المعالجة الهرمية المقلوبة التي تنطلق من نقطة قد لا تحتل مساحة كبيرة علي السطح ، ولكنها تنفذ منها إلى عمق شديد الرحابة والاتساع ، حتي اختيار الشكل الخارجي للقصة القصيرة ، وهو الشكل الذي يلاحظ تزاحم الإيقاع غير المقصود في الكثير من الأحايين علي سطحه الخارجي ، حتي ان موسيقي بحور شعرية - كالمتقارب والمتدارك - تعمر كثيرا من سطور النتاج القصصي في الأدب العربي المعاصر ، أكثر مما تعمر سطور قصيدة النثر التي تدعي انتماءها إلى مجال القصيدة .

كما يلاحظ الدكتور أحمد درويش أن الأمر لا يختلف كثيرا بالنسبة لفن الرواية ، الذي يعتمد علي الشعر في كثير من تقنياته الفنية مثل رصد العلاقة بين الفن والواقع أو اختيار المنظور الذي ترسم من خلاله الشخصيات أو تحديد مفهوم المكان والزمان ، أو رسم أبعاد معقولية الحدث أو عدم معقوليته ، وكذلك الشأن بالنسبة للغة - وهي نقاط تتطلب مزيدا من البحث لتحديد درجات الحلول الشعري في الأجناس الأدبية الأخري ، وفي ضوء هذا الكلام يمكننا الآن فهم عبارة أديب مصر الكبير نجيب محفوظ التي أطلقها منذ أكثر من نصف قرن من أن الرواية أصبحت شعر هذا الزمان باعتبارها عبارة تحمل أكبر التكريم للشعر ، فعندما ازدهرت الرواية وتوطدت أركانها الفنية ، أصبحت جديرة بأن تقارن بالإبداع الشعري الذي يمثل نقطة الذروة وصدارة المشهد الإبداعي ، ويعلم الدكتور أحمد درويش أن عنوانه اللافت متعة تذوق الشعر سيظل هاجسنا الأساسي خلال مطالعتنا لكتابه ؟ :

منهجا ورؤية ، وتطبيقا علي نصوص قديمة وحديثة ، من هنا كان حريصا - منذ البداية - علي مكاشفة قارئه بأن النص الشعري قابل لا ن يكون في يد الناقد الجاد أشبه بالنوتة الموسيقية في يد العازف الماهر ، يمكنه - مع المحافظة علي جوهرها - أن يستخرج منها ألحانا جديدة لم تكن مما توصل إلى ه عازفها الأول ، وليس من الضروري أن تكن قد تجسدت بالطريقة نفسها في خيال مبدعها القديم ، فالنص - منذ لحظة انفصاله عن مبدعه - يصير ملكا للغة ونظمها الإشارية والدلالية وإيحاءاتها التي لا تنتهي - ويستشهد بقول فاليري - الناقد الفرنسي - إن القصيدة قد تبدأ في التكون الحقيقي من اللحظة التي يتلقاها فيها المتلقي الخبير إننا قد نحس في هذه الحالة الأخيرة بمتعة تذوق الشعر أكثر مما نحس بعبء تفسيره وتأويله ، وقد نحس بأن النص يحملنا علي أجنحته أكثر مما نحمله علي أكتافنا ، وبأن شاعرا قديما كالشنفرة الأزدي ، أو أبي ذؤيب الهذلي أو البحتري أو أبي فراش الحمداني أو أبي العلاء المعري - أو غيرهم من الشعراء - يتوجه بالحديث المباشر إلى نا كما توجه به من قبل إلى سامعه الأول ، وبأن الزمان -

شأنه شأن المكان ـ لا يشكل فاصلا في متعة تذوق الشعر ولاحاجزا بين الشاعر وسامعه الحميم حتي لو فصل بينهما أكثر من ألف عام ! .

كيف نجح الدكتور أحمد درويش في حشدنا معه لمارسة عملية التذوق التي نصب لنا شراكها وأعد لها عدتها ، ولم يبق إلا الرحيل في دروب النص نستجلي غوامضه وخفاياه ونتوقف عند منحنياته وزواياه ونتأمل أسرار الفن الشعري التي لا تتحقق إلا بإحكام الصنعة ومواتاة ما ء الشعرية وكيميائها المشعة .

وكيف ضمن لنا ـ من البداية ـ أن هذه الرحلة مضمونة المتعة ؟ والمتعة أكبر من الفائدة ، ومن الفهم ، ومن التراكم المعرفي ، انها ذلك الأثر المتبقي في النفس يمنحها حرارة الانعطاف دوما إلى النص الذي كانت قراءته النقدية سببا لتحقيق المتعة المصاحبة والمؤكدة .

دعونا لا ننسي في خضم هذا الكلام أن صاحبنا شاعر ، وشاعر مطبوع ، وأن دفق هذه الشاعرية ما زال حيا في شرايينه ، وعليه اتكاؤه ومعتمده ، ثم ان الاكاديمية أمدت هذا الوجود الشعري لديه بالمنهج والرؤية الناقدة ، وطرائق التحليل والتناول ، واستدعاء التراث العربي مرة والتراث الغربي أخري ، وإلي مزجها معا في تلك المعادلة الفريدة التي لم ينجح في تحقيقها إلا من امتلك صفاء الرؤية ، وحكمة التوازن ، ولم يسقط في شرك الادعاء أو التعصب أو المباهاة ، فاحتلت سائر العناصر في نفسه مكانها ومكانتها المستحقة ، دون غلو أو تزيد أو تنطع .

يقدم الدكتور أحمد درويش نموذجا لمنهجه الكاشف عن متعة تذوق الشعر في تناوله لقصيدة أم الأسير لا بي فراس الحمداني وهي إحدي قصائده البكائية ـ أو بكائياته الشعرية ـ التي نفس بها عن نفسه عندما قضي من سنوات عمره القصير سبع سنوات أسيرا في بلاد الروم عندما أصيب في إحدي معاركه مع الروم ـ القوة العظمي في ذلك الزمان ـ فحمل أسيرا إلى القسطنطينية ، وتباطأ ابن عمه وزوج أخته سيف الدولة الحمداني ـ أمير حلب ـ في أمر مفاداته ـ مما ضاعف من وقع الكارثة علي نفسه ، وماتت أمه وابنها الوحيد بعيد عنها في الأسر .

وهو الذي كان يحلم بيوم العودة حتي يلقاها ، لقد بكته حتي ابيضت عيناها من الحزن وذوي عودها ، وظلت تتمسك ـ يوما بعد يوم ـ ببقية الحياة رجاء ان تقر عينها بعودة وحيدها الأسير . وكانت تخرج لكي تتنسم ريح القادمين من بلاد الروم لعلهم يحملون أخبارا عن حبيبها الغائب .

قول أبو فراس:

أيا أم الأسير يقال غيث

بكره منك ، ما لقي الأسير

أيا أم الأسير ، سقاك غيث

تحير لا يقيم ولا يسير

أيا أم الأسير ، سقا غيث

إلي من بالغوا يأتي البشير ؟

إذا انبك سار في بر ذكر

فمن يدعو له ، أو يستجير ؟

حرام أن يبيت قرير عين

ولؤم أن يلم به السرور

وقد ذقت الرزايا والمنايا

ولا ولد لديك ولا عشير

وغاب حبيب قلبك عن مكان

ملائكة السماء به حضور

ويقول في ختام بكائيته :

أيا أماه كم سر مصون

بقلبك ما ت ليس له ظهور

أيا أماه كم بشري بقربي

أتتك ودونها الأجل القصير

إلي من أشتكي ! ولمن أناجي

إذا ضاقت بما فيها الصدور ؟

بأي دعاء داعية أوقي

بأي ضياء وجه استنير ؟

بمن يستدفع القدر الموفي

بمن يستفتح الأمر العسير ؟

يـري الـدكتور أحمـد درويـش أن الأنـين الـذي يـتردد في فاتحـة القـصيدة ـ وكأنـه رد فعـل طبيعـي للجـسد ـ يتمثـل في اللجـوء إلى فـن التكـرار المحكـم ، إنـه تكـرار علـي مـستوي ربـاعي تـتردد خلالـه عبـارة أيـا أن الأسـير بكـل دلالتهـا في شـكل فـشيج متقطـع في الأبيـات الأربعـة ، وكأنهـا تعلـن عـن بـؤرة المـرارة ، للأسـد المقيـد العـاجز عـن الاقـتراب مـن أحـب النـاس إلى ه وعـن قمـة الفقـد لـضياع قمـة الحـب . ولـيس هنـاك إلا طلـب الغيـث الـذي يـسقي التربـة الطـاهرة ، وهـذا الطلـب الأخـير يتكـرر ثـلاث مـرات فقـط وكأنـه يـترك درجـة خاليـة يـصعد عليهـا البنـاء الهرمـي للقـصيدة ، وقـد يلاحـظ أن هـذا التكـرار في ذاتـه يـشكل مـا يمكـن أن يـسمي بالنغمـة الثابتـة في لحـن الافتتـاح والـتي تقابلـها نغمـة مـتغيرة في لحـن الافتتـاح نفـسه في الأشـطر الأخـيرة . وكـأن الاحـداث تتحـرك لكـن الحـزن ثابـت ، غـير أن هـذه الأحـداث المتحركـة تلتقـي جميعـا مـع الابـن الحـزين في بـؤرة واحـدة هـي الحـيرة حـتي إن الغيـث يمـتر لا يقـيم ولايـسير وحـتي إن البـشير المتخيـل سـوف يحمـل نبـأ الإفـراج عنـه يومـا تحـير فلـم يعـرف لم يلقي النبأ السار .

إن التكـرار يعـود مـرة أخـري في شـكل ربـاعي أيـضا عنـدما يهتـف الابـن الحـزين بالكائنـات كلـها لكـي تـشاركه في البكـاء علـي أمـه ، فالأيـام الـتي صـامتها وتحملـت الـصبر فيها وقـد اشـتدت حـرارة الهجـير فلـم تـستجب لقسوة الظمـأ فتبـل ريقهـا ، هـذه الأيـام تبكـي الـصائمة الـصابرة في صـمت . ولكـن إذا كانـت النغمـة المكـررة قـد وسـعت مـن دائـرة الأمومـة ودائـرة البنـوة ودائـرة البكـاء ، فـإن الابـن الحـزين يعـود لكـي يحكـم الـدائرة مـن جديـد حـول نفسه ، وحبه وحزنه .

في ختـام قراءتـه النقديـة المتذوقـة لقـصيدة أبـي فـراس ، يوضـح الـدكتور أحمـد درويـش أن النغمـة الأساسـية في هـذه القـصيدة هـي النغمـة الـتي تجمـع بـين الإجـلال والحـزن والحـب ، وهـي الـتي كانـت قـد جعلـت الابـن المحـب ، يريـد أن يتـزين ويعـتني بنفـسه ويطلـق شـعوره وذوائبـه حـتي يبـدو جمـيلا في عـين أمـه ، وهـي نفـسها الـتي تجعلـه الآن يتطلع إلى سرعة الرحيل ليصير إلى ما صارت إلى ه ويلتقي معها تحت التراب .

وهـي النبـوءة الـتي مـا لبثـت أن تحققـت ، فقـد لحـق أبـو فـراس بأمـه الحبيبـة بعـد شـهور قليلـة وبعـد عودتـه مـن الأسـر ، وتـرك لنـا جملـة مـن القـصائد تعـد في صـدارة روائـع الشعر العربي القديم .

لقـد اسـتراح أحمـد درويـش في قراءتـه للقـصيدة إلى المفتـاح الـذي اكتـشفه لهـا والمتمثـل في ظـاهرة التكـرار الربـاعي والثلاثـي ونغمـة الحـيرة الـتي تـنعكس علـي مقـاطع القـصيدة جميعهـا ، وتخلـع ظلـها علـي الـشاعر الحـزين وعلـي الـسحاب الحـائر وعلـي البـشير الـذي لا يعـرف لمن يلقي بالخبر السار .

وقد كان الناقد الراحل أنور المعداوي أشهر من استخدام فكرة المفتاح في تحليل النصوص الإبداعية ، خاصة الشعرية ، كما كان الكاتب الكبير عباس محمود العقاد أشهر من استخدمها في تحليل شخصيات العباقرة الذين كتب عنهم ، فلكل عبقرية مفتاحها الذي يؤدي حسن استخدامه إلى فهم غوامضها ومكوناتها . وأحمد درويش وإن لم يذكر كلمة المفتاح إلا أنه سلك الطريق نفسها ، فانفتحت له الأبواب ، ودانت له ممالك الشعر الحصينة ولسوف يبقي له فضل الاشارة إلى متعة قراءة الشعر في زمن يروج فيه الأغبياء لفكرة موت الشعر ، وفضل تذويب علمية المنهج في حميا التناول الأدبي واللغوي للنصوص الشعرية ، وتقديم قراءات نقدية متنوعة آمنت بحرية التناول وجرأة المغامرة وروعة الاكتشاف .

فدوى طوفان شاعرة الحلم الفلسطيني

بقلم: فاروق شوشة

في ديوان الشعر الفلسطيني كله ، يبرز شعر فدوي طوقان باعتباره أوفره جمالا وصفاء ورهافة وشفافية . تنسكب روح فدوي ـ المثقفة الكبيرة والانسانة المرهفة الوجدان ـ علي صفحة قصائدها لتمنحها إشراقها الآخاذ وجاذبيتها النفاذة وصدقها الموغل في النفس . وفي كل مدارات رحلتها الشعرية منذ ديوانها الأول وحدي مع الأيام الذي صدرت طبعته الأولي في القاهرة حتي ديوانها الأخير تموز والشيء الآخر ظل غناء فدوي لذاتها المتوحدة وللوطن السليب وجودا شعريا حيا ومتدفقا ، زاخرا بالدلالات والمعاني ، متوهجا بأقباس الحلم الفلسطيني الذي لم تتخل عنه أبدا .

حتي عندما حلت نكسة١٩٦٧ ، وسقطت الضفة الغربية بكاملها وسقطت القدس الشرقية في أيدي الصهاينة المحتلين لم تفقد فدوي طوقان إيمانها لحظة واحدة ولا ثقتها بأمتها العربية القادرة علي أن تنهض من جديد ، وبينما كانت صحافة العالم وإذاعاته تردد أحداث النكسة في استهزاء وشماتة وكأنها نهاية الأمة العربية ، كانت فدوي تهتف بلغتها الشعرية السهلة المتنعة ، البسيطة العميقة:

يوم الإعصار الشيطاني طغي وامتد
يوم الطوفان الأسود
لفظته سواحل همجية
للأرض الطيبة الخضراء
هتفوا ، ومضت عبر الأجواء الغربية
تتصادي بالبشري الأنباء
هوت الشجرة !
والجذع الطود تحطم
لم تبق الأنباء
باقية تحياها الشجرة !
.....
هوت الشجرة ؟
عفو جداولنا الحمراء
عفو جذور مرتوية بنبيذ سفحته الأشلاء
عفو جذور عربية

توغل كصخور الأعماق وتمد بعيدا في الأعماق

.....

ستقوم الشجرة

ستقوم الشجرة والأغصان

ستنمو في الشمس وتخضر

وستورق ضحكات الشجرة

في وجه الشمس

وسيأتي الطير

لابد سيأتي الطير

سيأتي الطير !

سيأتي الطير !

ولم تكتف فدوي بهذه الصرخات الشعرية المدوية ، الرافضة لليل الهزيمة وإعصارها الشيطاني وطوفانها الأسود . لقد تحولت - بمفردها - إلى جيش محارب ، طلقاته وذخيرته كلمات مغموسة بدم القلب ، وقصائد متوهجة بإرادة النضال والبطولة والتحدي . وانهالت رسائلها الشعرية المقاتلة تسر بها سرا من نابلس - حيث تقيم في الضفة الغربية إلى أصدقاء لها في القاهرة وبيروت ، ومن العاصمتين تنتقل الرسائل إلى الصحف والمجلات والإذاعات . وشرفتني فدوي طوقان حين اختصتني وبرنامج لغتنا الجميلة - الذي بدأت تقديمه من إذاعة البرنامج بعد حلول النكسة بقليل وأذيعت أولي حلقاته في مستهل شهر سبتمبر عام ١٩٦٧ - اختصتني بعدد من قصائدها الملتهبة ، التي نجحت في تهريبها من فلسطين المحتلة ، من بينها قصائدها الشهيرة التي جمعتها بعد ذلك في ديوانها الليل والفرسان: الفدائي والأرض - لن أبكي - رسالة إلى طفلين في الضفة الشرقية - حمزة ، وغيرها ، تذاع في برنامج لغتنا الجميلة والقلق يملؤني علي الشاعرة الكبيرة التي تعيش في سجن كبير من صنع المحتلين الصهاينة ، وينشرها الصحفي الكبير الراحل كمال الملاخ في الصفحة الأخيرة من الأهرام ، يستمع إلى ها الملايين ويقرؤها الملايين ، وتنبض قلوبهم مع قلب فدوي التي نجحت بكلماتها في اختراق الأسوار وتوصيل الصوت الفلسطيني الحقيقي إلى كل مكان لتبدد بعض ظلمات ليل الهزيمة .

ومن بين كل رسائل فدوي ، لن أنسي رسالة لم تحمل شيئا من شعر فدوي ، لكنها حملت قصيدة من عيون التراث العربي ، للشاعر سعد بن ناشب الذي عاش في عصر الدولة الأموية زمن ولاية الحجاج علي العراق رأت فدوي في القصيدة تعبيرا حيا وعصريا عما تتعرض له بيوت الفلسطينيين علي أيدي المحتل الإسرائيلي من هدم وتحطيم ، وما يلاقيه سكانها من إرهاب وبطش وترويع ، وفي كل يوم تهدم عشرات البيوت

ويشرد المئات بلا ما وي أو ملاذ . وكان سعد بن ناشب قد قال قصيدته عندما هدم الحجاج ـ بعسفه وبطشه وطغيانه ـ بيته في البصرة وأحرقه ، فلم يتردد الشاعر في إعلان تصميمه علي غسل العار الذي لحق به ، وكتبت فدوي رسالتها ـ وبداخلها القصيدة ـ مؤكدة أن في إذاعتها ونشرها المعني الذي تحرص علي توصيله وتأكيده: . . الصمود في وجه البطش والعدوان واليقين الواثق من حتمية النصر .

يقول سعد بن ناشب:
سأغسل عني العار بالسيف ، جالبا
علي قضاء الله ما كان جالبا
وأذهل عن داري ، وأجعل هدمها
لعرضي من باقي المذمة حاجبا ويصغر في عيني تلادي ، إذا انثنت
يميني بإدراك الذي كنت طالبا
فإن تهدموا بالغدر داري ، فإنها
تراث كريم لا يبالي العواقبا
أخي غمرات لا يريد ـ علي الذي
يهم به من مفظع الأمر صاحبا
إذا هم لم تردع عزيمته همته
ولم يأت ما يأتي من الأمر هائبا
فيا لرزام رشحوا بي مقدسا
إلي الموت ، خواضا إلى ه الكتائبا

ثم يطلق سعد بن ناشب هذين البيتين اللذين أصبحا سائرين علي كل لسان ، وصفا لكل من ينهض للأمر دون خشية من العواقب ، غير مستشير سوي سيفه وعزيمته:

إذا هم ألقي بين عينيه عزمه
ونكب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر في رأيه غير سيفه
ولم يرض إلا بقبض السيف صاحبا

وفي رسالتها التي أرفقت بها قصيدتها الفدائي والأرض قالت فدوي: في الثلاثين من ايلول ـ سبتمبر سنة١٩٦٧ اندلعت واحدة من أشد معارك المقاومة في روابي طوباس ـ محافظة نابلس ـ وقد استشهد فيها الفدائي ما زن أبو غزالة استشهادا بطوليا رائعا . فبعد مقاومة عنيدة استمرت ثلاثة أيام نفدت الذخيرة وأصبح ما زن وجها لوجه مع العدو بعد أن تمكن من تغطية انسحاب رفاقه ، وأخذ من وسطه قنبلتين فجرهما بين يديه ، وتمزق ، ومزق معه عددا من جنود العدو المحيطين به .

وقـد وجـدت في مفكـرة مـا زن كلمـات متـوترة ، صـادقة ، كـان قـد كتبهـا بتاريخ١٥ حزيران شهر الحزن والذهول .

مـن هـذه الكلمـات: يـا أهلـي ، يـا شـعبي ، يـارب ، مـا ذا أكتـب ولـن أكتـب . . . أرجـو ألا أكتـب إلا رسـالة نـصر . وفي صـفحة أخـري: زغـرد يارصـاص واخـرس يـا قلـم .

أما قصيدتها الفدائي والأرض فتقول في مقطعها الأخير:

طوباس وراء الربوات
آذان تتوتر في الظلمات
وعيون هاجر منها النوم
الريح وراء حدود الصمت
تندلع ، تدمدم في الربوات
تلهث خلف النفس الضائع
تركض في دائرة الموت !
. . . .
يا ألف هلا بالموت
واحترق النجم الهاوي ومرق
عبر الربوات
برقا مشتعل الصوت
زارعا الإشعاع الحي علي الربوات
في أرض لن يقهرها الموت
أبدا لن يقهرها الموت !

ولقـد ضـمنت فـدوي طوقـان سـيرتها الذاتيـة ـ الـتي كتبتهـا بعـد هـذا التـاريخ بـسنوات – كـثيرا مـن أخبـار هـذه الرسـائل إلى أصـدقائها في القـاهرة وبـيروت وكيـف كانـت تـذيعها الإذاعـة وينـشرها الأهـرام في إطـار حـديثها عـن زيارتهـا للقـاهرة ولقائهـا بـالرئيس الراحـل جمـال عبـد الناصـر بعـد أن اسـتدعيت للقـاء موشـي ديـان ـ وزيـر الـدفاع الإسـرائيلي ـ قبـل زيارتهـا للقاهرة بشهور .

في شـعر فـدوي طوقـان ذلـك التـوهج النـادر الـذي لم تنطفـيء شـعلته علـي مـدار أكثـر مـن نـصف قـرن مـن الإبـداع ، فقـد خلقـت فـدوي لتكـون شـاعرة . الأسـرة والبيئـة والأرض والـوطن والهـم الـذاتي والقـومي كلـها روافـد لتغذيـة هـذه الـشاعرية العارمـة . أخوهـا الأكـبر إبـراهيم طوقـان ـ شـاعر الثـورة الفلـسطينية ـ أسـتاذها وموئلـها وراعيهـا ، وإلـي روحـه أهـدت

ديوانها الأول وحدي مع الأيام ووجدانها المرهف الشديد الحساسية كالرادار النقي ، يهتز لتجارب الحياة والوجود ويمور بفيض هائل من الأحاسيس والمشاعرالجارفة . وعشقها الحميم للوطن الفلسطيني والأرض الفلسطينية بكل ألوانها وعطورها وروائحها جعل من دواوينها سجلا حيا ناطقا باللوحات الشعرية المعبرة والصور البديعة لطبيعة تمتزج بالإنسان وقضيته ويمتزج بها الإنسان امتزاج حياة ومصير . ومن خلال شعر فدوي انطلقت مفردات فلسطين إلى الذاكرة المرئية لكل عربي وهو يقرأ عن نابلس وبيسان وجرزيم وطوباس ورفيديا ويطالع هذه الجغرافيا الشعرية الحية ، التي نجحت في إبقاء اسم فلسطين - والمواقع المختلفة التي انتظمها عالم فدوي - شاخصا في دائرة الرؤية والذاكرة ، محركا للهمم والعزائم ، قادحا لزناد الحس القومي والوعي بقضية العرب الأولي: فلسطين .

حتي عندما تفجر شعر الستينيات في فلسطين ، وتصدرت موجة شعر المقاومة أسماء محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وسالم جبران وغيرهم من خلال إبداع شعري ، مغاير ، وحساسية شعرية مختلفة ، ولغة شعرية شدت إلى ها دوائر الاهتمام والمتابعة ، وأصبحت هذه الموجة الهادرة هي وجه فلسطين الشعري - حتي عندما حدث هذا ظل شعر فدوي يمثل الأمومة الحقيقية لشعراء هذه الكوكبة .

وعندما التقت بهم فدوي في الرابع من شهر ما رس عام ١٩٦٨ في مدينة حيفا كانت قصيدتها المهداة إلى هم تحمل جوهر هذه العلاقة الإنسانية والشعرية الحميمية بينها وبينهم . تقول فدوي :

أحبائي مصابيح الدجي
يا اخوتي في الجرح
ويا سر الخميرة يا بذار القمح
يموت هنا ليعطينا
ويعطينا
ويعطينا
علي طرقاتكم أمضي
وها أنا بين أعينكم
أللمها وأمسحها دموع الأمس
وأزرع مثلكم قدمي في وطني
وفي أرضي
وأزرع مثلكم عيني
في درب السنا والشمس !

وتظل فدوي طوقان ـ المتوهجة شبابا وهي في سبعينيات العمر ـ تعطي من ذوب القلب هذا الإبداع الصافي الجميل ، ويظل صوتها المنطلق من بلدتها نابلس محلقا في سماء الوطن العربي كله ، ويظل يقينها وإيمانها بحتمية النصر ، وقيام دولة فلسطين ، وتحرير التراب الفلسطيني ، وتظل مواكبتها الحانية للانتفاضة أبطالا وشهداء ، وهي تري فيهم ، وفي مد المقاومة الفلسطينية المتصاعدة ، انبثاقة الفجر الجديد ، ودرب الفداء الوحيد ، والصقور التي تربط الأرض والوطن المقدس بالسماء:

انظر إلى هم في البعيد
يعانقون الموت من أجل البقاء
يتصاعدون إلى الأعالي
في عيون الكون هم يتصاعدون
وعلي حبال من رعاف دمائهم
هم يصعدون ويصعدون ويصعدون
لن يمسك الموت الخؤون قلوبهم
فالبعث والفجر جديد
رؤيا ترافقهم علي درب الفداء
انظر إلى هم في انتفاضتهم صقورا
يربطون الأرض والوطن المقدس بالسماء !

نازك الملائكة ودفاع عن الملاح التائه

بقلم: فاروق شوشة

أعود فأكرر الشكر والتحية للدكتور جابر عصفور وللمجلس الأعلي للثقافة وللشاعر الناقد الدكتور عبد ه بدوي الذين أتاحوا لنا نحن القراء ـ الأعمال الكاملة للشاعرة العراقية الكبيرة نازك الملائكة . فلولاهم ما كان من الميسور قراءة نازك قراءة عميقة هادئة خاصة في أعمالها النثرية التي تكشف عن حس فني عال وبصيرة نقدية صائبة وقدرة فذة علي التذوق والتأمل والتحليل واستنباط القواعد والضوابط والأصول من خلال رؤية شاملة لمسار القصيدة العربية وإبداع الشعراء القدامي والمحدثين خاصة في تناولها المرهف الرصين للشاعر الملاح التائه علي محمود طه . في كتابها الرائد' قضايا الشعر الحر' تعرض نازك لا ربع قضايا تتعلق بالشعر الحر هي: علاقة الشعر الحر بالتراث العربي وبداية حركة الشعر الحر والبحور التي يصح نظم الشعر الحر منها وقضية التشكيلات المستعملة في القصيدة الحرة .

وتعكف نازك ـ بالرأي والشواهد الشعرية والأدلة العروضية ـ علي إثبات أن الشعر الحر ـ الشعر الجديد مستمد من عروض الخليل بن أحمد قائم علي أساسه (بحيث يمكن أن نستخرج من كل قصيدة حرة مجموعة قصائد خليلية وافية ومجزوءة ومشطورة ومنهوكة) وتعترف ـ في بساطة وصراحة ـ أنها عندما حكمت في كتابها هذا ـ عام ١٩٦٢ ـ بأن الشعر الحر قد طلع من العراق ومنه زحف إلى أقطار الوطن العربي لم تكن تدري أن هناك شعرا حرا قد نظم في العالم العربي قبل سنة١٩٤٧ ـ سنة نظمها لقصيدة الكوليرا ـ وأنها فوجئت بعد ذلك بأن هناك قصائد حرة معدودة قد ظهرت في المجلات الأدبية والكتب منذ سنة١٩٣٢ (وهو أمر عرفته من كتابات الباحثين والمعلقين لا نني لم اقرأ بعد تلك القصائد في مصادرها . وفي هذا المجال ترد أسماء غير قليلة: علي أحمد باكثير و محمد فريد أبو حديد ومحمود حسن إسماعيل عرار شاعر الأردن ولويس عوض وسواهم) . وتضيف أنها هي نفسها عثرت علي قصيدة حرة منشورة قبل قصيدتها وقصيدة السياب للشاعر بديع حقي يقول فيها:

أي نسمة

حلوة الخفق عليلة

تمسح الأوراق في لين ورحمة

تهرق الرعشة في طيات نغمة

وأنا في الغاب أبكي

أملا ضاع وحلما ومواعيد ظليلة

والمني قد هربت من صفرة الغصن النحيلة
فأتمي النور وهام الظل يحكي
بعض وسواسي وأوهامي البخيلة !

بـل إن الباحـث العراقـي الـدكتور أحمـد مطلـوب أورد في كتابـه النقـد الأدبـي الحديث في العراق قصيدة من الشعر الحر عنوانها بعد موتي نشرتها جريدة العراق في بغداد سنة١٩٢١ تحت عنوان النظم الطليق وهو تعبير معناه الشعر الحر ولم يجرؤ صاحب القصيدة علي إعلان اسمه فوقع بحرفين هما: ب ن .

وتعلق نازك ـ الباحثة والدارسة ـ معلنة أن القصائد الحرة التي نظمت قبل عام ١٩٤٧ كانت كلها إرهاصات تتنبأ بقرب ظهور حركة الشعر الحر . ولهؤلاء الشعراء دورهم الذي ينبغي أن نعترف به أجمل اعتراف . لكن العصر لم يكن يهيأ لتقبل الشكل الجديد إذ ذاك ، فجرف ما صنعوا وانطفأت الشعلة فلم تلتهب حتي صدر ديوانها شظايا ورماد وفيه دعوتها الواضحة إلى الشعر الحر في كتابها الجميل عن علي محمود طه الذي صدرت طبعته الأولي ضمن منشورات معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة تحت عنوان محاضرات في شعر علي محمود طه فقد ضمن الكتاب بالفعل عددا من محاضرات نازك عنه عندما كانت مدعوة من المعهد عام ١٩٦٥ للتدريس فيه ثم آثرت أن تسمي الكتاب في طبعته الثانية تسمية أخري هي الصومعة والشرفة الحمراء في هذا الكتاب دراسة نقدية تحليلية شديدة الرهافة والعمق قادرة علي النفاذ إلى أغوار الشاعر وشعره وهو الشاعر الذي استهواها شعره منذ صباها الباكر يقول الشاعر والباحث والأستاذ الجامعي الدكتور عبد ه بدوي في تقديمه لا عمال نازك النثرية بدأ الشاعر حياته الشعرية باتجاهات روحية ملأت ذهنه خلالها أفكار فلسفية منغومة ومشاعر صوفية تأخذ بذهنه حتي وهو في خضم العاطفة المشتعلة وهذا ما رمزت إلى ه نازك بكلمة الصومعة بينما تعبر' الشرفة الحمراء' عن المرحلة التالية من حياته حين اتجه إلى اللهو والعبث هاربا من روحانيته بمقدار ما استطاع . وعلي كل فالعنوان كله منزوع من شعر الشاعر وفيه تعريف بمنهج من كتب عنه وعلي الرغم من أن الدراسة الثانوية قد فاتته وعوضها بمدرسة الفنون التطبيقية إلا أنه اتصل بدراسته بدراسة الأدب الفرنسي دراسة شخصية بتأثير من أحمد حسن الزيات وتشجيع من جامعة المنصورة وقد أصدر ديوانه الملاح التائه في الثانية والثلاثين من عمره وكان أن فتحت أمامه أبو ب النشر ثم كان سفره إلى أوروبا عام ١٩٣٨ وإصدار ديوانه الثاني ليالي الملاح التائه سنة١٩٤٠ ثم أرواح وأشباح سنة١٩٤٢ وزهر وخمر سنة . ١٩٤٣ وقد بدأت علامات البرودة العاطفية تبدو في شعره بعد أن جاوز الأربعين . وفي سنة١٩٤٤ يصدر مسرحية أغنية الرياح الأربع وفي سنة١٩٤٥ يصدر الشوق العائد وأخيرا يصدر ديوان شرق وغرب ويكون الموت عام ١٩٤٩ وعمره لا يتعدي السابعة والأربعين .

ويشير الدكتور عبد ه بدوي إلى أن نازك - في تناولها لعلي محمود طه وشعره - لم تنس بعض المآخذ على الشاعر كالكلمات القاموسية واستعمال المترادف والنثرية بالإضافة إلى الخطأ في عروض هذا البيت:

لم أقبلت في الظلام إلى ا
ولماذا طرقت بابي ليلا

فقد جاء فيه ب فاعلات دونما إشباع في خاتمة الشطر الأول مع أن الصحيح هو فاعلاتن لا ن البيت من البحر الخفيف . ولست أدري كيف وافق الدكتور عبد ه بدوي علي هذا الحكم العروضي الخاطئ لنازك الملائكة فالبيت صحيح عروضا ووزنا ولا خطأ فيه علي الإطلاق وخاتمة الشطر الأول وزنها فعلاتن وهي إحدي الصور الصحيحة للتفعيلة فاعلاتن وليس ثمة خطأ ولا يحزنون !

وتصر نازك علي أن علي محمود طه في قصائده المشهورة: الجندول وليالي كليوباترا وخمرة نهر الراين وسيرانادا مصرية كان شاعر وصف لا شاعر حب . وأنه كان فيها جميعا متفرجا لا معانيا لتجربة عاطفية . تقول نازك: وخير مثال نضربه لهذا قصيدته الجندول وقد صور فيها شهوده لليلة الكرنفال في فينيسي وهي ليلة وقف فيها يتفرج ويصف دون أن تتوهج عواطف الحب في قلبه . ولا يرد علي رأينا هذا أن الشاعر قد صحب خلال الأمسية فتاة جميلة من فتيات فارسوفيا أي وارسو كما نستدل من نص القصيدة فإن هذه الصحبة لا تعد تجربة نفسية في حساب الموحيات الشعرية لا نها صحبة عابرة لا أعماق لها . وقد انتهت بانتهاء المساء فقصاري ما تثيره في النفس نشوة حسية عارضة تنطفئ مع انصرام اللحظة . وقصاري ما صنع الشاعر ان يصف المنظر من بعيد مفتونا بمظاهره لا بحقيقته ولقد كان ذكر النيل وكليوباترا نقطة جمال وحقيقة في هذه القصيدة الوصفية:

آه لو كنت معي تختال عبره
بشراع تسبح الأنجم إثره
حيث يروي الموج في أرخم نبرة
حلم ليل من ليالي كليوباترة

وتنتقل نازك بعد الإشارة إلى الطابع الحسي أو الحسية في قصائد الوصف الغنائي لعلي محمود طه إلى النغم الذي يمثل جانبا أساسيا في جوها وبنائها حيث يختار الشاعر الألفاظ ذات الرنين الموسيقي وسحر الجرس مثل: العشاق والحس والصبا وعروس البحر وحلم الخيال والذكري والنشوة والليالي والسنا والشاطئ . وتختلف نازك اختلافا كبيرا مع الناقد الكبير الراحل الدكتور محمد مندور في نظرته إلى

الملاح التائه علي محمود طه حين يقول: إن علي محمود طه بطبعه أبعد ما يكون عن الروحانية والتأمل الذاتي . فهي تري أن علي محمود طه روحاني بطبعه كثير العكوف علي التأمل الذاتي وقد ترك من القصائد في هذا الباب ما يكاد يزيد علي شعره العاطفي . فإذا لا ح هذا الاتجاه النفسي مناقضا لموقف الشاعر في قصائده الوصفية الغنائية وقصائد العبث فإن هذا التعارض - في رأي نازك - ظاهري فحسب . وهي تري أن شعره الذي يمثل الظاهرة الفكرية الجميلة هو أجمل شعره وأروعه علي الإطلاق ! لولا أنها تتحفظ فتبقي مكانا مماثلا لقصائد الحب .

تتوقف نازك الملائكة - أيضا - وهي تتأمل شعر علي محمود طه عند المستويات الروحية والفكرية المتباينة التي يتناوب ظهورها فقد يغلب أحدها في قصائد معنية ثم يغلب آخر في قصائد أخري . وتترقرق في هذا الشعر معان متعارضة تجعل الحكم العام القاطع غير ممكن . ذلك أن أعنف قصائد الشاعر الحسية لا تكاد تخلو - في رأيها - من خلفية روحية أو فكرية . فإذا خلت تماما لم تخل من أن يكون وراءها تعليل يبرر شذوذها الظاهر . ولهذا اختلفت قراءة نازك لشعر علي محمود طه عن قراءات أنور المعداوي ومحمد مندور وشوقي ضيف ورأت أن مجموعته الشعرية الأولي الملاح التائه قد زخرت باللفتات الروحية والمثل العليا وتقديس الجمال المجرد وطهارة الحس والنفس بينما يقبل الشاعر في مجموعاته التالية إقبالا ملحوظا علي وصف المشاهد الحسية مبتعدا - إلى درجة معينة - عن عوالمه الأفلاطونية الجمالية الأولي بينما كان رأي الدكتور محمد مندور أنه مشاعر أبيقوري (أي باحث عن اللذة والمتعة فهم بالمتع الحسية) وأنه بعيد كل البعد عن الروحانية ورأي أنور المعداوي في تحليله لشخصيته وشعره انتقالا من عبادة الجسد إلى عبادة الروح ومن النزعة الحسية العارمة إلى جلوات النفس وصفاء التأمل . بينما رأي فيه الدكتور شوقي ضيف' عقودا تتلألأ من الألفاظ الخلابة التي تنشر ضبابا من الأحلام والأشباح ولكن لن نجد فكرا عميقا ولا فكرا غامضا كفكر الرمزيين ففكره دائما مجلو مكشوف لا يستر أي شيء وراءه . فهو - في نظره - شاعر لفظي وليس صاحب نزعة فلسفية ولا نزعة نفسية إنما هو صاحب ألفاظ شعرية مشعة موحية ويستشهد شوقي ضيف بقصيدة الجندول فهي في رأيه: من خير الأمثلة التي تدل علي مهارته في استخدام الألفاظ الشعرية فإنك إذا حللتها لم تجد فيها فكرا عميقا ولا واسعا وإنما تجد الألفاظ البراقة التي تروعك وتأسر لبك بينما رأي الناقد أنطون غطاس كرم في شعره ملامح من الرمزية وإن لم تكن كاملة تقلها صور متحركة متجردة فيها النغم الإيحائي متزاوجا مع ظلال المعاني ورؤي الطيف الخفيف علي الألوان والاستعارات المرشحة والتشابية وقد سقطت عنها أدواتها !

وتسيطر الطبيعة الأنثوية والنزعة الشاعرية علي نازك - الباحثة والناقدة - حينما تقر في ختام كتابها البديع عن علي محمود طه بأنها تحتفظ بتحليل شخصي لهذه النقلة في حياة علي محمود طه (تقصد النقلة من الشعر الوصفي والحسي المرتبط بالجسد واللذة إلى الشعر الروحي المفعم بالهتافات الروحية والتأملات الفكرية) ترتكز فيه إلى نصوص شعره وحدها علي عادتها ومنهجها في هذه الدراسة . وهي تمتنع عن نشر هذا التحليل حرصا علي المنهج العلمي (وهو بالطبع موقف غريب من نازك يثير الدهشة وفضول التساؤل !) ثم تقول: ولعل الأيام تكشف صحة نظريتي وتعطيني الأدلة عليها ومهما يكن من أمر فلا بد لي الآن من أن أسكت عن الكلام المباح ريثما تتوافر الوثائق عن حياة الشاعر وخطاباته وما يعرفه عنه أصدقاؤه .

وهو موقف - بالطبع - لا يتفق مع طبيعة البحث الجاد والدراسة الموضوعية . لكنه - بكل تأكيد- يتلاءم مع طبيعة نازك: المرأة والشاعرة والتي لا تريد أن تخوض في مجال لا تستطيع فيه الكشف عن حقيقة آرائها واستنتاجاتها والولوغ إلى القول بأن وراء هذه النقلة - من عالم الجسد واللذة إلى عالم الروح والتأمل - لونا من العجز أو افتقاد القدرة علي ممارسة الحياة والحب بالطاقة التي كانت تذكي فوران الشاعر وانطلاقاته السابقة - لنتأمل - أخيرا نموذجا من نثر نازك وأسلوبها في الكتابة باعتباره وجها آخر يكمل وجه إبداعها الشعري في سطور ننقلها من رسالة إلى الشاعر العربي الناشئ تجيب بها علي الذين كتبوا إلى ها يسألونها كلمة نصح وتوجيه تعينهم علي درب القوافي . تقول نازك: أنت يا شاعر طائر الجمال في هذا الوجود تبحث عنه في الطبيعة بما تصوره في شعرك من مظاهرها ودلالالتها وأسرارها وتبحث عنه في النفوس بما يأسرك من صفائها وعمقها وجدها وحالاتها النفسية وتناقضاتها وأهوائها . وتبحث عنه في المواقف في صور البطولة والفداء والتضحية في حنان الأمومة وسخاء البذل العاطفي في نبل التعاون وكرامة الصدق وعظمة الصمود وروعة الصبر وجمال العدل . إن الجمال يأسر روحك حيثما وجدته فتتغني به وتحشد له في شعرك الصور المنغومة والأجواء ومن حق هذا الجمال عليك أن تخلص له فإذا فعلت تفتحت أمام بصيرتك قوي مذهلة تزيد شاعريتك قوة واقتدارا وسرعان ما ستكشف لك القانون الأعظم في حياتك وحياة الإنسانية وهو أن الأخلاق أعلي صور الجمال في الخليقة وإنما الفرق بين الاثنين ظاهري وحسب . أما الجمال فهو شيء محسوس يدركه البصر وأما الأخلاق فهي الجمال المعنوي الذي لا يري وإنما تتحسسه النفس المرهفة .

يدركه العقل ولذلك كان إدراك الجمال المحسوس أيسر علي الأغلبية من إدراك الجمال الأخلاقي . وأما أنت يا شاعر فقد وهبك الله قدرة الرؤية فأنت تلمح الخافي والمبهم والبعيد ومن ثم وقعت عليك رسالة البيان والتعبير والكشف تلين بها النفوس

الغليظة وتكشف الحجب عن العيون التي تنظر ولا تري وتبذر في القلوب والعقول بذور الخير والمحبة والعمل والقوة .

هذه نازك الملائكة شاعرة العرب الأولي في القرن العشرين في بعض لمحات من وجهيها الشعري والنثري من خلال الأعمال الكاملة التي أصدرها المجلس الأعلي للثقافة في مناسبة احتفاليته بنازك في العام الماضي ولعل من لطف الله بشاعرتنا الكبيرة أنها - وهي في غيبوبة المرض الآن - لا تدري بما يحاك لوطنها العراق وما يدبر لا طفاله ونسائه ورجاله من موت ودمار:

فمتي يرحل عن بغداد طاعون الوباء !
ومتي يرتاح في بغداد شعر الشعراء !
ومتي يرفع مقت الله . .
عن هذي السماء !

نازك الملائكة وأعمالها الكاملة

بقلم: فاروق شوشة

شكر للدكتور جابر عصفور وللمجلس الأعلي للثقافة اللذين اتاحا لنا الأعمال الكاملة للشاعرة العراقية الرائدة نازك الملائكة في أربعة مجلدات ضخمة تضم جميع كتاباتها وإبداعاتها الشعرية والنثرية ، مصحوبة بمقدمتين ضافيتين للشاعر والناقد والأستاذ الجامعي الدكتور عبد ه بدوي .

مثل هذا العمل يضاف إلى الإنجازات الكبري للمجلس الأعلي للثقافة ، وفي مقدمتها المشروع القومي للترجمة ، ثم الأعمال الكاملة لعدد من كبار المبدعين المصريين والعرب: عبد الرحمن شكري و عبد الحميد الديب ونازك الملائكة وحسين عفيف وغيرهم مما لا مجال لحصره .

ونازك الملائكة - في إجماع الشعراء والدارسين - هي أكبر شاعرة عربية في القرن العشرين . وهو حكم لم يجئ من فراغ ، تتمثل حيثياته في هذه الطاقة الشعرية الجبارة التي تمتلكها نازك ، وهذا الموقع الريادي المتميز في حركة الشعر الجديد أو الشعر الحر أو شعر التفعيلة - بحسب التسمية التي يرتضيها الناس - وهذا الإنتاج الشعري الغزير الذي يضم تسعة دواوين شعرية هي: ما ساة حياة ، أغنية الإنسان ، عاشقة الليل ، شظايا ورماد ، قرارة الموجة ، شجرة القمر ، للصلاة والثورة ، يغير ألوانه البحر ، الوردة الحمراء ، بالإضافة إلى وعيها النقدي ، وقدرتها علي التنظير للشعر ، وكتاباتها الأدبية التي تتمثل في كتبها الأربعة: قضايا الشعر المعاصر ، سيكولوجية الشعر ، الصومعة والشرفة الحمراء وهو كتابها الجميل عن شاعرنا المصري علي محمود طه وكانت طبعته الأولي التي صدرت في القاهرة عام ١٩٦٥ جامعة لمحاضراتها عنه في معهد الدراسات العربية قد حملت عنوان: شعر علي محمود طه والتجزيئية في المجتمع العربي والشمس التي وراء القمة .

صحيح أن هناك عددا من الشاعرات المصريات والعربيات التمعت اسماؤهن علي صفحة الحياة الشعرية ، وكان لبعضهن - ولايزال - حضورهن الشعري ، ودورهن البارز في الحركة الشعرية ، في مقدمتهن الشاعرة الفلسطينية الكبيرة فدوي طوقان ، والشاعرة الفلسطينية التي هجرت الشعر بعد ديوانها الأول وسكبت ما ء شاعريتها في ثنايا ترجماتها ودراساتها الأدبية: سلمي الخضراء ، والشاعرتان السوريتان عزيزة هارون وطلعت الرفاعي والشاعرات المصريات: عائشة التيمورية وملك عبد العزيز وجميلة العلايلي وجليلة رضا وأماني فريد وشريفة فتحي وروحية القليني ونور نافع ووفاء وجدي وعلية الجعار وغيرهن

، يمثلن اجيالا واتجاهات وثقافات وتيارات شعرية ومستويات إبداعية مختلفة إلا أن المسافة بين شعرهن وشعر نازك تظل محفوظة ، بعد أن وجد الشعر العربي ـ علي مدار تاريخه الطويل ـ شاعرة كبيرة مبدعة يمكن أن تضاف بقوة وحسم إلى الاختراق الذي أحدثته الشاعرة المخضرمة ـ أي التي أدركت الجاهلية والإسلام ـ الخنساء ، والتي ظلت ـ علي تتابع القرون ـ تتصدر وحدها المشهد الشعري العربي ، نموذجا فريدا للمرأة الشاعرة ، فجاءت نازك ـ بكل حجمها ووزنها الشعري ـ مؤكدة الحضور اللافت للمرأة الشاعرة في القرن العشرين ، مضيفة ومتجاوزة .

لا تزال حيثيات الحكم ـ بكون نازك الملائكة أكبر شاعرة عربية في القرن العشرين ـ تتسع للحديث عن البيئة الأدبية والشعرية واللغوية في بغداد ـ عاصمة الثقافة العربية والشعر العربي طيلة قرون عدة ـ وعن أسرة الشاعرة التي ارتبط كثير من أفرادها بالشعر واللغة والعروض علي مستوي الإبداع والنظم والهواية والتعليم: الجد والأب والخال والأم ـ التي عرفت شعريا باسم: أم نزار الملائكة وقد نشر ديوانها الوحيد أنشودة المجد بعد رحيلها عام ١٩٥٣ وهي في الثانية والأربعين من العمر ، وكان الفضل في جمعه وطبعه لا بنتها نازك ثم هناك الأخت إحسان ، التي لم تكن علاقتها بالشعر إبداعا واهتماما تقل في الدرجة عن علاقة الجد والأب والأم والخال ! .

ونازك مصرية الهوي والذوق الشعري . فقد استهواها ـ وهي بعد في مرحلة الدراسة الثانوية ـ شاعران مصريان من أهم شعراء جماعة أبو لو ـ التي حملت شعل التجديد الشعري الرومانسي في السنوات الأولي من ثلاثينيات القرن العشرين وظل تأثيرها الكاسح حتي بزوغ النماذج الأولي لحركة الشعر الجديد ـ في مصر والعالم العربي ـ مع نهاية الأربعينيات وأوائل الخمسينيات . هذان الشاعران المصريان هما: محمود حسن إسماعيل وعلي محمود طه ، أما أمها فقد كان اهتمامها الأكبر بالشاعر إبراهيم ناجي ، ـ من غير العراقيين ـ بالإضافة إلى شاعرها العراقي الأثير: الزهاوي .

وحب نازك لعلي محمود طه هو الذي جعلها تختاره موضوعا لمحاضراتها عندما دعيت ـ كما ذكرت في مستهل هذا المقال ـ إلى معهد الدراسات العربية في القاهرة أستاذة محاضرة ، وهو الشاعر الذي تقول عنه :أعجبت به في أوائل حياتي الشعرية ، وكنت قد عشت مع شعره سنوات كثيرة من صباي ، فأنا أعرفه معرفة موسعة ، ولي حوله آراء مفصلة ، فمن الغبن أن أحرم نفسي فرصة تأليف كتاب عنه أريق فيه علي الورق كل ما يحتشد به ذهني من آراء وأفكار وانطباعات ، وهكذا عكفت خمسة أشهر ـ خريف سنة١٩٦٤ ـ وألفت هذا الكتاب .

ونازك مصرية الهوي والمزاج الفني والوجدان المولع بالموسيقي والغناء وهي تقول في سيرة حياتها المركزة بعنوان لمحات من سيرة حياتي وثقافتي والتي جعلتها طبعة

المجلس الأعلي للثقافة ـ وحسنا فعلت ـ مدخلا يفضي إلى أبهاء عالمها الشعري في عام ١٩٤٧ صدرت لي أول مجموعة شعرية ، وقد سميتها عاشقة الليل لا ن الليل كان يرمز عندي إلى الشعر والخيال والأحلام المبهجة ، وجمال النجوم وروعة القمر ، والتماع دجلة تحت الأضواء . وكنت في الليل أعزف علي عودي في الحديقة الخلفية للبيت بين الشجر الكثيف ، حيث كنت أغني ساعات كل مساء . وقد كان الغناء سعادتي الكبري منذ طفولتي . وكنت أحبس انفاسي إذا ما سمعت صوت عبد الوهاب أو أم كلثوم يحمله إلى جهاز الحاكي الجراموفون الذي يدور في بيت الجيران وكنت سريعة الحفظ لا ية أغنية أسمعها ، وكانت أمي لا تفتأ تندهش دهشة كبيرة عندما تسمعني أغني ، ومازلت أذكر صوتها في صغري وهي تتلفت وتقول: يا إلهي ! .

من أين حفظت ابنتي كل هذه الأغاني ! ومتي سمعتها ؟ وكيف ؟ ولم تدر أنني كنت حين أسمع حاكيا يدور بأغنية أقف مسمرة في مكاني حتي لو كنت في الشارع .

وفي تلك الأيام البعيدة لم يكن المذياع قد دخل الحياة في العراق طبعا . فكان الاستماع إلى الأغاني لا يتم إلا عن طريق الاسطوانات ولم تبدأ إذاعة بغداد البث إلا في سنة١٩٣٥ ـ كما أتذكر ـ يوم أن بلغت الثانية عشرة من العمر .

ونازك مصرية الهوي عندما تقص علينا تفاصيل كتابتها لا ول قصيدة من الشعر الجديد أو الشعر الحر ، وكيف كان انفعالها بكارثة وباء الكوليرا في مصر . وهي تذكر إلى وم بالتحديد الجمعة٢٧ أكتوبر عام ١٩٤٧ عندما أفاقت من النوم وتكاسلت في الفراش تستمع إلى المذيع وهو يذكر أن عدد الموتي بلغ ألفا ، فاستولي علي حزن بالغ وانفعال شديد ، فقفزت من الفراش ، وحملت دفترا وقلما ، وغادرت منزلنا الذي يموج بالحركة والضجيج يوم الجمعة ، وكان إلى جوارنا بيت شاهق يبني ، وقد وصل البناءون إلى سطح طابقه الثاني ، وكان خاليا لا نه يوم عطلة العمل ، فجلست علي سياج واطئ ، وبدأت أنظم قصيدتي المعروفة الآن الكوليرا وكنت قد سمعت في الإذاعة أن جثث الموتي كانت تحمل في الريف المصري مكدسة في عربات تجرها الخيل ، فرحت أكتب وأنا اتحسس صوت أقدام الليل:

سكن الليل
أصغ إلى وقع صدي الأنات
في عمق الظلمة ، تحت الصمت ، علي الأموات .

ولاحظت في سعادة بالغة أنني أعبر عن إحساسي أروع تعبير بهذه الأشطر غير المتساوية الطول ، بعد أن ثبت لي عجز الشطرين عن التعبير عن ما ساة الكوليرا ، ووجدتني أروي ظمأ النطق في كياني ، وأنا أهتف:

الموت ، الموت ، الموت
تشكو البشرية تشكو ما يرتكب الموت

وعندما وجدت الشاعرة نفورا شديدا من أمها وأبيها بالنسبة لهذا الوزن الغريب والأشطر غير المتساوية والموسيقي الضعيفة ، ممتزجا بصيحات الاستنكار صاحت بأبيها في انفعال: قل ما تشاء إني واثقة أن قصيدتي هذه ستغير خريطة الشعر العربي . كنت مندفعة أشد الانفعال في عبارتي هذه وفي أمثال لها كثيرة قلتها ردا علي التحدي بالتحدي ، ولكن الله سبحانه وتعالي كان يسبغ علي رحمته في تلك اللحظات الحرجة من حياتي الشعرية فكتب لقصيدتي أن يكون لها شأن كما تمنيت وحلمت ، في ذلك الصباح العجيب في بيتنا ، ومنذ ذلك التاريخ انطلقت في نظم الشعر ، وان كنت لم أتطرف إلى درجة نبذ الشطرين نبذا تاما كما فعل كثير من الزملاء المندفعين ، الذين أحبوا الشعر الحـــــــــر ، واســـــــــتعملوه بعـــــــــد جيلنـــــــــا .
ونازك مصرية ـ الهوي حين تختار مصر الآن ـ وهي في ذروة معاناتها من مرض عضال ـ وطنا ومقاما ، بعد أن شملتها مصر بالرعاية ، وهي في صحبة ابنها الوحيد ، بعد وفاة رفيق رحلة العمر الدكتور عبد الهادي محبوبة . وطنا تعيش فيه أيامها الأخيرة وهي تدافع عنها ستار النهاية في شجاعة وصمود بعد أن منحها الشعر القدرة علي التحدي ، وشموخ الارتفاع علي المحن مهما تعاظمت .

وليست نازك العراقية وحيدة في هواها المصري . فقد شاركها فيه السياب والبياتي والحيدري كل منهم بنصيب وقد استوقفهم كما استوقف نازك شعر الرومانسيين الثلاثة الكبار: ناجي وعلي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل ، وقد عبر كل منهم عن مساحة هذا التوقف والاعجاب في كتابات مختلفة تذكرنا بيوم كانت في مصر: فكرا وشعرا وأدبا وفنا المركز والقلب ، ويوم كانت لها الزعامة الشعرية والأدبية منذ التقي الإجماع العربي علي مبايعة شوقي بإمارة الشعر ، وانقسم الجمهور الأدبي ـ في العالم العربي ـ بين طحسنيين وعقاديين ـ نسبة إلى طه حسين والعقاد ، بالرغم من امتلاء الساحة العربية بعدد من القامات الشعرية والأدبية الكبري: الزهاوي والرصافي ثم الجواهري في العراق ، وبدوي الجبل وعمر أبو ريشة في سوريا والأخطل الصغير بشارة الخوري وأمين نخلة والياس أبو شبكة ثم سعيد عقل في لبنان ، وغيرهم وغيرهم . إلا أن شوقي وحافظ وشاعر القطرين مطران ، ملأوا الدنيا وشغلوا الناس ، وظلت الانظار تتجه إلى حركة الفكر والثقافة والإبداع في مصر وهي تتابع الزيات وأحمد أمين ومصطفي صادق الرافعي و عبد الوهاب عزام وتوفيق الحكيم ويحيي حقي ومحمود تيمور وعزيز أباظة وغيرهم . صحيح أن مصر لم تعد ـ وحدها الآن ـ نتيجة عوامل كثيرة ـ المركز والقلب فقد تعددت المراكز في عديد العواصم العربية ، وأصبح للإبداع الأدبي العربي إنجازه الضخم والمتميز إلا أنه لا

يـزال للإبـداع الأدبـي في مـصر ـ شـعرا وروايـة وقـصة ومـسرحا ـ مكانـه ومكانتـه ، منـذ نوبـل نجيـب محفـوظ ، وإنجـاز يوسـف إدريـس في القـصة والمـسرح وصـلاح عبـد الـصبور في الـشعر وصـولا إلى أحـدث الأصـوات الـتي تمـوج بهـا الـساحة الأدبيـة والثقافيـة الآن في الروايـة والـشعر .

ليس هـذا الكـلام مـن قبيـل التعـصب أو الـشوفينية البغيـضة وإنمـا هـو تقريـر لواقـع ، وتـسجيل لـسياق ، يؤكـده مـا أفـضت بـه نـازك الملائكـة في حـواري معهـا ـ عـام ١٩٦٠ لبرنـامج مـع النقـاد مـن إذاعـة البرنـامج الثـاني ـ الثقـافي الآن . وقـد كانـت في إحـدي زياراتهـا لمـصر وقـد نـشر الحـوار كـاملا مـع غـيره مـن الحـوارات المماثلـة ـ في مجلـة الآداب البيروتيـة ، مـا أفـضت بـه عـن الـدور المـصري الثقـافي والـشعري في تكوينهـا هـي وشـعراء الطليعـة في العـراق ، الـذي أصـبحوا يـشاركونها زيـادة حركـة الـشعر الجديـد ويزاحمونهـا فيهـا . كانـت نـازك الموسوسـة تجيـب علـي أسـئلة الحـوار في إيجـاز شـديد وكلمـات قليلـة مرتجـف ثـم تعـود فتطلـب مـسح الإجابـة مـن الـشريط لتـدلي بإجابـة أكثـر احكامـا ، وبلـغ بهـا الانفعـال أقـصاه ـ لا نهـا كمـا تقـول ـ غـير مدربـة علـي الحـوار أمـام الميكروفـون ، طالبـة التأجيـل لموعـد آخـر بعـد أن شـارف البرنـامج علـي الانتهـاء ، وأفطـن لحيلتهـا ورغبتهـا في الـتخلص أو الـتملص مـن الموقـف كلـه مـصرا علـي استبقائها في الاسـتديو حـتي تهـدأ وتتماسـك لتكمـل مـا بـدأناه . . وهـي ـ في جـسمها النحيـل ، وحجمهـا القليـل حركـة لا تهـدأ واشـتعال لا يـسكن ، كـشغالي عـن حقيقتهـا الـشعرية ، وكيـف أنهـا تعـيش شـعرها في واقعهـا إلى ومـي ولا تنفـصل عنـه ، ليـست هنـاك حـدود أو مـسافات بـين الإنـسانة والـشاعرة ، انهـا قـصيدة قلقـة متحركـة ، وعاصـفة متمـردة جامحـة ، وعقـل فـوار بالـشكوك والهـواجس والتـساؤلات ، وقـوام ينـوء تحت عبء وجدان مثقل مشتعل ! .

تقول نازك الملائكة في قصيدتها ويبقي لنا البحر:

عن اللون والبحر تسألني يا حبيبي
وأنت شراعي
وألوان بحري
وغيبوبة الحلم في مقلتي
وأنت ضباب دروبي
وأنت قلوعي
وأنت ذري موجتي
ووردة حزني ، وعطر شحوبي
عن اللون والبحر تسألني يا حبيبي
وأنت بحاري

ومرجانتي ومحاري
ووجهك داري
فخذ زورقي فوق موجة شوق مغلفة ، خافية
إلي شاطئ مبهم مستحيل
فلا فيه سهل ولا رابية
إلي غسق قمري المدار
عميق القرار
وليس له في الظهيرة لون
وليس له في الكثافة غصن
ولا فيه هول ، ولا فيه أمن !

مرة أخري ، شكرا للدكتور جابر عصفور وللمجلس الأعلي للثقافة اللذين اتاحا لنا بترصد الأعمال الكاملة لنازك الملائكة فرصة لا عادة قراءتها واكتشاف جوهرها الإبداعي ، وهو ما نرجو أن يكون موضوعا لمقال قادم . . ولعله من رحمة الله ولطفه بشاعرتنا الكبيرة انها - وهي في غيبوبة المرض القاهر - لا تدري الآن بما يترصد بغداد والعراق من أهوال الموت والدمار . . وحسبها أن آخر ما تعيه ذاكرتها عن وطنها العراق ليل وقمر ونجوم ، والتماع دجلة تحت الأضواء ، وأنغام تترامي من بيت الجيران يحملها صوتا عبد الوهاب وأم كلثوم .

إبراهيم عيسى وأعماله الكاملة

بقلم: فاروق شوشة

شكرا للشاعر أحمد سويلم الذي حرص علي القيام بوصية صديقه الشاعر ابراهيم عيسي عندما اشتدت به العلة في شهوره الأخيرة طالبا منه أن يتولي طبع أشعاره الكاملة ولم يكن قد نشر له في حياته إلا ثلاثة دواوين هي: كلنا عشاق١٩٨٩ ، حبيبي عنيد١٩٨٩ ، شراع في بحر الهوي١٩٩٠ لكن القصائد المخطوطة لا براهيم عيسي كانت تفوق ما سبق نشره في هذه الدواوين لذا فقد قام أحمد سويلم بتصنيفها وتبويبها وتقسيمها ـ موضوعيا ـ في أربعة دواوين أخري هي: علي شاطئ النور من هموم العمر ، من حكايا القلب ، أنا والشعر والوطن ، وبهذا أصبحت مجموعة أعماله الكاملة تضم سبعة دواوين صدرت في مناسبة الذكري الأولي لرحيله .

وشكرا للدكتور سمير سرحان ـ رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الذي بادر إلى الموافقة علي نشر هذه الأعمال تقديرا منه للشاعر وشعره وللدور الذي قام به ـ في حياتنا الأدبية والشعرية ـ قرابة قرن من الزمان كان في العقود الأخيرة منه رئيسا لجمعية شعراء العروبة ، ممثلا لا ن لجنة الشعر بالمجلس الأعلي للثقافة .

في موسوعة أعلام الفكر العربي أن الشاعر ابراهيم عيسي ولد في١٩ فبراير سنة١٩٢٧ بحي الدقي ثم انتقلت الأسرة إلى حي روض الفرج بعد مولده بسبع سنوات مما أتاح للشاعر ان يتمثل في تكوينه الروح المختلفة في حي كان يميل إلى الأرستقراطية وحي يميل إلى الطابع الشعبي . حصل ابراهيم علي الشهادة الابتدائية عام ١٩٣٨ والشهادة الثانوية عام ١٩٤٣ وخلال هذه السنوات تفتحت مواهبه بعد ان اتيحت له قراءة أمهات كتب الأدب والتراث وشعر كبار الشعراء القدامي من امثال المتنبي والبحتري والشريف الرضي وشاعر العصر الحديث أحمد شوقي لكن اكثر ميله وانجذابه كان إلى شاعري الرومانسية الكبيرين علي محمود طه و ابراهيم ناجي .

التحق ابراهيم عيسي بكلية التجارة ـ جامعة فؤاد ـ وحصل علي شهادتها عام ١٩٤٩ عمل بعدها موظفا في بنك مصر حتي عام ١٩٦١ ثم انتقل للعمل بجباسات البلاح وفي عام ١٩٧٤ أصبح مديرا لا دارة التفرغ بوزارة الثقافة وهو المنصب الذي ظل يشغله حتي إحالته إلى المعاش عام ١٩٨٧ نشر ابراهيم عيس أولي قصائده ـ وكانت قصيدة وطنية ـ عام ١٩٤٨ ثم تابع نشر شعره في العديد من الصحف والمجلات ـ المصرية والعربية ـ منذ ذلك التاريخ وحتي رحيله في الأول من ديسمبر عام ٢٠٠٠ عن ثلاثة وسبعين عام ا . وبالرغم من وفرة ابداعه الشعري وعدم انقطاعه عن الكتابه فإنه لم يفكر في نشر شعره في دواوين الا

في زمن متأخر وهو في الثانية والستين من العمر عندما نشر في عام واحد هو عام ١٩٨٩ ديوانيه :كلنا عشاق وحبيبي عنيد استجابه لا لحاح عدد من أصدقائه الشعراء والنقاد والدارسين واقتناعا منه بأن النشر المتفرق لقصائده– في الصحف والمجلات - لا يتيح لقارئها رؤية متكاملة لعالمه الشعري .

الذين عرفوا ابراهيم عيسي عن قرب - كما عرفته - أتيح لهم ان يعرفوا شاعرا من طراز فريد شعره لا ينفصل عن حياته وحياته لا تنفصل عن شعره والتداخل بين الاثنين: الشعر والحياة يجعله يخلط بينهما ويضطرب كثيرا في التعامل مع الناس عندئذ يثور وينفعل ويخرج عن هدوئه السمح وشفافيته الندية ورقته الآسرة وكأنه عاصفة خرجت من إهابه الهادئ حين تصدمه تقلبات الدنيا وغدر الأصدقاء والإخوان وهو الذي يوشك ان يكون طفلا في وداعته صوفيا في وفائه وصفائه ورحابة قلبه وروحه وإنسانيته الفياضة الغامرة .

رأيته لا ول مرة في دمشق عام ١٩٦١ كانت المناسبة مشاركته– ضمن شعراء مصر الكبار - في مهرجان الشعر العربي الذي اقيم في شهر سبتمبر من ذلك العام وكنت موفدا من الاذاعة المصرية لتسجيل وقائع المهرجان لا ذاعة البرنامج الثاني البرنامج الثقافي الآن كان ابراهيم وقتها في أوج شبابه وتألقه ونضارته وتدفق روحه المرحة وجمال معابثاته مع رفاقه من الشعراء ومعارفه من الأدباء ولاحظت أن الشاعر صلاح عبد الصبور يختصه بمودة وتقدير واضحين وأن أحمد رامي وصالح جودت دائما المشاكسة له لا ستثارته من أجل سماع تعليقاته اللاذعة التي يسوقها دوما في لغة أدبية عفة وصياغة بيانية بديعة ، ورأيت قدر سعادته وهو يستمع إلى صلاح عبد الصبور يلقي قصيدته في المهرجان ، كانت قصيدة عمودية نزولا علي قرار العقاد - مقرر لجنة الشعر بالمجلس الأعلي للفنون والآداب في ذلك الحين — ووساطة يوسف السباعي لحسم الخلاف بين العقاد من ناحية وشعراء الشعر الجديد أو الشعر الحر من ناحية ثانية حتي لا تفوتهم المشاركة في مهرجان دمشق . كان صلاح يلقي قصيدته الرحلة وهي قصيدة بديعة تصور علاقة الشاعر بالابداع او الحلول الشعري يقول في مستهلها:

الصبح يدرج في طفولته
والليل يحبو حبو منهزم
والبدر لملم فوق قريتنا
أستار أوبته ولم أنم
جام وابريق وصومعة
وسماء صيف ثرة النعم

وابـراهيم عيـسي إلى جـانبي يتمايـل ويهتـز اعجابـا وهـو يـصيح: الله الله يـا صـلاح !
ولم يكن الإعجـاب بالقـصيدة وحـدها وإنمـا بـالموقف الـذي جعـل الـشاعر ـ وهـو أحـد رواد شـعر التفعيلـة ـ يلقـي قـصيدة عموديـة لا ن العقـاد بـسطوته واعتـداده يـرفض الاعـتراف بهـذا الـشعر ويري تحويله إلى لجنـة النثـر ، ويبـدو ان موقـف ابـراهيم عيـسي نفـسه مـن هـذا الـشعر الجديـد ـ كـان قريبـا مـن موقـف العقـاد ـ فهـو لم يكتبـه قـط وكـان يـري ان الـشعر العمـودي يتـسع لكـل مـا يريـد الـشاعر ان يقـول وإن كـان هـذا الموقـف لم يمنعـه مـن مـصادقة كـثير مـن شـعراء الـشعر الجديـد وفي مقـدمتهم صـلاح عبـد الـصبور نفـسه والاعجـاب ـ أحيانـا ـ بمـا يبدعونـه مـن قصائد لكـن عـشقه الوحيـد والأثـير ظـل للقـصيدة في إطارهـا العمـودي وكـان هـذا موقفـه حـتي إلى وم الأخير من حياته .

في لجنــة الــشعر بــالمجلس الأعلــي للثقافــة وفي لجنــة النــصوص الغنائيــة بالاذاعــة ـ علــي مــدار ســنوات متعاقبــة ـ ازدادت علاقــتي بــابراهيم عيــسي عمقــا وامتــدادا وأصــبحت صـداقتنا واحـة ظليلـة في هجـير عـصر متقلـب افـسد النـاس وأفـسدوه لكـن هـذه الـصداقة الـتي لم تـشبها شـائبة واحـدة– مـن نرجـسية مريـضة او ادعـاء زائـف أو تـضخم للـذات ـ ظلـت مـلاذا ومـأوي وحـوارا جمـيلا بهـدف البحـث عـن الأجمـل والأنقـي والأبقـي . كانـت ذائقـة ابـراهيم وحـساسيته تمكنانـه مـن التقـاط الجمـال والحمـاس لـه والتبـشير بـه ، ولقـد شـهدته كـثيرا في دهـاليز الاذاعـة ومكاتبهـا وهـو يحتـضن صـوتا أدبيـا بازغـا ويـدفع بـه إلى مـشارف الـضوء مـن خـلال توثيـق علاقتـه بـالبرامج الأدبيـة والثقافيـة وتقديمـه بنفـسه إلى أصـدقائه مـن العـاملين في الاذاعـة والتليفزيـون . لا يكـل ولا يمـل . وهـو الـذي يـستحي ان يقـوم بـشئ مـن هـذا لنفـسه لكنه من اجل صـوت جديـد او موهبـة جديـدة ينـسي نفـسه ويظـل يطالـب ويلـح . وليـت بعـض هؤلاء الذين حملـهم ابـراهيم علـي كتفيـه وسـعي مـن اجلـهم ليلـه ونهـاره قـدروا لـه هـذا الـصنيع فلـم يكـد بعـضهم يـصل إلى بغيتـه حـتي أدار ظهـره لا بـراهيم متعاليـا عليـه وعلـي شـعره ، ويتجرع ابراهيم مرارة التنكر ويواصل مسيرته ـ نازفا ـ دون ان يحس بمعاناته احد .

وقـد كنـت أشـارك شـقيقه الأصـغر ـ الاذاعـي الكـبير علـي عـيس ـ في مكتـب واحـد بإذاعـة البرنـامج العـام لـسنوات طويلـة أتـيح لـي مـن خـلال تـردده علـي شـقيقه ومشاكـساتهما المـستمرة ـ فقـد كـان علـي ينتحـل لنفـسه بعـض شـعر ابـراهيم ليقـدم نفـسه إلى النـاس شـاعرا وابـراهيم يقابـل الأمـر بالبـشاشة والتنـدر ولا يبخـل علـي شـقيقه الأثـير وأقـرب النـاس إلى ه وجـدانا وعقـلا بـأغلي مـا يمتلكـه وهـو شـعره بـشرط الا يـسرف في هـذا الانتحـال وان يعـترف في الوقت المناسب بأن هـذا الـشعر الـذي نـسبه لنفـسه هـو اسـتعارة مؤقتـه مـن أخيـه الأكـبر الـشاعر الحقيقي ابراهيم .

هـل جنـت رومانـسية علـي محمـود طـه وابـراهيم نـاجي والهمـشري والـشابي وغيرهـم علـي ابـراهيم عيـسي فجعلتـه ـ في كـثير مـن الأحيـان ـ يمـشي في طـرق عبـد وهـا مـن قبـل

ويتنفس أريجا سبق لهم التوقف امام زهوره وعطوره ويبحر في سفن نشروا أشرعتها وغامروا بها في آفاق روحية بعيدة أم أن طبيعته - الشديدة الرقة والحساسية والتوتر والاهتزاز - كانت من هذا النسيج الرومانسي نفسه الذي نطالعه دوما في الموقف الشعري والمعجم المقترن به واللغة الفراشية المهومة وتراسل الحواس وتجسيد المعنويات والذهول والانسحاق في محراب المحبوب واقتران المعجم الديني الروحي بالعاطفي كما فعل الشابي في صلواته في هيكل الحب وكما فعل ناجي في عودته

هذه الكعبة كنا طائفيها
والمصلين صباحا ومساء
كم سجدنا و عبد نا الحسن فيها
كيف بالله رجعنا غرباء

وواصل ابراهيم عيسي طقوس المشهد وتجليات الم عبد وهو يقول في قصيدته الجميلة التي لحنها رياض السنباطي وتغنت بها وردة:

لا تقل لي ضاع حبي من يدي
يا حبيبي أنت أمسي وغدي
فترفق لا تحطم م عبد ي
إن في عينيك همس الموعد
لا تدعني أشتكي طول الطريق
ثم أغفو فوق وهم كالحريق
كغريق مستجير بغريق
ان قلبي بعد ان ذاق الرحيق
لا يفيق
يا حبيبي

حتي عندما أبدع علي محمود طه قصيدته ميلاد شاعر و الله والشاعر كان ابراهيم عيسي يشارف الأفق نفسه ويطرح العديد من الاسئلة الوجودية والكونية - التي لا اجابات لها - والتي شغل بها من قبله علي محمود طه وتدفقت عذوبة ابراهيم عيسي وهو يقول في قصيدته الشاعر والزمان

وتلتفت الأرض نحو السماء
وتسأل: ما ذا بها من بشائر
لمن ضجة العرس فوق النجوم
لمن في السماء تدق المزاهر

فغرد صوت الخلود ونادي
حنانك واستلهمي كل طائر
وبشراك يا ارض إن السماء
تزف الغناء لميلاد شاعر !

* * *

وسار إلى الناس قلبا يغني
ويحمل بين يديه كتابه
يترجم بالشعر همس النفوس
ويعزف بين الحنايا ربابه
وينساب أغنية للحياة
ويفتح للنور والحب بابه
ويرجو الزمان حنان الأمان
فما فيه وحش وما فيه غابة !

ان صدور الأعمال الكاملة لا براهيم عيسي - عن الهيئة العامة للكتاب - بجهد احمد سويلم وتقديمه يتيح لقراء الشعر ان يعرفوا هذا الشاعر المخلص لفنه ونهجه الشعري وانسانيته معرفة اشمل واعمق ويتيح لنا - نحن الذين صادفنا في تقلبات الزمان والناس - بعض مرارته أن نري كيف عالج ذلك كله بالشعر العذب الجميل والغناء الصافي البديع والتأمل الطليق في الناس والحياة والكون عاشقا ومناضلا وصوفيا وقبل ذلك كله إنسانا يقطر صفاء ونقاء وعذوبة .

قلبي معك

إلي عمرو موسي: الرجل الذي اختاره مبارك للجامعة العربية

بقلم: فاروق شوشة

قلبي معك . . .
يا أيها المعقود مثل الضوء
في فجر جديد أطلعك
قلبي معك . . .
يا أيها المنحوت كالتمثال
من غضب
ومن حزن نبيل
من ذرا حلم بلون المستحيل
ومن ثري وطن بحجم الكون
فيه ألوف أعناق الرجال
تطول .
تصعد فيك .
ترقب في جبينك فخرها العالي
وطلعتها الوضيئة بالجلال ،
وأنت تبدع في مسارك
في عروق الكبرياء
بمثل لفح الكهرباء
محملا قلبا يظل يذوب
في وطن عظيم أبدعك !

* * *

قلبي معك . . .
في بيتنا العربي حين تجوس فيه
وأنت تقصد موقعك
حاذر
فآلاف العقارب والأفاعي كامنات
واحترس
فالسوس ينخر في العمائم والشوارب

واللحي
والأخوة الأعداء
يخفون الخناجر في الجيوب
نصالها تهتز في وقت العناق
وتنتشي بعد الفراق
تطلعا لدم يراق
فلا ترع . .
كم عاصف واجهت
كم لغم مررت به
وكم ذنب تحير فيك
لا يجد السبيل إلى ك
منحرفا .
وكم زيف كشفت
وأنت تشمخ باليقين
تجادل البهتان . . .
لا الرأس انحني يوما
ولا العنف المكابر روعك !

* * *

قلبي معك . .
وأنا أطالع ـ ملء عينيك ـ
انهمار الحزن
يعتصر الضلوع . . .
وأري اصطراعك حين تأوي
في ظلام الليل
حين تشاهد الهول الذي يطغي
فتزدحم الصور
وتسائل النفس التي امتلأت
بأحزان البشر:
كم أستطيع لهم !
وهل تهتز هذي النخلة العجفاء
يوما بالثمر !
وتفر حبات الدموع

مازلت ـ في الليل البهيم ـ
تظل تبحث عن شعاع في المدار
وكوكب يومي إلى السارين
أو نجم بعيد قد أشار
وأري يديك تنقبان ،
وتضربان علي الجدار
حاذر . . .
فإن البيت من ورق
وأعمدة الكلام إلى انهيار
وأراك حين تطالع الوجه الكذوب
وقد تزيا وجه محتال
وأمسك رمح عنترة
وصال وجال . . .
منتشيا بزهو وانتصار
وأراك تلعنه .
وتلعن كذبه المفضوح
في وضح النهار . . .
هذا الذي قد جاوز الحمقي
وراح يطيل في حبل السفاهة والخرف
لا يستحق إشارة . . . حتي . . .
فوفر إصبعك !

* * *

قلبي معك
وأنا أري في هجمة الطغيان
طوفانا يزلزل مضجعك
السفلة الاوغاد
قد دقوا طبول الحرب . .
وانكشف الغطاء عن السلام المستحيل
فليبتنوا مدنا علي أنقاضنا
وليملأوا التاريخ ثارات وأحقادا
ـ صحائف للغد الآتي ـ
نورثها إلى أحفادنا

ولينصبوا للعابرين الآمنين فخاخهم
وليجرموا
فالعابرون همو . . . .
وتبقي الأرض للشعب الذي
تتآمر الدنيا عليه
فهمه همان:
هم السفلة الأوغاد من صهيون
مذ وطئوا . . .
وهم الإخوة الأعداء
يخترعون في لغة الكلام مدافعا
وقذائفا تصمي
وموتا للبرابرة ــ الغزاة !
فليسكتوا أو يرجموا
لغة الكلام إلى وم من حجر
فقل للقوم أن يتكلموا
ولينته البلغاء من سحر الكلام
ووقعه الرنان ،
الق عصاك يا موسي
وأبطل ذلك الإفك اللعين
مكاشفا ،
ومباغتا بالحق ،
هذا كله . . . لن يخدعك !
آن الأوان لنفخة في الصور
كي ترتج هذي الأرض كالزلزال
ماذا يملك الأبطال إلا أن يكونوا
في الجحيم قذائفا كي تنفجر ؟
وقنابلا موقوته في وجه أعداء الحياة ؟
لم يبق في الأيدي سوي جلد العروق ؟
ورجفة العصب الذي قد دمروه
آن الأوان لنفخة في الصور
تدعو أمة كانت . . .
تكون الآن . . . أو لا . . . لا تكون

وهناك في الأغوار شيخ ساهر
كي يسمعك !

* * *

قلبي معك . .
وجميع من كرهوك
ـ تعرفهم لحسن الحظ ـ
لا يدرون أن الناس كنزك .
شجوهم قد دلهم
ـ ما دلهم أحد عليك ـ
فكنت أغنية . .
وبعض عطاء مصر ،
ولمسة من سحر هذا النيل
حين يضخ في روح الرجال
هل يدركون الآن معني
أن يكون المرء ذا شرف . . .
ولم يعلق به يوما سؤال ؟
هل يدركون الآن معني
أن تكون لمصر جنديا . .
وقائدك العظيم يراك أجدر بالقتال
وبالنزال ؟
لو يدركون . . . . لباركوا فيك الذي
صاغته مصر
ونيلها الحاني
وفيضا من هواه
أودعك !

* * *

قلبي معك . . .
يا قادما مثل المسيح
يعيد للميت المسجي روحه
فتدب فيه روائح الأرض التي سلبت
وتنبض فيه أصوات الذين تساقطوا
بدمائهم تخضوضر الدنيا

ويعطي الكرم والزيتون موسمه
وينتصب الرجال . . .
يا أيها المنذور للوعد الذي يأتي
وللحلم الذي ما زال مرتسما
وللوطن الذي لن ينحني
قلبي معك !
قلبي معك !

الأبنوي ظاهرة شعرية مغايرة

بقلم : فاروق شوشة

نعم ، هو ظاهرة شعرية بكل المقاييس ، وحالة شديدة الخصوصية لا أظنها قابلة للتكرار ، جمع فيها ـــ بكل الموهبة الطاغية والإتقان المتمكن ، بين جريان نهر الابداع وتدفقه وجيشانه من ناحية ، وروعة الإنشاد وسيطرته الآسرة وخمياه من ناحية أخري ، فاكتملت له صيغة من التحقق الفريد في وجدان قرائه وسامعيه ، يقرأونه مسموعا ، ويسمعونه مقروءا ، من غير أن ينتقلوا في الموقف أو الخبرة أو مدي التصور والتخيل .

عرفت عبد الرحمن الأبنودي ـــ منذ أكثر من أربعين عام ا ـــ في مطلع الستينيات ، عرفني عليه الصديق الروائي الكبير سليمان فياض الذي كان قد سبقني ـــ بحكم تواصله الحميم مع الشارع الأدبي وقدرته الفذة علي التقاط المواهب البازغة والمقتحمة ـــ سبقني إلى صحبته وصداقته ، ولم تنقطع تلك الوشيجة التي ثبتت بيننا منذ ذلك إلى وم ، ولم تتوقف لسبب من الأسباب ، وإنما ازدادت ـــ بالرغم من تباعد المواقع وكثرة الشواغل وانهماك كل منا في مشروعه وسقوط كثير من الأصدقاء اللاأصدقاء علي امتداد مراحل العمر ـــ ازدادت هذه الوشيجة التي جعلتني منذ اللحظة الأولي أصغي لكلماته المختلفة بمحبة وانعطاف شديدين ، ازدادا مع الأيام واكتمال إبداع الأبنودي ـــ رسوخا وعمقا . لقد فجر الأبنودي بكلمات أغنياته ـــ التي سبقت أشعاره في الشهرة والوصول إلى الناس ـــ لغته الصعيدية الطازجة القادمة من أبنود ، متكئة إلى موروث شعبي حقيقي ، ومخزون من الخبرات والتجارب والمواقف والمعاناة والصعلكة ، ومدد من الفصحي لا تخطئه العين ولا الأذن ، يسري مثل الأنهار الجوفية أوالمياه التحتية في البنية الشعرية العميقة لنصوص الأبنوي غناء وشعرا ، ولأن هذا المذاق وهذه النكهة كانا جديدين تماما ، فقد استوقفتنا دهشة الغرابة ، ثم دهشة التواصل وحميميته دهشة الاندماج مع عالم الصور والمعجم الشعري والنغم الفوار والإيقاع الشجي ، وسحابة الحزن التي تذكرنا باليتم والفقد ، فتجعلنا نعيش حالة الاندماج تحت مظلة كلماته الحانية ، حنو شمس الخريف ـــ دون وقد أو لهب ـــ المفعمة بصهد الأماسي الدافئة في ليالي الشتاء الطويلة ، حين تحلق في أجوائها أنفاس المتلاصقين والمتوحدين ، عواطفهم ـ وثارهم ، وانعطافهم ـ وأحدهم إلى الآخر ـ جذوة من محبة ورضا ، تملأ الأيام الباقية بالصبر والتحمل .

في ذلك الوقت من مطلع الستينيات كان صلاح جاهين سيد الموقف في ساحة شعر العامية ، وبعده بقليل ـــ في الشهرة وذيوع الصيت ـــ أستاذه ورفيق دربه الشعري والحياتي فؤاد حداد . عام ية صلاح جاهين بقاهريتها ، ونقائها ، واكتمال زينتها ،

وفرحها الطافر بالحياة والناس ، واحتضانها لمواقف الوطنية والكفاح والنضال ، قبل أن تمتلئ بالحكمة ـــ التي سكبها في رباعياته ـــ وبمرارة أفول شمس الحلم وانهياره بعد نكسة١٩٦٧ ، عام يته المتوهجة أبدا بطفولته الانسانية الفريدة ، التي تظل ملمحا يتوهج في ثنايا كلماته ، وإيقاعاته ، بل ورقصاته ـــ فلقد كان صلاح جاهين يغني ويرسم ويرقص بالكلمات ، ولهذا كانت كلماته تولد ملحنة ، إيقاعها طافر ونشوان ، وقوافيها بارزة ومجلجلة . وإلي جوار هذه العامية القاهرية ، كانت عام ية فؤاد حداد التي تذكرنا دوما بأنه الامتداد الحي لشعراء المعلقات والموروث العربي في التمسك بعهود الشعر ، والحفاظ علي الرصانة ، وجدل ضفيرة الصورة الشعرية ، وشحن المفردة ـــ في معجمه الشعري ـــ بخبرات هائلة ومعارف مكتسبة من العرب والفرنجة ـــ من المؤلفات والمترجمات ـ التي أنجز هو شخصيا بعض روائعها ـــ وقدرة فذة علي الصهللة والتجلي ، حين يحلق في معراج الافتتان بلغته وفنه وشعره ، هنالك ـــ في هذا الأفق العالي ـــ نكتشف أن الوجود كله ـ وليس الأرض وحدها ـــ بتتكلم عربي علي حد تعبيره ، ويصبح فؤاد حداد ـــ الذي لم تكتشف حقيقة عبقريته الشعرية حتي إلى وم ، ولم تفض أسرار إبداعه وجادئل نسيجه علي منوال غير معهود أو ما لوف ـــ يصبح أفقا وحده ، يحاذيه أفق صلاح جاهين بعبقريته التي سالت كالأنهار في رسومه ولوحاته وأغنياته وأشعاره ـــ في مقدمتها جميعا رباعياته التي هي شهادة للعامية باتساعها ـــ بكل الاقتدار والفن العالي والطواعية ـــــ لما اتسعت له الفصحي في لزوميات أبي العلاء المعري .
بين هذين الهرمين الشامخين ولدت شاعرية عبد الرحمن الأبنودي ، فلم تخطئها أذن الناس ، ولم يحجبها دوي الشهرة أو الحظوة للكبيرين اللذين سبقاه في الحياة والشعر ، وولد معه في جيله سيد حجاب حاملا معه لغته المتميزة ، القادمة من سواحل بحيرة المنزلة وشطوطها ، وتراث البحر والصيادين في المنزلة والمطرية ودمياط وبورسعيد . .

وكما أتاحت الأقدار لمصر شاعر عام يتها الصعيدية وصوتها المدوي عبد الرحمن الأبنودي ، فإنها لم تبخل علي مصر بشاعر عام يتها السواحلية المبدع ، ومذاقه المغاير ، ولغته التي تحاكي ست الحسن والجمال في الرشاقة والحيوية والانطلاق . النجاح لا يكون نجاحا حقيقيا إلا إذا كان نجاحا بين العمالقة ، والتألق لا يكون له معناه ـــ إذا كان صاحبه وحيدا في الأرض إلى باب لا صوت سوي صوته ولا نداء سوي ندائه ، لكن عبد الرحمن مرق كالسهم في الحياة الشعرية والأدبية ، جاور واقترب وحاذي ، بمقدار ما اختلف وابتعد وتجاوز ، وكان في الحالين حريصا كل الحرص ـــ وبمكر شديد لا يتقنه إلا المبدعون الكبار ـــ علي خصوصيته ، وكلمته ، ومذاقه ، خاصة بعد أن وجد جسره إلى الناس ، وخيوطه الذهبية الموصولة بوجدانهم ، فأصبح كبيرا بين الكبار ، لا يزاحمونه ولا يعوقون انطلاقه ، فهو يعرف طريقه وجمهوره ، ويدرك جوهره الخبئ

الذي لم يشأ أن يبدده في غير مكانه ، ونجا من الآثار السيئة والمدمرة لصحبة بعض أصحاب النفوس المريضة والوجوه الصفراء ، فكانت الأغنيات التي أبدعها جزءا من سياقه الشعري ، يغامر فيه ويجدد ويضيف ويلون سماء الأغاني بألوانه القادمة معه وعلي جناحيه ، لا تردد المألوف ولا تشيع الضعف والمذلة ، بقدر ما تنبض بالصحة والعافية والاكتمال ، وكانت دواوينه واحدا بعد الآخر ، صرحا بعد صرح في معماره الشعري الشاهق ، وعكوفه علي السيرة الهلالية التي أكلت من عمره ثلاثين عام ا ، ونشر منها حتي الآن خمسة أجزاء ، وكتبه التي تضم مقالاته وخواطره ونجاواه ، كل ذلك يشكل جوانب هذه الظاهرة الشعرية وأبعادها ، ويوسع من مداراتها ، ويجعلها ــ كما قلت منذ البداية ــ غير قابلة للتكرار ، فضلا عن نجاح الأبنوي في أن ينزل بالشعر إلى الشارع والسوق والمكتب والسيارة والبيت ملتحما بالحياة .

لقد تحدث الأبنودي كثيرا عن طفولته ونشأته وصباه ، عن بيته وأهله وأقرانه ، أحاديث شتي وحوارات عديدة ومقاربات مختلفة ، لكنه لم ينجح في أن ينقل إلى نا لوحة طفولته ــ بكل صدقها وعريها وعنفوانها إلا عندما تفجر وجدانه برائعته يامنة فاستطاع اقتناص هذا المشهد المؤثر البالغ الدلالة وصوغه بالكلمات المختلطة بالدموع :

أوعي تعيش يوم واحد بعد عيالك
أوعي يا عبد الرحمن
في الدنيا وجع وهموم أشكال والوان
الناس ما بتعرفهاش
أوعرهم لو حتعيش
بعد عيالك ما تموت
ساعتها بس
حاتعرف إيه هو الموت
أول ما يجي لك . . نط
لسه بتحكي لهم بحري حكاية
فاطنة وحراجي القط !
آ . . . باي ما كنت شقي وعفريب
من دون كل الولدات
كنت مخالف
براوي
وكنت مخبي في عينيك السحراوي
تمللي حاجات

زي الحداية
تخوي ع الحاجة . . وتطير
من صغرك بضوافر واعرة . . ومناقير
بس ما كنتش كداب
وآديني استنيت في الدنيا
لما شعرك شاب !

* * * * *

قدم البيت
اتهدت قبله بيوت وبيوت
وأصيل هو
مستنيني لما أموت !
حاتيجي العيد الجاي !
وإذا جيت
حاتجيني لجاي !
وحتشرب مع يامنة الشاي !
حاجي ياعمة وجيت
لا لقيت يامنة ولا البيت !

مفاجأة الأبنودي ــ من خلال معرض القاهرة الدولي للكتاب هذا العام ــ بدواوينه المسموعة ، إضافة جديرة إلى ملامح الظاهرة الشعرية التي أتحدث عنها ، والتي يعيد بها إلى الشعر مفهوم الإنشاد ، والتأثير القوي بالأداء المنغم ، كما كان يفعل الشعراء القدماء في عكاظ والمربد وذي المجاز وذي المجنة وقطر وهجر وغيرها من أسواق العرب . ولقد نجح الأبنودي في أن يجعل من الإنشاد ــ عنصرا من عناصر قصيدته بالنسبة لمن يقرؤها علي انفراد ، فصوت الأبنودي ، وطريقته في الآداء ، والوقفات والفواصل وفي تنوع الطبقات الصوتية ، كل ذلك لن يفارق قارئه ، فما بالنا إذا ضمن قارئ ديوانه صوت شاعره ونبرته الخاصة ، تجلجل بالكلمات وتصدح بالقصائد وتترنم بالأشعار ! هذه الإضافة الذكية ، تجئ في أوانها ونحن نواجه طغيان الوسائل السمعية والبصرية علي وسائل القراءة والتلقي التقليدي ، وهي إضافة تمثل اختراقا إلى أفق أوسع ، تتحقق من خلاله سهولة التواصل ، وواقعية العلاقة مع النص الشعري ، وبقاء صوت الأبنودي حيا يتردد بكلماته عبر الأزمان .

والذين يتوقعون مني الآن أن أتذكر موقعي من مجمع اللغة العربية ، ومن الشعر الفصيح ، وأن أثير ــ من جديد ــ قضية الفصحي والعامية في الشعر ، لهؤلاء أقول إن ذلك لا

يـشغلني في قليـل أو كـثير ، فحماسـي للفـصحي وإيمـاني بهـا لا يحـول بـيني وبـين اسـتمتاعي ببلاغـة العاميـة وجمالياتهـا وإنجازاتهـا في شـعر الأبنـودي وغـيره مـن كبـار المبـدعين ، ـــ مثـل أحمد فـؤاد نجـم الـذي يتطلـب إبداعـه الـشعري رؤيـة مـستقلة ـــ ولـن أردد الآن مـا قالـه أحمـد شوقي ــ أمير شعراء الفـصحي ـــ عـن بـيرم التونـسي ـــ أمـير المبـدعين بالعاميـة في زمانـه ـــ مـن أنـه لا يخـاف علـي الفـصحي إلا مـن بـيرم ، وهـي شـهادة لـبيرم وفنـه العـالي الـذي يكـافئ العربيـة الفـصحي وينافـسها ، وليـست كمـا فهـم الـبعض العبـارة دعـوة إلى القـضاء علـي بـيرم التونـسي وآثـاره لا نهـا خطـر علـي الفـصحي . لـن أكـرر عبـارة شـوقي ، لا طلقهـا علـي الأبنـوي أو فـؤاد نجـم أو سـيد حجـاب ، فـشعراء العاميـة وشـعراء الفـصحي يتبـادلون حـوارا أعمـق ـــ في بنيتـه التحتيـة غـير المنظـورة ـــ علـي مـستوي الـصورة الـشعرية ومعجـم اللغـة الحـي ، والموقـف الـشعري ، وهـم المـصير الإنـساني ، فـضلا عـن أن ثقافـة شـعراء العاميـة جميعـا ثقافـة فـصحي ، تقـرأ الـشعر الفـصيح وتهـتم بمتابعتـه وتؤسـس بنيانهـا الـشعري علـي أصـوله وركـائزه ، بـل إن البـدايات الحقيقيـة لمعظمهـم كانـت بـدايات في الـشعر الفـصيح مثـل بـيرم وصـلاح جـاهين وفـؤاد حـداد والأبنـودي نفـسه ، لكـنهم سـرعان مـا تحولـوا إلى الإبـداع الـشعري بالعاميـة ، لا نهـم وجـدوا أنفـسهم فيهـا ، وكـان مـن نتـائج هـذا التحـول ميراثنـا الجميـل مـن بلاغـة العاميـة ومكتـسباتها جـيلا بعـد جيـل . . والأبنـودي ـــ ككـل ظـاهرة شـعرية كـبيرة ـــ معـرض لا ن يحبـه محبـوه حـتي العـشق ، وأن يعاديـه آخـرون حـتي المطالبـة بدمـه ، لكنـه بـين محبيـه وخـصومه ، لا يلتفـت ولا يتخلـف ولا يعنيـه الأمـر ، فمـن كـان مثله مشغولا بالنجم البعيد ، فإنه لا يتطلع ــ أبدا ــ إلى الوراء .

مئوية الرحيل والميلاد

بقلم : فاروق شوشة

البديهة الحاضرة للكاتب والناقد المسرحي الكويتي عبد العزيز السريع ـــ الأمين العام لمؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشاعري ـــ هي التي جعلته يبتكر هذا العنوان الدال لا حتفالية المؤسسة برحيل الشاعر الكويتي عبد الله الفرج وميلاد الشاعر اللبناني أمين نخلة ، حين اكتشف أن عام ١٩٠١ يشكل عام ا مفصليا بالنسبة للشاعرين ، فهو عام الرحيل لا ولهما وعام الميلاد لثانيهما ، بينهما ما ئة عام تلقي بظلها علي المناسبتين ، من خلال قرن يرحل وآخر يبدأ .

وعلي مدي خمسة أيام ، من إلى وم السادس من يناير حتي إلى وم العاشر ، كانت الاحتفالية والندوة المصاحبة التي شارك فيها وشهدها عشرات من الباحثين والشعراء والاعلاميين ، وكانت الأبحاث والدراسات التي تقدم بها الأساتذة والدكاترة: أمينة فارس غصن وسعاد عبد الوهاب وهيا الدرهم وبندر عبيد ومبارك العماري و عبد الله الدوسري وميشال جحا: من الكويت وقطر ولبنان . كما أقيمت أمسيتان شعريتان شارك فيهما لفيف من شعراء الوطن العربي ، وسهرتان فنيتان إحداهما مع تراث عبد الله الفرج في فن الصوت والغناء الكويتي والخليجي والأخري مع التراث الشعبي اللبناني الذي كان أمين نخلة من عشاقه والمعجبين به .

واذا كان لا سم عبد الله الفرج حضور واسع وانتشار كبير في كل منطقة الخليج: شاعرا بالفصحي علي قلة واللهجة المحلية علي كثرة وملحنا ومطربا وموسيقيا ، خلال القرن التاسع عشر (١٨٣٦ -١٩٠١) ، باعتباره منارة اشعاع قبل الدراسين والمؤرخين علي أنه أبو الأصوات الذي أبدع وطور وابتكر ألحانا كثيرة لا تزال متداولة حتي الآن ، وأن تأثيره وعطاءه الواسع واضح في الشعر والأدب والموسيقي والغناء والتلحين والرسم والخط وغيرها من معارف عصره ـــ اذا كان لا سم عبد الله الفرج كل هذا الحضور والتوهجح ، فإن اسم أمين نخلة ـــ باعتباره واحدا من كبار شعراء لبنان الذين تجايلوا في زمن واحد: الأخطل الصغير بشارة الخوري والياس أبو شبكة وسعيد عقل ـــ الوحيد من بينهم الذي لا يزال حتي إلى وم موفور العطاء والابداع ـــ هذا الاسم لم يتح له الذيوع والانتشار الذي أتيح لرفاقه ، ولا تعيه كثيرا ذاكرة الأجيال الجديد من المبدعين والدارسين . ولا يتردد شعره علي الألسنة والأقلام ، كما يتردد شعر غيره من شعراء لبنان الكبار ، خاصة الذين أتيح لشعره منهم دوران في ساحة الغناء ، كما حدث لقصائد عديدة من شعر الأخطل الصغير وسعيد عقل .
من هنا كانت احتفالية مؤسسة البابطين فرصة نادرة المثال لا زاحة صدأ الاهمال والنسيان

عن اسم أمين نخلة وشعره واعادة اكتشاف ابداعه الشعري والنثري وشحن الذاكرة المعاصرة بانجازاته وسيرته ومواقفه ودوره في الحياة الشعرية والأدبية اللبنانية حتي رحيله في عام ١٩٧٦ عن خمسة وسبعين عام ا شهدت انجازه في الكتابات الشعرية والنثرية والتحقيق والبحوث اللغوية والتاريخ والقانون في مقدمتها دواوينه: دفتر الغزل (١٩٥٢) والديوان الجديد (١٩٦٢) وليالي الرقمتين (١٩٦٦) بالاضافة إلى ترجمته النثرية لا ثنتي عشرة رباعية من رباعيات الخيام نشرها في مجلة منيرفا ولم يلحقها بأي من كتبه أو دواوينه . أما كتاباته النثرية فأهمها كتبه: المفكرة الريفية وتحت قناطر أرسطو وكتاب الملوك وأوراق مسافر وفي الهواء الطلق: التذكارات والنجاوي والأساتذة في النثر العربي وكتاب المائة ـــ الذي يضم ما ئة كلمة من كلام سيدنا الإمام علي ـــ رضي الله عنه ـــ وكتاب الدقائق ـــ الذي يضم اختيارات لمسائل في اللغة والفصاحة من كتب اللغة القديمة . . ، والحركة اللغوية في لبنان ، أمثال الإنجيل أما أشهر آثاره في مجال التحقيق فخاصة بديوان أبيه شاعر العامية رشيد نخلة وقد جمعه أمين نخلة وكتب مقدمته المطولة في تاريخ الزجل وأصدره بعنوان معني رشيد نخلة ، وتحقيق لمذكرات أبيه السياسية التي صدرت بعنوان كتاب المنفي لرشيد نخلة ، وكتاب عفو الخاطر لولي الدين يكن وهو مجموع فصول لولي الدين يكن في الأدب والاجتماع صدرت طبعته الأولي عام ١٩٥٥ .

تناولت أبحاث الندوة الشعرية في نثر أمين نخلة ، للدكتورة سعاد عبد الوهاب من منطلق أنه كان مبدعا في لغتيه الشعرية والنثرية وأن كتاباته النثرية ـــ المتوهجة بالشعرية ـــ تطاول في كثير من نماذجه قصائده وآثاره الشعرية . كما تناولت بنية الشكل والمضمون في شعر أمين نخلة للدكتورة أمينة فارس غصن التي تقول عنه: احتضن أمين نخلة الانتقاء الأعلي في عربية الاعجاز ميزتها والكمال أسلوبها فصارت اللغة عنده الهاجس والوجد والمرأة التي تحمل نرجسية مبدعها . ومرآة أمين نخلة وجه بلا قفا لا ن القفا هو الكثافة والوجه هو اللطافة إن لم نقل الروح . فشعر أمين نخلة ليس شعر الخروج علي وإنما هو شعر الإغراق في جماليات لغة جعل منها خطيئته التي انصرف لا نتهاك حميميتها باقتدار جعل منه نسيج وحده . فأمين نخلة اذا انتمي إلى من شكلوا منعطفات أساسية في الكتابة العربية منذ فجر النهضة ـــ ومنهم أبو شبكة وصلاح لبكي والأخطل الصغير وفوزي المغلوف ويوسف عصوب وسعيد عقل ـــ فانه يبقي المتفرد بمنزع جمالي صرف خلو من الاحالة طافح بالأناقة ، وتضع الصنعة المضمنة والمستترة التي تجعل من نثره فتحا من فتوحاته قصيدة النثر التي تضاهي كيميائية شعره الموزون المتدثر بعباءة السلف ، أمينا له لا ينقصه ولا يجافيه ، وإنما يحنو عليه ويضيف إلى ه . ثم تقول: فالشعر لا ينتج عن قرار وإنما عن قلق ، وقلق الشاعر يشبه قلق الساعي إلى حبل المشنقة لا ن كليهما يؤخذ إلى حد بعيد بمتانة الحبل ، وانشداد عقده وطقوسية المشنقة ،

وبياض عباءتها ، وكأن المشنقة ــ كما الكتابة ــ تصبح هي المحراب والهيكل لا الموت الذي هو نهايتها ، فالموت يمحو المشنقة إذ يمحو قلقها ، والشعر يأسر القلق لا موت القلق .

والشعر يشبه المنزل المهجور ، يأتيه الشاعر القلق لا ليقطنه بل ليبنيه ثم يغادره تاركا السكني للذين بلا ما وي ، فالسكني تعني الطمأنينة ، أما الشعر فهو نقيضها الذي وكأن الريح تحمله .

وأمين نخلة الشاعر القلق علي لا ليء لغته والقائل بالإبداع لا بالاتباع والمأخوذ بميسم الفرادة يقف علي تخوم المدارس الشعرية ومذاهبها لا نه لا يري للشاعر سلفا أو خلفا . فالميسم الخاص إبداع جسيم وصعب ، والخوف منه يجب أن تعادله الرغبة فيه

* * * *

فاذا ما حاولنا الاقتراب من شعر أمين نخلة ــ صاحب هذه الأسلوبية الشعرية التي لفتت أنظار دارسيه والمتأملين في شعره بأكثر مما لفتهم إلى ه أي عنصر آخر أو ملمح آخر في شعره ــ بعد أن بهرتهم أناقته اللغوية المفرطة وقدرته الفذة عل بناء الأساليب وتشييد التعابير واقتناص الصور الشعرية ــ نجده يقول في قصيدة عنوانها الحبيب الأول من قصائد ديوانه الأول دفتر الغزل:

أحبك في القنوط وفي التمني
كأني منك صرت ، وصرت مني
أحبك فوق ما وسعت ضلوعي
وفوق مدي يدي ، وبلوغ ظني
هوي مترنح الأعطاف ، طلق
علي سهل الشباب المطمئن

* * *

أبوح إذن ، فكل هبوب ريح
حديث عنك في الدنيا ، وعني
سينشرنا الصباح علي الروابي
علي الوادي ، علي الشجر الأغن
أبوح إذن ، فهل تدري الدوالي
بأنك أنت أقداحي ودني
أتمتم باسم ثغرك فوق كأسي
وأرشفها كأنك أو كأني

* * *

نعيم حبنا ، فانظر بعيني
وعرس للمني ، فاسمع بأذني
كأن الصحو يلمع في ظنوني
ويخفق في ضلوعي ألف غصن
علي الوتر الحنون خلعت شوقي
وماج هواي في آه المغني
ففي النغم العميق إلى ك أمشي
وأسلك جانب الوتر المرن

كلام كثير قيل عن هذه القصيدة ــ التي ذاعت شهرتها ــ بعد أن نسب إلى الشاعر عبد الله الفيصل لون من اللقاء الحميم بين الشاعرين من خلال قصيدته عواطف حائرة التي تغنت أم كلثوم ببعض مقاطعها وعرفت الأغنية باسم ثورة الشك ومطلعها:

أكاد أشك في نفسي ، لا ني
أكاد أشك فيك وأنت مني

وهو ما أشار إلى ه الأستاذ سامح كريم ــ في مقالته الثلاثاء الماضي بالأهرام ــ وأفاض فيه مشيرا إلى آراء الأدباء والنقاد وأساتذة الجامعة . والموضوع ــ في جوهره ــ يثير قضية تأثير شعر أمين نخلة وغيره من شعراء لبنان الكبار كالأخطل الصغير بشارة الخوري وسعيد عقل في شعر عدد من الشعراء العرب الذين اقتربوا منهم منبهرين ومعجبين ، فوقعوا في شرك المحاكاة وأسر التأثر الواضح . قصيدة ثانية تنير أمامنا الطريق للكشف عن خصوصية أمين نخلة ــ التي لم تنجح أبحاث الندوة في الكشف عنها في سياق المقارنة مع شعر مجايليه من شعراء لبنان الكبار ، فقد اتسع لهم العصر جميعا ــ ولأضرابهم في مصر والعراق وسوريا ــ ومع ذلك فقد اختلف كل منهم في لغته وملامح شاعريته ومذاقه ، ولم يكن أي منهم كبيرا لا نه أنفرد بالحضور في غيبة الآخرين ــ أو خلت له الساحة وحده ، لكنهم كانوا كبارا بالرغم من امتلاء الساحة وازدحامها بهم وبابداعهم الشعري وتأثيرهم الطاغي في الحياة الشعرية والأدبية ــ القصيدة الثانية لا مين نخلة هي قصيدته شفة التي يشير فيها إلى ضاحية الأشرفية احدي ضواحي بيروت المرتفعة والمطلة علي ما حولها ، وهي أيضا من قصائد ديوانه الأول دفتر الغزل أفضل د واوينه وأجملها وأحفلها بوهج الشعر:

في الأشرفية يوم جئت وجئتها
نفسي علي شفتيك قد جمعتها
ذقت الثمار ، ونكهة ، إن لم تكن
هي نكهة العنب الشهي ، فأختها

الكرم أورق يوم جئت عريشه
أروي عن الشفة التي قبلتها
وترنح العنقود ، يقطر لذة
لما انثنيت فقلت : إني ذقتها
ياقوتة حمراء غاصت في فمي
وشقيقة النعمان قد نولتها
لولا نعومة ما بها ، وحنو ما
بي في الهوي ، للقمتها ، وللكتها
ملساء مر بها اللسان ، فما دري
لولا تتبع طعمها لا ضعتها
وكأنما بخلت علي بلفظة
وهناك في كتب العبير قرأتها
من مرقص الغزل ارتجلت قصيدتي
وبكل واد للهوي رددتها

* * *

سينسي الناس ـــ بعد قليل ـــ كلاما كثيرا قيل في هذه الندوة عن عبد الله الفرج وأمين نخلة ، قاله الباحثون والمعقبون وأصحاب المدخلات ، لكنهم لن ينسوا لمؤسسة البابطين حرصها علي طبع ديوان أمين نخلة المجموعة الكاملة وديوان عبد الله الفرج الذي يضم آثاره باللهجة المحلية وما تبقي من شعره الفصيح الذي ضاع معظمه ، فصدور هذين الديوانين ـــ ومعهما المجلد الذي يضم مجموعة أبحاث الندوة المصاحبة ـــ هو الكسب الحقيقي لحياتنا الشعرية والأدبية المعاصرة ، والتنشيط الحافز لذاكرة هذا الجيل من المبدعين والدارسين ، بالاضافة إلى الانجاز المتمثل في وضع حجر الأساس لمكتبة البابطين المركزية للشعر العربي في الكويت ـــ في ختام الاحتفال بها عاصمة ثقافية عربية لعام٢٠٠١ ـــ وفي مثل هذا فليتنافس المتنافسون ، تأسيسا واضافة وانجازا ومبادرة أما القاعدون ـــ وهم يملكون ـــ فهم حثالة هذه الأمة وعارها الكبير .

منصف الوهابي ووردته الرملية

بقلم : فاروق شوشة

في خريف١٩٥٠ نقل والدي من تونس إلى القيروان أو تمبكتو كما أحب أن أسميها ، مدينة عتيقة ، كأنها متحف ، محورها الجامع الأغلبي الكبير ، ومايحف به من دور كتاتيب ومدارس قرآنية ومساكن طلاب ، وشوارع وأزقة مبلطة تؤدي كلها إلى ه ، ومنه إلى الحارات المغلقة والأبواب الثلاثة الكبري التي تفتح سور المدينة من الشرق والغرب والشمال .

كانت الحياة تمضي رضية مذللة ، والمدينة تؤدي وظائفها التقليدية ولكنها تعيش حياة العصر أو ما يشبهها ، استأجر والدي بيتا قريبا من الجامع يطل علي شارع مبلط فسيح . وقال لا مي إن موقع البيت يتيح له أن يتجنب الأزقة والمعابر الضيقة ، ويدخل سيارته إلى المدينة ، ليركنها تحت بلكونة خشبية ناتئة في البيت المجاور . وخلال أيام قليلة صرنا كأننا من أهل المدينة لم نتعود حياتها الرتيبة فحسب ، بل بدأنا نستطيب العيش فيها ايضا ، كان الجيران في تلك الأيام الأولي يلاحقوننا بنظراتهم ، ويستغربون لهجتنا البدوية . كنت أحدس ذلك كله في النظرات النهمة ، نظرات الجارة التي تتعمد أن تطيل الوقوف في عتبة بيتها المقابل أو وهي تستحث طفلها الصغير حتي لا يبطيء في المخبزة ، أو الصبية التي تدفع مغلقي الشباك ثم توصدهما برفق كلما التقت نظراتنا . إلى وم أقول إني لم أكن مفتونا بذلك العالم علي قدر ما كنت مفتونا ببداوتنا ، كنت أستشعر متعة في أن يكون عالمنا الصغير موضع اهتمام أولئك القيروانيات:

الحاملات جرار الكرم من عدن
وذوبهن تمور الهند والنبق
الساحبات حرير الليل أجنحة
علي فضول وساد ليله أرق
الواهبات وسادا خافقا أبدا
للعاشقين فما ناموا وما أرقوا

فصرت أتخيل ما يجري بينهن من أحاديث ، وأتعمد في تلك الأيام الأولي أن أخرج إلى الشارع ، في الأوقات التي أعرف أنهن يفتحن فيها الأبواب ، للاستروواح أو يتجمعن في سقيفة البيت المجاور .

هذه السطور أنتزعها من سياق متدفق بديع ، يقتنص فيه الشاعر التونسي الكبير منصف الوهايبي بعض ملامح انتمائه إلى مدينته القيروان التي يذكرها تحت عنوان

مدينـة تـشبهني وكأنـه بهـذا يقـدم لنـا مـدخلا إفـضائيا إلى العـالم الـشعري لديوانـه الجديـد ميتافيزيقـا وردة الرمـل الـذي صـدر خـلال العـام الماضـي بعـد دواويتـه الثلاثـة الـسابقة: ألـواح (١٩٨٢) مـن البحـر تـأتي الجبـال (١٩٩١) مخطـوط تمبكتـو (١٩٩٨) والقـيروان الـتي ينـشغل بهـا الوهـايبي ويعيـد تـشكيلها روحيـا وشـعريا واحـدة مـن أكـبر مـدن تـونس وأهمهـا ، أنـشأها عقبـة بـن نـافع عـام ستمائة وسـبعين ميلاديـة وظلـت مقـرا للحكـام العـرب في شمـال افريقيا طوال قـرنين مـن الزمـان ثـم أصبحت عاصـمة الفـاطميين الأولـي في مـستهل القـرن العاشـر ، وهـي مـشهورة بجامعهـا الكـبير ، أمـا تمبكتـو الـتي جعـل منهـا الـشاعر عنوانـا لديوانـه الثالـث ، قبـل أن يفـصح لقارئـه بـأن تمبكتـو الـتي يقـصدها هـي ذاتهـا مدينتـه القـيروان فهـي مركـز للقوافـل علـي الطريـق الـصحراوي مـن الجزائـر والمغـرب ، إحـدي مـدن جمهوريـة مـا لـي بـالقرب مـن نهـر النيجـر ، ازدهـرت باعتبارهـا مركـزا للثقافـة الاسـلامية منـذ أسـست في القـرن الحادي عشر حتي القرن السادس عشر . وخرج منها كثير من العلماء والمؤرخين .

مـا الـذي أغـري منـصف الوهـايبي بهـذا الحلـول بـين القـيروان وتمبكتـو ؟ ومـا الـذي جعله ـــ وهـو الـذي يعـيش في القـيروان وينتـسب إلى هـا ومعـه الـشاعرة التونـسية المبدعـة جميلـة المـاجري ـــ يعتـز ببداوتـه وحنينـه إلى الرمـال ويـسمي ديوانـه الجديـد ميتافيزيقـا وردة الرمـل أهـو الحـرص علـي إبقـاء الـسمت الافريقـي واضـحا وأصـيلا ؟ أم هـو الحـرص علـي نفـي كـل ملامـح التغريـب والتغـيير الـتي طـرأت علـي وجـه الحيـاة الحديثـة ومحـت عنهـا صـورا ومعـالم اسـتقرت في مخـزون وجدانـه الطفـولي الـذي أخـذت مفرداتـه تتجمـع وتتلاحـق وشـاعرنا في الـسنة الأولـي مـن عمـره الـذي يقـترب الآن مـن الثانيـة والخمـسين (مـن مواليـد٢٠ ديـسمبر١٩٤٩) ؟ أم هـو الحـنين الجـارف إلى قيروانيـات تمبكتـو ـــ كمـا صـار يـسميهن ـــ عنـدما اكتـشف مبكـرا العلاقـة الخفيـة الحميمـة بـين المدينـة ونـسائها ، وكيـف أنهـا علاقـة المباغتـة أو المـصادفة ؟ هـا هـو ذا شـاعرنا يبـسط مـساحة أخـري مـن البـوح ويقـول: كنـت أكـره الرؤيـة اللانهائيـة في المـدن العـصرية ، حيـث الـشوارع تبـدو لـي مـستطيلة أبـدا ، والـضوء يجـري في خطـوط مـستقيمة والظـلال مـسطحة . إنمـا كنـت أحـب لبـصري أن يجـوس في فـضاء إنـساني ، في خطـوط عموديـة أو متكـسرة أو منحنيـة مـا ئلـة ، كلمـا انغلـق زقـاق أو انعطـف لـذلك وجـدتني حـرا في المدينـة العتيقـة ، رغـم أسـوارها ، أسترسـل لغوايتهـا وأتقبـل مـا تعـده من مفاجآت لـذلك بـدت لـي العلاقـة بـين المدينـة ونـسائها لا حميميـة فحـسب بـل مـثيرة ايـضا ، ها أنا حـائر مـرة أخـري بـين البـدوي الـصغير والبـدوي الكهـل ، بـين مـا ينبغـي قولـه ومـا لا ينبغـي قولـه . ولـيس لـي إلا أن أسـتجير باللغـة وأتحيـل بهـا عليهـا أو لم أقـل إن الكـلام علـي مدينـة تـشبهني ميـدان مظلـل يكـاد لا يـسلمني إلى شـيء مـن إلى قـين القـاطع أو القـول الفصل

مضي زمن الكلمات التي تشعل الريح
أو هي تبني لها بيتها
زمن الكلمات التي تحفن الماء
بين أصابعنا
زمن الكلمات التي تبرأ الطين
في هيئة الطير
ماذا تري في البياض الذي لفني ؟
ليس غير ملاك ينام علي شفتي
غير ما ء يسائل عن نهره
غير ريس يسائل عن لونه
غير ريح تسائل عن شجر
تستريح إلى ظله
وأتي زمن الكلمات التي تتدافع في طرق
ليس فيها مكان لخطوتنا !

. . . .

هو ذا الشاعر
يخرج من لغتي البكماء
بين أصابعه كلمات لا تحصي
كلمات تسقط في الرمل
كلمات تسقط بين الأحجار
فلا تنبت غير الأحجار !
كلمات تسقط في الماء
فلا يجري غير الماء
حتي تنفد كل الكلمات
ولاتبقي غير اللغة البكماء
لكن لا أحد يدري
حتي الشاعر لم يدر
بأي مكان لم تمت الكلمات
اذن فليبحث عنها
فإذا ألفاها اضطرب القلب
إذا اضطرب القلب اتته الدهشة
من بين يديه

وكان له منها
سلطان الأشياء !

منذ ثلاث سنوات ، وخلال رحلة ثقافية إلى تونس جمعتنا في القيروان: منصف الوهايبي وجميلة الماجري وأنا أصبوحة شعرية في قاعة مكتبة المدينة ، كانت المرة الأولي التي ألتقي فيها بشاعري القيروان وأصغي لهما عن قرب ، وأتعرف علي الجمهور التونسي من رواد المكتبة وعشاق القراءة ومتذوقي الشعر المرهفي الوجدان . كانت الأصبوحة حية ودافئة وعامرة ، وبعدها كانت زيارتنا للجامع الأغلبي الشهير ، نتأمل فيه تحفة معمارية وروحية ، ينطق بها السقف والجدران والأعمدة والثريات والمصابيح والخطوط والنقوش والمقرنصات والصحن والمنبر والفسيفساء ويفاجئني الوهايبي في ديوانه الجديد بقصيدة مهداة إلى شخصي ذكري لزيارة الجامع الأغلبي ، والأغالبة أسرة إسلامية حكمت تونس وجزءا من الجزائر علي امتداد القرن التاسع الميلادي والسنوات التسع الأولي من القرن العاشر ، وهي تنسب إلى إبراهيم بن الأغلب وكانت قاعدتها القيروان ، حتي قضي الفاطميون علي دولتهم:

لا عصافير في هذه المدينة
تدافع عن الأشجار
لابحر يرفع قرابينه للارض:
أسماكا وتيجانا
الأرض بعيدة تتسول
علي ضفاف الأنهار والبحار
لكل شجرة نصيبها من الظل
لكل كلمة نصيبها من الحلم
لامهنة للشجرة
شجرة الكاليبتوس
سوي أن تلوي خطوط الريح
لامهنة للريح
سوي أن تعجن الصدي
وربما تجاذبتا أطراف اللغة
والظل وحده يكتبها
صامتا علي الأرض
أما هو: ابن تمبكتو
فأحب دائما أن يتعرف إلى في ظله

الظل رماد الضوء
الجسد حجر ملموم
تحدجه الشمس بعين زرقاء
من يقدر عليه غير الفأس

. . . .

بين قدمي تسقط زهرة صفراء يتيمة
لو كان بيدي . . لحملت لك يا أختي
من الربيعين: آذار ونيسان
يوما واحدا !

حين أهداني منصف الوهايبي ديوانه الثالث مخطوط تمبكتو كتبت عنه باعتباره شاعرية ما بعد الشابي في تونس ، ورمز الحركة الشعرية الجديدة فيها ، حداثة وابداعا وهو في هذا الديوان الجديد ينقب في ذاكرة المكان مثبتا لقصائده المندلعة منها عنوانا لا فتا هو نوافذ عمياء وسرعان ما تنهمر الأماكن: معرة النعمان (في قصيدتين) مدينة صور ، المهدية ، مرسيه / دمشق ، قيروان (في ثلاث قصائد) القاهرة ، أصيلة ، طنجة ، سفيطلة ، جغرافيا واستدعاء المكان مرتبط دوما باستدعاء شاعر أو أكثر ، والرؤية ينوشها وجود يتشظي ، ولسع سياط الذاكرة ، وانفلات هنيهات الصفاء ، واستنبات للوردة من الرمل:

أسأل الوردة:
ماذا يصنع الموت بنا ؟
يفتح أبو ابا ولا يغلقها
يغلق أبو ابا ولا يفتحها

. . . . .

ومن الوردة يمتد طريقان إلى الصحراء
من أيهما نمضي !
ومن أيهما نرجع !
والوردة في آخر برق هيأت منزلها
وانتصبت تستطلع الأفق

وديوان الوهايبي كله استطلاع لهذا الأفق وتأمل في الليل الذي يهبط والصمت الذي لا ينقصه صوت ولاجرس ، وإبحار شعري جريء في عوالم الدهشة والمغامرة ، بدءا بهواجس الميتافيزيقا وصولا إلى الارتطام برمل الواقع وجدب أحجاره مشعلا بقصائده أسئلة لا تنتهي وضراما لا ينطفيء .

وجدت كنزاً

بقلم: فاروق شوشة

ليس هذا العنوان من عندي ، لكنه العنوان الذي اختاره الصديق الشاعر والكاتب والمترجم الدكتور يسري خميس لرسالته التي بعث بها تعقيبا علي مقالة نشرتها منذ عدة أسابيع بعنوان أهمية أن نتجه شرقا عرضت فيها للمجلد الشعري الذي يتضمن ترجمة لمختارات من الشعر الآسيوي قام بها الأستاذ أحمد فرحات ، في لغة عربية أدبية مشرقة ، لستة عشر شاعرا من الهند وباكستان وماليزيا وإندونيسيا والفلبين وتايلاند وكوريا الجنوبية وتايوان وبنجلاديش وأفغانستان وبورما ، ويجمع بينهم جميعا أنهم عاشوا في دولة الإمارات العربية المتحدة وعرفهم الشاعر وعايشهم عن كشب . وقام المجمع الثقافي في دولة الإمارات بنشر هذه المختارات المترجمة ضمن إصداراته الأدبية والثقافية .

كان هدفي من المقالة التعريف بهذا الجهد - غير المسبوق - في الالتفات إلى شعراء آسيويين لم نسمع بهم ولم نتابع آداب بلادهم بصورة صحيحة من قبل . والدعوة إلى أن نتخلص - ولو قليلا - من شرك المركزية الأوروبية الذي نصب لنا منذ مطالع العصر الحديث - في أعقاب الحملة الفرنسية علي مصر - وأصبحت ترجماتنا في معظمها تتجه إلى الإنجليزية والفرنسية ، وتغفل تماما الآداب والثقافات والفنون الخاصة بآسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية . حتي الذين بدأوا يعلنون تململهم من الهيمنة أو السيطرة أو المركزية الأوربية - أو الغربية عموما - لم تتجاوز مواقفهم هذا التململ ولم تتحول إلى مشاريع مغايرة وحركة في الاتجاهات الصحيحة . وعندما أتبعت هذه المقالة السابقة بمقالتين عن الشاعر التركي العالمي ناظم حكمت ومترجمة الجميل الدكتور علي سعد فقد كنت أواصل الإبحار في الاتجاه نفسه ، والعزف علي النغمة الأساسية التي تضمنها النداء الأول . وقد أسعدني أن أجد استجابة حارة وواسعة لما ناديت به ، وانهالت علي الرسائل والمكالمات فضلا عن الحوارات الحميمة مع الأصدقاء من الكتاب والنقاد والشعراء والمترجمين .

خلاصتها أنه قد آن الأوان لموقف متوازن بين الآداب والثقافات المهمة في العالم ، وآن الأوان لا تساع حدقة العين واتساع أفق الرؤية والتعرف الصحيح علي العالم ، خاصة العالم الذي لم يكن عدوا لنا ولا لوجودنا وثقافتنا وهويتنا في يوم من الأيام . لقد آن الأوان لقراءة كنوزه وروائعه : إلى ابانية والصينية والهندية والفارسية والتركية وغيرها من الآداب الآسيوية . ويكفي أن نشير إلى الأهمية التي يحتلها الآن أدب أمريكا اللاتينية وإبداع كتابها وشعرائها لندرك حجم التقصير الذي وقعنا فيه ، وبيننا من العلماء

والأساتذة من يتقنون الإسبانية والبرتغالية وغيرهما من اللغات ، فلم يبق إذن إلا أن نؤدي واجب المعرفة وزكاة الانفتاح علي العالم ومن بين كل الرسائل التي تلقيتها استوقفتني هذه الرسالة البديعة للصديق الدكتوريسري خميس الذي عرفته حياتنا الأدبية شاعرا مبدعا ومترجما رصينا له حساسيته المرهفقة وذائقته المتميزة في الحالين . وقد فاجأتني رسالته باحتوائها علي نصوص شعرية بديعة لشاعرين صينيين ، قام بترجمة بعض قصائدهما إلى العربية ، ولا أظن أن أحد هذين الشاعرين من الصين أو غيرهما قد أتيح لشعره أن يتكلم بلسان عربي مبين وأن يطالعه القراء في صحيفة مصرية أو عربية .

هذه ريح شعرية جديدة تهب علينا من الشرق البعيد ، لعلها تطرد الأسن وتحرك الراكد والساكن ، وتفتح النوافذ والأبواب لموسيقي مغايرة ورؤي جديدة وفكر مختلف ، ومعاناة إنسانية مشتركة . ما أحوجنا إلى تردد كلمة ناظم حكمت الجميلة : قلبي ينبض مع أبعد نجم في السماء . ونحن نقول معه : قلوبنا تنبض مع أبعد قصيدة لا بعد شاعر علي ظهر هذا الكوكب . نعيش معه ، وننفعل بكلماته ، ونزيح التراب المتراكم علي صدورنا بأنفاسه أنسامه .

والآن إلى رسالة الدكتور يسري خميس:

وجدت كنزا أحسست برضا عميق عندما قرأت ما كتبه شاعرنا الكبير فاروق شوشة كأحد أبناء جيلنا المتألق عن (ضرورة اتجاهنا شرقا) ووجدت أننا قد وصلنا في نفس الوقت ـ متأخرا لا بأس ـ إلى رؤية متقاربة ، واكتشفنا أننا ضللنا ، وأننا قصرنا ، وأنه لم يعد هناك كثير وقت لتضييعه ، وأن هذا حقيقة لا يهم ، المهم هو أنه ليس من الضروري أن يكرر كل جيل نفس أخطاء الجيل الذي سبقه ، فمازال البعض فاغرا فاه حتي الآن منذ أن عاد رفاعة الطهطاوي من باريزمنبهرا .

كم أضعنا من الزمن ، عندما كانت أنظارنا مقيدة في اتجاه واحد لا غيره . وضعوا الغمامات بمحاذاة أعيننا ، وكان علينا أن نجر عربات الزمن الثقيلة كالأحصنة المرهقة في اتجاه محدد سلفا . أية حماقة وقعنا فيها ! عندما استسلمنا ولم نستخدم سوي عين واحدة في رؤية العالم ! لم نكلف خاطرنا أن نحرك رؤوسنا وننظر في الاتجاهات الأخري كي نري غني العالم وزخمه . أي غباء سيطر وأي استسلام قاصر للشائع وللسيد ! ! التاريخ لا يبرر ، انما يفسر . التاريخ لا يعفي من التقصير ، بل يدين . التاريخ لا يسامح ، فليسامحنا الرب فهو الغفور الرحيم .

وجدت كنزا ! ! !

هكذا صحت ، عندما قرأت هذا الشعر للمرة الأولي . كانت الفرحة كبيرة ، أكبر من أن أتحملها وحدي ، ورأيت ضرورة أن يشاركني فيها الشعراء الأحباب ، حتي

نحتفي سويا بهذا الشعرالعظيم الآتي من القرن الثامن وليس الثامن عشر - يا ألله ! !
بعد ألفين ومائتي عام من كتابتها ، نقرأ هذه القصائد الآتية من قلب عالم بعيد قريب جـــــدا وتدهـــــشنا مـــــا زالـــــت .
ورغم كل ما قد تناثرمن سبائك نادرة أثناء رحلة القصيدة من وادي وانج شوان بالصين وما تبعثر في الغابات الألمانية السوداءوالشقراء من جواهر وحساسية ، فقد تبقي الكثيرالكثيرمن الدرر واللآلىء التي ألقيها بدوري في مياه النيل والفرات حتي تلتقطه الأجيال وتعيد النظر .

الشاعر الصيني بيه دي PeDi

يتأمل الطبيعة ويتحاور معها مرتكزا علي رؤية فلسفية محيطة محاولا أن يصل بالخبرة الإنسانية إلى مستوي أعمق من الفهم . فمن الواضح في قصائده أن جذور شاعرنا تمتد إلى الفلسفة الطاوية إلى ما قبل كونفوشيوس ، تلك الفلسفة الصوفية في عمقها التي تري في الطبيعة : المادة الأساسية للكون ، فإذا كان الصوفي المسلم يجاهد ويكابدمتنقلا في طبقاته محاولا الاقتراب من الذات العلية ، فإن الطاوي في رؤيته لا ينشد سوي الاندماج الكامل مع وفي الطبيعة .

بينمـــا الـــشاعر الـــصيني الآخـــر دشـــانج دجـــي DschangDji يشتبك مع الواقع الاجتماعي والسياسي بشكل نقدي مباشر ويطرح في شعره التناقضات الاجتماعية بحدة لا مواربة فيها . فقد كانت مهمته هي توصيل الرسالة ورفع شكاوي الناس ومعاناتهم ، آلامهم وأحلامهم للقيصر الذي كان مشغولا جدا هو وبطانته بكيفية إطالة عمره ، فقد كان مهووسا بفكرة الخلود . شاعرنا ان مختلفان تماما في مستوي رؤية الواقع والشعر ، متفقان تماما في مستوي رؤية الوجود الإنساني والإحساس به . الحزن هنا واقعي خشن تفصيلي مباشر زاعق ، وهناك تجريدي فوق / تحت طبيعي غويط وهامس . يعكس كل منهما مستوي من مستويات نسيج الحياة بمأساتها وبهجتها . هيا نحتفي بالشعر مع DschangDjiPeDi حتي نوقف انجرافنا في جب الحزن العميق الذي نألفه ، دعونا نفرح حتي تتسع رؤيتنا ونتعلم التواضع .

قصائد للشاعر الصيني بيه دي:

- سور الأيائل
عندما يقترب النهار من نهايته
تنكشف الجبال الباردة
كرجل غريب ، أتجول وحيدا
لاأدري ما ذا يدور في غابة الصنوبر

فقط أري آثار أيائل وغزلان خجلي

٢ـ سور شجرة القرفة
عندما تغرب الشمس
يخيم الظلام فوق كل شيء
صخب الطيور يختلط مع خرير المياه
الآتي من الجبال متلكئا
في طريقه للعمق
متي ينتهي ذلك الشعور بالوحدة ؟

٣ ـ الغدير عند شجر الدردار
خشخشة مياه الغدير
تملأ الشواطيء كلها
أخوض بمحاذاة الحافة حتي المعبر الجنوبي
البطات البرية تسبح في عجلة
والنوارس تحوم من عل
من حين لا خر
يكاد أن يقترب البشر من بعضهم البعض

٤ ـ ربوة المانوليا
علي طول السد تنمو أعشاب الربيع
الصراصير تتجمع هناك لتمرح
هنالك أيضا زهور المانوليا
التي تختلط ألوانها مع حقول الخبازي

قصيدتان للشاعر الصيني دشانج دجي:
١ ـ سد الزلط
في مدينة القيصر
أقاموا سدا من الزلط لسيادة المستشار
كي يمنع عنه التراب عندما تهب الريح
ويحجز الطين إذا أمطرت
الساعة المائية في القصر
تشير إلى الربع الثالث من النهار

فرسان التشريفة بزيهم الرسمي يعلنون:
المستشار في الطريق
فلتتوقف الموسيقا
التي تنبعث من جميع البيوت علي جانبي الطريق
ولتتوقف آلاف العربات
وليمنع المرور
حراس الشوارع
يبلغون موظفي القصر:
الشارع الذي يبلغ طوله عشرة أميال
فارغ تماما الآن
وتحت السيطرة الكاملة
قال القيصر وهو يتناول القنب الأبيض
لقد فصلنا المستشار
والمستشار الجديد لم يعين بعد
لم يعد هناك ضرورة للسد القديم

٢ ـ الفلاح المعدم
فقير ذلك الفلاح العجوز
الذي يعيش وسط الجبال
يعزق ويبذر ويزرع
قطعة أرضه الصغيرة علي السفح
المحصول شحيح ، والضرائب باهظة
لا يبقي له شيء لكي يأكل
القمح يخزن بصوامع السلطة
حيث يتحلل إلى تراب
في نهاية الموسم
يركن الفلاح آلاته الزراعية في داره الخاوية
وينادي علي ابنه ويصعد الجبل
ليجمع بعض ثمار البلوط
السيد التاجر علي الشاطيء الغربي من النهر
يمتلك القناطير من اللؤلؤ
وعلي قواربه

* * *

مـن الـضروري ـ بـالطبع ـ أن أشـير إلى بعـض الاسـتثناءات الطفيفـة في الترجمـة ـ الـتي جـاءت خـارج إطـار الانجليزيـة والفرنـسية لكنهـا كانـت في إطـار المركزيـة الأوروبيـة أو الغربيـة ـ باعتبـار امريكـا جـزءا مـن هـذا الغـرب ـ عـن الاسـبانية والألمانيـة والايطاليـة واليونانيـة ، وترجمـات مماثلـة عـن الفارسـية والتركيـة ، وبدرجـة أقـل كـثيرا عـن الهنديـة والـصينية واليابانيـة . لم يقـم بهـا مـشروع وطـني أو قـومي ، وإنمـا هـي جهـد أفـراد أو آحـاد ، يلتمـع بعض الوقت مشيرا إلى الاتجاه والأفق وسرعان ما يخبو .

ولـدينا مـن النقـاد الأكفـاء ـ كمـا أشـرت في مقالـة سـابقة ـ مـن يـستحقون أن نفـاخر بهـم . ويكفـي أنهـم حملـوا عـبء إنجـاز مـشروع الألـف كتـاب في عهديـه القـديم والجديـد ، والمـشروع القـومي للترجمـة ـ الـذي يتبنـاه الآن المجلـس الأعلـي للثقافـة ـ وهـو مفخـرة المجلـس الحقيقيـة وجهـده الأبقـي والأنفـع وحركتـه في الاتجـاه الـصحيح ، ومـا تنـشره الهيئـة العامـة للكتـاب مـن ترجمـات مـن والـي العربيـة ـ لكننـا حـتي الآن ـ وبكـل أسـف ـ لا نعطـي للترجمـة أو المترجـم حقهمـا مـن الاهتمـام والتكـريم ، يكفـي أن أشـير إلى أن الأسـتاذ الجـامعي حـين يترجـم فـلا تعتـبر ترجماتـه ذات وزن أو قيمـة ولا تحتـسب في تقـديره أو ترقيتـه ، فـضلا عـن عائـد الترجمـة المتـدني كـثيرا بالنـسبة لمـن ينـالون أضـعافه عـن ثرثـرات تأليفيـة وركاكـات تحمـل أسمـاءهم ـ الكـبيرة وغـير الكـبيرة ـ وهـم لا يـستحقون عنهـا إلا العقـاب والمؤاخـذة ، لكـنهم يتباهون بأنهم مؤلفون ، وحظوظهم ـ بكل أسف ـ تفوق حظوظ أعظم المترجمين !

لكـني أعـود في النهايـة وأخـتم بمـا بـدأت بـه : لقـد آن الأوان لتجديـد الهـواء وتنقيـة البيئة وتغيير المناخ ، وهذا كله مرهون ـ في كثير من تجلياته ـ بأهمية أن نتجه شرقا !

قلب يخفق مع أبهد نجم في السماء

بقلم: فاروق شوشة

في مقال الأسبوع الماضي ، كنت أحاول التعبير عن سعادتي - وكثير من أبناء جيلي - بتكريم الناقد والكاتب والمترجم اللبناني الدكتور علي سعد ، باعتباره واحدا من الرموز لعصر أدبي وثقافي جميل عشناه منذ مطالع الخمسينيات ، وأن لبنان - بكل طوائفه وتجمعاته السياسية والثقافية والنيابية - قد شارك في هذا التكريم ، الذي يقترن بقرب صدور الأعمال الكاملة للدكتور علي سعد - ضمن مطبوعات اتحاد كتاب لبنان - بعد أن ظلت كتاباته وترجماته موزعة ومتناثرة طيلة عقود من الزمان ، قبل أن يعتزل الكتابة ويلتزم الصمت في السنوات الأخيرة قبيل رحيله .

وكنت - ومازلت - أقول إن ترجمة الدكتور علي سعد لمختارات من شعر الشاعر التركي الكبير ناظم حكمت ، ونشرها عام ١٩٥٢ ، كانت بمثابة النار المتوهجة التي صادفت فينا تطلعا مشبوبا إلى آفاق الحرية والعدل والكرامة الإنسانية ، والثورة علي القيود والمستبدين والمستعمرين . فقد كان شعر ناظم حكمت الذي قرأناه في ترجمة الدكتور علي سعد دعوة إلى الثورة علي الظلم والتغني بقيم العدل والحرية ، والإيمان بالحياة والمستقبل ، وزاد من روعته أن صوت الشاعر كان يصل إلى نا وإلي الملايين في كل العالم والشاعر نفسه سجين في سجون تركيا ، يحلم بالحرية ويتطلع إلى يوم الخلاص .

كان تفكير علي سعد في ترجمة ناظم حكمت - وفي ذلك الوقت من تحرك المد القومي العربي وانطلاق هتافات الحرية في أرجاء الوطن العربي من المحيط إلى الخليج - اختيارا رائعا وموفقا قوميا يحسب له ، فقد كان واضحا أن المترجم الواعي بشروط اللحظة التاريخية يبحث عن زاد ثوري للمناضلين من أجل الحرية والمحاربين - بكل قواهم - للاستعمار . وكانت أشعار ناظم حكمت في بساطتها وعمقها وإنسانيتها وسحر نفاذها إلى القلب وتحريكها للوجدان بمثابة ما ئدة روحية وطاقة قتالية هائلة للثوار والمقاتلين . ولم يكن الشاعر الفرنسي تريستان تزارا - في دراسته البديعة عن ناظم حكمت والتي أورد الدكتور علي سعد سطورا منها في ثنايا تقديمه للترجمة - بعيدا عن هذا الوعي بالتأثير الطاغي لا شعار ناظم حكمت وهو يقول: وناظم حكمت اهتدي - خاصة عن طريق تعميق الموارد التي كانت تمده بها عادات بلاده وأساليبها والتي تبني بعض صيغها في التعبير بعد إعطائها طابعها الحاضر الحديث - إلى احتواء مضمون هذا الشعر الذي تعصف فيه هذه الحرارة الإنسانية ، حيث النداءات إلى العدالة وإلي الانقضاض علي الاستبداد تحمل طعم الحياة نفسها .

ان الصورة الشعرية عند ناظم - علي صلتها باللفظ - هي فعل شعري أكثر من كونها تشبيها أو تقريب مفردات متباعدة . وهذا الفعل هو الذي يحدد - في أكثر الأحيان - الطابع الملحمي في أشعاره ، حتي ليمكن القول إن شعره ليس إلا شعر أفعال . وإن الظرف الذي يرتكز عليه ليس إلا مظهرا من تجربة جميع بني الإنسان في كل الأصقاع . وإن المعني والمبني عند ناظم - بترابطهما المتبادل - غير قابلين للانفصال سواء من الوجهة التكنيكية أو وجهة الصيرورة الإنسانية . وبوسعنا أن نقرر - بهذه المناسبة - أن الشعر يبدأ حيث تكف عن الظهور مشاكل الجوهر والشكل ، وأن الحقيقة الجديدة التي تولد ، والتي تحمل طابع الأصالة الشعرية نفسها ، تستطيع عند ذاك أن تدخل في التراث الثقافي الإنساني ، وأن تفعل كالخميرة في تحول العالم .

ويعلق الدكتور علي سعد علي هذه السطور بقوله : إن شعر ناظم حكمت الذي يستقي ما دته من واقع العيش العادي وأبسط الحوادث إلى ومية التي تعطي للحياة طابعها البغيض ، ذا الوتيرة الواحدة المتصلة ، يعرف كيف يجنبك الشعور بتفاهة هذا الواقع أو بعبث العيش ، فهو إلى جانب موهبته في اكتشاف المغزي العميق والدلالات الخصبة في أتفه الحوادث - وهو بذلك يتابع أعرق تقاليد الحكمة عند القدماء - يتقن فن تحبيب الحياة إلى الناس ، وبذلك يستطيع كل إنسان أن يتلقي في شعر حكمت دروسا في التفاؤل والرجاء والإيمان بالحياة .

ففي كل بيت من شعر ناظم حكمت تشعر بإمكان غلبة الحياة علي الموت والمرض والألم والظلم . ورغم كل أهوال السجن الذي دفن فيه أجمل أيام عمره ، ورغم أن الحياة لم تهادنه ولم ترفق به ولا بإخوانه - بؤساء الأرض - ولم تسخ عليه بمقدار ما حاول أن يسخو به علي الناس ، فإن أي مرارة لم تتطرق يوما إلى قلبه أو شعره . . ففي أعماقه ظلت شعلة من الإيمان بجمال الحياة وبالولاء لها .

يقول ناظم حكمت في قصيدته يوم الأحد :

إنه الأحد إلى وم

ولأول مرة أخرجوني إلى الشمس

اليوم

وأنا

لأول مرة في حياتي

تطلعت إلى السماء دون أن أضطرب

مستغربا أن تكون بعيدة عني

إلي هذا الحد

وأن تكون زرقاء إلى هذا الحد

وأن تكون فسيحة إلى هذا الحد
وجلست علي الأرض
وكلي تهيب
وألصقت ظهري بالجدار الأبيض
فليس الآن موضوع تفكير
أن ألقي بنفسي في الخضم
ليس من نضال في هذه البرهة
ولا من مشاغل حرية أو نساء
أرض وشمس وأنا:
أنا إنسان سعيد

هذه القدرة علي الفرح بالحياة، وعلي إعلان سعادته بها - علي الرغم من وجوده داخل أسوار السجن الذي أكل من عمره ستة عشر عام ا - هي سر تلك الكيمياء الشعرية التي تلفح قارئه بوهج الأمل والتفاؤل والقدرة علي الانتصار، في مجموعته، رسائل وقصائد التي أبدعها ناظم حكمت بين عام ي١٩٤٢ و١٩٤٦، وحقق في ترجمتها الدكتور علي سعد مستوي رفيعا من الصياغة والحضور الشعري تتجلي خصائص شعر ناظم، بدءا من مفردات الحياة البسيطة المتناثرة، مرورا بهذا الخيط - غير المنظور - الذي يضفر شتي العناصر بعضها ببعض لا نه خيط الحياة والمصير، عبورا فوق المأساوي والفاجع - لا نه وقتي وعابر - وصولا إلى الإشراقة الأخيرة التي تعني دوما انتصار الأمل وانتصار الحياة. يقول ناظم حكمت في رسائل يتجه بها إلى زوجته ويرسلها من وراء القضبان:

ياكنزي الوحيد في هذا العالم
أنت تقولين لي في رسالتك الأخيرة:
إن رأسي يتفجر وإن قلبي ينفطر
ماذا لو شنقوك ؟
وماذا لو فقدتك ؟
إنني سأموت
إنك ستعيشين يا امرأتي
فإن ذكراي ستتبدد
كدخان في الريح
إنك ستعيشين يا أخت قلبي
ياذات الشعر الأحمر

فإن الأموات لا يشغلون
أناس القرن العشرين أكثر من عام !
الموت ؟
أأموت متأرجحا علي طرف حبل ؟
إن قلبي لا يستطيع الإذعان
لهذه الميتة . .
ولكن . . .
اطمئني بالا ، يا حبيبتي
فإذا قدر ليد غجري سوداء وشقراء
أن تطوق بالحبل عنقي
فسيتلمسون عبثا
في عيني ناظم الزرقاويين
آثار الخوف
وفي مغيب آخر أيام عمري
سوف أراك وأري أصدقائي
ولن أحمل معي تحت الثري
غير حسرة الأغنية التي لم تنته !

* * *

يانحلتي . . يازوجتي . . يانحلتي ياذات القلب الذي من ذهب
يانحلتي ياذات عينين أحلي من الشهد
لماذا كتبت إلى ك أنهم يطلبون إعدامي ؟
فإن قضية محاكمتي ليست إلا في بدايتها
وفوق ذلك . . .
فإنه لا يمكن نزع رأس إنسان
كما ينزع رأس لفت
هيا ، وخففي عنك
فإن ذلك ليس إلا إمكانيات بعيدة
وإذا كان لديك ما ل
اشتري لي سروالا داخليا من الصوف
فإن داء الأعصاب لا يزال يلازم فخذي
ولا تنسي أنه لا يليق بامرأة سجين
أن تحمل أفكارا سوداء !

في ليلة الخريف هذه ،
أنا ملئي كلماتك
كلمات خالدة خلود الزمن ، والمادة
كلمات بثقل إلى د
كلمات مشعشعة بالنجوم
وقد بلغتني كلماتك
كلماتك المحملة بك
كلماتك ، يا أمي
كلماتك ، ياصديقتي
وقد كانت حزينة ومريرة
وكلها شجاعة وبطولة
لقد كانت كلماتك رجالا !

* * *

إن أجمل البحار
هو ذلك الذي لم نذهب إلى ه بعد
وأجمل الأطفال
من لم يكبر بعد
وأجمل أيامنا
لم نعشها بعد
وأجمل ما أود أن أقوله لك
لم أقله بعد !

هذا الفرح العارم بالحياة ، وهذا الانتظار المتفائل لليوم القادم وللمستقبل كله ، إكسير هائل يطلق شعر ناظم حكمت الذي انتصر ـ في آخر الأمر ـ علي السجن والسجان ، وأتيح له في آخر أيام عمره أن يتجول بحرية في العالم الذي أحبه وغني من أجله ، وأن يجيء إلى نا هنا في مصر مشاركا في مؤتمر كتاب آسيا وإفريقيا ، في زمن عبد الناصر الذي اختصه بحفاوة تليق به وبدوره النضالي وبشعره . وعندما جاء إلى نا ناظم حكمت كانت كلماته قد سبقته ، مرفوفة بفضل مترجم عظيم ومبدع جميل هو الدكتور علي سعد ، الذي أدخل شعر ناظم حكمت إلى بيوتنا وقلوبنا . ليصبح هذا الشعر الإنساني الفريد واحدا من المؤثرات الكبري في حركة الشعر الجديد وفي قصائد أعلامها الرواد . وكأن احتفال لبنان الآن بعلي سعد يذكرنا بما دعوت إلى ه في مقال سابق بأهمية أن نتجه شرقا ، وأن ننفتح علي آداب أخري عظيمة لا نها آداب شعوب وحضارات وثقافات

عريقة كالهندية والصينية واليابانية والفارسية والتركية ، تلك هي أهمية أن نتجه شرقا ، وأن نتخلص من سيطرة المركزية الأوروبية التي حبستنا طويلا في أسر الأدبين الانجليزي والفرنسي ـ علي مستوي الترجمة والمتابعة ـ دون أن نعير اهتماما ، ولو قليلا ، إلى الآداب الأخري في العالم . ولسوف يذكرنا ناظم حكمت ببلده تركيا الذي يبدو أنه فقد هويته ، فلم يعد شرقيا ، ولن يكون غربيا ، وسيسقط حتما في المنزلة بين المنزلتين ، وسيجنح ـ نتيجة لهذه العزلة الحضارية ـ إلى السقوط في أسر الكيان الإسرائيلي الصهيوني ، استقطابا ومشاركة واتفاقا استراتيجيا ، وتربصا بالوجود العربي من حوله !

وتبقي كلمات ناظم حكمت في القرار البعيد من القلب ، وهو يتحدث عن الذبحة الصدرية التي أصابت قلبه وهو سجين ويقول:

نعم ، أيها الطبيب ، ها هي عشر سنوات
ستمضي وأنا لا أملك ما أقدمه لشعبي المسكين . .
غير تفاحة . .
تفاحة حمراء . . هي قلبي !
ليس بسبب تصلب الشرايين ، ولا النيكوتين
ولا السجن
تنتابني الذبحة الصدرية
إنني أتأمل الليل عبر القضبان الحديدية
ورغم كل هذه الجدران التي تقوم في صدري
فإن قلبي يخفق مع أبعد نجم في السماء ! !

الوجدان الشعبي وصناعة البطولة

بقلم : فاروق شوشة

في اسبوع واحد أتيح لي أن أقرأ كتابين ممتعين:

البطولة العربية والذاكرة التاريخية لا ستاذة الأدب الشعبي الناقدة الكبيرة الدكتورة نبيلة إبراهيم والبطل في الوجدان الشعبي للكاتب القصصي والروائي الكبير محمد جبريل .

الكتابان - علي اختلاف منهجيهما في تناول موضوع البطل الشعبي والبطولات الشعبية - يثيران قضية المواجهة القومية الراهنة مع العدو الصهيوني والتصدي لسلسلة طويلة من التآمر والعدوان والحصار يقوم بها الطامعون في ثروات هذه الأمة ، المتفقون - مع اختلافهم - علي ضرورة إضعافها وإذلالها وتطويق كل محاولاتها للنهوض والتحرر والانطلاق .

في مثل هذه الحال التي تعيشها أمتنا الآن - بكل أخطارها وتحدياتها - كان الوجدان الشعبي الجمعي يقوم بصناعة أبطاله الشعبيين ، منطلقا من الواقع إلى الخيال ، ومن الحقيقة إلى الأسطورة ، في صياغة ملحمية فذة ، تحمل نبض هذا الوجدان وعرامته وحرارته ، وتجيش بتلقائيته وشجاعته الفريدة النادرة المثال ، وتعزف علي أوتار القيم العربية في النجدة والحمية والشرف والكرامة والثأر والتحرر .

تقول الدكتورة نبيلة إبراهيم وهي تتحدث عن خصوصيات البطل العربي: أهم مظهر يلفت النظر في بطولة هؤلاء الأبطال وغيرهم هو فائض البطولة عندهم . وعلي الرغم من أن فائض البطولة خاصية مرتبطة بالبطل الشعبي بصفة عام ة ، فإن ما يهمنا بالنسبة للبطل العربي هو كيفية توظيف هذا الفائض في خدمة التاريخ والدين والمجتمع .

إن فائض البطولة لدي البطل العربي ملك له ، وفي وسعه أن يوجهه نحو الخير أو نحو الشر ، أي أن فائض البطولة يمكن أن يكون عام ل بناء بقدر ما يكون معول هدم ، وكل من البناء والهدم موجه نحو البطل وجماعته ، أي أن البطل حتي في توظيف بطولته نحو الخير أو نحو الشر . ولعل هذا هو السبب في إصرار بعض السير الشعبية مثل سيرة عنترة وسيرة ذات الهمة وغيرهما علي تحرير البطل من العبودية قبل أن يقوم بأعماله البطولية للخير الجماعي علي الوجه الأكمل ، ذلك أن البطولة مرتبطة بالحرية . وهنا يتمثل كذلك الفرق بين بطولة عنترة وذات الهمة - علي سبيل المثال لا الحصر - وبطولة أبطال السيرة الهلالية . فالبطولات الأولي كانت موجهة نحو سيادة الأمة الإسلامية ، بما تتضمنه هذه السيادة من نظام اجتماعي ونظام ديني ، أما عند بني

هلال فقد وظف فائض البطولة عندهم ليكون معول عدم للطرفين المتحاربين ، وبذلك كانت نهاية السيرة هي المثل الشعبي المستخلص منها : وكأنك يابوزيد ما غزيت .

وتواصل الدكتورة نبيلة إبراهيم تقصيها لخصوصيات البطل العربي وقسماته وملامحه في السير الشعبية العربية فتطرح فكرتها القائلة بأن البطل - إلى جانب تأكيده مفهوم البطولة بارتباطها بقضية الحرية - كان في الوقت نفسه يكفر ببطولته عن دنس لحق بمجتمعه . فما من سيرة من السير العربية التي تحكي عن بطولة بطل إلا وهي تلح علي الكشف عن مساويء لحقت بالمجتمع . فكان علي البطل أن يناضل في جبهتين في آن واحد : الجبهة الداخلية ، حيث تسود بعض مظاهر الفساد ، والجبهة الخارجية حيث يقف عدو قديم كافر مهددا البلاد . وعندئذ يكون البطل هو المناضل الذي يعد بالعودة إلى حصن النظام الديني والنظام الاجتماعي ، وكأنه يرتبط بذلك بعقد بينه وبين الله من ناحية ، وبينه وبين المجتمع من ناحية أخري . وبذلك تكون أعماله البطولية بمثابة التكفير عن ذنوب قومه ، أو بمثابة الثمن الذي ينبغي أن يدفع غاليا في مقابل العودة إلى السلام علي المستويين :

الديني والدنيوي .

ويقول الروائي محمد جبريل وهو يتناول - من خلال منهج فني إبداعي - موضوع البطل في السيرة الشعبية : وإذا كانت السيرة الشعبية تتناول - في الأغلب - بطلا تاريخيا حقيقيا ، وأحداثا تاريخية حقيقية ، فإن الوجدان الشعبي قد أضاف إلى الأبطال الحقيقيين ، والأحداث التاريخية الحقيقية بما أعاد تشكيل البطل والحدث علي الصور التي يريدها أو يتمناها . ويعتمد جبريل علي دراسات الأستاذين الدكتور أحمد أبو زيد ومحمد رجب النجار عندما يريد أن يجلو عناصر صورة البطل ويزيدها وضوحا . فالأول يري أنه كثيرا ما يمتزج القص التاريخي بالحكي الخيالي في الأعمال الأدبية الشعبية ، ويرتبطان معا في وحدة عضوية يصعب التمييز فيها بشكل قاطع بين مختلف المكونات الواقعية والخيالية أو حتي الأسطورية .

والثاني من رأيه أن بعض الشخصيات التي قدمتها السير والحكايات الشعبية يشك في وجودها ، مثل المهلهل وسيف بن ذي يزن ، وذات الهمة ، وحمزة البهلوان .

كما حرصت السير الشعبية علي تأكيد دور المرأة بما يصعب إغفاله ، فثمة أسماء شجر الدر وأم علي الزيبق وخضرة الشريفة والسفيرة عزيزة وذات الهمة والجازية . وقد أفردت الدكتورة نبيلة - في كتابها الجميل الممتع - فصلا كاملا للمرأة البطل تناولت فيه نماذج المرأة البطل في السير الشعبية ، وتوقفت بصورة تفصيلية عند الأميرة ذات

الهمـة باعتبارهـا الـنمط الفريـد الـتي لم تـستغل في الـسيرة في علاقـات جنـسية ولهـذا تنتفـي عنهـا لغـة الإثـارة الجنـسية علـي عكـس مـا يحـدث بالنـسبة للـبطلات الأخريـات . بـل كـان يــشار إلى هــا علــي الــدوام باعتبارهــا : الأمــيرة المجاهــدة ذات الهمــة ، قــاهرة الأقــران ، وقناصـة الـشجعان ، ومبيـدة الفرسـان ، المجاهـدة في طاعـة الـرحمن . وفي رأيهـا أن سـيرة الأمـيرة ذات الهمـة تهـدف إلى تحريـر شـعب مـن قيـود الماضـي الـتي لا تـزال تكبلـه وتعوقـه عـن التقـدم ، كمـا تهـدف إلى تحريـره مـن قيـود الحاضـر علـي المـستويين الـسياسي والاجتمـاعي . وهذا معني أنها سميت فاطمة بنت مظلوم .

ولم يكن السبب في هذا الظلم سوي تلك المواضعات الاجتماعية البالية .

هكـذا تقـدم لنـا هـذه الـسير الـشعبية نمـاذج شـتي مـن البطولـة الـتي أبـدعها الوجـدان الـشعبي الجمعـي ، متمثلـة في سـيف بـن ذي يـزن وعـنترة وأبـي زيـد الهلالـي وذات الهمـة والظـاهر بيـبرس وعلـي الزيبـق والـشاطر حـسن وغيرهـم ، هـذه البطولـة الـتي تطالعنـا ـ في هـذه الأيـام ـ تجلياتهـا مـن خـلال انتفاضـة الـشعب الفلـسطيني البطـل ، وثـورة الحجـارة الـتي تتحـدي المـستحيل ، والـتي يؤكـد شـبابها وصـبيتها أنهـم يحملـون أرواح هـؤلاء الأبطـال الـشعبيين ويجـسدون قـدراتهم الخارقـة وإرادتهـم الفولاذيـة وعـزائمهم الـتي لا يقهرهـا خـوف أو يأس أو اختلال في موازين القوي والسلاح .

مـن المؤكـد أن الوجـدان الـشعبي يتكـيء الآن إلى جـدار صـلد مـن هـذه النمـاذج البطوليـة ، ويـري فيهـا نـسيجا حيـا متـصلا لا يتوقـف عنـد حـدود الماضـي البعيـد أو القريـب ، فـشعبية عـنترة ظلـت حيـة وممتـدة بـدءا مـن العـصر الجـاهلي حـتي عـصر الحـروب الـصليبية ، وصـورة كـل مـن أبـي زيـد الهلالـي والـشاطر حـسن لا تـزال تخايـل شـبابنا المتـوهج بعناصـر الفتوة والبطولة في ريف مصر وصعيدها حتي إلى وم .

وقـد اسـتدعاها الـشاعر الكـبير صـلاح عبـد الـصبور في قـصيدته الرائعـة شـنق زهـران ومازلـت أحـتفظ في وجـداني بأصـداء حيـة لـذلك الـزمن القـديم الجميـل ، عنـدما كنـت أخطـو في مـدارج الطفولـة ، وأسـتمع لا ول مـرة إلى إنـشاد الـشاعر الـشعبي سـيد حـواس في المقهـي المجـاور لبيتنـا في القريـة ، وإيقاعاتـه وترانيمـه مـصحوبة بأصـوات جوقتـه المـصاحبة تملـؤني بفـيض إحـساس غـامر بالـشعر والبطولـة معـا وهـو ينـشد الـسيرة الهلاليـة علـي مـدار ليـالي شـهر رمـضان بعـد الانتهـاء مـن أداء التراويـح الـتي تعقـب صـلاة العـشاء وحـتي موعـد الـسحور . ورجـال القريـة وشـبابها ـ والمحظوظـون مثلـي مـن أطفالهـا ـ يتـابعون هـذا الحـدث الـذي تحتـشد مـن أجلـه القريـة وتتهيـأ شـهرا في كـل عـام ، مـستعيدة تاريخهـا القـديم عنـدما كـان شـعراء الربابـة ـ الـشعراء الـشعبيون ـ يقيمـون فيهـا ليكونـوا مقدمـة الجيـوش المـصرية ، في مواجهـة الحمـلات الـصليبية القادمـة مـن الـشام لا حـتلال مـصر عـبر مينـاء دميـاط ـ الـشرقية الرئيـسية في ذلـك الوقـت قبـل إنـشاء مينـاء بورسـعيد بمئـات الـسنين ـ ومـن هنـا كانـت تـسمية

قريتي باسم الشعراء تسجيلا وتأكيدا لهذا الدور الذي قام به الشاعر الشعبي وهو ينشد السيرة الهلالية وغيرها من سير البطولة لتحميس الجنود علي القتال ، وشحن وجدانهم بوقد الإيمان والرغبة في الاستشهاد من أجل الدين والوطن .

ومازال في وجداني - حتي إلى وم - التصور الذي رسمه خيالي حينذاك لا بي زيد الهلالي والزناتي خليفة ودياب بن غانم وغيرهم لونا وجسما وشخصية وقوة وفتكا ، وهو تصور لا يختلف كثيرا عن اللوحة التي رسمها التحليل الذكي الذي يقدمه محمد جبريل في كتابه لا بي زيد الهلالي ، وهو في صورة الفارس الشجاع الذي أحاطت به الخوارق والمعجزات منذ الميلاد إلى الوفاة . كانت أمه قد أنجبت بنتا هي شيحة ، ثم توقفت عن الإنجاب أحد عشر عام ا . ثم تمنت - كما تقول السيرة - أن يرزقها الله ولدا ذكرا ، وخرجوا مرة إلى بستان فرأت غرابا أسود يطرد الغربان ويقهرهم ويفتك بهم . فقالت: إلهي ، أسألك أن ترزقني ولدا ذكرا ، ولو كان أسود اللون ، لعله ينشأ يغلب الفرسان ويقهرهم مثل هذا الغراب .

ويصفه الدكتور النجار بأنه كان يتمتع بقوة جسدية غير عادية تؤهله للبطولة المادية ، فكان الأمير أبو زيد من الجبابرة المعدودين في الحرب والقتال والطعن والنزال .

وكان جهوري الصوت وصيحته مثل صوت الرعد القاصف ، وأن صرخته في الميدان تهد الجبال الرواسي وتزلزل جيش الأعداء ، وكانت قوته الجسدية الهائلة تتيح له - أحيانا - مواجهة كتيبة أو قبيلة أو جيش ، قوامه عشرة آلاف فارس ، بمفرده ، أو في نفر قليل من أبطاله المخلصين .

يلفت النظر - في هذا السياق - أن الوجدان الشعبي الجمعي لم يتوقف أبدا عند شخصية صلاح الدين الأيوبي بالرغم من أنه نموذج باهر من نماذج البطولة التي اهتمت بها السير الشعبية . وعندما سألت الدكتورة نبيلة إبراهيم في حوار تليفزيوني تناول كتابها البطولات العربية - عن سر هذه الظاهرة ، أجابتني بأن الوجدان الديني اختار أن يركز علي شخصية السيد البدوي لتمثيل هذا العصر - عصر الحروب الصليبية - وكان هذا التوجه الديني بديلا عن الاهتمام بنموذج صلاح الدين مما يوحي بأن لبعض هذه النماذج البطولية حظا أوفر من غيرها ، وقابلية لا ستهواء الوجدان دون سواها ، فقد وقع الاختيار مثلا علي عنترة - نموذجا للبطولة العربية في العصر الجاهلي - بالرغم من وجود نماذج أخري للبطولة تمثلت في فرسان آخرين مثل عمرو بن معدي كرب ، وعامر بن الطفيل وعمرو بن كلثوم . لكن يبدو أن نموذج عنترة كان نموذجا مشعا لا رتباطه بقضية التحرر من العبودية في أول الأمر واسترداد حريته المغتصبة ، ثم لا رتباطه بقصة حب بالغة التشويق هي قصة حبه لا بنة عمه عبلة ثم ما أحاط ببطولته من مواقف وحكايات

فتحت بابا لما يشبه الخوارق والأساطير فضلا عن فحولته الشعرية التي جعلت من شعره لسانا يحمل بطولته ويروي أحداث حياته ويخلد مكانته فارسا وشاعرا في الوقت نفسه .

مما أعطي لسيرته الشعبية مجالا للامتداد ببطولته وصولا إلى إسبانيا وشمالا إلى أفريقية بالرغم من انتمائه - تاريخيا إلى حقبة ما قبل ظهور الإسلام . الدكتورة نبيلة إبراهيم تتبع في كتابها منهجا بحثيا أكاديميا ، ترفدها فيه خبرتها العميقة - علي مدي سنوات طويلة منذ حصولها علي الدكتوراه من الجامعات الألمانية عام ١٩٦٢ - بالأدب الشعبي واهتمامها الواسع بالسير الشعبية والقصص الشعبي والدراسات الشعبية وفن القص والحكاية الخرافية والفولكلور والمقومات الجمالية للتعبير الشعبي . والروائي محمد جبريل يتكيء علي حسه الفني وموهبته الروائية من خلال دراسة فنية تغوص في واقع العديد من الشخصيات التي حولها الوجدان الشعبي المصري إلى نماذج للبطولة متسائلا طيلة الوقت : لماذا أبرز هذا الوجدان شخصيات معينة وأهمل غيرها ؟ وكيف يصنع الوجدان الشعبي نموذجه البطولي ؟ واضعا نصب عينيه إضاءة زوايا عديدة للحياة المصرية في أبعادها المختلفة وقيمها الحاكمة والباقية ، غير بعيد عن فنه الأساسي: القص الروائي .

والكتابان معا - في اكتمالهما وتأثيرهما المشترك - دعوة صادقة لا عادة الوعي بقيم البطولة كما تكشف عنها السير الشعبية ، وتفسير - غير مباشر - للملحمة البطولية التي يصوغها الآن أبطال الانتفاضة بدمائهم وما أروعها من دعوة . وما أعظمها من رسالة !

الملك الشاعر وخطيئته العظمى

بقلم: فاروق شوشة

والملك الشاعر هو المعتمد بن عباد ملك إشبيلية الذي قام القسم الأدبي في دار الكتب والوثائق القومية بإصدار طبعة جديدة من ديوانه ـ هي الطبعة الثالثة ـ وهو الديوان الذي ظلت قصائده ومقطوعاته متناثرة متفرقة عبر العديد من مصادر الأدب العربي في الأندلس ، حتي قام علي جمعه وتحقيقه الأستاذان العالمان الدكتور حامد عبد المجيد والدكتور أحمد أحمد بدوي ، وراجعه عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين ، وصدرت طبعته الأولي ـ ضمن مطبوعات المطبعة الأميرية بالقاهرة ـ عام ١٩٥١ . ولدار الكتب والوثائق القومية فضل كبير في وصل القارئ المعاصر بهذه الإصدارات لعدد كبير من أمهات الكتب الأدبية واللغوية والدواوين الشعرية ، وإعادة التعريف بها ، فضلا عن التذكير بجهود صفوة من العلماء الباحثين والمحققين الذين أفنوا جل أعمارهم في هذه المهمة النبيلة وهذه الغاية السامية ، وهم يكدون ويكدحون وراء كلمة هنا وتعبير هناك ومعني خفيت دلالته وتصحيف صعب وجه الاستدلال فيه . هذا الإحياء لنفائس تراثنا العربي واحد من الأدوار الباقية لهذه الدار العريقة ، وتأكيد لرسالتها المستمرة ـ التي تعثرت أحيانا ـ في الوعي والتنوير ، وإعادة لها لموقعها القديم المتميز في قلب الحياة الثقافية والفكرية بما تقوم به من حفاظ ونشر ولحاق بالعصر – في الأساليب والوسائل والإمكانات – وإتاحة المجال للدراسة والإطلاع ، وصيانة النفيس من مخزون الأمة الفكري والثقافي والأدبي والفني في شتي الفروع والمجالات .

من هنا يصبح التذكير بديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية درسا بليغا في اتجاهين: أدبي وحضاري ، أو فلنقل: شعريا وسياسيا ، وإذا بدأنا بالوجه السياسي قلنا إن المعتمد بن عباد يمثل وجهين لحياة بدأت بزهوة الحياة وتألقها أميرا فملكا وانتهت به أسيرا مقيدا مهاناحتي الموت ، وكان الدرس البليغ من هذه الحياة العاصفة أن الذي يستبيح لنفسه الاستعانة بأعداء أمته ودينه علي منافسيه من بني قومه وجلدته إنما يفتح علي نفسه أبو اب الحجيم الذي سيكون أول من يصلي نيرانه ويحترق بلهيبه .

تحدثنا مقدمة الديوان عن المعتضد – والد المعتمد ـ الذي عمل علي تكوين دولة غدت أقوي دولة بالأندلس في عهد ملوك الطوائف ، مهدها فوق أطراف الأسنة وصير أكثر شغله فيها شب الحروب وكياد الملوك وإهراج البلاد وإحراز التلاد . وجاء المعتمد ـ ملكا علي إشبيلية ـ بعد وفاة أبيه ، فواصل الخطو علي ما رسم له أبو ه فكانت له حروب وعليه آخر الأمر خطوب ، وقد استفحل أمره بغربي الجزيرة وعلت يده علي

معظم الأمراء ، ما عدا خصومه ومنافسيه من بني ذي النون أمراء طليطلة ويرتكب المعتمد سقطته الجسيمة - التي أدت به إلى نهايته المأساوية - حين يعهد لوزيره ابن عمار بالتفاوض مع ألفونسو السادس أمير قشتالة لعقد معاهدة سرية بينه وبين المعتمد ، يتعهد فيها ملك قشتالة بمعاونة المعتمد علي محاربة خصومه في طليطلة ، ويتعهد فيها المعتمد بأن يترك ألفونسو حرا في محاربة طليطلة .

وأدرك المعتمد ولكن - بعد فوات الأوان - أن سقوط طليطلة أمنع حصون المسلمين في الأندلس في يدي ألفونسو سنة٤٧٨ هجرية هو بداية النهاية ، حين استدارا الفونسو وأعلن الحرب عليه وأصبح مصدر تهديد لا مراء الطوائف باجتياح ممالكهم والعدوان علي مدنهم ، فاتفقت كلمتهم علي استصراخ إخوانهم المسلمين في إفريقية ، واستغاثوا بيوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين الذي استجاب لندائهم وعبر البحر إلى الأندلس في جيش هائل ، وقاد قوي الإسلام تحت لوائه لقتال الفونسو في معركة الزلاقة التي انتهت بانتصار ابن تاشفين وأمراء الطوائف لكن هذا النصر كان يحمل في ثناياه بذور خطر جديد هو طمع ابن تاشفين نفسه في إمارات الأندلس بدءا بغرناطة فقرطبة فرندة ثم إشبيلية ، حيث المعتمد بن عباد وانتهي حصار إشبيلية باقتحامها وترويع من فيها وأسر المعتمد وتوثيقه بالأغلال وحمله وآله في سفائن سارت بهم في الوادي الكبير في طريقهم إلى أغمات وقد احتشد الناس علي ضفتي النهر يودعون راعيهم بالبكاء ويذرفون علي أيامه سخين الدموع وظل المعتمد في أسره طيلة سنوات ، مغلول الساقين ، وتضطر بناته إلى ممارسة الغزل لتواجهن بأجرته مطالب الحياة ، فإذا ببعض ما تغزله غزل لبنت عريف شرطة أبيها - الملك السابق - وتدخل عليه بناته في سجنه وهن يزرنه في يوم عيد في أسمال رثة بالية حافيات الأقدام حاسرات الرؤوس ، عندئذ تبلغ المأساة ذروتها وتعصف بوجدان الأب الملتاع العاجز عن حماية بنياته عواصف الأسي والتفجع ، والندم علي خطيئته التي بدأت بالاستعانة بعدوه ، ولكن بعد أن فات الأوان !

مثل هذه الحياة العاصفة - بوجهيها المنعم والبائس - لا بد أن تنعكس في شعره نغمات شتي وألحانا متباينة - شعره إذن صورة لنفسه ومرآة لا حداث عصره ووقائع زمانه (لمن يحبون أن يلجأوا إلى نظرية المرايا في تفسير النصوص الأدبية والشعرية) لكن لا ننا أمام شاعر غير محترف بشعره يقول حين يريد ويصمت حين يريد فنحن لا نتوقع منه ما نتوقعه من شاعر جهير الصوت كابن هانئ الأندلسي أو شاعر مولع بالطبيعة والجمال كابن خفاجة ، أو شاعر تؤرقه مواقف حبه وطموحه ومكائد منافسيه وأعدائه كابن زيدون . المعتمد - كما يصفه ديوانه بحق في المقدمة الضافية التي كتبها عنه الدكتور حامد عبد المجيد ملكا وشاعرا - عصفور غرد وطائر طليق ومغن يغني لنفسه معظم الوقت علي هواه ، دون قيود تكبله أو مطالب وضرورات توجهه وتقوده ، بهذا المعني فهو قريب من الصورة

الشعرية للخليفة الشاعر عبد الله بن المعتز - الذي كان خليفة عباسيا ليوم واحد قبل أن يقتل - لكن ابن المعتز يفوق المعتمد من حيث اتساع الأفق الشعري وحجم الموهبة الشعرية والدور البلاغي الذي قام به في مسيرة الإبداع الشعري العربي خاصة في دائرة البديع .

وتجربة الأسر والاغتراب - التي كان لها تأثير هائل في إنضاج شاعرية عدد من مبدعي القصيدة العربية ، وتفجير طاقاتهم الشعرية ، من خلال العزف علي أوتار الأسر ومعاناة الغربة والإحساس الدامي بقص الجناحين وانعدام القدرة علي الانطلاق إلى فضاء الحرية ، هذه التجربة كانت وراء روميات أبي فراس الحمداني التي تظل في معيار الشعر الباقي - أفضل قصائده وأروع نماذجه ، كما كانت وراء قصائد البارودي وآثاره الشعرية البديعة التي تفجرت بها شاعريته وهو منفي في جزيرة سرنديب سريلانكا حاليا مع رفاقه من زعماء الثورة العرابية ، وقد كتب عليه أن يعاني ضراوة النفي والغربة وموت أحبائه - خاصة زوجته - وهو بعيد عنهم ، فضلا عن اختلاف صحبه المنفيين معه فيما بينهم ، وإثياره الإقامة وحده بعيدا عنهم في مدينة كيندي فأضيفت مرارة الوحدة إلى بقية المرارات التي نحس بلذعها في قصائده . كما كانت هذه التجربة نفسها وراء أندلسيات شوقي حين اضطره الانجليز - عند قيام الحرب العالمية الأولي وخلعهم لصديقه الخديو عباس حلمي الثاني - إلى اختيار منفاه ، فاختار اسبانيا حيث قضي قرابة خمس سنوات يعاني الغربة وضراوة الحنين إلى الوطن والأهل وموطئ الذكريات ، ويبدع - في الوقت نفسه - أروع قصائد تلك المرحلة من حياته ، وذلك العهد من عمر شاعريته الكبيرة .

هذه التجربة نفسها أصبحت حدا فاصلا بين صفحتين في شاعرية المعتمد بن عباد الصفحة الأولي التي تضم غنائياته الملكية المتوهجة باقتناص أوقات الفرح ولحظات السعادة والتقلب في العواطف السهلة الرخية التي توقظه علي سهام لحاظ جواريه ومداعبات محظياته يقول في موقف وداع بينه وبين إحداهن:

ولما التقينا للوداع غدية
وقد خفقت في ساحة القصر رايات
وقربت الجرد العتاق ، وصفقت
طبول ، ولاحت للفراق علامات
بكينا دما ، حتي كأن عيوننا
لمجري الدموع العمر منها جراحات
وكنا نرجي الأوب بعد ثلاثة
فكيف وقد طالت عليها زيادات

اين هذا الأسي الملكي والشجن المنعم في موقف وداع واحدة من بين كثيرات تقلب في نعمائهن ومباهج وصالهن ، من الصفحة الثانية التي تتجلي في موقف آخر

يستثير جماع شاعريته وإشبيلية مملكته محاصرة ، والخطر محدق بها من كل صوب ، لكنه يقرر الخروج إلى أعدائه ومواجهتهم دون انتظار لا قتحام المدينة الباسلة الصامدة ، وينصحه وزراؤه بالخضوع والاستعطاف فتستنفر شجاعته المباغته ـ القريبة من حد الجنوب ـ عنفوان شاعريته ورجولته وكبريائه وهو يقول في مواجهة اللحظة الفاصلة :

لما تماسكت الدموع
وتنبه القلب الصديع
قالوا : الخضوع سياسة
فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضوع
علي فمي السم النقيع
إن يسلب القوم العدا
ملكي ، وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه
لم تسلم القلب الضلوع
لم استلب شرف الطباع
أيسلب الشرف الرفيع
قد رمت يوم نزالهم
ألا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوي القميص
علي الحشاشئ دفوع
وبذلت نفسي كي تسيل
إذا يسيل بها النجيع
أجلي تأخر لم يكن
بهواي ذي والخضوع
ماسرت قط إلى القتال
وكان من أملي الرجوع
شيم الألي أنا منهمو
والأصل تتبعه الفروع

وتتوالي فصول الصفحة الثانية ، بوقوعه في الأسر وحمله مقيدا إلى طنجة ومنها إلى سجنه المروع أغمات ، حيث كانت معاناته طيلة سنوات انتهت بوفاته . هنا نجد شاعرا من طراز آخر : لغة وحرارة اداء وتوهج شاعرية وانكسار نفس وصوت ، هل هو

الإحساس بدنو المنية يدفعه إلى إطلاق كل ما لديه من شجون حبيسة وشكاوي مؤجلة ؟ أم هو الندم علي ملك شارك في ضياعه ـ عندما استعان بأعداء دينه وأمته من الفرنجة ليتغلب بهم علي خصومه أمراء طليطلة ـ وكانت بداية التمزق والتشرذم والاضطرار إلى الاستعانة بابن تاشفين الذي يتحول بدوره إلى طامع في ملك المعتمد وإمارته العتيدة في إشبيلية ؟ هل تصمد شاعريته في مواجهة هذه الحالة من الهوان الذي يلفه ويعتصره في سجنه ؟ وهل تقوي علي تصوير محنته وهو يري بناته ـ الأميرات السابقات ـ يغزلن للناس بالأجرة وهو في أطمار رثة وحال مزرية ؟ :

فيما مضي كنت بالأعياد مسرورا
فساء العيد في أغمات ما سورا
تري بناتك في الأطمار جائعة
يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة
أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية
كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلا
فردك الدهر منهيا ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسر به
فإنما بات بالأحلام مغرورا

وحين يستشعر دنو منيته واقتراب أجله يوصي بأن يكتب علي قبره:

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي
حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد !
بالطاعن ، الضارب ، الرامي إذا اقتتلوا
بالموت أحمر ، بالضرغامة العادي
بالدهر في نقم ، بالبحر في نعم
بالبدر في ظلم ، بالصدر في النادي
نعم هو الحق وافاني به قدر
من السماء فوافاني لميعاد

* * * *

الشكر الواجب - مرة ثانية - لدار الكتب والوثائق القومية لحرصها علي إعادة نشر هذا الديوان للملك الشاعر الذي أصبحت سيرته وشعره غطة وتاريخا وصفحة غنية من صفحات ديوان الشاعر العربي ، ودرسا بليغا لكل من فكروا ويفكرون - من الملوك والحكام العرب – في الاستعانة بالأجنبي ضد العربي والتحية للاستاذين الجليلين اللذين قاما بجمع الديوان وتحقيقه ، خاصة العالم الدكتور حامد عبد المجيدالذي كتب مقدمته إنصافية عن المعتمد الملك والمعتمد الشاعر ويبقي في أسماعنا صوت المعتمد وهويبكي ابنيه المأمون والراضي بعد أن قتلتهما جيوش ابن تاشفين وكانا أميرين علي قرطبة ورندة ويقول:

نار وساء صميم القلب أصلهما
متي حوي القلب نيرانا وطوفانا
ضدان ألف صرف الدهر بينهما
لقد تلون في الدهر ألوانا

مؤكدا أن ما ساته الفاجعة في عرشه ووطنه وأهله وذويه نتيجة لخطيئته الكبري التي لا تغتفر قد جمعت بين ما ء دمعه الهتان ونيران قلبه المتأججة وهي صورة شعرية سبقه إلى ها المتنبي حين قال:

وما الجمع بين الماء والنار في يدي
بأصعب من أن اجمع الجد والفهما

* * * *

تصويب واجب

في السطر الأول من مقال الأسبوع الماضي خطأ مطبعي لم يلتفت إلى ه ، حين تحدثت عن التحاقي بكلية التربية في جامعة عين شمس عام ١٩٥٧ فتحول التاريخ - خطأ - إلى عام ١٩٧٧ فلزم التنوية .

" أبو سنة " وغواية الإبداع

بقلم: فاروق شوشه

في كتابه الجديد: آفاق وأعماق وأوراق: ومضات نقدية ولمحات فنية يكشف الشاعر الكبير محمد إبراهيم أبو سنة ـ وهو في مجال التصدي للكتابة عن كثير من الأعمال الإبداعية الشعرية والنثرية ـ أن ما دفعه إلى التورط في الكتابة عنها لم يكن غواية النقد ، وإنما هو غواية الإبداع . وفي رأيه ـ الذي تجلوه مقدمة الكتاب ـ أن المبدع الذي يتورط في الكتابة النقدية عن الإبداع بروح التواصل والحميمية يحاول ان يسكب رحيق الإبداع في شرايين وجدانه ، ويفجر دائما ينابيع جديدة تغذي مصادر إلهامه الذاتي ففي الوقت الذي يقوم فيه بعرض أعمال الآخرين ـ يستلهمها ويتعلم من رؤاها الفنية ويكسر حاجز الغربة بينه وبينها .

لكن شاعرنا الكبير ـ بالرغم من هذه المكاشفة ـ يعترف بأن هذا البوح لا يمثل كل الدوافع الأصيلة التي دفعته ولاتزال تدفعه للقيام بهذا الدور: دور الكتابة عن المبدعين . إنه يري ـ كما يري كثيرون ـ في حياتنا الأدبية انحيازا يؤدي إلى تكريس بعض الأسماء الأدبية ، وإلقاء الضوء الساطع عليها والإشادة المستمرة بها ـ وقد يكون بعض هذه الأسماء مستحقا بالفعل للإشادة والسطوع ـ ، لكن ما يلقاه آخرون ـ وهم كثيرون أيضا ـ من إهمال وتجاهل ومواقف سلبية تتمثل في الصمت والإنكار والقفز علي إبداعهم هو الذي يحرك مبدعا مثله ، مهموما بهذا الخلل السائد والظلم الواقع ، ويدفعه إلى خوض هذا المعترك الشائك ، والحلبة ـ كما يقول ـ مزدحمة بالفرسان المدججين بأسلحتهم النقدية وثقافاتهم الموسوعية ومناهجهم الصلبة ومدارسهم الأكاديمية . لذا ، فهو يكرر أن الذي اغواه ـ بهذا الموقف وبهذه الكتابات ـ هو الإبداع وليس النقد لا نه يعرف حاجة كل مبدع لرؤية أثر عمله والآخرين لا ن البعض يصيبه الإحباط ـ وربما التوقف عن الكتابة ـ بسبب التجاهل وعدم الاكتراث به وبما يكتبه ، ثم ان فتنته بالابداع تدفعه ـ ليس فقط إلى قراءته ـ بل إلى التعبير عن اثر هذا الإبداع في نفسه ، الأمر الذي يزيد من صلته به ، ويجعله جزءا من عالمه ينفذ إلى اعماق ذاكرته . فالكتابة عن الإبداع ليست مجرد عمل نقدي بل هي إقامة علاقة حميمة معه ودخول إلى أغواره وصراع لكشف خفاياه .

أساس هذا الموقف إذن ، محبة وتعاطف ، ورغبة في الإنصاف ، ورفض للإهمال والتجاهل ، واختيار لما يثير في النفس الإعجاب والدهشة والرغبة الجارفة في الكتابة . وهو ما قام به أبو سنة في ثمان وثلاثين لوحة قلمية ، تتوهج برؤيته الثاقبة ، وبصيرته الواعية ، وحسه الأدبي والفني المرهف ، وقدرته علي النفاذ إلى أدق أسرار العمل الإبداعي الذي يعكف عليه ـ قراءة وتأملا ـ ، ولغته الصافية المتدفقة التي تنكشف

عبر مراياها أفكاره وتحليلاته ووقفاته الكاشفة ، في يسر وطواعية ، وكأننا ـ حين نقرؤه ـ محمولون علي موجة من موجات مده الشعري ، الهادئة الناعمة ، تأخذ بنا في ألفة وحرارة إلى آفاق عالمه الرحب ، وذاته المتسعة لا بداعات الآخرين . من هنا كانت وقفاته مع نزار قباني وعلي محمود طه والمازني وأمين نخلة والأخطل الصغير ـ بشارة الخوري ـ وجبران وسعدي يوسف وسميح القاسم و عبد القادر القط ـ شاعرا ـ ولوركا وابن الدمينة وأحمد سويلم ومحمد أحمد العزب ونزيه أبو عفش والشابي ، كما كانت التفاتاته إلى مدينة الإسكندرية اعلام ومآثر وإلي جهد باحث وأكاديمي مدقق هو الدكتور ما هر شفيق فريد في ترجمته لنقد: ت . اس . إلى وت (في ثلاثة مجلدات) وإلي الشعر الأندلسي . وعالم الحكايات الشعبية (وهو الذي بدأ عالم التأليف مبكرا بكتابه الجميل عن المثل في التراث الشعبي) .

كما اتسعت وقفاته والتفافاته لتشمل حديثا عن عودة الرومانسية ، وعن قراءة الشعر ، وعن مدرسة الإحياء في الشعر الحديث ، وعن لوركا في مرآة نقاد الغرب ، وعن الشعر بين الإقامة والرحيل ، وعن رواية احلام بدرية لعلي الشوباشي ، وعن الشعر: من صوت الذاكرة إلى صوت الغناء .

لقد حرصت علي تسجيل كثير من هذه العناوين ، لا دلل علي رحابة الأفق واتساع الدائرة التي يتحرك فيها أبو سنة ويتخير من بينها ما يشد اهتمامه وما يستثير وجدانه ، ولأن هناك كتبا عديدة سبقت هذا الكتاب ، تسير كلها في هذا المسار ، ويصدر فيها أبو سنة عن الموقف نفسه في تعامله مع الإبداع والمبدعين ، فالأمر اذن ليس مصادفة ولم يجيء عفو الخاطر . وإنما هو نهج حياة والتزام أدبي وأخلاقي يقوم به شاعرنا الكبير منذ سنوات عدة ، واعتقد ان هذا هو كتابه الثامن أو التاسع في هذا السياق ، تأكيدا لهذا الدور الكاشف ، وإزاء لهذا اللون المتميز من الكتابة التي تعكف علي سماه هو الومضات النقدية واللمحات الفنية التي لا يجيد اقتناصها إلا مبدع كبير ، وقد تتأبي علي ناقد محترف شغله الولع بالتنظير وجفاف البحث الأكاديمي عن ملاحقة جلوات الروح والانشغال بأدق التفاصيل في بنية العمل الإبداعي ولحمته وسداه .

يقول الشاعر الفلسطيني سميح القاسم في قصيدته عن الشهيد: سأعود أمس ، أعود أمس من السفر ، ويعود للغيم المطر ، وتعود أنت إلى أمس ، تعود محمولا علي الأكتاف نعشا ، وتعود أغنية وسنبلة وعرشا ، وتعود عصفورا يرمم في خراب الأرض عشا ، وتعود قنديلا علي الطرقات ، منديلا علي الشرفات ، أعراسا ، ولادات ، أسر ، ولك القضاء ولي القدر . .

ويقول أبو سنة: إشارة الشاعر إلى الفعل المضارع المرتبط بالزمن الماضي تؤكد فكرة الزمن المطلق في الشعر ، وتؤكد هنا أن نضال الشهيد سوف يسترجع حتما الحق

والتاريخ ، وتصبح العودة هنا مرتبطة بعودة المطر والأغنيات والسنابل والمجد . يعود الشهيد مغزي ومعني ، حيث يرمم الخرائب والأعشاش . إنها عودة أشبه بحصاد الزارع الذي لا بد أن يجني ما زرعت يداه ، فالتضحية هي التي تكفل لنا عودة حقوقنا وأعراسنا ومباهج أيامنا . يرمز الشاعر للمباهج بالقناديل والمناديل والأعراس التي تنتج ولادات جديدة وأسرا تواصل الوجود علي الأرض . إن تضحية الشهيد هي التي تستعيد لنا كل ما فقدناه أو نفقده . والشاعر يبدع هذه الصيغة المتعددة الدلالات ولك القضاء ولي القدر . حيث يهدف إلى أن الشهيد يمتلك الحكم الذي ينتظر الشاعر - الذي يمثل الآخرين - قد أصبح حتميا فإن الشعر يستجيب لهذه الرابطة الأزلية حيث من الحتم علي الشاعر أن يقتدي بالمناضل في التقدم والسعي إلى الأمام . يقول سميح القاسم: لا بد أن تمضي ، ظلامي حالك ، لا بد أن تمضي ، ظلامك حالك ، الشمس من غرب إلى شرق ، وروحي في الفضاء جذورها انتشرت ، وفي أعماق بئر النفط أورق سر موتي وازدهر . فاقطف ثمار الموت يا ابن الموت ، روحك في تراب الموت أنضجت الثمر .

ليت المقام يتسع ، إذن لا وردت امثلة كثيرة: تحمل إلى نا بعض عطر هذا الكتاب ، وبعض تفاصيل الرؤية الإبداعية التي تعامل بها أبو سنة مع هذه الآفاق والأعماق والأوراق ، كاشفا عن المزيد من الومضات النقدية واللمحات الفنية . وهو مشغول بالآخرين في زمن عكف فيه كثيرون علي تأمل ذواقهم ، والطواف من حولها ، والت عبد في محرابها ، والانشغال بها - وحدها - كتابة وتسويقا وسمسرة ، في زمن أسوأ بكثير من الزمن الذي وصفه المازني أخلاق بعض معاصريه - في أبيات بديعة استشهد بها أبو سنة في كتابه يقول المازني عن هؤلاء الذين يزحمون وجه الحياة من حولنا في كل مكان:

يتلقاك بالطلاقة والبشر

وفي قلبه قطوف العداء

كالشراب الرقراق يحسبه الظمآن

ماء ، وما به من ما ء

عاجز الرأي والمروءة والنفس

ضئيل الآمال والأهواء

ألف الذل فاستنام إلى ه

وتباهي به علي الشرفاء

ينسج الزور والأباطيل نسجا

والأكاذيب ملجأ الضعفاء

مستميت إلى المكاسب والربح
وفيء الإسفاف والكبرياء
مظلم الحس والبصيرة كالتمثال
خلو من الحجا والذكاء
قد زهاه الشموخ فاختال تيها
ولوي شدقه علي الخلصاء !

أبو سنة وانكسار الحلم

بقلم: فاروق شوشة

في ديوانه الجديد موسيقي الأحلام- الصادر عن الدار المصرية اللبنانية- يقدم الشاعر الكبير محمد إبراهيم أبو سنة بكائية هائلة تواكب انكسار الأحلام التي عاش من أجلها علي امتداد سنوات العمر الجميل ، فإذا بها في خاتمة المطاف زمن طوته يد الليالي والتغرب ، وعدم قادم ، وموت الموسيقي في الروح ، وأسراب نجوم ترحل في سحب من أكفان .

وهي ليست بكائيته وحده ، بقدر ما هي بكائية جيل كامل ، عاش طويلا علي أمل أن تمسك أصابعه بخيوط النجوم في السماء ، وترتفع قاماته إلى أعلي من المستحيل ، وتلتمع أمام عينيه بروق الغد الواعدة ، وأقانيمها الثلاثة المتمثلة في الحب والشعر والحرية . لكن ، ها هو ذا النهار يعود ساكبا نوره في ليالي الحصار ، والبلاد التي تتقاعد في آخر الليل منذ نفاها التتار ، معلنا عن أسر الحرية منذ نفاها التتار ومنذ سباها الكبار ، وعن تبدد الحب بعد خسارة الرهان ، وكأنه كان حلم ليلة قاحلة ، أو لمحة من فرح في غابة الأحزان ، وعن الشعر الذي أصبح بهتانا يمشي في الأسواق ، يتوج كل النخاسين بتاج الإحسان ويمنح كل المحتالين صكوك الغفران !

لقد عاش هذا الجيل ، بكل قطرة من دمه ، وكل ساعة من أيام عمره ، وكل نفثة من نفثات روحه وإبداع قلمه ، حميا هذه الأقانيم الثلاثة: الحب والشعر والحرية ، في ثنايا حلم ذاتي وقومي متشابك ، في مده وجزره ، انتصاراته وانكساراته ، يسعد ويشقي ، ويفرح ويتألم ، دون أن يتحول الحزن إلى يأس ، أو المعاناة إلى إحباط .

وسجلت دواوين أبو سنة اهتزاز وجدانه مع موجات هذا الحلم بدءا بديوانه الأول قلبي وغازلة الثوب الأزرق (١٩٦٥) حتي ديوانه الثاني عشر أغاني الماء (٢٠٠٢) وكأنها مرصد شديد الحساسية لعذابات هذا الجيل ومطامحه وأشواقه . الجيل الذي يمثل الموجة الثانية في حركة الشعر الجديد ، صاحب الدور المتميز في تأصيل القصيدة الجديدة وإحكام بنائها ولغتها وتوسيع آفاقها وفضاءاتها والوصول بمنجز هذه الحركة إلى تخومها البعيدة .

لست في حاجة إلى تقليد بعض نقادنا- من مدعي الانتساب إلى الحداثة- وهم يحاولون إدهاشنا بإحصاءات ساذجة عن أسماء وأفعال وصفات حملتها قصيدة أو مجموعة من القصائد ، وصولا إلى اقتناص أحكام نقدية تستند إلى هذه الإحصائيات .

ذلك أن ديوان موسيقي الأحلام لا يضطرنا إلى هذا الضرب من لعب الحواة ، فتوهجه بحال شعرية عارمة ، ولغة شديدة الشفافية ، وإيقاعات واضحة شجية ، ونسيج مكتمل الأدوات في إحكام: يجعل من تأمله متعة شعرية وروحية عميقة ، لا يعوقها إغراب أو إلغاز أو ادعاء بشعرية مزيفة . هذا التوهج وهذه الشفافية وهذا الإحكام يكشف للمتأمل في قصائد الديوان عن دوران ما دة الأحلام في صورها اللغوية المختلفة في جميع القصائد باستثناء القصيدتين المقحمتين علي جو الديوان وطقسه الروحي والنفسي ، وهما قصيدتا بغداد وأخي في العروبة في الصفحتين٣٧ ، ٣٦: تلقاني في جسد الأحلام ، نقب عني في جسد الأحلام ، وتصدح بالموسيقي الأحلام .

في صفحة ٤٤: تقيمين لا ترحلين كحلم أطالعه في المرايا .
في صفحة٥٨: هل كان حلم ليلة قاحلة ؟

في صفحة ٦٧: وسط حصباء الفيافي تشهدين علي فنائي ، تجلسين وتحلمين .
في صفحة ٧٢: وهذه الأحلام في قيودها .

في صفحة ٧٦: تنام علي وعد حلم .

في صفحة ٨١: ليرقد حلم تلألأ في شرفات المحال .

في صفحة ١٠٢: وفي الفجر تنهض حاملة حلمها .

في صفحة ١١٢: حلم علي موج الخريف .

في صفحة ١١٨: تلك زهور الأحلام .

هذا المعجم الشعري المرتبط بالحلم في كل تجلياته وصوره اللغوية له دلالته الكاشفة عن هذه المجموعة الشعرية جوا وروحا وهاجسا وجوديا . ولم يجئ هذا المعجم نتيجة للمصادفة ، ولكنه وجود حتمي مرتبط بتراجيديا الديوان المتمثلة في انكسار موسيقي الأحلام ، فيما يشبه المرثية أو البكائية . النازفة . أبو سنة هنا– من ذروة العمر والمكابدات– يستشرف حصاد الحياة والشعر والحب والوجود كله– هل هو حصاد الهشيم ؟ ـ ويسكب دمه في شرايين هذه القصائد المتوهجة بالشجن والحزن والتململ والرغبة في البكاء والبوح الأسيان:

شفق تبدد في فضاء الأغنية
وأنا أقيم علي شواطئ
ليلة لا تنتهي
أسقي الحقول ، وأشتهي قمرا يفر
ولا أري غير الرحيل

وغير دمع الساقية
سفن علي بحر الظلام
وقرية تدنو من اللهب المضيء
علي حدود الهاوية
بلد يعود من العواصف للرياح
ترنحت فيه الخطي
فنجومه تهوي
وآمال تبعثرها الخطايا الشاكية
سحب تطل من النوافذ
ثم تهرب في اتجاه الليل
يعصرها الغزاة ،
علي العيون الباكية !

أبوسنة ، المغني الكبير ، الذي طالما صنفوه علي أنه واحد من شعراء الرومانسية ، يرد إلى مصطلح الرومانسية شرفه وجلاله وحقيقة دلالته في هذا الديوان ، بعد ان اصبحت الرومانسية في سياق السرطان النقدي - المصري والعربي - تهمة مرادفة للهروب والانسحاب والسلبية والانطواء ، وهي التي انطلقت أساسا من روح ثورية عارمة ، وحس وطني وقومي ، وتمرد علي التقاليد والمواضعات الكلاسيكية . انه هنا شاعر رومانسي بالمعني الثوري الرافض والغاضب ، شاعر يثقل وجدانه عبء الهم الوطني والقومي ومسئولية الإنسان عن عصره وزمانه ، في مواجهة كل صنوف القهر والتردي والخذلان . لقد اختلطت المعايير واضطربت القيم وساد الوجه القبيح للشعارير والمتشاعرين وسدنتهم من النقاد المشبوهين فاقدي الشرف والضمير ، فكان لزاما عليه ان يطلق صيحته المدوية ، بلا زخرف أو بلاغة أو التباس ، في حسم ويقين:

نقب عني في جسد الأحلام
لكن لا تنس الموسيقي
الموسيقي روح الشعر
وروح الصدق المقدام !

وكأنه يقول شهادته لهذا الزمان في وضوح ساطع: لا شعر خارج الموسيقي ، لا شعر إلا إذا صدحت أحلام الشعراء بالموسيقي ، الموسيقي روح الشعر !

وهو يتأمل فيما حوله وفيمن حوله فيري إنسانا مغترا بما تحويه خزائنه ، وإنسانا مستوحشا ، وإنسانا خائفا ، لن ينقذهم جميعا إلا ما يحمله القلب من محبة ووفاء ، فيطلق من جديد صرخته المدوية في حسم ويقين:

كل وجود
لايسكنه الحب ـ هباء
كل وجود
لايسكنه الحب ـ شقاء

لقد فاض الكيل ، ولم يعد أمام الشاعر غير التصريح بدلا من الكتمان ، وغير البوح بدلا من التستر والاخفاء . . والبكائية التي تنتظم الديوان ـ روحا وطقسا ـ تتسع لا لوان من السخرية ، وجلجلة الإيقاع الشعري ، وانتظام توقع القافية ـ أو القوافي ـ في العديد من القصائد ، وانسيابية الأداء الشعري وتدفقه وتوتره وارتفاع مستوي حرارته ، وقصر الفواصل والأشطر الشعرية بحيث لا تعوق هذا التدفق والانسياب وقدرة فذة علي إبداع اللوحة الشعرية : تصويرا وتجسيدا ومزجا لعناصر الألوان ونسب الأضواء والظلال . . الأمر الذي يجعل اللوحة الشعرية لديه ناطقة بالمعني والدلالة ، في تفاعل عناصرها وجدلية قسماتها وألوانها :

ماء أخضر
يتدفق في أشجار بيضاء
شهب وسماء زرقاء
ترقص عارية
فوق القمم الشماء
سحب هاربة ، تطويها الريح
وتطعمها للبحر المهتاج
فيمضغها في استرخاء
أفلاك تتصادم ، أفلاك تتناغم

فوق البشر المذهولين الغرباء
تلك زهور الأحلام
يباغتها الشوق ،
فتطلق أجنحة يسكنها البرق .
تهدئها الأنداء !

مثل هذه اللوحة الشعرية ـ البديعة درس في الإبداع الشعري ـ لغة وتصويرا ـ لمتشاعري هذا الزمان ، وكشف عن حقيقة القامة الشعرية لهذا الشاعر الكبير ، الذي لا يزال نهر شاعريته مفعما بالخصوبة والقدرة علي العطاء والتجاوز والإنجاز المستمر ،

شـاعرا رومانـسيا حـتي النخـاع ، وجوديـا مـلء فـضاء الـشعر والكـون ، ملتحمـا بجـسد الواقـع وطينية أرضه وإنسانه:

سأمضي إلى آخر الحلم
أتبع ما قد يفوح من العطر
ماقد يلوح من النهر
ماقد يبين من السر
حتي نهاية هذا الفرار !

شجر الكلام

بقلم: فاروق شوشة

شجر الكلام عنوان أحدث دواوين الشاعر الكبير محمد إبراهيم أبو سنة . سبقته رحلة خصبة وعميقة مع الإبداع الشعري منذ صدور الطبعة الأولي من ديوانه الأول: قلبي وغازلة الثوب الأزرق عام ١٩٦٥ . ومنذ ذلك الحين وأبو سنة ـ عبر دواوينه المتتابعة ـ يؤكد إخلاصه وولاءه لفنه الأول: الشعر ، ويفسح لا سمه مكانا متقدما في الحركة الشعرية العربية المعاصرة ، صوتا متميزا بين أصواتها المتعددة ، ونجما ساطعا بين شعراء الموجة الثانية في مدها الشعري ، وهي الموجة التي أطلق علي شعرائها جيل الستينيات .

ومنذ جاء أبو سنة من قريته الودي في مركز الصف بالجيزة حاملا معه مخاوف طفولته المبكرة وهواجسها في مواجهة الغربة والزحام ـ في صخب القاهرة ـ وأوتاره النفسية والشعرية مشدودة إلى حدها الأقصي ، افتقادا للأمان ، وبحثا عن الوجوه الحانية التي يمكنها أن تداوي الشعور بالفقد ، واليتم ، والوحدة ، والوحشة . وهي نفسها إلى نابيع التي ستنبجس منها شاعريته المرهقة ، لكنه إرهاف النصل ، ينغرس بقدر ما عرف وجرب ، ويوغل بقدر ما يمتد العمق ويتسع الأفق . وتمتزج في هذه إلى نابيع الأولي صور القرية الهاجعة الوادعة ، حتي يحركها الزائر الغريب الذي لا يرحم فيختطف الأهل والصحب والأحباب واحدا إثر الآخر ، ووحشة الصحراء الممتدة المترامية التي تشكل الحد الثاني للقرية بينما يشكل النيل حدها الأول ، وهي الصحراء التي ستواجهه من جديد أصواتها وكائناتها المخيفة حينما يقدر لشاعرنا أن يقضي عام ا لا ينسي من أعوام تجاربه المثقلة في قرية الدوادمي بالسعودية ، ولولا أن النيل الحميم يستيقظ في أعماقه ويندي قسوة أيامه في ذلك العام الصحراوي المخيف ، ويجعله يستبدل بالواقع الذي يرزح في أسره وقيوده الضاغطة حلما شعريا بديعا نسجه أبو سنة بكل القدرة والافتتان وجسده ديوانه رقصات نيلية ، لولا أن النيل استيقظ فيه وأسعفه بالمدد ـ حياتيا وشعريا ـ كما استطاع أن يتجاوز الامتحان الصعب ، والتصحر المخيف !

لكن تقلبات الأيام ، وتكسر النصال علي النصال ، وقسوة الأهل والصحاب ، كل ذلك جعل من أبو سنة ـ هذا الكيان المرهف ـ كائنا حذرا ومتوجسا ، قلت لديه التوقعات الجميلة ، فالزمان اختلف ، والمدن للصيارف ، والمجهول لا يتكشف لعارف يحاول أن يقرأ الآتي أو يتنبأ به . إنه يمضي ومعه جراحه النازفة ، وأحلامه الذابلة ، وقلبه الكسير ، بعد أن غادره الجميع وخلفوه لوحشة الليل عبر الصحاري ،

تلاحقه الأفاعي ، وليس لديه الآن في ديوانه الجديد شجر الكلام إلا الصراخ بأعماق واد سحيق ، كما لم يكن لديه من قبل غير الصراخ في الآبار القديمة :

يحاول أن يستعيد البقايا
التي نثرتها الرياح
قديما ، علي سفحه أو ذراه
تقول المرايا وداعا لورد
تولي
ولم تكتحل عينه بالمياه
وداعا لمن لا تراه
لقد غادروه جميعا
وما خلفوا غير دمع ترقرق
في وحشة الليل
عبر الصحاري
وهذي الأفاعي تلاحقه
أينما حل ، تبغي رداه
ولاشيء إلى صراخ
بأعماق واد سحيق
وصوت ينادي صداه !

في الماضي البعيد ، في مطالع العمر ، كان أبو سنة - شأنه شأن كثيرين ممن يمتلكون أفراحا قديمة قليلة ، ولحظات من الرضا والسعادة تفجرها رسالة محبة أو ذكرى حميمة أو انعطافة إعجاب - كان أبو سنة يلجأ إلى هذا المختزن في مواجهة خواء الحاضر وشحوبه وقسوته ، منطويا علي نفسه ، يقرأ في الرسائل القديمة المكدسة ، الرسائل البعيدة الأمد ، لعله يجد من كان يضمر له الحنان ، من كان يستطيع أن يقدم له المحبة خالصة دون زيف أو غرض .

لقد أدرك - من زمان بعيد - أن هؤلاء الذين يرقدون في الرسائل القديمة هم الذين نملك أن نحبهم إلى الأبد ، وكان تعبيره الشعري - عن هذه اللحظة الإنسانية النادرة - في واحدة من أعذب قصائد ديوانه الأول قلبي وغازلة الثوب الأزرق وأكثرها عمقا وشفافية :

نعود لا غترابنا
يشدنا انكسارنا وضعفنا
إلي الرسائل القديمة المكدسة
إلي الرسائل البعيدة الأمد

لعلنا نجد
من كان يضمر الحنان
من كان يستطيع أن يحبنا
في غابر الزمان
وفي ختام قصيدته الجميلة يقول:
تري ، أيذكروننا
أولئك الذين يطعموننا الحنان
أيام جوعنا أولئك الذين يفتحون في صحرائنا
نوافذ الربيع
أيام جدبنا
أيعرفون أننا ، بغيرهم ، بلا أحد
أيعرفون أننا لهم
أولئك الذين يبسمون في وجوهنا
إذا أدارت الورود وجهها عن اكتئابنا
أيدركون أننا نحبهم إلى الأبد
أولئك الذين يرقدون
في الرسائل البعيدة الأمد !

الدلالة التي تحملها كلمات الإهداء في ديوان أبو سنة الجديد شجر الكلام لا تخفي علي أحد . إنها تمثل الافتقاد للأرواح الراحلة الخضراء التي تهيم حول روحه ، بديلا لشخوص القسوة والمعاناة التي تملأ واقعه وتصطدم بها حركته . هذا الافتقاد والتوق إلى الحنان ملمحان أساسيان في وجدان أبو سنة وشعره ، قادران علي أن يتفجرا دوما في إطار بديع من غنائياته العذبة الأسيانة ، وبكائياته العميقة الشجي والشجن ، وانتفاضاته المتوثبة تشرع الرماح وترهف النصال وتسدد سهام الكلمات وفي قلقه الوجودي المستثار دوما ، لا ن خيوط استشعاره شديدة النعومة والتخفي ، تكاد لا تري ، ولا تلمس ، لكنها توجه حركته ، وتؤازر حكمه علي الناس والأشياء والدلالات والمواقف ، منذرة بحرب دائمة مستمرة لا يبدو أنها مفضية إلى سلام:

قلبي بقايا غنوة
وغمامة تبكي علي قمر
يغيب
ورحلة فوق الضرام
خنا سرائرنا

فحاصر خطونا شوك الطريق
وخاننا صفو الوئام
طالت بنا الأيام
بين وجيعة تكوي
وأحلام تضام
وحدي أنازل ما تبقي
من سنين العمر
في حرب تدوم بلا سلام !

في هذا الديوان الجديد يبدو أبو سنة أكثر احتفالا بالموسيقي والإيقاع والقافية . وهو هنا مخلص لتكوينه وانتمائه ـ شأنه شأن شعراء جيله ـ ممن يرون أنه لا شعر خارج الموسيقي والإيقاع . وأن هذا الإيقاع ـ الداخلي والخارجي ـ هو الذي يسوغ معني الشعرية في الكلام ، وأن من الأفضل ـ منعا للخلط والاختلاط ـ أن نسمي الأشياء بأسمائها . فالنثر نثر والشعر شعر . وقد يكون في بعض الكتابات النثرية ما هو أكثر شعرية وتوهجا من الشعر ، وفي كثير من الكتابات الشعرية ما هو أشد نثرية من النثر . والنثر ـ عند من يتقنونه ويعرفون قدره ـ له جمالياته وتفرده وذري ابداعاته ، ووصف الكلام بالنثر لا يتضمن تقليلا من شأنه أو إهانة . لكنه يتضمن الوصف الذي يحدد ولا يؤدي إلى الاختلاط . وسيظل ما يكتب ـ خارج الموسيقي والإيقاع ـ نثرا ، وقد يكون نثرا رائعا وبديعا ، لكن ديوان النثر مصيره ومثواه .

يبدو أن شيوع هذا النثر ـ الذي يحاول أصحابه فرضه بديلا للشعر ـ هو الذي جعل أبو سنة يلح في ديوانه الجديد علي الموسيقي والإيقاع وعلي التقفية أيضا التي يكاد يلتزمها في كثير من قصائده .

ويستثمر منجزات رحلته الشعرية الطويلة ، بكل سلاسة وعذوبة ، دون عنت أو مشقة أو معاظلة ، في تحقيق لغة شعرية صافية ، وتشكيل صور شعرية بديعة ، وتجسيد كائنات شعرية شديدة القدرة علي التركيز والتحليق ، وإبداع نصوص شعرية شديدة التقنية والإحكام . إن ما ء البحر أو البحيرة يجنح إلى الهدوء والسكون ، لكنه الهدوء الذي يخفي عمق البحر أو البحيرة وحقيقة جيشانهما وفورانهما الداخلي . وقد يخدع القاريء العابر بظاهر الأشياء ، لكن القاريء المتأمل سرعان ما يكتشف الضجر الخفي في البحر ، والغضب الكامن بين طياته ولفائفه ، فيفصح الشاعر البحر أو البحر الشاعر عن هذا الجيشان وهذا الفوران في لحظة المواجهة مع النفس واكتشاف خبيئة الذات :

ما الذي تشتكي أيها البحر ؟
لا شك ضقت بسجنك
بين قيود الزمان
وتحت سنابك هذا المكان
ولا شيء يبقي
سوي الريح فوقك
وكم من سفائن تمضي
إلي ساحل . .
والعراك العميق بجوفك
تطلق الكائنات الحبيسة
متفجرا بالدماء
وكم من مصائر تطوي
وتبقي وحيدا إلى الليل
ما من أنيس سوي بعض غرقي
وبعض سحاب
يهرول عبر الفضاء !

القدرة الفذة علي التجسيد والتصوير ، والبناء الشعري المتنامي ، والتصاعد في درجات الإحساس المتوتر ، والحلول الذي ذاب فيه الشاعر والبحر - فهما بحر واحد ، وفيض شعري واحد - ملمح آخر من ملامح هذا الديوان الجديد البديع . لا يمكن ترك هذا الديوان دون الإشارة إلى واحدة من مفاجآت أبو سنة الشعرية المتمثلة في قصيدته جدلية المثيرة بالفعل للجدل ، والكاشفة عن قدرة عالية علي التركيز والتكثيف ، والإيحاء بديلا عن البوح والإفصاح ، والمفارقة الذكية التي تعمق المعني والدلالة ، وكأنها هجائية عصرية ، تسم العصر كله ، والإنسان في مواجهته ، بكل ما جعله أبو سنة قاسما مشتركا في دواوينه الشعرية المتتابعة ، وبما سيصبح هو نفسه ضحية له في التصويت الأخير علي جوائز الدولة لهذا العام ، حين تحجب عنه جائزة التفوق وهو المستحق لما هو أكبر منها بكثير .

يقول أبو سنة :
انتظر إنهم
عابر يومهم !
سوف يأتي الذي بعدهم
مثلهم

والذي بعدنا ؟

خصمهم ؟

وردنا ؟

شوكهم !

مأؤنا ؟

نارهم !

سوف نبقي ، وهم !

وحدنا !

وحدهم !

إن جيل الستينيات في حركة الشعر الجديد وأبو سنة واحد من رموزه - تماما كجيل الستينيات في الإبداع الروائي - لا يزال قادرا علي تصدر المشهد الشعري بإنجازه المتجدد ، وقدرته علي المغامرة والإدهاش والتجاوز ، وإبداع غصون جديدة في شجر الكلام .

غربة الوجه واليد واللسان

بقلم : فاروق شوشة

في مناسبة مؤتمر مجمع اللغة العربية السنوي - في دورته السبعين - الذي أعلنت توصياته منذ أيام قليلة - والذي جعل من قضية التنمية اللغوية موضوعه الأساسي ، يجيء هذا الكلام امتدادا لمقال سابق . ونقطة البدء التي لا بديل عنها ، هي أن تكون التنمية اللغوية دعوة مجتمع وفلسفة حياة . لا نها خارج هذا السياق الوطني والقومي تصبح عملا ضيقا ، متخصصا ، معزولا عن غيره من صور التنمية البشرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية . لا فائدة من كل ما تضج به أروقة مجمع القاهرة وقاعات بحثه ، وغيره من المجامع العربية اللغوية ، ما لم تتغير نظرة دولنا وحكوماتنا ومؤسساتنا ومخططي سياساتنا الوطنية لقومية - نظرتهم إلى اللغة العربية باعتبارها من أهم قضايا التنمية الآن . بحيث ينظر إلى منظومة اللغة في ضوء منظومة المجتمع كله ثقافيا ومعلوماتيا وحضاريا - كما يقول ويعلن في كل مؤتمر الدكتور نبيل علي خبير المعلوماتية - فلا تطرح قضاياها واحتياجاتها من منظور التخصص الضيقة إن اللغة أخطر من أن تترك للغويين وحدهم ، وأخطر من أن تدار قضاياها بين المجمعيين وحدهم . إن قضية التنمية اللغوية تتداخل وتتفاعل مع غيرها من صور التنمية ، باعتبارها تمس الكيان القومي للأمة وتلمس العصب العاري في مواجهة هذه الأمة لمتطلبات التحدي الحضاري ومتطلبات الحفاظ علي الهوية ، ومتطلبات الثبات في قطعة صغيرة من التاريخ ، بعد أن انتزعت من تحت أرجلنا مساحات هائلة من الجغرافيا .

وعلينا أن ندرك أن لغة الاعلام هي كتيبة المواجهة في جيش التنمية اللغوية . وطليعة الصدام الذي تنعكس عليه إيجابيات هذه المواجهة وسلبياتها طيلة عصر النهضة والتحديث علي مدار أكثر من قرنين من الزمان: منذ استوقف أحد العاملين في الصحافة - قرب ختام القرن التاسع عشر - خبر بعث به مراسل الصحيفة يقول: سقطت الآلة البخارية التي تجر عربات السكة الحديدية من فوق أحد الجسور في النيل . فلم يسغ هذا الصحفي - الذي كانت ثقافته ثقافة أزهرية تقليدية - والذي لم يتخرج في كلية الاعلام ولم يدرس الصحافة في أي معهد ، لم يسغ هذه الكلمات السبع في هذا الخبر: الآلة البخارية التي تجر عربات السكة الحديدية . وفي سرعة البرق ، استدعت ذاكرته اللغوية الحية والنشيطة مخزونه من اللغة الصحيحة . استدعت من العصر الجاهلي كلمتي قطار للصف المقطور من الجمال ، وقاطرة اسما للناقة الأولي في هذا القطار . وجري قلمه بحذف هذه الكلمات السبع ليضع مكانها كلمة قاطرة ، ولتصبح العبارة: سقطت القاطرة من فوق أحد الجسور في النيل ومن يومها وكلمتا قطار وقاطرة تدوران علي ألسنة الناس وأقلامهم مثل

هـذا الـصحفي في جريدتـه ألـوف مؤلفـة ، هـم نظـراؤه في الـصحافة أول الأمـر ، ثـم في الاذاعـة والتليفزيـون بعـد ذلـك . هـم الـذين غـامروا واجتهـدوا ، وتـصرفوا بـسرعة الـبرق ليـدركوا حركة المطابع ، ومواعيد نشرات الأخبار .

ويمـدوها بمـا ترجمـوه ومـا عربـوه ومـا اخترعـوه ، متوسـعين في صـور القيـاس والاشـتقاق والنحـت والتوليـد ، لا يـستطيعون انتظـار مـا تنتجـه المجـامع ، ولايـسعفهم بحـث اللغـويين المختـصين ، وهـم يتكئـون علـي ثقـافتهم العربيـة : مخزونـا وقواعـد ، ويفزعـون إلى وعـيهم ومعـرفتهم باللغـات الأجنبيـة حـين لا يـسعفهم هـذا المخـزون العربـي ، متخـذين مـن رفاعـة الطهطـاوي مـثلا وقـدوة ومنهاجـا ، حـين اضـطرته ظـروف بعثتـه إلى فرنـسا في زمـن محمـد علـي ـ علـي ألـف وثمانمائـة وسـتة وعـشرين ـ إلى الترجمـة والتعريـب والقيـاس والاشـتقاق والاخـتراع ، والعـودة إلى مخزونـه اللغـوي العربـي ، وهـو يـصوغ خلاصـة تجاربـه ومواقفه في كتابه الرائد : تخليص الابريز في تلخيص باريز .

ثـم نـصل إلى المطـب الـذي أصـبح ضـرورة حيـاة . لا بـد مـن جمـع لغـوي جديـد ، نواصـل بـه مـا صـنعه الخليـل بـن أحمـد في القـرن الثـاني الهجـري وهـو يـشرع في إنجـاز أول معجـم لغـوي عربـي هـو معجـم العـين . لقـد قـام الخليـل صـاحب العقليـة الرياضـية الفـذة ، والفطـرة الموسـيقية الـسليمة والحـس اللغـوي الأصـيل بمـا لا تقـوم بـه إلى وم إلا قاعـدة بيانـات ضخمة وأجهزة حديثة كالحاسب الآلي .

والجمـع اللغـوي الجديـد الـذي ينبغـي أن يقـوم بـه مجمعنـا وكـل المجـامع العربيـة ـ هـو الـسبيل الوحيـد للتعـرف علـي الميـدان ، منـذ أن أنتهـي عـصر الاستـشهاد ، وأغلقـت المعاجم اللغوية عن الاتساع لكل ما هو خارج هذا العصر .

وصـارت معاجمنـا اللغويـة نقـلا عـن نقـول سـابقة ، وتكـرارا لمـا صـنعه الـسابقون . وصـار معظـم مـا تمتلـيء بـه هـذه المعـاجم لغـة سـلبية أو مهملـة أو مماتـة ، لا تـدور علـي الألـسنة والأقـلام . وظـل الكـثير جـدا مـن المـادة اللغويـة ـ الـتي اتـسعت لهـا الحـضارة العربيـة طـوال قـرون ـ بعيـدا عـن ذاكـرة المعجـم العربـي ، بـالرغم مـن أن لهـا مظانهـا في كتـب الـرحلات والتراجـم والطبقـات والـشروح والتفاسـير . وأضـع خطوطـا تحـت كتـب الـرحلات الـتي لم تكـن مجـرد وعـاء معـرفي وحـضاري ، وإنمـا هـي أيـضا وعـاء لغـوي اتـسع لحاجـات عـصره وزمانـه ، ولم يجـد الرحالـة العـرب العظـام مـن أمثـال ابـن بطوطـة وابـن جـبير والبغـدادي بـدا مـن استخدامه وتدوينـه ، فكانـت هـذه الثـروة اللغويـة الهائلـة المتتابعـة في ثنايـا هذه الكتب .

الجمـع اللغـوي الجديـد باسـتخدام تكنولوجيـا الحاسـبات وتكنولوجيـا المعلومـات ، هـو بوابتنـا الوحيـدة لا حـصاء مـا لـدينا مـن تـراث لغـوي أولا ، ومالـدينا مـن معاصـر لغـوي

ثانيا . والوارث الرشيد ـ كما يقول علماؤنا ـ هو الذي يبدأ بإحصاء التركة . . . ونحن حتي إلى وم لا نملك أن ندعي أننا أحصينا التركة واستوعبناها وعرفناها حق المعرفة . والجمع اللغوي الجديد ، والتوصل إلى قاعدة بيانات جديدة وشاملة ، هو أيضا بوابتنا لا نجاز معجم تاريخي ، نواجه به عار تخلفنا عن إنجازه . وهو أولي وأحق بالجهد والإنفاق ومواصلة العمل بالليل والنهار من مثل المعجم الكبير ، مع إحترامي وتقديري لكل من يعمل فيه من العلماء والأساتذة والباحثين والمحررين . لكنه أصبح وكأنه قطار ركبناه ، وبعد أن إنطلق بنا إكتشفنا قصوره عن غاياته ، ولم نعد نملك إيقافه أو النزول منه ، ولايدعي راكبوه قدرة علي الوصول إلى محطته الأخيرة قبل عقود قادمة من الزمان .

الجمع اللغوي الجديد ـ كما يقول الدكتور نبيل علي في بحثه إلى ندوة قضايا اللغة العربية في عصر العولمة والحوسبة التي أقامها إتحاد المجامع اللغوية بالتعاون مع مجمع اللغة لبناء قاعدة ذخيرة نصوص ، تمثل الإستخدام الواقعي للغة العربية أسوة بما تم عمله بالنسبة لكثير من لغات العالم وعلي رأسها الإنجليزية والفرنسية . كما أنه أيضا ـ كما يقول الدكتور علي حلمي موسي عضو المجمع في بحثه إلى الندوة المذكورة ـ السبيل إلى إنجاز المعجم العربي التاريخي الآلي بإعتباره قاعدة بيانات ضخمة تحتوي علي كل المفردات العربية طبقا لما تحتويه المعاجم العربية القديمة والحديثة . لقد أسرف المعجميون ، في مصر والعالم العربي ، في إهتمامهم بالمصطلحات . وهناك عشرات المعاجم العلمية في شتي جوانب المعرفة مما أنجزته المجامع ، في السوق ، لكنها بعيدة عن الدوران والإستخدام والتداول ، كأنها عملة غير مرغوبة . وظل الذين يترجمون ويعربون ويجتهدون بعيدين عن هذا الإنجاز الذي أنفقنا فيه جهد السنوات الطويلة والأعمار المبذولة والميزانيات المرصودة . والأصل في موقف المجمع من هذه المصطلحات أن يقوم بجمع ما تمتلئ به الحياة العلمية والفكرية من حولنا ، ليبحث فيها إقرارا وإجازة أو تصويبا أو إعتراضا ، بإعتباره المحكم الأول فيما ينجزه الآخرون ، وأن يعطي من وقته وجهده وعلمه مزيدا لقضايا اللغة الحقيقية ، المتفجرة كل يوم .

لامفر ـ إذن ـ من العمل علي إستصدار تشريع يصون اللغة العربية ، وينص علي المحافظة عليها في الوزارات والمصالح والشركات والجمعيات والنقابات والتنظيمات الشعبية ، في كل تعاملاتها ووثائقها ، وفي كل التسميات التي نطلقها علي المحال والأماكن واللافتات التي نرفعها في كل موضع ، وصولا إلى أسماء البرامج في الإذاعة والتليفزيون تشريع يجعل قرارات مجامعنا اللغوية ملزمة لكل الدوائر المعنية في التعليم والإعلام والدعوة الدينية والبحث العلمي .

لامفر من أن يكون التعليم ـ في كل مراحله ـ بالعربية ، حتي يكون تلقي العلم باللغة الأم ، ليصبح لغة تفكير وتعبير وإنجاز وإضافة .

لامفر من دعوة وسائل الإعلام إلى مزيد من العمل علي نشر الوعي اللغوي الصحيح من خلال زيادة المساحة المتاحة للعربية الصحيحة وتجنب المستويات الهابطة من العاميات واللهجات المحلية .

لامفر من فتح باب الإجتهاد في أمور اللغة علي مصراعيه لقد كان السلف المجمعي العظيم أكثر جرأة لا نه كان أكثر علما ، ووعيا بضرورات الإجتهاد والتجديد . وينبغي أن نواصل ما صنعوا ، لا أن ننكفيء عليه ونتنكر له ، ونعجز عن الإتيان بمثله بحجة الحفاظ ، والخوف من القيل والقال !

لقد صرنا إلى زمن أصبح فيه حامل العربية والغيور عليها يردد ما قاله المتنبي وهو يجتاز شعب بوان:

ولكن الفتي العربي فيها
غريب الوجه واليد واللسان

إن غربة الوجوه تجعلنا لقي مهملا في زحام الأمم والأجناس . وغربة الأيدي هي غربة للفعل والقدرة والطاقة . أما غربة ألسنتنا فهي ما نحن إلى وم بصدده ونحن نستثير الحماس والغيرة والنخوة لتنيمة لغوية هي ضرورة حياة ومصير .

غريب الوجه واليد واللسان

لا أدري لماذا خطر لي - وأنا أشارك في مؤتمر مجمع اللغة العربية - في دورته السادسة والستين - الذي انعقد علي مدار الأسبوعين الأخيرين ، والتقي فيه المجمعيون المصريون والعرب من حول الموضوعات والقضايا ومصطلحات العلوم ، التي تمس واقع لغتنا الجميلة ، وتعمل علي النهوض بها لمواجهة متطلبات العصر ، والوفاء باحتياجات الحاضر والمستقبل - لا أدري لماذا خطر لي طيف أبي الطيب المتنبي شاعر العربية الكبير وهو يتأمل في أحوال زمانه ، أمة وناسا وواقعا ولغة ، عندما كان في طريقه إلى بلاد فارس ، مرورا بشعب بوان - والشعب: الطريق بين جبلين - وكل ما حوله يباعد بينه وبين الوجود العربي ، وهو يقول:

ولكن الفتي العربي فيها
غريب الوجه واليد واللسان

أما الفتي العربي فهو المتنبي نفسه ، وقد أوشكت رحلته علي نهايتها ، بعد أن امتلأت حياته العاصفة - نتيجة لشعوره العارم بالتفرد والتفوق وحمله الدائم بالجاه والتملك - امتلأت بالنصال تنكسر علي النصال ، وغدر من تصورهم المتنبي صفوة الأصحاب والأخلاء ، بدءا بسيف الدولة الحمداني أمير حلب الذي توجته أشعار المتنبي أميرا استثنائيا في زمن التشرذم والتمزق العربي ، وفارسا مغوارا لا تخونه شجاعته في وجه أعتي جيوش العالم في زمانه ، جيوش الروم التي تفوقه عددا وعدة ، لقد خلع عليه المتنبي من شعره وروحه ومودته صورة باقية علي مر الزمان ، ومع ذلك لم يسلم المتنبي من جفوته وضغينته - بسبب المكائد والأحقاد - فكان رحيله إلى مصر واختياره لكافور - النقيض لسيف الدولة عروبة وكرما ودورا وهمة - خطوة أخري نحو المزيد من المعاناة والانكسار ، خلفت في نفس المتنبي ووجدانه مزيدا من المرارة والإحباط والقنوط . ها هو ذا الآن في طريقه إلى بلاد فارس ، وقد ترك وراءه كل ما هو عربي ، ليمدح ملوكها وأمراءها من البويهيين: عضد الدولة وولديه أبا الفوارس وأبا دلف ، متناسيا أو متنكرا لما كان يردده ويتخذه شعارا له وموقفا من ملوك زمانه وحكامه حين يقول:

وإنما الناس بالملوك وما
تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ، ولا حسب ولاعهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها أمم
ترعي ب عبد كأنها غنم

يستخشن الخز حين يلمسه
وكان يبري بظفره القلم

ثم يجئ بيته العظيم الذي ينزل علي الأعداء والحساد والاراذل والمتأمرين من هم دونه قدرا وقيمة ـ نزول الصاعقة:

إني وإن لمت حاسدي ، فما
أنكر أني عقوبة لهم !

مابالـه إذن يتنكر الآن لهذا كله ، متجها إلى الضد والنقيض الذي تمثله بلاد فارس ، وشعب بوان ، وقد خلف الوجود العربي المهلهل وراءه ، والزمن العربي الساقط تحت قدميه ، معلنا عربته الثلاثية الأبعاد: غريب الوجه واليد واللسان ! أما غربة الوجه فيجسدها اختلاف اللون بينه وبين أهل هذا المكان ، سمرته العربية تجعله غريبا في عيون أهل بوان وأهل فارس شفر الوجوه ، هذا إذا اقتصرت غربة الوجه علي اختلاف اللون ، لكن أمثال المتنبي ـ من الشعراء العظام ـ لا يقتصرون علي مثل هذه الدلالة القريبة أو المباشرة ، واللغة الشعرية في بيت المتنبي تفتح أبو ابا شتي للتأويل ، ومن ثم تصبح غربة الوجه ـ الوجه الكاشف عن حقيقة الإنسان والمؤدي إلى داخله وأعماقه ـ غربة للكيان الإنساني كله ، وإحساسا عارما بأنه ليس في زمانه ولا مكانه ، من هنا تصبح غربة الوجه اغترابا للروح ونفيا لحقيقة النفس ، وابتعادا عن التلاؤم أو التكيف ، وعجزا عن الامتثال والمسايرة ، أما غربة إلى د فإنها تعني في مجالات التأويل الشعري عدم القدرة علي الامتلاك ، في مثل قولنا: ضيق ذات إلى د ، والمتنبي المهموم دوما بالثروة والنوال والعطاء يلح عليه دوما شاغل التملك والاستحواذ ، وخياله الشعري المحلق يقوده في القصيدة ذاتها إلى الكشف عن المخبوء من عالمه الداخلي أو لا شعوره حين يصور أشعة الشمس المتناثرة علي ثياب العابرين ـ المتنبي وصحبه ـ بالدنانير حين يقول:

وألقي الشرق منها في ثيابي
دنانيرا تفر من البنان

وفي رواية ثانية للبيت: وألقي الشمس بدلا من قوله: وألقي الشرق وإن كان معني الشمس وضوئها متضمنا في التعبيرين .

ويتسع التأويل الشعري في غربة إلى د أيضا لا فتقاد القدرة والنفوذ والجاه فبقدر ما تشير إلى د إلى الامتلاك والعطاء فإنها تشير إلى القوة والاقتدار والهيمنة: له إلى د العليا ، وفي التعبير القرآني: يد الله فوق أيديهم ، فهل كان المتنبي ـ ساعتها ـ يحلم بالثروة والتملك أم كان يفكر في القوة والقدرة علي تصريف الأمور ؟ إن خلوه من الأمرين معا يعني حالا من الغربة مريرة ، وبعدا آخر من أبعاد الاغتراب

الأشمـــل الـــذي يعانيـــه المتـــنبي قـــرب ختـــام الرحلـــة المثخنـــة بـــالجراح !
أما الغربة الثالثة: غربـة اللسان ، فهـي أشد ألـوان هـذه الغربـة التصاقا بواقعنا الـذي نعيـشه الآن ، وتعـبيرا عـن واقـع لغتنـا الجميلـة علـي الألـسنة والأقـلام ، وكمـا جـاءت غربـة اللـسان ــ علـي لـسان المتـنبي ـ تعـبيرا عـن اغترابـه الإنـساني ، فـإن غربـة لـساننا العربـي الآن بـدورها تعـبير عـن اغـتراب الإنـسان العربـي المعاصـر ، الـذي أصـبح نتيجـة لمـا يعيـشه ويفـرض عليـه مـن مـستحدثات العـصر وأدواتـه ووسـائله ومفرداتـه ـ يتخلـي تـدريجيا عـن ملامـح هويتـه وعـن مظـاهر وجـوده وحقيقتـه: طعامـا وشـرابا وملبـسا وعـادات وتقاليـد ، ويـصل الأمـر إلى أقـصاه حـين يـصبح التخلـي والاغـتراب تكـبيرا ولغـة وانتمـاء وهكـذا تغـترب اللغـة واللـسان حـين يغـترب الإنـسان نفـسه ويحـس أنـه لم يعـد في بيئتـه ولا بـين أهلـه ، لقـد تغـير جلـده ، واختلفـت ملامحـه ، ولم يعـد الطفـل الـذي كـان ـ كمـا يقـول أدونـيس ـ وإنمـا هـو الآن مـسخ شـانه ، وتائـه في زحـام الحـضارات والثقافـات واللغـات ، وعـابر تـصدمه العجمـة والاخـتلاف ــ لـيس في شـعب بـوان وحـده كمـا كـان حـال المتـنبي ـ وإنمـا في كـل شـعاب الـدنيا ودروبهـا حيـث تحملـه قـدماه ، وتنـوء بـه همتـه وعزيمتـه هـذا هـو مـا جعلـني أنـشغل بطيـف أبـي الطيـب ، وكأنــه يجــاورني ويجــول معــي في أروقــة مجمــع اللغــة العربيــة ، وفي جلـسات لجانـه وبحـوث أعـضائه ـ المـصريين والعـرب ـ يتأمـل ويـصغي ويتـابع هـذا الجهـد المحكـوم عليـه بالـسرية ـ والكتمـان ، لا نـه يـدور بـين جـدران مغلقـة وخلـف أبـو اب موصـدة ، وهـو جهـد ينهض بـه المجمـع منـذ إنـشائه عـام ١٩٣٤ ، وطـوال سـتة وسـتين عـام ا أصـدر المجمـع العديــد مــن المعــاجم اللغويــة والعلميــة ، والبحــوث والدراســات ، والقــرارات والتوصــيات ، فـضلا عـن قيامـه بـصك الآلاف مـن المـصطلحات العلميـة ـ في ميـادين العلـوم المختلفـة ـ والنـشاط الـسنوي الـدائب علـي مـستوي المـؤتمرات والـدورات ، ونـشر العديـد مـن وجـوه هـذا النـشاط اللغوي والعلمي في مجلة المجمع .

لكـن العـزوة لا تـزال منفكـة بـين المجمـع وغـيره مـن الهيئـات والمؤسـسات خاصـة وزارات التعلـيم والتعلـيم العـالي والإعـلام ، ومـا ينجـزه المجمـع مـن أمـور التـصويب والتيـسير وإعـادة النظـر والتجديـد لا يـصل إلى جمهـور اللغـة والمـستهلك الحقيقـي لهـا عـن طريـق العديـد مـن الهيئـات والمؤسـسات ، ويظـل النـاس بعيـدين عـن الـوعي بمـا ينجـزه المجمـع والإحـساس بـأن لجهـود المجمـع دورا في حركـة الواقـع اللغـوي ومـايموج بـه مـن ظـواهر سـلبية متفاقمـة أبـسطها هـذه العجمـة المتفـشية والغربـة في إطـلاق المـسميات الاجنبيـة علـي المنـشآت والمحـال والأسـواق والفنـادق والـشركات والمؤسـسات دون خجـل أو حيـاء ، وامتـدادا إلى تـسمية القـري الـسياحية والمرافـق العمرانيـة الجديـدة ، وكأنـنـا مـصرون علـي الانـسلاخ مـن أبـسط مفـردات الهوية والانتماء . .

وهـذه العاميـة الـسوقية ـ الـتي لا علاقـة لهـا بعاميـة الإبـداع الأدبـي والفـني بكـل مـا تحملـه مـن روح العـصر وبلاغـة التعـبير والـصورة والدلالـة ـ قـد أصبحت لغـة لموجـة مـن الغنـاء الهـابط: لغـة وإيقاعـا وإيحـاءات ، ولغـة للإعلانـات الـتي تـزدحم بهـا الـصحافة والإذاعـة والتليفزيـون ، وكأننـا نفتقـر إلى اللغـة الـصحيحة البـسيطة ، الـتي لا تكلـف فيهـا ولا معاظلـة ، والـتي تتبناهـا الـصحافة منـذ مطـالع القـرن الماضـي ، وتطـور في أسـاليب أدائهـا وهندسـة تراكيبهـا وتوسـع مـن دلالاتهـا ، ويكتـب بهـا كتابنـا في سلاسـة ووضـوح وإشـراق صـياغة وتعبير .

وهـذا النظـام التعليمـي ـ المنقـل بـالعجز المـزمن عـن ايجـاد منـاخ مدرسـي يـسمح بنـشاط لغتـه حقيقـي ، يغـرس في الـنشء المـتعلم محبـة لغـة القوميـة والتعـرف علـي مـواطن الجمـال فيهـا ، والـوعي بتاريخهـا الجمـالي ، وإحكـام قواعـدها الـتي بالغنـا في تـضخيم صـعوبتها حتي جعلنا منهـا رعبـا يتلقـاه مـن يتعلمهـا وكأنـه يقـبض علـي الجمـر بيديـه ، ونجحنـا ـ بـدلا مـن تحقيـق منـاخ تربـوي لغـوي صـحيح ـ في أن نجعـل مـن درس اللغـة العربيـة درسـا في القواعـد والنحـو ، ومـن درس النحـو درسـا في الإعـراب ، وأصـبح معـني اللغـة العربيـة عنـد هـذا الـنشء المـسكين يـدور حـول فكـرة الإعـراب وضـبط أواخـر الكلمـات ومعرفـة المرفـوع والمنـصوب والمجـرور ، وظلـت اللغـة الـتي نتعلمهـا ـ في المدرسـة والجامعـة لغـة صـامتة ، غـير منطوقـة ، لغـة ليـست حيـة ، نقرؤهـا بـالعين ونحفـظ مـا تتـضمنه هـذه اللغـة بـالعين ثـم نمـتحن فيـه بـالعين ، لم تمـرن علـي نطقهـا الألـسنة ، ولا أجهزتهـا الـصوتية ، ولا أحسسنا بها في إطارها الحياتي الوظيفي ، صادحة مجلجلة .

نقطـة البدايـة إذن في أمـر تعلـم هـذه اللغـة أن يكـون تعليمـا حيـا وظيفيـا منطوقـا ، يبـدأ فيـه المـتعلم بـالقراءة ، القـراءة الواسـعة في مجـالات شـتي ، لتـصبح هـذه القـراءة سـبيله لمعرفـة القواعـد واكتـشافها وهـي في حركتهـا الفاعلـة بـين ثنايـا النـصوص وأمـام المـسئولين عـن تعليم اللغـة العربيـة مـا يحـدث في مراكـز تعلـيم اللغـات الاجنبيـة ، الـتي تعتمـد جميعهـا علـي الأسـلوب الـسمعي البـصري ، وقـد آن الأوان للاقتـداء بمـا يفعلـه الآخـرون ، ومـا نمارسـه نحـن حـين نـتعلم لغـاتهم ، ونفيـد مـن أسـاليبهم ووسـائلهم ، بـدلا مـن الـدوران في الـدائرة الجهنميـة الـتي يـدور فيهـا تعلـيم اللغـة العربيـة في مدارسـنا ويـنعكس هبوطـه وتخلفـه علـي الواقـع اللغـوي في المدرسـة: منهجـا ومعلمـا واختيـار نـصوص وتركيـزا فاشـلا علـي درس القواعـد وابتعادا عن حيوية اللغة ووظيفيتها .

أما أنت أيهـا الفـتي العربـي الـذي كـان ، يـا شـاعرنا أبـا الطيـب يـامن عانيـت غربـة الوجـه واليـد واللـسان ، فـأرجو أن أعزيـك بـأن مـا عانيتـه مـن مظـاهر الغربـة والعجـز وافتقـاد القـدرة والهويـة والوجـه العربـي ، مـستمر إلى زماننـا وقـد اتـسع الخـرق علـي الراقـع ، ولم يعد الأمـر مقـصورا علـي أميـة لا تـزال تنخـر في قطاعـات عريـضة مـن أبنـاء المجتمـع ، أو علـي

أمية ثقافية يعاني منها الذين لم نحسن نحن تعليمهم وتثقيفهم ولم يحسنوا هم الارتفاع إلى مستوي عصرهم وعيا ومتابعة فتخلفوا عنه وأصبحوا دونه ، يسيرون وأعناقهم مشدودة تتطلع إلى الوراء بل لقد تعدي الأمر ذلك إلى بعض من يطلقون علي أنفسهم لقب الأديب والكاتب ، ولا بأس من أن يذيلوهما بكلمة الكبير فقد يصدقهم الناس ويخدعون بزيفهم عن حقيقتهم الخاوية ، ولايرون جهلهم الفادح بأمور لغتهم ومايبنغي لها من التأني والدراسة والاحكام ، بالرغم من أن هذا البعض لا يفتأ يتشدق باطلاعه علي تراثنا العربي والوعي بما فيه من ذخائر وكنوز ، حتي إذا ما تطلبت مناسبة من المناسبات أن يتكلم هذا الكبير بلغته القومية ، كانت الفضيحة بجلاجل - كما يقولون - لا ن من يبتلون بسماعه يكتشفون الجهل الفاضح بأبسط بسائط العربية نطقا وأداء وسلامة تعبير ! وهكذا بين جهارة الإدعاء والأمية اللغوية يكمن أحد ملامح هذه الغربة !

غربتنا إذن كبيرة يا أبا الطيب لكن عزاءنا أننا نملك أن نعود إلى ك - بين الحين والحين - يوقظنا صوتك الصادم بالوعي ، وعروبتك الصحيحة الكاشفة عن معدنها وجوهرها في زمن افتقاد الهوية ومواجهة العولمة ، وشعرك الباذخ العالي الذي يشدنا دوما ويقودنا إلى الأعلي ، ويذكرنا بأن - لغتنا العربية - بتجلياتها الإبداعية والجمالية - أكبر بكثير من عبث الصغار ، وتدني الهوام والمسوخ !

محمود حسن إسماعيل وديوانه المظلوم

بقلم : فاروق شوشة

أما الديوان فهوديوان الملك وأما صاحبه فهو الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل ، صاحب أهم إنجاز في الشعر المصري الحديث بعد شوقي ، وصاحب الطاقة الإبداعية الجبارة التي بسببها سماه الناقد الكبير الراحل الدكتور محمود مندور وحش الشعر ، وأيضا صاحب أربعة عشر ديوانا بدأت بديوان أغاني الكوخ الذي صدرت طبعته الأولي في يناير١٩٣٤ ، ليصبح بمثابة زلزال شعري ، وثورة شعرية حقيقية من حيث اللغة وعالم الصور الشعرية ، والمضمون الاجتماعي والإنساني ، والتوجه المصري الصميم إلى الإنسان الفلاح والأرض المقهورة والمستباحة وبعد ديوان أغاني الكوخ ـ الذي سنعود إلى ه بعد قليل ـ تتابعت دواوين الشاعر: هكذا أغني ـ الملك ـ أين المفر ـ نار وأصفاد ـ قاب قوسين ـ لا بد ـ التائهون ـ صلاة ورفض ـ هدير البرزخ ـ صوت من الله ـ نهر الحقيقة ، وبعد رحيل الشاعر الكبير ـ في إبريل١٩٧٧ ـ صدر ديواناه: موسيقي من السر ورياح المغيب .

ديوان الملك إذن هو الديوان الثالث في مسيرة الشاعر الشعرية ، أصدره في يناير١٩٤٦ ، عندما كان الملك فاروق ما يزال يمثل أملا بالنسبة لشعبه ، ولايزال لعرشه بريقة وهيبته عند الملابين من مواطنيه ، ولايزال محسوبا علي الحركة الوطنية في بلاده ، ولم يكن محمود حسن إسماعيل وحده الذي استلهم نور فاروق عددا من قصائده البديعةـ من حيث الفن الشعر العالي والنفس الشعري المتلئ توجها وانعطافا نحو مساحة المليك المفدي كما كان يسمي في ذلك الوقت . كان هناك من سبقوه في هذا المضمار بدءا بشوقي ـ أمير الشعراء الذي رحل وفاروق لا يزال أميرا غلاماـ لم يتجاوز الثانية عشرة ـ ووليا للعهد ، فأهداه شوقي مسرحيته الشعرية الشهيرة مجنون ليلي عندما قدم لها بأبيات يتجه فيها بالخطاب إلى فاروق لكنه يقصد بها أباه الملك فؤاد الذي كان يخاطبه في قصائده بأبي

الفاروق كما قال في قصيدته الشهيرة إلام الخلف

أبا الفاروق أدركها جراحا

أبت إلا علي يدك التئاما

في تقديمه لمجنون ليلي يقول شوقي:

فاروق ياأزكي نبات الوادي

ويامنا العهد من فؤاد

وبعد رجل شوقي في أكتوبر١٩٣٢ تطلع عدد من كبار شعراء مصر إلى ملء الفراغ الذي تركه رحيل أمير الشعراء ، وإلى أن يحظو بالمكانة والتسمية معا . والدارسي لحركة الإبداع الشعري في هذه الحقبة عبر ثلاثينيات القرن ومستهل أربعينياته ، يدرك حجم المنافسة الخفية التي كانت بين علي الجارم - أعلي الكلاسيكيين صوتا وأكثرهم فحولة وجهارة - ومحمود حسن إسماعيل وعلي محمود طه من شعراء المد الرومانسي الذي بلورته جماعة أبو للو التي كان من أعلامها في مصر - بالإضافة إلى هذين الشاعرين - إبراهيم ناجي ومحمد عبد المعطي الهمشري وحسن كامل الصيرفي ومختار الوكيل وصالح جودت وغيرهم . كان التنافس - غير المعلن - شديدا وضاريا ، بالرغم من أنه لم يكن متكافئا . فقد كانت فحولة الجارم تجتذب المتعاطفين مع الشعر التقليدي ، بكل خصائصه الموروثة منذ العصور الأولي للشعر العربي ، وكانت قصائده تذكر المستمع والقاريء دوما بروائع البحتري والمتنبي والشريف الرضي ، وغيرهم ولأن المناسبا الملكية مناسبات للشعر الخطابي الجهير دون التزام أو التفات إلى الشعار الذي رفعته جماعة الديوان - العقاد والمازني وشكري - بأن الشعر وجدان ، واهتزاز للمناسبة الداخلية لا الخارجية ، فقد كان ظاهر الأمر يوحي بأن الجارم في ملكياته قد تفوق وأجاد ، بينما كان شعراء المد الرومانسي يعوضون عن نقص الجهارة والفحولة والمعجم الشعري الموروث ، بمغامرات غير ما لوفة في الصورة الشعرية والنسيج الشعري ، والتأتي أو الولوج إلى المناسبة الشعرية: التهنئة بميلاد الفاروق أو يوم التاج أو زفاف الملك أو عيد الجلوس الملكي أو ميلاد الأميرات واحدة بعد الأخري أو رحلات جلالته في طول البلاد وعرضها ، أو لفتاته الملكية السامية – في المناسبات الوطنية والدينية والاجتماعية .

ولم يكن هذا الشعر كله يجد اعتراضا من أحد . بل لعل المقصرين - في هذا السباق من الشعراء ، كانوا هم المتهمين بضعف الولاء أو عدم الانتماء . فقد كانت القاعدة أن الشعراء هم أصوات البعية الملكية ومرددو أنفاسها ، اهتبالا لكل مناسبة ، واصطيادا لكل موقف أو لفتة . لن ندهش إذن وجدنا للجارم قرابة اثنتين وعشرين قصيدة من أروع شعره وأكثره غني وجلجلة وإيقاعا - في موضوعات ملكية ، وأن نجد في المقابل لمحمود حسن إسماعيل ديوانا كاملا له عنوان واضح صريح هو الملك وقسما من ديوانه الثاني هكذا أغني تحت عنوان من نور فاروق يضم ست قصاذد من أجمل شعره وأكثره قدرة علي التحليق والتفنن في الصياغة والقدرة علي اصطياد الصور الشعرية الباهرة ، من بينها قصيدته بين يدي المليك التي طالما ترنمنا بروعة استهلالها - ونحن صغار - تهزنا براعة التناول وبلاغة التقسيم وروعة الفواصل وتدفق الإيقاع:

نوران: نور هدي ونور تبسم
سطعا ، فراح الشعر يسطع من فمي

فهتفت : يادنيا الملائك ، طهري
وتري ، ومن آيات وحيك ألهمي
هاتي لي النغم الجديد ، بغيره
ماهتز للشعراء سمع الأنجم

الغريب أن الطبعات التالية من هذا الديوان ، هكذا أتمني أسقطت هذه القصائد ، التي نشرت فقط في الطبعة الأولي الصادرة عام ١٩٣٨ ثم لم تنشر بعدها علي الإطلاق ، وهي خسارة فنية بكل المقاييس ، خصوصا لو علمنا أن آخر طبعة من دواوينه وهي طبعة الأعمال الكاملة الصادرة عن دار سعاد الصباح قد أقرت هذا الحذف والتشويه الذي حدث لديوان هكذا أغني بينما نداها نشرت ديوان الملككاملا ، وهو الديوان الذي لم يفكر صاحبه في إعادة طبعه وإنما أسقطه من ثبت دواوينه المذكورة في خواتيم كل ديوان . وكأنه قد تبرأ منه ، بسبب قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢ بعد صدور الديوان بست سنوات ، وهو لا يدري أنه ارتكب جريمة هائلة في حق تراثه الشعري ـ بإسقاط هذا الديوان ـ الذي لم تسقطه لحسن الحظ طبعة دار سعاد الصباح ، بينما أقرت إسقاط القصائد الجميلة التي تصدرت د يوان هكذا أغني وكأنها تكيل بمكيالين ، أو لعلها لم تلتفت حين فكرت في نشر الأعمال الكاملة للشاعر ، إلى أن النسخة التي تعاملت معها من ديوان هكذا أغني قد لحقها التشويه من قبل ، وأصبحت لا تمثل حقيقة الديوان ، وكان أولي بها أن ترجع إلى الطبعة الأولي التي تضم صورته الكاملة دون حذف أو نقصان !

أما لماذا اعتبرت إسقاط الشاعر لديوانه الملك جريمة في حق شعره ، فلانني أجد في الديوان -علي عكس ما رأي صاحبه ـ وثيقة شرف وكرامة للشاعر لا وثيقة إدانة أو خيانة للمباديء الوطنية ، بالمفهوم الذي أقرته الحياة الوطنية بعد قيام ثورة يوليو . إن الشاعر الكبير – الذي كان يشغل وظيفة عام ة عند قيام الثورة ، امتدت وتصاعدت حتي أصبح المستشار الثقافي للإذاعة ورئيس لجنة النصوص في ختام حياته الوظيفية ـ تصور أن قصائد الديوان يمكن ان تسيء إلى ه وإلي صورته بعد قيام الثورة ، خاصة أن خصومه وأعداءه والحاقدين ـ من أصحاب الموهبة المتواضعة ـ لم يرحموه منذ صدور ديوانه الأول أغاني الكوخ عام ١٩٣٤ ، فرأوا فيه خروجا علي المألوف الشعري الذي يسعون إلى تكريسه ودعمه ، بينما كان هذا الخروج علي المألوف هو مفتاح عظمة الشاعر وشعره ومجلي تفرده وإبداعه الحقيقي . لقد جعل من الكوخ عنوانا لديوانه في وقت كان ابراهيم ناجي يسمي ديوانه الأول وراء الغمام وعلي محمود طه يسمي ديوانه الأول الملاح التائه ، أما هو فلم يكن يرحل وراء الغمام ، ولم يكن ملاحا تائها . كان يدرك أنه ابن القرية المصرية في صعيد مصر ، بل هو ابن كوخها وقرين فلاحها المطحون المنكسر والمنتمي لا رضها التي ينعم بخيراتها المستغل المتجبر ، بينما هو ومن هم علي شاكلته لا يلقون الا

الفتـات . كانـت النزعـة الاشـتراكية تتـوهج في ثنايـا قـصائده ، والحـس الانـساني العـالي يمـوج في مـضامينه والتفاتاتـه ، والـشجن الكـوني يمـلأ صـوره الـشعرية ويـشكل جيـشان أنفاسـه وتـشكيل لغتـه ونـسيج قـصائده - ورأي الحاقـدون عليـه في عنـاوين بعـض قـصائد ديوانـه فرصـة سـانحة للـسخرية والـتهكم والتـشهير ، فأشـاعوا عنـه أنـه شـاعر روث البهـائم ، شـاعر الفـأس والمحـراث والـساقية ، وبلغـت الـسخرية أوجهـا حـين نـشر شـاعر مـن النكـرات يـسمي فـؤاد بليبـل قـصيدة مـزورة تمتلـيء بكلمـات سـوقية ، وأبيـات لا معـني لهـا علـي أنهـا مـن تـأليف محمـود حـسن اسماعيـل ، الـذي فاجأتـه الهجمـة الـضارية ، وأثـرت فيـه لدرجـة أنـه تراجـع في دواوينه التاليـة كـثيرا عمـا اعتزمـه مـن ثـورة شـعرية عاتيـة ، بـالرغم مـن أنـه رد علـي هـؤلاء ردا شعريا غير مباشر في ختام ديوانه الثاني هكذا أغني حين يقول:

إن تـسل في الـشعر عـني ، هكـذا كنـت أغـني لا أبـالي أشـجي سمعـك أم لم يـشج لحـني هـو مـن روحـي لروحـي صـلوات ، وتغـني وهـو مـن قلـبي ينـابيع بهـا يهـدر فـني حـتي نصل إلى قوله :

إن تـشأ فـاسمع نـشيدي أو تـشأ فارحـل ودعـني ! اذن فقـد أخطـأ الـشاعر الكـبير محمـود حـسن اسماعيـل خطـأ بالغـا حـين تـصور أن قـصائد ديـوان الملـك تـشينه أو تعيبـه ، أو أنهـا تتعـارض مـع بداياتـه الـشعرية الثوريـة - ذات الطـابع الريفـي والـشعبي - في أغـاني الكـوخ وهكـذا أغـني - بينمـا هـي علـي العكـس تمامـا ، امتـداد طبيعـي لنـسق الـشاعر وبداياتـه الأولـي . ولـن نبـذل جهـدا كـبيرا حـتي نكتـشف - مـن القـراءة الأولـي لـديوان الملـك - أن قـصائده ليـست الا انتهـازا لمناسـبات ملكيـة ، لتـذكير مليـك الـبلاد بمـا يعانيـه شـعبه مـن ويـلات وفقـر وبـؤس وتخلـف وجهـل ومـرض وأميـة ولأن الـشاعر الحقيقـي في داخلـه لا يمكـن أن يخونـه أو يتخلـي عنـه ، فهـو يلجـأ إلى كـل مـا تـستطيعه شـاعريته مـن حيـل فنيـة ، ومـن تنويـع في التنـاول ، ومـن قفـز علـي المناسـبة العـابرة - الموجبـة للقـول - إلى المناسـبة الدائمـة ، الملتحمـة بوجـدان الـشاعر ، وهـي همـه الـوطني وانتمـاؤه إلى عالمـه البعيـد حيـث القريـة والكـوخ ، والفـلاح المـصري البـائس التعـيس المقـصور ، وسـياط الـذل والمعانـاة تلاحقـه ، وألـوان الهـوان والتعذيب تكرب نهارة وليله ، وتسد عليه منافذ الحياة والأمل .

يقـول محمـود حـسن اسماعيـل في احـدي قـصائد ديوانـه الملـك وهـي بعنـوان: أغنيـة للحفاة:

قل لسارين مشوا فوق الثري

بقلوب كخطاهم داميات

ومشت أيامهم بين الوري

في ظلام البؤس حيري حافيات

في عبير الحقل أو رمل الهجير

تشهد الفأس علي آلامكم
لا تمرون بنبع أو غدير
لم يصفق لوعة مما بكم
وعلي راحاتكم ينمو الزهر
وإلي الوادي تزفون الثمر
فإذا عدتم حفاة في المسير
تجرح الطير أغانيها لكم
يا كمن أحيي حماكم بالمني
وأسا جرح أساكم بالهبات
يا سراة النيل من هذا الشتا
علموا المال معاني الرحمات

ولكي يمرر محمود حسن اسماعيل كل هذا الكلام الذي يفيض أسي ونقدا ووصفا داميا لا حوال أبناء الشعب الحفاة الذين مشت أيامهم في ظلام البؤس ، تشهد الفأس علي آلامهم ، والطير تجرح أغانيها لهم ، لكي يمرر هذا الكلام - لا بد أن يحتال بمثل هذا الختام:

من من الفاروق أحني وأبر
ملك قال لكفيه القدر
إن للرحمة معني ها هنا
جددوه كل يوم للحياة !

في قصيدة ثانية من قصائد هذا الديوان الذي أسقطه صاحبه ، يتحين الشاعر الكبير محمود حسن اسماعيل مناسبة الاحتفال بنجاة الملك من حادث القصاصين في دار الأوبرا الملكية مساء١٥ نوفمبر١٩٤٤ - ليخرج عن المناسبة ، ويدخل إلى مناسبته الأثيرة اللصيقة بوجدانه ، والتي لم تتغير قط ، ليقول:

وجاس في الكوخ أرضا غرس تربتها
جوع وشكوي وأسقام وعلات
يمشي العراة بها فانين ، تبصرهم
وفيهمو من بني الدنيا علامات
علي أبدانهم مزق
كأنها لصراخ البؤس رايات
خفوا إلى ه جراحا غاب عائدها
وطبها ، وتجافتها الرعايات

فانظر أيها القاريء لشاعر يخاطب ملليكه ويحدثه عن رعيته التي غرس ترتبها جوع وشكوي وأسقام وعلات ، العراة بها يمشون فانين ، وهم مهلهلون علي أبدانهم مزق ، كأنها رايات لصراخ البؤش ! أي بؤس يلف هذه الرعية وأي هوان ! وأي خروج علي المألوف بل علي المقام وعلي ما ينبغي للمناسبة في كلام هذا الشاعر الذي لم يتأدب في حضره ملكية ولم يجمل له الصورة ـ كذبا وزورا ـ كما يفعل الكذابون المنافقون ، انه لم يزين ولم يزور ، وإنما قذف العاهل العظيم بما قذفه به أحمد حسين ـ زعيم الحزب الاشتراكي ـ في جريدته ذات يوم حين نشر صور البائسين والمقهورين من الرعية ومعها عنوانه أو ما نشيته الشهير: رعاياك يا مولاي ! الفرق أن أحمد حسين صنع هذا قبل ثورة يوليو بشهور قليلة أما محمود حسن اسماعيل فقد صاغه شعرا قبل قيام الثورة بثماني سنوات في قصيدة يرجع تاريخها إلى عام ١٩٤٤ ! في قصيدة ثالثة – من قصائد الديوان المرجوم الذي أسقطه صاحبه ـ ظلما وعدوانا – عنوانها من أغاني البائسين يقول محمود حسن اسماعيل مخاطبا مليك البلاد وعاهلها المفدي ،

ليتهم ألقوا فتاتا للطوي
وأعاروا للجسوم الكفنا
نحن أكباد تفراها الأسي
ومشي الداء إلى ها موهنا
وجراح ـ لا طعمتم نارها
أترعت في جانبينا الوهنا
نلبس الليل رداء ، فإذا
نصل الليل لبسنا المحنا
وسرينا مهجا لا تشتري
ولو أن الموت كان الثمنا
وأعدنا الرق راحا وخطي
ودفنا في الضلوع الزمنا
فارحمونا واجعلوا من ضعفنا
قوة في البأس تحمي الوطنا

لا أعتقد أن ثمة ضرورة لتقصي سائر قصائد الديوان ، فالديوان كله شهادة لصاحبه لا عليه ، شهادة تحسب له وطنيا وفنيا ، وتجعل من ديوان الملك حبة متميزة في عقد منظوم الحبات ، هو دواوين الشاعر الأربعة عشر التي صنعت له مكانه المتميز في تاريخنا الشعري المعاصر .

والـذي يبقـي للتـاريخ ، أن محمـود حـسن اسماعيـل في ديـوان الملـك أكثـر شـجاعة ووطنيـة ، مـن كـثير مـن الـشعراء سـارعوا إلى تأييـد ثـورة يوليـو ومبايعتهـا ، وانقـضوا علـي الملـك هجـاء وسـبا وتجريحـا وتمزيقـا ، وهـم في الحـالين يزايـدون وينـافقون ، ويتطلعـون إلى الثمن العاجل ، والفائدة المرجوة والرضا المحمل بالغنائم .

أمـا محمـود حـسن اسماعيـل ـ صـاحب أكـبر طاقـة شـعرية مـصرية بعـد شـوقي ـ فقـد قـدر لـه أن يمـوت فقـيرا ، مغتربـا بعيـدا عـن وطنـه ، مطـاردا بمطالـب الحيـاة ، وضـيق ذات إلى د . وعلـي رأسـه الأشـم تـاج العـزة والـشرف والكرامـة ، وفي شـعره وهـج التمـرد والحريـة والكبرياء !

الفيتوري واكتمال الدائرة

بقلم : فاروق شوشة

كان قصيرا ونحيلا ، وذا بشرة أميل إلى السواد . لا شك أنه كان علي قدر من النقص ، أو الجنون أو ربما كان شعوره بالنقص هو الذي أوقفه حينذاك عند حافة الجنون . . أو ربما كان عكس ذلك ! هل الشعر هو الجنون ؟ أم الجنون هو الشعر ؟ لماذا كان يؤثر الانطواء علي نفسه ؟ لماذا كان يبدو في نظر الآخرين متكبرا وشاذا ومزهوا بنفسه . . إلى حد إثارة الغيظ واللستهزاء ؟ لماذا كان يكره الأضواء والضوضاء والزحام ؟ لماذا أحب زيارة القبور وصلاة الفجر وكره حفلات الأعراس ومواسم الأعياد ؟ دائما تحاصرني عيونهم ، ضحكاتهم ، تتباعني حيثما أسير . إنهم يسخرون مني . . منظري يثير فيهم روح السخرية والاستهزاء ، لقد فضضت سر اللغز ، سر المأساة التي ولدت معي إنني قصير وأسود ودميم .

بهذه الكلمات الدامعة ، المتلئة بالوخز والبوح ، يدلف بنا الشاعر الكبير محمد الفيتوري إلى منطقة السر في ذاته ووجدانه . ويفسر لقراء أعماله الشعرية ما كان خبيئا وراء ضرواة الهجمة العاتية التي تمثلت في مجموعته الشعرية الأولي أغاني أفريقيا وهو يصيح :

فقير ؟ أجل ! ودميم دميم
بلون الشتاء ، بلون الغيوم
يسير فتسخر منه الوجوه
وتسخر حتي وجوه الهموم
فيحمل آلامه في جمود
ويحض أحزانه في وجوم
ولكنه أبدا حالم
وفي قلبه يقظات النجوم !

في الإسكندرية كانت طفولة محمد الفيتوري وصباه ، وفي القاهرة كانت يفاعته الشعرية وانطلاقته الأولي عندما أصدر ديوانه الأول عام ١٩٥٥ ، وكان لصدوره دوي الزلازل والبراكين . فقد تفجرت لغة شعرية جديدة تتغني بأفريقيا وطن الزنوج الحفاة العراة ، لغة تمتلك قدرة هائلة علي التصوير والتجسيد ، والاحتشاد الموسيقي والإيقاعي ، لغة تحاكي الطبول الإفريقية ودبيب الخطوات الراقصة بوحشية في حميا الانفعال وأتون

المشاركة . واستيقظ الناس ذات صباح علي شاعر - لا يزال طالبا في كلية دار العلوم - يصيح بأعلي صوته :

قلها لا تجبن ، لا تجبن
قلها في وجه البشرية
أنا زنجي . .
وأبي زنجي الجد
وأمي زنجية
أنا أسود
لكني حر أمتلك الحرية
أرضي إفريقية
عاشت أرضي
عاشت إفريقية !

يومها ، احتفل به من النقاد والمثقفين الكبار: زكريا الحجاوي وكامل الشناوي وسلامة موسي ، وأنيس منصور وفتحي غانم وآخرون . وأقامت كليته - دار العلوم - حفلا تكريميا للطالب الذي أصدر ديوانا أثار كل هذه الضجة ، أشرف عليه الناقد والأستاذ الجامعي الراحل الدكتور عبد الحكيم بلبع .

لكن الناقد الكبير الأستاذ محمود أمين العالم كان له رأي مختلف ، وموقف مغاير ، عبر عنه من خلال مساجلات بينه وبين الشاعر علي صفحات مجلة الآداب البيروتية خلاصته أن الفيتوري لم يجاوز ما ساته الخاصة يسقطها علي قارة بأكملها علي إفريقيا ، وأنه شاعر مريض . وكان رد الفيتوري أنه في هذه المرحلة من شعره يريد أن يتطهر من مرضه ، بأن يبوح به ، وأنه قد جرؤ علي أن يكسر الصدفة من الداخل ، ولذا فهو يغني مبتهجا بمادة حزنه !

لكن الأستاذ العالم لم يكن يري أن هناك قضية منفصلة للسود ، فالعامل الأبيض والعامل الأسود يرزحان تحت نير تاريخي واجتماعي واحد ، نير الرأسمالي الأبيض والرأسمالي الأسود ، نير الاستعمار والاستغلال . لم تكن القضية في رأيه قضية أسود وأبيض ، إنها قضية مستغل - بفتح الغين - ومستغل - بكسر الغين ، قضية الكادحين وأصحاب رؤوس الأموال .

هذا الحوار العنيف بين الشاعر الكبير والناقد الكبير لم يفسد للود بينهما قضية ، وإنما كان سبيلا لتعميق الفكر وجلاء الرؤية ونفاذ البصيرة ، توجته مقدمة نقدية ضافية ، كأنها إبداع مواز للإبداع الشعري ، كتبها الناقد الكبير محمود أمين العالم

للـديوان اسـتهلها بـأن مـا صـنعه الـشاعر هـو رحلـة شـعرية مـن طـراز فريـد ، واختتمهـا بـأن الـشاعر يقـف إلى وم في مـستهل طريـق جديـد ، خلـص إلى ه بعـد كفـاح صـادق مريـر ، وبأنـه يقـف جـسورا غـير هيـاب ، وعلـي سـنة ـ الـتي لا تتجـاوز الخمـس والعـشرين ـ ترقـد مسئوليات جسام ، نحو هذه الرؤيا الإنسانية الصادقة ، التي امتلأ بها وجدانه .

لقـد أعـادتني هـذه الـسطور إلى عـصر أدبـي وثقـافي جميـل ، يـوم كـان نـشر قـصيدة جميلـة واحـدة ـ مجـرد قـصيدة واحـدة ـ في مجلـة شـهرية أو صـحيفة يوميـة ، يقـيم الـدنيا ولا يقعـدها حـتي تنـشر قـصيدة أخـري جميلـة تظـل بـدورها تـشغل النـاس . واليـوم ينـشر شـاعر كـبير لـه تاريخـه الحافـل في الإبـداع الـشعري ، هـو محمـد الفيتـوري ، المجلـد الثالـث مـن أعمالـه الـشعرية ، الـذي يـضم دواوينـه الأربعـة الأخـيرة: شـرق الـشمس غـرب القمـر ، يـأتي العاشـقون إلى ك ، فـرس الليـل فـرس النهـار ، أغـصان الليـل عليـك ـ عـن الهيئـة المـصرية العامــة للكتــاب ينــشر في القــاهرة ، الــتي شــهدت بــزوغ نجمــه الــشعري لا ول مــرة مــع مجموعتـه الأولـي أغـاني إفريقيـا لكـن الـدنيا قـد تغـيرت ، ويبـدو أن الـشاعر نفـسه قـد تغـير ـ مـن المؤكـد أنـه تغـير كـثيرا ـ وأن الـسجال النقـدي الحـار المخلـص والمواكبـة النقديـة والأدبيـة الحميمة التي عرفهـا شـعر الفيتـوري في منتـصف الخمـسينات قـد عراهـا مـا عـرا كـل شـيء آخـر في حياتنـا الثقافيـة والإبداعيـة ، فمـا الـذي حـدث يـاتري . . هـل انطفـأ الحمـاس ؟ وهـل تبلد الإحساس ؟ وهل الناس غير الناس ؟

أحـاول العثـور علـي إجابـة عـن هـذه التـساؤلات . وألجـأ في البدايـة إلى الفيتـوري نفـسه ، في تقديمـه لهـذا المجلـد الجديـد مـن أعمالـه الـشعرية : كنـت أتـصور أن وقتـا سـوف يجيء وسـوف نكـون نحـن بعـض بناتـه ، ضـمن مـن سـوف ينعمـون بـبعض الانتـصارات والأيـام الحلـوة فيـه ، ولكـن حقـا نحـن حيـث بـدأنا وكأنـا لم نخـط خطـوة واحـدة إلى الأمـام . . القيـود في الأرجـل والـسلاسل في الـشفاه ، أقـصد الحريـة الـتي حلمنـا بهـا ـ نحـن الـشعراء ـ لم تتجاوز طفولتها المضحكة !

هل تقدم هذه السطور بعض التفسير ؟

أم أن الأمـر يكمـن ـ كمـا يـري الـبعض ـ في تخلـي الفيتـوري عـن شـعر القـضية الإفريقيـة الـتي شـغلت دواوينـه الثلاثـة الأولـي ، وأن انطفـاء ملامـح هـذه المرحلـة في شـعره ، واتجاهــه إلى الخطــاب الإنــساني العــام ، والنــبرة الإنــسانية ، والــصوفية أحيانــا ، جعلــه يبـدو وكأنـه قـد تخلـي عـن قـضيته الأساسـية ، في عـصر تـزدحم سـاحته الـشعرية ـ الآن ـ بــشعراء يتمثلــون قــضايا سياســية واجتماعيــة وعاطفيــة ، حققــت لهــم جماهيريــة الــشهرة والـذيوع ، بـأكثر ممـا يتـاح لـشعراء النـبرة الإنـسانية ، والهمـس الهـاديء العميـق ، والعـزف الرصـين المتأمـل ، والأفـق المفعـم بالرؤيـة المنفتحـة والاستـشراف البعيـد (ويستـشهد أصـحاب

هـذا الـرأي بـشعراء القـضية الفلـسطينية وشـعراء المـرأة وشـعراء الهـاجس القـومي أو الـلا قـومي)
.

الفيتـوري نفـسه مـن مؤيـدي هـذا الـرأي وهـو يستـشهد في تقديمـه لديوانـه الأخـير ، بحكايـة طريفـة ، عـن المدينـة العربيـة الـتي استـضافت شـاعرين أحـدهما ينتمـي إلى قـضية معاصـرة ، فجـاء خلفـه خلـق كـثير يـستمعون إلى ه ، وخـرج معـززا محمـولا علـي الأعنـاق . وكـأن حالـة الهيمـان الـتي عاشـها الجمهـور كانـت بمثابـة التطهـر مـن الإحـساس بالخطيئـة والتخلص من الذنب الذي يثقل الكاهل .

ثم جاء الـشاعر الثـاني ـ وهـو كمـا يقـول الفيتـوري ـ شـاعر كـبير ينتمـي إلى وطـن بعيـد ليلقـي شـيئا مـن شـعره في المدينـة ذاتهـا ، وللجمهـور نفـسه ، في مناسـبة أخـري وعنـدما تلفـت حولـه رأي القاعـة الفـسيحة فارغـة ، إلا مـن بـضعة أفـراد جلـسوا علـي اسـتحياء . وأغمـض الـشاعر عينيـه ، وألقـي بعـض شـعره ، ثـم خاطـب مـستمعيه قـائلا: الان فقـط عرفـت قـيمتي إنـه مـن واجـبي أن أكـون أشـد تواضـعا . إن جمهـور بـلادي كـان قـد علمني إحساسا آخر ، أنا أفتقر إلى ه الآن .

ويعلـق الفيتـوري بقولـه: لقـد تعلـم الـشاعر أن الجمـاهير لا تـأتي دائمـا ، لا ن هناك شاعرا ، بل لا ن هناك قضية في الشعر !

ويبـدو أن هـذا هـو تفـسير المكانـة المتقدمـة الـتي بلغهـا أمـل دنقـل بـين شـعراء جيلـه ، فقـد كـان مـن بيـنهم جميعـا ، شـاعرا صـاحب قـضية بـارزة في شـعره ! إن شـعر الفيتـوري ـ في هـذه الـدواوين الأربعـة الأخـيرة ـ يبلـغ بهـاء اكتمالـه ، ويحقـق ذروة فنيـة وتألقـه التعـبيري والتـصويري . وتـصل فيـه طاقـات الفيتـوري الـشعرية ـ المـشدودة المتـوترة دومـا ـ إلى أقـصاها ، بعـد أن اقـترب طرفـا القـوس المـصوب في اسـتدارة كاملـة ـ انطلاقـا نحـو أفق جديد بعيد .

والخـبرة الـشعرية ـ العريـضة العميقـة ـ الـتي اكتـسبها الفيتـوري مـن خـلال إنجـازه الإبداعي الحافـل ـ اثـني عـشر ديوانـا ـ تجعلـه لا يخـضع لمـا يـسمي بالإلهـام الـشعري إن لديـه ـ كمـا يبـوح هـو لنـا ـ رصـيدا موروثـا علـي مـستوي الإيقـاع والفكـر يمكنـه مـن قـول مـا يقولـه للآخـرين ولا تبقـي أمامـه إلا الكيفيـة ـ الـتي بهـا سـيقول . فهـو يـضع فكـرة البـذرة بكـل وعـي ـ سـواء كانـت سياسـية أو اجتماعيـة ـ ثـم ينتظـر بعـض الوقـت حـتي تزدهـر فيـه كمـا هـي في بـاطن الأرض ، لتبـدأ في التـشقق داخلـه وتـشقه في الوقـت نفـسه ، ثـم تـبرز شـيئا فـشيئا حـتي تأخـذ شـكلها الخـارجي الـذي سـوف تواجـه بـه الآخـرين ، أي حـتي تلـبس جـسدها الإيقـاعي الـذي يفـرض ذاتـه عليهـا ، فهـو لا يختـار ايقاعاتـه ، إنمـا تختـاره إيقاعاتـه ! لم أجـد غـير نافـذة في سمائـك مبتلـة بـدموعي فألـصقت عـيني فـوق الزجـاج

لعلي أراك لعلك تبصرني وأنا هائم مثل سرب من الطير ، منهمك في مداك لماذا تلوح لي من بعيد وتتركني مغلق الشفتين وتدخل في غابة من سناك لماذا تغيب ! كأنك لم تدر أني زرعتك في جسدي فازدهرت نقوشا وأني نشرتك في أفقي فاشتعلت شموعا وأني رسمتك أودية ، ومدائن مسحورة وتشكلت مثلك في زرقة الكائنات ومازلت أولد في زهر الكلمات ! أجمل ما في شعر الفيتوري ـ علي امتداد أكثر من أربعين عام ا من الزمان ــ أنه لا يسمح لقارئه أن يتساءل أبدا : هل هو شعر كلاسيكي ؟ هل هو شعر تفعيلة ؟ هل ينتمي إلى شعر الحداثة ؟ أين موقعه من تيارات الشعر علي خريطة الوطن العربي ؟ . ذلك أنه ـ منذ بداياته وحتي الآن ـ لا يثير فينا إلا سؤالا واحدا جوهريا هو سؤال الشعر . الحقيقة الشعرية الساطعة فيه تطرح ما عداها من أسئلة هامشية أو تنطع نقدي أو ادعاء مدرسي .

والحضور الشعري المتوهج – في نبرتيه العالية والخفيضة ودائرتيه الإفريقية والإنسانية ـ يسبق كل ما عداه ، ويفسح في وجدان المتلقي مكانا دافئا لشعر الفيتوري الذي يدل عليه ـ دالة قاطعة – لغة وتصويرا وتجسيدا وإيقاعا . ولا نذكرأن الفيتوري شغل نفسه مرة واحدة ـ شاعرا أو كاتبا – بما انشغل به شعراء هذه الأيام في تصنيفاتهم وقبائلهم إنه ـ ومعه الحق ـ أكبر من التصنيف ، وأبعد عن جدل المتشاعرين الذين لا يملكون فضلة موهبته ولا يخجلون من كونهم يملأون الساحة زهوا وادعاء .

وهو ليس كغيره ـ من شعراء جيله ـ الذين أفلس بعضهم فأصبح من شعراء القصيدة الواحدة ، يكتبها في كل مرة بطريقة مختلفة ، وإدعاء شعري جديد ، وتقرأ دواوينه فتكتشف أنك تقرأ قصيدة واحدة ممتدة ، يعيد فيها صاحبها ويزيد . وليس كغيره من شعراء جيله الذين أصبح بعضهم يقدم لنا بضاعة تشبه الفاكهة المجففة ، التي يماثل طعمها القصب الجاف أو العيدان المحترقة ، كلاما معروفا يخلو من ما ء الشعر !

والفيتوري ـ السوداني الليبي المصري ـ الذي يعود إلى القاهرة بعد طول اغتراب وتطواف ـ في المكان والزمان ـ ليتخذ منها مستقرا ومقاما يؤكد بصدور أعماله الشعرية فيها اكتمال دائرته الشعرية ، وعودته إلى موقعه القديم الجديد من قلب الحياة الشعرية العربية ، وترا متميزا ، وصوتا لا يتكرر ، ووجها لا يغيب .

صالح جودت

بقلم: فاروق شوشة

هذا شاعر لا يكاد يذكره الآن أحد . بالرغم من أنه كان يملأ الدنيا ويشغل الناس بقلمه وبكتاباته وبمعاركه منذ بزوغ اسمه في حياتنا الأدبية والصحفية ، في النصف الثاني من ثلاثينيات القرن العشرين عندما أصدر ديوانه الأول ديوان صالح جودت عام ١٩٣٤ وحتي رحيله في عام ١٩٧٦ بعد أن أصدر آخر دواوينه الله والنيل والحب بعام واحد عن الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ويبدو أنه كان موهوبا في اكتساب الأعداء ، خاصة بعد أن نصب من نفسه ـ بعد رحيل العقاد في عام ١٩٦٤ ـ مدافعا عن الشعر العربي العمودي ، مهاجما بضراوة لحركة التجديد التي عرفت باسم الشعر الجديد أو الشعر الحر أو شعر التفعيلة . واشتط في هجومه إلى الحد الذي جعله يتهم شعراء هذه الحركة التجديدية بأنهم قرامزة . وكانت كلمة قرامزة تعني في معجم صالح جودت أنهم شيوعيون ، وكان مجرد هذا الوصف الذي أطلقه عليهم بلاغا إلى السلطات المعنية .

والغريب أن صالح جودت ـــ الذي وقف هذا الموقف من أصحاب التجديد في الشعر ـ نسي أو تناسي أنه هو نفسه ، ومعه كوكبة من شعراء الثلاثينيات كانوا يعبرون عن ثورة تجديدية علي شعر المدرسة الكلاسيكية المحافظة ـ التي كان من أقطابها شوقي وحافظ إبراهيم وإسماعيل صبري وغيرهم ـ وسميت حركة هؤلاء الشباب باسم جماعة أبو لو أو التيار الرومانسي الذي اجتاح الحياة الأدبية المصرية والعربية ، وكان بمثابة التهيئة الطبيعية لظهور حركة الشعر الجديد في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات . تماما كما نسي العقاد ـ أو تناسي ـ دوره الريادي في جماعة الديوان وموقفها الثوري التجديدي من قصيدة شوقي ونظرائه ـــ الذين اعتبرهم شعراء مناسبات خارجية لا يصدرون في شعرهم عن وجدان حقيقي ـ فتزعم موقف الرفض لنماذج الشعر الجديد ، وكانت تأشيرته الشهيرة عليها بتحويلها إلى لجنة النثر عندما كان مقررا للجنة الشعر بالمجلس الأعلي للفنون والآداب . وهكذا ارتد التجديديون عن مواقفهم الأولي ، وأصبحوا في خريف العمر محافظين يقفون في وجه الجديد القادم ولا يعترفون به بل إنهم يتهمونه ويتهمون أصحابه بالمروق والتآمر والخروج علي المقدسات .

كان صالح جودت ومعه أقطاب التيار الرومانسي: إبراهيم ناجي وعلي محمود طه محمد عبد المعطي الهمشري ومحمود حسن إسماعيل وأحمد رامي ومختار الوكيل وحسن كامل الصيرفي وغيرهم يهيئون الأرض ـــ بنماذجهم الشعرية المبكرة ـ لمذاق شعري

جديـد ، غـير مـا لـوف ، ولغـة شـعرية لتمـع في ثنايـا معجـم شـعري يـصف المحـسوسات بـصفات المعنويـات والمعنويـات بـصفات المحـسوسات ويطلـق الخيـال الملحـق إلى تخـوم شـديدة البعـد ، لغـة تتميـز بالأناقـة المترفـة ، والـصياغة المفعمـة بـالهمس والإيحـاء ، والتـأثر بأشـعار الرومانـسيين الإنجليـز والفرنـسيين ، مـن أمثـال كيـتس وشـيلي ووردزورث وبـيرون ولامـارتين وألفـرد دي موسيه وألفـرد دي فـيني . وكـان صالح جـودت مـن بيـنهم جميعـا أقـرب إلى الـروح المـصرية والمـزاج المـصري في اسـلوب التعـبير عـن العواطـف والمـشاعر ، واقتنـاص الكلمـات المـصرية ذات الدلالـة المحليـة الطـابع ، ممـا يـذكرنا بمـا كـان يـصف شـاعر مـصري قـديم فـتن بـه صـالح جـودت وكـان دائـم الإشـارة إلى ه وذكـره هـو البهـاء زهـير تميـز شـعره بدرجـة عاليـة من هذه الروح المصرية والطابع المصري في الصياغة والتعبير .

الغريـب أن صـالح جـودت كـان علـي وعـي بهـذا الـدور الـشعري الـذي قامـت بـه الحركـة الرومانـسية . وفي حديثـه عـن صـحبته لنـاجي وعلـي محمـود طـه والهمـشري - في سـنوات الـصبا البـاكر - إشـارة إلى التكوينـات الأولـي ، والنزعـة الـشعرية المـشتركة ، والأفـق المغـاير الـذي يتطلـع إلى ه الأربعـة . يقـول صـالح جـودت في المقدمـة الـتي كتبهـا لـديوان نـاجي الـذي صـدر عـن وزارة الثقافـة والإرشـاد القـومي عـام ١٩٦١ : في المنـصورة عرفـت نـاجي ، إذ كنـت طالبـا بالمدرسـة الثانويـة ، و وكـان لـي زميـل اثـير هـو الـشاعر محمـد الهمـشري ، كان موهوبا مرموقا ، لولا أن عاجلته النهاية وهو في أوج شبابه .

كنـا نخـرج هـو وأنـا مـن المدرسـة ، فنلتقـي بـشاعرين يكبراننـا ، وكـان المـستقبل يتهيـأ لهمـا يومئـذ همـا المرحومـان إبـراهيم نـاجي الطبيـب وعلـي محمـود طـه المهنـدس . فكنـا نجلـس نحـن الأربعـة علـي شـاطيء النيـل ، نقـضي أجمـل ليـالي العمـر في حـديث الأدب والشعر .

كانـت هـذه الـصحبة مدرسـة جديـدة في الـشعر ، تتقـارب خطوطهـا كـل التقـارب إلى حـد أن اخـتلط شعرنا علـي النـاس في كـثير مـن الأحيـان فنـسب إلى غـير صـاحبه ، وإلـي حـد أن أحدا منـا نحـن الأربعـة لم يكـن يعـرف مـن التلميـذ ومـن الأسـتاذ ، فقـد كـان كـل منـا يفيـد من صحبة الآخرين .

وكـان لنـا أصـحاب ثلاثـة مـن شـعراء الـشباب في الأدب الإنجليـزي ، هـم شـيلي وكيـتس ووردزورث ، نقـرؤهم دائمـا ، ونحـس بمـا بيننـا وبيـنهم مـن أواصـر الـشعر ووشـائج الشباب وعبادة الجمال وروح الثورة علي القديم .

لكـن المـستقبل الأدبـي بعـد هـذه الـسنوات الـتي يتحـدث عنهـا صـالح جـودت وهـي سـنوات الدراسـة الثانويـة في المنـصورة بـين عـام ي١٩٣١ ، ١٩٢٧ - الـتي جاءهـا مـن الزقـازيق حيـث كـان مولـده ، هـذا المـستقبل قـام بتوزيـع الحظـوظ الأدبيـة علـي الأربعـة فيمـا يـشبه

القسمة العادلة طبقا لموهبة كل منهم وإخلاصه للشعر ، فليس صدفة أن تقدم ناجي وعلي محمود طه ، وجاء من بعدهما الهمشري وصالح جودت في ميزان الشعر الحقيقي . والتهمت الحياة الصاخبة المتلئة التي عاشها صالح جودت كثيرا من طاقته الابداعية ومن تفرغه للشعر ، كما التهمت معاركه الأدبية والصحفية والسياسية كثيرا مما تبقي من هذه الطاقة ، وحين مشي في طريق صديقه الأثير أحمد رامي وبدأ يتجه إلى كتابة الأغنية ، خاصة للعديد من الأفلام السينمائية ـ أشهرها فيلم شاطيء الغرام ـ كسبته الأغنية العاطفية ولم تكسبه القصيدة المجددة المحلقة التي كان يبدعها ناجي وعلي محمود طه . وفي الاذاعة المصرية عمل صالح جودت عدة سنوات مشرفا علي الأحاديث ومقدما للبرامج الشعرية ومكتشفا للمواهب الجديدة ، ومن خلاله عرف الناس شعر شاعر الكرنك أحمد فتحي قبل أن تشدو به أم كلثوم ومن الاذاعة إلى الأهرام صحفيا وكاتبا فرئيسا لتحرير مجلة الراديو والاذاعة فرئيسا لتحرير المصور ورئيسا لتحرير الهلال ونائبا لرئيس مجلس الادارة بدار الهلال .

وبالرغم من تتابع دواوينه الشعرية ومؤلفاته الأدبية ورواياته ومجموعاته القصصية خلال هذه الرحلة الطويلة الحافلة إلا أن وجهه الشعري انعكست عليه شوائب معاركه التي تجاوزت الساحة الأدبية إلى الحدة السياسية واستعداء السلطة . والغريب أنه كان الشاعر الوحيد الذي اهتز بشدة لتنحي الرئيس جمال عبد الناصر إثر حدوث النكسة فكتب علي الفوز قصيدته : أبق فانت الأمل الباقي ، ابق فأت حبيب الشعب التي تغنت بها أم كلثوم في إلى وم نفسه ولم تذع بعد ذلك ، بعد تراجع عبد الناصر ـ أمام ضغط القوي الشعبية الجارف ـ عن التنحي ، وبعد رحيل عبد الناصر كان صالح جودت من أسرع الكتاب انقلابا عليه وعلي عصره ، وأكثرهم تأييدا ومبايعة للرئيس السادات ، مما جعل كثيرين يرتابون في مواقفه ، وينظرون إلى شعره في ضوء تقلباته السياسية ، وعدائه العنيف للتجديد والمجددين ، من هنا وقع الظلم الشديد علي شعر صالح جودت ، الذي يتسم بالرقة والغنائية والعاطفية والأناقة الشعرية والخيال الوثاب ، والذي ابتعد عنه النقاد والدارسون لا نهم ابتعدوا عن صاحبه وأصدروا حكمهم عليه . وكان هو نفسه سببا في هذا الظلم الشديد الذي لحق بشعره ، فقد اشتط في خصوماته ومواقفه العنيفة ، ولم يقصر حواره مع خصومه علي الدائرة الأدبية وحدها ، بل كان يصبغه دوما بالطابع السياسي الذي يؤدي به إلى دائرة الاتهام لهم بالخيانة وانعدام الوطنية والعمالة والقرمزة وغير ذلك من اتهامات قاتلة في ذلك الحين .

ولولا أن الكاتبة لوسي يعقوب تذكرته بكتابها صالح جودت حياته وشعره الذي صدر في العام الماضي عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، وقامت بسبق كبير حين استطاعت أن تضمن الكتاب عددا كبيرا من الرسائل المتبادلة بين الشاعر وزوجته ، وعددا

من أوراق اسماعيل جودت - الشقيق الأكبر لصالح جودت - وزوجته الاذاعية الكبيرة ثريا جودت ، وأن تكشف من خلال هذه الرسائل والأوراق عن جوانب كثيرة من شخصية الشاعر وفكره وشعره وعلاقاته الاجتماعية الواسعة ، لولا هذا الجهد الذي قامت به لوسي يعقوب ، لكانت هذه السنوات - منذ رحيله في٢٣ يونيو١٩٧٦ - قد مرت دون أن يذكره أحد بكلمة ، بعد أن ألف عنه الأديب محمد محمود رضوان منذ سنوات عديدة كتابه : شاعر النيل والنخيل .

لقد أصدر صالح جودت ستة دواوين هي : ديوان صالح جودت (١٩٣٤) ، ليالي الهرم (١٩٥٧) ، أغنيات علي النيل (١٩٦٢) ، حكاية قلب (١٩٦٥) ، ألحان مصرية (١٩٦٨) ، الله والنيل والحب (١٩٧٥) ، وست دراسات أدبية هي : ذكري حافظ وشوقي ، بلابل من الشرق ، عشرة شعراء ، تراجم ومذاهب ، ملوك وصعاليك ، ناجي : حياته وشعره الهمشري : حياته وشعره ، كما أصدر روايتين هما : الشباك وعودي إلى البيت ، وعددا من المجموعات القصصية هي : في فندق الله ، وداعا ايها الليل ، خائفة من السماء ، بنت أفندينا ، كلنا خطايا ، أولاد الحلال ، أساطير وحواديت ، وعددا من كتب الرحلات أبرزها مصر في القرن التاسع عشر ، وأمة الملايو ، قلم طائر لكنها - في مجموعها - كتابات تنتسب إلى عالم الكتابة الصحفية أكثر من انتسابها إلى عالم الابداع القصصي والروائي .

وبالرغم من وفرة هذا الانتاج الأدبي وتعدد جوانبه ، إلا أن الوجه الشعري لصالح جودت يظل وجهه الأساسي والأصيل ، وهو الوجه الذي شملت آخر تجلياته في قصيدة الثلاثية المقدسة التي تغنت بها أم كلثوم ، والتي كتبها صالح جودت استجابة للفكرة التي ومضت في خاطر المفكر الاسلامي الراحل الدكتور عبد العزيز كامل عندما كان وزيرا للأوقاف ، وحدث حريق المسجد الأقصي - فرغب الدكتور عبد العزيز كامل إلى صديقه الشاعر محمود حسن إسماعيل في كتابة قصيدة تجمع بين الكعبة المشرفة ، والحرم النبوي الشريف ، والمسجد الأقصي ، وبالرغم من انفعال محمود حسن إسماعيل بالموضوع وتأجج الحس الاسلامي في داخله إلا أنه لم يكن سريع الاستجابة انتظارا لمواتاة الوحي ، بالرغم من استحثاث أم كلثوم له عدة مرات ، ثم بدأ التفكير في صالح جودت ، الذي تحمس للأمر ، وأنجز القصيدة في أيام معدودة بعد أن شجعته أم كلثوم ، وكان الغناء بالنسبة لصالح جودت قضية شديدة الأهمية خاصة إذا اجتمع له السنباطي وأم كلثوم ، أما محمود حسن إسماعيل فكانت طبيعته تستعصي علي طلب الشعر منه ، كما أن التلويح بالغناء - حتي لو كان لا م كلثوم - لم يكن ليجعله يغير من عاداته !

يقول صالح جودت في قصيدته احلام المنصورة مسترجعا ذكريات الأيام البعيدة من الصبا ومطالع الشباب :

آه مما بي ، وهل تردين ما بي
يوم ودعتك . . ودعت شبابي
أين أحلامي علي تلك الروابي ؟
ذابت الأحلام في قلبي المذاب
لي حبيب فيك أفديه بعمري
سمرة النيل علي خديه تغري
هو إلهامي وأحلامي وشعري
ونعيمي بين عينيه وسكري
كان عند الليلة الظلماء بدري
يامني الشرق وباريس الجنوب
من كأنبائك في غزو الشعوب
شهداء المجد أبطال الحروب
وكعادتك في غزو القلوب
بالعين السود واللحظ اللعوب
المني بعدك من وهم السراب
والصبا في غير لقياك تصابي
آه مما بي ، وهل تدرين ما بي ؟
يوم ودعتك ودعت شبابي !

النزعة الحسية الطاغية ، والظمأ الشديد لكل ما في الحياة من متع ورغائب ، ملمحان لا يفارقان قارئ شعر صالح جودت . إنه ظامئ نهم بالجمال - يلمسه ويشمه ويتحسسه ، لا يكتفي برويته أو تذوق عطوره ، ولايؤجل لذائذ يومه إلى غده . هذه النزعة الأبيقورية أو الخيامية أو النواسية هي التي تقربه أحيانا من علي محمود طه وتباعد بينه وبين إبراهيم ناجي ، فكلاهما : علي محمود طه ، وصالح جودت حريص علي تأكيد فروسية في مجال العشق ، وظفره بمن تشاغله خيالاته وأفكاره ، يقول صالح جودت :

أجل ، ظمآن ياليلي
وماء الحب في نهرك
خذيني في ذراعيك
وضميني إلى صدرك
دعيني أشرب النور الذي
ينساب من شعرك

ورُوي لهفة الظمآن
بالقبلة من ثغرك
هيي لي ليلة أثمل
ياليلي من خمرك
تقولين: جمعت السحر
ياظمآن في شعرك
وأنت قصيدتي الكبري
وهذا الشعر من سحرك !

بين ميلاده في الثاني عشر من ديسمبر١٩١٢ ورحيله في الثالث والعشرين من يونيو١٩٧٦ عاش صالح جودت حياة صاخبة حافلة ، امتلأت بمعاركه القلمية في الشعر والأدب والسياسة ، وألقت بغبارها الكثيف علي إبداعه الشعري ، إبان فوران الانتقال من العصر الناصري إلى الساداتي ، والآن ـ بعد أن انقشع الغبار أو كاد ـ آن أوان قراءة صالح جودت قراءة جديدة تعكف علي شعره وحده ، وتتجاهل كل ما عداه

في ذاكرة

شاعر النهر الخالد " محمود حسن إسماعيل "

في الخامس والعشرين من أبريل عام ١٩٧٧ ، رحل الشاعر محمود حسن إسماعيل عاشق النيل الخالد عن دنيانا ، وترك صدى كلماته نغمًا خالدًا عبر الزمن تردده الأجيال ، شاعر النهر الخالد الذي أصدر أربعة ديوانًا من الشعر أولها أغاني الكوخ ، وأخرها " موسيقا من السماء " جاء من الريف إلى المدينة الكبيرة حاملاً إلى ها قيثارته ورؤاه الهامة المسحورة بمشاعر الحب وعنفوان الشباب ، يبحث عن الأمل ن ويدق أبو اب الحياة بالثورة على قوالب الشعر ومشارب الخيال ، وتضيق نفسه بالأحكام المسبقة والشكليات ن فيوقد نار الإلهام في أعماله بمزيد من الانطلاق والحربة ن خاص الكثير من المواقف ، وهز شجرة الإلهام هزاء ، فاستجابت له الكلمات الجميلة ، فأخضع اللغة لتقطر شهى مزج فيه سحر الخيال بحرارة الواقع .

وتناقل رواه الشعر بعض قصائد هذا الديوان في المنتديات الأدبية والجامعية ، وكانت القاهرة في انتظار شاعر ، فمنذ أن انتقل حافظ إلى الخالدين وبعده سار شوقي في طريق الأبدية ، والمحيط الأدبي يتساءل عمن يملأ الفراغ ، كان هناك شعراء شبان يشرون بخير كبير ، كان أبرزهم محمد عبد المعطي الهمشري " الذي ما أن هزجت تباشير بواكيره الرائعة ، حتى غاب وراء الأفق اللا نهائي ومن هؤلاء الشعراء الشبان صالح جودت و " محتار الوكيل " وغيرهم من شعراء مدرسة " أبو لو " التي أنشأ مجلتها الدكتور الشاعر " أحمد زكي أبو شادي " .

كانت القاهرة تنتظرًا شاعرًا يملأ فراغ شوقي تنتظر شاعرًا يملأ فراغ شوقي وحافظ ، وظهر فجأة ديوان " أغاني الكوخ " وإذا بشاعر يختلف شعره عن بقية الشباب ، كلهم يميلون إلى الرومانسية ، ولكن هذا الشاعر جديد الاتجاه أنه من مدرسة ذات طابع جديد ، فنسيج شعره يدل على أنه شاعر متمرس ، يطاول بتعبيره المتنبي وأبا تمام والبحتري ، ف يحين أنه يعالج مضمونًا جديدًا استوجاه من بيئة القرية والفلاح ، وأحس أدباء هذه القرية والفلاح ، وأحس أدباء هذه الفترة ونقادها أن صاحب هذا الاسم هو الموعود بالمكانة .

وأنت لا تستطيع أن تعرف " محمود حسن إسماعيل " ، من خلال قراءتك لشعره واختلاجات روحه وحدها ، وإنما تستطيع أن تضع أصبعك على مفتاح بابه الشعري ، بما فيه من حدائق وحرائق وحقائق لو أنك صادقته وعايشته وقضيت سنوات طوالاً معه ، تنتقل من مركب " العم على " فوق صفحة النيل ، والذي رحل هو ومركبه

برحيل الشاعر ، أو في مقهى " سان سوسي " بالجيزة والذي أقيم مكانه " عمارة " أو بكازينو النهر ، أو فوق شواطئ الإسكندرية لحظات الغروب ، أو فوق أرض الكويت حيث قضي أيامه الأخيرة وهو يعمل .

لم يكن من السهل على أحد أن يقترب من الشاعر أكثر مما يسمح له ، فقد كان ، مع مسحة من الهدوء والتصوف أحيانًا ، يسرح ببصره وتأملاته خلف المجهول إلى وعاء نفسه كشاعر ملهم ن منذ جاء طرى العود من قريته النخيلة لقد كان شاعرًا مجددًا دائب التحليق طموحًا، هادرًا ، ثائرًا وإذا كنا نعتبر البارودي وحافظ وشوقي قد عادوا بالشعر العربي على رصانة العصر العباسي وجزالته فإنهم جاءوا مقلدين لما ينبغي أن يكون .. أو لما كان .. لكن محمود حسن إسماعيل إذا كان شاعرًا جزلاً فخم الألفاظ ، قوى العبارات متنوع اللفتات .. وإذا بدأ من خلال التراث .. فهو لم يقلد في الحقيقة ، وإنما جد كثيرًا ، بل هو تمرد على عمود الشعر التقليدي ويعتبر أول من نظم الشعر الحديث ، قبل الكثيرين ، ودليل ذلك قصيدته التي نشرت في حينها في رثاء " شوقي أمير الشعراء " .

لقد كان ديوانه " أغاني الكوخ " صورة رائعة لتصوير حياة الفلاح ، والصراع بين الكوخ والقصر والإقطاع ، غنى للحرية والخلاص ، وردد الألفاظ على رق والقيود والسلاسل والأسفار ، فالكوخ امتزاج وممارسة للفلاح والقرية المصرية .

قالي لي ذات يوم ، لو لم أكن شاعرًا .. لم تهبني السماء طبيعة الشاعر ، إشعاع موهبته ، وفطره موسيقاه ، ولو لم تمكني ظروف النشأة من التثقيف العربي العميق الذي يتيح لي الإفصاح والتعبير عما أحس ، بلفظ عربي هو لغتي ولغة أمتي العربية .. هو هذا الذي تراه .. لكنت أبكم اللسان .. شاعرًا لا أثر له .. يتحرك على تراب الأكواخ مع عبيد الأرض .. بإحساس شاعر ولسان جاهل ، فأنا أما شاعر .. وأما لا شيء .. أن طفولتي هي السر الذي اندلعت منه حياتي الشعرية ، فقد عشت القرية بروحي وجسدي ، متوغلاً في دخانها وترابها وشقائها وأحزانها الراضية ، ورقها المستسلم الوادع الذي طبعته مقارع السنين بالطمأنينة الكاذبة ، والقناعة المهيبة .

يعقوب شيحة

نازك الملائكة . . عاشقة مصر

بقلم: فاروق شوشة

لا أظن أن مصر قد عاشت في وجدان شاعرة عربية ، بالقدر الذي عاشته في وجدان شاعرة العراق وشاعرة العرب الأولي في القرن العشرين نازك الملائكة ، فقد تفتحت عيناها ـ منذ صباها الباكر ـ علي الأنفاس الرومانسية المترددة في شعر محمود حسن إسماعيل وعلي محمود طه وإبراهيم ناجي منذ أواخر الثلاثينيات ومطالع الأربعينيات في مصر . وكانت بطبيعتها الانطوائية ، وتكوينها غير الاجتماعي ، وانكماشها في داخلها عبر هواجسها وظنونها وتساؤلاتها وتأملاتها ، أكثر ميلا إلى شعر هؤلاء الثلاثة باعتباره قفزة نوعية في سياق الشعر العربي الحديث ، بعد خروجه من عباءة شوقي وحافظ ومطران في مصر ، وانطلاق أصوات جماعة أبو للو .

وكانت أولي قصائدها التي تمثل العلامة في حركة الشعر الجديد قصيدة تعبر عن ارتباطها الحميم بمصر ، هي التي كانت تتتبع عبر إذاعة العراق ـ التي بدأت البث عام ١٩٣٥ ـ أخبار هجمة وباء الكوليرا في مصر وفتكه بالعديد من أبناء مصر عام ١٩٤٧ . كانت تتابع أعداد الموتي يوميا ، ثلاثمائة ، ثم ستمائة ، وتحاول خلال تأثرها العميق أن تسكب رد فعلها الشعوري في عمل شعري فيستعصي عليها ما تريده ، ولا يطاوعها التعبير ، وحين صدمها في يوم الجمعة الموافق السابع والعشرين من أكتوبر عام ١٩٤٧ ـ كما تثبت هي في سيرة حياتها ـ خبر يقول إن عدد الموتي صار ألفا: استولي عليها حزن بالغ وانفعال شديد ثم تقول نازك: فقفزت من الفراش ، وحملت دفترا ، وقلما ، وغادرت منزلنا الذي يموج بالحركة والضجيج يوم الجمعة . وكان إلى جوارنا بيت شاهق يبني ، وقد وصل البناءون إلى سطح طابقه الثاني وكان خاليا لا نه يوم عطلة العمل ، فجلست علي سياج واطئ ، وبدأت أنظم قصيدتي المعروفة الآن الكوليرا ، وكنت قد سمعت في الإذاعة أن جثث الموتي كانت تحمل في الريف المصري مكدسة في عربات تجرها الخيل ، فرحت أكتب وأنا أتحسس صوت أقدام الخيل:

سكن الليل
أصغ إلى وقع صدي الأنات
في عمق الظلمة ، تحت الصمت علي الأموات

ولاحظت في سعادة بالغة أنني أعبر عن إحساسي أروع تعبير بهذه الأشطر غير المتساوية الطول ، بعد أن ثبت لي عجز الشطرين عن التعبير عن ما ساة الكوليرا ووجدتني أروي ظمأ النطق في كياني ، وأنا أهتف:

الموت ، الموت ، الموت
تشكو البشرية تشكو ما يرتكب الموت

وكانت قصيدة الكوليرا طلقة البداية ، ومن بعدها تدفقت أنهار الشعر في كل الأقطار العربية ، والتمع صوت السياب والبياتي والحيدري في العراق ، و عبد الصبور وحجازي في مصر ، ومن ورائهم بقية شعراء الموجة الأولي الكاسحة التي عاشت صدمة مجابهة الواقع الشعري الجامد ومواجهته ، فالموجة الثانية التي أصلت للقصيدة الجديدة ، وقدمت لها من التنويعات وصور التشكيل وجسارة اللغة ما حقق لها التدفق والاستمرار والصمود في وجه العبث الراهن وتجاوزه دوما إلى ما هو حقيقي وأصيل .

وحين دعيت نازك من معهد الدراسات العربية في القاهرة لا لقاء سلسلة من المحاضرات فيه ، كان اختيارها للشاعر علي محمود طه موضوعا لهذه المحاضرة ، تأكيدا جديدا علي حس الانتماء وروعة العشق لمصر: شعرا وثقافة وحياة ، وقد جمعت محاضراتها هذه في كتابها الذي حمل عنوانين في الطبعة الأولي القاهرية عام ١٩٦٥ شعر علي محمود طه في الطبعة الثانية البيروتية تغير العنوان إلى الصومعة والشرفة الحمراء وحين تختار نازك أن تكون سنواتها الأخيرة ، ورحلتها مع الداء العضال ، علي أرض مصر وتحت سمائها ، فكأنها ترد لمصر بعض الدين عليها ، وتؤكد ـ في موقف أخير ـ أن مصر الشاعرة كانت لحن البداية ومعزوفة النهاية ، ودقات الختام . وعبر السنوات العشر الأخيرة في حياة نازك في أثناء إقامتها لا خر مرة في مصر ، كان التفات الحياة الأدبية والثقافية إلى ها محدودا ، تمثل أبرزه في اصدار المجلس الأعلي للثقافة أعمالها الكاملة ـ شعرا ونثرا ـ في عام ٢٠٠٢ ، أي منذ خمس سنوات ، بمقدمة ضافية للشاعر المصري الراحل الدكتور عبد ه بدوي ، الذي اقترب منها إبان زمالتهما المشتركة في جامعة الكويت ، وقد كانت زمالة طويلة في قسم اللغة العربية ، أستاذين للأدب واللغة .

ولم تكن نازك ـ علي المستوي الشخصي ـ ممن يصادقون (بكسر الدال وبفتحها) بسهولة ، فكان مزاجها الفوار هو الذي يجعلها تقبل علي أو تنفر من ، فتكون حينا في رقة الماء السلسال ، وحينا آخر في وعورة الصخر الصلد . ومن عناق الماء والصخر ، وجدلية التدفق والانحباس ، تفجر شعر نازك الملائكة وإبداعها العظيم ، وصوتها الباقي ، ونموذجها الفريد ، الذي يستعصي علي المحاكاة أو التكرار . والحديث موصول .

في رحيل نازك الملائكة

بقلم: فاروق شوشة

ونازك الملائكة هي أكبر شاعرة عربية في القرن العشرين . وهي الشاعرة التي أكدت مكانة المرأة الشاعرة في موقع الريادة من حركة الشعر الجديد ، الشعر الحر ، شعر التفعيلة . ثم هي بالإضافة إلى موهبتها الشعرية الكبيرة ، وإنجازها الشعري الضخم المتمثل في تسعة دواوين هي: ما ساة حياة ، أغنية الإنسان ، عاشقة الليل ، شظايا ورماد ، قرارة الموجة ، شجرة القمر ، للصلاة والثورة ، يغير ألوانه البحر ، الوردة الحمراء (الديوانان الأول والثاني لم ينشرا إلا في عام ١٩٧٠ باعتبارهما مطولة شعرية واحدة) ، بالاضافة إلى هذا الانجاز الشعري ، فلها رصيدها من الكتابة النقدية حين أصدرت عام ١٩٦٢ أول كتاب نقدي لها عن حركة الشعر الجديد بعنوان قضايا الشعر المعاصر الذي تقول عنه: درست فيه الشعر الحر دراسة خاصة مفصلة ، ووضعت له عروضا كاملا اعتمادا علي معرفتي بالعروض ، وعلي قوة سمعي الشعري ، وعلي كثرة قراءتي لشعر الزملاء من الشعراء ، وفي عام ١٩٦٥ نشرت في القاهرة كتابها النقدي الثاني: شعر علي محمود طه ، وقد كان في الأصل محاضرات ألقتها علي طلاب معهد الدراسات العربية العالية التابع للجامعة العربية حين دعيت إلى القائها عام ١٩٦٤ ، واختارت الشاعر المبدع علي محمود طه الذي كانت قد تأثرت بشعره في زمن الصبا ، حين كانت طالبة في فرع التمثيل بمعهد الفنون الجميلة في بغداد ، بالاضافة إلى دراستها في فرع اللغة العربية بدار المعلمين العالية التي تخرجت فيها عام ١٩٤٤ ، فضلا عن كونها مترجمة رائدة في مجال ترجمة الشعر الانجليزي إلى العربي ، من خلال حساسية عالية ، وذائقة مرهفة ، ولغة رصينة معبرة .

ولدت نازك الملائكة عام ١٩٢٣ في أسرة شاعرة ، عميقة الانتماء إلى الثقافة العربية والشعر العربي . فاسمها ـ التي تسمت باسم أدبي هو أم نزار الملائكة بعد أن كان اسمها الحقيقي سليمة عبد الرازق ـ شاعرة متمكنة ، نشرت نازك ديوانها أنشودة المجد بعد رحيلها ، وخالاها: جميل و عبد الصاحب شاعران ، وأبوها صادق معلم النحو يتعاطي الشعر وله أرجوزة في أكثر من ثلاثة آلاف بيت ـ كما تروي نازك في سيرتها ـ وصف فيها رحلته إلى ايران عام ١٩٥٦ ، كل شيء من حولها يهيئها لتكون شاعرة ، وشاعرة العرب الأولي في مقبل الأيام .

وكانت نازك محظوظة حين أحست الأسرة بأن ابنتها نازك ـ رغم ما فيها من هدوء ووداعة ـ ستكون شاعرة ، فأعفتها من الأعباء المنزلية والمسئوليات التي يعهد بها لمن هن في سنها . تقول هي: كانت رسالتي لنيل الليسانس في موضوع نحوي هو مدارس

النحو بإشراف الدكتور مصطفي جواد ، وأكثرت من القراءة لمحمود حسن إسماعيل ، وبدوي الجبل ، وأمجد الطرابلسي ، وعمر أبو ريشة ، وبشارة الخوري .

وأتيح لنازك الملائكة أن تسافر إلى الولايات المتحدة لدراسة النقد الأدبي عام ١٩٥٠ لمدة عام في جامعة برنستن في نيوجرسي ، ثم أتيح لي الترشيح عن طريق مديرية البعثات العراقية لدراسة الأدب المقارن في الولايات المتحدة في جامعة وسكنسن عام ١٩٥٤ ، مستفيدة من اللغتين اللتين تجيدهما : الانجليزية والفرنسية ، واكتسبت نازك ثقافة غنية رائعة ، وامتلأت حيالها بأفكار عذبة كثيرة متنوعة ، وتبدلت شخصيتها تماما .

في عام ١٩٦٠ التقيت بنازك الملائكة ـ لا ول مرة ـ في إحدى زياراتها وإطلالاتها علي القاهرة ، واهتم الشاعر محمود حسن إسماعيل المستشار الثقافي للإذاعة والمشرف علي برنامج روائع الشعر الذي كنت أقدمه في ذلك الحين ـ بعد أن تتابع علي تقديمه عدد كبير من الإذاعيين الكبار : حسني الحديدي وجلال معوض وفاروق خورشيد وأحمد فراج وغيرهم ـ اهتم بأن تقدم نازك بصوتها إحدى حلقاته ، وتلقي عددا من قصائدها . اعتذرت عن عدم الإلقاء وآثرت أن أقوم نيابة عنها بهذه المهمة . وانتهزت الفرصة لا ستضافتها لبرنامج مع الأدباء لا ذاعة البرنامج الثاني ـ البرنامج الثقافي الآن ـ وكنت أقدمه كل أسبوعين بالتبادل مع الزميلة الإذاعية الكبيرة سهير الحاوتي ـ متعها الله بكل الصحة والعافية ـ بعد أن اقتسمنا فيما بيننا ضيوف البرنامج العرب والأجانب ، واستعنت بالزميلة الكبيرة سعاد القاضي ، وكانت وقتها المسئولة عن تسجيل الأحاديث الثقافية والمواد الأدبية ـ في إقناع نازك ، التي كانت تذوب قلقا وتوجسا وتوترا وخجلا ، وحين وافقت كانت تجيب عن السؤال بكلمات معدودات ، فأصبحت حلقة نازك أقصر الحلقات في تاريخ البرنامج (ثلاثا وعشرين دقيقة فقط) ، وقد نشرتها في مجلة الآداب البيروتية ، كما نشرت فيها حلقات البرنامج الأخري بدءا بحلقة نجيب محفوظ الذي كان لا يزال اسما بازغا في سماء الرواية العربية (عام ١٩٥٩) .

والحديث عن نازك الملائكة موصول وحافل .

الخاتمـــــــــــة

كتب الشاعر فاروق شوشة عن الشعراء والأدباء والشعر مقالاً كل أسبوع من جريدة الأهرام القاهرية ، ولا يزال ، مضيفًا إلى رصيده الفني ما يمكن أن نقول عنه أنه أحدث صيحة معاصرة الآن ، وهو يفتح شهية القارئ ليزوده فيما بعد بجزء أكبر وأوسع من تجارب الآخرين في الشعر والأدب ، وهو ذو قدرة على عرض الأفكار ، والتعبير عنها بوضوح ، وفقدها ، وتحليل نماذج مما يقدمه للقارئ ، وهو يأخذ في رحلة عبر هذه الروائع على مر الأزمنة والعصور ، ويؤلف بينها مكونًا منظومة فكرية متسقة حول الشعر والشعراء خاصة ، وحول نماذجه الأخرى عام ة . ز

وأرجو أن يأذن لي شاعرنا الكبير في أن تجرأت بالكتابة عنه ، فقد أردت بذلك أن ازداد قدرًا ، وأن أجتاز علوًا ومجد وفخارًا ، فهذا شرف حرصت عليه وأنا أعلم أن الساحة في حاجة ملحة إلى مقل هذه الروائع التعبير إلى الأذهان ما قد يكون منسيًا ، وان يرشد إلى ما يجب أن نترسمه في حياتنا من أقوال الشعراء والأدباء والرموز العربية ، التي يقدمها الشاعر فاروق شوشة يسعفه في ذلك معرفة واسعة للشعر والشعراء ، وقدرة عالية قادرة على التجربة الحية والتعاطف العميق ، والكشف الباهر ، فهو بين اتجاه إلى الشعر ، واتجاه إلى النثر في عالم لغتنا الجميلة ، التي اشتهر بها ، ويقبل القارئ على قراءة ما يكتبه له في جو تترادى فيه الرومانسيات الحالمة ، وتتراقص فيه الصور والخيالات إلى عوالم بعيدة . . لا نه مع كاتب يزخر بالحيوية والحس المرهف ، والتجربة الصادقة ، والعبارة الجميلة ، والتصور الفني الرائع .

فمن يقرأ هذه الروائع ، يستطيع أن يستمد منها ما يغني حصيلته اللغوية وينميها ، ويعرف ما كان للشعر والشعراء من آثار في تحقيق هذا النماء .

ويمثل الشاعر فاروق شوشة ، كاتب هذه الروائع واحد من الصفوة الذين حرصوا على قداسة اللغة ، والحفاظ عليها ، فتناول بقلمه كل ما يعيد نضارتها ، ويرد لها ثوبها القشيب ، وهو دائب العكوف على جذور اللغة كي تظل متقدرة متوهجة ، وقد اكتسب العالم العربي بعضويته في مجمع اللغة العربية ، فائدة كبيرة لخدمة اللغة العربية ، والحفاظ عليها ، ولسوف نحرز نصرًا كبيرًا للغة إذا استطعنا ، فائدة كبيرة لخدمة اللغة العربية ، والحفاظ عليها ، ولسوف نحرز نصرًا كبيرًا للغة إذا استطعنا أن نثير الحافظ في نفوس القراء ، وأمكننا أن نبعث فيهم روح الغيرة على اللفة ، حتى يعتبروها جزءًا من كيانهم ، ومقومًا لعروبتهم ، وأساسًا لدينهم . وهذا الذي يجعل الشاعر فاروق شوشة أحد الأصوات المهتمة باللسان العربي في هذه المرحلة ، التي تحتاج إلى ها أشد ما تكون الحاجة إلى التمسك بسياح هويتنا .

وإذا كانت روائع الشاعر فاروق شوشة تكتب رصانتها وقوتها من رحيق ما اعتصره كاتبها من التراث ، وتضخمن به روحه من عبير الكلمات العربية ، فإنه يحتفظ لها بجلالها وجديتها في مقام الارتواء ، مستمدًا ما جاد به من معايشاته الطويلة .

ومن له معرفة بهذا الجهد يحمد له حسه العميق بالتراث ، وقدرته على الجمع والترتيب والتصنيف ، فهذه الروائع غرس في حقل اللغة العربية .

ولقد قسمت هذه الروائع أربعة أقسام : القسم الأول فيها حول " لغتنا الجميلة " والثاني عن : " كاتب وكتاب " و الثالث عن " رموز عربية " أما القسم الرابع فجعلته في " شعر وشعراء " وقد تضمن القدر الأكبر من الروائع ، لما له من وزن في هذا الميدان :

(ميدان الشعر) .

فالشعر امتلاك للعالم ، واكتشاف للذات عبر اشتباك مع الواقع كي يكتمل الوعي ، وهو ليس ترفا ، بل فعل يشبع الشعور بالانتماء ، وهو يتيح لنا أن تنزل إلى الناس في كل مكان ، فسائل الواقع المعاش حتى لو كان الثمن كأس السم التي تجرعها السابقون من الشعراء ، فذلك أفضل أن يموت السؤال ، فالشعر اختراق لعقل الإكراه ، وتصريح علني يحقق التحرر والارتياح ، بعيدًا عن اعتقال العقل الذي هو السم . .

إن ما كتبه الشاعر فاروق شوشة سوف يبقى بإذن الله نبراسًا وسراجًا منيرًا لكل من أراد معرفة الشعر والأدب ، وسيبقى بمشيئة الله ما كتبه من روائع دليلاً هاديًا يمهد الطريق لمن أراد معرفة اللغة من أهل زماننا ، ومن يجيء بعدنا .

لقد صبرت على جمع ما نشر من روائع الشاعر فاروق شوشة ، وقدمت ما تيسر لي منها للقارئ ليستفيد عظمة السابقين ، ومجد الأولين .

إن الفرات القارئة لهذه الروائع تكشف بوضوح باهر عن أهمية طبيعة هذا الفكر ، وهذه الروائع مفتوحة قابلة لمستويات متعددة من القراءة تختلف باختلاف التراث القارئة في معرفة فهم المعاني والقدرة على التخيل شرط لبقاء المقروء .

إن الشاعر فاروق شوشة علم من أعلام النهضة الأدبية والإعلامية ، وأصدر رجال المحافظين على اللغة العربية ، ونجم من نجوم الحضارة والصحوة المعاصرة ، وهو لا يكتب حين يكتب إلا عن محبة وميل وتعاطف ، ومن هنا كانت عينة عل كل ما هو مجد ، وهو يكتب مبينًا توهج الموهبة وجدة الإبداع في شخصيات من يتناولها .

لقد حقق الكاتب من خلال إبداعاته ، معرفة واضحة عن شخصيات يحملها الكثيرون في وعي عميق كاشف نفاذ إلى الجوهر ، وكتب عن الشعر والشعراء من خلال

شاعريته ، واهتزاز وجدانه لنماذجه الرفيعة ، وامتلاء ذاكرته بالعديد من القصائد والبيات ، فهو حفي بالكثير من المبدعين في هذا المجال حفاوة الذي يطرب لكل ومضة مبدعة يراها ، ويريد لها مع الزمن مزايدًا من التألق والاكتمال . فضلاً عن توقعه أمام النماذج الباهرة ، وإشراك قارئة في حميا العشق ، ونشوة الاستمتاع ، من خلال ما يتريه فكره وتجاربه وخبراته وتأملاته ، وتملؤها روحه السمحة العزبة ، التي لا تتردد في وصف الأشخاص الذين يعرض لهم من كتاباته ، وهذا كله تابع من شخصيته الفنية ، الشديدة الغني والتنوع ، القادرة على التشخيص والتجسيد على مستوى اللمحة والفكرة والموقف والعبارة . .

أرجو أن تتقبل مني يا سيدي هذا العمل الذي قمت به ، وأن تغفر لي إن كنت قد جاوزت قدري ، وأن ينفعنا بك ، ودمت للأمة العربية ذخرًا ، ودام عطاؤك .

والله من وراء القصد

د . خال الزاوي

فاروق شوشة

الميلاد : ٩ يناير ١٩٣٦ – الشعراء / دمياط

الدراسة :

ليسانس كلية دار العلوم / جامعة القاهرة ١٩٥٦

دبلوم كلية التربية / جامعة عين شمس ٩٥٧

آخر عمل :

رئيس الإذاعة المصرية السابق

النشاط الأدبي :

شاعر وكاتب

أنشطة أخرى :

أستاذ الأدب العربي القديم والحديث بالجامعة الأمريكية

رئيس جمعية المؤلفين والملحنين

عضو لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة

رئيس اتحاد الكتاب (سابقًا)

كتابة وتقديم البرنامج الإذاعي (لغتنا الجميلة)

كتابة وتقديم البرنامج التليفزيوين الأسبوعي (الأمسية الثقافية)

المؤلفات :

دواووين شعرية :

إني مسافرة — العيون المحترقة — الدائرة المحكمة

في انتظار ما لا يجيء — لغة من دم العاشقين — هنت لك

سيدة الماء — وقت لا قتناص الوقت — حبيبة والقمر

ودراسات ومختارات :

لغتنا الجميلة ومشكلات المعاصرة – العلاج بالشعر

أحلى عشرين قصيدة حب في الشعر العربي

أحلي عشرية قصيدة في الحب الإلهي

مواجهة ثقافية – عزابات العمر الجميل (سيرة شعرية)

ديوان عبد الرحمن شكري (مراجعة وتقديم)

ديوان عبد الحميد الديب (مراجعة وتقديم)

جوائز :

جائزة الدولة التشجيعية في الشعر العام ١٩٨٦

جائزة الشاعر إلى وناني كافا فيس عام ١٩٩٤

جائزة مؤسسة يماني عام ١٩٩٥

جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٩٧

الدكتور خالد محمد الزواوي

دكتوراه في الأدب العربي ، جامعة عين شمس

الدبلوم العامة في التربية ، جامعة الكويت

الدبلوم الخاصة في التربية ، جامعة الإسكندرية

عضو هيئة تدريس اللغة العربية بدولة الكويت سابقا

رئيس قسم اللغة العربية بالمركز المصري الأمريكي

مشارك بالندوات والمؤتمرات والملتقيات الأدبية والثقافية

له مجموعة من الكتب الأدبية والثقافية

له دراسات نقدية وأبحاث ومقالات نشرت بالصحف العربية

عضو اتحاد الكتاب ، وعضو هيئة الفنون والأدب والعلوم الاجتماعية

الجوائز التي حصل عليها ك

وسام عيد العلم ١٩٩٨

جائزة الدكتور محمد شوقي الفنجري ٢٠٠٠

جائزة الاستحقاق من دار نعمان للثقافة بلبنان ٢٠٠١

جائزة وزارة الشئون الاجتماعية في الأدب ٢٠٠٢

جائزة نادي الأهرام للكتاب عام ٢٠٠٤ وعام ٢٠٠٦

المحتوى